

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
سكنه الله الفردوس

وَحْيُ الْقَلَمِ

"بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِّنَ التَّنْزِيلِ" أَوْ قَبَسٌ مِّنْ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
بِسَعْدِ بَاهَا زَغَلُول
فِي تَقْرِيطِهِ "أَعْيَارُ الْقُرْآنِ" لِلزَّافِعِي

تَمَثَّلَهُ
مُصْطَفَى صَادِقِ الزَّافِعِي

بِعَنَايَةِ
بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْجَائِي



دار ابن حزم

بَلَدُ بَنِي الْعَرَبِ

مَدِينَةُ الْمَدِينَةِ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

وحى القلم

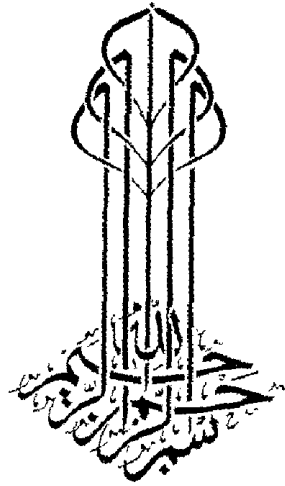
"بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ النَّزِيلِ" أَوْ قَبَسٌ مِنْ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
سَعْدُ بَانَا زُغَلُول
فِي تَقْرِيطِهِ "إِعْجَازُ الْقُرْآنِ" لِلزَّرَافِيِّ

كُتِبَتْ
فَضْطَفَى صَادِقُ الزَّرَافِيِّ

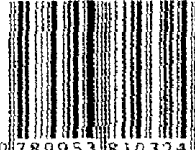
بِعَنَائَةِ
بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْحَجَّازِيِّ

دار ابن حزم

المطبعة والنشر
للحفظ والعناية



ISBN 9953-81-032-X



9 789953 810324

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
(أسكنه الله الفردوس)
[الطبعة الأولى]
(حقوق الطبع محفوظة)
القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ - ١٩٣٦ م

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

ISBN 9953-81-032-X

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345
<http://www.jaffan.com/> - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

هَذَا الْكِتَابُ :

« وَحَيِّ الْقَلَمِ » عَنْوَانُ اخْتِيَرَ عِلْمًا عَلَى مَجْمُوعَةِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي نَسَرَّهَا الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ
 اللَّهُ تَعَالَى فِي مَجَلَّةِ « الرِّسَالَةِ » أَوَّلًا ، ثُمَّ أَضِيفَ إِلَيْهَا الْمَقَالَاتُ الْأُخْرَى دُونَ اسْتِغْفَاءٍ .

وَقَدْ نَشَرْتُ سِلْسَلَةَ مَقَالَاتِ « كَلِمَةٌ وَكَلِمَةٌ » الَّتِي نُشِرَتْ فِي « الرِّسَالَةِ » وَلَمْ يَضْمَعْهَا كِتَابُ « وَحْيِ الْقَلَمِ » ؛ بِكِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ الْعُنْوَانَ نَفْسَهُ ، اخْتَوَتْ مُقَدِّمَتُهُ : « أَقْوَالُ الْعُظَمَاءِ فِي الرَّافِعِيِّ » ، تَبِعَهَا نَصُّ ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ لِلْأُسْتَاذِ الْعُرْيَانِ عَنِ الرَّافِعِيِّ نَشَرَهَا فِي حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ أَحْمَدُ حَسَنَ الزِّيَّاتِ فِي إِعْلَانٍ وَفَاءِ الرَّافِعِيِّ ، ثُمَّ كَلَامُ الرَّافِعِيِّ عَنِ الْمَوْتِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ نَصُّ مَقَالَاتِ « كَلِمَةٌ وَكَلِمَةٌ » ، ثُمَّ كَانَ مِنْكَ الْخِتَامُ مَا كَتَبَ الْأُسْتَاذُ مَحْمُودُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ عَنِ الرَّافِعِيِّ ؛ رَحِمَ اللَّهُ الْجَمِيعَ .

وَمَنْ يَعِيشُ مَعَ مَقَالَاتِ الرَّافِعِيِّ ، وَيَكُونُ عَلَى مَعْرِفَةِ بَحَاثَاتِهِ ، يَلْقُفُ نَظَرَهُ أَنَّ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى طِبَاعَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ « وَخِي الْقَلَمِ » هُوَ الْأُسْتَاذُ الْعُرْيَانُ ، وَمَا إِنْ صَدَرَ الْكِتَابُ وَوَصَلَتْ نُسْخَةُ مِنْهُ لِلرَّافِعِيِّ حَتَّى كَانَ الْخِصَامَ بَيْنَهُمَا .

يَقُولُ الْعُرْيَانُ فِي حَاشِيَةِ لَهُ فِي مُقَدِّمَتِهِ لِكِتَابِهِ « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » : كَانَ بَيْنَنَا مُغَاضَبَةٌ
بَاعَدَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ [أَي : وَبَيْنَ الرَّافِعِيِّ] بِضْعَةَ أَشْهُرٍ ، بَعْدَ فَرَاغِي مِنْ إِخْرَاجِ الطَّبْعَةِ
الْأُولَى لِكِتَابِ « وَحْيِ الْقَلَمِ » آخِرَ كُتُبِهِ . وَقَدْ أَنْكَرَ مِنِّي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ أَجْهُوهُ ، وَشَكَانِي إِلَى
الصَّدِيقَيْنِ أَحْمَدَ حَسَنَ الزُّبَيَاتِ وَتَوْفِيقَ الْحَكِيمِ ، ثُمَّ لَمْ يُقَدِّرْ لَنَا أَنْ نَلْتَقِيَ بَعْدَ الْخِصَامِ حَتَّى
بَغَّهَ الْمَوْتُ . أَنْتَهَى .

وَلِهَذَا الْخِلَافِ النَّاسِيُّ بَيْنَهُمَا ، نَشَرْتُ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَةِ وَكَلِيمَةِ » مَقَالَاتِ الْعُرَيَّانِ عَنْ

الرَّافِعِيُّ الَّتِي نُشِرَتْ فِي حَيَاتِهِ وَلَمْ يَغْتَرِضْ عَلَيْهَا ، بَيْنَمَا كِتَابُ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » هُوَ إِعَادَةُ صِيَاغَةٍ وَتَتِمِيمٌ وَزِيَادَةٌ لِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، قَدْ يَغْتَرِضُ الرَّافِعِيُّ عَلَى بَعْضِ فَقَرَاتِهِ لَوْ كَانَ حَيًّا ! وَهَذَا تَكْمُلُ أَهَمِّيَّةُ مَا نُشِرَتْهُ فِي مُقَدِّمَةِ « كَلِمَةٍ وَكُلْمَةٍ » ؛ فَهُوَ مَا رَضِيَهُ الرَّافِعِيُّ وَوَافَقَ عَلَيْهِ ، بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ أَقُولَ : وَلَمْ يَغْتَرِضْ عَلَيْهَا الرَّافِعِيُّ .

وَمَا هَذِهِ الطَّبَعَةُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ لَاسْتِكْشَافِ سَبَبِ هَذِهِ الْمُعَاضَبَةِ الَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعُرْيَانِ ، وَهَذَا تَطْهَرُ أَهَمِّيَّةُ ضَبْطِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ أَصُولِ الْمَقَالَاتِ وَبَيْنَ مَا نُشِرَ فِي « وَخِي الْقَلَمِ » .

بَلْ لَعَلَّ الْخِلَافَ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعُرْيَانِ هُوَ تَرْتِيبُ الْمَقَالَاتِ .

وَحَتَّى لَا أَرْهَقَ عَامَّةَ الْقُرَاءِ بِالِدِّرَاسَةِ وَالْتَحْلِيلِ ، أَعِدْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنِّي سَأُنْشُرُ ضِمْنَ كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ يَحْمِلُ عُنْوَانُ : « مَقَالَاتٌ مَجْهُولَةٌ لِلرَّافِعِيِّ : مِمَّا لَمْ يُنْشَرْ لِلرَّافِعِيِّ فِي كِتَابِ » هَذِهِ الدِّرَاسَةِ ، وَكَذَلِكَ نُصَوِّصُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَيْهَا وَفَاتَتْ الْعُرْيَانَ أَنْ يُنْشَرَهَا ضِمْنَ « وَخِي الْقَلَمِ » الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَعَ أَنْ مَثِيلَاتِهَا وَجَدْتُ مَكَانَهَا فِيهِ . لِنَعُودَ إِلَى « وَخِي الْقَلَمِ » .

قَالَ الرَّافِعِيُّ فِي مَقَالَةِ « دُعَايَةُ إِبْلِيسَ » شَارِحًا كَيْفِيَّةَ كِتَابَتِهِ لِمَقَالَاتِ وَفُصُولِ « وَخِي الْقَلَمِ » الَّتِي نُشِرَتْ فِي « الرِّسَالَةِ » :

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تَنْشُرُهَا « الرِّسَالَةُ » ، [وَكَانَتْ « الرِّسَالَةُ » تَصْدُرُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ] أَنْ أَدْعَ الْفَضْلَ مِنْهَا ثَقْلَبُهُ الْخَوَاطِرُ فِي ذِهْنِي أَيَّامَ الثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَبْرُكُ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْشَأُ مِنْهَا هُنَا وَهَاسُهَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدُ لَهُ الْوُجُودَ فَوْجِدَ . ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ السَّبْتِ وَلَيْلُ الْأَحَدِ كَالْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ إِذَا نَالْتَنِي فِتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ يَغْرِضُ . انْتَهَى .

هَذِهِ الطَّبَعَةُ :

رَجَعْتُ إِلَى أَصُولِ الْكِتَابِ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَصُولِ الْمَقَالَاتِ فِي الْمَجَلَّاتِ الَّتِي نُشِرَتْ

فيها ، إلا بغض مقالات لم أستطع الوصول إلى أصولها فلم أعين صفحات ورودها ، وقابلت بينها وبين المطبوع ضمن الكتاب ، بينت الخلاف بين ما ورد في المجلات وبين ما طبع في الطبعة الأولى التي أشرف عليها الأستاذ سعيد العريان رحمه الله ، وبخاصة الجزء الأول والثاني .

لقد تصرف العريان رحمه الله تعالى في تصحيح نص الرافعي ، وكان الرافعي تلميذ على مقاعد الدراسة الإعدادية أو الثانوية ، والعريان كان معلماً فيهما ، بينما الرافعي له مذهب في ذلك يخالف ما هو شائع ومقرر بين أساتذة المقررات المدرسية من خطأ أو صواب . وخير مثال لبيان ذلك ما جاء في حاشية مقالة « قبح جميل » ، حيث يتكلم على صحة النسبة إلى الجمع ، ويأتي بدليل على ذلك ، وهو تسمية ابن جني لكتابه « التصريف الملوكي » ، وليس « التصريف المملكي » . وهكذا .

ومثال آخر نجاهه في مقالة « فلسفة قصة » وفي السطر الأول منها ، حيث استعمل الرافعي فعل « هلك » كما في نص « الرسالة » بينما استبدل في الطبعة الأولى بـ « مات » وهو أولى من « هلك » أدباً ، لكن ابن إسحاق صاحب السيرة استعمل في روايته للخبر فعل « هلك » .

وفي مقالة « فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها » الواردة في الجزء الثالث الذي نشر بعد وفاة الرافعي رحمه الله ، حذف العريان رحمه الله مقدار صفحتين تقريباً لرأي الرافعي يخالف رأيه ، صحيح أن الرافعي رحمه الله عدل من رأيه ، لكنه لم يغير حكمه الذي أطلقه على القصص والروايات المترجمة والتي تجارها .

ذكرت ما كان يُدّعى به الرافعي مقالة من ذكر للمكان الذي كتب فيه المقال ، بل التزمت ذكر اسمه إن ذُكر به المقال ، الذي يغفل أحياناً عن ذكره أو ذكر المكان ؛ فأغفلت ما أغفله وذكر ما ذكره .

وبطبعي هذه أكون قد وفّرت بين أيدي الباحثين صورة عن الخلاف بين الأصول وبين ما نشر تحت اسم « وحي القلم » كي تكون مادة ثرة للدراسات والبحوث .

وَأَخْتِصَارًا عَلَى الْفَارِيِّ ، وَلَكِنِّي لَا أُرْهِقُهُ ، بِالتَّنْقِيلِ بَيْنَ أَصْلِ الْكِتَابِ وَهَامِشِهِ ،
وَوَضَعْتُ مَا انْفَرَدَتْ بِهِ الْأُصُولُ ضِمْنَهُ { } .

وَوَضَعْتُ مَا انْفَرَدَتْ بِهِ الطَّبَعَةُ الْأُولَى ضِمْنَهُ [] .

وَمَا أَضَفْتُ وَضَعْتُهُ ضِمْنَهُ [] .

وَقَدْ ذَكَرْتُ تَعْلِيلًا عِنْدَ أَوَّلِ كُلِّ مَقَالَةٍ مَكَانَ وَزَمَانَ نَشْرِهَا ، تَوْثِيقًا لَهَا .

وَوَضَّحْتُ بِالتَّعْلِيلِ عَلَى بَعْضِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَضُمُّبُ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا بِالرُّجُوعِ إِلَى
الْمَعَاجِمِ ، وَكَذَلِكَ عَرَفْتُ بِبَعْضِ الْأَعْلَامِ .

هَذَا ، وَقَدْ قُتِبْتُ بِضَبْطِ النَّصِّ ، وَتَفْصِيلِهِ ، وَتَخْرِيجِ نُصُوصِهِ ، مِنْ أَجْلِ تَوْفِيرِ نَصِّ
يَمْتَنِازُ عَلَى الطَّبَعَاتِ الْكَثِيرَةِ لِلْكِتَابِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَوْفِيرَ نَصِّ ، وَفَقَطُ تَوْفِيرُهُ دُونَ الْخِدْمَةِ
الْهَادِفَةِ .

وَقَدْ اعْتَمَدْتُ عَلَى الطَّبَعَةِ الْأُولَى لِلْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَالَّتِي صَدَرَتْ فِي حَيَاةِ
الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْجُزْءُ الثَّالِثُ ، فَقَدْ رَجَعْتُ لِلطَّبَعَةِ السَّادِسَةِ لَهُ الصَّادِرَةِ عَنْ
الْمَكْتَبَةِ التِّجَارِيَّةِ الْكُبْرَى ، فَهَذِهِ الَّتِي تَوَفَّرَتْ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَفِي الْخِتَامِ ، أَمَلْتُ أَنْ أَكُونَ وَقَفْتُ بِالْإِخْتِيَارِ وَالْعَمَلِ ، أَسْأَلُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ
وَالْإِكْرَامَ ، وَالنُّفْعَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي مَقْبُولًا ، خَالِصًا لَهُ تَعَالَى ، وَأَنْ يُيسِّرَ لَنَا
لِلْخَيْرِ ، وَيُسْتَعْمِلَنَا صَالِحًا ، وَيَرْحَمَنَا ، وَيَغْفِرَ لَنَا ، وَلِوَالِدَيْنَا ، وَلِكُلِّ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا ،
وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

بسام عبد الوهاب الجبالي

دمشق في ٣٠/٦/٢٠٠٤ م



﴿ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا
لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
بِكَاذِبِينَ ﴿ ٨٩ ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدَنُهُمُ اقْتَدِهْ .

[٦ سورة الأنعام / الآيات : ٨٨ - ٩٠]

رَفَعُ

عبد الرحمن النخدي
أسكنه الله الفردوس

دَعْوَةُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

حَكِيمِ الْإِسْلَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ
لِمُؤَلِّفِ « وَخِي الْقَلَمِ » فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْأَدَبِ

وَلَدَنَا الْوَلَدِيبُ كَفَا حُلَّ مِصْطَبِي أَنْتَ صَادِقُ الْكَرَامَةِ نَزْدَهُ أَدَبُ

هَذَا مَا نَرَى مِنْكَ وَمِنْهُ مَا ضَمِنَ لِي قَبْلَكَ لَا تَقَارِضْتُكَ بِنَاءً فَلَيْسَ ذَلِكَ
مِنْكَ إِنْ بَاءَ مَعَ الْبَاءِ بِنَاءً وَلَكِنْ أَعْدَدْتُكَ مِنْ قَدْ صَحَّحَ الْوَلَدِيبُ وَأَنْتَ صَحَّحْتَ عَلَى صَوَرِ
الْقُرْبَاءِ وَأَنْتَ لَمْ تَنْجَلِ لِي مِنْكَ سِتْرًا يَحْجُزُ بَيْنَ طَلِّ رَأْسِ بَيْتِكَ
فِي الْوَلَدِيبِ مَتَّحَافَافٍ فِي أَنْ تَنْتَهِرَ وَسَلَامٌ وَ

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب
هـ شوال

نصّ كتاب الأُستاذ الإمام

وَلَدَنَا الْأَدِيبُ الْفَاضِلُ مُصْطَفَى أَفَنْدِي صَادِقُ الرَّافِعِيِّ : زَادَهُ اللَّهُ
أَدَبًا .

لِلَّهِ مَا أَثْمَرَ أَدَبُكَ ، وَلِلَّهِ مَا ضَمِنَ لِي قَلْبُكَ ، لَا أَقَارِضُكَ ثَنَاءً
بِثَنَاءٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ شَأْنَ الْأَبَاءِ مَعَ الْأَبْنَاءِ ، وَلَكِنِّي أَعُدُّكَ مِنْ خُلَصِ
الْأَوْلِيَاءِ ، وَأُقَدِّمُ صَفَّكَ عَلَى صَفِّ الْأَقْرَبَاءِ . وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ
لِلْحَقِّ مِنْ لِسَانِكَ سَيْفًا يَمْحَقُ الْبَاطِلَ ، وَأَنْ يُقِيمَكَ فِي الْآخِرِ مَقَامَ
حَسَّانٍ فِي الْآوَائِلِ . وَالسَّلَامُ .

٥ شَوَّالِ سَنَةِ ١٣٢١ هـ .

مُحَمَّدُ عَبْدُهُ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

صَدْرُ الْكِتَابِ الْبَيَانُ (*)

لَا وَجُودَ لِلْمَقَالَةِ الْبَيَانِيَّةِ إِلَّا فِي الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا ، يُقِيمُهَا الْكَاتِبُ عَلَى حُدُودٍ وَيُدِيرُهَا عَلَى طَرِيقَةٍ ، مُصَيِّبًا بِالْفَاطَةِ مَوَاقِعَ الشُّعُورِ ، مُثِيرًا بِهَا مَكَامِنَ الْخَيَالِ ، آخِذًا بِوَزْنٍ تَارِكًا بِوَزْنٍ لِتَأْخُذَ النَّفْسُ { كَمَا يَشَاءُ } وَتَتْرَكَ .

وَتَقُلُّ حَقَائِقَ الدُّنْيَا نَقْلًا صَحِيحًا إِلَى الْكِتَابَةِ أَوْ الشُّعْرِ ، هُوَ انْتِزَاعُهَا مِنَ الْحَيَاةِ فِي أُسْلُوبٍ وَإِظْهَارُهَا لِلْحَيَاةِ فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَوْفَى وَأَدَقُّ وَأَجْمَلُ ، لِيُوضِعَهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي خَاصٍّ مَعْنَاهُ وَكَشْفِهِ حَقَائِقَ الدُّنْيَا كَشْفَةً تَحْتَ ظَاهِرِهَا الْمُتَلَبِّسِ ، وَتِلْكَ هِيَ الصَّنَاعَةُ الْفَنِّيَّةُ الْكَامِلَةُ ؛ سَتَنْدَرِكُ الْقَفْصَ قَتْمَتُهُ ، وَتَتَنَاوَلُ السَّرَّ فَعَلَتُهُ ، وَتَلْمِسُ الْمُقَيَّدَ فَتُطْلِقُهُ ، وَتَأْخُذُ الْمُطْلَقَ فَتَمُحِّدُهُ ، وَتَكْشِفُ الْجَمَالَ فَتُظْهِرُهُ ، وَتَرْفَعُ الْحَيَاةَ دَرَجَةً فِي الْمَعْنَى ، وَتَجْعَلَ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَقْلًا يَعِيشُ بِهِ .

فَالْكَاتِبُ الْحَقُّ لَا يَكْتُبُ لِيَكْتُبَ ؛ وَلَكِنَّهُ آذَانُهُ فِي يَدِ الْقُوَّةِ الْمَصَوِّرَةِ لِهَذَا الْوُجُودِ ، تَصَوَّرُ بِهِ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا فَنَّا مِنَ التَّصَوُّيرِ . الْحِكْمَةُ الْغَامِضَةُ تُرِيدُهُ عَلَى التَّفْسِيرِ ، تَفْسِيرُ الْحَقِيقَةِ ؛ وَالْخَطَأُ الظَّاهِرُ يُرِيدُهُ عَلَى التَّبْيِينِ ، تَبْيِينِ الصَّوَابِ ؛ وَالْقَوَضَى الْمَائِجَةُ تَسْأَلُهُ الْإِفْرَارَ . إِفْرَارُ التَّنَاسُبِ ؛ وَمَا وَرَاءَ الْحَيَاةِ ، يَتَّخِذُ مِنْ فِكْرِهِ صِلَةً بِالْحَيَاةِ ؛ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَنْتَقِلُ فِيهِ مَرَحَلَةً نَفْسِيَّةً لِنَعْلُو بِهِ أَوْ تَنْزِلَ . وَمِنْ ذَلِكَ لَا يُخْلَقُ الْمُتْلَهُمْ أَبَدًا إِلَّا وَفِيهِ أَغْصَابُهُ الْكَهْرَبَائِيَّةُ ، وَلَهُ فِي قَلْبِهِ الرِّقَبِ مَوَاضِعُ مُهَيَّأَةً لِلَاخْتِرَاقِ تَنْقُذُ إِلَيْهَا الْأَشْعَةَ الرُّوحَانِيَّةَ وَتَسَاقُطُ مِنْهَا { بِالْمَعَانِي } .

وَإِذَا اخْتِيرَ الْكَاتِبُ لِرِسَالَةٍ مَا ، شَعَرَ بِقُوَّةٍ تَفْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ ؛ مِنْهَا سِنَادُ رَأْيِهِ ، وَمِنْهَا إِقَامَةُ بُرْهَانِهِ ، وَمِنْهَا جَمَالُ مَا يَأْتِي بِهِ ؛ فَيَكُونُ إِنْسَانًا لِأَعْمَالِهِ وَأَعْمَالِهَا جَمِيعًا ، لَهُ بِنَفْسِهِ

وَجُودٌ ، وَلَهُ بِهَا وَجُودٌ آخَرُ ؛ وَمَنْ ثُمَّ يُضْبِحُ عَالِمًا بِعَنَاصِرِهِ لِلْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ كَمَا يُوجِّهُ ؛
وَيُلْقَى فِيهِ مِثْلُ السَّرِّ الَّذِي يُلْقَى فِي الشَّجَرَةِ لِإِخْرَاجِ ثَمَرِهَا بِعَمَلِ طَبِيعِيٍّ يَرَى سَهْلًا كُلَّ
السَّهْلِ حِينَ يَتِمُّ ، وَلَكِنَّهُ صَغَبَ أَيُّ صَغَبٍ حِينَ يَبْدَأُ .

هَذِهِ الْقُوَّةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ اللَّفْظَةَ الْمُفْرَدَةَ^(١) فِي ذَهْنِهِ مَعْنَى تَامًا ، وَتُحَوِّلُ الْجُمْلَةَ
الصَّغِيرَةَ إِلَى قِصَّةٍ ، وَتُنْتَهِي^(٢) بِاللَّمَحَةِ السَّرِيعَةِ إِلَى كَشْفِ عَنِ حَقِيقَةِ ، وَهِيَ تُخْرِجُهُ مِنْ
حُكْمِ أَشْيَاءَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهَا ، وَتُدْخِلُهُ فِي حُكْمِ أَشْيَاءَ غَيْرِهَا لِتَحْكُمَ عَلَيْهِ ؛ وَهِيَ هِيَ الَّتِي
تُمَيِّزُ طَرِيقَتَهُ^(٣) وَأَسْلُوبَهُ] ، لِأَنَّهَا تَلْقِظُ بِمَعَانِيهَا أَلْفَاظَهَا ، وَمَا تُعْطِيهِ هُوَ إِلَّا لِتُعْطِيَ النَّاسَ
مِنْهُ] ؛ وَكَمَا خُلِقَ الْكَوْنُ مِنَ الْإِشْعَاعِ تَضَعُ الْإِشْعَاعُ فِي بَيَانِهِ^(٤) .

وَلَا بُدَّ مِنَ الْبَيَانِ فِي الطَّبَائِعِ الْمُلْهَمَةِ لِيَتَّسِعَ بِهِ التَّصَرُّفُ ، إِذِ الْحَقَائِقُ أَسْمَى وَأَدْقُ مِنْ
أَنْ تُعْرَفَ بِتَقْيِنِ الْحَاسَةِ أَوْ تَنْحَصِرَ فِي إِدْرَاكِهَا . فَلَوْ حُدَّتِ الْحَقِيقَةُ لَمَا بَقِيَتْ حَقِيقَةً ، وَلَوْ
تَلَبَّسَ الْمَلَانِكَةُ بِهَذَا^(٥) اللَّحْمِ وَالْدَّمِ لَبَطَلَ أَنْ يَكُونُوا مَلَانِكَةً ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَكَثُرَتِ الصُّوَرُ الْبَيَانِيَّةُ
الْجَمِيلَةُ لِلْحَقِيقَةِ الْجَمِيلَةِ ، هِيَ كُلُّ مَا يُمَكِّنُ { أَوْ يَتَسَّى } مِنْ طَرِيقَةٍ تَعْرِيفُهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

وَأَيُّ بَيَانٍ فِي خُضْرَةِ الرَّبِيعِ عِنْدَ الْحَيَوَانِ مِنْ أَكْلِ الْعُشْبِ ، إِلَّا بَيَانُ الصُّورَةِ الْوَاحِدَةِ فِي
مَعْدَتِهِ ؟ غَيْرَ أَنَّ صُورَ الرَّبِيعِ فِي الْبَيَانِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَرْضِ وَالْأُمَمِ ، تَكَادُ تَكُونُ
بِعَدَدِ أَزْهَارِهِ ، وَيَكَادُ اللَّئْدَى يُنْضَرُّهَا { حُسْنًا } كَمَا يُنْضَرُّهُ .

وَلِهَذَا سَتَبَقَى كُلُّ حَقِيقَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى : كَالْإِيمَانِ ، وَالْجَمَالِ ، وَالْحُبِّ ،
وَالْخَيْرِ ، وَالْحَقِّ - سَتَبَقَى مُخْتَاجَةً فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى كِتَابَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ أَذْهَانِ جَدِيدَةٍ .

* * *

وَفِي الْكِتَابِ الْفَضْلَاءِ بَاحِثُونَ مُفَكِّرُونَ تَأْنِي أَلْفَاظُهُمْ وَمَعَانِيَهُمْ فَكَا عَقْلِيًّا غَايَتُهُ صِحَّةُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْوَاحِدَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الْمُفْرَدَةُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « تَلْقِظُ » بَدَلًا مِنْ : « تَنْتَهِي » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « لُغَتُهُ » بَدَلًا مِنْ : « طَرِيقَتُهُ » .

(٤) ثَبَتَ أَنَّ الْإِشْعَاعَ هُوَ الْمَادَّةُ الَّتِي صُنِعَ مِنْهَا الْكَوْنُ .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « بِهَذَا » .

الآداء وسلامته الشئ ، فيكون البيان في كلامهم على نذرة كوخز الخضرة^(١) في الشجرة اليابسة هنا وهنا . ولكن ألفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة . أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ويدف ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري . ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين { وكأنه } يقول : أنا هنا في معانٍ وألفاظ ؛ و { إلهام في الأسلوب الآخر يطالعك أنه^(٢) } هنا في جلال وجمال وفي صور وألوان .

ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي ، كأنها شبت في نفسه شاباً ؛ وأقوى مما هي ، كأنما كسبت من روحه قوة ؛ وأدل مما هي ، كأنما زاد فيها بصاعته زيادة . فالكاتب العلمي تمر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع وأصبعها ؛ ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعه هو . أولئك أراحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شيء إلا الفكر والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي^(٣) .

وللكتابة النامة المفيدة مثل الوجهين في خلق الناس : ففي كل الوجه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخلق جمال الخلق ، ويريد على منفعة الحياة لذة الحياة ؛ وهو لذلك { ، وبذلك } ، يرى ويؤثر ويعشق .

وربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه محير ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرة الورود فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب .

(١) في الأصل : « وينذر البيان في كلامهم فيكون كوخز الخضرة » .

(٢) في الأصل : « يقول : أنا » بدلاً من : « يطالعك أنه » .

(٣) في الأصل : « التأثر » بدلاً من : « العاطفة والرأي » .

الْبِمَامَتَانِ (*)

جَاءَ فِي « تَارِيخِ الْوَاقِدِيِّ » : « أَنَّ الْمُقَوْسَ عَظِيمَ الْفَيْطِ فِي مِصْرَ ، زَوْجَ بَنْتِهِ أَرْمَانُوسَةَ مِنْ قِسْطَنْطِينِ بْنِ هِرْقَلٍ وَجَهَّزَهَا بِأَمْوَالِهَا وَحَشَمَهَا لِتَسِيرَ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَبْنِي عَلَيْهَا فِي مَدِينَةِ قَيْسَارِيَّةٍ ^(١) » [« سُورِيَّةٌ »] ؛ فَخَرَجَتْ إِلَى بُلْبُيْسَ وَأَقَامَتْ بِهَا . . . وَجَاءَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى بُلْبُيْسَ فَحَاصَرَهَا حِصَارًا شَدِيدًا ، وَقَاتَلَ مِنْ بَيْتِهَا ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ زُهَاءَ أَلْفِ فَارِسٍ ، وَأَنْهَزَمَ مَنْ بَقِيَ إِلَى الْمُقَوْسِ ، وَأُخِذَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَجَمِيعُ مَالِهَا ، وَأُخِذَ كُلُّ مَا كَانَ لِلْفَيْطِ فِي بُلْبُيْسَ . فَأَحَبَّ عَمْرُو مِلَاطِفَةَ الْمُقَوْسِ ، فَسَرَّ إِلَيْهِ أَبْنَتَهُ مُكْرَمَةً فِي جَمِيعِ مَالِهَا ، مَعَ قَيْسِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ السَّهْمِيِّ ؛ فَسَرَّ بِقُدُومِهَا . . . » .

* * *

هَذَا مَا أَتَيْتُهُ الْوَاقِدِيُّ فِي رَوَاتِيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْنِيًا إِلَّا بِأَخْبَارِ الْمَغَارِي وَالْفُتُوحِ ، فَكَانَ يَقْتَصِرُ عَلَيْهَا فِي الرِّوَايَةِ ؛ أَمَّا مَا أَغْفَلَهُ فَهُوَ مَا نَقَضَهُ نَعْنُ :

كَانَتْ لِأَرْمَانُوسَةَ وَصِيفَةٌ مُوَلَّدَةٌ تُسَمَّى : مَارِيَّةَ ، ذَاتُ جَمَالٍ يُؤْنَانِيٍّ أَتَمَّتْهُ مِصْرُ وَمَسَحَتْهُ بِسِحْرِهَا ، فَزَادَ جَمَالَهَا عَلَى أَنْ يَكُونَ مِصْرِيًّا ، وَنَقَصَ الْجَمَالَ الْيُونَانِيُّ أَنْ يَكُونَهُ ؛ { فَهُوَ أَجْمَلُ مِنْهُمَا ، } وَلِمِصْرَ طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ فِي الْحُسْنِ ؛ فَهِيَ قَدْ تُهْمِلُ شَيْئًا فِي جَمَالِ نِسَائِهَا أَوْ تُشَعِّثُ مِنْهُ ، وَقَدْ لَا تُؤَفِّقُهُ جُهْدُ مَجَاسِنِهَا الرَّائِعَةِ ؛ وَلَكِنْ مَتَى نَشَأَ فِيهَا جَمَالٌ يَنْزِعُ إِلَى أَصْلٍ أَجْنَبِيٍّ ، أَفْرَعَتْ فِيهِ سِحْرَهَا إِفْرَاعًا ، وَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْغَالِبَةَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَتْهُ آيَتَهَا فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُ فِي طَابَعِهِ الْمِصْرِيِّ ، وَبَيْنَ أَصْلِهِ فِي طَبِيعَةِ أَرْضِهِ كَائِنَةً مَا كَانَتْ ؛ تَغَارُ عَلَى سِحْرِهَا أَنْ يَكُونَ إِلَّا الْأَعْلَى .

وَكَانَتْ مَارِيَّةُ هَذِهِ مَسِيحِيَّةٌ قَوِيَّةُ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، اتَّخَذَهَا الْمُقَوْسُ كَنِيسَةٍ حَيَّةٍ لِابْنَتِهِ ،

(*) « الرِّسَالَةُ » الْعِدَدُ : ٥٩٢ مَحْرَمُ سَنَةِ ١٣٥٤ هـ = ٨ أَيْرِلْ / نَيْسَانُ ١٩٣٥ م ، السَّنَةُ الثَّالِثَةُ ،

الصفحات : ٥٢٣ - ٥٢٧ .

(١) { بَلَدَةٌ فِي فَلسْطِينَ . وَبُلْبُيْسَ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِمُدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ بِمِصْرَ } .

وَهُوَ كَانَ وَالْيَا وَبَطْرِيْزَكَ عَلَى مِصْرَ مِنْ قَبْلِ هِرْقَلٍ ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللَّهِ أَنَّ الْفَتْحَ
الْإِسْلَامِيَّ جَاءَ فِي عَهْدِهِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ قَلْبَ هَذَا الرَّجُلِ مِفْتَاحَ الْقُفْلِ الْفِطْيَ ، فَلَمْ تَكُنْ
أَبْوَابُهُمْ تُدْفَعُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُدْفَعُ ، تُقَاتِلُ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ غَيْرِ كَبِيرٍ ، أَمَّا الْأَبْوَابُ الرُّومِيَّةُ
فَبَقِيَتْ مُسْتَعْلَقَةً حَصِينَةً لَا تُدْعَنُ إِلَّا لِلتَّخْطِمْ ، وَوَرَاءَهَا نَحْوُ مِئَةِ أَلْفِ رُومِيٍّ يُقَاتِلُونَ
الْمُعْجِزَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ أَوَّلَ مَا جَاءَتْ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ ، ثُمَّ
لَمْ يَزِيدُوا آخِرَ مَا زَادُوا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . كَانَ الرُّومُ مِئَةَ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ بِأَسْلِحَتِهِمْ - وَلَمْ
تَكُنِ الْمِدَافِعُ مَعْرُوفَةً - وَلَكِنَّ رُوحَ الْإِسْلَامِ جَعَلَتْ الْجَيْشَ الْعَرَبِيَّ كَأَنَّهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِدْفَعٍ
يُقَاتِلُهَا ، لَا يُقَاتِلُونَ بِقُوَّةِ الْإِنْسَانِ ، بَلْ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا الْإِسْلَامُ مَادَّةً
مُنْفَجِرَةً تُشَبِّهُ الدِّينَامِيْتَ قَبْلَ أَنْ يُعْرِفَ الدِّينَامِيْتُ ! .

وَلَمَّا نَزَلَ عَمْرُو بِجَيْشِهِ عَلَى بَلْبَيسَ ، جَزَعَتْ مَارِيَّةُ جَزَعًا شَدِيدًا ؛ إِذْ كَانَ الرُّومُ قَدْ
أَرْجَفُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ قَوْمٌ جِياعٌ يَنْفُضُهُمُ الْجَذْبُ عَلَى الْبِلَادِ نَفْضَ الرَّمَالِ عَلَى الْأَعْيُنِ
فِي الرِّيحِ الْعَاصِفِ ؛ وَأَنَّهُمْ جَرَادٌ إِنْسَانِيٌّ لَا يَغْزُو إِلَّا لِبَطْنِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ غَلَاطُ الْأَكْبَادِ كَالْإِبِلِ
الَّتِي يَمْتَطُونَهَا ؛ وَأَنَّ النِّسَاءَ عِنْدَهُمْ كَالِدَوَابِّ يُزْتَبَطْنَ عَلَى خَسْفٍ ؛ وَأَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا
وَفَاءَ ، ثَقُلَتْ مَطَامِعُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ ؛ وَأَنَّ قَائِدَهُمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ جَرَادًا فِي
الْجَاهِلِيَّةِ ، فَمَا تَدْعُهُ رُوحُ الْجَزَارِ وَلَا طَبِيعَتُهُ ؛ وَقَدْ جَاءَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَالِحٍ مِنْ أَخْلَاطِ
النَّاسِ وَشُدَّادِهِمْ ، لَا أَرْبَعَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ جَيْشٍ لَهُ نِظَامُ الْجَيْشِ ! .

وَنَوَّهَمَتْ مَارِيَّةُ أَوْهَامَهَا ، وَكَانَتْ شَاعِرَةً قَدْ دَرَسَتْ هِيَ وَأَرْمَانُوسَةُ أَدَبَ يُونَانَ
وَفَلَسَفَتُهُمْ ، وَكَانَ لَهَا خَيَالٌ مَشْبُوبٌ مُتَوَقِّدٌ يُشْعِرُهَا كُلَّ عَاطِفَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ ، وَيُضَاعِفُ
الْأَشْيَاءَ فِي نَفْسِهَا ، وَيَتَنَرَّعُ إِلَى طَبِيعَتِهِ الْمُؤَثَّةِ ، فَيُبَالِغُ فِي تَهْوِيلِ الْحُزَنِ خَاصَّةً ، وَيَجْعَلُ
مِنْ بَعْضِ الْأَلْفَاطِ وَقُودًا عَلَى الدَّمِ ...

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتُطِيرَ قَلْبُ مَارِيَّةَ وَأَفْرَعَتْهَا الْوَسَاوِسُ ، فَجَعَلَتْ تَتَذَبُّ نَفْسَهَا ، وَصَنَعَتْ
فِي ذَلِكَ شِعْرًا هَلْدِهِ تَرْجَمَتُهُ :

جَاءَكَ أَرْبَعَةُ آلَافِ جَزَارٍ أَتَيْهَا الشَّاءُ الْمُسْكِينَةُ ! .

سَتَدَوَّقُ كُلَّ شَعْرَةٍ مِنْكَ أَلَمْ الذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ تُدْبِحَنِي ! .

جَاءَكَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ خَاطِبِ أَيْتُهَا الْعَذْرَاءُ الْمُسْكِينَةُ ! .

سَمَّوْنَيْنِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِئْتَةٍ قَبْلَ الْمَوْتِ ! .

قَوْنِي يَا إِلَهِي ، لِأَعْمِدَ فِي صَدْرِي سِكِّينًا يَرُدُّ عَنِّي الْجَزَارِينَ ! .

يَا إِلَهِي ، قُوْ هَذِهِ الْعَذْرَاءُ ، لِتَتَزَوَّجَ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الْعَرَبِيُّ ! .

* * *

وَذَهَبَتْ تَتْلُو شِعْرَهَا عَلَى أَرْمَانُوسَةَ فِي صَوْتٍ حَزِينٍ يَتَوَجَّعُ ؛ فَضَحِكَتْ هَذِهِ وَقَالَتْ : أَنْتِ وَاهِمَةٌ يَا مَارِيَّةُ ؛ أَنْسَيْتِ أَنَّ أَبِي قَدْ أَهْدَى إِلَى نَبِيَّهِمْ بِنْتَ أَنْصِنَا^(١) ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ فِي مَمْلَكَةِ بَعْضِهَا السَّمَاءِ وَبَعْضِهَا الْقَلْبِ ؟ لَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ بَعَثَ بِهَا لِتُكْشِفَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الدِّينِ وَحَقِيقَةِ هَذَا النَّبِيِّ ؛ وَأَنَّهَا أَنْفَذَتْ إِلَيْهِ دَسِيسًا يُعْلِمُهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ هُمْ الْعَقْلُ الْجَدِيدُ الَّذِي سَيَضَعُ فِي الْعَالَمِ تَمِيزَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَأَنَّ نَبِيَّهِمْ أَطْهَرُ مِنَ السَّحَابَةِ فِي سَمَائِهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَنْتَبِعُونَ مِنْ حُدُودِ دِينِهِمْ { وَفَضَائِلِهِ } ، لَا مِنْ حُدُودِ أَنْفُسِهِمْ { وَشَهَوَاتِهَا } ؛ وَإِذَا سَلُّوا السَّيْفَ سَلُّوهُ يَقَانُونُ ، وَإِذَا أَغْمَدُوهُ أَغْمَدُوهُ يَقَانُونُ . وَقَالَتْ عَنِ النِّسَاءِ : لِأَنَّ تَخَافَ الْمَرْأَةَ عَلَى عِفَّتِهَا مِنْ أَيْتِهَا أَقْرَبُ مِنْ أَنْ تَخَافَ عَلَيْهَا مِنْ أَصْحَابِ هَذَا النَّبِيِّ ؛ فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا فِي وَاجِبَاتِ الْقَلْبِ وَوَاجِبَاتِ الْعَقْلِ ، وَيَكَادُ الضَّمِيرُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الرَّجُلِ مِنْهُمْ - يَكُونُ حَامِلًا سِلَاحًا يَضْرِبُ || بِهِ || صَاحِبَتَهُ إِذَا هَمَّ بِمُخَالَفَتِهِ .

وَقَالَ أَبِي : إِنَّهُمْ لَا يُغَيِّرُونَ عَلَى الْأُمَمِ ، وَلَا يُحَارِبُونَهَا حَزْبَ الْمُلْكِ ؛ وَإِنَّمَا تِلْكَ طَبِيعَةُ الْحَرَكَةِ لِلشَّرِيعَةِ الْجَدِيدَةِ ، تَتَقَدَّمُ فِي الدُّنْيَا حَامِلَةً السَّلَاحَ وَالْأَخْلَاقَ ، قُوَّةً فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، فَمِنْ وَرَاءِ أَسْلِحَتِهِمْ أَخْلَاقُهُمْ ؛ وَبِذَلِكَ تَكُونُ أَسْلِحَتُهُمْ نَفْسُهَا ذَاتُ أَخْلَاقٍ ! .

وَقَالَ أَبِي : إِنَّ هَذَا الدِّينَ سَيَنْدَفِعُ بِأَخْلَاقِهِ فِي الْعَالَمِ أَنْدِفَاعَ الْعُصَاوَةِ الْحَيَّةِ فِي الشَّجَرَةِ الْجَرْدَاءِ ؛ طَبِيعَةٌ تَعْمَلُ فِي طَبِيعَةٍ ؛ فَلَيْسَ يَمْضِي غَيْرُ بَعِيدٍ حَتَّى تَخْضَرَ الدُّنْيَا وَتَزِمِي ظِلَالَهَا ؛ وَهُوَ بِذَلِكَ فَوْقَ السِّيَاسَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا الظَّاهِرِ الْمُلْفَقِ مَا يُعَدُّ

(١) هِيَ مَارِيَّةُ الْفَيْطِيَّةُ الَّتِي أَهْدَاهَا الْمَمْلُوكُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتْ مِنْ أَنْصِنَا { بِالْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ } .

كَطِلَاءِ الشَّجَرَةِ الْمَيْتَةِ الْجُرْدَاءِ بِلَوْنٍ أَخْضَرَ^(١) . . . ! شَتَانٌ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ ، وَإِنْ كَانَ لَوْنٌ يُشْبِهُ لَوْنَنَا . . .

فَاسْتَرْوَحَتْ مَارِيَّةٌ وَأَطْمَأْنَتْ بِأَطْمِئْنَانِ أَرْمَانُوسَةَ ، وَقَالَتْ : فَلَا ضَيْرَ عَلَيْنَا إِذَا فَتَحُوا الْبَلَدَ ، وَلَا يَكُونُ مَا نَسْتَضِرُّ بِهِ ؟ .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : لَا ضَيْرَ يَا مَارِيَّةُ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا نَحِبُّ لِأَنْفُسِنَا ؛ فَالْمُسْلِمُونَ لَيْسُوا كَهَؤُلَاءِ الْعُلُوجِ مِنَ الرُّومِ ، يَفْهَمُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِفِكْرَةِ الْحِرْصِ { عَلَيْهِ ، } وَالْحَاجَةُ إِلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمْ الْقِسَاءُ الْغِلَاطُ الْمُسْتَكِلُونَ كَالْبَهَائِمِ ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِفِكْرَةِ الْاسْتِغْنَاءِ { عَنْهُ } وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، فَهُمْ الْإِنْسَانِيُّونَ الرَّحَمَاءُ الْمُتَعَفِّقُونَ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَأَيُّكَ يَا أَرْمَانُوسَةُ إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ ! فَقَدْ مَاتَ سُقْرَاطُ وَأَفْلَاطُونُ وَأَرِسْطُو وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُؤَدَّبُوا بِحُكْمَتِهِمْ وَفَلَسَفَتِهِمْ إِلَّا الْكُتُبَ الَّتِي كَتَبُوهَا . . . ! فَلَمْ يُخْرِجُوا لِلدُّنْيَا جَمَاعَةً تَامَّةَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَضَلَا عَنْ أُمَّةٍ كَمَا وَصَفْتَ أَنْتِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ بَيْتُهُمْ أَنْ يُخْرِجَ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا ؟ أَفَتَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْحُكَمَاءِ وَأَهْلِ السِّيَاسَةِ وَالتَّنْذِيرِ ؛ فَتَدْعُهُمْ يَعْملُونَ عِبَتًا أَوْ كَالْعَبَثِ ، ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ لِلرَّجُلِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَذَرُسْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ بِهَيْئَةِ السَّمَاءِ وَأَجْرَامِهَا وَحِسَابِ أَفْلَاقِهَا ، لَيْسُوا هُمْ الَّذِينَ يَشْفُقُونَ الْفَجَرَ وَيُطْلِعُونَ الشَّمْسَ ؛ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أُمَّةٍ طَبِيعَتُهُ يَفْطَرُهَا يَكُونُ عَمَلُهَا فِي الْحَيَاةِ إِنْجَادَ الْأَفْكَارِ الْعَمَلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْعَالَمُ ، وَقَدْ دَرَسْتُ الْمَسِيحَ وَعَمَلَهُ وَزَمَنَهُ ، فَكَانَ طِيلَةَ عُمُرِهِ يُحَاوِلُ أَنْ يُوجِدَ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَوْجَدَهَا مُصَغَّرَةً فِي نَفْسِهِ وَحَوَارِيِّهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ كَالْبَدْءِ فِي تَحْقِيقِ الشَّيْءِ الْعَسِيرِ ؛ حَسْبُهُ أَنْ يُنَبِّتَ مَعْنَى الْإِمْتِنَانِ فِيهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « تُشْبِهُ فِي عَمَلِهَا الْمَيْتَ مَا يُشْبِهُ طِلَاءَ الشَّجَرَةِ الْجُرْدَاءِ بِلَوْنٍ أَخْضَرَ » .

وَيُظْهِرُ الْحَقِيقَةَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْأُمِّيِّ هُوَ تَنْبِيْهُ الْحَقِيقَةَ إِلَى نَفْسِهَا ؛ وَبِرْهَانِهَا الْقَاطِعُ أَنَّهَا بِذَلِكَ فِي مَظْهَرِهَا الْإِلَهِيِّ . وَالْعَجِيبُ يَا مَارِيَّةُ ، أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ قَدْ خَذَلَهُ قَوْمُهُ وَنَاكَرُوهُ وَأَجْمَعُوا عَلَى خِلَافِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ كَالْمَسِيحِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَسِيحَ انْتَهَى عِنْدَ ذَلِكَ ؛ أَمَّا هَذَا فَقَدْ ثَبَتَ ثَبَاتَ الْوَاقِعِ حِينَ يَقَعُ ؛ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْغَيِّرُ ؛ وَهَاجَرَ مِنْ بَلَدِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ خُطَا الْحَقِيقَةِ الَّتِي أَعْلَنْتُ أَنَّهَا سَتَمُشِي فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ تَمَشِي (١) . وَلَوْ كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَسِيحِ قَدْ جَاءَتْ لِلدُّنْيَا كُلِّهَا لَهَاجَرَتْ بِهِ { كَذَلِكَ } ، فَهَذَا فَرْقٌ آخَرُ بَيْنَهُمَا . وَالْفَرْقُ الثَّلَاثُ أَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا بِعِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ ، أَمَّا هَذَا الدِّينُ فَعَلِمْتُ مِنْ أَبِي أَنَّهُ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا : إِحْدَاهَا لِلْأَغْضَاءِ ، وَالثَّانِيَةُ لِلْقَلْبِ ، وَالثَّلَاثَةُ لِلنَّفْسِ ؛ فَعِبَادَةُ الْأَغْضَاءِ طَهَارَتُهَا وَاعْتِيَادُهَا الضَّبْطُ ؛ وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ طَهَارَتُهُ وَحُبُّهُ الْخَيْرِ ؛ وَعِبَادَةُ النَّفْسِ طَهَارَتُهَا وَبَذْلُهَا فِي سَبِيلِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَعِنْدَ أَبِي أَنَّهُمْ بِهَذِهِ الْأَخِيرَةِ سَيَمْلِكُونَ الدُّنْيَا ؛ فَلَنْ تَقْهَرُ أُمَّةٌ عَقِيدَتُهَا أَنَّ الْمَوْتَ أَوْسَعَ الْجَانِبَيْنِ وَأَسْعَدُهُمَا .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ لَكِسْرٌ إِلَهِيٌّ يَذُلُّ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَمِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَلَّا تَتْبِعَتْ نَفْسُهُ غَيْرَ مُبَالِيَةٍ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ قَلِيلَةٍ ، تَكُونُ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ فِيهَا عَمِيَاءُ : كَالْغَضَبِ الْأَعْمَى ، وَالْحُبِّ الْأَعْمَى ، وَالتَّكْبَرِ الْأَعْمَى . فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كَمَا قُلْتُ مُتَّبِعَةً هَذَا الْإِنْبِعَاثِ ، لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الشُّعُورُ بِذَاتِهَا الْعَالِيَةِ - فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ هُوَ شُعُورُ الْإِنْسَانِ بِسُمُو ذَاتِيَّتِهِ ، وَهَذِهِ هِيَ نِهَايَةُ النَّهَايَاتِ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّكَ تَتَهَيَّئِينَ أَنْ تَكُونِي مُسْلِمَةً يَا مَارِيَّةُ !
فَأَسْتَضْحِكُنَا مَعًا وَقَالَتْ مَارِيَّةُ : إِنَّمَا أَلْقَيْتُ كَلَامًا جَارَيْنِكَ فِيهِ بِحْسِهِ ، فَأَنَا وَأَنْتِ فِكْرَتَانِ لَا مُسْلِمَتَانِ .

* * *

(١) { انْظُرِ الْمَقَالَاتِ النَّبَوِيَّةَ فِي صَدْرِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ } .

قَالَ الرَّاوي : وَأَنْهَزَمَ الرُّومُ عَنْ بَلْبَيسَ ، وَأَزْدُوا إِلَى الْمَقْوُوسِ فِي مَنْقِبَ ، وَكَانَ وَحْيُ
أَرْمَانُوسَةَ فِي مَارِيَةِ مُدَّةَ الْحِصَارِ - وَهِيَ نَحْوُ الشَّهْرِ - كَأَنَّهُ فِكْرٌ سَكَنَ فِكْرًا وَتَمَدَّدَ فِيهِ ؛ فَقَدْ
مَرَّ ذَلِكَ الْكَلَامُ بِمَا فِي عَقْلِهَا مِنْ حَقَائِقِ النَّظَرِ فِي الْأَدَبِ وَالْفَلَسَفَةِ ، فَصَنَعَ مَا يَصْنَعُ
الْمُؤَلِّفُ بِكِتَابٍ يُنْقِضُهُ ، وَأَنْشَأَ لَهَا أَخِيْلَةَ تُجَادِلُهَا وَتَدْفَعُهَا إِلَى التَّسْلِيمِ بِالصَّحِيحِ لِأَنَّهُ
صَحِيحٌ ، وَالْمُؤَكَّدِ لِأَنَّهُ مُؤَكَّدٌ .

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْكَلَامِ إِذَا لَثَرَ فِيهِ النَّفْسُ ، أَنْ يَنْتَظِمَ فِي مِثْلِ الْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُتْلَى
لِلْحِفْظِ ؛ فَكَانَ كَلَامُ أَرْمَانُوسَةَ فِي عَقْلِ مَارِيَةِ هَكَذَا : « الْمَسِيحُ بَذَّ وَلِلْبَذِّ تَكْمِلَةٌ ،
مَا مِنْ ذَلِكَ بَذٌّ . لَا تَكُونُ خِدْمَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا بِذَاتٍ عَالِيَةٍ لَا تُبَالِي غَيْرَ سُمُومِهَا . الْأُمَّةُ الَّتِي
تَبْذُلُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَمْسِكُ بِالْحَيَاةِ { جُنُبًا وَحِرْصًا } لَا تَأْخُذُ شَيْئًا ، وَالَّتِي تَبْذُلُ أَرْوَاحَهَا
فَقَطْ تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ ... » .

وَجُعِلَتْ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا تُعْرَبُ هَذَا الْعَقْلَ الْيُونَانِيَّ ؛ فَلَمَّا أَرَادَ
عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ تَوْجِيهَ أَرْمَانُوسَةَ إِلَى أَبِيهَا ، وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى مَارِيَةِ قَالَتْ لَهَا : لَا يَجْمَلُ
بِمَنْ كَانَتْ مِثْلَكَ فِي شَرَفِهَا وَعَقْلِهَا أَنْ تَكُونَ كَالْأَخِيْذَةِ ، تَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُسَارِ بِهَا ؛ وَالرَّأْيُ أَنْ
تَبْذُرِي هَذَا الْقَائِدَ قَبْلَ أَنْ يَبْذُرَكَ ؛ فَأَرْسَلَنِي إِلَيْهِ فَأَعْلِمْنِيهِ أَنَّكَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَبِيكَ ، وَأَسْأَلِيهِ أَنْ
يُصَحِّبَكَ بَعْضَ رِجَالِهِ ؛ فَتَكُونِي الْأَمْرَةَ حَتَّى فِي الْأَسْرِ ، وَتَصْنَعِي صُنْعَ بَنَاتِ الْمُلُوكِ ! .

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : فَلَا أَجِدُ لِدَلِّكَ خَيْرًا مِنْكَ فِي لِسَانِكَ وَدَهَائِكَ ؛ فَأَذْهَبِي إِلَيْهِ مِنْ
قَبْلِي ، وَسَيُصَحِّبُكَ الرَّاهِبُ شَطَا ، وَخُذِي مَعَكَ كَوْكَبَةً مِنْ فُرْسَانِنَا .

* * *

قَالَتْ مَارِيَةُ وَهِيَ تَقْصُ عَلَى سَيِّدَتَيْهَا : لَقَدْ أَذَيْتُ إِلَيْهِ رِسَالَتِكَ فَقَالَ : كَيْفَ ظَنُّهَا بِنَا ؟
قُلْتُ : ظَنُّهَا بِفِعْلِ رَجُلٍ كَرِيمٍ بِأَمْرِهِ أَتْنَانِ : كَرَمُهُ ، وَدِينُهُ . فَقَالَ : أَبْلِغِيهَا أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ
قَالَ : « اسْتَوْصُوا بِالْقَبِيطِ خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ فِيكُمْ صِهْرًا وَذِمَّةً » . وَأَعْلِمِيهَا أَنَّ لَسْنَا عَلَى
غَارَةٍ نُبْغِئُهَا ، بَلْ عَلَى نَفُوسٍ نُبْغِئُهَا .

قَالَتْ : فَصِفْ لِي يَا مَارِيَةُ .

قَالَتْ : كَانَ آتِيًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ عَلَى خَيُْولِهِمُ الْعِرَابِ ، كَانَتْهَا شَيَاطِينُ تَحْمِلُ شَيَاطِينَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ؛ فَلَمَّا صَارَ بِحَيْثُ أَبْيَنَهُ أَوْمًا إِلَيْهِ التَّرْجُمَانُ - وَهُوَ وَرْدَانُ مَوْلَاهُ - فَتَظَرَّتْ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى فَرَسٍ كُمَيْتٍ أَحْمَرٍ ^(١) لَمْ يَخْلُصْ لِلْأَسْوَدِ وَلَا لِلْأَحْمَرِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ مُشْرِفٌ ، لَهُ ذُوَابَةٌ أَعْلَى نَاصِيَتِهِ كَطَرَةِ الْمَرْأَةِ ، ذِيَالُ يَتَبَخَّرُ بِفَارِسِهِ وَيَحْمَحِمُ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، مُطَّهَمٌ ...

فَقَطَعَتْ أَرْمَانُوسَةُ عَلَيْهَا وَقَالَتْ : مَا سَأَلْتُكِ صِفَةَ جَوَادِهِ ...

قَالَتْ مَارِيَةُ : أَمَّا سِلَاحُهُ ...

قَالَتْ : وَلَا سِلَاحِهِ ، صِفْنِي كَيْفَ رَأَيْتَهُ هُوَ !

قَالَتْ : رَأَيْتُهُ قَصِيرَ الْقَامَةِ عَلَامَةً قُوَّةٍ { وَصَلَابَةٍ } ، وَافِرَ أَلْهَامَةٍ عَلَامَةً عَقْلِ { وَإِرَادَةٍ } ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ ...

فَضَحِكَتْ أَرْمَانُوسَةُ وَقَالَتْ : عَلَامَةُ مَاذَا ؟ ...

... أَبْلَجَ يُسْرِقُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ فِيهِ لَأَلَاءُ الذَّهَبِ عَلَى الضَّوءِ ، أَيْدَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ حَتَّى لَتَكَادَ عَيْنَاهُ تَأْمُرَانِ بِنَظَرِهِمَا أَمْرًا ... ذَاهِيَةً كُتِبَ دَهَاوُهُ عَلَى جَنْبَيْهِ الْعَرِيضَةِ يَجْعَلُ فِيهَا مَعْنًى يَأْخُذُ مَنْ يَرَاهُ ؛ وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَفَرَّسَ فِي وَجْهِهِ رَأَيْتُ وَجْهَهُ لَا يُفَسِّرُهُ إِلَّا تَكَرَّرَ النَّظَرُ إِلَيْهِ ...

وَتَضَرَّجَتْ وَجَتَّتَاهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ حَدِيثًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَيْنِي أَرْمَانُوسَةَ ... وَقَالَتْ هَذِهِ : كَذَلِكَ كُلُّ لَذَةٍ لَا يُفَسِّرُهَا لِلنَّفْسِ إِلَّا تَكَرَّرُهَا ...

فَغَضَّضْتُ مَارِيَةَ مِنْ طَرَفِهَا وَقَالَتْ : هُوَ وَاللَّهِ مَا وَصَفْتُ ، وَإِنِّي مَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْهُ ، وَقَدْ كِدْتُ أَنْكِرُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ لِمَا أَعْتَرَانِي مِنْ هَيْبَتِهِ ...

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : مِنْ هَيْبَتِهِ أَمْ مِنْ عَيْنَيْهِ الدَّعَجَاوَيْنِ ... ؟

* * *

(١) الْكُمَيْتُ الْأَحْمَرُ : هُوَ الْأَحْمَرُ الضَّارِبُ لِلْأَسْوَدِ ، لَا يَخْلُصُ لِأَحَدِ اللَّوْنَيْنِ ، فَإِذَا كَانَ أَحْمَرَ خَالِصًا قِيلَ فِيهِ : كُمَيْتٌ مُدْمَى ، بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ وَفَتْحِهَا .

وَرَجَعَتْ بِنْتُ الْمُقَوْسِ إِلَى أَبِيهَا فِي صُحْبَةِ قَيْسٍ ، فَلَمَّا كَانُوا فِي الطَّرِيقِ وَجَبَتْ
الظُّهُرُ ، فَزَلَّ قَيْسٌ يُصَلِّي بِمَنْ مَعَهُ وَالْفَتَاتَانِ تَنْظُرَانِ ؛ فَلَمَّا صَا حُوا : « اللَّهُ أَكْبَرُ . . . ! »
أَزْتَمَشَ قَلْبُ مَارِيَّةَ ، وَسَأَلَتْ الرَّاهِبَ شَطَا : مَاذَا يَقُولُونَ ؟ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةً يَدْخُلُونَ
بِهَا صَلَاتَهُمْ ، كَأَنَّمَا يُخَاطَبُونَ بِهَا الزَّمَنُ أَنَّهُمْ السَّاعَةَ فِي وَفْتٍ لَيْسَ مِنْهُ وَلَا مِنْ دُنْيَاهُمْ ،
وَكَأَنَّهُمْ يُعْلَنُونَ أَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَي مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْوُجُودِ ؛ فَإِذَا أَعْلَنُوا أَنْصَرَفَهُمْ عَنِ الْوَقْتِ
وَزَزَعَ الْوَقْتُ وَشَهَوَاتِ الْوَقْتِ ، فَذَلِكَ هُوَ دُخُولُهُمْ فِي الصَّلَاةِ ؛ كَأَنَّهُمْ يَمُحُونَ الدُّنْيَا مِنْ
النَّفْسِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ ؛ وَمَحْوُهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ هُوَ أَرْتِفَاعُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَيْهَا ؛ أَنْظِرْنِي ،
أَلَا تَرَيْنَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَدْ سَحَرَتْهُمْ سِحْرًا فَهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَى شَيْءٍ ؛ وَقَدْ
شَمَلَتْهُمْ السَّكِينَةُ ، وَرَجَعُوا غَيْرَ مَنْ كَانُوا ، وَخَشَعُوا خُشُوعَ أَعْظَمِ الْفَلَاسِفَةِ فِي
تَأْمُلِهِمْ ؟ ^(١) .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : مَا أَجْمَلَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ ! لَقَدْ تَعَبْتُ الْكُتُبَ لِتَجْعَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا
يَسْتَفْرِوْنَ سَاعَةً فِي سَكِينَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَمَا أَفْلَحَتْ ، وَجَاءَتْ الْكَنِيسَةُ فَهَوَّلَتْ عَلَى الْمُصَلِّينَ
بِالرَّخَافِ وَالصُّورِ وَالتَّمَاثِيلِ وَالْأَلْوَانِ ، لِتُوجِيَ إِلَى نَفْسِهِمْ ضَرْبًا مِنَ الشُّعُورِ بِسَكِينَةِ
الْجَمَالِ وَتَقْدِيسِ الْمَعْنَى الدِّينِيِّ ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَخْتَالُ فِي نَفْلِهِمْ مِنْ جَوْهَرٍ إِلَى جَوْهَرٍ ؛
فَكَانَتْ كَسَاقِي الْخَمْرِ ؛ إِنْ لَمْ يُعْطَكَ الْخَمْرُ عَجَزَ عَنْ إِعْطَاكَ الشُّوَّةَ . وَمَنْ ذَا الَّذِي
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ كَنِيسَةً عَلَى جَوَادٍ أَوْ حِمَارٍ ؟

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : نَعَمْ إِنَّ الْكَنِيسَةَ كَالْحَدِيقَةِ ؛ هِيَ حَدِيقَةٌ فِي مَكَانِهَا ، وَقَلَمًا تُوجِي
شَيْئًا إِلَّا فِي مَوْضِعِهَا ؛ فَالْكَنِيسَةُ هِيَ الْجُذُرَانِ الْأَرْبَعَةُ ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَمَعْبُدُهُمْ بَيْنَ جِهَاتِ
الْأَرْضِ الْأَرْبَعِ .

قَالَ الرَّاهِبُ شَطَا : وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَتَى فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا وَافْتَتَتْ بِهَا
وَأَنْغَمَسُوا فِيهَا - فَسَتَكُونُ هَذِهِ الصَّلَاةُ بِعَيْنِهَا لَيْسَ فِيهَا صَلَاةٌ يَوْمِيَّةٌ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَهَلْ تُفْتَحُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا ، وَهَلْ لَهُمْ قُودًا كَثِيرُونَ كَعَمْرٍو . . ؟

قَالَ : كَيْفَ لَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى قَوْمٍ لَا يُحَارِبُونَ الْأَمَمَ بَلْ يُحَارِبُونَ مَا فِيهَا مِنَ الظُّلْمِ وَالْكَفْرِ وَالزُّدِيلَةِ ، وَهُمْ خَارِجُونَ مِنَ الصَّخْرَاءِ بِطَبِيعَةٍ قَوِيَّةٍ كَطَبِيعَةِ الْمَوْجِ فِي الْمَدِّ الْمُزْتَفِعِ ؛ لَيْسَ فِي دَاخِلِهَا إِلَّا أَنْفُسٌ مُنْدَفِعَةٌ إِلَى الْخَارِجِ عَنْهَا ؛ ثُمَّ يُقَاتِلُونَ بِهِدِ الطَّبِيعَةِ أَمَّا لَيْسَ فِي الدَّاخِلِ مِنْهَا إِلَّا الْفُؤُسُ الْمُسْتَعِدَّةُ أَنْ تَهْرُبَ إِلَى الدَّاخِلِ . . . !

قَالَتْ مَارِيَّةُ : وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ ثَلَاثُنَا عَلَى دِينِ عَمْرٍو . . .

* * *

وَانْقَلَبَ قَيْسٌ مِنَ الصَّلَاةِ ، وَأَقْبَلَ يَتَرَحَّلُ ، فَلَمَّا حَاذَى مَارِيَّةَ كَانَ عِنْدَهَا كَأَنَّمَا سَافَرٌ وَرَجَعَ ؛ وَكَانَتْ مَا تَرَاهُ فِي أَحْلَامِ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَتْ مِنَ الْخُلُمِ فِي عَالَمٍ أَخَذَ يَتَلَاشَى إِلَّا مِنْ عَمْرٍو وَمَا يَتَّصِلُ بِعَمْرٍو . وَفِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَحْوَالٌ ثَلَاثٌ ^(١) يَغِيبُ فِيهَا الْكَوْنُ بِحَقَائِقِهِ ؛ فَيَغِيبُ عَنِ السَّكْرَانِ ، وَالْمُخْبُولِ ، وَالثَّامِ ؛ وَفِيهَا حَالَةٌ رَابِعَةٌ يَتَلَاشَى فِيهَا الْكَوْنُ إِلَّا مِنْ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَمَثَّلُ فِي إِنْسَانٍ { مَحْبُوبٍ } .

وَقَالَتْ مَارِيَّةُ لِلزَّاهِبِ شَطَا : سَلُهُ : مَا أَرَبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَرْبِ ، وَهَلْ فِي سِيَاسَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْفَائِذُ الَّذِي يَفْتَحُ بَلَدًا حَاكِمًا عَلَى هَذَا الْبَلَدِ . . . ؟

قَالَ قَيْسٌ : حَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمِي أَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيْسَ إِلَّا رَجُلًا عَامِلًا فِي تَحْقِيقِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، أَمَا حَظُّ نَفْسِهِ فَهُوَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا .

وَتَرَجَّمَ الزَّاهِبُ كَلَامَهُ هَكَذَا : أَمَّا الْفَاتِحُ فَهُوَ فِي الْأَكْثَرِ الْحَاكِمُ الْمُقِيمُ ، وَأَمَّا الْحَرْبُ فَهِيَ عِنْدَنَا الْفِكْرَةُ الْمُصْلِحَةُ تُرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ فِي الْأَرْضِ وَتَعْمَلَ ، وَلَيْسَ حَظُّ النَّفْسِ شَيْئًا يَكُونُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ النَّفْسُ أَكْبَرَ مِنْ غَرَائِزِهَا ، وَتَقْلِبُ مَعَهَا الدُّنْيَا بِرُغْوَتِهَا وَحِمَاقَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَالطُّفْلِ بَيْنَ يَدَيِ رَجُلٍ ، فِيهِمَا قُوَّةٌ ضَبْطُهُ وَتَضْرِيغُهُ . وَلَوْ كَانَ فِي عَقِيدَتِنَا أَنَّ ثَوَابَ أَعْمَالِنَا فِي الدُّنْيَا ، لَانْعَكَسَ الْأَمْرُ .

قَالَتْ مَارِيَّةُ : فَسَلُهُ : كَيْفَ يَصْنَعُ عَمْرٍو بِهِدِ الْقِلَّةِ الَّتِي مَعَهُ وَالزُّرُومَ لَا يُحْصَى عَدَدُهُمْ ؛ فَإِذَا أَحْفَقَ عَمْرٍو فَمَنْ عَسَى أَنْ يَسْتَبْدِلُوهُ مِنْهُ ؟ وَهَلْ هُوَ أَكْبَرُ قَوَادِمِهِمْ ، أَوْ فِيهِمْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « ثَلَاثَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « ثَلَاثٌ » .

أكبر منه ؟ .

قَالَ الرَّاوي : وَلَكِنَّ قَرَسَ قَنِسٍ تَمَطَّرَ وَأَسْرَعَ فِي لِحَاقِ الْخَيْلِ عَلَى الْمُقَدَّمَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَسْنَا فِي هَذَا . . .

* * *

وَفُتِحَتْ مِصْرُ صُلْحًا بَيْنَ عَمْرٍو وَالْقَبِيطِ ، وَوَلَّى الرُّومُ مُضْعِدِينَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ مَارِيَّةُ فِي ذَلِكَ تَسْتَفْرِئُ أَخْبَارَ الْفَاتِحِ تَطُوفُ مِنْهُمَا عَلَى أَطْلَالٍ مِنْ شَخْصٍ بَعِيدٍ ؛ وَكَانَ عَمْرٍو مِنْ نَفْسِهَا كَالْمَمْلَكَةِ الْحَصِينَةِ مِنْ فَاتِحٍ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حُبُّهُ أَنْ يَأْخُذَهَا ؛ وَجَعَلَتْ تَذْوِي وَشَحَبَ لَوْنُهَا وَبَدَأَتْ تَنْظُرُ النَّظْرَةَ الثَّانِيَةَ ؛ وَبَانَ عَلَيْهَا أَثَرُ الرُّوحِ الظَّمْأَى ؛ وَحَاطَهَا الْيَأْسُ بِجَوْهٍ الَّذِي يُحْرِقُ الدَّمَ ؛ وَبَدَتْ مَجْرُوحَةَ الْمَعَانِي ؛ إِذْ كَانَ يَتَقَاتَلُ فِي نَفْسِهَا الشُّعُورَانِ الْعُدُوَانِ : شُعُورُ أَنَّهَا عَاشِقَةٌ ، وَشُعُورُ أَنَّهَا يَائِسَةٌ !

وَرَقَّتْ لَهَا أَرْمَانُوسَةُ ، وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا تَتَعَلَّقُ فَتَى رُومَانِيًا ، فَسَهَرَتَا لَيْلَةَ تُوْدِرَانَ الرَّأْيِ فِي رِسَالَةٍ تَحْمِلُهَا مَارِيَّةُ مِنْ قِبَلِهَا إِلَى عَمْرٍو كَيْ تَصِلَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا وَصَلَتْ بَلَغَتْ بِعَيْنَيْهَا رِسَالَةَ نَفْسِهَا . . .

وَأَسْتَفَرَّ الْأَمْرُ أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ عَنْ مَارِيَّةِ الْقَبِيطِيَّةِ وَخَبَرِهَا وَنَسْلِهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِمَّا يُطَوِّلُ الْإِخْبَارَ بِهِ إِذَا كَانَ السُّؤَالُ مِنْ أَمْرَاءَ عَنْ أَمْرَاءَ . فَلَمَّا أَصْبَحْنَا وَقَعَ إِلَيْهَا أَنَّ عَمْرًا قَدْ سَارَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ لِقِتَالِ الرُّومِ ، وَشَاعَ الْخَبَرُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِفُسْطَاطِهِ أَنْ يُقَوَّضَ أَصَابُوا يَمَامَةً قَدْ بَاضَتْ فِي أَعْلَاهُ ، فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : « قَدْ تَحَرَّمْتُ فِي جِوَارِنَا ، أَفَرُّوا الْفُسْطَاطَ حَتَّى تَطِيرَ فِرَاحُهَا » . فَأَقْرُوهُ !

* * *

وَلَمْ يَمُضْ غَيْرُ طَوْنِلٍ حَتَّى قَضَتْ مَارِيَّةُ نَحْبَهَا ، وَحَفِظَتْ عَنْهَا أَرْمَانُوسَةُ هَذَا الشُّعْرَ الَّذِي أَسْمَتُهُ : نَشِيدُ الْيَمَامَةِ :

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَهَا .

تَرَكَهَا الْأَمِيرُ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ ، وَذَهَبَ هُوَ يَصْنَعُ الْمَوْتَ ! .

هِيَ كَأَسْعَدِ امْرَأَةٍ ؛ تَرَى وَتَلْمَسُ أَحْلَامَهَا .
إِنَّ سَعَادَةَ الْمَرْأَةِ أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا بَعْضُ حَقَائِقِ صَغِيرَةٍ كَهَذَا الْبَيْضِ .

* * *

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .
لَوْ سُئِلَتْ عَنْ هَذَا الْبَيْضِ لَقَالَتْ : هَذَا كَثْرَتِي .
هِيَ كَأَهْنَأِ امْرَأَةٍ ، مَلَكَتْ مُلْكَهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَلَمْ تَفْتَقِرْ .
هَلْ أَكَلْتُ الْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا كَلَفْتُه رَجُلًا وَاحِدًا أَحِبُّهُ !

* * *

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .
الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْتَّجُومُ ، كُلُّهَا أَصْغَرُ فِي عَيْنِهَا مِنْ هَذَا الْبَيْضِ .
هِيَ كَأَرْقِ امْرَأَةٍ ؛ عَرَفَتْ الرِّقَّةَ مَرَّتَيْنِ : فِي الْحُبِّ ، وَالْوِلَادَةِ .
هَلْ أَكَلْتُ الْوُجُودَ شَيْئًا كَثِيرًا إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ كَهَذِهِ الْيَمَامَةِ !

* * *

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْضَهَا .
تَقُولُ الْيَمَامَةُ : إِنَّ الْوُجُودَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى بِلَوْنَيْنِ فِي عَيْنِ الْإِنْسَانِ .
مَرَّةً حَبِيبًا كَثِيرًا فِي رَجُلِهَا ، وَمَرَّةً حَبِيبًا صَغِيرًا فِي أَوْلَادِهَا .
كُلُّ شَيْءٍ خَاصِصٌ لِقَانُونِهِ ؛ وَالْإِنْسَانُ لَا تَرِيدُ أَنْ تَخْضَعَ إِلَّا لِقَانُونِهَا .

* * *

أَبْتَهَا الْيَمَامَةُ ، لَمْ تَعْرِفِي الْأَمِيرَ وَتَرَكَ لَكَ فُسْطَاطَهُ !
هَكَذَا الْحَظُّ : عَدَلُ مُضَاعَفٍ فِي نَاحِيَةٍ ، وَظُلْمُ مُضَاعَفٍ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى .
أَحْمَدِي اللَّهُ أَتَيْتَهَا الْيَمَامَةُ ، أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ لُغَاتٌ وَأَدْيَانٌ .

عِنْدَكُمْ فَقَطْ : الْحُبُّ وَالطَّيِّبَةُ وَالْحَيَاةُ .

* * *

عَلَى فُسْطَاطِ الْأَمِيرِ يَمَامَةٌ جَائِمَةٌ تَخْضُنُ بَيْنَظَهَا .

يَمَامَةٌ سَعِيدَةٌ ، سَتَكُونُ فِي التَّارِيخِ كَهْذِهِ سُلَيْمَانَ .

نُسِبَ الْهَذِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ ، وَسَتُنْسَبُ الْيَمَامَةُ إِلَى عَمْرٍو .

وَاهَا لَكَ يَا عَمْرُو ! مَا ضَرَّ لَوْ عَرَفْتَ الْيَمَامَةَ الْأُخْرَى ! . . . !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

اجْتِلَاءُ الْعِيدِ (*)

جَاءَ يَوْمُ الْعِيدِ ؛ يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الزَّمَنِ إِلَى زَمَنِ وَحْدَهُ لَا يَسْتَمِرُّ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ .
 زَمَنٌ قَصِيرٌ ظَرِيفٌ ضَاحِكٌ ، تَقَرُّضُهُ الْأَدْيَانُ عَلَى النَّاسِ ، لِيَكُونَ لَهُمْ بَيْنَ الْحَيْنِ
 وَالْحَيْنِ يَوْمٌ طَبِيعِيٌّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي أَنْتَقَلْتَ عَنْ طَبِيعَتِهَا .
 يَوْمُ السَّلَامِ ، وَالْبُسْرِ ، وَالضَّحِكِ ، وَالْوَفَاءِ ، وَالْإِحَاءِ ، وَقَوْلِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ :
 وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ .
 يَوْمُ الثِّيَابِ الْجَدِيدَةِ عَلَى الْكُلِّ إِشْعَارًا لَهُمْ بِأَنَّ الْوَجْهَ الْإِنْسَانِيَّ جَدِيدٌ فِي هَذَا الْيَوْمِ .
 يَوْمُ الزَّيْنَةِ الَّتِي لَا يُرَادُ مِنْهَا إِلَّا إظهارُ أثرِهَا عَلَى النَّفْسِ لِيَكُونَ النَّاسُ جَمِيعًا فِي يَوْمٍ
 حُبٍّ .

* * *

يَوْمُ الْعِيدِ ؛ يَوْمُ تَقْدِيمِ الْحُلُوفِ إِلَى كُلِّ فَمٍ لِنَحْلُو الْكَلِمَاتِ فِيهِ ...
 يَوْمُ تَعَمُّ فِيهِ النَّاسُ أَلْفَاظَ الدُّعَاءِ وَالْتِهَتَةِ مُزْتَمِعَةً بِقُوَّةِ إِلَهِيَّةِ فَوْقِ مُنَارِعَاتِ الْحَيَاةِ .
 ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ نَظْرَةً تَلْمَحُ السَّعَادَةَ ، وَإِلَى أَهْلِ نَظْرَةٍ تُبَصِّرُ
 الْإِعْزَازَ ، وَإِلَى دَارِهِ نَظْرَةً تُذَكِّرُ الْجَمَالَ ، وَإِلَى النَّاسِ نَظْرَةً تَرَى الصَّدَاقَةَ .
 وَمِنْ كُلِّ هَذِهِ النَّظَرَاتِ تَسْتَوِي لَهُ النُّظْرَةُ الْجَمِيلَةُ إِلَى الْحَيَاةِ وَالْعَالَمِ ؛ فَتَبْهَجُ نَفْسُهُ
 بِالْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ .
 وَمَا أَسْمَاهَا نَظْرَةً تَكْشِفُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّ الْكُلَّ جَمَالُهُ فِي الْكُلِّ !

* * *

وَحَرَجْتُ أَجَلِي الْعِيدَ فِي مَظْهَرِهِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ السُّعْدَاءِ .
 عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ النَّصْرَةِ الَّتِي كَبُرَتْ فِيهَا ابْتِسَامَاتُ الرِّضَاعِ فَصَارَتْ صَحِكَاتٍ .
 وَهَذِهِ الْعُيُونُ الْحَالِمَةُ الَّتِي إِذَا بَكَتْ بَكَتْ بِدُمُوعٍ لَا ثِقْلَ لَهَا .
 وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَنْطِقُ بِأَصْوَاتٍ لَا تَزَالُ فِيهَا نَبْرَاتُ الْحَنَانِ مِنْ تَقْلِيدِ لُغَةِ
 الْأُمِّ .

وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ الْغَضَّةُ الْقَرْنِيَّةُ الْعَهْدُ بِالضَّمَّاتِ وَاللَّئِمَاتِ فَلَا يَزَالُ حَوْلَهَا جَوْ الْقَلْبِ .

* * *

عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ السُّعْدَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قِيَاسًا لِلزَّمَنِ إِلَّا بِالسَّرُورِ .
 وَكُلُّ مِنْهُمْ مَلِكٌ فِي مَمْلَكَةٍ ؛ وَظَرْفُهُمْ هُوَ أَمْرُهُمُ الْمُلُوكِيُّ .
 ... هَؤُلَاءِ الْمُجْتَمِعِينَ فِي ثِيَابِهِمُ الْجَدِيدَةِ الْمُصَبَّغَةِ اجْتِمَاعَ قَوْسٍ قُرَحَ فِي الْوَانَةِ .
 ثِيَابٌ عَمِلَتْ فِيهَا الْمَصَانِعُ وَالْقُلُوبُ ، فَلَا يَتِمُّ جَمَالُهَا إِلَّا بِأَنْ يَرَاهَا الْأَبُ وَالْأُمُّ عَلَى
 أَطْفَالِيهِمَا .

ثِيَابٌ جَدِيدَةٌ يَلْبَسُونَهَا فَيَكُونُونَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ نَوْبًا جَدِيدًا عَلَى الدُّنْيَا .

* * *

... هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ الصَّغَارِ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْكَثْرِ الشَّمِينَ مِنْ قِرَشِينَ .
 وَيَسَحَرُونَ الْعِيدَ فَإِذَا هُوَ يَوْمٌ صَغِيرٌ مِثْلَهُمْ جَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّعِبِ ...
 وَيَنْتَبِهُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مَعَ الْفَجْرِ ، فَيَنْقَى الْفَجْرُ عَلَى قُلُوبِهِمْ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ .
 وَيَلْقَوْنَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ ، فَيَبْشُرُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنَيْنِ الثَّابِتِينَ فِي
 نَفْسِ الطِّفْلِ : الْحُبِّ الْخَالِصِ ، وَاللَّهُوِ الْخَالِصِ .

وَيَبْتَعِدُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ عَنِ أَكَاذِبِ الْحَيَاةِ ، فَيَكُونُ هَذَا بَعِيْنِهِ هُوَ قُرْبُهُمْ مِنْ حَقِيقَتِهَا
 السَّعِيدَةِ .

* * *

... هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ هُمْ السُّهُولَةُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَقَّدَ .
 وَالَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَالَمَ فِي أَوَّلِ مَا يَنُمُو الْخَيَالَ وَيَتَجَاوَزُ وَيَمْتَدُّ .
 يُفَتِّشُونَ الْأَقْدَارَ مِنْ ظَاهِرِهَا ؛ وَلَا يَسْتَبْطِنُونَ كَيْ لَا يَتَأَلَّمُوا بِلَا طَائِلٍ .
 وَيَأْخُذُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَفْرَحُونَ بِهَا ، وَلَا يَأْخُذُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِلْأَشْيَاءِ كَيْ لَا
 يُوْجِدُوا لَهَا أَلْهَمَ .

* * *

قَانِعُونَ يَكْتَفُونَ بِالثَّمَرَةِ ^(١) ، وَلَا يُحَاوِلُونَ اقْتِلَاعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا .
 وَيَعْرِفُونَ كُنْهَ الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِرُوحِ النِّعْمَةِ لَا بِمِقْدَارِهَا ...
 فَيَجِدُونَ مِنَ الْفَرَحِ فِي تَغْيِيرِ نَوْبِ الْجِسْمِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ الْقَائِدُ الْفَاتِحُ فِي تَغْيِيرِ نَوْبِ
 لِلْمَمْلَكَةِ .

* * *

... هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءُ الَّذِينَ يُشَبِّهُ كُلُّ مِنْهُمْ آدَمَ أَوَّلَ مَخْلُوقِهِ إِلَى الدُّنْيَا .
 حِينَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ خَلِيقَةٌ ثَالِثَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ الْمُتَحَضَّرِ .
 حِكْمَتُهُمُ الْعُلْيَا : أَنَّ الْفِكْرَ السَّامِيَ هُوَ جَعْلُ الشُّرُورِ فِكْرًا وَإِظْهَارُهُ فِي الْعَمَلِ .
 وَشِعْرُهُمُ الْبَدِيعُ : أَنَّ الْجَمَالَ وَالْحُبَّ لَيْسَا فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي تَجَمُّلِ النَّفْسِ وَإِظْهَارِهَا
 عَاشِقَةً لِلْفَرَحِ .

* * *

... هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ يَقُومُ فَلَسَفَتُهُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ عَمَلِيَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ
 الْكَثِيرَةَ لَا تَكْثُرُ فِي النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ .
 وَبِذَلِكَ تَعِيشُ النَّفْسُ هَادِئَةً مُسْتَرِيحَةً كَأَنَّ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَشْيَاؤُهَا الْمُسَرَّةُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « الثَّمَرَةُ » بَدَلًا مِنْ : « الثَّمَرَةُ » .

أَمَّا النَّفْسُ الْمُضْطَرِبَةُ بِأَطْمَاعِهَا وَشَهَوَاتِهَا فَهِيَ الَّتِي تُبْتَلَى بِمُؤَمِّمِ الْكَثْرَةِ الْخَيَالِيَّةِ .
وَمَثَلُهَا فِي الْهَمِّ مَثَلُ طِفْلٍ مُغْفَلٍ يَخْزَنُ لِأَنَّهُ لَا يَأْكُلُ فِي بَطْنَيْنِ . . .

* * *

وَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيرَةُ فِي النَّفْسِ ، كَثُرَتِ السَّعَادَةُ وَلَوْ مِنْ قَلَّةٍ .
فَالطِّفْلُ يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي نِسَاءِ كَثِيرَاتٍ ، وَلَكِنْ أُمُّهُ هِيَ أَجْمَلُهُنَّ وَإِنْ كَانَتْ شَوْهَاءَ .
فَأُمُّهُ وَحْدَهَا هِيَ أُمُّ قَلْبِهِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَى لِلْكَثْرَةِ فِي هَذَا الْقَلْبِ .
.. هَذَا هُوَ السِّرُّ ؛ خُذُوهُ أَهْلُ الْحُكْمَاءِ عَنِ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ !

* * *

وَتَأَمَّلْتُ الْأَطْفَالَ وَأَثَرُ الْعَيْنِ عَلَى نَفْسِهِمُ الَّتِي وَسَعَتْ مِنَ الْبَشَاشَةِ فَوْقَ مِلْثَمِهَا ؛ فَإِذَا
لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ لِلْكَبَارِ : أَيُّهَا الْبَهَائِمُ ، أَخْلَعِي أَرْسَانَكُمْ وَلَوْ يَوْمًا . . .
أَيُّهَا النَّاسُ ! انْطَلِقُوا فِي الدُّنْيَا انْطِلَاقَ الْأَطْفَالِ يُوجِدُونَ حَقِيقَتَهُمُ الْبَرِيئَةَ الضَّاحِكَةَ .
لَا كَمَا تَصْنَعُونَ إِذْ تَنْطَلِقُونَ انْطِلَاقَ الْوَحْشِ يُوجِدُ حَقِيقَتَهُ الْمُفْتَرِسَةَ .
أَخْرَازُ حُرِّيَّةَ نَشَاطِ الْكُؤُنِ يَنْبِثُ كَالْفَوْضَى ، وَلَكِنْ فِي أَدَقِّ التَّوَامِينِ .
يُبَيِّرُونَ الشُّخْطَ بِالضَّجِيجِ وَالْحَرَكَةِ ، فَيَكُونُونَ مَعَ النَّاسِ عَلَى خِلَافٍ ، لِأَنَّهُمْ عَلَى
وِفَاقٍ مَعَ الطَّبِيعَةِ .

وَتَحْتَدِمُ بَيْنَهُمُ الْمَعَارِكُ ، وَلَكِنْ لَا تَحْطُمُ فِيهَا إِلَّا اللَّعْبُ . . .
أَمَّا الْكِبَارُ فَيَصْنَعُونَ الْمِدْفَعَ الضَّخْمَ مِنَ الْحَدِيدِ ، لِلْجِسْمِ اللَّيِّنِ مِنَ الْعَظْمِ .
أَيُّهَا الْبَهَائِمُ ! أَخْلَعِي أَرْسَانَكُمْ وَلَوْ يَوْمًا . . .

* * *

لَا يَفْرَحُ أَطْفَالُ الدَّارِ كَفَرَحِهِمْ بِطِفْلِ يُوَلَّدُ ؛ فَهُمْ يَسْتَقْبِلُونَهُ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى عَقُولِهِمْ
الصَّغِيرَةِ .

وَيَمْلَأُوهُمْ الشُّعُورُ بِالْفَرَحِ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِنِ فِي سِرِّ الْخَلْقِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَذَا السِّرِّ .
وَكَذَلِكَ تَحْمِلُ السَّنَةُ ثُمَّ تَلِدُ لِلْأَطْفَالِ يَوْمَ الْعِيدِ ؛ فَيَسْتَقْبِلُونَهُ كَأَنَّهُ مُخْتَاجٌ إِلَى لَهْوِهِمْ
الطَّبِيعِيِّ .

وَيَمْلَأُوهُمْ الشُّعُورُ بِالْفَرَحِ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِنِ فِي سِرِّ الْعَالَمِ ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ هَذَا السِّرِّ .

* * *

فَيَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ الْكِبَارُ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ الْخَلْقِ بِأَنَامِ الْعُمُرِ !
وَمَا أَبْعَدَنَا عَنْ سِرِّ الْعَالَمِ ، بِهَلْذِهِ الشَّهَوَاتِ الْكَافِرَةِ الَّتِي لَا تُؤْمِنُ إِلَّا بِالْمَادَّةِ !
يَا أَسَفًا عَلَيْنَا نَحْنُ الْكِبَارُ ! مَا أَبْعَدَنَا عَنْ حَقِيقَةِ الْفَرَحِ !
تَكَادُ أَثَامُنَا وَاللَّهِ تَجْعَلُ لَنَا فِي كُلِّ فَرْحَةٍ خَجَلَةً . . .

* * *

أَيَّتُهَا الرِّيَاضُ الْمُنَوَّرَةُ بِأَزْهَارِهَا !
أَيَّتُهَا الطُّيُورُ الْمُغَرَّدَةُ بِالْحَانِئِهَا !
أَيَّتُهَا الْأَشْجَارُ الْمُصَفَّقَةُ بِأَغْصَانِهَا !
أَيَّتُهَا الثُّجُومُ الْمُتَلَانِلَةُ بِالنُّورِ الدَّائِمِ !
أَنْتِ سَتَى ؛ وَلَكِنَّكَ جَمِيعًا فِي هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَوْمَ الْعِيدِ !

الْمَعْنَى السِّيَاسِي فِي الْعِيدِ (*)

مَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ نَفْهَمَ أَعْيَادَنَا فَهَمًا جَدِيدًا ، نَتَلَقَّهَا بِهِ وَنَأْخُذَهَا مِنْ نَاحِيَّتِهِ ، فَتَجِيءُ أَيَّامًا سَعِيدَةً عَامِلَةً ، تُبْهِهُ فِينَا أَوْصَافَهَا الْقُوَّةَ ، وَتُجَدِّدُ نَفُوسَنَا بِمَعَانِيهَا ، لَا كَمَا تَجِيءُ آلَانْ كَالِحَةً عَاطِلَةً مَمْسُوحَةً مِنَ الْمَعْنَى ، أَكْبَرُ عَمَلِهَا تَجْدِيدُ الْثِيَابِ ، وَتَجْدِيدُ الْفَرَاغِ ، وَزِيَادَةُ ابْتِسَامَةِ عَلَى التَّفَاقِ . . .

فَالْعِيدُ إِنَّمَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ فِي الْيَوْمِ لَا الْيَوْمُ نَفْسُهُ ، وَكَمَا يَفْهَمُ النَّاسُ هَذَا الْمَعْنَى يَتَلَقَّوْنَ هَذَا الْيَوْمَ ؛ وَكَانَ الْعِيدُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ عِنْدَ الْفِكْرَةِ الْعَابِدَةِ ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ الْفِكْرَةِ الْعَابِدَةِ ؛ وَكَانَتْ عِبَادَةُ^(١) الْفِكْرَةِ جَمْعُهَا الْأُмَّةُ فِي إِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى حَقِيقَةِ عَمَلِيَّةٍ ، فَأَصْبَحَ عَبَثُ الْفِكْرَةِ جَمْعُهَا الْأُмَّةُ عَلَى تَقْلِيدٍ بَغَيْرِ حَقِيقَةٍ ؛ لَهُ مَظْهَرُ الْمَنْفَعَةِ وَلَيْسَ لَهُ مَعْنَاهَا .

كَانَ الْعِيدُ إِنْشَاءً الْأُмَّةِ وَجُودَهَا الرُّوحَانِي فِي أَجْمَلِ مَعَانِيهِ ، فَأَصْبَحَ إِنْشَاءً الْأُмَّةِ وَجُودَهَا الْحَيَوَانِي فِي أَكْثَرِ مَعَانِيهِ ؛ وَكَانَ يَوْمَ اسْتِرَاحَةِ الْقُوَّةِ مِنْ جِدِّهَا ، فَعَادَ يَوْمَ اسْتِرَاحَةِ الضَّغْفِ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ يَوْمَ الْمَبْدَأِ ، فَرَجَعَ يَوْمَ الْمَادَّةِ !

* * *

لَيْسَ الْعِيدُ إِلَّا إِشْعَارَ هَذِهِ الْأُмَّةِ بِأَنَّ فِيهَا قُوَّةَ تَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، لَا إِشْعَارَهَا بِأَنَّ الْأَيَّامَ تَتَغَيَّرُ ؛ وَلَيْسَ الْعِيدُ لِلْأُمَّةِ إِلَّا يَوْمًا تَعْرِضُ فِيهِ جَمَالَ نِظَامِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ ، فَيَكُونُ يَوْمَ الشُّعُورِ الْوَاحِدِ فِي نَفُوسِ الْجَمِيعِ ، وَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَلْسِنَةِ الْجَمِيعِ ؛ يَوْمَ الشُّعُورِ بِالْقُدْرَةِ عَلَى تَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، لَا الْقُدْرَةِ عَلَى تَغْيِيرِ الثِّيَابِ . . . كَأَنَّمَا الْعِيدُ هُوَ اسْتِرَاحَةُ الْأَسْلِحَةِ يَوْمًا فِي شُعْبِهَا الْحَرْبِيِّ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٠ ، ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٣٦١ - ٣٦٢ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « عِبَادَةُ » بَدَلًا مِنْ : « عِبَادَةُ » .

وَلَيْسَ الْعَيْدُ إِلَّا تَغْلِيمُ الْأُمَّةِ كَيْفَ تَتَّسِعُ رُوحُ الْجَوَارِ وَتَمْتَدُّ ، حَتَّى يَزْجَعَ الْبَلَدُ الْعَظِيمُ
وَكَاثُهُ لِأَهْلِهِ دَارٌ وَاحِدَةٌ يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْإِخَاءُ بِمَعْنَاهُ الْعَمَلِيُّ ، وَتَظْهَرُ فَضِيلَةُ الْإِخْلَاصِ
مُسْتَعْلَنَةً لِلْجَمِيعِ ، وَيُهْدِي النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَدَايَا الْقُلُوبِ الْمُخْلِصَةِ الْمُحِبَّةِ ؛
وَكَاثَمَا الْعَيْدُ هُوَ إِطْلَاقُ رُوحِ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا .

وَلَيْسَ الْعَيْدُ إِلَّا إِظْهَارُ الذَّاتِيَّةِ الْجَمِيلَةِ لِلشَّعْبِ مَهْرُوزَةً مِنْ نَشَاطِ الْحَيَاةِ ؛ وَلَا ذَاتِيَّةَ
لِلْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ ؛ وَلَا نَشَاطَ لِلْأُمَمِ الْمُسْتَعْبَدَةِ . فَالْعَيْدُ صَوْتُ الْقُوَّةِ يَهْتَفُ بِالْأُمَّةِ : أَخْرِجْنِي
يَوْمَ أَفْرَاحِكَ ، أَخْرِجْنِي يَوْمًا كَأَيَّامِ النُّصْرِ !

وَلَيْسَ الْعَيْدُ إِلَّا إِبْرَازُ الْكُنْزَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْأُمَّةِ مُتَمَيِّزَةً بِطَابَعِهَا الشَّعْبِيِّ ، مَفْصُولَةً مِنَ
الْأَجَانِبِ ، لَا يَسَةُ مِنْ عَمَلِ أَيْدِيهَا ، مُغْلَنَةً بِعَيْنِهَا اسْتِقْلَالَيْنِ فِي وُجُودِهَا وَصِنَاعَتِهَا ،
ظَاهِرَةٌ بِقُوَّتَيْنِ فِي إِيمَانِهَا وَطَبِيعَتِهَا ، مُبْتَهَجَةٌ بِفَرَحَيْنِ فِي دُورِهَا وَأَسْوَاقِهَا ؛ فَكَانَ الْعَيْدُ يَوْمٌ
يَفْرَحُ فِيهِ الشَّعْبُ كُلُّهُ بِخَصَائِصِهِ .

وَلَيْسَ الْعَيْدُ إِلَّا الْبَقَاءُ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ فِي مَعْنَى الْفَرَحِ بِالْحَيَاةِ النَّاجِحَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي
طَرِيقِهَا ، وَتَرَكَ الصَّغَارِ يُلْقَوْنَ دَرَسَهُمُ الطَّبِيعِيِّ فِي حِمَاسَةِ الْفَرَحِ وَالْبَهْجَةِ ، وَيُعَلِّمُونَ
كِبَارَهُمْ كَيْفَ تُوَضَّعُ الْمَعَانِي فِي بَعْضِ الْأَلْفَافِ الَّتِي فَرَعَتْ عَنْهُمْ مِنْ مَعَانِيهَا ،
وَيُبَصِّرُونَهُمْ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلَ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْجُمُوعِ عَمَلُ الْحَلِيفِ لِحَلِيفِهِ ،
لَا عَمَلُ الْمُتَابِدِ لِمُتَابِدِهِ ؛ فَالْعَيْدُ يَوْمٌ تَسْلُطُ الْعُنُصُرُ الْحَيَّةُ عَلَى نَفْسِيَّةِ الشَّعْبِ .

وَلَيْسَ الْعَيْدُ إِلَّا تَغْلِيمُ الْأُمَّةِ كَيْفَ تُوجَّهُ بِقُوَّتِهَا حَرَكََةُ الزَّمَنِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ كُلَّمَا
شَاءَتْ ؛ فَقَدْ وَضَعَ لَهَا الدِّينُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ لِتُخْرَجَ عَلَيْهَا الْأَمْثَلَةُ ، فَتَجْعَلَ لِلْوَطَنِ عَيْدًا مَالِيًا
اِفْتِصَادِيًّا تَبْتَسِمُ فِيهِ الدَّرَاهِمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَتَخْتَرِعُ لِلصَّنَاعَةِ عَيْدَهَا ، وَتُوجِدُ لِلْعِلْمِ
عَيْدَهُ ، وَتَبْتَدِعُ لِلْفَنِّ مَجَالِي زِينَتِهِ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ تُنْشِئُ لِنَفْسِهَا أَيَّامًا تَعْمَلُ عَمَلُ الْقَوَادِ
الْعَسْكَرِيِّينَ فِي قِيَادَةِ الشَّعْبِ ، يَقُودُهُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا إِلَى مَعْنَى مِنْ مَعَانِي النُّصْرِ .

* * *

هَذِهِ الْمَعَانِي السِّيَاسِيَّةُ الْقَوِيَّةُ هِيَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا فُرِضَ الْعَيْدُ مِيرَاثًا دَهْرِيًّا فِي

الْإِسْلَامَ ، لِيَسْتَخْرِجَ أَهْلُ كُلِّ زَمَنٍ مِنْ مَعَانِي زَمَنِهِمْ فَيُضَيِّفُوا إِلَى الْمِثَالِ أَمْثِلَةً مِمَّا يُبْدِعُهُ
نَشَاطُ الْأُمَّةِ ، وَيُحَقِّقُهُ خَيَالُهَا ، وَتَقْتَضِيهِ مَصَالِحُهَا .

وَمَا أَحْسَبُ الْجُمُعَةَ قَدْ فُرِضَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عِيْدًا أُسْبُوعِيًّا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْخَطِيبُ
وَالْمُنْبَرُ وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ - إِلَّا تَهَيَّئَةً لِدَلِّكَ الْمَعْنَى وَإِعْدَادًا لَهُ ؛ فَفِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُسْلِمَةٍ
يَوْمٌ يَجِيءُ فَيُشْعِرُ النَّاسَ مَعْنَى الْقَائِدِ الْحَزْبِيِّ لِلشَّعْبِ كُلِّهِ .

أَلَا لَيْتَ الْمَنَابِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَخْطُبُ عَلَيْهَا إِلَّا رِجَالٌ فِيهِمْ أَرْوَاحُ الْمَدَافِعِ ، لَا رِجَالٌ
فِي أَيْدِيهِمْ سُيُوفٌ مِنْ خَشَبٍ^(١) . . .

(١) { انظر « قِصَّةُ الْأَيْدِي الْمُتَوَصِّتَةِ » فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ } .

الرَّبِيعُ (*)

خَرَجْتُ أَشْهَدُ الطَّبِيعَةَ كَيْفَ تُصْبِحُ كَالْمَغْسُوقِ الْجَمِيلِ ، لَا يُقَدِّمُ لِعَاشِقِهِ إِلَّا أَسْبَابَ حُبِّهِ !
وَكَيْفَ تَكُونُ كَالْحَبِيبِ ، يَرِيدُ فِي الْجِسْمِ حَاسَةً لِمَسِّ الْمَعَانِي الْجَمِيلَةِ !
وَكُنْتُ كَالْقَلْبِ الْمَهْجُورِ الْحَزِينِ ، وَجَدَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِمَا سَمَاءَهُ
وَأَرْضَهُ .

أَلَا كَمْ مِنْ آفٍ السَّيْنِ وَالْآفِهَا قَدْ مَضَتْ مِنْذُ أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ !
وَمَعَ ذَلِكَ فَالْتَارِنْخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْقَلْبِ ؛ لَا يَخْزَنُ هَذَا الْقَلْبُ إِلَّا شَعَرَ كَأَنَّهُ طُرِدَ مِنَ
الْجَنَّةِ لِسَاعَتِهِ .

* * *

يَقِفُ الشَّاعِرُ بِإِزَاءِ جَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَدَفَّقَ وَيَهْتَزَّ وَيَطْرَبَ .
لِأَنَّ السَّرَّ الَّذِي أَنْبَتَ هُنَا فِي الْأَرْضِ ، يُرِيدُ أَنْ يَنْبِتَ هُنَاكَ فِي النَّفْسِ .
وَالشَّاعِرُ نَبِيٌّ هَذِهِ الدِّيَانَةِ الرَّقِيقَةِ الَّتِي مِنْ شَرِيعَتِهَا إِصْلَاحُ النَّاسِ بِالْجَمَالِ وَالْخَيْرِ .
وَكُلُّ حُسْنٍ يَلْتَمِسُ النَّظْرَةَ الْحَبَّةَ الَّتِي تَرَاهُ جَمِيلًا لِتُعْطِيَهُ مَعْنَاهُ .
وَبِهَذَا تَقِفُ الطَّبِيعَةُ مُخْتَفِلَةً أَمَامَ الشَّاعِرِ ، كَوُقُوفِ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ أَمَامَ الْمُصَوِّرِ .

* * *

لَا حَتَّ لِي الْأَزْهَارُ كَأَنَّهَا أَلْفَاظُ حُبِّ رَقِيقَةٍ مُغَشَّاءٍ بِاسْتِعَارَاتٍ وَمَجَازَاتٍ .

وَالنَّسِيمُ حَوْلَهَا كَنُوبِ الْحَسَنَاءِ عَلَى الْحَسَنَاءِ ، فِيهِ تَغْيِيرٌ مِنْ لَا يَسْتَبِيهِ .

وَكُلُّ زَهْرَةٍ كَأَبْتِسَامَةٍ ، تَحْتَهَا أَسْرَارٌ وَأَسْرَارٌ مِنْ مَعَانِي الْقَلْبِ الْمُعَقَّدَةِ .

أَهِيَ لُغَةُ الضُّوءِ الْمُملُونِ مِنَ الشَّمْسِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ السَّبْعَةِ ؟

أَمْ لُغَةُ الضُّوءِ الْمُملُونِ مِنَ الْخَدِّ ؛ وَالشَّفَةِ ؛ وَالصَّدْرِ ؛ وَالنَّخْرِ وَالذَّيْبِاجِ وَالْحِلْيِ ؟

* * *

وَمَاذَا يَفْهَمُ الْعُسَاقُ مِنْ رُمُوزِ الطَّبِيعَةِ فِي هَذِهِ الْأَزْهَارِ الْجَمِيلَةِ ؟

أَشِيرُ لَهُمْ بِالزَّهْرِ إِلَى أَنَّ عُمَرَ اللَّذَّةِ قَصِيرٌ ، كَأَنَّهَا تَقُولُ : عَلَى مِقْدَارِ هَذَا ؟

أَتُعَلِّمُهُمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ جَمِيلٍ وَجَمِيلٍ ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ اللَّوْنِ وَاللَّوْنِ ، وَبَيْنَ الرَّائِحَةِ

وَالرَّائِحَةِ ؟

أَتُنَاجِيهِمْ بِأَنَّ أَيَّامَ الْحُبِّ صُورُ أَيَّامٍ لَا حَقَائِقُ أَيَّامٍ ؟

أَمْ تَقُولُ الطَّبِيعَةُ : إِنَّ كُلَّ هَذَا لِأَنَّكَ أَتَيْتَهَا الْحَشَرَاتُ لَا تَتَخَدَّعِينَ إِلَّا بِكُلِّ

هَذَا^(١) . . . ؟

* * *

فِي الرَّبِيعِ تَظْهَرُ أَلْوَانُ الْأَرْضِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَتَظْهَرُ أَلْوَانُ النَّفْسِ عَلَى النَّفْسِ .

وَيَصْنَعُ الْمَاءُ صُنْعَهُ فِي الطَّبِيعَةِ فَتُخْرِجُ تَهَاوِيلَ النَّبَاتِ ، وَيَصْنَعُ الدَّمُ صُنْعَهُ فَيُخْرِجُ

تَهَاوِيلَ الْأَحْلَامِ .

(١) ثَبَتَ أَنَّ أَلْوَانَ الْأَزْهَارِ وَعِطْرَهَا وَمَا فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، كُلُّ ذَلِكَ لَا جَنَذَابَ الْحَشَرَاتِ إِلَيْهَا كَيْ تَنْقَلِ
الْلُّقَاحَ مِنْ زَهْرَةٍ إِلَى زَهْرَةٍ .

وَيَكُونُ الْهَوَاءُ كَأَنَّهُ مِنْ شِفَاهِ مُتَحَابَّةٍ يَتَنَفَّسُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .
وَيَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ يَلْتَمِعُ لِأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا يَنْبُضُ فِيهَا عِرْقُ الثُّورِ .
وَيَرْجِعُ كُلُّ حَيٍّ يُغْنِي لِأَنَّ الْحَبَّ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ .

* * *

وَفِي الرَّبِيعِ لَا يُضِيءُ الثُّورُ فِي الْأَعْيُنِ وَحَدَّهَا ، وَلَكِنْ فِي الْقُلُوبِ أَيْضًا .
وَلَا يَنْفُذُ الْهَوَاءُ إِلَى الصُّدُورِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ إِلَى عَوَاطِفِهَا كَذَلِكَ .
وَيَكُونُ لِلشَّمْسِ حَرَارَتَانِ إِحْدَاهُمَا فِي الدَّمِ .

وَيَطْعَمِي فَيْضَانُ الْجَمَالِ كَأَنَّمَا يُرَادُ مِنَ الرَّبِيعِ تَجَرِبَةُ مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاطِرِ الْجَنَّةِ فِي الْأَرْضِ .
وَالْحَيَوَانَاتُ الْأَعْجَمُ نَفْسُهُ تَكُونُ لَهُ لَفَتَاتٌ عَقْلِيَّةٌ فِيهَا إِدْرَاكُ فَلَسْفَةِ السُّرُورِ وَالْمَرَحِ .

* * *

وَكَانَتْ الشَّمْسُ فِي الشِّتَاءِ كَأَنَّهَا صُورَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي السَّحَابِ .
وَكَانَ النَّهَارُ كَأَنَّهُ يُضِيءُ بِالْقَمَرِ لَا بِالشَّمْسِ .
وَكَانَ الْهَوَاءُ مَعَ الْمَطَرِ كَأَنَّهُ مَطَرٌ غَيْرُ سَائِلٍ .
وَكَانَتْ الْحَيَاةُ تَضَعُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مَعْنَى عُيُوسِ الْجَوِّ .

فَلَمَّا جَاءَ الرَّبِيعُ كَانَ فَرَحُ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ بِالشَّمْسِ كَفَرَحِ الْأَطْفَالِ رَجَعَتْ أُمُّهُمْ مِنْ
السَّفَرِ .

* * *

وَيَنْظُرُ السَّيَّابُ فَتَظْهَرُ لَهُ الْأَرْضُ شَابَةً .
وَيَشْعُرُ أَنَّهُ { مَوْجُودٌ } فِي مَعَانِي الْأَذَاتِ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَعَانِي الْعَالَمِ .

وَتَمْتَلِيْ لَهُ الدُّنْيَا بِالْأَزْهَارِ ، وَمَعَانِي الْأَزْهَارِ ، وَوَحْيِ الْأَزْهَارِ .
وَتُخْرِجُ لَهُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ رَيْنًا وَأَشِعَّةَ قَلْبِهِ رَيْنًا آخَرَ .
وَلَا تَنْسَى الْحَيَاةَ عَجَائِزَهَا ، قَرِينَهُمْ ضَوْءَ الشَّمْسِ ...

* * *

مَا أَعْجَبَ سِرَّ الْحَيَاةِ ! كُلُّ شَجَرَةٍ فِي الرَّيْنِ جَمَالٌ هَنْدَسِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .
وَمَهْمَا قَطَعْتَ مِنْهَا وَغَيَّرْتَ مِنْ شَكْلِهَا أَثَرَتْهَا الْحَيَاةُ فِي جَمَالِ هَنْدَسِيٍّ جَدِيدٍ كَأَنَّكَ
أَصْلَحْتَهَا .

وَلَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا جَذْرٌ حَيٌّ أَسْرَعَتِ الْحَيَاةُ فَجَعَلَتْ لَهُ شَكْلًا مِنْ عُصُونٍ وَأَوْرَاقٍ .
الْحَيَاةُ الْحَيَاةُ . إِذَا أَنْتَ لَمْ تُفْسِدْهَا جَاءَتْكَ دَائِمًا هَدَايَاهَا .
وَإِذَا أَمَنْتَ لَمْ تَعُدْ بِمِقْدَارِ نَفْسِكَ ، وَلَكِنْ بِمِقْدَارِ الْقُوَّةِ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُؤْمِنٌ .

* * *

« فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » .
وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَخْلُقُ فِي الطَّبِيعَةِ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تُنْهَجُ كُلُّ حَيٍّ ، بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَفْهَمُهَا
كُلُّ حَيٍّ .

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَجْعَلُ فِي الْأَرْضِ مَعْنَى السُّرُورِ ، وَفِي الْجَوِّ مَعْنَى السَّعَادَةِ .
وَأَنْظُرْ إِلَى الْحَشَرَةِ الصَّغِيرَةِ كَيْفَ تُؤْمِنُ بِالْحَيَاةِ الَّتِي تَمْلُؤُهَا وَتَطْمَئِنُّ ؟
انْظُرْ انْظُرْ ! أَلَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ رَدًّا عَلَى الْيَأْسِ بِكَلِمَةٍ : لَا ... ؟

عَرْشُ الْوَرْدِ (*)

كَانَتْ جَلْوَةُ الْعُرُوسِ كَأَنَّهَا تَصْنِيفُ مِنْ حُلْمٍ ، تَوَافَتْ عَلَيْهِ أَخِيْلَةُ السَّعَادَةِ فَأَبْدَعَتْ
إِبْدَاعَهَا فِيهِ ، حَتَّى إِذَا أَتَسَّقَ وَتَمَّ ، نَقَلَتْهُ السَّعَادَةُ إِلَى الْحَيَاةِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا الْفَرْدَةِ الَّتِي
لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا فِي الْعُمُرِ الطَّوِيلِ إِلَّا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ ، لِتَحَقُّقِ لِلْحَيِّ وَجُودَ حَيَاتِهِ بِسِحْرِهَا
وَجَمَالِهَا ، وَتُعْطِيهِ فِيمَا يُنْسَى مَا لَا يُنْسَى .

خَرَجَ الْحُلْمُ السَّعِيدُ مِنْ تَحْتِ النَّوْمِ إِلَى الْيَقَظَةِ ، وَبَرَزَ مِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْعَيْنِ ، وَتَمَثَّلَ
قَصِيْدَةُ بَارِعَةٍ جَعَلَتْ كُلَّ مَا فِي الْمَكَانِ يَحْيَا حَيَاةَ الشَّجَرِ ؛ فَلَا أَنْوَارَ نِسَاءً ، وَالنِّسَاءُ أَنْوَارُ ،
وَالْأَزْهَارُ أَنْوَارُ وَنِسَاءً ، وَالْمُوسِيقَى بَيْنَ ذَلِكَ تُشَمُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ ، وَالْمَكَانُ وَمَا فِيهِ ،
وَزَنُّ فِي وَزْنٍ ، وَنَعْمٌ فِي نَعْمٍ ، وَسِحْرٌ فِي سِحْرِ .

* * *

وَرَأَيْتُ كَأَنَّمَا سُحِرَتْ قِطْعَةٌ مِنْ سَمَاءِ اللَّيْلِ ، فِيهَا دَارَةُ الْقَمَرِ ، وَفِيهَا نَثْرَةٌ مِنَ النُّجُومِ
الْزَّهْرِ ، فَتَزَلَّتْ فَحَلَّتْ فِي الدَّارِ ، يَتَوَضَّحْنَ وَيَأْتِلِفْنَ مِنَ الْجَمَالِ وَالشَّعَاعِ ، وَفِي حُسْنِ كُلِّ
مِنْهَن مَادَّةُ فَجْرِ طَالِعٍ ، فَكُنَّ نِسَاءً الْجَلْوَةِ وَعُرُوسَهَا .

وَرَأَيْتُ كَأَنَّمَا سُحِرَ الرَّيْبُ ، فَاجْتَمَعَ فِي عَرْشِ أَخْضَرٍ ، قَدْ رُصِعَ بِالْوَرْدِ الْأَخْمَرِ ،
وَأَقِيمَ فِي صَدْرِ الْبَهْوِ لِيَكُونَ مَنَصَّةً لِلْعُرُوسِ ، وَقَدْ نُسِقَتْ الْأَزْهَارُ فِي سَمَانِهِ وَحَوَاشِيهِ عَلَى
نَظْمَيْنِ : مِنْهُمَا مُفَصَّلٌ تَرَى فِيهِ بَيْنَ الزَّهْرَتَيْنِ مِنَ اللَّوْنِ الْوَاحِدِ زَهْرَةٌ تُخَالِفُ لَوْنَهُمَا ؛
وَمِنْهُمَا مُكَدَّسٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، مِنْ لَوْنٍ مُشَابِهٍ أَوْ مُتَقَارِبٍ ، فَبَدَا كَأَنَّهُ عَشُّ طَائِرٍ
{ مَلَكِي } مِنْ طُيُورِ الْجَنَّةِ أُبْدِعَ فِي نَسِجِهِ وَتَرْصِيْعِهِ بِأَشْجَارِ سَقَى الْكَوْثَرِ أَغْصَانَهَا .

وَقَامَتْ فِي أَرْضِ الْعَرْشِ تَحْتِ أَقْدَامِ الْعُرُوسَيْنِ ، رَنْبَوَتَانِ مِنْ أَفَانَيْنِ الزَّهْرِ الْمُخْتَلِفَةِ أَلْوَانُهُ ،
يَحْمِلُهُمَا خَمَلٌ مِنْ نَاعِمِ النَّسِيجِ الْأَخْضَرِ عَلَى عُصْوَانِهِ اللَّذْنِ تَهَافَّتْ مِنْ رِفَّتِهَا وَنَعُومَتِهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٨ ، ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ١٣ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،
السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٢٥ - ١٣٢٧ .

وَعَقِدَ فَوْقَ هَذَا الْعَرْشِ تَاجٌ كَبِيرٌ مِنَ الْوَرْدِ النَّادِرِ ، كَأَنَّمَا نُزِعَ عَنْ مَفْرَقِ مَلِكِ الزَّمَنِ الرَّبِيعِيِّ ؛ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ يَسْطَعُ فِي الثُّورِ بِجَمَالِهِ السَّاحِرِ ، سَطُوعًا يُحْيِلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَشِعَّةَ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي رَبَّتْ هَذَا الْوَرْدَ لَا تَرَاهُ عَالِقَةً بِهِ ؛ وَتَرَاهُ يَزْدَهِي جَلَالًا ، كَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ رَمَزُ مَمْلَكَةِ إِنْسَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، تَأَلَّفَتْ مِنْ عُرُوسِينَ كَرِيمِينَ . وَلَا حَ لِي مِرَارًا أَنْ هَذَا التَّاجُ يَضْحَكُ وَيَسْتَحْيِي وَيَتَذَلَّلُ ، كَأَنَّمَا عَرَفَ أَنَّهُ وَخْدُهُ بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْحَسَنَةِ يُمَثِّلُ وَجْهَ الْوَرْدِ .

وَنُصَّ عَلَى الْعَرْشِ كُرْسِيَّانِ يَتَوَهَّجُ لَوْنُ الذَّهَبِ فَوْقَهُمَا ، وَيَكْسُوهُمَا طِرَازٌ أَخْضَرُ تَلْمَعُ نَصَارَتِهِ بِشَرًّا ، حَتَّى لَتَحَسِبَ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا قَدْ نَالَتهُ مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْفَرِحَةِ لَمَسَةً مِنْ فَرَحِهَا الْحَيِّ .

وَتَذَلَّتْ عَلَى الْعَرْشِ فَلَانِدُ الْمَصَابِيحِ ، كَأَنَّمَا لُوْلُؤٌ تَخَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لَا فِي الْبَحْرِ ، فَجَاءَ مِنَ الثُّورِ لَا مِنَ الذُّرِّ ؛ وَجَاءَ نُورًا مِنْ خَاصَّتِهِ أَنَّهُ مَتَى اسْتَضَاءَ فِي جَوْ الْعُرُوسِ أَضَاءَ الْجَوِّ وَالْقُلُوبِ جَمِيعًا .

وَأَتَى الْعُرُوسَانِ إِلَى عَرْشِ الْوَرْدِ ، فَجَلَسَا جِلْسَةً كَوَكَبَيْنِ حُدُودُهُمَا الثُّورُ وَالصَّفَاءُ ؛ وَأَقْبَلَتِ الْعَذَارَى يَتَخَطَّرْنَ فِي الْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ كَأَنَّهُ مِنْ نُورِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ وَقَفْنَ حَاقَاتٍ حَوْلَ الْعَرْشِ ، حَامِلَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ طَاقَاتٍ مِنَ الزُّنْبُقِ ، تَرَاهَا عِطْرَةَ بَيْضَاءَ نَاصِرَةٍ حَيَّةٍ ، كَأَنَّمَا عَذَارَى مَعَ عَذَارَى ، وَكَأَنَّمَا يَحْمِلْنَ فِي أَيْدِيهِنَّ مِنْ هَذَا الزُّنْبُقِ الْغَضُّ مَعَانِي قُلُوبِهِنَّ الطَّاهِرَةِ ؛ هَذِهِ الْقُلُوبُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ الْمَصَابِيحِ مَصَابِيحَ أُخْرَى فِيهَا نُورُهَا الضَّاحِكُ .

وَأَقْتَعَدَتْ دَرَجَ الْعَرْشِ تَحْتَ رَبَوْتِي الزَّهْرِ وَدُونَ أَقْدَامِ الْعُرُوسَيْنِ - طِفْلةٌ صَغِيرَةٌ كَالزَّهْرَةِ الْبَيْضَاءِ تَحْمِلُ طُفُولَتَهَا ، فَكَانَتْ مِنَ الْعَرْشِ كُلِّهِ كَالْمَاسَةِ الْمُدْلَاةِ مِنْ وَاسِطَةِ الْعِقْدِ ، وَجَعَلَتْ بَوَاجِهُهَا لِلزَّهْرِ كُلِّهِ تَمَامًا وَجَمَالًا ، حَتَّى لَيُظْهَرُ مِنْ دُونِهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ مُتَزَوٍّ لَا يُرِيدُ أَنْ يُرَى .

وَكَانَ يَنْبَغُ مِنْ عَيْنَيْهَا فِيمَا حَوْلَهَا تَيَّارٌ مِنْ أَحْلَامِ الطُّفُولَةِ جَعَلَ الْمَكَانَ بِمَنْ فِيهِ كَأَنَّهُ لَهُ رُوحُ طِفْلِ بَعَثَتْهُ مَسَرَّةٌ جَدِيدَةٌ .

وَكَانَتْ جَالِسَةً جِلْسَةً شِعْرِ تُمَثِّلُ الْحَيَاةَ الْهَيْئَةَ الْمُبْتَكِرَةَ لِسَاعَتِهَا لَيْسَ لَهَا مَاضٍ فِي دُنْيَانَا .

وَلَوْ أَنَّ مُبْدِعًا أَفْتَنَ فِي صُنْعِ تَشَالٍ لِلنِّبَةِ الطَّاهِرَةِ ، وَجِيءَ بِهِ فِي مَكَانِهَا ، وَأَخَذَتْ هِيَ فِي مَكَانِهِ لَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ .

وَكَانَ وُجُودُهَا عَلَى الْعَرْشِ دَعْوَةً لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ تَخْضُرَ الزُّفَافَ وَتُبَارِكَهُ .

وَكَانَتْ بِصِغَرِهَا الظَّرِيفِ الْجَمِيلِ تُعْطِي لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَامًا ، فَيَرَى أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ، وَأَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ . كَانَتْ النُّقْطَةُ الَّتِي اسْتَعْلَنْتْ فِي مَرْكَزِ الدَّائِرَةِ ، ظُهُورُهَا عَلَى صِغَرِهَا هُوَ ظُهُورُ الْإِحْكَامِ وَالْوُزْنِ وَالْإِنْسِجَامِ فِي الْمَحِيطِ كُلِّهِ .

* * *

لَا يَكُونُ الشُّرُورُ دَائِمًا إِلَّا جَدِيدًا عَلَى النَّفْسِ ، وَلَا سُورُورٌ لِلنَّفْسِ إِلَّا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهَا ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ دِينَارٍ قُوَّةُ جَدِيدَةٍ غَيْرِ الَّتِي فِي مِثْلِهِ لَمَا سَرَّ بِالْمَالِ أَحَدٌ ، وَلَا كَانَ لَهُ الْخَطَرُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِكُلِّ طَعَامٍ جُوعٌ يُورِدُهُ جَدِيدًا عَلَى الْمَعِدَةِ لَمَا هَنَأَ وَلَا مَرَأَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ بَعْدَ نَهَارٍ ، وَالنَّهَارُ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَالْفُصُولُ كُلُّهَا نَقِيضًا عَلَى نَقِيضِهِ ، وَشَيْئًا مُخْتَلِفًا عَلَى شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ - لَمَا كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ جَمَالٌ ، وَلَا مَنْظَرُ جَمَالٍ ، وَلَا إِحْسَاسٌ بِهِمَا ؛ وَالطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تُفْلِحُ فِي جَعْلِكَ مَعَهَا طِفْلًا تَكُونُ جَدِيدًا عَلَى نَفْسِكَ - لَنْ تُفْلِحَ فِي جَعْلِكَ مَسْرُورًا بِهَا ، لِتَكُونُ هِيَ جَدِيدَةً عَلَيْكَ .

وَعَرْشُ الْوُزْدِ كَانَ جَدِيدًا عِنْدَ نَفْسِي عَلَى نَفْسِي ، وَفِي عَاطِفَتِي عَلَى عَاطِفَتِي ، وَمِنْ أَيَّامِي عَلَى أَيَّامِي ؛ نَزَلَ صَبَاحُ يَوْمِهِ فِي قَلْبِي بِرُوحِ الشَّمْسِ ، وَجَاءَ مَسَاءُ لَيْلَتِهِ لِقَلْبِي بِرُوحِ الْقَمَرِ ؛ وَكُنْتُ عِنْدَهُ كَالسَّمَاءِ أَتْلَأُ بِأَفْكَارِي ^(١) كَمَا تَتْلَأُ بِنُجُومِهَا ؛ وَقَدْ جَعَلْتَنِي ^(٢) أَمْتَدُّ بِسُرُورِي فِي هَلْدِهِ الطَّبِيعَةِ كُلُّهَا ، إِذْ قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَعِيشَ يَوْمًا فِي نَفْسِي ؛ وَرَأَيْتُ وَأَنَا فِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِأَفْكَارٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِأَفْكَارِي » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « جَعَلَنِي » بَدَلًا مِنْ : « جَعَلْتَنِي » .

نَفْسِي أَنْ أَلْفَرَحَ هُوَ سِرُّ الطَّبِيعَةِ كُلِّهَا ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ جَمَالًا فِي جَمَالٍ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا يَجِيءُ الظَّلَامُ مَعَ نُورِهِ ، وَلَا يَجِيءُ الشَّرُّ مَعَ أَفْرَاحِ الطَّبِيعَةِ إِلَّا مِنْ مُحَاوَلَةِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ خَلْقَ أَوْهَامِهِ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِخْرَاجِهِ النَّفْسَ مِنْ طَبَائِعِهَا ، حَتَّى أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ كَأَنَّمَا يَعِيشُ بِنَفْسٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَصْنَعَهَا صِنَاعَةً ، فَلَا يَصْنَعُ إِلَّا أَنْ يَزِيغَ بِالنَّفْسِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ .

يَا عَجَبًا ! يَنْفِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ كَلِمَاتِ الْأَسْتِعْبَادِ ، وَالضَّعَةِ ، وَالذَّلَّةِ ، وَالْبُؤْسِ ، وَالْهَمِّ ، وَأَمْثَالِهَا ، وَيُنْكِرُهَا وَيُرُدُّهَا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَنْحُتُ لِنَفْسِهِ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا عَنْ مَعَانِيهَا .

* * *

إِنْ يَوْمًا كَيَوْمِ عَرْشِ الْوَرْدِ لَا يَكُونُ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً ، بَلْ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ فَرَحًا ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي تَجْعَلُ الْوَقْتَ يَتَقَدَّمُ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الزَّمَنِ ، وَيَكُونُ بِالْعَوَاطِفِ لَا بِالسَّاعَاتِ ، وَيَتَوَاتَرُ عَلَى النَّفْسِ بِجَدِيدِهَا لَا بِقَدِيمِهَا .

كَانَ الشَّبَابُ فِي مَوْكِبِ نَضْرِهِ ، وَكَانَتْ الْحَيَاةُ فِي سَاعَةِ صُلْحٍ مَعَ الْقُلُوبِ ، حَتَّى اللَّغَةِ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ تُلْقِي كَلِمَاتِهَا إِلَّا مُمْتَلِئَةً بِالطَّرَبِ وَالضَّحِكِ وَالسَّعَادَةِ ، آتِيَةً مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي دُونَ غَيْرِهَا ، مُصَوَّرَةً عَلَى الْوُجُوهِ إِحْسَاسَهَا وَنَوَازِعَهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ سِحْرُ عَرْشِ الْوَرْدِ ، تِلْكَ الْحَدِيقَةُ السَّاحِرَةُ الْمَسْحُورَةُ ، الَّتِي كَانَتْ السَّمَمَاتُ تَأْتِي مِنَ الْجَوِّ تُرْفَرُ حَوْلَهَا مُتَحَبِّرَةً كَأَنَّمَا تَتَسَاءَلُ : أَهَذِهِ حَدِيقَةُ خُلِقَتْ بِطُيُورِ إِنْسَانِيَّةٍ ؛ أَمْ هِيَ شَجَرَةٌ وَرَدٌ هَبَطَتْ مِنَ الْجَنَّةِ بِمَنْ يَفْقَهُانَ ظِلَّهَا وَيَتَسَمَّنُ شَذَاها مِنَ الْحُورِ ؛ أَمْ ذَاكَ مَنبَجٌ وَرْدِيٌّ عِطْرِيٌّ نُورَانِيٌّ لِحَيَاةِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ الْجَالِسَةِ عَلَى الْعَرْشِ ؟

يَا نَسَمَاتِ اللَّيْلِ الصَّافِيَةِ صَفَاءَ الْخَيْرِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَتَّبِعَ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْمُقْبِلَةَ فِي جَمَالِهَا وَأَثَرِهَا وَبَرَكَتِهَا مِنْ مِثْلِ الْوَرْدِ الْمُبْهَجِ ، وَالْعِطْرِ الْمُنْعِشِ ، وَالضَّوءِ الْمُخَيِّ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُرُوسَ الْمُعْتَلِيَةَ عَرْشَ الْوَرْدِ :

هِيَ ابْنَتِي . . .

أَيُّهَا الْبَحْرُ ! (*) (١)

إِذَا اخْتَدَمَ الصَّيْفُ ، جَعَلْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الْبَحْرُ لِلزَّمَنِ فَضْلاً جَدِيداً يُسَمَّى « الرَّبِيعَ الْمَائِي » .

وَتَنْقِلُ إِلَى أَيَّامِكَ أَرْوَاحَ الْحَدَائِقِ ، فَتَنْبُتُ فِي الزَّمَنِ بَعْضُ السَّاعَاتِ الشَّهِيَّةِ ، كَأَنَّهَا الثَّمَرُ الْحُلُوّ النَّاصِجُ عَلَى شَجَرِهِ .

وَيُوجِي لَوْنُكَ الْأَزْرَقُ إِلَى الثَّقُوسِ مَا كَانَ يُوجِيهِ لَوْنُ الرَّبِيعِ الْأَخْضَرِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَرَقُّ وَالْأَطْفُ .

وَيَرَى الشُّعْرَاءُ فِي سَاحِلِكَ مِثْلَ مَا يَرَوْنَ فِي أَرْضِ الرَّبِيعِ ، أُتُونَهُ ظَاهِرَةً ، غَيْرَ أَنَّهَا تَلِدُ الْمَعَابِي لَا الْبَنَاتِ .

وَيُحِسُّ الْعُشَّاقُ عِنْدَكَ مَا يُحْسُونَهُ فِي الرَّبِيعِ : أَنَّ الْهَوَاءَ يَتَأَوَّهُ ...

* * *

فِي الرَّبِيعِ ، يَتَحَرَّكُ فِي الدَّمِ الْبَشَرِيُّ سِرُّ هَذِهِ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ « الرَّبِيعِ الْمَائِي » يَتَحَرَّكُ فِي الدَّمِ سِرُّ هَذِهِ الشُّحْبِ .

نَوْعَانِ مِنَ الْخَمْرِ فِي هَوَاءِ الرَّبِيعِ وَهَوَاءِ الْبَحْرِ ، يَكُونُ مِنْهُمَا سُكْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَبِ .
وَبِالرَّيْبَعَيْنِ الْأَخْضَرِ وَالْأَزْرَقِ يَنْفَتِحُ بَابَانِ لِلْعَالَمِ السُّخْرِيِّ الْعَجِيبِ : عَالَمِ الْجَمَالِ الْأَرْضِيِّ الَّذِي تَدْخُلُهُ الرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَمَا يَدْخُلُ الْقَلْبُ الْمُحِبُّ فِي شِعَاعِ ابْتِسَامَةٍ وَمَعْنَاهَا .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١١١ ، ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ،

السنّة الثالثة ، الصفحات : ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

(١) كَتَبْنَا فِي « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ » رِسَالَةً عَنِ الْبَحْرِ وَالْحُبِّ فِيهَا أَوْصَافٌ كَثِيرَةٌ لِلْبَحْرِ .

فِي «الرَّبِيعِ الْمَائِي» ، يَجْلِسُ الْمَرْءُ ، وَكَأَنَّهُ جَالِسٌ فِي سَحَابَةٍ لَا فِي الْأَرْضِ .
وَيَشْعُرُ كَأَنَّهُ لَا بَسَّ ثِيَابًا مِنَ الظَّلِّ لَا مِنَ الْقُمَاشِ ؛ وَيَجِدُ الْهَوَاءَ قَدْ تَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ
هَوَاءَ التُّرَابِ .

وَتَخَفْتُ عَلَى نَفْسِهِ الْأَشْيَاءَ ، كَانَ بَعْضَ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ انْتَرَعَتْ مِنَ الْمَادَّةِ . وَهُنَا
يُذَرِّكُ الْحَقِيقَةَ : أَنَّ السُّرُورَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَنْبَهُ مَعَانِي الطَّبِيعَةِ فِي الْقَلْبِ .

* * *

وَلِلشَّمْسِ هُنَا مَعْنَى جَدِيدٌ لَيْسَ لَهَا هُنَاكَ فِي «دُنْيَا الرُّزْقِ» .
تُشْرِقُ الشَّمْسُ هُنَا عَلَى الْجِسْمِ ؛ أَمَّا هُنَاكَ فَكَأَنَّمَا تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي
يَعْمَلُ الْجِسْمُ فِيهَا .

تَطْلُعُ هُنَاكَ عَلَى دِيْوَانِ الْمُوظَّفِ لَا الْمُوظَّفِ ، وَعَلَى حَانُوتِ التَّاجِرِ لَا التَّاجِرِ ،
وَعَلَى مَصْنَعِ الْعَامِلِ ، وَمَدْرَسَةِ التَّلْمِيذِ ، وَدَارِ الْمَرْأَةِ .
تَطْلُعُ الشَّمْسُ هُنَاكَ بِالثُّورِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ - وَآسَفَاهُ - يَكُونُونَ فِي سَاعَاتِهِمْ
الْمُظْلِمَةِ ...

الشَّمْسُ هُنَا جَدِيدَةٌ ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَدِيدَ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ الْجَدِيدُ فِي كَيْفِيَّةِ شُعُورِ النَّفْسِ بِهِ .

* * *

وَالْقَمَرُ زَاهٍ رَقَافٌ مِنَ الْحُسْنِ ؛ كَأَنَّهُ اغْتَسَلَ وَخَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ .
أَوْ كَأَنَّهُ لَيْسَ قَمَرًا ، بَلْ هُوَ فَجَرٌ طَلَعَ فِي أَوَائِلِ اللَّيْلِ ؛ فَحَصَرَتْهُ السَّمَاءُ فِي مَكَانِهِ
لِيَسْتَمِرَّ اللَّيْلُ .

فَجَرٌ لَا يُوقِظُ الْعُيُونَ مِنْ أَحْلَامِهَا ، وَلَكِنَّهُ يُوقِظُ الْأَرْوَاحَ لِأَحْلَامِهَا .
وَيُلْقِي مِنْ سِخْرِهِ عَلَى الثُّجُومِ فَلَا تَظْهَرُ حَوْلَهُ إِلَّا مُسْتَبْهِمَةٌ كَأَنَّهَا أَحْلَامٌ مُعَلَّقَةٌ .
لِلْقَمَرِ هُنَا طَرِيقَةٌ فِي إِنْهَاجِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ ، كَطَرِيقَةِ الْوَجْهِ الْمَعْشُوقِ حِينَ تَقْبَلُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

* * *

وَاللَّرَيْنِيعَ الْمَائِيَّ طُبُورُهُ الْمَغْرَدَةُ وَقَرَّاشُهُ الْمُتَنَقِّلُ :

أَمَّا الطُّبُورُ فَنِسَاءٌ يَنْضَاحُكُنَّ ، وَأَمَّا الْفَرَّاشُ فَأَطْفَالٌ يَتَوَابَثُونَ .

نِسَاءٌ إِذَا أَنْغَمَسْنَ فِي الْبَحْرِ ، خُيِّلَ إِلَيْ أَنَّ الْأَمْوَاجَ تَتَشَاحَنُ وَتَتَخَاصِمُ عَلَى بَعْضِهِنَّ ...

رَأَيْتُ مِنْهُمْ زَهْرَاءَ فَاتِنَةً قَدْ جَلَسَتْ عَلَى الرَّمْلِ جَلِيسَةً حَوَاءَ قَبْلَ اخْتِرَاعِ الثِّيَابِ ، فَقَالَ الْبَحْرُ : يَا إِلَهِي ! قَدْ أُنْتَقَلَ مَعْنَى الْغَرَقِ إِلَى الشَّاطِئِ ...

إِنَّ الْغَرِيقَ مَنْ غَرِقَ فِي مَوْجَةِ الرَّمْلِ هَذِهِ ...

* * *

وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ وَيَضْرُخُونَ كَأَنَّمَا اتَّسَعَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ وَالْدُّنْيَا ...

وَحُيِّلَ إِلَيْ أَنَّهُمْ أَقْلَقُوا الْبَحْرَ كَمَا يُقْلِقُونَ الدَّارَ ، فَصَاحَ بِهِمْ : وَيَحْكُمُ يَا أَسْمَاكَ التَّرَابِ ... ! وَرَأَيْتُ طِفْلاً مِنْهُمْ قَدْ جَاءَ فَوْكَزَ الْبَحْرِ بِرِجْلِهِ ! فَضَحِكَ الْبَحْرُ وَقَالَ : أَنْظَرُوا يَا بَنِي آدَمَ !!

أَعْلَى اللَّهِ أَنْ يَغْبَا بِالْمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَفَرَ بِهِ ؟ أَعْلَى أَنْ أَعْبَأَ بِهِذَا الطِّفْلِ كَيْ لَا يَقُولَ إِنَّهُ رَكَعَنِي بِرِجْلِهِ ... ؟

* * *

أُيْهَا الْبَحْرُ ! قَدْ مَلَأَتْكَ قُوَّةُ اللَّهِ لِتُسَبِّتَ فَرَاغَ الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .

لَيْسَ فِيكَ مَمَالِكٌ وَلَا حُدُودٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ .

وَتَجِيئُشُ بِالنَّاسِ وَبِالشُّقْرِ الْعَظِيمَةِ ، كَأَنَّكَ تَحْمِلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ قَسْأً تَزِمِي بِهِ .

وَالْاخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِيُّ مَهْمَا عَظُمَ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ فِيكَ عَنْ إِيمَانِهِ .

وَأَنْتَ تَمَلَأُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ بِالْعَظْمَةِ وَالْهَوْلِ ، رَدًّا عَلَى عَظْمَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوْلِهِ فِي الرُّبْعِ الْبَاقِي ، مَا أَعْظَمَ الْإِنْسَانَ وَأَصْغَرَهُ !

* * *

يَنْزِلُ النَّاسُ فِي مَائِكَ فَيَسَاوُونَ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ ظَاهِرٌ عَنْ ظَاهِرٍ .
وَيَرْكَبُونَ ظَهْرَكَ فِي السُّفُنِ فَيَحِنُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ بَاطِنٌ عَنْ بَاطِنٍ .
تُشْعِرُهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمِنَ أَحْكَامِهَا الْبَاطِلَةِ .
وَتُقْرِهُمْ إِلَى الْحُبِّ وَالصَّدَاقَةِ فَقَرَأَ يَرِيهِمُ الْجُجُومُ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا أَصْدِقَاءُ ، إِذْ عَرَفُوهَا فِي
الْأَرْضِ .

يَا سِحْرَ الْخَوْفِ ، أَنْتَ أَنْتَ فِي اللَّجَّةِ ^(١) كَمَا أَنْتَ أَنْتَ فِي جَهَنَّمَ .

* * *

وَإِذَا رَكِبَكَ الْمُلْحِدُ أَيُّهَا الْبَحْرُ ، فَارْجَعْتَ مِنْ تَحْتِهِ ، وَهَدَرْتَ عَلَيْهِ وَثَرَتْ بِهِ ، وَأَرَيْتَهُ
رَأْيَ الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بَيْنَ سَمَاءَيْنِ سَتَنَظِقُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتُقْفِلَانِ عَلَيْهِ - تَرَكَتُهُ يَتَطَاطَأُ
وَيَتَوَاضِعُ ، كَأَنَّكَ تَهْزُهُ وَتَهْزُ أَفْكَارُهُ مَعًا ، وَتُدْخِرُهُ وَتُدْخِرُهَا .
وَأَطَرْتَ كُلَّ مَا فِي عَقْلِهِ فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ بِعَقْلِ طِفْلِ .
وَكَشَفْتَ لَهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ : أَنَّ نَسِيَانَ اللَّهِ لَيْسَ عَمَلُ الْعَقْلِ ، وَلَكِنَّهُ عَمَلُ الْعَقْلَةِ وَالْأَمْنِ
وَطَوْلِ السَّلَامَةِ .

* * *

أَلَا مَا أَشْبَهَ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ بِالسَّفِينَةِ فِي أَمْوَاجِ هَذَا الْبَحْرِ !
إِنْ أَرْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ ، أَوْ أَنْخَفَضَتْ ، أَوْ مَادَتْ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْهَا وَحْدَهَا ، بَلْ مِنْهَا
حَوْلُهَا .
وَلَنْ تَسْتَطِيعَ هَذِهِ السَّفِينَةُ أَنْ تَمْلِكَ مِنْ قَانُونِ مَا حَوْلَهَا شَيْئًا ، وَلَكِنَّ قَانُونَهَا هِيَ
الْثَّبَاتُ ، وَالتَّوَازُنُ ، وَالْاهْتِدَاءُ إِلَى قَصْدِهَا ، وَنَجَاتُهَا فِي قَانُونِهَا .
فَلَا يَغْتَبِنُ الْإِنْسَانُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَحْكَامِهَا ، وَلَكِنْ فَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَحْكُمَ نَفْسَهُ .

كُتِبَ فِي شَاطِئِ سَيِّدِي بَشَرٍ ، إِسْكَندَرِيَّةَ مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ « الْبَحْرِ » بَدَلًا مِنْ : « اللَّجَّةِ » .

فِي الرَّبِيعِ الْأَزْرَقِ (١)
خَوَاطِرُ مُرْسَلَةٍ (*)

مَا أَجْمَلَ الْأَرْضَ عَلَى حَاشِيَةِ الْأَزْرَقَيْنِ : الْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ ؛ يَكَادُ الْجَالِسُ هُنَا يَظُنُّ
نَفْسَهُ مَرْسُومًا فِي صُورَةِ إِلَهِيَّةٍ .

* * *

نَظَرْتُ إِلَى هَذَا الْبَحْرِ الْعَظِيمِ بِعَيْنِي طِفْلٍ يَتَحَيَّلُ أَنَّ الْبَحْرَ قَدْ مُلِيَ بِالْأَمْسِ ، وَأَنَّ
السَّمَاءَ كَانَتْ إِنَاءً لَهُ ، فَأَتَكَفَأُ الْإِنَاءُ فَأَنْدَفَقَ الْبَحْرُ ، وَتَسَرَّحْتُ مَعَ هَذَا الْخَيَالِ الطُّفْلِيِّ
الصَّغِيرِ فَكَأَنَّمَا نَالَنِي رَشَاشٌ مِنَ الْإِنَاءِ ...

إِنَّمَا لَنْ نُذَرِكَ رُوعَةَ الْجَمَالِ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ قَرِينَةً مِنْ طُفُولَتِهَا ، وَمَرَحِ
الطُّفُولَةِ ، وَلَعِبِهَا ، وَهَدْيَانِهَا .

* * *

تَبْدُو لَكَ السَّمَاءُ عَلَى الْبَحْرِ أَعْظَمَ مِمَّا هِيَ ، كَمَا لَوْ كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ سَمَاءٍ أُخْرَى
لَا مِنَ الْأَرْضِ .

* * *

إِذَا أَنَا سَافَرْتُ فَجِئْتُ إِلَى الْبَحْرِ ، أَوْ نَزَلْتُ بِالصَّخْرَاءِ ، أَوْ حَلَلْتُ بِالْجَبَلِ ، شَعَرْتُ
أَوَّلَ وَهْلَةٍ مِنْ دَهْشَةِ الشُّرُورِ بِمَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِمِثْلِهِ لَوْ أَنَّ الْجَبَلَ أَوْ الصَّخْرَاءَ أَوْ الْبَحْرَ قَدْ
سَافَرْتُ هِيَ وَجَاءَتْ إِلَيَّ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١١٣ ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ سبتمبر/أيلول ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٤٠٣ - ١٤٠٤ .

(١) هَذِهِ تَسْمِيَةٌ جَدِيدَةٌ لِلْمَصِيفِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، { وَقَدْ شَاعَ اسْتِعْمَالُهَا بَعْدَ نَشْرِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ } .

فِي جَمَالِ النَّفْسِ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلًا ، إِذْ تُلْقِي النَّفْسُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَانِهَا ، فَتَقَلِّبُ
الْدَّارُ الصَّغِيرَةَ قَصْرًا لِأَنَّهَا فِي سَعَةِ النَّفْسِ لَا فِي مِسَاحَتِهَا { هِيَ } ، وَتَعْرِفُ لِنُورِ النَّهَارِ
عُدُوَّةَ كَعُدُوَّةِ الْمَاءِ عَلَى الظَّمَا ، وَيَظْهَرُ اللَّيْلُ كَأَنَّهُ مَعْرُضُ جَوَاهِرٍ أَقِيمَ لِلْحُورِ الْعَيْنِ فِي
السَّمَاوَاتِ ، وَيَبْدُو الْفَجْرُ بِالْوَانِهِ وَأَنْوَارِهِ وَنَسَمَاتِهِ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ سَابِغَةٌ فِي الْهَوَاءِ .

فِي جَمَالِ النَّفْسِ تَرَى الْجَمَالَ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ الْخَلِيقَةِ ؛ وَبِئْسَ ! كَانَ اللَّهُ أَمَرَ
الْعَالَمَ أَلَّا يَعْبِسَ لِلْقَلْبِ الْمُتَبَسِّمِ .

* * *

أَيَّامُ الْمَصِيفِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي يَنْطَلِقُ فِيهَا الْإِنْسَانُ الطَّبِيعِيُّ الْمَحْبُوسُ فِي الْإِنْسَانِ ؛
فَيَرْتَدُّ إِلَى دَهْرِهِ الْأَوَّلِ ، دَهْرِ الْغَابَاتِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ .
إِنْ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُ الْمَصِيفِ بِمِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعْنَى .

* * *

لَيْسَتْ اللَّذَّةُ فِي الرَّاحَةِ وَلَا الْفَرَاغِ ، وَلَكِنَّهَا فِي التَّعَبِ وَالْكَدْحِ وَالْمَسَقَّةِ حِينَ تَتَحَوَّلُ
أَيَّامًا إِلَى رَاحَةٍ وَفَرَاغٍ .

* * *

لَا تَتِمُّ فَائِدَةُ الْإِنْتِقَالِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا إِذَا أُنْقَلَتِ النَّفْسُ مِنْ شُعُورٍ إِلَى شُعُورٍ ؛ فَإِذَا
سَافَرَ مَعَكَ أَلْهَمٌ فَأَنْتَ مُقِيمٌ لَمْ تَبْرَحْ .

* * *

الْحَيَاةُ فِي الْمَصِيفِ تُثَبِّتُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ حَيْثُ لَا يُخْفَلُ بِهَا كَثِيرٌ .

* * *

يَشْعُرُ الْمَرْءُ فِي الْمُدُنِ أَنَّهُ بَيْنَ أَفَارِ الْإِنْسَانِ وَأَعْمَالِهِ ، فَهُوَ هُنَاكَ فِي رُوحِ الْعَنَاءِ وَالْكَدْحِ
وَالْتَرَاعِ ؛ أَمَّا فِي الطَّبِيعَةِ فَيَحِشُّ أَنَّهُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْعَجَائِبِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَهُوَ هُنَا فِي رُوحِ
اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَالْجَلَالِ .

* * *

إِذَا كُنْتَ فِي أَيَّامِ الطَّبِيعَةِ فَأَجْعَلْ فِكْرَكَ خَالِيًا وَفَرَّغْهُ لِلتَّبَتِّ وَالشَّجَرِ ، وَالْحَجَرِ
وَالْمَدَرِ ، وَالطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَالزَّهْرِ وَالْعُشْبِ ، وَالْمَاءِ وَالسَّمَاءِ ، وَنُورِ النَّهَارِ ، وَظَلَامِ
الَّيْلِ ، حِينَئِذٍ يَفْتَحُ لَكَ الْعَالَمُ بَابَهُ وَيَقُولُ : أَدْخُلْ ...

* * *

لُطْفُ الْجَمَالِ صُورَةٌ أُخْرَى مِنْ عَظَمَةِ الْجَمَالِ ؛ عَرَفْتَ ذَلِكَ حِينَمَا أَبْصَرْتَ قَطْرَةً مِنْ
لَمَاءٍ تَلْمَعُ فِي غُصْنٍ ، فَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ لَهَا عَظَمَةَ الْبَحْرِ لَوْ صَغُرَ فَعُلِقَ عَلَى وَرَقَةٍ .

* * *

فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ الْجَسَدِ الرُّوحَانِيَّةِ حِينَ يَقُورُ شِعْرُ الْجَمَالِ فِي الدَّمِ ، أَطْلَتْ
لِنَظَرِي إِلَى وَرْدَةٍ فِي غُصْنِهَا زَاهِيَةٍ ، عَطْرَةٍ ، مُتَأَنِّقَةٍ ، مُتَأَنِّتَةٍ ؛ فَكِدْتُ أَقُولُ لَهَا : أَنْتِ أَيْتُهَا
الْمَرْأَةُ ، أَنْتِ يَا فُلَانَةَ ...

* * *

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى فِي الْأَرْضِ بَعْضَ الْأَمَكَةِ كَأَنَّهَا أَمَكَةٌ لِلرُّوحِ خَاصَّةٌ ؛
فَهَلْ يَدُلُّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنَّ خَيَالَ الْجَنَّةِ مُنْذُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، لَا يَزَالُ يَعْمَلُ فِي النَّفْسِ
الْإِنْسَانِيَّةِ ؟

* * *

الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ كَشْرَبِ الْمَاءِ فِي كُوبٍ مِنَ الْخَرْفِ ؛ وَالْحَيَاةُ فِي الطَّبِيعَةِ كَشْرَبِ
الْمَاءِ فِي كُوبٍ مِنَ الْبَلُورِ السَّاطِعِ ؛ ذَاكَ يَخْتَوِي الْمَاءَ وَهَذَا يَخْتَوِيهِ وَيُؤَيِّدِي جَمَالَهِ لِلْعَيْنِ .

* * *

وَأَسْفَاهُ ، هَذَا هِيَ الْحَقِيقَةُ : إِنَّ دَقَّةَ الْفَهْمِ لِلْحَيَاةِ تُفْسِدُهَا عَلَى صَاحِبِهَا كِدَقَّةِ الْفَهْمِ
لِلنُّحْبِ ، وَإِنَّ الْعَقْلَ الصَّغِيرَ فِي فَهْمِهِ لِلنُّحْبِ وَالْحَيَاةِ ، هُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ فِي التَّيْدَادِهِ بِهِمَا .
وَأَسْفَاهُ ، هَذَا هِيَ الْحَقِيقَةُ !

* * *

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَجْعَلُهَا الْمَصِيفُ أَيَّامَ سُرُورٍ وَنَسْيَانٍ ، يَشْعُرُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلدُّنْيَا كَلِمَةً هَزَلٍ وَدُعَايَةً . . .

* * *

مَنْ لَمْ يُزَرِّقِ الْفِكْرَ الْعَاشِقَ لَمْ يَرَ أَشْيَاءَ الطَّبِيعَةِ إِلَّا فِي أَسْمَائِهَا وَشَيَاتِهَا ، دُونَ حَقَائِقِهَا
وَمَعَانِيهَا ، كَالرَّجُلِ إِذَا لَمْ يَغْشَقْ رَأَى النِّسَاءَ كُلَّهُنَّ سَوَاءً ، فَإِذَا عَشِقَ رَأَى فِيهِنَّ نِسَاءً غَيْرَ
مَنْ عَرَفَ ، وَأَصْبَحْنَ عِنْدَهُ أَدَلَّةً عَلَى صِفَاتِ الْجَمَالِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ .

* * *

تَقُومُ دُنْيَا الرِّزْقِ بِمَا تَحْتَاجُهُ الْحَيَاةُ ، أَمَّا دُنْيَا الْمَصِيفِ فَقَائِمَةٌ بِمَا تَلَذُّهُ الْحَيَاةُ ، وَهَذَا
هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ الطَّبِيعَةَ وَيَجْعَلُ الْجَوْ نَفْسَهُ هُنَاكَ جَوْ مَائِدَةٍ ظُرْفَاءَ وَظَرِيفَاتٍ . . .

* * *

تَعْمَلُ أَيَّامُ الْمَصِيفِ بَعْدَ انْقِضَائِهَا عَمَلًا كَبِيرًا ، هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الشَّعْرِ فِي حَقَائِقِ
الْحَيَاةِ .

* * *

هَذِهِ السَّمَاءُ فَوْقَنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْعَجِيبَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَزْحَلُونَ إِلَى
الْمَصَافِفِ لِيَرَوْا أَشْيَاءَ مِنْهَا السَّمَاءُ . . .

* * *

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ الْعَالَمَ بِالنَّفْسِ الْوَاسِعَةِ رَأَيْتَ حَقَائِقَ الشُّرُورِ تَزِيدُ وَتَتَسَّعُ ، وَحَقَائِقَ
الْهُمُومِ تَصْغُرُ وَتَضَيِّقُ ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ دُنْيَاكَ إِنِ ضَاقَتْ فَأَنْتَ الضَّيِّقُ لَا هِيَ .

* * *

فِي السَّاعَةِ الثَّاسِعَةِ أَذْهَبُ إِلَى عَمَلِي ، وَفِي الْعَاشِرَةِ أَعْمَلُ كَيْتَ ، وَفِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ
أَعْمَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَهُنَا فِي الْمَصِيفِ تَفْقِدُ الثَّاسِعَةَ وَأَخَوَاتُهَا مَعَانِيهَا الزَّمَنِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ
تَضَعُهَا الْأَيَّامُ فِيهَا ، وَتَسْتَبْدِلُ مِنْهَا الْمَعَانِي الَّتِي تَضَعُهَا فِيهَا النَّفْسُ الْحُرَّةُ .

هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُصْنَعُ بِهَا السَّعَادَةُ أَحْيَانًا ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا كَصِغَارِ الْأَطْفَالِ .

* * *

إِذَا تَلَاقَى النَّاسُ فِي مَكَانٍ عَلَى حَالَةٍ مُتَشَابِهَةٍ مِنَ الشُّرُورِ وَتَوَهُمِهِ وَالْفِكْرَةِ فِيهِ ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانُ مُعَدًّا بِطَبِيعَتِهِ الْجَمِيلَةِ لِنِسْيَانِ الْحَيَاةِ وَمَكَارِهِهَا - فَتِلْكَ هِيَ الرِّوَايَةُ وَمُمَثِّلُوهَا وَمَسْرُحُهَا^(١) - ، أَمَّا الْمَوْضُوعُ فَالْشُّخْرِيَّةُ مِنْ إِنْسَانِ الْمَدِينَةِ وَمَدِينَةِ الْإِنْسَانِ .

* * *

مَا أَصْدَقَ مَا قَالُوهُ : إِنَّ الْمَرْئِيَّ فِي الرَّائِي . مَرِضْتُ مُدَّةً فِي الْمَصِيفِ ، فَانْقَلَبَتِ الطَّبِيعَةُ الْعَرُوسُ الَّتِي كَانَتْ تَتَزَيَّنُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى طَبِيعَةٍ عَجُوزٍ تَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الطَّبِيبِ ...

شاطئ سيدي بشر ، إسكندرية

مصطفى صادق الرافعي

(١) يَظُنُّ صَدِيقُنَا الْعَلَامَةُ الْكَبِيرُ الْأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلَانَ أَنَّ الْمَسْرَحَ لِدَارِ التَّمَثِيلِ غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَأَنَّ صَوَابَهَا الْمِزْرَحُ ، وَلَكِنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ اسْتَعْمَلَهَا فِي قَرِيبٍ مِنْ مَعْنَى دَارِ التَّمَثِيلِ ، وَأَصْلُهَا مِنْ مُرَادِفَاتِ نَدَى الْقَوْمِ وَمُجْتَمَعِهِمْ .

حَدِيثُ قَطِينِ (*)

جَاءَ فِي امْتِحَانِ شَهَادَةِ اِنْتِمَامِ الدَّرَاسَةِ الْاِبْتِدَائِيَّةِ لِهَذَا الْعَامِ { ١٩٣٤ } فِي مَوْضُوعِ الْاِنْشَاءِ مَا يَأْتِي :

« تَقَابَلَ قَطَانٍ : أَحَدُهُمَا سَمِينٌ تَبَدُّوْ عَلَيْهِ آثَارُ النَّعْمَةِ ، وَالْآخَرُ نَحِيفٌ يَدُلُّ مَنْظَرُهُ عَلَى سُوءِ حَالِهِ ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ إِذَا حَدَّثَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ ؟ » .

وَقَدْ حَارَ التَّلَامِيذُ الصَّغَارُ فِيمَا يَضَعُونَ عَلَى لِسَانِ الْقَطِينِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يُوَجِّهُونَ الْكَلَامَ بَيْنَهُمَا ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ يَنْصَرِفُ الْقَوْلُ فِي مُحَاوَرَتِهِمَا ؛ وَصَافُوا جَمِيعًا وَهُمْ أَطْفَالٌ - أَنْ تَكُونَ فِي رُؤُوسِهِمْ عُقُولُ السَّنَانِيرِ ؛ وَأَعْيَاهُمْ أَنْ تَنْزِلَ غَرَائِزُهُمُ الطَّيِّبَةُ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الْبُهْنِمِيَّةِ وَمِنْ عَيْنِهَا خَاصَّةً ، فَيَكْتَنِبُوهَا تَذْيِيرَ هَذِهِ الْفِطَاطِ لِحَيَاتِهَا ، وَيَتَفَدُّوا إِلَى طَبَائِعِهَا ، وَيَنْدَمِجُوا فِي جُلُودِهَا ، وَيَأْكُلُوا بِأَنْبَابِهَا ، وَيَمَزُقُوا بِمَخَالِبِهَا .

قَالَ بَعْضُهُمْ : وَسَخِطْنَا عَلَى أَسَاتِدَتِنَا أَشَدَّ السَّخَطِ ، وَعَيْنَاهُمْ بِاقْبَحِ الْعَيْبِ ؛ كَيْفَ لَمْ يَعْلَمُونَا مِنْ قَبْلُ - أَنْ نَكُونَ حَمِيرًا ، وَخَيْلًا ، وَبَغَالًا ، وَبَيْرَانًا ، وَقِرْدَةً ، وَخَنَازِيرَ ، وَفَرَّانًا ، وَقِطْطَةً ، وَمَا هَبَّ وَدَبَّ ، وَمَا طَارَ وَدَرَجَ ، وَمَا مَشَى وَأَنْسَحَ ؛ وَكَيْفَ - وَيَحْتُمُّ - لَمْ يُلْقُونَا مَعَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ لُغَاتِ الْهَيْتِ ، وَالصَّهْلِ ، وَالشَّحِيجِ ، وَالْخُورِ ، وَضَحِكَ الْقِرْدِ ، وَقُبَاعِ الْخَزِيرِ ، وَكَيْفَ نَصِيءُ وَنَمُوءُ ، وَنَلْغَطُ لَغَطَ الطَّيْرِ ، وَنَفْخُ فَحِيجِ الْأَفْعَى ، وَنَكِشُ كَشِيشِ الدَّبَابَاتِ ^(١) ، إِلَى مَا يَتِمُّ بِهِ هَذَا الْعِلْمُ اللَّغَوِيُّ الْجَلِيلُ ، الَّذِي نَقْرُؤُ بِهِ بِلَاغَةَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْهَمْجِ وَأَشْبَاهِهَا ... ؟

وَقَالَ تَلْمِيذٌ خَبِيثٌ لِأُسْتَاذِهِ : أَمَّا أَنَا فَأَوْجَزْتُ وَأَعْجَزْتُ .

قَالَ أُسْتَاذُهُ : أَجَدْتَ وَأَحْسَنْتَ ، وَلِلَّهِ أَنْتَ ! وَتَالَلَّهِ لَقَدْ أَصَبْتَ ! فَمَاذَا كَتَبْتَ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ٥٣ ، ٢٧ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٩ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١١٢٣ - ١١٢٦ .

(١) { هَذِهِ أَصْوَاتُ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فِي اللَّغَةِ } .

قَالَ : كَتَبْتُ هَكَذَا :

يَقُولُ السَّمِينُ : نَاو ، نَاو ، نَاو ... فَيَقُولُ النَّحِيفُ : نَو ، نَاو نَو ... فَيَرُدُّ عَلَيْهِ السَّمِينُ : نَو ، نَاو ، نَاو ... فَيَغْضَبُ النَّحِيفُ ، وَيَكْشُرُ عَنْ أَسْنَانِهِ ، وَيَحْرُكُ ذَيْلَهُ وَيَصِيحُ : نَو ، نَو ، نَو ... فَيَلْطِمُهُ السَّمِينُ فَيَخْدِشُهُ وَيَصْرُخُ : نَاو ... فَيُثِبُّ عَلَيْهِ النَّحِيفُ وَيَضْطَرِّعَانِ ، وَتَخْتَلِطُ « النَّوْنَةُ » لَا يَمْتَنَارُ صَوْتٌ مِنْ صَوْتٍ ، وَلَا يَبِينُ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى ، وَلَا يُمْكِنُ الْفَهْمُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا بِتَعَبٍ شَدِيدٍ ، بَعْدَ مُرَاجَعَةِ قَامُوسِ الْفِقَاطِ ... !

قَالَ الْأُسْتَاذُ : يَا بُنَيَّ ! بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ! لَقَدْ أَبْدَعْتَ الْفَرَ إِيْدَاعًا ، فَصَنَعْتَ مَا يَصْنَعُ أَكْبَرُ التَّوَابِعِ ، يُظْهِرُ فَتْنَهُ بِإِظْهَارِ الطَّبِيعَةِ وَإِخْفَاءِ نَفْسِهِ ، وَمَا يَنْطِقُ الْفِقَطُ بِلُغَتِنَا إِلَّا مُعْجَزَةً لِنَبِيِّ ، وَلَا نَبِيٍّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَّا مَا حَكَيْتَ وَوَصَفْتَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْوَاقِعِ ، وَالْوَاقِعُ هُوَ الْجَدِيدُ فِي الْأَدَبِ ؛ وَلَقَدْ أَرَادُوكَ تَلْمِيزًا هَرًا ، فَكُنْتَ فِي إِجَابَتِكَ هَرًا أُسْتَاذًا ، وَوَافَقْتَ السَّنَائِيرَ وَخَالَفْتَ النَّاسَ ، وَحَقَّقْتَ لِلْمُتَمَحِّجِينَ أَرْقَى نَظَرِيَّاتِ الْفَرِّ الْعَالِي ، فَإِنَّ هَذَا الْفَرَ إِنَّمَا هُوَ فِي طَرِيقَةِ الْمَوْضُوعِ الْفَنِّيِّ ، لَا فِي تَلْفِيقِ الْمَوَادِّ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ هُنَا وَهُنَا ، وَلَوْ حَفِظُوا حُرْمَةَ الْأَدَبِ ، وَرَعَوْا عَهْدَ الْفَرِّ لِأَذْرَكُوا أَنَّ فِي أُسْطُرِكَ الْقَلِيلَةَ كَلَامًا طَوِيلًا بَارِعًا فِي النَّادِرَةِ وَالنَّهْجِ ، وَغَرَابَةِ الْعَبْرَةِ ، وَجَمَالِهَا وَصِدْقِهَا ، وَحُسْنِ تَنَاوُلِهَا ، وَإِحْكَامِ تَأْدِيَتِهَا لِمَا تُؤَدِّي^(١) ؛ وَلَكِنْ مَا الْفَرْقُ يَا بُنَيَّ بَيْنَ « نَاو » بِالْمَدِّ ، وَ« نَو » بِغَيْرِ مَدٍّ ... ؟

قَالَ التَّلْمِيزُ : هَذَا عِنْدَ السَّنَائِيرِ كَالْإِشَارَاتِ التَّلَغْرَافِيَّةِ : شَرْطَةٌ وَنُقْطَةٌ وَهَكَذَا .

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! وَلَكِنْ زَرَارَةُ الْمَعَارِفِ لَا تَقْرَأُ هَذَا وَلَا تَعْرِفُهُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمُصَحِّحُ أُسْتَاذًا لَا هَرًا ... وَالْأَمْتِحَانُ كِتَابِي لَا شَفَوِي .

قَالَ الْخَبِيثُ : وَأَنَا لَمْ أَكُنْ هَرًا بَلْ كُنْتُ إِنْسَانًا ، وَلَكِنَّ الْمَوْضُوعَ حَدِيثُ قَطْنٍ ، وَالْحُكْمُ فِي مِثْلِ هَذَا لِأَهْلِهِ الْقَائِمِينَ بِهِ ، لَا الْمُتَكَلِّفِينَ لَهُ ، الْمُتَطَفِّلِينَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ هُمْ

(١) { هَذَا كَلَامٌ نَهْجِيٌّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ } .

خَالَفُونِي قُلْتُ لَهُمْ : أَسْأَلُوا الْقِطَاطَ ؛ أَوْ لَا فَلْيَأْتُوا بِالْقِطَاطَيْنِ : السِّمِينِ وَاللَّحِيفِ ، فَلْيَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ، وَلْيَحْرَسُوهُمَا ، ثُمَّ لِيُخْضِرُوا الرُّقْبَاءَ هَذَا الْأَمْتِحَانَ ، وَلِيَكْتُبُوا عَنْهُمَا مَا يَسْمَعُونَهُ ، وَلِيَصِفُوا مِنْهُمَا مَا يَرَوْنَهُ ، فَوَالَّذِي خَلَقَ السَّنَائِرَ وَالتَّلَامِيذَ وَالْمُتَمَتِّحِينَ وَالْمُصَحِّحِينَ جَمِيعًا - مَا يَزِيدُ الْهَرَانَ عَلَى « نَوْ ، وَنَاو » ، وَلَا يَكُونُ الْقَوْلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا مِنْ هَذَا ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا مَا وَصَفْتُ ، وَمَا بُدِّ مِنْ الْمَهَارَشَةِ وَالْمُؤَابَّةِ بِمَا فِي طَبِيعَةِ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، ثُمَّ فِرَارِ الضَّعِيفِ مَهْزُومًا ، وَيَنْتَهِي الْأَمْتِحَانُ !

* * *

إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ يُشَبِّهُ تَكْلِيفَ الطَّالِبِ الصَّغِيرِ خَلْقَ هَرَّتَيْنِ لَا الْحَدِيثَ عَنْهُمَا ؛ فَإِنَّ إِجَادَةَ الْإِنْشَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَابِ أَلْزَمِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تَخْلُقُ خَلْقَهَا السَّوِيَّ الْجَمِيلَ نَابِضًا حَيًّا ، كَأَنَّمَا وَضَعْتَ فِي الْكَلَامِ قَلْبَ هِرٍّ ، أَوْ جَاءَتْ بِالْهِرِّ لَهُ قَلْبٌ مِنَ الْكَلَامِ . وَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْأَطْفَالِ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَالثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَمَا حَوْلَهُمَا ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ فِي هَذِهِ السَّنِّ أَنْ يَمْتَرِجُوا بِدِقَاتِ الْوُجُودِ ، وَيُدَاخِلُوا أَسْرَارَ الْحَلِيقَةِ ، وَيُضْبِحُوا مَعَ كُلِّ شَيْءٍ رَهْنًا بِعِلَلِهِ ، وَعِنْدَ كُلِّ حَقِيقَةٍ مَوْفُوفِينَ عَلَى أَسْبَابِهَا ؟ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ فِي السَّنَوَاتِ الْخَالِيَةِ : « كُنْ زَهْرَةً وَصِفْ . وَاجْعَلْ نَفْسَكَ حَبَّةَ قَمْحٍ وَقُلْ » . وَإِنَّمَا هَذَا وَنَحْوُهُ غَايَةٌ مِنْ أُنْبَعْدَ غَايَاتِ الْبُتُوَّةِ أَوْ الْحِكْمَةِ ؛ إِذِ النَّبِيُّ تَغْيِيرُ إِلَهِيٍّ تَتَّخِذُهُ الْحَقِيقَةُ الْكَامِلَةُ لِنَتَلَقَّ بِهِ كَلِمَتَهَا الَّتِي تُسَمَّى الشَّرِيعَةَ ، وَالْحَكِيمُ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ التَّغْيِيرِ ، تَتَّخِذُهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ لِنَتَلَقَّى مِنْهُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُسَمَّى الْفَنِّ .

وَقَدْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ أَمْتِحَانٌ مِثْلُ هَذَا ، لَمْ يَنْجَحْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ مِنْ آلَافٍ كَثِيرَةٍ ؛ وَكَانَ الْمُتَمَتِّحُ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَالْمَوْضُوعُ حَدِيثُ النَّمْلَةِ مَعَ النَّمْلِ ؛ وَالتَّاجِعُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

فَلْيَسَّرْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴿ [٢٧ سورة النمل / الآيات : ١٨ و ١٩] .

إِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مُسْتَقَرٌّ بِمَعَانِيهِ الرَّمَزِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْكَامِلَةِ ؛ إِذْ كَانَتْ الرُّوحُ فِي ذَاتِهَا نُورًا ، وَكَانَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ النُّورِ ، وَالشُّعَاعُ يَجْرِي فِي الشُّعَاعِ كَمَا يَجْرِي الْمَاءُ فِي الْمَاءِ ، وَفِي أَمْتِرَاحِ الْأَشْجَةِ مِنَ النَّفْسِ وَالْمَادَّةِ تَجَاوُبٌ رُوحَانِيٌّ هُوَ بِذَاتِهِ تَغْيِيرٌ فِي الْبَصِيرَةِ

وإِذْ رَأَى فِي الذُّهْنِ ، وَهُوَ آسَاسُ الْفَنِّ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ : فِي الْكَلِمَةِ وَالصُّورَةِ ، وَالْمِنَالِ وَالنِّعْمَةِ ؛ أَيْ : الْكِتَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ وَالْحَفَرِ وَالْمُوسِيقِيِّ .

وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ الْبَيَانُ الْعَالِي أَنْتُمْ إِشْرَاقًا إِلَّا بِتَمَامِ النَّفْسِ الْبَلِيغَةِ فِي فَضِيلَتِهَا أَوْ رَذِيلَتِهَا عَلَى السَّوَاءِ ؛ فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ الشَّخَرَةِ بِهَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ تَمَامُ الرِّذِيلَةِ فِي أَثَرِهِ عَلَى الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ ، هُوَ الْوَجْهَ الْآخِرَ لِتَمَامِ الْفَضِيلَةِ فِي أَثَرِهِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ؛ وَالنَّقْطَةُ الَّتِي يَنْتَهِي فِيهَا الْعُلُوُّ مِنْ مُحِيطِ الدَّائِرَةِ هِيَ بَعِينُهَا الَّتِي يَبْدَأُ مِنْهَا الْإِنْجَادُ إِلَى السُّفْلِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الْفُتُونُ لَا تُغَيِّرُ بِالْأَخْلَاقِ ، حَتَّى قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِنَّ الدُّنْيَا عَنِ الشَّعْرِ بِمَعَزِلٍ . فَالْأَصْلُ هُنَاكَ سُمُو التَّغْيِيرِ وَجَمَالُهُ ، وَبَلَاغَةُ الْأَدَاءِ وَرَوْعَتُهَا ؛ وَلَا يَكُونُ السُّؤَالُ الْفَنِّيُّ مَا هِيَ قِيَمَةُ هَذِهِ النَّفْسِ ، وَلَكِنْ مَا طَرِيقَتُهَا الْفَنِّيَّةُ ؟ وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي ذَلِكَ ؟ أَلَيْسَ لِحَبْثِهِمْ حَقٌّ فِي كِتَابِ أَهْلِ الْفَنِّ ، كَمَا لِلْحَبَّةِ حَقٌّ فِي ثَوَابِغِهِ ؟ وَإِذَا قَالَتِ الْحَبَّةُ : هَذِهِ فَضَائِلِي الْبَلِيغَةُ . أَفَلَا تَقُولُ الْجَحِيمُ : وَهَذِهِ بَلَاغَةُ رَذَائِلِي ؟ وَكَيْفَ لِعَمْرِي يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلَهُ الْفَنِّيَّ . . . وَيَصُورَ بِلَاغَتِهِ الْعَالِيَةَ إِلَّا فِي سَاقِطِينَ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ الْجَمِيلِ ، وَسَاقِطَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ . . . ؟

* * *

لَقَدْ بَعُدْنَا عَنِ الْقَطِينِ ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ مِنْ حَدِيثَيْهِمَا وَخَبَرَيْهِمَا .

كَانَ الْقِطُّ الْهَزِيلُ مُرَابِطًا فِي رُقَاقٍ ، وَقَدْ طَارَدَ قَارَةً فَانْجَحَرَتْ فِي شِقٍّ ، فَوَقَفَ الْمَسْكِينُ يَتَرَبَّصُ بِهَا أَنْ تَخْرُجَ ، وَيُؤَامِرُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُعَالِجُهَا فَيَسْتَرْهَا ، وَمَا عَقَلَ الْخَيَوَانُ إِلَّا مِنْ حِرْقَةٍ عَيْشِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا . وَكَانَ الْقِطُّ السَّمِينُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَارِ أَصْحَابِهِ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ كَالْقِطَّةِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ ، لَا كَأَطْفَالِ النَّاسِ مَعَ أَهْلِيهِمْ وَذَوِي عِنَابَتِهِمْ ، وَأَبْصَرَ الْهَزِيلُ مِنْ تَعَبِهِ فَأَقْبَلَ بِمِشْيِ نَحْوِهِ ، وَرَأَهُ الْهَزِيلُ وَجَعَلَ يَتَأَمَّلُهُ وَهُوَ يَتَخَلَّعُ تَخَلُّعَ الْأَسَدِ فِي مِشْيِهِ ، وَقَدْ مَلَأَ جِلْدَتَهُ مِنْ كُلِّ أَطْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَبَسَطَتْهُ النَّعْمَةُ مِنْ أَطْرَافِهِ ، وَانْقَلَبَتْ فِي لَحْمِهِ غِلَظًا ، وَفِي عَصَبِهِ شِدَّةً ، وَفِي شَعْرِهِ بَرِيقًا ، وَهُوَ يَمْوُجُ فِي بَدَنِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَيَكَادُ إِهَابُهُ يَنْشُقُّ سِمَنًا وَكَذَنَةً . فَانْكَسَرَتْ نَفْسُ الْهَزِيلِ ، وَدَخَلَتْهُ الْحَسْرَةُ ، وَتَضَعَّضَ لِمَرَأَى هَذِهِ النَّعْمَةِ مَرِحَةً مُخْتَالَةً . وَأَقْبَلَ

السَّمِينُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، وَأَدْرَكَتْهُ الرَّحْمَةُ لَهُ ، إِذْ رَأَتْهُ نَحِيفًا مُتَقَبِّضًا ، طَاوِيَّ الْبَطْنِ ، بَارِزَ الْأَضْلَاعِ ، كَأَنَّمَا هَمَّتْ عِظَامُهُ أَنْ تَتْرَكَ مَسْكَنَهَا مِنْ جِلْدِهِ لِتَجِدَ لَهَا مَأْوَى آخَرَ .

فَقَالَ لَهُ : مَاذَا بِكَ ، وَمَالِي أَرَاكَ مُتَيْسِّرًا كَأَلَمْنِي فِي قَبْرِهِ غَيْرِ أَنَّكَ لَمْ تَمُتْ ، وَمَالَكَ أَعْطَيْتَ الْحَيَاةَ غَيْرِ أَنَّكَ لَمْ تَحْيَ ، أَوْلَيْسَ الْهَرُّ مِنَّا صُورَةً مُخْتَزَلَةً مِنَ الْأَسَدِ ، فَمَا لَكَ - وَيَحَكَ - رَجَعْتَ صُورَةً مُخْتَزَلَةً مِنَ الْهَرِّ ؛ أَفَلَا يَسْقُونَكَ اللَّبَنَ ، وَيُطْعِمُونَكَ الشَّحْمَةَ وَاللَّحْمَةَ ، وَيَأْتُونَكَ بِالسَّمَكِ ، وَيَقْطَعُونَ لَكَ مِنَ الْجُبْنِ أبيضَ وَأَصْفَرَ ، وَيَقْتُونُ لَكَ الْخُبْزَ فِي الْمَرْقِ ، وَيُؤْتِرُكَ الْطِفْلُ بِبَعْضِ طَعَامِهِ ، وَتُدُلُّكَ الْفَتَاةُ عَلَى صَدْرِهَا ، وَتَمْسُحُكَ الْمَرْأَةُ بِيَدَيْهَا ، وَتَتَنَاوَلُكَ الرَّجُلُ كَمَا يَتَنَاوَلُ ابْنَهُ . . . ؟ وَمَا لِحِلْدِكَ هَذَا مُغْبِرًا كَأَنَّكَ لَا تَلْطَعُهُ بِلُعَابِكَ ، وَلَا تَتَعَهَّدُهُ بِتَنْطِيفٍ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَرَ قَطُّ قَتَى أَوْ فَتَاةً يُعْجِرِي الدَّهَانَ بَرِيقًا فِي شَعْرِهِ أَوْ شَعْرَهَا ، فَتَحَاوِلُ أَنْ تَصْنَعَ بِلُعَابِكَ لَشَعْرَكَ صَنِيعَهُمَا ؛ وَأَرَاكَ مُتْرَايِلَ الْأَعْضَاءِ مُتَفَكِّكًا حَتَّى ضَعُفَتْ وَجِهَتُ ، كَأَنَّهُ لَا يَزْكِبُكَ مِنْ حُبِّ التَّوْمِ عَلَى قَدَرٍ مِنْ كَسَلِكَ وَرَاحَتِكَ ، وَلَا يَزْكِبُكَ مِنْ حُبِّ الْكَسَلِ عَلَى قَدَرٍ مِنْ نَعِيمِكَ وَرَفَاهَتِكَ ، وَكَأَنَّ جَنِينَكَ لَمْ يَعْرِفَا طِنْفَسَةً وَلَا حَشِيَّةً وَلَا إِسَادَةً وَلَا بِسَاطًا وَلَا طِرَازًا ، وَمَا أَشْبَهَكَ بِأَسَدٍ أَهْلَكَهُ إِلَّا يَجِدُ إِلَّا الْعُشْبَ الْأَخْضَرَ وَالْهَشِيمَ الْيَاسِرَ ، فَمَا لَهُ لَحْمٌ يَجِيءُ مِنْ لَحْمٍ ، وَلَا دَمٌ يَكُونُ مِنْ دَمٍ ، وَانْحَطَّ فِيهِ جِسْمُ الْأَسَدِ ، وَسَكَتَتْ فِيهِ رُوحُ الْجِمَارِ !

قَالَ الْهَزِيلُ : وَإِنَّ لَكَ لَحْمَةً وَشَحْمَةً ، وَلَبَنًا وَسَمَكًا ، وَجُبْنًا وَفَتَاتًا ، وَإِنَّكَ لَتَقْضِي يَوْمَكَ تَلْطَعُ جِلْدَكَ مَاسِحًا وَغَاسِلًا ، أَوْ تَتَطَرَّحُ عَلَى الْوَسَائِدِ وَالطَّنَافِسِ نَائِمًا وَمُتَمَدِّدًا ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَتْكَ اللَّغْمَةُ وَالْبِلَادَةُ مَعًا ، وَصَلَحَتْ لَكَ الْحَيَاةُ وَفَسَدَتْ مِنْكَ الْغَرِيزَةُ ، وَأَحْكَمْتَ طَبْعًا وَنَقَضْتَ طَبَاعًا ، وَرَبِحْتَ شِبَعًا وَخَسِرْتَ لَذَّةً ، عَطَفُوا عَلَيْكَ وَأَفْقَدُوكَ أَنْ تَعْطِفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَحَمَلُوكَ وَأَعْجَزُوكَ أَنْ تَسْتَقِيلَ ، وَقَدْ صِرْتَ مَعَهُمْ كَالَّذِلِّ جَاجَةٍ تُسَمِّنُ لِتُدْبَحَ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَذْبَحُونَكَ دَلَالًا وَمَلَالًا .

إِنَّكَ لَتَأْكُلُ مِنْ حِوَانِ أَصْحَابِكَ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَأْكُلُونَ ، وَتَطْمَعُ فِي مَوَاكِلَتِهِمْ ، فَتَشْبَعُ بِالْعَيْنِ وَالْبَطْنِ وَالرَّغْبَةِ ثُمَّ لَا شَيْءَ غَيْرَ هَذَا ، وَكَأَنَّكَ مُرْتَبِطٌ بِجِبَالٍ مِنَ اللَّحْمِ تَأْكُلُ مِنْهَا وَتَحْتَسِسُ فِيهَا .

إِنْ كَانَ أَوَّلُ مَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ فَأَمُونَ مَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَأْكُلَ ، وَمَا يَفْتُلِكَ شَيْءٌ كَأَسْتِوَاءِ الْحَالِ ، وَلَا يُخِينِكَ شَيْءٌ كَتَفَاوُثِهَا ؛ وَالْبَطْنُ لَا يَتَجَاوَزُ الْبَطْنَ ، وَلَذَنُتُهُ لَذَنُتُهُ وَخَدَهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ أَنْتَ عَنْ إِزْنِكَ مِنْ أَسْلَافِكَ ، وَعَنِ الْعِلَلِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي تُحَرِّكُنَا إِلَى لَذَاتِ أَعْضَائِنَا ، وَمَتَاعِ أَرْوَاحِنَا ، وَتَهْبِئًا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَجُودَنَا الْأَكْبَرَ ، وَتَجْعَلُنَا نَعِيشُ مِنْ قَبْلِ الْجِسْمِ كُلِّهِ ، لَا مِنْ قَبْلِ الْمَعِدَةِ وَخَدَهَا ؟

قَالَ السَّيِّئِينَ : تَاللَّهِ لَقَدْ أَحْسَبَكَ الْفَقْرَ حِكْمَةً وَحَيَاةً ، وَأَرَانِي بِإِزَائِكَ مَعْدُومًا بِرَوَالِ أَسْلَافِي مِثِّي ، وَأَرَاكَ بِإِزَائِي مَوْجُودًا بِوُجُودِ أَسْلَافِكَ فِينِكَ . نَاشِدُنَاكَ اللَّهَ إِلَّا مَا وَصَفْتَ لِي هَذِهِ اللَّذَاتِ الَّتِي تَعْلُو بِالْحَيَاةِ عَنْ مَرْتَبَةِ الْوُجُودِ الْأَصْغَرِ مِنَ الشَّيْءِ ، وَتَسْتَطِيلُ بِهَا إِلَى مَرْتَبَةِ الْوُجُودِ الْأَكْبَرِ مِنَ الرُّضَى ؟

فَقَالَ الْهَزْلِيُّ : إِنَّكَ ضَخْمٌ وَلَكِنَّكَ أَبْلَهُ ، أَمَا عَلِمْتَ - وَيَحَكَ - أَنَّ الْمِخْنَةَ فِي الْعَيْشِ هِيَ فِكْرَةٌ وَقُوَّةٌ ، وَأَنَّ الْفِكْرَةَ وَالْقُوَّةَ هُمَا لَذَّةٌ وَمَنْفَعَةٌ ، وَأَنَّ لَهْفَةَ الْحِرْمَانِ هِيَ الَّتِي تَضَعُ فِي الْكَسْبِ لَذَّةَ الْكَسْبِ ، وَسَعَارَ الْجُوعِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فِي الطَّعَامِ مِنَ الْمَادَّةِ طَعَامًا آخَرَ مِنَ الرُّوحِ ، وَأَنَّ مَا عُدِلَ بِهِ عَنْكَ مِنَ الدُّنْيَا لَا تُعَوِّضُكَ مِنْهُ الشَّخْمَةُ وَاللَّخْمَةُ ، فَإِنَّ رَغْبَاتِنَا لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَجُوعَ وَتَغْتَذِيَ كَمَا لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ لِبَطُونِنَا ، لِيُوجِدَ كُلُّ مِنْهُمَا حَيَاتَهُ فِي الْحَيَاةِ ؛ وَالْأُمُورُ الْمُطْمَئِنَّةُ كَهَذِهِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا هِيَ لِلْحَيَاةِ أَمْرَاضٌ مُطْمَئِنَّةٌ ، فَإِنْ لَمْ تَنْقُصْ مِنْ لَذَنِهَا فَهِيَ لَنْ تَزِيدَ فِي لَذَنِهَا ، وَلَكِنْ مَكَابِدَةُ الْحَيَاةِ زِيَادَةٌ فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا .

وَسِرُّ السَّعَادَةِ أَنْ تَكُونَ فِينِكَ الْقُوَى الدَّاخِلِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَحْسَنَ أَحْسَنَ مِمَّا يَكُونُ ، وَتَمْنَعُ الْأَسْوَأَ أَنْ يَكُونَ أَسْوَأَ مِمَّا هُوَ ، وَكَيْفَ لَكَ بِهِذِهِ الْقُوَّةُ وَأَنْتَ وَادِعٌ قَارٌ مَخْصُورٌ مِنَ الدُّنْيَا بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ ؟ إِنَّكَ كَالْأَسَدِ فِي الْفَقْصِ ، صَغُرْتَ أَجْمَتُهُ وَلَمْ تَزَلْ تَصْغُرُ حَتَّى رَجَعْتَ فَقْصًا يَحْدُهُ وَيَخْسِيهِ ، فَصْغُرَ هُوَ وَلَمْ يَزَلْ يَصْغُرُ حَتَّى أَصْبَحَ حَرَكَةً فِي جِلْدٍ ؛ أَمَا أَنَا فَاسَدٌ عَلَى مَخَالِبِي وَوَرَاءَ أَنْيَابِي ، وَغِيضَتِي أَبَدًا تَسْعُ وَلَا تَزَالُ تَسْعُ أَبَدًا ، وَإِنَّ الْحَرِيَّةَ لَتَجْعَلُنِي أَتَسَمُّ مِنَ الْهَوَاءِ لَذَّةٌ مِثْلَ لَذَّةِ الطَّعَامِ ، وَأَسْتَرْوَحُ مِنَ الثَّرَابِ لَذَّةٌ كَلَذَّةِ اللَّحْمِ ، وَمَا الشَّقَاءُ إِلَّا خَلْتَانِ مِنْ خِلَالِ النَّفْسِ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّ يَكُونُ فِي شَرِّهِكَ مَا يَجْعَلُ الْكَثِيرَ قَلِيلًا ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ لِمِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَى حَدِّ الْكَفَافِ مِنَ الْعَيْشِ ؛ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ

يَكُونُ فِي طَمَعِكَ مَا يَجْعَلُ الْقَلِيلَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، وَهَذِهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلِي مَا دُمْتُ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِّ
مِنَ الْكَفَافِ ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ كَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، كُلُّهَا مِنْ قَبْلِ الذَّاتِ ، لَا مِنْ قَبْلِ
الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ ، فَمَنْ جَارَاهَا سَعِدَ بِهَا ، وَمَنْ عَكَسَهَا عَنْ مَجْرَاهَا فِيهَا يَشْقَى .

وَلَقَدْ كُنْتُ السَّاعَةَ أَخْتِلُ فَاَرَةَ أَنْجَحَرْتُ فِي هَذَا الشَّقِّ ، فَطَعِمْتُ مِنْهَا لَذَّةً وَإِنْ لَمْ
أَطْعَمْ لَحْمًا ، وَبِالْأَنْسِ رَمَانِي طِفْلٌ خَبِيثٌ بِحَجَرٍ يُرِيدُ عَقْرِي فَأَخَذْتُ لِي وَجَعًا ، وَلَكِنَّ
الْوَجَعَ أَخَذْتُ لِي الْإِخْتِرَاسَ ، وَسَاغَشَى الْآنَ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِي بِإِرَائِنَا ، فَأَيَّةُ لَذَّةٍ فِي السَّلَةِ
وَالْخُطْفَةِ وَالْإِسْتِرَاقِ وَالْإِنْتِهَابِ ثُمَّ الْوُتْبِ شِدًّا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ هَلْ ذُقْتَ أَنْتَ بِرُوحِكَ لَذَّةَ
الْفُرْصَةِ وَالنَّهْزَةِ ، أَوْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ رَاحَةَ الْمُخَالَسَةِ وَاسْتِرَاقِ الْعُقْلَةِ مِنْ فَاَرَةَ أَوْ جُرْدِ ،
أَوْ أَدْرَكَتْ يَوْمًا فَرَحَةَ النَّجَاةِ بَعْدَ الرُّوْعَانِ مِنْ عَابِثٍ أَوْ بَاغٍ أَوْ ظَالِمٍ ؟ وَهَلْ نَالَكَ لَذَّةُ الظَّفَرِ
حِينَ هَوَّلَكَ طِفْلٌ بِالضَّرْبِ ، فَهَوَّلَتْهُ أَنْتَ بِالْعَصِّ وَالْعَقْرِ ، فَقَرَّ عَنْكَ مُنْهَرِمًا لَا يَلْوِي ؟

قَالَ السَّمِينُ : وَفِي الدُّنْيَا هَذِهِ اللَّذَاتُ كُلُّهَا وَأَنَا لَا أَدْرِي ؟ هَلُمَّ أَتَوَحَّشْ مَعَكَ ،
لِيَكُونَ لِي مِثْلُ نُكْرِكَ وَدَهَائِكَ وَأَخْتِيَالِكَ ، فَيَكُونَ لِي مِثْلُ رَاحَتِكَ الْمَكْدُودَةِ ، وَلَذَّتِكَ
الْمُنْعَبَةِ ، وَعُمْرِكَ الْمَخْكُومِ عَلَيْهِ مِنْكَ وَحَدِّكَ . وَسَاتَّصَدَّى مَعَكَ لِلرِّزْقِ أَطَارِدُهُ وَأَوَائِبُهُ ،
وَأَعَادِيهِ وَأَرَاوِحُهُ ... فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْهَزِيلُ وَقَالَ :

يَا صَاحِبِي ! إِنَّ عَلَيْكَ مِنْ لَحْمِكَ وَنِعْمَتِكَ عِلَامَةً أَسْرِكَ ، فَلَا يَلْقَانَا أَوَّلُ طِفْلٍ إِلَّا
أَهْوَى لَكَ فَأَخَذَكَ أَسِيرًا ، وَأَهْوَى عَلَيَّ بِالضَّرْبِ لِأَنْطَلِقَ حُرًّا ، فَأَنْتَ عَلَى نَفْسِكَ بَلَاءٌ ،
وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ بَلَاءٌ عَلَيَّ .

وَكَانَتْ الْفَاَرَةُ الَّتِي أَنْجَحَرْتُ قَدْ رَأَتْ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَسَرَّهَا اسْتِغَالُ الشَّرِّ بِالشَّرِّ ...
وَطَالَتْ مُرَاقِبَتُهُمَا لَهُمَا حَتَّى ظَنَّتِ الْفُرْصَةَ مُمَكِّنَةً ، فَوَبَّتْ وَثْبَةً مِنْ يَنْجُو بِحَيَاتِهِ ، وَدَخَلَتْ
فِي بَابِ مَفْتُوحٍ ، وَلَمَحَهَا الْهَزِيلُ ، كَمَا تَلْمَحُ الْعَيْنُ بَرَقًا أَوْ مَضًى وَأَنْطَفَأَ ، فَقَالَ لِلسَّمِينِ :
أَذْهَبْ رَاشِدًا ، فَحَسْبُكَ الْآنَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِنَفْسِكَ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْحَيَاةِ ، أَنَّ الْوُقُوفَ مَعَكَ
سَاعَةً هُوَ ضِيَاعُ رِزْقٍ ، وَكَذَلِكَ أَمْتَالُكَ فِي الدُّنْيَا ، هُمْ بِالْفَاطِمِ فِي الْأَعْلَى وَبِمَعَانِيهِمْ فِي
الْأَسْفَلِ ...

بَيْنَ خَرُوفَيْنِ (*)

«اجْتَمَعَ لَيْلَةً الْأَصْحَى خَرُوفَانِ مِنْ أَصْحَابِي الْعَلِيدِ ، فَتَكَلَّمَا ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ ؟ » .

هَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي اسْتَخَرَجَهُ لِي أَصْغَرُ أَوْلَادِي الْأُسْتَاذِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ فِيهِ لِلرَّسَالَةِ ، وَهُوَ أَصْغَرُ قُرَائِنَهَا سِتًّا ، تَرَفَّ عَلَيْهِ السَّيِّدَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ مِنْ رَبِيعِ حَيَاتِهِ - بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا حَاضِرَةً وَمُقْبِلَةً .

وَلَأُسْتَاذِنَا هَذَا كَلِمَةُ هِيَ شِعَارُهُ الْخَاصُّ بِهِ فِي الْحَيَاةِ ، يَحْفَظُهَا لِتَحْفَظَهُ ، فَلَا يَمِيلُ عَنْ مَذَرَجَتِهَا ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ مَعْنَاهَا ؛ وَهِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ : « كَالْفَرَسِ الْكَرِيمِ فِي مِيعَةِ حُضْرِهِ ^(١) » ، كُلَّمَا ذَهَبَ مِنْهُ شَوْطٌ جَاءَ شَوْطٌ . فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ كَرَمَ الْأَصْلِ فِي كَرَمِ الْفِعْلِ ، وَلَا يُغْنِي شَيْءٌ مِنْهُمَا عَنْ شَيْءٍ ؛ وَأَنَّ الدَّمَّ الْحُرَّ الْكَرِيمَ يَكُونُ مُضَاعَفَ الْقُوَّةِ بِطَبِيعَتِهِ ، عَظِيمَ الْأَمَلِ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ الْمُضَاعَفَةِ ، نَزَاعًا إِلَى السَّبْقِ بِمِقْدَارِ أَمَلِهِ الْعَظِيمِ ، مُتَرَفِّعًا عَنِ الضَّعْفِ وَالْهُوْنِ بِهَذَا الثَّرْوِ ، مُتَمَيِّزًا فِي بُنْيَانِ عَمَلِهِ وَإِبْدَاعِهِ بِاجْتِمَاعِ هَذِهِ الْخِصَالِ فِيهِ عَلَى أَنْمَتِهَا وَأَحْسَنِهَا . فَمِنْ ثَمَّ لَا يَزِمُنِي الْحُرُّ الْكَرِيمُ إِلَّا أَنْ يَنْلِغَ الْأَمَدَ الْأَبْعَدَ فِي كُلِّ مَا يُحَاوِلُهُ ، فَلَا يَأْلُو أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ إِلَى غَايَةِ الطَّاقَةِ وَمَبْلَغِ الْقُدْرَةِ ، مُسْتَمِدًّا قُوَّةَ بَعْدَ قُوَّةٍ ، مُحَقِّقًا السَّحَرَ الْقَادِرَ الَّذِي فِي نَفْسِهِ ، مُتَلَقِّيًا مِنْهُ وَسَائِلَ الْإِعْجَازِ فِي أَعْمَالِهِ ، مُرْسِلًا فِي بُنْيَانِهِ مِنْ تَوْحِيدِ دَمِهِ أَضْوَاءَ كَاضِوَاءِ النُّجُومِ ، تُثَبِّتُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ النُّجُومُ لَا شَيْءَ آخَرَ .

وَلَمَّا قَدَّمَ إِلَيَّ الْأُسْتَاذُ مَوْضُوعَهُ فِي هَذَا الْوِزْنِ الْمَذَرِسِيِّ - وَأَطْنَهُ قَدْ نَزَعَتْهُ حَاجَةُ مَذَرِسِيَّةٍ إِلَيْهِ - قُلْتُ : حُبًّا وَكَرَامَةً . وَهَذَاذَا أَكْتُبُهُ مُنْبَعِثًا فِيهِ « كَالْفَرَسِ الْكَرِيمِ فِي مِيعَةِ حُضْرِهِ » ... وَلَعَلَّ الْأُسْتَاذَ حِينَ يَقْرُوهُ لَا يَتَوَرَّعُ فِيهِ عِلَامَاتُ كَثِيرَةٍ بِقَلَمِهِ الْأَحْمَرِ ... !

* * *

(*) «الرسالة» العدد : ٩٠ ، ٢٠ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ مارس / آذار ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٤٤٣ - ٤٤٧ .

(١) هَذَا كَمَا يُقَالُ بِالْعَامِيَّةِ : فِي عَزِّ جَرِيهِ .

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأصاحي في دارنا : أما أحدهما فكَبَشُ أَقْرَن ،
يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ قَرْنَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ شَجَرَةَ السَّيْنِ ، وَقَدْ انْتَهَى سِمْتُهُ حَتَّى ضَاقَ جِلْدُهُ
بِلَحْمِهِ ، وَسَحَّ بَدَنُهُ بِالشَّحْمِ سَحًّا ، فَإِذَا تَحَرَّكَ خَلْتَهُ سَحَابَةٌ يَضْطَرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ،
وَيَهْتَزُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ؛ وَلَهُ وَافِرَةٌ^(١) يَجُرُّهَا خَلْفَهُ جُرًّا ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا مِنْ بَعِيدٍ حَسِبْتَهَا
حَمَلًا يَتْبَعُ أَبَاهُ ؛ وَهُوَ أَصَوْفُ ، قَدْ سَبَغَ صُوفُهُ وَاسْتَكْتَفَ وَتَرَكَمَ عَلَيْهِ ؛ فَإِذَا مَشَى تَبَخَّرَ
فِيهِ تَبَخَّرُ الْغَانِيَةِ فِي حُلَّتِهَا ، كَأَنَّمَا يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِهَا أَنَّهُ يَلْبَسُ مَسَرَاتِ جِسْمِهِ لَا ثَوْبَ
جِسْمِهِ ؛ وَهُوَ مِنْ اجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَجَبْرُوتِهِ أَشْبَهُ بِالْقُلْعَةِ ، يَغْلُوها مِنْ هَامَتِهِ كَالْبُرْجِ الْحَزْبِيِّ فِيهِ
مِدْفَعَانِ بَارِزَانِ . وَتَرَاهُ أَبَدًا مُصْعَرًا خَدَّهُ كَأَنَّهُ أَمِيرٌ مِنَ الْأَبْطَالِ ، إِذَا جَلَسَ حَيْثُ كَانَ شَعَرَ
أَنَّهُ جَالِسٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ نَهْيِهِ وَلَا أَمْرِهِ .

وَأَمَّا الْآخَرُ ، فَهُوَ جَدَعٌ فِي رَأْسِ الْحَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْ مَوْلِدِهِ ، لَمْ يُدْرِكْ بَعْدَ أَنْ يُضَصَّحَى ،
وَلَكِنْ جِيءَ بِهِ لِلْقَرَمِ إِلَى لَحْمِهِ الْغَضِّ ؛ فَالْأَوَّلُ أَضْحِيَّةٌ وَهَذَا أَكُولَةٌ ؛ وَذَاكَ يُتَصَدَّقُ
بِلَحْمِهِ كُلَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَهَذَا يُتَصَدَّقُ بِثُلْثَيْهِ وَيَبْقَى الثُّلُثُ طَعَامًا لِأَهْلِ الدَّارِ .

وَكَانَ فِي لَبْنِهِ وَتَوَخُّرِهِ وَظَرْفِ تَكْوِينِهِ وَمَرَحِ طَبْعِهِ ، كَأَنَّمَا يَصُورُ لَكَ الْمَرْأَةُ أَنْسَةً
رَقِيقَةً مُتَوَدِّدَةً . أَمَّا ذَاكَ الْأَضْحَمُ الْعَلَاتِي الْمَتَجَبِّرُ الشَّامِخُ ، فَهُوَ صُورَةُ الرَّجُلِ الْوَحْشِيِّ
أَخْرَجَتْهُ الْغَابَةُ الَّتِي تُخْرِجُ الْأَسَدَ وَالْحَيَّةَ وَجُدُوعَ الدَّوْحَةِ الْأَضْحَمَةِ ، وَجَعَلَتْ فِيهِ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ مِنْهَا شَيْئًا يُخَافُ وَيَتَّقَى .

وَكَانَ الْجَدَعُ يَنْغُو لَا يَنْقَطِعُ نَغَاؤُهُ ، فَقَدْ أَخَذَ مِنْ قَطِيعِهِ أَنْزَاعًا فَأَحَسَّ الْوَحْشَةَ ،
وَتَنَبَّهَتْ فِيهِ غَزِيرَةُ الْخَوْفِ مِنَ الذَّنْبِ ، فَزَادَتْهُ إِلَى الْوَحْشَةِ قَلَقًا وَأَضْطِرَابًا ؛ وَكَانَ
لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفِلْتَ ، فَهُوَ كَأَنَّمَا يَهْرُبُ فِي الصَّوْتِ وَيَعْدُو فِيهِ عَدُوًّا .

أَمَّا الْكَبَشُ ، فَيَرَى مِثْلَ هَذَا مَسَبَّةَ لِقَرْنَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ ، وَهُوَ إِذَا كَانَ فِي الْقَطِيعِ كَانَ
كَبَشَهُ وَحَامِيَهُ وَالْمُقَدَّمَ فِيهِ ، فَيَكُونُ الْقَطِيعُ مَعَهُ وَفِي كَنَفِهِ وَلَا يَكُونُ هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ مَعَ
الْقَطِيعِ ؛ فَإِذَا فَقَدَ جَمَاعَتَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلَةِ الْمُنْتَظَرِ أَنْ يَلْحَقَ بِغَيْرِهِ لِيَحْتَمِيَ بِهِ فَيَقْلَقَ

(١) أَلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَيُقَالُ : كَبَشَ الْيَأْنَ ، إِذَا كَانَ عَظِيمَ الْأَلِيَّةِ .

وَيَضْطَرِبُ ، وَلَكِنَّهُ فِي مَنَزَلَةِ الْمُزْتَقِبِ أَنْ يُلْحَقَ بِهِ غَيْرُهُ طَلَبًا لِحِمَايَتِهِ وَذِمَارِهِ ، فَهُوَ سَاكِنٌ رَابِطٌ أَلْجَأْسِ مُغْتَبِطُ النَّفْسِ ، كَأَنَّمَا يَتَصَدَّقُ بِالْإِنْتِظَارِ ...

* * *

فَلَمَّا أَذْبَرَ النَّهَارَ وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ، جِيءَ لِلْخُرُوفَيْنِ بِالْكَلا مِنْ هَذَا الْبَرَسِيمِ يَغْتَلِفَانِهِ ، فَأَحْسَ الْكَبِشُ أَنَّ فِي الْكَلا شَيْئًا لَمْ يَذَرِ مَا هُوَ ، وَأَنْقَبَضَتْ نَفْسُهُ لِمَا كَانَتْ تَنْبَسِطُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَعَرَنَتْ كَابَهُ مِنْ رُوحِهِ ، كَأَنَّمَا أَدْرَكَتْ هَلْدِهِ الرُّوحُ أَنَّهُ آخِرُ رِزْقِهِ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَنكَسَرَ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ مَعْنَى الذَّبْحِ قَبْلَ أَنْ يُذْبَحَ ، وَعَافَ أَنْ يَطْعَمَ ، وَرَجَعَ كَأَوَّلِ فِطَامِهِ عَنْ أُمِّهِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ بِأَكْلُ ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَكْلِهِ إِلَّا أَذْنَى تَنَاوُلٍ .

وَكَأَنَّمَا جَنَمَ الظَّلَامُ عَلَى شَخِيمِهِ وَلَحْمِهِ ؛ فَإِنَّهُ مَتَى ثَقُلَ أَلْهَمُ عَلَى نَفْسٍ مِنَ الْأَنْفُسِ ، ثَقُلَ عَلَى سَاعَتِهَا الْبَنَى تَكُونُ فِيهَا ، فَتَطُولُ كَابَتُهَا وَيَطُولُ وَقْتُهَا جَمِيعًا ... فَأَرَادَ الْكَبِشُ أَنْ يَتَفَرَّجَ مِمَّا بِهِ ، وَيُنْقَسَ عَنْ صَدْرِهِ شَيْئًا ، وَكَانَ الصَّغِيرُ قَدْ أَسِسَ إِلَى الْمَكَانِ وَالظُّلْمَةِ ، وَأَقْبَلَ يَغْتَلِفُ وَيَخْضِمُ الْكَلا ، فَقَالَ لَهُ الْكَبِشُ : أَرَاكَ فَارِهًا يَا ابْنَ أَخِي ، كَأَنَّكَ لَا تَجِدُ مَا أَحَدٌ ؛ إِنِّي وَاللَّهِ أَعْلَمُ عِلْمًا لَا تَعْلَمُهُ ، وَإِنِّي لَأَحْسُ أَنَّ الْقَدَرَ طَرِيقُهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَهُوَ مُضْبِحُنَا مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌ .

قَالَ الصَّغِيرُ : أَتَغْنِي الذُّبُّ ؟

قَالَ : لَيْتَهُ هُوَ ، فَأَنَا لَكَ بِهِ لَوْ أَنَّهُ الذُّبُّ ؛ إِنَّ صُوفِي هَذَا دِرْعٌ مِنْ أَظَافِرِهِ ، وَهُوَ كَالشَّبَكَةِ يَنْسَبُ فِيهَا الظُّفُرُ وَلَا يَتَخَلَّصُ ، وَمِنْ قَرْنَيَّ هَذَيْنِ تُرْسٌ وَرُمَحٌ ، فَأَنَا وَائِثٌ مِنْ إِحْرَارِ نَفْسِي فِي قِتَالِهِ ^(١) ، وَمَنْ أَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ فَذَاكَ قَتْلُ عَدُوِّهِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ فَقَدْ غَاظَهُ بِالْهَزِيمَةِ ، وَذَاكَ عِنْدَ الْأَبْطَالِ فَنٌّ مِنَ الْقَتْلِ . وَهَذَا الْقَرْنُ الْمُتَلَتُّ الْأَعْقَدُ الْمُذْرَبُ كَالسِّنَانِ ، لَا يَكَادُ يَرَاهُ الذُّبُّ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ حَاطِمَةُ عِظَامِهِ ، فَيَحْدُثُ لَهُ مِنَ الْفَزَعِ مَا تَنَحَّلُ بِهِ قُوَّتُهُ ، فَمَا يُوَاثِقُنِي إِلَّا مُتَخَذِلًا ؛ وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ إِلَّا تَوَهُمُ الدُّثِّيَّةِ لِلْخُرُوفِيَّةِ ، فَإِنَّ أَسَاسَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ كُلُّهُمَا فِي السُّوسِ وَالطَّبِيعَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْخُرُوفِيَّةِ

(١) فِي نَسْخَةِ الْعُرَيَّانِ : « قَتْلِهِ » بَدَلًا مِنْ : « قِتَالِهِ » .

إِلَى الْجَامُوسِيَّةِ . . . ! فَمَا يَعْلَمُهُ ذَلِكَ إِلَّا بِقُرْبَطِهِ أَوْ التَّطْوِينِ بِهِ مِنْ فَوْقِ هَذَا الْقَرْنِ ، أَقْدَفُهُ قَذْفُهُ عَالِيَةً تَلْقِيهِ مِنْ حَالِي ، فَتَدُقُّ عِظَامُهُ وَتُحْطَمُ قَوَائِمُهُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : فَمَاذَا تَخْشَى بَعْدَ الذَّنْبِ ؟ إِنْ كَانَتِ الْعَصَا فِيهِ إِنْمَا تَضْرِبُ مِنْكَ الصُّوفَ لَا الظَّهَرَ .

قَالَ الْكَبِشُ : وَيَحْك ! وَأَيُّ خُرُوفٍ يَخْشَى الْعَصَا ؟ وَهِيَ إِنْمَا تَكُونُ عَصَا مَنْ يَغْلِفُهُ وَيَرْعَاهُ ، فِيهِ تَنْزِلُ عَلَيْهِ كَمَا تَنْزِلُ عَلَى ابْنِ آدَمَ أَقْدَارُ رَبِّهِ ، لَا حِطْمًا وَلَكِنْ تَأْدِيبًا أَوْ إِشَادًا أَوْ تَهْوِيلًا ؛ وَمِنْ قَبْلِهَا النُّعْمَةُ ، وَتَكُونُ مَعَهَا النُّعْمَةُ ، وَتَجِيءُ بَعْدَهَا النُّعْمَةُ ؛ أَقْبَلُ الْكُفْرُ مِنَّا مَا يَنْبَلُغُ كُفْرُ الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ : إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَتَأَيَّ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ أَنْطَلَقَ ذَا صُرَاخٍ عَرِيضٍ ؟

وَكَيْفَ تَرَانِي وَيَحْك أَخْشَى الذَّنْبِ أَوْ الْعَصَا ، وَأَنَا مِنْ سُلَالَةِ الْكَبِشِ الْأَسَدِيِّ ؟

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا الْكَبِشُ الْأَسَدِيُّ ، وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ مِنْ نَجْلِهِ ، وَلَا عَلِمَ لِي أَنَا إِلَّا هَذَا الْكَلَامَ وَالْعَلْفَ وَالْمَاءَ ، وَالْمَرَاخَ وَالْمَعْدَى ؟

قَالَ الْكَبِشُ : لَقَدْ أَذْرَكْتُ أُمِّي وَهِيَ نَعْجَةٌ فَحَمَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَأَذْرَكْتُ مَعَهَا جَدِّي وَقَدْ أَفْرَطَ عَلَيْهَا الْكِبَرُ حَتَّى ذَهَبَ فَمَهَا ، وَأَذْرَكْتُ مَعَهَا جَدِّي وَهُوَ كَبِشٌ هَرِمٌ مُتَقَدِّدٌ أَعْجَفُ كَأَنَّهُ عِظَامٌ مُعْطَاةٌ ، فَعَنَ هَؤُلَاءِ أَحَدْتُ وَرَوَيْتُ وَحَفِظْتُ :

حَدَّثَنِي أُمِّي ، عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَتْ : إِنْ فَعَرَ جَنْسِنَا مِنَ الْغَنَمِ يَرْجِعُ إِلَى كَبِشِ الْفِدَاءِ الَّذِي فَدَى اللَّهُ بِهِ أَسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَكَانَ كَبِشًا أَبْيَضَ أَفْرَنَ أَعْيَنَ ، أَسْمُهُ حَرِيرٌ .

قَالَ : وَأَعْلَمَ يَا ابْنَ أَخِي أَنَّ مِمَّا أَنْفَرَدْتُ أَنَا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ فَلَمْ يُذْرِكْهُ غَيْرِي ، أَنَّ جَدَّنَا هَذَا كَانَ مَكْسُورًا بِالْحَرِيرِ لَا بِالصُّوفِ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ حَرِيرًا . . .

قَالَتْ أُمِّي : وَالْمَحْفُوظُ عِنْدَ عَلَمَائِنَا أَنَّ ذَاكَ هُوَ الْكَبِشُ الَّذِي قَرَبَهُ هَابِلُ حِينَ قَتَلَ أَخَاهُ ، لِتَمِّمِ الْبَلِيَّةَ عَلَى هَلِكِهِ الْأَرْضِ بِدَمِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ مَعًا .

قَالُوا : فَتَقَبَّلَ مِنْهُ وَأُرْسِلَ الْكَبِشُ إِلَى الْجَنَّةِ فَبَقِيَ يَزْعَى فِيهَا حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي هَمَّ

فِيهِ إِبرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ تَحْقِيقًا لِرُؤْيَا النُّبُوَّةِ ، وَطَاعَةً لِمَا أُبْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْامْتِحَانِ ، وَلَيْسَتْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ إِذَا قَوِيَ إِيمَانُهُ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَلَوْ جَزَّ السَّكِينُ عَلَى عُقْبِ ابْنِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَجُزُّهَا عَلَى ابْنِهِ وَعَلَى قَلْبِهِ !
قَالَتْ : فَهَذَا هُوَ فَخْرُ جَنَسِنَا كُلِّهِ .

أَمَّا فَخْرُ سَلَالَتِي أَنَا ، فَذَلِكَ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ جَدَّتِي ، تَرَوْنِي عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ جَدِّهَا ، وَذَلِكَ حِينَ تَوَسَّمتْ فِي مَخَالِلِ الْبُطُولَةِ ، وَرَجَتْ أَنْ أَحْفَظَ التَّارِيخَ . قَالَتْ : إِنْ أَصْلَنَّا مِنْ دِمَشْقَ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَبَاعَ ، قَدْ اتَّخَذَ شِبْلَ أَسَدٍ قَرِيبًا وَرَاضَهُ حَتَّى كَبُرَ ، وَصَارَ يَطْلُبُ الْخَيْلَ ، وَتَأْدَى بِهِ النَّاسُ ، فَقِيلَ لِلْأَمِيرِ ^(١) : هَذَا السَّبْعُ قَدْ آذَى النَّاسَ ، وَالْخَيْلَ تَنْفِرُ مِنْهُ وَتَجِدُ مِنْ رِيحِهِ رِيحَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ رَابِضًا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ عَلَى سُدَّةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ دَارِكَ . فَأَمَرَ فَجَاءَ بِهِ السَّبَاعُ وَأَدْخَلَهُ إِلَى الْقَصْرِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِخُرُوفٍ مِمَّا اتَّخَذَ فِي مَطْبَخِهِ لِلذَّبْحِ ، وَأَدْخَلُوهُ إِلَى قَاعَةٍ ، وَجَاءَ السَّبَاعُ فَأَطْلَقَ الْأَسَدَ عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعُوا يَرُونَ كَيْفَ يَسْطُو بِهِ وَيَفْتَرِسُهُ .

قَالَتْ جَدَّتِي : فَحَدَّثْتَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثْتَنِي جَدُّكَ : أَنَّ السَّبَاعَ أَطْلَقَ الْأَسَدَ مِنْ سَاجُورِهِ ^(٢) وَأَرْسَلَهُ ، فَكَانَتِ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي لَمْ يَفُزْ بِهَا خُرُوفٌ وَلَمْ تُؤْثَرْ قَطُّ إِلَّا عَنْ جَدَّنَا ، فَإِنَّهُ حَسِبَ الْأَسَدَ خُرُوفًا أَجْمَ لَا قُرُونَ لَهُ ، وَرَأَى دَقَّةَ خَصْرِهِ ، وَضُمُورَ جَنْبِيهِ ، وَرَأَى لَهُ ذَيْلًا كَالْأَلْيَةِ الْمُفْرَعَةِ الْمَيْتَةِ ، فَظَنَّهُ مِنْ مَهَازِيلِ الْغَنَمِ الَّتِي قَتَلَهَا الْجَذْبُ ، وَكَانَ هُوَ شَبْعَانَ رِيَّانَ ، فَمَا كَذَبَ أَنْ حَمَلَ عَلَى الْأَسَدِ وَنَطَحَهُ ، فَأَنْهَزَمَ السَّبْعُ مِمَّا أَذْهَلَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُفَاجِئَةِ ، وَحَسِبَ جَدَّنَا سَبْعًا قَدْ زَادَهُ اللَّهُ أَسْلِحَةً مِنْ قَرْنِيهِ ، فَأَعْتَرَاهُ الْخَوْفُ وَأَذْبَرَ لَا يَلُوي . وَطَمَعَ جَدَّنَا فِيهِ فَاتَّبَعَهُ ، وَمَا زَالَ يُطَارِدُهُ وَيَنْطَحُهُ ، وَالْأَسَدُ يَفِرُّ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدُورُ حَوْلَ الْبِرْكَةِ ، وَالْقَوْمُ قَدْ غَلِبَهُمُ الضَّحِكُ ، وَالْأَمِيرُ مَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ إِعْجَابًا وَفَخْرًا

(١) هَذِهِ الْقِصَّةُ شَهِدَهَا الْأَمِيرُ الْأَدِيبُ أَسَامَةُ بْنُ مُقَيْدٍ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٨٤ لِلْهِجْرَةِ ، وَقَصَّهَا فِي كِتَابِهِ «الْإِعْتِبَارُ» [صفحة : ١٨٩] ؛ وَالْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ فِي الْقِصَّةِ هُوَ مُعِينُ الدِّينِ أَنْرُ وَزِيرُ شِهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ . وَقَدْ تَصَرَّفْنَا فِي عِبَارَةِ الْقِصَّةِ .

(٢) السَّاجُورُ : سِلْسِلَةُ الْأَسَدِ وَالْكَلْبِ وَنَحْوَهُمَا .

بِجَدَّتْنَا . فَقَالَ : هَذَا سَبْعُ لَيْمٍ ، خُذُوهُ فَأَخْرِجُوهُ ، ثُمَّ أَذْبَحُوهُ ، ثُمَّ أَسْلَخُوهُ . فَأَخَذَ
الْأَسَدُ وَذُبْحَ ، وَأَعْتَقَ جَدَّتْنَا مِنَ الذَّبْحِ ، وَكَانَ لَنَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا : إِنْسَانُهَا وَحَيَوَانُهَا أَتْرَافِ
عَظِيمَانِ ؛ فَجَدَّتْنَا الْأَوَّلُ كَانَ فِدَاءَ لَابَنِ نَبِيِّ ، وَجَدَّتْنَا الثَّانِي كَانَ الْأَسَدُ فِدَاءَهُ !

* * *

قَالَ الصَّغِيرُ لِلْكَبِشِ : قُلْتُ : الذَّبْحُ ، وَالْفِدَاءُ مِنَ الذَّبْحِ ؛ فَمَا الذَّبْحُ ؟
قَالَ الْكَبِشُ : هَذِهِ الشُّتَةُ الْجَارِيَةُ بَعْدَ جَدَّتْنَا الْأَعْظَمِ ، وَهِيَ الْبَاقِيَةُ آخِرَ الدَّهْرِ ؛ فَيَبْغِي
لِكُلِّ مِثْلٍ أَنْ يَكُونَ فِدَاءَ لَابَنِ آدَمَ !

قَالَ الصَّغِيرُ : ابْنُ آدَمَ هَذَا الَّذِي يَخْدِمُنَا وَيَخْتَرُ لَنَا الْكَلَاءَ ، وَيَقْدِمُ لَنَا الْعَلَفَ ،
وَيَمْسِي وَرَاءَنَا فَتَسْحَبُهُ إِلَى هُنَا وَهَلْهُنَا . . . ؟ تَأَلَّهُ مَا أَظُنُّ الدُّنْيَا إِلَّا قَدْ انْقَلَبَتْ ، أَوْ لَا ،
فَأَنْتَ يَا أَخَا جَدِّي . . . قَدْ كَبُرْتَ وَخَرِفْتَ !

قَالَ الْكَبِشُ : وَيَحْكُ يَا أَبْلَهُ ! مَتَى تَتَحَلَّلُ هَذِهِ الْعُقْدَةُ الَّتِي فِي عَقْلِكَ ؟ إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ
مَا أَعْلَمَ لَمَا أَطْمَأَنْنْتَ بِكَ الْأَرْضُ ، وَلَرَجَعْتَ مِنَ الْفَلَقِ وَالْأَضْطِرَابِ كَحَبَّةِ الْقَمْحِ فِي غُرْبَالٍ
يَهْتَزُّ وَيَتَنَفَّضُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : أَتَعْنِي ذَلِكَ الْغُرْبَالُ وَذَلِكَ الْقَمْحُ وَمَا كَانَ فِي الْقَرْيَةِ ، إِذْ تَنَاقَلَتْ رَبَّةُ
الدَّارِ غُرْبَالَهَا تَنْفُضُ بِهِ قَمْحَهَا ، فَعَاثَلَتْهَا وَنَطَخَتْ الْغُرْبَالُ فَأَنْقَلَبَ عَنْ يَدَيْهَا وَأَنْشَرَ الْحَبُّ ،
فَاسْرَعَتْ فِيهِ الْفِقَاطُ حَتَّى مَلَأَتْ فَمِي قَبْلَ أَنْ تُرِيحَنِي الْمَرْأَةُ عَنْهُ ؟

فَهَزَّ الْكَبِشُ رَأْسَهُ فِعْلَ مَنْ يُرِيدُ الْإِنْتِسَامَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ ، وَقَالَ : أَرَأَيْتَ حَانُوتَ
الْقَصَّابِ ، وَنَحْنُ نَمُرُّ الْيَوْمَ فِي السُّوقِ ؟
قَالَ : وَمَا حَانُوتُ الْقَصَّابِ ؟

قَالَ : أَرَأَيْتَ ذَلِكَ السَّلِيخَ مِنَ الْغَنَمِ الْبَيْضِ الْمُعْلَقَةِ فِي تِلْكَ الْمَعَالِيقِ ، لَا جِلْدَ عَلَيْهَا
وَلَا صُوفَ ، وَلَيْسَ لَهَا أَرْوُسٌ وَلَا قَوَائِمُ ؟

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا ذَاكَ السَّلِيخُ ؟ إِنَّهُ إِنْ صَحَّ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ عَنْ أُمِّكَ ، فَهَلْزِهِ غَنَمُ
الْجَنَّةِ ، تَبِثُ تَزْعَى هُنَاكَ ثُمَّ تَجِيءُ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ الصُّبْحِ ، وَإِنِّي لَمُرْتَقِبٌ شَمْسَ الْعَدِ ،

لَا ذَهَبَ فَأَرَاهَا وَأَمَلًا عَيْنِي مِنْهَا .

قَالَ : أَسَمِعَ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! إِنَّ شَمْسَ الْغَدِ سَتَشْعُرُ بِهَا مِنْ تَحْنِكَ لَا مِنْ فَوْقِكَ . . . !
لَقَدْ رَأَيْتُ أَحْيَى مُذْ كُنْتُ جَذَعًا مِثْلَكَ ؛ وَرَأَيْتُ صَاحِبَنَا الَّذِي كَانَ يَغْلِقُهُ وَيُسَمِّئُهُ قَدْ أَخَذَهُ ،
فَأَضَجَعَهُ ، فَجَنَّمْ عَلَى صَدْرِهِ شَرًّا مِنَ الذَّنْبِ ، وَجَاءَ بِشَفْرَةٍ بَيَضَاءَ لَامِعَةٍ ، فَجَرَّهَا عَلَى
حَلْقِهِ ، فَإِذَا دَمُهُ يَشْخَبُ وَيَتَفَجَّرُ ، وَجَعَلَ الْمَسْكِينُ يَنْتَفِضُ وَيَذْخُضُ بِرِجْلِهِ ، ثُمَّ سَكَنَ
وَبَرَدَ ؛ فَقَامَ الرَّجُلُ فَفَصَلَ عُنُقَهُ ، ثُمَّ نَحَسَ فِي جِلْدِهِ وَنَفَخَهُ حَتَّى تَطَلَّ وَرَجَعَ كَالْفَرَزَةِ الَّتِي
رَأَيْتَهَا فِي الْفَرَزَةِ مَمْلُوءَةً مَاءً فَحَسِبْتُهَا أُمَّكَ ؛ ثُمَّ شَقَّ فِيهِ شِقًّا طَوِيلًا . ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ
الْجِلْدِ وَالصِّفَاقِ ، ثُمَّ كَشَطَهُ وَسَحَفَ السَّحْمَ عَنْ جَنْبَيْهِ ، فَعَادَ الْمَسْكِينُ أَبْيَضَ لَا جِلْدَ لَهُ
وَلَا صُوفَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَقَرَ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ حَطَمَ قَوَائِمَهُ ، ثُمَّ شَدَّهُ فَعَلَقَهُ فَصَارَ
سَلِيخًا كَغَنَمِ الْجَنَّةِ الَّتِي زَعَمْتَ ! وَهَذَا - أَيُّهَا الْأَبْلَهُ - هُوَ الذَّنْبُ وَالسَّلَخُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَا الَّذِي أَحْدَثَ هَذَا كُلَّهُ ؟

قَالَ : الشَّفْرَةُ الْبَيَضَاءُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا السَّكِينُ !

قَالَ الصَّغِيرُ : فَقَدْ كَانَتْ الشَّفْرَةُ عِنْدَ حَلْقِهِ حِيَالَ فَمِهِ ؛ فَلِمَاذَا لَمْ يَنْتَزِعْهَا فَيَأْكُلَهَا ؟
قَالَ الْكَبِشُ : أَيُّهَا الْأَبْلَهُ الَّذِي لَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَحْفَظُ شَيْئًا ، لَوْ كَانَتْ خَضِرَاءَ
لَأَكَلَهَا !

قَالَ : وَمَا خَطْبُ أَنْ تَجِيءَ الشَّفْرَةُ عَلَى الْعُنُقِ ، أَفَلَمْ يَكُنِ الْحَبْلُ فِي عُنُقِكَ أَنْتَ
فَجَعَلْتَ تُجَادِبُ فِيهِ الرَّجُلَ حَتَّى أَعْيَيْتَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي مَسَيْتُ أَمَامَكَ لَمَا انْتَقَذْتَ لَهُ ؟
قَالَ الْكَبِشُ : مَا أَدْرِي وَاللَّهِ كَيْفَ أَفْهَمُكَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سَيَجْرِي عَلَيْكَ ، فَسَتَرَى أُمُورًا
تُنَكِّرُهَا ، فَتَعْرِفُ مَا الذَّنْبُ وَالسَّلَخُ ، ثُمَّ تَصِيرُ أَشْلَاءَ فِي الْقُدُورِ تُضْرَمُ عَلَيْهَا النَّارُ ،
فَيَأْكُلُكَ ابْنُ آدَمَ كَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ هَذَا الْكَلَاءُ . . . !

قَالَ الصَّغِيرُ : وَمَاذَا عَلَيَّ أَنْ يَأْكُلَنِي ابْنُ آدَمَ ، أَلَا تَرَانِي أَكُلُ الْعُشْبَ ، فَهَلْ سَمِعْتَ
عُودًا مِنْهُ يَقُولُ : الرَّجُلُ وَالسَّكِينُ ، وَالذَّنْبُ وَالسَّلَخُ . . . ؟

قَالَ الْكَبِشُ فِي نَفْسِهِ : لَعَمْرِي إِنَّ قُوَّةَ الشَّبَابِ فِي الشَّبَابِ أَقْوَى مِنْ حِكْمَةِ الشُّيُوخِ فِي

الشُّيُوخُ ، وَمَا نَفَعُ الْحِكْمَةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا رَأْيًا لَيْسَ لَهُ مَا يُمِضُّهُ ، كَرَأْيِ الشَّيْخِ الْفَانِي ؛ يَرَى بِعَقْلِهِ الصَّوَابَ حِينَ يَكُونُ جِسْمُهُ هُوَ الْخَطَأُ مُرَكَّبًا فِي ضَعْفِهِ غَلْطَةٌ عَلَى غَلْطَةٍ لَا عُضْوًا عَلَى عُضْوٍ . . ؟ وَهَلِ الرَّأْيُ الصَّحِيحُ لِلْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ إِلَّا بِالْجِسْمِ الَّذِي نَعِيشُ بِهِ ؛ وَمَا جَدَوِي أَنْ يَعْرِفَ الْكَبِيرُ حِكْمَةَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ مِنَ الضَّعْفِ بِحَيْثُ تَنْكَسِرُ نَفْسُهُ لِلْمَرَضِ الْهَيِّنِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ الْمُعْضِلِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَوْتِ نَفْسِهِ ؛ وَمَا خَطَرُ أَنْ يَجْهَلَ الشَّبَابُ تِلْكَ الْحِكْمَةَ ، وَهُوَ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ بِحَيْثُ لَا يُبَالِي بِالْمَوْتِ ، فَضْلًا عَنِ الْمَرَضِ ؟

لَوْ أَدْنُ الشَّبَابِ مِنَ الْفَتَيَانِ يَوْمَ انْقِطَاعِ أَجَلِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُضْبِعُهُ أَوْ مُنْسِيهِ ، لَأَمَدَّتْهُ نَفْسُهُ بِأَرْوَاحِ السِّنِّينَ الطَّوِيلَةِ ، حَتَّى لَيَرَى أَنَّ صُبْحَ الْغَدِ كَأَنَّمَا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ؛ فَمَا يَتَبَيَّنُّ إِلَّا كَالْفِكْرِ الْمُنْسِيِّ مَضَى عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ . وَلَوْ أَدْنُ الشَّيْخِ يَوْمَ مَضَرَعِهِ ، وَآيَقَنَ أَنَّ لَهُ مُهْلَةً إِلَى تَمَامِ الْحَوْلِ ، لَطَارَ بِهِ الدُّعْرُ وَاسْتَفْرَعَهُ الْوَجَلُ مِنْ سَاعَتِهِ ؛ وَرَأَى يَوْمَهُ الْبَعِيدَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنَ الصُّبْحِ ، وَابْتَلَتْهُ طَبِيعَةُ جِسْمِهِ الْمُخْتَلَّ بِالْوَسَاوِسِ الْكَثِيرَةِ ، تَجْتَلِبُهَا لَهُ كَمَا تَجْتَلِبُ الرِّيَّاحُ صُدُوعَ الْجَبَرِ الْخَرِبِ . فَذَلِكَ بِالشَّبَابِ يَقْبِضُ عَلَى الزَّمَنِ ؛ فَيَعِيشُ فِي الْيَوْمِ الْقَصِيرِ مِثْلَ الْعَامِ رَحِيًّا مَمْدُودًا ؛ فَهُوَ رَابِطٌ جَلْدٌ ؛ وَهَذَا بِالْكِبَرِ يَقْبِضُ الزَّمَنَ عَلَيْهِ ، فَيَعِيشُ فِي الْعَامِ الطَّوِيلِ مِثْلَ الْيَوْمِ مُتَلَحِّقًا آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ ، فَهُوَ قَلِقٌ طَائِرٌ . وَلَا طَبِيعَةَ لِلزَّمَنِ إِلَّا طَبِيعَةُ الشُّعُورِ بِهِ ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْأَيَّامِ إِلَّا مَا تَضَعُهُ النَّفْسُ فِي الْأَيَّامِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الْكَبِيرَ نَظَرَ فَرَأَى الصَّغِيرَ قَدْ أَخَذَتْهُ عَيْنُهُ وَاسْتَقَلَّ نَوْمًا ، فَقَالَ : هَيْنَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ سِرُّ الْأَيَّامِ الْمَمْدُودَةِ . إِنَّ هَذَا السَّرَّ هُوَ كَسْرُ الْكِبَرِ الْأَخْضَرِ ، لَا يَقْطَعُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا ظَهَرَ مِنْ غَيْرِهَا سَاحِرًا هَازِنًا ، قَائِلًا عَلَى الْمَصَائِبِ : هَآنَذَا . . .

فَهَذَا الصَّغِيرُ يَنَامُ مِلءَ عَيْنَيْهِ وَالشَّفْرَةُ مَخْدُودَةٌ لَهُ ، وَالذَّبْحُ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ كَأَنَّمَا هُوَ فِي زَمَنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، فِيهِ يَنَامُ ، وَبِهِ يَلْهُو ، وَبِهِ يَسْخَرُ مِنَ الزَّمَنِ الْآخَرِ وَمَا فِيهِ وَمَا يَجْلِبُهُ .

إِنَّ الْأَلَمَ هُوَ فَهْمُ الْأَلَمِ لَا غَيْرَ . فَمَا أَفْتَحَ عِلْمَ الْعَقْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ جَهْلُ النَّفْسِ بِهِ
وإنْكَارُهُ إِيَّاهُ . حَسْبُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ فِي السُّخْرِيَةِ بِهِمْ وَبِهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مِنَ النَّفْسِ . أَنَا لَوْ
نَاطَحْتُ كَبِشًا مِنْ قُرُومِ الْكِبَاشِ ، وَوَقَفْتُ أَفْكَرُ وَأَدْبَرُ وَأَتَأَمَّلُ ، وَأَعْتَبِرُ شَيْئًا بِشَيْءٍ - ذَهَبَ
فِكْرِي بِقُوَّتِي ، وَاسْتَرْخَى عَصْبِي ، وَتَحَلَّلَ غَضْبِي كُلُّهُ ، وَكَانَ الْعِلْمُ وَبَالًا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ
حَاجَتِي حِينَئِذٍ إِلَى الرُّوحِ وَقُوَّاهَا وَأَسْبَابِهَا أَضْعَافٌ حَاجَتِي إِلَى الْعِلْمِ . وَالرُّوحُ لَا تَعْرِفُ
شَيْئًا أَسْمُهُ الْمَوْتُ ، وَلَا شَيْئًا أَسْمُهُ الْوَجَعُ ؛ وَإِنَّمَا تَعْرِفُ حَظَّهَا مِنَ الْيَقِينِ ، وَهُدُوءَهَا
بِهَذَا الْحَظِّ ، وَاسْتِفْرَازَهَا مُؤَمَّتَةً مَا دَامَتْ هَادِئَةً مُسْتَقِينَةً .

وَقَدْ وَآلَهُ صَدَقَ هَذَا الْجَدْعُ الصَّغِيرُ ؛ فَمَا عَلَى أَحَدِنَا أَنْ يَأْكُلَهُ الْإِنْسَانُ ؟ وَهَلْ أَكَلْنَا
نَحْنُ هَذَا الْعُشْبَ ، وَأَكَلُ الْإِنْسَانِ إِيَّانَا ، وَأَكَلُ الْمَوْتُ لِلْإِنْسَانِ - هَلْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا وَضْعٌ
لِلْحَاطِمَةِ فِي شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِهَا ؟

يُشَبِّهُ وَآلَهُ إِنْ أَنَا احْتَجَجْتُ عَلَى الذَّنْبِ وَاعْتَمَمْتُ لَهُ ، أَنْ أَكُونَ كَخُرُوفٍ أَحْمَقَ لَا عَقْلَ
لَهُ ، فَظَلَّ إِطْعَامَ الْإِنْسَانِ إِيَّاهُ مِنْ بَابِ إِطْعَامِهِ ابْنَهُ وَابْنَتَهُ وَأَمْرَأَتَهُ وَمَنْ تَجِبَ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ !
وَهَلْ أَوْجَبَ نَفَقَتِي عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا لَحْمِي ؟ فَإِذَا اسْتَحَقَّ لَهُ فَلَعَمْرِي مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْعَمَ
أَنَّهُ ظَلَمَنِي اللَّحْمُ إِلَّا إِذَا أَفْرَزْتُ عَلَى نَفْسِي بَدِيًّا أَنِّي أَنَا ظَلَمْتُهُ الْعَلْفَ وَسَرَقْتُهُ مِنْهُ .

كُلُّ حَيٍّ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لِلْحَيَاةِ أُعْطِيَهَا عَلَى شَرْطِهَا ، وَشَرْطُهَا أَنْ تَنْتَهِيَ ؛ فَسَعَادَتُهُ فِي
أَنْ يَعْرِفَ هَذَا وَيَقَرَّرَ نَفْسُهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَقِينَهُ ، كَمَا يَسْتَقِينُ أَنْ الْمَطَرُ أَوَّلُ فَضْلِ الْكَلَالِ
الْأَخْضَرِ . فَإِذَا فَعَلَ { ذَلِكَ } وَاقْنَعَ وَأَطْمَأَنَّ ، جَاءَتِ النَّهْيَةُ مُتَمِّمَةً لَهُ لَا نَاقِصَةً إِيَّاهُ ،
وَجَرَتْ مَعَ الْعُمُرِ مَجْرَى وَاحِدًا وَكَانَ قَدْ عَرَفَهَا وَأَعَدَّ لَهَا . أَمَّا إِذَا حَسِبَ الْحَيُّ أَنَّهُ شَيْءٌ فِي
الْحَيَاةِ ، وَقَدْ أُعْطِيَهَا عَلَى شَرْطِهَا هُوَ ، مِنْ تَوْهَمِ الطَّمَعِ فِي الْبَقَاءِ وَاللَّعِيمِ ، فَكُلُّ شَفَاءٍ
الْحَيِّ فِي وَهْمِهِ ذَلِكَ ، وَفِي عَمَلِهِ عَلَى هَذَا أَلْوَهْمِ ؛ إِذْ لَا تَكُونُ النَّهْيَةُ حِينَئِذٍ فِي مَجِيئِهَا
إِلَّا كَالْعُقُوبَةِ أَنْزَلْتُ بِالْعُمُرِ كُلِّهِ ، وَتَجِيءُ هَادِمَةً مُنْغَصَّةً ، وَيَبْلُغُ مِنْ تَنْكِيدِهَا أَنْ تَسْبِقَهَا
الْأَمَهَا ، فَتَوْلِمَ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ ، شَرًّا مِمَّا تَوْلِمَ حِينَ تَجِيءُ !

لَقَدْ كَانَ جَدِّي وَآلَهُ حَكِيمًا يَوْمَ قَالَ لِي : إِنَّ الَّذِي يَعِيشُ مُتَرَقِّبًا النَّهْيَةَ يَعِيشُ مُعِدًّا
لَهَا ؛ فَإِنْ كَانَ مُعِدًّا لَهَا عَاشَ رَاضِيًا بِهَا ، فَإِنْ عَاشَ رَاضِيًا بِهَا كَانَ عُمُرُهُ فِي حَاضِرٍ

مُسْتَمِرٌّ ، كَأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ يَشْهَدُ أَوْلَاهَا وَيُحْسِنُ آخِرَهَا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الزَّمَنُ أَنْ يُنْغَصِرَ عَلَيْهِ مَا دَامَ يَنْقَادُ مَعَهُ وَيَنْسَجِمُ فِيهِ ، غَيْرَ مُحَاوِلٍ فِي اللَّيْلِ أَنْ يُبْعِدَ الصُّبْحَ ، وَلَا فِي الصُّبْحِ أَنْ يُبْعِدَ اللَّيْلَ . قَالَ لِي جَدِّي : وَالْإِنْسَانُ وَخَدَهُ هُوَ التَّعَسُّ الَّذِي يُحَاوِلُ طَرْدَ نَهَائَتِهِ ، فَيَشْفَى شَقَاءَ الْكَبْشِ الْأَخْرَقِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَطْرُدَ اللَّيْلَ ، فَيَبِيتُ يَنْطَحُ الظُّلْمَةَ الْمُتَدَجِّجَةَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهُوَ لِحُمَقِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْطَحُ اللَّيْلَ بِقَرْنَيْهِ وَيُرْزِخِرْهُ . . . !

وَكَمْ قَالَ لِي ذَلِكَ الْجَدُّ الْحَكِيمُ وَهُوَ يَعْظُنِي : إِنْ الْحَيَوَانَ مِتَّا إِذَا جَمَعَ عَلَى نَفْسِهِ هَمًّا وَاحِدًا ، صَارَ بِهِذَا أَلْهَمٌ إِنْسَانًا تَعَسَا شَقِيًّا ، يُعْطَى الْحَيَاةَ فَيَقْلِبُهَا بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ شَيْنًا كَالْمَوْتِ ، أَوْ مَوْتًا بِلَا شَيْءٍ . . . !

* * *

وَتَحَرَّكَ الصَّغِيرُ مِنْ نَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْكَبْشُ : إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي أَنَّكَ السَّاعَةُ كُنْتُ فِي شَأْنٍ عَظِيمٍ ، فَمَا بِأَنَّكَ مُتَنَفِّخًا وَأَنْتَ هَهُنَا فِي الْمَنَحْرِ لَا فِي الْمَرْعَى !
قَالَ الصَّغِيرُ : يَا أَخَا جَدِّي . . . لَقَدْ تَحَقَّقْتُ أَنَّكَ هَرِمْتَ وَخَرِفْتَ ، وَأَصْبَحْتَ تَمُجُّ اللَّعَابَ وَالرَّأْيَ . . . !

قَالَ الْكَبْشُ : فَمَا ذَلِكَ وَيْلَكَ ؟

قَالَ : إِنَّكَ قُلْتَ : إِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ غَادٍ عَلَيْنَا بِالشَّفَرَةِ الْبَيْضَاءِ ، وَوَصَفْتَ الذَّبْحَ وَالسَّلَاحَ وَالْأَكْلَ ؛ وَأَنَا السَّاعَةُ قَدْ نِمْتُ فَرَأَيْتُ فِيمَا أَرَى ، أَنَّنِي نَطَحْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي جَاءَ بِنَا إِلَى هُنَا ، وَهَجْتُ بِهِ حَتَّى صَرَغَتْهُ ، ثُمَّ إِنِّي أَخَذْتُ الشَّفَرَةَ بِأَسْنَانِي ، فَقَلَعْتُهُ فِي نَحْرِهِ حَتَّى ذَبَحْتُهُ ، ثُمَّ أَتَلَذْتُ مِنْهُ مُضْغَةً فَلَكَّطْتُهَا فِي فَمِي ؛ فَمَا عَرَفْتُ وَاللَّهِ فِيمَا عَرَفْتُ لَحْنًا وَلَا عَقًّا فِي الْكَلَامِ هُوَ أَفْبَحُ مَذَاقًا مِنْهُ !

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ لَحْمَنَا ، وَيَتَغَدَّى بِنَا ، وَيَعِينُ عَلَيْنَا ؛ فَمَا أَسْعَدَنَا أَنْ نَكُونَ لِغَيْرِنَا فَائِدَةً وَحَيَاةً ، وَإِذَا كَانَ الْفَنَاءُ سَعَادَةً نُعْطِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، فَهَذَا الْفَنَاءُ هُوَ سَعَادَةٌ نَأْخُذُهَا لِأَنْفُسِنَا ؛ وَمَا هَلَاكَ الْحَيِّ لِقَاءَ مُتَفَعِّعٍ لَهُ أَوْ مُتَفَعِّعٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْطَلَقَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ حَيًّا ، صَارَتْ حُرَّةً فَانْطَلَقَتْ تَعْمَلُ أَفْضَلَ أَعْمَالِهَا .

قَالَ الْكَبِيرُ : لَقَدْ صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، وَنَحْنُ بِهِذَا أَغْقَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّهُ يَقْضِي
الْعُمُرَ آخِذًا لِنَفْسِهِ ، مُتَكَالِبًا عَلَى حَظِّهَا ، وَلَا يُعْطِي مِنْهَا إِلَّا بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْخَوْفِ .
تَعَالَ أَثِيهَا الذَّابِحُ ، تَعَالَ خُذْ هَذَا اللَّحْمَ وَهَذَا الشَّخَمَ ؛ تَعَالَ أَثِيهَا الْإِنْسَانُ لِنُعْطِيكَ ؛ تَعَالَ
أَثِيهَا الشَّخَاذُ . . . !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

الطُفُولَتَانِ (*)

عِصْمَتُ ابْنِ فُلَانٍ بَاشَا طِفْلٌ مُتَرَفٌّ يَكَادُ يَنْعَصِرُ لِنِنَا ، وَتَرَاهُ يَرِفُ رَفِيفًا مِمَّا نَشَأُ فِي ظِلَالِ الْعِزِّ ، كَأَنَّ لِرُوحِهِ مِنَ الرِّقَّةِ مِثْلَ ظِلِّ الشَّجَرَةِ حَوْلَ الشَّجَرَةِ . وَهُوَ بَيْنَ لِدَاتِهِ مِنَ الصَّبِيَّانِ كَالشَّوْكََةِ الْخَضِرَاءِ فِي أُمْلُوذَهَا الرِّيَّانِ ، لَهَا مَنْظَرُ الشَّوْكََةِ ؛ عَلَى مَجَسَّةٍ لَيْتَنَ نَاعِمَةٍ تَكْذِبُ أَنَّهَا شَوْكَةٌ إِلَّا أَنَّ تَبَيَّنَ وَتَتَوَقَّحَ .

وَأَبُوهُ فُلَانٌ [بَاشَا] مُدِيرٌ لِمُدِيرِيَّةٍ كَذَا ، إِذَا سُئِلَ عَنْهُ أَيْتُهُ قَالَ : إِنَّهُ مُدِيرُ الْمُدِيرِيَّةِ . لَا يَكَادُ يَغْدُو هَذَا التَّرَكِيبَ ، كَأَنَّهُ مِنْ غُرُورِ النِّعْمَةِ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ أَبَاهُ مُدِيرًا مَرَّتَيْنِ . . . وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ النِّعْمَةُ بِذِيْنَةٍ وَقَاحًا سَيِّئَةِ الْأَدَبِ فِي أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْغِنَى فِي أَهْلِهِ غِنَى مِنَ السَّيِّئَاتِ لَا غَيْرَ !

وَفِي رَأْيِي عِصْمَتُ أَنْ أَبَاهُ مِنْ غُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ كَأَنَّهُ عَلَى جَنَاحِ النَّسْرِ الطَّائِرِ فِي مَسْبَحِهِ إِلَى النِّجَمِ ، أَمَّا أَبَاءُ الْأَطْفَالِ مِنَ النَّاسِ فَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ سَقُوطِ الْمَنْزِلَةِ عَلَى أَجْنِحَةِ الدُّبَابِ وَالْبُعُوضِ ! وَلَا يَغْدُو ابْنُ الْمُدِيرِ إِلَى مَدْرَسَتِهِ وَلَا يَتَرَوَّحُ مِنْهَا إِلَّا وَرَاءَهُ جُنْدِيٌّ يَمْشِي عَلَى إِثْرِهِ فِي الْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ إِذْ كَانَ ابْنُ الْمُدِيرِ ، أَيُّ : ابْنِ الْقُوَّةِ الْحَاكِمَةِ ، فَيَكُونُ هَذَا الْجُنْدِيُّ وَرَاءَ هَذَا الطِّفْلِ كَالْمَنْبَهَةِ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ ، تَفْصِيحُ شَارْتُهُ الْعَسْكَرِيَّةُ بِلُغَاتِ السَّابِلَةِ جَمْعَاءَ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ الْمُدِيرِ . فَإِذَا رَأَاهُ الْعَرَبِيُّ أَوْ الْيُونَانِيُّ ، أَوْ الطُّلْيَانِيُّ أَوْ الْفَرَنْسِيُّ ، أَوْ الْإِنْكِلِيزِيُّ أَوْ كَائِنْ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَلْسِنَةِ الْمُتَتَافِرَةِ الَّتِي لَا يَفْهَمُ لِسَانَ مِنْهَا عَنْ لِسَانٍ - فَهَمُّوا جَمِيعًا مِنْ لُغَةٍ هَذِهِ الشَّارَةِ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ الْمُدِيرِ . وَأَنَّهُ مِنَ الْجُنْدِيِّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ كَالْمَادَّةِ مِنَ الْقَانُونِ وَرَاءَهَا الشَّرْحُ . . . !

وَلَقَدْ كَانَ يَجِبُ لِابْنِ الْمُدِيرِ هَذَا الشَّرْفُ الصَّبِيَّانِيُّ . لَوْ أَنَّهُ يَوْمَ وُلِدَ لَمْ يُؤَلَدِ ابْنُ سَاعَتِهِ

كَأَطْفَالِ النَّاسِ ، بَلْ وَلَدَ ابْنٌ عَشْرٍ سِنِينَ كَامِلَةً لِتَشْهَدَ لَهُ الطَّبِيعَةُ أَنَّهُ كَبِيرٌ قَدْ أَنْصَدَعَتْ بِهِ مُعْجَزَةٌ ! وَإِلَّا فَكَيْفَ يَمْسِي الْجُنْدِيُّ مِنْ جُنُودِ الدَّوْلَةِ وَرَاءَ طِفْلِ قَبِيحَةٍ وَيَخْدُمُهُ وَيَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ ؛ وَهَذَا الْجُنْدِيُّ لَوْ كَانَ طَرِيدَ هَزِيمَةٍ قَدْ فَرَّ فِي مَعْرَكَةٍ مِنْ مَعَارِكِ الْوَطَنِ ، وَأُرِيدَ تَخْلِيدُهُ فِي هَزِيمَتِهِ وَتَخْلِيدُهَا عَلَيْهِ بِالتَّصْوِيرِ - لَمَا صُورَ إِلَّا جُنْدِيًّا فِي شَارَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُنْقَادًا لِمِثْلِ هَذَا الطِّفْلِ الصَّغِيرِ كَالْخَادِمِ ؛ فِي صُورَةٍ يُكْتَبُ تَحْتَهَا : « نَفَايَةُ عَسْكَرِيَّةٌ ! » .

* * *

لَيْسَ لِهَذَا الْمَنْظَرِ الْكَثِيرِ خُدُوثُهُ فِي مِصْرٍ إِلَّا تَأْوِيلٌ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّ مَكَانَ الشَّخْصِيَّاتِ فَوْقَ الْمَعَانِي ، وَإِنْ صَغُرَتْ تِلْكَ وَجَلَّتْ هَذِهِ ؛ وَمِنْ هُنَا يَكْذِبُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْصِبِ ، فَيَرْفَعُ شَخْصَهُ فَوْقَ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا ؛ فَيَكْثُرُ عَنْ أَنْ يَكْذِبَ فَيَكُونُ كَذِبُهُ هُوَ الصِّدْقُ ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ كَذِبُهُ ، أَيُّ : صِدْقُهُ ... ! وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي الْأُمَّةِ أَنَّ كَذِبَ الْقُوَّةِ صِدْقٌ بِالْقُوَّةِ !

وَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ يُقَاسُ غَيْرُهَا مِنْ كُلِّ مَا يُخْذَلُ فِيهِ الْحَقُّ . وَمَتَى كَانَتْ الشَّخْصِيَّاتُ فَوْقَ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ طَفِقَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي تَمْوُجُ مَوْجَهَا مُحَاوَلَةً أَنْ تَعْلُو ، مُكْرَهَةً عَلَى أَنْ تَنْزِلَ ؛ فَلَا تَسْتَقِيمُ عَلَى جِهَةٍ وَلَا تَنْتَظِمُ عَلَى طَرِيقَةٍ ؛ وَتُقْبَلُ بِالشَّيْءِ عَلَى مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ تَكْثُرُ كَرَاهَا فَتُذَبِّرُ بِهِ إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَتُضِلُّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِكِبَرَاتِهَا ، وَلَا تَكُونُ الْأُمَّةُ عَلَى هَسَلِهِ الْحَالَةِ فِي كُلِّ طَبَقَاتِهَا إِلَّا صِغَارًا فَوْقَهُمْ كِبَارُهُمْ ؛ وَتِلْكَ هِيَ تَهْنِئَةُ الْأُمَّةِ لِلْإِسْتِعْبَادِ مَتَى أَبْتُلِيتْ بِالَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كِبَارِهَا ؛ وَمِنْ تِلْكَ تَنْشَأُ فِي الْأُمَّةِ طَبِيعَةُ النِّقَاقِ يَحْتَمِي بِهِ الصَّغَرُ مِنَ الْكِبَرِ ، وَتَنْتَظِمُ بِهِ أَلْفَةُ الْحَيَاةِ بَيْنَ الدَّلَّةِ وَالصَّوْلَةِ !

* * *

وَتَخْلَفَ الْجُنْدِيُّ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ مَوْعِدِ الرُّوَاكِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، فَخَرَجَ عِصْمَتٌ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَبَدَا لَهُ أَنْ يَتَسَكَّعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ لِيَنْطَلِقَ فِيهِ ابْنُ آدَمَ لَا ابْنَ الْمُدِيرِ ، وَحَنَّ حَنِينُهُ إِلَى الْمُغَامَرَةِ فِي الطَّبِيعَةِ ، وَلَيْسَتْ الطُّرُقُ فِي خِيَالِهِ الصَّغِيرِ زِينَتُهَا الشُّعْرِيَّةُ بِأَطْفَالِ الْأَرْقَةِ يَلْعَبُونَ وَيَتَهَوَّشُونَ وَيَتَعَابَثُونَ وَيَسَاحَتُونَ ، وَهُمْ شَتَّى وَكَانَتْهُمْ أَبْنَاءُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مَسَتْ

بِكُلِّ مَنْ كُلِّ رَحِمٍ ، إِذْ لَا يَنْتَسِبُونَ فِي اللَّهِ إِلَّا إِلَى الطُّفُولَةِ وَحَدَّهَا .

وَأَنسَاقَ عِصْمَتِ وَرَاءَ خَيَالِهِ ، وَهَرَبَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي يَمْسِي فِيهَا
الْجُنْدِيُّ وَرَاءَ ابْنِ الْمُدِيرِ ، وَتَعَلَّلَ فِي الْأَرْقَةِ لَا يُبَالِي مَا يَعْرِفُهُ مِنْهَا وَمَا لَا يَعْرِفُهُ ، إِذْ كَانَ
يَسِيرُ فِي طُرُقِ جَدِيدَةٍ عَلَى عَيْنِهِ كَأَنَّمَا يَخْلُمُ بِهَا فِي مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ النَّوْمِ .

وَأَنْتَهَى إِلَى كَبْكَبَةٍ مِنَ الْأَطْفَالِ قَدْ اسْتَجْمَعُوا لِشَأْنِهِمُ الصَّبْيَانِي ، فَانْتَبَذَ نَاحِيَةً وَوَقَفَ
يُصْغِي إِلَيْهِمْ مُتَهَيِّيًا أَنْ يُقَدِّمَ ، فَاتَّصَلَ بِسَمْعِهِ وَنَظَرِهِ كَالْجَبَانِ ، وَتَسَمَّعَ فَإِذَا خَبِيثٌ مِنْهُمْ
يَعْلَمُ الْآخَرَ كَيْفَ يَضْرِبُ إِذَا أَعْتَدَى أَوْ أَعْتَدِيَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : أَضْرِبْ أَيْنَمَا ضَرَبْتَ ، مِنْ
رَأْسِهِ ، مِنْ وَجْهِهِ ، مِنْ الْحُلُقُومِ ، مِنْ مَرَاقِ الْبَطْنِ ؛ قَالَ الْآخَرُ : وَإِذَا مَاتَ ؟ فَقَالَ
الْخَبِيثُ : وَإِذَا مَاتَ فَلَا تَقُلْ إِنِّي أَنَا عَلَّمْتُكَ . . . !

وَسَمِعَ طِفْلًا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : أَمَا قُلْتَ لَكَ : إِنَّهُ تَعْلَمُ السَّرِيقَةَ مِنْ رُؤْيَيْهِ اللَّصُوصِ فِي
السَّيْمَا ؟ فَأَجَابَهُ صَاحِبُهُ : وَهَلْ قَالَ لَهُ أَوْلَتِكَ اللَّصُوصُ الَّذِينَ فِي السَّيْمَا كُنْ لَصًّا وَأَعْمَلْ
مِثْلَنَا ؟

وَقَامَ مِنْهُمْ شَيْطَانٌ فَقَالَ : يَا أَوْلَادَ الْبَلَدِ ، أَنَا الْمُدِيرُ ! تَعَالَوْا وَقُولُوا لِي : « يَا سَعَادَةَ
الْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ الدَّهَابَ إِلَى الْمَدَارِسِ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْفَعَ لَهُمْ
الْمَصْرُوفَاتِ . . . » فَقَالَ الْأَوْلَادُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ : « يَا سَعَادَةَ الْبَاشَا ! إِنَّ أَوْلَادَنَا يُرِيدُونَ
الدَّهَابَ إِلَى الْمَدَارِسِ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْفَعَ لَهُمْ الْمَصْرُوفَاتِ » فَرَدَّ عَلَيْهِمْ
سَعَادَتُهُ : اشْتَرُوا لِأَوْلَادِكُمْ أَحْذِيَةً وَطَرَايِشَ وَرِيَابًا نَظِيفَةً ، وَأَنَا أَدْفَعُ لَهُمْ الْمَصْرُوفَاتِ .
فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ خَبِيثٌ مِنْهُمْ وَقَالَ : يَا سَعَادَةَ الْمُدِيرِ ! وَأَنْتَ فِيمَاذَا لَمْ يَشْتَرِ لَكَ أَبُوكَ
حِذَاءً . . . ؟

وَقَالَ طِفْلٌ صَغِيرٌ : أَنَا أَبْنُكَ يَا سَعَادَةَ الْمُدِيرِ ، فَأَرْسَلَنِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَقَتَ الظُّهْرِ
فَقَطَّ . . . !

* * *

وَكَانَ عِصْمَتُ يَسْمَعُ وَنَفْسُهُ تَهْتَرُ وَتَرِفُ بِإِحْسَاسِهَا ، كَالْوَرَقَةِ الْخَضِرَاءِ عَلَيْهَا طُلُ

الَّذِي ، وَأَخَذَ قَلْبُهُ يَفْتَحُ فِي شُعَاعِ الْكَلَامِ كَالزُّهْرَةِ فِي الشَّمْسِ ؛ وَسَكِرَ بِمَا يَسْكُرُ بِهِ
الْأَطْفَالُ حِينَ تَقْدُمُ لَهُمُ الطَّبِيعَةُ مَكَانَ اللَّهِوِ مُعَذَّاءَ مُهِيتًا ، كَالْحَانَةِ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَسْبَابُ الشُّكْرِ
وَالنُّسْوَةِ ، وَتَمَامَ لَذَنَها أَنَّ الزَّمْنَ فِيهَا مَنْسِيٌّ ، وَأَنَّ الْعَقْلَ فِيهَا مُهْمَلٌ ...

وَأَحْسَنُ ابْنِ الْمُدِيرِ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ حِينَ يَنْطَلِقُ فِيهَا جَمَاعَةُ الْأَطْفَالِ عَلَى سَجِيَّتِهِمْ
وَسَجِيَّتِهَا - إِنَّمَا هِيَ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَا جُذْرَانَ لَهَا ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ الْوُجُودِ لِلطُّفْلِ تَرْبِيَةً تَتَنَاوَلُهُ
مِنْ أَدْنَى أَغْصَانِهِ فَتَبْدُدُ قَوَاهُ ثُمَّ تَجْمَعُهَا لَهُ أَقْوَى مَا كَانَتْ ، وَتَفْرَعُهُ مِنْهَا ثُمَّ تَمْلُؤُهُ بِمَا هُوَ أَتَمُّ
وَأَزِيدُ . وَبِذَلِكَ تُكْسِبُهُ نُمُوً نَشَاطِطٍ ، وَتُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَتَّبِعُ لِتَحْقِيقِ هَذَا النَّشَاطِ ، فَتَهْدِيهِ إِلَى
أَنْ يُبْدِعَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَظِرُ مَنْ يُبْدِعُ لَهُ ، وَتَجْعَلُ خَطَاها دَائِمًا وَرَاءَ أَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ ، فَتُسَدِّدُهُ مِنْ
هَذَا كُلِّهِ إِلَى سِرِّ الْإِبْدَاعِ وَالْإِنْكَارِ ، وَتُعَلِّمُهُ الْعِلْمَ الْأَعْظَمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، عِلْمَ نَضْرَةِ
نَفْسِهِ وَسُرُورِهَا وَمَرَحِهَا ، وَتَطْبَعُهُ عَلَى الْمِزَاجِ الْمُتَطَلِّقِ الْمُتَهَلِّلِ الْمُتَقَاتِلِ ، وَتَتَدَقَّقُ بِهِ عَلَى
دُنْيَاهُ كَالْفَيْضَانِ فِي النَّهْرِ ، تَقُورُ الْحَيَاةَ فِيهِ وَتَقُورُ بِهِ ، لَا كَأَطْفَالِ الْمَدَارِسِ الْخَامِدِينَ ،
تَعْرِفُ لِلوَاحِدِ مِنْهُمْ شَكْلَ الطُّفْلِ وَلَيْسَ لَهُ وَجُودُهُ وَلَا عَالَمُهُ ، فَيَكُونُ الْمُسْكِنُ فِي الْحَيَاةِ
وَلَا يَجِدُهَا ، ثُمَّ تَرَاهُ طِفْلًا صَغِيرًا ، وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ هُمُومَ رَجُلٍ كَامِلٍ !

وَدَبَّتْ رُوحُ الْأَرْضِ دَبِيبَهَا فِي عِصْمَتِ ، وَأَوْحَتْ إِلَى قَلْبِهِ بِأَسْرَارِهَا ، فَأَذْرَكَ مِنْ
شُعُورِهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَغْمَارِ الْأَغْيَاءِ مِنْ أَوْلَادِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، هُمْ السُّعْدَاءُ بِطُفُولَتِهِمْ ،
وَأَنَّهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ هُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فِي الطُّفُولَةِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ الَّذِي يَمْسِي وَرَاءَهُ
لِتَعْظِيمِهِ إِنَّمَا هُوَ سَجَنٌ ؛ وَأَنَّ الْأَلْعَابَ خَيْرٌ مِنَ الْعُلُومِ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ طِفْلِيَّةَ الطُّفْلِ فِي
وَقْتِهَا ، أَمَّا الْعُلُومُ فَرُجُولَةٌ مُلَزَقَةٌ بِهِ قَبْلَ وَقْتِهَا تُوَقَّرُهُ وَتُحَوَّلُهُ عَنْ طِبَاعِهِ ، فَتَقْتُلُ فِيهِ الطُّفُولَةَ
وَتَهْدِمُ أَسَاسَ الرُّجُولَةِ ، فَيَنْشَأُ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَلِهِ وَلَا إِلَى هَلِهِ ، وَيَكُونُ فِي الْأَوَّلِ طِفْلًا
رَجُلًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي الْآخِرِ رَجُلًا طِفْلًا .

وَأَحْسَنُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ أَنَّ مَدْرَسَةَ الطُّفْلِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِيَ بَيْتُهُ الْوَاسِعَ الَّذِي لَا يَخْرُجُ
أَنْ يَصْرُخَ فِيهِ صُرَاخُهُ الطَّبِيعِيِّ ، وَيَتَحَرَّكَ حَرَكَتُهُ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ مَدْرُسُونَ وَلَا
طَلَبَةٌ ، وَلَا حَامِلُوا الْعِصِيِّ مِنَ الضُّبَّاطِ ؛ بَلْ حَقُّ الْبَيْتِ الْوَاسِعِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ الْأَبْوَةُ الْوَاسِعَةُ ،
وَالْأَخُوَّةُ الَّتِي تَنْفَسُ لِلْمِنَاتِ ؛ فَيَمُرُّ الطُّفْلُ الْمُتَعَلِّمُ فِي نَشَاتِهِ مِنْ مَنَزِلٍ إِلَى مَنَزِلٍ إِلَى مَنَزِلٍ ،
عَلَى تَدْرِيجٍ فِي التَّوَشُّعِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، مِنَ الْبَيْتِ ، إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، إِلَى الْعَالَمِ .

وَكَانَ عِصْمَتُ يَحْلُمُ بِهِلِذِهِ الْأَحْلَامَ الْفَلَسَفِيَّةَ ، وَطُفُولَتُهُ تَشِبُّ وَتَسْتَرْجِلُ ، وَرَخَاوَتُهُ تَشْتَدُّ وَتَتَمَاسِكُ ؛ وَكَانَتْ حَرَكَاتُ الْأَطْفَالِ كَأَنَّهَا تُحَرِّكُهُ مِنْ دَاخِلِهِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ كَالطُّفْلِ فِي السَّيِّمَا حِينَ يَشْهَدُ الْمُتَلَاحِمِينَ وَالْمُتَصَارِعِينَ ، يَسْتَطِيزُهُ الْفَرْحُ ، وَيَتَوَثَّبُ فِيهِ الطُّفْلُ الطَّبِيعِيُّ بِمَرَحِهِ وَعُثْقُوَانِهِ ، وَتَتَقَلَّصُ عَضَلَاتُهُ ، وَيَتَكَشَّفُ جِلْدُهُ ، وَتَجْتَمِعُ قُوَّتُهُ ؛ حَتَّى كَأَنَّهُ سَيِّطَاهُ أَحَدَ الْخُصَمَيْنِ وَيَلْكُمُ الْآخَرَ فَيَكْوِرُهُ وَيَصْرَعُهُ ، وَيَقْضُ مَعْرَكَةَ الضَّرْبِ الْحَدِيدِيِّ بِضَرْبَتِهِ اللَّيْتَةِ الْحَرِيرِيَّةِ . . . !

فَمَا لَيْتَ صَاحِبِنَا الْفَرِيرِ الثَّاعِمِ أَنْ تَخْشَنَ ، وَمَا كَذَّبَ أَنْ أَفْتَحَمَ ، وَكَأَنَّمَا أَقْبَلَ عَلَى رُوحِهِ الشَّارِعَ وَالْأَطْفَالَ وَلَهُوَهُمْ وَعَبَثُهُمْ ، إِفْبَالَ الْجَوِّ عَلَى الطَّيْرِ الْحَبِيسِ الْمُعْلَقِ فِي مَسْمَارٍ إِذَا أَنْفَرَجَ عَنْهُ الْقَفْصُ ؛ وَإِفْبَالَ الْغَايَةِ عَلَى الْوُحْشِ الْقَنِيصِ إِذَا وَثَبَ وَثْبَةُ الْحَيَاةِ فَطَارَ بِهَا ؛ وَإِفْبَالَ الْفَلَاةِ عَلَى الطَّنْبِيِّ الْأَسِيرِ إِذَا نَاوَصَ فَأَفْلَتَ مِنَ الْحِبَالَةِ .

وَتَقَدَّمَ فَادَّعَمَ فِي الْجَمَاعَةِ وَقَالَ لَهُمْ : أَنَا ابْنُ الْمُدِيرِ . فَتَنَظَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا ، ثُمَّ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَسَفَرَتْ أَفْكَارُهُمُ الصَّغِيرَةُ بَيْنَ أَغْيِثِهِمْ ، وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّ حِدَاءَهُ وَثِيَابَهُ وَطَرُبُوشَهُ كُلُّهَا تَقُولُ إِنَّ أَبَاهُ الْمُدِيرُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَوَجْهُهُ يَقُولُ إِنَّ أُمَّهُ أَمْرَأَةُ الْمُدِيرِ . . . !

فَقَالَ الثَّلَاثُ : لَيْسَتْ كَأَمَّاكَ يَا بَعْطِيطِي وَلَا كَأَمَّ جُعْلُصٍ ^(١) .

قَالَ الرَّابِعُ : يَا وَيْلَكَ لَوْ سَمِعَ جُعْلُصٌ ، فَإِنَّ لَكُمَاتِهِ حَبْنِيذَ لَا تَتْرُكُ أَمَّاكَ تَعْرِفُ وَجْهَكَ مِنْ أَلْفَقَا !

قَالَ الْخَامِسُ : وَمَنْ جُعْلُصٌ هَذَا ؟ فَلَيَاتِ لِأَرِيكُمْ كَيْفَ أَصَارِعُهُ ، فَاجْتَذِبَهُ ، فَأَعَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْ ، فَأَعْتَقَلَ رِجْلَهُ بِرِجْلِي ، فَأَذْفَعَهُ ، فَيَسْتَحَاذِلُ ، فَأَعْرَكُهُ ، فَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ ؛ فَاسْمَرَهُ فِي الْأَرْضِ بِمَسْمَارٍ !

فَقَالَ السَّادِسُ : هَامَا ! إِنَّكَ تَصِفُ بِأَدَقِّ الْوُصْفِ مَا يَفْعَلُهُ جُعْلُصٌ لَوْ تَنَاوَلَكَ فِي

يَدِهِ . . . !

(١) لِلْعَامَّةِ أَسْمَاءُ وَتُسَبَّ غَرِيبَةً ، مِنْهَا هَلِذِهِ .

فَصَاحَ السَّابِعُ : وَلَيْكُم ! هَا هُوَ ذَا . جُعِلْصُن ، جُعِلْصُن ، جُعِلْصُن !

فَطَّيَّرَ الْبَاقُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا كَالْوَرَقِ الْجَافِّ تَحْتَ الشَّجَرِ ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ الْعَاصِفُ .
وَفَهَّقَهُ الصَّبِيُّ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَثَابُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَرَجَعُوا . وَقَالَ الْمُسْتَطِيلُ مِنْهُمْ : أَمَا إِنِّي
كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ يَغْدُو جُعِلْصُن وَرَائِي ، فَاسْتَطَرْدُ إِلَيْهِ قَلِيلًا أَطْمَعُهُ فِي نَفْسِي ، ثُمَّ أَرْتَدُّ عَلَيْهِ
فَأَخْذُهُ كَمَا فَعَلَ « مَا شِيسْتَ الْجَبَّار »^(١) فِي ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الَّذِي شَاهَدْنَاهُ .

وَفَهَّقَهُ الصَّبِيَّانِ جَمِيعًا ... ! ثُمَّ أَحَاطُوا بِعِصْمَتِ إِحَاطَةِ الْعُشَاقِ بِمَعْشُوقَةٍ جَمِيلَةٍ ،
يُحَاوِلُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّبَ الْمَخْصُوصَ بِالْحِظْوَةِ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ابْنُ الْمُدِيرِ
فَحَسْبُ ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ ابْنَ الْمُدِيرِ تَكُونُ مَعَهُ الْقُرُوشُ ... فَلَوْ وَجِدَتْ هَذِهِ
الْقُرُوشُ مَعَ ابْنِ زَبَّالٍ لَمَا مَنَعَهُ نَسَبُهُ أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ السَّاعَةِ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَنفَدَ قُرُوشُهُ فَيَعُودَ
ابْنُ زَبَّالٍ ... !

وَتَنَافَسُوا فِي عِصْمَتِ وَمِثْلَاعِيَّتِهِ وَالْإِخْتِصَاصِ بِهِ ، فَلَوْ جَاءَ الْمُدِيرُ نَفْسُهُ يَلْعَبُ مَعَ
أَبَائِهِمْ وَيَرْكَبُهُمْ وَيَرْكَبُونَهُ ، وَهُمْ بَيْنَ نَجَّارٍ وَحَدَّادٍ ، وَبَنَاءٍ وَحَمَّالٍ ، وَخُودِيٍّ وَطَبَّاخٍ ؛
وَأَمْنَالَهُمْ مِنْ ذَوِي الْمِهْنَةِ وَالْمَكْسَبَةِ الصَّبِيَّةِ - لَكَانَتْ مَطَامِعُ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ فِي ابْنِ
الْمُدِيرِ ، أَكْبَرَ مِنْ مَطَامِعِ الْآبَاءِ فِي الْمُدِيرِ .

وَجَرَتْ الْمُنَافَسَةُ بَيْنَهُمْ مَجْرَاهَا ، فَانْقَلَبَتْ إِلَى مَلَا حَاةٍ ، وَرَجَعَتْ هَذِهِ الْمَلَا حَاةٌ إِلَى
مُشَاحَنَةٍ ، وَعَادَ ابْنُ الْمُدِيرِ هَدَفًا لِلْجَمِيعِ يُدَافِعُونَ عَنْهُ وَكَأَنَّمَا يَغْتَدُونَ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَقْصِدُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا بِالْغِيْظِ إِلَّا تَعَمَّدَ غِيْظَ حَبِيْبِهِ ، لِيَكُونَ أَنْكَأ لَهُ وَأَشَدَّ عَلَيْهِ !

وَتَظَاهَرُوا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَنَشَأَتْ بَيْنَهُمُ الطَّوَائِلُ ، وَأَسَفَدَهُمْ هَذَا الْغِيْثُ الْمُمَثِّلُ
بَيْنَهُمْ . وَيَا مَا أَعْجَبَ إِذْرَاكَ الطُّفُوْلَةَ وَالْهَامَهَا ! فَقَدْ أَجْتَمَعَتْ نَفْسُهُمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ ،
فَنَحَوَلُوا جَمِيعًا إِلَى سَفَاهَةٍ وَاحِدَةٍ أَحَاطَتْ بِأَبْنِ الْمُدِيرِ ، فَخَاطَرَهُ أَحَدُهُمْ فِي اللَّعِبِ
فَقَمَرَهُ ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلُو ظَهْرَهُ وَيَرْكَبَهُ ؛ وَأَبَى عَلَيْهِ ابْنُ الْمُدِيرِ وَدَافَعَهُ ، يَرَى ذَلِكَ ثَلَمًا فِي

(١) بَحَارُ الْإِنطَالِي كَالْمَارِدِ ؛ عَرِيضُ الْأَلَوَاحِ ، وَثَبِيْتُ التَّرَكِيْبِ ، يَعْجَبُ الْأَطْفَالُ بِهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ ، وَإِذَا
شَهِدُوهُ فِي السَّبِيحَةِ كَادَ تَمْنِيْلُهُ يُشَبُّ بِهِؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ إِلَى سِنِّ الرُّجُولَةِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

شَرَفِهِ وَنَسَبِهِ وَسَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يَكْذِبْ يَحْتَلْ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ وَيَذْكُرُ أَبَاهُ لِيُعْرِفَهُمْ آبَاءَهُمْ ... حَتَّى هَاجَتْ كِبْرِيَاؤُهُمْ ، وَثَارَتْ دَفَائِنُهُمْ ، وَرَقَصَتْ شَيَاطِينُ رُؤُوسِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ وَضَعَ الْغَيْبِيُّ حِقْدَ الْفَقْرِ بِإِزَاءِ سُخْرِيَةِ الْغِنَى ؛ فَالْقَى بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةَ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى فِي هَذَا الْعَالَمِ ، وَطَرَحَهَا لِلْحُلِّ ... !

وَتَنَفَّسُوا لِلصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ أَحَدُهُمْ ، ثُمَّ هَزَى بِهِ الْآخَرُ ، وَأَخْرَجَ الثَّلَاثُ لِسَانَهُ ؛ وَصَدَمَهُ الرَّابِعُ بِمَنْكِبِهِ ؛ وَأَفْحَشَ عَلَيْهِ الْخَامِسُ ؛ وَلَكَزَهُ السَّادِسُ ؛ وَحَنَّا السَّابِعُ فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ !

وَجَهَدَ الْمُسْكِينُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَكَأَنَّمَا أَحَاطُوهُ بِسَبْعَةِ جُذُرَانِ فَبَطَلَ إِفْدَامُهُ وَإِحْجَامُهُ ، وَوَقَفَ بَيْنَهُمْ كَمَا كَتَبَ اللَّهُ ... ! ثُمَّ أَخَذَتْهُ أَيْدِيهِمْ فَانْجَدَلَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَتَجَادَبَوْهُ يُمَرِّغُونَهُ فِي التُّرَابِ !

وَهُمْ كَذَلِكَ إِذْ انْقَلَبَ كَبِيرُهُمْ عَلَى وَجْهِهِ ، وَأُنْكَفَى الَّذِي بَلِيَهُ ، وَأَزْيَحَ الثَّلَاثُ ، وَلَطِمَ الرَّابِعُ ، فَظَنَرُوا ، فَصَاحُوا جَمِيعًا : « جُعَلُصْ ، جُعَلُصْ ! » وَتَوَاتَبُوا يَشْتَدُونَ هَرَبًا . وَقَامَ عِصْمَتٌ يَسْتَحِلُّ التُّرَابَ مِنْ رِثَائِهِ وَهُوَ يَبْكِي بِدَمْعِهِ ، وَرِثَائُهُ تَبْكِي بِتُرَابِهَا ... ! وَوَقَفَ يَنْظُرُ هَذَا الَّذِي كَشَفَهُمْ عَنْهُ وَشَرَّدَنَهُمْ صَوْلَتُهُ ، فَإِذَا جُعَلُصُ وَعَلَيْهِ رَجَفَانٌ مِنَ الْغَضَبِ ، وَقَدْ تَبَرَّطَمَتْ شَفَتُهُ ، وَتَقَبَّضَ وَجْهُهُ ، كَمَا يَكُونُ « مَا شِيسَتْ » فِي مَعَارِكِهِ حِينَ يَدْفَعُ عَنِ الصُّعَفَاءِ .

وَهُوَ طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ لِدَاتِ عِصْمَتٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُحْتَنِكٌ فِي سِنِّ رَجُلٍ صَغِيرٍ ؛ غَلِيظٌ عَبْلٌ شَدِيدُ الْجِبَلَةِ مُتْرَاكِبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ^(١) ، كَأَنَّهُ جَنِّيٌّ مُتْقَاصِرٌ بِهِمْ أَنْ يَطُولَ مِنْهُ الْمَارِدُ ، فَأَنَسَ بِهِ عِصْمَتٍ ، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى قُوَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ يَشْكُو لَهُ وَيَبْكِي !

قَالَ جُعَلُصُ : مَا أَسْمُكَ ؟

قَالَ : أَنَا ابْنُ الْمُدِيرِ ... !

قَالَ جُعَلُصُ : لَا تَبْكِ يَا ابْنَ الْمُدِيرِ . تَعَلَّمَ أَنْ تَكُونَ جَلْدًا ، فَإِنَّ الضَّرْبَ لَيْسَ بِذَلِّ

(١) { أَيُّ : شَدِيدُ قَتْلِ الْعَصَلِ ، مُكْتَنَزُ اللَّحْمِ } .

وَلَا عَارٍ ، وَلَكِنَّ الدُّمُوعَ هِيَ تَجْعَلُهُ ذُلًّا وَعَارًا ؛ إِنَّ الدُّمُوعَ لَتَجْعَلُ الرَّجُلَ أُتَى . نَحْنُ
يَا أَبْنَ الْمُدِيرِ نَعِيشُ طُولَ حَيَاتِنَا إِمَّا فِي ضَرْبِ الْفَقْرِ أَوْ ضَرْبِ النَّاسِ ، هَذَا مِنْ هَذَا ؛
وَلَكِنَّكَ غَنِيٌّ يَا أَبْنَ الْمُدِيرِ ، فَأَنْتَ كَالرَّغِيفِ الْفِينِو^(١) ضَخْمٌ مُنْتَفَخٌ ، وَلَكِنَّهُ يَنْكَسِرُ
بِلَمْسَةٍ ، وَحَشْوُهُ مِثْلُ الْقُطْنِ !

مَاذَا تَتَعَلَّمُ فِي الْمَدْرَسَةِ يَا أَبْنَ الْمُدِيرِ إِذَا لَمْ تُعَلِّمْكَ الْمَدْرَسَةُ أَنْ تَكُونَ رَجُلًا يَأْكُلُ مَنْ
يُرِيدُ أَكْلَهُ ؛ وَمَاذَا تَعْرِفُ إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَصْبُرُ عَلَى الشَّرِّ يَوْمَ الشَّرِّ ، وَكَيْفَ تَصْبُرُ
لِلْخَيْرِ يَوْمَ الْخَيْرِ ، فَتَكُونَ دَائِمًا عَلَى الْحَالَتَيْنِ فِي خَيْرٍ ؟

قَالَ عِصْمَتٌ : آه لَوْ كَانَ مَعِيَ الْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ جُعْلُصٌ : وَيَحَاكَ ! لَوْ ضَرَبُوا عَتْرًا لَمَا قَالَتْ : آه لَوْ كَانَ مَعِيَ الْعَسْكَرِيُّ !

قَالَ عِصْمَتٌ : فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْقُوَّةُ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : مِنْ أَنِّي أَعْتَمِلُ بِيَدَيَّ فَأَنَا أَشْتَدُّ ، وَإِذَا جُعْتُ أَكَلْتُ طَعَامِي ؛ أَمَّا أَنْتَ
فَتَسْتَزَحِي ، فَإِذَا جُعْتَ أَكَلْتَكَ طَعَامُكَ ؛ ثُمَّ مِنْ أَنِّي لَيْسَ لِي عَسْكَرِيٍّ . . . !

قَالَ عِصْمَتٌ : بَلِ الْقُوَّةُ مِنْ أَنَّكَ لَسْتَ مِثْلَنَا فِي الْمَدْرَسَةِ ؟

قَالَ جُعْلُصٌ : نَعَمْ ، فَأَنْتَ يَا أَبْنَ الْمَدْرَسَةِ كَأَنَّكَ طِفْلٌ مِنْ وَرَقٍ وَكَرَّاسَاتٍ لَا مِنْ
لَحْمٍ ، وَكَأَنَّ عِظَامَكَ مِنْ طَبَاشِيرٍ ! أَنْتَ يَا أَبْنَ الْمَدْرَسَةِ هُوَ أَنْتَ الَّذِي سَيَكُونُ بَعْدَ عِشْرِينَ
سَنَةً ، وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ كَيْفَ يَكُونُ ؛ وَأَمَّا أَنَا أَبْنُ الْحَيَاةِ ، فَأَنَا مِنَ الْآنِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَكُونَ
« أَنَا » مِنَ الْآنِ !

أَنْتَ . . .

* * *

وَهُنَا أَدْرَكَهُمَا الْعَسْكَرِيُّ الْمُسَحَّرُ لِابْنِ الْمُدِيرِ ، وَكَانَ كَالْمَجْنُونِ يَطِيرُ عَلَى وَجْهِهِ فِي
الطَّرِيقِ يَبْحَثُ عَنْ عِصْمَتٍ ، لَا حُبًّا فِيهِ ، وَلَكِنْ خَوْفًا مِنْ أَبِيهِ ؛ فَمَا كَادَ يَرَى هَذَا الْعَفَرَ

عَلَى أَثْوَابِهِ حَتَّى رَثْتُ صَفْعَتَهُ عَلَى وَجْهِ الْمُسْكِينِ جُعْلُصَن .

فَصَعَّرَ هَذَا خَدَّهُ ، وَرَشَقَ عِصْمَتَ بَنْظَرِهِ ، وَأَنْطَلَقَ يَغْدُو عَذْوَ الظَّلِيمِ !

يَا لِلْعَدَالَةِ ! كَانَتْ الصَّفْعَةُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ الْفَقِيرِ ، وَكَانَ الْبَاكِى مِنْهَا ابْنُ الْغَنِيِّ . . . !

* * *

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ ، حَسْبُكُمْ الْبُطُولَةُ ؛ فَلَيْسَ غِنَى بَطْلِ الْحَرْبِ فِي الْمَالِ وَالنَّعِيمِ ،
وَلَكِنْ بِالْجِرَاحِ وَالْمَشَقَّاتِ فِي جِسْمِهِ وَتَارِيخِهِ .

أَحْلَامٌ فِي الشَّارِعِ (*) (١)

عَلَى عَتَبَةِ الْبَنكِ نَامَ الْغُلَامُ وَأُخْتُهُ يَفْتَرِشَانِ الرُّخَامَ الْبَارِدَ ، وَيَلْتَحِفَانِ جَوًّا رُخَامِيًّا فِي
بَرْزِهِ وَصَلَابَتِهِ عَلَى جِسْمَيْهِمَا .

الْطُّفْلُ مُتَكَبِّبٌ فِي نَوْبِهِ كَأَنَّهُ جِسْمٌ قُطِعَ وَرُكِّمَتْ أَعْضَاؤُهُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ،
وَسُجِّيتْ بِتَوْبٍ ، وَرُمِيَ الرَّأْسُ مِنْ فَوْقِهَا فَمَالَ عَلَى خَدِّهِ .

وَالْفَتَاةُ كَأَنَّهَا مِنَ الْهَزَالِ رَسْمٌ مُحْطَطٌ لِامْرَأَةٍ ، بَدَأَهَا الْمُصَوِّرُ ثُمَّ أَغْفَلَهَا إِذْ لَمْ تُعْجِبْهُ .
كَتَبَ الْفَقْرُ عَلَيْهَا لِلْأَعْيُنِ مَا يَكْتُبُ الذُّبُولُ عَلَى الزُّهْرَةِ : أَنَّهَا صَارَتْ قَسًا . . .

نَائِمَةٌ فِي صُورَةِ مَيِّتَةٍ ، أَوْ كَمِيَّتَةٍ فِي صُورَةِ نَائِمَةٍ ؛ وَقَدْ انْسَكَبَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عَلَى
وَجْهِهَا ، وَبَقِيَ وَجْهٌ أُخِيئَهَا فِي الظُّلِّ ؛ كَأَنَّ فِي السَّمَاءِ مَلَكًا وَجَّهَ الِمْصْبَاحَ إِلَيْهَا وَخَدَّهَا ،
إِذْ عَرَفَ أَنَّ الطُّفْلَ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ عَلَامَةٌ هَمٌّ ، وَأَنَّ فِي وَجْهِهَا هِيَ كُلُّ هَمِّهَا وَهَمُّ أُخِيئَهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أَتَتْ قَدْ خُلِقَتْ لِتَلِدَ ، خُلِقَ لَهَا قَلْبٌ يَحْمِلُ الْهَمُومَ وَيَلِدُهَا وَيُرِيئُهَا .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لِلْأُمُومَةِ ، تَتَأَلَّمُ دَائِمًا فِي الْحَيَاةِ أَلَامًا فِيهَا مَعْنَى أَنْفِجَارِ الدِّمِّ .

مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَزِيدُ الْوُجُودَ ، يَزِيدُ هَذَا الْوُجُودُ دَائِمًا فِي أَحْزَانِهَا .

وَإِذَا كَانَتْ بِطَبِيعَتِهَا تَقَاسِي الْأَلَمَ لَا يُطَاقُ حِينَ تَلِدُ فَرَحَهَا ، فَكَيْفَ بِهَا فِي الْحُزْنِ . . . !

* * *

وَكَانَ رَأْسُ الطُّفْلِ إِلَى صَدْرِ أُخْتِهِ ، وَقَدْ نَامَ مُطْمَئِنًّا إِلَى هَذَا الْوُجُودِ السَّنَوِيِّ ، الَّذِي
لَا بُدَّ مِنْهُ لِكُلِّ طِفْلٍ مِثْلِهِ ، مَا دَامَ الطُّفْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ خَرَجَ إِلَى الدُّنْيَا وَإِلَى صَدْرِهَا مَعًا .

(*) «الرسالة» العدد : ٥٦ ، ١٩ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٣٠ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٤٥ - ١٢٤٨ .

(١) مَنْظَرُ طِفْلٍ مُتَشَرِّدٍ كَانَ هُوَ وَأُخْتُهُ نَائِمَيْنِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَنكِ . [البنك : المصرف] .

وَنَامَتْ هِيَ وَيَدُهَا مُرْسَلَةٌ عَلَى أَخِيهَا كَيْدِ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا . يَا إِلَهِي ! نَامَتْ وَيَدُهَا مُسْتَقِظَةٌ !

أَهُمَا طِفْلَانِ ؟ أَمْ كِلَاهُمَا تِمْنَالٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي شَقِيَتْ بِالسُّعْدَاءِ فَعَوَّضَهَا اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِلَّا تَجَدَّ شَقِيًّا مِثْلَهَا إِلَّا تَضَاعَفَتْ سَعَادَتُهَا بِهِ ؟

تِمْنَالَانِ يُصَوِّرَانِ كَيْفَ يَسِرُّ قَلْبُ أَحَدِ الْحَيَاتِيَيْنِ فِي الْجِسْمِ الْآخِرِ ، فَيَجْعَلُ لَهُ وُجُودًا فَوْقَ الدُّنْيَا ، لَا تَصِلُ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بِفَقْرِهَا وَغِنَاهَا ، وَلَا سَعَادَتِهَا وَشَقَائِهَا ، لِأَنَّهُ وُجُودُ الْحُبِّ لَا وُجُودُ الْعُمْرِ ؛ وَوُجُودُ سِحْرِيٍّ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَى لِلْكَلِمَاتِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَالِ وَالْتُرَابِ ، وَالْأَمِيرِ وَالصُّعْلُوكِ ؛ إِذِ اللَّغَةُ هُنَاكَ إِحْسَاسُ الدِّمِّ ، وَإِذِ الْمَعْنَى لَيْسَ فِي أَشْيَاءِ الْمَادَّةِ وَلَكِنْ فِي أَشْيَاءِ الْإِرَادَةِ .

وَهَلْ تَحْيَا الْأَلْفَاظُ مَعَ الْمَوْتِ ، فَيَكُونُ بَعْدَهُ لِلْمَالِ مَعْنَى وَلِلْتُرَابِ مَعْنَى ... ؟ هِيَ كَذَلِكَ فِي الْحُبِّ الَّذِي يَفْعَلُ شَيْئًا بِمَا يَفْعَلُهُ الْمَوْتُ فِي نَقْلِهِ الْحَيَاةَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ ، بَيِّنٌ أَنَّ أَحَدَ الْعَالَمَيْنِ وَرَاءَ الدُّنْيَا ، وَالْآخَرَ وَرَاءَ النَّفْسِ .

* * *

تَحْتَ يَدِ الْأَخْتِ الْمَمْدُودَةِ يَنَامُ الطِّفْلُ الْمُسْكِينُ ، وَمِنْ شُعُورِهِ بِهِذِهِ الْيَدِ ، خَفَ ثِقَلُ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ .

لَمْ يُبَالِ أَنْ يَبْذُهُ الْعَالَمُ كُلُّهُ ، مَا دَامَ يَجِدُ فِي أُخْتِهِ عَالَمَ قَلْبِهِ الصَّغِيرِ . وَكَأَنَّهُ فَرَحٌ مِنْ فِرَاحِ الطَّيْرِ فِي عُشِّهِ الْمُعَلَّتِي ، وَقَدْ جَمَعَ لَحْمَهُ الْغَضَّ الْأَحْمَرَ تَحْتَ جَنَاحِ أُمِّهِ ، فَأَحْسَنَ أَهْنًا السَّعَادَةِ حِينَ ضَيَّقَ فِي نَفْسِهِ الْكَوْنَ الْعَظِيمَ ، وَجَعَلَهُ وُجُودًا مِنَ الرِّيشِ .

وَكَذَلِكَ يَسْعُدُ كُلُّ مَنْ يَمْلِكُ قُوَّةَ تَغْيِيرِ الْحَقَائِقِ وَتَبْدِيلِهَا ، وَفِي هَذَا تَفْعَلُ الطُّفُولَةُ فِي نَشْأَةِ عُمْرِهَا مَا لَا تَفْعَلُ بَعْضُهُ مُعْجَزَاتِ الْفَلَسَفَةِ الْعُلْيَا فِي جُمْلَةِ أَعْمَارِ الْفَلَسَفَةِ .

وَمَا صَنَعَ الَّذِينَ جُؤُوا بِالذَّهَبِ ، وَلَا الَّذِينَ فُتِنُوا بِالسُّلْطَةِ ، وَلَا الَّذِينَ هَلَكُوا بِالْحُبِّ ، وَلَا الَّذِينَ تَحَطَّمُوا بِالشَّهَوَاتِ - إِلَّا أَنَّهُمْ حَاوَلُوا عِبَادَةَ أَنْ يَرْشُوا رَحْمَةَ اللَّهِ لِنُعْطِيهِمْ فِي الدَّهَبِ وَالسُّلْطَةِ وَالْحُبِّ وَالشَّهَوَاتِ مَا نَوَلَتْهُ هَذَا الطِّفْلُ الْمُسْكِينُ النَّائِمُ فِي أَشِعَّةِ الْكَوَكِبِ تَحْتَ

ذِرَاعِ كَوْكَبِ رُوحِهِ الْأَرْضِيِّ .

أَلَا إِنَّ أَعْظَمَ الْمُلُوكِ لَنْ يَسْتَطِيعَ بِكُلِّ مَلِكِهِ أَنْ يَشْتَرِيَ الطَّرِيقَةَ الْهَيْئَتَةَ الَّتِي يَنْبِضُ بِهَا
السَّاعَةُ قَلْبُ هَذَا الْطِفْلِ .

* * *

وَقَفْتُ أَشْهَدُ الطِّفْلَيْنِ وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ حَوْلَهُمَا مَلَائِكَةٌ تَصْعَدُ وَمَلَائِكَةٌ تَنْزِلُ ؛ وَقُلْتُ :
هَذَا مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِ الرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَكَسِّرَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَعَلِّي أَنْ أَتَعَرَّضَ لِنَفْحَةٍ
مِنْ نَفْحَاتِهَا ، وَلَعَلَّ مَلَكًا كَرِيمًا يَقُولُ : وَهَذَا بَائِسٌ آخَرُ ، فَيَرْفُئُنِي بِجَنَاحِهِ رَفَّةً مَا أَحْوَجُ
نَفْسِي إِلَيْهَا ، تَجِدُ بِهَا فِي الْأَرْضِ لَمَسَةً مِنْ ذَلِكَ الثُّورِ الْمُتَلَالِيءِ فَوْقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَوَظَّهَرُ لِي بِنَاءُ الْبَنِّكَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ مَرَأَى الْغُلَامَيْنِ - أَسْوَدَ كَالِحَا ، كَأَنَّهُ سِجْنٌ
أُفْقِلَ عَلَى شَيْطَانٍ يُنْسِكُهُ إِلَى الصُّبْحِ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ لِيَنْطَلِقَ مُعَمَّرًا ، أَيِ : مُخْرَبًا . . . أَوْهُوَ
جِسْمُ جَبَّارٍ كَفَّرَ بِاللَّهِ وَبِالْإِنْسَانِيَّةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِنَفْسِهِ وَحُطُوطِ نَفْسِهِ فَمَسَحَهُ اللَّهُ بِنَاءً ،
وَأَحَاطَهُ مِنْ هَذَا الظَّلَامِ الْأَسْوَدِ بِمَعَانِي أَنَامِهِ وَكُفْرِهِ . . .

يَا عَجَبًا ! بَطْنَانِ جَائِعَانِ فِي أَطْمَارِ بَالِيَّةٍ يَبِينَانِ عَلَى الطَّوَى وَالْهَمِّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ
وَسَادُهُمَا إِلَّا عَتَبَةُ الْبَنِّكَ ! تَرَى مِنَ الَّذِي لَعَنَ الْبَنِّكَ بِهِذِهِ اللَّعْنَةِ الْحَيَّةِ ؟ وَمَنِ الَّذِي وَضَعَ
هَٰذَيْنِ الْقَلْبَيْنِ الْفَارِعَيْنِ مَوْضِعَهُمَا ذَلِكَ لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ أَنَّ لَيْسَ الْبَنِّكَ خَزَائِنَ حَدِيدِيَّةَ يَمْلُؤُهَا
الذَّهَبُ ، وَلَكِنَّهُ خَزَائِنُ قَلْبِيَّةَ يَمْلُؤُهَا الْحُبُّ . . . ؟

* * *

وَقَفْتُ أَرَى الطِّفْلَيْنِ رُؤْيَةً فَكَّرَ وَرُؤْيَةً شِعْرٍ مَعًا ، فَإِذَا الْفِكْرُ وَالشَّعْرُ يَمْتَدَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ
أَحْلَامِهِمَا ، وَدَخَلْتُ فِي نَفْسَيْنِ مَضْهُمَا الْهَمُّ وَأَشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الْفَقْرُ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ
إِلَّا كَادَهُمَا وَعَاسَرَهُمَا ؛ وَتَمَّتْ نَوْمَتِي الشَّعْرِيَّةَ . . .

قَالَ الطِّفْلُ لِأَخِيهِ : هَلُمَّنِي فَلِنَذْهَبَ مِنْ هُنَا فَتَقِفَ عَلَى بَابِ السَّيِّمَةِ نَتَفَرَّجُ مِمَّا بِنَا ،
فَتَرَى أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ أَبٌ وَأُمٌّ .

أَنْظِرْنِي هَا هُمْ أَوْلَاءَ يُرَى عَلَيْهِمْ أَثَرُ الْعِنَى ، وَتُعَرَفُ فِيهِمْ رُوحُ النِّعَمَةِ ؛ وَقَدْ

شَبِعُوا . . . إِنَّهُمْ يَلْبَسُونَ لَحْمًا عَلَى عِظَامِهِمْ ؛ أَمَا نَحْنُ فَتَلْبَسُ عَلَى عِظَامِنَا جِلْدًا كَجِلْدِ الْحِذَاءِ ؛ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ أَهْلِيهِمْ ؛ أَمَا نَحْنُ فَأَوْلَادُ الْأَرْضِ ؛ هُمْ أَطْفَالٌ ، وَنَحْنُ حَطَبٌ إِنْسَانِيٌّ يَابِسٌ ؛ يَعِيشُونَ فِي الْحَيَاةِ ثُمَّ يَمُوتُونَ ؛ أَمَا نَحْنُ فَعِيشُنَا هُوَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، إِلَى أَنْ نَمُوتَ ؛ لَهُمْ عَيْشٌ وَمَوْتٌ ، وَلَنَا الْمَوْتُ مُكَرَّرًا .

وَيَلِينِي عَلَى ذَلِكَ الطِّفْلِ الْأَبْيَضِ السَّمِينِ ، الْحَسَنِ الْبِزَّةِ ، الْأَيْتِي الشَّارَةِ ، ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُ الْحُلُوقَ أَكْلَ لَصٍّ قَدْ سَرَقَ طَعَامًا فَاسْرَعَ بِخَدِرٍ فِي جَوْفِهِ مَا سَرَقَ ؛ هُوَ الْغَنَى الَّذِي جَعَلَهُ يَبْتَلِغُ بِهِذِهِ الشَّرَاهَةَ ، كَأَنَّمَا يَشْرَبُ مَا يَأْكُلُ ، أَوْ لَهُ حَلَقٌ غَيْرُ الْحُلُوقِ ؛ وَنَحْنُ - إِذَا أَكَلْنَا - نَعَصُ بِالْخُبْزِ لَا أَدَمَ مَعَهُ ، وَإِذَا أَرْتَفَعْنَا عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ نَجِدْ إِلَّا التَّبْسِيعَ مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَصْبَنَاهُ عَفْنًا أَوْ فَاسِدًا لَا يَسُوغُ فِي الْحَلَقِ ، فَإِذَا أَنْخَفَضْنَا فَلَيْسَ إِلَّا مَا نَتَقَمَّمُ مِنْ قُشُورِ الْأَرْضِ وَمِنْ حُتَاتِ الْخُبْزِ كَالدَّوَابِّ وَالْكِلَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ نَجِدْ وَمَسْنَا الْعُدْمَ وَقَفْنَا نَتَحَيَّنُ طَعَامَ قَوْمٍ فِي دَارٍ أَوْ تُرُلٍ ، فَتَرَاهُمْ يَأْكُلُونَ فَنَأْكُلُ مَعَهُمْ بِأَعْيُنِنَا ، وَلَا نَطْمَعُ أَنْ نَسْتَطْعِمَهُمْ وَإِلَّا أَطْعَمُونَا ضَرْبًا فَتَكُونُ قَدْ جِئْتَاهُمْ بِأَلَمٍ وَاحِدٍ فَرَدُّونَا بِالْأَمِينِ ، وَتَفْقِدُ بِالضَّرْبِ مَا كَانَ يُنْسِكُ رَمَقًا مِنَ الْاِخْتِمَالِ وَالصَّبْرِ .

هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ يَتَصَوَّرُونَ شَهْوَةً كُلَّمَا أَكَلُوا ، لِيَعُودُوا فَيَأْكُلُوا ؛ وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ جُوعًا وَلَا نَأْكُلُ ، لِنَعُودَ فَتَجُوعَ وَلَا نَأْكُلُ ؛ وَهُمْ بَيْنَ سَمْعِ أَهْلِيهِمْ وَبَصَرِهِمْ ؛ مَا مِنْ أُمَّ إِلَّا وَقَعَتْ فِي قَلْبٍ ، وَمَا مِنْ كَلِمَةٍ إِلَّا وَجَدَتْ إِجَابَةً ؛ وَنَحْنُ بَيْنَ سَمْعِ الشُّوَارِعِ وَبَصَرِهَا ، أَيْنُنْ ضَائِعٌ ، وَدُمُوعٌ غَيْرُ مَرْحُومَةٍ !

أِهْ لَوْ كَبُرَتْ فِصْرَتْ رَجُلًا طَوِيلًا عَرِيضًا ؟ أَتَدْرِينَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

- مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

- إِنِّي أَخْنُقُ يَدَيَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ !

- سَوَاءَ لَكَ يَا أَحْمَدُ ، كُلُّ طِفْلِ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُ أُمٌّ مِثْلُ أُمِّنَا الَّتِي مَاتَتْ ، وَلَهُ أُخْتُ

مِثْلِي ؛ فَمَا عَسَى يَتَرَلُّ بَيْنِي لَوْ تَكَلَّمْتُكَ إِذَا خَنَقْتُكَ رَجُلٌ طَوِيلٌ عَرِيضٌ ؟

- لَا ، لَا أَخْنِقُهُمْ ؛ بَلْ سَأَرْضِيهِمْ مِنْ نَفْسِي ؛ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَصِيرَ رَجُلًا مِثْلَ الْمُدِيرِ الَّذِي

رَأَيْتَاهُ فِي سَيَّارَتِهِ أَلْيَوْمَ عَلَى حَالٍ مِنَ السَّطَوَةِ تُعْلِنُ أَنَّهُ الْمُدِيرُ . . . أَتَذَرِينَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

.. مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

.. أَرَأَيْتِ عَرَبَةَ الْإِسْعَافِ الَّتِي جَاءَتْ عِنْدَ الظُّهْرِ فَأَنْقَلَبْتَ نَعْسًا لِلرَّجُلِ الْهَرِمِ الْمَحْطَمِ
الَّذِي أُغْمِيَ عَلَيْهِ فِي الطَّرِيقِ ؟ سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُدِيرَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِاتِّخَاذِ هَذِهِ
الْعَرَبَةِ ، وَلِكِنَّهُ رَجُلٌ غُفْلٌ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ الْحَيَاةِ مِثْلَنَا ، وَلَمْ تُحْكَمْهُ تَجَارِبُ الدُّنْيَا ؛ فَالَّذِي
يَمُوتُ بِالْفَجَاءَةِ أَوْ غَيْرِهَا لَا يُخَيِّنُهُ الْمُدِيرُ وَلَا غَيْرُ الْمُدِيرِ ، وَالَّذِي يَقَعُ فِي الطَّرِيقِ يَجِدُ مِنَ
النَّاسِ مَنْ يَتَبَدَّرُونَهُ لِنَجْدَتِهِ وَإِسْعَافِهِ بِقُلُوبِ إِنْسَانِيَّةٍ رَحِيمَةٍ ، لَا يَقْلِبُ سَوَاقِ عَرَبَةٍ يَنْتَظِرُ
الْمُصِيبَةَ عَلَى أَنَّهَا رِزْقٌ وَعَيْشٌ .

إِنَّ عَرَبَاتِ الْإِسْعَافِ هَذِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَكُلٌ . . . وَيَجِبُ أَنْ تَحْمِلَ أَمْثَالَنَا مِنَ
الطَّرِيقِ وَالشُّوَارِعِ إِلَى الْبُيُوتِ وَالْمَدَارِسِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلطُّفْلِ أُمٌّ تُطْعِمُهُ وَتُؤْوِيهِ فَلْتَصْنَعْ لَهُ
أُمًّا .

كُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ لَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَى الْغَلَطِ ، كَأَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَلَبَةٌ أَوْ مُذْبِرَةٌ إِذْبَارَهَا ، وَمَا قَطُّ
رَأَيْتُ الْأُمُورَ فِي بِلَادِنَا جَارِيَةً عَلَى مَجَارِيهَا ؛ فَهَلْؤَلَاءِ الْحُكَّامُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا إِلَّا مِنْ
أَوْلَادِ صَالِحِي الْفُقَرَاءِ ، لِيَحْكُمُوا بِقَانُونِ الْفَقْرِ وَالرَّحْمَةِ ، لَا بِقَانُونِ الْغِنَى وَالْفُسُوقِ ،
وَلِيَبْقَحَحُمُوا الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ الْمُشْتَبِهَةَ بِثُفُوسِ عَظِيمَةٍ صَرِيحَةٍ قَدْ نَبَتْ عَلَى صَلَابَةِ وَبَاسٍ ،
وُخُلِقَ وَدِينُ وَرَحْمَةٍ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْهَزِمُ فِي مَعْرَكَةِ الْحَوَادِثِ إِلَّا رُوحُ النُّعْمَةِ فِي أَهْلِ النُّعْمَةِ ،
وَأَخْلَاقُ اللَّيْنِ فِي أَهْلِ اللَّيْنِ ؛ وَبِهَلْؤَلَاءِ لَمْ يَبْرَحِ الشَّرْفُ مِنْ هَزِيمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ
سِيَاسِيَّةٍ .

إِنَّ لِلْحُكْمِ لَحَمًا وَدَمًا هُوَ لَحْمُ الْحَاكِمِ وَدَمُهُ ؛ فَإِنْ كَانَ صُلْبًا خَشِنًا فِيهِ رُوحُ الْأَرَضِ
وَرُوحُ السَّمَاءِ فَذَلِكَ ، وَإِلَّا قَتَلَ اللَّيْنُ وَالتَّرَفُ الْحُكْمَ وَالْحَاكِمَ جَمِيعًا . وَهَلْؤَلَاءِ الْحُكَّامُ
مِنْ أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ لَا يَكُونُ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَرْفَعُوا مِنْ شَأْنِ أَنْفُسِهِمْ ، إِذِ السُّلْطَةُ دَرَجَةٌ فَوْقَ
الْغِنَى ، وَمَنْ نَالَ هَذِهِ اسْتَشْرَفَ لِلْبَلَدِ ، فَإِذَا جَمَعُوهُمَا كَانَ مِنْهُمَا الْخُلُقُ الظَّالِمُ الَّذِي
يُصَوِّرُ لَهُمُ الْأَعْتِدَاءَ قُوَّةَ وَسَطَوَةِ وَعُلُوءًا ، مِنْ حَيْثُ عَدِمُوا الْخُلُقَ الرَّحِيمَ الَّذِي يُصَوِّرُ لَهُمُ
هَذِهِ الْقُوَّةَ ضَعْفًا وَجُبْنًا وَنَدَالَةً . إِنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا حَكَمَ وَتَسَلَّطَ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

ضَرَبَتْهُ الْأُولَى إِلَّا فِي الْمَبْدَأِ الْأَجْتِمَاعِيِّ لِلْأُمَّةِ ، أَوْ فِي الْأَصْلِ الْأَدَبِيِّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ .
وَيَحْرُصُونَ عَلَى مَا بِهِ تَمَامُهُمْ ، أَيْ : عَلَى السُّلْطَةِ ، أَيْ : عَلَى الْحُكْمِ ؛ فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ
عَلَى أَنْ يَتَكَلَّفُوا لِلْحِرْصِ أَخْلَاقَهُ ، وَأَنْ يَجْمَعُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَسْبَابَهُ ؛ مِنْ أُمْدَادِ
وَالْمَصَانِعِ وَالْمُهَاوِنَةِ ، نَارِلًا فَتَارِلًا إِلَى دَرْكِ بَعِيدٍ ، فَيَنْشُرُونَ أَسْوَأَ الْأَخْلَاقِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ
مَا دَامُوا هُمْ الْقُوَّةَ .

- وَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ أَوْلَادُ الْأَغْنِيَاءِ يَا أَحْمَدُ ؟

- أَمَّا أَوْلَادُ الْأَغْنِيَاءِ فَيَجِبُ أَنْ يُبَاشِرُوا الصَّنَاعَةَ وَالتَّجَارَةَ ، لِيَجِدُوا عَمَلًا شَرِيفًا
يُصَيِّبُونَ مِنْهُ رِزْقَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ لَا بِأَيْدِي آبَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْلَا الْعَمَلُ الْأَجْتِمَاعِيُّ لَمَا كَانَ فَرْقٌ
بَيْنَ ابْنِ أَمِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكِ أَبِيهِ مِنَ الْقُصُورِ وَالضِّيَاعِ ، وَابْنِ فَقِيرٍ مُتَبَطِّلٍ فِي أَمْلَاكِ
الْمَجْلِسِ الْبَلَدِيِّ مِنَ الْأَرْقَةِ وَالشَّوَارِعِ .

وَابْنُ الْأَمِيرِ إِذَا كَانَ نَجَارًا أَوْ حَدَّادًا أَصْلَحَ الشُّوقَ وَالشَّارِعَ بِأَخْلَاقِهِ الطَّيِّبَةِ اللَّيِّنَةِ ،
وَتَعَقُّفِهِ وَكَرَمِهِ ، فَيَتَعَلَّمُ سَوَادَ النَّاسِ مِنْهُ الْأَمَانَةَ وَالصَّدْقَ ، إِذْ هُوَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَسْرِقُ
مَا دَامَ قَوْقُ الْأَضْطِرَّارِ ، وَلَا كَذَلِكَ ابْنُ الْفَقِيرِ الَّذِي يَضْطَرُّهُ الْعَيْشُ أَنْ يَكُونَ تَاجِرًا أَوْ
صَانِعًا ، فَتَكُونُ حِرْفَتُهُ التَّجَارَةَ وَهِيَ السَّرِقَةُ ، أَوِ الصَّنَاعَةَ وَهِيَ الْغَشُّ ، وَيَكُونُ فِي النَّاسِ
أَكْثَرُ عُثْرِهِ مَادَّةَ كَذِبٍ وَإِثْمٍ وَلُصُوصِيَّةٍ .

أَوْ لَوْ صِرْتُ مُدِيرًا ! أَتَدْرِيْنَ مَاذَا أَصْنَعُ ؟

- مَاذَا تَصْنَعُ يَا أَحْمَدُ ؟

- أَعْمَدُ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ فَأَرُدُّهُمْ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَيْهَا حَمَلًا ، وَأُصْلِحُ
فِيهِمْ صِفَاتِهَا الَّتِي أَفْسَدَهَا التَّرَفُ وَاللِّينُ وَالنَّعْمَةُ ، ثُمَّ أُصْلِحُ مَا أُخْلِيَ بِهِ الْفَقْرُ مِنْ صِفَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْفَقَرِ ، وَأَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَمَلًا ، فَيَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَيَتَقَارَبُونَ
عَلَى أَصْلِ فِي الدِّمِ إِنْ لَمْ يَلِدْهُ آبَاؤُهُمْ وَلَكِنَّهُ الْقَانُونُ . أَلَا إِنَّ سُقُوطَ أُمِّيَّتِنَا هَذِهِ لَمْ يَأْتِ إِلَّا
مِنْ تَعَادِي الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي أَفْرَادِهَا ، فَتَقَطَعَ مَا بَيْنَهُمْ ، فَهُمْ أَعْدَاءُ فِي وَطَنِهِمْ ، وَإِنْ
كَانَ أَسْمُهُمْ أَهْلَ وَطَنِهِمْ .

وَمَتَى أُحْكِمَتِ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا وَدَانِي بَعْضُهَا بَعْضًا - صَارَ قَانُونُ كُلِّ
فَرْدٍ كَلِمَتَيْنِ ، لَا كَلِمَةً وَاحِدَةً كَمَا هُوَ الْآنَ . الْقَانُونُ الْآنَ : حَقِّي ، وَنَحْنُ نُرِيدُ أَنْ
يَكُونَ : حَقِّي وَوَاجِبِي ، وَمَا أَهْلَكَ الْفُقَرَاءَ بِالْأَغْنِيَاءِ ، وَلَا الْأَغْنِيَاءَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَلَا
الْمَحْكُومِينَ بِالْحُكَّامِ - إِلَّا قَانُونُ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ .

* * *

أَنَا أَحْمَدُ الْمُدِيرُ . . . لَسْتُ الْمُدِيرَ بِمَا فِي نَفْسِ أَحْمَدِ ، وَلَا بِمَعِدَتِهِ وَبَطْنِهِ ، وَلَا بِمَا
يُرِيدُ أَحْمَدُ لِنَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ . . . كَلَّا ، أَنَا عَمَلُ أَجْمَاعِي مُنْظَمٌ يَحْكُمُ أَعْمَالِ النَّاسِ
بِالْعَدْلِ ، أَنَا خُلِقْتُ نَائِبٌ يُوجِّهُ أَخْلَاقَهُمْ بِالْقُوَّةِ ، أَنَا الْحَيَاةُ الْأُمُّ مَعَ الْحَيَاةِ الْأَطْفَالِ الْإِخْوَةِ
فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يُسَمَّى الْوَطَنَ ، أَنَا الرَّحْمَةُ ، عِنْدِي الْجَنَّةُ وَلَكِنْ عِنْدِي جَهَنَّمُ أَيْضًا
مَا دَامَ فِي النَّاسِ مَنْ يَعْصِي ، أَنَا بِكُلِّ ذَلِكَ لَسْتُ أَحْمَدَ ، لَكِنِّي الْإِصْلَاحُ .
هَذَاذَا قَدْ صِرْتُ مُدِيرًا أَعْسُ فِي الطَّرِيقِ بِاللَّيْلِ وَانْفَقَدُ النَّاسَ وَنَوَائِبُهُمْ .

مَنْ أَرَى ؟ هَذَا طِفْلٌ وَأُخْتُهُ نَائِمَانِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ فِي حَيَاةٍ كَأَهْدَامِهِمَا الْمُرْقَعَةِ ، فِي
دُنْيَا تَمَزَّقَتْ عَلَيْهِمَا ، قُمْ يَا بُنَيَّ ، لَا تَرُعْ إِنَّمَا أَنَا كَأَيْنِكَ ، تَقُولُ : أَسْمَكَ أَحْمَدُ ، وَأَسْمُ
أُخْتِكَ أَمِينَةُ ؟

تَقُولُ : إِنَّكَ مَا نِمْتَ مِنَ الْجُوعِ ، وَلَكِنْ مَضْمَضْتَ عَيْنَكَ بِشِعَاعِ النَّوْمِ ؟
يَا وَلَدِي الْمُسْكِينَيْنِ . بِأَيِّ ذَنْبٍ مِنْ ذُنُوبِكُمَا دَفَقْتُكُمَا الْآيَامَ دَقًّا وَطَحَنْتُكُمَا طَحْنًا ،
وَبِأَيِّ فَضِيلَةٍ مِنَ الْفَضَائِلِ يَكُونُ ابْنُ فَلَانٍ بَاشَا ، وَبِنْتُ فَلَانٍ بَاشَا فِي هَذَا الْعَيْشِ اللَّيِّنِ
يَخْتَارَانِ مِنْهُ وَيَتَأَنَّقَانِ فِيهِ ، مَا الَّذِي ضَرَّ الْوَطَنَ مِنْكُمَا فَتَمُوتَا ، وَمَا الَّذِي نَفَعَ الْوَطَنَ مِنْهُمَا
فَيَعِيشَا ؟

إِنْ كُنْتُ يَا بُنَيَّ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ الْإِنْتِصَارَ مِنْ هَذِهِ الظُّلْمَةِ فَأَنَا أَمْلِكُهَا لَكَ ، وَإِنَّمَا أَنَا
الْمَظْلُومُ إِلَى أَنْ تَنْتَصِرَ ، وَإِنَّمَا أَنَا الضَّعِيفُ إِلَى أَنْ أَخَذَ لَكَ الْحَقَّ .

إِلَيَّ يَا ابْنَ فَلَانٍ بَاشَا وَبِنْتُ فَلَانٍ بَاشَا .

يَا هَذَا عَلَيْكَ أَحَاكَ أَحْمَدَ وَلَكُنْ بِهِ حَفِيًّا ، وَيَا هَذِهِ ، عَلَيْكَ أُخْتِكَ الْآنِسَةُ أَمِينَةُ . . .

أَتَأَيَّانِ ، أَنْفَرَةً مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَمَرُّدًا عَلَى الْفَضِيلَةِ ، أَحَقًّا بِلَا وَاجِبٍ ، دَائِمًا قَانُونُ
الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ؟! خُلِقْتُمَا أَبْيَضَيْنِ سُخْرِيَّةٍ مِنَ الْقَدَرِ وَأَنْتُمَا فِي النَّفْسِ مِنْ أُخْبُوشَةِ الزَّنَجِ
وَمَتَاكِيدِ الْعَبِيدِ .

وَرَفَعَ أَحْمَدُ يَدَهُ . . .

وَكَانَ الشَّرْطِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى هَذَا الشَّارِعِ ، وَإِلَيْهِ حِرَاسَةُ الْبَنِّكَ ، قَدْ تَوَسَّنَهُمَا^(١)
وَدَخَلَتْهُ الرَّبِيبَةُ ، فَأَنْتَهَى إِلَيْهِمَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ يَدُ سَعَادَةِ الْمُدِيرِ بِالصَّفْعَةِ
عَلَى وَجْهِ ابْنِ الْبَاشَا وَبِنْتِ الْبَاشَا كَانَ هَذَا الشَّرْطِيُّ قَدْ رَكَلَهُ بِرِجْلِهِ ، فَوَتَبَ قَاتِمًا وَاجْتَدَبَ
أُخْتَهُ وَأَنْطَلَقَا عَذْوُ الْخَيْلِ مِنَ الْهُوبِ السَّوِطِ .

وَتَمَجَّدَتِ الْفَضِيلَةُ كَعَادَتِهَا . . ! . . أَنْ مِسْكِينًا حَلَمَ بِهَا . .

مصطفى صادق الرافعي

(١) تَوَسَّنَهُمَا : أَتَاهُمَا نَائِمَيْنِ .

أَخْلَامٌ فِي قَصْرِ (*) (١)

كَانَ فُلَانُ ابْنِ الْأَمِيرِ فُلَانٍ يَتَنَبَّلُ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِمَّنْ يَضَعُ الْقَوَانِينَ لَا مِمَّنْ يَخْضَعُ لَهَا ، فَكَانَ تَيَّاهَا صِلَافًا يَسْمُخُ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّهُ ابْنُ أَمِيرٍ ، وَيَخْتَالُ فِي النَّاسِ بِأَنَّهُ جَدًّا مِنَ الْأَمْرَاءِ ، وَيَرَى مِنْ تَجَبُّرِهِ أَنَّ ثِيَابَهُ عَلَى أَعْطَافِهِ كَحُدُودِ الْمَمْلَكَةِ عَلَى الْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُ أَصْلًا فِي الْمُلُوكِ .

وَكَانَ أَبُوهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ وَلِدُوا وَفِي دِمِهِمْ شُعَاعُ السَّيْفِ ، وَبَرِيقُ النَّجِ ، وَنُخْوَةُ الظَّفَرِ ، وَعِزُّ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ ؛ وَلَكِنْ زَمَنُهُ ضَرَبَ الْحِصَارَ عَلَيْهِ ، وَأَفْضَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَرَجَعَتْ فِيهِ مَلَكَاتُ الْحَرْبِ مِنْ فَتْحِ الْأَرْضِ إِلَى شِرَاءِ الْأَرْضِ ، وَمِنْ تَشْيِيدِ الْأِمَارَاتِ إِلَى تَشْيِيدِ الْعِمَارَاتِ ، وَمِنْ إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ الْأَبْطَالِ إِلَى إِدَارَةِ مَعْرَكَةِ الْمَالِ ؛ وَغَبَرَ دَهْرُهُ بِمَلِكٍ وَيَجْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَتْ دَفَائِرُ حِسَابِهِ كَأَنَّهَا خَرِيطَةُ مَمْلَكَةٍ صَغِيرَةٍ .

وَبَعْضُ أَوْلَادِ الْأَمْرَاءِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ أَمْرَاءَ ، فَيَكُونُونَ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالْغُرُورِ كَأَنَّمَا رَضُوا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُرْسِلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَكِنْ بِشُرُوطٍ . . .

* * *

وَأَتَقَلَ الْأَمِيرُ الْبَخِيلُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الْمَالَ وَأَخَذَ مَعَهُ الْأَزْفَامَ وَحَدَّهَا يُحَاسِبُ عَنْهَا ، فَوَرِثَهُ ابْنُهُ وَأَمَرَ يَدُهُ فِي ذَلِكَ الْمَالِ يُبْعِثُهُ ؛ وَكَانَتْ الْأَقْدَارُ قَدْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ : غَيْرُ قَابِلٍ لِلْإِحْسَانِ . فَمَحَتْهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَكَتَبَتْ فِي مَكَانِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ : جُمِعَ لِلشَّيْطَانِ .

أَمَّا الشَّيْطَانُ فَكَانَ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ فِي خِدْمَةِ هَذَا الشَّابِّ ، كَعَمَلِ خَازِنِ الثِّيَابِ لِسَيِّدِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَلْبِسُهُ ثِيَابًا بَلْ أَفْكَارًا وَأَرَاءَ وَأَخِيلَةً . وَكَانَ يَجْهَدُ أَنْ يُدْخِلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا

(*) «الرسالة» العدد : ١٥٩ ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١١٦٣ - ١١٦٥ .

(١) «كُتِبَتْ مَقَالَةٌ «أَخْلَامٌ فِي الشَّارِعِ» وَهِيَ السَّابِقَةُ لِهَذِهِ . بِسَام .

إِلَى أَعْصَابِهِ لِيُخْرِجَ مِنْهَا دُنْيَا جَدِيدَةً مَصْنُوعَةً لِهَذِهِ الْأَعْصَابِ خَاصَّةً ، وَهِيَ أَعْصَابُ مَرِيضَةٍ ثَابِتَةٍ مُتْلَهَبَةٍ لَا يَكْفِيهَا مَا يَكْفِي غَيْرَهَا فَلَا تَبْرَحُ تَسْأَلُ الشَّيْطَانَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ :
أَلَا تَوْجَدُ لَذَّةَ جَدِيدَةٍ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ ؟ أَلَا يَسْتَطِيعُ إِبْلِيسُ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَذَّةَ مُبْتَكَّرَةٍ ؟ أَلَا تَكُونُ الْحَيَاةُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ مِنْ صُبْحِهَا لِصُبْحِهَا ؟

كَانَ الشَّابُّ كَالَّذِي يُرِيدُ مِنْ إِبْلِيسَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَهُ كَأْسًا تَسْعُ نَهْرًا مِنَ الْحَمْرِ ، أَوْ يَجِدَ لَهُ أَمْرًا وَاحِدَةً وَفِيهَا كُلُّ فُنُونِ النِّسَاءِ وَأَخْتِلَافِهِنَّ . وَكَانَ يُرِيدُ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يُعِينَهُ فِي اللَّذَّةِ عَلَى الْأَسْتِعْرَاقِ الرُّوحَانِيِّ وَيَعْمُرَهُ بِمِثْلِ التَّجَلِّيَّاتِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا النَّفْسُ مِنْ حِدَّةِ الطَّرَبِ وَحِدَّةِ الشُّوقِ ؛ وَذَلِكَ فَوْقَ طَاقَةِ إِبْلِيسَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مَعَهُ فِي جُهْدٍ عَظِيمٍ حَتَّى ضَجَرَ مِنْهُ ذَاتَ مَرَّةٍ فَهَمَّ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ عَنْهُ وَيَدْعَهُ بِدُخُلِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّيَ مَعَ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ الصَّالِحِينَ . . .

وَهَذُلَاءِ الْفَسَاقُ الْكَثِيرُ الْمَالِ إِنَّمَا يَعِيشُونَ بِالْأَسْطِرَافِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَهَمُّهُمْ دَائِمًا الْأَكْلُ وَالْأَجْمَلُ وَالْأَعْلَى ؛ وَمَتَى انْتَهَتْ فِيهِمْ اللَّذَّةُ مُنْتَهَاهَا وَلَمْ تَجِدْ عَاطِفَتَهُمْ مِنَ اللَّذَاتِ الْجَدِيدَةِ مَا يُسَعِدُهَا ، ضَاقَتْ بِهِمْ فَظَهَرَتْ مَظْهَرُ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَحِرَ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَلَلُ الَّذِي يُتْلَوْنَ بِهِ . وَالْفَاسِقُ الْغَنِيُّ حِينَ يَمَلُّ مِنْ لَذَاتِهِ يُضْبِغُ شَأْنَهُ مَعَ نَفْسِهِ كَالَّذِي يَكُونُ فِي نَفَقٍ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيُرِيدُ هُنَاكَ سَمَاءً وَجَوًّا يَطِيرُ فِيهِمَا بِالطَّيَّارَةِ . . .

* * *

قَالُوا : وَأَعْتَزَّضَ ابْنُ الْأَمِيرِ ذَاتَ يَوْمٍ شَحَّاذَ مَرِيضٌ قَدْ أَسَنَّ وَعَجَزَ يَتَحَامَلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ وَذَكَرَ عَوَظَهُ وَأَخْتِلَالَهُ ، وَجَعَلَ يَبْتُهُ مِنْ دُمُوعِهِ وَالْفَظَاطِ . وَكَانَ إِبْلِيسُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَدْ صَرَفَ خَوَاطِرَ الشَّابِّ إِلَى إِحْدَى الْغَايَاتِ الْمُمْتَنِعَاتِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَبْتَاعَ لَهَا حَلِيَّةَ ثَمِينَةٍ أَشْطَطَ بَائِعُهَا فِي الثَّمَنِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَيْهَا كَأَنَّهَا قَدَّرَ مِنْ قَادِرٍ . . . وَقَطَعَ عَلَيْهِ الشَّحَّاذُ الْمُسْكِينُ أَفْكَارَهُ الْمُضْيِئَةَ فِي الشَّخْصِ الْمُضْيِئِ ، فَكَانَ إِهَانَةً لِحَيَالِهِ السَّامِيِّ . . . وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ ، وَأَشْمَارًا فِي عُرُوفِهِ دَمُ الْإِمَارَةِ ، وَتَحَرَّكَتِ الْوَرَاثَةُ الْحَرْبِيَّةُ فِي هَذَا الدَّمِ . . .

ثُمَّ أَلْقَى الشَّيْطَانُ الْفَقَاءَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى صَاحِبَ الْوَجْهِ الْقَدِيرِ كَأَنَّمَا يَتَهَكَّمُ بِهِ يَقُولُ

لَهُ : أَنْتَ أَمِيرٌ يَبْحَثُ النَّاسُ عَنِ الْأَمِيرِ الَّذِي فِيهِ فَلَا يَجِدُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ الَّذِي فِيهِ . وَلَيْسَ
فِيكَ مِنَ الْإِمَارَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّارِ يَخْضَعُ فِي الْمَوْضِعِ الْأَثَرِيُّ الْخَرِبِ . وَلَنْ تَكُونَ أَمِيرًا
بِشَهَادَةِ عَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ عِنْدَ مُوسَى ، وَلَكِنْ بِشَهَادَةِ هَذَا الْمَالِ عِنْدَ عَشْرَةِ آلَافٍ فَقِيرٍ .
أَنْتَ أَمِيرٌ ، فَهَلْ تَنْتَبِهُ الْحَيَاةُ أَنَّكَ أَمِيرٌ ، أَوْ هَذَا مَعْنَى فِي كَلِمَةٍ مِنَ اللَّغَةِ ؟ إِنْ كَانَتْ الْحَيَاةُ
فَأَيْنَ أَعْمَالُكَ ، وَإِنْ ۥ ۥ كَانَتْ ۥ ۥ اللَّغَةُ فَهَلْ هَذِهِ لَفْظَةٌ بَائِدَةٌ تَذُلُّ فِي عُصُورِ الْأَنْحِطَاطِ عَلَى قَسِطِ
حَامِلِهَا مِنَ الْأَسْتِئْدَادِ وَالطُّغْيَانِ وَالْجَبْرُوتِ ، كَأَنَّ الْأَسْتِئْدَادَ بِالشَّعْبِ غَنِيمَةٌ يَتَنَاهَبُهَا
عُظَمَاؤُهُ ، فَتَقْسِمُ مِنْهَا فِي الْحَاكِمِ ، وَتَقْسِمُ فِي شِبْهِ الْحَاكِمِ يَتَزَجَّمُ عَنْهُ فِي اللَّغَةِ بِلَقَبِ أَمِيرٍ .
أَلَا قُلْ لِلنَّاسِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ : إِنَّ لَقَبِي هَذَا إِنَّمَا هُوَ تَغْيِيرُ الزَّمَنِ عَمَّا كَانَ لِأَجْدَادِي مِنَ
الْحَقِّ فِي قَتْلِ النَّاسِ وَأَمْنِيَّتِهِمْ . . .

* * *

وَكَانَ هَذَا كَلَامًا بَيْنَ وَجْهِ الشَّحَاذِ وَبَيْنَ نَفْسِ ابْنِ الْأَمِيرِ فِي حَالَةٍ بِخُصُوصِهَا مِنْ
أَحْوَالِ النَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ أَهَيْنَ الشَّحَاذِ وَطُرِدَ وَمَضَى يَدْعُو بِمَا يَدْعُو .
وَنَامَ ابْنُ الْأَمِيرِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَكَانَ خَيَالُهُ ^(١) مِنْ دُنْيَا ضَمِيرِهِ وَضَمِيرِ الشَّحَاذِ : فَرَأَى فِيمَا
يَرَى اللَّائِمُ أَنَّ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَهْتَفُ بِهِ :

وَبِلَّكَ ! لَقَدْ طَرَدْتَ الْمُسْكِينَ تَخْشَى أَنْ تَنَالَكَ مِنْهُ جَرَائِمُ تَمْرَضُ بِهَا ، وَمَا عَلِمْتَ أَنَّ
فِي كُلِّ سَائِلٍ فَقِيرٍ جَرَائِمُ أُخْرَى تَمْرَضُ بِهَا النُّعْمَةُ ؛ فَإِنْ أَكْرَمْتَهُ بَقِيَتْ فِيهِ ، وَإِنْ أَهَنْتَهُ
نَفَضَهَا عَلَيْكَ . لَقَدْ هَلَكَتِ الْيَوْمَ نِعْمَتُكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَاسْتَرَدَّ الْعَارِيَةَ صَاحِبُهَا ، وَأَكَلَتْ
الْحَوَادِثُ مَالَكَ فَاصْبَحْتَ فَقِيرًا مُخْتَاجًا تَرْوُمُ الْكِسْرَةَ مِنَ الْخُبْزِ فَلَا تَنْهَبُ لَكَ إِلَّا بِجُهْدٍ
وَعَمَلٍ وَمَشَقَّةٍ ؛ فَأَذْهَبْ فَأَكْذَحْ لِعَيْشِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَمَا لِأَيِّكَ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ تَكُونَ
عِنْدَ اللَّهِ أَمِيرًا .

قَالُوا : وَيَنْظُرُ ابْنُ الْأَمِيرِ فَإِذَا كُلُّ مَا كَانَ لِنَفْسِهِ قَدْ تَرَكَ حِينَ تَرَكَهُ الْمَالُ ، وَإِذَا الْإِمَارَةُ
كَانَتْ وَهْمًا فَرَضَهُ عَلَى النَّاسِ قَانُونُ الْعَادَةِ ، وَإِذَا التَّعَاطُفُ وَالْكَبِيرِيَاءُ وَالتَّجَبُّرُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا

(١) الْخَيَالَةُ : مَا يَتَرَاهِي لِللَّائِمِ مِنَ الْأَشْبَاحِ فِي نَوْمِهِ .

كَانَتْ مَكْرًا مِنَ الْمَكْرِ لِإِبْنَاتِ هَذَا الطَّاهِرِ وَالْتَعَزُّزِ بِهِ . وَيَنْظُرُ ابْنُ الْأَمِيرِ ، فَإِذَا هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ صُغْلُوكَ أَتْبَرُ مُعْدِمِ رِثِ الْهَيْئَةِ كَذَلِكَ الشَّحَاذُ ، فَيَصْنِيعُ مُغْتَاظًا : كَيْفَ أَهْمَلْتَنِي الْأَقْدَارُ وَأَنَا ابْنُ الْأَمِيرِ ؟

قَالُوا : وَيَهْتَفُ بِهِ ذَلِكَ الْمَلِكُ : وَيَحْكُ ! إِنَّ الْأَقْدَارَ لَا تُدَلِّلُ أَحَدًا ، لَا مَلِكًا وَلَا ابْنَ مَلِكٍ ، وَلَا سُوقِيًّا وَلَا ابْنَ سُوقِيٍّ ، وَمَتَى صِرْتُمْ جَمِينًا إِلَى الثَّرَابِ فَلَيْسَ فِي الثَّرَابِ عَظْمٌ يَقُولُ لِعَظْمٍ آخَرَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ . . .

* * *

قَالُوا : وَفَكَرَ الشَّابُّ الْمُسْكِينُ فِي صَوَاحِبِهِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَعِنْدَهُنَّ شَبَابُهُ وَإِسْرَافُهُ ، وَنَفَقَاتُهُ الْوَاسِعَةُ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : أَذْهَبُ لِإِحْدَاهُنَّ ؟ وَأَخَذَ سَمْنَهُ إِلَيْهَا ، فَمَا كَادَتْ تَعْرِفُهُ عَيْنَاهَا فِي أَسْمَالِهِ وَبَذَائِثِهِ وَفَقْرِهِ حَتَّى أَمَرَتْ بِهِ فَجَزَّ يَدَيْهِ وَدَفَعَ فِي قَفَاهُ . وَلَكِنَّ دَمَ الْإِمَارَةِ نَزَا فِي وَجْهِهِ غَضَبًا ، وَتَحَرَّكَتْ فِيهِ الْوِرَاثَةُ الْحَزِينَةُ ، فَصَاحَ وَأَجْلَبَ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَضْطَرُّوا ، وَمَاجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ . فَبَيْنَا هُوَ فِي شَأْنِهِ حَانَتْ مِنْهُ الْيَفَاةُ فَأَبْصَرَ غُلَامًا قَدْ دَخَلَ فِي غُمَارِ النَّاسِ ، فَدَسَّ يَدَهُ فِي جَيْبِ أَحَدِهِمْ فَتَسَلَّلَ كَيْسَهُ وَمَضَى .

قَالُوا : وَجَرَى فِي وَهْمِ ابْنِ الْأَمِيرِ أَنْ يُلْحَقَ بِالْغُلَامِ فَيَكْبِسَهُ كَيْسَةَ الشُّرْطِيِّ وَيَسْتَرْعَ مِنْهُ الْكَيْسَ وَيَنْتَفِعَ بِمَا فِيهِ ، فَتَسَلَّلَ مِنَ الزَّحَامِ وَتَبَعَ الصَّبِيَّ حَتَّى أَدْرَكَهُ ، ثُمَّ كَبَسَهُ وَأَخَذَ الْكَيْسَ مِنْهُ وَأَخْرَجَ الْكَثْرَ ، فَإِذَا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خَاتَمٌ وَحِجَابٌ وَبَعْضُ خَرَزَاتٍ مِمَّا يَتَبَرَّكُ الْعَامَّةُ بِحَمَلِهِ ، وَمِفْتَاحٌ صَغِيرٌ . . .

فَانْتَلَأَ غَيْظًا وَفَارَ دَمُ الْإِمَارَةِ وَتَحَرَّكَتِ الْوِرَاثَةُ الَّتِي فِيهِ . وَالْمُ الصَّبِيَّ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَحَدَسَ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ أَفَاقُ مُتَبَطِّلٌ ، لَا نَفَادَ لَهُ فِي صِنَاعَةِ يَزْتَرِقُ مِنْهَا ، فَرَأَى لِفَقْرِهِ وَجْهَهُ وَدَعَاهُ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ السَّرِيقَةَ وَأَنْ يَأْخُذَهُ إِلَى مَدْرَسَتِهَا . وَقَالَ : إِنَّ لَنَا مَدْرَسَةً ، فَإِذَا دَخَلْتَ الْقِسْمَ الْإِعْدَادِيَّ مِنْهَا تَعَلَّمْتَ كَيْفَ تَحْمِلُ الْمِكْتَلُ^(١) فَتَذْهَبُ كَأَنَّكَ تَجْمَعُ فِيهِ الْخِرَقَ الْبَالِيَّةَ مِنَ الدُّوَرِ حَتَّى إِذَا سَنَحَتْ لَكَ غَفْلَةٌ أَنْسَلْتِ إِلَى دَارِ مِنْهَا ، فَسَرَقْتَ مَا تَنَالَهُ يَدُكَ مِنْ

(١) هُوَ كَالْقَفَّةِ يُعْمَلُ مِنَ الْخُوصِ .

تُوبِ أَوْ مَنَعَ ، وَلَا تَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الصَّنْعَةِ حَتَّى تُحْكِمَهُ ، وَمَتَى حَدِثْتُهُ وَمَهَرْتَ فِيهِ
اَتَّقَلْتُ إِلَى الْقِسْمِ الثَّانِي . . .

فَصَاحَ ابْنُ الْأَمِيرِ : أَغْرُبَ عَنِّي ، عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ ، أَخْزَاكَ اللَّهُ ! وَلَعَنَ اللَّهُ الْأَعْدَادِي
وَالثَّانَوِي مَعًا .

ثُمَّ إِنَّهُ رَمَى الْكَيْسَ فِي وَجْهِ الْغُلَامِ وَأَنْطَلَقَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي وَقَدْ تَوَرَّعَتْهُ الْهُمُومُ ، أَنْشَأَ
يُفَكِّرُ فِيمَا كَانَ يَرَاهُ مِنَ الْمُكْدِنِ ، وَتِلْكَ الْعِلَلُ الَّتِي يَنْشَحِلُونَهَا لِلْكُدْيَةِ كَالَّذِي يَتَعَامَى وَالَّذِي
يَتَعَارَجُ وَالَّذِي يُحْدِثُ فِي جِسْمِهِ آفَافٌ ؛ وَلَكِنَّ دَمَ الْإِمَارَةِ أَشْمَارًا فِي عُرُوقِهِ وَتَحَرَّكَتْ فِيهِ
الْوَرَاثَةُ الْحَزْبِيَّةُ ! وَبَصُرَ بِشَابٍّ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَغْنِيَاءِ تَنْطَلِقُ عَلَيْهِ التَّعَمُّةُ فَتَعْرَضُ لِمَعْرُوفِهِ ،
وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِهِمَّةً ، وَشَكَا مَا نَزَلَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : وَإِنِّي قَدْ أَمْلَيْتُكَ وَظَنِّي بِكَ أَنْ تَصْطَفِيَنِي
لِمُنَادِمَتِكَ أَوْ تُلْحِقَنِي بِخِدْمَتِكَ ، وَمَا أُرِيدُ إِلَّا الْكَفَافَ مِنَ الْعَيْشِ ، فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ بِي ،
فَالْقَلِيلُ الَّذِي يَعْيشُ بِهِ الْمُقَلُّ . وَصَعَّدَ فِيهِ الشَّابُّ وَصَوَّبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُحْسِنُ أَنْ تَلْطَفَ
فِي حَاجَتِي ؟ قَالَ : سَأَبْلُغُ فِي حَاجَتِكَ مَا تُحِبُّ . قَالَ الشَّابُّ : أَلَيْكَ سَابِقَةٌ فِي هَذَا ؟
أَكُنْتَ قَوَادًا ؟ أَتَعْرِفُ كَثِيرَاتٍ مِنْهُنَّ . . . ؟

فَانْتَفَضَ غَضَبًا وَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفَتَى لَوْلَا خَوْفُهُ عَاقِبَةَ الْجَرِيْمَةِ ، فَاسْتَحْذَى وَمَضَى
لِوَجْهِهِ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ سُوقًا فَأَمَّلَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا فِي بَعْضِ الْحَوَانِيتِ ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَهَا
جَعَلُوا يَزْجُرُونَهُ مَرَّةً وَيَطْرُدُونَهُ مَرَّةً ، إِذْ وَقَعَتْ بِهِ ظَنَّةُ التَّلَصُّصِ ، وَكَادُوا يُسْلِمُونَهُ إِلَى
الشَّرْطِيِّ فَمَضَى هَارِبًا ؛ وَقَدْ أَجْمَعَ أَنْ يَنْتَحِرَ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَدَهْرَهُ وَإِمَارَتَهُ وَبُؤْسَهُ جَمِيعًا .

قَالُوا : وَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَضْرَعِهِ بِأَمْرَاءَ تَبْنِعُ الْفُجْلَ وَالْبَصَلَ وَالْكُرَاتِ ، وَهِيَ بَادِنَةٌ
وَضِيئَةٌ مُمْتَلِئَةٌ بِالْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، وَعَلَى وَجْهِهَا مَسْحَةٌ إِغْرَاءَ ، فَذَكَرَ غَزْلَهُ وَفَتْنَتَهُ وَاسْتِغْوَاءَهُ
لِلنِّسَاءِ ، وَنَارَعَتْهُ النَّفْسُ ، وَحَسِبَ الْمَرْأَةُ تَكُونُ لَهُ مَعَاشًا وَلَهْوًا ، وَظَنَّتْهَا لَا تُعْجِزُهُ وَلَا
تَقْوَتُهُ وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ خَرَّاجٌ وَلَاجٌ مُنْذُ نَشَأَ . . . غَيْرَ أَنَّهُ مَا كَادَ يَرَاوِدُهَا حَتَّى أَبْتَدَرَتْهُ
بِلَطْمَةٍ أَظْلَمَ لَهَا الْجَوُّ فِي عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ هَرَّتْ فِي وَجْهِهِ هَرِيرًا مُنْكَرًا وَاسْتَعْدَتْ عَلَيْهِ السَّابِلَةَ
فَاطْفَافًا بِهِ وَأَخَذَهُ الصَّفْعُ بِمَا قَدَّمَ وَمَا حَدَثَ ، وَمَا زَالُوا يَتَعَاوَرُونَهُ ضَرْبًا حَتَّى وَقَعَ مَعْشِيًا
عَلَيْهِ .

وَرَأَى فِي غَشِيهِ مَا رَأَى مِنْ تَمَامِ هَذَا الْكَرْبِ ، فَضْرِبَ وَحْسٍ وَأَبْتَلِي بِالْجُنُونِ
وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَارِسْتَانِ ، وَسَاحَ فِي مَصَائِبِ الْعَالَمِ ، وَطَافَ عَلَى نَكَبَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالشُّوَقَةِ
بِمَا يَبْعِي وَمَا لَا يَبْعِي ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَفَاقَ مِنَ الْإِغْمَاءِ فَإِذَا هُوَ قَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ عَلَى
فِرَاشِهِ الْوَتِيرِ .

* * *

وَيَا لَيْتَ مَنْ يَذَرِي بَعْدَ هَذَا ! أَغْدَا ابْنُ الْأَمِيرِ عَلَى الْمَسْجِدِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْفُقَرَاءِ يُحْسِنُ
إِلَيْهِمْ ، أَمْ غَدَا عَلَى صَاحِبِهِ الَّتِي أُمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ فَاِتْبَاعَ لَهَا الْحِلْيَةِ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ ؟
يَا لَيْتَ مَنْ يَذَرِي ! فَإِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي نَقَلْنَا الْقِصَّةَ عَنْهُ لَمْ يَذْكُرْ مِنْ هَذَا شَيْئًا بَلْ قَطَعَ
الْخَبَرَ عِنْدَمَا انْقَطَعَ الصَّفْحُ . . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

بُنْتُ أَلْبَاشًا (*) (١) . . .

كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ وَضَاحَةً أَلْوَجْهِ ، زَهْرَاءَ اللَّوْنِ كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، تَحْسِبُهَا لِحْمَالِهَا
[قَدْ] غَذَّنَهَا الْمَلَائِكَةُ بِنُورِ النَّهَارِ ، وَرَوَّنَهَا مِنْ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ .

وَكَانَتْ بَضَّةً مُقَسِّمَةً أَبَدَعَ التَّقْسِيمِ ، يَلْتَفُتُ جِسْمُهَا شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ أَلْتِفَافًا هَنْدَسِيًّا
بَدِيعًا ، يَرْتَفِعُ عَنْ أَجْسَامِ الْغَيْدِ الْحَسَنِ ؛ أَفْرِغَ فِيهَا الْجَمَالَ بِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُ - إِلَى أَجْسَامِ
الدَّمَى الْعَبْقَرِيَّةِ الَّتِي أَفْرِغَ فِيهَا الْجَمَالَ وَالْفَنَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِيلُ .

وَكَانَتْ بِاسِمَةٍ أَبَدًا كَأَوَّلِ مَا يَتَلَأَلُ الْفَجْرُ ، حَتَّى كَانَ دَمَهَا الْغَزَلِيُّ الشَّاعِرَ يَصْنَعُ لِشَرِّهَا
أَبْيَسَامَتَهَا ، كَمَا يَصْنَعُ لِحَدِيثِهَا حُمَرَتَهُمَا .

مَا لَهَا جَلَسَتْ أَلَانَ تَحْتَ اللَّيْلِ مُطْرَقَةً كَاسِفَةً ذَابِلَةً ، تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ فَمَا تَشْكُ أَنَّ هَذَا
أَلْوَجْهَ قَدْ كَانَ فِيهِ مَبْنِعُ نُورٍ وَغَاضٍ ! وَأَنَّ هَذَا الْجِسْمَ الظَّمَانُ الْمَعْرُوقُ هُوَ بُفْعَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ
أَقِيمَ فِيهَا مَاتَمٌ !

مَا لِهَذِهِ الْعَيْنِ الْكَحِيلَةَ تُذْرِي الدَّمَعَ وَتَسْتَرْسِلُ فِي الْبُكَاءِ وَتَلْجُ فِيهِ ، كَانَ الْعَادَةُ
الْمُسْكِنَتِ تَبْصُرُ بَيْنَ الدُّمُوعِ طَرِيقًا تُفْضِي مِنْهُ نَفْسَهَا إِلَى الْحَبِيبِ الَّذِي لَمْ يَعْذُ فِي الدُّنْيَا ؛
إِلَى وَحِيدِهَا الَّذِي أَصْبَحَتْ تَرَاهُ وَلَا تَلْمَسُهُ ، وَتُكَلِّمُهُ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا ؛ إِلَى طِفْلِهَا النَّاعِمِ
الظَّرِيفِ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَى الْقَبْرِ وَلَنْ يَرْجِعَ ، وَتَتَمَثَّلُهُ أَبَدًا يُرِيدُ أَنْ يَجِيءَ إِلَيْهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ ،
وَتَتَخَيَّلُهُ أَبَدًا يَصْبَحُ فِي الْقَبْرِ يُنَادِيهَا : « يَا أُمِّي ! يَا أُمِّي ! . . . » .

قَلْبُهَا الْحَزِينُ يُقَطِّعُ فِيهَا وَيَمَزَّقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ؛ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَضُمَّ
الطُّفْلَ إِلَى صَدْرِهَا ، لِيَسْتَشِعِرَهُ الْقَلْبُ فَيَفْرَحَ وَيَتَهَنَّأَ إِذْ يَمَسُّ الْحَيَاةَ الصَّغِيرَةَ الْخَارِجَةَ مِنْهُ .

(*) « الرسالة » العدد : ٧١ ، ٤ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٢ نوفمبر/تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ،
السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٤٢ - ١٨٤٥ .

(١) [أَنْظُرْ خَبَرَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَحَدِيثَ : « الْوَبَالُ الْفَيْلَسُوفِ » فِي : « عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا : « حَيَاةُ
الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْمُعْزِيَانِ] .

وَلَكِنْ أَيْنَ الطُّفْلُ ؟ أَيْنَ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْخَارِجَةُ مِنَ الْقَلْبِ ؟

لَا طَاقَةَ لِلْمُسْكِينَةِ أَنْ تُجِيبَ قَلْبَهَا إِلَى مَا يَطْلُبُ ، وَلَا طَاقَةَ لِقَلْبِهَا أَنْ يَهْدَأَ عَمَّا يَطْلُبُ ؛ فَهُوَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْقَهْرِ يَحَاوِلُ أَنْ يُفَجِّرَ صَدْرَهَا ، وَيُرِيدُ أَنْ يَدُقَّ ضُلُوعَهَا ، لِيُخْرِجَ فَيُبَحِّثَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَيِّهِ !

مُسْكِينَةٌ تَتَرَنَّحُ وَتَتَلَوَّى تَحْتَ ضَرْبَاتِ مُهْلِكَةٍ مِنْ قَلْبِهَا ، وَضَرْبَاتِ أُخْرَى مِنْ خَيَالِهَا ، وَقَدْ بَاتَتْ مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ تَعِيشُ فِي مِثْلِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الدَّيْبَحَةُ تَحْتَ السَّكِينِ . وَلَكِنَّهَا لَحْظَةٌ أَمْتَدَّتْ إِلَى يَوْمٍ ، وَيَوْمٌ أَمْتَدَّ إِلَى شَهْرٍ . يَا وَلِلْهَا مِنْ طُولِ حَيَاةٍ لَمْ تَعُدْ فِي آلَمِهَا وَأَوْجَاعِهَا إِلَّا طُولُ مُدَّةِ الدَّبْحِ لِلْمَذْبُوحِ .

وَلَوْ كَانَ لِلْمَوْتِ قِطَارٌ يَقِفُ عَلَى مَحْطَةٍ فِي الدُّنْيَا ، لِيَحْمِلَ الْأَحْبَابَ إِلَى الْأَحْبَابِ ، وَيُسَافِرَ مِنْ وُجُودٍ إِلَى وُجُودٍ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُّ جَالِسَةً فِي تِلْكَ الْمَحْطَةِ مُنْتَظِرَةً تَتَرَبَّصُ ، وَقَدْ ذُهِلَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَجَرَّدَتْ مِنْ كُلِّ مَعَانِي الْحَيَاةِ ، وَجَمَدَتْ جُمُودَ الْإِنْتِقَالِ إِلَى أَلْمُوتِ - لِمَا كَانَتْ إِلَّا بِهِذِهِ الْهَيْئَةِ فِي مَجْلِسِهَا الْآنَ فِي شُرْفَتِهَا مِنْ قَصْرِهَا ؛ تَطْلُ عَلَى اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَعَلَى أَحْزَانِهَا . . . !

* * *

هِيَ فَلَانَةٌ بِنْتُ فُلَانٍ بَاشَا وَزَوْجَةُ فُلَانٍ بَكْ . تَرَادَفَتْ التَّعَمُّ عَلَى أَيْنِهَا فِيمَا يَطْلُبُ وَمَا لَا يَطْلُبُ ، وَكَأَنَّمَا فَرَّغَ مِنْ أَفْتِرَاحِهِ عَلَى الزَّمَانِ وَاتَّكَفَى مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، فَلَمْ يُعْجِبِ الزَّمَانُ { ذَلِكَ } ، فَأَخَذَ يَقْتَرِحُ لَهُ وَيَصْنَعُ مَا يَقْتَرِحُ ، وَيَزِيدُهُ عَلَى رَغْمِهِ نِعَمًا تَتَوَالَى ! وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى خِطْبَةِ ابْنَتِهِ شَابٌّ مُهَذَّبٌ ، يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ الشَّبَابَ وَالْهَيْمَةَ وَالْعِلْمَ ، وَمِنْ أَسْلَافِهِ الْمُعْصِرَ الْكَرِيمَ وَالشَّرَفَ الْمَمُورُوثَ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ مَا يُكَائِرُ بِهِ الرُّجَالَ وَيُفَاخِرُ . بَيَدَ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ عَيْشِهِ إِلَّا الْكَفَافَ وَالْقِلَّةَ ، وَأَمَلًا بَعِيدًا كَالْفَجْرِ وَرَاءَ لَيْلٍ لَا بُدَّ مِنْ مُصَابِرَتِهِ إِلَى حِينٍ يَنْبَغِي الثُّورُ .

وَتَقَدَّمَ صَاحِبُنَا إِلَى الْبَاشَا فَجَاءَهُ كَالْتَّجْمِ عَارِيًا ؛ أَيَّ فِي أَرْهَى نُورَانِيَّتِهِ وَأَضْوَوْنَهَا . وَكَانَ قَدْ عَلِقَ الْفَتَاةَ وَعُلَقَتَهُ ، فَظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّ الْحُبَّ هُوَ مَالُ الْحُبِّ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَةَ هِيَ مَالُ الْأُنُوَّةِ ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ تَتَعَامَلُ بِالْمَسَرَّاتِ لَا بِالْأَمْوَالِ ، وَنَسِيَ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ إِلَى رَجُلٍ مَالِيٍّ

جَعَلَتْهُ حَقَارَةً الْأَجْتِمَاعِ رُتْبَةً ، أَوْ إِلَى رُتْبَةِ مَالِيَّةٍ جَعَلَتْهَا حَقَارَةً الْأَجْتِمَاعِ رَجُلًا . . . وَأَنَّ
كَلِمَةَ « بَاشَا » وَأَمْثَالَهَا ، إِنَّمَا تَخَلَّفَتْ عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ الْقَدِيمِ : مَذْهَبِ الْأُلُوْهِيَّةِ الْكَادِيَةِ
الَّتِي انْتَحَلَهَا فِرْعَوْنُ وَأَمْثَالُهُ ، لِيَعْبُدُوا النَّاسَ مِنْهَا بِالْقَاطِ قُلُوبِهِمُ الْمُؤْمِنَةِ ؛ فَإِذَا قِيلَ :
« إِلَهٌ » كَانَ جَوَابُ الْقَلْبِ : « عَزَّ وَجَلَّ » ، « سُبْحَانَهُ » . . .

وَلَمَّا أَرْتَقَى النَّاسُ عَنْ عِبَادَةِ النَّاسِ ، تَلَطَّفَتْ تِلْكَ الْأُلُوْهِيَّةُ وَنَزَلَتْ إِلَى دَرَجَاتِ
إِنْسَانِيَّةٍ ، لِيَتَعَبَّدَ النَّاسُ بِالْقَاطِ عَقُولَهُمُ السَّادِجَةَ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » كَانَ جَوَابُ الْعَقْلِ
الْصَّغِيرِ : « سَعَادَتُلُوْ أُنْدِيمُ » (١) !

نَسِيَ الشَّابُّ أَنَّهُ « أُنْدِي » سَيَقْدُمُ إِلَى « بَاشَا » وَأَعْمَاهُ الْحُبُّ عَنْ فَرْقِ بَيْنِهِمَا ؛ وَكَانَ
سَامِي الْقَنَسِ ، فَلَمْ يُذِرْكَ أَنَّ صَغَائِرَ الْأُمَمِ الصَّغِيرَةِ لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَتَّحِلَ السُّمُوَّ انْتِحَالًا ،
وَأَنَّ الشَّعْبَ الَّذِي لَا يَجِدُ أَعْمَالًا كَبِيرَةً يَتَمَجَّدُ بِهَا ، هُوَ الَّذِي تُخْتَرَعُ لَهُ الْأَلْفَاظُ الْكَبِيرَةُ
لِيَتَلَهَّى بِهَا ؛ وَأَنَّهُ مَتَى ضَعُفَ إِذْرَاكَ الْأُمَّةِ ، لَمْ يَكُنِ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الرِّجَالِ بِفَضَائِلِ الرُّجُولَةِ
وَمَعَانِيهَا ، بَلْ بِمَوْضِعِ الرُّجُولَةِ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ ؛ فَإِنْ قِيلَ : « بَاشَا » ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ
الْاِخْتِرَاعُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْعَظِيمُ فِي أُمَمِ الْأَلْفَاظِ ، وَمَعْنَاهَا الْعِلْمِيُّ : قُوَّةُ أَلْفِ فِدَانٍ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ
أَقْلُ ؛ وَيَقَابِلُهَا مَثَلًا فِي أُمَمِ الْأَعْمَالِ الْكَبِيرَةِ لَفْظُ : « الْآلَةُ الْبُخَارِيَّةِ » ، وَمَعْنَاهَا الْعِلْمِيُّ :
قُوَّةُ كَذَا وَكَذَا حِصَانًا أَوْ أَقْلُ أَوْ أَكْثَرُ (٢) !

نَسِيَ هَذَا الشَّابُّ أَنَّ « أُمَمَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ » فِي هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِنِ ، لَا تَتِمُّ
عَظَمَتُهَا إِلَّا بِأَنْ تَضَعَ لِأَصْحَابِ الْمَالِ الْكَثِيرِ أَلْقَابًا هِيَ فِي الْوَاقِعِ أَوْصَافُ اجْتِمَاعِيَّةٍ لِلْمَعْدَةِ
الَّتِي تَأْكُلُ الْأَكْثَرَ وَالْأَطْيَبَ وَالْأَلَدَّ ، وَتَمْلِكُ أَسْبَابَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْأَلَدِّ وَالْأَطْيَبِ وَالْأَكْثَرِ .

وَتَقْدَمُ الْأُنْدِيَّةُ يَتَوَدَّدُ إِلَى الْبَاشَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَيَتَوَاضَعُ وَيَنْكَمِشُ ، وَلَا يَأْلُوهُ تَمَجُّدًا
وَتَعْظِيمًا ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ مِنَ الْحَقِيقَةِ ؟ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْبَاشَا إِلَّا أَحْمَقَ ؛ إِذْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ

(١) هَذِهِ أَلْقَابُ وَضَعَتْهَا الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ الْبَائِدَةُ . فَانْسَدَّتِ النَّاسَ بِكِبَرِيَاءِ الْأَلْفَاظِ الْفَارِغَةِ . وَقَدْ أَرَادَتْ
بِهَا رَفْعَ الْأَعْلَى ، فَأَتَتْهُى أَمْرُهَا إِلَى سُفُوطِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ .

(٢) انْظُرْ مَقَالَ « إِلِكْ وَالْبَاشَا » فِي الْجُزْءِ الثَّانِي ॥

تَقَدَّمَهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَظِيمِ كَانَ أَوَّلُ مَعَانِيهِ أَنَّ كَلِمَةَ « أَفَنْدِي » تَطَاوَلَتْ إِلَى كَلِمَةِ « بَاشَا » بِالسَّبِّ عَلَنًا ... !

* * *

وَأَنْقَبَضُوا عَنِ الْأَفَنْدِيِّ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كَانَ مَعْنَاهُ الطَّرْدُ ؛ ثُمَّ جَاءَ أَلِيكَ يَخْطُبُ الْفَتَاةَ .

وَالْبِكُ « مُنْبَهَةٌ لِلِاسْمِ الْخَاطِبِ ، وَشَرَفٌ وَقَدَرٌ وَتَنَاءٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَذِكْرٌ شَهِيرٌ ، وَإِزْغَامٌ عَلَى التَّعْظِيمِ بِقُوَّةِ الْكَلِمَةِ ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْحُرْمَاتِ اللَّازِمَةِ لِلِاسْمِ لُزُومَ السَّوَادِ لِلْعَيْنِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ تَحْتَ بِكِ رَجُلٌ ، فَإِنَّ تَحْتَهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ بِكٌ ... ! وَأَنْعَمَ لَهُ الْبَاشَا ، وَوَصَلَ يَدُهُ بِيَدِ ابْنَتِهِ فَالْبَسَهَا وَالْبَسَتْهُ ، وَأَعْلَمَهَا أَبُوَهَا أَنَّهُ قَدْ فَحَصَ عَنِ أَلِيكَ فَإِذَا هُوَ بِكَ قُوَّةٌ مِثْنِي فَذَاكَ ... ! أَمَّا الْأَفَنْدِيُّ فَظَهَرَ مِنَ الْفَحْصِ الْهَنْدَسِيُّ الْاجْتِمَاعِيُّ أَنَّهُ أَفَنْدِيٌّ قُوَّةٌ خَمْسَةُ عَشَرَ جُنْيَهَا فِي الشَّهْرِ ... !

وَحَسَنَ الْأَفَنْدِيُّ وَتَرَاجَعَ مُنْخَزِلًا ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْبَاشَا إِتْمَا زَوْجَ لَقَبَهُ قَبْلَ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ لَنْ يَمْلِكَ مَهْرَ هَذَا اللَّقَبِ إِلَّا إِذَا مَلَكَ أَنْ يُبَدِّلَ أَسْبَابَ التَّارِيخِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ ، فَيَنْقُلَ إِلَى الْعَقْلِ أَوْ النَّفْسِ مَا جَعَلَتْهُ « أُمَمُ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ » مِنْ حَقِّ الْمَعْدَةِ ، فَلَا يَكُونُ بَاشَا إِلَّا مُخْتَرَعُ شَرْقِيٍّ مُفْلِسٍ ، أَوْ أَدِيبٌ عَظِيمٌ فَقِيرٌ ، أَوْ مَنْ جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فِي سُمُو الْمَعْنَى لَا فِي سُمُو الْمَالِ .

وَقَدَمَتْ مِثْنًا الْفَدَانِ مَهْرَهَا « الْطِينِي » الْعَظِيمَ بِمَا تَغْيِيرُهُ فِي اللَّغَةِ الطُّيُنِيَّةِ : ثَمَنُ عَشْرِينَ ثَوْرًا ، وَمِثْلُهَا جَامُوسًا ، وَمِثْلُهَا بَعَالًا وَأَحْمِرَةً ، وَفَوْقَهَا مِثْنَةُ قِنْطَارٍ قَطْنَا ، وَمِثْنَةُ أُرْدُبٍ قَمَحًا ، ثُمَّ ذُرَّةٌ ، ثُمَّ شَعِيرًا . وَالْمَجْمُوعُ الطُّيُنِيُّ لِذَلِكَ أَلْفُ جُنْيَةٍ ، وَعَزَى الْبَاشَا أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : إِنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ ، أَخْتَزَلَتْهَا الْأَزْمَةُ فَبَحَّهَا اللَّهُ ... !

ثُمَّ رُقْتُ « بِنْتُ الْبَاشَا » زُفَافًا طِينِيًّا بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ، كَانَ تَغْيِيرُهُ : أَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَيْهِ ثَمَنُ أَلْفِ قِنْطَارٍ بَصَلًا ، وَمِثْنَةُ غَرَارَةٍ مِنَ السَّمَادِ الْكِيْمَاوِيِّ ، كَأَنَّمَا فُرِشَ بِهَا الطَّرِيقُ ... ! وَطَفِقَ الْبَاشَا يُفَاخِرُ وَيَتَمَدَّحُ ، وَيَتَبَدَّخُ عَلَى الْأَفَنْدِيِّ وَأَمْنَالِ الْأَفَنْدِيِّ بِالطُّيْنِ وَمَعَانِيهِ

الطَّيْنِ ؛ فَردَّتِ الْأَقْدَارُ كَلَامَهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَتْ مَرْجِعَهُ فِي قَلْبِهِ ، وَهَيَّأتْ لِبْنَتِ الْبَاشَا مَعِيشَةً
« طِينِيَّةً » بِمَعْنَى غَيْرِ ذَلِكَ الْمَعْنَى ...

* * *

وَمَاتَ الطُّفْلُ ؛ فَردَّتْ هَذِهِ الثَّكْبَةُ بِنْتَ الْبَاشَا إِلَى مَعَانِي أَنْفِرَادِهَا بِنَفْسِهَا قَبْلَ الزَّوْاجِ ،
وَزَادَتْهَا عَلَى أَنْفِرَادِهَا الْحُزْنَ وَالْأَلَمَ ؛ وَأَلْقَتْ الْأَقْدَارُ بِذَلِكَ فِي أَيَّامِهَا وَلَيَالِيهَا التُّرَابَ
وَالطَّيْنَ .

وَلَجَّ الْحُزْنُ بَيْنَتِ الْبَاشَا فَجَعَلَتْ لَا تَرَى إِلَّا الْقَبْرَ ، وَلَا تَمْنَى إِلَّا الْقَبْرَ ، تَلَحُّقُ فِيهِ
بِوَلَدِهَا ؛ فَوَضَعَتْ الْأَقْدَارُ مِنْ ذَلِكَ فِي رُوحِهَا مَعْنَى الطَّيْنِ وَالتُّرَابِ .

وَأَسْقَمَ الْهَلْمُ بِنْتَ الْبَاشَا وَأَذَابَهَا ؛ فَنَقَلَتْ الْأَقْدَارُ إِلَى لَحْمِهَا عَمَلَ الطَّيْنِ ، فِي تَحْلِيلِهِ
الْأَجْسَامَ وَإِذَابِهَا تَحْتَ الْبَلَى .

* * *

وَكَانَ وَرَاءَ قَصْرِهَا حِوَاءٌ^(١) يَأْوِي إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ « طِينِ النَّاسِ » بِنِسَائِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ،
وَفِيهِمْ رَجُلٌ « زَبَّالٌ » لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ ، يَرَاهُمْ أَعْظَمَ مَفَاخِرِهِ وَأَجْمَلَ آثَارِهِ ، وَلَا يَزَالُ يَرْفَعُ
صَوْتَهُ مُتَمَدِّحًا بِهِمْ ، وَيَخْتَرِعُ لِذَلِكَ أَسْبَابًا كَثِيرَةً لِكَيْ يَسْمَعَهُ جِيرَانُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ مُفَاخِرًا ، مَرَّةً
بِأَحْمَدَ ، وَمَرَّةً بِحَسَنَ ، وَمَرَّةً بِعَلِيٍّ ، وَأَعْجَبَ أَمْرُهُ أَنَّهُ يَرَى أَوْلَادَهُ هَؤُلَاءِ مُتَمِّينَ فِي
الطَّبِيعَةِ لِأَوْلَادِ « الْبَاشَوَاتِ » ... وَهُوَ يُحِبُّهُمْ حُبَّ الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرَسِ لِصِغَارِهِ ؛ يَرَى
الْأَسَدَ أَشْبَاهَهُ هُمْ صَنَعَةَ قُوَّتِهِ ، فَلَا يَزَالُ يَحُوطُهُمْ وَيَتَمَمُّهُمْ وَيَرْعَاهُمْ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقَاتِلُ
الْوُجُودَ مِنْ أَجْلِهِمْ ؛ إِذْ يَشْعُرُ بِالْفُطْرَةِ الصَّادِقَةِ أَنَّهُ هُوَ وَجُودُهُمْ ، وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ وَهَبَتْ لَهُ
مِنْهُمْ مَسَرَّاتٍ قَلْبِهِ ، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي أَنْحَصَرَتْ مَسَرَّاتُهُ فِي النَّسْلِ وَحْدَهُ ، فَصَارَ الشُّعُورُ
بِالنَّسْلِ عِنْدَهُ هُوَ الْحُبُّ إِلَى نَهَايَةِ الْحُبِّ . وَكَذَلِكَ الزَّبَّالُ الْأَسَدُ^(٢) .

(١) الْحِوَاءُ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْبُيُوتِ كَهَلْدِهِ الْعُشُشِ الَّتِي يَسْكُنُهَا الصَّعَابِدَةُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ .

(٢) هَذَا الزَّبَّالُ شَخْصِيَّةٌ حَقِيقَةٌ ، لَوْ قُلْنَا بِمَذْهَبِ الرَّجْعَةِ لَكَانَ « أَرَسْطُو » رَجَعَ زَبَّالًا لِيَتِمَّ فَلْسَفَتُهُ .
وَالْكَاتِبُ يَعْرِفُ الرَّجُلَ وَيَبْزُوهُ أَحْيَانًا وَكَانَ حَضْرَتُهُ قَدْ طَلَبَ إِلَيْنَا أَنْ نَضَعُ لَهُ مَوْالَا يَتَعْنَى بِهِ فِي أَوْقَاتِ =

وَمِنْ سُخْرِيَةِ الْقَدَرِ أَنَّ زَبَالَتَا هَذَا لَمْ يَسْكُنِ الْحِوَاءَ إِلَّا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي جَلَسْتُ فِيهَا
بِنْتُ الْبَاشَا عَلَى مَا وَصَفْنَا ، وَفِي ضُلُوعِهَا قَلْبٌ يُفْتَتُّ مِنْ كِبْدِهَا ، وَيَمْرُقُ مِنْ أَحْسَانِهَا .

وَبَيْنَا تَتَاجِي نَفْسَهَا وَتَعَجَّبُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْأَقْدَارِ بِالْبَاشَا وَأَلِيكَ ، وَتَسْتَحِمُّ أَبَاهَا فِيمَا
أَفْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ نَبَذِ كُفِّهَا لِعَجْزِهِ عَنْ مَهْرٍ بَاشَا ، وَإِنِّارِ هَذَا الْمَهْرِ الطُّنِيِّ ، وَتَبَاهِيهِ بِهِ أَمَامَ
النَّاسِ ، وَانْدِرَائِهِ بِالطُّنِ عَلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ مِنَ أَلقَابِ الطُّنِ - بَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إِذَا
بِالزَّبَالِ ؛ كَانِسِ التُّرَابِ وَالطُّنِ يَهْتَفُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَتَبَعْنِي :

يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

* * *

الْقَلْبُ أَهْوِ رَاضِي لَكَ حَمْدِي يَا رَبِّي
مِنْ أَلْهُمُّومٍ فَاضِي إِفْرَاحٍ لِي يَا قَلْبِي

* * *

يَا دُوبَ كِدَا يَا دُوبَ زَيِّ الْحَمَامِ عَايشِ
مَا يَمْتَلِكُ غَيْرُ ثُوبَ طُولِ عُمْرِهِ فِيهِ نَافِشِ
يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

* * *

إِنْ قُلْتُ أَنَا فَرْحَانُ دَا مِيزَنٍ يَكْدُبُنِي
وَأَكْتَرُ مِنَ السُّلْطَانِ فَرْحَانُ أَنَا بِأَبْنِي

* * *

بَيْنَ السُّيُوفِ يَا نَاسَ لَمْ أَنْكَسِرْ سِنْفِي
وَأَبْنِ أَلْغِنِي مِخْتَاسَ وَأَنَا عَلَى كَيْفِي ...

الصفاء ، فَوَضَعْنَا لَهُ الْأَغْنِيَةَ الَّتِي يَرَاهَا الْقَارِئُ بَعْدَ ، وَهُوَ يَصْدَحُ بِهَا فِي لَيْلِهِ . وَسَفَرِدُ لِرَبَائِلِنَا هَذَا
مَقَالًا خَاصًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

* * *

وَأَبْنِ الْغَنَى فِي هُمُومٍ وَالْخَالِي خَالِي الْبَانِ
وَالْفَقْرَ مَا يَبْدُومُ وَتَدُومُ هُمُومِ الْمَانِ

* * *

يَا طِيزُ يَا طِيزُ ، يَا طِيزُ الْخُرَ فَوْقِ اللَّوْمِ
وَالْخَيْرُ ، جَمِيعِ الْخَيْرِ لُقْمَةُ ، وَعَافِيَةُ ، وَنُومِ
يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ ، يَا لَيْلَ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلَ

* * *

وَلَمْ تَخْتَرْ الْأَقْدَارُ إِلَّا زَبَالًا تُرْسِلُ فِي لِسَانِهِ سُخْرِيَّتَهَا بِذَلِكَ الْبَاشَا وَبِنْتِ ذَلِكَ
الْبَاشَا . . . ! [من مخلع البسيط] :

وَكَسِرُ قَلْبٍ بِكَسْرِ قَلْبٍ وَحَظْمُ نَفْسٍ بِحَظْمِ نَفْسٍ
وَرُبِّ عِزٍّ تَرَاهُ أَمْسَى كُنَاسَةً هُيَّتْ لِكُنْسٍ . . . !

ورقة ورد (*)

« وَضَعْنَا كِتَابَنَا « أُرَاقَ الْوَرْدِ » فِي نَوْعٍ مِنَ التَّرْشِيلِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَتَبْنَاهُ بِهَا ، فِي الْمَعَانِي الَّتِي أَفْرَدْنَاهُ لَهَا ، وَهُوَ رَسَائِلُ غَرَامِيَّةٍ تَطَارَحَهَا شَاعِرٌ فَيَلْسُوفٌ وَشَاعِرَةٌ فَيَلْسُوفَةٌ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ . وَكَانَتْ قَدْ ضَاعَتْ « وَرَقَةُ وَرْدٍ » وَهِيَ رِسَالَةٌ كَتَبْنَاهَا ذَلِكَ الْعَاشِقُ إِلَى صَدِيقِي لَهُ ، بِصِفِّ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ صَاحِبِيهِ ، وَيُصَوِّرُ لَهُ فِيهَا سِخْرَ الْحُبِّ كَمَا لَمَسَهُ وَكَمَا تَرَكَهُ . وَقَدْ عَثَرْنَا عَلَيْهَا بَعْدَ طَبْعِ الْكِتَابِ ، فَرَأَيْنَا أَلَّا نَقْفِرَ بِهَا . وَهِيَ هَذِهِ : »

... كَانَتْ لَهَا نَفْسٌ شَاعِرَةٌ ، مِنْ هَذِهِ الْفُؤُوسِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تَأْخُذُ الصَّدِّيقِينَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ أَحْيَانًا ؛ فَيَسْرِهَا مَرَّةً أَنْ تُخْزِنَهَا وَتَسْتَدْعِي غَضَبَهَا ، وَيُخْزِنَهَا مَرَّةً أَنْ تُسْرِهَا وَتَبْلُغَ رِضَاهَا ، كَأَنَّ لَيْسَ فِي الْأَشْرُورِ وَلَا فِي الْخُزْنِ مَعَانٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَكِنْ مِنْ نَفْسِهَا وَمَسِيئَتِهَا . وَكَانَ خَيَالُهَا مَشْبُوبًا ، يُلْقِي فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمَعَانَ الثُّورِ وَأَنْطِفَاءَهُ ؛ فَالْذُّنْيَا فِي خَيَالِهَا كَالسَّمَاءِ الَّتِي أَلْبَسَهَا اللَّيْلُ ، مُلِثَتْ بِأَشْيَائِهَا مُبَغِّعَةً مُضِئَةً خَافِتَةً كَالثُّجُومِ . وَلَهَا شُعُورٌ دَقِيقٌ ، يَجْعَلُهَا أَحْيَانًا مِنْ بِلَاغَةِ حِسِّهَا وَإِزْهَافِهِ كَأَنَّ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهَا ؛ وَيَجْعَلُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ دِقَّةِ هَذَا الْحِسِّ وَأَهْتِيَاجِهِ كَأَنَّهَا بِغَيْرِ عَقْلِ ... وَهِيَ تَرَى أَسْمَى الْفِكْرِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهَا أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِكْرٌ « أَلْبَنَّة » ؛ فَتَتْرُكُ مِنْ أُمُورِهَا أَشْيَاءَ لِلْمُصَادَفَةِ ، كَأَنَّهَا وَائِقَةٌ أَنَّ الْحِظَّ بَعْضُ غُشَافِهَا . عَلَى أَنَّ لَهَا ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الذِّكَا ، فِي عَقْلِهَا وَرُوحِهَا وَجَسْمِهَا : فَالذِّكَا فِي عَقْلِهَا فَهْمٌ ، وَفِي رُوحِهَا فَتَنَةٌ ، وَفِي جَسْمِهَا ... خَلَاعَةٌ .

وَكُنْتُ أَرَاهَا مَرِحَةً مُسْتَطَارَةً مِمَّا تَطْرُبُ وَتَتَفَاءَلُ ، حَتَّى لَاخْسَبَهَا تَوَدُّ أَنْ يَخْرُجَ الْكَوْنُ مِنْ قَوَائِنِهِ وَيَطِيشَ ... ؛ ثُمَّ أَرَاهَا بَعْدَ مُتْصُورَةٍ مَهْمُومَةٍ تَعْزَنُ وَتَتَشَاءَمُ ، حَتَّى لَاظُنُّهَا سَتَرِيذُ الْكَوْنِ هَمًّا لَيْسَ فِيهِ !

وَكَانَتْ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ الْمُتَنَافِرَةِ - جَمِيلَةً ظَرِيفَةً ، قَدْ تَمَّتْ لَهَا الصُّورَةُ الَّتِي تَخْلُقُ
الْحُبَّ ، وَالْأَسْرَارُ الَّتِي تَبْعَثُ الْفِتْنَةَ ؛ وَالسَّخَرُ الَّذِي يُمَيِّرُ رُوحَهَا بِشَخْصِيَّيْهَا الْفَاتِنَةِ كَمَا
تَمَيِّرُ هِيَ بِوَجْهِهَا الْفَاتِنِ .

* * *

وَكَانَ حُبِّي إِثَّاها حَرِيقًا مِنَ الْحُبِّ . فَمَثَلُ لِعَيْنَيْكَ جِسْمًا تَنَاولَ جِلْدَهُ مَسٌّ مِنْ لَهَبٍ ،
فَتَسْلَعُ هَذَا الْجِلْدَ^(١) هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ سَلَخِ النَّارِ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنْ آثَارِ الْحُرُوقِ لَهَبٌ يَابِسٌ
أَحْمَرُ كَأَنَّهُ عُرُوقٌ مِنَ الْجَمْرِ انْتَشَرَتْ فِي هَذَا الْجِسْمِ . إِنَّكَ إِنْ تَمَثَّلْتَ هَذَا الْوَصْفَ ثُمَّ
نَقَلْتَهُ مِنَ الْجِلْدِ إِلَى الدَّمِ - كَانَ هُوَ حَرِيقٌ ذَلِكَ الْحُبِّ فِي دَمِي !

وَالْحُبُّ - إِنْ كَانَ حُبًّا - لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَذَابًا ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا تَقْدِيمُ الْبُرْهَانِ مِنَ الْعَاشِقِ عَلَى
قُوَّةِ فِعْلِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي فِي الْمَعْشُوقِ ، لَيْسَ حَالٌ مِنْهُ فِي عَذَابِهِ ، إِلَّا وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى شَيْءٍ
مِنْهَا فِي جَبَرُوتِهَا .

وَلَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الْغَرَامَ إِنَّمَا هُوَ جُنُونٌ شَخْصِيَّةٍ الْمُحِبِّ بِشَخْصِيَّةٍ مَخْبُوبِهِ ، فَيَسْقُطُ الْعَالَمُ
وَأَحْكَامُهُ وَمَذَاهِبُهُ مِمَّا بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ ؛ وَيَنْتَفِيءُ الْوَاقِعُ الَّذِي يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَتَعُودُ
الْحَقَائِقُ لَا تَأْتِي مِنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمُرَّ عَلَى الْمَخْبُوبِ لِتَجِيءَ مِنْهُ ، وَيُصْبِحَ
هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمُ كَأَنَّهُ إِطَارٌ فِي عَيْنِ مَجْنُونٍ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا إِلَّا الصُّورَةَ الَّتِي جُنَّ بِهَا !

وَتَاللهِ لَكَأَنَّ قَانُونَ الطَّبِيعَةِ إِلَّا نَحْبَ الْمَرْأَةِ رَجُلًا يُسَمَّى رَجُلًا ، وَأَلَّا تَكُونَ جَدِيرَةً
بِمُحِبَّتِهَا ، إِلَّا إِذَا جَرَتْ بَيْنَهُمَا أَهْوَالٌ مِنَ الْغَرَامِ تَتْرُكُهَا مَعَهُ كَأَنَّهَُا مَأْخُودَةٌ فِي الْحَرْبِ ...
تِلْكَ الْأَهْوَالُ يُمَثِّلُهَا الْحَيَوَانُ الْمُتَوَحَّشُ عَمَلًا جِسْمِيًّا بِالْقِتَالِ عَلَى الْأُنثَى ، ثُمَّ تَرَقُّ فِي
الْإِنْسَانِ الْمُتَحَضَّرِ فَيُمَثِّلُهَا عَمَلًا قَلْبِيًّا بِالْحُبِّ ...

* * *

أَخْبَيْتُهَا جُهْدَ أَلْهَوَى حَتَّى لَا مَرِيدَ فِيهِ وَلَا مَطْمَعٍ فِي مَرِيدٍ ، وَلَكِنْ أَسْرَارَ فِتْنَتِهَا
اسْتَمَرَّتْ تَتَعَدَّدُ فَتَدْفَعُنِي أَنْ يَكُونَ حُبِّي أَشَدَّ مِنْ هَذَا ؛ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُمَكِّنُ فِي الْحُبِّ

أَشَدُّ مِنْ هَذَا ؟

وَلَقَدْ كُنْتُ فِي اسْتِغَاثَتِي بِهَا مِنَ الْحُبِّ كَالَّذِي رَأَى نَفْسَهُ فِي طَرِيقِ السَّبِيلِ فَفَرَ إِلَى رِبْوَةٍ عَالِيَةٍ فِي رَأْسِهَا عَقْلٌ لِهَذَا السَّبِيلِ الْأَخْمَقِ ، أَوْ كَالَّذِي فَاجَأَهُ الْبُرْكَانُ بِجُنُونِهِ وَغِلْظَتِهِ فَهَرَبَ فِي رِقَّةِ الْمَاءِ وَحِلْمِهِ ؛ وَلَا سَبِيلَ وَلَا بُرْكَانَ إِلَّا خُرْفَتِي بِالْهَوَى وَازْتِمَاضِي مِنَ الْحُبِّ .

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ الْعَاشِقُ هُوَ الْعَاشِقُ ، وَلَكِنْ هِيَ الطَّبِيعَةُ ، هِيَ الطَّبِيعَةُ فِي الْعَاشِقِ . هِيَ الطَّبِيعَةُ ، بِجَبَرُوتِهَا ، وَعَسْفِهَا ، وَتَعَثُّيْهَا . إِذَا اسْتَرَّاحَ النَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ لِلْعَاشِقِ : إِلَّا أَنْتَ !

إِذَا عَقَلَ النَّاسُ جَمِيعًا قَالَتْ فِي الْعَاشِقِ : إِلَّا هَذَا ... !

إِذَا بَرَأَتْ جِرَاحَ الْحَيَاةِ كُلُّهَا قَالَتْ : إِلَّا جُرْحَ الْحُبِّ ... !

إِذَا تَشَابَهَتْ أَلْهُومُومُ كَالْدَمْعَةِ وَالْدَمْعَةِ ، قَالَتْ : إِلَّا هَمَّ الْعِشْقِ ... !

إِذَا تَغَيَّرَ النَّاسُ فِي الْحَالَةِ بَعْدَ الْحَالَةِ ، قَالَتْ فِي الْحَبِيبِ : إِلَّا هُوَ ... !

إِذَا انْكَشَفَ سِرُّ كُلِّ شَيْءٍ ، قَالَتْ : إِلَّا الْمَعْشُوقُ ؛ إِلَّا هَذَا الْمُحَجَّبَ بِأَسْرَارِ الْقَلْبِ ... !

* * *

وَلَمَّا رَأَيْتُهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلَمَسْنِي الْحُبُّ لَمَسَةً سَاحِرٍ ، جَلَسْتُ إِلَيْهَا أَتَأَمَّلُهَا وَأُحْتَسِنُ مِنْ جَمَالِهَا ذَلِكَ الضِّيَاءَ الْمُسْكِرَ ، الَّذِي تُعْرِيدُ لَهُ الرُّوحُ عَزِيدَةً كُلُّهَا وَقَارًا ظَاهِرًا ... قَرَأْتِنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشِيَةِ الْوَحْيِ ، فَوْقَهَا أَلَدَمِيَّةٌ سَاكِتَةٌ ، وَتَحْتَهَا تَيَّارُ الْمَلَائِكَةِ يَعْجُبُ وَيَجْرِي .

وَكُنْتُ أُلْقِي خَوَاطِرَ كَثِيرَةٍ ، جَعَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا وَمِمَّا حَوْلَهَا يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي ، كَانَ الْحَيَاةَ قَدْ فَاضَتْ وَأَزْدَحَمَتْ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ ، فَمَا شَيْءٌ يَمُرُّ بِهِ إِلَّا مَسَّتْهُ فَجَعَلَتْهُ حَيًّا يَرْتَعِشُ ، حَتَّى الْكَلِمَاتُ .

وَشَعَرْتُ أَوَّلَ مَا شَعَرْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي تَتَنَفَّسُ فِيهِ يَرِقُّ رِقَّةً نَسِيمِ السَّحَرِ ، كَأَنَّمَا انْخَدَعَ فِيهَا^(١) فَحَسِبَ وَجْهَهَا نُورَ الْفَجْرِ !

وَأُحْسَسْتُ فِي الْمَكَانِ قُوَّةَ عَجِيبَةٍ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى الْجَذْبِ ، جَعَلَتْنِي مُبْتَعَثًا حَوْلَ هَذِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « بَهَا » بَدَلًا مِنْ : « فِيهَا » .

الْفَتَانَةِ ، كَأَنَّهَا مَخْدُودَةٌ بِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وَحِيلَ إِلَيَّ أَنَّ التَّوَامِينَ الطَّبِيعِيَّةَ قَدْ اخْتَلَّتْ فِي جِسْمِي إِمَّا بِزِيَادَةٍ وَإِمَّا بِنَقْصٍ ؛ فَأَنَا لِذَلِكَ أَعْظَمُ أَمَامَهَا مَرَّةً ، وَأَصْغُرُ مَرَّةً .

وَوَظَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْجَمِيلَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مِنَ الْوُجُودِ النَّسَائِيِّ الشَّاذِّ ، وَقَعَ فِيهَا تَنْفِخٌ إِلَهِيٌّ لِيُظْهِرَ لِلدُّنْيَا كَيْفَ كَانَ جَمَالُ حَوَاءَ فِي الْجَنَّةِ .

وَرَأَيْتُ هَذَا الْحُسْنَ الْفَاتِنَ يُشْعِرُنِي بِأَنَّهُ فَوْقَ الْحُسْنِ ، لِأَنَّهُ فِيهَا هِيَ ؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ الْجَمَالِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمَرَحِ ، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَهُ فِي هَذَا السُّرُورِ الْحَيِّ الْمَخْلُوقِ أَمْرَاءَةً .

وَالْتَمَسْتُ فِي مَحَاسِنِهَا عَيْنًا ، فَبَعْدَ الْجُهدِ قُلْتُ مَعَ الشَّاعِرِ [قَيْسِ بْنِ الْمُلَوَّحِ أَوْ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ ، مِنْ الطُّوَيْلِ] :

« إِذَا عَيْنُهَا شَبَّهْتُهَا الْبَذْرَ طَالِعًا ... ! » .

* * *

وَرَأَيْتُهَا تَضْحَكُ الضَّحْكَ الْمُسْتَحْيَ ؛ فَيَخْرُجُ مِنْ فَمِهَا الْجَمِيلُ كَأَنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ أَنَّهُ تَجَرَّأَ عَلَى قَانُونٍ ...

وَتَبَسُّمِ ابْتِسَامَاتٍ تَقُولُ كُلُّ مِنْهَا لِلْجَالِسِينَ : أَنْظَرُوهَا ! أَنْظَرُوهَا ! ... !

وَيَعْمُرُهَا ضَحْكَ الْعَيْنِ وَالْوَجْهِ وَالْفَمِ وَضَحْكَ الْجِسْمِ أَيْضًا بِاهْتِرَازِهِ وَتَرَجُّرِهِ فِي حَرَكَاتٍ كَأَنَّمَا يَنْسِمُ بَعْضُهَا وَيُقَهِّقُهُ بَعْضُهَا ...

وَتُلْقِي نَفْرَاتٍ جَعَلَ اللَّهُ مَعَهَا ذَلِكَ الْإِغْضَاءَ وَذَلِكَ الْحَيَاءَ لِيَضَعَ شَيْئًا مِنَ الْوِقَايَةِ فِي هَذِهِ الْقُوَّةِ النَّسَوِيَّةِ ، قُوَّةَ تَذَمِيرِ الْقَلْبِ .

وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ مُتَسَامِيَةٌ فِي جَمَالِهَا حَتَّى لَا يَتَكَلَّمُ جِسْمُهَا فِي وَسَاوِسِ النَّفْسِ كَلَامَ اللَّحْمِ وَاللِّدَمِ ، وَكَأَنَّهُ جِسْمٌ مَلَانِيكِيٍّ لَيْسَ لَهُ إِلَّا الْجَلَالُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .

جِسْمٌ كَالْمَعْبَدِ ، لَا يَعْرِفُ مَنْ جَاءَهُ أَنَّهُ جَاءَهُ إِلَّا لِيَبْتَهِلَ وَيَخْشَعَ .

وَتَطَالُعُكَ مِنْ حَيْثُ تَأَمَّلْتَ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْمُنْسَجِمَةِ عَلَى هَذَا الْجِسْمِ ، تَطْلُبُ مِنْكَ الْفَهْمَ وَهِيَ لَا تَفْهَمُ أَبَدًا ؛ أَيْ : تُرِيدُ الْفَهْمَ الَّذِي لَا يَنْتَهِي ؛ أَيْ : تَطْلُبُ الْحُبَّ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ .

وَهِيَ أَبَدًا فِي زِينَةِ حُسْنِهَا كَأَنَّهَا عَرُوسٌ فِي مَعْرِضٍ جَلَوَتْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْعَرُوسِ سَاعَةً ،
وَلَهَا هِيَ كُلُّ سَاعَةٍ .

* * *

أَمَّا ظَرْفُهَا فَيَكَادُ يَصْنَعُ تَحْتَ النَّظَرَاتِ : أَنَا خَائِفٌ ، أَنَا خَائِفٌ !
وَوَجْهَهَا تَتَغَالَبُ عَلَيْهِ الرِّزَانَةُ وَالْخِيفَةُ ، لِيَتَفَرَّ أَفْنِيهِ الْعَيْنُ عَقْلَهَا وَقَلْبُهَا .
وَهِيَ مِثْلُ الشَّعْرِ ، تَطْرِبُ الْقَلْبَ بِالْأَلَمِ الَّذِي يُوجَدُ فِي بَعْضِ الشُّرُورِ ، وَبِالشُّرُورِ
الَّذِي يُحَسُّ فِي بَعْضِ الْأَلَمِ .

وَهِيَ مِثْلُ الْخَمْرِ ، تَحْسَبُ الشَّيْطَانُ مُتَرَفِّقًا فِيهَا بِكُلِّ إِغْرَائِهِ !
وَكُلَّمَا تَنَاوَلَتْ أَمَامِي شَيْئًا أَوْ صَنَعَتْ شَيْئًا خَلَقْتُ مَعَهُ شَيْئًا ؛ أَشْيَاؤُهَا لَا تَزِيدُ بِهَا
الطَّبِيعَةَ ، وَلَكِنْ تَزِيدُ بِهَا النَّفْسُ .
فَيَا كَيْدًا طَارَتْ صُدُوعًا مِنَ الْأَسَى . . . !

* * *

وَرَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشِيَةِ الْوَحْيِ ، فَوْقَهَا الْأَدَمِيَّةُ سَاكِئَةٌ ، وَتَحْتَهَا تَبَارُ الْمَلَائِكَةِ
يَعْبُ وَيَجْرِي .

* * *

يَا سِحْرَ الْحُبِّ ! تَرَكْتَنِي أَرَى وَجْهَهَا مِنْ بَعْدِ هُوَ الْوَجْهَ الَّذِي تَضْحَكُ بِهِ الدُّنْيَا ،
وَتَعْبِسُ وَتَتَغَيِّطُ وَتَتَحَامَقُ أَيْضًا . . .

وَجَعَلْتَنِي أَرَى تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةَ الْجَمِيلَةَ هِيَ أَفْوَى حُكُومَةٍ فِي الْأَرْضِ . . . !
وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ ؛ وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ مَجْنُونًا . . . !

سُمُوُّ الْحُبِّ (*)

صَاحَ الْمُتَنَادِي فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ : « لَا يُفْنِي النَّاسَ إِلَّا عَطَاءُ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ »^(١) وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ يَأْمُرُونَ صَائِحَهُمْ فِي الْمَوْسِمِ ، أَنْ يَذُلَّ النَّاسَ عَلَى مُفْتِي مَكَّةَ وَإِمَامِهَا وَعَالِمِهَا ، لِيَلْقَوْهُ بِمَسَائِلِهِمْ فِي الدِّينِ ، ثُمَّ لِيُمْسِكَ غَيْرُهُ عَنِ الْفَتْوَى ، إِذْ هُوَ الْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ لَا تَبْنَعِي أَنْ يَكُونَ مَعَهَا غَيْرُهَا مِمَّا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا أَوْ يُعَارِضُهَا ، وَلَيْسَ لِلْحُجَجِ إِلَّا أَنْ تُظَاهِرَهَا وَتَتَرَادَفَ عَلَيْهَا مَعْنَاهَا .

وَجَلَسَ عَطَاءٌ يَتَحَيَّنُ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! أَنْتَ أَقْنَيْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ [من الطويل] :

سَلِ الْمُفْتِيَّ الْمَكِّيَّ : هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضْمَةٍ مُشْتَقِ الْفَوَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ !

فَرَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ هُوَ نَحَلْنِي هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي نَفَثَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ تَشْبَعَ الْقَالَةُ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا كَانَ غَدٌ وَجَلَسْتُ فِي حَلَقَتِي فَأَعُدُّ عَلَيَّ ، فَإِنِّي قَائِلٌ شَيْئًا .

وَذَهَبَ الْخَبَرُ يَوْجٌ كَمَا تَوْجُ النَّارُ ، وَتَعَالَمَ النَّاسُ أَنَّ عَطَاءَ سَيِّكَلُمُ فِي الْحُبِّ ، وَعَجِبُوا كَيْفَ يَذَرِي الْحُبَّ أَوْ يُخْسِنُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَنْ غَبَرَ عِشْرِينَ سَنَةً فِرَاشُهُ الْمَسْجِدُ ، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبْنِ عَبَّاسٍ بَخْرَ الْعِلْمِ !

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : هَذَا رَجُلٌ صَامِتٌ أَكْثَرَ وَفِيهِ ، وَمَا تَكَلَّمَ إِلَّا خِيَلٌ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُ

(*) « الرسالة » العدد : ٧٧ ، ١٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٤ ديسمبر / كانون الأول سنة

١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ٢٠٨٣ - ٢٠٨٨ .

(١) وُلِدَ هَذَا الْإِمَامُ سَنَةَ ٢٧ هـ وَتَوَفَّى سَنَةَ ١١٥ هـ ، قَالُوا : وَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْضَى أَهْلِ الدُّنْيَا .

يُؤَيِّدُ بِمِثْلِ الْوَحْيِ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ نَجِيٌّ مَلَائِكَةٍ يَسْمَعُ وَيَقُولُ ، فَلَعَلَّ السَّمَاءَ مُوَحِّيةً إِلَى الْأَرْضِ بِإِلْسَانِهِ وَخِيَا فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ الَّتِي عَمَّتِ النَّاسَ وَفَتَنَتْهُمْ بِالنِّسَاءِ وَالْغِنَاءِ .

وَلَمَّا كَانَ عَدُ جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُمْ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ : وَكُنْتُ رَجُلًا شَابًا مِنْ فِتْيَانِ الْمَدِينَةِ ، وَفِي نَفْسِي مِنَ الدُّنْيَا وَمِنْ هَوَى الشَّبَابِ ، فَغَدَوْتُ مَعَ النَّاسِ ، وَجِئْتُ وَقَدْ تَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَفَاضَ ، وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَتَظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُ غُرَابٌ أَسْوَدُ ، إِذْ كَانَ ابْنُ أُمِّ سَوْدَاءَ تُسَمَّى « بَرَكَه » ، وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَغَوْرَ^(١) أَفْطَسَ أَشْلَ أَعْرَجَ مُفْلَقَ الشَّعْرِ ، لَا يَتَأَمَّلُ الْمَرْءُ مِنْهُ طَائِلًا ، وَلَكِنَّكَ تَسْمَعُهُ يَتَكَلَّمُ فَتَظُنُّ مِنْهُ وَمِنْ سَوَادِهِ - وَاللَّهِ - أَنَّ هَذِهِ قِطْعَةُ لَيْلٍ تَسْطَعُ فِيهَا الْتُجُومُ ، وَتَبْضَعُدُ مِنْ حَوْلِهَا الْمَلَائِكَةُ وَتَنْزِلُ .

قَالَ : وَكَانَ مَجْلِسُهُ فِي فِصَّةٍ يُوسِفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ أَتْرُجٌ هُوفٌ يَنْتَهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَنْوَابُ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمَا بَرَهْنَنَ رَبِّيهِ . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . [١٢ سورة يوسف / الآيتان : ٢٣ و ٢٤] .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَسَمِعْتُ كَلَامًا قُدْسِيًّا تَضَعُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَحَتَهَا مِنْ رِضَى وَإِعْجَابٍ بِفَقِيهِ الْحِجَازِ . حَفِظْتُ مِنْهُ قَوْلَهُ :

عَجَبًا لِلْحُبِّ ! هَذِهِ مَلِكَةٌ تَعَشُّقُ فَتَاهَا الَّذِي ابْتَاعَهُ زَوْجُهَا بِشَمَنِ بَخْسٍ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ مُلْكُهَا وَسَطْوَةُ مُلْكِهَا فِي تَصَوُّرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ؟ لَمْ تَرِدِ الْآيَةُ عَلَى أَنْ قَالَتْ : ﴿ وَرَوَدَتْهُ أَتْرُجٌ ﴾ ، وَ﴿ أَتْرُجٌ ﴾ هَذِهِ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ أَمْرَةٍ كَانَتْ مِنْ كَانَتْ ؛ فَلَمْ يَنْقُ عَلَى الْحُبِّ مُلْكٌ وَلَا مَثْرَلَةٌ ؛ وَزَالَتِ الْمَلِكَةُ مِنَ الْأَتْرُجِ !

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا كَلِمَةُ ﴿ رَاوَدَتْهُ ﴾ وَهِيَ بِصِبْغَتِهَا الْمُفْرَدَةِ حِكَايَةُ طَوِيلَةٍ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ جَعَلَتْ تَعْتَرِضُ يُوسُفَ بِالْوَانِ مِنْ أَتْرُجِهَا ، لَوْ بَعْدَ لَوْنٍ ؛ ذَاهِبَةً إِلَى فَنٍّ ، رَاجِعَةً مِنْ فَنٍّ ؛ لِأَنَّ { الْكَلِمَةَ مَأْخُودَةً } مِنْ رَوْدَانِ الْإِبِلِ فِي مَشْيِهَا ؛ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ فِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَرَأَيْتُهُ أَسْوَدَ أَغَوْرَ » بَدَلًا مِنْ : « وَرَأَيْتُهُ مَعَ سَوَادِهِ أَغَوْرَ » .

رَفِي . وَهَذَا يُصَوِّرُ حَيْرَةَ الْمَرْأَةِ الْعَاشِقَةِ ؛ وَأَضْطَرَابَهَا فِي حُبِّهَا ؛ وَمُحَاوَلَتَهَا أَنْ تَنْفُذَ إِلَى غَايَتِهَا ؛ كَمَا يُصَوِّرُ كِبَرِيَاءَ الْأُنْثَى ، إِذْ تَخْتَالُ وَتَتَرَفَّقُ فِي عَرْضِ ضَعْفِهَا الطَّبِيعِيِّ ، كَأَنَّمَا الْكِبَرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرُ^(١) غَيْرُ طَبِيعَتِهَا ؛ فَمَهْمَا تَتَهَالَكِ عَلَى مَنْ تُحِبُّ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا « الشَّيْءِ الْآخَرِ » مَظْهَرٌ أَمْتِنَاعٌ أَوْ مَظْهَرٌ تَحْيِيرٌ ، أَوْ مَظْهَرٌ أَضْطِرَابٍ ، وَإِنْ كَانَتِ الطَّبِيعَةُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مُنْدَفِعَةً مَاضِيَةً مُصَمِّمَةً .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهَا لَا تَطْمَعُ فِيهِ ، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهِيَ تَعْرِضُ مَا تَعْرِضُ لِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ وَحْدَهَا ، وَكَأَنَّ الْآيَةَ مُصَرِّحَةً فِي أَدَبِ سَامِ كُلِّ السُّمُو ، مُزَوِّغَةً غَايَةَ التَّنْزِيهِ بِمَا مَعْنَاهُ : « إِنَّ الْمَرْأَةَ بِذَلِكَ كُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ فِي إِغْوَائِهِ وَتَصْبِيهِ ، مُقْبِلَةً عَلَيْهِ وَمُتَدَلِّلَةً وَمُتَبَدِّلَةً وَمُنْصَبَّةً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، بِمَا فِي جِسْمِهَا وَجَمَالِهَا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَارِضَةً كُلِّ ذَلِكَ عَرْضُ أَمْرَةٍ خَلَعَتْ - أَوَّلَ مَا خَلَعَتْ - أَمَامَ عَيْنَيْهِ ثَوْبَ الْمُلْكِ » .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : « أَغْلَقْتُ » وَهَذَا يُشْعِرُ أَنَّهَا لَمَّا يَسَسَتْ ، وَرَأَتْ مِنْهُ مُحَاوَلَةَ الْأَنْصِرَافِ ، أَسْرَعَتْ فِي نُورَةِ نَفْسِهَا مُهْتَاجَةً تَتَخَيَّلُ الْقُفْلَ الْوَاحِدَ أَقْفَالًا عِدَّةً ، وَتَجْرِي مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ ، وَتَضْطَرِبُ يَدُهَا فِي الْأَعْلَاقِ ، كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ سَدَّ الْأَبْوَابِ لَا إِغْلَاقَهَا فَقَطْ .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ وَمَعْنَاهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْيَأْسَ قَدْ دَفَعَ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ إِلَى آخِرِ حُدُودِهِ ، فَانْتَهَتْ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْجُنُونِ يَفْكُرُتِهَا الشَّهْوَانِيَّةُ ، وَلَمْ تَعُدْ لَا مَلِكَةً وَلَا أَمْرَةً ، بَلْ أُنُوثَةٌ حَيَوَانِيَّةٌ صِرْفَةٌ ، مُتَكَشِّفَةٌ مُصَرِّحَةٌ ، كَمَا تَكُونُ أَنْثَى الْحَيَوَانِ فِي أَشَدِّ اهْتِاجِهَا وَعَلْيَانِهَا ! .

هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَطْوَارٍ يَتَرَفَّقُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْأُنُوثَةِ نَازِلَةٌ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا . فَإِذَا انْتَهَتْ الْمَرْأَةُ إِلَى نِهَائِهَا وَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ تَسْتَطِيعُهُ أَوْ تَعْرِضُهُ بَدَأَتْ مِنْ ثَمَّ عَظَمَةُ الرُّجُولَةِ السَّامِيَةِ الْمُتَمَكِّنَةِ فِي مَعَانِيهَا ، فَقَالَ يُوسُفُ : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ :

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَأَنَّمَا هِيَ شَيْءٌ آخَرُ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَنَّمَا الْكِبَرِيَاءُ شَيْءٌ آخَرُ » .

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . وَهَذِهِ أَسْمَى طَرِيقَةً إِلَى تَنْبِيهِ ضَمِيرِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، إِذْ كَانَ أَسَاسُ ضَمِيرِهَا فِي كُلِّ عَصْرِ هُوَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ ، وَمَعْرِفَةُ الْجَمِيلِ ، وَكَرَاهَةُ الظُّلْمِ . وَلَكِنَّ هَذَا التَّنْبِيهِ الْمُرَادِفَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَكْسِرْ مِنْ نَزْوِيَّتِهَا ، وَلَمْ يَفْتَأْ تِلْكَ الْحِدَّةَ ، فَإِنَّ حُبَّهَا كَانَ قَدْ انْهَضَ فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ اجْتَمَعَتْ بِكُلِّ أَسْبَابِهَا فِي زَمَنٍ فِي مَكَانٍ فِي رَجُلٍ ، فَهِيَ فِكْرَةٌ مُحْتَبَسَةٌ كَأَنَّ الْأَبْوَابَ مُغْلَقَةً عَلَيْهَا أَيْضًا ؛ وَلِذَا بَقِيَتْ الْمَرْأَةُ نَائِرَةً نَائِرَةً نَفْسُهَا . وَهُنَا يَعُودُ الْأَدَبُ الْإِلَهِيُّ السَّامِيُّ إِلَى تَغْيِيرِهِ الْمُعْجَزِ فَيَقُولُ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ ﴾ كَأَنَّمَا يُؤْمِي بِهِذِهِ الْعِبَارَةِ إِلَى أَنَّهَا تَرَامَتْ عَلَيْهِ ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ ، وَالتَّجَاعَتْ إِلَى وَسِيلَتِهَا الْأَخِيرَةِ ، وَهِيَ لَمَسُ الطَّبِيعَةِ بِالطَّبِيعَةِ لِإِنْقَاءِ الْجَمْرَةِ فِي الْهَشِيمِ . . . !

جَاءَتْ الْعَاشِقَةُ فِي قَضِيَّتِهَا بِزُهَانَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَفْدِفُ بِهِ فِي آخِرِ مُحَاوَلَتِهِ . وَهُنَا يَقَعُ لِيُؤَسِّفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُزْهَانَ رَبِّهِ كَمَا وَقَعَ لَهَا هِيَ بِزُهَانِ شَيْطَانِهَا . فَلَوْلَا بُزْهَانُ رَبِّهِ لَكَانَ هَمُّ بِهَا ، وَلَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْبَشَرِ فِي ضَعْفِهِ الطَّبِيعِيِّ .

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَهَلْهَذَا هَلْهَذَا الْمُعْجَزَةُ الْكُبْرَى ، لِأَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تُرِيدُ أَلَّا تَنْفِي عَنْ يُؤَسِّفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فُحُولَةَ الرُّجُولَةِ ، حَتَّى لَا يُظَلَّ بِهِ ، ثُمَّ هِيَ تُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الرُّجَالُ ، وَخَاصَّةً الشُّبَّانُ مِنْهُمْ ، كَيْفَ يَتَسَامَوْنَ بِهِذِهِ الرُّجُولَةِ فَوْقَ الشَّهَوَاتِ ، حَتَّى فِي الْحَالَةِ الَّتِي هِيَ نِهَايَةُ قُدْرَةِ الطَّبِيعَةِ ؛ حَالَةِ مَلِكَةٍ مُطَاعَةٍ فَاتِنَةٍ عَاشِقَةٍ مُخْتَلِئَةٍ مُتَعَرِّضَةٍ مُتَكَشِّفَةٍ مُتَهَلِّكَةٍ . هُنَا لَا يَبْنِي أَنْ يَنْسَ الرُّجُلُ ، فَإِنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي تَجْعَلُهُ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا - هِيَ أَنْ يَرَى بُزْهَانَ رَبِّهِ .

وَهَذَا الْبُزْهَانُ يُؤَوِّلُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا شَاءَ ، فَهُوَ كَالْمِفْتَاحِ الَّذِي يُوَضَّعُ فِي الْأَقْفَالِ كُلِّهَا فَيَقُضُّهَا كُلِّهَا ؛ فَإِذَا مَثَّلَ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّهُ هُوَ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ مُنْتَصِبَانِ أَمَامَ اللَّهِ يَرَاهُمَا ، وَأَنَّ أَمَانِيَّ الْقَلْبِ الَّتِي تَهْجِسُ فِيهِ وَيَظُنُّهَا خَافِيَةً ، إِنَّمَا هِيَ صَوْتُ عَالٍ يَسْمَعُهُ اللَّهُ ؛ وَإِذَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ وَيُقْبَرُ ، وَفَكَرَ فِيمَا يَصْنَعُ الثَّرَى فِي جِسْمِهِ هَذَا ، أَوْ فَكَّرَ فِي مَوْقِفِهِ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ ، أَوْ فَكَّرَ فِي أَنَّ هَذَا الْإِنَّمُ الَّذِي يَقْتَرِفُهُ الْآنَ سَيَكُونُ مَرْجِعُهُ عَلَيْهِ فِي أُخْتِهِ أَوْ بِنْتِهِ - إِذَا فَكَّرَ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ رَأَى بُزْهَانَ رَبِّهِ يُطَالِعُهُ فَجَاءَهُ ، كَمَا يَكُونُ السَّائِرُ فِي الطَّرِيقِ غَافِلًا مُنْدَفِعًا إِلَى هَاوِيَةٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَجَاءَهُ فَيَرَى بُزْهَانَ عَيْنِهِ ؛

أَتَرُونَهُ يَتَرَدَّى فِي الْهَوَايَةِ حِينْتَيْد ، أَمْ يَقِفُ دُونَهَا وَيَنْجُو ؟ أَحْفَظُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي فِيهَا أَكْثَرُ الْكَلَامِ ، وَأَكْثَرُ الْمَوْعِظَةِ ، وَأَكْثَرُ النَّزِيَةِ ، وَالَّتِي هِيَ كَالدَّرْعِ فِي الْمَعْرَكَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالشَّيْطَانِ ، كَلِمَةُ ﴿ رَمَاهُنَّ رَبَّهُ ﴾ .

* * *

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَى صَاحِبِهِ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : وَلَزِمْتُ الْإِمَامَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَاجْتَمَعْتُ أَنْ أَتَشَبَّهَ بِهِ ، وَأَسْلُكَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الزُّهْدِ وَالْمَعْرِفَةِ ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ حَفِظْتُ الرَّجُلَ فِي نَفْسِي كَمَا أَحْفَظُ الْكَلَامَ ، وَجَعَلْتُ شِعَارِي فِي كُلِّ نَزْعَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ النَّفْسِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ : ﴿ رَمَاهُنَّ رَبَّهُ ﴾ ، فَمَا أَلَمْتُ بِإِثْمٍ قَطُّ ، وَلَا دَانَيْتُ مَعْصِيَةً ، وَلَا رَهَقْنِي مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ النَّفْسِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا ، وَأَزْجُو أَنْ يَغْصِمَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ كَلِمَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ كَأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ تَحْمِلُهُ ، تَمُرُّ بِهِ آمِنًا عَلَى كُلِّ مَعَاصِي الْأَرْضِ ، فَمَا يَغْتَرِضُكَ شَيْءٌ مِنْهَا ، كَانَ مَعَكَ خَاتَمَ الْمَلِكِ تَجُوزُ بِهِ .

قَالَ سُهَيْلٌ : فَلِهَذَا لَقَبَكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ « بِالْقَلَسِ » لِعِبَادَتِكَ وَزُهْدِكَ وَعَزُوفِكَ عَنِ النِّسَاءِ ، وَقَلِيلِكَ لَكَ - وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَوْ قَالُوا : مَا هَذَا بِشَرٍّ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ ، لَصَدَقُوا .

* * *

قَالَتْ سَلَامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُعْتَبَةِ ، الْحَادِثَةُ الطَّرِيفَةُ ، الْجَمِيلَةُ الْفَاتِنَةُ ، الشَّاعِرَةُ الْقَارِئَةُ ، الْمُؤَرِّخَةُ الْمُتَحَدِّثَةُ ، الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي أَمْرَةٍ مِثْلِهَا حُسْنُ وَجْهِهَا ، وَحُسْنُ غَنَائِهَا ، وَحُسْنُ شِعْرِهَا - قَالَتْ : وَأَشْتَرَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ « عَشْرَةَ آلَافٍ جُنَيْهِ » وَكَانَ يَقُولُ : مَا يَقْرَأُ عَيْنِي مَا أُوتِيتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَشْتَرِيَ سَلَامَةً ؛ ثُمَّ قَالَ حِينَ مَلَكَتْنِي : مَا شَاءَ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَلْيَفْتِنْنِي ! قَالَتْ : فَلَمَّا عُرِضْتُ عَلَيْهِ أَمْرُنِي أَنْ أَغْنِيَهُ ، وَكُنْتُ كَالْمَخْبُورَةِ مِنْ حُبِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَلَسِ ، حُبًّا أَرَاهُ فَالِقًا كَبِدِي ، آتِيًا عَلَى حُسَّاشَتِي ؛ فَذَهَبَ عَنِّي وَاللَّهُ كُلُّ مَا أَحْفَظُهُ مِنْ أَصْوَاتِ الْغِنَاءِ ، كَمَا يُنْسَعُ اللَّزْجُ مِمَّا كُتِبَ فِيهِ ، وَأُنْسِيتُ الْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ أَرِ

إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَمَجْلِسُهُ مَتَى يَوْمَ سَأَلَنِي أَنْ أُغْنِيَهُ بِشِعْرِهِ فِيَّ ، وَقَوْلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ : حُبًّا
وَكِرَامَةً وَعِزًّا لَوْجْهِكَ الْجَمِيلِ . وَتَنَاوَلْتُ الْعُودَ وَجَسَسْتُهُ بِقَلْبِي قَبْلَ يَدِي ، وَصَرَبْتُ عَلَيْهِ
كَأَنِّي أَضْرِبُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بِيَدٍ أَرَى فِيهَا عَقْلًا يَخْتَالُ حَبْلَةً أَمْرًا عَاشِقَةً . ثُمَّ أَنْدَفَعْتُ
أُغْنِي بِشِعْرٍ حَبِيبِي [من الكامل] :

إِنَّ الَّتِي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رَكَائِبِ تَمْشِي بِمِزْهَرِهَا وَأَنْتَ حَرَامِ
لِتَصِيدَ قَلْبَكَ ، أَوْ جِزَاءَ مَوَدَّةِ إِنَّ الرِّفِيقَ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامِ
بَاتَتْ نُعْلُنَا وَتَحَسَّبُ أَتْنَا فِي ذَاكَ أَتَقَاطُ ، وَنَحْنُ نِيَامِ
وَعَظِيمَتُهُ وَاللَّهُ غِنَاءُ وَالْهَيْةُ ذَاهِيَةُ الْعَقْلِ كَاسِفَةُ الْبَالِ ، وَرَدَّدَتْهُ كَمَا رَدَّدَتْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ،
وَأَنَا إِذْ ذَاكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْوَرْدَةِ أَوَّلَ مَا تَفْتَحُ . وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَتَبَيَّنُ لَصَوْنِي فِي مِسْمَعِيهِ صَوْنًا
آخَرَ . . . وَقَطَعْتُهُ ذَلِكَ التَّقْطِيعَ ، وَمَدَّدْتُ ذَلِكَ التَّمْدِيدَ ، وَصَحْتُ فِيهِ صَنِحَةً قَلْبِي وَنَفْسِي
وَجَوَارِحِي كُلَّهَا كَمَا غَنَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، لَكِنَّمَا أُوْدِي إِلَى قَلْبِهِ الْمَعْنَى الَّذِي فِي اللَّفْظِ ،
وَالْمَعْنَى الَّذِي فِي النَّفْسِ جَمِيعًا ، وَلَكِنَّمَا أَسْكِرُهُ - وَهُوَ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ - سُكْرَ الْخَمْرِ بِشَيْءٍ
غَيْرِ الْخَمْرِ !

وَمَا أَفْقْتُ مِنْ هَذِهِ الْغَشِيَةِ إِلَّا حِينَ قَطَعْتُ الصَّوْتِ ، فَإِذَا الْخَلِيفَةُ كَأَنَّمَا يَسْمَعُ مِنْ
قَلْبِي لَا مِنْ فَمِي وَقَدْ زَلَزَلَهُ الطَّرَبُ ، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أَلَمَ بِشَأْنِ أَمْرٍ ، وَخَشِيتُ
أَنْ أَكُونَ قَدْ أَفْتَضَحْتُ عِنْدَهُ ؛ وَلَكِنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ ، وَكَانَ جَسَدًا بِمَا فِيهِ ، يُرِيدُ جَسَدًا لِمَا
فِيهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يُنْكَزْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَأَشْتَرَانِي وَصِرْتُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا خَلَوْنَا سَأَلَنِي أَنْ أُغْنِيَّ ، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَأَنَا أُغْنِيَهُ بِشِعْرِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ [من الطويل] :

أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ : هَلْ أَنْتَ مُبْصِرُ وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُقْصِرُ
إِذَا أَخَذْتَ فِي الصَّوْتِ كَادَ جَلِيسُهَا يَطِيرُ إِلَيْهَا قَلْبُهُ حِينَ تَنْظُرُ
وَأَذَيْتُهُ عَلَى مَا كَانَ يَسْتَحْسِنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَيَطْرِبُ لَهُ ، إِذْ يَسْمَعُ فِيهِ هَمْسًا مِنْ
بُكَائِي ، وَلَهْفَةً مِمَّا أَجِدُ بِهِ ، وَحَسْرَةً عَلَى أَنَّهُ يُنْسَكِبُ فِي قَلْبِي وَهُوَ يَصُدُّ عَنِّي وَيَتَحَامَانِي ،

وَمَا غَشَيْتُ : « وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُقْصِرٌ » إِلَّا فِي صَوْتِ تَنُوحٍ بِهِ سَلَامَةٌ عَلَى نَفْسِهَا وَتَتَذُوبُ وَتَتَفَجَّعُ !

فَقَالَ لِي بِرَيْدُ وَقَدْ فَضَحْتُ نَفْسِي عِنْدَهُ فَضِيحَةً مَكْشُوفَةً : يَا حَبِيبِي ! مَنْ قَاتِلُ هَذَا الشَّعْرِ ؟

قُلْتُ : أَحَدْتُكَ بِالْقِصَّةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : حَدِّثْنِي .

قُلْتُ : هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ الَّذِي يُلَقَّبُونَهُ بِالْقَسِّ لِعِبَادَتِهِ وَنُسْكِهِ ، وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ يُشْبِهُ عَطَاءَ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، وَكَانَ صَدِيقًا لِمَوْلَايَ سُهَيْلٍ ، فَمَرَّ بِدَارِنَا يَوْمًا وَأَنَا أُغْنِي فَوَقَّفَ يَسْمَعُ ، وَدَخَلَ عَلَيْنَا « الْأَخْوصُ » ^(١) ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ ؟ لَكَانَ الْمَلَائِكَةُ وَاللَّهُ تَتَلَوُ مَزَامِيرَهَا بِحَلْقِي سَلَامَةً ، فَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَسُّ قَدْ شُغِلَ بِمَا يَسْمَعُ مِنْهَا ، وَهُوَ وَاقِفٌ خَارِجَ الدَّارِ ، فَتَسَارَعَ مَوْلَايَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فَيَسْمَعَ مِنِّي ، فَأَبَى ! فَقَالَ لَهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي مَحَلِّهِ وَبَيْتِهِ وَعِلْمِهِ قَدْ مَشَى إِلَى جَمِيلَةِ أَسْتَاذَةِ سَلَامَةٍ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا أَلَتْ أَلِيَّةً أَلَّا تُغْنِيَ أَحَدًا إِلَّا فِي مَثَرِلِهَا ؛ فَجَاءَهَا فَسَمِعَ مِنْهَا ، وَقَدْ هَيَّأَتْ لَهُ مَجْلِسَهَا ، وَجَعَلَتْ عَلَى رُؤُوسِ جَوَارِيهَا شُعُورًا مُسَدَّلَةً كَالْعَنَاقِيدِ ، وَالْبَسْتَهُنَّ أَنْوَاعَ الثِّيَابِ الْمُصْبَغَةِ ، وَوَضَعَتْ فَوْقَ الشُّعُورِ الثَّيْجَانَ ، وَزَيَّنَتْهُنَّ بِأَنْوَاعِ الْحُلِيِّ ، وَقَامَتْ هِيَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَامَ الْجَوَارِي صَفَيْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، حَتَّى أَقْسَمَ عَلَيْهَا فَجَلَسَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَأَمَرَتْ الْجَوَارِي فَجَلَسْنَ ، وَمَعَ كُلِّ جَارِيَةٍ عُودُهَا ؛ ثُمَّ ضَرَبْنَ جَمِيعًا وَغَنَّتْ عَلَيْهِنَّ ، وَغَنَّى الْجَوَارِي عَلَى غِنَائِهَا ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : مَا ظَنَنْتُ أَنْ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ !

وَأَنَا أَفْعِدُكَ فِي مَكَانٍ تَسْمَعُ مِنْ سَلَامَةٍ وَلَا تَرَاهَا ، إِنْ كُنْتَ { عِنْدَ نَفْسِكَ } بِالْمَثَرِلَةِ الَّتِي لَمْ يَتَلَفَّهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ !

قَالَتْ سَلَامَةُ : وَكَانَتْ هَذِهِ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رُفِيَّةٌ مِنْ رُقَى إِبْلِيسَ ؛ فَقَالَ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَمَا هَذِهِ فَتَنَم . وَدَخَلَ الدَّارَ وَجَلَسَ حَيْثُ يَسْمَعُ ، ثُمَّ أَمَرَنِي مَوْلَايَ
فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ خُرُوجَ الْقَمَرِ مَشْبُوبًا مِنْ سَحَابَةٍ كَانَتْ تَغْطِيهِ ؛ { فَأَمَّا هُوَ } فَمَا رَأَيْتُ حَتَّى
عَلِفْتُ بِقَلْبِهِ ، وَسَجَّ طَوِيلًا طَوِيلًا ؛ وَ{ أَمَا أَنَا فَ } كَمَا رَأَيْتُهُ حَتَّى رَأَيْتُ الْجَنَّةَ
وَالْمَلَائِكَةَ ، وَمُتُّ عَنِ الدُّنْيَا وَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ . . .

* * *

قَالَتْ سَلَامَةٌ : وَأَفْتَضَحْتُ مَرَّةً أُخْرَى ، فَتَنَخَّحَ يَزِيدُ . . . فَصَحَّحْتُ وَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ! أَحَدُكَ أَمْ حَسْبُكَ ؟ قَالَ : حَدَّثَنِي وَيْحَكَ ! فَوَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَنْتِ
لَأَعَدْتُ قِصَّةَ آدَمَ مَعَ وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى يُطْرَدُوا جَمِيعًا مِنْ حُسْنِهَا إِلَى حُسْنِكَ ! فَمَا
فَعَلَ الْقَسُّ وَيْحَكَ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنَّهُ يُدْعَى الْقَسُّ قَبْلَ أَنْ يَهْوَانِي .

فَقَالَ يَزِيدُ : وَهَلْ عَجَبٌ وَقَدْ فَتَنَتْهُ أَنْ يَطْرُدَهُ « الْبَطْرِيْقُ » ؟

قُلْتُ : بَلِ الْعَجَبُ وَقَدْ فَتَنَتْهُ أَنْ يَصِيرَ هُوَ الْبَطْرِيْقُ . . . !

فَصَحَّحَكَ يَزِيدُ وَقَالَ : إِنَّهُ ، مَا أَحْسَبُ الرَّجُلَ إِلَّا قَدْ دُهِيَ مِنْكَ بِدَاهِيَةٍ ! فَحَدَّثَنِي فَقَدْ
رَفَعْتُ الْعَبْرَةَ ؛ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرَى هَذَا الرَّجُلَ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِكَ إِلَّا كَالْفَخْلِ مِنَ الْإِبِلِ ، قَدْ
تَرِكَ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْعَمَلِ ، وَتَنَمَّ وَسَمَّنَ لِلْفِخْلَةِ ، فَتَدَّ { يَوْمًا } ، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ ،
فَأَقْعَمَ فِي مَفَاةٍ ، وَأَصَابَ مَرْتَعًا فَتَوَحَّشَ وَأَسْتَأْسَدَ ، وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ أَثَرُ وَخْشِيَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ
إِقْبَالَ الْجَنْ مِنْ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ وَبَأْسٍ شَدِيدٍ ؛ فَلَمَّا طَالَ انْفِرَادُهُ وَتَأَبَّدَتْ عَرَضَتْ لَهُ فِي الْبَرِّ نَاقَةٌ
كَانَتْ قَدْ نَذَتْ مِنْ عَطْنِهَا ، وَكَانَتْ فَارِهَةً جَسِيمَةً قَدْ أَنْتَهَتْ سِمَنًا ، وَعَطَّاهَا الشَّخْمُ
وَاللَّحْمُ ، فَرَأَاهَا الْبَارِلُ الصَّوْوُلُ ، فَهَاجَ وَصَالَ وَهَدَرَ ، يَخْبِطُ بِيَدِهِ وَرِجْلِهِ ، وَيُسْمَعُ
لِجَوْفِهِ دَوِيٌّ مِنَ الْعَلَيَّانِ ، وَإِذَا هِيَ قَدْ أَلْقَتْ نَفْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ !

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ جَعَلَ الشَّيْطَانُ فِي يَمِينِهِ رَجُلًا فَخَلَا { قَوِيًّا } جَمِيلًا ، وَفِي شِمَالِهِ أَمْرًا
جَمِيلًا عَاشِقًا تَهْوَاهُ ؛ ثُمَّ تَمَطَّى مُتَدَافِعًا وَمَدَّ ذِرَاعِيهِ فَابْتَعَدَا ؛ ثُمَّ تَرَاجَعَ مُتَدَاخِلًا وَضَمَّ
ذِرَاعِيَهُ فَالْتَقَيَا ؛ لَكَانَ هَذَا شَأْنًا مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَسِّ !

قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا كَانَ صَاحِبِي فِي الرِّجَالِ خَلًّا وَلَا خَمْرًا ، وَمَا كَانَ الْفَحْلَ إِلَّا الثَّاقَةَ . . . ! وَمَا أَحْسَبُ الشَّيْطَانَ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَهَلْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ عَمَلٌ مَعَ رَجُلٍ يَقُولُ : إِنِّي أَعْرِفُ دَائِمًا فِكْرَتِي ، وَهِيَ دَائِمًا فِكْرَتِي لَا تَتَغَيَّرُ . ذَاكَ رَجُلٌ آسَاسُهُ كَمَا يَقُولُ : ﴿ بُرْهَنَ رَبِّي ﴾ وَلَقَدْ تَصَنَّعْتُ لَهُ مَرَّةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَشَكَّلْتُ وَتَحَلَّلْتُ وَتَبَرَّجْتُ ، وَحَدَّثْتُ نَفْسِي مِنْهُ بِكَثِيرٍ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ غَبَرَ شَبَابُهُ فِي وَجُودِ قَارِغٍ مِنَ الْمَرْأَةِ ، ثُمَّ وَجَدَ الْمَرْأَةَ فِي { وَحْدِي } . وَعَظِيئَتُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غِنَاءَ جَوَارِحِي كُلِّهَا ، وَكُنْتُ لَهُ كَأَنِّي حَرِيرٌ نَاعِمٌ يَتَرَجَّرُ وَيُنْشُرُ أَمَامَهُ وَيُطَوِّى . . . وَجَلَسْتُ كَالثَّائِمَةِ فِي فِرَاشِهَا وَقَدْ خَلَا الْمَجْلِسُ ، وَكُنْتُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْفَاكِهَةِ النَّاصِجَةِ الْحُلُوةِ تَقُولُ لِمَنْ يَرَاهَا : « كُلْنِي . . . ! »

قَالَ يَزِيدُ : وَيَحِكُ وَيَحِكُ ! وَبَعْدَ هَذَا ؟

قُلْتُ : بَعْدَ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ يَهْوَانِي الْهَوَى الْبَرَحَ ، وَيَعْشَقُنِي الْعِشْقَ الْمُضْنِي - لَمْ يَرِ فِي جَمَالِي وَفُتْنَتِي وَأَسْتِسْلَامِي إِلَّا أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَاءَ يَرِشُوهُ بِالذَّهَبِ . . . بِالذَّهَبِ الَّذِي يَتَعَامَلُ بِهِ !

فَصَحَحَ يَزِيدُ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَقَدْ عَرَضَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ ذَهَبَهُ وَلَوْلُوهُ وَجَوَاهِرُهُ كُلِّهَا ، فَكَيْفَ لَعَمْرِي لَمْ يُفْلِحْ ؛ وَهُوَ لَوْ رَشَانِي مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِدِرْهَمٍ لَوْ جَدَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَاهِدَ زُورٍ . . . !

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَمْ أَتَسَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ أَمْرًا فَلَمْ أَفْلِحْ ، وَعَمِلْتُ أَنْ أَظْهَرَ شَيْطَانَةً فَانْحَدَلْتُ ، وَجَهَدْتُ أَنْ يَرَى طَبِيعَتِي فَلَمْ يَرِنِي إِلَّا بِغَيْرِ طَبِيعَةٍ ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أَنْزِلَ بِهِ عَنْ سَكِينَتِهِ وَقَارِهِ رَأَيْتُ فِي عَيْنَيْهِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ كُنُورِ النَّجْمِ ، وَكَانَتْ بَعْضُ نَظَرَاتِهِ [لِي] وَاللَّهِ كَأَنَّهَا عَصَا الْمُؤَدَّبِ ، وَكَأَنَّهُ يَرَى فِي جَمَالِي حَقِيقَةً مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَيَرَى فِي جِسْمِي خُرَافَةَ الصَّنَمِ ، فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيَّ جَمِيلَةً ، وَلَكِنَّهُ مُنْصَرِفٌ عَنِّي أَمْرًا .

لَمْ أَتَسَّ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْحُبِّ يَطْلُبُ آخِرَهُ أَبَدًا إِلَى أَنْ يَمُوتَ . وَكَانَ يُكْثِرُ مِنْ زِيَارَتِي ، بَلْ كَانَتْ إِلَيَّ الْغَذْوَةُ وَالرَّوْحَةُ ، مِنْ حُبِّهِ إِنِّي وَتَعَلَّقِهِ

يُنِي ؛ فَوَاعِدْتُهُ يَوْمًا أَنْ يَجِيءَ مَتَى وَارَى اللَّيْلُ أَهْلَهُ لِأَعْتَبِهِ : « أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ . . . »
وَكُنْتُ لَحْنَتُهُ وَلَمْ يَسْمَعَهُ بَعْدُ . وَلَيْتُ نَهَارِي كُلَّهُ أَسْتَرْوِحُ فِي الْهَوَاءِ رَائِحَةَ هَذَا الرَّجُلِ مِمَّا
أَتَلَّهْتُ عَلَيْهِ ، وَأَتَمَثَّلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ كَالطَّرِيقِ الْمُتَمَتِّدِ إِلَى شَيْءٍ مَخْبُوءٍ أَعْلَلُ النَّفْسَ بِهِ .
وَبَلَغْتُ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي زِينَةِ نَفْسِي وَإِصْلَاحِ شَأْنِي ، وَتَشَكَّلْتُ فِي صُورٍ مِنَ الزَّهْرِ ،
وَقُلْتُ لِأَجْمَلِهِنَّ وَهِيَ الْوَرْدَةُ الَّتِي وَضَعْتُهَا بَيْنَ نَهْدَيَّ : يَا أُخْتِي ، أَجْذِبِي عَيْنَهُ إِلَيْكَ ،
حَتَّى إِذَا وَقَفَ نَظَرُهُ عَلَيْكَ فَأَنْزِلِي بِهِ قَلِيلًا أَوْ أَصْعَدِي بِهِ قَلِيلًا . . .

قَالَ يَزِيدُ وَهُوَ كَالْمَحْمُومِ : ثُمَّ ثُمَّ ثُمَّ ؟

قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ثُمَّ جَاءَ مَعَ اللَّيْلِ ، وَإِنَّ الْمَجْلِسَ لَخَالٍ مَا فِيهِ غَيْرِي
وغيره ، بِمَا أَكْبَدُ مِنْهُ وَمَا يُعَانِي مِنِّي . فَغَنَيْتُهُ أَحَرَ غَنَاءٍ وَأَسْجَاهُ ، وَكَانَ الْعَاشِقُ فِيهِ يَطْرُبُ
لِصَوْتِي ، ثُمَّ يَطْرُبُ الزَّاهِدُ فِيهِ مِنْ أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْرُبَ ، كَمَا يَطْبِشُ الطِّفْلُ سَاعَةَ يَنْطَلِقُ
مِنْ حَبْسِ الْمُؤَدَّبِ .

وَمَا كَانَ يَسُوءُنِي إِلَّا أَنَّهُ يُمَارِسُ فِي الزُّهْدِ مُمَارَسَةً ، كَأَنَّمَا أَنَا صُعُوبَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فَهُوَ يُرِيدُ
أَنْ يَغْلِبَهَا ، وَهُوَ يُجَرِّبُ قُوَى نَفْسِهِ وَطَبِيعَتِهِ عَلَيْهَا ؛ أَوْ كَأَنَّهُ يَرَانِي خَيَالِ أَمْرَةٍ فِي مِرَاةٍ ،
لَا أَمْرَاءَ مَائِلَةً^(١) لَهُ بِهَوَاهَا وَشَبَابِهَا وَحُسْنِهَا وَفَتْتِهَا ، أَوْ أَنَا عِنْدَهُ كَالْحُورِيَّةِ مِنْ حُورِ الْجَنَّةِ
فِي خَيَالِ مَنْ هِيَ ثَوَابُهُ ، تَكُونُ مَعَهُ ، وَإِنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْبُعْدِ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛
فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَحْطِمَ الْمِرَاةَ لِيَرَانِي أَنَا نَفْسِي لَا خَيَالِي ، وَأَسْتَنْجِدْتُ كُلَّ فِتْنَتِي أَنْ تَجْعَلَهُ يَفِرُّ
إِلَيَّ كُلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَفِرَّ مِنِّي .

فَلَمَّا ظَنَنْتُنِي مَلَأْتُ عَيْنِيهِ وَأُذُنَيْهِ وَنَفْسَهُ وَأَنْصَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَوَارِحِهِ ، وَهَجْتُ النَّيَّارَ
الَّذِي فِي دِمِهِ وَدَقَعْتُهُ دَفْعًا - قُلْتُ لَهُ : « أَنْتَ يَا خَلِيلِي شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ ، أَنْتَ شَيْءٌ مُتَلَفٌ
بِإِنْسَانٍ ، وَمَنْ أَلَّتِي تَعَشَّقُ ثَوْبَ رَجُلٍ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ^(٢) ؟ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَائِلَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « مَائِلَةٌ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَمَنْ أَلَّتِي تَعَشَّقُ ثَوْبًا لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » بَدَلًا مِنْ : « وَمَنْ أَلَّتِي تَعَشَّقُ ثَوْبَ رَجُلٍ
لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ؟ » .

وَرَأَيْتُهُ وَاللَّهُ يَطُوفُ عِنْدَ ذَلِكَ بِفِكْرِهِ ، كَمَا أَطَوَّفَ أَنَا بِفِكْرِي حَوْلَ الْمَعْنَى الَّتِي أَرَدْتُه .
فَمِلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ ^(١) : « أَنَا وَاللَّهُ أَحْبَبُكَ ! » .

فَقَالَ : « وَأَنَا وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... » .

قُلْتُ : « وَأَشْتَهِي أَنْ أَعَانِكَ وَأُقَبِّلَكَ ! » .

قَالَ : « وَأَنَا وَاللَّهُ ! » .

قُلْتُ : « فَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّ الْمَوْضِعَ لَخَالٍ ! » .

قَالَ : « يَمْنَعُنِي قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [٤٣ : سورة الزخرف / الآية : ٦٧] فَآكْرَهُ أَنْ تَحُولَ مَوَدَّتِي لَكَ عِدَاوَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

إِنِّي أَرَى ﴿ بُرْهَانَ رَبِّي ﴾ يَا حَبِيبِي ، وَهُوَ يَمْنَعُنِي أَنْ أَكُونَ مِنْ سَيِّئَاتِكَ وَأَنْ تَكُونَ مِنِّي مِنْ سَيِّئَاتِي ، وَلَوْ أَخْبَيْتُ الْأُنْتَى لَوَجَدْتُكَ فِي كُلِّ أُنْتَى ، وَلَكِنِّي أَحِبُّ مَا فِيكَ أَنْتَ بِخَاصَّتِكَ ، وَهُوَ الَّذِي لَا أَعْرِفُهُ وَلَا أَنْتَ تَعْرِفْتُهُ ، هُوَ مَعْنَاكَ يَا سَلَامَةً لَا شَخْصُكَ .

ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَبْكِي ، فَمَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا عَادَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَرَكَ لِي نَدَامَتِي وَكَلَامَ دُمُوعِهِ ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، وَلَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ { - فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا - } تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ ^(٢) ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُلْقِ حِجَابَهَا بَلْ أَلْقَتْ ثِيَابَهَا .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) هَذَا نَصُّ كَلَامِهِمَا كَمَا رَوَاهُ صَاحِبُ « الْأَغَانِي » - إِلَى قَوْلِهِ : « يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؛ وَهُوَ كُلُّ الْقِصَّةِ فِي كِتَابِهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ أَحْيَانًا » بَدَلًا مِنْ : « فَقَدْ رَأَى أَنَّ الْمَرْأَةَ - فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا - تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِلرَّجُلِ » .

قِصَّةُ زَوَاجٍ
وَفَلَسَفَةُ الْمَهْرِ (*) (١)

قَالَ رَسُولُ عَبْدِ الْمَلِكِ : وَنَحَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! لَكَآنَ دَمَكَ وَاللَّهِ مِنْ عَدُوِّكَ ؛ فَهُوَ يَفُورُ بِكَ لِتَلَجَّ فِي الْعِنَادِ قَتْلُكَ ، وَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهِ بَيْنَ سَبْعِينَ قَدْ فَعَرَا عَلَيْكَ ؛ هَذَا عَنْ يَمِينِكَ وَهَذَا عَنْ يَسَارِكَ ، مَا تَفِرُّ مِنْ حَنْفٍ إِلَّا إِلَى حَنْفٍ ، وَلَا تَرْحُمُكَ الْأَنْيَابُ إِلَّا بِمَخَالِيلِهَا .

هَلْهَذَا هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَامِلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ دَخَلَتْهُ الرَّحْمَةُ لَكَ أَسْتَوْثَقَ مِنْكَ فِي الْحَدِيدِ ، وَرَمَى بِكَ إِلَى دِمَشْقَ ؛ وَهُنَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا هُوَ وَاللَّهِ إِلَّا أَنْ يُطْعِمَ لَحْمَكَ السَّيْفَ يَعْضُ بِكَ عَضَّ الْحَيَّةِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمَّ ؛ وَكَأَنِّي بِهِذَا الْجَنْبِ مَضْرُوعًا لِمَضْجَعِهِ ، وَبِهِذَا الْوَجْهِ مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ ، وَبِهِذِهِ اللَّحْيَةِ مُعَقَّرَةٌ بِتَرَائِبِهَا ، وَبِهِذَا الرَّأْسِ مُخْتَرَا فِي يَدِ أَبِي الزُّعَيْرِ عِةٍ جَلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُلْقِيهِ مِنْ سَيْفِهِ رَمَى الْغَضَنِ بِالثَّمَرَةِ قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ .

وَأَنْتَ يَا سَعِيدُ فَقِيهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَعَالِمُهَا وَزَاهِدُهَا ، وَقَدْ عَلِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمَرَ قَالَ فِينِكَ لِأَصْحَابِهِ : « لَوْ رَأَى هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَسَرَّهُ » فَإِنْ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَلْيَكْرُمْ عَلَى نَفْسِكَ الْمُسْلِمُونَ ؛ إِنَّكَ إِنْ هَلَكْتَ رَجَعَ الْفِقْهُ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ إِلَى الْمَوَالِي ؛ فَقَفِيهِ مَكَّةَ عَطَاءً ، وَقَفِيهِ الْيَمَنَ طَاوُوسُ ، وَقَفِيهِ الْيَمَامَةَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ ، وَقَفِيهِ الْبَصْرَةَ الْحَسَنُ ، وَقَفِيهِ الْكُوفَةَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ ، وَقَفِيهِ الشَّامَ مَكْحُولُ ، وَقَفِيهِ خُرَاسَانَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ . وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ الْمَدِينَةَ مِنْ دُونِ الْأَمْصَارِ قَدْ حَرَسَهَا اللَّهُ بِقَفِيهِهَا الْفَرَشِيِّ الْعَرَبِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ الْمُسَيَّبِ كَرَامَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْأَرْضِ أَنَّكَ حَجَجْتَ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ حِجَّةً ، وَمَا فَاتَتْكَ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي الْمَسْجِدِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَا قُمْتَ إِلَّا فِي مَوْضِعِكَ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، فَلَمْ تَنْظُرْ قَطُّ إِلَى قَفَا رَجُلٍ فِي

(*) « الرسالة » العدد : ٦٧ ، ٦ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٨٥ - ١٦٨٩ .

(١) [أَنْظُرْ] قِصَصُ الرَّافِعِيِّ « فِي » عَوْدٍ عَلَى بَدْءِ « مِنْ كِتَابِ » حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ . سَعِيدُ الْعُرْيَانُ .

الصَّلَاةِ ؛ وَلَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ مَا يَغْرِضُ لَكَ مِنْ قِبَلِهِ فِي صَلَاتِكَ وَلَا قَفَا رَجُلٍ ؛ فَاللَّهُ اللَّهُ
يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَغْشُكَ فِي النَّصِيحَةِ ؛ وَلَا أَخْذَعُكَ عَنِ الرَّأْيِ ، وَلَا أَنْظُرُ لَكَ إِلَّا
خَيْرَ مَا أَنْظُرُ لِنَفْسِي ؛ وَإِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ مَنْ عَلِمْتَ ؛ رَجُلٌ قَدْ عَمَّ النَّاسَ تَرْغِيئُهُ
وَتَرْهِيئُهُ ، فَهُوَ أَخْذُكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِنْ لَمْ تَأْخُذْهُ أَنْتَ عَلَى مَا يُحِبُّ ؛ وَإِنَّهُ وَاللَّهِ يَا أَبَا
مُحَمَّدٍ ، مَا طَلَبَ إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا وَأَنْتَ عِنْدَهُ الْأَعْلَى ، وَلَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ إِلَّا وَكَأَنَّهُ
يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْكَ ، رِعَايَةً لِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَهُ ، وَإِكْبَارًا لِحَقِّكَ عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَرْسَلَنِي أَخْطُبُ إِلَيْكَ
أَبْنَتَكَ لِوَلِيِّ عَهْدِهِ إِلَّا وَهُوَ يَبْذُلُ نَفْسَهُ إِلَيْكَ أَيْتَدَالًا لِيَصِلَ بِكَ رَحِمَهُ ، وَيُوثِقَ أَصْرَتَهُ ؛ وَإِنْ
يَكُنْ اللَّهُ قَدْ أَغْنَاكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِهِ وَبِمُلْكِهِ وَرِعَا وَرَهَادَةٍ ، فَمَا أَحْوَجَ أَهْلَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ عِنْدَهُ ، وَأَنْ يَكُونُوا أَضْهَارَ الْوَلِيدِ فَيَسْتَدْفِعُوا شَرَّ مَا بِهِ عَنْهُمْ غَنَى ، وَيَجْتَلِبُوا
خَيْرَ مَا بِهِمْ غَنَى عَنْهُ ؛ وَلَسْتُ تَذَرِي مَا يَكُونُ مِنْ مَصَادِرِ الْأُمُورِ وَمَوَارِدِهَا . وَإِنَّكَ وَاللَّهِ إِنْ
لَجَجْتَ فِي عِنَادِكَ وَأَصْرَرْتَ أَنْ تَرُدِّي إِلَيْهِ خَائِبًا ، لَتَهَيِّجَنَّ قَرَمَ سُيُوفِ الشَّامِ إِلَى هَذِهِ
الْلُحُومِ وَلَحْمِكَ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَطْيَبِهَا ، وَلَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَارَتَانِ : لَيْنٌ وَشِدَّةٌ ؛ وَأَنَا إِلَيْكَ
رَسُولُ الْأَوَّلَى ، فَلَا تَجْعَلْنِي رَسُولَ النَّائِبَةِ . . .

* * *

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ وَكَانَ الْكَلَامُ^(١) لَا يَخْلُصُ إِلَى نَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
تَسَاقَطَ مَعَانِيهِ فِي الْأَرْضِ ، هَيْئَةً مِنْهُ وَفَرْقًا مِنْ إِقْدَامِهَا عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ لَانَ رَسُولُ عَبْدِ الْمَلِكِ
فِي دَهَائِهِ حَتَّى ظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَاغَ مِنَ الرَّجُلِ مَسَاغُ الْمَاءِ الْعَذْبِ فِي الْحَلْقِ الطَّامِ ،
وَأَشْتَدَّ فِي وَعِيدِهِ حَتَّى مَا يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ سَقَاهُ مَاءَ حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُ ؛ وَالرَّجُلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ
مِنْ قَوْفِهِ كَالسَّمَاءِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، لَوْ تَحَوَّلَ النَّاسُ جَمِيعًا كَنَاسِينَ يُبِيرُونَ مِنْ غُبَارِ هَذِهِ عَلَى
بِلْكَ لَمَا كَانَ مَرْجِعُ الْعُبَارِ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، وَبَقِيَتِ السَّمَاءُ ضَاحِكَةً صَافِيَةً تَتَلَأَلُ .

وَقَلَّبَ الرَّسُولُ نَظْرَهُ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَى رَغْبَةٍ وَلَا رَهْمَةٍ ، كَانَ
لَمْ يَجْعَلْ لَهُ الْأَرْضَ ذَهَبًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فِي حَالِهِ ، وَلَمْ يَمْلَأِ الْجَوْ سُيُوفًا عَلَى رَأْسِهِ فِي الْحَالَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ : «كَأَنَّهُ» بِدَلَا مِنْ : «كَأَنَّ الْكَلَامَ» .

الْأُخْرَى ؛ وَاتَّقِنَ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْخِ { الْعَظِيمِ } كَالصَّبِيِّ الْعَرِّ قَدْ رَأَى الطَّائِرَ فِي أَعْلَى الشَّجَرَةِ فَطَمَعَ فِيهِ ، فَجَاءَ مِنْ تَحْتِهَا يُنَادِيهِ : أَنْ أَنْزِلْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْذَكَ وَالْعَبْ بِكَ . . . وَبَعْدَ قَلِيلٍ نَكَلَّمَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ :

يَا هَذَا ، أَمَا أَنَا فَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَمَا أَنْتَ فَقَدْ رَأَيْتَ ، وَقَدْ رُؤِينَا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ، فَانْظُرْ مَا جِئْتَنِي أَنْتَ بِهِ ، وَقِسْهُ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كُلِّهَا ، فَكَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - تَكُونُ قَدْ قَسَمْتَ لِي مِنْ جَنَاحِ الْبُعُوضَةِ . . ؟ وَقَدْ دُعِيتُ مِنْ قَبْلِ إِلَى نَيْبٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا لِأَخْذِهَا ، فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا وَلَا فِي بَنِي مَرْوَانَ ، حَتَّى أَلْقَى اللَّهُ فَيْخَكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ . وَهَآنَذَا الْيَوْمَ أُدْعَى إِلَى أَضْعَافِهَا وَإِلَى الْمَزِيدِ مَعَهَا ؛ أَفَأَقْبِضُ يَدِي عَنْ جَمْرَةٍ ، ثُمَّ أَمْدُهَا لِأَمْلَاحِهَا جَمْرًا ؟ لَا وَاللَّهِ مَا رَغِبَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِابْنِهِ فِي ابْنَتِي ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ مِنْ سِيَاسَتِهِ إِنْصَافُ الْحَاجَةِ بِالنَّاسِ لِيَجْعَلَهَا مَقَادَةَ لَهُمْ فَيَصْرِفَهُمْ بِهَا ؛ وَقَدْ أَعْجَزَهُ أَنْ أَبَايَعَهُ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعَتَيْنِ ، وَمَا عَبْدُ الْمَلِكِ عِنْدَنَا إِلَّا بِاطِلْ كَاتِبُ الزُّبَيْرِ ، وَلَا ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَّا بِاطِلْ كَعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَانْظُرْ فَإِنَّكَ مَا جِئْتَ لِابْنَتِي وَابْنِهِ ، وَلَكِنْ جِئْتَ تَخْطُبُنِي أَنَا لِيَبْعَتَنِي . . .

قَالَ الرَّسُولُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! دَعْ عَنْكَ الْبَيْعَةَ وَحَدِيثَهَا ، وَلَكِنْ مَنْ عَسَى أَنْ تَجِدَ لِكِرْبِمَتِكَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ ؟ إِنَّكَ لَرَاعٍ وَإِنَّهَا لَرَعِيَّةٌ وَسُتْسَالٌ عَنْهَا ، وَمَا كَانَ الظُّلُّ بِكَ أَنْ تُسَيِّءَ رِعْيَتَهَا وَتَبْخَسَ حَقَّهَا ، وَأَنْ تَغْضُلَهَا وَقَدْ خَطَبَهَا فَارِسُ بَنِي مَرْوَانَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَارِسُهُمْ فَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ فَهُوَ الْوَلِيدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَدْنَى الثَّلَاثِ أَرْفَعُ الشَّرَفِ فَكَيْفَ بِهِنَّ جَمِيعًا ، وَهُنَّ جَمِيعًا فِي الْوَلِيدِ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : أَمَا إِنِّي مَسْئُولٌ عَنْ ابْنَتِي ، فَمَا رَغِبْتُ عَنْ صَاحِبِكَ إِلَّا لِأَنِّي مَسْئُولٌ عَنْ ابْنَتِي . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ أَنَّ اللَّهَ يَسْأَلُنِي عَنْهَا فِي يَوْمٍ لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَفْهَمَ لَا يَكُونُونَ فِيهِ إِلَّا وَرَاءَ عَيْنَيْهَا وَأَوْبَاشِهَا وَدُعَارِهَا وَفُجَارِهَا^(١) . يُخْرَجُونَ مِنْ حِسَابِ الْفَجْرَةِ إِلَى حِسَابِ الْقَتْلَةِ ، وَمِنْ حِسَابِ هَؤُلَاءِ إِلَى الْحِسَابِ عَلَى السَّرِقَةِ

وَالْعَصْبِ ، إِلَى حِسَابِ أَهْلِ الْبَغْيِ ، إِلَى حِسَابِ التَّفْرِيطِ فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ . وَيَخَفُ
يَوْمَئِذٍ عَيْنُهَا وَأَوْبَاشُهَا وَدُعَارُهَا وَفَجَارُهَا فِي زَحَامِ الْحَشْرِ ، وَيَمْسِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْنُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ اتَّصَلَ بِهِمَا ، وَعَلَيْهِمْ أَمْثَالُ الْجِبَالِ مِنْ أَثْقَالِ الذُّنُوبِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ .
فَهَذَا مَا نَظَرْتُ فِي حُسْنِ الرَّعَايَةِ لِابْنَتِي ، لَوْلَمْ أَصْنَعْ بِهَا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْنِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ لِأَوْبَقْتُ نَفْسِي . لَا وَاللَّهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَمَلٌ ، وَقَدْ قَرَعْتُ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ فَلَا
يَمُرُّ السَّنَةُ مِثْنِي فِي لَحْمٍ حَيٍّ .

* * *

وَلَمَّا كَانَ غَدَاةُ غَدِ جَلَسَ الشَّيْخُ فِي حَلْقَتِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلْحَدِيثِ وَالتَّأْوِيلِ ،
فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ غُرَضِ الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! إِنَّ رَجُلًا يَلَاحِظُنِي فِي صَدَاقِ ابْنَتِهِ
وَيُكَلِّفُنِي مَا لَا أُطِيقُ . فَمَا أَكْثَرَ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ صَدَاقُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَدَاقُ بَنَاتِهِ ؟
قَالَ الشَّيْخُ : رَوَيْنَا أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَنْهَى عَنِ الْمُغَالَاةِ فِي الصَّدَاقِ وَيَقُولُ :
« مَا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا زَوْجَ بَنَاتِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مِثَّةٍ دِرْهَمٍ ^(١) » [الترمذي ، رقم :
١١١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٣٤٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٠٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٨٧ ؛ « مسند أحمد » ،
رقم : ٢٨٧ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٠٠] ، وَلَوْ كَانَتْ الْمُغَالَاةُ بِمُهورِ النِّسَاءِ مَكْرَمَةً لَسَبَقَ إِلَيْهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَرَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُ النِّسَاءِ أَحْسَنُهُنَّ وَجُوهًا وَأَرْخَصُهُنَّ مُهورًا » . [ابن
حبان رقم : ٤٠٣٤] .

فَصَاحَ السَّائِلُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، كَيْفَ يَأْتِي أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ رَخِيصَةً
الْمَهْرَ ، وَحُسْنُهَا هُوَ يُغْلِيهَا عَلَى النَّاسِ ؛ تَكْثُرُ رَغْبَتُهُمْ فِيهَا فَيَتَنَافَسُونَ عَلَيْهَا ؟
قَالَ الشَّيْخُ : أَنْظِرْ كَيْفَ قُلْتُ . أَهْمُ يُسَاوِمُونَ فِي بَهِيمَةٍ لَا تَعْقِلُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَمْرِهَا
شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهَا بِضَاعَةٌ مِنْ مَطَامِعِ صَاحِبِهَا ، يُغْلِيهَا عَلَى مَطَامِعِ النَّاسِ ؟ إِنَّمَا أَرَادَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ خَيْرَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَتْ عَلَى جَمَالٍ وَجْهِيهَا ، فِي أَخْلَاقٍ كَجَمَالِ وَجْهِيهَا ،

(١) الدِّرْهَمُ : خَمْسَةُ قُرُوشٍ . [يُعَادِلُ الدِّرْهَمُ ٢,٨ غرام مِنَ الْفِضَّةِ] .

وَكَانَ عَقْلُهَا جَمَالًا ثَالِثًا ؛ فَهَلْذِهِ إِنْ أَصَابَتْ الرَّجُلَ الْكُفَاءَ ، يَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ، ثُمَّ يَسَّرَتْ ؛ إِذْ تَغْتَبِرُ نَفْسَهَا إِنْسَانًا يُرِيدُ إِنْسَانًا ، لَا مَتَاعًا يَطْلُبُ شَارِيًا ، وَهَلْذِهِ ^(١) لَا يَكُونُ رُخْصُ الْقِيَمَةِ فِي مَهْرِهَا ، إِلَّا دَلِيلًا عَلَى ارْتِفَاعِ الْقِيَمَةِ فِي عَقْلِهَا وَدِينِهَا ؛ أَمَّا الْحَمَقَاءُ فَجَمَالُهَا يَأْبَى إِلَّا مُضَاعَفَةَ الثَّمَنِ لِحُسْنِهَا ، أَيْ : لِحُمُقِهَا ؟ وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ شَرَارِ النِّسَاءِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ خِيَارِهِنَّ .

وَلَقَدْ تَرَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ عَلَى عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ وَأَثَابَ بَيْتٍ ، وَكَانَ الْأَثَابُ : رَحَى يَدٍ ، وَجَرَّةَ مَاءٍ ، وَوِسَادَةَ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ . وَأَوَّلَمَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ بِمُدَّيْنٍ مِنْ شَعِيرٍ ، وَعَلَى أُخْرَى بِمُدَّيْنٍ مِنْ تَمْرٍ وَمُدَّيْنٍ مِنْ سَوِيْقٍ . وَمَا كَانَ بِهِ ﷺ الْفَقْرُ ، وَلَكِنَّهُ يَشْرَعُ يَسْتَتِيهِ لِیُعَلِّمَ النَّاسَ مِنْ عَمَلِهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ لِلرَّجُلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لَا مَتَاعٌ لِشَارِيهِ ؛ وَالْمَتَاعُ يَقُومُ بِمَا بُدِّلَ فِيهِ إِنْ غَالِيًا وَإِنْ رَخِيصًا ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يَقُومُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ ؛ فَمَهْرُهَا الصَّحِيحُ لَيْسَ هَذَا الَّذِي تَأْخُذُهُ قَبْلَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي تَجِدُهُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ؛ مَهْرُهَا مُعَامَلَتُهَا ، تَأْخُذُ مِنْهُ يَوْمًا فَيَوْمًا ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ عَرُوسًا عَلَى نَفْسِ رَجُلِهَا مَا دَامَتْ فِي مُعَاشَرَتِهِ . أَمَّا ذَلِكَ الصَّدَاقُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَهُوَ صَدَاقُ الْعَرُوسِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْجِسْمِ لَا عَلَى النَّفْسِ ؛ أَفَلَا تَرَاهُ كَالْجِسْمِ يَهْلِكُ وَيَبْلَى ، أَفَلَا تَرَى هَلْذِهِ الْغَالِيَةَ - إِنْ لَمْ تَجِدِ النَّفْسَ { فِي رَجُلِهَا } - قَدْ تَكُونُ عَرُوسَ الْيَوْمِ وَمُطْلَقَةَ الْغَدِ ؟ !

وَمَا الصَّدَاقُ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، إِلَّا كَالْإِيمَاءِ إِلَى الرَّجُولَةِ وَقُدْرَتِهَا ، فَهُوَ إِيْمَاءٌ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَبْلُ . إِنْ كَانَ أَمْرًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمَلَ سَيْفًا ، وَالسَّيْفُ إِيْمَاءٌ إِلَى الْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ذَوِي السَّيْفِ سَوَاءً ، وَقَدْ يَحْمِلُ الْجَبَانُ فِي كُلِّ يَدٍ سَيْفًا ، وَيَمْلِكُ فِي دَارِهِ مِثْلَ سَيْفٍ ؛ فَهُوَ إِيْمَاءٌ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ .

مِثْلَ سَيْفٍ يَمَهِّرُ بِهَا الْجَبَانُ ^(٢) قُوَّتَهُ الْخَائِبَةَ ، لَا تُغْنِي قُوَّتَهُ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهَا كَالْتَدَلِّيسِ عَلَى مَنْ كَانَ جَبَانًا مِثْلَهُ . وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ الْعَالِي كَالْتَدَلِّيسِ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْمَرْأَةِ ، كَيْ لَا تَعْلَمَ وَلَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ تَمَنُّ خَيْبَتِهَا ؛ فَلَوْ عَقَلَتِ الْمَرْأَةُ لَبَاهَتِ النِّسَاءَ بِسُرِّ

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَهَلْذِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَلْذِهِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « يَمَهِّرُ الْجَبَانُ بِهَا » بَدَلًا مِنْ : « يَمَهِّرُ بِهَا الْجَبَانُ » .

مَهْرَهَا ، فَإِنَّهَا بِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ تَرَكْتَ عَقْلَهَا يَعْمَلُ عَمَلُهُ ، وَكَفَّتْ حِمَاقَتَهَا أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْهِ .

فَصَاحَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، أَفِي هَذَا مِنْ دَلِيلٍ أَوْ أَثَرٍ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : نَعَمْ ؛ أَمَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٤ سورة النساء / الآية : ١] فِيهِ زَوْجُهُ حِينَ تَجِدُهُ هُوَ لَا حِينَ تَجِدُ مَالَهُ ؛ وَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تَتَمَّمُهُ لَا حِينَ تَنْقُصُهُ ، وَحِينَ ثَلَاثُمُهُ لَا حِينَ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ ؛ فَمَصْلَحَةُ الْمَرْأَةِ زَوْجَةٌ مَا يَجْعَلُهَا مِنْ زَوْجِهَا ، فَيَكُونَانِ مَعًا كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ ، عَلَى مَا تَرَى لِلْعُضْوِ مِنْ جِسْمِهِ ؛ يُرِيدُ مِنْ جِسْمِهِ الْحَيَاةَ لَا غَيْرَهَا .

وَأَمَّا مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ رَوَيْنَا : « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَآمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ ؛ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ » [رواه الترمذي ، رقم : ١٠٨٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٦٧] .

فَقَدْ اشْتَرَطَ الدِّينَ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَرْضِيًّا لَا أَيْ الدِّينَ كَانَ ^(١) ؛ ثُمَّ اشْتَرَطَ الْأَمَانَةَ ، وَهِيَ مَظْهَرُ الدِّينِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ حَسَنَاتِهِ ؛ وَأَيْسَرَهَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ أَمِينًا ، وَعَلَى حَقُوقِهَا أَمِينًا ، وَفِي مُعَامَلَتِهَا أَمِينًا ؛ فَلَا يَنْخَسُهَا ، وَلَا يُغْتَبِهَا ، وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ نَلَمٌ فِي أَمَانَتِهِ ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الْمَرْأَةُ مِنْ هَذِهِ حَالَهُ وَصِفَتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَهْرِ - تَقَدَّمَ إِلَيْهَا بِالْمَهْرِ مَنْ لَيْسَتْ هَذِهِ حَالُهُ وَصِفَتُهُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ ، وَفَسَدَتِ الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ ، وَفَسَدَ هُوَ بِهَا ، وَفَسَدَ السُّلُوبُ بِهِمَا جَمِيعًا ، وَأُهْمِلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ ، وَتَعَسَّسَتْ مَنْ لَا تَجِدُ ، وَيَرْجِعُ الْمَهْرُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الزَّوْاجِ سَبَبًا فِي مَنْعِهِ ، وَيَتَقَارَبُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ عَلَى رَغَمِ الْمَهْرِ وَالْأَمَانَةِ ؛ فَيَقَعُ مَعْنَى الزَّوْاجِ ، وَيَبْقَى الْمُعْطَلُ مِنْهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالشَّرْعُ .

هَلْ عَلِمْتَ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا لَا تَدْخُلُ بَيْتَ رَجُلٍ إِلَّا لِتُجَاهِدَ فِيهِ جِهَادَهَا ، وَتَبْلُوَ فِيهِ بَلَاءَهَا ؟ وَهَلْ يَقُومُ مَالُ الدُّنْيَا بِحَقِّهَا فِيمَا تَعْمَلُ وَمَا تُجَاهِدُ ، وَهِيَ أُمُّ الْحَيَاةِ وَمُنْشِئَتُهَا وَحَافِظُهَا ؟ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ الْمَالِ وَمَكَانُ التَّفَرِّقَةِ فِي كَثِيرِهِ وَقَلِيلِهِ ، وَالْمَالُ كُلُّهُ دُونَ حَقِّهَا ؟ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَيْ ذَلِكَ كَانَ » بَدَلًا مِنْ : « أَيْ الدِّينَ كَانَ » .

وَلَنْ يَتَفَاوَتْ النَّاسُ بِالْمَالِ تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُهُمْ بِهِ ، وَتَكُونُ مَرَاتِبُهُمْ عَلَى مِقْدَارِهِ ، تَكْثُرُ بِهِ مَرَّةً وَتَقِلُّ مَرَّةً - إِلَّا إِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ ، وَبَطَلَتْ قَضِيَّةُ الْعَقْلِ ، وَتَعَطَّلَ مُوْجِبُ الشَّرْعِ ، وَأَصْبَحَتْ السَّجَايَا تَتَحَوَّلُ ، يَمْلِكُهَا مَنْ يَمْلِكُ الْمَالَ ، وَيَخْسَرُهَا مَنْ يَخْسَرُهُ ؛ فَيَكُونُ الَّذِينَ عَلَى الْفُؤُوسِ كَالَّذِينَ عَلَى الْمَزَاحِمِ لِمَوْضِعِهِ ، وَالْمُتَدَلِّي فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَبِهَذَا يَزْجَعُ بَاطِلُ الْغِنَى دِينًا يَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَدَيْنُ الْفَقِيرِ بَهْرَجًا لَا يَزُوجُ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ دِينِنَا ، دِينِ النَّفْسِ وَالْخُلُقِ ، وَإِنَّ أَلْفَ بَعِيرٍ يَقْنُوهَا الرَّجُلُ خَالِصَةً عَلَيْهِ ، ثَابِتَةً لَهُ ، لَا تَرِيدُ فِي مَنَرَةٍ دِينَهُ قَدَرِ نَمْلَةٍ وَلَا مَا دُونَهَا . وَالْحَجَرَانِ : الْأَذْهَبُ وَالْفِضَّةُ - قَدْ يَكُونُ شُعَاعُهُمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَضْوَاءً مِنْ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، وَلَكِنَّهُمَا فِي نُورِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ كَحَصَاتَيْنِ يَأْخُذُهُمَا الرَّجُلُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، وَيَذْهَبُ يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُمَا فِي قَدْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَهَلَاكَ النَّاسُ إِنَّمَا يُقْضَى بِمُحَاوَلَتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْسَاءً بِعِيُونِهِمْ وَدُنُوبِهِمْ ، فَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْمُدْبِرُ عَنِ اللَّهِ وَعَنِ نَفْسِهِ وَعَنِ جَنْسِهِ ؛ لَا يَكُونُ أَبُوهُ أَبًا فِي عَطْفِهِ ، وَلَا أُمُّهُ أُمًّا فِي مَحَبَّتِهَا ، وَلَا ابْنُهُ ابْنًا فِي بَرِّهِ ، وَلَا زَوْجَتُهُ زَوْجَةً فِي وَفَائِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُونَ لَهُ مَهَالِكٌ ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبُوَيْهِ وَوَلَدِهِ ؛ يُعَبِّرُونَهُ بِالْفَقْرِ ، وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ ؛ فَيَدْخُلُ الْمَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فِيهِلِكَ » [قال العراقي في « تخریج أحاديث الإحياء » : أخرجه الخطابي في « العزلة » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه نحوه ، وللبیهقي في « الزهد » نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وكلاهما ضعيف . انتهى] .

* * *

وَصَاحَ الْمُؤَدَّنُ ، فَقَطَعَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى دَارِهِ ، فَتَلَقَّيْتُهُ ابْنَتُهُ وَعَلَى وَجْهِهَا مِثْلُ نُورِهِ ، قَالَتْ : يَا أَبَتِ ! كُنْتُ أَتْلُو السَّاعَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا مَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة / الآية : ٢٠١] . فَمَا حَسَنَةُ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : يَا بِنْتِي ! هِيَ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تُذَكَّرَ مَعَ حَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، وَمَا أَرَاهَا لِلرَّجُلِ إِلَّا الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ ، وَلَا لِلْمَرْأَةِ ...

وَطُرِقَ الْبَابُ، فَذَهَبَ الشَّيْخُ يَفْتَحُ، فَإِذَا الطَّارِقُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي وَدَاعَةَ؛ وَكَانَ يُجَالِسُهُ وَيَأْخُذُ عَنْهُ وَيَلْزِمُ حَلَقَتَهُ، وَلَكِنَّهُ فَقَدَهُ أَيَّامًا؛ فَدَخَلَ فَجَلَسَ. قَالَ الشَّيْخُ: «أَيْنَ كُنْتَ؟». قَالَ: «تُوفِّيتُ أَهْلِي فَأَسْتَعْلْتُ بِهَا».

قَالَ الشَّيْخُ: «هَلَّا أَخْبَرْتَنَا فَشَهِدْنَاهَا». ثُمَّ أَخَذَ يُفِيضُ فِي الْكَلَامِ عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَسَعَرَ ابْنُ أَبِي وَدَاعَةَ أَنَّ الْقَبْرَ مَا يَزَالُ فِي قَلْبِهِ حَتَّى فِي مَجْلِسِ الشَّيْخِ، فَأَرَادَ أَنْ يَقُومَ؛ فَقَالَ سَعِيدٌ: «هَلِ اسْتَخَدْنْتَ امْرَأَةً غَيْرَهَا؟».

قَالَ: «يَرْحِمُكَ اللَّهُ»، أَيْنَ نَحْنُ مِنَ الدُّنْيَا الْيَوْمَ، وَمَنْ يُزَوِّجُنِي وَمَا أَمْلِكُ إِلَّا دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً؟».

قَالَ الشَّيْخُ: «أَنَا».

* * *

أَنَا، أَنَا، أَنَا... دَوَّى الْجَوُّ بِهِذِهِ الْكَلِمَةِ فِي أُذُنِ طَالِبِ الْعِلْمِ الْفَقِيرِ، فَحَسِبَ كَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُنْشِدُ نَشِيدًا فِي تَسْبِيحِ اللَّهِ يَطْرُقُ لَحْنُهُ: «أَنَا، أَنَا، أَنَا...».

وَخَرَجَتِ الْكَلِمَةُ مِنْ فَمِ الشَّيْخِ وَمِنَ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمِسْكِينِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَكَانَتْهَا كَلِمَةً زَوَّجَتْهُ إِحْدَى الْخُورِ الْعَيْنِ.

فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشْيَةِ أُذُنِهِ... قَالَ: «وَتَفَعَّلُ؟».

قَالَ سَعِيدٌ: «نَعَمْ» وَفَسَّرَ نَعَمْ بِأَحْسَنِ تَفْسِيرِهَا وَأَبْلَغِهِ؛ { فَقَالَ: قُمْ فَأَدْعُ لِي نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ. فَلَمَّا جَاؤُوا } حَمِيدٌ^(١) اللَّهُ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَزَوَّجَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ (خَمْسَةَ عَشَرَ قَرِشًا).

ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ مَهْرُ الزَّوْجَةِ الَّتِي أَرْسَلَ يَخْطُبُهَا الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ لِرُلِيِّ عَهْدِهِ بِثِقَلِهَا ذَهَابًا لَوْ شَاءَتْ.

(١) فِي الْأَصْلِ: «فَحَمِيدٌ» بَدَلًا مِنْ: «حَمِيدٌ».

وَعَشَى الْفَرَحُ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَيْنِي الرَّجُلِ وَأُذُنِيهِ ، فَإِذَا هُوَ يَسْمَعُ نَشِيدَ الْمَلَائِكَةِ يَطْنُ لَحْنُهُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... » .

وَلَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَقَامَ يَطِيرُ ، وَلَيْسَ يَذَرِي مِنْ فَرْحِهِ مَا يَصْنَعُ ، وَكَأَنَّهُ فِي يَوْمٍ جَاءَهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا يَتَعَرَّفُ إِلَيْهَا بِهَذَا الصَّوْتِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَطْنُ فِي أُذُنِيهِ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... » .

وَصَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَجَعَلَ يُفَكِّرُ : مِمَّنْ يَأْخُذُ ، مِمَّنْ يَسْتَدِينُ ؟ فَظَهَرَتْ لَهُ الْأَرْضُ خَلَاءَ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَضْطَرِبُ صَوْتُهُ فِي أُذُنِيهِ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... » .

وَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَكَانَ صَائِمًا ، ثُمَّ قَامَ فَاسْرَجَ ، فَإِذَا سِرَاجُهُ الْخَافِثُ الضَّئِيلُ يَسْطَعُ لِعَيْنَيْهِ سَطُوعَ الْقَمَرِ ، وَكَأَنَّ فِي نُورِهِ وَجْهَ عَرُوسٍ تَقُولُ لَهُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... » .

وَقَدَّمَ عِشَاءَهُ لِيَفْطِرَ ، وَكَانَ خُبْرًا وَرَيْتًا ، فَإِذَا الْبَابُ يُفْرَعُ ؛ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ الطَّارِقُ : سَعِيدٌ ...

سَعِيدٌ ؟ سَعِيدٌ ! مَنْ سَعِيدٌ ؟ أَهُوَ أَبُو عُثْمَانَ ؛ أَبُو عَلِيٍّ ؛ أَبُو الْحَسَنِ ؟ فَكَّرَ الرَّجُلُ فِي كُلِّ مَنْ اسْمُهُ سَعِيدٌ إِلَّا سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ ؛ إِلَّا الَّذِي قَالَ لَهُ : « أَنَا ... » .

لَمْ يَخَالِجْهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الطَّارِقُ ، فَإِنَّ هَذَا الْإِمَامَ لَمْ يَطْرُقْ بَابَ أَحَدٍ قَطُّ ، وَلَمْ يَرْمُذْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ دَارِهِ وَالْمَسْجِدِ .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، فَلَمْ تَأْخُذْهُ عَيْنُهُ حَتَّى رَجَعَ الْقَبْرِ فَهَبَطَ فَجَاءَهُ بِظِلَامِهِ وَأَمَوَاتِهِ فِي قَلْبِ الْمُسْكِينِ ، وَظَنَّ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ بَدَأَ لَهُ ، فَتَدِيمَ ، فَجَاءَهُ لِلطَّلَاقِ قَبْلَ أَنْ يَشِيْعَ الْخَبْرُ ، وَيَتَعَدَّرَ إِضْلَاحُ الْغَلْطَةِ ! فَقَالَ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، لَوْ ... لَوْ ... لَوْ ... لَوْ أُرْسِلَتْ إِلَيَّ لَأَتَيْتُكَ ! » .

قَالَ الشَّيْخُ : « لَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتَى » .

فَمَا صَكَّتِ الْكَلِمَةُ سَمْعَ الْمُسْكِينِ حَتَّى أَبْلَسَ الْوُجُودُ فِي نَفْطِهِ ، وَعَشِيَ الدُّنْيَا صَمْتُ كَصَمْتِ الْمَوْتِ ، وَأَحْسَّ كَأَنَّ الْقَبْرَ يَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِهِ بِعُرُوقِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ! ثُمَّ فَاءَ لِنَفْسِهِ ،

وَقَدَّرَ أَنْ لَيْسَ مَحَلُّ شَيْخِهِ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ ، وَلَيْسَ مَحَلُّهُ هُوَ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ ، وَأَنَّ مِنَ الرُّجُولَةِ إِلَّا
يَكُونُ مَعْرَةً عَلَى الرُّجُولَةِ ، ثُمَّ نَكَسَ وَتَنَكَّسَ ، وَقَالَ بِذَلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ : « مَا تَأْمُرُنِي ؟ » .

تَفَتَّحَتِ السَّمَاءُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، وَقَالَ الشَّيْخُ : « إِنَّكَ كُنْتَ رَجُلًا عَزَبًا ، فَتَرَوَّجْتَ ،
فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِينَتِ اللَّيْلَةُ وَخَذَكَ ؛ وَهَذِهِ أَمْرَاتُكَ ! » .

وَأَنصَرَفَ شَيْئًا ، فَإِذَا الْعُرُوسُ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ مُسْتَبِرَّةٌ بِهِ ، وَدَفَعَهَا إِلَى الْبَابِ وَسَلَّمْ
وَأَنصَرَفَ .

وَأَبْنَعَتِ الرُّجُودُ فَجَاءَةً ، وَطَنَّ لَحْنُ الْمَلَانِكَةِ فِي أُذُنِ أَبِي وَدَاعَةَ : « أَنَا ، أَنَا ،
أَنَا ... » .

* * *

دَخَلَتِ الْعُرُوسُ الْبَابَ وَسَقَطَتْ مِنَ الْحَيَاءِ ، فَتَرَكَهَا الرَّجُلُ مَكَانَهَا ، وَاسْتَوْتَقَ مِنْ
بَابِهِ ، ثُمَّ خَطَا إِلَى الْقُضْعَةِ الَّتِي فِيهَا الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ، فَوَضَعَهَا فِي ظِلِّ السَّرَاجِ كَيْ
لَا تَرَاهَا ؛ وَأَغْمَضَ السَّرَاجَ عَيْنَهُ وَنَشَرَ الظِّلَّ ...

ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّطْحِ وَرَمَى الْجِيزَانَ بِخُصِيَّاتٍ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لَهُ شَأْنًا أَغْتَرَاهُ ، وَأَنَّ قَدْ
وَجَبَ حَقُّ الْجَارِ عَلَى الْجَارِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْخُصِيَّاتُ يَوْمَئِذٍ كَأَجْرَاسِ التَّلْفُونِ الْيَوْمَ ،
فَجَاوَزَهُ عَلَى سَطُوحِهِمْ وَقَالُوا : « مَا شَأْنُكَ ؟ » .

قَالَ : « وَيَحْكُمُ ! زَوْجِنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ابْنَتُهُ الْيَوْمَ ؛ وَقَدْ جَاءَ بِهَا اللَّيْلَةُ عَلَى
غَفْلَةٍ » .

قَالُوا : « وَسَعِيدُ زَوْجِكَ ! أَهُوَ سَعِيدُ الَّذِي زَوْجَكَ ! أَرَوْجَكَ سَعِيدُ ؟ » .

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالُوا : « وَهِيَ فِي الدَّارِ ؟ أَتَقُولُ إِنَّهَا فِي الدَّارِ ؟ » .

قَالَ : « نَعَمْ » .

فَاتَّشَالَ النِّسَاءُ عَلَيْهِ مِنْ هُنَا وَهَلْهُنَا حَتَّى ائْتَلَّاتَ بِهِنَّ الدَّارُ . وَغَشِيَتِ الرَّجُلَ غَشِيَةٌ
أُخْرَى ، فَحَسِبَ دَارَهُ تَبِيَهُ عَلَى قَصْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَأَنَّمَا يَسْمَعُهَا تَقُولُ :

« أُنَا ، أُنَا ، أُنَا ... »

* * *

قَالَ { عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ ^(١) } : « ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا ، فَإِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَأَخْفَظِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَعْرِفِهِمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ . { لَقَدْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ الْمُعْصِلَةُ تُعِينِي الْفُقَهَاءَ فَاسْأَلَهَا عَنْهَا فَاجِدُ عِنْدَهَا مِنْهَا عِلْمًا } » .

قَالَ : « وَمَكُنْتُ شَهْرًا لَا يَأْتِينِي سَعِيدٌ وَلَا آتِيَةٌ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الشَّهْرِ أَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي حَلَقَتِهِ فَسَلَّمْتُ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَلَمْ يُكَلِّمْنِي حَتَّى تَفَرَّقَ النَّاسُ مِنَ الْمَجْلِسِ وَخَلَا وَجْهُهُ ، فَظَنَرُ إِلَيَّ وَقَالَ :

« مَا حَالُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ ... ؟ » .

* * *

أَمَّا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ فَلَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ قَصْرِ وَلِيِّ الْعَهْدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيْنَ حُجْرَةِ { ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ } الَّتِي تُسَمَّى دَارًا ... ! إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مُضَاعَفَةَ إِلَهُمْ ، وَهُنَا مُضَاعَفَةَ الْحُبِّ .

وَمَا بَيْنَ هُنَاكَ إِلَى الْقَبْرِ مُدَّةَ الْحَيَاةِ - سَتَخِفْتُ الرُّوحَ مِنْ نُورٍ بَعْدَ نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَنْطَفِئَ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَضَائِلِهَا .

وَمَا بَيْنَ هُنَا إِلَى الْقَبْرِ مُدَّةَ الْحَيَاةِ - تَسْطَعُ الرُّوحُ بِنُورٍ عَلَى نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَشْتَعِلَ فِي السَّمَاءِ بِفَضَائِلِهَا .

وَمَا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَبْقَى ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

* * *

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ يَحْتَالُ لِسَعِيدٍ وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حَتَّى وَقَعَتْ بِهِ الْمِخَنَةُ ، فَضَرَبَهُ عَامِلُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ خَمْسِينَ سَوْطًا فِي يَوْمٍ بَارِدٍ ، وَصَبَّ عَلَيْهِ جَرَّةَ مَاءٍ ، وَعَرَضَهُ عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبُو وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ » .

السَّيْفِ ، وَطَافَ بِهِ الْأَسْوَاقَ عَارِيًا فِي بُتَّانٍ^(١) مِنَ الشَّعْرِ ، وَمَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُجَالِسُوهُ أَوْ يُخَاطِبُوهُ . وَبِهَذِهِ الْوَقَاحَةِ ، وَبِهَذِهِ الرِّذِيلَةِ ، وَبِهَذِهِ الْمَخْزَاةِ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : « أَنَا ؟ » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



ذَهَبَ النَّاسُ يَمِينًا وَشِمَالًا فِيمَا كَتَبْنَاهُ مِنْ خَبَرِ الْإِمَامِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَتَزْوِجِهِ ابْنَتَهُ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَقِيرٍ ، بَعْدَ إِذْ ضَنَّ بِهَا أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لِوَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ؛ وَقَدْ جَعَلَتْ قُلُوبُ بَعْضِ النِّسَاءِ الْعَصْرِيَّاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ تَصْنُحُ وَتُؤَلُّو . . . وَحَدَّثَنَا أَدِيبٌ ظَرِيفٌ أَنَّ إِحْدَاهُنَّ سَأَلَتْ عَنْ عُثْوَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . . . !

أَفْتَرَاهَا سَتَكْتُبُ إِلَيْهِ أَنَّهَا تَقْبَلُ الزَّوْاجَ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِهِ ؟

عَلَى أَنْ لِلْقِصَّةِ ذَيْلًا ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الْأَدَمِيَّةَ لَا عَصَرَ لَهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ كُلُّ عَصَرٍ ؛ وَالْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَبْدَأُ تَارِيخُهَا مِنَ الْحَجَّةِ ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَجَدَّدُ وَلَا تَزَالُ تَلُوحُ وَتَخْتَفِي ؛ أَمَّا الرِّذِيلَةُ فَأَوَّلُ تَارِيخِهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ هِيَ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَزَالُ تَظْهَرُ وَتَسْتَسِرُّ .

* * *

(١) الْبُتَّانُ : مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ الْمَائِي أَوْ لِبَاسُ الْبَحْرِ . ذَكَرَهُ الْجَا حِظُّ وَقَالَ : هُوَ سَرَاوِيلٌ قَصِيرٌ يَلْبَسُهُ الْمَلَا حُونَ .

(*) « الرسالة » العدد : ٧٠ ، ٢٧ شهر رجب سنة ١٣٥٣ هـ = ٥ نوفمبر / تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٠٥ - ١٨٠٩ .

لَمَّا زَوَّجَ الْإِمَامُ ابْنَتَهُ مِنْ ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، وَأَخَذَهَا بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ زَوَّجَهَا مِنْهُ ،
وَمَشَى بِهَا فِي طَرِيقِ حَصَاهُ عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِنَ الدَّرِّ ، وَتُرَابُهُ أَكْرَمُ مِنَ الذَّهَبِ ؛ طَارَتْ الْحَادِثَةُ
فِي النَّاسِ ، وَاسْتَفَاضَ لَهُمْ قَوْلُ كَثِيرٍ ؛ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .
[٩ سورة التوبة/ الآية : ١٢٤] وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : تَاللَّهِ لَئِنْ أُنْقِطَعَ الْوَحْيُ ، إِنْ^(١) فِي مَعَانِيهِ
بَقِيَّةٌ مَا تَزَالُ تَنْزِلُ عَلَى بَعْضِ الْقُلُوبِ الَّتِي تُشْبِهُ فِي عَظَمَتِهَا قُلُوبَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَمَا هَذِهِ
الْحَادِثَةُ عَلَى الدُّنْيَا إِلَّا فِي مَعْنَى سُورَةٍ مِنَ السُّورِ قَدْ انْشَقَّتْ لَهَا السَّمَاءُ ، وَنَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ
يَخْفِقُ عَلَى أَفْتَدَةِ الْمُؤْمِنِينَ خَفَقَةً إِيْمَانٍ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [٩ سورة التوبة/ الآية : ١٢٥]
وَقَالَ أَنَسٌ مِنْهُمْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ تَهَيَّأَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ لِيَصَا يَسْرِقُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ ابْنَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ، لَرَكِبَ رَأْسُهُ فِي ذَلِكَ ، مَا يَرُدُّهُ عَنِ السَّرْقَةِ شَيْءٌ ؛ فَكَيْفَ يَمُنْ تَهَيَّأَ لَهُ الصَّهْرُ
وَالْحَسَبُ ، وَجَاءَهُ الْغِنَى يَطْرُقُ بَابَهُ - مَا بَالُهُ يَرُدُّ كُلَّ ذَلِكَ وَيُخْزِي ابْنَتَهُ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ تَعِيشُ فِي
دَارِهِ بِأَسْوَأِ حَالٍ ؛ وَكَيْفَ تَنْقُلُ هِمَّتُهُ وَتَبْطِئُ وَتَمُوتُ ، إِذَا كَانَ الدَّرُّ وَالْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ
وَالْخِلَافَةُ ؛ ثُمَّ يَنْبَعِثُ وَيَمُضِي لَا يَتَلَكَّأُ عَزْمُهُ ، إِذَا كَانَ الْعِلْمُ وَالْفَقْرُ وَالِدَيْنِ وَالتَّقْوَى ؟

وَأَنْتَهَى كَلَامُ النَّاسِ إِلَى الْإِمَامِ الْعَظِيمِ ، فَلَمْ يَجِئْهُ إِلَّا مِنَ الظَّنِّ خَفِيًّا خَفِيًّا ، كَأَنَّمَا هِيَ
أَفْوَالٌ حَسِبَهَا تُقَالُ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَأَلْفِ سَنَةٍ فِي زَمَانِنَا هَذَا حِينَ يَكُونُ هُوَ فِي
مَعَانِي السَّمَاءِ ، وَيَكُونُ الْفَائِلُونَ فِي مَعَانِي التُّرَابِ النَّجَسِ الَّذِي نَقَضَتْهُ عَلَى السَّرِقِ نِعَالُ
الْأَوْرَثِينَ . . . !

قَالَ الرَّائِي : وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَاجِهَ الْإِمَامَ بِشَفَةِ أَوْ بِنِتِ شَفَةِ ،
لَا مُضِيقًا عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِهِ وَلَا مَوْسَعًا ، حَتَّى كَانَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ ، وَقَدْ مَالَ النَّاسُ بَعْدَ
الصَّلَاةِ إِلَى حَلْفَةِ الشَّيْخِ ، وَتَقَصَّفُوا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَغُصَّ بِهِمُ السَّنَجِدُ ، وَكَانَ
إِمَامُنَا يُفَسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَى مَا
ءَاذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . [١٤ سورة إبراهيم/ الآية : ١٢] .

قَالَ الرَّاوي : فَكَانَ فِيمَا قَالَهُ الشَّيْخُ :

إِذَا هُدِيَ الْمَرْءُ سَبِيلَهُ كَانَتْ السُّبُلُ الْأُخْرَى فِي الْحَيَاةِ إِمَّا عِدَاءَ لَهُ ، وَإِمَّا مُعَارَضَةً ، وَإِمَّا رَدًّا ؛ فَهُوَ مِنْهَا فِي الْأَدَى ، أَوْ فِي مَعْنَى الْأَدَى ، أَوْ غُرْضَةً لِلْأَدَى . لَقَدْ وَجَدَ الطَّرِيقَ وَلَكِنَّهُ أَصَابَ الْعَقَبَاتِ أَيْضًا ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَا يَنْصِفِي فِيهَا الْمُؤَفَّقُ إِلَى غَايَتِهِ ، إِلَّا إِذَا أَعَانَهُ اللَّهُ بِطَبِيعَتَيْنِ : أَوَّلَاهُمَا الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، وَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ ؛ وَالْأُخْرَى الْيَقِينُ الْمُسْتَبْصِرُ ، وَهَذَا هُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَدَى .

وَمَتَى عَزَمَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الْعَزْمَ ، وَأَيَقَنَ ذَلِكَ الْيَقِينَ - تَحَوَّلَتِ الْعَقَبَاتُ الَّتِي تَصُدُّهُ عَنْ غَايَتِهِ ، فَالَ مَعْنَاهَا أَنْ تَكُونَ زِيَادَةً فِي عَزْمِهِ وَيَقِينِهِ ، بَعْدَ أَنْ وَضِعْنَ لِيَكُنَّ نَقْصًا مِنْهُمَا ؛ فَتَرْجِعُ الْعَقَبَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنَّهَا لَوْ سَائِلُ تَعِينُ عَلَى الْغَايَةِ . وَبِهَذَا يَنْسُطُ الْمُؤْمِنُ رُوحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَمَا بُدَّ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الطَّرِيقِ وَمَا فِيهَا . يَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِنُورِ اللَّهِ فَلَا يَجِدُ الدُّنْيَا شَيْئًا - عَلَى سَعَتِهَا وَتَنَاقُضِهَا - إِلَّا سَبِيلَهُ وَمَا حَوْلَ سَبِيلِهِ ، فَهُوَ مَاضٍ قَدَمًا لَا يَتَرَادُّ وَلَا يَفْتَرُّ وَلَا يَكِلُ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْعَزْمِ وَحَقِيقَةُ الصَّبْرِ جَمِيعًا .

وَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ لِهَذَا الْمُؤْمِنِ مَهْمًا تَقَلَّبَتْ وَاخْتَلَفَتْ - إِلَّا نَفَازًا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ دُونَ التَّخَطُّطِ فِي الطَّرِيقِ الْأُخْرَى ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْعُمُرُ مَهْمًا طَالَ إِلَّا مَدَّةَ صَبْرٍ فِي رَأْيِ الْمُؤْمِنِ .

وَعَزِيمَةُ النَّفَازِ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ ، هُمَا الضَّوُّ الرُّوحَانِيُّ الْقَوِي ، الَّذِي يَكْتَسِحُّ ظُلُمَاتِ النَّفْسِ ، مِمَّا يُسَمِّيهِ النَّاسُ خُمُولًا وَدَعَةً وَتَهَاوُنًا وَغَفْلَةً وَضَجْرًا وَنَحْوَهَا .

قَالَ : وَلَكِنْ كَيْفَ يُعَانِ الْمُؤْمِنُ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ التَّنْفِيسِيَّةِ ؟ هُنَا يَتَبَيَّنُ إِعْجَازُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ؛ فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا التَّوَكُّلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَافْتِشِحَتْ بِهِ وَخْتِمَتْ ؛ وَالتَّوَكُّلُ هُوَ الْعَزْمُ الثَّابِتُ كَمَا أَوْضَحْنَا . وَذُكِرَتْ فِي الْآيَةِ بَيْنَ ذَلِكَ هِدَايَةُ الْمَرْءِ سَبِيلَهُ ؛ وَهَذِهِ الْإِضَافَةُ ﴿ سُبُلَنَا ﴾ تَعِينُ أَنَّهَا هِدَايَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى سَبِيلِ نَفْسِهِ ؛ أَيْ : سَبِيلِهِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ سَعَادَتِهِ فِي الشُّعُورِ بِالسَّعَادَةِ^(١) . ثُمَّ ذُكِرَ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى النَّاسِ ، وَالْأَدَى لَا يَقَعُ إِلَّا فِي

(١) سَيَأْتِي فِي كَلَامِ الْإِمَامِ بَسْطُ لِهَذَا الْمَعْنَى .

حَيَوَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا يُؤْتَرُ إِلَّا فِيهَا . فَكَأَنَّ آيَةَ مُصَرِّحَةٍ أَنَّ نَجَاحَ الْمُؤْمِنِ وَنَفَادَهُ فِي الْحَيَاةِ لَا يَكُونَانِ أَوَّلَ الْأَشْيَاءِ وَآخِرَهَا إِلَّا بِثَلَاثِ : الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، ثُمَّ الْعَزْمُ الثَّابِتُ ، ثُمَّ الْعَزْمُ الثَّابِتُ . وَأَنَّ الصَّبْرَ لَيْسَ شَيْئًا يُذَكَّرُ ، أَوْ شَيْئًا يُجَدِّي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَبْرًا عَلَى أَذَى الْحَيَوَانِيَّةِ فِي أَفْطَحِ وَخَشِيِّهَا ؛ فَالزُّوْجُ لَا تُؤْذِي الزُّوْجَ ، وَلَكِنَّ الْحَيَوَانَ يُؤْذِي الْحَيَوَانَ . وَأَنَّ مَا يَبْقَى مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ فَيُسَمَّى اعْتِدَاءً مِنْ غَيْرِكَ ، وَيُسَمَّى أَذَى لَكَ ، هُوَ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ الْعَزْمَ فَخْرًا لِقُوَّةِ الْأَحْتِمَالِ فِيكَ ، كَمَا جَعَلَهُ الْبَطْشُ فَخْرًا لِلْقُدْرَةِ عِنْدَ الْمُعْتَدِي .

وَبِهَذَا يَكُونُ الْعَزْمُ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ نَفْسِكَ الرُّوحِيَّةِ وَبَيْنَ شَخْصِكَ الْحَيَوَانِيِّ ، وَوَهَبَكَ حَقِيقَةَ الشُّعُورِ ، وَصَحَّحَ بِمَعَانِي رُوحِيَّتِكَ مَعَانِي حَيَوَانِيَّتِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ تَرَى السَّعَادَةَ حَقَّ السَّعَادَةِ مَا كَانَ هِدَايَةً لِنَفْسِكَ أَوْ هِدَايَةً بِهَا ، وَلَوْ انْقَلَبَ فِي الشَّخْصِ الْحَيَوَانِيِّ مِنْكَ أَذَى وَالْمَا . ذَلِكَ صَبْرٌ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسْلِ .

* * *

قَالَ الرَّاوي : وَعِنْدَ ذَلِكَ صَاحَ رَجُلٌ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ دَسَّهُ عَامِلُ الْخَلِيفَةِ ، لِيَسْأَلَ الشَّيْخَ سُؤَالَ عَلَى مَلَأِ النَّاسِ ، يَكُونُ كَالْتَشْنِيعِ عَلَيْهِ وَالتَّشْهِيرِ بِهِ ؛ وَقَدْ مَكَرَ الْعَامِلُ فَأَخْتَارَهُ شَيْخًا كَبِيرًا أَغْفَتَ ، لِيَرْحَمَ النَّاسُ رِقَّةَ عَظْمِهِ وَكِبَرَ سِنِّهِ فَلَا يَغْرِضُونَ لَهُ بِأَذَى ، ثُمَّ لِيَكُونَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّهْرِ مِنْ بَعِيدٍ . قَالَ الصَّانِعُ : ذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ صَبْرٌ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسْلِ ، أَوْ صَبْرٌ أَتَيْتَكَ عَلَى مَكَارِهِ الْعَيْشِ مَعَ ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ^(١) ، لَا يَجِدُ إِلَّا رُمَقَةً يُمْسِكُ بِهَا الرُّمَقَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ اللَّغْمَةُ لَهَا مُغْرِضَةٌ ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ - رَعِمْتَ - لِتَهْلِكَ بِهِ شَخْصَهَا الْحَيَوَانِيَّ ، وَتَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ وَالْقَيْتَ أَتَيْتَكَ فِي أَلِيمٍ ... ؟

فَتَرَبَّدَ وَجْهُ الشَّيْخِ وَأَطْرَقَ هُنَيَاتٍ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيْنَ الْمُتَكَلِّمُ أَنَا ؟ فَأَرْتَفَعَ الصَّوْتُ : هَآنَذَا . قَالَ : أَذُنٌ مِنِّي . فَتَقَاعَسَ الرَّجُلُ كَأَنَّمَا تَهَيَّبَ مَا قَرَطَ مِنْهُ . فَاسْتَدْنَاهُ الثَّانِيَّةَ ؛ فَقَامَ يَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَائِهِ ثُمَّ جَلَسَ ؛ فَقَرَأَ الشَّيْخُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّمَمَتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبِي وَدَاعَةَ » بَدَلًا مِنْ : « ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ » .

اللَّوْمِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِيصٍ ﴿١٤﴾ [سورة إبراهيم/ الآية : ٢١] .

ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ! لَا تَسْمَعْنِي بِأُذُنِكَ وَخَدَّهَا . أَرَأَيْتَكَ ^(١) لَوْ سَمِعْتَ خَبْرًا لَيْسَ فِي نَفْسِكَ أَصْلٌ مِنْ مَعْنَاهُ ، أَوْ وَرَدَ عَلَيْكَ الْخَبَرُ وَنَفْسُكَ عَنْهُ فِي شُغْلٍ قَدْ أَهَمَّهَا ؛ أَفَكُنْتَ تَشْتَطُّ لَهُ تَشَاطُكَ لِلْخَبَرِ اخْتَفَلْتَ لَهُ نَفْسُكَ أَوْ أَصَابَ هَوَى مِنْكَ أَوْ رَأَيْتَهُ مُوَضِعَ اعْتِبَارٍ ؟
قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَخَدَّهَا فَإِنَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا يَمُرُّ بِأُذُنِكَ مَرًّا ، وَإِذَا أَرَدْتَ الْكَلَامَ لِنَفْسِكَ سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَنَفْسِكَ مَعًا ؟
قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَكُلُّ مَا لَا تَتَفَرَّدُ بِهِ حَاسَةً وَاحِدَةً ، بَلْ تُشَارِكُ فِيهِ الْحَوَاسُ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا - لَا يَكُونُ إِلَّا مُوَضِعَ اهْتِمَامٍ لِلنَّفْسِ ؟
قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَمِنْ هُنَا يَكْثُرُ الْفَرَحُ وَالْحُزْنُ كِلَاهُمَا إِذَا شَارَكَتَ فِيهِمَا الْحَوَاسُ ، فَيَأْتِي كُلُّ مِنْهُمَا كَثِيرًا مَهْمًا قَلًّا ، وَتَرْتَدُّ كُلُّ حَاسَةٍ فِي اللَّذَّةِ لَذَّةً وَفِي الْأَلَمِ أَلَمًا ، فَتَعْمَلُ النَّفْسُ فِي ذَلِكَ أَعْمَالًا تَسْخَرُ بِهَا ، فَيَكُونُ الشَّيْءُ لِصَاحِبِهِ غَيْرَ مَا هُوَ لِلنَّاسِ ، كَالصَّوْتِ الْبَاقِي أَوْ الضَّاحِكِ فِي لِسَانِ طِفْلِكَ ، تَسْمَعُهُ أَنْتَ مِنْهُ بِكُلِّ حَوَاسِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ سَمِعْتَ الصَّوْتَ عَيْنُهُ مِنْ لِسَانِ رَجُلٍ فِي النَّاسِ رَأَيْتَهُ غَيْرَ ذَلِكَ . أَكْذَلِكَ هُوَ ؟
قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَيَكُونُ السُّرُورُ بِالْغَا عَجِيبًا أَكْثَرَ مَا هُوَ بِالْغُ ، حِينَ يَجِدُ الْمَالَ وَالْغِنَى فِي الْإِنْسَانِ ، أَمْ حِينَ يَجِدُ الْقُوَّةَ النَّفْسِيَّةَ وَطَبِيعَةَ الْمَرَحِ وَالرَّضَى ؟

(١) { أَرَأَيْتَكَ : بِمَعْنَى أَخْبِرْنِي ، تَقْبَلُ نَائِوَةً عَلَى حَالِهَا فِي الْإِفْرَادِ وَالْتَّجَمُّعِ وَالْجَمْعِ وَيُسَلِّطُ التَّنْغِيضَ عَلَى الْكَلَامِ : أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتُكُمَا ، أَرَأَيْتُكُمْ ... إلخ } .

قَالَ : بَلْ حِينَ يَجِدُ فِي النَّفْسِ . . .

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ الْإِنْسَانَ يَكُونُ سَعِيدًا بِمَا يَتَوَهَّمُ النَّاسُ أَنَّهُ بِهِ غَنِيٌّ سَعِيدٌ ، أَمْ بِشُعُورِهِ هُوَ وَإِنْ كَانَ بَعْدُ فِيمَا لَا يَتَوَهَّمُ النَّاسُ فِيهِ الْغِنَى وَالسَّعَادَةُ ؟

قَالَ : بَلْ بِشُعُورِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَلَا تُوَجَدُ فِي الدُّنْيَا أَشْيَاءٌ مِنَ النَّفْسِ تَكُونُ فَوْقَ الدُّنْيَا وَفَوْقَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَطَامِعِ ؛ كَالطُّفْلِ عِنْدَ أُمِّهِ ، كُلُّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ وَزِنَ بِهِ هُوَ لَا يَغْنِيهِ ، وَكَانَ الْأَعْتِبَارُ عَلَيْهِ لَا عَلَى سِوَاهُ ، أَتَعْرِفُ أَمَّا تَرْضَى أَنْ يُذْبَحَ ابْنُهَا فِي حِجْرِهَا لِقَاءَ أَنْ يُمْلَأَ حِجْرُهَا ذَهَبًا { وَإِنْ كَانَتْ فَقِيرَةً مُعْدِمَةً } ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ تَشْعُرُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى ؛ أَفَيَذْهَبُ مَا تَرَاهُ فِيمَا تَشْعُرُ بِهِ ، وَيَكُونُ شُعُورُهَا هُوَ وَخَدَةُ الَّذِي يَلْبَسُ مَا حَوْلَهَا وَيُصَوِّرُهُ وَيُصَرِّفُهُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَتَعْرِفُ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ قُوَّةً مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ عَالَمًا آخَرَ هُوَ عَالَمُ أَفْكَارِهَا وَإِحْسَاسِهَا ، وَفِيهِ وَخَدَةُ لَذَاتِ إِحْسَاسِهَا وَأَفْكَارِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَرَأَيْتَ الْمَرْأَةَ إِذَا صَحَّ حُبُّهَا أَوْ قَرَحُهَا أَوْ عَزَمُهَا ، أَرَأَيْتَهَا تَكُونُ إِلَّا فِي عَالَمِ أَفْكَارِهَا ؟ أَرَأَيْتَ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِرَغْبَتِهَا حَتَّى يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَشْيَاءِ قَلْبِهَا لَا مِنْ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا ؟ أَرَأَيْتَهَا لَا تَعِيشُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا بِالْمُعَامَلَةِ مَعَ قَلْبِهَا الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَجْمَعُ أَلْمَالَ وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْشُّعُورَ فَقَطْ ؟

قَالَ : نَعَمْ هُوَ ذَاكَ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ قَدْ وُلِدَ وَنَشَأَ وَتَرَعَرَ فِي قَلْبِ الْمَرْأَةِ ، أَلَا يَكُونُ هُوَ طِفْلَ قَلْبِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَتْ الْخَمْرُ عِنْدَ مُذْمِنِهَا شَيْئًا عَظِيمًا ، وَكَانَتْ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ وُجُودِهِ الضَّعِيفِ الْمُخْتَلِّ ، فَلَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ وَلَا سَفَهُ وُجُودِهِ إِلَّا بِهَا ؛ أَفَيَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْخَمْرُ مِنْ ضَرُورَاتِ صَاحِبِ الْوُجُودِ الْقَوِيِّ الْمُنْتَظَمِ ؟

قَالَ : لَا .

قَالَ الشَّيْخُ : أَهْمُوقِينَ أَنْتَ أَنْ لَا بُدَّ مِنْ آخِرٍ لِأَيَّامِ الْإِنْسَانِ وَلَيَالِيهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَيَنْقَطِعُ بِهِ الْعَيْشُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الشَّيْخُ : أَفَيُؤَرِّخُ الْإِنْسَانُ يَوْمًا بِتَارِيخٍ مَعْدَتِهِ وَمَا حَوْلَهَا ، أَمْ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهَا ؟

قَالَ : بَلِ بِتَارِيخِ نَفْسِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا كُنْتَ صَاحِبَ حَرْبٍ ، وَكُنْتَ بَطَلًا مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَمِسْعَرًا مِنَ الْمَسَاعِيرِ ، وَأَيَقَنْتَ الْمَوْتَ فِي الْمَعْرَكَةِ ؛ أَيْكُونُ الْحَقِيقِيُّ عِنْدَكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ هُوَ الْمَوْتُ أَمْ الْحَيَاةُ ؟

قَالَ : بَلِ الْحَيَاةُ عِنْدِيذِهِ وَهُمْ وَبَاطِلٌ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَتَفَرُّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى الْحَيَاةِ وَلَذَاتِهَا فِي خَيَالِكَ ، أَمْ تَفِرُّ مِنْهَا وَمِنْ لَذَاتِهَا ؟

قَالَ : بَلِ الْفِرَارُ مِنْهَا ، فَإِنْ خَيَالُهَا يَكُونُ خَبَالًا .

قَالَ الشَّيْخُ : فَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ عُمْرُ نَفْسِكَ ، وَعَمَلُ نَفْسِكَ ، وَرَجَاءُ نَفْسِكَ ؛ تَسْتَشْعِرُ اللَّذَّةَ فِي مَوْتِكَ بَطَلًا مَذْكُورًا ، أَمْ تُحَسُّ الْكَرْبَ وَالْمَقْتَ مِنْ ذَلِكَ ؟

قَالَ : بَلِ أَسْتَشْعِرُ اللَّذَّةَ .

قَالَ الشَّيْخُ : إِذَا فَهِيَ كِبَرِيَاءُ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ عَلَى مَادَّةِ الشَّرَابِ وَالطَّيْنِ فِي أَيِّ أَشْكَالِهَا وَلَوْ فِي الدَّهَبِ .

قَالَ : هِيَ تِلْكَ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : إِذَا فَبَعْضُ أَشْيَاءِ النَّفْسِ تَمَحَّوْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كُلِّ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا ، أَوْ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الدُّنْيَا .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الْإِمَامُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؛ كَذَلِكَ مُجِي عِنْدَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُجِي الْمَالِ وَالْغِنَى ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا إِلَّا سَعَادَةً ؛ وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ كُلَّ مَنْ هُدِيَ سَبِيلُهُ بِالذِّينِ أَوْ الْحِكْمَةِ ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْنَعَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ سَعَادَتَهَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا لَقِيَمَاتٌ ؛ فَإِنَّ السَّعَةَ سَعَةُ الْخُلُقِ لَا الْمَالِ ، وَإِنَّ الْفَقْرَ فَقْرُ الْخُلُقِ لَا الْعَيْشِ .

* * *

قَالَ الرَّائِي : ثُمَّ إِنَّ الْإِمَامَ الْعَظِيمَ التَّفَتَ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ : أَمَا إِنِّي - عِلِمَ اللَّهُ - مَا زَوَّجْتُ ابْنَتِي رَجُلًا أَعْرِفُهُ فَقِيرًا أَوْ غَنِيًا ، بَلْ رَجُلًا أَعْرِفُهُ بَطَلًا مِنْ أَبْطَالِ الْحَيَاةِ ، يَمْلِكُ أَقْوَى أَسْلِحَتِهِ مِنَ الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ . وَقَدْ أَتَقَنْتُ حِينَ زَوَّجْتُهَا مِنْهَا أَنَّهَا سَتَعْرِفُ بِفَضِيلَةِ نَفْسِهَا فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ، فَيَجَانِسُ الطَّنْبُ وَالطَّنْبُ ؛ وَلَا مَهَنًا لِرَجُلٍ وَأَمْرًا إِلَّا أَنْ يُجَانِسَ طَبْعُهُ طَبْعَهَا ، وَقَدْ عَلِمْتُ وَعِلِمَ النَّاسُ أَنْ لَيْسَ فِي مَالِ الدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي هَذِهِ الْمُجَانَسَةَ ، وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا هَدِيَّةَ قَلْبٍ لِقَلْبٍ يَاتِلِفَانِ وَيَتَحَابَّانِ .

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ : وَأَنَا فَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١) ، وَرَأَيْتُهُمْ فِي دُورِهِمْ يُقَاسِمِينَ الْحَيَاةَ ، وَيُعَانِينَ مِنَ الرِّزْقِ مَا شَحَّ دَرُّهُ فَلَا يَجِيءُ إِلَّا كَالْقَطْرَةِ بَعْدَ الْقَطْرَةِ ، وَهَنْ عَلَى ذَلِكَ ، مَا وَاحِدَةٌ مِنْهُمْ إِلَّا هِيَ مَلِكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِ آدَمِيَّةِ كُلِّهَا ، وَمَا فَقَرُهُنَّ وَاللَّهِ إِلَّا كِبَرِيَاءُ الْجَنَّةِ ، نَظَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَتْ : لَا . . . !^(٢) .

(١) تُوَفِّي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا ، وَكَانَ قَدْ لَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَمِعَ مِنْهُمْ ، وَدَخَلَ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَخَذَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ مُتَزَوِّجًا ابْنَةً أَبِي هُرَيْرَةَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ ، وَعَنْهُ أَكْثَرُ رَوَايَتِهِ .

(٢) { أَنْظَرُ مَقَالَةً : (دَرْسٌ مِنَ الثُّبُوتِ) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ } .

يُجَاهِدَن مُجَاهِدَةً كُلُّ شَرِيفٍ عَظِيمِ النَّفْسِ ، هُمُ أَنْ يَكُونَ الشَّرَفُ أَوْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ ؛
وَيَرَى الْغَافِلُ أَنَّ مِثْلَهُنَّ { هَالِكَاتُ } فِي تَعَبِ الْجِهَادِ ، وَيَعْلَمَنَّ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ غَيْرَ مَا يَرَى
ذَلِكَ الْمُسْكِنُ - يَعْلَمَنَّ أَنَّ ذَلِكَ التَّعَبَ هُوَ لَذَّةُ النَّصْرِ بِعَيْنِهَا .

كَانَتْ أَنْوَتْهُنَّ أَبَدًا صَاعِدَةً مُتَسَامِيَةً فَوْقَ مَوْضِعِهَا بِهِذِهِ الْقَنَاعَةِ وَبِهَذِهِ التَّقْوَى ، وَلَا
تَزَالُ مُتَسَامِيَةً صَاعِدَةً ، عَلَى حِينٍ تَنْزِلُ الْمَطَامِعُ بِأَنْوَتِهِ الْمَرْأَةِ دُونَ مَوْضِعِهَا ، وَلَا تَزَالُ
أَنْوَتُهَا تَنْحَدِرُ مَا بَقِيَتْ الْمَرْأَةُ تَطْمَعُ ؛ وَرُبَّ مَلِكَةٍ جَعَلَتْهَا مَطَامِعُ الْحَيَاةِ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ ، وَهِيَ بِأَسْمِهَا فِي الْوَهْمِ الْأَعْلَى . . . !

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا أَقْلُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ ، فَقُلْتُ :
أَيْنَ النِّسَاءُ ؟ قَالَ : شَغَلَهُنَّ الْأَحْمَرَانِ : الذَّهَبُ وَالزَّرْعَفَرَانُ ^(١) » [راجع « مسند أحمد » ، رقم :
٢١٧٢٩ ؛ حيث قال : « الحرير » بدل : « الزعفران » . . .] . أَيُّ : الطَّمَعُ فِي الْغِنَى وَالْعَمَلُ لَهُ ،
وَالْمِيلُ إِلَى التَّبَرُّجِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ .

وَنَفْسُ الْأُنْثَى لَيْسَتْ أَتْنَى ، وَلَكِنَّ شَغْلَهَا بِذَلِكَ التَّبَرُّجِ وَذَلِكَ الْحِرْصِ وَذَلِكَ الطَّمَعِ -
هُوَ يُخَصِّصُهَا بِخَصَائِصِ الْجَسَدِ ، وَيُعْطِيهَا مِنْ حُكْمِهِ ، وَيُنْزِلُهَا عَلَى إِرَادَتِهِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ
الْمَرْأَةُ ، فَتَهْبِطُ الْمَرْأَةُ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْلُو ، وَتَضْعُفُ أَكْثَرَ مِمَّا تَقْوَى ، وَتَفْسُدُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْلُحُ .
إِنَّ نَفْسَ الْأُنْثَى أَتْنَى لِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، لِرُؤُوسِهَا وَحَدَهُ .

(١) هَذَانِ هُمَا فَتْنَةُ النِّسَاءِ فِي كُلِّ دَهْرٍ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ ، فَالذَّهَبُ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ
وَالْخَبَرِ وَمَا كَانَ مِنْ بَابَيْهَا ، أَمَّا الزَّرْعَفَرَانُ فَفِيهَا الْمُعْجِزَةُ ، لِأَنَّهَا كِنَايَةٌ مُطْلَقَةٌ فَهِيَمَا الْعَرَبُ دَلَالَةٌ
عَلَى الثِّيَابِ الْمُضْبِغَةِ ، وَنَفْهَمُ مِنْهَا نَحْنُ كُلُّ أَنْوَاعِ زِينَةِ النِّسَاءِ ، مِنَ الْمَسَاحِقِ وَالْعُطُورِ ، إِلَى
الْمُودَةِ * الَّتِي هِيَ أَصْبَاغٌ مَغْنُونَةٌ لِأَشْكَالِ الثِّيَابِ . وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَقُولُونَ : غَمَرَتِ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا ،
إِذَا طَلَّتْهُ بِالزَّرْعَفَرَانِ لِيَصْفَوْهُ لَوْنُهَا . وَيَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ : أَمْرَأَةٌ مُغْمَرَةٌ ، وَتَغَمَّرَتْ ، أَيُّ : فَعَلَتْ
ذَلِكَ . فَالزَّرْعَفَرَانُ كَمَا تَرَى ، كِنَايَةٌ تَدْخُلُ فِيهَا الْبُودَرَةُ [أَيُّ : الْمَسَاحِقُ] وَالْأَدَهَانُ الْمُخْتَلِفَةُ ،
وَكُلُّ مَا أَفْسَدَ وَجْهَ الْمَرْأَةِ لِيُفْسِدَ حَيَاتَهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةَ . . .

* [المودة أو الموضة، من الكلمة الإيطالية Moda، وتعني: آخر طريقة أو أسلوب أو زِي تم ابتكاره
كي يتداوله الناس، ويهدف منه عادة التجديد والتحديث، أولاً لترويج ما هو متوفر في مستودعات
المنتجين، وثانياً لتوفير الراحة وسهولة الاستعمال، أو البذخ والتفاخر والتعالي] .

رَأَيْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ فَقِيَرَاتٍ مَقْتُورَاتٍ عَلَيْهِنَّ الرِّزْقُ ، غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُنَّ تَعِيشُ بِمَعَانِي
 قَلْبِهَا الْمُؤْمِنِ الْقَوِيِّ ، فِي دَارٍ صَغِيرَةٍ فَرَشَتْهَا الْأَرْضُ . . . وَلَكِنَّهَا مِنْ مَعَانِي ذَلِكَ الْقَلْبِ
 كَأَنَّهَا سَمَاءٌ صَغِيرَةٌ مُحْتَبَةٌ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُذُرَانِ . إِنَّهُنَّ لَمْ يَتَّعِدْنَ عَنِ الْغِنَى إِلَّا لِيَتَّعِدْنَ عَنِ
 حِمَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْغِنَى .

* * *

أَفْ أَفْ ! أَتُرِيدُونَ أَنْ أَزْوَاجُ ابْنَتِي مِنْ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَيُخْرِجَهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ ،
 وَأَذْفَعَهَا إِلَى الْقَصْرِ وَهُوَ ذَلِكَ الْمَكَانُ الَّذِي جَمَعَ كُلَّ أَفْذَارِ النَّفْسِ وَدَسَسِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ؛
 أَوْ زَوْجَهَا رَجُلًا تَعْرِفُ مِنْ فَضِيلَةِ نَفْسِهَا سَقُوطَ نَفْسِهِ ، فَتَكُونُ زَوْجَةَ جِسْمِهِ وَمُطْلَقَةَ رُوحِهِ
 فِي وَقْتٍ مَعًا ؟

أَلَا كَمْ مِنْ قَصْرِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مَقْبَرَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَغْنِيَاءِ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ
 إِلَّا جِيفٌ يُبْلِي بَعْضُهَا بَعْضًا !

* * *

قَالَ الرَّائِي : وَصَحَّ النَّاسُ لِحِمَامَةِ صَغِيرَةٍ قَدْ جَنَحَتْ مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَتْ فِي حِجْرِ
 الشَّيْخِ لَائِذَةً بِهِ مِنْ مَخَافَةٍ ، وَجَعَلَتْ تَدْفُ بِجَنَاحَيْهَا وَتَضْطَرِبُ مِنَ الْفَزَعِ ، وَمَرَّ الصَّقْرُ عَلَى
 أَرْحِهَا وَقَدْ أَهْوَى لَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ تَمَطَّرَ وَمَرَّقَ فِي الْهَوَاءِ إِذْ رَأَى النَّاسَ . . .

وَتَنَاوَلَهَا الْإِمَامُ فِي يَدِهِ وَهِيَ فِي رَجَفَتِهَا مِنْ زَلْزَلَةِ الْهَوَاءِ ، وَكَانَتْ كَالْعُرْوَسِ مُسْرُوَلَةٍ
 قَدْ غَابَتْ سَاقَاهَا فِي الرَّئِيسِ ، وَعَلَى جِسْمِهَا مِنَ الْأَلْوَانِ نَمَمَةٌ وَتَخْيِيرٌ ، وَلَهَا رُوحُ الْعُرْوَسِ
 الشَّائِبَةِ يُهْدُونَهَا إِلَى مَنْ تَكْرَهُ ، وَيَرْفُقُونَهَا عَلَى قَاتِلِهَا الَّذِي يُسَمَّى زَوْجَهَا .

وَأَذْنَاهَا الشَّيْخُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَسَحَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ فِي الْهَوَاءِ نَظْرَةً . . . وَهُوَ يَقُولُ :
 نَجَوْتُ نَجَوْتُ يَا مَسْكِينَتَهُ !

زَوْجَةُ إِمَامٍ (*)

جَلَسَ جَمَاعَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِمُ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ^(١) لِيَسْمَعُوا مِنْهُ الْحَدِيثَ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : هَلُمُّوا نَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّيْخِ فَتَكُونُ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا ؛ فَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : إِلَى أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلَسْنَا مَعَهُ ! فَخَطَرْتُ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً تَهْتَرُ عَلَى أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحِكَ ، وَمَرَّتْ لَمْ تُسْمَعْ ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَرُ ، وَأَنْطَلَقْتُ مِنَ الْمُبَاحِ الْمَغْفُورِ عَنْهُ . وَلَكِنْ أَخْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ ، فَقَالَ : وَيْلَكَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَتَتَنَدَّرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مُنْذُ السَّتِينَ سَنَةً لَمْ تَقْتَهُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحَدَّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا ، وَأَقْرَأُ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ، وَمَا عَرَفَتِ الْكُوفَةُ أَعْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ^(٢) : أَنْتَ يَا أَبَا عَتَّابٍ ، رَجُلٌ وَحْدَكَ ، تُوَاصِلُ الصَّوْمَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَدْ يَبْسُتْ عَلَى الذَّهْرِ ، وَأَصْبَحَ الذَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ ، وَمَا بَرَحْتَ تَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، كَأَنَّمَا أَطْلَعْتَ عَلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَتَوَاقِعُونَ فِيهَا وَهِيَ لَهَبٌ أَحْمَرٌ يَلْتَفُ عَلَى لَهَبٍ أَحْمَرَ ، تَخْتِ دُخَانِ أَسْوَدَ يَتَضَرَّبُ فِي دُخَانِ أَسْوَدَ ؛ يَتَغَامَسُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَهِيَ مِلْءُ السَّمَوَاتِ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا كَالذُّبَابَةِ أَوْ قَدُوا لَهَا جَبَلًا مُمْتَدًّا مِنَ النَّارِ ، يَنْطَادُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا جَمْرًا وَشَعْلًا وَحُمَمًا وَدُخَانًا ، حَتَّى لَتَتَهَارَبُ الشُّحُبُ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ مِنْ حَرِّهِ ، وَهُوَ عَلَى هَوْلِهِ وَجَسَامَتِهِ لِحَرِّ ذُّبَابَةٍ لَا غَيْرَهَا ، يَبِيدُ أَنَّهَا ذُّبَابَةٌ تُحَرِّقُ أَبَدًا وَلَا تَمُوتُ أَبَدًا ، فَلَا تَزَالُ وَلَا يَزَالُ الْجَبَلُ !

فَصَاحَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ ! دَعِ الرَّجُلَ وَشَأْنَهُ ؛ إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا مَتَاعُهُمْ

(*) « الرسالة » العدد : ٨٥ ، ١٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ فبراير / شباط ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات ٢٤٣ - ٢٤٧ .

(١) وَلَهُ هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ سَنَةً ٦١ لِلْهِجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٤٨ .

(٢) الْجُحَادَةُ هِيَ الْغِرَارَةُ الْمُؤْتَلِفَةُ ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تُشَبِّهُ بِهَا لِضَخَامَتِهَا .

مِمَّا لَا نَعْرِفُ ، كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي النَّوْمِ ، فَحَيَاتُهُمْ مِنْ وَرَاءِ حَيَاتِنَا ، وَأَبُو عَتَّابٍ فِي دُنْيَانَا هَذِهِ لَيْسَ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي أَسْمُهُ مَنْصُورٌ ، وَلَكِنَّهُ الْعَمَلُ الَّذِي يَعْمَلُهُ مَنْصُورٌ . هَلْ أَنَا كُمْ خَيْرٌ قَارِي الْمَدِينَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّاهِدِ ؟
قَالَ الْجَمَاعَةُ : مَا خَيْرُهُ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؟

قَالَ : لَقَدْ تُوُفِّيَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَرُبِّي بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى ظَهْرِ الْكُعْبَةِ ؛ وَسَتَرُونَ أَبَا عَتَّابٍ - إِذَا مَاتَ - عَلَى مَنَارَةٍ هَذَا الْمَسْجِدِ !

فَصَاحَ أَبُو عَتَّابٍ : تَحَلَّلْ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ؛ أَمَا حَفِظْتَ خَيْرَ ابْنٍ مَسْعُودٍ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ ، فَوَقَعَ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَحَلَّلْ » قَالَ : مِمَّ أَنْتَ تَحَلَّلُ ؟ مَا أَكَلْتُ لَحْمًا ؟ قَالَ : « إِنَّكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ ! » . [مجمع الزوائد ، رقم : ١٣١٤٥] .

فَتَقَلَّلَ الضَّرِيرُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَتَخَنَّجَ ، وَهَمَّهِمْ أَصْوَاتًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَأَحْسَرَ الْجَمَاعَةُ شَأْنَهُ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ لَهُ شَرًّا مُبْصِرًا ، كَالَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَرْحِ وَاللُّعَابَةِ ، وَشَرًّا أَعْمَى هَذِهِ بَوَادِرُهُ ؛ فَاسْتَلَبَ ابْنُ جُحَادَةَ الْحَدِيثَ مِمَّا بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَنْتَ شَيْخُنَا وَبِرْكُنَا وَحَافِظُنَا ، وَأَقْرَبُنَا إِلَى الْإِمَامِ ، وَأَمْسَنَا بِهِ ؛ فَحَدَّثْنَا حَدِيثَ الشَّيْخِ كَيْفَ صَنَعَ فِي رَدِّهِ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(١) ، وَمَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّيْخِ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا أَنْفَرَدْتَ أَنْتَ بِهِ دُونَ النَّاسِ جَمِيعًا ، إِذْ لَمْ يَسْمَعْهُ غَيْرُ أَذُنَيْكَ ، فَلَمْ يَحْفَظْهُ غَيْرُكَ وَغَيْرُ الْمَلَائِكَةِ .

فَأَسْفَرَ وَجْهَ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، وَسَرَّى عَنْهُ ، وَاهْتَزَّ عِظْفَاهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِعَفْوِ الْقَادِرِ ... وَأَنْشَأَ يُحَدِّثُهُمْ . قَالَ :

إِنَّ هِشَامًا - قَاتَلَهُ اللَّهُ - بَعَثَ إِلَيَّ الشَّيْخَ : أَنْ أَكْتُبَ لِي مَتَابَعِ عُثْمَانَ وَمَسَاوِيَّ عَلِيٍّ . فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ كَانَتْ دَاجِنَةً إِلَيَّ جَانِبِهِ ، فَأَخَذَ الْقِرْطَاسَ وَالْقَمَمَةَ الشَّاهَ ، فَلَاكَنَّهُ حَتَّى ذَهَبَ فِي جَوْفِهَا ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ الْخُلَيْفَةِ : قُلْ لَهُ : هَذَا جَوَابُكَ ! فَخَشِيَ الرَّسُولُ أَنْ يَرْجِعَ

خَائِبًا فَيَقْتُلُهُ هِشَامٌ ، فَمَا زَالَ يَتَحَمَّلُ بِنَا ، فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! نَجِّهِ مِنَ الْقَتْلِ . فَلَمَّا
الْحَحْنَا عَلَيْهِ كَتَبَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَلَوْ كَانَتْ
لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنَاقِبُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَا نَفَعَتْكَ ، وَلَوْ كَانَتْ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
مَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ مَا ضَرَّتْكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِخَوِصَّةِ نَفْسِكَ ، وَالسَّلَامُ » .

فَلَمَّا فَصَلَ الرَّسُولُ ، قَالَ لِي السَّيِّخُ : إِنَّهُ كَانَ فِي خُرَاسَانَ مُحَدِّثُ أَسْمُهُ الضَّحَّاكُ بْنُ
مُزَاحِمٍ الْهَلَالِيِّ وَكَانَ فِقْهِيهِ مَكْتَبٌ عَظِيمٌ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ صَبِيٍّ يَتَعَلَّمُونَ ؛ فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ
إِذَا تَعَبَ رَكِبَ حِمَارًا وَدَارَ بِهِ فِي الْمَكْتَبِ عَلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ إِقْبَالُ الْحِمَارِ عَلَى الصَّبِيِّ هَمًّا
وَإِدْبَارُهُ عَنْهُ سُرُورًا . وَمَا أَرَى الشَّيْطَانَ إِلَّا قَدْ تَعَبَ فِي مَكْتَبِهِ وَأَعْيَا ، فَكَرِبَ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ . . . لِيَدُورَ عَلَيْنَا نَحْنُ يَسْأَلُنَا : مَاذَا حَفِظْنَا مِنْ مَسَاوِيِّ عَلِيٍّ ؟

قُلْتُ : فَلِمَ إِذَا أَلْقَمْتَ كِتَابَهُ الشَّاةَ ؟ وَلَوْ غَسَلْتَهُ أَوْ أَحْرَقْتَهُ كَانَ أَفْهَمَ لَهُ وَكَانَ هَذَا أَشْبَهَ
بِكَ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا أَبْلَهُ ! لَقَدْ شَابَتْ الْبَلَاهَةُ فِي عَارِضِكَ ؛ إِنَّ هِشَامًا سَيَقَطِّعُ مِنْهَا
غَيْظًا ، فَمَا يُخْفِي عَنْهُ رَسُولُهُ أَنِّي أَطْعَمْتُ كِتَابَهُ الشَّاةَ ، وَمَا يُخْفِي عَنْهُ دَهَاوُهُ أَنَّ الشَّاةَ
سَتَبْعَرُهُ مِنْ بَعْدُ . . . !

قُلْتُ : أَفَلَا تَخْشَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : وَيْحَكَ ! هَذَا الْأَحْوَلُ عِنْدَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أَيْمًا وَلَدَنَّهُ أُمُّهُ مِنْ عَبْدٍ أَلْمَلِكِ ؟
فَهَبْنَاهَا وَلَدَنَّهُ مِنْ حَائِكٍ أَوْ حَجَّامٍ ! إِنَّ إِمَارَةَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، هِيَ أَرْتِفَاعُ نَفْسٍ مِنَ
النُّفُوسِ الْعَظِيمَةِ إِلَى أَثَرِ الثُّبُوتِ ؛ كَأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ثُمَّ رَضِيَ مِنْهُمْ رَجُلًا
لِلزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَمَتَى أُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ الْقُرْآنِيُّ ، فَذَلِكَ وَارِثُ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ
وَخَلِيفَتُهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَوْمِيذُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا مِنْ إِمَارَةِ الْمُلْكِ وَالتَّرَفِ ، بَلْ مِنْ إِمَارَةِ
الشَّرْعِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْعَمَلِ وَالسِّيَاسَةِ .

هَذَا الْأَحْوَلُ الَّذِي أَلْتَفَّ كُدُودَةَ الْحَرِيرِ فِي الْحَرِيرِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْخَيْلِ لَا لِلجِهَادِ
وَالْحَزْبِ ، وَلَكِنْ لِلْهُوِّ وَالْحَلِيَةِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ جِيَادِ الْخَيْلِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَرَسٍ لَمْ

يَجْتَمِعُ مِنْهَا لِأَحَدٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامَ ، وَعَمِلَ الْخَزْ وَقُطِفَ الْخَزْ ، وَاسْتَجَادَ الْفَرْسَ
وَالْكُنُوزَ ، وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ وَأَنْفَقَ فِيهِ الثَّقَافَاتِ الْوَاسِعَةَ ، وَأَفْسَدَ الرُّجُوزَةَ بِالتَّعْنِيمِ وَالتَّرَفِ ،
حَتَّى سَلَكَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ سُنَّتَهُ ، فَأَقْبَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى لَهْوِ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَنَعُوا الْخَيْرَ صَنْعَةَ
جَدِيدَةٍ بِصَرْفِهِ إِلَى حُطُوطِهِمْ ، وَتَرَكُوا الشَّرَّ عَلَى مَا هُوَ فِي النَّاسِ ، فَرَادُوا الشَّرَّ وَأَفْسَدُوا
الْخَيْرَ ، وَلَمْ يَعُدِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ عِنْدَهُمْ هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ بَطُونُهُمْ
وَشَهَوَاتُهُمْ . . . ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَصِدُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ لِيَسَعَ بِرِّهِ مِثَّةً
أَوْ مِثَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَدَوِيِّ حَاجَتِهِ ، فَعَادَ هَذَا الْغَنِيِّ يَتَسَّعُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ يَتَسَّعُ ، حَتَّى
لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَأْكُلَ رِزْقَهُ مِثَّةً أَوْ مِثَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ !

إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ يَجْعَلُ أَحْسَنَ الْمَسَرَّاتِ أَحْسَنَهَا فِي بَذْلِهَا لِلْمُحْتَاجِينَ ، لَا فِي أَخْذِهَا
وَالْإِسْتِثْنَاءِ بِهَا ، فَهِيَ لَا تَضِيعُ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا لِتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَكَأَنَّ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ
وَالْمَسْكِنَةَ وَالْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - كَانَ هَذِهِ أَرْضُونَ يُغْرَسُ فِيهَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ غَرْسًا
لَا يُؤْتِي ثَمَرَهُ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَنْفَلِبُ فِيهِ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْقَرُ النَّاسِ
إِلَى دِرْهِمٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِلَى مَا دُونَ الدَّرْهِمِ ؛ فَيَقَالُ لَهُ حِينَئِذٍ : خُذْ مِنْ ثِمَارِ عَمَلِكَ ،
وَاخْذْ مِنْ بَيْدِكَ !

وَالسُّلْطَانُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الشَّرْعُ مَرْبِيًّا يَتَابِعُهُ النَّاسُ ، مُتَكَلِّمًا يَفْهَمُهُ النَّاسُ ، أَمِيرًا نَاهِيًا
يُطِيعُهُ النَّاسُ . وَلَقَدْ رَأَى الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْأَحْوَالَ ، وَتَابَعُوهُ وَسَمِعُوا لَهُ وَأَطَاعُوا ؛ فَتَمَعُوا
مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، فَأَنْقَطَعَ الرُّفْدُ ، وَقَلَّ الْخَيْرُ ، وَشَحَّتِ الْأَنْفُسُ ، وَأَصْبَحَ خَيْرُهُمْ خَيْرُهُمْ
لِبَطْنِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَصَارَ الزَّمَانُ أَشْبَهَ بِنَاسِهِ ، وَالنَّاسُ أَشْبَهَ بِمَلِكِهِمْ ، وَمَلِكُهُمْ فِي شَهَوَاتِهِ
« فَعِيرُ الْمُؤْمِنِينَ » لَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ !

إِنَّ هَذِهِ الْإِمَارَةَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي قُرْبِ الشَّبَهِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَمَنْ يَخْتَارُهُ
الْمُؤْمِنُونَ لِلنَّبِيَّةِ . وَلِلنَّبِيِّ جِهَتَانِ : إِحْدَاهُمَا إِلَى رَبِّهِ ، وَهَذِهِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَهُ
فِيهَا ؛ وَالْأُخْرَى إِلَى النَّاسِ ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقَاسُ عَلَيْهَا . وَهِيَ كُلُّهَا رِفْقٌ وَرَحْمَةٌ
وَعَمَلٌ ، وَتَدْيِيرٌ وَحَيَاطَةٌ وَقُوَّةٌ ، إِلَى غَيْرِهَا مِمَّا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ ؛ وَهِيَ حُقُوقٌ وَتَبَعَاتٌ
ثَقِيلَةٌ تَنْصَرِفُ بِصَاحِبِهَا عَنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَيَهْتَدِ الْأَنْصِرَافُ تَجَذِبُ النَّاسَ إِلَى صَاحِبِهَا .

فَأَمَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ بَقَاءُ مَادَّةِ الثُّورِ التَّبَوِّيِّ فِي الْمِصْبَاحِ الَّذِي يُضِيءُ لِلْإِسْلَامِ ، بِإِمْدَادِهِ بِالْقَدْرِ بَعْدَ الْقَدْرِ مِنْ هَذِهِ الْقُفُوسِ الْمُضِيئَةِ . فَإِنْ صَلَحَ التُّرَابُ أَوْ أَلْمَاءُ مَكَانَ الزَّيْتِ فِي الْأَسْتِضَاءَةِ ، صَلَحَ هِشَامٌ وَأَمْنَالُهُ لِأَمَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ !

وَيْلٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِي حِينٍ يَنْظُرُونَ فَيَجِدُونَ السُّلْطَانَ عَلَيْهِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّبْيِ مِثْلُ مَا بَيْنَ دِينَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ ! وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُسْلِمِينَ !

* * *

فَلَمَّا أَتَمَّ الضَّرِيرُ حَدِيثَهُ قَالَ ابْنُ جُحَادَةَ : إِنَّ شَيْخَنَا عَلَى هَذَا الْجِدِّ لِيَمْرَحَ ، وَسَأَحَدُكُمْ غَيْرَ حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ الدُّنْيَا كَأَنَّمَا عَرَفْتَ الشَّيْخَ وَوَقَفْتَ عَلَى حَقِيقَتِهِ السَّمَاءِيَّةِ فَقَالَتْ لَهُ : أَضْحَكَ مِنِّي وَمِنْ أَهْلِي . وَلَكِنَّ وَقَارَهُ وَدِينَهُ أَرْتَفَعَا بِهِ أَنْ يَضْحَكَ بِفَمِهِ ضَحْكُ الْجُهْلَاءِ وَالْفَارِغِينَ ، فَضْحَكَ بِالْكَلِمَةِ بَعْدَ الْكَلِمَةِ مِنْ نَوَادِرِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ عِنْدَهُ فِي مَرَضَتِهِ ، فَعَادَهُ أَبُو حَنِيفَةَ صَاحِبُ الرَّأْيِ ، وَهُوَ جَبَلٌ عِلْمٍ شَامِعٌ ، فَطَوَّلَ الْقُعُودَ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَأْتِسُ بِهِ ، إِذْ كَانَتْ الْأَرْوَاحُ لَا تَعْرِفُ مَعَ أَحْبَابِهَا زَمَنًا يَطُولُ أَوْ يَقْصُرُ . فَلَمَّا أَرَادَ الْقِيَامَ قَالَ لَهُ : مَا كَأَنِّي إِلَّا تَقَلْتُ عَلَيْكَ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّكَ لَتَقِيلُ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي بَيْتِكَ . . . ! وَضَحِكَ أَبُو حَنِيفَةَ كَأَنَّهُ طِفْلٌ يُلَاعِبُهُ أَبُوهُ بِكَلِمَةٍ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَاهَا ، أَوْ أَبٌ دَاعِبُهُ طِفْلُهُ بِكَلِمَةٍ فِيهَا غَيْرُ مَعْنَاهَا .

وَجَاءَهُ فِي الْغَدَاةِ قَوْمٌ يَمُودُونَهُ ، فَلَمَّا أَطَالُوا الْجُلُوسَ عِنْدَهُ أَخَذَ الشَّيْخُ وَسَادَتَهُ وَقَامَ مُنْصَرِفًا ، وَقَالَ لَهُمْ : قَدْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضَكُمْ . . . !

فَقَالَ الضَّرِيرُ : تِلْكَ رَوْحَةٌ مِنْ هَوَاءِ دُبَابُونْدٍ^(١) ، فَإِنَّ أَبَا الشَّيْخِ كَانَ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ ، وَقَدِمَ إِلَى الْكُوفَةِ وَأَمُّهُ حَامِلٌ ؛ فَوُلِدَ هُنَا ؛ فَكَانَ فِي دَمِهِ ذَلِكَ السَّيْمِ تَهَبُّ مِنْهُ التَّفَحُّةُ بَعْدَ التَّفَحُّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُتَنَسِّمَةِ ؛ ثُمَّ هِيَ رَوْحُهُ الظَّرِيفَةُ الطَّيِّبَةُ تَلْمِسُ بَعْضَ كَلَامِهِ أحيانًا ، كَمَا تَلْمِسُ رُوحُ الشَّاعِرِ بَعْضَ كَلَامِ الشَّاعِرِ ؛ وَمَا رَأَيْتُ أَدَقَّ النَّوَادِرِ السَّاخِرَةِ وَأَبْلَغَهَا وَأَعْجَبَهَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْ ذَوِي الْأَرْوَاحِ الشَّاعِرَةِ الْكَبِيرَةِ الْبَعِيدَةِ الْغُورِ ، كَأَنَّمَا تَأْتِي

(١) نَاجِيَةٌ مِنْ رُسْتَاقِ الرَّيِّ فِي الْجِبَالِ الثَّلْجِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ .

النَّادِرَةُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ حَقِيقَتَيْنِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ . وَالْإِمَامُ فِي ذَلِكَ لَا يَسْخَرُ مِنْ أَحَدٍ ،
إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ حِينَ تَخْرُجُ الثَّمَرَةُ الْخُلُوةَ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ الثَّمَرَةِ الْمُرَّةِ .

وَالْعَجِيبُ أَنَّ النَّادِرَةَ الْبَارِعَةَ الَّتِي لَا تَتَّفِقُ إِلَّا لِأَقْوَى الْأَزْوَاجِ ، يَتَّفِقُ مِنْهَا لِأَضْعَفِ
الْأَزْوَاجِ ؛ كَأَنَّهَا تَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَسْخَرُونَ بِهَا . فَهَذَا أَبُو حَسَنِ مُعَلِّمُ الْكِتَابِ ، جَاءَهُ
غُلَامَانِ مِنْ صَبِيئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ؛ فَقَالَ : يَا مُعَلِّمُ ! هَذَا عَضُّ أُذُنِي . فَقَالَ
الْآخَرُ : مَا عَضُّضْتُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ عَضُّ أُذُنِ نَفْسِهِ فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : وَتَمَكَّرُ بِي أَيْضًا
يَا ابْنَ الْخَبِيثَةِ ؟ أَهْوُ جَمَلٌ طَوِيلُ الْعُنُقِ حَتَّى يَنَالَ أُذُنَ نَفْسِهِ فَيَعُضُّهَا . . . !

* * *

وَطَلَعَ الشَّيْخُ عَلَيْهِمْ وَكَأَنَّمَا قَرَأَ نَفْسُ أَبِي مُعَاوِيَةَ فِي وَجْهِهِ الْمَتَفَتِّحِ . وَمِنْ عَجَائِبِ
الْحِكْمَةِ أَنَّ الَّذِي يُلْمَحُ فِي عَيْنِي الْمُبْصِرِ مِنْ خَوَالِجِ نَفْسِهِ ، يُلْمَحُ عَلَى وَجْهِ الضَّرِيرِ مُكَبَّرًا
مُجَسَّمًا . وَكَانَ الشَّيْخُ لَا يَأْنَسُ بِأَحَدٍ أَنَسَهُ بِأَبِي مُعَاوِيَةَ ، لِذِكَايِهِ وَحِفْظِهِ وَضَبْطِهِ ،
وَلِمُشَاكَلَةِ الظَّرْفِ الرُّوْحِيِّ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ لَهُ :

- « فِيمَ كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ؟ » .

- « كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ فِي الَّذِي كَانَ فِيهِ ! » .

- « وَمَا الَّذِي كَانَ فِيهِ ؟ » .

- « هُوَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ ! » .

- « فَأَجِبْنِي عَمَّا أَسْأَلُ عَنْهُ » .

- « قَدْ أَجَبْتُكَ ! » .

- « بِمَاذَا أَجَبْتَ ؟ » .

- « بِمَا سَمِعْتَ ! » .

فَقَبَضَ وَجْهُ الشَّيْخِ وَقَالَ : « أَهْلُنَا وَهُنَاكَ مَعًا ؟ لَوْ أَنَّ هَذَا مِنْ أَمْرَأَةٍ غَضِبِي عَلَى
رَوْحِهَا لَكَانَ لَهُ مَعْنَى ، بَلْ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا مِنْ أَمْرَأَةٍ غَضِبِي عَلَى رَوْحِهَا . أَحْسَبُ لَوْ لَا أَنَّ
فِي مَثَرِلِي مَنْ هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكُمْ مَا خَرَجْتُ ؟ » .

فَقَالَ الضَّرِيرُ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! كَأَنَّا زَوَجَاتُ الْعِلْمِ ؛ فَأَيُّنَا الَّتِي حَطَّيْتُ وَبَطَّيْتُ . . . » .
فَعَطَى الْجَمَاعَةُ أَفْوَاهَهُمْ يَضْحَكُونَ ، وَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ ، ثُمَّ شَرَعَ يُحَدِّثُ فَأَفْضَى مِنْ خَبَرٍ
إِلَى خَبَرٍ ، وَتَسَرَّحَ فِي الرُّوَايَةِ حَتَّى مَرَّ بِهِ هَذَا الْحَدِيثُ :

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ هَلَكَ الرِّجَالِ طَاعَتُهُمْ لِنِسَائِهِمْ » . [راجع « مسند أحمد » ،
رقم : ١٩٩٤٢] .

قَالَ الشَّيْخُ : كَانَ الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ ، وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلَكَ الرَّجُلُ طَاعَتُهُ
لَامْرَأَتِهِ » ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ ؛ إِذْ يَكُونُ بَعْضُ النِّسَاءِ أَحْيَانًا أَكْمَلَ مِنْ بَعْضِ الرِّجَالِ ،
وَأَوْفَرَ عَقْلاً وَأَسَدَّ رَأْيًا ، وَقَدْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ هِيَ الرَّجُلُ فِي الْحَقِيقَةِ عَزْمًا وَتَذْيِيرًا وَقُوَّةَ نَفْسٍ ،
وَيَتَلَيَّنُ الرَّجُلُ مَعَهَا كَأَنَّهُ امْرَأَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ يَكُنَّ نِسَاءً بِالْحِلْيَةِ وَالشَّكْلِ دُونَ
مَا وَرَاءَهُمَا ؛ كَأَنَّمَا هُمَيْنِ رِجَالًا فِي الْأَصْلِ ثُمَّ خُلِقْنَ نِسَاءً بَعْدُ ، لِإِحْدَاثِ مَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ
يُخْدِتَ بِهِنَّ ، مِمَّا يَكُونُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعَجِيبَةِ عَمَلًا ذَا حَقِيقَتَيْنِ فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ .

وَإِنَّمَا عَمَّ الْحَدِيثُ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ التَّنْذِيرِ
بِالرِّجَالِ ؛ فَإِنَّ الْبَاسَ وَالْعَقْلَ يَكُونَانِ فِيهِمْ خِلْفَةً وَطَبِيعَةً أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونَانِ فِي النِّسَاءِ ؛ كَمَا
أَنَّ الرِّقَّةَ وَالرَّحْمَةَ فِي خِلْفَةِ النِّسَاءِ وَطَبِيعَتِهِنَّ أَكْثَرُ مِمَّا هُمَا فِي الرِّجَالِ ، فَإِذَا غَلَبَتْ طَاعَةُ
النِّسَاءِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، فَتِلْكَ حَيَاةٌ مَعْنَاهَا هَلَكَ الرِّجَالُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَلَكَ أَنْفُسِهِمْ ،
بَلْ هَلَكَ مَا هُمْ رِجَالٌ بِهِ ، وَالْحَدِيثُ حَدِيثُ بَقْوَتِهِ وَصَلَابَتِهِ ، وَالْحَجَرُ حَجَرٌ بِشِدَّتِهِ
وَأَجْتِمَاعِهِ ؛ فَإِنْ ذَابَ الْأَوَّلُ أَوْ تَقَلَّلَ ، وَتَنَاقَرَّ الْآخَرُ أَوْ تَفَتَّتَ ، فَذَلِكَ هَلَاكُهُمَا فِي
الْحَقِيقَةِ ، وَهُمَا بَعْدُ لَا يَرَاوَانِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْحَدِيدِ .

وَالْمَرْأَةُ ضَعِيفَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا ، وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ تَأْبَى أَنْ تَكُونَ ضَعِيفَةً أَوْ تُفَرِّقَ
بِالضَّعْفِ ، إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ رَجُلَهَا الْكَامِلَ ، رَجُلَهَا الَّذِي يَكُونُ مَعَهَا بِقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَفَتْتِهِ لَهَا
وَحُبُّهَا إِيَّاهُ ، كَمَا يَكُونُ مِثَالٌ مَعَ مِثَالٍ . ضَعُ مِثَّةً دِينَارٍ بِجَانِبِ عَشْرَةِ دَنَانِيرٍ ، ثُمَّ أَتْرُكْ
لِلْعَشْرَةِ أَنْ تَتَكَلَّمَّ وَتَدَّعِي وَتَسْتَطِيلَ ؛ قَدْ تَقُولُ : إِنَّهَا أَكْثَرُ إِشْرَاقًا ، أَوْ أَظَرُّ شَكْلًا ، أَوْ
أَحْسَنُ وَضْعًا وَنَصْفِيًّا ؛ وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ الْمُحَرَّمَةَ هُنَا أَنْ تَزْعُمَ أَنَّهَا أَكْبَرُ قِيَمَةً فِي
السُّوقِ . . . !

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَنْ مِنَ النِّسَاءِ تُصِيبُ رَجُلَهَا الْكَامِلَ أَوْ الْقَرِيبَ مِنْ كَمَالِهِ عِنْدَهَا ، أَيْ : كَمَالِ طَبِيعَتِهِ بِالْقِيَاسِ إِلَى طَبِيعَتِهَا ، كَمَالِ جِسْمٍ مُفَصَّلٍ لِجِسْمٍ ، تَفْصِيلُ الثَّوبِ الَّذِي يَلْبَسُهُ وَيَخْتَالُ فِيهِ ؟ أَمَّا إِنْ هَذَا مِنْ عَمَلِ اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ كَمَا يَنْسُطُ الرِّزْقُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، يَنْسُطُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلنِّسَاءِ فِي رِجَالِهِنَّ وَيَقْدِرُ .

فَإِذَا لَمْ تُصِيبِ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا الْقَوِيَّ - وَهُوَ الْأَعْمُ الْأَغْلَبُ - لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فِي حَقِيقَةِ ضَعْفِهَا الْجَمِيلِ ، وَعَمِلْتَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الضَّعِيفُ ، لِتَكُونَ مَعَهُ فِي تَزْوِيرِ الْقُوَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى حَيَاتِهِ ، وَبِهَذَا تَخْرُجُ مِنْ حَيَرِهَا ؛ وَمَا أَوَّلُ خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الطَّرِيقِ إِلَّا هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنْ كَثُرَ خُرُوجُهُنَّ فِي الطَّرِيقِ ، وَتَسَكَّنَ هَهُنَا وَهَهُنَا ، فَإِنَّمَا تِلْكَ صُورَةٌ مِنْ فَسَادِ الطَّبِيعَةِ فِيهِنَّ وَمِنْ إِمْلَاقِهَا أَيْضًا . .

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَأَنَّ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ مِنْ بَعْضِ الْحَقِّ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَنْزِلْنَ عَنْ بَعْضِ الْحَقِّ الَّذِي لَهُنَّ ، إِنْقَاءً عَلَى نِظَامِ الْأُمَّةِ ، وَتَنْسِيرًا لِلْحَيَاةِ فِي مَجْرَاهَا ؛ كَمَا يَنْزِلُ الرَّجُلُ عَنْ حَقِّهِ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا إِذَا حَارَبَ فِي سَبِيلِ أُمَّتِهِ ، إِنْقَاءً عَلَيْهَا وَتَنْسِيرًا لِحَيَاتِهَا فِي مَجْرَاهَا . فَصَبْرُ الْمَرْأَةِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ هُوَ نَفْسُهُ جِهَادُهَا وَحَرْبُهَا فِي سَبِيلِ الْأُمَّةِ ، وَلَهَا عَلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ مِثْلُ مَا لِلرَّجُلِ يُقْتَلُ أَوْ يُجْرَحُ فِي جِهَادِهِ .

أَلَا وَإِنَّ حَيَاةَ بَعْضِ النِّسَاءِ مَعَ بَعْضِ الرِّجَالِ تَكُونُ أَحْيَانًا مِثْلَ الْقَتْلِ ، أَوْ مِثْلَ الْجَرْحِ ، وَقَدْ تَكُونُ مِثْلَ الْمَوْتِ صَبْرًا عَلَى الْعَذَابِ ! وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَرْوَجَةَ يَسْأَلُهَا عَنْ حَالِهَا وَطَاعَتِهَا وَصَبْرِهَا مَعَ رَجُلِهَا : « فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ؟ » قَالَتْ : مَا أَلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ ! قَالَ : « فَكَيْفَ أَنْتِ لَهُ ؟ فَإِنَّهُ جَشْتُكَ وَنَارُكَ » . [المستدرك على الصحيحين] ، رقم :

٩٨ / ٢٧٦٩ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٣٧ ؛ وراجع « مسند أحمد » ، رقم : ١٨٥٢٤ و ٢٦٨٠٦ .

أَيُّ ! أَيُّ ! حَتَّى زَوَّجَ الْمَرْأَةَ بِالرَّجُلِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مُرُورُ الْمَرْأَةِ الْمُسْكِينَةِ فِي دُنْيَا أُخْرَى إِلَى مَوْتٍ آخَرَ ، سُبْحَاسَبُ عِنْدَهُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَحَسَابُهَا عِنْدَ اللَّهِ نَوْعَانِ : مَاذَا صَنَعَتْ بِدُنْيَاكِ وَنَعِيمِهَا وَبُؤْسِهَا عَلَيْكِ ؛ ثُمَّ مَاذَا صَنَعَتْ بِزَوْجِكَ وَنَعِيمِهِ وَبُؤْسِهِ فِيكَ ؟

وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَافِدَةٌ النِّسَاءِ إِلَيْكَ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ مَا لِلرِّجَالِ فِي الْجِهَادِ مِنَ الْأَجْرِ وَالْغَنِيمَةِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : فَمَا لَنَا مِنْ ذَلِكَ ؟

فَقَالَ ﷺ : « أَبْلِغِي مَنْ لَقِيتِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ طَاعَةَ لِلزَّوْجِ ، وَأَعْتِرَافًا بِحَقِّهِ - يَغْدِلُ ذَلِكَ ؛ وَقَلِيلٌ مِنْكُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ ! » . [(مجمع الزوائد) ، رقم : ٧٦٣١ و ٧٦٣٣] .

قَالَ الشَّيْخُ : تَأَمَّلُوا وَأَعْجَبُوا مِنْ حِكْمَةِ النُّبُوَّةِ وَدَقِّقْتُهَا وَبَلَّغْتُهَا ؛ أَيْقَالَ فِي الْمَرْأَةِ الْمُعْتَبَةِ لِرُزُوجِهَا الْمُفْتَتَنَةِ بِهِ الْمُعْجَبَةِ بِكَمَالِهِ : إِنَّهَا أَطَاعَتْهُ وَأَعْتَرَفَتْ بِحَقِّهِ ؟ أَوَلَيْسَ ذَلِكَ طَبِيعَةَ الْحُبِّ إِذَا كَانَ حُبًّا ؟ فَلَمْ يَبْقَ إِذَا إِلَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ ، حِينَ لَا تُصِيبُ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا الْمُفْصَلَ لَهَا ، بَلْ رَجُلًا يُسَمَّى زَوْجًا ؛ وَهُنَا يَظْهَرُ كَرَمُ الْمَرْأَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهَا هُنَا جِهَادُ الْمَرْأَةِ وَصَبْرُهَا ، وَهَا هُنَا بَذْلُهَا لَا أَخْذُهَا ؛ وَمِنْ كُلِّ ذَلِكَ هَا هُنَا عَمَلُهَا لِجَنَّتِهَا أَوْ نَارِهَا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ كَامِلًا بِمَا فِيهِ لِلْمَرْأَةِ ، فَلَتَبْقَ هِيَ رَجُلًا يَنْزُولُهَا عَنْ بَعْضِ حَقِّهَا لَهُ ، وَتَرْكُهَا الْحَيَاةَ تَجْرِي فِي مَجْرَاهَا ، وَإِثَارُهَا الْآخِرَةُ عَلَى الدُّنْيَا ، وَقِيَامُهَا بِفَرِيضَةِ كَمَالِهَا وَرَحْمَتِهَا ، فَيَبْقَى الرَّجُلُ رَجُلًا فِي عَمَلِهِ لِلدُّنْيَا ، وَلَا يُنْسَخُ طَبِيعُهُ وَلَا يَنْتَكِسُ بِهَا وَلَا يَذِلُّ ، فَإِنْ هِيَ بَدَأَتْ وَتَسَلَّطَتْ وَغَلَبَتْ وَصَرَفَتْ الرَّجُلَ فِي يَدِهَا ، فَأَكْثَرُ مَا يَظْهَرُ حِينَئِذٍ فِي أَعْمَالِ الرِّجَالِ مِنَ طَاعَتِهِمْ لِنِسَائِهِمْ - إِنَّمَا هُوَ طَيْشُ ذَلِكَ الْعَقْلِ الصَّغِيرِ وَجُرْأَتُهُ ، وَأَحْيَانًا وَقَاحَتُهُ ؛ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ هَلَاكُ مَعَانِي الرُّجُولَةِ ، وَفِي هَلَاكِ مَعَانِي الرُّجُولَةِ هَلَاكُ الْأُمَّةِ !

قَالَ الشَّيْخُ : وَالْقُلُوبُ فِي الرِّجَالِ لَيْسَتْ حَقِيقَةً أَبَدًا ، بِطَبِيعَةِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ وَأَمَكْتَتِهِمْ مِنْهَا ، وَلَكِنَّ الْقَلْبَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ فِي الْمَرْأَةِ ، وَلِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ السَّمُوءُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا وَاجِبَ الرَّحْمَةِ ؛ ذَلِكَ الْوَاجِبُ الَّذِي يَتَّجُهُ إِلَى الْقَوِيِّ فَيَكُونُ حُبًّا ، وَيَتَّجُهُ إِلَى الضَّعِيفِ فَيَكُونُ حَنَانًا وَرِقَّةً ، ذَلِكَ الْوَاجِبُ هُوَ اللَّطْفُ ؛ ذَلِكَ اللَّطْفُ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُ أَنَّهَا أَمْرَاءُ .

* * *

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَانْقَضَ الْمَجْلِسُ ، وَمَتَعْنِي الشَّيْخُ أَنْ أَقُومَ مَعَ النَّاسِ ، وَصَرَفَ قَائِدِي ؛ فَلَمَّا خَلَا وَجْهَهُ قَالَ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! قُمْ مَعِيَ إِلَى الدَّارِ .
قُلْتُ : مَا شَأْنُ فِي الدَّارِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ (تِلْكَ) غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَقَدْ ضَاقَتْ الْحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَأَخْشَى أَنْ تَتَبَاعَدَ ، فَأُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَنَا صُلْحًا .

قُلْتُ : فِمِمَّ غَضِبُهَا ؟

قَالَ : لَا تُسْأَلُ الْمَرْأَةُ مِمَّ تَغْضَبُ ، فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ هَذَا الْغَضَبُ حَرَكَةً فِي طِبَاعِهَا ، كَمَا تَكُونُ جَالِسَةً وَتُرِيدُ أَنْ تَقُومَ فَتَقُومَ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَمْشِيَ فَتَمْشِيَ !

قُلْتُ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! هَذَا آخِرُ أَرْبَعِ مَرَّاتٍ ^(١) تَغْضَبُ عَلَيْكَ غَضَبَ الطَّلَاقِ ، فَمَا يَحْبِسُكَ عَلَيْهَا وَالنِّسَاءُ غَيْرُهَا كَثِيرٌ .

قَالَ : وَيَحْكُ يَا رَجُلُ ! أَبَانِعُ نِسَاءً أَنَا ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِي يُطَلِّقُ امْرَأَةً لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ مُلْجِئَةٍ ، هُوَ كَالَّذِي يَبِينُهَا لِمَنْ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَكُونُ مَعَهَا وَكَيْفَ تَكُونُ مَعَهُ ؟ إِنَّ عُمَرَ الزَّوْجَةَ لَوْ كَانَ رَقَبَةً وَضَرَبْتَ بِسَيْفٍ قَاطِعٍ لَكَانَ هَذَا السَّيْفُ هُوَ الطَّلَاقُ !

وَهَلْ تَعِيشُ الْمُطَلَّقَةُ إِلَّا فِي أَيَّامِ مَيْتَةٍ ؟ وَهَلْ قَاتِلُ أَيَّامِهَا إِلَّا مُطَلِّقُهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَقُمْنَا إِلَى الدَّارِ ، وَاسْتَأْذَنْتُ وَدَخَلْتُ عَلَى (تِلْكَ) . . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(لها بقية)



قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الصَّرِيرُ : وَكُنْتُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ ، أَرَوُّ فِي الْأَمْرِ ، وَأَمْتَحِنُ مَذَاهِبَ الرَّاغِبِ ، وَأَقْلُبُهَا عَلَى وَجُوهِهَا ، وَأَنْظُرُ كَيْفَ أَحْتَالَ فِي تَأْلِيفِ مَا تَنَافَرُ مِنْ الشَّيْخِ وَزَوْجَتِهِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَسْفُرُ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَتِهِ إِنَّمَا يَمْشِي بِفِكْرِهِ بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، فَهُوَ

(١) هَذَا هُوَ التَّغْيِيرُ الصَّحِيحُ لِمِثْلِ قَوْلِ النَّاسِ « هَذِهِ رَابِعُ مَرَّةٍ » .

(*) « الرسالة » العدد : ٨٦ ، ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ فبراير/شباط ١٩٣٥ م ، السنة

مُطْفِئَةٌ نَارِيَّةٌ^(١) أَوْ مُسْعِرُهَا ، إِذْ لَا يَصْعُقُ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ إِلَّا حُمْقُهُ أَوْ كِبَاسَتُهُ ، وَهُوَ لَنْ يَرُدَّ الْمَرْأَةَ إِلَى الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا طَافَ عَلَى وَجْهِهَا بِالْصَّحْحِ ، وَعَلَى قَلْبِهَا بِالْخَجَلِ ، وَعَلَى نَفْسِهَا بِالرَّقَّةِ ، وَكَانَ حَكِيمًا فِي كُلِّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ عَقْلَ الْمَرْأَةِ مَعَ الرَّجُلِ عَقْلٌ بَعِيدٌ ، يَجِيءُ مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهَا ، مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهَا .

وَجَعَلْتُ أَنْظُرَ مَا الَّذِي يُفْسِدُ مَحَلَّ الشَّيْخِ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَمَثَلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَمَا أَخْرَجَ لِي التَّفَكِيرُ إِلَّا أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ مَعَهَا دَائِمًا هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِي مِنْهَا سُوءَ الْخُلُقِ أَحْيَانًا ؛ فَإِنَّ الشَّيْخَ كَمَا وَرَدَ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِ : « هَيِّنٌ لَيْسَ كَالْجَمَلِ الْأَفْرِ^(٢) » ، إِنْ قِيدَ انْقَادًا ، وَإِنْ أُتِنِحَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاحَ [راجع ابن ماجه ، رقم : ٤٤ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١٦٦٩٢ ؛ «الجامع الصغير» ، رقم : ٩١٦٣ ؛ «كثر العمال» ، رقم : ٦٩٣] ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَكُونُ أَمْرًا حَتَّى تَطْلُبَ فِي الرَّجُلِ أَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنْ تُحِبَّهُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ الْحُبِّ ؛ وَمِنْهَا أَنْ تَخَافَهُ بِأَسْبَابٍ يَسِيرَةٍ مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْفِ . فَإِذَا هِيَ أَحَبَّتْهُ الْحُبُّ كُلُّهُ ، وَلَمْ تَخَفْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَطَالَ سُكُونُهُ وَسُكُونُهَا ، نَفَرَتْ طَبِيعَتُهَا نَفَرًا كَأَنَّهَا تَنْخِيهِ وَتَذْمُرُهُ ، لِيَكُونَ مَعَهَا رَجُلًا فَيُخَفِّفَهَا الْخَوْفُ الَّذِي تَسْتَكْمِلُ بِهِ لَذَّةَ حُبِّهَا ، إِذْ كَانَ ضَعْفُهَا يُحِبُّ فَيَمَّا يُحِبُّهُ مِنَ الرَّجُلِ ، أَنْ يَقْسُو عَلَيْهِ الرَّجُلُ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ ، لَا لِيُؤْذِيَهُ وَلَكِنْ لِيُخَضِّعَهُ ؛ وَالْأَمِيرُ الَّذِي لَا يُخَافُ إِذَا عَصَى أَمْرُهُ ، هُوَ الَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ إِذَا أُطِيعَ أَمْرُهُ .

وَكَانَ الْمَرْأَةُ تَخْتَاجُ طَبِيعَتَهَا أَحْيَانًا إِلَى مَصَائِبِ خَفِيفَةٍ ، تُؤْذِي بِرَقَّةٍ أَوْ تَمُرُّ بِالْأَذَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمَسَهَا بِهِ ، لِتَسْتَحَرَّكَ فِي طَبِيعَتِهَا مَعَانِي دُمُوعِهَا مِنْ غَيْرِ دُمُوعِهَا ؛ فَإِنْ طَالَ رُكُودُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ ، أَوْ جَدَّتْ هِيَ لِنَفْسِهَا مَصَائِبَهَا الْخَفِيفَةَ ، فَكَانَ الزَّوْجُ إِحْدَاهَا . . .

وَهَذَا كُلُّهُ غَيْرُ الْجُرْأَةِ أَوْ الْبِدَاءِ فَيَمَنْ يُبْغِضَنَّ أَوْ وَاجَهَنَّ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا فَارَكَتْ زَوْجَهَا لِمَتَافَرَةِ الطَّبِيعَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، مَاتَ ضَعْفُهَا الْأُنْثَوِيُّ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ جَمَالُهَا وَاسْتِمْتَاعُهَا وَلَا اسْتِمْتَاعَ بِهَا ، وَتَعَقَّدَ بِذَلِكَ لَيْتُهَا أَوْ تَصَلَّبَ أَوْ اسْتَحْجَرَ ، فَتَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ بِخِلَافِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَقْلِبُ سُكْرُهَا النَّسَائِيَّ بِأُنُوثَتِهَا الْجَمِيلَةِ عَزْبَةً وَخِلَافًا وَشَرًّا وَصَحْبًا ، وَيَخْرُجُ

(١) النَّارِيَّةُ : الْغَضَبُ .

(٢) آفِي : الْمَأْنُوفُ ، وَيُسَمَّى الْعَامَّةُ : الْمَخْرُومُ ، وَهُوَ الَّذِي غَفِرَ أَنْفُهُ بِالْخَشَاشِ ، فَيَقَادُ مِنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلُولًا سَمِجًا .

كَلَامُهَا لِلرَّجُلِ وَهُوَ مِنَ الْبُغْضِ كَأَنَّهُ فِي صَوْتَيْنِ لَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ . وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي أَحَسَّهُ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ بِفِطْرَتِهِ - مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الصَّخَابَةِ الشَّدِيدَةِ الصَّوْتِ الْبَادِيَةِ الْغَيْظِ ، فَضَاعَفَ لَهَا فِي تَرْكِيبِ اللَّفْظِ حِينَ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ [من الرجز] :

صَلْبَةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيَّتُهَا^(١)

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَأَسْتَأْذَنْتُ عَلَى تِلْكَ ، وَدَخَلْتُ بَعْدَ أَنْ أَسْتَوْثَقْتُ أَنَّ عِنْدَهَا بَعْضَ مَحَارِمِهَا ؛ فَقُلْتُ : أَنْعَمَ اللَّهُ مُسَاءَكِ يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ . قَالَتْ : وَأَنْتَ فَانْعَمَ اللَّهُ مُسَاءَكَ .

فَأَصْغَيْتُ لِلصَّوْتِ ، فَإِذَا هُوَ كَاللَّائِمِ قَدْ أَتْنَبَهَ يَتَمَطَّى فِي اسْتِرْخَاءٍ ، وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُنِي بِهِ وَتَرُدُّنِي مَعًا ، لَا هُوَ خَالِصٌ لِلْغَضَبِ وَلَا هُوَ خَالِصٌ لِلرَّضَى .

فَقُلْتُ : يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! إِنِّي جَائِعٌ لَمْ أَلَمْ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِي . فَقَامَتْ فَقَرَّبَتْ مَا حَضَرَ ؛ وَقَالَتْ : مَعْدِرَةٌ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، فَإِنَّمَا هُوَ جُهْدُ الْمُقِلِّ ، وَلَيْسَ يَعْدُو إِمْسَاكَ الرَّمَى . فَقُلْتُ : إِنَّ الْجُوعَانَ غَيْرُ الشَّهْوَانِ ؛ وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ^(٢) ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ قَمَحًا لِلْمُلُوكِ وَقَمَحًا غَيْرَهُ لِلْفُقَرَاءِ .

ثُمَّ سَمَيْتُ وَمَدَدْتُ يَدِي أَتَحَسَّسُ مَا عَلَى الطَّبِيِّ ، فَإِذَا كَسَّرَ مِنَ الْخُبَيْرِ ، مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ النَّجَرِ الْمَسْلُوقِ ، فِيهِ قَلِيلٌ مِنَ الْخَلِّ وَالزَّيْتِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا بَعْضُ أَسْبَابِ الشَّرِّ ؛ وَمَا كَانَ بَيْنَ الْجُوعِ وَلَا سَدِّهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ حَاضِرَ الرِّزْقِ فِي دَارِ الشَّيْخِ ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقِلَّةِ فِي طَعَامِ الرَّجُلِ هِيَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ قِلَّةٌ مِنَ الرَّجُلِ نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا تَفْقِدُهُ مِنْ حَاجَاتِهَا وَشَهَوَاتِ نَفْسِهَا ، فَهُوَ عِنْدَهَا فَقْرٌ بِمَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالْآخَرُ مِنَ الرَّجُلِ . كُلَّمَا أَكْثَرَ الرَّجُلُ مِنْ إِتْخَافِهَا كَثُرَ عِنْدَهَا ، وَإِنْ أَقَلَّ قَلَّ . وَإِنَّمَا خُلِقَتْ الْمَرْأَةُ بَطْنًا يَلِدُ ، فَبَطْنُهَا هُوَ أَكْبَرُ حَقِيقَتَيْهَا ، وَهَذِهِ غَايَتُهَا وَغَايَةُ الْحِكْمَةِ فِيهَا ؛ لَا جَرَمَ كَانَ

(١) هَذَا مِنْ عَجَائِبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِذَا زَادَ الْمَعْنَى زَادُوا لَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَرَوَايَةُ « لِسَانِ الْعَرَبِ » : « شَدِيدَةُ الصَّيْحَةِ » وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَلْيَصْحَحْهَا مَنْ يَقْتَنِي « اللِّسَانَ » مِنَ الْقُرَّاءِ .

(٢) فِي بَعْضِ الْأَثَرِ : « الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءِ » . [البخاري ، رقم : ٥٣٩٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٠٦٠] . وَهَذَا الْحَدِيثُ رَمَزَ عَجِيبَ لِبَهِيمَةٍ مَنْ لَا يَرَى الدُّنْيَا إِلَّا الدُّنْيَا فَقَطْ .

لَهَا فِي عَقْلِهَا مَعْدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ ؛ وَلَيْسَ حُبُّهَا لِلْحُلِيِّ وَالْثِيَابِ وَالزَّيْنَةِ وَالْمَالِ ، وَطِمَاحُهَا إِلَيْهَا وَاسْتِهْلَاقُهَا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالْاسْتِشْرَافِ لَهَا - إِلَّا مَظْهَرًا مِنْ حُكْمِ الْبَطْنِ وَسُلْطَانِهِ ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ إِذَا حَقَّقْتُهُ فِي الرَّجُلِ لَمْ تَجِدْهُ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ مِنْ ذَرَائِعِ الضَّعْفِ وَالْفَلَةِ ؛ فَإِذَا حَقَّقْتُهُ فِي الْمَرْأَةِ أَلْفَيْتُهُ عِنْدَهَا مِنْ مَعَانِي الشَّبَعِ وَالْبَطَرِ ، وَكَانَ فَقْدُهُ عِنْدَهَا كَأَنَّهُ فَنٌّ مِنَ الْجُوعِ ، وَكَانَتْ شَهْوَتُهَا لَهُ كَالْقَرَمِ إِلَى اللَّحْمِ عِنْدَ مَنْ حَرَّمَ اللَّحْمَ ؛ وَهَذَا بَعْضُ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ فَلَنْ يَكُونَ عَقْلُ الْمَرْأَةِ كَعَقْلِ الرَّجُلِ لِمَكَانِ الزِّيَادَةِ فِي مَعَانِيهَا « الْبُطَيَّةِ » فَخَسِبَتْ لَهَا الزِّيَادَةُ هَهُنَا بِالنَّقْصِ هُنَاكَ ؛ فَهِنَّ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : أَمَّا نَقْصُ الْعَقْلِ فَهَلِيزَ عَلَيْهِ ؛ وَأَمَّا الدِّينُ فَلِغَلْبَةِ تِلْكَ الْمَعَانِي عَلَى طَبِيعَتِهَا كَمَا تَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهَا ؛ فَلَيْسَ نَقْصُ الدِّينِ فِي الْمَرْأَةِ نَقْصًا فِي الْيَقِينِ أَوْ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّهَا فِي هَذَيْنِ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَإِنَّمَا ذَاكَ هُوَ النَّقْصُ فِي الْمَعَانِي الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَكْمُلُ الدِّينُ إِلَّا بِهَا ؛ مَعَانِي الْجُوعِ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَامْتِدَادِ الْعَيْنِ إِلَيْهَا ، وَاسْتِشْرَافِ النَّفْسِ لَهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ فِي هَذَا أَقْلُ مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَهِيَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ مَا بَرَحَتْ تُؤْثِرُ دَائِمًا جَمَالَ الظَّاهِرِ وَزِينَتَهُ فِي الرَّجَالِ وَالْأَشْيَاءِ ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَةِ الْمَنْفَعَةِ .

* * *

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَأَرَيْنِيهَا أَنِّي جَانِعٌ ، فَهَشْتُ نَهَشَ الْأَعْرَابِيِّ ، كَيْلًا تَقَطَّنَ إِلَى مَا أَرَدْتُ مِنْ زَعَمِ الْجُوعِ ؛ ثُمَّ أَخْبَيْتُ أَنْ أَسْتَدْعِيَ كَلَامَهَا وَأَسْتَمِيلَهَا لِأَنْ تَضْحَكَ وَتُسَرَّ ، فَأَغْيَرْتُ بِذَلِكَ مَا فِي نَفْسِهَا ، فَبَجِدْتُ كَلَامِي إِلَى نَفْسِهَا مَذْهَبًا ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! قَدْ تَحَرَّمْتُ بِطَعَامِكَ ، وَوَجَبَ حَقِّي عَلَيْكَ ، فَاسْئِرِي عَلَيَّ بِرَأْيِكَ فِيمَا أَسْتَصْلِحُ بِهِ زَوْجَتِي ، فَإِنَّهَا غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَهِيَ تَقُولُ لِي : وَاللَّهِ مَا يَقِينُ الْفَأْرُ فِي بَيْتِكَ إِلَّا لِحُبِّ الْوُطَنِ . . . وَإِلَّا فَهُوَ يَسْتَرْزِقُ مِنْ بُيُوتِ الْجِيرَانِ .

قَالَتْ : وَقَدْ أَعْدَمْتُ حَتَّى مِنْ كِسْرِ الْخُبْزِ وَالْجَزْرِ الْمَسْلُوقِ ؟ اللَّهُ مِنْكَ ! لَقَدْ اسْتَاصَلْتَهَا مِنْ جُدُورِهَا ؛ إِنَّ فِي أَمْرَاضِ النِّسَاءِ الْحُمَّى الَّتِي أَسْمُهَا الْحُمَّى ، وَالْحُمَّى الَّتِي أَسْمُهَا الزَّوْجُ . . .

فَقُلْتُ : اللَّهُ اللَّهُ يَا أُمُّ مُحَمَّدٍ ! لَقَدْ أَيْسَرْتَ بَعْدَنَا ، حَتَّى كَانَ الْخُبْرَ وَالْجَزَرَ الْمَسْلُوقَ شَيْءٌ قَلِيلٌ عِنْدَكَ مِنْ قَرِطٍ مَا يَتَيَسَّرُ ؛ أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ رِزْقَ الصَّالِحِينَ كَالصَّالِحِينَ أَنْفُسِهِمْ ، يَصُومُ عَنْ أَصْحَابِهِ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَ . . . وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَرْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنِسَاءِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَمَا خَيْرُ أَمْرَاءَ مُسْلِمَةٍ لَا تَكُونُ بِأَدْبِهَا وَخُلُقِهَا إِلَّا سَلَامِيَّ كَأَنَّهَا بِنْتُ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ؟

أَفَرَأَيْتِ لَوْ كُنْتُ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ أَفَكَانَ يَنْفُلُكَ هَذَا إِلَى أَحْسَنَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنْ الْعَيْشِ ؛ وَهَلْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مَلِكٍ تَعِيشُ فِي أَحْلَامِ نَفْسِهَا ، أَوْ بِنْتُ نَبِيٍّ تَعِيشُ فِي حَقَائِقِ نَفْسِهَا الْعَظِيمَةِ ؟

تَقُولِينَ : إِنِّي اسْتَأْصَلْتُ أُمُّ مُعَاوِيَةَ مِنْ جُذُورِهَا ؛ فَمَا أُمُّ مُعَاوِيَةَ وَمَا جُذُورُهَا ؟ أَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ قَالَتْ عَنْ زَوْجِهَا الْبَطْلِ الْعَظِيمِ : تَزَوَّجَنِي وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرِ فَرَسِهِ وَنَاصِحِهِ^(١) ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيهِ مُؤْنَتَهُ وَأَسُوسُهُ ، وَأَدُقُّ التَّوَى لِنَاصِحِهِ وَأَعْلِفُهُ ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ^(٢) وَأَعْجِنُ ؛ وَكُنْتُ أَنْفُلُ التَّوَى عَلَى رَأْسِي مِنْ ثَلَاثِي فَرَسِي ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بِجَارِيَةٍ ، فَكَفَّنْتَنِي سِيَّاسَةَ الْفَرَسِ ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي .

هَكَذَا يَتَّبِعِي لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّبْرِ وَالْإِبَاءِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْكِبَرِيَاءِ بِالنَّفْسِ عَلَى الْحَيَاةِ كَائِنَتْ مَا كَانَتْ ، وَالرِّضَا وَالْفَنَاعَةَ وَمُؤَاوَزَةَ الزَّوْجِ وَطَاعَتِهِ ، وَأَعْتِبَارَ مَا لَهْنٌ عِنْدَ اللَّهِ لَا مَا لَهْنٌ عِنْدَ الرَّجُلِ ، وَبِذَلِكَ يَرْتَفِعْنَ عَلَى نِسَاءِ الْمُلُوكِ فِي أَنْفُسِهِنَّ ، وَتَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ وَمَا فِي دَارِهَا شَيْءٌ ، وَعِنْدَهَا أَنَّ فِي دَارِهَا الْجَنَّةَ . وَهَلِ الْإِسْلَامُ إِلَّا هَذِهِ الرُّوحُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي لَا تَهْزُمُهَا الْأَرْضُ أَبَدًا ، وَلَا تُدْلِهَا أَبَدًا ، مَا دَامَ يَأْسُهَا وَطَمَعُهَا مُعْلَقَيْنِ بِأَعْمَالِ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا ، لَا بِشَهَوَاتِ الْجِسْمِ مِنَ الدُّنْيَا ؟

هَلِ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ الصَّحِيحُ الْإِسْلَامَ ، إِلَّا مِثْلُ الْحَرْبِ يَتَوَرَّ حَوْلَهَا غِبَارُهَا ، وَيَكُونُ

(١) التَّوَاضِيعُ : الْإِبِلُ يُسْتَقَى عَلَيْهَا ، وَاحِدُهَا نَاصِخٌ ، وَسَائِقُهَا النَّصَاحُ .

(٢) الْغَرْبُ : الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ تَتَّخِذُ مِنْ جِلْدِ التَّوَى .

مَعَهَا الشَّفَافُ وَالْبَاسُ وَالْقُوَّةُ وَالْاِخْتِمَالُ وَالصَّبْرُ ، إِذْ كَانَ مَفْرُوضًا عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا الضَّعْفَ ، وَأَنْ يَكُونَ الْيَقِينُ الْإِنْسَانِيَّ لَا الشَّكَّ ، وَأَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا الْبَاطِلَ ؟

وَهَلِ امْرَأَةُ الْمُسْلِمِ إِلَّا تِلْكَ الْمَفْرُوضُ عَلَيْهَا أَنْ تُمِدَّ هَذِهِ الْحَرْبَ بِأَبْطَالِهَا ، وَعَتَادِ أَبْطَالِهَا ، وَأَخْلَافِ أَبْطَالِهَا ؛ ثُمَّ أَلَا تَكُونُ دَائِمًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ أَبْطَالِهَا ؟ وَكَيْفَ تَلِدُ الْبَطْلَ إِذَا كَانَ فِي أَخْلَاقِهَا الضَّعْفُ وَالْمَطَامِعُ الدَّلِيلَةُ ، وَالضُّجُرُ وَالْكَسَلُ وَالْبِلَادَةُ ؟ أَلَا إِنَّ الْمَرْأَةَ كَالدَّارِ الْمَبْنِيَّةِ ، لَا يَسْهُلُ تَغْيِيرُ حُدُودِهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ خَرَابًا .

فَاعْتَرَضَنِي امْرَأَةُ الشَّيْخِ وَقَالَتْ : وَهَلِ بَاسٌ بِالْدارِ إِذَا وَسَّعَتْ حُدُودَهَا مِنْ ضَيْقٍ ؟ أَتَكُونُ الدَّارُ فِي هَذَا إِلَى نَقْصِهَا أَوْ تَمَامِهَا ؟

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فِكِدْتُ أَنْقَطِعُ فِي يَدِهَا ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمْضِيَ فِي أَسْتِمَالَتِهَا ، فَتَرَكْتُهَا هُنَيْهَةً ظَافِرَةً بَيْنِي ، وَأَرَيْتُهَا أَنَّهَا شَدَّتْنِي وَنَاقَا ، وَأَطْرَفْتُ كَالْمُفَكَّرِ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا : إِنَّمَا أَحَدْتُكَ عَنْ أُمِّ مُعَاوِيَةَ لِأَبْنِي مُعَاوِيَةَ ؛ وَتِلْكَ دَارٌ لَا تَمْلِكُ غَيْرَ أَحْجَارِهَا وَأَرْضِهَا فَبَاقِي شَيْءٍ تَسْعُ ؟

زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ عَامِلٌ بِمِلْكِكَ دُورَةَ قَدْ انْصَفَتْ بِهَا مَسَاكِينُ جَبَرَانِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ حَمَقَاءُ ، مَا تَرَالُ ضَيْقَةَ النَّفْسِ بِالْدارِ وَصِغَرِهَا ، كَأَنَّ فِي الْبِنَاءِ بِنَاءَ حَوْلِ قَلْبِهَا ؛ وَكَانَا فُقَيْرَيْنِ ، كَأُمِّ مُعَاوِيَةَ وَأَبْنِي مُعَاوِيَةَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ يَوْمًا : أَلَيْهَا الرَّجُلُ ! أَلَا تُوسَّعُ دَارَكَ هَذِهِ ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ أَيْسَرْتَ وَذَهَبَ عَنْكَ الضُّرُّ وَالْفَقْرُ ؟ قَالَ : فِيمَاذَا أَوْسَعُهَا وَمَا أَمْلِكُ شَيْئًا ، أَوْ مِسْكٌ بِمِثْنِي حَائِطًا وَبِشِمَالِي حَائِطًا فَأَمُدُّهُمَا أَبَاعِدُ بَيْنَهُمَا ... ؟ وَهَيْنِي مَلَكَتُ التَّوَسُّعَ وَنَفَقَتَهَا ، فَكَيْفَ لِي بِدُورِ الْجَبَرَانِ وَهِيَ مُلَاصِقَةٌ لَنَا بَيْتَ بَيْتٍ ؟

قَالَتِ الْحَمَقَاءُ : فَإِنَّا لَا نُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَالَمَ النَّاسُ أَنَّنا أَيْسَرْنَا ؛ فَأَهْدِمِ أَنْتِ الدَّارَ ، فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : لَوْلَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا وَأَتَّسَعُوا وَأَصْبَحَ الْمَالُ فِي يَدِهِمْ لَمَا هَدَمُوا ... !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَغَاطَنْتَنِي زَوْجَةُ الشَّيْخِ فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا هَمْسَةً مِنَ الضَّحِكِ لِمَثَلِ الْحَمَقَاءِ ، وَمَا أَخْتَرَعْتُهُ إِلَّا مِنْ أَجْلِهَا ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ عَمَلِي بِاطِلًا ؛ فَقُلْتُ : وَهَلِ

تَسْعُ أُمُّ مُعَاوِيَةَ مِنْ فَقْرِهَا إِلَّا كَمَا اتَّسَعَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ فِي صَلَاحِهِ ؟

قَالَتْ : وَمَا خَبِرُ الْأَعْرَابِيِّ ؟

قُلْتُ : دَخَلَ عَلَيْنَا الْمَسْجِدَ يَوْمًا أَعْرَابِيٌّ جَاءَ مِنَ الْبَادِيَةِ ، وَقَامَ يُصَلِّي فَاطَالَ الْقِيَامُ وَالنَّاسُ يَرْمُقُونَهُ ، ثُمَّ جَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ ، ثُمَّ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ يَمْدَحُونَهُ وَيَصِفُونَهُ بِالصَّلَاحِ ؛ فَقَطَعَ الْأَعْرَابِيُّ صَلَاتَهُ وَقَالَ لَهُمْ : مَعَ هَذَا إِنِّي صَائِمٌ . . .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَمَا تَمَالَكَتَ أَنْ ضَحَكَتَ ، وَسَمِعْتَ صَوْتَ نَفْسِهَا ، وَمَيَّرْتَ فِيهِ الرَّضَى مُقْبِلًا عَلَى الصَّلَاحِ الَّذِي أَتَسَبَّبُ لَهُ . ثُمَّ قُلْتُ :

وَإِذَا ضَاقَتِ الدَّارُ فَلِمَ لَا تَسْعُ النَّفْسُ الَّتِي فِيهَا ؟ الْمَرْأَةُ وَخَدَهَا { هِيَ } الْجَوْ
الْإِنْسَانِي لِلدَّارِ زَوْجِهَا ، فَوَاحِدَةٌ تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا الرُّوضَةَ نَاصِرَةً مُتَرَوِّحَةً بِاسْمَةٍ ،
وَإِنْ كَانَتْ الدَّارُ قِحْطَةً مَسْحُوتَةً لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ ؛ وَأَمْرَةٌ تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا مِثْلَ
الصَّخْرَاءِ بِرِمَالِهَا وَقِيْظِهَا وَعَوَاصِفِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ الدَّارُ فِي رِيَاسِهَا وَمَتَاعِهَا كَالْجَنَّةِ
الْمُسْتَنْدَسِيَةِ ؛ وَوَاحِدَةٌ تَجْعَلُ الدَّارَ هِيَ الْقَبْرِ . وَالْمَرْأَةُ حَقُّ الْمَرْأَةِ هِيَ الَّتِي تَتْرُكُ قَلْبَهَا فِي
جَمِيعِ أَحْوَالِهِ عَلَى طَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَجْعَلُ هَذَا الْقَلْبَ لِزَوْجِهَا مِنْ جِنْسِ مَا هِيَ فِيهِ
مِنْ عَيْنِيَّةٍ : مَرَّةً ذَهَبًا ، وَمَرَّةً فِضَّةً ، وَمَرَّةً نُحَاسًا أَوْ خَشَبًا أَوْ تُرَابًا ، فَإِنَّمَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ مَعَ
رَجُلِهَا مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِ الْأُمَّةِ مَعًا ؛ فَعَلَيْهَا حَقٌّ لَا حَقٌّ وَاحِدٌ ، أَصْغَرُهُمَا كَبِيرٌ . وَمِنْ
ثُمَّ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ أَنْ تَسْتَشْعِرَ الذَّاتَ الْكَبِيرَةَ مَعَ ذَاتِهَا ، فَإِنْ أَغْضَبَهَا الرَّجُلُ
بِهَفْوَةٍ مِنْهُ ، تَجَافَتْ لَهُ عَنْهَا ، وَصَفَحَتْ مِنْ أَجْلِ نِظَامِ الْجَمَاعَةِ الْكُبْرَى ؛ وَعَلَيْهَا أَنْ تَحْكُمَ
حِينَئِذٍ بِطَبِيعَةِ الْأُمَّةِ لَا بِطَبِيعَةِ نَفْسِهَا ، وَهِيَ طَبِيعَةٌ تَأْتِي التَّفَرُّقَ وَالْإِنْفِرَادَ ، وَتَقُومُ عَلَى
الْوَاجِبِ ، وَتُضَاعِفُ هَذَا الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْأَةِ بِخَاصَّةٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَضَعُ الْأُمَّةَ مُمَثَّلَةً فِي النَّسْلِ بَيْنَ كُلِّ رَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ ، وَيُوجِبُ هَذَا الْمَعْنَى
إِنْجَابًا ، لِيَكُونَ فِي الرَّجُلِ وَأَمْرَأَتِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، يَجْمَعُهُمَا وَيُقَيِّدُ أَحَدَهُمَا
بِالْآخَرِ ، وَيَضَعُ فِي بَهِيمَتَيْهِمَا الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَتَّفِقَ وَتَخْتَلِفَ ، إِنْسَانِيَّةً مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ
تَتَّفِقَ وَلَا تَخْتَلِفَ .

وَمَتَى كَانَ الدِّينُ بَيْنَ كُلِّ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ ، فَمَهْمَا اخْتَلَفَا وَتَدَابَرَا وَتَعَقَّدَتْ نَفْسَاهُمَا ، فَإِنَّ كُلَّ عُقْدَةٍ لَا تَجِيءُ إِلَّا وَمَعَهَا طَرِيقَةٌ حَلَّهَا ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، وَهُوَ الْيُسْرُ وَالْمُسَاهَلَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْمَغْفِرَةُ وَلِئِنْ الْقَلْبَ وَخَشِيَةُ اللَّهِ ؛ وَهُوَ الْعَهْدُ وَالْوَفَاءُ وَالْكَرَمُ وَالْمُؤَاخَاةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَهُوَ اتِّسَاعُ الذَّاتِ وَازْتِفَاعُهَا فَوْقَ كُلِّ مَا تَكُونُ بِهِ مُنْحَطَّةً أَوْ ضَيِّقَةً .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : فَحَقُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ عَلَى امْرَأَتِهِ الْمُسْلِمَةِ هُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ مِنَ الْأُمَةِ ، ثُمَّ مِنَ الرَّجُلِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ الْمَرْأَةِ وَكَرَمِهَا ، ثُمَّ مِمَّا بَيْنَهُمَا مَعًا . وَلَيْسَ عَجِيبًا بَعْدَ هَذَا مَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لَوْ كُنْتُ امْرَأً أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ ، لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ » . [أبو داود ، رقم : ٢١٤٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٤٦٣] .

وَهَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ : يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ! لَوْ تَعَلَّمْنَ بِحَقِّ أَزْوَاجِكُنَّ عَلَيْكُنَّ ، لَجَعَلْتُ الْمَرْأَةَ مِنْكُنَّ تَمْسُحُ الْغُبَارَ عَنْ قَدَمِي زَوْجِهَا بِخُرٍّ وَجْهَهَا .

* * *

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَكَانَ الشَّيْخُ قَدْ اسْتَبْطَأَنِي وَقَدْ تَرَكْتُهُ فِي فَنَاءِ الدَّارِ ، وَكُنْتُ زَوَّزْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا طَوِيلًا عَنْ فَرْوَةِ الْحَقِيرَةِ الَّتِي يَلْبَسُهَا ، فَيَكُونُ فِيهَا مِنْ بَذَاذَةِ الْهَيْئَةِ كَالْأَجِيرِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ ، فَظَهَرَ الْجُوعُ حَتَّى عَلَى ثِيَابِهِ . . . وَقَدْ مَرَّ بِالشَّيْخِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسَوَّدَةِ^(١) وَكَانَ الشَّيْخُ فِي فَرْوَتِهِ هَذِهِ جَالِسًا فِي مَوْضِعٍ فِيهِ خَلِيجٌ مِنَ الْمَطَرِ ، فَجَاءَهُ الْمُسَوَّدُ فَقَالَ : قُمْ فَأَعْبُرْ بِي هَذَا الْخَلِيجَ . وَجَذَبَهُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ وَرَكِبَهُ وَالشَّيْخُ يَضْحَكُ .

وَكَُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لِأُمِّ مُحَمَّدٍ : إِنَّ الصَّخْرَ فِي السَّمَاءِ لَا يَكُونُ فَقْرًا فِي السَّمَاءِ ، وَإِنَّ فَرْوَةَ الشَّيْخِ تَعْرِفُ الشَّيْخَ أَكْثَرَ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي لَذَاتِ الدُّنْيَا ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يَضَعُ قَدَمَيْهِ فِي الطِّينِ لِيَمْسِيَ ، أَكْبَرُ هَمِّهِ أَلَّا يُجَاوِزَ الطِّينَ قَدَمَيْهِ .

(١) الَّذِينَ يَلْبَسُونَ السَّوَادَ ، وَهُمْ شِيعَةُ الْعَبَّاسِيِّينَ .

وَلَكِنَّ صَوْتَ الشَّيْخِ أَرْتَفَعَ : هَلْ عَلَيْكُمْ إِذْنٌ ؟

قَالَ [أَبُو] مُعَاوِيَةَ : فَبَدَزْتُ وَقُلْتُ : بِسْمِ اللَّهِ أَذْخُلُ ؛ كَأَنِّي أَنَا الزَّوْجَةُ ... وَسَمِعْتُ
هَمْسًا مِنَ الصَّحْبِكِ ؛ وَدَخَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِي ، وَغَمَزَنِي فِي ظَهْرِي غَمَزَةً ؛
فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ! إِنَّ شَيْخَكَ فِي وَرَعِهِ وَزُهْدِهِ لَيُسْبِعُهُ مَا يُسْبِعُ الْهَدُودُ ، وَيَرْوِيهِ
مَا يَرْوِي الْعُصْفُورُ ، وَلَئِنْ كَانَ مُتَهَدِّمًا فَإِنَّهُ جَبَلٌ عِلْمٍ ، « وَلَا تَنْظُرِي إِلَى عَمَشِ عَيْنَيْهِ ،
وَحُمُوشَةِ سَاقَيْهِ ، فَإِنَّهُ إِمَامٌ وَلَهُ قَدْرٌ » (١) .

فَصَاحَ الشَّيْخُ : قُمْ أَخْزَاكَ اللَّهُ ، مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ تُعَرِّفَهَا عُيُوبِي !

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَلَكِنِّي لَمْ أَقُمْ ، بَلْ قَامَتِ زَوْجَةُ الشَّيْخِ فَقَبَّلَتْ يَدَهُ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ هُوَ الْوَارِدُ فِي النَّارِخِ ، وَعَلَيْهِ بَيِّنَاتُ هَذِهِ الْقِصَّةِ .

قُبْحُ جَمِيلٍ (*)

دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ ، كَاتِبُ ابْنِ طُولُونَ الْبَصْرَةِ ، فَصَنَعَ لَهُ مُسْلِمُ بْنُ عِمْرَانَ التَّاجِرِ الْمَتَادِبَ ، صَنِيعًا دَعَا إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ وَجُوهِ التُّجَّارِ وَأَعْيَانِ الْأَدْبَاءِ ، فَجَاءَ ابْنًا صَاحِبِ الدَّعْوَةِ ، وَهُمَا غُلَامَانِ ، فَوْقًا بَيْنَ يَدَيَّ أَيْنِهِمَا ، وَجَعَلَ ابْنُ أَيْمَنَ يُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا ، وَيَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِمَا وَبَرِّتِهِمَا وَرُؤُوسِهِمَا ، حَتَّى كَانَمَا أَفْرِغَا فِي الْجَمَالِ وَزِينَتِهِ إِفْرَاغًا ، أَوْ كَانَمَا جَاءَا مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ لَا مِنْ أَبْوَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ هُمَا قَدْ نَبَتَا فِي مِثْلِ تَهَاوِيلِ الزَّهْرِ مِنْ زِينَتِهِ الَّتِي تُبْدِعُهَا الشَّمْسُ ، وَيَصْفُلُهَا الْفَجْرُ ، وَيَتَنَدَّى بِهَا رُوحُ الْمَاءِ الْعَذْبِ ؛ وَكَانَ لَا يَصْرِفُ نَظْرَهُ عَنْهُمَا إِلَّا رَجَعَ بِهِ النَّظَرُ ، كَأَنَّ جَمَالَهُمَا لَا يَنْتَهِي فَمَا يَنْتَهِي الْإِعْجَابُ بِهِ .

وَجَعَلَ أَبُوهُمَا يُسَارِقُهُ النَّظَرُ مُسَارِقَةً ، وَيَبْدُو كَالْمُشَاغِلِ عَنْهُ ، لِيَدَعَ لَهُ أَنْ يَتَوَسَّمَ وَيَتَأَمَّلَ مَا شَاءَ ، وَأَنْ يَمْلَأَ عَيْنَيْهِ مِمَّا أَعْجَبَهُ مِنْ لُؤْلُؤِيَّتِهِ وَمَخَابِلِهِمَا ؛ بَيِّنًا أَنَّ الْحُسْنَ الْفَاتِنَ يَأْبَى دَائِمًا إِلَّا أَنْ يَسْمَعَ مِنْ نَاطِرِهِ كَلِمَةَ الْإِعْجَابِ بِهِ ، حَتَّى لَيَنْطِقُ الْمَرْءُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ أَخْيَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ لِسَانِهِ أَخْذًا ، وَحَتَّى لِيَحْسُ أَنَّ غَرِيزَةً فِي دَاخِلِهِ كَلَمَهَا الْحُسْنُ مِنْ كَلَامِهِ فَرَدَّتْ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِهَا .

قَالَ ابْنُ أَيْمَنَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ؛ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ دُمَيِّينَ لَا تُفْتَحُ الْأَعْيُنُ عَلَى أَجْمَلٍ مِنْهُمَا ؛ وَلَوْ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ وَالْبَسْتَهُمَا الْمَلَائِكَةُ نِيَابًا مِنَ الْعَجَّةِ ، مَا حَسِبْتُ أَنْ تَضَعَّ الْمَلَائِكَةُ أَظْرَفَ وَلَا أَحْسَنَ مِمَّا صَنَعْتَ أَتُفُفًا .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ ، وَقَالَ : أَحِبُّ أَنْ تُعَوِّدَهُمَا . فَمَدَّ الرَّجُلُ يَدَهُ وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا ، وَعَوَّدَهُمَا بِالْحَدِيثِ الْمَثُورِ ، وَدَعَا لَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : مَا أَرَاكَ إِلَّا اسْتَجَذْتَ الْأُمَّ فَحَسَنَ نَسْلُكَ ، وَجَاءَا كَاللُّؤْلُؤِ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، صِغَارُهُ مِنْ كِبَارِهِ ؛ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا تَكُونَ قَدْ

تَرَوُجَتْ ابْنَةُ قَيْصَرَ فَأَوْلَدَتْهَا هَذَيْنِ ، وَأَخْرَجَتْهُمَا مِنِّي لَكَ فِي صِبْغَتِهَا الْمُلُوكِيَّةُ ^(١) مِنْ
الْحُسْنِ وَالْأَدَبِ وَالزُّوْنِقِ ، وَمَا أَرَى مِنْهُمَا يَكُونَانِ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا كَانَ حَوْلُهُمَا جَلَالُ
الْمُلْكِ وَوَقَارُهُ ، مِمَّا يَكُونُ حَوْلَهُمَا مِنْ نُورِ تِلْكَ الْأُمِّ .

فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ إِذَا قُلْتَ لَكَ إِنِّي لَا أَحِبُّ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ
الَّتِي تَصِفُ ، وَلَيْسَ بَيْنِي هَوًى إِلَّا فِي امْرَأَةٍ دَمِيمَةٍ هِيَ بِدَمَامَتِهَا أَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَيَّ ، وَأَخْفُهُنَّ
عَلَى قَلْبِي ، وَأَصْلَحُهُنَّ لِي ، مَا أَعْدِلُ بِهَا ابْنَةَ قَيْصَرَ وَلَا ابْنَةَ كِسْرَى .

فَبَقِيَ ابْنُ أَيْمَنَ كَالْمَشْدُودِ مِنْ غَرَابَةِ مَا يَسْمَعُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْكُلُ الطَّيْنَ
وَيَسْتَطِيبُهُ لِفَسَادِ فِي طَبْعِهِ ، فَلَا يَخْلُو السُّكَّرُ فِي فَمِهِ وَإِنْ كَانَ مُكْرَرًا خَالِصَ الْخَلَاوَةِ ؛
وَرَأَى أَشَدَّ الرَّئَاءِ لِأُمِّ الْغُلَامِينَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ الْجَلْفُ قَدْ ضَارَهَا ^(٢) بِتِلْكَ الدَّمِيمَةِ أَوْ
تَسَرَّى بِهَا عَلَيْهَا ؛ فَقَالَ وَمَا يَمْلِكُ نَفْسُهُ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَفَرْتَ النُّعْمَةَ ، وَغَدَرْتَ وَجَحَدْتَ
وَبَالَغْتَ فِي الضَّرِّ ، وَإِنَّ أُمَّ هَذَيْنِ الْغُلَامِينَ لَامْرَأَةٌ فَوْقَ النِّسَاءِ ، إِذْ لَمْ يَتَبَيَّنْ فِي وَلَدَيْهَا أَثَرُ
مِنْ تَغَيَّرِ طَبْعِهَا وَكُدُورِ ^(٣) نَفْسِهَا ، وَقَدْ كَانَ يَسْعُهَا الْعُذْرُ لَوْ جَعَلَتْهُمَا سَخَنَةً عَيْنَ لَكَ ،
وَأَخْرَجَتْهُمَا لِلنَّاسِ فِي مَسَاوِنِكَ لَا فِي مَحَاسِنِكَ ، وَمَا أَذْرِي كَيْفَ لَا تَنْدُ عَلَيْكَ ، وَلَا كَيْفَ
صَلَحْتَ بِمِقْدَارٍ مَا فَسَدْتَ أَنْتَ ، وَأَسْتَقَامْتَ بِمِقْدَارٍ مَا التَّوَيْتَ ، وَعَجِيبُ وَاللَّهِ شَأْنُكُمَا !
إِنَّهَا لَتَغْلُو فِي كَرَمِ الْأَصْلِ وَالْعَقْلِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْخُلُقِ ، كَمَا تَغْلُو أَنْتَ فِي الْهَيْمَةِ وَالثَّرَقِ
وَالْعُدْرِ وَسُوءِ الْمَكَافَاةِ .

قَالَ مُسْلِمٌ : فَهُوَ وَاللَّهِ مَا قُلْتُ لَكَ ، وَمَا أَحِبُّ إِلَّا امْرَأَةً دَمِيمَةً قَدْ ذَهَبَتْ بَيْنِي كُلُّ
مَذْهَبٍ ، وَأَنْتَ بَيْنِي كُلِّ جَمِيلَةٍ فِي النِّسَاءِ ، وَلَكِنْ أَخَذْتُ أَصِفُهَا لَكَ لَمَّا جَاءَتْ الْأَلْفَاظُ إِلَّا
مِنَ الْقُبْحِ وَالشُّوْهِ وَاللَّدَامَةِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَا تَجِيءُ إِلَّا دَالَّةٌ عَلَى أَجْمَلِ مَعَانِي الْمَرْأَةِ
عِنْدَ رَجُلِهَا فِي الْحَظْوَةِ وَالرَّضَى وَجَمَالِ الطَّبْعِ ؛ وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَلْتَمِمْ أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ فِي

(١) تَجِيءُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالنَّارِخِ عَلَى غَيْرِ قَاعِدَةِ النَّسَبِ ، وَهُوَ الْأَفْصَحُ فِي رَأْيِنَا ، وَمِنْ
ذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْإِمَامِ أَبِي جُنَيْدٍ كِتَابَهُ : « التَّضَرُّيفُ الْمُلُوكِيُّ » .

(٢) الْمَضَارَّةُ : اتِّجَادُ الضَّرَّةِ عَلَى الزُّوْجَةِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « كَدَر » بَدَلًا مِنْ : « كُدُور » .

الْقُبْحُ هِيَ زِيَادَةُ فِي الْحُسْنِ وَزِيَادَةُ فِي الْحُبِّ ، وَكَيْفَ يَكُونُ اللَّفْظُ الشَّائِئُ ، وَمَا فِيهِ لِنَفْسِي إِلَّا الْمَعْنَى الْجَمِيلُ ، وَإِلَّا الْحِسَّ الصَّادِقَ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَإِلَّا أَهْتِزَّازُ وَالطَّرَبُ لِهَذَا الْحِسِّ ؟
قَالَ ابْنُ أَيْمَنَ : وَاللَّهِ إِنْ أَرَاكَ إِلَّا شَيْطَانًا مِنَ الشَّيَاطِينِ ، وَقَدْ عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الدَّمِيمَةِ زَوْجَتَكَ الَّتِي كَانَتْ لَكَ فِي الْجَحِيمِ ، لِتَجْتَمِعَا مَعًا عَلَى تَغْذِيبِ تِلْكَ الْحَوَرَاءِ الْمَلَائِكَةِ أَمْ هَذَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ ، وَمَا أَذْرِي كَيْفَ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَكُمَا بَعْدَ هَذَا الَّذِي أَذْخَلْتَ مِنَ الْقُبْحِ وَالْدَّمَامَةِ فِي مَعَاشِرَتِهَا وَمُعَايَشَتِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ جَعَلْتَهَا لَا تَنْظُرُ إِلَيْكَ إِلَّا بِنَظَرِهَا إِلَى تِلْكَ . أَقْبِهِيْمَةُ هِيَ لَا تَغْفِلُ ، أَمْ أَنْتَ رَجُلٌ سَاحِرٌ ، أَمْ فِيكَ مَا لَيْسَ فِي النَّاسِ ، أَمْ أَنَا لَا أَفْقَهُ شَيْئًا ؟

فَصَحَّحَكَ مُسْلِمٌ وَقَالَ : إِنْ لِي خَبْرًا عَجَبِيًّا : كُنْتُ أَنْزِلُ الْأُبْلَةَ وَأَنَا مُتَعَبٌ^(١) ، فَحَمَلْتُ مِنْهَا تِجَارَةً إِلَى الْبَصْرَةِ فَرَبِخْتُ ، وَلَمْ أَزَلْ أَحْمِلُ مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ فَارْبِخْ وَلَا أَخْسِرْ ، حَتَّى كَثُرَ مَالِي ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أَتَسَّعَ فِي الْأَفَاقِ الْبَعِيدَةِ لِأَجْمَعَ التِّجَارَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَأَبْسُطَ يَدَيَّ لِلْمَالِ حَيْثُ يَكْثُرُ وَحَيْثُ يَقَلُّ ، وَكُنْتُ فِي مِيعَةِ الشَّبَابِ وَعُغْلَوَائِهِ ، وَأَوَّلِ هَجْمَةِ الْفُتُوَّةِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَقُلْتُ : إِنْ فِي ذَلِكَ خِلَالًا ، فَأَرَى الْأَمَمَ فِي بِلَادِهَا وَمَعَاشِهَا ، وَأَتَقَلَّبُ فِي التِّجَارَةِ ، وَأَجْمَعُ الْمَالَ وَالطَّرَائِفَ ، وَأُفِيدُ عِظَةً وَعِبْرَةً ، وَأَعْلَمُ عِلْمًا جَدِيدًا ، وَلَعَلَّنِي أُصِيبَ الزَّوْجَةُ الَّتِي أَشْتَهَيْتُهَا^(٢) وَأَصَوِّرُ لَهَا فِي نَفْسِي التَّصَاوِيرَ ، فَإِنْ أَمَرَنِي مِنْ أَوَّلِهِ كَانَ إِلَى عُلُوِّ فَلَا أُرِيدُ إِلَّا الْعَايَةَ ، وَلَا أَرْمِي إِلَّا لِلسَّبَبِ ، وَلَا أَرْضَى أَنْ أَتَخَلَّفَ فِي جَمَاعَةِ النَّاسِ . وَكَأَنِّي لَمْ أَرِ فِي الْأُبْلَةِ وَلَا فِي الْبَصْرَةِ أَمْرًا يَتِلْكَ التَّصَاوِيرَ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَأْخُذْهَا عَيْنِي ، فَتُعْجِبَنِي ، فَتَضِلَّ لِي ، فَاتَزَوَّجَ بِهَا ؛ وَطَمِعْتُ أَنْ أَسْتَنْزِلَ نَجْمًا مِنْ تِلْكَ الْأَفَاقِ أَحْرَزُهُ فِي دَارِي ؛ فَمَا زِلْتُ أَرْمِي مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ حَتَّى دَخَلْتُ بَلْعَ^(٣) مِنْ أَجْلِ مَدُنِ خُرَاسَانَ

(١) أَي : مُتَكَسِّبٌ لِيَعْنِي لَا لِيَعْتَنِي ؛ وَهَذَا يُسَمَّى الْعَامَّةَ : الْمُسْتَسَبُّ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَشْتَهَيْتُهَا » بَدَلًا مِنْ : « أَشْتَهَيْتُهَا » .

(٣) مَوْقِعُهَا الْيَوْمَ فِي بِلَادِ الْأَفْغَانِ . [وَهِيَ الَّتِي يَقَالُ لَهَا الْيَوْمَ : مَرَاؤُ شَرِيف ؛ وَبَلْعُ نَقْعٌ بِالْقُرْبِ مِنْهَا ، وَأَصْبَحَ مَرَاؤُ شَرِيفَ هُوَ الْعَلَمُ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَسَبَبُ التَّسْمِيَةِ أَنَّ بَعْضَ الشَّيْعَةِ يَغْتَفِلُونَ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مَذْفُونٌ هُنَاكَ] .

وَأَوْسَعَهَا غَلَّةً ؛ تُحْمَلُ غَلَّتَهَا إِلَى جَمِيعِ خُرَاسَانَ وَإِلَى خُورَازْمَ ؛ وَفِيهَا يَوْمِيذٌ - كَانَ -
عَالِمُهَا وَإِمَامُهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيّ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ اسْمَهُ فِي الْبَصْرَةِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ نَزَلَهَا فِي
رَحْلَتِهِ وَأَكْثَرَ الْكِتَابَةِ بِهَا عَنِ الرِّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ ؛ فَاسْتَحَقَّتْنِي إِلَيْهِ نَزِيَّةٌ مِنْ شَوْفِي إِلَى الْوَطَنِ ،
كَأَنَّ فِيهِ بَلَدِي وَأَهْلِي ؛ فَذَهَبْتُ إِلَيْ حَلَقَتِهِ ، وَسَمِعْتُهُ يُفَسِّرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : « سَوْدَاءُ وَلَوْ
خَيْرٌ مِنْ حَسَنَاءَ لَا تَلِدُ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٣٤١] . فَمَا كَانَ الشَّيْخُ إِلَّا فِي سَحَابَةٍ ،
وَمَا كَانَ كَلَامُهُ إِلَّا وَخِيًا يُوحِي إِلَيْهِ . سَمِعْتُ وَاللَّهِ كَلَامًا لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهِ ، وَأَنَا مِنْ أَوَّلِ
نَشَاتِي أَجْلِسُ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ ، وَأُدَاخِلُهُمْ فِي فُتُونٍ مِنَ الْمَذَاكِرَةِ ، فَمَا سَمِعْتُ وَلَا
قَرَأْتُ مِثْلَ كَلَامِ الْبَلْخِيّ ، وَلَقَدْ حَفِظْتُهُ حَتَّى مَا تَفُوتُنِي لَفْظَةً مِنْهُ ، وَبَقِيَ هَذَا الْكَلَامُ يَعْمَلُ
فِي نَفْسِي عَمَلَهُ ، وَيَذْفُعُنِي إِلَى مَعَانِيهِ دَفْعًا ، حَتَّى أَتَى عَلَيَّ مَا سَأُحَدِّثُكَ بِهِ ، إِنَّ الْكَلِمَةَ فِي
الذَّهْنِ لَتُوجَدُ الْحَادِثَةَ فِي الدُّنْيَا .

قَالَ ابْنُ أَبِي أَيُّمٍ : أَطَوَّ خَبْرَكَ إِنْ شِئْتَ ، وَلَكِنْ أَذْكَرَ لِي كَلَامُ الْبَلْخِيّ ، فَقَدْ تَعَلَّقْتُ
نَفْسِي بِهِ .

قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ : أَمَا فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ فَهُوَ مِنْ
مُعْجَزَاتِ بَلَاغَةِ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ الْأَدَبِ وَأَبْرَعِهِ ، مَا عَلِمْتُ أَحَدًا تَنَبَّأَ إِلَيْهِ ؛
فَإِنَّهُ ﷺ لَا يُرِيدُ السَّوْدَاءَ بِخُصُوصِهَا ، وَلَكِنَّهُ كَتَبَ بِهَا عَمَّا تَحْتَ السَّوَادِ ، وَمَا فَوْقَ
السَّوَادِ ، وَمَا هُوَ إِلَى السَّوَادِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَقَبَّحُهَا الرِّجَالُ فِي خِلَقَةِ النِّسَاءِ وَصُورِهِنَّ ؛
فَالطَّفُ التَّعْبِيرِ وَرَقَّ بِهِ ، رَفَعًا لِشَأْنِ النِّسَاءِ أَنْ يَصِفَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ بِالْقُبْحِ وَالْذَّمَامَةِ ، وَتَنْزِيهَا
لِهَذَا الْجِنْسِ الْكَرِيمِ ، وَتَنْزِيهَا لِللِّسَانِ الْتَبَوُّيِّ ؛ كَأَنَّهُ ﷺ يَقُولُ : إِنْ ذَكَرْتُ قُبْحَ الْمَرْأَةِ هُوَ فِي
نَفْسِهِ قُبْحٌ فِي الْأَدَبِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ أُمُّ أَوْ فِي سَبِيلِ الْأُمُومَةِ ؛ « الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ
الْأُمَمَاتِ » [« الجامع الصغير » ، رقم : ٣٦٤٢] ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَا يُخَيَّلُ
فِي الْحُسْنِ تَحْتَ قَدَمِي امْرَأَةٍ ، ثُمَّ يَجُوزُ أَدَبًا أَوْ عَقْلًا أَنْ تُوصَفَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِالْقُبْحِ .

أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَالْتَّصُّ عَلَى أَنَّ مِنْ كَمَالِ آدَبِ الرَّجُلِ إِذَا كَانَ رَجُلًا أَلَّا يَصِفَ امْرَأَةً
بِقُبْحِ الصُّورَةِ الْبَتَّةِ ، وَأَلَّا يَجْرِيَ فِي لِسَانِهِ لَفْظُ الْقُبْحِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ، مَوْصُوفًا بِهِ هَذَا
الْجِنْسُ الَّذِي مِنْهُ أُمُّهُ : أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُمَزَّقَ وَجْهُهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَارِحَةِ ؟

وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يُفَضِّلُونَ لِمَعَانِي الدِّمَامَةِ فِي النِّسَاءِ أَلْفَاظًا كَثِيرَةً ؛ إِذْ كَانُوا لَا يَزِفَعُونَ الْمَرْأَةَ عَنِ السَّائِمَةِ وَالْمَاشِيَةِ ؛ أَمَّا أَكْمَلُ الْخَلْقِ ﷺ ، فَمَا زَالَ يُوصِي بِالنِّسَاءِ وَيَرْفَعُ شَأْنَهُنَّ حَتَّى كَانَ آخِرُ مَا وَصَّى بِهِ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ ، إِلَى أَنْ تَلْجُلَجَ لِسَانُهُ وَخَفِيَ كَلَامُهُ ؛ جَعَلَ يَقُولُ : « الصَّلَاةُ ... الصَّلَاةُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، لَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ ؛ اللَّهُ اللَّهُ فِي النِّسَاءِ » . [قال العراقي رحمه الله في « تخریج أحاديث الإحياء » : أخرجه النسائي في « الكبرى » انتهى . وراجع ابن ماجه ، رقم : ٢٦٩٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١١٧٥٩ ؛ وأبو داود ، رقم : ٥١٥٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٦٩٨ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٥٨٦] .

قَالَ الشَّيْخُ : كَانَ الْمَرْأَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ إِنَّمَا هِيَ صَلَاةٌ تَتَعَبَّدُ بِهَا الْفَضَائِلُ ، فَوَجَبَتْ رِعَايَتُهَا وَتَلْقِينُهَا بِحَقِّهَا ؛ وَقَدْ ذَكَرَهَا بَعْدَ الرَّفِيقِ ، لِأَنَّ الزَّوْاجَ بِطَبِيعَتِهِ نَوْعٌ رَقٌّ ؛ وَلَكِنَّهُ خَتَمَ بِهَا وَقَدْ بَدَأَ بِالصَّلَاةِ ، لِأَنَّ الزَّوْاجَ فِي حَقِيقَتِهِ نَوْعٌ عِبَادَةٍ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَلَوْ أَنَّ أُمَّكَ كَانَتْ دَمِيمَةً شَوْهَاءَ فِي أَغْيُنِ النَّاسِ ، لَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ فِي عَيْنِ أَوْفَالِهَا أَجْمَلُ مِنْ مَلِكَةٍ عَلَى عَرْشِهَا ؛ فَبِئْسَ الدُّنْيَا مَنْ يَصِفُهَا بِالْجَمَالِ صَادِقًا فِي حِسِّهِ وَلَفْظِهِ ، لَمْ يَكْذِبْ فِي أَحَدِهِمَا ؛ فَقَدْ انْتَفَى الْقُبْحُ إِذَا ، وَصَارَ وَصْفُهَا بِهِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ تَكْذِيبًا لَوْصِفُهَا فِي رَأْيِ النَّفْسِ ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْوُصْفَانِ قَدْ تَعَارَضَا ، فَلَا جَمَالَ وَلَا دِمَامَةَ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَمَّا فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ ، فَهُوَ ﷺ يَقْرُرُ لِلنَّاسِ أَنْ كَرَّمَ الْمَرْأَةَ بِأُمُومَتِهَا ، فَإِذَا قِيلَ : إِنَّ فِي صُورَتِهَا قُبْحًا ، فَالْحَسَنَاءُ الَّتِي لَا تَلِدُ أَفْبَحُ مِنْهَا فِي الْمَعْنَى . وَانْظُرْ أَنْتَ كَيْفَ يَكُونُ الْقُبْحُ الَّذِي يُقَالُ إِنَّ الْحُسْنَ أَفْبَحُ مِنْهُ ... !

فَمِنْ أَيْنَ تَنَاوَلْتَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهُ دَائِرًا عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَا قُبْحُ فِي صُورَةِ الْمَرْأَةِ ، وَأَنَّهَا مُنْزَهَةٌ فِي لِسَانِ الْمُؤْمِنِ أَنْ تُوصَفَ بِهَذَا الْوُصْفِ ، فَإِنَّ كَلِمَاتِ الْقُبْحِ وَالْحُسْنِ لُغَةٌ بِهَيْمِيَّةٌ تَجْعَلُ حُبَّ الْمَرْأَةِ حُبًّا عَلَى طَرِيقَةِ الْبَهَائِمِ ، مِنْ حَيْثُ تَفْضُلُهَا طَرِيقَةُ الْبَهَائِمِ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ عَلَى أَحْتِيَاسِهِ فِي غَرَائِزِهِ وَشَهْوَاتِهِ ، لَا يَتَكَذَّبُ فِي الْغَرِيزَةِ وَلَا فِي الشَّهْوَةِ بِتَلَوْنِيهَا أَلْوَانًا مِنْ خِيَالِهِ ، وَوَضْعِهَا مَرَّةً فَوْقَ الْحَدِّ ، وَمَرَّةً دُونَ الْحَدِّ ^(١) .

فَأَكْبَرُ الشَّانَ هُوَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَبِيرًا فِي إِنْسَانِيَّتِهِ ، لَا الَّتِي تَجْعَلُهُ كَبِيرًا فِي حَيَوَانِيَّتِهِ ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الثَّانِيَةُ هِيَ الَّتِي يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى وَضْفِهَا بِالْجَمَالِ فَهِيَ الْقَبِيحَةُ لَا الْجَمِيلَةُ ، إِذْ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الصَّحِيحِ الْإِيمَانَ أَنْ يَعِيشَ فِيمَا يَصْلُحُ بِهِ النَّاسُ ، لَا فِيمَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ النَّاسُ ؛ فَإِنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الْحُدُودِ الضِّيقَةِ لِلْأَلْفَاظِ ، إِلَى الْحَقَائِقِ الشَّامِلَةِ ، هُوَ الْأَسْتِقَامَةُ بِالْحَيَاةِ عَلَى طَرِيقِهَا الْمُؤَدِّي إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا .

وَهَذَا ذَاتَانِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ : إِحْدَاهُمَا غَائِبَةٌ عَنْهُ ، وَالْأُخْرَى حَاضِرَةٌ فِيهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَصِلُ مِنْ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْضُرَ السَّمَاءُ فِي الْوَسْطَةِ فِي هَذِهِ التَّرَايِيَةِ الضِّيقَةِ ؛ وَالْقُبْحُ إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ تَرَايِيٌّ يُشَارُ بِهِ إِلَى صُورَةٍ وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّشْوِيهِ مِثْلُ مَعَانِي التُّرَابِ ، وَالصُّورَةِ فَانِيَةٍ زَائِلَةٌ ، وَلَكِنْ عَمَلُهَا بَاقٍ ؛ فَالْتَّظَرُّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَى الْعَمَلِ ؛ فَالْعَمَلُ هُوَ لَا غَيْرُهُ الَّذِي تَتَعَاوَرُهُ أَلْفَاظُ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ .

وَبِهَذَا الْكَمَالِ فِي النَّفْسِ ، وَهَذَا الْأَدَبِ ، قَدْ يَنْظُرُ الرَّجُلُ الْأَفْضَلُ مِنْ وَجْهِ زَوْجَتِهِ الشَّوْهَاءِ الْفَاضِلَةِ ، لَا إِلَى الشَّوْهَاءِ ، وَلَكِنْ إِلَى الْخُورِ الْعَيْنِ . إِنَّهُمَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ فِي صُورَتَيْنِ مُتَنَافِرَتَيْنِ جَمَالًا وَقُبْحًا ؛ أَمَّا فِي الْحَقِيقَةِ وَالْعَمَلِ وَكَمَالِ الْإِيمَانِ الْزَوْجِيُّ ، فَهُمَا إِرَادَتَانِ مُتَّحِدَتَانِ تَجَذُّبُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى جاذِبِيَّةً عَشْقِي ، وَتَلْتَقِيَانِ مَعًا فِي النَّفْسَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ ، الْمُرَادِ بِهِمَا الْفَضِيلَةُ وَثَوَابُ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَلِلذَلِكَ اخْتَارَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ عَوْرَاءَ عَلَى أُخْتِهَا ، وَكَانَتْ أُخْتُهَا جَمِيلَةً ، فَسَأَلَ : مَنْ أَعْفَلُهُمَا ؟ فَقِيلَ : الْعَوْرَاءُ . فَقَالَ : زَوْجُونِي إِنِّي أَمَّا . فَكَانَتْ الْعَوْرَاءُ فِي رَأْيِ الْإِمَامِ وَإِرَادَتِهِ هِيَ ذَاتَ الْعَيْنَيْنِ الْكَحِيلَتَيْنِ ، لَوْ قُورِ عَقْلِهِ وَكَمَالِ إِيْمَانِهِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الَّذِي حَكَيْتَاهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ مَتَى كَانَ إِنْسَانِيًّا جَارِيًّا عَلَى قَوَاعِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ ، مُتَّسِعًا لَهَا غَيْرَ مَحْضُورٍ فِي الْخُصُوصِ مِنْهَا - كَانَ بِذَلِكَ عِلَاجًا مِنْ أَمْرَاضِ الْخَيَالِ فِي النَّفْسِ ، وَاسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَلَ حُبَّهُ يَتَنَاوَلُ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ ، وَيَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لَذَائِهَا ، فَإِنْ لَمْ يُسْعِدْهُ شَيْءٌ بِخُصُوصِهِ ، وَجَدَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُسْعِدُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي صُورَةِ أَمْرٍ مَا لَا يُعَدُّ جَمَالًا ، رَأَى الْجَمَالَ فِي أَشْيَاءَ مِنْهَا غَيْرَ الصُّورَةِ ، وَتَعَرَّفَ إِلَى مَا لَا يَخْفَى ، فَظَهَرَ لَهُ مَا يَخْفَى .

وَلَيْسَتْ الْعَيْنُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُؤَامَرُ فِي أَيِّ الشَّيْئَيْنِ أَجْمَلُ ، بَلْ هُنَاكَ الْعَقْلُ وَالْقَلْبُ ، فَجَوَابُ الْعَيْنِ وَحْدَهَا إِنَّمَا هُوَ تِلْكَ الْحَقُّ . وَمَتَى قِيلَ : « تِلْكَ الْحَقُّ » فَضِياعُ الثَّلَاثَيْنِ يَجْعَلُهُ فِي الْأَقَلِّ حَقًّا غَيْرَ كَامِلٍ .

فَمَا نَكْرَهُهُ مِنْ وَجْهِ ، قَدْ يَكُونُ هُوَ الَّذِي تُحِبُّهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، إِذَا نَحْنُ تَرَكْنَا الْإِرَادَةَ السَّالِمَةَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا الْإِنْسَانِي بِالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، وَيَأْوَسِعُ النَّظَرَيْنِ دُونَ أَضْيِقِهِمَا ^(١) ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٤ سورة النساء / الآية : ١٩] .

* * *

فَوَتَبَ ابْنُ أَيْمَنَ ، وَأَقْبَلَ يَدُورُ فِي الْمَجْلِسِ مِمَّا دَخَلَهُ مِنْ طَرَبِ الْحَدِيثِ وَيَقُولُ : مَا هَذَا إِلَّا كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ سَمِعْنَاهُ مِنْكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ . قَالَ مُسْلِمٌ : فَكَيْفَ بِكَ لَوْ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ؛ إِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ السُّودَاءَ وَالْقَبِيحَةَ وَالذَّمِيمَةَ ، وَنَظَرْتُ لِنَفْسِي بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ ، وَقُلْتُ : إِنْ تَزَوَّجْتُ يَوْمًا فَمَا أَبَالِي جَمَالًا وَلَا قُبْحًا ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِنْسَانِيَّةً كَامِلَةً مِثِّي وَمِنْهَا وَمِنْ أَوْلَادِنَا ، وَالْمَرْأَةُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْعَقْلُ فِي كُلِّ أَمْرٍ .

قَالَ : ثُمَّ إِنِّي رَجَعْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَأَثَرْتُ السُّكْنَى بِهَا ، وَتَعَالَمَ النَّاسُ إِفْتَالِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَخْسُنُ بَيْنَ الْمَقَامِ بِغَيْرِ رَوْحَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهَا أَجَلٌ قَدَرًا مِنْ جَدِّ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ ، وَكَانَتْ لَهُ بِنْتُ قَدْ عَضَلَهَا وَتَعَرَّضَ بِذَلِكَ لِعِدَاوَةِ خُطَابِهَا ؛ فَقُلْتُ : مَا لِهَذِهِ الْبِنْتِ بَدْ مِنْ شَأْنٍ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ أَكْمَلَ النِّسَاءِ وَأَجْمَلَهُنَّ ، مَا ضَرَّ بِهَا أَبُوهَا رَجَاوَةٌ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ هُوَ أَعْلَى . فَحَدَّثَنِي نَفْسِي بِلِقَائِهِ فِيهَا ، فَجِئْتُهُ عَلَى خَلْوَةٍ . . .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَالَ : قَدْ عَلِمْنَا خَبَرَهَا مِنْ مَنْظَرِ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ مِنْ خَبَرِ تِلْكَ الذَّمِيمَةِ الَّتِي نَعَشَقْتَهَا .

قَالَ : مَهْلًا فَسَتَنْتَهِي الْقِصَّةَ إِلَيْهَا . ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ : يَا عَمُّ ! أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ التَّاجِرُ . قَالَ : مَا خَفِيَ عَنِّي مَحَلُّكَ وَمَحَلُّ أَبِيكَ . فَقُلْتُ : جِئْتُ خَاطِبًا لِابْنَتِكَ . قَالَ : وَاللَّهِ مَا يَبِي عَنكَ رَغْبَةٌ ، وَلَقَدْ خَطَبَهَا إِلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ وَجُوهِ الْبَصْرَةِ وَمَا أَجَبْتُهُمْ ، وَإِنِّي لَكَارِهِ

(١) فِي الْمَطْبُوعِ : « دُونَ أَنْ أَضْيِقَهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « دُونَ أَضْيِقَهُمَا » .

إِخْرَاجَهَا^(١) عَنْ حِضْنِي إِلَى مَنْ يُقَوِّمُهَا تَقْوِيمَ الْعَبِيدِ . فَقُلْتُ : قَدْ رَفَعَهَا اللَّهُ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْخِلَنِي فِي عَدَدِكَ ، وَتَخْلِطَنِي بِشَمْلِكَ .

فَقَالَ : وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا ؟ قُلْتُ : لَا بُدَّ . قَالَ : أَغْدُ عَلَيَّ بِرَجَالِكَ .

فَانْتَصَرَفْتُ عَنْهُ إِلَى مَلَأٍ مِنَ الثَّجَارِ ذَوِي أخطارٍ ، فَسَأَلْتُهُمُ الْخُضُورَ فِي غَدٍ ؛ فَقَالُوا : هَذَا رَجُلٌ قَدْ رَدَّ مِنْهُ أُنْزَى مِنْكَ ، وَإِنَّكَ لَتُحَرِّكُنَا إِلَى سَعْيٍ ضَائِعٍ .

قُلْتُ : لَا بُدَّ مِنْ رُكُوبِكُمْ مَعِيَ . فَرَكِبُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ سِيرُدُهُمْ .

فَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ كَادَتْ رُوحُهُ تَخْرُجُ : فَذَهَبَتْ ، فَرَوَّجَكَ بِالْجَمِيلَةِ الرَّائِعَةِ أُمَّ هَذَيْنِ ؟ فَمَا خَبِرَ تِلْكَ الدِّمِينَةَ ؟

قَالَ مُسْلِمٌ : يَا سَيِّدِي قَدْ صَبَرْتَ إِلَى الْآنَ ، أَفَلَا تَصْبِرُ عَلَى كَلِمَاتٍ تُنْبِتُكَ مِنْ آيِنٍ يَبْدَأُ خَبَرَ الدِّمِينَةِ ، فَإِنِّي مَا عَرَفْتُهَا إِلَّا فِي الْعُرْسِ ... !

قَالَ : وَغَدَرْنَا عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ الْإِجَابَةَ وَزَوَّجَنِي ، وَأَطْعَمَ الْقَوْمَ وَنَحَرَ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ شِئْتَ أَنْ تَنْبِتَ بِأَهْلِكَ فَأَفْعَلْ ، فَلَيْسَ لَهَا مَا يُخْتِاجُ إِلَى التَّلَوُّمِ عَلَيْهِ وَانْتِظَارِهِ .

فَقُلْتُ : هَذَا يَا سَيِّدِي مَا أَحْبَبُهُ . فَلَمْ يَزَلْ يُحَدِّثُنِي بِكُلِّ حَسَنِ حَتَّى كَانَتْ الْمَغْرِبُ ، فَصَلَّاهَا بِي ، ثُمَّ سَبَّحَ وَسَبَّحْتُ ، وَدَعَا وَدَعَوْتُ ، وَبَقِيَ مُقْبِلًا عَلَى دُعَائِهِ وَتَسْبِيحِهِ مَا يَلْتَفِتُ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَأَمَضْنِي - عِلِمَ اللَّهُ - كَأَنَّهُ يَرَى أَنَّ ابْنَتَهُ مُقْبِلَةٌ مِنِّي عَلَى مُصِيبَةٍ ، فَهُوَ يَتَضَرَّعُ وَيَدْعُو ... !

ثُمَّ كَانَتْ أَلْعَتَمَةُ فَصَلَّاهَا بِي ، وَأَخَذَ بِيَدِي فَأَدْخَلَنِي إِلَى دَارٍ قَدْ فُرِشَتْ بِأَحْسَنِ فُرْشٍ ، وَبِهَا خَدَمٌ وَجَوَارٍ فِي نَهَائِيَةِ مِنَ اللَّظَافَةِ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ بِي الْجُلُوسُ حَتَّى نَهَضَ وَقَالَ : اسْتَوْدِعْكَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَمَّ اللَّهُ لَكُمْ الْخَيْرَ وَأَحْرَزَ التَّوْفِيقَ .

وَاسْتَقْنِي عَجَائِزُ مِنْ شَمْلِهِ ، لَيْسَ فِيهِمْ شَائِبَةٌ إِلَّا مَنْ كَانَتْ فِي السُّتَيْنِ ... فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا وَجْهُهُ كُوجُوهُ الْمَوْتَى ، وَإِذَا أَجْسَامُ بَالِيَةٍ يَتَضَامُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، كَأَنَّهُمَا أَطْلَالُ زَمَنِ قَدْ انْقَضَ بَيْنَ يَدَيَّ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَكَارِهِ مِنْ إِخْرَاجِهَا » بَدَلًا مِنْ : « لَكَارِهِ إِخْرَاجِهَا » .

فَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ : وَإِنَّ دَمِيمَتَكَ لَعَجُوزٌ أَيْضًا ... ؟ مَا أَرَاكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ إِلَّا قَتَلْتَ أُمَّ
الْغُلَامَيْنِ ... !

قَالَ مُسْلِمٌ : ثُمَّ جَلَوْنَ أَبْنَتَهُ عَلَيَّ وَقَدْ مَلَأَنَ عَيْنَيَّ هَرَمًا وَمَوْتًا وَأَخِيلَةً شَيَاطِينٍ وَظِلَالًا
قُرُودَ ؛ فَمَا كَذْتُ أَسْتَفِيحُ لِأَرَى زَوْجَتِي ، حَتَّى أَسْرَعَنَ فَأَرْخِيَنَ السُّتُورَ عَلَيْنَا ؛ فَحَمِدْتُ اللَّهَ
لِذَهَابِهِنَّ ، وَنَظَرْتُ ...

وَصَاحَ ابْنُ أَيْمَنَ وَقَدْ أَكَلَهُ الْغَيْظُ : لَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَيْنَا ، فَسَتَخَكِنِي لَنَا قِصَّتَكَ إِلَى
الصَّبَاحِ ، قَدْ عَلِمْنَاهَا { وَبَلَّكَ } ، فَمَا خَبِرَ الدَّمِيمَةَ الشَّوْهَاءَ ؟
قَالَ مُسْلِمٌ : لَمْ تَكُنِ الدَّمِيمَةُ الشَّوْهَاءَ إِلَّا الْعُرُوسُ ...

* * *

فَزَاغَتْ أَعْيُنُ الْجَمِيعِ ، وَأَطْرَقَ ابْنُ أَيْمَنَ إِطْرَاقَةً مِّنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مَا حَبَّرَهُ ؛ وَلَكِنَّ الرَّجُلَ
مَضَى يَقُولُ :

وَلَمَّا نَظَرْتُهَا لَمْ أَرَ إِلَّا مَا كُنْتُ حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيِّ ، وَقُلْتُ : هِيَ نَفْسِي
جَاءَتْ بِي إِلَيْهَا ، وَكَأَنَّ كَلَامَ الشَّنِيعِ إِنَّمَا كَانَ عَمَلًا يَعْمَلُ فِيَّ وَيُدِيرُنِي وَيُصَرِّفُنِي ؛ وَمَا أَسْرَعَ
مَا قَامَتِ الْمِسْكِينَةُ فَأَكْبَتْ عَلَى يَدَيَّ وَقَالَتْ :

« يَا سَيِّدِي ، إِنِّي سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ وَالِدِي ، كَتَمَهُ عَنِ النَّاسِ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيْكَ ، إِذْ رَأَى
أَهْلًا لِسِتْرِهِ عَلَيْهِ ، فَلَا تَخْفِزْ ظَنَّهُ فِينِكَ ، وَلَوْ كَانَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنَ الزَّوْجَةِ حُسْنُ صُورَتِهَا
دُونَ حُسْنِ تَذْيِيرِهَا وَعَقَافِهَا لَعَظُمْتَ مِخْتَتِي ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَعِيَ مِنْهُمَا أَكْثَرُ مِمَّا قَصَّرَ بِي
فِي حُسْنِ الصُّورَةِ ؛ وَسَأُبْلَغُ مَحَبَّتَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي ؛ وَلَوْ أَنَّكَ أَذْبَتَنِي لَعَدَدْتُ الْأَذَى
مِنْكَ نِعْمَةً ، فَكَيْفَ إِنْ وَسَّعَنِي كَرَمُكَ وَسَتَرْتُكَ ؟ إِنَّكَ لَا تُعَامِلُ اللَّهَ بِأَفْضَلِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا
فِي سَعَادَةٍ بَائِسَةٍ مِثْلِي . أَفَلَا تَحْرِصُ يَا سَيِّدِي ، عَلَى أَنْ تَكُونَ هَذَا السَّبَبِ
الشَّرِيفِ ... » .

ثُمَّ إِنَّهَا وَبَّتْ فَجَاءَتْ بِمَالٍ فِي كَيْسٍ ، وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ، قَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ مَعِيَ
ثَلَاثَ حَرَائِرَ ، وَمَا أَنْزَلَهُ مِنْ الْإِمَاءِ ؛ وَقَدْ سَوَّغْتُكَ تَرْوِيجَ الثَّلَاثِ وَأَبْتِيعَ الْجَوَارِي مِنْ مَالٍ

هَذَا الْكِيسِ ، فَقَدْ وَقَفْتُهُ عَلَى شَهَوَاتِكَ ، وَلَسْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا سِتْرِي فَقَطْ !

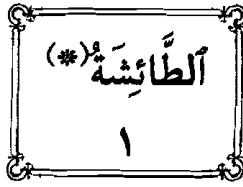
* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَيْمَنَ : فَحَلَفَ لِي التَّاجِرُ : إِنَّهَا مَلَكَتْ قَلْبِي مُلْكًا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَسَنَاءُ بِحُسْنِهَا ؛ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ جَزَاءَ مَا قَدَّمْتَ مَا تَسْمَعِينَهُ مِنِّي : « وَاللَّهِ لَأَجْعَلَكَ حَظِي مِنْ دُنْيَايَ فِيمَا يُؤْتِيهِ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَلَا أَضْرِبَنَّ عَلَى نَفْسِي الْحِجَابَ ، مَا تَنْظُرُ نَفْسِي إِلَى أَنْثَى غَيْرِكَ أَبَدًا » . ثُمَّ أَنْمَمْتُ سُورَها ، فَحَدَّثْتُهَا بِمَا حَفِظْتُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيِّ . فَأَيْقَنْتُ - وَاللَّهِ يَا أَحْمَدُ - أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنِّي فِي أَرْفَعِ مَنَازِلِهَا وَجَعَلَتْ تَحْسُنُ وَتَحْسُنُ ، كَالْغَضَنِ الَّذِي كَانَ مَجْرُودًا ، ثُمَّ وَخَزَتْهُ الْخُضْرَاءُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا .

وَعَاشَرْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ أَضْبَطُ النِّسَاءِ ، وَأَحْسَنُهُنَّ تَذَبُّرًا ، وَأَشْفَقُهُنَّ عَلَيَّ ، وَأَحَبَّهُنَّ لِي ؛ وَإِذَا رَاحَتِي وَطَاعَتِي أَوَّلَ أَمْرِهَا وَآخِرُهُ ؛ وَإِذَا عَقَلُهَا وَذَكَوُهَا يُظْهِرَانِ لِي مِنْ جَمَالِ مَعَانِيهَا مَا لَا يَزَالُ يَكْثُرُ وَيَكْثُرُ ، فَجَعَلَ الْقُبْحُ يَقِلُّ وَيَقِلُّ ، وَزَالَ الْقُبْحُ بِاعْتِيَادِي رُؤْيَاهُ ، وَبَقِيَّتِ الْمَعَانِي عَلَى جَمَالِهَا ؛ وَصَارَتْ لِي هَذِهِ الزَّوْجَةُ هِيَ الْمَرْأَةُ وَفَوْقَ الْمَرْأَةِ .

وَلَمَّا وَلَدَتْ لِي ، جَاءَ أَبْنَاهُ رَائِعَ الصُّورَةِ ؛ فَحَدَّثْتَنِي أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَمَتَّى عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ تَتَزَوَّجَ وَتَلِدَ أَجْمَلَ الْأَوْلَادِ ، وَلَمْ تَدْعَ ذَلِكَ مِنْ فِكْرِهَا قَطُّ ، وَأَلْفَ لَهَا عَقْلُهَا صُورَةَ أَجْمَلَ غُلَامٍ تَتَمَثَّلُهُ وَمَا بَرِحَتْ تَتَمَثَّلُهُ ؛ فَإِذَا هِيَ أَيْضًا كَانَتْ لَهَا شَأْنُ كَشَائِنِي ، وَكَانَ فِكْرُهَا عَمَلًا يَعْمَلُ فِي نَفْسِهَا ، وَيُدِيرُهَا وَيُصَرِّفُهَا .

وَرَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهَا هَذَيْنِ الْابْنَيْنِ الرَّائِعَيْنِ لَكَ ، فَانْظُرْ ؛ أَيُّ مُعْجَزَتَيْنِ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْإِيمَانِ . . . !



قَالَ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَدِّثُنِي مِنْ حَدِيثِهَا :

كَانَتْ فَتَاةً مُتَعَلِّمَةً ، حُلْوَةً الْمَنْظَرِ ، حُلْوَةً الْكَلَامِ ، رَقِيقَةً الْعَاطِفَةِ ، مُرْهَفَةً الْحَسِّ ، فِي لِسَانِهَا بَيَانٌ ، وَلِوَجْهِهَا بَيَانٌ غَيْرُ الَّذِي فِي لِسَانِهَا ، تَعْرِفُ فِيهِ الْكَلَامَ الَّذِي لَا تَتَكَلَّمُ بِهِ . . .

وَلَهَا طَبِيعٌ شَدِيدُ الطَّرَبِ لِلْحَيَاةِ ، مُسْتَرْسِلٌ فِي مَرَجِهِ ، خَفِيفٌ طَيَّاشٌ ، لَوْ أَثْقَلْتَهُ بِجَبَلٍ لَخَفَّ بِالْجَبَلِ ؛ تَحْسَبُهَا دَائِمًا سَكْرَى تَتَمَائِلُ مِنْ طَرَبِهَا ، كَأَنَّ أَفْكَارَهَا الْمَرِحَةَ هِيَ فِي رَأْسِهَا أَفْكَارٌ وَفِي دَمِهَا خَمْرٌ . . .

وَكَانَ هَذَا الطَّبِيعُ السَّكْرَانُ بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ^(١) - يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ ؛ فَهُوَ دَلَالٌ مُتَرَاوِعٌ مُنْهَزِمٌ ، وَهُوَ أَيْضًا جُرْأَةٌ مُنْدَفِعَةٌ مُتَهَجِّمَةٌ .

وَهَزِيمَةُ الدَّلَالِ فِي الْمَرْأَةِ إِنْ هِيَ إِلَّا عَمَلٌ حَزْبِيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فِيهِ الْكُرَّةُ وَالْهُجُومُ ؛ وَكَثِيرًا مَا تَرَى فِيهَا النَّظْرَةَ ذَاتَ الْمَعْنَيْنِ : نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ { بِهَا } تُؤَبِّكُ الْمَرْأَةَ عَلَى جَرَائِكَ مَعَهَا ، وَبِهَا أَيْضًا تَعْدِلُكَ^(٢) عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ مَعَهَا أَجْرًا مِمَّا أَنْتَ !

* * *

قُلْتُ : وَنَحَكَ يَا هَذَا ! أَنْعَرِفُ مَا تَقُولُ ؟

قَالَ : فَمَنْ يَعْرِفُ مَا يَقُولُ إِذَا أَنَا لَمْ أَعْرِفُ ؟ لَقَدْ أَحْبَبْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ بَلْ هُنَّ أَحْبَبَتْنِي وَفَرَّغْنَ قُلُوبَهُنَّ لِي ، مَا اعْتَزَّتْ عَلَيَّ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ ذَهَبْنَ بِي مَذْهَبًا ، وَلَسَكُنِّي

(*) «الرسالة» العدد : ١٠٢ ، ١٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١٧ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ٩٦٣ - ٩٦٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « شَبَابًا وَجَمَالًا وَطَرَبًا » بَدَلًا مِنْ : « بِالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ وَالطَّرَبِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَتَعْدِلُكَ بِهَا أَيْضًا » بَدَلًا مِنْ : « وَبِهَا أَيْضًا تَعْدِلُكَ » .

ذَهَبْتُ بِهِنَّ خَمْسَةَ عَشَرَ !

قُلْتُ : فَلَا رَيْبَ أَنَّكَ تَحْمِلُ الْوَسَامَ الْإِبِلِسِيَّ الْأَوَّلَ مِنْ رُتْبَةِ الْجَمْرَةِ ... فَكَيْفَ اسْتَهَامَ بِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؛ أَجَاهِلَاتٌ هُنَّ ، أَعْمَيَاوَاتٌ هُنَّ ... ؟

قَالَ : بَلْ مُتَعَلِّمَاتٌ مُبَصِّرَاتٌ يَرَيْنَ وَيُذِرْكُنَ ، وَلَا تُخْطِئُ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ فِي فَهْمٍ أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَةً قِصَّةُ حُبٍّ ... وَمَا خَمْسَ عَشْرَةَ فَتَاةً ؟ وَمَا عَشْرُونَ وَثَلَاثُونَ مِنْ فِتْيَاتِ هَذَا الزَّمَنِ { الْحَاوِرِ } الْبَائِرِ ، الَّذِي كَسَدَ فِيهِ الزَّوْجُ ، وَرَقَّ فِيهِ الدِّينُ ، { وَسَقَطَ الْحَيَاءُ ، } وَالتَّهَبَّتِ الْعَاطِفَةُ ، { وَاتَّشَرَ اللَّهُوُ ، } وَكَثُرَتْ فُتُونُ الْإِغْرَاءِ ، وَأَصْطَلَحَ فِيهِ إِبِلِيسُ وَالْعِلْمُ يَعْمَلَانِ مَعًا .. ؛ وَأُطْلِقَتِ الْحُرِّيَّةُ لِلْمَرْأَةِ ، وَتَوَسَّعَتِ الْمَدَارِسُ فِيمَا تَقْدَّمُ لِلْفِتْيَاتِ ، وَأُظْهِرَتْ مِنَ الْحَقَاوِرِ بِهِنَّ أَمْرًا مُفْرِطًا حَتَّى أَخَذَنَ { مِنْهَا } رُبْعَ الْعِلْمِ ... ؟

قُلْتُ : وَثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْعِلْمِ الْبَاقِيَّةِ ؟

قَالَ : سَيَأْخُذْنَهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالسِّنِمَا .

عِلْمُ الْمَدَارِسِ ، مَا عِلْمُ الْمَدَارِسِ ؟ إِنَّهُنَّ لَا يَصْنَعْنَ بِهِ شَيْئًا إِلَّا شَهَادَاتٍ هِيَ مُكَافَأَةُ الْحِفْظِ وَإِجَازَةُ النَّسِيَانِ مِنْ بَعْدُ ؛ أَمَّا عِلْمُ السِّنِمَا وَالرِّوَايَاتِ فَيَصْنَعْنَ بِهِ تَارِيخَهُنَّ ... وَرُبَّ مَنْظَرٍ يَشْهَدُهُ فِي السِّنِمَا أَلْفُ فَتَاةٍ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي وَغِيهِنَّ ، وَطَافَتْ بِهِ الْخَوَاطِرُ وَالْأَحْلَامُ - سَلَبَهُنَّ الْقَرَارَ وَالْوَقَارَ ، فَمَثَلْنَهُ أَلْفَ مَرَّةٍ بِالْفِ طَرِيقَةٍ فِي أَلْفِ حَادِثَةٍ !

يَظُنُّونَ أَنَّنَا فِي زَمَنِ إِزَاحَةِ الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ ، مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ وَعِلْمِهَا ؛ أَمَّا أَنَا فَارَى حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ وَعِلْمَهَا لَا يُوجِدَانِ إِلَّا الْعَقَبَاتِ النِّسَائِيَّةَ عَقَبَةً بَعْدَ عَقَبَةٍ . وَقَدْ كَانَ عَيْبُ الْجَاهِلَةِ الْمَقْصُورَةِ فِي دَارِهَا أَنَّ الرَّجُلَ يَخْتَالُ عَلَيْهَا ، فَصَارَ عَيْبُ الْمُتَعَلِّمَةِ الْمَفْتُوحِ لَهَا الْبَابُ أَنَّهَا هِيَ تَخْتَالُ عَلَى الرَّجُلِ ؛ فَمَرَّةً بِإِبْدَاعِ الْحِجَلَةِ عَلَيْهِ ، وَمَرَّةً بِتَلْقِينِهِ الْحِجَلَةَ عَلَيْهَا . وَالْغَرِيبُ فِي أَمْرِ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْفَتَاةَ تَبْدَأُ الطَّرِيقَ الْمَجْهُولَ بِجَهْلٍ ... !

قُلْتُ : وَمَا الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ ؟

قَالَ : الطَّرِيقُ الْمَجْهُولُ هُوَ الرَّجُلُ ، وَإِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ لِلْفَتَاةِ أَطْلَقَ ثَلَاثَ حُرِّيَّاتٍ :

حُرِّيَةُ الْفَتَاةِ ، وَحُرِّيَةُ الْحُبِّ ؛ وَالْأُخْرَى حُرِّيَةُ الزَّوْجِ ، وَلَمَّا انْطَلَقَ ثَلَاثُهُنَّ مَعًا تَغَيَّرَ ثَلَاثُهُنَّ جَمِيعًا إِلَى فَسَادٍ وَأَخْثِلَالٍ .

أَمَّا الْفَتَاةُ فَكَانَتْ فِي الْأَكْثَرِ لِلزَّوْجِ ، فَعَادَتْ لِلزَّوْجِ فِي الْأَقَلِّ ، وَفِي الْأَكْثَرِ لِلنَّهْوِ وَالْعَزَلِ ؛ وَكَانَ لَهَا فِي الثُّفُوسِ وَقَارُ الْأُمِّ وَحُرْمَةُ الزَّوْجَةِ ، فَاجْتَرَأَ عَلَيْهَا الشُّبَّانُ اجْتِرَاءَهُمْ عَلَى الْحَلِيعَةِ وَالسَّاقِطَةِ ؛ وَكَانَتْ مَقْصُورَةً لَا تَتَأَلَّ بِعَيْبٍ وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا ذَمٌّ ، فَمَشَتْ إِلَى عُيُوبِهَا بِقَدَمَيْهَا ، وَمَشَتْ إِلَيْهَا الْعُيُوبُ بِأَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ . . . وَكَانَتْ بِجُمْلَتِهَا أَمْرًا وَاحِدَةً ، فَعَادَتْ مِمَّا تَرَى وَتَعْرِفُ وَتُكَابِدُ كَانَ جِسْمُهَا أَمْرًا ، وَقَلْبُهَا أَمْرًا أُخْرَى ، وَأَعْصَابُهَا أَمْرًا ثَالِثَةً . . .

وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَكَانَ حُبًّا تَتَعَرَّفُ بِهِ الرُّجُوعَةُ إِلَى الْأُنُوثَةِ فِي قِيُودٍ وَشُرُوطٍ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا بَيْنَ الرُّجُوعَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، انْقَلَبَ حِيلَةٌ تَغْتَرُّ بِهَا إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ؛ وَمَتَى صَارَ الْأَمْرُ إِلَى قَانُونِ الْحِيلَةِ ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَانُونِ الشَّرَفِ ، وَيَرْجِعُ ^(١) هَذَا الشَّرَفُ نَفْسُهُ { كَمَا نَرَاهُ } ، لَيْسَ إِلَّا كَلِمَةً يُخْتَالُ بِهَا .

وَأَمَّا الزَّوْجُ ، فَلَمَّا صَارَ حُرًّا جَاءَ الْفَتَاةَ بِشِبْهِ الزَّوْجِ لَا بِالزَّوْجِ . . . وَضَعَفَتْ مَنَزِلَتُهُ ، وَقَلَّ اتِّقَاؤُهُ ، وَطَالَ ارْتِقَابُ الْفَتَيَاتِ لَهُ ، فَضَعُفَ آثَرُهُ فِي النَّفْسِ الْمُؤَنَّثَةِ ؛ وَكَانَتْ { مِنْ قَبْلِ } لَفْظَتَا الشَّابِّ وَالزَّوْجِ شَيْئًا وَاحِدًا عِنْدَ الْفَتَاةِ وَبِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَأَصْبَحَتْمَا كَلِمَتَيْنِ مُتَمَيِّزَتَيْنِ : فِي إِحْدَاهُمَا الْقُوَّةُ وَالْكَثَرَةُ وَالشُّهُوَّةُ ، وَفِي الْأُخْرَى الضَّعْفُ وَالْقِلَّةُ وَالتَّعَدُّرُ ؛ فَالْكُلُّ شُبَّانٌ وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ الْأَزْوَاجُ ؛ وَبِهَذَا أَصْبَحَ تَأْثِيرُ الشَّابِّ عَلَى الْفَتَاةِ أَقْوَى مِنْ تَأْثِيرِ الشَّرَفِ ، وَعَادَ يُفْنِعُهَا مِنْهُ أَحْسَنُ بُرْهَانَاتِهِ ^(٢) ، لَا بِأَنَّهُ هُوَ مُقْنِعٌ ، وَلَكِنْ بِأَنَّهَا هِيَ مُهَيَّاةٌ لِلْإِفْتِنَاعِ . . .

وَفِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ إِلَّا مُغْفَلًا فِي رَأْيِ الْمَرْأَةِ - إِذَا هُوَ أَحَبَّهَا وَلَمْ يَكُنْ مُخْتَلًا حِيلَةً مِثْلِهِ عَلَى مِثْلِهَا ، وَيَظَلُّ فِي رَأْيِهَا مُغْفَلًا حَتَّى يَخْدَعَهَا وَيَسْتَرِلَهَا ؛ فَإِذَا فَعَلَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « عَادَ » بَدَلًا مِنْ : « يَرْجِعُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « بُرَاهِينِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بُرْهَانَاتِهِ » .

كَانَ عِنْدَهَا نَذْلًا لِأَنَّهُ فَعَلَ ... وَهَذِهِ حُرِّيَّةٌ رَابِعَةٌ فِي لُغَةِ الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ وَالزَّوْاجِ الْحُرِّ وَالْحُبِّ الْحُرِّ !

وَأَنْظُرْ - بِعَيْنِكَ - مَا فَعَلَتِ الْحُرِّيَّةُ بِكَلِمَةِ التَّقَالِيدِ ، وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ السَّامِيَّةُ مِنْ مَبْدُوءِ الْكَلَامِ وَمَكْرُوهِهِ حَتَّى صَارَتْ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْحَضَارَةِ ، ثُمَّ كَيْفَ أَحَالَهَا فَجَعَلَتْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَشْهَرَ كَلِمَةٍ فِي الْأَلْسِنَةِ ، يَهْتَكُمُ بِهَا عَلَى الدِّينِ وَالشَّرَفِ وَقَانُونِ الْعُرْفِ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي خَوْفِ الْمَعْرَةِ وَالذِّينَةِ وَالنَّصَاوِنِ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالْمُبَالَاهِ بِالْفَضَائِلِ ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ تَقَالِيدٌ ...

وَقَدْ أَخَذَتِ الْفَتَيَاتُ الْمُتَعَلَّمَاتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِمَعَانِيهَا تِلْكَ ، وَأَجْرَيْنَهَا فِي اعْتِبَارِهِنَّ مَكْرُوهَةً وَخَشِيَّةً ، وَأَضْفَنَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعَانِي حَوَاشِي أُخْرَى ، حَتَّى لَيْكَادُ الْأَبُّ وَالْأُمُّ يَكُونَانِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُتَعَلَّمَاتِ مِنَ « التَّقَالِيدِ » ... أَهِيَ كَلِمَةٌ أَبْدَعَتْهَا الْحُرِّيَّةُ ، أَمْ أَبْدَعَهَا جَهْلُ الْعَصْرِ وَحِمَاقَتُهُ ، وَفُجُورُهُ وَإِلْحَادُهُ ؟ أَهِيَ كَلِمَةٌ تَعَلَّقَهَا الْفَتَيَاتُ الْمُتَعَلَّمَاتُ لِأَنَّهَا لُغَةٌ مِنَ اللُّغَةِ ، أَمْ لِأَنَّهَا مِنْ لُغَةِ مَا يُحْبَبْنَ . ؟

« تَقَالِيدٌ » ... ؟ فَمَا هِيَ الْمَرْأَةُ بِدُونِ التَّقَالِيدِ ... ؟ إِنَّهَا الْبِلَادُ الْجَمِيلَةُ بِغَيْرِ جَنِّسٍ ، إِنَّهَا الْكَثْرُ الْمَخْبُوءُ مُعَرَّضًا لِأَعْيُنِ اللَّصُوصِ ، تَحُوطُهُ الْغَفْلَةُ لَا الْمُرَاقَبَةَ . هَبِ الْكَاسَ جَمِيعًا شُرَفَاءَ مُتَعَفِّفِينَ { مُتَصَاوِنِينَ } ؛ فَإِنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ « كَثْرَ » مَتَى تُرِكَتْ لَهُ الْحُرِّيَّةُ وَأُغْفِلَ مِنَ تَقَالِيدِ الْحِرَاسَةِ ، أَوْجَدَتْ حُرِّيَّتَهُ هَذِهِ بِنَفْسِهَا مَعْنَى كَلِمَةِ « لَصَّ » .

* * *

قَالَ صَاحِبُنَا : أَمَّا الْفَتَاةُ الْمُحَرَّرَةُ مِنَ التَّقَالِيدِ .. كَمَا عَرَفْتُهَا فَهِيَ هَذِهِ الَّتِي أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّتَهَا ، وَهِيَ الَّتِي جَعَلْتَنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ لِكُلِّ فِتَاةٍ رُشْدَيْنِ : يَنْبُتُ أَحَدُهُمَا بِالسَّنِّ ، وَيَنْبُتُ الْآخَرُ بِالزَّوْاجِ . وَلَوْ أَنَّ عَانِسًا مَاتَتْ فِي سِنِّ الْخَمْسِينَ أَوْ السِّتِينَ لَوَجَبَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا مَاتَتْ نِصْفَ قَاصِرٍ ! وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ الشَّرِيعَةِ فِي اعْتِبَارِ الْمَرْأَةِ نِصْفَ الرَّجُلِ ، إِذْ تَمَامُ شَرَفِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مَضْمُونًا إِلَيْهَا فِي نِظَامِ الْأَجْتِمَاعِ وَقَوَائِينِهِ ؛ فَالزَّوْجُ عَلَى هَذَا هُوَ تَمَامُ رُشْدِ الْفِتَاةِ بِاللُّغَةِ مَا بَلَغَتْ .

وَأَسَاسُ الْمَرْأَةِ فِي الطَّبِيعَةِ أَسَاسٌ بَدَنِيٌّ لَا عَقْلِيٌّ ، وَمِنْ هَذَا كَانَتْ هِيَ الْمَصْنَعُ الَّذِي

تُصْنَعُ فِيهِ الْحَيَاةُ ، وَكَانَتْ دَائِمًا نَاقِصَةً لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْآخِرِ الَّذِي أَسَّاسُهُ فِي الطَّبِيعَةِ شَأْنُ عَقْلِهِ وَشَأْنُ قُوَّتِهِ ...

وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالْمَرْأَةِ تَدْرُسُ وَتَتَعَلَّمُ وَتَتَّبِعُ ، فَلَوْ أَنَّكَ ذَهَبْتَ تَمْدَحُهَا بِوُفُورِ عَقْلِهَا وَذَكَائِهَا ، وَتَقْرَظُهَا بِبُيُوعِهَا وَعَبَقَرِيَّتِهَا ، ثُمَّ رَأَيْتَ لَمْ تَلَقِ كَلِمَةً وَلَا إِشَارَةً وَلَا نَظْرَةً عَلَى جِسْمِهَا وَمَحَاسِنِهَا - لَتَحَوَّلَ عِنْدَهَا كُلُّ مَدْحِكَ ذَمًّا ، وَكُلُّ ثَنَائِكَ سُخْرِيَّةً ؛ فَإِنَّ الْبُيُوعَ هَا هُنَا فِي أَغْصَابِ أَمْرَأَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَعَ أَسْرَارِ الْكَوْنِ أَسْرَارَ كَوْنِهَا هِيَ ، هَذَا الْكَوْنُ الْبَدَنِيُّ الْفَانِي ، أَوِ الَّذِي تَزْعُمُهُ هِيَ فَاتِنًا ، أَوِ الَّذِي لَا تَرْضَاهُ وَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ صَاحِبَتَهُ إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ مَنْ يَزْعُمُ لَهَا أَنَّهُ كَوْنٌ فَاتِنٌ بَدِيعٌ ، مُزِينٌ بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَطَبِيعَتِهِ الْمُتَنَضَّرَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مَسَّهُ مَسَّ وَرَقِ الزَّهْرِ .

مِثْلُ هَذِهِ إِنَّمَا يَكُونُ الثَّنَاءُ عَلَيْهَا ثَنَاءً عِنْدَهَا حِينَمَا يَكُونُ أَقْلُهُ بِاللِّسَانِ الْعِلْمِيِّ وَلُغَتِهِ ، وَأَكْثَرُهُ بِالنَّظَرِ الْفَنِيِّ وَلُغَتِهِ . وَهَذَا عَلَى أَنَّهَا عَالِمَةُ الْجِنْسِ وَنَابِغَتُهُ ، وَدَلِيلُ شُدُودِهِ الْعَقْلِيِّ ، وَالْوَاحِدَةُ الَّتِي تَجِيءُ كَالْفَلْتَةِ الْمَفْرَدَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكِينَ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَكَيْفَ يَمُنُّ دُونَهَا ، وَكَيْفَ بِالنِّسَاءِ فِيمَا هُنَّ نِسَاءٌ بِهِ ؟

دَعِ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ يَمْتَحِنُونَ هَذَا الَّذِي بَيَّنْتُ لَكَ ، فَيَأْتُونَ بِأَمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ نَابِغَةٍ ، فَيَضَعُونَهَا بَيْنَ رِجَالٍ لَا تَسْمَعُ مِنْ جَمِيعِهِمْ إِلَّا : مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ، مَا أَعْقَلَهَا ! وَلَا تَرَى فِي عَيْنِي كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ النَّظَرِ وَفُتُونِهِ إِلَّا نَظَرَ التَّلْمِيزِ لِمُعَلِّمَةٍ فِي سِنِّ جَدِّهِ ... فَهَلْذِهِ لَنْ تَكُونَ بَعْدَ قَرِيبٍ إِلَّا فِي حَالَةٍ مِنَ اثْنَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَخْرُجَ عَقْلُهَا مِنْ رَأْسِهَا ، أَوْ ... أَوْ تَخْرُجَ فِي وَجْهِهَا لَحِيَةٌ ... !

(مَا أَعْقَلَهَا !) كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ عِنْدَ النِّسَاءِ لَا يَأْيُنُهَا وَلَا يَذْمُنُهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْبَلِغَةَ الْعَبَقَرِيَّةَ السَّاحِرَةَ ، هِيَ عِنْدَهُنَّ كَلِمَةٌ أُخْرَى ، هِيَ : (مَا أَجْمَلَهَا !) ؛ إِنَّ تِلْكَ تُشَبِّهُ الْخُبْرَ الْقَفَّارَ لَا شَيْءَ مَعَهُ عَلَى الْخَوَانِ ، أَمَّا هَذِهِ فَهِيَ الْمَائِدَةُ مُرَبَّتُهُ كَامِلَةٌ بِطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَأَزْهَارِهَا وَفُكَاهَتِهَا وَضَحِكِهَا أَيْضًا .

وَكَأَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ قَدْ غَضِبَ لِمَهَانَةِ كَلِمَتِهِ وَمَا عَرَّهَا بِهِ النِّسَاءُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُ عَقْلٌ ، فَاسْتَطَاعَ بِحِيلَتِهِ الْعَجَبِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ لِكَلِمَةٍ : (مَا أَعْقَلَهَا) كُلَّ الشَّأْنِ وَالْخَطَرِ ، وَكُلَّ

الْبَلَاغَةَ وَالسَّحَرِ ، عِنْدَ ... عِنْدَ الطُّفْلَةِ ... تَفْرَحُ الطُّفْلَةُ أَشَدَّ الْفَرَحِ ، إِذَا قِيلَ :
مَا أَغْقَلَهَا ... !

* * *

فَقُلْتُ لِمُحَدِّثِي : كَأَنَّكَ صَادِقٌ يَا فَتَى ! لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى امْرَأَةٍ أَدِينِي لَهَا
ظَرْفٌ وَجَمَالٌ ، وَجَاءَتْ كِبْرِيَاءِي فَجَلَسَتْ مَعَنَا ... وَكَانَتْ (التَّقَالِيدُ) كَالْحَاشِيَةِ لِي ؛
فَعَلِمْتُ بَعْدُ أَنَّهَا قَالَتْ لِصَاحِبَةِ لَهَا : « لَا أَذْرِي كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْسَى جِسْمِي وَأَنَا إِلَى
جَانِبِهِ ، أَذْكُرُهُ أَنِّي إِلَى جَانِبِهِ ! لَكَاَنَّمَا كَانَتْ لِقَلْبِهِ أَبْوَابٌ يَفْتَحُ مَا شَاءَ مِنْهَا وَيُغْلِقُ » .

قَالَ مُحَدِّثِي : فَهَذَا هَذَا ؛ إِنَّ إِحْسَاسَ الْمَرْأَةِ بِالْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقِ الْجَمَالِ
وَالشُّرُورِ ، إِنَّمَا هُوَ فِي إِحْسَاسِهَا بِالرَّجُلِ الَّذِي اخْتَارَتْهُ لِقَلْبِهَا ، أَوْ تَهْمُ أَنْ تَخْتَارَهُ ، أَوْ تَوَدُّ
أَنْ تَخْتَارَهُ ؛ ثُمَّ إِحْسَاسِهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالصُّورِ الْأُخْرَى مِنْ رَجُلِهَا فِي أَوْلَادِهَا . وَحَيَاةُ الْمَرْأَةِ
لَا أَسْرَارَ فِيهَا أَلْبَتَّ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَهَا الرَّجُلُ عَرَفَتْ بِذَلِكَ أَنَّ فِيهَا أَسْرَارًا ، وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ هَذَا
الْجِسْمَ الْآخَرَ هُوَ فَلَسَفَةٌ عَمِيقَةٌ لِجِسْمِهَا وَعَقْلِهَا .

قَالَ : وَقَدْ جَلَسْتُ مَرَّةً مَعَ صَاحِبَةِ الْقِصَّةِ ، وَأَنَا مُغْضَبٌ أَوْ كَالْمُغْضَبِ ... ثُمَّ
تَلَاخَيْنَا وَطَالَ بَيْنُنَا التَّلَاحِي ؛ فَقَالَتْ لِي : أَنْتَ بِجَانِبِي وَأَنَا أَسْأَلُ : أَبْنِ أَنْتَ ؟ فَإِنَّكَ لَسْتَ
كُلُّكَ الَّذِي بِجَانِبِي !

قَالَ : وَمَذْهَبِي فِي الْحُبِّ ، الْكِبْرِيَاءُ ، كَمَا قُلْتَ أَنْتَ ، غَيْرَ أَنَّهَا الْكِبْرِيَاءُ الَّتِي تُدْرِكُ
الْمَرْأَةُ مِنْهَا أَنِّي قَوِيٌّ لَا أَنِّي مُتَكَبِّرٌ ؛ كِبْرِيَاءُ الرَّجُلِ إِمَّا مِهْنِيَّتٌ مَرِحٌ يَمْلِكُ أَفْرَاحَ قَلْبِهَا ، وَإِمَّا
حَزِينٌ مِهْنِيَّتٌ يَمْلِكُ أَحْزَانَ هَذَا الْقَلْبِ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُحِبُّ إِلَّا رَجُلًا يَكُونُ أَوَّلَ الْحُسْنِ فِيهِ حُسْنٌ فَهَمَّهَا لَهُ ، وَأَوَّلَ الْقُوَّةِ فِيهِ
قُوَّةٌ إِعْجَابُهَا بِهِ ، وَأَوَّلَ الْكِبْرِيَاءِ فِيهِ كِبْرِيَاءُهَا هِيَ بِحُبِّهِ وَكِبْرِيَاءُهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ . هَذَا هُوَ الَّذِي
يَجْتَمِعُ فِيهِ لِلْمَرْأَةِ اثْنَانِ : إِنْسَانُهَا الظَّرِيفُ ، وَوَحْشُهَا الظَّرِيفُ !

* * *

قُلْتُ : لَقَدْ بَعُدْنَا عَنِ الْقِصَّةِ ، فَمَا كَانَ خَبْرُ صَاحِبِكَ تِلْكَ ؟

قَالَ : كَانَتْ صَاحِبِي نَلِكْ تَعْلَمُ أَنِّي مُتَرَوِّجٌ ، وَلَكِنْ إِحْدَى صَدِيقَاتِهَا أَنْبَأَتْهَا بِكِبْرِيَانِي فِي الْحُبِّ ، وَوَصَفَتْني لَهَا صِفَةَ الْإِحْسَاسِ لَا وَصَفَ الْكَلَامِ ؛ فَكَأَنَّمَا تَنَبَّهَتْ فِيهَا طَبِيعَةُ زَمَنِ الْفَتَاةِ بِأَنَّهَا فَنَاءٌ ، وَغَرِيزَةُ أَفْتِنَانِ الْأُنْثَى بِأَنْ تَكُونَ فَاتِنَةً ؛ قَرَأْتُ فِي إِنْخِصَاعِي لِجَمَالِهَا عَمَلًا تَعْمَلُهُ بِجَمَالِهَا .

وَمَتَى كَانَتْ الْفَتَاةُ مُسْتَخْفَةً « بِالتَّقَالِيدِ » كَهَذِهِ الْأَدِيبَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ - رَأَتْ كَلِمَةَ (الزَّوْجِ) لَفْظًا عَلَى رَجُلٍ كَلَفَظَ الْحُبَّ عَلَيْهِ ، فَهَمَّا سَوَاءٌ عِنْدَهَا فِي الْمَعْنَى ، وَلَا يَخْتَلِفَانِ إِلَّا فِي (التَّقَالِيدِ) ...

وَعَرَضْتُ لِي كَمَا يَعْزِضُ الْمُصَارِعُ لِلْمُصَارِعِ ؛ إِذْ كَانَتْ مِنَ الْفَتَاتِ الْمَعْرُورَاتِ ، اللَّوَاتِي يَخْشَبْنَ أَنَّ فِي قُوَّتِهِنَّ الْعِلْمِيَّةِ تَبَارًا زَاجِرًا لِنَهْرِنَا الْأَجْتِمَاعِيِّ الرَّكَدِ ؛ فَتَاءٌ تَخَرَّجَتْ فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ كُلِّيَّةٍ ، أَوْ جَاءَتْ مِنْ أُرُبَّةٍ بِالْعَالِمِيَّةِ ... أَفْتَدِرْنِي آيَةً مُعْجِزَةً مِصْرِيَّةً فِي هَذَا تَبَاهِي بِهَا مِصْرٌ ؟

إِنَّ الْمُعْجِزَةَ أَنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ صَارَتْ مُدْرَسَةً ، أَوْ مُقَشَّشَةً ، أَوْ نَاطِرَةً فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ ؛ أَوْ مُؤَلِّفَةً كُتُبٍ وَرِوَايَاتٍ ، أَوْ مُحَرِّرَةً فِي صَحِيفَةٍ مِنَ الصُّحُفِ . وَلَا يَصْغُرُنَّ عِنْدَكَ شَأْنُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ ، فَهِيَ وَاللَّهُ مُعْجِزَةٌ مَا دَامَ يَتَحَقَّقُ بِهَا خُرُوجُ الْفَتَاةِ مِنْ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ عَلَيْهَا ، وَبَقَاؤُهَا فِي الْأَجْتِمَاعِ الْمِصْرِيِّ أَمْرًا بِلَا تَأْنِيثٍ ، أَوْ انْقِلَابًا فِيهِ رَجُلًا بِلَا تَذَكِيرٍ !

وَكَيفَ لَا يَكُونُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ أَنْ تَأَلِّفَ رِوَايَةً قَدْ أَغْنَى عَنْ تَأْلِيفِ أُسْرَةٍ ؛ وَأَنَّ فَتَاةً تَعِيشُ وَتَمُوتُ وَمَا وَلَدَتْ لِلْأُمَّةِ إِلَّا مَقَالَاتٍ ... ؟

فَقُلْتُ : يَا صَاحِبِي ! دَعْ هَؤُلَاءِ وَخُذِ الْآنَ فِي حَدِيثِ الطَّائِشَةِ الْخَارِجَةِ عَلَى التَّقَالِيدِ ، وَقَدْ قُلْتُ إِنَّهَا عَرَضَتْ لَكَ كَمَا يَعْزِضُ الْمُصَارِعُ لِلْمُصَارِعِ .

قَالَ : عَرَضَتْ لِي تُرِيدُ أَنْ تُصَرِّفَنِي كَيْفَ شَاءَتْ ، فَنَبُوتُ فِي يَدِهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَى رَغْبَتِهَا إِصْرَارَهَا عَلَى هَذِهِ الرِّغْبَةِ ، فَالْتَوَيْتُ عَلَيْهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَيْهِمَا خَشْيَةُ الْبَاسِ وَالْخَيْبَةِ ، فَتَعَسَّرَتْ مَعَهَا ؛ فَزَادَتْ إِلَى هَذِهِ كُلُّهَا نَوْرَةُ كِبْرِيَانِهَا ، فَلَمْ أَتَسَهَّلْ ؛ فَانْتَهَتْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ

بَعْدَ الرُّغْبَةِ الْخَيَالِيَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ الْعَبَثِ وَالذَّلَالِ ، إِلَى الرُّغْبَةِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ الْحُبِّ وَالْهَوَى : رَغْبَةً تَغْذِيَنِي بِهَا لِأَنَّهُا مُتَعَدِّبَةٌ بِي .

ثُمَّ رَدَّتْهَا الطَّبِيعَةُ صَاغِرَةً إِلَى حَقَائِقِهَا السَّلْبِيَةِ ، فَإِذَا الْكِبْرِيَاءُ فِيهَا إِنَّمَا كَانَتْ خُضُوعًا يَتَرَاءَى بِالْعُضْبَانِ ، وَإِذَا الرُّغْبَةُ فِي تَغْذِيَةِ الرَّجُلِ إِنَّمَا كَانَتْ التَّيْمَسًا لِأَن تَنْعَمَ بِهِ ، وَإِذَا الْإِضْرَارُ عَلَى إِخْضَاعِ الرَّجُلِ وَإِذْلَالِهِ إِنَّمَا كَانَ إِضْرَارًا عَلَى تَجَرُّبَتِهِ وَدَفْعِهِ أَنْ يَسْتَبِدَّ وَيَمْلِكَ ؛ وَرَدَّتْهَا الطَّبِيعَةُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الشُّوْبَةِ الصَّرِيحَةِ ، الَّتِي بَيَّنَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَيْهَا شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ ، وَهِيَ أَنْ تُعَانِيَ وَتَصْبِرَ عَلَى مَا تُعَانِي !

أَمَّا أَنَا فَأَحْبَبْتُهَا حُبًّا عَفَلِيًّا ، وَكَانَ هَذَا يَشْتَدُّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ إِشْفَاقٌ لَا حُبٌّ ؛ وَكَانَتْ إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرِ تَرْتَابَ فِيهِ ، قَالَتْ : أَجِبْنِي بِلِسَانِ الصَّدَقِ لَا بِلِسَانِ الشَّفَقَةِ . وَكَانَتْ تَقُولُ : إِنْ فِي عَيْنَيْهَا بُكَاءٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدْبِلَهُ مَعَ الدَّمْعِ ، وَسَيَقْتُلُهَا هَذَا الْبُكَاءُ الَّذِي لَا يُبْنِكِي ، وَقَدْ اتَّخَذَتْ لَهَا فِي دَارِهَا خَلْوَةً سَمَّيْتُهَا : مِخْرَابَ الدَّمْعِ ! ، قَالَتْ : لِأَنَّهُا تَبْكُنِي فِيهَا بُكَاءَ صَلَاةٍ وَحُبٍّ ، لَا بُكَاءَ حُبٍّ فَقَطْ !

ثُمَّ طَاسَتْ الطَّبِيعَةُ الْكُبْرَى ... !

* * *

قُلْتُ : وَمَا الطَّبِيعَةُ الْكُبْرَى ؟

قَالَ : إِنَّهَا كَتَبَتْ إِلَيَّ هَذِهِ الرُّسَالَهَ :

« عَزِيزِي رَغْمَ أَنْفِي ... »

« لَقَدْ أَذَلَّتْنِي بِشَيْنَتَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّكَ لَمْ تَدَلَّ لِي ، وَجَعَلْتَنِي - عَلَى تَعْلِيمِي - أَشَدَّ جَهْلًا مِنَ الْجَاهِلَةِ ؛ وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُتَعَلِّمَةَ تَعْرِفُ ثُمَّ تَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ : تَعْرِفُ كَيْفَ تُخْطِئُ إِذَا وَجَبَ أَنْ تُخْطِئَ ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَعْرِفَةُ الْأُولَى ؛ أَمَّا الْمَعْرِفَةُ الثَّانِيَةُ فَتَوَهَّمُهَا أَنْتَ ، فَكَأَنِّي قُلْتُهَا لَكَ ... »

« أَعْلَمُ - يَا عَزِيزِي رَغْمَ أَنْفِي - أَنِّي إِذَا لَمْ أَكُنْ عَزِيزَتَكَ رَغْمَ أَنْفِكَ ، فَسَأَتَنِي مَا يَجْعَلُكَ

سَلَفًا وَمَثَلًا ، وَسَتَكْتُبُ الصُّحُفَ عَنْكَ أَوَّلَ حَادِثٍ يَقَعُ فِي مِصْرَ عَنْ أَوَّلِ رَجُلٍ اخْتَطَفَتْهُ
فَتَاةٌ . . . !

« وَيَعُدُّ ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ رُوحِي تُعَانِقُ رُوحَكَ ، فَهَلْ تَشْعُرُ بِهَا ؟ » .

قَالَ : فَوَجَمْتُ سَاعَةً وَتَبَيَّنَتْ لِي خِفَّتُهَا ، وَظَهَرَ لِي سَفَاهُهَا وَطَيْشُهَا ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا
فَجِئْتُهَا فَأَجِدُهَا كَالْقَاضِي فِي مَحْكَمَتِهِ ، لَا عَقْلَ لَهُ إِلَّا عَقْلُ الْحُكْمِ الْقَانُونِيِّ الَّذِي
لَا يَتَغَيَّرُ ، وَلَا إِنْسَانَ فِيهِ إِلَّا الْإِنْسَانُ الْمُقَيَّدُ بِمَادَّةٍ كَذَا إِذَا حَدَثَ كَذَا ، وَالْمَادَّةُ كَذَا حِينَ
يَكُونُ وَصْفُ الْمُجْرِمِ كَذَا . . . !

فَقُلْتُ لَهَا : أَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَعَلَّمْتِهِ ؟ أَلَا يَكُونُ عِلْمُ الْمَرْأَةِ خَلِيقًا أَنْ يَجْعَلَ
صَاحِبَتَهُ ذَاتَ عَقْلَيْنِ إِذَا كَانَتْ الْجَاهِلَةُ بِعَقْلِ وَاحِدٍ ؟

قَالَتْ : الْعِلْمُ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ ، الْعِلْمُ .

قَالَتْ : يَا حَبِيبِي ، إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي وَضَعَ الْمُسَدَّسَ فِي يَدِ الْمَرْأَةِ الْأَوْزُبِيَّةِ
لِعَاشِقِهَا ، أَوْ مَعْشُوقِهَا ! ثُمَّ أَطْرَقَتْ فُلَيْلًا وَتَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْفَتَاةَ
هُنَاكَ تَتَرَوَّجُ بِإِرْشَادِ الرِّوَايَةِ الَّتِي تَقْرُؤُهَا وَلَوْ انْقَلَبَ الزَّوْاجُ رِوَايَةً . . . وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي
كَشَفَ حِجَابَ الْفَتَاةِ عَنْ وَجْهِهَا ، ثُمَّ عَادَ فَكَشَفَ حَيَاءَ وَجْهِهَا ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تُوَاجِهَ
حَقَائِقَ الْجِنْسِ الْآخَرِ وَتَعْرِفَهَا مَعْرِفَةً عِلْمِيَّةً . . . وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَطَأَ الْمَرْأَةِ الْجِنْسِيِّ
مَغْفُورًا عَنْهُ مَا دَامَ فِي سَبِيلِ مُوَاجَهَةِ الْحَقَائِقِ لَا فِي سَبِيلِ الْهَرَبِ مِنْهَا . . . وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي
جَعَلَ الْمَرْأَةَ مُسَاوِيَةً لِلرَّجُلِ ، وَأكَّدَ لَهَا أَنَّ وَاحِدًا وَوَاحِدًا هُمَا وَاحِدٌ وَكِلَاهُمَا أَوَّلُ . . .
وَالْعِلْمُ هُوَ الَّذِي عَرَى أَجْسَامَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ بِيَرْهَانِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ . . . وَالْعِلْمُ يَا عَزِيزِي
هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي مَحَا مِنَ الْعَالَمِ لَفْظَةَ (أَمْس) لَا يَعْرِفُهَا وَإِنْ كَانَتْ فِيهَا الْأَدْيَانُ وَالتَّقَالِيدُ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُهَا : فَقُلْتُ لَهَا : كَانَ الْعِلْمُ إِفْسَادًا لِلْمَرْأَةِ ! وَكَأَنَّهُ تَعْلِيمُ مَعْرَاتِهَا وَنَفَائِصِهَا ،
لَا تَعْلِيمُ فَضَائِلِهَا وَمَحَاسِنِهَا . . .

قَالَتْ : لَا ، وَلَكِنَّ عَقْلَ الْمَرْأَةِ هُوَ عَقْلُ أَنْثَى دَائِمًا ، وَدَائِمًا عَقْلُ أَنْثَى ؛ وَفِي رَأْسِهَا دَائِمًا جَوْ قَلْبِهَا ، وَجَوْ قَلْبِهَا دَائِمًا فِي رَأْسِهَا ؛ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَدْرَسَتُهَا مُتَمِّمَةً لِدَارِهَا وَمَا فِي دَارِهَا ، تَمَمَتْ فِيهَا الشَّارِعَ وَمَا فِي الشَّارِعِ .

الْعِلْمُ لِلْمَرْأَةِ ؛ وَلَكِنْ يَشْرُطُ أَنْ يَكُونَ الْأَبُ وَهِيئَةَ الْأَبِ أَمْرًا مُقَرَّرًا فِي الْعِلْمِ ، وَالْأَخُ وَطَاعَةُ الْأَخِ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِ الْعِلْمِ ؛ وَالزَّوْجُ وَسَيَادَةُ الزَّوْجِ شَيْئًا ثَابِتًا فِي الْعِلْمِ ، وَالْاجْتِمَاعُ وَزَوَاجِرُهُ الدِّينِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ قَضَايَا لَا يَنْسَخُهَا الْعِلْمُ . بِهِذَا وَخِذَهُ يَكُونُ النِّسَاءُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مَصْنَعٌ عِلْمِيٌّ لِلْفَضِيلَةِ وَالْكَمَالِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَبْدَأُ تَارِيخُ الطِّفْلِ بِأَسْبَابِ الرُّجُولَةِ التَّامَّةِ ، لِأَنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ الْمَرْأَةِ التَّامَّةِ .

أَمَّا بَعِيرُ هَذَا الشَّرْطِ ، فَالْمَرْأَةُ الْفَلَّاحَةُ فِي حَبْرِهَا طِفْلٌ قَدِيرٌ ، هِيَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ مِنْ أَكْبَرِ أَدِيبِيَّةٍ تُخْرِجُ ذُرِّيَّةً مِنَ الْكُتُبِ . . .

أَنْظُرْ يَا عَزِيزِي رَغَمَ أَنْفِي ، هَذِهِ رِسَالَةٌ جَاءَتْنِي الْيَوْمَ مِنْ صَدِيقَتِي فَلَانَةَ الْأَدِيبَةِ أَل . . . فَاسْمَعْ قَوْلَهَا :

« . . . وَأَنَا أَعِيشُ الْيَوْمَ فِي الْجَمَالِ ، لِأَنِّي أَعِيشُ فِي بَعْضِ خَفَايَا الْحَبِيبِ . . . »
« وَفِي الْحَيَاةِ مَوْتُ حُلُوٍّ لَدِيدٌ ؛ عَرَفْتُ ذَلِكَ حِينَمَا نَسِيتُ نَفْسِي عَلَى صَدْرِهِ الْقَوِي ، وَحِينَمَا نَسِيتُ عَلَى صَدْرِهِ الْقَوِي صَدْرِي . . . »

أَسَمِعْتَ يَا عَزِيزِي ؟ إِنْ كُنْتُ لَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ عِلْمُ أَكْثَرِ الْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ حِينَ يَخْسَدُ الزَّوْاجُ - فَاعْلَمْهُ . وَمَتَى عَمِيَ الشَّعْبُ وَالْحُكُومَةُ هَذَا الْعَمَى ، فَإِنَّ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ أَبَدًا إِلَّا حُرِّيَّةَ الْفِكْرَةِ الْمُحَرَّمَةِ !

* * *

قُلْتُ لِصَاحِبِنَا : ثُمَّ مَاذَا ؟

قَالَ : ثُمَّ هَذَا . . . وَدَسَّ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَأَخْرَجَ أَوْرَاقًا كَتَبَ فِيهَا رِوَايَةَ صَغِيرَةً أَسَمَاهَا « الطَّائِشَةُ » .

الطائشة (*)

٢

وهَذَا مُحْصَلُ رِوَايَةِ «الطَائِشَةِ» ، نَقَلْنَاهُ مِنْ خَطِّ الْكَاتِبِ عَلَى مَسَاقٍ مَا دَوَّنَهُ فِي أَوْرَاقِهِ ، وَعَلَى سَرْدِهِ الَّذِي قَصَّ بِهِ الْخَبَرَ ؛ وَقَدْ أَعْطَانَا مِنَ الْبُرْهَانِ مَا نَظْمَنُ إِلَى أَنْ هَذِهِ «الطَائِشَةُ» هِيَ مِنْ تَأْلِيفِ الْحَيَاةِ لَا مِنْ تَأْلِيفِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرِعْ مِنْهَا حَادِثَةً ، وَلَمْ يَأْتِفِكَ حَدِيثًا ، وَلَمْ يَزِدْهَا بِفَضِيلَةٍ ، وَلَمْ يَنْقُضْهَا بِمَعْرَةٍ ؛ ثُمَّ أَشْهَدُ^(١) عَلَى قَوْلِهِ كُتِبَ صَاحِبِيهِ الْأَدْبِيَّةِ الْمُسْتَهْتَرَةِ الَّتِي لَا تُبَالِي مَا قَالَتْ وَلَا مَا قِيلَ فِيهَا ؛ وَهَذِهِ الْكُتُبُ رَسَائِلُ : مِنْهَا الْمَوْجُزُ وَمِنْهَا الْمُسْتَفِيزُ ، وَهِيَ بِجُمْلَتِهَا تَنْزِلُ مِنَ الرِّوَايَةِ مَنَزَلَةَ الشُّرُوحِ الْمُفْتَنَةِ ، وَتَنْزِلُ الرِّوَايَةُ مِنْهَا مَنَزَلَةَ اللَّمَعِ الْمُقْتَضِبَةِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَعْضُهُ شَاهِدٌ عَلَى بَعْضٍ .

قَالَ كَاتِبُ (الطَائِشَةِ) :

كُنْتُ رَجُلًا غَزَلًا وَلَمْ أَكُنْ فَاسِقًا ، وَلَسْتُ كَهَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ الَّذِينَ أُصِيبُوا فِي إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ فَأُصِيبُوا فِي إِيْمَانِهِمْ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ، وَذَهَبُوا يُحَقِّقُونَ الْمَدِينَةَ فَحَقَّقُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ .

تَرَى أَحَدَهُمْ شَرِيفًا يَأْتِفُ أَنْ يَكُونَ لِيصًا وَأَنْ يُسَمَّى لِيصًا ، ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلَ اللَّصِّ فِي اسْتِلَابِ الْعَفَافِ وَسَرِقَةِ الْفَتَيَاتِ مِنْ تَارِيخِهِنَّ { الْأَجْتِمَاعِي } ؛ وَتَرَاهُ نَجْدًا يَسْتَحِفُّ أَنْ يَكُونَ فِي أَوْصَافِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَقْطَعَ الطَّرِيقَ فِي حَيَاةِ الْعِدَارَى وَشَرَفِ النِّسَاءِ .

أَكْثَرُ أَوْلِيَاكَ الشُّبَّانِ الْمُتَعَلِّمِينَ يَغْرِضُونَ لِلْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ بِوُجُوهِ مَضْقُولَةٍ تَحْمِلُ

(*) «الرسالة» العدد : ١٠٣ ، ٢٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٠٠٣ - ١٠٠٦ .

(١) فِي الْأَوَّلِ : «وَأَشْهَدُ» بِدَلَالَةٍ مِنْ : «ثُمَّ أَشْهَدُ» .

شَيْئَيْنِ : الْحُبَّ وَالصَّفْعَ . . . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَلِّمَاتِ يَضَعْنَ الْقُبْلَةَ فِي مَكَانِ الصَّفْعَةِ ، إِذْ كَانَ الْعِلْمُ قَدْ حَلَّلَ الْغَرِيزَةَ الَّتِي فِيهِنَّ فَعَادَتْ بَقَايَا لَا تَسْتَفْسِكُ ؛ وَبَصَرُهُنَّ بِأَشْيَاءَ تَرِيدُ قُوَّةَ الْحَيَاةِ فِيهِنَّ خَطَرًا ، وَتُوحِي إِلَيْهِنَّ وَحِيهَا مِنْ حَيْثُ يَشْعُرْنَ وَلَا يَشْعُرْنَ ؛ وَصَوَّرَ فِي أَوْهَامِهِنَّ صُورًا مَحَبِّ الصُّورِ الَّتِي كَانَتْ فِي عَقَائِدِهِنَّ ؛ وَأَخْرَجَهُنَّ مِنَ السَّلْبِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي حَمَاهُنَّ اللَّهُ بِهِ ، فَلهُنَّ الْعِفَّةُ وَالْحَيَاءُ ، وَلَكِنَّ لَيْسَ لَهُنَّ ذَلِكَ الْعَقْلُ الْغَرِيزِيُّ الَّذِي يَجِيءُ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ ؛ وَكَثِيرَاتٌ مِنْهُنَّ يَخْشَيْنَ الْعَارَ وَسِمَتَهُ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ وَلَكِنَّ خَشْيَةَ فَهَاءِ الْحِجَلِ الشَّرْعِيَّةِ ، قَدْ أَزْصَدُوا لِكُلِّ وَجْهٍ مِنَ التَّخْرِيمِ وَجْهًا مِنَ التَّخْلِيلِ ، فَأَصْبَحَ أَمْنِتَاعُ الْإِثْمِ هُوَ أَلَّا تَكُونَ إِلَيْهِ حَاجَةً . . .

وَالْعَقْلُ الَّذِي بِهِ التَّفَكُّيرُ يَكُونُ أحيانًا غَيْرَ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ الْعَمَلُ ؛ فَفِي بَعْضِ الْجَاهِلَاتِ يَكُونُ عَقْلُ الْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ وَالشَّرَفِ وَالذِّينِ - غَرِيزَةُ كَغَرَائِزِ الْوَحْشِ ، هِيَ الْفِكْرَةُ وَهِيَ الْعَمَلُ جَمِيعًا ، وَهِيَ أَبَدًا الْفِكْرَةُ وَالْعَمَلُ جَمِيعًا لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَلَا يَقَعُ فِيهَا التَّنْقِيحُ الشَّعْرِيُّ وَلَا الْفَلَسَفِيُّ . . . وَمَا غَرِيزَةُ الْوَحْشِ إِلَّا إِيمَانُهُ بِمَنْ خَلَقَهُ وَخَشَا ؛ وَكَذَلِكَ غَرِيزَةُ الشَّرَفِ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ عِنْدِي حَقِيقَةُ إِيمَانِهَا بِمَنْ خَلَقَهَا أَتَى .

وَشَرَفُ الْمَرْأَةِ رَأْسُ مَالِ الْمَرْأَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ فِي أَوْهَامِ الْعِلْمِ اشْتِرَاكِيَّةٌ بِحَسَبِهِ تَنْظُرُ فِيهِ نَظَرَهَا وَتَرْبِيعُ رِيعَهَا وَتَقْضِي حُكْمَهَا ؛ وَأَكْثَرُ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمَاتِ قَدْ أَنْتَهَوْا بِطَبِيعَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى الرُّضَى بِهِلَذِهِ الْأَشْتِرَاكِيَّةِ ، وَإِلَى التَّسَامُحِ فِي كَثِيرٍ ، وَإِلَى وَضْعِ الْأَعْتِدَارِ فِيمَا لَا يَقْبَلُ عُذْرًا ، وَمِنْ هَا هُنَا كَانَ بَعْضُ الْجَاهِلَاتِ كَالْحِصْنِ الْمَغْلَقِ فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ الْوَعْرِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُتَعَلِّمَاتِ دُونَ الْحِصْنِ ، وَدُونَ الْقِمَّةِ ، وَدُونَ الْجَبَلِ ، حَتَّى تَنْزِلَ إِلَى السَّهْلِ فَتَرَاهُنَّ ثَمَّةً .

لَقَدْ غَفَلَتِ الْحُكُومَاتُ عَنْ مَعْنَى الدِّينِ وَحَقِيقَتِهِ ، فَلَوْ عَرَفَتْ لَعَرَفَتْ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالدِّينِ وَالْعِلْمِ كِلَيْهِمَا ؛ فَإِنَّ فِي الرَّجُلِ إِنْسَانًا عَامًّا وَنَوْعًا خَاصًّا مُذَكَّرًا ، وَفِي الْمَرْأَةِ إِنْسَانًا عَامًّا كَذَلِكَ ، وَنَوْعًا خَاصًّا مُؤَنَّثًا . وَالدِّينُ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ النَّوْعَ بِتَحْقِيقِ الْفَضِيلَةِ وَتَقْرِيرِ الْغَايَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَاجِرُ بَيْنَ الْغَرِيزَتَيْنِ ، وَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْقُوَّةَ الرُّوحِيَّةَ فِي طَبِيعَةِ الْمُتَعَلِّمِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةُ التَّعْلِيمِ قُوَّةً ، كَانَتْ الرُّوحِيَّةُ

زِيَادَةً فِي الْقُوَّةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةً كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، لَمْ تَجْمَعْ الرُّوحِيَّةُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ ضَعْفَيْنِ ، يَتَّبِعِي كِلَاهُمَا الْآخَرُ وَيَزِيدُهُ .

* * *

فُلَانٌ وَفُلَانٌ تَعَلَّقَا فَتَاتَيْنِ جَاهِلَةً وَمُتَعَلِّمَةً ؛ وَكِلْتَاهُمَا قَدْ صَدَّتْ صَاحِبَهَا وَامْتَنَعَتْ مِنْهُ ؛ فَأَمَّا الْجَاهِلَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَالْوَحْشِ ، وَإِنَّ صُدُودَهَا لَيْسَ صُدُودًا حَسَبُ ، بَلَى هُوَ ثَوْرَةٌ مِنْ فَضِيلَتِهَا وَإِيمَانِهَا ، فِيهَا الْمَعْنَى الْحَرْبِيُّ مُجَاهِدًا مُتَحَفِّزًا لِلْقَتْلِ ...

وَأَمَّا الْمُتَعَلِّمَةُ فَيَقُولُ (فُلَانُهَا) : إِنَّهَا كَكُلِّ أَمْرَأَةٍ ، وَإِنَّ صُدُودَهَا ثَوْرَةٌ ، وَلَكِنْ مِنْ دَلَالِهَا تُرْضِي بِهِ أَوَّلَ مَا تُرْضِي وَآخِرَ مَا تُرْضِي - كِبَرِيَاءَ الْجَمَالِ فِيهَا لَا الْإِيمَانَ وَلَا الْفَضِيلَةَ . فَكَانَتْهَا إِحْيَاءَ لِلطَّمَاعِ أَنْ يَزِيدَ طَمَعًا أَوْ يَزِيدَ اخْتِيَالًا ...

وَفُلَانٌ هَذَا يَقُولُ لِي : إِنْ ضُعَفَاءَ الْإِيمَانِ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُتَعَلِّمِينَ - وَأَكْثَرُهُمْ ضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ - لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَّوْتَ سَرَائِرَهُمْ ، لَتَبَيَّنْتَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا لَا يَرَوْنَ قَلْبَ الْفِتَاةِ الْمُتَعَلِّمَةِ إِلَّا كَالدَّارِ الْخَالِيَةِ كُتِبَ عَلَيْهَا : (لِلْإِيحَارِ) ... !

* * *

يَقُولُ كَاتِبُ « الطَّائِشَةِ » :

أَمَّا أَنَا فَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ سِيَاسَةَ أَكْثَرِ الْمُتَعَلِّمَاتِ هِيَ سِيَاسَةُ فَتْحِ الْعَيْنِ حَدَرًا مِنَ الشُّبَّانِ جَمِيعًا ؛ وَإِغْمَاضِ الْعَيْنِ لِوَاحِدٍ فَقَطْ ...

وَهَذَا الْوَاحِدُ هُوَ الْبَلَاءُ كُلُّهُ عَلَى الْفِتَاةِ ، فَإِنَّهَا بِطَبِيعَتِهَا تَتَّقِي وَلَا تَنْفَصِلُ إِلَّا مُكْرَهَةً ، وَهُوَ بِطَبِيعَتِهِ قَبْلَهُ لَذَّتُهُ ، فَيَنْفَصِلُ وَيَنْفَصِلُ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا بَدَّ لَهَا مِنْ هَذَا الْوَاحِدِ ، فَمَكْرَهَا الْمُتَعَلِّمُ يُوَحِّي إِلَيْهَا بِالْحَيَاةِ لَا يَجْعَلُ فِي ذَلِكَ مَوْضِعًا لِلتَّكْبِيرِ عِنْدَهَا ، وَالْحَيَاةُ نِصْفُ مَعَانِيهَا النَّفْسِيَّةِ فِي الصَّدِيقِ ؛ فَالْأَثْوَنَةُ بِغَيْرِهِ مُظْلِمَةٌ فِي حَيَاتِهَا ، رَاكِدَةٌ فِي طِبَاعِهَا ، ثَقِيلَةٌ عَلَى نَفْسِهَا ، مَا دَامَ « الشُّعَاعُ » لَا يَلْمُسُهَا ...

وَالَّذِينَ يَأْتِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الصَّدِيقُ إِلَّا الزَّوْجُ فِي شُرُوطِهِ وَعَهْدِهِ ، كَيْلًا تَتَّقِي الْمَرْأَةَ إِلَّا بِمَنْ يَتَّقِي بِهَا ؛ وَالْعِلْمُ لَا يَأْتِي أَنْ يَكُونَ الصَّدِيقُ هُوَ الْحُبُّ ؛ وَالْقُلُوبُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ

هُوَ الْحُبُّ ؛ وَلَيْسَ فِي الْحُبِّ شُرُوطٌ وَلَا عُهُودٌ ، إِلَّا وَسَائِلُ تُخْلَقُ لَوَفِّيَّهَا ، وَأَكْثَرُهَا مِنْ
الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ وَالْخَدِيعَةِ ؛ وَلَفْظُ الْحُبِّ نَفْسُهُ لِمَنْ لَعَوِيَّ حَيْثُ ، يَسْرِقُ الْمَعَانِي الَّتِي
لَيْسَتْ لَهُ وَيُنْفِقُ مِمَّا يَسْرِقُ . وَلَيْسَ مِنْ أَمْرَةٍ يَخْتَدِعُهَا عَاشِقٌ إِلَّا أَنْكَشَفَ لَهَا حُبَّهُ كَمَا
يُنْكَشِفُ اللَّصُّ { حِينَ يُنْسَكُ } .

* * *

يَقُولُ كَاتِبُ « الطَّائِشَةِ » :

تِلْكَ فَلَسَفَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي التَّوَطُّعَةِ لِلْكِتَابَةِ عَنْ (عَرِيزَتِي رَغَمَ أَنْفِي) . وَمَنْ كَانَتْ مِنْهَا
فِي أَفْكَارِهَا وَأَسْنِدِهَا وَحُجَجِهَا وَطَرِيقَتِهَا - كَانَ خَلِيقًا بِمَنْ يَكْتُبُ قِصَّتَهَا أَنْ يَجْعَلَ الْقِصَّةَ
مِنْ أَوَّلِهَا مُسَلَّحَةً ...

لَقَدْ تَكَارَهْتُ عَلَى بَعْضِ مَا أَرَادْتُ مِنِّي مَا دَامَ الْحُبُّ (رَغَمَ أَنْفِي) ، وَمَا دَامَتِ السِّيَاسَةُ
أَنْ أَدَارِيهَا وَأَتَّبِعَ مَحَبَّتَهَا ؛ غَيْرَ أَنِّي صَارَحْتُهَا بِكَلِمَةِ شَمْسِيَّةٍ تَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ ، أَنَّهَا
الصَّدَاقَةُ لَا الْحُبُّ ، وَأَنَّمَا هُوَ اللَّهُو الْبَرِّيُّ لَا غَيْرُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ جُهْدُ مَا أَنَا قَوِيٌّ عَلَيْهِ وَفِيَّ
بِهِ .

قَالَتْ : فَلْيَكُنْ ، وَلَكِنْ صَدَاقَةٌ أَعْلَى قَلِيلًا مِنَ الصَّدَاقَةِ ... وَلَوْ مِنْ هَذَا الْحُبِّ
الْمُتَكَبِّرِ الَّذِي لَا يَصْدُقُ كَيْلًا يَكْذِبُ ... إِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْحُبِّ يَطْيِشُ بِعَقْلِ الْمَرْأَةِ ،
وَلَكِنَّهُ هُوَ أَوَّلُ مَا يَسْتَهْنِئُهَا وَيُعْجِبُهَا وَيُورِثُهَا التَّيَاعُ الْخَنِينِ { وَالشُّوقِ } .

* * *

كَتَبْتُ لِي : « أَنَا لَا أَتَاكُمُ فِي هَوَاكَ بِالْأَلَمِ ، وَلَكِنْ بِأَشْيَاءٍ مِنْكَ أَقْلُهَا الْأَلَمُ ؛ وَلَا
أَحْزَنُ بِالْحُزْنِ ، وَلَكِنْ بِهُمُومٍ بَعْضُهَا الْحُزْنُ .

إِنَّكَ صَنَعْتَ لِي بُكَاءً وَدُمُوعًا وَتَهْدَاتٍ ، وَجَعَلْتَ لِي ظِلَامًا مِنْكَ وَنُورًا مِنْكَ ،
يَا نَهَارِي وَلَيْلِي . تَرَى مَا أَسْمُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الصَّدَاقَةِ ؟

أَسْمُهُ الْحُبُّ ؟ لَا .

أَسْمُهُ الْكِبْرِيَاءُ ؟ لَا .

أَسْمُهُ الْحَنَانُ ؟ لَا .

أَسْمُهُ حُبُّكَ أَنْتَ ، أَنْتِ أَيُّهَا الْعَاِمِضُ الْمُتَقَلِّبُ . أَلَا تَرَى الْفَاطِنِي تَبْكِي ، أَلَا تَسْمَعُ قَلْبِي يَصْرُخُ ، بِأَيِّ عَذْلِكَ أَوْ بِأَيِّ عَذْلِ النَّاسِ تُرِيدُ أَنْ أَحْيَا فِي عَالَمِ شَمْسِهِ بَارِدَةٍ . . . هَذَا قَتْلٌ ، هَذَا قَتْلٌ .

فَكَنَنْتُ إِلَيْهَا : « إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا جُنُونًا فَإِنَّهُ ^(١) لَقَرِيبٌ مِنْهُ » .

فَرَدَّتْ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ :

أَتَكَايِسُنِي بِأَسْلُوبِ التَّلْغَرَاِفِ ^(٢) . . . ؟ لَوْ أَهْدَيْتِ إِلَيَّ عَقْدًا مِنَ الزُّمُرِدِ حَبَّائِهِ بِعَدَدِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَكُنْتُ بِخَيْلًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ الْفَاطُ ؟ إِنِّي لِأَبْكِي فِي عَمَضَةٍ وَاحِدَةٍ بِدُمُوعٍ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنْ كَلِمَاتِكَ ، وَهِيَ دُمُوعٌ مِنَ الْآمِنِي وَأَخْزَانِي ؛ وَتِلْكَ الْفَاطُ مِنْ لَهْوِكَ وَعَبَبِكَ !

مَا كَانَ ضَرَرَكَ لَوْ كَتَبْتَ لِي بِضَعَةَ أُسْطُرٍ تَنْسَخُهَا مِنْ تَلْغَرَاِفَاتِ رُوْتِر ^(٣) . . . مَا دُمْتُ تَنْسَخُ مِثْلِي ؟ أَأَنْتِ الشَّبَابُ وَأَنَا الْكُهْؤَلُ ، فَلَيْسَ لَكَ بِالطَّبِيعَةِ إِلَّا الْإِنْصِرَافُ عَنِّي ، وَلَيْسَ لِي بِالطَّبِيعَةِ إِلَّا الْحَنِينُ إِلَيْكَ ؟ .

* * *

لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْبَبْتُهَا ، وَلَا كَيْفَ دَعَنْتِي إِلَيْهَا نَفْسِي ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي أَعْلَمُهُ أَنِّي تَخَادَعْتُ لَهَا وَقُلْتُ : إِنَّ الْمُسْتَحِيلَ هُوَ مَنَعُ هَذَا الشَّرِّ ، وَالْمُمْكِنَ هُوَ تَخْفِيفُهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « إِنَّهُ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « فَإِنَّهُ » .

(٢) هُوَ مَا عَرَفَ أَخِيرًا بِالْبَرْقِيَّةِ ، Telegramme أو Telegraphie ، يُقْصَرُ اسْتِعْمَالُ هَذَا الرَّسْمِ عَلَى التَّرَاوِيلِ الْكَهْرَبِيِّ ، وَاسْتَعْمَلَ قَدِيمًا لِيَدُلَّ عَلَى طُرُقِ إِسْرَالِ الْإِشَارَاتِ بِالصَّوْتِ أَوْ النَّظَرِ خَارِجَ نِطَاقِ الصَّوْتِ الْإِنْسَانِي . بِسَام .

(٣) Reuters ، وَكَالَةُ أَنْبَاءٍ عَالِمِيَّةٍ ، تَأَسَّسَتْ عَامَ ١٨٥١ م عَلَى يَدِ الْيَهُودِيِّ الْإِنْكَلِيزِيِّ الْأَلْمَانِيِّ الْأَصْلِ بُولِ يُولْيُوسِ رُوِيْتِرٍ فِي لَنْدُنْ ، حَيْثُ بَدَأَ عَامَ ١٨٤٩ م مُسْتَعْدِمًا الْحَمَامَ الزَّاجِلَ فِي نَقْلِ أَسْعَارِ الْأَسْهَمِ بَيْنَ مَدِينَةِ آخْنِ وَبِرُوكْسِيلِ لِيَسُدَّ فَجْوَةً فِي سِلْكِ التَّلْغَرَاِفِ الْوَاصِلِ بَيْنَ بَرْلِينِ وَبَارِيسَ ، ثُمَّ أَسَّسَ وَكَالَتَهُ التَّلْغَرَاِفِيَّةَ فِي لَنْدُنْ عَامَ ١٨٥١ م ، وَبَدَأَ بِنَشْرِ مَكَاتِبِهِ فِي مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ عَامَ ١٨٥٨ م ، وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْمَوْسُوسَةُ حَيَّةً لِمَا فِيهِ مِنْ تَارِيخِهِ ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَوْسُوسَاتِ الْعَالِمِيَّةِ الَّتِي تَنْقُلُ أَحْدَثَ الْأَنْبَاءِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْأَسْعَارِ . بِسَام .

أَرْزِي لَهَا ، وَأَخْفَفْتُ عَنْهَا ، وَأَقْبَلْتُ هِيَ تَضَاعِفُ لِي مَكْرَهَا وَخَدِيعَتَهَا ، وَكَانَ الْأَمْرُ بَيْنَنَا كَمَا قَالَتْ : « فِي الْحُبِّ وَالْحَرْبِ لَا يَكُونُ الْهُجُومُ هُجُومًا وَفِيهِ رَفَقٌ أَوْ تَرَاجُعٌ » .
إِنَّ الْمَرْأَةَ وَخَدَهَا هِيَ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تُقَاتِلُ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ ؛ وَلَا يُشْبِهُهَا فِي ذَلِكَ إِلَّا دُهَاهُ الْمُسْتَبِدِّينَ .

* * *

سَأَلْتَنِي أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْهَا رَسْمِي ؛ فَأَعْتَلْتُ عَلَيْهَا بِأَنْ قُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَذَا الرَّسْمَ سَيَكُونُ تَحْتَ عَيْنَيْكَ أَنْتِ رَسْمٌ حَبِيبٌ ، وَلَكِنَّهُ تَحْتَ الْأَعْيُنِ الْأُخْرَى سَيَكُونُ رَسْمٌ مُتَّهَمٌ .
وَطَنَنْتَنِي أَبْلَغْتُ فِي الْحُجَّةِ وَقَطَعْتُهَا عَنِّي ؛ فَجَاءَنِي مِنَ الْغَدِ بِالرَّدِّ الْمُفْجِعِ ، جَاءَنِي بِإِحْدَى صَدِيقَاتِهَا لِتُظْهَرَ فِي الرَّسْمِ إِلَى جَانِبِي كَأَنِّي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهَا . . . فَيَكُونُ الرَّسْمُ رَسْمَ صَدِيقَتِهَا ، وَيَكُونُ مُهْدًى مِنْهَا لَمْ يَنْتَهِ ، وَكَأَنِّي فِيهِ حَاشِيَةٌ جَاءَتْ مِنْ عَمَّةٍ أَوْ خَالَةٍ . . .
وَأَصْرَرْتُ عَلَى الْإِبَاءِ ، وَنَافَرْتَنِي الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ، تَرَدُّدٌ عَلَيَّ وَأَرَدُّ عَلَيْهَا ، وَتَغَاصَبْنَا وَانْكَسَرَتْ حُزْنًا وَذَهَبَتْ بَاكِئَةً ؛ ثُمَّ تَسَبَّيْتُ إِلَى رِضَايَ فَرَضَيْتُ .

* * *

حَدَّثَنِي أَنَّ صَدِيقَتَهَا فَلَانَةَ الْأَدِيبَةِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَرِيرَ صَاحِبَهَا فَلَانًا فِي مَخْدَعِهَا ، فِي دَارِهَا ، بَيْنَ أَهْلِهَا ، مُتَّصِفَةً اللَّيْلِ . قُلْتُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَتْ : إِنَّهَا تَحْمِلُ شَهَادَةَ . . . وَهِيَ تَلْتَمِسُ عَمَلًا وَقَدْ طَالَ عَلَيْهَا ؛ فَزَعَمَتْ لِذَوِيهَا أَنَّهَا عَثَرَتْ فِي كِتَابٍ كَذَا عَلَى رُقِيَّةٍ مِنْ رُقَى السَّخْرِ ، فَتَرِيدُ أَنْ تَتَعَاطَى تَجَرِبَتَهَا بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ إِذَا مُحِقَ الْقَمَرُ ؛ وَأَنَّهَا سَتُطْلِقُ الْبُخُورَ وَتَبْقَى تَحْتَ ضَبَابَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ تَهْنِئُهُمُ بِالْأَسْمَاءِ وَالْكَلِمَاتِ . . .

ثُمَّ إِنَّهَا اتَّعَدَّتْ وَصَاحِبَهَا لِيَوْمٍ ، وَأَجَافَتْ بَابَ دَارِهَا وَلَمْ تَغْلِقْهُ ، وَأَطْلَقَتْ الْبُخُورَ فِي مِجْمَرٍ كَبِيرٍ أَنَارَ عَاصِفَةً مِنَ الدُّخَانِ الْمُعْطَرِّ ، وَجَعَلَ مَخْدَعَهَا كَمَخْدَعِ عَرُوسٍ مِنْ مَلَكَاتِ النَّارِ بِنِجِ الْفَدِيمِ ؛ وَبَقِيَ صَاحِبُهَا تَحْتَ الضَّبَابَةِ يَهْنِئُهُمْ وَتَهْنِئُهُمْ . . . ثُمَّ خَرَجَ فِي أَغْبَاسِ السَّخْرِ .

هَكَذَا قَالَتْ ؛ وَمَا أَدْرِي أَهْوَى خَيْرٌ عَنْ تِلْكَ الصَّدِيقَةِ وَفَلَانِهَا ، أَمْ هُوَ أَفْزَحٌ عَلَيَّ أَنَا مِنْ « فَلَانَتِي » لَأَكُونَ لَهَا عَفْرِيَتِ الضَّبَابَةِ . . . ؟

* * *

لَمْ يَخَفْ عَلَيْهَا أَنْ لَذَعَةَ حُبِّهَا وَقَعَتْ فِي قَلْبِي ، وَأَنْ صَبَرَهَا قَدْ غَلَبَ كِبَرِيَايِي ، وَأَنَّ كَثْرَةَ التَّلَاقِي بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ يَطْمَعُ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ - لَا بُدَّ أَنْ يَنْقُلَ رَوَايَتَهُمَا إِلَى فَضْلِهَا الثَّانِي ، وَيَجْعَلَ فِي التَّأْلِيفِ شَيْئًا مُنْتَظَرًا بِطَبِيعَةِ السِّيَاقِ . . . وَالْحَاحُ أَمْرًا عَلَى رَجُلٍ قَدْ خَلَبَهَا وَجَفَا عَنْ صِلَتِهَا ، إِنَّمَا هُوَ نَعْرُضُهَا لِلتَّعْقِيدِ الَّذِي فِي طَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَإِنْ هِيَ صَابِرَتُهُ وَأَمْنَعَتْ ، فَقَلَمًا يَدْعُهَا هَذَا التَّعْقِيدُ مِنْ حُلِّ لِمُعْضِلَتِهَا . وَبِمِثْلِ هَذِهِ الْعَجِيبَةِ كَانَ تَعْقِيدًا وَكَانَ غَيْرَ مَفْهُومٍ وَلَا وَاضِحٍ ؛ وَقَدْ يَنْقَلِبُ فِيهِ أَشَدُّ الْبُغْضِ إِلَى أَشَدِّ الْحُبِّ ، وَقَدْ تَعْمَلُ فِيهِ حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ مَا لَا يَعْمَلُ السَّخَرُ ؛ وَكَذَلِكَ يَقَعُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَحَبَّ الْمَرْأَةَ فَنَبَتْ عَنْ مَوَدَّتِهِ فَعَرَضَ لِلتَّعْقِيدِ الَّذِي فِي طَبِيعَتِهَا وَأَمْنَعَتْ وَتَبَتْ { وَصَابَر } .

رَأَتْ الْجَمْرَةَ الْأُولَى فِي قَلْبِي فَأَضْرَمَتْ فِيهِ الثَّانِيَةَ ، حِينَ جَاءَنِي الْيَوْمَ بِكِتَابٍ زَعَمَتْ أَنْ فَلَانًا أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يُطَارِحُهَا الْهَوَى وَيُبَيِّنُهَا وَلَهُ الْحَنِينُ وَالْتِيَاعُ الْحُبِّ .

وَيَقُولُ لَهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ : « أَنَا لَمْ أَشْرَبْ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَكِنِّي لَا أَرَانِي أَنْظُرُ إِلَى مَفَاتِنِكَ وَمَحَاسِنِكَ إِلَّا وَفِي عَيْنِي الْخَمْرُ ، وَفِي عَفْلِي السُّكْرُ ، وَفِي قَلْبِي الْعَرَبْدَةُ . جَعَلَتْ لِي { وَيَحَكِ } نَظْرَةً سَكِيرٍ فِيهَا نِسْيَانُ الدُّنْيَا وَمَا فِي الدُّنْيَا مَا عَدَا الزُّجَاجَةَ . . . » .

وَيَخْتِمُهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ :

« أَوْ لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْعَلَ كَلَامِي فِي نَفْسِكَ نَاعِمًا ، سَاحِرًا ، مُسَكِّرًا ، مِثْلَ كَلَامِ الشَّفَةِ لِلشَّفَةِ حِينَ تُقْبَلُهَا . . . ! » .

عِنْدَ هَذَا وَقَعَ الشَّيْءُ الْمُنْتَظَرُ فِي الْفَضْلِ الثَّانِي مِنَ الرِّوَايَةِ ، وَخَتِمَ هَذَا الْفَصْلُ بِأَوَّلِ قُبْلَةٍ عَلَى شَفَتِي (الْمُمَثِّلَةِ) .

* * *

قَالَتْ : هَذِهِ الْقُبْلَةُ كَانَتْ (غُلْطَةً مَطْبَعِيَّةً) ، وَمَضَتْ تُسَمِّيُهَا كَذَلِكَ ، وَأَسْتَمَرَّتِ

الْمَطْبَعَةُ تَغْلُطُ . . . وَمَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي اسْتَوْقَدْتُ بِهِ غَيْرَتِي ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَمَلِهَا وَمَكْرَهَا .

* * *

وَجَاءَنِي الْيَوْمَ بِأَيِّدٍ مِنْ أَوَائِدِهَا ، قَالَتْ :

أَنْتَ رَجْعِي مُحَافِظٌ عَلَى التَّقَالِيدِ . قُلْتُ : لِأَنِّي أَرَى هَذِهِ التَّقَالِيدَ كَالْمِضْبَاحِ الَّذِي يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ضِيَاءٌ وَنُورٌ .

قَالَتْ : أَوْ كَالْمَسَاءِ الَّذِي يَتَكَرَّرُ وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ظِلَامٌ وَسَوَادٌ !

قُلْتُ : لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ وَلَا إِلَيْكَ ، بَلِ الْحُكْمُ فِيهِ لِلنَّفْعِ أَوِ الضَّرَرِ .

قَالَتْ : بَلْ هُوَ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَالْحَيَاةُ الْيَوْمَ عِلْمِيَّةٌ أَوْ رُبِّيَّةٌ ، وَالزَّمَنُ حَيْثُ فِي تَقْدِيمِهِ ، وَأَصْحَابُ « التَّقَالِيدِ » جَامِدُونَ فِي مَوَاضِعِهِمْ قَدْ فَاتَهُمُ الزَّمَنُ ، وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُمْ (مُتَأَخِّرِينَ) . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَضِيلَةَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي أَوْرَبَةِ زَنَا قَدِيمًا ، فَأَخَذَ الْمِقْصَصُ يَعْمَلُ فِي تَهْلِيلِهَا ، يَقْطَعُ مِنْ هُنَا وَيُسْقُ مِنْ هُنَا . . . ؟

اسْمَعْ أَيُّهَا « الْمُتَأَخِّرُ » ، وَتَأَمَّلْ هَذَا الْبَرْهَانَ ^(١) الْأَوْرُبِّيَّ الْعَصْرِيِّ :

أَخْبَرْتَنِي صَدِيقَتِي فَلَانَةُ حَامِلَةٌ شَهَادَةٍ . . . أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْفِطَارِ بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْقَاهِرَةِ ، وَكَانَتْ مَعَهَا فَتَاةٌ مِنْ جِيرَتِهَا تَحْمِلُ الشَّهَادَةَ الْإِبْتِدَائِيَّةَ ؛ فَجَمَعَهُمَا السَّفَرُ بِشَابٍ وَسِيمٍ ظَرِيفٍ يُشَارِكُ فِي الْأَدَبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجْعِيٌّ (مُتَأَخِّرٌ) ، وَصَدِيقَتِي تَعْرِفُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا ، وَتَأْخُذُ مِنْ كُلِّ فَرْقٍ بِطَرَفٍ ؛ فَجَرَى الْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا مَجْرَاهُ ، وَتَوَكَّتِ الصَّدِيقَةُ نَفْسَهَا لِدَوَاعِيهَا ، وَأَنْطَلَقَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا الظَّرِيفَةِ ، وَوَضَعَتْ فَرْقَ لِسَانِهَا فِي الْكَلَامِ فَجَعَلَتْ فِيهِ رُوحَ التَّقْيِيلِ . . . !

وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْقَاهِرَةِ حَتَّى كَانَتْ قَدْ سَحَرَتْ ذَلِكَ (الْمُتَأَخِّرَ) وَوَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَدَفَعَتْهُ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . فَلَمَّا هَمَّتْ بِوَدَاعِهِ سَأَلَهُمَا : أَيْنَ تَذْهَبَانِ ؟

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبَرْهَانُ » بَدَلًا مِنْ : « الْبَرْهَانِ » .

فَأَغْضَتْ صَاحِبَةَ الشَّهَادَةِ الْإِبْدَائِيَّةَ ، وَأَطْرَفَتْ حَيَاءً ، وَرَأَتْ فِي السُّؤَالِ ثُهُمَةً وَرِينَةً ،
فَأَتَبَّهَا الصَّدِيقَةُ وَأَيَّقَظَهَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : أَلَا تَرَالَيْنِ شَرْقِيَّةً مُتَأَخِّرَةً ؟ إِنْ لَمْ
يُسْعِدْنَا الْحِظُّ أَنْ تَكُونِ لَنَا حُرِّيَّةُ الْمَرَاةِ الْأُورُبِّيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ وَفِي أَنْفُسِنَا ؛ أَفَلَا يَسْعُنَا أَنْ
تَكُونِ لَنَا هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ وَلَوْ فِي أَنْفُسِنَا ؟

ثُمَّ رَدَّتْ عَلَى الشَّابِّ فَأَتْبَانَهُ بِمَكَانِهَا وَعُنُونِهَا ، فَأَطْمَعَهُ رَدُّهَا ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَنْتَزِعَ مَعَهُ
فِي بَعْضِ الْحَدَائِقِ ، فَأَبَتْ صَاحِبَةُ الْإِبْدَائِيَّةِ وَلَجَّتْ عَمَائِثُهَا الشَّرْقِيَّةُ الْمُتَأَخِّرَةُ ، وَرَأَتْ فِي
ذَلِكَ مَسْقَطَةَ لَهَا ، فَلَوَتْ إِلَى دَارِهَا وَتَرَكْتُهُمَا إِنْسَانًا وَإِنْسَانًا لَا فَتَى وَفَتَاةَ ؛ وَتَنَزَّاهَا مَعًا ،
وَعَرَفَ الشَّابُّ الرَّجْعِيَّ الْحُبَّ ، وَالْخَمَرُ الَّتِي هِيَ تَحِيَّةُ الْحُبِّ !

وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْفَتَاةُ الْمَاكِرَةُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى دَارِهَا وَهِيَ سَكْرَى { كَمَا زَعَمَتْ لِلشَّابِّ - }
فَأَوَتْ إِلَى فُنْدُقٍ ، وَخَتِمَتْ رِوَايَتَهُمَا بِإِعْرَاضٍ مِنَ الشَّابِّ أَجَابَتْ هِيَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا : أَلَا زِلْتِ
(مُتَأَخِّرًا) ... ؟

قَالَتْ « الْطَائِشَةُ » :

نَعَمْ يَا عَزِيزِي (الْمُتَأَخِّرُ) ، إِنَّ مَذْهَبَ الْمَرَاةِ الْحُرَّةِ ... فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الزَّوْجِ وَغَيْرِ
الزَّوْجِ ، أَنَّ الْأَوَّلَ رَجُلٌ ثَابِتٌ ، وَالْآخِرُ رَجُلٌ طَارِيءٌ . وَالثَّابِتُ ثَابِتٌ مَعَهَا بِحَقِّهِ هُوَ ؛
وَالطَّارِيءُ طَارِيءٌ عَلَيْهَا بِحَقِّهَا هِيَ ... فَإِنْ كَانَتْ حُرَّةً فَلَهَا حَقُّهَا ...

قَالَ كَاتِبُ الطَّائِشَةِ : وَهُنَا ، { هُنَا ، هُنَا ، } كَادَ الشَّيْطَانُ يَرْفَعُ السَّتَارَ عَنْ فَضْلِ
ثَالِثٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، رِوَايَةِ « الطَّائِشَةِ » ...

* * *

نَقُولُ نَحْنُ : وَإِلَى هُنَا يَنْتَهِي نِصْفُ الرِّوَايَةِ ؛ أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَيَكَادُ يَكُونُ قِصَّةَ
أُخْرَى أَسْمُهَا : « الطَّائِشُ وَالطَّائِشَةُ » ...

دُمُوعٌ
مِنْ رَسَائِلِ « الطَّائِشَةِ » (*) (١)

وَرَسَائِلُ هَذِهِ الطَّائِشَةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، تُقْرَأُ فِي ظَاهِرِهَا عَلَى أَنَّهَا رَسَائِلُ حُبٍّ ، قَدْ كُنِيَتْ فِي الْفُنُونِ الَّتِي يَتَرَسَّلُ بِهَا الْعُشَّاقُ ؛ وَلَكِنَّ وَرَاءَ كَلَامِهَا كَلَامًا آخَرَ ، تُقْرَأُ بِهِ عَلَى أَنَّهَا تَارِيخُ نَفْسٍ مُلْتَاعَةٍ لَا تَزَالُ شُعْلَةُ النَّارِ فِيهَا تَتَنَمَّى وَتَرْتَفِعُ ؛ وَقَدْ فَدَحَتْهَا { بِظُلُمِهَا } الْحَيَاةُ إِذْ حَصَرَتْهَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَأَوْقَعَتْهَا تَحْتَ شَرْطٍ وَاحِدٍ لَا يَتَحَقَّقُ ، وَصَرَفَتْهَا بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَزَالُ تَخِيبُ .

وَأَشَدُّ سُجُونِ الْحَيَاةِ فِكْرَةُ خَائِبَةٍ يُسَجِّنُ الْحَيُّ فِيهَا ، لَا هُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَدْعَهَا ، وَلَا هُوَ قَادِرٌ أَنْ يُحَقِّقَهَا ؛ فَهَذَا يَمْتَدُّ شَقَاؤُهُ مَا يَمْتَدُّ وَلَا يَزَالُ كَانَهُ عَلَى أَوَّلِهِ لَا يَتَقَدَّمُ إِلَى نِهَائِيَةٍ ؛ وَيَتَأَلَّمُ مَا يَتَأَلَّمُ وَلَا تَزَالُ تُشْعِرُهُ الْحَيَاةُ أَنَّ كُلَّ مَا فَاتَ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّمَا هُوَ بَدْءُ الْعَذَابِ .

وَالسَّعَادَةُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا أَنْ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِمَعْنَى تَتَأَلَّمُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنَى تَخَافُ مِنْهُ ، وَلَا بِمَعْنَى تَحْذَرُ مِنْهُ ؛ وَالشَّقَاءُ فِي تَفْصِيلِهِ وَجُمْلَتِهِ أَنْ حِجَابُ الْفِكْرِ فِي مَعَانِيهِ الْأَلَمِ وَالْخَوْفِ وَالْاضْطِرَابِ .

وَقَدْ اخْتَرْنَا مِنْ رَسَائِلِ « الطَّائِشَةِ » هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُصَوَّرَةَ الَّتِي يَبْزُقُ شِعَاعُهَا وَتَكَادُ تَقُومُ بِإِزَاءِ نَفْسِهَا كَالْمِرَاةِ بِإِزَاءِ الْوَجْهِ ؛ وَهِيَ فِيهَا عَذْبَةُ الْكَلَامِ مِنْ أَنَّهَا مَرَّةُ الشُّعُورِ ، مُسَيِّقَةٌ الْفِكْرِ مِنْ أَنَّهَا مُخْتَلَةٌ الْقَلْبِ ، مُسَدِّدَةٌ الْمُنْطِقِ مِنْ أَنَّهَا طَائِشَةُ النَّفْسِ ؛ وَتِلْكَ إِحْدَى عَجَائِبِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٤ ، ٣٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ١ يوليو/تموز ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٠٤٣ - ١٠٤٥ .

(١) نَحْنُ لَمْ نَخْتَرِ الطَّائِشَةَ ، فَهِيَ قَنَاءٌ مُتَعَلِّمَةٌ أَدِيبَةٌ ، [تَكْتُبُ كِتَابَةَ بَلِيغَةً ،] وَقَدْ أَحْبَبَتْ رَجُلًا مُزَوَّجًا فَطَاشَ بِهَا الْحُبُّ طِيَشَ الطُّفْلِ إِذَا مِيعَ مَا يَطْمَعُ فِيهِ ، وَتَرَكَهَا الْحُبُّ عِلِيلَةً لِمَا بِهَا ثُمَّ قَضَتْ . وَكَانَ بَعْضُ صَوَاحِبِهَا يَعْدِلُهَا وَيَزَيِّمُهَا بِالْتَّهَمَةِ ، فَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهَا مِنْهُمْ كَالْغَائِبِ الْمَخْكُومِ عَلَيْهِ ، لَا هُوَ يَمْلِكُ دِفَاعَ الذَّنْبِ ، وَلَا الْحَاكِمُ عَلَيْهِ يَمْلِكُ إِبْنَاتِ الذَّنْبِ .

الْحُبِّ ؛ كُلَّمَا كَانَ قَفْرًا مُمَجِّلاً أَخْضَرَتْ فِيهِ الْبَلَاغَةُ وَتَفَنَّنَتْ وَالتَّفَنُّتُ ؛ وَعَلَى قِلَّةِ الْمُتَمَتُّعَةِ مِنْ لَذَائِهِ تَزِيدُ فِيهِ الْمُتَمَتُّعَةُ مِنْ أَوْصَافِهِ ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الْحُبَّ طَبِيعَةٌ غَرِيْبَةٌ تَرُوِي بِالنَّارِ فَتُخْصِبُ عَلَيْهَا وَتَتَمَتَّقُ بِمَعَانِيهَا ، كَمَا تَرُوِي الْأَرْضُ بِالْمَاءِ فَتُخْصِبُ وَتَتَغَطَّى بِبَنَاتِهَا ؛ فَإِنْ رَوِيَ الْحُبُّ مِنْ لَذَائِهِ وَبَرَدَ عَلَيْهَا ، لَمْ يُنْبِتْ مِنَ الْبَلَاغَةِ إِلَّا أَحْقَقَهَا وَزَنَا وَأَقْلَهَا مَعَانِي ، كَأَوَّلِ مَا يَبْدُو الْبَنَاتِ حِينَ يَتَفَطَّرُ الْفَرَى عَنْهُ ، تَرَاهُ فَتَحْسِبُهُ عَلَى الْأَرْضِ مَسْحَةً لَوْنٍ أَخْضَرَ ؛ أَوْ لَمْ يُنْبِتْ إِلَّا الْقَلِيلَ الْقَلِيلَ كَالْتَّعَاشِيْبِ^(١) فِي الْأَرْضِ السَّيْحَةِ ...

إِنَّ قِصَّةَ الْحُبِّ كَالرَّوَايَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ ، أَبْلَغُ مَا فِيهَا وَأَحْسَنُهُ وَأَعْجَبُهُ مَا كَانَ قَبْلَ « الْعُقْدَةِ » ، فَإِذَا انْحَلَّتْ هَذِهِ الْعُقْدَةُ قَانَتْ فِي بَقَايَا مُفسَّرَةٍ مَشْرُوحَةٍ تَزِيدُ أَنْ تَنْتَهِيَ ، وَلَا تَحْتَمِلُ مِنَ الْفَنِّ إِلَّا ذَلِكَ الْقَلِيلَ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ النِّهَايَةِ .



وَهَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ الطَّائِشَةِ إِلَى صَاحِبِهَا :

» ...

مَاذَا أَكْتُبُ لَكَ غَيْرَ الْأَفَاطِ حَقِيقَتِي وَحَقِيقَتِكَ ؟

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْأَفَاطِ خُضُوعِي وَتَضَرُّعِي مَتَى انْتَهَتْ إِلَيْكَ انْقَلَبَتْ إِلَى الْأَفَاطِ شَجَارٍ وَنَزَاعٍ !

أَيُّ عَذَابٍ أَنْ تَلْمَسَكَ حَيَاتِي لِمَسَةِ الزَّهْرَةِ النَّاعِمَةِ بِأَطْرَافِ الْبَنَاتِ ، وَتَقْدِفُنِي أَنْتَ قَذَفَ الْحَجَرِ بِمِلءِ الْيَدِ الصُّلْبَةِ مُتَمَطِّبَةً فِيهَا قُوَّةَ الْجِسْمِ ؟

جَعَلْتَنِي فِي الْحُبِّ كَالِةٍ خَاصِعَةٍ تُدَارُ فَتَدُورُ ، ثُمَّ عَيْتَ بِهَا فَصَارَتْ مُتَمَرِّدَةً تُوقِفُ وَلَا تَقِفُ ؛ وَالنِّهَايَةُ - لَا رَيْبَ فِيهَا - أَخِيْلَانٌ أَوْ تَحْطِيطٌ !

وَجَعَلْتَ لِي عَالَمًا ؛ أَمَّا لَيْلُهُ فَأَنْتَ وَالظُّلَامُ وَالْبُكَاءُ ، وَأَمَّا نَهَارُهُ فَأَنْتَ وَالضِّيَاءُ وَالْأَمَلُ الْخَائِبُ . هَذَا هُوَ عَالَمِي : أَنْتَ أَنْتَ ... !

(١) أَغْشَابٌ قَلِيلَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ { هُنَا وَهُنَاكَ } .

سَمَائِي كَأَنَّهَا رُفْعَةٌ أَطْبَقَتْ عَلَيْهَا كُلُّ غُيُومِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضِي كَأَنَّهَا بُفْعَةٌ اجْتَمَعَتْ فِيهَا
كُلُّ زَلَّازِلِ الْأَرْضِ ! لِأَنَّكَ غَيْمَةٌ فِي حَيَاتِي ، وَزَلْزَلَةٌ فِي أَيَّامِي .
يَا بَعْدَ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي حَوْلِي وَبَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي !

* * *

مَا يَجْمَلُ مِنْكَ أَنْ تُلْزِمَنِي لَوْمْ خَطَا أَنْتَ الْمُخْطِئُ فِيهِ .
سَلْنِي عَنْ حُبِّي أَجْبِكَ عَنْ نَكْبَتِي ، وَسَلْنِي عَنْ نَكْبَتِي أَجْبِكَ عَنْ حُبِّي !
كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِي الْكِبْرِيَاءُ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنْ مَاذَا أَصْنَعُ وَأَنْتَ مُنْصَرِفٌ عَنِّي ؟
وَنِلَاهُ مِنْ هَذَا الْإِنْصِرَافِ الَّذِي يَجْعَلُ كِبْرِيَاءِي رِضَى مَنِّي بِأَنْ تَنْسَى ! { فَتَنْسَى ... }
لَيْسَ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ تَعْطِفُكَ إِلَّا هَذَا الْحُبُّ الشَّدِيدُ الَّذِي هُوَ يَصُدُّكَ ، فَكَأَنَّ الْأَسْبَابَ
مَقْلُوبَةٌ مَعِي مِنْذُ انْقَلَبْتَ أَنْتَ .

وَيُخَيِّلُ إِلَيَّ مِنْ طُغْيَانِ الْإِمْنِ أَنْ كُلَّ ذِي حُزْنٍ فَعِنْدِي أَنَا تَمَامُ حُزْنِهِ !
وَيُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِأَهْ !
عَذَابِي عَذَابُ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَذِبَ { أَبَدًا أَبَدًا } ، بِالْكَاذِبِ الَّذِي
لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ { أَبَدًا أَبَدًا ! } .
كَمْ يَقُولُ الرِّجَالُ فِي النِّسَاءِ ، وَكَمْ يَصِفُونَهُنَّ بِالْكَيدِ وَالْغَدْرِ وَالْمَكْرِ ؛ فَهَلْ جِئْتُ أَنْتَ
لِتُعَاقِبَ الْجِنْسَ كُلَّهُ فِيَّ أَنَا وَحْدِي ... ؟
مَا لِكَلَامِي يَتَقَطَّعُ كَأَنَّمَا هُوَ أَيْضًا مُخْتَنِقٌ ؟

* * *

لَشَدَّ مَا أَتَمَمْتُ أَنْ أَشْتَرِي أَنْصَارِي ، وَلَكِنْ أَنْصَارِي عَلَيْكَ هُوَ عِنْدِي أَنْ تَنْتَصِرَ أَنْتَ .
إِنَّ الْمَرْأَةَ تَطْلُبُ الْحُرِّيَّةَ وَتَلِجُ فِي طَلِبِهَا ، وَلَكِنْ الْحَيَاةُ تَنْتَهِي بِهَا إِلَى يَقِينٍ لَا شَكَّ
فِيهِ ، هُوَ أَنَّ الْطَفَّ أَنْوَاعَ حُرِّيَّتِهَا فِي الْطَفِّ أَنْوَاعَ اسْتِعْبَادِهَا !
حَتَّى فِي خَيَالِي أَرَى لَكَ هَيْئَةَ الْآمِرِ النَّاهِي أَيْهَا الْقَاسِي . لَا أَحِبُّ مِنْكَ هَذَا ، وَلَكِنْ

لَا يُعْجِبُنِي مِنْكَ إِلَّا هَذَا . . . !

وَيَزِيدُكَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي أَنْكَ لَمْ تُحَاوِلْ قَطُّ أَنْ تَزِيدَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي .

فَالْمَرْأَةُ لَا تُحِبُّ الرَّجُلَ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يُلْفِتَهَا دَائِمًا لِيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِهِ عِنْدَهَا .

إِنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ جَعَلَتِ الْأُنُوثَةَ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ الَّتِي تَلْفِتُ إِلَى نَفْسِهَا بِالتَّصْنُوعِ وَالتَّزْيِيدِ ،
وَعَرَضٍ مَا فِيهَا وَتَكْلُفٍ مَا لَيْسَ فِيهَا ؛ فَإِنْ يَصْنَعِ الرَّجُلُ صَنِيعَهَا فَمَا هُوَ فِي شَيْءٍ إِلَّا تَزْيِينٌ
أَحْتِقَارُهُ !

التَّزْيِيدُ فِي الْأُنُوثَةِ زِيَادَةٌ فِي الْأُنْثَى عِنْدَ الرَّجُلِ ، وَلَكِنَّ التَّزْيِيدَ فِي الرُّجُولَةِ نَقْصٌ فِي
الرَّجُلِ عِنْدَ الْأُنْثَى !

* * *

أَرْفَعُ صَوْتَكَ بِكَلِمَاتِي تَسْمَعُ فِيهَا اثْنَيْنِ : صَوْتَكَ وَقَلْبِي .

لَيْسَتْ هِيَ كَلِمَاتِي لَدَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُكَ لَدَيَّ .

وَلَيْسَ هُوَ حُبِّي لَكَ أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ ظُلْمُكَ لِي !

مَا أَشَدَّ تَعْسِي إِذَا كُنْتُ أَخَاطِبُ مِنْكَ نَائِمًا يَسْمَعُ أَخْلَامُهُ وَلَا يَسْمَعُنِي !

مَا أَتَعَسَ مَنْ تُبْكِيهِ الْحَيَاةُ بُكَاءَهَا الْمُفَاجِئَ عَلَى مَيِّتٍ لَا يَرْجِعُ ، أَوْ بُكَاءَهَا الْمَالُوفَ

عَلَى حَيِّبٍ لَا يُنَالُ !

* * *

وَلَكِنْ فَلَا صَبْرَ وَلَا صَبْرَ عَلَى الْأَيَّامِ الَّتِي لَا طَعْمَ لَهَا ، لِأَنَّ فِيهَا الْحَيِّبَ الَّذِي لَا وَفَاءَ

لَهُ !

إِنَّ الْمُصَابَ بِالْعَمَى اللَّوْنِيَّ يَرَى الْأَخْمَرَ أَخْضَرَ ، وَالْمُصَابَ بِعَمَى الْحُبِّ يَرَى

الشَّخْصَ الْفَقْرَ كُلَّهُ أَزْهَارًا .

عَمَى مُرَكَّبٌ ، أَنْ تَكُونَ أَزْهَارًا مِنَ الْأَوْهَامِ وَلَهَا مَعَ ذَلِكَ رَائِحَةُ تَعَبٍ .

وَعَمَى فِي الزَّمَنِ أَيْضًا ، أَنْ يَنْظُرَ إِلَى السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْ سَاعَاتِ الْحُبِّ ، فَيَرَى

الْأَيَّامَ كُلَّهَا فِي حُكْمِ هَذِهِ السَّاعَةِ .

وَعَمَى فِي الدِّم ، أَنْ يَشْعُرَ بِالْحَبِيبِ يَوْمًا فَلَا يَزَالُ مِنْ بَعْدِهَا يُخَيِّنُ خَيَالَهُ وَيُعَذِّبُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُخَيِّنُ جِسْمَ صَاحِبِهِ .

وَعَمَى فِي الْعَقْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ كَوَجْهِ النَّهَارِ عَلَى الدُّنْيَا ، تَظْهَرُ الْأَشْيَاءُ فِي لَوْنِهِ ، وَيَغَيِّرُ لَوْنَهُ تَنَطُّفِيءُ الْأَشْيَاءِ .

وَعَمَى فِي قَلْبِي أَنَا ، هَذَا الْحُبُّ الَّذِي فِي قَلْبِي !

* * *

لَيْسَ الظُّلَامُ إِلَّا فَقْدَانُ النُّورِ ، وَلَيْسَ الظُّلْمُ فِي النَّاسِ إِلَّا فَقْدَانُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ .
وَوَظَلَمَ الرَّجَالُ لِلنِّسَاءِ عَمَلُ فَقْدَانِ الْمُسَاوَاةِ لَا عَمَلُ الرَّجَالِ .

كَيْفَ تَسْخَرُ الدُّنْيَا مِنْ مُتَعَلِّمَةٍ مِثْلِي ، فَتَضَعُهَا مَوْضِعًا مِنَ الْهَوَايَا وَالضَّعْفِ بِحَيْثُ لَوْ سِئِلْتُ أَنْ تَكْتُبَ (وَوَظَيْفَتُهَا) عَلَى بِطَاقَةٍ ، لَمَّا كَتَبْتَ تَحْتَ اسْمِهَا إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةَ : (عَاشِقَةٌ فَلَان) ... ؟

وَحَتَّى فِي ضَعْفِ الْمَرْأَةِ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ النِّسَاءِ فِي الْاجْتِمَاعِ ، فَكُلُّ مُتَزَوِّجَةٍ وَظَيْفَتُهَا الْاجْتِمَاعِيَّةُ أَنَّهَا زَوْجَةٌ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ لِعَاشِقَةٍ أَنْ تَقُولَ إِنَّ عِشْقَهَا وَظَيْفَتُهَا ...

وَحَتَّى فِي الْكَلَامِ عَنِ الْحُبِّ لَا مُسَاوَاةَ ، فَهَذِهِ فَتَاةٌ تُحِبُّ فَتَكَلِّمُ عَنْ حُبِّهَا فَيَقَالُ : فَاجِرَةٌ وَطَائِشَةٌ . وَلَا ذَنْبَ لَهَا غَيْرَ أَنَّهَا تَكَلَّمَتْ ؛ وَأُخْرَى تُحِبُّ وَتَكْتُمُ ، فَيَقَالُ : طَاهِرَةٌ عَفِيفَةٌ . وَلَا فَضِيلَةَ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا سَكَتَتْ .

أَوَّلُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يَتَسَاوَى الْكُلُّ فِي حُرِّيَةِ الْكَلِمَةِ الْمَحْبُوءَةِ .
لَا ، لَا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ ...

* * *

إِنْ أَلْفَلَقَ إِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى النَّفْسِ أَنْتَهَى بِهَا آخِرُ الْأَمْرِ إِلَى الْأَخْذِ بِالشَّاذِّ مِنْ قَوَائِنِ الْحَيَاةِ .

وَالنِّسَاءُ يُقْلِقْنَ الْكَوْنَ أَلَانَ مِمَّا اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِنَّ مِنَ الْأَضْطِرَابِ ، وَسَيُخْرِبُنَّهُ أَشْنَعُ تَخْرِيبٍ .

وَنِلَّ لِلْاجْتِمَاعِ مِنَ الْمَرْأَةِ الْعَصْرِيَّةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا ضَعْفُ الرَّجُلِ ! إِنَّ الشَّيْطَانَ لَوْ خَيْرَ فِي غَيْرِ شَكْلِهِ لَمَا اخْتَارَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا حُرَّةً مُتَعَلِّمَةً خَيَالِيَّةً كَاسِدَةً لَا تَجِدُ الزَّوْجَ . . . !
وَنِلَّ لِلْاجْتِمَاعِ مِنْ عَذْرَاءٍ بَائِرَةٍ خَيَالِيَّةٍ ، تُرِيدُ أَنْ تَفَرَّ مِنْ أَنَّهَا عَذْرَاءُ ! لَقَدْ اُمْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْ هَذِهِ الْقُنَابِلِ . . . وَلَكِنْ مَا مِنْ أَمْرَةٍ تَفْرُطُ فِي فَضِيلَتِهَا إِلَّا وَهِيَ ذَنْبُ رَجُلٍ قَدْ أَهْمَلَ فِي وَاجِبِهِ .

* * *

هَلْ تَمْلِكُ الْفَتَاةُ عِرْضَهَا أَوْ لَا تَمْلِكُ ؟ هَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ . . .
إِنْ كَانَتْ تَمْلِكُ ، فَلَهَا أَنْ تَتَصَرَّفَ وَتُعْطِيَ ؛ أَوْ لَا ، فَلِمَاذَا لَا يَتَقَدَّمُ الْمَالِكُ . . . ؟
هَذِهِ الْمَدِينَةُ سَتَنْقَلِبُ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ بِعَيْنِهَا ؛ فَالْحَيَوَانُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ السَّبَّ لَا يَعْرِفُ
أَنْثَاءَ الْعِرْضِ . . . !

وَهَلْ كَانَ عَبْنًا أَنْ يَفْرِضَ الدِّينُ فِي الزَّوْاجِ شُرُوطًا وَحُقُوقًا لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالنَّسْلِ ؟
وَلَكِنْ أَيْنَ الدِّينُ ؟ وَآسَفَاهُ ! لَقَدْ مَدَّوهُ هُوَ أَيْضًا . . . !

* * *

طَالَتْ رِسَالَتِي إِلَيْكَ يَا عَزِيزِي ، بَلْ طَاشَتْ ، فَإِنِّي حِينَ أَجِدُكَ أَفْقِدُ اللَّغَةَ ، وَحِينَ
أَفْقِدُكَ أَجِدُهَا .

وَلَقَدْ تَكَلَّمْتُ عَنِ الدِّينِ لِأَنِّي أَرَاكَ أَنْتَ بِنِصْفِ دِينٍ . . .

فَلَوْ كُنْتُ ذَا دِينٍ كَامِلٍ لَتَزَوَّجْتَ اثْنَتَيْنِ . . . !

لَا لَا ، قَدْ رَجَعْتُ عَنِ الرَّأْيِ . . . » .

(طَبِيقُ الْأَصْلِ) .

فَلَسَفَةُ الطَّائِشَةِ (*)

... وَهَذَا مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِ الطَّائِشَةِ مَعَ صَاحِبِهَا ، مِمَّا تَسْقُطُهُ مِنْ حَدِيثِهَا ؛ فَقَدْ كَانَ يَكْتُبُ عَنْهَا مَا تُصِيبُ فِيهِ وَمَا تَخْطِئُ ، كَمَا يَكْتُبُ أَهْلُ السِّيَاسَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ إِذَا فَاوَضَ الْحَلِيفُ حَلِيفَهُ ، أَوْ نَاكَرَ الْخَصْمُ خَصْمَهُ ؛ فَإِنَّ كَلَامَ الْحَبِيبِ وَالسِّيَاسِيِّ الدَّاهِيَةَ لَيْسَ كَلَامَ الْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ ، بَلْ فِيهِ نُطْقُ الدَّوْلَةِ ... وَفِيهِ الزَّمَنُ يُقْبَلُ أَوْ يُدْبَرُ .

وَصَاحِبُ الطَّائِشَةِ كَانَ يَرَاهَا أَمْرًا سِيَاسِيَّةً كَهَذِهِ الدَّوْلَةُ الَّتِي تُرْغِمُ صَدِيقًا عَلَى الصَّدَاقَةِ ، لِأَنَّهُ فِي طَرِيقِهَا أَوْ طَرِيقِ حَوَادِثِهَا ؛ وَكَانَ يُسَمِّيَهَا « جَيْشَ اخْتِلَالٍ » إِذْ حَطَّتْ فِي أَيَّامِهِ وَاخْتَلَتْهَا فَتَبَوَّأَتْ مِنْهَا مَا شَاءَتْ عَلَى رَغْمِهِ ، وَاسْتَبَاحَتْ مَا أَرَادَتْ مِمَّا كَانَ بِخِمِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ . وَقَدْ كَانَ فِي مَذَافِعَتِهِ حُبَّهَا وَاسْتِمْسَاكِه بِصَدَاقَتِهَا كَالَّذِي رَأَى ظِلَّ شَيْءٍ عَلَى الْأَرْضِ فَيَحَاوِلُ غَسْلَهُ أَوْ كَنَسَهُ أَوْ تَغْطِيَتَهُ . . . فَهَذَا لَيْسَ مِمَّا يُغْسَلُ بِالْمَاءِ ، وَلَا يُكْنَسُ بِالْمِكَنَسَةِ ، وَلَا يُعْطَى بِالْأَغْطِيَةِ ؛ إِنَّمَا إِزَالَتُهُ فِي إِزَالَةِ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ يُلْقِيهِ ، أَوْ إِطْفَاءُ النَّوْرِ الَّذِي هُوَ يُشْبِثُهُ .

فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ سُخْرِيَّةٌ ، وَالسُّخْرِيَّةُ مِنَ الْحُسْنِ الْفَاتِنِ الَّذِي تُقَدِّسُهُ ، تَأْتِي مِنْ أَشْتِهَاءِ هَذَا الْحُسْنِ ؛ فَذَاكَ إِسْقَاطُهُ سُقُوطًا مُقَدَّسًا ... أَوْ ذَاكَ تَقْدِيسُهُ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ ، أَوْ هُوَ جَعَلَ تَقْدِيسَهُ بَابًا مِنَ الْحِيلَةِ فِي إِسْقَاطِهِ . لَا بُدَّ مِنْ سُفْلِ مَعَ الْعُلُوِّ يَكُونُ أَحَدُهُمَا كَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْآخَرِ ؛ فَإِذَا قَالَ رَجُلٌ لَامْرَأَةٍ قَدْ فَتَنَتْهُ أَوْ وَقَعَتْ مِنْ نَفْسِهِ : « أَحْبَبْتُ » . أَوْ قَالَتْهَا الْمَرْأَةُ لِرَجُلٍ وَقَعَ مِنْ نَفْسِهَا أَوْ أَشْتَهَامَهَا ، فِيهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ اللَّاعِمَةُ اللَّطِيفَةُ كُلُّ مَعَانِي الْوَفَاحَةِ الْجَنَسِيَّةِ ، وَكُلُّ السُّخْرِيَّةِ بِالْمَخْبُوبِ سُخْرِيَّةٌ بِإِجْلَالٍ عَظِيمٍ ... وَهِيَ كَلِمَةُ شَاعِرٍ فِي تَقْدِيسِ الْجَمَالِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا هِيَ بَعِينُهَا كَلِمَةُ الْجَزَّارِ الَّذِي يَرَى الْخُرُوفَ فِي جَمَالِهِ اللَّحْمِيِّ الدُّهْنِيِّ ، فَيَقُولُ : « سَمِينٌ ... ! » .

لِهَذَا يَمْنَعُ الدِّينُ خُلُوةَ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ ، وَيَحْرُمُ إِظْهَارَ الْفِتْنَةِ مِنَ الْجِنْسِ لِلْجِنْسِ ، وَيَفْصِلُ بِمَعَانِي الْحِجَابِ بَيْنَ السَّالِبِ وَالْمُوجِبِ ، ثُمَّ يَضَعُ لِأَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حِجَابًا آخَرَ مِنَ الْأَمْرِ بِغَضِّ الْبَصَرِ ، إِذْ لَا يَكْفِيَنَّ [فِي ذَلِكَ] حِجَابُ وَاحِدٍ ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الْجِنْسِيَّةَ تَنْظُرُ بِالْدَّخِلِ وَالْخَارِجِ مَعًا ؛ ثُمَّ يَطْرُدُ عَنِ الْمَرْأَةِ كَلِمَةَ الْحُبِّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ زَوْجِهَا ، وَعَنِ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ زَوْجَتِهِ ؛ إِذْ هِيَ كَلِمَةُ حِيلَةٍ فِي الطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ كَلِمَةُ صِدْقٍ فِي الْأَجْتِمَاعِ ، وَلَا يُؤَكِّدُ فِي الدِّينِ صِدْقَهَا الْأَجْتِمَاعِي إِلَّا الْعَقْدُ وَالشُّهُودُ لِرَبْطِ الْحَقُوقِ بِهَا ، وَجَعَلَهَا فِي حَيَاةِ الْقُوَّةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ ، وَإِقْرَارِهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ النِّظَامِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ فَلَيْسَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الْعَاشِقُ مِنْ مَعَانِي الزَّوْجِ ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعْنَى آخَرَ أَوْ يَكُونَ بِلَا مَعْنَى فَلَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِصَيَانَةِ الْمَرْأَةِ ، مَا دَامَتْ هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَلِدُ ، وَمَا دَامَتْ لَا تَلِدُ لِلْبَيْعِ . . .

وَفَلَسَفَةُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ فَلَسَفَةُ أَمْرَةٍ ذَكِّيَّةٍ مُطْلَعَةٍ مُحِيطَةٍ مُفَكِّرَةٍ ، تُبْصِرُ بِالْكُتُبِ وَالْعَقْلِ وَالْحَوَادِثِ جَمِيعًا ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ سَفْطَةِ حُبِّهَا تَرَى الصَّوَابَ فِي شَكْلَيْنِ لَا شَكْلَ وَاحِدٍ : فَتَرَاهُ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَكَمَا هُوَ فِي أَغْلَاطِهَا .

وَقَدْ أَسْفَطْنَا فِي رِوَايَةِ مَجْلِسِهَا مَا كَانَ مِنْ مُطَارَحَاتِ الْعَاشِقَةِ ، وَأَقْتَصَرْنَا عَلَى مَا هُوَ كَالْإِمْلَاءِ مِنَ الْأُسْتَاذَةِ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِفَةِ : ذَكَرْتُ لَهَا « قَاسِمُ أَمِينٌ » ^(١) وَقُلْتُ : إِنَّهَا خَيْرٌ تَلَامِيذِهِ { وَتَلْمِيذَاتِهِ } . . . حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَجَرِبَةُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَأَرَائِهِ فِي تَخْرِيرِ الْمَرْأَةِ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا كَانَ قَاسِمٌ تَلْمِيذُ الْمَرْأَةِ الْأُزْرِيِّيَّةِ ، وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ بِأَعْيُنِنَا ، فَمَا حَاجَتُنَا نَحْنُ إِلَى تَلْمِيذِهَا الْقَدِيمِ ؟

(١) إن أردت معرفة المزيد عن حقيقة قاسم أمين وواقعه راجع « قولي في المرأة » لمصطفى صبري ، النسخة التي طبعتها لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول - قبرص ؛ حيث أوردت في مقدمته ما يفيد معرفته . بَسَامِ .

قَالَتْ : وَأَبْلَغُ مَنْ يَزِدُّ عَلَى قَاسِمِ الْيَوْمِ هِيَ أَسْتَاذَتُهُ الَّتِي شَبَّتْ بِهَا أَطْوَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَهُ ، فَقَدْ أَثْبَتَ قَاسِمٌ - غَفَرَ اللَّهُ لَهُ - أَنَّهُ أَنْحَصَرَ فِي عَهْدِ بَعِيْنِهِ وَلَمْ يُنْبِغِ الْأَيَّامَ نَظَرُهُ ، وَلَمْ يَسْتَقِرِّ أَطْوَارُ الْمَدَنِيَّةِ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ أَنَّ هَذَا الزَّمَنَ الْمُتَمَدِّدَ سَيَقْدَمُ فِي رَدَائِلِهِ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ أَسْرَعَ وَأَقْوَى مِمَّا يَقْدَمُ فِي فَضَائِلِهِ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ يَخْدِمَ الْجِهَتَيْنِ بِقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَقْوَاهُمَا بِالطَّبِيعَةِ أَقْوَاهُمَا بِالْعِلْمِ ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ الْأَرْضِ زَلَزَلُهُ وَلَا تَحْتَ الْحَيَاةِ مِثْلُهَا .

مَرَّقَ الْبُرْغُ وَقَالَ : « إِنَّهُ مِمَّا يَزِيدُ فِي الْفِتْنَةِ ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ كَانَتْ مَكْشُوفَةً لَوَجْهَ لَكَانَ فِي مَجْمُوعِ خَلْقِهَا - عَلَى الْغَالِبِ - مَا يَزِدُّ الْبَصَرَ عَنْهَا » . فَقَدْ زَالَ الْبُرْغُ ، وَلَكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَرْأَةِ مُنْتَصِرَةٌ دَائِمًا فِي الْمَيَدَانِ الْجِنْسِيِّ بِالْبُرْغِ وَبِغَيْرِ الْبُرْغِ ، وَأَنَّهَا تَخْتَرِعُ لِكُلِّ مَعْرَكَةٍ أَسْلِحَتَهَا ، وَأَنَّهَا إِنْ كَشَفَتْ بُرْغَ الْخَرِّ فَسَتَضَعُ فِي مَكَانِهِ بُرْغَ الْأَبْيَضِ وَالْأَحْمَرِ ... ؟

وَزَعَمَ أَنَّ « الثَّقَابَ وَالْبُرْغَ مِنْ أَشَدِّ أَعْوَانِ الْمَرْأَةِ عَلَى إِظْهَارِ مَا تُظْهِرُ وَعَمَلِ مَا تَعْمَلُ لِتَخْرِيكِ الرُّغْبَةِ ، لِأَنَّهُمَا يُخْفِيَانِ شَخْصِيَّتَهَا فَلَا تَخَافُ أَنْ يَعْرِفَهَا قَرِيبٌ أَوْ بَعِيدٌ فَيَقُولُ : فَلَانَةُ ، أَوْ بِنْتُ فُلَانٍ ، أَوْ زَوْجُ فُلَانٍ كَانَتْ تَفْعَلُ كَذَا ؛ فَبِهَا تَأْتِي كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَحْتَ حِمَايَةِ الْبُرْغِ وَالثَّقَابِ » . فَقَدْ زَالَ الْبُرْغُ وَالثَّقَابُ ، وَلَكِنْ هَلْ قَدَّرَ قَاسِمٌ أَنَّ الْمَرْأَةَ السَّافِرَةَ سَلَجًا إِلَى حِمَايَةِ أُخْرَى ، فَتَجْعَلُ ثِيَابَهَا تَغْيِيرًا دَقِيقًا عَنْ أَعْضَانِهَا ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تُلْبَسَ جِسْمَهَا ثَوْبًا يَكْسُوهُ ، تُلْبَسُهُ الثُّوبُ الَّذِي يَكْسُوهُ وَيَزِينُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيُحَرِّكُهُ فِي وَقْتِ مَعَا ، حَتَّى لِيَكَادُ الثُّوبُ يَقُولُ لِلنَّاظِرِ : هَذَا الْمَوْضِعُ أَسْمُهُ ... وَهَذَا الْمَوْضِعُ أَسْمُهُ ... وَانْظُرْ هُنَا ، وَانْظُرْ هُنَا ... مَا زَادَتْ الْمَدَنِيَّةُ عَلَى أَنْ فَكَّكَتِ الْمَرْأَةَ الطَّبِيعَةَ ثُمَّ رَكَّبَتْهَا فِي هَذِهِ الْهَنْدَسَةِ الْفَاحِشَةِ !

وَأَرَادَ قَاسِمٌ أَنْ يُعَلِّمَنَا الْحُبَّ لِتَرْتَبَ بِهِ الزَّوْجَ مَعَنَا ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ جَرَّأَنَا عَلَى الْحُبِّ الَّذِي فَرَّ بِهِ الزَّوْجُ مِنَّا ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُخَالِطُ الرَّجُلَ لِتُعْجِبَهُ وَتُعْجِبَهُ فَيَصِيرَا زَوْجَيْنِ - إِنَّمَا تُخَالِطُ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرَائِزَهُ قَبْلَ إِنْسَانِيَّتِهِ ، فَتَكُونُ طَبِيعَتُهُ وَطَبِيعَتُهَا هِيَ مَحَلَّ الْمُخَالَطَةِ قَبْلَ شَخْصِيَّتِهِمَا ، أَوْ تَحْتَ سِتَارِ شَخْصِيَّتِهِمَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ وَهِيَ أَمْرَأَةٌ ،

وَبَيْنَهُمَا مُصَارَعَةٌ أَلَدَمَ . . . وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْمُسْكِينَةُ هِيَ الْمَذْبُوحَةُ . وَقَدْ أَنْتَهَيْنَا إِلَى دَهْرٍ يُصْنَعُ حُبُّهُ وَمَجَالِسُ أَحْبَابِهِ فِي « هُولِيوُود »^(١) وَغَيْرِهَا مِنْ مَدُنِ السَّيِّمَا ، فَإِنْ رَأَى الشَّابُّ عَلَى الْفَتَاةِ مَظْهَرَ الْعِفَّةِ وَالْوَقَارِ قَالَ : بِلَادَةُ فِي الدَّمِ ، وَبِلَاةٌ فِي الْعَقْلِ ، وَثَقُلَ أَيُّ ثَقُلَ ؛ وَإِنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ قَالَ : فُجُورٌ وَطَيْشٌ ، وَأَسْتَهْتَارُ أَيُّ أَسْتَهْتَارِ . فَأَيْنَ تَسْتَقِرُّ الْمَرْأَةُ وَلَا مَكَانَ لَهَا بَيْنَ الضَّدِّينِ ؟

أَخْطَأَ قَاسِمٌ فِي إِغْفَالِ عَمَلِ الزَّمَنِ مِنْ حِسَابِهِ ، وَهَاجَمَ الدِّينَ بِالْعُرْفِ ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْحَسِ غَلَطِهِ ظَنُّهُ الْعُرْفَ مَقْصُورًا عَلَى زَمَنِهِ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَذَرِ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الدِّينِ وَبَيْنَ الْعُرْفِ ، هُوَ أَنَّ هَذَا الْأَخِيرَ دَائِمٌ الْأَضْطِرَابِ ، فَهُوَ دَائِمُ التَّغْيِيرِ ، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ أَبَدًا قَاعِدَةً لِلْفَضِيلَةِ ؛ وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ أَنْتَهَيْنَا إِلَى زَمَنِ الْعُرْيِ ، وَأَصْبَحْنَا نَجِدُ لَفِينًا مِنَ الْأُورُبِّيَّينَ الْمُتَعَلِّمِينَ ، رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، إِذَا رَأَوْا فِي جَزِيرَتِهِمْ أَوْ مَحَلَّتِهِمْ أَوْ نَادِيهِمْ رَجُلًا يَلْبَسُ فِي حِفْوَتِهِ ثَبَانًا قَصِيرًا كَأَنَّهُ وَرَقُ الشَّجَرِ عَلَى مَوْضِعِهِ ذَاكَ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ - إِذَا رَأَوْا هَذَا الْمُتَعَفِّفَ بِخَرْقَةٍ . . . أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَنَسَاءُوا بَيْنَهُمْ . مَنْ ؛ مَنْ هَذَا الرَّاهِبُ . . . ؟

وَنَسِيَ قَاسِمٌ - غَفَرَ اللَّهُ لَهُ - أَنَّ لِلثِّيَابِ أَخْلَاقًا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِهَا ، فَالَّتِي تُفْرَغُ الثُّوبُ عَلَى أَعْضَائِهَا إِفْرَاقٌ أَلْهَنْدَسَةٌ ، وَتَلْبَسُ وَجْهَهَا أَلْوَانُ التَّصْوِيرِ - لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا وَهِيَ قَدْ تَغَيَّرَ فَهْمُهَا لِلْفَضَائِلِ ، فَتَغَيَّرَتْ بِذَلِكَ فَضَائِلُهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مِنْ آيَاتٍ دِينِيَّةٍ إِلَى آيَاتٍ شِعْرِيَّةٍ . وَرُوحُ الْمَسْجِدِ غَيْرُ رُوحِ الْحَانَةِ ، وَهَذِهِ غَيْرُ رُوحِ الْمَرْقَصِ ، وَهَذِهِ غَيْرُ رُوحِ الْمَخْدَعِ ، وَلِكُلِّ حَالَةٍ تَلْبَسُ الْمَرْأَةُ لِبَاسًا فَتُخْفِي مِنْهَا وَتُبْدِي . وَتَحْرِيكُ الْبَيْتَةِ لِتَتَقَلَّبَ ، هُوَ بَعِينُهُ تَحْرِيكُ النَّفْسِ لِتَتَغَيَّرَ صِفَاتُهَا . وَأَيْنَ أَخْلَاقُ الثِّيَابِ الْعَصْرِيَّةِ فِي أَمْرَةِ الْيَوْمِ ، مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنَ الْحِجَابِ ؟ تَبَدَّلَتْ بِمَشَاعِرِ الطَّاعَةِ ، وَالصَّبْرِ ، وَالْإِسْتِغْفَارِ ، وَالْعِنَايَةِ بِالنَّسْلِ ، وَالتَّفَرُّغِ لِإِسْعَادِ أَهْلِهَا وَذَوَيْهَا - مَشَاعِرَ أُخْرَى ، أَوْلَهَا كَرَاهِيَةً الدَّارِ وَالطَّاعَةِ وَالنَّسْلِ ؛ وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ هَذَا أَوَّلُهُ وَأَخْفُهُ !

(١) هوليوود Holly wood جزء من مدينة لوس أنجلوس Los Angeles جنوب ولاية كاليفورنية California بالولايات المتحدة الأمريكية ، ترجع شهرتها إلى أنها أكبر مركز لصناعة السينما وموطن لممثلها في العالم كله . بسلام .

كَانَ قَاسِمٌ كَالْمُخْدُوعِ الْمُعْتَرِّ بِأَرَائِهِ ، وَكَانَ مُضْلِحًا فِيهِ رُوحُ الْقَاضِي ، وَالْقَاضِي بِحُكْمِ عَمَلِهِ مُفْلَدٌ مُتَّبِعٌ ، أَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَيِّدَ رَأْيَهُ دَائِمًا إِلَى نَصْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ شَأْنٌ وَلَا عَمَلٌ ؟ مِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ أَغْلَاطُ الرَّجُلِ حَتَّى جَعَلَ الْفَرْقَ بَيْنَ فَسَادِ الْجَاهِلَةِ وَفَسَادِ الْمُتَعَلِّمَةِ ، أَنَّ الْأُولَى « لَا تُكَلِّفُ نَفْسَهَا عَنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ صِفَاتِ الرَّجُلِ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ أَفْضَلَ شَيْءٍ لَدَيْهَا وَهُوَ نَفْسُهَا ، وَعَلَى خِلَافِ ذَلِكَ يَكُونُ النِّسَاءُ الْمُتَعَلِّمَاتُ ، إِذَا جَرَى الْقَدَرُ عَلَيْهِنَّ بِأَمْرٍ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ مَحَبَّةٍ شَدِيدَةٍ يَسْبِقُهَا عِلْمٌ تَامٌ بِأَحْوَالِ الْمَحْبُوبِ (....) وَشَمَائِلِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَتَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِ مِثَالٍ وَأُلُوفٍ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَفْتٍ (!!!) وَهِيَ تُحَادِرُ أَنْ تَضَعُ ثِقَتَهَا فِي شَخْصٍ لَا يَكُونُ أَهْلًا لَهَا ، وَلَا تُسَلِّمُ نَفْسَهَا إِلَّا بَعْدَ مُتَاضِلَةٍ يَخْتَلِفُ زَمْنُهَا وَقُوَّةُ الدِّفَاعِ فِيهَا حَسَبَ الْأَمْرِجَةِ (؟؟؟؟) وَهِيَ فِي كُلِّ حَالٍ تَسْتَرِي بِظَاهِرٍ مِنَ التَّعَقُّفِ (؟؟؟؟) ... » (١) .

أَلَيْسَ هَذَا كَلَامَ قَاضٍ مِنَ الْقُضَاةِ الْمَدِينِيِّينَ الْمُتَفَلِّسِينَ عَلَى مَذْهَبِ (لَمْبَرُوزُو) يَقُولُ لِإِحْدَى الْفَاجِرَتَيْنِ : أَتَيْتَهَا الْجَاهِلَةُ الْحَمَقَاءُ ! كَيْفَ لَمْ تَتَحَاشَى وَلَمْ تَسْتَرِي فَلَا يَكُونُ لِلْقَانُونِ عَلَيْكَ سَبِيلٌ ؟

وَحَتَّى فِي هَذَا قَدْ أَثَبْتَ قَاسِمٌ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْأَرْزَبَ وَأُذُنَيْهَا (٢) ، وَإِلَّا فَامَتَى كَانَ فِي الْحُبِّ اخْتِيَارٌ ، وَمَتَى كَانَ الْأَخْتِيَارُ يَقَعُ « فِيمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ » ، وَمَتَى كَانَ نَظَرُ الْعَاشِقَةِ إِلَى الرِّجَالِ نَظَرًا سَيْكُولُوجِيًّا (٣) كَنَظَرِ الْمُعَلِّمَةِ إِلَى صِبْيَانِهَا ... فَتَدْرُسُ الصِّفَاتِ وَالشَّمَائِلَ فِي مِثَالٍ وَأُلُوفٍ مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَفْتٍ لِتُصَفِّيَهَا كُلَّهَا فِي وَاحِدٍ تَخْتَارُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ هَذَا مُضْحِكٌ ! هَذَا مُضْحِكٌ !

(١) ص ٥١ مِنْ كِتَابِ « تَخْرِيرِ الْمَرْأَةِ » ، وَهُوَ كَلَامُ قَاسِمٍ بِنَصِّهِ ، وَأَكْثَرُ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ هُوَ فِي رَأْيِنَا خَلَطٌ وَخَبْطٌ .

(٢) يَقُولُ الْعَرَبُ : « فَلَانٌ يَعْرِفُ الْأَرْزَبَ وَأُذُنَيْهَا » أَي : يَعْرِفُ الشَّيْءَ بِالْعَلَامَةِ الَّتِي تُثَبِّتُهُ وَلَا تَخْتَلِفُ .

(٣) سَيْكُولُوجِيَّة Psychologia ، عِلْمُ النَّفْسِ ، هُوَ عِلْمُ السُّلُوكِ بِمُظَاهِرَتِهِ الْحَرَكِي وَالذَّهْنِي . وَلَهُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ : عِلْمُ النَّفْسِ التَّرْبَوِيِّ ، وَالْاجْتِمَاعِيِّ ، وَالْجَنَائِيِّ ، وَالصَّنَاعِيِّ ، وَالْمِهْنِيِّ وَ... الخ . بِسَام .

إِلَيْكَ خَبْرًا وَاحِدًا مِمَّنْ تَشْرُهُ الصُّحُفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ : كَفَرَارِ بِنْتِ فُلَانٍ بِأَشَا خَرِيجَةٍ
مَذْرَسَةٍ كَذَا مَعَ سَائِقِ سَيَّارَتِهَا ؛ فَفَسَّرَ لِي أَنْتَ كَلَامَ قَاسِمٍ ، وَأَفْهَمَنِي كَيْفَ تَكُونُ أَثْنَانِ
وَأَثْنَانِ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ فِرَارٌ مُتَعَلِّمَةٍ أَصِيلَةٍ مَعَ سَائِقِ سَيَّارَةٍ هُوَ مُحَاذِرَةٌ وَضِعَ
الْثَقَّةَ فَيَمْنَنَ لَا يَكُونُ أَهْلًا لَهَا ؟

لَقَدْ أَغْفَلَ قَاسِمٌ حِسَابَ الزَّمَنِ فِي هَذَا أَيْضًا ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَنَكِّرَاتِ وَالْأَثَامِ قَدْ أَنْحَلَّ
مِنْهَا الْمَعْنَى الدِّينِيَّةُ ، وَتَبَّتْ فِي مَكَانِهِ مَعْنَى اجْتِمَاعِيٍّ مُفَرَّدٌ ، فَأَصْبَحَتِ الْمُتَعَلِّمَةُ
لَا تَتَخَوَّفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهَا شَيْئًا ، بَلْ هِيَ تَقَارِفُهُ وَتَسْتَأْذِنُ بِهِ دُونَ الْجَاهِلَةِ ، وَتَلْبِسُ لَهُ
(السُّوَارِيَّةُ) ^(١) ، وَتُقَدِّمُ فِيهِ لِلرِّجَالِ الْمُهْذَبِينَ مَرَّةً ذِرَاعَهَا ، وَمَرَّةً خَصْرَهَا ...

أَقْرَأْتُ « شَهْرَزَادَ » ؟ إِنَّ فِيهَا سَطْرًا يَجْعَلُ كِتَابَ قَاسِمٍ كُلَّهُ وَرَقًا أَبْيَضَ مَغْسُولًا لَيْسَ فِيهِ
شَيْءٌ يُقْرَأُ :

قَالَتْ شَهْرَزَادُ الْمُتَعَلِّمَةُ ، الْمُتَفَلِّسَةُ ، الْبَيْضَاءُ ، الْبَضَّةُ ، الرَّشِيقَةُ ، الْجَمِيلَةُ ؛ لِلْعَبْدِ
الْأَسْوَدِ الْفَطْنِ الَّذِي تَهْوَاهُ : « يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ ؛ وَضَيْعَ الْأَصْلِ ؛ فَيَبْحَثَ
الصُّورَةَ ؛ تِلْكَ صِفَاتُكَ الْخَالِدَةُ الَّتِي أُحِبُّهَا ... » ^(٢) .

فَهَذَا كَلَامُ الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا لَا كَلَامُ التَّأْلِيفِ وَالتَّلْفِينِ وَالتَّزْوِيرِ عَلَى الطَّبِيعَةِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ :

فَقُلْتُ لَهَا : فَإِذَا كَانَ قَاسِمٌ لَا يُرْضِيكَ ، وَكَانَ الرَّجُلُ مُضْلِحًا دَخَلَتْهُ رُوحُ الْقَاضِي ،
فَخَلَطَ رَأْيَا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، فَلَعَلَّ « مُضْطَفَى كَمَالِ » ^(٣) هُمُكَ مِنْ رَجُلٍ فِي

(١) السُّوَارِيَّةُ Soiree : السهرة ، والمَقْصُودُ هُنَا اللَّبَاسُ الَّذِي يُؤْتَدَى فِي الْحَفَلَاتِ السَّاهِرَةِ ، وَعَادَةً
مَا يَكُونُ عَارِي الصَّدْرِ وَالْيَدَيْنِ وَالظَّهْرِ . بِسَام .

(٢) ص ١٠٦ مِنْ « شَهْرَزَادَ » لِلْكَاتِبِ الدَّقِيقِ صَدِيقِنَا الْأُسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ ، وَقَدْ كَتَبْنَا نَحْنُ فِي هَذَا
الْمَعْنَى وَكَشَفْنَا عَنْ سِرِّهِ فِي كِتَابِ « أَوْزَاقِ الْوُزْدِ » ص ٥١ - ٥٢ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِنَا .

(٣) مُضْطَفَى كَمَالِ ، أَوْ كَمَالِ أَتَاتُورْكَ Kamal Atatürk (١٨٨١ - ١٩٣٨ م) قَانِدُ وَزَعِيمِ تَرْكِي ،
مُؤَسِّسُ تَرْكِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ ، كَانَ رَئِيسًا لِلْجُمْهُورِيَّةِ التَّرْكِيَّةِ . (١٩٢٣ - ١٩٣٨) ، أَلْفَى =

تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ تَحْرِيزًا مَرَّقَ الْحِجَابِ وَالْ... ؟

قَالَتْ : إِنَّ مُصْطَفَى كَمَا هَذَا رَجُلٌ ثَائِرٌ ، يَسُوقُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ بِعَصَا
وَاحِدَةٍ ، وَلَا يُنْكِرُ فِي طَبِيعَةِ الثَّوَرَةِ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَبْرَحُ ثَائِرًا حَتَّى يَتِمَّ أَنْسِلَاخُ أُمْتِهِ . وَلَهُ
عَقْلٌ عَسْكَرِيٌّ كَانَ يُمْكُرُ بِهِ مَكْرَ الْأَلْمَانِ ، حِينَ أَكْرَهُهُمْ الْخُلَفَاءَ عَلَى تَحْوِيلِ مَصَانِعِ
(كروب)^(١) ، فَحَوَّلُوهَا تَحْوِيلًا يَرُدُّهَا بِأَيْسَرِ التَّغْيِيرِ إِلَى صُنْعِ الْمَدَافِعِ وَالْمُهْلِكَاتِ . وَلَيْسَ
الرَّجُلُ مُضْلِحًا أَلْبَةً ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ زَاهَاةُ النَّصْرِ الَّذِي اتَّفَقَ لَهُ ، فَخَرَجَ مِنْ تِلْكَ الْحَرْبِ
الصَّغِيرَةِ وَعَلَى شَفْتَيْهِ كَلِمَةٌ : « أُرِيدُ ... » وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا غَلِطَ غَلْطَةً أَرَادَهَا
مُنْتَصِرَةً ، فَيَفْرِضُهَا قَانُونًا عَلَى الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْرِضَ عَلَيْهِمْ ، [وَهُمْ الْيَوْمَ
لَا يَمْلَأُونَ قَبْضَةَ دَوْلَتِهِ] فَيَقْهَرُهُمْ عَلَيْهَا وَلَا يَتَأْظَرُّهُمْ فِيهَا ، وَيَأْخُذُهُمْ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَدْعُهُمْ
كَيْفَ أَحَبَّ ؛ وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : وَهُوَ مُؤَلَّفُ الرِّوَايَةِ ، وَالْقَانُونُ نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُمَثِّلِينَ ...

وَحِفْظُهُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِ الدِّينِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ ثَائِرٌ لَا مُضْلِحَ ؛ فَإِنْ أَحْصَى أَخْلَاقَ
الثَّوَرَةِ حَقْدُ الثَّائِرِينَ ، وَهَذَا الْحَقْدُ فِي قُوَّةِ حَرْبٍ وَحْدَهَا ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَادَّةً لِلْأَفْعَالِ
الْكَثِيرَةِ الْمَذْمُومَةِ . وَالرَّجُلُ يَخْتَدِي أَوْزْبَةً وَيَعْمَلُ عَلَى أَعْمَالِ الْأَوْزَبِيِّينَ فِي خَيْرِهَا
وَشَرِّهَا ، وَيَجْعَلُ رَدَائِلَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِمْ عَلَى رَغَمِ أَنْفِهِمْ ، يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهَا وَيُلْحِقُهَا هُوَ
بِقَوْمِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَغْتَفُ الْآرَاءَ وَيَأْخُذُهَا أَخْذًا عَسْكَرِيًّا ، لَيْسَ فِي الْأَمْرِ إِلَّا قَوْلُهُ : « أُرِيدُ » .
فَيَكُونُ مَا يُرِيدُ . هُوَ لَمْ يَحْكَمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَوْزْبَةٍ يَجْعَلُهُ تَرْكِيًا ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ رَدَائِلَ

= الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، واستبدل الحرف اللاتيني بالحرف العربي الذي كان تكتب به التركية . حاول جعل تركية أوربية ، وفي وَهْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِمَكِينِهَا مِنَ الْخَلْقِ بِرُكْبِ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ .

فكان كما قال الشاعر :

كَيْفَ لَمْ يَحْكَمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَوْزْبَةٍ يَجْعَلُهُ تَرْكِيًا ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ رَدَائِلَ

بَسَامَ .

(١) مصانع كروب Krupp ، نسبة لأسرة كروب Krupp الألمانية ، التي اشتهرت بامتلاكها أكبر المصانع لصنع الأسلحة الحربية . كانت هذه المصانع مركزًا لإعادة تسليح ألمانيا في عهد هتلر Hitler . بَسَامَ .

أُورُبَّة تَتَجَسَّسُ بِالْجَنَسِيَّةِ التَّرَكِّيَّةِ . . .

وَتَاللهِ إِنَّهُ لَا يَسِرُّ عَلَيْهِ أَنْ يَجِيءَ بِمَلَائِكَةٍ أَوْ شَيْطَانٍ مِنَ الْمَرَدَّةِ ، يَتَفَحَّوْنَ أَرْضَ تَرْكِيَّةِ قَيْمُطُونَهَا مَطًّا فَيَجْعَلُونَهَا قَارَةً ، مِنْ أَنْ يُكْرَهَ أُورُبَّةَ عَلَى اعْتِبَارِ قَوْمِهِ أُورُبِّيَّيْنَ بُلْبُسٍ قُبْعَةٍ وَهَذِمَ مَسْجِدٍ . إِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِ التَّارِيخِ ، وَهَذَا الشَّعْبُ الَّذِي انْتَصَرَ بِهِ لَمْ تَلِدْهُ مَبَادِئُهُ ، وَلَا أَنْشَأَهُ هَذِمُ الْمَسَاجِدِ وَشَقُّ الْعُلَمَاءِ ؛ بَلْ هُوَ الَّذِي وَلَدَتْهُ تِلْكَ الْأُمَمَاتُ ، وَأَخْرَجَهُ أُولَئِكَ الْآبَاءُ ، وَمَا كَانَ يُغَوِّرُهُ إِلَّا الْقَائِدُ الْحَازِمُ الْمُصَمَّمُ ، فَلَمَّا ظَفِرَ بِقَائِدِهِ جَاءَ بِالْمُعْجِزَةِ ؛ فَإِذَا فُتِنَ الْقَائِدُ بِنَفْسِهِ وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَتَحَوَّلَ نَبِيًّا ، فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَهُ اسْمٌ آخَرُ .

وَلْنَفَرِضِ « الْأَيْتَر » كَمَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ ، لِنَسْتَطِيعَ أَنْ نَجْعَلَ مَسْأَلَتَنَا هَذِهِ عِلْمِيَّةً ، وَأَنْ نَبْحَثَهَا بَحْثًا عِلْمِيًّا ، فَلْيَكُنْ مُصْطَفَى كَمَالٍ هُوَ أَلْلُورد كَتشنر^(١) Kitchener فِي إِنْكِلْتَرَةِ ؛ فَيَكْسِبُ أَلْلُورد كَتشنر Kitchener تِلْكَ الْحَرْبَ الْعُظْمَى لَا حَرْبَ الدُّوَيْلَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَيَنْتَصِرُ عَلَى الْبَرَاكِينِ مِنَ الْجِيُوشِ لَا عَلَى مِثْلِ بَرَامِيلِ الْبَيْدِ . . . ثُمَّ يَسْتَعِزُّ الرَّجُلُ بِدَالَتِهِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَيَدْخُلُهُ الْعُرُورُ ، فَيَصْصَعُ لَهُمْ مَرَّةً ، وَيَتَزَيَّنُ لَهُمْ مَرَّةً ، ثُمَّ يَأْتِيهِمْ بِالْأَيْدِ فَيُسْفُهُ دِينَهُمْ ، وَيُرِيدُهُمْ عَلَى تَعْطِيلِ شَعَائِرِهِمْ وَهَذِمِ كَنَائِسِهِمْ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلَاحُ فِي رَأْيِهِ . أَفْتَرَى الْإِنْكِلِيزَ حِينَئِذٍ يَضُوءُونَ إِلَيْهِ وَيَلْتَفِقُونَ حَوْلَهُ وَيَقُولُونَ : قَائِدُنَا فِي الْحَرْبِ ، وَمُصْلِحُنَا فِي السَّلَامِ ، وَقَدْ أَنْصَرْنَا بِهِ عَلَى النَّاسِ فَسَنَنْتَصِرُ بِهِ عَلَى اللَّهِ ، وَظَفِرْنَا مَعَهُ بَيْنَومٍ مِنَ التَّارِيخِ فَسَنَظْفِرُ مَعَهُ بِالتَّارِيخِ كُلِّهِ . . . ؟ أَمْ تَحْسَبُ كَتشنر Kitchener كَانَ يَجْسُرُ عَلَى هَذَا وَهُوَ كَتشنر Kitchener لَمْ يَتَغَيَّرْ عَقْلُهُ ؟

إِنَّهُ وَاللهِ مَا يَتَدَفَّعُ أَثْنَانِ أَنْ هَذِمَ كَنِيْسَةَ وَاحِدَةٍ يَوْمِيذٍ لَا يَكُونُ إِلَّا هَذِمَ كَتشنر Kitchener وَتَارِيخِ كَتشنر Kitchener ، وَلَكِنَّ الْعَجْزَ مُمَهَّدٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَالْأَرْضُ الْمُتَحَسِفَةُ هِيَ الَّتِي يَسْتَنْفَعُ فِيهَا أَلْمَاءُ ، فَلَهُ فِيهَا اسْمٌ وَرَسْمٌ ؛ أَمَّا الْجَبَلُ الصَّخْرِيُّ الْأَشْمُ ، فَإِذَا صَبَّ

(١) اللورد كَتشنر Kitchener هو هوراثيو هربرت كَتشنر Horatio Herbert Kitchener (١٨٥٠ - ١٩١٧) قائد وسياسي بريطاني . عُيِّنَ وزيرًا للحربية البريطانية عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وكانت له شعبية كبيرة لدى الجمهور الإنكليزي . بسام .

هَذَا الْمَاءُ عَلَيْهِ أَرْسَلَهُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ ، وَأَفَاضَهُ إِلَى أَسْفَلِ^(١) ... !

* * *

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ : فَأَقُولُ لَهَا : إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيِكَ لِلنِّسَاءِ ، فَكَيْفَ لَا تَرَيْنَ مِثْلَ هَذَا لِنَفْسِكَ ؟

فَتَضَعُضَتْ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَلَجَلَجَتْ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنْتَ سَلَبْتَنِي الرَّأْيَ لِنَفْسِي ، وَوَضَعْتَنِي فِي الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا تَتَّقِيْدُ بِقَانُونِ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ .

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ تَغْلُطُ لِنَفْسِهَا فِي الرَّأْيِ ، وَتَنْصَحُ بِالرَّأْيِ الصَّائِبِ غَيْرِهَا ، فَيُوشِكُ أَلَّا يَبْقَى فِي نِسَاءِ الْأَرْضِ فَضِيلَةٌ وَلَا يَعُودَ فِي الْمَدْرَسَةِ كُلِّهَا عَاقِلٌ إِلَّا الْكِتَابُ ...

فَتَضَاحَكْتُ وَقَالَتْ : لِهَذَا يَشْتَدُّ دِينُنَا الْإِسْلَامِيُّ مَعَ الْمَرْأَةِ ، فَهُوَ يَخْلُقُ طَبَائِعَ الْمُقَاوِمَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، وَيَخْلُقُهَا فِيمَا حَوْلَهَا ، حَتَّى لِيَخْلُلَ إِلَيْهَا أَنَّ السَّمَاءَ عُيُونُ تَرَاهَا ، وَأَنَّ الْأَرْضَ عُقُولُ تُحْصِي عَلَيْهَا ؛ وَهَلْ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَقْضِي قَضَاءَ مُبْرَمًا أَنْ تَكُونَ ثِيَابُ الْمَرْأَةِ أُسْلُوبُ دِفَاعٍ لَا أُسْلُوبُ إِغْرَاءٍ ، وَأَنْ يَضَعَهَا مِنَ النُّفُوسِ مَوْضِعًا يَكُونُ فِيهِ حَدِيثُهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا كَالْحَدِيثِ فِي (الرَّادِيُو)^(٢) لَهُ دَوِيٌّ فِي الدُّنْيَا ، فَيُعْنِمُ عَلَيْهَا الْحِجَابُ ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ ، وَشَرَفُ الْأَصْلِ^(٣) ؛ وَيُوَاحِدُهَا بِرُوحِ طَبِيعَتِهَا ، فَيَجْعَلُ الْهَفْوَةَ مِنْهَا كَأَنَّهَا جَنِينٌ يَكْبُرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ حَتَّى يَكُونَ عَارَ مَاضِيهَا وَخِزْيِ مُسْتَقْبَلِهَا .

هَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ مَضْرُوبَةٌ لَا حِجَابَ وَاحِدٌ ، وَهِيَ كُلُّهَا لِيَخْلُقَ طَبَائِعَ الْمُقَاوِمَةِ ، وَلِتَنَسِيرَ الْمُقَاوِمَةُ ؛ وَمَتَى جَاءَ الْعِلْمُ مَعَ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِطْلَاقًا ، وَلَمْ يَكُنْ أَبَدًا إِلَّا الْحِجَابُ الْأَخِيرُ كَالسُّورِ حَوْلَ الْقَلْعَةِ ؛ وَلَكِنْ قَبَّحَ اللَّهُ الْمَدْنِيَّةَ وَفَتَّهَا ؛ إِنَّهَا أَطْلَقَتِ الْمَرْأَةَ حُرَّةً ، ثُمَّ حَاطَتْهَا بِمَا يَجْعَلُ حُرِّيَّتَهَا هِيَ الْحُرِّيَّةَ فِي اخْتِيَارِ أَثْقَلِ فَيُودِهَا لَا غَيْرَ . أَنْتَ مُحَمَّلٌ

(١) أَفْرَدْنَا مَقَالًا خَاصًّا لِهَذَا الْإِلْحَادِ التَّرْبِيَّ الدُّبَابِيَّ ... فَقَدْ عَزَّنَا فِي الشُّبْحَةِ الْخَطِّيةِ الَّتِي عِنْدَنَا « كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ » عَلَى فَضْلِ بَدِيعِ عُنْوَانِهِ : « كَفَرُ الدُّبَابِيَّةِ » ، تَقْرُؤُهُ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

(٢) الراديو Radio ، هذا الاسم الأعجمي لما عَمَّ استعماله اليوم تحت اسم المذياع . بسام .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « الْأَهْلِي » بَدَلًا مِنْ : « الْأَصْلِي » .

بِالذَّهَبِ ، وَأَنْتَ حُرٌّ وَلَكِنْ بَيْنَ اللَّصُوصِ ؛ كَأَنَّكَ فِي هَذَا لَسْتَ حُرًّا إِلَّا فِي اخْتِيَارِ مَنْ
يَجْنِي عَلَيْكَ . . . !

لَمْ تَعُدِ الْمَرْأَةُ الْعِصْرِيَّةُ أَنْتِصَارَ الْأُمُومَةِ ، وَلَا أَنْتِصَارَ الْخُلُقِ الْقَاضِلِ ، وَلَا أَنْتِصَارَ
التَّعْزِيَةِ فِي هُمُومِ الْحَيَاةِ ؛ وَلَكِنْ أَنْتِصَارَ الْفَنِّ ، وَأَنْتِصَارَ اللَّهِو ، وَأَنْتِصَارَ الْخَلَاعَةِ .

قَالَ صَاحِبُ الطَّائِشَةِ : فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : وَأَنْتِصَارِي . . . !

(طَبَّقِ الْأَصْلَ) .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

« تَنْبِيْهٌ » :

لَيْسَتْ الطَّائِشَةُ كُلُّ النَّسَاءِ وَلَا كُلُّ الْمُتَعَلَّمَاتِ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَزَوِي فِصَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا ،
لَيْسَ فِيهَا كَلِمَةٌ مِنَ الْمَرِيخِ وَلَا مِنْ رُحْلِ ؛ فَأَمَّا الصَّالِحُ فَيَرَى وَيَفْهَمُ ، وَلَعَلَّهُ يَصُونُ بِهَا
نَفْسَهُ ؛ وَأَمَّا الْفَاسِدُ فَيَرَى وَيَعْتَبِرُ ، وَلَعَلَّهُ يَرُدُّ بِهَا نَفْسَهُ . وَمَذْهَبُنَا دَائِمًا وَجُوبٌ كَشَفِ
الْحَقِيقَةِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ الصَّوَابَ فَخُذْهُ عَمَّنْ أَخْطَأَ .

تَرْبِيَةُ لَوْلُؤِيَّةٍ (*)

كَتَبْتُ إِلَى سَيِّدَةٍ فَاضِلَةٍ بِمَا هَلَدِهِ تَرْجَمَتُهُ مَنْقُولًا إِلَى أَسْلُوبِي وَطَرِيقَتِي :

... أَمَّا بَعْدُ ؛ فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنًّا وَظَنَّتْ ، فَأَقْرَأُ الْفَضْلَ الَّذِي أَنْتَزَعْتُهُ لَكَ مِنْ مَجْلَةٍ ... وَسَتَعْرِفُ مِنْهُ وَتُنْكِرُ ، وَتَرَى فِيهِ النَّهَارَ مُبْصِرًا وَاللَّيْلَ أَعْمَى ... وَتَجِدُ فَنَاءَ الْيَوْمِ عَلَى مَا وَقَعَ بِهَا مِنَ الظُّلَّةِ ، وَكَثُرَ فِيهَا مِنْ أَقْوَالِ السُّوءِ - لَا تَشْمَسُ عَلَى الرِّيْبَةِ وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَنْفِي مِنْهَا ، بَلْ هِيَ تَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا ، وَتَبْغِي مَعَ تَحْقِيقِهَا أَنْ يَتَعَالَمَ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْهَا ، وَتُرِيدُ مَعَ هَذَيْنِ أَنْ يُطْلِقُوا لَهَا مَا شَاءَتْ ، وَيُسَوِّغُوا مَقَارَفَةَ الْأِسْمِ ، وَيُقَرِّوْهَا عَلَى مُنْكَرَاتِهَا .

أَمَّا إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمّهَاتُنَا الْجَاهِلَاتُ هُنَّ أَمْسَنَا الدَّاهِبَ بِلا فَائِدَةٍ ، فَإِنَّ فِتْيَانَنَا الْمُتَعَلِّمَاتِ هُنَّ يَوْمَنَا الضَّائِعُ بِلا فَائِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْجَاهِلَةَ لَمْ تَكُنْ تَكْسِدُ وَمَعَهَا الْفَضِيلَةُ ، فَأَصْبَحَتْ الْمُتَعَلِّمَةُ لَمْ تَكُنْ تَنْفَعُ وَمَعَهَا الرَّذِيلَةُ ، وَلِتَاجِرِ أُمِّي طَاهِرُ الْأَسْمِ تَتَحَرَّكُ سُوقُهُ وَتَحْيَا ، خَيْرٌ مِنْ تَاجِرِ مُتَعَلِّمٍ نَجِسِ الْأَسْمِ قَدْ مَاتَتْ سُوقُهُ وَخَمَدَتْ ، فَمَا تَنْتَفِسُ مِنْ دِرْهَمٍ وَلَا دِينَارٍ .

لَقَدْ اخْتَدَيْنَا عَلَى مِثَالِ الْمَرْأَةِ الْأُورُوبِيَّةِ ، فَلَمَّا أَحْكَمَتِ الْمُتَعَلِّمَاتُ مِنَّا ، كُنَّ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ كَالسَّبْخَةِ الشَّاشَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، طَرَفٌ لَهَا بِالْفَلَاحَةِ وَطَرَفٌ بِالْبَحْرِ ؛ فَهِيَ رَمْلٌ فِي مَاءٍ فِي مِلْحٍ ، لَا تَخْلُصُ لِنَسَادٍ وَلَا صِحَّةٍ ، فَأَعْتَبَرُ هَذِهِ وَهَذِهِ فَسَتَجِدُهُمَا بِحِكَايَةِ وَاحِدَةٍ ، أَضْلًا وَطَبَقَ الْأَصْلِ .

* * *

وَقَرَأْتُ الْفَضْلَ الَّذِي أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ ، وَكَانَ فِي كِتَابِهَا ، فَإِذَا هُوَ لِكَاتِبَةٍ تَزْعُمُ (أَنَّهَا) مِمَّنْ رَفَعْنَ عِلْمَ الْجِهَادِ لِحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ ، وَإِذَا فِي أَوَّلِهِ :

« كَتَبْتُ أِنْسَةً أَدِيبَةً فِي عَدَدِ سَابِقٍ مِنْ ... الْأَعْرَ تَقُولُ : « أَجَلْ ، لِنُقَشِّ عَنْ هَذَا

الرَّجُلِ كَمَا يُفْتَشُونَ هُمْ عَنِ الْمَرْأَةِ ، فَإِنْ أَخْطَأْنَا هُمْ أَزْوَاجًا فَلَنْ نُخْطِئَهُمْ أَصْدِقَاءَ !!! »
وَكَتَبَ بَعْدَ هَذَا أَدِيبٌ فَاضِلٌ ، كَمَا كَتَبَتْ أُنْسَةُ فَاضِلَةٌ يَنْحِيَانِ (كَذَا) هَذَا الْمَنْحَى ،
وَيُطْرَقَانِ نَفْسَ السَّبِيلِ (كَذَا) الَّتِي اخْتَطَّتْهَا الْأُنْسَةُ الْحَرِثَةُ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، الثَّائِرَةُ فِي نَزْوٍ .
ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ : « قَرَأْتُ مَقَالَ الْأُنْسَةِ الثَّائِرَةِ فِي حَيَوِيَّةٍ صَارِحَةٍ !!! فَجَزَعْتُ ، لِأَنَّ
فَاسِمَ أَمِينٍ عِنْدَمَا رَفَعَ عِلْمَ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ ، وَلَوْلِيَّ الدِّينِ يَكُنْ عِنْدَمَا جَاهَرَ
بَعْدَهُ فِي سَبِيلِ السُّفُورِ ، وَهَدَى شِعْرَاوِي عِنْدَمَا رَفَعَتْ صَوْتَهَا عَالِيًا تَطَالِبُ بِحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ -
مَا ظَنَنْتُ وَمَا ظَنَّ وَاحِدٌ مِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَنَّ ثَوْرَةَ الْمَرْأَةِ سَتَتَطَوَّرُ إِلَى حَدٍّ أَنْ تَقِفَ أُنْسَةُ
مُهَذَّبَةٌ ، تَكْشِفُ عَنْ رَأْسِهَا تَبْكِي وَتَسْتَبْكِي سِوَاهَا مَعَهَا ، مِنْ أَجْلِ الزَّوْجِ ... » .

* * *

وَأَنَا فَلَسْتُ أَذْرِي وَاللَّهِ مِمَّ تَعَجَّبُ هَذِهِ الْكَاتِبَةُ ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ عَجَبِهَا ، وَأَرَاهَا
كَالَّتِي تَكْتُبُ عَبَثًا وَهَزْلًا وَهُوْنِي ، مُظْهِرَةً الْجِدَّ وَالْقَصْدَ وَالْعَصَبَ . أَتَنْ أُطْلِقُ لِلنِّسَاءِ أَنْ
يُثْرْنَ كَمَا تَقُولُ الْكَاتِبَةُ ، وَجَاهِدَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فِي هَذِهِ الثَّوْرَةِ فَأَخَذَتْ مَا أَخَذَهَا ، فَأَنْطَلَقَتْ
لِشَأْنِهَا ، فَأَوْغَلَتْ فِي حُرِّيَّتِهَا ، فَأَمْتَدَّ بِهَا أَمْدُهَا شَوْطًا بَعْدَ شَوْطٍ - ثُمَّ جَاءَ خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ
الْمَرْأَةِ يُسْفِرُ سُفُورَهُ وَيَرْفَعُ الْحِجَابَ عَنْ طَبِيعَتِهِ ثَائِرًا هُوَ أَيْضًا فِي غَيْرِ مُدَارَاةٍ وَلَا حَذِيقٍ وَلَا
كِيَاسَةٍ ، يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحِمَ طَرِيقَهُ وَيَسْلُكَ سَبِيلَهُ ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى رَغْمِهِ فِي الطَّرِيقِ مُنْكَسِرًا مِمَّا
يِهِ مِنَ اللَّفَّةِ^(١) وَالْوُتْبَةِ يَتَوَجَّعُ ، يَتَنَهَّدُ ، يَتَلَدَّعُ بِهِلِذِهِ الْمَعَانِي وَهَذِهِ الْكَلِمَاتِ - أَتَنْ وَقَعَ
ذَلِكَ جَاءَتْ كَاتِبَةٌ مِنْ كَاتِبَاتِ السُّفُورِ تَقُولُ لِلْمَرْأَةِ : جَرِي عَلَيْكَ وَكُنْتِ حُرَّةً ، وَتَزْعَرَعْتَ
وَكُنْتِ ثَابِتَةً ، وَأَفْحَشْتَ وَكُنْتِ عَفِيفَةً ، وَتَعَهَّرْتَ وَكُنْتِ طَاهِرَةً ؟

أَفَلَا تَقُولُ لَهَا : سَفَرْتَ أَخْلَاقُكَ إِذْ كُنْتِ سَافِرَةً بَارِزَةً ، وَضَاعَ حَيَاؤُكَ إِذْ كُنْتِ مُخْلَاةً
مُهْمَلَةً ، وَغَلَوْتَ إِذْ كُنْتِ فِي الْمُبَالَغَةِ مِنَ الْبَدْءِ ؟

أَفَلَا تَقُولُ لَهَا : لَقَدْ تَلَطَّفْتَ فَجِئْتَ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ لِكَلِمَةِ (الْعُزِّي) ، وَلَقَدْ أَبْدَعْتَ
فَكُنْتِ أَمْرًا طَرِيفَةً أَجْتِمَاعِيَّةً مَخِيلَةً لِلشَّعْرِ وَالْفَنِّ ، وَحَقَّقْتَ أَنَّ وَاجِبَ الطَّرِيفَةِ الْجَمِيلَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ : «الْهَفَّةُ» بَدَلًا مِنْ : «الْلَفَّةُ» .

إِعْطَاءُ الْفَرْغِ غِذَاءً مِنْ . . . ، وَمِنْ . . . ؛ وَمِنْ لَحْمِهَا . . . ؟

نَعَمْ إِنْ قَاسِمِ أَمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ . . . وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَظُنَّ أَنَّ بَعْضَ الصَّوَابِ فِي الْخَطَا لَا يَجْعَلُ الْخَطَا صَوَابًا ؟ بَلْ هُوَ آخَرَى أَنْ يُلْبَسَهُ عَلَى النَّاسِ فَيُسَبِّهَهُ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ وَمَا هُوَ بِهِ ، وَيَجْعَلَهُمْ يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ وَيَأْمَنُونَ جَانِبَهُ فَيَنْتَهِي بِهِمْ يَوْمًا إِلَى أَنْ يَتَسَفَّ خَطْوُهُ صَوَابَهُ ، وَيُغْطِي بَاطِلُهُ عَلَى حَقِّهِ ، ثُمَّ تَسْتَطِرُقُ إِلَيْهِ عَوَامِلُ لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَتْ تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ وَهُوَ خَطَاً مُحَضَّ ، فَتَمُدُّ لَهُ فِي الْغَيِّ مَدًّا . ثُمَّ تَنْتَهِي هِيَ أَيْضًا إِلَى نَهَائِيَّتِهَا ، وَتَوُؤَلُ إِلَى حَقَائِقِهَا ؛ فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ دَاخَلَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِذَا الشَّرُّ لَا يَقِفُ عِنْدَمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا الْبَلَاءُ لَيْسَ فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ بَلْ أَنْوَاعٌ .

مَا يَزْتَابُ أَحَدٌ فِي نِيَّةِ قَاسِمِ أَمِينٍ ، وَلَا نَزْعُهُمْ أَنْ لَهُ خَفِيَّةَ سُوءٍ أَوْ مُضْمَرٍ شَرٍّ فِيمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَةِ ، وَلَكِنِّي أَنَا أَزْتَابُ فِي كِفَايَتِهِ لِمَا كَانَ أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ ، وَأَرَاهُ قَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا يُحْسِنُ ، وَذَهَبَ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَنْفِذُ إِلَى حَقَائِقِهِ ، وَلَا يَسْتَبِطِنُ أَسْرَارَ عَرَبِيَّتِهِ ، وَكَانَ مُنَاطِرُوهُ فِي عَصْرِهِ قَوْمًا ضَعَفَاءَ ، فَاسْتَغْلَاهُمْ بِضَعْفِهِمْ لَا بِقُوَّتِهِ ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ الْحِجَابِ قَدْ انْتَفَخَتْ فِي ذَهْنِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَتْ مَعَانِيَهَا الدَّقِيقَةَ ، فَأَخَذَهَا مُمْتَلِئَةً وَجَاءَ بِهَا فَارِغَةً ، وَقَالَ لِلنِّسَاءِ : غَيِّرْنَ وَبَدِّلْنَ . فَلَمَّا أَطْعَمَهُ وَبَدَّلْنَ وَغَيَّرْنَ ، وَجَاءَ الزَّمَنُ بِمَا يُفَسِّرُ الْكَلِمَةَ مِنْ حَقَائِقِهِ وَتَصَارِفِهِ لَا مِنْ خَيَالَاتِ الْمُتَخَيَّلِ أَوْ الْمُتَشَبِّهِ - إِذَا مَعْنَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ هُوَ مَا رَأَيْتَ ، وَإِذَا الْحِجَابُ الْأَوَّلُ عَلَى ضَلَالِهِ كَانَ نِصْفَ الشَّرِّ ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ الَّتِي رَبِحَتْ الشَّارِعَ هِيَ الَّتِي خَسِرَتْ الزَّوْجَ ! وَإِذَا تِلْكَ الدَّعْوَةُ لَمْ تَكُنْ نَفْيًا لِلْحِجَابِ عَنِ الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنْ نَفْيًا لِلْمَرْأَةِ ذَاتِهَا وَرَاءَ حُدُودِ الْأُسْرَةِ ، كَأَنَّهَا مُجْرِمَةٌ عُوقِبَتْ عَلَى فِسَادِ سِيَاسَتِهَا ؛ وَهِيَ { فَارَةٌ } فِي بَيْتِهَا وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ مَنَفِيَّةٌ مِنْ مُسْتَقْبَلِهَا .

كَانُوا يَخْتَجُونَ لِنَفْيِ الْحِجَابِ بِالْفَلَاحَاتِ فِي سُفُورِهِنَّ ؛ وَغَفَلُوا أَقْبَحَ الْغَفْلَةِ عَنِ السَّبَبِ الطَّبِيعِيِّ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ السُّفُورَ إِنَّمَا عَمَهُنَّ مِنْ كَوْنِهِنَّ لَسَنَ فِي الْمَنْزِلَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرُ مِنْ بَهَائِمِ إِنْسَانِيَّةِ مُؤَنَّثَةٍ ؛ وَمِثْلُ هَذَا السُّفُورِ لَا يَكُونُ عَلَى طَبِيعَتِهِ تِلْكَ إِلَّا فِي أَجْتِمَاعٍ طَبِيعِيٍّ فِطْرِيٍّ أَسَاسُهُ الْخَلْطُ فِي الْأَعْمَالِ لَا التَّمْيِيزُ بَيْنَهَا ، وَالْأَشْتِرَاكُ فِي شَيْءٍ

وَاحِدٍ هُوَ كَسَبَ الْقُوتَ^(١) لَا الْإِنْفِرَادُ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ أَشْيَاءِ النَّفْسِ .

وَلَسْتُ أَرَى هَذِهِ اللَّجَاجَةَ ، أَوْ « الْحَيَوِيَّةَ الصَّارِخَةَ » الَّتِي ثَارَتْ بِفَتَيَاتِنَا - إِلَّا تَمَرُّدًا مِنْ طَبِيعَتِهِنَّ عَلَى الْأَحْوَالِ الظَّالِمَةِ الْمُتَصَرِّفَةِ بِهَا ؛ وَيَحْسِبُنَّهُ تَوْشَعًا مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي الْحُرِّيَّةِ ، وَطَلَبًا لِلْعَالَمِ كُلِّهِ بَعْدَ الشَّارِعِ ، وَلِلْحَقُوقِ كُلِّهَا بَعْدَ نَبَذِ الْحِجَابِ ؛ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ إِلَّا ثَوْرَةُ الطَّبِيعَةِ الشُّبُورِيَّةِ عَلَى خِيَّتَيْهَا مِمَّا أَصَابَتْ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّارِعِ وَالْعَالَمِ وَالْحَقُوقِ ، وَرَغْبَةً مِنْهَا فِي أَنْ تُحَدَّ بِحُدُودِهَا وَيُؤْخَذَ مِنْهَا الْعَالَمُ كُلُّهُ بِمَا فِيهِ ، وَتُغَطَّى أَلْبَيْتَ وَحَدَهُ بِمَا فِيهِ .

إِذَا أَنْتَ كَشَفْتَ جُذُورَ الشَّجَرَةِ لِتُطْلِقَهَا بِزَعْمِكَ مِنْ حِجَابِهَا ، وَتُخْرِجَهَا إِلَى الثُّورِ وَالْحُرِّيَّةِ ، فَإِنَّمَا أَعْطَيْتَهَا الثُّورَ ، وَلَكِنَّ مَعَهُ الضَّعْفَ ؛ وَالْحُرِّيَّةَ ، وَمَعَهَا الْإِنْتِقَاصَ ؛ وَتَكُونُ قَدْ أَخْرَجْتَهَا مِنْ حِجَابِهَا وَمِنْ طَبِيعَتِهَا مَعًا ؛ فَخُذْهَا بَعْدَ ذَلِكَ خَشَبًا لَا ثَمَرًا ، وَمَنْظَرُ شَجَرَةٍ لَا شَجَرَةٍ ، لَقَدْ أَعْطَيْتَهَا مِنْ عِلْمِكَ لَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَجَهَلْتَ أَنَّهَا مِنْ أَطْبَاقِ الثَّرَى فِي قَانُونِ حَيَاتِهَا ، لَا فِي قَانُونِ حِجَابِهَا . أَفَلَيْسَتْ كَذَلِكَ جُذُورُ الشَّجَرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؟

كُلُّ مَا يَتَغَيَّرُ يَسْهُلُ تَغْيِيرُهُ عَلَى مَنْ شَاءَ ، وَلَكِنَّ الثَّنَائِجَ الْآيِيَّةَ مِنَ التَّغْيِيرِ لَا تَكُونُ إِلَّا حَتْمًا مَفْضِيًّا كَمَا يُفْضَى ، فَلَنْ يَسْهُلَ تَبْدِيلُهَا وَلَا تَحْوِيلُهَا وَلَا رَدُّهَا أَنْ تَقَعَ . وَقَدْ أَخْطَأَ جَمَاعَةُ السُّفُورِ ، بَلْ أَنَا أَقُولُ : إِنَّهُمْ جَاؤُونَا بِالْجَاهِلِيَّةِ الثَّانِيَّةِ ، وَإِنَّهُمْ طَبُّوا لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ كَذَلِكَ الطَّبِّ الَّذِي آسَاسُهُ الرَّرَاحَةُ الدَّيْكِيَّةُ فِي الْبُحُورِ ...^(٢)

* * *

وَمَا هُوَ الْحِجَابُ إِلَّا حِفْظُ رُوحَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ لِلْمَرْأَةِ ، وَإِغْلَاءُ سِرِّهَا فِي الْاجْتِمَاعِ ، وَصَوْنُهَا مِنَ التَّبَدُّلِ الْمَمْقُوتِ ، لِضَبْطِهَا فِي حُدُودِ كَحْدُودِ الرِّيحِ مِنْ هَذَا الْقَانُونِ الصَّارِمِ ، قَانُونِ الْعَرَضِ وَالطَّلَبِ ؛ وَالْإِزْتِفَاعُ بِهَا أَنْ تَكُونَ سِلْعَةً بَاثِرَةً يُنَادَى عَلَيْهَا فِي

(١) { وَلِهَذَا لَا يَكَادُ يَغْتَنِي الْفَلَّاحُ وَلَوْ أَيْسَرَ الْغِنَى ، حَتَّى يَصُونَ أَمْرَاتَهُ وَيَحْجُبَهَا وَيَرْتَعَ بِمَعْنَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } .

(٢) { أَيُّ : طِبُّ الدَّجَالِينَ } .

مَدَارِجُ الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ : أَلْعِيُونُ الْكَحِيلَةَ ، أَلْحُدُودُ الْوَرْدِيَّةُ ، أَلشَّافَةُ أَلْيَاْفُوتِيَّةُ ، أَلتُّغُورُ أَللُّؤْلُؤِيَّةُ ، أَلْأَعْطَافُ أَلْمُرْتَجَّةُ ، أَلتُّهُودُ أَل... أَل... أَوَ لَيْسَ فَتَيَاتُنَا قَدِ أُنْتَهَيْنَ مِنْ أَلْكَسَادِ بَعْدَ نَبْذِ أَلْحِجَابِ إِلَى هَذِهِ أَلْعَايَةِ ، وَأَصْبَحْنَ إِنْ لَمْ يُنَادَيْنِ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهِنَّ لَا يَظْهَرْنَ فِي الطُّرُقِ إِلَّا لِتُنَادِي أَجْسَامُهُنَّ بِمِثْلِ هَذَا ؟

وَهَذِهِ أَلَّتِي كَتَبْتَ أَلْيَوْمَ تَطْلُبُهُنَّ مُخَادِنِينَ إِنْ أَخْطَأْتَهُنَّ أَرْوَاجًا ، وَتُقَشُّ عَلَيْهِنَّ تَفَنُّشًا بَيْنَ أَلرَّوْجَاتِ وَأَلْأَمْهَاتِ وَأَلْأَخْوَاتِ ! هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَتَبَّ دَرَجَةً أُخْرَى فِي مُخْزِيَّاتِ هَذَا أَلتَّطَوُّرِ ، فَتَمَشِيَ فِي أَلطَّرِيقِ مَشْيِ أَلْأُنثَى مِنْ أَلْبَهَائِمِ طَمُوحًا مَطْرُوفَةً ، تَذْهَبُ عَيْنَاهَا هُنَا وَهَلْهَنَا تَلْتَمِسُ مَنْ يَخْطُو إِلَيْهَا أَلْخَطْوَةَ أَلْمُقَابِلَةِ ... ؟

مَا هُوَ أَلْحِجَابُ أَلشَّرْعِيِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَرْبِيَّةَ عَمَلِيَّةٍ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْتِحْكَامِ أَلْعَادَةِ لِأَسْمَى طِبَاعِ أَلْمَرْأَةِ وَأَخْصَصَهَا أَلرَّحْمَةَ ؟ هَذِهِ أَلصِّفَةُ أَللَّادِرَةِ أَلَّتِي يَقُومُ أَلْاجْتِمَاعُ أَلْإِنْسَانِي عَلَى نَزْعِهَا وَأَلْمُنَازَعَةِ فِيهَا مَا دَامَتْ سُنَّةُ أَلْحَيَاةِ نِزَاعِ أَلْبَقَاءِ ، فَيَكُونُ أَلْبَيْتُ أَلْجِمَاعَا خَاصًّا مُسَالِمًا لِلْفَرْدِ تَحْفَظُ أَلْمَرْأَةُ بِهِ مَنَزِلَتَهَا ، وَتُؤَدِّي فِيهِ عَمَلَهَا ، وَتَكُونُ مَغْرَسًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَغَارِسَةً لِصِفَاتِهَا مَعًا .

لَقَدْ رَأَيْنَا مَوَالِيدَ أَلْخَيَوَانِ تُوَلَّدُ كُلُّهَا : إِمَّا سَاعِيَةً كَاسِبَةً لَوْفِيقِهَا ، وَإِمَّا مُخْتَاجَةً إِلَى أَلْحَضَانَةِ وَقْتًا قَلِيلًا لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَضِيَ فَتَكْدَحُ لِعَيْشِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ غَايَةُ أَلْخَيَوَانِ هِيَ أَلْوُجُودُ فِي ذَاتِهِ لَا فِي نَوْعِهِ ، وَكَانَ بِذَلِكَ فِي أَلْأَسْفَلِ لَا فِي أَلْأَعْلَى . غَيْرَ أَنَّ طِفْلَ أَلْمَرْأَةِ يَكُونُ فِي بَطْنِهَا جَنِينًا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُوَلَّدُ لِيَكُونَ مَعَهَا جَنِينًا فِي صِفَاتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَرَحْمَتِهَا أَوْضَعَفَ ذَلِكَ ، سَنَةً بِكُلِّ شَهْرٍ . فَهَلِ أَلْحِجَابُ إِلَّا قَصْرُ هَذِهِ أَلْمَرْأَةِ عَلَى عَمَلِهَا ، لِتَجْوِدَهُ وَإِنْقَانَهُ وَإِخْرَاجِهِ كَامِلًا مَا أَسْتَطَاعَتْ ؟ وَهَلْ قَصْرُهَا فِي حِجَابِهَا إِلَّا تَرْبِيَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ، ثُمَّ تَرْبِيَّةٌ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ حَوْلَهَا بِرَحْمَتِهَا وَصَبْرِهَا ؟

أَعْرِفُ مُعَلِّمَةً ذَاتَ وَلَدٍ ، تَتْرُكُ أَبْنَاهَا فِي أَيْدِي أَلْخَدَمِ بَعْدَ وَصَاةٍ عِلْمِيَّةٍ سَيَكُونُ لَوْجِيَّةً ... وَتَمْضِي ذَاهِبَةً عَنْ يَمِينِ أَلصَّبَاحِ ، وَيَمْضِي زَوْجُهَا عَنْ شِمَالِهِ ... وَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا أَلطِّفْلَ مَرَّةً ، فَرَأَيْتُهُ شَيْئًا جَدِيدًا غَيْرَ أَلْأَطْفَالِ ، لَهُ سِمَةٌ رُوحَانِيَّةٌ غَيْرُ سِمَاتِهِمْ ، كَأَنَّمَا يَقُولُ لِي : إِنَّهُ لَيْسَ لِي أَبٌ وَأُمٌّ ، وَلَكِنْ أَبٌ رَقْمُ (١) ، وَأَبٌ رَقْمُ (٢) ... !

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ كَلِمَةً عَنِ الْحِجَابِ الْإِسْلَامِيِّ قُلْتُ فِيهَا : « مَا كَانَ الْحِجَابُ مَضْرُوبًا عَلَى الْمَرْأَةِ نَفْسِهَا ، بَلْ عَلَى حُدُودٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ أَنْ تُجَاوِزَ مَقْدَارَهَا أَوْ يُخَالِطَهَا السُّوءُ أَوْ يَتَدَسَّسَ إِلَيْهَا ؛ فَكُلُّ مَا أَدَّى إِلَى هَذِهِ الْعَايَةِ فَهُوَ حِجَابٌ ، وَلَيْسَ يُؤَدِّي { إِلَيْهَا } شَيْءٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ أَمْرًا فِي دَائِرَةِ بَيْتِهَا ، ثُمَّ إِنْسَانًا فَقَطْ فِيمَا وَرَاءَ هَذِهِ الدَّائِرَةِ إِلَى آخِرِ حُدُودِ الْمَعَانِي » .

وَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَلَيْسَ الْحِجَابُ إِلَّا كَالرَّمْزِ لِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَمَعَانِيهِ وَرُوحِهِ الدِّينِيَّةِ الْمَعْبُودَةِ ، وَهُوَ كَالصَّدَقَةِ لَا تَحُجَّبُ اللَّوْلُؤَةُ وَلَكِنْ تُرْبِيهَا فِي الْحِجَابِ تَرْبِيَةُ لُؤْلُؤَةٍ ؛ فَوَرَاءَ الْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ مَعَانِي التَّوَارُنِ وَالْإِسْتِفْرَارِ وَالْهَدُوءِ وَالْإِضْطِرَادِ ، وَأَخْلَاقُ هَذِهِ الْمَعَانِي وَرُوحُهَا الدِّينِي الْقَوِي ، الَّذِي يَنْشِئُ عَجِيبَةَ الْأَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ؛ أَيِ : صَبْرِ الْمَرْأَةِ وَإِثَارَهَا . وَعَلَى هَٰذَيْنِ تَقُومُ قُوَّةُ الْمُدَافَعَةِ ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ هِيَ تَمَامُ الْأَخْلَاقِ الْأَدَبِيَّةِ كُلِّهَا ، وَهِيَ سِرُّ الْمَرْأَةِ الْكَامِلَةِ ؛ فَلَنْ تَجِدَ الْأَخْلَاقَ عَلَى أَتَمِّهَا وَأَحْسَنِهَا وَأَقْوَمَهَا إِلَّا فِي الْمَرْأَةِ ذَاتِ الدِّينِ وَالصَّبْرِ وَالْمُدَافَعَةِ . إِنَّهَا فِيهَا تُشَبِّهُ أَخْلَاقَ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

وَقَدْ مُحِقَ الدِّينُ وَالصَّبْرُ ، وَتَرَاحَتْ قُوَّةُ الْمُدَافَعَةِ فِي أَكْثَرِ الْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ ، فَابْتُلِينَ مِنْ ذَلِكَ بِالضَّجَرِ وَالْمَلَلِ ، وَتَشْوِيهِ النَّفْسِ ؛ وَوَقَعَ فِيهِنَّ مَعْنَى كَمَعْنَى الْعَيْنِ فِي الثَّمَرَةِ النَّاضِجَةِ ؛ وَجَهَلْنَ بِالْعِلْمِ حَتَّى طَبِيعَتُهُنَّ ، فَمَا مِنْهُنَّ مَنْ عَرَفَتْ أَنَّ طَبِيعَتَهَا سَلْبِيَّةٌ فِي ذَاتِهَا ، وَأَنَّهُ لَا يَشُدُّهَا وَيُقِيمُهَا إِلَّا الصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ ، وَمَلَكَهَا الصَّبْرُ فُرُوعُهُ وَأَصُولُهُ ، وَجَمَالَهَا الْحَيَاءُ وَالْعِفَّةُ ، وَرَمَزُهَا وَحَارِسُهَا وَالْمُعِينُ عَلَيْهَا هُوَ الْحِجَابُ وَحَدُّهُ . إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَرْأَةِ هَذَا فَلَيْسَتْ الْمَرْأَةُ إِلَّا بِهَذَا .

وَمَا تُخْطِئُ الْمَرْأَةُ فِي شَيْءٍ خَطَايَا فِي مُحَاوَلَةِ تَبْدِيلِ طَبِيعَتِهَا وَجَعْلِهَا إِنْجَابِيَّةً ، وَاتِّحَالِهَا صِفَاتِ الْإِنْجَابِ ، وَتَمَرُّدِهَا عَلَى صِفَاتِ السَّلْبِ ، كَمَا يَقَعُ لِعَهْدِنَا ؛ فَإِنَّ هَذَا لَنْ يَتِمَّ لِلْمَرْأَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَعْتَبِرَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ نَقَائِضَ أَخْلَاقِهَا مِنْ أَخْلَاقِهَا ، كَمَا نَرَى فِي أَوْرُبَةِ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْ أَثَرِ أَوْرُبَةِ ؛ فَمِنْ هَذَا تَلْقَى الْفِتَاءَ حَيَاءً وَتَبْدُؤُ وَتَفْجِشُ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْإِلْقَاطِ وَالْمَعَانِي جَمِيعًا فَبِالْمَعَانِي وَحَدِّهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ وَلَا بِتِلْكَ

فَبِالْفِكْرِ فِي هَذِهِ وَتِلْكَ ؛ وَكَانَتْ الْأَسْتِجَابَةُ لِهَذَا مَا فَشَا مِنَ الرِّوَايَاتِ السَّاقِطَةِ ،
وَالْمَجَلَّاتِ الْعَارِيَةِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ وَهَذِهِ لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ عِلْمُ الْفِكْرِ السَّاقِطِ .

وَعَادَتِ الْفَنَاءُ مِنْ ذَلِكَ لَا تَبْتَعِي إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَمْرًا رَوَايَةً : إِمَّا فَوْقَ الْحَيَاةِ ، وَإِمَّا فِي
حَقَائِقِ جَمِيلَةٍ تَخْتَارُهَا اخْتِيَارًا وَتَفْرِضُهَا فَرْضًا عَلَى الْقَدَرِ ! وَتَنْسَى الْحَمَقَاءُ أَنَّهَا أَحَدُ
الطَّرَفَيْنِ ، وَلَيْسَتْ الطَّرَفَيْنِ جَمِيعًا ؛ فَتَحَاوِلُ أَنْ تُقَرَّرَ لِلْحَيَاةِ الْحَدِيدَةِ تَأْوِيلًا جَدِيدًا لِمَعَانِي
الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ وَالسَّبِّ وَمَا إِلَيْهَا ؛ فَانْسَلَخَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ لَمَّا أَعْجَزَهَا
أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ غَرِيزَةِ الْأَنْوَةِ طَاشَتْ طَيْشَهَا الْأَخِيرَ ، فَانْسَلَخَتْ مِنْ إِنْسَانِيَةِ الْغَرِيزَةِ .

* * *

أَمَّا إِنْ غَلَطَ الرَّجُلُ فِي الْمَرْأَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ غَلَطَةِ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهَا . وَهِيَ قَدْ
أُعْطِيَتْ فِي طَبِيعَتِهَا كُلِّ مَعَانِي حِجَابِهَا ؛ فَاِحْسَاسُهَا مُخْتَجِبٌ مُخْتَبِئٌ أَبَدًا كَأَنَّهُ فِي إِنْثٍ^(١)
وَمُلَاءَةٍ وَبُرْفٍ ، وَأَفْكَارُهَا طَوِيلَةُ الْمُلَامَزَةِ لَهَا لَا تَكَادُ تَتْرُكُهَا ، كَأَنَّهَا مِنْهَا فِي بَيْتٍ ؛
وَطَبِيعَةُ الْحَذَرِ لَا تَبْرَحُهَا كَأَنَّهَا الْحَارِسُ الثَّابِتُ فِي مَوْضِعِهِ ، الْقَائِمُ بِسِلَاحِهِ عَلَى حِفْظِ
هَذَا الْجِسْمِ الْجَمِيلِ ؛ وَطَوَّلُ التَّأَمُّلِ مُوَكَّلٌ بِهَا كَأَنَّ عَمَلَهُ مُصَاحَبَةٌ وَخَدِيعَتُهَا لِنَحْفِيفِهَا عَلَى
نَفْسِهَا وَالتَّزْفِينِ مِنْهَا ؛ وَالْدُنْيَا حَوْلَ الْمَرْأَةِ بِمَذَاهِبِ أَقْدَارِهَا ، وَلَكِنْ لَهَا دُنْيَا فِي دَاخِلِهَا هِيَ
قَلْبُهَا تَذْهَبُ الْأَقْدَارُ فِيهِ مَذَاهِبُ أُخْرَى ؛ وَضَغْطَةُ الْحَيَاةِ طَبِيعِيَّةٌ فِيهَا ، حَتَّى لَا يُسَاوِرَهَا هَمٌّ
مِنَ الْهَمُومِ إِلَّا صَارَ كَأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهَا . وَالَّتِي تُمَرِّقُهَا الْحَيَاةُ كُلَّمَا وَلَدَتْ لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ إِلَّا
رَحِيمَةً بِهَا إِذَا ضَغَطَتْهَا !

فَخُرُوجُ الْمَرْأَةِ مِنْ حِجَابِهَا خُرُوجٌ مِنْ صِفَاتِهَا ، فَهُوَ إِضْعَافٌ لَهَا ، وَتَضْرِيَةُ لِلرِّجَالِ
بِهَا . وَمَاذَا تُجِدُنِي عَادَةُ الْحَذَرِ إِذَا أَفْسَدَتْهَا عَادَةُ الْأَسْتِزْسَالِ وَالْإِنْدِفَاعِ ؟ فَيَكُونُ حَذَرًا
لِيَكُونَ إِغْفَالًا ، ثُمَّ يَكُونُ إِغْفَالًا لِيَعُودَ الزَّلَّةُ وَالْغَلْطَةُ ؛ وَمَتَى رَجَعَ غَلْطَةُ فَهَذَا أَوَّلُ
السَّقُوطِ ، وَمَبْدَأُ الْإِنْقِلَابِ وَالتَّحَوُّلِ . وَلَيْسَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَمْرَةٍ نَفُورٍ مِنَ الرِّيْبَةِ ، شَمُوسٍ
لَا تَطْلُعُ الرِّجَالُ وَلَا تُطْمِعُهُمْ ؛ وَبَيْنَ أَمْرَةٍ قَرُورٍ عَلَى الرِّيْبَةِ ، هَلُوكٍ فَاجِرَةٍ - { لَيْسَ

(١) الْإِنْثُ ، هُوَ : بُرْدَةٌ تُسْقُ قُلُبُسٌ مِنْ غَيْرِ كَمِينٍ ، وَتُسَمَّى الرِّيْفِيَّاتُ الْمَلْسُ .

الْفَرْقُ { إِلَّا حِجَابَ الْحَدَرِ أُسْدِلَ عَلَى وَاحِدَةٍ ، وَانْكَشَفَ عَنْ أُخْرَى .

وَإِذَا قَرَّتِ الْمَرْأَةُ فِي فَضَائِلِهَا ، فَإِنَّمَا هِيَ فِي حِجَابِهَا وَدِينِهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْحِجَابُ ضَاطِطُ حُرَّتِهَا الصَّحِيحَةِ ، بِاعْتِنَارِهَا أَمْرًا غَيْرَ الرَّجُلِ ؛ فَهُوَ مُسَمًّى بِالْحِجَابِ لِاتِّصَالِهِ بِالْحُرِّيَّةِ وَضَبْطِهِ لَهَا ، وَلَكِنَّ الضُّعَفَاءَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ ظَاهِرًا مِنَ الرَّأْيِ لَا يُذَرِّكُونَ مَذْمَبَهُ ، وَلَا يُحَقِّقُونَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَيَتَفَدَّوْنَ فِي حُكْمِهِمْ عَلَى الظَّاهِرِ لَا عَلَى الْبَصِيرَةِ - هَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْحِجَابِ إِلَّا فِي الْقُمَاشِ وَالْكِسَاءِ وَالْأَبْنِيَةِ ، كَأَنَّ حِجَابَ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيعَةُ شَيْءٌ يَصْنَعُهُ الْحَائِكُ وَالْبَانِي وَالْمُسْتَعْبِدُ ، وَلَا تَصْنَعُهُ الشَّرِيعَةُ وَالْأَدَبُ وَالْحَيَاةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ؛ فَهُمْ كَمَا تَرَى حِينَ يَأْتُونَ بِنُصْفِ الْعِلْمِ ، يَأْتُونَ بِنُصْفِ الْجَهْلِ .

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْمَرْأَةَ قُوَّةَ عَقْلِ فَتَكُونَ قُوَّةَ إِيْجَابٍ ، وَلَكِنَّهُ أَبْدَعَهَا قُوَّةَ عَاطِفَةٍ لِتَكُونَ قُوَّةَ سَلْبٍ ؛ فَهِيَ بِخَصَائِصِهَا وَالرَّجُلُ بِخَصَائِصِهِ ؛ وَالسَّلْبُ بِطَبِيعَتِهِ مُتَحَجِّبٌ صَابِرٌ هَادِيٌّ مُنْتَظَرٌ ، وَلَكِنَّهُ بِذَلِكَ قَانُونٌ طَبِيعِيٌّ تَتِمُّ بِهِ الطَّبِيعَةُ .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ قُوَّةَ لِيَصِفَاتِ الْمَرْأَةِ لَا ضَعْفًا ، وَزِيَادَةً لَا نَقْصًا ؛ فَمَا يَخْتَاجُ الْعَالَمُ إِذَا خَرَجَ صَوْتُهَا فِي مَسْأَلَةٍ أَنْ يَكُونَ كَصَوْتِ الرَّجُلِ صَنِيعَةً فِي مَعْرَكَةٍ ، بَلْ تَخْتَاجُ هَذِهِ الْمَسْأَلُ صَوْتًا رَقِيقًا مُؤَثِّرًا مُحِبُّوبًا مُجْمَعًا عَلَى طَاعَتِهِ ، كَصَوْتِ الْأُمِّ فِي بَيْتِهَا .

* * *

أَتَيْتُهَا الْفَتَاةُ ! إِنَّ صِدْقَ الْحَيَاةِ تَحْتَ مَظَاهِرِهَا لَا فِي مَظَاهِرِهَا الَّتِي تَكْذِبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ؛ فَسَاعِدِي الطَّبِيعَةَ وَأَحْجِبِي أَخْلَاقَكَ عَنِ الرَّجُلِ ، لِتَعْمَلَ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ فِيهِ بِقُوَّتَيْنِ دَافِعَتَيْنِ : مِنْهَا وَمِنْكَ ، فَيَسْرِعُ انْقِلَابُهُ إِلَيْكَ وَبَخْثُهُ عَنْكَ ؛ وَقَدْ يَجِدُ الْفَاسِقُ فَاسِقَاتٍ وَبَغَايَا ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الصَّحِيحَ الرَّجُولَةَ لَنْ يَجِدَ غَيْرَكَ .

وَإِنَّمَا سُفُورُكَ وَسُفُورُ أَخْلَاقِكَ إِفْسَادٌ لِتَذْبِيرِ الطَّبِيعَةِ ، وَتَمَكِّنُ لِلرَّجُلِ نَفْسَهُ أَنْ يُزَجِفَ بِكَ الظَّنَّ ، وَيُسَيِّئَ فِيكَ الرَّأْيَ ؛ وَعِقَابُكَ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْكَسَادِ وَالْبُورِ ؛ عِقَابُ الطَّبِيعَةِ لِمُسْتَقْبَلِكَ بِالْحِزْمَانِ ، وَعِقَابُ أَفْكَارِكَ لِنَفْسِكَ بِالْأَلَمِ !

س ١٠ ع (*) (١)

هَؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ تَجْمَعُهُمْ صِفَةُ الْعَزُوبَةِ ، وَيُحِبُّونَ الْمَرْأَةَ حُبًّا خَائِفًا يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ؛ فَلَا يُقْبَلُ إِلَّا أَدْبَرٌ ، وَلَا يَغْزَمُ إِلَّا أَنْحَلَّ عَزْمُهُ . بَلَّغُوا الرُّجُولَةَ وَكَأَن لَيْسَتْ فِيهِمْ ؛ وَتَمُرُّ بِهِمُ الْحَيَاةُ مُرُورَهَا بِالتَّمَائِيلِ الْمَنْصُوبَةِ ، لَا هَلْهَذَا قَدْ وُلِدَ لَهَا وَلَا أُولَئِكَ ؛ وَمَا بَرِحُوا يُجَاهِدُونَ لِيَخْتِمَلُوا مَعَانِي وَجُودِهِمْ ، لَا لِيَطْلُبُوا سَعَادَةَ وَجُودِهِمْ ، وَيُمَخِّرُقُونَ فِي شَعْوَذَةِ الْحَيَاةِ بِالنَّهَارِ عَلَى اللَّيْلِ ، وَبِاللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ ؛ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَجِدُوا كَالنَّاسِ أَيَّامًا وَلَيَالِي ، إِذْ لَا يَعْرِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَزُوبَةِ إِلَّا نَهَارًا وَاحِدًا ، نِصْفُهُ أَسْوَدُ مُفْقِرٌ مُظْلِمٌ . . . !

فَأَمَّا « س » فَرَجُلٌ « كَشِيخِ الْمَسْجِدِ » يَكَادُ يَرَى حَصِيرَ الْمَسْجِدِ حَيْثُ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ مِنَ الْأَرْضِ . . . دُورِ دِينٍ وَتَقْوَى ، مَا يَزَالُ بِهِمَا يَنْفَيْضُ وَيَنْكَمِشُ وَيَتَزَايَلُ حَتَّى يَرْجِعَ طِفْلًا فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ . . . وَهُوَ حَائِثٌ بَائِثٌ لَا يَتَّجِعُ لَشَيْءٍ مِنَ أَمْرِ الْمَرْأَةِ ، وَقَدْ فَقَدَ مِنْهَا مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَلَا جُرْأَةَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ ، فَلَا جُرْأَةَ لَهُ عَلَى الْمُؤَبَقَاتِ ، وَلَا يُزَيِّنُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَرِطَةَ مِنْهَا إِلَّا أَمْلَسَ مِنْهُ ، فَإِنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ مَفْتُوحَةٍ لِلْهَرَبِ : إِذْ يَخْشَى اللَّهَ ، وَيَتَوَقَّى عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَسْتَحْيِي مِنْ ضَمِيرِهِ .

وَأَمَّا « أ » فَرَجُلٌ مِغْرَابَةٌ ، وَلَكِنَّهُ كَالْإِسْفَنْجَةِ ، أَمْتَلَأَتْ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا خَلَاءٌ لِقَطْرَةٍ ، ثُمَّ عَصِرَتْ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا بَلَالٌ مِنْ قَطْرَةٍ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مَا فِي نَفْسِهِ وَقَضَى نَهْمَتَهُ حَتَّى أَشْفَى مِمَّا أَرَادَ ؛ ثُمَّ قَلَبَ الْكُؤُوبَ . . . فَإِذَا لَهُ دَاخِلَةٌ نَاعِمَةٌ مِنَ الْخَزْ وَالْدِّيَنَاجِ ، وَإِذَا هُوَ « الرَّجُلُ الصَّالِحُ » الْعَفِيفُ الدَّخْلَةُ ، مَا تَنْطَلِقُ لَهُ نَفْسٌ إِلَى مَأْتَمٍ ، وَلَا يَعْرِفُ الشَّيْطَانُ كَيْفَ يَتَسَبَّبُ لِصُلْحِهِ وَمَرَاجَعَتِهِ الْوَدَّ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ٦٣ ، ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٧ سبتمبر / أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٢٣ - ١٥٢٦ .

(١) هُمْ الْأَصْدِقَاءُ : سَعِيدُ [الْعُرَبَانِ] ، وَأَمِينُ [حَافِظِ شَرَفِ] ، وَ[عَبْدُ اللَّهِ] عَمَّارُ .

وَأَمَّا « ع » فَهُوَ كَالْأَعْرَجِ ؛ إِذَا مَشَى إِلَى الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ مَشَى بِطِينَتَا بَرَجَلٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَكِنَّهُ يَمْشِي ... وَهُوَ « مَلِكُ الشَّوَارِعِ » لَا يَزَالُ فِيهَا مُقْبِلًا مُدْبِرًا طَرَفًا مِنَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّارِعِ نِسَاءٌ ظَنَّ الشَّارِعَ قَدْ هَرَبَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ ... وَلِهَذَا الشَّوَارِعُ أَسْمَاءٌ عِنْدَهُ غَيْرُ أَسْمَائِهَا الَّتِي يَتَعَارَفُهَا النَّاسُ وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا . فَقَدْ يَكُونُ اسْمُ الشَّارِعِ مَثَلًا : « شَارِعُ طَهَ الْحَكِيمِ » ^(١) وَيُسَمِّيهِ هُوَ « شَارِعُ مَارِي » ... وَيَكُونُ اسْمُ الْآخَرِ : « شَارِعُ كِتَشَنَرِ Kitchener » فَيُسَمِّيهِ « شَارِعُ الطَّوِيلَةِ » ... وَدَرَبُ اسْمُهُ « دَرَبُ الْمَلَّاحِ » وَاسْمُهُ عِنْدَهُ « دَرَبُ الْمَلِيحَةِ » ... وَهَلُمَّ جَرًّا وَمَسْحًا .

وَإِذَا أَرَادَ صَاحِبُنَا هَذَا أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الشَّيْطَانِ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ، وَإِذَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهُ دَخَرَجَهُ فِي الشَّوَارِعِ ... !

* * *

وَأَفَيْتُ هَذُلَاءِ الثَّلَاثَةَ مُجْتَمِعِينَ يَتَدَارَسُونَ مَقَالَهَ : « تَرْبِيَّةُ لَوْلُؤِيَّةِ » ^(٢) ، يُنَاقِشُونَهَا بِثَلَاثَةِ عُقُولٍ ، وَيُفَتِّشُونَهَا بِسِتِّ عُيُونٍ ؛ فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ السَّافِرَةَ الَّتِي نَبَذَتْ « حِجَابَ طَبِيعَتِهَا » عَلَى مَا بَيَّنَّهُ فِي تِلْكَ الْمَقَالَةِ - إِنَّ هِيَ إِلَّا أَمْرًا مَجْهُولَةً عِنْدَ طَالِبِي الزَّوْاجِ ، يَقْدِرُ مَا بِالْعَتِّ أَنْ تَكُونَ مَعْرُوفَةً ، وَأَنَّهَا ابْتَعَدَتْ مِنْ حَقِيقَتِهَا الصَّحِيحَةِ ، قَدَّرَ مَا أَفْتَرَبَتْ مِنْ خَيَالِهَا الْفَاسِدِ ، وَانْقَنَتِ الْغَلَطَ لِيُصَدِّقَهَا فِيهِ الرَّجُلُ ، فَلَمْ يَكْذِبْهَا فِيهِ إِلَّا الرَّجُلُ ؛ وَجَعَلَتْ أَحْسَنَ مَعَانِيهَا مَا ظَهَرَتْ بِهِ فَارِغَةً مِنْ أَحْسَنِ مَعَانِيهَا ... !

وَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ تَنْتَصِفُ الطَّبِيعَةُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَرَبِ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي أَهْمَلَهَا أَوْ تَرَكَهَا مُهْمَلَةً ... وَأَيْنَ تَبْلُغُ ضَرْبَاتُهَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ أَثَرُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْمَرْأَةُ فِي خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ ؛ فَسَرَّخْتُ مَعَ أَصْحَابِنَا فِي الْكَلَامِ فَنَّا بَعْدَ فَنٍّ ، وَأَزَلْتُ حِذَارَهُمُ الَّذِي يَحْذَرُونَ ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَيَّ بِفَلَسَفَةِ عُقُولِهِمْ وَصُدُورِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي .

قَالَ « س » : حَسْبِي وَاللَّهِ مِنَ الْآلَامِ وَالْآلَامِ مَعَهَا - شُعُورِي بِحَرَمَانِي الْمَرْأَةِ ؛ فَهُوَ بَلَاءٌ

(١) فِي الْأَصْلِ : « شَارِعُ عَلِيِّ الْحَكِيمِ » بَدَلًا مِنْ : « شَارِعُ طَهَ الْحَكِيمِ » .

(٢) وَهِيَ الْمَقَالَةُ السَّابِقَةُ لِهَذِهِ ، رَاجِعِ الصَّفَحَاتِ : ٢٠١ - ٢٠٨ .

مَنْعَنِي الْقَرَارَ ، وَسَلَبَنِي السَّكِينَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ شُعُورٌ بِمِثْلِ الْوَحْدَةِ الَّتِي يُعَاقَبُ السَّجِينُ بِهَا مَضْرُوفًا عَنِ الْحَيَاةِ مَضْرُوفَةً عَنْهُ الْحَيَاةُ ؛ تَجْعَلُهُ جُذْرَانُ سِجْنِهِ يَتَمَتَّى لَوْ كَانَ حَجَرًا فِيهَا فَيَنْجُو مِنْ عَذَابِ إِنْسَانِيَّتِهِ الدَّلِيلَةِ الْمُجْرِمَةِ ، الْمُخَلَّى بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ تَوْسِعُهُ مِمَّا يَكْرَهُ ؛ شُعُورٌ بِالْوَحْدَةِ وَالْعُزْلَةِ حَتَّى مَعَ النَّاسِ وَبَيْنَ الْأَهْلِ فَمَا فِيَّ إِلَّا عَوَاطِفُ خُرُسٍ لَا تَسْتَجِيبُ لِأَحَدٍ وَلَا يُجَاوِبُهَا أَحَدٌ فِي « ذَلِكَ الْمَعْنَى » .

وَتَمَامُ الدَّلَّةِ أَنْ يَجِدَ الْعَزَبَ نَفْسَهُ أَبَدًا مُكْرَمًا عَلَى الْحَدِيثِ عَنِ آلِمِهِ لِكُلِّ^(١) مَنْ يُخَالِطُهُ أَوْ يَجْلِسُ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يُحْمِلُ مُصِيبَةً لَا يُنْقِصُ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُهُ عَنْهَا . وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ عَزَبًا إِلَّا عَرَفْتَهُ ثَرَاتَرًا لَا تَرَاهُ فِي لِسَانِهِ مَقَالَةً عَنْ مَعْنَى أَوْ رَجُلٍ أَوْ أَمْرَأَةٍ ، وَأَصْبَتْهُ كَالذَّبَابِ لَا يَطِيرُ عَنْ مَوْضِعٍ إِلَّا لِيَقَعَ عَلَى مَوْضِعٍ .

وَمَعَ جَهْدِ الْحِرْمَانِ جَهْدٌ شَرٌّ مِنْهُ فِي الْمَقَاوِمَةِ وَكَفَّ النَّفْسَ ؛ فَذَلِكَ تَعَبٌ يَهْلِكُ بِهِ الْأَدَمِيُّ ، إِذْ لَا يَدَعُهُ يَتَقَارَّ عَلَى حَالِهِ مِنَ الضَّجْرِ فِيمَا تَنَارَعُهُ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَالْمَرْعِ فِي أَغْصَابِهِ ، يُحْسِنُهَا تُشَدُّ لِتُقَطَعَ ، وَدَائِمًا تُشَدُّ لِتُقَطَعَ .

وَقَدْ رَهَقَنِي مِنْ ذَلِكَ الضَّغْنِ النَّسَوِيُّ مَا عَيْلَ بِهِ صَبْرِي وَضَعْفَ لَهُ أَحْتِمَالِي ؛ فَمَا أَرَانِي يَوْمًا عَلَى جِمَامٍ مِنَ النَّفْسِ ، وَلَا أَرْتِيحُ مِنَ الطَّبِيعِ ؛ وَكَيْفَ وَفِي الْقَلْبِ مَادَّةُ هَمٍّ ، وَفِي النَّفْسِ عِلَّةُ انْقِبَاضِهَا ، وَفِي الْفِكْرِ أَسْبَابُ مَشْغَلَتِهِ ؟ وَقَدْ أَوْفَدَتْ سُورَةُ الشُّبَابِ نَارَهَا عَلَى الدَّمِّ ، تَلْتَعُجُ فِي الْأَحْشَاءِ ؛ وَتَطِيرُ فِي الرَّأْسِ ، وَتَضْبَعُ الدُّنْيَا بِلَوْنِ دُخَانِهَا ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَخَلَّفُ مِنْهَا رَمَادٌ هُوَ هَذَا السَّوَادُ الَّذِي رَانَ عَلَى قَلْبِي .

وَمَا حَالَ رَجُلٍ عَذَابُهُ أَنَّهُ رَجُلٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَجُلٌ ؟ يَلْبَسُ ثِيَابَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى مِثْلِ الْوَحْشِ فِي سَلَاسِلِهِ وَأَغْلَالِهِ ، وَيَحْمِلُ عَقْلًا تَسْبُهُ الْغَرِيزَةُ كُلُّ يَوْمٍ ، وَتَرَاهُ مِنَ الْعُقُولِ الرُّيُوفِ لَا أَثَرَ لِلْفَضِيلَةِ فِيهِ ، إِذْ هُوَ مَجْنُونُ الْمَرْأَةِ جُنُونِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ ، فَمَا يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ إِلَّا أَخَذَتْهُ الْغَرِيزَةُ مُجْتَرِحًا جَرِيمَةً فِكْرٍ . . .

وَفِي دُونِ هَذَا يُتَكَرَّرُ الْمَرْءُ عَقْلُهُ ؛ وَأَيُّ عَقْلٍ تَرَاهُ فِي رَجُلٍ عَزَبَ يَقَعُ فِي خَيَالِهِ أَنَّهُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَكُلُّ » ، بَدَلًا مِنْ : « لِكُلِّ » .

مُتَرَوِّجٌ ، وَأَنَّهُ يَأْوِي إِلَى «فَلَانَةٍ» ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى إِصْلَاحِ شَأْنِهِ وَنِظَامِ بَيْتِهِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا كَانَ عَزُوفًا عَنِ الْفَحْشَاءِ ، بَعِيدًا عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وَفَاءً لَهَا ، وَحِفْظًا لِعَهْدِ اللَّهِ فِيهَا ، وَقَدْ دَلَّهَتْ بِفُتُونِهَا الَّتِي يَبْدِعُهَا فِكْرُهُ ؛ وَهِيَ سَاعَةٌ تَوَاكَلُهُ عَلَى الْخَوَانِ ، وَسَاعَةٌ تُضَاحِكُهُ ، وَمَرَّةٌ تُعَابِثُهُ ، وَتَارَةً تُجَافِيهِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ هُوَ نَاعِمٌ بِهَا ، يُحَدِّثُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَسْمُرُ مَعَهَا ، وَيَتَصَنَّعُ لَهَا وَتَتَصَنَّعُ لَهُ ؛ وَتُعَابِثُهَا أَخْيَانًا فِي رِقَّةٍ ، وَأَخْيَانًا فِي جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ ؛ وَقَدْ ضَرَبَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ . . . ؟

أَلَا إِنَّ { فِكْرَةَ } الْمَرْأَةِ عِنْدِي هِيَ هَذَا الْجُزْءُ الَّذِي يَرْجِعُ بَيْنَ إِلَى عَشْرَةِ آلَافِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ الدُّنْيَا ، فَيَزِمِي بَيْنَ كَهْفٍ أَوْ غَايَةٍ ، { فَأَرَانِي مِنْ وَرَاءِ الدُّهُورِ كَأَنِّي أَبْدَأُ الْحَيَاةَ مُنْفَرِدًا ، وَأَجِدُنِي } رَجُلًا عَارِيًا مُتَوَحِّشًا مُتَأَبِّدًا لَيْسَ مِنَ الْحَيَوَانِ وَلَا مِنَ الْإِنْسِ ، دُنْيَاهُ أَحْجَارٌ وَأَشْجَارٌ ، وَهُوَ حَجَرٌ لَهُ نُمُو الشَّجَرِ .

لَقَدْ تَوَرَّعَتِ الْمَرْأَةُ عَقْلِي فَهُوَ مُتَفَرِّقٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِ ، لَا أَسْتَطِيعُ وَاللَّهِ أَنْ أَنْصَوْرَهَا كَامِلَةً ، بَلْ هِيَ فِي خِيَالِي أَجْزَاءٌ لَا يَجْمَعُهَا كُلُّ ؛ هِيَ أَيْتِسَامَةٌ ، هِيَ نَظْرَةٌ ، هِيَ صِحْكَةٌ ، هِيَ أَغْنِيَةٌ ، هِيَ جِسْمٌ ، هِيَ شَيْءٌ ، هِيَ هِيَ هِيَ .

أَكُلُ تِلْكَ الْمَعَانِي هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ ، أَمْ أَنَا لِي أَمْرَةٌ وَحِدِي ؟

وَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ لَا تَخَوُّفَ الزَّوْاجِ وَأَتَحَامَاهُ ؛ إِذْ أَرَى الشَّارِعَ قَدْ فَضَحَ النِّسَاءَ وَكَشَفَهُنَّ ؛ فَمَا يُرِينِي مِنْهُنَّ إِلَّا أَمْرَةٌ تَزْهَى بِشَبَابِهَا وَصَنَعَةِ جَمَالِهَا ، أَوْ أَمْرَةٌ كَالْهَارِيَةِ مِنْ فَضَائِلِهَا ؛ وَالْبَيْتُ إِنَّمَا يَطْلُبُ الزَّوْجَةَ الْفَاضِلَةَ الصَّنَاعَ ، تَخِيْطُ ثَوْبَهَا بِبِدَاهِ فِتْنَاهِ بِصُنْعَتِهِ قَبْلَ أَنْ تُبَاهِيَ بِلُبْسِهِ ، وَتَزْهَى بِأَثَرِ وَجْهِهَا فِي ، لَا بِأَثَرِ الْمَسَاحِيثِ فِي وَجْهِهَا . وَإِنَّ مُكَابَدَةَ الْعَيْفَةِ ، وَمُصَارَعَةَ الشَّيْطَانِ ، وَتَوْهِيْجَ الْقَلْبِ بِنَارِهِ الْحَامِيَةِ ، وَالْمَامَ الطَّيْرَةَ الْجُنُونِيَّةَ بِالْعَقْلِ - كُلُّ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ أَمُورٌ مِنْ مُكَابَدَةِ زَوْجَةِ فَاسِدَةِ الْعِلْمِ أَوْ فَاسِدَةِ الْجَهْلِ ، أُبْتَلَى مِنْهَا فِي صَدِيقِ الْعُمَرِ بَعْدَ الْعُمَرِ .

إِنَّ أَثَرَ الشَّارِعِ فِي الْمَرْأَةِ هُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِهَا ، فَهِيَ تَحْسَبُ نَفْسَهَا مُغْلَبَةً فِيهِ أَثَرِ نَفْسِهَا ، وَجَمَالَهَا ، وَزِينَتِهَا ؛ وَنَحْنُ نَرَاهَا مُغْلَبَةً فِيهِ سُوءُ آدَبٍ ، وَفَسَادُ خُلُقٍ ، وَانْحِطَاطُ عَرِيزَةٍ . وَمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَسَاءَ الظَّنِّ بِكُلِّ الْفَتَيَاتِ ، وَجَدَ السَّبِيلَ مِنْ وَاحِدَةٍ إِلَى قَوْلٍ يَقُولُهُ فِي كُلِّ

وَاحِدَةٍ^(١) ؛ وَمَنْ كَانَ عَفِيفًا سَمِعَ مِنَ الْفَاسِقِ فَوَجَدَ مِنْ ذَلِكَ مُتَعَلِّقًا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَقِيَاسًا يَقِيسُ عَلَيْهِ ؛ وَالْمِثْنَةُ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا خَاصَّةً ، { بَلْ تَعْمُ } .
أَهْ لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَوْقِظَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَحْلَامِي ... !

* * *

وَقَالَ « ١ » : لَقَدْ كَانَتْ مَعَانِي الْمَرْأَةِ فِي ذِهْنِي صُورًا بَدِيعَةً مِنَ الشَّعْرِ تَسْتَخِفُّنِي إِلَيْهَا الْعَاطِفَةُ ، وَلَا يَزَالُ مِنْهَا فِي قَلْبِي لِكُلِّ يَوْمٍ نَازِيَةٌ تَتَرَوُ . وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ حَدِيثَ أَحْلَامِي وَنَجِيٍّ وَسَاوِسِي ، وَكُنْتُ عَفِيفَ الْبُنْطُلُونِ^(٢) ؛ وَلَكِنَّ النِّسَاءَ أَتَقَطَّنِي مِنَ الْحُلُمِ ، وَفَجَعَلْنِي فِيهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَوَضَعْنَ يَدَيَّ عَلَى مَا تَحْتَ مَلْمَسِ الْحَيَّةِ . وَلَوْ حَدَّثْتُكَ بِجُمْلَةِ أَخْبَارِهِنَّ ، وَمَا مَارَسْتُ مِنْهُنَّ لِنَكَرَهَتْ وَتَسَخَّطَتْ ، وَلَا يَقْنَتُ أَنْ كَلِمَةً (تَجْرِيرِ الْمَرْأَةِ) إِنَّمَا كَانَتْ خَطَأً مُطْبَعِيًّا ، وَصَوَابُهَا : (تَجْرِيرُ الْمَرْأَةِ) ... فَهَلْوَ لَاءِ النِّسَاءِ أَوْ كَثُرَتْهُنَّ - لَمْ يَذَلَّنَ الْحِجَابُ إِلَّا لِتَخْرُجَ وَاحِدَةً مِمَّا تَجْهَلُ إِلَى مَا تَرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ ، وَتَخْرُجَ الْأُخْرَى مِمَّا تَعْرِفُ إِلَى أَكْثَرِ مِمَّا تَعْرِفُ ، وَتَخْرُجَ بَعْضُهُنَّ مِنْ إِنْسَانَةٍ إِلَى بَهِيمَةٍ ...

لَقَدْ عَرَفْتُ فَيَمَنْ عَرَفْتُ مِنْهُنَّ الْخَفِيفَةَ الطَّيَّاشَةَ ، وَالْحَمَقَاءَ الْمُسَاقِطَةَ ، وَالْفَاحِشَةَ ذَاتَ الرِّيْبَةِ ؛ وَكُلُّ أَوْلَيْكَ كَانَ تَجْرِيرُهُنَّ ، أَيْ : تَجْرِيرُهُنَّ - تَقْلِيدًا لِلْمَرْأَةِ الْأَوْرِيْبَةِ ؛ تَهَالُكُنَّ عَلَى رَدَائِلِهَا دُونَ فَضَائِلِهَا ، وَاشْتَدَّ حِرْصُهُنَّ عَلَى خَيَالِهَا الرُّوَائِي دُونَ حَقِيقَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ ، وَمِنْ مَصَائِبِنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ أَنَّنَا لَا نَأْخُذُ الرَّدَائِلَ كَمَا هِيَ ، بَلْ نَزِيدُ عَلَيْهَا ضَعْفَنَا فَإِذَا هِيَ رَدَائِلُ مُضَاعَفَةٍ .

كَانَ الْحُلُمُ الْجَمِيلُ فِي الْحِجَابِ وَحْدَهُ ، وَهُوَ كَانَ يُسَعِّرُ أَنْفَاسِي وَيَسْتَطِيرُ قَلْبِي ، وَيُرْغِمُنِي مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْأَعْتِقَادِ أَنَّ هَلْهَنَّا عَلَامَةَ التَّكْرُمِ ، وَرَمَزَ الْأَدَبِ ، وَشَارَةَ الْعِلْمَةِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِي الْأُخْرَى » بَدَلًا مِنْ : « فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ » .

(٢) يَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْكِتَابَةِ عَنِ الْعِقَّةِ : وَهُوَ عَفِيفُ الْإِرَارِ ، وَتَرَجَمْتُهَا فِي عَصْرِنَا مَا رَأَيْتُ .

[والبنطلون من الفرنسية Pantalon ، يُعَرَّبُ عادة : بنطال ، سزوال . وهو في الأصل من الملابس الداخلية ، والذي يحد الظهور بها أمام الملاء من الخلاعة التي هي من معاني اسمه ؛ لكنه في عصرنا هو من الملابس الرسمية ، به يظهر معظم البشر على الملاء !] .

وَأَنَّ هَذِهِ الْمُحَصَّنَةُ الْمُخَدَّرَةُ - عَذْرَاءٌ أَوْ امْرَأَةٌ - لَمْ تُلْقِ الْحِجَابَ عَلَيْهَا إِلَّا إِذْنَانَا بِأَنَّهُمَا فِي قَانُونِ عَاطِقَةِ الْأُمُومَةِ لَا غَيْرَهَا ؛ فَهِيَ تَحْتَ الْحِجَابِ لِأَنَّهُ رَمَزُ الْأَمَانَةِ لِمُسْتَقْبَلِهَا ، وَرَمَزُ الْفَضْلِ بَيْنَ مَا يَخْسُنُ وَمَا لَا يَخْسُنُ ، وَلِأَنَّ وَرَاءَهُ صَفَاءَ رُوحِهَا الَّذِي تَخْشَى أَنْ يُكَدَّرَ ، وَثَبَاتُ كَيَانِهَا الَّذِي تَخْشَى أَنْ يُزْعَجَ .

قَالَ حَكِيمٌ لِأَوْلَدِهِ الَّذِينَ يَسْتَمِيلُونَ النِّسَاءَ بِأَنْوَاعِ الْحُلِيِّ وَصُنُوفِ الزَّيْنَةِ وَالْكُسُوفِ الْحَسَنَةِ : « يَا هَؤُلَاءِ ! إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَعْلَمُونَهُنَّ مَحَبَّةَ الْأَغْنِيَاءِ لَا مَحَبَّةَ الْأَزْوَاجِ » ، وَأَحْكَمُ مِنْ هَذَا قَوْلُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْإِلَهِيِّ الصَّارِمِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : « أَضْرِبُوهُنَّ بِالْعُرْيِ » فَقَدْ عُرِفَ مِنَ أَلْفِ وَثَلَاثَ مِثَّةٍ سَنَةً أَنَّ تَخْرِيرَ الْمَرْأَةِ هُوَ تَجْرِيضُهَا ، وَأَنَّهَا لَا تَخْرُجُ لِمَصْلَحَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَخْرُجُ لِإِظْهَارِ زِينَتِهَا . فَلَوْ مُنِعَتِ الثِّيَابَ الْجَمِيلَةَ حَسَنَتُهَا طَبِيعَتُهَا فِي بَيْتِهَا . فَمَاذَا تَقُولُ السَّوَارِعُ لَوْ نَطَقَتْ ؟ إِنَّهَا تَقُولُ : يَا هَؤُلَاءِ ! إِنَّمَا تَعْلَمُونَهُنَّ مَعْرِفَةَ الْكَثِيرِ لَا مَعْرِفَةَ الْوَاحِدِ ... !

لَقَدْ وَاللَّهِ أَنْكَرْتُ أَكْثَرَ مَا قَرَأْتُ وَسَمِعْتُ مِنْ مَحَاسِنِهِنَّ وَفَضَائِلِهِنَّ وَحَيَاثِهِنَّ ، وَلَقَدْ كَانَ الْحِجَابُ مَعْنَى لِبَاسِ الْعُورَةِ وَالْمَرْأَةِ وَاعْتِزَالِهَا ، فَصَارَ الشَّارِعُ مَعْنَى لِسَهْوَلَتِهَا وَرُخْصَتِهَا ؛ وَكَانَ مَعَ تَحْقِيقِ الصُّعُوبَةِ أَوْ تَوْهْمِهَا أَخْلَاقَ وَطِبَاعَ فِي الرَّجُلِ ، فَصَارَ مَعَ تَوْهْمِ السُّهُولَةِ أَوْ تَحْقِيقِهَا أَخْلَاقَ وَطِبَاعَ أُخْرَى عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ ؛ مَا زَالَتْ تَنْمِي وَتَتَحَوَّلُ حَتَّى أَلْجَأَتْ الْقَانُونَ أَخِيرًا أَنْ يَتَرَقَّى بِمَنْ لَمَسَ الْمَرْأَةَ فِي الطَّرِيقِ مِنَ « الْجُنْحَةِ » إِلَى « الْجِنَايَةِ » .

وَتَخَشَّتِ الشَّبَّانُ وَالرِّجَالُ ، ضُرُوبًا مِنَ التَّخَشُّتِ بِهِذَا الْأَخْتِلَاطِ وَهَذَا الْإِبْتِدَالِ ، وَتَحَلَّلَتْ فِيهِمْ طِبَاعُ الْغَيْرَةِ ، فَكَانَ هَذَا سَرِيعًا فِي تَغْيِيرِ نَظَرِنَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ ، وَسَرِيعًا فِي إِفْسَادِ اعْتِقَادِهِمْ ، وَفِي نَقْضِ أَحْزَانِهِمْ ، فَأَقْبَلُوا بِالْجِسْمِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهَا بِالْقَلْبِ ؛ وَأَخَذُوا بِمَعْنَى الْأُنُوثَةِ ، وَتَرَكُوهَا بِمَعْنَى الْأُمُومَةِ ؛ وَمِنْ هَذَا قَلَّ طُلُوبُ الزَّوَاجِ ، وَكَثُرَ رُودُ الْخَنَا .

وَلَقَدْ جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ كَاتِبَةُ إِنْكِلَبِيَّةٍ ، وَأَقَامَتْ شَهْرًا تُخَالِطُ النِّسَاءَ الْمُتَحَجِّجَاتِ وَتَدْرُسُ مَعَايِرَ الْحِجَابِ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَى بِلَادِهَا كَتَبَتْ مَقَالًا عَنْوَانُهُ : « سُؤَالُ أَحْمِلُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْمَرْأَةِ الْغَرِبَةِ » قَالَتْ فِي آخِرِهِ : « إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الَّتِي كَسَبْنَاهَا أَخِيرًا ،

وَهَذَا التَّنَافُسُ الْجِنْسِيُّ ، وَتَجَرِيدُ الْجِنْسَيْنِ مِنَ الْحُبِّ الْمُسَوِّفَةِ الْبَاعِثَةِ الَّتِي أَفَاتَمَهَا الطَّبِيعَةُ بَيْنَهُمَا - إِذَا كَانَ هَذَا سَيُصْبِحُ كُلُّ أَوْرِهِ أَنْ يَتَوَلَّى الرَّجَالُ عَنِ النِّسَاءِ ، وَأَنْ يَزُولَ مِنَ الْقُلُوبِ كُلُّ مَا يُحْرِكُ فِيهَا أَوْتَارَ الْحُبِّ الزَّوْجِيِّ ، فَمَا الَّذِي نَكُونُ قَدْ رَحِمْنَاهُ ؟ لَقَدْ وَاللَّهُ تَضَطَّرَّنَا هَذِهِ الْحَالُ إِلَى تَغْيِيرِ خُطَطِنَا بَلْ قَدْ نَسْتَقِرُّ طَوْعًا وَرَاءَ الْحِجَابِ الشَّرْقِيِّ ، لِنَتَعَلَّمَ مِنْ جَدِيدٍ فَنَ الْحُبِّ الْحَقِيقِيِّ .

* * *

وَقَالَ « ع » : لَسْتُ فَيَلْسُونًا ، وَلَكِنَّ فِي يَدَيَّ حَقَائِقَ مِنْ عِلْمِ الْحَيَاةِ لَا تَأْتِيهِ الْفَلَسَفَةُ بِمِثْلِهَا ، وَكِتَابِي الَّذِي أَقْرَأُ فِيهِ هُوَ الشَّارِعُ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَرَابَ مِنَ الرِّجَالِ يَتَعَلَّمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَهُمْ كَاللُّصُوفِ لَا يَجْتَمِعُ هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ إِلَّا عَلَى رَذِيلَةٍ أَوْ جَرِيمَةٍ . وَحَيَاةُ اللَّصِّ مَعْنَاهَا وَجُودُ السَّرِقَةِ ، وَحَيَاةُ الْعَرَبِ مَعْنَاهَا وَجُودُ الْبِغَاءِ وَالْفِسْقِ .

وَمِنْ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ عَلَى الْجِنْسَيْنِ أَنَّ الْفَاسِقَ يَبَاهِي بِإِظْهَارِ فِسْقِهِ قَدَرُ مَا تَخَافُ الْفَاسِقَةُ مِنْ ظُهُورِ أَمْرِهَا ؛ وَهَذِهِ إِشَارَةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ مَسْكِينَةٌ مَظْلُومَةٌ . فَمَا ابْتَدَأَ الْحِجَابَ ، وَلَا اسْتَهْتَاكَ النِّسَاءُ إِلَّا جَوَابًا عَلَى انْتِشَارِ الْمُزُونَةِ فِي الرِّجَالِ ، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ الْمَاءُ ثَلْجًا لَوْلَا الضَّغْطُ نَارًا فَتَنَازِلًا إِلَى مَا دُونَ الصُّفْرِ ؟ فَهَذَا الثَّلْجُ مَاءٌ يَعْتَدِرُ مِنْ تَحَوُّلِهِ وَأَنْفِلَابِهِ بِعُذْرِ طَبِيعِيٍّ قَاهِرٍ ، لَهُ قُوَّةُ الضَّرُورَةِ الْمُلْجِئَةِ ، وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْمُدَالَّةُ أَوْ الطَّامِحَةُ أَوْ الْمُتَبَدِّلَةُ أَوْ الْمُتَهْتِكَةُ - مَا صِفَاتُهُنَّ إِلَّا تَوْكِيدٌ لِأَعْدَارِهِنَّ .

وَكَانَ عَلَى الْحُكُومَةِ أَنْ تَضْرِبَ الْعُرُوبَةَ ضَرْبَ قَانُونٍ صَارِمٍ ، فَالْعَرَبُ وَإِنْ كَانَ رَجُلًا حُرًّا فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ رُجُولَتَهُ تَفْرِضُ لِلْأُنثَى حَقًّا فِيهِ ؛ فَمَتَى جَحَدَ هَذَا الْحَقِّ ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ ، رَجَعَ حَالُهُ مَعَ الْمَرْأَةِ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْغَرِيمِ مَعَ غَرِيمِهِ ؛ لَيْسَ لِلْفَضْلِ فِيهِ إِلَّا الدَّوْلَةُ وَأَحْكَامُهَا وَقُوَّتُهَا التَّنْفِيدِيَّةُ .

وَإِذَا أُطْلِقَتِ الْحُرِّيَّةُ لِلرِّجَالِ فَصَارُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَعْرَابًا ، فَمَاذَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تُمَحَى الدَّوْلَةُ ، وَتَسْقُطَ الْأُمَّةُ ، وَتَتَلَاشَى الْفَضَائِلُ ؟ فَالْعُرُوبَةُ مِنْ هَذَا جَرِيمَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَرَبَّصَ بِهَا الْحُكُومَةُ حَتَّى تَعُمَّ ، بَلْ يَجِبُ أَعْيَانُهَا بِأَعْيَانِ الْجَرَائِمِ مِنْ حَيْثُ هِيَ ،

وَيَجِبُ تَفْسِيرُ كَلِمَةِ « الْعَرَبِ » فِي اللَّغَةِ بِمِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى : إِنَّهَا شَخْصِيَّةٌ مُذَكَّرَةٌ سَاخِطَةٌ مُتَمَرِّدَةٌ عَلَى حُقُوقِ مُخْتَلِفَةِ الْمَرْأَةِ وَالنَّسْلِ وَالْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ .

وَمَا سَاءَ رَأْيُ الْعَرَبِ فِي النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِمْ بِطَبِيعَةِ حَبَاتِهِمُ الْمُضْطَرِبَةِ لَا يَعْرِفُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا فِي أَسْوَأِ أَحْوَالِهَا وَأَفْبَحِ صِفَاتِهَا ، وَهُمْ وَخَذَهُمْ جَعَلُواهَا كَذَلِكَ .

إِنَّ لَهُمْ وَجُودًا مُخِرْنَا يَسْتَمْتِعُونَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ وَيُهْلِكُونَ بِهِ . هُمْ وَاللَّهُ أَسَاتِذَةُ الدُّرُوسِ السَّافِلَةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَهُمْ وَاللَّهُ بُعَاةٌ مِنَ الرِّجَالِ فِي حُكْمِ الْبَعَايَا مِنَ النِّسَاءِ ، يَجْرُونَ جَمِيعًا مَجْرَى وَاحِدًا . وَمَنْ هِيَ الْبَغْيُ فِي الْأَكْثَرِ إِلَّا أَمْرَةٌ فَاجِرَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا ؟ وَمَنْ هُوَ الْعَرَبُ فِي الْأَكْثَرِ إِلَّا رَجُلٌ فَاسِقٌ لَا زَوْجَةَ لَهُ ؟ عَلَى أَنْ مَعَ الْمَرْأَةِ عُذْرٌ ضَعْفُهَا أَوْ حَاجَتُهَا ، وَلَكِنْ مَا عُذْرُ الرَّجُلِ ؟

مَاذَا تُفِيدُ الدَّوْلَةُ أَوْ الْأُمَّةُ مِنْ هَذَا الْعَرَبِ الَّذِي اعْتَادَ فَوْضَى الْحَيَاةِ ، وَسَيَّرَهَا عَلَى نِظَامِهَا ، وَتَحَقَّقَهَا عَلَى اسْخَفِ مَا فِيهَا مِنَ الْخِيَالِ وَالْحَقِيقَةِ ؛ وَأَيُّ عَرَبٍ يَجِدُ الْأَسْتِقْرَارَ ، أَوْ تَجْتَمِعُ لَهُ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ ؛ وَهُوَ قَدْ فَقَدَ تِلْكَ الرُّوحَ الَّتِي تَتِمُّ رُوحُهُ ، وَتَنْفُحُهَا ، وَتُمْسِكُهَا فِي دَائِرَتِهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى وَاجِبَاتِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَتَجِيئُهُ بِالْأَرْوَاحِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُشْعِرُهُ التَّبَعَةَ وَالسِّيَادَةَ مَعًا ، وَتَمْنَدُ بِهِ وَيَمْنَدُ بِهَا فِي تَارِيخِ الْوَطَنِ ؟

كَيْفَ يُعْتَبَرُ مِثْلُ هَذَا مَوْجُودًا أَجْتِمَاعِيًّا صَحِيحًا وَهُوَ حَيٌّ مُخْتَلٌ فِي وَجُودِ مُسْتَعَارٍ ، يَقْضِي اللَّيْلَ هَارِبًا مِنْ حَيَاةِ النَّهَارِ ، وَيَقْضِي النَّهَارَ نَافِرًا مِنْ حَيَاةِ اللَّيْلِ ؛ فَيَقْضِي عُمُرَهُ كُلَّهُ هَارِبًا مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعِيشُ بِرُوحِهِ كَامِلَةً ، بَلْ يَبْغِضُهَا ، بَلْ بِالْمُمْكِنِ مِنْ بَعْضِهَا . . . !
أَيَّةَ أَسْرَةٍ شَرِيفَةٍ تَقْبَلُ أَنْ يُسَاكِنَهَا رَجُلٌ عَرَبٌ ، وَأَيَّةَ خَادِمٍ عَفِيفَةٍ تَطْمَئِنُّ أَنْ تَخْدُمَ رَجُلًا عَرَبًا ؟ هَلِ هِيَ لَعْنَةُ الشَّرَفِ وَالْعِفَّةِ لِهَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ مِنَ الرِّجَالِ !

* * *

قَالَ الرَّائِي : وَهَذَا أَنْفَضَ « س » وَ « أ » وَحَاوَلَا أَنْ يَقْضَا عَلَى هَذِهِ اللَّغْنَةِ وَيَرُدَّهَا إِلَى حَلْقِ « ع » . ثُمَّ سَأَلَنِي ثَلَاثَتُهُمْ أَنْ أَسْقِطَهَا مِنَ الْمَقَالِ ، بَيِّنْدَ أَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ خَيْرًا مِنْ حَذْفِهَا أَنْ تَكُونَ اللَّغْنَةُ لِأَعْرَابِ الرِّجَالِ إِلَّا « س » وَ « أ » وَ « ع » . . .

أَسْتَوَقَّ الْجَمَلَ (*) ...

قَالَ الشَّابُّ : لَا قَبْلَ لِي بِهَذَا اللَّعَبِ الْمَعْنِيِّ الَّذِي يُسَمُّونَهُ « الزَّوَّاجِ » ، فَمَا هُوَ إِلَّا بَيْتٌ ثَقُلَهُ عَلَى شَيْئَيْنِ : عَلَى الْأَرْضِ ، وَعَلَى نَفْسِي ؛ وَأَمْرًا هَمُّهَا عَلَى مَوْضِعَيْنِ : فِي دَارِهَا ، وَفِي قَلْبِي ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَطْفَالٌ يُلْزِمُونَنِي عَمَلِ الْأَيْدِي الْكَثِيرَةِ مِنْ حَيْثُ لَا أَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ ، وَأَتَحَمَّلُ فِيهِمْ رَهَقًا شَدِيدًا كَأَنَّمَا أَبْنِيَهُمْ بِأَيَّامِي ، وَأَجْمَعُ هُمُومَ رُؤُوسِهِمْ كُلَّهَا فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ هُوَ رَأْسِي أَنَا .

يُؤَلِّدُ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَعْدَةٍ تَهْضُمُ لِنَوَّهَا وَسَاعَتِهَا ، ثُمَّ لَا شَيْءَ مَعَهَا مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلِ أَوْ عَقْلِ إِلَّا هُوَ عَاجِزٌ لَا يَسْتَقِلُّ ، مُتَخَذِلٌ لَا يُطِيقُ وَلَا يَقْدِرُ .

قَالَ : وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ الزَّوَّاجِ ، أَيُّ : عَسَلُهُ وَحَلَّوَاهُ ، أَنَّهُ أَمْرَةٌ^(١) تُذْهِبُ عُرْوَتِي . قَانَا وَأَمْثَالِي مَا نَزَالُ فِي عَسَلٍ وَحَلْوَى ... وَلِكُلِّ وَفَتْ زَوَّاجٌ ، وَلِكُلِّ عَصْرٍ أَفْكَارٌ ، وَمَا أَسْخَفَ اللَّيَالِي إِذَا هِيَ تَرَادَفَتْ عَلَى ضَرْبٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْلَامِهَا ، فَهَذَا يَجْعَلُ النَّوْمَ حُكْمًا بِالسَّجْنِ عَشْرَ سَاعَاتٍ ... !

قَالَ : وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَسْتَكْشِفَ الْقِصَّةَ فَاعْلَمْ أَنَّنَا نَحْنُ الْعُرَابُ قَوْمٌ كَرِجَالِ الْفَنِّ ؛ رَذِيلَتُهُمْ فَنِيَّةٌ ، وَفَضِيلَتُهُمْ فَنِيَّةٌ ، فِتْلِكَ وَهَذِهِ بِسَيِلِي ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْفَنِّ هُوَ لِمَوْضِعِهِ مِنَ الْفَنِّ^(٢) لَا مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا قُلْتُ : هَذَا خَالٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ ، عَارٍ مِنَ الْأَدَبِ ، وَعَبَتِ الْفَنُّ لِدَلِّكَ - فَمَا هُوَ إِلَّا كَعَتِيكَ وَجْهَ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِأَنَّهُ خَالٍ مِنْ لِحْيَةٍ ... ! هَاتِ الظَّلَامَ وَسَوَادَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْنٌ كَالثُّورِ وَإِشْرَاقُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ كِلَيْهِمَا ؛ إِذِ الْمَعْنَى الْفَنِّيُّ { إِنَّمَا يَكُونُ } فِي تَنَاسُبِ الْأَشْيَاءِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ؛ وَبِدَ الْفَنِّيِّ كَيْدِ الْغَنِيِّ ؛ هَذِهِ لَا يَقَعُ فِيهَا الدَّهَبُ إِلَّا لِيَتَعَدَّدَ ثُمَّ يَتَعَدَّدَ ؛ وَتِلْكَ لَا تَقَعُ فِيهَا الْمَرْأَةُ إِلَّا لِيَتَعَدَّدَ ثُمَّ تَتَعَدَّدَ ؛ وَفِي كُلِّ دَيْنَارٍ قُوَّةٌ

(*) « الرسالة » العدد : ٦٤ ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٤ سبتمبر / أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٥٦٣ - ١٥٦٥ .

(١) كَذَا الْأَصْلُ وَالطَّبَعَةُ الْأُولَى ، وَفِي الطَّبَعَاتِ النَّالِيَةِ : « أَيْةُ أَمْرَةٍ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « لِمَوْضِعِهِ مِنْهُ » بَدَلًا مِنْ : « لِمَوْضِعِهِ مِنَ الْفَنِّ » .

جَدِيدَةً ، وَفِي كُلِّ امْرَأَةٍ فَرْجٌ جَدِيدٌ . . .

قَالَ : وَمَذْهَبُنَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَسْتَمْتَعَ بِهَا ضُرُوبًا وَأَفَانِينَ ؛ مَنْ أَطَاقَ أَنْوَاعًا لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى نَوْعَيْنِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى نَوْعَيْنِ لَمْ يَرْضَ الْوَاحِدَ ؛ وَلَوْ أَنَّ زَوْجَةً كَانَتْ مِنْ أَشْعَةِ الْكَوَائِبِ أَوْ مِنْ قَطَرَاتِ النَّدَى ، لَنَقُلَ مِنْهَا عَلَى حَيَاتِنَا مَا يَنْقُلُ مِنَ الْحَدِيدِ وَالصَّوَانِ ؛ إِذْ هِيَ لَا تَلِدُ أَشْعَةً كَوَائِبَ ، وَلَا قَطَرَاتٍ نَدَى ؛ وَحَسَبُ الْجَسَدِ بِرَأْسٍ وَاحِدٍ حِمْلًا .

قَالَ : وَمَنْ الَّذِي تَعْرِضُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ سَلَامَهَا وَتَحْيَايَهَا وَأَشْوَاقَهَا فِي مِثْلِ رِسَالَةِ غَرَامٍ ، ثُمَّ يَدْعُ هَذَا وَيَسْأَلُهَا غَضَبَهَا وَحَصَامَهَا وَلَجَاجَتَهَا فِي مِثْلِ قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَا الْمَحَاكِمِ ، كُلُّ وَرَقَةٍ فِيهَا تِلْكَ وَرَقَةٌ . . ؟

ثُمَّ قَالَ الشَّابُّ : لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ السَّافِرَةُ عِنْدَنَا ، وَلَكِنَّ اللَّذَّةَ هِيَ السَّافِرَةُ ؛ وَمَا أَحْكَمَ الشَّرْعَ ! أَقُولُ لَكَ وَأَنَا مُحَامٍ يُفَرِّدُ الْحَقِيقَةَ : مَا أَحْكَمَ الشَّرْعَ الَّذِي لَمْ يُرَخِّصْ فِي كَشْفِ وَجْهِ الْمَرْأَةِ إِلَّا لِضُرُورَةٍ ، فَإِنَّ الْوَاقِعَ فِي الْحَيَاةِ أَنَّ هَذَا الْكَشْفَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ كَنَفِ اللَّصِّ عَلَى مَا وَرَاءَ النَّفْبِ ؛ وَإِذَا كُسِرَ مَا فَوْقَ الْفُكْلِ مِنَ الْخِزَانَةِ الْمُمَكَّتَرَةِ فِيهَا الذَّهَبُ وَالْجَوْهَرُ ، فَالْبَابُ الْحَدِيدُ كُلُّهُ سُخْرِيَّةٌ وَهُزُؤٌ مِنْ بَعْدُ . . !

* * *

هَذِهِ عَقْلِيَّةُ شَابٍّ مُحَامٍ طَوِيَّ عَقْلُهُ عَلَى الْكُتُبِ الْقَانُونِيَّةِ ، وَطَوِيَّ قَلْبُهُ عَلَى مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ الْقَانُونِيَّةِ . . . وَلَيْسَ يَمْتَرِي أَحَدٌ فِي أَنَّهَا عَقْلِيَّةُ السَّوَادِ مِنْ شَبَابِنَا الْمُتَقَفِّ الَّذِي لَيْسَ الْجِلْدُ الْأَوْرَبِيُّ . وَمِنْ الْبَلَاءِ عَلَى هَذَا الشَّرْقِ أَنَّهُ مَا بَرِحَ يُتَاهَضُ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَيَوَائِبُهُمْ ، غَافِلًا عَنْ مَعَانِيهِمْ الْأَسْخِمَارِيَّةِ الَّتِي تُتَاهَضُ وَتَوَائِبُهُ ، جَاهِلًا أَنَّ أَوْرِيَّةَ تَسْتَعْمِرُ بِالْمَذَاهِبِ الْعِلْمِيَّةِ كَمَا تَسْتَعْمِرُ بِالْوَسَائِلِ الْحَرْبِيَّةِ ؛ وَتَسْوَقُ الْأَسْطُولَ وَالْجَنِيْشَ ، وَالْكِتَابَ وَالْأَسْتَاذَ ، وَاللَّذَّةَ وَالْإِسْتِمْتَاعَ ، وَالْمَرْأَةَ وَالْحُبَّ .

وَلَوْ أَنَّ عَدُوًّا رَمَاكَ بِالنَّارِ فَاسْتَطَارَتْ فِي نِيَابِكَ أَوْ مَتَاعِكَ لَمَا دَخَلَكَ الشُّكُّ أَنَّ عَدُوَّكَ هُوَ النَّارُ حَتَّى تَفْرُغَ مِنْ أَمْرِهَا . فَكَيْفَ - لَعَمْرِي - غَفَلَ الشَّرْقِيُّونَ عَنْ أَخْلَاقِ نَارِيَّةِ حَمَرَاءَ يَأْكُلُهُمْ بِهَا الْمُسْتَعْمِرُونَ أَكْلًا كَأَنَّمَا يُنْضِجُونَهُمْ عَلَيْهَا لِيَكُونُوا أَسْهَلَ مَسَاغَا ، وَأَلْيَنَ أَخْذَا ، وَأَسْرَعَ فِي الْهَضْمِ . . . !

لَمْ أَفْهَمْ أَنَا مِنْ كَلَامِ صَاحِبِنَا الشَّابِّ وَمَعَانِيهِ إِلَّا أَنَّ أُورُبَّةَ فِي أَعْصَابِهِ ؛ وَأَمَّا مِصْرُ
وَنِسَاؤُهَا وَرِجَالُهَا فَعَلَى طَرَفِ لِسَانِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا صَيِّحَةً ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فِي الْحَيَاةِ عَمَلٌ
إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ لَدَتْهُ بِهَا ، لَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَانْدَرَتْهَا مِنْهُ .

وَتِلْكَ أَلْمَعَانِي كُلُّهَا مُشْتَقٌّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَمَرَجَعُهَا إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ ، كَالْأَمْرَاضِ
الَّتِي تَنْتَلِيهِ الْجِسْمُ يُمَهِّدُ شَيْءٌ مِنْهَا لَشَيْءٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيعَةُ هَذَا الْجِسْمِ زَائِعَةً أَوْ مُخْتَلَةً ،
أَوْ مُتَرَاجِعَةً إِلَى الضَّعْفِ ، أَوْ ذَاهِبَةً إِلَى الْمَوْتِ .

وَأُولَئِكَ شُبَّانٌ وَقَفَ بِهِمْ الشَّبَابُ مَوْقِفَ بِلَادَةٍ ، فَلَا يَخْطُو إِلَى الرُّجُوزَةِ ، وَلَا يَكْمُلُ
بِنُمُوهِ الْاجْتِمَاعِي كَمَا يَكْمُلُ الرَّجُلُ الْوَطَنِي ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ خَوَارِا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ
أَنْقَالَ مَعَ أَنْفَالِهِ ، وَيَسْتَوْطِئُ الْعَجْزَ وَالْخُمُولَ ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَاعِدَ الْهَيْمَةِ ، رِخْوَ الْعَزِيمَةِ ،
قَدْ اسْتَنَامَ إِلَى أَسْبَابِ عَجْزِهِ وَتَخَادُلِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَعْيَانِ إِلَّا كَالْمَرِيضِ يَعِيشُ
بِمَرَضِهِ حَمِيلَةً عَلَى ذَوْنِهِ ، ضَجَّعَةً لَا يَمِشِي ، نَوْمَةً لَا يَنْتَهِضُ ، مُسْتَرِنِحًا لَا يَعْمَلُ .

وَبِهَذِهِ الْمَكْسَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الشَّبَّانِ يَبْدَأُ الشَّعْبُ يَتَحَوَّلُ مِنْ دَاخِلِهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْ
فَضَائِلِهِ ، وَيَتَّخِذُ فِي مَكَانِهَا فَضَائِلَ اسْتِعَارَةٍ يُقَلِّدُ فِيهَا قَوْمًا غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَيَجْلِبُهَا لِيُنِّيَةِ غَيْرِ
بَيْنَتِهِ ، وَيَقْسِرُهَا عَلَى أَنْ تَصْلُحَ لَهُ وَهِيَ فَسَادٌ ، وَيُكْرِهُهَا عَلَى أَنْ تَنْفَعَهُ وَهِيَ ضَرَرٌ ، وَتِلْكَ
حَالَةُ يُعَامِرُ فِيهَا الشَّعْبُ بِكَيَانِهِ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَضْدَعَهُ وَتُفَرِّقَهُ .

وَلَوْ أَنَّ فِي السَّحَابِ مَطَرًا وَغَيْثًا لَمَا كَانَ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَوْزٌ مَضْبُوعٌ ، وَلَوْ أَنَّ فِي
الشَّبَابِ دِينًا لَمَا صَبَغَتْهُ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْفَاسِدَةُ ، وَمَا ذَهَابَ الْحَارِسُ عَنْ مَكَانٍ إِلَّا دَعْوَةً
لِلْصُّوَصِ إِلَيْهِ ، وَهَلْ كَانَ الدِّينُ إِلَّا وَاجِبَاتٌ وَتَبَعَاتٌ وَقِيُودًا يُرَادُ مِنْ جَمِيعِهَا إِعْدَادُ الْإِنْسَانِ
لِأَمثَالِهَا فِي الْاجْتِمَاعِ ، حَتَّى يَقَرَّ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ الصَّحِيحَةِ عَلَى النَّخْوِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ مُتَقَرِّدًا
وَيَصْلُحُ لَهُ مُجْتَمِعًا ؟ فَلَيْسَتْ الزَّوْجَةُ وَخَدَّهَا هِيَ الَّتِي خَسِرَتْ الشَّابُّ بَلْ خَسِرَهُ مَعَهَا الْوَطَنُ
وَالدِّينُ وَالْفَضِيلَةُ جَمِيعًا ، وَبِهَذَا أُنْعَكَسَ وَضْعُهُ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، فَوَجَبَ فِي رَأْيِهِ أَنْ تُسَخَّرَ
الْجَمَاعَةُ لَهُ ، وَأَنْ يَسْتَقِيلَ هُوَ بِنَفْسِهِ ، وَبِهَذَا أُنْعَكَسَ ، وَهَذَا السَّقُوطُ ، وَهَذَا الْاسْتِمْتَاعُ
الَّذِي يَجِدُ سَعَادَتَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ أَصْبَحَ أُولَئِكَ الشَّبَّانُ كَأَنَّمَا حَقُّهُمْ عَلَى الْمُجْتَمَعِ أَنْ يُقَدَّمَ لَهُمْ

بَعَايَا لَا زَوَاجَاتٍ . . . بَعَايَا حَتَّى مِنَ الزَّوْجَاتِ . . . ١

فَبَحَّ اللَّهُ عَصْرًا يَجْهَلُ الشَّابَّ فِيهِ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ فِي الْوَطَنِ كَلِمَتَانِ تَفْسُرُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى تَفْسِيرًا إِنْسَانِيًّا دِينِيًّا بِالزَّوْجَاتِ وَالْفَيُودِ وَالْأَحْمَالِ ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْإِنْطِلَاقِ كَمَا تَفْسُرُ الْحَيَوَانِيَّةُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

وَالنَّفْسُ الدِّينِيَّةُ أَوْ الْمُنْحَطَّةُ فِي أَخْلَاقِهَا وَمَنَازِعِهَا مِنَ الْحَيَاةِ لَا تَكُونُ إِلَّا دِينِيَّةً أَوْ مُنْحَطَّةً فِي أَخْلَاقِهَا وَأَخْلَاقِهَا الرُّوحِيَّةِ ، دِينِيَّةً كَذَلِكَ فِي طَاعَتِهَا إِنْ قَضَتْ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ بِمَوْضِعِ الْخُضُوعِ ، دِينِيَّةً فِي حُكْمِهَا إِنْ قَضَتْ لَهَا الْحَيَاةُ بِمَنْزِلَةِ مِنَ السُّلْطَةِ . وَلَوْ تَنَبَّهَتْ الْحُكُومَةُ لَطَرَدَتْ مِنْ عَمَلِهَا كُلِّ مُوْظَفٍ غَيْرِ مُتَأَهِّلٍ ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ شَرًّا لَا رَجُلًا يَمْنَعُ الشَّرَّ ، وَكُلُّ شَابٍّ تِلْكَ حَالُهُ هُوَ حَادِثَةٌ تَزْدِفُ الْحَوَادِثَ وَتَسْتَلْزِمُهَا ، وَمَا يَأْتِي السُّوءُ إِلَّا بِمِثْلِهِ أَوْ بِأَسْوَأَ مِنْهُ .

* * *

لَيْسَ لِلزَّوْاجِ مَعْنَى إِلَّا إِفْرَادَ طَبِيعَةِ الرَّجُلِ وَطَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ فِي طَبِيعَةٍ ثَالِثَةٍ تَقُومُ بِالْأُنْثَيْنِ مَعًا ، وَهِيَ طَبِيعَةُ الشَّعْبِ . فَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ وَلُؤْمِهَا وَدَنَاءَتِهَا أَنْ يَفِرَّ الشَّابُّ الْقَوِيُّ مِنْ تَبِيعَةِ الرَّجُولَةِ ، فَلَا يَحْمِلُ مَا حَمَلَ أَبُوهُ مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَلَا يَقِيمُ لُؤْمَ جَانِبًا مِنْ بِنَاءِ الْحَيَاةِ فِي نَفْسِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ ، بَلْ يَذْهَبُ يَجْعَلُ حَظَّ نَفْسِهِ فَوْقَ نَفْسِهِ ، وَفَوْقَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْوَطَنِ جَمِيعًا ؛ وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ أَنْفِلَاتَهُ مِنْ وَاجِبَاتِ الزَّوْاجِ هُوَ إِضْعَافٌ فِي طَبِيعَتِهِ لِمَعْنَى الْإِخْلَاصِ الثَّابِتِ ، وَالصَّبْرِ الدَّائِبِ ، وَالْعَطْفِ الْجَمِيلِ فِي أَيِّ أَسْبَابِهَا عَرَضَتْ .

وَمِنْ فُسُوقِ الطَّبْعِ وَلُؤْمِهِ وَدَنَاءَتِهِ أَنْ يَهْرُبَ هَذَا الْجُنْدِيُّ مِنْ مِيدَانِهِ الدِّينِيِّ فَرَضَتْ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ الْفَاضِلَةُ أَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ لِأَدَاءِ وَاجِبِهِ الطَّبِيعِيِّ مُتَعَلِّلًا لِإِفْرَادِهِ الْمُخْزِي بِمَشَقَّةِ هَذَا الْوَاجِبِ وَمَا عَسَى أَنْ يُعَانِيَ فِيهِ ، كَمَا يَخْتَجُّ الْجَبَانُ بِخَوْفِ الْهَلَاكِ وَعَنَاءِ الْحَرْبِ .

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَرْضَى الشُّبَّانُ كَسَادَ الْفَتَيَاتِ ، وَيَوَارِهْنَ عَلَى الْوَطَنِ ؛ وَأَنْ يَتَوَاطَرُوا عَلَى نَبَذِ هَذِهِ الْأَحْمَالِ ، وَلِقَائِهَا فِي طُرُقِ الْحَيَاةِ ، وَتَرْكِهَا لِمَقَادِيرِهَا الْمَجْهُولَةِ . كَانَتْهُمْ أَصْلَحُهُمْ اللَّهُ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَضِيعُ بِأَخْوَانِهِمْ بَيْنَ الْفَتَيَاتِ ، وَيَضِيعُ

يُوطِنُهُمْ فِي أُمّهَاتِ الْجَبَلِ الْمُقْبِلِ ، وَيُضَيِّعُ بِالْفَضِيلَةِ فِي تَرْكِهِمْ حِمَايَتَهَا وَتَحْلِيَّتَهُمْ عَنْ حَمْلِ
وَأَجِبَاتِهَا وَهُمْ وَمِهَا السَّامِيَةِ .

إِنَّ الْجَمَلَ إِذَا اسْتَنَوَى تَحَنَّنَ وَلَانَ وَخَضَعَ ، وَلَكِنَّهُ بِخَمِلٍ ؛ وَهَلْؤَلَاءِ إِذَا اسْتَنَوَوْا
تَحَنَّنُوا وَلَانُوا وَخَضَعُوا وَأَبَوْا أَنْ يَحْمِلُوا ...

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ فِي الرَّجُلِ التَّكْسِ الْعَاجِزِ الْمُقْصِرِ أَنْ يَخْتَجَّ لِعُرْوَتِهِ بِعِلْمِهِ وَجَهْلِهِ
الْمُتَيَّاتِ ؛ أَوْ تَمَدُّنِهِ وَرَعْمِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغْنَ مَبْلَغَ الْأُورَثَةِ ، وَلَا يَذَرِي هَذَا الْمُتَحَطُّ النَّفْسِ
أَنَّ الزَّوْاجَ فِي مَعْنَاهُ الْإِنْسَانِيَّ الْأَجْتِمَاعِيَّ هُوَ الشَّكْلُ الْآخِرُ لِلْإِفْتِرَاعِ الْعَسْكَرِيِّ ، كِلَاهُمَا
وَاجِبٌ حَتْمٌ لَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ إِلَّا بِأَعْذَارٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَمَا عَدَاهَا فَجُبْنٌ وَسُقُوطٌ وَأَنْخِدَالٌ وَلَعْنَةٌ عَلَى
الرُّجُولَةِ .

وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَغْنَى الشَّابُّ عَنِ الزَّوْاجِ لِفُجُورِهِ فَيَقْرَهُ ، وَيُمَكِّنَ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ
لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَخْطِمُ نَفْسَيْنِ ، وَيُحْدِثُ جَرِيمَتَيْنِ ، وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ عَلَى الدُّنْيَا لَعْنَتَيْنِ .
وَمِنْ سُقُوطِ النَّفْسِ أَنْ يَفْتَرَّ الشَّابُّ فِتْنَةً حَتَّى إِذَا وَافَقَ غِرَّتَهَا مَكَرَ بِهَا وَتَرَكَهَا بَعْدَ أَنْ
يُلْبِسَهَا عَارَهَا الْأَبَدِيَّ ؛ فَمَا يَحْمِلُ هَذَا الشَّابُّ إِلَّا نَفْسَ لَصٍّ خَبِيثٍ فَإِنَّكَ ، هُوَ أَبَدًا عِنْدَ
مَنْ يَسْرِفُهُمْ فِي بَابِ الْخَسَائِرِ وَالتَّكَبَّاتِ ، لَا فِي بَابِ الرِّيحِ وَالْمَكْسَبِ ؛ وَعِنْدَ الْمُجْتَمَعِ
فِي بَابِ الْفَسَادِ وَالشَّرِّ ، لَا فِي بَابِ الْمَصْلَحَةِ وَالْخَيْرِ ؛ وَعِنْدَ نَفْسِهِ فِي بَابِ الْجَرِيمَةِ
وَالسَّرِيقَةِ ، لَا فِي بَابِ الْعَمَلِ وَالشَّرَفِ .

* * *

فَسُقُوطُ النَّفْسِ وَأَنْحِطَاطُهَا هُوَ وَحْدَهُ نَكْبَةُ الزَّوْاجِ فِي أَصْلِهَا وَفُرُوعِهَا الْكَثِيرَةِ الَّتِي مِنْهَا
الْمَغَالَاةُ وَالسُّطُطُ فِي الْمُهُورِ ، وَمِنْهَا بَحْثُ الشَّابِّ عَنِ الزَّوْجَةِ الْغَنِيِّ ، وَإِهْمَالُ ذَاتِ الدِّينِ
وَالْأَصْلِ الْكَرِيمِ لِفَقْرِهَا ، وَمِنْهَا ابْتِغَاءُ الزَّوْجَةِ رَجُلًا ذَا جَاهٍ أَوْ ثَرَاءٍ ، وَعُزُوفُهَا عَنِ الْفَاضِلِ
ذِي الْكَفَافِ أَوْ الْيَسِيرِ عَلَى غِنَى فِي رُجُولَتِهِ وَقَضَائِلِهِ ، كَأَنَّمَا هُوَ زَوَاجُ الدِّينَارِ بِالسَّيِّئَةِ ،
وَالسَّيِّئَةِ بِالدِّينَارِ ، وَكَأَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ ابْتَلَيْتْ هِيَ أَيْضًا بِالسُّقُوطِ ، فَأَصْبَحَتْ تَعْتَبِرُ الْغِنَى
وَالْفَقْرَ ، فَتَجْعَلُ فِي دَمِ أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ رُوحَ الذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَاسِ ، وَتُلْقِي فِي دَمِ أَوْلَادِ
الْفُقَرَاءِ رُوحَ التُّحَاسِ وَالْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ ... عَلَى حِينٍ أَنَّ الْجَمِيعَ مُسْتَقْبِقُونَ لَا يَتَدَافَعُ

إِثْنَانٍ مِنْهُمْ فِي أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تُبَالِي إِلَّا بِوَرَاثَةِ الْأَدَابِ وَالطَّبَاعِ .

وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ هَذَا السَّقُوطِ فِي رَأْيِي هُوَ ضَعْفُ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْجِنْسَيْنِ ، وَخَاصَّةً الشَّبَابُ ؛ ظَنًّا مِنَ النَّاسِ أَنَّ الدِّينَ شَأْنُ زَائِدٍ عَلَى الْحَيَاةِ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ لَا غَيْرُهُ نِظَامُ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَفَوَائِهَا فِي كُلِّ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِالنَّفْسِ . وَلَيْسَتْ الْمَدْرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ - كَمَا يَحْسَبُ الْمَفْتُونُونَ - هِيَ نَوْعُ الْمَعِيشَةِ لِلْحَيَاةِ وَمَادَّتِهَا ، بَلْ نَوْعُ الْعَقِيدَةِ بِالْحَيَاةِ وَمَعَانِيهَا ؛ وَإِلَى هَذَا تَزِمُنِي كُلُّ مَبَادِيِ الْإِسْلَامِ . فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ الْقَوِيَّ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَغْبَأُ بِزَخَارِفِ كَهْلِهِ الَّتِي تَلْبَسُ بِهَا الْمَدْرِيَّةُ الْأَوْرِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْاسْتِمْتَاعِ ، وَفُتُونِ اللَّذَاتِ ، وَأَنْطِلَاقِ الْحُرِّيَّةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ ؛ فَهَذَا بَعِيْنُهُ هُوَ التَّخْطِيبُ الْإِنْسَانِيَّ الَّذِي يَنْتَهِي بِتَهْدِمِ تِلْكَ الْمَدْرِيَّةِ وَخَرَابِهَا ؛ وَإِنَّمَا يَغْبَأُ الْإِسْلَامُ بِالْعَقِيدَةِ الَّتِي تُنْظِمُ الْحَيَاةَ تَنْظِيمًا صَحِيحًا مُتَسَاوِفًا وَاقِفًا بِالْمَنْفَعَةِ ، قَانِمًا بِالْفَضِيلَةِ ، بَعِيدًا مِنَ الْخَلْطِ وَالْفَوْضَى .

وَيُقَابِلُ ضَعْفَ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ مَظْهَرٌ آخَرٌ هُوَ سَبَبٌ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ السَّقُوطِ ، وَهُوَ ضَعْفُ التَّرْبِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْمَدْرَسَةِ ؛ وَإِلَى هَذَا الضَّعْفِ يَرْجِعُ سَبَبٌ آخَرٌ هُوَ تَخَثُّطُ الطَّبَاعِ وَاسْتِزْسَالُهَا إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَفِرَارُهَا مِنْ حِمْلِ التَّبِعَةِ « الْمَسْئُولِيَّةِ » الَّتِي هِيَ دَائِمًا أَسَاسُ كُلِّ شَخْصِيَّةٍ قَائِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ .

وَبِذَلِكَ الضَّعْفِ وَذَلِكَ السَّقُوطِ وَضِعَتْ الْمَرْأَةُ الْبَغِيُّ الْعَاهِرَةُ فِي الْمَوْضِعِ الطَّبِيعِيِّ لِلأَمِّ ، وَنَزَلَ الرَّجُلُ السَّافِلُ الْمُنْحَطُّ فِي الْمَكَانِ الطَّبِيعِيِّ لِلأَبِ ، وَتَحَلَّلَتْ قُوَى الْوَطَنِ بِانْحِرَافِ عُنْصُرِيهِ الْعَظِيمَيْنِ عَنْ طَبِيعَتِهِمَا ، وَجَعَلَتْ فَضِيلَةَ الْفَتَيَاتِ الْمِسْكِينَاتِ تَنَافُلًا مِنْ طَوْلِ مَا أَهْمِلْتُ ، وَأَخَذَ سُوسُ الدَّمِ يَتْرُكُهَا فَضَائِلَ نَخْرَةٍ .

وَلَا عَاصِمَ وَلَا دَافِعَ إِلَّا قُوَّةُ الْقَانُونِ وَسَطَوْتُهُ ، مَا دَامَتْ الْفَضِيلَةُ فِي حُكْمِ النَّاسِ وَتَضَرُّفِهِمْ قَدْ تَرَكَّتْ مَكَانَهَا لِلْقَوَانِينِ ، وَمَا دَامَتْ قُوَّةُ النَّفْسِ قَدْ أَخَلَتْ مَوْضِعَهَا لِلْقُوَّةِ التَّنْفِيدِيَّةِ .

لَقَدْ قُتِلَتْ رُوحِيَّةُ الزَّوْاجِ ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ جَرِيْمَةٌ قَتْلٍ ، فَمَنِ الْقَاتِلُ يَا صَاحِبَنَا الْمُحَامِي ؟

قَالَ الشَّابُّ : هُوَ كُلُّ رَجُلٍ عَزَبَ .

قُلْتُ : فَمَا عِقَابُهُ ؟

فَسَكَتَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ جَوَابًا .

قُلْتُ : كَأَنِّي بِكَ قَدْ تَاهَلْتُ وَخَلَاكَ ذَمٌّ . . . فَمَا عِقَابُهُ ؟

قَالَ : إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْحُكُومَةَ أَوْ أَنْ تُعَاقِبَ هَؤُلَاءِ الْعُزَّابَ ، فَلْيُعَاقِبَهُمُ الشَّعْبُ بِتَسْمِيَتِهِمْ « أَرَامِلَ الْحُكُومَةِ » . . . وَاحِدُهُمْ : رَجُلٌ أَرْمَلَهُ حُكُومَةٌ . . .

ثُمَّ قَالَ : اَللَّهُمَّ يَسِّرْهَا وَلَا تَجْعَلْنِي رَجُلًا يَغْلُطَتَيْنِ : غَلْطَةٍ فِي نِسَاءِ الْأُمَّةِ ، وَغَلْطَةٍ فِي أَلْفَاظِ اللَّغَةِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

أَزْمَلَةُ حُكُومَةٍ (*) ...

(أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ) فِيمَا تَوَاضَعْنَا عَلَيْهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قُرَاتِنَا^(١) هُوَ الرَّجُلُ الْعَرَبُ ، يَكُونُ مُطِيقًا لِلزَّوْاجِ ، قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَلَا يَتَزَوَّجُ ؛ بَلْ يَرْكَبُ رَأْسَهُ فِي الْحَيَاةِ ، وَيَذْهَبُ يُمُوهُ عَلَى نَفْسِهِ كَذِبًا وَتَذْلِيلًا ، وَيَسْجُلُ لَهَا الْمَعَاذِيرَ الْوَاهِيَةَ ، وَيَنْتَلِي الْعِلَلَ الْبَاطِلَةَ ، يُحَاوِلُ أَنْ يُلْحِقَ نَفْسَهُ بِمَرْتَبَةِ الرَّجُلِ الْمُتَزَوِّجِ مِنْ حَيْثُ يَحْطُ الرَّجُلُ الْمُتَزَوِّجُ إِلَى مَرْتَبَتِهِ هُوَ ؛ وَيُضَيِّقُ شُؤْمَهُ عَلَى النِّسَاءِ إِلَى هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ الْمُسْكِنَاتِ ، يَزِيدُهُنَّ عَلَى نَفْسِهِ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَيَزِمْنِهِنَّ بِالشُّؤْمِ وَهُوَ الشُّؤْمُ عَلَيْهِنَّ ، وَيَنْقُصُهُنَّ وَمِنْهُ جَاءَ النِّقْصُ ، وَيَعِينُهُنَّ وَهُوَ أَكْبَرُ الْعَنِيبِ ؛ لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا الَّذِي لَهُ ، وَلَا يَتَنَاسَى إِلَّا الَّذِي عَلَيْهِ ، كَأَنَّمَا انْقَلَبَتْ أَوْصَاعُ الدُّنْيَا ، وَتَبَدَّلَتْ رُسُومُ الْحَيَاةِ ، فَزَالَتْ الرَّجُولَةُ بِتَبَعَاتِهَا عَنِ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ ، وَانْفَصَلَتْ الْأَنْوَتَةُ بِحُقُوقِهَا مِنَ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَحْمِلَ تِلْكَ مَا كَانَ يَحْمِلُ هَذَا ، فَتَقْدِمَ وَيَقَرَّ وَإِدْعَا ، وَتَتَعَبَ وَيَسْتَرِيحَ ، وَتُعَانِيَ أَلْهُمُومَ السَّامِيَةِ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ ، وَيُعَانِيَ أَلْمُخِثُ آبْتِسَامَاتِهِ وَدُمُوعُهُ ، مُتَّكِئًا فِي مَجْلِسِهِ السَّنِيْمِيِّ تَحْتَ جَنَاحِ الْمَرْوَحَةِ ... فَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَتُشْرِفُ عَلَى هَلَكَتِهَا ، وَتُخَاطِرُ بِحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، وَأَمَّا هُوَ فَيَبْقَى مِنْ ثِيَابِهِ فِي مِثْلِ الْخِذْرِ الْمَصُونِ ... !

(أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ) هُوَ ذَلِكَ الشَّابُّ الرَّائِفُ الْمُبْهَرَجُ ، يُحْسَبُ فِي الرِّجَالِ كَذِبًا وَزُورًا ؛ إِذَا لَا تَكْمُلُ الرَّجُولَةُ بِتَكْوِينِهَا حَتَّى تَكْمَلَ بِمَعَانِي تَكْوِينِهَا ؛ وَأَخْصَرُ هَذِهِ الْمَعَانِي إِنْشَاءُ الْأُسْرَةِ وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا ، أَيْ : مُغَامَرَةُ الرَّجُلِ فِي زَمَنِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَوُجُودِهِ الْقَوْمِيِّ ، فَلَا

(*) «الرسالة» العدد : ٦٦ ، ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ و ١٦٧٩ .

(١) أَنْظُرْ مَقَالَ «اسْتَنَوقَ الْجَمَلُ» . وَالتَّاءُ فِي «أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ» لَيْسَتْ لِلتَّائِيثِ ، بَلْ هِيَ تَاءُ جَدِيدَةٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، تَزَادُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ خَاصَّةً وَأَسْمُهَا تَاءُ الْهُرُوفِ ... وَتَا حَبْدًا لَوْ أَصْطَلَحَ النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ وَالْمُتَزَوِّجُونَ جَمِيعًا عَلَى تَسْمِيَةِ كُلِّ رَجُلٍ عَرَبٍ «أَزْمَلَةُ الْحُكُومَةِ» فَإِنَّ هَذَا الْأِسْمَ إِذَا عَمَّ وَشَاعَ كَانَ فِي مَعْنَاهُ وَفِعْلُهُ الْمُطَهَّرُ ، حَامِضًا لِقَوْلِنَا كَحَامِضِ الْفَيْثِ ... !

يَعِيشُ غَرِيبًا عَنْهُ وَهُوَ مَعْدُودٌ فِيهِ ، وَلَا طَفِيلًا فِيهِ وَهُوَ كَالْمَنْفِيِّ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ مَظْهَرًا لِقُوَّةِ
الْجِنْسِ الْقَوِيِّ هَارِبَةً هُرُوبَ الْجُبْنِ مِنْ حَمْلِ ضَعْفِ الْجِنْسِ الْآخِرِ الْمُخْتَمِي بِهَا ، وَلَا
لِمُرُوءَةِ الْعَشِيرِ مُتَبَرِّئَةً تَبَرُّؤَ النَّذَالَةِ مِنْ مُوَازَرَةِ الْعَشِيرِ الْآخِرِ الْمُخْتَنَجِ إِلَيْهَا ؛ وَلَا يَرْضَى
لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَالذَّلُّ يَعْمَلَانِ فِي نِسَاءِ أُمَّتِهِ عَمَلًا وَاحِدًا ، وَأَنْ يُصْبِحَ هُوَ وَالْكَسَادُ
لَا يَأْتِي مِنْهُمَا إِلَّا أَثَرٌ مُشَابِهٌ ، وَأَنْ يَبِينَتْ هُوَ وَالْفَنَاءُ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ كَظُلُمَاتِ الْقَبْرِ ، تَنْقُلُ
الْأَجْدَاتِ إِلَى الدُّوَرِ ، فَتَجْعَلَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ يَقْتَضِيهِ الْوَطَنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَبٌ وَأُمٌّ وَأَطْفَالٌ
- بَيْتًا خَاوِيًا كَأَنَّمَا تَكِلُ الْأُمُّ وَالْأَطْفَالُ ، وَيَقِيتُ فِيهِ الْبَقِيَّةُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِ الْمَيِّتِ
أَكْثَرَ تَارِيخِهِ ... !

لَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي آدَاءَ الْعَرَبِ وَأَنَانَهُ الْمُبَغْتَرِ فِي بَيْتِهِ ، كَأَنَّمَا يَقْصُصُ عَلَيْهِ كُلَّ ذَلِكَ قِصَّةَ
شُؤْمِهِ وَوَحْدَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ الْفَرَسُ وَالنَّجْدُ وَالطَّرَارُ : « بَغْنِي يَا رَجُلُ وَرُدَّنِي إِلَى
السُّوقِ ؛ فَإِنِّي هُنَالِكَ أَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ مَصِيرِي إِلَى أَبِي وَأُمٍّ وَأَوْلَادٍ ، أَجِدُ بِهِمْ قَرَحَةً
وَجُودِي ، وَأَصِيبُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِمْ بَعْضَ ثَوَابِي ، وَأَبْلَى تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ فَأَكُونُ قَدْ
عَمِلْتُ عَمَلًا إِنْسَانِيًّا . أَمَّا عِنْدَكَ ، فَأَنْتَ خَشْبَةٌ مَعَ الْخَشَبِ ، وَأَنْتَ خِرْقَةٌ بَيْنَ الْخِرْقِ .
وَأَسْمَعُ الْكُرْسِيِّ إِنَّهُ يَقُولُ : أَفْ . وَأَصْغِ إِلَى فَرَاشِكَ إِنَّهُ يَقُولُ : تَفْ . . . » .

شَهِدَ الْعَرَبُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَبَلَّى بِالْعَافِيَةِ ، مُسْتَعْبَدٌ بِالْحُرِّيَّةِ ، مَحْنُونٌ
بِالْعَقْلِ ، مَغْلُوبٌ بِالْقُوَّةِ ، شَقِيٌّ بِالسَّعَادَةِ . وَشَهِدَتْ الْحَيَاةُ عَلَيْهِ وَرَبُّ الْبَيْتِ أَنَّهُ فِي
الرَّجُولَةِ قَاطِعُ طَرِيقٍ ؛ يَقْطَعُ تَارِيخَهَا وَلَا يُؤَمِّنُهُ ، وَيَسْرِقُ لَذَائِهَا وَلَا يَكْسِبُهَا ، وَيَخْرُجُ عَلَى
سُرْعِهَا وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ ، وَيَعْصِي وَاجِبَاتِهَا وَلَا يَنْقَادُ لَهَا . وَشَهِدَ الْوَطَنُ - وَاللَّهُ - عَلَيْهِ أَنَّهُ
مَخْلُوقٌ فَارِعٌ كَالْوَاغِلِ عَلَى الدُّنْيَا ؛ إِنْ كَانَ نِعْمَةً بِصَلَاحِهِ ، انْتَهَتْ النِّعْمَةُ فِي نَفْسِهَا
لَا تَمْتَدُّ ؛ وَإِنْ كَانَ بِفَسَادِهِ مُصِيبَةً ائْتَدَتْ فِي غَيْرِهَا لَا تَنْقَطِعُ . وَأَنَّهُ شَحَادَةُ الْحَيَاةِ ، أَحْسَنَ
بِهِ الْأَجْدَادُ نَسْلًا بَاقِيًا ، وَلَا يُحْسِنُ هُوَ بِنَسْلِ بَيْتِهِ . وَأَنَّهُ فِي بِلَادِهِ كَالْأَجْنَبِيِّ ، مَهْنِطُهُ عَلَى
مَنْفَعَةٍ وَعَيْشُ لَا غَيْرِهَا ؛ ثُمَّ يَمُوتُ وَجُودُ الْأَجْنَبِيِّ بِالنَّفْلَةِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيَمُوتُ وَجُودُ
الْعَرَبِ بِالْإِنْتِقَالِ إِلَى رَبِّهِ ؛ فَيَسْتَوِيَانِ جَمِيعًا فِي انْقِطَاعِ الْأَثَرِ الْوَطَنِيِّ ، وَيَتَّفِقَانِ جَمِيعًا فِي
انْتِهَابِ الْحَيَاةِ الْوَطَنِيَّةِ ؛ وَأَنْ كِلَيْهِمَا خَرَجَ مِنَ الْوَطَنِ أَبْتَرَّ لَا عَقِبَ لَهُ ، وَيَذْهَبَانِ مَعًا فِي

لُجَجِ النَّسِيَانِ : أَحَدُهُمَا عَلَى بَاحِرَةٍ ، وَالْآخَرُ عَلَى النَّعْشِ !

* * *

جَاءَنِي بِالْأَمْسِ « أَرْمَلَةٌ حُكُومَةٌ » وَهُوَ مُهَنْدِسٌ مُوَظَّفٌ . وَمَعْنَى الْمُهَنْدِسَةِ الدَّقَّةُ الْبَالِغَةُ فِي الرِّفْمِ وَالْخَطِّ وَالْقُطْعَةِ وَمَا أَحْتَمَلَ التَّدْقِيقَ ؛ ثُمَّ الْحَذَرُ الْبَالِغُ أَنْ يَخْتَلَّ شَيْءٌ أَوْ يَنْحَرِفَ ، أَوْ يَتَقَاصَرَ أَوْ يَطُولَ ، أَوْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ ، أَوْ يَدْخُلَهُ السَّهْوُ ، أَوْ يَقَعَ فِيهِ الْخَطَأُ ؛ إِذْ كَانَ الْحَاضِرُ فِي الْعَمَلِ الْمُهَنْدِسِيِّ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَاقِبَةِ ، وَكَانَ الْخَيَالُ لِلْحَقِيقَةِ ؛ وَكَانَ الْخُزُقُ هُنَا لَا يَقْبَلُ الرُّفْعَةَ . وَمَتَى فَصَلَتْ الْأَرْقَامُ الْمُهَنْدِسِيَّةُ مِنَ الْوَرَقِ إِلَى الْبِنَاءِ مَاتَ الْجَمْعُ وَالطَّرْحُ وَالضَّرْبُ وَالْقِسْمَةُ ، وَرَجَعَ الْحِسَابُ حِينِيذٍ وَهُوَ حِسَابُ عَقْلِ الْمُهَنْدِسِ ؛ فَإِنَّمَا عَقْلٌ دَقِيقٌ مُنْتَظِمٌ ، أَوْ عَقْلٌ مَافُونٌ مُخْتَلٌّ .

يَبْدَأُ أَنَّ الْمُهَنْدِسَ - عَلَى مَا ظَهَرَ لِي - قَدْ خَلَّتْ حَيَاتُهُ مِنَ الْمُهَنْدِسَةِ . . . وَأَنْتَهَى فِيهَا مِنَ التَّخْرِيفِ الْمُضْحِكِ - حَتَّى فِينَمَا لَا يُخْطِئُ الصَّغَارُ فِيهِ - إِلَى مِثْلِ التَّخْرِيفِ الَّذِي قَالُوا إِنَّهُ وَقَعَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ إِمَامَ قَزْوِيَّةٍ مِنَ الْقُرَى فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ كَانَ يَخْطُبُ أَهْلَ قَزْوِيَّةٍ وَيُصَلِّي بِهِمْ فِي مَسْجِدِهَا ، فَتَزَلَّ بِهِ ضَيْفٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، فَقَالَ لَهُ الْخَطِيبُ : إِنَّ لِي مَسَائِلَ فِي الدِّينِ لَمْ يَتَوَجَّهْ لِي وَجْهٌ الْحَقُّ فِيهَا ، وَلَا أَرَأَى مُتَحَيِّرَ الرَّأْيِ ، وَكُنْتُ مِنْ زَمَنِ أَتَمَتَّى أَنْ أَلْقَى بِهَا الْأَيْمَةَ ، فَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهَا . قَالَ الْعَالِمُ : سَلْ مَا أَحْبَبْتَ .

قَالَ الْخَطِيبُ : أَشْكَلَ عَلَيَّ فِي الْقُرْآنِ بَعْضُ مَوَاضِعَ ، مِنْهَا فِي سُورَةِ الْحَمْدِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ ﴾ . . . أَيُّ شَيْءٍ بَعْدَهُ . « تَسْعِينَ أَوْ سَبْعِينَ » . . ؟ أَشْكَلَتْ عَلَيَّ هَذِهِ فَأَنَا أَقْرُؤُهَا : تَسْعِينَ . أَخْذًا بِالْاِخْتِيَاطِ ! . .

كَذَلِكَ مُهَنْدِسُنَا فِينَمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ حِسَابِهِ لِلْحَيَاةِ ، فَهُوَ عَزَبَ أَخْذًا بِالْاِخْتِيَاطِ . قَالَ وَهُوَ يُحَاوِرُنِي :

كَيْفَ تَكْلِفُنِي الزَّوْاجَ وَتُكْرِهُنِي عَلَيْهِ ، وَتُعْتَفِنِي عَلَى الْعُرُوبَةِ وَتَعَيِّنُنِي بِهَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ كَالَّذِي يَقُولُ : دَعِ الْمُؤْمِنِينَ وَخُذِ الْمُشْتَحِيلِينَ . إِنَّ أَسْتَحَالَهَ الزَّوْاجِ هِيَ جَعَلْتَنِي عَزَبًا ،

وَالْعَزُوبَةُ هِيَ جَعَلْتَنِي فَاسِدًا ، وَفِي هَذَا الْجَوِّ الْفَاسِدِ مِنْ حَيَاةِ الشَّبَابِ ، إِمَّا أَنْ تَكْسَدَ الْفَتَاةُ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّصِلَ بِهَا الْعَذْوَى . وَالْعَزَبُ لَا يَأْبَى أَنْ يُقَالَ فِيهِ إِنَّهُ لِلنِّسَاءِ طَاعُونٌ أَحْمَرُ أَوْ هَوَاءٌ أَصْفَرُ ؛ فَهُوَ وَاللَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَوْتُ أَسْوَدَ وَبِلَاءٌ أَزْرَقُ .

قُلْتُ : لَقَدْ هَوَلَتْ عَلَيَّ ؛ فَمَا مُسْتَحِيلُكَ يَا هَذَا ، وَلِمَ اسْتَحَالَ عَلَيْكَ مَا أُمَكَّنَ غَيْرَكَ ، وَكَيْفَ بَلَغْتَ مِصْرَ خَمْسَةِ عَشَرَ مِائِيونًا ؟ أَمِنْ غَيْرِ آبَاءِ خُلِقُوا ، أَمْ زُرِعُوا زَرْعًا فِي أَرْضِ الْحُكُومَةِ ؟ أَسْمَعُ - وَنِحَكَ - أَلَا يَكُونُ الرِّجَالُ قَدْ أَقْبَلُوا وَتَرَاجَعْتَ ، وَتَجَلَّدُوا وَتَوَجَّعْتَ ، أَوْ أَقْدَمُوا وَخَسَنْتَ ، وَاسْتَرْجَلُوا وَتَأَنَّتْ ؟

قَالَ : لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا .

قُلْتُ : فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ هِيَ كَيْفَ تَرَى الْفِكْرَةَ ، لَا الْفِكْرَةَ نَفْسُهَا ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى الْعَزُوبَةِ وَأَنْتَ مُوظَّفٌ ، وَظِيفَتُكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا ، وَأَنْتَ مُهَنْدِسٌ يَصْدُقُ عَلَيْكَ مَا قَالُوهُ فِي الرَّجُلِ الْمَجْدُودِ : لَوْ عَمِدَ إِلَى حَجَرٍ لَانْفَلَقَ لَهُ عَنْ رِزْقٍ .

قَالَ : أَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا ثُمَّ مُسْتَحِيلًا أَنْ يَجْمَعَ مِثْلِي يَدُهُ عَلَى مِثَّةٍ جُنَيْهِ يَذْفَعُهَا مَهْرًا ؛ وَمَا طَرَفْتُ - عِلِمَ اللَّهِ - بَابًا إِلَّا اسْتَقْبَلُونِي بِمَا مَعْنَاهُ : هَلْ أَنْتَ مُعْجِزَةٌ مَالِيَّةٌ ؟ هَلْ أَنْتَ مِثَّةٌ جُنَيْهِ ؟

قُلْتُ : فَإِنَّ عَمَلَكَ فِي الْحُكُومَةِ يُغْلُ عَلَيْكَ فِي السَّنَةِ مِثَّةٌ وَثَمَانِينَ دِينَارًا ، فَلِمَ لَا تَعِيشُ سَنَةً وَاحِدَةً بِثَمَانِينَ فَتَقَعُ الْمُعْجِزَةُ ؟

قَالَ : « بِكُلِّ أَسْفٍ » لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ الْعَزَبُ أَنْ يَذْجَرَ أَبَدًا ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُبَدَّدٌ ضَائِعٌ مُتَفَرِّقٌ .

قُلْتُ : فَهَذِهِ شَهَادَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ بِالسَّقَمِ وَالْخُرْقِ وَالتَّبَذِيرِ ؛ تُنْفِقُ مَا يَكْفِي عَدَدًا وَتَضَيِّقُ بِوَاحِدَةٍ ، وَمَاذَا يَزِثُّ مِثْلُكَ فِي الْحَيَاةِ ؟ أَعِنْدَ نَفْسِهِ وَفِي يَقِينِهِ أَنْ يَتَأَبَّدَ فَيَتَقَيَّ عَزَبًا فَهُوَ يُنْفِقُ مَا جَمَعَ فِي شَهَوَاتِ حَيَاتِهِ ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ضُرُوبًا وَأَلْوَانًا لِيَكُونَ وَهُوَ فَرْدٌ كَأَنَّهُ وَهُوَ فِي إِنْفَاقِهِ جَمَاعَةٌ ، كُلُّ مِنْهُمْ فِي مَوْضِعِ رَذِيلَةٍ أَوْ مَكَانٍ لَهْوٍ ؛ وَكَأَنَّ مِنْهُ رِجَالًا هُوَ كَاسِبُهُمْ وَعَائِلُهُمْ ، يُنْفِقُ عَلَى هَذَا فِي الْقَهْوَةِ ، وَعَلَى هَذَا فِي الْحَانَةِ ، وَعَلَى ذَلِكَ فِي الْمَلَاهِي ،

وَعَلَى الرَّابِعِ فِي الْمَوَاجِيزِ ، وَعَلَى الْخَامِسِ فِي الْمُسْتَشْفَى . . . ؟ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ أَصْلَ الرَّأْيِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، فَالْعَرَبُ سَفِينَةٌ مُجَرِّمٌ ، وَهُوَ إِنْسَانٌ خَرِبَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ الْمُسَمَّعَ لِنَفَقَاتِ خَمْسَةِ ، بَلْ كَأَنَّهُ قَاتِلُ خَمْسَةِ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ ؛ إِذْ كَانَ بِهِذَا مُطِيقًا أَنْ يَكُونَ أَبَا يُتْفِقُ عَلَى أَبْنَائِهِ ، لَا سَفِينَهَا يُتْفِقُ عَلَى شَيَاطِينِهِ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ بَنَى رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَتَعَرَّبَ مُدَّةً ثُمَّ يَتَأَهَّلَ ، فَهَذَا آخَرَى أَنْ يُعِينَهُ عَلَى حُسْنِ التَّنْذِيرِ ، وَهُوَ مَضْرَاءٌ لَهُ عَلَى شَهْوَةِ الْجَمْعِ وَالْإِدْحَارِ ؛ إِذْ يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّمَا يَكْدَحُ لِعِيَالِهِ وَهُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهُمْ بَعْدُ ، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي ضُلْبِهِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا يَسْأَلُونَهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْلَاقًا طَيِّبَةً وَهَمَمًا وَعَزَائِمَ يَرْتَوْنَهَا مِنْ دَمِهِ فَتَجِيءُ مَعَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا مَتَى جَاوَوْا .

إِنَّمَا الْعَرَبُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ قَدْ خَرَجَ عَلَى وَطَنِهِ وَقَوْمِهِ وَفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، قَاعِدَتُهُ : جُرَّ الْحَبْلِ مَا أَنْجَرَ لَكَ . وَهَذَا دَاعِرٌ فَاسِقٌ ، مُبْتَدِرٌ مُتْلَفٌ إِنْ كَانَ مِنَ الْمَيَاسِيرِ ، أَوْ مُرِيبٌ دَنِيءٌ حَقِيقُ النَّفْسِ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ . . . وَرَجُلٌ غَيْرُ ذَلِكَ ، فَهُوَ فِي وَثَاقِ الضَّرُورَةِ إِلَى أَنْ تُطْلِقَهُ الْأَسْبَابُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَعْمَلُ أَبَدًا لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تُطْلِقُهُ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا فَلَا تَزَالْ ذِمَّتُهُ فِي حَقِّ زَوْجَةٍ سَيَعُولُهَا ، وَفِي حُقُوقِ أَطْفَالٍ يَأْبُوهُمْ ، وَوَاجِبَاتِ وَطَنِ يَخْدُمُهُ بِإِنْشَاءِ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الصَّغِيرَةِ مِنْ وُجُودِهِ ، وَالْقِيَامِ عَلَى سِيَاسَتِهَا ، وَالْثُّهُوسِ بِأَعْبَائِهَا . فَانْظُرْ وَيَحْكُ أَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَنْتَ ؟

قَالَ : فَتَرِيدُنِي أَنْ أَقَامِرَ بِتَعَبِ سَنَةٍ وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا يُفْدِرُ لِي ، وَقَدْ أَشْتَرَيْتُ بِتَعَبِ سَنَةٍ مِنَ الْعُمُرِ تَعَبَ الْعُمُرِ كُلِّهِ ؟

قُلْتُ : فَهَلْزِهِ هِيَ خِصَّةُ الْفَرْدِيَّةِ ، وَدَنَاءَتُهَا الْوُخْشِيَّةُ فِي جَنَابَتِهَا عَلَى أَهْلِهَا ، وَسُوءُ أَثَرِهَا فِي طِبَاعِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ ؛ فَهِيَ فَرْدِيَّةٌ تَضْرِبُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ ضَرْبَ الثَّلْفِ ^(١) ، وَتَبْتَلِيهِمْ بِالْخَوْفِ مِنَ التَّلَاعَاتِ حَتَّى لَيَتَوَهُمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ إِنْ تَزَوَّجَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَمْرَةٍ ، وَلَكِنْ عَلَى مَعْرَكَةٍ . وَهِيَ تُصَيِّبُهُمُ بِالْقَسْوَةِ وَالْعِلَظَةِ ؛ فَمَا دَامَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَاحِدًا لِنَفْسِهِ ، فَهُوَ فِي تَضَرُّفٍ حُكْمِ الْأَثَرَةِ ، وَفِي قَانُونِ الْفِتْنَةِ بِأَهْوَاءِ النَّفْسِ وَمَنَافِعِهَا ؛ كَأَنَّمَا

(١) يُقَالُ ضَرَبَتْهُ ضَرْبَ الثَّلْفِ ، أَيِ : الضَّرْبِ الَّذِي يَقْتُلُهُ وَيُزِيلُهُ .

يَعَامِلُهُ النَّاسُ رَجُلًا كُلَّهُ مَعِدَةٌ ، أَوْ هُوَ فِيهِمْ قُوَّةٌ هَضْمٌ لَيْسَ غَيْرَ .

قَالَ : وَلَكِنَّ الزَّوْاجَ عِنْدَنَا حَظٌّ مَخْبُوءٌ « لُوتَرِيَّةٌ »^(١) ، وَالنِّسَاءُ كَأَوْرَاقِ السَّحْبِ ، مِنْهُنَّ وَرَقَةٌ هِيَ التَّوْفِيقُ وَالْغِنَى بَيْنَ آلاَفِ هُنَّ الْفَقْرُ وَالْخَبِيَّةُ الْمُحَقَّقَةُ .

قُلْتُ : هَلِ اعْتَدْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ وَأَنْتَ نَائِمٌ ؟ فَلَعَلَّكَ الْآنَ فِي نَوْمَةِ عَقْلِ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ الْآنَ فِي غَفْلَةِ عَقْلِ .

إِنَّ هَذَا الْمُسْكِينَ الَّذِي يَمْسَحُ الْأَحْدِيَّةَ وَيَشْتَرِي مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ لَا يَخْلُو مِنْهَا ؛ يَعْلَمُ عَلِمًا أَكْثَرَ مِنَ الْيَقِينِ أَنَّ عَيْشَهُ هُوَ مِنْ مَسْحِ الْأَحْدِيَّةِ لَا مِنَ الْأَخِيَّةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ ؛ فَهُوَ لَا يَعْتَدُّ بِهَا فِي كَبِيرِ أَمْرِ وَلَا صَغِيرِهِ ، وَمَا يُنْزِلُهَا فِي حِسَابِ رَغِيْبِهِ وَتَوْبِهِ إِلَّا يَوْمَ يُخَالِطُ فِي عَقْلِهِ فَيْتَنُّهُ أَنْ يَمْسَحَ أَحْدِيَّةَ النَّاسِ ، وَيَرَى أَنَّ عَظِيمًا مِثْلَهُ لَا يَمْسَحُ إِلَّا أَحْدِيَّةَ الْمَلَائِكَةِ ...

أَنْتَ يَا هَذَا مُهَنْدِسٌ ، وَلَكَ بَعْضُ الشَّانِ وَبَعْضُ الْمَتَرَلَةِ ، فَهَبَكَ أَرَأَيْتَ أَنَّهُ لَا يَخْسُرُ بِكَ أَوْ لَا يَخْسُرُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِنْتِ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَهَذِهِ وَحْدَهَا هِيَ عِنْدَكَ « الثَّمَرَةُ الرَّابِحَةُ »^(٢) ، وَسَائِرُ النِّسَاءِ فَقْرٌ وَخَبِيَّةٌ ، مَا دَامَ الْأَمْرُ أَمْرَ رَأِيكَ وَهَوَاكَ ؛ غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا عَرَضَتْ لِنِلِّكَ « الثَّمَرَةُ الرَّابِحَةُ » لَمْ تَعْرِفَكَ هِيَ إِلَّا صُعْلُوكًا فِي الصَّعَالِيكِ ، وَأَحْمَقَ بَيْنَ الْحَمَقَى .

إِنَّ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ تُصْنَعُ صَنْعَتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ جُمْلَتُهَا خَاسِرَةً إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنْهَا ؛ فَإِذَا تَعَاطَيْتَ شِرَاءَهَا فَأَنْتَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ تَأْخُذُهَا ، وَبِهَذَا الشَّرْطِ تَبْذُلُ فِيهَا ؛ وَمَا تَمْتَرِي أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ أَنَّ الْقَاعِدَةَ هَهُنَا هِيَ الْخَبِيَّةُ ، وَشُدُودُهَا هُوَ الرَّبْحُ ؛ وَلَيْسَ فِي الْأَخْتِمَالِ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بَرَى إِلَيْكَ الْحَظُّ إِنْ لَمْ يُصِْبَكَ شَيْءٌ مِنْهُ ؛ وَأَيْنَ هَذَا وَأَيْنَ

(١) لوترية من الكلمة الفرنسية Loterie . وتعني : اليانصيب . بسام .

(٢) النمرة الرابعة ، أي : الرقم الرابع ، ونمرة من Nombre والذي يعني : العدد ، ولعل أصل الكلمة من العربية ، فالنُمرة : النكته من أي لون كان ، وبعبارة أخرى : العلامة من أي شكل كانت ، بل الَّلْمُرُ الحيوان المعروف سمي كذلك للثَمَرِ التي في جلده ، أي : العلامات التي في جلده . بسام .

النِّسَاءُ ، وَمَا مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ إِلَّا وَفِيهَا مَنَفَعَةٌ تَكْثُرُ أَوْ تَقِلُّ ، بَلِ الرِّجَالُ لِلنِّسَاءِ هُمْ أَوْزَاقُ السَّحْبِ فِي أَعْتِبَارَاتٍ كَثِيرَةٍ ، مَا دَامَتْ طَبِيعَةُ اتِّصَالِهِمَا تَجْعَلُ الْمَرْأَةَ هِيَ فِي قَوَائِنِ الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِمَّا تَجْعَلُ الرَّجُلُ فِي قَوَائِنِهَا ، وَهَلْ ضَاعَتِ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ غَفْلَةِ رَجُلٍ أَوْ قَسْوَتِهِ أَوْ فُسُوقِهِ أَوْ فُجُورِهِ ؟

قَالَ الْمُهَنْدِسُ : فَإِنِّي أَعْلَمُ الْآنَ - وَكُنْتُ أَعْلَمُ - أَنَّ لَا صَلَاحَ لِي إِلَّا بِالزَّوْاجِ ، وَأَنَّ طَرِيقِي إِلَى الزَّوْجَةِ هُوَ كَذَلِكَ طَرِيقِي إِلَى فَضِيلَتِي وَإِلَى عَقْلِي . وَتَالَلَّهِ مَا شَيْءٌ أَسْوَأَ عِنْدَ الْعَرَبِ وَلَا أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِنْ بَقَائِهِ عَزَبًا ، غَيْرَ أَنَّهُ يُكَابِرُ فِي الْمُمَارَاةِ كُلَّمَا تَحَاقَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَكُلَّمَا رَأَى أَنَّ لَهُ حَالًا يَنْفَرُ بِهَا فِي سَخَطِ اللَّهِ وَسَخَطِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَلَا مَكْدَبَةَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ أَنْفَقْتُ فِي رَدَائِلِي مَا يَجْتَمِعُ مِنْهُ مَهْرُ زَوْجَةٍ سَرِيَّةٍ تَشْتَطُّ فِي الْمَهْرِ وَتَغْلُو فِي الطَّلَبِ ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بَيْنَ الْآنَ وَمَا جَبَرَنِي مِنْ قَبْلِ إِصْلَاحِ ، وَلَا أَعَانَنِي أَقْصَادُ ، وَمَنْ لِي بِفَتَاةٍ مِنْ طَبَقَتِي بِمَهْرٍ لَا أَتَحَمَّلُ مِنْهُ رَهَقًا ، وَلَا تَتَقَاصِرُ مَعَهُ أُمُورِي ، وَلَا تَخْتَلُ مَعِيشَتِي ؟

قُلْتُ : فَإِذَا لَمْ يَحْمِلْكَ الْحِمَارُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُ يَحْمِلُكَ إِلَى قَلْبُوبِ أَوْ طُوخِ . وَفِي النِّسَاءِ أَسْكَندَرِيَّةٌ ، وَفِيهِمْ شَبْرَا ، وَقَلْبُوبٌ ، وَطُوخٌ ؛ وَمَا قَرَبَ وَبَعَدَ ، وَمَا رَخِصَ وَغَلَا .

قَالَ : وَلَكِنْ بَلَدِي أَسْكَندَرِيَّةٌ . . .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ لَا تَمْلِكُ إِلَّا حِمَارًا . . . وَلِلْمَرْأَةِ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ سِغَرُهَا فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْفَاسِدِ ؛ وَلَوْ تَعَاوَنَ النَّاسُ وَصَلَحُوا وَأَذْرَكُوا الْحَقِيقَةَ كَمَا هِيَ ، لَمَا رَأَيْنَا الزَّوْاجَ مِنْ فَقْرِ الْمُهُوَرِ كَأَنَّمَا يَرْكَبُ سُلْخَفَاءُ يَمْشِي بِهَا . . . وَنَحْنُ فِي عَصْرِ الْقِطَارِ وَالطَّيَّارَةِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الزَّوْاجُ عَلَى عَهْدِ أَجْدَادِنَا فِي عَصْرِ الْحِمَارِ وَالْجَمَلِ - كَأَنَّهُ وَحْدَهُ مِنَ السَّرْعَةِ فِي طَيَّارَةٍ أَوْ قِطَارٍ .

* * *

حِينَ يَفْسُدُ النَّاسُ لَا يَكُونُ الْأَعْتِبَارُ فِيهِمْ إِلَّا بِالْمَالِ ، إِذْ تَنْزِلُ قِيَمَتُهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَيَبْقَى الْأَمَالُ وَحْدَهُ هُوَ الصَّالِحُ الَّذِي لَا تَتَغَيَّرُ قِيَمَتُهُ . فَإِذَا صَلَحُوا كَانَ الْأَعْتِبَارُ فِيهِمْ بِأَخْلَاقِهِمْ

وَنُفُوسِهِمْ ، إِذْ تَنَحَّطُ قِيَمَةُ الْمَالِ فِي الْأَعْيَارِ ، فَلَا يَغْلِبُ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَلَا يُسَخِّرُهَا .
وَالِإِلَى هَذَا أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ لِطَالِبِ الزَّوْاجِ : « أَلْتَمَسَ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ »^(١)
[البخاري ، رقم : ٥١٢١ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٢٥] . يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْيَ الْمَادِّيَّةِ عَنِ الزَّوْاجِ ، وَإِحْيَاءَ
الرُّوحِيَّةِ فِيهِ ، وَإِفْرَادَهُ فِي مَعَانِيهِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الدَّقِيقَةِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنَّ كِفَايَةَ الرَّجُلِ فِي
أَشْيَاءَ إِنْ يَكُنْ مِنْهَا أَلْمَالُ فَهُوَ أَقْلَاهَا وَآخِرُهَا ، حَتَّى إِنْ الْأَخْسَ الْأَقْلَّ فِيهِ لِيُجْزَى مِنْهُ كَخَاتَمِ
الْحَدِيدِ ؛ إِذِ الرَّجُلُ هُوَ الرُّجُولَةُ بِعَظَمَتِهَا وَجَلَالِهَا وَقُوَّتِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَلَنْ يُجْزَى مِنْهُ الْأَقْلُ
وَلَا الْأَخْسَ مَعَ الْمَالِ ، وَإِنْ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَا يُكْمَلُ لِلْمَرْأَةِ رَجُلًا نَاقِصًا ؛ وَهَلْ تُتِمُّ
الْأَسْنَانُ الذَّهَبِيَّةُ اللَّامِعَةُ ، يَحْمِلُهَا الرَّجُلُ الْهَرِمُ فِي فَمِهِ ، شَيْئًا مِمَّا ذَهَبَ مِنْهُ ؟ وَمَا عَسَى
أَنْ تَصْنَعَ قَوَاطِعُ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَطَوَاجِئُهُ لِهَذَا الْمُسْكِينِ بَعْدَ أَنْ نَطَقَ تَحَاتُّ أَسْنَانِهِ
الْعَظَمِيَّةِ وَتَنَازَرُهَا أَنَّهُ رَجُلٌ حَلَّ أَلْبَلَى فِي عِظَامِهِ . . . ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) أَنْظِرْ « قِصَّةُ زَوَاجٍ ، وَقَلَسَقَةُ الْمَهْرِ » .

رُؤْيَا فِي السَّمَاءِ (*)

قَالَ أَبُو خَالِدٍ الْأَخْوَلُ الزَّاهِدُ: لَمَّا مَاتَتْ أَمْرَأَةُ شَيْخِنَا أَبِي رَبِيعَةَ الْفَقِيهِ الصُّوفِيِّ، ذَهَبَتْ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَشَهِدْنَا أَمْرَهَا؛ فَلَمَّا قَرَعُوا مِنْ دَفْنِهَا وَسُويَ عَلَيْهَا، قَامَ شَيْخُنَا عَلَى قَبْرِهَا وَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا فُلَانَةُ! أَلَا نَقَدْ شُفِيتِ أَنْتِ وَمَرِضْتُ أَنَا، وَعُوفِيتِ وَأَبْتُلِيتِ، وَتَرَكْتِنِي ذَاكِرًا، وَذَهَبْتَ نَاسِيَةً، وَكَانَ لِلدُّنْيَا بِكَ مَعْنَى، فَسَتَكُونُ بَعْدَكَ بِلَا مَعْنَى؛ وَكَانَتْ حَيَاتِكَ لِي نِصْفَ الْقُوَّةِ، فَعَادَ مَوْتُكَ لِي نِصْفَ الضَّعْفِ؛ وَكُنْتُ أَرَى الْهُمُومَ بِمَوَاسَاتِكَ هُمُومًا فِي صُورِهَا الْمُخَفَّفَةِ، فَسَتَأْتِنِي بَعْدَ الْيَوْمِ فِي صُورِهَا الْمُضَاعَفَةِ؟ وَكَانَ وَجُودُكَ مَعِيَ حِجَابًا بَيْنِي وَبَيْنَ مَشَقَّاتٍ كَثِيرَةٍ، فَسَتَخْلُصُ كُلَّ هَذِهِ الْمَشَاقِّ إِلَيَّ نَفْسِي؛ وَكَانَتْ الْأَيَّامُ تَمُرُّ أَكْثَرَ مَا تَمُرُّ فِي رَفَّتِكَ وَحَنَانِكَ، فَسَتَأْتِنِي أَكْثَرَ مَا تَأْتِي مُتَجَرِّدَةً فِي قَسَوَتِهَا وَغِلْظَتِهَا. أَمَا إِنِّي - وَاللَّهِ - لَمْ أُرْأَ مِنْكَ فِي أَمْرَأَةٍ كَالنِّسَاءِ، وَلَكِنِّي رُزْتُ فِي الْمَخْلُوقَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي أَحْسَسْتُ مَعَهَا أَنَّ الْخَلِيقَةَ كَانَتْ تَلَطَّفُ بِي مِنْ أَجْلِهَا!

قَالَ أَبُو خَالِدٍ: ثُمَّ اسْتَدْمَعَ الشَّيْخُ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ وَرَجَعْنَا إِلَى دَارِهِ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِمَا يُعْزِي النَّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَأَخْفَظَ لِمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ؛ غَيْرَ أَنَّ لِلْكَلامِ سَاعَاتٍ تَبْطُلُ فِيهَا مَعَانِيهِ أَوْ تَضَعُفُ، إِذْ تَكُونُ النَّفْسُ مُسْتَعْرِقَةً أَلْهَمَ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ قَدْ أَنْحَصَرَتْ فِيهِ، إِمَّا مِنْ هَوْلِ الْمَوْتِ، أَوْ حُبِّ وَقَعٍ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ ظِلُّ الْمَوْتِ، أَوْ رَغْبَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا ظِلُّ الْحُبِّ، أَوْ لَجَاجَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا ظِلُّ الرَّغْبَةِ. فَكُنْتُ أَحَدُهُ وَأَعَزِّيهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَدِيثِي وَتَعْرِيتِي؛ حَتَّى أَنْتَهَيْتَا إِلَى الدَّارِ فَدَخَلْنَا وَمَا فِيهَا أَحَدٌ؛ فَتَنَظَّرَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وَقَلَّبَ عَيْنَيْهِ هَلْهَنًا وَهَلْهَنًا، وَحَوَقَلَ وَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا نَقَدْ مَاتَ الدَّارُ أَيْضًا يَا أَبَا خَالِدٍ! إِنَّ الْبِنَاءَ كَأَنَّمَا يَحْيَا بِرُوحِ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ فِي دَاخِلِهِ؛ وَمَا دَامَ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهَا لِلرَّجُلِ، فَهُوَ فِي

عَيْنِ الرَّجُلِ كَالْمُطَرَفِ^(١) تَلْبَسُهُ فَوْقَ ثِيَابِهَا مِنْ فَوْقِ جِسْمِهَا : وَأَنْظُرْ كَمْ بَيْنَ أَنْ تَرَى عَيْنَكَ ثَوْبَ امْرَأَةٍ فِي يَدِ الدَّلَالِ فِي السُّوقِ ، وَبَيْنَ أَنْ تَرَاهُ عَيْنَكَ يَلْبَسُهَا وَتَلْبَسُهُ ! وَلَكِنَّكَ يَا أَبَا خَالِدٍ لَا تَفْقَهُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ، فَأَنْتَ رَجُلٌ آلَيْتَ لَا تَقْرُبُ النِّسَاءَ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ ، وَتَجَوِّتَ بِنَفْسِكَ مِنْهُنَّ وَأَنْقَطَعْتَ بِهَا لِلَّهِ ؛ وَكَأَنَّ كُلَّ نِسَاءِ الْأَرْضِ قَدْ شَارَكْنَ فِي وَلَادَتِكَ فَحَرُمْنَ عَلَيْكَ ! وَهَذَا مَا لَا أَفْهَمُهُ أَنَا إِلَّا الْأَفَاطَا ، كَمَا لَا تَفْهَمُ أَنْتَ مَا أَجِدُ^(٢) السَّاعَةَ إِلَّا الْأَفَاطَا ؛ وَشَتَانَ بَيْنَ قَائِلٍ يَتَكَلَّمُ مِنَ الطَّنْعِ ، وَبَيْنَ سَامِعٍ يَفْهَمُ بِالتَّكَلُّفِ .

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا رِبِيعَةَ ! وَمَا يَمْنَعُكَ الْآنَ وَقَدْ أَطْرَحْتَ أَثْقَالَكَ وَأَنْبَتَتْ أَسْبَابُكَ مِنَ النِّسَاءِ - أَنْ تَعِيشَ خَفِيفَ الظَّهْرِ ، وَتَفْرُغَ لِلنَّسِكِ وَالْعِبَادَةِ ، وَتَجْعَلَ قَلْبَكَ كَالسَّمَاءِ أَنْفَشَعَ غَيْمُهَا فَسَطَعَتْ فِيهَا الشَّمْسُ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَوْ كَانَتْ صَالِحَةً قَانِتَةً - فَبَيَّ فِي مَنْزِلِ الرَّجُلِ الْعَايِدِ مَذْخَلَ الشَّيْطَانِ إِلَيْهِ ، وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْعَايِدَ كَانَ يَسْكُنُ فِي حَسَنَاتِهِ لَا فِي دَارٍ مِنَ الطُّوبِ وَالْحِجَارَةِ لَكَانَتْ أَمْرَانُهُ كَوَّةً يَفْتَحُهُمُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا . وَلَقَدْ كَانَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ سَمَوَاتٌ وَأَفْلَاكٌ ، فَمَا مَنَعَ ذَلِكَ أَنْ تَتَعَلَّقَ رُوحُ الْأَرْضِ بِالشَّيْطَانِ ، فَيَتَعَلَّقَ الشَّيْطَانُ بِحَوَاءٍ ، وَتَتَعَلَّقَ هِيَ بِآدَمَ ؛ وَمَكَرَ الشَّيْطَانُ فَصَوَّرَهَا لَهُمَا فِي صَنِيعَةٍ مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ ، وَمَكَرَتْ حَوَاءٌ فَوَضَعَتْ فِيهَا جَاذِبِيَّةَ اللَّحْمِ وَالذَّمِّ ، فَلَمْ تَعُدْ مَسْأَلَةً عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ، بَلْ مَسْأَلَةً طَبْعٍ وَلَجَاجَةٍ . فَأَكَلَا مِنْهَا ، فَبَدَتْ لَهَا سُوءَاتُهُمَا .

وَهَلِ اجْتَمَعَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ مِنْ بَعْدِهَا عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا كَانَا مِنْ نَصَبِ الْحَيَاةِ وَهُمْؤومَهَا ، وَشَهْوَاتِهَا وَمَطَامِعِهَا ، وَمَضَارِّهَا وَمَعَايِبِهَا - فِي مَعْنَى ﴿ بَدَتْ لَهَا سُوءَاتُهُمَا ﴾ [٧]

سورة الاعراف/ الآية : ٢٢] . . . ؟

كَلَانَا يَا أَبَا رِبِيعَةَ ، مِمَّنْ لَهُمْ سَيْرٌ بِالْبَاطِنِ فِي هَذَا الْوُجُودِ غَيْرِ السَّيْرِ بِالظَّاهِرِ ، وَمِمَّنْ لَهُمْ حَرَكَةٌ بِالْفِكْرِ غَيْرِ الْحَرَكَةِ بِالْجِسْمِ ؛ فَتَقِيحُ بِنَا أَنْ نَتَعَلَّقَ أَذْنَى مُتَعَلِّقٍ بِتَوَاقُفٍ هَذَا الْكُونِ اللَّخْمِيِّ الَّذِي يُسَمَّى الْمَرْأَةَ ، فَهُوَ تَدَلٌّ وَإِسْقَافٌ مِتًا .

(١) الْمُطَرَفُ: رِدَاءٌ مِنْ خَزَفٍ فِيهِ نُقُوشٌ تَلْبَسُهَا الْمَرْأَةُ فِي دَارِهَا ، وَهُوَ الْمُسَمَّى: الرَّوْبُ [Robe de chambre .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « مَا أَجِدُهُ » بَدَلًا مِنْ : « مَا أَجِدُ » .

وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : «الْكُفْلُ وَتَكْنِيضُ الْأَدْمِيَّةِ» فَهَذَا إِنَّمَا كُتِبَ عَلَى إِنْسَانِ الْجَوَارِحِ وَالْأَغْصَاءِ ، أَمَّا إِنْسَانُ الْقَلْبِ فَلَهُ مَعْنَاهُ وَحُكْمُ مَعْنَاهُ ؛ إِذْ يَعِيشُ بِبَاطِنِهِ ، فَيَعِيشُ ظَاهِرُهُ فِي قَوَانِينِ هَذَا الْبَاطِنِ ، لَا فِي قَوَانِينِ ظَاهِرِ النَّاسِ . وَإِنَّهُ لَشَرُّ كُلِّ مَا نَقَلَكَ إِلَى طَبْعِ أَهْلِ الْجَوَارِحِ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَزَيَّنَ لَكَ مَا يُزَيِّنُ لَهُمْ ، وَشَغَلَكَ بِمَا يَشْغَلُهُمْ ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا - يَزَحْمُكَ اللَّهُ - بَابٌ كَأَنَّهُ مِنْ أَبْوَابِ الْمُجُونِ الَّذِي يَنْقُلُ الرَّجُلُ إِلَى طَبْعِ الصَّبِيِّ .

فَاطْمِسْ يَا أَخِي عَلَى مَوْضِعِهَا مِنْ قَلْبِكَ ، وَأَلْقِ الثُّورَ عَلَى ظِلِّهَا ؛ فَالْثُّورُ فِي قَلْبِ الْعَابِدِ نُورُ التَّخَوُّلِ إِنْ شَاءَ ، وَنُورُ الرُّؤْيَةِ إِنْ شَاءَ ؛ يَرَى بِهِ الْمَادَّةَ كَمَا يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَا كَمَا تَكُونَ . وَأَنْتَ قَدْ كَانَتْ فِيكَ أَمْرَةٌ ، فَحَوَّلَهَا صَلَاةً ، وَأَعْمَلَ بِنُورِكَ عَكْسَ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَوَارِحِ بِظِلَامِهِمْ ، فَقَدْ تَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ الصَّلَاةَ فَيَحَوِّلُهَا أَمْرَةً . . .

قَالَ أَبُو رَيْبَعَةَ : تَاللَّهِ إِنَّهُ لَرَأْيِي ؛ وَالْوَحْدَةُ بَعْدَ الْآنَ أَرْوَحُ لِقَلْبِي ، وَأَجْمَعُ لِهَمَّتِي ؛ وَقَدْ خَلَعَنِي اللَّهُ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَأَخَذَ الْقَبْرَ أَمْرَاتِي وَشَهَوَاتِي مَعًا ، فَسَاعِيشُ مَا بَقِيَ لِي فِيمَا بَقِيَ مِنِّي . وَزَوَالَ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ هُوَ وَجُودُ شَيْءٍ آخَرَ . وَلَقَدْ أَتَهَيْتُ بِالْمَرْأَةِ وَمَعَانِيهَا وَأَيَّامِهَا إِلَى الْقَبْرِ ، فَالْبَدْءُ الْآنَ مِنَ الْقَبْرِ وَمَعَانِيهِ وَأَيَّامِهِ .

* * *

وَتَوَاقَفَا عَلَى أَنْ يَسِيرَا مَعًا فِي (بَاطِنِ) الْوُجُودِ . . . ! وَأَنْ يَعِيشَا فِي عُمْرٍ هُوَ سَاعَةٌ مَعْدُودَةٌ لِلْحَضَاتِ ، وَحَيَاةٌ هِيَ فِكْرَةٌ مَرْسُومَةٌ مُصَوَّرَةٌ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَرَأَيْتُ أَنْ أَيْتَ عِنْدَهُ وَفَاءً بِحَقِّ خِدْمَتِهِ ، وَدَفَعًا لِلْوَحْشَةِ أَنْ تُعَاوِدَهُ فَتَدْخُلَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَفْكَارِهَا وَوَسَاوِسِهَا . وَكَانَ قَدْ عَمَرَنَا نَعْبُ يَوْمِنَا ، وَأَعْيَا أَبُو رَيْبَعَةَ ، وَخَذَلَتْهُ الْقُوَّةُ ؛ فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعِشَاءَ قُلْتُ : يَا أَبَا رَيْبَعَةَ ! أَحِبُّ لَكَ أَنْ تَنْعَسَ فَتَرِيحَ نَفْسَكَ لِيَذْهَبَ مَا بِكَ ، فَإِذَا اسْتَجَمَمْتَ أَتَقَطَّتْكَ فَقَمْنَا سَائِرَ اللَّيْلِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ اضْطَجَعَ حَتَّى غَلَبَهُ الْعَاسُ . وَجَلَسْتُ أَفْكُرُ فِي حَالِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا أَجْتَهَدْتُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَلَّنِي أَعْرِينَهُ بِمَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ ، وَأَشْرْتُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ ، فَأَكُونَ قَدْ عَشِشْتُهُ . وَخَاَمَرَنِي الشُّكُّ فِي حَالِي أَنَا أَيْضًا ،

وَجَعَلْتُ أَقَابِلُ بَيْنَ الرَّجُلِ مُتَزَوِّجًا عَابِدًا ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ عَابِدًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَرْتِيَاضِ أَحَدِهِمَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَعِيَالِهِ ، وَأَرْتِيَاضِ الْآخَرِ بِنَفْسِهِ وَخَدَمَا ؛ وَأَخَذْتُ أَذْهَبُ وَأَجِيءُ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، وَقَدْ هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي كَأَنَّ الْمَكَانَ قَدْ نَامَ ، فَلَمْ أَلْبَثْ حَتَّى أَخَذَنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَأَسْتَقَلْتُ كَأَنَّمَا شُدِدْتُ شَدًّا بِحِبَالٍ مِنَ النَّوْمِ لَمْ يَجِئْ مَنْ يَقْطَعُهَا .

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي كَأَنَّهَا الْقِيَامَةُ وَقَدْ بُعِثَ النَّاسُ ، وَضَاقَ بِهِمُ الْمَحْشَرُ ، وَأَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ ، وَكَأَنَّمَا مِنَ الضُّغْطَةِ حَبٌّ مَبْتُوثٌ بَيْنَ حَجَرَيْنِ الرَّحَى . هَذَا وَالْمَوْقِفُ يَغْلِي بِنَا غَلِيَانٍ الْقَدَرِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدْ أَشْتَدَّ الْكَرْبُ وَجَهَدْنَا الْعَطَشُ ، حَتَّى مَا مِثْلًا دُوْ كَيْدٍ إِلَّا وَكَأَنَّ الْجَحِيمَ تَنْفَسُ عَلَى كَيْدِهِ ، فَمَا هُوَ الْعَطَشُ بَلْ هُوَ السُّعَارُ وَاللَّهَبُ يَخْتَدِمُ بِهِمَا الْجَوْفُ وَيَتَأَجَّجُ .

فَنَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا وَلَدَانِ يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ الْحَاشِدَ ، عَلَيْهِمْ مَنَادِيلُ مِنْ نُورٍ ، وَبِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ مِنْ ذَهَبٍ ، يَمْلَأُونَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ بِسَلْسَالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤْيَاهُ عَطَشٌ مَعَ الْعَطَشِ ، حَتَّى لَيْتَلَوِي مَنْ رَأَاهُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيَتَلَعَّلُ كَأَنَّمَا كُويَ بِهِ عَلَى أَحْشَائِهِ .

وَجَعَلَ الْوِلْدَانِ يَسْقُونَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ ، وَيَتَجَاوَزُونَ مَنْ بَيْنَهُمَا ، وَهُمْ كَثْرَةٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَكَأَنَّمَا يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَنَاسٍ بِأَعْيَانِهِمْ ، يَنْضَحُونَ غَلِيلَ أَكْبَادِهِمْ بِمَا فِي تِلْكَ الْأَبَارِيقِ مِنْ رَوْحِ الْجَنَّةِ وَمَائِهَا وَتَسِيمِهَا .

وَمَرَّ بِي أَحَدُهُمْ ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ : « أَسْقِنِي فَقَدْ يَبَسْتُ وَاحْتَرَفْتُ مِنْ الْعَطَشِ ! » .

قَالَ : « وَمَنْ أَنْتَ ؟ » .

قُلْتُ : « أَبُو خَالِدٍ الْأَحْوَلُ الزَّاهِدُ . . » .

قَالَ : « أَلَمْ أَكُ فِي أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا أَفْتَرَطْنَاهُ صَغِيرًا فَأَخْتَسَبْتُهُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَمْ وَلَدَ كَبِيرٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؟ » .

قُلْتُ : « لَا . . . » .

قَالَ : « أَلَا نَأْتِيكَ مِنْهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ جَزَاءَ حَقِّكَ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَى الدُّنْيَا ؟ » .
قُلْتُ : « لَا ... » .

قَالَ : « أَلَا وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ وَلَكَتُكَ تَعْبَتْ فِي تَقْوِيهِمْ ، وَقُمْتَ بِحَقِّ اللَّهِ فِيهِ ؟ » .

قُلْتُ : « يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، إِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ « لَا » أَحْسَنْتُ « لَا » هَلِذِهِ تَمُرُّ عَلَى لِسَانِي كَالْمِكْوَةِ الْحَامِيَةِ ... » .

قَالَ : « فَتَحْنُ لَا نَسْقِي إِلَّا آبَاءَنَا ؛ تَعْبُوا لَنَا فِي الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَتَّعِبُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِمُ الطُّفُولَةَ ، وَإِنَّمَا قَدَّمُوا أَلْسِنَةَ طَاهِرَةً لِلدَّفَاعِ عَنْهُمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ مَحْكَمَةُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ . وَلَيْسَ هُنَا بَعْدَ أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ طَلَاقَةً مِنْ أَلْسِنَةِ الْأَطْفَالِ ، فَمَا لِلطُّفْلِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي أَنَا مِنْكُمْ يَخْتَبِسُ فِيهِ لِسَانُهُ أَوْ يُلْجَلِجُ بِهِ » .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : فَجُنَّ جُنُونِي ، وَجَعَلْتُ أُبَحِّثُ فِي نَفْسِي عَنْ لَفْظَةِ « أَبْنِ » فَكَأَنَّمَا مُسَحَتْ الْكَلِمَةُ مِنْ حِفْظِي كَمَا مُسَحَتْ مِنْ وُجُودِي ؛ وَذَكَرْتُ صَلَاتِي وَصِيَامِي وَعِبَادَتِي ، فَمَا خَطَرْتُ فِي قَلْبِي حَتَّى ضَحِكَ الْوَلِيدُ ضَحِكًا وَجَدْتُ فِي مَعْنَاهُ بُكَائِي وَنَدَمِي وَخَيْبَتِي .

وَقَالَ : يَا وَيْلَكَ ! أَمَا سَمِعْتَ : « إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَلَا الصِّيَامُ ، وَيُكَفِّرُهَا الْعَمَلُ بِالْعِيَالِ » [راجع « مجمع الزوائد » ، رقم : ٣٧٣٥] . أَتَعْرِفُ مَنْ أَنَا يَا أَبَا خَالِدٍ ؟

قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ بِكَ ؟

قَالَ : أَنَا ابْنُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْمُعِيلِ ، الَّذِي قَالَ لِشَيْخِكَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ الْعَابِدِ الزَّاهِدِ : « طُوبَى لَكَ ! فَقَدْ تَفَرَّغْتَ لِلْعِبَادَةِ بِالْعَزُوبَةِ » . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : « لَرَوْعَةُ تَنَاكَ بِسَبَبِ الْعِيَالِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا أَنَا فِيهِ ... » ، وَقَدْ جَاهَدَ أَبِي جِهَادَ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَبَدَنِهِ ، وَحَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مُقَاسَاةِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ حَمْلَهَا الْإِنْسَانِيُّ الْعَظِيمَ ، وَفَكَرَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَأَغْنَمَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَعَمِلَ لِغَيْرِ نَفْسِهِ ، وَأَمَنَ وَصَبَرَ ، وَوَثِقَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ حِينَ تَزَوَّجَ فَقِيرًا ، وَبِضْمَانِ اللَّهِ حِينَ أَغْقَبَ فَقِيرًا ؛ فَهُوَ مُجَاهِدٌ فِي سُبُلِ كَثِيرَةٍ لَا فِي سَبِيلِ وَاحِدَةٍ كَمَا يُجَاهِدُ

الْغَزَاهُ ؛ هَؤُلَاءِ يُسْتَشْهَدُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَمَا هُوَ فَيُسْتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً فِي هُمُومِهِ بِنَا ،
وَالْيَوْمَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِنَّا فِي الدُّنْيَا .

أَمَا بَلَغَكَ قَوْلُ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَهُوَ مَعَ إِخْوَانِهِ فِي الْغَزَاوِ : « أَنْعَلْمُونَ عَمَلًا أَفْضَلَ مِمَّا
نَحْنُ فِيهِ ؟ قَالُوا : مَا نَعْلَمُ ذَلِكَ . قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ . قَالُوا فَمَا هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مُتَعَفِّفٌ
عَلَى فَقْرِهِ ، ذُو عَائِلَةٍ قَدْ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، فَنَظَرَ إِلَى صَبْيَانِهِ نِيَامًا مُتَكَشِّفِينَ ، فَسَرَّهُمْ وَغَطَّاهُمْ
بِثَوْبِهِ ؛ فَعَمَلُهُ أَفْضَلُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ . . . »

يَخْلَعُ الْأَبُ الْمُسْكِينُ ثَوْبَهُ عَلَى صَبْيَتِهِ لِيُدْفِنَهُمْ بِهِ وَيَلْقَى بِجِلْدِهِ الْبَرْدَ فِي اللَّيْلِ ، إِنَّ
هَذَا الْبَرْدَ - يَا أَبَا خَالِدٍ - تَحْفَظُهُ لَهُ الْجَنَّةُ هُنَا فِي حَرِّ هَذَا الْمَوْقِفِ كَأَنَّهَا مُرْتَمَنَةٌ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ
تُؤَدِّيَهُ . وَإِنَّ ذَلِكَ الدَّفْعَ الَّذِي شَمِلَ أَوْلَادَهُ يَا أَبَا خَالِدٍ - هُوَ هُنَا يُقَاتِلُ جَهَنَّمَ وَيَدْفَعُهَا عَنْ
هَذَا الْأَبِ الْمُسْكِينِ .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَيَهُمُّ الْوَلِيدُ أَنْ يَمْضِيَ وَيَدْعَنِي ، فَمَا أَمْلِكُ نَفْسِي ، فَأَمُدُّ يَدِي إِلَى
الْإِبْرَيْقِ فَأَنْشِطُهُ مِنْ يَدِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَظْمٍ ضَخْمٍ قَدْ نَسِبَ فِي كَفِّي وَمَا يَلِينَا مِنْ
أَسَلَةِ الدَّرَاعِ^(١) . فَعَاثَتْ فِيهِ أَصَابِعِي ، فَلَا أَصَابِعَ لِي وَلَا كَفَّ . وَأَبَى الْإِبْرَيْقُ أَنْ يَسْقِيَنِي
وَصَارَ مَثَلَةً بَيْنِي ، وَتَجَسَّدَتْ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ لِتَشْهَدَ عَلَيَّ ، فَأَخَذَنِي الْهَوْلُ وَالْفَزَعُ ، وَجَاءَ
إِبْرَيْقُ مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَ فِي يَدِ الْوَلِيدِ ، فَتَرَكَنِي وَمَضَى .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَيَحَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ ! مَا أَرَاكَ إِلَّا مُحَاسِبًا عَلَى حَسَنَاتِكَ كَمَا يُحَاسِبُ
الْمُذْنِبُونَ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

وَبَلَغْتَنِي الصَّيْحَةُ الرَّهْبِيَّةُ : أَيْنَ أَبُو خَالِدٍ الْأَخْوَلُ الرَّاهِدُ الْعَابِدُ ؟

قُلْتُ : هَآنَذَا .

قِيلَ : طَاوَوْسٌ مِنْ طَاوَوَيْسِ الْجَنَّةِ قَدْ حُصَّ^(٢) ذَيْلُهُ فَضَاعَ أَحْسَنَ مَا فِيهِ ! أَيْنَ ذَيْلُكَ

(١) الْأَسَلَةُ : مَا يَلِينُ الْكَفَّ مِنَ الدَّرَاعِ إِلَى الْقِسْمِ الْمُسْتَغْلَظِ مِنْهَا . فَلَا أَسَلَةَ هِيَ الْعِظْمَةُ الَّتِي تُشَدُّ عَلَيْهَا
سَاعَةُ الْيَدِ .

(٢) حُصَّ ذَيْلُهُ : قُطِعَ وَجُدَّ .

مِنْ أَوْلَادِكَ ، وَأَيْنَ مَحَاسِنُكَ فِيهِمْ ؟ أَخُلِقْتَ لَكَ الْمَرْأَةُ لَتَجُنَّبَهَا ، وَجُعِلَتْ نَسْلُ أَبَوَيْكَ لَتَسْبِرَ أَنْتَ مِنَ النَّسْلِ ؟

جِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ بِأَشْيَاءَ لَيْسَ فِيهَا حَيَاةٌ ؛ فَمَا صَنَعْتَ لِلْحَيَاةِ نَفْسَهَا إِلَّا أَنْ هَرَبْتَ مِنْهَا ، وَأَنْهَزَمْتَ عَنْ مُلَاقَاتِهَا ؛ ثُمَّ أَنْتَ تَأْمُلُ جَائِزَةَ النَّصْرِ عَلَى هَزِيمَةٍ . . . !

عَمِلْتَ الْفُضَيْلَةَ فِي نَفْسِكَ وَنَشَاتِكَ ، وَلَكِنَّهَا عَمِيتَ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ . لَكَ أَلْفُ أَلْفِ رُكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٌ مِنَ التَّوَافِلِ ، وَلَخَيْرٌ مِنْهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءُ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ .

قَتَلْتَ رُجُولَتَكَ ، وَوَأَدَّتْ فِيهَا النَّسْلَ ، وَلَبِثْتَ طَوَالَ عُمْرِكَ وَلَدًا كَبِيرًا لَمْ تَبْلُغْ رُتْبَةَ الْأَبِ ! فَلَيْنَ أَقَمْتَ الشَّرِيعَةَ ، لَقَدْ عَطَلْتَ الْحَقِيقَةَ ، وَلَيْنَ . . .

قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَوَقَعَتْ عَنْهُ الثُّنُونُ الثَّانِيَةُ فِي مِسْمَعِي مِنْ هَوْلِ مَا خِفْتُ مِمَّا بَعْدَهَا كَالْتَفُخِ فِي الصُّورِ ؛ فَطَارَ نَوْمِي وَقُمْتُ فِرْعَا مُسْتَتِ الْقَلْبِ ، كَمَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ غَشْيَةٍ ، فَرَأَى نَفْسَهُ فِي كَفٍّ فِي قَبْرِ سُدٍّ عَلَيْهِ . . . !

وَمَا كَذْتُ أَعْيٍ وَأَنْظَرُ حَوْلِي وَقَدْ بَرَقَ الصُّبْحُ فِي الدَّارِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا رَيْبَعَةَ يَتَقَلَّبُ كَأَنَّمَا دَخَرَجَتْهُ يَدٌ ، ثُمَّ نَهَضَ مُسْتَطَارَّ الْقَلْبِ مِنْ فِرْعُو وَقَالَ : أَهْلَكْتَنِي يَا أَبَا خَالِدٍ ، أَهْلَكْتَنِي وَاللَّهِ .

* * *

قُلْتُ : مَا بِأَلَاكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ !

قَالَ : إِنِّي نِمْتُ عَلَى تِلْكَ النَّبِيَّةِ الَّتِي عَرَفْتُ : أَنْ أَجْمَعَ قَلْبِي لِلْعِبَادَةِ ، وَأَخْلُصَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَالْوَلَدِ ، وَمِنَ الْمَعَانَةِ لَهُمَا فِي مَرَمَةِ الْمَعَاشِ وَالتَّلْفِيقِ بَيْنَ رَغِيْبٍ وَرَغِيْبٍ ، وَأَنْ أُعْفِيَ نَفْسِي مِنْ لَأْوَانِهِمْ وَضُرَائِهِمْ وَبَلَاءِهِمْ ، لِأَفْرُغَ إِلَى اللَّهِ وَأُقْبَلَ عَلَيْهِ وَخَدُهُ . وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَخَيِّرَ لِي فِي نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُ كَأَنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ قَدْ فُتِحَتْ ، وَكَانَ رِجَالًا يَنْزِلُونَ وَيَسِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أَجْنِحَةً وَرَاءَ أَجْنِحَةٍ ؛ فَكُلَّمَا نَزَلَ وَاحِدٌ نَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُومُ !

فَيَقُولُ الْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُومُ !

وَيَنْظُرُ هَذَا الْآخَرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُومُ !

فَيَقُولُ الْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُومُ !

وَيَنْظُرُ هَذَا الْآخَرُ إِلَيَّ ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْهُومُ !

فَيَقُولُ الْآخَرُ : نَعَمْ هُوَ الْمَشْهُومُ !

وَمَا زَالَتْ « الْمَشْهُومُ ، الْمَشْهُومُ » حَتَّى مَرُّوا ؛ لَا يَقُولُونَ غَيْرَهَا وَلَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا ،
وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَخَافُ أَنْ أَسْأَلَهُمْ ، هَيْبَةً مِنَ الشُّؤْمِ ، وَرَجَاءً أَنْ يَكُونَ الْمَشْهُومُ إِنْسَانًا وَرَائِي
يُبْصِرُونَهُ وَلَا أَبْصِرُهُ . ثُمَّ مَرَّ بَيْنِي آخِرُهُمْ ، وَكَانَ غُلَامًا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ! مَنْ هُوَ
الْمَشْهُومُ الَّذِي تُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ ؟

قَالَ : أَنْتَ !

فَقُلْتُ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : كُنَّا نَرْفَعُ عَمَلَكَ فِي أَعْمَالِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ مَاتَ أَمْرَانُكَ
وَتَحَزَنْتَ عَلَيَّ مَا فَاتَكَ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّهَا ، فَرَفَعْنَا عَمَلَكَ دَرَجَةً أُخْرَى ؛ ثُمَّ أَمَرْنَا اللَّيْلَةَ أَنْ
نَضَعَ عَمَلَكَ مَعَ الْخَالِفِينَ الَّذِينَ قَرُّوا وَجَبْتُوا ! ...

* * *

إِنَّ سُمُوَ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ طَيْرَانٌ إِلَى الْأَعْلَى ... وَلَكِنَّهُ طَيْرَانٌ عَلَى
أَجْنِحَةِ الشَّيَاطِينِ !

طَيْرَانٌ بِالرَّجُلِ إِلَى قُوَّةِ الْبُرْكَانِ الَّذِي فِي الْأَعْلَى !

1

(٢) { أَنِّي : أَمَامَهُ ، فِي الْخَطِّ الَّذِي يَمْتَدُّ فِيهِ الْبَصَرُ } .

وَتَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَقَالَ : أَمَا إِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ ذِكْرِي فَبَكَيْتُ لَهَا ، وَرَأَيْتُ رُؤْيَا فَبَسَسْتُ لَهَا ؛ أَمَا الذُّكْرُ ، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ الَّذِي يَفْهَقُ بِهِذَا الْحَشْدِ الْعَظِيمُ ، وَتَقَعُ فِيهِ الْمَدِينَةُ لِكُلِّ أَذَانٍ وَتَطِيرُ - هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَلَا قَطُّ مِنَ النَّاسِ وَقَدْ وَجِبَتْ الْفَرِيضَةُ ؟ قَالُوا : مَا نَعْلَمُهُ .

قَالَ : فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِعِشْرِينَ سَنَةً خَلَّتْ فِي مَوْتِ الْحَسَنِ ^(١) ، فَقَدْ مَاتَ عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ ، وَأَصْبَحْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَفَرَعْنَا مِنْ أَمْرِه ، وَحَمَلْنَاهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَتَبَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ كُلُّهُمْ جَنَازَتَهُ وَاسْتَقْبَلُوهُ ، فَلَمْ تَقُمْ صَلَاةُ الْعِصْرِ بِهَذَا الْمَسْجِدِ ، وَمَا تَرُكْتُ مِنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ إِلَّا يَوْمَيْدٍ ؛ وَمِثْلُ الْحَسَنِ لَا تَمُوتُ سَاعَةٌ مَوْتِهِ مِنْ عُمُرٍ مَنْ شَهِدَهَا ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَجِيبٌ قَدْ لَفَّ نَهَارُهُ الْبَصْرَةَ كُلَّهَا فِي كَفَنِ أَبِيضٍ ، فَمَا يَقِيتُ فِي نَفْسِ رَجُلٍ وَلَا أَمْرَأَةٍ شَهْوَةٌ إِلَى الدُّنْيَا ، وَفَرَعَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَاطِلِهِ ، كَمَا يَفْرُغُ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبْرِهِ إِلَّا سَاعَةٌ ؛ وَظَهَرَ لَهُمُ الْمَوْتُ فِي حَقِيقَةِ جَدِيدَةٍ بِالْغَةِ الرَّوْعِ لَا يَرَاهَا إِلَّا بَنَاءٌ فِي مَوْتِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا آلِبَاءٌ وَالْأُمَّهَاتُ فِي مَوْتِ مَنْ وَلَدُوا ، وَلَا الْمَحَبُّ فِي مَوْتِ حَبِيبِهِ ، وَلَا الْحَمِيمُ فِي مَوْتِ حَمِيمِهِ ؛ فَإِنَّ الْجَمِيعَ فَقَدُوا الْوَاحِدَ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ فِي الْجَمِيعِ ؛ وَكَمَا يَمُوتُ الْعَزِيزُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ فَيَكُونُ الْمَوْتُ وَاحِدًا وَتَتَعَدَّدُ فِيهِمْ مَعَانِيهِ ، كَذَلِكَ كَانَ مَوْتُ الْحَسَنِ مَوْتًا يَعْدِدُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ !

ذَلِكَ يَوْمٌ أَمْتَدَّ فِيهِ الْمَوْتُ وَكَبُرَ ، وَأَنْكَمَشَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ وَصَغُرَتْ ، وَتَحَاقَرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، حَتَّى رَجَعَتْ بِمِقْدَارِ هَذِهِ الْحُفْرَةِ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الْمُلُوكُ وَالصَّعَالِكُ ، وَالْأَخْلَاطُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ ، لَا يَصْغُرُ عَنْهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَكْبُرُ عَنْهَا الْكَبِيرُ ؛ لَا بَلْ دُونَ ذَلِكَ ، حَتَّى رَجَعَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَدْرِ جَنَفَةِ حَيَوَانٍ بِالْعَرَاءِ ، تَنْكَشِفُ لِلْأَبْصَارِ عَنْ شَوْهَاءِ نَجَسَةٍ قَدْ أَرَمَتْ ^(٢) ، لَا تَطَاقُ عَلَى النَّظَرِ ، وَلَا عَلَى الشَّمِّ ، وَلَا عَلَى اللَّئْسِ ؛ وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا عَنْ أَفَهِ ، وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا لِهَوَامِّ الْأَرْضِ .

تِلْكَ هِيَ الذُّكْرُ ، وَأَمَا الرُّؤْيَا فَقَدْ طَالَعَتْنِي نَفْسِي مِنْ وَجْهِ هَذَا الْفَتَى ، فَأَبْصَرْتُنِي

(١) هُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالْإِمَامُ الْعَظِيمُ ، وَسَيِّدَانِي وَصَفُهُ ، وَوُلِدَ سَنَةَ ١٥ لِلْهَجْرَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١١٠ ، وَقَدْ تُوُفِّيَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ شَيْخُ هَذِهِ الْبَيْتَةِ فِي سَنَةِ ١٣١ ، فَيَكُونُ تَارِيخُ الْبَيْتَةِ فِي سَنَةِ ١٣٠ .

(٢) أَرَمَتْ : يَدَأَتْ تَتَفَعَّلُ وَتَبْلَى .

حِينَ كُنْتُ مِثْلَهُ يَافِعًا مُتَرَعِّرًا دَاخِلًا فِي عَصْرِ شَبَابِي ، فَكَأَنَّمَا أَتْبَهَتْ عَيْنِي مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَى قَاتِكَ خَبِيثٍ كَانَ فِي جَنَابَاتِهِ فِي أَغْلَالِهِ فِي سِجْنِهِ ، وَمَاتَ طَوِيلًا ثُمَّ بُعِثَ !
إِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي بِمَا لَمْ تُحِيطُوا بِهِ ، فَأَرْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَخْضِرُوهُ أَفْهَامَكُمْ ،
وَأَسْتَجْمِعُوا لَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ غَيْبٌ شَيْخُكُمْ ، وَأَنَا مُحَدِّثُكُمْ بِهِ كَيْلًا يَنْتَسِرُ ضَعِيفٌ ، وَلَا يَقْنِطُ
يَأْسٌ ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

* * *

لَقَدْ كُنْتُ فِي صَدْرِ أَبَايَ شُرْطِيًّا ، وَكُنْتُ فِي آفَةِ الْحَدَاثَةِ مِنْ قَبْلِهَا أَفْتَى وَانْتَشَطَرُ ، وَكُنْتُ
قَوِيًّا مَعْصُوبًا فِي مِثْلِ جَبَلَةِ الْجَبَلِ مِنْ غِلَظٍ وَشِدَّةٍ ، وَكُنْتُ قَاسِيًا كَانَ فِي أَضْلَاعِي جَنْدَلَةٌ
لَا قَلْبًا ، فَلَا أَتَدْنَمُ وَلَا أَتَأَنَّمُ ؛ وَكُنْتُ مُذْمَنًا عَلَى الْخَمْرِ ، لِأَنَّهَا رُوحَانِيَّةٌ مِنْ عَجَزٍ أَنْ تَكُونَ
فِيهِ رُوحَانِيَّةٌ ، وَكَأَنَّهَا إِلَهِيَّةٌ يُزَوِّرُهَا الشَّيْطَانُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَيَخْلُقُ بِهَا لِلنَّفْسِ مَا تُحِبُّ مِمَّا
تَكْرَهُ ، وَيُثَبِّتُهَا ثَوَابَ سَاعَةٍ لَيْسَتْ فِي الزَّمَنِ بَلْ فِي خَيَالِ شَارِبِهَا . وَكَأَنَّ جَهْلَ الْعَقْلِ نَفْسَهُ
فِي بَعْضِ سَاعَاتِ الْحَيَاةِ ، هُوَ - فِي عِلْمِ الشَّيْطَانِ وَتَعْلِيمِهِ - مَعْرِفَةُ الْعَقْلِ نَفْسَهُ فِي الْحَيَاةِ !

فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ أَجُولُ فِي السُّوقِ ، وَالنَّاسُ يَتَوَرَّوْنَ فِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ ، وَأَنَا أَزُقُّ
السَّارِقَ ، وَأَعِدُّ لِلْجَانِي ، وَأَنْهِيَّا لِلنَّرَاعِ - إِذْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ يَتَلَحَّيَانِ ، وَقَدْ لَبَّبَ أَحَدُهُمَا
الْآخَرَ ؛ فَأَخَذْتُ إِلَيْهِمَا ، فَسَمِعْتُ الْمَظْلُومَ يَقُولُ لِلظَّالِمِ : لَقَدْ سَلَبْتَنِي فَرَحَ بَيْتَانِي ،
فَسَيِّدَعُونَ اللَّهَ عَلَيْكَ فَلَا تُصِيبُ مِنْ بَعْدِهَا خَيْرًا ، فَإِنِّي مَا خَرَجْتُ إِلَّا أَتْبَاعًا لِقَوْلِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَرَجَ إِلَى سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، فَاشْتَرَى شَيْئًا ، فَحَمَلَهُ إِلَى
بَيْتِهِ ، فَخَصَّ بِهِ الْإِنَاثَ دُونَ الذُّكُورِ ؛ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ » . [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي

« تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ » : أَخْرَجَهُ الْخِرَاطِيُّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ] .

قَالَ الشَّيْخُ : وَكُنْتُ عَزَبًا لَا زَوْجَةَ لِي ، وَلَكِنْ الْأَدَمِيَّةُ أَتْبَهَتْ فِيَّ ، وَطَمِعْتُ فِي
دَعْوَةِ صَالِحَةٍ مِنَ الْبَيْتَاتِ الْمُسْكِنَاتِ ، إِذَا أَنَا فَرَحْتُهُنَّ ؛ وَدَخَلْتَنِي لِهِنَّ رِقَّةً شَدِيدَةً ،
فَأَخَذْتُ لِلرَّجُلِ مِنْ غَرِيمِهِ حَتَّى رَضِيَ ، وَأَضَعَفْتُ لَهُ مِنْ ذَاتِ يَدَيَّ لِأُرِيدَ فِي فَرَحِ بَنَاتِهِ ،
وَقُلْتُ لَهُ وَهُوَ يَنْصَرِفُ : عَهْدٌ يُحَاسِبُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَوْفِيهِ لِي مِنْكَ ، أَنْ تَجْعَلَ بَنَاتِكَ
يَدْعُونَ لِي إِذَا رَأَيْتَ فَرَحَهُنَّ بِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِنَّ ، وَقُلْ لِهِنَّ : مَا لِكَ بَنُ دِينَارٍ .

وَبِتُّ لَيْلَتِي أَتَقَلَّبُ مُفَكِّرًا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَانِيهِ الْكَثِيرَةِ ، وَحَثِّهِ عَلَى إِكْرَامِ
الْبَنَاتِ ، وَأَنَّ مَنْ أَكْرَمَ بَنَاتِهِ كَرَّمَ عَلَى اللَّهِ ، وَحِزْصِهِ أَنْ يَنْشَأَنَّ كَرِيمَاتٍ فَرِحَاتٍ ؛ وَحَدَّثَنِي
هَذَا الْحَدِيثَ لَيْلَتِي تِلْكَ إِلَى الصُّبْحِ ، وَفَكَّرْتُ حِينَئِذٍ فِي الزَّوْجِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّاسَ
لَا يُزَوِّجُونَنِي مِنْ طَيِّبَاتِهِمْ مَا دُمْتُ فِي الْخَبِيثِينَ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى سُوقِ
الْجَوَارِي ، فَاشْتَرَيْتُ جَارِيَةً نَفِيسَةً ، وَوَقَعْتُ مِنِّي أَحْسَنَ مَوْعٍ ، وَوَلَدَتْ لِي بِنْتًا فَشَغِفْتُ
بِهَا ، وَظَهَرَتْ لِي فِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ فِيَّ ، فَرَأَيْتُ بَعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ صُورَتِي
الْأُولَى ؛ وَرَأَيْتُهَا سَمَويَّةً لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَتَمْلِكُ أَبَاهَا وَأُمُّهَا ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا شَيْعُ
بَطْنِهَا وَمَا أَيْسَرُهُ ، ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ سُرُورُ نَفْسِهَا كَامِلًا تَشُبُّ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا تَشُبُّ عَلَى
الرَّضَاعِ ؛ فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي تَكْتَفِيهِ رَحْمَةُ اللَّهِ يَمْلِكُ بِهَا دُنْيَا نَفْسِهِ ، فَمَا عَلَيْهِ بَعْدَ
ذَلِكَ أَنْ تَقُوْتَهُ دُنْيَا غَيْرِهِ ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَجِدُ طَهَارَةَ قَلْبِهِ يَجِدُ سُرُورَ قَلْبِهِ ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ دَائِمًا
جَدِيدَةً عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَخْيَا بِالثَّقَةِ نُحَيْبُهُ الثَّقَةُ ؛ وَالَّذِي لَا يُيَالِي اللَّهُمَّ لَا يُيَالِي اللَّهُمَّ
بِهِ ؛ وَأَنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا وَغُرُورَهَا وَمَا تَجْلِبُ مِنْ اللَّهِمْ - كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِغَرِ الْعَقْلِ فِي
الْإِيمَانِ حِينَ يَكْبُرُ الْعَقْلُ فِي الْعِلْمِ !

كَانَتْ أَلْبَيْتُهُ بَدْءَ حَيَاةٍ فِي بَيْتِي وَبَدْءَ حَيَاةٍ فِي نَفْسِي ، فَلَمَّا دَبَّتْ عَلَى الْأَرْضِ أَزْدَدْتُ لَهَا
حُبًّا ، وَأَلْفَنِي وَأَلْفَتْهَا ، فَرَزَقْتُ رُوحِي مِنْهَا أَطْهَرَ صَدَاقَةٍ فِي صَدِيقِي ، تَتَجَدَّدُ لِلْقَلْبِ كُلِّ
يَوْمٍ ، بَلْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِمَخْضِ سُرُورِ الْقَلْبِ دُونَ مَطَامِعِهِ ، فَتَمِدُّهُ بِالْحَيَاةِ
نَفْسِهَا لَا بِأَشْيَاءِ الْحَيَاةِ ، فَلَا تَزِيدُ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَحَبَّةِ وَلَا تَقْصُصُ مِنْهَا ، عَلَى خِلَافِ
مَا يَكُونُ فِي الْأَضْدَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى الْمَضَرَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ .

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَجَهَدْتُ أَنْ أَتْرَكَ الْخَمْرَ ، فَلَمْ يَأْتِ لِي وَلَمْ أَسْتَطِعْهُ ؛ إِذْ كُنْتُ مِنْهُمْ كَمَا
عَلَى شُرْبِهَا ، وَلَكِنَّ حُبَّ أَبْتِي وَضَعَ فِي الْخَمْرِ إِنْمَاحًا لِلَّذِي وَضَعْتُهُ فِيهَا الشَّرِيعَةُ ،
فَكَرِهْتُهَا كَرَاهًا شَدِيدًا ، وَأَصْبَحْتُ كَالْمُكْرَهِ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَعُدْ فِيهَا نَشْوَتُهَا وَلَا رِيحُهَا ؛ وَكَانَتْ
الصَّغِيرَةُ فِي تَمَرِيقِ أَخِيْلَتِهَا أَبْرَعَ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي حَوْكِ هَذِهِ الْأَخِيْلَةِ ، وَكَأَنَّمَا جَرَّتَنِي يَدُهَا
جَرًّا حَتَّى أَبْعَدْتَنِي عَنِ الْمَنْزِلَةِ الْخَمْرِيَّةِ الَّتِي كَانَ الشَّيْطَانُ وَضَعَنِي فِيهَا ، فَاتَّقَلْتُ مِنْ

الاستَهْتَارِ وَالْمُكَابَرَةِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاهِ إِلَى الْقَدَمِ وَالتَّحَوُّبِ وَالتَّائِبِ ، وَكُنْتُ مِنْ بَعْدِهَا كُلَّمَا
وَضَعْتُ الْمُسْكِرَ وَهَمَمْتُ بِهِ ، دَبَّتْ أَبْتَنِي إِلَى مَجْلِسِي ؛ فَأَنْظَرْتُ إِلَيْهَا وَتَنَشَّرَ عَلَيْهَا نَفْسِي مِنْ
رِقَّةٍ وَرَحْمَةٍ ، فَأَرَقُبُ مَا تَصْنَعُ ، فَتَجِيءُ فْتَجَادِبُنِي الْكَأْسُ حَتَّى تُهْرِقَهَا عَلَى ثَوْبِي ، وَأَرَانِي
لَا أَغْضَبُ ، إِذَا كَانَ هَذَا يَسُرُّهَا وَيُضْحِكُهَا ، فَأَسْرُّ لَهَا وَأَضْحَكُ .

وَدَامَ هَذَا مِنِّي وَمِنْهَا ، فَأَصْبَحْتُ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ ؛ أَشْرَبُ مَرَّةً وَأَتْرُكُ
مَرَارًا ، وَجَعَلْتُ أَسْتَفِيمُ عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ كَانَتْ الشُّوَّةُ بِأَبْتَنِي أَكْبَرَ مِنَ الشُّوَّةِ بِالرَّجَاجَةِ ، وَإِذْ
كُنْتُ كُلَّمَا رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي وَتَدَبَّرْتُ أَمْرِي ، أَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ أَنْ تَعْقِلَ أَبْتَنِي مَعْنَى الْحَمْرِ يَوْمًا
فَأَكُونُ قَدْ نَجَسْتُ أَيَّامَهَا ، ثُمَّ أَتَقَدَّمُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَيَّ ذُنُوبُهَا فَوْقَ ذُنُوبِي ، وَيَتَرَحَّمُ النَّاسُ عَلَى
آبَائِهِمْ وَتَلْعُنُنِي إِذْ لَمْ أَكُنْ لَهَا كَالآبَاءِ ، فَأَكُونُ قَدْ وَجِدْتُ فِي الدُّنْيَا مَرَّةً وَاحِدَةً وَهَلَكْتُ
مَرَّتَيْنِ .

وَمَضَيْتُ عَلَى ذَلِكَ وَأَنَا أَصْلَحُ بِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَكُلَّمَا كَبُرَتْ كَبُرَتْ فَضِيلَتِي ، فَلَمَّا تَمَّ لَهَا
سِتْنَانٌ ، مَاتَتْ !

* * *

قَالَ الرَّاوِي : وَسَكَتَ الشَّيْخُ ، فَعَلِقَتْ بِهِ الْأَبْصَارُ ، وَوَقَفَتْ أَنْفَاسُ النَّاسِ عَلَى
شِفَاهِهِمْ ، وَكَأَنَّمَا مَاتَتْ لَحَظَاتٌ مِنَ الزَّمَنِ لِذِكْرِ مَوْتِ الطُّفْلَةِ ، وَخَامَرَ الْمَجْلِسَ مِثْلُ
السُّكْرِ بِهَلْدِهِ الْكَأْسِ الْمَذْهِلَةِ ؛ وَلَكِنَّ الطُّفْلَةَ دَبَّتْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ ،
وَجَذَبَتْ الْكَأْسَ وَأَهْرَقَتْهَا ، فَأَتَتْهُ النَّاسُ وَصَاحُوا : مَاتَتْ فَكَانَ مَاذَا ؟

قَالَ الشَّيْخُ : فَأَكْمَدَنِي الْحُزْنُ عَلَيْهَا ، وَوَهَنَ جَاشِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْ قُوَّةِ الرُّوحِ
وَالْإِيمَانِ مَا أَتَأَسَّى بِهِ ، فَضَاعَفَ الْجَهْلُ أَحْزَانِي ، وَجَعَلَ مُصِيبَتِي مَصَائِبَ . وَالْإِيمَانُ
وَخَدَهُ هُوَ أَكْبَرُ عُلُومِ الْحَيَاةِ ، يُبْصِرُكَ إِنْ عَمِيَتْ فِي الْحَادِثَةِ ، وَيَهْدِيكَ إِنْ ضَلَلْتَ عَنْ
السَّكِينَةِ ، وَيَجْعَلُكَ صَدِيقَ نَفْسِكَ تَكُونُ وَإِيَّاهَا عَلَى الْمُصِيبَةِ ، لَا عَدُوًّا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ
وَإِيَّاهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا أَخْرَجْتَ اللَّيَالِي مِنَ الْأَخْزَانِ وَالْهُمُومِ عَسَكَرَ ظِلَامُهَا لِقِتَالِ نَفْسٍ أَوْ
مُحَاصَرَتِهَا ، فَمَا يَذْفَعُ الْمَالُ وَلَا تَرُدُّ الْقُوَّةُ وَلَا يَمْنَعُ السُّلْطَانُ ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ جَنِّدًا
أَضْعَفَ مِنْ قُوَّةِ الْقَوِيِّ ، وَلَا أَضْيَعَ مِنْ حِيلَةِ الْمُخْتَالِ ، وَلَا أَفْقَرَ مِنْ غِنَى الْغَنِيِّ ، وَلَا

أَجْهَلَ مِنْ عِلْمِ الْعَالِمِ ، وَبَتَّتِي الْجَهْدَ وَالْحِيلَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْغِنَى وَالسُّلْطَانَ - لِلْإِيْمَانِ وَحْدَهُ ؛ فَهُوَ يَكْسِرُ الْحَادِثَ وَيُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِهِ ، وَيُوَيِّدُ النَّفْسَ وَيَضَاعِفُ مِنْ قُوَّتِهَا ، وَيُرْدُّ قَدَرَ اللَّهِ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ ؛ فَلَا يَلْبَثُ مَا جَاءَ أَنْ يَرْجِعَ ، وَتَعُوذُ النَّفْسُ مِنَ الرَّضَى بِالْقَدْرِ وَالْإِيْمَانِ بِهِ ، كَأَنَّمَا تَشْهَدُ مَا يَقَعُ أَمَامَهَا لَا مَا يَقَعُ فِيهَا .

قَالَ الشَّيْخُ : وَرَجَعْتُ بِجَهْلِي إِلَى شَرِّ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَكَانَتْ أَحْزَانِي أَفْرَاحَ الشَّيْطَانِ ؛ وَأَرَادَ - أَخْرَاهُ اللَّهُ - أَنْ يَفْتَنَ فِي أَسَالِيبِ فَرَحِهِ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ اللَّتْفِ مِنْ شَعْبَانَ - وَكَانَتْ لَيْلَةُ جُمُعَةٍ ، وَكَانَتْ كَأَوَّلِ نُورِ الْفَجْرِ مِنْ أَنْوَارِ رَمَضَانَ - سَوَّلَ لِي الشَّيْطَانُ أَنْ أَسْكُرَ سَكْرَةً مَا مِثْلُهَا ؛ فَبِتُ كَأَلَمِيَّتٍ مِمَّا تَمِلْتُ ، وَقَدْ فَتَنِي أَحْلَامٌ إِلَى أَحْلَامٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْقِيَامَةَ وَالْحَشَرَ ، وَقَدْ وَلَدَتِ الْقُبُورُ مَنْ فِيهَا ، وَسِيقَ النَّاسُ وَأَنَا مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ مَا بَيْنِي مِنَ الْكَرْبِ غَايَةٌ ؛ وَسَمِعْتُ خَلْفِي زَفِيرًا فَكَحِجِّحِ الْأَفْعَى ، فَالْتَفَتْتُ فَإِذَا بِنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مَا يَكُونُ أَعْظَمُ مِنْهُ ؛ طَوِيلُ كَالْتَخَلَةِ السَّحُوقِ ، أَسْوَدُ أَزْرَقُ ، يُرْسِلُ الْمَوْتَ مِنْ عَيْنَيْهِ الْحَمْرَاوَيْنِ كَالدَّمَ ، وَفِي فَمِهِ مِثْلُ الرَّمَاكِ مِنْ أَنْبَايِهِ ، وَلِجَوْفِهِ حَرٌّ شَدِيدٌ لَوْ زَفَرَ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَا نَبَتْ فِي الْأَرْضِ خَضِرَاءُ ، وَقَدْ فَتَحَ فَاهُ وَنَفَخَ جَوْفَهُ وَجَاءَ مُسْرِعًا يُرِيدُ أَنْ يَلْتَقِمَنِي ، فَمَرَزْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ هَارِبًا فَرَعًا ؛ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ هَرِمٍ يَكَادُ بِمَوْتٍ ضَعْفًا ، فَعُدْتُ بِهِ وَقُلْتُ : أَجْزَنِي وَأَغْنِنِي . فَقَالَ : أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَى ، وَمَا أَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ ، وَلَكِنْ مَرُّ وَأَسْرَعُ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُسَبِّبَ لَكَ أَسْبَابًا لِللَّجَاةِ .

فَوَلَّيْتُ هَارِبًا وَأَشْرَفْتُ عَلَى النَّارِ وَهِيَ الْهَوْلُ الْأَكْبَرُ ، فَرَجَعْتُ أَشَدُّ هَرَبًا وَالتَّنُّيُّ عَلَى إِثْرِي ؛ وَلَقِيتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَاسْتَجَرْتُ بِهِ ، فَبَكَى مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَقَالَ : أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَى ، وَمَا أَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ ، وَلَكِنْ أَهْرُبُ إِلَى هَذَا الْجَبَلِ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ أَمْرًا .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا جَبَلٌ كَالدَّارِ الْعَظِيمَةِ ، لَهُ كُؤَى عَلَيْهَا سُتُورٌ ، وَهُوَ يَبْرُقُ كَشُعَاعِ الْجَوْهَرِ ؛ فَاسْرَعْتُ إِلَيْهِ وَالتَّنُّيُّ مِنْ وَرَائِي ، فَلَمَّا شَارَفْتُ الْجَبَلَ فَتَحَتِ الْكُؤَى وَرُفِعَتِ السُّتُورُ ، وَأَشْرَفْتُ عَلَى وَجْهِهِ أَطْفَالٍ كَالْأَقْمَارِ ، وَقَرَّبَ التَّنُّيُّ مِنِّي ، وَصَرْتُ فِي هَوَاءِ جَوْفِهِ وَهُوَ يَنْصَرِّمُ عَلَيَّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَنِي ؛ فَتَصَابِحُ الْأَطْفَالُ جَمِيعًا : يَا فَاطِمَةُ ! يَا فَاطِمَةُ !

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِذَا أَبْتَنِي إِلَيَّ مَاتَتْ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا أَنَا فِيهِ صَاحَتْ وَبَكَتْ ، ثُمَّ

وَبَثَّ كَرَمِيَّةَ السَّهْمِ ، فَجَاءَتْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَمَدَّتْ إِلَيَّ شِمَالَهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهَا ، وَمَدَّتْ يَمِينَهَا
إِلَى التَّنِينَ فَوَلَّى هَارِبًا ، وَأَجْلَسْتَنِي وَأَنَا كَالْمَيْتِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ، وَقَعَدَتْ فِي حِجْرِي
كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ فِي الْحَيَاةِ ، وَضَرَبَتْ يَدَيَّ إِلَى لِحْيَتِي وَقَالَتْ : يَا أَبَتِ ! ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ ﴾ [٥٧ سورة الحديد / الآية : ١٦] .

فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ : يَا بَنِيَّةُ ! أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا التَّنِينَ الَّذِي أَرَادَ هَلَاقِي . قَالَتْ : ذَاكَ
عَمَلُكَ السُّوءُ الْحَيِثُ ، أَنْتَ قَوِيتهُ حَتَّى بَلَغَ هَذَا الْهَوْلَ الْهَائِلَ ، وَالْأَعْمَالُ تَرْجِعُ هُنَا
أَجْسَامًا كَمَا رَأَيْتَ . قُلْتُ : فَذَاكَ الشَّيْخُ الضَّعِيفُ الَّذِي اسْتَجَزْتُ بِهِ وَلَمْ يُجِزْنِي ؟ قَالَتْ :
يَا أَبَتِ ! ذَاكَ عَمَلُكَ الصَّالِحِ ، أَنْتَ أَضْعَفْتَهُ فَضَعُفَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَاقَةٌ أَنْ يُغَيِّنَكَ مِنْ
عَمَلِكَ السَّيِّئِ ؛ وَلَوْ لَمْ أَكُنْ لَكَ هُنَا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ اتَّبَعْتَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَنْ فَرَحَ
بَنَاتِهِ الْمُسْكِنَاتِ الضَّعِيفَاتِ - لَمَا كَانَتْ لَكَ هُنَا شِمَالٌ تَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَيَمِينٌ تَطْرُدُ عَنْكَ .

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَانْتَبَهْتُ مِنْ نَوْمِي فَرَعَا أَلْعَنُ مَا أَنَا فِيهِ ، وَلَا أَرَانِي أَسْتَقِرُّ ، كَأَنِّي طَرِيدَةٌ
عَمَلِي السَّيِّئِ ؛ كُلَّمَا هَرَبْتُ مِنْهُ هَرَبْتُ بِهِ ؛ وَأَيْنَ الْمَهْرَبُ مِنَ التَّلَدِّمِ الَّذِي كَانَ نَائِمًا فِي
الْقَلْبِ وَأَسْتَقِظُ لِلْقَلْبِ ؟

وَأَمَلْتُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ أَرْبَحَ مِنْ رَأْسِ مَالٍ خَاسِرٍ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ يَوْمًا بَاقِيًا
مِنَ الْعُمُرِ هُوَ لِلْمُؤْمِنِ عُمُرٌ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَهَانَ بِهِ ؛ وَصَحَّحْتُ النِّيَّةَ عَلَى التَّوْبَةِ ، لِأَرْجِعَ
السَّبَابَ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الضَّعِيفِ ، وَأُسَمِّنَ عِظَامَهُ ، حَتَّى إِذَا اسْتَجَزْتُ بِهِ أَجَارَنِي وَلَمْ
يَقُلْ : « أَنَا ضَعِيفٌ كَمَا تَرَى ! » .

وَسَأَلْتُ فَذَلَّلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْحَسَنِ ابْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، سَيِّدِ الْبَقِيَّةِ مِنَ
التَّابِعِينَ ؛ وَقِيلَ لِي : إِنَّهُ جَمَعَ كُلَّ عِلْمٍ وَفَقَّ إِلَى الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالْعِبَادَةِ ، وَإِنَّ لِسَانَهُ
السَّخَرَ ، وَإِنَّ شَخْصَهُ الْمِغْنَاتِيْسُ ، وَإِنَّهُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ كَأَنَّ فِي صَدْرِهِ إِنْجِيلًا لَمْ يُنْزَلْ ،
وَإِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مَوْلَاةً لِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ رُبَّمَا غَابَتْ أُمُّهُ فِي حَاجَةٍ فَيَبْكِي ،
فَتُزْضِعُهُ أُمُّ سَلَمَةَ تَعْلَلُهُ بِثَدْيِهَا فَيَكْدُرُ عِلَّتُهُ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَرَكَةِ النُّبُوَّةِ صَلَةٌ .

وَعَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَالْحَسَنِ فِي حَلَقَتِهِ يَقْصُ وَيَتَكَلَّمُ ، فَجَلَسْتُ حَيْثُ انْتَهَى بِي

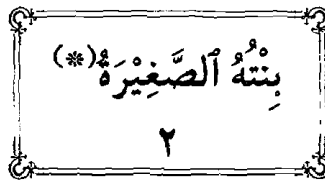
الْمَجْلِسُ ، وَمَا كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى عَرَّتْنِي نَفْضَةُ كَنْفَضَةِ الْحُمَى ، إِذْ قَرَأَ الشَّيْخُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [٥٧] سورة الحديد/ الآية : ١٦ ؛ فَلَوْ لَفَظْتَنِي الْأَرْضُ مِنْ بَطْنِهَا ، وَأَنْشَقَّ عَنِّي الْقَبْرُ بَعْدَ الْمَوْتِ - مَا رَأَيْتُ الدُّنْيَا أَعْجَبَ مِمَّا طَالَعْتَنِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَأَخَذَ الشَّيْخُ يُفَسِّرُ الْآيَةَ ، فَصَنَعَ بَيْنَ كَلَامِهِ مَا لَوْ بُعِثَ نَبِيٌّ مِنْ أَجْلِي خَاصَّةً لَمَا صَنَعَ أَكْثَرَ مِنْهُ .

وَكَلَامُ الْحَسَنِ غَيْرُ كَلَامِ النَّاسِ ، وَغَيْرُ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ ؛ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ قَلْبِهِ وَمِنْ رُوحِهِ ، وَمِنْ وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ ، وَنَاهِيكُمْ مِنْ رَجُلٍ خَاشِعٍ مُتَصَدِّعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، لَمْ يَكُنْ يُرَى مُقْبِلًا ۖ إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ دَفْنٍ حَمِيمٍ قَدْ أُنْزِلَ فِي قَبْرِهِ بِيَدِهِ ، وَلَا يُرَى جَالِسًا ۖ إِلَّا وَكَأَنَّهُ أَسِيرٌ أُمِرُوا بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، وَإِذَا ذُكِرَتِ النَّارُ فَكَأَنَّهُا لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ وَخَدُهُ ؛ رَجُلٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ لَتَتَكَلَّمَ الْحَيَاةُ بِلِسَانِهِ أَصْدَقَ كَلِمَاتِهَا .

فَصَاحَ صَائِحٌ : يَا أَبَا يَحْيَى ! التَّفْسِيرُ التَّفْسِيرُ ! وَصَاحَ الْمُؤَذِّنُ : اللَّهُ أَكْبَرُ . فَقَطَعَ الشَّيْخُ وَقَالَ : التَّفْسِيرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْمَجْلِسِ الْآتِي .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



... وَجَاءَ مِنَ الْعَدَدِ أَبُو يَحْيَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مَجْلِسِ دَرْسِهِ وَتَعَكَّفُوا حَوْلَهُ ؛ وَكَانُوا إِلَى بَقِيَّةِ خَبْرِهِ فِي لَهْفَةٍ كَأَنَّ لَهَا عُمْرًا طَوِيلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، لَا ظَمًا لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! جُعِلْتُ فِدَاكَ ، مَا كَانَ تَأْوِيلُ الْحَسَنِ لِنِيتِكَ الْآيَةِ مِنْ
كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَيْفَ رَجَعَ الْكَلَامُ فِي نَفْسِكَ مَزْجِعَ الْفِكْرِ تَتْبَعُهُ ، وَأَصْبَحَ الْفِكْرُ عِنْدَكَ
عَمَلًا تَحْذُرُ عَلَيْهِ ، وَاتَّصَلَ هَذَا الْعَمَلُ فَكَانَ مَا أَنْتَ فِي وَرَعِكَ وَ . . . ؟

فَقَطَعَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ وَقَالَ : هُوَ عَلَيْكَ يَا هَذَا ، إِنَّ شَيْخَكَ لَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ فِي
وَضْفِهِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ، وَقَدْ رَوَى لَنَا الْحَسَنُ يَوْمَ ذَلِكَ الْخَبَرَ الْوَارِدَ فَيَمْنَنُ يُعَذِّبُ فِي النَّارِ
أَلْفَ عَامٍ مِنْ أَعوَامِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يُذَرِّكُهُ عَفْوُ اللَّهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ :
« يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ! » وَهُوَ الْحَسَنُ يَا بَنِي ؛ هُوَ الْحَسَنُ . . . !

فَضَحَّ النَّاسُ وَصَاحَ مِنْهُمْ صَاحُونَ : يَا أَبَا يَحْيَى ! قَتَلْتَنَا يَا سَا . وَقَالَ الْأَوَّلُ : إِذَا كَانَ
هَذَا فَأَوْشَكَ أَنْ يَعْمَتَا الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ ، فَلَا يَنْفَعُنَا عَمَلٌ ، وَلَا نَأْتِي عَمَلًا يَنْفَعُ .

قَالَ الشَّيْخُ : هَوِّنُوا عَلَيَّكُمْ ، فَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِ ظَنَيْنِ : ظَنًّا بِنَفْسِهِ ، وَظَنًّا بِرَبِّهِ ؛ فَأَمَّا ظَنُّهُ
بِالنَّفْسِ فَيَسْتَبْعِي أَنْ يَنْزِلَ بِهَا دُونَ جَمْعَاتِهَا وَلَا يَفْتَأَ يَنْزِلُ ؛ فَإِذَا رَأَى لِنَفْسِهِ أَنَّهَا لَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا
وَجَبَّ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ ، فَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَذْفَعُهَا ؛ وَكُلَّمَا أَكْثَرَتْ مِنَ الْخَيْرِ قَالَ لَهَا : أَكْثَرِي .
وَكُلَّمَا أَقَلَّتْ مِنَ الشَّرِّ قَالَ لَهَا : أَقْلِي . وَلَا يَزَالُ هَذَا دَائِبُهُ وَدَائِبُهَا مَا بَقِيَ ؛ وَأَمَّا الظَّنُّ بِاللَّهِ
فَيَسْتَبْعِي أَنْ يَغْلُو بِهِ فَوْقَ الْفَتَرَاتِ وَالْعِلَلِ وَالْآثَامِ ، وَلَا يَزَالُ يَغْلُو ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ
بِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ شَرًّا فَلَهُ . [راجع «مسند أحمد» ، رقم : ٨٨٣٣] وَلَقَدْ رَوَيْنَا هَذَا الْخَبَرَ :
« كَانَ فَيَمْنَنُ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَذُلَّ
عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا ! فَقَتَلَهُ
فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً ! ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَذُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَتَلَ
مِئَةَ نَفْسٍ . فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ أَنْطَلِقُ إِلَى أَرْضِ
كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أَنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ،
فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ .

فَأَنْطَلَقَ ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ
وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ؛ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ . وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ
الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ . فَأَتَاهُم مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ ،

فَقَالَ : قِسُّوْا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيُّهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ! [البخاري ، رقم : ٣٤٧٠ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٦٦] .

قَالَ الشَّيْخُ : فَهَذَا رَجُلٌ لَمَّا مَشَى بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ حُسِبَتْ لَهُ الْخُطْوَةُ الْوَاحِدَةُ ، بَلِ الشُّبْرُ الْوَاحِدُ ؛ وَلَوْ أَنَّهُ طَوَّفَ الدُّنْيَا بِقَدَمَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الْقَلْبُ ، لَكَانَ كَالْعِظَامِ الْمَحْمُولَةِ فِي نَعْشٍ ؛ قَبْرُهَا فِي الْمَشْرِقِ هُوَ قَبْرُهَا فِي الْمَغْرِبِ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَلَا لِلْأَرْضِ مِنْهَا إِلَّا مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ ؛ هُوَ أَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ مَيِّتٌ ، وَأَنَّهَا بِجُمْلَتِهَا حُفْرَةٌ .

وَالْإِنْسَانُ عِنْدَ النَّاسِ بِهَيْئَةِ وَجْهِهِ وَحِلْيَتِهِ الَّتِي تَبْدُو عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ بِهَيْئَةِ قَلْبِهِ وَطَنِهِ الَّذِي يَظُنُّ بِهِ ؛ وَمَا هَذَا الْجِسْمُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا كَقَشْرَةِ الْبَيْضَةِ^(١) مِمَّا تَحْتَهَا . فَيَا لَهَا سُخْرِيَّةٌ أَنْ تَزْعُمَ الْقَشْرَةُ لِنَفْسِهَا أَنَّ بِهَا هِيَ الْأَعْتَابَ عِنْدَ النَّاسِ لَا بِمَا فِيهَا ، إِذْ كَانَ مَا تَخُونُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهَا هِيَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تُبْعَدُ فِي حِمَاقَتِهَا فَتَسْأَلُ : لِمَاذَا يَزْمِنُنِي النَّاسُ وَلَا يَأْكُلُونَنِي ... ؟

إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ لَا تَجِدُ تَمَامَ مَعْنَاهَا إِلَّا فِي حَالَةِ بَعِيْثِهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقَلْبِ ، وَهِيَ حَالَةُ خُشُوعِهِ عَلَى وَصْفِهَا الَّذِي شَرَحَتْهُ آيَةُ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَحْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٦] .

فَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ مَحْدُودَةٌ بِاللَّهِ وَالْحَقِّ مَعًا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي خُشُوعِ الْقَلْبِ لِهَذَيْنِ ؛ فَإِنَّ مِنَ الْقَلْبِ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ كُلِّهَا .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَنَا مُنْذُ حَفِظْتُ عَنِ الْحَسَنِ تَأْوِيلَ هَذِهِ آيَةِ ، وَاسْتَنْتْتُ بِهَا ، مَضَيْتُ أَعِيشُ مِنَ الدُّنْيَا فِي تَارِيخِ قَلْبِي لَا فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا ، وَأَذْرَكْتُ مِنْ يَوْمِيذٍ أَنْ لَيْسَ حِفْظُ الْقُرْآنِ حِفْظُهُ فِي الْعَقْلِ ، بَلِ حِفْظُهُ فِي الْعَمَلِ بِهِ ؛ فَإِنْ أَنْتِ أَثَبَّتِ آيَةَ مِنْهُ ، وَكُنْتَ تَعْمَلُ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا ، وَتَعِيشُ فِي غَيْرِ فُضِيلَتِهَا ، فَهَذَا - وَبِحَاكٍ - نِسْيَانُهَا لَا حِفْظُهَا . وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا الْأَوَّلُونَ بِمَعَانِيهِ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ النَّامِيَةِ ؛ فِيهَا وَرَقُهَا الْأَخْضَرُ وَزَهْرُهَا وَثَمَرُهَا ، وَعَلَى

(١) قَشْرَةُ الْبَيْضَةِ الْعُلْيَا الْيَاسِيَّةُ تُسَمَّى : الْقَفِصَ ، يَفْتَحُ الْقَافَ وَتُكُونُ الْيَاءُ ، وَالْقَشْرَةُ الدَّاحِلَةُ الْمُتَلَوِّقَةُ بِالْيَاسِ تُسَمَّى : الْعُرْقَى ، بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَالْقَافِ .

ظَاهِرَهَا حَيَاةً بَاطِنُهَا ، فَلَمَّا تَبَتِ النَّاسُ عَلَى الشَّكْلِ وَخَدَهُ ، وَلَمْ يُبَالُوا الْقَلْبَ وَأَحْوَالَهُ ، أَصْبَحُوا كَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا بَاسَ ، عَلَيْهَا وَرَقُهَا الْجَافُ ، لَيْسَ فِي بَقَائِهِ وَلَا سُقُوطِهِ طَائِلٌ .

مَا أَصْبَحْتُ وَلَا أَمْسَيْتُ مُنْذُ حَفِظْتُ تَفْسِيرَ آيَةِ إِلَّا فِي حَيَاةٍ مِنْهَا ، وَهَذِهِ آيَةُ هِيَ دَلَّتْنِي بِمَعَانِيهَا أَنَّ لَيْسَتْ الْحَيَاةُ الْأَرْضِيَّةُ شَيْئًا إِلَّا نُورَةُ الْحَيِّ عَلَى ظُلْمِ نَفْسِهِ ، يَسْتَكِفُّ عَنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَسْتَجِرُّ لَهَا ، وَالنَّاسُ مِنْ شَقَائِهِمْ عَلَى الْعَكْسِ ، يَسْتَجِرُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَكِفُّونَ ، وَإِنَّمَا السَّعِيدُ مَنْ وَجَدَ كَلِمَاتِ رُوحَانِيَّةِ إِلَهِيَّةٍ يَعْيشُ قَلْبُهُ فِيهِمْ ، فَذَلِكَ لَا يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ كَمَا يَأْتِي وَيَفِيقُ ، بَلْ يَحْذَرُ عَلَى أَصْلٍ ثَابِتٍ فِي نَفْسِهِ ، وَيَخْتَارُ فِيمَا يَعْمَلُ أَحْسَنَ مَا يَعْمَلُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ جِهَادُهُ مُرَاجَعَةً أَوْ خُضُوعًا فِي سَبِيلِ الْوُجُودِ كَالْحَيَوَانِ ، بَلْ فِي سَبِيلِ صِحَّةِ وَجُودِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ غَرَضُهُ أَنْ يُلَاقِيَ الْحَيَاةَ كَمَا تَأْخُذُهُ هِيَ وَتَدْعُهُ ، بَلْ أَنْ يَحْيَا فِي شَرَفِ الْحَيَاةِ عَلَى مَا يَأْخُذُهَا هُوَ وَيَدْعُهَا .

إِنَّ الشَّقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَجْزُهُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ فِي دَفْعِ الْأَحْزَانِ عَنْ نَفْسِهِ بِمُقَارَفَتِهِ الشَّهَوَاتِ ، وَبِإِحْسَانِهِ غُرُورَ الْقَلْبِ ؛ وَبِهَذَا يُبْعِدُ الْأَحْزَانَ { عَنْ نَفْسِهِ } لِيَجْلِبَهَا عَلَى نَفْسِهِ فِي صُورٍ أُخْرَى !

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَانَ مِمَّا حَفِظْتُهُ مِنْ تَفْسِيرِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ :

إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي آيَةِ تَكَادُ تَكُونُ آيَةً ، وَلَيْسَتْ الْكَلِمَةُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِ ، بَلِ السَّمُورُ فِيهَا عَلَى الْكَلَامِ ، أَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَى ، وَتُؤْمِي إِلَى مَعْنَى ، وَتَسْتَبِيعُ مَعْنَى ؛ وَهَذَا مَا لَيْسَ فِي الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ ﴿ كَتَبْتُ أُتِمَمْتُ عَاقِبَتُهُمْ ثُمَّ قُضِلَتْ ﴾ (١)

[١١ سورة هود/ الآية : ١] .

(١) طَرَفْتُنَا فِي اكْتِنَاهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، أَنَّ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ مِنْ كَلِمَاتِهِ لَهَا جِهَاتٌ عِدَّةٌ ؛ كَمَا تَرَى فِيمَا نَشْرَحُهُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ آيَةِ ، وَفِيمَا جِئْنَا بِهِ مِنْ تَفْسِيرِ آيَاتٍ سَبَقَتْ فِي الْمَقَالَاتِ الْأُخْرَى ؛ فَالْبَحْثُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظَةِ ، وَوَجْهِ اخْتِيَارِهَا ، وَسِيَاقِ تَرْكِيبِهَا ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَمَا يَدُلُّ كُلُّ ذَلِكَ بِهَا . وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي كِتَابِنَا «إِعْجَازِ الْقُرْآنِ» .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [٥٧]

سورة الحديد/ الآية : ١٦ .

﴿ اَلَمْ يَأْنِ ﴾ هَذِهِ اَلْكَلِمَةُ حَتْ ، وَاِطْمَاعٌ ، وَجِدَالٌ ، وَحُجَّةٌ ؛ وَهِيَ فِي اَلْآيَةِ تُصَرِّحُ اَنَّ خُشُوعَ الْقَلْبِ الَّذِي تِلْكَ صِفَتُهُ هُوَ كَمَالٌ لِلْإِيمَانِ ، وَأَنَّ وَقْتَ هَذَا الْخُشُوعُ هُوَ كَمَالُ الْعُمْرِ ، وَكَيْفَ يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُ اَنَّهُ (سَيَأْنِي) لَهُ اَنْ يَعْمِشَ سَاعَةً أَوْ مَا دُونَهَا ؟ إِذَا فَالْكَلِمَةُ صَارِحَةً تَقُولُ : اَلْآنَ اَلْآنَ قَبْلَ اَلَّا يَكُونُ اَنْ . أَيُّ : اَلْبِدَارُ اَلْبِدَارَ مَا دُمْتَ فِي نَفْسٍ مِنْ الْعُمْرِ ؛ فَإِنْ لَحْظَةً بَعْدَ (اَلْآنَ) لَا يَضْمَنُهَا اَلْحَيُّ . وَإِذَا فَنِي وَقْتُ اَلْإِنْسَانِ اَنْتَهَى زَمَنُ عَمَلِهِ فَبَقِيَ اَلْأَبَدُ كُلُّهُ عَلَى مَا هُوَ ؛ وَمَعْنَى هَذَا اَنْ اَلْأَبَدَ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يُدْرِكُ اَلْحَقِيقَةَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا اَللَّحْظَةُ اَلرَّاهِنَةُ مِنْ عُمْرِهِ اَلَّتِي هِيَ (اَلْآنَ) . فَاَنْظُرْ - وَيَحْكُ - وَقَدْ جُعِلَ اَلْأَبَدُ فِي يَدِكَ ؛ اَنْظُرْ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهِ ؟

تِلْكَ هِيَ حِكْمَةُ اخْتِيَارِ اَللَّفْظَةِ مِنْ مَعْنَى (اَلْآنَ) دُونَ غَيْرِهِ ، عَلَى كَثَرَةِ اَلْمَعَانِي .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وَهَذَا كَالنَّصِّ عَلَى اَنْ غَيْرَ هَؤُلَاءِ لَا تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلَا لِلْحَقِّ ، فَلَا تَقُومُ بِهِمُ اَلْفَضِيلَةُ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِمُ اَلشَّرِيعَةُ ، وَعَالِمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ سَوَاءٌ ؛ لَا يَخْشَعَانِ إِلَّا لِلْمَادَّةِ ؛ وَكَأَنَّ إِنْسَانَهُمْ إِنْسَانُ تُرَابِيٍّ ، لَا يَزَالُ يَضْطَرِبُ عَلَى مَكْرِ اَللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مِنَ اَلْحَيَوَانِ : عَيْشِهِ وَمَوْتِهِ ؛ وَمَا تَقْسُو اَلْحَيَاةُ قَسْوَتَهَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا بِهِمْ ، وَمَا تَرِقُّ رِقَّتُهَا إِلَّا بِالْمُؤْمِنِينَ .

وَجَعَلَ اَلْخُشُوعَ لِلْقُلُوبِ خَاصَّةً ، إِذْ كَانَ خُشُوعُ الْقَلْبِ غَيْرَ خُشُوعِ الْجِسْمِ ، فَهَذَا اَلْأَخِيرُ لَا يَكُونُ خُشُوعًا ، بَلْ ذُلًّا ، أَوْ ضَعْفًا ، أَوْ رِيَاءً ، أَوْ يَفَاقًا ، أَوْ مَا كَانَ . أَمَّا خُشُوعُ اَلْقَلْبِ فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا خَالِصًا مُخْلِصًا مَحْضًا اَلْإِرَادَةَ .

وَأَشْتَرَطَ « اَلْقَلْبَ » كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّمَا اَلْقَلْبُ أَسَاسُ الْمُؤْمِنِ ، وَإِنْ الْمُؤْمِنُ يَنْبُعُ مِنْ قَلْبِهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ ، مَتَى كَانَ هَذَا اَلْقَلْبُ خَاشِعًا لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ عَلَى تِلْكَ اَلْحَالِ ، نَجَّ مِنْهُ اَلْفَاسِقُ وَاَلظَّالِمُ اَلطَّاعِنُ وَكُلُّ ذِي شَرٍّ . مَا أَشْبَهَ اَلْقَلْبَ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَعَانِي اَلْخُلُقِ ، بِاَلْحَبَّةِ تَنْسَرِحُ مِنْهَا اَلشَّجَرَةُ ؛ فَخُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ كَمَا شِئْتَ ؛ حُلُوءًا مِنْ حُلُوٍ ، وَمُرًّا مِنْ مُرٍّ .

وَحُشُوعُ الْقَلْبِ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ ، مَعْنَاهُ السُّمُوءُ فَوْقَ حُبِّ الذَّاتِ ، وَفَوْقَ الْأَثَرَةِ وَالْمَطَامِعِ
الْفَاسِدَةِ ؛ وَهَذَا يَضَعُ لِلْمُؤْمِنِ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ ، وَيَجْعَلُهَا فِي قَانُونَيْنِ لَا قَانُونِ
وَاحِدٍ ؛ وَمَتَى خَشَعَ الْقَلْبُ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ ، عَظُمَتْ فِيهِ الصَّغَائِرُ مِنْ قُوَّةِ إِحْسَاسِهِ بِهَا ، فَبَرَّاهَا
كَبِيرَةً كَبِيرَةً وَإِنْ عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا ، وَبَرَّاهَا وَهِيَ بَعِيدَةٌ مِنْهُ بِمِثْلِ عَيْنِ الْعُقَابِ : يَكُونُ فِي
لَوْحِ الْجَوِّ وَلَا يَغِيبُ عَنْ عَيْنِهِ مَا فِي الثَّرَى .

وَقَدْ تَخَشَّعَ الْقُلُوبُ لِبَعْضِ الْأَهْوَاءِ حُشُوعًا هُوَ شَرٌّ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْفُسُوءَةِ ؛ فَتَقِيدُ
حُشُوعُ الْقَلْبِ « بِذِكْرِ اللَّهِ » ، هُوَ فِي نَفْسِهِ نَفْيٌ لِعِبَادَةِ الْهَوَى ، وَعِبَادَةُ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي
شَهَوَاتِهَا . وَمَا الشَّهْوَةُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ إِلَّا إِلَهُ سَاعَتِهَا . فَيَأْمَأُ أَحْكَمَ وَأَعْجَبَ قَوْلَ
النَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [البخاري ، رقم : ٢٤٧٥ ؛ مسلم ، رقم :
٥٧] . جَعَلَ نَزْعَ الْإِيمَانِ مَوْقُوتًا « بِالْحِينِ » الَّذِي تَقْتَرِفُ فِيهِ الْمَغْصِبَةَ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عِنْدَ
هَذَا الشَّقِيِّ هُوَ إِلَهُ ذَلِكَ « الْحِينِ » .

وَالْحُشُوعُ لِمَا « نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » هُوَ فِي مَعْنَاهُ نَفْيٌ آخِرٌ لِلْكِبَرِيَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَفْسِدُ
عَلَى الْمَرْءِ كُلِّ حَقِيقَةٍ ، وَتَخْرُجُ بِهِ مِنْ كُلِّ قَانُونٍ ؛ إِذْ تَجْعَلُ الْحَقَائِقَ الْعَامَّةَ مَحْدُودَةً
بِالْإِنْسَانِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا يَحْدُودُهَا هِيَ مِنَ الْحَقُوقِ وَالْفَضَائِلِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ تَقْرِيرُ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالزَّامُهَا الْخَيْرُ وَالْحَقُّ دُونَ غَيْرِهِمَا ،
وَقَهْرُهَا لِلذَّاتِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَجَعْلُهَا الْكِبَرِيَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ كِبَرِيَاءَ عَلَى الدُّنْيَا وَالْخَسَائِسِ ،
لَا عَلَى الْحَقُوقِ وَالْفَضَائِلِ ؛ وَإِذَا تَقَرَّرَ كُلُّ ذَلِكَ أَتَتْهُ بِطَبِيعَتِهِ إِلَى إِقْرَارِ السَّكِينَةِ فِي
النَّفْسِ ، وَمَخَوِ الْفَوَاضِلِ مِنْهَا ، وَجَعَلَ نِظَامِهَا فِي إِحْسَاسِ الْقَلْبِ وَحَدِّهِ ؛ فَيَحْيَا الْقَلْبُ فِي
الْمُؤْمِنِ حَيَاةَ الْمَعْنَى السَّامِيَةِ ، وَيَكُونُ نَبْضُهُ عَلَامَةً الْحَيَاةِ فِي ذَاتِهَا ، وَحُشُوعُهُ لِلَّهِ وَلِلْحَقِّ
عَلَامَةً الْحَيَاةِ فِي كَمَالِهَا .

وَقَالَ : « مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْحَقَّ لَا يَكُونُ بِطَبِيعَتِهِ وَلَا بِطَبِيعَةِ
الْإِنْسَانِ أَرْضِيًّا ، فَإِذَا هُوَ أَرْتَمَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَفَرَّرَهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لَمْ يُجَاوِزْ
فِي أَرْتِفَاعِهِ رَأْسَ الْإِنْسَانِ ، وَأَفْسَدَتْهُ أَلْعُقُولُ ؛ إِذْ كَانَ الْإِنْسَانُ طَالِمًا مُتَمَرِّدًا بِالطَّبِيعَةِ ،

لَا تَحْكُمُهُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ إِلَّا السَّمَاءُ وَمَعَانِيهَا ، وَمَا كَانَ شَيْئًا بِذَلِكَ مِمَّا يَجِيئُهُ مِنْ أَعْلَى ؛
أَيُّ بِالسُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ ؛ فَيَكُونُ حَقًّا « نَازِلًا » مُتَدَفِّعًا كَمَا يَتَصَوَّبُ الثَّقُلُ مِنَ عَالٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَنْ يَنْفَذَ شَيْءٌ .

وَالْخُشُوعُ لِمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ يَنْفِي خُشُوعًا آخَرَ هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ ذَاتَ الْبَيْنِ مِنَ النَّاسِ ،
وَهُوَ الْخُشُوعُ لِمَا قَامَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَانْصِرَافُ الْقَلْبِ إِلَيْهَا بِإِيمَانٍ الطَّمَعِ لَا الْحَقِّ .

وَيَحْمِلُ^(١) الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ أَلَوْجُهُ يَتَحَقَّقُ الْعَدْلُ وَالنَّصْفَةُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَيَكُونُ الْعَدْلُ فِي
كُلِّ مَوْضِعٍ شُعُورًا قَلْبِيًّا ، جَارِيًّا فِي الطَّبِيعَةِ لَا مُتَكَلِّفًا مِنَ الْعَقْلِ ؛ وَبِهَذَا وَحْدَهُ يَكُونُ
لِلْإِنْسَانِ إِرَادَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَى الْحَقِّ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، لَا إِرَادَةٌ لِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْإِرَادَةُ
مُتَّسِقَةً فِي نِظَامِهَا مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ ، لَا نَافِرَةً مِنْهَا وَلَا مُتَمَرِّدَةً عَلَيْهَا ؛ وَهَذَا وَذَلِكَ^(٢) يُبَيِّنُ
أَلْقَلْبَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُ الدُّنْيَا ، فَلَا يَكُونُ مِنْ إِيْمَانِهِ إِلَّا سُمُوءُهُ وَقُوَّتُهُ وَتَبَاتُهُ ،
وَيَنْزِلُ الْعُمْرُ عِنْدَ مَنَزَلَةِ اللَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَمَا أَيْسَرَ الصَّبْرَ عَلَى لَحْظَةٍ ! مَا أَهْوَنَ شَرَّ
« الْآنَ » إِنْ كَانَ الْخَيْرُ فِيمَا بَعْدَهُ .

أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ...

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَكَانَ الْحَسَنُ فِي مَعَانِيهِ الْفَاحِشَةِ هُوَ هَذِهِ الْآيَةُ بِعَيْنِهَا ؛ فَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ
إِلَّا إِسْلَامِيَّةً كَهَذَا الْكَلَامِ الْأَبْيَضِ الْمُشْرِقِ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْهُ ؛ شِعَارُهُ أَبَدًا : « الْآنَ قَبْلَ أَلَّا
يَكُونَنَّ أَنْ » وَإِمَامُهُ : « خُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ » وَطَرِيقَتُهُ : « شَرَفِ الْحَيَاةِ لَا الْحَيَاةِ نَفْسُهَا » .

وَكَانَ يَرَى هَذِهِ الْحَيَاةَ كَوْفَعَةِ الطَّائِرِ ؛ هِيَ عَمَلُ جَنَاحَيْنِ مُسْتَوْفَرَيْنِ أَبَدًا لِعَمَلٍ آخَرَ هُوَ
الْأَقْوَى وَالْأَشَدُّ ، فَلَا يَنْزِلَانِ بِطَائِرِهِمَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا مَطْوِيَّتَيْنِ عَلَى قُدْرَةِ الِازْتِفَاعِ بِهِ ، وَلَا
يَكُونَانِ أَبَدًا إِلَّا مَهْفَافَيْنِ خَفِيفَيْنِ عَلَى الطَّيْرَانِ ؛ إِذْ كَانَا فِي حُكْمِ الْجَوْ لَا فِي حُكْمِ
الْأَرْضِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَحْمِلُهُ » بَدَلًا مِنْ : « وَيَحْمِلُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَهَذَا وَذَلِكَ وَذَلِكَ » بَدَلًا مِنْ : « وَهَذَا وَذَلِكَ » .

وَاللَّهُ الْوَفِيُّ وَالطَّيْرَانِ بِالْإِنْسَانِ شَهَوَاتُهُ وَرَغَبَاتُهُ ؛ فَإِنْ حَطَّتْهُ شَهْوَةٌ لَا تَرْفَعُهُ ، فَقَدْ أَوْبَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ وَقَدَفَتْ بِهِ لِيُؤْخَذَ .

لَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » [الترمذي ، رقم : ٢٤٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤٢١٥] ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ خُشُوعِ الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يَحِلُّ لَهُ : يَدَعُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِيهَا لَوْ أَنَاهَا ؛ لِيَقْوَى عَلَى أَنْ يَدَعَ مَا فِيهِ بَأْسٌ ، فَإِنَّ الَّذِي يَتْرُكُ مَا { هُوَ } لَهُ يَكُونُ أَقْوَى عَلَى تَرْكِ مَا لَيْسَ لَهُ .

وَالنَّفْسُ لَا بُدَّ رَاجِعَةً يَوْمًا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَتَارِكَةً أَدَاتِهَا ؛ فَقَوَامُ نِظَامِهَا فِي الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ أَنْ تَكُونَ كُلَّ يَوْمٍ كَأَنَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجَاءَتْ . وَتِلْكَ هِيَ الْحِكْمَةُ فِيمَا فَرَضَتْهُ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ عِبَادَةِ رَابِتَةٍ تَكُونُ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْحَيَاةِ فِي يَوْمِهَا وَلَيْلَتِهَا . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ النَّفْسُ فِي حَيَاتِهَا كَأَنَّهَا دَائِمًا تَذْهَبُ إِلَى مَصِيرِهَا وَتَرْجِعُ مِنْهُ ، طَمَسَهَا الْجِسْمُ وَحَبَسَهَا فِي إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا فِيهِ إِلَّا أَثَرٌ ضَعِيفٌ لَا يَتَجَاوَزُ النُّصْحَ ، كَأَعْتَاضِ الْمَقْتُولِ عَلَى قَاتِلِهِ : يُحَاوِلُ أَنْ يَرُدَّ السِّيفَ بِكَلِمَةٍ . . . ! وَبِذَلِكَ يَتَضَاعَفُ الْجِسْمُ فِي قُوَّتِهِ ، وَيَسْتَدُ فِي صَوْلَتِهِ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي شَهَوَاتِهِ ، كَأَنَّ لَهُ بَطْنَيْنِ يَجُوعَانِ مَعًا . . . فَتُسْتَهْلِكُ شَهَوَاتُ الْمَرْءِ دِينَهُ ، وَتَقْدَفُ بِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، عَلَى قَصْدٍ وَعَلَى غَيْرِ قَصْدٍ ، وَتَمْضِي بِهِ كَمَا شَاءَتْ فِي مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنَ الشَّرِّ .

وَمِثْلُ هَذَا الْمُسْرِفِ عَلَى نَفْسِهِ لَا يَكُونُ تَمَيُّزُهُ فِي الدِّينِ ، وَلَا إِحْسَاسُهُ بِالْخَيْرِ ، إِلَّا كَذَلِكَ السَّكِينِ الَّذِي رَعِمُوا أَنَّهُ أَرَادَ التَّوْبَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ جَرَّتَانِ مِنَ الْخَمْرِ ، فَلَمَّا اتَّعَظَ وَبَلَغَ فِي النَّظَرِ إِلَى نَفْسِهِ وَحَظَّ إِيمَانَهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَيَتُوبَ . نَظَرَ إِلَى الْجَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتُوبُ عَنِ الشُّرْبِ مِنْ هَذِهِ حَتَّى تَفْرُغَ هَذِهِ . . . !

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : ثُمَّ إِنِّي ثَبْتُ عَلَى يَدِ الْحَسَنِ ، وَأَخْلَصْتُ فِي التَّوْبَةِ وَصَحَّحْتُهَا ، وَعَلِمْتُ مِنْ فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ أَنَّ حَقِيقَةَ الدِّينِ هِيَ كِبَرِيَاءُ النَّفْسِ عَلَى شَرِّهَا وَظُلْمِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْكِبَرِيَاءَ الْقَاتِلَةَ لِلْإِنْسَانِ ، هِيَ فِي النَّفْسِ أُخْتُ الشَّجَاعَةِ الْقَاتِلَةِ لِلْعُدُوِّ الْبَاطِلِ : يَفْخَرُ الْبَطْلُ

الشَّجَاعُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ هَذِهِ ، وَيَفْخَرُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ بِمَبْلَغِهِ مِنْ تِلْكَ ؛ وَأَنَّ خُشُوعَ الْقَلْبِ هُوَ فِي مَعْنَاهُ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْكِبَرِيَاءِ بِعَيْنِهَا .

وَحَدَّثْتُ الْحَسَنَ يَوْمًا حَدِيثَ رُؤْيَايَ^(١) ، وَمَا شَبَّهَ لِي مِنْ عَمَلِي السَّيِّئِ وَعَمَلِي الصَّالِحِ ، فَاسْتَدَمَعْتَ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

إِنَّ أَلْبَنَتَ الطَّاهِرَةَ هِيَ جِهَادُ أَبْنَيْهَا وَأُمُّهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنَّهَا فَوْزٌ لَهُمَا فِي مَعْرَكَةِ مِنَ الْحَيَاةِ ، يَكُونَانِ هُمَا وَالصَّبْرُ وَالْإِيمَانُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا قَيْلًا ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ وَالْهَمُّ وَالْحُزْنُ فِي الْجِهَةِ الْمُتَاوِحَّةِ قَيْلًا آخَرَ .

إِنَّ أَلْبَنَتَ هِيَ أُمُّ وَدَّارَ ، وَأَبَوَاهَا فِيمَا يُكَادَانِ مِنْ إِحْسَانِ تَرْبِيَّتِهَا وَتَأْدِيبِهَا وَحَيَاطَتِهَا وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَالْيَقَظَةِ لَهَا - كَأَنَّمَا يَحْمِلَانِ الْأَحْجَارَ عَلَى ظَهْرَيْهِمَا حَجْرًا حَجْرًا ، لِيَشْنِيَا تِلْكَ الدَّارَ فِي يَوْمٍ يَوْمٍ إِلَى عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ ، مَا صَحِبْتُهُ وَمَا بَقِيتُ فِي بَيْتِهِ .

فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ الْأَبُ إِلَى بَنْتِهِ إِلَّا عَلَى أَنَّهَا بِنْتُهُ ، ثُمَّ أُمُّ أَوْلَادِهَا ، ثُمَّ أُمُّ أَحْفَادِهِ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِهَا ، وَحَقُّهَا عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ الْحَقِّ ، فِيهِ خُرْمَتُهَا وَخُرْمَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ مَعًا ؛ وَالْأَبُ فِي ذَلِكَ يُفْرِضُ اللَّهُ إِحْسَانًا وَحَنَانًا وَرَحْمَةً ، فَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُؤَفِّقَهُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَأَنْ يُضَعِّفَ لَهُ .

وَالْبِنْتُ تَرَى نَفْسَهَا فِي بَيْتِ أَهْلِهَا - ضَعِيفَةً كَالْمُنْقَطِعَةِ وَكَالْعَالَةِ ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ وَرَحْمَةُ أَبَوَيْهَا ؛ فَإِنْ رَحِمَاهَا ، وَأَكْرَمَاهَا فَوْقَ الرَّحْمَةِ ، وَسَرَّاهَا فَوْقَ الْكِرَامَةِ ، وَقَامَا بِحَقِّ تَأْدِيبِهَا وَتَعْلِيمِهَا وَتَفْقِيْهِهَا فِي الدِّينِ ، وَحَفِظَا نَفْسَهَا طَاهِرَةً كَرِيمَةً مَسْرُورَةً مُؤَدَّبَةً - فَقَدْ وَضَعَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَمَلًا كَامِلًا مِنْ أَعْمَالِهِمَا الصَّالِحَةِ ، كَمَا وَضَعَاهُ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِيَّةِ . فَإِذَا صَارَا إِلَى اللَّهِ كَانَ حَقًّا لَهُمَا أَنْ يَجِدَا فِي الْآخِرَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا يَذْهَبَانِ بَيْنَهُمَا إِلَى عَفْوِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَغَدَاَهَا فَأَحْسَنَ غَدَاءَهَا ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّغَمَةِ الَّتِي أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِ - كَانَتْ لَهُ مِيمَةً وَمِيسِرَةً مِنْ

(١) ذَكَرْتُ الرُّؤْيَا فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ . [أي : في المقالة السابقة : « بنته الصغيرة : »] .

الَّتَارِ إِلَى الْجَنَّةِ [رواه الطبراني في « الكبير » ؛ والخرائطي في « مكارم الأخلاق »] .

فَهَلْذِهِ ثَلَاثٌ لَا بُدَّ مِنْهَا مَعًا ، وَلَا تُجْزَى وَاحِدَةٌ عَنْ وَاحِدَةٍ فِي ثَوَابِ الْبِنْتِ : تَرْبِيَةُ
عَقْلِهَا تَرْبِيَةُ إِحْسَانٍ ، وَتَرْبِيَةُ جِسْمِهَا تَرْبِيَةُ إِحْسَانٍ وَإِلْطَافٍ ، وَتَرْبِيَةُ رُوحِهَا تَرْبِيَةُ إِكْرَامٍ
وَإِلْطَافٍ وَإِحْسَانٍ .

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَاللَّهُ أَرْحَمُ أَنْ تَضَيِّعَ عِنْدَهُ الرَّحْمَةُ ؛ وَاللَّهُ أَكْرَمُ أَنْ يَضَيِّعَ الْإِحْسَانُ عِنْدَهُ ،
وَاللَّهُ أَكْبَرُ ...

وَهُنَا صَاحَ الْمُؤَدِّنُ : اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

الأجنبيّة (*)

أَحِبَّهَا وَأَحْبَهُ ، حَتَّى ذَهَبَ بِهَا فِي الْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَتْ لَهُ فِيهِ : « لَوْ جَاءَنِي قَلْبِي فِي صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ لَأَرَاهُ كَمَا أَحْبَبْتُهُ ، لَمَّا اخْتَارَ غَيْرَ صُورَتِكَ أَنْتَ فِي رَقَّتِكَ وَعَظْفِكَ وَحَتَانِكَ » . وَحَتَّى ذَهَبَتْ بِهِ فِي الْحُبِّ مَذْهَبًا قَالَ لَهَا فِيهِ : « إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَكُونُ أَبَدًا فَنًا ، وَلَا أَحْسَنَ جَمَالًا ، وَلَا أَكْثَرَ إِمْتَاعًا - لَوْ خُلِقَتْ أَمْرَأَةٌ يَهْوَاهَا رَجُلٌ - إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ أَنْتِ ! » فَقَالَتْ لَهُ : « وَيَكُونُ هُوَ أَنْتَ ... ! » .

وَتَذَلَّهَتْ فِيهِ ، حَتَّى كَانَتْ كَمَا خَلَبَهَا عَقْلُهَا وَوَضَعَ لَهَا عَقْلًا مِنْ هَوَاهُ ؛ فَكَانَتْ تَقُولُ لَهُ فِيمَا يَبْتُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا : « إِنَّ حُبَّ الْمَرْأَةِ هُوَ ظُهُورُ إِرَادَتِهَا مُتَبَرِّئَةً مِنْ أَنَّهَا إِرَادَةٌ ، مُقَرَّةٌ أَنَّهَا مَعَ الْحَبِيبِ طَاعَةٌ مَعَ أَمْرِ ، مُذْعِنَةٌ أَنَّهَا قَدْ سَلِمَتْ كِبَرِيَاءَهَا لِهَذَا الْحَبِيبِ ، لِتَرَاهُ فِي قُوَّتِهِ ذَا كِبَرِيَاءَيْنِ » .

وَأَفْتَنَّ بِهَا حَتَّى أَخَذَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا خِذَ ، فَمَلَأَتْ نَفْسَهُ بِأَشْيَاءَ ، وَمَلَأَتْ عَيْنَهُ مِنْ أَشْيَاءَ ؛ فَكَانَ يَقُولُ لَهَا فِي نَجْوَاهُ : « إِنِّي أَرَى الزَّمَنَ قَدْ انْتَسَخَ مِمَّا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِالْحُبِّ فِي زَمَنٍ مِنْ نَفْسِنَا الْعَاشِقَتَيْنِ ، لَا يُسَمَّى الْوَقْتُ وَلَكِنْ يُسَمَّى السُّرُورَ ؛ وَإِنَّمَا نَعِيشُ فِي أَيَّامِ قَلْبِيَّةٍ ، لَا تَذُلُّ عَلَى أَوْقَاتِهَا السَّاعَةُ بِدَقَائِقِهَا وَثَوَانِيهَا ، وَلَكِنْ السَّعَادَةُ بِحَقَائِقِهَا وَلَذَائِهَا » .

وَتَحَابًّا ذَلِكَ الْحُبُّ الْفَنِّي الْعَجِيبُ ، الَّذِي يَكُونُ مُمْتَلِئًا مِنَ الرُّوحَيْنِ يَكَادُ يَفِيضُ وَيَنْسَكِبُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَبْرَحُ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ ، لِيَتَحَيَّلَ مِنْ لَذَّتِهَا مَا يَتَحَيَّلُ السُّكُّورُ فِي نَشْوَتِهِ إِذَا طَفَحَتِ الْكَأْسُ ، فَيَرَى بِعَيْنَيْهِ أَنَّهَا سَتَسَعُ لِأَكْثَرِ مِمَّا امْتَلَأَتْ بِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ بِالْكَأْسِ وَزِيَادَتِهَا ، سُكْرُ الْخَمْرِ وَسُكْرُ الْوَهْمِ .

تَحَابًّا ذَلِكَ الْحُبُّ الْفَوَارُ فِي الدَّمِّ ، كَانَ فِيهِ مِنْ دَوْرَتِهِ طَبِيعَةُ الْفِرَاقِ وَالتَّلَاقِ بِغَيْرِ تَلَاقٍ

وَلَا فِرَاقٍ ؛ فَيَكُونَانِ مَعًا فِي مَجْلِسِهِمَا الْغَزَلِيِّ ، جَنْبُهُ إِلَى جَنْبِهَا وَفَاحَا إِلَى فِيهِ ^(١) وَكَأَنَّمَا هَرَبَتْ ثُمَّ أَدْرَكَهَا ، وَكَأَنَّمَا فَرَّتْ ثُمَّ أَمْسَكَهَا . وَبَيْنَ الْقُبْلَةِ وَالْقُبْلَةِ هِجْرَانٌ وَصُلْحٌ ، وَبَيْنَ الْفَتْنَةِ وَالْفَتْنَةِ غَضَبٌ وَرِضَى .

وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْحُبِّ يَكُونُ فِي بَعْضِ الطَّبَائِعِ الشَّاذَّةِ الْمُسْرِفَةِ ، الَّتِي أَفْرَطَتْ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ إِفْرَاطَهَا فَيَلْفُ الْحَيَوَانِيَّةُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كَبَعْضِ الْأَحْمَاضِ الْكَيْمَوِيَّةِ مَعَ بَعْضِهَا ؛ لَا تَلْتَقِي إِلَّا لِتَمَازُجٍ ، وَلَا تَتَمَازُجُ إِلَّا لِتَتَّحِدَ ، وَلَا تَتَّحِدُ إِلَّا لِتَيْتَلَعَ وَجُودَ هَذَا وَجُودَ ذَاكَ .

* * *

وَضَرَبَ الدَّهْرُ مِنْ ضَرْبَاتِهِ { فِي أَحْدَاثٍ وَأَحْدَاثٍ } ؛ فَابْغَضَتْهُ وَأَبْغَضَهَا ، وَفَسَدَتْ ذَاتُ بَيْنِهِمَا ، وَأَذْبَرَتْ مِنْهَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ؛ فَوَثَبَ كِلَاهُمَا مِنْ وَجُودِ الْآخِرِ وَثَبَةً فَرَعَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ . أَمَّا هُوَ فَسَخِطَهَا لِغُيُوبِ نَفْسِهَا ، وَأَمَّا هِيَ ... وَأَمَّا هِيَ فَتَكَرَّهَتْ لِمَحَاسِنِ غَيْرِهِ ! وَأَنْسَرَبَتْ أَيَّامُ ذَلِكَ الْحُبِّ فِي مَسَارِيرِهَا تَحْتَ الزَّمَنِ الْعَمِيقِ الَّذِي طَوَى وَلَا يَرَا لِيَطْوِي وَلَا يَبْرَحُ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْوِي ؛ كَمَا يَغُورُ الْمَاءُ فِي طَبَاقِ الْأَرْضِ . فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ الْمُسْكِينُ وَقَدْ نَزَلَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ مِنْ نَفْسِهِ مَنَزَلَةً أَقَارِبَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَحِبَّاءَ مَاتُوا بَعْضُهُمْ وَرَاءَ بَعْضٍ ، وَتَرَكُوهُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَبْرَحُوا فِكْرَهُ ، فَكَانُوا لَهُ مَادَّةَ حَسْرَةٍ وَلَهْفَةٍ . أَمَّا هِيَ ... أَمَّا هِيَ فَانْشَقَّ الزَّمَنُ فِي فِكْرِهَا بِرَجَّةٍ زَلْزَلَةٍ ، وَابْتَلَعَ تِلْكَ الْأَيَّامُ ثُمَّ أَلْتَأَمَ ... !

* * *

فَحَدَّثَنَا « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » رَئِيسُ جَمَاعَةِ الطَّلَبَةِ الْمِصْرِيِّينَ فِي مَدِينَتِهِ ... بِفَرَنْسَةِ ، قَالَ : وَأَنْتَهَى إِلَيَّ أَنَّ صَاحِبَنَا هَذَا جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ مِصْرَ ، فَتَخَالَجَنِي الشُّوقُ إِلَيْهِ ، وَنَزَعَتْ إِلَيَّ لِقَائِهِ نَفْسِي ، وَمَا بَيْنَنَا إِلَّا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِصْرِيٌّ قَدِمَ مِنْ مِصْرَ ؛ وَخَيْلٌ إِلَيَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِمَّا أَهْتَا جَنِي مِنَ الْحَنِينِ إِلَى بِلَادِي الْعَزِيزَةِ ، أَنَّ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مِصْرَ إِلَّا شَارِعَانِ أَفْطَعُهُمَا فِي دَقَائِقَ ؛ فَخَفَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَى مَنَوَاهُ ، كَمَا يَصْنَعُ

(١) تَأْوِيلُ هَذَا فِي بَابِ (الْحَالِ) عِنْدَ ظُرْفَاءِ النُّحَوِيِّينَ : مُتَلَاصِقَتَيْنِ مُتَعَانِقَتَيْنِ .

الطَّيْرُ إِذَا تَرَامَى إِلَى عُشِّهِ فَأَبْتَدَرَهُ مِنْ فُطْرِ الْجَوِّ .

قَالَ : وَأَصْبَتْهُ وَاجِمًا يَغْلُوهُ الْحُزْنُ ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا مَلَأَ مِنْ نَفْسِي وَمَا مَلَأْتُ مِنْ نَفْسِهِ . وَكَمَا يَمْعِي الرِّمَانُ بَيْنَ الْحَيِّثَيْنِ إِذَا التَّقْبَا بَعْدَ فُرْقَةٍ - تَبَلَّشَى الْمَكَانُ بَيْنَ أَهْلِ الْوُطَنِ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَاقَوْا فِي الْغُرْبَةِ . فَدَابَّتِ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، كَأَن لَمْ تَكُنْ شَيْئًا ؛ وَتَجَلَّى سِحْرُ مِصْرَ فِي أَفْوَى سَطَوَتِهِ وَأَشَدَّهَا فَأَخَذْنَا كِلَيْنَا ، فَمَا اسْتَشَعَرْنَا سَاعَتَيْدِ إِلَّا أَنَّ أُرُوءِيَةَ الْعَظِيمَةِ كَأَنَّمَا كَانَتْ مَرْسُومَةً عَلَى وَرْقَةٍ ، فَطَوَيْنَاهَا وَأَخْلَلْنَا مِصْرَ فِي مَحَلِّهَا .

وَطَعَنِي عَلَيْنَا نَارُ الْطَّرَبِ طُغْيَانًا شَدِيدًا ، فَأَرْسَلْتُ مَنْ يَجْمَعُ الْإِخْوَانَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَاخْتَرْتُ لِذَلِكَ صَدِيقًا شَاعِرَ الْفِطْرَةِ ، فَتَرَا بِهِ الطَّرَبُ ، فَكَانَ يَدْعُوهُمْ وَكَأَنَّهُ يُؤَدِّنُ فِيهِمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ . وَجَاوُوا يُهْرَوُلُونُ هَزَوْلَةَ الْحَجِيجِ ، فَلَوْ نَطَقَتِ الْأَرْضُ الْفَرَنْسِيَّةُ الَّتِي مَسُوا عَلَيْهَا تِلْكَ الْمِشْيَةَ لَقَالَتْ : هَذِهِ وَطَاءُ أَسْوَدٍ تَتَخَيَّلُ خِيَلَاءَهَا مِنْ بَغْيِ الشَّاسِطِ وَالْقُوَّةِ .

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا مِصْرُ ، وَمَا أَعْظَمَ تَعَثُّكَ فِي هَذَا السَّخْرِ الْفَاتِنِ ! أَيْبَغْنِي أَنْ يَغْتَرِبَ كُلُّ أَهْلِكَ حَتَّى يُدْرِكُوا مَعْنَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الْعَظِيمِ : « مِصْرُ كِتَانَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » [راجع « كشف الخفا » ، رقم : ٢٣٠٩ ؛ و« المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩] . فَيَعْرِفُوا أَنَّكَ مِنْ

عِزَّتِكَ مُعَلِّقَةٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ تَعْلِيْقُ الْكِتَانَةِ فِي دَارِ الْبَطْلِ الْأَرْوَعِ ؟

قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : وَاجْتَمَعْنَا فِي الدَّارِ الَّتِي أَنْزَلُ فِيهَا ، فَرَاعَ ذَلِكَ صَاحِبَةُ مَثْوَايَ^(١) ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ هَلْهَذَا لَيْلَةً مِصْرِيَّةً سَتَحْتَلُّ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فِي مَدِينَتِكُمْ هَذِهِ ، فَلَا تَجْزَعُوا . ثُمَّ دَعَوْتُهَا إِلَى مَجْلِسِنَا لِتَشْهَدَ كَيْفَ تَسْتَعْلِنُ الرُّوحَ الْمِصْرِيَّةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ بِرِفْقَتِهَا وَظَرْفِهَا وَحِمَاسَتِهَا ، وَكَيْفَ تُفَسِّرُ هَذِهِ الرُّوحَ الْمِصْرِيَّةُ كُلَّ جَمِيلٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْجَمِيلَةِ بِشَوْقٍ مِنْ أَشْوَاقِهَا الْحَثَّانَةِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الرُّوحُ فِي جَوْ مُوسِقِيَّيْهَا الطَّبِيعِيَّةِ حِينَ تَتَاجَنَّى أَحْبَابَهَا ، فَيَجِيءُ حَدِيثُهَا بِطَبِيعَتِهِ كَأَنَّهُ دِيْبَاجَةٌ شَاعِرٍ فِي صَفَائِهَا وَحَلَاوَتِهَا وَرَنِينِ أَلْفَاظِهَا ؟

(١) صَاحِبَةُ الْمَثْوَى هِيَ رَبَّةُ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ الصَّيْفُ وَمَنْ كَانَ فِي حُكْمِهِ ، يَقُولُ الْعَرَبِيُّ : مَنْ كَانَتْ صَاحِبَةُ مَثْوَاكَ ؟ فَتُطْلَقُ عَلَى صَاحِبَةِ الْبَيْتِئُونِ Pension [وال Pension : نَزْلٌ يُدْفَعُ فِيهِ أَجْرُ سَكْنٍ وَطَعَامٍ بِشَكْلِ دُورِي ، يَوْمِيَا ، أَوْ أُسْبُوعِيَا ، أَوْ شَهْرِيَا] .

وَقَالَتِ السَّيِّدَةُ الظَّرِيفَةُ : يَا لَهَا سَعَادَةٌ ! سَأَتَّخِذُ زَيْنَتِي ، وَأُصْلِحُ مِنْ شَأْنِي ، وَأَكُونُ
بَعْدَ خَمْسِ دَقَاقَتٍ فِي مِصْرَ !

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَأَخَذْنَا فِي شَأْنِنَا ، وَكَانَ مَعَنَا طَالِبٌ حَسَنُ الصَّوْتِ ، فَقَامَ إِلَى
الْبَيْانَةِ^(١) وَغَنَّى مَقْطُوعَةً « طَقْطُوعَةٌ » مِصْرِيَّةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاطِيعِ الَّتِي تُطْفِطِقُ فِيهَا النَّفْسُ ،
فَجَعَلَ يَمْطُلُ صَوْتُهُ بِآهٍ ، وَآهٍ ، وَدَارَ اللَّحْنُ دَوْرَةً تَأَوَّهَتْ فِيهَا الْكَلِمَاتُ كُلُّهَا . ثُمَّ اعْتَوَرَ
الْبَيْانَةَ طَالِبٌ آخَرُ فَمَا شَدَّ عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ ، وَكَانَ بَعْدَ الْأَوَّلِ كَالثَّانِيَةِ نُجَابُوبُ الثَّانِيَةِ !
فَمَالَتْ عَلَيَّ السَّيِّدَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ وَأَسْرَتْ إِلَيَّ : أَهَاتَانِ أَمْرَاتَانِ أَمْ رَجُلَانِ . . . ؟ فَقُلْتُ لَهَا :
إِنَّ هَذَا لَحْنٌ تَارِيخِيٌّ ذُو مَقْطُوعَتَيْنِ ، كَانَتْ تَطَارَحُهُ كِلْيُوبَاتَرَةٌ^(٢) وَأَنْطُونِيو ، وَأَنْطُونِيو
وَكِلْيُوبَاتَرَةٌ . . . فَأَعْجَبَتِ الْمَرْأَةُ أَشَدَّ الْإِعْجَابِ ، وَأَكْبَرَتْ مِنَّا هَذَا الذَّوْقَ الْمِصْرِيَّ أَنَّ
نُكْرِمَهَا لَوْجُودِهَا فِي مَجْلِسِنَا بِالْحَانَ الْمَلِكَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، وَطَرِبَتْ لِذَلِكَ أَشَدَّ
الطَّرَبِ ، وَمَلَكَهَا غُرُورُ الْمَرْأَةِ ، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيدُ : « يَا لَوْعَتِي ، يَا شَقَايَ ، يَا ضَنْيَ
حَالِي . . . » وَتَقُولُ : مَا كَانَ أَرْقَ كِلْيُوبَاتَرَةٌ ! مَا كَانَ أَرْقَ أَنْطُونِيو ! يَا لِفِتْنَةِ الْحُبِّ
الْمَلَكِيِّ . . . !

قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : ثُمَّ خَبَلْتُ وَاللَّهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُحَخَّثِ ، وَمِنْ تَلْفِيظِي
الَّذِي لَفَقْتُهُ لِلْمَرْأَةِ الْمَخْدُوعَةِ ؛ فَأَنْتَفَضْتُ أَنْفَاضَةً مَنْ يَمْلَأُهُ الْغَضَبُ ، وَقَدْ حَمَى دَمُهُ ،
وَفِي يَدِهِ السِّيفُ الْبَازِرُ ، وَأَمَامَهُ الْعَدُوُّ الْوَفُوحُ ؛ وَتُرْتُ إِلَى الْبَيْانَةِ فَأَجَرَيْتُ عَلَيْهَا أَصَابِعِي ،
وَكَانَ فِي يَدَيَّ عَشْرَةَ شَيَاطِينٍ لَا عَشَرَ أَصَابِعَ ، وَدَوَّى فِي الْمَكَانِ لَحْنٌ : « أَسْلِمِي
يَا مِصْرُ » ، وَجَلَجَلَ كَالرَّعْدِ فِي قُبَّةِ الدُّنْيَا ، تَحْتَ طِبَاقِ الْعَيْمِ ، بَيْنَ شَرَارِ الْبَرَقِ . فَكَأَنَّمَا
تَزَلْزَلَ الْمَكَانُ عَلَى السَّيِّدَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَعَلَيْنَا جَمِيعًا ، وَصَرَخَ أَجْدَادُنَا يَزَارُونَ مِنْ أَعْمَاقِ
التَّارِيخِ : « أَسْلِمِي يَا مِصْرُ . . . »^(٣) .

- (١) الْبَيْانَةُ : كَلِمَةٌ اسْتَعْمَلْنَاهَا فِي كِتَابِنَا « السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » لِلْبَيَانُو Piano ، وَتَجَمُّعٌ عَلَى بَيَانَاتٍ .
(٢) فِي الْأَصُولِ : « كِلْيُوبَاتَرَةٌ » وَهِيَ Cléopatra (٦٩ - ٣٠ ق . م) مَلِكَةُ مِصْرَ (٥١ - ٤٩ ق . م)
(و) (٤٨ - ٣٠ ق . م) اشتهرت بجمالها . بِسَامِ .
(٣) { هَذَا هُوَ التَّشِيدُ الَّذِي وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِ سَعْدٍ بَاشَا زُغَلُول ، وَهُوَ الْيَوْمَ التَّشِيدُ الْوُطَنِيُّ لِمِصْرَ =

وَلَمَّا قَطَعْتُ أَلْتَفَتُ إِلَيْهَا فِي كِبَرِيَاءِ تِلْكَ الْمُوسِيقَى وَعَظَمَتِهَا ، وَقُلْتُ لَهَا : هَذَا هُوَ غِنَاؤُنَا نَحْنُ الشُّبَّانُ الْمِصْرِيِّينَ .

ثُمَّ رَاجَعْنَا صَاحِبَنَا الضَّيْفَ ، وَأَخْفَيْنَاهُ بِالْمَسَآلَةِ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ دَافَعْنَا طَوِيلًا : إِنَّهُ يُحْسِنُ شَيْئًا مِنَ الْمُوسِيقَى ، وَإِنَّ لَهُ لِحَنًا سَيَّاطِرْحًا بِهِ لِنَأْخُذَهُ عَنْهُ . فَطَرْنَا بِلَحْنِهِ قَبْلَ أَنْ نَسْمَعَهُ ، وَقُلْنَا لَهُ : أَفْعَلْ مُتَفَضِّلًا مَشْكُورًا . وَمَا زِلْنَا حَتَّى نَهَضَ مُتَشَاقِلًا ، فَجَلَسَ إِلَى أَلْيَانَةٍ وَأَطْرَقَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ يُسَوِّي أَوْتَارًا فِي قَلْبِهِ ، ثُمَّ دَقَّ يَتَشَاجَى بِهَذَا الصَّوْتِ [مِنَ الطَوِيلِ] :

أَضَاعَ غَدِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ غَدِي وَحَطَمْتَنِي مَنْ كَانَ يَجْهَدُ فِي سَبْكِى !
فَإِنْ كُنْتُ لَا أَسَى لِنَفْسِي فَمَنْ إِذَا ؟ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَبْكِي لِنَفْسِي فَمَنْ يَبْكِي ^(١) ؟

قَالَ « الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ » : فَكَانَ الْغِنَاءُ يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اعْتِلَاجًا ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَبْكِي فِيهِ بُكَاءَهَا وَتَغْصُ مِنْ غَضَبِهَا ، وَكَانَ فِي الصَّوْتِ فِكْرًا حَزِينًا يَسْتَعْلِنُ فِي هَمِّ مُوسِيقَى ؛ وَخَيْلَ إِلَيْنَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ أَلْيَانَةَ انْقَلَبَتْ أَمْرَأَةً مُغْنِيَةً تُطَارِحُ هَذَا الرَّجُلَ عَوَاطِفَهَا وَأَحْزَانَهَا ، فَاجْتَمَعَ مِنْ صَوْتِهِمَا أَكْمَلُ صَوْتِ إِنْسَانِي وَأَجْمَلُهُ وَأَشْجَاهُ وَأَرْفُهُ .

فَاطْفَنَّا بِهِ وَقُلْنَا لَهُ : لَقَدْ كَتَمْنَا نَفْسَكَ حَتَّى نَمَّ عَلَيْهَا مَا سَمِعْنَا ، وَمَا هَذَا بِغِنَاءٍ ، وَلَكِنَّهُ هُمُومٌ مُلْحَنَةٌ تَلْحِينُنَا ، فَلَنْ نَدَعَكَ أَوْ تُخْبِرَنَا مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُهَا .

فَاعْتَلَّ عَلَيْنَا وَدَافَعْنَا جُهْدَهُ ، فَقُلْنَا لَهُ : هَيْهَاتَ ! وَاللَّهِ لَنْ نُفْلِتَكَ وَقَدْ صِرْتَ فِي أَيْدِينَا ، وَإِنَّكَ مَا تَزِيدُ عَلَيَّ أَنْ تَعْظَنَّا بِهِذِهِ الْقِصَّةِ ؛ فَإِنْ أَمْسَكَتَ عَنْهَا فَقَدْ أَمْسَكَتَ عَنْ مَوْعِظَتِنَا ، وَإِنْ بَخَلْتَ فَمَا بَخَلْتَ بِقِصَّتِكَ بَلْ يَعْلَمُ مِنْ عِلْمِ الْحَيَاةِ ثَقِيلُهُ مِنْكَ ؛ وَأَنْتَ تَرَانَا نَعِيشُ هَاهُنَا فِي اجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ كُلُّهُ قِصَصُ قَلْبِيَّةٍ ، بَيْنَ نِسَاءٍ لَا يَلْبَسْنَ إِلَّا مَا يُعْرِئُ جَمَالَهُنَّ ، وَفِي رِجَالٍ أَفْرَطَتْ عَلَيْهِمُ الْحُرِّيَّةُ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهَا مَخْدَعُ الزُّوْجَةِ . . . !

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَنَظَرْتُ فَإِذَا الرَّجُلُ كَاسِفٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَتَبَيَّنَ الْانْكِسَارُ فِي وَجْهِهِ ،

= كُلُّهَا ، يَحْفَظُهُ جَمِيعُ الطَّلَبَةِ ، وَالْكَشَافَةِ ، وَالْأَدَبِيَّةِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا { .

(١) وَضَعْنَا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِطَبْلِ الْقِصَّةِ ، وَكَمْ لَهُنَّ الْقِصَّةُ مِنْ أَبْطَالٍ . . . !

فَأَلَمْتُ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ دُهِىَ فِي زَوْجَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَوْرُثِيَّاتِ ، اللَّوَاتِي يَتَزَوَّجْنَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَخْدَعُ الْمَرْأَةِ مِنْهُنَّ خُرًّا أَنْ يَأْخُذَ وَيَدَعَ ، وَيُغَيِّرَ وَيُبَدِّلَ ، وَيَقْسِمَ كَلِمَةً « زَوْجٍ » قَسَمَيْنِ وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً وَمَا شَاءَ . .

وَكَأَنَّمَا مَسَسْتُ الْبَارُودَ بِتِلْكَ الشَّرَارَةِ ، فَانْفَجَرَتْ نَفْسُ الرَّجُلِ عَنْ قِصَّةِ مَا أَفْطَعَهَا !

* * *

قَالَ : يَا إِخْوَانِي الْمِصْرِيِّينَ ! قَبْلَ أَنْ أَنْفُضَ لَكُمْ ذَلِكَ الْخَبَرَ ، أُسَدِّدُكُمْ هَذِهِ النَّصِيحَةَ الَّتِي لَمْ يَضَعَهَا مُؤَلِّفُ تَارِيخِي لِسُوءِ الْحِظِّ ، إِلَّا فِي الْفَصْلِ الْآخِرِ مِنْ رِوَايَةِ شَقَائِي :

إِنَّا كُمْ إِنَّا كُمْ أَنْ تَغْتَرُّوا بِمَعَانِي الْمَرْأَةِ ، تَحْسُبُونَهَا مَعَانِي الزَّوْجَةِ ؛ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الزَّوْجَةِ بِخَصَائِصِهَا ، وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ بِمَعَانِيهَا ؛ فَإِنَّ فِي كُلِّ زَوْجَةٍ امْرَأَةً ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي كُلِّ امْرَأَةٍ زَوْجَةٌ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي أُنُوثَتِهَا وَفُتُونِهَا النِّسَائِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ ، كَهَذَا السَّحَابِ الْمُلَوَّنِ فِي الشَّفَقِ حِينَ يَبْدُو ؛ لَهُ وَفَتْ مَحْدُودٌ ثُمَّ يُمَسَّحُ مَسْحًا ؛ وَلَكِنَّ الزَّوْجَةَ فِي نِسَائِيَّتِهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ كَالشَّمْسِ ؛ قَدْ يَحْجُبُهَا ذَلِكَ السَّحَابُ ، بَيِّدَ أَنْ أَبْقَاءَ لَهَا وَخَدَهَا ، وَالْأَعْيَارَ لَهَا وَخَدَهَا ، وَلَهَا وَخَدَهَا أَلَوْفَتْ كُلَّهُ .

لَا تَتَزَوَّجُوا يَا إِخْوَانِي الْمِصْرِيِّينَ بِأَجْنَبِيَّةٍ ؛ إِنْ أَجْنَبِيَّةٌ يَتَزَوَّجُ بِهَا مِصْرِيٌّ ، هِيَ مُسَدَّسُ جَرَائِمٍ فِيهِ سِتٌّ قَدْ انْفَتَحَتْ :

الْأُولَى : بَوَارُ امْرَأَةِ مِصْرِيَّةٍ وَضِيَاعُهَا بِضِيَاعٍ حَقَّقَهَا فِي هَذَا الزَّوْجِ ؛ وَتِلْكَ جَرِيمَةٌ وَطَنِيَّةٌ . فَهَذِهِ وَاحِدَةٌ .

وَالثَّانِيَّةُ : إِفْحَامُ الْأَخْلَاقِ الْأَجْنَبِيَّةِ عَنْ طِبَاعِنَا وَفَضَائِلِنَا - فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الشَّرْقِيِّ ، وَتَوَهِينُهُ بِهَا وَصَدْعُهُ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ .

وَالثَّالِثَةُ : دَسُّ الْعُرُوفِ الرَّافِعَةِ فِي دِمَائِنَا وَنَسْلِنَا ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ أَجْتِمَاعِيَّةٌ .

وَالرَّابِعَةُ : التَّمَكُّنُ لِلْأَجْنَبِيِّ فِي بَيْتِ مَنْ يُبَوِّتُنَا ، يَمْلِكُهُ وَيَحْكُمُهُ وَيُصَرِّفُهُ عَلَى مَا شَاءَ ؛ وَهِيَ جَرِيمَةٌ سِيَاسِيَّةٌ .

وَالْخَامِسَةُ : لِلْمُسْلِمِ مِمَّا إِنْثَارَهُ غَيْرَ أُخْتِهِ الْمُسْلِمَةِ ، ثُمَّ تَحْكِيْمُهُ أَلْهَوَى فِي الدِّينِ ، مَا يُعْجِبُهُ وَمَا لَا يُعْجِبُهُ ؛ ثُمَّ إِلْقَاؤُهُ السَّمَّ الدِّينِيَّ فِي نَبْعِ ذُرِّيَّتِهِ الْمُقْبِلَةِ ، ثُمَّ صَيْرُورَتُهُ خِزْيَا لِأَجْدَادِهِ الْفَلَّاحِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْخُذُونَ عَنْ سَبَايَا ، وَيَجْعَلُونَهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ الزَّوْجَةِ ؛ فَأَخَذَتْهُ هِيَ رَقِيقًا لَهَا ، وَصَارَ مَعَهَا فِي الْمَنْزِلَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ (١) . . . وَهَذِهِ جَرِيْمَةُ دِينِيَّةٌ .

وَالسَّادِسَةُ : بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَنَّ هَذَا الْمِسْكِينَ يُؤْثِرُ أَسْفَلَهُ عَلَى أَعْلَاهُ . . . وَلَا يُبَالِي فِي ذَلِكَ خَمْسَ جَرَائِمَ فَظِيعَةٍ .
وَهَذِهِ السَّادِسَةُ جَرِيْمَةُ إِنْسَانِيَّةٍ !

* * *

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ يَا إِخْوَانِي ، وَقَدْ رَجَعْتُ بِزَوْجَتِي الْأَوْرِثِيَّةِ إِلَى مِصْرَ ، إِنِّي أَحْضَرْتُ مَعِي مِنْ أَوْرَثَةِ آلِهِ تَصْنَعُ أَحْزَانِي وَمَصَائِبِي ! وَلَمْ يَكُنْ وَعْظِي أَحَدٌ بِمَا أَعْظَكُم بِهِ الْآنَ ، وَلَا تَنْبَهْتُ بِذَكَائِي إِلَى أَنَّ الزَّوْجَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ ثَبِتُ لِي غُرْبَتِي فِي بِلَادِي ! وَثَبِتُ عَلَيَّ أَنِّي غَيْرُ وَطَنِي أَوْ غَيْرُ نَامِ الْوُطَنِيَّةِ ، ثُمَّ تَكُونُ مِنِّي حِمَاقَةً ثَبِتُ لِلنَّاسِ أَنِّي أَحْمَقُ فِيمَا أَخْزَرْتُ ؛ ثُمَّ تَعُودُ مُشْكِلَةٌ دَوْلِيَّةٌ فِي بَيْتِي ، يَزُورُهَا أَبْنَاءُ جَنْسِهَا وَيَسْتَرْزِفُونَهَا رَغَمَ أَنْفِي وَفَمِي وَوَجْهِي كُلِّهِ ! وَيَسْتَطِيلُونَ بِالْحِمَايَةِ ، وَيَسْتَرْوُونَ بِالْامْتِيَازَاتِ ، وَيَرْفَعُونَ سِتَارًا عَنْ فَضْلِي ، وَيَرْخُونَ سِتَارًا عَلَى فَضْلِي (٢) . . . وَأَنَا وَخِدي أَشْهَدُ الرِّوَايَةَ . . . !

إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي أَوْرَثَةِ شَيْطَانِ عَالَمٍ مُخْتَرِعٍ . فَقَدْ زَيَّنَ لِي مِنْ تِلْكَ الزَّوْجَةِ ثَلَاثَ نِسَاءٍ مَعًا : زَوْجَةً عَقْلِيَّةً ، وَزَوْجَةً قَلْبِيَّةً ، وَزَوْجَةً نَفْسِيَّةً ؛ ثُمَّ نَفَثَ اللَّعِينُ فِي رُوعِي أَنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ وَلَا وَاحِدَةٍ . قَالَ الْخَبِيثُ : لِأَنَّهَا زَوْجَةُ الْجَسَمِ وَحْدَهُ ، فَلَا تَسْمُو إِلَى الْعَقْلِ ، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ ، وَلَا تَمْتَرِجُ بِالنَّفْسِ ؛ وَأَنَّهَا بِذَلِكَ جَاهِلَةٌ ، غَلِيظَةُ الْحِسِّ ، خَشِنَةُ الطَّنْعِ ، لَا تَكُونُ مَعَ الْمِصْرِيِّ

(١) { يُرِيدُ : بَعْدَ عَشِيْقَتِهَا } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَنْ فَضْلِي » بِدَلَالَةِ : « عَلَى فَضْلِي » .

إِلَّا كَمَا تَكُونُ الْأَرْضُ الْمِصْرِيَّةُ مَعَ فَلَاحِهَا . . .

لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْعَالِمِ الْمُخْتَرِعِ ! مَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ أَنَّ هَذِهِ الشَّرَفِيَّةَ الْجَاهِلَةَ الْخَشِيشَةَ الْجَفَافَةَ ، هِيَ كَالْمَنْجَمِ الَّذِي تَبْرُهُ فِي تَرَابِهِ ، وَمَاسُهُ فِي فَخْمِهِ ، وَجَوْهَرُهُ فِي مَعْدَنِهِ ؛ وَأَنَّ صُغُوبَتَهَا مِنْ صُغُوبَةِ الْعِفَّةِ الْمُمْتَنِعَةِ ، وَأَنَّ خُشُونَتَهَا مِنْ خُشُونَةِ الْحُبِّ الْمُغْتَرِّ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّ جَفَاءَهَا مِنْ جَفَاءِ الَّذِينَ الْمُتَسَامِي عَلَى الْمَادَّةِ ؛ وَأَنَّهَا بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ كَانَ لَهَا الصَّبْرُ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ الْعَجْزُ ، وَكَانَ لَهَا الْوَفَاءُ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الشُّبُهَةُ ، وَكَانَ لَهَا الْإِيثَارُ الَّذِي لَا يُفْسِدُهُ الطَّمَعُ .

هِيَ جَاهِلَةٌ ، وَلَهَا عَقْلُ الْحَيَاةِ فِي دَارِهَا ؛ وَعَلِيظَةُ الْحَسِّ ، وَلَهَا أَرْقُ مَا فِي الزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا وَحْدَهُ ؛ وَخَشِيشَةُ الطَّنَبِ ، لِأَنَّهَا تَتَنَزَّهُ أَنْ تَكُونَ مَلْمَسًا نَاعِمًا لِهَذَا وَذَلِكَ وَهَلْؤَلَاءِ وَأُولَئِكَ . . . لَا كَأَمْرَأَةِ الْحُبِّ الْأُورُبِّيَّةِ ، الَّتِي تَجْعَلُ نَفْسَهَا أَتْنَى أَلْفَنْ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَعِينَسَ دَائِمًا مَعَ زَوْجِهَا الشَّرَفِيِّ مِنَ التَّفْضِيلِ وَالْإِيثَارِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِبَاحَةِ - فِي كَلِمَةِ « أَنَا » قَبْلَ كَلِمَةِ « أَنْتِ » . . . أَمْرَأَةُ أَنْشَأَتْهَا الْحَرْبُ الْعُظْمَى بِأَخْلَاقِ مُخَرَّبَةٍ مُدْمِرَةٍ تَنْفَجِرُ بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ .

عِنْدَنَا يَا إِخْوَانِي تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ ، يَتَّهَمُونَنَا بِهِ مِنْ عَمَى وَجَهْلٍ وَسَخَافَةٍ . انْظُرُوا ، هَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانٌ لِسُرْعَةِ الرَّجُولَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، وَدِينِيَّةِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ فِي أَيِّ أَشْكَالِهَا ؛ وَهَلْ هُوَ إِلَّا إِعْلَانٌ بِطَوْلَةِ الرَّجُلِ الشَّرَفِيِّ الْأَنْثُوفِ الْغَيُورِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ تَتَعَدَّدُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَلَكِنْ . . . وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا يَقَعُ فِي أُرْبَتِهِ مِنْ أَنَّ الزَّوْجَ يَتَعَدَّدُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ . . . !

يَتَّهَمُونَنَا بِتَعَدُّدِ الْمَرْأَةِ عَلَى أَنَّ تَكُونَ زَوْجَةً لَهَا حُقُوقُهَا وَوَجِابَاتُهَا - بِقُوَّةِ الشَّرْعِ وَالْقَانُونِ - نَافِذَةً مُوَدَّاةً ؛ ثُمَّ لَا يَتَّهَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِتَعَدُّدِ الْمَرْأَةِ خَلِيلَةً مُخَادِنَةً لَيْسَ لَهَا حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا وَاجِبٌ مِنْ أَحَدٍ ، بَلْ هِيَ تَتَقَادَفُهَا الْحَيَاةُ مِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ ، كَالسَّكِينِ يَتَقَادَفُهُ الشَّارِعُ مِنْ جِدَارٍ إِلَى جِدَارٍ .

لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى شَيْطَانِ الْمَدِينَةِ الْعَالِمِ الْمُخْتَرِعِ الْمُخَحِّثِ ، الَّذِي يَجْعَلُ لِلْمَرْأَةِ الْأُورُبِّيَّةِ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ الشَّرَفِيُّ ، أَصَابِعَ « أُوتُومَاتِيكِيَّةِ » ^(١) ، مَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِي نَزْوَةٍ مِنْ

(١) [أُتُومَاتِيكِيَّة ، من Automatique ، أي : آليّة] .

حَمَاقَاتِهَا إِلَى رَجُلِهَا بِالْمُسَدَّسِ ، فَإِذَا الرِّصَاصُ وَالْقَتْلُ ؛ وَمَا أَسْرَعَ مَا تَمْتَدُّ فِي نَزْوَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهَا إِلَى عَاشِقِهَا بِمِفْتَاحِ الدَّارِ ، فَإِذَا الْخِيَانَةُ وَالْعَهْرُ !

مَاذَا تَتَوَقَّعُونَ يَا إِخْوَانِي مِنْ تِلْكَ الرَّقِيقَةِ النَّاعِمَةِ ، الْمُنَائِتَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا أُتُونَةُ تَكْفِي رَجَالًا لَا رَجُلًا وَاحِدًا ، وَقَدْ ضَعُفَتْ رُوحِيَّةُ الْأُسْرَةِ فِي رَأْيِهَا ، وَابْتَذَلَتْ الرُّوحِيَّةُ فِي مُجْتَمَعِهَا ابْتِدَالًا ، فَأَصْبَحَ عِنْدَهَا الزَّوْاجُ لِلزَّوْاجِ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، لَا لِتَكُونَ أَمْرًا وَاحِدَةً لِرَجُلٍ وَاحِدٍ مَقْصُورَةً عَلَيْهِ ؛ وَبِذَلِكَ عَادَ الزَّوْاجُ حَقًّا فِي جِسْمِ الْمَرْأَةِ دُونَ قَلْبِهَا وَرُوحِهَا ؛ فَإِنْ كَانَ الزَّوْجُ مَشْهُومًا مَتَكُونًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا قَلْبُهَا - فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا الْحُرِّيَّةَ لِتَخْتَارَ زَوْجَ قَلْبِهَا ... ! وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مَعَ الزَّوْجِ الشَّرْعِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمَرْأَةِ مَعَ الزَّوْجِ الشَّرْعِيِّ ... ! وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مَنُحُوسًا مُحَيَّيًا ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ إِلَى قَلْبِهَا زَمَانًا ثُمَّ مَلَّهَ قَلْبُهَا - فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَعَ لَهَا الْحُرِّيَّةَ لِتَسْتَقِلَّ وَتَلْذَّ بِلَذَاتِ الْهَوَى ، وَيَقُولَ لَهَا : شَانِكَ بِمَنْ أَحْبَبْتَ ! فَإِنَّ هَذَا الْمَنُحُوسَ الْمُحَيَّيَّ لَيْسَ عِنْدَهَا إِنْسَانًا ، وَلَكِنَّهُ رَوَايَةُ إِنْسَانِيَّةٍ أَنْتَهَى الْفَضْلُ الْجَمِيلُ مِنْهَا بِمَنَاطِرِهِ الْجَمِيلَةِ ، وَبَدَأَ فَضْلَ آخَرٍ بِحَوَادِثٍ غَيْرِ تِلْكَ . فَلِمَنْ يَشْهَدُ الرُّوَايَةَ أَنْ يَبْرَمَ مَا شَاءَ ، وَيَسْتَقِلَّ كَمَا يَشَاءُ ، وَمَتَى شَاءَ أَنْصَرَفَ مِنَ الْبَابِ ... !

أَمْرًا هَذِهِ الْمَدِينَةُ هِيَ أَمْرًا الْعَاطِفَةِ ؛ تَتَعَلَّقُ بِاللِّفْظِ حِينَ تُلْبِسُهُ الْعَاطِفَةُ مِنْ زِينَتِهَا ، وَإِنْ ضَاعَ فِيهِ الْمَعْنَى الْكَبِيرُ مِنْ مَعَانِي الْعَقْلِ ، وَإِنْ فَاتَتْ بِهِ النُّعْمَةُ الْكَبِيرَةُ مِنْ نِعَمِ الْحَيَاةِ .

تَقْوَى الْعَاطِفَةُ فَحِجِيَّ بِهَا إِلَى رَجُلٍ ، ثُمَّ تَقْوَى الثَّانِيَةَ فَتَذْهَبُ بِهَا مَعَ رَجُلٍ آخَرَ ... ! وَتَقْيِدُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ، وَتُسْرِخُ نَفْسَهَا إِنْ شَاءَتْ ؛ وَمَا بُدُّ مِنْ أَنْ تَبْلُوَ الْحَيَاةَ كَمَا يَبْلُوهَا الرَّجُلُ ، وَأَنْ تَخُوضَ فِي مَشَاكِلِهَا ؛ وَإِذَا شَاءَتْ جَعَلَتْ نَفْسَهَا إِحْدَى مَشَاكِلِهَا ... ! وَلَا مَنُذُوحَةَ مِنْ أَنْ تَتَوَلَّى شَانَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا ، فَإِذَا خَاسَتْ أَوْ غَدَرَتْ فَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدَهَا مِنْ أَحْكَامِ نَفْسِهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَأْيٌ وَحَقٌّ ، إِذْ كَانَ مَحْوَرُهَا الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ هُوَ عَاطِفَتُهَا وَحُرِّيَّةُ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ ، فَمَنْ هَذَا يُقَرِّرُ لَهَا حُطَّتَهَا ، وَيُمْلِي عَلَيْهَا وَاجِبَاتِهَا ، وَيَزُورُ لَهَا الْأَسْمَاءَ عَلَى إِرَادَتِهِ دُونَ إِرَادَتِهَا ، فَيُسَمِّي لَهَا نَكَدَ قَلْبِهَا بِاسْمِ فَضِيلَةِ الْمَرْأَةِ ، وَحِرْمَانَ عَاطِفَتِهَا بِاسْمِ وَاجِبِ الزَّوْجَةِ الشَّرِيفَةِ ؟

وَمَنْ ذَا حَوْلُهُ الْحَقُّ أَنْ يُقَرِّرَ وَأَنْ يُمْلِيَ ؟

وَهَذَا الشَّرْقِيُّ الْعَتِيقُ الْمَافُونُ الَّذِي قَبْلَهَا سَافِرَةٌ لَا تَعْرِفُ رُوحَهَا وَلَا جِسْمَهَا

الْحِجَابَ ؛ مَا بَالُهُ يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ الْحِجَابَ عَلَى عَاطِفَتِهَا ، وَيَتْرُكَهَا مَحْبُوسَةً فِي شَرَفِهِ وَخُفُوقِهِ وَوِاجِبَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَحْجُوبَةً فِي الدَّارِ ؟

مَا عَلِمْتُ يَا إِخْوَانِي إِلَّا مِنْ بَعْدُ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ الْغَرِيْبَةَ قَدْ تَكُونُ مَعَ زَوْجِهَا الشَّرْقِيِّ كَالسَّائِحَةِ مَعَ دَلِيلِهَا . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، إِنَّهُ لَنْ يُمَسِكَهَا عَلَيْهِ ، وَلَنْ يُكْرِهَهَا عَلَى الْوَفَاءِ لَهُ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ خُتَالَةً يَزْهَدُ فِيهَا حَتَّى دُبَابُ النَّاسِ ؛ فَيَأْسُفُهَا هُوَ يَجْعَلُ هَذَا الْمُسْكِينَ مَطْمَعَهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَوْ خَلَطَتْهُ بِنَفْسِهَا لَبَقِيَتْ مِنْهَا نَاحِيَةً لَا تَخْتَلِطُ ، إِذْ تَرَى أُمَّتَهُ دُونَ أُمَّتِهَا ، وَجِنْسَهُ دُونَ جِنْسِهَا ؛ فَمَا تَسُبُّ أُمَّةَ زَوْجِهَا وَبِلَادَهُ بِأَفْبَحَ مِنْ هَذَا !

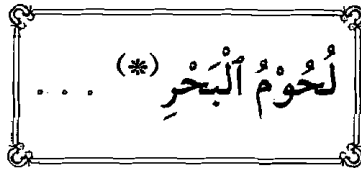
أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الشَّرْقِيَّ حِينَ يَأْتِي بِالْأَجْنَبِيَّةِ لِيَتَلَوَّنَ حَيَاتِهِ بِالْوَانِ الْأُنْثَى ... لَا يَكُونُ اخْتَارَ أَزْوَاجَ الْوَانِ إِلَّا لِيَتَلَوَّنَ مَصَائِبَ حَيَاتِهِ ! وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مَا يَشِدُّ ، وَلَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ .

* * *

أَمَّا قِصَّتِي يَا إِخْوَانِي

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ : قَدْ حَكَيْتَهَا « يَرْحَمُكَ اللَّهُ » .

قَصِيدَةُ مُتَرَجِّمَةٍ { عَنِ الشَّيْطَانِ }



لَكَأَنَّمَا وَآلَهُ قَدْ تَمَدَّدَ عَلَى سِبْفِ الْبَحْرِ فِي أَسْكَندَرِيَّةَ شَيْطَانٍ مَارِدٍ مِنْ شَيَاطِينِ مَا بَيْنَ
الرَّجُلِ وَالْمَرَاةِ ، يَخْدَعُ النَّاسَ عَنْ جَهَنَّمَ يَنْبِرِدُ مَعَانِيهَا . . . وَقَدْ أَمْتَلَأَ بِهِ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ ؛
فَهُوَ يُرْعِشُ ذَلِكَ الرَّمْلَ بِذَلِكَ الْهَوَاءِ رَعْشَةَ أَغْصَابِ حَيَّةٍ ؛ وَيُرْسِلُ فِي الْجَوِّ نَفْحَاتٍ مِنْ
جُزْأَةِ الْخَمْرِ فِي شَارِبِهَا ثَارَ فَعَزْبَدَ ، وَيُطْلِعُ الشَّمْسَ لِلْأَعْيُنِ فِي مَنْظَرٍ حَسَنَاءَ عُرْيَانَةٍ أَلْقَتْ
ثِيَابَهَا وَحَيَاءَهَا مَعًا ؛ وَيُزْخِي اللَّيْلَ لِيُغْطِيَ بِهِ الْمَخَارِيزَ الَّتِي خَجَلُ النَّهَارِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ .

وَلَعَمْرِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَذَا الْمَارِدَ ، مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ الْحَبِيثَ الَّذِي ابْتَدَعَ فِكْرَةَ
عَرْضِ الْآثَامِ مَكْشُوفَةً فِي أَجْسَامِهَا تَحْتَ عَيْنِ التَّقِيِّ وَالْفَاجِرِ ، لِيَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي الطَّبَاعِ
وَالْأَخْلَاقِ ؛ فَسَوَّلَ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ أَنْ ذَلِكَ الشَّاطِئُ عِلَاجُ الْمَلِكِ مِنَ الْحَرِّ وَالْتَعَبِ ، حَتَّى
إِذَا اجْتَمَعُوا ، فَتَقَارَبُوا ، فَتَشَابَكُوا ، سَوَّلَ لَهُمُ الْآخَرَى أَنْ الشَّاطِئُ هُوَ كَذَلِكَ عِلَاجُ الْمَلِكِ
مِنَ الْفَضِيحَةِ وَالذَّنِّ !

وَإِنْ ^(١) لَمْ يَكُنِ اللَّعِينَانِ فَهُوَ الرَّجِيمُ الثَّلَاثُ ، ذَلِكَ الَّذِي نَأَلَى أَنْ يُفْسِدَ آدَابَ
الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهَا يَفْسَادِ ^(٢) خُلُقٍ وَاحِدٍ ، هُوَ حَيَاءُ الْمَرَاةِ ؛ فَبَدَأَ يَكْشِفُهَا لِلرِّجَالِ مِنْ وَجْهِهَا ،
وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ يَكْشِفُ . . . وَكَانَتْ تَنْظُهُ نَزَعَ حِجَابِهَا فَإِذَا هُوَ أَوَّلُ عُرْيَانِهَا . . . وَزَادَتْ
الْمَرَاةُ ، وَلَكِنْ بِمَا زَادَ فُجُورُ الرِّجَالِ ؛ وَنَقَصَتْ ، وَلَكِنْ بِمَا نَقَصَ فَضَائِلُهُمْ ؛ وَتَغَيَّرَتْ
الدُّنْيَا وَفَسَدَتِ الطَّبَاعُ ؛ فَإِذَا تِلْكَ الْمَرَاةُ مِمَّنْ يُقْرُونَهَا عَلَى تَبْدِيلِهَا بَيْنَ رُجُلَيْنِ لَا ثَالِثَ

(*) « الرسالة » العدد : ٦٢ ، ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٠ سبتمبر/أيلول سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٤٨٥ - ١٤٨٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَآنَ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « لِفْسَادٍ » بَدَلًا مِنْ : « يَفْسَادٍ » .

لَهُمَا : رَجُلٍ فَجَرَ ، وَرَجُلٍ تَخَثَّ . . .

* * *

هُنَاكَ فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ هِيَ عَقْلُ الْبَحْرِ فِي هَؤُلَاءِ النَّاسِ ، وَعَقْلُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي الْبَحْرِ ؛ إِذَا أَنْتَ اعْتَرَضْتَهَا فَتَبَيَّنَتْهَا فَتَعَقَّبَتْهَا ، رَأَيْتَهَا بَلَاغَةً مِنْ بَلَاغَةِ الشَّيْطَانِ فِي تَزْيِينِهِ وَتَطْوِينِهِ ، وَأَصَبْتَ فِكْرَهُ مُسْتَقَرًّا فِيهَا اسْتِفْرَارَ الْمَعْنَى فِي عِبَارَتِهِ ، آخِذًا بِمَدَاخِلِهَا وَمَخَارِجِهَا . وَمَا كَانَ الشَّيْطَانُ عَيْيًا وَلَا غَيْيًا ، بَلْ هُوَ أَذْكَى شُعْرَاءِ الْكُؤُنِ فِي خَيَالِهِ ، وَأَبْلَغُهُمْ فِي فِطْنَتِهِ ، وَأَدْقُهُمْ فِي مَنْطِقِهِ ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ وَالسَّخْرِ ؛ وَبِتَمَامِهِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَانَ شَيْطَانًا لَمْ تَسْعُهُ الْحِجَّةُ إِذْ لَيْسَ فِيهَا الْتَارُ ، وَلَمْ تُرْضِهِ الرَّحْمَةُ إِذْ لَيْسَ مَعَهَا الْغَضَبُ ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ الْخُضُوعُ الْمَلَائِكِيُّ إِذْ لَيْسَ فِيهِ الْكِبَرِيَاءُ ، وَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْحَقِيقَةِ إِذْ لَا تَخْمِلُ الْحَقِيقَةُ شِعْرَ أَحْلَامِهِ .

وَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ أَحَدًا ، وَلَا وَسَّوَسَ فِي قَلْبٍ ، وَلَا سَوَّلَ لِنَفْسٍ ، وَلَا أَغْوَى مَنْ يُغْوِيهِ - إِلَّا بِاسْتُلُوبِ شِعْرِيٍّ مُلْتَبِسٍ دَقِيقٍ ، يَجْعَلُ الْمَرْءَ يَعْتَقِدُ أَنَّ أَطْرَاحَ الْعَقْلِ سَاعَةٌ هُوَ عَقْلُ السَّاعَةِ ، وَيُفْسِدُ بَرْهَانَهُ مَهْمَا كَانَ قَوِيًّا ؛ إِذْ يَزْتَدُّ بِهِ مِنَ النَّفْسِ إِلَى أَخِيلَةٍ لَا تَقْبَلُ الْبَرْهَانَاتِ ^(١) ، وَيَقْطَعُ حُجَّتَهُ مَهْمَا كَانَتْ دَامِعَةً ؛ إِذْ يَعْتَرِضُهَا بِنَزْعَةٍ مِنَ النَّزَعَاتِ تُوجِّهُهَا كَيْفَ دَارَ بِهَا أَلَدُّمَ لَا كَيْفَ دَارَ بِهَا الْمَنْطِقُ .

فِكْرَةٌ مِنْ شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ ، ظَاهِرُهَا لِبَعْضِ الْأَمْرِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْبَحْرِ وَمَا لَا أَدْرِي ، وَبَاطِنُهَا لِبَعْضِ الْأَمْرِ مِنْ فَنِّ الشَّيْطَانِ وَبَلَاغَتِهِ وَشِعْرِهِ وَمَا لَا أَدْرِي ؛ وَمَا كَانَتْ الشَّرَائِعُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْوَضْعِيَّةُ إِلَّا لِإِقْرَارِ الْعَقْلِ فِي شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ كَيْ تَكُونَ إِنْسَانِيَّةً لِإِنْسَانِهَا كَمَا هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ لِحَيَوَانِهَا ، وَلِيَجِدَ الْإِنْسَانُ مَا يَحْفَظُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ دَائِمًا قَوْضَى ، وَلَا غَايَةَ لَهَا لَوْلَا ذَلِكَ الْعَقْلُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ دَائِمًا قَوْضَى . . .

وَبِالشَّرَائِعِ وَالْآدَابِ اسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَضَعَ لِكَلِمَةِ الطَّبِيعَةِ الثَّافِذَةَ عَلَيْهِ { جَوَابًا } ، وَأَنْ يَرَى فِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ أَثَرَ جَوَابِهِ ؛ فَكَلِمَتُهَا هِيَ : أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ! أَنْتَ خَاضِعٌ لِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبَرْهَانَاتِ » بَدَلًا مِنْ : « الْبَرْهَانَاتِ » .

بِالْحَيَوَانِيِّ فِينِكَ . وَكَلِمَتُهُ هُوَ : أَيُّهَا الطَّبِيعَةُ ! وَأَنْتِ لِي خَاضِعَةٌ بِالْإِلَهِيِّ فِيَّ .

* * *

وَالآنَ سَافِرٌ لَكَ الْقَصِيدَةُ الْفَنِيَّةُ الَّتِي نَظَمَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى رَمْلِ الشَّاطِئِ فِي
أَسْكَندَرِيَّةٍ ؛ وَقَدْ نَقَلْتُهَا أَتْرَجَمُهَا فَضْلاً بَعْدَ فَضْلٍ عَنْ تِلْكَ الْأَجْسَامِ عَارِيَّةً وَكَاسِيَةً ، وَعَنْ
مَعَانِيهَا مَكْشُوفَةً وَمُعْطَاةً ، وَعَنْ طِبَاعِهَا بَرِيئَةً وَمُتَّهَمَةً ، حَتَّى أَتَسَقَّتِ التَّرْجَمَةُ عَلَى
مَا تَرَى :

قَالَ الشَّيْطَانُ :

أَلَا إِنَّ الْبَهِيمَةَ^(١) وَالْعَقْلِيَّةَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ ؛ مَجْمُوعُهُمَا شَيْطَانِيَّةٌ . . .
أَلَا وَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ جَمِيلٍ أَوْ عَظِيمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَعْنَى السُّخْرِيَّةِ بِهِ .
هُنَا تَتَعَرَّى الْمَرْأَةُ مِنْ ثَوْبِهَا ، فَتَتَعَرَّى مِنْ فَضِيلَتِهَا .
هُنَا يَخْلَعُ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ فَيَلْبِسُ فِيهِ الْأَدَبَ الَّذِي خَلَعَهُ . . .
رُؤْيَا الرَّجُلِ لَحْمَ الْمَرْأَةِ الْمُحَرَّمَةِ نَظَرٌ بِالْعَيْنِ وَالْعَاطِفَةِ .
يَرْمِي بِبَصَرِهِ الْجَائِعِ كَمَا يَنْظُرُ الصَّغُورُ إِلَى لَحْمِ الصَّيْدِ .
وَيَنْظُرُ الْمَرْأَةُ لَحْمَ الرَّجُلِ رُؤْيَا فِكْرٍ فَقَطْ . . .
تُحَوِّلُ بَصَرَهَا أَوْ تَخْفِضُهُ ، وَهِيَ مِنْ قَلْبِهَا تَنْظُرُ . . .
يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلَخِكِ مِنْ ثِيَابِكِ جَزَّارٌ . . .

* * *

يَا لُحُومَ الْبَحْرِ ! سَلَخِكِ جَزَّارٌ مِنْ ثِيَابِكِ .
جَزَّارٌ لَا يَذْبَحُ بِأَلَمٍ وَلَكِنْ بِلَذَّةٍ . . .
وَلَا يَحْزُنُ بِالسَّكِينِ وَلَكِنْ بِالْعَاطِفَةِ . . .

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبَهِيمِيَّة » بَدَلًا مِنْ : « الْبَهِيمَةُ » .

وَلَا يُمِثُّ الْحَيَّ إِلَّا مَوْتًا أَدِيًّا . . .

إِلَى الْهَيْجَاءِ يَا أَبْطَالَ مَعْرَكَةِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

فَهُنَا تَلْتَحِمُ نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ وَنَوَامِيسُ الْأَخْلَاقِ .

لِلطَّبِيعَةِ أَسْلِحَةُ الْعُرْيِ ، وَالْمُخَالَطَةِ ، وَالنَّظَرِ ، وَالْأَنْسِ ، وَالنِّصَاحِ ، وَتَرْوُوعِ

الْمَعْنَى إِلَى الْمَعْنَى . . .

وَلِلْأَخْلَاقِ الْمَهْزُومَةِ سِلَاحٌ مِنَ الدِّينِ قَدْ صَدَّى ، وَسِلَاحٌ مِنَ الْحَيَاءِ مَكْسُورٌ !

يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلَخِكَ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَارٌ . . .

* * *

الشَّاطِئُ كَبِيرٌ كَبِيرٌ ، يَسَعُ أَلْفَافٌ وَأَلْفَافٌ .

وَلَكِنَّهُ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ صَغِيرٌ صَغِيرٌ ، حَتَّى لَا يَكُونَ إِلَّا خَلْوَةً . . .

وَتَقْضِي الْفَتَاةُ سَنَتَهَا تَتَعَلَّمُ ، ثُمَّ تَأْتِي هُنَا تَتَذَكَّرُ جَهْلَهَا وَتَعْرِفُ مَا هُوَ . . .

وَتَمْضِي الْمَرْأَةُ عَامَهَا كَرِيمَةً ، ثُمَّ تَجِيءُ لِتَجِدَ هُنَا مَادَّةَ اللُّؤْمِ الطَّبِيعِيِّ . . .

لَوْ كَانَتْ حَبَاجَةً صَوَامَةً ، لَلَعَنَتْهَا الْكُعْبَةُ لَوْجُودِهَا فِي « أَسْتَانْلِي »^(١) .

الْفَتَاةُ تَرَى فِي الرِّجَالِ الْعُرْيَانِينَ أَشْبَاحَ أَحْلَامِهَا ، وَهَذَا مَعْنَى مِنَ السَّقُوطِ .

وَالْمَرْأَةُ تُسَارِقُهُمُ النَّظَرُ تَنْوِيْعًا لِرَجُلِهَا الْوَاحِدِ ، وَهَذَا مَعْنَى مِنَ الْمَوَاحِيرِ . . .

أَيْنَ تَكُونُ النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ لِفَتَاةٍ أَوْ أَمْرَأَةٍ بَيْنَ رِجَالِ عُرْيَانِينَ ؟

يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلَخِكَ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَارٌ . . .

* * *

(١) استانلي ، أو استانلي باي Stanley by : اسم شاطئ مشهور في زمن المؤلف ، كان عُلِمًا على

عدم مراعاة أي من الآداب ناهيك عن الدين والخلق .

ولهذا وضعه المؤلف لاحقاً بـ « مزيلة إسكندرية » مضيقه كمعلم من معالمها .

وقد ذكره كذلك الشيخ مصطفى صبري في كتابه « قلبي في المرأة » فراجع ، وهو من مطبوعات

الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ، قبرص . بسام .

هَناكَ التَّربِيَةُ ، وَهَنا إِغْلالُ الْأَغْفالِ وَالطَّيْنِشِ .
 وَهَناكَ الْأَذْيُنُ ، وَهَنا أَسْبابُ الْإِغْراءِ وَالزَّلَلِ .
 هَناكَ تَكَلَّفُ^(١) الْأَخْلاقِ ، وَهَنا طَبِيعَةُ الْحُرِّيَّةِ مِنْها .
 وَهَناكَ الْعَزِيمَةُ^(٢) بِالْقَهْرِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَهَنا إِفْسادُها بِالترَّخُّصِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .
 وَالْبَحْرُ يُعَلِّمُ اللَّائِي وَالَّذِينَ يَسْبَحُونَ فِيهِ كَيْفَ يَغْرُقُونَ فِي الْبَرِّ . . .
 لَوْ دَرَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَعَرَّةَ أَغْتَسَالِهِمْ مَعًا فِي الْبَحْرِ ، لَأَغْتَسَلُوا مِنَ الْبَحْرِ .
 فَقَطَرَةُ الْمَاءِ الَّتِي نَجَسَتْها الشَّهَوَاتُ قَدْ أَنْسَكَبَتْ فِي دِمَائِهِمْ .
 وَذَرَّةُ الرَّمْلِ النَّجَسَةُ فِي الشَّاطِئِ ، سَتَكْبُرُ حَتَّى تَصِيرَ بَيْتًا نَجِسًا لِأَبٍ وَأُمٍّ . . .
 يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكَ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَّارًا . . .

* * *

يَجِيئُونَ لِلشَّمْسِ الَّتِي تَقْوَى بِها صِفَاتُ الْجِسْمِ .
 لِيَجِدَ كُلٌّ مِنَ الْجِنْسَيْنِ شَمْسَهُ الَّتِي تَضَعُ بِها صِفَاتُ الْقَلْبِ .
 يَجِيئُونَ لِلْهَوَاءِ الَّذِي تَتَجَدَّدُ بِهِ عَنَّا صِرُّ الدَّمِ .
 لِيَجِدُوا الْهَوَاءَ الْآخَرَ الَّذِي تَفْسُدُ بِهِ مَعَانِي الدَّمِ .
 يَجِيئُونَ لِلْبَحْرِ الَّذِي يَأْخُذُونَ مِنْهُ الْقُوَّةَ وَالْعَافِيَةَ .
 لِيَأْخُذُوا عَنْهُ أَيْضًا شَرِيعَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ : سَمَكَةٌ تُطَارِدُ سَمَكَةً . . .
 وَيَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَى الْمُصَيِّفِ حَرَجٌ .
 أَيْ لِأَنَّهُ أَعْمَى الْأَدَبِ ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ .
 يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلِّحْكَ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَّارًا . . .

* * *

(١) في الأصل : « وتكلف » بدلًا من : « هناك تكلف » .

(٢) في الأصل : « والعزيمة » بدلًا من : « وهناك العزيمة » .

الْمَدَارِسُ ، وَالْمَسَاجِدُ ، وَالْبَيْعُ ، وَالْكَتَائِسُ ، وَوَزَارَةُ الدَّخَالِيَّةِ ؛ هَذِهِ كُلُّهَا لَنْ تَهْزِمَ الشَّاطِئُ .

فَأَمْوَاجُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ الصَّاحِبِ ، تَنْهَزِمُ أَبَدًا لِتَرْجِعَ أَبَدًا .
لَا يَهْزِمُ الشَّاطِئُ إِلَّا ذَلِكَ « الْجَامِعُ الْأَزْهَرُ » ، لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُسِخَ مَدْرَسَةٌ !
فَصَرْخَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ قَلْبِ الْأَزْهَرِ الْقَدِيمِ ، تَجْعَلُ هَدِيرَ الْبَحْرِ كَأَنَّهُ تُسَبِّحُ .
وَتَرْدُ الْأَمْوَاجَ نَقِيَّةً بَيْضَاءَ ^(١) ، كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الْعُلَمَاءِ .

وَتَأْتِي إِلَى الْبَحْرِ بِأَعْمِدَةِ الْأَزْهَرِ لِلْفَضْلِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .
وَلِكَيْتِي أَرَى زَمَنًا قَدْ نَقَلَ حَتَّى إِلَى الْمَدَارِسِ رُوحَ « الْكَازِينُو » ^(٢) . . . !
يَا لِحُومِ الْبَحْرِ ! سَلَخِكِ مِنْ ثِيَابِكَ جَزَارًا . . . !

* * *

هُنَا عَلَى رَغَمِ الْأَدَابِ ، مَمْلَكَةٌ لِلصَّيْفِ وَالْقَيْظِ ، سُلْطَانُهَا الْجِسْمُ الْمُؤَثَّثُ الْعَارِي .
أَجْسَامٌ تَعْرِضُ مَفَاتِنَهَا عَرْضَ الْبَضَائِعِ ؛ فَالشَّاطِئُ حَانُوتٌ لِلزَّوْاجِ !
وَأَجْسَامٌ تَعْرِضُ أَوْضَاعَهَا كَأَنَّهَا فِي غُرْفَةِ نَوْمِهَا لَا فِي الشَّاطِئِ . . .
وَأَجْسَامٌ جَالِسَةٌ لِغَيْرِهَا ، تُحِيطُ بِهَا مَعَانِيهَا مُلْتَمِسَةً مَعَانِيَهُ ؛ فَالشَّاطِئُ سُوقٌ لِلرَّفِيقِ . . .
وَأَجْسَامٌ خَفِيزَةٌ جَالِسَةٌ لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ ؛ فَالشَّاطِئُ كَدَارِ الْكُفْرِ لِمَنْ أُكْرِهَ ^(٣) .
وَأَجْسَامٌ عَلِيلَةٌ تَقْتَحِمُهَا الْأَغْنِي فَتَزْدَرِيهَا ، لِأَنَّهَا جَعَلَتِ الشَّاطِئُ مُسْتَشْفَى . . . !
وَأَجْسَامٌ خَلِيعَةٌ أَضَافَتْ مِنْ (أَسْتَانِلِي) وَأَخَوَاتِهَا إِلَى مَنَارَةِ أَسْكَندَرِيَّةَ ، وَمَكْتَبَةِ
أَسْكَندَرِيَّةَ - مَرْبَلَةَ أَسْكَندَرِيَّةَ . . .

(١) يَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْوَصْفِ خَطَأٌ ، وَأَنَّ الصَّوَابَ أَنْ يُقَالَ « يَبْضُ » ، وَلَسْنَا مِنْ هَذَا الْكُرْأِيِّ ، وَقَدْ غَلِطَ فِيهِ الْمُبْرَدُ وَمَنْ تَابَعُوهُ ، لِغَفْلَتِهِمْ عَنِ السَّرْفِ فِي بِلَاغَةِ الْأَسْتِعْمَالِ مَرَّةً فِي الْوَصْفِ بِالْمُفْرَدِ ، وَمَرَّةً فِي الْوَصْفِ بِالْجَمْعِ .

(٢) الكازينو Casino : منتدى عام للترفيه والقمار . بسام .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى آيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ ... إِنْ أَمْنُ أَكْثَرِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [١٦ سورة النحل / الآية : ١٠٦] .

كَانَ جِدَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الشُّفُورِ ، فَأَصْبَحَ الْآنَ فِي الْعُرَى .
فَإِذَا تَطَوَّرَ ، فَمَاذَا بَقِيَ مِنْ تَقْلِيدِ أُورُبَّةِ إِلَّا الْجِدَالُ فِي شَرْعِيَّةِ جَمْعِ الْمَرْأَةِ بَيْنَ الزَّوْجِ
وَشِبْهِ الزَّوْجِ (١) ؟ .

* * *

أَنْتَهَى مَا اسْتَطَعْتُ تَرْجَمَتُهُ ، بَعْدَ الرُّجُوعِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقَصِيدَةِ إِلَى بَعْضِ الْقَوَائِمِ
الْحَيَّةِ . . . إِلَى بَعْضِ شُبَّانِ الشَّاطِئِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

قَصِيدَةُ مُرْجَمَةٍ { عَنِ الْمَلِكِ } :

أَحْذَرِي (*) . . . !

تَرْجَمْنَا عَنِ الشَّيْطَانِ قَصِيدَةَ « لُحُومِ الْبَحْرِ » . وَهَذِهِ تَرْجَمَةٌ عَنْ أَحَدِ الْمَلَائِكَةِ ؛ رَأَيْتُ
جَالِسًا تَحْتَ اللَّيْلِ وَقَدْ أَجْمَعْتُ أَنْ أَضَعُ كَلِمَةً لِلْمَرْأَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِيمَا تُحَاذِرُهُ أَوْ تَتَوَجَّسُّ مِنْهُ
الشَّرُّ ؛ فَتَحَايَلُ الْمَلِكُ بِأَضْوَائِهِ فِي الضُّوءِ ، وَسَنَحَ لِي بِرُوحِهِ ، وَبَثَّ فِيَّ مِنْ سِرِّهِ

(١) يُسَمَّى هَذَا فِي اللُّغَةِ الضَّمَدُ يَفْتَحُ الضَّادَ وَالْمِيمَ ، وَهُوَ أَنْ يُخَالَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ وَلَهَا زَوْجٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ [أَبِي ذُوَيْبٍ الْهَذَلِيِّ مِنَ الطُّوَيْلِ] :

تُرْبِدِينَ كَيْمَا تَضْمَدِينَ وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدِ
وَمِنْ هَذَا يُقَالُ فِي الرَّجُلِ : ذَاقَ الضَّمَادَ (يَكْسِرُ الضَّادَ) أَيِ : ذَاقَ الطَّعْمَ الَّذِي وَصَفَهُ أَنَا نُوَلُّ فَرَانِسَ
[Anatole France (١٨٤٤ - ١٩٢٤) . . . الروائي والشاعر الفرنسي ، غلب على أدبه التهكم

اللاذع ، وتميَّزَ بيانه بالصناعة والوضوح . منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢١] .

(*) « الرسالة » العدد : ٧٢ ، ١١ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩ نوفمبر / تشرين الآخر سنة ١٩٣٤ م ،
السنة الثانية ، الصفحات : ١٨٨٣ - ١٨٨٥ .

أَلِلَهِي ؛ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي قَلْبِي إِلَى فَجْرِ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ يَتَّبِعُ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَيُسْرِقُ مَعْنَى
مَعْنَى ، وَيَسْتَطِيزُ جُمْلَةً جُمْلَةً ، حَتَّى اجْتَمَعَتِ الْقَصِيدَةُ وَكَأَنَّمَا سَافَرْتُ فِي حُلْمٍ مِنَ
الْأَحْلَامِ فَجِئْتُ بِهَا .

وَأَنْطَلَقَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَتَرَكَهَا فِي يَدَي لُغَةٍ مِنْ طَهَارَتِهِ لِلْمَرْأَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَلَانِكِيَّتِهَا :

* * *

أَحْذَرْنِي . . . !

أَحْذَرْنِي أَتَيْتُهَا الشَّرْقِيَّةُ وَبَالِغِي فِي الْحَذَرِ ، وَأَجْعَلْنِي أَحْصَى طِبَاعَكَ الْكَذَرَ وَحْدَهُ .
أَحْذَرْنِي تَمَدُّنَ أَوْزَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ فَضِيلَتَكَ ثَوْبًا يُوسَّعُ وَيُضَيِّقُ ؛ فَلَبَسُ الْفَضِيلَةِ عَلَى ذَلِكَ
هُوَ لُبْسُهَا وَخَلْعُهَا . . .

أَحْذَرْنِي فَتَهُمُ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْخَبِيثِ الَّذِي يَفْرِضُ عَلَى النِّسَاءِ فِي مَجَالِسِ الرِّجَالِ أَنْ
تُؤَدِّيَ أَجْسَامُهُنَّ ضَرِيئَةَ الْفَنِّ . . .

أَحْذَرْنِي تِلْكَ الْأُنُوثَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ الطَّرِيفَةَ ؛ إِنَّهَا أَنْتِهَاءُ الْمَرْأَةِ بِغَايَةِ الظَّرْفِ وَالرَّقَّةِ
إِلَى . . . إِلَى الْفَضِيحَةِ .

أَحْذَرْنِي تِلْكَ النِّسَائِيَّةُ^(١) الْغَزَلِيَّةُ ؛ إِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تَرْخِيصُ اجْتِمَاعِيٍّ لِلْحَرَّةِ أَنْ . . .
أَنْ تُشَارِكَ الْبَغْيِيَّ فِي نِصْفِ عَمَلِهَا .

أَتَيْتُهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرْنِي أَحْذَرْنِي !

* * *

أَحْذَرْنِي التَّمَدُّنَ الَّذِي اخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ الزَّوْجَةِ الْمُقَدَّسِ ، لَقَبِ « الْمَرْأَةِ الثَّانِيَةِ » . . .
وَاخْتَرَعَ لِقَتْلِ لَقَبِ الْعَذْرَاءِ الْمُقَدَّسِ ، لَقَبِ « نِصْفِ عَذْرَاءٍ » . . .

(١) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ : النِّسَائِيَّةَ وَالنِّسْوَةَ ، وَكِلَاهُمَا عِنْدَنَا صَحِيحٌ ، وَالْاِخْتِيَارُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَفْصَحِ فِي
مَوْضِعِهِ .

وَأَخْتَرَعَ لِقَتْلِ دِينِيَّةٍ مَعَانِي الْمَرْأَةِ ، كَلِمَةً « الْأَدَبِ الْمَكْشُوفِ » ...
وَأَنْتَهَى إِلَى اخْتِرَاعِ السُّرْعَةِ فِي الْحُبِّ ... فَكَتَفَى الرَّجُلُ بِزَوْجَةِ سَاعَةٍ ...
وَالِىَ اخْتِرَاعِ اسْتِفْلَالِ الْمَرْأَةِ ، فَجَاءَ بِالَّذِي أَسْمُهُ (الْأَب) مِنَ الشَّارِعِ ، لِتُلْفِي بِالَّذِي
أَسْمُهُ (الْأَبْنُ) إِلَى الشَّارِعِ ...
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

* * *

أَخَذَرِي وَأَنْتِ النَّجْمُ الَّذِي أَضَاءَ مِنْذُ الْبُؤَةِ ، أَنْ تُقْلِدِي هَذِهِ الشَّمْعَةَ الَّتِي أَضَاءَتْ مِنْذُ
قَلِيلٍ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرْقِيَّةَ هِيَ اسْتِمْرَارُ مُتَّصِلٍ لِأَدَابِ دِينِهَا الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ .
هِيَ دَائِمًا شَدِيدَةُ الْحِفَاطِ حَارِسَةٌ لِحُوزَتِهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ حَيَاتِهَا دَائِمًا هُوَ قَانُونَ الْأُمُومَةِ
الْمُقَدَّسِ .

هِيَ الطُّهْرُ وَالْعِفَّةُ ، هِيَ الْوَفَاءُ وَالْأَنَفَةُ ، هِيَ الصَّبْرُ وَالْعَزِيمَةُ ، هِيَ كُلُّ فَضَائِلِ الْأُمِّ .
فَمَا هُوَ طَرِيقُهَا الْجَدِيدُ فِي الْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ ، إِلَّا طَرِيقُهَا الْقَدِيمُ بِعَيْنِهِ ؟
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَخَذَرِي أَخَذَرِي !

* * *

أَخَذَرِي (وَيْحَكَ) تَقْلِيدَ الْأُورُبِّيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي دُنْيَا أَعْصَابِهَا مَخْكُومَةٌ بِقَانُونِ
أَحْلَامِهَا ...

لَمْ تَعُدْ أُنُوثَتُهَا حَالَةً طَبِيعِيَّةَ نَفْسِيَّةَ فَقَطْ ، بَلْ حَالَةً عَقْلِيَّةَ أَيْضًا تَشْكُ وَتُجَادِلُ ...
أُنُوثَةٌ تَفَلَسَفَتْ فَرَاتِ الزَّوْاجِ نِصْفَ الْكَلِمَةِ فَقَطْ ... وَالْأُمُّ نِصْفَ الْمَرْأَةِ فَقَطْ ...
وَيَا وَيْلَ الْمَرْأَةِ حِينَ تَتَفَجَّرُ أُنُوثَتُهَا بِالْمُبَالَغَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَتَتَفَجَّرُ بِالذَّوَاهِي عَلَى
الْفَضِيلَةِ ...

إِنَّهَا بِذَلِكَ حُرَّةٌ مُسَاوِيَةٌ لِلرَّجُلِ ، وَلَكِنَّهَا بِذَلِكَ لَيْسَتْ أَلَانُثَى الْمَخْدُودَةِ بِفَضِيلَتِهَا ...

أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي خَجَلَ الْأُورُبِّيَّةِ الْمُتَرْجِّلَةِ مِنَ الْإِفْرَارِ بِأُتُونِيَّهَا .

إِنَّ خَجَلَ الْأُنْثَى مِنْ أَنَّهَا أَنْثَى يَجْعَلُ فَضِيلَتَهَا تَخَجُّلُ مِنْهَا . . .

إِنَّهُ يَنْقُطُ حَيَاءُهَا وَيَكْسُو مَعَانِيَهَا رُجُولَةً غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ .

إِنَّ هَذِهِ الْأُنْثَى الْمُتَرْجِّلَةَ تَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ نَظْرَةَ رَجُلٍ إِلَى أَنْثَى . . .

وَالْمَرْأَةُ تَعْلُو بِالزَّوْاجِ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَكْذُوبَةَ تَنْحَطُّ دَرَجَةً إِنْسَانِيَّةً

بِالزَّوْاجِ .

أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي تَهَوُّسَ الْأُورُبِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْمُسَاوَاةِ بِالرَّجُلِ .

لَقَدْ سَاوَتْهُ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْخَلَاقِ ، وَلَكِنَّ الْخَلَاقَ لَمْ يَجِدْ فِي وَجْهِهَا اللَّحْيَةَ . . .

إِنَّهَا خُلِقَتْ لِتُخَيِّبَ الدُّنْيَا إِلَى الرَّجُلِ ، فَكَانَتْ بِمُسَاوَاتِهَا مَادَّةَ تَبْغِيضٍ .

الْعَجِيبُ أَنَّ سِرَّ الْحَيَاةِ يَأْبَى أَبَدًا أَنْ تَسَاوَى الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ إِلَّا إِذَا خَسِرَتْهُ .

وَالْأَعْجَبُ أَنَّهَا حِينَ تَخْضَعُ ، يَرْفَعُهَا هَذَا السِّرُّ ذَاتَهُ عَنِ الْمُسَاوَاةِ بِالرَّجُلِ إِلَى السِّيَادَةِ

عَلَيْهِ .

أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي أَنْ تَخْسَرِي الطَّبَاعَ الَّتِي هِيَ الْأَلَيُّ بِأَمْ أَنْجَبَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي الشَّرْقِ .

أَمْ عَلَيْهَا طَابَعُ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ ، تَنْشُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَوْ نَفْسِهَا الْعَالِيَةِ .

فَلَوْ صَارَتِ الْحَيَاةُ غَيْمًا وَرَعْدًا وَبَرْقًا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا الشَّمْسُ الطَّالِعَةُ .

وَلَوْ صَارَتْ الْحَيَاةُ قَيْظًا وَحَرُورًا وَآخِثَانًا ، لَكَانَتْ هِيَ فِيهَا النَّسِيمَ يَتَخَطَّرُ .
أُمُّ لَا تُبَالِي إِلَّا أَخْلَاقَ الْبُطُولَةِ وَعَزَائِمَهَا ، لِأَنَّ جَدَاتِهَا وَلَذَنَ الْأَبْطَالَ .
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي هَؤُلَاءِ الشُّبَّانَ الْمُتَمَدِّنِينَ بِأَكْثَرِ مِنَ التَّمَدُّنِ . . .
يُبَالِغُ الْخَبِيثُ فِي زِينَتِهِ ، وَمَا يَذَرِي أَنَّ زِينَتَهُ مُغْلِنَةٌ أَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ الظَّاهِرِ .
وَيُبَالِغُ فِي عَرَضِ رُجُولَتِهِ عَلَى الْفَتَيَاتِ ، يُحَاوِلُ إِنْقَاطَ الْمَرْأَةِ الرَّاقِدَةِ فِي الْعَذْرَاءِ
الْمُسْكِينَةِ !

لَيْسَ لَامْرَأَةٍ فَاضِلَةٌ إِلَّا رَجُلُهَا الْوَاحِدُ ؛ فَالرِّجَالُ جَمِيعًا هُمْ مَصَائِبُهَا إِلَّا وَاحِدًا .
وَإِذَا هِيَ خَالَطَتِ الرِّجَالَ ، فَالطَّبِيعِيُّ أَنَّهَا تُخَالِطُ شَهَوَاتٍ ، وَيَجِبُ أَنْ تَحْذَرَ وَتُبَالِغَ .
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي ! فَإِنَّ فِي كُلِّ امْرَأَةٍ طَبَائِعَ شَرِيفَةٍ مُتَهَوِّرَةٍ ؛ وَفِي الرِّجَالِ طَبَائِعَ خَسِيسَةٍ
مُتَهَوِّرَةٍ .

وَحَقِيقَةُ الْحِجَابِ أَنَّهُ الْفَضْلُ بَيْنَ الشَّرَفِ فِيهِ الْمَيْلُ إِلَى التَّرْوَلِ ، وَبَيْنَ الْخِسَّةِ فِيهَا
الْمَيْلُ إِلَى الصُّعُودِ .

فِيكَ طَبَائِعُ الْحُبِّ ، وَالْحَنَانِ ، وَالْإِنْتَارِ ، وَالْإِخْلَاصِ ، كُلَّمَا كَبُرَتْ كَبُرَتْ .
طَبَائِعُ خَطَرَةٍ ، إِنْ عَمِلْتَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا . . . جَاءَتْ بِعَكْسِ مَا تَعْمَلُهُ فِي مَوْضِعِهَا .
فِيهَا كُلُّ الشَّرَفِ مَا لَمْ تَتَّخِذْ ، فَإِذَا انْخَدَعْتَ فَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا كُلُّ الْعَارِ .
أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي كَلِمَةَ شَيْطَانِيَّةٍ تَسْمَعِينَهَا : هِيَ فِتْنَةُ الْجَمَالِ أَوْ فِتْنَةُ الْأَنْوَةِ^(١) .
وَأَفْهَمِيهَا أَنْتِ هَكَذَا : وَاجِبَاتُ الْأَنْوَةِ وَوَاجِبَاتُ الْجَمَالِ .
بِكَلِمَةٍ يَكُونُ الْإِحْسَاسُ فَاسِدًا ، وَبِكَلِمَةٍ يَكُونُ شَرِيفًا .
وَلَا يَتَسَقَّطُ الرَّجُلُ أَمْرًا إِلَّا فِي كَلِمَاتٍ مُزَيَّنَةٍ مِثْلِهَا ...
يَجِبُ أَنْ تَسْلَخَ الْمَرْأَةُ مَعَ نَظَرَاتِهَا ، بِنَظَرَةٍ غَضَبٍ وَنَظَرَةٍ اخْتِقَارٍ .
أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

أَحْذَرِي أَنْ تُخَدِّعِي عَنْ نَفْسِكَ ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ أَشَدُّ أَفْتِقَارًا إِلَى الشَّرَفِ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ .
إِنَّ الْكَلِمَةَ الْخَادِعَةَ إِذْ تُقَالُ لَكَ ، هِيَ أَخْتُ الْكَلِمَةِ الَّتِي تُقَالُ سَاعَةً إِنْفَازِ الْحُكْمِ
لِلْمَخْكُومِ عَلَيْهِ بِالشَّنَقِ ...
يَغْتَرُّونَكَ بِكَلِمَاتِ الْحُبِّ وَالزَّوْاجِ وَالْمَالِ ، كَمَا يُقَالُ لِلصَّاعِدِ إِلَى الشَّاقَةِ^(٢) : مَاذَا
تَشْتَهِي ؟ مَاذَا تُرِيدُ ؟
الْحُبُّ ؟ الزَّوْاجُ ؟ الْمَالُ ؟ هَذِهِ صَلَاةُ الثَّغْلِبِ حِينَ يَتَظَاهَرُ بِالتَّقْوَى أَمَامَ
الدَّجَاجَةِ ...
الْحُبُّ ؟ الزَّوْاجُ ؟ الْمَالُ ؟ يَا لَحَمِ الدَّجَاجَةِ ! بَغْضِ كَلِمَاتِ الثَّغْلِبِ هِيَ أَنْيَابُ
الثَّغْلِبِ ...
أَيُّهَا الشَّرِيفَةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي .

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِتْنَةُ الْجَمَالِ أَوْ فِتْنَةُ الْأَنْوَةِ » بَدَلًا مِنْ : « فِتْنَةُ الْجَمَالِ أَوْ فِتْنَةُ الْأَنْوَةِ » .
(٢) كَلِمَةُ « الْمِشْنَقَةِ » لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً ، وَلَكِنْ لَهَا وَجْهٌ فِي الْأَشْتِقَاقِ ، غَيْرَ أَنَّ كَسْرَةَ مِيمِهَا تَجْعَلُهَا
فَعِيلَةً ، وَكَانَ اسْمُهَا قَدِيمًا « الشَّاقَةُ » ، ذَكَرَهَا ياقُوتٌ فِي « مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ » ، وَهِيَ أَنْصَحُ وَأَخَفُ ،
فَلَعَلَّ الشَّاقَةَ بَعْدَ هَذَا تَشَبَّهَ الْمِشْنَقَةَ ...

أَحْذَرِي السَّقُوطَ ! إِنَّ سَقُوطَ الْمَرْأَةِ لِهَوْلُهُ وَشِدَّتُهُ ثَلَاثُ مَصَائِبَ فِي مُصِيبَةٍ :
 سَقُوطُهَا هِيَ ، وَسَقُوطُ مَنْ أَوْجَدُوهَا ، وَسَقُوطُ مَنْ تَوَجَّدَهُمْ !
 نَوَائِبُ الْأُسْرَةِ كُلُّهَا قَدْ يَسْتُرُهَا الْبَيْتُ ، إِلَّا عَارَ الْمَرْأَةِ .
 فَيَدُ الْعَارِ تَقْلِبُ الْحَيَاطَانَ كَمَا تَقْلِبُ الْيَدُ النَّوْبَ فَتَجْعَلُ مَا لَا يُرَى هُوَ مَا يُرَى .
 وَالْعَارُ حُكْمٌ يَنْقُذُهُ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ ، فَهُوَ نَفْيٌ مِنَ الْإِحْتِرَامِ الْإِنْسَانِيِّ .
 أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي !

* * *

لَوْ كَانَ الْعَارُ فِي بَيْتٍ عَمِيقَةٍ لَقَلَبَهَا الشَّيْطَانُ مِثْلَنَةً وَوَقَفَ يُؤْذَنُ عَلَيْهَا .
 يَفْرَحُ اللَّعِينُ بِفَضِيحَةِ الْمَرْأَةِ خَاصَّةً ، كَمَا يَفْرَحُ أَبٌ غَنِيٌّ بِمَوْلُودٍ جَدِيدٍ فِي بَيْتِهِ . . .
 وَاللُّصُّ ، وَالْقَاتِلُ ، وَالسَّكَّيْرُ ، وَالْفَاسِقُ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ عَلَى ظَاهِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَالْحَرِّ
 وَالْبَرْدِ .

أَمَّا الْمَرْأَةُ حِينَ تَسْقُطُ ، فَهَلْذِهِ مِنْ تَحْتِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الزَّلْزَلَةُ .
 لَيْسَ أَفْظَعُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ الْمُرْتَجَّةُ تَشَقُّ الْأَرْضُ ، إِلَّا عَارَ الْمَرْأَةِ حِينَ يَشُقُّ الْأُسْرَةَ .
 { أَيُّهَا الشَّرْقِيَّةُ ! أَحْذَرِي أَحْذَرِي ! } .

الْجَمَالُ الْبَائِسُ (*)

١

« وَكَيْفَ يُشْعَبُ صَدْعُ الْحُبِّ فِي كَيْدِي » ، كَيْفَ يُشْعَبُ صَدْعُ الْحُبِّ ؟

لَعَمْرِي مَا رَأَيْتُ الْجَمَالَ مَرَّةً إِلَّا كَانَ عِنْدِي هُوَ الْأَلَمُ فِي أَجْمَلِ صُورِهِ وَأَبْدَعِهَا ؛
أَتُرَانِي مَخْلُوقًا بِجُرْحٍ فِي الْقَلْبِ ؟

وَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً فِي عَيْنِي ، إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتُ حِينَ أَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنَّ فِي نَفْسِي شَيْئًا
قَدْ عَرَفْتُهَا ، وَأَنَّ فِي عَيْنَيْهَا لَحَظَاتٍ مُوجَّهَةً إِلَيَّ ، وَإِنْ لَمْ تَنْظُرْ هِيَ إِلَيَّ .

فَإِتِّبَاتُ الْجَمَالِ نَفْسَهُ لِعَيْنِي ، أَنْ يُثَبِّتَ صِدَاقَهُ لِرُوحِي بِاللَّمَحَةِ الَّتِي تَدُلُّ وَتَتَكَلَّمُ :
تَدُلُّ نَفْسِي وَتَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِي .

* * *

كُنْتُ أَجْلِسُ فِي (إِسْكَندَرِيَّةَ) بَيْنَ الضُّحَى وَالظُّهْرِ ، فِي مَكَانٍ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ،
وَمَعِيَ صَدِيقِي الْأُسْتَاذُ (ح) ^(١) مِنْ أَفَاضِلِ رِجَالِ السَّلْكِ السِّيَاسِيِّ ، وَهُوَ كَاتِبٌ مِنْ ذَوِي
الزَّرَائِي ، لَهُ أَدَبٌ غَضُّ وَنَوَادِرُ وَطَرَائِفُ ؛ وَفِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ لَا أَعْرِفُ مِثْلَهُ فِي مِثْلِهِ ، قَدْ بَلَغَ
مَا شَاءَ اللَّهُ قُوَّةً وَتَمَكُّنًا ، حَتَّى لَا حَسَبُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ قَدْ عُوِّقَ فَحُكِمَ عَلَيْهِ أَنْ
يَكُونَ مُحَامِيًا ، ثُمَّ زِيدَ فِي الْحُكْمِ فَجُعِلَ قَاضِيًا ، ثُمَّ ضُوعِفَتِ الْعُقُوبَةُ فَجُعِلَ سِيَاسِيًا . . .

وَهَذَا الْمَكَانُ يَنْقَلِبُ فِي اللَّيْلِ مَسْرَحًا وَمَرْقَصًا وَمَا بَيْنَهُمَا . . . فَيَتَغَاوَى فِيهِ الْجَمَالُ
وَالْحُبُّ ، وَيَعْرِضُ الشَّيْطَانُ مَضْئُوعَاتِهِ فِي الْهَزَلِ وَالرَّقْصِ وَالْغِنَاءِ ^(٢) ، فَإِذَا دَخَلَتْهُ فِي
النَّهَارِ رَأَيْتَ نُورَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ يَغْسِلُهُ وَيَغْسِلُكَ مَعَهُ ، فَتَحْسِلُ لِلنُّورِ هُنَاكَ عَمَلًا فِي نَفْسِكَ .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٦ ، ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٥٢٣ - ١٥٢٦ .

(١) [هو حافظ عامر] .

(٢) { أَنْظُرْ مَقَالَه (لَوْ . . .) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي ، فَقَدْ كُتِبَتْ عَنْ هَذَا الْمَسْرَحِ بَعْثُهُ } .

وَيُرَى الْمَكَانُ صَدْرًا مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ بَعْدَ سَهَرِ اللَّيْلِ ، فَمَا تَجِيئُهُ مِنْ سَاعَةٍ بَيْنَ الصُّبْحِ وَالظُّهْرِ ، إِلَّا وَجَدَتْهُ سَاكِئًا هَادِئًا كَالْجِسْمِ الْمُسْتَقْبِلِ نَوْمًا ؛ وَلِهَذَا كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَكْتُبُ فِيهِ ، بَلْ لَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ إِلَّا لِلْكِتَابَةِ .

فَإِذَا كَانَ الظُّهْرُ أَقْبَلَ نِسَاءُ الْمَسْرَحِ وَمَعَهُنَّ مِنْ يُطَارِحُهُنَّ الْأَنَاشِيدَ وَالْحَانِهَا ، وَمَنْ يَقْفُوهُنَّ فِي الرَّفْصِ ، وَمَنْ يُرَوِّنُهُنَّ مَا يُمَثِّلُنَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا آتَلْتُهُنَّ بِهِ الْحَيَاةُ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهِنَّ اللَّيَالِي بِالْمَوْتِ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ .

وَكُنُّ إِذَا جِئْتُ رَأَيْتَنِي عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْكِتَابَةِ وَالتَّفَكِيرِ ، فَيَنْصَرِفُنَّ إِلَى شَأْنِهِنَّ ، إِلَّا وَاحِدَةً كَانَتْ أَجْمَلَهُنَّ . وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمِسْكِينَاتِ يَظْهَرْنَ لِعَيْنِ الْمُتأملِ ، كَأَنَّ الزَّوْجَةَ مِنْهُنَّ مِثْلُ الْعِزْرِ الَّتِي كُسِرَ أَحَدُ قَرْنَيْهَا ، فَبِهَا تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا عَلَامَةَ الضَّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالتَّقْصِ وَلَوْ أَنَّ أَمْرًا تَتَبَدَّدُ حِينًا فَلَا تَكُونُ شَيْئًا ، وَتَجْتَمِعُ حِينًا فَتَكُونُ مَرَّةً شَيْئًا مَقْلُوبًا ، وَأُخْرَى شَكْلًا نَاقِصًا ، وَتَارَةً هَيْئَةً مُشَوَّهَةً ؛ لَكَانَتْ هِيَ كُلُّ أَمْرَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمِسْكِينَاتِ اللَّوَاتِي يَمْشِينَ فِي الْمَسَرَّاتِ إِلَى الْمَخَافِيفِ ، وَيَعِشْنَ { وَلَكِنْ } بِمُقَدَّمَاتِ الْمَوْتِ ، وَيَجِدْنَ فِي الْمَالِ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَيَتَلَقَّيْنَ الْكَرَامَةَ فِيهَا أَلَسْتَهْزَاءُ ، ثُمَّ لَا يَعْرِفْنَ شَابًا وَلَا رَجُلًا إِلَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَجْلِهِ لَعْنَةُ أَبِي أَوْ أُمِّ أَوْ زَوْجَةٍ .

* * *

وَتِلْكَ الْوَاحِدَةُ الَّتِي أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا كَانَتْ حَزِينَةً مُتَسَلِّبَةً^(١) فَكَأَنَّمَا جَذَبَهَا حُزْنُهَا إِلَيَّ ، وَكَانَتْ مُفَكَّرَةً فَكَأَنَّمَا هَدَاهَا إِلَيَّ فِكْرُهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً فَدَلَّهَا عَلَيَّ الْحُبُّ ، وَمَا أَذْرِي وَاللَّهِ أَيُّ نَفْسَيْنَا بَدَأَتْ فَقَالَتْ لِلْأُخْرَى أَهْلًا ...

وَرَأَيْتُهَا لَا تَصْرِفُ نَظَرَهَا عَنِّي إِلَّا لِتَرُدَّهُ إِلَيَّ ، وَلَا تَرُدُّهُ إِلَّا لِتَصْرِفَهُ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُهَا قَدْ جَالَ بِهَا الْغَزْلُ جَوْلَةً فِي مَعْرَكَتِهِ ... فَتَشَاعَلْتُ عَنْهَا لَا أُرِيهَا أَنِّي أَنَا الْخَصْمُ الْآخِرُ فِي الْمَعْرَكَةِ ...

بَيِّدَ أَنِّي جَعَلْتُ أَخْذَهَا فِي مَطَارِحِ النَّظَرِ ، وَأَتَأَمَّلُهَا خُلْسَةً بَعْدَ خُلْسَةٍ فِي ثَوْبِهَا الْحَرِيرِيِّ

(١) يُقَالُ : تَسَلَّطَتِ الْمَرْأَةُ . إِذَا أَحَدَّتْ ، أَيُّ : لَبَسَتْ ثِيَابَ الْحِدَادِ .

الْأَسْوَدَ ، فَإِذَا هُوَ يَسُبُّ لَوْنَهَا^(١) فَيَجْعَلُهُ يَتَلَأْلَأُ ، وَيُظْهِرُ وَجْهَهَا بِلَوْنِ الْبَدْرِ فِي يَمِّهِ ، وَيَبْدِيهِ لِعَيْنَيَّ أَرْقَ مِنَ الْوَرْدِ تَحْتَ نَوْرِ الْفَجْرِ .

وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا فِيهِ الْمَرْأَةُ كُلُّهَا بِإِخْتِصَارٍ ، يُسْرِقُ عَلَى جِسْمِ بَضِّ أَلْيَنَ مِنْ خَمْلِ التَّلَامِ ، تَعْرِضُ فِيهِ الْأُنُوفَةُ فَتَهَا الْكَامِلُ ؛ فَلَوْ خُلِقَ الدَّلَالُ أَمْرًا لَكَانَتْهَا .

وَتَلَوُّحُ لِلرَّائِي مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا وَضَعَتْ فِي فَمِهَا (زِرَّ وَزِد) أَحْمَرَ مُنْضَمًا عَلَى نَفْسِهِ : شَفَتَانِ تَكَادُ ابْتِسَامَتُهُمَا تَكُونُ نِدَاءً لِشَفَتَيَّ مُحِبَّ ظَمَانٍ . . . !

أَمَّا عَيْنَاهَا فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُمَا عَيْنِي أَمْرًا وَلَا ظَبِيَّةً ؛ سَوَادُهُمَا أَشَدُّ سَوَادًا مِنْ عُيُونِ الطَّبَّاءِ ؛ وَقَدْ خُلِقَتَا فِي هَيْئَةٍ ثَبَّتَتْ وَجُودَ السَّخْرِ وَفِعْلُهُ فِي النَّفْسِ ؛ فِيهِمَا الْقُوَّةُ الْوَاقِعَةُ أَنَّهَا الثَّاقِفَةُ الْأَمْرُ ، يُمَارِجُهَا حَنَانٌ أَكْثَرُ مِمَّا فِي صَدْرِ أُمٍّ عَلَى طِفْلِهَا ؛ وَتَمَامُ الْمَلَا حَةِ أَتُهُمَا هُمَا ، بِهِذَا التَّكْحِيلِ ، فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، فِي هَذَا الْوَجْهِ الْقَمَرِيِّ .

يَا خَالِقَ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ! سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ !

* * *

قَالَ الرَّائِي :

وَأَتَغَافَلُ عَنْهَا أَيَّامًا ؛ وَطَالَ ذَلِكَ مِنِّي وَشَقَّ عَلَيْهَا ، وَكَأَنِّي صَغَرْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، وَأَرْهَقْتُهَا بِمَعْنَى الْخُضُوعِ ، يَبْدُ أَنْ كِبَرِيَاءَهَا الَّتِي أَبَتْ لَهَا أَنْ تُقَدِّمَ ، أَبَتْ عَلَيْهَا كَذَلِكَ أَنْ تَنْهَزِمَ .

وَأَنَا عَلَى كُلِّ أَحْوَالِي إِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الْجَمَالِ كَمَا أَسْتَنْشِيهِ الْعِطْرَ يَكُونُ مُتَضَوِّعًا فِي الْهَوَاءِ : لَا أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْسَهُ وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَخَذْتُ مِنِّي . ثُمَّ لَا تَذْفَعُنِي إِلَيْهِ إِلَّا فِطْرَةُ الشَّعْرِ وَالْإِحْسَاسِ الرُّوحَانِيَّ ، دُونَ فِطْرَةِ الشَّرِّ وَالْحَيَوَانِيَّةِ^(٢) ، وَمَتْنِي أَحْسَنْتُ جَمَالَ الْمَرْأَةِ أَحْسَنْتُ فِيهِ بِمَعْنَى أَكْبَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ ، أَكْبَرَ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مِنْهَا .

(١) أي : يَبْدِيهِ وَيُظْهِرُهُ وَيَجْعَلُهُ أَحْفَلَ بِالْجَمَالِ .

(٢) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ لِكِتَابِنَا : « أَوْزَانُ الْوَرْدِ » وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، فَلَمْ تَتَوَسَّعْ فِيهِ هُنَا .

قَالَ الرَّاوي : .

فَإِنِّي لَجَالِسُ ذَاتِ يَوْمٍ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَى شَأْنِي مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَبِإِزَائِي فَتَى رَتَّقَ الشَّبَابَ ، فِي الْعُمُرِ الَّذِي تَرَى فِيهِ الْأَعْيُنُ بِالْحِمَاسَةِ وَالْعَاطِفَةِ ، أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى بِالْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ ، نَاعِمٌ أَمْلُدُ نَمَّ شَبَابَهُ وَلَمْ تَتِمَّ قُوَّتُهُ ، كَأَنَّمَا نَكَصَتِ الرُّجُوزُ عَنْهُ إِذْ وَافَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ رَجُلًا . . . أَوْ تِلْكَ هِيَ شَيْمَةُ أَهْلِ الظَّرْفِ وَالْقَضْبِ مِنْ شُبَّانِ الْيَوْمِ : تَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ فَتَعْرِفُ التُّضَجَ فِي ثِيَابِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُهُ فِي جَسَمِهِ ، وَتَأْبَى الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَثْنَى فَيُجَاهِدُ لِيَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الْأَثْنَى . . . ! إِنِّي لَجَالِسُ إِذْ وَافَتِ الْحَسَنَاءُ فَأَوْمَأَتْ إِلَيَّ أَلْفَتَنِي بِتَحِيَّيْهَا ، ثُمَّ ذَهَبَتْ فَأَعْتَلْتُ الْمِنْصَةَ مَعَ الْبَاقِيَاتِ ، وَرَقَصْتُ فَأَحْسَسْتُ مَا شَاءَتْ ، وَكَأَنَّ فِي رَقِصِهَا تَغْيِيرًا عَنْ أَهْوَاءِ وَنَزَعَاتِ تُرَيْدُ إِثَارَتَهَا فِي رَجُلٍ مَا . . . فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا الْأُسْتَاذِ (ح) : إِنَّ كَلِمَةَ الرَّقْصِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا ، كَمَا يَسْتَعِرُونَ كَلِمَةَ الْحُبِّ لِجَمْعِ الْمَالِ ؛ وَلَا رَقْصَ وَلَا حُبَّ إِلَّا فُجُورٌ وَطَمَعٌ .

ثُمَّ إِنَّهَا فَرَعَتْ مِنْ شَأْنِهَا فَمَرَّتْ تَهَادَى حَتَّى جَاءَتْ فَجَلَسْتُ إِلَى أَلْفَتَنِي . . . فَقَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) وَكَانَ قَدْ أَلَمَ بِمَا فِي نَفْسِهَا : أَتَرَاهَا جَعَلَتْهُ هَلْهَنَا مَحْطَةً . . . ؟

قَالَ الرَّاوي : أَمَّا أَنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ جَاءَ الْمَوْضُوعُ . . . وَإِنِّي لَفِي حَاجَةٍ ، أَشَدَّ الْحَاجَةِ ، إِلَى مَقَالَةٍ مِنَ الْمَكْخُولَاتِ ، فَتَفَرَّغْتُ لَهَا أَنْظُرُ مَاذَا تَصْنَعُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ قَلِيلًا مَا يَكُونُ لَهَا فِكْرٌ أَوْ فِلَسَفَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْفِكْرَ وَالْفِلَسَفَةَ وَالْمَعَانِي كُلَّهَا تَكُونُ فِي نَظَرِهَا وَابْتِسَامَاتِهَا وَعَلَى جِسْمِهَا كُلِّهِ .

* * *

وَكَانَ قَتَامًا قَدْ وَضَعَ طُرْبُوشَهُ عَلَى يَدِهِ ؛ فَقَدِ انْتَهَيْنَا إِلَى عَهْدٍ رَجَعَ حُكْمُ الطُّرْبُوشِ فِيهِ عَلَى رَأْسِ الشَّابِّ الْجَمِيلِ ، كَحُكْمِ الْبُرْقِعِ عَلَى وَجْهِ الْفَتَاةِ الْجَمِيلَةِ . . . فَاسْفَرَّ ذَاكَ مِنْ طُرْبُوشِهِ ، وَاسْفَرَّتْ هَذِهِ مِنْ نِقَابِهَا . . . قَالَ الرَّاوي : فَمَا جَلَسْتُ إِلَى أَلْفَتَنِي حَتَّى أَدْنَتْ رَأْسَهَا مِنَ الطُّرْبُوشِ ، فَاسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ ، فَأَلْصَقَتْ بِهِ خَدَّهَا . . .

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَيْنَا الْفَاتَةُ الْخِشْفُ الْمَذْعُورِ اسْتَرْوَحَ السَّبْعُ ^(١) وَوَجَدَ مُقَدَّمَاتِهِ فِي الْهَوَاءِ ،
ثُمَّ أَرْخَتْ عَيْنَيْهَا فِي حَيَاءٍ لَا يَسْتَحْيِي ...

وَأَنْشَأَتْ تَتَكَلَّمُ وَهِيَ فِي ذَلِكَ تُسَارِقُنَا النَّظَرَ ، كَانَ فِي نَاحِيَتِنَا بَعْضَ مَعَانِي كَلَامِهَا ...
ثُمَّ لَا أَذْرِي مَا الَّذِي تَصَاحَكْتَ لَهُ ، غَيْرَ أَنَّ ضِحْكَتَهَا أَنْشَقَّتْ نِصْفَيْنِ ، رَأَيْنَا نَحْنُ
أَجْمَلَهُمَا فِي نَعْرِهَا ...

ثُمَّ تَرَعَزَعَتْ فِي كُرْسِيِّهَا كَأَنَّمَا تَهُمُّ أَنْ تَنْقَلِبَ ، لِمَتَمَدَّ إِلَيْهَا يَدٌ فَتُمْسِكُهَا أَنْ تَنْقَلِبَ ...
ثُمَّ سَانَدَتْ عَلَى نَفْسِهَا ، كَالْمَرِيضَةِ النَّائِمَةِ تَتَنَاهَضُ مِنْ فِرَاشِهَا فَيَكَادُ يَمُوتُ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ ^(٢) ، وَقَامَتْ فَسَشَتْ ، فَحَادَثْنَا ، وَتَجَاوَزْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَوْضِعِهَا
مُتَكَسِّرَةً مُتَحَادِلَةً كَانَ فِيهَا قُوَّةٌ تُعْلِنُ أَنَّهَا أَنْتَهَتْ ...

* * *

قَالَ الرَّاوي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ حُزْنٍ ؛ فَتَغَضَّبْتُ وَأَغْتَاظْتُ ، وَشَاجَرْتُ هَذِهِ النَّظْرَةَ مِنْ عَيْنَيْهَا
الِدَّعْجَاوِينَ بِنَظَرَاتٍ مُتَهَكِّمَةٍ ، لَا أَذْرِي أَهِيَ تُؤَبِّخُنَا بِهَا ، أَمْ تَتَّهِمُنَا بِأَنَّا أَخَذْنَا مِنْ حُسْنِهَا
مَجَانًا ... ؟

فَقُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (ح) ، وَأَنَا أَجْهَرُ بِالْكَلَامِ لِيَبْلُغَهَا :

أَمَّا تَرَى أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَنْتَكَسَتْ فِي أَنْتِكَاسِهَا ، وَأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ فَسَدَ فِي فَسَادِهِ ، وَأَنَّ الْبَلَاءَ
قَدْ ضَوْعَفَ عَلَى النَّاسِ ، وَأَنَّ بَقِيَّةَ مِنَ الْخَيْرِ كَانَتْ فِي الشَّرِّ الْقَدِيمِ فَانْتَزَعَتْ ؟

قَالَ : وَهَلْ كَانَ فِي الشَّرِّ الْقَدِيمِ بَقِيَّةٌ خَيْرٍ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي الشَّرِّ الْحَدِيثِ ؟

قُلْتُ : هَلُمَّا فِي هَذَا الْمَسْرَحِ قِيَانٌ لَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ... فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، لَتَنَافَسَ

(١) الْخِشْفُ : وَلَهُ الْعَزَالُ ، يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى . وَاسْتَرْوَحَ السَّبْعُ : أَيُّ : وَجَدَ رِيحَهُ فِي الْهَوَاءِ
قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ، وَكَذَلِكَ طَبِيعَةُ الْخَيَوَانِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « مِنْ بَعْضِهَا » بَدَلًا مِنْ : « مِنْ بَعْضٍ » .

فِي شَرَائِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَمْراءُ وَسَرَاهُ النَّاسِ وَأَعْيَانُهُمْ ، فَكَانَ لَهَا فِي عَهَارَةِ الزَّمَنِ صَوْنٌ وَكَرَامَةٌ ، وَتَقَلَّبَ فِي الْقُصُورِ فَتَجَعَلَ لَهَا الْقُصُورُ حُرْمَةً تَمْنَعُهَا ابْتِدَالَ فَتْهَا لِكُلِّ مَنْ يَدْفَعُ خَمْسَةَ قُرُوشٍ ، حَتَّى لِرُذَالِ النَّاسِ وَغَوَاثِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ ؛ ثُمَّ هِيَ حِينَ يُدِيرُ شَبَابُهَا تَكُونُ فِي دَارِ مَوْلَاهَا حَمِيلَةً عَلَى كَرَمٍ يَحْمِلُهَا ، وَعَلَى مَرْوَةٍ تَعِينُ بِهَا .

وَقَدِيمًا أَخَذَتْ سَلَامَةَ الزَّرْقَاءُ فِي قُبُلَتِهَا لَوْلُؤَتَيْنِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، تَبْلُغُ أَلْفِي جُنَيْهِ . فَهَلْ تَأْخُذُ أَلْفَيْنَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا دَخِينَةً^(١) بِمِلِّمَيْنِ ... ؟

قَالَ الْأَسْنَادُ (ح) : مَا أَبْعَدَكَ يَا أَخِي عَنْ (بُورْصَةِ)^(٢) الْقُبْلَةِ وَأَسْعَارِهَا ... وَلَكِنْ مَا خَبِرَ اللَّوْلُؤَتَيْنِ ؟

قَالَ الرَّاوِي :

كَانَتْ سَلَامَةُ هَذِهِ جَارِيَةً لِابْنِ رَامِينَ^(٣) ، وَكَانَتْ مِنَ الْجَمَالِ بِحَيْثُ قِيلَ فِي وَصْفِهَا : كَأَنَّ الشَّمْسَ طَالِعَةً مِنْ بَيْنِ رَأْسِهَا وَكَتِفَيْهَا ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا فِي مَجْلِسِ غِنَائِهَا الصَّيْرِفِيِّ الْمُلَقَّبِ بِالْمَاجِنِ ، فَلَمَّا أَذِنَتْ لَهُ ، دَخَلَ فَأَقْعَى بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي ثُوبِهِ فَأَخْرَجَ لَوْلُؤَتَيْنِ ، وَقَالَ : انْظُرِي يَا زَرْقَاءُ جُعِلْتُ فِدَاكِ . ثُمَّ حَلَفَ أَنَّهُ يُقَدِّ فِيهِمَا بِالْأَمْسِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . قَالَتْ : فَمَا أَصْنَعُ بِذَاكَ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمِي ...

ثُمَّ غَنَّتْ صَوْتًا وَقَالَتْ : يَا مَاجِنُ هَبْنِي لِي وَنَحَكَ . قَالَ : إِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ فَعَلْتُ . قَالَتْ : قَدْ شِئْتُ . قَالَ : وَالْيَمِينَ أَلْتِي حَلَفْتُ بِهَا لَازِمَةً لِي إِنْ أَخَذْتِيهِمَا إِلَّا بِشَفَتَيْكَ مِنْ شَفَتَيَّ ...

* * *

قَالَ الرَّاوِي :

(١) الدَّخِينَةُ وَصَفَانَا لِلشَّيْجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا الدَّخَائِنُ .

(٢) البورصة Bourse عَلِمَ عَلَى سَوَاقِ الْمَالِ وَالْأَسْهُمِ وَالْبَضَائِعِ ، حَيْثُ يَعْقِدُ فِيهَا الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ عَلَى الْعُمَلَاتِ الْوَرَقِيَّةِ وَأَسْهُمِ الشَّرَكَاتِ ، وَسَدَادَاتِ الْقُرُوضِ التِّجَارِيَّةِ وَالْحُكُومِيَّةِ وَالْبَضَائِعِ .

(٣) سَلَامَةُ هَذِهِ اشْتَرَاهَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ بِسِتَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (٤٠٠٠ جُنَيْهِ) ، كَمَا اشْتَرَى جَارِيَةً أُخْرَى يُقَالُ لَهَا : رَبِيعَةُ ، بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

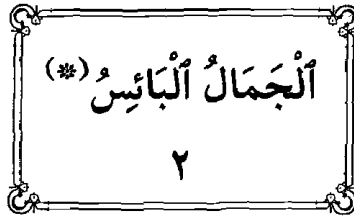
وَرَأَيْتُهَا قَدْ أَذْنَتْ لِي ، وَأَنْصَتَتْ لِكَلَامِي ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَسْمَعُنِي أَعْتَذِرُ إِلَيْهَا ، وَأَسْتَيْقِنْتُ
أَنْ لَيْسَ بِي إِلَّا الْحُزْنُ عَلَيْهَا وَالرَّثَاءُ لَهَا ، فَبَدَتْ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي أَيَّامِ الْخِذْرِ ...
ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ سَفِينَهَا ، وَلَكِنَّهَا سَفَاهَةٌ فَنٍّ ... لَا سَفَاهَةَ عَزِيدَةَ
وَتَصَعْلُكِ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ .

فَنَظَرْتُ إِلَيَّ نَظْرَةً لَنْ أَنْسَاهَا ؛ نَظْرَةً كَأَنَّهَا تَذْمَعُ ، نَظْرَةً تَقُولُ بِهَا : أَلَسْتُ إِنْسَانَةً ؟ فَلَمْ
أَمْلِكْ أَنْ قُلْتُ لَهَا : تَعَالَيْ تَعَالَيْ .

وَجَاءَتْ أَحَلَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ الْفُرْصَةُ ، وَلَكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا
قَالَتْ ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



جَاءَتْ أَحَلَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُعْتَرِضِ سَنَحَتْ بِهِ فُرْصَةٌ ؛ وَعَلَى أَنَّهَا لَمْ تَخْطُ إِلَيْنَا إِلَّا خَطْوَةً
وَتَمَامَهَا ، فَقَدْ كَانَتْ تَجِدُ فِي نَفْسِهَا مَا تَجِدُهُ لَوْ أَنَّهَا سَافَرَتْ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ ، وَنَقَلَهَا
الْبُعْدُ الثَّانِي مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ .

يَا عَجَبًا ! إِنَّ جُلُوسَ إِنْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ بِإِزَائِهِ ، قَدْ يَكُونُ أَخْيَانًا سَفَرًا طَوِيلًا فِي عَالَمِ
النَّفْسِ ؛ فَهَذِهِ الْحَسَنَاءُ تَعِيشُ فِي دُنْيَا فَارِغَةٍ مِنْ خِلَالِ كَثِيرَةٍ : كَالْتَقَوَى ، وَالْحَيَاءِ ،
وَالْكَرَامَةِ ، وَسُمُومِ الرُّوحِ ، وَغَيْرِهَا ؛ فَإِذَا عَرَضَ لَهَا مَنْ يُشْعِرُهَا بَعْضَ هَذِهِ الْخِلَالِ ،
وَيَنْتَزِعُهَا مِنْ دُنْيَا اضْطِرَّارِهَا وَأَخْلَاقِ عَيْشِهَا وَلَوْ سَاعَةً - فَمَا تَكُونُ قَدْ وَجَدَتْ شَخْصًا ، بَلْ
كَشَفَتْ عَالَمًا تَدْخُلُهُ بِنَفْسٍ غَيْرِ النَّفْسِ الَّتِي تُدَبِّرُهَا فِي عَالَمِ رِزْقِهَا ...

وَلَا أَعْجَبُ مِنْ سِحْرِ الْحُبِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّ الْعَاشِقَ لَيَكُونُ حَبِيبُهُ إِلَى جَانِبِهِ ،
ثُمَّ لَا يُحِسُّ إِلَّا أَنَّهُ طَوَى الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ وَدَخَلَ جَنَّةَ الْخُلْدِ فِي قُبْلَةٍ . . .

* * *

جَلَسْتُ إِلَيْنَا كَمَا تَجَلِسُ الْمَرْأَةُ الْكَرِيمَةُ الْخَفِرَةُ : تُعْطِيكَ وَجْهَهَا وَتَبْتَعِدُ عَنْكَ
بِسَائِرِهَا ، وَتُرِيكَ الْغُصْنَ وَتَخْبَأُ عَنْكَ أَزْهَارُهُ . فَرَأَيْنَاهَا لَمْ تَسْتَقْبِلِ الرَّجُلَ مِنَّا بِالْأُنْتَى مِنْهَا
كَمَا أَعْتَادَتْ ؛ بَلِ اسْتَقْبَلَتْ وَاجِبًا بِرِعَايَةٍ ، وَتَلَطَّفًا بِحَنَانٍ ، وَأَدَبًا مِنْ فَرْقٍ بِأَدَبٍ مِنْ فَرْقٍ
آخَرَ ؛ وَكَانَ هَذَا عَجِيبًا مِنْهَا ؛ فَكَلَّمَهَا فِي ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ (ح) ، فَقَالَتْ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّا
نَتَّبِعُ دَائِمًا مَحَبَّةَ مَنْ نَجَالِسُهُمْ ، وَهَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ . وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ الرَّجُلَ إِلَّا
فِي الذَّرَّةِ ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ مَعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْؤُمُونَ بِسَيِّمَاتِ الرِّجَالِ ، كَحِيلَةِ الْمُحْتَالِ عَلَى
غَفْلَةِ الْمُغْفَلِ ؛ وَهُمْ مَعَنَا كَالْقُدْرَةِ بِالثَّمَنِ عَلَى مَا يَشْتَرِيهِ الثَّمَنُ ؛ لَيْشُوا عَلَيْنَا إِلَّا قَهْرًا مِنْ
الْقَهْرِ ؛ وَلَسْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا سَلْبًا مِنَ السَّلْبِ ، مَادَّةٌ مَعَ مَادَّةٍ ، وَشَرٌّ عَلَى شَرٍّ ؛ أَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَّا
وَمِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَتْ أَوْ هِيَ ذَاهِبَةٌ .

قَالَ (ح) : وَلَكِنْ . . .

فَلَمْ تَدْعُهُ يَسْتَدْرِكُ ، بَلِ قَالَتْ : إِنَّ « لَكِنْ » هَذِهِ غَائِبَةٌ الْآنَ . . . فَلَا تَجِيءُ فِي
كَلَامِنَا . أَتُرِيدُ دَلِيلًا عَلَى هَذَا الْإِنْقِلَابِ ؟ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ
مَسَافَةٍ بَيْنَ نَقْطَتَيْنِ ؛ وَلَكِنَّ كُلَّ أَمْرَةٍ مِنَّا تَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ الْمَعْوَجَّ هُوَ وَحْدَهُ أَقْرَبُ مَسَافَةٍ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ الرَّجُلِ . . .

قَالَتْ : فَإِذَا وَجَدْتَ إِحْدَانَا رَجُلًا بِأَخْلَاقِهِ لَا بِأَخْلَاقِهَا . . . رَدَّتْهَا أَخْلَاقُهُ إِلَى الْمَرْأَةِ
الَّتِي كَانَتْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَرَدَّتْهَا طَبِيعَتُهَا الزَّهْوُ بِهِذَا الرَّجُلِ النَّادِرِ ، فَتَكُونُ مَعَهُ فِي حَالَةٍ
كَحَالَةِ أَكْمَلِ أَمْرَةٍ ، بَيْنَ أَنَّهُ كَمَا أَلْهَمَ الَّذِي يَسْتَقِظُ وَشَيْئًا ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْكَامِلَ يَكْمُلُ
بِأَشْيَاءَ ، مِنْهَا وَآسَفًا . . . ! مِنْهَا ابْتِعَادُهُ عَنَّا .

ثُمَّ قَالَتْ : وَصَاحِبُكَ هَذَا مُنْذُ رَأَيْتُهُ ، رَأَيْتُهُ كَالِكِتَابِ يَسْغُلُ قَارِئَهُ عَنْ مَعَانِي نَفْسِهِ
بِمَعَانِيهِ هُوَ . . .

وَصَحِّحْتُ أَنَا لِهَذَا التَّشْبِيهِ ، فَمَتَى كَانَ الْكِتَابُ عِنْدَ هَذِهِ كِتَابًا يَشْغُلُ بِمَعَانِيهِ ؟ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُهَا قَدْ تَكَلَّمَتْ وَاحْتَفَلَتْ ، وَأَخْسَنْتْ وَأَصَابَتْ ؛ فَتَرَكْتُهَا تَتَحَدَّثُ مَعَ الْأُسْتَاذِ (ح) ، وَغَبْتُ عَنْهُمَا غَيْبَةً فِكْرٍ ؛ وَأَنَا إِذَا فَكَّرْتُ أَنْطَبِقَ عَلَى قَوْلِهِمْ : خَلَّ رَجُلًا وَشَأْنُهُ . فَلَا يَتَّصِلُ بِبَيِّ شَيْءٍ مِمَّا حَوْلِي . وَكَانَ كَلَامُهَا يَسْنُطِعُ لِي كَالْمِصْبَاحِ الْكَهْرُبَائِيِّ الْمُتَوَقِّدِ ، فَقَدَّمَهَا فِكْرَهَا إِلَيَّ غَيْرَ مَا قَدَّمْتُهَا إِلَيَّ نَفْسُهَا ، وَرَأَيْتُ لَهَا صُورَتَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا ، إِحْدَاهُمَا تَعْتَذِرُ مِنَ الْأُخْرَى . . .

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ قَدْ كَتَبْتُ فِي تَذْكِرَةِ خَوَاطِرِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي اسْتَوْحَيْتُهَا مِنْهَا ، لِأَضَعَهَا فِي مَقَالَةٍ عَنْهَا وَعَنْ أَشْأَلِهَا ، وَهِيَ « هَذِهِ الْكَلِمَةُ » :

« إِذَا خَرَجَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ حُدُودِ الْأُسْرَةِ وَشَرِيعَتِهَا ، فَهَلْ بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا الْأُنْثَى مُجَرَّدَةٌ تَجْرِيدهَا الْحَيَوَانِيَّ الْمُتَكَشِّفَ ، الْمُتَعَرِّضَ لِلْقُوَّةِ الَّتِي تَنَالُهُ أَوْ تَرْغَبُ فِيهِ ؟ وَهَلْ تَعْمَلُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَالَ هَذِهِ الْأُنْثَى ؟

« وَمَا الَّذِي اسْتَرْعَاهَا الْأَجْتِمَاعُ حِينَئِذٍ فَتَرْعَاهُ مِنْهُ وَتَحْفَظُهُ لَهُ ، إِلَّا مَا اسْتَرْعَى أَهْلُ الْمَالِ أَهْلَ السَّرِيقَةِ ؟ إِنَّ اللَّيْلَ يَنْطَوِي عَلَى أَقْتَيْنِ : أَوَّلُنَا الْفُضُوصِ ، وَهَؤُلَاءِ النِّسَاءِ .

وَكَيْفَ تَرَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا إِلَّا مُشَوَّهَةً مَا دَامَتْ رَدَائِلُهَا دَائِمًا وَرَاءَ عَيْنَيْهَا ، وَمَا دَامَ بِإِرَاءَ عَيْنَيْهَا دَائِمًا الْأَمْهَاتُ وَالْمُخَصَّنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَيْسَ شَأْنُهَا مِنْ شَأْنِهِنَّ ؟ إِنَّ خَيَالَهَا يُعْخِرُ فِي وَغِيهِ صُورَتَهَا الْمَاضِيَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَرَى ، فَإِذَا خَلَّتْ إِلَى نَفْسِهَا كَانَتْ فِيهَا اثْنَانِ ، إِحْدَاهُمَا تَلْعَنُ الْأُخْرَى ، فَتَرَى نَفْسَهَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا تَرَى .

وَهِيَ حِينَ تُطَالِعُ مِرَاتَهَا لِتَتَبَرَّجَ وَتَحْتَفِلَ فِي زِينَتِهَا ، تَنْظُرُ إِلَى خَيَالِهَا فِي الْمِرْآةِ بِأَهْوَاءِ الرِّجَالِ لَا بِعَيْنَيْ نَفْسِهَا ، وَلِهَذَا تُبَالِغُ أَشَدَّ الْمُبَالَغَةِ ؛ فَلَا تُعْنِي بَأَن تَظْهَرَ جَمِيلَةً كَالْمَرْأَةِ ، بَلْ مُثْمِرَةٌ كَالْتَّاجِرِ . . . وَتَكْسِبُهَا بِجَمَالِهَا يَكُونُ أَوَّلَ مَا تُفَكِّرُ فِيهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ سُرُورُهَا بِهَذَا الْجَمَالِ إِلَّا عَلَى قَدَرِ مَا تَكْسِبُ مِنْهُ ؛ بِخِلَافِ الطَّنْعِ الَّذِي فِي الْمَرْأَةِ ، فَإِنَّ سُرُورَهَا بِمُسَخَّةِ الْجَمَالِ عَلَيْهَا هُوَ أَوَّلُ فِكْرِهَا وَآخِرُهُ .

إِنَّ السَّاقِطَةَ لَا تَنْظُرُ فِي الْمِرْآةِ - أَكْثَرَ مَا تَنْظُرُ - إِلَّا ابْتِغَاءً أَنْ تَتَعَهَّدَ مِنْ جَمَالِهَا وَمِنْ

جَسَمِهَا مَوَاقِعَ نَظَرَاتِ الْفُجُورِ وَأَسْبَابِ الْفِتْنَةِ ، وَمَا يَسْتَهْوِي الرَّجُلُ وَمَا يُفْسِدُ الْعِفَّةَ عَلَيْهِ ؛
فَكَأَنَّ السَّافِقَةَ وَخَيَالَهَا فِي الْمِرَاةِ ، رَجُلٌ فَاسِقٌ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرَأَةٍ ، لَا أَمْرَأَةٌ تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهَا ... »

* * *

ذَهَبْتُ أَفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا قَبْلَ سَاعَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلَسَ فِي هَذِهِ
الْقَضِيَّةِ وَجْهَ الْقَاضِي ؛ فَدَخَلْتَنِي رِقَّةٌ شَدِيدَةٌ لِهَذَا الْجَمَالِ الْفَاتِنِ ، الَّذِي أَرَاهُ يَنْتَسِمُ وَحَوْلُهُ
الْأَفْدَارُ الْعَاسِيَةُ ؛ وَيَلْهُو وَيَبِينُ يَدَيْهِ أَتَامُ الدُّمُوعِ ؛ وَيَجْتَهِدُ فِي اجْتِدَابِ الرِّجَالِ
{ وَالشُّبَّانِ } إِلَى نَفْسِهِ ، وَالْوَقْتُ آتٍ بِالرِّجَالِ { وَالشُّبَّانِ } الَّذِينَ سَيَجْتَهِدُونَ فِي طَرْدِهِ
عَنْ أَنْفُسِهِمْ .

وَنَعْشَانِي الْحُزْنَ ، وَرَأْتُ هِيَ ذَلِكَ وَعَرَفْتُهُ ؛ فَأَخْرَجْتُ مِنْدِيلَهَا الْمُعَطَّرَ وَمَسَحْتُ
وَجْهَهَا بِهِ ، ثُمَّ هَزَّتُهُ فِي الْهَوَاءِ ، فَإِذَا الْهَوَاءُ مِنْدِيلٌ مُعَطَّرٌ آخَرُ مَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي ...
وَقَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : آه مِنْ الْعِطْرِ ! إِنَّ مِنْهُ نَوْعًا لَا أَسْتَشِيرُهُ مَرَّةً إِلَّا رَدَّنِي إِلَى حَيْثُ
كُنْتُ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً خَلْتُ ، كَأَنَّمَا هُوَ مُسَجَّلٌ بِزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ فِي دِمَاغِي ...
فَفَصَحَكْتُ هِيَ وَقَالَتْ : إِنَّ عِطْرَنَا نَحْنُ النِّسَاءَ لَيْسَ عِطْرًا ، بَلْ هُوَ شُعُورٌ نُنْبِئُهُ فِي
شُعُورٍ آخَرَ ...

فَقُلْتُ أَنَا : لَا رَيْبَ أَنَّ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْجَمِيلَةَ وَجْهًا غَيْرَ هَذَا .

قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟

قُلْتُ : إِنَّ الْمِرَاةَ الْمُعَطَّرَةَ الْمُتَرَبِّتَةَ ، هِيَ أَمْرَأَةٌ مُسَلَّحَةٌ بِأَسْلِحَتِهَا . أَفِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؟
قَالَتْ : لَا .

قُلْتُ : فَلِمَاذَا لَا يُسَمَّى هَذَا الْعِطْرُ بِالْغَازَاتِ الْخَائِنَةِ الْغَرَامِيَّةِ ... ؟

فَفَصَحَكْتُ فُتُونًا ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَتُسَمَّى (الْبُودَرَةُ)^(١) بِاللَّدِينَامِيَّةِ^(٢) الْغَرَامِيَّةِ .

(١) البودرة : Poudre : المسحوق ، وتطلق عادة على مسحوق الطلّق Talc : سيليكاات المغنسيوم

المائية ، يستعمل في مواد التجميل . بسام .

(٢) الديناميت Dynamite : مادة متفجرة مصنوعة من النتروغليسرين ومادة مسامية ؛ اكتشفه ألفريد =

وَنَقَلْنِي ذَلِكَ إِلَى نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى ، فَأَطَرَقَتْ إِطْرَاقَةً ؛ فَقَالَتْ : مَا بِكَ ؟
قُلْتُ : بَيْنِي كَلِمَةٌ الْأُسْتَاذُ (ح) ، إِنَّهَا أَلْهَبَتْ فِي قَلْبِي جَمْرَةً كَانَتْ خَامِدَةً .

قَالَتْ : أَوْ حَرَّكَتْ نُقْطَةً عِطْرِ كَانَتْ سَاكِئَةً ... !

فَقُلْتُ : إِنَّ الْحُبَّ يَضَعُ رُوحَانِيَّتَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَهُوَ يُغَيِّرُ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ ،
فَتَتَغَيَّرُ بِذَلِكَ الْحَالَةِ الْعَقْلِيَّةُ لِلْأَشْيَاءِ فِي وَهْمِ الْمُحِبِّ . (فَعِطْرُ كَذَا) مَثَلًا ... هُوَ نَوْعٌ شَدِيدٌ
مِنَ الْعِطْرِ ، طَيِّبُ الشَّمِيمِ ، عَاصِفُ الشُّوْبَةِ ، حَادُّ الرَّاغِبَةِ ؛ لِكَأَنَّهُ يَنْشُرُ فِي الْجَوِّ رَوْضَةً قَدْ
مِلَتْ بِأَزْهَارِهِ تُشَمُّ وَلَا تُرَى ؟ وَإِنَّهُ لَيَجْعَلُ الرَّمْنَ نَفْسَهُ عِبْقًا بِرِيحِهِ ، وَإِنَّهُ لَيُفْعِلُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ
طِينًا ، وَإِنَّهُ لَيَسْحَرُ النَّفْسَ فَيَسْحُولُ فِيهَا ...

وَهُنَا ضَحِكْتُ وَقَطَعْتُ عَلَيَّ الْكَلَامَ قَائِلَةً : يَظْهَرُ لِي أَنَّ (عِطْرَ كَذَا) هَاجِرٌ أَوْ
مُخَاصِمٌ ...

قُلْتُ : كَلَّا ، بَلْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا انْتَشَقَتْ أَرْجَهُ مَرَّةً إِلَّا حَسِبْتُهُ يَنْفُخُ مِنَ الْجَنَّةِ .
فَمَا أَسْرَعَ مَا تَلَاشَى مِنْ وَجْهِهَا الضَّحِكُ وَهَيْئَتُهُ ، وَجَاءَتْ دَمْعَةٌ وَهَيْئَتُهَا . وَلَمَحْتُ فِي
وَجْهِهَا مَعْنَى بَكَيْتُ لَهُ بُكَاءَ قَلْبِي .

جَمَالَهَا ، فَنَتْنُهَا ، سِحْرُهَا ، حَدِيثُهَا ، لَهْوُهَا ؛ أَوْ حِينَ لَا يَبْقَى لِهَذَا كُلِّهِ عَيْنٌ وَلَا
آثَرٌ ، أَوْ حِينَ لَا يَبْقَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا ذُنُوبٌ ، وَذُنُوبٌ ، وَذُنُوبٌ !

* * *

وَأَرَدْنَا أَنَا وَ(ح) بِكَلَامِنَا عَنِ الْحُبِّ وَمَا إِلَيْهِ ، أَلَّا نُوحِشَهَا مِنْ إِنْسَانِيَّتِنَا ، وَأَنْ نَبْلَّ
شَوْقَهَا إِلَى مَا حُرِّمَتْهُ مِنْ قَدْرِهَا قَدْرَ إِنْسَانَةٍ فِيمَا تَتَعَاطَاهُ بَيْنَنَا . وَالْمَرْأَةُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ إِذَا
طَمِعَتْ فِيمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ وَالْمَتَاعِ - طَمِعَتْ فِي الْاِخْتِرَامِ مِنْ رَجُلٍ
شَرِيفٍ مُتَعَفِّفٍ ، وَلَوْ اِخْتِرَامَ نَظَرَةٍ ، أَوْ كَلِمَةٍ . تَقْنَعُ بِأَقْلٍ ذَلِكَ وَتَرْضَى بِهِ ؛ فَالْقَلِيلُ مِمَّا

= نوبل Alfred Nobel عام ١٨٦٦ م ، الذي أوصى بثروته التي كسبها من هذا الاختراع لتمويل جائزة
تساهم على تشجيع العلوم التي تخدم السلام من أدب وطب وكيمياء وفيزياء وخدمة السلام
والاقتصاد ؛ تكفيراً عن هذا الاختراع المدمر ! بسلام .

لَا يُدْرِكُ قَلْبُهُ ، هُوَ عِنْدَ النَّفْسِ أَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي يُنَالُ كَثِيرُهُ .

وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، لَا تَذَرُنِي أَنْتَ : أَطَافَتْ بِالذَّنْبِ أَمْ طَافَ الذَّنْبُ بِهَا ؟ فَاخْتَرَاهُمَا
عِنْدَنَا لَيْسَ اخْتِرَامًا بِمَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَالْوُجُومِ أَمَامَ الْمُصِيبَةِ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ رَهْبَةٍ
الْقَدَرِ وَخُشُوعِ الْإِيمَانِ .

وَلَيْسَتْ امْرَأَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا التَّنَدُّمُ وَالْحَسْرَةُ وَاللَهْفَةُ مِمَّا هِيَ فِيهِ ، وَهَذَا
هُوَ جَانِبُهُنَّ الْإِنْسَانِي الَّذِي يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنَ النَّفْسِ الرَّاقِيَةِ بِلَهْفَةٍ أُخْرَى ، وَحَسْرَةٍ أُخْرَى ،
وَنَدَمٍ آخَرَ . كَمْ يَرْحَمُ الْإِنْسَانُ تِلْكَ الزَّوْجَةَ الْكَارِهَةَ الْمُرْغَمَةَ عَلَى أَنْ تُعَاشِرَ مَنْ تَكْرَهُهُ ،
فَلَا يَزَالُ يَغْلِي دُمُهَا بِوَسَاوِسَ وَالْآمِ مِنَ الْبَغْضِ لَا تَقْطَعُ ! وَكَمْ يَزِيءُ الْإِنْسَانُ لِلزَّوْجَةِ
الْغُيُورِ ، يَغْلِي دُمُهَا أَيْضًا وَلَكِنْ بِوَسَاوِسَ وَالْآمِ مِنَ الْحُبِّ ! أَلَا فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ مِنْ مِثْلِ
هَذِهِ الْحَسَنَاءِ تَحْمِلُ عَلَى قَلْبِهَا مِثْلَ هَمٍّ مِثْلَ زَوْجَةٍ كَارِهَةٍ مُرْغَمَةٍ مُسْتَعْبَدَةٍ ، يُحَالِطُهَا مِثْلُ هَمٍّ
مِثْلَ زَوْجَةٍ غُيُورٍ مُكَابِدَةٍ مُتَافِسَةٍ ، وَلَقَدْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا وَهِيَ مِمَّا
يُكَابِدُ قَلْبُهَا فِي السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِ قَلْبِهَا { أَوْ أَكْثَرُ } .

وَهَذِهِ الَّتِي جَاءَتْنَا إِنَّمَا جَاءَتْنَا فِي سَاعَةٍ مِثْلَ نَحْنُ لَا مِنْهَا هِيَ ، وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا لَا فِي
زَمَانِهَا وَلَا فِي مَكَانِهَا وَلَا فِي أَسْبَابِهَا ، وَقَدْ فَتَحَتْ الْبَابَ الَّذِي كَانَ مُغْلَقًا فِي قَلْبِهَا عَلَى
الْخَفَرِ وَالْحَيَاءِ ، وَحَوَّلَتْ جَمَالَهَا مِنْ جَمَالِ طَابِعِ الرَّذِيلَةِ ، إِلَى جَمَالِ طَابِعِ الْفَرْحِ ،
وَأَشْعَرَتْ أَفْرَاحَهَا الَّتِي اعْتَادَتْهَا رُوحُ الْحُزَنِ مِنْ أَجْلِئَا ، فَأَدْخَلَتْ بِذَلِكَ عَلَى أَحْزَانِهَا الَّتِي
اعْتَادَتْهَا رُوحُ الْفَرَحِ بِنَا .

مَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّ أَدَبَهُ يَكُونُ إِحْسَانًا عَلَى نَفْسٍ مِثْلِ هَذِهِ ثُمَّ لَا يُحْسِنُ بِهِ ^(١) ؟

* * *

تَتَجَدَّدُ الْحَيَاةُ مَتَى وَجَدَ الْمَرْءُ حَالَةَ نَفْسِيَّةٍ تَكُونُ جَدِيدَةً فِي سُورِهَا . وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ

(١) فِي كِتَابِنَا « السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » فَصْلُ طَوِيلٍ عَنْوَانُهُ « الرِّبْطَةُ » ، كَتَبْنَاهُ فِي مِثْلِ مَوْضُوعِ « الْجَمَالِ
الْبَاسِ » ، غَيْرَ أَنَّهُ يَمْنَحُنِي آخَرُ وَمَعَانٍ أُخْرَى . وَالرِّبْطَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي تُقَابِلُ كَلِمَةَ
Maitresse يُرِيدُ بِهَا الْأَوْرُودِيُّونَ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِأَجْرٍ فِي دَارِ الرَّجُلِ لِتَحِلَّ مَحَلَّ الزَّوْجَةِ . . .

الْمِسْكِينَةُ الَّتِي لَا يَغْنِيهَا مِنَ الرَّجُلِ مَنْ هُوَ ؟ وَلَكِنْ كَمْ هُوَ . . . ؟ لَمْ تَرِ فِينَا نَحْنُ الرَّجُلُ
الَّذِي هُوَ « كَمْ » ، بَلِ الَّذِي هُوَ « مَنْ » . وَقَدْ كَانَتْ مِنْ نَفْسِهَا الْأُولَى عَلَى بُعْدِ قَصِيٍّ
كَالَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ فِي بَشْرِ عَمِيقَةٍ لِيَتَاوَلَ شَيْئًا قَدْ سَقَطَ مِنْهُ ؛ فَلَمَّا جَلَسَتْ إِلَيْنَا ، اتَّصَلَتْ بِتِلْكَ
النَّفْسِ مِنْ قُرْبٍ ؛ إِذْ وَجَدَتْ فِي زَمَنِهَا السَّاعَةَ الَّتِي تَصْلُحُ جِسْرًا عَلَى الزَّمَنِ .
قَالَ الرَّاوي :

كَذَلِكَ رَأَيْتُهَا جَدِيدَةً بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَقُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَمَا تَرَى مَا أَرَاهُ ؟
قَالَ : وَمَاذَا تَرَى ؟ فَأَوْمَأْتُ إِلَيْهَا وَقُلْتُ : هَذِهِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ هَذِهِ . إِنَّ قَلْبَهَا يَنْشُرُ
الآنَ حَوْلَهَا نُورًا كَالْمِضْبَاحِ إِذَا أُضِيءَ ، وَأَرَاهَا كَالزَّهْرَةِ الَّتِي تَفْتَحُ ؛ هِيَ هِيَ الَّتِي
كَانَتْ ، وَلَكِنَّهَا بَغِيرَ مَا كَانَتْ .

فَقَالَتْ هِيَ : إِنِّي أَحْسَبُكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلِ أَرَاكَ تُحِبُّنِي ؛ بَلِ أَنْتَ تُحِبُّنِي . . . لَمْ يَخَفْ
عَلَيَّ مِنْذُ رَأَيْتُكَ وَرَأَيْتَنِي .

قُلْتُ : هَبْنِي صَحِيحًا ، فَكَيْفَ عَرَفْتَهُ وَلَمْ أَصَانِعْكَ ، وَلَمْ أَتَمَلِّقْ لَكَ ، وَلَمْ أَرِزْ عَلَى أَنْ
أَجِيءَ إِلَيَّ هُنَا لِأَكْتُبَ ؟

قَالَتْ : عَرَفْتُهُ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تُصَانِعْنِي ، وَلَمْ تَتَمَلَّقْ لِي ، وَلَمْ تَرِزْ عَلَى أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ هُنَا
لِتَكْتُبَ . . .

قُلْتُ : وَنَحَكَ ! لَوْ كُحِلَتْ عَيْنُ (الْمِكْرُسْكُوبِ)^(١) لَكَانَتْ عَيْنَكَ . وَضَحِكُنَا
جَمِيعًا ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى الْأُسْتَاذِ (ح) فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْقَضَايَا إِذَا كَثُرَ وَرُودُهَا عَلَى الْقَاضِي
جَعَلَتْ لَهُ عَيْنًا بَاحِثَةً .

* * *

قَالَ الرَّاوي :

وَأَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا وَجْهَهَا الْقَمَرِيُّ الْأَزْهَرُ قَدْ شَرِقَ لَوْنُهُ ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنَ الْحَيَاءِ مَا يَظْهَرُ

(١) المِكْرُسْكُوب Microscope ، واشتهر اليوم بالعربية بالمِجْهَر ، يمكن بواسطة الجمع بين عدساته
المكبرة أن ترى الأشياء أكبر من حجمها الطبيعي . بسام .

مِثْلُهُ عَلَى وَجْهِ الْعَذْرَاءِ الْمُحْدَرَةِ إِذَا أَنْتَ مَسَسْتَهَا بِرِيَّةٍ^(١) ؛ فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهَا السَّاعَةُ أَمْرًا جَدِيدَةً قَدْ أَصْطَلَحَ وَجْهَهَا وَحَيَاؤُهَا ، وَهُمَا أَبَدًا مُتَعَادِيَانِ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ مَكْشُوفَةِ الْعِقَّةِ . . .

وَذَهَبْتُ أَسْتَدْرِكَ وَأَتَأَوَّلُ ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا ذَلِكَ أَرَدْتُ ، وَلَا حَدَسْتُ عَلَى هَذَا الظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ مُتَأَلِّمٌ بِكَ ، وَهَلْ يَعْزُضُ لَكَ إِلَّا الطَّبَقَةُ اللَّطِيفَةُ . . . مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَالْخُبَيَّاءِ وَأَهْلِ الشَّرِّ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعَالَيْنِهِمْ فِي دُورِ الْخَلَاعَةِ وَالْمَسَارِحِ ، وَأَسَافِلُهُمْ فِي دُورِ الْقَضَاءِ وَالسُّجُونِ ؟

فَقَالَتْ : اعْتَرِفْ بِأَنَّكَ لَمْ تُحْسِنِ قَلْبَ التُّوبِ ، فَظَهَرَ لِكُلِّ عَيْنٍ أَنَّهُ مَقْلُوبٌ ؛ لَكِنَّكَ تُحِبُّنِي . . . وَهَذَا كَافٍ أَنْ يَنْهَضَ مِنْهُ عُذْرٌ !

قَالَ الْأَسْتَاذُ (ح) : إِنَّهُ يُحِبُّكَ ، وَلَكِنْ أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ حُبُّهُ ؟ هَذَا بَابٌ يَضَعُ عَلَيْهِ دَائِمًا عِدَّةً مِنَ الْأَقْفَالِ .

قَالَتْ : فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَجِدَ الْمَرْأَةَ عِدَّةً مِنَ الْمَفَاتِيحِ . . .

قَالَ : وَلَكِنَّهُ عَاشِقٌ يُبَيِّرُ الْعِشْقُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَكَأَنَّهُ هُوَ وَحَبِيبَتُهُ تَخْتِ أَعْيُنِ النَّاسِ : مَا تَطْمَعُ إِلَّا أَنْ تَرَاهُ ، وَمَا يَطْمَعُ إِلَّا أَنْ يَرَاهَا ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ حُسْنُهَا عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ هَوَاهُ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا .

قَالَتْ : إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ .

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنْ لَيْسَ فِي حُبِّهِ شَيْءٌ نِهَائِيٌّ ، فَلَا هَجْرٌ وَلَا وَصْلٌ ؛ يَنْسَاكَ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَلَكِنَّكَ أَبَدًا بَاقِيَةٌ بِكُلِّ جَمَالِكَ فِي نَفْسِهِ . وَالصَّغَائِرُ الَّتِي تُبْكِي النَّاسَ وَتَتَلَدَّعُ فِي قُلُوبِهِمْ كَالنَّارِ لِيَجْعَلُوهَا كَبِيرَةً فِي هَمِّهِمْ وَيُطْفِئُوهَا وَيَنْتَهَوْا مِنْهَا كَكُلِّ شَهَوَاتِ الْحُبِّ - تُبْكِيهِ هُوَ أَيْضًا وَتَعْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ ، وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ عِنْدَهُ صَغَائِرَ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا صَغَائِرٌ ؛ وَهَذَا هُوَ تَجَبُّرُهُ عَلَى جَبَّارِ الْحُبِّ .

* * *

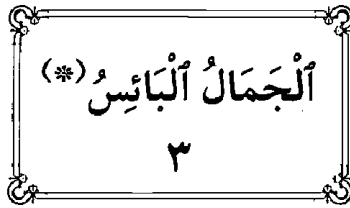
(١) { أَيُّ : لِأَنَّهَا ظَلَّتْ أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا أَغْتَادَتِ الرِّجَالَ } .

قَالَ الرَّاوِي :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرْتُ ، وَعَاتَبْتُ نَفْسُ نَفْسًا فِي أَعْيُنِهِمَا ، وَسَأَلْتُ السَّائِلَةَ وَأَجَابَتْ
الْمُجِيبَةُ ، وَلَكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قَالَ الرَّاوِي :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرْتُ : أَمَا هِيَ ، فَرَنْتُ إِلَيَّ فِي سُكُونٍ ، وَكَانَتْ نَظَرُتُهَا مُعَاتِبَةً طَوِيلَةً
فِيهَا التَّمَلُّقُ وَالتَّوَجُّعُ ، وَفِيهَا الْأَنْكِسَارُ وَالْفُتُورُ ، وَفِيهَا الْأَسْتِرْخَاءُ وَالِدَّلَالُ .

وَبَيْنَمَا كَانَ طَرْفُهَا سَاجِيًا فَاتِرًا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ أَحْلَامَهُ ، إِذْ حَدَدَتْهُ إِلَيَّ فَجَاءَتْ وَنَظَرْتُ نَظْرَةً
مَذْهُوشٍ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا فِرْعَتَيْنِ وَلَكِنْ فِي وَجْهِ مُطْمَئِنٍّ .

ثُمَّ لَمْ تَكُذْ تَفْعَلْ حَتَّى ضَيَّقَتْ أَجْفَانَهَا وَحَدَقَتْ النَّظَرَ مُتَلَابِلًا بِمَعَانِيهِ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهَا
ضَاحِكَتَيْنِ وَلَكِنْ فِي وَجْهِ مُتَأَلِّمٍ .

ثُمَّ ابْتَسَمَتْ بِوَجْهِهَا وَعَيْنَيْهَا مَعًا ، وَأَتَمَّتْ بِذَلِكَ أَجْمَلَ أَسَالِيبِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ
الْمَحْبُوبَةِ فِي اعْتِرَاضِهَا عَلَى مَنْ تُحِبُّهُ ، وَجِدَالِهَا مَعَ فِكْرِهِ ، وَكَسْرِ حُجَّتِهِ فِي كِبَرِيَاؤِهِ ،
وَأَنْتِرَاعِ الْفِكْرَةِ الْمُسْتَقْلَةِ مِنْ نَفْسِهِ .

وَأَمَّا أَنَا ؛ فَكَانَ نَظَرِي إِلَيْهَا سَاكِئًا مُتَأَلِّمًا يُقِرُّ أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا ، وَسَيَبْقَى
عَاجِزًا عَنْ جَوَابِ عَيْنَيْهَا ...

إِنَّ وَجْهَهَا هُوَ الْإِنْسَامُ وَرُوحُ الْإِنْسَامِ ، وَجِسْمُهَا هُوَ الْإِغْرَاءُ وَرُوحُ الْإِغْرَاءِ ، وَفَتْهَا هُوَ الْفِتْنَةُ وَرُوحُ الْفِتْنَةِ ؛ وَهِيَ بِهَذَا كُلُّهُ ، هِيَ الْحُبُّ وَرُوحُ الْحُبِّ ؛ غَيْرَ أَنَّ فَهْمَهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا فِي النَّاسِ يَجْعَلُ ابْتِسَامَهَا عِدَاوَةً مِنْ وَجْهِهَا ، وَإِغْرَاءَهَا جَرِيمَةً لِجِسْمِهَا ، وَفَتْهَا رَذِيلَةٌ فِي جَمَالِهَا ؛ وَهِيَ بِهَذَا كُلُّهُ ، هِيَ الشَّقَاءُ وَرُوحُ الشَّقَاءِ .

* * *

أَمَّا أَنِّي أَحِبُّ فَنَعَمْ وَنَعِمًا ، بَلْ أَرَاهُ حُبًّا فَالِقًا كَبِيدِي ، وَلَيْسَ يَخْلُو فُؤَادِي أَبَدًا مِنْ سَوَالِفِ حُبِّ مَضَى ؛ وَأَمَّا أَنِّي أَسْتَزِدُّ فِي الْحُبِّ وَأَمْتَنُ فَضِيلَتِي وَأَنْزِلُ بِهَا ، فَلَا وَابِدًا .
إِنَّ ذَلِكَ الْحُبُّ هُوَ عِنْدِي عَمَلٌ فَتَى مِنْ أَعْمَالِ النَّفْسِ ، وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ هِيَ النَّفْسُ ذَاتُهَا ؛ وَالْحُبُّ أَيَّامٌ جَمِيلَةٌ عَابِرَةٌ فِي زَمَنِي ؛ أَمَّا الْفَضِيلَةُ فَهِيَ زَمَنِي كُلُّهُ ؛ وَذَلِكَ الْجَمَالُ هُوَ قُوَّةٌ مِنْ جَاذِبَةِ الْأَرْضِ فِي مَدْنِهَا الْقَصِيرَةِ ، وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ جَاذِبَةُ السَّمَاءِ فِي خُلُودِهَا الْأَبَدِيِّ .

عَلَى أَنَّهُ لَا مُتَافَرَةَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْفَضِيلَةِ فِي رَأْيِي ، فَإِنَّ أَقْوَى الْحُبِّ وَأَمْلَأَهُ بِفَلَسَفَةِ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّفْسِ الْفَاضِلَةِ الْمُتَوَرِّعَةِ عَنْ مُقَارَفَةِ الْإِنِّمِ . وَهَلْهَذَا يَتَحَوَّلُ الْحُبُّ إِلَى مَلَكَةِ سَامِيَةٍ فِي إِدْرَاكِ مَعَانِي الْجَمَالِ ، فَيَكُونُ الْوَجْهُ الْمَعْشُوقُ مُصَدَّرَ وَحْيٍ لِلنَّفْسِ الْعَاشِقَةِ ؛ وَبِهَذَا الْوَحْيِ وَالْإِسْتِمْدَادِ مِنْهُ يَنْزِلُ الْمُحِبُّ مِنَ الْمَحْبُوبِ مَنَزَلَةً مَنْ يَرْتَفِعُ بِالْأَدَمِيَّةِ إِلَى أَمَلَايَكِيَّةِ^(١) ، لِيَسْلُقِيَ النَّوْرَ مِنْهَا فَنًا بَعْدَ فَنٍ ، وَالْفَرَحَ مَعْنَى بَعْدَ مَعْنَى ، وَالْحُزْنَ السَّمَائِيَّ فَضِيلَةً بَعْدَ فَضِيلَةٍ .

فَهَذَا الْحُبُّ هُوَ طَرِيقَةُ نَفْسِيَّةٍ لِاتِّسَاعِ بَعْضِ الْمُقُولِ الْمُهَيَّأَةِ لِلْإِلْهَامِ ، كَيْ تُحِيطَ بِأَفْرَاحِ الْحَيَاةِ وَأَحْزَانِهَا ، فَتَبْدَعَ لِلدُّنْيَا صُورَةً مِنْ صُورِ التَّغْيِيرِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تُثِيرُ أَشْوَاقَ النَّفْسِ ؛ كَأَنَّ كُلَّ مُحِبٍّ وَحَسْبِيَّةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلْهَمِينَ ، هُمَا صُورَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ ، فِي حَالَةِ جَدِيدَةٍ مِنْ مَعْنَى تَرْكِ الْجَنَّةِ ، لِإِنْجَادِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ مِنَ الْفَرَحِ الْأَرْضِيِّ وَالْحُزَنِ السَّمَائِيِّ .

(١) نَحْنُ لَا نَنْسُبُ لِلْمَلَأَيْكَةِ إِلَّا عَلَى خِلَافِ الْقَاعِدَةِ الْمُتَقَرَّرَةِ فِي عِلْمِ الصَّرْفِ ، وَنَرَى أَنَّ مُخَالَفَةَ الْقَاعِدَةِ [فِي الْأَصْلِ : « أَنَّ مُخَالَفَتَهُ »] هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ { وَفِي الْأَقَاظِ أُخْرَى } .

وَالْخَطَرُ فِي الْحُبِّ أَلَّا يَكُونَ فِيهِ خَطَرٌ . . . فَهُوَ حَيْثُ نِدَاءُ الْجِنْسِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا دُنْيَا سَاقِطًا مَبْدُولًا ، فَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا وَحْيَ فِيهِ ؛ إِذْ يَكُونُ احْتِيَالًا مِنْ عَمَلِ الْغَرِيزَةِ جَاءَتْ فِيهِ لَا يَسَةُ ثَوْبَهَا الثُّورَانِيَّ مِنْ شَوْقِ الرُّوحِ لِتَخْدَعِ النَّفْسَ الْأُخْرَى فَيَتَّصِلَ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى إِذَا اتَّصَلَ بَيْنَهُمَا خَلَعَتْ الْغَرِيزَةُ هَذَا الثَّوْبَ وَاسْتَعْلَنَتْ أَنَّهَا الْغَرِيزَةُ ، فَانْحَصَرَ الْحُبُّ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَبَطَلَتْ أَشْوَاقُهُ الْخَيَالِيَّةُ أَجْمَعُ .

* * *

قَالَ الرَّائِي :

وَعَرَفَتْ الْحَسَنَاءُ هَذَا كُلُّهُ مِنْ عَرَضِهَا نَظْرَةً وَتَلَقَّيْهَا نَظْرَةً غَيْرَهَا ، فَقَالَتْ لِلْأُسْتَاذِ (ح) : أَمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ أَثَرِ الشُّعْرِ وَالْفِكْرِ فِي الْجَمَالِ وَدَعْوَى الْحُبِّ ، أَثَرُ الزُّهْدِ فِي الْجِسْمِ الْجَمِيلِ وَأَدْعَاءُ الْفُضِيلَةِ - فَإِنَّ بَعِيدًا أَنْ يَجْتَمِعَا .

قَالَ (ح) : وَآيَنَ تَبْعِدْنَاهُ وَيَحْكُ عَنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؟ إِنِّي لَا عَرِفُ مَنْ هُوَ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا !

قَالَتْ : وَمَاذَا بَقِيَ مِنَ أَلْعَجَبٍ فَتَعْرِفُهُ ؟

قَالَ : أَعْرِفُ رَجُلًا مُتَرَوِّجًا ، أَحَبَّ أَشَدَّ الْحُبِّ وَأَمْضُهُ ، حَتَّى اسْتَهَامَ وَتَدَلَّكَ ، فَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَى حَبِيبِهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ فِيهَا زَوْجَتَهُ ، كَيْلًا يَعْتَدِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ حَقِّهَا . وَزَوْجَتُهُ كَانَتْ أَعْرِفَ بَقْلِهِ وَيُحِبُّ هَذَا الْقَلْبَ ، وَهِيَ كَانَتْ أَعْلَمَ أَنَّ حُبَّهُ وَسُلْوَانَهُ إِنَّمَا هُمَا طَرِيقَتَانِ فِي الْأَخْذِ وَالْتِزَاكِ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الْمَعَانِي ، تَارَةً مِنْ سَبِيلِ الْمَرْأَةِ وَجَمَالِهَا ، وَتَارَةً مِنْ سَبِيلِ الطَّبِيعَةِ وَمَحَاسِنِهَا .

فَتَنَهَّدَتْ وَقَالَتْ : يَا عَجَبًا ! وَفِي الدُّنْيَا مِثْلُ هَذَا الزَّوْجِ الطَّاهِرِ ، وَفِي الدُّنْيَا مِثْلُ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْكَرِيمَةِ ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَجَمَتْ هَنِيئَةً تَجْتَمِعُ فِي نَفْسِهَا أَجْمَاعُ السَّحَابَةِ ، ثُمَّ اسْتَدَمَعَتْ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ عَيْنَيْهَا تَبْكِي ؛ فَبَدَرْتُ أَنَا أَرْفُهُ عَنْهَا حَتَّى كَفَفْتُ مِنْ دَمْعِهَا ، وَكَانَ (ح) قَدْ وَخَزَهَا فِي قَلْبِهَا وَخَزَةَ أَلِيمَةً بِذِكْرِهَا لَهَا الزَّوْجَةَ ، ثُمَّ الطَّاهِرَةَ حَتَّى فِي وَسْوَسةِ

شَيْطَانِ الْغَيْرَةِ . اِرْتَفَعَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِالزَّوْجَةِ ، لِتَرَى هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ أَنَّهَا سُلَافَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛ وَكَأَنَّهُ بِهِذَا لَمْ يُكَلِّمَهَا ، بَلْ رَسَمَ لَهَا صُورَتَهَا فِي عَيْشِهَا الْمُخْزِي وَقَالَ لَهَا : اُنْظُرِي

* * *

وَيَا مَا كَانَ أَجْمَلَهَا يَتَرَفَّقُ الدَّمْعُ فِي عَيْنَيْهَا أَلْفَاتَيْنِ الْكَحِيلَتَيْنِ ، فَبَيْتٌ مِنْهُمَا حُزْنًا يَحِلُّ لِمَنْ رَأَاهُ ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا سِيْخِرُنَ الْوُجُودَ كُلَّهُ !

لَيْسَ الْبُكَاءُ مِنْ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ بُكَاءٌ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ إِذَا كَانَ مِنَ الْعَاشِقِينَ ، بَلْ هُوَ فَنُّ الْحُزْنِ يَصْعُقُ جَمَالًا جَدِيدًا فِي فَنِّ الْحُسْنِ . وَآكَادُ أُعْجِبُ كَيْفَ وَجَدَ الدَّمْعُ مَكَانًا بَيْنَ الْمَعَانِي الصَّاحِكَةِ فِي وَجْهِهَا ، لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الدَّمْعُ قَدْ جَاءَ لِيُظْهِرَ عَلَى وَجْهِهَا الْقَرْنَ الْآخَرَ مِنْ جَمَالِ الْمَعَانِي الْبَاكِيةِ .

* * *

وَسَأَلْتُهَا : مَا الَّذِي خَامَرَ قَلْبِكَ مِنْ كَلَامِ الْأُسْتَاذِ (ح) فَأَبْكَاكِ ، وَأَنْتِ كَمَا أَرَى يَتَأَلَّقُ الثُّورُ عَلَى جُذُرَانِ الْمَكَانِ الَّذِي تَحْلِينَ بِهِ ، فَيُظْهِرُ الْمَكَانَ وَكَأَنَّهُ يَضْحَكُ لَكَ ؟ فَتَشْكُكَ لِحْظَةً ثُمَّ قَالَتْ : أَيْلِكَ مَا تَقُولُ أَمْ أَنْتِ تَنْهَكُمُ بَيْنِي ؟
فُلْتُ : كَيْفَ يَخْطُرُ لَكَ هَذَا وَأَنَا أَخْتَرُمُ فِيكَ ثَلَاثَ حَقَائِقَ : الْجَمَالَ ، وَالْحُبَّ ، وَالْأَلَمُ الْإِنْسَانِي ؟

قَالَتْ : لَا تَتَرَبَّبْ عَلَيْكَ ^(١) ، وَلَكِنْ صَوِّرْ لِي بِبِلَاغَتِكَ كَيْفَ أَحْبَبْتُكَ وَأَنْتِ غَيْرُ مُتَحَبِّبٍ إِلَيَّ ، وَكَيْفَ جَادَلْتُ نَفْسِي فِيكَ وَدَاوَرْتُهَا عَنْكَ ، وَكُلَّمَا عَزَمْتُ أَنْحَلَّ عَزْمِي ؟ فَهَذَا مَا لَا آكَادُ أَعْرِفُ كَيْفَ وَقَعَ ، وَلَكِنَّهُ وَقَعَ . هَذِهِ قِطْرَةٌ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي الْعَذْبِ ، فَضَعْ عَلَيْهَا (الْمَكْرُوسُ كُوب) يَا سَيِّدِي ، وَقُلْ لِي مَاذَا تَرَى ؟

فُلْتُ : إِنَّكَ تُخْرِجِنِ مِنَ السُّؤَالِ سُؤَالَ . فَمَا الَّذِي خَامَرَ قَلْبِكَ مِنْ كَلَامِ (ح) فَبَكَيتِ لَهُ ؟

(١) أَيُّ : لَا عَتَبَ عَلَيْكَ .

قَالَتْ : إِذَا فَلَيْسَتْ هِيَ قَطْرَةٌ مِنَ الْمَاءِ ، بَلْ تِلْكَ دَمْعَةٌ مِنْ دُمُوعِي ، فَضَعَّ عَلَيْهَا الْمَكْرُوسُ كُوبَ يَاسِيدِي !

قَالَ الرَّاوِي :

وَكَانَتْ حَزِينَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَسْكُثْ عَنِ الْبُكَاءِ إِلَّا بِوَجْهِهَا ، وَبَقِيَتْ رُوحُهَا تَبْكِي فِي دَاخِلِهَا . فَأَرَادَ الْأُسْتَاذُ (ح) أَنْ يَسْتَدْرِكَ لِعَاطِيَةِ الْأَوَّلَى فَقَالَ : إِنَّكَ أَلَانَ تَسْأَلِينِي حَقًّا مِنْ حُقُوقِكَ عَلَيْهِ ، فَكُلِّ امْرَأَةٌ يُحِبُّهَا هِيَ عَرُوسُ قَلَمِهِ وَلَهَا عَلَى هَذَا الْقَلَمِ حَقُّ التَّفَقَّةِ ...

فَضَحِكَتْ نَوْعًا ظَرِيفًا مِنَ الضَّحِكِ الْفَاتِرِ ، كَأَنَّمَا ابْتَكَّرَهَا ثَغَرُهَا الْجَمِيلُ لِسَاعَةِ حُزْنِهَا ؛ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ نَفَقَةِ الْعَرُوسِ عَلَى الْقَلَمِ فَمَا أَشَبَّهُ هَذَا (بِلَا شَيْءٍ) جُحَا .

فَضَحِكَتْ أَظْفَرَفَ مِنْ قَبْلُ ، وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ ثَغَرَهَا انْطَبَقَ بَعْدَ أَفْتِرَارِهِ عَلَى قُبْلَةٍ أَفْلَتَتْ مِنْهُ فَأَمْسَكَهَا مِنْ آخِرِهَا ...

ثُمَّ قَالَتْ : مَا هُوَ (لَا شَيْءٌ) جُحَا ؟

قُلْتُ : زَعَمُوا أَنَّ جُحَا ذَهَبٌ يَخْطُبُ ، وَحَمَلَ فَوْقَ مَا يُطِيقُ ، فَبَهَظَهُ الْحِمْلُ وَبَلَغَ بِهِ الْمَشَقَّةَ ، ثُمَّ رَأَى فِي طَرِيقِهِ رَجُلًا أَبْلَهَ فَاسْتَعَانَ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : كَمْ تُعْطِينِي إِذَا أَنَا حَمَلْتُ عَنْكَ ؟ قَالَ : أُعْطِيكَ (لَا شَيْءٌ) . قَالَ : رَضِيتُ .

ثُمَّ حَمَلَ الْأَبْلَهُ وَأَنْطَلَقَ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَا الدَّارَ ، فَقَالَ : أُعْطِينِي أَجْرِي . قَالَ جُحَا : لَقَدْ أَخَذْتَهُ . وَآخِثَلَفَا : هَذَا يَقُولُ أُعْطِينِي ، وَهَذَا يَقُولُ أَخَذْتُ ؛ فَلَبَّيْهِ ^(١) الرَّجُلُ وَمَضَى يَرْفَعُهُ إِلَى الْقَاضِي ، وَكَانَ بِالْقَاضِي لُوثَةٌ ، وَعَلَى وَجْهِهِ رَوْءَةُ الْخُمُي ^(٢) تُخْبِرُكَ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الدَّلْعَوِي قَالَ لِجُحَا : أَنْتَ فِي الْحَبْسِ أَوْ تُعْطِيهِ (أَلَّا شَيْءٌ) ...

(١) أَخَذَ بِلَابِيئِهِ .

(٢) اللَّوْثَةُ (بِضْمِ اللَّامِ) : مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ ، وَتَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى الْخُمِي ، وَرَوْءَةُ الْخُمِي : عَلَامَاتُهُ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي عِلْمِ الْفَرَاسَةِ .

قَالَ جُحَا فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أُخْتَجْتُ لِعَقْلِي بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَبْلَهَيْنِ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَهَا مُطْبِقَةً ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ : تَقَدَّمَ وَأَفْتَحْ يَدِي . فَتَقَدَّمَ وَفَتَحَهَا . قَالَ جُحَا : مَاذَا فِيهَا ؟ قَالَ الرَّجُلُ : (لَا شَيْءَ) .

فَقَالَ لَهُ جُحَا : خُذْ (لَا شَيْئَكَ) وَأَمْضِ فَقَدْ بَرِئْتَ ذِمَّتِي .

قَالُوا : فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَخْتَجُّ ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : مَهْ ! أَنْتَ أَقْرَزْتَ أَنَّكَ رَأَيْتَ فِي يَدِهِ (لَا شَيْءَ) ، وَهُوَ أَجْرُكَ ؛ فَخُذْهُ وَلَا تَطْمَعْ فِي أَزِيدَ مِنْ حَقِّكَ ... !

* * *

وَضَحِكْتُ وَضَحِكْنَا ، ثُمَّ قَالَتْ : أَنَا رَاضِيَةٌ أَنْ أَكُونَ عَرُوسَ الْقَلَمِ ، فَلْيَجْرِ عَلَيَّ الْقَلَمُ نَفَقَتِي ، وَلْيَصَوِّرْ لِي كَيْفَ أَحْبَبْتُ ، وَكَيْفَ أَمَرْتُ نَفْسِي وَجَادَلْتُهَا ؟

قُلْتُ : لَا أَتَكَلَّمُ عَنْكَ أَنْتِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ . بَيِّدْ أَعْنِي لَوْ صَنَّفْتُ رِوَايَةً يَكُونُ فِيهَا هَذَا الْمَوْقِفُ ، لَوَضَعْتُ عَلَى لِسَانِ الْعَاشِقَةِ هَذَا الْكَلَامَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهَا .

تَقُولُ : كَيْفَ كُنْتُ وَكَيْفَ صِرْتُ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَعَاشِرُ مِثَّةَ رَجُلٍ فَأَخَالِطُهُمْ فِي شَتَّى أَحْوَالِهِمْ ، وَأَصْرَفُهُمْ فِي هَوَايَ ، وَكُلُّهُمْ يَجْهَدُ جَهْدَهُ فِي اسْتِمَالَتِي ، وَكُلُّهُمْ أَهْلُ مَوَدَّةٍ وَبَذَلٍ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيلٌ مُخْلِصٌ ، قَدْ أَتَى وَتَجَمَّلَ وَرَاعَ حُسْنُهُ ؛ كَأَنَّمَا هَرَبَ إِلَيَّ فِي ثِيَابِ عُرْسِهِ لَيْلَةُ زَفَافِهِ ، وَتَرَكَ مِنْ أَجْلِي عَرُوسًا تَبْكِي وَتَصْنِيحُ بَوَيْلَهَا . ثُمَّ أَنَا مَعَ ذَلِكَ مُغْلَقَةٌ الْقَلْبِ دُونَهُمْ جَمِيعًا : أَصْدُقُهُمُ الْمَوَدَّةَ وَالصُّخْبَةَ ، وَأَكْذِبُهُمُ الْحُبَّ وَالْهَوَى ؛ فَلَسْتُ أَحِبُّهُمْ إِلَّا بِمَا أَنَا مِنْهُمْ ، وَلَسْتُ أَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَنُوَلُّهُمْ مِنِّي ، وَهُمْ بَيْنَ عَقْلِي وَحِيلَتِي رِجَالٌ لَا عَقُولَ لَهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَهْوَائِهِمْ وَحِمَاقَاتِهِمْ أَمْرَأَةٌ لَا ذَاتَ لَهَا .

ثُمَّ أَرَى بَغْتَةً رَجُلًا فَرَدًا فَلَا أَكَادُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيَّ حَتَّى يَضَعَ فِي قَلْبِي مَسْأَلَةً تَخْتَاجُ إِلَى الْحَلِّ ...

وَأَزْنَعُ لِدَلِكِ فَأَحَاوِلُ تَنَاسِيَهُ وَالْإِغْصَاءَ عَنْهُ ، فَتَلِجُ الْمَسْأَلَةُ فِي طَلَبِ حَلِّهَا ، وَتَشْغَلُ خَاطِرِي ، وَتَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِي ؛ وَهُوَ هُوَ الْمَسْأَلَةُ ...

فَافْتَرَعُ لِدَلِكِ وَأَهْتَمُّ لَهُ ، وَأَجْهَدُ جَهْدِي أَنْ أَكُونَ مَرَّةً حَازِمَةً بِصِيرَةٍ : كَرِجَالِ الْمَالِ فِي

حَقَّ النَّزْوَةُ عَلَيْهِمْ ؛ وَمَرَّةً قَاسِيَةً عِنْدَهُ ، كَرَجَالِ الْحَرْبِ فِي وَاجِبِهَا عِنْدَهُمْ ؛ وَمَرَّةً خَبِيثَةً مُنْكَرَةً ، كَرَجَالِ السِّيَاسَةِ فِي عَمَلِهَا بِهِمْ ؛ وَلَكِنِّي أَرَى الْمَسْأَلَةَ تَلِينُ لِي وَتَتَشَكَّلُ مَعِيَ وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الْوُجُوهَ كُلَّهَا ، لِتَبْقَى حَيْثُ هِيَ فِي قَلْبِي ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ . . .

وَأَغْتَمُّ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ، وَأَرَانِي سَاسِقُطٌ بَعْدَ سُقُوطِي الْأَوَّلِ وَأَفْتَحُ مِنْهُ ؛ إِذِ الْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَائِمَةٌ بِالْخِدَاعِ ، وَهَذَا يُفْسِدُهُ الْإِخْلَاصُ ؛ وَبِالْمَكْرِ ، وَهَذَا يُعْطِلُهُ الْوَفَاءُ ؛ وَبِالْتَّسْيَانِ ، وَهَذَا يُبْطِلُهُ الْحُبُّ ؛ وَإِذْ عَوَاطِفُنَا كُلُّهَا مُتَجَرِّدَةٌ لِعَرَضٍ وَاحِدٍ ، هُوَ كَسْبُ الْمَالِ وَجَمْعُهُ وَأَدْحَارُهُ ؛ وَفَضِيلَتُنَا عَمَلِيَّةٌ لَا تَتَحَيَّلُ ، حِسَابِيَّةٌ لَا تَتَحَلَّى ؛ فَيَسْتَوِي عِنْدَنَا الرَّجُلُ بَلَّغَ جَمَالِهِ الْقَمَرُ فِي سَمَائِهِ ، وَالرَّجُلُ بَلَغَتْ دِمَامَتُهُ الدُّبَابُ فِي أَقْدَارِهِ ؛ وَالْحُبُّ مَعَنَا هُوَ : كَمْ فِي كَمْ وَيَبْقَى مَاذَا . . . أَوْ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ السِّيَاسَةِ : « الْكُفَّةُ الْعَمَلِيَّةُ فِي الْمَسْأَلَةِ » . وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي فِي قَلْبِي لَا تَرَى هَذَا حَلًّا لَهَا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ . . .

فَيَرِيدُ بَيْنَ الْكَرْبِ ، وَيَسْتَنْدُ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَاحْتَالَ لِقَلْبِي وَأُدْبِرَ فِي خَنْفِهِ ، وَأَذْهَبَ أَفْعُهُ أَنْ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَرِيفًا لَمْ يُحِبَّ الْمَرْأَةَ السَّافِطَةَ ، إِذْ يُعَابُ بِصُحْبَتِهَا وَالاختِلَافِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ سَاقِطًا لَمْ تُحِبَّهُ هِيَ ، فَإِنَّمَا هُوَ صَيْدُهَا وَفَرِيَسَتُهَا ، وَمَوْضِعُ نَفْمَتِهَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ؛ وَأُسْرِفُ عَلَى قَلْبِي فِي الْمَلَامَةِ وَالْتَّعْذِيلِ فَأَقُولُ لَهُ : وَنَحَكَ يَا قَلْبِي ! إِنَّ الْمَرْأَةَ مِثْلًا إِذَا تَفَتَّحَ قَلْبُهَا لِحَبِيبٍ ، تَفَتَّحَ كَالْجُرْحِ لِتَنْزِفِ دِمَاءَهُ لَا غَيْرَ . فَيَفْتَتِحُ الْقَلْبُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَنْ يَنْسَى ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْ طَلِبِهِ الْحُبِّ ؛ وَأَرَى الْمَسْأَلَةَ قَدْ بَطَلَتْ وَكَانَ بَطْلَانُهَا أَحْسَنَ حَلٍّ لَهَا ، وَأَنَا وَمِثْلِي وَادِعَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ ، فَيَأْتِي هُوَ فِي نَوْمِي وَيَدْخُلُ فِي قَلْبِي ، وَيُعِينُ الْمَسْأَلَةَ إِلَى وَضْعِهَا الْأَوَّلِ ، فَمَا اسْتَقِطُ إِلَّا رَأَيْتُهُ هُوَ الْمَسْأَلَةُ . . .

فَأَتَانِي فِي الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذَا الْحُبِّ ، وَارَاهُ سِجْنَهَا وَعِقَابَهَا ، وَقَهَرَهَا وَإِذْلَالَهَا ، فَأَقُولُ لَهَا : وَبَلِّغْ يَا نَفْسِي ! إِنَّمَا هُمُكَ فِي الْحَيَاةِ وَسَائِلُ الْقَوْرِ وَالْغَلْبِ ، فَأَنْتِ بِهِذَا عَدُوَّةٌ مُسَمَّاءُ فِي غَفْلَةِ الرِّجَالِ صَدِيقَةٌ ، وَقَدْ وَضَعْتَ فِي مَوْضِعِ تَعِيشِينَ فِيهِ بِأَهَانَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ ، يُسَمُّونَهَا فِي نَذَالَتِهِمْ بِالْحُبِّ ؛ فَأَنْتِ عَدُوَّةُ الرِّجَالِ بِمَعْنَى مِنَ الدَّهَاءِ وَالْخُبْنِ ، وَعَدُوَّةُ الزَّوْجَاتِ بِمَعْنَى مِنَ الْحَقْدِ وَالضَّغِينَةِ ، وَعَدُوَّةُ الْبَغَايَا أَيْضًا بِمَعْنَى مِنَ الْمُغَالِيَةِ وَالْمُنَافَسَةِ ، وَكُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَاءُ أَنْ يَعْمَلَهُ فَهُوَ الَّذِي عَلَيَّ أَنَا أَنْ أَعْمَلَهُ ، فَمَاذَا

أَصْنَعُ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَكَيْفَ أَنْجَحُ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَلَكِنَّ النَّفْسَ تُجِيبُنِي عَلَى كُلِّ هَذَا بِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مَا دَامَ هُوَ هُوَ الْمَسْأَلَةُ . . .

* * *

قَالَ الرَّاوي :

وَكَانَتْ كَالذَّاهِلَةِ مِمَّا سَمِعَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ : أَلَيْكَ شَيْطَانٌ فِي قَلْبِي ؟ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الَّذِي حَدَّثَ فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ .

قَالَ (ح) : وَلَكِنْ كَيْفَ يَقَعُ هَذَا الْحُبُّ ؟ وَهَبَكَ صَفَتْ تِلْكَ الرِّوَايَةَ ، وَوَضَعَتْ عَلَى لِسَانِ الْعَاشِقَةِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فِيمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا فِي وَصْفِ حُبِّهَا وَمَا اجْتَذَبَهَا مِنْ رَجُلٍ فَارَ بِقَلْبِهَا وَلَمْ يُدَاوِرْهَا ، بَعْدَ مِثَّةِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ دَاوَرَهَا وَلَمْ يَفُزْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؟ أَنْتَ كُنْ فِي وَجْهِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْوَارَ كِتَابِشِيرِ الصُّبْحِ تَدُلُّ عَلَى الْفَهَارِ الْكَامِنِ فِيهِ ؟

قَالَتْ هِيَ : نَعَمْ نَعَمْ . بِمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا ؟

قُلْتُ : كُنْتُ أَضَعُ فِي لِسَانِهَا هَذَا الْكَلَامَ تُجِيبُ بِهِ عَادِلَةً تَعْدِلُهَا :

تَقُولُ : لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْبَبْتُهُ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ الْبَارِزَةُ مِنْهُ جَذَبَتْني إِلَيْهِ ، وَجَعَلَتْ أَلْهَوَاءَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُفْعَمًا بِالْمِغْنَاتِيسِ^(١) مُصْدَرُهُ هُوَ ، وَمَعْنَاهُ هُوَ ، وَلَا شَيْءَ فِيهِ إِلَّا هُوَ .

عَرَضْتُهُ لِي شَخْصِيَّتُهُ ظَاهِرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِهِ فِيَّ ، وَأَصْبَحَ فِي عَيْنِي كَبِيرًا لِأَنَّ جَوَابَ شَخْصِيَّتِي فِيهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ صَارَتْ أَفْكَارِي نَفْسَهَا تَرِيدُهُ كُلَّ يَوْمٍ ظُهُورًا ، وَتَرِيدُنِي كُلَّ يَوْمٍ بَصَرًا ، وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ فِي الْكَمَالِ عِنْدِي حَقَّهُ فِي الْحُبِّ مِنِّي ، وَبِتِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي جَوَابُهَا فِي نَفْسِي ، أَصْبَحَ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ نَفْسِي .

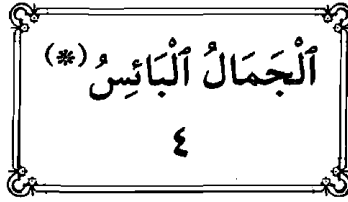
* * *

قَالَ الرَّاوي :

وَلَمَّا رَأَيْتَهَا فِي جَوْيِ نَسِيمِهِ وَعَاصِفَتِهِ ، أَرَدْتُهَا عَلَى قِصَّتِهَا وَشَأْنِهَا ، فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا
وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قُلْتُ لَهَا : إِنَّ قَلْبِي وَقَلْبَكَ يَتَجَالِيَانِ^(١) فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَيَتَبَاكِيانِ ؛ أَتَذَرِينِ مَاذَا يَقُولُ
لِكَ قَلْبِي ؟

إِنَّهُ يَقُولُ عَنِّي : أَعَزَّ عَلَيَّ بِأَنْ تَكُونِي هَلُمًّا ، وَأَنْ تَتَأَلَّفَ مِنْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي تَبْدَأُ
بِالْوُضْمَةِ وَتَنْتَهِي بِالِاسْتِخْدَاءِ ، فَتَنْطَلِقَ الْمَرْأَةُ فِي مَتَالِفِهَا وَمَهَاوِينِهَا لِتَبْلُغَ بِهَا الْقَدَرُ مَا هُوَ
بَالِغٌ ؛ وَلَيْسَ إِلَّا الضَّرُورَةُ وَسَطَوُتُهَا بِهَا ، وَالْإِذْلَالُ وَمَهَانَتُهُ لَهَا ، وَالْاجْتِمَاعُ وَتَهَكُّمُهُ
عَلَيْهَا ، وَالْإِنْتِدَالُ وَاسْتِعْبَادُهُ إِثَامًا ؛ وَمَهْمَا يَأْتِ فِي الْقِصَّةِ مِنْ مَعْنَى فَلَيْسَ فِيهَا مَعْنَى
الشَّرَفِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَوْقِفٍ فَلَيْسَ فِيهَا مَوْقِفُ الْحَيَاءِ ؛ وَمَهْمَا يَجْرُ مِنْ كَلَامٍ فَلَيْسَ فِيهَا
كَلِمَةُ الزَّوْجَةِ . وَأَعَزَّ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَى الْمِصْبَاحَ الْجَمِيلَ الْمَشْبُوبَ الَّذِي وُضِعَ لِضِيَاءِ
مَا حَوْلَهُ ، قَدْ انْقَلَبَ فَجَعَلَ يُخْرِقُ مَا حَوْلَهُ ؛ وَكَانَ يَتَلَأَلُّ وَيَتَوَقَّدُ ، فَارْتَدَّتْ يَتَسَعَّرُ وَيَتَضَرَّمُ
وَيَجْنِي عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَسَقَطَ بِذَلِكَ سَقَطَةً حَمْرَاءَ ...

أَفَتَذَرِينِ مَاذَا يَقُولُ لِي قَلْبُكَ ؟

إِنَّهُ يَقُولُ عَنْكَ : يَا بُؤْسَنَا مِنْ نِسَاءٍ ! لَقَدْ وَضِعْنَا وَضْعًا مَقْلُوبًا ، فَلَا تَسْتَقِيمُ الْإِنْسَانِيَّةُ
مَعَنَا أَبَدًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُنْقَلَبٌ لَنَا مُتَنَكِّرٌ ؛ وَالشَّفَقَةُ عَلَيْنَا تَنْقَلِبُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا تَهَكُّمًا بِنَا ؛

(*) «الرسالة» العدد : ١١٩ ، ١٦ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٦ .

(١) أَي : يَتَكَاشَفَانِ ، وَيَجْلُو كِلَاهُمَا لِلآخِرِ وَيُوضَحُ .

فَتَبْكِي مِنْ شَفَقَةِ بَعْضِ النَّاسِ ، كَمَا نَبْكِي مِنْ أَرْذَاءِ بَعْضِ النَّاسِ . يَا بُؤْسًا مِنْ نِسَاءِ !

* * *

قَالَتْ : صَدَقْتُ ، وَكَذَلِكَ تَتَقَلَّبُ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ مَعَنَا أَسْبَابًا لِلْمَرَضِ وَالْمَوْتِ ؛ فَالْيَقَظَةُ لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا النَّهَارُ بَلِ اللَّيْلُ ، وَالصَّخْوُ لَا يَكُونُ فِينَا بِالْوَعْيِ بَلِ بِالسُّكْرِ ، وَالرَّاحَةُ لَا تَكُونُ لَنَا فِي السُّكُونِ وَالْإِنْفِرَادِ ، بَلِ فِي الْأَجْتِمَاعِ وَالتَّبَدُّلِ ؛ وَمَاذَا يُرِيدُ الْعَيْشُ عَلَى أَمْرَأَةٍ مِنْ وَاجِبَاتِهَا السَّهْرُ ، وَالسُّكْرُ^(١) ، وَالْعَزَبَةُ ، وَالتَّبَدُّلُ ، وَتَذَرِيبُ الطَّبَاعِ بِالْوَفَاحَةِ ، وَتَضْرِيَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَسْتِغْوَاءِ ، وَالتَّصَدِّي بِالْجَمَالِ لِلْكَسْبِ مِنْ رَذَائِلِ الْفُسَاقِ وَأَمْرَاضِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضُ لِمَعْرُوفِهِمْ بِأَسَالِيبِ آخِرِهَا أَلْهَوَانُ وَالْمَذَلَّةُ ، وَاسْتِمَاحَتُهُمْ بِأَسَالِيبِ أَوْلَئِهَا الْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ ؟

إِنَّ حَيَاةَ هَذِهِ هِيَ وَاجِبَاتُهَا ، لَا يَكُونُ الْبُكَاءُ وَالْهَمُّ إِلَّا مِنْ طَبِيعَةٍ مَنْ يَحْيَاهَا ، وَكَثِيرًا مَا نُعَالِجُ الضَّحِكَ لِنَفْتَحَ لَأَنْفُسِنَا طُرُقًا تَهَارَبُ فِيهَا مَعَانِي الْبُكَاءِ ؛ فَإِذَا أَثَقَلْنَا أَلْهَمُ وَجَلَ عَنِ الضَّحِكِ وَعَجَزْنَا عَنْ تَكَلُّفِ السُّرُورِ ، خَتَلْنَا الْعَقْلَ نَفْسَهُ بِالْخَمْرِ ؛ فَمَا تَسْكُرُ الْمَرْأَةُ مِنَّا لِلسُّكْرِ أَوْ الشُّوْبَةِ ، بَلِ لِلنِّسْيَانِ ، وَلِلْقُدْرَةِ عَلَى الْمَرَحِ وَالضَّحِكِ ، وَلِإِمْدَادِ مَحَاسِنِهَا بِالْأَخْلَاقِ الْفَاجِرَةِ ، مِنَ الطَّيِّسِ وَالْخَلَاعَةِ وَالسَّفَهَةِ وَمَذْيَانِ الْجَمَالِ الَّذِي هُوَ شِعْرُهُ الْبَلْبِغُ . . . عِنْدَ بُلْغَاءِ الْفُسَاقِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : أَهَذَا وَحَاضِرُ الْغَادَةِ مِنْكُمْ هُوَ الشَّبَابُ وَالصَّبِيُّ وَالْجَمَالُ وَإِقْبَالُ الْعَيْشِ ، فَكَيْفَ بِهَا فِيمَا تَسْتَقْبِلُ ؟

قَالَتْ : إِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ هُوَ أَخَوْفُ مَا نَخَافُهُ عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرَأَةٍ فِي هَذِهِ الْأَصْنَاعَةِ إِلَّا وَهِيَ مُعَدَّةٌ لِمُسْتَقْبَلِهَا : إِمَّا نَوْعًا مِنَ الْإِنْتِحَارِ ، وَإِمَّا ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْأَخْتِمَالِ لِلذَّلِّ وَالْخَسْفِ ؛ وَلَيْسَ مُسْتَقْبَلُنَا هَذَا إِلَّا كَمُسْتَقْبَلِ الثَّمَارِ النَّصْرَةِ إِذَا بَقِيَتْ بَعْدَ أَوَانِهَا ، فَهُوَ الْأَيَّامُ الْعَقِيَّةُ بِطَبِيعَةٍ مَا مَضَى . . . بَلَى إِنَّ مُسْتَقْبَلَ الْمَرْأَةِ الْبَغِيَّ هُوَ عِقَابُ الشَّرِّ .

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : «السُّكْرَةُ» بَدَلًا مِنْ : «السُّكْرُ» .

قَالَ (ح) : هَذَا كَلَامٌ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَهُ الزَّوْجَاتُ ؛ فَالْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَدْ تَبَرَّحَ بِرُوحِهَا وَتَضَجَّرُ وَتَغْتَمُ ، وَتَزْعُمُ أَنَّهَا مُعَذَّبَةٌ ؛ فَتَسْحَطُ الْحَيَاةُ ، وَتَتَذُبُّ نَفْسَهَا ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ عَذَابٌ وَاحِدٌ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، تَأْلُفُهُ ، فَتَعْتَادُهُ ، فَتَزُقُّ مِنْ أَعْيَادِهِ الصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَيَسْكُنُ بِهَذَا نِفَارُهَا ؛ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ وَاجِبُهَا أَنْ تَحْمَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا ، مَا دَامَ فِي النِّسَاءِ مِثْلُ الشَّهِيدَاتِ ، تَعْتَذِبُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ فَنُوتُنَا مِنَ الْعَذَابِ بِمِثْلِ رَجُلٍ ، وَبِأَلْفِ رَجُلٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَبَلَّوْنَ رُوحَهَا بِعَدَدِهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ .

وَقَدْ نَسْتَقِيلُ الزَّوْجَةَ وَاجِبَاتِهَا بَيْنَ الزَّوْجِ وَالنِّسْلِ وَالْدَّارِ ، فَتَعْتَاطُ وَتَشْكُو مِنْ هَذِهِ الرَّجْرَجَةِ الْيَوْمِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً غَيْرَهَا قَدْ انْقَلَبَتْ بِهِنَّ الْحَيَاةُ فِي مِثْلِ الْخَسْفِ بِالْأَرْضِ .

وَقَدْ تَجَرَّعَ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَتَنَسَّى أَنَّهَا فِي أَمَانٍ شَرَفِهَا ، ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً يَتَرَقَّبْنَ هَذَا الْآتِي كَمَا يَتَرَقَّبُ الْمُجْرِمُ عَذَابَ الْجَرِيمَةِ ، مِنْ يَوْمٍ فِيهِ الشُّرْطَةُ وَالنِّيَابَةُ وَالْمَحْكَمَةُ وَمَا وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ .

فَقُلْتُ : وَهُنَاكَ حَقِيقَةُ أُخْرَى فِيهَا الْعَزَاءُ كُلُّ الْعَزَاءِ لِلزَّوْجَاتِ ، وَهِيَ أَنَّ الزَّوْجَةَ أَمْرًا شَاعِرَةً بِوُجُودِ ذَاتِهَا ، وَالْأُخْرَى لَا تَشْعُرُ إِلَّا بِضِيَاعِ ذَاتِهَا .

وَالزَّوْجَةُ أَمْرَةٌ تَجِدُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَتَوَرَّعُ حُبُّهَا وَحَتَّى قَلْبُهَا ، فَلَا يَرَاوُ قَلْبُهَا إِنْسَانِيًّا عَلَى طَبِيعَتِهِ ، يَفِيضُ بِالْحُبِّ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنَ الْحُبِّ ؛ وَالْأُخْرَى لَا تَجِدُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ، فَتَنْقَلِبُ وَخَشْيَةَ الْقَلْبِ ، يَفِيضُ قَلْبُهَا بِرِذَائِلَ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ رِذَائِلَ ؛ إِذْ كَانَ لَا يَجِدُ شَيْئًا مِمَّا هِيَ أَتَى الطَّبِيعَةُ لِيَسْعَلَكَ بِهِ مِنَ الزَّوْجِ وَالْدَّارِ وَالنِّسْلِ .

وَالزَّوْجَةُ أَمْرَةٌ هِيَ أَمْرَةٌ خَالِصَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، أَمَّا الْأُخْرَى فَمِنْ أَمْرَةٍ وَمِنْ حَيَوَانٍ وَمِنْ مَادَّةٍ مُهْلِكَةٍ .

وَتَمَامُ السَّعَادَةِ أَنَّ النِّسْلَ لَا يَكُونُ طَبِيعِيًّا مُسْتَقَرًّا فِي قَانُونِهِ إِلَّا لِلزَّوْجَاتِ وَحَدَهُنَّ ؛ فَهُوَ نِعْمَتُهُنَّ الْكُبْرَى ، وَنَوَابُ مُسْتَقْبَلِهِنَّ وَمَاضِيِهِنَّ ، وَبَرَكَتُهُنَّ عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَمَهْمَا تَكُنِ الزَّوْجَةُ سَقِيَّةَ بِرُوحِهَا ، فَإِنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَوْلَدَهَا سَعَادَتَهَا ، وَهَلِذِهِ وَحْدَهَا مَرْيَّةٌ وَنِعْمَةٌ ؛ أَمَّا

أُولَئِكَ فَلَيْسَ لَهُنَّ عَاقِبَةٌ^(١) ؛ إِذِ السَّئُلُ قَلْبٌ لِحَالَتهنَّ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ غَتَّى إِنْسَانِي ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَهُنَّ لَا يَكُونُ إِلَّا فَقْرًا ؛ وَهُوَ رَحْمَةٌ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لَعْنَةً عَلَيْهِنَّ وَعَلَى مَاضِيهِنَّ . وَقَدْ وَضَعَتِ الطَّبِيعَةُ فِي مَوْضِعِ حُبِّ الْوَلَدِ الْجَدِيدِ مِنْ قُلُوبِهِنَّ ، حُبَّ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ ، فَكَانَتْ هَذِهِ نِقْمَةً أُخْرَى .

قَالَ (ح) : أَتُرِيدُ مِنَ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ مَنْ يَكُونُ عِنْدَهُنَّ الثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ ، أَوِ الثَّلَاثَ بَعْدَ الثَّانِي ، أَوِ الرَّابِعَ بَعْدَ الثَّلَاثِ ؟

قُلْتُ : لَيْسَ الْجَدِيدُ عَلَيْهِنَّ هُوَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَكُونُ وَحْدَهُ بِالْعَدَدِ جَمِيعًا ؛ إِذْ هُوَ عِنْدَهُنَّ يُشْبِهُ الزَّوْجَ فِي الْاِخْتِصَاصِ وَفِي شَرَفِ الْحُبِّ ، فَهُوَ الْحَبِيبُ الشَّرِيفُ الَّذِي تَتَعَلَّقُهُ إِحْدَاهُنَّ وَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ شَرِيفَةً ؛ وَلَكِنْ مِنْ نِقْمَةِ الطَّبِيعَةِ أَنَّ مَنْ وَجَدَتْهُ مِنْهُنَّ لَا تَجِدُهُ إِلَّا لِتُعَانِي أَلَمَ فَقْدِهِ .

يَا عَجَبًا ! كُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ يُلْقِي شَيْئًا مِنْ أَلَمٍ أَوْ التَّكْدِيرِ أَوْ الْبُؤْسِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْكِينَاتِ ، كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ كُلُّهَا تَرْجُمُهُنَّ بِالْحِجَارَةِ ...

قَالَتْ هِيَ : وَلَيْسَتْ الْحِجَارَةُ هِيَ الْحِجَارَةُ فَقَطْ ، بَلْ مِنْهَا أَلْفَاظُ تُرْجَمُ بِهَا الْمُسْكِينَةُ كَأَلْفَاظِكَ هَذِهِ ... وَكَتَسْمِيَةِ النَّاسِ لَهَا « بِالسَّاقِطَةِ » ؛ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَحْدَهَا صَخْرَةٌ لَا حَجَرَ .

* * *

نُمُ تَنْهَدَتْ وَقَالَتْ : مَنْ عَسَى يَعْرِفُ خَطَرَ الْأُسْرَةِ وَالنَّسْلِ وَالْفَضِيلَةِ كَمَا تَعْرِفُهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي فَقَدَتْهَا ؟ إِنَّا نَحْسِبُهَا بِطَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ ، نُمُ بِالْحَيْنِ إِلَيْهَا ، نُمُ بِالْحَسْرَةِ عَلَى فَقْدِهَا ، نُمُ بِرُؤْيَيْهَا فِي غَيْرِنَا ؛ نَعْرِفُهَا أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِذَا عَرَفْتَهَا الزَّوْجَةَ نَوْعًا وَاحِدًا وَلَكِنْ هَلْ يُنْصِفُنَا الرِّجَالُ وَهُمْ يَتَدَاغَعُونَنَا ؟ هَلْ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنَّا ؟

قُلْتُ : وَلَكِنَّ الْأُسْرَةَ لَا تَقُومُ عَلَى سَوَادِ عَيْنِي الْمَرْأَةِ وَحُمْرَةِ خَدَّيْهَا ، بَلْ عَلَى أَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا ؛ فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي بَقَاءِ الْمَرْأَةِ { السَّاقِطَةِ } حَيْثُ ارْتَضَمَتْ ؛ وَهِيَ

(١) يُقَالُ : لَيْسَ لَهُ عَاقِبَةٌ ، أَيِ : لَيْسَ لَهُ نَسْلٌ وَعَقِبٌ .

مَتَى سَقَطَتْ كَانَ أَوَّلُ أَغْدَائِهَا قَانُونُ النَّسْلِ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الزَّوْلَةُ الْأُولَى مُنْتَدَّةً مُتَسَحِّبَةً إِلَى الْآخِرِ ؛ إِذِ الْفَتَاةُ لَيْسَتْ شَخْصًا إِلَّا فِي اعْتِبَارِهَا هِيَ ، أَمَّا فِي اعْتِبَارٍ غَيْرِهَا فَهِيَ تَارِيخٌ لِلنَّسْلِ ، إِنْ وَقَعَتْ فِيهِ غَلْطَةٌ فَسَدَ كُلُّهُ وَكَذَبَ كُلُّهُ فَلَا يُوثِقُ بِهِ .

وَهَذِهِ الزَّوْلَةُ الْأُولَى هِيَ بَدْءُ الْإِنْهِيَارِ فِي طِبَاعِ رَقِيقَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ مُتَسَانِدَةٍ ، لَا يُقِيمُهَا إِلَّا تَمَاسُكُهَا جُمْلَةً ؛ وَمَا لَمْ يَتَمَاسَكْ إِلَّا بِجُمْلَتِهِ فَأَوَّلُ السَّقُوطِ فِيهِ هُوَ اسْتِمْرَارُ السَّقُوطِ فِيهِ ؛ وَلِهَذَا لَا يَعْرِفُ النَّاسُ جَرِيْمَةً وَاحِدَةً تُعَدُّ سِلْسِلَةً جَرَائِمَ لَا تَنْتَهِي ، إِلَّا سَقَطَتِ الْمَرْأَةُ ؛ فَهِيَ جَرِيْمَةٌ مَجْنُونَةٌ كَالْإِعْصَارِ النَّاثِرِ يَلْفُهَا ^(١) لَفًا ؛ إِذْ تَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةُ فِي ذَاتِهَا ، وَتَرْجِعُ عَلَى أَهْلِهَا وَذَوْنِهَا ، وَتَرْتَمِي إِلَى مُسْتَقْبَلِهَا وَتَسْلِيهَا ؛ فَيَهْتِكُهَا النَّاسُ هِيَ وَسَائِرُ أَهْلِهَا ، مَنْ جَاءَتْ مِنْهُمْ وَمَنْ جَاوَزَا مِنْهَا .

وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَا يَخِمِيهَا الشَّرْفُ لَا يَخِمِيهَا شَيْءٌ ، وَكُلُّ شَرِيفَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا حَيَاتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الْعِقَّةُ ، وَكَمَا تُدَافِعُ عَنْ حَيَاتِهَا الْهَلَاكُ ، تُدَافِعُ السَّقُوطَ عَنْ عِفَّتِهَا ؛ إِذْ هُوَ هَلَاكُ حَقِيقَتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ وَكُلُّ عَاقِلَةٍ تَعْرِفُ أَنَّ لَهَا عَقْلَيْنِ تَحْتِمِي بِأَحَدِهِمَا مِنْ نَزَوَاتِ الْآخِرِ ، وَمَا عَقْلُهَا الثَّانِي إِلَّا شَرَفُ عَرِضِهَا .

* * *

قَالَ الْأَسْتَاذُ (ح) : إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، فَمَا تَسَامَحَ الرَّجَالُ فِي شَرَفِ الْعَرِضِ إِلَّا جَعَلُوا الْمَرْأَةَ كَأَنَّهَا بِنَصْفِ عَقْلٍ ، فَانْدَفَعَتْ إِلَى الطُّيُسِ وَالْفُجُورِ وَالْخَلَاعَةِ ، أَرَادُوا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُرِيدُوهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْحَدِيثِ : « عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ » [الجامع الصغير ، رقم : ٥٤٤٢ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ١٣٠٦٣] . فَإِنَّ عِفَّافَ الْمَرْأَةِ لَا تَحْفَظُهُ الْمَرْأَةُ بِنَفْسِهَا ، مَا لَمْ تَنْتَهِيَ لَهَا الْوَسَائِلُ وَالْأَحْوَالُ الَّتِي تُعِينُ نَفْسَهَا عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَهْمُ وَسَائِلِهَا وَأَقْوَاهَا وَأَعْظَمُهَا ، تَشَدُّدُ الرَّجَالِ فِي قَانُونِ الْعَرِضِ وَالشَّرَفِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَلْفُ » بَدَلًا مِنْ : « يَلْفُهَا » .

فَإِذَا تَرَاحَى الرَّجَالُ ضَعُفَتِ أَلُوسَائِلُ ، وَمِنْ بَيْنِ هَذَا التَّرَاحِي وَهَذَا الضَّعْفِ تَبَيَّنَتْ
حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ مُتَوَجِّهَةً بِالْمَرْأَةِ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ ، عَلَى مَا تَكُونُ أَحْوَالُهَا وَأَسْبَابُهَا فِي
الْحَيَاةِ . وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ فِي الْمَدِينَةِ الْأُورُشَلِيمَةِ قَدْ عَوَّدَتِ الرَّجَالَ أَنْ يَغْضُوا وَيَتَسَمَّحُوا ،
فَتَهَافَتِ النِّسَاءُ عِنْدَهُمْ ، تَنَالُ كُلُّ مِنْهُنَّ حُكْمَ قَلْبِهَا وَيَخْضَعُ الرَّجُلُ

عَلَى أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ الْقَوْمُ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ ، لَيْسَ حُرِّيَّةً إِلَّا فِي التَّسْمِيَةِ ، أَمَّا فِي
الْمَعْنَى فَهُوَ كَمَا تَرَى :

إِمَّا شُرُودُ الْمَرْأَةِ فِي التِّمَاسِ الرِّزْقِ حِينَ لَمْ تَجِدِ الزَّوْجَ الَّذِي يَعُولُهَا أَوْ يَكْفِيهَا وَيُقِيمُ
لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةً التَّكْدِ فِي عَيْشِهَا ؛ وَلَيْسَ بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، بَلْ هِيَ
مُسْتَعْبِدَةٌ لِلْعَمَلِ شَرًّا مَا تُسْتَعْبَدُ امْرَأَةٌ .

وَإِمَّا أَنْطِلَاقُ الْمَرْأَةِ فِي عِبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا مُسْتَجِيبَةً ، بِذَلِكَ إِلَى أَنْطِلَاقِ حُرِّيَّةِ الْأَسْتِمْتَاعِ
فِي الرِّجَالِ ، بِمَقْدَارِ مَا يَشْتَرِيهِ الْمَالُ ، أَوْ تُعِينُ عَلَيْهِ الْقُوَّةُ ، أَوْ يُسَوِّغُهُ الطِّينُ ، أَوْ يَجْلِبِيهِ
الْتِهَانُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْفُنُونُ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ حُرِّيَّةً سُقُوطِهَا ؛ وَمَا بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، بَلْ
يَسْتَعْبِدُهَا التَّمَتُّعُ .

وَالثَّالِثَةُ حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ فِي أَنْسِلَاحِهَا مِنَ الدِّينِ وَفَضَائِلِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ قَدْ نَسَخَتْ
حَرَامَ الْأَذْيَانِ وَحَلَالَهَا بِحَرَامِ قَانُونِيٍّ وَحَلَالِ قَانُونِيٍّ ، فَلَا مَسْقَطَةَ لِلْمَرْأَةِ وَلَا غَضَاضَةَ عَلَيْهَا
قَانُونًا فَيَمَّا كَانَ يُعَدُّ مِنْ قَبْلِ خِرْيَا أَقْبَحَ الْخِرْيِ وَعَارًا أَشَدَّ الْعَارِ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ هِيَ حُرَّةٌ
حُرِّيَّةً فَسَادِهَا ، وَلَيْسَ بِهَا الْحُرِّيَّةُ ، وَلَكِنْ تَسْتَعْبِدُهَا الْفَوَاضِلُ .

وَالرَّابِعَةُ غَطْرَسَةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ ، وَكِبْرِيَاؤُهَا عَلَى الْأُنُوثَةِ وَالذُّكُورَةِ مَعًا ؛ فَتَرَى أَنَّ
الرَّجُلَ لَمْ يَنْلُغْ بَعْدُ أَنْ يَكُونَ الزَّوْجَ النَّاعِمَ كَقَفَّارِ الْحَرِيرِ فِي يَدِهَا ، وَلَا الزَّوْجَ الْمُؤَوَّنْتَ
الَّذِي يَقُولُ لَهَا نَحْنُ امْرَأَتَانِ فَهِيَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مُطْلَقَةٌ مُخَلَّاةٌ كَيْلًا يَكُونُ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ
وَلَا إِمْرَةٌ ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ حُرَّةٌ بِانْقِلَابِ طَبِيعَتِهَا وَزِينَتِهَا ، وَهِيَ مُسْتَعْبِدَةٌ لِهَوَسِهَا وَشُدُودِهَا
وَضَلَالَتِهَا .

حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَوَّلُهَا مَا شِئَتْ مِنْ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءٍ ، وَلَكِنْ آخِرُهَا دَائِمًا

إِمَّا ضَيَاعُ الْمَرْأَةِ وَإِمَّا فَسَادُ الْمَرْأَةِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى التَّوَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَدِينَةِ ، اسْتِوَاءُ الطَّبِيعَةِ فِي الْبَادِيَةِ ؛ فَالرَّجَالُ هُنَاكَ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَالنِّسَاءُ بِهِذَا قَوَامَاتٌ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ ؛ إِذْ يَنْتَقِمُونَ لِلْمُنْكَرِ أَنْتِقَامًا يُفُورُ دَمًا ؛ وَبِهَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ يُقَرَّرُونَ شَرَفَ الْعُرْضِ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُونَهُ فِيهَا كَالْعَرِيزَةِ ، فَيُحَاجِّزُونَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَوَّلَ شَيْءٍ بِالضَّمِيرِ الشَّرِيفِ الَّذِي يَجِدُ وَسَائِلَهُ قَائِمَةً مِنْ حَوْلِهِ .

* * *

قَالَ الرَّاوِي :

وَعَطَّتْ وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا وَقَالَتْ : إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَرْجُمُ بِالْحِجَارَةِ ... إِنْ فِينَا مُتَوَحِّشًا .
قُلْتُ : بَلْ مُتَوَحِّشَةً ...

إِنَّكَ أَنْتِ قَدْ تَكَلَّمْتِ فِيَّ ، فَجَمَالُكَ الَّذِي يَضَعُ الْإِنْسَانَ فِي سَاعَةِ مَجْنُونَةٍ لِيُمَتِّعَهُ بِطَبِيعَتِهَا ، قَدْ وَضَعْنَا نَحْنُ فِي سَاعَةِ مُفَكَّرَةٍ وَأَمْتَعْنَا بِعَقْلِهَا ؛ وَإِذَا قُلْتُ جَمَالُكَ ، فَقَدْ قُلْتُ وَخِيَّكَ ، إِذْ لَا جَمَالَ عِنْدِي إِلَّا مَا فِيهِ وَخِي .

أَمَا قُلْتُ : إِنَّكَ لَوْ خَيْرْتَ فِي وَجُودِكَ لَمَا اخْتَرْتَ إِلَّا أَنْ تَكُونِي رَجُلًا نَابِغَةً يَكْتُبُ وَيُفَكِّرُ وَيَتَلَقَّى الْوَحْيَ مِنَ الْوُجُوهِ الْجَمِيلَةِ ؟

فَدَقَّتْ صَدْرَهَا بِيَدِهَا وَقَالَتْ : أَنَا ؟ أَنَا لَمْ أَقُلْ هَذَا . ثُمَّ أَفَكَّرَتْ لَحْظَةً وَقَالَتْ : إِذَا كُنْتُ أَنْتِ تَرْعُمُ أَتْنِي قُلْتُهُ ، فَأَظُنُّ أَتْنِي قُلْتُهُ ...

قَالَ (ح) : رَجُلٌ ؛ وَيَكْتُبُ ؛ وَيُفَكِّرُ ؛ وَلَمْ تَقُلْ هِيَ شَيْئًا مِنْ هَذَا ؟ أَرُبْعُ غَلَطَاتٍ شَنِيعَةٍ مِنْ فَسَادِ الدُّوقِ .

قَالَتْ : بَلْ قُلْ : أَرُبْعُ غَلَطَاتٍ جَمِيلَةٍ مِنْ قَنِّ الدُّوقِ ؛ إِنَّ الرَّجُلَ الطَّرِيفَ الْقَوِيَّ الرُّجُولَةَ ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغْلُطَ إِذَا حَدَّثَ الْمَرْأَةَ ...

قَالَ (ح) : لِنَضْحَكَ مِنْهُ ؟

قَالَتْ : لَا ، بَلْ لَتَضْحَكْ لَهُ ...

قُلْتُ : فَلْيُي إِلَيْكَ رَجَاءٌ .

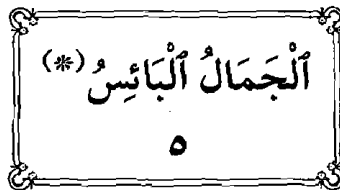
قَالَتْ : إِنَّ صَوْتَكَ يَأْمُرُ ، فَقُلْ .

* * *

فَمَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قُلْتُ لَهَا : إِنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ لَا تَكُونُ كَافِرَةً إِذَا أُخْرِعَ عَلَيْهَا مِنْ أُخْرَةٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَكَلِمَةُ الْفُجُورِ أَهْوَنُ مِنْهَا وَأَخْفُ وَزَنًا وَشَأَنًا ، ثُمَّ لَا تَكُونُ إِلَّا فَاجِرَةً أَبَدًا ، إِذْ لَا إِخْرَاعَ عَلَى هَذِهِ الدَّعَارَةِ إِكْرَامًا لَا خِيَارَ فِيهِ . وَمَا أَوَّلُ الدَّعَارَةِ إِلَّا أَنْ تَمُدَّ الْمَرْأَةُ طَرْفَهَا مِنْ غَيْرِ حَيَاءٍ ، كَمَا يَمُدُّ اللَّصُّ يَدَهُ مِنْ غَيْرِ أَمَانَةٍ .

وَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى الْكُفْرِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُخَيِّيَ مِخْرَابَ الْمَسْجِدِ فِي أَعْمَاقِهِ فَيُصَلِّيَ ثَمَّةً ، وَلَكِنَّ الْفُجُورَ لَا يَتْرُكُ فِي النَّفْسِ مَوْضِعًا لِدِينٍ وَلَا إِيمَانٍ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إثَارَةِ الْغَرَائِزِ الطَّبِيعِيَّةِ الْخَبَوَانِيَّةِ الْمُسْتَرْسِلَةِ بِلَا ضَابِطٍ ، لِدِينٍ وَلَا إِيمَانٍ ؛ إِذْ هُوَ دَائِبٌ فِي إثَارَةِ الْغَرَائِزِ الطَّبِيعِيَّةِ الْخَبَوَانِيَّةِ الْمُسْتَرْسِلَةِ بِلَا ضَابِطٍ ، فَيَجْعَلُ الْمَرْأَةَ تَحِيًّا بَعِيدَةً عَنْ ضَمِيرِهَا ، فَيُضْعِفُ مِنْهَا أَوَّلَ مَا يُضْعِفُ آثَارَ الْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا أَوَّلَ مَا يَهْلِكُ إِحْسَاسُهَا بِمَعْنَى الْمَرْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَشُعُورُهَا بِمَجْدِ هَذَا الْمَعْنَى .

فَإِذَا أَنْتَهتِ الْمَرْأَةُ إِلَى هَذَا ، لَمْ يَكُنْ لَهَا مَبْدَأٌ وَلَا عَقِيدَةٌ إِلَّا أَنْ عَلَى غَيْرِهَا أَنْ يَتَحَمَّلَ
عَوَاقِبَ أَعْمَالِهَا ، وَهَلِيزِ بِعَيْنِهَا هِيَ حَالَهُ الْمَجْنُونِ جُنُونَ عَقْلِهِ ؛ أَفَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ حِينَئِذٍ
مَجْنُونَةً جُنُونَ جِسْمِهَا ... ؟

* * *

فَسَاءَ مَا ذَلِكَ وَبَانَ فِيهَا ، وَلَكِنَّهَا أَمْسَكَتْ عَلَى مَا فِي نَفْسِهَا ؛ وَالْمَرْأَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ
لَا يَمْسُحُ بِأَمْرِهَا فِي النَّاسِ وَلَا يَتَّصِلُ عَيْشُهَا ، إِلَّا إِذَا كَثُرَتْ طِبَاعُهَا كَثْرَةً يُبَاقِهَا ، فَهِيَ تَخْلَعُ
وَتَلْبَسُ مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ لِكُلِّ يَوْمٍ وَلِكُلِّ حَالَةٍ وَلِكُلِّ رَجُلٍ ؛ فَيَنْبَغُ مِنْهَا الْغَضَبُ وَهِيَ فِي
أَنْعَمِ الرِّضَى ، كَمَا يَنْبَغُ الرِّضَى وَهِيَ فِي أَشَدِّ الْغَيْظِ ، وَكَانَ لَمْ تَغْضَبْ وَلَمْ تَرْضَ لِأَنَّهَا
لَيْسَتْ لِأَحَدٍ وَلَا لِنَفْسِهَا .

وَتَسَاوَرَ غَضَبُهَا ثُمَّ قَالَتْ : كَانَ كَلَامُكَ أَنَّ لَكَ رَجَاءً إِلَيَّ ، فَأَنَا أَحِبُّ ... أَحِبُّ أَنْ
أَعْلَمَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ أَحِبُّ ... أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ .

فَضَحِكْتَ وَسُرِّي عَنْهَا ، وَتَبَيَّنَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ لَوْ جَاءَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ لِيَضَعَ فِي
ثَغْرِهَا ابْتِسَامَةً أَجْمَلَ مِنْهَا ، لَمَا وَجَدَ أَجْمَلَ مِنْهَا .

ثُمَّ قَالَتْ : تُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَاذَا ؟

قُلْتُ : أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ مِنْكَ قِصَّةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : لَقَدْ قَضَيْتِ مِنْ حُكْمِكَ فِتْنًا ، وَلَكِنَّكَ أَخْطَأْتَ ، فَلِكُلِّ لَيْلٍ مُظْلِمٍ كَوَكْبُهُ ؛
وَالْكَوَكِبُ الْوَقَادُ الْمُعَلَّقُ فَوْقَ لَيْلِ الْمَرْأَةِ مِثْلًا هُوَ إِيمَانُهَا ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ كإِيمَانِ النَّاسِ فِي
وَاجِبَاتِهِ ، لَكِنَّهُ كإِيمَانِ النَّاسِ فِي تَغْرِيبِهِ ، وَاللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ !

قُلْتُ : لَوْ أَطْنَعَ اللَّهُ بِمَعْصِيَتِهِ لَأَسْتَقَامَ لَكَ هَذَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ تَصِفِينَ الْإِيمَانَ الْأَوَّلَ
الَّذِي كَانَ عَمَلًا ، فَصَارَ ذِكْرِي ، فَصَارَتِ الذِّكْرَى أَمَلًا ، فَظَنَنْتِ الْأَمَلَ هُوَ الْإِيمَانُ .

قَالَتْ : ثُمَّ إِنَّنَا جَمِيعًا مُكْرَهَاتٌ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْنُ إِلَّا صَرَغَى الْمُصَادَمَةِ بَيْنَ
الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبَيْنَ الْقَدَرِ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ لَمْ تَهْفُ وَاحِدَةً مُنْكَنٍ فِي غَلْطِهَا الْأُولَى وَهِيَ مُسْتَكْرَهَةٌ عَلَى غَلْطِ ؛ بَلْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ فِي لَذَّةٍ ، أَوْ مُبَادِرَةٌ لَشَهْوَةٍ ، أَوْ طَالِبَةٌ لِمَنْفَعَةٍ .

قَالَتْ : هَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ ؛ أَمَّا الْآخَرُ فَالْتِمَاسُ الرِّزْقِ وَصَلَاحُ الْعَيْشِ ؛ فَالرَّجُلُ مَعَ الرَّجُلِ ، رَأْسُ مَالِهِ قُوَّتُهُ ، وَعَمَلُهُ يَقُوَّتُهُ ؛ وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ مَعَ الرَّجُلِ رَأْسُ مَالِهَا أُتُونَتُهَا ، وَعَمَلُ أُتُونَتِهَا . وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ - وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ - تَخْتَالُ كَلِمَةُ الْفُجُورِ عَلَى الْمَرْأَةِ بِكَلِمَاتِ رَقِيقَةٍ سَاحِرَةٍ ، مِنْهَا الْحُبُّ وَالزَّوْاجُ وَالسَّعَادَةُ ، فَتَسْتَسْلِمُ الْمَرْأَةُ مُضْطَرَّةً لِبَقَعِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا . وَفِي الْوَجْهِ الثَّانِي - وَجْهِ الرِّزْقِ وَالْعَيْشِ - تَخْتَالُ الْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ الْفَاجِرَةُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْكِينَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ بِكَلِمَاتِ رَهْبَنِيَّةٍ قَاتِلَةٍ ، مِنْهَا الْجُوعُ وَالْفَقْرُ وَالشَّقَاءُ ، فَتَسْقُطُ الْمَرْأَةُ مُضْطَرَّةً خَائِفَةً أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ؛ وَفِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ يَكُونُ الرَّجُلُ هُوَ الْفَاجِرُ لِفَسَادِ آدَابِهِ ، وَفِي الْآخَرِ يَكُونُ الْفَاجِرُ هُوَ الْمُجْتَمَعُ لِفَسَادِ مَبَادِيئِهِ .

* * *

قُلْتُ : أَنَا لَا أُنْكِرُ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا سَقَطَتْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، لَمْ تَقَعْ أَبَدًا إِلَّا فِي مَوْضِعِ غَلْطٍ مِنْ غَلْطَاتِ الْقَوَانِينِ ؛ وَاقَّةٌ هَذِهِ الْقَوَانِينِ أَنَّهَا لَمْ تُسَنَّ لِمَنْعِ الْجَرِيمَةِ أَنْ تَقَعَ ، وَلَكِنْ لِلْعِقَابِ عَلَيْهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا ؛ وَبِهَذَا عَجَزَتْ عَنْ صِيَانَةِ الْمَرْأَةِ وَحِفْظِهَا ، وَتَرَكْتَهَا لِقَانُونِ الْغَرِيزَةِ الْوَحْشِيِّ فِي هَؤُلَاءِ الْوُحُوشِ الْأَدَمِيِّينَ ، الَّذِينَ يَأْخُذُهُمُ السُّعَارُ مِنْ هَذِهِ الرَّائِحَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا فِي اثْنَيْنِ : الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ وَالذَّهَبِ . فَلَمَّا الْجَاءَتْ أَمْرًا حَاجَتَهَا أَوْ فَتَرَهَا إِلَى أَحَدِهِمْ وَرَأَى عَلَيْهَا جَمَالًا ، إِلَّا ضَرَبَهُ ذَلِكَ السُّعَارُ ؛ فَإِنْ أُسْتَحَقَّتْ بِتَزَوَّاتِهِ وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ ، طَرَدَهَا إِلَى الْمَوْتِ ، وَمَنَعَهَا أَنْ تَعِيشَ مِنْ قِبَلِهِ ؛ وَإِنْ صَلَحَتْ لَهُ وَتَيَسَّرَتْ ، آوَاهَا هِيَ وَطَرَدَ شَرَفُهَا . . .

وَبِخِلَافِ ذَلِكَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّهُ قَائِمٌ عَلَى مَنْعِ الْجَرِيمَةِ وَإِبْطَالِ أَسْبَابِهَا ، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْمَرْأَةِ يُلْزِمُ الرَّجُلَ وَاجِبَاتِ ، وَيُلْزِمُ الْمُجْتَمَعَ وَاجِبَاتِ غَيْرَهَا ، وَيُلْزِمُ الْحُكُومَةَ وَاجِبَاتِ أُخْرَى :

أَمَّا الرَّجُلُ فَيُنَبِّغِي لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ، وَيَخَصَّنَ ، وَيَغَارَ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَيَعْمَلَ لَهَا ؛ وَأَمَّا

الْمُجْتَمَعُ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ ، وَيَسْتَقِيمَ ، وَيُعِينَ الْفَرْدَ عَلَى وَاجِبَاتِ الْفَضِيلَةِ ، وَيَتَدَامَجَ وَيَشُدَّ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ وَأَمَّا الْحُكُومَةُ فَعَلَيْهَا أَنْ تَحْمِي الْمَرْأَةَ ، فَتُعَاقِبَ عَلَى إِسْقَاطِهَا عِقَابَ الْمَوْتِ وَالْأَلَمِ وَالشَّهِيرِ ؛ لِتَقِيمَ مِنَ الثَّلَاثَةِ حُرَّاسًا جَبَابِرَةً ، مَنْ لَا يَخْشَى اللَّهَ خَشِيئَةً ؛ فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ فِي دِينِنَا مَوْضِعٌ غَلَطُهُ تَسْقُطُ فِيهِ الْمَرْأَةُ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : صَدَقْتَ ، فَالْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا مِرَاءَ فِيهَا ، أَنَّ فِكْرَةَ الْفُجُورِ فِكْرَةٌ قَانُونِيَّةٌ ؛ وَمَا دَامَ الْقَانُونُ هُوَ أَبَاحَهَا بِشُرُوطٍ ، فَهُوَ هُوَ الَّذِي قَرَّرَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ بِهَذِهِ الشَّرُوطِ ؛ وَمِنْ هَذَا التَّفَرُّيْرِ يُقَدِّمُ عَلَيْهَا الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كِلَاهُمَا عَلَى نَفَقَةٍ وَأَطْمِئْنَانٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَأْتِي الْجُزْأَةُ عَلَى انْدِفَاعِ النَّاسِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الْقَانُونِ ، وَمِنْ هَذَا الْانْدِفَاعِ تَأْتِي السَّاقِطَةُ بِأَخْرِ مَعَانِيهَا وَأَقْبَحِ مَعَانِيهَا .

وَتَقَرُّرُ سِيَادَةِ الْمَرْأَةِ فِي الْأَجْتِمَاعِ الْأَوْرَبِيِّ ، وَتَقْدِيمُهَا عَلَى الرِّجَالِ ، وَالنَّادُبُ مَعَهَا ؛ كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ جَرَاءَةَ السُّفَهَاءِ عَلَيْهَا جَرَاءَةً مُتَأَدِّبَةً ، حَتَّى كَأَنَّ الْمُتَحَكِّمَ مِنْهُمْ فِي أَمْرَةِ يَقُولُ لَهَا : مِنْ فَضْلِكَ كُونِي سَاقِطَةً . . . أَمَا هُنَا فَجَرَاءَةُ السُّفَهَاءِ جَرَاءَةٌ وَوَقَاحَةٌ مَعًا ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّهَا .

الْقَانُونُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِلرِّجَالِ : احْتَالُوا عَلَى رِضَى النِّسَاءِ ، فَإِنْ رَضِيَ النِّسَاءُ الْجَرِيْمَةَ فَلَا جَرِيْمَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا فَكَأَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ بَرَاعَةَ الرَّجُلِ الْفَاسِقِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحِيلَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَإِنْفَاطِ الْفِطْرَةِ فِي نَفْسِهَا ، بِأَسَالِيبَ مِنَ الْمَلَقِ وَالرِّيَاءِ وَالْمَكْرِ ، تَتْرَكُهَا عَاجِزَةً لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَذِيعَ وَتَرْضَى ؛ وَبِهَذَا يَنْصَرِفُ كُلُّ فَاجِرٍ إِلَى انْدِاعِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي تُطْلِقُ تِلْكَ الْفِطْرَةَ مِنْ حَيَاتِهَا ، وَتُخْرِجُهَا مِنْ عِفَّتِهَا ، « تَطْطِيقًا لِلْقَانُونِ » . . .

وَلَا سِيَادَةَ فِي أَجْتِمَاعِنَا لِلْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّ الْقَانُونُ جَعَلَهَا سَيِّدَةً نَفْسِهَا ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ الْأَدَابِ كُلِّهَا ، وَفَوْقَ عَقُوبَةِ الْقَانُونِ نَفْسِهِ إِذَا رَضِيَتْ ؛ إِذَا رَضِيَتْ مَاذَا . . . ؟

* * *

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ الْقَانُونُ هُنَا فِي مَسْأَلَتِنَا هَذِهِ يَغْدِلُ بِالظُّلْمِ ، وَيَحْمِي الْفَضِيلَةَ بِإِطْلَاقِ حُرِّيَةِ الرِّذِيلَةِ ؛ فَهُوَ إِنَّمَا يُفْسِدُ الدِّينَ ، وَيَضُرُّ النَّاسَ عَنْ خَوْفِ اللَّهِ إِلَى خَوْفِ مَا يُخَافُ

مِنَ الْحُكُومَةِ وَحَدَا ، وَبِهَذَا لَا يَكُونُ عَمَلُهُ إِلَّا فِي تَضَحِيحِ الظَّاهِرِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ،
وَيَدْعُ الْبَاطِنَ يُسِرُّ مَا شَاءَ مِنْ خُبْرِهِ وَحِيلَتِهِ وَفَسَادِهِ ؛ فَكَأَنَّهُ لَيْسَ قَانُونًا إِلَّا لِتَنْظِيمِ التَّفَاقِ
وَإِحْكَامِ الْخَدِيعَةِ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَ قَانُونًا لِحَالَةِ الْجَرِيمَةِ لَا لِلْجَرِيمَةِ نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا أُخِذَتِ
الْمَرْأَةُ مُلَايَنَةً وَرَضَى فَهَذَا فُجُورٌ قَانُونِيٌّ . . . وَإِنْ كَانَتِ الْمُلَايَنَةُ هِيَ عَمَلُ الْحِيلَةِ
وَالْتَذْيِيرِ ، وَإِنْ كَانَ الرِّضَى هُوَ أَثَرُ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ ، وَإِنْ ضَاعَتِ الْمَرْأَةُ وَسَقَطَتْ ، وَذَهَبَ
شَرُّهَا بَاطِلًا ، وَالْحَقُّهُ النَّاسُ بِمَا لَا يَكُونُ مِنْ تَوْبَةٍ إِبْلِيسَ فَلَا يَكُونُ أَبَدًا . أَمَّا إِذَا أُخِذَتِ
الْمَرْأَةُ مُكَارَهَةً وَغَضَبًا ، فَهَذِهِ هِيَ الْجَرِيمَةُ فِي الْقَانُونِ ؛ وَيُسَمِّيَهَا الْقَانُونُ جَرِيمَةً أَلَاغِتْدَاءٍ
عَلَى الْعِرْضِ ، وَهِيَ بَأَن تُسَمَّى جَرِيمَةُ الْعَجْزِ عَنْ إِرْضَاءِ الْمَرْأَةِ ، أَحَقُّ وَأَوْلَى .

عَلَى أَنَّ الْمُسْكِنَةَ لَمْ تُوْخَذْ فِي الْحَالَتَيْنِ إِلَّا غَضَبًا ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَتْ طَرِيقَةُ الرَّجُلِ
الْغَاصِبِ ؛ فَإِنَّ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَمْ تَتَأَدَّ بِالْمَرْأَةِ إِلَّا إِلَى نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ إِخْرَاجُهَا مِنْ
شَرَفِهَا ، وَحِزْمَانُهَا حُقُوقَ إِنْسَانِيَّتِهَا فِي الْأُسْرَةِ ، وَطَرْدُهَا وَرَاءَ حُدُودِ الْأَعْيَارِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَتَرْكُهَا ثَمَّةً مُخَلَّاةً لِمَجَارِي أُمُورِهَا ، فَلَا يَتَسَرَّ لَهَا الْعَيْشُ إِلَّا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ
الرَّجُلِ الْفَاجِرِ ، فَلَا تَكُونُ لَهَا بَيْنَةُ إِلَّا مِنْ أَمْثَالِهِ وَأَمْثَالِهَا ، كَمَا يَجْتَمِعُ فِي الْمَوْضِعِ
الْوَاحِدِ ، أَهْلُ الْمَصِيرِ الْوَاحِدِ ، عَلَى طَرِيقَةِ الْقَطِيعِ فِي الْمَجْزَرَةِ . . .

* * *

فَقَالَتْ هِيَ : الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ أَوَّلُهَا الْحُبُّ ؛ وَهِيَ لَا تَقَعُ إِلَّا مِنْ بَيْنِ نَقِیْضَيْنِ
يَجْتَمِعَانِ فِي الْمَرْأَةِ مَعًا : كِبَرُ حُبِّهَا إِلَى مَا يَقُوتُ الْعَقْلَ ، وَصِغَرُ عَقْلِهَا إِلَى مَا يَنْزِلُ عَنْ
الْحُبِّ . وَالْمَرْأَةُ تَظَلُّ هَادِئَةً سَاكِتَةً رَزِينَةً ، حَتَّى تُصَادِفَهَا اللَّحَاطُ النَّارِيَّةُ مِنَ الْعَيْنِ الْمُقَدَّرَةِ
لَهَا فَلَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ تَمْلَأَهَا نَارًا وَلَهَبًا ؛ وَلَتَكُنِ الْمَرْأَةُ مِنْ هِيَ كَاتِنَةٌ ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ كَمُسْتَوْدَعِ
الْبَارُودِ ، يَهُولُ عِظْمُهُ وَكِبَرُهُ ، وَهُوَ لَا شَيْءَ إِذَا اتَّصَلَتْ بِهِ تِلْكَ الشَّرَارَةُ الْمُهَاجِمَةُ .

وَلَيْسَتْ حِرَاسَةُ الْمَرْأَةِ شَيْئًا يُؤْبَهُ لَهُ أَوْ يُعْتَدُّ بِهِ أَوْ يُسَمَّى حِرَاسَةً ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ كَالْتَحْفِظِ
عَلَى مُسْتَوْدَعِ الْبَارُودِ مِنَ النَّارِ ؛ فَيَسْتَوِي فِي وَسَائِلِهَا الْخَوْفُ مِنَ الشَّرَارَةِ الصَّغِيرَةِ ،
وَالْفَرْعُ مِنَ الْحَرِيقِ الْأَعْظَمِ ؛ فَيُحْتَاطُ لِأَمْنِهَا بِوَسَائِلَ وَاحِدَةٍ فِي قَدَرٍ وَاحِدٍ وَأَعْيَارِ
وَاحِدٍ .

وَإِذَا تُرِكَتِ الْمَرْأَةُ لِنَفْسِهَا تَخْرُسُهَا بِعَقْلِهَا وَأَدَبِهَا وَفَضْلِهَا وَخُرَّتِيهَا ، فَقَدْ تُرِكَ لِنَفْسِهِ مُسْتَوْدَعُ الْبَارُودِ تَخْرُسُهُ جُذْرَانُهُ الْأَرْبَعَةُ الْقَوِيَّةُ . . .

وَالرِّجَالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ مَظَاهِرَ طَبِيعِيَّةً ، مِنَ الْخِيَلَاءِ وَالْكِتْرِيَاءِ وَالْإِعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَالْمُبَاهَاةِ بِالْعِفَّةِ ؛ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ أَنْفُسَهُمْ يَعْلَمُونَ كَذَلِكَ ، أَنَّ هَذَا الظَّاهِرَ مَخْلُوقٌ مَعَ الْمَرْأَةِ كَجِلْدِ جَسْمِهَا النَّاعِمِ ، وَأَنَّ تَحْتَهُ أَشْيَاءَ غَيْرِ هَذِهِ تَعْمَلُ عَمَلَهَا وَتَصْنَعُ الْبَارُودَ النَّسَائِيَّ الَّذِي سَيَنْفَجِرُ . . .

* * *

قُلْتُ : إِذَا كَانَ هَذَا فَقَبِّحَ اللَّهُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي يُرِيدُونَهَا لِلْمَرْأَةِ . هَلْ تَعِينُ الْمَرْأَةَ إِلَّا فِي أَنْتِظَارِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَحْكُمُهَا بِلُطْفٍ ، وَفِي أَنْتِظَارِ صَاحِبِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ؟
قَالَتْ : إِنَّ هَذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَأَوْسَعُ النِّسَاءِ حُرِّيَّةَ أَصْبَعُهُنَّ فِي النَّاسِ ؛ وَهَلْ كَالْمُؤْمَسِ فِي خُرَّتِيهَا فِي نَفْسِهَا ؟

وَلَكِنَّ يَا سُؤْمَهَا عَلَى الدُّنْيَا ! إِنَّهَا هِيَ بَعِينُهَا كَمَا قُلْتَ أَنْتَ : حُرِّيَّةُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يُتْرَكُ حُرًّا كَالشَّرِيدِ ، لِيَتَجَرَّبَ فِيهِ الْحَيَاةُ تَجَارِبِهَا الْمُؤَلِّمَةِ . وَمَاذَا فِي يَدِ الْمَرْأَةِ مِنْ حُرِّيَّةٍ هِيَ حُرِّيَّةُ الْقَدَرِ فِيهَا ؟

قُلْتُ : وَلِهَذَا لَا أَرْجِعُ عَنْ رَأْيِي أَبَدًا : وَهُوَ أَنَّهُ لَا حُرِّيَّةَ لِلْمَرْأَةِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، إِلَّا إِذَا شَعَرَ كُلُّ رَجُلٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِكَرَامَةِ كُلِّ امْرَأَةٍ فِيهَا ، بِحَيْثُ لَوْ أَهْيَنْتُ وَاحِدَةً نَارَ الْكُلِّ فَاسْتَقَادُوا لَهَا ، كَأَنَّ كَرَامَاتِ الرِّجَالِ أَجْمَعِينَ قَدْ أَهْيَنْتُ فِي هَذِهِ الْوَاحِدَةِ ؛ يَوْمَئِذٍ تُصْبِحُ الْمَرْأَةُ حُرَّةً ، لَا بِخُرَّتِيهَا هِيَ ، وَلَكِنَّ بِأَنَّهَا مَخْرُوسَةٌ بِمَلَايِينِ مِنَ الرِّجَالِ . . .

فَضَحِكْتُ وَقَالَتْ : (يَوْمَئِذٍ) ! هَذَا أَسْمُ زَمَانٍ أَوْ أَسْمُ مَكَانٍ . . . ؟

* * *

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : وَلَكِنَّا أَبْعَدْنَا عَنْ قِصَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلُهَا ؟

قَالَتْ : إِنَّ الشُّبَّانَ وَالرِّجَالَ عِلْمٌ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهُ الْفَتَاةُ قَبْلَ أَنْ لِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَقَرَّ فِي ذَهْنِ كُلِّ فَتَاةٍ ، أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ كَالدَّارِ فِيهَا الْحُبُّ ، وَلَا كَالْمَدْرَسَةِ فِيهَا

الصَّدَاقَةُ ، وَلَا كَالْمَحَلِّ الَّذِي تَبْتَاعُ مِنْهُ مِنْدِيلًا مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ رُجَاجَةً مِنَ الْعِطْرِ ، فِيهِ إِكْرَامُهَا وَخِذْمَتُهَا .

وَأَسَاسُ الْفَضِيلَةِ فِي الْأُنُوثَةِ الْحَيَاءُ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْفَتَاةُ أَنَّ الْأُنْثَى مَتَى خَرَجَتْ مِنْ حَيَاتِهَا وَتَهَجَّجَتْ ، أَيْ : تَوَقَّعَتْ ، أَيْ : تَبَدَّلَتْ ، أَسْتَوَى عِنْدَهَا أَنْ تَذْهَبَ يَمِينًا أَوْ تَذْهَبَ شِمَالًا ، وَتَهَيَّأَتْ لِكُلِّ مِنْهُمَا وَلَا يَهْمَا اتَّفَقَ : وَصَاحِبَاتُ الْيَمِينِ فِي كَتَفِ الزَّوْجِ وَظِلِّ الْأُسْرَةِ وَشَرَفِ الْحَيَاةِ ، وَصَاحِبَاتُ الشِّمَالِ مَا صَاحِبَاتُ الشِّمَالِ ... ؟

قُلْتُ : هَذَا هَذَا ؛ إِنَّهُ الْحَيَاءُ ، الْحَيَاءُ لَا غَيْرُهُ ؛ فَهَلْ هُوَ إِلَّا وَسِيلَةٌ أَعَانَتْ الطَّبِيعَةَ بِهَا الْمَرْأَةُ لِتَسْمُوَ عَلَى غَرِيزَتِهَا مَتَى وَجَبَ أَنْ تَسْمُوَ ، فَلَا تَلْقَى رَجُلًا إِلَّا وَفِي دَمِهَا حَارِسٌ لَا يَنْفُلُ . وَهَلْ هُوَ إِلَّا سَلْبٌ جَمَعَتْهُ الطَّبِيعَةُ إِلَى ذَلِكَ الْإِيجَابِ الَّذِي لَوْ انْطَلَقَ وَحْدَهُ فِي نَفْسِ الْمَرْأَةِ لَانْدَفَعَتْ فِي التَّبَرُّجِ وَالْإِعْرَاءِ وَعَرَضِ أَسْرَارِ أَنْوُثَتِهَا فِي الْمَعْرُضِ الْعَامِّ ... ؟

قَالَتْ : ذَاكَ أَرَدْتُ ، فَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْجِيلِ وَالزَّيْنَةِ عَلَى وَجْهِهِ الْفَتَيَاتِ وَأَجْسَامِهِنَّ فِي الطَّرِيقِ ، فَلَا تَعُدُّنَّهُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَالِ ، بَلْ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَخْضَعُ حَقَّ الْخُضُوعِ فِي نَفْسِهَا إِلَّا لِشَيْئَيْنِ : حَيَاتِهَا وَغَرِيزَتِهَا .

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! هَذَا أَدَقُّ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِ بِلْكَ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ : « تَجُوعُ الْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا » . فَإِنْ اخْتَضَعَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَاءِ كَفَّتْ غَرِيزَتُهَا ...

قَالَتْ : ... وَجَعَلَهَا الْحَيَاءُ صَادِقَةً فِي نَفْسِهَا وَفِي ضَمِيرِهَا ، فَكَانَتْ هِيَ الْمَرْأَةُ الْحَقِيقِيَّةَ الْجَدِيدَةَ بِالزَّوْجِ وَالنَّسْلِ وَتَوْرِيثِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَحِفْظِهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

قُلْتُ : وَمِنْ هَذَا يَكُونُ الْإِسْرَافُ فِي الْأُنُوثَةِ وَالتَّبَرُّجِ أَمَامَ الرِّجَالِ كَذِبًا مِنْ ضَمِيرِ الْمَرْأَةِ .

قَالَتْ : وَمِنْ أَخْلَاقِهَا أَيْضًا ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَشَدَّ الْإِسْرَافِ فِي هَذِهِ الْأُنُوثَةِ وَفِي هَذَا التَّبَرُّجِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْمَرْأَةِ الْعَامَّةِ ... ؟

قُلْتُ : وَالْمَرْأَةُ الْعَامَّةُ أَمْرَةٌ تِجَارِيَّةُ الْقَلْبِ . فَكَأَنَّ الْمُسْرِفَةَ فِي أَنْوُثَتِهَا وَتَبَرُّجِهَا ، هَذِهِ سَبِيلُهَا ، فَهِيَ لَا تُؤْمِنُ عَلَى نَفْسِهَا .

قَالَتْ : قَدْ تَوَمَّنَ عَلَى نَفْسِهَا ، وَلَكِنَّهَا أَبَدًا مُؤَمِّسُ الْفِكْرِ فِي الرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَلَّا تَوَمَّنَ ؛ وَهِيَ رَهْنُ بِأَحْوَالِهَا وَبِمَا يَقَعُ لَهَا ، فَقَدْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا الْجَرِيُّ وَقَدْ لَا يَتَقَدَّمُ ، وَلَكِنَّهَا بِذَلِكَ كَانَتْ مُعْلِنَةً عَنْ نَفْسِهَا أَنَّهَا « مُسْتَعِدَّةٌ أَلَّا تَوَمَّنَ » ...

قَالَ (ح) : لَكِنَّ يُقَالُ إِنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَتَبَّرَجُ وَتَتَأَنَّثُ لِتَرَى نَفْسَهَا جَمِيلَةً فَإِنَّتَهُ ، فَيُعْجِبُهَا حُسْنُهَا ، فَيَسُرُّهَا إِعْجَابُهَا .

قَالَتْ : هَذَا كَالْقَوْلِ إِنَّ أَسْتَادَ الرَّقْصِ الَّذِي رَأَيْتُهُ هُنَا ، يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا يَنْظُرُ رَجُلٌ إِلَى رَاقِصَةٍ تَتَأَوَّدُ وَتَهْتَزُّ وَتَتَرَجَّرُ . إِنَّ هَذَا الرَّقَّاصَ فِيهِ الْحَرَكَةُ الْفَنِّيَّةُ كَمَا هِيَ حَرَكَةُ لَيْسَ غَيْرُ ؛ فَهُوَ كَالْمِيزَانِ أَوْ الْقِيَاسِ أَوْ أَيِّ آلَاتِ الضَّبْطِ ؛ أَمَّا فَنَنُ الْحَرَكَةِ وَسِحْرُهَا وَمَعْنَاهَا مِنَ الْمَرْأَةِ الْفَاتِنَةِ فِي وَهْمِ الرَّجُلِ الْمَفْتُونِ بِهَا ؛ فَهَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي أَسْتَادِ الرَّقْصِ ، وَإِنْ كَانَ أَسْتَادَ الرَّقْصِ .

إِنْ أَجْمَلَ أَمْرًا تَبْصُقُ بِفَمِهَا عَلَى وَجْهِهَا فِي الْمَرْأَةِ ، إِذَا مُحِيَ الرَّجُلُ مِنْ ذَهْنِهَا ، أَوْ لَمْ يُطَلَّ بِعَيْنَيْهِ مِنْ وَرَاءِ عَيْنَيْهَا ، أَوْ لَمْ تَكُنْ مُمْتَلِئَةً الْحَوَاسِ بِهِ ، أَوْ بِإِعْجَابِهِ ، أَوْ بِالرَّغْبَةِ فِي إِعْجَابِهِ ؛ فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ فَإِنَّهَا لَا تَرَى وَجْهَهَا حِينَئِذٍ إِلَّا كَالدُّنْيَا إِذَا خَلَّتْ مِنَ الْعَدْلِ ...

* * *

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ أَبْعَدْنَا عَنْ « قِصَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، مَا كَانَ أَوَّلَهَا ! »

قَالَتْ : سَأَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَوْضِعِكَ عِنْدِي : إِنْ قِصَّتِي فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْهَا هِيَ قِصَّةُ جَمَالِي ؛ وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي هِيَ قِصَّةُ مَرَضِ الْعَذْرَاءِ ؛ وَفِي الْفَصْلِ الثَّلَاثِ هِيَ قِصَّةُ الْغَفْلَةِ وَالْتِهَافِ فِي الْحِرَاسَةِ ؛ وَفِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ هِيَ قِصَّةُ انْخِدَاعِ الطَّبِيعَةِ النِّسْوِيَّةِ الْمُبِينَةِ عَلَى الرِّقَّةِ وَإِيجَادِ الْحُبِّ وَتَلَقُّهِهِ وَالرَّغْبَةِ فِي تَنْوِيلِهِ أَنْوَاعًا لِلْأَهْلِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ ؛ ثُمَّ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ هِيَ قِصَّةُ لَوْمِ الرَّجُلِ : كَانَ مُحِبًّا شَرِيفًا يُقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ ، فَإِذَا هُوَ كَالْمُرُورِ وَالْمُخْتَالِ وَاللَّصِّ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِ الْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ سَكَتَتْ هُنَيْئَةً ، فَكَانَ سُكُوتُهَا يُبَيِّنُ كَلَامَهَا ...

وَقَالَ (ح) : فَمَا هُوَ مَرَضُ الْعَذْرَاءِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْفَضْلُ الثَّانِي فِي الرِّوَايَةِ .

قَالَتْ : كُلُّ عَذْرَاءٍ فِيهَا مَرِيضَةٌ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُعْلِمَهَا أَهْلُهَا أَنَّ الْعِلَاجَ قَدْ يَكُونُ مَسْمُومًا ؛ وَيُبْنِغِي أَنْ يَحْوَطُوهَا بِقَرِيبٍ مِنَ الْعِنَايَةِ الَّتِي يُحَاطُ الْمَرِيضُ بِهَا ، فَلَا يُجْعَلُ مَا حَوْلَهُ إِلَّا مُلَانِمًا لَهُ ، وَيُمنَعُ أَشْيَاءُ وَإِنْ أَحَبَّهَا وَرَغِبَ فِيهَا ، وَيُكْرَهُ عَلَى أَشْيَاءَ وَإِنْ عَافَهَا وَصَدَفَ عَنْهَا .

قَالَ (ح) : فَيَكُونُ الْفَانُونُ الْأَجْتِمَاعِيُّ تَصْدِيقًا لِلْفَانُونِ الدِّينِيِّ مِنْ أَنَّ الذُّكُورَةَ هِيَ فِي نَفْسِهَا عَدَاوَةٌ لِلْأُنُوثَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ لَيْسَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٌ ^(١) يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوضًا إِلَّا فِي الْحَالَةِ الْوَاحِدَةِ الْمَشْرُوعَةِ ، وَهِيَ الزَّوْاجُ .

قَالَتْ : فَتَكُونُ الْمَشْكَلَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ هِيَ : مَنْ ذَا يُرْغَمُ الذُّكُورَةُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْوَاحِدَةِ الْمَشْرُوعَةِ كَيْلًا تَضِيعَ الْأُنُوثَةُ ؟

قَالَ : وَلَكِنْ إِذَا كَانَ سَقُوطُ الْفَتَاةِ هُوَ جِنَايَةُ « الزَّوْاجِ الْمَزُورِ » ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سَقُوطُ بَعْضِ الْمُتَزَوِّجَاتِ ؟

قَالَتْ : هُوَ جِنَايَةُ « الزَّوْاجِ الْمُتَنَحِّحِ » ... تُرِيدُ أَنْفُسُهُنَّ الْخَبِيثَةَ تَنْقِيحَ الزَّوْجِ ؛ وَالْمُؤَمَّسَاتِ أَشْرَفَ مِنْهُنَّ ، إِذَا لَا يَعْتَدِينَ عَلَى حَقٍّ وَلَا يَخْنُ أَمَانَةً .

* * *

وَرَفَّ عَلَى وَجْهِهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شُعَاعٌ مِنَ الشَّمْسِ كَانَ عَلَى جَبِينِهَا كَصَفَاءِ اللَّوْلُؤِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ عَلَى خَدِّهَا كِإِسْرَاقِ الْيَاقُوتِ ؛ وَرَأَيْتُي أَتَأَمَّلُهُ ، فَقَالَتْ : أَنَا مُتَشَبِّهَةٌ بِحَظِي فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ ؛ وَهَذَا الشُّعَاعُ إِنَّمَا جَاءَ يَخْتِمُ نُورَهَا .

ثُمَّ كَانَتْ الشَّخَرِيَّةُ الْعَجِيبَةُ أَنَّهُمَا لَمْ تُتِمَّ كَلِمَةَ التُّورِ حَتَّى جَاءَ حَظُّهَا الْحَقِيقِيُّ مِنْ حَيَاتِهَا ... وَهُوَ رَجُلٌ يَتَحَطَّاهَا ؛ فَلَمَّا أَخَذَتْهُ عَيْنُهَا ابْتَسَمَتْ لَهُ ابْتِسَامًا مِنَ الدَّلِّ ، لَوْ لَمْ تَجْعَلْهُ هِيَ ابْتِسَامًا لَكَانَ دُمُوعًا ؛ ثُمَّ وَقَفَتْ وَمَا تَتَمَّاسَكَ مِنَ الْهَمِّ ، كَأَنَّهَا تَمَثَّلُ « لِلْجَمَالِ

(١) يُقَالُ : ذُو رَحِمٍ مَحْرَمٌ ، أَيْ : لَا يَجِلُّ لِلْمَرْأَةِ ، كَأَبْنِهَا وَأَخِيهَا ... إلخ .

الْبَائِسِ « ؛ ثُمَّ حَيْثُ وَسَلَّمْتُ وَودَّعْتُ ؛ وَبَعْدَ « وَأَوَاتِ » أُخْرَى ... مَشَتْ سَاكِتَةً وَمَرَّآهَا
يَضِجُ وَيَنكِحُ .

فَوَدَّاعًا يَا أَوْهَامَ الذِّكَاكِ الَّتِي تَلْمِسُ الْحَقَائِقَ بِقُوَّةِ خَالِقَةٍ تَزِيدُ فِيهَا !
وَوَدَّاعًا يَا أَحْلَامَ الْفِكْرِ الَّتِي تَضَعُ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا يُغَيِّرُهُ !
وَوَدَّاعًا يَا حُبَّهَا

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

عَرَبَةُ اللَّقْطَاءِ (*) . . .

جَلَسْتُ عَلَى سَاحِلِ الشَّاطِئِي فِي (إِسْكَندَرِيَّةَ) أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَ الضُّحَى ،
وَلَكِنْ النَّهَارَ لَدُنْ نَاعِمٍ رَطِيبٌ كَانَ الْفَجْرُ مُنْتَدٍ فِيهِ إِلَى الظُّهْرِ .

وَجَاءَتْ عَرَبَةُ اللَّقْطَاءِ فَأَشْرَفَتْ عَلَى السَّاحِلِ ، وَكَأَنَّهَا فِي مَنْظَرِهَا غَمَامَةٌ تَتَحَرَّكُ ، إِذْ
تَعْلُوهَا ظِلَّةٌ كَبِيرَةٌ فِي لَوْنِ الْعَيْمِ . وَهِيَ كَعَرَبَاتِ الثَّقَلِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُسَوَّرَةٌ بِالْوِجَاحِ مِنَ الْحَشَبِ
كَجَوَانِبِ النَّعْشِ تُمَسِّكُ مِنْ فِيهَا مِنَ الصَّغَارِ أَنْ يَتَدَخَّرُوا مِنْهَا إِذْ هِيَ تَذُرُّجُ وَتَتَقَلَّقُلُ .

وَوَقَفْتُ فِي الشَّارِعِ لِتُنْزِلَ رُكْبَهَا إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ؛ أَوَّلَتِكَ ثَلَاثُونَ صَغِيرًا مِنْ كُلِّ
سَفِينَةٍ وَلَقِيطٍ وَمُتَبَوِّذٍ ، وَقَدْ أَنْكَمَشُوا وَتَضَاعَطُوا إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُمَطَّ الْعَرَبَةُ فَتَسْعَهُمْ ،
وَلَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُكَبِّسُوا وَيَتَدَخَّلُوا حَتَّى يَشْغَلَ الثَّلَاثَةُ أَوْ الْأَرْبَعَةُ مِنْهُمْ حَيْرَ اثْنَيْنِ . وَمَنْ
مِنْهُمْ إِذَا تَأَلَّمَ سَيَذْهَبُ فَيَشْكُو لِأَيِّهِ . . . ؟

وَتَرَى هُنَاكَ الْمَسَاكِينَ خَلِيطًا مُلْتَبِسًا يُشْعِرُكَ أَجْتِمَاعُهُمْ أَنَّهُمْ صَيْدٌ فِي شَبَكَةٍ لَا أَطْفَالَ
فِي عَرَبَةٍ ، وَيَذُكُّكَ مَنْظَرُهُمُ الْبَائِسُ الدَّلِيلُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلَادَ أُمَهَاتٍ وَأَبَاءَ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا
وَسَاوِسَ آبَاءٍ وَأُمَهَاتٍ . . .

* * *

هَذِهِ الْعَرَبَةُ يَجْرُهَا جَوَادَانِ أَحَدُهُمَا أَذْهَمُ وَالْآخَرُ كُمَيْتٌ ^(١) . فَلَمَّا وَقَفْتُ لَوَى الْأَذْهَمُ
عُنْقَهُ وَالتَفَتَ يَنْظُرُ : أَيُفْرِغُونَ الْعَرَبَةَ أَمْ يَرِيدُونَ عَلَيْهَا . . . ؟ أَمَّا الْكُمَيْتُ فَحَرَكَ رَأْسَهُ
وَعَلَّكَ لِجَامِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ الْفِكْرَ فِي تَخْفِيفِ الْعِبَاءِ الَّذِي تَحْمِلُهُ يَجْعَلُهُ أَثْقَلَ
عَلَيْكَ مِمَّا هُوَ ، إِذْ يُضَيِّفُ إِلَيْهِ الْهَمَّ ، وَالْهَمُّ أَثْقَلُ مَا حَمَلْتُ نَفْسٌ ؛ فَمَا دُمْتُ فِي الْعَمَلِ
فَلَا تَوَهَّمَنَّ الرَّاحَةَ ، فَإِنَّ هَذَا يُؤْهِنُ الْقُوَّةَ ، وَيَخْذُلُ النَّشَاطَ ، وَيَجْلِبُ السَّأَمَ ؛ وَإِنَّمَا

(*) « الرسالة » العدد ١١٤ ، ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٤٤٣ - ١١٤٦ .

(١) { الْأَذْهَمُ : الْأَسْوَدُ . وَالْكُمَيْتُ : الْآخَمَرُ } .

رُوحَ الْعَمَلِ الصَّبْرِ ، وَإِنَّمَا رُوحُ الصَّبْرِ الْعَزْمُ .

وَرَأَاهُمُ الْأَذْهَمُ يُنْزِلُونَ اللَّقْطَاءَ ، فَاسْتَخَفَّهُ الطَّرْبُ ، وَحَرَكَ رَأْسَهُ كَأَنَّمَا يَسْخَرُ بِالْكَمِينِ
وَفَلَسَفَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا هُوَ الثُّرُوعُ إِلَى الْخُرْبَةِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِهَا ،
فَلْتَكُنْ لَكَ فِي ذَاتِكَ ، وَإِذَا تَعَدَّرْتَ اللَّذَّةَ عَلَيْكَ ، فَاحْتَفِظْ بِخَيَالِهَا ، فَإِنَّهُ وَضَلَّتْكِ بِهَا إِلَى
أَنْ تُمَكِّنَ وَتَتَسَهَّلَ ؛ وَلَا تَجْعَلَنَّ كُلَّ طِبَاعِكَ طِبَاعًا عَامِلَةً كَادِحَةً ، وَإِلَّا فَأَنْتَ أَدَاءُ لَيْسَ فِيهَا
إِلَّا الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُكَ ، وَلَيْكُنْ لَكَ طَبِيعٌ شَاعِرٌ مَعَ هَذِهِ الطَّبَاعِ الْعَامِلَةِ ، فَتَكُونَ لَكَ الْحَيَاةُ
كَمَا تُرِيدُكَ وَكَمَا تُرِيدُهَا .

إِنَّ الدُّنْيَا شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي الْوَاقِعِ ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الشَّيْءَ الْوَاحِدَ هُوَ فِي كُلِّ خَيَالٍ دُنْيَا
وَحْدَهَا .

* * *

وَفِي الْعَرَبَةِ أَمْرَانِ تَقُومَانِ عَلَى اللَّقْطَاءِ ؛ وَكِلْتَاهُمَا تَرْوِي لِلْأُمِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ
الْمَسَاكِينِ ؛ فَلَمَّا سَكَنَتْ الْعَرَبَةُ أَنْحَدَرَتْ مِنْهُمَا وَاحِدَةٌ وَقَامَتِ الْأُخْرَى تُنَاوِلُهَا الصِّغَارَ
قَائِلَةً : وَاحِدٌ ، ائْتَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ . . . إِلَى أَنْ تَمَّ الْعَدْدُ وَخَلَا قَفْصُ الدَّجَاجِ مِنَ
الدَّجَاجِ . . . !

وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوُجُوهِ بَيْنَمَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنَّ
لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، إِلَّا هَذَا الْإِحْسَانَ الْبَخْسَ الْقَلِيلَ .

وَجَاوَرُوا بِهِمْ لِيَنْظُرُوا الطَّبِيعَةَ وَالْبَحْرَ وَالشَّمْسَ ، فَعَفَّلَ الصِّغَارُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ وَصَرَفُوا
أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَهُمْ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتُ . . .

* * *

وَكَبِدِي ! أَضْنَى الْأَسَى كِبِدِي ؛ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي بَعْدَ انْفِسَاحِهِ ، وَتَأَلَّيْتُ وَجَعَ الْفِكْرِ
فِي هَؤُلَاءِ التَّعَسَّاءِ ، وَعَرَّتْنِي مِنْهُمْ عِلَّةٌ كَدَسُ الْحُمَى فِي الدَّمِ ؛ وَأَنْقَلَبْتُ إِلَى مَنَوَايَ ،
وَالْعَرَبَةُ وَأَهْلُهَا وَمَكَانُهَا وَزَمَانُهَا فِي رَأْسِي .

فَلَمَّا طَافَ بَيْنَ التَّوَمِ طَافَ كُلُّ ذَلِكَ بَيْنِي ، فَرَأَيْتُنِي فِي مَوْضِعِي ذَاكَ ، وَأَبْصَرْتُ الْعَرَبَةَ قَدْ

وَقَفْتُ ، وَتَحَاوَرَ الْأَذْهَمُ وَالْكُمَيْتُ ؛ فَلَمَّا أَفْرَغُوها وَشَعَرَ الْجَوَادَانِ بِخِفَتِهَا اَلْتَفَنَّا مَعًا ، ثُمَّ جَمَعَا رَأْسَيْهِمَا يَتَحَدَّثَانِ !

قَالَ الْكُمَيْتُ : كُنْتُ قَبْلَ هَذَا أَجْرُ عَرَبَةِ الْكِلَابِ الَّتِي يَقْتُلُهَا الشُّرْطَةُ بِالسُّمِّ ، فَاخُذِ الْمَوْتَ لِهَذِهِ الْكِلَابِ الْمِسْكِينَةِ ، ثُمَّ أَرْجِعْ بِهَا مَوْتِي ؛ وَكُنْتُ أَذْهَبُ وَأَجِيءُ فِي كُلِّ مَرَادٍ وَمُضْطَرَبٍ مِنْ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَرْقِئْتُهَا وَسَكَّيْتُهَا ، وَلَا أَشْعُرُ بِغَيْرِ الثَّقَلِ الَّذِي أَجْرُهُ ؛ فَلَمَّا ابْتَلَيْتُ بِعَرَبَةِ هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ الَّذِينَ يُسْمُونَهُمُ الْلُقَطَاءَ ، أَحْسَنْتُ ثَقَلًا آخَرَ وَقَعَ فِي نَفْسِي وَمَا أَذْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ ظِلَّ كُلِّ طِفْلِ مِنْهُمْ يُنْقِلُ وَحْدَهُ عَرَبَةً .

قَالَ الْأَذْهَمُ : وَأَنَا فَقَدْ كُنْتُ أَجْرُ عَرَبَةِ الْقَمَامَةِ وَالْأَفْدَارِ ، وَمَا كَانَ أَفْذَرَهَا وَأَنْتَنَهَا ، وَلَكِنَّهَا عَلَى نَفْسِي كَانَتْ أَطْهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَنْظَفَ ؛ كُنْتُ أَجِدُ رِيحَهَا الْخَبِيثَةَ مَا دُمْتُ أَجْرُهَا ؛ فَإِذَا أَنَا تَرَكْتُ الْعَرَبَةَ اسْتَرْوَحْتُ النَّسِيمَ وَاسْتَطَعَمْتُ الْجَوْ ، أَمَا آلَانَ فَالْرِيحُ الْخَبِيثَةُ فِي الزَّمَنِ نَفْسِهِ ، كَانَ هَذَا الزَّمَنُ قَدْ آزَوْحَ وَأَتَنَ مُنْذُ قُرْنَتْ بِهِؤُلَاءِ وَعَرَبَتِهِمْ .

قَالَ الْكُمَيْتُ : إِنَّ ابْنَ الْحَيَوَانِ يَسْتَقْبِلُ الْوُجُودَ بِأُمِّهِ ، إِذَا يَكُونُ وَرَاءَهَا كَالْقِطْعَةِ الْمُتَمَمَةِ لَهَا ، وَلَا تَقْبَلُ أُمُّهُ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَصْرِفُهَا عَنْهُ صَارِفٌ ، فَتَرْغُمُ الْوُجُودَ عَلَى أَنْ يَقْبَلَ أَبْنَاهَا ، وَعَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ قَوَائِنَهُ ؛ أَمَا هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ فَقَدْ طَرَدَهُمُ الْوُجُودُ مِنْهُ كَمَا طَرَدَ اللَّهُ آبَاءَهُمْ وَأُمَمَاتِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَقَدْ هُدِيتُ آلَانَ إِلَى أَنَّ هَذَا هُوَ سِرُّ مَا نَشْعُرُ بِهِ ؛ فَلَسْنَا نَجْزُ لِلنَّاسِ وَلَكِنْ لِلشَّيَاطِينِ ...

* * *

وَهُنَا وَقَفَ عَلَى حُوذِيِّ الْعَرَبَةِ صَدِيقٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ فَقَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟

قَالَ الْحُوذِيُّ : هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا هَاشِمٍ !

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَمَا تَتْرُكُ طَبْعَكَ فِي الْكُفَّةِ يَا شَيْخُ ؟

قَالَ الْحُوذِيُّ : وَهَلْ أَعْرِفُهُمْ أَنَا ؟ هُمْ بِضَاعَةُ الْعَرَبَةِ وَالسَّلَامُ : أَرْكَبُوا يَا أَوْلَادُ ، أَنْزِلُوا يَا أَوْلَادُ . هَذَا كُلُّ مَا أَسْمَعُ .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَكِنْ مَا بِأَنَّكَ سَاخِطًا عَلَيْهِمْ ، كَانَتْهُمْ أَوْلَادُ أَعْدَائِكَ ؟

قَالَ الْخُوذِي : لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَذِرِي أَيَّ رَجُلٍ سَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطِّفْلِ ، وَأَيَّةُ أَمْرَاءِ سَتَكُونُ مِنْ هَذِهِ الطُّفْلَةِ ؟

أَنْظُرْ كَيْفَ تَعَلَّقَتْ هَذِهِ أَلْبِنْتُ وَعُمُرُهَا سِتَانِ ، فِي عُنُقِ هَذَا أُلُوكِدِ الَّذِي كَانَ مِنْ سَتَيْنِ ابْنِ سَتَيْنِ^(١) . . . لَا أَرَانِي أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي أَطْفَالًا كَأَلْأَطْفَالِ الَّذِينَ تَحْمِلُهُمُ الْعَرَبَاتُ إِلَى أَبْوَابِ دُورِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ اللَّقَطَاءَ يُحْمَلُونَ إِلَى بَابِ الْمَلَجِ ، وَهُوَ بَابُ لِلْحَارَاتِ وَالسَّكَكِ لَا يَأْخُذُ إِلَّا مِنْهَا ، فَلَا يُرْسَلُ إِلَّا إِلَيْهَا .

أَنَا وَاللَّهِ يَا أَبَا هَاشِمٍ ، ضَيِّقُ الصَّدْرِ ، كَاسِفُ أَلْبَالٍ مِنْ هَذِهِ الْمِهْنَةِ ؛ وَيُحَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي لَا أَحْمِلُ فِي عَرَبَتِي إِلَّا الْجُنُونَ وَالْفُجُورَ وَالسَّرِقَةَ وَالْقَتْلَ وَالِدَّعَارَةَ وَالشُّكْرَ وَعَوَاصِفَ وَزَوَاجٍ . . .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ مَسَاكِينَ ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ .

قَالَ الْخُوذِي : نَعَمْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ذُنُوبٌ ؛ إِنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ إِنْ هُوَ إِلَّا جَرِيْمَةٌ تَثْبُتُ امْتِدَادُ الْإِنِّمِ وَالشَّرِّ فِي الدُّنْيَا ؛ وَلَدَنَّهُمْ أُمَهَاتُهُمْ لَغِيَّةٌ^(٢) .

فَقَطَعَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : وَهَلْ وَلَدَنَّهُمْ إِلَّا كَمَا تَلِدُ سَائِرُ الْأُمَهَاتِ أَوْلَادَهُنَّ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ عَمَلٌ وَاحِدٌ ، غَيْرَ أَنَّ أَحْوَالَهُ فِي الْجِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَتَكَافَأُ ؛ وَهَلْ تَسْتَوِي حَالُ مَنْ يَشْتَرِي الْمَتَاعَ ، وَمَنْ يَسْرِقُ الْمَتَاعَ ؟

هَلُنَا بَاعِثُ مِنَ الشَّهْوَةِ قَدْ عَجَزَ أَنْ يَسْمُوَ شُمُوهُ - وَمَا شُمُوهُ إِلَّا الزَّوْاجُ - فَتَسْقَلُ وَانْحَطَّ ، وَرَجَعَ فِسْفَاً ، وَعَادَ أَوَّلُهُ عَلَى آخِرِهِ : كَانَ أَوَّلُهُ جُرْمًا فَلَا يَزَالُ إِلَى آخِرِهِ جُرْمًا ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَعُودُ أَوَّلُهُ عَلَى آخِرِهِ ؛ فَلَمَّا حَمَلَتِ الْمَرْأَةُ وَفَاءَتْ إِلَى أَمْرِهَا ، وَذَهَبَ عَنْهَا جُنُونُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ مَعَا ؛ أَنْطَوَتْ لِلرَّجَالِ عَلَى الثَّأْرِ وَالْحِقْدِ وَالضُّغَيْنَةِ ؛ فَلَا يَكُونُ ابْنُ الْعَارِ إِلَّا ابْنُ هَذِهِ الشُّرُورِ أَيْضًا .

(١) تَعْبِيرٌ بِالتَّكْنَةِ عَلَى طَرِيقَةِ طَرَفَاءِ الْبَلَدِيِّينَ مِنْ أَشْثَالِ (أَبْنِي عَلِيٍّ) ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ابْنُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ .

(٢) وَلَدَنَهُ لَغِيَّةٌ ، أَيُّ : مِنْ سِفَاحٍ . وَصِدُّهُ لِرُشْدَةٍ بِفَتْحِ الرَّاءِ .

وَالْأُمّهَاتُ يُعَدِّدْنَ لِأَحْتِجَنَّهُ الثِّيَابَ وَالْأَكْسِيَةَ قَبْلَ أَنْ يُؤَلِّدُوا ، وَيُهَيِّئْنَ لَهُمْ بِالْفِكْرِ أَمَالًا وَأَحْلَامًا فِي الْحَيَاةِ ، فَيُكْسِنُهُمْ فِي بَطُونِهِنَّ شُعُورَ الْفَرَحِ وَالْإِبْتِهَاجِ وَارْتِقَابِ الْحَيَاةِ الْهَنِيئَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي السُّمُوءِ بِهَا ؛ وَلَكِنَّ أُمّهَاتِ هَؤُلَاءِ يُعَدِّدْنَ لَهُمُ الشُّوَارِعَ وَالْأَرْقَةَ مِنْذُ الْبَدءِ ، وَلَا تَتَرَقَّبُ إِحْدَاهُنَّ طَوْلَ أَشْهُرٍ حَمَلِهَا أَنْ يَجِيئَهَا الْوَلِيدُ ، بَلْ أَنْ يَتْرُكَهَا حَيًّا أَوْ مَقْتُولًا ؛ فَيُورِثُهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ أَجِنَّةُ شُعُورِ اللَّهْفَةِ وَالْحَسْرَةِ وَالْبُغْضِ وَالْمَقْتِ ، وَيَتَبَغَّعُهُمْ عَلَى فِكْرَةِ الْخَطِيئَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْقَتْلِ ، فَلَا يَكُونُ ابْنُ الْعَارِ إِلَّا ابْنُ هَذِهِ الرَّدَائِلِ أَيْضًا .

وَنَظَّلُ الْفَاسِقَةَ مَدَّةَ حَمَلِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي إِحْسَاسٍ خَائِفٍ ، مُتَرَقِّبٍ ، مُتَفَرِّدٍ بِنَفْسِهِ ، مُتَعَزِّلٍ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، نَاقِمٍ ، مُتَبَرِّمٍ ، مُتَسَتِّرٍ ، مُتَافِقٍ ؛ فَلَوْ كَانَ السَّفِينُحُ مِنْ أَبَوَيْنِ كَرِيمَيْنِ لَجَاءَ ثُغْبَانًا آدَمِيًّا فِيهِ سُمُّهُ مِنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْعَنِيفِ . وَمَتَى أَلْقَتِ الْفَاسِقَةُ ذَا بَطْنِهَا^(١) قَطَعَتْهُ لِنُورِهِ مِنْ رَوَابِطِ أَهْلِهِ وَزَمَنِهِ وَتَارِيخِهِ وَرَمَتْ بِهِ لِيَمُوتَ ؛ فَإِنْ هَلَكَ فَقَدْ هَلَكَ ، وَإِنْ عَاشَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَوْتُ آخَرُ شَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَهْمَا يَتَوَلَّهَ النَّاسُ وَالْمُحْسِنُونَ ، فَلَا يَزَالُ أَوَّلُهُ يَعُودُ عَلَى آخِرِهِ ؛ مِمَّا فِي دَمِهِ وَطَبَاعِهِ الْمَمُورُوتَةِ ؛ وَلَا يَبْرَحُ جَرِيمَةً مُمْتَدَّةً مُتَطَاوِلَةً ، وَلَا يَنْفُكُ قِصَّةَ فِيهَا زَانٍ وَزَانِيَةٍ ، وَفِيهَا خَطِيئَةٌ وَلَعْنَةٌ .

فَهَؤُلَاءِ كَمَا رَأَيْتَ أَوْلَادَ الْجُزْأَةِ عَلَى اللَّهِ ، وَالتَّعَدَّى عَلَى النَّاسِ ، وَالْإِسْتِخْفَافَ بِالسَّرَائِعِ ، وَالْإِسْتِهْزَاءَ بِالْفَضَائِلِ ؛ وَهُمْ الْبُغْضُ الْخَارِجُ مِنَ الْحُبِّ ، وَالْوَقَاحَةُ الْآيِيَّةُ مِنَ الْحَجَلِ ، وَالْإِسْتِهْزَاءُ الْمُتَبَعِثُ مِنَ اللَّدَامَةِ ؛ وَكُلُّ مِنْهُمْ مَسْأَلَةٌ شَرٌّ تَطْلُبُ حَلَّهَا أَوْ تَعْقِيدَهَا مِنَ الدُّنْيَا ، وَفِيهِمْ دِمَاءٌ فَوَارَةٌ تَجْمَعُ سُمُومَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا كَبُرُوا سَنَةً فَسَنَةً .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَاسِقِ الَّذِي أَغْتَرَّتْ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَاسْتَرْكَلَهَا وَهَوَّرَهَا فِي هَذِهِ الْمَهْوَاةِ . أَكَانَ حَقُّ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ هَذَا الْآدَمِيِّ . أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْآخِرُ هُوَ الْأَوَّلُ فِي الْإِعْتِبَارِ ، فَيَعْلَمُ أَنَّ هَذَا اللَّفِيطَ الْمُسْكِنَ هُوَ سَبِيلُهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَهُوَ الْبَلَاغُ إِلَى مَا يُحَاوِلُهُ مِنْهَا ؛ فَيَكُونُ كَأَنَّمَا دَخَلَ بَيْنَ الْأَثْنَيْنِ ثَالِثٌ يَرَاهُمَا . . . فَلَعَلَّهُمَا يَسْتَحْيَانِ .

(١) أَي : وَصَعَتْ وَوَلَدَتْ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَرَبِيٌّ بِلَيْغٍ .

قَالَ الْحُوذِيّ الْفَيْلَسُوفُ : لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَلَعَنَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا ، وَلَعَنَاتُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي انْقَادَتْ لَهُ وَأَغْتَرَتْ بِهِ . إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ شَيْئًا فِي هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ بَصْفَةً وَاحِدَةً تُعْرِفُهُ ، وَكَانَتْ صَفْعَةً وَاحِدَةً تَهْزِمُهُ ، وَكَانَ مَعَ الْمَرْأَةِ الْحُكُومَةُ وَالشَّرَائِعُ وَالْفَضَائِلُ ، وَمَعَهَا جَهَنَّمُ أَيْضًا .

أَلَمْ تَعْلَمْ الْحَقَمَاءُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ زَوْجًا لَهَا لَيْسَ رَجُلًا مَعَهَا ، وَأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَوْ أُيْقِنَتْ أَنَّهُ رَجُلٌ لَمَا حَرَمَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُخَالِطَهُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي سَاوَرَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، بَلْ هِيَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ الَّتِي رَأَتْ فِي الْمَرْأَةِ مُسْتَوْدَعَهَا ، فَتَرِيدُ أَنْ تَفْتَحِمَ إِلَى مَقَرِّهَا عَنَوَةً أَوْ خِدَاعًا أَوْ رِضًى أَوْ كَمَا يَتَّفِقُ ؛ إِذْ كَانَ قَانُونُ هَذِهِ الْمَادَّةِ أَنْ تُوجَدَ ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا أَنْ تُوجَدَ ؛ فَلَا تُعْرِفُ خَيْرًا وَلَا شَرًّا ، وَلَا فَضِيلَةً وَلَا رَذِيلَةً .

لَا يَهُمَا يَجِبُ التَّخَصُّيْنُ : أَلِلِّصَاعِقَةِ الْمُنْقَضَةِ ، أَمْ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُخْشَى أَنْ تَنْقُضَ عَلَيْهِ ؟ لَقَدْ أَجَابَتْ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ : حَصَّنُوا الْمَكَانَ . وَلَكِنَّ الْمَدِينَةَ أَجَابَتْ : حَصَّنُوا الصَّاعِقَةَ ... !

* * *

وَكَانَتِ الْمَرَاتَانِ الْمَصَاحِبَتَانِ لِبِجَاعَةِ اللَّقْطَاءِ تَتَنَاجِيَانِ ، فَقَالَتِ الْكُبْرَى مِنْهُمَا : يَا حَسْرَتًا عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ الْمَسَاكِينِ ! إِنَّ حَيَاةَ الْأَطْفَالِ فِيمَا فَوْقَ مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، أَيْ فِي سُرُورِهِمْ وَأَفْرَاحِهِمْ ؛ وَحَيَاةَ هَؤُلَاءِ الْبَائِسِينَ فِيمَا هُوَ دُونَ مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، أَيْ فِي وَجُودِهِمْ فَقَطْ .

وَكَبِيرُ الْأَطْفَالِ يَكُونُ مِنْهُ إِدْخَالُهُمْ فِي نِظَامِ الدُّنْيَا ، وَكَبِيرُ هَؤُلَاءِ إِخْرَاجُهُمْ مِنَ « الْمَلْجَأِ » وَهُوَ كُلُّ النَّظَامِ فِي دُنْيَاهُمْ ، لَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا التَّشْرِيدُ وَالْفَقْرُ وَابْتِدَاءُ الْفِصَّةِ الْمُحْزَنَةِ .

فَقَالَتِ الصُّغْرَى : وَلِمَ لَا يَفْرَحُونَ كَأَوْلَادِ النَّاسِ ، أَلَيْسَتْ الطَّبِيعَةُ لَهُمْ جَمِيعًا ، وَهَلْ تَجْمَعُ الشَّمْسُ أَشْعَتَهَا عَنْ هَؤُلَاءِ لِتُضَاعِفَهَا لِأَوْلَادِكَ ؟

قَالَتْ الْأُخْرَى : الطَّبِيعَةُ ؟ تَقُولِينَ الطَّبِيعَةُ ؟ إِنَّكَ يَا ابْنَتِي عَذْرَاءٌ لَمْ تَبْدَأْ فِي حَيَاتِكَ

حَيَاةً بَعْدُ ، وَلَمْ تُجَاوِبِي بِقَلْبِكَ أَلْتَلَبِ الصَّغِيرَ الَّذِي كَانَ تَحْتَ قَلْبِكَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتِ مَعَ هَؤُلَاءِ (مُوظَّفَةٌ) لَا تَعْرِفِينَ مِنْهُمْ إِلَّا جَانِبَ النُّظَامِ وَقَانُونَ الْمَلْجَأِ .

لَقَدْ وَلَدْتُ يَا ابْنَتِي خَمْسَةَ أَطْفَالٍ ، وَيَا لَعَيْنِ الْبَلِيغَةِ الَّتِي أَنْظَرُ بِهَا إِلَيْهِمْ أَنْظَرُ إِلَى هَؤُلَاءِ ؛ فَمَا أَرَاهُمْ إِلَّا مُنْقَطِعِينَ مِنْ صِلَةِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ : يَغِيسُ لَهُمْ حَتَّى الْجَوُّ ، وَيُظْلِمُ عَلَيْهِمْ حَتَّى الثُّورُ ؛ وَيَبْدُو الطِّفْلُ مِنْهُمْ عَلَى صِغَرِهِ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ الْغَمَّ الْمُقْبِلَ عَلَيْهِ طَوْلَ عُمُرِهِ .

يَا لَهْفِي عَلَى عُودِ أَخْضَرَ نَاعِمِ رَيَّانَ كَانَ لِلشَّمْرِ فَقِيلَ لَهُ : كُنْ لِلْحَطَبِ !

الْفَرْحُ يَا ابْنَتِي هُوَ سُعُورُ الْحَيِّ بِأَنَّهُ حَيٌّ كَمَا يَهْوَى ، وَرُؤْيَتُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ فِي الْحَيَاةِ الْخَاصَّةِ بِهِ . وَهَؤُلَاءِ اللَّقَطَاءُ فِي حَيَاةٍ عَامَّةٍ قَدْ نَزَعَتْ مِنْهَا الْأُمُّ وَالْأَبُ وَالْأَبُ وَالْأَبُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَاضٍ كَالْأَطْفَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يَبْدُؤُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَا مِنْ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ .

قَالَتِ الصَّغِيرَةُ : وَلَكِنَّهُمْ أَطْفَالٌ .

قَالَتْ تِلْكَ : نَعَمْ يَا ابْنَتِي هُمْ أَطْفَالٌ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ طُرِدُوا مِنْ حُقُوقِ الطُّفُولَةِ كَمَا طُرِدُوا مِنْ حُقُوقِ الْأَهْلِ . وَحَسْبُكَ بِشَقَاءِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ مِنْ حَنَانِ أُمِّهِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقْتُلْهُ ، وَلَا مِنْ شَفَقَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا طَرَحَتْهُ فِي الطَّرِيقِ .

إِنَّ الطَّيِّبَةَ كُلَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تُعْطِيَ أَحَدَهُمْ مَكَانًا كَالْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يَبْتَوُّهُ بَيْنَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

لَيْسَ الْأَطْفَالُ يَا ابْنَتِي إِلَّا صُورًا مُبْهَمَةً صَغِيرَةً مِنْ كُلِّ جَمَالِ الْعَالَمِ ، تُفَسِّرُهَا أَعْيُنُ ذَوِيهِمْ بِكُلِّ التَّفَاسِيرِ الْقَلْبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ؛ فَأَيْنَ أَيْنَ الْعُيُونُ الَّتِي فِيهَا تَفْسِيرُ هَذِهِ الصُّورِ اللَّقِيطَةِ ؟

أَلَا لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ عَلَى أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ الْأَنْذَالِ الطَّغَامِ الَّذِينَ أَوْلَدُوا النِّسَاءَ هَؤُلَاءِ الْمُنْبُذِينَ ! يَزْعُمُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الرُّجُولَةَ ، فَهَلْذِهِ هِيَ رُجُولَتُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا ، هَلْذِهِ هِيَ شَهَامَتُهُمْ ، هَلْذِهِ هِيَ عَقُولُهُمْ ، هَلْذِهِ هِيَ آدَابُهُمْ . . . !

عَجَبًا ، إِنَّ سَيِّئَاتِ اللُّصُوصِ وَالْقَتْلَةِ كُلَّهَا يُنْسَى وَيَتَلَاشَى ، وَلَكِنَّ سَيِّئَاتِ الْعُشَاقِ

وَالْمُحِبِّينَ تَعِيشُ وَتَكْبُرُ . . .

أَكَانَ ذَنْبُ الْمَرْأَةِ أَنَّهَا صَادِقَةٌ فَصَدَّقَتْ ، وَأَنَّهَا مُخْلِصَةٌ فَأَخْلَصَتْ ، وَأَنَّهَا رَقِيقَةٌ فَلَانَتْ ، وَأَنَّهَا مُحْسِنَةٌ فَرَحِمَتْ ، وَأَنَّهَا سَلِيمَةٌ الْقَلْبِ فَأَنْخَدَعَتْ ؟

وَكَابِدِي لِلْمُسْكِينَةِ ! هَلِ أَنْخَدَعَتْ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْأُمُومَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا ؟ هَلِ أَنْخَدَعَتْ إِلَّا الْأُمُّ الَّتِي فِيهَا ؟ وَهَلِ خَدَعَهَا مِنْ ذَلِكَ اللَّئِيمِ إِلَّا الْأَبُ الَّذِي فِيهِ ؟

وَكَابِدِي لِمَنْ تُفْجَعُ بِالْكُتْبَةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثَ فَجَائِعَ : فِي كَرَامَتِهَا الَّتِي أَبْذَلَتْ ، وَفِي الْحَنِيبِ الَّذِي تَبَرَّأَ مِنْهَا ، وَفِي طِفْلِهَا الَّذِي قَطَعْتَهُ بِيَدِهَا مِنْ قَلْبِهَا وَتَرَكْتَهُ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ . . . !

إِنَّ هَذَا لَا يُعْوَضُهُ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَنْذَالِ ثَلَاثُ أَرْوَاحٍ ، فَيَقْتُلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : وَاحِدَةً بِالسَّنِقِ ، وَالثَّانِيَةَ بِالْحَرْقِ ، وَالثَّالِثَةَ بِالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ .

* * *

وَكَانَ اللَّقْطَاءُ قَدْ تَبَعْتَرُوا عَلَى السَّاحِلِ جَمَاعَاتٍ وَشَتَّى ، فَوَقَفَ أَحَدُهُمْ عَلَى طِفْلِ صَغِيرٍ يَلْعَبُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأُمُّهُ عَلَى كَتَبٍ مِنْهُ ، وَهِيَ تَنْهَلُ بِالْمُحَرَّمِ تَلَوَّى فِيهِ أَصَابِعُهَا . فَظَرَ الطِّفْلُ إِلَى اللَّقِيطِ وَأَوْمَأَ إِلَى جَمَاعَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتُمْ جَمِيعًا أَوْلَادُ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ أَمْ إِحْدَاهُمَا ؟

قَالَ اللَّقِيطُ : هُمَا الْمُرَاقِبَتَانِ ؛ وَأَنْتِ أَفْلَيْسَتْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ مُرَاقِبَةٌ ؟

قَالَ الطِّفْلُ : مَا مَعْنَى مُرَاقِبَةٌ ؟ هَذِهِ مَامَا !

قَالَ الْآخَرُ : فَمَا مَعْنَى مَامَا ؟ هَذِهِ مُرَاقِبَةٌ .

قَالَ الطِّفْلُ : وَكُلُّكُمْ أَهْلُ دَارٍ وَاحِدَةٍ ؟

قَالَ : نَحْنُ فِي الْمَلْجَأِ ، وَمَتَى كَبُرْنَا أَخَذُونَا إِلَى دُورِنَا .

فَقَالَ الطِّفْلُ : وَهَلِ تَبْكِي فِي الْمَلْجَأِ إِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا لِيُعْطُوكَ ؛ ثُمَّ تَغْضَبُ إِذَا أَعْطُوكَ

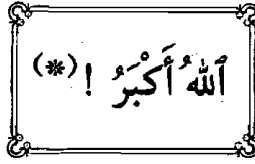
لَيَزِيدُوكَ ؟ وَهَلْ يُسَكِّنُوكَ بِالْقَرْشِ وَالْحُلُوى ؟ وَالْقُبْلَةَ عَلَى هَذَا الْخَدِّ وَعَلَى هَذَا الْخَدِّ ؟
 إِنْ كَانَ هَذَا فَأَنَا أَذْهَبُ مَعَكُمْ إِلَى الْمَلْجَأِ ؛ فَإِنَّ أَبِي قَدْ ضَرَبَنِي الْيَوْمَ ، وَقَدْ أَمَرَ (مَا مَا) أَنْ
 لَا تُعْطِيَنِي شَيْئًا إِذَا بَكَيْتُ ، وَلَا تَزِيدَنِي إِذَا غَضِبْتُ ، وَلَا

وَهُنَا صَاحَتِ الْمُرَاقِبَةُ الصَّغِيرَةُ : تَعَالِ يَا رَفَمَ عَشْرَةَ . . . فَلَوَى اللَّقِيطُ الْمِسْكِينُ
 وَجْهَهُ ، وَأَنْصَاعَ وَأَذْبَرَ .

« وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوُجُوهِ بَيِّنَةٍ ، يَقْرَأُ مَنْ يَقْرَأُ فِيهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِينَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ
 أَنْ لَا حَقَّ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا هَذَا الْإِحْسَانُ الْبَخْسَ الْقَلِيلَ » . . .

مصطفى صادق الرافعي

إسكندرية



جَلَسْتُ وَقَدْ مَضَى هَزِيعٌ مِنَ اللَّيْلِ ، أَهَيْئُ فِي نَفْسِي بِنَاءَ قِصَّةٍ أُدِيرُهَا عَلَى فَتَى كَمَا أَحَبُّ . . . خَبِثٌ دَاعِرٌ ، وَفَتَاةٌ كَمَا أَحَبَّتْ . . . عَذْرَاءٌ مُتَمَاجِنَةٌ ؛ كِلَاهُمَا قَدْ دَرَسَ وَتَخَرَّجَ فِي ثَلَاثَةِ مَعَاهِدَ : الْمَدْرَسَةِ ، وَالرَّوَايَاتِ الْغَرَامِيَّةِ ، وَالسَّيْمَا . وَهُوَ مُضَرِّي مُسْلِمٌ ، وَهِيَ مُضَرِّيَّةٌ مَسِيحِيَّةٌ . وَلِلْفَتَى هُنَاكَ وَسَيَّاتٌ لَا يَنْتَرُهُ وَلَا يَتَوَرَّعُ ؛ وَهُوَ مِنْ شَبَابِهِ كَالْمَاءِ يَغْلِي ، وَمِنْ أَثَاقَتِهِ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَلَحُّقَهُ تَاءُ الثَّانِيَةِ . . . وَقَدْ تَشَعَّبَتْ بِهِ فُتُونُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، فَرَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْ قَلْبِهِ لَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ ؛ وَهُوَ طَلَبُ نِسَاءٍ ، دَابُّهُ التَّجَوُّالُ فِي طُرُقِهِنَّ ، يَتَّبِعُهُنَّ وَيَعْرِضُ لَهُنَّ ، وَقَدْ أَلْفَتُهُ الطَّرِيقُ حَتَّى لَوْ تَكَلَّمْتُ لَقَالَتْ : هَذَا ضَرْبٌ عَجِيبٌ مِنْ عَرَبَاتِ الْكُنُسِ . . . !

وَلِلْفَتَاةِ تَبَرُّجٌ وَتَهْتُّكٌ ، يَعْثُ بِهَا الْعَبَثُ نَفْسُهُ ، وَقَدْ أَخْرَجَتْهَا فُتُونُ هَذَا الثَّلَاثِ الْأَوْرَبِيِّ الْقَائِمِ عَلَى فِلْسَفَةِ الْغَرِيزَةِ ، وَمَا يُسَمُّونَهُ « الْأَدَبُ الْمَكْشُوفُ » كَمَا يُصَوِّرُهُ أُولَئِكَ الْكُتَّابُ الَّذِينَ نَقَلُوا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ فِلْسَفَةَ الشَّهَوَاتِ الْخُرَّةِ عَنِ الْبَهَائِمِ الْخُرَّةِ . . . فَهِيَ تَبْرُزُ حِينَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا ، لَا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَلَكِنْ إِلَى نَظَرَاتِ الرِّجَالِ ؛ وَتَظْهَرُ حِينَ تَظْهَرُ ، مُصَوِّرَةٌ لَا يَتَلَوَّنُ نَفْسُهَا مِمَّا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ ، وَلَكِنْ يَتَلَوَّنُ مِرَاتِهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكِلَا أَتْنِيهِمَا لَا يُعْنِمُ وَزَنَا لِلدِّينِ ، وَالْمُسْلِمُ وَالْمَسِيحِيُّ مِنْهُمَا هُوَ الْأَسْمُ وَحْدَهُ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ وَضْعِ أُولَئِكَ الدِّينِ (رَحِمَهُمَا اللَّهُ) ؛ وَالَّذِينَ حُرِّيَّةُ الْقَيْدِ لَا حُرِّيَّةُ الْخُرَّةِ ؛ فَأَنْتَ بَعْدَ أَنْ تُقَيِّدَ رَذَائِلَكَ وَضَرَاوَتَكَ وَشَرَكَ وَحَيَوَانِيَّتَكَ - أَنْتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا حُرٌّ مَا وَسَعَتِكَ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَالْفَكْرُ ؛ لِأَنَّكَ مِنْ بَعْدِ هَذَا مُكْمَلٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، مُسْتَعْنِمٌ عَلَى طَرِيقَتِهَا ؛ وَلَكِنْ هَبْ حِمَارًا تَفْلَسَفَ وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِعَقْلِهِ الْحِمَارِيِّ ؛ أَيِ تَقْرِيرِ الْمَذْهَبِ الْفَلَسَفِيِّ

الْحِمَارِي فِي الْأَدَبِ . . . فَهَذَا إِنَّمَا يَتَّبِعِي إِطْلَاقَ حُرِّيَّتِهِ ، أَيْ : تَسْلِيْطَ حِمَارِيَّتِهِ الْكَامِلَةِ عَلَى كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْوُجُودِ .

وَتَمَضِي قِصَّتِي فِي أَسَالِيْبٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمْتَحِنُ بِهَا فُتُوْنُ هَذِهِ الْفَتَاةِ شَهَوَاتِ هَذَا الْفَتَى ، فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مِنْ حَيْثُ لَا يَصِلُ ، وَلَا تَزَالُ تَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُدُّهُ ؛ وَمَا ذَلِكَ مِنْ فَضِيلَةٍ وَلَا امْتِنَاعٍ ، وَلَكِنَّهَا غَرِيزَةُ الْأُنُوْتَةِ فِي الْأَسْتِمْتَاعِ بِسُلْطَانِهَا ، وَإِثْبَاتِهَا لِلرَّجُلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ قُوَّةُ الْأَنْظَارِ ، وَقُوَّةُ الصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ هَذِهِ الَّتِي تَحْمِلُ جَنِيَّتَهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي جَوْفِهَا ، تُمَسِّكُ رَغَبَتَهَا فِي نَفْسِهَا مَدَّةَ حَمْلِ فِكْرِي إِذَا هِيَ أَرَادَتْ الْحَيَاةَ لِرَغَبَتِهَا ، لِيَكُونَ لِقُوعِهَا وَتَحَقُّقِهَا مِثْلُ الْمِيلَادِ { الْمُنْفَرِحِ } .

وَلَكِنْ الْمِيلَادُ فِي قِصَّتِي لَا يَكُونُ لِرَذِيْلَةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ ، بَلْ لِفَضِيلَتِهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ فِي رَأْيِي - وَلَوْ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَحْدُوْدَةً مِنْ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ بِكَبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَاحِشَةِ - لَا يَزَالُ فِيهَا مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْحُدُوْدِ كُلِّهَا قَلْبٌ طَيِّعُهُ الْأُمُوْمَةُ ، أَيْ : الْأَتِّصَالُ بِمَصْدَرِ الْخَلْقِ ، أَيْ : كُلِّ فَضَائِلِ الْعَقِيْدَةِ وَالْدِّينِ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَنْبَنَى هَذَا الْقَلْبُ بِحَادِثٍ يَتَّصِلُ بِهِ فَيَبْلُغُ مِنْهُ ، حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْمَرْأَةُ تَحَوُّلَ الْأَرْضِ مِنْ فَضْلِهَا الْمُقْشَعِرِّ الْمُجْدِبِ ، إِلَى فَضْلِهَا النَّصِيرِ الْأَخْضَرِ .

فَفِي قِصَّتِي تُذَعِّنُ الْفَتَاةُ لِصَاحِبِهَا فِي يَوْمٍ قَدْ أَعْتَرَتْهَا فِيهِ مَخَافَةٌ ، وَنَزَلَ بِهَا هَمٌّ ، وَكَادَتْهَا الْحَيَاةُ مِنْ كَيْدِهَا ؛ فَكَانَتْ ضَعِيفَةً النَّفْسِ بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ . وَتَخْلُو بِالْفَتَى وَفِكْرُهَا مُنْصَرَفٌ إِلَى مَصْدَرِ الْغَيْبِ ، مُؤَمِّلٌ فِي رَحْمَةِ الْقَدَرِ ؛ وَيَخْلِيهَا الشَّابُّ خِلَابَةَ رُغُوْتِهِ وَحُبِّهِ وَلِسَانِهِ ، فَيُعْطِيهَا الْأَلْفَاظَ كُلِّهَا فَارِغَةً مِنَ الْمَعَانِي ، وَيَقْرَأُ بِالزَّوْاجِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى الطَّلَاقِ بَعْدَ سَاعَةٍ ؛ فَإِذَا أَوْشَكَتِ الْفَتَاةُ أَنْ تُضْرَعَ تِلْكَ الصَّرْعَةُ دَوَى فِي الْعَجُوْ صَوْتِ الْمُوَدَّدِينَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! » .

وَتُلْسَعُ الْفَتَاةُ فِي قَلْبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِهَذَا الْقَلْبِ رُوحَانِيَّةُ الْكَلِمَةِ ، فَتَقَعُ الْحَيَاةُ السَّمََاوِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَتَنْتَبِهُ الْعُذْرَاءُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ عَارَهَا ، وَيَفْجُوْهَا أَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ عَلَى أَنْ تُفْسِدَ مِنْ نَفْسِهَا مَا لَا يَصْلِحُهُ الْمُسْتَحِيلُ فَضْلًا عَنِ الْمُمْكِنِ ، وَتَرْزُوْهُنَّ بَعَيْنِ الْفَتَاةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَى جِسْمِ بَغْيٍ لَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ الَّتِي هِيَ ؛ وَتَنْتَظِرُ بَعَيْنِ الزَّوْجَةِ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَى فَاسِقِ

لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ ؛ وَيَخْكِي لَهَا الْمَكَانُ فِي قَلْبِهَا الْمَفْظُورِ عَلَى الْأُمُومَةِ - حِكَايَةُ تَنُورٍ مِنْهَا وَتَشْمِئُزْ ؛ وَيَصْرُخُ الطِّفْلُ الْمُسْكِنُ صَرَخَتُهُ فِي أُذُنِهَا قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ وَيُلْقَى فِي الشَّارِعِ ... !

اللَّهُ أَكْبَرُ ! صَوْتُ رَهَيْبٍ لَيْسَ مِنْ لَعْنَةِ صَاحِبِهَا وَلَا مِنْ صَوْتِهِ وَلَا مِنْ خِسَّتِهِ ، كَأَنَّمَا تُفْرَغُ السَّمَاءُ فِيهِ مِلءٌ سَحَابَةٍ عَلَى رِجْسٍ قَلْبِهَا فَتَنْقِيهِ حَتَّى لَيْسَ بِهِ ذَرَّةٌ مِنْ دَنَسِهِ الَّذِي رَكِبَهُ السَّاعَةِ . كَانَ لِصَاحِبِهَا فِي حِسِّ أَغْصَابِهَا ذَلِكَ الصَّوْتُ الْأَسْوَدُ ، الْمُنْطَفِئُ ، الْمُبْهَمُ ، الْمُتَلَجِّجُ مِمَّا فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ شَهَوَاتِهِ ؛ وَكَانَ لِلْمُؤَدِّنِ صَوْتُ آخَرٍ فِي رُوحِهَا ؛ صَوْتُ أَحْمَرٍ ، مُشْتَعِلٌ كَمَعْمَعَةِ الْحَرِيقِ ، مُجَلْجِلٌ كَالرَّعْدِ ، وَاضِحٌ كَالْحَقِيقَةِ فِيهِ قُوَّةُ اللَّهِ !

سَمِعَتْ صَوْتَ السَّلْسِلَةِ وَقَعَقَعَتْهَا تُلَوَّى وَتُشَدُّ عَلَيْهَا ، ثُمَّ سَمِعَتْ صَوْتَ السَّلْسِلَةِ بِعَيْنِهَا يَكْسُرُ حَدِيدُهَا وَيَتَحَطَّمُ .

كَانَتْ طَهَارَتُهَا تَحْتَنِقُ فَفَقَدَتْ إِلَيْهَا السَّمَمَاتُ ؛ وَطَارَتْ الْحَمَامَةُ حِينَ دَعَاها صَوْتُ الْجَوِّ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَسْفَتْ حِينَ دَعَاها صَوْتُ الْأَرْضِ . طَارَتْ الْحَمَامَةُ ، لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ أَلْتَفَتَتْ فِيهَا لَفْتَةً أُخْرَى .

وَيَكْرُرُ الْمُؤَدِّنُ فِي خِتَامِ أَذَانِهِ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ! » فَإِذَا ...

* * *

وَتَبَلَّدَ خَاطِرِي ، فَوَقَفْتُ فِي بِنَاءِ الْقِصَّةِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وَلَمْ أَذَرِ كَيْفَ يَكُونُ جَوَابُ « إِذَا ... » فَتَرَكْتُ فِكْرِي يَعْمَلُ عَمَلَهُ كَمَا تُلْهِمُهُ الْوَاعِيَةُ الْبَاطِنَةُ ، وَنِمْتُ ...

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي أَنِّي أَدْخَلُ الْمَسْجِدَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ وَهُوَ يَعْجُ بِتَكْبِيرِ الْمُصَلِّينَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ! » وَلَهُمْ هَدِيرٌ كَهْدِيرِ الْبَحْرِ فِي تَلَاطِمِهِ . وَأَرَى الْمَسْجِدَ قَدْ غَصَّ بِالنَّاسِ فَاتَّصَلُوا وَتَلَاَحَمُوا ؛ تَجِدُ الصَّفَّ مِنْهُمْ عَلَى أَسْتَوَائِهِ كَمَا تَجِدُ السَّطْرَ فِي الْكِتَابِ : مَمْدُودًا مُخْتَبِكًا يَنْتَظِمُهُ وَضْعٌ وَاحِدٌ ، وَأَرَاهُمْ تَتَابَعُوا صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ ، وَنَسَقًا عَلَى نَسَقٍ ، فَالْمَسْجِدُ بِهِمْ كَالسُّبْبَلَةِ مُلِئَتْ حَبًّا مَا بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ؛ كُلُّ حَبَّةٍ هِيَ فِي لِفِّ مِنْ أَهْلِهَا وَشَمْلِهَا ، فَلَيْسَ فِيهِمْ عَلَى الْكَثْرَةِ حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ تُمَيِّرُهَا السُّبْبَلَةُ فَضْلَ تَمْيِيزٍ ، لَا فِي الْأَعْلَى

وَلَا فِي الْأَسْفَلِ .

وَأَفْتُ مُتَحَيِّرًا مُتَلَدِّدًا أَلْتَفِتْ هَلْهَنَا وَهَلْهَنَا ، لَا أَدْرِي كَيْفَ أَخْلَصُ إِلَى مَوْضِعِ أَجْلَسُ فِيهِ ؛ ثُمَّ أَمْضِي أَنْخَطِي الرِّقَابَ أَطْمَعُ فِي فُرْجَةٍ أَفْتَحِمُهَا وَمَا تَنْفَرُجُ ، حَتَّى أَنْتَهِيَ إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ ؛ وَأَنْظُرُ إِلَى جَانِبِ الْمِخْرَابِ شَيْخًا بَادِنًا يَمْلَأُ مَوْضِعَ رَجُلَيْنِ ، وَقَدْ نَفَخَ مِنْهُ رِيحُ الْمِسْكِ ، وَهُوَ فِي ثِيَابٍ مِنْ سُندُسٍ خُضِرَ ؛ فَلَمَّا حَادَيْتُهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وَأَنْكَمَشَ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ يُطَوِّى طَيًّا ، وَرَأَيْتُ مَكَانًا وَسِعَنِي فَحَطَطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِهِ ، وَأَنَا أَعْجَبُ لِلرَّجُلِ كَيْفَ ضَاقَ وَلَمْ أَضِيقْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ذَهَبَ نِصْفُهُ الضَّخْمُ وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضِهِ زَيْمًا عَلَى زَيْمٍ ^(١) وَأَمْتِلَاءَ عَلَى أَمْتِلَاءَ .

وَجَعَلْتُ أَحْدُسُ عَلَيْهِ ظَنِّي ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ قَدْ تَمَثَّلَ فِي الصُّورَةِ الْأَدَمِيَّةِ فَانْتَمَتَ فِيهَا لِأَمْرِ مِنَ الْأَمْرِ .

وَضَحَّ النَّاسُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ! » فِي صَوْتٍ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مِمَّا أَلْفُوا الْكَلِمَةَ وَمِمَّا جَهِلُوا مِنْ مَعْنَاهَا - لَا يَسْمَعُونَهَا إِلَّا كَمَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ ؛ أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي فَكَانَ يَتَنَفَّضُ لَهَا انْتِفَاضَةً رَجَّتْنِي مَعَهُ رَجًّا ، إِذْ كُنْتُ مُلتَصِقًا بِهِ مُتَاكِبًا لَهُ ؛ وَكَأَنَّ الْمَسْجِدَ فِي نَفْصِهِ إِثَانًا كَانَ فِطَارًا يَجْرِي بِنَا فِي سُرْعَةِ السَّحَابِ ، فَكُلُّ مَا فِيهِ يَزْنَجُ وَيَهْتَرُ . وَرَأَيْتُ صَاحِبِي يَذْهَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَتَلَأَلُ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ لِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ ، كَأَنَّ هُنَاكَ مِصْبَاحًا لَا يَزَالُ يَنْطَفِئُ وَيُسْتَعِلُّ ؛ فَقَطَعْتُ الرَّأْيَ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَكَبَّرَ الْإِمَامُ وَكَبَّرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ ، وَكُنْتُ قَرَأْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ صَلَّى خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ عِظَمَاءِ الثُّقُوفِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؛ قَالَ : فَلَمَّا كَبَّرَ قَالَ : « اللَّهُ . . . » ثُمَّ بُهِتَ وَبَيَّيَ كَأَنَّهُ جَسَدٌ لَيْسَ بِهِ رُوحٌ مِنْ إِجْلَالِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ ثُمَّ قَالَ : « أَكْبَرُ » يَغْرِمُ بِهَا عِزْمًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّ قَلْبِي قَدْ انْقَطَعَ مِنْ هَيْبَةِ تَكْبِيرِهِ .

قُلْتُ أَنَا : أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي ، فَلَمَّا كَبَّرَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا يَنْبَشُّ مِنْ رُوحِهِ وَيَسْتَطِيرُ ،

(١) { أَيُّ : كُنَّا عَلَى كُتْلٍ ، وَالزَّيْمُ : الْمُنْفَرِقُ مِنَ اللَّحْمِ } .

فَلَوْ كَانَ الصَّوْتُ نُورًا لَمَلَأَ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَالضُّحَى .

* * *

وَعَرَفْتُ وَاللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْمَسْجِدِ مَا لَمْ أَعْرِفْ ، حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَدْخُلْهُ مِنْ قَبْلُ ، فَكَانَ هَذَا الْجَالِسُ إِلَى جَانِبِي كَضَوْءِ الْمِصْبَاحِ فِي الْمِصْبَاحِ ؛ فَانْكَشَفَ لِي الْمَسْجِدُ فِي نُورِهِ الرُّوحِيِّ عَنْ مَعَانٍ أَدْخَلْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَا عَلَى حِدَةٍ . فَمَا الْمَسْجِدُ بِنَاءٌ وَلَا مَكَانًا كَغَيْرِهِ مِنَ الْبِنَاءِ وَالْمَكَانِ ، بَلْ هُوَ تَضَحُّيْجٌ لِلْعَالَمِ الَّذِي يَمُوجُ مِنْ حَوْلِهِ وَيَضْطَرِبُ ؛ فَإِنَّ فِي الْحَيَاةِ أَسْبَابَ الزَّيْغِ وَالْبَاطِلِ وَالْمُنَافَسَةِ وَالْعِدَاوَةِ وَالْكَيْدِ وَنَحْوِهَا ، وَهَذِهِ كُلُّهَا يَمْحُوهَا الْمَسْجِدُ إِذْ يَجْمَعُ النَّاسَ مَرَارًا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى سَلَامَةِ الصَّدْرِ ، وَبَرَاءَةِ الْقَلْبِ ، وَرُوحَانِيَّةِ النَّفْسِ ؛ وَلَا تَدْخُلُهُ إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَاهِرَةً مُتَرَهَةً مُسَبِّغَةً عَلَى حُدُودِ جِسْمِهَا مِنْ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ شِعَارَ الطُّهْرِ الَّذِي يُسَمَّى الْوُضُوءَ ، كَأَنَّمَا يَغْسِلُ الْإِنْسَانُ أَثَارَ الدُّنْيَا عَنْ أَعْضَائِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدَ .

ثُمَّ يَسْتَوِي الْجَمِيعُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أَسْتِوَاءً وَاحِدًا ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا ، وَيَخْشَعُونَ خُشُوعًا وَاحِدًا ، وَيَكُونُونَ جَمِيعًا فِي نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ ، بَلْ يَخْرُونَ إِلَى الْأَرْضِ جَمِيعًا سَاجِدِينَ لِلَّهِ ؛ فَلَيْسَ لِرَأْسٍ عَلَى رَأْسٍ أَرْتَعَاعٌ ، وَلَا لَوَجْهِ عَلَى وَجْهِ تَمْيِيزٌ ؛ وَمَنْ ثَمَّ فَلَيْسَ لِذَاتٍ عَلَى ذَاتٍ سُلْطَانٌ . وَهَلْ تُحَقِّقُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَخَدَتَهَا فِي النَّاسِ بِأَبَدٍ مِنْ هَذَا ؟ وَلَعَمْرِي أَتَيْنَ يَجِدُ الْعَالَمُ صَوَابَهُ إِلَّا هَهُنَا ؟

فَالْمَسْجِدُ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَوْضِعُ الْفِكْرَةِ الْوَاحِدَةِ الطَّاهِرَةِ الْمُصَحَّحَةِ لِكُلِّ مَا يَزِينُ بِهِ الْأَجْتِمَاعُ . هُوَ فِكْرٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ الرُّوُوسِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ حُلٌّ وَاحِدٌ لِكُلِّ الْمَشَاكِلِ ، وَكَمَا يُشَقُّ النَّهْرُ فَتَقِفُ الْأَرْضُ عِنْدَ شَاطِئِهِ لَا تَتَقَدَّمُ ، يُقَامُ الْمَسْجِدُ فَتَقِفُ الْأَرْضُ بِمَعَانِيهَا الثَّرَائِبِ خَلْفَ جُدْرَانِهِ لَا تَدْخُلُهُ .

* * *

وَمَا حَرَكَةٌ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا أَوَّلُهَا : « اللَّهُ أَكْبَرُ » وَآخِرُهَا : « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛ فَبَيْنَ رَكَعَتَيْنِ مِنْ كُلِّ صَلَاةٍ إِحْدَى عَشْرَةَ تَكْبِيرَةً يَجْهَرُ الْمُصَلِّونَ بِهَا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ؛ وَكَأَنِّي لَمْ أَفْطِنَ لِهَذَا مِنْ

قَبْلُ ، فَأَيُّ زَمَانٍ سِيَاسِيٍّ لِلْجَمَاهِيرِ وَرُوحَانِيَّتِهَا أَشَدُّ وَأَوْثَقُ مِنْ زَمَانٍ هَذِهِ الْكَلِمَةِ { أَلَتِي هِيَ أَكْبَرُ مَا فِي الْكَلَامِ الْإِنْسَانِي } ؟

* * *

وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ سَلَّمْتُ عَلَى الْمَلِكِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ ، وَرَأَيْتُهُ مُقْبِلًا مُخْتَفِيًا ، وَرَأَيْتَنِي أَتِيًّا فِي نَفْسِهِ ، وَجَالَتْ فِي رَأْسِي الْخَوَاطِرُ فَتَذَكَّرْتُ الْقِصَّةَ الَّتِي أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَهَا ؛ وَأَنَّ الْمُؤَدَّنَ يَكْرَهُ فِي خَاتِمَةِ أَذَانِهِ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ » فَإِذَا ...

وَقُلْتُ : لَأَسْأَلَهُ ، وَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَالَتِي أَسْطَرٌ يُلْهِمُهَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ! وَلَمْ أَكْذِ أَرْفَعُ وَجْهِي إِلَيْهِ حَتَّى قَالَ :

« ... فَإِذَا لَطَمَتَانِ عَلَى وَجْهِ الشَّيْطَانِ ، فَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ؛ وَوَضَعَتِ الْكَلِمَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعْنَاهَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ قَلْبِ الْفَتَاةِ ، فَلَأَيَّا بِلَايٍ مَا نَجَتْ .

إِنَّ الدِّينَ فِي نَفْسِ الْمَرْأَةِ شُعُورٌ رَفِيقٌ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الْفُؤَادُ السِّمِينُ الصُّلْبُ الَّذِي تُصَفِّحُ بِهِ أَخْلَاقُهَا الْمُدَافِعَةُ .

اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَتَذَرِينِي مَاذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ إِذَا سَمِعَتِ التَّكْبِيرَ ؟ إِنَّهَا تُنْشِدُ هَذَا النَّشِيدَ :

* * *

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ الْيَوْمِ تَدُقُّ سَاعَةُ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الزَّيْنِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، كَمَا تَدُقُّ السَّاعَةُ فِي مَوْضِعٍ لِيَتَكَلَّمَ الْوَقْتُ بِرَيْنِهَا .

* * *

اللَّهُ أَكْبَرُ ! بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ تُرْسَلُ الْحَيَاةُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ نِدَاءَهَا تَهْتِفُ : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ ! إِنْ كُنْتَ أَصَبْتَ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي مَضَتْ ، فَاجْتَهِدْ لِلْسَّاعَاتِ الَّتِي تَتَلَوُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ ، فَكَفِّرْ وَأَمَحْ سَاعَةً بِسَاعَةٍ ؛ الزَّمَنُ يَمُحُو الزَّمَنَ ، وَالْعَمَلُ يُغَيِّرُ الْعَمَلَ ، وَدَقِيقَةُ بَاقِيَةٍ فِي الْعُمُرِ هِيَ أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ .

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِيزَانَ نَفْسِهِ حِينَ يَسْمَعُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، لِيَعْرِفَ الصُّحَّةَ وَالْمَرَضَ مِنْ نَيْتِهِ ؛ كَمَا يَضَعُ الطَّبِيبُ لِمَرِيضِهِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِيزَانَ الْحَرَارَةِ .

* * *

الْيَوْمَ الْوَاحِدُ فِي طَبِيعَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ عُمْرٌ طَوِيلٌ لِلشَّرِّ ، تَكَادُ كُلُّ دَقِيقَةٍ بِشَرِّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتُومًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بِعَدَدِ قَارَاتِ الدُّنْيَا الْخَمْسِ ، لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ صُورَةٌ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ : مِنَ الْفَجْرِ ، وَالظُّهْرِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالْمَغْرِبِ ، وَالْعِشَاءِ - تَصْنَعُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ مُتَبَهَةً نَفْسَهَا : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ !

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ يَغْرَضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حِسَابَهُ ، فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَيَرْفَعُهُ إِلَيْهِ . وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ طُولَ عُمْرِهِ فِيمَا بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ - اللَّهُ أَكْبَرُ ... ؟

* * *

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ تَدْوِي كَلِمَةُ الرُّوحِ : اللَّهُ أَكْبَرُ . وَيُجِيبُهَا النَّاسُ : اللَّهُ أَكْبَرُ . لِيَعْتَادَ الْجَمَاهِيرُ كَيْفَ يَقَادُونَ إِلَى الْخَيْرِ بِسُهُولَةٍ ، وَكَيْفَ يُحَقِّقُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مَعْنَى اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ ؛ فَتَكُونُ الْأَسْتِجَابَةُ إِلَى كُلِّ نِدَاءٍ اجْتِمَاعِيٍّ مَغْرُوسَةً فِي طَبِيعَتِهِمْ بِغَيْرِ اسْتِخْرَاهِ .

* * *

النَّفْسُ أَسْمَى مِنَ الْمَادَّةِ الدَّلَائِيَّةِ ، وَأَقْوَى مِنَ الزَّمَنِ الْمُخَرَّبِ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا تَشْمَتُ نَفْسُهُ مِنَ الدَّلَائَةِ بِأَنْفَةِ طَبِيعِيَّةٍ ، وَتَحْمِلُ هُمُومَ الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ثَابِتَةٍ .

لَا تَضْطَرُّوا ؛ هَذَا هُوَ النَّظَامُ . لَا تَنْحَرِفُوا ؛ هَذَا هُوَ النَّهْجُ . لَا تَتَرَاَجَعُوا ؛ هَذَا هُوَ الدَّلَاءُ . لَنْ يَكْبُرَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مَا دَامَتْ كَلِمَتُكُمْ : اللَّهُ أَكْبَرُ ... !

فِي اللَّهِبِ وَلَا تَحْتَرِقُ (*)

أَفِي الْمُنْمَكِنِ هَذَا ؟

لَعُوبُ حَسَنَةُ الدَّلِّ ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ ، تُخَيِّبُ لَبِلَهَا رَاقِصَةً مُعْتَبَةً ؛ حَتَّى إِذَا أَعْتَدَلَ اللَّيْلُ لِيَمْضِي ، وَأَتْبَعَ الْفَجْرُ لِيُقْبَلَ - أَتُكْفَأَتْ إِلَى دَارِهَا فَتَضَّتْ وَشِيهَا ، وَخَرَجَتْ مِنْ زِينَتِهَا ، وَخَلَعَتْ رُوحًا وَلَبِسَتْ رُوحًا ، وَقَالَتْ : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ ، وَلَيْتِكَ اللَّهُمَّ لَيْتِكَ . ثُمَّ ذَهَبَتْ فَتَوَضَّأَتْ وَأَفَاضَتْ التَّوَرَّ عَلَيْهَا ، وَقَامَتْ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهَا تُصَلِّي . . . !

* * *

هِيَ حَسَنَاءُ فَاتِنَةٌ ، لَوْ سَطَعَ نُورُ الْقَمَرِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ لَسَطَعَ مِنْ وَجْهِهَا . وَمَا تَرَاهَا فِي يَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ لَكَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ ، حَتَّى لَتَظُنَّ أَنَّ الشَّمْسَ تَزِيدُ وَجْهَهَا فِي كُلِّ نَهَارٍ شُعَاعَةً سَاحِرَةً ، وَأَنَّ كُلَّ فَجْرِ يَزُكُّ لَهَا فِي الصُّبْحِ بَرِيقًا وَنَضْرَةً مِنْ قَطَرَاتِ النَّدى . وَتَحْسَبُ أَنَّ لَهَا دَمًا يَطْعَمُ فِيمَا يَطْعَمُ أَنْوَارُ الْكَوَكِبِ ، وَيَشْرَبُ فِيمَا يَشْرَبُ نَسَمَاتِ اللَّيْلِ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي وَشِيهَا وَتَطَارِنِفِهَا وَأَصْبَاغِهَا وَحِلَاهَا لَمْ تَجِدْهَا أَمْرَاءَ ، وَلَكِنْ جَمْرَةً فِي صُورَةِ أَمْرَاءَ ؛ فَلَهَا نُورٌ وَبَصِيصٌ وَلَهَبٌ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْإِحْرَاقِ . . . إِنَّ الدِّيَّ وَضَعَ عَلَى كُلِّ جَمَالٍ سَاحِرٍ فِي الطَّبِيعَةِ خَاتَمَ رَهْبَةٍ ، وَضَعَ عَلَى جَمَالِهَا خَاتَمَ قُرْصِ الشَّمْسِ . فَإِذَا رَأَيْتَهَا بِتِلْكَ الزَّيْنَةِ فِي رَفْصِهَا وَتَشْتِيهَا ، قُلْتَ : هَلْذِهِ رَوْضَةٌ مُفْتَتَةٌ أَشْتَهَتْ أَنْ تَكُونَ أَمْرَاءَ فَكَانَتْ ، وَهَذَا الرِّقْصُ هُوَ فَنُّ السَّيَمِ عَلَى أَعْضَائِهَا .

وَهِيَ مَتَى نَفَذَتْ إِلَى الْبُقْعَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنْ نَفْسِكَ أَنْشَأَتْ فِي نَفْسِكَ الرَّبِيعَ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ .

وَتَتَسَجَّمُ أَنْغَامَ الْمَوْسِيقَى فِي رَشَاقَتِهَا نَعْمَةً إِلَى حَرَكَةٍ ؛ لِأَنَّ جِسْمَهَا أَلْفَايْنَ الْجَمِيلَ هُوَ
نَفْسُهُ أَنْغَامٌ صَامِتَةٌ تُسْمَعُ وَتُرَى فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَتَتَسَكَّبُ رُوحُهَا الطَّرِيفَةُ بَيْنَ الرَّقْصِ وَالْمَوْسِيقَى ، لِتُخْرِجَ لَكَ بِظَرْفِهَا صَرَاخَةَ الْفَنِّ
مِنْ إِبْهَامَيْنِ ، كِلَاهُمَا يُعَاوَنُ الْآخَرَ .

وَهِيَ فِي رَفْصِهَا إِنَّمَا تُفَسِّرُ بِحَرَكَاتِ أَعْضَائِهَا أَشْوَاقَ الْحَيَاةِ وَأَفْرَاحَهَا وَأَحْزَانَهَا ،
وَتَزِيدُ فِي لُغَةِ الطَّبِيعَةِ لُغَةَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ .

وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي قَلْبِهَا ؛ فَهِيَ تَبْعَثُ لِلْقُلُوبِ مَا شَاءَتْ ضَوْءًا وَظِلْمَةً .

وَهِيَ إِلَى الْقِصْرِ ، غَيْرَ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ جَمَالَهَا وَتَمَامَهَا ، حَسِبْتَهَا طَالَتْ لِسَاعَتِهَا .

وَالِإِلَى التَّحَافَةِ ، غَيْرَ أَنَّكَ تَنْتَظِرُ فَإِذَا هِيَ رَابِيَةٌ كَأَنَّ بَعْضَهَا كَانَ مُخْتَبِئًا فِي بَعْضٍ .

وَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَحْيَانًا فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ رَفْصِهَا أَنَّ جِسْمَهَا يَتَشَاءَبُ بِرِعْشَةٍ مِنَ الطَّرَبِ ،

فَإِذَا جِسْمُكَ يَهْتَزُّ بِجَوَابِ هَذِهِ الرِّعْشَةِ ، لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَشَاءَبَ . . .

وَيُجِنُّ رَفْصُهَا أَحْيَانًا ، وَلَكِنْ لِتُحَقِّقَ بِجُنُونِ الْحَرَكَةِ أَنَّ الْعَقْلَ الْمَوْسِيقَى يُصَرِّفُ كُلَّ

أَعْضَاءِ جِسْمِهَا .

وَمَهْمَا يَكُنْ طِينُشُ الْفَنِّ فِي تَأْوِيدِهَا وَلَفْتِيتِهَا وَنَظَرَتِهَا وَابْتِسَامِهَا وَضَحِكِهَا - فَنِي وَجْهِهَا

دَائِمًا عَلَامَةٌ وَقَارٌ عَابِسَةٌ تَقُولُ لِلنَّاسِ : أَفْهَمُونِي .

* * *

وَلَمَّا رَأَيْتَهَا شَهِدَ قَلْبِي لَهَا بِأَنَّ عَلَى وَجْهِهَا مَعَ نُورِ الْجَمَالِ نُورَ الْوُضُوءِ ؛ وَأَنَّهَا مُتَحَرِّزَةٌ

مُتَمَتِّعَةٌ فِي حِضْنِ مَنْ قَلْبُهَا الْمُؤْمِنُ ، يَسُطُّ الْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا ؛ وَأَنَّ لَهَا عَيْنًا

عَذْرَاءَ لَا تُحَاوِلُ التَّغْيِيرَ ، لَا سُؤَالَ وَلَا جَوَابًا وَلَا اعْتِرَاضًا بَيْنَهُمَا ؛ وَأَنَّ قُوَّةَ جَمَالِهَا

تَسْتَظْهِرُ بِقُوَّةِ نَفْسِهَا ، فَيَكُونُ مَا فِي جَمَالِهَا شَيْئًا غَيْرَ مَا فِي النِّسَاءِ - شَيْئًا عَبْقَرِيًّا بِأَلْبَعِ الْقُوَّةِ ،

يَكْفُ الدَّوَاعِي ، وَيَحْسِمُ الْخَوَاطِرَ ، وَيُزْعِمُ الْإِعْجَابَ أَنْ يَكُونَ ذُؤُولًا وَحَيْرَةً ، وَيُكْرِهُ

الْحُبَّ أَنْ يَزْجَعَ مَهَابَةً وَأَحْشَامًا .

وَالرَّوَايَةُ كُلُّهَا فِي بَاطِنِهَا تَظْهَرُ عَلَى ضَوْءٍ مِنْ مِصْبَاحِ قَلْبِهَا ، وَمَا وَجْهَهَا إِلَّا الشَّاشَةُ
الْبَيْضَاءُ لِهَذِهِ « السَّيِّمَا » ، وَهَلْ يَكُونُ عَلَى الْوَجْهِ إِلَّا أَخِيلَةُ الْقَلْبِ أَوْ الْفَكْرِ ؟

وَعِنْدِي أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَ لَهَا رَأْيٌ دِينِي تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَمْرُهَا مُجْتَمِعًا فِي هَذَا
الرَّأْيِ ، وَكَانَتْ أَخْلَاقُهَا مَخْشُودَةً لَهُ ، مُتَحَفِّلَةً بِهِ - فَتِلْكَ هِيَ الْيَاقُوتَةُ الَّتِي تَزْمِي فِي اللَّهَبِ
وَلَا تَحْتَرِقُ ، وَتَظَلُّ مَعَ كُلِّ تَجَرِبَةٍ عَلَى أَوَّلِ مُجَاهَدَتِهَا ؛ إِذْ يَكُونُ لَهَا فِي طَبِيعَةِ تَرْكِيبِهَا
الْيَاقُوتِيَّ مَا نَهَزَمَ بِهِ طَبِيعَةُ التَّرْكِيبِ النَّارِيَّ .

وَلَيْسَ مِنْ أَمْرَةٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَبِيعَةً يَاقُوتِيَّةً ، هِيَ فِطْرَتُهَا الدِّينِيَّةُ الَّتِي فِيهَا : إِنْ
بَقِيََتْ لَهَا هَذِهِ بَقِيََتْ مَعَهَا تِلْكَ ؛ وَلَكِنَّهَا حِينَ تَخْلَعُ مِنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ تَخْذُلُهَا الْفِطْرَةُ
وَالطَّبِيعَةُ مَعًا ؛ فَيَجْعَلُ اللَّهُ عِقَابَهَا فِي عَمَلِهَا ، وَيَكْلُهَا إِلَى نَفْسِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَى
أَغْلَاطِهَا وَمَسَاوِيئِهَا بِطَرِيقِ عَقْلِيَّةٍ إِنْ كَانَتْ عَالِمَةً ، وَبِطَرِيقِ مَفْضُوحَةٍ إِنْ كَانَتْ جَاهِلَةً . وَمَا
بُدَّ أَنْ تَسْتَسِرَّ بِطَبَاعٍ إِمَّا فَاسِدَةٍ وَإِمَّا فِيهَا قُوَّةُ الِاسْتِحَالَةِ إِلَى الْفَسَادِ ؛ وَيَرْجِعُ صَمِيرُهَا الْخَالِي
مُحَاوِلًا أَنْ يَمْتَلِي مِنْ ظَاهِرِهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ ظَاهِرُهَا هُوَ يَمْتَلِي مِنْ صَمِيرِهَا ، وَتُصْبِحُ الْمَرْأَةُ
بَعْدَ ذَلِكَ فِي حُكْمِ أَسْبَابِ حَيَاتِهَا ، مُصَرِّفَةً بِهِذِهِ الْأَسْبَابِ ، خَاصِصَةً لِمَا يُصَرِّفُهَا ؛
وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَيَنْزِلُ فِي مَكَانِهِ الشَّيْطَانُ ؛ وَيَزُولُ الِاسْتِفْرَازُ وَيَحُلُّ فِي مَحَلِّهِ الاضْطِرَابُ ،
وَتَنْطَفِئُ الْأَشْعَةُ الَّتِي كَانَتْ تُذَيِّبُ الْغُيُومَ وَتَمْنَعُهَا أَنْ تَتَرَاكَمَ ، فَإِذَا الْغُيُومُ مُلْتَفٌ بَعْضُهَا
عَلَى بَعْضٍ ؛ وَتَخْذُلُ الْقُوَّةُ السَّامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْصُرُ الْمَرْأَةَ عَلَى ضَعْفِهَا فَتَنْصُرُهَا بِذَلِكَ عَلَى
أَقْوَى الرِّجَالِ ؛ فَإِذَا الْمَرْأَةُ مِنَ الضَّعْفِ إِلَى تَهَافُتٍ ، تَغْلِيهَا الْكَلِمَةُ الرَّفِيقَةُ ، وَتَغْتَرُّهَا
الْحِيلَةُ الْوَاهِيَّةُ ، وَتُؤَافِقُ انْخِدَاعَهَا كُلَّ رَغْبَةٍ مُزَيَّنَةٍ ، وَيَسْتَدْلِكُهَا طَمَعُهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَدْلِكُهَا
الطَّمَاعُ فِيهَا ؛ وَلَتَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ هِيَ كَائِنَةُ أَصْلًا وَحَسَبًا وَتَهْذِيْبًا وَعَقْلًا وَادْبَاً وَعِلْمًا
وَفَلَسَفَةً ، فَلَوْ أَنَّهَا أَمْرَاءُ مِنْ « الْإِسْمَنْتِ الْمُسْلَحِ » لَتَفَقَّتْ بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي فِي دَاحِلِهَا ،
مَا دَامَتِ الطَّبِيعَةُ مُتَوَجِّهَةً إِلَى الْهَذَمِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ مَا كَانَ يُمْسِكُهَا أَنْ تَهْذِمَ وَأَنْ تَنْهَظَ .

لَقَدْ رَقَّ الدِّينُ فِي نِسَائِنَا وَرِجَالِنَا . فَهَلْ كَانَتْ عَلَامَةُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ كَلِمَةً : « حَرَامٌ ،
وَحَلَالٌ » قَدْ تَحَوَّلَتْ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ وَأَكْثَرِهِنَّ إِلَى « لَائِقٍ ، وَغَيْرِ لَائِقٍ » ثُمَّ نَزَلَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ
الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ إِلَى « مُعَاقِبٍ عَلَيْهِ قَانُونُنَا ، وَمُبَاحٍ قَانُونُنَا . . . » ثُمَّ أَنْحَطَّتْ آخِرًا عِنْدَ

السُّرَادِ وَاللَّهْمَاءِ إِلَى « مُمَكِّنٍ ، وَغَيْرِ مُمَكِّنٍ ... » ؟

* * *

قَالَتِ الْيَاقُوتَةُ ، أَعْنِي الرَّاقِصَةَ :

- أَخَذَنِي أَبِي مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ بِالصَّلَاةِ ، وَأَلْبَتَ فِي نَفْسِي أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِالْأَعْضَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْفِكْرُ نَفْسُهُ طَاهِرًا يُصَلِّيَ اللَّهُ مَعَ الْجِسْمِ ، فَإِنْ كَانَتِ الصَّلَاةُ بِالْجِسْمِ وَحْدَهُ لَمْ يَزِدْ الْمَرْءُ مِنْ رُوحِ الصَّلَاةِ إِلَّا بُعْدًا . وَقَرَّ هَذَا فِي نَفْسِي وَاعْتَدْتُهُ ، إِذْ كُنْتُ أَتَعَبَّدُ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَصَحَّحُ الْفِكْرَ ، وَأَسْتَخْصِرُ النَّيَّةَ فِي قَلْبِي ، وَأَنْحَصِرُ بِكُلِّي فِي هَذَا الْجُزْءِ الطَّاهِرِ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحُ فِكْرِي قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلَعَ الدُّنْيَا مَتَى شَاءَ وَيَلْبِسَهَا ، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ثُمَّ يَعُودَ إِلَيْهَا ؛ وَنَشَأَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ الْمُصَمِّمَةُ الَّتِي تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ بِي عَمَّا يَفْسِدُ رُوحَ الصَّلَاةِ فِي نَفْسِي ، وَهِيَ سِرُّ الدِّينِ وَعِمَادُهُ .

وَيَا لَهَا حِكْمَةً أَنْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا هَذِهِ الصَّلَوَاتِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ ، لِيَتَقَيَّ الرُّوحُ أَبَدًا إِمَّا مُتَّصِلَةً أَوْ مُهَيَّأَةً لِتَتَّصِلَ . وَلَكِنْ يَعْجَزُ أَضْعَفُ النَّاسِ مَعَ رُوحِ الدِّينِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ بِضِعْ سَاعَاتٍ ، مَتَى هُوَ أَقَرُّ الْيَقِينِ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ بَعْدَهَا إِلَى رَبِّهِ ، فَخَافَ أَنْ يَفْزَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُحِطًا أَوْ آثِمًا ؛ ثُمَّ هُوَ إِذَا مَلَكَ نَفْسَهُ إِلَى هَذِهِ الْفَرِيضَةِ ذَكَرَ أَنَّ بَعْدَهَا الْفَرِيضَةَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهَا بِضِعْ سَاعَاتٍ كَذَلِكَ ، فَلَا يَزَالُ مِنْ عَزِيمَةِ النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا فِي عُمُرٍ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ ، كَأَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ - مَهْمَا طَالَ - عَمَلُ بِضِعْ سَاعَاتٍ .

قَالَتِ الْيَاقُوتَةُ : وَرَأَيْتُ أَبِي يُصَلِّيَ ، وَكَذَلِكَ رَأَيْتُ أُمِّي ، فَلَا تَكَادُ تَلِمُ بِي فِكْرَةَ آثِمَةٍ إِلَّا أَنْتَصَبَا أَمَامِي ، فَأَكْزَرُهُ أَنْ أَسْتَلِمَ إِلَيْهِمَا فَأَكُونُ أَلْفَاسِدَةً وَهُمَا الصَّالِحَانِ ، وَاللَّيْثِمَةُ وَهُمَا الْكَرِيمَانِ ؛ فَدَمِنِي نَفْسُهُ - بِبَرَكََةِ الدِّينِ - بِخَرْسُنِي كَمَا تَرَى .

قُلْتُ : فَهَذَا الرَّفْصُ ... ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، إِنَّهُ قُضِيَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ رَاقِصَةً ، وَأَنْ أَلْتَمِسَ الْعَيْشَ مِنْ أَسْهَلِ ثَلَاثِ طُرُقٍ وَالْأَيُّهَا وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْفَسَادِ ، وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ ظَاهِرًا ؛ أُرِيدُ : الرَّفْصَ ، أَوْ الْخِدْمَةَ

فِي الْبَيْتِ ، أَوْ الْعَمَلِ فِي الشُّوقِ . وَأَنَا مُطِيقَةٌ لِحُرِّيَّتِي فِي الْأَوَّلَى ، وَلَكِنِّي لَنْ أَمْلِكَهَا فِي
الْآخِرَتَيْنِ مَا دَامَ عَلَيَّ هَذَا الْمَنَسَمُ مِنَ الْحُسْنِ ؛ وَكَمْ مِنْ أَمْرَأَةٍ مُتَحَجِّبَةٍ وَهِيَ عَارِيَةٌ
الرُّوحِ ، وَكَمْ مِنْ سَافِرَةٍ وَرُوحُهَا مُتَحَجِّبَةٌ ؛ إِنْ كُنْتُ لَا تَعْلَمُ هَذَا فَأَعْلَمْنِي ؛ وَلَيْسَ السُّؤَالُ
مَا سَأَلْتُ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَضْعُهُ هَكَذَا : هَلْ مَا تَرَى هُوَ فِي ثِيَابِي فَقَطْ ، أَوْ هُوَ فِي
ثِيَابِي وَنَفْسِي ؟

هَذَا أَنْتَ دَا تَغْلِغُلُ نَظْرَتَكَ فِي عَيْنِي إِلَى الْمَعَانِي الْبَعِيدَةِ ، فَهَلْ تَرَى عَيْنِي رَاقِصَةً ؟
قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ ، مَا أَرَى عَيْنِي رَاقِصَةً ، وَلَكِنْ عَيْنِي مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... !
فَاسْتَضَحَكْتُ وَقَالَتْ : بَلْ قُلْ : عَيْنِي مُجَاهِدٌ يَهْزُمُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْطَانًا أَوْ شَيْطَانَيْنِ .

إِنِّي لَأَرْقُصُ وَأُعْطِي ، وَلَكِنْ أَتَذَرِي مَا الَّذِي يُخْرِزُنِي مِنَ الْعَاقِبَةِ ، وَيَحْمِينِي مِنْ وَبَاءِ
هَذَا الْجُمْهُورِ الْمَرِيضِ النَّفْسِ ؟ فَأَعْلَمُ أَنِّي لَا أَشْعُرُ بِالْجُمْهُورِ وَلَا بِرُوحِ الْمَسْرَحِ ، إِلَّا كَمَا
أَشْعُرُ بِرُوحِ الْمَقْبَرَةِ وَالْمُشْيَعِينَ إِلَيْهَا ؛ فَهَيْهَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ ! وَمِنْ هَذَا لَا أَحْسُ
بِقُلُوبِهِمْ وَلَا بِشَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا أَنَا بَيْنَهُمْ إِلَّا كَالَّتِي تُؤَدِّي عَمَلًا فَنِيًّا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ
الْمُتَمَتِّحِينَ ، وَالنَّظَّارَةِ يَحْكُمُونَ لَهَا أَوْ عَلَيْهَا ؛ فَهِيَ فِي فِكْرَةِ الْأَمْتِحَانِ ، وَهُمْ لَا نَفْسِهِمْ
فِيمَا شَاؤُوا ...

وَلَسْتُ أَنْكِزُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ ، بَلْ جَمِيعُهُمْ ، يُخْطِئُ فِي طَرِيقَةِ تَنَاوُلِهِ السِّيَالِ الْكَهْرَبَائِي
الْمُنْبَعِثَ مِنْ نَفْسِي ، وَلَكِنْ لَا عَلَيَّ ، فَهَذَا السِّيَالُ نَفْسُهُ يَنْبَعِثُ مِثْلُهُ مِنَ الزَّهْرِ ، وَمِنْ
الْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَمِنْ كُلِّ أَمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ ، وَمِنْ كُلِّ جَمِيلٍ فِي الطَّبِيعَةِ ،
وَحَتَّى مِنَ الْأَمْكَنَةِ وَالْبِقَاعِ إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا ذِكْرِيَاتٌ قَدِيمَةٌ ، أَوْ نَبْهَتْ بِغَضِ مَعَانِيهَا
بَعْضُ مَعَانِيهِ ؟

قَالَتْ الْيَاقُوتَةُ : فَأَنَا كَمَا تَرَى ؛ أَضْطَرْتُ وَجُوهًا مِنَ الْأَضْطِرَابِ فِي جَذَبِ النَّاسِ
وَدَفْعِهِمْ مَعًا . وَإِذَا سَلِمَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا الطَّمَعُ عَلَى فِكْرِهَا ، سَلِمَتْ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهَا
الرَّجُلُ عَلَى فَضِيلَتِهَا . وَفِي النِّسَاءِ حَوَاسُ مَغْنَطِيسِيَّةٍ كَاشِفَةٌ مُبْهَتَةٌ خُلِقَتْ فِيهِنَّ كَالْوَقَايَةِ
الطَّبِيعِيَّةِ ، لِنَسَلَمَ بِهَا الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْ تُخْطَرَ عِفَّتُهَا لِعَرَضٍ ، أَوْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِهَا لِلْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّكَ
لَتَكَلِّمُ الْمَرْأَةَ ، وَتُزَيِّنُ لَهَا مَا تُزَيِّنُ ، وَهِيَ شَاعِرَةٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ ، وَكَأَنَّهَا تَرَى مَا فِي قَلْبِكَ

يَشْأُ وَيَتَدَرَّجُ تَحْتَ عَيْنَيْهَا ، وَكَأَنَّهُ فِي وَعَاءٍ مِنَ الزُّجَاجِ الرَّقِيقِ الصَّافِي تَحْمِلُهُ عَلَى كَفِّكَ
يَشْفُ وَيَفْضَحُ ، لَا فِي قَلْبٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ تُخْفِنُهُ بَيْنَ جَنْبَيْكَ فَيَطْوِي وَيُكْتِمُ .

وَلَيْسَ يُبْطِلُ هِدَايَةَ هَذِهِ الْحَاسَةِ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا طَمَعُهَا الْمَادِّي فِي الْمَالِ وَالْمَتَاعِ
وَالزَّيْنَةِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الطَّمَعَ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَغْلِبُ بِهَا الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ ، فَيَنْفَسِهَا غَلْبَهَا ! وَإِذَا
تَبَدَّلَ طَمَعُ امْرَأَةٍ فِي رَجُلٍ فَهِيَ مُؤَمِّسٌ ، وَإِنْ كَانَتْ عَذْرَاءً فِي حِذْرِهَا .

وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ وُجُودَ الطَّبِيعَةِ فِي النَّفْسِ غَيْرُ الشُّعُورِ بِهَا ؛ فَلَيْسَ يُشْعِرُ الْمَرْأَةَ بِتَمَامِ
طَبِيعَتِهَا النِّسَائِيَّةِ إِلَّا الزَّيْنَةُ وَالْمَتَاعُ وَمَا بِهِ الْمَتَاعُ وَالزَّيْنَةُ ؛ فَكَأَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ وَقَّتْهَا وَعَرَضَتْهَا
فِي وَقْتٍ مَعَ ، لِتَكُونَ هِيَ الْوَاقِيةُ أَوْ الْمُخْطِرةُ لِنَفْسِهَا ، فَيَعْمَلُهَا تُجْزَى ، وَمِنْ عَمَلِهَا
مَا تَضْحَكُ وَتَبْكِي .

قَالَتْ أَلْيَافُوتُهُ : وَلِذَا أَخَذْتُ نَفْسِي أَلَّا أَطْمَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ النَّاسِ ، وَسَخَوْتُ عَنْ
كُلِّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ؛ فَمَا يَتَكَرَّمُونَ عَلَيَّ إِلَّا بِهَلَاكِي ، وَحَسْبِي أَنْ يَبْقَى لِعَيْنِي قَلْبِي ضَوْءُهُمَا
الْمُبْصِرُ . وَأَنَا أَعْتَمِدُ عَلَى شَهَامَةِ الرَّجُلِ ، فَإِنْ لَمْ أَجِدْهَا عَلِمْتُ أَنَّي بِإِزَاءِ حَيَوَانٍ إِنْسَانِيٍّ ،
فَاتَّحَذَرُهُ حَذَرِي مِنْ مُصِيبَةٍ مُقْبِلَةٍ . وَإِذَا جَاءَنِي وَقَعَ خَلْقَ اللَّهِ وَجْهَهُ الْحَسَنَ مَسَبَّةً لَهُ ، أَوْ
خَلَقَهُ هُوَ مَسَبَّةً لَوَجْهِهِ الْقَبِيحِ ، ذَكَرْتُ أَنَّي بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ أَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَلَا
يَزْدَادُ مِنِّي إِلَّا بُعْدًا وَإِنْ كَانَ بِإِزَانِي ، فَأَغْلِظُ لَهُ وَأَتَسَخَّطُ ، وَأُظْهِرُ الْغَضَبَ وَأَصْفَعُهُ
صَفْعَتَيْنِ .

قُلْتُ : وَمَا صَفَعْتُكَ ؟

قَالَتْ : إِنَّهَا صَفْعَةٌ لَا تَضْرِبُ الْوَجْهَ وَلَكِنْ تُخْجِلُهُ .

قُلْتُ : وَمَا هِيَ ؟

قَالَتْ أَلْيَافُوتُهُ : هِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ؛ أَمَا تَعْرِفُ يَا سَيِّدِي أَنَّي أُصَلِّي وَأَقُولُ « اللَّهُ أَكْبَرُ »
فَهَلْ أَنْتَ أَكْبَرُ . . . ؟ أَوْ قِيمُ لَكَ الْبُرْهَانُ عَلَى صَغَارِكَ وَحَقَارَتِكَ ، أَوْ تَادِي
الشَّرْطِيِّ . . . !؟

تَخْتَنِقُ بِالرَّفْصِ وَتَتَعَشُّ بِالصَّلَاةِ ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَخْتَنِقُ وَتَتَعَشُّ .
وَلَكِنِّي لَا أَزَالُ أَقُولُ :

أَفِي الْمُمْكِنِ هَذَا ؟

أَفِي الْمُتَرَادِفِ شَرْعًا : رَفَصْتُ وَصَلَّيْتُ . . . ؟

مصطفى صادق الرافعي

المُشْكِلَةُ (*)
١

قَالَتْ لِي صَاحِبَةُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ »^(١) فِيمَا قَالَتْ : إِنَّ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ تُخَاطَبُ فِي الرَّجُلِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةً : الرَّجُلُ ، وَشَيْطَانُهُ ، وَخَيَوَانُهُ . فَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَهُوَ مَعَنَا وَإِنْ لَمْ نَكُنْ مَعَهُ . . . وَأَمَّا الْخَيَوَانُ فَلَهُ فِي أَيْدِينَا مَقَادَةُ مِنَ الْعَبَاوَةِ ، وَمَقَادَةُ مِنَ الْغَرِيزَةِ ، إِذَا شَمَسَ فِي وَاحِدَةٍ أَصْحَبَ فِي الْأُخْرَى وَانْقَادَ ؛ وَلَكِنَّ الْمُشْكِلَةَ هِيَ الرَّجُلُ تَكُونُ فِيهِ رُجُوءٌ .

* * *

نَعَمْ إِنَّ الْمُشْكِلَةَ الَّتِي أَغْضَلَتْ عَلَى الْفَسَادِ هِيَ فِي الرَّجُلِ الْقَوِيَّ الرَّجُوءَ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ وَجُودِهِ وَشَرَفَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلِهَذَا أُوجِبَ الْإِسْلَامُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْوَفْتِ وَالْوَقْتِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ خَارِجًا مِنْ صَلَاةٍ .

وَأَمَّا الرَّجُوءُ فِي خِلَالِ ثَلَاثٍ : عَمَلِ الرَّجُلِ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي هَوَاهُ ؛ وَقَبُولِهِ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ يَقْبُولُ الْعَامِلِ الْوَاتِقِ مِنْ أَجْرِهِ الْعَظِيمِ ؛ وَالثَّالِثَةُ : قُدْرَتُهُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْقَبُولِ إِلَى النِّهَايَةِ .

وَلَنْ تَقُومَ هَذِهِ الْخِلَالُ إِلَّا بِثَلَاثٍ أُخْرَى : الْإِدْرَاكِ الصَّحِيحِ لِلْغَايَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ؛ وَجَعَلِ مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ وَمَا يَكْرَهُهُ مُوَافِقًا لِمَا أَدْرَكَ مِنْ هَذِهِ الْغَايَةِ ؛ وَالثَّالِثَةُ الْقُدْرَةُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ مَعَانِي الشُّرُورِ مِنْ مَعَانِي الْأَلَمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ عَلَى السَّوَاءِ .

فَالرَّجُوءُ عَلَى ذَلِكَ هِيَ إِفْرَاقُ النَّفْسِ فِي أُسْلُوبِ قَوِيٍّ جَزَلٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، مُتَسَاوِقٍ فِي نَمَطِ الْاجْتِمَاعِ ، بَلِيغٍ بِمَعَانِي الدِّينِ ، مَصْقُولٍ بِجَمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، مُسْتَرْسِلٍ بِبَلَاغَةِ وَقُوَّةِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٣ ، ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ١١ نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٨٠٥ - ١٨٠٨ .

(١) { مَرَّتْ مَقَالَاتُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ » فِي هَذَا الْجُزْءِ } .

وَجَمَالٍ إِلَى غَايَةِ السَّامِيَةِ .

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ أَسْقَطَ الْأَدِيَانُ مِنْ فَضَائِلِهَا مَبْدَأَ إِرْضَاءِ النَّفْسِ فِي هَوَاهَا ، فَلَا مُعَامَلَةَ بِهِ مَعَ اللَّهِ إِلَّا فِي إِيْمٍ أَوْ شَرٍّ ؛ وَأَسْقَطَهُ النَّاسُ مِنْ قَوَاعِدِ مُعَامَلَتِهِمْ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ، فَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْغَشُّ وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ ، وَكُلُّ خَارِجٍ عَلَى شَرِيعَةٍ أَوْ فَضِيلَةٍ أَوْ مَنَفَعَةٍ أَجْتِمَاعِيَّةٍ ، فَإِنَّمَا يَنْتَرِعُ إِلَى ذَلِكَ إِرْضَاءُ لِنَفْسِهِ وَإِثَارًا لَهَا وَمُوَافَقَةً لِمَحَبَّتِهَا وَتَوْفِيقَةً لِحَظِّهَا ؛ وَعَمَلُهُ هَذَا هُوَ الَّذِي يُلَبِّسُهُ الْوُصْفُ الْاجْتِمَاعِيَّ السَّاقِطَ وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ فِي اللُّغَةِ ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يُرْضِي نَفْسَهُ أَنْ يَسْرِقَ لِيَعْتَنِي ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَفْسَهُ ^(١) رِضَاهَا فَهُوَ اللَّصُّ ؛ وَكَالتَّاجِرِ فِي إِرْضَاءِ طَمَعِهِ هُوَ الْغَاشُّ ، وَكَالْخُنْدِيِّ فِي إِرْضَاءِ جُبْنِهِ هُوَ الْخَائِنُ ، وَكَالشَّابِّ فِي إِرْضَاءِ رَذِيلَتِهِ هُوَ الْفَاسِقُ ، وَهَلُمَّ جَرًّا وَهَلُمَّ جَرَجَرَةً . . .

* * *

وَأَمَّا بَعْدُ ، فَأَلْقِصْهُ فِي هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قِصَّةَ رَجُلٍ فَاضِلٍ مُهَذَّبٍ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّبَابِ وَالْمَالِ ، ثُمَّ أَمْتَحَنَتْهُ الْحَيَاةُ بِمُشْكِلَةٍ ذَهَبَ فِيهَا نَوْمٌ لَيْلِهِ وَهُدُوءٌ نَهَارِهِ حَتَّى كَسَفَتْ بَالَهُ ، وَفَرَّقَتْ رَأْيَهُ ، وَكَابَدَ فِيهَا الْمَوْتَ الَّذِي لَيْسَ بِالْمَوْتِ ، وَعَاشَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِالْحَيَاةِ .

قَالَ : فَقَدْتُ أُمِّي وَأَنَا غُلَامٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْقَلْبُ إِلَى الْأُمِّ ، فَخَشِيَ عَلَيَّ أَبِي أَنْ أَسْتَكِينَ لِذَلِكَ فَقَدَهَا فَيَكُونُ فِي نَشَائِي الدُّلُّ وَالضَّرَاعَةُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ أَحِسَّ فَقَدَهَا إِحْسَاسَ الطِّفْلِ تَمُوتُ أُمُّهُ فَيَحْمِلُ فِي ضِيَاعِهَا مِثْلَ حُزْنِهَا لَوْ ضَاعَ هُوَ مِنْهَا ؛ فَعَلَّمَنِي هَذَا الْأَبُ الشَّفِيقُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا فَقَدَ أُمَّهُ كَانَ شَأْنُهُ غَيْرَ شَأْنِ الصَّبِيِّ ، لِأَنَّ لَهُ قُوَّةَ وَكِبَرِيَاءٍ ؛ وَأَلْقَى فِي رُوعِي أَنِّي رَجُلٌ مِثْلُهُ ، وَأَنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ عَنْهُ صَغِيرًا فَكَانَ رَجُلًا مِثْلِي الْآنَ . . .

وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا إِذَا دَعَانِي قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ . وَإِذَا أَعْطَانِي شَيْئًا قَالَ : خُذْ يَا رَجُلُ . وَإِذَا سَأَلَنِي عَنْ شَأْنِي قَالَ : كَيْفَ الرَّجُلُ ؟ وَفَلَّ يَوْمَ يَمُرُّ إِلَّا أَسْمَعْنِيهَا مِرَارًا ، حَتَّى تَوَهَّمْتُ أَنَّ مَعِيَ رَجُلًا فِي عَقْلِي خَلَقْتُهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ . وَتَمَامَ الرَّجُلِ بِشَيْئَيْنِ : اللَّحْيَةُ فِي وَجْهِهِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « لِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « نَفْسُهُ » .

وَالزَّوْجَةُ فِي دَارِهِ ، فَتَجِيءُ الزَّوْجَةُ بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ اللَّحْيَةُ لِتَكُونَ كِلْتَاهُمَا قُوَّةَ لَهُ ، أَوْ وَقَارًا أَوْ جَمَالًا ، أَوْ تَكُونَ كِلْتَاهُمَا خُشُونَةً ، أَوْ لِتَكُونَا مَعًا سَوَادَيْنِ فِي الْوَجْهِ وَالْحَيَاةِ ...

أَمَّا اللَّحْيَةُ لِي أَنَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّغِيرُ فَلَيْسَ فِي يَدِ أَبِي وَلَا فِي حَيْلَتِهِ أَنْ يَجِيءَ بِهَا ، وَلَكِنَّ الْأُخْرَى فِي يَدِهِ وَحَيْلَتِهِ ؛ فَجَاءَنِي ذَاتَ نَهَارٍ وَقَالَ لِي : أَيُّهَا الرَّجُلُ ! إِنَّ فَلَانَةَ مُسَمَّاءَ عَلَيْكَ ^(١) مُنْذُ الْيَوْمِ فَهِيَ أَمْرُكَ فَاذْهَبْ لِتَرَى فِيكَ رَجُلَهَا .

وَفَلَانَةُ هَذِهِ طِفْلةٌ مِنْ ذَوَاتِ الْقُرْبَى ، فَأَفْرَحَنِي ذَلِكَ وَأَبْهَجَنِي ؛ وَقُلْتُ لِلرَّجُلِ الَّذِي فِي عَقْلِي : أَصْبَحْتَ زَوْجًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ...

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الْجَانِمُ فِي عَقْلِي هُوَ غُرُورِي يَوْمَئِذٍ وَكِبْرِيائِي ، فَكُنْتُ أَقَعُ فِي الْخَطَا بَعْدَ الْخَطَا وَآتِي الْحَمَاقَةَ بَعْدَ الْحَمَاقَةِ ، وَكُنْتُ طِفْلاً وَلَكِنَّ غُرُورِي ذُو لُحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ...

* * *

وَنَشَأْتُ عَلَى ذَلِكَ : صُلْبَ الرَّأْيِ مُعْتَدًا بِنَفْسِي ، إِذَا هَمَمْتُ مَضِيئًا ، وَإِذَا مَضَيْتُ لَا أَلُوي ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَخْطُرَ لِي الْخَاطِرُ فَأَرْكَبُ رَأْسِي فِيهِ ، وَلَأَنْ تُكْسَرَ لِي يَدٌ أَوْ رِجْلٌ أَهْوَنُ عَلَيَّ مَنْ أَنْ يُكْسَرَ لِي رَأْيٌ أَوْ حُكْمٌ ؛ وَأَكْسَبَنِي ذَلِكَ خَيَالًا أَكْذَبَ خَيَالٍ وَأَبْعَدَهُ ، يَخْلِطُ عَلَيَّ الدُّنْيَا خَلْطًا فَيَدْعُنِي كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ رَقْمًا لِيَصِفَ الْيَوْمَ الْوَاحِدَ ، فَيُطَالِعُهَا اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا لِلْسَّنَةِ ...

وَتَرَامْتُ حُرِّيَّيَ بِهَذَا الْخَيَالِ فَجَاوَزْتُ حُدُودَهَا الْمَعْقُولَةَ ، وَبِهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ الْحَمَقَاءَ وَذَلِكَ الْخَيَالِ الْفَاسِدَ ، كَذَّبْتُ عَلَى الْفِكْرَةِ وَالطَّبِيعَةِ .

وَلَسْتُ جَمِيلَ الطَّلَعَةِ إِذَا طَالَعْتُ وَجْهِي ، وَلَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ مُعْتَقِدٌ أَنَّ الْخَطَا فِي الْمِرْءَةِ ... إِذْ هِيَ لَا تَظْهَرُ الرَّجُلَ الْوَضِيءَ الْجَمِيلَ الَّذِي فِي عَقْلِي ؛ وَلَسْتُ نَابِغَةً ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ عَقْبَرِيٌّ ؛ وَهَذَا الَّذِي فِي عَقْلِي رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ ؛ فَجِبْتُ عَلَيَّ أَنَا الطِّفْلُ أَنْ أَكُونَ رَزِينًا رَزِينًا كَوَالِدِ عَشْرَةِ أَوْلَادٍ فِي الْمَدَارِسِ أَلْعُنَا ...

(١) هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ الْعَرَبِيُّ الصَّحِيحُ لِقَوْلِهِمْ قَبْلَ الْعَقْدِ : « مَخْطُوبَةُ فُلَانٍ » .

وَذَهَبْتُ بِكُلِّ ذَلِكَ أَرَى { فَلَانَةٌ } زَوْجَتِي ، فَأَغْلَقْتُ الْبَابَ فِي وَجْهِي وَأَخْتَبَأْتُ مِنِّي ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّ هَذَا نُشُوزٌ وَعِصْيَانٌ ، لَا طَاعَةَ وَحُبَّ . وَسَاءَ بَنِي ذَلِكَ وَعَمَّتِي وَكَبَّرَ عَلَيَّ ، فَأَضْمَرْتُ لَهَا الْغَدْرَ ، فَتَبَّتَ بِذَلِكَ فِي ذَهْنِي صُورَةُ (الْبَابِ الْمُغْلَقِ) ، وَكَأَنَّهُ طَلَّاقٌ بَيْنَنَا لَا بَابَ ...

* * *

قَالَ : ثُمَّ سَبَّ الرَّجُلُ فَكَانَ بِطَبِيعَةِ مَا فِي نَفْسِهِ كَالزَّوْجِ الَّذِي يَتَرَقَّبُ زَوْجَتَهُ الْغَائِبَةَ غَيْبَةً طَوِيلَةً : كُلُّ أَيَّامِهِ ظَمًا عَلَى ظَمًا ، وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِهِ هُوَ زِيَادَةٌ سَنَةٍ فِي عُمُرِ شَيْطَانِهِ ... وَكَانَ قَدْ أَنْتَهَى إِلَى مَدْرَسَتِهِ الْعَالِيَةِ ، وَأَصْبَحَ رَجُلٌ كُتِبَ وَعُلُومٌ وَفِكْرٌ وَخَيَالٌ ؛ فَعَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ كَاللَّوَانِي يَعْزُضْنَ لِلطَّلَبَةِ فِي الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا ، مَا مِنْهُنَّ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا كَالْخَيْبَةِ فِي أَمْتِحَانٍ ... بَيَّنَّ أَنَّ (الرَّجُلَ) لَمْ يَعْرِفْ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِلَّا أَوَائِلَ الْمَرْأَةِ ... وَلَمْ يَكُذْ يَسْتَشْرِفُ لِأَوَاخِرِهَا حَتَّى سُمِّيَتْ عَلَى غَيْرِهِ ، فَخُطِبَتْ ، فَزُقْتُ ؛ زُقْتُ بَعْدَ نِصْفِ زَوْجٍ إِلَى زَوْجٍ

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْيُنِّي دَرَسَهَا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُرًّا بِأَكْثَرِ مِمَّا يَسْتَطِيعُ ، وَبِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْأَكْثَرِ ... فَقَالَهَا يَمْلَأُ فِيهِ ، وَقَالَ لِلْحُرِّيَّةِ : أَنَا لِكَ وَأَنْتِ لِي . قَالَهَا لِلْحُرِّيَّةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا رَدَّتْ عَلَيْهِ الْحُرِّيَّةُ بِفِتْنَةِ أُخْرَى ...

* * *

نَقُولُ نَحْنُ : وَكَانَ قَدْ مَضَى عَلَى (الْبَابِ الْمُغْلَقِ) تِسْعُ سَنَوَاتٍ ، فَصَارَ مِنْهُنَّ بَيْنَ الشَّابِّ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ الْعَقْلِيَّةِ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ مُغْلَقَةٍ ؛ وَلِكِحَّتْهَا مَعَ ذَلِكَ مُسَمَّاءُ لَهُ ، يَقُولُ أَهْلُهُ وَأَهْلُهَا : (فُلَانٌ وَفُلَانَةٌ) . وَلَيْسَ (الْبَابُ الْمُغْلَقُ) عِنْدَهُمْ إِلَّا الْحَيَاءُ وَالصَّبَاطُ ؛ وَلَيْسَتْ الْفِتْنَةُ مِنْ وَرَائِهِ إِلَّا الْعَفَافُ الْمُتَنَطِّرُ ؛ وَلَيْسَ الْفَتَى إِلَّا ابْنُ الْأَبِ الَّذِي سَمَّى الْفِتْنَةَ لَهُ وَحَبَسَهَا عَلَى أَسْمِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْقُرْبَى إِلَّا شَرِيعَةٌ وَاجِبَةٌ الْحَقُّ نَافِذَةٌ الْحُكْمُ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الشَّرَفِ ، أَنَّهُ مَهْمَا يَبْلُغُ مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَالشَّرَفُ مُقَيَّدٌ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الدِّينِ ، أَنَّ الزَّوْاجَ لَا يَنْتَبِغِي أَنْ يَكُونَ كَزَوَاجِ هَذَا الْعَصْرِ قَائِمًا مِنْ أَوَّلِهِ عَلَى

مَعَانِي الْفَاحِشَةِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْفَضِيلَةِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ إِنَّمَا هِيَ لِإِتَاءِ الْأُسْرَةِ ؛ فَإِنْ بَلَغَ وَجْهَهَا الْغَايَةَ مِنَ الْحُسْنِ أَوْ لَمْ يَبْلُغْ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَجْهٌ دُونَ سُلْطَةِ وَحُفُوقِ (رَسْمِيَّةٍ) فِي الْأَحْتِرَامِ ؛ لَا تَقُومُ الْأُسْرَةُ إِلَّا بِذَلِكَ ، وَلَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْكَمَالِ وَالضَّمِيرِ ، أَنَّ الزَّوْجَةَ الطَّاهِرَةَ الْمُخْلِصَةَ الْحُبِّ لِزَوْجِهَا ، إِنَّمَا هِيَ مُعَامَلَةٌ بَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ رَبِّهِ ؛ فَحَيْثُمَا وَضَعَهَا مِنْ نَفْسِهِ فِي كَرَامَةٍ أَوْ مَهَانَةٍ ، وَضَعَ نَفْسَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ ، أَنَّ كُلَّ زَوْجَةٍ فَاضِلَةٍ ، هِيَ جَمِيلَةٌ جَمَالَ الْحَقِّ ؛ فَإِنْ لَمْ تُوجِبِ الْحُبَّ ، وَجَبَتْ لَهَا الْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ .

وَعِنْدَ أَهْلِ الْمُزَوَّجَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنَّ زَوْجَةَ الرَّجُلِ إِنَّمَا هِيَ إِنْسَانِيَّتُهُ وَمُرُوءَتُهُ ؛ فَإِنْ أَخْتَمَلَهَا أَعْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، وَإِنْ نَبَذَهَا أَعْلَنَ أَنَّهُ رَجُلٌ لَيْسَ فِيهِ كَرَامَةٌ .

أَمَّا عِنْدَ الشَّيْطَانِ لَعَنَهُ اللَّهُ ، فَشَرُّوْطُ الزَّوْجَةِ الْكَامِلَةِ مَا تَشْتَرِطُهُ الْغَرِيزَةُ : الْحُبُّ ، الْحُبُّ ، الْحُبُّ !

* * *

قَالَ الشَّابُّ : وَإِذَا أَنَا لَمْ أَتَزَوَّجْ أَمْرَأَةً تَكُونُ كَمَا أَشْتَهِي جَمَالًا ، وَكَمَا يَشْتَهِي فِكْرِي عِلْمًا ، كُنْتُ أَنَا الْمُتَزَوِّجُ وَخِدِي وَبَقِي فِكْرِي عَزْبًا . . . وَقَدْ عَرَفْتُ الَّتِي تَصْلُحُ لِي بِجَمَالِهَا وَفِكْرِهَا مَعًا ، وَتَبَوَّأْتُ فِي قَلْبِي وَأَقَمْتُ فِي قَلْبِهَا ؛ ثُمَّ دَاخَلْتُ أَهْلَهَا ، فَخَلَطُونِي بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَالُوا : شَابٌّ وَعَزْبٌ . . . وَمُتَعَلِّمٌ وَسَرِيٌّ . . . فَلَمْ يَكُنْ لِدَارِهِمْ (بَابٌ مُغْلَقٌ) ، حَتَّى لَوْ شِئْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَى كَرِيمَتِهِمْ فِي حَرَامٍ وَصَلْتُ ، وَلَكِنِّي رَجُلٌ يَحْمِلُ أَمَانَةً الرَّجُولَةِ . . .

أَمَّا الْفَتَاةُ فَلَسْتُ أَدْرِي وَاللَّهِ : أَفِيهَا جَادِبِيَّةٌ نَجْمٌ ، أَمْ جَادِبِيَّةٌ أَمْرَأَةٌ ! وَهَلْ هِيَ أُتْنَى فِي جَمَالِهَا ، أَوْ هِيَ الْجَمَالُ السَّمَائِيُّ أَتَى يُنْفَعُ الْفُتُونُ الْأَرْضِيَّةَ لِأَهْلِ الْفَنِّ ؟

إِذَا التَّمَيَّنَا قَالَتْ لِي بِعَيْنَيْهَا : هَا أَنَا ذِي قَدْ أَرَخَيْتُ لِكَ الزَّمَامِ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ فِرَارًا

مَنِّي ؟ وَتَلْتَصِقُ فَنَقُولُ لِي بِجِسْمِهَا : أَلَيْسَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا هُنَا ، فَهَلْ فِي الْمَكَانِ مَكَانٌ إِلَّا هُنَا ؟ وَنَفْتَرِقُ فَتَحْضُرُ لِي الزَّمَنُ كُلُّهُ فِي كَلِمَةٍ حِينَ نَقُولُ : عَدَا نَلْتَقِي .

كَلَامُهَا كَلَامٌ مُتَأَدِّبٌ ، وَلِلْكَيْتِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِ طَرِيقَةٍ مِنَ الْخَلَاعَةِ ، تَلْفُتُكَ إِلَى فَمِهَا الْجُلُوسُ ؛ وَالْحَرَكَةُ عَلَى جِسْمِهَا حَرَكَةٌ مُسْتَحْيَةٍ ، وَلِلْكَيْتِ فِي الْوَقْتِ عَيْنُهُ كَالْتَعْبِيرِ الْفَنِيِّ الْمُتَجَسِّمِ فِي التَّمْنَالِ الْعَارِي .

إِنَّمَا وَاللَّهِ قَدْ جَعَلْتَ شَيْطَانِي هُوَ عَقْلِي ؛ أَمَّا هَذَا الْعَقْلُ الَّذِي يَنْصَحُ وَيَعْطُ وَيَقُولُ : هَذَا خَيْرٌ وَهَذَا شَرٌّ . فَهُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ أَتَبَرَّأَ مِنْهُ . . .

* * *

قَالَ : وَالْمَ الْأَبُ بِقِصَّةِ فَنَاءِ ، وَيَخْسِبُهَا نَزْوَةً مِنَ الشَّبَابِ يُخِمِدُهَا الزَّوْاجُ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ لِلرَّجُلِ نَظْرَتَيْنِ إِلَى النِّسَاءِ : نَظْرَةً إِلَيْهِنَّ مِنْ حَيْثُ يَخْتَلِفْنَ ، فَتَكُونُ كُلُّ أَمْرَةٍ غَيْرِ الْأُخْرَى فِي الْخَيَالِ وَالْوَهْمِ وَالْمِزَاجِ الشَّعْرِيِّ ؛ وَنَظْرَةً إِلَيْهِنَّ مِنْ حَيْثُ يَتَسَاوَيْنَ فِي حَقِيقَةِ الْأَنْوَةِ وَطَبِيعَةِ الْأَخْتِرَامِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَتَكُونُ كُلُّ أَمْرَةٍ كَالْأُخْرَى وَلَا يَتَفَاوَتُنَّ إِلَّا بِالْفَضِيلَةِ وَالْمُنْفَعَةِ . وَيَقْرُرُ لِنَفْسِهِ أَنَّ ابْنَهُ رَجُلٌ مُتَعَلِّمٌ دُونَ دِينٍ وَبَصِيرٌ ، فَلَا يَنْظُرُ النَّظْرَةَ الْخَيَالِيَّةَ الَّتِي لَا تَقْنَعُ بِأَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ لَا تَزَالُ تَلْتَمِسُ مَحَاسِنَ الْجِنْسِ وَمَقَاتِنَهُ ، وَهِيَ النَّظْرَةُ الَّتِي لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا بِنَاءُ الشَّعْرِ دُونَ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ ، وَلَا تَصْلُحُ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ تِلْدًا أَوْ لَدَا لِرُزُوجِهَا ، بَلِ الْمَرْأَةُ تِلْدُ الْمَعَانِي لِشَاعِرِهَا .

ثُمَّ أَخْطَأَ فِي رَأْيِهِ ، فَقَدَّرَ أَنَّ ابْنَهُ رَبِّمَا كَانَ عَاشِقًا مَفْتُونًا مَسْحُورًا ، ذَا بَصِيرَةٍ مَذْخُولَةٍ وَقَلْبٍ هَوَاءٍ وَعَقْلٍ مُلْتَاثٍ ، فَيَمَرِّدُ عَلَى أَبِيهِ وَيَخْرُجُ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَيُحَارِبُ أَهْلَهُ وَرَبَّهُ مِنْ أَجْلِ أَمْرَةٍ ، يَبْدَأُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّهُ هُوَ وَالِدُهُ ، وَهُوَ رَبُّهُ وَأَنْشَأَهُ فِي بَيْتٍ فِيهِ الدِّينُ وَالْخَلْقُ وَالشَّهَامَةُ وَالنَّجْدَةُ ، وَأَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ بِأَمْرَةٍ لَا تَكُونُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْبَيْتَةِ الْفَاسِدَةِ الْمُسْتَهْتَرَةِ ، حِينَ تَجْمَعُ كُلُّ مَعَانِي الْفَسَادِ وَالْإِبَاحَةِ وَالْاسْتِهْتَارِ فِي كَلِمَةِ (الْحُرِّيَّةِ) .

وَقَالَ : إِنَّ الْبَيْتَةَ فِي الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ الشَّرَفُ وَالِدَيْنُ وَالْمَرْوَةُ وَالْغَيْرَةُ عَلَى الْعِرْضِ ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، وَلَمْ يَكُنْ الْأَبْنَاءُ يَوْمِنِيذٍ يَغْتَرِضُونَ آبَاءَهُمْ فَيَمْنِ أَخْتَارُوهُمْ ، إِذِ النَّسْلُ هُوَ أَمْتِدَادُ تَارِيخِ الْأَبِ وَالْأَبْنِ مَعًا ، وَالْأَبُ أَعْرَفُ بِدُنْيَاةٍ وَأَجْدَرُ أَنْ

يَكُونُ مَبْرَأً مِنْ اخْتِلَاطِ النَّظَرَةِ ، فَيَخْتَارُ لِلدِّينِ وَالْحَسَبِ وَالْكَمَالِ ، لَا لِلشَّهْوَةِ وَالْحُبِّ وَفُتُونِ الْخَلَاعَةِ ؛ وَلَا مَحَلَّ لِلْإِعْتِرَاضِ بِالْعِشْقِ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْأَخْلَاقِ ، بَلْ مَحَلُّهُ فِي بَابِ الشَّهَوَاتِ وَخَدَّهَا .

ثُمَّ جَزَمَ الْأَبُ أَنَّ الْوَلَدَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ عَاشِقَيْنِ ، حَرِيٌّ أَنْ يَرِثَ فِي أَغْصَابِهِ جُنُونُ اثْنَيْنِ وَأَمْرَاضُهُمَا النَّفْسِيَّةِ وَشَهَوَاتُهُمَا الْمُلتَهَبَةِ ؛ وَلِهَذَا وَقَفَ الشَّرْعُ فِي سَبِيلِ الْحُبِّ قَبْلَ الزَّوْاجِ لَوْاقِيَةِ الْأُمَّةِ فِي أَوَّلِهَا ؛ وَلِهَذَا يَكْثُرُ الضَّغْفُ الْعَصَبِيُّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْأَوْرَشِيَّةِ وَيَتَشَبَّهُ بِهَا الْفَسَادُ ، فَلَا يَأْتِي جِيلٌ إِلَّا وَهُوَ أَشَدُّ مَيْلًا إِلَى الْفَسَادِ مِنَ الْجِيلِ الَّذِي أَعْقَبَهُ .

وَلَمْ يَكْذِبْ بِنْتِهَايِ الْأَبُ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى الرَّأْيُ بِهِ ، حَتَّى اسْرَعَ إِلَى (البَابِ الْمُغْلَقِ) يُهَيِّئُ لِلزُّوْفَانِ وَيَتَعَجَّلُ لِابْنِهِ الْمُطِيعِ ... نَكْبَةً سَتَجِيءُ فِي اخْتِفَالِ عَظِيمِ ...

* * *

قَالَ الشَّابُّ : وَجُنَّ جُنُونِي ؛ وَقَدْ كَانَ أَبِي مِنْ اخْتِرَامِي بِالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُلْقَى مِنْهُ ، فَلَجَأْتُ إِلَى عَمِّي اسْتَدْفِعْ بِهِ النَّكْبَةَ ، وَأَتَأَكَّدُ بِمَكَانِهِ عِنْدَ أَبِي ؛ وَيَتَشَبَّهُ حُزْنِي وَأَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِشَانِي ، وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ : أَفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا شَيْئًا يَنْتَهِي بِي إِلَى تِلْكَ الْفِتَاةِ ، أَوْ يَنْتَهِي بِهَا إِلَيَّ ؛ وَمَا أَكْبَرُ أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقُرْبَى ، وَأَنَّ فِي اخْتِمَالِي إِتْيَاهَا وَاجِبًا وَرُجُوعًا ، وَفِي سَنَرِي لَهَا ثَوَابًا وَمُرُوءَةً ، وَخَاصَّةً فِي هَذَا الزَّمَنِ الْكَاسِدِ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهِ الْعَذَارَى سِنَّ الْعَجَدَاتِ ... وَلَكِنَّ الْقَلْبَ الْعَاشِقَ كَافِرٌ بِالْوَاجِبِ وَالرُّجُوعِ ، وَالثَّوَابِ وَالْمُرُوءَةِ ، وَيَالِأُمِّ وَالْأَبِ ؛ فَهُوَ يَمْلِكُ النِّعْمَةَ وَيُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ التَّنْعَمَ بِهَا ؛ وَكُلُّ مَنْ اعْتَرَضَهُ دُونُهَا كَانَ (عِنْدَهُ) كَاللَّصِّ ...

قَالَ : فَجَحَّ اللَّهُ حُبًّا يَجْعَلُ أَبَاكَ فِي قَلْبِكَ لِصًّا أَوْ كَاللَّصِّ .

قُلْتُ : وَلَكِنِّي حُرٌّ اخْتَارُ مِنْ أَشَاءِ لِنَفْسِي ...

قَالَ : إِنْ كُنْتَ حُرًّا كَمَا تَزْعُمُ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْتَارَ غَيْرَ الَّذِي أَحْبَبْتَهَا ؟ أَلَا تَكُونُ حُرًّا إِلَّا فِينَا نَحْنُ وَفِي هَذَا أَسْرَتَنَا ؟

قُلْتُ : وَلَكِنِّي مُتَعَلِّمٌ ، فَلَا أُرِيدُ الزَّوْاجَ إِلَّا بِمَنْ ...

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : لَيْتَكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ ، فَلَوْ كُنْتَ نَجَّارًا أَوْ حَدَّادًا أَوْ حُودِيًّا ، لَأَذْرَكْتَ بَطِينَةَ الْحَيَاةِ أَنَّ الَّذِينَ يَتَخَضَّعُونَ لِلْحُبِّ وَلِلْمَرْأَةِ هَذِهِ ^(١) الْخُضُوعُ ، هُمْ الْفَارِغُونَ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَفْضِيَ فِي قُلُوبِهِمْ كُلَّ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ

أَمَّا الْعَامِلُونَ فِي الدِّينِ ، وَالْمُغَامِرُونَ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْعَارِفُونَ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَالطَّامِعُونَ فِي الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ تَرْبِيَةِ أَوْهَامِهِمْ ، وَعَنِ الْبُكَاءِ لِلْمَرْأَةِ وَالْبُكَاءِ عَلَى الْمَرْأَةِ ؛ وَنَظَرُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَعْلَى وَأَوْسَعُ ؛ وَغَرَضُهُمْ مِنْهَا أَجَلٌ وَأَسْمَى ؛ وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ » [مسلم ، رقم : ١٢١٨ ؛ أبو داود ، رقم : ١٩٠٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٠٧٤] . أَيَّ أَنْظَرُوا إِلَيْهِنَّ مِنْ جَانِبِ تَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تُقَدِّمُ مِنْ رَجُلِهَا عَلَى قَلْبٍ فِيهِ الْحُبُّ وَالْكَرَاهَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَلَا تَذَرِينِي أَيُّ ذَلِكَ هُوَ حَظُّهَا ؛ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ امْرَأَةً بَدَّدَ زَوْجَةً ، لَخَرِبَتِ الدُّنْيَا وَلَفَسَدَ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا . وَهَذِهِ يَا بُنَيَّ أَوْهَامُ وَقْتِهَا وَعَمَلُ أَسْبَابِهَا ، وَسَبَبُ نِصْفِي الْوَقْتُ وَتَغْيِيرُ الْأَسْبَابِ ، وَرُبَّمَا كَانَ النَّاصِحُ الْيَوْمَ هُوَ الْمُتَعَصِّفُ غَدًا ، وَرُبَّمَا كَانَ الْفَجَّ هُوَ النَّاصِحُ بَعْدُ ؟ وَهَبَكَ لَا تُحِبُّ ذَاتَ رَحِمِكَ ثُمَّ أَكْرَمَتْهَا وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا وَسَتَرْتَهَا ، أَفَيَكُونُ عِنْدَكَ أَجْمَلُ مِنْ شُعُورِهَا أَنَّكَ ذُو الْفَضْلِ عَلَيْهَا ؟ وَهَلْ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عِنْدَ النَّفْسِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الشُّعُورُ فِي نَفْسٍ أُخْرَى ؟ إِنَّ هَذَا يَا بُنَيَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فِيهِ الشَّهْوَةُ ، فَهُوَ حُبٌّ إِنْسَانِيٌّ فِيهِ الْمَجْدُ .

* * *

وَوَقَعَتِ الْمُسْكِلَةُ وَرُقَّتِ الْمِسْكِينَةُ ؛ فَكَيْفَ يَصْنَعُ الرَّجُلُ بَيْنَ الْمَحْبُوبَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ ^(٢) ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) فِي الْأَصْلِ : « هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « هَذِهِ » .

(٢) (رَجَاءٌ إِلَى الْفُرْأَةِ) : هَذِهِ الْقِصَّةُ وَاقِعَةٌ ، وَقَدْ بَنَى الرَّجُلُ بِأَمْرَاتِهِ ، وَهُوَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي لَا اسْمَ لَهُ عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ اسْمُهُ عِنْدَ النَّاسِ « شَهْرُ الْعَسَلِ » . فَمَاذَا يَرَى لَهُ الْفَارِغِيُّ مِنَ الرَّأْيِ ؟ وَمَاذَا تَرَى الْفَارِغَةُ لِهَذِهِ الْعَرُوسِ اللَّابِسَةِ أَكْفَانَهَا فِي عَيْنِ الرَّجُلِ ؟

الْمُشْكِلَةُ (*)

٢

لَمَّا قَرَعْتُ مِنْ مَقَالَاتِ «الْمَجْنُونِ» ^(١) وَأَرْسَلْتُ الْأَخِيرَةَ مِنْهَا ، قُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا
الْآخِرُ هُوَ الْآخِرُ مِنَ الْمَجْنُونِ وَجُنُونِهِ ، وَمِنْ الْفِكْرِ فِي تَخْلِيْطِهِ وَنَوَادِرِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ إِلَيَّ
أَخْلَاطًا وَأَضْعَافًا فَكَأَنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ يَقُولُ لِي : أَكْتُبْ مَقَالًا فِي السِّيَاسَةِ . قُلْتُ : مَا لِي
وِلِلْسِّيَاسَةِ وَأَنَا «مُوظَّفٌ» فِي الْحُكُومَةِ ، وَقَدْ أَخَذَتِ الْحُكُومَةُ مِيثَاقَ الْمُوظَّفِينَ : لِمَا
عَرَفُوا مِنْ نَقْدٍ أَوْ غَمِيزَةٍ لِيَكْتُمْنَهُ وَلَا يَشِيشُونَهُ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ لَيْسَتْ مُشْكِلَةً ، وَلَيْسَ هَذَا
يُضْلِحُ عُذْرًا ، وَالْمَخْرَجُ سَهْلٌ وَالتَّدْبِيرُ يَسِيرٌ وَالْحَلُّ مُمَكِّنٌ . قُلْتُ : فَمَا هُوَ ؟

قَالَ : أَكْتُبْ مَا شِئْتَ فِي سِيَاسَةِ الْحُكُومَةِ ، ثُمَّ اجْعَلْ تَوْفِيقَكَ فِي آخِرِ الْمَقَالِ هَكَذَا :
«مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِي ؛ غَيْرُ مُوظَّفٍ بِالْحُكُومَةِ ...»

فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ الْمَجَانِينِ فِي حَلِّ الْمَشَاكِلِ الْمُعَقَّدَةِ ، لَا يَكُونُ الْحَلُّ إِلَّا عُقْدَةً
جَدِيدَةً يَتِمُّ بِهَا أَلْبَاسُ وَيَتَعَدَّرُ الْإِمْكَانُ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا طَرِيقَةُ ذَلِكَ الطَّائِرِ الْأَبْلَهِ الَّذِي يَرَى
الْصَّائِدَ فَيَغْمِضُ عَيْنَهُ وَيَلْوِي عُنْقَهُ وَيُخْبِئُ رَأْسَهُ فِي جَنَاحِهِ ظَنًّا عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِ
الْصَّائِدَ لَمْ يَرَهُ الصَّائِدُ ، وَإِذَا تَوَهَّمَ أَنَّهُ اخْتَفَى تَحَقَّقَ أَنَّهُ اخْتَفَى ؛ وَمَا عَمَلُهُ ذَاكَ إِلَّا كَقَوْلِهِ
لِلصَّيَّادِ : إِنِّي غَيْرُ مَوْجُودٍ هُنَا ... عَلَى قِيَاسِ «غَيْرِ مُوظَّفٍ» ...

* * *

وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَفْتِيَتُ الْقُرَّاءَ فِي «الْمُشْكِلَةِ» ، وَكَيْفَ يَتَّقِي صَاحِبُهَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَيْفَ
تَصْنَعُ صَاحِبُهَا ؛ فَتَلَقَّيْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً أَهْدَتْ إِلَيَّ عُقُولًا مُخْتَلِفَةً ؛ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الْمَقَادِيرِ

(*) «الرسالة» العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٤٥ - ٤٨ .

(١) { بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا الْفَصْلَ الْأَوَّلَ مِنَ «الْمُشْكِلَةِ» وَأَسْتَفْتَيْنَا الْقُرَّاءَ فِي آخِرِهِ ، أَنْتَظَرْنَا مُدَّةً ، وَكَتَبْنَا فِي
هَذِهِ الْمُدَّةِ مَقَالَاتِ «الْمَجْنُونِ» فَأَنْظَرَهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي } .

أَنَّ أَوَّلَ كِتَابٍ أُلْفِيَ إِلَيَّ مِنْهَا - كِتَابُ مَجْنُونٍ « نَابِغَةُ » كِتَابَةِ الْقَزْنِ الْعِشْرِينَ ، بَعَثَ بِهِ مِنْ الْقَاهِرَةِ ، وَسَمَى نَفْسَهُ فِيهِ (الْمُصْلِحُ الْمُنتَظَرُ) وَهَذِهِ عِبَارَتُهُ بِحَرْفِهَا وَرَسْمِهَا كَمَا كُتِبَتْ وَكَمَا تُقْرَأُ ؛ فَإِنَّ نَشْرَ هَذَا النَّصِّ كَمَا هُوَ ، يَكُونُ أَيْضًا نَصًّا عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلِ كَيْفَ هُوَ

قَالَ : « إِنَّ هَذَا الْكَوْنُ تَعَبَتْ فِيهِ آرَاءُ الْمُصْلِحِينَ ، وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ زُهَاءً قُرُونٍ عَدِيدَةٍ ، وَدَائِمًا تَرَى الطَّبِيعَةَ تَنْتَصِرُ . وَلَقَدْ نَرَى الْحَيَوَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَعْيشُ بِجَوَارِ أَلْبَنِهِ ، وَالطَّيْرَ كَيْفَ يَزُكُنْ إِلَى عَشِّ حَبِيبَتِهِ ، إِلَّا الْإِنْسَانَ . وَلَقَدْ تَفَقَّنَ الْمُشْرِعُونَ فِي أَسْمَاءِ : الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْحِمَى وَالشَّرَفِ وَالْعِرْضِ ، وَإِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَزُولُ أَمَامَ سُلْطَانِ الْمَادَّةِ فَمَا بِالْكُفِّ بِسُلْطَانِ الرُّوحِ ؟

وَرَأَيْتُ لِهَذَا الشَّابِّ أَلَّا يُطِيعَ أَبَاهُ وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَا يُسَمُّوهُ الْجَحِيمَ (كَذَا) إِذَا كَانَ بَعْدَ أَنْ يَعْيشَ الْحَيَاةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي يَخَيَّاها وَيَتَمَتَّعُ بِالْحُبِّ الْوَاحِدِ الْمُقَدَّرِ لَهُ ، مَا دَامَ قَلْبُهُ أَصْطَفَاها وَرُوحُهُ تَهَوَّاها ؛ وَلَوْ تَرَكْتُهُ بَعْدَ سِنِينَ قَلِيلَةٍ لِأَيِّ دَاعٍ مِنْ دَوَاعِ الْإِنْفِصَالِ . (كَذَا) .

وَهَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ رَأْيٍ مُجَرَّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْيٌ أَكْبَرَ عَقْلٍ أَنْجَبَتْهُ الطَّبِيعَةُ حَتَّى الْآنَ . . . ! وَسَيَنْتَصِرُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَقِفُونَ أَمَامَهُ ، وَالذَّلِيلُ أَنَّ هَذَا الْقَمَالَ سَيَسِيرُ إِلَيْهِ فِي مَجَلَّةِ (الرَّسَالَةِ) ، وَهَذَا الرَّأْيُ سَيَعْمَلُ بِهِ ، وَصَاحِبُ هَذَا الرَّأْيِ سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا ، وَسَيَضَعُ الْأُسُسَ وَالْقَوَائِينَ الَّتِي تَصْلُحُ لِبَنِي الْإِنْسَانِ مَعَ سُمُو الرُّوحِ بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَتْ أَخْلَاقُهُ عِبَادَةَ الْمَالِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخِيَا حَيَاةَ وَاحِدَةٍ فَلْيَجْعَلْهَا بِأَحْسَنِ مَا نَكُونُ ، وَلْيَمْتَعِ رُوحَهُ بِمَا تُتَمَتَّعُ بِهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ سِوَاهُ . وَإِلَى الْمُلْتَقَى فِي مِيدَانِ الْجِهَادِ .

(الْمُصْلِحُ الْمُنتَظَرُ) أَنْتَهَى . .

وَهَذَا الْكِتَابُ يَحُلُّ (الْمُشْكِلَةَ) عَلَى طَرِيقَةِ « غَيْرِ مُوظَّفٍ » . . . فَلْيَعْتَقِدِ الْعَاشِقُ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ فَإِذَا هُوَ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ ، وَإِذَا هُوَ يَتَقَلَّبُ فِيمَا شَاءَ ؛ وَتَسْأَلُ الْكَاتِبَ ثُمَّ مَاذَا ؟ فَيَقُولُ لَكَ : ثُمَّ الْجَحِيمُ . . .

وَأِنَّمَا أَوْزَدَنَا الْكِتَابَ بِطَوْلِهِ وَعَزَّضَهُ لِأَنَّا قَرَأْنَاهُ عَلَى وَجْهَيْنِ ، فَقَدْ نَبَّهْتَنَا عِبَارَةً « أَكْبُرَ عَقْلٍ أَنْجَبْتَهُ الطَّبِيعَةُ حَتَّى الْآنَ » إِلَى أَنَّ فِي الْكَلَامِ إِشَارَةً مِنْ قُوَّةِ حَقِيقَةِ فِي الْغَيْبِ ، فَقَرَأْنَاهُ عَلَى وَخِي هَذِهِ الْإِشَارَةَ وَهَذِيهَا ، فَإِذَا تَرَجَمَةَ لُغَةً الْغَيْبِ فِيهِ :

« وَنَحَكَ يَا صَاحِبَ الْمُسْكَلَةِ ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مَجْنُونًا أَوْ كَافِرًا بِاللَّهِ وَبِالْآخِرَةِ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ . كُنْ حَيَوَانًا تَنْتَصِرُ فِيهِ الطَّبِيعَةُ وَالسَّلَامُ ١ » .

* * *

تِلْكَ إِحْدَى عَجَائِبِ الْمَقَادِيرِ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْقَلَمِ إِلَيَّ ؛ أَمَّا الْعَجِيبَةُ الثَّانِيَةُ فَإِنَّ آخِرَ كِتَابٍ تَلَقَّيْتُهُ كَانَ مِنْ صَاحِبَةِ الْمُسْكَلَةِ نَفْسِهَا ؛ وَهُوَ كِتَابُ آيَةٍ فِي الظَّرْفِ وَجَمَالِ التَّغْيِيرِ وَإِشْرَاقِ النَّفْسِ فِي أَسْرَارِهَا ، يَمُورُ مَوْرَ الضَّبَابِ الرَّقِيقِ مِنْ وَرَائِهِ الْأَشْعَةُ ، فَهُوَ يَخْجُبُ جَمَالًا لِيُظْهِرَ مِنْهُ جَمَالًا آخَرَ ؛ وَكَأَنَّهُ يُعْرِضُ بِذَلِكَ رَأْيًا لِلتَّظَرُّ وَرَأْيًا لِلتَّصَوُّرِ ، وَيَأْتِي بِكَلَامٍ يُقْرَأُ بِالْعَيْنِ قِرَاءَةً وَبِالْفِكْرِ قِرَاءَةً غَيْرَهَا ؛ وَلَفْظُهَا سَهْلٌ سَهْلٌ ، قَرِيبٌ قَرِيبٌ ، حَتَّى كَانَ وَجْهَهَا هُوَ يُحَدِّثُكَ لَا لَفْظُهَا ؛ وَمَادَّةُ مَعَانِيهَا مِنْ قَلْبِهَا لَا مِنْ فِكْرِهَا ، وَهُوَ قَلْبٌ سَلِيمٌ مُقْفَلٌ عَلَى خَوَاطِرِهِ وَأَحْزَانِهِ ، مُسْتَرْسِلٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ أَسْتَرْسَلُهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا كُتِبَ لَهُ ، فَمَا بِهِ غُرُورٌ وَلَا كِبْرِيَاءٌ وَلَا حِفْذٌ وَلَا غَضَبٌ ، وَلَا يَكْرَهُهُ مَا هُوَ فِيهِ .

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَلْبِ لَا يُخْلَقُ بِفَضَائِلِهِ إِلَّا لِيُعَاقَبَ عَلَى فَضَائِلِهِ ؛ فِعْلَظَةُ النَّاسِ عِقَابٌ لِرَفَّتِهِ ، وَعَذْرُهُمْ نِكَايَةٌ لَوْفَائِهِ ، وَتَهَوُّرُهُمْ رَدٌّ عَلَى أَنَانِهِ ، وَحُمُقُهُمْ تَكْدِيرٌ لِسُكُونِهِ ، وَكَذِبُهُمْ تَكْذِيبٌ لِلصِّدْقِ فِيهِ .

وَمَا أَرَى هَذَا الْقَلْبَ مَأْخُودًا بِحُبِّ ذَلِكَ الشَّابِّ وَلَا مُسْتَهَامًا بِهِ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَعَلَّقُ صُورًا عَقْلِيَّةً جَمِيلَةً كَانَ مِنْ عَجَائِبِ الْإِتْفَاقِ أَنْ عَرَضَتْ لَهُ فِي هَذَا الشَّابِّ أَوَّلَ مَا عَرَضَتْ عَلَى مِقْدَارِ مَا ؛ وَسَيَكُونُ مِنْ عَجَائِبِ الْإِتْفَاقِ أَيْضًا أَنْ يَرُودَ هَذَا الْحُبِّ زَوَالُ الْوَاحِدِ إِذَا وَجِدَتْ الْعَشْرَةُ ، وَزَوَالُ الْعَشْرَةِ إِذَا وَجِدَتْ الْمِئَةُ ، وَزَوَالُ الْمِئَةِ إِذَا وَجِدَ الْأَلْفُ .

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَصَاحِبَةُ الْمُسْكَلَةِ فِي كِتَابِهَا كَأَنَّمَا تَكْتُبُ فِي نَقْدِ الْحُكُومَةِ عَلَى طَرِيقَةِ جَعْلِ التَّوْقِيعِ : « فَلَانٌ غَيْرُ مُوَظَّفٍ بِالْحُكُومَةِ » . . . وَهِيَ فِيمَا كَتَبَتْ كَالْتَهْرِ الَّذِي يَحْدَرُ

بَيْنَ شَاطِئَيْهِ مُدْعِيَا أَنَّهُ هَارِبٌ مِنَ الشَّاطِئَيْنِ مَعَ أَنَّهُ بَيْنَهُمَا يَجْرِي : نُحِبُّ صَاحِبَهَا وَتَلْقَاهُ ؛ ثُمَّ هِيَ عِنْدَ نَفْسِهَا غَيْرُ جَانِبَةٍ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى زَوْجَتِهِ . . . فَلَيْتَ شِعْرِي عَنْهَا ، مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ الْجِنَايَةُ بَعْدَ زَوَاجِ الرَّجُلِ غَيْرَ هَذَا الْحُبِّ وَهَذَا اللَّقَاءِ ؟

وَنَحْنُ مَعَ كَارِسْطَاطَالِيسَ مَعَ صَدِيقِهِ الظَّالِمِ حِينَ قَالَ لَهُ : هَبْنَا نَقْدِرْ عَلَى مُحَابَاتِكَ فِي آلَا نَقُولُ إِنَّكَ ظَالِمٌ ؛ هَلْ تَقْدِرُ أَنْتَ عَلَى آلَا تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ ؟

وَرَأَيْهَا فِي (الْمُشْكِلَةِ) أَنْ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ حَلَّهَا إِلَّا صَاحِبُهَا ، ثُمَّ هُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ : فَمَا أَنْ تَكُونَ ضَاحِيَةً أَيْنَهَا وَأَيْبَهُ - نَعْنِي زَوْجَتَهُ - ضَاحِيَةً هُوَ أَيْضًا ، وَيُسْتَهْدَفُ لِمَا يَنَالُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا ، فَيَكُونُ الْبَلَاءُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَيُكَابِدُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مَا إِنَّ أَقْلَهُ لَيَذْهَبُ بِرَاحَتِهِ وَيُنْغَصُ عَلَيْهِ الْحُبُّ وَالْعَيْشُ ، (قَالَتْ) : وَإِمَّا أَنْ يُضْحِي بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَيَبِي

وَهَذَا كَلَامٌ كَأَنَّهَا تَقُولُ فِيهِ : إِنْ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ حَلَّ الْمُشْكِلَةِ إِلَّا صَاحِبُهَا ، [] وَأَنْ صَاحِبَهَا [] غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ حَلَّهَا إِلَّا بِجِنَايَةٍ يَذْهَبُ فِيهَا نَعِيمُهُ ، أَوْ بِجُنُونٍ يَذْهَبُ فِيهِ عَقْلُهُ . فَإِنْ حَلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ أَحَدُ اثْنَيْنِ : إِمَّا أَحَقَّ أَوْ مَجْنُونٌ مَا مِنْهُمَا بُدٌّ . . .

وَلِسَانُ الْغَيْبِ نَاطِقٌ فِي كَلَامِهَا بِأَنْ أَحْسَنَ حَلٌّ لِلْمُشْكِلَةِ هُوَ أَنْ تَبْقَى بِلاَ حَلٍّ ، فَإِنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ .

* * *

وَالْعَجِيبَةُ الثَّلَاثَةُ أَنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ »^(١) جَاءَ زَائِرًا بَعْدَ أَنْ قَرَأَ مَقَالَاتِ (الْمَجْنُونِ) ، قَرَأَ بَيْنَ يَدَيِ هَذِهِ الْكُتُبِ الَّتِي تَلَقَّيْتُهَا وَأَنَا أَعْرِضُهَا وَأَنْظُرُ فِيهَا لِاتَّخِيَرِ مِنْهَا ، فَسَأَلَ فَخَبَّرْتُهُ الْخَبَرَ ؛ فَقَالَ : إِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ مَجْنُونٌ . . . لَوْ أَمْتَحَنُوهُ فِي الْجُغَرَاْفِيَا وَقَالُوا لَهُ : مَا هِيَ أَشْهُرُ صِنَاعَةٍ فِي بَارِيسِ Paris ؟ لِأَجَابَهُمْ : أَشْهُرُ مَا تُعْرِفُ بِهِ بَارِيسُ Paris أَنَّهَا تَصْنَعُ (الْبُودَرَةَ) لِوَجْهِ حَبِيبَتِي . . .

قُلْتُ : فَكَيْفَ يَرْتَدُّ هَذَا الْمَجْنُونُ عَاقِلًا ؟ وَمَا عِلَاجُهُ عِنْدَكَ ؟

(١) هُوَ لَقَبُ الْمَجْنُونِ ، فَنَظَرُ مَقَالَاتِهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي .

قَالَ : وَجَّهَ فِي طَلَبِ (١) لِيَجِيءَ ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ أَكْتُبْ : جَلَسَ « نَابِغَةُ
الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ » مَجْلِسَهُ لِلإِفْتَاءِ فِي حَلِّ الْمُسْكِلَةِ فَأَفْتَى مُرْتَجِلًا :

« إِنَّ مَنْطِقَ الْأَشْيَاءِ وَعَقْلِيَّةَ الْأَشْيَاءِ صَرِيحَانِ فِي أَنَّ مُشْكِلَةَ الْحُبِّ الَّتِي يَعْسُرُ حَلُّهَا
وَيَتَعَذَّرُ مَجَازُ الْعَقْلِ فِيهَا ، لَيْسَتْ هِيَ مُشْكِلَةَ هَذَا الْعَاشِقِ أَكْرَهُهُ عَلَى الزَّوْاجِ بِأَمْرَأَةٍ
يَحْمِلُهَا الْقَلْبُ أَوْ لَا يَحْمِلُهَا ، وَإِنَّمَا تِلْكَ هِيَ مُشْكِلَةُ أُمِّرَاطُورِ الْحَبْشَةِ يُرِيدُونَ إِرْغَامَهُ أَنْ
يَتَزَوَّجَ إِنْطَالِيَا ، وَيَذْهَبُونَ يَزْفُونَهَا إِلَيْهِ بِالْذَّبَابَاتِ وَالرَّشَاشَاتِ وَالْعَازَاتِ السَّامَةِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَأْسُ هَذَا الْعَاشِقِ الْمَجْنُونِ فَارِغًا مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ الْعَقْلِ ، إِذَا
لَكَانَتْ مَجَارِي عَقْلِهِ مَطْرُودَةً فِي رَأْسِهِ ، فَانْحَلَّتْ مُشْكِلَتُهُ بِأَسْبَابٍ تَأْتِي مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا أَوْ
ذَاتِ نَفْسِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ فِي رَأْسِهِ عَقْلٌ بَطْنُهُ لَا عَقْلَ الرَّأْسِ ، كَذَلِكَ الشَّرُّهُ الْبَخِيلُ الَّذِي طَبَخَ
قِدْرًا وَقَعَدَ هُوَ وَأَمْرَأَتُهُ يَأْكُلَانِ ، فَقَالَ : مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الْقِدْرَ لَوْ لَا الزَّحَامُ . . . قَالَتْ
أَمْرَأَتُهُ : أَيُّ زَحَامٍ هَلَهْنَا ؟ إِنَّمَا أَنَا وَأَنْتَ . قَالَ : كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَالْقِدْرُ فَقَطْ . . .

فَعَقِلَ النَّهْمَ فِي رَأْسِ هَذَا كَعَقْلِ الشَّهْوَةِ فِي رَأْسِ ذَاكَ : كِلَاهُمَا فَاسِدُ التَّقْدِيرِ لَا يَعْمَلُ
أَعْمَالِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ ؛ وَيُرِيدُ أَحَدُهُمَا أَنْ تَبْطُلَ الزَّوْجَةُ مِنْ أَجْلِ رِطْلٍ مِنَ اللَّحْمِ ، وَيُرِيدُ
الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي رِطْلٍ مِنَ الْحُبِّ . . .

وَإِذَا فَسَدَ الْعَقْلُ هَذَا الْفَسَادَ ابْتَلَى صَاحِبُهُ بِالْمَشَاكِيلِ الصَّبْيَانِيَّةِ الْمُضْحِكَةِ : لَا تَكُونُ
مِنْ شَيْءٍ كَبِيرٍ ، وَلَا يَكُونُ مِنْهَا شَيْءٌ كَبِيرٌ ؛ وَهِيَ عِنْدَ صَاحِبِهَا لَوْ وَرِثَتْ كَانَتْ قَنَاطِيرَ مِنَ
التَّعْقِيدِ ؛ وَلَوْ كَيْلَتْ بَلَّغَتْ أَرَادَبَ مِنَ الْحَيْرَةِ ؛ وَلَوْ قَيْسَتْ أَمْتَدَّتْ إِلَى فَرَايِخَ مِنَ الْعُمُوضِ .

هَاتَانِ الْمَرْأَتَانِ : (الْحَبِيبَةُ وَالزَّوْجَةُ) ، إِمَّا أَنْ تَكُونَا جَمِيعًا أَمْرَأَتَيْنِ ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ
فَلَا مُشْكِلَةَ ؛ وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَا أَمْرَأَتَيْنِ ، فَالْمَعْنَى كَذَلِكَ وَاحِدٌ فَلَا مُشْكِلَةَ ؛ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَا
إِحْدَاهُمَا أَمْرَأَةً وَالْأُخْرَى قِرْدَةً أَوْ هِرْدَةً ، وَهَلَهْنَا الْمُسْكِلَةَ . (حَاشِيَةٌ : الْهِرْدَةُ مِنْ أَوْضَاعِ
نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ فِي اللَّغَةِ ، وَمَعْنَاهَا الْأَنْثَى لَيْسَتْ مِنْ إِنَاثِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَا الْبَهَائِمِ . . .) .

فَإِنْ زَعَمَ الْعَاشِقُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قِرْدَةٌ فَهُوَ كَاذِبٌ ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهَا الْهِرْدَةُ فَهُوَ أَكْذَبُ ؛

وَالْمُشْكِلَةُ هُنَا مُشْكِلَةُ كُلِّ الْمَجَانِينِ ، فَفِي مَحْوَ مَوْضِعٍ أَفْرَطَ عَلَيْهِ الشَّعُورُ فَأَفْسَدَهُ ، وَأَوْقَعَ
بِفْسَادِهِ الْخَطَأَ فِي الرَّأْيِ ، وَأَبْتَلَاهُ مِنْ هَذَا الْخَطَأِ بِالْعَمَى عَنِ الْحَقِيقَةِ ، وَجَعَلَ زَوْجَتَهُ
الْمُسْكِنَةَ هِيَ مَعْرِضُ هَذَا الْعَمَى وَهَذَا الْخَطَأَ وَهَذَا الْفَسَادَ ؛ وَلَا عَيْبَ فِيهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ
زَوْجِهَا كَالْحَقِيقَةِ الَّتِي يَتَخَبَّطُ فِيهَا الْمَجْنُونُ مَدَّةَ جُنُونِهِ ، فَتَكُونُ مَجْلَى هَذَا يَدَايِهِ وَمَعْرِضُ
حِمَايَاتِهِ ، وَهِيَ الْحَقِيقَةُ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ الْمَجْنُونُ .

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مَسْأَلَةً حِسَابِيَّةً اسْتَمَرَّ الْمَجْنُونُ مَدَّةَ جُنُونِهِ يَقُولُ لِلنَّاسِ :
خَمْسُونَ وَخَمْسُونَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَلَا يُصَدِّقُ أَبَدًا أَنَّهَا مِئَةٌ كَامِلَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً
قَضَى الْمَجْنُونُ أَيَّامَهُ يُشْعِلُ التُّرَابَ لِيَجْعَلَهُ بَارُودًا يَنْفَجِرُ وَيَتَفَرَّقُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عَقْلِهِ أَبَدًا
أَنَّ هَذَا تُرَابٌ مُنْطَفِئٌ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةً قَلْبِيَّةً اسْتَمَرَّ الْمَجْنُونُ يَزْعُمُ أَنَّ زَوْجَتَهُ
قِرْدَةٌ أَوْ هِرْدَةٌ ، وَلَا يَشْعُرُ أَبَدًا أَنَّهَا أَمْرَأَةٌ .

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَجْنُونٌ فَعِلَاجُهُ أَنْ يُزْبَطَ فِي الْمَارِسْتَانِ ، ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُهُ كُلُّ
يَوْمٍ بِزَوْجَتِهِ فَيَسْأَلُونَهُ : أَهَلِيهِ أَمْرَأَةٌ أَمْ قِرْدَةٌ أَمْ هِرْدَةٌ ؟ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ وَلَا يَزَالُ حَتَّى يَرَاهَا
أَمْرَأَةً ، وَيَعْرِفَهَا أَمْرَأَةً ، فَيَقَالَ لَهُ حِينئِذٍ : إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ الرِّجَالِ .

أَمَّا إِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلًا مُمَيَّرًا صَحِيحَ التَّفَكِيرِ وَلَكِنَّهُ مَرِيضٌ مَرَضُ الْحُبِّ ، فَلَا يَرَى
(الْغَائِبَةَ) أَشْفَى لِدَائِهِ وَلَا أَنْجَعَ فِيهِ مِنْ أَنْ يَسْتَطِبَّ بِهِلِهِ الْأَشْفِيَةَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى
يَذْهَبَ سَقَامُهُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِهَا كُلِّهَا :

الدَّوَاءُ الْأَوَّلُ : أَنْ يَجْمَعَ فِكْرَهُ قَبْلَ نَوْمِهِ فَيَحْصُرُهُ فِي زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَقُولُ :
زَوْجَتِي ، زَوْجَتِي . حَتَّى يَنَامَ . فَإِنْ لَمْ يَذْهَبْ مَا بِهِ فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ فَالدَّوَاءُ الثَّانِي .

الدَّوَاءُ الثَّانِي : أَنْ يَتَجَرَّعَ شَرْبَةً مِنْ زَيْتِ الْخَرْوَجِ كُلُّ أُسْبُوعٍ . . . وَيَتَوَهَّمُ كُلَّ مَرَّةٍ أَنَّهُ
يَتَجَرَّعُهَا مِنْ يَدِ حَبِيبَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ هَذَا فَالدَّوَاءُ الثَّلَاثُ .

الدَّوَاءُ الثَّلَاثُ : أَنْ يَذْهَبَ فَيَبْنِي لَيْلَةً فِي الْمَقَابِرِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ نَظْرَهُ فِي أَيِّ الْمَرَاتِنِ يُرِيدُ
أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِهَا وَيَرْضَاهَا عَنْهُ وَيَتَوَاهَبَ فِيهَا ؛ وَأَيُّهُمَا هِيَ مَوْضِعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنْ لَمْ
يُبْصِرْ رُشْدَهُ بَعْدَ هَذَا فَالدَّوَاءُ الرَّابِعُ .

الدَّوَاءُ الرَّابِعُ : أَنْ يَخْرُجَ فِي (مُظَاهَرَةٍ) ... فَإِذَا فُقِثَتْ لَهُ عَيْنٌ أَوْ كُسِرَتْ لَهُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، ثُمَّ لَمْ تَحُلْ حَبِيبَتُهُ الْمُشْكِلَةَ بِنَفْسِهَا ... فَالدَّوَاءُ الْخَامِسُ .

الدَّوَاءُ الْخَامِسُ : أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ الْمُبْتَلَى بِالْحَشِيشِ وَالْكُوكَايِينِ ، فَيَذْهَبَ فَيُسَلِّمَ نَفْسَهُ إِلَى السَّجَنِ لِيَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ فَيَنْسَى هَذَا التَّرَفَ الْعَقْلِيَّ ، ثُمَّ لِيَعْرِفَ مِنْ أَعْمَالِ السَّجَنِ جِدَّ الْحَيَاةِ وَهَزْلَهَا ، فَإِنْ لَمْ يَنْزِعْ عَنْ جَهْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ السَّادِسُ .

الدَّوَاءُ السَّادِسُ : أَنَّهُ كُلَّمَا تَحَرَّكَ دُمُهُ وَشَاعَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الْحُبِّ ، لَا يَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُحِبُّهَا ، وَلَا يَتَوَخَّى نَاحِيَتَهَا ، بَلْ يَذْهَبُ مِنْ قَوْرِهِ إِلَى حِجَامٍ يَحْجُمُهُ ... لِيُطْفِئَ عَنْهُ الدَّمَ بِإِخْرَاجِ الدَّمَ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَصْلُحُ بِهَا مَجَانِنُ الْعُشَاقِ ، وَلَوْ تَبَدَّلُوا بِهَا مِنْ لَا تَنْتَحِرَ لَعَاشُوا هُمْ وَأَنْتَحَرَ الْحُبُّ .

قَالَ « نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » : « فَإِنْ بَطَلَتْ هَذِهِ الْأَشْفِيَةُ السَّتَّةُ ، وَبَقِيَ الرَّجُلُ جَمُوحًا لَا يَرُدُّ عَنْ هَوَاهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّوَاءُ السَّابِعُ .

الدَّوَاءُ السَّابِعُ : أَنْ يُضْرَبَ صَاحِبُ الْمُشْكِلَةِ خَمْسِينَ قَنَاطَةً يُصَكُّ بِهَا^(١) ، وَإِقَاعَةً مِنْهُ حَيْثُ تَقَعُ مِنْ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ وَظَهْرِهِ وَأَطْرَافِهِ ، حَتَّى يَنْهَشِمَ عَظْمُهُ ، وَيَنْقُصَ صُلْبُهُ ، وَيَنْشَدِخَ رَأْسُهُ ، وَيَفْرَى جِلْدُهُ ؛ ثُمَّ تُطْلَى جِرَاحُهُ وَكُسُورُهُ بِالْأُطْلِيَّةِ وَالْمَرَاهِمِ ، وَتُوَضَّعَ لَهُ الْأَضْمِدةُ وَالْعَصَائِبُ ، وَيَتْرَكَ حَتَّى يَبْرَأَ عَلَى ذَلِكَ : أَعْرَجٌ مُتَخَلِّعًا مُبْعَثَرٌ أَلْخَلَقِ مَكْسُورٌ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ شِفَاءهُ التَّامُّ مِنْ دَاءِ الْحُبِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ... » .

قُلْنَا : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ غَائِلَةُ الْحُبِّ ؟

قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ الثَّامِنُ .

الدَّوَاءُ الثَّامِنُ : أَنْ يُعَادَ عِلَاجُهُ بِالدَّوَاءِ السَّابِعِ ...

مصطفى صادق الرافعي

(١) الْقَنَاطَةُ : هِيَ الْعَصَا الْعَلِيظَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا « السُّوْمَةُ » . وَالصَّكُّ خَاصٌّ فِي ضَرْبِ الرَّأْسِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ عِظَامُ صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ مَقْصُودَةً فِي هَذَا الْعِلَاجِ ... فَقَدْ جَازَ اسْتِعْمَالُ الصَّكِّ فِي الْجَسْمِ كُلِّهِ كَمَا رَأَيْتُ .

المُشْكِلَةُ

٣

أَمَّا الْبَقِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْأَرَاءِ الَّتِي تَلَفَّيْنَاهَا فَكُلُّ أَصْحَابِهَا مُتَوَافِقُونَ عَلَى مِثْلِ الرَّأْيِ الْوَاحِدِ ، مِنْ وَجُوبِ إِمْسَاكِ الزَّوْجَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِزْسَالِ « تِلْكَ » وَالْانْصِرَافِ عَنْهَا ، وَأَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ فِي ذَلِكَ عَزْمٌ لَا يَتَقَلُّقٌ وَمَضَاءٌ لَا يَنْشِينِي ، وَأَنْ يَصْبِرَ لِلثُّفْرَةِ حَتَّى يَسْتَأْنِسَ مِنْهَا فَإِنَّهَا سَتَحَوُّنٌ ، وَيَجْعَلَ الْأُنَاةَ بِإِزَاءِ الضَّحْرِ فَإِنَّهَا تُصْلِحُهُ ، وَالْمُرُوءَةَ بِإِزَاءِ الْكُزْهِ فَإِنَّهَا تَحْمِلُهُ ، وَلَيَسِّرْكَ الْأَيَّامُ تَعْمَلَ عَمَلَهَا فَإِنَّهُ الْآنَ يَعْتَرِضُ هَذَا الْعَمَلُ وَيُعْطِلُهُ ، وَإِنَّ الْأَيَّامَ إِذَا عَمِلْتَ فَسَتَعَيِّرُ وَتُبْدِلُ ؛ وَلَا يُسْتَقَلُّ الْقَلِيلُ تَكُونُ الْأَيَّامُ مَعَهُ ، وَلَا يُسْتَكْتَرُ الْكَثِيرُ تَكُونُ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ .

وَالْعَدِيدُ الْأَكْبَرُ مِمَّنْ كَتَبُوا إِلَيَّ ، يَحْفَظُونَ عَلَى صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ ذَلِكَ الْبَيَانِ الَّذِي وَضَعْنَاهُ عَلَى لِسَانِهِ فِي الْمَقَالِ الْأَوَّلِ ، وَيَحَاسِبُونَهُ بِهِ ، وَيَقْنِئُونَ مِنْهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ اعْتَرَفْتَ ، وَأَنْتَ أَنْكَرْتَ ، وَأَنْتَ رَدَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْتَ نَصَبْتَ الْمِيزَانَ فَكَيْفَ لَا تَقْبَلُ الْوِزْنَ بِهِ ؟ وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْمَقَالَ مِنْ كَلَامِنَا نَحْنُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَسْلُوبُ مِنَ الْقَوْلِ أَرْدَنَاهُ وَنَحْلَنَاهُ ذَلِكَ الشَّابَّ ، لِيَكُونَ فِيهِ أَلَاغِزٌ وَجَوَابُهُ ، وَالْخَطَأُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ ؛ وَلِنُظْهِرَ بِهِ الرَّجُلَ كَأَلْبَلَهَ فِي حَيْرَتِهِ وَمُشْكِلَتِهِ ، تَنْفِيرًا لِغَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ مَوْقِفِهِ ، ثُمَّ لِنَحْرِكَ بِهِ الْعِلَلَ الْبَاطِنَةَ فِي نَفْسِهِ هُوَ ، فَنَصْرِفَهُ عَنِ الْهَوَى شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الرَّأْيِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى إِذَا قَرَأَ قِصَّةَ نَفْسِهِ قَرَأَهَا بِتَغْيِيرٍ مِنْ قَلْبِهِ وَتَغْيِيرٍ آخَرَ مِنَ الْعَقْلِ ، وَتَلَمَّحَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِيمَا ظَهَرَ لَهُ ، وَاهْتَدَى مِنَ التَّقْيِيدِ إِلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُخْلَصُ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْحُبِّ اللَّذِينَ اخْتَلَطَا عَلَيْهِ وَأَمْتَرَجَا لَهُ أَمْتِزَاجَ الْمَاءِ وَالْحَمْرِ . وَبِذَلِكَ الْأَسْلُوبِ جَاءَتْ الْمُشْكِلَةُ مُعَقَّدَةً مُنَحَلَّةً فِي لِسَانِ صَاحِبِهَا ، وَبَقِيَ أَنْ يُدْفَعَ صَاحِبُهَا بِكَلَامٍ آخَرَ إِلَى مَوْضِعِ الرَّأْيِ .

وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ نَبِّهُوا الرَّجُلَ إِلَى حَقِّ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ

يَزُوقُهُ عَقْلًا . . . وَقَدْ أَصَابَ هَذَا أَحْسَنَ التَّوْفِيقِ فِيمَا أَلْهِمُوا مِنْ هَذِهِ الدَّلْعَوَةِ ، فَإِنَّمَا جَاءَتِ الْمُشْكِلَةُ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ فَقَدَ التَّمْيِيزَ وَجُنَّ بِجُنُونَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِي الدَّخَالِ مِنْ عَقْلِهِ ، وَالثَّانِي فِي الْخَارِجِ مِنْهُ ؛ فَاصْبَحَ لَا يُبَالِي بِالْإِثْمِ وَالْبُغْضِ عِنْدَ زَوْجَتِهِ إِذَا هُوَ أَصَابَ الْحُظُوتَ وَالسُّرُورَ عِنْدَ الْأُخْرَى ؛ فَتَعَدَّى طَوْرَهُ مَعَ الْمَرَاتِينِ جَمِيعًا ، وَظَلَمَ الزَّوْجَةَ بِأَنِ اسْتَلَبَ حَقَّهَا فِيهِ ، وَظَلَمَ الْأُخْرَى بِأَنِ زَادَهَا ذَلِكَ الْحَقَّ فَجَعَلَهَا كَالسَّارِقَةِ وَالْمُعْتَدِيَةِ .

وَقَدْ تَمَتَّى أَحَدُ الْقُرَاءِ مِنْ فِلَسْطِينِ^(١) أَنَّ يَزُوقُهُ اللَّهُ مِثْلَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمَكْرُوهَةِ كَرَاهَةً حُبًّا ، وَيَضَعُهُ مَوْضِعَ صَاحِبِ الْمُشْكِلَةِ ، لِئَنِي أَنَّهُ رَجُلٌ يَخُكُّمُ الْكُزَّهَ وَيُصَرِّفُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَلَا يَرْضَى أَنْ يَخُكَّمَهُ الْحُبُّ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْحُبُّ .

وَهَذَا رَأْيِي حَصِيفٌ جَيِّدٌ ، فَإِنَّ الْعَاشِقَ الَّذِي يَتَلَبَّبُ الْحُبُّ بِهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ زَوْجَتِهِ ، لَا يَكُونُ رَجُلًا صَاحِبَ الرُّجُوتِ ، بَلْ هُوَ أَسْخَفُ الْأَمْثَلَةِ فِي الْأَزْوَاجِ ، بَلْ هُوَ مُجْرِمٌ أَخْلَاقِيٌّ يَنْصَبُ لِزَوْجَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ مِثَالَ الْعَاهِرِ الْفَاسِقِ ، لِيَدْفَعَهَا إِلَى الدَّلْعَاةِ وَالْفِسْقِ مِنْ حَيْثُ يَذِرُنِي أَوْ لَا يَذِرُنِي ؛ بَلْ هُوَ غَيْبِيٌّ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ أَنْفَرَادَ زَوْجَتِهِ وَتَرَاجُعَهَا إِلَى نَفْسِهَا الْحَزِينَةِ يُنْشِئُ فِي نَفْسِهَا الْحَزِينَةَ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ ؛ بَلْ هُوَ مُغْفَلٌ ، إِذْ لَا يُدْرِكُ أَنَّ شَرِيعَةَ السَّنِّ بِالسَّنِّ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ ، هِيَ بِنَفْسِهَا عِنْدَ الْمَرْأَةِ شَرِيعَةُ الرَّجُلِ بِالرَّجُلِ

وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَجِدُ مِنْ زَوْجِهَا الْكَرَاهِيَةَ لَا تَعْرِفُهَا أَنَّهَا الْكَرَاهَةُ إِلَّا أَوَّلَ أَوَّلٍ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا الْكَرَاهَةُ هِيَ اخْتِقَارُهَا وَإِهَانَتُهَا فِي أَحْصَى خَصَائِصِهَا السُّوِيَّةِ ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ إِثَارَةُ كِبَرِيَّاتِهَا وَتَحَدُّيَّهَا ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ دَفْعُ غَرِيزَتِهَا أَنْ تَعْمَلَ عَلَى إِبْنَاتِ أَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْحُبِّ ، وَأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى الثَّقَمَةِ وَالْمُجَازَاةِ ؛ ثُمَّ تَنْظُرُ فَإِذَا بُرْهَانُ كُلِّ ذَلِكَ لَا يَجِيءُ مِنْ عَقْلِ وَلَا مِنْطِقٍ وَلَا فَضِيلَةٍ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي مِنْ رَجُلٍ . . . رَجُلٍ يُحَقِّقُ لَهَا هِيَ أَنَّ زَوْجَهَا مُغْفَلٌ وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْحُبِّ .

* * *

(١) هَذِهِ الْأَرْاءُ الَّتِي سَتَقْلُهَا قَدْ تَصَرَّفْنَا فِي جَمِيعِهَا بِالْعِبَارَةِ ، وَلَكِنَّا لَمْ نَخْرُجْ عَمَّا يَزِمُنِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الرَّأْيِ وَمَا أَقَامَ رَأْيُهُ عَلَيْهِ .

وَكَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْأَدِيبَةُ (ف . ز) وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَبْسُطْهُ ، فَقَدْ قَالَتْ : إِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ غَيْبٌ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا رَجُلًا مَرِيضَ النَّفْسِ مَرِيضَ الْخُلُقِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الرَّجُلِ . . . وَمِثْلُ هَذَا هُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْكِلَةٌ فَكَيْفَ تُحَلُّ مُسْكِلَتُهُ ؟ إِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ زَوْجَتِهِ مُغْفَلٌ ، لَا وَصَفَ لَهُ عِنْدَهَا إِلَّا هَذَا ؛ وَمِنْ جِهَةِ حَبِيبَتِهِ خَائِنٌ ، وَالْخِيَانَةُ أَوَّلُ أَوْصَافِهِ عِنْدَهَا .

وَهَذَا الزَّوْجُ يُسَمُّ الْآنَ أَخْلَاقَ زَوْجَتِهِ وَيُفْسِدُ طِبَاعَهَا ، وَيُنْشِئُ لَهَا قِصَّةً فِي أَوَّلِهَا غَبَاوَتُهُ وَإِنَّمُهُ ، وَسَيَتَرَكُهَا تَتِمُّ الرِّوَايَةُ فَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ مَا يَكُونُ آخِرُهَا . وَبِمِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ أَصْبَحَ الْمُتَعَلِّمَاتُ يَعْتَقِدْنَ أَنَّ أَكْثَرَ الشُّبَّانِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا جَمِيعًا ، هُمْ كَاذِبُونَ فِي أَدْعَاءِ الْحُبِّ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا الْغَوَايَةُ ؛ أَوْ هُمْ مُحِبُّونَ يَكْذِبُ الْأَمَلُ بِهِمْ عَلَى النِّسَاءِ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا الْخَيِّتَةُ .

قَالَتْ : وَخَيْرٌ مَا تَفْعَلُهُ صَاحِبَةُ الْمُسْكِلَةِ أَنْ تَصْنَعَ مَا صَنَعَتْهُ أُخْرَى ، لَهَا مِثْلُ قِصَّتِهَا : فَهَلِذِهِ حِينَ عَلِمَتْ بِزَوَاجِ صَاحِبِهَا قَدَفَتْ بِهِ مِنْ طَرِيقِ أَمَالِهَا إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ ، وَأَنْزَلَتْهُ مِنْ دَرَجَةٍ أَنَّهُ كُلُّ النَّاسِ إِلَى مَنَزَلَةٍ أَنَّهُ كَكُلِّ النَّاسِ ، وَنَبَهَتْ حَزَمَهَا وَعَزِيَمَتَهَا وَكِبَرِيَاءَهَا ، فَرَأَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِشِقَاءٍ أَوْ حَسْرَةٍ أَوْ هَمٍّ ، وَابْتَعَدَتْ بِفَضَائِلِهَا عَنْ طَرِيقِ الْحُبِّ الَّذِي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا لِرُوحَةٍ وَزَوْجِهَا ، فَإِذَا مَشَتْ فِيهِ أَمْرًا إِلَى غَيْرِ زَوَاجٍ ، انْخَرَفَ بِهَا مِنْ هُنَا ، وَأَعْوَجَّ لَهَا مِنْ هُنَا ، فَلَمْ يَنْتَهَ بِهَا فِي الْعَايَةِ إِلَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى نَفْسِهَا وَعَلَيْهَا غَبَارُهُ ، وَمَا غَبَارُ هَذَا الطَّرِيقِ إِلَّا سَوَادُ وَجْهِ الْمَرْأَةِ . . .

وَقَدْ جَهَدَ الرَّجُلُ بِصَاحِبَتِهِ أَنْ تَتَّخِذَهُ صَدِيقًا ، فَأَبَتْ أَنْ تَتَقَبَّلَ مِنْهُ بُرْهَانَ خَبِيرَتِهَا . . . وَأَظْهَرَتْ لَهُ جَفْوَةً فِيهَا اخْتِفَارٌ ، وَأَعْلَمَتْهُ أَنَّ نَكْثَ الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ عَهْدٌ ، وَأَنَّ الصَّدَاقَةَ إِذَا بَدَأَتْ مِنْ آخِرِ الْحُبِّ تَغَيَّرَ اسْمُهَا وَرُوحُهَا وَمَعْنَاهَا ، فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ حِينِيذٍ أَسْقَطَ مَا فِي الْحُبِّ ، أَوْ أَكْذَبَ مَا فِي الصَّدَاقَةِ .

ثُمَّ قَالَتْ الْأَدِيبَةُ : وَهِيَ كَانَتْ تُحِبُّهُ ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَهَامَةً بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ أَيْضًا طَاهِرَةً الْقَلْبِ ، لَا تُرِيدُ فِي الْحَبِيبِ رَجُلًا هُوَ رَجُلُ الْحِينِلَةِ عَلَيْهَا فَتُخَدَعُ بِهِ ، وَلَا رَجُلُ الْعَارِ فُتَسَبُّ بِهِ ؛ وَفِي طَهَارَةِ الْمَرْأَةِ جَزَاءُ نَفْسِهَا مِنْ قُوَّةِ الثَّقَةِ وَالْأَطْمِئْنَانِ وَحُسْنِ التَّمَكُّنِ ؛

وَهَذَا الْقَلْبُ الطَّاهِرُ إِذَا فَقَدَ الْحُبَّ لَمْ يَفْقِدِ الطَّمَأْنِينَةَ ، كَالنَّاجِرِ الْحَادِقِ إِنْ خَسِرَ الرِّيحَ لَمْ يُفْلِسْ ، لِأَنَّ مَهَارَتَهُ مِنْ بَعْضِ خَصَائِصِهَا الْقُدْرَةُ عَلَى الْاِخْتِمَالِ ، وَالصَّبْرُ لِلْمُجَاهَدَةِ .
قَالَتْ : فَعَلَى صَاحِبَةِ الْمُسْكِلَةِ الَّتِي عَرَفْتَ كَيْفَ تُحِبُّ وَتُحِلُّ ، أَنْ تَعْرِفَ آلَانَ كَيْفَ تَحَقِّقُ وَتَزْدَرِي .

* * *

وَلِلْأَدِيبَةِ (ف . ع) رَأْيِي جَزَلٌ مُسَدَّدٌ ؛ قَالَتْ : إِنَّهَا هِيَ قَدْ كَانَتْ يَوْمًا بِالْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ صَاحِبَةُ الْمُسْكِلَةِ ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ أَيْفَتْ أَنْ تَكُونَ لِصَّةَ قُلُوبٍ ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : إِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لِي ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَرَادَ ، وَإِنِّي أَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُحَارِبَهُ فِي هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمُسْكِينَةِ ! وَلَكِنْ كُنْتُ قَادِرَةً عَلَى الْفُوزِ ، إِنْ أَنْتَصَارِي عَلَيْهَا عِنْدَ حَبِيبِي هُوَ أَنْتَصَارُهَا عَلَيَّ عِنْدَ رَبِّي ، فَلَاخَسَرُ هَذَا الْحُبَّ لِأَرْيَاحِ اللَّهِ بِرَأْسِ مَالٍ عَزِيزٍ خَسِرْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَأُبْقِيَ عَلَى أَخْلَاقِ الرَّجُلِ لِيَبْقَى رَجُلًا لِامْرَأَتِهِ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنْ أَنَالَ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَهْدِمَ بَيْتًا عَلَى قَلْبٍ ، وَلَا مَعْنَى لِحُبٍّ سَيَكُونُ فِيهِ اللَّؤْمُ بَلْ سَيَكُونُ الْأَمُّ اللَّؤْمُ .

قَالَتْ : وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَنِي أَنَا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاءَ فِي هَذَا الْوَضْعِ لِيَرَى كَيْفَ أَصْنَعُ ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَيْسَ بَيْنَ هَذَيْنِ الضَّدَيْنِ إِلَّا حِكْمَتِي أَوْ حُمْقِي ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ حُسْنَ الْمُدَاخَلَةِ فِي هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ هُوَ الْحَلُّ الْحَقِيقِيُّ لِلْمُسْكِلَةِ .

قَالَتْ : فَتَغَيَّرْتُ لِصَاحِبِي تَغَيُّرًا صِنَاعِيًّا ، وَكَانَتْ نِيَّتِي لَهُ هِيَ أَكْبَرُ أَعْوَانِي عَلَيْهِ ، فَمَا لَبِثَ هَذَا الْاِنْقِلَابُ أَنْ صَارَ طَبِيعِيًّا بَعْدَ قَلِيلٍ ؛ وَكُنْتُ أَسْتَمِدُّ مِنْ قَلْبِ امْرَأَتِهِ إِذَا اخْتَانَنِي الضَّعْفُ أَوْ نَالَنِي الْجَزَعُ ، فَأَشْعُرُ أَنَّ لِي قُوَّةَ قَلْبَيْنِ . وَزِدْتُ عَلَى ذَلِكَ التُّضَحُّ لِمُصَاحِبِي نُصْحًا مُبَسَّرًا عَلَى الْإِفْتِقَارِ وَإِنَارَةَ النَّخْوَةِ فِيهِ وَتَبْصِيرَهُ بِوَاجِبَاتِ الرَّجُلِ ، وَتَرَفَّقْتُ فِي التَّوَضُّعِ إِلَى ضَمِيرِهِ لِأَنْتَبِتَ لَهُ أَنَّ عِزَّةَ الْوَفَاءِ لَا تَكُونُ بِالْحَيَانَةِ ، وَيَبْتَسُّ لَهُ أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ مِنْ أَجْلِي فَمَا يَصْنَعُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْبَرْهَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَضْلُحُ لِي زَوْجًا ؛ ثُمَّ دَلَّكَتُهُ بِرَفْقٍ عَلَى أَنْ خَيْرَ مَا يَصْنَعُ وَخَيْرَ مَا هُوَ صَانِعٌ لِإِزْوَاجِي أَنْ يُقَلِّدَنِي فِي الْإِثْنَارِ وَكَرَمِ النَّفْسِ ، وَيُخْتَدِثَنِي فِي الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ دُمُوعَ الْمَظْلُومِينَ هِيَ فِي أَعْيُنِهِمْ دُمُوعٌ ، وَلَكِنَّهَا فِي يَدِ اللَّهِ صَوَاعِقُ يُضْرَبُ بِهَا الظَّالِمُ .

قَالَتْ : وَبِهَذَا وَبَعْدَ هَذَا انْقَلَبَ حُبُّهُ لِي إِكْبَارًا وَإِعْظَامًا ، وَسَمَا فَوْقَ أَنْ يَكُونَ حُبًّا كَالْحُبِّ ؛ وَصَارَ يَجِدُنِي فِي ذَاتِ نَفْسِهِ وَفِي ضَمِيرِهِ كَالْتَوْبِيخِ لَهُ كُلَّمَا أَرَادَ بِأَمْرٍ أَوْ سَوْءٍ أَوْ حَاوَلَ أَنْ يَغُضَّ مِنْهَا فِي نَفْسِهِ . وَأَعْتَادَ أَنْ يُكْرِمَهَا فَأَكْرَمَهَا ، وَصَلَحَتْ لَهُ نَيْتُهُ فَاتَّصَلَ بَيْنَهُمَا السَّبَبُ ، وَكَبُرَتْ هَذِهِ الْبَيْتَةُ الطَّيِّبَةُ فَصَارَتْ وَدًّا ، وَكَبُرَ هَذَا الْوَدُّ فَعَادَ حُبًّا ، وَقَامَتْ حَيَاتُهُمَا عَلَى الْأَسَاسِ الَّتِي وَضَعْتُهُ أَنَا بِيَدِي ، أَنَا بِيَدِي . . .

أَمَّا أَنَا . . . ؟ .

* * *

وَكَتَبَ فَاضِلٌ مِنْ حُلُوَانَ : إِنَّ لَهُ صَدِيقًا ابْتُلِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ فَوَكَّبَ رَأْسَهُ فَمَا رَدَّهُ شَيْءٌ عَنِ الرُّوَّاجِ بِحَبِيبَتِهِ ، وَزُفَّ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ مَلِكٌ يَدْخُلُ إِلَى قَصْرِ خِيَالِهِ ؛ وَكَانَ أَهْلُهُ يُعْذِلُونَهُ وَيُلُومُونَهُ وَيُخْلِصُونَ لَهُ التُّضْحَ وَيَجْتَهِدُونَ فِي أَمْرِ جُهِدِهِمْ ، إِذْ يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا لَا يَرَى بِعَيْنِهِ ، فَكَانَ التُّضْحُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَيُظَنُّ غَشًّا وَتَلْبِيسًا ، وَكَانَ اللَّوْمُ يَبْلُغُهُ فَيَرَاهُ ظُلْمًا وَتَحَامُلًا ، وَكَانَ قَلْبُهُ يَتَرَجَّمُ لَهُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي حَبِيبَتِهِ بِمَعْنَى مِنْهَا هِيَ لَا مِنْ الْحَقَائِقِ ، إِذْ غَلَبَتْ عَلَى عَقْلِهِ فَبِهَا يَغْفُلُ ، وَذَهَبَتْ بِقَلْبِهِ فَبِهَا يُحْسِنُ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِإِرَادَتِهِ فَلَهَا يَنْفَادُ ؛ وَعَادَتْ خَوَاطِرُهُ وَأَفْكَارُهُ تَدُورُ عَلَيْهَا كَالْحَوَاشِي عَلَى الْعِبَارَةِ الْمُغْلَقَةِ فِي كِتَابٍ ؛ وَاسْتَقَرَّتْ لَهُ فِيهَا قُوَّةٌ مِنَ الْحُبِّ ، أَمْرُهَا إِذَا أَرَادَتْ شَيْئًا أَنْ تَقُولَ لَهُ كُنْ . . .

ثُمَّ مَضَتْ اللَّيْلَةُ بَعْدَ اللَّيْلَةِ ، وَجَاءَ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَالْمَوْجُ يَأْخُذُ مِنَ السَّاحِلِ الدَّرَّةَ بَعْدَ الدَّرَّةِ وَالسَّاحِلِ لَا يَشْعُرُ ، إِلَى أَنْ تَصَرَّمَتْ أَشْهُرٌ قَلِيلَةٌ ، فَلَمْ تَلْبَثِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي أَلْقَتْ الرُّوَايَةَ وَجَعَلَتْهَا قَبْلَ الرُّوَّاجِ رِوَايَةَ الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ ، وَفِصَّةَ التَّاجِ وَالْعَرْشِ ، وَحَدِيثَ الدُّنْيَا وَمِلْكِ الدُّنْيَا - لَمْ تَلْبَثْ أَنْ انْتَقَلَتْ عَلَيَّ فَجَاءَتْ فَأَدَارَتْ الرُّوَايَةَ إِلَى فَصْلِ السُّخْرِيَّةِ وَمَنْظَرِ الْتَهْكُمِ ، وَكَشَفَتْ عَنْ غَرَضِهَا الْخَفِيِّ وَحَلَّتِ الْعُقْدَةَ { الرُّوَايَةُ } .

قَالَ : فَفَرَّغَ قَلْبُ الْمَرْأَةِ مِنَ الْحُبِّ ، وَظَمِيَ إِلَى السُّكْرِ وَالنَّشْوَةِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزُّجَاجَةِ الْفَارِغَةِ . . . وَبَرَدَ قَلْبُ الرَّجُلِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَتَسَعَّرُ فِيهِ نَارًا شَيْطَانًا حَبِيبًا ، فَتَحَوَّلَ إِلَى لَوْحٍ مِنَ التَّلْجِ لَهُ طُولٌ وَعَرْضٌ . . .

وَجَدَّتِ الْحَيَاةُ وَهَلَ الشَّيْطَانُ ، فَاسْتَحَمَقَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ اخْتَارَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ لَهُ

زَوْجَةً ، وَأَسْتَجْهَلَتْ الْمَرْأَةُ عَقْلَهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ رَضِيتَ هَذَا الرَّجُلَ زَوْجًا ، وَأَنْكَرَهَا إِنْكَارًا
أَوَّلَهُ الْمَلَأَةَ ، وَأَنْكَرَتْهُ إِنْكَارًا آخَرَ أَوَّلُهُ التَّبَرُّمُ ؛ وَعَادَ كِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ كَأَنَّهُمَا يَكْلُفُ
إِنْسَانًا أَنْ يَخْلُقَ لَهُ الْأَمْسَ الَّذِي مَضَى !

وَضَرَبَتْ الْحَيَاةُ ضَرْبَةً أَوْ ضَرْبَتَيْنِ فَإِذَا أَبْيَتْهُ الْخَيَالُ كُلُّهَا هَذِمَ هَذِمَ ، وَإِذَا الطَّبِيعَةُ مُؤَلَّفَةٌ
الرَّوَايَةِ ... قَدْ خَتَمَتْ رَوَايَتَهَا وَقَوَّضَتْ الْمَسْرَحَ ، وَإِذَا الْأَخْلَامُ مُفَسَّرَةٌ بِالْعَكْسِ : فَالْحُبُّ
تَأْوِيلُهُ الْبُغْضُ ، وَاللَّذَّةُ تَفْسِيرُهَا الْأَلَمُ ، وَ«الْبُودْرَةُ» مَعْنَاهَا الْعَجِيرُ ... وَتَغَيَّرَ كُلُّ
مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ الَّذِي زَوَّجَ وَهُوَ بَعِينُهُ الَّذِي طَلَّقَ

* * *

وَكَتَبَ أَدِيبٌ مِنْ بَغْدَادَ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْقَلِقِ مَوْضِعُ صَاحِبِ
الْمُشْكِلَةِ ، وَإِنْ ذَاتَ قُرْبَاهُ الَّتِي سُمِّيَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُلَفَّقَةً لَهُ فِي حُجُبٍ عِدَّةٍ لَا فِي حِجَابٍ
وَاحِدٍ ، وَقَدْ وَصِفَتْ لَهُ بِاللُّغَةِ ... وَفِي اللُّغَةِ : مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ وَمَا أَظْرَفَ ، وَكَأَنَّهَا
طَبِي يَتَلَفَّتْ ، وَكَأَنَّهَا غُضِنَ يَمِيلُ ، وَكَأَنَّ سَنَةَ وَجْهَيْهَا الْبَدْرُ !

قَالَ : وَشُبِّهَتْ لَهُ بِكُلِّ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ ، وَجَاوَوْا فِي أَوْصَافِهَا بِمَذَاهِبِ الْأَسْتِعَارَةِ
وَالْمَجَازِ ، فَأَخَذَهَا قَصِيدَةً قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا أَمْرًا ؛ وَكَانَ لَمْ يَرِ مِنْهَا شَيْئًا ، وَكَانَتْ لُغَةً ذَوِي
قَرَابَتِهِ وَقَرَابَتِهَا كُلُّغَةُ التَّجَارَةِ فِي أَلْسِنَةِ حُدَاقِ السَّمَاوَةِ : مَا بِهِمْ إِلَّا تَنْفِيقُ السَّلْعَةِ ثُمَّ يَخْلُونُ
بَيْنَ الْمُشْتَرِي وَحَظِّهِ .

قَالَ : فَسَخَّ كَلَامُهُمْ فِي قَلْبِي ، فَعَقَدْتُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَعْرَسْتُ بِهَا ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ
لَيْسَتْ فِي الْكَلِمَةِ الْأُولَى وَلَا الْأَخِيرَةِ مِمَّا قَالُوا وَلَا فِيمَا بَيْنَهُمَا ... ثُمَّ تَعَرَّفْتُ فَإِذَا هِيَ
تَكْبُرُنِي بِخَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ... وَرَأَيْتُ انْصَاعَ حَالِهَا عِنْدِي فَاشْفَقْتُ عَلَيْهَا ، وَبِثَّ اللَّيْلَةَ
الْأُولَى مُقْبِلًا عَلَى نَفْسِي أَوَامِرُهَا وَأُنَاجِيَهَا ، وَأَنْظُرُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ رَأَيْ^(١) أَنَا ؛ وَتَأَمَّلْتُ
الْقِصَّةَ ، فَإِذَا أَمْرًا بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِي ، فَقُلْتُ : إِنْ أَنَا نَزَعْتُ رَحْمَتِي عَنْهَا لَيُوشِكَنَّ
اللَّهُ أَنْ يَنْزِعَ رَحْمَتَهُ عَنِّي ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَعْمَالِي ؛ وَقُلْتُ : يَا نَفْسِي ، ﴿إِنَّمَا إِنْ تَكُ

(١) فِي الْأَصْلِ : «رَأَيْ» بَدَلًا مِنْ : «رَأَيْ» .

مِقَالَ حَبَرٍ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّكَنَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴿٣١٦﴾ سورة لقمان/ الآية : ١٦ . وَإِنَّمَا أَتَقَدَّمُ إِلَى عَفْوِ اللَّهِ بِإِثَامٍ وَذُنُوبٍ وَغَلَطَاتٍ ، فَلَأَجْعَلَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ حَسَنِيَّ عِنْدَهُ ، وَمَا عَلَيَّ مِنْ عُمْرٍ سَيَفِضُنِي ، وَتَبَقَى مِنْهُ هَذِهِ الْحَسَنَةُ خَالِدَةً مُخَلَّدَةً .

إِنَّهَا كَانَتْ حَاجَةً النَّفْسِ إِلَى الْمَنَاعِ فَانْقَلَبَتْ حَاجَةً إِلَى الثَّوَابِ ، وَكَانَتْ شَهْوَةً فَرَجَعَتْ حِكْمَةً ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُبْلُغَ مَا أَحِبُّ فَسَأَبْلُغُ مَا يَجِبُ . ثُمَّ قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ أَمْرَأَةً تَنْتَظِرُهَا أَلْسِنَةُ النَّاسِ إِمَّا بِالْخَيْرِ إِذَا أَمْسَكْتُهَا ، وَإِمَّا بِالشَّرِّ إِذَا طَلَقْتُهَا ، وَقَدْ اخْتَمَتَ بَيْنِي ؛ اللَّهُمَّ سَاكِنِيهَا كُلَّ هَذَا لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ !

قَالَ : وَرَأَيْتُنِي أَكُونُ أَلَمَ النَّاسِ لَوْ أَنِّي كَشَفْتُهَا لِلنَّاسِ وَقُلْتُ انظُرُوا . . . فَكَأَنَّمَا كُنْتُ أَسَاتُ إِلَيْهَا فَأَقْبَلْتُ أَرْضَاهَا ، وَجَعَلْتُ أُمَاسِحُهَا وَأَلَايْنَهَا فِي الْقَوْلِ ، وَعَدَلْتُ عَنْ حَظِّ نَفْسِي إِلَى حَظِّ نَفْسِهَا^(١) ، وَاسْتَظْهَرْتُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٩] ؛ وَأَعْتَقَدْتُ آيَةَ الْكَرِيمَةِ أَصَحَّ اعْتِقَادٍ وَأَتَمَّهُ ، وَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْ تَفْسِيرِهَا .

قَالَ : فَلَمْ تَمُضِ أَشْهُرٌ حَتَّى ظَهَرَ الْحَمْلُ عَلَيْهَا ، فَالْقَى اللَّهُ فِي نَفْسِي مِنَ الْفَرَحِ مَا لَا تَعْدِلُهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِفِهَا ، وَأَحْسَنْتُ لَهَا الْحُبَّ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ جَمِيلٌ وَلَا قَبِيحٌ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ النَّفْسِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهَا (الطُّفُلُ) . وَجَعَلْتُ أَرَى لَهَا فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ مَدَاخِلَ وَمَخَارِجَ دُونَهَا الْعِشْقُ فِي كُلِّ مَدَاخِلِهِ وَمَخَارِجِهِ ، وَصَارَ الْجَنِينُ الَّذِي فِي بَطْنِهَا يَتَلَأَلُ نُورُهُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى النُّورِ ، وَأَصْبَحَتِ الْأَيَّامُ مَعَهَا رِنَحًا مِنَ الزَّمَنِ فِيهِ الْأَمَلُ الْحُلُوُّ الْمُنْتَظَرُ .

قَالَ : وَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ، وَطَرَقَتْ بِغِلَامٍ ؛ وَسَمِعْتُ الْأَصْوَاتَ تَرْتَفِعُ مِنْ حُجْرَتِهَا : وَلَدٌ ! وَلَدٌ ! بَشَرُوا أَبَاهُ . فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْخُلْدِ وَقَعَتْ فِي زَمَنِي أَنَا مِنْ دُونِ الْخَلْقِ جَمِيعًا وَجَاءَتْنِي بِكُلِّ نَعِيمِ الْجَنَّةِ ؛ وَمَا كَانَ مُلْكُ الْعَالَمِ - لَوْ مَلَكَتُهُ - مُسْتَطْبِعًا أَنْ يَهَبَنِي مَا وَهَبْتَنِي أَمْرَأَتِي مِنْ فَرَحِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ إِنَّهُ فَرَحُ إِلَهِي أَحْسَنْتُ بِقَلْبِي أَنْ فِيهِ سَلَامٌ

(١) اسْتَوْفَيْنَا بَيَانَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالَةٍ « قُبْحُ جَمِيلٍ » السَّابِقَةِ .

اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَتُهُ . وَمِنْ يَوْمِئِذٍ نَطَقَ لِسَانُ جَمَالِهَا فِي صَوْتِ هَذَا الطُّفْلِ . ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُ فِي أَلْعَامِ الثَّانِي ، ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُمَا فِي أَلْعَامِ الثَّلَاثِ ؛ وَعَرَفَتْ بَرَكَهَ الْإِحْسَانِ مِنَ اللَّطْفِ الرَّبَّانِيِّ فِي حَوَادِثَ كَثِيرَةٍ ، وَتَنَفَّسَتْ عَلَى أَنْفَاسِ الْعَجَّةِ وَفَسَّرَتْ آيَةَ الْكَرِيمَةِ نَفْسَهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ ، فَكَانَ تَفْسِيرُهَا الْأَفْرَاحَ ، وَالْأَفْرَاحَ ، وَالْأَفْرَاحَ .

* * *

وَيَرَى صَدِيقُنَا الْأَسَاذَ (م . ح . ج) ^(١) أَنَّ صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ فِي مُشْكِلَةٍ مِنْ رُجُولِهِ لَا مِنْ حُبِّهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَهُ أَلْفَ رُوحٍ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُعَاشِرَ زَوْجَتَهُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا ، إِذْ هِيَ كُلُّهَا أَرْوَاحُ صِبْيَانِيَّةٍ تَبْكِي عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْحَلْوَى مُمَثِّلَةٍ فِي الْحَبِيبَةِ . . . وَلَوْ عَرَفَ هَذَا الرَّجُلُ فَلَسَفَةَ الْحُبِّ وَالْكَرْهِ ، لَعَرَفَ أَنَّهُ يَضْنَعُ دُمُوعَهُ بِإِحْسَاسِهِ الطُّفْلِيِّ فِي هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ ؛ وَلَوْ أَدْرَكَ شَيْئًا لِأَدْرَكَ أَنَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْكَرْهِ مَتْرُوعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذِ الْفَاصِلُ فِي الرَّجُلِ هُوَ الْحَزْمُ الَّذِي يُوضَعُ بَيْنَ مَا يَجِبُ وَمَا لَا يَجِبُ .

إِنَّهُ مَا دَامَ بِهِذِهِ النَّفْسِ الصَّغِيرَةِ فَكُلُّ حَلٍّ لِمُشْكِلَتِهِ هُوَ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ ، وَمِثْلُهُ بَلَاءٌ عَلَى الزَّوْجَةِ وَالْحَبِيبَةِ مَعًا ، وَكِلْتَاهُمَا بَلَاءٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ بِهِذِهِ وَهَذِهِ كَمَحْكُومٍ عَلَيْهِ أَنْ يُشْنَقَ بِأَمْرَاهُ لَا بِمُشْتَقَةٍ . . .

هَذَا عِنْدِي لَيْسَ بِالرَّجُلِ وَلَا بِالطُّفْلِ إِلَى أَنْ يُنْبِتَ أَنَّهُ أَحَدُهُمَا ؛ فَإِنْ كَانَ طِفْلًا فَمِنْ الشَّخَرَةِ بِهِ أَنْ يَكُونَ مَتْرُوجًا ، وَإِنْ كَانَ رَجُلًا فَلْيُحْلَلْ هُوَ الْمُشْكِلَةَ بِنَفْسِهِ ، وَحَلُّهَا أَيْسَرُ شَيْءٍ : حَلُّهَا تَغْيِيرُ حَالَتِهِ الْعَقْلِيَّةِ .

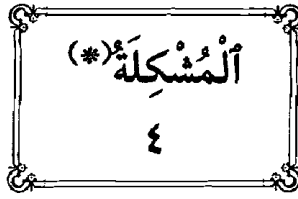
* * *

وَنَحْنُ نَعْتَدُّ لِلْبَاقِينَ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْفُضَلَاءِ الَّذِينَ لَمْ نَذْكُرْ آرَاءَهُمْ ، إِذْ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْأَسْتِفْتَاءِ أَنْ نَنْظُرَ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي تُشَبِّهُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ ، لَا بِالْآرَاءِ وَالْمَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ . أَمَّا رَأْيُنَا فَعِنِّي الْبَقِيَّةُ الْآتِيَّةُ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) في الأصل : « محمد حسين جيره » بدلًا من : « م . ح . ج . » .



صَاحِبُ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ رَجُلٌ أَعْوَزَ الْعَقْلَ . . . يَرَى عَقْلُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ غَابَ عَنْهُ نِصْفُ الْوُجُودِ فِي مُشْكِلَتِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ عَقْلَهُ أَبْصَرَ مِنَ النَّاحِيَتَيْنِ لَمَا رَأَى الْمُشْكِلَةَ خَالِصَةً فِي إِشْكَالِهَا ، وَلَوْ جَدَّ فِي نَاحِيَتِهَا الْأُخْرَى حَظًّا لِنَفْسِهِ قَدْ أَصَابَهُ ، وَمَذْهَبًا فِي السَّلَامَةِ لَمْ يُخْطِئْهُ ؛ وَكَانَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ عَذَابُ الْجُنُونِ لَوْ عَذَّبَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَكَانَ يُضْبِحُ أَشْقَى الْخَلْقِ لَوْ رَمَاهُ اللَّهُ فِي الْجِهَةِ الَّتِي أَنْقَذَهُ مِنْهَا ، فَتَهَيَّأَتْ لَهُ الْمُشْكِلَةُ عَلَى وَجْهِهَا الثَّانِي .

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ زَوْجَتَكَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةَ الْمَظْلُومَةَ الَّتِي بَنَيْتَ بِهَا ، كَانَتْ هِيَ الَّتِي أَكْرَهْتَ عَلَى الرِّضَى بِكَ ، وَحُمِلَتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَيْبِهَا ، ثُمَّ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا عَاشِقًا ، وَبِهَا صَبًّا ، وَفِيهَا مُتَدَلِّهَا ؛ ثُمَّ كَانَتْ هِيَ تُحِبُّ رَجُلًا غَيْرَكَ ، وَتَصْبُو إِلَيْهِ ، وَتَفْتَنُ بِهِ ، وَقَدْ اخْتَرَقَتْ عِشْقًا لَهُ ؛ فَإِذَا جَلَوْهَا عَلَيْكَ رَأَيْتَكَ الْبَغِيضَ الْمَقِيَّتَ ، وَرَأَيْتَكَ الدِّمِيمَ الْكَرِيهَ ، وَفَرَعْتَ مِنْكَ فَرْعَهَا مِنَ اللَّصِّ وَالْقَاتِلِ ؛ وَتَمُدُّ لَهَا يَدَكَ فَتَحَامَاهَا تَحَامِينَهَا الْمَجْذُومَ أَوْ الْأَبْرَصَ ، وَتُكَلِّمُهَا فَتَحِمُّ بَرْدًا مِنْ ثِقَلِ كَلَامِكَ ، وَتَفْتَحُ لَهَا ذِرَاعَيْكَ فَتَحْسِبُهُمَا حَبْلَيْنِ مِنْ مِشْنَقَتَيْنِ ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيْهَا فَإِذَا أَنْتَ أَسْمَجُ خَلَقِ اللَّهِ عِنْدَهَا ، إِذْ تُحَاوِلُ فِي نَذَالَةٍ أَنْ تَحِلَّ مِنْهَا مَحَلًّا حَبِيبًا ؛ وَتُقْبِلُ عَلَيْهَا بِوَجْهِكَ فَتَرَاهُ مِنْ تَقْدِيرِهَا إِيَّاكَ ، وَأَشْمِئْزَارِهَا مِنْكَ ، وَجَهَ الدُّبَابَةِ مُكَبَّرًا بِفِطَاعَةٍ وَشَنَاعَةٍ فِي قَدْرِ صُورَةٍ وَجْهِ الرَّجُلِ ، لِيَسْجَاوَزَ حَدَّ الْقُبْحِ إِلَى حَدِّ الْغَنَائَةِ ، إِلَى حَدِّ انْقِلَابِ النَّفْسِ مِنْ رُؤْيَيْهِ ، إِلَى حَدِّ الْقَنِيِّ إِذَا دَنَا وَجْهَكَ مِنْ وَجْهِهَا . . . !؟ .

مَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ يَا صَاحِبَ الْمُشْكِلَةِ لَوْ أَنَّ مُشْكِلَتَكَ هَذِهِ جَاءَتْ مِنْ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ زَوْجَتِكَ (الرَّجُلِ الثَّانِي) لَا الْمَرْأَةَ الثَّانِيَةَ ؟ أَلَسْتُ أَلَانَ فِي رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ بِكَ ، وَفِي نِعْمَةٍ

كَفَّتْ عَنْكَ مُصِيبَةٌ ، وَفِي مَوْقِفِ بَيْنِ الرَّحْمَةِ وَالنُّعْمَةِ يَقْتَضِيكَ أَنْ تَرْقُبَ فِي حُكْمِكَ عَلَى هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمِسْكِينَةِ حُكْمَ اللَّهِ عَلَيْكَ ؟

* * *

تَقُولُ : الْحُبُّ وَالْخَيَالُ وَالْفَنُّ . وَتَذْهَبُ فِي مَذَاهِبِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ « الْمُسْكِلَةَ » قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّكَ بَعِيدٌ مِنْ فَهْمِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَلَوْ أَنَّتَ فَهَمْتَهَا لَمَا كَانَتْ لَكَ مُسْكِلَةٌ ، وَلَا حَسِبْتَ نَفْسَكَ مَنَحُوسَ الْحِظِّ مَخْرُومًا ، وَلَا جَهِلْتَ أَنَّ فِي دَاخِلِ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ ذِي فَنٍّ عَيْنًا خَاصَّةً بِالْأَحْلَامِ كَيْلًا تَعْمَى عَيْنُهُ عَنِ الْحَقَائِقِ .

الْحُبُّ لَفْظٌ وَهَمِيٌّ مَوْضُوعٌ عَلَى أَضْدَادٍ مُخْتَلِفَةٍ : عَلَى بُرْكَانٍ وَرَوْضَةٍ ، وَعَلَى سَمَاءٍ وَأَرْضٍ ، وَعَلَى بُكَاءٍ وَضَحِكٍ ، وَعَلَى هُمُومٍ كَثِيرَةٍ كُلُّهَا هُمُومٌ ، وَعَلَى أَفْرَاحٍ قَلِيلَةٍ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَفْرَاحًا ؛ وَهُوَ خِدَاعٌ مِنَ النَّفْسِ يَضَعُ كُلَّ ذِكَاثِهِ فِي الْمَحْبُوبِ ، وَيَجْعَلُ كُلَّ بَلَاهَتِهِ فِي الْمَحْبَبِّ ، فَلَا يَكُونُ الْمَحْبُوبُ عِنْدَ مُحِبِّهِ إِلَّا شَخْصًا خَيَالِيًّا ذَا صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ ، فَكَأَنَّهُ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُودِ تَامِ الْجَمَالِ وَلَا عَيْبَ فِيهِ ، وَالنَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ مَوْجُودُونَ فِي الْعُيُوبِ وَالْمَحَاسِنِ .

وَذَلِكَ وَهُمْ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ وَلَا تَصْلُحُ بِهِ ، فَإِنَّمَا يَقُومُ الْحَيَاةُ عَلَى الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَضَعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ الصَّحِيحَ الثَّابِتَ ؛ فَالْحُبُّ عَلَى هَذَا شَيْءٌ غَيْرُ الزَّوْاجِ ، وَبَيْنَهُمَا مِثْلُ مَا بَيْنَ الْأَضْطِرَابِ وَالنِّظَامِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ هَذَا الْحُبُّ عَلَى التَّخَوُّلِ الَّذِي يَجْعَلُهُ حُبًّا لَا غَيْرَ ، فَقَدْ يَكُونُ أَقْوَى حُبِّ بَيْنِ اثْنَيْنِ إِذَا تَحَابَّا هُوَ أَسْخَفَ زَوَاجٍ بَيْنَهُمَا إِذَا تَزَوَّجَا .

وَذُو الْفَنِّ لَا يُفِيدُ مِنْ هَذَا الْحُبِّ فَإِنَّدَتُهُ الصَّحِيحَةُ إِلَّا إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ عَقْلِهِ لَا فَوْقَ عَقْلِهِ ، فَيَكُونُ فِي حُبِّهِ عَاقِلًا يَجُنُّونَ لَطِيفٍ . . . وَيَتْرُكُ الْعَاطِفَةَ تَدْخُلُ فِي التَّفَكُّيرِ وَتَضَعُ فِيهِ جَمَالَهَا وَثَوَرَتَهَا وَقُوَّتَهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَرَى مُجَاهِدَةً اللَّذَّةِ فِي الْحُبِّ هِيَ أَسْمَى لَذَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَيَعْرِفُ بِهَا فِي نَفْسِهِ ضَرْبًا إِلَهِيًّا مِنَ السَّكِينَةِ يُؤَلِّهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ يَقْهَرَ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَيَصْرِفَهَا وَيُبْدِعَ مِنْهَا عَمَلَهُ الْفَنِّيَّ الْعَجِيبَ .

وَهَذَا الضَرْبُ مِنَ السُّمُوِّ لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا الْفِكْرُ الْقَوِيُّ الَّذِي فَازَ عَلَى شَهَوَاتِهِ وَكَبَحَهَا وَتَحَمَّلَهَا تَغْلِي فِيهِ عَلَيَانِ الْمَاءِ فِي الْمَرْجَلِ لِيُخْرِجَ مِنْهَا أَلْطَفَ مَا فِيهَا ، وَيُحوِّلَهَا حَرَكَةً فِي الرُّوحِ تَنْشَأُ مِنْهَا حَيَاةُ هَذِهِ الْمَعَانِي الْفَنِّيَّةِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَا الْقَنِّ بِالشَّجَرَةِ الْحَيَّةِ : إِنْ لَمْ تَضْبُطْ مَا فِي دَاخِلِهَا أَصَحَّ الضُّبْطِ ، لَمْ يَكُنْ فِي ظَاهِرِهَا إِلَّا أضعفُ عَمَلِهَا .

وَمِثْلُ هَذَا الْفِكْرِ الْعَاشِقِ يَحْتَاجُ إِلَى الزَّوْجَةِ حَاجَتَهُ إِلَى الْحَبِيبَةِ ، وَهُوَ فِي قُوَّتِهِ يَجْمَعُ بَيْنَ كَرَامَةِ هَذِهِ وَقُدْسِيَّةِ هَذِهِ ، لِأَنَّ إِحْدَاهُمَا تُوَازِنُ الْأُخْرَى ، وَتُعَدِّلُهَا فِي الطَّبَعِ ، وَتُخَفِّفُ مِنْ طُغْيَانِهَا عَلَى الْغَرِيزَةِ ، وَتُمْسِكُ الْقَلْبَ أَنْ يَتَبَدَّدَ فِي جَوْهِ الْخَيَالِيِّ .

* * *

وَالرَّجُلُ الْكَامِلُ الْمُفَكِّرُ الْمُتَخَيِّلُ إِذَا كَانَ زَوْجًا وَعَشِيقًا ، أَوْ كَانَ عَاشِقًا وَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ مَنْ يَهْوَاهَا ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَبَدَّعَ لِنَفْسِهِ فَنًّا جَمِيلًا مِنْ مَسَرَّاتِ الْفِكْرِ لَا يَجِدُهُ الْعَاشِقُ وَلَا يَنَالُهُ الْمُتَزَوِّجُ ؛ وَإِنَّهُ لَيَرَى زَوْجَتَهُ مِنَ الْحَبِيبَةِ كَالْتَّمَنَالِ جَمَدَ عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُغْفِلُ أَنَّ هَذَا هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِنْدَاعِ فِي التَّمَنُّالِ ، إِذْ تِلْكَ هَيْئَةُ اسْتِقْرَارِ الْأَسْمَى فِي سُمُوهِ ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ أُمُومَةً عَلَى قَاعِدَتِهَا ، وَحَيَاةً عَلَى قَاعِدَتِهَا ؛ أَمَّا الْحَبِيبَةُ فَلَا قَاعِدَةَ لَهَا ، وَهِيَ مَعَانٍ شَارِدَةٌ لَا تَسْتَقِرُّ ، وَزَائِلَةٌ لَا تَثْبُتُ ، وَفَتْهَا كُلُّهُ فِي أَنْ تَبْقَى حَيْثُ هِيَ كَمَا هِيَ ، فَجَمَالَهَا بِيَخْيَا كُلَّ يَوْمٍ حَيَاةً جَدِيدَةً مَا دَامَتْ فَنًّا مَحْضًا ، وَمَا دَامَ سِرُّ أُنُوثَتِهَا فِي حِجَابِهِ .

وَمَتَى تَزَوَّجَ الرَّجُلُ بِمَنْ يُحِبُّهَا أَنْهَكَ لَهُ حِجَابُ أُنُوثَتِهَا فَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا سِرٌّ ، وَعَادَتْ لَهُ غَيْرَ مَنْ كَانَتْ ، وَعَادَ لَهَا غَيْرَ مَنْ كَانَ ؛ وَهَذَا التَّحَوُّلُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا هُوَ زَوَالُ كُلِّ مِنْهُمَا مِنْ خِيَالِ صَاحِبِهِ ؛ فَلَيْسَ يَصْلُحُ الْحُبُّ أَسَاسًا لِلسَّعَادَةِ فِي الزَّوْاجِ ، بَلْ آخِرُ بِهِ إِذَا كَانَ وَجَدًا وَآخِرَ آفَا أَنْ يَكُونَ أَسَاسًا لِلشُّومِ فِيهِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَضَعَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ حَدًّا يُعَيِّنُ لَهُمَا دَرَجَةً مِنْ دَرَجَةِ فِي الشَّغْفِ وَالصَّبَابَةِ وَالْخِيَالِ ، وَهُمَا بَعْدَ الزَّوْاجِ مُتَرَاكِعَانِ وَرَاءَ هَذَا الْحَدِّ مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الزَّوْجُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ رَجُلًا تَامَ الرَّجُولَةِ ، أَفْسَدَتْ الْحَيَاةَ عَلَيْهِ وَعَلَى زَوْجَتِهِ صِبْيَانِيَّةَ رُوحِهِ فَالْتَمَسَ فِي الزَّوْجَةِ مَا لَمْ يَعْذُ فِيهَا ، فَإِذَا أَنْكَشَفَ لَهُ فَرَاغُهَا ذَهَبَ يَلْتَمِسُهُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَ بَلَاءٌ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ قَبْلَ أَنْ يُوَلِّدُوا ؛ إِذْ يَضَعُ أَمَامَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَسْوَأَ الْأَمْثَلَةِ لِأَبْنَى أَوْلَادِهَا ، وَيُفْسِدُ إِحْسَاسَهَا فَيُفْسِدُ

تَكُونُهَا النَّفْسِي ؛ وَمَا الْمَرْأَةُ إِلَّا حِشْهَا وَشُعُورُهَا^(١) .

* * *

فَاللَّسَانُ هُوَ فِي تَمَامِ الرُّجُولَةِ وَقُوَّتِهَا وَشَهَامَتِهَا وَفُحُولَتِهَا ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاشِقًا أَوْ لَمْ يَكُنْهُ . وَمَا مِنْ رَجُلٍ قَوِيٍّ الرُّجُولَةِ إِلَّا وَأَسَاسُهُ دِيَانَتُهُ وَكَرَامَتُهُ ؛ وَمَا مِنْ ذِي دِينٍ أَوْ كَرَامَةٍ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ ثُمَّ تَظَلَّمَ بِهِ الزَّوْجَةُ أَوْ يَحْتِفُ عَلَيْهَا أَوْ يُفْسِدُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ الْمُدَاخَلَةِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ ، بَلَّهَ أَنْ يَرَاهَا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْمَشْكَلَةِ (مُصِيبَةُ) فَيُجَافِيهَا وَيُبَالِغُ فِي إِعْنَانِهَا وَيَشْفِي غَيْظَهُ بِإِذْلَالِهَا وَآخِثِقَارِهَا .

وَأَيُّ ذِي دِينٍ يَأْمَنْ عَلَى دِينِهِ أَنْ يَهْلِكَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ؟ وَأَيُّ ذِي كَرَامَةٍ يَرْضَى لِكَرَامَتِهِ أَنْ تَتَغَلَّبَ حِسَّةٌ وَدَنَاءَةٌ وَنَذَالَةٌ فِي مُعَامَلَةِ امْرَأَةٍ هُوَ لَا غَيْرُهُ ذَنْبُهَا ؟

إِنْ أَساسَ الدِّينِ وَالْكَرَامَةِ أَلَّا يَخْرُجَ إِنْسَانٌ عَنْ قَاعِدَةِ الْفَضِيلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي حَلِّ مُشْكَلَتِهِ إِنْ تَوَرَّطَ فِي مُشْكَلَةٍ ؛ فَمَنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَسْرِقُ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ فَقِيرٌ ، بَلْ يَكْذِبُ وَيَعْمَلُ وَيَصْبِرُ عَلَى مَا يُعَانِيهِ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لَا يَسْتَرِزُ الْمَرْأَةَ فَيُسْقِطُهَا بِحُجَّةٍ أَنَّهُ عَاشِقٌ ؛ وَمَنْ كَانَ كَصَاحِبِ الْمَشْكَلَةِ لَا يَظْلِمُ أَمْرًا فَيَمْقُطُهَا بِحُجَّةٍ أَنَّهُ يَعْشَقُ غَيْرَهَا ؛ وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ مَنْ أَظْهَرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَثَرَهُ الْإِنْسَانِي لَا أَثَرَهُ الْوَحْشِيِّ ، وَاعْتَبَرُ أُمُورَةَ الْخَاصَّةِ بِقَاعِدَةِ الْجَمَاعَةِ لَا بِقَاعِدَةِ الْفَرْدِ . وَإِنَّمَا الدِّينُ فِي السُّمُوِّ عَلَى أَهْوَاءِ النَّفْسِ ؛ وَلَا يَتَسَامَى أَمْرٌ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْوَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا بِإِزَالِهَا عَلَى حُكْمِ الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ ، فَمِنْ هُنَاكَ يَتَسَامَى ، وَمِنْ هُنَاكَ يَبْدُو عُلوُّهُ فَيَمَّا يَبْلُغُ إِلَيْهِ

وَإِذَا حَلَّ اللَّصُّ مُشْكَلَتَهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ هُوَ فَقَدْ حَلَّهَا ، وَلَكِنَّهُ حَلٌّ يَجْعَلُهُ هُوَ يَجْمَلَتِهِ مُشْكَلَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، حَتَّى لَيَرَى الشَّرْعُ فِي نَظَرَتِهِ إِلَى إِنْسَانِيَّةِ هَذَا اللَّصِّ أَنَّهُ غَيْرُ حَقِيقٍ بِأَلْيَدِ الْعَامِلَةِ الَّتِي خَلَقَتْ لَهُ قِيَامَرٌ بِقَطْعِهَا .

(١) هَذَا كُلُّهُ مِنْ بَعْضِ الْحِكْمَةِ فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُبْنِجُ اخْتِلَاطَ الزَّوْجَيْنِ قَبْلَ الْعَقْدِ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِلَّا أَسْرَةً يَجِبُ أَنْ تُبْنَى بِمَا بَيْنَهُمَا ، وَتُصَانَ بِمَا يَصُونُهَا . وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى حِكْمَةِ أُخْرَى فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَشْكَلَةِ .

وَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَالْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ كُلُّهُ يَنْزِلُ مِثْلَ الْأَبِ فِي مُتَنَاصَرَتِهِ لِرُوحَةِ صَاحِبِ
الْمُشْكِلَةِ وَالْأَسْتَظْهَارِ لَهَا وَالِدْفَاعِ عَنْهَا ، مَا دَامَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا الظُّلُمُ مِنْ صَاحِبِهَا ، وَهَذَا
هُوَ حُكْمُهَا فِي الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَكْبَرِ ، وَإِنْ خَالَفَ ضَمِيرُ زَوْجِهَا الْعَدُوَّ الثَّائِرَ الَّذِي قَطَعَهَا
مِنْ مَصَادِرِ نَفْسِهِ وَمَوَارِدِهَا . أَمَّا حُكْمُ الْحَبِيبَةِ فِي هَذَا الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ فَهُوَ أَنَّهَا فِي هَذَا
الْمَوْضِعِ لَيْسَتْ حَبِيبَةً وَلَكِنَّهَا شَخَاذَةُ رِجَالٍ

* * *

لَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ يَتَأَكَّمُ مِنْهَا وَيَتَلَذَّعُ بِهَا مِنْ الْوَقْدَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛
بَيِّنَةٌ أَنْتَا نَعْرِفُ أَنَّ أَلَمَ الْعَاقِلِ غَيْرُ أَلَمِ الْمَجْنُونِ ، وَحُزْنَ الْحَكِيمِ غَيْرُ حُزَنِ الطَّائِشِ ؛ وَالْقَلْبُ
الْإِنْسَانِيُّ يَكَادُ يَكُونُ آلَةً مَخْلُوقَةً مَعَ الْإِنْسَانِ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُ أَوْ إِفْسَادِهَا ؛ فَالْحَكِيمُ مَنْ عَرَفَ
كَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهَذَا الْقَلْبِ فِي آلَمِهِ وَأَوْجَاعِهِ ، فَلَا يَصْنَعُ مِنَ أَلَمِهِ أَلَمًا جَدِيدًا يَزِيدُهُ فِيهِ ،
وَلَا يُخْرِجُ مِنَ الشَّرِّ شَرًّا آخَرَ يَجْعَلُهُ أَسْوَأَ مِمَّا كَانَ . وَإِذَا لَمْ يَجِدِ الْحَكِيمُ مَا يَشْتَهِي ، أَوْ
أَصَابَ مَا لَا يَشْتَهِي ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَلْبِهِ خَلْقًا مَعْنَوِيًّا يُوجِدُهُ الْغِنَى عَنْ ذَلِكَ
الْمُخْجُوبِ الْمَعْدُومِ ، أَوْ يُوجِدُهُ الصَّبْرَ عَنْ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمَكْرُوهِ ؛ فَتَوَازَنَ الْأَحْوَالُ فِي
نَفْسِهِ وَتَعْتَدِلَ الْمَعَانِي عَلَى فِكْرِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَبِهَذَا الْخَلْقِ الْمَعْنَوِيِّ يَسْتَطِيعُ ذُو الْفَنِّ أَنْ يَجْعَلَ
الْأَلَمَ كُلَّهُا بَدَائِعَ فَنٍّ^(١) . وَمَا هُوَ فِكْرُ الْحُكَمَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَصْنَعًا تُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَعَانِي
بِصُورَةٍ فِيهَا الْقُوضَى وَالنَّقْصُ وَالْأَلَمُ ، لِتَخْرُجَ مِنْهُ فِي صُورَةٍ فِيهَا النِّظَامُ وَالْحِكْمَةُ وَاللَّذَّةُ
الرُّوحِيَّةُ .

يَعْشَقُ الرَّجُلُ الْعَامِّيُّ الْمُتَرَوِّجُ ، فَإِذَا السَّاعَةُ الَّتِي أَوْبَقَتْهُ فِي الْمُشْكِلَةِ قَدْ جَاءَتْهُ مَعَهَا
بِطَرِيقَةٍ حَلًّا : فَإِمَّا ضَرَبَ أَمْرَانَهُ بِالطَّلَاقِ ، وَإِمَّا أَهْلَكَهَا بِاتِّخَاذِ الضَّرَّةِ عَلَيْهَا ، وَإِمَّا عَذَّبَهَا
بِالْخِيَانَةِ وَالْفُجُورِ ، لِأَنَّ بَعْضَ الْعَبَثِ مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِ هَذَا الْجَاهِلِ هُوَ بَعِيْنُهُ عَبَثُ
الطَّبِيعَةِ بِهَذَا الْجَاهِلِ فِي غَيْرِهِ ، كَأَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ تَطْلُقُ مَدَافِعَهَا الصَّخْمَةَ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ
مِنْ هَذِهِ الثُّمُوسِ الْفَارِغَةِ . . .

(١) اسْتَوْفَيْنَا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَا ، وَبَعْضُهَا فِي مَقَالَاتِ « الْجَمَالِ الْبَاسِ » . . .

وَلَيْسَ أَسْهَلُ عَلَى الذَّكَرِ مِنَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَحُلَّ مُشْكِلَةَ الْأُنْثَى حَلًّا حَيَوَانِيًّا كَحَلِّ هَذَا الْعَامِّيِّ ، فَهُوَ ظَافِرٌ بِالْأُنْثَى أَوْ مَقْتُولٌ دُونَهَا مَا دَامَ مُطْلَقًا مُحَلًى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ؛ وَالْحَقِيقَةُ هُنَا حَقِيقَتُهُ هُوَ ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا مَتْنَفَعَةٌ شَهْوَانِيَّةٌ ؛ وَأَسْمَى فَضَائِلِهِ إِلَّا يَعْجِزُ عَنْ نَيْلِ هَذِهِ الْمَنْفَعَةِ .

ثُمَّ يَعْشَقُ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ الْمُتَزَوِّجُ فَإِذَا لِمُشْكِلَتِهِ وَجْهٌ آخَرُ ، إِذْ كَانَ مِنْ أَصْعَبِ الصَّعْبِ وَجُودُ رَجُلٍ يَحُلُّ هَذِهِ الْمُشْكِلَةَ بِرُجُولَةٍ ، فَإِنَّ فِيهَا كَرَامَةَ الزَّوْجَةِ وَوَاجِبَ الدِّينِ وَفِيهَا حَقُّ الْمَرْوَةِ ، وَفِيهَا مَعَ ذَلِكَ عِبْتُ الطَّبِيعَةِ وَخِدَاعُهَا وَهَزْلُهَا الَّذِي هُوَ أَشَدُّ الْجِدِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْغَرِيزَةِ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ تَنْقَلِبُ الْمُشْكِلَةُ إِلَى مَعْرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا الظَّفَرُ ، وَلَا يُعِينُ عَلَيْهَا إِلَّا الصَّبْرُ ، وَلَا يُفْلِحُ فِي سِيَاسَتِهَا إِلَّا تَحَمُّلُ آلامِهَا ؛ فَإِذَا رَزَقَ الْعَاشِقُ صَبْرًا وَقُوَّةً عَلَى الْإِحْتِمَالِ فَقَدْ هَانَ الْبَاقِي وَتَيَسَّرَتْ لَذَّةُ الظَّفَرِ الْحَاسِمِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الظَّفَرُ بِالْحَبِيبَةِ ؛ فَإِنَّ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةً وَأَنَارًا مُتَبَايِنَةً لِلذَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَمَوْقِعٌ أَرْفَعُ مِنْ مَوْقِعِ ، وَأَثَرٌ أَبْهَجُ مِنْ أَثَرِ ؛ وَالَّذِي مِنَ الظَّفَرِ بِالْحَبِيبَةِ نَفْسِهَا عِنْدَ الرَّجُلِ الْحَكِيمِ الظَّفَرُ بِمَعَانِيهَا ، وَأَكْرَمُ مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ كَرَامَةٌ نَفْسِيَّةٌ . وَإِذَا انْتَصَرَ الدِّينُ وَالْفَضِيلَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْعَقْلُ وَالْفَنُّ ، لَمْ يَبْقَ لِحَبِيبَةِ الْحُبِّ كَبِيرٌ مَعْنَى وَلَا عَظِيمٌ أَثَرٌ ، وَيَتَوَعَّلُ الْعَاشِقُ فِي حُبِّهِ وَقَدْ لَبَسَتْهُ حَالَةٌ أُخْرَى كَمَا يَكْظُمُ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ عَلَى الْغَيْظِ : فَذَلِكَ يُحِبُّ وَلَا يَطِيشُ ، وَهَذَا يَغْتَاظُ وَلَا يَغْضَبُ . وَالْبَطْلُ الشَّدِيدُ الْبَأْسِ لَا يَنْبَغُ إِلَّا مِنَ الشَّدَائِدِ الْقَوِيَّةِ ، وَالذَّاهِيَةُ الْأَرِيبُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ الْمُسْكِلاتِ الْمُعَقَّدَةِ ، وَالتَّقِيُّ الْفَاضِلُ لَا يُعْرِفُ إِلَّا بَيْنَ الْأَهْوَاءِ الْمُسْتَحْكِمَةِ . وَلَعَمْرِي إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْحَكِيمُ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، أَوْ يُعْطِلَ حَاجَةً مِنْ حَاجَاتِهَا ، فَمَاذَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَمَاذَا فِيهِ مِنَ النَّفْسِ ؟

* * *

وَمَا عَقَدَ (الْمُشْكِلَةَ) عَلَى صَاحِبِهَا بَيْنَ زَوْجَتِهِ وَحَبِيبَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ بِخَيَالِهِ الْفَاسِدِ قَدْ أَفْسَدَ الْقُوَّةَ الْمُصْلِحَةَ فِيهِ ، فَهُوَ لَمْ يَتَزَوَّجْ أَمْرَانَهُ كُلَّهَا . . . وَكَأَنَّهُ لَا يَرَاهَا أَنْثَى كَالنِّسَاءِ ، وَلَا يُبْصِرُ عِنْدَهَا إِلَّا فُرُوقًا بَيْنَ أَمْرَاتَيْنِ : مَحْبُوبَةٍ وَمَكْرُوهَةٍ ؛ وَبِهَذَا أَفْسَدَ عَيْنُهُ كَمَا أَفْسَدَ خَيَالُهُ ؛ فَلَوْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَرَاهَا لَرَاهَا ، وَلَوْ تَعَوَّدَهَا لِأَحَبِّهَا .

إِنَّهُ مِنْ وَهْمِهِ كَالْجَوَادِ الَّذِي يَشْعُرُ بِالْمَقَادَةِ فِي عُنُقِهِ ؛ فَشُعُورُهُ بِمَعْنَى الْحَبْلِ وَإِنْ كَانَ
مَعْنَى ضَيْئِلًا عَطَلَ فِيهِ كُلَّ مَعَانِي قُوَّتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِي كَثِيرَةً . وَمَا أَقْدَرَكَ أَيُّهَا الْحُبُّ
عَلَى وَضْعِ حَبَالِ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ فِي أَغْتَاكِ النَّاسِ !

* * *

وَقَدْ بَقِيَ أَنْ نَذْكُرَ ، تَوْفِيَةً لِلْفَائِدَةِ ، أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُسْكِلَةِ مَنْ نَقَصَتْ
فُحُولُهُ مِنَ الرِّجَالِ ، فَيُدَلَّسُ عَلَى نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا الْحُبِّ ، وَيُبَالِغُ فِيهِ ، وَيَتَجَرَّمُ عَلَى
رُوحَتِهِ الْمُسْكِنَةِ الَّتِي أَبْتَلَيْتْ بِهِ ، وَيَخْتَلِقُ لَهَا الْعِلَلَ الْوَاهِيَةَ الْمَكْذُوبَةَ ، وَيُبَغِضُهَا كَأَنَّهُ هُوَ
الَّذِي أَبْتَلَيْ بِهَا ، وَكَأَنَّ الْمُصِيبَةَ مِنْ قَبْلِهَا لَا مِنْ قَبْلِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ غَرِيزَتَهُ تَحَوَّلَتْ إِلَى
فِكْرِهِ ^(١) ، فَلَمْ تَعُدْ إِلَّا صُورًا خَيَالِيَّةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْكَذِبَ . وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ أَنَّ مِنْ
الرِّجَالِ مَنْ يَكْرَهُ زَوْجَتَهُ أَشَدَّ الْكُرْهِ إِذَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ بِالْمَهَانَةِ وَالنَّقْصِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْهَا . . .
فَهَذَا لَا يَكُونُ رَجُلًا لَا مَرَأَتَهُ إِلَّا فِي الْعَدَاوَةِ وَالنِّقْمَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَمَا كَانَ مِنْ بَابِ شِفَاءِ
الْغَيْظِ ، وَأَمْرَانَهُ مَعَهُ كَالْمُعَاهِدَةِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ : لَا قِيمَةَ وَلَا حُرْمَةَ ؛ وَإِذَا أَحَبَّ
هَذَا كَانَ حُبُّهُ خَيَالِيًّا شَدِيدًا ، لِأَنَّهُ مِنْ جِهَةٍ يَكُونُ كَالْتَّعْزِيَةِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَكُونُ
غَيْظًا لِرُوحَتِهِ ، وَرَدًّا بِأَمْرَةٍ عَلَى أَمْرَةٍ . . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِكْرَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « فِكْرِهِ » .

رَفْعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

وَحْيُ الْقَلَمِ

”بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ الْفَنَزِيلِ“ أَوْ قَبَسٌ مِنَ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
سَعْدُ بَانَا زَغَلُول
فِي تَقْرِيطِهِ ”إِعْجَازُ الْقُرْآنِ“ لِلزَّافِعِي

كَتَبَهُ
فَضْطَفَى صَادِقُ الزَّافِعِي

بِعَنَايَةِ
بَسَّامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْحِمَايِي

الْجُزْءُ الثَّانِي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الإشراقُ الإلهيُّ وفلسفةُ الإسلامِ (*)

كَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ بِأَنْوَارِهَا فَتَفْجَرُ يَنْبُوعُ الضَّوِّ الْمُسَمَّى النَّهَارَ ، يُوَلِّدُ النَّبِيُّ فَيُوجِدُ فِي
الْإِنْسَانِيَّةِ يَنْبُوعَ النُّورِ الْمُسَمَّى بِالذِّنِّ . وَلَيْسَ النَّهَارُ إِلَّا يَقْظَةُ الْحَيَاةِ تُحَقِّقُ أَعْمَالَهَا ، وَلَيْسَ
الذِّنُّ إِلَّا يَقْظَةُ النَّفْسِ تُحَقِّقُ فَضَائِلَهَا .

وَالشَّمْسُ خَلَقَهَا اللَّهُ حَامِلَةً طَابَعَهُ الْإِلَهِيُّ ، فِي عَمَلِهَا لِلْمَادَّةِ تُحَوِّلُ بِهِ وَتُغَيِّرُ ؛ وَالنَّبِيُّ
يُرْسِلُهُ اللَّهُ حَامِلًا مِثْلَ ذَلِكَ الطَّابِعِ فِي عَمَلِهِ لِلرُّوحِ تَرْقِي فِيهِ وَتَسْمُو .

وَرَعَشَاتُ الضَّوِّ مِنَ الشَّمْسِ هِيَ قِصَّةُ الْهِدَايَةِ لِلْكَوْنِ فِي كَلَامٍ مِنَ النُّورِ ، وَأَشِعَّةُ
الْوَحْيِ فِي النَّبِيِّ هِيَ قِصَّةُ الْهِدَايَةِ لِلْإِنْسَانِ الْكَوْنِ فِي نُورٍ مِنَ الْكَلَامِ .

وَالْعَامِلُ الْإِلَهِيُّ الْعَظِيمُ يَعْمَلُ فِي نِظَامِ النَّفْسِ وَالْأَرْضِ بِأَدَاتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ : أَجْرَامِ
النُّورِ مِنَ الشُّمُوسِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَأَجْرَامِ الْعَقْلِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ .

فَلَيْسَ النَّبِيُّ إِنْسَانًا مِنَ الْعُظَمَاءِ يُقْرَأُ تَارِيخُهُ بِالْفِكْرِ مَعَهُ الْمَنْطِقُ ، وَمَعَ الْمَنْطِقِ الشَّكُّ ،
ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى أَصُولِ الطَّبِيعَةِ الْبَسْرِيَّةِ الْعَامَّةِ ؛ وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ نَجْمِيٌّ يُقْرَأُ بِمِثْلِ
« التَّلْسُكُوبِ »^(١) فِي الدَّقَّةِ ، مَعَهُ الْعِلْمُ ، وَمَعَ الْعِلْمِ الْإِيمَانُ ؛ ثُمَّ يُدْرَسُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى
أَصُولِ طَبِيعَتِهِ النُّورَانِيَّةِ وَحَدَّهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ٥١ ، ١٣ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٥ يونيو / حزيران سنة ١٩٣٤ م ،
السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٤٣ - ١٠٤٥ .

هذه المقالة هي ثاني مقالات الرافعي في الرسالة بعد أن دعاه أحمد حسن الزيات إلى العمل معه ،
يقول محمد سعيد العريان في « حياة الرافعي » صفحة : ٢٣٤ : وأحسبه اختار هذا الموضوع على
انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق [له « لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فنيته »]
احتفاءً بالمولد النبوي ؛ إذا كان هذا موسمه . بسام .

(١) التلسكوب Telescope ، هو : الْمُنْظَرُ أَوْ الْمَجْهَرُ . بسام .

وَالْحَيَاةُ تُنْشِئُ عِلْمَ التَّارِيخِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي دَرَسِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، تَجْعَلُ التَّارِيخَ هُوَ يُنْشِئُ عِلْمَ الْحَيَاةِ ؛ فَإِنَّمَا النَّبِيُّ إِشْرَاقٌ إِلَهِيٌّ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، يُقَوِّمُهَا فِي فَلَكَهَا الْأَخْلَاقِي ، وَيَجْذِبُهَا إِلَى الْكَمَالِ فِي نِظَامٍ هُوَ بَعِيْنُهُ صُورَةُ لِقَانُونِ الْجَاذِبِيَّةِ فِي الْكَوَائِبِ .

وَيَجِيءُ النَّبِيُّ فَتَجِيءُ الْحَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعَهُ فِي مِثْلِ بِلَاغَةِ الْفَنِّ الْبَيِّنِي ، لِنَكُونَ أَقْوَى أَمْرًا ، وَأَيْسَرَ فَهَمًا ، وَأَبْدَعَ تَمَثُّيلًا ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا خِلَافٌ مِنَ الْحِسِّ . وَهَذَا هُوَ الْأَسْلُوبُ الَّذِي يَجْعَلُ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَرَّقَ النَّاسَ جَمِيعًا ، كَمَا تَكُونُ الْبِلَاغَةُ فَرَّقَ لُغَةً بِأَكْمَلِهَا ؛ هُوَ الشَّخْصُ الْمَفْسَّرُ إِذَا تَعَسَّفَ النَّاسُ الْحَيَاةَ لَا يَذَرُونَ أَيْنَ يُؤْمِنُونَ مِنْهَا ، وَلَا كَيْفَ يَتَهَدَّوْنَ فِيهَا ، فَتَضْطَرُّبُ الْمَلَايِينُ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ اضْطِرَابَهَا فِيمَا تَنْقَبِضُ عَنْهُ وَتَتَهَالِكُ فِيهِ مِنْ أَطْمَاعِ الدُّنْيَا ؛ ثُمَّ يُخْلَقُ رَجُلٌ وَاحِدٌ لِيَكُونَ هُوَ التَّفْسِيرُ لِمَا مَضَى وَمَا يَأْتِي ، فَتَظْهَرُ بِهِ حَقَائِقُ الْأَدَابِ الْعَالِيَةِ فِي قَالِبٍ مِنَ الْإِنْسَانِ الْعَامِلِ الْمَرْيِي ، أَلْبَغَ مِمَّا تَظْهَرُ فِي قِصَّةِ مُتَكَلِّمِهِ مَرْوِيَّةٌ .

وَمَا الشَّهَادَةُ لِلثَّبُوتِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ نَفْسُ النَّبِيِّ أَلْبَغَ نَفُوسِ قَوْمِهِ ، حَتَّى لَهُوَ فِي طِبَاعِهِ وَسَمَائِلِهِ طَبِيعَةً قَائِمَةً وَخَدَهَا ، كَأَنَّهَا الْوَضْعُ التَّفْسَائِي الدَّقِيقُ الَّذِي يُنْصَبُ لِتَصْحِيحِ الْوَضْعِ الْمَغْلُوطِ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ وَتَنَازُعِ الْبَقَاءِ . وَكَأَنَّ الْحَقِيقَةَ السَّامِيَّةَ فِي هَذَا النَّبِيِّ تُنَادِي النَّاسَ : أَنْ قَابِلُوا عَلَى هَذَا الْأَصْلِ وَصَحَّحُوا مَا اغْتَرَى أَنْفُسَكُمْ مِنْ غَلَطِ الْحَيَاةِ وَتَحْرِيفِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

* * *

وَمِنْ ثَمَّ فَنَبِيِّ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُعِثُّ بِالذِّنِّ أَعْمَالًا مُفَصَّلَةً عَلَى النَّفْسِ أَدَقَّ تَفْصِيلٍ وَأَوْفَاهُ بِمُصْلَحَتِهَا ، فَهُوَ يُعْطِي الْحَيَاةَ فِي كُلِّ عَصْرِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الثَّابِتَ الْمُسْتَقَرَّ تُنْظَمُ بِهِ أَحْوَالُ النَّفْسِ عَلَى مَيِّزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَيَدْعُ لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا الْعِلْمِيَّ الْمُتَجَدِّدَ الْمُتَغَيِّرَ تُنْظَمُ بِهِ أَحْوَالُ الطَّبِيعَةِ عَلَى قَصْدٍ وَهْدَى ؛ وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَحْصَى مَعَانِيهِ ، لَا يُغْنِي عَنْهُ فِي ذَلِكَ دِينٌ آخَرُ ، وَلَا يُؤَدِّي تَأْدِيَتَهُ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فِلْسَفَةٌ ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ فِي الْأَرْضِ لِمَعَانِي الثُّورِ ، يَأْرَأُ الشَّمْسُ نَبْعَ الثُّورِ فِي السَّمَاءِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ تَرَاهُ فِي نَفْسِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَهِيَ فِي مَجْمُوعِهَا أَبْلَغُ الْأَنْفُسِ قَاطِبَةً ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِفَ الْأَرْضَ أَكْمَلَ مِنْهَا ؛ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ فُضَائِلُ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَالِهِينَ وَجُعِلَتْ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ - مَا بَلَغَتْ أَنْ يَجِيءَ مِنْهَا مِثْلُ نَفْسِهِ ﷺ . وَلَكَأَنَّمَا خَرَجَتْ هَذِهِ الْأَنْفُسُ مِنْ صَنِيعَةِ كَصِيفَةِ الدُّرَّةِ فِي مَحَارَتِهَا ، أَوْ تَرْكِيبِ كَتَرَكِيبِ الْمَاسِ فِي مِنْجِمِهِ ، أَوْ صِفَةِ كَصِفَةِ الذَّهَبِ فِي عِرْقِهِ . وَهِيَ الْأَنْفُسُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى ، مِنْ أَتَيْنَ تَدَبَّرَتْهَا رَأَيْتَهَا عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ كَالشَّمْسِ فِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى تَنْبَسِطُ وَتَضْحَى .

وَتِلْكَ هِيَ الشَّهَادَةُ لَهُ ﷺ بِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ دِينَهُ هُوَ دِينُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَخِيرِ ؛ فَهَذَا الدِّينُ فِي مَجْمُوعِهِ إِنْ هُوَ إِلَّا صُورَةُ تِلْكَ الْأَنْفُسِ الْعَظِيمَةِ فِي مَجْمُوعِهَا : صَلَابَتُهُ بِمِقْدَارِ الْحَقِّ الْإِنْسَانِيِّ الثَّابِتِ ، لَا بِمِقْدَارِ الْإِنْسَانِ الْمُتَغَيِّرِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ سَبَبِ جَبَلًا صَلْدًا يَشْمَخُ ، وَعِنْدَ سَبَبِ آخَرَ مَاءً عَذْبًا يَجْرِي .

وَهُوَ دِينٌ يَغْلُو بِالْقُوَّةِ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، وَيُرِيدُ إِخْضَاعَ الدُّنْيَا وَحُكْمَ الْعَالَمِ ، وَيَسْتَفْرِغُ هَمَّهُ فِي ذَلِكَ ، لَا لِإِغْزَارِ الْأَقْوَى وَإِذْلالِ الْأَضْعَفِ ، وَلَكِنْ لِلْإِزْتِفَاعِ بِالْأَضْعَفِ إِلَى الْأَقْوَى ؛ وَفَرَّقَ مَا بَيْنَ شَرِيعَتِهِ وَشَرَائِعِ الْقُوَّةِ ، أَنَّ هَذِهِ إِنَّمَا هِيَ قُوَّةُ سِيَادَةِ الطَّبِيعَةِ وَتَحْكُمُهَا ، أَمَّا هُوَ فَقُوَّةُ سِيَادَةِ الْفَضِيلَةِ وَتَعْلَمُهَا ؛ وَتِلْكَ تَعْمَلُ لِلتَّفَرِيقِ ، وَهُوَ يَعْمَلُ لِلْمُسَاوَةِ ؛ وَسِيَادَةُ الطَّبِيعَةِ وَعَمَلُهَا لِلتَّفَرِيقِ هُمَا أَسَاسُ الْعُبُودِيَّةِ ، وَغَلْبَةُ الْفَضِيلَةِ وَعَمَلُهَا لِلْمُسَاوَةِ هُمَا أَعْظَمُ وَسَائِلِ الْحُرِّيَّةِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ طَبِيعِيًّا فِي الْإِسْلَامِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَا فَضِيلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَطْبَعُ عَلَيْهَا صُورَةَ الْجَنَّةِ بِنَعِيمِهَا الْخَالِدِ ، وَلَا رَذِيلَةَ إِلَّا وَهُوَ يَضَعُ عَلَيْهَا صُورَةَ النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ وَقَوْدَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ؛ فَلَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُسْلِمَةَ إِلَى أَسْبَابِ الْحَيَاةِ نَظْرَةَ الْفِكْرِ الْمُتَنَازِعِ : يَحْرِصُ عَلَى مَا يَكُونُ لَهُ ، وَيَسْهُرُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَيَمْكُرُ الْحِيلَةَ ، وَيُبْدِعُ وَسَائِلَ الْخِدَاعِ ، وَيَزِيدُ بِكُلِّ ذَلِكَ فِي تَفْقِيدِ الدُّنْيَا - بَلْ نَظْرَةُ الْقَلْبِ الْمُسَالِمِ : يَخْلَعُ الدُّنْيَا وَيَسْخُو بِكُلِّ مَضْنُونٍ فِيهَا ، فَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ؛ وَيَعْرِفُ الْإِنْسَانِيَّةَ وَيَطْمَعُ فِي غَايَاتِهَا الْعُلْيَا ، فَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ؛ وَيَذَرُكُ أَنَّ الْحَلَالَ وَإِنْ حَلَّ فَوَرَاءَهُ حِسَابُهُ ، وَأَنَّ الْحَرَامَ وَإِنْ غَرَّ لَيْسَ إِلَّا تَعَلُّلٌ سَاعَةٍ ذَاهِيَةٍ ثُمَّ مِنْ وَرَائِهِ عِقَابٌ أَبَدِيٌّ .

وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرُ أَغْرَاضِ الْإِسْلَامِ هُوَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَانُونٌ وَجُودِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ ، فَمِنْ أَيِّ عِظَمِهِ انْفَتَحَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَجَدَ عَلَى يَمْنَتِهِ وَيَسْرَتِهِ مَلَكَئِينَ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَهُوَ كَأَلَمَتِهِمُ الْمُسْتَرَابِ بِهِ فِي سِيَاسَةِ النَّفْسِ : لَا يَمْشِي خُطْوَةً إِلَّا بَيْنَ جَاوُسَتَيْنِ يُخَصِمَانِ عَلَيْهِ حَتَّى أَسْبَابُ النِّتْيَةِ ، وَيَجْمَعَانِ مِنْهُ حَتَّى نَزَوَاتِ الْكَيْدِ ، وَيُتَرَجِّمَانِ عَنْهُ حَتَّى مَعَانِي النَّظَرِ .

وَإِذَا قَامَتْ هَذِهِ الْمَحْكَمَةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَتَقَرَّرَتْ فِي اعْتِبَارِ النَّفْسِ ، قَامَ مِنْهَا عَلَى النَّفْسِ شَرْعٌ نَافِذٌ هُوَ قَانُونُ الْإِرَادَةِ الْمُمَيَّزَةِ ، تُرِيدُ الْحَسَنَاتِ وَتَعْمَلُ لَهَا ، وَتَخْشَى السَّيِّئَاتِ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ، فَإِذَا مَعَانِي الْجَسَدِ يَحْكُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، لَا لِتَحْقِيقِ الْحُكُومَةِ وَالسُّلْطَةِ ، وَلَكِنْ لِتَحْقِيقِ الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ ؛ وَإِذَا نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ الْمَجْنُونَةِ فِي هَذَا الْحَيَوَانِ ، قَدْ نَهَضَتْ إِلَى جَانِبِهَا نَوَامِيسُ الْإِرَادَةِ الْحَكِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، وَإِذَا كُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي النَّفْسِ هِيَ مِنْ صَاحِبِهَا مَادَّةٌ تُهَمُّ عِنْدَ قَاضِيهَا فِي مَحْكَمَتِهَا ، وَإِذَا كُلُّ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَمَا حَوْلَ الْإِنْسَانِ ، لَا يُؤَادُ مِنْهُ إِلَّا سَلَامُ النَّفْسِ فِي عَاقِبَتِهَا ؛ وَإِذَا مَعْنَى السَّلَامِ هُوَ الْمَعْنَى الْغَالِبُ الْمُتَصَرِّفُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ فِي دُنْيَاهَا .

وَكُلُّ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَدَابِهِ ، فِتْلَكَ هِيَ غَايَتُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ فَلَسَفَتُهَا ؛ لَا يُقَرَّرُهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَسَبُ ، بَلْ يَغْرِسُهَا فِي الْوَرَاثَةِ غَرْسًا بِالْإِعْتِيَادِ وَالْإِمْرَانِ الدَّائِمِ ، لِتَكُونَ عِلْمًا وَعَمَلًا ، فَتَمَكَّنَ لِسَلَامِ النَّفْسِ بَيْنَ الْأَسْلِحَةِ الْمُسَدَّدَةِ إِلَيْهَا مِنْ ضَرُورَاتِ الْحَيَاةِ ، فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ الْمُتَأَلِّبَةِ عَلَيْهَا مِنْ شَهَوَاتِ الْغَرِيزَةِ .

فَلَيْسَ يَعْمُ السَّلَامُ إِلَّا إِذَا عَمَّ هَذَا الدِّينُ بِأَخْلَاقِهِ فَسَمَلَ الْأَرْضَ أَوْ أَكْثَرَهَا ؛ فَإِنَّ قَانُونِ الْعَالَمِ حِينَئِذٍ يُصْبِحُ مُتَرَعًا مِنْ طَبِيعَةِ التَّرَاحُمِ ، فَإِذَا انْتَسَخَ بِهِ قَانُونُ التَّنَازُعِ الطَّبِيعِيِّ ، وَإِذَا كَسَرَ مِنْ شَرِّتِهِ ؛ وَيُولَدُ الْمَوْلُودُ يَوْمَئِذٍ وَتَوَلَّدَ مَعَهُ الْأَخْلَاقُ الْإِنْسَانِيَّةُ .

* * *

تَقْرِيرُ مَعْنَى الدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ النَّفْسِ حَتَّى مِثْقَالِ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَضَبْطُ ذَلِكَ بِرِيَاضَةِ عَمَلِيَّةٍ دَائِمَةٍ مَفْرُوضَةٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا - هَذَا هُوَ أَسَاسُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا

صَلَحَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِغَيْرِهِ يَرُدُّهَا إِلَى سَبِيلِ قَضَدِهَا ، فَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ تَكُونُ الصِّفَةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ ، وَتُجَانِسُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ ، فَتُوجِّهُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا نَحْوَ الْمُتَمَكِّنِ مِنْ كَمَالِهَا ، وَلَا تَزَالُ تُوجِّهُهَا نَحْوَ مَا هُوَ أَعْلَى ، وَتَحْكُمُ فَاسِدَهَا بِصَالِحِهَا ، وَتَأْخُذُ عَاصِيَهَا بِمُطِيعِهَا ، وَتَجْعَلُ الشَّرَفَ الْإِنْسَانِيَّ غَرَضَهَا الْأَوَّلَ ، لِأَنَّ اللَّهَ الْحَقَّ غَرَضُهَا الْأَخِيرُ ؛ فَيُصْبِحُ الْمَرْءُ - وَهَذَا دِينُهُ - كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ كَمُلَ فِيهِ اثْنَانِ : الْإِنْسَانُ ، وَالشَّرِيعَةُ . وَلَا يَعُودُ طَالِبُ السَّعَادَةِ التَّفَكُّسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا كَالْمَجْنُونِ يَجْرِي وَرَاءَ ظِلِّهِ لِيُمْسِكَهُ ؛ فَلَا يَذَرُكَ فِي الْأَخِرِ شَيْئًا غَيْرَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ وَسَعْيٍ ضَائِعٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَخْرِصُ أَشَدَّ الْحَرْصِ وَأَبْلَغُهُ عَلَى تَقْرِيرِ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ ، لَا بِالْمَنْطِقِ ، وَلَكِنْ بِالْعَمَلِ ؛ ثُمَّ فِي النَّفْسِ وَعَوَاطِفِهَا ، لَا فِي الْعَقْلِ وَآرَائِهِ ؛ ثُمَّ عَلَى وَجْهِ التَّعْمِيمِ ، دُونَ الْأَسْتِثْنَاءِ وَالْخُصُوصِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ مَشَقَّتِهِ عَلَى النَّفْسِ بِمَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّ فَلْسَفَتَهُ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ هِيَ أَسَاسُ الْعَالَمِ ، وَأَنَّ النِّظَامَ الْخُلُقِيَّ هُوَ أَسَاسُ النَّفْسِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ هُوَ أَسَاسُ النِّظَامِ ، وَأَنَّ رُوحَ الْعَمَلِ الدَّائِمِ تَكُونُ فِيْمَا يَشُقُّ بَعْضَ الْمَشَقَّةِ وَلَا يَنْتَلِغُ الْعُسْرَ وَالْحَرْجَ ، كَمَا تَكُونُ فِيْمَا يَسْهُلُ بَعْضَ السَّهْوَةِ وَلَا يَنْتَلِغُ الْكَسَلَ وَالْإِهْمَالَ .

وَلِلنَّفْسِ وَجْهَانِ : مَا تُعْلِنُ ، وَمَا تُسِرُّ ؛ وَلَا صِدْقَ لِإِعْلَانِهَا حَتَّى يَصْدُقَ ضَمِيرُهَا ، وَلَا صَلَاحَ لِجَهْرِهَا حَتَّى يَصْلُحَ السِّرُّ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ أَاجْتِمَاعِيًّا فَاضِلًا بِمَشْهَدِهِ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ بِغَيْبِهِ .

وَلِلْعَالَمِ كَذَلِكَ وَجْهَانِ : حَاضِرُهُ الَّذِي يَمُرُّ فِيهِ ، وَآتِيهِ الَّذِي يَمُنُّ لَهُ ؛ وَلَا يُفْلِحُ حَاضِرٌ مُنْقَطِعٌ لَا يُورِثُ مَا بَعْدَهُ كَمَا وَرِثَ مَا قَبْلَهُ ، وَمَا حَاضِرُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ عَمَلِ النَّاسِ فِي اسْتِمْرَارِ فَضَائِلِهِمْ بَاقِيَةً نَامِيَةً .

وَلِلنِّظَامِ أَيْضًا وَجْهَانِ : نِظَامُ الرِّغْبَةِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْأَطِمْتَانِ لَهَا ، وَنِظَامُ الرِّغْبَةِ عَلَى الْخَشْيَةِ وَالتَّقَرُّعِ مِنْهَا . وَلَا يَسْتَقِيمُ شَأْنُ لَيْسَ أَسَاسُهُ الطَّاعَةُ فِي النَّفْسِ ، وَلَا يَسْتَمِرُّ نِظَامٌ عَلَيْهِ خِلَافٌ مِنْ فِكْرِ الْعَامِلِ بِهِ .

وَلِلْعَمَلِ الدَّائِمِ طَرِيقَتَانِ : إِحْدَاهُمَا طَرِيقَةُ الْجَادِّ يَعْمَلُ لِلْعَاقِبَةِ يَسْتَقِيقُهَا ، فَلَا يَجِدُ مِمَّا

يَشُقُّ عَلَيْهِ إِلَّا لَذَّةَ الْمُغَالِيَةِ لِلنَّصْرِ : كُلُّ مَرَارَةٍ مِنْ قِبَلِهِ هِيَ حَلَاوَةٌ فِيهِ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا يَعْرِفُ
لِلْمِخْنَةِ يَنْتَلِي بِهَا إِلَّا مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَّ وَهُوَ انْقِطَاعُ نَفْسِهِ ، فَيُضْبِحُ الصَّبْرُ عِنْدَهُ كَصَبْرِ الْمُحِبِّ
عَلَى أَشْيَاءَ مِمَّنْ يُحِبُّهُ ؛ صَبْرٌ فِيهِ مِنَ السَّخَرِ مَا يَكْسُو الْحَرَمَانِ فِي بَغْضِ الْأَحْيَانِ خَيَالِ
الْاسْتِمْنَاعِ ، وَيُذَيِّقُ النَّفْسَ فِي الْعَجْزِ عَنْ بَغْضِ أَغْرَاضِهَا - لَذَّةٌ كَلَذَةٌ إِذْرَاكِه .

* * *

تِلْكَ هِيَ فَلَسَفَةُ الْإِسْلَامِ ؛ لَا قَوَامَ لِلْأَمْرِ فِيهَا وَلَا مِسَاكَ لَهُ إِلَّا بِتَقْرِيرِ مَعْنَى الدَّوَامِ لِكُلِّ
أَعْمَالِ النَّفْسِ ، وَوَضَعَ طَابِعَ الْعَجَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعَجَةِ ، وَطَابِعَ النَّارِ عَلَى أَعْمَالِ النَّارِ -
وَحَيَاةُ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ النَّاسِ حَيَاةٌ رِيَاضِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ ، بَلْ بَيْنَ الدَّقِيقَةِ
وَالدَّقِيقَةِ ، بِمَا يُكَلِّفُ مِنْ أَعْمَالِ جِسْمِهِ وَحَوَاسِهِ ، ثُمَّ أَعْمَالِ قَلْبِهِ وَنَبِيِّهِ - وَتَعْظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ
الرُّوحِيَّةِ دُونَ الشَّخْصِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، فَلَا يُحَاوِلُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَجْعَلَ بَطْنَهُ فِي حَجْمِ مَمْلَكَةٍ
أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ ، بِمَا يَنْتَقِصُ مِنْ حُقُوقِ غَيْرِهِ ؛ بَلْ تَتَّسِعُ ذَاتُهُ كُلُّ فَرْدٍ بِمَا يَجِبُ لَهُ عَلَى
الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَبِهَذَا لَا يَغْيِرُهُ تَتَعَيَّنُ مَقَابِيسُ الْأَخْلَاقِ فِي الْأَرْضِ :
بِالْمُضْلَحَةِ لَا بِاللَّذَّةِ ؛ فَلَا يَقَعُ الْخَطَأُ وَلَا التَّزْوِيرُ ، وَتَتَحَلَّى الْمُشْكِلَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ، مَا دَامَتْ
الْحَيَاةُ لَا تَجِدُ مِنْ أَهْلِهَا كُلِّ سَاعَةٍ عُقْدًا فِيهَا .

وَالْإِسْتِغْنَاءُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى عَلَى الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ هُوَ وَحْدَهُ الطَّرِيقَةُ لِإِنْشَاءِ طَبِيعَةِ الْخَيْرِ
فِي النَّاسِ عَلَى نَسَقِهَا الطَّبِيعِيِّ ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الطَّرِيقَةُ لِتَطْهِيرِ النَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ
أَوْبَانِهِ الْأَفْتِصَادِيَّةِ ، الَّتِي جَعَلَتْهُ كَأَنَّمَا هُوَ تَارِيخُ الْأَسْنَانِ وَالْأَضْرَاسِ ، وَتَرَكَّتِ النَّاسَ يَهْدِمُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا يَهْدِمُ الْجَارُ حَائِطَ جَارِهِ لِيُوسِّعَ بَيْتَهُ .

وَأَسَاسُ الْعَمَلِ فِي الْإِسْلَامِ إِخْضَاعُ الْحَيَاةِ لِلْعَقِيدَةِ ، فَتَجْعَلُهَا الْعَقِيدَةُ أَقْوَى مِنَ
الْحَاجَةِ ؛ فَيَكُونُ الْفَقِيرُ مُعْدِمًا وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَكُونُ الْغَنِيُّ مُوسِرًا وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَكُونُ الشَّرُّ
طَامِعًا وَيُمْسِكُ ، وَيَكُونُ الْقَوِيُّ قَادِرًا وَيُحْجِمُ ، وَكَمَا قَالَ الْعَرَبُ فِي تَحْقِيقِ تَامُوسِ الْأَنْفَةِ
وَالْحِمِيَّةِ وَغَلَبَةِ عَلَى التَّامُوسِ الْأَفْتِصَادِيَّ : « تَجُوعُ الْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِذَنِّيَّتِهَا » .

* * *

تُرِيدُ الْإِنْسَانِيَّةُ امْتِدَادًا غَيْرَ امْتِدَادِهَا التُّجَارِي فِي الْأَرْضِ ، وَتَحْتَاجُ إِلَى مَعْنَى يَقُودُ
إِنْسَانَهَا غَيْرَ الْحَيَوَانِ الَّذِي فِيهِ ؛ وَإِذَا قَادَ الْغُرَابُ قَوْمًا { فَإِنَّمَا هُوَ } - كَمَا قَالَ شَاعِرُنَا -
يَمُرُّ بِهِمْ عَلَى جَيْفِ الْكِلَابِ . . . وَالْإِنْسَانِيَّةُ الْيَوْمَ فِي مِثْلِ لَيْلِ حَوْشِي مُظْلِمٍ اخْتَلَطَ بَعْضُهُ
فِي بَعْضٍ ، وَلَيْسَتْ مَعَارِنِي الْإِسْلَامِ إِلَّا الْإِشْرَاقُ الْإِلَهِيُّ عَلَى هَذِهِ الْكَثَافَةِ الْمَادِّيَّةِ
الْمُتْرَاكِمَةِ ، وَإِذَا رُفِعَ الْمِصْبَاحُ لَمْ تَجِدِ الظَّلَامَ إِلَّا وَرَاءَ الْخُدُودِ الَّتِي نَتَهَيَّ إِلَيْهَا أَسْعَتُهُ .

وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ أَنَّ إِنْسَانِيَّةَ الْفَرْدِ لَا تَعْظُمُ وَتَسْمُو وَتَتَخَيَّلُ وَتَفْرَحُ فَرَحَهَا
الصَّادِقُ وَتَحْزَنُ حُزْنَهَا السَّامِي - إِلَّا أَنْ تَعِيشَ فِي مَحْبُوبٍ ؛ فَإِنْسَانِيَّةُ الْعَالَمِ لَا تَكُونُ مِثْلَ
ذَلِكَ إِلَّا إِذَا عَاشَتْ فِي نَبِيِّهَا الطَّبِيعِيِّ ، نَبِيِّ أَخْلَاقِهَا الصَّحِيحَةِ وَأَدَابِهَا الْعَالِيَةِ وَنِظَامِهَا
الدَّقِيقِ ؛ وَأَيْنَ تَجِدُ هَذَا الْمَحْبُوبَ الْأَعْظَمَ إِلَّا فِي مُحَمَّدٍ وَدِينِ مُحَمَّدٍ ؟

وَعَجِيبٌ أَنْ يَجْهَلَ الْمُسْلِمُونَ حِكْمَةَ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْأَذَانِ كُلِّ
يَوْمٍ ، يُتَادَى بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ مِلءَ الْجَوْ ؛ ثُمَّ حِكْمَةُ ذِكْرِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ مِنَ الْفَرِيضَةِ وَالسُّنَّةِ
وَالنَّافِلَةِ ، يُهْمَسُ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ مِلءَ النَّفْسِ ! وَهَلِ الْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفَرَضُ عَلَيْهِمْ أَلَّا
يَنْقَطِعُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ وَلَا يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ التَّارِيخِ ، وَلَا جُزْءًا وَاحِدًا مِنَ الْيَوْمِ ؛ فَيَمْتَدُّ الزَّمَنُ
مَعَهُمَا أَمْتَدَّ وَالْإِسْلَامُ كَأَنَّهُ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَكَأَنَّهُ فِي يَوْمِهِ لَا فِي دَهْرِ بَعِيدٍ ؛ وَالْمُسْلِمُ كَأَنَّهُ مَعَ نَبِيِّهِ
بَيْنَ يَدَيْهِ تَبَعُهُ رُوحُ الرِّسَالَةِ ، وَيَسْطَعُ فِي نَفْسِهِ إِشْرَاقُ الْبُيُوتَةِ ، فَيَكُونُ دَائِمًا فِي أَمْرِهِ
كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ الَّذِي غَيْرَ وَجْهَ الْأَرْضِ ؛ وَيُظْهِرُ هَذَا الْمُسْلِمُ الْأَوَّلُ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ
وَحَمِيَّتِهِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا مَكَانَ إِنْسَانٍ هَذِهِ الْبُقْعَةِ ، لَا كَمَا نَرَى الْيَوْمَ ؛ فَإِنَّ كُلَّ أَرْضٍ
إِسْلَامِيَّةٍ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ فِيهَا إِلَّا إِنْسَانُهَا التَّارِيخِيُّ بِجَهْلِهِ وَخُرَافَاتِهِ وَمَا وَرَثَ مِنَ الْقِدَمِ ؛ فَهُنَا
الْمُسْلِمُ الْفِرْعَوْنِيُّ ، وَفِي نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِ الْوُثْنِيُّ ، وَفِي بَلَدِ الْمُسْلِمِ الْمَجُوسِيُّ ، وَفِي جِهَةِ
الْمُسْلِمِ الْمُعْطَلُ . . . وَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا نَفْسَ الْمُسْلِمِ الْإِنْسَانِيِّ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ !

لَا تَنْقَطِعْ مِنْ نَبِيِّكَ الْعَظِيمِ ، وَعِشْ فِيهِ أَبَدًا ، وَاجْعَلْهُ مِثْلَكَ الْأَعْلَى ؛ وَحِينَ تَذْكُرُهُ فِي
كُلِّ وَقْتٍ فَكُنْ كَأَنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ كُنْ دَائِمًا كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ ؛ كُنْ دَائِمًا أَبْنَى الْمُعْجَزَةِ .

حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ (*)

لَا يَعْرِفُ التَّارِيخُ غَيْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلًا أَفْرَغَ اللَّهُ وُجُودَهُ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِي كُلِّهِ ؛ كَمَا تَنْصَبُ الْمَادَّةُ فِي الْمَادَّةِ ، لِيَتَمَتَّحَ بِهَا ، فَتَحْوِلَهَا ، فَتُحَدِّثَ مِنْهَا الْجَدِيدَ ، فَإِذَا الْإِنْسَانِيَّةُ تَحْوَلَتْ بِهِ وَتَنُمُو ، وَإِذَا هُوَ ﷺ وُجُودُ سَارٍ فِيهَا فَمَا تَبَرَّحَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ تَنُمُو بِهِ وَتَحْوَلُ .

كَانَ الْمَعْنَى الْآدَمِيُّ فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَأَنَّمَا وَهَنَ مِنْ طُولِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ ، يَتَحَقَّقُهُ وَيَمُحُوهُ وَيَتَعَاوَرُهُ بِالْشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ ؛ فَأَبْتَعَتْهُ اللَّهُ تَارِيخَ الْعَقْلِ بِأَدَمَ جَدِيدَ بَدَأَتْ بِهِ الدُّنْيَا فِي تَطَوُّرِهَا الْأَعْلَى مِنْ حَيْثُ يَرْتَفِعُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَاتِهِ ، كَمَا بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ يُوجَدُ الْإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ ؛ فَكَانَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ دَهْرًا بَيْنَ اثْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْمَجِيءِ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالثَّانِي فَتَحَ لَهَا طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَيْهَا : كَانَ فِي آدَمَ سِرُّ وُجُودِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَانَ فِي مُحَمَّدٍ سِرُّ كَمَالِهَا .

* * *

وَلِهَذَا سُمِّيَ الدِّينُ (بِالْإِسْلَامِ) ؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامُ النَّفْسِ إِلَى وَاجِبِهَا ، أَيْ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ كَأَنَّ الْمُسْلِمَ يُنْكِرُ ذَاتَهُ فَيُسْلِمُهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ تُصَرِّفُهَا وَتَعْمَلُهَا فِي كَمَالِهَا وَمَعَالِيهَا ؛ فَلَا حَظَّ لَهُ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ يُمْسِكُهَا عَلَى شَهَوَاتِهِ وَمَنَافِعِهِ ، وَلَكِنْ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِهَا الْحَظُّ .

وَمَا الْإِسْلَامُ فِي جُمْلَتِهِ إِلَّا هَذَا الْمُبْدَأُ : مَبْدَأُ انْكَارِ الذَّاتِ وَ(إِسْلَامُهَا) طَائِعَةً عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ لِفُرُوضِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ؛ وَكُلَّمَا نَكَصَتْ إِلَى مَنَزَعِهَا الْحَيَوَانِيِّ ، أَسْلَمَهَا صَاحِبُهَا إِلَى وَازِعِهَا الْإِلَهِيِّ ؛ وَهُوَ أَبَدًا يَرُوضُهَا عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَا دَامَ حَيًّا ؛ فَيَتَزَرَّعُهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَوْهَامِ دُنْيَاهَا ، لِيَضَعَهَا مَا بَيْنَ يَدَيْ حَقِيقَتِهَا الْإِلَهِيَّةِ : يَرُوضُهَا عَلَى ذَلِكَ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مُسَمَّاةٍ فِي اللُّغَةِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ، لَا يَكُونُ الْإِسْلَامُ إِسْلَامًا بغيرِهَا ؛

فَلَا غَرْوَ كَانَتْ الصَّلَاةُ بِهَذَا الْمَعْنَى كَمَا وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ : هِيَ عِمَادُ الدِّينِ ^(١) .

* * *

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ فِي كُلِّ مَطْلَعِ شَمْسٍ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ صَلَاةٌ ، أَيْ : إِسْلَامٌ
النَّفْسِ إِلَى الْإِرَادَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الشَّامِلَةِ ^(٢) الْقَائِمَةِ عَلَى الطَّاعَةِ لِلْفَرْصِ الْإِلَهِيِّ ، وَإِنْكَارِ
لِمَعَانِيهَا الذَّاتِيَةِ الْقَائِمَةِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الشَّرِّ فِي الْأَرْضِ ، وَإِقْرَارِهَا لِحَقِّهَا فِي حَيَرِ الْخَيْرِ
الْمَخْصِ الْبَعِيدِ عَنِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَأَنَامِهَا وَمُنْكَرَاتِهَا . وَمَعْنَى ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْقِيقُ الْمُسْلِمِ
لَوْجُودِ رُوحِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ أَعْمَالُ الدُّنْيَا فِي جُمْلَتِهَا طُرُقًا تَشْتَتُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ وَتَتَبَعَّرُ ، حَتَّى
تُضِلَّ رُوحُ الْأَخِ عَنْ رُوحِ أَخِيهِ فَتُنْكِرُهَا وَلَا تَعْرِفُهَا !

وَهَذَا الْوُجُودُ الرُّوحِيُّ هُوَ مَبْنِئُ الْحَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ لِيَهْدِيَ الْإِنْسَانِيَّةَ
إِلَيْهَا : حَالَةَ السَّلَامِ الرُّوحَانِيِّ الَّتِي يَجْعَلُ حَرْبَ الدُّنْيَا الْمَهْلَكَةِ حَرْبًا فِي خَارِجِ النَّفْسِ
لَا فِي دَاخِلِهَا ، وَيَجْعَلُ ثَرْوَةَ الْإِنْسَانِ مُقَدَّرَةً بِمَا يُعَامِلُ اللَّهَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَلَا يَكُونُ ذَهَبُهُ
وَفَضَّتُهُ مَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ الدَّوْلُ : « ضَرَبَ فِي مَمْلَكَةٍ كَذَا » ، وَلَكِنْ مَا يَرَاهُ هُوَ قَدْ كُتِبَ
عَلَيْهِ : « صُنِعَ فِي مَمْلَكَةِ نَفْسِي » ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ وَجُودُهُ الْاجْتِمَاعِيَّ لِلْأَخْذِ حَسَبُ ،
بَلْ لِلْعَطَاءِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ قَانُونَ الْمَالِ هُوَ الْجَمْعُ ، أَمَّا قَانُونُ الْعَمَلِ فَهُوَ الْبَذْلُ .

بِالْإِنْصِرَافِ إِلَى الصَّلَاةِ وَجَمْعِ النَّبِيِّ عَلَيْهَا ، يَسْتَشْعِرُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ قَدْ حَطَّمَ الْخُدُودَ
الْأَرْضِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِنَفْسِهِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى رُوحَانِيَّةٍ لَا يُحَدُّ فِيهَا إِلَّا بِاللَّهِ
وَوَحْدَهُ .

وَبِالْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ ، يُحَقِّقُ الْمُسْلِمُ لِدَايَةِ مَعْنَى إِفْرَاقِ الْفِكْرِ السَّامِيِّ عَلَى الْجِسْمِ
كُلِّهِ ، لِيَمْتَزِجَ بِجَلَالِ الْكَوْنِ وَوَقَارِهِ ، كَأَنَّهُ كَائِنٌ مُتَّصِبٌ مَعَ الْكَائِنَاتِ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .
وَبِالتَّوَلَّى شَطْرَ الْقِبْلَةِ فِي سَمْتِهَا الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ عَلَى اخْتِلَافِ أَوْضَاعِ الْأَرْضِ ، يَعْرِفُ

(١) « الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ » رواه البيهقي في « شعب الإيمان » . بسام .

(٢) هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَالْحَثُّ عَلَيْهَا وَكَوْنُهَا أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا ؛ وَأَنَّ التَّوَابَ الْأَكْبَرَ فِيهَا
وَحَدَّثَهَا .

الْمُسْلِمُ حَقِيقَةُ الرَّمْزِ لِلْمَرْكَزِ الثَّابِتِ فِي رُوحَانِيَّةِ الْحَيَاةِ ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَى الْأَاطِمَيْنِ
وَالْأَسْتَفْرَارِ عَلَى جَاذِبِيَّةِ الدُّنْيَا وَقَلْفِهَا .

وَبِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، يُشْعِرُ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَى السُّمُوِّ وَالرَّفْعَةِ عَلَى كُلِّ
مَا عَدَا الْخَالِقَ مِنْ وُجُودِ الْكَوْنِ .

وَبِالْجُلُوسَةِ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ التَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ ، يَكُونُ الْمُسْلِمُ جَالِسًا فَوْقَ الدُّنْيَا
يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهَدُ وَيَدْعُو .

وَبِالتَّسْلِيمِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ ، يَقْبَلُ الْمُسْلِمُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِفْبَالًا جَدِيدًا :
مِنْ جِهَتَي السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ .

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ الْحَيَاةِ كُلِّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ لِيَجْمَعَ الشَّهَوَاتِ وَتَقْيِيدِهَا
بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسَلْسِلَيْهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ ، وَلِتَمَرِّقَ أَلْفَنَاءَ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلِّ
يَوْمٍ عَنِ النَّفْسِ ؛ فَيَرَى الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ الْخُلُودِ ، فَتَشْعُرُ الرُّوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ .

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يَفْرُغُ فِيهَا الْقَلْبُ مِمَّا أَمْتَلَأَ بِهِ مِنَ
الدُّنْيَا ، فَمَا أَدَقَّ وَأَبْدَعَ وَأَصْدَقَ قَوْلُهُ ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(١) .

* * *

لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعًا لِلصُّنْعَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِيهَا ؛
وَلِهَذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَاسًا عَلَى الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، كَانَتْهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ الْمَعَانِي ؛ وَكَانَ
الْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلًا إِصْلَاحِيًّا وَقَعَ بِهِ التَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ الْغَرِيزَةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَى عَالَمِ الْخُلُقِ ، ثُمَّ
أَرْتَقَى بِالْخُلُقِ إِلَى الْحَقِّ ، ثُمَّ سَمَا بِالْحَقِّ إِلَى الْخَيْرِ الْعَامِّ ؛ فَهُوَ سُمُوٌّ فَوْقَ الْحَيَاةِ بِثَلَاثِ
طَبَقَاتٍ ، وَتَدْرُجُ إِلَى الْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ ، وَابْتِعَادٌ عَنِ الْأَوْهَامِ بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَائِقَ .

(١) [النسائي ، رقم : ٣٩٤٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٨٤ ، ١٢٦٤٤ ، ١٣٦٢٣] كَانَ مُحَمَّدٌ
ﷺ يَسْتَبْطِئُ الصَّلَاةَ وَقَدْ جَاءَ وَقْتُهَا ، مِنْ شِدَّةِ شَوْفِهِ إِلَيْهَا فَيَقُولُ : « أَرِحْنَا بِهَا يَا بَلَاءُ » [أبو داود ،
رقم : ٤٩٨٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٥٧٨ ، ٢٢٦٤٣] وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَدَقَّ فِي تَصْوِيرِ نَفْسِيهِ
ﷺ وَأَشْوَاقِ رُوحِهِ الْعَالِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ : « أَرِحْنَا بِهَا » . فَهَذَا كَمَا لَا اتِّصَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ .

وَبَيْنَكَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ كَانَتْ الدُّنْيَا الْمُسْلِمَةُ الَّتِي أَسَّسَهَا النَّبِيُّ ﷺ دُنْيَا أَسْلَمَتْ طَبِيعَتُهَا ، فَأَصْبَحَتْ عَلَى مَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادَتْ هِيَ ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِنَوَامِسٍ مِنْ أَهْلِهَا ، لَا عَلَى أَهْلِهَا ؛ وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَغْزُو الْأُمَمَ بِالْعَرَبِ وَيَفْتَحُهَا ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ الْعَجِيبَةَ أَنَّ إِقْلِيمًا مِنَ الدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ بِالطَّبِيعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِهَذَا الدِّينِ .

وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى فِي رِمَالِ الْجَزِيرَةِ رُوحَ الْبَحْرِ ، وَبَعَثَهَا بَعَثَهُ الْإِلَهِيُّ لِأَمْرِه ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ نَقْطَةُ الْمَدِّ الَّتِي يَقُورُ الْبَحْرُ مِنْهَا ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ أَمْوَاجَهُ الَّتِي غَسِلَتْ بِهَا الدُّنْيَا ...

لِهَذَا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ ، لَا كَمَا يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ ، وَلَكِنَّ كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْحُكْمَ الثَّاقِذَ الْمَقْضِي ؛ وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ الْبَلَاغَةَ وَحْدَهَا ، بَلْ رَوْعَةً أَمَرَ السَّمَاءَ فِي بَلَاغَةٍ ؛ وَاتَّصَلُوا بِنَبِيِّهِمْ ، ثُمَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، لَا كَمَا يَتَّصِلُ إِنْسَانٌ بِإِنْسَانٍ ، بَلْ كَمَا تَتَّصِلُ الْأَمْوَاجُ بِقُوَّةِ الْمَدِّ ، ثُمَّ كَمَا يُمِدُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي قُوَّةٍ وَاحِدَةٍ .

وَحَقَّقُوا فِي كَمَالِهِ ﷺ وَجُودَهُمُ النَّفْسِي ؛ فَكَانُوا مِنْ زَخَارِفِ الْحَيَاةِ وَبَاطِلِهَا فِي مَوْضِعِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي يَرَى فِيهِ الشَّيْءَ لَا شَيْءَ .

وَرَأَوْا فِي إِرَادَتِهِ ﷺ النُّقْطَةَ الثَّابِتَةَ فِيمَا يَتَضَارَبُ مِنْ خَيَالَاتِ النَّفْسِ ؛ فَكَانُوا أَكْبَرَ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الْأَرْضِ ، لَا مِنْ كُتُبٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا فِلَسْفَةٍ ، بَلْ مِنْ قَلْبِ نَبِيِّهِمْ وَحْدَهُ .

وَعَرَفُوا بِهِ ﷺ تَمَامَ الرُّجُوزَةِ ؛ وَمَتَّى تَمَّتْ هَذِهِ الرُّجُوزَةُ تَمَامَهَا فِي إِنْسَانٍ ، رَجَعَتْ لَهُ الطُّفُولَةُ فِي رُوحِهِ ، وَامْتَلَكَ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا أَعْظَمُ الْفَلَسَفَةِ وَالْحُكَمَاءِ ، فَأَصْبَحَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِخُطَوَاتٍ مُسَدَّدَةٍ لَا تَزِنُغُ وَلَا تَنْحَرِفُ ، فَلَا شَرَّ وَلَا رَذِيلَةَ ؛ وَدُنْيَاهُ هِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، يَمْلِكُهَا وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ مِنْهَا شَيْئًا ، مَا دَامَتْ فِي قَلْبِهِ طَبِيعَةُ الشَّرُّورِ ، فَلَا فَقْرَ وَلَا غِنَى مِمَّا يَشْعُرُ النَّاسُ بِمَعَانِيهِ ، بَلْ كُلُّ

مَا أَمَكْنَ فَهُوَ غَنَى كَامِلٌ ، إِذْ لَمْ تَعُدِ الْقُوَّةُ فِي الْمَادَّةِ تَزِيدُ بِيَادَتِهَا وَتَنْقُصُ بِتَفْصِيهَا ، بَلِ الْقُوَّةُ فِي الرُّوحِ الَّتِي تَتَصَرَّفُ بِطَبِيعَةِ الوجودِ ، وَتَدْفَعُ قُوَى الْجِسْمِ بِمِثْلِ دَوَائِعِ الطُّفُولَةِ النَّامِيَةِ الْمُتَغَلِّبَةِ ، حَتَّى لَتَجْعَلَ مِنَ النُّورِ وَالْهَوَاءِ مَا يُؤْتَدِمُ بِهِ مَعَ الْخُبْزِ الْقَفَارَ ، كَمَا يُؤْتَدِمُ بِاللَّحْمِ وَأَطْيَابِ الْأَطْعِمَةِ (١) .

وَبِذَلِكَ لَا تَسَلُطُ ضَرُورَةُ عَلَى الْجِسْمِ - كَالْجُوعِ وَالْفَقْرِ وَالْأَلَمِ وَنَحْوِهَا - إِلَّا كَانَ تَسَلُّطُهَا كَأَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ قُوَّةٍ فِي الوجودِ إِلَى قُوَّةٍ فِي هَذَا الْجِسْمِ : أَنْ تَظْهَرَ لِتَعْمَلِ عَمَلَهَا الْمُعْجَزَ فِي إِبْطَالِ هَذِهِ الضَّرُورَةِ . وَهَذَا الْجِسْمُ مِنَ النَّاسِ كَالْأَزْهَارِ عَلَى أَغْصَانِهَا الْخُضْرِ ؛ لَوْ قَالَتْ شَيْئًا لَقَالَتْ : إِنَّ ثَرَوَتِي فِي الْحَيَاةِ هِيَ الْحَيَاةُ نَفْسُهَا ، فَلَيْسَ لِي فَقْرٌ وَلَا غِنَى ، بَلْ طَبِيعَةٌ أَوْ لَا طَبِيعَةٌ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُ يُضْرَبُ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَتَقَعُ ضَرَبَاتُ السُّيُوفِ عَلَى جِسْمِهِ فَيَمُوتُ ، فَمَا يُحْسِنُهَا إِلَّا كَأَنَّهَا قُبُلُ أَصْدِقَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَلْقَوْنَهُ وَيُعَانِقُونَهُ ! وَكَانَ يُبْتَلَى فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَلَا يَشْعُرُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُرَرُّ الْمُبْتَلَى يُعْرِفُ فِيهِ الْخُزْنَ وَالْانْكِسَارُ ، بَلْ تَظْهَرُ فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُتَنَصِّرَةُ كَمَا يَظْهَرُ النَّارِخُ الطَّافِرُ فِي بَطْنِهِ الْعَظِيمِ أَصِيبَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ جِسْمِهِ بِجِرَاحٍ ، فَهِيَ جِرَاحٌ وَتَشْوِينٌ وَالْأَلَمُ ، وَهِيَ شَهَادَةُ النَّصْرِ ! وَلَمْ تَكُنْ أَثْقَالُ الْمُسْلِمِ مِنْ دُنْيَاهُ أَثْقَالًا عَلَى نَفْسِهِ ، بَلْ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابُ قُوَّةٍ وَسُمْوٌ ؛ كَالسَّرِّ الْمَخْلُوقِ لِطَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا ، يَحْمِلُ دَائِمًا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ ثِقْلَ جَنَاحَيْهِ الْعَظِيمَيْنِ .

(١) عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ عَلَى أُمِّ هَانِئٍ ، وَكَانَ جَائِعًا ، فَقَالَ لَهَا : « أَعِنْدَكَ طَعَامٌ أَكُلُهُ ؟ » فَقَالَتْ : إِنَّ عِنْدِي لِكِسْرًا يَابِسَةً ، وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَقْدِمَهَا إِلَيْكَ ؛ فَقَالَ : « هَلُمِّي ! » ، فَكَسَرَهَا فِي مَاءٍ ، وَجَاءَتْهُ بِمِلْحٍ ، فَقَالَ : « مَا مِنْ إِدَامٍ ؟ » فَقَالَتْ : « مَا عِنْدِي إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ » . فَقَالَ : « هَلُمِّي ! » فَلَمَّا جَاءَتْ بِهِ صَبَّهَ عَلَى طَعَامِهِ ، فَأَكَلَ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « نِعَمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ يَا أُمَّ هَانِئِ ، لَا يَقْفُرُ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ » أَنْتَهَى . [المستدرک للحاکم ، رقم ٦٨٧٥ / ٢٤٧٣ ، ٥٤ / ٤] .

وَكَانَتْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ مَثَلَهُمْ الْأَعْلَى ، وَأَقْرَبَهَا فِي أَنْفُسِهِمْ بِجَمِيعِ
أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ - أَنَّ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ بِكُلِّ مُسْلِمٍ
عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَلَا تَكُونُ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا إِرَادَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ ، تَجْعَلُ الْمُسْلِمَ وَمَا هُوَ إِلَّا رُوحُ
أُمَّتِهِ تَعْمَلُ بِهِ أَعْمَالَهَا هِيَ لَا أَعْمَالَهُ وَخَدَهَا .

الْمُسْلِمُ إِنْسَانٌ مُمْتَدِّ بِمَنَافِعِهِ فِي مَعْنَاهُ الْأَجْتِمَاعِيِّ حَوْلَ أُمَّتِهِ كُلِّهَا ، لَا إِنْسَانٌ ضَيِّقُ
مُجْتَمَعٍ حَوْلَ نَفْسِهِ بِهَؤُلَاءِ الْمَنَافِعِ ؛ وَهُوَ مِنْ غَيْرِهِ فِي صِدْقِ الْمُعَامَلَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ كَالتَّاجِرِ مِنْ
التَّاجِرِ : تَقُولُ الْأَمَانَةُ لِكِلِيهِمَا : لَا قِيَمَةَ لِمِيزَانِكَ إِلَّا أَنْ يُصَدِّقَهُ مِيزَانُ أُخِيكَ .

وَلَنْ يَكُونَ إِلَّا سَلَامٌ صَحِيحًا تَامًا حَتَّى يَجْعَلَ حَامِلَهُ مَثَلًا مِنْ نَبِيِّهِ فِي أَخْلَاقِ اللَّهِ ؛ فَمَا
هُوَ بِشَخْصٍ يَضْبِطُ طَبِيعَتَهُ : يَفْهَرُهَا مَرَّةً وَتَفْهَرُهُ مَرَارًا ؛ وَلَكِنَّ طَبِيعَةَ تَضْبِطُ شَخْصَهَا فَهِيَ
قَانُونٌ وَجُودِهِ .

لَا يَضْطَرُّ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَضْطَرُّ وَمَعَهُ الْأَسْتِقْرَارُ ؟

لَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ ، وَكَيْفَ يَخَافُ وَمَعَهُ الطَّمَأْنِينَةُ ؟

لَا يَخْشَى مَخْلُوقًا ، وَكَيْفَ يَخْشَى وَمَعَهُ اللَّهُ ؟

أَيُّهَا الْأَسَدُ ، هَلْ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ إِلَّا فِي طَبِيعَةِ مَخَالِكَ وَأَنْيَابِكَ . . . ؟

وَحْيُ الْهَجْرَةِ ۥ فِي نَفْسِي ۥ (*)

إِنَّ التَّارِيخَ لَيْسَ كَلِمَةً بِلُغَةٍ أَوْسَعَ مِنَ الْفَاطَةِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُوهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ
الْوُجُودِ ، صُوِّرَتْ فِيهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، كَيْفَ اغْتَوَرَتْ أَغْرَاضَهَا ، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي
نَسَقِهَا ، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا ، وَمَا تَأَتَّى لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا ، وَمَا دَفَعَهَا
فَانْحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا ؛ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْقِطُهُ تَقْرَأُ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الْوُجُودِ
تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِالْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا ، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنْ
الْأُخْرَى ؛ فَإِذَا الْكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى ، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةٌ ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ ؛
وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَالْهَيْئَتُهَا مَعًا ، وَإِذَا الْوُجُودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرَسُّمُ لَكَ حَدِّ
الْثَّانِيَةِ بِخَطَرَتَيْنِ ، وَحَدِّ الدَّقِيقَةِ مِنْ عَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنَ الثَّوَانِي ، ثُمَّ حَدِّ السَّاعَةِ إِلَى حَدِّ
الْيَوْمِ ؛ وَإِذَا الْبَيَّانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي ، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُوهُ مُفْتَنٌ فِي
ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، يَفِيءُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَاطَةِ وَمَعَانِيهِ بِظِلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَتِيهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ
بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلُ .

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ
هَذِهِ الْكَلِمَةَ ^(١) ، فَلَمْ أَكُنْ - عِلْمُ اللَّهِ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ ، بَلْ فِي عَالَمٍ أَنْبَقَ فِي
نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ ، وَحَوَادِثِ أَهْلِهِ ، وَأَسْرَارِ أَهْلِهِ جَمِيعًا ؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ
حَبِيبَهُ : لَا يَكُونُ الْجَمِيلُ فِي مَحَلٍّ إِلَّا أَمْتَلَأَ مَكَانَهُ بِعَاشِقِهِ ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ وَالْدُّنْيَا ،
لَا مِنَ الدُّنْيَا وَخَدَهَا ، وَفِيهِ الْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِي الْوُجُودِ بِمَظْهَرِ الْمَادَّةِ ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ
بِمَظْهَرِ الرُّوحِ .

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْفِرَاقَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ

(*) «الرسالة» العدد : ٤٢ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ أبريل/نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة

الثانية ، الصفحات : ٦٤٥ - ٦٤٧ .

(١) فِي الْأَصْلِ : «لَاكْتُبُ عَنْهُ كَلِمَةً فِي الرِّسَالَةِ» بَدَلًا مِنْ : «لَاكْتُبُ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ» .

الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى ، وَمِنْ لَا شَيْءَ تُخْلُقُ أَشْيَاءَ ، لِأَنَّكَ مِنْهَا اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ ، وَمِنْ نَفْسِكَ اتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ فَوْقِهَا ؛ فَيُضَيِّحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنَّ الوجودِ الْإِنْسَانِي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا فَنَّ عِلْمِ النَّاسِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

* * *

نَشَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ ، وَاسْتُنْبِئَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ ، وَغَبَرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدْأَتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ وَغُلَامٌ : أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ ﷺ ، وَأَمَّا الْأَمْرَأَةُ فَزَوْجُهُ خَدِيجَةُ ، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَعَلِيٌّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ الثُّمُوءِ فِي الْإِسْلَامِ بِحُرٍّ وَعَبْدٍ : أَمَّا الْحُرُّ فَأَبُو بَكْرٍ ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَبِلَالٌ ، ثُمَّ اتَّسَقَ الثُّمُوءُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِطُءِ الْهُمُومِ فِي سَيْرِهَا ، وَصَبَرَ الْحُرُّ فِي تَجَلُّدِهِ ؛ وَكَانَ التَّارِيخُ وَاقِفًا لَا يَتَزَحَّزَحُ ، ضَيِّقٌ لَا يَتَسَّعُ ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخُو الشَّمْسِ : يَطْلُعُ كِلَاهُمَا وَحْدَهُ كُلُّ يَوْمٍ . حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ ، فَانْتَقَلَ الرُّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَدَأَتْ الدُّنْيَا تَقْلَقُلُ ، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا [فَضْغَطَهَا] فَحَرَّكَهَا ؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هِجْرَتِهِ تَخْطُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَعَانِيهَا تَخْطُ فِي التَّارِيخِ ؛ وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ يَغْرِضُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يُغْرِضُ الدَّهَبُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ : يَرَوْنَهُ بَرِيقًا وَشُعَاعًا ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ حَاجَةٌ بَنِي آدَمَ إِلَّا الْمُتَوَحِّشِينَ ؛ وَكَانُوا فِي الْمَحَادَّةِ وَالْمُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ ، وَالْبُلُوغِ بِدَعْوَتِهِ مَبْلَغِ الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ - كَمَا يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةِ قَارَةٍ^(١) إِلَى مُدَاوَاةِ جِسْمِهِ بِأَشِعَّةِ الْكَوَاكِبِ ؛ وَكَانَتِ مَكَّةَ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخْرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصْدَبَ بِهِ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِي لَيْلِي الْقَرِّ » بَدَلًا مِنْ : « فِي لَيْلَةِ قَارَةٍ » .

وَأُوزِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَّ ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي يَخْطُو فِيهِ عَلَى زَلَزَلٍ
تَقَلَّبَ ، وَتَابَذَهُ قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا فِيهِ ، وَحَصَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ ، وَأَنْصَفَقَ عَنْهُ عَامَّةُ النَّاسِ
وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهُ مِنْهُمْ ؛ فَأَصِيبَ كَثِيرًا بِالْيُسْمِ مِنْ قَوْمِهِ ، كَمَا أَصِيبَ صَغِيرًا بِالْيُسْمِ مِنْ
أَبَوِيهِ .

وَكَانَ لَا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَفْدُمُ مِنَ الْعَرَبِ لَهُ اسْمٌ وَشَرَفٌ ، إِلَّا تَصَدَّى لَهُ فَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ
وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَتْ الدَّعْوَةُ تَلُوحُ وَتَخْفِي كَمَا يَشُقُّ الْبَرَقُ مِنَ سَحَابَةٍ عَلَى
السَّمَاءِ : لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَرَى ، ثُمَّ لَا شَيْءَ بَعْدَ أَنْ يَرَى !

* * *

فَهَذَا تَارِيخُ مَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ فِي جُمْلَةِ مَعْنَاهُ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَقْرَأْهُ تَارِيخًا ، بَلْ قَرَأْتُ فِيهِ
فَصْلًا رَائِعًا مِنْ حِكْمَةِ إِلَهِيَّةٍ ، وَضَعَهُ اللَّهُ كَالْمُقَدِّمَةِ لِتَارِيخِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ ؛ مُقَدِّمَةً مِنَ
الْحَوَادِثِ وَالْأَيَّامِ تَحِيًا وَتَمَرُّ فِي نَسَقِ الرِّوَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنْطَوِيَّةِ عَلَى رُمُوزِهَا وَأَسْرَارِهَا ،
وَتَظْهَرُ فِيهَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعْمَلُ بِقُسْوَةٍ ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَتَجَلَّى فِي غُمُوضٍ ؛ فَلَوْ أَنْتَ حَقَّقْتَ
النَّظَرَ لَرَأَيْتَ تَارِيخَ الْإِسْلَامِ يَتَأَلَّهُ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، بِحَيْثُ لَا تَقْرَؤُهُ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ إِلَّا
خَاشِعَةً كَأَنَّهَا تُصَلِّي ، وَلَا تَتَذَبَّرُهُ إِلَّا خَاضِعَةً كَأَنَّهَا تَتَعَبَّدُ .

بَدَأَ الْإِسْلَامُ فِي رَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ وَعِلَامٍ ، ثُمَّ زَادَ خُرًا وَعَبْدًا ؛ أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْخَمْسُ هِيَ
كُلُّ أَطْوَارِ الْبَشَرِيَّةِ فِي وُجُودِهَا ، مَخْلُوقَةٌ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَمَصْنُوعَةٌ فِي السِّيَاسَةِ
وَالْاجْتِمَاعِ ؟ فَهَاهُنَا مَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ ، وَأَوَّلُ الرَّمْزِ فِي شِعْرِ التَّارِيخِ .

وَلَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً لَا يَبْغِيهِ قَوْمُهُ إِلَّا شَرًّا ، عَلَى أَنَّهُ دَائِبٌ يَطْلُبُ ثُمَّ
لَا يَجِدُ ، وَيَعْرِضُ ثُمَّ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ ، وَيُخْفِقُ ثُمَّ لَا يَغْتَرِيهِ الْيَأْسُ ، وَيَجْهَدُ ثُمَّ لَا يَتَخَوَّنُهُ
الْمَلِكُ ، وَسَتَمَرُ مَاضِيًا لَا يَتَحَرَّفُ ، وَمُعْتَرِمًا لَا يَتَحَوَّلُ ؛ أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ أَسْمَى مَعَانِي
التَّرْبِيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَظْهَرَهَا اللَّهُ كُلُّهَا فِي نَبِيِّهِ ، فَعَمِلَ بِهَا وَثَبَّتَ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً
فِي هَذَا الْمَعْنَى كَعُمُرِ طِفْلِ وَلَدٍ وَنَشَأَ وَأُحْكِمَ تَهْدِيئَهُ بِالْحَوَادِثِ ، حَتَّى تَسْلَمَتْهُ الرُّجُوعَةُ
الْكَامِلَةُ بِمَعَانِيهَا مِنَ الطُّفُولَةِ الْكَامِلَةِ بِوَسَائِلِهَا ؟

أَفَلَيْسَ هَذَا فَضْلاً فَلَسَفِيّاً دَقِيقاً يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَنْشَأَ الْمُسْلِمُ : غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَقُوَّتُهُ فِي إِيْمَانِهِ ، وَمَوْضِعُهُ فِي الْحَيَاةِ مَوْضِعُ النَّافِعِ قَبْلَ الْمُتَنَفِّعِ ، وَالْمُضْلِحِ قَبْلَ الْمُفْلِدِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ مِنْ قُوَّةِ الْحَيَاةِ مَا يَمُوتُ بِهِ فِي هَذِهِ النَّفْسِ أَكْثَرُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالنَّاسِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَمَطَامِعٍ ؟

ثُمَّ أَلَيْسَتْ تِلْكَ الْعَوَامِلُ الْأَخْلَاقِيَّةُ هِيَ الَّتِي أُلْقِيَتْ فِي مَنْبَعِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ لِيُعْبَثَ مِنْهَا تَيَارُهُ ؛ فَتَدْفَعُهُ فِي مَجْرَاهُ بَيْنَ الْأُمَمِ ، وَتَجْعَلُ مِنْ أَحْصَى الْخَصَائِصِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا - الثَّبَاتَ عَلَى الْخُطْوَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَإِنْ لَمْ تَتَقَدَّمْ ، وَعَلَى الْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ ؛ وَالتَّبَرُّؤَ مِنَ الْأَثَرِ وَإِنْ شَعَتْ عَلَيْهَا النَّفْسُ ، وَاحْتِفَارَ الضَّعْفِ وَإِنْ حَكَمَ وَتَسَلَّطَ ، وَمُقَاوَمَةَ الْبَاطِلِ وَإِنْ سَادَ وَعَلَبَ ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى مَخْضِ الْخَيْرِ وَإِنْ رَدُّوا بِالشَّرِّ ، وَالْعَمَلَ لِلْعَمَلِ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ ، وَالْوَاجِبَ لِلْوَاجِبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرٌ فَائِدَةٌ ، وَبَقَاءُ الرَّجُلِ رَجُلًا وَإِنْ حَطَّمَهُ كُلُّ مَا حَوْلَهُ ؟

ثُمَّ هِيَ الَّتِي هِيَ الْبُرْهَانَاتُ ^(١) الْفَائِمَةُ لِلدَّهْرِ قِيَامَ الْمَنَارَاتِ ^(٢) فِي السَّاحِلِ - عَلَى بُيُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ : تَثْبِيتُ بَرَاهِنِ الْفَلَسَفَةِ وَعُلُومِ النَّفْسِ أَنَّهُ رُوحٌ وَغَايَاتُهَا الْمَحْتُمَةُ بِالْقَدَرِ ، لَا جِسْمٌ وَوَسَائِلُهُ الْمُتَغَلَّبَةُ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَلَوْ كَانَ رَجُلًا اتَّبَعْتُهُ نَفْسُهُ ، لَتَمَحَّلَ الْحِجَلُ لِسِيَاسَتِهِ ، وَلَأَخَذَتْ طَمَعًا مِنْ كُلِّ مَطْمَعٍ ، وَلَرَكَدَتْ مَعَ الْحَوَادِثِ وَهَبَتْ ، وَلَمَّا اسْتَمَرَّ طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ لَا يَتَجَبَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ إِلَّا اتَّجَاهَ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلِّهَا كَأَنَّمَا هُوَ هِيَ .

وَلَوْ هُوَ كَانَ رَجُلٌ أَلْمَلِكِ أَوْ رَجُلٌ السِّيَاسَةِ ، لَاسْتَقَامَ وَالتَّوَيَّ ، وَلَأَذْرَكَ مَا يَتَّبِعِي فِي سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ ، وَلَأَوَجَدَ الْحَوَادِثَ يَتَعَلَّقُ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا أَفَلَتْ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَلَمَّا انْتَرَعَ نَفْسَهُ مِنْ مَحَلِّهِ فِي قَوْمِهِ وَكَانَ وَاسِطَةً فِيهِمْ ، وَلَا تَرَكَ عَوَامِلَ الزَّمَنِ تُبْعِدُهُ وَهِيَ كَانَتْ تَذْنِيهِ .

قَالُوا : إِنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بَعَثَ إِلَيْهِ حِينَ كَلَّمَتْهُ فُرَيْشٌ فَقَالَ لَهُ : يَا أَبْنَ أَخِي ! إِنَّ قَوْمَكَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْبُرْهَانِ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « الْبُرْهَانَاتِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْمَنَارَةُ » بِدَلَالَةٍ مِنْ : « الْمَنَارَاتِ » .

قَدْ جَاؤُنِي فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَنْتِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تُحْمِلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أَطِيقُ . فَطَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لِعَمَلِهِ فِيهِ بَدَأٌ^(١) ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ ، فَقَالَ : يَا عَمَّاهُ ! لَوْ وَضَعُوا الشَّنَسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ . ثُمَّ اسْتَعْبَرَ ﷺ فَبَكَى !

يَا دُمُوعَ التُّبُوءَةِ ! لَقَدْ أَتَبْتُ أَنَّ النَّفْسَ الْعَظِيمَةَ لَنْ تَعَزَّى عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِهَا كَاتِبًا مَا كَانَ ، لَا مِنْ ذَهَبِ الْأَرْضِ وَفِضَّتِهَا ، وَلَا مِنْ ذَهَبِ السَّمَاءِ وَفِضَّتِهَا إِذَا وَضِعَتْ الشَّمْسُ فِي يَدِ الْقَمَرِ فِي الْأُخْرَى .

وَكُلُّ حَوَادِثِ الْمُدَّةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ عَلَى طُولِهَا لَيْسَتْ إِلَّا دَلِيلَ ذَلِكَ الزَّمَنِ عَلَى أَنَّهُ زَمَنُ نَبِيٍّ ، لَا زَمَنُ مَلِكٍ أَوْ سِيَاسِيٍّ أَوْ زَعِيمٍ ؛ وَدَلِيلُ الْحَقِيقَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْيَقِينَ الثَّابِتَ لَيْسَ يَقِينُ الْإِنْسَانِ الْاجْتِمَاعِيِّ مِنْ جِهَةِ قُوَّتِهِ ، بَلْ يَقِينُ الْإِنْسَانِ الْإِلَهِيِّ مِنْ جِهَةِ قَلْبِهِ ؛ وَدَلِيلُ الْحِكْمَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَيْسَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي تَنْشُرُهَا عَذْوَى النَّفْسِ لِلنَّفْسِ ؛ فَهِيَ هُوَ ذَا لَا يَبْلُغُ أَهْلُهُ فِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً أَكْثَرَ مَا تَبْلُغُ أُسْرَةٌ تَتَوَالَدُ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَدَلِيلُ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ وَخِي اللَّهِ بِإِنْجَادِ الْإِخَاءِ الْعَالَمِيِّ وَالْوَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ . أَفَلَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُ عَنْ مَوْطِنِهِ هُوَ تَحَقُّقُهُ فِي الْعَالَمِ ؟

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، كَانَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَلِيلًا ثَبَتَتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ رَجُلَ مُلْكٍ ، وَلَا سِيَاسَةٍ ، وَلَا زَعَامَةٍ ؛ وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ لَأَدْرَكَ فِي قَلِيلٍ ؛ وَلَيْسَ مُبْتَدِعَ شَرِيعَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَإِلَّا لَمَا غَبَرَ فِي قَوْمِهِ وَكَانَهُ لَمْ يَجِدْهُمْ وَهُمْ حَوْلَهُ ؛ وَلَيْسَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ تَعْمَلُ أَسَالِيبُ النَّفْسِ فِي انْتِشَارِهَا ؛ وَلَوْ كَانَ لَحَمَلَهُمْ عَلَى مَخْضِهَا وَمَمَرُوجِهَا ؛ وَلَيْسَ رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِالْمُصَادَفَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَوْ هُوَ كَانَ لَجَعَلَ إِيمَانَ يَوْمٍ كُفْرَ يَوْمٍ ؛ وَلَيْسَ مُصْلِحَ عَشِيرَةٍ يُهْدَبُ مِنْهَا عَلَى قَدَرٍ مَا تَقْبَلُ مِنْهُ سِيَاسَةٌ وَمُخَادَعَةٌ ، وَلَا رَجُلَ وَطَنِ تَكُونُ غَايَتُهُ أَنْ يَسْمَحَ فِي أَرْضِهِ شُمُوحَ جَبَلٍ فِيهَا ، دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ مِنْ إِطْلَالِهِ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ

(١) { أَيِ نَشَأَلُهُ رَأْيِي جَدِيدٌ فِيهِ ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُونَ : رَجَعَ عَنْ رَأْيِهِ } .

السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَلَا رَجُلٌ حَاضِرُهُ إِذْ كَانَ وَإِنَّمَا دَائِمًا أَنَّ مَعَهُ الْغَدَّ وَآيَتُهُ ، وَإِنْ أَدْبَرَ عَنْهُ الْيَوْمُ وَذَاهَبَهُ ؛ وَلَا رَجُلٌ طَبِيعَتُهُ الْبَسْرِيَّةُ يَلْتَمِسُ لَهَا مَا يَلْتَمِسُ الْجَانِعُ لِبَطْنِهِ ، وَلَا رَجُلٌ شَخْصِيَّتُهُ يَسْتَهْوِي بِهَا وَيَسْحَرُ ، وَلَا رَجُلٌ بَطْنُهُ يَغْلِبُ بِهِ وَيَتَسَلَّطُ ، وَلَا رَجُلٌ الْأَرْضُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ رَجُلٌ السَّمَاءِ فِي الْأَرْضِ .

هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي تَدْبِيرِهِ لِنَبِيِّهِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ : قَبَضَ عَنْهُ أَطْرَافَ الزَّمَنِ ، وَحَصَرَهُ مِنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ فِي مِثْلِ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا تَصْدُرُ بِهِ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا كَيْ تَثْبِتَ أَنَّهَا لَا تَصْدُرُ بِهِ ؛ وَلَا تَسْتَحِقُّ بِهِ الْحَقِيقَةُ لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ قُوَّتِهِ وَعَمَلِهِ .

وَكَانَ ﷺ عَلَى ذَلِكَ - وَهُوَ فِي حُدُودِ نَفْسِهِ وَضِيقِ مَكَانِهِ - يَتَّسِعُ فِي الزَّمَنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى ذَلِكَ أَحَدٌ وَلَا يَعْلَمُهُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ شَمْسُ الْيَوْمِ الَّذِي سَيَنْتَصِرُ فِيهِ - قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ عَلَى الدُّنْيَا بِثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ - مُشْرِقَةً فِي قَلْبِهِ ﷺ .

وَالْفَضْلُ مِنَ السَّنَةِ لَا يُقَدِّمُهُ النَّاسُ وَلَا يُؤَخِّرُونَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ سَبْرِ الْكَوْنِ كُلِّهِ ؛ وَالسَّحَابَةُ لَا يُشْعِلُونَ بِرَقِّهَا بِالْمَصَابِيحِ ، وَمَعَ النَّبِيِّ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بُرْهَانُ اللَّهِ عَلَى رَسُولَاتِهِ ، إِلَى أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال/ الآية : ٣٩] فَحَلَّ الْفَضْلُ ، وَأَنْطَلَقَتِ الصَّاعِقَةُ ، وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ .

تِلْكَ هِيَ الْمُقَدِّمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِلتَّارِيخِ ، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَطْرِدَ التَّارِيخُ بَعْدَهَا ، حَتَّى قَالَ الرَّشِيدُ لِلْسَّحَابَةِ وَقَدْ مَرَّتْ بِهِ : أَمْطِرِي حَيْثُ شِئْتُ فَسَيَأْتِيَنِي خَرَاكُ !

فَلَسَفَةُ قِصَّةِ (*)

مَاتَتْ^(١) خَدِيجَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَاتَ^(٢) عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ النَّبُوَّةِ ، فَعَظُمَتْ الْمُصِيبَةُ فِيهِمَا عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ عُمُّهُ هَذَا يَمْتَنِعُهُ مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ ، وَيَقُومُ دُونَهُ فَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ بِمَكْرُوهِهِ ؛ وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَالْعَقِيدَةِ السِّيَاسِيَّةِ : هِيَ بِطَبِيعَتِهَا قُوَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَى قُوَّةِ الْقَبِيلَةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ كَانَ هُوَ وَخَدَةُ الْمُشْكِلَةَ النَّفْسِيَّةَ الْمُعَقَّدَةَ الَّتِي تَعْمَلُ قُرَيْشٌ جَاهِدَةً فِي حَلِّهَا ، وَقَامَتِ الْمَعْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأُولَى بَيْنَ إِرَادَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِ ، وَهُمْ أُمَّةٌ تَخْكُمُهُمُ الْكَلِمَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي تَسِيرُ عَنْهُمْ فِي الْقَبَائِلِ ؛ وَتَارِيخُهُمْ مَا يُقَالُ فِي الْأَلْسِنَةِ مِنْ مَعَانِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ ، فَيَخْشَوْنَ الْمَقَالَهَ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْشَوْنَ الْغَارَةَ ، وَقَدْ لَا يُبَالُونَ بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ يُبَالُونَ بِالْكَلِمَاتِ الْمَجْرُوحَةِ .

فَكَانَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ ، وَعَجِيبِ تَذْيِيرِهِ فِي حِمَايَةِ نَبِيِّهِ ﷺ - وَضَعُ هَذِهِ الْقُوَّةَ النَّفْسِيَّةَ فِي أَوَّلِ تَارِيخِ النَّبُوَّةِ ، تَشْتَغِلُ بِهَا سَخَافَاتُ قُرَيْشٍ ، وَتَكُونُ عَمَلًا لِفِرَاقِهِمُ الرُّوحِيَّ ، وَتُثِيرُ فِيهِمُ الْإِشْكَالَ السِّيَاسِيَّ الَّذِي يُعْطِلُ قَانُونَهُمُ الْوَحْشِيَّ إِلَى أَنْ يَتِمَّ عَمَلُ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تُكْسِرُ هَذَا الْقَانُونَ ؛ فَإِنَّ الْمَصْنَعَ الْإِلَهِيَّ لَا يُخْرِجُ أَعْمَالَهُ الثَّامَّةَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا مِنْ أَجْزَاءٍ دَقِيقَةٍ .

أَمَّا خَدِيجَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَتْ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ قَلْبًا مَعَ قَلْبِهِ الْعَظِيمِ ، وَكَانَتْ لِنَفْسِهِ كَقَوْلِ (نَعَمْ) لِلْكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي يَقُولُ لَهَا كُلُّ النَّاسِ (لَا) ؛ وَمَا زَالَتِ الْمَرْأَةُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٣ ، ٧ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٣٠ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٨٣ - ٤٨٥ .

وراجع « فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها » فيما يلي . بسم .

(١) فِي الْأَصْلِ : « هَلَكْتُ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتَتْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « هَلَكْتُ » بَدَلًا مِنْ : « مَاتَ » .

وليلاحظ أَنَّ كَلِمَةَ « هَلَكْتُ » هِيَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا ابْنُ سِحَاقٍ فِي سِيرَتِهِ ، رَاجِعِ « السيرة النبوية » لابن هشام ٢/ ٢٦٤ ، وَلَوْ كَانَتْ كَلِمَةُ « مَاتَ » أَوَّلَى . بسم .

الْكَامِلَةُ الْمَحْبُوبَةُ الْمُحِبَّةُ هِيَ الَّتِي تُعْطِي الرَّجُلَ مَا نَقَصَ مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ ، وَتَلِدُ لَهُ الْمَسَرَّاتِ مِنْ عَوَاطِفِهَا كَمَا تَلِدُ مِنْ أَحْشَائِهَا ، فَالْوُجُودُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ : أَحَدُهُمَا زِيَادَةُ الْحَيَاةِ فِي الْأَجْسَامِ ، وَالْآخَرُ إِنْتِمَاءُ نَقْصِهَا فِي الْمَعَانِي .

* * *

وَيَمُوتُ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيجَةُ ، أَفْرَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِجَسَمِهِ وَقَلْبِهِ ، لِيَتَجَرَّدَ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي يَغْلِبُ فِيهَا الْحِسُّ ، إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي تَغْلِبُ فِيهَا الْإِرَادَةُ ، ثُمَّ لِيُخْرَجَ مِنْ أَيَّامِ الْأَسْتِقْرَارِ فِي أَرْضِهِ ، إِلَى الْأَيَّامِ الْمُتَحَرِّكَ بِه فِي هِجْرَتِهِ ؛ ثُمَّ لِيُنْتَهِيَ بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ قَوْمِيَّتِهِ الصَّغِيرَةِ الْمَخْدُودَةِ ، فَيَتَّصِلَ مِنْ ذَلِكَ بِأَوَّلِ عَالَمِيَّتِهِ الْكُبْرَى .

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَبْدَأَ هَذَا الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ مِنْ أَسْمَى خِلَالِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ ، لِيَكُونَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ ؛ فَكَانَتْ الْحَسَنَةُ فِيهِ بِشَهَادَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَحِلْمُهُ بِشَهَادَةِ رُغْوَتِهِمْ ، وَأَنَانَتُهُ بِدَلِيلِ طَيْشِهِمْ ، وَحِكْمَتُهُ بِبِرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ أَلْرُوحَانِيُّ رُوحَانِيَّتًا فِي الْمَادَّةِ .

قَالُوا : فَنَالَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ ، وَوَصَلُوا مِنْ أَذَاهُ إِلَى مَا لَمْ يَكُونُوا يَصِلُونَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ ، حَتَّى نَثَرَ بَعْضُهُمُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، كَأَنَّمَا يَعْلَمُونَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ حُرًّا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا ؛ قَالُوا : فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي !

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ شُدُودُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ الدُّنْيَا ، فِي مُقَابَلَةِ إِنْسَانِيَّتِهَا الشَّاذِّ الْمُنْفَرِدِ . هَذِهِ الْقَبْضَةُ مِنَ التُّرَابِ الْأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِينَةٌ ، تُحَاوِلُ رَدَّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشْأَتَهَا وَتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي النَّارِخِ ؛ فَهِيَ فِي مَقْدَارِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمُحَاوَلَتِهَا ، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِينَتِهِ فِي مَقْدَارِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ .

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِبَنَتِهِ : « يَا بَيْتَةُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ » (١) . حَسِبْتَ ذَلِكَ

هَوَانًا وَضَيْعَةً ، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ لَا تَطْمُرُ النَّجْمَ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَنُوءَةُ التُّرَابِيَّةُ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَنَارَتْهَا الْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِنَتِيجَةٍ ، وَأَنَّ سَاعَةً مِنَ الْحُزْنِ فِي يَوْمٍ ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ التَّرْوَةُ الَّتِي تَحَرَّكَتِ الْآنَ هِيَ حُمُقُ الْغَبَاوَةِ : قُوَّتُهَا نَهَائَتُهَا .

« يَا بُنَيْتُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ » . أَنَّى لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءٌ يَنَالُهَا النَّاسُ أَوْ يَعْضُوْنَ عَنْهَا فَيَأْتِي الدَّمْعُ مُتَرَجِّمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي النَّاقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ نَاقِصٌ ؛ إِنَّمَا هِيَ الْبُؤْسَةُ : قَانُونُهَا غَيْرُ مَا اعتَادَتِ النَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ ، وَهِيَ الْبُؤْسَةُ : تَجْعَلُ الْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مَحْدُودٍ بِجَسَدِهِ الضَّعِيفِ ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا قُوَّتُهَا ؛ فَهُوَ فِي مَنَعَةِ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ ، فَلَوْ أَمَكَّنَ أَنْ يُحْدَفَ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَنِ أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ ، أَمَكَّنَ أَنْ يُؤَخَّرَ النَّبِيُّ أَوْ يُحْدَفَ .

« يَا بُنَيْتُ ! لَا تَبْكِي ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ » . لَا وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا نَبِيٌّ وَسِعَ التَّارِيخُ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَلِمَتُهُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالثَّقَةُ ، إِذْ يَتَكَلَّمُ عَنْ مُوجُودٍ .

تُرَابٌ يَشْرُهُ سَفِينُهُ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ! وَيَحْكُ يَا حَقَّارَةَ الْمَادَّةِ ! إِنَّ أَرْتِفَاعَكَ لَعَنَةُ ، إِنَّ أَرْتِفَاعَكَ لَعَنَةُ .

* * *

قَالُوا : وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحْدَهُ إِلَى الطَّائِفِ ، يَلْتَمِسُ مِنْ ثَقِيفِ النَّصَرِ وَالْمَنْعَةِ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمَّا أَتَتْهُ إِلَى الطَّائِفِ عَمَدٌ إِلَى نَقَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ هُمْ يَوْمِئِذٍ سَادَتُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَأَغْرَوْا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسْبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَالْجَوُودَةُ إِلَى حَائِطٍ ^(١) لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهُمَا فِيهِ . وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سَفَهَاءٍ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَنْبَعُهُ ، فَعَمَدَ ﷺ إِلَى ظِلِّ حُبْلَةٍ مِنْ عَيْبٍ ، فَجَلَسَ فِيهِ ، وَأَبْنَا

(١) الْحَائِطُ : الْبُنْيَانُ ، وَجَمْعُهُ حَوَائِطُ .

رَبِيعَةً يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنَ الشُّفَهَاءِ .

فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلِّمُنِي ؛ إِلَيَّ يَبْعِدُ يَجْهَمُنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكْتَهُ أَمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِثَوْرِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ! » .

* * *

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تَنْبُتُ أَنَّ قُوَّةَ الْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةُ أَرْفَعُ مِنَ الْخُلُقِ نَفْسِهِ ؛ فَهَذَا فَرْقُ الصَّبْرِ لَا الصَّبْرُ فَقَطْ ، وَفَرْقُ الْحِلْمِ لَا الْحِلْمُ وَحْدَهُ .

قُوَّةُ الْخُلُقِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلِّبًا فِي تَوَارِيخِ النَّاسِ ، مَخْذُودًا بِعِظَائِمِ شَخْصِيَّتِهِ الْخَالِدَةِ لَا بِمَصَالِحِ شَخْصِهِ الْفَانِي ، نَاطِرًا فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْوَضْعِ الثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْوَضْعِ الْمُتَغَيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ .

وَمَا كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَشْرَافُ وَشُفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَسْفُ ، وَالزُّوقُ ، وَالضَّعْفُ ، تَقُولُ لِلنَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ يَمْخُوهَا وَيُدْبِلُ مِنْهَا : إِنَّنَا أَشْيَاءُ ثَابِتَةٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ .

لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ الْأَشْرَافُ وَالشُّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَسْفُ ، وَالزُّوقُ ، وَالطَّيْشُ ؛ تَسْخَرُ ثَلَاثَتُهَا مِنْ نَبِيِّ الْعَدْلِ ، وَالْحُرِّيَّةِ ، وَالْعَقْلِ ؛ فَمَا تَسْخَرُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهَا . صَغَائِرُ الْحَيَاةِ قَدْ أَحَاطَتْ بِمَجْدِ الْحَيَاةِ ، لَتُبِتِ الصَّغَائِرُ أَنَّهَا الصَّغَائِرُ ، وَلِئِبَتِ الْمَجْدُ أَنَّهُ الْمَجْدُ .

كَانَ الْقَرِيفَانِ هُمَا الْفِكْرَتَيْنِ الْمُتَعَادِيَتَيْنِ أَبَدًا عَلَى الْأَرْضِ : إِخْدَاهُمَا عِشَ لِنَآكَلِ وَتَسْتَمْتِعَ وَإِنْ أَهْلَكَتَ ؛ وَالْأُخْرَى عِشَ لِتَعْمَلَ وَتَنْفَعَ النَّاسَ وَإِنْ هَلَكَتْ .

كَانَتْ الْأَقْدَارُ تُبَادِي هَذَا الرُّوحَ الْوَاسِعَ بِذَلِكَ الرُّوحِ الضَّيِّقِ ، لِيَنْطَلِقَ الْوَاسِعُ مِنْ

مَكَانِهِ وَيَسْتَقْبِلُ الدُّنْيَا الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يَنْشِئَهَا . فَأُولَئِكَ الْأَشْرَافُ وَالسُّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ إِنْ هُمْ إِلَّا الضُّعِيفُ ، وَالرُّكُودُ ، وَذَلِكَ الْعَيْنِ ؛ حَوْلَ السَّعَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالسُّمُورِ ، وَطَهَارَةِ الْحَيَاةِ .

وَقَفَّ الْمَعْنَى السَّمَائِيُّ بَيْنَ مَعَانِي الْأَرْضِ ؛ وَلَكِنْ نُورُ الشَّمْسِ يَنْبَسِطُ عَلَى التُّرَابِ فَلَا يَعْفُرُهُ التُّرَابُ ، وَمَا هُوَ بِنُورٍ يُضِيءُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِالْعَنَاصِرِ الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تُحَوَّلَ ، فِي الْعَنَاصِرِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ .

وَكَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أُولَئِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قُوَّةٌ أُخْرَى ، هِيَ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِهِذَا النَّبِيُّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَبِهَذِهِ الْقُدْرَةِ لَمْ يَنْظُرِ النَّبِيُّ إِلَى قُرَيْشٍ وَصَوْلَتِهِمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ أَتَقَضَى ، فَكَانَ الْوُجُودُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَكَانَتْ حَقِيقَةُ الزَّمَنِ الْآتِي تَجْعَلُ الزَّمْنَ الْحَاضِرَ بِلَا حَقِيقَةٍ .

وَالِى هَذِهِ الْقُدْرَةِ تَوَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ الْبَلِيغِ الْخَالِدِ ، يَشْكُو أَنَّهُ إِنْسَانٌ فِيهِ الضَّعْفُ وَقِلَّةُ الْحِيلَةِ ، فَيَنْطِقُ الْإِنْسَانِيُّ فِيهِ بِالشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الدُّعَاءِ يَذْكُرُ أَنْفِرَادَهُ وَأَنَارَ أَنْفِرَادِهِ ، وَيَتَوَجَّعُ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِنْسَانِيَّةِ قَوْمِهِ ؛ ثُمَّ يَنْطِقُ الرُّوحَانِيُّ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مَصْدَرِهِ الْإِلَهِيِّ قَائِلًا أَوَّلَ مَا يَقُولُ : إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي .

وَلَعَمْرِي لَوْ نَطَقَتِ الشَّمْسُ تَدْعُو اللَّهَ لَمَا خَرَجْتَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى وَلَا زَادَتْ عَلَى قَوْلِهِ : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ » ؛ تَلْتَمِسُ مِنْ مَصْدَرِ النُّورِ الْأَزَلِيِّ حِيَاطَةَ وَجُودِهَا الْكَامِلِ .

* * *

وَلَقَدْ هَزَّؤُوا مِنْ قَبْلِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لِلْمَسَاخِرِينَ مِنْهُ : لَيْسَ نَبِيٌّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ^(١) . وَبِهَذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ رَدٌّ مَنْ أَنْسَلَخَ مِنْهُمْ ، وَقَالَ لَهُمْ قَوْلٌ مَنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ فِيهِمْ ، وَأَخَذَهُمْ بِالشَّرِيعَةِ الْأَدَبِيَّةِ لَا الْعَمَلِيَّةِ ؛ إِذْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْحِكْمَةِ الطَّائِفَةِ لَيْسَتْ لِكُلِّ قَلْبٍ وَلَا لِكُلِّ عَقْلِ ، وَلَكِنَّهَا لِمَنْ أَعَدَّ لَهَا ؛ وَشَرِيعَتُهُ أَكْثَرُهَا فِي التَّغْيِيرِ وَأَقَلُّهَا فِي الْعَمَلِ ، وَلَمْ تَجِئْ بِالْقُوَّةِ الْعَامِلَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَضَعَ الْمَوْعِظَةَ فِي مَكَانِ

السَّيْفِ ، وَأَنْ تَكُونَ قَائِمَةً عَلَى اللَّهِ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْأَمْرِ ، وَأَنْ تَكُونَ كَشْمَسِ الشَّتَاءِ الْجَمِيلَةِ : لَا تَغْلِي بِهَا الْأَرْضُ ، وَإِنَّمَا عَمَلُهَا أَنْ تُمَهِّدَ هَذِهِ الْأَرْضَ لِفَصْلِ آخَرٍ .

أَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَلَمْ يُجِبِ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، إِذْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْكَامِنَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا كَامِنَةً فِيهِ ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْعَظِيمُ يَحْمِلُ لِلدُّنْيَا كَلِمَةً جَدِيدَةً لَا تَقْبَلُ الدُّنْيَا أَنْ تُعَامِلَهُ عَلَيْهَا إِلَّا بِطَرِيقَتِهَا الْحَرْبِيَّةِ ؛ فَلَمْ يَرُدَّ رَدَّ الشَّاعِرِ الَّذِي يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا الْبَلِيغُ ، وَلَكِنَّهُ سَكَتَ سَكُوتَ الْمُشْتَرِعِ الَّذِي لَا يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ إِلَّا عَمَلُهَا حِينَ يَتَكَلَّمُ ؛ وَكَانَ فِي سَكُوتِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي فَلْسَفَةِ الْإِرَادَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالنَّطَوْرِ ، وَأَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْقَوْمُ ، وَأَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفَطِرَ هَذَا الشَّجَرُ الْأَجْرَدُ عَنْ وَرَقِ جَدِيدٍ أَخْضَرَ يَنْمُو بِالْحَيَاةِ .

لَمْ يَسْخَطْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَكَانَ كَالصَّانِعِ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَلَى خَطَايَا آلَاتِهِ بِسُخْطٍ وَلَا يَأْسٍ ، بَلْ بِإِرْسَالِ يَدِهِ فِي إِصْلَاحِهَا .

* * *

قَالُوا : وَرَأَى أَبْنَا رِبِيعَةَ ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ مَا لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ السُّفَهَاءِ ، فَتَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا ، فَدَعَوْا غُلَامًا لَهُمَا نَصْرَانِيًّا يَقَالَ لَهُ : عَدَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ قِطْعًا مِنْ هَذَا الْعَنْبِ وَضَعْهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ . فَفَعَلَ عَدَّاسُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا وَضَعَ يَدُهُ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ » . ثُمَّ أَكَلَ ؛ فَظَرَ عَدَّاسُ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ ، وَمَا دِينُكَ ؟

قَالَ : أَنَا نَصْرَانِيٌّ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مِنْ قَرِيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُؤْنَسُ بْنُ مَتَّى ؟ قَالَ : وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُؤْنَسُ بْنُ مَتَّى ؟ قَالَ ﷺ : ذَلِكَ أَخِي ؛ كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ .

فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ .

* * *

يَا عَجَبًا لِرُمُوزِ الْقُدْرَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ !

لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْإِجْلَالُ فَأَقْبَلَتْ تَعْتَذِرُ عَنِ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ وَالطَّيْشِ ،
وَجَاءَتْ الْقُبُلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ الْعِدَاوَةِ .

وَكَانَ أَبْنَا رَبِيعَةَ مِنَ الَّذِينَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَمِمَّنْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ
أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفَهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، أَوْ يُتَارِلُوهُ وَإِيَّاهُ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ
الْفَرِيقَيْنِ ، فَانْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعْنَاهَا الْإِنْسَانِيَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ ، لِأَنَّ
الْمُسْتَقْبَلَ الدِّينِيِّ لِلْفِكْرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ .

وَجَاءَتْ النَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُعْزُّهُ ، إِذِ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ كَالْأَخِ
مِنْ أَخِيهِ ، غَيْرَ أَنَّ نَسَبَ الْإِخْوَةِ الدَّمِ وَنَسَبَ الْأَدْيَانِ الْعَقْلُ .

ثُمَّ أَتَمَّ الْقَدَرُ رَمْزَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، يَقْطِفُ الْعِنَبَ سَائِعًا عَذْبًا مَمْلُوءًا حَلَاوَةً ؛ فَيَأْسِمُ
اللَّهُ كَانَ قِطْفُ الْعِنَبِ رَمْزًا لِهَذَا الْعُنُقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمْتَلَأَ حَبًّا كُلَّ حَبَّةٍ فِيهِ
مَمْلَكَةً .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

فَوْقَ الْأَدَمِيَّةِ (*)
الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ

مِنْ أَعْجَبَ مَا اتَّفَقَ لِي أَنِّي فَرَعْتُ مِنْ تَسْوِيدِ هَذَا الْمَقَالِ ثُمَّ أَرَدْتُ نَقْلَهُ ، فَتَعَسَّرَ عَلَيَّ وَصَرَفْتُ عَنْهُ بِأَلَمٍ شَدِيدٍ اعْتَرَانِي ، وَنَالَني مِنْهُ ثِقَلَةٌ فِي الدِّمَاغِ ؛ ثُمَّ كَشَفَهُ اللَّهُ بَعْدَ يَوْمٍ فَرَّاجَعْتُ الْكِتَابَةَ ، فَإِذَا قَلَمِي يَنْبِعثُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ :

كَيْفَ يَسْتَوْطِئُ الْمُسْلِمُونَ الْعَجَزَ ، وَفِي أَوَّلِ دِينِهِمْ تَسْخِيرَ الطَّبِيعَةِ ؟
كَيْفَ يَسْتَمْهِدُونَ الرَّاحَةَ ، وَفِي صَدْرِ تَارِيخِهِمْ عَمَلُ الْمُعْجَزَةِ الْكُبْرَى ؟
كَيْفَ يَزْكُونُ إِلَى الْجَهْلِ ، وَأَوَّلُ أَمْرِهِمْ آخِرُ غَايَاتِ الْعِلْمِ ؟
كَيْفَ لَا يَحْمِلُونَ الثُّورَ لِلْعَالَمِ ، وَنَبِيَّهُمْ هُوَ الْكَائِنُ الثُّورَانِي الْأَعْظَمُ ؟

* * *

قِصَّةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، هَذَا التَّجَمُّ الْإِنْسَانِيُّ الْعَظِيمُ ؛ وَهُوَ الثُّورُ الْمُتَجَسِّدُ لِهَدَايَةِ الْعَالَمِ فِي حَيْرَةِ ظُلُمَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ ؛ فَإِنَّ سَمَاءَ الْإِنْسَانِ تُظْلِمُ وَتُضِيءُ مِنْ دَاخِلِهِ بِأَعْرَاضِهِ وَمَعَانِيهِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ لِلْعَالَمِ الْأَرْضِيَّ شَمْسًا وَاحِدَةً تُبْرِئُهُ وَتُحْيِيهِ وَتَقْلُبُ عَلَيْهِ بَلْبِلَهُ وَنَهَارَهُ ، بَيَدَ أَنَّهُ تَرَكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ شَمْسَ قَلْبِهِ وَغَمَامَهَا وَسَحَابَتَيْهَا وَمَا تُسْفِرُ بِهِ وَمَا تُظْلِمُ فِيهِ . وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ نُورًا لِعَمَلِ آدَابِهِ فِي النَّفْسِ ، وَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية : ١٢] ، وَكَانَ أَثَرُ الْإِيمَانِ وَالْتِفَؤَى فِي تَغْيِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ .

وَقَدْ حَارَ الْمُفَسِّرُونَ فِي حِكْمَةِ ذِكْرِ « اللَّيْلِ » فِي آيَةِ « الْإِسْرَاءِ » مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ مَائِنِنَا﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . فَإِنَّ الشَّرْىَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَا يَكُونُ إِلَّا لَيْلًا .

وَالْحِكْمَةُ هِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقِصَّةَ قِصَّةَ (النَّجْمِ) الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي تَحَوَّلَ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ إِلَى نُورِهِ السَّمَاوِيِّ فِي هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ ، وَيَتِمُّ هَذِهِ الْعَجِيبَةُ أَنَّ آيَاتِ « الْمِعْرَاجِ » لَمْ تَحِثْ إِلَّا فِي سُورَةِ : « وَالنَّجْمِ » .

وَعَلَى تَأْوِيلِ أَنْ ذَكَرَ (الَلَّيْلِ) إِشَارَةً إِلَى قِصَّةِ النَّجْمِ ، تَكُونُ آيَةُ بُرْهَانٍ نَفْسِهَا ، وَتَكُونُ فِي نَفْسِهَا قَدْ جَاءَتْ مُعْجِزَةٌ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَإِذَا قِيلَ : إِنَّ نَجْمًا دَارَ فِي السَّمَاءِ ، أَوْ قَطَعَ مَا تَقْطَعُهُ النُّجُومُ مِنَ الْمَسَافَاتِ الَّتِي تُعْجِزُ الْحِسَابَ ، فَهَلْ فِي ذَلِكَ مِنْ عَجِيبٍ ؟ وَهَلْ فِيهِ شَكٌّ أَوْ نَظَرٌ أَوْ تَرَدُّدٌ ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِنْ بَعْضِ مَا يُسَبِّحُ اللَّهَ بِذِكْرِهِ ؟ وَهَلْ يَكُونُ إِلَّا آيَةً اتَّصَلَتْ بِالْآيَاتِ الَّتِي نَرَاهَا اتَّصَالَ الْوُجُودُ بِنَعْصِهِ بِبَعْضٍ ؟

وَأَنَا مَا يَكَادُ يَنْقُضُنِي عَجِيبِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ مَائِنِنَا﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ١] . مَعَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ كَمَا تَرَى مَكْشُوفَةٌ وَاضِحَةٌ ، يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنْ لَيْسَ وَرَاءَهَا شَيْءٌ ، وَوَرَاءَهَا السَّرُّ الْأَكْبَرُ ؛ فَإِنَّهَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ نَصَّ عَلَى إِشْرَافِ النَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَرَى بِغَيْرِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ مِمَّا مَرَّجَعُهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لَا قُدْرَةَ نَفْسِهِ ؛ بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتْ الْعِبَارَةُ : (لَيَرَى مِنْ آيَاتِنَا) فَإِنَّ هَذَا يَجْعَلُهُ لِنَفْسِهِ فِي حُدُودِ قُوَّتِهَا وَحَوَاسِّهَا وَزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا ، فَيَضْطَرُّ إِلَى الْكَلَامِ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْاِغْتِرَاضُ وَلَا تَكُونُ ثَمَّ مُعْجِزَةٌ .

وَتَحْوِيلُ فِعْلِ (الرُّؤْيَا) مِنْ صِنْعَةٍ إِلَى صِنْعَةٍ كَمَا رَأَيْتَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَحْوِيلِ الرَّائِي مِنَ شَكْلِ إِلَى شَكْلٍ كَمَا سَتَعْرِفُهُ ، وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ أُخْرَى يَسْجُدُ لَهَا الْعَقْلُ ؛ فَتَبَارَكَ اللَّهُ مُنْزِلُ هَذَا الْكَلَامِ !

وَإِذَا كَانَ ﷺ نَجْمًا إِنْسَانِيًّا فِي نُورِهِ ، فَلَنْ يَأْتِيَ هَذَا إِلَّا مِنْ غَلَبَةِ رُوحَانِيَّتِهِ عَلَى مَادَّتِهِ ؛ وَإِذَا غَلَبَتْ رُوحَانِيَّتُهُ كَانَتْ قُوَّةُ النَّفْسِيَّةِ مُهَيَّأَةً فِي الدُّنْيَا لِمِثْلِ حَالَتِهَا فِي الْآخِرَى ؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ أَشْبَهَ بِالْهَوَاءِ الْمُتَحَرِّكِ . فَقُلِ الْآنَ : أَيْعْتَزُّضُ عَلَى الْهَوَاءِ إِذَا أَرْتَفَعَ بِأَنَّهُ لَمْ يَرْتَفِعْ فِي طَبَاقَةِ ... ؟

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا سَمَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فِي ثَبَاتِ قُوَاهُ الرُّوحِيَّةِ ، سَمَا بِهَا دَرَجَاتٍ فَوْقَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَسُخِّرَتْ لَهُ أَلْمَعَانِي الَّتِي تُسَخَّرُ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَنَشَأَتْ لَهُ نَوَامِيسُ أَخْلَاقِيَّةٌ غَيْرُ النَّوَامِيسِ الَّتِي تَسَلَّطُ بِهَا الْأَهْوَاءُ . وَمَتَى وَجِدَ الشَّيْءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كَانَتْ طَبَائِعُ وَجُودِهِ هِيَ نَوَامِيسُهُ ؛ فَالْتَّارُ مَثَلًا إِذَا هِيَ تَضَرَّعَتْ أَوْجَدَتْ الْإِحْرَاقَ فِيمَا يَخْتَرِقُ ، فَإِنْ وُضِعَ فِيهَا مَا لَا يَخْتَرِقُ أَبْطَلَ نَوَامِيسَهَا وَغَلَبَ عَلَيْهَا .

وَكُلُّ مُعْجَزَةٍ تَخْدُثُ فَهَذَا هُوَ سَبِيلُهَا فِي إِنْجَادِ النَّوَامِيسِ الْخَاصَّةِ بِهَا وَإِبْطَالِ النَّوَامِيسِ الْمَالُوفَةِ ، وَبِهَذَا يُقَالُ : إِنَّهَا خَرَقَتْ الْعَادَةَ . وَمِنَ النُّورِ نُورٌ لَا يَشْفُ لَهُ غَيْرُ الْهَوَاءِ ، وَمِنْهُ أَشْعَةُ رونتجن ^(١) Roentgen - rays الَّتِي تَشْفُ لَهَا الْجُذُرَانُ وَالْحُجُبُ ؛ فَهَذِهِ مُعْجَزَةٌ فِي ذَلِكَ .

* * *

وَالنَّبِيُّ لَا يَكُونُ نَبِيًّا حَتَّى يَكُونَ فِي إِنْسَانِهِ إِنْسَانٌ آخَرُ بِنَوَامِيسَ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ فِي رُوحَانِيَّتِهَا ، وَمَا يَنْزِلُ إِنْسَانُهُ الظَّاهِرُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ فِيهِ إِلَّا مَنَزِلَةً مَنْ يَتَلَقَّى مِمَّنْ يُعْطِي ؛ فَذَلِكَ الْبَاطِنُ هُوَ لِلْحَقَائِقِ الَّتِي لَا تَحْمِلُهَا الدُّنْيَا ، وَهَذَا الظَّاهِرُ لِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْهِ الْكَمَالُ فِي الْمَثَلِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَعْلَى ، وَلَوْلَا ذَلِكَ الْبَاطِنُ مَا اسْتَطَاعَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَحْمِلَ هُمُومَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا تُضَيِّنُهُ وَلَا تُغَيِّرُهُ وَلَا تُعْجِزُهُ .

فَحَقِيقَةُ النُّبُوَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ مِنَ الْوُجُودِ فِي إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ جَاءَتْ تُصْلِحُ الْوُجُودَ الْإِنْسَانِيَّ بِهِ لِنَقَرٍ فِي هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُهْدَبَةِ مِثْلَهَا الْأَعْلَى ، بِدَلَالَتِهَا عَلَى طَرِيقِهَا النَّفْسِيِّ مَعَ طَرِيقِهَا الطَّبِيعِيِّ ؛ فَيَكُونُ مَعَ الْأَنْحِطَاطِ الرُّقِيِّ ، وَمَعَ النِّقْصِ الْكَمَالُ ، وَمَعَ حُكْمِ الْغَرِيزَةِ اتِّحَاكُمُ فِي الْغَرِيزَةِ ، وَمَعَ الظُّلْمَةِ الْمَادِّيَّةِ الْإِشْرَاقُ الرُّوحَانِيُّ .

وَمَا الْمُعْجَزَاتُ إِلَّا شَأْنُ تِلْكَ الْقُوَّةِ الْبَاطِنَةِ لَا شَأْنُ إِنْسَانِهَا الظَّاهِرِ . وَمَنْ الَّذِي يُنْكِرُ أَنَّ قُوَّةَ الْوُجُودِ هِيَ فِي نَفْسِهَا إِعْجَازٌ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ؟ وَهَلْ يُنْكِرُ الْيَوْمَ أَحَدٌ شَأْنَ هَذِهِ الْقُوَّةِ

(١) هو وليام غونراد رونتجن Wilhelm Gonrad Roentgen (١٨٤٥ - ١٩٢٣ م) فيزيائي ألماني ، مكتشف الأشعة السينية ، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠١ م . بسام .

فِي الرَّادِيُو^(١) Radio حِينَ مَسَّتْهُ فَجَعَلَتْ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُرْسَلُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، كَالْكَلِمَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ ؟

وَنَحْنُ نَرَى مُعْجَزَاتِ التَّنَوُّمِ الْمَغْنَطِيسِيِّ وَمَا يُبْصِرُهُ النَّائِمُ وَمَا يَسْمَعُهُ ، وَمَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِمَّا وَرَاءَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ؛ وَلَيْسَ التَّنَوُّمُ شَيْئًا إِلَّا تَسْلِيطُ الذَّاتِ الْبَاطِنَةِ بِقُوَّاهَا الرُّوحِيَّةِ الْعَجَبِيَّةِ ، عَلَى الذَّاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُقَيَّدَةِ بِحَوَاسِّهَا الْمَحْدُودَةِ ، فَتَطْغَى عَلَيْهَا ، فَتُصْبِحُ الْحَوَاسُّ مُطْلَقَةً شَائِعَةً فِي الْوُجُودِ بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ لَا بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ شَخْصِيَّةٍ . وَعَلَى نَحْوِ مِنْ ذَلِكَ يَتَّصِلُ الرَّجُلُ الرُّوحَانِي بِذَاتِهِ الْبَاطِنَةِ ، فَيُوقِعُ شَخْصَهُ الظَّاهِرَ فِي الْأَسْتِهْوَاءِ ، فَيَنْكَشِفُ لَهُ الْوُجُودُ ، وَيُبْصِرُ مَا يَقَعُ عَلَى الْبُعْدِ ، وَيَرَى مَا هُوَ آتٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ؛ وَمَا الْكَوْنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا كَالْمَعْشُوقِ يَقُولُ لِعَاشِقِهِ الَّذِي وَقَعَ فِي قَلْبِهِ الْحُبُّ : قَدْ آتَيْتُكَ نُورًا تَنْظُرُ بِهِ جَمَالِي .

* * *

وَفِي عُلَمَاءِ عَصْرِنَا مَنْ يُفَكِّرُ فِي الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ ، وَفِيهِمْ مَنْ يَعْمَلُ لِلْمُخَاطَبَةِ مَعَ الْأَفْلَاقِ ، وَفِيهِمْ مَنْ تَقَعَّ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي اسْتِخْصَارِ الْأَزْوَاجِ وَتَسْخِيرِهَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ أَوَّلُ الْبُرْهَانِ { الْكُونِي } الَّذِي سَيَلْزِمُ الْعِلْمَ^(٢) فَيُضْطَرُّهُ فِي يَوْمٍ مَا إِلَى الْإِقْرَارِ بِصِحَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ .

وَنَحْنُ قَبْلَ أَنْ نُبْدِيَ رَأْيَنَا فِي الْقِصَّةِ نَلِمْ بِهَا إِلْمَامَةً مُوجِرَةً ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِيهَا الْأَحَادِيثُ وَوَقَعَ فِيهَا تَخْلِيطٌ كَثِيرٌ ، فَجَاءَتْ قُتُونًا وَأَنْوَاعًا مِنْ طُرُقٍ شَتَّى ، حَتَّى جَمَعَهَا بَعْضُهُمْ فِي جُزْأَيْنِ^(٣) ، وَمَا تَحْتَمِلُ كُلُّ ذَلِكَ وَلَا بَعْضُهُ ، وَلَكِنَّ رُوحَ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ

(١) الراديو Radio ، وهو نظام اتصال يَسْتَعْمِدُ الْأَمْوَاجَ الْكَهْرُومَغْنَطِيسِيَّةَ مِنْ خِلَالِ الْفَضَاءِ ، يَسْتَعْمِلُ هَذَا النِّسْطَامُ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْإِتِّصَالِ الْإِسْلَاسْكِيِّ ، الَّذِي مِنْهُ الْهَاتِفُ وَجَمِيعُ الْإِتِّصَالَاتِ وَالْإِذَاعَاتِ وَالرَّادَارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ الْمِذْبَاحُ ، وَفِي فِتْرَةٍ أَصْطُلِحَ عَلَيْهِ لَفْظُ : الْمِرْدَادِ . بَسَام .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْقَلَم » بِدَلَالَةِ : « الْعِلْم » .

(٣) قَالَ الْكَلَمِيُّ : إِنَّ الْحَافِظَ عَبْدَ الْعَزِيزِ جَمَعَ أَحَادِيثَ الْإِسْرَاءِ فِي جُزْأَيْنِ .

الزَّمَنُ كَانَتْ كُرُوحُ الصَّحَافَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ : مَتَى فَارَتْ فَوْرَهَا اسْتَحْدَثَتْ مِنْ كُلِّ عِبَارَةٍ
عِبَارَةً أُخْرَى ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ عِبَارَةٌ ثَالِثَةٌ ، فَيَكُونُ الْأَصْلُ مَعْنَى
وَاحِدًا وَإِذَا هُوَ يَمُدُّ مِنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ .

وَلَا يَرُونَ بِذَلِكَ بَأْسًا ؛ فَإِنَّهُمْ يَسُدُّونَ بِهِ الرَّأْيَ ، وَيَضَاعِفُونَ مِنْهُ الْيَقِينَ ، وَيَزِيدُونَ
ضَوْءًا فِي نُورِ الْمَعْنَى ، وَمَا دَامُوا قَدْ أَثْبَتُوا الْأَصْلَ وَاسْتَيْقَنُوهُ ، فَلَا حَرَجَ أَنْ يُؤَيِّدَ الْقَوْلَ
بَعْضُهُ بَعْضًا ، بِاجْتِهَادٍ فِي عِبَارَةٍ ، وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ أُخْرَى ، وَزِيَادَةٍ فِي الثَّالِثَةِ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلِ
مِنْهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى مِنْ فَنِّ الرِّوَايَةِ الْقَصَصِيَّةِ ؛ إِذْ تَعَدَّدُ الْأَسَالِيبُ وَالْعِبَارَاتُ مُخْتَلِفَةً
مُتَنَوِّعَةً ، وَلَيْسَ تَحْتَهَا إِلَّا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ . وَالْقَصَصُ الدِّينِيُّ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ فَنٌّ كَامِلٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، لَا يُبْدِعُ الْعَقْلُ وَالْخَيَالُ وَالْعَاطِفَةُ أَقْوَى مِنْهُ وَلَا أَعْجَبَ وَلَا
أَغْرَبَ .

هَذَا فِي مَتَنِ الْقِصَّةِ ، أَمَّا فِي وَاقِعَتِهَا فَقَدْ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا آخَرَ : هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ
وَالْمِعْرَاجُ يَقْطَعُ أَوْ مَتَامَا ؟ وَبِالرُّوحِ وَحْدَهَا ، أَوْ بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ مَعًا ؟ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا
الْخِلَافَ لِأَنَّهُ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُخْرِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُمْ وَجْهَهَا
مِنْ هَذِهِ الْأَوْجِهَةِ . وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عُقُولَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَحْتَمِلُ الْإِدْرَاكَ الْعِلْمِيَّ الَّذِي
أَسَاسُهُ { مَا عُرِفَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ } الْكَهْرَبَاءِ وَالْأَثِيرِ . . .

وَالْخُلَاصَةُ الَّتِي تَتَادَى مِنَ الْقِصَّةِ : أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُضْطَجِعًا ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَأَخْرَجَهُ مِنَ
الْمَسْجِدِ ، فَأَرْكَبَهُ الْبُرَاقَ ، فَأَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِيهِ ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ
إِلَى السَّمَوَاتِ ، فَاسْتَفْتَحَهَا جِبْرِيلُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَرَأَى فِيهَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ، وَاجْتَمَعَ
بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَشَاهِي ، فَغَشِيَهَا مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا ، فَرَأَى ﷺ مَظْهَرَ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ ، ثُمَّ رُجَّ بِهِ فِي الثُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ
مَا أَوْحَى .

أَمَّا وَشِي الْقِصَّةِ وَطَرَاظُهَا فَبَابُ عَجِيبٍ مِنَ الرُّمُوزِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَى
تَجَسُّدِ الْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ : تَكُونُ نَعْبًا وَنَقْعُ فَائِدَةٍ ، أَوْ تُلْتَمَسُ مَنَفَعَةٌ وَشَهْوَةٌ وَتَقَعُ
مَضَرَّةٌ وَحِمَاقَةٌ ، ثُمَّ تَفْنَى مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ الصُّورُ الرَّمَنِيَّةِ الَّتِي تَوَهَّمَهَا أَصْحَابُهَا ، وَتَخْلُدُ

الصُّورُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا .

وَمِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ : فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ . وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعَ مِثَّةٍ ضِعْفٍ . ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرَضِّخُ رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخْرِ ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ؛ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَشَاوَلُ رُؤُوسَهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ . ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قَدِيرٍ ، وَلَحْمٌ آخَرُ نَمَى فِي قَدِيرٍ خَبِثٍ ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ اللَّحْمِ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ ؛ فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فَيَأْتِي امْرَأَةً خَبِيثَةً ، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا . ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حَزْمَةَ عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا . ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مُعَلَّقَاتٍ بِثُدِيِّهِنَّ ؛ فَسَأَلَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ اللَّائِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ .

* * *

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جُمهُورُ الْعُلَمَاءِ ، مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِغْرَاجَ كَانَا بِالْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعًا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي سَبَّيْنَاهُ ؛ وَبُنِيتُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (وَالنَّجْمِ) : ﴿ إِذْ يَنْشَأُ الَّسِّيْدَةُ مَا يَشْفَى ﴾ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ﴿ ٥٣ ﴾ سورة النجم / الآيات : ١٦ و ١٧ ﴿ فَلَا يَكُونُ الْبَصَرُ يَزِيغُ وَيَطْغَى إِلَّا فِي الْجِسْمِ ، وَلَا يَنْفِي عَنْهُ ذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ فِي الْجِسْمِ . وَلَمْ يَسْتَبْهَ أَحَدٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى الْمَعْنَى الْمُعْجِزِ الْعَجِيبِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ ﴿ ٥٣ ﴾ سورة النجم / الآية : ١٧ ؛ فَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَرَى بِجِسْمٍ قَدْ تَحَوَّلَ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْأَدَمِيَّةِ الْمَخْدُودَةِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ إِذْ لَا يَكُونُ طُغْيَانُ الْبَصَرِ إِلَّا مِنْ تَسَلُّطِ الْخَيَالِ عَلَيْهِ بِأَهْوَاءِ الْجِسْمِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ بِهَا حُكْمٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ بِكَوْنِهِ مُقَيَّدَ الْحَاسَةِ ، وَلَا طَغَى بِكَوْنِهِ مُطْلَقَ الْخَيَالِ ، بَلْ كَانَ كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ ، أَيْ : كَانَ حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً فِي غَيْرِ حَالَتِهَا

الْأَرْضِيَّةِ النَّاقِصَةِ .

وَالَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا رُؤْيَا رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ ؛ اخْتَجُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [١٧ سورة الإسراء/ الآية : ٦٠] . وَقَدْ خَلَطَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا أَيْضًا ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّغْيِيرُ بِلَفْظِ «الرُّؤْيَا» - وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مَنَامًا - لِتَنفِي تَأْثِيرِ الْحَوَاسِّ عَلَى الرَّائِي ، وَإِثْبَاتِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْأَدَمِيَّةَ بِجُمْلَتِهَا كَانَتْ فِيهِ كَالثَّائِمَةِ عَنْ حَيَاتِهَا الْأَرْضِيَّةِ بِحَقَاقَتِهَا وَأَخِيلَتِهَا مَعًا ، فَلَيْسَ نَائِمًا كَالثَّائِمِ ، وَلَا مُسْتَقِظًا كَالْمُسْتَقِظِ .

وَفِي أَسَاسِ الْقِصَّةِ جِبْرِيلُ وَالْبَرَّاقُ ؛ وَهُمَا الْقُوَّةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، أَوِ الرُّوحُ الْمَلَائِكِيُّ وَالرُّوحُ الطَّبِيعِيُّ ؛ وَلَمْ يُوصَفِ الْبَرَّاقُ بِأَنَّهُ دَابَّةٌ إِلَّا رَمْزًا ، إِذْ لَا يَأْتِي لِلْعَرَبِ أَنْ يَفْهَمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُ ؛ وَعِنْدَنَا أَنَّهُ سُمِّيَ الْبَرَّاقُ مِنَ الْبَرَقِ ، وَمَا الْبَرَقُ إِلَّا الْكَهْرِبَانِيَّةُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْهُ ؛ فَتِلْكَ قُوَّةُ كَهْرِبَانِيَّةٍ مَتَى نَبَضَتْ جَمَعَتْ أَوَّلَ الْعَالَمِ بِآخِرِهِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ آيَةَ الْإِسْرَاءِ لَمْ تَذْكَرْ أَنَّهُ كَانَ مَحْمُولًا عَلَى شَيْءٍ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْمُولًا إِلَّا عَلَى رُوحِ الْأَنْبَرِ .

وَمَا دَامَتِ الْقُوَّةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ قَدْ سُحَّرَتَا لَهُ ﷺ ، فَلَا مَعْنَى لِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا { دُونَ الْجِسْمِ } ، بَلِ اجْتِمَاعُهُمَا مَعًا فِي الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سِرَّ الْمُعْجَزَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي تَسْيِيرِ مَلَأَمَةِ جِسْمِهِ الشَّرِيفِ لِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ ؛ فَيَتَحَوَّلُ فِي صُورَةٍ كَوْنِيَّةٍ مَلَائِكِيَّةٍ بَيْنَ سِرِّ الْمَلِكِ وَسِرِّ الطَّبِيعَةِ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْحَوَاسِّ وَلَا أَحْكَامُ الْمَادَّةِ .

وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَتَحَوَّلَ الْأَجْسَامُ إِلَى حَالَتِهَا الْأَنْبَرِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ الْخَارِقَةِ ، وَبِهَذَا يُعَلَّلُ طَيُّ الْأَرْضِ لِبَعْضِ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَتُعَلَّلُ خَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَخْدُثُ فِي أَسْبَاطِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقَرَاءُ الْهِنْدِ ، وَمِمَّا كَانَ يَضَعُهُ « لا هوديني » الْأَمْرِيكِيُّ^(١) : إِذْ كَانُوا يُعَلِّلُونَهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْقَبُودِ ثُمَّ يَرَوْنَهُ طَلِيقًا ؛ وَيَحْسِبُونَهُ فِي الشُّجُونِ

الْمُحَصَّنَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا الْحُرَّاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُدْرَانُ ، ثُمَّ يَجِدُونَهُ فِي بَعْضِ
الْفَنَادِقِ .

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الطَّبِيعَةِ رَدٌّ عَلَيْهِ ، وَنَقْضُهُ هُوَ
رَدٌّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْمُسْتَحِيلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمَكِّنَاتِ عَلَى الْمُبْصِرِ .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ذِكْرَ الْبَرَقِ وَالْمَلَكِ فِي آسَاسِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صِلَةُ الْقِصَّةِ
بِالْمُعْجَزَةِ ، وَهُوَ عَيْنُهُ صِلَتُهَا بِالْبُرْهَانِ الْعِلْمِيِّ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُونَا فِيهَا لَمَا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ .

* * *

وَالْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَثْبُتُ أَنَّ هَذَا الوجودَ يَرِقُ وَيَتَكَشَّفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الْإِنْسَانُ
بِرُوحِهِ ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَاثَفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا ، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةُ تَصْفِهِ
بِمَظْهَرِهِ الْكَوْنِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاتَهُ الْكَامِلَةَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ
مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ ، هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنْ يَكُونَ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَآوِيٌّ فَوْقَ هَذِهِ
الدُّنْيَا ، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنْوَارَ الْحَقِّ ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي
صُورِهَا الْخَالِدَةِ ؛ فَيَكُونُ يَتَدَبَّرُهُ الْقِصَّةُ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى
الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَيَذْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخِيلَةِ الَّتِي هُوَ آسَاسُ
الْبَلَاءِ عَلَى الرُّوحِ .

وَمَتَى اسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ ، وَكَانَ حَيًّا فِي الوجودِ كُلِّهِ . وَمَتَى سَلِمَتْ
الْحَيَاةُ مِنْ تَعَقُّبِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ ،
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ .

الإنسانية العليا (*)

مِنْ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَاصِلَ الْأَخْزَانِ ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ ، طَوِيلَ السَّكْتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، لَيْسَ بِالْجَافِي وَلَا الْمَهِينِ ، يُعْظَمُ النُّعْمَةُ وَإِنْ دَقَّتْ لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا ، فَإِذَا تُعْذِي الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِعَظَمِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا ؛ وَكَانَ خَافِضَ الطَّرْفِ ، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، مَنْ رَأَاهُ بِدَيْهَةٍ هَابَةٍ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ ، لَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَلَا يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَشْرَهُ ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلِقَهُ ، فَصَارَ لَهُمْ أَبَا ، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ؛ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقْوِيهِ ، وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُؤْهِنُهُ ، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرٌ مُخْتَلِفٌ ؛ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً ، لَا يُثَبِّتُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ ، لَهُ نُورٌ يَغْلُوهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، لَا يُؤَيِّسُ رَاجِعُهُ ، وَلَا يُخَيِّبُ عَافِيَهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِثْلٍ مِنَ الْقَوْلِ ؛ أَجُودُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ ^(١) .

* * *

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا يَجِدُ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِي مَذْهَبًا عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا يَجِدُ النِّقْصُ الْبَشَرِي مَسَاغًا إِلَيْهَا ، وَلَا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ؛ فَفِيهَا أَلْمَعْنَى التَّامُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ فِيهَا أَلْمَعْنَى التَّامَ لِلْحَقِّ ، وَمِنْ أَجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ يَكُونُ فِيهَا أَلْمَعْنَى التَّامُ لِلْإِيمَانِ .

هِيَ صِفَاتُ إِنْسَانِهَا الْعَظِيمِ ، وَقَدْ أَجْتَمَعَتْ لَهُ لِتَأْخُذَ عَنْهُ الْحَيَاةُ إِنْسَانِيَّتَهَا الْعَالِيَةَ ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ بُرْهَانَاتِ ثُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ٦٠ ، ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٧ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،

الطبعة الثانية ، الصفحات : ١٤٠٥ - ١٤٠٨ .

(١) جَمَعْنَا هَذِهِ الْأَوْصَافَ مِنْ رَوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَجَعَلْنَاهَا كَالْحَدِيثِ الْوَاحِدِ .

وَلَوْ جَمَعْتَ كُلَّ أَوْصَافِهِ ﷺ ، وَنَظَّمْتَهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَاعْتَبَرْتَهَا بِأَسْرَارِهَا الْعِلْمِيَّةِ - لَرَأَيْتَ مِنْهَا كَوْنًا مَعْنَوِيًّا دَقِيقًا قَائِمًا بِهَذَا الْإِنْسَانِ الْأَعْظَمِ ، كَمَا يَقُومُ هَذَا الْكَوْنُ الْكَبِيرُ بِسُنَنِهِ وَأُصُولِ الْحِكْمَةِ فِيهِ ، وَلَا يَفْتَنُ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا مُعْجَمٌ نَفْسِيٌّ حَيٌّ أَلْفَتَهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ بِعِلْمٍ مِنْ عِلْمِهَا ، وَقُوَّةٍ مِنْ قُوَّتِهَا ، لِتَخْرُجَ بِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي تُبْدِعُ الْعَالَمَ إِبْدَاعًا جَدِيدًا ، وَتُنْشِئَهُ النَّشْأَةَ الْمَحْفُوظَةَ لَهُ فِي أَطْوَارِ كَمَالِهِ .

وَلَنْ تَرَى فِي الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْمَى مِنْ أَجْتِمَاعِ هَذِهِ الصِّفَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ وَإِنِّي لَأَكَادُ كُلَّمَا تَأَمَّلْتُهَا أَحْسَبُ هَذَا السُّمُوَّ قَضَاءً وَقَدَرًا بِإِنْسَانٍ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا . وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي خُلِقَ لِلدُّنْيَا لَا لِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ لَا يَنْمُو بِمَا يَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَكِنْ بِمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، كَأَنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَعِيشُ عَيْشَهَا ، فَمَا تَكُونُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا لِتُقَرَّرَ وَجُودُهَا هِيَ ، وَلَا تَنْتَهِي حِينَ تَنْتَهِي بِذَاتِهَا إِلَّا لِتَبْدَأَ مَعَانِيَهَا فِي غَيْرِهَا ، فَهُوَ ﷺ إِنْسَانٌ غُرَسَ فِي الثَّارِ نَبْخِ غَرْسًا لِيَكُونَ حَدًّا لِمَنْ وَأَوَّلًا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تِلْكَ إِلَّا طَرِيقَةً غَرْسِهِ ، وَهُوَ أَبَدًا قَائِمٌ فِي مَكَانِهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ ، إِذْ كَانَ الزَّمَنُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ زَادَ فِي إِنْجَابِهِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُ جِهَةٌ مِنْ الْجِهَاتِ لَا إِنْسَانٌ مِنَ النَّاسِ ، فَلَنْ يَتَغَيَّرَ أَوْ يُمَحَى إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ أَوْ مُحِيَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ .

وَنَحْنُ حِينَ نَقْرَأُ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَمَا فَاضَتْ بِهِ كُتُبُ السَّمَائِلِ مِنْ أَمْثَالِهَا ، لَا نَقْرُؤُهَا أَوْصَافًا وَلَا حَلِيَّةً ، بَلْ نَرَاهَا صَفْحَةً إِلَهِيَّةً مُصَنَّفَةً أَبَدَ تَصْنِيفٍ وَأَدَقَّةً ، وَمِنْ وَرَاءِ تَأْلِيلِهَا تَفْسِيرٌ طَوِيلٌ لَا يَتَهَدَّى الْفِكْرُ الْبَشَرِيُّ لِأَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَصَحَّ وَلَا أَكْمَلَ ؛ فَقَدْ أَجْتَمَعَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ فِي إِنْسَانِهَا أَجْتِمَاعَ الْأَجْزَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ الرِّيَاضِيَّةِ : لَا يَبْغِي أَنْ تَزِيدَ أَوْ تَنْقُصَ ، إِذْ كَانَ فِي مَجْمُوعِهَا مَا وَجَدَ لَهُ مَجْمُوعُهَا .

وَيَكَادُ الْأَرْبَاطُ بَيْنَ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَكُونُ هُوَ بَعِينُهُ صُورَةٌ لِلْأَرْبَاطِ بَيْنَ أَجْزَاءِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الشَّرِيفَةِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مَوْضُوعٌ وَضْعًا لَا يَتِمُّ الْكُلُّ إِلَّا بِهِ ، حَتَّى لَا مَوْضِعَ فِيهَا لِفَلَةٍ أَوْ كَثْرَةٍ ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : «أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» [رواه أبو سعيد ابن السمعاني في «أدب الإملاء» من حديث ابن مسعود] ، وَأَنْتَ إِذَا دَقَّقْتَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَدْرَكْتَ مِنْ مَعْنَاتِهِ أَنَّ هُنَاكَ طَبِيعَةً أَخْلَاقِيَّةً مُفْرَدَةً تَجْرِي عَلَى قَانُونِهَا الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَهَا وَأَحْكَمَهَا بِهِ .

وَأَعْجَبُ مَا يُدْهَشُنَا مِنْ مَجْمُوعِ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّ فِيهَا دَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلْقَةً مُتَمَيِّزَةً بِنَفْسِهَا ، كَخَلْقَةِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي : نِظَامُهُ حَيَاتُهُ وَحَيَاتُهُ نِظَامُهُ ، وَكَأَنَّمَا أَعْرَتْهُ حَالَهُ نَفْسِيَّةٌ كَأَلَّتِي تَعْتَرِي الْقَلْبَ فِي اسْتِشْعَارِ الْخَطَرِ فَتُخْرِجُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ إِلَى أَقْوَى مِنْهَا ، فَلَا يَزَالُ يُمِدُّ أَعْضَاءَ الْجِسْمِ بِمَدَدٍ لَا يَنْقُذُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ ، يَجْعَلُ الْحَيَاةَ فِيهَا عَلَى أضعافِهَا كَأَنَّهَا حَيَاةٌ كَانَتْ مَخْبُوءَةً وَظَهَرَتْ بَغْتَةً ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَنْجَحُ غَرَائِزُ النَّفْسِ كُلُّهَا إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ بِمِيزَانٍ ، مَضْبُوطَةٌ بِقِيَاسٍ ؛ فَتَرْجِعُ عَلَى تَنَاقُضِهَا وَاخْتِلَافِهَا مُتَعَاوِنَةً يُؤَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَكَأَن قَانُونُهَا الطَّبِيعِيُّ أَنَّ تَجَادُبَ وَتَتَسَاقُطَ وَتُفَسِّرَ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا عَمَلِ الْأُخْرَى ، فَيَجِيءُ بِهَا الشَّيْءُ وَضِدُّهُ مَعًا : كَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ ، وَالطَّمَعِ وَالْقَنَاعَةِ ، وَالشَّهَوَاتِ الثَّائِرَةِ وَالْخُمُودِ السَّاكِنِ ، إِلَى آخِرِ مَا تَعُدُّ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِزِ ؛ وَلَكِنَّهَا فِي اسْتِشْعَارِ الْخَطَرِ تَكُونُ كَالْأَشْبَاهِ لَا كَالْأَضْدَادِ ، فَتُسَدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيَتِمُّمُ الْقَنَاضُ مِنْهَا نَقِضُهُ ، وَتَجْرِي كُلُّهَا فِي قَانُونٍ وَاحِدٍ : هُوَ الدَّفَاعُ بِأَجْزَائِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا ؛ فَتَرَى النَّازِعَ مِنْهَا وَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَقِرَّ فِي أَشَدِّ مِنَ الْقَنَدِ ، وَكَأَن فِيهِ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ .

وَهَلْ يُنَبِّئُكَ مَجْمُوعُ صِفَاتِهِ ﷺ إِلَّا أَنَّهُ يَعْيشُ مَعِيشَةَ الْقَلْبِ إِذَا اخْتَلَفَ مَا حَوْلَهُ وَفَجَأَتْهُ بَغَاتُ الوجودِ فَتَجَاوَزَ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِلْحَيَاةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْحَيَاةِ فِي مُتَّبِعِهَا ؟ وَتِلْكَ الْحَالَةُ - كَمَا مَرَّ بِكَ - تَجْعَلُ وجودَ الْإِنْسَانِ هُوَ وجودُ إِرَادَتِهِ وَعَقْلِهِ ، لَا وجودَ شَهَوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ ؛ وَكَذَلِكَ عَاشَ نَبِيُّنَا ﷺ ؛ فَهُوَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ فِي وجودِ إِرَادَتِهِ لَا غَيْرَهَا ، حَتَّى لَيْسَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ لِعِصْيَانِهِ أَوْ لَائِمَةٍ ، كَأَنَّهُ خُلِقَ تَشْدُّهُ نَبَّةٌ مُسْتَقِظَةٌ قَدْ نَبَّهَهَا مَا يُنَبِّهُ النَّفْسَ مِنَ الْغَرَرِ وَالْخَطَرِ . وَلَعَلَّ هَذَا الشُّعُورَ فِي نَفْسِهِ ﷺ هُوَ التَّفْسِيرُ لِقَوْلِهِ : « نَبَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » [رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ؛ والطبراني في « المعجم الكبير »] . إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِمَّا يَجْرِي فِي مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ ؛ يُرِيدُ بِهَا : أَنَّ نَبَّةَ الْمُؤْمِنِ لَا تَنْطَوِي إِلَّا عَلَى الْخَيْرِ الْكَامِلِ ، فَهُوَ - مَا دَامَتْ نَبَّتُهُ عَلَى صَلَاحِهَا وَسِرُّهُ عَلَى إِخْلَاصِهِ - لَا يَبْغُذُ الْيَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ يَسِيرًا ، وَلَا يَرَى الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ كَثِيرًا ؛ فَالْأَصْلُ الْقَائِمُ فِي تِلْكَ النَّبَّةِ الْمُؤْمِنَةِ أَلَّا يَبْدَأَ الشَّرُّ كَيْ لَا يُوجَدَ ، وَأَلَّا يَنْتَهِيَ الْخَيْرُ كَيْ لَا يَفْنَى ؛ فَالْمُؤْمِنُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ أَبَدًا ، فِي حِينِ أَنْ عَمَلَهُ بِطَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَتَنَاوَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ جَمِيعًا ، ثُمَّ

لَا يَكُونُ إِلَّا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا عَلَى نَقْصٍ وَأَضْطِرَابٍ وَالْيَوَاءِ .

وَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَأْتِيَ الْخَيْرَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ دَائِمًا أَنْ يَنْوِيَهُ وَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَعِزَّزَ عَلَيْهِ ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيرَهُ الطَّيِّبَ فِي كُلِّ مَا يَهُمُّ بِهِ ؛ وَيَخْصُرَ أَفْكَارَهُ فِي قَانُونِ نِيَّتِهِ الْمُؤْمِنَةِ . وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، لَا أَسَاسٌ مِنْ دُونِهِ .

وَالنِّيَّةُ مِنْ بَعْدِ هِيَ حَارِسُ الْعَمَلِ ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعَنَ وَأَنْ يَأْبَى ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ هَذِهِ النِّيَّةُ رَدًّا وَمُدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَأَسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ؛ فَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَتَى صَلَحَتْ كَانَتْ أَسْتِقْلَالًا تَامًا لِلْإِرَادَةِ ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُونُ الْمَبْدَأِ السَّامِيِّ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَأَسْتِقَامَتِهِ إِلَّا النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ ؛ فَالْتَرَوُّيُ وَالْتَلْبِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ مَيْسُورٌ فِي الْأَعْمَالِ ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي النِّيَّةِ إِذَا خُلِصَتْ .

وَهِيَ كَذَلِكَ ضَابِطٌ لِلْفَضَائِلِ تَوَجُّهُ الْقُلُوبِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا أَتَجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا يَبِينُ الْإِنْسَانَ وَالْإِنْسَانِ ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا يَبِينُ الْإِنْسَانَ وَبَيْنَ اللَّهِ .

وَأَشْوَاقُ الرُّوحِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي ، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمَسَ بِهِدِهِ عَلَى تِلْكَ ، وَأَنْ يُغْلَبَ الْحَيَوَانِيَّةُ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتْ النِّيَّةُ مُسْتَقِظَةً كَفَّنَتْهُ وَأَمَاتَتْ أَكْثَرَ نَزْعَاتِهِ ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنَهَايَةً ؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ النِّيَّةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي النَّفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ جِسْمِهِ ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ . . .

وَهِيَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ ، لَا يُزَائِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ ، وَلَا يُخْدَعُ مِنْ تَأْوِيلِ ، وَلَا يُغَرِّ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينِ ، وَلَا يُسْكِنُهُ مَا تَسْوُلُ النَّفْسُ ، وَلَا يَرَاوُلُ دَائِمًا يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ : إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تُنْظَمَ الْحَيَاةُ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرَكَ الْفُؤُضَى فِي قَلْبِكَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي النِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِقًا مَعَ ظَاهِرِهِ ،

فَتَعَاوَنَ الْغَرَائِزُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي النَّفْسِ تَعَاوَنًا سَهْلًا طَبِيعِيًّا مُطَرِّدًا ، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسُهُولَةٍ وَطَبِيعَةٍ .

* * *

وَكُلُّ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ - مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ - مَتَى اعْتَبِرْتَ بِذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ أَنْتَظَمَهَا جَمِيعًا ، فَجَاءَ بَعْضُهَا تَمَامًا عَلَى بَعْضٍ فِي نَسَقٍ رِيَاضِيٍّ عَجِيبٍ ، وَظَهَرَتْ حِكْمَةُ كُلِّ مِنْهَا وَاضِحَةً مَكْشُوفَةً ، وَرَأَيْتَهَا فِي مَجْمُوعِهَا تَصِفُ لَكَ عُمْرًا هَنْدَسِيًّا دَقِيقًا قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْكَمَالِ وَالرَّوْعَةِ وَالِدَقَّةِ ، لَا يُعَدُّ جُزْءٌ مِنْهُ جُزْءًا ، بَلْ كُلُّهُ أَجْزَاؤُهُ ، وَأَجْزَاؤُهُ كُلُّهُ ؛ كَالْوَضْعِ الْهَنْدَسِيِّ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكُلِّهِ ، وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَ فِيهِ الْهَنْدَسَةُ كُلُّهَا .

وَلَيْسَ مَجْمُوعُ تِلْكَ الصِّفَاتِ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا صَنْعَةُ الْإِنْسَانِ صَنْعَةً جَدِيدَةً تُخْرِجُهُ مَوْجُودًا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَتَكْسِرُ الْقَالَيبَ الْأَرْضِيَّةَ الَّذِي صُبَّ فِيهِ وَتَفْرِغُهُ فِي مِثْلِ قَالِبٍ أُنْكَوْنِ ، فَإِذَا هُوَ غَيْرُ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّبِيقِ الْمُنْحَصِرِ فِي جِسْمِهِ وَدَوَاعِي جِسْمِهِ ، فَلَا تُخْضِعُهُ الْمَادَّةُ ، وَلَا يُؤْتَمِرُ مِنْ سُوءِ نَظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَعْرِهُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُمَسِّكُهُ الزَّمَانُ ؛ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ صِفَاتِ الْمُسْتَعْبِدِ بِأَهْوَائِهِ لَا الْخَرِّ فِيهَا ، وَالْخَاضِعِ بِنَفْسِهِ لَا الْمُسْتَقِلِّ بِهَا ، وَالْمَقْبُورِ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ لَا الْحَيِّ فَوْقَ إِنْسَانِيَّتِهِ ؛ وَمِثْلُ هَذَا الْمُسْتَعْبِدِ الْخَاضِعِ الْمَقْبُورِ لَا وُجُودَ لَهُ إِلَّا فِي حُكْمِ حَوَاسِهِ ، فَعَمَلُهُ مَا يَعِيشُ بِهِ لَا مَا يَعِيشُ مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَيَتَّصِلُ بِكُلِّ شَيْءٍ اتِّصَالًا مَبْنُورًا يَنْتَهِي فِي هَوَىٍّ مِنْ أَهْوَاءِ الْحَيَوَانِ الَّذِي فِيهِ .

وَمِنْ الْمُقَابِلَةِ الْعَجِيبَةِ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِنْسَانِ الْاجْتِمَاعِيَّ حَيَوَانًا ، تُقَابِلُهُ الْحِكْمَةُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَلْيَفِ بِإِنْسَانٍ ، وَحُكْمُهُمَا وَاحِدٌ وَمَنْطَقُهُمَا لَا يَخْتَلِفُ . فَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ حَيَوَانَ الْأَعْصَابِ عَنْ صَاحِبِهِ الْإِنْسَانِ لَقَالَ لَكَ : هُوَ غَلَتْنِي وَمَزَّرَعَنِي . وَلَوْ سَأَلْتَ كَلْبًا عَنْ حُبِّهِ صَاحِبِهِ وَمَبْلَغِ هَذَا الْحُبِّ فِي نَفْسِهِ لَمَا زَادَ فِي جَوَابِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّهُ حُبَّ اللَّفْمَةِ وَالْعَظْمَةِ ...

وَمَتَى كَانَ الْإِنْسَانُ فِي حُكْمِ حَوَاسِهِ لَمْ تَعُدِ الْأَشْيَاءُ عِنْدَهُ كَمَا هِيَ فِي نَفْسِهَا بِمَعَانِيهَا الطَّبِيعِيَّةِ الْمَخْدُودَةِ ، وَانْقَلَبَتْ كَمَا هِيَ فِي وَهْمِهِ بِمَعَانٍ مُتَفَاوِتَةٍ مُضْطَرِبَةٍ ، فَلَا يَشْعُرُ الْمَرْءُ بِاتِّخِلَافِ الْوُجُودِ وَتَعَاوُنِهِ ، وَلَكِنْ بِاخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ ، فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ أَسْبَابُ اللَّذَّةِ إِلَّا

مِنْ أَسْبَابِ الْأَلَمِ ، وَبَدْخُلُ فِي كُلِّ حُبِّ بُغْضٍ ، وَفِي كُلِّ رَغْبَةٍ طَمَعٍ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ شَرٍّ ، وَفِي كُلِّ صَرِيحٍ خَبِيءٍ ، وَهَلُمَّ جَرًّا ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَتَى غَلَبَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلَا بُدَّ مِنْ كُلِّ هَذَا فِي تَمَثُّلِ رِوَايَةِ الْحَوَاسِّ الْخَادِعَةِ الَّتِي أَسَاسُهَا التَّغْيِيرُ وَالتَّقَلُّبُ ، حَتَّى لَكَانَ النَّفْسُ إِنَّمَا تَعِيشُ بِهَا فِي ظَاهِرٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا .

وَهَذَا الْخِدَاعُ جَاعِلٌ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ النَّفْسِ لَا يَبْدَأُ إِلَّا لِتَنْتَهِي ، ثُمَّ لَا يَنْتَهِي إِلَّا لِيَبْدَأَ ؛ فَمَا تَرَأَى هَذِهِ النَّفْسُ طَامِعَةً فِيمَا لَا تَنَالُهُ ، وَلَا يَرَأَى مِنْ ذَلِكَ مُصَدَّرٌ لِأَمَانِهَا الْحَسِيَّةِ ؛ ثُمَّ إِذَا هِيَ نَالَتْ مَنَالَهَا سَمِمَتْ ، فَلَا يَرَأَى مِنْ ذَلِكَ مُصَدَّرٌ آخَرَ لِأَمَانِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ . وَلَنْ يَجِيءَ الصَّحِيحُ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ ؛ فَالْكُونُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِبًا فِي النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا .

وَلِذَا كَانَ أَحْصَى أَوْصَافِهِ ﷺ رَاجِعًا إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ ، فَلَا يَغْضَبُ لَهَا ، وَلَا يُطْلَقُهَا مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا تَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ ، وَلَا يُحِبُّ فِيهَا ، وَلَا يُبْغِضُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَا يُهَاجِرُهَا ، وَلَا يَسْتَلِينُ لَهَا فِي مَأْكَلٍ وَلَا مَلْبَسٍ ، وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَخْزَانُهَا ، وَأَمَالُهَا أَشْوَاقُهَا ، وَأَمْلَاكُهَا أَعْمَالُهَا ، وَحَسَابُهَا فِي طَبِيعَتِهَا ، وَحَوَادِثُهَا مِنَ الْعَقْلِ لَا مِنَ الْحَوَاسِّ ، وَعَظَمَتُهَا إِثْبَاتُ ذَاتِهَا فِي غَيْرِهَا ، لَا إِثْبَاتُ غَيْرِهَا فِي ذَاتِهَا ؛ وَغَايَتُهَا فِي الْبَاقِي لَا الْزَائِلِ ، وَفِي الْخَالِدِ لَا الْفَانِي . وَمَا دَامَ الْحَاضِرُ مُتَحَرِّكًا فَهُوَ طَارِيٌّ عَابِرٌ أَوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا زَوَالًا ، وَالْعَمَلُ لَهُ عَلَى مِقْدَارِهِ فِي قَلَّةِ لُبِّهِ وَهَوَانِ أَمْرِهِ ، وَالْأَهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لَا بِهِ .

فَأَوَّلُ النَّفْسِ النَّيَّةِ الْعَامِلَةِ لِأَخْرِتِهَا ، وَآخِرُ النَّفْسِ مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هَذِهِ النَّيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِي إِنْسَانِ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخِرِ ؛ وَبِهَذَا يُقَدَّرُ صَفَتُهُ وَكَلَامُهُ ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ ، وَمَا يَأْتِي وَمَا يَدْعُ ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ الْأَعْتِبَارِ إِنَّمَا هُوَ صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ .

وَجَمَاعُ الْأَمْرِ أَلَّا يَكُونَ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عَلَامَةً اسْتِهْزَاءٍ بِجَانِبِ مَا ضِيءِهِ ، وَلَا عَلَامَةً اسْتِفْهَامٍ ، وَلَا عَلَامَةً انْكَارٍ .

وَتَذُلُّ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِاجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُفِهَا عَلَى حَقِيقَةِ عُظُمَى لَمْ يَتَّبِعْهَا أَحَدٌ ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خَصَائِصِهِ النَّفْسِيَّةِ مُرَهَفَةٌ مُتَقَيِّظَةٌ ، وَهَذَا مِمَّا يَنْدُرُ وَقُوعُهُ وَإِمْكَانُهُ ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ النَّاسِ لَيَكُونُ حَيًّا بِالْحَيَاةِ ، وَلَكِنَّ جَوَانِبَ كَثِيرَةً مِنْ نَفْسِهِ قَدْ طَاحَ بِهَا الْمَوْتُ ، أَوْ هِيَ مَرِيضَةٌ وَذَلِكَ أَوَّلُ الْمَوْتِ ؛ أَوْ غَافِلَةٌ وَذَلِكَ سِنَةُ الْمَوْتِ ؛ أَمَّا الْحَيُّ الْعَظِيمُ فَهُوَ الَّذِي يَحْيَا بِأَكْثَرِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ ، وَأَمَّا الْحَيُّ الْأَعْظَمُ فَهُوَ الَّذِي يَحْيَا بِجَمِيعِ خَصَائِصِهَا ، تَمْلُؤُهُ الْحَيَاةُ فَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ ، وَيَتَمَدَّدُ السُّرُّ فِيهِ لِيُرِيَهُ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ وَيَهْدِيَهُ وَيَذَلُّهُ ، فَيَكُونُ بِنَفْسِهِ رُؤْيَا لِلنَّاسِ وَهِدَايَةً وَدَلَالَةً ؛ وَمِثْلُ هَذَا يَعْظُمُ ثُمَّ يَنْظُمُ حَتَّى لَيَرَى الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ نُورٍ لَيْسَ اللَّحْمُ وَالْدَّمُ ، وَبَيْنَ تُرَابٍ لَيْسَ الدَّمُ وَاللَّحْمُ .

وَذَلِكَ لَا يَكَادُ يَتَّفِقُ إِلَّا فِي مَرَاتِبَ أَعْلَاهَا الْأَمْتِيَارُ فِي الثُّبُوتِ ، ثُمَّ { تَذَنُّوْا إِلَى } الثُّبُوتِ ؛ ثُمَّ تَنْزِلُ إِلَى الْأَمْتِيَارِ فِي الْحِكْمَةِ ؛ ثُمَّ تَهَيِّطُ إِلَى عَبَقَرِيَّةِ الشَّعْرِ . فَأَكْبَرُ الشُّعْرَاءِ قَاطِبَةُ كَالنَّبِيِّ فِي مَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ نَبِيٌّ صَغِيرٌ ، وَإِلَّا أَنَّهُ فِي حُدُودِ قَلْبِهِ .

وَهَذِهِ الْقُوَى الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي أَبْدَعَتْهَا الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِتُخَوِّلَ الْحَيَاةَ وَالسُّمُوَّ بِهَا ؛ فَالشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي الْجَمَالَ إِذَا تَأَلَّهَ الْجَمَالَ فِي قَلْبِهِ ، وَالْحَكِيمُ يَسْتَوْحِي الْحَقِيقَةَ إِذَا تَأَلَّهَتْ فِي نَفْسِهِ ، وَالنَّبِيُّ يَسْتَوْحِي الْأُلُوْهِيَّةَ نَفْسَهَا .

* * *

« كَانَ ﷺ مُوَاصِلَ الْأَحْزَانِ » وَلَكِنَّهَا أَحْزَانُ الثُّبُوتِ تَخْسُو الْحَيَاةَ فَرَحَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ ؛ وَهُوَ فَرَحُ كُلِّ حُزْنٍ وَتَأَمُّلٍ ، وَفِكْرَةٍ وَخُشُوعٍ ، وَطَهْرٍ وَفَضِيلَةٍ ؛ وَمَا فَرَحَ أَعْظَمُ الشُّعْرَاءِ بِطَرَبِ الْوُجُودِ وَجَمَالِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ مِنْ حُزْنِ النَّبِيِّ .

« وَكَانَ دَائِمَ الْفِكْرَةِ لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ » إِذْ هُوَ مُكَلَّفٌ أَنْ يَصْنَعَ الْإِنْسَانَ الْجَدِيدَ وَيُنْقَحَ الْأَدَمِيَّةَ فِيهِ . وَفِكْرَةُ النَّبِيِّ هِيَ مَعِيشَتُهُ بِنَفْسِهِ مَعَ الْحَقَائِقِ الْعُلْيَا ، إِذْ لَا يَرَى أَكْثَرَهَا تَعِيشُ فِي النَّاسِ ، وَهِيَ الْفَرْدِيَّةُ وَاسْتِقْلَالُهَا وَسُمُومُهَا لِأَنَّهَا إِطَاقَةُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ لَوْحَدِثِهَا ، بِخِلَافِ الْأَنْفُسِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تُطِيقُهَا ، فَدَأَّبَهَا أَبَدًا أَنْ تَبْحَثَ عَمَّا تَسْتَعِيدُ لَهُ ، أَوْ تَسْئَلُ ذَاتَهَا فِيهِ ، أَوْ تَسْتَرِنِحَ إِلَيْهِ مِنْ ذَاتِهَا . وَمَتَى كَانَتْ النَّفْسُ فَارِغَةً كَانَ تَفَكُّيرُهَا مُضَاعَفَةً لِفَرَاغِهَا ، فَهِيَ تَقِرُّ مِنْهُ إِلَى مَا يُلْهِيُهَا عَنْهُ ؛ وَلَكِنَّ الْعَظِيمَ يَعِيشُ فِي أَمْنٍ لِنَفْسِهِ ؛ وَعَالَمُهُ

الِدَاخِلِي تَسْمِيهِ اَللُّغَةُ اَخْيَانًا : اَلْفِكْرَةُ ؛ وَتَسْمِيهِ اَخْيَانًا : اَلصَّنْت .

« وَكَانَ ﷺ طَوِيلَ السَّكْتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ » ، وَمِنْ اَلصَّنْتِ اَنْوَاعٌ : فَتَوَعُّ يُكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ اَلْفَهْمِ بَيْنَ اَلْمَرْءِ وَبَيْنَ اَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ ؛ وَتَوَعُّ يَغْشَى اَلْاِنْسَانَ اَلْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السِّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ اَلْعَظِيمَةِ ؛ وَتَوَعُّ ثَالِثٌ يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ اَلْحُكْمِ عَلَى صَنْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ ؛ وَتَوَعُّ رَابِعٌ هُوَ كَالْفَضْلِ بَيْنَ اَعْمَالِ اَلْجَسَدِ وَبَيْنَ اَلرُّوحِ فِي سَاعَةِ اَعْمَالِهَا ؛ وَتَوَعُّ خَامِسٌ يَكُونُ صَمْتًا عَلَى دَوِي تَحْتَهُ يُسْمِيهِ نَوْمًا سَاكِئًا عَلَى اَخْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ .

* * *

عَلَى هَذَا اَلتَّمَطِ يَجِبُ اَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ اَوْصَافِهِ ﷺ ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَابَعٌ اِلٰهِيٌّ عَلَى حَيَاتِهِ اَلشَّرِيفَةِ ، يُنْبِئُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بُرْهَانَاتِ^(١) اَلْعِلْمِ وَاَلْفَلَسَفَةِ اَنَّهُ اَلْاِنْسَانُ اَلْأَفْضَلُ ، وَاَنَّهُ اَلْأَقْدَرُ ، وَاَنَّهُ اَلْأَقْوَى .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) فِي اَلْأَصْلِ : « بُرَاهِين » بَدَلًا مِنْ : « بُرْهَانَاتِ » .

سُمُو الْفَقْرِ
فِي الْمُضْلِحِ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْأَعْظَمِ (*)

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا يَصِفُ التَّارِيخُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ
الْإِسْتِغْنَاءِ ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْفَقْرِ ، وَلَا تَنَالُهُ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَغْلُو
بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْزِلُ بِعَرَضٍ ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُخْذِثُ هَذَا فِي الْحَيَاةِ فَيُرَمِّمَهَا الْمَالُ ،
وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَعْيٍ يُنْفِقُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ
الْبُعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي الْحَسْبَةِ وَالتَّنْذِيرِ لِتَذَرَّ
مَعِيشَتُهُ فَيَخْتَلِبَهَا ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً ، وَلَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمُ مَا يَجْعَلُ لِلدُّنْيَا مَعْنَى الدُّنْيَا
وَلَا لِلدُّرْهِمِ مَعْنَى الدُّرْهِمِ ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْحَيَّ لِهَذَا الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ النَّفْسِ رَابِيَةً مُتَجَسِّمَةً
فِي صُورَةٍ تَكْبُرُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى ؛ وَالْمَعْنَى الْحَيَّ لِلْفَقْرِ مِنَ الْمَالِ هُوَ إِبْرَارُ النَّفْسِ
صَنِيلَةً مُزَوَّيَةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الضِّيقِ وَالْعُسْرَةِ .

إِنَّ فَقْرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَسَّعُ فِي الْكَوْنِ لَا فِي الْمَالِ ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى
الَّتِي لَمْ يَنْبَغِ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنَ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ تَذَرَّتُهُ رَأْيَتُهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجَزَةٌ
تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَهَا ؛ مُعْجَزَةٌ فِيهَا الْحَقَائِقُ النَّفْسِيَّةُ وَالْأَجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى ، وَقَدْ سَبَقَتْ
زَمَنَهَا بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا ، وَهِيَ الْيَوْمَ تُثَبِّتُ بِالْبُرْهَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ : « إِنَّمَا أَنَا
رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ » . [أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » ؛ « المستدرک » للحاكم ، رقم : ١٠٠ / ١٠٠] .

نَحْنُ فِي عَصْرِ تَكَادُ الْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلْحَقُ بِالْأَلْفَاظِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى
مَا كَانَ قَدِيمًا . . . بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ الشُّعْرِ تُرَادُّ لِتَحْرِينِكَ السَّيِّئِ الْغُلُوبِيِّ الرَّائِدِ فِي
الْحَيَالِ ، كَمَا تَقُولُ : السَّحَابُ الْأَزْرَقُ ، وَالْفَجَرُ الْأَبْيَضُ ، وَالشَّفَقُ الْأَحْمَرُ ،

وَالَّتَطَارِيفُ الْوَرْدِيَّةُ عَلَى ذَنبِ الشَّمْسِ . وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَعْيُنٍ فِيهَا مَعْنَى وَخْشِي لَوْ لِمَسَ لَضَرْبَ أَوْ طَعَنَ أَوْ ذَبَحَ .

وَعَمِلَتِ الْمَدَنِيَّةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَرُدْ عَلَى أَنْ أَخْرَجَتِ الشَّكْلَ الشَّعْرِيَّ لِإِنْسَانِهَا الْفَنِّيِّ مُتَهَافِنًا تَرَفًا^(١) ، وَنِعْمَةً ، وَافْتِنَانًا بَيْنَ ذَلِكَ ، مِنْ أَيْسَرِ الْحَلَالِ إِلَى الْفَطْنِ الْمُتَفَاحِشِ فِي الْإِبَاحَةِ ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتِ الْمَدَنِيَّةُ عَقْلًا فِي وَخْشٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ زَاغَتْ^(٢) فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِالشَّكْلِ الْوَحْشِيِّ لِإِنْسَانِهَا الْفَقِيرِ ، فَكَأَنَّمَا تَزَعَّتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ^(٣) فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ ؛ وَكَانَ مَعَ الْأَوَّلِ سَرَفُ الْهَوَى { بِالطَّبِيعَةِ } ، وَكَانَ مَعَ الثَّانِي { بِالطَّبِيعَةِ } سَرَفُ الْحَمَاقَةِ .

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهَكُّمِ الْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي الْمَدَنِيَّةِ عَمَلُ الْعَنَى لِلْأَغْنِيَاءِ . . . وَأَنْ يَكُونَ الْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الْمَدَنِيَّةِ هُوَ صِنْعَةُ الْفَقْرِ لِضَمِيرِهِ !

وَخَرَجَتْ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَسَائِلُ جَدِيدَةٌ فِي فَلَسَفَةِ الْمُعَايِشَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُسْمُونَهَا « الْأَجْتِمَاعَ » ؛ فَسُؤَالُ اسْمُهُ « الْأَشْتِرَاكِيَّةُ » ، يَسْأَلُ الْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ صَاحِبَ الْمَالِ مِنْ مَالِهِ كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ رَجُلِهَا . . . وَسُؤَالُ اسْمُهُ « الشُّيُوعِيَّةُ » ، يَطْلُبُ مِنَ الْقُوَّةِ أَنْ تُسَلِّطَ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مَا يَجْعَلُهُ فِي قُوَاهُ كَصَاحِبِ الدَّارِ سُلْطَةً عَلَيْهِ الطُّغْيَانُ فَانْقَلَبَتْ دَارُهُ سِجْنَهُ ، فَهُوَ يَتَأَلَّمُ مِنْ مَعْنَى نِعْمَتِهِ بِمَعْنَى شِقَاؤِهِ ، وَيَكُونُ أَغْيَظَ لَهُ أَنَّ رُوحَ السَّجْنِ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ رُوحِ الْبَيْتِ ؛ وَسُؤَالُ اسْمُهُ « الْعَدَمِيَّةُ »^(٤) ، يَأْمُرُ الْقُوَّةَ أَنْ تَجْعَلَ الْإِنْسَانَ كَالْحَيَوَانِ الْمُسْتَرْغِ فِيمَا يَجِدُهُ مِنْ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ : لَا يُبَالِي دَمًا وَلَا عَارًا ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنَّهُ يُعِيشُ لِيَمُوتَ أَكْلًا وَنَوْمًا . . .

هَذَا إِلَى أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ ذَهَبْنَا نَعُدُّهَا وَنَصِفُهَا لَطَالَ بِنَا الْقَوْلُ ، وَكُلُّهَا عَامِلَةٌ عَلَى نَزْعِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « لِإِنْسَانِهَا الْغَنِيُّ تَرَفًا » بَدَلًا مِنْ : « لِإِنْسَانِهَا الْغَنِيُّ مُتَهَافِنًا تَرَفًا » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَرَاغَتْ » بَدَلًا مِنْ : « وَقَدْ زَاغَتْ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « فَضَلَّتْ » بَدَلًا مِنْ : « فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ » .

(٤) الْفُضُوءِيَّةُ وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ طَيِّبٍ الْتُرْعَةُ { الْإِنْسَانِيَّةُ } .

الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ لِتَظْهَرَ أَسْخَفَ مِمَّا هِيَ ، وَأَفْجَحَ مِمَّا كَانَتْ ؛ حَتَّى أَصْبَحَتْ
الْشَّمْسُ { تَطْلُعُ } تَمْحُو لَيْلًا عَنِ الْمَادَّةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَنِ النَّفْسِ ، فِي حِينِ أَنَّ الدِّينَ
وَالْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَغْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَذَا النُّورِ الْعَقْلِيِّ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي لِتَظْهَرَ الْحَيَاةُ مُضِيئَةً
مُتَمِيعَةً ، فَتُصْبِحُ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي الطَّبِيعَةِ .

فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّرَعَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ الَّتِي صَعِدَتْ بِالْفَلَسَفَةِ وَتَرَكَتْ ، وَجَعَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي
صَدْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِلءَ سَمَاءٍ مِنَ الْغُيُومِ بِسَوَادِهَا وَرَعْدِهَا وَصَوَاعِقِهَا ، وَتَرَكَتْ الْعَالَمَ يَضْجُ
ضَجِيجَهُ الْمُرْعَجِ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّى لَتَذَاعُ الْهُمُومُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ إِذَاعَةَ الْأَصْوَاتِ إِلَى
أَسْمَاعِهِمْ فِي « الرَّادِو » . . . فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ الْمَاحِقِ تَلَفَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ
تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَدِيمِ تَطْبُ مِنْهُ لِهَيْدِهِ الْحَمَاقَاتِ الْجَدِيدَةِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ
لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ ، الَّذِي لَنْ يَبْلُغَ
أَحَدٌ فِي وَصْفِهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ مَا بَلَغَ هُوَ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ » .

* * *

هَذَا الْمُصْلِحُ الْأَجْتِمَاعِيُّ الْأَعْظَمُ يُلْقِي فَقْرَهُ الْيَوْمَ دَرْسًا عَلَى الدُّنْيَا الْعِلْمِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ ،
لَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا فِكْرٍ ، وَلَكِنْ بِأَخْلَاقِهِ وَعَمَلِهِ وَسِيرَتِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ الْمُصْلِحُ مَنْ فَكَّرَ وَكَتَبَ ،
وَوَعظَ وَخَطَبَ ، وَلَكِنَّهُ الْحَيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي تَلْتَمِسُهُ الْفِكْرَةُ الْعَظِيمَةُ لِتَحْيَا فِيهِ ، وَتَجْعَلَ لَهُ عُمَرًا
ذَهَبِيًّا يَكُونُ مُصَرِّفًا عَلَى حُكْمِهَا ، فَيَكُونُ تَارِيخُهُ وَوَصْفُهُ هُوَ وَصَفُ هَذِهِ الْفِكْرَةِ وَتَارِيخِهَا .

وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا عُمَرًا ذَهَبِيًّا مَخْضًا ، تَمُرُّ فِيهِ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةُ لِتَظْهَرَ لِلنَّاسِ
إِلَهِيَّةً مُفَسَّرَةً . وَكُلُّ حَيَاتِهِ ﷺ دُرُوسٌ مُفْتَنَةٌ مُخْتَلِفَةٌ الْمَعَانِي ، وَلَكِنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا تَخَاطَبُ
الْإِنْسَانَ عَلَى الدَّهْرِ بِهَيْدِهِ الْجُمْلَةِ : أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ،
أَيُّ : إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الْكُذْبِ ، وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي الرُّجُولَةِ
الْبَصِيرَةِ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ فِي الطُّفُولَةِ الْتَرَفَةِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَعْرِفُ وَيُذَرِّكُ ، فَهُوَ بِذَلِكَ وَرَاءَ
الْحَقِيقَةِ ؛ وَلَكِنَّ الطُّفَلَ يَجْهَلُ وَلَا يَعْرِفُ الدُّنْيَا إِلَّا بِعَيْنَيْهِ ، فَهُوَ وَرَاءَ أَلْوَهَمِ ، وَمِنْ ثَمَّ
طَبِئُهُ وَتَرَفُهُ ، وَإِثْبَارُهُ كُلَّ عَاجِلٍ وَإِنْ قَلَّ ، وَعَمَلُهُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ التَّنَسُّيَةُ الضَّئِيلَةُ فِي مِثْلِ
تَوَثُّبِ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ ، حَتَّى كَانَهُ أَبَدًا يَلْعَبُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا . . .

أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ ، أَيْ : الْحَيَاةُ فِي ذَاتِكَ الدَّاخِلِيَّةِ وَقَانُونِ كَمَالِهَا ، فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخْرِجَ لِلْأَرْضِ مَعْنَى سَمَاقًا مِنْ ذَاتِكَ فَهَذَا هُوَ الْجَدِيدُ دَائِمًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْقَرِيبِ الْقَرِيبِ مِنَ الرُّوحِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ إِلَهِيٌّ ؛ وَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ وَعِشْتَ فِي دَمِكَ وَأَعْصَابِكَ فَهَذَا هُوَ الْقَدِيمُ دَائِمًا فِي الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَأَنْتَ بِذَلِكَ عَائِشٌ فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ مِنَ النَّفْسِ ، وَأَنْتَ بِهِ شَيْءٌ أَرْضِيٌّ كَالْحَجَرِ وَالْتَرَابِ .

هُنَا ، أَيْ : فِي الْإِرَادَةِ الَّتِي فِيكَ وَحْدَكَ . وَلَا هُنَاكَ ، أَيْ : فِي الْخَيَالِ الَّذِي هُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَهُنَا ، فِي أَخْلَاقِكَ وَفَضَائِلِكَ الَّتِي لَا تَذْفَعُكَ إِلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ بَعِيْنَهُ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْهِدَايَةِ وَالْحِكْمَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ ، فِي أَمْوَالِكَ وَمَعَاشِكَ الَّتِي تَجْعَلُكَ كَاللِّصِّ مُنْذِفًا إِلَى كُلِّ طَرِيقٍ مَتَى كَانَ هُوَ بَعِيْنَهُ طَرِيقًا إِلَى نَهْبَةٍ أَوْ سَرِقَةٍ . هُنَا ، فِي الرُّوحِ ، إِذْ تَشْعُرُ الرُّوحُ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ، ثُمَّ تَعْمَلُ لِتُنْبِتَ أَنَّهَا شَاعِرَةٌ بِوُجُودِهَا ، مَاضِيَةً إِلَى مَصِيرِهَا ، مُنْتَهِيَةً بِجَسَدِهَا إِلَى الْمَوْتِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى سَنَةِ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ فِي الْحِسِّ ، إِذْ يَتَعَلَّقُ الْحِسُّ بِمَا يَتَقَلَّبُ عَلَى الْجِسْمِ ، فَهُوَ مُهْتَاجٌ لِشُعُورِهِ بِوَشْكِ فَنَائِهِ ، فَلَا يُخْبِرُ إِلَّا الْأَلَمَ إِنْ نَالَ أَوْ لَمْ يَنْلِ ، وَهُوَ مُنْتَهٍ بِجِسْمِهِ إِلَى الْمَوْتِ الْحَيَوَانِيِّ بَيْنَ أَكْلِ وَمَاكُولٍ عَلَى سَنَةِ الطَّبِيعَةِ الْفَانِيَةِ .

أَيُّهَا الْحَيُّ ! إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ هُنَا فَلَا تَكُنْ أَنْتَ هُنَاكَ .

* * *

إِنَّ الْحَكِيمَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَشْيَاءِ فَيَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهَا ، لَا تَكُونُ لَهُ حَيَاةُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِظَاهِرِهَا وَلَا أَخْلَاقُهُ وَلَا نَظَرَتُهُ ؛ هَذَا الْأَخِيرُ هُوَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مَظْهَرُ الْمَادَّةِ وَخِدَاغُهَا عَنِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَذَلِكَ الْأَوَّلُ هُوَ نَفْسُهُ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ لَهُ رَوْعَةٌ أَسْرَى وَكَشْفُهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ . وَلِهَذَا كَانَ فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ مَا لَا يُطِيقُهُ النَّاسُ وَلَا يَضْبِطُونَهُ إِذَا تَكَلَّفُوهُ ، بَلْ يَنْخَرِقُ عَلَيْهِمْ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَجْزُ الْغَلَطُ ، وَيَخْذُلُ مِنَ الْغَلَطِ الزَّلَلُ .

وَنَظَرُهُ نَبِيًّا ﷺ إِلَى هَذَا الْوُجُودِ نَظَرَةً شَامِلَةً مُدْرِكَةً لِحَقِيقَةِ اللَّائِنِيَّةِ ، فَيَرَى بِدَايَةِ كُلِّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ هِيَ نِهَائِيَّتُهُ فِي النَّوْ وَاللَّحْظَةِ ، فَلَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا عَارِضًا مَارًّا ، فَهُوَ فِي اعْتِبَارِهِ مَوْجُودٌ غَيْرُ مَوْجُودٍ ، مُبْتَدِئٌ مُنْتَهٍ مَعَ ؛ وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ عَنْدَهُ الْأَشْيَاءُ الْمَادِّيَّةُ وَتَأْتِيْهَا ، فَلَا

تَصِلُ بِنَفْسِهِ الْعَالِيَةِ إِلَّا مِنْ أضعَفِ جِهَاتِهَا ، وَيَجِدُ لَهَا النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمُ الشَّجَرَةَ وَالْفَرْعَ وَالشَّمْرَةَ ، وَمَا لَهَا عِنْدَهُ هُوَ جَذْرٌ وَلَا فَرْعٌ ؛ وَبِهَذَا لَمْ يَفْتِنَهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ .

وَكَانَتْ الدُّنْيَا تَطُولُ النَّاسَ وَتَتَقَصَّرُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ مُنْقَطِعَةً النَّمَاءِ وَهُوَ ذَاهِبٌ فِي نُمُوهِ الرُّوحِيِّ ، وَكَأَنَّمَا هُوَ صُورَةٌ أُخْرَى مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَكِلَاهُمَا لَمَسَ بِنَفْسِهِ الْحَيَاةَ جَدِيدَةً خَالِيَةً مِمَّا جَمَعَ فِيهَا الزَّمَنُ وَأَهْلُهُ مِنْ طَمَعٍ وَشَرٍّ ، وَجَاءَ آدَمُ لِيُعْطِيَ الْأَرْضَ نَاسَهَا مِنْ صُلْبِهِ ، وَجَاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ النَّاسَ قَوَائِنَهُمْ مِنْ فَضَائِلِهِ ؛ فَأَدَمُ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِيَتَسَّعَ ، وَمُحَمَّدٌ بِشَخْصِهِ هُوَ دُنْيَا بُعِثَتْ لِيَتَنَظَّمَ .

وَمَاذَا يُفْهَمُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ؟ يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ الشَّهَوَاتِ خُلِقَتْ مَعَ الْإِنْسَانِ تَحْكُمُ فِيهِ ، لِيَتَغَلَّبَ بِهَا إِنْسَانًا يَتَحَكَّمُ فِيهَا ؛ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ الصَّحِيحَ الَّذِي لَمْ تَزُورْهُ الدُّنْيَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَا رُوحٍ يَمْتَدُّ فَيَفِيضُ عَنْ غَايَاتِ جِسْمِهِ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى فَأَعْلَى حَتَّى يُصْبِحَ فِي حُكْمِ الثُّورِ وَأَنْطِلَاقِهِ وَخُرَيْتِهِ ، وَلَا يَتَكَمَّشُ فَيَحْصُرُهُ جِسْمُهُ فِي غَايَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ فَيَرْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ أَسْفَلَ أَسْفَلَ حَتَّى يَعُودَ فِي حُكْمِ التُّرَابِ وَأَسْرِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ . قَالَفَقْرٌ وَمَا إِلَيْهِ ، وَالزُّهْدُ { وَمَا } هُوَ بِسَبِيلٍ مِنْهُ ، وَالْإِنْصِرَافُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذَائِلِ - كُلُّ ذَلِكَ إِنْ هُوَ إِلَّا تَرَاجُعُ النَّفْسِ الْعَالِيَةِ إِلَى ذَاتِهَا الثُّورَانِيَّةِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَشَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، لِيُضِيءَ عَلَى الْمَادَّةِ فَتُكْشَفَ حَقَائِقُهَا الصَّرِيحَةُ فَلَا تُبَالِيهَا وَلَا تَفْنِيَهَا وَزَنَا . فَبَيْنَمَا النَّاسُ يَرَوْنَ الْأَمْوَالَ وَالشَّهَوَاتِ مَادَّةَ حَيَاةٍ وَعَمَلٍ وَشُعُورٍ ، تَرَاهَا هِيَ مَادَّةٌ بِخُبٍّ وَمَعْرِفَةٍ وَأَعْتِيَارٍ لَيْسَ غَيْرُ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ النَّفْسُ الْعَظِيمَةُ فِي الدُّنْيَا كَأُسْتَاذِ الْمَعْمَلِ : تَدْخُلُ الْمَادَّةَ إِلَى مَعْمَلِهِ وَهِيَ مَادَّةٌ وَفِكْرَةٌ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ وَهِيَ حَقِيقَةٌ وَمَعْرِفَةٌ ، وَعَلَى أَيْ أَحْوَالِهَا فَهِيَ إِنَّمَا تُحْسَنُ فِي ذَلِكَ الْمَعْمَلِ بِأَصَابِعِ عِلْمِيَّةٍ دَقِيقَةٍ لَيْسَ فِيهَا الْجَمْعُ وَلَا الْحِرْصُ ، وَلَكِنْ فِيهَا الذَّهْنُ وَالْفِكْرُ ؛ وَلَيْسَ لَهَا طَبِيعَةُ الرَّغْبَةِ وَالْغَفْلَةِ ، وَلَكِنْ طَبِيعَةُ الْإِنْتِبَاهِ وَالنَّحْزُرِ ، وَلَيْسَتْ فِي أَسْرِ الْمَادَّةِ ، وَلَكِنْ الْمَادَّةُ فِي أَسْرِهَا مَا شَاءَتْ .

وَلَا يُسَمَّى فَقْرُهُ ﷺ زُهْدًا كَمَا يَظُنُّ الضُّعَفَاءُ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُونَ عَلَى ظَاهِرِ التَّارِيخِ ، وَلَا يُحَقِّقُونَ أَصُولَهُ التَّنْفِيسِيَّةَ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ يَقْرَأُ التَّارِيخَ النَّبَوِيَّ بِأَرْوَاحٍ مُظْلِمَةٍ تُرِيهِمُ مَا تُرِي الْعَيْنُ إِذَا مَا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ وَلَيْسَ الْأَشْيَاءَ قَرَأَتْ مُجْمَلَةً لَا تَفْصِيلَ لَهَا ، مُفْرَعَةً لَا تَبْيِينَ فِيهَا ؛

وَمَا بِهَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرَأَى فِي بَقِيَّةِ مِنَ الْبَصَرِ لَا تَعْمُرُهَا .

وَهَلِ الزُّهْدُ إِلَّا أَنْ تَطْرُدَ الْجِسْمَ عَنْكَ وَهُوَ مَعَكَ ، وَتَنْصَرِفَ عَنْهُ وَهُوَ بِكَ مُتَعَلِّقٌ ؟
فَإِنَّكَ سُخْرِيَّةٌ وَمُثَلَّةٌ ، وَهِيَ فِي رَأْيِي تَشْوِيهِهُ لِلْجِسْمِ بِرُوحِهِ ، وَقَدْ تَنَعَّكُسُ فَتَكُونُ مِنْ تَشْوِيهِهِ
الرُّوحَ بِجِسْمِهَا ؛ فَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ : أَذَلِكَ تَفْسِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ الزَّاهِدِ بِالرُّوحِ ، أَمْ هُوَ
تَفْسِيرُ بِالْأُتْرَابِ . . .

وَلَقَدْ كَانَ ﷺ بِفِكَ الْإِمَالَةِ وَيَجِدُهُ ، وَكَانَ أَجْوَدَ بِهِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ، وَلَكِنَّهُ
لَا يَدْعُهُ يَتَنَاسَلُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ يَنْبُتُ فِي عَمَلِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمَلُهُ تَرْجَمَةً لِإِحْسَانِهِ
الرُّوحِيِّ ؛ فَهُوَ رَسُولٌ تَعْلِيمِيٌّ ، قَلْبُهُ الْعَظِيمُ فِي الْقَوَانِينِ الْكَثِيرَةِ مِنْ وَاجِبَاتِهِ ، وَهُوَ يُرِيدُ
إثْبَاتَ وَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ مَعَ الْمَادَّةِ الصَّامِتَةِ الْعَمِيَاءِ مَادَّةٌ مُفَكَّرَةٌ مُمَيَّرَةٌ ،
وَأَنَّ الَّذِينَ قُوَّةُ رُوحِيَّةٍ يَلْقَى بِهَا الْمُؤْمِنُ أَحْوَالَ الْحَيَاةِ فَلَا يَنْبُتُ بِإِزَائِهَا شَيْءٌ عَلَى شَيْئَتِهِ ، إِذِ
الرُّوحُ خُلُودٌ وَبِقَاءٌ ، وَالْمَادَّةُ فَنَاءٌ وَتَحَوُّلٌ ، وَمِنْ ثَمَّ تَخَضُّعُ الْخَوَادِثِ لِلرُّوحِ الْمُؤْمِنَةِ
وَتَغْيِيرُ مَعَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَخَضَّعْ لَمْ تَخْضِعْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْيَرْ لَا تَغْيِرْ الرُّوحُ بِهَا ؛ وَأَسَاسُ
الْإِيمَانِ أَنَّ مَا يَنْتَهِي لَا يَنْتَهِي أَنْ يَنْصَرِفَ بِمَا لَا يَنْتَهِي .

وَمَا قِيَمَةُ الْعَقِيدَةِ إِلَّا بِصِدْقِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَضَعُ هَذَا الْمَالُ : إِذَا الْكَذِبُ
الضَّرَاحُ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا شُبْهَةُ الْكَذِبِ ؛ وَلِهَذَا نَزَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِ ، وَزَادَهُ بُعْدًا
مِنْهُ أَنَّهُ نَبِيُّ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَثَلُهَا الْأَعْلَى ، فَحَيَاتُهُ الشَّرِيفَةُ لَيْسَتْ كَمَا نَرَى فِي النَّاسِ : إِجْبَادًا
لِحَلِّ مَسَائِلِ الْفَرْدِ وَتَعْقِيدًا لِمَسَائِلِ غَيْرِهِ ، وَلَا تَوْسَعًا مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَضْيِيقًا مِنَ الْآخَرَةِ
الْأُخْرَى ، وَلَا جَمْعًا مِنْ هُنَا وَمَنْعًا مِنْ هُنَاكَ ؛ بَلْ كَانَتْ حَيَاتُهُ بَعْدَ الرِّسَالَةِ مُنْصَرِفَةً إِلَى
إِفْرَاقِ التَّوَازُنِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَعْلِيمِ الْجَمِيعِ عَلَى تَفَاوُثِهِمْ وَاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ
لَهُمْ عَقْلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْكَوْنِ ؛ وَبِهَذَا الْعَقْلِ الْكَوْنِي السَّلِيمِ تَرَى الْمُؤْمِنَ إِذَا عَرَضَ لَهُ الشَّيْءُ
مِنَ الدُّنْيَا يَفْتِنُهُ أَوْ يَصْرِفُهُ عَنْ وَاجِبِهِ الْإِنْسَانِيِّ - أَبَتْ نَفْسُهُ الْعَظِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَرْتَفِعَ بِطَبِيعَتِهَا ،
فَإِذَا هُوَ فِي قَانُونِ الشَّمْسِ ، وَإِذَا الْمَادَّةُ فِي قَانُونِ الْثَقْلِ ؛ فَيَرْتَفِعُ وَتَهَاوَى ، وَيُضْبِحُ الدَّهْبُ
- وَإِنَّهُ دَهَبٌ - وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا رُوحُ الْأُتْرَابِ .

سُمُو الْفَقْرِ
فِي الْمُصْلِحِ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْأَعْظَمِ (*)
٢

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : لَمْ يَمْتَلِ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شَبْعًا قَطُّ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَامًا وَلَا يَتَشَهَّاهُ ؛ إِنْ أَطْعَمُوهُ أَكَلَ ، وَمَا أَطْعَمُوهُ قَبْلَ ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ .
وَقَالَتْ : مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ خُبْرِ الشَّعِيرِ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .
[ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٦] .

وَعَنْهَا : كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ نَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْفِدُ بَنَارَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمْرُ وَالْمَاءُ .
[البخاري ، رقم : ٢٥٦٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٢] .

وَقَالَتْ : مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَطُّ غَدَاءَ لِعِشَاءَ ، وَلَا عِشَاءَ لِعَدَاءَ ، وَلَا اتَّخَذَ مِنْ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ ؛ لَا قِمِصَيْنِ ، وَلَا رِدَاءَيْنِ ، وَلَا إِزَارَيْنِ ، وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ النَّعَالِ .
وَيُرَوَّى عَنْهَا ، قَالَتْ : تُؤَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَقٍّ لِي . [البخاري ، رقم : ٣٠٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٩٧٣] .

وَقَالَتْ^(١) : تُؤَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ . [الترمذي ، رقم : ١٢١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١١٠ ، ٢٧١٩ ، ٣٧٣٨ ، ٣٣٩٩ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٥٨٢] .

وَعَنْ أَبِي عَبَّاسٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيْلَ الْمُتَتَابِعَةَ وَأَهْلُهُ طَاوِيًا لَا يَجِدُونَ عِشَاءَ ، وَإِنَّمَا كَانَ خُبْرُهُمُ الشَّعِيرُ . [الترمذي ، رقم : ٢٣٦٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٣٤٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٠٣ ، ٣٥٣٥] .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٥ ، ١٢ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٣ يوليو/ تموز سنة ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٢٠٣ - ١٢٠٥ .

(١) بل عن ابن عباس . بشام .

وَعَنِ أَنَسٍ ^(١) ، قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ ، وَإِنَّهَا لَتَسَعَةُ أَنْبِيَاءٍ ! » وَاللَّهُ مَا قَالَهَا اسْتِفْلَالًا [لِذِكْرِ اللَّهِ] ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ تَنَاسَى بِهِ أُمَّتَهُ . [البخاري ، رقم : ٢٥٠٨ ؛ الترمذي ، رقم : ١٢١٥ ؛ النسائي ، رقم : ٤٦١٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٤٣٧ ، ٤١٤٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٥٨٢ ، ١١٩٥٢ ، ١٢٧٥٧ ، ١٣٠٢٧ ، ١٣٠٨٥] .

وَعَنِ ابْنِ بُجَيْرٍ ^(٢) ، قَالَ : أَصَابَ النَّبِيُّ ﷺ جُوعٌ يَوْمًا ، فَعَمَدَ إِلَى حَجَرٍ فَوَضَعَهُ عَلَى بَطْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا رَبُّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ فِي الدُّنْيَا ، جَائِعَةٍ عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ أَلَا رَبُّ مُكْرِمٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُهِينٌ لَهَا ؛ أَلَا رَبُّ مُهِينٍ نَفْسَهُ وَهُوَ مُكْرِمٌ لَهَا » . [أخرجه ابن سعد ، والبيهقي في « شعب الإيمان »] .

وَاخِيرَ ﷺ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ « أَحَدٍ » ذَهَبًا فَقَالَ : « لَا يَا رَبُّ ! أَجُوعُ يَوْمًا فَأَدْعُوكَ ، وَأَشْبِعُ يَوْمًا فَأَحْمَدُكَ ! » . [الترمذي ، رقم : ٣٩٨٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٦٨٦] .
وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ وَيَكْثُرُ مِنْهُ : « اَللّٰهُمَّ أَحْيِنِيْ مِسْكِينًا ، وَأَمِتْنِيْ مِسْكِينًا ، وَأَحْشُرْنِيْ فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » . [الترمذي ، رقم : ٢٣٥٢ ؛ وابن ماجه ، رقم : ٤١٢٦ ؛ « المستدرک » ، رقم : ٦٨/٧٩١١] .

* * *

هَذَا هُوَ سَيِّدُ الْأُمَمَةِ ، يُمَسِّكُهُ فِي الْحَيَاةِ نَبِيًّا عَظِيمًا مَا يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيلًا مُّخْتَقِرًا ، وَكَأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ عَلَى تُرَابِ الْأَرْضِ فَرَدَّهُ أَشِعَّةُ نُورٍ ، عَلَى حِينٍ يُلْقِي النَّاسُ عَلَى هَذَا التُّرَابِ مِنْ ظَلَامٍ أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَبْقَى تُرَابًا بَلْ يَرْجِعُ ظَلَامًا ، فَكَأَنَّهُمْ { إِذْ يَمْشُونَ عَلَيْهِ } يَطْوُونَ أَلْمَجْهُوْلَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَسْتَقِرُّ ظَلَامًا بَلْ يَرْجِعُ آلَامًا ، فَكَأَنَّهُمْ يَنْبُتُونَ عَلَى الْمَرَضِ لَا عَلَى الْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْبُتُ آلَامًا بَلْ يَسْحَوُلُ فَوْرَةً وَتَوْتُبًا تَكُونُ مِنْهُ نَزَوَاتُ الْحُمَقِ

(١) فِي الْأَصُولِ : « الْحَسَنُ » .

(٢) فِي الْأَصُولِ : « مُجِير » وَصَوَابُهُ : ابْنُ بُجَيْرٍ ، أَوْ أَبِي الْمُخَيْرِ كَمَا صَحَّحَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ ؛ رَاجِعِ « الْإِصَابَةُ » لابْنِ حَجَرٍ الْعَسْكَلَانِي ، تَرْجَمَةَ عَثْمَانَ بْنِ بُجَيْرٍ .

وَالْجُنُونُ فِي النَّفْسِ .

هَذَا الَّذِينَ تَعِيشُ أَنْفُسَهُمْ فِي التُّرَابِ ، وَيَمَرَّغُونَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيهِ ، يَنْقَلِبُونَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ صُنْعِ التُّرَابِ نَاسًا دُونَ { كَطَبْعِ الدُّودِ } لَا يَبْقَى فِي شَيْءٍ إِلَّا أفسدهُ أَوْ قَدَرَهُ ؛ أَوْ قَوْمًا سُوسًا { كَطَبْعِ السُّوسِ } لَا يَتَأَلَّ شَيْئًا إِلَّا نَحَرَهُ أَوْ عَابَهُ ، فَهُمْ يُؤْفَعُونَ الْخَلَلَ فِي نِظَامِ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخِيلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا اخْتَلَّتْ نَوَامِيسُ الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ وَفَرَّغَ مِنْ عَدَاهُمْ ، وَابْتَلَاهُمْ عَلَى مُسْكَةِ الرُّزْقِ ^(١) بِالشَّهْوَةِ الْمَسْعُورَةِ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ ، فَضَرَبَهُمْ بِالْمُجَاهِدَةِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ ؛ وَأَنعمَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي بَسْطَةِ الرُّزْقِ بِالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا تَقْطَعُ مِنْهَا ثَمَرَةٌ إِلَّا نَبَتَ غَيْرُهَا فِي مَكَانِهَا .

إِنَّ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَيْنٌ حَاضِرٌ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِي هَمِّ أَلْمَالِ ، وَلَا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ فِي هَمِّ الْفَقْرِ ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلًا لَا مَحْمُولًا ، وَاسْتَقَرَّ فِيهَا هَادِئًا لَا مُضْطَرِّبًا - كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا بُنِيَ لِلدُّنْيَا أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وَعَاشَ لِيَكُونَ دَرْسًا عَمَلِيًّا فِي حَلِّ الْمَشْكِلاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، يُعَلِّمُ النَّاسَ أَنَّهَا لَا تَتَعَقَّدُ بِطَبِيعَتِهَا ، وَلَكِنْ بِطَبَائِعِهِمْ فِيهَا ؛ وَلَا تَسْتَمِرُّ بِقُوَّتِهَا ، وَلَكِنْ بِإِمْدَادِ قُوَّاهُمْ لَهَا ؛ وَلَا تَغْلِبُ بِصَوْلَتِهَا ، وَلَكِنْ بِجَزَعِهِمْ مِنْهَا ؛ وَلَا تُعْضِلُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا ، وَلَكِنْ مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا عَلَيْهَا ، وَسُوءِ نَظَرِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَهَا .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْأَحَادِيثَ الَّتِي أَسْلَفْنَاهَا فَلَا تَقْرَأْهَا زُهْدًا وَتَقَلُّلاً ، وَلَا فَقْرًا وَجُوعًا ، وَلَا اخْتِلَالًا وَحَاجَةً ، كَمَا تُتَرَجِّمُهَا نَفْسُكَ أَوْ تُحَسِّسُهَا ضَرُورَتُكَ ؛ بَلْ أَنْظِرْ فِيهَا وَاعْتَبِرْهَا بِنَفْسِهِ هُوَ ﷺ ، ثُمَّ اقْرَأْهَا شَرِيعَةً اجْتِمَاعِيَّةً مُفَصَّلَةً عَلَى طَبِيعَةِ النَّفْسِ ، قَائِمَةً عَلَى أَنْ تَأْخُذَ نَفْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ قُوَى الدُّنْيَا عَنَّا صِرَافَهَا الْحَيَوِيَّةِ ، لِتُعْطِيَ الْحَيَاةَ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةَ عَنَّا صِرَافِهَا .

وَالْحَيَاةُ الْعَامِلَةُ غَيْرُ الْحَيَاةِ الْوَادِعَةِ ، هُمَا ذَكَرٌ وَأُنْثَى ؛ فَأَمَّا الْأُولَى فَهِيَ مَا وَصَفْنَا وَحَكَيْنَا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ تَغْلُلُ النِّعْمَةَ ، وَإِطْلَاقُ قَانُونِ التَّنَاسُلِ فِي أَلْمَالِ يُنْمِي بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَيُنْبِتُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ إِقَامَةُ الْحَيَاةِ عَلَى الزَّيْنَةِ وَمَقُومَاتِهَا ، وَقِيَامُ الزَّيْنَةِ عَلَى

(١) { مُسْكَةُ الرُّزْقِ : صِدْقُ بَسْطَةِ الرُّزْقِ ، أَيْ : الضَّيْقُ وَالسَّعَةُ } .

الْخِدَاعَ وَطَبَائِعِهِ ، فَيَقْبَلُ الْمَرءُ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَى مَا هُوَ جَدِيرٌ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهَا ، وَيُحِبُّ مِنْهَا مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَبَاغِضَهُ فِيهَا . وَكُلُّ مَا رَأَيْتَ وَعَلِمْتَ فِي رَجُلٍ قُوَّتُهُ الْقُوَّةَ فَهُوَ هُنَاكَ ؛ وَكُلُّ مَا عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ فِي أَتْنَى قُوَّتِهَا الضَّعْفَ فَهُوَ هُنَا .

فَالسَّوَادُ الَّذِي تَرَاهُ فِي فِقْرِه ﷺ هُوَ السَّوَادُ الْحَيُّ ؛ سَوَادُ اللَّيْلِ حَوْلَ الرُّوحِ النُّجُمِيَّةِ السَّاطِعَةِ ؛ وَذَلِكَ التُّرَابُ هُوَ التُّرَابُ الْحَيُّ ؛ تُرَابُ الزَّرْعِ تَحْتَ الثُّصَرَةِ وَالْخُضْرَةِ ؛ وَتِلْكَ الْحَاجَةُ الْجَسْمِيَّةُ هِيَ الْحَاجَةُ الْحَيَّةُ الدَّافِعَةُ إِلَى حُرِّيَةِ النَّفْسِ ؛ وَذَلِكَ الْإِفْلَاقُ مِنْ فَهْمِ اللَّدَّةِ هُوَ الْإِفْلَاقُ الْحَيُّ الَّذِي يَزِيدُ قُوَّةَ فَهْمِ الْجَمَالِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ؛ وَذَلِكَ الضُّيُوقُ فِي حَيَرِ الْمَتَاعِ لِلْحَاسَةِ هُوَ الضُّيُوقُ الْحَيُّ الَّذِي يُوسِّعُ حَيَرَ الْمَتَاعِ لِلرُّوحِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَذَلِكَ النِّقْصُ مِنَ الْمَادَّةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِتَفْيِ النِّقْصِ عَنِ الْقُضِيَّةِ ، وَذَلِكَ الْإِحْتِقَارُ لِلْعَرَضِ الْفَانِي الزَّائِلِ هُوَ الْمَعْنَى الْآخِرُ لِتَقْدِيرِ الْخَالِدِ الْبَاقِي .

فَلَيْسَ هُنَاكَ خُبْرُ الشَّعِيرِ ، وَلَا الْجُوعُ ، وَلَا رَهْنُ الدَّرْعِ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ حَقِيقَةُ نَفْسِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ ، ثَابِتَةٌ مُتَزَنَةٌ ، قَائِمَةٌ بِعَنَاصِرِهَا السَّامِيَّةِ : مِنَ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ ، إِلَى الرُّفْقِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ ، تُخْبِرُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْعِلْمِيَّةَ الْفَلَسَفِيَّةَ الْمُفَكِّرَةَ أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ الْعَظِيمَ هُوَ الرَّجُلُ الْأَجْتِمَاعِيُّ النَّائِمُ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ لِتَنْفِيحِ غَرِيزَةِ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ ، وَكَسْرِ هَذِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَقَمْعِ نَزَوَاتِهَا ، وَإِمَانَةِ دَوَاعِيهَا ، وَالسُّمُوءِ بِخَوَاطِرِهَا ؛ فَهُوَ بِنَفْسِهِ صُورَةُ الْكَمَالِ الَّذِي بُعِثَ لِتَحْقِيقِهِ وَإِتْبَاتِ أَنَّهُ الْمُمَكِّنُ لَا الْمُمْتَنِعُ ، وَالْحَقِيقِيُّ لَا الْخَيَالِيُّ .

لَيْسَ هُنَاكَ دَرْعٌ مَرْهُونَةٌ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا ، وَلَا الْفَقْرُ ، وَلَا خُبْرُ الشَّعِيرِ . كَلَّا ، كَلَّا ، بَلْ هُنَاكَ تَقْرِيرٌ أَنَّ التَّضَرُّعَ فِي مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ لَا يَأْتِي مِنَ الْمَالِ وَالْقَرَاءِ وَالْمَتَاعِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْمُعَانَاةِ وَالشَّدَّةِ وَالصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ التَّقَدُّمَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَبْغَى بَيْنَا ، وَلَا يُؤْخَذُ هَوْنًا ؛ بَلْ هُوَ انْتِزَاعٌ مِنَ الْحَوَادِثِ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي تَتَغَلَّبُ عَلَى الْأَزْمَاتِ وَلَا تَتَغَلَّبُ الْأَزْمَاتُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ هَذَا الْمَالِ وَهَذِهِ الشَّهَوَاتِ - فِي حَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَمَصَابِيرِهَا - كَكُنُوزِ الْأَحْلَامِ : لَا تَكُونُ كُنُوزًا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَرْضِ الْعَفْلَةِ وَالْقَوْمِ ، فَلَا لَذَّةَ مِنْهَا إِلَّا بِمِقْدَارٍ خَفِيفٍ مِنْ هَذِهِ الْعَفْلَةِ . وَلَيْسَ إِلَّا الْأَحْمَقُ أَوْ الْمَخْذُولُ أَوْ الضَّائِعُ هُوَ الَّذِي يَقْطَعُ الْعُمُرَ نَائِمًا أَبَدًا لِيُظَلَّ مَالِكًا أَبَدًا لِهَذِهِ الْكُنُوزِ . . . وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مُسْتَقِظٍ ، وَأَنَّهُ مَتَى انْتَبَهَ فِي آخِرَتِهِ لَمْ يَجِدْ

مِنْهَا شَيْئًا ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُمْ﴾ [٢٤ سورة النور؛ الآية : ٣٩] .

كَلَّا ، كَلَّا ، لَيْسَ هُنَاكَ فَقْرٌ وَلَا جُوعٌ وَمَا إِلَيْهِمَا ، بَلْ هُنَاكَ وَضَعُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ :
يَنْبَغِي أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ ، وَمَوْضِعَ نَفْسِكَ ، وَإِيمَانَ نَفْسِكَ ، وَعِزَّةَ نَفْسِكَ . فَإِذَا أَذْرَكْتَ ذَلِكَ
وَرَفَعْتَ نَفْسَكَ إِلَى مَوْضِعِهَا الْحَقِّ ، وَأَقْرَبْتَهَا فِيهِ ، وَحَبَسْتَهَا عَلَيْهِ ، وَحَدَدْتَهَا بِالْإِنْسَانِيَّةِ
مِنْ نَاحِيَةٍ وَبِاللَّهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُقَابِلَةِ - رَأَيْتَ إِذَا أَنْ قِيَمَتِكَ الصَّحِيحَةِ فِي أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةَ
تُعْطِي وَتَعْمَلُ لِعُطْيٍ ، لَا غَايَةَ تَأْخُذُ وَتَعْمَلُ لِتَأْخُذَ ، وَمَهْمَا ضَيَّقَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ كَالشَّجَرَةِ
الطَّيِّبَةِ تَأْخُذُ تُرَابًا وَتَصْنَعُ حَلَاوَةً .

وَمَا قَطُ نَبَتِ شَجَرَةٍ فِي مَكَانِهَا لِتَأْكُلَ وَتَشْرَبَ وَتَخْتَرِنَ السَّمَادَ وَالتُّرَابَ وَتُحَصِّنَهُمَا
وَتَمْنَعَهُمَا عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَوْ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ شَجَرَةٌ لَكَانَ هَلَاكُهَا فِيمَا تَفْعَلُ ، إِذْ تُحَاوِلُ أَنْ
تُضَاعَفَ فَإِنَّدَتْهَا مِنْ قَانُونِ الْعَالَمِ ، فَيَكُونُ طَمَعُهَا سَرِيعًا فِي إِفْسَادِ الصَّلَةِ بَيْنَهُمَا ، فَلَا يَجِدُ
الْقَانُونَ فِيهَا نِظَامَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تَجِدُ فِي الْقَانُونِ نِظَامَهَا ، فَيُهْلِكُهَا الَّذِي كَانَ يُحْيِيهَا ،
وَتُسْتَعْبَدُ لِحِظِّ نَفْسِهَا ، فَيَفْقِدُهَا ذَلِكَ حُرِّيَّةَ الْحَيَاةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا فِي نَفْسِهَا .

* * *

يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنَّ نَفْسَهُ تُتْرَعُ مِنْ بَيْنِ جَنَّتَيْهِ
وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » . [السافى ، رقم : ١٨٤٣ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٤٠٨ ، ٢٤٧١ ،
٢٦٩٩] فَهَذَا هُوَ أَسْمَى قَانُونِ اجْتِمَاعِيٍّ يُمَكِّنُ أَنْ تَظْفَرُ بِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَمَا يَأْتِي لَهَا ذَلِكَ إِلَّا
إِذَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي أَوْمَانَا إِلَيْهَا شُعُورًا اجْتِمَاعِيًّا عَامًا ، مُقَرَّرًا فِي النَّفْسِ ، قَائِمًا
فِيهَا عَلَى إِيْمَانٍ رَاسِخٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ هُوَ صُورَةُ الْمُجْتَمَعِ لَا صُورَةُ نَفْسِهِ وَحْدَهَا ، وَأَنَّ النَّاسَ
كَحَبِّ الْقَمَحِ فِي السُّبُلَةِ ، لَيْسَ لِجَمِيعِهِ إِلَّا قَانُونٌ وَاحِدٌ ، فَمَوْضِعُ كُلِّ حَبَّةٍ مِنَ السُّبُلَةِ هُوَ
ثَرْوَتُهَا ، عَلَتْ أَوْ سَفَلَتْ ، وَكَثُرَ مَا تَأْخُذُهُ أَوْ قَلَّ ؛ وَإِذَا كَانَ أَساسُ الْحَيَاةِ فِي الْحَبَّةِ مِنْهَا أَنْ
تَجِدَ قَوَامَهَا وَكِفَايَتَهَا مِنْ مَادَّةِ الْأَرْضِ ، فَتَمَامُ الْحَيَاةِ فِيهَا أَنْ يَغْمُرَهَا الثُّورُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَأَنْ
يَسْتَمِرَّ الثُّورُ مِنْ حَوْلِهَا يَغْمُرُهَا .

فَالْحَبَّةُ مِنَ السُّبُلَةِ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَإِنَّهَا لَتُنْرَعُ وَمَا بِهَا أَنْهَا نُرِعَتْ ، وَلَكِنَّهَا
أَذَتْ مَا تُؤَدِّي ، وَانْقَطَعَتْ مِنْ قَانُونٍ لَتَتَّصِلَ بِقَانُونٍ غَيْرِهِ ، وَمَا أَغْتَنَتْ وَلَا أَفْتَقَرَتْ ، وَلَا

أَكْثَرَتْ وَلَا أَخَفَّتْ ؛ بَلْ حَقَّقَتْ مَوْضِعَهَا ، فَإِنَّهَا مَا نَبَتْ لِنَبْتِي ، وَمَا نَمَتْ إِلَّا لِيَنْقَطِعَ نَمَاؤُهَا . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الصَّحِيحُ الْإِيمَانِ ، الصَّادِقُ النَّظَرِ فِي الْحَيَاةِ : هُوَ أَبَدًا فِي قَانُونٍ آخِرَتِهِ ، فَهُوَ أَبَدًا فِي عَمَلِ صَمِيرِهِ .

وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَحَشِيدٍ عَظِيمٍ يَتَدَفَّقُ مِنْ مَضْيِقِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ يَنْفُذُ إِلَى الْفَضَاءِ ؛ فَإِذَا هُمْ أَذْرَكُوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ مُفْضَوْنَ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ مُرَوِّا أَمِينِينَ وَكَانَ فِي يَقِينِهِمْ أَسْلَامَةٌ ، وَفِي صَبْرِهِمُ الرِّقَايَةُ ، وَفِي نِظَامِهِمُ التَّوْفِيقُ ، وَفِي تَعَاوُنِهِمُ الْحَيَاةُ ؛ فَهُمْ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَ هَذَا قَانُونُ جَمِيعِهِمْ ؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ مِنْهُمْ فَأَضْطَرَبَ فَطَاشَ ، هَلَكَ وَأَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ ، وَمَنْ عَكَسَ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، أَهْلَكَ مَنْ حَوْلَهُ وَهَلَكَ . وَالْمَوْتُ أَشَقَى الْمَوْتِ هُنَا فِي هَذَا الْمَضْيِقِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ - اُعْتِبَارُ الْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ ^(١) ، وَالصَّبْرُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ (كُلُّ) { إِنْسَانٍ ^(٢) } نَفْسَهُ غَايَةً . وَالْحَيَاةُ أَهْمًا الْحَيَاةِ - اُعْتِبَارُ الْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ ^(٣) ، وَالصَّبْرُ عَلَى شِدَّتِهِ ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ وَسِيلَةً .

* * *

فَذَلِكَ مَعْنَى خُبَرِ الشَّعِيرِ ، وَالْقِلَّةِ وَالضَّيْقِ ، وَرَهْنِ الدَّرْعِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ مِنْ سَيِّدِ الْخَلْقِ وَأَكْمَلِهِمْ ، وَمَنْ لَوْ شَاءَ لَمْشَى عَلَى أَرْضٍ مِنَ الدَّهَبِ . فَهُوَ ﷺ يَعْلَمُ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَازِلًا عَلَى نَفْسِهِ .

وَمِنْ مَعَانِي ذَلِكَ الْفَقْرِ الْعَظِيمِ أَنَّ خُبَرَ الشَّعِيرِ هُوَ رَمْزٌ مِنْ رُمُوزِ الْحَيَاةِ عَلَى التَّحَلُّلِ مِنْ خُلُقِ الْآثَرَةِ ، وَالْبِرَاءَةِ مِنْ هَوَى التَّرَفِ ؛ وَرَهْنُ الدَّرْعِ رَمْزٌ آخَرُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ وَالطَّمَعِ ؛ وَالْعُسْرَةُ رَمْزٌ ثَالِثٌ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْمَلَلِ الْحَيِّ الَّذِي يُفْسِدُ الْحَيَاةَ كَمَا يُفْسِدُ بَعْضُ اللَّبَاتِ اللَّبَاتِ . وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الرُّمُوزِ رَمْزٌ بِحَالِهِ عَلَى وُجُوبِ الْإِنْقَاطِ النَّفْسِيِّ لِلْأُمَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقُودُ أَنْفُسَهَا بِمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ وَمُجَاهَدَةِ الطَّبَاعِ ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ فَرْدٍ مَادَّةُ الْجَيْشِ ، وَلِيَصْلُحَ هَذَا الْجَيْشُ قَائِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « اُعْتِبَارُ الْحَاضِرِ بِنَفْسِهِ » بَدَلًا مِنْ : « اُعْتِبَارُ الْحَاضِرِ حَاضِرًا فَقَطْ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ » بَدَلًا مِنْ : « وَجَعَلَ كُلَّ إِنْسَانٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « اُعْتِبَارُهُ بِمَا وَرَاءَهُ » بَدَلًا مِنْ : « اُعْتِبَارُ الْحَاضِرِ بِمَا وَرَاءَهُ » .

عَلَى أَنَّهُ ﷺ حَتَّ عَلَى طَلَبِ الْبَسَارِ ، وَالتَّغْلُّلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّرِيفَةِ بِالْعَلَّةِ وَالْمَالِ ،
فَقَالَ : « إِنَّكَ إِنْ تَدْعُ عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » [البخاري ،
رقم : ٥٦ ، ١٢٩٦ ، ٢٧٤٢ ، ٢٧٤٤ ، ٣٩٣٦ ، ٤٤٠٩ ، ٥٣٥٤ ، ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٨ ، ٦٣٧٣ ،
٦٧٣٣ ؛ مسلم ، رقم : ١٦٢٨ ؛ الترمذي ، رقم : ٩٧٥ ، ٢١١٦ ، ٣٠٧٩ ، ٣١٨٩ ؛ النسائي ،
رقم : ٣٦٢٦ ، ٣٦٢٧ ، ٣٦٢٨ ، ٣٦٣٠ ، ٣٦٣٢ ، ٣٦٣٥ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٧٤٠ ، ٣٨٦٤ ،
٣١٠٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١٤٤٣ ، ١٤٧٧ ، ١٤٨٢ ، ١٤٩١ ، ١٥٠٤ ، ١٥٢٧ ، ١٥٤٩ ،
١٦٠٢ ، ١٦١٧ ؛ موطأ مالك ، رقم : ١٤٩٥ ؛ الدارمي ، رقم : ٣١٩٥ ، ٣١٩٦] . وَرَأَى عَابِدًا
قَدْ انْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جِسْمَهُ ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ ﷺ :
« مَنْ يَعُولُهُ ؟ » قَالُوا : كُلُّنَا نَعُولُهُ . فَقَالَ : « كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ ! .. » إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ
مَرْوِيَّةٍ ، هِيَ تَمَامُ الْقَانُونِ الْأَدَبِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الدُّنْيَا ، تَثْبُتُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلٌ
الْحَيَّ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ الْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا ، عَامِلًا مُجَاهِدًا ، يَكْدَحُ
لِعَيْشِهِ ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا ، فَلَمْ يَقْلُبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ مِنَ الْمَالِ يَرْتُهُ ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا^(١)
عَلَى طَرَفٍ مِنْهُ يُورَثُهُ . فَذَلِكَ هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ وَشَرَحْنَاهُ ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةَ فِيهِ ، عَلَى الْأَلَّا
يَتَّخِذُ الْغَنَى مِنَ الْفَقِيرِ عَبْدًا أَجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَذَا وَلِمَالِ ذَاكَ ؛ بَلْ هِيَ الْمُسَاوَاةُ النَّفْسِيَّةُ لَا غَيْرَهَا
وَأِنْ اخْتَلَفَتْ طَبَقَاتُ الْأَجْتِمَاعِ . وَالْأَكْرَمُ هُوَ الَّتَقَى لِلَّهِ بِمَعْنَى التَّقْوَى ، وَالْأَفْقَرُ بِالْوَجِبِ عَلَى
مَعْنَى الْوَجِبِ ، وَالْأَكْفَى لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَقَرَّ ذَلِكَ السَّيِّدُ الْأَعْظَمُ لَيْسَ فَقْرًا ، بَلْ هُوَ كَمَا رَأَيْتَ : ضَبْطُ السُّلْطَةِ الْكَائِنَةِ فِي طَبِيعَةِ
الْتَّمَلُكِ ، لِقِيَامِ التَّعَاوُنِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أَسَاسِهِ الْعَمَلِيِّ ؛ هُوَ الْمَحَاجَرَةُ الْعَادِلَةُ بَيْنَ الْمَصَالِحِ
الْاِقْتِصَادِيَّةِ الطَّاعِيَةِ : يَمْنَعُ أَنْ تَأْكُلَ مَصْلَحَةٌ مَصْلَحَةً فَتَهْلِكَ بِهَا ، وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ الْمَصْلَحَةُ
مَصْلَحَةً لِتَحْيَا بِهَا .

وَالْتَّبِيُّ الْفَقِيرُ الْعَظِيمُ هُوَ فِي التَّارِيخِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي ، كَالْقَاضِي الْجَالِسِ
وَرَاءَ مَوَادِّ الْقَانُونِ . ﷺ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا » .

دَرْسٌ مِنَ التَّبَوُّةِ (*)

قَالُوا : إِنَّهُ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَرَدَّ عَنْهُ الْأَخْزَابَ وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرَيْظَةَ وَالتَّضِيرَ^(١) ،
ظَنَّ أَزْوَاجَهُ ﷺ أَنَّهُ اخْتَصَّ بِنَقَائِسِ الْيَهُودِ وَذَخَائِرِهِمْ ؛ وَكُنَّ تَسْعَ نِسْوَةٍ : عَائِشَةُ ،
وَحَفْصَةُ ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ ، وَسَوْدَةُ ، وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَصَفِيَّةُ ، وَمَيْمُونَةُ ، وَزَيْنَبُ ، وَجُؤَيْرِيَّةُ ؛
فَقَعَدْنَ حَوْلَهُ وَقُلْنَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! بَنَاتُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِي الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ ، وَالْإِمَاءِ
وَالْخَوْلِ ، وَنَحْنُ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضُّيْقِ . . . وَالْمَنْ قَلْبُهُ بِمُطَالَبَتِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِعَةٍ
الْحَالِ ، وَأَنْ يُعَامِلَهُنَّ بِمَا تُعَامِلُ بِهِ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الدُّنْيَا أَزْوَاجَهُمْ ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتَلَوَّ
عَلَيْهِنَّ مَا نَزَلَ فِي أَمْرِهِنَّ مِنْ تَخْيِيرِهِنَّ فِي فِرَاقِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلَّ
لَا زَوْجَكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَمَا لِيكُمُ امْتِعْتِكُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَلًا^(٢) جَمِيلًا ۝
وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [٣٣]
سورة الأحزاب/ الآيتان : ٢٨ و ٢٩ .

قَالُوا : وَبَدَأَ ﷺ بِعَائِشَةَ - وَهِيَ أَحَبُّهُنَّ إِلَيْهِ - فَقَالَ لَهَا : « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ
أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ » . قَالَتْ : مَا هُوَ ؟ قَتَلًا عَلَيْهَا آيَةٌ . قَالَتْ : أَفِيكَ
أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيْ ؟ بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ . [البخاري ، رقم : ٤٧٨٦ ؛ مسلم ، رقم :
١٤٧٥ ؛ الترمذي ، رقم : ٣٢٠٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٤٣٩ ، ٣٤٤٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٥٣ ؛
« مسند أحمد » ، رقم : ٢٤٧٧١ ، ٢٥٥٧٧] .

ثُمَّ تَتَابَعْنَ كُلُّهُنَّ عَلَى ذَلِكَ ، فَسَمَاهُنَّ اللَّهُ « أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ » ، تَعْظِيمًا لِحَقِّهِنَّ ،
وَتَأَكِيدًا لِحُرْمَتِهِنَّ ، وَتَفْضِيلًا لَهُنَّ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٦ ، ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٠ أبريل/ نيسان ١٩٣٦ ، السنة الرابعة ،
الصفحات : ٦٢٤ - ٦٢٧ .

(١) هُمَا حَيَّانٍ مِنَ أَحْيَاءِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ .

(٢) السَّرَاحُ : الطَّلَاقُ ، وَمُنْعَةُ الطَّلَاقِ مَا تُعْطَاهُ الْمُطَلَّقَةُ - وَهُوَ - يَخْتَلِفُ حَسَبَ السَّعَةِ وَالْإِفْتَارِ .

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ كَمَا تُقْرَأُ فِي التَّارِيخِ وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، فَلْتَقْرَأْهَا نَحْنُ
كَمَا هِيَ فِي مَعَانِي الْحِكْمَةِ ، وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ ؛ فَسَنَجِدُ لَهَا غُورًا بَعِيدًا ،
وَنَعْرِفُ فِيهَا دَلَالََةً سَامِيَةً ، وَنَتَبَيَّنُ تَحْقِيقًا فَلَسْفِيًّا دَقِيقًا لِلْأَوْهَامِ وَالْحَقَائِقِ .

وَهِيَ قَبْلَ كُلِّ هَذَا وَمَعَ كُلِّ هَذَا تَنْطَوِي عَلَى حِكْمَةٍ رَاضِعَةٍ لَمْ يَنْبَغْ لَهَا أَحَدٌ ، وَمِنْ
أَجْلِهَا ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لِتَكُونَ نَصًّا تَارِيخِيًّا قَاطِعًا يُدَافِعُ بِهِ التَّارِيخُ عَنْ هَذَا الْبَيِّنِ
الْعَظِيمِ فِي أَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْعَقْلِ وَالْغَرِيزَةِ ، فَإِنَّ جَهْلَةَ الْمُبَشِّرِينَ فِي زَمَنِنَا هَذَا ، وَكَثِيرًا مِنْ
أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ ، وَطَائِفَةٍ مِنْ قِصَارِ النَّظَرِ فِي التَّحْقِيقِ - يَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا
اسْتَكْتَرَّ مِنَ النِّسَاءِ لِأَهْوَاءِ نَفْسِيَّةٍ مَخْضَةٍ وَشَهَوَاتِ كَالشَّهَوَاتِ ؛ وَيَتَطَرَّفُونَ مِنْ هَذَا الزَّعْمِ
إِلَى الشُّبْهِةِ ، وَمِنْ الشُّبْهِةِ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ ، وَمِنْ سُوءِ الظَّنِّ إِلَى قُبْحِ الرَّأْيِ ؛ وَكُلُّهُمْ غَيِّيٌّ
جَاهِلٌ ؛ فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ عَلَى قَرِيبٍ مِنْهُ أَوْ نَحْوٍ مِنْ قَرِيبِهِ ، لَمَا كَانَتْ هَذِهِ
الْقِصَّةُ الَّتِي أَسَاسُهَا نَفْيُ الزَّيْنَةِ وَتَجْرِيدُ نِسَائِهِ جَمِيعًا مِنْهَا ، وَتَضَحِيحُ الْبَيِّنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ عَلَى
حَيَاةٍ لَا تَخْبَأُ فِيهَا مَعَانِي الْمَرْأَةِ ، وَتَحْتَ جَوْ لَا يَكُونُ أَبَدًا جَوْ الزَّهْرِ . . . وَأَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ
أَنْ يُخَيَّرَهُنَّ جَمِيعًا بَيْنَ سَرَاحِهِنَّ فَيَكُنَّ كَالنِّسَاءِ وَيَجِدْنَ مَا شِئْنَ مِنْ دُنْيَا الْمَرْأَةِ ، وَبَيْنَ
إِمْسَاكِهِنَّ فَلَا يَكُنَّ مَعَهُ إِلَّا فِي طَبِيعَةِ أُخْرَى تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَنْتَهِي الدُّنْيَا وَزَيْنَتُهَا .

فَالْقِصَّةُ نَفْسُهَا رَدٌّ عَلَى زَعْمِ الشَّهَوَاتِ ، إِذْ لَيْسَتْ هَذِهِ لُغَةُ الشَّهْوَةِ ، وَلَا سِيَاسَةُ
مَعَانِيهَا ، وَلَا أَسْلُوبُ غَضَبِهَا أَوْ رِضَاهَا . وَمَا هَلُنَا تَمْلِيْقُ ، وَلَا إِطْرَاءُ ، وَلَا نُعُومَةٌ ، وَلَا
حِرْصٌ عَلَى لَذَّةٍ ، وَلَا تَغْيِيرٌ بِلُغَةِ الْحَاسَةِ ؛ وَالْقِصَّةُ بَعْدُ مَكْشُوفَةٌ صَرِيحَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى
وَلَا شَبَهٌ مَعْنَى مِنْ حَرَارَةِ الْقَلْبِ ، وَلَا أَثَرٌ وَلَا بَقِيَّةٌ أَثَرٍ مِنْ مَيْلِ النَّفْسِ ، وَلَا حَرْفٌ أَوْ صَوْتُ
حَرْفٍ مِنْ لُغَةِ الدَّمِ . وَهِيَ عَلَى مَنْطِقٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَنْطِقِ الَّذِي تُسْتَمَالُ بِهِ الْمَرْأَةُ ، فَلَمْ تَقْتَصِرْ
عَلَى نَفْيِ الدُّنْيَا وَزَيْنَةِ الدُّنْيَا عَنْهُنَّ ، بَلْ نَفَتْ الْأَمَلَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، وَأَمَانَتْ
مَعْنَاهُ فِي نَفْسِهِنَّ ، بِقَصْرِ الْإِرَادَةِ مِنْهُنَّ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ : اللَّهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَالرَّسُولُ
فِي شِدَائِدِهِ وَمُكَابَدَتِهِ ، وَالذَّارُ الْآخِرَةُ فِي تَكَالُفِهَا وَمَكَارِهَا . فَلَيْسَ هُنَا ظَرْفٌ ، وَلَا
رَقَّةٌ ، وَلَا عَاطِفَةٌ ، وَلَا سِيَاسَةٌ لَطِيعَةُ الْمَرْأَةِ ، وَلَا أَعْتْيَارٌ لِمَزَاجِهَا ، وَلَا زُلْفَى لِأُنُوثَتِهَا ؛
ثُمَّ هُوَ تَخْيِيرٌ صَرِيحٌ بَيْنَ ضِدَّيْنِ لَا تَتَلَوَّنُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تَكُونُ مِنْهُمَا مَعًا ، ثُمَّ هُوَ عَامٌّ لَجَمِيعِ

رُوحَاتِهِ لَا يُسْتَنْتَى مِنْهُنَّ وَاحِدَةً وَلَا أَكْثَرَ .

وَالْحَرِيصُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَالْاسْتِمْنَاعُ بِهَا لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا ، بَلْ يُخَاطَبُ فِي الْمَرْأَةِ خَيَالَهَا أَوَّلَ مَا يُخَاطَبُ ، وَيُسَبِّعُهُ مَبَالِغَةً وَتَأْكِيدًا ، وَيُوسِّعُهُ رَجَاءً وَأَمَلًا ، وَيَقْرُبُ لَهُ الزَّمَنَ الْبَعِيدَ ، حَتَّى لَوْ كَانَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَكَانَ الْخِلَافُ عَلَى الْوَقْتِ ، لَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ الظُّهَرَ بَعْدَ سَاعَةٍ ...

* * *

وَبُرْهَانٌ آخَرُ ؛ وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ نِسَاءً لِمَتَاعٍ مِمَّا يَمْتَعُ الْخَيَالُ بِهِ ، فَلَوْ كَانَ وَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ لَمَا اسْتَقَامَ ذَلِكَ إِلَّا بِالزَّيْنَةِ وَبِالْفَنِّ النَّاعِمِ فِي الثَّوْبِ وَالْحِلْيَةِ وَالتَّشْكِيلِ كَمَا تَرَى فِي الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ ، فَإِنَّ الْمُمَثِّلَةَ لَا تُمَثِّلُ الرُّوَايَةَ إِلَّا فِي الْمَسْرَحِ الْمُهَيَّأِ بِمَنَاطِرِهِ وَجَوِّهِ ... وَقَدْ كَانَ نِسَاؤُهُ ﷺ أَغْرَفَ بِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ ذَا يَنْفِي الزَّيْنَةَ عَنْهُمْ وَيُخَيِّرُهُنَّ الطَّلَاقَ إِذَا أَصْرَزْنَ عَلَيْهَا . فَهَلْ تَرَى فِي هَذَا صُورَةَ فِكْرٍ مِنْ أَفْكَارِ الشَّهْوَةِ ؟ وَهَلْ تَرَى إِلَّا الْكَمَالَ الْمَخْصُصَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ مُتَابَعَةُ الزَّوْجَاتِ التَّلَسُّعِ إِلَّا تَسْنَعُ بُرْهَانَاتٍ عَلَى هَذَا الْكَمَالِ ؟

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُلْقِي بِهَذِهِ الْقِصَّةِ دَرْسًا مُسْتَفِيدًا فِي فَلَسَفَةِ الْخَيَالِ وَسُوءِ أَثَرِهِ ، عَلَى الْمَرْأَةِ فِي أَثْنَوْنِهَا ، وَعَلَى الرَّجُلِ فِي رُجُوعِهِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ تَعْقِيدٌ فِي الشَّهَوَاتِ يُقَابِلُهُ تَعْقِيدٌ فِي الطَّبِيعِ ، وَكَذِبٌ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْشَأُ عَنْهُ كَذِبٌ فِي الْخُلُقِ ، وَأَنَّهُ صَرَفٌ لِلْمَرْأَةِ إِلَى حَيَاةِ الْأَخْلَامِ وَالْأَمَانِيِّ وَالطَّيِّبِ وَالْبَطْرِ وَالْفَرَاحِ ، وَتَعْوِيدُهَا عَادَاتٍ تُفْسِدُ عَاطِفَتَهَا ، وَتُضَيِّفُ إِلَيْهَا التَّصَنُّعَ فَتُضَعِفُ قُوَّتَهَا النَّفْسِيَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَى إِبْدَاعِ الْجَمَالِ مِنْ حَقِيقَتِهَا لَا مِنْ مَظْهَرِهَا ، وَتَحْقِيقِ الْفَائِدَةِ مِنْ عَمَلِهَا لَا مِنْ شَكْلِهَا .

وَكُلُّ مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ هِيَ خَيَالٌ مُتَخَيَّلٌ وَلَا حَقِيقَةٌ لِشَيْءٍ مِنْهَا فِي الطَّبِيعَةِ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهَا فِي الْعَيْنِ النَّاطِرَةِ إِلَيْهَا ؛ فَلَا تَكُونُ أَمْرًا فَاتِنَةً إِلَّا لِلْمَفْتُونِ بِهَا لَيْسَ غَيْرُ . وَلَوْ رَدَّتْ الطَّبِيعَةُ عَلَى مَنْ يُسَبِّبُ بِأَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ فَيَقُولُ لَهَا : هَذِهِ مَحَاسِنُكَ وَهَذِهِ فِتْنَتُكَ وَهَذَا سِحْرُكَ وَهَذَا وَهَذَا ؛ لَقَالَتْ لَهُ الطَّبِيعَةُ : بَلْ هَذِهِ كُلُّهَا شَهَوَاتُكَ أَنْتَ (١) ...

(١) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَاهُ ، وَخَاصَّةً فِي كِتَابِ : (السَّحَابِ الْأَخْمَرِ) .

وَبِهَذَا يَخْتَلِفُ الْجَمَالُ عِنْدَ فَقْدِ النَّظَرِ ؛ فَلَا يَفْتِنُ الْأَعْمَى ^(١) جَمَالُ الصُّورَةِ وَلَا سِحْرُ الشَّكْلِ وَلَا فَرَاهَةُ الْمُنْظَرِ ، وَإِنَّمَا يَفْتِنُهُ صَوْتُ الْمَرْأَةِ وَمَجَسُّتُهَا وَرَائِحَتُهَا .

فَلَا حَقِيقَةَ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا الْمَرْأَةُ نَفْسُهَا ؛ وَلَوْ أُخِذَتْ كُلُّ أَثْنَى عَلَى حَقِيقَتِهَا هَذِهِ لَمَا فَسَدَ رَجُلٌ وَلَا شَقِيَتْ أَمْرَأَةٌ ، وَلَانتَظَمَتْ حَيَاةُ كُلِّ زَوْجَيْنِ بِأَسْبَابِهَا الَّتِي فِيهَا . وَذَلِكَ هُوَ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ فِي الْقِصَّةِ .

يُرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ لِيُعْلَمَ أَمْتُهُ أَنَّ حَيْفَ الْغَرِيزَةِ عَلَى الْعَقْلِ إِفْسَادٌ لِهَذَا الْعَقْلِ ، وَأَنَّهُ مَتَى أُخِذَتْ الْمَرْأَةُ لِحِطِّ الْغَرِيزَةِ وَاخْتِيَارِهَا ، كَانَتْ حَيَاتُهَا اسْتِجَابَةً لِحُجُونِ الرَّجُلِ ، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي التَّرْبِيدِ وَالتَّصْنُعِ ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْفُلَهَا هَذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فِي الْحِرْمَانِ وَالْإِنْبَارِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ ، وَيُرُدُّهَا إِلَى أَضْدَادِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدَ عَلَى الْأَثَرِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالتَّقَادِي وَالضَّجَرِ وَالتَّبَرُّمِ وَالْإِلْحَاحِ وَالْإِرْعَاجِ ، وَيُضْعِفُ مَعْنَى السَّلْبِ الرَّاسِخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَصْلِ الْفِطْرَةِ ؛ فَيَتَبَدَّلُ حَيَاؤُهَا ، وَفِي الْحَيَاءِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءَ ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا ، وَفِي الْإِخْلَاصِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءَ أُخْرَى ؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا ، وَفِي فَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِّ .

وَبِهَذَا وَنَحْوِهِ يَفْسُدُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ الْمُتَصَنِّعَةِ ؛ فَإِذَا كَثُرَ الْمُتَصَنِّعَاتُ لَا يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ مَشَاكِلَ فَقَطْ ، بَلْ تَكُونُ مِنْ حُلُولِ الْمَشَاكِلِ مَعَهُنَّ مَشَاكِلُ أُخْرَى . . .

* * *

وَلِبَابِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي الزَّوْاجِ الْمَثَلِ الشَّعْبِيِّ الْأَكْمَلَ كَمَا هُوَ دَأْبُهُ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَاتُهُ جَمِيعًا كِنِسَاءَ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، لِيَكُونَ مِنْهُنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلْمَرْأَةِ الْمُؤَمِّنَةِ الْعَامِلَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَبْرَعُ الْبِرَاعَةَ كُلَّهَا فِي الصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِفَّةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالْقَنَاعَةِ ، فَلَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ زَيْنَةً تَطْلُبُ زَيْنَةً لِتَتِمَّ بِهَا فِي الْخَيَالِ ، وَلَكِنْ إِنْسَانِيَّةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا الْإِنْسَانِيَّ لِيَتِمَّ بِهِ فِي الْوَاقِعِ .

وَهَذِهِ الزَّيْنَةُ الَّتِي تَتَصَنَّعُ بِهَا الْمَرْأَةُ تَكَادُ تَكُونُ صُورَةَ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالتَّعَقُّدِ ، وَكُلَّمَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَلَا يَفْتِنُهُ » بَدَلًا مِنْ : « فَلَا يَفْتِنُ الْأَعْمَى » .

أَسْرَفَتْ فِي هَذِهِ أَسْرَفَتْ فِي تِلْكَ ، بَلِ الزَّيْنَةُ لَوَجْهِ الْمَرْأَةِ وَجِسْمِهَا سِلَاحٌ مِنْ أَسْلِحَةِ الْمَعَانِي : كَالْأَظَافِرِ وَالْمَخَالِبِ وَالْأَنْبَابِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لَوُحْشِيَّةٌ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ الْمُفْتَرِسَةِ ، وَتِلْكَ لَوُحْشِيَّةُ الْغَرِيزَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَفْتَرِسَ . وَلَا تُنْكِرُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا أَنَّ الزَّيْنَةَ عَلَى جِسْمِهَا نَزْرَةٌ طَوِيلَةٌ تَقُولُ وَتَقُولُ وَتَقُولُ ...

* * *

وَأِنَّمَا يَكُونُ أَساسُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي ، فِي الْإِنْسَانِ الْعَامِلِ الْمُجَاهِدِ : لَا يَخْصُرُ نَفْسَهُ فِي شَيْءٍ يُسَمَّى مَتَاعًا أَوْ زِينَةً ، وَلَا يَقْدَرُ نَفْسَهُ بِمَا يَجْمَعُ لَهَا أَوْ يَهْمُ يَجْمَعُ حَوْلَهَا ، وَلَا يُعْتَدُ مَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَالْتَعْبِيرِ مِنْ عَمَلِ الشَّهَوَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ . وَبَيْنَنَا ﷺ هُوَ الْغَايَةُ فِي هَذَا . دَخَلَ عَلَيْهِ مَرَّةً عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَصِيرٍ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ . قَالَ عُمَرُ : وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ ، [وَقَرِطٍ فِي نَاحِيَةِ فِي الْعُرْفَةِ] وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ^(١) ؛ فَأَبْتَدَرْتُ عَيْنَايَ ، فَقَالَ : « مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ » قَالَ عُمَرُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ ، وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى ، وَذَلِكَ كِسْرِي وَقِصْرُ فِي الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ^(٢) ؟ [ابن ماجه ، رقم : ٤١٥٣] .

وَجَاءَ مَرَّةً مِنْ سَفَرٍ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَرَأَى عَلَى بَابِهَا سِتْرًا وَفِي يَدَيْهَا قَلْبَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ^(٣) ، فَجَرَعَ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو رَافِعٍ وَهِيَ تَبْكِي ، فَأَخْبَرْتُهُ بِرُجُوعِ أَبِيهَا ، فَسَأَلَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ : « مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسَّوَارِينِ » .

فَلَمَّا أَخْبَرَهَا أَبُو رَافِعٍ هَتَكَتِ السِّتْرَ^(٤) ، وَنَزَعَتِ السَّوَارِينَ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِمَا بِلَالًا إِلَى

(١) كَيْسٌ مِنْ جِلْدٍ كَانَ يَتَّخِذُهُ الْعَرَبُ وَغَاءً . [فِي الْأَصْلِ : « كَالَّذِي » بَدَلًا مِنْ : « كَانَ »] .

(٢) الْأَرْوَائَاتُ مِنْ مِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ عَنْهُ ﷺ ، وَقَدْ بَسَطْنَا فِلْسَفَةَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالِ « سُوءُ الْفَقْرِ » . [فِي الْأَصْلِ : « وَهَذِهِ خَزَائِنُكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَذِهِ خَزَائِنُكَ »] .

(٣) الْقَلْبُ (بِالضَّمِّ) : سَوَارٌ مِنَ الْفِضَّةِ غَيْرُ مَلَوِيٍّ ، هُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْيَوْمَ : (الْمُؤَيَّشَةُ) ، وَهُوَ خَفِيفٌ .

(٤) أَيِ : مَرَقَّتْهُ ؛ وَكَذَلِكَ رَأَى مَرَّةً سِتْرًا عَلَى بَابِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَهَتَكَهُ وَقَالَ : « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا . أُرْسِلِي بِهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ » .

النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ : قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهِ ، فَصَغُوهَا حَيْثُ تَرَى . فَقَالَ لِبِلَالٍ : « أَذْهَبَ فَبِعَهُ وَادْفَعَهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ ^(١) » . فَبَاعَ الْقُلَيْبِيُّ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ (نَحْوُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قِرْشًا) وَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِمْ ^(٢) .

يَا بِنْتَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ! وَأَنْتِ أَيْضًا لَا يَرْضَى لَكَ أَبُوكَ حِلْيَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ وَإِنْ فِي الْمُسْلِمِينَ فَقَرَاءَ { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهَا } .

أَيُّ رَجُلٍ شَعْبِيٍّ عَلَى الْأَرْضِ كَمُحَمَّدٍ ﷺ ، فِيهِ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا غَرِيزَةُ الْأَبِ ، وَفِيهِ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ الْيَقِينُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ النَّامَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْحَقِيقِيُّ .

يَا بِنْتَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ! إِنَّ زِينَةَ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ، لَا تَكُونُ زِينَةً فِي رَأْيِ الْحَقِّ إِذَا امْكَنَ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ؛ إِنَّ فِيهَا حَيِّثُذَ مَعْنَى غَيْرَ مَعْنَاهَا ؛ فِيهَا حَقُّ النَّفْسِ غَالِبًا عَلَى حَقِّ الْجَمَاعَةِ ؛ وَفِيهَا الْإِيمَانُ بِالْمَنْفَعَةِ حَاكِمًا عَلَى الْإِيمَانِ بِالْخَيْرِ ؛ وَفِيهَا مَا لَيْسَ بِضُرُورِيٍّ قَدْ جَارَ عَلَى مَا هُوَ الضَّرُورِيُّ ؛ وَفِيهَا خَطَأٌ مِنَ الْكَمَالِ إِنْ صَحَّ فِي حِسَابِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ لَمْ يَصِحَّ فِي حِسَابِ الثَّوَابِ وَالْكَرْحَةِ .

تَعَالَوْا أَهْلُهَا الْأَشْتِرَاكِئُونَ فَاعْرِفُوا نَبِيَّكُمْ الْأَعْظَمَ ؛ إِنَّ مَذْهَبَكُمْ مَا لَمْ تُخَيِّرْ فَصَائِلُ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعُهُ - إِنَّ مَذْهَبَكُمْ لَكَالشَّجَرَةُ الدَّابِلَةُ تَعْلَقُونَ عَلَيْهَا الْأَنْمَارَ تَشْدُونَهَا بِالْخَيْطِ ... كُلَّ يَوْمٍ تَحْلُونَ ، وَكُلَّ يَوْمٍ تَرْبُطُونَ ، وَلَا ثَمَرَةَ فِي الطَّبِيعَةِ .

* * *

(١) الصُّفَّةُ : الْغُرْفَةُ ، وَأَهْلُ الصُّفَّةِ ، هُمْ : فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ ؛ فَكَانُوا يَأْوُدُونَ إِلَى مَوْضِعٍ مُظْلَلٍ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ يَسْكُنُونَهُ .

(٢) أقال الحافظ العراقي في « تخریج أحاديث الإخياء » : لَمْ أَرَهُ مَجْمُوعًا ، وَلَأَبِي دَاوُدَ ، رَقْم : ٣٧٥٥ ، ابْنُ مَاجَهَ ، رَقْم : ٣٣٦٠ ، مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، أَنَّهُ ﷺ جَاءَ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى عِضَادَتَيْ الْبَابِ ، فَرَأَى الْقِرَامَ قَدْ ضُرِبَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، فَرَجَعَ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ لِعَلِيٍّ : أَنْظِرْ مَا رَجَعَهُ ... الْحَدِيثُ . رَوَاهُ النَّسَائِيُّ ، رَقْم : ٥١٤٠ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، قَالَ : جَاءَتْ ابْنَةُ هُبَيْرَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي يَدَيْهَا فَتْحٌ مِنْ ذَهَبٍ ... الْحَدِيثُ . وَفِيهِ : أَنَّهُ وَجَدَ فِي يَدِ فَاطِمَةَ سِلْسِلَةً مِنْ ذَهَبٍ . وَفِيهِ : « يَقُولُ النَّاسُ : فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ فِي يَدَيْهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ ! » وَأَنَّهُ خَرَجَ وَلَمْ يَقْعُدْ ، فَأَمَرَتْ بِالسِّلْسِلَةِ ، فَبِمَتْ ، فَاسْتَرَتْ بِشَمَنِهَا عَبْدًا فَأَغْفَقَتْهُ ، فَلَمَّا سَمِعَ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ » . وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « مُسْنَدِهِ » ، رَقْم : ٢١٨٩٢ . أَنْتَهَى بِزِيَادَةٍ .

لَيْسَتْ قِصَّةُ التَّخْيِيرِ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ فِي مَعَانِي الْمَادَّةِ ، وَلَكِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْكَمَالِ وَالنَّقْصِ فِي مَعَانِي الرُّوحِ ؛ فَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسْتَاذُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ؛ وَاجِبُهُ أَنْ يَكُونَ فَضِيلَةً حَيَّةً فِي كُلِّ حَيَاةٍ ، وَأَنْ يَكُونَ عَزَاءً فِي كُلِّ فَقْرٍ ، وَأَنْ يَكُونَ تَهْدِيئًا فِي كُلِّ غِنَى ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ فِي شَخْصِهِ وَسِيرَتِهِ الْقَانُونُ الْأَدَبِيُّ لِلْجَمْعِ .

وَكَأَنَّهُ ﷺ يُرِيدُ لِيُعَلِّمَ الْأُمَّةَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ الْجَمَاعَاتِ لَا تَصْلُحُ بِالْقَوَانِينِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَكِنْ بِعَمَلِ عُظَمَائِهَا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ وَأَنَّ الْحَاكِمَ عَلَى النَّاسِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْكُمَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي نَفْسِهِ وَطَبِيعَتِهِ يُحِسُّ فِتْنَةَ الدُّنْيَا إِحْسَاسَ الْمُتَسَلِّطِ لَا الْخَاضِعِ ، لِيَكُونَ أَوَّلُ اسْتِقْلَالِهِ اسْتِقْلَالًا دَاخِلِيًّا .

فَلَيْسَ ذَلِكَ فَقْرًا وَلَا زُهْدًا كَمَا تَرَى فِي ظَاهِرِ الْقِصَّةِ ، وَلَكِنَّهَا جُرْأَةُ النَّفْسِ الْعُظْمَى فِي تَقْرِيرِ حَقَائِقِهَا الْعِلْمِيَّةِ .



وَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ فِي عِبَارَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِتَسْمِيَةِ رُوحَانِهِ ﷺ : « أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ » بَعْدَ أَنْ اخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ؛ وَعُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافَاهُمْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ وَلَا فِيهِ كِبِيرٌ مَعْنَى ، وَإِنَّمَا تُشْعِرُ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ بِمَعْنَى دَقِيقٍ هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْإِعْجَازِ ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ الْكَامِلَةَ لَا تَكْمُلُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا تَكْمُلُ الْحَيَاةُ بِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ وَضْفُهَا مَعَ رَجُلِهَا كَوَضْفِ الْأُمِّ : تَرَى ابْنَهَا بِالْقَلْبِ وَمَعَانِيهِ ، لَا بِالْغَرِيزَةِ وَحُطُوظِهَا ؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ حَيِّنِيذٍ مُمَكِّنَةٌ السَّعَادَةِ لِهَذِهِ الزَّوْجَةِ ، وَكُلُّ شِقَاءٍ مُخْتَمَلٌ بِصَبْرٍ ، وَكُلُّ جِهَادٍ فِيهِ لَذَّةُ الطَّبِيعَةِ ، إِذَا يَقُومُ النَّبِيُّ عَلَى الْحُبِّ الَّذِي هُوَ الْحُبُّ الْخَالِصُ لَا الْمُنْتَفَعُ ، وَتَكُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ وَجُودُ الْحَيِّ نَفْسِهِ لَا وَجُودُ الْمَادَّةِ ، وَتُبْنَى النَّفْسُ عَلَى الْوَفَاءِ الطَّبِيعِيِّ كَوَفَاءِ الْأُمِّ ، وَذَلِكَ خُلُقٌ لَا يَعْسُرُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ حَقِيقَتِهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا .

وَأَخِرُ مَا نَسْتَخْرِجُ مِنَ الْقِصَّةِ فِي دَرَسِ النُّبُوَّةِ هَذِهِ الْحِكْمَةُ :

بِحَسَبِ الْمُؤْمِنِ إِذَا دَخَلَ دَارُهُ أَنْ يَجِدَ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ الطَّبِيعَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَقِيقَةَ كِسْرَى وَلَا قَيْصَرَ .

شَهْرُ لِلثَّوْرَةِ . . .
فَلَسْفَةُ الصَّيَامِ (*)

لَمْ أَقْرَأْ لِأَحَدٍ قَوْلًا شَافِيًا فِي فَلَسْفَةِ الصَّوْمِ وَحِكْمَتِهِ؛ أَمَّا مَنَفَعَتُهُ لِلجِسْمِ ، وَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الطَّبِّ لَهُ ، وَبَابٌ مِنَ السِّيَاسَةِ فِي تَدْبِيرِهِ؛ فَقَدْ فَرَّغَ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ ؛ وَكَانَ أَيَّامَ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ إِنْ هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ حَبَّةً تُؤْخَذُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً لِتَقْوِيَةِ الْمَعِدَةِ وَتَصْفِيَةِ الدَّمِ وَحِيَاظَةِ أَنْسَجَةِ الْجِسْمِ ؛ وَلَكِنَّا الْآنَ لَسْنَا بِصَدَدٍ مِنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا نَسْتَوْحِي تِلْكَ الْحَقِيقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْكُبْرَى الَّتِي شَرَعَتْ هَذَا الشَّرْعَ لِسِيَاسَةِ الْحَقَائِقِ الْأَرْضِيَّةِ الصَّغِيرَةِ ، عَامِلَةً عَلَى اسْتِمْرَارِ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهَا ، كَيْ لَا تَتَبَدَّلَ النَّفْسُ عَلَى تَغْيِيرِ الْحَوَادِثِ وَتَبَدُّلِهَا ، وَلَكِنَّا نَجْهَلُ الدُّنْيَا مَعَانِيَ التَّرْفِيعِ إِذَا أَتَتْ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَانِيَ التَّمْزِينِ .

مِنْ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ يَدَّخِرُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمَعْرُوفَةِ فِي كُلِّ زَمَنِ ، حَقَائِقَ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ لِكُلِّ زَمَنِ ، فَيَجْلِيهَا لَوْفَتِهَا حِينَ يَضِجُ الزَّمَانُ الْعِلْمِيُّ فِي مَتَاهَتِهِ وَحَيْرَتِهِ ، فَيَسْغَبُ عَلَى التَّارِيخِ وَأَهْلِهِ مُسْخَفًا بِالْأَدْيَانِ ، وَيَذْهَبُ يَتَّبِعُ الْحَقَائِقَ ، وَيَسْتَقْصِي فِي فُنُونِ الْمَعْرِفَةِ ، لِيَسْتَخْلَصَ مِنْ بَيْنِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ دِينًا طَبِيعِيًّا سَانِعًا ، يَسْأَوُلُ الْحَيَاةَ أَوَّلَ مَا يَسْأَوُلُ فَيَضْبِطُهَا بِأَسْرَارِ الْعِلْمِ ، وَيُوجِّهُهَا بِالْعِلْمِ إِلَى غَايَتِهَا الصَّحِيحَةِ ، وَيُضَاعِفُ قُوَاهَا بِأَسَالِينِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ، لِيُحَقِّقَ فِي إِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِ هَذِهِ الشَّيْئَةَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي تَتَوَهَّمُهَا الْمَذَاهِبُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا مَذْهَبٌ مِنْهَا وَلَا قَارِبُهَا ؛ فَمَا بَرِحَتْ سَعَادَةُ الْأَجْتِمَاعِ كَالْتَجَرِبَةِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْنَ أَيْدِي عُلَمَائِهَا ؛ لَمْ يُحَقِّقُوهَا وَلَمْ يَنْشُؤْا مِنْهَا ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْمَذَاهِبُ كَعَقَارِبِ السَّاعَةِ فِي دَوْرَتِهَا : تَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ تَبْدَأُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى حَيْثُ تَبْدَأُ . . .

* * *

يَضْطَرُّبُ الْأَشْيَاءَ كَثِيرًا فِي أَوْرَثِهِ وَقَدْ عَجَزُوا عَجَزَ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ الْإِنْسَانِ بِيَزَادَةٍ وَتَقْصِي فِي أَغْصَابِهِ ؛ وَلَا يَزَالُ مَذْهَبُهُمْ فِي الدُّنْيَا مَذْهَبَ كُتُبٍ وَرِسَائِلَ ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ تَذَبَّرُوا حِكْمَةَ الصَّوْمِ فِي الْإِسْلَامِ ، لَرَأَوْا هَذَا الشَّهْرَ نِظَامًا عَمَلِيًّا مِنْ أَقْوَى وَأَبْدَعَ الْأَنْظُمَةِ الْأَشْيَاقِيَّةِ الصَّحِيحَةِ ؛ فَهَذَا الصَّوْمُ فَقَرٌّ إِبْجَارِيٌّ تَفْرِضُهُ الشَّرِيعَةُ عَلَى النَّاسِ قَرْضًا لِيَسَاوِيَ الْجَمِيعُ فِي بَوَاطِنِهِمْ ، سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ مَلَكَ أَلْمَلِيُونَ مِنَ الدُّنَانِيرِ ، وَمَنْ مَلَكَ الْفِرَاشَ الْوَاحِدَ ، وَمَنْ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا ؛ كَمَا يَسَاوِي النَّاسُ جَمِيعًا فِي ذَهَابِ كِبَرِيَّاتِهِمْ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْإِسْلَامُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَفِي ذَهَابِ تَفَاوُثِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيِّ بِالْحَجِّ الَّذِي يَفْرِضُهُ عَلَى مَنْ اسْتَطَاعَ .

فَقَرٌّ إِبْجَارِيٌّ يُرَادُ بِهِ إِشْعَارُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ كُلِّ الْوُضُوحِ ، أَنَّ الْحَيَاةَ الصَّحِيحَةَ وَرَاءَ الْحَيَاةِ لَا فِيهَا ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى أَتَمِّهَا حِينَ يَسَاوِي النَّاسُ فِي الشُّعُورِ لَا حِينَ يَخْتَلِفُونَ ، وَحِينَ يَتَعَاطَفُونَ بِإِحْسَاسِ الْوَاحِدِ لَا حِينَ يَتَنَازَعُونَ بِإِحْسَاسِ الْأَهْوَاءِ الْمُتَعَدِّدَةِ .

وَلَوْ حَقَّقْتَ رَأَيْتَ النَّاسَ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ بِعُقُولِهِمْ ، وَلَا بِأَنْسَابِهِمْ ، وَلَا بِمَرَاتِبِهِمْ ، وَلَا بِمَا مَلَكَوْا ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ بِطُوبَانِهِمْ وَأَحْكَامِ هَذِهِ الْبُطُونِ عَلَى الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ ؛ فَمِنْ الْبُطْنِ نَكْبَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ الْعَمَلِيُّ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْبُطْنُ وَالْذِّمَاقُ فِي ضَرُورَةٍ ، مَدَّ الْبُطْنُ مَدَّهُ مِنْ قُوَى الْهَضْمِ فَلَمْ يَبْقَ وَلَمْ يَذَرْ .

وَمِنْ هَهُنَا يَسْأَلُهُ الصَّوْمُ بِالتَّهْدِيبِ وَالتَّادِيبِ وَالتَّذَرِيبِ ، وَيَجْعَلُ النَّاسَ فِيهِ سَوَاءً : لَيْسَ لِجَمِيعِهِمْ إِلَّا شُعُورٌ وَاحِدٌ وَحِسٌّ وَاحِدٌ وَطَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ وَيُحْكِمُ الْأَمْرَ فَيَحُولُ بَيْنَ هَذَا الْبُطْنِ وَبَيْنَ الْمَادَّةِ ، وَيُبَالِغُ فِي إِحْكَامِهِ فَيَمْسِكُ حَوَاشِيَهُ الْعَصَبِيَّةَ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ يَمْنَعُهَا تَغْدِيدَتَهَا وَلَذَّتَهَا حَتَّى نَفْثَةً مِنْ دَخِينَةٍ^(١) .

وَبِهَذَا يَضَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا فِي حَالَةِ نَفْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَلَبَّسُ بِهَا النَّفْسُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَيُطْلِقُ فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهَا صَوْتَ الرُّوحِ يُعَلِّمُ الرِّخْمَةَ وَيَدْعُو إِلَيْهَا ، فَيُسَبِّحُ

(١) الدَّخِينَةُ كَلِمَةٌ وَضَعَهَا لِلشَّجَارَةِ ، وَجَمَعُهَا دَخَائِنٌ .

فِيهَا بِهَذَا الْجُوعِ فِكْرَةٌ مُعَيَّنَةٌ هِيَ كُلُّ مَا فِي مَذْهَبِ الْأَشْتِرَاقِيَّةِ مِنَ الْحَقِّ ، وَهِيَ تِلْكَ الْفِكْرَةُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا مُسَاوَاةُ الْغَنِيِّ لِلْفَقِيرِ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، وَأَطْمِئْنَانُ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ بِطَبِيعَتِهِ ، وَمِنْ هَذَيْنِ : (الْأَطْمِئْنَانِ وَالْمُسَاوَاةِ) ، يَكُونُ هُدُوءُ الْحَيَاةِ بِهُدُوءِ النَّفْسِ اللَّئِينِ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مِنَ الْأَشْتِرَاقِيَّةِ بَقِيَ هَذَا الْمَذْهَبُ كُلُّهُ عَبَثًا مِنَ الْعَبَثِ فِي مُحَاوَلَةٍ جَعَلَ التَّارِيخُ الْإِنْسَانِيَّ تَارِيخًا لَا طَبِيعَةَ لَهُ .

* * *

مِنْ قَوَاعِدِ النَّفْسِ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْشَأُ عَنِ الْأَلَمِ ، وَهَذَا بَعْضُ السَّرِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ الْعَظِيمِ فِي الصُّومِ ، إِذْ يُبَالِغُ أَشَدُّ الْمُبَالَغَةِ ، وَيَدَقُّ كُلَّ التَّدْقِيقِ ، فِي مَنَعَ الْعِذَاءِ وَشَبْهِ الْعِذَاءِ عَنِ الْبُطْنِ وَحَوَاشِيهِ مُدَّةَ أَجْرِهَا آخِرُ الطَّاقَةِ ؛ فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِزَبْذَبَةِ الرَّحْمَةِ فِي النَّفْسِ ، وَلَا طَرِيقَةَ غَيْرِهَا إِلَّا التَّكَبُّاتُ وَالْكَوَارِثُ ؛ فَهُمَا طَرِيقَتَانِ كَمَا تَرَى : مُبْصِرَةٌ وَعَمِيَاءُ ، وَخَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ ، وَعَلَى نِظَامٍ وَعَلَى فُجَاءَةٍ .

وَمَتَى تَحَقَّقَتْ رَحْمَةُ الْجَانِعِ الْغَنِيِّ لِلْجَانِعِ الْفَقِيرِ ، أَصْبَحَ لِلْكَلِمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ سُلْطَانُهَا النَّافِذُ ، وَحَكَمَ الْوِزَارُ النَّفْسِيَّ عَلَى الْمَادَّةِ ؛ فَيَسْمَعُ الْغَنِيُّ فِي صَمِيرِهِ صَوْتَ الْفَقِيرِ يَقُولُ : « أَعْطِنِي » . ثُمَّ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ طَلَبًا مِنَ الرَّجَاءِ ، بَلْ طَلَبًا مِنَ الْأَمْرِ لَا مَفَرَّ مِنْ تَلَبُّبِهِ وَالْإِسْتِجَابَةِ لِمَعَانِيهِ ، كَمَا يُوَاسِي الْمُبْتَلَى مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ بَلَاءِهِ .

أَيُّهُ مُعْجَزَةٌ إِصْلَاحِيَّةٌ أَعْجَبُ مِنْ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَقْضِي أَنْ يُخَذَفَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا تَارِيخُ الْبُطْنِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا فِي كُلِّ سَنَةٍ ، لِيَجِلَّ فِي مَحَلِّهِ تَارِيخُ النَّفْسِ ^(١) ؟ وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ هُنَاكَ نِسْبَةً رِيَاضِيَّةً هِيَ الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذَا الصُّومِ شَهْرًا كَامِلًا مِنْ كُلِّ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، وَأَنَّ هَذِهِ النِّسْبَةَ مُحَقَّقَةٌ فِي أَعْمَالِ النَّفْسِ لِلْجَسَمِ ، وَأَعْمَالِ الْجَسَمِ لِلنَّفْسِ ؛ كَأَنَّهُ الشَّهْرُ الصَّحِّي الَّذِي يَفْرُضُهُ الطَّبُّ فِي كُلِّ سَنَةٍ لِلرَّاحَةِ وَالْإِسْتِجْمَامِ وَتَغْيِيرِ الْمَعِيشَةِ ،

(١) أَقْسَدُ ضَعْفُ النَّفْسِ هَذَا الْمَعْنَى ، فَمَا يُحَقِّقُ النَّاسُ (تَارِيخُ الْبُطْنِ) كَمَا يُحَقِّقُونَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَهُمْ يَعُوضُونَ الْبُطْنَ فِي اللَّيْلِ مَا مَنَعُوهُ فِي النَّهَارِ ، حَتَّى جَعَلُوا الصَّيَامَ تَغْيِيرًا لِمَوَاعِيدِ الْأَكْلِ . . . وَلَكِنَّ الصُّومَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ قَوَائِدُهُ .

لِلْإِحْدَاتِ التَّرْوِيمِ الْعَصَبِيِّ فِي الْجِسْمِ ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ آتٍ مِنَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ دَوْرَةِ الدَّمِّ فِي الْجِسْمِ
الْإِنْسَانِيِّ وَبَيْنَ الْقَمَرِ مِنْذُ يَكُونُ هَلَالًا إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْمَحَاقِ ؛ إِذْ تَنْتَفِخُ الْعُرُوقُ وَتَرْبُو
فِي النُّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ ، كَأَنَّهَا فِي (مَدٍّ) مِنْ نُورِ الْقَمَرِ مَا دَامَ هَذَا النُّورُ إِلَى زِيَادَةٍ ،
ثُمَّ يُرَاجِعُهَا (الْعُزْرُ) فِي النُّصْفِ الثَّانِي حَتَّى كَانَتْ لِلدَّمِّ إِضَاءَةٌ وَظَلَامًا . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ لِلْقَمَرِ
أَثَرًا فِي الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَفِي مَدِّ الدَّمِّ وَجْزِهِ ^(١) ، فَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْحِكْمَةِ فِي أَنْ
يَكُونُ الصِّيَامُ شَهْرًا قَمَرِيًّا دُونَ غَيْرِهِ .

وَفِي تَرَائِيِ الْهَلَالِ وَوُجُوبِ الصَّوْمِ لِرُؤْيِيهِ مَعْنَى دَقِيقٍ آخَرٍ ، وَهُوَ - مَعَ إِبْنَاتِ رُؤْيِيِ
الْهَلَالِ وَإِعْلَانِهَا - إِبْنَاتُ الْإِرَادَةِ وَإِعْلَانُهَا ، كَأَنَّمَا أَتَبَعْتُ أَوَّلَ الشَّعَاعِ السَّمَائِيِّ فِي التَّنْبُهِ
الْإِنْسَانِيَّ الْعَامَّ لِفُرُوضِ الرَّحْمَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْبِرِّ .

وَهُنَا حِكْمَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حِكَمِ الصَّوْمِ ، وَهِيَ عَمَلُهُ فِي تَرْبِيَةِ الْإِرَادَةِ وَتَقْوِيَتِهَا بِهِذَا
الْأُسْلُوبِ الْعَمَلِيِّ ، الَّذِي يُدْرَبُ الصَّائِمُ عَلَى أَنْ يَمْتَنِعَ بِاخْتِيَارِهِ مِنْ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّةِ حَيَوَانِيَّتِهِ ،
وَيُبْقِيَهُ مُصِرًّا عَلَى الْأَمْتِنَاعِ ، مُنْهِيًّا لَهُ بِعَزِيمَتِهِ ، صَابِرًا عَلَيْهِ بِأَخْلَاقِ الصَّبْرِ ، مُرَاوِلًا فِي كُلِّ
ذَلِكَ أَفْضَلَ طَرِيقَةٍ نَفْسِيَّةٍ لِاِكْتِسَابِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ تَرْسُخٌ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَعْدُو
عَلَيْهَا عَوَادِي الْغَرِيزَةِ .

وَإِذْ رَأَى هَذِهِ الْقُوَّةَ مِنَ الْإِرَادَةِ الْعَمَلِيَّةِ مَنَزَلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً سَامِيَّةً ، هِيَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَوْقَ
مَنَزَلَةِ الذِّكَاةِ وَالْعِلْمِ ، فَفِي هَذَيْنِ تَعَرُّضُ الْفِكْرَةِ مَرَّةً مُرُورَهَا ، وَلَكِنَّهَا فِي الْإِرَادَةِ تَعَرُّضُ
لِتَسْتَقَرَّ وَتَتَحَقَّقَ . فَنَنْظُرُ فِي أَيِّ قَانُونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَفِي آيَةِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، نَجِدُ ثَلَاثِينَ
يَوْمًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ قَدْ قُرِضَتْ قَرَضًا لِتَرْبِيَةِ إِرَادَةِ الشَّعْبِ وَمُرَاوِلَتِهِ فِكْرَةً نَفْسِيَّةً وَاحِدَةً
بِخَصَائِصِهَا وَمُلَابَسَاتِهَا حَتَّى تَسْتَقَرَّ وَتَرْسُخَ وَتَعُودَ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ ، لَا خَبْرًا يَمُرُّ
بِرَأْسِهِ مَرًّا .

أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ إِتَاحَةُ الْفُرْصَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي جَعَلُوهَا أَسَاسًا فِي تَكْوِينِ الْإِرَادَةِ ؟ وَهَلْ

(١) { قَالَ الْجَاحِظُ فِي « الْحَيَوَانِ » : « وَلِزِيَادَةِ الْقَمَرِ حَتَّى يَصِيرَ بَذْرًا ، أَثَرٌ بَيِّنٌ فِي زِيَادَةِ الدَّمَاءِ
وَالْأَدِمَةِ وَجَمِيعِ الرُّطُوبَاتِ » { .

تَبْلُغُ الْإِرَادَةَ فَيَمَّا تَبْلُغُ ، أَعْلَى مِنْ مَنَزِلَتِهَا حِينَ تَجْعَلُ شَهَوَاتِ الْمَرْءِ مُذْعِنَةً لِفِكْرِهِ ، مُنْقَادَةً لِلْوَازِعِ النَّفْسِيِّ فِيهِ ، مُصَرِّفَةً بِالْحِسِّ الدِّينِيِّ الْمُسَيِّطِرِ عَلَى النَّفْسِ وَمَشَاعِرِهَا ؟

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ عَمَّ هَذَا الصَّوْمُ الْإِسْلَامِيُّ أَهْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا ، لَأَلَّ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ إِجْمَاعًا مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى إِعْلَانِ الثَّوْرَةِ شَهْرًا كَامِلًا فِي السَّنَةِ ، لِيُطَهِّرَ الْعَالَمَ مِنْ رَذَائِلِهِ وَفَسَادِهِ ، وَمَخِيقِ الْأَثَرِ وَالْبُخْلِ فِيهِ ، وَطَرَحِ الْمَسْأَلَةِ النَّفْسِيَّةِ لِيَتَدَارَسَهَا أَهْلُ الْأَرْضِ دِرَاسَةً عَمَلِيَّةً مُدَّةَ هَذَا الشَّهْرِ بِطَوْلِهِ ، فَيَهْبِطُ كُلُّ رَجُلٍ وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ وَمَكَامِنِهَا ، لِيُخْتَبِرَ فِي مَصْنَعِ فِكْرِهِ مَعْنَى الْحَاجَةِ وَمَعْنَى الْفَقْرِ ، وَلِيَفْهَمَ فِي طَبِيعَةِ جِسْمِهِ - لَا فِي الْكُتُبِ - مَعَانِيَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْإِرَادَةِ ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ دَرَجَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ ؛ فَيَحَقِّقَ بِهِذِهِ وَتِلْكَ مَعَانِيَ الْإِخَاءِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ .

شَهْرٌ هُوَ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ فِي الزَّمَنِ ؛ مَتَى أَشْرَفْتَ عَلَى الدُّنْيَا قَالَ الزَّمَنُ لِأَهْلِهِ : هَذِهِ أَيَّامٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا مِنْ أَيَّامِي ، وَمِنْ طَبِيعَتِكُمْ لَا مِنْ طَبِيعَتِي . فَيَقْبَلُ الْعَالَمُ كُلَّهُ عَلَى حَالِهِ نَفْسِيَّةً بِالْغَةِ السَّمُوءِ ، يَتَعَهَّدُ فِيهَا النَّفْسُ بِرِيَاضَتِهَا عَلَى مَعَالِي الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَفْهَمُ الْحَيَاةَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ غَيْرِ وَجْهِهَا الْكَالِحِ ، وَيَرَاهَا كَأَنَّمَا أُجِيعَتْ مِنْ طَعَامِهَا أَلْيَوْمِ كَمَا جَاعَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ مِنْ خَسَائِسِهَا وَشَهَوَاتِهَا كَمَا فَرَّغَ هُوَ ، وَكَأَنَّمَا أُلْزِمَتْ مَعَانِيَ الْقَفْوَى كَمَا أُلْزِمَهَا هُوَ . وَمَا أَجْمَلَ وَأَبْدَعَ أَنْ تَظْهَرَ الْحَيَاةُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ - وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا - حَامِلَةً فِي يَدِهَا الشُّبْحَةَ . . . ! فَكَيْفَ بَهَا عَلَى ذَلِكَ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ؟

إِنَّهَا وَاللَّهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِرُسُوخِ فِكْرَةِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ فِي النَّفْسِ ؛ وَتَطْهِيرِ الْاجْتِمَاعِ مِنْ خَسَائِسِ الْعَقْلِ الْمَادِّيِّ ؛ وَرَدِّ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمَخْكُومَةِ فِي ظَاهِرِهَا بِالْقَوَانِينِ ، وَالْمُحَرَّرَةِ مِنَ الْقَوَانِينِ فِي بَاطِنِهَا - إِلَى قَانُونٍ مِنْ بَاطِنِهَا نَفْسِهِ يُطَهِّرُ مَشَاعِرَهَا ، وَيَسْمُو بِإِحْسَانِهَا ، وَيَصْرِفُهَا إِلَى مَعَانِي إِنْسَانِيَّتِهَا ، وَيُهْدِئُ مِنْ زِيَادَاتِهَا ، وَيُخَذِّفُ كَثِيرًا مِنْ فُضُولِهَا ، حَتَّى يَرْجِعَ بِهَا إِلَى نَحْوٍ مِنْ بَرَاءَةِ الطُّفُولَةِ ، فَيَجْعَلُهَا صَافِيَةً مُشْرِقَةً بِمَا يَجْتَذِبُ إِلَيْهَا مِنْ مَعَانِي الْخَيْرِ وَالصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ عَمَلِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ فِي النَّفْسِ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهَا مَا يَلَانِمُهَا وَيَتَّصِلُ بِطَبِيعَتِهَا مِنَ الْفِكْرِ الْأُخْرَى . وَالنَّفْسُ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُخْتَسِبَةٌ فِي فِكْرَةِ الْخَيْرِ وَحَدِّهَا ، فَهِيَ تَبْنِي بِنَاءَهَا مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَتْ .

هَذَا عَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَ شَهْرًا مِنَ الْأَشْهُرِ ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ نَفْسَانِي كَفُضُولِ الطَّبِيعَةِ فِي دَوْرَانِهَا ؛ وَلَهُوَ وَاللَّهُ أَشْبَهُ بِفَضْلِ الشِّتَاءِ فِي حُلُولِهِ عَلَى الدُّنْيَا بِالْجَوِّ الَّذِي مِنْ طَبِيعَتِهِ السُّحُبُ وَالْغَيْثُ ، وَمِنْ عَمَلِهِ إِمدَادُ الْحَيَاةِ بِوَسَائِلِ لَهَا مَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السَّنَةِ ، وَمِنْ رِيَاضَتِهِ أَنْ يُكْسِبَهَا الصَّلَابَةَ وَالْإِنْكِمَاشَ وَالْخِفَّةَ ، وَمِنْ غَايَتِهِ إِعْدَادُ الطَّبِيعَةِ لِلتَّفَتُّحِ عَنْ جَمَالِ بَاطِنِهَا فِي الرَّبِيعِ الَّذِي يَتَلَوُّهُ .

وَعَجِيبٌ جِدًّا أَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الَّذِي يَدْخُرُ فِيهِ الْجِسْمُ مِنْ قُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ فَيُودِعُهَا مَضْرِفَ رُوحَانِيَّتِهِ ، لِيَجِدَ مِنْهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ مَدَدَ الصَّبْرِ وَالْتِّبَابَ وَالْعِزَمَ وَالْجَلَدَ وَالْعُشُونَةَ - عَجِيبٌ جِدًّا أَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْأَقْصَادِيَّ هُوَ مِنْ أَيَّامِ السَّنَةِ كَفَائِدَةُ ٨، ٣٣ فِي الْأَمَةِ . . . فَكَأَنَّهُ يُسْجَلُ فِي أَعْصَابِ الْمُؤْمِنِ حِسَابُ قُرُونِهِ وَرَبِيعِهِ ، فَلَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ زِيَادَةُ ٨، ٣٣ مِنْ قُوَّتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْرُوحَانِيَّةِ .

وَسِحْرُ الْعَظَائِمِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمَةِ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تَدْخِرُ هَذِهِ الْقُوَّةَ وَتُوقِرُهَا لِتَسْتَمِدَّهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ أَسْلَافِنَا الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُونَ عَلَى الْفَقْرِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَعْصَابِهِمْ مَا تَجِدُ الْجُيُوشُ الْعُظْمَى الْيَوْمَ فِي مَحَازِنِ الْعِتَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالذَّخِيرَةِ .

* * *

كُلُّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الْمَقَالِ مِنَ فَلَسَفَةِ الصَّوْمِ ؛ فَإِنَّمَا اسْتَخَرَجْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَفْقُونَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٨٣] . وَقَدْ فَهَمَهَا الْعُلَمَاءُ جَمِيعًا عَلَى أَنَّهَا مَعْنَى « التَّقْوَى » ، أَمَا أَنَا فَأَوَّلْتُهَا مِنْ « الْأَتْقَاءِ » ؛ فَالْصَّوْمُ يَتَّقِي الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ كَالْحَيَوَانِ الَّذِي شَرِيعَتُهُ مَعْدَتُهُ ، وَأَلَّا يُعَامِلَ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَوَادِّ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ ؛ وَيَتَّقِي الْمُجْتَمَعُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَا يَكُونُ إِنْسَانٌ مَعَ إِنْسَانٍ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ : يَبِيعُهُ الْقُوَّةَ كُلَّهَا بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَلْفِ .

وَبِالصَّوْمِ يَتَّقِي هَذَا وَهَذَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ ، فَإِنَّ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ الْحَاضِرُ مِنْ طَبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَمَا خَلْفَهُ هُوَ الْجِيلُ الَّذِي سَمِرَتْ مِنْ هَذِهِ الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَيَعْمَلُ

يَنْفُسِهِ فِي الْحَاضِرِ ، وَيَعْمَلُ بِالْحَاضِرِ فِي الْآتِي (١) .

وَكُلُّ مَا شَرَحْنَاهُ فَهُوَ اتِّقَاءُ ضَرَرٍ لِحُلْبٍ مَنَفَعَةٍ ، وَاتِّقَاءُ رَذِيلَةٍ لِحُلْبٍ فَضِيلَةٍ ؛ وَبِهَذَا التَّأْوِيلُ تَوَجُّهُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ جِهَةً فَلَسْفِيَّةً عَالِيَةً ، لَا يَأْتِي الْبَيَانُ وَلَا الْعِلْمُ وَلَا الْفَلَسَفَةُ بِأَوْجَزٍ وَلَا أَكْمَلَ مِنْ لَفْظِهَا ؛ وَتَوَجُّهُ الصَّيَامِ عَلَى أَنَّهُ شَرِيعَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ إِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ ، يَتَّقِي بِهَا الْأَجْتِمَاعُ شُرُورَ نَفْسِهِ ؛ وَلَنْ يَتَهَدَّبَ الْعَالَمُ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مَعَ الْقَوَانِينِ الْثَّاقِلَةِ هَذَا الْقَانُونُ الْعَامُّ الَّذِي أَسْمُهُ الصَّوْمُ ، وَمَعْنَاهُ : « قَانُونُ الْبَطْنِ » . . .

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا شَهْرَ رَمَضَانَ ! لَوْ عَرَفَكَ الْعَالَمُ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ لَسَمَّاكَ : « مَدْرَسَةُ الثَّلَاثِينَ يَوْمًا » .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) يُقَسِّرُ الْقُرْآنُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ الَّذِي اسْتَخْرَجْنَاهُ أَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي سُورَةِ (يس) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [سورة يس / الآية : ٤٥] . . .

وَيُضَيِّرُ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُحْتٌ (يُضَمُّ الْجَحِيمُ) فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَزُفْتُ وَلَا يَجْهَلُ ، وَإِنْ أَمْرٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ » [البخاري ، رقم : ١٨٩٤ ، ١٩٠٤ ؛ مسلم ، رقم : ١١٥١ ؛ الترمذي ، رقم : ٧٦٤ ، ٧٦٦ ؛ النسائي ، رقم : ٢٢١٣ - ٢٢١٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٣٦٣ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٦٣٨ ، ١٦٩١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٧١٥٤ ، ٧٤٤١ ، ٧٥٥٢ ، ٧٦٣٦ ، ٧٧٣٠ ، ٧٧٨١ ، ٧٩٩٦ ، ٢٧٣٤٤ ، ٨٣٤٥ ، ٨٣٦٦ ، ٢٧٣٠٧ ، ٨٨٦٨ ، ٨٨٩٣ ، و . . . ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ٦٨٩ ، ٦٩٠ ؛ الدارمي ، رقم : ١٧٦٩ ، ١٧٧٠] .

وَالْجُحْتُ الْوَقَايَةُ يَتَّقِي بِهَا الْإِنْسَانُ ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَتَّقِيَ الصَّائِمُ أَنَّهُ قَدْ صَامَ لِيَتَّقِيَ شَرَّ حَيَوَانِيَّتِهِ وَحَوَاسِيهِ ، فَقَوْلُهُ : « إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ » ؛ أَيْ : إِنِّي غَائِبٌ عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ وَالشَّرِّ ؛ إِنِّي فِي نَفْسِي وَلَسْتُ فِي حَيَوَانِيَّتِي .

ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ (*)

لَوْ أَتَيْتَنِي سَأَلْتُ أَنْ أَجْمَلَ فَلَسَفَةَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهَا فِي لَفْظَيْنِ ، لَقُلْتُ : إِنَّهَا ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ . وَلَوْ سُئِلَ أَكْبَرُ فَلَسَفَةِ الدُّنْيَا أَنْ يُوجَزَ عِلَاجُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهُ فِي حَرْفَيْنِ ، لَمَا زَادَ عَلَى الْقَوْلِ : إِنَّهُ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ . وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ عُلَمَاءِ أَوْرَبَةِ لِيَدْرُسُوا الْمَدِينَةَ الْأَوْزُبِيَّةَ وَيَخْصُرُوا مَا يُعْزِرُهَا فِي كَلِمَتَيْنِ لَقَالُوا : ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ .

فَلَيْسَ يَنْتَظِرُ الْعَالَمُ أَنْبِيَاءَ وَلَا فَلَسَفَةَ وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عُلَمَاءَ يُدْعُونَ لَهُ بِدَعَا جَدِيدًا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَسِّرَ لَهُ الْإِسْلَامَ هَذَا التَّفْسِيرَ ، وَيُنِيبَ لِلدُّنْيَا أَنْ كُلَّ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عِلْمِيَّةٍ تَمْنَعُ الْأَخْلَاقَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي الْحَيِّ فَيَخْلَعَ مِنْهَا وَيَلْبَسَ ، إِذَا تَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِهَا أَوْ نَزَلَتْ ؛ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْبَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا حَالِيهِ الَّذِي هُوَ فِيهَا مِنَ الثَّرْوَةِ أَوْ الْعِلْمِ ، وَمِنْ الِازْتِفَاعِ أَوْ الضَّعَةِ ، وَمِنْ حُمُولِ الْمُنْزِلَةِ أَوْ نَبَاهَتِهَا ؛ وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا الدَّرَجَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الْكَوْنُ فِي سُمُوهِ وَكَمَالِهِ ، وَفِي تَقْلُبِهِ عَلَى مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةٍ بَعْدَ شَرِيعَةٍ ، وَتَجَرِبَةٍ بَعْدَ تَجَرِبَةٍ ، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ .

أَنْتَهَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى تَبَدُّلِ الْأَخْلَاقِ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ وَحَرَمَهُ الْإِعْسَارُ فُتُونُ اللَّذَّةِ ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدُ ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِرًا عَلَى الْغِنَى ، وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِجُفُورِهِ عَلَى مَدِّ مَا يَتَطَوَّحُ بِهِ الْأَمَالُ ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شِقَاءُ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فُسَادُهَا .

وَمَنْ وُلِدَ فِي بَطْنِ كُوْخٍ ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضًا إِنْسَانِيَّةً ؛ كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرَبَةً أَدَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ وَلَا نِظَامٍ وَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ١١٥ ، ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٤٨٤ - ١٤٨٦ .

فَنَ . . . ثُمَّ يُقَابِلُهُ مَنْ وَلَدَ فِي الْقَصْرِ أَوْ شَبِهَ الْقَصْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ ، كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظَمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً ، وَأَعْجُوبَةً فَنً ، وَطُرْفَةً تَذْيِيرً ، وَشَيْئًا مَعَ شَيْءٍ ، وَطَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ .

وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ يَقَرُّ ثَبَاتَ الْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ النَّفْسَ عَلَيْهِ ، وَيَجْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ الْمُجْتَمَعِ وَحِرَاسَتِهِ ، لِأَنَّ هُنَاكَ حُدُودًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ تَتَمَيَّزُ بِحُدُودٍ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الضَّبْطِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ ، وَلَا تَقْدِيرٌ إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ ؛ وَحَتَّى لَا تَغْلُو الْحَيَاةُ وَلَا تَنْزِلَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا تَرَى مِنْ كِفَاتِي مِيزَانٍ شَدَّتَا فِي عِلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتُحَرِّكُهُمَا مَعًا ، فِيهِ يَذَانِهَا هِيَ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّازِلِ لِنَدْلٍ عَلَيْهِ ، وَتَشِيلُ بِالْعَالِي لِيُبَيِّنَ عَنْهُ ؛ فَالْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَدِينَةُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ .

* * *

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ الْعَظَمِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ فِي الْإِنْسَانِ فِيهِ ثَابِتَةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ ، وَلَنْ تَبْدَلَ أَلْسُنُ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُوجِدُهَا وَتُفْنِيهَا فِيهِ مُصَرَّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا ؛ وَبَيْنَ عَمَلِ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَمَلِ قَانُونِهَا فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ التَّكْوِينِ ؛ وَفِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ تَجِدُ تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهُ سَابِحًا فِي الدَّمِ .

هِيَ الْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا الْإِلَهِيَّ ، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ تَعَادِلِهَا وَاخْتِلَافِ بَيْنِهَا ، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ الْخُلُقُ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُونًا إِلَهِيًّا عَلَى قُوَّةِ كَقُوَّةِ الْكَوْنِ وَضَبْطٍ كَضَبْطِهِ .

وَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الضَّبْطِ يَسْتَطِيعُ الْخُلُقُ أَنْ يُحَوِّلَ الْمَادَّةَ الَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ أَشَدَّ وَصَلَبَ ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعُفَ . فَهُوَ قَدْرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي طَاعَتِكَ ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ الْفَضْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ الْمَرْجِ بَيْنَهُمَا ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ التَّعْدِيلِ فِيهِمَا ، وَقَدْ سُوِّغَ الْقُدْرَةُ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعًا ، وَلَوْ لَا أَنَّهُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لِعَاشَ الْإِنْسَانُ طُولَ التَّارِيخِ قَبْلَ التَّارِيخِ ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينٌ يَذُوقُ تَوَرُّخَ فُضَائِلِهِ أَوْ رَذَائِلِهِ بِمَدَحٍ أَوْ ذَمٍّ .

فَلَا عِبْرَةَ بِمَظْهَرِ الْحَيَاةِ فِي الْفَرْدِ ، إِذِ الْفَرْدُ مُقَيَّدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوعٍ هُوَ لِلْمَجْمُوعِ
وَلَيْسَ لَهُ وَحْدَهُ ؛ فَإِنَّكَ تَرَى الْغَرَائِزَ دَائِبَةً فِي إِبْجَادِ هَذَا الْفَرْدِ لِتَوْعِهِ بِسُنَنِ مِنْ أَعْمَالِهَا ،
وَدَائِبَةً كَذَلِكَ فِي إِهْلَاكِهِ فِي التَّوَعِ نَفْسِهِ بِسُنَنِ أُخْرَى ؛ فَلَيْسَ قَانُونُ الْفَرْدِ إِلَّا أَمْرًا عَارِضًا
كَمَا تَرَى ؛ وَبِهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْفَرْدُ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ ، ثُمَّ تَبْقَى الْأَخْلَاقُ الَّتِي بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَجْمُوعِ ثَابِتَةً عَلَى صُورَتِهَا .

فَالْأَخْلَاقُ عَلَى أَنَّهَا فِي الْأَفْرَادِ ، هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا حُكْمُ الْمُجْتَمَعِ عَلَى أَفْرَادِهِ ، فَقَوَامُهَا
بِالْإِجْتِمَاعِ لَا غَيْرَ .

* * *

وَحِينَ يَقَعُ الْفَسَادُ فِي الْمَجْمَعِ عَلَيْهِ مِنْ آدَابِ النَّاسِ ، وَيَلْتَوِي مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا ،
وَتَشْتَبِهَ الْعَالِيَةُ وَالسَّافِلَةُ ، وَتُطْرَحَ الْمُبَالَاهُ بِالضَّمِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَيَقُومُ وَزْنُ الْحُكْمِ فِي
اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْقَبِيحِ وَالْمُنْكَرِ ، وَتَجْرِي الْعِبْرَةُ فِيمَا يَغْتَبِرُونَهُ بِالرَّدَائِلِ وَالْمُحَرَّمَاتِ ، وَلَا
يُعْجِبُ النَّاسَ إِلَّا مَا يُفْسِدُهُمْ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ بِمَوْعِ الْقَانُونِ وَيَحِلُّ فِي مَحَلِّ الْعَادَةِ ؛
فَهُنَاكَ لَا مِسَاكَ لِلْخُلُقِ السَّلِيمِ عَلَى فَرْدٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَحَوُّلِ الْفَرْدِ فِي حَقِيقَتِهِ ؛ إِذْ كَانَ
لَا يَجِيءُ أَبَدًا إِلَّا مُتَصَدِّعًا فِي كُلِّ مَظَاهِرِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَيُّمَا وَقَعَ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ جَاءَ
مَكْشُورًا أَوْ مَثْلُومًا ، وَكَأَنَّهُ مُثْقَلٌ مِنْ عَالَمٍ إِلَى عَالَمٍ ثَانٍ بِغَيْرِ نَوَامِيسٍ الْأَوَّلِ .

وَمَا شَدَّ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَأَفْرَادٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ ؛ فَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ قُوَّةُ
التَّحْوِيلِ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ : لَا يُبْعَثُ أَحَدُهُمْ إِلَّا لِيَهْدِيَ بِهِ الْهَلِيجُ فِي التَّارِيخِ ، وَيَتَطَرَّقَ بِهِ
النَّاسُ إِلَى سُبُلٍ جَدِيدَةٍ كَأَنَّمَا تَطْرُدُهُمْ إِلَيْهَا الْعَوَاصِفُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَرَائِكُنُ ، لَا شَرِيعَتُهُ
وَمَبَادِئُهُ وَأَدَابُهُ ؛ وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ التَّائِيْدُونَ فَهُمْ دَائِمًا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَمْكَنُ بَشَرِيَّةٍ مُحَصَّنَةٍ
لِحِفْظِ كُنُوزِهَا وَإِحْرَازِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَهُمْ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ عِصْمَةٌ وَمَنْعَةٌ كَالْجِبَالِ فِي
ذَاتِ الْأَرْضِ .

* * *

الْأَخْلَاقُ فِي رَأْيِي هِيَ الطَّرِيقَةُ لِتَنْظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدَةِ عَلَى مُفْتَضَلِ الْوَاجِبَاتِ

الْعَامَّةُ ، فَالْإِصْلَاحُ فِيهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ ، أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُجْتَمَعِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى حُكْمِهِ . وَعِنْدِي أَنَّ لِلشَّعْبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَبَاطِنُهُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يَحْكُمُ الْفَرْدَ ، وَظَاهِرُهُ هُوَ الْقَانُونُ الَّذِي يَحْكُمُ الْجَمِيعَ ، وَلَنْ يَصْلُحَ لِلْبَاطِنِ الْمُتَّصِلُ بِالْغَيْبِ إِلَّا ذَلِكَ الْحُكْمُ الدِّينِيُّ الْمُتَّصِلُ بِالْغَيْبِ مِثْلُهُ ؛ وَمِنْ هُنَا تَبَيَّنَ مَوَاضِعُ الْاِخْتِلَالِ فِي الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُبِّيَّةِ الْجَدِيدَةِ ؛ فَهِيَ فِي ظَاهِرِ الشَّعْبِ دُونَ بَاطِنِهِ ، وَالْفَرْدُ فَاسِدٌ بِهَا فِي ذَاتِ نَفْسِهِ إِذَا هُوَ تَحَلَّلَ مِنَ الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَبْدُو صَالِحًا مُنْتَظِمًا فِي ظَاهِرِهِ الْأَجْتِمَاعِيِّ بِالْقَوَانِينِ وَبِالْآدَابِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفْرِضُهَا الْقَوَانِينُ ، فَلَا يَبْرَحُ هَازِنًا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَاحِرًا بِهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ فِيهِ ، ثُمَّ لَا تَكُونُ عِنْدَهُ أَخْلَاقًا يَغْتَدُّ بِهَا إِلَّا إِذَا دَرَّتْ بِهَا مَنَافِعُهُ ، وَإِلَّا فَهِيَ ضَارَةٌ إِذَا كَانَتْ مِنْهَا مَضَرَّةٌ ، وَهِيَ مُؤْلَمَةٌ إِذَا حَالَتْ دُونَ اللَّذَاتِ . وَلَا يَنْفَكُ هَذَا الْفَرْدُ بِتَحَوُّلٍ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ فِي بَاطِنِهِ غَيْرُ مُقَيَّدٍ إِلَّا بِأَهْوَاءِهِ وَتَرْغَاتِهِ ، وَكَلِمَتَا الْفُضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مَعْدُومَتَانِ فِي لُغَةِ الْأَهْوَاءِ وَالتَّرغَاتِ ؛ إِذِ الْعَايَةُ الْمَتَاعُ وَاللَّذَّةُ وَالنَّجَاحُ ، وَلَيْكُنِ السَّبَبُ مَا هُوَ كَائِنٌ . . .

وَبِهَذَا فَلَنْ تَقُومَ الْقَوَانِينُ فِي أُورُبَّةِ إِذَا فَنِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْأَدْيَانِ فِيهَا أَوْ كَاثَرَهُمُ الْمُمْلِحِدُونَ ، وَهُمْ الْيَوْمَ يُبْصِرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا فَعَلَتْ عَقْلِيَّةُ الْحَرْبِ الْعُظْمَى فِي طَوَائِفِ مِنْهُمْ قَدْ خَرَبَتْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِيْمَانِهَا فَتَحَوَّلُوا ذَلِكَ التَّحَوُّلَ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَعْصَابُهُمْ بَعْدَ الْحَرْبِ مَا تَزَالُ مُحَارِبَةٌ مُقَاتِلَةٌ تَرْمِي فِي كُلِّ شَيْءٍ بِرُوحِ الدِّمِ وَالْأَسْلَاءِ وَالْقُبُورِ وَالتَّعَفُّنِ وَالْبُلَى . . . وَأَنْتَهَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ أُمَّمٍ وَأُمَّمٍ ، وَلَكِنَّهَا بَدَأَتْ بَيْنَ أَخْلَاقٍ وَأَخْلَاقٍ .

وَقَدِيمًا حَارَبَ الْمُسْلِمُونَ ، وَفَتَحُوا الْعَالَمَ ، وَدَوَّخُوا الْأُمَّمَ ؛ فَأَتَّبُوا فِي كُلِّ أَرْضٍ هُدًى دِينِيَّ وَفُؤَةً أَخْلَاقِيَّ الثَّابِتَةَ ، وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَرْبِ مَا هُوَ مِنْ وَرَائِهَا فِي السَّلْمِ ؛ وَذَلِكَ بِثَبَاتِ بَاطِنِهِمُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ ، وَلَا تَسْتَحِفُّهُ الْحَيَاةُ بِتَرْفِهَا ، وَلَا تَسْفَهُهُ الْمَدَنِيَّاتُ فَتَحْمِلُهُ عَلَى الطَّيْشِ .

وَلَوْ كَانُوا هُمْ أَهْلُ هَذِهِ الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ بِكُلِّ مَا قَدَفَتْ بِهِ الدُّنْيَا ، لَبَقِيَتْ لَهُمُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ الْقَوِيَّةُ ، لِأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هُوَ وَعَقْلِيَّتُهُ فِي سُلْطَانِ بَاطِنِهِ الثَّابِتِ الْقَارِّ عَلَى حُدُودِ بَيْتِهِ مُحَصَّلَةٌ مَقْسُومَةٌ ، تَحُوطُهَا وَتُمْسِكُهَا أَعْمَالُ الْإِيْمَانِ الَّتِي أَحْكَمَهَا الْإِسْلَامُ أَشَدَّ إِحْكَامٍ يَفْرِضُهَا عَلَى النَّفْسِ مُنَوَّعَةً مُكَرَّرَةً : كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ ، لِيَمْنَعَ بِهَا تَغْيِيرًا وَيُحَدِّثَ

بِهَا تَعْيَرًا آخَرَ ، وَيَجْعَلُهَا كَالْحَارِسَةِ لِلْإِرَادَةِ مَا تَزَالُ تَمُرُّ بِهَا وَتَتَعَبُّهَا بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ ^(١) .

وَإِنَّمَا الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ كَالْمَوْجِ وَالسَّاحِلِ ؛ فَإِذَا جُنَّ الْمَوْجُ فَلَنْ يَضِيرَهُ مَا بَقِيَ السَّاحِلُ رَكْنًا هَادِنًا مُشْدُودًا بِأَعْضَادِهِ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . أَمَّا إِذَا مَاجَ السَّاحِلُ . . . فَذَلِكَ أَسْلُوبُ آخَرُ غَيْرُ أَسْلُوبِ الْبَحَارِ وَالْأَعَاصِيرِ ؛ وَلَا جَزْمَ إِلَّا يَكُونُ إِلَّا خَسْفًا بِالْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا .

* * *

فِي الْكَوْنِ أَصْلٌ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، هُوَ قَانُونٌ ضَبَطَ الْقُوَّةَ وَتَضَرَّيْفَهَا وَتَوَجَّيْهَهَا عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ . وَيُقَالُ فِي الْإِنْسَانِ قَانُونٌ مِثْلُهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لِيُضَبَّطَ مَعَانِي الْإِنْسَانِ وَتَضَرَّيْفَهَا وَتَوَجَّيْهَهَا عَلَى مُقْتَضَى الْكَمَالِ . وَكُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَوَاجِبَاتِهِ وَأَدَابِهِ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا حَرَكَةٌ هَذَا الْقَانُونِ فِي عَمَلِهِ ؛ فَمَا تِلْكَ إِلَّا طُرُقٌ ثَابِتَةٌ لِخَلْقِ الْحَسِّ الْأَدَبِيِّ ، وَتَثْبِيتهِ بِالتَّكْرَارِ ، وَإِدْخَالِهِ فِي نَامُوسٍ طَبِيعِيٍّ بِإِجْرَائِهِ فِي الْأَنْفُسِ مَجْرَى الْعَادَةِ ، وَجَعَلِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ قُوَّةً فِي بَاطِنِهَا ، فَتُسَمَّى الْوَاجِبَاتُ وَالْأَدَابُ فُرُوضًا دِينِيَّةً ؛ وَمَا هِيَ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا عَنَاصِرُ تَكْوِينِ النَّفْسِ الْعَالِيَةِ ، وَتَكُونُ أَوَامِرَ وَهِيَ حَقَائِقُ ^(٢) .

وَمِنْ ذَلِكَ أَرَانَا نَحْنُ الشَّرَفِيِّينَ نَمْتَارُ عَلَى الْأَوْرَثِيِّينَ بِأَنَّا أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى قَوَانِينِ الْكَوْنِ ؛ فَفِي أَنْفُسِنَا ضَوَائِبُ قُوَّةٍ مَتِينَةٍ إِذَا نَحْنُ أَقْرَبْنَا مَدْيَتَهُمْ فِيهَا - وَهِيَ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَقْبَلُ إِلَّا مَحَاسِنَ هَلِةِ الْمَدَنِيَّةِ - سَبَقْتَاهُمْ وَتَرَكْنَا غِبَارَ أَفْدَامِنَا فِي وَجْهِهِمْ ، وَكُنَّا الطَّبَقَةَ الْمُصَفَّاءَ الَّتِي يَنْشُدُونَهَا فِي إِنْسَانِيَّتِهِمْ الرَّاهِنَةِ وَلَا يَجِدُونَهَا ، وَنَمْتَارُ عَنْهُمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِأَنَّا لَمْ نُنْشِئْ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةَ وَلَمْ تَنْشِئْنَا ، فَلَيْسَ حَقًّا عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ سَيِّئَاتِهَا فِي حَسَنَاتِهَا ،

(١) فَصَّلْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَقَالَاتِنَا : كَمَقَالَةِ « حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ » ، وَ« [شَهْرٍ لِلثَّوَرَةِ . . .] فَلِسْفَةِ الصَّوْمِ » وَغَيْرِهِمَا .

(٢) هَذَا هُوَ الَّذِي صَلَّ عَنْهُ مُصْطَفَى كَمَالٍ وَمَنْ شَابِعُوهُ ، وَمَنْ قَلَدُوهُ ، وَمَنْ انْحَدَعُوا فِيهِ ، وَلَوْ فَهَمَهُ حَقُّ الْفَهْمِ لَجَدَّدَ تَرْكِيبَهُ وَجَدَّدَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي قَصِيرُ الْبَصَرِ ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ جَدَّدَ تَوْنًا وَقُبْعَةً . . . ١

وَحَمَاقَتَهَا فِي حِكْمَتِهَا ، وَتَرَوْنَهَا فِي حَقِيقَتِهَا ؛ وَأَنْ نُسَيِّغَ مِنْهَا الْحُلُوةَ وَالْمُرَّةَ ،
وَالنَّاصِجَةَ وَالْفَجَّةَ ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ نُحْصِلُهَا وَنُقْتَسِبُهَا وَنَرْتَجِعُ مِنْهَا الرِّجْعَةَ الْحَسَنَةَ ؛ فَلَا نَأْخُذُ
إِلَّا الشَّيْءَ الصَّالِحَ مَكَانَ الشَّيْءِ قَدْ كَانَ دُونَهُ عِنْدَنَا وَنَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا نَأْخُذُ وَلَا
نَدْعُ إِلَّا عَلَى الْأَصُولِ الضَّابِطَةِ الْمُحَكَّمَةِ فِي أَدْيَانِنَا وَأَدَابِنَا ؛ وَلَسْنَا مِثْلَهُمْ مُتَّصِلِينَ مِنْ
حَاضِرِ مَدَنِيَّتِهِمْ بِمِثْلِ مَا ضَرِبَهُمْ ، بَيِّنْدَ أَنْ الْعَجَبَ الَّذِي مَا يَفْرُغُ عَجَبِي مِنْهُ ، أَنَّ الْمَوْسُومِينَ
مِمَّا بِالتَّجْدِيدِ لَا يُحَاوِلُونَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَآخِرَهَا إِلَّا هَذِمَ تِلْكَ الضَّوَابِطُ الَّتِي هِيَ كُلُّ مَا نَمْتَازُ
بِهِ ، وَالَّتِي هِيَ كَذَلِكَ كُلُّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوْرَبَةَ لَضْبِطِ مَدَنِيَّتِهَا ؛ وَيَسْمُونَ ذَلِكَ تَجْدِيدًا ،
وَلَهُوَ بِأَنْ يُسَمَّى حَمَاقَةً وَجَهْلًا أَوْلَى وَأَحَقُّ .

أَقُولُ وَلَا أَبَالِي : إِنَّمَا أَتَّبِلُنَا فِي نَهَضَتِنَا هَذِهِ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُتَرْجِمِينَ قَدْ أَحْزَرُوا الثَّقَلَ مِنْ
لُغَاتِ أَوْرَبَةِ ، وَلَا عَقْلَ لَهُمْ إِلَّا عَقْلُ مَا يَنْقُلُونَهُ ؛ فَصَنَعْتُهُمُ التَّرْجَمَةَ مِنْ حَيْثُ يَذَرُونَ أَوْ
لَا يَذَرُونَ صَنَعَةً تَقْلِيدَ مَخْضٍ وَمُتَابَعَةً مُسْتَعْبِدَةً ، وَأَصْبَحَ عَقْلُهُمْ بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالطَّبِيعَةِ ،
إِذَا فَكَّرَ انْتَجَذَ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ لَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ . وَإِذَا صَحَّ أَنْ أَعْمَلْنَا هِيَ
الَّتِي تَعْمَلُنَا - كَمَا يَقُولُ بَغْضُ الْحُكَمَاءِ - فَهُمْ بِذَلِكَ خَطَرٌ أَيْ خَطَرٍ عَلَى الشَّعْبِ وَقَوْمِيَّةٍ
وَدَائِيَّةٍ وَخَصَائِصٍ ، وَيُوشِكُ إِذْ هُوَ أَطَاعَهُمْ إِلَى كُلِّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَنْ ... أَنْ يُتْرَجِمُوهُ
إِلَى شَعْبٍ آخَرَ ...

* * *

إِنَّ أَوْرَبَةَ وَمَدَنِيَّتَهَا لَا تُسَاوِي عِنْدَنَا شَيْئًا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُحَقِّقُ فِينَا مِنْ اتِّسَاعِ الدَّائِيَّةِ
بِعُلُومِهَا وَقَوْنِهَا ، فَإِنَّمَا الدَّائِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ آسَاسُ قُوَّتِنَا فِي التَّرَاعِ الْعَالَمِيِّ بِكُلِّ مَظَاهِرِ أَثْنِهَا
كَانَ ؛ وَلَهَا وَحْدَهَا ، وَبِأَعْيَانِ مِنْهَا دُونَ سِوَاهَا ، نَأْخُذُ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ مَدَنِيَّةِ أَوْرَبَةِ ،
وَنُهْمِلُ مَا نُهْمِلُ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتْرُكَ التَّثَبُّتَ فِي هَذَا وَلَا أَنْ نَتَّسِمَحَ فِي دَقِّهِ الْمَحَاسِبَةِ
عَلَيْهِ .

فَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الضَّوَابِطِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ الْأَدْيَانِ فِينَا ، ثُمَّ إِذْخَالُ
الْوَاجِبَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ فِي هَذِهِ الضَّوَابِطِ لِرَبْطِهَا بِالْعَصْرِ وَحَضَارَتِهِ ، ثُمَّ تَسْيِيقُ
مَظَاهِرِ الْأُمَّةِ عَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ وَالضَّوَابِطِ ، ثُمَّ الْعَمَلُ عَلَى اتِّحَادِ الْمَشَاعِرِ

وَتَمَازُجَهَا لَتَقْوِيْمٍ هَذَا الْمَظْهَرِ الشَّعْبِيِّ فِي جُمْلَتِهِ بِتَقْوِيْمٍ أَجْزَائِهِ . هَذِهِ هِيَ الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعَةُ
الَّتِي لَا يَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا بِنَاءُ الشَّرْقِ .

وَالْإِلْحَادُ وَالتَّرَعَاثُ السَّافِلَةُ وَتَخَانِيثُ الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُبِّيَّةِ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا أَنْ تُظْهِرَ
الْخَطَرَ فِي أَجْمَلِ أَشْكَالِهِ . . . ، ثُمَّ الْجَهْلُ بِعُلُومِ الْقُوَّةِ الْحَدِيثَةِ وَبِأُصُولِ التَّذْيِيرِ وَحَيَاةِ
الْاجْتِمَاعِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، ثُمَّ التَّدْلِيْسُ عَلَى الْأُمَّةِ بِأَرَاءِ الْمُقَلِّدِينَ وَالزَّائِفِينَ
وَالْمُسْتَعْمِرِينَ لِمَخْقِ الْأَخْلَاقِ الشَّعْبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ التَّخَاذُلُ وَالشَّقَاقُ
وَتَدَابُّرُ الطَّوَائِفِ وَمَا كَانَ بِسَبِيلِهَا . تِلْكَ هِيَ الْمَعَاوِلُ الْأَرْبَعُ الَّتِي لَا يَهْدُمُ غَيْرُهَا بِنَاءَ
الشَّرْقِ .

فَلْيَكُنْ دَائِمًا شِعَارُنَا ، نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ ، هَذِهِ الْكَلِمَةُ : أَخْلَاقُنَا قَبْلَ مَدَنِيَّتِهِمْ .

قُلْتُ لِنَفْسِي . . .
وَقَالَتْ لِي . . . (*) (١)

قُلْتُ لِنَفْسِي : وَبِحُكِّ يَا نَفْسُ ! مَا لِي أَتَحَامَلُ عَلَيْكَ ؛ فَإِذَا وَفَيْتِ بِمَا فِي وَسْئِكَ
أَرَدْتُ مِنْكَ مَا فَوْقَهُ وَكَلَّفْتُكَ أَنْ تَسْعِيَ ؛ فَلَا أَرَا أَعْثُكَ مِنْ بَعْدِ كَمَالِ فِيهَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ ،
وَبَعْدَ الْحَسَنِ فِيهَا هُوَ الْأَحْسَنُ ؛ وَمَا أَنْفُكَ أَجْهَدُكَ كُلَّمَا رَاجَعَكَ الشَّاطُ ، وَأُضْنِيكَ كُلَّمَا
ثَابَتَ الْقُوَّةُ ؛ فَإِنْ تَكُنْ لِكَ هُمُومٍ فَأَنَا أَكْبَرُهَا ، وَإِذَا سَاوَرْتِكَ الْأَحْزَانُ فَأَكْثَرُهَا مِمَّا أَجْلِبُ
عَلَيْكَ .

أَنْتِ يَا نَفْسُ سَائِرَةٌ عَلَى النَّهْجِ ، وَأَنَا أَعْتَسِفُ بِكَ ، أُرِيدُ الطَّيْرَانَ لَا السَّيْرَ ، وَأَبْتَغِي
عَمَلَ الْأَعْمَارِ فِي عُمْرٍ ، وَأَسْتَحِثُّكَ مِنْ كُلِّ هَمَجَةٍ رَاحَةٍ بِفَجْرِ تَعَبٍ جَدِيدٍ (٢) ، وَكَأَنِّي لَكَ
زَمَنٌ يَمَادُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا يَبْرَحُ يَنْبِقُ عَلَيْكَ مِنْ ظَلَامٍ بَنُورٍ وَمِنْ نُورٍ بِظَلَامٍ ؛ لِئَهَيَّ لَكَ
الْقُوَّةَ الَّتِي تَمْتَدُّ بِكَ فِي التَّارِيخِ مِنْ بَعْدٍ ، فَتَذْهَبِينَ (٣) حِينَ تَذْهَبِينَ ، وَيَعِيشُ قَلْبُكَ فِي
الْعَالَمِ سَارِيًا بِكَلِمَاتٍ أَفْرَاحِهِ وَأَحْزَانِهِ .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي مَعَكَ دَائِبًا كَالْحَبِيبَةِ الْوَفِيَّةِ لِمَنْ تُحِبُّهُ (٤) : تَرَى
خُضُوعَهَا أَحْيَانًا هُوَ أَحْسَنُ الْمُقَاوَمَةِ ؛ وَأَمَّا أَنْتِ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ تَتَعَبُ وَلَا تَرَالُ تَتَعَبُ ، فَكَيْفَ
تُرِينِي (٥) أَنْتِ تَتَقَدَّمُ وَلَا تَرَالُ تَتَقَدَّمُ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ٧٤ ، ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣ ديسمبر / كانون الأول سنة ١٩٣٤ م ،
السنة الثانية ، الصفحات : ١٩٦٣ - ١٩٦٦ .

(١) كَيْتَتْ فِي سَاعَةِ ضَجَرٍ ، مِنْ هَلْهِ السَّاعَاتِ الطَّارِئَةِ عَلَى الرُّوحِ ، يُخَلِّلُ لِلْمَرْءِ فِيهَا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ ،
وَالْعَالَمُ كُلُّهُ وَحْدَهُ ؛ ذَاكَ فِي وُجُودِ نَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَالْآخِرُ فِي وُجُودِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « بِفَجْرِ يَمْتَدُّ مِنْهُ نَهَارٌ مُضْطَرِبٌ » بَدَلًا مِنْ : « بِفَجْرِ تَعَبٍ جَدِيدٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « تَذْهَبِي » بَدَلًا مِنْ : « تَذْهَبِينَ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « تُحِبُّ » بَدَلًا مِنْ : « تُحِبُّهُ » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « تَذْلِينِي » بَدَلًا مِنْ : « تُرِينِي » .

لَيْسَتْ دُنْيَاكَ يَا صَاحِبِي مَا تَجِدُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، بَلْ مَا تُوجِدُهُ بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَزِدْ شَيْئًا عَلَى الدُّنْيَا كُنْتَ أَنْتَ زَائِدًا عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَإِنْ لَمْ تَدْعَهَا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْتَهَا ، فَقَدْ وَجَدْتَهَا وَمَا وَجَدْتِكَ ؛ وَفِي نَفْسِكَ أَوَّلُ حُدُودِ دُنْيَاكَ وَآخِرُ حُدُودِهَا . وَقَدْ تَكُونُ دُنْيَا بَعْضِ النَّاسِ حَانُوتًا صَغِيرًا ، وَدُنْيَا الْآخَرِ كَالْقَرْيَةِ الْمُلَمَّلَمَةِ ^(١) ، وَدُنْيَا بَعْضِهِمْ كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ ؛ أَمَّا دُنْيَا الْعَظِيمِ فَقَارَةٌ بِأَكْمَلِهَا ، وَإِذَا انْفَرَدَ أَمْتَدَّ فِي الدُّنْيَا فَكَانَ هُوَ الدُّنْيَا .

وَالْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تَعْتَدِي بِالتَّعَبِ وَالْمُعَانَاةِ ؛ فَمَا عَانَيْتُهُ الْيَوْمَ حَرَكَةً مِنْ جِسْمِكَ ، أَلْقَيْتُهُ غَدًا فِي جِسْمِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى اللَّحْمِ وَالْدَّمِ . وَسَاعَةُ الرَّاحَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ التَّعَبِ ، هِيَ فِي لَدُنَّهَا كَأَيَّامٍ ^(٢) مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ تَعَبٍ سَاعَةٍ . وَمَا أَشْبَهَ الْحَيِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَوَشِكَ أَنْقِطَاعِهِ مِنْهَا ، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ^(٣) عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَلَوَائِيقُهَا ؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدُرُهَا ثَلَاثَةَ أَغْوَامٍ ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضُرُوبًا مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُتْجُونِهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقَ أَحْمَقَ إِلَى نِهَايَةِ الْحُمُقِ ؟

أَتَعَبَ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي ، فِيهِ النَّاسُ تَعَبَ مَخْلُوقٍ مِنْ عَمَلِهِ ، فَهُوَ لَيْنٌ هَيِّنٌ مُسَوِّىٌ تَسْوِيَةً ؛ وَفِيهِمْ تَعَبٌ خَالِقٌ عَمَلُهُ ، فَهُوَ جَبَّارٌ مُتَمَرِّدٌ لَهُ الْقَهَرُ وَالْعَلْبَةُ . وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكِيدُ لِتَسْمُوَ بِرُوحِكَ إِلَى هُمُومِ الْحَقِيقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَتَسْمُوَ بِجِسْمِكَ إِلَى مَشَقَّاتِ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَبًا فِي حَفْرِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَبٌ مِنْ حَفْرِ الْكَثْرِ .

أَتَعَبَ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ الرُّوحِ هُوَ عُمْرُهَا ؛ فَأَعْمَالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحَانِيُّ ، كَعُمْرِ الْجِسْمِ لِلْجِسْمِ ؛ وَأَحَدُ هَذَيْنِ ^(٤) عُمْرٌ مَا يَعِيشُ ، وَالْآخَرُ عُمْرٌ مَا سَيَعِيشُ .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَقَدْ مَلَلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ . وَإِنَّ عَمَلَ التَّغْيِيرِ فِي الدُّنْيَا لَهُوَ هَذَا

(١) { أَيْ : الصَّغِيرَةُ تَقُومُ بِالدُّوْرِ الْقَلِيلَةِ الْمُجْتَمِعَةِ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَيَّامٌ » بَدَلًا مِنْ : « كَأَيَّامٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مَعْدُودَةٌ » وَفِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى : « مَعْدُودَةٌ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَأَحَدُهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « وَأَحَدُ هَذَيْنِ » .

لَهَا كُلَّمَا بُنِيتْ ، ثُمَّ بَنَاؤُهَا كُلَّمَا هُدِمَتْ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ بِصُورَتَيْنِ مَعًا ؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطَهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خَيَالِيًا كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الثُّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ ... ! فَهُوَ يَخْتَمِلُ { فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ } تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ ! وَكَمْ مِنْ أَسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ فِي خَاطِرِي قُلْتُ : آه ، هَذَا الَّذِي كَانَ ... !

أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ ثِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهَا فِي رَأْيِ النَّفْسِ ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ؛ وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أَحْيَانًا كَالْفِطَارِ السَّرْبَعِ مُنْطَلِقًا بِرُكَّابِهِ ^(١) وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ ، وَأَرَى الْعُقْلَةَ الْمُفْرِطَةَ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَطُرُ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْظَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ ، فَإِذَا قَضَى الْمُدَّةَ قِيلَ لَهُ : أَبْدَأْ مِنَ الْآنِ . كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَيُذَرِّكُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ ، وَأَنْتَهَى مِنْ عُمُرِهِ إِلَى الْتَهْيَاةِ الْمَعْدُودَةِ - رَجَعَ مِنْ بَعْدِهَا يَعِيشُ مُنْتَظِمًا عَلَى اسْتِوَاءٍ وَاسْتِقَامَةٍ ، وَفِي إِذْرَاكِ وَتَمْيِيزٍ . مَعَ أَنَّ الْخُرَافَةَ نَفْسَهَا لَمْ تَقْبَلْ قَطُّ أَنْ يُعَدَّ مِنْهَا فِي أَوْهَامِ الْحَيَاةِ أَنَّ رَجُلًا بَلَغَ الثَّمَانِينَ أَوْ الثُّلُثِينَ وَحَانَ أَجَلُهُ فَأَصْبَحُوا لَمْ يَجِدُوهُ مَيِّتًا فِي فِرَاشِهِ ؛ بَلْ وَجَدُوهُ مَوْلُودًا فِي فِرَاشِهِ ... !

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَأَنْتَ مَا شَأْنُكَ بِالنَّاسِ وَالْعَالَمِ ؟ يَا هَذَا ! لَيْسَ لِمُصْبَاحِ الطَّرِيقِ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّ الطَّرِيقَ مُظْلِمٌ » . إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ كَلَامًا أَنْ يَقُولَ : « هَانَذَا مُضِيءٌ » .

وَالْحَكِيمُ لَا يَضْجُرُ وَلَا يَضِيقُ وَلَا يَتَمَلَّمُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْخَفُ وَلَا يَطِيشُ وَلَا يَسْتَرْسِلُ فِي كَذِبِ الْوَهْمِ ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ أَثَرُ الْحَيَاةِ الْبَهِيمِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا أَثَرُ الرُّوحِ الْقَوِيَّةِ فِي إِنْسَانِيَّتِهَا . وَالْحَيَوَانُ هُوَ الَّذِي يَجُوعُ وَيَشْبَعُ لَا النَّفْسُ . وَبَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ مِمَّا يَغْتَوِرُ الْحَيَوَانِيَّةَ - كَالْخُلُوقِ وَالْأَمْتِلَاءِ ، وَاللَّدَّةِ وَالْأَلَمِ - تَعْمَلُ قُوَى الْحَيَوَانِ أَشْيَاءَهَا الْكَثِيرَةَ الَّتِي تَسَلِّطُ بِهَا عَلَى النَّفْسِ ، لِتُخْطِئَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَنُفُوسِ الْحَيَوَانِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ الْحِكْمَةِ صَبْطُ الْأَدَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِي الْجِسْمِ ، كَمَا تَوَضَّعُ أَلِيْدُ الْعَالِمَةِ عَلَى مَفَاتِيحِ الْفِطَارِ الْمُنْطَلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ وَيَغْلِي .

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِرُكَّابِهِ » بَدَلًا مِنْ : « بِرُكَّابِهِ » .

اعْمَلْ يَا صَاحِبِي عَمَلَكَ ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ فِي الْعَالَمِينَ مَنْ يَضْجُرُ فَلَا تَضْجُرْ مِثْلَهُ ، بَلْ خُذِ
أُطْمِئْنَانَهُ إِلَى أُطْمِئْنَانِكَ ، وَدَعُهُ يَحُلْ وَتَضَاعَفْ أَنْتَ .

إِنَّهُ لَيُؤْشِكُ أَنْ يَكُونَ فِي النَّاسِ نَاسٌ (كَالْبُتُوكِ) : هَذِهِ مُسْتَوْدَعَاتُ لِلْمَالِ تَحْفَظُهَا
وَتُخْرِجُ مِنْهُ وَتُكْمِّرُهُ ، وَتِلْكَ مُسْتَوْدَعَاتُ لِلْفَضَائِلِ تَحْفَظُهَا وَتُخْرِجُ مِنْهَا وَتَزِيدُهَا . وَإِفْلَاسُ
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ ، هُوَ إِطْلَاقُ التَّكْبَةِ مُسَدَّسَهَا عَلَى رَجُلٍ تَقْتُلُهُ ؛ وَلَكِنْ إِفْلَاسُ (بَنِكَ)
هُوَ إِطْلَاقُ التَّكْبَةِ مَذْفَعَهَا الْكَبِيرَ عَلَى مَدِينَةٍ تُدَمِّرُهَا .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدَّ الْأَلَمَ فِي تَحْوِيلِ هَذَا الْجَسَدِ إِلَى شِبْهِ رُوحٍ مَعَ الرُّوحِ ! تِلْكَ
هِيَ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ لَهَا يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ .
وَالْأَسَدُ الْمَحْبُوسُ مَحْبُوسَةٌ فِيهِ قُوَّتُهُ وَطِبَاعُهُ ؛ فَإِنْ زَالَ الْوُجُودُ الْحَدِيدِيُّ مِنْ حَوْلِهِ ، أَوْ
وَهَنَتْ نَاحِيَةٌ مِنْهُ ، انْطَلَقَ الْوَحْشُ . وَالرَّجُلُ الْفَاضِلُ فَاضِلٌ مَا دَامَ فِي قَفْصِهِ الْفِكْرِيُّ ،
وَهُوَ مَا دَلِمَ فِي هَذَا الْقَفْصِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نُمُودَجًا مَعْرُوضًا لِلتَّنْفِيجِ الْمُمْكِنِ فِي
النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ : نُصِيْبُهُ السَّيِّئَةُ مِنَ النَّاسِ لِيُخْتَبَرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ ، وَبَبُلُوهُ الْخِيَانَةُ لِيَتَجَدَّ
الْوَفَاءُ ، وَيَكْرَهُهُ الْبُغْضُ لِيُقَابِلَهُ بِالْحُبِّ ، وَتَأْتِيهِ اللَّغْنَةُ لِيَتَجَدَّ الْمَغْفِرَةُ ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعَبُ
فَيَبْلُغُ مَنْزِلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ التَّعَبَ لِيَبْلُغَ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا ، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَادْرَكَ حَقِيقَةً كَانَتْ
الْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيَدْرِكَ غَيْرَهَا .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفُوقَ نَفْسَهُ
الْكَبِيرَةَ ؛ إِنَّ الشَّيْءَ النَّهَائِيَّ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الصَّغَائِرِ وَالشَّرِّ ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ وَعَظَائِمُ
النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْتَى ، فَهَذِهِ حَقَائِقُ أَرْزَلِيَّةٌ وَجِدَتْ لِنَفْسِهَا : كَالْهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَخْيَاءِ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْتَهِي ، وَلَا يُعْرَفُ أَيْنَ يَنْتَهِي ؛ وَكَمَا يَنْبُعُ الْكُورُ مِنَ الشَّمْسِ
وَالْكَوَاكِبِ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، يُشَبُّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الصِّفَاتُ مُنْبَعِثَةً إِلَى النَّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ
الْمَلَائِكَةِ ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حَظًّا مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ

وَالْكَمَالِ وَعَظَائِمِ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْنَى ، وَقَدْ تَعَظُمَ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا ،
وَقَدْ تَضَعُرُ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا : أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ .

لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبِّ ؛ مِنْ رِقَّةِ النَّفْسِ وَرَحْمَتِهَا ، إِلَى
هَوَى النَّفْسِ وَعَشْقِهَا .

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْمَفَاتِيحِ الْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ ، وَفَتَحَ
لِلْعَظَائِمِ وَالْمُعْجَزَاتِ أَبْوَابَهَا ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ الْخُرَافَةَ الْفَارِعَةَ مُعْجَزَةً دَقِيقَةً ، وَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ
بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَيُضْبِحُ سِرُّ هَذَا الْحُبِّ لَا يَنْتَهِي ؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يَذْرُكُ وَلَا
يُعْرَفُ .

أَجْهَدْ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي ، فَمَا هُوَ فَفَصُّكَ الْفِكْرِيُّ ذَلِكَ الشُّعَاعُ الَّذِي يَخْبِسُكَ ،
وَلَكِنَّهُ صَفْلُ النَّفْسِ لِتَتَلَقَّى الْأَنْوَارَ ، وَلَا بُدَّ لِلْمِرَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الْحَجَرِ { لِتَكُونَ بِهِ
مِرَاةً } .

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَمَا أَشَدُّهُ مَضَضًا أَعَانِيهِ ! إِنْ أَمَرِي لِيَذْهَبُ قُرْطًا ^(١) . أَكَلَمَا ابْتَغَيْتُ مِنْ
الْحَيَاةِ مَرَحًا أَطْرَبَ لَهُ وَأَهْتَرُ ، جَاءَتْنِي الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أَسْتَكِدُّ فِيهَا وَأَذَابُ ؟ أَهَذَا السُّرُورُ
الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي ؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرِبِهَا : تَنْمُو
صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا ، وَنَازِلَةً بِجُذُورِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرَحُ مَكَانَهَا ؟ أَوْ أَنَا تِمْنَالٌ عَلَى قَاعِدَتِهِ :
لَا يَتْرَخِرُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةٌ لَا يَكُونُ تِمْنَالًا ، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعَهُ مَعَانِي الْعُظْمَةِ الَّتِي نُصِبَ
لَهَا ؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَيَحَكَ ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ
ارْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسْنِحُ أَهْلُ قَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَةٍ غَيْرِهَا ، وَابْتَغُوا أَنْ
يَخْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذَكَارًا صَغِيرًا إِلَى الْأَرْضِ - لَوْجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنْ
الْأَرْضِ كُلِّهَا ؛ فَأَنْتَ سَائِعٌ فِي سَمَاوَاتٍ .

(١) { أَنِي : مُجَاوِزًا فِيهِ عَنِ الْحَدِّ } .

أَنْتَ كَالنَّائِمِ : لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا يَرَى إِلَّا وَصَفَهُ ، وَحِكْمَتَهُ ، وَالسُّرُورَ بِمَا التَّدَمُّنُهُ ، وَالْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ .

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً يَرِجْلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَلْهُنَا ، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَعْمَارَهَا يَتَنَاوَلُهَا النَّاسُ ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِنْدَاعَ الْمُؤَلَّبِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤَلِّفُهُ بِأَشَدِّ الْكَدِّ وَأَعْظَمِ الْجُهِدِ ، مُطْلِقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ ، تَعْقِدُهَا شَيْئًا شَيْئًا ، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَفْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ أَقْصَى الْقُوَّةِ ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَأَيْدِيَهَا ، لِأَنَّهَا لِذَلِكَ وَجِدَتْ .

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةٍ ؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا ؛ وَشَرَطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمُبَالَغَةُ وَالتَّلَوِينُ ؛ وَلَكِنَّ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَاقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثَمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَنبِيِّهَا لَا مَفَرَّ وَلَا مَنذُوحَةَ ، وَقَدْ يُحَيِّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أَحْيَانًا أَنْ نَضْرَةَ الْمَجْدِ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّقُ حَوْلَهُ كُشَاعَ الْكَوْكَبِ ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجْرُهُ ، أَوْ أَثَرُ انْجَذَالِهِ وَالْأَلَمِ وَمَسْكَنَتِهِ ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ ؛ فَإِنَّهُ دَائِمًا يُضَيِّقُ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ ، وَيَخْلُطُ مَعْنَى بِمَعْنَى ، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ ؛ كَانَ فِيهِ مَا فِي الطُّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ ؛ وَالْعَقْلُ لَا يَرَى أَمَامَهُ إِلَّا الْإِلَهِيَّةَ ، فَهُوَ يَقْلُدُهَا فِي مُدَاخَلَةِ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، لِإِبْجَادِ الْأَسْرَارِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ .

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الْحَقِيقَةُ الصَّرِيحَةُ الثَّابِتَةُ مَدْعَاةً لِلْمَلَلِ الْعَقْلِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، لَا يَكَادُ يَفْقَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَقَيَّدُ بِهَا ، فَمَا نَالَ شَيْئًا إِلَّا لِيَطْمَعَ فِي غَيْرِهِ ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا لِيَرْهَدَ فِيهَا ، وَأَجَلُ مَا أَحَبَّهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ ، { فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَى مَوْتِهِ ، وَبَدَأَ فِي النَّفْسِ عُمْرًا آخَرَ مِنْ حَالَةٍ أُخْرَى ، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ } ؛ فَلَا بُدَّ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ صَوَابٍ مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْخَطَا ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ اثْتَفَكَ لِنَفْسِهِ ^(١) الْخَطَأَ الْمُضْحِكَ فِي شِبْهِ رِوَايَةِ خَيَالِيَّةٍ .

إِنَّهُ لَشِعْرٌ سَخِيفٌ بَالِغُ السَّخَافَةِ أَنْ يَتَحَيَّلَ الْغَرِيقُ مُفَكِّرًا فِي صَيْدِ سَمَكَةٍ رَأَاهَا . . . وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَتْلَعِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ الْعَقْلِ الَّذِي يَنْحُثُ عَنْ وَهْمٍ يُضَيِّفُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِيُضْحِكَ مِنْهَا ، كَمَا يَنْحُثُ لِنَفْسِهِ أَحْيَانًا فِي أَجْمَلِ حَقَائِقِ اللَّذَّةِ عَنْ أَلَمِ يَتَأَلَّمُ بِهِ لِيُغْبَسَ فِيهِ !

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : فَهَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُحْرِقَ دَمِي لِأَنِّي أَفَكُرُ ، وَهَلْ أَظِلُّ دَائِمًا بِهَذَا التَّفَكُّيرِ كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي وَجْهِ حَسَنَاءَ بِمَنْظَارٍ مُكَبَّرٍ : لَا يُرِيهِ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمَعشُوقَ إِلَّا نُقُوبًا وَتَخَرُّبًا كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ نَزَعَتْ مِنْهَا مَسَامِيرُ غَلِيظَةٌ . . . ! فَلَا يَجِدُ الْمُسْكِينُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِلَّا لِيَفْقِدَ ذَلِكَ الْجَمَالَ ؟ وَهَلْ بُدُّ مِنَ الشَّيْءِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا ارْتَصَدَ لَهُ مِنْ عَمَلٍ { يَحْيَاهُ بِهِ } ، فَلَا يَكُونُ الْحُوْذِيُّ حُوْذِيًّا إِلَّا لِشَيْءٍ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْخَيْلِ وَالْغِيَالِ وَالْحَمِيرِ . . . ؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : إِنَّ فَأْسَ الْحَطَّابِ لَا تَكُونُ مِنْ أَدَاةِ الطَّيِّبِ ؛ فَخُذْ لِكُلِّ شَيْءٍ أَدَاتَهُ ، وَكُنْ جَاهِلًا أَحْيَانًا ، وَلَكِنْ مِثْلَ الْجَهْلِ الَّذِي يَصْنَعُ لَوَجْهِ الطِّفْلِ بِشَاشَتِهِ الدَّائِمَةَ ؛ فَهَذَا الْجَهْلُ هُوَ أَكْبَرُ عِلْمِ الشُّعُورِ الدَّقِيقِ الْمُرْهَفِ ، وَلَوْلَا هُ الْهَلَكُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ عَمَّا وَكَمَدَا ، وَلَكَانُوا فِي هَذَا الْوُجُودِ ، عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، بَيْنَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ - كَالَّذِي قُتِلَ وَحُبِسَ فِي رَهَجٍ تُثِيرُهُ الْقَدَمُ وَالْحُفُّ وَالْحَافِرُ : لَا يَنْتَفِسُ إِلَّا أَلْعَبَارُ يَثَارُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَنْ يُفْضَى عَلَيْهِ .

أُجْهَلُ جَهْلَكَ يَا صَاحِبِي فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْخَسِيسَةِ ؛ فَإِنَّهَا الْعِلْمُ الْخَبِيثُ الَّذِي يُفْسِدُ الرُّوحَ ، وَأَعْرِفْ كَيْفَ تَقُولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلَةِ فِي مَلَانِيكِيهَا حِينَ تُسَاوِرُكَ الشَّهَوَاتُ : هَذَا لَيْسَ لِي ؛ هَذَا لَا يَنْبَغِي لِي .

إِنَّ الرُّوحَ الْكَبِيرَةَ هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا الطِّفْلُ الْمَلَانِيكِيُّ .

وَعِلْمُ خَسَائِسِ الْحَيَاةِ يَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ خَسِيسَةٍ نَفْسًا تَتَعَلَّقُ بِهَا ، فَيَكُونُ الْمُسْكِينُ بَيْنَ نَفْسَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعٍ ، إِلَى ثَلَاثَيْنِ وَأَرْبَعَيْنِ ، كُلُّهُنَّ يَتَنَارَعُنَهُ ، فَيُضَيِّعُ بِهَذِهِ الْكَثْرَةِ ، وَيُضَيِّعُ بَعْضُهُ بِلَاءَ عَلَى بَعْضٍ ، وَتَشْغَلُهُ الْقُصُورُ ، فَيَعُودُ لَهَا كَالْمَرْبَلَةِ لِمَا أُلْفِيَ فِيهَا ، وَيَمْحَقُ فِي نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ حِسُّ الْفَرَحِ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، كَمَا يُمَحَقُ فِي الْمَرْبَلَةِ مَعْنَى النِّظَافَةِ

وَمَعْنَى الْحِسِّ بِهَا .

هَذِهِ الْأَنْفُسُ الْخَيَالِيَّةُ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ الْمُنْكُودِ ، هِيَ الْأَرْوَاحُ الَّتِي يَنْفُخُهَا فِي مَصَائِبِهِ ، فَتَجْعَلُهَا مَصَائِبَ حَيَّةٍ تَعِيشُ فِي وَجُودِهِ وَتَعْمَلُ فِيهِ أَعْمَالَهَا ، وَلَوْلَاهَا لَمَاتَتْ فِي نَفْسِهِ مَطَامِعُ كَثِيرَةٌ ، فَمَاتَتْ لَهُ مَصَائِبُ كَثِيرَةٌ .

أَنْظُرْ بِالرُّوحِ الشَّاعِرَةِ ، تَرِ الْكَوْنَ كُلَّهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ أَنْسَجَامًا وَاحِدًا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْجَمَالُ وَالسَّخَرُ وَفِتْنَةُ الطَّرَبِ ؛ وَأَنْظُرْ بِالْعَقْلِ الْعَالَمِ ، فَلَنْ تَرَى فِي الْكَوْنَ كُلَّهُ إِلَّا مَوَادَّ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمِيَاءِ .

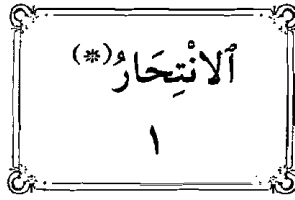
وَمَدَى الرُّوحِ جَمَالُ الْكَوْنَ كُلِّهِ ؛ وَمَدَى الْعَقْلِ قِطْعَةٌ مِنْ حَجَرٍ ، أَوْ عَظْمَةٌ مِنْ حَيَوَانٍ ، أَوْ نَسِيجَةٌ مِنْ نَبَاتٍ ، أَوْ فِلْدَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ وَمَا أَشْبَهَهَا .

أَجْهَلُ جَهْلِكَ يَا صَاحِبِي ؛ فَفِي كُلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ ، بِشَرِطِ أَلَّا تَكُونَ الْعَاشِقَ الطَّامِعَ ، وَإِلَّا أَصَبْتَ فِي كُلِّ حُسْنٍ هَمًّا وَمَشْغَلَةً ... !

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي : إِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي كَتَمْتُهُ عَنْكَ .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : وَإِلَى الْآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِلَّا جَوَابَ ذَلِكَ الَّذِي كَتَمْتُهُ عَنِّي ...



حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا ، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي ؛ لَا أَمُدُّ نَظْرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، فَرَأَيْتُهُ يَسْمَعُ إِلَى حَدِيثِنَا ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصُّوتُ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ الْثَمَلَةَ الصَّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَفْعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِينُسُ نَمَلَتِنَا .

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : أَجْتَرْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ^(١) أَمْسِ بِعِمْرَانَ الْخَبَّاطِ ، فَمَارَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَنَا حَبٌّ^(٢) مَكْسُورٌ ، تَخِيطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْطٌ مِنْ رِيحٍ ! فَقُلْتُ أَنَا : فَأَذْهَبْ فَجِنَّا بِالْمِغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ أَلْهَوَاءَ لِتَصْنَعَ لَكَ الْخَيْطَ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَمْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ ... ؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَذِهِ ! ... !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَضَحِكُنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذَ نَظْرِي الْغُلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حُزْنًا وَهَمًّا ، وَكَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا نَاكِسًا لِيَسْمَعَ بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسُهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا ، فَتَوَرَّعَ خَوَاطِرُهُ ، فَيَبْدَدَ

(*) « الرسالة » العدد : ٩٥ ، ٢٦ محرم سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٩ أبريل / نيسان ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٦٨٣ - ٦٨٧ .

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ عَامِرُ بْنُ شَرَاهِجِلِ الشَّعْبِيُّ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٠٣ لِلْهِجْرَةِ أَوْ حَوْلَهَا عَنْ بَضْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، وَكَانَ فِي عَصْرِهِ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْإِسْلَامِ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فِي الْمَدِينَةِ (ذَكَرَنَاهُ فِي: قِصَّةِ زَوَاجٍ) ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي الْبَصْرَةِ (ذَكَرَنَاهُ فِي قِصَّةِ: بَيْتِهِ الصَّغِيرَةِ) ، وَمَكْحُولُ فِي الشَّامِ ، وَالشَّعْبِيُّ هَذَا فِي الْكُوفَةِ . وَكَانَ يُغْنِيهِ فِي زَمَانِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي زَمَانِهِ .

(٢) الْحَبُّ (بِكْسْرِ الْحَاءِ) : هُوَ الزَّرْنِزُ ، يُسْتَقَطَّرُ الْمَاءُ مِنْ أَسْفَلِهِ فَيَخْرُجُ صَافِيًا ، وَيُقَالُ لِرُشْحِهِ : قَطَرُ حَبٍّ .

اجْتَمَاعُهَا عَلَى هَمِّهِ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا ، كَمَا يَفْعَلُ الْمَخْرُؤُنُ فِي مُغَالِيَةِ الْحُزْنِ وَمُدَافَعَتِهِ : يَشْغُلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا ، فَيَكُونُ الْحُزْنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمَرُ أَمَاتِ الضَّحِكِ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ حَدَّتَهُ وَشَبَابَهُ . ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : رَأَيْتَكَ يَا بُنَيَّ مُقْبِلًا عَلَيْنَا كَالْمُنْصَرِفِ عَنَّا ؛ فَمَا بِأَلَاكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحِكْنَا جَمِيعًا ؟

قَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي يَا هَذَا ؛ فَأَيْنَ مِنِّي الضَّحِكُ وَأَنَا عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ ، وَرُوحُ التُّرَابِ مَالِي عَيْنِي فِي كُلِّ مَا أَرَى ، وَكَأَنَّ حُفْرَتِي أَبْتَلَعَتِ الدُّنْيَا أَلَيْسَ أَنَا فِيهَا لِتَأْخُذَنِي فِيهَا ، وَأَنَا السَّاعَةَ مَيِّتٌ حَيٌّ ؛ رَجُلٌ فِي الدُّنْيَا وَرَجُلٌ فِي الْآخِرَةِ !

قُلْتُ : فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَلَقَدْ أَحْتَسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنَّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أَرْزُقْ غَيْرَهُ ، فَقَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ ، يَتَوَسَّمُهُ مُفَرَّقًا فِي لِدَاتِهِ ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ وُجُوهَهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحِبُّهُمْ جَمِيعًا وَأُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَالتَّأَمُّلَ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَلَكَسْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلَقَلْبِي حَدِيثٌ ! فَإِنْ رَأَيْتُهُ حَزِينًا مِثْلَكَ تَقَطَّعَتْ لَهُ مِنْ إِشْفَاقِي وَرَحْمَةٍ ، وَطَالَعَنِي فَنَائِي فِي مِثْلِ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَأُنْكَسَارِهِ ؛ فَيَعُودُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ الَّتِي عَشَّاهَا الدَّمْعُ ، تَحْمِلُ أَثَرَ الْحُزْنِ وَمَعْنَاهُ وَسِرُّهُ ؛ فَيُبْنِي مَا تَجِدُ يَا بُنَيَّ ، فَلَعَلَّ لِي سَبِيلًا إِلَى كَشْفِ ضَرْكِ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُونُ قَدْ حَزَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ الْمُتَتَوَالِ هَيِّنِ الْمُحَاوَلَةِ ، لَمْ يَجْعَلْهُ عِنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ ، وَلَكِنْ أَنَّكَ أَنْتَ صَغِيرٌ .

قَالَ الْفَتَى : مَهْلًا يَا عَمُّ ! فَإِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَقْطَعُ عِنْدَهُ الْحِيلَةَ وَلَا تَنْقَادُ فِيهِ الْوَسَائِلُ ، وَلَا عِلَاجَ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ يَأْخُذُنَا وَيَأْخُذُهُ !

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مَنْ أَحْدَدَ لِلْقَتْلِ بِجَنَابَتِهِ وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ الدَّمِّ ، فَهَلْ جَنَيْتَ أَوْ جَنَى أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنِّي تَرَكْتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَى إِذْهَابِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الدَّارَ وَاسْتَوْتَقَى مِنَ الْبَابِ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَكَأَنَّمَا لَدَغْتَنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَانْجَبَرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ

نَفْسُهُ ؛ فَتَنَاهُضْتُ ، وَلَكِنَّ الْغَلَامَ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا ، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَهَدَأَتِ الرَّجُلُ .

قُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِنَّ فِي الثُّورِ عَقْلًا ، وَلَكِنَّ مَا الَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتُ ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجِئْتُ ؟

قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ قَالَ لِي : يَا وَلَدِي ! لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ اللَّحَاقَ بِي فَارْجِعْ مَعَ اللَّيْلِ لِتُسَلِّمَ أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ أَثَرْتَ الْحَيَاةَ فَارْجِعْ مَعَ الصُّبْحِ لِتُسَلِّمَنِي إِلَى غَاسِلِي !
قُلْتُ : أَقَامِنُ أَلَّا يَكُونَ أَبُوكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُفْسِكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهُمُّ بِهِ ، حَتَّى إِذَا خَلَا وَجْهُهُ مِنْكَ أَزْهَقَ نَفْسَهُ ؟

قَالَ : لَمْ أَدْعُهُ حَتَّى أَقْسَمَ أَنْ يَخِيَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَحَتَّى أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لِأَمُوتَ مَعَهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تُفْسِكْهُ يَمِينُهُ أَمْسَكَهُ أَنْظَارِي ، وَقَدْ فَرَعْتَ الْحَيَاةَ مِثًّا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَفْرُغَ مِنْهَا ؛ وَمَنْ كَانَ فِيمَا كُنَّا فِيهِ ثُمَّ أَنْحَدَرَ إِلَى مَا أَنْحَدَرْنَا إِلَيْهِ ، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ ضِعَّةً وَلَا أَسْتِكَانَةً ؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَذَا الْإِمَامَ (الشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ الرَّأْيِ فِيمَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَتَزَلَّتْ بِهِ النَّازِلَاتُ ، وَتَعَدَّرَ الْقَوْتُ ، وَاشْتَدَّ الضَّرُّ ، وَتَدَلَّتْ بِهِ الْمَسْكَنَةُ إِلَى حَضِيضِهَا ، وَالْجِئْتُ إِلَى أَسْوَاحِ دَقِّ الرَّحَى لِمَا تَدُورُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُعَدِّ لَهُ إِلَّا رَأْيَ وَاحِدٍ فِي مَعْنَى الدُّنْيَا : هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ مُزَوَّرٌ عَلَى الدُّنْيَا .

قُلْتُ : يَا بَنِي ! فَإِنِّي أَرَاكَ أَهْدِيَا ؛ فَمَنْ أَبُوكَ ؟

قَالَ : هُوَ فُلَانُ التَّاجِرِ ، طَهَرَ طُهُورَ الْقَمَرِ وَمُحَقِّ مِحَاقَهُ ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي أَحْلَاكِ اللَّيَالِي وَأَشَدَّهَا أَنْطِمَاسًا ؛ جَهْدَهُ الْفَقْرُ ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ الْفَقْرُ وَحْدَهُ ، بَلِ اتَّهَكَتُهُ الْعِلَلُ ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْعِلَلُ مَعَ الْفَقْرِ ، بَلْ أَخَذَ الْمَوْتُ أَمْرًا تَهْتِكُ فَمَاتَتْ هَمًّا بِهِ وَيَنِي ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِي وَغَيْرَهَا ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ ثَلَاثَتِنَا يَخِيَا لِلْأُتُنَيْنِ الْآخَرَيْنِ ، فَهَذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كَلَامًا لَا يَفْرُغُ إِلَّا أَمْتَلًا ، وَلَمَّا ذَهَبَتِ الْأُمُّ ذَهَبَتِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنَّا نَقَاتِلُ الْآيَامَ عَنْهَا ، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا تُرِينَا الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا الْحَيَاةُ فَارِغَةً مِنَ الْمَعْنَى ، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ الْآيَامَ عَلَى أَنَّهَا مُجَاهَدَةُ الْبَقَاءِ ؛ أَمَّا الْآنَ فَالْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ الْحَيَاةِ . . . !

قُلْتُ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّكَ وَاللَّهِ { مَعَ أَدَبِكَ } لَحَكِيمٌ ، وَإِنِّي لَأَنْفَسُ بِكَ عَلَى الْمَوْتِ ؛ فَكَيْفَ رَدَدْتُكَ حَيَاةَ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةَ أَبِيكَ ؟

قَالَ : لَوْ بَقِيَ أَبِي حَيًّا لَبَقِيتُ ، وَلَكِنَّ الدَّهْرَ قَدْ انْتَرَعَ مِنْهُ آخِرَ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ ، حِينَ أَخَذَ الْقَلْبَ الشَّفِيقَ الَّذِي كَانَ يَجْعَلُهُ يَزِيدُ إِذَا فَكَّرَ فِي الْمَوْتِ ؛ فَهُوَ الْآنَ كَالَّذِي يُحَارِبُ عَنْ نَفْسِهِ تِلْقَاءَ عَدُوٍّ لَا يَرْحَمُهُ ؛ إِنْ عَجَزَ عَنْ عَدُوِّهِ فَالْكَرَّأَى قَتْلَ نَفْسِهِ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ تَنَكُّيلِ الْعَدُوِّ بِهِ .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَذْرَكْتُ أَنْ أَلْفَتِي يُرِيدُ مِنْ سُؤَالِ الشَّيْخِ تَحَلَّةَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا أَنْ يَمُوتَ مُسْلِمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ كَالْمُضْطَرِّ أَوْ الْمُكْرَهِ ؛ فَاشْفَقْتُ أَنْ أَكْسِرَ نَفْسَهُ إِذَا أَنَا حَدَّثْتُهُ أَوْ أَقْبَيْتُهُ ؛ وَقُلْتُ : هَذَا مَرِيضٌ يَحْتَاجُ الْعِلَاجَ لَا الْفِتْيَا ؛ وَكَانَ إِمَامَنَا (الشَّعْبِيُّ) حَكِيمًا لِحَنَّا فَطَنَّا ، سَفَرَ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَبْدِ الْمَلِكِ) وَعَاهِلِ الرُّومِ ، فَحَسَدَنَا الْعَاهِلُ أَنْ يَكُونَ فِينَا مِثْلُهُ^(١) . وَقُلْتُ : لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ بِهِ أَمْرًا . فَأَخَذْتُ بِيَدِ الْفَتَى إِلَيْهِ ، وَمَشَيْتُ أَكْلُمُهُ وَأَرْقُهُ عَنْ نَفْسِهِ . وَقُلْتُ لَهُ : أَمَا تَدْرِي أَنَّكَ حِينَ فَرَعْتَ مِنْ سُورِ الْحَيَاةِ فَرَعْتَ مِنْ غُرُورِهَا أَيْضًا ، وَأَنَّ الزَّاهِدَ الْمُتَنَطِّعَ فِي غُرُورَةِ الْجَبَلِ يَنْظُرُ مِنْ صَوْمَعَةٍ إِلَى الدُّنْيَا ، لَيْسَ بِأَحْكَمَ وَلَا أَبْصَرَ مِمَّنْ يَنْظُرُ مِنَ الْأَمَةِ إِلَى الدُّنْيَا ؟

يَا بُنَيَّ ! إِنَّ الزَّاهِدَ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ فَرَ مِنَ الرَّدَائِلِ إِلَى فَضَائِلِهِ ، وَلَكِنَّ فِرَارَهُ مِنْ مُجَاهَدَةِ الرَّدَائِلِ هُوَ فِي نَفْسِهِ رَذِيلَةٌ لِكُلِّ فَضَائِلِهِ . وَمَاذَا تَكُونُ الْعِقَّةُ وَالْأَمَانَةُ وَالصَّدُوقُ

(١) [جاء في « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٣٠٤/٤ :

قَالَ ابْنُ عَرِشَةَ : وَجَّهَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الشَّعْبِيَّ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ، يَعْني رَسُولًا ؛ فَلَمَّا أَنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ : يَا شُعْبِي ! أَتَدْرِي مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ مَلِكُ الرُّومِ ؟ قَالَ : وَمَا كَتَبَ بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَتَمَجَّبُ لِأَهْلِ دِيَارَتِكَ ، كَيْفَ لَمْ يَسْتَخْلِفُوا عَلَيْهِمْ رَسُولُكَ ؟ قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! لِأَنَّهُ رَأَى وَلَمْ يَرَكَ .

أَوْرَدَهَا الْأَصْمَعِيُّ ؛ وَمِنْهَا قَالَ : يَا شُعْبِي ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُغْرِبَنِي بِقَتْلِكَ . فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَ الرُّومِ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَبُوهُ ! وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا ذَاكَ . أَنْتَهَى] .

وَالْوَفَاءُ وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ وَغَيْرُهَا ، إِذَا كَانَتْ فِيْمَنْ أَنْقَطَعَ فِي صَحْرَاءَ أَوْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ؟
أَيَزْعُمُ أَحَدٌ أَنَّ الصَّدْقَ فَضِيلَةٌ فِي إِنْسَانٍ لَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا عَشْرَةُ أَحْجَارٍ ؟ وَآيُمُ اللَّهِ إِنَّ الْخَالِيَّ
مِنْ مُجَاهِدَةِ الرِّذَائِلِ جَمِيعًا ، لَهُوَ الْخَالِي مِنْ الْفَضَائِلِ جَمِيعًا !

يَا بُنَيَّ ! إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْتَارُهُمُ اللَّهُ فَيَكُونُونَ قَمَحَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ : يَنْبُتُونَ
وَيُخْصِدُونَ وَيُطْعَمُونَ وَيُعَجَّبُونَ وَيُخْبَرُونَ ، لِيَكُونُوا غِذَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي بَعْضِ فَضَائِلِهَا .
وَمَا أَرَاكَ أَنْتَ وَأَبَاكَ إِلَّا مِنَ الْمُخْتَارِينَ ، كَأَنَّ فِي أَعْرَاقِكُمَا دَمَ نَبِيِّ يُقْتَلُ أَوْ يُطْلَبُ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَنْتَهَيْنَا إِلَى دَارِ الشَّعْبِيِّ ، فَطَرَقْتُ الْبَابَ ، وَجَاءَ الشَّيْخُ فَفَتَحَ لَنَا ،
وَسَلَّمْنَا وَسَلَّمْ ، ثُمَّ بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَمْرٍو ! إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
فَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ ، وَتَوَالَتْ الْكَتَابَاتُ ، وَتَوَاتَرَتْ الْأَسْقَامُ . . . ثُمَّ أَقْصَصْتُ مَا قَالَ
أَبْنُهُ حَرْفًا حَرْفًا ، ثُمَّ قُلْتُ : وَإِنَّهُ الْآنَ مُوشِكُ أَنْ يُزْهَقَ نَفْسُهُ وَسَيَبْعُهُ أَبْنُهُ هَذَا ؛ وَقَدْ (هَذَا
اللَّهُ إِلَيْكَ) . فَجَاءَ يَسْأَلُكَ : أَيَمُوتُ مُسْلِمًا مِنْ أُلْجَى وَأُكْرَهَ وَأَضْطَرَّ وَاسْتَضَاقَ وَأَخْتَلَّ ،
فَتَحَسَّى سُمًّا فَهَلَكَ ، أَوْ تَوَجَّأَ بِحَدِيدَةٍ فَفَضَى ، أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِنَصْلِ فَخَفَتَ ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ
بِسِكِّينَ فَمَا رَقَا دَمُهُ حَتَّى مَاتَ ، أَوْ اخْتَنَقَ فِي حَبْلِ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ ، أَوْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقِ
فَطَاحَ . . . !

وَأَدْرَكَ الشَّيْخُ مَعْنَى قَوْلِي : (هَذَا اللَّهُ إِلَيْكَ) ، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَافِ الْمُرْتَادِفَةِ
عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَفْصَيْتُ مِنْ وَجُوهِهِ ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفَنَاءَ وَالنَّصَّ ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ
الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ ؛ فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، أَخَذَتْهُ الْأَنْفَةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ ، وَمَا أَنَا
السَّاعَةُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَمِّهِ ، فَتَذَهَبَ نُكْلُهُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَمَشِينَا ثَلَاثَتَنَا ، فَلَمَّا شَارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَاكُمْ ، وَرُبَّمَا اسْتَفْزَرَ
بِنَفْسِهِ فَأَزْهَقَهَا ، وَسَاسُورُ الْحَائِطِ وَأَتَدَلَّى ثُمَّ أَفْتَحَ لَكُمْ فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ .

* * *

وَدَخَلْنَا ، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ، خَوَارِ مَسْلُوبِ الْقُوَّةِ ، انْزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَى
الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُزْأَةٌ ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ ؛ وَصَغَرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مُعَامَلَةِ

النَّاسِ كَالَّذِي هُمْ الرَّاغِبِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزَنِ فَأَضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا ، فَهِيَ تَهُمُّ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَبَّ وَتَنْدَلِقَ .

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّبْرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَكَةِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » [٢١ سورة البقرة/ الآية : ١٧٧] .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمُحَقِّقِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ مَعْنَاهَا ، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ !

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوءَ مَسْدُودَةٍ فِي الْجِدَارِ ، فَقَالَ لِي : أَفْتَحْ هَذِهِ وَدَعِ الْهَوَاءَ يَتَكَلَّمُ مَعَنَا كَلَامَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَعَالَجْتُهَا حَتَّى فَتَحْتُهَا ، وَنَقَذَ مِنْهَا رُوحَ الدُّنْيَا ، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلرَّجُلِ : أَضْغِ إِلَيَّ ، فَإِذَا أَنَا فَرَعْتُ مِنَ الْكَلَامِ فَشَأْنُكَ بِنَفْسِكَ :

أَعْلِمْتُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ مَرَضَ ، فَأَعْضَلَ مَرَضُهُ فَأَبَيْتُهُ عَلَى سَرِيرِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَتَحَرَّكُ ، وَطَوَى فِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا ، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً . . . ؟

قَالَ الرَّجُلُ : وَفِي الدُّنْيَا مَنْ يَعِيشُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ؟

قَالَ الشَّيْخُ : صَحَّحَ الْكَلَامَ وَأَسْأَلُ : أَيُصْبِرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ : (جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ) ! وَأَيُّ شَيْءٍ لَا صَبْرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَا لَا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي الْكِيسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ ؟

أَفْتَدِرْنِي مَنْ كَانَ الصَّابِرِ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى بَلَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ مُجْتَمِعِينَ فِي عِظَامٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَى سَرِيرِهَا ؟ إِنَّهُ إِمَامُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْخَزَاعِيُّ) ^(١) الَّذِي أَرْسَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَتَوَلَّى قَضَاءَهَا ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَخْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرَ لَهُمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ . وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (الْعَلَاءُ) ، فَرَأَيْنَاهُ مُبْتَلًى عَلَى سَرِيرِ

الْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِالْجِبَالِ وَمَا شُدَّ إِلَّا بِأَنْتِهَاكَ عَصِيهِ وَذَوْبَانٍ لَحْمِهِ وَوَهْنِ عِظَامِهِ ؛ فَبَكَى
أَخُوهُ ، فَقَالَ : لِمَ تَبْكِي ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةِ ! قَالَ : لَا تَبْكِي ؛
فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ أَحَبَّهُ إِلَيَّ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُ مِنْهَا
بِالْجِبَلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ ،
وَلَوْ لَا هَذَا لَدَكَ الْجَبَلُ مَوْضِعُهُ وَغَارَ بِهِ ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى
أَعْضَائِهِ لَا يَتَكَسَّرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ ؛ إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، قَالِبَاءَ مَحْمُولٍ
عَلَى هِمَّةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ ، وَهَذَا مَعْنَى الْخَبَرِ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ
حَالٍ ، إِنَّ رُوحَهُ لَتَتَنَزَّعُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ! » . [راجع « مسند أحمد » ،
رقم : ٣٤٧١] .

ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ ذَاكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ : « أَمْتَحِنِّي ! » وَكَيْفَ
تُرَاكَ إِذَا كُنْتَ بَطْلًا مِنَ الْأَبْطَالِ مَعَ قَائِدِ الْجَيْشِ ، أَمَا تَقْرِضُ عَلَيْكَ شَجَاعَتَكَ أَنْ تَقُولَ
لِلْقَائِدِ : « أَمْتَحِنِّي وَأَزِمْ بَيْنِي حَيْثُ شِئْتَ ! » وَإِذَا رَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُتَخَفًا بِالْجِرَاحِ وَتَالِكَ
الْبُتْرُ وَالتَّشْوِينُ ، أَرَاهَا أَوْصَافًا لِمَصَائِيكَ ، أَمْ ثَنَاءٌ عَلَى شَجَاعَتِكَ ؟

ثُمَّ قَالَ : إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ أَطْمِئْنَانًا فِي النَّفْسِ عَلَى زَلَالِهَا وَكَوَارِثِهَا ، لَمْ يَكُنْ
إِيمَانًا ، بَلْ هُوَ دَعْوَى بِالْفَكْرِ أَوْ بِاللِّسَانِ لَا يَعْدُوهُمَا ، كَدَعْوَى الْجَبَانِ أَنَّهُ بَطْلٌ ، حَتَّى إِذَا
فَجَأَهُ الرُّوعُ أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ مِنَ الْخَوْفِ . . . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ قَتْلُ الْمُؤْمِنِ نَفْسَهُ لِبَلَاءٍ أَوْ مَرَضٍ
أَوْ غَيْرِهِمَا كُفْرًا بِاللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِإِيمَانِهِ ، وَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا صُورَةً أُخْرَى مِنْ طَيْسِ الْجَبَانِ الَّذِي
أَحْدَثَ فِي نِيَابِهِ !

وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ بَشَاشَةُ الرُّوحِ ، وَإِعْطَاءُ اللَّهِ الرِّضَى مِنَ الْقَلْبِ ، ثِقَّةٌ بِوَعْدِهِ
وَرَجَاءٌ لِمَا عِنْدَهُ ، وَمِنْ هَذَيْنِ يَكُونُ الْأَطْمِئْنَانُ . وَبِالْبَشَاشَةِ وَالرِّضَى وَالثِّقَةِ وَالرَّجَاءِ ،
يُصْبِحُ الْإِيمَانُ عَقْلًا ثَابِتًا مَعَ الْعَقْلِ ؛ فَإِذَا أَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَذْهَبُ مَعَهُ الصَّبْرُ وَيَطْيِئُ لَهُ
الْعَقْلُ ، وَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ فِي مِثْلِ الْجُنُونِ - بَرَزَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَقْلُهُ الرُّوحَانِيُّ وَتَوَلَّى سِيَاسَةَ
جِسْمِهِ حَتَّى يُفِيقَ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ . وَيَجِيءُ الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَغْمُرُ
بِهِ خَوْفُ النَّفْسِ مِنَ الْمَقَرِّ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَيَقْتُلُ أَقْوَاهُمَا الْأَضْعَفَ ، وَيُخْرِجُ الْأَعَزَّ

مِنْهُمَا الْأَذَلَّ .

فَالْأَظْمِنَتَانِ بِالْإِيمَانِ هُوَ قَتْلُ الْخَوْفِ الدُّنْيَوِيِّ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّضَى ، أَوْ تَحْوِيلُهُ عَنْ مَعْنَاهُ
بِجَعْلِ الْبَلَاءِ ثَوَابًا وَحَسَنَاتٍ ، أَوْ تَجْرِيدُهُ مِنْ أَوْهَامِهِ بِاعْتِبَارِ الْحَيَاةِ سَائِرَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى
الْمَوْتِ ؛ وَهُوَ بِهَذَا عَقْلُ رُوحَانِيٍّ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي تَضَرُّفِ الدُّنْيَا ، يَتْرُكُ النَّفْسَ رَاضِيَةً
مَرْضِيَّةً ، تَقُولُ لِمَصَائِبِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : نَعَمْ . وَتَقُولُ لِسَهَوَاتِهَا وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ : لَا .

وَمَا الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْكَوْنِ ؟ وَمَا خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ؟ وَمَا سُخْطُهُ وَرِضَاهُ ؟ إِنْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا
كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ تَتَكَبَّرُ وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْشُهَا . . . !

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَانْظُرْ ، أَمَا تُبْنَلَى الشَّجَرَةُ الْخَضْرَاءُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِهَا بِمِثْلِ مَا يُبْنَلَى بِهِ
الْإِنْسَانُ ، غَيْرَ أَنَّ لَهَا عَقْلًا رُوحَانِيًّا مُسْتَقِرًّا فِي دَاخِلِهَا يُفْسِكُ الْحَيَاةَ عَلَيْهَا وَيَتَرَبَّصُ حَالًا
غَيْرَ الْحَالِ ؛ وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ ظَاهِرٍهَا وَبَلَاءٍ فَالْسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي دَاخِلِهَا ، وَلَهَا دَائِمًا رَبِيعٌ
عَلَى قَدَرِهَا حَتَّى فِي قَرِّ الشَّتَاءِ .

فَالْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ الْآتِي مِنَ الْإِيمَانِ ، لَا عَمَلَ لَهُ إِلَّا أَنْ يُنْشِئَ لِلنَّفْسِ غَرِيزَةً مُتَصَرِّفَةً فِي
كُلِّ غَرَائِزِهَا ، تُكْمِلُ شَيْئًا وَتُنْقِصُ مِنْ شَيْءٍ ، وَتُوجِّهُ إِلَى نَاحِيَةٍ وَتَصْرِفُ عَنْ نَاحِيَةٍ ؛
وَبِهَذِهِ الْغَرِيزَةِ تَسْمُو الرُّوحُ فَتَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ مَصَائِبِهَا وَأَكْبَرَ مِنْ لَذَائِهَا جَمِيعًا .

وَبَلَدُ الْغَرِيزَةِ هِيَ نَفْسُهَا مَعْنَى الرَّضَى بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَهِيَ تَأْتِي بِالتَّأْوِيلِ لِكُلِّ
هُمُومِ الدُّنْيَا ، فَتَضَعُ فِي التَّكَبَّاتِ مَعَانِي شَرِيفَةً تَنْزِعُ مِنْهَا شَرَّهَا وَأَذَاهَا لِلنَّفْسِ ؛ وَلَيْسَتْ
الْمُصِيبَةُ شَيْئًا لَوْلَا تَأْدِي النَّفْسِ بِهَا . وَإِذَا وَقَعَ التَّأْوِيلُ فِي مَعَانِي التَّكَبَّاتِ أَصْبَحَتْ تَعْمَلُ
عَمَلَ الْفَضَائِلِ ، وَتَغْيِرُ طَبِيعَتَهَا ، فَيَعُودُ الْفَقْرُ بَابًا مِنَ الزُّهْدِ ، وَالْمَرَضُ نَوْعًا مِنَ
الْجِهَادِ ، وَالْحَنِيئَةُ طَرِيقًا مِنَ الصَّبْرِ ، وَالْحُزْنُ وَجْهًا مِنَ الرَّجَاءِ ، وَهَلَمْ جَرَا .

وَالنَّفْسُ وَخَدَهَا كَثْرُ عَظِيمٍ ، وَفِيهَا وَخَدَهَا الْفَرَحُ وَالْإِنْتِهَاجُ لَا فِي غَيْرِهَا ، وَمَا لَذَاتُ
الدُّنْيَا إِلَّا وَسَائِلُ لِإِنَارَةِ هَذَا الْفَرَحِ وَهَذَا الْإِنْتِهَاجِ ، فَإِنْ وَجَدَا مَعَ الْفَقْرِ بَطَلَتْ عِزُّ الْمَالِ
وَأَصْبَحَ حَجَرًا مِنَ الْحَجَرِ ؛ وَالْبَلْبُلُ يَتَغَرَّدُ بِحَنْجَرَتِهِ الصَّغِيرَةِ مَا لَا تُغْنِي فِيهِ آلاَتُ التَّطَرُّبِ

كُلُّهَا . وَفِي النَّفْسِ حَيَاةٌ مَا حَوَّلَهَا ، فَإِذَا قَوِيَتْ هَذِهِ النَّفْسُ أَذْكَتِ الدُّنْيَا ، وَإِذَا ضَعُفَتْ أَذْكَتَهَا الدُّنْيَا !

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : ثُمَّ سَكَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا ، وَكُنْتُ أَرَى الرَّجُلَ كَأَنَّمَا يَغْتَسِلُ بِكَلَامِهِ ، وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَتَنَصَّرَ وَأَنْقَلَبَ إِلَى رُوحِهِ الَّتِي كَانَ مُنْصَرِفًا عَنْهَا ، فَعَادَتْ مَصَائِبُهُ تَضْغُطُ رُوحًا لَيِّمَةً كَمَا تَضْغُطُ الْيَدُ عَلَى الْمَاءِ ، وَأَيُّقَنُ أَنَّ النَّكْبَةَ كُلَّهَا هِيَ أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْحَيَاةِ بِعَيْنِ شَهَوَاتِهِ ، فَيُنْكَبَ أَوَّلَ مَا يُنْكَبُ فِي صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ .

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي رَأْسِي مُعْجِزَةً (الْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ) وَكَيْفَ يَصْنَعُ : رَأَيْتُ عُزْرَةَ بِنَ الرُّبَيْرِ^(١) وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي رِجْلِهِ الْأَكْكِلَةُ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَطْعِهَا لَا تُفْسِدُ جَسَدَهُ كُلَّهُ ، فَدُعِيَ لَهُ مَنْ يَقْطَعُهَا ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ : نَسْفِكَ الْخُمْرَ حَتَّى لَا تَجِدَ لَهَا أَلَمًا . فَقَالَ عُزْرَةُ : لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامِ اللَّهِ عَلَى مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَةٍ ! قَالَ : فَسَفِّكَ الْمُرْقَدَ . فَقَالَ عُزْرَةُ : مَا أَحْبُّ أَنْ أُسَلِّبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي وَأَنَا لَا أَجِدُ أَلَمَ ذَلِكَ فَأَحْسِبُهُ !

ثُمَّ دَخَلَ رِجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُزْرَةُ ، فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالُوا : يُمَسِّكُونَكَ ، فَإِنَّ الْأَلَمَ رُبَّمَا عَزَبَ مَعَهُ الصَّبْرُ . قَالَ : أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي !

قَالَ الشَّيْخُ : فَانْظُرْ أَيُّهَا الضَّعِيفُ الَّذِي يُرِيدُ قَتْلَ نَفْسِهِ كَيْفَ صَنَعَ عُزْرَةُ ، وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ الْبَلَاءَ ، وَكَيْفَ صَبَرَ وَكَيْفَ أَحْتَمَلَ . إِنَّهُ أَنْصَرَفَ بِحِسِّهِ إِلَى النَّفْسِ فَأَنْبَسَطَتْ رُوحُهُ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يُكَبِّرُ وَيَهْلُلُ لِيَبْقَى مَعَ رُوحِهِ وَحْدَهَا ، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا ظَاهِرِهِ إِلَى دُنْيَا بَاطِنِهِ ، وَغَمِرَتْ حَوَاشِيهِ وَأَعْصَابُهُ بِالْثَوْرِ الْإِلَهِيِّ مِنْ مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ ، فَقَطَعَ الْقَاطِعُ كَعْبَهُ بِالسَّكِينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعَظَمَ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمُنْشَارَ وَشَرَّهَا وَعُزْرَةُ فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ ؛ ثُمَّ جِيءَ بِالرُّبَيْرِ مَغْلًا فِي مَعَارِفِ الْحَدِيدِ فَحُسِمَ بِهِ مَكَانُ الْقَطْعِ ، فَعُشِيَ عَلَى عُزْرَةَ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَلَامِ

الْمَاحِقَةِ أَنَّهُ وَلَا آمَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ : « جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ ... ! » .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأُرْهِفَ بَأْسُ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ وَقَوِيَ جَأْشُهُ ، وَأَنْبَعَثَتْ فِيهِ الرُّوحُ إِلَى عُمَرٍ جَدِيدٍ ، وَنَشَأَ لَهُ الْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ الرُّوحَانِيِّ ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَ .

وَجَاءَ هَذَا الْعَقْلُ الرُّوحَانِيُّ فَمَرَّ بِالْمِنْشَارِ عَلَى الْيَأْسِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقَطَعَهُ ، فَمَا رَاعَا إِلَّا أَنْ وَتَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا يَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا !
ثُمَّ أَكَبَّ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ : صَدَقْتَ ، « إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنْ التُّرَابِ تَتَكَبَّرُ ، وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْشُهَا ! » .

* * *

مَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّى الصَّوَابَ ، وَيَجْتَهِدَ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَيَصْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلِطَ فِيهِ مَسْأَلَةٌ ... ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَقَامَ الشَّعْبِيُّ إِلَى الرَّجُلِ فَأَعْتَقَهُ فَرَحًا بِمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، بَعْدَ إِذْ

رَأَى الثَّورَ يَجْرِي عَلَى لَوْنِهِ وَيَتَرَفَّقُ فِي دِينَا جَنَّتِهِ ؛ كَأَنَّمَا وَقَعَ الصُّلْحُ بَيْنَ وَجْهِهِ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : نِعَمَ أَخُو الْإِسْلَامِ أَنْتَ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ، فَإِنَّهُ مَا خَذَلَكَ إِلَّا وَضَعَكَ نَفْسَكَ بِإِزَاءِ اللَّهِ تُعَارِضُهُ أَوْ تُجَارِيهِ فِي قُدْرَتِهِ ، فَيَكِلُكَ إِلَى هَذِهِ النَّفْسِ ، فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى الْعَجْزِ ، وَيَنْتَهِي الْعَجْزُ بِكَ إِلَى السَّخَطِ ؛ وَمَتَى كُنْتَ عَاجِزًا سَاحِطًا ، مَحْصُورًا فِي نَفْسِكَ ؛ مَوْكُولًا إِلَى قُدْرَتِكَ ، كُنْتَ كَالْأَسَدِ الْجَائِعِ فِي الْقَفْرِ ، إِذَا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتَنَاوَلُ خَلْقَ الْفَرَسَةِ ؛ فَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى نَفْسِكَ الْيَأْسَ وَالْانْزِعَاجَ وَالْكَأَبَ ، وَأَمْنَالَهَا مِنْ هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ تَفْدَحُ فِي قَلْبِكَ الشَّكَّ فِي اللَّهِ ، وَتَثْبِتُ فِي رُوعِكَ شَرَّ الْحَيَاةِ ، وَتُهْدِي إِلَى خَاطِرِكَ حِمَاقَاتِ الْعَقْلِ ، وَتَقَرَّرُ عِنْدَكَ عَجْزَ الْإِرَادَةِ ؛ فَتَنْتَهِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَيِّتًا قَدْ أَزْهَمَتْكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَهَا !

وَلَوْ كُنْتَ بَدَلَ إِيمَانِكَ بِنَفْسِكَ قَدْ آمَنْتَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ ، لَسَلَّطَكَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ يُسَلِّطْهَا عَلَيْكَ ؛ فَإِذَا رَمَتْكَ الْمَطَامِعُ بِالْحَاجَةِ الَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا ، رَمَيْتَهَا مِنْ نَفْسِكَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ الَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا جَاءَتْكَ الشَّهَوَاتُ مِنْ نَاحِيَةِ الرَّغْبَةِ الْمُقْبِلَةِ ، جِئْتَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الزُّهْدِ الْمُنْصَرِفِ ، وَإِذَا سَاوَرَتْكَ كِبَرِيَاءُ الدُّنْيَا أَذَلَّتْهَا كِبَرِيَاءُ الْآخِرَةِ .

وَبِهَذَا تَتَغَلَّبُ الْأَحْزَانُ وَالْآلَامُ ضُرُوبًا مِنْ فَرَحِ الْفُوزِ وَالْإِنْتِصَارِ عَلَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَكَانَتْ قُوَّتُنَا مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْهَمِّ ، وَتَعُوذُ مَوْضِعَ فَخْرٍ وَمُبَاهَاةٍ ، وَكَانَتْ أَسْبَابُ خِزْيٍ وَأُنْكَسَارٍ . وَعَزِيمَةُ الْإِيمَانِ إِذَا هِيَ قَوِيَّةٌ حَصَرَتْ الْبَلَاءَ فِي مِقْدَارِهِ ، فَإِذَا حَصَرَتْهُ لَمْ تَزَلْ تَنْقُصُ مِنْ مَعَانِيهِ شَيْئًا شَيْئًا ، فَإِذَا ضَعُفَتْ هَذِهِ الْعَزِيمَةُ جَاءَ الْبَلَاءُ غَامِرًا مُتَفَسِّسًا يَجَاوِزُ مِقْدَارَهُ بِمَا يَصْحَبُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالزُّوْعِ ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئًا شَيْئًا بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

وَلِلْإِيمَانِ ضَوْءٌ فِي النَّفْسِ يُبَيِّرُ مَا حَوْلَهَا ، فَرَأَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْفَانِيَةِ وَشَيْئًا أَنْ يَرُودَ ؛ فَإِذَا انْطَفَأَ هَذَا الضَّوُّ انْطَمَسَتْ الْأَشْيَاءُ ، فَتَتَوَهَّمُهَا النَّفْسُ أَوْهَامًا مُتَبَايِنَةً عَلَى أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ ؛ كَمَا يَرَى الْأَعْمَى بِوَهْمِهِ : لَا عَيْنُهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا ، وَلَا أَشْيَاءُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ لِلْمَعِينِ ؛ فَقَالَ الْإِمَامُ لِلرَّجُلِ : قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ ، وَسَلِّمْ عَلَيْكَ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ : فَإِذَا قُمْتَ إِلَى وَضُوءِكَ فَأَيِّنْ فِي نَفْسِكَ وَأَعِزِّمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَى أَنْ فِي هَذَا الْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ ، وَأَنَّهُ رَمَزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا تَتَطَهَّرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ عَلَى أَطْرَافِكَ ؛ ثُمَّ سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مُفِيضًا اسْمَهُ الْقَادِرَ الْكَرِيمَ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى نَفْسِكَ مَعًا ، ثُمَّ تَمَثَّلَ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ مِمَّا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّكَ آخِذٌ فِيهِمَا مِنَ السَّمَاءِ لَوَجْهِكَ وَأَعْضَائِكَ ؛ وَقَرَّرَ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا مَسْحَةٌ سَمَآوِيَّةٌ تُسَبِّغُهَا عَلَى كُلِّ أَطْرَافِكَ ، لِيَشْعُرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ ؛ وَأَنَّكَ بِهِذِهِ الْمَسْحَةِ السَّمَآوِيَّةِ تَسْتَقْبِلُ اللَّهُ فِي صَلَاتِكَ سَمَآوِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتَ اسْتَشَعَرْتَ هَذَا وَعَمِلْتَ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ حِينِيذٌ يَنْزِلُ مِنَ النَّفْسِ مِثْرَلَةَ الدَّرَاءِ ، كُلَّمَا اغْتَمَمْتَ أَوْ تَكَرَّهْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيكَ حُزْنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ ؛ فَمَا تَوَضَّأَ عَلَى تِلْكَ النَّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ^(١) . وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسِبُهُ هَدُوءًا لَيْتًا لَيْنَ الرِّضَى ، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شُعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعًا .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَقُمْتُ أَنَا فَجَدَّدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ النَّيَّةِ ؛ فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَوْعَانِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلِمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنَّظَافَةُ ، أَمَّا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالتَّرَكُّيبُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ سَاعَاتٌ ، وَأَبْدَانُهُ بِالرُّوحِ كَالْبَنَاتِ الْأَخْضَرِ نَاصِرًا مَطْلُوبًا مُتَرَطِّبًا بِالْمَاءِ .

ثُمَّ صَلَّى بِنَا الشَّيْخُ ، وَأَمَرَنِي بِالْمَيْبِتِ مَعَ الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا خَشِيَ الْبَدَوَاتِ أَنْ تَبْدُو لَهُ فَتَنْقُصَ عِزُّهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لِأَغْيَرُ شَخْصَهُ وَأَبْدُلَ وَخَدَتَهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَانَ

(١) هَذِهِ فِي رَأْيِنَا حِكْمَةٌ تَكَرَّرَ الْوُضُوءُ ، وَتِلْكَ هِيَ أَسْرَاؤُهُ عِنْدَنَا . [وَقَدْ بَيَّنَّا شَيْئًا مِنْ حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فِي مَقَالَةٍ « حَقِيقَةُ الْمُسْلِمِ » ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهَا الْقَارِئُ] .

الشَّيْخُ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ الرُّوحِيُّ قَدْ تَنَبَّهَ بِأَكْمَلِهِ فَوَضَعَنِي كَالنَّيْبِ لَهُ .
وَجَاءَنَا الْعِشَاءُ مِنْ دَارِ الشَّيْخِ فَطَعِمَنَا ، ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّيْنَا الْعَتَمَةَ وَجَلَسْنَا
تَحَدَّثُ ، فَاسْتَنْبَأْتُهُ بَنَاءَهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا . ثُمَّ نَهَضَ فَتَوَضَّأَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ : تَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ
الْوُضُوءَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مُلَامَسَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالنَّفْسِ ، وَمَا أَعْرِفُ وَفْتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا كَسَاعَةِ
الْفَجْرِ عَلَى اللَّبَاتِ الْأَخْضَرِ .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَصْبَحْنَا فَعَدَدْنَا عَلَى الْإِمَامِ ؛ ثُمَّ لَزِمَنِي الرَّجُلُ فِي بَعْضِ أُمُورِي ، ثُمَّ
وَافَيْنَا الْمَسْجِدَ صَلَاةَ الْعَصْرِ لِحُضُورِ دَرَسِ الشَّيْخِ ؛ وَكَانَ الْكَاسُ كَالْحَبِّ الْمُتَرَاصِفِ عَلَى
الْعُنُقُودِ ، لَا أَدْرِي مَنْ سَاقَهُمْ وَجَمَعَهُمْ ؛ كَأَنَّمَا عَلِمَتِ الْكُوفَةُ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا كَفَرَ بِاللَّهِ
كَفْرَةَ صَلْعَاءَ ، وَأَنَّهُ سَيَحْضُرُ دَرَسَ الشَّيْخِ وَسَيَحْضُرُ الشَّيْخُ مِنْ أَجْلِهِ ، فَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ الْأَرْبَعُ
تُسَوِّقُ أَهْلَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ أَقْطَارِهَا .

وَجَلَسَ الشَّيْخُ مَجْلِسَ الْحَدِيثِ فَقَالَ :

رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ ، فَأَتَى قَرْنًا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا^(١) فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ
عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَفْتَحُمُ مِثْلَفَةَ الْأَحِرَةِ كَمَا أَفْتَحَمَتْ مِثْلَفَةَ الدُّنْيَا !
[مسلم، رقم: ٩٧٨؛ النسائي، رقم: ١٩٦٤؛ أبو داود، رقم: ٣١٨٥؛ «مسند أحمد»، رقم: ٢٠٢٩٢،
٢٠٣٣٧، ٢٠٣٧٠، ٢٠٤٠٤؛ راجع «المعجم الكبير» للطبراني ٢/ ٢٣١] .

رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ ،
وَالَّذِي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَفْتَحِمُ يَفْتَحِمُ فِي النَّارِ !» . [البخاري،
رقم: ١٣٦٥؛ «مسند أحمد»، رقم: ٩٣٣٥] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ : «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ !» . [البخاري، رقم:
٦١٠٥؛ مسلم، رقم: ١١٠] .

رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ قَالَ : «كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ

(١) الْفَرْنَ (يَفْتَحَتَيْنِ) : جُعْبَةُ الشُّبَابِ . وَالْمِشْقَصُ : سَهْمٌ فِيهِ نَصْلٌ عَرِضٌ .

فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ! . [البخاري ، رقم : ١٣٦٤] .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : يَقُولُ اللَّهُ : « بَدَرْتَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ . . . » أَيْ : بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ ، فَقَبَضَهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .

بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ لِحُظَّةٍ يَنْقَلِبُ إِلَيَّ ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُورًا أَحْمَقًا !

بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ حِينَ ضَاقَ ، فَهَوَّرَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ عَجْزِهِ أَنْ يُنْسِكَهَا فِي الْحَيَاةِ ، فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَخُمُقِهِ !

بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ عَلَى جَهْلِهِ بِسِرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَحِ هَذَا الْمَخْلُوقُ الظَّالِمُ الْمَغْرُورُ فِي خُمُقِهِ وَعَجْزِهِ وَجَهْلِهِ - لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَجِئْتَنِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ !

بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابَعَهَا الْأَبْدِيُّ مِنْ غِيٍّ وَتَمَرُّدٍ وَسَفَاهَةٍ ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ مَقْتُولَةً يَرُدُّهَا عَلَيَّ .

بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ كَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنَّ لَهُ نِصْفَ الْأَمْرِ وَلِيَّ النِّصْفِ ؛ أَنَا أُحْيِيَتْ وَهُوَ أَمَاتَ . . . !

بَدَرْتَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ !

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَإِنَّمَا تُحَرِّمُ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائَةً يَدِيهِ مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ ؛ فَهُوَ هُنَاكَ جِنْفَةٌ مِنَ الْجِنْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَهْشَمَةٌ أَبَدًا ، يَقُولُ اللَّهُ لَهُ : أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وَجَرَيْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا ، فَسَتَخْلُدُ نَفْسُكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَضَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِنْفَةً أَبَدِيَّةً ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَيَقِي حِمَارًا ، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرِعَ لِيَتَحَوَّلَ؟ مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَارَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذُبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا ، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُولُ لَهُ : أَشْهَدُ لِي .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمِمَّ يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ؟ أَمَا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَقْصِرَ لِحَيِّ عَنْهُ ، وَهُوَ الْخَبِيْثَةُ الْكُبْرَى تُلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخَبِيْثَةِ الصَّغِيْرَةِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ ؟

إِنَّ الْمَرْءَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحٍ بَلْ مِنْ خَبِيْثَةٍ ، فَإِنْ كَانَتْ الْخَبِيْثَةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوْ الْحَاجَةُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ الْمَرَضُ أَوْ الْأَخْيَالُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ الدُّلُّ أَوْ الْبُؤْسُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ - كَالنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ - فَهِيَ الْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ أَوْ التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ .

وَلَيْسَ يَخِيْبُ الْإِنْسَانُ إِلَّا خَبِيْثَةُ عَقْلِ أَوْ إِرَادَةٍ ، وَإِلَّا فَالْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ ، وَالْمَرَضُ وَالْأَخْيَالُ ، وَالذُّلُّ وَالْبُؤْسُ ، وَالْعَجْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ ، وَفَسَادُ التَّخَيُّلِ - كُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي النَّاسِ ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِينَ بِهِ صَابِرِينَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْعِبَارُ الْقَلْبِي لِهَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى نَفُوسِ أَهْلِهَا . وَيَا عَجَبًا ! إِنَّ الْعُمَيَّانَ هُمَا بِالطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ النَّاسِ ضِحْكًا وَابْتِسَامَةً وَعَبْنًا وَسُخْرِيَّةً ، أَفْتَرِيدُونَ أَنْ تُخَاطِبَكُمُ الْحَيَاةُ بِأَفْصَحَ مِنْ ذَلِكَ ؟

لَيْسَتْ الْخَبِيْثَةُ هِيَ الشَّرُّ ، بَلِ الشَّرُّ كُلُّهُ فِي الْعَقْلِ إِذَا تَبَلَّدَ فَجَمَدَ عَلَى حَالِهِ وَاحِدَةً مِنَ الطَّمَعِ الْخَائِبِ ، أَوْ فِي الْإِرَادَةِ إِذَا وَهَنْتْ فَبَقِيَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا لَمْ يُوْجَدْ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حِينَ لَا يُبَالِي الْعَقْلُ وَلَا الْإِرَادَةُ لَا يَبْقَى لِلْخَبِيْثَةِ مَعْنَى وَلَا أَثَرٌ فِي النَّفْسِ ، وَلَا يَخِيْبُ الْإِنْسَانُ حِينَئِذٍ ، بَلْ تَخِيْبُ الْخَبِيْثَةُ نَفْسَهَا ؟

لِهَذَا يَأْتِي الْإِسْلَامُ عَلَى أَهْلِهِ التَّرَفَ الْعَقْلِيَّ وَالتَّخَيُّلَ الْفَاسِدَ ، وَيَسْتَدُّ كُلَّ الشَّدَةِ فِي أَمْرِ الْإِرَادَةِ ، فَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا يَزَالُ يُنْمِنُهَا بِأَعْمَالٍ يَوْمِيَّةٍ تُشَدُّ مِنْهَا لِيَكُونَ رَقِيْبَةً عَلَى الْعَقْلِ حَارِسَةً لَهُ ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ أَمْرًا كَثِيرَةً يَطِيْشُ فِيهَا دَرَاجَاتٍ مِنَ الطَّيْشِ حَتَّى يَبْلُغَ الْجُنُونِ أَحْيَانًا ؛ فَكَانَتْ الْإِرَادَةُ عَقْلًا لِلْعَقْلِ ؛ هِيَ لِنَفْسِهِ إِذَا تَصَلَّبَ ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ إِذَا تَبَلَّدَ ، وَهِيَ حُلْمُهُ إِذَا طَاشَ ، وَهِيَ رِضَاؤُهُ إِذَا سَخِطَ .

الْإِرَادَةُ شَيْءٌ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْعَقْلِ ، فَهِيَ بَيْنَ وُجُودَيْنِ ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ وُجُودَيْنِ أَيْضًا ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَالْمُنْفَصِلِ عَنْهَا ، إِذْ يَكُونُ فِي وُجُودِهِ

الْأَقْوَى وَجُودُ رُوحِهِ ؛ وَأَكْبَرُ هَمِّهِ نَجَاحُهُ فِي هَذَا الوجودِ .

وَهَذَا النَّجَاحُ لَا يَأْتِي مِنَ الْعَمَالِ ، وَلَا تُحَقِّقُهُ الْعَافِيَةُ ، وَلَا تُبَسِّرُهُ الشَّهَوَاتُ ، وَلَا يُسَيِّئُهُ التَّخَيُّلُ الْفَاسِدُ ؛ وَلَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الْعُرُورِ ، وَلَا مِمَّا عُمُرُهُ خَمْسُونَ سَنَةً أَوْ مِئَةَ سَنَةٍ ؛ بَلْ يَأْتِي مِمَّا عُمُرُهُ الْخُلُودُ وَمِمَّا هُوَ بَاقٍ أَبَدًا فِي مَعَانِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالصَّلَاحِ ؛ فَهَلْهَذَا يُعِينُ الْمَرَضُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ مَا لَا تُعِينُ الصَّحَّةُ ، يُفِيدُ الْفَقْرَ بِحَقَائِقِهِ مَا لَا تُفِيدُ الثَّرْوَةُ ؛ وَهَذَا يَكُونُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ عَامِلًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُتَخَيِّلٌ ، وَقَانِعًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ طَامِعٌ ؛ وَهَلْهَذَا لَا مَوْضِعَ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ ، وَلَا كِبَرِيَاءِ النَّفْسِ ، وَلَا حُبِّ الذَّاتِ ؛ وَهَذِهِ الثَّلَاثُ هِيَ جَالِبَةُ الشَّقَاءِ عَلَى الْإِنْسَانِ حَتَّى فِي أَحْوَالِ السَّعَادَةِ ، وَبِدُونِهَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ هَانِيًا حَتَّى فِي أَحْوَالِ الشَّقَاءِ .

بِالْإِرَادَةِ الْمُؤَمِّنَةِ الْقَوِيَّةِ يَنْصَرِفُ ذَكَاءُ الْمُؤْمِنِ إِلَى حَقَائِقِ الْعَالَمِ وَصَلَاحِ النَّفْسِ بِهَا ، وَبِغَيْرِ هَذِهِ الْإِرَادَةِ يَنْصَرِفُ الذَّكَاءُ إِلَى خَيَالِ الْإِنْسَانِ وَفَسَادِ الْإِنْسَانِ . . .

وَإِذَا انْصَرَفَ الذَّكَاءُ إِلَى حَقَائِقِ الدُّنْيَا كَانَ الْعَقْلُ سَهْلًا مَرِنًا مِطْوَاعًا ، وَاسْتَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْهَمَ فِكْرَةَ قَتْلِ النَّفْسِ أَوْ يُفَرِّقَهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْخَبِيثَةَ لَا تَسْتَطِيقُ إِلَى الْعَقْلِ إِلَّا إِذَا تَحَجَّرَ وَانْحَصَرَ فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ قَدْ خَابَ وَخَابَتْ فِيهِ الْإِرَادَةُ فَفَرَّغَتْ الدُّنْيَا عَنْدَهُ .

وَلَوْ أَنَّ أَمْرًا تَمَّ عَزْمُهُ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ ثُمَّ صَابَرَ الدُّنْيَا أَيَّامًا ، لَانْفَسَحَ عَزْمُهُ أَوْ رَكَ ؛ إِذْ يَلِينُ الْعَقْلُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ نَوْعًا مَا ، وَيَجْعَلُ الصَّبْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصِيبَةِ مَسَافَةً مَا ، فَتَتَغَيَّرُ حَالَةُ النَّفْسِ هَوْنًا مَا ؛ فَالصَّبْرُ كَالْتَرَوُّحِ بِالْهَوَاءِ عَلَى الْعَقْلِ الَّذِي يَكَادُ يَخْتَنِقُ مِنْ أَحْتِيَاسِهِ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ مُقْفَلٍ مِنْ جَوَانِبِهِ . وَمَثَلُ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَثَلُ الْقَائِمِ فِي إِعْصَارٍ لَفَهُ بِالثَّرَابِ لَفًا وَسَدَّ عَلَيْهِ مَنَافِذَ الْهَوَاءِ ، وَحَبَسَهُ فِي هَذَا الثَّرَابِ الْمُتَلَتِّفِ حَبْسَ الْحَشْرَةِ فِي جُوفِ الْقَصْبَةِ ؛ فَهُوَ عَلَى الْيَقِينِ أَنَّهَا حَالَةٌ سَاعَةِ طَارِئَةٍ فِي الزَّمَنِ لَا حَالَةَ الزَّمَنِ ؛ وَأَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي جَاءَ بِهِذَا الْهَمِّ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ بِهِذَا الْهَمِّ .

وَكَمَا أَنَّ الْأَرْضَ هِيَ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْإِعْصَارِ الثَّائِرِ مِنْهَا ، فَالْحَيَاةُ كَذَلِكَ هِيَ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ شَقَائِهَا .

قَالَ الْإِمَامُ : وَفِي كِتَابِ اللَّهِ آيَاتَانِ تَذَلِّلَانِ عَلَى أَنَّهُ كِتَابُ الدُّنْيَا كُلُّهَا ، إِذْ وَضَعَ لِهَذِهِ الدُّنْيَا مِثَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْمِثَالُ الرُّوحِيُّ لِلْفَرْدِ الْكَامِلِ ، وَالْآخَرُ الْمِثَالُ الرُّوحِيُّ لِلْجَمَاعَةِ الْكَامِلَةِ .

أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَىٰ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ ﴾ . [سورة الأحزاب/ الآية : ٢١] .

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ . [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] .

فَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسَامَى الْإِنْسَانُ فَوْقَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ ، فَتَمُرُّ هُمُومُهَا حَوْلَهُ وَلَا تَصِدِّمُهُ ، إِذْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ فَكَأَن لَّا سُلْطَانَ لَهَا عَلَيْهِ ؛ وَهَذِهِ الْهُمُومُ تَجِدُ فِي مِثْلِ هَذِهِ النَّفْسِ قُوَى بِالْعَةِ تُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَتْ ، فَلَا يَجِيءُ إِلَهُمْ قُوَّةٌ تَسْحَقُ ضَعْفًا ، بَلْ قُوَّةٌ تَمْتَحِنُ قُوَّةَ أُخْرَىٰ أَوْ تُثِيرُهَا لِتَكُونَ عَمَلًا ظَاهِرًا يُقْلِدُهُ النَّاسُ وَيَتَّبِعُونَ مِنْهُ بِالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْأُسْوَةُ وَحْدَهَا هِيَ عِلْمُ الْحَيَاةِ .

وَقَدْ تَرَى الْفَقِيرَ مِنَ النَّاسِ تَحْسَبُهُ مِسْكِينًا ، وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ أَسْتَاذٌ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسَاتِيدِ يَلْقَى عَلَى النَّاسِ دُرُوسَ نَفْسِهِ الْقَوِيَّةِ .

وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَبْطُلُ أَكْبَرُ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي النَّاسِ ، وَهُوَ نَظَرُ الْإِنْسَانِ لِمَنْ هُوَ أَخْطَى مِنْهُ بِفِتْنَةِ الدُّنْيَا نَظْرًا لَا يَبْعَثُ إِلَّا الْحِقْدَ وَالسُّخْطَ ، فَيَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا فِي النَّاسِ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، وَهَذِهِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَبْعَثُ إِلَّا السُّرُورَ وَالْعِبْطَةَ . وَمَنْ جَعَلَهَا فِي تَفَكُّيرِهِ أَبْطَلَ أَكْثَرَ الدُّنْيَا مِنْ تَفَكُّيرِهِ ؛ وَبِهَا تَسْقُطُ الْفُرُوقُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَتَازِلُهُمْ ؛ كَالرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْعَالِمِ إِذَا قُدِّمَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَالِمِ ؛ جَمَعَ بَيْنَهُمَا لَا تَفَاقُ الْعَقْلِيُّ وَسَقَطَ مَا عَدَاهُ .

وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ عُمُرَهُ الطَّوِيلَ أَوِ الْقَصِيرَ كَأَنَّهُ فِي يَوْمٍ يُصْبِحُ مِنْهُ غَادِيًا عَلَى الْحَشْرِ وَالْحِسَابِ ؛ فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْخُلُودِ غَيْرُ مُعْنِيٍّ إِلَّا بِأَسْبَابِهِ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ أَمْرَاضُهُ وَالْآلَمَةُ وَمَصَائِبُهُ لَيْسَتْ مَكَارِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، بَلْ هِيَ تِلْكَ الْمَكَارِهِ الَّتِي حُقَّتِ الْجَنَّةُ

بِهَا ؛ وَلَا يَصْرُهُ الْحِزْمَانُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ الزَّوَالِ ، وَلَا يَغْرُهُ الْمَتَاعُ لِأَنَّهُ قَرِيبُ الزَّوَالِ أَيْضًا .
وَفِي رَجَاءِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسْوُدُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ كَانَ سَيِّدَ
مَا حَوْلَهَا يَصْرِفُهُ بِحُكْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ عَبْدًا نَفْسِهِ صَرَفَهُ بِحُكْمِهِ كُلُّ مَا حَوْلَهُ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَأَمَّا الْمِثَالُ الزُّوْحِيُّ لِلْجَمَاعَةِ الْكَامِلَةِ ، فَهُوَ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ
﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] فَهَذَا هَذَا ، مَا أَحْسَبُهُ يَخْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَبَيَانِ .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَضِيقُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَكُونُ مِنْ قَبْلِ مَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُعَايِشُهُمْ وَيَتَّصِلُ بِهِمْ لَا مِنْ
قَبْلِ نَفْسِهِ ، فَإِذَا قَامَ اجْتِمَاعُ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّهُمْ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة الفتح/ الآية : ٢٩] تَقَرَّرَتْ
الْعَظَمَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ ؛ وَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ لَمْ يَخْقِرُوا الْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ ، وَلَمْ
يُعْظِمُوا الْغَنِيَّ لِغِنَاهُ ، وَإِنَّمَا يُحَقِّرُونَ وَيُعْظِمُونَ لِصِفَاتِ سَامِيَةِ أَوْ حَقِيرَةِ . وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ
يَكُونُ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَعْظَمَ قَدْرًا مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ، وَإِعْظَامُ النَّاسِ لِفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هُوَ الَّذِي
يَجْعَلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئًا ذَا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَتَى تَصَحَّحَتْ آرَاءُ الْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الْمُوَلِّمَةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ أَلْمَهَا وَاسْتَحَالَتْ
مَعَانِيهَا ، وَصَارَ لَا يَبْلَى مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحَبَاةِ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيمَانُهُ مَعْنَى جَدِيدًا فِي
مَكَانِهِ ، وَتُضَيِّعُ الْفَضِيلَةُ وَحَدَهَا غَايَةَ النَّفْسِ فِي الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ يَصْبِرُ الْفَرْدُ عَلَى
مَصَائِبِهِ ، لَا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ بِجَمِيعِ الْقُوَى الَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ
بِالشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَهَا يَضَعُ فِي أَلَمِ السَّلَاحِ لَذَّةَ يُحْسِنُهَا لَحْمُ الشَّجَاعِ الْبَطْلِ ؟

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! وَإِذَا فَسَدَ
النَّاسُ وَغَلِظَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ ، وَلَمْ يَعُودُوا ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٤٨ سورة
الفتح/ الآية : ٢٩] ، وَشِمِئُوا بِالْفَقِيرِ ، وَتَهَزَّؤُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوهُ فِي السِّتَنِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ
الشَّاعِرُ فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكْفُ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَضْنَعَ الْمُسْكِنِينَ حَيْثُئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ
يَذْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ ؟

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هَا هُنَا الرَّجَاءُ فِي اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَهُوَ شُعُورٌ لَا يُسْتَرَى بِمَالٍ ، وَلَا

يُلْتَمَسُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَعْسُرُ عَلَى مَنْ أَرَادَهُ ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَىٰ وَغَيْرُهُمَا إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّ مِنْهُمَا مِثْلَهُ السَّامِي ؛ فَالصَّبْرُ عَلَىٰ هَذَا أَلْعَتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَىٰ إِتْمَامِ الْمِثَالِ ، وَإِذَا وَقَعَ مَا يَسْؤُوكَ أَوْ يَخْزُوكَ فَابْتَهِ فِيهِ عَنْ فِكْرَتِهِ السَّامِيَّةِ ، فَقَلَمًا يَخْلُو مِنْهَا ، بَلْ قَلَمًا يَجِيءُ إِلَّا بِهَا^(١) .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُا آتَىٰ أحوَالِ الدُّنْيَا إِلَىٰ مَا يَخِيفُهُ ، أَوْ بَلَغَ إِلَهُمْ مَبْلَغُهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ ؟

قَالَ الشَّعْبِيُّ : فَلْيَجْعَلِ الْخَوْفَ خَوْفَيْنِ : أَحَدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابِ اللَّهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهِ أَبَدًا ؛ فَيَذْهَبُ الْأَفْوَىٰ بِالْأَضْعَفِ . وَإِذَا أَتَيْتَ فَلْيَضْمِ إِلَىٰ نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بَلَاءً مِنْهُ ؛ لِيَكُونَ هُمُّ أَحَدَ هَمَّيْنِ ، فَيَذْهَبِ الْأَثْقَلُ بِالْأَخَفِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالَّذِي أُعْطِيَ طِفْلاً نَزَقًا طَيَّاشًا عَارِمًا مُتَمَرِّدًا ، لِيُؤَدِّبَهُ وَيُحْكِمَ تَرْبِيَتَهُ وَتَقْوِيَتَهُ فَيُنْبِتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَسْنَادٌ ، فَيُعْطَىٰ أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ ، ثُمَّ يَصْنِقُ الْأَسْنَادُ بِالطُّفْلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكْذَلِكَ التَّادِيبُ وَالتَّرْبِيَةُ ؟

مصطفى صادق الرافعي

لِهذا المجلس بَقِيَّةٌ ॥



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَكَانَ الْإِمَامُ قَدْ شَغَلَ خَاطِرُهُ بِهِذِهِ الْقِصَّةِ فَأَخَذَتْ تَمُدُّ مَدَّهَا فِي نَفْسِهِ ، وَمَكَّنَتْ لَهُ مِنْ مَعَانِيهَا بِمِقْدَارِ مَا مَكَّنَ لَهَا فِي هَمِّهِ ، وَتَفَتَّتْ بِهَا ذِهْنُهُ عَنْ أَسَالِيبِ عَجَبِيَّةٍ يَنْهَيَّا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَلِدُ الْمَعْنَى الْمَعْنَى . فَلَمَّا قَالَ الرَّجُلَانِ مَقَالَهُمَا إِنَّمَا وَأَجَابَهُمَا بِتِلْكَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، انْقَدَحَ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمَا وَكَلَامِهِ رَأْيٌ فَقَالَ :

(١) فِي كِتَابِنَا (الْمَسَائِكِ) كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي ، [بَلِ الْكِتَابُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَيْهَا] .

(*) « الرسالة » العدد : ٩٧ ، ١٠ صفر سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ مايو/أيار ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ،

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ! أَنشُدْكُمْ اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ ، أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ ضَاقَ بِرُوحِهِ يَوْمًا فَأَرَادَ إِزْهَاقَهَا إِلَّا كَشَفَ لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ نَفْسَهُ وَصَدَقْنَا عَنْ أَمْرِهِ ؛ وَلَا يَجِدَنَّ فِي ذَلِكَ ثَلَبًا وَلَا عَابًا ، فَإِنَّمَا التَّكْبَةُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْقَدَرِ فِي التَّعْلِيمِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ ابْتِدَاءُ الْمُصِيبَةِ فِي رَجُلٍ هُوَ ابْتِدَاءُ الْحِكْمَةِ فِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ؛ وَمَا مِنْ حَزِينٍ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ حُزْنِهِ أَنَّهُ قَدْ غُيِّبَتْ فِيهِ أَسْرَارٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ ، وَهَذَا مِنْ إِبَانَةِ الْحَقِيقَةِ عَنْ نَفْسِهَا وَمَوْضِعِهَا كَمَا لِلْأُفَى فِي سَيْفِ بَرِيقِهِ .

وَعَقْلُ اللَّهِ عَقْلٌ عَظِيمٌ ، فَلَوْ قَدْ أُرِيدَ اسْتِخْرَاجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ اللَّذَاتِ وَالنَّعَمِ ؛ لَكَانَ مِنْ شَرِّ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ وَالذَّوَابِّ مَا لَا يَكُونُ مِثْلُهُ وَلَا قِرَابَتُهُ فِي الْعُقَلَاءِ ، وَلَا تَبْلُغُهُ الْقُوَى الْأَدَمِيَّةُ فِي أَهْلِهَا ؛ بَيِّنَ أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ عِلْمٌ مِنَ الْبُؤْسِ وَالْأَلَمِ وَالْحَاجَةِ لَمَا وَجِدَ شَرْحُهُ إِلَّا فِي النَّاسِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْخَاصُّ مِنْهُ إِلَّا فِي الْخَاصَّةِ مِنْهُمْ .

وَمَا بَانَ أَهْلُ النُّعْمَةِ وَلَا غَمَرُوا الْمَسَاكِينَ فِي تَطَاوُلِهِمْ بِأَغْنَائِهِمْ إِلَّا مِنْ أَنَّهُمْ يَغْلُوبُونَ أَكْتَفَ الشَّيَاطِينِ ؛ فَالشَّيْطَانُ دَابَّةُ الْغَنِيِّ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهِ وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ مُخْلَى لَشَهَوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةُ الْعَالِمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ، وَيَزْعُمُ نَفْسَهُ مُخْلَى لِعَقْلِهِ أَوْ رَأْيِهِ ، وَمَا طَالَ الطَّوِيلُ بِذَلِكَ وَلَا عَنْ ذَلِكَ قَصْرُ الْقَصِيرِ ، وَهَلْ يَصِحُّ فِي الرَّأْيِ أَنْ يُقَالَ : هَذَا أَطْوَلُ مِنْ هَذَا لِأَنَّ الْأَوَّلَ فَوْقَ السَّلَمِ وَالْآخَرَ فَوْقَ رَجْلَيْهِ . . . ؟

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَتَمَّ شَيْخٌ مِنْ أَفْصَى الْمَجْلِسِ وَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى الرَّقَابَ وَالنَّاسُ يَنْفَرِحُونَ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَاءِ الْإِمَامِ ؛ وَتَفَرَّسَتْهُ وَجَعَلَتْ عَيْنِي تَعْجُمُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ تَبْدُو طَلَاقَهُ وَجْهِهِ شَبَابًا عَلَى وَجْهِهِ ، أَبْلَجُ الْعُزَّةِ مُتَهَلِّلٌ عَلَيْهِ بِشَاشَةِ الْإِيمَانِ وَفِي أَسَارِيرِهِ أَثَرٌ مِنْ تَقْطِيبِ قَدِيمٍ ، يَنْطِقُ هَذَا وَذَاكَ أَنَّ الرَّجُلَ فِيمَا أَتَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ قَدْ كَانَ أَطْفًا الْمِضْبَاحِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةٌ ثُمَّ أَضَاءَ . وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الشَّيْخِ قَدْ هَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَأَنَا أَرَى بِعَيْنِي نَفْسَهُ هَذِهِ مُنْبِقَّةٌ فِي الْحَيَاةِ أَنْثَاقَ النَّخْلَةِ السَّحُوقِ .

وَتَكَلَّمَ هَذَا الرَّجُلُ فَقَالَ :

أَمَا إِذْ نَاشَدْتَنَا اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ وَمِيثَاقَ الْعِلْمِ وَوَحْيَ الْأَقْدَارِ فِي حِكْمَتِهَا ، فَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِخَبْرِي عَلَى وَضْفِهِ وَرَضْفِهِ : أَمَلْتُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفْتُ بَيْنَ الدَّهْرِ مَا كَانَ يَجْرِي ، وَأَضْبَحْتُ فِي مُرَاوَلَةِ الدُّنْيَا كَعَاصِرِ الْحَجَرِ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ ، وَعَجَزْتُ يَدَيَّ حَتَّى لَطَفْتُ دَجَاجَةً فِي نَبْشِهَا التُّرَابَ عَنِ الْحَبَّةِ وَالْحَشَرَةِ أَقْدَرُ مِنِّي ؛ وَطَرَقْتَنِي التَّوَائِبُ كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي ، وَأَكَلَنِي الدَّهْرُ لَحْمًا وَرَمَانِي عِظَامًا ، فَمَا كَانَ يَقِفُ عَلَيَّ إِلَّا كِلَابُ الطَّرِيقِ ؛ وَلِي يَوْمِيذٌ أَمْرَأَةٌ أَغْقَبَتْ مِنْهَا طِفْلًا وَيَلْزُمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ ؛ وَكَانَ بَيْنَنَا حُبٌّ فَوْقَ الْمَعَاشِرَةِ وَالْأَلْفَةِ قَدْ تَرَكَنِي مِنْ أَمْرَاتِي هَلْدِهِ كَالشَّاعِرِ الْغَزَلِ مِنْ صَاحِبِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ فِي دَمِي لَا فِي لِسَانِي .

فَلَمَّا نَهَكْتَنِي الْمَصَائِبُ وَتَنَاوَلْتَنِي مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بَعِيدٍ ؛ قُلْتُ لِلْمَرْأَةِ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ شَحَبَتْ وَأُنْكَسَرَ وَجْهَهَا وَتَقَبَّضَ مِنْ هُزَالِهِ : وَأَيْمُ اللَّهِ يَا فُلَانَةَ لَوْ جَارَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُ الْآدَمِيِّ لَذَبَحْتُ نَفْسِي لِتَأْكُلِي وَتَذَرِّي عَلَى الصَّبِيِّ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَزْكَبَ رَأْسِي وَأَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِنَفْقَدَانِي فَتَفْقِدَا شُؤْمِي عَلَيْكُمَا ؛ وَلَكِنْ رَدَّنِي قَلْبِي ، وَهُوَ حَبَسَنِي فِي هَلْدِهِ الدُّنْيَا الصَّغِيرَةِ الَّتِي بَيْنَكُمَا ، فَلَيْسَ لِي مِنَ الْأَرْضِ مَشْرِقٌ وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا أَنْتَ وَهَذَا الصَّبِيُّ . وَلَكَسْتُ أَذْرِي وَاللَّهُ مَا نَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ وَقَدْ كُنَّا مِنْ نَبَاتِهَا الْأَخْضَرِ فَرَجَعْنَا مِنْ حَطَبِهَا الْيَاسِ ؛ وَعَادَتِ الشَّمْسُ لَا تَغْدُوهَا بَلْ تَمْتَصُّ مِنْهَا مَا بَقِيَ ، وَلَا تَسْتَضِيءُ لَهَا ، وَلَكِنْ تَسْتَوْقِدُ عَلَيْهَا !

إِنَّ مَنْ فَقَدَ الْخَيْرَ وَوَقَعَ فِي الشَّرِّ ، حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فَخَلَصَ مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ جَمِيعًا ، لَا يُكْدِي وَلَا يَنْجَحُ ، وَلَا بِأَلَمٍ وَلَا يَلْدُ ؛ وَكَمَا أَكْثَرْتُهُ الدُّنْيَا فَلْيُنْكَرْهَا . أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَبْرُ فَالْقَبْرُ وَلَكِنْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا عَلَى ظَهْرِهَا كَحَالِنَا ؛ وَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ فَالْمَوْتُ وَلَكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْوَاعًا أَنْوَاعًا . قَدْ مَاتَ أَيَّامُنَا ، وَتَرَكْنَا نَعِيشُ كَالْمَوْتَى لَا أَيَّامَ لَهُمْ ، وَزَادَ عَلَيْنَا الْمَوْتَى فِي النُّعْمَةِ وَالرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَفَّلُونَ عَلَى أَيَّامٍ غَيْرِهِمْ فَيَطْرُدُوا عَنْ يَوْمٍ هَذَا وَيَوْمَ ذَلِكَ .

قَالَ : فَاسْتَعْبَرَتِ الْمَرْأَةُ بَاكِئَةً ، وَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ كَلَامِ دُمُوعِهَا قَالَتْ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَفْجَعَنَا فِينَا ؟ قُلْتُ : مَا عَدَوْتُ مَا فِي نَفْسِي ؛ وَلَكِنْ هَلْ بَقِيَ فِيَّ مَنْ تُفْجَعِينَ فِيهِ ؟ أَمَا

ذَهَبَ مِنِّي ذَاكَ الَّذِي كَانَ لَكَ زَوْجًا وَكَاسِبًا ، وَجَاءَ الَّذِي هُوَ هَمُّكَ وَهَمُّ هَذَا الصَّبِيِّ مِنْ رَجُلٍ كَالْحُمْرَةِ لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ وَلَا تُعْطِي ؟

أَمَ وَاللَّهِ لَكَانِي خُلِفْتُ إِنْسَانًا خَطَاً ، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ الْعَلَطُ أُرِيدَ إِرْجَاعِي إِلَى الْحَيَوَانِ فَلَمْ يَأْتِ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَبَقِيتُ بَيْنَهُمَا ؛ يَمُرُّ النَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ إِنْسَانٌ مُسْكِنٌ ؛ وَأَحْسَبُ لَوْ نَطَقَتِ الْكِلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي : كُلُّبٌ مُسْكِنٌ . يَا عَجَبًا ! عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ الْعَجْزِ وَالْيَأْسِ كَأَنَّمَا هِيَ بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فِي تَحْوِيلِهَا يَاقُوتَةَ أَوْ لَوْلُؤَةً . . .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَاللَّهِ لَئِنْ حِينَتَ عَلَى هَذَا إِنَّ هَذَا لَكُفْرٌ قَبِيحٌ ، وَلَئِنْ مُتَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَأَقْبَحُ وَأَشَدُّ .

فَقُلْتُ لَهَا : وَيَحَك ! وَمَاذَا تَنْتَظِرُ الْعَيْنُ الْمُبْصِرَةُ فِي الظَّلَامِ الْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْتَظِرُ الْعَمِيَاءُ ؟

قَالَتْ : وَلِمَ لَا تَنْتَظِرُ كَمَا يَنْتَظِرُ الْمُؤْمِنُ بِنُورِ اللَّهِ ؟

قُلْتُ : فَاَنْتَظِرِي أَنْتِ وَخَبِّرِيْنِي مَاذَا تَرَيْنِ . أَتَرَيْنِ رَغِيْفًا ؟ أَتَرَيْنِ إِدَامًا ؟ أَتَرَيْنِ دِنَارًا ؟

قَالَتْ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أَرَأَيْ قَمَرًا سَيَكْشِفُ هَذِهِ السُّدُفَةَ الْمُظْلِمَةَ إِنْ لَمْ يَطْلُعْ فَكَأَنَّ قَدْ .

قَالَ : فَعَاظَتْنِي الْمَرْأَةُ وَرَأَيْتُهَا حِينَئِذٍ أَشَدَّ عَلَيَّ بِقَلَّةِ ذَاتِ عَقْلِهَا مِنْ قَلَّةِ ذَاتِ يَدَيَّ ؛ وَلَوْلَا حُبِّي إِيَّاهَا وَرَحْمَتِي لَهَا لَأَوْقَعْتُ بِهَا . وَأَسْتَحْكَمُ فِي ضَمِيرِي أَنْ أَزْهِقَ نَفْسِي وَأَدْعِيهَا لِمَا كُتِبَ لَهَا .

وَقُلْتُ : إِنَّ جُبْنَ الْمَرْأَةِ هُوَ نِصْفُ إِيمَانِهَا حِينَ لَا يَكُونُ نِصْفُ عَقْلِهَا ، وَلِلْقَدَرِ يَدُ ضَعِيفَةٍ عَلَى النَّسَاءِ تَضَعُهُنَّ وَتَمْسَحُ دُمُوعَهُنَّ ، وَلَهُ يَدُ أُخْرَى عَلَى الرِّجَالِ ثَقِيلَةً تَضَعُ الرِّجُلَ وَتَأْخُذُ بِحَلْقِهِ فَتَعَصِرُهُ .

* * *

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ : أَرْحَامٌ تَذْفَعُ ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ . فَحَضَرَنِي هَذَا الْقَوْلُ تِلْكَ السَّاعَةَ وَشَبَّ لِي ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعَةِ : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَأَثْقَلَتْ بِهِ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ؛ وَهُوَ

مِنْ شُرُومِهِ عَلَيْهَا إِذَا دَنَا لَهَا أَنْ تَصْعَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى يَضْرِبَهَا الْمَخَاضُ فَتَقْلَبُ وَتَصْبِحُ وَتَمُزَّقُ وَتَنْصَلِدُ ؛ وَرُبَّمَا نَشَبَ فِيهَا فَقَتَلَهَا ، وَرُبَّمَا التَّوَى فَيَبْقَرُ بَطْنُهَا عَنْهُ . وَإِذَا هِيَ وَلَدَتْهُ عَلَى أَيْ حَالِهَا مِنْ عُسْرٍ وَتَطَرِّيقٍ بِمِثْلِ الْمَطَارِقِ الْمُعْطَمَةِ ، أَوْ سَرَّاجٍ وَرَوَّاحٍ كَمَا يَتَسَرَّرُ - فَإِنَّمَا تَلِدُهُ فِي مَسِيْمَةٍ وَدِمَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ كَأَنَّمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ جُرْحٍ . ثُمَّ تَتَنَاوَلُهُ الدُّنْيَا فَتَضَعُهُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي أَقْبَحَ وَأَقْدَرٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . ثُمَّ يَسْتَوْفِي مَدَّتَهُ فَيَأْخُذُهُ الْقَبْرِ فَيَكُونُ شَرًّا عَلَيْهِ فِي تَمَزِيْقِهِ وَتَعَفُّفِيهِ وَإِحَالِهِ .

قَالَ : وَحَضَرَنِي مَعَ كَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُ ذَلِكَ الْجَاهِلِ الرَّنْدِيْقِ الَّذِي يُعْرَفُ (بِالْبَقْلِيِّ) - إِذْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَالْبَقْلَةِ فَإِذَا مَاتَ لَمْ يَرْجِعْ . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : إِنَّمَا أَنْتِ بَقْلَةٌ حَمَاءٌ ذَاوِيَةٌ فِي أَرْضٍ نَشَاشَةٍ^(١) ، فَقَتَلَهَا مِلْحُ أَرْضِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَحْيَاهَا .

قَالَ : وَثُرْتُ إِلَى الْمُدِّيَةِ أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّأَ بِهَا ، فَتَبَادَرَنِي الْمَرَأَةُ فَتَحَوَّلُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؛ وَكَأَدُ أَبْطَشُ بِهَا مِنَ الْغَيْظِ ؛ وَكَانَتْ رُوحُ الْجَحِيمِ تَزْفِرُ مِنْ حَوْلِي ، لَوْ سَمِعُوا سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَقُورُ ؛ فَمَا أَذْرِي أَيْ مَلِكٍ هَبَطَ بِوَحْيِ الْجَنَّةِ فِي لِسَانِ أَمْرَأَتِي . قُلْتُ لَهَا : إِنَّهَا عَزَمَتْ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي .

قَالَتْ : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَنْقُضُهَا وَلَسْتُ أَرُدُّكَ عَنْهَا وَسَتَمُضِيْهَا .

قُلْتُ : فَخَلِّي بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ الْمُدِّيَةِ .

قَالَتْ : كُلُّنَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ أَنَا وَأَنْتَ وَالصَّبِيُّ فَلَنَقْضِ مَعًا ؛ وَمَا بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةً وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ يَتِيْمًا يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ ، وَيَضْرِبُهُ ابْنُ هَذَا وَابْنُ ذَاكَ إِذَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا ابْنُ ذَلِكَ وَلَا ابْنُ هَذَا .

قُلْتُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ .

قَالَتْ : فَتَعَالَ أَدْبِحِ الطِّفْلَ

* * *

(١) الْأَرْضُ النَّشَاشَةُ : هِيَ السَّبَخَةُ الَّتِي فِيهَا الْمِلْحُ وَالْمَاءُ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَا بَلَغَ الرَّجُلُ فِي قِصَّتِهِ إِلَى ذَنْبٍ صَغِيرِهِ ^(١) حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً مُنْكَرَةً ؛ وَتَوَهَّمْ كُلُّ أَبِي مِنْهُمْ أَنَّ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّنْبِ وَهُوَ يُنَادِي أَبَاهُ وَيَشُقُّ حَلْقَهُ بِالضَّرَاحِ : يَا أَبِي يَا أَبِي ! أَدْرِكْنِي يَا أَبِي !

أَمَّا الْإِمَامُ فَلَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ ، كَيْفَ تَصْنَعُ جَهَنَّمَ حَطَبَهَا ؟

وَأَنَا فَمَا قَطُ نَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، وَمَا قَطُ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقًا فَاعْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيقُهُ صَنْعَتِهِ حَطَبًا . . . كَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِاتَّبَاعِهِ : جَفِّقُوهُ . . .

وَكَانَتْ هُنَيْهَاتٍ ، ثُمَّ فَاءَ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمُتَكَلِّمِ : ثُمَّ مَاذَا ؟

* * *

قَالَ الرَّجُلُ : فَفَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي مَعَ وَرَمَقْتُ الطِّفْلَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَجْرَى السَّكِينِ مِنْ حَلْقِهِ وَإِلَى مَحْزَاهَا فِي رَقَبَتِهِ اللَّيْنَةِ ؛ وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفْرَقُ بَصَرُهُ مِنَ الْفَرْعِ عَلَى كُلِّ جِهَةٍ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَضَرَّعُ لِي بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِئَتَيْنِ أَلَّا أَذْبَحَهُ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مِنِّي أَمَامَ قَاتِلِهِ ، ثُمَّ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَلَوَّى وَيَتَنَفِّضُ وَيَضْرُخُ مِنْ أَلَمِ الذَّنْبِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ التَّعْسِ .

يَا وَيْلَتَاهُ ! لَقَدْ أَخَذَنِي مَا كَانَ يَأْخُذُنِي لَوْ تَهَدَّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَحَسِبْتُ أَلَكُونَ كُلَّهُ قَدْ أَنْفَجَرَ صُرَاخًا مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ الضَّعِيفِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ أَمَامَ الْقَاتِلِ .

فَهَرَوَلْتُ مُسْرِعًا وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ : يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . يَا مَنْ خَلَقَ الطِّفْلَ عَالَمُهُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ وَحَدُهُمَا وَبَاقِي الْعَالَمِ هَبَاءٌ عِنْدَهُ . يَا مَنْ دَبَّرَ الرِّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكًا وَمَمْلَكَةً وَغَنَى وَسُرُورًا وَقَرَحًا ، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا لَا غَيْرُ . يَا إِلَهِي : أَنْسِنِي مِثْلَ هَذَا النَّسْيَانِ ، وَأَذْرِفْنِي مِثْلَ هَذَا الرَّزْقِ ، وَاكْفُلْنِي بِمِثْلِ هَذَا التَّذْيِيرِ فَإِنِّي

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَبْنِي » بَدَلًا مِنْ : « صَغِيرِهِ » .

مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ أَنْفِطَاعَ الرَّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ .

* * *

قَالَ الرَّجُلُ : وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا كَالْجِنْفَةِ الرَّائِدَةِ تَحْسَبُ أَنَّهَا هِيَ تَقُورُ حِينَ فَارَتْ حَشَرَانَهَا .
وَلَقَدْ كُنْتُ أَخْفَرَمَنِ الذُّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا ، إِلَّا فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ .

وَمَا كِدْتُ أَمْضِي كَمَا تَسُوقُنِي رِجْلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا نَدِيًّا مَطْلُولًا يُرْجِعُ تَرْجِيعَ
الْوَرْقَاءِ فِي تَخَنُّانِهَا وَهُوَ يُرْتَلُّ هَذِهِ الْآيَةُ :

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ . [١٨ سورة
الكهف / الآية : ٢٨] .

قَالَ : فَوَقَفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ ؟ هَلِهِ شَعْلٌ لَا كَلِمَاتٌ ، أَحْرَقَتْ كُلَّ مَا كَانَ
حَوْلِي وَلَمَسَتْ مِصْبَاحَ رُوحِي الْمُنْتَظَفِ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ ، وَإِذَا الدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِي نُورِهِ ،
وَأَرْتَفَعَتْ نَفْسِي عَنِ الْجَذْبِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَكَأَنَّمَا لَفْتَنِي سَحَابَةٌ مِنَ السُّحُبِ ، فَفِي رُوحِي
نَسِيمُ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَرَائِحَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ .

لَعَنَ اللَّهُ هَذَا الْأَضْطِرَابَ الَّذِي يُبْتَلَى الْخَائِفُ بِهِ . إِنَّا نَحْسَبُهُ أَضْطِرَابًا وَمَا هُوَ إِلَّا
اخْتِلَاطُ الْحَقَائِقِ عَلَى النَّفْسِ وَذَهَابُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ، وَتَضَرُّبُ الشَّرِّ فِي الْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فِي
الشَّرِّ حَتَّى لَا يَبِينُ جِنْسٌ مِنْ جِنْسٍ ، وَلَا يُعْرَفَ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ ، وَلَا تَمَازُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقِيقَةٍ .
وَبِهَذَا يَكُونُ الزَّمَنُ عَلَى الْمُبْتَلَى كَالْمَاءِ الَّذِي جَمَدَ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَسَايِرُ . فَيَلْوُحُ الشَّرُّ
وَكَأَنَّهُ دَائِمًا لَا يَزَالُ فِي أَوَّلِهِ يُنْدَرُ بِالْأَهْوَالِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَوَاهُ أَنْتَهَى أَوْ يُوْشِكُ .

قَالَ الرَّجُلُ : وَكُنْتُ أَرَى يَأْسِي قَدْ اعْتَرَى كُلَّ شَيْءٍ ، فَأَمْتَدُّ إِلَى آخِرِ الْكَوْنِ ، وَإِلَى آخِرِ
الزَّمَنِ ؛ فَإِذَا سَكَنَ مَا بَيْنِي إِذَا هُوَ قَدْ كَانَ يَأْسَ يَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَمَكَةِ ، أَمَا مَا وَرَاءَ
هَذِهِ الْأَيَّامِ وَمَا خَلْفَ هَذَا الْمَكَانِ ، فَذَلِكَ حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّمْسِ الَّتِي تَطْلُعُ وَتَغِيْبُ عَلَى
الدُّنْيَا لِأَحْيَائِهَا ، وَحُكْمُ الْمَاءِ الَّذِي تَهْمِي السَّمَاءُ بِهِ لِيَسْقِيَ الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا ، وَحُكْمُ
أَسْتِمْرَارِ هَذِهِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ فِي مَدَارِهَا لَا تُسْكِنُهَا وَلَا تَرْنِيهَا إِلَّا قُوَّةُ خَالِقِهَا .

أَيْنَ أَثَرُ الْإِنْسَانِ الَّذِي الْحَقِيرِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ؟ وَهَلِ الْحَيَاةُ إِلَّا بِكُلِّ ذَلِكَ ؟
وَمَا الَّذِي فِي يَدِ الْإِنْسَانِ الْعَاجِزِ مِنْ هَذَا النَّظَامِ كُلِّهِ فَيُسَوِّغُ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ
حَوَادِثِهِ إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَبْتَدِئُ وَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَنْتَهِي ؟
تَعْتَرِي الْمَصَائِبُ هَذَا الْإِنْسَانَ لِيَتَمَحَوَّ مِنْ نَفْسِهِ الْخَسَّةَ وَالْذَّنَاءَةَ ، وَتَكْسِرَ الشَّرَّ
وَالْكَبْرِيَاءَ ، وَتَقْشَرَ الْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ ؛ فَلَا يَكُونُ مِنْ حُمَقِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ بِهَا طَيْشًا وَحِدَّةً ،
وَكِبْرِيَاءَ وَشَرًّا ، وَذَّنَاءَةً وَخَسَّةً ، فَهَذِهِ هِيَ مُصِيبَةُ الْإِنْسَانِ لَا تِلْكَ .
الْمُصِيبَةُ هِيَ مَا يَنْشَأُ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُصِيبَةِ .

* * *

قَالَ : وَرَدَّدْتُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِي نَفْسِي لَا أَشْبَعُ مِنْهَا ، وَجَعَلْتُ أُرْتَلِّهَا أَحْسَنَ تَرْتِيلٍ
وَأَطْرَبُهُ وَأَشْجَاهُ ؛ فَكَانَتْ نَفْسِي تَهْتَزُّ وَتَزْتَجُّ كَأَنَّمَا هِيَ تَبْدَأُ تَنْظِيمَ مَا فِيهَا لِإِقْرَارِ كُلِّ حَقِيقَةٍ
فِي مَوْضِعِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَخْتِلَافِ وَالْاضْطِرَابِ .

صَبَرَ النَّفْسَ مَعَ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ رُوحَانِيَّتَهَا تَمَثِيلًا دَائِمًا بِالْغَدَاةِ وَالْعَسِيِّ ، وَعَلَى نُورِ الْحَيَاةِ
وِظْلَامِهَا ، يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي سَبِيلُهُ الْحُبُّ لَا غَيْرُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ . وَتَقْبِضُ الْعَيْنَيْنِ بِهَذَا
الْمَثَلِ الْأَعْلَى كَمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي الْجَمَالِ وَالْحُبِّ ؛ وَالرَّبْطُ عَلَى الْإِرَادَةِ كَيْلًا تَتَقَلَّتْ فَتُسِفَ إِلَى
حَقَائِقِ الدُّنْيَا الْمُسَمَّاةِ هُزَاءً وَتَهْكُمَا زِينَةَ الدُّنْيَا ، تِلْكَ الَّتِي تُشَبِّهُ حَقَائِقَ الدُّبَابِ الْعَالِيَةِ ...
فَتَكُونُ قُدْرَةَ نَجَسَةٍ ، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ زِينَةُ الْحَيَاةِ لِهَذَا الْخَلْقِ { الدُّبَابِي } ...
تِلْكَ وَاللَّهُ هِيَ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ وَالْقُوَّةِ . أَمَّا الْمَصَائِبُ كُلُّهَا ، فَهِيَ فِي إِغْفَالِ الْقَلْبِ
الْإِنْسَانِيِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .

* * *

قَالَ : وَلَمَّا صَحَّحْتُ تَوْبَتِي ، وَقَوَّيَ الْيَقِينَ فِي نَفْسِي ، كَبِرَتْ رُوحِي وَاتَّسَعَتْ ،
وَأَنْبَعَثَتْ لَهَا بَوَاعِثُ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ الدُّبَابِ ، وَأَشْرَقَ فِيهَا الْجَمَالُ الْإِلَهِيُّ سَاطِعًا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ ، وَكَانَ الصُّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ ، فَأَنَا دَائِمًا فِي عُمْرِ طِفْلِ ، وَجَاءَنِي
الْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ وَلَا أَحْتَسِبُ ، وَكَأَنَّمَا نِمْتُ فَأَنْتَبَهْتُ غَنِيًّا ، وَعَمِلَ الْقَلْبُ الْحَيُّ فِي

الرَّزَمِ الْحَيِّ .

وَلَقَدْ أَفْذْتُ مِنَ الْآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ ، وَلَا يَنْبُتُ مَعَهَا الشَّرُّ أَبَدًا ، فَأَصْبَحَ مِنْ خِصَالِي أَنْ أَرَى الْحَاضِرَ كُلَّهُ مُتَحَرِّكًا يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعًا ، وَأَسْتَشْعِرُ مِنْ حَرَكَتِهِ مِثْلَمَا تَرَى عَيْنَايَ مِنْ قِطَارٍ الْإِبِلِ يَهْتَزُّ تَحْتَ رِحَالِهِ وَهُوَ يُغْدُ السَّيْرَ .

لَمْ أَبْعُدْ قَلِيلًا وَأَنَا أَمْشِي مُطْمَئِنًّا تَائِبًا مُتَوَكِّلًا حَتَّى دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نِعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاءَ ، وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَأَسْتَنْبَأَنِي ، وَبَشَّتُهُ حَالِي وَأَقْتَصَصْتُ قِصَّتِي . فَقَالَ : سَبِّحْنيكَ اللَّهُ بِالطُّفْلِ الَّذِي كَذَبْتَ تَقْتُلُهُ ، فَأَرْجِعْ إِلَى دَارِكَ . ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دَنَائِيرَ وَقَالَ : أَتَجِرُ بِهِئِهِ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ وَبَرَكَتِهِ فَسَيَمُوتُ فِيهَا طِفْلٌ مِنَ الْمَالِ يَبْلُغُ أَشَدَّهُ . وَقَدْ صَدَقَ إِيمَانُهُ وَإِيمَانِي ، فَبَارَكَ لِي اللَّهُ وَتَمَّا طِفْلُ الْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَى شَبَابِهِ .

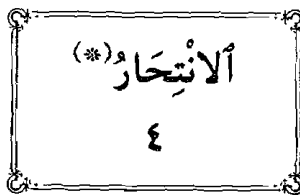
* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَالْخَطِيبِ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَقَالَ الْإِمَامُ : مَا أَشْبَهَ الثُّكْبَةَ بِالْبَيْضَةِ تُحْسَبُ سِجْنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحُوطُهُ وَتُرَبِّيهِ وَتُعِينُهُ عَلَى تَمَامِهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مُدَّةٍ ، وَالرَّضَى إِلَى غَايَةٍ ، ثُمَّ تَنْقُفُ الْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ .

وَمَا الْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا كَالْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَكَوَّنَ فِيهَا ، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبُتَ شَخْصُهُ الْكَامِلُ فَيَخْرُجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَامِلِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَدَّ الْإِمَامُ عَيْنَهُ وَقَدْ رُفِعَ لَهُ شَخْصٌ مِنَ الْمَجْلِسِ ؛ ثُمَّ جَلَّى

بِظَرِّهِ كَأَنَّمَا يَطْلُعُ إِلَى عَجِيئَةٍ كَالْحَقِّ إِذَا بَطَلَ ، وَالصُّدُقِ إِذَا كَذَبَ ؛ ثُمَّ رَدَّ بَصَرَهُ عَلَى كَأَنَّهُ يُعْجِبُنِي مِنْ عَجَبِهِ ؛ ثُمَّ سَجَا طَرَفُهُ كَأَنَّمَا أَنْكَرَ رَأْيَ عَيْنَيْهِ فَهُوَ يَلْتَمِسُ رَأْيَ قَلْبِهِ . وَتَبَيَّنْتُ فِي وَجْهِهِ انْقِبَاضًا حَيْلَ إِلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُ بِهِذَا الرَّجُلِ يُفْحِمُهُ بِهِ يُرِيدُهُ كَيْفَ يَجْعَلَ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ يَتَحَمَّسُ فِي دِينِهِ لِيَرْجِعَ بَعْدَ ذَلِكَ أَصْلًا لَا غِنَى عَنْهُ فِي إِنْشَاءِ قِصَّةٍ كُفْرًا !

هَذَا هُوَ ضَيْفُنَا (أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيُّ) يَتَخَوَّضُ النَّاسُ لِيَجِيءَ فَيُحَدِّثُنَا حَدِيثَهُ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ وَالْإِثْمِ بِرَبِّهِ ؛ فَلَوْ قِيلَ لِي : إِنَّ قَوْمَ السَّمَاءِ بِأَحْمَرِهِ وَأَصْفَرِهِ وَأَزْرَقِهِ وَأَخْضَرِهِ ، قَدْ وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ وَأَضْطَبِعَ مِنَ أَلْوَانِهِ أَوْحَالًا وَأَقْدَارًا ؛ لَكَانَ هَذَا كَهَذَا فِي تَعَاظُمِهِ وَإِنْكَارِهِ وَالْعَجَبِ مِنْهُ ؛ فَأَبُو مُحَمَّدٍ مِنَ الرِّجَالِ الْخُمْسِ^(١) الَّذِي لَوْ كَفَرَ أَحَدُهُمْ ثُمَّ قِيلَ : « إِنَّهُ كَفَرَ » ، لَقَصَّرَ اللَّفْظُ أَنْ يَبْلُغَ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَصِفَ شُعْنَهَا ، كَمَا يَقْصُرُ لَفْظُ الْجُنُونِ عَنْ وَصْفِ حَكِيمٍ تَأَلَّى أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْكَوْنِ ، فَلَا يَبْقَى فِي أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا تَنَالُهُ يَدُ اللَّهِ ! إِنَّ فِي لَفْظِ الْكُفْرِ مَعَ ذَاكَ ، وَفِي لَفْظِ الْجُنُونِ مَعَ هَذَا - شَيْئًا مِنْ نِفَاقِ الْعَقْلِ وَتَأْدِيبِهِ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْأَخْرَقِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ جُنُونٌ وَلَا كُفْرٌ .

وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خِدْلَانِهِ ؛ فَلَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ فِي تَشَدُّدِهِ وَإِغَالِهِ فِي الدِّينِ - كَالَّذِي يَصْنَعُ حَبْلًا يَفْتَلُهُ فِتْلًا شَدِيدًا فَيَمِرُّهُ عَلَى طَاقٍ بَعْدَ طَاقٍ ، لِيَكُونَ أَشَدَّ لَهُ وَأَقْوَى ، ثُمَّ يُجَادِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي أَلْوَهَنِ مِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْنَا فِي سَقْفِ حَدَادٍ ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً حَلَقَةٍ فِي حَلَقَةٍ ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطًا فِي خَيْطٍ تَزْعُمُهُ سِلْسِلَةً . . . !

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ بِهِ ، فَهَذَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ ، فَهُوَ أَبَدًا مُخْتَرِسٌ مُتَهَيِّئٌ مُتَجَدِّدُ الْحَوَاسِ مُزْهَقُهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ ؛ وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤَدَّنَ الْمُؤَدَّنُ وَأَنْ تَقَامَ الصَّلَاةُ مَرَارًا فِي الْيَوْمِ ، فَكُلَّمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالَ الْمُؤْمِنُ : أَلَا أَنْ أَبْدَأُ إِيمَانِي أَطْهَرَ

مَا كَانَ وَأَقْوَى .

* * *

وَقَالَ الْإِمَامُ : هَيْه يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ : لَا يَفْزَعَنَّكَ أَهْلِهَا الشَّيْخُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِي مَا نَكْرَهُ نَحْنُ ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجْرِي عَلَى الْفَاطِنَا ؛ وَقَدْ نُسَمِّي النَّازِلَةَ تَنْزِيلَ بِنَا خَسَارًا وَهِيَ رَيْحٌ ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةً جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَسِيرَتْ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ . إِنَّهَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ ؛ وَكَأَيِّنْ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لِقَعِّ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا . فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمُعَادِيَةِ أَسْبَابًا فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُتَنَصِّرِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يَقْضِي عَلَى الْإِنْسَانِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمٍ فِكْرِهِ الْخَاصُّ بِهِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا ، وَلَكِنَّ دَائِرَةَ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ . وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَأَمْلِكِ الْمُطَاعِ فِي مَمْلَكَتِهِ ، نَافِذَ الْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا ؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعًا بَيْنَ عَوَالِمِ النَّاسِ ، يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْغَنِيِّ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمَجْدُودِ ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمُؤَقَّتِ ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا كَأَلَّاخَبِيٍّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُضَيِّحُ أَجَنِبًا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجَنِبًا عَنْ نَفْسِهِ .

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِهَا ، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ اللَّصِّ ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعًا ؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بَعَيْنِي شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِيفٍ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعَيْنِي مُقَابِلِ مُتَرَبِّصٍ حَذِيرٍ .

كُنْتُ وَاللَّهِ إِنْ ضِغْتُ بِالنَّاسِ أَوْ وَسَعْتُهُمْ ؛ رَأَيْتُ فِي ذَلِكَ مَعْنَى مِنْ ضَيْقِ اللَّصِّ وَسَعَتِهِ ؛ هُوَ عَلَى أَيْ حَالِهِ لَا يَنْظُرُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ إِلَّا شَخْصًا مُتَوَارِيًا تَحْتَ الظَّلَامِ يَسْلُلُ فِي خَشْيَةٍ وَحَذَرٍ !

وَكُنْتُ نَزَقًا حَدِيدَ الطَّبْعِ سَرِيعَ الْبَادِرَةِ ؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ اللَّصِّ الَّذِي

ذَكَرْتُ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعُ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتَهُ يَذْفَعُ بِهَا أَوْ يَغْتَدِي . وَمَا قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَتَفَدَّ فِيهَا تَصَرُّفُهُ ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجِهَتِهِ السَّامِيَةِ لَا غَيْرَهَا ، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ فَمَا يَرَى هَوْلًا وَلَا هَوْلًا إِلَّا أَمْتِحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِتِبَاتًا لَهَا . وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ ؛ فَفِيهِ بَرَكَةٌ هَذِهِ الْحَاسَةِ وَنِعْمَتُهَا .

وَلَوْ نَحْنُ كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَإِسْلَامَ الْمُفْقِدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لَأَدْرَكْنَا سِرَّ الْكَمَالِ الْإِسْلَامِيِّ ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كَبَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِيٍّ ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمِرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ ، الْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعِ غَيْرِهِ ؛ فَتَنْظَرُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَقْصِهِ . وَالْمُؤْمِنُ كَالْغُصْنِ ؛ إِنْ أَمَرَ فَلَيْكَ نِمَارُ نَفْسِهِ ، وَإِنْ عَطَلَ لَمْ يَسْحَدْ وَلَمْ يَخْشُدْ وَأَسْتَمَرَ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ .

وَلَقَدْ نَشَأْتُ فِي مَغْرَسِ كَرِيمٍ ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الثَّمَرَةِ الْحُلْوَةِ ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَّعَيْنُ بِهِ مِنْ حَلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فِجَارِيَّتِهِمْ وَخَالِطْتُهُمْ ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَّاحَةِ مُلْقَاةً فِي الْبَصْلِ . . . وَكَانَتْ التَّفَّاحَةُ حَمَقَاءَ فَرَادَتْ حُمَقًا ، وَكَانَتْ حَدِيدَةً فَرَادَتْ حِدَةً ، وَظَلَّتْ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَحَتْ فِي الدُّنْيَا وَبَذَلَتْ إِذْ خَلَقَتْ الْبَصْلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتْ التَّفَّاحَةَ ؛ وَمَا عَلِمَتْ الْخَرْقَاءُ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصَ ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمُهُ الْقُبْحُ ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا ؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكَتْ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَّاحَةِ لَسَمَّتْ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَّاحَةُ ، وَقَالَتْ عَنْ هَذِهِ : إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ !

وَلَمَّا رَأَتْ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا قَالَتْ : إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي ، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكَوْنِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ سِرٌّ مُغْلَقٌ ، وَلِيَبْقَ كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا .

* * *

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَلَكِنْ بَقِيَتْ وَخْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفَوْتُهَا ، إِذْ لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِيتُ إِلَى عَالَمِي ، وَلَا تَأَكَّدْتُ عَقِيدَتِي بِنَفْسِي ؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُتَبَجِّسًا فِي رُوحِي بِسَرِّهِ ،

وَكَاثِبَ الدُّنْيَا بِهَذَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَزَادَنِي أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا عَزَبًا مُتَعَفِّقًا ؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ الرُّجُولَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ الْعَقْلِ مِنَ الذِّكَاةِ ؛ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَلِيدُ ، وَتِلْكَ هِيَ الرُّجُولَةُ الْبَلِيدَةُ !

وَالْمَرْأَةُ تَضَاعِفُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي النَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْخَلَاءُ مِنْهَا مُضَاعَفَةً لِمَعْنَى الْمَوْتِ ؛ عَلِمَ هَذَا مَنْ عَلِمَ وَجْهَهُ مَنْ جَهِلَ ، فَكُنْتُ أَعِيشُ مِنَ الْكَوْنِ فِي فَرَاغٍ مَيِّتٍ ، وَكُنْتُ أَحْسَنَ فِي كُلِّ مَا حَوْلِي وَخَشَةً وَعَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ ؛ وَكَيْفَ تَتِمُّ فِي عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي ؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَنْصِبُنِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَنْصِبُنِي حَتَّى يُهَيِّئَ فِيهِ مَرَضَ يَوْمٍ آخَرَ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُتَهَالِكَةِ ، تُعَدُّ الْحَيَاةُ أَنْتِقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَأَفَنَّتْ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ !

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزَبَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَنْبِكَ رَذِيلَةٌ فِي أُسْلُوبِهَا ، أَمَا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أُسْلُوبِ فَضِيلَةٍ . . ! هُنَاكَ يَلُمُّ الشَّيْطَانُ وَيَنْصِبُنِي ، وَهُنَا يَأْنِي الشَّيْطَانُ وَيُقِيمُنِي !

وَقَدْ عِشْتُ مَا عِشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مَفْتُوحٍ ؛ وَلَيْتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلَقًا عَقْلُهُ ، وَكَانَ قَلْبِي مَفْتُوحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ !

وَمَضَتْ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيُمْرِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى أَنْتَهَتْ مُنْتَهَاهَا ، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُدْنَفُ إِلَهَالِكُ الَّذِي سَيَمُوتُ . . .

أَصْبَحْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي : كَمَا تَعِيشِينَ وَنَحْكُ فِي أَحْكَامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ لَا تُصَدِّقُ أَحْكَامَهُ ، وَمَا أَنْتَ مَعَهُ فِي طَبِيعَتِكَ وَلَا هُوَ مَعَكَ فِي طَبِيعَتِهِ ؛ فَهَيْمَ اجْتِمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَى بِلَائِي وَنَكَدِي ؟

لَمْ تَصْطَلِحَا قَطُّ عَلَى وَاجِبٍ وَلَا لَذَّةٍ ، وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ ؛ فَأَنْتُمَا عَدَوَّانٍ لَا هَمَّ لِكُلَيْهِمَا إِلَّا إِفْسَادُ الْمَسَرَّةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْآخِرِ . وَمَا أَذْرِي بِمَنْ يَسْخَرُ الشَّيْطَانُ مِنْكُمَا ؟ فَالْعَابِدُ الَّذِي يُوسَّوسُ بِاللَّذَاتِ يَتَمَتَّى أَفْرَاقَهَا ، كَالْفَاجِرِ الَّذِي يُوَاقِعُهَا وَيَقْتَحِمُهَا !

وَيَحِكْ يَا نَفْسُ ! إِنِّي رَأَيْتُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْخَرْقَاءَ لَمْ تُقَدِّمْ لِي إِلَّا رَغِيْفًا وَقَالَتْ : أَمْلَأْ
بِهَذَا بَطْنَكَ وَعَقْلَكَ وَعَيْنَيْكَ وَأُذُنَيْكَ وَمَشَاعِرَكَ . آه ، آه ! مُمَكِّنْ وَاحِدٌ مَعَهُ أَرْبَعَةُ
مُسْتَحِيلَاتٍ ^(١) ؛ إِنَّ هَذَا لَا يُلْبِسُنِي أَنْ يَذْهَبَ مِنِّي بِالْأَرْبَعَةِ الَّتِي تُمَسِّكُنِي عَلَى الْحَيَاةِ :
الْأَمَلِ وَالْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ .

لَقَدْ اسْتَوَى فِي هَذِهِ الْكَاتِبَةِ صَغِيرُ هَمِّي وَكَبِيرُهُ ، وَمَا أَرَانِي إِلَّا قَدْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْهَلَكَةِ
الَّتِي لَا بَاقِيَةَ لَهَا ، فَإِنَّ وَجْهِي الْمُتَكَلِّحَ الْمُتَقَبِّضَ يَدُلُّ مِنِّي عَلَى أَغْصَابٍ مُخْضَرَّةٍ نَهَكَتْهَا
أَمْرَاضُهَا وَرَسَاوِسُهَا ، وَإِنَّمَا وَجْهُ الْإِنْسَانِ فِي قُطْرِهِ أَوْ تَهْلِيلِهِ هُوَ وَجْهُهُ وَوَجْهُ دُنْيَاهُ نَعِيسُ
أَوْ تَبَسُّمٌ .

وَاللَّهِ لَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِفَاحِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْأَغْصَابِ الْمَرِيضَةِ الْوَاهِنَةِ ؛ فَإِنَّ حِبَالَةَ الصَّيْدِ
- صَيْدِ الْوُحْشِ - لَا تَكُونُ مِنْ خِيَطِ الْإِبْرَةِ . . . ! وَأَرَانِي أَصْبَحْتُ كإِنْسَانٍ حَجَرِيٍّ لَيْسَ فِي
طَبِيعَتِهِ الْإِنْتَوَاءُ إِلَى يَمِينِ الْحَيَاةِ وَيَسَارِهَا ؛ وَيُخِيلُ إِلَيَّ مِنْ صَلَابَتِي أَنِّي الْأَسَدُ ، وَلَكِنِّي
أَسَدٌ مِنْ حَجَرٍ ، لَا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الْفِرَارَ مِنْهُ عَلَى أَحَدٍ !

* * *

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : وَرَأَيْتُ نَفْسِي فِي هَذَا الْحَوَارِ كَالْمَيِّتَةِ ، لَا تُجِيبُ وَلَا تَعْتَرِضُ وَلَا
تُنْكِرُ ، وَكُنْتُ أَظْهَرُ تُرَاوِدِي عَلَى الْحَيَاةِ أَوْ تُرْدِي عَنِ غَوَايِي ؛ فَمَلَأْنِي سُكُونُهَا جَزَعًا
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَأَنَّهُ أَخَذَ بِمَنَافِدِهَا ، فَأَرَدْتُ الصَّلَاةَ فَتَقَلْتُ عَنْهَا وَرَأَيْتُنِي
لَا أَصْلَحُ لَهَا ، بَلْ خِيلَ إِلَيَّ أَنِّي إِذَا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَرَّأَ بِالصَّلَاةِ !

وَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يَأْخُذْنِي عَنْ عَقْلِي وَيُرْدِيْنِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَأْخُذْنِي وَيُرْدِيْنِي ، حَتَّى تَوَهَّمْتُ
أَنِّي جُنُنْتُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إِيْمَانِي يُجَادِيْنِي فِيهَا وَأَجَادِبُهُ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ
مَسَّنِي خَبَالٌ وَأَلْقَيْتُ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِي يَدَيْهِ !

ثُمَّ أَفَقْتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً ، فَرَأَيْتُ (الْمُضْحَفَ) يَرُقُّبُنِي مِنْ قَرِيبٍ ^(٢) ، فَعُدْتُ بِهِ وَعَظَفْتُ

(١) { الْرَغِيْفُ بِنَاءُ الْبَطْنِ ، فَهَذَا هُوَ الْمُمَكِّنُ ، وَلَكِنْ عَمَلُهُ فِي الْبَاقِيَّاتِ مُسْتَحِيلٌ } .

(٢) فِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى : « يَرُقُّبُنِي قَرِيبٌ » بَدَلًا مِنْ : « يَرُقُّبُنِي مِنْ قَرِيبٍ » .

عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: أَمْنَعِ الصُّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي. بَيَّدَ أَنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَضَمِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي؛
كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مُصْحَفًا عِنْدَ زِينَتِي، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي
ضَعُفْتُ عَنْ حَمْلِ الْمُصْحَفِ كَمَا قُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَبَقِيَ الطَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجِسُ نَجِسًا.

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِي وَلَا كُنْتُ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ
هُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكُهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ، بَقَايَا شُعُورٍ
ضَعِيفٍ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَيَتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ.

فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَغْقِلْ مَا عَمِلْتُ، وَكَانَتْ أَلْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزْقًا
نَاشِرًا مُثْبِتًا، فَفَارَ الدَّمُ وَأَنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَبُوعِ ضُرِبَ عَنْهُ الصَّخْرُ فَأَنْشَقَ فَأَنْبَقَ.
وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَتَطَرْتُ فَرَأَيْتُ ...

* * *

قَالَ الْمُسَبِّبُ رَاوِي الْقِصَّةِ: وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ
شَفَقٌ مُحَمَّرٌ فَأَظْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَمَا قَالَ: «فَتَطَرْتُ فَرَأَيْتُ».

وَأَزْتَجَّ الْمَسْجِدُ بِصَنِيعَةٍ وَاحِدَةٍ: فَرَأَيْتُ مَاذَا؟ رَأَيْتُ مَاذَا؟

وَبَعَثَتْ الصَّنِيعَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوهِ أَشْرَفَتْ مِنَ الْمُصْحَفِ تَنْظُرُ إِلَيَّ
كَالْعَائِيَةِ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْحَقِّ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي
نُضْرَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ. وَغَمَمَتْ { الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ } بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَكِنْ
نَظَرَهَا إِلَيَّ كَأَن يُوَدِّي لِي مَعَانِيَهَا، وَكَأَنهَا تَقُولُ: «أَكْذَلِكَ الْمُؤْمِنُ ...؟».

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةُ وُجُوهِ أُخْرَى، كَأَنهَا نَفَائِضُ تِلْكَ، وَأَعْوُذُ بِاللَّهِ
مِنْ أَوْسَطُهَا، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ
الْوَجْهَ الْأَصْفَرَ مِنْهَا وَجْهَ سُورَةِ الْمُصْحَفِ، فَفَكَّرْتُ، فَوَقَعَ لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي
مِنَ اللَّغَةِ أَنَّهَا: «تَمَّتْ يَدَايَ لَهَا وَتَبَّ ...». [١١١ سورة المسد/ الآية: ١].

وَطَمَسَ الظَّلَامُ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَتَغَيَّمَتِ الدُّنْيَا، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ أَنَا مِي قَدْ أَقْبَلْتُ عَلَى ظُلْمَةٍ
بَعْدَ ظُلْمَةٍ، وَالتَّمَعْتُ شَيْءًا أَحْمَرًا، فَتَطَرْتُ فَإِذَا الدَّمُ يَتَخَالِيلُ فِي عَيْنِي كَأَنَّهُ شُعْلٌ تَتَلَوَّى،

فَجَزَعْتُ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، وَحَسِبْتُهَا طَرَائِقَ مُنْتَدَّةٍ لِرُوحِي تَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْجَحِيمِ .
وَمَاتَتْ كُلُّ خَوَاطِرِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِكْرَةَ وَاحِدَةٍ بَقِيَتْ حَيَّةً تَأْكُلُ فِي قَلْبِي أَكْلَ النَّارِ ،
وَهِيَ : « كَيْفَ تَجَزَّأْتُ فَوَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ حُمَقِي ؟ » .

* * *

وَيَقُولُونَ : إِنَّ أَخِي قَدْ رَأَيْتَنِي أَتَشْخَطُ فِي دَمِي فَصَاحَتْ ، وَجَاءَ النَّاسُ عَلَى صَوْتِهَا ،
وَكَانَ فِيهِمْ طَيْبٌ ، فَبَعْدَ لَأَيِّ مَا ، اسْتَطَاعَ حَسَنَ الدَّمِ ، وَاخْتَالَ حِيلَتُهُ حَتَّى أَسَفَ الْجُرْحَ
دَوَاءً وَضَمَدَهُ ؛ فَجَعَلْتُ أَنْوِبَ نَفْسًا بَعْدَ نَفْسٍ ، وَرَاجَعْتُ قَلِيلًا قَلِيلًا . . .

ثُمَّ طَافَتِ الْحَيَاةُ عَلَى عَيْنَيَّ فَفَتَحْتُهُمَا ، فَإِذَا الْأَشْيَاءُ تَبْدُو لِي وَلَيْسَ فِيهَا حَقَائِقُ وَلَا
مَعَانٍ ، كَأَنَّهَا تَتَخَلَّقُ جَدِيدَةً تَحْتَ بَصَرِي ، وَكَأَنَّهَا خَارِجَةٌ لِسَاعَتِهَا مِنْ يَدِ اللَّهِ !

وَتَمَثَّلْتُ شَيْئًا بَعْدَ سَاعَاتٍ ، فَأَحْسَسْتُ أَنَّ نَفْسِي قَدْ رَجَعَتْ إِلَيَّ سَاحِرَةً مَنِي تَقُولُ :
كَيْفَ رَأَيْتَ عَمَلَ الْعَقْلِ أَيُّهَا الْعَاقِلُ ؟

وَبَدَأَتِ الْحَيَاةُ تَتَجَدَّدُ ، فَأَقْسَمْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي أَنْ أَجِدَّ إِيمَانِي بِاللَّهِ . وَلَمْ أَكُذْ أَفْعَلُ
حَتَّى أَحْسَسْتُ كَأَنَّ قُوَّةَ الْوُجُودِ كُلَّهَا مُسْتَقَرَّةٌ فِي رُوحِي ، وَخِئْلٌ إِلَيَّ أَنِّي أَنَا وَحْدِي الْقَوِيُّ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ قُوَّةَ جِبَالِهَا وَصُخُورِهَا ، عَلَى حِينٍ كَانَ جِسْمِي مُمَدَّدًا كَالْمَيْتِ
لَا يَتِمَّاسُكَ مِنَ الضَّعْفِ !

فَأَبْقَنْتُ حِينَئِذٍ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ قَطُّ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ أَشْعُرْ بِهِ قَطُّ فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ يَأْتِنِي بِهِ عِلْمٌ
وَلَا فِكْرٌ : أَيْقَنْتُ أَنَّهَا مُعْجَزَةُ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ الْغَضِّ ، الْمُتَّصِلِ بِاللَّهِ لِتَوْهُ كَيْمَانِ الْأَنْبِيَاءِ
دُونَ أَنْ تَلْمَسَهُ شَهْوَةٌ ، أَوْ تَغْتَرِضَهُ خَاطِرَةٌ ، أَوْ تُكَذِّرُهُ وَاحِدَةٌ مِنْ فِكْرِ أَرْضِي دَنَسٍ .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : ثُمَّ جَلَسَ الْمُتَحَدِّثُ ، وَكَانَ النَّاسُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا غَادَرُوا الدُّنْيَا
سَاعَةً ، وَرَجَعُوا إِلَيْهَا عَلَى مِثْلِ حَالَتِهِ وَمِثْلِ إِيمَانِهِ ؛ فَسَكَتَ الْإِمَامُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، لِيَدَعَ كُلَّ
نَفْسٍ تُكَلِّمُ صَاحِبَهَا .



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَطْرَقَ النَّاسُ قَلِيلًا بَعْدَ خَبَرِ (أَبِي مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيِّ) ؛ إِذْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمْ قَدْ جَمَعَ بَالَهُ لِمَا سَمِعَ ، وَأَخَذَ يَخْدِسُ فِي نَفْسِهِ وَيُرَاجِعُهَا الرَّأْيَ ، وَكَانَ الْمَجْلِسُ قَدْ أَمْتَدَّ بِنَا مِنْذُ الْعَصْرِ وَمَا يَكَادُ النَّهَارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ ، حَتَّى اعْتَرَضَتْ فِي شَمْسِهِ الْغُبْرَةُ الَّتِي تَعْتَرِيهَا إِذْ دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ . وَكَانَ إِلَى يَسَارِي فَتَى رَيَّانُ الشَّبَابِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ ، لَهُ هَيَاةٌ وَسَمْتُ ، أَقْبَلَ عَلَى الْآيَامِ ، وَأَقْبَلَتْ الْآيَامُ عَلَيْهِ .

فَسَمِعَنِي أَطْلُ عَلَى أُذُنِ (مُجَاهِدِ الْأَزْدِيِّ) ؛ وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ شَاعِرًا فِي كَلَامِهِ وَشَاعِرًا فِي قَلْبِهِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّهَارِ يَا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحِبِّ دَنَا لَهُ الْمَوْعِدُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَائِلَهَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، لَتَرَى جَمَالَ جِسْمِهَا هُنَا وَهُنَا !

فَاهْتَزَّ الْفَتَى لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَسَالَتِ الرَّقَّةُ فِي أَعْطَافِهِ ، وَقَالَ : يَا عَمَّ ! أَمَا تَرَى مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَاكِ مَسَحَ دُمُوعُهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَابَةٌ الزَّمَنِ . . . ؟

قُلْتُ : كَانَ لَكَ خَبِيرًا يَا فَتَى ، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقُصِّهِ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سَائِرَ أَلْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بِنَا طَيْرَةٌ فَوْقَ الدُّنْيَا .

قَالَ : فَمَهْ ؟

قُلْتُ : تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَانًا وَبَيَانًا .

قَالَ : أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيرِهِ ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ ؟ فَبَادَرَ مُجَاهِدٌ فَقَالَ : وَيَحْكُ يَا فَتَى ! لَقَدْ تَحَجَّجْتَ وَاسِعًا ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُصَلِّي بَيْنَ

يَدْبِي اللَّهُ وَكِتَابَ سَيِّئَاتِهِ فِي عُنُقِهِ مَنْشُورٌ مَقْرُوءٌ . وَهَلْ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ إِلَّا سَاعَاتُ قَلْبِيَّةٍ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَنِ ، تَأْتِي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلَهَا كَمَا تَأْتِي تَوْبَةُ الْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الْجِسْمُ ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ الَّتِي يَدْخُلُهَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّهُ حَاسَبَهُ عَنْ أَمْسٍ وَأَوَّلٍ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلُ ، لَطَرَدَهُ مِنَ الْعَتَبَةِ ! إِنَّ الْمَسْجِدَ يَا بُنَيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِدَاخِلِهِ : أَذْخُلُ فِي زَمَنِي وَدَعُ زَمَنَكَ ، وَتَعَالَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ ، لِنَتَحَقَّقَ أَنَّ فِيكَ حَاسَةً مِنَ السَّمَاءِ ، وَجَنِينِي بِقَلْبِكَ وَفَكْرِكَ ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِيَّ لَا فِيكَ ^(١) . وَلَسْنَا الْآنَ يَا بُنَيَّ فِي مَتَحَدِّثٍ كَنَدِي الْقَوْمَ يَتَطَارَحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ ، بَلْ نَحْنُ فِي مَجْلِسٍ عِلْمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ رَقَبَةً هَذَا وَرَقَبَةً هَذَا يَمَا سَمِعْتَ ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَادْكُزْ عِلْمَ قَلْبِكَ وَقُصِّ عَلَيْنَا خَبَرَ طَيْسِ الْحُبِّ وَالشَّبَابِ الَّذِي يُشْبِهُ الْكَلَامَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ الصُّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ وَالْقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى الْبَرَقِ !

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَأَنْتَهَضَ الْفَتَى ، وَرَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَنْتَهِدُ كَأَنَّمَا أَنْصَدَعَتْ كَبِدُهُ : فَقُلْتُ : مَا بِأَلْكَ ؟ قَالَ : إِنَّ شَبَابِي قَدْ مَرَّ عَلَيَّ السَّاعَةَ فَتَسَمْتُ مِنْهُ فِي بَرْدَةِ هَذَا الْفَتَى ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقَدْثًا ثَانِيًا فَهَرَمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا ، وَجَاءَنِي الْحُزْنُ مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ ، حُزْنَ مَنْ هَمَّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَيْبٍ ثُمَّ رُدَّ . . . !

وَتَحَدَّثَ الْفَتَى ، فَإِذَا هُوَ يُدِيرُ بَيْنَ فَكِّهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِتَفْسِينٍ : إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةٌ تَصْنَعُ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ ، وَالْأُخْرَى عُلوِيَّةٌ تُلْقِي فِيهَا النَّارَ وَالنُّورَ .

قَالَ : إِنَّ لِي قِصَّةَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْكَلَامُ الَّذِي دُفِنَتْ فِيهِ مَعَانِيهَا ؛ وَقَدْ تَأْتِي الْقِصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ الْقَلْبِ مُفَعَّمَةً بِالْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ ، لَا يُرَادُ بِالْأَلَامِ وَأَحْزَانِهَا إِلَّا إِنْجَادُ أَخْلَاقٍ لِلْقَلْبِ لِيَعِيشَ بِهَا وَيَتَبَدَّلَ . وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَيْهِ الْحُبُّ لَا يَكُونُ قَدْ أَحَبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ قَدْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْسَى نَفْسَهُ فِي غَيْرِهِ ، وَهَلْذِهِ كَمَا هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحُبِّ ؛ فَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِحْسَانِ .

(١) { سَتَأْتِي فَلَسَفَةُ الْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَى مِمَّا يَجْمَعُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَانْظُرْ مَقَالَتهُ : « آلهُ أَكْبَرُ » } .

وَمَتَى صَدَقَ الْمَرْءُ فِي حُبِّهِ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِكْرَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا فِكْرَةٌ وَالْأُخْرَى عَقِيدَةٌ
تَجْعَلُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ ؛ وَهَذِهِ كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْحُبِّ فَهِيَ طَبِيعَةُ الدِّينِ .

وَلَا شَيْءَ فِي الدُّنْيَا غَيْرُ الْحُبِّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقُلَ إِلَى الدُّنْيَا نَارًا صَغِيرَةً وَجَنَّةً صَغِيرَةً ،
يَقْدِرُ مَا يَكْفِي عَذَابَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَعِيمَهَا ! وَهَذِهِ حَالَةُ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ .

وَالْفَضَائِلُ عَامَّتُهَا تَعْمَلُ فِي نَقْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَقَدْ لَا تَنْقُلُ إِلَّا أَقْلَهُ وَيَبْقَى فِي
الْحَيَوَانِيَّةِ أَكْثَرُهُ ؛ وَلَكِنَّ الْحُبَّ الصَّادِقَ يَقْتُلِعُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيَوَانِيَّتِهِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، يَبْدَأُ أَنَّهُ
لَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا قَتَلَهُ بِالْأَمَةِ ؛ فَهُوَ كَأَعْلَى السُّكِّ وَالْعِبَادَةِ .

كَانَ مِنْ خَبْرِي أَنِّي دُعِيتُ يَوْمًا إِلَى مَا يُدْعَى لِمِثْلِهِ السَّبَابُ فِي مَجْلِسِ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ .
يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْضُهُ فَمَا
فَوْقَهَا ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ٢٦] ، وَالْبَعْضُ فِي قِصَّتِي أَنَا كَانَتْ أَمْرًا نَصْرَانِيَّةً . . . قِئْتُهُ
فُلَانِ الْمُغْنِيَةِ الْحَادِقَةِ الْمُحْسِنَةِ الْمُتَادِبَةِ ، تَحْفَظُ الْحَبَرَ وَتَرْوِي الشُّعْرَ ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْفَاطِ فِيهَا
حَلَاوَةً وَجْهِهَا ، وَتَخْلُقُ الْكُنْتَ إِذَا شَاءَتْ خَلَقَ الزُّهْرَةُ الْمُتَفَتِّحَةُ عَلَيْهَا سَقِيطُ الثَّدْيِ ؛ وَتَجِدُ
بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزِلُ ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تُحَدِّثُهُ فِي
شَهْوَاتِهِ وَعَقْلِهِ !

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ الْقِصَّةِ نَفْسِهَا ، لَا أَنَا لَمْ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَتَذَمُّ ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ
الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ : « الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ السُّكْرُ » ، وَوَصَفَ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ :
« الْمَلَكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلُ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبِيرِهَا » ، وَذَكَرَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ ، وَلَمْ
يُسَمِّهَا : « حَامِلَةَ السَّمَاءِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ » وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ
كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَانَقُ !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَتَبَسَّمَ إِمَامُنَا وَنَظَرَتْ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سَوْأًا . أَمَا مُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ فَكَانَ
مِنْ هِزَّةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ ، وَقَالَ : اللَّهُ دَرُهُ فَتَى ، إِنَّ هَذَا لَبَيَانٌ كَحَيْلِ الْعَيْنِ . . .
ثُمَّ قَالَ أَلْفَتَنِي : وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُهُ هَذِهِ الْمُغْنِيَةُ مِنْ حَوَاشِيهِ وَأَطْرَافِهِ
كَأَنَّهُ نَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ . أَمَا هِيَ فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ : « أَلَدَّةُ . . . » .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَطَرِبَ مُجَاهِدٌ طَرَبًا شَدِيدًا وَسَمِعْتُهُ يُخَافِتُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ : « اللَّهُ دَرُّهَا أَمْرًا ؛ هَلِذِهِ ، هَلِذِهِ عِدْوَةُ الْخُزَرِ الْعَيْنِ ! » .

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشُّرْبِ ، وَمَا دُقْتُ خَمْرًا قَطُّ ، وَلَنْ أَتَذَوَّقَهَا وَلَوْ شَرِبَهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَلَنْ أَذُوقَهَا وَلَوْ أَنْقَطَعَ الْغَيْثُ وَلَمْ تُمَطِّرِ السَّمَاءُ إِلَّا خَمْرًا ؛ فَإِنِّي مُذْ كُنْتُ يَافِعًا رَأَيْتُ أَبِي يَشْرِبُهَا ، وَكَانَتْ أُمِّي تَلْزُمُهُ فِيهَا وَتَشْتَدُّ فِي تَغْنِيفِهِ وَتَحْتَدِمُ ، وَكَانَا يَتَسَاحَنَانِ فَيَسْأَلُهَا بِالْأَذَى وَيَتَدَرِي عَلَيْهِمَا بِالسَّبِّ وَفُحْشِ الْقَوْلِ ، وَسَكَرَ مَرَّةً وَغَلَبَهُ السُّكْرُ حَتَّى ثَارَتْ أَحْشَاؤُهُ ، فَذَرَعَهُ الْفَيءُ فَتَوَهَّمَنِي وَعَاءً ، وَجَاءَ إِلَيَّ وَأَنَا جَالِسٌ فَأَمْسَكَ بِي وَفَاءً فِي حِجْرِي ، حَتَّى أَفْرَغَ جَوْفُهُ ؛ وَثَارَتْ أُمِّي لِتَنَرَعُهُ وَأَنْشَأَتْ تَعَالِجُهُ عَنِّي فَتَصَارَعَ جُنُونُهُ وَعَقْلُهَا حَتَّى كَفَّاهُ عَلَى وَجْهِهِ كَالْإِنَاءِ ؛ فَالْتَوَى كَالْحَيَّةِ بَطْنًا لَظْهَرٍ ، وَاسْتَجَمَعَ كَالْقَنْفُذِ فِي شَوْكِهِ ، ثُمَّ لَكَزَهَا بِرِجْلِهِ أَسْفَلَ بَطْنِهَا فَانْقَلَبَتْ ، فَأَصَابَ رَأْسُهَا إِيْجَانَةً^(١) الْعَجِينَ فَتَلَمَّ تَلِيمًا الْإِنَاءِ كَأَنَّمَا شُدِخَ ضَرْبًا بِحَجَرٍ ، وَأَنْثَرَتْ دِمَاعَهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ عَيْنِي ، وَرَأَيْتُهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ دَفَعَتْ بِإِحْدَى يَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَضَمَّتْ بِالْأُخْرَى إِلَى صَدْرِهَا ، تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَحْمِينِي وَتَدْفَعُهُ عَنِّي ؛ ثُمَّ سَكَنَتْ ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ مِنَ الشَّجَةِ فِي رَأْسِهَا لَمَاتَتْ مِنَ الصَّرَبَةِ فِي بَطْنِهَا !

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَطْرَقَ الْفَتَى هُنَيْهَةً وَأَطْرَقَ النَّاسُ مَعَهُ ؛ فَرَفَعَ مُجَاهِدٌ صَوْتَهُ وَقَالَ : رَحِمَهَا اللَّهُ ! فَقَالَ النَّاسُ جَمِيعًا : رَحِمَهَا اللَّهُ !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَكَانَ عَامَهُ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَاحَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْخَمْرَ . فَقَالُوا لِلْمُعَنِّيَةِ : إِنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيَوَانِنَا^(٢) . فَتَنَظَّرْتُ إِلَيْهِ ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظَرِهَا بِإِطْرَاقَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : تَشْرَبُ عَلَى

(١) هِيَ مَا يُعْجَنُ فِيهِ الْعَجِينُ وَتُغْسَلُ فِيهِ اللَّيَابُ ، وَقَدْ يُوضَعُ فِيهَا الْمَاءُ لِيَتَوَصَّأَ مِنْهُ ، وَتَتَّخِذُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَزَفٍ أَوْ غَيْرِهِمَا .

(٢) تَعْبِيرٌ قَدِيمٌ كَانُوا يُرِيدُونَ بِهِ الشُّرْبَ ، كَأَنَّهُ دِيْوَانُ مَلِكٍ .

وَجِئِي ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي : لَا تَشْرَب . . . فَتَضَاحَكْتَ وَقَالَتْ : أَهْوَ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَى ، وَوَصَلْتُ إِلَى طَرِيقَتَيْنِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِهَا ؛ وَتَبَّهَ فِيهَا مِثْلُ حُبِّ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا أَذَنَتْ بِلِسَانِهَا فَاطْرَقَ سَاكِتًا يَشْكُوهَا إِلَى قَلْبِهَا !

وَالْتَفَتْتُ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ : لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَتَفَعُّونَ بِي إِلَّا أَنْ تَشْرَبُوا إِلَيَّ وَلَهُ وَلَا تُفْسِكُمْ ، وَأَنْحَطَّ عَلَيْهِمُ السَّاقِي ، فَشَرِبُوا أَرْطَالًا وَأَرْطَالًا ، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغَيِّثُهُمْ وَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهَهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ .

فَوَسَّوَسَ لِي شَيْطَانِي أَنْ تَشَدَّدَ مَعَ هَذِهِ بِمِثْلِ عَزَمَتِكَ مَعَ الْخَمْرِ ، { فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ } . وَلَكِنِّي كُنْتُ أُحِدُّ النَّظَرَ إِلَيْهَا ، فَمَرَّةٌ أَوَامِقُهَا نَظْرَةُ الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ ، { وَمَرَّةٌ أَغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تُنْظَرُ } ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَخْذُهَا وَأَدْعُهَا ، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا . فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ : مَا بِأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا ؟ وَلَكِنَّ هِيَاءَ وَجْهَهَا جَعَلَتْ أَلْمَعْنَى : لَا تَنْظُرُ إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا . . . !

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ الشُّكْرُ ؛ فَبَقِيَتْ لِي وَخْدَتِي وَبَقِيَتْ لَهَا وَخْدَهَا ؛ ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عُوْدَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيدًا أَكْثَرَ مِنَ الْضَمِّ . . . وَالْمَسْتُهُ صَدْرَهَا وَنَهْدَيْهَا ، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنَى ، فَمَا شَكَّكَ أَنَّهَا ضَمَّتْ لِي أَنَا وَالْعُوْدَ ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا أَلْصَوْتَ [من الطويل] :

أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْحَمَامَةَ غُدُوَةً عَلَى الْغُصْنِ ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ ؟
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوْنَتْ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ : تُرَى هَلْ ذِي الْحَمَامَةِ جُنَّتِ ؟

* * *

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعُضَاءِ وَطَيْبُهُ بِأَكْثَرِ مِثْنِي لَوْعَةٍ ، غَيْرَ أَنَّي وَغَنَّتْ غِنَاءً مِنْ قَلْبٍ يَتَرَّى ، وَصَدْرُ يَتَنَهَّدُ ، وَأَحْشَاءُ لَا تُخْفِي مَا أَجَنَّتْ ؛ وَكَانَتْ تَرْتَفِعُ صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَنَّتِ . . .
وَبَرَدَ الْحَمَى مِنْ بَطْنِ خَبْتِ ، أَرْتَبِ . . .
أَجْمِجُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجَنَّتِ !

بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي الدَّمْعُ عَلَى صَوْنِهَا ، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَبِينَ أَتَيْنَ الْبَاكِئَةِ ، ثُمَّ يَغْتَلِجُ فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِيًا وَنَازِلًا ، ثُمَّ يَرْفُضُ الْكَلَامَ فِي آخِرِهِ دُمُوعًا تَجْرِي .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ مُجَاهِدٌ وَقَالَ : عَدُوَّةُ الْجَنَّةِ وَاللَّهِ هَذِهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، لَا تَقْبَلُ الْجَنَّةَ مَنْ يَكُونُ مَعَهَا . تَقُولُ لَهُ : كُنْتُ مَعَ عَدُوَّتِي !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ أَتَشَّسُوا ، فَأَعْتَزَّاهُمْ نِصْفُ النَّوْمِ وَبَقِيَ نِصْفُ الْيَقَظَةِ فِي حَوَاسِهِمْ ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ مِنَّا رَأَوْهُ كَأَحْلَامٍ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمُ الْمُثْقَلَةِ سُكْرًا وَتَعَاسًا . وَوَبَّتِ الْمُخَيَّئَةُ فَجَاءَتْ إِلَى جَانِبِي وَالتَّصَقَّتْ بِي ، وَأَسْرَعَ الشَّيْطَانُ فَوَسَّوَسَ لِي : أَنْ أَخْذَرَ فَإِنَّكَ رَجُلٌ صَدِيقٌ ، وَإِذَا صَدَقْتَ فِي الْخَمْرِ فَلَا تَكْذِبَنَّ فِي هَذِهِ ، وَلَئِنْ مَسَسَتْهَا إِنَّهَا لَضَيَاعُكَ آخِرَ الدَّهْرِ !

فَعَجِبْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانِي أَسْلَمَ وَأَعِنْتُ عَلَيْهِ كَمَا أُعِينُ الْأَنْبِيَاءَ عَلَى شَيَاطِينِهِمْ . وَلَكِنَّ اللَّعِينَ مَضَى بِصَدْنِي عَنِ الْمَرْأَةِ دُونَ مَعَانِيهَا ، وَكَانَ مِنِّي كَالَّذِي يُذْنِي الْأَمَاءَ مِنْ عَيْنِي الْفَتِيلِ الْمُتَلَهَّبِ جَوْفُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ دَائِمًا قَوْتَ فِيهِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مِنَ الْمُفْحُولَةِ بِحَيْثُ يَبْدُو لِي مِنْ شِدَّةِ الْفُورَةِ فِي دَمِي وَشَبَابِي أَنِّي ^(١) أَجْمَعُ فِي جِسْمِي رِجَالًا عِدَّةً ، وَلَكِنْ ضَرَبَنِي الشَّيْطَانُ بِالْخَجَلِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ رَجُلًا مَعَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ .

وَعَجِبْتُ هِيَ لِذَلِكَ وَمَا أَسْرَعَ مَا نَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهَا بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . . . !

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَحْبَبْتُكَ مَا لَمْ أَحِبَّ أَحَدًا ، وَأَخْبَيْتُ خَجَلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنْ تَأْتِمَ فِي فَتْدُخْلِ النَّارِ بِخِي ، وَلَوْ أَنَّكَ ابْتَعْتَنِي مِنْ مَوْلَايَ ؟ فَقُلْتُ : بِكُمْ أَشْتَرَاكِ ؟ قَالَتْ : بِأَلْفِ دِينَارٍ ! قُلْتُ : وَأَيْنَ هِيَ مِنِّي وَأَنَا لَوْ بَعْتُ نَفْسِي مَا حَصَلَتْ لِي ؟

فَتَمَّمَ الشَّيْطَانُ مَوْعِظَتَهُ ، وَقَالَتْ { وَأَشَارَتْ إِلَى قَلْبِهَا } : إِنَّ قَلْبِي { هَذَا } قَبْلَكَ غَنِيًّا كُنْتُ أَوْ فَقِيرًا ، وَأَحْسَنُ بِكَ وَخَدَكَ حُبَّ الْعُذْرَاءِ أَوَّلَ مَا تُحِبُّ ، وَأَنَا - كَمَا تَرَانِي -

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ » بَدَلًا مِنْ : « أَنِّي » .

أَعِيشُ فِي السَّيِّئَاتِ كَالْمُكْرَهَةِ عَلَيْهَا ، فَسَأَعْمَلُ عَلَى أَنْ تَكُونِ أَنْتَ حَسَنِيَّ عِنْدَ اللَّهِ ، أَذْهَبَ
إِلَيْهِ حَامِلَةً فِي قَلْبِي حُبِّي إِيَّاكَ وَعِظَمِي عَنكَ ، وَلَكِنْ كَانَتْ عِقَّةٌ مَنْ لَا يَشْتَهِي وَلَا يَجِدُ تَعُدُّ
فَضِيلَةً كَامِلَةً ، إِنَّ عِقَّةً مَنْ يَجِدُ وَيَشْتَهِي تَعُدُّ دِينًا بِحَالِهِ . وَلَا يَزَالُ حُبِّي يَكْرًا ، وَلَا أَزَالُ
فِي ذَلِكَ عَذْرَاءَ الْقَلْبِ ، وَهَلْؤُلَاءِ قَدْ نَزَعُوا الْحَيَاءَ عَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْبَسْنِيهِ أَنْتَ مِنْ
أَجْلِكَ خَاصَّةً ؛ وَإِنَّ قُوَّةَ حُبِّي كَالَّذِي سَيَأْتِيكَ بِكَ وَيَتَعَذَّبُ مِنْكَ لِطُولِ مَا يَصْبِرُ عَنكَ ،
سَتَكُونُ هِيَ بَعِينَهَا قُوَّةً لِفَضِيلَتِي وَطَهَارَتِي .

ثُمَّ تَنَاوَلْتَ عُودَهَا وَسَوْنَهُ وَغَنَّتْ [مَنْ الْوَافِر] :

فَلَوْ أَنَّا عَلَى حَجَرٍ ذُبَحْنَا جَرَى الدَّمِيانِ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ^(١)
وَجَعَلَتْ تَنَاوُهُ فِي غَنَائِهَا كَأَنَّهَا تَذْبُحُ ذَبْحًا ، ثُمَّ وَضَعَتْ الْعُودَ جَانِبًا وَقَالَتْ :
مَا أَشْقَانِي ! إِذَا أَتَقَفْتُ لِي سَاعَةً زَوَاجِي فِي غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلُمِ يَأْتِي بِخَيَالِ الزَّمَنِ
فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خَيَالُ الْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ سَأَلْتَنِي : مَا بَالُكَ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الدُّيُونِ ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي
الْمُؤْمِنُ . . . وَسَاقَ فِي لِسَانِي خَبْرَ أُمِّي وَأَبِي ، فَاتَّضَحَّتْ عَيْنَاهَا بَاكِئَةً وَتَمَّ لَهَا رَأْيِي فِي
كَرَائِي أَنَا فِي الْمُسْكِرِ ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا ، وَبَطْرَيْنًا زَاهِدًا
مَعِي أَنَا وَخِدِي !

وَرَأَيْتُهَا لَا تَجَالِسُنِي إِلَّا مُتْرَابِلَةً كَالْعَذْرَاءِ الْخَفِرَةِ إِذَا انْفَبَضَتْ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا ،
وَصَارَتْ تَخَافُنِي لِأَنَّهَا تُحِبُّنِي ، وَهَيْبَتِي الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِي الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ
تَحْتَ عَيْنَيْهَا الْيَبِينِ . . . وَلَكِنْ الْقَدِيسَ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبَكْرِ .

وَلَمْ يَعُدْ جَمَالِي هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضْهِبُهَا ، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مَنِّي أَنِّي صَنَعْتُ فَضِيلَتِهَا
الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي . . .

* * *

(١) كَانَتْ الْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ اثْنَانِ فَجَرَى دَمِيَاهُمَا عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ ثُمَّ أُلْقِيَا ، حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا
كَانَا مُتَحَابِّينِ ، فَإِنْ لَمْ يَلْتَقِيَا حُكِمَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مُتَسَائِلَيْنِ . وَمَا أَجْمَلُهَا خُرَافَةً وَأَشْعَرَهَا .

وَأَنْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيَّ وَفِيهَا بَدَاهَانِي وَحِثَّكَهَ وَبُكِّلَ مَا جَرَّبَ فِي النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى يَوْمِي وَيَوْمِهَا . . . ! فَكَانَ يَجْدُبُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ الْجَذْبِ ، وَيَذْفَعُهَا عَنِّي أَقْوَى الدَّفْعِ ، ثُمَّ يُغِيرُنِي بِكُلِّ رَذَائِلِهَا وَلَا يُغِيرُنِيهَا هِيَ إِلَّا بِفَضَائِلِي . وَالْقَى مِنِّي فِي دَمِي فِكْرَةَ شَهْوَةٍ مَجْنُونَةٍ مُتَقَلِّبَةٍ ، وَالْقَى مِنِّي فِي دَمِهَا فِكْرَةَ حِكْمَةٍ رَزِينَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ . وَكُنْتُ أَلْقَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعُ غِنَاءَهَا ؛ فَمَا هُوَ بِالْغِنَاءِ وَلَكِنَّهُ صَوْتُ كُلِّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيَّ ، حَتَّى لَوْ أَلْتَصَقَ جِسْمُهَا بِجِسْمِي وَسَارَ الْبَدَنُ الْبَدَنَ ، وَهَمَسَ الْأَذُنُ لِلذَّمِّ ، لَكَانَ هُوَ هَذَا الْغِنَاءُ الَّذِي تُعْتَنِيهِ .

وَأَصْبَحْتُ كُلَّمَا اسْتَقَمْتُ لِحُبِّهَا تَلَوْتُ عَلَيَّ ؛ إِذْ لَسْتُ عِنْدَهَا إِلَّا الْأَمَلُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالْثَوَابِ ، وَكَأَنَّمَا مُسِخْتُ حَبْلًا طَوِيلُهُ مِنْ هُنَا إِلَى الْجَنَّةِ لِتَتَعَلَّقَ بِهِ . وَعَادَ أَمْنِئَتُهَا مِنِّي جُنُونًا دِينِيًّا مَا يُفَارِقُهَا ، فَأَبْتَلَانِي هَذَا بِمَثَلِ الْجُنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلَفٍ وَشَغَفٍ .

وَأَنْحَصَرْتُ نَفْسِي فِيهَا ، فَجَعَلْتُ مَعَهَا أَشَدَّ غَبَاوَةً مِنَ الْجَاهِلِ يَنْظُرُ إِلَى مَدِّ بَصَرِهِ مِنَ الْأَفْقِ فَيُخَكِّمُ أَنَّ هَلْهُنَا نِهَايَةَ الْعَالَمِ ، وَمَا هَلْهُنَا إِلَّا آخِرُ بَصَرِهِ وَأَوَّلُ جَهْلِهِ . وَأَنْفَلْتُ مِنِّي زَمَامَ رُوحِي ، وَأَنْكَسَرَ مِيزَانُ إِزَادَتِي ، وَأَخْتَلَّ اسْتِوَاءُ فِكْرِي ، فَأَصْبَحْتُ إِنْسَانًا مِنَ النَّقَائِصِ الْمُتَعَادِيَةِ ، أَجْمَعُ الْيَقِينِ وَالشَّكِّ فِيهِ ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ لَهُ ، وَالْأَمَلِ وَالْخَيْبَةِ مِنْهُ ، وَالرَّغْبَةِ وَالْعُزُوفَ عَنْهَا . وَفِي أَقْلٍ مِنْ هَذَا يُخْطَفُ الْعَقْلُ ، وَيَتَدَلَّهُ مَنْ يَتَدَلَّهُ .

ثُمَّ ابْتُلَيْتُ مَعَ هَذَا اللَّامِ بِجُنُونِ الْغَيْظِ مِنْ ابْتِدَائِهَا لِأَصْحَابِهَا وَعَفَّتْهَا مِنِّي ، فَكُنْتُ أَنْطَايِرَ قِطْعًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَأَجِدُ عَلَيْهَا وَأَنْتَكِرُ لَهَا ، وَهِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تَزِيدُنِي عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ ؛ فَكَانَ يَطِيرُ بِعَقْلِي أَنْ أَرَى جِسْمَهَا نَارًا مُسْتَعْلَةً ، ثُمَّ إِذَا أَنَا رُمْتُهُ اسْتَحَالَ ثَلْجًا ، وَفَرَّحَتِ الْغَيْرَةُ قَلْبِي وَفَتَّتْ كَيْدِي مِنْ عَابِدَةِ الشَّيْطَانِ مَعَ الْجَمِيعِ ، الرَّاهِيَةِ مَعَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَطْ . . . !

وَرَجَعْتُ خَوَاطِرِي فِيهَا مِمَّا يُعْقَلُ وَمَا لَا يُعْقَلُ ؛ فَكُنْتُ أَرَى بَعْضَهَا كَأَنَّهُ رَاجِعٌ مِنْ سَفَرٍ طَوِيلٍ عَنْ حَبِيبٍ فِي آخِرِ الدُّنْيَا ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ دَارِ حَبِيبٍ فِي جِوَارِي ، وَبَعْضَهَا كَأَنَّهُ ذَاهِبٌ بِي إِلَى الْمَارِسْتَانِ . . . !

وَرَأَيْتُنَا كَأَنَّا فِي عَالَمَيْنِ لَا صِلَةَ بَيْنَهُمَا ، وَنَحْنُ مَعَ قَلْبِنَا إِلَى قَلْبٍ ، فَذَهَبَ هَذَا بِالْبَقِيَّةِ
الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ عَقْلِي ؛ وَلَمْ أَرِ لِي مَنَاجَاةً إِلَّا فِي قَتْلِ نَفْسِي لِأَرْهَقَ هَذَا الْوَحْشَ الَّذِي فِيهَا .
وَذَهَبَتْ فَأَبْنَعْتُ شُعَيْرَاتٍ مِنَ السَّمِّ الْوَحِيِّ الَّذِي يُعَجِّلُ بِالْقَتْلِ ، وَأَخَذْتُهَا فِي كَفِّي
وَهَمَمْتُ أَنْ أَفْطَحَهَا وَأَبْلِعَهَا ، فَذَكَرْتُ أُمِّي ، فَظَهَرَتْ لِي خَيَالِي مَشْدُوحَةً الرَّأْسِ فِي هَيَاةٍ
مَوْتِهَا ، وَإِلَى جَانِبِهَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ فِي هَيَاةٍ جَمَالِهَا ، وَتَبَتَّ عَلَى عَيْنَيَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا ،
وَأَدْمُنْتُ النَّظَرَ فِيهَا طَوِيلًا فَإِذَا أَنَا رَجُلٌ آخَرُ غَيْرُ الْأَوَّلِ ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ غَيْرُ تِلْكَ ، وَطَعْتُ
عِبرَةَ الْمَوْتِ عَلَى شَهْوَةِ الْحَيَاةِ فَمَحَتَهَا ، وَصَحَّ عِنْدِي مِنْ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَا عِلَاجَ مِنْ هَذَا
الْحُبِّ إِلَّا أَنْ تُفَرَّنَ فِي النَّفْسِ صُورَةُ امْرَأَةٍ مَيِّتَةٍ إِلَى صُورَةِ الْمَرْأَةِ الْحَيَّةِ ، وَكَلَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ
جِيءَ لَهَا بِتِلْكَ ، فَإِذَا اسْتَمَرَّ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَيِّتَةَ تُمِيتُهَا فِي النَّفْسِ وَتُمِيتُ الشَّهْوَةَ إِلَيْهَا ، مَا مِنْ
ذَلِكَ بُدٌّ ، فَلْيُجَرِّبْنِي مَنْ شَكَّ فِيهِ .

وَأَنْفَتَحَ لِي رَأْيِي عَجِيبٌ ، فَجَعَلْتُ أَتَأَمَّلُ كَيْفَ آمَنَ شَيْطَانِي ثُمَّ كَفَرَ بَعْدُ ، عَلَى أَنَّ
شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَتْ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غِيَا حَامِدَ الْفِطْنَةِ ، إِذْ لَمْ
يَسْنَخْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَذْتُ أَرْهَقَ نَفْسِي وَأَخْسَرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعَنَهُ
اللَّهُ - إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ ، لِيَرْمِيَنِي بَعْدَهَا فِي الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِالْمَوْتِ
عَلَى الْكُفْرِ !

وَرَدَّ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ مِنْ عَقْلِي . وَمَنْ أَبْتَلِيَ بِلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلِّزُ يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ
الْبَقِيَّةَ ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِسَاعَتِهِ ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي وَأَسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ ،
وَالْفَقِيتُ السَّمَّ فِي التُّرَابِ وَغَيَّبْتُهُ فِيهِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : وَيَحَاكَ يَا نَفْسُ ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ
عَمَلًا بِالْحَيِّ ، أَفْتَرَضِينَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةُ بِأَبْطَالِهَا وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ ، ثُمَّ يَكُونُ
عَمَلُهَا بِكَ أَنْتِ الْقَعُودُ نَاحِيَةً وَالْبُكَاءُ عَلَى امْرَأَةٍ ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ ! مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَّانٍ قَصَابٍ ، وَبَيْنَ سَرِقَةِ لَحْمٍ امْرَأَةٍ مِنْ
دَارِ أَبِيهَا ، أَوْ زَوْجِهَا ، أَوْ مَوْلَاهَا ... ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ ! إِنَّمَا إِيمَانُ أَسْلَافِنَا مَعَنَا ؛ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَهُنَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَأَسْتَحْفَهُ الطَّرَبُ ، فَصَاحَ صَنِحَةً النَّصْرِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَجَاوَبَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صَنِحَةٍ وَاحِدَةٍ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَلَمْ يَكُذِّ يَهْتَفُ بِهَا النَّاسُ حَتَّى أَرْتَفَعَتْ صَنِحَةُ الْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ . اللَّهُ أَكْبَرُ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَنْفَضَ مَجْلِسُ الشَّيْخِ ، وَدَرَجَتْ بَعْدَهُ أَعْوَامٌ فِي عِدَّةِ الشُّهُورِ مِنْ حَمْلِ الْمَرَأَةِ ، بَلَغَتْ فِيهَا أُمُورُ النَّاسِ مَبْلَغَهَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَشَرِّهَا ، مِمَّا أَعْرِفُ وَمَا لَا أَعْرِفُ ؛ وَدَخَلْتُ الْبَصْرَةَ أَنَا وَمُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ ، نَسْمَعُ الْحَسَنَ ^(١) وَنَأْخُذُ عَنْهُ ؛ فَإِنَّا لَسَائِرَانِ يَوْمًا فِي سِكَةِ بَنِي سَمُرَةَ ، إِذْ وَافَقْنَا أَلْفَتَى صَاحِبِ النَّصْرَانِيَّةِ مُقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَكُنَّا فَقَدْنَاهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ ، فَاسْرَعَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ فَأَلْتَزَمَهُ وَقَالَ : مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِذِي نَسَبٍ إِلَى الْقَلْبِ . وَسَلَّمْتُ بَعْدَهُ وَعَانَقْتُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلْنَا نَسْأَلُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ آخِرُ أَوْلَكَ ؟

قَالَ مُجَاهِدٌ : بَلْ مَا كَانَ آخِرُ أَوْلِهَا هِيَ ؟

فَضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ : النَّصْرَانِيَّةُ تَغْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : آخِرُهَا مِنْ أَوْلِهَا كَهَذَا مِنِّي ؛ وَأَوْمَأَ إِلَى ظِلِّهِ فِي الْأَرْضِ مَمْدُودًا مَشْبُوحًا مُخْتَلِطًا غَيْرَ مُتَمَيِّزٍ ؛ كَأَنَّهُ ثَوْبٌ مَنْشُورٌ لَيْسَ فِيهِ لَابِسُهُ ، وَكُنَّا فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَصِيرُ فِيهَا ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِيهِ فَهُوَ مَرْجُ الْمَسْخِ بِالْمَسْخِ ...

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٠ ، ٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ = ٣ يونيو/حزيران ١٩٣٥ ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٨٨٣ - ٨٨٧ .

(١) الْحَسَنُ النَّصْرِيُّ : الْإِمَامُ الْعَظِيمُ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا أَظْفَ جَوَابَكَ وَأَنْقَلَهُ يَا رَجُلُ ! كَأَنَّهُ وَاللَّهِ تَاجِرٌ لَا صِلَةَ لَهُ بِأَلْشَّيْءِ إِلَّا مِنْ أَمْنَانِهَا ؛ فَظَنَرُهُ إِلَى فَرَاهَةِ الدَّابَّةِ مِنَ الدَّوَابِّ وَإِلَى فَرَاهَةِ الْجَارِيَةِ مِنَ الرِّقَيقِ سَوَاءً .

قَالَ الرَّجُلُ : فَأَنَا وَاللَّهِ تَاجِرٌ ، وَأَنَا عَلَى طَرِيقِ الْإِيْوَانِ^(١) الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ تِجَارُ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَخُرَاسَانَ ؛ وَقَدْ صَرَبْتُ فِي هَذِهِ التَّجَارَاتِ وَحَسُنَتْ بِهَا حَالِي وَتَأَثَّلْتُ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ قَلْبَ التَّاجِرِ غَيْرُ التَّاجِرِ ، فَلَيْسَ يَزُنْ وَلَا يَقْبِضُ ، وَلَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي . أَمَّا « تِلْكَ » فَأَصْبَحْتُ نَسِيَانًا ذَهَبَ لِسَبِيلِهِ فِي الزَّمَنِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : فَكَيْفَ كُنْتُ تَرَاهَا وَكَيْفَ عُدْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ : كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِي وَأَفْكَارِي وَشَهَوَاتِي ؛ فَكَانَتْ بِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ النِّسَاءِ ، وَكَانَتْ أَلْوَانًا أَلْوَانًا مَا تَنْقَضِي ، فَلَمَّا دَخَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا الزَّمَنُ وَالْعَقْلُ ، أَبْعَدَهَا هَذَا عَنْ قَلْبِي وَأَبْعَدَهَا ذَاكَ عَنْ خِيَالِي ؛ فَظَنَرْتُ إِلَيْهَا بِعَيْنِي وَحَدُّهُمَا ، فَرَجَعَتْ أَمْرًا كَكُلِّ أَمْرَةٍ ؛ وَبِزَوَّلِهَا مِنْ نَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، رَجَعَتْ أَقَلَّ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ النِّسَاءِ ، وَهَذِهِ الْقِلَّةُ فِيمَا عَرَفْتُ لَا تُصِيبُ أَمْرًا عِنْدَ مُحِبِّهَا إِلَّا فَعَلَتْ بِجَمَالِهَا مِثْلَمَا تَفْعَلُهُ الشَّيْخُوخَةُ بِجِسْمِهَا ، فَأَذْبَرْتُ بِهِ ثُمَّ أَذْبَرْتُ وَأَسْتَمَرْتُ تُذْبِرُ !

وَأَنْتَ إِذَا أَبْصَرْتَ أَمْرًا شَبِيحًا قَدْ ذَهَبَ إِلَيْكَ كَانَتْ فِيهَا . . . وَأَخْطَرْتُ فِي ذَهْنِكَ نَيْتَ مِمَّا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَهَلْ تُرَاكَ وَاجِدًا الشَّهْوَةَ وَالْمَمِيلَ إِلَّا الثُّفْرَةَ وَالْمَعْصِيَةَ ؟ إِنَّ هَذَا الَّذِي كَانَ الْحُبَّ وَالْهَوَى وَالْعِشْقَ ، هُوَ بِعَيْنِهِ الَّذِي صَارَ الْإِلْمُ وَالذَّنْبُ وَالضَّلَالَةُ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَأَنَّكَ لَمَّا ذَهَبَتْ تَقْتُلُ نَفْسَكَ مِنْ حُبِّهَا فَتَلْتَهَا هِيَ فِي نَفْسِكَ ؟ قَالَ : يَا رَحْمَةً قَدْ رَحِمْتُ بِهَا نَفْسِي يَوْمَئِذٍ ! أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ حُبِّ أَمْرَةٍ لَعِيبٍ . وَيَحَهُ ! فَلَيْتَ خَلَصَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْحَيَاةِ لَا مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْحُبِّ طَرَفَيْنِ : أَحَدُهُمَا فِي اللَّذَّةِ ، وَالْآخَرُ فِي الْحَمَاقَةِ ؛ مَا مِنْهُمَا بَدْ . فَهَذَا الْحُبُّ يُلْقِي صَاحِبَهُ فِي الْأَحْلَامِ وَيُغَشِّي بِهَا عَلَى بَصَرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ أَتَجَّهُ بِطَرَفِهِ السَّعِيدِ إِلَى حَظِّهِ الْمُقْبِلِ وَاتَّقَبَّتِ اللَّذَّةُ لِلْمُحِبِّ ، أَيْقَظَتْهُ اللَّذَّةُ مِنْ أَحْلَامِهِ ؛ وَإِنْ أَتَجَّهُ الْحُبُّ بِطَرَفِهِ الشَّقِيِّ إِلَى حَظِّهِ

(١) هَذِهِ الْكَلِمَةُ خَيْرٌ مَا يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ «الْبُورْصَةِ» ، { وَكَذَلِكَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا } .

الْمُذِيرَ ، وَقَعَتِ الْحَمَاقَاتُ فُتُونًا شَتَّى بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ ، وَفَعَلَتْ آخِرًا فِعْلَ اللَّذَّةِ ، فَأَيَقَظَتْ
الْعَاشِقَ مِنْ أَحْلَامِهِ أَيْضًا . وَهَذَا تَذْيِيرٌ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي تِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُدْمِرَةِ الْمُسَمَّاهِ
الْحُبِّ . أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّذَّةَ وَهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ مَا دَامَ تَحَقُّقُهَا هُوَ فَنَاءُهَا .

خُذْ عَنِّي يَا مُجَاهِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ : « لَيْسَ الْكَمَالُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ طَبِيعَتِهَا ، وَلَا هُوَ
شَيْءٌ يُذْرِكُ ، وَلَكِنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنَّ اسْتِمْرَارَ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِذْرَاكُهُ » .

قَالَ مُجَاهِدٌ : لَقَدْ عَلِمْتُ بَعْدَنَا عِلْمًا ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَعَمَّنْ أَخَذْتَ ؟

قَالَ : عَنِ السَّمَاءِ !

قَالَ : وَتِلْكَ ! أَيْنَ عَقْلُكَ ، فَهَلْ نَزَلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : لَا ، وَلَكِنْ تَعَالَى مَعِيَ إِلَى الدَّارِ فَأُحَدِّثْكُمْ .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَذَهَبْنَا مَعَهُ ؛ فَأَيْنَمَا يَطْعَامُ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا ، وَأَشْعَرْنَا الدَّارَ أَنَّ رَبَّهَا قَدْ
وَقَعَ فِي مَا شَاءَ مِنْ دُنْيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ الثَّعْمَةُ ؛ فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِينَا قَالَ مُجَاهِدٌ : هَيْه
يَا أَبَا ... يَا أَبَا مَنْ ؟ قَالَ : أَبُو عُبَيْدٍ . قَالَ : هَيْه يَا أَبَا عُبَيْدٍ ...

فَأَفْكَرَ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : عَهْدُكُمْ بَيْنِي مُنْذُ تَسَعٍ فِي مَجْلِسِ الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ بِالْكُوفَةِ ؛
وَقَدْ كُنْتُ فِي بَيْتِهِ مِنَ الثَّعْمَةِ أَنْجَلُ بِهَا ، وَكَانَتْ تُسَكِّنُنِي عَلَى مَوْضِعِي فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ؛
فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ تَدُقُّ وَتَنْفُضُ حَتَّى نَكِدَ عَيْشِي وَوَقَعْتُ فِي الْأَيَّامِ الْمُقْعَدَةِ الَّتِي لَا تَمْشِي
بِصَاحِبِهَا ، وَانْقَلَبَ الزَّمَنُ كَالْعَدُوِّ الْمُغِيرِ جَاءَ لِيَصْطَلِمَ وَيُخَرِّبَ وَيُفْسِدَ ، فَأَثَرُ فِيَّ أَقْبَحَ
آثَارِهِ ، فَبِعْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحَمَّلْتُ عَنِ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي
تَغَيَّرْتُ نَفْسِي ، وَلَا أَكُونُ فِي الْبَصْرَةِ قَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى الْفَقْرِ ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ الْفَقْرِ
كَمَا يَبْدَأُ غَيْرِي ، وَأَدْعُ الْمَاضِيَ فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَى مَا يَسْتَقْبِلُنِي .

فَالْتَمَسْتُ رِفْقَةً فَالْتَأَمْنَا عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا كُنَّا فِي الطَّرِيقِ ، سَلَبَنَا اللَّصُوصُ وَحَارُوا
الْقَافِلَةَ وَمَا تَخَوَّنِي ، وَنَجَوْتُ أَنَا رَاكِبًا فَرَسِي وَعُمُرِي ، وَأَذْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْحَيَاةَ وَخَدَهَا
مُلْكٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهَا هِيَ الْأَدَاةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا لِأَنْفُسِنَا وَالْأَمْرُ فِيهِ هَيِّنٌ

وَالْخَطْبُ يَسِيرُ .

وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ الْلُّصُوصَ قَدْ مَرُّوا بِنَا كَمَا يَمُرُّ النَّاسُ بِالنَّاسِ لَمَا نَكَبُونَا ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَضُوا لَنَا عُرُوضَ اللَّصِّ لِلْمَالِ وَالْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ ، فَوَضَعُوا فِيْنَا الْأَيْدِيَ النَّاهِيَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا أَدْرَكْتُ أَنَّ لَيْسَ الشَّرُّ إِلَّا حَالَةً يَلْبَسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَأَصْلُ السَّعَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ أَلَّا يَغْبَأَ بِهَذِهِ الْحَالَاتِ مَتَى عَرَضَتْ لَهُ ؛ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا تَمَثَّلَ الشَّرُّ كَمَا يَرَاهُ وَافِعًا فِي غَيْرِهِ ؛ فَالْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا حَالَةٌ مِنْ الْفُجُورِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَحَظَّ نَفْسِهَا ، فَقَدْ تَعَمَّى وَتَرَلَّى ؛ وَلَكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَى أَثَرِهِ عَلَى الْفَاجِرَةِ ، كَانَتْ كَأَنَّمَا زَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرَى تُرِيهَا الْأَشْيَاءَ مُجَرَّدَةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا .

قَالَ : وَمَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي تَتَفَادَفُنِي الْبِقَاعُ وَالْأَمَكِنَةُ ، وَأَنَا أَعَانِي الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ ، وَأَخْشَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَأُكَابِدُ الْأَلَمَ وَالْجُوعَ ، حَتَّى دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ دُخُولَ الْبَعِيرِ الرَّاحِ ، قَطَعَ الصَّحْرَاءَ تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا يَأْكُلُ مِنْهَا ، فَأَنْصَاهُ السَّفَرُ وَحَسَرَهُ الْكَلَالُ وَنَحْتَهُ الْثَقُلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ ، فَجَاءَ بَنِيَّةٌ غَيْرِ اللَّتِي كَانَ قَدْ خَرَجَ بِهَا . وَكَانَتْ أَيَّامِي هَذِهِ عُمُرًا كَامِلًا مِنَ الشَّقَاءِ ، جَعَلْتَنِي أَوْقِنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالِدَوَابِّ تَحْتَ أَحْمَالِهَا : لَا تَخْتَارُ الدَّابَّةُ مَا تَحْمِلُ وَلَا مَنْ تَحْمِلُ ، وَلَا يَتْرُكُ لَهَا مَعَ هَذَا أَنْ تَخْتَارَ الطَّرِيقَ وَلَا مَدَّةَ السَّيْرِ ؛ وَلَيْسَ لِلدَّابَّةِ إِلَّا شَيْئَانِ : صَبْرُهَا وَقُوَّتُهَا ؛ إِنْ فَقَدَتْهُمَا هَلَكَتْ ، وَإِنْ وَهَنَ فِيهَا كَانَ ضَعْفُهَا بِحَسَبِ ذَلِكَ .

إِنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا مِنَ الشَّقَاءِ وَالْبُؤْسِ تَقْذِفُ بِالْإِنْسَانِ وَرَاءَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِ جَمِيعًا ، لَا تَبَالِي كَيْفَ وَقَعَ وَفِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ ، فَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَنْ يَغْصِمَ بِأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ ، فِي مِثْلِ رِضَاهُ الَّذِي هُوَ أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَصَبْرِهِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْقُوَّةِ ، وَقَنَاعَتِهِ اللَّتِي هِيَ أَغْنَى الْغِنَى ، وَجَهْلِهِ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ الْعِلْمِ ، وَتَوَكُّلِهِ الَّذِي هُوَ إِيمَانُ فِطْرَتِهِ بِفِطْرَتِهِ . لَا يُبَالِي الْحَيَوَانُ مَالًا وَلَا نَعِيمًا ، وَلَا مَتَاعًا وَلَا مَنَزَلَةً ، وَلَا حَظًّا وَلَا جَاهًا ، وَلَكِنْ تَجِدُ حِمَارَ الْمَلِكِ يَعْرِفُ مِنَ الْمَلِكِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ حِمَارَ السَّقَاءِ مِنَ السَّقَاءِ ؛ وَلَعَلَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمَا وَأَطَاقَا الْجَوَابَ لَقَالَ لَكَ الْأَوَّلُ : إِنَّ الَّذِي فَوْقَ ظَهْرِي

ثَقِيلٌ مَقِيتٌ بَغِيضٌ ؛ وَلَقَالَ لَكَ الثَّانِي : إِنَّ الَّذِي يَرْكَبُهُ خَفِيفٌ سَهْلٌ سَمَحٌ !

وَلَكِنَّ بَلَاءَ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ حِينَ يَطْوُحُهُ الْبُؤْسُ وَالشَّقَاءُ وَرَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا يَنْظُرُ لِغَيْرِ النَّاسِ فَيَزِيدُهُ ذَلِكَ بُؤْسًا وَحَسْرَةً ، وَيَمَحَقُ فِي نَفْسِهِ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّبْرِ ، وَيَقْلِبُ رِضَاهُ غَيْظًا ، وَقَتَاعَتُهُ سَخَطًا ، وَيَبْتَلِيهِ كُلُّ ذَلِكَ بِالْفِكْرَةِ الْمُهْلِكَةِ أَعْجَزَهَا أَنْ تُهْلِكَ أَحَدًا فَلَا تَجِدُ مَنْ تُدْمِرُهُ غَيْرَ صَاحِبِهَا ؛ فَإِذَا هِيَ وَجَدَتْ مَسَاعَا إِلَى النَّاسِ فَأَهْلَكَتْ وَعَالَتْ وَأَفْسَدَتْ ، جَعَلَتْ صَاحِبَهَا إِمَّا لِيَصَّ أَوْ قَاتِلًا أَوْ مُجْرِمًا ، أَيْ ذَلِكَ تَيْسَّرُ !

* * *

قَالَ : وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي الْبَصْرَةِ فَلَنَا التَّاجِرَ مِنْ سَرَائِهَا وَوُجُوهِ أَهْلِهَا ، فَاسْتَطَرَقْتُهُ ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى خُرَاسَانَ ، وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي أَحَدٌ فِي الْبَصْرَةِ وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا غَيْرَهُ ؛ فَكَأَنَّمَا نَكِبْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً بِغَارَةِ شَرٍّ مِنْ تِلْكَ ، غَيْرَ أَنَّهَا قَطَعَتْ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ طَرِيقَ أَيَّامِي ، وَسَلَبَتْني آخِرَ مَا بَقِيَ لِنَفْسِي ، وَهُوَ الْأَمَلُ !

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ نُرُوزٍ لِي إِلَى الْأَرْضِ بَدْ ، فَأَكُونُ فِيهَا إِنْسَانًا كَالْدَّائِيَةِ أَوْ الْحَشَرَةِ ؛ حَيَاتُهَا مَا اتَّفَقَ لَا مَا تُرِيدُ أَنْ يَتَّفَقَ ؛ وَأَنَّهُ لَا رَأْيَ إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ فَازْهَدَ فِيهَا وَأَنَا الْقَوِيُّ الْكَرِيمُ ، قَبْلَ أَنْ تَسْخَرَ مِنِّي إِذَا جِئْتُهَا وَأَنَا الطَّامِعُ الْعَاجِزُ !

وَفِي الْأَرْضِ كِفَايَةُ كُلِّ مَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا وَلَكِنْ بِطَرِيقَتِهَا هِيَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ ؛ وَمَا دَامَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّنْدِيلِ وَتَحَوُّلِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ ، فَهَذَا الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْأَسَدُ لَا تَعْرِفُ الْأَرْضُ أَنَّهُ قَدْ أَكَلَ وَلَا أَنَّهُ أَفْتَرَسَ وَمُرَّقَ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا قَدْ تَحَوَّلَ قُوَّةً فِي شَيْءٍ آخَرَ وَمَضَى ؛ أَمَّا عِنْدَ النَّاسِ فَذَلِكَ خَطْبٌ طَوِيلٌ فِي حِكَايَةِ أَوْهَامٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ ؛ كَمَا لَوْ اخْتَرَعْتَ قِصَّةَ خُرَافَةٍ تَحْكِيهَا عَنْ أَسَدٍ قَدْ نَزَعَ لَحْمًا . . . فَتَعَاهَدَهُ فَأَنْبَتَهُ فَحَصَدَهُ فَأَكَلَهُ ، فَذَهَبَ الزَّرْعُ يَخْتَجُّ عَلَى أَكْلِهِ ، وَجَعَلَ يَشْكُو وَيَقُولُ : لَيْسَ لِهَذَا زَرْعُنِي أَنْتَ ، وَلَيْسَ لِهَذَا خَرَجْتُ أَنَا تَحْتَ الشَّمْسِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ !

وَالْإِنْسَانُ يَرَى بِعَيْنَيْهِ هَذَا التَّغْيِيرَ وَاقِعًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَامَّتِهَا وَفِي الْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا ؛ فَإِذَا

وَقَعَ فِيهِ هُوَ صَجٌّ وَسَخِطٌ ، كَأَنَّ لَهُ حَقًّا لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْعَجِيبُ فِي قِصَّةِ بَنِي
آدَمَ ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا عَلَى الْأَرْضِ كَلِمَاتٌ مِنَ الْجَنَّةِ لَا تَقَالُ هُنَا وَلَا تَفْهَمُ هُنَا ؛ بَلْ مَحَلُّ
الْإِعْتِرَاضِ بِهَا حِينَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ خَالِدًا لَا يَقَعُ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّنْدِيلُ . وَمِنْ هَذَا كَانَ خَيَالُ
اللَّذَّةِ فِي الْأَرْضِ هُوَ دَائِمًا بَاعِثَ الْحَمَاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَذَهَبْتُ أَعْتَمِلُ بِيَدَيَّ وَجِسْمِي عَلَى الْآمِ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضُّرِّ ، وَمِنْ الْخَبِيَّةِ
وَالْإِحْقَاقِ ، وَمِنْ الْجَاءِ الْمُسْكَنَةِ وَإِخْوَاجِ الْخَصَاصَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنَّ يَدَيَّ كَيْدَ الْعَبْدِ ،
وَوَظْهَرِي كَظْهَرِ الدَّائِبَةِ ، وَرِجْلِي كَرِجْلِ الْأَسِيرِ ، وَعَيْنِي كَعَيْنِ الْمَغْلُولِ ؛ وَيَطْلُعُ قُرْصُ
الشَّمْسِ عَلَى الدُّنْيَا وَيَغِيبُ عَنْهَا وَمَا أَعْتَمِلُ إِلَّا بِقُرْصٍ مِنَ الْخُبْرِ ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَبْذُلُ فِي
صَيَانَةِ كُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ مَاءٍ وَجْهِي سَحَابَةً مِنَ الْعَرَقِ حَتَّى لَا أَسْأَلَ النَّاسَ ، وَيَا بُؤْسًا لِي إِنْ
سَأَلْتُ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلْ !

وَمَا كَانَ يُنْسِكُنِي عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُرْمَقَةِ ، تَأْتِي رَمَقًا بَعْدَ رَمَقٍ فِي يَوْمٍ يَوْمٍ - إِلَّا
كَلَامَ الشَّعْبِيِّ الَّذِي سَمِعْتُهُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَقَوْلُهُ فِي مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ نُورًا
فِي صَدْرِي يُشْرِقُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ مَعَ الصُّبْحِ صُبْحٌ لِإِيمَانِي . وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَيَّامُ نِعْمَتِي الْأُولَى
وَلَهَا فِي نَفْسِي ضَرْبَانُ مِنَ الْوَجَعِ كَالَّذِي يَجِدُهُ الْمَجْرُوحُ فِي جُرْحِهِ إِذَا ضُرِبَ عَلَيْهِ ، فَكَانَ
الشَّيْطَانُ لَا يَجِدُ مَقْذَا إِلَى إِلَّا مِنْهَا . وَفَقَدْتُ الصَّدِيقَ وَعَوْنَهُ ، فَمَا كَانَ يَقْبَلُ عَلَيَّ صَدِيقٌ
إِلَّا فِي أَخْلَامِي مِنْ وَرَاءِ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ !

قَالَ مُجَاهِدٌ : وَالْحَبِيبُ ؟

فَتَبَسَّمَ الرَّجُلُ وَقَالَ : إِذَا فَرَّغْتَ الْحَيَاةَ مِنَ الَّذِي هُوَ أَقْلُ مِنَ الْمُمكنِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ فِيهَا
الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْمُمكنِ ؟ إِنْ جُوعَ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ حَقِيقَةً جَافِيَةً لَا شِعْرَ فِيهَا ،
وَيَتْرَكَ الزَّمْنَ وَمَا فِيهِ سَاعَةً وَاحِدَةً مُعْطَرَةً . . . وَالْبُؤْسُ يَقْظَةُ مَوْلِمَةٍ فِي الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ تُحْرِمُ
عَلَيْهِ الْأَخْلَامَ ؛ وَمَا الْحُبُّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ إِلَّا أَخْلَامُ الْقُلُوبِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ !

* * *

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَتَضَعُضْتُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُخْزِيَةِ وَأَبْرَمْتُنِي أَيَّامُهَا ، وَحَمَلْتُ فِيَّ
الْمَيِّتَ وَالْحَيَّ ، وَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَأَنَّمَا أَتَّخَذَنِي وَعَاءً مُطَّرَحًا عَلَى طَرِيقِهِ يُلْقِي

فِيهِ الْقِيَامَةُ .. ؛ وَظَهَرَ لِي قَلْبِي فِي وَسْوَيسِهِ كَالْمَدِينَةِ الْخَرَبَةِ ضَرْبَهَا الْوَبَاءُ ، فَأَعْمُرُ مَا فِيهَا مَقْبَرَتُهَا ؛ وَعَادَ الْبُؤْسُ وَفَاحَ الْوَجْهَ لَا يَسْتَحْيِي ، فَلَا أَرَاهُ إِلَّا فِي أَرْذَلِ أَشْكَالِهِ وَأَبْرَدِمَا ؛ وَلَقَدْ يَكُونُ الْبُؤْسُ لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَاءِ فَيَأْتِي فِي أُسْلُوبٍ مُعْتَدِرٍ كَالْمَرْأَةِ الدَّمِيمَةِ فِي نِقَابِهَا .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : مَا هُوَ وَاللَّهِ إِلَّا الْقَتْلُ ، فَهَذَا عُمْرُ أَرَاهُ كَالْأَسِيرِ أُقِيمَ عَلَى اللَّطْعِ وَسُلِّ عَلَيْهِ السِّيفُ ، فَمَا يَتَّقِمُ مِنْهُ الْمُتَتَّقِمُ بِأَفْطَحَ مِنْ تَأْخِيرِ الضَّرْبَةِ ، وَمَا يَزَحْمُهُ الرَّاحِمُ بِأَحْسَنَ مِنْ تَعْجِيلِهَا !

وَيْتُ أَوَامِرِ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَأَحْدَثُهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ ، فَسَدَدَتْ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ : مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمُتَعَمِّقِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ أَنْفِرَاضِهِ وَتَفْتِيئِهِ ؟ بَيِّنْ أَلَّنِي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَخْفِظُهُ كُلَّهُ ، فَجَعَلْتُ أَهْذُهُ^(١) مَا أَتْرُكُ مِنْهُ خَرَفًا ، وَأَتَّخِذْتُهُ مُتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا ، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْنِي وَأَضْعَيْتُ كَمَا أَضْغِي إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي ؛ فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُتَفَرِّدٍ ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ !

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَنَالَنِي رَوْحٌ مِنَ الْأَطْمِثَانِ وَجَذْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَمِثْتُ ، فَإِذَا الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَاهُ بِعَيْنَيْهِ ؟

رَأَيْتُنِي مَيِّتًا فِي يَدِ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ ، كَانَ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ : أَنْظَرُوا أَبْهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ ؛ ثُمَّ صَلَّى عَلَيَّ الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، ثُمَّ دُلِّيتُ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ، وَهَيْلُ الثَّرَابِ عَلَيَّ ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَانْصَرَفُوا !

وَمَا أَدْرِي كَمْ بَقِيتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفَخَ فِي الصُّورِ وَبُغْثِرَتِ الْأَمْوَاتُ جَمِيعًا ، فِطْرَنَا فِي الْفَضَاءِ ، وَكَانَتِ الْتُجُومُ غُبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ !

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي رُؤْيَةً

(١) أَلْهَذُ : الْإِسْرَاقُ فِي الْفِرَاقَةِ .

أَحْزَنْتَنِي ، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكَ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمَسْتَوْرِينَ ، أَرَى مِنْهُمْ
الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ ، نَذَرُوا وَتَبَغَّثُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ !

وَذَكَرْتُ أَنِّي كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمْرِ الْمُؤَلِمِ ؛ فَتَنَظَرْتُ ، فَإِذَا الزَّمَنُ قَدْ
ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِهِ ، وَرَجَعَ الْمَاضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضِ ، وَإِذَا عُمْرِي كُلُّهُ
لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طَرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرِ طَوِيلٍ ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَقْتِدِ أَلَمْ اللَّحْظَةِ الْقَصِيرَةِ
الْقَصِيرَةِ ، بِعَدَائِي الْأَبَدِيِّ الْخَالِدِ الْخَالِدِ .

وَجِيءَ عَلَى أَغْيَنِ الْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَاتٍ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا كُلِّهِ ، فَصَاحَ
صَائِحٌ : هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَّأَهَا . ثُمَّ غُمِسَ هَذَا
الْمُنْعَمُ فِي النَّارِ غُمْسَةً خَفِيفَةً كَنَبْضَةِ الْبَرْقِ ، وَأُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَقِيلَ لَهُ وَالنَّاسُ جَمِيعًا
يَسْمَعُونَ : هَلْ دُقْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ .

ثُمَّ جِيءَ بِأَنْعَسِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدَّهُمْ بُؤْسًا مُنْذُ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ، فَغُمِسَ فِي الْجَهَنَّمَ
غُمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ التَّسْنِيمِ تَحَرَّكَ وَمَرَّ ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ وَقِيلَ لَهُ : هَلْ دُقْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟
قَالَ : لَا وَاللَّهِ .

وَسَمِعْنَا شَهيقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُورُ ، تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ؛ فَأَيَقَنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْسًا خُلِقَتْ
مِنْ غَضَبِ اللَّهِ . وَخَرَجَ مِنْهَا عُنُقُ عَظِيمٍ هَائِلٌ ، لَوْ تَضَرَّعَتِ السَّمَاءُ كُلُّهَا نَارًا لَأَشْبَهَتْهُ ،
فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفًا صِنْفًا مِنَ الْخَلْقِ ، وَبَدَأَ بِالْمُلُوكِ الْجَبَّارَةِ فَالْتَقَطَهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً
كَالْمِغْنَاتِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ ؛ وَقَدَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ؛ ثُمَّ أَتَبَعَتْ فَالْتَقَطَتْ الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ
فَاطَّارَهُمْ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا ، وَقَدْ أَلْجَمَنِي الْعَرَفُ مِنَ الْفَزَعِ ؛ ثُمَّ طَرْتُ أَنَا
فِيهِ ، وَنَظَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا مُحْتَبَسٌ فِي مَظْلِمَةٍ نَارِيَّةٍ كَالْهَاوِيَةِ ، لَيْسَ حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتِلُو
أَنْفُسِهِمْ . وَكَوْ أَنَّ يَحَارِ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ الْبَحْرِ ، إِلَى أَنْ تَجْمَعَ
كُلُّهَا فَيَكُونُ الْعُمُقُ كَعُمُقِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، ثُمَّ تُسَجَّرُ نَارًا تَلْطَلُ ، لَكَانَتْ هِيَ الْهَاوِيَةِ
الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا ؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ إِمَامِنَا الشَّعْبِيِّ : أَنَّ عَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ
إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ أَحْيَاءَ وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَى ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ قَدْ
أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكَرَّمَتْ بِذَلِكَ حَتَّى عَلَى جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا فِيهِ الرَّحْمَةُ ، ثُمَّ

يُخْرِجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيْمَانُهُمْ عَلَى بَابِ النَّارِ ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ ، فَسَمِعَ قَائِلًا مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ لِمُؤْمِنٍ : أَخْرُجْ ! فَإِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ . فَصَاحَ الَّذِي إِلَى جَانِبِي : وَأَنَا ، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي إِيْمَانِي ؟ فَقَبِلَ لَهُ : وَهَلْ جِئْتَ بِهِ ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرُخَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنْ حَلْقِهِ ، إِذْ كَانَ قَدْ قَرَأَهُ وَبَقِيَ مَقْرِيًا ! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمُذْيَةٍ ، فَهُوَ هُنَاكَ تَسْلُخُ الزَّبَانِيَّةِ قَلْبَهُ تَبَحُّثُ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ !

وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحْسَى مِنَ الشَّمِّ فَمَاتَ ظَمَانٌ يَتَلَطَّى جَوْفَهُ ، فَلَا تَزَالُ تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْهُ وَرَجَاهَا ، انْفَجَرَتْ عَلَيْهِ بِالصَّوَاعِقِ ، ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ !

وَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّمَا كُنْتُ مَجْنُونًا ضَعِيفًا عَاجِزًا فَأَزْهَقْتُ نَفْسِي . فَنُوْدِي : أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُكَ عَلَى أَلَّاكَ عَاقِلٌ لَا مَجْنُونٌ ؟ وَقَوِيٌّ لَا ضَعِيفٌ ؟ وَقَادِرٌ لَا عَاجِزٌ ؟ كُنْتَ تَعْقِلُ بِالْأَقْلِ أَلَّاكَ سَتَمُوتُ ، وَكُنْتَ تَقْوَى عَلَى أَنْ تَضَيَّرَ ، وَكُنْتَ تَقْدِرُ أَنْ تَتْرَكَ الشَّرَّ .

وَقَالَ رَجُلٌ عَالِمٌ قَدْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَاتَ : « لَمْ يَكُنِ الْكَمَالُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي طَبِيعَتِهَا وَلَا هُوَ شَيْءٌ يَذْرُكُ » . فَصَرَخَ فِيهِ صَوْتُ رَهَيْبٍ : « وَلَكِنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنَّ أَسْمَرَارَ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِذْرَاكُهُ ! » .

* * *

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : ثُمَّ انْتَصَبَ بِإِزَائِي شَيْطَانٌ مَارِدٌ أَحْمَرٌ ، يَلْتَمِعُ النِّمَاعَ الرَّجَاجِ فِيهِ الْأَحْمَرُ ، فَقَامَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ : بِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هُنَا يَا عَدُوَّ الْأَحْمَرِ ؟ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَمِعَتْ الْكَلْدَاءُ : شَفَعَتْ فِيكَ الْأَحْمَرُ الَّتِي لَمْ تَشْرِبْهَا ، أَخْرُجْ ، إِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ ! فَصِخْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ! وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانِي ، فَأَنْتَبَهْتُ .

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ نِعْمَةٌ كُبْرَى لَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهَا إِلَّا فِي الْمَصَائِبِ .

وَحْيُ الْقُبُورِ (*)

ذَهَبْتُ فِي صُبْحِ يَوْمٍ عِنْدَ الْفَطْرِ أَحْمِلُ نَفْسِي بِنَفْسِي إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَقَدْ مَاتَ لِي مِنَ
الْخَوَاطِرِ مَوْتَى لَا مَيِّتٌ وَاحِدٌ ، فَكُنْتُ أَمْسِي وَفِيَّ جَنَازَةٌ بِمُشْيِعِيهَا : مِنْ فِكْرِ يَحْمِلُ فِكْرًا ،
وَخَاطِرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا ، وَمَعْنَى يَبْكِي ، وَمَعْنَى يُبْكِي عَلَيْهِ .

وَكَذَلِكَ ذَابَنِي كُلَّمَا انْحَدَرْتُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي تَأْتِيهِ الْعُيُونُ بِدُمُوعِهَا ،
وَتَمُشِّي إِلَيْهِ الْقُلُوبُ بِأَحْزَانِهَا ، وَتَجِيءُ فِيهِ الْقُلُوبُ إِلَى بَقَايَاهَا . تِلْكَ الْمَقَابِرُ الَّتِي لَا يَتَادَى أَهْلُهَا
مِنْ أَهْلِيهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ ، وَلَكِنْ يَهْذَأُ النَّدَاءُ : يَا أَحِبَّائَنَا ، يَا أَحْزَانَنَا !

ذَهَبْتُ أَزُورُ أَمْوَاتِي الْأَعْزَاءَ وَأَتَّصِلُ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ نَفْسِي ، لِأَحْيَا مَعَهُمْ فِي الْمَوْتِ
سَاعَةً أَعْرِضُ فِيهَا أَمْرَ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَأَنْسَى وَأَذْكُرُ ، ثُمَّ أَنْظُرُ وَأَعْتَبِرُ ، ثُمَّ أَتَعَرَّفُ
وَأَتَوَسَّسُ ، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ، وَأَسْتَظْهَرُ مِمَّا عَلَى ظَهْرِهَا .

وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ عَلَى دَهْرٍ ، وَمِنْ دُنْيَا عَلَى دُنْيَا ، وَأَخْرَجَتِ الذَّاكِرَةُ
أَفْرَاحَهَا الْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةَ جَدِيدَةٍ لِأَحْزَانِهَا ؛ وَأَنْفَتَحَ لِي الزَّمَنُ الْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةً
الْأَمْسِ ، وَكَأَنَّ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَبْيَامِهِ ، وَرُفِعَ لِعَيْنَيَّ كَمَا تُرْفَعُ الصُّورَةُ الْمُعْلَقَةُ فِي
إِطَارِهَا .

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا ؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ
عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يُحِبُّ مَهْمَا تَرَاحَتْ بِهِ الْأَيَّامُ ؛ وَهَلْذِهِ هِيَ بَقِيَّةُ الرُّوحِ
إِذَا امْتَرَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى : تَتْرَكَ فِيهَا مَا لَا يُنْصَحَى لِأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمُتَحَى .

ذَهَبَ الْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا لَيْسَ

عَيَّرَ ، فَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ حِينَ تُعْبَرُ عَنْهَا النَّفْسُ بِلِسَانِهَا لَا بِلِسَانِ حَاجَتِهَا وَحِرْصِهَا .
الْحَيَاةُ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا مَصْنَعٌ
يُسَوِّغُ كُلَّ إِنْسَانٍ جَانِبًا مِنْهُ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَذِهِ هِيَ الْأَدَاةُ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ ، فَضَيْلَتَكَ أَوْ
رَذِيلَتَكَ .

* * *

جَلَسْتُ فِي الْمَقْبَرَةِ ، وَأَطَرَقْتُ أَفْكَرُ فِي هَذَا الْمَوْتِ . يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ ! كَيْفَ
لَا يَسْتَشْعِرُونَهُ وَهُوَ يَهْدِمُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ أَجْزَاءً تُحِيطُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ هُوَ بِجُمْلَتِهِ ؛ وَمَا زَالَ كُلُّ
بُنْيَانٍ مِنَ النَّاسِ بِهِ كَالْحَائِطِ الْمُسَلَّطِ عَلَيْهِ خَرَابُهُ ، يَتَأَكَّلُ مِنْ هُنَا وَيَتَنَاثَرُ مِنْ هُنَاكَ ؟ !

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ عَجَبًا لَا يَنْتَهِي ! كَيْفَ يَجْعَلُونَ الْحَيَاةَ مُدَّةَ نِزَاعٍ وَهِيَ مُدَّةُ عَمَلٍ ، وَكَيْفَ
لَا تَبْرَحُ تَتَرَوُ التَّوَارِثِي بِهِمْ فِي الْخِلَافِ وَالْبَاطِلِ ، وَهُمْ كُلَّمَا تَدَافَعُوا بَيْنَهُمْ قَضِيَّةً مِنَ الشَّرَاعِ
فَضَرَبُوا خَصْمًا بِخَصْمٍ وَرَدُّوا كَيْدًا بِكَيْدٍ ، جَاءَ حُكْمُ الْمَوْتِ تَكْذِيبًا قَاطِعًا لِكُلِّ مَنْ يَقُولُ
لِشَيْءٍ : هَذَا لِي ؟

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ أَعْجَبُ فِي الشَّخَرِيَّةِ بِهَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْ يُعْطَى النَّاسُ مَا يَمْلِكُونَهُ فِيهَا
لِإِنْبَاتِ أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا ، إِذْ يَأْتِي الْآتِي إِلَيْهَا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَلَا يَرْجِعُ
عَنْهَا الرَّاجِعُ إِلَّا لَحْمًا وَعَظْمًا ، وَبَيْنَهُمَا سَفَاهَةُ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ حَتَّى عَلَى السَّكِينِ
الْقَاطِعَةِ ...

تَأْتِي الْأَيَّامُ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَفَرُّ فِرَارَهَا ؛ فَمَنْ جَاءَ مِنْ عُمْرِهِ عِشْرُونَ سَنَةً فَإِنَّمَا مَضَتْ
هَذِهِ الْعِشْرُونَ مِنْ عُمْرِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُصَحَّحَ أَعْمَالُ الْحَيَاةِ فِي النَّاسِ عَلَى هَذَا
الْأَصْلِ الْبَيِّنِ ، لَوْلَا الطَّبَاعُ الْمَذْخُولُ ، وَالنَّفْسُ الْعَافِلَةُ ، وَالْعُقُولُ الضَّعِيفَةُ ،
وَالشَّهَوَاتُ الْعَارِمَةُ ؛ فَإِنَّهُ مَا دَامَ الْعُمُرُ مُقْبِلًا مُذْبِرًا فِي اخْتِيَارٍ وَاحِدٍ ، فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ
يَتَنَاوَلَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يُرْضِيهِ مَحْسُوبًا لَهُ وَمَحْسُوبًا عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؛ وَتَكُونُ الْحَيَاةُ فِي
حَقِيقَتِهَا لَيْسَتْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِي هُوَ الْحَيِّ فِي الْحَيِّ .

* * *

وَمَا هِيَ هَذِهِ الْقُبُورُ ؟ لَقَدْ رَجَعَتْ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْتَى أُنْبِيَّةٌ مَيَّةٌ ؛ فَمَا قَطُّ رَأَوْهَا مَوْجُودَةً إِلَّا لِيَسْئَلُوا أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ لَكَانَ لِلْقَبْرِ مَعْنَاهُ الْحَيُّ الْمُتَعَلِّغُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى بَعِيدٍ ؛ فَمَا الْقَبْرِ إِلَّا بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ النَّهَائِيَةِ وَالْانْقِطَاعِ ؛ وَهُوَ فِي الْطَّرَفِ الْآخِرِ رَدٌّ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ بِنَاءٌ قَائِمٌ لِفِكْرَةِ الْبَدْءِ وَالْاسْتِمْرَارِ ؛ وَبَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَعْبُدُ وَهُوَ بِنَاءٌ لِفِكْرَةِ الضَّمِيرِ الَّذِي يَحْيَا فِي الْبَيْتِ وَفِي الْقَبْرِ ، فَهُوَ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ كَالْقَاضِي بَيْنَ خَصْمَيْنِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا صُلْحًا أَوْ يَقْضِي .

الْقَبْرِ كَلِمَةُ الصِّدْقِ مَبْنِيَّةٌ مُتَجَسِّمَةٌ ، فَكُلُّ مَا حَوْلَهَا يَتَكَدَّبُ وَيَتَأَوَّلُ ، وَلَيْسَ فِيهَا هِيَ إِلَّا مَعْنَاهَا لَا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ وَلَا يَغْتَرِيهِ تَأْوِيلٌ . وَإِذَا مَاتَتْ فِي الْأَحْيَاءِ كَلِمَةُ الْمَوْتِ مِنْ غُرُورٍ أَوْ بَاطِلٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ أَثَرَةٍ ، بَقِيَ الْقَبْرِ مُذَكِّرًا بِالْكَلِمَةِ شَارِحًا لَهَا بِأَظْهَرِ مَعَانِيهَا ، دَاعِيًا إِلَى الْاِغْتِيَارِ بِمَذْلُولِهَا ، مُبَيِّنًا بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلْنَّهَائِيَةِ .

الْقَبْرِ كَلِمَةُ الْأَرْضِ لِمَنْ يَنْخَدِعُ فَيَرَى الْعُمْرَ الْمَاضِي كَأَنَّهُ غَيْرُ مَاضٍ ، فَيَعْمَلُ فِي إِفْرَاقِ حَيَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ^(١) بِمَا يَمْلَأُهَا مِنْ رَدَائِلِهِ وَخَسَائِسِهِ ؛ فَلَا يَرَاهُ دَائِمًا فِي مَعَانِي الْأَرْضِ وَاسْتِجْمَاعِهَا وَالْاسْتِمْتَاعِ بِهَا ، يَتَلَوُّ فِي ذَلِكَ تِلْوَةَ الْحَيَوَانِ وَيَقْتَسِمُ بِهِ ، فَشَرِيْعَتُهُ جَوْفُهُ وَأَعْضَاؤُهُ ؛ وَتَرْجِعُ بِذَلِكَ حَيَوَانِيَّتُهُ مَعَ نَفْسِهِ الرُّوحَانِيَّةِ ، كَالْحِمَارِ مَعَ الَّذِي يَمْلِكُهُ وَيَعْلَمُهُ ، لَوْ سُئِلَ الْحِمَارُ عَنْ صَاحِبِهِ مَنْ هُوَ ؟ لَقَالَ : هُوَ حِمَارِي

الْقَبْرِ عَلَى الْأَرْضِ كَلِمَةُ مَكْتُوبَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الدُّنْيَا ، مَعْنَاهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ فِي قَانُونِ نَهَائِيَّتِهِ ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يَنْتَهِي .

* * *

إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلْنَّهَائِيَةِ ، وَكَانَ الْاِغْتِيَارُ بِهَا وَالْجَزَاءُ عَلَيْهَا ، فَالْحَيَاةُ هِيَ الْحَيَاةُ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَامَةِ لَا غَيْرِهَا ؛ طَرِيقَةُ إِكْرَاهِ الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيَّ عَلَى مُمَارَسَةِ الْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَجَعْلِهَا أَصْلًا فِي طَبَاعِهِ ، وَوَرْنَ أَعْمَالِهِ بِتَنَاجِيهَا الَّتِي تَنْتَهِي بِهَا ، إِذْ كَانَتْ رُوحَانِيَّتُهُ فِي الشَّهَائِدَاتِ لَا فِي بَدَائِيَتِهَا .

(١) أَيُّ : مِنْ إِنْسَانِيَّةِ الْحَيَاةِ .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ ذَاتًا تَعْمَلُ أَعْمَالَهَا ؛ فَإِذَا انْتَهَتْ الْحَيَاةُ انْقَلَبَتْ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ ذَاتًا يَخْلُدُ هُوَ فِيهَا ؛ فَهُوَ مِنَ الْخَيْرِ خَالِدٌ فِي الْخَيْرِ ، وَمِنَ الشَّرِّ هُوَ خَالِدٌ فِي الشَّرِّ ؛ فَكَأَنَّ الْمَوْتَ إِنْ هُوَ إِلَّا مِيلَادٌ لِلرُّوحِ مِنْ أَعْمَالِهَا ؛ تُولَدُ مَرَّتَيْنِ : آتِيَةً وَرَاجِعَةً .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ لِلنَّهَائَةِ فَقَدْ وَجِبَ أَنْ تَبْطُلَ مِنَ الْحَيَاةِ نَهَائَاتٌ كَثِيرَةٌ ، فَلَا يُمْرُكُ الشَّرُّ يَمُضِي إِلَى نِهَائِهِ بَلْ يُخَسِّمُ فِي بَذْنِهِ وَيُقْتَلُ فِي أَوَّلِ أَنْفَاسِهِ ؛ وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي كُلِّ مَا لَا يَخْسُنُ أَنْ يَبْدَأَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَدَّ : كَالْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَالْبُخْلِ وَالْآثَرَةِ ، وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعُزُورِ ، وَالْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ ؛ وَمَا شَابَكَ هَذِهِ أَوْ شَابَهَا ، فَإِنَّهَا كُلُّهَا أَنْبَعَتْ مِنَ الوجودِ الْحَيَوَانِيِّ وَأَنْفِجَارٍ مِنْ طَبِيعَتِهِ ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مِنْهَا فِي الْإِرَادَةِ قَبَرٌ كَي تَسْلَمَ لِلنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ إِنْسَانِيَّتُهَا إِلَى النَّهَائَةِ .

* * *

يَا مَنْ لَهُمْ فِي الْقُبُورِ أَمْوَاتٌ !

إِنَّ رُؤْيَا الْقَبْرِ زِيَادَةٌ فِي الشُّعُورِ بِقِيَمَةِ الْحَيَاةِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْقَبْرِ مِنْ مَعَانِي السَّلَامِ الْعَقْلِيِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .

الْقَبْرُ فَمَ يُنَادِي : أَسْرِعُوا أَسْرِعُوا ، فَهِيَ مُدَّةٌ لَوْ صُرِفَتْ كُلُّهَا فِي الْخَيْرِ مَا وَفَتْ بِهِ ؛ فَكَيْفَ يَصْنَعُ مِنْهَا ضِيَاعٌ فِي الشَّرِّ أَوْ الْإِنِّمِ ؟ لَوْ وُلِدَ الْإِنْسَانُ وَمَشَى وَأَنْفَعَ وَشَبَّ وَاكْتَهَلَ وَهَرَمَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فَمَا عَسَاهُ كَانَ يُصْنَعُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ ؟ إِنَّ أَطْوَلَ الْأَعْمَارِ لَا يَرَاهُ صَاحِبُهُ فِي سَاعَةِ مَوْتِهِ إِلَّا أَقْصَرَ مِنْ يَوْمٍ .

يُنَادِي الْقَبْرُ : أَصْلِحُوا عُيُوبَكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ وَفْتُ لِإِصْلَاحِهَا ؛ فَإِنَّهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَى هُنَا كَمَا هِيَ ، بَقِيَتْ كَمَا هِيَ إِلَى الْأَبَدِ ، وَتَرَكَهَا الْوَقْتُ وَهَرَبَ .

هُنَا قَبْرٌ ، وَهُنَاكَ قَبْرٌ ، وَهُنَاكَ الْقَبْرُ أَيْضًا ؛ فَلَيْسَ يَنْظُرُ فِي هَذَا عَاقِلٌ إِلَّا كَانَ نَظَرُهُ كَأَنَّهُ حُكْمٌ مَحْكَمَةٌ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ كَيْفَ تَتَّبِعِي وَكَيْفَ تَكُونُ .

فِي الْقَبْرِ مَعْنَى الْإِنْعَاءِ الزَّمَانِ ، فَمَنْ يَفْهَمُ هَذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى أَيَّامِهِ ، وَأَنْ يُسْقِطَ مِنْهَا أَوْقَاتَ الشَّرِّ وَالْإِنِّمِ ، وَأَنْ يُمِيتَ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرَ السُّوءِ ؛ فَمِنْ مَعَانِي الْقَبْرِ يَنْشَأُ

لِلْإِرَادَةِ عَقْلُهَا الْقَوِيُّ الثَّابِتُ ؛ وَكُلُّ الْأَيَّامِ الْمَكْرُوهَةِ لَا تَجِدُ لَهَا مَكَانًا فِي زَمَنِ هَذَا
الْعَقْلِ ، كَمَا لَا يَجِدُ اللَّيْلُ مَحَلًّا فِي سَاعَاتِ الشَّمْسِ .

ثَلَاثَةُ أَزْوَاجٍ لَا تَصْلُحُ رُوحُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِهَا :

رُوحُ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا ، وَرُوحُ الْمَعْبَدِ فِي طَهَارَتِهِ ، وَرُوحُ الْقَبْرِ فِي مَوْعِظَتِهِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَى قَبْرِهَا (*)

- ١ -

كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ تُسَمَّى أَيَّامًا .

كَانَ عُمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ يَنْتَشِقُ فِيهِ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ كَمَا تَنْبُتُ الْوَرَقَةُ النَّاعِمَةُ فِي الزَّهْرَةِ
إِلَى وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا .

أَيَّامُ الصَّبَا الْمَرِحَةِ حَتَّى فِي أَخْزَانِهَا وَهْمُومَهَا ؛ إِذْ كَانَ مَجِئُهَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي خُصَّ
بِشَبَابِ الْقَلْبِ ، تَبْدُو الْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَالْمَسْحُورَةِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُفْرِحَةً جَاءَتْ
حَامِلَةً فَرَحَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُخْزِنَةً جَاءَتْ بِنِصْفِ الْخُزْنِ .

تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا الطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ الْجِسْمِ بِقُوَى مُخْتَلِفَةٍ : مِنْهَا الشَّمْسُ
وَالْهَوَاءُ وَالْحَرَكَةُ ، وَمِنْهَا الْفَرْحُ وَالنَّسْيَانُ وَالْأَحْلَامُ !

* * *

وَشَبَّتِ الْعَذْرَاءُ وَأَفْرِغَتْ فِي قَالِبِ الْأُنُوثَةِ الشَّمْسِيِّ الْقَمَرِيِّ ؛ وَاكْتَسَى وَجْهَهَا دِيْبَاجَةً
مِنَ الزَّهْرِ الْغَضُّ ، وَأَوْدَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ سِرَّهَا النَّسَائِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَذْرَاءَ فَنَّ جَمَالٍ لِأَنَّهَا فَنُّ
حَيَاةٍ ، وَجَعَلَتْهَا تِمْنَالًا لِلظَّرْفِ ؛ وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تُجَمِّلُ الْعَذْرَاءَ بِظَرْفِ
كَظْرِفِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَتَلِدُهُمْ مِنْ بَعْدِ ! وَأَسْبَغَتْ عَلَيْهَا مَعَانِي الرِّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَجَمَالِ
النَّفْسِ ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَمَا تَمَهَّرَ الْعَذْرَاءُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْفَاتِ مَهْرَهَا الْإِنْسَانِي !

* * *

وَخُطِبَتِ الْعَذْرَاءُ لِزَوْجِهَا ، وَعَقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ مَارِسَ / آذَارِ ١٩٣٥ م ، السَّاعَةِ
الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ .

وَمَاتَتْ عَذْرَاءٌ بَعْدَ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَأُنْزِلَتْ إِلَى قَبْرِهَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ
مَارَس / آذَارِ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ !

وَكَانَتْ السَّنَوَاتُ الثَّلَاثُ عُمُرَ قَلْبٍ يُقَطِّعُهُ الْمَرَضُ ، يَنْتَظِرُونَ بِهِ الْعُرْسَ ، وَيَنْتَظِرُ
بِنَفْسِهِ الرَّمَسَ !

يَا عَجَائِبَ الْقَدَرِ ! أَدَاكَ لَحْنُ مُوسِيْقِي لِأَيِّنِ اسْتَمَرَّ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، فَجَاءَ آخِرُهُ مَوْزُونًا
بِأَوَّلِهِ فِي ضَبْطٍ وَدِقَّةٍ ؟

أَكَانَتْ تِلْكَ الْعَذْرَاءُ تَحْمِلُ سِرًّا عَظِيمًا سَيَعْبُرُ الدُّنْيَا ، فَرَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْهَا يَوْمَ التَّهْنِئَةِ
وَالْإِبْسَامِ وَالزَّيْنَةِ ، فَإِذَا هُوَ يَوْمُ الْوَلُولَةِ وَالْدُّمُوعِ وَالْكَفَنِ ؟

- ٢ -

وَاهَا لَكَ أَيُّهَا الزَّمَنُ ! مِنَ الَّذِي يَفْهَمُكَ وَأَنْتَ مُدَّةُ أَقْدَارٍ ؟

وَالْيَوْمُ الْوَاحِدُ عَلَى الدُّنْيَا هُوَ أَيَّامٌ مُخْتَلِفَةٌ بِعَدَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعًا ، وَبِهَذَا يَعُودُ لِكُلِّ
مَخْلُوقٍ سِرُّ يَوْمِهِ ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ سِرَّ رُوحِهِ ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا .

وَفِي الْيَوْمِ الزَّمَنِيِّ الْوَاحِدِ أَرْبَعُ مِثَّةٍ مَلْيُونِ يَوْمٍ إِنْسَانِيٍّ عَلَى الْأَرْضِ ! وَمَعَ ذَلِكَ يُخَصِّصُهُ
عَقْلُ الْإِنْسَانِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً ؛ يَا لِلْعَبَاوَةِ . . . !

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَا يَتَعَلَّقُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا بِالشَّعَاعِ الَّذِي يُضِيءُ الْمَكَانَ الْمُظْلِمَ فِي قَلْبِهِ ،
وَالشَّمْسُ بِمَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنِيرَ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يُضِيئُهُ إِلَّا وَجْهٌ مَحْبُوتٌ .

وَفِي الْحَيَاةِ أَشْيَاءٌ مَكْدُونَةٌ تُكَبِّرُ الدُّنْيَا وَتُصَغِّرُ النَّفْسَ ، وَفِي الْحَيَاةِ أَشْيَاءٌ حَقِيقِيَّةٌ تَعْظُمُ
بِالنَّفْسِ وَتُصَغَّرُ بِالدُّنْيَا ؛ وَذَهَبَ الْأَرْضِ كُلُّهُ فَفَرَّ مُدَقِّعٌ حِينَ تَكُونُ الْمُعَامَلَةُ مَعَ الْقَلْبِ .

أَيُّهَا الدُّنْيَا ! هَذَا تَحْقِيرُكَ الْإِلَهِيَّ إِذَا أَكْبَرَكَ الْإِنْسَانُ !

* * *

وَيَا عَجَبًا لِأَهْلِ السُّوءِ الْمُغْتَرِبِينَ بِحَيَاةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ ! فَمَاذَا يَرْتَقِبُونَ إِلَّا أَنْ تَنْتَهِيَ ؟
حَيَاةٌ عَجَبِيَّةٌ غَامِضَةٌ ؛ وَهَلْ أَعْجَبَ وَأَغْمَضُ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَنْتِهَاءُ الْإِنْسَانِ إِلَى آخِرِهَا هُوَ أَوَّلُ

فِكْرِهِ فِي حَقِيقَتِهَا ؟

فَعِنْدَمَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرْقُمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْقُمُهَا صَدْرُ الْمُخْتَصِرِ . . . عِنْدَمَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعًا كَالْتُرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئًا الْبَتَّةَ . . .
 . . . مَاذَا يَكُونُ أَثَرُ الْمُجْرِمِ بَعْدَ مَا تَقْتَرِفُ الْجَنَائِيَةَ ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ ، وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقُضَاةَ ، وَ { تَقِفُ } أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ ؟

* * *

أَعْمَلْنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَخَذَهَا الْحَيَاةُ ، لَا أَعْمَارُنَا ، وَلَا حُظُوظُنَا . وَلَا قِيَمَةَ لِلْمَالِ ،
 أَوْ الْجَاهِ ، أَوْ الْعَافِيَةِ ، أَوْ هِيَ مَعًا - إِذَا سُلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْفَرَارُ ! وَالْأَمْنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ
 لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيْمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ . وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيْمَةٌ
 تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ .

كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَخْدَعَ آلَاةُ صَاحِبِهَا وَفِيهَا (الْعَدَادُ) : مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرَتْهُ
 فَعَدَّهَا ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ : مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ ؟

- ٣ -

وَرَأَيْتُ الْعَرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ .

أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ الْغَنَى عِنْدَمَا يُذِيرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسَنَةَ وَالذِّكْرَى الْآلِيْمَةَ ؟ أَرَأَيْتَ
 الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرُكُ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا ؟ مَا أَتَعَبَ الْإِنْسَانَ حِينَ
 تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جِسْمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ !

وَمَا هِيَ الْهُمُومُ وَالْأَمْرَاضُ ؟ هِيَ الْقَبْرُ يَسْتَبْطِئُ صَاحِبَهُ أَحْيَانًا فَيَنْقُضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ
 شَيْئًا مِنْ تَرَابِهِ . . . !

رَأَيْتُ الْعَرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ ، فَيَا لَلهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا ! فَرَعَ جِسْمُهَا كَمَا
 فَرَعَتْ عِنْدَهَا الْأَشْيَاءُ مِنْ مَعَانِيهَا ! وَتَخَلَّى هَذَا الْجِسْمُ عَنْ مَكَانِهِ لِلرُّوحِ تَظْهَرُ لِأَهْلِهَا
 وَتَقِفُ بَيْنَهُمْ وَقْفَةُ الْوَدَاعِ !

وَتُحَوَّلَ الزَّمَنُ إِلَى فِكْرِ الْمَرِيضَةِ ؛ فَلَمْ تَعُدْ تَعِيشُ فِي نَهَارٍ وَلَيْلٍ ، بَلْ فِي فِكْرِ مُضِيِّهِ
أَوْ فِكْرِ مُظْلِمٍ !

يَا إِلَهِي ! مَا هَذَا الْجِسْمُ الْمُتَهَدِّمُ الْمُقْبِلُ عَلَى الْآخِرَةِ ؛ أَهْوَى تَمَثُّالَ بَطْلٍ تَغْيِيرُهُ ، أَمْ
تَمَثُّالَ بَدَأٍ تَغْيِيرُهُ ؟

لَقَدْ وَثَّقَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ ، فَكَانَ فِكْرُهَا إِلَّا إِلَهِي هُوَ الَّذِي يَنْكَلُمُ ؛ وَكَانَ وَجْهَهَا كَوَجْهِ
الْعَابِدِ : عَلَيْهِ طَيْفُ الصَّلَاةِ وَتُورُهَا . وَالرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَتَى عَبَّرَتْ لَا تُعَبِّرُ إِلَّا بِالْوَجْهِ .

وَلَهَا ابْتِسَامَةٌ غَرِيبَةٌ الْجَمَالِ ؛ إِذْ هِيَ ابْتِسَامَةُ الْآلَمِ أَتَقَنَّتْ أَنَّهَا مُوشِكَةٌ أَنْ تَنْتَهِيَ !
ابْتِسَامَةُ رُوحٍ لَهَا مِثْلُ فَرَحِ السَّجِينِ قَدْ رَأَى سَجَانَهُ وَاقِفًا فِي يَدِهِ السَّاعَةِ يَرْقُبُ الدَّقِيقَةَ
وَالثَّانِيَةَ لِيَقُولَ لَهُ : انْطَلِقْ !

* * *

وَدَخَلْتُ أَعُوذُهَا فَرَأَتْ كَأَنِّي آتٍ مِنَ الدُّنْيَا . . . ! وَتَنَسَّمتْ مِنِّي هَوَاءَ الْحَيَاةِ ، كَأَنِّي
حَدِيقَةٌ لَا شَخْصٌ !

وَمَنْ غَيْرِ الْمَرِيضِ الْمُدْنَفِ ، يَعْرِفُ أَنَّ الدُّنْيَا كَلِمَةٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى أَبَدًا إِلَّا الْعَافِيَّةُ ؟ مَنْ
غَيْرِ الْمَرِيضِ الْمُسْفِي عَلَى الْمَوْتِ ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ النَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ لَا بِقَلْبِهِ ؟
تِلْكَ حَالَةٌ لَا تَنْفَعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَلَا الْهَوَاءُ وَلَا الطَّبِيعَةُ الْجَمِيلَةُ ، وَيَقُومُ مَقَامَ جَمِيعِهَا
لِلْمَرِيضِ أَهْلُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ !

وَكَانَ ذَوُهَا مِنْ رَهْمَةِ الْقَدَرِ الدَّانِي كَأَنَّهُمْ أَسْرَى حَرْبٍ أُجْلِسُوا تَحْتَ جِدَارٍ يُرِيدُ أَنْ
يَنْقُضَ ! وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ قَرَعِهَا تَنْبُضُ نَبْضًا مِثْلَ ضَرْبَاتِ الْمَعَاوِلِ .

وَبِاقْتِرَابِ الْحَبِيبِ الْمُخْتَصَرِ مِنَ الْمَجْهُولِ ، يُصْبِحُ مَنْ يُحِبُّهُ فِي مَجْهُولٍ آخَرَ ،
فَتَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ بِالْمَوْتِ ، وَيَعُودُ فِي مِثْلِ حَيْرَةِ الْمَجْنُونِ حِينَ يُنْسِكُ بِيَدِهِ الظَّلَّ
الْمُتَحَرِّكَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ ! وَتَعْرِوهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَابَةُ عُمَرِ كَامِلٍ ، تُهَيِّئُ لَهُ جَلَالَ
الْحِسِّ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ جَلَالَ الْمَوْتِ !

* * *

وَحَانَتْ سَاعَةٌ مَا لَا يُنْهَمُ ، سَاعَةٌ كُلُّ شَيْءٍ ، وَهِيَ سَاعَةُ اللَّاشِيءِ فِي الْعَقْلِ
الْإِنْسَانِيِّ ! فَالْتَفَتَتِ الْعُرُوسُ لِأَيِّهَا تَقُولُ : « لَا تَخْزَنْ يَا أَبِي ... » وَلَأُمُّهَا تَقُولُ :
« لَا تَخْزِنِي يَا أُمِّي ... ! » .

وَتَبَسَّمتِ لِلدُّمُوعِ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ أَنْ تُكَلِّمَهَا هِيَ أَيْضًا ؛ تَقُولُ لَهَا : « لَا تَبْكِي ... ! »
وَأَشْفَقَتْ عَلَى أَحْيَائِهَا وَهِيَ تَمُوتُ ، فَاسْتَجَمَعَتْ رُوحَهَا لِتَبْقَى وَجْهَهَا حَيًّا مِنْ أَجْلِهِمْ بِضَعِ
دَقَائِقَ ! وَقَالَتْ : « سَاعَادِرُكُمْ مُبَسِّمَةٌ فَعِيشُوا مُبَسِّمِينَ ، سَأَتُرْكُ تَذْكَارِي بَيْنَكُمْ تَذْكَارَ
عُرُوسٍ ! ... »

ثُمَّ ذَكَرَتْ اللَّهَ وَذَكَرْتُهُمْ بِهِ ، وَقَالَتْ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . وَكَرَّرَتْهَا عَشْرًا !
وَتَمَلَّاتْ رُوحَهَا بِالْكَلِمَةِ الَّتِي فِيهَا نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَنَطَقَتْ مِنْ حَقِيقَةِ قَلْبِهَا
بِالْاسْمِ الْأَعْظَمِ الَّذِي يَجْعَلُ النَّفْسَ مُبَيَّرَةً تَلَالُؤًا حَتَّى وَهِيَ فِي أَحْزَانِهَا .

ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ خَالِقَ الرَّحْمَةِ فِي الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ! وَفِي مِثْلِ إِشَارَةِ وَدَاعٍ مِنْ مُسَافِرٍ
أَنْبَعَثَ بِهِ الْقِطَارُ ، أَلْقَتْ إِلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ أَيْتِسَامَتِهَا وَأَسْلَمَتْ الرُّوحَ !

- ٤ -

يَا لَعَجَائِبِ الْقَدَرِ ! مَشِينًا فِي جَنَازَةِ الْعُرُوسِ الَّتِي تَزُفُ إِلَى قَبْرِهَا طَاهِرَةً كَالطُّفْلَةِ وَلَمْ
يُبَارِكْ لَهَا أَحَدٌ ! فَمَا جَاوَزْنَا الدَّارَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَبْصَرْتُ عَلَى حَائِطٍ فِي الطَّرِيقِ إِعْلَانًا قَدِيمًا
بِالْخَطِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَصْنَعُ لِلْأَعْيُنِ ؛ إِعْلَانًا قَدِيمًا عَنِ (رِوَايَةٍ) هَذَا هُوَ أَسْمُهَا :
« مَبْرُوكٌ ... ! » .

وَأَخْتَرَفْنَا الْمَدِينَةَ وَأَنَا أَنْظُرُ وَأَنْقَصِي ، فَلَمْ أَرْ هَذَا الْإِعْلَانَ مَرَّةً أُخْرَى ! وَأَخْتَرَفْنَا
الْمَدِينَةَ كُلَّهَا ، فَلَمَّا انْقَطَعَ الْعُمَرَانُ وَأَشْرَفْنَا عَلَى الْمَقْبَرَةِ ، إِذَا آخِرُ حَائِطٍ عَلَيْهِ الْإِعْلَانُ :
« مَبْرُوكٌ ... ! » .

مَوْتُ أُمٍّ (*)

رَجَعْتُ مِنَ الْجَنَازَةِ بَعْدَ أَنْ غَبِرَتْ قَدَمَيَّ سَاعَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُرَابُهَا تُرَابٌ وَأَشِعَّةٌ ،
وَكَانَتْ فِي النَّعْشِ لَوْلُؤَةٌ أَدَمِيَّةٌ مُحَطَّمَةٌ ، هِيَ زَوْجَةُ صَدِيقِ طَخَطَحَتْهَا الْأَمْرَاضُ فَفَرَّقَتْهَا بَيْنَ
عِلَلِ الْمَوْتِ ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيهَا فَأَخَذَ يُهْلِكُهَا ، حَتَّى إِذَا دَنَا أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا رَحِمَهَا اللَّهُ
فَقَضَى فِيهَا قَضَاءَهُ . وَمَنْ ذَا الَّذِي مَاتَ لَهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ وَلَمْ يَرَهُ مِنْ قَلْبِهِ فِي عِلَّتِهِ
كَالْعَصْفُورَةِ الَّتِي تَهْتَلِكُ تَحْتَ عَيْنِي نُعْبَانٍ سَلَطَ عَلَيْهَا سُمُومَ عَيْنَيْهِ !

كَانَتْ الْمُسْكِينَةُ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا ، أَمَّا قَلْبُهَا فَفِي الثَّمَانِينَ أَوْ فَوْقَ
ذَلِكَ ؛ هِيَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَهُوَ مُتَهَدِّمٌ فِي سِنِّ الْمَوْتِ .

وَكَانَتْ فَاضِلَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً ، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَكِنَّ عِلْمَهَا التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةَ . وَأَكْمَلُ النِّسَاءِ
عِنْدِي لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنَ الْكُتُبِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ نَظْرَاتٍ تَحُلُّ مَشَاكِلَ
وَتَخْلُقُ مَشَاكِلَ ؛ وَلَكِنَّهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ مُتَلَأِّلَةٍ بُنُورِ الْإِيمَانِ تَقْرَأُ فِي كُلِّ
شَيْءٍ مَعْنَاهُ السَّمَاوِيِّ ، فَتَوْمُنُ بِأَخْزَانِهَا وَأَفْرَاحِهَا مَعًا ، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَى مِنْ يَدِ خَالِقِهَا ،
رَحْمَةً مَعْرُوفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُولَةً . هَذِهِ عِنْدِي تُسَمَّى أَمْرَأَةً ، وَمَعْنَاهَا الْمَعْبُدُ الْقُدْسِيُّ ؛
وَتَكُونُ الزَّوْجَةَ ، وَمَعْنَاهَا الْقُوَّةُ الْمُسْعِدَةُ ؛ وَتَصِيرُ الْأُمَّ ، وَمَعْنَاهَا التَّكْمِلَةُ الْإِلَهِيَّةُ
لِصِغَارِهَا وَزَوْجِهَا وَنَفْسِهَا .

وَمَهْمَا تَبْلُغِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْعِلْمِ فَالْزَّجْلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ حَقَّ الْمَرْأَةِ
هِيَ تِلْكَ الَّتِي خُلِقَتْ لِتَكُونَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ الْفَضِيلَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ ، فَتَكُونُ لَهُ وَحْيًا
وَالِهَامًا وَعِزًّا وَقُوَّةً ، أَيْ : زِيَادَةً فِي سُورِهِ وَنَقْصًا مِنْ أَلَامِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ٥٢ ، ٢٠ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ٢ يوليو/تموز سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٨٥ - ١٠٨٦ .

وَلَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ فِي الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ صِفَاتُهَا الَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَعْظَمَ مِنْهَا .

* * *

وَمَسَيْتُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي أَلْبَسْتُهُ أَلْمِيْنَةَ مَعْنَى الْقَبْرِ ، إِلَى الْقَبْرِ الَّذِي أَلْبَسَ أَلْمِيْنَةَ مَعْنَى الْبَيْتِ . وَأَنَا مُنْذُ مَسَيْتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رَحِمَهَا اللَّهُ) لَا أَسِيرُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ الْأَحْيَاءِ ، وَلَكِنْ مَعَ الْمَوْتَى ، فَأَتَّبِعُ { مِنَ الْمَيِّتِ } صَدِيقًا لَيْسَ رَجُلًا وَلَا أَمْرًا ، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ وَأَمْشِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سِتِّينَ دَقِيقَةً ، لِأَنَّهُا خَرَجَتْ مِنَ الزَّمَنِ ؛ وَلَا أَرَى الطَّرِيقَ مِنَ طُرُقِ الْحَيَاةِ ، لِأَنَّنِي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً أُخْرَى عَمِي النَّاسُ عَنْهَا لِسِدَّةٍ وَضُوحًا ، كَالْأَلُوْهِيَّةِ خَفِيَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ .

يَقُولُونَ : إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ . أَمَّا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا ، وَلَكِنْ خِصْمٌ آخَرُ زَخَارٌ مُتَضَرِّبٌ ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التُّرَابِيُّ الْعَظِيمُ الْمُسَمَّى « الْمَقْبَرَةُ » .

يَقُولُونَ : إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ . . . هِيَ مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الصَّلَاةَ الدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ الْأُمِّ وَبَطْنِ الْأَرْضِ ؟

* * *

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّاسِ قُلُوبًا مَعَ قُلُوبِهِمْ ، فَيُحِسُّ الْمَرْءُ بِقَلْبٍ ، وَيَعْمَلُ بِقَلْبٍ آخَرَ : يَغْتَفِدُ ضَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ ، وَيَعْرِفُ مَعْرَةَ الْإِثْمِ وَيَأْتِمُ ، وَيُؤَقِنُ بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ ؛ وَيَمْضِي فِي الْعُمْرِ مُشْتَبِهًا إِلَى رَبِّهِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ، وَلَكِنَّهُ فِي الطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مَن قَدْ فَرَّ مِنْ رَبِّهِ . . . ؟

هَبَّتِ الرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رَوْضَةٍ غَنَاءٍ فَطَابَتْ لَهَا ، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَخْذَلَهَا بَيْنَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّيِّبِ لِتُقِيمَ فِيهِ . . . يَا لَهَا حِكْمَةً مِنَ التَّدْبِيرِ ! تَرْعُمُ الرِّيحُ الْإِقَامَةَ عَلَى حِينِ كُلِّ وُجُودٍ هُوَ لَخْظَةٌ مُرُورٍ ، وَتَحْلُمُ بِالْقَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ بِطَبِيعَتِهَا أَنْ تَقِفَ .

يَا لَهَا حِكْمَةٌ سَامِيَةٌ ، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَسْخَفُ مَا فِي الْحُمُقِ !

* * *

هَمْدَ الْحَيِّ وَانْطِفَاطَ عَيْنَاهُ ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَبَقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَسَّعَ ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعَيْنٍ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعَمِيَاءِ ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ التُّجُومَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِيحُ مَاتَمٍ أَفْنِمَ بِلَيْلٍ . وَمَا أَعْجَبَ أَنْ يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَأْتَمِ فِي الْمَأْتَمِ لِيَضْحَكُوا وَيَلْعَبُوا !

وَلَوْ نَطَقَ الْمَوْتَى لَقَالُوا : أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ ! إِنَّ هَذَا الْحَاضِرَ الَّذِي يَمُرُّ فَيَكُونُ مَاضِيَكُمْ فِي الدُّنْيَا ، هُوَ بَعَيْنِهِ الَّذِي يَكُونُ مُسْتَقْبَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، لَا تَزِيدُونَ فِيهِ وَلَا تَنْقُصُونَ . وَإِنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى : مِنَ الْعُظَمَاءِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ؛ وَلَكِنَّهَا تَنْقَلِبُ فِي الْآخِرَةِ فَتَبْدَأُ مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَى الْعُظَمَاءِ ؛ وَأَنْتُمْ تَرْسُمُونَهَا بِخُطُوطِ الْمَطَامِعِ وَالْحُطُوطِ ، وَتَرْسُمُهَا اللَّهُ بِخُطُوطِ الْحِزْمَانِ وَالْمَجَاهِدَةِ ؛ إِنَّ النَّامَ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ تَمَّ بِمَتَاعِهَا وَلَذَائِهَا ، وَلَكِنَّ النَّامَ فِي السَّمَاءِ مَنْ تَمَّ بِنَفْسِهِ وَحَدَّهَا .

* * *

يَا أَسَفًا ! لَنْ يَقُولَ الْمَيِّتُ لِلْحَيِّ شَيْئًا ، وَمَنْ يَذَرِي ؟ لَعَلَّنَا وَتَخُنْ نُلْجِدُ لِلْمَوْتَى وَنُزِلُهُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، يَرَوْنَ بَارِزَ وَاحِيهِمُ الْخَالِدَةِ أَكَّنَا نَحْنُ مَوْتَاهُمْ الْمَسَاكِينُ ، وَأَنْتَا مَذْفُونُونَ فِي الْقَبْرِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ : « الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ » ! وَهَلِ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ مِنَ اللَّانِهَائِيَةِ إِلَّا حُفْرَةٌ بِرِجْلِ نَمْلَةٍ لِنُدْفَنَ فِيهَا نَمْلَةً . . .

الْحَيَاةُ . . . أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا ؟ هِيَ الْمُبْهَمَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي الْآخِرِ إِلَّا تَفْسِيرٌ وَاحِدٌ : حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ .

* * *

وَرَجَعْنَا مَعَ الصَّدِيقِ إِلَى بَيْتِهِ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَطْفَالٍ صِغَارٍ لَوْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَنْتَرَعُوا مِنْ أُمِّهِمْ لَتَرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَلْبِهَا مِثْلَ الْمَكْوَاةِ الْمُحْمَيِّ عَلَيْهَا فِي النَّارِ إِلَى أَنْ تَحْمَرَ ؛ وَلَكِنَّ أُمَّهُمْ هِيَ الَّتِي نَزَعَتْ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَقَاؤُهُمْ فِي الْحَيَاةِ تَخْفِيفًا لِسُكْرَةِ الْمَوْتِ عَلَيْهَا .

وَعَشِيَّتُهَا الْغَشِيَّةُ فَمَاتَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ ، إِذْ تَرَاهُمْ نَائِمِينَ تَحْتَ جَنَاحِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَمْدُودِ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا تَسْمَعُ أَحْلَامَهُمْ . وَكَانُوا هُمْ عَقَلَهَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ !
تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي قَلْبِ الْأُمِّ دُنْيَا مِنْ خَلْقِهِ هُوَ ، وَدُنْيَا مِنْ خَلْقِ أَوْلَادِهَا !
تَبَارَكَ الَّذِي أَنَابَ الْأُمُّ نَوَابَ مَا تُعَانِي ، فَجَعَلَ فَرَحَهَا صُورَةَ كَبِيرَةٍ مِنْ فَرَحِ صِغَارِهَا !

* * *

وَجَاءَ أَكْبَرُ الْأَطْفَالِ الْخَمْسَةِ ، وَكَأَنَّهُ ثَمَانِيَةُ أَرْطَالٍ مِنَ الْحَيَاةِ لَا ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ مِنَ الْعُمُرِ ؛ جَاءَ إِلَيْنَا كَمَا يَجِيءُ الْفَرْعُ لِلْقُلُوبِ مُطْمَئِنِّةً ، إِذْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ الْبَاكِتَيْنِ مَعْنَى فَقْدِ الْأُمِّ !

وَطَعَتْ عَلَيْهِ الدُّمُوعُ فَتَنَاولَ مِنْدِيلَهُ وَمَسَحَهَا بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ الْيَتِيمَةَ تَأْكِبُ
إِلَّا أَنْ تَرَسَّمَ بِهَذِهِ الدُّمُوعِ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يُتِمُّهَا !

وَوَظَّهَرَ الْانْكِسَارُ فِي وَجْهِهِ يُعَبِّرُ بِبِلَاغَةٍ أَنَّهُ قَدْ أَحَسَّ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَطُفُولَتِهِ بِإِزَاءِ الْمُصِيبَةِ
الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ ، وَجَلَسَ مُسْتَسْلِمًا تُتَرَجِّمُ هَيْئَتُهُ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ : « رَفَقَا بِي ! » .

ثُمَّ تَطَيَّرَ مِنْ عَيْنَيْهِ نَظَرَاتٌ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّمَا يُحِسُّ أَنَّ أُمَّهُ حَوْلَهُ فِي الْجَوِّ وَلَكِنَّهُ
لَا يَرَاهَا !

ثُمَّ يَرْخِي عَيْنَيْهِ فِي إِغْمَاضَةٍ خَفِيفَةٍ ، كَأَنَّمَا يَرْجُو أَنْ يَرَى أُمَّهُ فِي طَوِيِّهِ !
وَلَا يَصْدُقُ أَنَّهَا مَاتَتْ ، فَإِنَّ صَوْتَهَا حَيٌّ فِي أُذُنَيْهِ لَا يَزَالُ يَسْمَعُهُ مِنْ أَمْسٍ !
ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَجْهِهِ الْانْكِسَارُ وَالْاِسْتِسْلَامُ ، وَيَتَمَلَّمُ فِي مَجْلِسِهِ ، فَيَنْطِقُ جِسْمُهُ كُلُّهُ
بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ : « يَا أُمِّي ! » .

* * *

أَحْسَنَ - وَلَا رَيْبَ - أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ^(١) ، لِأَنَّ الْوُجُودَ كَانَ أُمَّهُ .
وَلَكَمَسَ خُشُونَةَ الدُّنْيَا مِنْذُ السَّاعَةِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ الصَّدْرَ الَّذِي فِيهِ وَخَدَهُ لِيُنْ الْحَيَاةَ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنَّهُ بِمَضِيْعَةِ حُدُودِهَا الْبَحْيَاةُ » بَدَلًا مِنْ : « أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ » .

لَأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أُمِّهِ وَرُوحَهَا .

وَشَعَرَ بِالذَّلِّ يَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ ، لِأَنَّ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَمْلِكُ فِيهَا حَقَّ الرَّحْمَةِ قَدْ أُخِذَتْ مِنْهُ وَتَرَكَتْهُ بِلَا حَقٍّ فِي أَحَدٍ ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَمَانٍ !

وَلَبِسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّ لَهُ شَيْئًا عَزِيزًا أَصْبَحَ وَرَاءَ الزَّمَانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ !

وَلَبِسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ ، لِأَنَّهُ صَارَ وَحْدَهُ فِي الْمَكَانِ كَمَا هُوَ وَحْدَهُ فِي الزَّمَانِ !

وَأَرْتَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ التَّعَجُّبُ ، كَأَنَّهُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : « إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمِّي هُنَا ، فَلِمَ أَذًا أَنَا

هُنَا ؟ » .

ثُمَّ تَغَرَّعَتْ عَيْنَاهُ فَيُخْرِجُ مِنْدِيلَهُ وَيَمْسَحُ دَمْعَهُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ الْيَتِيمَةَ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَرْسُمَ بِهِذِهِ الذُّمُوعَ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِمُّهَا !

* * *

وَنَهَضَ الصَّغِيرُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَاتِ شَفَاةٍ ؛ نَهَضَ يَحْمِلُ رُجُولَتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْذُ السَّاعَةِ !
انْتَهَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الْأُمِّ ؛ هَذِهِ الْأَيَّامُ السَّعِيدَةُ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ
الْغَدَّ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أُمِّي الَّذِي مَضَى ؛ إِذْ يَأْتِي الْغَدُ وَمَعَكَ أَثُكَ !

وَبَدَأَتْ - أَيُّهَا الطِّفْلُ الْمَسْكِينُ - أَيَّامُكَ مِنَ الزَّمَنِ ، وَسَيَأْتِي كُلُّ غَدٍ مُحَجَّبًا مَرَهُونًا ؛
إِذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ ، وَيَأْتِي وَأَنْتَ وَحْدَكَ !

الْأُمُّ . . . ؟ يَا إِلَهِي ، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى الْأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي الْأُمِّ ؟ !

قِصَّةُ أَبِي (*)

حَدَّثَنِي الْمُسْكِينُ فِيمَا حَدَّثَ وَهُوَ يَصِفُ مَا نَزَلَ بِهِ قَالَ :

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ فَتَسَاءَ بِالْوَلَدِ فِي آثَارِهِمْ ، وَمَدَّ بِالنَّسْلِ فِي جُودِهِمْ ، وَزَادَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَرْوَاحًا ، وَضَمَّ بِهِ إِلَى قُلُوبِهِمْ قُلُوبًا ، وَمَلَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ قُرَّةَ عَيْنٍ كَانَتْ لَمْ تَجْذُثْ وَجَدَتْ ؛ فَهُمْ بِهِؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الَّتِي تُرْجِعُهُمْ أَطْفَالًا مِثْلَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَسُرُّهُمْ ، فَيَكْبُرُ الْفَرْحُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَيْلًا صَغِيرًا ، وَيَغْطُمُ الْأَمَلُ فِي أَشْيَائِهِمْ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ .

وَنَلَكَ حَقِيقَةُ مِنْ حَقَائِقِ السَّعَادَةِ لَا أَسْمَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا إِلَّا الْحَقِيقَةُ الْآخَرَى ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا الْكَوْنُ فِي قَلْبِ الْوَالِدَيْنِ إِلَى كَثَرٍ مِنَ الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَجَمَالِ الْعَاطِفَةِ ، بِسِحْرِ مِنْ ابْتِسَامَةِ طِفْلِ أَوْ طِفْلَةٍ ، أَوْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُمَا أَوْ حَرَكَةٍ ، عَلَى حِينٍ لَا يَتَحَوَّلُ مِثْلَ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ بِمَالِ الدُّنْيَا ، وَلَا بِمِلْكِ الدُّنْيَا .

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ ، وَلَكِنَّهُ ابْتَلَانِي بِأَنْ أَكُونَ أَبَا ، وَأَخْرَجَ لِي مِنْ أَفْرَاحِ قَلْبِي أَحْزَانَ قَلْبِي ! وَلَقَدْ كُنْتُ كَرَجُلٍ مَلَكَ دَارًا يَسْتَمْنِعُ بِهَا ، فَتَمَتَّى أَنْ يُشْرَعَ^(١) فِي جَانِبِ مِنْهَا غُرْفَةً يُزْخَرُفُهَا ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَبَلَغَ الْمُفْتَرَحَ ، أَنْهَدَمَتِ الدَّارُ وَبَقِيَتِ الْغُرْفَةُ قَائِمَةً !

عَمَرَكَ اللَّهُ ، أَيْشَعُرُ هَذَا الرَّجُلُ فِي نَكْبَتِهِ بِالْغُرْفَةِ أَمْ بِالْدَّارِ ؟ وَهَلْ تَرَاهُ زَادَ أَوْ نَقَصَ ؟ وَيَا لَيْتَهُمَا بَيْتٌ وَغُرْفَةٌ مِنْ بَيْتٍ ؛ فَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَحْيَا بِالْبِنَاءِ إِذَا مَاتَتْ بِالْهَظْمِ ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا يُحْيِي الزَّوْجَةَ مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ بِكَرْهًا الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ !

(*) « الرسالة » العدد : ٥٩ ، ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ = ٢٠ أغسطس / آب سنة ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ١٣٦٣ - ١٣٦٤ .

(١) أي : يَفْتَحُ غُرْفَةً إِلَى الشَّارِعِ .

إِنَّهَا طِفْلَةٌ وَلِدَتْ وَكَأَنَّهَا أُخْرِجَتْ مِنْ تَحْتِ الرَّدَمِ ، إِذْ وَلِدَتْ تَحْتَ مَا ضِيَ مِنَ الْحَيَاةِ مُنْهَدِمٍ ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهَا قَدْ وَلِدَتْهَا فِي الصَّخْرَاءِ ثُمَّ أُكْرِهَتْ أَنْ تَدْعَهَا وَخَدَهَا فِي ذَلِكَ الْفَقْرِ تَضْرُخُ وَتَبْكِي ! فَالْمِسْكِينَةُ عَلَى الْحَالَيْنِ مُنْقَطَعَةٌ أَوَّلَ مَا انْقَطَعَتْ مِنْ حَنَانِ الْأُمِّ وَرَحْمَتِهَا .

طِفْلَةٌ وَلِدَتْ صَارِخَةً ، لَا صَرِخَةَ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنْ صَرِخَةَ التَّوَحُّ وَالذُّبِ عَلَى أُمِّهَا .
صَرِخَةُ حَزِينَتٍ مَعْنَاهَا : ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْقَبْرِ !
صَرِخَةُ تَزَعِيدُ ، كَأَنَّ الْمِسْكِينَةَ شَعَرَتْ أَنَّ الدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِنَ الصَّدْرِ الَّذِي يَذْفِيهَا !
صَرِخَةُ تَتَرَدَّدُ فِي ضِرَاعَةٍ ، كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « يَا رَبِّ ارْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ ! » .

* * *

قَالَ الْمِسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي أَمْرًا :

وَلَمَّا ضَرَبَهَا الْمَخَاضُ ، ضَاعَتْ قُوَّتُهَا مِنْ شُعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مُضَاعَفَةً { بِمَوْلُودِهَا } ، وَسَتَكُونُ رُوحَيْنِ لَا رُوحًا وَاحِدَةً ، وَتَلِدُ لِي الْحَيَاةَ وَالْحُبَّ الْإِلَهِيَّ مَعًا ، وَتَأْتِي لِقَائِي بِمِثْلِ طِفْلُوتِهِ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ . كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَفَ قُوَّاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا ؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ ، إِذْ عُضِلَتْ وَعَسَرَ خُرُوجُ مَوْلُودِهَا .

وَجَاءَهَا الْجِرَاحِيُّ بِمِبْضَعِهِ ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ ذَابِحًا لَا طَبِيبًا ، فَجَعَلَتْ تُعَبِّرُ بَعَيْنَيْهَا ، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَمِهَا الْقَاتِلَةَ غَيْرَ لَعَةِ هَاتِنِ الْعَيْنَيْنِ .

كَأَنَّ بِنْظَرَةَ تَبْكِي عَلَيَّ وَعَلَى بُؤْسِي ، وَيَأْخُرَى تَبْكِي عَلَيَّ بُؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشَقَائِهِ ؛ وَبِنْظَرَةٍ تُودِّعُنِي ، وَيَأْخُرَى تَدْعُو اللَّهَ لِي جَزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا ؛ وَبِنْظَرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا ، وَيَأْخُرَى تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أَجْرُ .

نَظَرَاتٌ نَظَرَاتٌ ...

يَا إِلَهِي ! لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَاقِفٌ بَيْنَ عِشْرِينَ مِرَاةً تُحِيطُ بِهِ ، فَأَنَا أَرَاهُ
مَوْتًا مُتَعَدِّدًا لَا مَوْتًا وَاحِدًا ، وَكُلُّ نَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِي زَوْجَتِي إِلَيَّ كَانَتْ مِنْهَا هِيَ نَظَرَةٌ ، وَكَانَتْ
عِنْدِي أَنَا مِرَاةَ الرُّوحِ لِلرُّوحِ .

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْسَ أَنَّهَا تَمُوتُ لِوَضْعِ مَوْلُودِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَلَامَ الدَّمَوِيَّةَ الذَّابِحَةَ هِيَ
الْوَسِيلَةُ لِأَنْ تَتْرَكَ لِي بَقِيَّةَ حَيَاةٍ مِنْهَا ؛ فَيَا لِلرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ وَالْحُبِّ ! لَقَدْ ابْتَسَمْتُ لِي وَهِيَ
تَمُوتُ ؛ وَهِيَ تَلِدُ ؛ وَهِيَ تُدْبِحُ !

* * *

لَيْسَتْ رَحْمَةُ الْمَرَاةِ الْمُحِبَّةِ خَيَالًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ الَّتِي تُحْيِي الدُّنْيَا خَيَالًا
أَيْضًا ؛ إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ الشَّنَوِيَّ الْمُسْتَقَرَّ فَوْقَ أَحْشَاءِ تَحْمِيلِ الْجَنِينِ صَابِرَةٌ رَاضِيَةٌ فَرِحَةٌ
بِأَلَامِهَا ، وَتَغْذُوهُ وَتُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهَا - هَذَا الْقَلْبُ يَحْمِلُ الْحُبَّ أَيْضًا صَابِرًا رَاضِيًا فَرِحًا
بِأَلَامِهِ ، وَيَغْذُوهُ وَيُقَاسِمُهُ حَيَاةَ نَفْسِهِ .

وَلِلرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَدَلَّةٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ الْإِنْسَانَ عَلَيْهَا دِلَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً ؛ فَالشَّمْسُ تَدُلُّ عَلَيْهَا
بِالضُّوءِ الَّذِي تَطْعُمُهُ الْحَيَاةُ ، وَالْهَوَاءُ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالضُّوءِ الَّذِي تَنْتَفِسُهُ الْحَيَاةُ ، وَالْمَاءُ يَدُلُّ
عَلَيْهَا بِالضُّوءِ الَّذِي تَشْرَبُهُ الْحَيَاةُ ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ فِي الْآخِرِ قَلْبُ الْمَرَاةِ فَيَدُلُّ عَلَى
رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْحُبِّ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ .

ابْتِسَامَةُ الْحُبِّ غَالِبَتْ زَفَرَاتِ الْمَوْتِ الَّتِي تَعْتَلِجُ مِنْ تَخَيُّهَا حَتَّى غَلَبَتْهَا ، وَأَعَادَتْ
الْحَيَاةَ لَخُطَّةٍ إِلَى وَجْهِ زَوْجَتِي لِأَرَاهَا آخِرَ مَا أَرَاهَا فِي صُورَةِ الْمُحِبَّةِ لِي ، فَكَانَ كُلُّ جَمَالٍ
نَفْسَهَا مُتَشِيرًا عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ ، وَظَهَرَتْ فِيهِ رُوحُهَا وَعَوَاطِفُهَا تُودِّعُنِي وَدَاعًا حَزِينًا مُبْتَسِمًا
يَتَكَلَّمُ ؛ يَتَكَلَّمُ بِعَجْزِهِ عَنِ الْكَلَامِ .

ابْتِسَامَةُ لَا رَيْبَ أَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ حَقَائِقِهَا ؛ فَكَأَنَّمَا
الْتَمَعَتْ بِأَشْئَةٍ مِنَ الْخُلْدِ تَرَفُّ رَفِيفَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ لِيُظْهِرَ سَاعَةَ الْمَوْتِ أَنَّ حُبَّهُ أَقْوَى
مِنَ الْمَوْتِ .

* * *

قَالَ الْمُسْكِينُ : وَتَرَى الطَّيِّبَ ذَا بَطْنِهَا فَكَانَتْ طِفْلَةً ، وَمَا كَانَتْ رَوْحَتِي تَقْتَرِحُ أَنْ
يَكُونَ الْجَنِينُ غَيْرَهَا ، بَلْ كَانَتْ مُسْتَقِينَةً أَنَّهَا تَضَعُهَا أُنْتَى ، وَصَنَعَتْ لَهَا يَتَابَهَا ، وَوَسَّتَهَا
بِرَيْنَةِ الْأُنُوثَةِ ، وَعَرَضَتْ أَسْمَاءَ الْبَنَاتِ فَاخْتَارَتْ أَسْمَهَا أَيْضًا ، وَكُنْتُ أَكْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا وَأُرِيدُ
وَلَدًا لَا بِنْتًا ، فَكَانَتْ تُغَايِظُنِي بِعَمَلِهَا وَإِصْرَارِهَا غَيْظَ دُعَايَةِ لَا غَيْظَ جَفَاءٍ .

وَمَضَتْ لَا تَذْكُرُ إِلَّا بِنْتَهَا مُدَّةَ الْحَمْلِ ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بِنْتِهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ
لِذَلِكَ ؛ فَلَمَّا قَضَى اللَّهُ فِيهَا قَضَاءَهُ ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ ، فَكَانَ الْإِلَهَامُ فِيهَا
أَنَّهَا عَلَى بَابِ قَبْرِهَا ، وَأَنَّهَا لَنْ تَرَى طِفْلَتَهَا ، وَلَنْ تَعِيشَ لَهَا ، فَعَاشَتْ أَيَّامَ الْحَمْلِ مَعَ
ذِكْرَاهَا : تَضُمُّ يَتَابَهَا إِلَى صَدْرِهَا ، وَتَحْمِلُهَا عَلَى يَدِهَا ، وَتَتَأَغِيهَا وَتَقْبَلُهَا ، وَتَأْخُذُهَا مِنْ
أَلْوَاهِمِ وَتَرُدُّهَا إِلَيْهِ ؛ وَكَذَلِكَ نِعِمَّتِ الْمُسْكِينَةُ بِالْمُسْكِينَةِ !
لَكَ اللَّهُ يَا مُعْجِزَةَ الرَّحْمَةِ ، يَا نَفْسَ الْأُمِّ !

* * *

وَلَمَّا قِيلَ : مَاتَتْ . جَعَلَ يُكَلِّمُنِي الْمُنْكَلَمُ وَلَا أَعْقِلُ ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَأْتِي بِالْمُصِيبَةِ
الْمُتَوَقَّعَةِ طَالَ ارْتِقَابُهَا ، لَا تَأْتِي بِمَعَانٍ لُغَوِيَّةٍ كَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ ، بَلْ بِأَسْلِحَةٍ تَضْرِبُ فِي
النَّفْسِ وَفِي الْعَقْلِ ، وَتُشْخِطُهَا جِرَاحًا وَفَتْكَا .

وَجَعَلَنِي مَوْتُهَا كَأَنِّي مَيِّتٌ يَحْمِلُ نَفْسَهُ ، مَا حَوْلَهُ إِلَّا الْمُسِيْعُونَ ؛ وَأَحْسَنْتُ كَانَ قُوَّةَ
أَخَذْتُ بِأَخْذِي رِجْلِي فَوَضَعْتُهَا فِي الْآخِرَةِ وَتَرَكْتُ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَلِحَقْنِي مِنَ الْجَرَعِ
مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ ، وَوَجِدْتُ أَحْرَقَ الْوَجْدِ ، وَبَكَيْتُ أَحْرَّ الْبُكَاءِ ؛ وَجَعَلَتْ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ
رَأْسِي إِلَى حَلْفِي فَاخْتَنَقْتُ بِهَا ، ثُمَّ لَا يُنْقَسُ عَنِّي إِلَّا الدَّمْعُ ، كَانَ أَعْضَائِي أَخْتَلَّتْ مِمَّا
ضَغَطْنِي مِنَ الْحُزَنِ ، فَأَنَا أَنْتَفَسُ بِرَيْتِي وَعَيْنِي .

يَمُوتُهَا شَعَرْتُ بِهَا ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ كَامِلَةً إِلَّا فِي
الْأَمِّ الْحُبِّ وَخَدَهَا ، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رُوحِهَا فِي سُرُورِي ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْمَرْأَةِ
الْمَحْبُوبَةِ : يَجِدُ مُحِبَّهَا فِي كُلِّ سُورٍ لِمَحَابِ رُوحَانِيَّةٍ ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بَعْدَ مَوْتِهَا ،
فَجَعَلْتُ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي لَقَتَلْتَنِي الْمُصِيبَةُ .

وَكُنْتُ أَذِلُّهُ وَرَاءَ النَّعْشِ وَقَدْ بَطَلَ فِي نَفْسِي الشُّعُورُ بِالدُّنْيَا ، وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَائِرُونَ كَمَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ؛ أَمَا أَنَا فَكُنْتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مُنْكَسِرًا مُنْخَدِلًا مُتَضَعِّصًا ، لِأَنِّي وَخَدِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ .

وَنَقَلَ النَّاسُ عَلَى قَلْبِي ، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْعَيْبِ وَالنَّقِصَةِ ، إِذْ كَانَ لِي عَقْلٌ طَارِئٌ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ وَخَدِي الْمُصَابَ بَيْنَهُمْ ، فَكُنْتُ وَخَدِي بَيْنَهُمُ الْعَاقِلَ .

أَنَا أَمْشِي لِأَنْتَهِي إِلَى آخِرِ مُصِيبَتِي ، وَهُمْ يَمْشُونَ لِتَنْتَهُوا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ ؛ وَشَتَانَ مَا نَحْنُ وَشَتَانَ !

وَلَمَّا رَأَيْتُ قَبْرَهَا أَتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِالدُّمُوعِ لَا بِالنَّظَرِ ، وَرَأَيْتُ التُّرَابَ كَأَنَّهُ غُبُومٌ مُلَوَّنَةٌ بِالْوَانِ السُّحْبِ الدَّاكِنَةِ تَهْتِئًا فِي سَمَانِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِيَ كَوَكَبًا مِنَ الْكَوَاكِبِ ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ فَمُ الْأَرْضِ يُخَاطِبُ الْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ ، يُخَاطِبُ الْفَقِيرَ وَالْغَنِيَّ ، وَالضَّعِيفَ وَالْقَوِيَّ ، وَالْمُلُوكَ وَالصَّعَالِيكَ : « إِنَّ كُلَّ قُوَّةٍ تُنْزَعُ هُنَا . »

* * *

قَالَ الْمُسْكِينُ : وَكَمَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ الْمَطَرِ رَائِحَةَ النَّسِيمِ الْمُبْتَلِّ بِالمَاءِ ، كُنْتُ أَسْتَرُوحُ فِي رَجْعَتِي إِلَى الدَّارِ رَائِحَةَ نَسِيمِ مُبْتَلِّ بِالدُّمُوعِ ؛ وَحَضَرْتُ الْمَأْتَمَ وَعَزَائِي النَّاسُ ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بَيْنَهُمْ : لَا أَمْسَى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُو عَلَى وَجْهِي ، وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهُمْ يُجَرِّعُونَنِي الْوُجُودَ غُصَصًا كَمَا تَجَرَّعْتُ أَلْفَقْدَ غُصَّةٍ غُصَّةٍ ؛ إِلَى أَنْ تَفْرُقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيْلِ فَأَتَكَفَّأْتُ إِلَى الدَّارِ ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ وَلَمَسَهُ الْمَوْتُ لَمَسَةً ، وَإِذَا الدَّارُ نَفْسُهَا كَالْعَيْنِ الْمَفْرُوحَةِ مِنْ آثَارِ الْبُكَاءِ : مَا نَمَّ شَيْءٌ إِلَّا لِيُطَالِعَنِي بِأَنَّ مَسَرَّائِي قَدْ مَاتَتْ !

وَلَا حَ الصَّبْحُ لِعَيْنَيِ السَّاهِرَتَيْنِ صُبْحًا فَاتِرًا تَبَيَّنَتْ فِيهِ الْحَجَلُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : « لَمْ أَطْلُعْ لَكَ » ، فَانْسَلَلْتُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَذَهَبْتُ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ الْكَابَةُ الْمُضِيئَةُ سَحَرَتْ الْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِي هَذَا الضُّوءِ مَظْهَرَ وَجْهِ الْعُجُوزِ الْمُتَصَابِيَةِ فِي زِينَةٍ لَا تَرِبْدُهَا إِلَّا قُبْحًا !

وَمَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي لَا غَايَةَ لِي ، أَضْرِبُ فِي كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرُبَ مِنْ نَفْسِي ! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ فِي أَمْسٍ ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ : فَأَحْدَهُمَا سَاعَةٌ مُوتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيهَا ، وَالْآخَرُ قَبْرٌ مَيِّتٌ لَا يَرُدُّ مَا فِيهِ .

أَوْ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ الْوُجُودُ لِيُعَذَّبَنَا بِالتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مُوجُودًا !

* * *

قَالَ الْمُسْكِينُ : ثُمَّ أَعَادْتَنِي قَدَمَايَ إِلَى الْبَيْتِ لِأَرَى طِفْلَتِي - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ كَانَتْ وَلَدَتْهَا أَوَّلَ الْحَيَاةِ لَهَا ، وَأَوَّلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضًا ؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَأَنْتَحَرْتُ غَيْرَ شَيْءٍ .
يَا وَبِلَتَا ! لَمْ تَلْتَقِ عَيْنِي بِعَيْنِ الطُّفْلَةِ حَتَّى أَنْفَجَرَتْ تَبْكِي . أَتَبْكِينَ لِي يَا ابْنَتِي أَمْ عَلَيَّ ؟

أَهَذَا بُكَاءُكِ ابْنَتُهَا الْمُسْكِينَةُ ، أَمْ هُوَ صَوْتُ قَلْبِكَ الْبَيْنَمِ ؟
أَصَوْتُكَ أَنْتِ ، أَمْ هِيَ رُوحُ أُمِّكَ تَضْرُخُ تَرْثِي لِي ، وَتَتَوَجَّعُ لِفَرْطِ مَا قَاسَيْتُ !
يَا ابْنَتِي ، إِنَّمَا أَنْتِ الْحَقِيقَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي خَرَجْتَ لِي مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْخَيَالَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، خَيَالَاتِ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الَّتِي مَرَّتْ !
يُخْلَقُ الْمَوَالِيدُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ ؛ وَأَرَاكِ أَنْتِ يَا مُسْكِينَتِي ، خُلِقْتَ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ
وَالْدُمُوعِ !

بَقِيَّةُ حَيَاةٍ مَاتَتْ ! فَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّكَ بَقِيَّةُ مُوتٍ يَحْيَا ؟
مُسْكِينَتِي ، مُسْكِينَتِي ؛ لَوْ أَنَّ نَوَامِيسَ الْعَالَمِ مُتَغَيِّرَةٌ لَشَيْءٍ لَتَغَيَّرَتْ مِنْ أَجْلِ بُؤْسِكَ فَرَدَّتْ لَكَ الْأُمَّ ؛ وَلَكِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَا بُكَاءُونا وَالْأُمُّنَا وَتَعَاسَتُنَا إِلَّا تَرَاثُ الْحَيَاةِ فِي أَجْسَامِنَا الْأَرْضِيَّةِ ، كُلُّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ ، وَلَكِنْ بَقْعَةٌ أَنْظَفُ مِنْ بَقْعَةٍ ، وَأَرَاكِ يَا ابْنَتِي كَأَنَّكِ الْبَيْتَ الَّذِي هَدِمَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ يَمْلُؤُهُ تَرَابُهُ !

لَنْ تَتَغَيَّرَ النُّوَامِيسُ ، فَلَنْ تَجِدِي عَطْفَ الْأُمِّ ، وَلَكِنْ لَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِي أَيْضًا ، فَلَنْ

تُخَرِّمَنِي عَطْفَ الْأَبِ .

وَإِذَا صَبَرَ النَّاسُ عَلَى الْحَيَاةِ فَمِنْ أَجْلِكَ يَا مُسْكِينَهُ ! مِنْ أَجْلِ ضَعْفِكَ وَانْقِطَاعِكَ
سَأَعَانِي الصَّبْرَ لَكَ ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ لِي ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ عَنْ أُمِّكَ ، سَأَصْبِرُ عَلَى الصَّبْرِ
نَفْسِهِ !

يَا أَبْتَنِي ! يَا أَبْتَنِي ! لِمَاذَا وَضَعْتِكَ الْأَقْدَارُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا
إِلَّا قَبْرٌ مُظْلِمٌ مُقْفَلٌ عَلَى أُمِّكَ ، وَأَبٌ مُسْكِينٌ مُقْفَلٌ عَلَى آلَامِهِ ؟

* * *

قَالَ الْمُسْكِينُ : وَهَكَذَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ ، فَلَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا لِتَصْنَعِ لِي
حَبِيبَتِي دُمُوعِي ، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَ لِي حَبِيبَةً أُخْرَى سَتَظِلُّ زَمَنًا طَوِيلًا تَصْنَعُ لِي
دُمُوعِي !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ يُوسُفَ شَيْخُ خُرَاسَانَ وَوَاعِظُهَا ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٣٧ لِلْهِجْرَةِ .

(لَقَمَانِ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ قَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا : مَنْ يَعِظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ ؟ فَالْتَمَتْ إِلَيَّ أَبُو تَرَابٍ وَقَالَ : أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ ، وَرَأَيْتَ بَشْرًا الْحَافِي وَفُلَانًا وَفُلَانًا ، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا النُّبُوَّةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَدَيَّ إِلَى الْأُسْطُوَانَةِ الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا إِمَامُ خُرَاسَانَ فَأَجْلَسَنِي ثَمَّةَ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَتَطَاوَلَتِ الْأَعْتَاقُ ، وَرَمَانِي النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَقَالُوا : الْبَغْدَادِيُّ ! الْبَغْدَادِيُّ ! وَكَأَنَّمَا ضُوعِفَتْ عِنْدَهُمْ بِمَجْلِسِي مَرَّةً وَبِنِسْبَتِي مَرَّةً أُخْرَى ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ مَا فِي الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَلَا الْأَخْضَرِ وَلَا الْأَسْوَدِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَوْ لَيْسَ عِزْرَائِيلُ قَوْسٌ فَرِحَ لِأَفْسَادِ شَعْرِ هَذِهِ الْأَلْوَانِ مَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ؛ وَلَا مَوْعِظَةٌ فِي كَلَامٍ لَمْ يَمْتَلِئْ مِنْ نَفْسٍ قَائِلَةٍ لِيَكُونَ عَمَلًا فَيَتَحَوَّلَ فِي الْقُفُوسِ الْأُخْرَى عَمَلًا ، وَلَا يَبْقَى كَلَامًا ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ الْوَعْظُ تَأْلِيفَ الْقَوْلِ لِلْسَّامِعِ يَسْمَعُهُ ، لَكِنَّهُ تَأْلِيفُ النَّفْسِ لِنَفْسٍ أُخْرَى تَرَاهَا فِي كَلَامِهَا ، فَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ كَأَنَّهُ قَرَابَةٌ بَيْنَ النَّفْسَيْنِ ، حَتَّى لِكَأَنَّ الدَّمَ الْمُتَجَادِبَ يَجْرِي فِيهِ وَيَدُورُ فِي الْفَاطِطِ .

* * *

وَكُنْتُ رَأَيْتُ رُؤْيَا (يَبْلُخ) تَتَصَلُّ بِقِصَّةٍ قَدِيمَةٍ فِي بَغْدَادَ ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِمْ ، فَكَانَتْ الْقِصَّةُ كَمَا حَكَيتُهَا : أَنِّي أُمْتُحِنْتُ بِالْفَقْرِ فِي سَنَةِ سِنَعٍ عَشْرَةَ وَمِثْنَيْنِ ؛ وَأَنْحَسَمْتُ مَا دَرَيْتُ وَقِحِطُ مَنَزَلِي فَخَطَا شَدِيدًا جَمَعَ عَلَيَّ الْحَاجَةَ وَالضَّرَّ وَالْمَسْكَنَةَ ؛ فَلَوْ أَنْكَمَشْتُ الصَّخْرَاءَ الْمُجْدِبَةَ فَصَغَرْتُ ثُمَّ صَغُرْتُ حَتَّى تَرْجِعَ أَذْرُعًا فِي أَذْرُعٍ ، لَكَانَتْ هِيَ دَارِي يَوْمَئِذٍ فِي مَحَلَّةِ بَابِ الْبَصْرَةِ مِنْ بَغْدَادَ .

وَجَاءَ يَوْمٌ صَحْرَاوِيٌّ كَأَنَّمَا طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنْ بَيْنِ الرَّمْلِ لَا مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ ، وَمَرَّتِ الشَّمْسُ عَلَى دَارِي فِي بَغْدَادَ مُرُورَهَا عَلَى الْوَرَقَةِ الْحَاقَةِ الْمُعَلَّقَةِ فِي الشَّجَرَةِ الْخَضْرَاءِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا شَيْءٌ يُسَبِّغُهُ حَلَقُ آدَمِيٍّ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الدَّارِ إِلَّا تُرَابُهَا وَحِجَارَتُهَا وَأَجْدَاعُهَا ؛ وَلِيَّ امْرَأَةٌ وَلِيَّ مِنْهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ ، وَقَدْ طَوَيْتُنَا عَلَى جُوعٍ يَخْسِفُ بِالْجُوعِ خَسْفًا كَمَا تَهْطُ الْأَرْضُ ؛ فَلَتَمَثَّلْتُ حِينَئِذٍ لَوْ كُنَّا جُرْدَانًا فَتَقَرَّضَ الْخَشَبُ ! وَكَانَ جُوعُ الصَّبِيِّ يَزِيدُ الْمَرْأَةَ أَلَمًا إِلَى جُوعِهَا ، وَكُنْتُ بِهِمَا كَالْجَائِعِ بِثَلَاثَةِ بَطُونٍ حَاوِيَةٍ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا لَمْ نَأْكُلِ الْخَشَبَ وَالْحِجَارَةَ فَلَنَأْكُلَ بِشَمَنِهَا . وَجَمَعْتُ نَيْبِي عَلَى بَيْعِ الدَّارِ وَالتَّحَوُّلِ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَ خُرُوجِي مِنْهَا كَالْخُرُوجِ مِنْ جِلْدِي : لَا يُسَمَّى إِلَّا سَلْخًا وَمَوْتًا ؛ وَبِئْسَ لِلنَّفْسِ وَلِأَنَا كَالْمُنْخَنِ حُمِلَ مِنْ مَعْرَكَةٍ : فَمَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا عَلَى جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ الَّتِي عَمِلْتَ فِيهَا .

ثُمَّ خَرَجْتُ بِغَلَسٍ لِمَصَلَاةِ الصُّبْحِ ؛ وَالْمَسْجِدُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنَّ السَّمَاءَ تَكُونُ فِيهِ ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً . وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى) ، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ قَفْرِي فِي دِينِكَ ، أَسْأَلُكَ الْتَفَعُّلَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَاتِ الرِّضَى بِقَضَائِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ شَأْنِي ، وَأَطَلْتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَعُدْ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ ، حَتَّى إِذَا أَرْتَفَعَ الضُّحَى وَابْيَضَّتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ ، فَخَرَجْتُ أَتَسَبَّبُ لِبَيْعِ الدَّارِ ، وَأَنْبَعَثْتُ وَمَا أَذْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقِيتُنِي (أَبُو نَصْرِ الصَّيَّادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا نَصْرِ ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ ؛ فَقَدْ سَاءَتْ الْحَالُ وَأَخَوَجَتِ الْخِصَاصَةُ ، فَأَقْرِضْنِي شَيْئًا يُنْسِكُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقَوَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأُرْفِكَ .

فَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! خُذْ هَذَا الْمِنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لَأَحِقَّ بِكَ إِلَى الْمَنْزِلِ . ثُمَّ نَاولَنِي مِندِيلًا فِيهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حَلَوَى ، وَقَالَ : إِنَّهُمَا وَاللَّهِ بَرَكَهُ الشَّيْخُ .

قُلْتُ : مَنِ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَقَفْتُ أَمْسَ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ أَنْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرِ بِشَرِّ الْحَافِي^(١) فَقَالَ : مَا لِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ ؟ قُلْتُ : مَا فِي النَّيِّبِ

(١) هُوَ الزَّاهِدُ الْعَظِيمُ بِشَرِّ بَنِي الْحَارِثِ الْمَعْرُوفُ بِالْحَافِي ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٧ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ وَاحِدَ الدُّنْيَا فِي وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ وَقِيلَ لَهُ : (الْحَافِي) لِأَنَّهُ كَانَ فِي حَدَاتِهِ يَمْشِي إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَافِيًا ، إِجْلَالًا لِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ .

دَقِيقٌ وَلَا خُبْرٌ وَلَا دِرْهَمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ . فَقَالَ : اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ؛ أَحْمِلْ شَبَكَتَكَ وَتَعَالَ إِلَى
الْخَنْدَقِ ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْخَنْدَقِ قَالَ لِي : تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ .
فَفَعَلْتُ ، فَقَالَ : سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى وَاللِّي الشَّبَكَةَ . فَسَمَّيْتُ وَأَلْفَيْتُهَا ، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ ،
فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَقُّ عَلَيَّ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطِعَ الشَّبَكَةُ ، فَجَاءَ وَجَرَّهَا
مَعِيَ ، فَخَرَجْتُ سَمَكَةً عَظِيمَةً لَمْ أَرِ مِثْلَهَا سَمَنًا وَعِظَمًا وَفَرَاهَةً . فَقَالَ : خُذْهَا وَبِعْهَا
وَأَشْتَرِ بِسَمْنِهَا مَا يُصْلِحُ عِيَالَكَ . فَحَمَلْتُهَا فَأَسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ اشْتَرَاهَا ، فَأَبْتَنَعْتُ لِأَهْلِي
مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكَلْتُ وَأَكَلُوا ذَكَرْتُ الشَّيْخَ فَقُلْتُ : أَهْدِنِي لَهُ شَيْئًا ، فَأَخَذْتُ هَاتَيْنِ
الرُّقَاقَتَيْنِ وَجَعَلْتُ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْحَلَوَى ، وَأَتَيْتُ إِلَيْهِ ، فَطَرَفْتُ الْبَابَ ، فَقَالَ : مَنْ ؟
قُلْتُ : أَبُو نَضْرٍ ! قَالَ : أَفْتَحْ وَضَعْ مَا مَعَكَ فِي الدَّهْلِيزِ وَأَدْخُلْ . فَدَخَلْتُ وَحَدَّثْتُهُ بِمَا
صَنَعْتُ فَقَالَ : أَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ . فَقُلْتُ : إِنِّي هَيَّأتُ لِلْبَيْتِ شَيْئًا وَقَدْ أَكَلُوا وَأَكَلْتُ
وَمَعِيَ رُقَاقَتَانِ فِيهِمَا حَلَوَى .

قَالَ : يَا أَبَا نَضْرٍ ! لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجْتَ السَّمَكَةَ ! أَذْهَبَ كُلُّهُ أَنْتَ
وَعِيَالُكَ .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَكُنْتُ مِنَ الْجُوعِ بِحَيْثُ لَوْ أَصَبْتُ رَغِيْفًا لَحَسِبْتُهُ مَائِدَةً
أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَكِنَّ كَلِمَةَ الشَّيْخِ عَنِ السَّمَكَةِ أَشْبَعَنِي بِمَعَانِيهَا شَبَعًا لَيْسَ مِنْ هَذِهِ
الدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا طَعِمْتُ مِنْهَا ثَمَرَةً مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ؛ وَطَفِيفْتُ أُرْدُدُهَا لِنَفْسِي وَأَتَأَمَّلُ مَا تَفْتَقُّ
الشَّهَوَاتُ عَلَى النَّاسِ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّ الْبَلَاءَ إِنَّمَا يُصِيبُنَا مِنْ أَنَّ نَفْسُ الدُّنْيَا عَلَى طَوْلِهَا
وَعَرَضُهَا بِكَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٍ ، فَإِذَا اسْتَفَرَّ فِي أَنْفُسِنَا لَفْظٌ مِنَ أَلْفَاظِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ ،
اسْتَفَرَّتْ بِهِ فِي النَّفْسِ كُلِّ مَعَانِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ، وَأَخَذَتْ شَيَاطِينُ هَذِهِ الْمَعَاصِي
تَحُومُ عَلَى قُلُوبِنَا ، فَضُضِبُ مُهَيَّيْنٍ لِهَذِهِ الشَّيَاطِينِ ، عَامِلِينَ لَهَا ، ثُمَّ عَامِلِينَ مَعَهَا ،
فَتَدْخُلُنَا مَدَاحِلَ الشُّوْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَتَقْحُمُنَا فِي الْوَرْطَةِ بَعْدَ الْوَرْطَةِ ، وَفِي الْهَلَكَةِ
بَعْدَ الْهَلَكَةِ .

وَمَا هَذِهِ الشَّيَاطِينُ إِلَّا كَالذُّبَابِ وَالْبُعُوضِ وَالْهَوَامِّ ، لَا تَحُومُ إِلَّا عَلَى رَائِحَةٍ تَجِدُهَا ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي النَّفْسِ مَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ، تَفَرَّقَتْ وَلَمْ تَجْتَمِعْ ، وَإِذَا أَلَمَّتِ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا بَعْدَ الْوَاحِدَةِ لَمْ تَثْبُتْ . فَلَوْ أَنَّا طَرَدْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَفْسَدَتْ عَلَيْنَا رُؤْيَا الدُّنْيَا كَمَا خَلَقَتْ ، لَكَانَ لِلدُّنْيَا فِي أَنْفُسِنَا شَكْلٌ آخَرُ أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ مِنْ شَكْلِهَا ، وَلَكَانَتْ لَنَا أَعْمَالٌ أُخْرَى أَحْسَنُ وَأَطْهَرُ مِنْ أَعْمَالِنَا .

فَالشَّيْخُ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى لِكَلِمَةِ (التَّلَذُّدِ) ، وَبَطَرْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ هَذَا الَّلَفْظَ الْوَاحِدَ ، طَرَدَ مَعَانِي الشَّرِّ كُلَّهَا ، وَصَلَحَ لَهُ دِينُهُ ، وَخَلَصَتْ نَفْسُهُ لِلْخَيْرِ وَمَعَانِي الْخَيْرِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا يَعْشَقُهَا ، لَصَارَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا فِي نَفْسِهِ كَالْمَخْدَعِ : مَا فِيهِ إِلَّا الْمَرَاةُ وَخَلَدُهَا بِأَسْبَابِهَا إِلَيْهِ وَأَسْبَابِهِ إِلَيْهَا . . .

وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ فِي دَرَسِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ هَذَا الْحَدِيثَ : « لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » [مسند الإمام أحمد ، رقم : ٨٤٢٦] . فَمَا فَهِمْتُ وَاللَّهِ مَعْنَاهُ إِلَّا مِنْ كَلِمَةِ الشَّيْخِ فِي السَّمَكَةِ ، وَقَدْ عَلَّمَنِيهَا هَذَا الصِّيَادُ الْعَامِيُّ ؛ فَالشَّيَاطِينُ تَنَجَّدَتْ إِلَى الْمَعَانِي ، وَالْمَعَانِي يُوجِدُهَا الَّلَفْظُ الْمُسْتَقَرُّ فِي الْقَلْبِ اسْتِقْرَارَ غَرَضٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ طَمَعٍ ؛ فَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَقَدْ أَمِنَ مَنَازِعَتَهَا لَهُ وَشَغْلَهَا إِيَّاهُ ، فَيُصْبِحُ قَوْفَهَا لَا بَيْنَهَا ؛ وَمَتَى صَارَ الْقَلْبُ فَوْقَ الشَّهَوَاتِ وَلَمْ يَجِدْ مِنَ الْفَاطِهَا مَا يُعْمِيهِ وَيَعْتَزُّ نَظَرُهُ إِلَى الْحَقَائِقِ ، انْكَشَفَتْ لَهُ هَذِهِ الْحَقَائِقُ فَانْكَشَفَ لَهُ الْمَلَكُوتُ ؛ فَإِذَا وَقَعَ بَعْدَ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّذَاتِ وَلَوْ (كَالزُّفَاقَتَيْنِ وَالْحَلْوَى) ، اسْتَعَلَّتِ الْأَشْيَاءُ عَلَيْهِ فَحَجَبَتْهُ ، وَعَادَ بَيْنَهَا أَوْ تَحْتَهَا ، وَعَمِيَ عَمَى اللَّذَّةِ ؛ وَالْحِجَابُ عَلَى الْبَصَرِ كَأَنَّهُ تَغْلِيْقُ الْعَمَى عَلَى الْبَصَرِ .

وَكُنْتُ لَا أَزَالُ أَعْجَبُ مِنْ صَبْرِ شَيْخِنَا أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ بِالسَّيَاطِلِ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ^(١) ، فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ ؛ فَعَلِمْتُ أَلَا مِنْ كَلِمَةِ السَّمَكَةِ أَنَّهُ لَمْ

(١) كَانَ هَذَا فِي سَنَةِ ٢١٩ وَقَدْ أَرَادُوا الْإِمَامَ الْعَظِيمَ عَلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْفَرَّانِ فَلَمْ يَقُلْ بِهِ ، فَأَقْبَى الْقَاضِي ابْنُ أَبِي دُوَادٍ بِقَتْلِهِ وَشَغَبَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ ، فَلَمَّا صَمَّمَ وَلَمْ يُجِبْ أَطْلَقَهُ الْمُعْتَصِمُ وَنَدِمَ عَلَى ضَرْبِهِ .

يَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ لِلضَّرْبِ مَعْنَى الضَّرْبِ ، وَلَا عَرَفَ لِلصَّبْرِ مَعْنَى الصَّبْرِ الْأَدَمِيِّ ؛ وَلَوْ هُوَ صَبَرَ عَلَى هَذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ لَجَزَعَ وَتَحَوَّلَ ، وَلَوْ ضُرِبَ ضَرْبَ الْإِنْسَانِ لَنَاقَمَ وَتَغَيَّرَ ؛ وَلَكِنَّهُ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى ثَبَاتِ الشَّيْءِ وَبَقَاءِ الدِّينِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا لَا أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ ، فَلَوْ تَحَوَّلَ لَتَحَوَّلَ النَّاسُ ، وَلَوْ ابْتَدَعَ لَابْتَدَعُوا ؛ فَكَانَ صَبْرُهُ صَبْرَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لَا صَبْرَ رَجُلٍ فَرْدٍ ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِالسَّيَاطِ وَنَفْسُهُ فَوْقَ مَعْنَى الضَّرْبِ ، فَلَوْ قَرَضُوهُ بِالْمَقَارِضِ وَتَشَرُّوهُ بِالْمَتَاشِيرِ لَمَا نَالُوا مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ جِسْمُهُ إِلَّا ثَوْبًا عَلَيْهِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْفِكَرُ لَيْسَ غَيْرُ .

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَرَوْنَ فَضَائِلَهُمْ فَضَائِلَ ، وَلَكِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا أَمَانَاتٍ قَدْ اتَّخَذُوا عَلَيْهَا مِنْ اللَّهِ لِيَتَّبِعُوا بِهِنَّ مَعَانِيَهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَهُمْ يُزْرَعُونَ فِي الْأُمَمِ زَرْعًا بِيَدِ اللَّهِ ، وَلَا يَمْلِكُ الزَّرْعُ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ ، وَمَا كَانَ الْمُعْتَصِمُ وَهُوَ يُرِيدُ شَيْخَانًا عَلَى غَيْرِ رَأْيِهِ وَعَقِيدَتِهِ إِلَّا كَأَلَّاخْمَقِي يَقُولُ لِشَجَرَةِ التَّفَاحِ : أَتَمْرِي غَيْرَ التَّفَاحِ .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَأَخَذْتُ الرُّقَاقَتَيْنِ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي : لَعَنَ اللَّهُ هَذِهِ الدُّنْيَا ! إِنَّ مِنْ هَوَانِهَا عَلَى اللَّهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِيهَا يَلْبَسُ وَجْهَهُ كَمَا يَلْبَسُ ثَوْبَهُ . فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَتْ لَهُ نَظَرَةٌ مَلَائِكِيَّةٌ ثُمَّ اعْتَرَضَ الْخَلْقَ يَنْظُرُ فِي وُجُوهِهِمْ ، لَرَأَى عَلَيْهَا وَحُولًا وَأَفْذَارًا كَأَلَّتِي فِي نِعَالِهِمْ أَوْ أَفْذَرَ أَوْ أَفْبَحَ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ لَا يَرَى أَجْمَلَ الْوُجُوهِ الَّتِي تَسْتَهِيهِمُ النَّاسُ وَتَتَصَبَّأُهَا مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، إِلَّا كَأَلَّاخْمَدِيَّةِ الْعَتِيفَةِ . . .

وَلَكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ الرُّقَاقَتَيْنِ سِرَّ الشَّيْخِ ، وَرَأَيْتُهُمَا فِي يَدَيْهِ كَأَلْوَيْتَيْنِ يَخْبِرُ كَثِيرٌ ؛ فَقُلْتُ : عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ . وَمَضَيْتُ إِلَى دَارِي ؛ فَلَمَّا كُنْتُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ لَقِيتُ امْرَأَةً مَعَهَا صَبِيٌّ ، فَتَظَرْتُ إِلَى الْمُنْدَبِلِ وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ، هَذَا طِفْلٌ يَتِيمٌ جَائِعٌ وَلَا صَبْرَ لَهُ عَلَى الْجُوعِ ، فَاطْعِمْنِي شَيْئًا يَرْحَمُكَ اللَّهُ . وَنَظَرْتُ إِلَيْ الطِّفْلِ نَظَرَةً لَا أَنْسَاهَا . حَسِبْتُ فِيهَا خُشُوعَ أَلْفِ عَابِدٍ يَعْبُدُونَ اللَّهَ (تَعَالَى) مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا ؛ بَلْ مَا أَطَّلُ أَلْفَ عَابِدٍ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْا النَّاسَ نَظَرَةً وَاحِدَةً كَأَلَّتِي تَكُونُ فِي عَيْنِ صَبِيٍّ يَتِيمٍ جَائِعٍ يَسْأَلُ الرِّحْمَةَ . إِنَّ شِدَّةَ أَلْهِمَ لَتَجْعَلَ وَجْهَهُ الْأَطْفَالِ كَوُجُوهِ الْقَدِيسِينَ ، فِي عَيْنٍ مَنْ يَرَاهَا مِنْ

الآباء والأمهات ، لِعَجْزِ هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الْآدَمِيِّ وَأَنْقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَالْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَيُظْهِرُ وَجْهَ أَحَدِهِمْ وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ بِمَعَانِيهِ يَقُولُ : يَا رَبَّاهُ ! يَا رَبَّاهُ !

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَخِيلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ الْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُ هَذَا الطِّفْلَ وَأُمَّهُ ، وَالنَّاسُ عُمِّي لَا يُبْصِرُونَهَا ، وَكَأَنَّهُمْ يَمُرُّونَ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مُرُورَ الْحَمِيرِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ : لَوْ سِئِلْتُ فَضَّلْتُ عَلَيْهِ الْإِصْطَبْلَ الَّذِي هِيَ فِيهِ . . .

وَذَكَرْتُ أَمْرَاتِي وَأَبْنَتَهَا وَهُمَا جَائِعَانِ مَذْأَمَسٍ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَهُمَا فِي قَلْبِي مَعْنَى الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ ؛ بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمُحْتَاجَةِ وَطِفْلِهَا ، فَاسْقَطْتُهُمَا عَنْ قَلْبِي وَدَفَعْتُ مَا فِي يَدَيَّ لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا : خُذِي وَأَطْعِمِي ابْنَكَ ، وَوَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ بَيْضَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ ، وَإِنَّ فِي دَارِي لَمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيَّ هَذَا الطَّعَامِ ؛ وَلَوْلَا هَذِهِ الْخَلَّةُ بَيْنِي لَتَقَدَّمْتُ فِيمَا يُضْلِحُكَ . فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهُ الصَّبِيِّ ، وَلَكِنْ طَمَّ عَلَى قَلْبِي مَا أَنَا فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ مَعْنَى الدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ مَعْنَى الْبَسْمَةِ .

وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمَا أَنَا فَاطِمَةُ إِنْ لَمْ أَصِبْ طَعَامًا ، فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ يَطْوِي سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَطْوِي ، وَكَانَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِمَّنْ حَفِظْنَا أَسْمَاءَهُمْ وَرَوَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لِلْمَرْأَةِ وَأَبْنَتِهَا بِمِثْلِ عَفْدِي وَبَيْتِي ؟ وَكَيْفَ لِي بِهِمَا ؟

وَمَشَيْتُ وَأَنَا مُتَكَبِّرٌ مُتَقَبِّضٌ ، وَكَأَنِّي كُنْتُ نَسِيتُ كَلِمَةَ الشَّيْخِ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ » . فَذَكَرْتُهَا وَصَرَفْتُ خَاطِرِي إِلَيْهَا وَشَعَلْتُ نَفْسِي بِتَدَبُّرِهَا وَقُلْتُ : لَوْ أَنِّي أَشْبَعْتُ ثَلَاثَةَ بَجُوعٍ أَتَيْنِ لَحُرْمَتُ خَمْسِ فَضَائِلٍ ^(١) وَهَذِهِ الدُّنْيَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْفَضِيلَةِ ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ ، وَهَذَا الْعَمَلُ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَكُونَ هَكَذَا ، فَمَا يَسْتَعِينُ الْأَمْرَ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُ .

وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ أَنْبَسَتْ فِي السَّمَاءِ وَذَلِكَ وَقْتُ الضُّحَى الْأَعْلَى ، فَمِلْتُ نَاحِيَةَ

(١) يُرِيدُ : جُوعُهُ ، وَجُوعُ أَمْرَاتِي ، وَجُوعُ ابْنِي ؛ ثُمَّ شَبِعَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، وَشَبِعَ أَبْنَتَهَا . فَهَلْ يَدَّ خَمْسُ فَضَائِلَ .

وَجَلَسْتُ إِلَى حَائِطٍ أَفَكَّرْتُ فِي بَيْعِ الدَّارِ وَمَنْ يَبْتَاعُهَا ، فَأَنَا كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ أَبُو نَضْرٍ الصَّيَّادُ وَكَانَهُ مُسْتَطَارًّا فَرَحًا ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! مَا يُجْلِسُكَ هَهُنَا وَفِي دَارِكَ الْخَيْرِ وَالْغِنَى ؟ قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ السَّمَكَةُ يَا أَبَا نَضْرٍ ؟

قَالَ : إِنِّي لَفِي الطَّرِيقِ إِلَى مَنْزِلِكَ ، وَمَعِيَ ضَرُورَةٌ مِنَ الْقَوْتِ أَخَذْتُهَا لِعِبَالِكَ ، وَدَرَاهِمُ اسْتَدْنْتُهَا لَكَ ، إِذَا رَجُلٌ يَسْتَدِلُّ النَّاسَ عَلَى أَيْتِكَ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ ، وَمَعَهُ أَنْفَالٌ وَأَحْمَالٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَدُلُّكَ . وَمَشَيْتُ مَعَهُ أَسْأَلُهُ عَنْ خَبَرِهِ وَشَأْنِهِ عِنْدَ أَيْتِكَ . فَقَالَ : إِنَّهُ تَاجِرٌ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ أَوْدَعَهُ مَالًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَأَفْلَسَ وَأَنْكَسَرَ الْمَالُ ، ثُمَّ تَرَكَ الْبَصْرَةَ إِلَى خُرَاسَانَ ، فَصَلَحَ أَمْرُهُ عَلَى التَّجَارَةِ هُنَاكَ ، وَأَيْسَرَ بَعْدَ الْمِحْنَةِ ، وَأَسْتَظْهَرَ بَعْدَ الْخِذْلَانِ ، وَأَقْبَلَ جَدُّهُ بِالثَّرَاءِ وَالْغِنَى ؛ فَعَادَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَلَّلَ ، فَجَاءَكَ بِالْمَالِ وَعَلَيْهِ مَا كَانَ يَرْبُحُهُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِينَ سَنَةً ، وَإِلَى ذَلِكَ طَرَأَتْ وَهْدَايَا .

* * *

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَأَنْقَلَبْتُ إِلَى دَارِي فَإِذَا مَالٌ جَمٌّ وَحَالٌ جَمِيلَةٌ ! فَقُلْتُ : صَدَقَ الشَّيْخُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجْتَ السَّمَكَةُ » ! فَلَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَلْقَ فِي وَجْهِهِ أَبَا نَضْرٍ ، فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، لَمَا أَهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ كَانَ أَبِي مَغْمُورًا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ وَهُوَ حَيٌّ ؛ فَكَيْفَ بِهِ مَيِّتًا مِنْ وَرَاءِ عَشْرِينَ سَنَةً ؟

وَالَيْتُ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ شُكْرِي فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةً إِلَّا الْبَحْثُ عَنِ الْمَرْأَةِ الْمُخْتَاجَةِ وَأَبْنَيْهَا ، فَكَفَيْتُهُمَا وَأَجَرَيْتُ عَلَيْهِمَا رِزْقًا ، ثُمَّ أَتَجَرْتُ فِي الْمَالِ ، وَجَعَلْتُ أَرْبِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَالصَّنِيعَةِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ مُقْبِلٌ يَزْدَادُ وَلَا يَنْقُصُ ، حَتَّى تَمَوَّلْتُ وَتَأَلَّلْتُ .

وَكَاثَنِي قَدْ أَعْجَبَنِي نَفْسِي ، وَسَرَّنِي أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ سِجِلَّاتِ الْمَلَائِكَةِ بِحَسَنَاتِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ كَتَبْتُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الصَّالِحِينَ ، فَمِثْتُ لَيْلَةً فَرَأَيْتُنِي فِي يَوْمِ الْفِيَاةِ وَالْخَلْقِ يُمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَالْهَوَلُ هَوْلُ الْكَوْنِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ ، يُسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَا مَسَّهُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ . وَسَمِعْتُ الصَّائِحَ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ ! سَجَدَتْ أَلْبَهَائُكُمْ شُكْرًا لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنْ آدَمَ . وَرَأَيْتُ النَّاسَ وَقَدْ وَسَّعَتْ أَبْدَانُهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ مَخْلُوقَةٌ مُجَسَّمَةٌ ، حَتَّى لَكَانَ الْفَاسِقَ عَلَى ظَهْرِهِ مَدِينَةٌ

كُلُّهَا مُخْزِيَاتٌ !

وَقِيلَ : وَضِعَتِ الْمَوَازِينُ . وَجِيءَ بِي لِوزْنِ أَعْمَالِي ، فَجُعِلَتْ سَيِّئَاتِي فِي يَفَةِ ،
وَأُلْقِيَتْ سِجِلَاتُ حَسَنَاتِي فِي الْأُخْرَى ، فَطَاشَتْ السِّجِلَاتُ وَرَجَحَتْ السَّيِّئَاتُ ، كَأَنَّمَا
وَزَنُوا الْجَبَلَ الصَّخْرِيَّ الْعَظِيمَ الصُّخْرَ بِلُفَاةٍ مِنَ الْقُطَنِ . . .

ثُمَّ جَعَلُوا يُلْفُونَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ ، فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ
خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ : كَالرِّيَاءِ وَالْعُرْوَِرِ وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا ، فَلَمْ يَسْلَمْ
لِي شَيْءٌ ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي ، إِذِ الْحُجَّةُ مَا يُبَيِّنُهُ الْمِيزَانُ ، وَالْمِيزَانُ لَمْ يَدَلَّ إِلَّا عَلَى
أَنِّي فَارِغٌ .

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظُرُ لِأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا الرُّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى الْمَرْأَةِ
وَأَنِهَا ! فَأَيَقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسَنُ بِمِثْلِهِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي ،
وَرَأَيْتُهَا فِي الْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئًا مُعَلَّقًا كَالْغَمَامِ حِينَ يَكُونُ سَاقِطًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ :
لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ .

وَوَضِعَتِ الرُّقَاقَتَانِ ، وَسَمِعْتُ الْقَائِلَ : لَقَدْ طَارَ نِصْفُ ثَوَابِهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ
الْصَّيَّادِ . فَأَنخَذَلْتُ أَنْخَذًا شَدِيدًا ، حَتَّى لَوْ كُسِرْتُ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَحْفَافًا عَلَيَّ وَأَهْوَنَ . بَيَّنَّ
أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِثْرَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ الرُّجْحَانِ .

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظُرُ مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ؟ فَإِذَا جُوعُ أَمْرَأَتِي وَوَلَدِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَإِذَا هُوَ شَيْءٌ
يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْفَعُ بِالْأُخْرَى حَتَّى اغْتَدَلْنَا بِالسَّوِيَّةِ . وَبَيَّنَّ
الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ .

وَأَسْمَعُ الصَّوْتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دُمُوعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي نَفْسِهَا ، وَمِنْ
إِنْتَارِي إِثَابَهَا وَأَبْنَتَهَا عَلَى أَهْلِهَا . وَوَضِعَتْ غُرْغَرَةً عَيْنَيْهَا فِي الْمِيزَانِ فَفَارَتْ ، فَطَمَّتْ كَأَنَّهَا

لُجَّةً ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَخْرٌ ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ اللَّجَّةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا
رُوحُ تِلْكَ الدُّمُوعِ ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ ، وَالْكِفَّةُ تَرْجَحُ وَلَا تَزَالُ تَرْجَحُ ، حَتَّى
سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ : قَدْ نَجَا !

وَصِخْتُ صِيحَةً أَنْتَبَهْتُ لَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ : « لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ
السَّمَكَةُ ! » .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَاتَّشَرَ حَدِيثُ السَّمَكَةِ فِي أَهْلِ (بَلَخِ) ، وَاسْتَفَاضَ بَيْنَهُمْ ،
وَكُنْتُ قَصَصْتُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَلَمَّا دَارَ السَّبْتُ مِنْ أُسْبُوعِهِ لَقِيَنِي شَيْخُهُمْ حَاتِمُ بْنُ
يُوسُفَ (لُقْمَانَ الْأُمِّيَّةِ) وَمَعَهُ صَاحِبُهُ أَبُو تُرَابٍ ، فَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ! لَكَأَنَّكَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ
قَمَرٌ طَلَعَ لَيْلِلٍ ، فَلَا يَعْظِ النَّاسُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ غَيْرَكَ ؛ وَمَنْ سَمِعَ فَكَأَنَّهُ عَايَنَ ، وَلَيْسَ عَلَى
السِّنَةِ أَهْلٍ بَلَخٍ مُنْذُ تَحَدَّثْتُ إِلَّا بِشَرٍّ وَأَبْنُ حَنْبَلٍ ، وَلَا عَلَى بَالٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا مَوْعِظَتُكَ
وَحَدِيثُكَ .

وَالْكَلَامُ عَلَى الصَّالِحِينَ فِي مِثْلِ مَا وَصَفْتَ وَحَكَيْتَ قُرْبَ مِنْ حَقَائِقِهِمْ ، وَسُمُوهُ إِلَى
مَعَانِيهِمْ ؛ وَلَيْسَ فِي الْقَوْلِ بَابٌ لَهُ مَوْعِظٌ كَمَوْعِظِ الْقِصَّةِ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْلُقُهُمُ اللَّهُ فِي
الْبَشَرِيَّةِ خَلْقَ الثَّوْرِ : يُضِيءُ مَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ يُرَى ، وَيَعْمَلُ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَى ،
وَفِي ظَاهِرِهِ الْجَمَالَ وَالْمَنْفَعَةَ ، وَفِي بَاطِنِهِ الْقُوَّةَ وَالْحَيَاةَ . وَلَكَسْتُ أَقُولُ لَكَ أَذْهَبَ فَحَدَّثَ
النَّاسَ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ أَذْهَبَ فَأَعْطِ النَّاسَ عَقْلاً مِنَ الْحَدِيثِ .

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعَصْرَ ، قَدَّمَنِي أَبُو تَرَابٍ فَجَلَسْتُ فِي مَجْلِسِي ذَاكَ ، وَهَتَفَ بِي النَّاسُ يُرِيدُونَ الْحَدِيثَ عَنْ بَشِيرِ الْحَافِي وَمَا سَقَطَ لِي مِنْ أَخْبَارِهِ ، عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَدَّثْتُهُمْ بِهَا مِنْ قَبْلُ ، فَأَبْتَدَأْتُ بِذِكْرِ مَوْتِهِ (رَحِمَهُ اللَّهُ) ، وَأَنَّ يَوْمَهُ كَأَنَّمَا اجْتَمَعَ لَهُ أَهْلُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً^(١) ، إِذْ خَرَجْتُ جَنَازَتُهُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَلَمْ يَخْصُلْ فِي قَبْرِهِ إِلَّا فِي اللَّيْلِ مِمَّا اخْتَشَدَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الْخَلَى ، حَتَّى لَكَأَنَّ فِي نَعْشِهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْجَنَّةِ يُطَالِعُهُمْ بِهِ الْمَوْتُ^(٢) ، فَخَرَجُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانُوا يَصْنَحُونَ فِي جَنَازَتِهِ : هَذَا وَاللَّهِ شَرَفَ الدُّنْيَا قَبْلَ شَرَفِ الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قُلْتُ : حَدَّثَنِي حُسَيْنُ الْمَغَارِلِيُّ^(٣) : أَنَّ بَشِيرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخُبْزَ تَوَرُّعًا عَنِ الشُّبُهَاتِ وَاجْتِنَاءً لِضَرُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلِ الْأَيْسَرِ ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ : يَدٌ أَقْصَرَ مِنْ يَدِ ، وَلُقْمَةٌ أَضْعَفُ مِنْ لُقْمَةٍ . وَسُئِلَ مَرَّةً : بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخُبْزَ ؟ فَقَالَ : أَذْكُرُ الْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِذَا مَا . وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ نُسُكُكَ . فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقُومَ بِحَقِّهَا . فَكَانَتْ هَذِهِ اللَّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ .

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا ، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاخَاةِ الرَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَزْخِيِّ) ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدَ بْنَ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا ، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ : إِنَّ بَشِيرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاخَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحِي أَنْ يُشَافِهَكَ بِذَلِكَ ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أُخُوَّةَ يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْوْطًا : أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(١) مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فِي هَذَا » بَدَلًا مِنْ : « يُطَالِعُهُمْ بِهِ الْمَوْتُ » .

(٣) نَسَبَتْهُ إِلَى عَمَلِ الْمَغَارِلِ ، وَكَانَ حُسَيْنٌ هَذَا صَدِيقًا لِبَشِيرٍ ، وَكَانَ بَشِيرٌ يَعْمَلُ الْمَغَارِلَ وَيَعِيشُ مِنْ نَسَبَتِهَا ، وَمِنْ كَلَامِهِ لِابْنِ أُخْبَرِ عُمَرَ : يَا بَنِي ! أَعْمَلْ بِتَدَبُّكِ ؛ فَإِنَّ أَثَرَهُ فِي الْكُفَّينِ أَحْسَنُ مِنْ أَثَرِ الْسَّجْدَةِ بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ . هَكَذَا كَانُوا رَحِمَهُمُ اللَّهُ .

مُزَاوَرَةً وَلَا مُلَاقَاةً .

فَقَالَ مَعْرُوفٌ : أَمَّا أَنَا فَإِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَفْتٍ ، وَأَزُورُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبَشَرٍ أَخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ ، وَأَمْرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي .

قَالَ حُسَيْنُ الْمُعَاذِلِيِّ : وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بَشَرٍ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرَ ابْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا وَقَدْ رَأَيْتُهُ (فَتَحُ الْمَوْصِلِيُّ) ، فَقَامَ فَجَاءَ بِدِرَاهِمٍ مِائَةٍ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ : أَشْتَرِ لَنَا أَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحَلْوَى ، وَأَطْيَبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّيِّبِ . وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاحِشَةَ يَوْمًا فَقَالَ : تَرَكْتُ هَذِهِ عِبَادَةً ! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصَّيَّادِ : لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ ^(١) .

فَذَهَبْتُ فَاشْتَرَيْتُ وَانْتَقَيْتُ وَنَحَيْتُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ ، وَرَأَيْتُهُ مُنْسَبِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدُ كَانَ بِإِنْسَابِهِ إِلَيَّ أَحَدٌ . وَقَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبَرِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ ، عَلِمْتُهُ مِنْ إِدْرِيسَ الْحَدَّادِ : فَإِنَّهُ لَمَّا زَالَتِ الْمِخْنَةُ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ وَصُرِفَ إِلَى بَيْتِهِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِنْ سَرَوَاتِ بَغْدَادَ وَأَهْلِ الْخَيْرِ فِيهَا ، فَرَدَّ جَمِيعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى الْأَقْلَ مِنْ أَيْسَرِهِ ، وَإِلَى الشَّيْءِ مِنْ أَقْلِهِ ، فَجَعَلَ عَمَّهُ إِسْحَاقُ يَحْسُبُ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَكَانَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ : يَا عَمُّ ! أَرَأَيْكَ مَشْغُولًا بِحِسَابِ مَا لَا يُفِيدُكَ . قَالَ : قَدْ رَدَدْتُ الْيَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا وَأَنْتَ مُخْتَاجٌ إِلَى حَبَّةٍ مِنْ دَانِي . فَقَالَ الْإِمَامُ : يَا عَمُّ ! لَوْ طَلَبْنَاكَ لَمْ يَأْتِنَا ، وَإِنَّمَا أَتَانَا لَمَّا تَرَكْنَاكَ .

* * *

قَالَ الْمُعَاذِلِيُّ : فَنِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَنَا أَفْكُرُ فِي صَنِيعِ الشَّيْخِ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ خَاطِرِي بِهِ : كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْحَالُ مَعَهُ ، وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ الْحَالُ ؟ وَجَعَلْتُ أَكِدُّ ذَهْنِي لِأَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ

(١) مَرَّ هَذَا فِي مَقَالِ « السَّمَكَةِ » .

الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي سَلَّطَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الضَّرُورَةُ فَتَسَلَّطَ التَّعِينُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ لِلْقَوْمِ
عُلُومًا رُوحَانِيَّةً لَيْسَتْ فِي الْكُتُبِ ، فَمِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْفَقْرِ ، وَمِنْهَا
مَا لَا يَتَعَلَّمُونَهُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمِنْهَا ، وَمِنْهَا ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ اللَّذَاتِ
وَالشَّهَوَاتِ ؛ وَذَهَبَ قَلْبِي إِلَى أَوْهَامٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ فِي جَمِيعِهَا طَائِلٌ وَلَا بِهَا مَعْرِفَةٌ ، حَتَّى
غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، وَأَنَا مِنْ وَهَجِ الْفِكْرِ نَائِمٌ كَالْمَرِيضِ ، وَقَدْ ثَقُلَ رَأْسِي وَاخْتَلَطَ فِيهِ مَا يُعْقَلُ
بِمَا لَا يُعْقَلُ .

فَرَأَيْتُ أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ مَلَكًا جَبَّارًا يَخُكُّ مَدِينَةَ عَظِيمَةً ، وَقَدْ أَطْلَقَ الْمُنَادِي فِي جَمْعِ كُلِّ
أَطْفَالٍ مَدِينَتِهِ ، فَجِئَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ دَارٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ قَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِقْرَاضٌ
عَظِيمٌ ، قَدْ اتَّخَذَهُ عَلَى هَيْئَةِ نَصْلَيْنِ عَرَضَيْنِ لَوْ وَضَعْتَ بَيْنَهُمَا رَقَبَةً لَفَصَلَاها عَنْ جَسْمِهَا ؛
فَكَانَ هَذَا الْجَبَّارُ يَتَنَاوَلُ الطِّفْلَ مِنْ أَوْلَتِكَ فَيَضَعُ أَصَابِعَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ فِي شِقِّي الْمِقْرَاضِ
فَيَقْرِضُهَا ، فَإِذَا هِيَ تَتَنَاثَرُ أَسْرَعَ مِمَّا يَقْرِضُ الْمَقْصُ الْخَيْطُ ، ثُمَّ يَزِمِي بِالطِّفْلِ مَغْشِيًا عَلَيْهِ ،
وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيَنْتَرُ أَصَابِعَهُ ، وَالْأَطْفَالُ يَصْرُخُونَ ؛ وَأَنَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غِيظِي
عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ فِيهِ هَذَا الْغَيْظَ فَأَقْرِضَ عَنْقَهُ بِمِقْرَاضِهِ .

ثُمَّ رَأَيْتُهُ بِأَخْذِ طِفْلًا صَغِيرًا ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ الطِّفْلِ بَيْنَ شِقِّي الْمِقْرَاضِ صَاحَ :
يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! فَإِذَا الْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئًا ، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَرًا صَلْدًا لَا قَدَمًا
رَخْصَةً . فَمَمَّرَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ : مَنْ هَذَا الطِّفْلُ ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتِفُ : هَذَا
بَشَرٌ الْحَافِي ! لَا يَبْلُغُ تَاجَ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمِهِ الْحَافِيَّةُ نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ !

وَكَانَ إِلَى يَمِينِي رَجُلٌ يَتَضَوُّ^(١) وَجْهَهُ صَلاَحًا وَتَقْوَى ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَذَا الطَّاغِيَةُ ؟
وَلِمَ اتَّخَذَ الْمِقْرَاضَ لِأَقْدَامِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةً ؟

فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ الْعَيْشِ ، وَهَذَا وَسْمُهُ لِأَهْلِ الْحَيَاةِ عَلَى
الْأَرْضِ ، يُحَقِّقُ بِهِ الْإِنْسَانُ مَعْنَى الْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ
لَا ذُو قَدَمٍ .

(١) فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى : « يَتَوَضَّأُ » بَدَلًا مِنْ : « يَتَضَوُّ » .

قُلْتُ : فَمَا بَالُ هَذَا الطُّفْلِ لَمْ يَعْمَلْ فِيهِ الْمِقْرَاضُ ؟

قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا اسْتَحْصَهُمْ لِنَفْسِهِ ، أَوَّلَ عَلَامَتِهِ فِيهِمْ أَنَّ الذَّلَّ تَحْتَ أَفْدَائِهِمْ ، وَهُمْ يَجِبُتُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِإثْبَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى حُكْمِ طَبِيعَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا طَبِيعَةُ الذَّلِّ ؛ فَإِذَا أَطْرَحَ أَحَدُهُمُ الشَّهَوَاتِ وَزَهَدَ فِيهَا ، وَاسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي عَقْدِ نِيَّةٍ وَقُوَّةِ إِرَادَةٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ اخْتَارَتْهُ الْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ النَّفْسِ فِي مَعَارِكِهَا الطَّاحِنَةِ ، كَمَا يَحْمِلُ الْبَطْلُ الْأَزْوَاعَ أَسْلِحَةَ الْجِسْمِ فِي مَعَارِكِهِ الدَّائِمَةِ : هَذَا يُتَعَلَّمُ مِنْهُ قَبْلُ ، وَذَاكَ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ قَبْلُ آخَرُ ، وَكِلَاهُمَا يُزِمُّ بِهِ عَلَى الْمَوْتِ لِإِبْجَادِ النَّوْعِ الْمُسْتَعِزِّ مِنَ الْحَيَاةِ ، فَأَوَّلُ فَضَائِلِهِ الشُّعُورُ بِالْقُوَّةِ ، وَآخِرُ فَضَائِلِهِ إِبْجَادُ الْقُوَّةِ .

* * *

قَالَ الْمُعَاذِلِيُّ : وَضَرَبَ النَّوْمُ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَإِذَا أَنَا فِي أَرْضِ خَبِيثَةٍ دَاحِيَةٍ ، قَدْ أَرْتَقَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَنْضَرِبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَجَعَلْتُ أَرَى شُعَلًا حُمْرًا تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ حَيَّةٌ ، فَوَقَعَ فِي وَهْمِي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ الشَّيَاطِينُ : إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ ؛ وَسَمِعْتُ صَارِخًا يَقُولُ : يَا بَشَرِي ! قَلْبُكَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ ، لَقَدْ أَكَلَ بِشَرُّ الْحَافِي مِنْ أَطْيَبِ الطَّعَامِ وَأَطْيَبِ الْحَلْوَى بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى عِنْدَهُ حَجَرُهَا وَمَدْرُهَا ، وَذَهَبَهَا وَفُضَّتْهَا ! فَعَارِضُهُ صَائِحٌ أَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا أَرَى شَخْصَهُ : وَبِئْسَ يَا زَلْتَنُورُ^(١) ! إِنَّ هَذَا شَرٌّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسُكِهِ وَعِبَادَتِهِ ؛ فَهَذَا وَيَحَكَ هُوَ الزُّهْدُ الْأَعْلَى الَّذِي كَانَ لَا يُطِيقُهُ بَشَرٌ ؛ إِنَّهُ إِعْنَاتُ سُلْطَانٍ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمُعَاذِلِي) الْأَعْمَى الْقَلْبَ لِيُرِيَنِي لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ ، زُهْدًا وَوَرَعًا ، وَقُوَّةَ عَزْمٍ ، وَنَفَادَ إِرَادَةٍ ؛ وَقُلْتُ : عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةٌ الزُّهْدِ فَيَحْسُدُ أَوْ يَغَارَ ، أَوْ تُعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُونُ لِي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ يَقْلِبُهُ فَأَوْسُوسُ لَهُ ، فَإِنَّا نَأْتِي هَؤُلَاءِ مِنْ أَبْوَابِ الثُّوَابِ كَمَا نَأْتِي غَيْرَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَاصِي ، وَنَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ الْوَرَعِ كَمَا نَتَسَخَّفُ مَعَ أَهْلِ السُّخْفِ ؛ وَلَكِنَّ

(١) هَذَا اسْمُ بَعْضٍ وَلَكِنْ إِبْلِيسَ فِيمَا يُزَوَّى ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ الَّتِي بِيَاذِيَدِنَا أَنَّهُ خَنْزَبٌ لَا زَلْتَنُورُ

الرَّجُلُ رَجُلٌ وَفِيهِ حَقِيقَةُ الرَّاهِدِ ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْقُوَّةَ عَلَى جَعْلِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا حَيَّةً يُعَادِيهَا وَيُقَاتِلُهَا ، فَإِذَا أَنَا جَعَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي اللَّذَّةِ قَتَلَ اللَّذَّةَ ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي الْكَأَبَةِ قَتَلَ الْكَأَبَةَ ، وَلَيْسَ الرَّاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يَتَّقِفُ وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَتَخَفَّفُ وَيَتَلَفَّفُ ، فَإِنْ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ أَوْصَافُ الذَّلِّ وَالْحُمَقِ ، وَيَكُونُ لَهَا عَمَلُ الْعِبَادَةِ وَفِيهَا إِنْهُمُ الْمَغْصِيَّةُ . وَلَكِنْ الرَّاهِدُ حَقٌّ الرَّاهِدُ مَنْ أَدَارَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ تَعَلَّمَتِ النَّظَرَ بِحَقِّهِ وَالْإِغْضَاءَ بِحَقِّهِ ؛ فَهَذَا لَا يُخْطِئُ مَعْنَى الشَّرِّ إِنْ لَبَسَتْهُ عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ ، وَلَا مَعْنَى الْخَيْرِ إِنْ رَوَّزَتْهُ فِي صُورَةِ الشَّرِّ ، وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْمَثَرَةِ ، لَا فِي حَيْثُ شَاءَتِ الدُّنْيَا أَنْ تَضَعَهُ مِنْ مَنَازِلِهَا الدِّنِّيَّةِ .

وَمَا أَكَلَ بَشَرٌ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُبَادِرَ بِهَا وَسْوَاسِي وَيُرْدِي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ اللَّمَّةِ بِقَلْبِهِ ، فَلَوْ أَعْجَبَهُ زُهْدُ ابْنِ حَنْبَلٍ وَنَظَرُ مَنْ ذَلِكَ إِلَى زُهْدِ نَفْسِهِ لَحَبِطَ أَجْرُهُ ؛ فَهَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عَالَجَ نَفْسَهُ عِلَاجَ مَرِيضٍ ، وَقَدْ غَبَرَ عَلَى جَوْفِهِ طَعَامًا بِطَعَامٍ ، كَمَا يُبَدِّلُ عَلَى جِلْدِهِ ثَوْبًا بِثَوْبٍ ؛ وَلَا شَهْوَةَ لِلْجِلْدِ فِي أَحَدِهِمَا .

* * *

قَالَ الْمُعَاوِيَةُ : وَنَقَلَ التَّوْمُ عَلَيَّ ثِقْلَةً أُخْرَى ، فَرَأَيْتُنِي فِي وَادٍ عَظِيمٍ ، وَفِي وَسْطِهِ مِثْلُ الطُّودِ مِنَ الْحِجَارَةِ قَدْ رُكِمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَرَأَيْتُنِي مَعَ بَشَرٍ أَقْصَى عَلَيْهِ خَيْرَ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَقَالَ : أَنْظُرْ وَيْحَكَ ؛ إِنَّ النَّاسَ يُسَمُّونَهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَهِيَ هُنَا فِي وَادِي الْحَقَائِقِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَبْرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدَ لَقَتَلَتْهُ وَلَكَانَتْ قَبْرُهُ آخِرَ الدَّهْرِ .

إِنَّ الْمَالَ يَا بُنَيَّ هُوَ مَا يَعْمَلُهُ الْمَالُ لَا جَوْهَرُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَإِذَا كُنْتَ بِمَفَارَظٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْ يَبِيعُكَ شَيْئًا بِذَهَبِكَ ، فَالْتَرَابُ وَالذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ ؛ فَهَذَا تُجَدِّدُ بِالْمَالِ دُنْيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرُ مِنْ بَقَائِكَ ، وَهَذَاكَ تُجَدِّدُ بِالْفَضَائِلِ نَفْسَكَ الَّتِي تَحُلِدُ بِخُلُودِهَا .

وَمَعْنَى الْغِنَى مَعْنَى مُلْتَبَسٍ عَلَى الْقَوْلِ الْأَدِمِيِّ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ ، فَحِينَ يَرُدُّ أَحْمَدُ ابْنَ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا ، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ التَّصْحِيحِ .

* * *

قَالَ حُسَيْنُ الْمُغَازِلِيِّ : وَعَظَنِي النَّوْمُ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةً أُخْرَى ؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي دَرْسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا عَظَّمْتَ أُمَّتِي الدِّينَارَ وَالذَّرْهَمَ ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حُرِمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ » [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْأَخْيَاءِ » : رَوَاهُ أَبُو أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ « الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ » مُعْضَلًا مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : ذَكَرَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ . وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْسِيرِهِ ^(١) وَلَكِنَّهُ رَأَى فَاْمَسَكَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : يَا حُسَيْنُ ! إِذَا اجْتَرَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ ؛ وَفِي هَذِهِ النُّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا مَحْدُودًا ، فَلَا يَكُونُ مَخْصُودُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ .

وَلَمَّا صَغُرَ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجُزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا ، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذِلُّ وَلَا تَضْعَفُ وَلَا تَنْكَسِرُ ؛ فَالْأَدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورِ ^(٢) ، وَهَلُولَاءِ هُمْ الَّذِينَ مَحَلُّهُمْ فِي أَغْلَامَا .

يَا حُسَيْنُ ! أَلَا وَإِنْ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ .

قَالَ حُسَيْنٌ : وَذَهَبَتْ أَغْرَضُ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ ؛ وَأُنْسِيْتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ ؛ فَلَمْ أَكْذُ أَفْتَحُ فَمِي حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِينًا فِي فَمِي لِيُذَكِّرَنِي بِهِذَا الْمَعْنَى ؛ وَكَذْتُ أَخْتَنِقُ فَأَنْتَفَضْتُ أَنْفَاسُ ، فَطَارَ النَّوْمُ وَالْحُلُمُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) سَيَاتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَجْلِسِ آخَرٍ مِنْ مَجَالِسِ أَبِي مِسْكِينٍ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « صُورِهِمْ » بَدَلًا مِنْ : « صُورِ » .

إِبْلِيسُ يُعَلِّمُ . . . (*) (١)

٣

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَدَارَ السَّبْتُ الثَّلَاثُ ، وَجَلَسْتُ مَجْلِسِي لِلنَّاسِ وَقَدْ انْتَضَمَتْ حَلَقَتُهُمْ ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عُرْضِ الْمَجْلِسِ فَقَالَ : إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ شُجَاعٍ الْبَلْخِيَّ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ (٢) ، كَانَ مُنْذُ قَرِيبٍ يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيثٍ عَنِ الشَّيْطَانِ ، حَفِظْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ » [« المسند » ، رقم : ٨٧١٧] . وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِهِ : إِنَّ شَيْطَانَ الْكَافِرِ دِهْنٌ سَمِينٌ كَاسٍ ، وَشَيْطَانُ الْمُؤْمِنِ مَهْزُولٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ عَارٍ . فَهَلْ يَأْكُلُ الشَّيْطَانُ وَيَدُهْنُ وَيَلْبَسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مَعَ الْمُؤْمِنِ وَيَعْرَى وَيَتَشَعَّتْ وَيَغْبَرَّ ؟

قَالَ ابْنُ مِسْكِينٍ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! مَا أَرَى السَّائِلَ إِلَّا شَيْطَانًا هَذَا السَّائِلُ ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الْعَالَمِ وَيُسْمِعَهُ طَنْزَهُ وَتَهَكُّمَهُ (٣) ، حَزَكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ : تَنَبَّهْ وَنَحَكَ عَلَى مَعْنَايَ ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ ، وَأَنْتَ صُورَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيَّ ، وَلَكِنِّي حَقِيقَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْكَ ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِالْوَعْظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عُتُقَ عَدُوِّهِ بِمِثَّةِ اسْمِهِ وَضِعَتْ لِلْسَّبِّ . . .

قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبْرًا عَجِيبًا عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَيْصَةَ بْنِ عُقْبَةَ الْكُوفِيِّ الْمُحَدِّثِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٩ ، ٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(١) دَاعَبَنَا إِبْلِيسُ (لَعَنَهُ اللَّهُ) مُدَاعَبَةً ثَقِيلَةً فِي كِتَابَةِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَسَقَطَتْ لِلْقُرَاءِ حِكَايَتُهُ فِي مَقَالَةٍ : (دُعَايَةُ إِبْلِيسِ) .

(٢) تُوَفِّيَ ابْنُ شُجَاعٍ هَذَا سَنَةَ ٢٤٤ هـ ، وَكَانَ مِنْ حُفَاطِ (بَلْخِ) .

(٣) الطَّنْزُ : التَّهْزُّوُ وَاللَّهْكَمُ : وَلَعَلَّ مِنْهُ كَلِمَةٌ (طَطَّ) عِنْدَ الْعُلَمَاءِ .

الْحَافِظِ الْفَتَى أَحَدِ شُبُوحِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ^(١) ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْعَابِدُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ : (رَاهِبُ الْكُوفَةِ) ؛ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَآخِتْيَاسِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا غِيْظُنَّ الشَّيْطَانَ بِهَذَا الْخَبَرِ ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ الزُّهَادِ وَالْعُبَادِ وَالصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ الشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي تَنْهَزِمُ فِيهَا الْجَبُوشُ ، وَمَا الرَّجُلُ الْعَابِدُ إِلَّا صَاحِبُ الْعَمَرَاتِ مَعَ الشَّيْطَانِ ، وَكَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ الْمَكَارَهَ عَنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ بَلْ عَنْ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا حَيْثُ كَانَتْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَالنَّاسُ يَخْسِبُونَهُ قَدْ تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا وَيَطْلُونَ التَّرَكَّ أَيْسَرُ شَيْءٍ ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الزُّهْدَ لَا يَسْتَقِيمُ لِلزَّاهِدِ حَتَّى يَجْعَلَ جِسْمَهُ كَأَنَّهُ فِي نِظَامٍ آخَرَ غَيْرِ نِظَامِ أَعْضَائِهِ ؛ وَلَا أَشَقَّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى النَّفْسِ . وَمُعْجَزَةُ الزَّاهِدِ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ أَنْ يُخْرِجَ لِلنَّاسِ أَقْوَى الْقُوَّةِ مِنَ أَلْمَعَانِيِ الَّتِي هِيَ عِنْدَ النَّاسِ أضعْفُ الضَّعْفِ ؛ وَلَوْ أَنَّ مَلِكًا عَظِيمًا تَعَبَ فِي جَمْعِ الدُّنْيَا وَفَتَحَ الْمَمَالِكِ حَتَّى حِيزَتْ لَهُ جَوَانِبُ الْأَرْضِ ، لَكَانَ عَمَلُهُ هَذَا هُوَ الْوَجْهَ الْآخَرَ لَتَعَبِ الزَّاهِدِ فِي مُجَاهَدَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَرْكِهَا .

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَقَصَصْتُ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ فَقُلْتُ : كَانَ أَبُو عَامِرٍ قَيْنِصَةَ بْنُ عُقْبَةَ كَثِيرَ الْفِكْرِ فِي الشَّيْطَانِ ، يَوَدُّ لَوْ رَأَاهُ وَنَاقَلَهُ الْكَلَامَ ؛ وَكَانَ يَتَدَبَّرُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي صَحَّ رُؤُودُهَا فِيهِ ، وَيُفَسِّرُ مَعْنَى الشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْحَيُّ لِلخَطَا عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَالخَطَا يَكُونُ صَوَابًا مُحَوَّلًا عَنْ طَرَفَيْتِهِ وَجِهَتِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ إِبْلِيسُ فِي الْأَصْلِ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَحَوَّلَ عَنْ طَبِيعَتِهِ حِينَ خَلِقَ آدَمُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ، أَيْ وَجَدَ فِي الْكَوْنِ رُوحَ الْخَطَا حِينَ وَجَدَ فِيهِ الرُّوحَ الَّذِي سَيَخْطِي .

فَلَمَّا هَبَطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَحُرِمَ مَا هُوَ وَرَوْجُهُ وَذُرِّيَّتُهُ ، كَانَ إِبْلِيسُ (لَعَنَهُ اللَّهُ) هُوَ مَعْنَى بَقَاءِ هَذَا الْحِزْمَانِ وَأَسْتِمْرَارِهِ عَلَى الدَّهْرِ ، فَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَدِمِيَّةَ أُخْرِجَتْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأُخْرِجَتْ مَعَهَا قُوَّةٌ لَا تَزَالُ تَصُدُّهَا عَنْهَا ، لِيَضْطَرِبَا فِي الْكِفَاحِ مَلِكًا مِنْ زَمَنِ هُوَ عُمُرُ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ : لَمْ يَعْرِفْ آدَمُ حَقَّ الْجَنَّةِ ، فَعَوَّقَبَ إِلَّا يَأْخُذُهَا إِلَّا

بِحَقِّهَا ، وَأَنْ يُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ قُوَّةَ الشَّرِّ .

وَبَاتَ أَبُو عَامِرٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُفَكِّرُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقِرَاءَتِهِ ، ثُمَّ هَوَّمَ فَكَانَ بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالنُّوْمِ ، وَذَلِكَ حِينَ تَكُونُ الْعَيْنُ نَائِمَةً وَالْعَقْلُ لَا يَزَالُ مُنْتَبِهًا ، فَكَانَ الْعَيْنُ مُتَرَاجِعَةً تُبْصِرُ مِنْ تَحْتِ أَجْفَانِهَا بَصَرًا يُشَارِكُهَا فِيهِ الْعَقْلُ .

فَرَأَى شَيْخَنَا أَبُو عَامِرٍ صُورَةَ إِبْلِيسَ جَاءَهُ فِي زِيٍّ رَجُلٍ زَاهِدٍ ، حَسَنِ السَّمْتِ ، طَيِّبِ الرَّيْحِ ، نَظِيفِ الْهَيْئَةِ ، وَكَادَ يُشَبِّهُ عَلَيْهِ لَوْلَا أَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، فَإِنَّ عَيْنِي الْكَاذِبِ تَصْدُقَانِ عَنْهُ ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ فَمَرُّ كَالْمَتَاهَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَجَعَلَ عَيْنَيْهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَاةَ .

وَظَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشَرًا ، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! أَمْعِصِيَّةٌ فِي ثَوْبِ الطَّاعَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! لَوْلَمْ تَقُلِ الْمَعْصِيَةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارِفْهَا أَحَدٌ . وَهَلْ خُلِقَتِ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتُهُ إِلَّا لِتَقْرِبَ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنَ النَّفْسِ ، وَجَعَلَ كُلَّ مِنْهَا طَاعَةً لِسَيِّئٍ مَا ؛ فَتَقَعُ الْمَعْصِيَةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَةٌ ؟ أَوَلَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْحِيلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي الدَّاخِلِ مِنَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِلَ بِهِذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَا كَانَ لِظَاهِرِ الْوُجُودِ كُلِّهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى وَلَا عَمَلٌ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ ، لِيَبَيِّنَ النَّاسُ أَنَّكَ الْمُتَمَتِّلُ الْمُتَمَتِّلِيُّ ، وَلَكِنَّكَ الْفَارِغُ الْفَارِغُ ؛ بَلْ كُلُّ شَهَوَاتِكَ سُخْرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدُّ عَلَيْكَ ، فَلَا طَعْمَ لِلذَّةِ مِنْ لَذَاتِكَ إِلَّا وَهِيَ تَمُوتُ ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وَجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقَضِي ، وَمَتَى قَالَتِ اللَّذَّةُ : قَدْ أَنْتَهَيْتُ . فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ الْوَصْفِ .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَلَكِنَّ اللَّذَّةَ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبْقِيهَا حَيَّةً ، فَهِيَ تَلِدُ الْحَيْنَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَذَّةً تَنْقَضِي وَتَلِدُ .

قَالَ الشَّيْخُ : مَعَانِي التُّرَابِ ، مَعَانِي التُّرَابِ ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذُرَّتِهَا ، وَلَكِنَّ (عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ) لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مَحَبَّةَ الْقَلْبِ الْآدَمِيِّ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَرَدْتَنِي الْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَلَ عَمَلِي فِيهَا ، وَهَلْ عَمِلِي إِلَّا التَّلْيِيسُ وَالتَّرْوِيرُ ؟ أَفَتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَغْتَرِي الْحَيَوَانَ قَطُّ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : لِأَنَّ الْحَيَوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً ، هِيَ نَظْرُهُ وَفَهْمُهُ مَعًا ، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّرْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَظْرَةِ الْوَاحِدَةِ ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ ٢٦ ﴾ سورة الشعراء / الآيتان : ٢٢١ و ٢٢٢ . فَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْطَانُ التَّرْوِيرُ ، وَالتَّرْوِيرُ مَوْضِعُهُ الْكَذِبُ ؛ فَمَنْ لَمْ يَكْذِبْ فِي الْفِكْرِ وَلَا فِي النَّظَرِ وَلَا فِي الْفَهْمِ وَلَا فِي الرَّجَاءِ ، فَلَيْسَ لَكَ عِنْدَهُ عَمَلٌ .

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! وَهَلْ تَرَى (رَحِمَكَ اللَّهُ) أَعْجَبَ وَأَغْرَبَ وَأَدْعَى إِلَى الْهَرَبِ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْ أَنْ أَعْظَمَ الْعُقَلَاءِ الزُّهَادِ الْعُبَادِ ، هُوَ فِي جُمْلَةِ مَعَانِيهِ حَيَوَانٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ . . . ؛ إِنَّ الْحَيَوَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَهُوَ طَبِيعَةٌ مُسَخَّرَةٌ بِنِظَامِهَا ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَشْيَاءٌ مُتَنَاقِضَةٌ بِطَبِيعَتِهَا ، فَأَلُوْهِيَّتُهُ أَنْ يُقَرَّ النَّظَامُ بَيْنَ هَذِهِ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، كَأَنَّمَا أُمْتُحَنَ فَأُعْطِيَ مِنْ جِسْمِهِ كَوْنًا فِيهِ عَنَاصِرُ الْأَضْطِرَابِ ، وَحَوْلَهُ عَنَاصِرُ الْأَضْطِرَابِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ دَبَّرَهُ . فَضَحِكَ إِبْلِيسُ .

قَالَ الشَّيْخُ : مِمَّ ضَحِكتَ لَعَنَكَ اللَّهُ ؟

قَالَ : ضَحِكتُ مِنْ أَنَّكَ أَعْلَمْتَنِي حَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةِ ، فَالزُّهَادُ هُمُ الصَّالِحُونَ لِأَنْ يَكُونُوا أَعْظَمَ الْأَبَالِسَةِ . . .

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ؛ فَمَا هِيَ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي زَعَمْتَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَامِرٍ ، مَا غَلَا إِنْسَانٌ فِي زَعْمِ التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةِ إِلَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْإِبْلِيسِيَّةُ ؛ وَسَأُعَلِّمُكَ يَا أَبَا عَامِرٍ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ . فَلَا تَقُلْ إِنَّهَا أَلُوْهِيَّةٌ تُقَرُّ النَّظَامَ بَيْنَ مُتَنَاقِضَاتِ الْإِنْسَانِ وَمُتَنَاقِضَاتِ الطَّبِيعَةِ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَتَسْخَرُ مِنِّي لَعَنَكَ اللَّهُ ؟ فَمَتَى كُنْتَ تَعْلَمُ الْحَقِيقَةَ وَالْفَضِيلَةَ ؟
قَالَ إِبْنِلَيْسُ : أَوَلَمْ أَكُنْ شَيْخَ الْمَلَائِكَةِ ؟ فَمَنْ أَجْدَرُ مِنْ شَيْخِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَكُونَ عَالِمَهَا
وَمُعَلِّمَهَا ؟

قَالَ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ؛ فَمَا هِيَ حَقِيقَةُ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ ؟
قَالَ إِبْنِلَيْسُ : حَقِيقَتُهَا يَا أَبَا عَامِرٍ ، هِيَ الْغِنَى أَعْجَزَنِي فِي نَيْجَتِكُمْ .
قَالَ الشَّيْخُ : ﷺ ؛ فَمَا هِيَ ؟

قَالَ إِبْنِلَيْسُ : هِيَ ثَلَاثٌ بِهَا نِظَامُ النَّفْسِ ، وَنِظَامُ الْعَالَمِ ، وَنِظَامُ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ :
أَنْ تَكُونَ لَكَ تَقْوَى ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ فِكْرٌ مِنْ هَذِهِ التَّقْوَى ، ثُمَّ يَكُونَ لَكَ نَظَرٌ إِلَى الْعَالَمِ مِنْ
هَذَا الْفِكْرِ . مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا قَهَرَ الدُّنْيَا وَقَهَرَ إِبْنِلَيْسُ .

فَإِنْ كَانَتْ التَّقْوَى وَحْدَهَا - كَتَفَوَى أَكْثَرَ الزُّهَادِ وَالزُّهْبَانِ - فَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ
مِنْهَا نَظَرَ الْغَفْلَةِ وَالْجُبْنِ وَالْبَلَادَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكَادِبَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْفِكْرُ وَحْدَهُ - كَفَكَّرَ الْعُلَمَاءُ
وَالشُّعْرَاءُ - فَمَا أَهْوَنَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ بِهِ نَظَرَ الزُّنْغِ وَالْإِلْحَادِ وَالْبَهْمِيَّةِ وَالزَّوْائِلِ الصَّرِيحَةِ .

قَالَ الشَّيْخُ : صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ : ﴿ إِنَّكَ الَّذِي أَنْتَقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٢٠١] .

قَالَ إِبْنِلَيْسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! مَا يَضُرُّنِي وَاللَّهِ أَنْ أَفْسَرَ لَكَ ، فَإِنْ قَارُورَةٌ مِنَ الصَّبْنِ
لَا تَصْبُغُ الْبَحْرَ ، وَأَنَا أَعُدُّ الزُّهَادَ وَالْعُلَمَاءَ الْمُضْلِحِينَ فَأَضَعُ فِي النَّاسِ بِجَانِبِ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ مِثْلَ أَلْفِ أَمْرَةٍ مَفْتُونَةٍ ، وَمِثْلَ أَلْفِ رَجُلٍ فَاسِقٍ ، وَمِثْلَ أَلْفِ مَخْلُوقٍ ظَالِمٍ ، فَلَوْ أَنَّكَ
صَبَغْتَ الْبَحْرَ بِدَلَاءِ قَارُورَةِ حَمْرَاءَ لَمَا صَبَغْتَ الْبَحْرَ الْإِنْسَانِي بِالزَّاهِدِ وَالْمُضْلِحِ ، مَا دَامَ
الْمُضْلِحُ شَيْئًا غَيْرَ السَّيْفِ ، وَمَا دَامَ الزَّاهِدُ شَيْئًا غَيْرَ الْحَاكِمِ .

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْطَانٍ عَارِمٍ ، فَإِذَا وَصَفْتَ الْمُضْلِحَ بَيْنَ مِثْلِ أَلْفِ فَاسِدٍ ،
فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا طَرِيقَةُ شَيْطَانِيَّةٍ لِإِفْسَادِهِ ؟

قَالَ إِبْنِلَيْسُ : وَمِثْلُ أَلْفِ أَمْرَةٍ فَتَانَةٍ مَفْتُونَةٍ يَا أَبَا عَامِرٍ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْسَبُ
جِسْمَهَا ...

فَصَرَخَ الشَّيْخُ : اَغْرُبْ عَنِّي عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ !

قَالَ إِبْلِيسُ : وَلَكِنَّ الْآيَةَ الْآيَةَ يَا أَبَا عَامِرٍ . لَقَدْ لَقِيتُ الْمَسِيحَ وَجَرَّبْتُهُ وَهُوَ كَانَ تَفْسِيرَهَا .

قَالَ الشَّيْخُ : عَلَيْهِ السَّلَامُ ! وَعَلَيْكَ أَنْتَ لَعْنَةُ اللَّهِ ! فَكَيْفَ قَالَ ؟ وَكَيْفَ صَنَعَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : أَلَقِيتُ بِهِ جَائِعًا فِي الصَّخَرَاءِ لَا يَجِدُ مَا يَطْعُمُهُ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ يَجِدُ ، وَلَا يَزُجُّ أَنَّهُ يَظُنُّ ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ كُنْتَ رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ كَمَا تَزْعُمُ ، فَمَرِ هَذَا الْحَجَرَ يَنْقَلِبْ خُبْرًا . فَكَانَ تَقِيًّا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ ، فَقَالَ : لَيْسَ بِالْخُبَرِ وَحْدَهُ يَخْيَا الْإِنْسَانُ . فَمِثْلُ هَذَا لَوْ مَاتَ جُوعًا لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ إِتِمَامَ حَقِيقَتِهِ السَّامِيَةِ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَلَوْ مِلِثَتْ لَهُ الدُّنْيَا خُبْرًا وَهُوَ جَائِعٌ لَمْ يَتَحَوَّلْ ، لِأَنَّ لَهُ بَصَرًا مِنْ فَوْقِ الْخُبَرِ إِلَى حَقِيقَتِهِ السَّامَوِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ بِالْخُبَرِ وَحْدَهُ يَخْيَا ؛ بَلْ بِمَعَانٍ أُخْرَى هِيَ إِشْبَاعُ حَقِيقَتِهِ السَّامَوِيَّةِ الَّتِي لَا شَهْوَةَ لَهَا .

ثُمَّ أَرْتَقَيْتُ بِهِ إِلَى ذِرْوَةِ جَبَلٍ وَارَيْتُهُ مَمَالِكَ الْخَافِقِينَ ، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : هَذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي . فَكَانَ مُتَقِيًّا ، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ : أَبْصَرَ حَقِيقَةَ الْخَيَالِ الَّذِي جَسَمْنَاهُ لَهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مَعَانِي هَذِهِ الْمَمَالِكِ فِي جَزَعَةِ خَمَرٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءٍ غِظٍ بِالْقَتْلِ وَالْأَذَى ؛ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرُ الْإِثْمِ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا الْحَرَامُ . وَمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيََتْ لَهُ ، فَهِيَ خَيَالٌ فِي جَزَعَةِ الْحَيَاةِ ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَزَعَةِ الْخَمْرِ .

يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنَّ هَذَا النَّظَرَ ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّذَكُّرُ ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّقْوَى ، الَّتِي وَرَاءَهَا اللَّهُ . هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَتَاوَلُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَتُصَفِّئُهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَعُودَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِهَا التَّرَابِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا الْقَبْرِ ، وَآخِرُ وُجُودِهَا التَّلَاشِي .

فَالْبَصَرُ الْكَاشِفُ الَّذِي يُجَرِّدُ الْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ ، هَذَا هُوَ كُلُّ السَّرِّ .

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ ! فَكَيْفَ مَعَ هَذَا تَفْتِنُ الْمُؤْمِنَ ؟

قَالَ إِبْلِيسُ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! هَذَا سُؤَالُ شَيْطَانِي . . . تُرِيدُ - وَنَحَكَ - أَنْ تَخْنَالَ عَلَى

الشَّيْطَانِ ؟ وَلَكِنْ مَا يَضُرُّنِي أَنْ أَفْسَرَهَا لَكَ .

لَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ الْأَعْتِقَادُ وَلَا الْعَمَلُ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَيْنِ لَمَا شَقَّ عَلَى أَحَدٍ وَلَصَلَحَتْ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا ؛ إِنَّمَا الْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيِّ يَكُونُ مَعَ الْعَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِتَصُدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ الْعَرِيزَةِ ؛ وَهَذَا الْيَقِينُ لَا يَصْلُحُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُنْصِرُ . هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ ، فَالْيَقِينُ بِهِذَا الْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ الْإِيمَانِ .

وَالْعَمَلُ الشَّيْطَانِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إفسَادِ هَذَا الْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ الْخَيَالِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ بِالْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْمُغْفَلِ عَظِيمَةً ، كَمَا تُشَبُّ نَارُ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهَةِ : انْظُرْ بِعَيْنَيْكَ . فَيَصْدُقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ .

وَمَتَى صَغُرَ هَذَا الْيَقِينُ وَكَانَتِ الْحَقَائِقُ الدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي النَّفْسِ ، فَأَيَسَّرَ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ حَتَّى يَفْسُدَ الْمُعْتَقَدُ وَيُسْقَطَ الْفَضِيلَةُ ؛ وَيَذَرَهُمْ وَاحِدٌ يُوجَدُ اللَّصُّ حَتَّى يَذْ

أَمَّا إِذَا ثَبَتَ الْيَقِينُ فَالشَّيْطَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ يَصْغُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ ، وَيَعْجَزُ ثُمَّ يَعْجَزُ ، حَتَّى لِيَرْجِعُ مِثْلَ الدَّرْهِمِ إِذَا طَمِعَ الطَّامِعُ أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلَ الْغَنِيِّ الْكَثِيرَ الْمَالِ لَصًّا مِنَ اللَّصُوصِ بِهِذَا الدَّرْهِمِ .

قَالَ الشَّيْخُ : لَعَنَكَ اللَّهُ ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ إفسَادَ هَذَا الْيَقِينِ فَكَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةِ الْمُؤْمِنِ ؟ قَالَ إِبْنُ سِنٍّ : يَا أَبَا عَامِرٍ ! إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ إفسَادَ الْيَقِينِ زُدْتُهُ يَقِينًا فَيَفْسُدُ ، وَاسْتَحْصَانُ الرَّجُلِ لِأَعْمَالِهِ السَّامِيَةِ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ السَّافِلَةِ ؛ وَيَأْتِي عَجِيبٌ يَكُونُ الشَّيْطَانُ شَيْطَانًا إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا ؟

* * *

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَغَضِبَ الشَّيْخُ ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ فِيهَا عُنُقَ إِبْنِ سِنٍّ وَقَدْ رَأَهُ دَقِيقًا ، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصْرًا شَدِيدًا يُرِيدُ خَنْقَهُ ؛ فَقَهَقَهُ الشَّيْطَانُ سَاحِرًا مِنْهُ . وَيَتَنَبَّهَ الشَّيْخُ ، فَإِذَا هُوَ يَشُدُّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى

الدَّيْنَارُ وَالذَّرْهَمُ (*)
٤

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ : وَأَرْفَ تَرْخُلِي عَنْ (بَلَخ) ، وَنَهَيْتُ لِلخُرُوجِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُدَّةٍ مَقِيلِي بِهَا إِلَّا أَيَّامٌ يَجِيءُ فِيهَا السَّبْتُ الرَّابِعُ ، وَكَانَ (١) قَدْ وَقَعَتْ مُمَارَاةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُفْتِي (بَلَخ) أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ الْبَاهِلِيِّ (٢) تَلْمِيزُ أَبِي يُوسُفَ صَاحِبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَحِيحٌ عَلَى الْمَالِ ، وَأَنَّهُ يَتَغَلَّلُ مِنْ مُسْتَعْلَاتٍ كَثِيرَةٍ (٣) ، فَكَأَنَّمَا غَشِيَتْهُ غَمَامَتِي ، فَهُوَ لَا يَرَى أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الزُّهْدِ ، وَيَخْسِبُ هَذَا الزُّهْدَ تَمَاوَتَ الْعُبَادُ ، وَتَفَضَّ الْأَيْدِي مِنَ الدُّنْيَا ، وَسُوءَ الْمُصَاحَبَةِ لِمَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَبْدِ ، وَخِذْلَانَ الْقُوَّةِ فِي الْبَدَنِ ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ تَرْوِيرِ الْحَيَاةِ بِالْأَبَاطِيلِ الَّتِي زَعَمَ أَنَّهَا أَبَاطِيلُ الطَّاعَاتِ وَمَا أَقْرَبَهَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْمَغْصِيَةِ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْمُفْتِي قَدْ سَمِعَنِي وَلَا حَضَرَ مَجْلِسِي ، وَلَوْلَا الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ كَانَ عَرَفَ .

وَجَادَلْتُهُ فَرَأَيْتُهُ وَاهِنَ الدَّلِيلَ ، ضَعِيفَ الْحُجَّةَ ، يُخَمِّنُ تَخْمِينَ فَقِيهٍ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْخَفَايَا مِنْ حَقَائِقِ الثُّفُوسِ نَظَرَ صَاحِبِ النَّصِّ إِلَى الظَّاهِرِ ، كَانَ الْحَقِيقَةُ إِذَا أُلْقِيَتْ عَلَى النَّاسِ مَضَتْ نَافِلَةً كَفَتَوَى الْمُفْتِي ... وَيَزْعُمُ أَنَّ الْوَعْظَ وَعَظَ الْفُقَهَاءَ ، يَقُولُونَ : هَذَا حَرَامٌ . فَيَكُونُ حَرَامًا لَا يُقَارِفُهُ أَحَدٌ ، وَهَذَا حَلَالٌ . فَيَكُونُ حَلَالًا لَا يَبْرُكُهُ أَحَدٌ ، وَهُوَ كَانَ بَعِيدًا عَنْ حَقِيقَةِ الْوَعْظِ وَمَدَاحِلِهِ إِلَى النَّفْسِ وَسِيَاسَتِهِ فِيهَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ كَالْأَتْنَى : إِنْ لَمْ تُزَيَّنْ بِزِينَتِهَا لَمْ تَسْتَهْوِ أَحَدًا ؛ وَأَنَّ الْمَوْعِظَةَ إِنْ لَمْ تَتَأَدَّ فِي أَسْلُوبِهَا الْحَيِّ

(*) «الرسالة» العدد : ١٤١ ، ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٤٠٥ - ٤٠٧ .

هَكَذَا هُوَ الْمُتَوَانُ فِي الْأَصْلِ ، وَفِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى : «الدُّنْيَا وَالذَّرْهَمُ» .

(١) فِي الْأَصْلِ : «كَانَتْ» بَدَلًا مِنْ : «كَانَ» .

(٢) تُوَفِّي مُفْتِي بَلَخَ هَذَا سَنَةَ ٣٣٩ هـ .

(٣) الْمُسْتَعْلَاتُ : أَصُولُ الْأَمْوَالِ ، وَتَغَلَّلَ وَاسْتَعْلَلَ بِمَعْنَى .

كَانَتْ بِالْبَاطِلِ أَشْبَهَ ، وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ النَّفْسَ إِلَّا النَّفْسُ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّخَوُّلِ وَالتَّغْيِيرِ ،
كَتُفُوسِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ كَانَ فِي طَرِيقَةِ رُوحِهِمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا هِيَ وَضْعُ نُورٍ
الْبَصِيرَةِ فِي الْكَلَامِ ، لَا وَضْعُ الْفَيَاسِ وَالْحُجَّةِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الزَّاهِدَ الصَّحِيحَ الزُّهْدِ ، إِنَّمَا
هُوَ حَيَاةٌ تَلْبَسُهَا الْحَقِيقَةُ لِتَكُونَ بِهِ شَيْئًا فِي الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ . لَا شَيْئًا فِي الْقَوْلِ وَالتَّوَهُّمِ ،
فَيَكُونُ إِلَهَامُهَا فِيهِ كَحَرَارَةِ النَّارِ فِي النَّارِ : مَنْ وَاتَاهَا أَحْسَهَا .

وَلَعَمْرِي ، كَمْ مِنْ فَقِيهٍ يَقُولُ لِلنَّاسِ : هَذَا حَرَامٌ . فَلَا يَرِيدُ هَذَا الْحَرَامَ إِلَّا ظُهُورًا
وَأُنْكَشَافًا مَا دَامَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا نُطْقَ الْكُتُبِ ، وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَصِلَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالشَّرْعِ ، وَقَدْ
خَلَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ رُوحًا تَتَعَلَّقُ الْأَرْوَاحُ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَوْضِعٍ يَكُونُ بِهِ فِي
أَعْيَانِهِمْ كَأَنَّهُ أَبَتْ مِنَ الْجَنَّةِ مُنْذُ قَرِيبٍ ، رَاجِعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ قَرِيبٍ .

وَالْفَقِيهَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيَادَةَ الرِّزْقِ وَحَظَّ
الدُّنْيَا - هُوَ الْفَقِيهَ الْفَاسِدُ الصُّورَةَ فِي خَيَالِ النَّاسِ ، يُفْهِمُهُمْ أَوَّلَ شَيْءٍ إِلَّا يَفْهَمُوا عَنْهُ ؛ إِذْ
حِرْضُهُ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ ، وَلَهُ فِي الْقُفُوسِ رَائِحَةُ الْخُبْرِ ، وَلَهُ مَعْنَى : خَمْسٌ وَخَمْسَ عَشْرَةَ (١) . . .
وَكَأَنَّ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيهِ شَيْئًا فَاسِدًا غَرِبًا يَفْسِدُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ
هَذَا الشَّيْءُ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فَقَهَاءَ يَعْطُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَفِي
نَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعًا وَلَا رَدًّا ، إِذْ يُلْهِمُونَ النَّاسَ
بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ ؛ وَتَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْهُمْ - عَلَى خَطَرِهِمْ وَجَلَالِ
شَأْنِهِمْ - بِذَاتِ الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَسْخَرُ بِهِ مِنْ لِصٍّ يَعْطُ لِصًّا آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ : لَا تَسْرِقْ . . .

* * *

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ السَّبْتِ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ أَفْوَاجًا ، وَكَانُوا
قَدْ تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرَّحِيلَ عَنْ بَلَدِهِمْ - وَجَاءَ (لِقَمَانُ الْأُمَّةِ) فِي أَشْيَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ ،
وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُفْتِي فِي جَمَاعَتِهِ ؛ وَاسْتَقَرَّ بَيْنَ الْمَجْلِسِ فَتَدَثَّ النَّاسُ بِنَظَرِي ،
فَكَأَنَّهُمْ مِنْ كَثَرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى الْأَرْضَ ، فَأَذْكُرُنِي هَذَا شَيْخَنَا السَّرِيِّ بْنِ مُغَلِّسٍ

(١) يُرِيدُ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ . . .) وَفِي أَيَّامِ ضَعْفَةِ الدِّينِ يَكُونُ الْفِقْهُ اسْتِخْرَاجَ الدَّرَاهِمِ
مِنَ الصُّوَصِ .

السَّقَطِيُّ^(١) ، وَكَانَ قَدْ لَزِمَ دَارَهُ فِي بَغْدَادَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْمَوْعِظَةَ فِي شَرْحِ كَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ : « لَا تَصِحُّ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : يَا أَنَا » . وَمَا تَقَلُّوا عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَنَا فِي الْأَسْتِغْفَارِ مِنْ قَوْلِي : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) . فَقَالَ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : وَقَعَ بِبَغْدَادَ حَرِيقٌ ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ فَقَالَ : نَجَا حَانُوتُكَ . فَقُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ . فَأَنَا نَادِمٌ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى مَا قُلْتُ ؛ إِذْ أَرَدْتُ لِتَفْسِي خَيْرًا مِنَ النَّاسِ !

قَالَ ابْنُ مُسْكِينٍ : وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكَلِّمَ الْمُفْتِي وَمَالَ الْمُفْتِي ؛ فَحَدَّثْتُهُمْ حَدِيثَ مَعْرِفَتِي بِالسَّرِيِّ : أَنِّي سَمِعْتُ يَوْمًا (غِيلَانَ الْخِطَّابِ) يَقُولُ : إِنَّ السَّرِيَّ كَانَ اشْتَرَى كُرَّ لَوَزٍ^(٢) بِسِتِّينَ دِينَارًا ، وَأَثْبَتَهُ فِي رُزْنَامَجِهِ^(٣) وَكَتَبَ أَمَامَهُ : رَبُّهُ ثَلَاثَةُ دَنَانِيرٍ^(٤) ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ غَلَا السَّعْرُ فَبَلَغَ تِسْعِينَ دِينَارًا ؛ فَأَتَاهُ الدَّلَالُ الَّذِي كَانَ اشْتَرَى لَهُ فَقَالَ : أُرِيدُ ذَلِكَ اللَّوْزَ . قَالَ الشَّيْخُ : خُذْهُ . قَالَ : بِكَمْ ؟ فَقَالَ : بِثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ دِينَارًا . وَكَانَ الدَّلَالُ رَجُلًا صَالِحًا ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ : إِنَّ اللَّوْزَ قَدْ صَارَ الْكُرَّ بِتِسْعِينَ . قَالَ السَّرِيُّ : وَلَكِنِّي عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، فَلَسْتُ أَبِيعُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ دِينَارًا . فَقَالَ الدَّلَالُ : وَأَنَا قَدْ عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ ، أَلَا أَغَشَّ مُسْلِمًا ، فَلَسْتُ أَشْتَرِي مِنْكَ إِلَّا بِتِسْعِينَ ؛ فَلَا الدَّلَالُ اشْتَرَى مِنْهُ ، وَلَا السَّرِيُّ بَاعَهُ . . . !

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينٍ : فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةٌ إِلَّا أَنْ أَلْقَى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَأَخَذَ عَنْهُ ، فَلَمْ أَعْرِجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ ، فَأَجَدَهُ فِي حَلْقَتِهِ وَعِنْدَهُ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلٍ ، وَإِدْرِيسُ الْحَدَّادُ ، وَعَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ الرَّازِيُّ ، وَحَوْلَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَهُوَ فِيهِمْ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ بَيْنَ الْهَشِيمِ تَغْلُوهُ نَضْرَةُ رُوحِهِ ، وَكَأَنَّمَا يُمِدُّهُ بِالثَّوْرِ عِزٌّ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهُوَ يَتَلَأَّلُ لِلْعَيْنِ ؛ وَلَا يَمْلِكُ النَّاطِرُ إِلَيْهِ إِلَّا

(١) السَّقَطُ : رَدْيُهُ الْمَتَاعَ (روبايكيا) ، وَبَابُهُ : السَّقَطِيُّ . وَهَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ كَانَ أَوْحَدَ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي الْوَرَعِ ، وَلَهُ كَلَامٌ إِلَهِيٌّ مُشْرِقٌ ، وَقَدْ تُوْفِّي عَنْ سِنٍّ عَالِيَةٍ فِي سَنَةِ ٢٥٣ هـ .

(٢) الْكُرُّ (بِضْمِ الْكَافِ) : مِكْيَالٌ عَظِيمٌ يَقْدُرُونَ بِهِ فِي الْحِسَابِ ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ إِزْدَبًا مِصْرِيًّا .

(٣) أَيُّ : دَفَنَتْ حِسَابَهُ . [أَي : الدَّفَنُ الْيَوْمِي] .

(٤) خَمْسَةٌ فِي الْمِئَةِ .

أَنْ يُحِسَّ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْأَدْنَى ، مِنْ رُؤْيِيهِ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنْ هَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَعْلَى .
وَرَأَيْتُ عَلَى وَجْهِهِ أَلَمًا تَمْسُحُهُ مِسْحَةُ الْأَشْوَاكِ لَا مِسْحَةَ الْأَلَامِ ، فَهِيَ أَنَارُ مَا يَجِدُهُ
فِي رُوحِهِ الْقَوِيَّةِ ، لَا كَأَلَامِ النَّاسِ الَّتِي هِيَ أَنَارُ الْحِرْمَانِ فِي أَرْوَاحِهِمُ الْوَاهِنَةِ الضَّعِيفَةِ فَلَا
تَمْسَحُ وَجُوهَهُمْ إِلَّا مِسْحَةُ الْغَمِّ وَالْكَآبَةِ .

وَمَا يُخْطِئُ النَّظَرُ فِي تَمَيِّزِ أَلَامِ السَّمَاءِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ السَّعِيدَةِ مِنَ أَلَامِ الْأَرْضِ فِي
الْوُجُوهِ الْأُخْرَى ، فَإِنَّ الْأَوَّلَى تَتَدَلَّى عَلَى رُوحِ النَّاطِرِ بِمِثْلِ الطَّلِّ إِذَا قَطَرَهُ الْقَجْرُ ،
وَالْأُخْرَى تَتَنَوَّرُ { فِي رُوحِهِ } كَمَا تَهْبِجُ الْغَبَرَةُ إِذَا ضَرَبَتْ الرِّيحُ الْأَرْضَ .

كَانَ الشَّيْخُ فِي وُجُودٍ فَوْقَ وُجُودِنَا ؛ فَلَا تَتَلَوَّنُ لَهُ الْأَشْيَاءُ ، وَلَا تَعْدُو عَنْدَهُ مَا هِيَ فِي
نَفْسِهَا ، وَلَا يَحْمِلُ الشَّيْءُ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حَيْثُ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ ، وَمِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَوْ
لَا يَنْبَغِي . فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنُ الْأَشْيَاءُ عِنْدَمَا يَضَعُ الشَّيْطَانُ عَيْنَهُ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ إِلَيْهَا ؛ وَإِنَّمَا تَزِيدُ
وَتَنْقُصُ فِي الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَكُونُ رُوحُ الشَّيْطَانِ فِي الْقَلْبِ ؛ وَإِنَّمَا يَشْتَبِهَ مَا يَنْبَغِي وَمَا
لَا يَنْبَغِي عِنْدَمَا يَأْتِي الشَّيْءُ مِنْ جِهَتَيْنِ : جِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ، وَجِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِنَا نَحْنُ .
وَبِهَذَا قَدْ يَجْمَعُ الْإِنْسَانُ أَلَمًا ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي أَلَمِهِ مَعْنَى الْغَمِّ ، وَقَدْ تَتَفَقُّ أَسْبَابُ النَّعِيمِ
وَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الذَّلُّ . وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَنْبَغِي ،
وَأَخْرَ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا وَوَجَدَ بِذَلِكَ رَاحَتَهُ .

* * *

قَالَ ابْنُ مَسْكِينٍ : وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي حِينَ تَكَلَّمَ الشَّيْخُ ، فَقَدْ أَخَذَ يُجِيبُ عَمَّا فِي
نَفْسِي وَلَمْ أَسْأَلْهُ ، كَانَ الَّذِي فِي فِكْرِي قَدْ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ؛ فَرَوَى الْحَدِيثَ : « إِذَا عَظَّمْتَ أَمْرِي
الَّذِي تَارَ وَالَّذِي رَمَ ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ ، حُرِّمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ » [قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ » :
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ : « الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ » مُعْضَلًا مِنْ حَدِيثِ الثُّفَيْلِ بْنِ عِيَّاضٍ ،
قَالَ : ذَكَرَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ . ثُمَّ قَالَ فِي تَأْوِيلِهِ :

إِنَّ مَلِكَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُخْضَعَ صَوْلَةُ الْأَرْضِ بِصَوْلَةِ السَّمَاءِ ، فَإِذَا بَقِيَ

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، بَقِيَ عَمَلُ الْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِي صُورَةِ الْعَقْلِ ، وَبَقِيَتْ رُوحَانِيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا فِي صُورَةِ النَّظَامِ ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطَا تَضَحِيحُهُ ؛ فَيُضَيِّحُ الْإِنْسَانَ بِذَلِكَ تَفْهِيمًا لِلشَّرِيعَةِ بَيْنَ أَمْرِ مُطَاعٍ وَمَأْمُورٍ مُطَاعٍ ، فَيَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَى حَالَةٍ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أُنْتَادًا لِبَعْضٍ ، وَشَيْئًا مِنْهُمْ تَعْدِيلًا لِشَيْءٍ ، وَقُوَّةً سَنَدًا لِقُوَّةٍ ؛ فَيَقُومُ الْعَزْمُ فِي وَجْهِ التَّهَاقُوتِ ، وَالشَّدَّةُ فِي وَجْهِ التَّرَاجُحِ ، وَالْقُدْرَةُ فِي وَجْهِ الْعَجْزِ ؛ وَبِهَذَا يَكُونُونَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِينَ ، وَتَعَوُّدُ صِفَاتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَكَأَنَّهَا جَيْشٌ عَامِلٌ يُنَاصِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ مُفَسَّرَةً مَا دَامَتْ مَعَانِيهَا السَّامِيَّةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلْهَامَهَا ، وَمَا دَامَتْ مُمَثَّلَةً فِي الْوَاجِبِ الْتَأْفِدِ عَلَى الْكُلِّ .

وَالنَّاسُ أَحْرَادٌ مَتَى حَكَمْتَهُمْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَلَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا الْخُضُوعُ لِلْوَاجِبِ الَّذِي يَحْكُمُ ، وَبِذَلِكَ لَا يَغْيِرُهُ يَتَّصِلُ مَا بَيْنَ الْمَلِكِ وَالشُّوْقَةِ ، وَمَا بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، اتَّصَالَ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَاتَّصَالَ الْقِسْوَةِ فِي التَّأْدِيبِ وَخَدِّهِ . فَبَرَكَةُ الْوَحْيِ إِنَّمَا هِيَ جَعَلُ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرَ .

أَمَّا تَعْظِيمُ الْأَمَةِ لِلدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ ، فَهُوَ اسْتِعْبَادُ الْمَعَانِي الْخَيَوَانِيَّةِ فِي النَّاسِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ ، وَتَقَطُّعُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَابُكِ فِي لُحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَجَعَلُ الْكَبِيرِ فِيهِمْ كَبِيرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيهِ ، وَالصَّغِيرِ فِيهِمْ صَغِيرًا وَإِنْ كَبُرَ فِي الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذَا تَتَمُوجُ الْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَلَا يَسْتَفِيدُ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ صَحِيحٍ ؛ إِذْ يَكُونُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ فِي مُلْكِ الْإِنْسَانِ لَا فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ ، فَيَكْثُرُ الْغَنِيُّ مَالًا وَيَكْثُرُ الْفَقِيرُ عَدَاوَةً ، كَانَ هَذَا قَتْلَ مَالٍ هَذَا ، وَكَانَ أَعْمَالًا قَتَلَتْ أَعْمَالًا ، وَتَرْجِعُ الصِّفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً ، وَتُبَاعُ الْفَضَائِلُ وَتُشْتَرَى ، وَيَرْبُدُ مَنْ يَرْبُدُ وَلَكِنْ فِي الْقِسْوَةِ ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَكِنْ فِي الْحُرِّيَّةِ ، وَتَكُونُ الْمَنْفَعَةُ الدَّائِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ فِي الْجَمِيعِ وَتَنْهَى ، وَيَدْخُلُ الْكُذْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَالِ ، فَيَرَى كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّما دِرْهَمُهُ وَدِينَارُهُ أَكْبَرُ قِيَمَةٍ مِنْ دِينَارِ الْآخَرِ وَدِرْهَمِهِ ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَقَصَ فَعَشَّ ، وَإِذَا أَخَذَ زَادَ فَسَرَقَ ؛ وَتُضَيِّحُ النَّفُوسُ نَفُوسًا تِجَارِيَّةً تُسَاوِمُ قَبْلَ أَنْ تَتَبَيَّنَ لِفَضِيلَةٍ ، وَتُمَاسِكُ إِذَا دُعِيَ لِأَدَاءِ حَقٍّ ، وَيَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي الشَّرَفِ عَلَى أَصُولٍ مِنَ الْمَعِدَّةِ لَا مِنَ الرُّوحِ ، فَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ رَغْبَتَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ رَغِيفٍ وَاحِدٍ .

كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعَدَدِ ، بَلْ يُقَالُ : إِنَّ رَغِيفَيْنِ أَشْرَفُ مِنْ رَغِيفٍ . كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ النَّفَاقِ .

أَمَّا التَّجَارَةُ - وَهِيَ التَّفْسِيرُ الظَّاهِرُ لِمَعَانِي الثُّقُوسِ - فَتُصْبِحُ بَيْنَ الْغَشِّ وَالضَّرَرِ وَالْمُمَاكَرَةِ ، وَتَكُونُ يَقْطَعُ التَّاجِرُ فِي غَفْلَةِ الشَّارِي ، وَتَفْسُدُ الْإِرَادَةُ فَلَا تُحْدِثُ إِلَّا آثَارَهَا الزَّائِغَةَ . وَمَا التَّاجِرُ فِي الْأَمَةِ الْقَوِيَّةِ إِلَّا أَسْتَاذٌ لِتَعْلِيمِ الصَّدَقِ وَالْخُلُقِ فِي الْمَوْضِعِ الْمُتَقَلِّبِ ، فَكَلِمَتُهُ كَالرَّقَمِ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَحْتَمِلُ أَزِيدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيهِ ، وَيُمْتَحَنُ بِالذَّنْبِ وَالذَّرْهِمِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ الْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ . وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَضِيَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَتَيْتَنِي بِمَنْ يَعْرفُكَ . فَأَنَّهُ بِرَجُلٍ أَتَيْتُ عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ جَارُهُ الْأَدْنَى الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَكُنْتُ رَفِيقَهُ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَعَامَلْتُهُ بِالذَّنْبِ وَالذَّرْهِمِ الَّذِي يَسْتَبِينُ بِهِ وَرَعُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : لَا .

قَالَ عُمَرُ : أَظُنُّكَ رَأَيْتَهُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ يُهْمُهُم بِالْقُرْآنِ ، يَخْفِضُ رَأْسَهُ طَوْرًا وَيَرْفَعُهُ أُخْرَى ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَأَذْهَبَ فَلَسْتُ تَعْرِفُهُ !

وَأَيْتُمَا التَّاجِرُ صُورَةٌ مِنْ ثِقَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ وَاعْتِقَادِ الصَّدَقِ ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَظْهَرٌ تَوْضَعُ الْيَدُ عَلَيْهِ كَمَا تَجُسُّ الْيَدُ مَرَضَ الْمَرِيضِ وَصِحَّتَهُ .

فَإِذَا عَظُمَتِ الْأَمَةُ الدَّنِيَّةُ وَالذَّرْهُمُ ، فَإِنَّمَا عَظُمَتِ النَّفَاقُ وَالطَّمَعُ وَالْكَذِبُ وَالْعَدَاوَةُ وَالْقَسْوَةُ وَالْاِسْتِعْبَادُ ؛ وَبِهَذَا تُقِيمُ الدَّنَانِيرُ وَالذَّرَاهِمُ حُدُودًا فَاصِلَةً بَيْنَ أَهْلِهَا ، حَتَّى لَتَكُونَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ كَالْمَسَافَةِ بَيْنَ بِلَدَيْنِ قَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهُمَا . وَإِنَّمَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعِزَّةِ بِالنَّفْسِ لَا بِالْمَالِ ، وَفِي بَذْلِ الْحَيَاةِ لَا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا ، وَفِي أَخْلَاقِ الرُّوحِ لَا فِي أَخْلَاقِ الْيَدِ ، وَفِي وَضْعِ حُدُودِ الْفَضَائِلِ بَيْنَ النَّاسِ لَا فِي وَضْعِ حُدُودِ الذَّرَاهِمِ ، وَفِي إِزَالَةِ النَّفَائِصِ مِنَ الطَّبَاعِ لَا فِي إِقَامَتِهَا ، وَفِي تَعَاوُنِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ لَا فِي تَعَادِيهَا ، وَفِي اعْتِبَارِ الْغِنَى مَا يَعْمَلُ بِالْمَالِ لَا مَا يُجْمَعُ مِنَ الْمَالِ ، وَفِي جَعْلِ أَوَّلِ الثَّرْوَةِ الْعَقْلَ وَالْإِرَادَةَ ، لَا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ .

هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي غَلَبَ الْأَمَمَ ، لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ غَلَبَ النَّفْسَ وَالطَّبِيعَةَ .

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (*) (١)

أَمَّا إِنِّي سَأَفْصَحُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقَتْ ، لَا أُرِيدُهَا بِخَيَالٍ ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبَرٍ ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنًى ؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ خُبْرٍ أَلْحَيْتُ : فَتُحَاذِقُهُ وَدَهَاوُهُ ، وَرَفَّتْهَا غِلْظَتُهُ وَسُرُّهُ ، وَمَعَانِيهَا بَلَاوُهُ وَمِخْتَتُهُ ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (أَبْنِ مَسْكِينٍ) ، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَخُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا ، جَعَلَ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَن بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُتَارَعَةٌ ، أَوْ كَأَن فِي نَفْسِي شَيْئًا يَنْفِنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ ؛ وَخِيلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَذَا مُنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي تَنْصُرُ مَادَّتُهُ الْأَوَّلَى : مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . وَتَنْصُرُ مَادَّتِهِ الْأَخِيرَةَ : مَا أَسْتَحْتَجَّ إِلَيْهِ فَمَنْهُ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى أَخْذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ : أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحُرِّيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْأَثَمِ ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمِغَةِ الْفَلَاسِفَةِ ؛ وَإِنْ (٢) كَانَ فِي سُفُوطِ أَهْلِ الرِّذِيلَةِ إِلَى الرِّذِيلَةِ ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سُمُومِ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ . . . قَالَ أَلْهَاجِسُ : وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِّيِّ ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ حَقِيقٌ أَنْ يُلْقَبُوهُ « صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ . . . » .

وَلَكِنِّي لَمْ أَخْفَلْ بِهِذِهِ الْوَسَاوِسَ وَلَمْ أَعْجَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَأَسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نَيْتِي عَلَى الْكِتَابَةِ ، وَأَخَذْتُ أَقْلُبُ الْمَوْضُوعَ ، وَأَنْبَتُ فِكْرِي لَهُ ، وَأَسْتَشْرِفُ لِمَا يُودَّيْ إِلَيْهِ النَّظَرُ ، وَأَنْطَلِعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ ، وَالْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ الْبَتَّةَ ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى أَفْتِحَامِهِ ،

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٢ ، ٢٩ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ مارس / آذار ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٤٤٣ - ٤٤٦ .

(١) الدُّعَابَةُ : الْمُرَاحُ وَاللَّعِبُ ، وَكُلُّ مَا سَبَرَدَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ فَهُوَ صَحِيحٌ لَمْ نَخْتِغْ مِنْهُ شَيْئًا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَلَنْ » بَدَلًا مِنْ : « وَإِنْ » .

وَكَاثَهُ مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ التَّعَذُّرِ كُمُحَاوَلَةِ تَصْوِيرِ حِمَاةِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ . { وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حِمَاةُ الْحَيَاةِ كُلُّهَا } ...

* * *

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تَنْشُرُهَا (الرَّسَالَةُ) ^(١) ، أَنْ أَدَعِ الْفَضْلَ مِنْهَا تُقْلِبُهُ الْخَوَاطِرُ فِي ذِهْنِي أَيَّامَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَتْرُكُ أَمْرَهُ لِلْقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَوَلَّدَ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنَثَّلُ مِنْ هَلْهَنَا وَهَلْهَنَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَيٌّ أُرِيدُ لَهُ الْوُجُودُ فَوُجِدَ .

ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ السَّبْتِ وَلَيْلُ الْأَحَدِ كَالْمَدَدِ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ إِذَا نَالْتَنِي فِتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَعْزِضُ .

وَفِي أُسْبُوعِ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - ، مَرَّتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ الْوَأْنِ : ضَجَرَ لَا رُوحَ فِيهِ ، وَكَسَلَ لَا تَشَاطُ مَعَهُ ، وَأَضْطَرَّابٌ لَا مِسَاكَ لَهُ . وَأَطْلُتُ التَّفَكِيرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَكَانَتْ تَعْتَرِيَنِي خَوَاطِرٌ مُضْحِكَةٌ : فَيَعْرِضُ لِي مَرَّةً أَنْ أَصَوِّرَ إِبْلِيسَ أَمْرَأَةً لِيَكُونَ إِبْلِيسَ الْجَمِيلَ ... وَتَارَةً أَتَوَهَّمُ أَنَّ إِبْلِيسَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا كَبْعُضِ رِجَالِ الدِّينِ الَّذِينَ لَا تَزَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، لِيَقَالَ : إِبْلِيسُ التَّقِيُّ الْمُصْلِي ... وَحِينَئِذٍ أَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا مُؤَلِّفًا شَهِيرًا لِيَقَالَ : إِبْلِيسُ الْمُفَكِّرُ الْمُصْلِحُ ... وَخَطَرَ لِي أَحْيَرًا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا مُلْحِدًا شَيْوَعِيًّا فَاجِرًا ، لِيَكُونَ إِبْلِيسُ التَّامَّ لَا إِبْلِيسَ النَّاقِصَ ...

* * *

وَلَمَّا ذَهَبَتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ بَاطِلًا ، خُبِلَ إِلَيَّ أَنْ إِبْلِيسَ - أَخْرَاهُ اللَّهُ - يَسْأَلُنِي عَنِ الْمَقَالَةِ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَتَقَلَّبْتُ ... ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ وَأَغْتَمَمْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَطْمَأْنَنْتُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَأَنَّ وَرَاءَهُ لَيْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ قَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الْخَمِيسِ ، فَقُلْتُ : فَلَا أَخْرُجُ لِأَتَفَرَّجَ مِمَّا بَيْنِي ، وَعَسَى أَنْ أَجْمَعَ نَفْسِي لِلتَّفَكِيرِ إِذَا جَلَسْتُ فِي الْكُدِيِّ ، وَلَعَلَّهُ يَقَعُ

(١) { مَجَلَّةُ الرَّسَالَةِ ، وَكُلُّ مَقَالَاتٍ هَذَا الْجُزْءِ وَالْجُزْءِ الْأَوَّلِ كُتِبَتْ لَهَا وَنُشِرَتْ فِيهَا ، إِلَّا فُصُولًا قَلِيلَةً } .

مَا أَسْتَوْجِبُهُ أَوْ يَنْفَتِحْ لِي بَابٌ فِي الْقِرَاءَةِ .

وَحَرَجْتُ ، فَلَمْ أَجَاوِزِ الدَّارَ حَتَّى أَبْتَدِرَنِي مَنْ هَبَطَ عَلَيْهِ الْخَبَرُ مِنَ الْقَاهِرَةِ أَنَّ نَسِيبًا لَنَا مِنَ الْعُظَمَاءِ تُوُفِّيَ أَخُوهُ الْيَوْمَ . قُلْتُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ؛ ضَاعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . إِذْ لَا بُدَّ مِنَ السَّفَرِ لِتَشْيِيعِ الْجَنَازَةِ وَحُضُورِ الْمَأْتَمِ ، ثُمَّ قُلْتُ : لَعَلَّ فِي هَذَا السَّفَرِ اسْتِجْمَامًا وَنَشَاطًا فَاسْتَذَرْتُ الْأُسْبُوعَ كُلَّهُ فِي يَوْمَيْنِ ، وَإِنَّمَا الْأَسْتِكْنَارُ بِالْقُوَّةِ لَا بِالزَّمَنِ ، وَلَا يَدُ الْإِبْلِيسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا أَطْرَاحُهُ وَقَلَّةُ الْمُبَالَاهِ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَطَوَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ .

وَأَصْبَحْتُ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَمَشَيْتُ فِي الْجَنَازَةِ قَبْلَ الظُّهْرِ مَسِيرَةَ سَاعَةٍ كَامِلَةٍ ؛ وَكَانَتْ السَّمْسُ سَاطِعَةً تَتَلَأَلَأُ ، وَأَنَا مُنْقَلُبٌ بِثِيَابِ الشِّتَاءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمُ مِنْ أَيَّامِ الرِّيحِ الْمَجْنُونَةِ ؛ فَلَمَّا انْتَهَيْتَا إِلَى الصَّخْرَاءِ ، هَبَّتِ الرِّيحُ هُبُوتًا لَيِّنًا ، ثُمَّ رَفَّتْ فَكَانَتْ إِلَى الشَّدَةِ مَا هِيَ ، وَلَكِنَّهَا مَاضِيَةٌ تَسْفِي الرَّمْلَ فِي الْأَغْيَنِ ، فَيَأْخُذُ فِي أَجْفَانِي أَكَاثُ وَتَهْيِيجُ ، وَلَيْسَ مَعِيَ شَيْءٌ أَتْفِيهَا بِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي شَعَلْتُ فِكْرِي بِرُؤْيَةِ الْمَقَابِرِ ، وَجَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي كَالْمَقَالَةِ الْمَكْتُوبَةِ سَطْرًا وَرَاءَ سَطْرِ ؛ وَقُلْتُ : هَلْهُنَا الْحَقِيقَةُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا ، وَغَيْرُ الْمَفْهُومِ فِي الْحَيَاةِ يَفْهَمُ هُنَا .

ثُمَّ رَجَعْتُ مُنْذَى الْجِسْمِ بِالْعَرَقِ وَعَلَيَّ نَضْحٌ مِنْهُ ، وَكَانَ الْقَمِيصُ مِنَ الصُّوفِ ، وَبَصْدِرِي أَثَرٌ مِنَ التَّرْلَةِ الشَّعْبِيَّةِ ؛ وَإِذَا تَنَدَّى الصُّوفُ وَجَبَ نَزْعُهُ وَإِلَّا فَهِيَ الْعِلَّةُ مَا مِنْهَا بُدُّ .

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى انْخَرَقَتِ الرِّيحُ وَجَعَلَتْ تَعْصِفُ وَبَرَدَ الْجَوُّ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ الزُّكَّامُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذَا بَابٌ عَلَى حِدَةٍ ، وَالْمَقَالَةُ ذَاهِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ، فَسَبَّخَلَفُ الْذُّهْنُ وَيَبْدَلُ ؛ وَالشَّيْطَانُ كَرِيمٌ فِي الشَّرِّ يُعْطِي مَنْ غَيْرَ أَنْ يُسَالَ . . .

وَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَيَّ ، فَكَانَ أَلْغَمُ بِهِ عِلَّةٌ جَدِيدَةٌ ، يَبْدَأُ أَنِّي لَمْ أَزَلْ أَرْجُو الْفُرْصَةَ فِي أَحَدِ الْيَوْمَيْنِ : السَّبْتِ وَالْأَحَدِ . وَقُلْتُ : إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفِكَرَ فِي الْبَلَاءِ ، وَلَعَلَّ مِنَ السَّلَامَةِ الثَّقَةُ بِالسَّلَامَةِ ؛ فَإِذَا نَبَّهْتُ الْعَزِيمَةَ رَجَوْتُ أَنْ يَتَغَلَّغَلَ أَثَرُهَا فِي الْبَدَنِ كُلِّهِ فَيَكُونُ عِلَاجًا فِي الْأَدَمِ يَخْدُثُ بِهِ النَّشَاطُ وَيُرْهَفُ مِنْهُ الطَّبْعُ وَتَجْمُ عَلَيْهِ النَّفْسُ . وَفِي قُوَّةِ الْعَصَبِ كَهَرٌ بَائِيَةٌ لَهَا

عَمَلُهَا فِي الْجِسْمِ إِذَا أَحْسَنَ الْمَرْءُ بَعَثَهَا فِي نَفْسِهِ وَأَحْكَمَ إِفَاضَتَهَا وَتَصَرَّفَهَا عَلَى طَرِيقَةِ رِيَاضِيَّةٍ ؛ وَلِهِيَ الدَّوَاءُ حِينَ يَعْجِزُ الدَّوَاءُ ، وَهِيَ الْقُوَّةُ حِينَ تُخْذَلُ الْقُوَّةُ .

فَاعْتَرَمْتُ وَصَمَمْتُ ، وَاخْتَلْتُ عَلَى الْإِرَادَةِ ، وَتَكَثَّرْتُ مِنْ أَسْبَابِ الْثَقَفِ ، وَتَرَصَّدْتُ لَهَا السَّوَانِحَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَسْنَعُ فِي النَّفْسِ ، وَقُلْتُ لِإِبْلِيسَ : أَجْهَدْ جُهْدَكَ ، فَمَا تَذْهَبُ مَذْهَبًا إِلَّا كَانَ لِي مَذْهَبٌ . وَلَكِنَّ الْأَلْعِينَ أَخْطَرَ فِي ذِهْنِي قَوْلَ الْقَائِلِ يَسْخَرُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْبَغْدَادِي^(١) [من الكامل] :

لَوْ قِيلَ : كَمْ خَمْسٌ وَخَمْسٌ ؟ لَاغْتَدَى يَوْمًا وَلَيْلَتَهُ يُعَدُّ وَيَحْسُبُ ،
وَيَقُولُ : مُغْضِلَةٌ عَجِيبٌ أَمْرُهَا وَلَيْتَنِي فَهَمْتُ لَهَا ، لِأَمْرِي أَعْجَبُ
خَمْسٌ وَخَمْسٌ سِتَّةٌ ، أَوْ سَبْعَةٌ قَوْلَانِ قَالَهُمَا الْخَلِيلُ وَتَغْلَبُ ...

* * *

ثُمَّ أَجَمَعْتُ الرُّجُوعَ مِنْ يَوْمِي إِلَى (طَنْطَا) ، لِأَتَقِيَّ الْبَرْدَ بِعِلَاجِهِ إِنْ نَالَنِي أَثَرُهُ ، وَكَانَ عَلَيَّ وَقْتُ إِلى أَنْ يَقُومَ الْقَطَارُ ، فَذَهَبْتُ فَقَضَيْتُ وَاجِبًا مِنْ زِيَارَةِ بَعْضِ الْأَقَارِبِ فِي ضَاحِيَةِ (الْجِيزَةِ) ، ثُمَّ رَكِبْتُ التَّرَامَ الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى مَحَطَّةِ سِكَّةِ الْحَدِيدِ .

وَجَلَسْتُ أَفْكُرُ فِي إِبْلِيسَ وَمَقَالَتِهِ ، وَالتَّرَامُ يَتْبَعُ فِي طَرِيقِهِ نَحْوَ ثَلَاثِ السَّاعَةِ ، حَتَّى بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْعَرِجُ مِنْهُ إِلَى الْمَحَطَّةِ ، وَهُوَ بِحَيَالِ (جَمْعِيَّةِ الْإِسْعَافِ) ، حَيْثُ تَنْشَعِبُ طُرُقٌ أُخْرَى ؛ وَكُنْتُ مُنْصَرِّفًا إِلَى التَّفَكُّيرِ مُسْتَعْرِفًا فِيهِ ، طَائِفَ النَّظَرَاتِ عَلَى الْجَوِّ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا اخْتِلَافُ مَنْظَرِ الطَّرِيقِ ؛ وَأَتَيْتُهُ ، فَإِذَا التَّرَامُ يَمُرُّ مَرُوقَ السَّهْمِ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ الصَّاعِدَةِ إِلَى (الْجِيزَةِ) ... مِنْ حَيْثُ جِئْتُ .

فَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ وَتَلَبَّسْتُ حَتَّى وَقَفَ هَذَا التَّرَامُ ، فَعَادَرْتُهُ وَرَجَعْتُ مُهْرُولًا إِلَى ذَلِكَ الْمُتَشَعِّبِ ، فَصَادَفْتُ تَرَامًا آخَرَ ، فَوَثَبْتُ إِلَيْهِ كَأَنِّي أُحْمَلُ إِلَيْهِ حَمَلًا ، وَدَفَعْتُ الْأُجْرَةَ ، وَأَنْطَلَقَ ، فَإِذَا هُوَ مُنْصَبٌّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ عَيْنِهَا الذَّاهِبَةِ إِلَى الْجِيزَةِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُ ...

(١) قِيلَ هَذَا الشَّعْرُ فِي وَصْفِ مَرْوَانَ الْكَاتِبِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ كَاتِبًا عَلَى الْخِرَاجِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ الشَّاعِرُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْبَدِيعِ .

وَلَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْحِدَارَ مِنْهُ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ ، فَتَسَخَّطْتُ وَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَرَأَيْتُ أَنَّ عَيْتَهُ قَدْ تَرَادَفَ ؛ فَلَمَّا سَكَنَ التَّرَامُ رَجَعْتُ مُهْرَوْلًا إِلَى ذَلِكَ الْمُتَشَعَّبِ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْوَقْتِ غَيْرُ قَلِيلٍ .

وَأَنْظُرُ نَمَ ، فَإِذَا تِرَامٌ وَرَاءَ تِرَامٍ ، وَإِذَا قَدْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ لِأَخْدَى السَّيَّارَاتِ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَسَدَّتِ الطَّرِيقُ . . . فَجَعَلْتُ أَغْلِي مِنَ الْغَيْظِ ، وَلَعَنْتُ هَذَا الدَّعَابَةَ الْحَبِيثَ . وَأَذْكُرُنِي اللَّعِينُ نَادِرَةَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَضَّه نَعْلَبُ ، فَاتَى رَاقِيًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّاقِي : مَا عَضَّكَ ؟ فَاسْتَحَى أَنْ يَقُولَ نَعْلَبُ ، وَقَالَ : كَلْبٌ . فَلَمَّا ابْتَدَأَ الرَّجُلُ بِرُفْيَةِ الْكَلْبِ ، قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : وَأَخْلِطُ بِهَا شَيْئًا مِنْ رُفْيَةِ الثَّعَالِبِ . . .

* * *

ثُمَّ إِنِّي لَمَ أَرَبْدًا مِنْ بُلُوغِ الْمَحْطَّةِ عَلَى قَدَمَيَّ لِأَتَمَّ عَلَى عَزِيمَتِي فِي مُرَاغَمَةِ اللَّعِينِ ، فَاسْرَعْتُ أَطْلُوبِي الْأَرْضَ وَكَأَنَّمَا أَخُوْضُ فِي أَحْشَائِهِ ، وَكَانَ بِصَدْرِي التَّهَابُ فَهَاجَ بِي ، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَأَتَسَعْتُ لِاحْتِمَالِهِ وَبَلَغْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ .

ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي الْفِطَارِ عَرَبَةً خَاصَّةً أَعْرِفُهَا ، كَانَتْ مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى فَجَعَلُوهَا فِي الثَّانِيَةِ يُرْفَهُونَ بِهَا بَغْضَ التَّرْفِيهِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسَافِرِينَ ؛ وَأَصَبْتُ فِيهَا مَكَانًا خَالِيًا كَأَنَّمَا كَانَ مُهَيَّأً لِي بِخَاصَّةٍ . . . فَأَنْحَطَطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ أَوْرُبِّي أَحْسَبُهُ أَلْمَانِيًا لِتَفَاوُتِ خَلْقِهِ وَعُنْجُوبِيَّتِهِ ؛ وَجَلَسْتُ أَنْفُسَ عَنْ صَدْرِي ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْخَرُ مِنْ إِبْلِيسَ وَنِكَايَتِهِ ، وَجَعَلْتُ أَتَعَجَّبُ مِمَّا اتَّفَقَ مِنْ هَذَا التَّنْذِيرِ .

وَتَحَرَّكَ الْفِطَارُ وَأَنْبَعَتْ ، وَكَانَ الْأَوْرُبِّيُّ إِلَى جَانِبِي مِمَّا يَلِي الثَّانِفَةَ وَقَدْ تَرَكَهَا مَفْتُوحَةً ، فَأَحْسَسْتُ الْهَوَاءَ يَنْصَبُ مِنْهَا كَالْمَاءِ الْبَارِدِ وَأَنَا مُتَنَدِّ بِالْعَرَقِ ؛ وَتَرَفُّتُ أَنْ يُغْلِقَهَا الرَّجُلُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَصَابَرْتُهُ قَلِيلًا فَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ مُطْمَئِنٌّ يَتَرَوَّحُ بِالْهَوَاءِ وَكَأَنَّمَا يَشْرِبُهُ ، وَتَأَمَّلْتُه فَإِذَا شَيْخٌ فِي حُدُودِ السَّيْنِ أَوْ فَوْقَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ قُوَّةِ مَصَارِعٍ فِي اكْتِنَازِ عَضْلِهِ وَاجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَوَنَاقَةِ تَرْكِيْبِهِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ مِنْ حَاجَتِهِ ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَتْبَهُهُ أَوْ أَقُومَ أَنَا فَأَغْلِقَ الثَّانِفَةَ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ فَعَلْتُ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ - أَخْرَاهُ اللَّهُ - وَسَّوسَ لِي : إِنَّ هَذَا رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ غَرْبِيٌّ ، وَأَنْتَ مِصْرِيٌّ شَرْقِيٌّ ، فَلَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُعْلِمَهُ

وَتُعَلِّمُ الْحَاضِرِينَ أَمَامَكُمْ أَنْتَ الْأَضْعَفُ عَلَى حِينِ أَنَّهُ هُوَ الْأَسْنُّ ، وَكَيْفَ لَا تَقُومُ لِمَا يَقُومُ لَهُ وَقَدْ كُنْتَ تُبَاكِرُ الْمَاءَ الْبَارِدَ فِي صَمِيمِ الشِّتَاءِ ، وَكُنْتَ لَا تَلْبَسُ فِي أَشَدِّ أَيَّامِ الْبَرْدِ غَيْرَ ثِيَابِ الصَّيْفِ ، وَكُنْتَ تَحْمِلُ كَذَا وَكَذَا ثِقَلًا لِلرِّيَاضَةِ ، وَتُعَانِي كَذَا وَكَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْقُوَّةِ ، وَكُنْتَ تَلْوِي بِدَيْكَ عُودَ الْحَدِيدِ ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ ...

فَتَذَمُّنْتُ وَاللَّهِ مِمَّا خَطَرَ لِي ؛ وَأَنْفَتُ أَنْ أَتْبَهَ الرَّجُلَ ، وَرَأَيْتُ عَمَلِي هَذَا ضَعْفًا وَفُسُوْلَةً ، وَلَمْ أَغْبَأْ بِالْهَوَاءِ وَلَا بِالْعَرَقِ وَلَا بِالْثَّلَّةِ الشَّعْبِيَّةِ وَلَا بِالزُّكَامِ ، وَتَرَكْتُ الْأُورُبِّيَّ وَشَأْنَهُ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى كِتَابٍ كَانَ فِي يَدَيَّ ، وَتَنَاسَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الثَّانِفَةُ جِهَةٌ مِنْ تَذْيِيرِ إِنْجِلِسَ ؛ وَكَانَ الْقَطَارُ مُزْدَحِمًا بِالرَّاجِعِينَ مِنَ الْمَعْرُضِ الزَّرَاعِيِّ الصَّنَاعِيِّ ، وَبَعْضُ النَّاسِ وَقُوفٌ فَلَا مَطْمَعٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ ...

وَلَبِثْتُ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ فِي تِيَارٍ مِنْ هَوَاءٍ (فَبَرَايزِ/ شُبَاطِ) يَنْصَبُ أَنْصَابًا ، وَيَعْصِفُ عَصْفًا ، وَكَأَنِّي أَسْبِخُ مِنْهُ فِي نَهْرٍ تَحْتَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْمَاطِرِ ، وَالنَّاسُ مُعْجَبُونَ بِي وَبِالْأُورُبِّيِّ ، وَهَذَا الْأُورُبِّيُّ مُعْجَبٌ بِي أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ رَأَى مَكَانِي وَعَرَفَ مَوْضِعِي ؛ وَكَانَ إِلَى يَمِينِي مَجْلِسٌ بَقِيَ خَالِيًا وَلَمْ يُقَدِّمَ أَحَدٌ عَلَيَّ أَنْ يَجْلِسَ فِيهِ خَوْفًا مِنَ الْهَوَاءِ وَمِنَ الرَّجُلِ الْأُورُبِّيِّ ...

ثُمَّ تَرَأَيْتُ أَنْوَارَ مَحْطَةِ (طَنْطَا) ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذِهِ الْمَحَنَةِ غَيْرَ دَقِيقَتَيْنِ ؛ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ بِغَيْرِ اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَقَدْ كَانَ إِنْجِلِسُ رَقِيعًا جِلْفًا بَارِدًا ثَقِيلَ الْمِزَاجِ ؛ إِذْ لَمْ أَكُذْ أَنَّهُيًّا لِلْقِيَامِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الرَّجُلَ الْأُورُبِّيَّ قَدْ مَدَّ يَدَهُ فَأَغْلَقَ الثَّانِفَةَ ...

* * *

وَرَجَعْتُ إِلَى دَارِي وَأَنَا أَقُولُ : ثُمَّ مَاذَا يَا إِنْجِلِسُ ! ثُمَّ مَاذَا أَتَيْهَا الدُّعْبُ^(١) ؟ وَحَاوَلْتُ بِجُهْدِي أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أَقْرَأَ فَلَمْ أَتَحَرَّكَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ السَّاعَةُ الْعَاشِرَةَ لَيْلًا ، فَصَلَّيْتُ وَأَوَيْتُ إِلَى مَضْجِعِي .

ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَإِذَا كِتَابٌ مِنَ الْأُسْتَاذِ صَاحِبِ (الرَّسَالَةِ) : أَنَّهُ سَيَطْبَعُ

(١) الدُّعْبُ وَالْمَدَاعِبُ وَالِدَّعَابَةُ (بِتَشْدِيدِ الْعَيْنِ) : كُلُّهَا بِمَعْنَى .

عَدَدَيْنِ مَعًا فَيُرِيدُ لَهُمَا مَقَالَتَيْنِ ، إِذْ تُغْلِقُ الْمَطْبَعَةُ فِي أَيَّامِ عِيدِ الْأَضْحَى . وَكَانَ أَمَلِي فِي الْمَقَالَةِ الْوَاحِدَةِ مَخْذُولًا مِمَّا قَاسَيْتُ ، فَكَيْفَ لِي بِاثْنَتَيْنِ ؟

وَأَخْتَلَطَ فِي نَفْسِي هَمٌّ بِهِمْ ، وَمَا يُفْسِدُ عَلَيَّ أَمْرِي شَيْءٌ مِثْلُ الضُّيقِ ، فَإِذَا تَضَايَقْتُ كُنْتُ غَيْرَ مَنْ كُنْتُ ؛ وَلِلْكَيْفِ تَبَقُّظْتُ وَتَبَنَيْتُ وَأَمَلْتُ الْعَاقِبَةَ مِمَّا أَجِدُهُ مِنْ ثِقَلَةِ الْبُرْدِ وَضَعْفَتِهِ ، وَأَحْدَثْتُ طَمَعًا فِي السَّطْرِ إِذَا جَلَسْتُ لِلْكِتَابَةِ فِي اللَّيْلِ ، فَإِنِّي بِالنَّهَارِ أَعْمَلُ لِلْحُكُومَةِ .

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ لَمْ أَجِدْ أَمْرِي عَلَى مَا أَحْبَبْتُ ، وَجَلَسْتُ مُتَفَتِّرًا مُغْتَلًا ، وَثَقُلَ رَأْسِي مِنْ ضَرَبَةِ الْكَافَةِ ، وَتَسَلَّطَ عَلَيَّ طَرْدُ الْمَرَضِ وَالْعَجْزُ عَنِ الْكِتَابَةِ ، وَانْتَقَصَ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَرَأَيْتُنِي أَشْغُو عَلَى نَفْسِي بِلَا طَائِلٍ ، فَكَانَ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ عِنْدِي أَنْ أَسْتَجِمَّ بِالنَّوْمِ ثُمَّ أَنْهَضَ فِي السَّحْرِ لِلْكِتَابَةِ ؛ فَأَوْصَيْتُ مَنْ يُوقِظُنِي ، وَحَرَزْنَا السَّاعَةَ الْمُتَبَهِّةَ عَلَى تَمَامِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ .

وَأَحْسَسْتُ أَنِّي جَائِعٌ ، وَأَنَّ مَعِدَتِي مَشْحُودَةٌ ، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنَ الطَّيِّبِ ؛ وَجَاؤُونِي بِشِوَاءٍ وَحَلَوَى وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَحَطَطْتُ فِيهِ وَلَفَقْتُ الْآخِرَ بِالْأَوَّلِ ، ثُمَّ قُمْتُ أُرِيدُ النَّوْمَ ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفِكْرِ مِنَ الْمَقَالَةِ أُنْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي الْمَعِدَةِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَاءَ الْهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالْبَطْنِ جَمِيعًا !

وَجَعَلْتُ أَتَنَاوَمُ وَأَرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الْكَرَى وَأَسْتَذِينِي بِكُلِّ مَا أَعْرِفُ مِنْ وَسِيلَةٍ ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَرْقَا ، وَتَمَرَّدَ الْفِكْرُ ، وَأَحْسَسْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ ، وَصِرْتُ أَتَمَلُّمٌ وَلَا أَتَقَارُ ، وَتَوَهَّمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا اسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ الْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ ؛ وَأَذْكُرُنِي الْحَبِيبُ نَادِرَةَ مُضْحِكَةً : أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَارًا ضَعِيفًا ، وَكَانَ يَبْنَعُهُ فَلَا يَنْبِيعُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْقُصْ بِهِ . فَقَالَ : إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلِمَ صَارَ حِمَارًا ... ؟

* * *

وَقَدَفْتُ بِنَفْسِي مِنَ الْفِرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي السَّاعَةِ ، فَإِذَا هِيَ مُوشِكَةٌ أَنْ تَبْلُغَ الثَّانِيَةَ وَلَمْ

أَحْسَ الرِّقَادَ بَعْدُ ، فَاسْرَعْتُ إِلَى الْمُنْبَهَةِ وَحَرَرْتُهَا عَلَى تَمَامِ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا ،
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُزْهِقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا ، فَطَفِقْتُ أَلْعَنُهُ ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ رَأَى اللَّعْنَ
مَذْحًا فَهُوَ يَسْتَرْزِدُنِي ...

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَاوِلُ النَّوْمَ ، فَمَا كَانَ هَذَا اللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ
الْفَجْرُ .

وَجَاءَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ عَظْلَةِ الْأُورِثَيْنِ ، فَمَا أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ تَرَكَنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَأَنَّهُمْ
لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتًا فِي هَذَا الْيَوْمِ ...

وَالآنَ يُزَيِّنُ لِي الْخَبِيثُ أَنَّ أَخِيَمَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بِ ... بِ ...
وَلَكِنْ لَا . لَا .

الشَّيْطَانُ (*) ...

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ الدَّقَاقِ : كَانَ شَيْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقٍ مِمَّا فَوْقَ الْعَقْلِ ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رُتَبَةَ النُّجْمِ فِي أَفْقِهِ الْبَعِيدِ ؛ فَفِيهِ أَهْوَاءُ الْإِنْسَانِ وَشَهَوَاتُهُ وَطَبَاعُهُ ، إِلَّا أَنَّهَا كَثُورُ النُّجْمِ فِي تَأْلِفِهِ وَلَا لَآئِهِ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا ؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ بِأَدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا ؛ فَأَصْبَحَ فِي النَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاوَةٌ ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا .

وَالرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَالْمَيِّتِ سَاعَةَ احْتِضَارِهِ : يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظْرَةً مَنْ يَنْزُكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ ، وَمَنْ يَغْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُّ ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوَّقُ ، وَمَنْ يَذَرُكَ السِّرُّ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا ، فَهِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتُنَا مَعَانِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا . وَفِي الثُّقُوسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ : إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمُسْتَعْلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيْقًا وَتَضَرَّمَ ، وَفِيهَا عَلَى الْمُجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ بِهِ وَحَمَدَتْ .

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً : كَيْفَ تَخْذُلُ الْكَرَامَاتِ وَالْخَوَارِقَ لِلْإِنْسَانِ ؟ فَقَالَ : يَا وَلَدِي ! إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا ، فَإِذَا أَبْلَى فِي الْمُجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ الثُّورُ ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِحِسْمِهِ شَيْئًا ، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ ، وَاتَّسَعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمِقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتِدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكَوْنِ ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدُمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي ، وَتَفَرِّقُ وَتَجْمَعُ ، وَتَقْطُلُ الصُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ

جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ الثُّورُ ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ نُورٌ صَخْرِيٌّ ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ نُورٌ مَائِيٌّ ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتُّرَابُ ، كُلُّ ذَلِكَ نُورٌ^(١) صَرَفَتْهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَصْرِيفَهَا الْمُعْجِزُ ، فَكَانَ عَلَى مَا نَرَى : ظَاهِرٌ مُخْبِلٌ يَلَانِيهِمْ نَقْصَنَا وَعَجْزَنَا ، وَحَقِيقَةٌ قَارَةٌ عَلَى غَيْرِ مَا نَرَى . وَمِنْ ذَا يَعْقِلُ أَنَّ الصَّخْرَ نُورٌ مُتَجَمِّدٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا عَقْلٌ عَيْنُهُ وَحَوَاسِيهِ ؟ وَمَنْ ذَا يُطِينُ أَنَّ يَفْهَمَ بِحَوَاسِيهِ وَعَيْنِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَفَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [٢٧ سورة النمل / الآية : ٨٨] ؟ فَالْجِبَالُ جَامِدَةٌ ثَابِتَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَمُرُّ بِأَرْضِهَا وَتَمُوجُ فِي نَفْسِهَا ؛ وَمَتَى تَأَذَّنَ اللَّهُ أَنْ يَنْكَشِفَ نُورُ كَلَامِهِ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَسَتَكُونُ هَذِهِ آيَةٌ عِلْمًا جَدِيدًا فِي الْأَرْضِ ، يُثَبِّتُ أَنَّ السَّحَابَ وَالْجَبَلَ مَادَّةٌ وَاحِدَةٌ وَصُنِعَ وَاحِدٌ .

وَيَا لَهَا سُخْرِيَّةً بِالْإِنْسَانِ وَجَهْلِهِ ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْحَقِيقَةُ غَيْرَ مَا نَرَى ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ رَدٌّ عَلَى النَّظَرِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَيَكَادُ الْجَبَلُ الْعَظِيمُ يَكُونُ كَلِمَةً عَظِيمَةً تَقُولُ لِلْإِنْسَانِ : « كَذَبْتَ ! » .

فَالْإِنْسَانُ فِي الْخَوَارِقِ وَالْكَرَامَاتِ رَاجِعٌ إِلَى الْقُدْرَةِ أَنْ يُسَلِّطَ الْإِنْسَانُ الرُّوحَانِيُّ مَا فِيهِ مِنْ سِرِّ الثُّورِ عَلَى مَا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ مِنْ هَذَا السِّرِّ ، وَتِلْكَ هِيَ طَاعَةُ بَعْضِ الْكَوْنِ لِمَنْ يَنْصَرِفُ عَنِ الْمَادَّةِ وَيَتَّصِلُ بِخَالِقِهَا .

فَإِذَا بَقِيَ فِي الرَّجُلِ الرُّوحَانِيُّ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ جِسْمِهِ يَقُولُ : « أَنَا . . . » لَمْ يَكُنْ فِي الرَّجُلِ مِنْ تِلْكَ الْقُدْرَةِ ذَرَّةٌ ؛ فَإِنْ هُوَ حَاوَلَ أَنْ يَخْرِقَ الْعَادَةَ ، أَبَى الْكَوْنُ أَنْ يَعْرِفَهُ إِلَّا كَمَا يَعْرِفُ حَجَرًا مُلْقًى يُحَاوِلُ أَنْ يَنْصَرِفَ بِالْجَبَلِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فَيَنْقَلَهُ أَوْ يُزَحِّحَهُ أَوْ يُرْلِزَ لَهُ .

وَلَا خَيْرَ عَلَى الْأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ أَخَذَ مِنْ حُقُوقِ هَذِهِ أَلِ « أَنَا . . . » فِي إِنْسَانِهَا ، وَلَا سِرَّ عَلَى الْأَرْضِ مُطْلَقًا إِلَّا وَهُوَ إِضَافَةُ حُقُوقِ إِلَيْهَا ؛ فَحِينَ لَا يَبْقَى لَهَا حَقٌّ فِي شَيْءٍ عِنْدَ نَفْسِهَا ، يَجِبُ لَهَا الْحَقُّ { عِنْدِيذٍ } عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَهَذِهِ هِيَ الْكَرَامَةُ ؛ تُكْرِمُ

(١) كَلِمَةُ (الثُّور) هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُعَبِّرُ عَنْهَا الْيَوْمَ بِالْكَهْرَبَاءِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ هُوَ هَذِهِ الْكَهْرَبَاءُ مُتَجَمِّدَةٌ عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ .

الْخَلِيقَةُ مَنْ أَكْرَمَهُ الْخَالِقُ .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ تَتَّصِلَ نَفْسُهُ بِاللَّهِ ، فَلَا يَكُنْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ حَظِّ نَفْسِهِ ، وَلَا يُؤْمِنُ إِيْمَانَهُ هَؤُلَاءِ الْعَامَّةِ : يَكُونُ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ فِكْرَةً تُذَكَّرُ وَتُنْسَى ، أَمَّا عَمَلُهُمْ فَهُوَ إِيْمَانُهُمْ الرَّاسِخُ بِالْجِسْمِ وَشَهَوَاتِهِ يُذَكَّرُ وَلَا يُنْسَى .

وَأَنْتَ تَرَى رِجَالَ الرُّوحِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ ، وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَيْسَ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ أَرْوَاحِهِمْ ، عَلَى خِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ؛ فَهَؤُلَاءِ كُلُّ أَرْوَاحِهِمْ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَنَاعِمِهِمْ ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَجْرِي الشَّيْطَانُ مِنَ الْأَوَّلِينَ إِلَّا فِي مَجَارِ ضَيْقَةٍ أَشَدَّ الضَّيْقِ لَا يَكَادُ يَنْفُذُ مِنْهَا إِلَى فِكْرٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ حُلْمٍ مِنْ أَحْلَامِ الدُّنْيَا ، أَمَّا الْآخَرُونَ فَالشَّيْطَانُ فِيهِمْ هُوَ نَبَارُ الدَّمِ ، يَعْْبُ عُبَابُهُ فِي الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى .

* * *

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكُنَّا يَوْمَئِذٍ فِي دِمَشْقَ ، فَتَبَهَّنِي كَلَامُ الشَّيْخِ عَنِ الشَّيْطَانِ إِلَى مَا قَرَأْتُهُ عَنْ كَثِيرِينَ مِمَّنْ رَأَوْا الشَّيْطَانَ أَوْ حَاوَرُوهُ أَوْ صَارَعُوهُ ؛ فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : إِنَّ مِنْ حَقِّكَ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَكَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وَمَا فِي نَفْسِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَعْجَبُ مِنْ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانَ وَأُكَلِّمَهُ وَأَسْمَعَهُ ؛ وَأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَنْقُلَنِي إِلَيْهِ كَمَا نَقَلْتَنِي إِلَى مَا دَخَلْتَ بَيْنَ عَلَيْهِ مِنْ عَوَالِمِ الْغَيْبِ .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانَ وَتُكَلِّمَهُ ؟

قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَا يُعْجِدُنِي عَلَيَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ .

قَالَ الشَّيْخُ : فَإِنِّي أَخْشَى يَا وَلَدِي ، أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَتَسْمَعَهُ ... !

قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّهِ ، فَيَكُونُ عَلِمًا لَا سُخْرِيَةَ .

قَالَ : لَوْ كَشَفَ لَكَ عَنْ سِرِّهِ لَمَا كَانَ شَيْطَانًا ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ بِسِرِّهِ لَا بِغَيْرِهِ .

قُلْتُ : فَأَرِيدُ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانَ لِأَكُونُ قَدْ رَأَيْتُ الشَّيْطَانُ !

قَالَ الشَّيْخُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! لَوْ كُنْتَ يَا أَبَا الْحَسَنِ بِأَرْبَعِ أَرْجُلٍ لَهَرَبْتَ مِنَ الشَّيْطَانِ بِثَلَاثٍ مِنْهَا وَتَرَكْتَهُ يُجْرُكَ مِنْ وَاحِدَةٍ !

قُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! فَلَوْ كُنْتُ حِمَارًا لَبَطَلْ عَمَلُ الشَّيْطَانِ فِي أَرْجُلِي الْأَرْبَعِ كُلِّهَا ، إِذْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيَّ إِغْوَاءِ حِمَارٍ !
 فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ : وَلَا بُدَّ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانَ وَتُكَلِّمَهُ ؟
 قُلْتُ : لَا بُدَّ .
 قَالَ : إِنَّهُ هُوَ يَقُولُهَا ، فَقُمْ !

* * *

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكَانَ الشَّيْخُ إِذَا مَشَى إِلَى أَمْرِ خَارِقٍ بَقِيتَ مَعَهُ غَائِبًا عَنِ الْحِسِّ ، كَأَنَّهُ يُبْطِلُ مِنِّي مَا أَنَا بِهِ أَنَا ، فَأَصْبِحُ ظِلًّا أَدْمِيًّا مُعَلَّقًا بِهِ . وَلَا تَقَعُ الْخَوَارِقُ إِلَّا لِمَنْ وَجَدَ الْقُوَّةَ الْمُكَمَّلَةَ لِرُوحِهِ ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ تُسْتَمَدُّ مِنَ الشَّيْخِ الْوَاصِلِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِمَامٍ يَأْخُذُ عَنْ إِمَامٍ ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ نَفْسِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ فِي الْأَرْضِ ، فَتَتَغَيَّرُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِالْوَاحِدَةِ ، إِذْ تَقَعُ فِي جَوْهَا فَتُورَقُ وَتُثْمِرُ ، كَالشَّجَرَةِ : جَوْ يَكْسُوهَا ، وَجَوْ يُدْبِلُهَا ، وَجَوْ يَسْلُبُهَا سَلْبًا ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ النَّفْسُ إِذَا كَانَ لَهَا جَوْ .

وَخَرَجْنَا مِنْ دِمَشْقَ وَأَنَا خَلَفَ الشَّيْخَ كَالْمَحْمُولِ ، فَرَأَيْنَا وَقَدْ أَشْرَفْنَا عَلَى بِنَاءِ عَظِيمٍ ، وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا يَتَلَقَّوْنَ الشَّيْخَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَتَبَرَّكُونَ بِمَقْدَمِهِ ؟ فَأَنكَرْتُهُمْ نَفْسِي وَوَجَدْتُ مِنْهُمْ وَخْشَةً ، فَالْتَمَسْتُ إِلَيْ الشَّيْخِ وَقَالَ : هَلْ لَآءٍ قَوْمٌ مِنَ الْجِنِّ ، وَمَا إِلَيْهِمْ فَصَدْنَا ، فَلَا تَشْتَغِلْ بِمَا تَرَى وَأَشْتَغِلْ بِي .

ثُمَّ نَتَهَيْتُ إِلَى الْبِنَاءِ الْعَظِيمِ ، فَتَسْتَقِيلُنَا طَائِفَةٌ أُخْرَى ، وَيُدْخِلُونَنَا الشَّيْخَ وَأَنَا خَلَفُهُ ، وَيَمُرُّونَ بِنَا عَلَى دُنْيَا مَخْبُوءَةٍ تُعْجِزُ الْوَصْفَ ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ ؛ فَيَقُولُونَ : هَلْ هِ كُنُوزُ سُلَيْمَانَ وَذَخَائِرُهُ ، وَيَطُوفُونَ بِالشَّيْخِ يَعْزُضُونَهَا عَلَيْهِ كَثْرًا كَثْرًا ؛ فَرَأَيْنَا ثُمَّ نَعِينَا وَمُلُكًا كَبِيرًا ، ثُمَّ أَنْتَهَيْنَا آخِرًا إِلَى مَعَارَةِ حَسِينَةٍ كَأَنَّهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ جِسْمِ الْأَرْضِ ، يَنْفَجِرُ مِنْهَا دَوِيُّ كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي السَّمْعِ كَخَوَارِ الثَّوَرِ ، إِلَّا أَنَّهُ نُورٌ خَبِلَ إِلَيَّ أَنَّ رَأْسَهُ فِي قَدَرِ جَبَلٍ عَظِيمٍ ، يَتَعَلَّقُ بِهِ غَبَابٌ^(١) فِي قَدَرِ جَبَلٍ آخَرَ ، عَلَى جِسْمِ

(١) غَبَابُ الثَّوَرِ وَغَبَابُهُ : مَا تَشْتَلَّى مِنْ لَحْمٍ ذَقْنَهُ مِنْ أَسْفَلِ .

يَسُدُّ الْخَافِقِينَ ، فَخَوَارُهُ كَأَنَّهُ صُرَاخُ الْأَرْضِ ، وَإِذَا أَنَا بِأَفْجَحِ مَكَانٍ مُنْظَرًا ، وَأَنْتَبِهَ رَيْحًا ،
كَأَنَّهُ سِجْنٌ بِنَاوُهُ مِنَ الْجَيْفِ .

قُلْتُ : مَا هَذَا ؟

قَالُوا : هَذَا سِجْنُ إِبْلِيسَ ، وَهُوَ هُنَا فِي هَذِهِ الْمَغَارَةِ مُنْذُ زَمَنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
قُلْتُ : أَفَمَسْجُودٌ هُوَ ؟

قَالُوا : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُوقَرٌ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ حَدِيدًا يَرِيضُ بِهِ فِي مَحْبَسِهِ ، فَلَا يَتَزَحَّزَحُ
وَلَا يَتَحَلَّحُلُ .

قُلْتُ : وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ مَلَأَ الدُّنْيَا فَسَادًا ، فَكَيْفَ بِهِ لَوْ كَانَ طَلِيقًا ؟

قَالُوا : فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ طَلِيقًا لَاسْتَحْوَذَ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً ؛ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى شَهْوَةِ
وَاحِدَةٍ لَا شَيْءَ غَيْرُهَا ، فَيَبْطُلُ مَعَ هَذِهِ الشَّهْوَةِ الْوَاحِدَةِ كُلُّ تَذْيِيرٍ بَيْنَهُمْ ، فَلَا تَقُومُ لَهُمْ
سِيَاسَةٌ ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَاذِعٌ ؛ فَيَرْجِعُونَ كَالْكِلَابِ أَصَابَهَا الْكَلْبُ وَهَاجَ بِهَا ، فَأَنْيَابُهَا فِي
لَحْمِهَا ، لَا يَزَالُ يَعْضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَيْسَ لَجَمِيعِهَا إِلَّا عَمَلٌ وَاحِدٌ يُسَلِّمُهَا إِلَى الْهَلَاكِ ،
وَيُضَيِّحُ ظَهْرُ الْأَرْضِ أَعْرَى مِنْ سَرَاةِ أَدِيمِ .

وَأِنَّمَا يَصْلُحُ النَّاسُ بِاخْتِلَافِ شَهَوَاتِهِمْ وَتَنَافُرِهَا وَتَنَازُعِهَا ؛ فَبَعْضُهَا يَخْكُمُ بَعْضًا ،
وَشَيْءٌ مِنْهَا يَنْعِي شَيْئًا ، وَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْ نَزْوَةٍ قَمَعَ بِهَا نَزْوَةَ أُخْرَى ؛ كَالْمُتَزَوِّجِ الْمُخْصَنِ :
يَخْكُمُ بِالْجُلْدِ وَالرَّجْمِ عَلَى مَنْ لَيْسَتْ لَهُ أَمْرَةٌ فَرَزَتْهُ ؛ وَكَالْغَنِيِّ الْوَاحِدِ : يَخْكُمُ عَلَى اللَّصِّ
الَّذِي لَمْ يَجِدْ قَسْرَقَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وَمَا يَنْشَأُ النَّاسُ فِي ثَلَاثَةِ أَغْمَارٍ ، فَيَشْبُونَ وَيَكْتَهِلُونَ وَيَهْرُمُونَ ، إِلَّا لِتَخْتَلِفَ شَهَوَاتُهُمْ
وَتَخْتَلِفَ مَقَادِيرُ الرِّغْبَةِ فِيهَا ، فَتَحَقِّقُ مِنْ نَمِّ تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّذْيِيرِ ، وَيَجِدُ
الشَّرْعُ مَحَلَّهُ بَيْنَهُمْ ، كَمَا يَجِدُ الْعِصْيَانُ بَيْنَهُمْ مَحَلَّهُ .

وَلَوْ أَنَّ أُمَّةً كُلُّهَا أَطْفَالٌ أَوْ كُهُولٌ أَوْ شُبُهَاءٌ ، لَبَادَتْ فِي جَنَلٍ وَاحِدٍ ؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ أَسْمَحَ
مِنَ الرَّذِيلَةِ تَكُونُ وَحْدَهَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْفَضِيلَةُ تَكُونُ وَحْدَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يَظْهَرُ بِهِ
شَيْءٌ غَيْرُهُ ، كَالضُّدِّ وَالضُّدِّ ؛ وَالْمَعْرَكَةِ إِذَا انْتَصَرَ كُلُّ مَنْ فِيهَا كَانَتْ هَزْلًا وَكَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ
الْمَعْرَكَةِ .

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَقُلْتُ لَهُمْ : فَإِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ سَجِينًا قَدْ رِبِضَتْ بِهِ أُنْقَالُهُ ، حَتَّى لَهَوْ فِي سِجْنٍ مِنْ سِجْنٍ مُبَالِغَةٍ فِي كَفِّهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ - فَكَيْفَ يَفْنِي النَّاسَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَيُوسِسُ فِي قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى لَهَوْ يَدَّ بَيْنَ كُلِّ يَدَيْنِ ، وَحَتَّى لَهَوْ الْعَيْنُ الثَّالِثَةُ لِعَيْنَي كُلِّ إِنْسَانٍ ؟

قَالُوا : إِنَّ فِي رُوحِهِ النَّارِيَّةِ قُوَّةَ تَفْصِيلٍ مِنْهَا وَتَنْشِيرٍ فِي الْأَرْضِ ، كَشَعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ : هَذِهِ كُرَّةُ نَارِيَّةٍ مَبْنِيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْأَجْسَامِ مُرْصَدَةٌ لَهَا ، وَتِلْكَ كُرَّةُ نَارِيَّةٍ حَيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْقُلُوبِ مُرْصَدَةٌ لَهَا ، وَبِهَذِهِ وَتِلْكَ عَمَارُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا .

قُلْتُ : لَعَلَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقُولُوا : خَرَابُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا . فَعَلِطْتُمْ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجِيءَ بَدَلُ الْعَلَاطِ . . .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ! خَرَقَ الثُّوبَ الْمِسْمَارَ . جَارَ هُنَا لِأَمْنِ اللَّبْسِ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ بِهِ - وَهُوَ الثُّوبُ - مَرْفُوعًا وَفَاعِلُهُ - وَهُوَ الْمِسْمَارُ - مَنْصُوبًا ، هَلْ جِئْتَ - وَنَحَكَ - تَطْلُبُ الْخَوْ أَوْ تَطْلُبُ الشَّيْطَانَ . . . !

* * *

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : فَقَطَعَنِي الْجِنِّي - وَاللَّهُ - وَأَخْجَلَنِي ، وَنَظَرْتُ خِلْسَةً إِلَى الشَّيْخِ أَرَاهُ كَيْفَ يَسْخَرُ مِنِّي ، فَإِذَا الشَّيْخُ قَدْ أَمْلَسَ فَلَا أَرَاهُ ، وَإِذَا أَنَا وَخِدِّي بَيْنَ الْجِنِّ وَبِإِزَاءِ هَذَا السَّاحِرِ الَّذِي وَضَعَتْ عَيْنُهُ فِي جَنْبِهِ وَشَقَّ فَمَهُ فِي قَفَاهُ . . ! فَسُرِّي عَنِّي وَزَالَ مَا أَجِدُهُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : الْآنَ أَبْلُغُ أَرَبِي مِنَ الشَّيْطَانِ وَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى مَا أُرِيدُ ، فَلَا أَجِدُ مَنْ أَحْتَسِمُ وَلَا تَقْطَعُنِي هَيْبَةُ الشَّيْخِ . . . !

وَوَقَعَ هَذَا الْخَاطِرُ فِي نَفْسِي ، فَاسْتَعَذْتُ بِاللَّهِ وَلَعَنْتُ الشَّيْطَانَ وَقُلْتُ : هَذَا أَوَّلُ عَيْبِهِ بِي وَجَعَلَهُ إِتَائِي مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ ، كَانَ لِي شَأْنًا فِي حُضُورِ الشَّيْخِ وَشَأْنًا فِي غَيْبِهِ ، وَكَأَنِّي مُنَافِقٌ أُعْلِنُ غَيْرَ مَا أَسِرُّ ، وَقُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ ! كَذَبْتَ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَشْطِيطُنْ !

ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَنْكِصَ عَلَى عَقْبِي ، فَقَدْ أَبْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا تَخَلَّى عَنِّي لِأَكُونَ هُنَا بِنَفْسِي لَا بِهِ ، وَمَا أَنَا هُنَا إِلَّا بِهِ لَا بِنَفْسِي ، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ فِي مَوْضِعِي أَنْ أَهْلِكَ ! بَيِّدْ

أَنَّ الْمَعَارَةَ أَنْكَشَفْتُ لِي فَبَجَاءَ ، فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَنْظُرَ ؛ وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَقِفَ ، وَوَقَفْتُ أَرَى ، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ فَارْتَفَعَ يَتَوَرَّعُ تَوَرَّاعَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانُ بِهِ ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ .

وَأَسْتَضْرَمْتُ مِنْهُ نَارَ عَظِيمَةٍ لَهَا وَهَجَانٌ شَدِيدٌ يَضْطَرِمُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيَسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةً قَوِيَّةً ، ثُمَّ خَمَدَتْ .

وَأَنْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسَّدِّ الْمُتْبِقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أَبْيَضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ ، كَأَنَّهُ صَدِيدٌ يَتَفَيَّحُ فِي دَمٍ ، ثُمَّ غَاضَ .

وَتَبَيَّنَتْ فِي مَكَانِهِ حِمَاةٌ مُنْتَبِهَةٌ جَعَلَتْ تَرْبُو وَتَعْظُمُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَبْتَلِعَنِي وَأَذْهَبَ فِيهَا ، فَسَمَّيْتُ اللَّهَ تَعَالَى فَعَارَتْ فِي الْأَرْضِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدُ مُخَمَّرُ الْحَمَالِيقِ ، هَائِلٌ الْخِلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ، قَدْ وَقَفَ عَلَى جِنْفَةِ قَدْرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يُعْبُ مِمَّا تَسِيلُ بِهِ .

فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْكَلْبُ ! أَأَنْتَ الشَّيْطَانُ ؟

وَأَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ مَسْخٌ شَائِهٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدْ أَمْتَرَجَا وَطَغَى مِنْهُمَا شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ ، أَمَّا وَجْهُهُ ، فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا ، تَحْسَبُهُ قَدْ لَيْسَ صُورَةَ أَعْمَالِهِ . .

وَنَطَقَ فَقَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ !

قُلْتُ : فَمَا تِلْكَ الْجِنْفَةُ ؟

قَالَ : تِلْكَ دُنْيَاكُمْ فِي شَهَوَاتِهَا ، وَأَنَا أَلْتَقِمُ قَلْبَ الْفَاسِقِ أَوْ الْآثِمِ مِنْكُمْ ، كَمَا أَلْتَقِمُ دُودَةً مِنْ هَلْدِهِ الْجِنْفَةِ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ، فَكَيْفَ كُنْتَ دُخَانًا ، ثُمَّ أُنْقَلَبْتَ نَارًا ، ثُمَّ رَجَعْتَ قَيْحًا ، ثُمَّ صِرْتَ حِمَاةً ، ثُمَّ كُنْتَ كَلْبًا عَلَى جِنْفَةٍ ؟

قَالَ : لَا تَلْعَنِ الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ الْعِبَادُ الصَّالِحُونَ بِأَحَدِ الْمَعْنَيْنِ ، وَأَنْتَ وَأَمثالُكَ عِبَادُ صَالِحُونَ بِالْمَعْنَى الْآخَرِ ، أَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا حَيَاءٌ وَوَقَارَةٌ ؟ فَأَوْلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هُمْ وَاقِحَتِي أَنَا عَلَى اللَّهِ ! أَنَا مَعَكُمْ فِي زُهْدِكُمْ حِرْزَمَانُ الْحِرْزَمَانِ ، وَفَقْرُ الْفَقْرِ ، وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمُونِي بؤْسًا ؛ غَيْرَ أَنِّي مَعَهُمْ لَدَةُ اللَّذَّةِ ، وَشَهْوَةُ الشَّهْوَةِ ، وَغِنَى الْغِنَى ، لَا تَبِمُ

لَذَّةً فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَخْلَوْ لَذَائِقُهَا وَإِنْ كَانَتْ حَلَالًا ، إِلَّا إِذَا وَضَعْتُ أَنَا فِيهَا مَعْنَى مِنْ مَعَانِي أَوْ وَقَاحَةً مِنْ وَقَاحِي ! حَتَّى لِأَجْعَلَ الزَّوْجَةَ لِرُؤُوسِهَا مِثْلَ الشَّعْرِ الْبَلِيغِ إِذَا اسْتَعَارَ لَهَا مَعْنَى مِنِّي ، وَكُلُّ مَا فَسَدَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ فَهُوَ مَجَازِيٌّ وَاسْتِعَارَتِي لَهَا أَجْعَلُهَا بِهِ بَلِيغَةً . . .
وَأَنْتُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَقْطَعُونَ حَيَاتِكُمْ كُلَّهَا تَجَاهِدُونَ إِيَّاهُ سَاعَةً وَاحِدَةً مِنْ حَيَاةِ عِبَادِي ، فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - لَيْتَ كَانَتْ سَاعَةٌ مِنْ حَيَاتِهِمْ هِيَ جَهَنَّمُكُمْ أَنْتُمْ ، فَكَيْفَ تَكُونُ جَهَنَّمُ هُنَا لِأَيِّ الْمَسَاكِينِ ؟

إِنَّكَ رَأَيْتَنِي دُخَانًا لِأَنِّي كَذَلِكَ أَتَّبِعُ فِي الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي ، فَمَتَى تَحَرَّكَتُ فِيهِ حَرَكَةُ الشَّرِّ كُنْتُ كَالْأَخْيَالِ لِإِضْرَامِ النَّارِ بِالتَّنْفِخِ عَلَيْهَا ؛ فَمِنْ نَمَّ أَكُونُ دُخَانًا ، فَإِذَا غَمَلَ عَنِّي صَاحِبُ الْقَلْبِ تَضَرَّعْتُ فِي قَلْبِهِ نَارًا تَطْلُبُ مَا يُطْفِئُهَا ؛ ثُمَّ يُوَاقِعُ الْإِنَّمُ وَالْمَعْصِيَةُ { وَيَقْضِي } نَهْمَتَهُ فَأَبْرُدُ عَنْ قَلْبِهِ ، فَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِثْلُ الْحَرْقِ الَّذِي بَرَدَ فَتَأْكُلُ مَوْضِعُهُ فَتَقْبَحُ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ فَيَنْجِ أَعْمَالِهِ بِمَادَّتِهِ التُّرَابِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ، فَيَنْقَلِبُ هَذَا الْمُسْكِينُ حِمَاةً إِنْسَانِيَّةً لَا تَزَالُ تَرْبُو وَتَنْفُخُ كَمَا رَأَيْتُ .

قُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ! أَفَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا يَرُدُّكَ عَنِ الْقَلْبِ وَأَنْتَ دُخَانٌ بَعْدُ ؟
فَقَهَقَهُ اللَّعِينُ وَقَالَ : مَا أَشَدَّ غَفْلَتَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ ، إِذْ تَسْأَلُ الشَّيْطَانَ أَنْ يَخْتَرِعَ التَّوْبَةَ ! أَمَا لَوْ أَنَّ شَيْئًا يَخْتَرِعُ التَّوْبَةَ فِي الْأَرْضِ لَاخْتَرَعَهَا الْقَبْرِ الَّذِي يَذْفِنُ فِيهِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كُلَّ طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنَ الزَّمَنِ ، فَتُزَلُّونَ فِيهِ أَلَمِيتُ الْمُسْكِينِ قَدْ انْقَطَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَتَرَكُونَهُ لَأَنَامِهِ ، وَحِسَابِ آثَامِهِ ، وَالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ فِي آثَامِهِ ؛ ثُمَّ تَعُودُونَ أَنْتُمْ لِإِفْرَافِ هَلِكِهِ الْأَنَامِ بِعَيْنَيْهَا !

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَيُّهَا اللَّعِينُ ؛ وَلَكِنْ أَلَا يَتَبَدَّدُ هَذَا الدُّخَانُ إِذَا صَرَبَتْهُ الرِّيحُ أَوْ انْطَفَأَ مَا تَحْتَهُ !

قَالَ : أَوَّه ! لَقَدْ أَوْجَعْتَنِي كَأَنَّمَا صَرَبْتَنِي بِجَبَلٍ ^(١) مِنْ نَارٍ ، إِنْ نَبَيْتُكُمْ عَرَفَهَا وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَغْيَاءُ ؛ تَأْخُذُونَ كَلَامَ نَبِيِّكُمْ كَأَنَّمَا هُوَ كَلَامٌ لَا عَمَلَ ، وَكَأَنَّهُ كَلَامُ إِنْسَانٍ فِي وَفِيهِ لَا كَلَامُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِجَبَلٍ » بَدَلًا مِنْ : « بِجَبَلٍ » .

الْبُتُوَّةَ لِلدَّهْرِ كُلِّهِ وَلِلْحَيَاةِ كُلِّهَا ؛ وَلِهَذَا غَلَبْتُ أَنَا الْأَنْبِيَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنِّي أَضْعُ الْمَعَانِيَ الَّتِي تَعْمَلُ ، لَا الْحِكْمَةَ الْمَتْرُوكَةَ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَمَنْ لَا يَعْمَلُ .

أَتَدْرِي يَا أَبَا الْحَسَنِ ، لِمَذَا أَعْجَزَنِي أَسْلَافُكُمْ الْأَوَّلُونَ مِثْلَ : عُمَرُ وَأَبِي بَكْرٍ ؟ حَتَّى كَانَ إِسْلَامُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِي ، فَتَرَكُونِي زَمَنًا - وَأَنَا الشَّيْطَانُ - أَرْتَابُ فِي أَنِّي أَنَا الشَّيْطَانُ . . . ؟

قُلْتُ : لِمَذَا ؟

قَالَ : أَرَأَكَ الْآنَ لَمْ تَلْعَنَ ، فَلَسْتُ قَائِلَهَا إِلَّا إِذَا تَرَحَّمْتَ عَلَيَّ .

قُلْتُ : عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ مِنْ لَعَنَاتِ اللَّهِ ! قُلْ لِمَذَا ؟

قَالَ : أَسْأَلُ وَيَأْمُرُ ؟ وَطُفَيْلِي وَيَقْتَرِحُ ؟ لَا بُدَّ أَنْ تَتَرَحَّمَا !

قُلْتُ : يَرْحَمُنَا اللَّهُ مِنْكَ ! قُلْ لِمَذَا ؟

قَالَ : وَهَذِهِ لَعْنَةٌ فِي لَفْظَةِ رَحْمَةٍ ؛ لَا ، إِلَّا أَنْ تَتَرَحَّمَا عَلَيَّ ، أَنَا إِبْلِيسُ الرَّجِيمُ !

قُلْتُ : فَيُعْنِي اللَّهُ عَنْ عِلْمِكَ ؛ لَقَدْ أَلْهَمْتَنِيهَا رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ الْبُتُوَّةَ كَانَتْ هِيَ بِأَعْمَالِهَا وَصِفَاتِهَا تَفْسِيرًا لِلْأَلْفَافِ عَلَى أَسْمَى الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ، فَكَانَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ لِنِلكِ الْأَرْوَاحِ كَالْأَمِّ لِأَبْنَائِهَا ؛ وَقَدْ رَأَوُهُ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِحِطِّ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِالْقَصْدِ فِي أَمْرِ النَّفْسِ ، وَجَعَلَ نَاحِيَةَ الْإِسْرَافِ فِيهَا إِسْرَافًا فِي الْعَمَلِ لِسَعَادَةِ النَّاسِ . وَكُلَّمَا أَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَخُطُوطُهَا أَرْتَدَّ إِلَيْكَ - أَيُّهَا اللَّعِينُ - وَأَقْبَلَ عَلَى شَقَاءِ نَفْسِهِ ، وَكُلَّمَا عَمِلَ لِسَعَادَةِ غَيْرِهِ ابْتَعَدَ عَنْكَ - أَيُّهَا الرَّجِيمُ - وَأَقْبَلَ عَلَى سَعَادَةِ نَفْسِهِ ، وَتَرَكَ الْغَضَبَ وَخُطُوطِ النَّفْسِ هُوَ الصَّبْرُ ؛ وَصَبْرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّادِقِينَ لَيْسَ صَبْرًا عَلَى شَيْءٍ بِعَيْنِهِ فِي الْحَيَاةِ ، بَلْ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى حَوَادِثِ الْعُمْرِ كُلِّهِ ، كَصَبْرِ الْمُسَافِرِ ؛ إِنْ كَانَ عَزِيمَةً مُدَّةَ الطَّرِيقِ كُلِّهَا ، وَإِلَّا كَانَ فَسَادًا فِي الْقُوَّةِ وَوَقَعَ بِهِ الْخِذْلَانُ .

فَهَذَا الصَّبْرُ الْمُعْتَزَمُ الْمُصَمَّمُ ، الَّذِي يُوْطَنُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا إِلَى الْآخِرِ - هُوَ تَعَبُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ هُوَ رُوحُ الْجَنَّةِ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا . وَالْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ رَجُلٌ مُغْفَلٌ عَلَيْهِ بِأَفْقَالِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يَفْتَحِمُهَا الشَّيْطَانُ وَلَا تَفْتَحُهَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا ؛ وَلِذَلِكَ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ » [مسند الإمام أحمد] ، رقم : ٨٧١٧ . كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَوْ لَمْ يَضِيرِ الْمُسَافِرُ دَائِبًا مُعْتَرِ مَا مُدَّةَ سَفَرِهِ كُلَّهَا لَمَا أَنْضَى بَعِيرَهُ ، وَلَوْ لَمْ يَضِيرِ الْمُؤْمِنُ دَائِبًا مُعْتَرِ مَا مُدَّةَ حَيَاتِهِ كُلَّهَا لَمَا أَنْضَى شَيْطَانَهُ .

فَصَاحَ الشَّيْطَانُ : أَوْهَ ، أَوْهَ ! وَلَكِنْ قُلْ لِي يَا أَبَا الْحَسَنِ : مَا صَبَرُ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَوِيَّ الْإِيمَانَ ، قَدْ اسْتَطَاعَ بِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ أَنْ يُفَيْتِقَ مِنْ سُكْرِ الْغَيِّ ، فَتَخَلَّصَ مِنْ نَزَوَاتِ الشَّيَاطِينِ الذَّهَبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُسْمُونَهَا الدَّنَائِيْرُ ؛ وَقَدْ أَرَدْتُهُ عَلَى أَنْ يَكْذِبَ ، فَرَأَى الْإِيمَانَ أَنْ يَصْدُقَ ؛ وَجَهَدْتُ بِهِ أَنْ يَغْضَبَ ، فَرَأَى الْحِكْمَةَ أَنْ يَهْدَأَ ؛ وَحَاوَلْتُ مِنْهُ أَنْ يَطْمَعَ ، فَرَأَى الرَّاحَةَ أَنْ يَرْضَى ؛ وَسَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَخْسَدَ ، فَرَأَى الْفَضِيلَةَ أَلَّا يُبَالِي ؛ وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ بِمَا يَتَّقَى أَنَّهُ الْإِيمَانُ وَالصَّبْرُ وَالْهُدُوءُ وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةُ ؛ وَأَحَاطَ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ بِالسَّعَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَاجْتَرَأَ بِهَا ؛ وَقَصَرَ نَظْرَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛ وَوَجَدَ الْجَمَالَ فِي نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ الصَّافِيَةِ ؛ وَأَجْرَى مَا يُؤْلِمُهُ وَمَا يَسُرُّهُ مَجْرَى وَاحِدًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى الْعُمُرِ كُلِّهِ كَأَنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَرْقُبُ مَغْرِبَ شَمْسِهِ ؛ وَأَخَذَ مِنْ إِرَادَتِهِ قُوَّةً أَنْسَتْهُ مَا لَمْ تُعْطِهِ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَخْفَلْ بِمَا أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا مَنَعَتْ ؛ وَعَاشَ عَلَى فَقْرِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ كَمَا يَعِيشُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ : هَذَا فِي قَصْرِ مِنْ لَوْلُوَّةٍ أَوْ يَاقُوْتَةٍ أَوْ زَبْرَجْدَةٍ ، وَذَاكَ فِي قَصْرِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْ مِنَ الْعَقْلِ .

قَالَ الشَّيْطَانُ : فَلَمَّا أَعْجَزَنِي صَلَاحًا وَرِضَى وَصَبْرًا وَقَنَاعَةً وَإِيمَانًا وَآخِثَسَابًا ، وَكَانَ رَجُلًا عَالِمًا فَقِيهًا - سَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَعِظَ النَّاسَ فَيَنْتَفِعُوا بِهِ ، وَيُصَيِّرَهُمْ بِدِينِهِمْ ، وَيَتَكَلَّمَ فِي نَصِّ كَلَامِ اللَّهِ ؛ فَعَقَدَ الْمَجْلِسَ وَوَعِظَ ، وَأَنْصَرَفُوا وَبَقِيَ وَحْدَهُ .

فَجَاءَتْ أَمْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ فِي الدِّينِ مِنْ أَمْرِ طَبِيعَتِهِنَّ ؛ وَكَانَتْ أَمْرَأَةً جَزَلَةً غَضَّةً { رَابِيَةً } ، يَهْتَزُّ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا ، وَتَمُشِي قَصِيرَةَ الْخَطْرِ مُثَاقِلَةً كَالْمُتَضَافِقَةِ مِنْ حَمْلِ أَسْرَارِ جَمَالِهَا وَأَسْرَارِ بَدَنِهَا الْجَمِيلِ ؛ فَبَغَضُ مِشْيَتِهَا يَقْطَعُ وَبَعْضُهَا نَوْمٌ فَاتِرٌ تُخَالِطُهُ الْبَقِظَةُ ؛ وَلَا يَرَاهَا الرَّجُلُ الْفَحْلُ النَّامُ الْفُحُولَةَ إِلَّا رَأَى الْهَوَاءَ نَفْسَهُ قَدْ أَصْبَحَ مِنْ حَوْلِهَا أُتْنَى ، مِمَّا تَغْصِفُ بِهِ رِيحُهَا الْعَطِرَةُ عِطْرَ زَيْتِهَا وَجِسْمِهَا .

وَكَانَ الْوَاعِظُ قَدْ تَرَمَّلَ مِنْ أَشْهُرٍ ، وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ قَدْ تَأَيَّمَتْ مِنْ سَنَوَاتٍ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا

غَضَّ طَرْفَهُ عَنْهَا ؛ وَلَكِنَّهَا سَأَلَتْهُ بِالْفَاطِمِهَا الْعَذْبَةِ عَنْ أُمُورِ هِيَ مِنْ أَسْرَارِ طَبِيعَتِهَا ، وَسَأَلَتْهُ
عَنْ طَبِيعَتِهَا بِالْفَاطِمِهَا ؛ فَسَمِعَ مِنْهَا مِثْلَ صَوْتِ الْبِلُّورِ ، يَتَكَسَّرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .
وَتَحَدَّثَتْ لَهُ وَكَأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ فِيهِ ، فَسَمِعَ بِأُذُنِهِ وَدَمِهِ ، ثُمَّ كَانَ غَضُّ عَيْنِهِ أَقْوَى لِلرُّؤْيَةِ
قَلْبِهِ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ .

وَرَأَى صَوْتَهَا يَشْتَهِي ؛ وَعَانَقَتْهُ رَائِحَتُهَا الْعِطْرِيَّةُ النَّقَّادَةُ ؛ وَأَحَاطَتْهُ بِجَوِّ كَجَوْ
الْفِرَاشِ ؛ وَعَادَتْ أَنْفَاسُهَا كَأَنَّهَا وَسْوَسةُ قُبُلٍ ؛ وَصَارَتْ زَفْرَاتُهَا كَالْفِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ
غَلْيَانًا ؛ وَطَلَعَتْ فِي خَيَالِهِ عُرْيَانَةً كَمَا تَطْلُعُ لِلسَّكْرَانِ مِنْ كَاسِ الْخَمْرِ حُورِيَّةٌ عُرْيَانَةٌ ، لَهَا
جِسْمٌ يَبْدُو مِنَ اللَّيْنِ وَالْبَضَاضَةِ وَالنَّعْمَةِ كَأَنَّهُ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ ؟

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكُنْتُ كَالنَّائِمِ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَوْتِ كَصَكِّ الْحَجَرِ بِالْحَجَرِ ،
لَا كَتَكَسَّرِ الْبِلُّورِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَسَمِعْتُ شَيْخِي يَقُولُ :
أَفَسَقْتُ . . . ؟

تَارِيخُ يَتَكَلَّمُ (*) ...

أَيَعْرِفُ الْقُرَاءُ أَنَّ فِي الْأَخْلَامِ أَخْلَامًا هِيَ قِصَصٌ عَقْلِيَّةٌ كَامِلَةٌ الْأَجْزَاءُ مُحْكَمَةٌ الْوَضْعُ مُتَّسِقَةٌ التَّرَكِيبُ بَدِيعَةٌ التَّأْلِيفُ ، تَجْعَلُ الْمَرْءَ حِينَ يَنَامُ كَأَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى (شَرِكَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) ، تَسِيحُ بِهِ فِي عَالَمٍ عَجِيبٍ كَأَنَّمَا سُحِرَ فَتَحَوَّلَ إِلَى قِصَّةٍ ؟

إِنْ يَكُنْ فِي الْقُرَاءِ مَنْ لَا يَعْلَمُ هَذَا فَلْيَعْلَمْهُ مِنِّي ؛ فَإِنِّي كَثِيرًا مَا أَكْتُبُ وَأَقْرَأُ فِي النَّوْمِ ، وَكَثِيرًا مَا يَلْقَى عَلَيَّ مِنْ بَارِعِ الْكَلَامِ ، وَكَثِيرًا مَا أَرَى مَا لَوْ دَوَّثْتُهُ لَعُدَّ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ .

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي أَرْوِيهَا الْيَوْمَ ، كَانَتْ الْمُعْجَزَةُ فِيهَا أَنِّي مَسَبْتُ فِي التَّارِيخِ كَمَا أُنْشِئُ فِي طَرِيقِ مُنْتَدَى ؛ فَتَقَدَّمْتُ إِلَى أَهْلِ سَنَةِ ١٣٩٥ لِلْهِجْرَةِ وَمَا يَلِيهَا ، فَعِشْتُ مَعَهُمْ وَتَحَبَّرْتُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى زَمَنِي لِأَقْصَّ مَا رَأَيْتُهُ عَلَى أَهْلِ سَنَةِ ١٣٥٣ ...

أَمْسَيْتُ الْبَارِحَةَ كَالْمَغْمُومِ فِي أَحْوَالٍ ثَقِيلَةٍ عَلَى النَّفْسِ مَا تَنْطَلِقُ النَّفْسُ لَهَا ، أَوَّلُهَا سُوءُ الْهَضْمِ ؛ وَمَتَى كَانَ الْبَدْءُ مِنْ هُنَا لَمْ تَكُنِ الْحَرَكَةُ فِي النَّفْسِ إِلَّا دَائِرَةً : تَذْهَبُ مَا تَذْهَبُ ثُمَّ لَا تَنْتَهِي إِلَّا فِي سُوءِ الْهَضْمِ عَيْنِهِ . فَجَلَسْتُ فِي النَّدِيِّ الَّذِي أَسْمُرُ فِيهِ أحيانًا ، فَكَانَ لِحَوِّهِ وَزُنْ أَحْسَنَتُهُ كَمَا يُحْسِنُ الْغَائِصُ فِي الْمَاءِ ثِقَلُ الْمَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَدَخَنْتُ الْكَزْكَرَةَ^(١) فَلَمْ تَكُنْ هَوَاءً وَدُخَانًا يَتَرَوَّحُ ، بَلْ كَانَتْ مِنْ ثِقَلِهَا كَالطَّعَامِ يَدْخُلُ عَلَى الطَّعَامِ ؛ وَنَظَرْتُ نَاحِيَةً فَأَخَذْتُ عَيْنِي رَجُلًا فِيلِي الْخِلْقَةِ ، مُنْطَادَ الْبَطْنِ كَأَنَّمَا تُفْعُ بَطْنُهُ بِالْآلَاتِ ، يَحْمِلُ مِنْهُ مِقْدَارَ أَرْبَعَةِ مِنْ بُطُونِ الْبَدِينَاتِ الْحَوَامِلِ ، كُلُّ مِنْهُنَّ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ مِنْ

(*) « الرسالة » العدد : ٩١ ، ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ هـ = ١ أبريل/نيسان ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ٤٨٣ - ٤٨٧ .

(١) الْكَزْكَرَةُ : أَسْمٌ وَضَعْنَاهُ (لِلشَّيْئَةِ) أَوْ التَّارِجِيلَةِ ، أَخَذًا مِنْ صَوْتِهَا ، كَمَا صَنَعَ الْعَرَبُ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ (الْقَطَا) أَخَذًا مِنْ صَوْتِ هَذَا الطَّيْرِ ، وَكَمَا هِيَ طَرِيقَتُهُمْ ؛ وَتُجْمَعُ الْكَزْكَرَةُ : كَزَاكِيزُ ، بِأَلْيَاءِ لِلخِفَّةِ .

حَمَلَهَا . . . وَكَانَ مَعِيَ إِلَى كُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ خَمْسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أُرِيدُ قِرَاءَتَهَا . . . !
ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الدَّارِ وَالْمَعْرَكَةِ حَامِيَةً فِي أَغْصَابِي ؛ وَمَا كَانَ سُوءُ الْهَضْمِ مَنُومَةً فَيَدْعُو
إِلَى النَّوْمِ ، فَدَخَلْتُ بَيْتَ كُتُبِي وَأَرَدْتُ كِتَابًا أَيْ كِتَابَ تَنَالُهُ يَدِي ، فَخَرَجَ لِي كِتَابٌ فِي
خُرَافَاتِ الْأَوَّلِينَ وَأَسَاطِيرِهِمْ وَهَذَيَانِهِمْ وَسُوءِ هَضْمِهِمُ الْعَقْلِيِّ . . . كَالْكَلَامِ عَنْ أَدُونِيسَ
وَأَرْطَامِيسَ وَدِيُونِيسَ وَسَمِيرَامِيسَ وَإِنِيسَ وَأُنُونِيسَ وَأَنَزَغِينِسَ . . . فَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ
وَقُلْتُ : حَتَّى الْكُتُبُ لَهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَغْصَابٌ قَدْ نَالَتَهَا الثَّقَلَةُ وَالْأَلَمُ ؟

وَبَاتَ اللَّيْلُ يَقْظَانِ { مَعِيَ } ، وَبَقِيتُ مُتَمَلِّمًا أَتَقَلَّبُ حَتَّى أَخَذَ الصُّدَاعُ فِي رَأْسِي ،
فَانْقَلَبَ النَّعَبُ نَوْمًا ، وَجَاءَ مِنَ النَّوْمِ تَعَبٌ آخَرُ ، وَقُدِفْتُ إِلَى عَالَمِ الْأَحْلَامِ فِي قُبَيْلَةٍ تَسْتَقِرُّ
بَيْنَ حَيْثُ تُرِيدُ لَا حَيْثُ أُرِيدُ :

* * *

وَرَأَيْتُنِي فِي قَوْمٍ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَدِ اجْتَمَعُوا جَمَاهِيرَ ، وَسَمِعْتُ قَائِلًا مِنْهُمْ
يَقُولُ : « أَلْسَاعَةُ يَمُرُّ مَوْلَانَا الْعَالِي » . فَقُلْتُ لِمَنْ يَلِينِي : « مَنْ يَكُونُ مَوْلَانَا الْعَالِي ؟ »
قَالَ : « أَوَ أَنْتَ مِنْهُمْ ؟ » قُلْتُ : « مِمَّنْ ؟ » فَأَلْهَاهُ عَنْ جَوَابِي تَشَوُّفُ النَّاسِ وَأَنْصِرَافُهُمْ
إِلَى رَجُلٍ أَقْبَلَ رَاكِبًا حِمَارًا أَشْهَبَ ؟ فَصَاحُوا : « الْقَمَرُ الْقَمَرُ »^(١) وَرَفَعَ الرَّجُلُ الَّذِي
يُنَاكِبُنِي صَوْتَهُ يَقُولُ : « الْبَرَكَاتُ وَالْعَظَمَاتُ لَكَ يَا مَوْلَانَا تَعَالَى ! »

قُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ ! لَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَوْمٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ ، يُعَارِضُونَ « التَّحِيَّاتُ وَالصَّلَوَاتُ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ » ؛ ثُمَّ مَرَّ صَاحِبُ الْحِمَارِ بِحِذَائِي ، وَغَمَرَهُ الرَّجُلُ عَلَيَّ ، فَقَالَ : مَا بِأَلَاكَ
لَا تَقُولُ مِثْلَهُ ؟ قُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُفْرِ بَعْدِ إِيمَانٍ . فَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلْطِمَنِي فَرَفَعَ يَدَهُ ،
فَصِخْتُ فِيهِ : كَمَا أَنْتَ - وَبَلَّكَ - وَإِلَّا قَبِضْتُ عَلَيْكَ ، وَأَسْلَمْتُكَ لِلْبُورِلِيسَ ، وَشَكَوْتُكَ إِلَى
الْكَيَّابَةِ ، وَرَفَعْتُكَ إِلَى مَحْكَمَةِ الْجُنْحِ !

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ الرَّجُلُ مَجْنُونٌ فَخُذُوهُ ! وَأَحَاطَ بَيْنَ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَرَجَّلَ
عَنْ حِمَارِهِ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشِينَا ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ قَالَ : أَرَاكَ مِنْ غَيْرِ هَذَا

(١) الْقَمَرُ : اسْمُ ذَلِكَ الْحِمَارِ ، وَسَمِعْتُ ذِكْرَهُ فِي الْقِصَّةِ .

الْبَلَدُ ؛ أَمَا تَعْرِفُ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ ؟ فَأَنَا هُوَ . قُلْتُ : أَنْظُرْ - وَيَحَكَ - مَا تَقُولُ ؛ فَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَمْرُورًا ؛ لَقَدْ كَتَبْتُ أَمْسَ كِتَابًا إِلَى مَجَلَّةِ (الرَّسَالَةِ) أَرَخْتُهُ ١٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٥٣ و ١٨ مِنْ مَارَس / آذَار سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَأَرْسَلْتُ بِهِ مَقَالَ « الْخُرُوفِينِ » (١) ...

قَالَ : مَاذَا أَسْمَعُ ؟ نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ ٣٩٥ ؛ فَالَرَّجُلُ مَجْنُونٌ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ أَهْيَا الرَّجُلُ مِنْ مُعْجَزَاتِي . لَقَدْ جِئْتُ بِكَ مِنَ التَّارِيخِ ، فَسَتَرْتَنِي وَكَتَبْتُ ، ثُمَّ تَعَوَّدُ إِلَيَّ التَّارِيخِ فَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِي ، وَتَقْصُ عَنِّي وَتَشْهَدُ لِي ... !

قُلْتُ : فَإِنِّي أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ إِلَى أَنْ قُتِلْتَ فِي سَنَةِ ٤١١ ... !

قَالَ : أَوْ إِلَهَ أَنْتَ فَتَخْلُقُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بِحَوَادِثِهَا ؟ لَقَدْ كَذَبْتَ مِنْ أَفْنِكَ وَعَبَاوَتِكَ تُفْسِدُ عَلَيَّ دَعْوَى الْمُعْجِزَةِ !

وَهَاجَ الصَّدَاعُ فِي رَأْسِي ، وَبَلَغَ سُوءُ الْهَضْمِ حَدَّهُ ، وَاشْتَبَكَتْ سِنَتَاتُ إِيْسَيسَ وَأَتُونِيسَ ... إلخ بِسِنِّ إِيْلِيسَ ، وَمَرَّتْ بَيْنَ كُلِّ هَذَا حَوَادِثُ الطَّاعِيَةِ الْمَعْتُوهِ الْمُتَجَبَّرِ ، فَرَأَيْتُهُ يَبْتَدِعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِدَعَا ، وَيَخْتَرِعُ أَحْكَامًا يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا ، ثُمَّ يَعُوذُ فَيَنْقُضُ أَمْرَهُ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى الْإِخْذِ بِهِ ، كَأَنَّ الَّذِي نَقَضَ غَيْرَ الَّذِي أَبْرَمَ ، وَكَأَنَّهُ حِينَ يَبْتَلُدُ فَيُعْجِزُهُ أَنْ يَخْتَرَعَ جَدِيدًا - يَجْعَلُ اخْتِرَاعَهُ إِبْطَالًا أَخْتِرَاعِهِ .

وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا يَعْتَدُّ نَفْسَهُ مُخَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَقْلًا لِعُقُولِهَا ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلِيَ النَّاسَ وَيَسْتَبِدَّ بِهِمْ أَسْتِئْذَادُ الشَّرِيعَةِ فِي أَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُ فِي جُمْلَتِهَا هِيَ نَقْضُ أَعْمَالِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ مَخَوِّ ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ أَذْهَانِ النَّاسِ وَقَتْلِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَارِيخِ قَاتِلِ سَفَاكٍ .

وَسَوَّلَ لَهُ جُنُونُهُ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلنُّبُوَّةِ ؛ ثُمَّ أَفْرَطَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَحَصَلَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ خُلِقَ تَكْذِيبًا لِلْأُلُوْهِيَّةِ ؛ وَفِي تَكْذِيبِهِ لِلنُّبُوَّةِ وَالْأُلُوْهِيَّةِ يَحْمِلُ الْأُمَّةَ بِالْفَهْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى الْأَلَا تَصَدَّقُ إِلَّا بِهِ هُوَ ؛ وَفِي سَبِيلِ إِبْتَاتِهِ لِنَفْسِهِ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَجَاءَ تَارِيخُهُ لَا يَنْفِي الْأُلُوْهِيَّةَ وَلَا

نُبُوَّةٌ ، بَلْ يَنْفِي الْعَقْلَ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ وَجَاءَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَكَلَّمَ يَوْمًا فِي تَارِيخِ
الْإِسْلَامِ . . .

* * *

رَأَيْتُنِي أَصْبَحْتُ كَاتِبًا لِهَذَا الْحَاكِمِ ، فَجَعَلْتُ أَشْهَدُ أَعْمَالَهُ وَأَدَوْنَ تَارِيخَهُ ، وَأَقْبَلْتُ
عَلَى مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ وَضَعْتَنِي الدُّنْيَا مَوْضِعًا عَزِيزًا لَمْ يَرْتَفَعْ إِلَيْهِ أَحَدٌ
مِنْ كُتَابِهَا وَأَدْبَائِهَا ، فَسَأَكْتُبُ عَنْ هَذَا الدَّهْرِ بِعَقْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الدَّهْرِ ٩٦٨ سَنَةً صَاعِدَةً
فِي الْعِلْمِ .

وَدَوَنْتُ عَشْرَةَ مُجَلَّدَاتٍ ضَخْمَةٍ انْتَبَهْتُ وَأَنَا أَحْفَظُهَا كُلَّهَا ، فَإِذَا هِيَ جُمْلٌ صَغِيرَةٌ ،
جَعَلَ الْعِلْمُ كُلَّ نَبْذَةٍ مِنْهَا سِفْرًا ضَخْمًا كَمَا يُخَيَّلُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ عَاشَ عُمُرًا طَوِيلًا وَأَخَذَتْ
أَحَدَانَا مُنْتَدَةً ، عَلَى حِينٍ لَا تَكُونُ الرُّؤْيَا إِلَّا لَخْظَةً .

وَهَذِهِ هِيَ الْمُجَلَّدَاتُ الَّتِي قُلْتُ : إِنَّ التَّارِيخَ يَتَكَلَّمُ بِهَا فِي التَّارِيخِ . . .

الْمُجَلَّدُ الْأَوَّلُ

أَبْتُلِي هَذَا الطَّاعِيَةَ بِتَقْيِصَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَالْأُخْرَى مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَأَمَّا الَّتِي مِنْ
نَفْسِهِ فَإِنِّي أَرَاهُ قَدْ خُلِقَ وَفِي مُحْهِ لُفَاقَةٌ عَصِيَّةٌ مِنْ يَهُودِيَّةٍ جَدَّهُ رَأْسُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ فَهُوَ
الْحَاكِمُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُعِزِّ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْمَهْدِيِّ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ هَذَا
كَانَ ابْنَ أَمْرَأَةٍ يَهُودِيَّةٍ مِنْ حَدَادٍ يَهُودِيٍّ ، فَاتَّفَقَ أَنْ جَرَى ذِكْرُ النِّسَاءِ فِي مَجْلِسِ الْحُسَيْنِ بْنِ
مُحَمَّدٍ الْقَدَّاحِ ، فَوَصَفُوا لَهُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْيَهُودِيَّةَ ، وَأَنَّهَا آيَةٌ فِي الْحُسَيْنِ ؛ وَكَانَ لَهَا مِنْ
الْحَدَادِ وَلَدٌ ، فَتَرَوَّجَهَا الرَّجُلُ وَأَدَّبَ ابْنَهَا وَعَلَّمَهُ ، ثُمَّ عَرَفَهُ أَشْرَارُ الدَّعْوَةِ الْعُلَوِيَّةِ وَعَهَدَ
إِلَيْهَا .

وَمِنْ بَعْضِ اللَّفَافِيفِ الْعَصِيَّةِ فِي الْمُخِّ مَا يَنْحَدِرُ بِالْوَرَاثَةِ مَطْبُوعًا عَلَى خَيْرِهِ أَوْ شَرِّهِ ،
لَا يَدُ لِلْمَرْءِ فِيهِ وَلَا حِيلَةٌ لَهُ فِي دَفْعِهِ أَوْ الْإِنْفَاءِ مِنْهُ ، فَيَكُونُ قَدَرًا يَتَسَلَّسَلُ فِي الْخَلْقِ لِيُخْدِتَ
غَايَاتِهِ الْمُقْدُورَةَ ، فَمَتَى وَقَعَ فِي مُحِّ إِنْسَانٍ فَالْدُّنْيَا بِهِ كَالْحَبْلِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَتَمَخَّضَ عَنْهُ .

هَذِهِ الْفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ فِي مَحْ هَذَا الطَّاعِيَةِ سَتُحَقِّقُ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ [سورة المائدة/ الآية : ٨٢] . فَهُوَ لَنْ يَكُونَ الْعَدُوَّ لِلْإِسْلَامِ دُونَ أَنْ يَكُونَ الْأَشَدَّ فِي هَذِهِ الْعَدَاوَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ فِيهَا الْأَشَدَّ حَتَّى يَفْعَلَ بِهَا الْأَفَاعِيلَ الْمُتَنَكِّرَةَ . وَمَا أَرَى هَذِهِ الْمَادِنَ الْقَائِمَةَ فِي الْجَوِّ إِلَّا تَخْرُقُ بِمَنْظَرِهَا عَيْنِيهِ مِنْ بَغْضِهِ لِلْإِسْلَامِ وَأَنْطَوَانِهِ عَلَى عَدَوَاتِهِ ؛ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْهُ !

وَأَمَّا التَّقْبِصَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ أَبْثَلِي بِقَوْمٍ فَتَنُوهُ بِأَرَائِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ ، وَهُمْ حَمَزَةُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَالْأَخَرَمُ ، وَفَلَانٌ ، وَفَلَانٌ ... وَقَدْ لَفَقُوا لِلدُّنْيَا مَذْهَبًا هُوَ صُورَةُ عَقُولِهِمُ الطَّائِشَةِ ، لَا يَجِيءُ إِلَّا لِلْهَزَمِ ، ثُمَّ لَا يَضَعُ أَوَّلَ مَعَاوِلِهِ إِلَّا فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ لِيَهْدِمَهَا ... ! وَلَوْ أَنَا جَمَعْتُ هَذَا الْمَذْهَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْتُ : هُوَ حِمَاقَةٌ حَمَقَاءُ تُرِيدُ إِخْرَاجَ اللَّهِ مِنَ الْوُجُودِ لِإِدْخَالِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الطُّغَاةِ !

وَيَتَقَلَّبُونَ فِي مَذْهَبِهِمْ بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ : الْعَقْلُ ، الْإِرَادَةُ ، الْإِمَامُ ، قَائِمُ الزَّمَانِ ، عِلَّةُ الْعِلَلِ ... ! وَهَذِهِ هِيَ الشُّيُوعِيَّةُ بِعَيْنِهَا ، تَعْمَلُ عَلَى هَذِهِ فِكْرَةِ الْأَلُوْهِيَّةِ وَالْحَاقِهَا بِالْخُرَافَةِ ؛ كَأَنَّ الْقَائِمَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ عَقْلُ النَّاسِ وَإِرَادَتُهُمْ ، كَرِهُوا أَمْ رَضُوا ، فَلَا إِرَادَةَ لَهُمْ مَعَهُ وَلَا عَقْلَ ؛ وَهُوَ الزَّمَنُ فَيَضْبِعُ الزَّمَنَ بِمَا شَاءَ ، وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ شَاءَ ، لِأَنَّهُ الْقَائِمُ بِهِ ، وَعِلَّةُ الْعِلَلِ فِي سِيَاسَتِهِ وَتَذْيِينِهِ .

شُّيُوعِيَّةٌ أَيْمَةٌ كَبُرَتْ فِي حِمَاقَتِهَا أَنْ تَقُومَ بِجُنُودٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَقُومُ إِلَّا بِأَنْثَيْنِ مَعَا : جُنُودِ الْعَقْلِ ، وَجُنُودِ السَّيْفِ !

الْمَجْلَدُ الثَّانِي

أَظْهَرَ الطَّاعِيَةُ أَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، لِيَتَأَكَّفَ الْجُنْدُ وَالشَّعْبُ وَيَسْتَمِينِلَهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ لَيْثِمُ الْكَيْدِ ، دَنِيَّةُ الْحِيَلَةِ ، يَهُودِيٌّ الْمَكْرِ ؛ فَأَمَرَ بِعِمَارَةِ الْمَدَارِسِ لِلْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَتْوَا ، وَبَذَلَ فِيهَا الْأَمْوَالَ ، وَجَعَلَ فِيهَا الْفُقَهَاءَ (وَالْمَشَايخَ) ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ ، وَالتَّبَوُّسَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّخَضُّعِ لَهُمْ ، وَدَخَلَ فِي ظِلَالِ الْعِمَائِمِ ... وَأَخْضَرَ

لِنَفْسِهِ فَيَبْهَتَنِ مَالِكَيْنِ (أَتَيْنِ لَا وَاحِدَ) يُعَلِّمَانِهِ وَيُقَهِّمَانِهِ ، وَكَانَ أَشْبَهَ بِمُرِيدٍ مَعَ شَيْخِ
الطَّرِيقَةِ يَتَسَعَّدُ بِهِ وَيَتَمَيَّنُ ؛ أَشْرَفُ أَلْقَابِهِ أَنَّهُ خَادِمُ الْعِمَامَةِ الْخَضِرَاءِ ، وَأَسْعَدُ أَوْقَاتِهِ الْيَوْمُ
الَّذِي يَقُولُ لَهُ فِيهِ الشَّيْخُ : رَأَيْتَكَ فِي الرُّؤْيَا وَرَأَيْتُ لَكَ . . . !

وَكَانَتْ هَذِهِ الْعِمَامَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ هَذَا الطَّاعِيَةِ ، هِيَ بَعَيْنُهَا رَبِّهَا أَلْفَافَةُ
الْيَهُودِيَّةِ فِي مُحْوِ ؛ تُصَلِّحُ بِإِقْرَاضِ مِثَّةٍ ، وَفِيهَا نَبْطَةُ الْخَرَابِ بِالسُّتَيْنِ فِي الْمِثَّةِ . . . ! فَإِنَّهُ
مَا كَادَ يَتِمَكَّنُ مِنَ النَّاسِ وَيَعْرِفُ إِقْبَالَهُمْ عَلَيْهِ وَنَفْتَهُمْ بِهِ ، حَتَّى طَلَبَتْ أَلْفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ رَأْسَ
أَلْمَالِ وَالرُّبَا ؛ فَأَمَرَهُمْ بِهِدْمِ تِلْكَ الْمَدَارِسِ وَإِخْرَابِهَا ، وَأَبْطَلَ الْعِبَادِينَ وَصَلَاةَ الْجُمُعَةِ ،
وَقَتَلَ أَلْفَافَةً وَقَتَلَ مَعَهُمْ فَقِيهَيْهِ وَأُسْتَاذَيْهِ ، وَعَادَ كَالْمُرِيدِ الْمُنَافِقِ مَعَ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ ، يَقُولُ
فِي نَفْسِهِ : إِنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَةٌ تَعْمَلُ عَمَلًا وَاحِدًا فِي الصَّيْدِ : الْفُحُّ ، وَالْعِمَامَةُ ، وَاللَّحْيَةُ . . . !

إِنَّ هَذَا الطَّاعِيَةَ مَلِكٌ حَاكِمٌ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ حِمَاةَ شَيْئًا وَإِقَاعًا ، فَيَقْتُلُ عُلَمَاءَ
الدِّينِ بِإِهْلَاكِهِمْ ، وَيَقْتُلُ مَدَارِسَ الدِّينِ بِإِخْرَابِهَا ، وَلَوْ شَاءَ لَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَشْتَقَّ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ كُلِّ ذِي عِمَامَةٍ ^(١) فِي عِمَامَتِهِ . وَيَبْلُغُ مِنْ كُفْرِهِ أَنْ يَتَبَجَّحَ وَيَرَى هَذَا قُوَّةً ، وَلَا
يَعْلَمُ أَنَّهُ لِهَوَانِهِ عَلَى اللَّهِ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ كَالذُّبَابَةِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ بِالْمَرَضِ ، وَالْبَعُوضَةِ الَّتِي
تَقْتُلُ بِالْحُمَّى ، وَالْقَمَلَةَ الَّتِي تَضْرِبُ بِالطَّاعُونَ ، فَلَوْ فَخَرَتْ ذُبَابَةٌ ، أَوْ تَبَجَّحَتْ قَمَلَةٌ ، أَوْ
أَسْتَطَالَتْ بَعُوضَةٌ ، لَجَازَ لَهُ أَنْ يَطْنَ طَنِتُهُ فِي الْعَالَمِ . وَهَلْ فَعَلَ أَكْثَرَ مِمَّا تَفْعَلُ ؟

لَقَدْ أَوْدَى بِأَنَاسٍ يَقُومُ إِيمَانُهُمْ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُخْلِدُهُمْ فِي
الْحَقِّ ، وَأَنَّ أَنْتِرَاعَهُمْ بِالسَّيْفِ مِنَ الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يَضَعُهُمْ فِي حَقِيقَتِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ
الْإِسْلَامِيَّةَ لَا يَطْمِسُهَا الطُّغْيَانُ إِلَّا لِيَجْلُوَهَا .

إِنَّهُ وَاللَّهُ مَا قَتَلَ وَلَا شَقَّ وَلَا عَذَبَ ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَاجَ فِي عَضْرِهِ هَذَا إِلَى قَوْمٍ
يُمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ ، وَأَعُوذُهُ ذَلِكَ التَّنوعُ السَّامِيُّ مِنَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ حَيَاةَ الْفِكْرِ
وَمَادَّةَ النَّارِ بَخِ ، فَجَاءَتْ الْقَمَلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا . . . !

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ يَشْتَقَّ كُلُّ ذِي عِمَامَةٍ مِنْ سَوَادِ الْمُسْلِمِينَ » بَدَلًا مِنْ : « أَنْ يَشْتَقَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُلُّ
ذِي عِمَامَةٍ » .

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي التَّارِيخِ ، أَمَا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي التَّارِيخِ ، وَجَاءَهُمْ بِالرَّحْمَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، أَمَا هُمْ فَجَاؤُوهُ بِاللَّعْنَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا !

المَجْلَدُ الثَّالِثُ

يَرَى هَذَا الطَّاعِيَةُ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَسَعْوَدَةٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَأَنَّ مَخَوَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ هُوَ نَفْسُهُ إِيجَادُ أَخْلَاقٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ جَرِينًا حِينَ جَاءَ فَأَحْتَلَّ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءُ شَيْطَانٍ كَالَّذِي تَوَقَّعَ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالَ : ﴿ فِعْرَ لَكَ لَاخَوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٣٨ سورة ص/ الآية : ٨٢] . وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصَّحَابَةِ ، وَأَنْ يُكْتَبَ ذَلِكَ عَلَى حِيطَانِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشُّوَارِعِ !

أَخْزَاهُ اللَّهُ ! أَهْيَ رِوَايَةٌ تَمْنِيْلِيَّةٌ يُلْصِقُ الْإِعْلَانَ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ لَوْ سَمِعَ لَسَمِعَ الْمَسَاجِدَ وَالْمَقَابِرَ وَالشُّوَارِعَ تَقُولُ : أَخْزَاهُ اللَّهُ ... !

المَجْلَدُ الرَّابِعُ

هَذَا الْفَاسِقُ لَا يَزْكِبُ إِلَّا حِمَارًا أَشْهَبَ يُسَمِّيهِ : (الْقَمَر) ، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُحْتَسِبًا لِعَايَةِ خَبِيْثَةٍ ؛ فَهُوَ يَدُوْرُ عَلَى حِمَارِهِ هَذَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَعَهُ عَبْدٌ أَسْوَدُ ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ غَشَّ ؛ أَمَرَ الْأَسْوَدَ . . . ! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ : أَنْظَرُوا . . . !

وَمَنْ غَلَبَتِ الْفُسُوقُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى شَيْئَعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حَمْرَةَ بِنِ عَلِيٍّ) نَوَّهَ بِالْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالثَّنَاءِ ، لِإِخْصَالٍ : مِنْهَا أَنَّ . . . ! وَكَتَبَ حَمْرَةَ هَذَا فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ : أَنَّ مَا يَزْكِبُهُ أَهْلُ الْفَسَادِ بِجَوَارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا (الْفَاسِقُ) مِنَ الْمُتَنَكَّرِ وَالْفَحْشَاءِ - إِنَّمَا يُزْكِبُ فِي طَاعَتِهِ . . . !

هَذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحِدٍ ، يَرَى فِي نَفْسِهِ رَدَائِلُهُ غُرْبَانَةً ، فَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ وَعَمَلُهُ وَفِكْرُهُ إِلَّا فُحْشًا يَتَعَرَّى ؛ وَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرِيزَةَ فَسَقٍ بَهِيمِيَّةٍ مُتَّصِلَةٍ بِطَوْرِ الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَوَّلِ ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جِسْمِهِ خَلِيقَةً عَصِيْبَةً مُهْتَاجَةً ، مَا زَالَتْ تَسْبِغُ

بِالْوَرَاثَةِ فِي دِمَاءِ الْأَخْيَاءِ ، مُتَلَفَّةً عَلَى خَصَائِصِهَا ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي أَعْصَابِ هَذَا
الْفَاسِقِ ، فَأَنْفَجَرَتْ بِكُلِّ تِلْكَ الْخَصَائِصِ .

وَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ تَرْجِعُ فِي مَرَدِّهَا إِلَّا إِلَى طُغْيَانِ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ فِيهِ ؛ فَهُوَ يُحَاوِلُ
هَذِمَ الْإِسْلَامَ ، لِأَنَّهُ دِينُ الْعِفَّةِ وَدِينُ صَوْنِ الْمَرْأَةِ ، يُلْزِمُهَا حِجَابَ عِفَّتِهَا وَإِبَائِهَا ، وَيَمْنَعُهَا
الْإِبْتِدَالَ وَالْخَلَاعَةَ ، وَيُعِينُهَا أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ يَسْتَهْنِيهَا ، وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ . . . إِنَّهُ يَمُقَّتُ
هَذَا الدِّينَ الْقَوِيَّ ، كَمَا يَمُقَّتُ اللَّصُّ الْقَانُونَ ؛ فَهُوَ دِينٌ يَتَّقُلُ عَلَى غَرِيزَتِهِ الْفَاسِقَةِ ،
وَلِكُلِّ غَرِيزَةٍ فِي الْإِنْسَانِ شُعُورٌ لَا مَهْنَأَ لَهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُرًّا حَتَّى فِي التَّوَهُّمِ ؛ وَهَلْ يُعْجِبُ
السَّكَّارُ شَيْءٌ أَوْ يُزْصِيهِ أَوْ يَلْدُهُ ، كَمَا يُعْجِبُهُ أَنْ يَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ سُكَارَى ؛ فَيَتَشَبَّهِ هُوَ
بِالْخَمْرِ ، وَتَسْكُرُ غَرِيزَتُهُ بِرُؤْيَا الشُّكْرِ ؟

وَمَا زَالَ رَأْيُ الْفَسَاقِ فِي كُلِّ زَمَنِ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ هِيَ حُرِّيَّةُ الِاسْتِغْنَاءِ ، وَأَنَّ تَقْيِيدَ اللَّذَّةِ
إِفْسَادٌ لِلذَّةِ .

الْمَجْلَدُ الْخَامِسُ

يَزْعُمُ الطَّاعِيَةُ أَنَّهُ يُعِزُّ قَوْمَهُ ، وَمَا أَرَاهُ يُعِزُّهُمْ ، وَلَكِنَّهُ يَمْتَحِنُ ذُلَّهُمْ وَضَعْفَهُمْ وَهَوَانَهُمْ
عَلَى الْأَمَمِ ؛ فَهُوَ يَتَجَرَّأُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، مُنْتَظِرًا مَا يَتَسَهَّلُ ، مُتَرْقِبًا مَا يُمَكِّنُ ؛ وَهُوَ يَرَى أَنَّ
أَخْلَاقَنَا الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ أَمْوَاتَانَا دَفَنُوا أَنْفُسَهُمْ فِيْنَا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ يَهْدِمُ الْأَخْلَاقَ وَيَطْلُبُ عِنْدَ نَفْسِهِ
أَنَّهُ يَهْدِمُ قُبُورًا لَا أَخْلَاقًا .

وَلَقَدْ سَخَّرَ مِنْهُ الْمَصْرِفُونَ بِكَيْفَةٍ مِنْ ظَرْفِهِمُ الْبَدِيعِ ، وَجَاوَزُوهُ مِنْ غَرِيزَتِهِ ، فَصَنَعُوا
أَمْرًا مِنَ الْوَرَقِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْجِلْدَ ، وَالْبُسُوهَا خُفَّهَا وَإِزَارَهَا ، حَتَّى لَا يَشْكُ مَنْ رَأَاهَا أَنَّهَا
أَدَمِيَّةٌ ، ثُمَّ وَضَعُوا فِي يَدِهَا قِصَّةً وَأَقَامُوهَا فِي طَرِيقِهِ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا عَدَلُ إِلَيْهَا وَأَخَذَ مِنْ يَدِهَا
الْقِصَّةَ وَقَرَّأَهَا ، فَإِذَا فِيهَا سَبُّ لَهُ وَلِأَبَائِهِ ؛ وَسُخْرِيَةٌ مِنْ جُنُونِهِ وَرُعُونَتِهِ الْمُضْحِكَةِ ؛
فَغَضِبَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْمَرْأَةِ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ سُخْرِيَةٌ أُخْرَى حِينَ تَحَقَّقُ أَنَّهَا مِنَ الْوَرَقِ ، وَأَخَذَتْهُ
الْكَيْفَةُ الطَّرِيفَةُ بِمِثْلِ الْبَرْقِ وَالرَّغْدِ ؛ فَاسْتَشَاطَ وَأَمَرَ عَبِيدَهُ مِنَ السُّودَانِ بِتَحْرِيقِ الدُّوَرِ وَنَهَبِ

مَا فِيهَا وَسَبِي النِّسَاءِ وَالْفُجُورِ بِهِنَّ ؛ حَتَّى جَاءَ الْأَزْوَاجُ يَشْتَرُونَ زَوْجَاتِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، بَعْدَ أَنْ طَارَتْ الرُّوبَعَةُ السُّودَاءُ فِي بَيَاضِ الْأَعْرَاضِ .

انْدَلَعَتْ ثَوْرَةُ الْفُجُورِ فِي الْمَدِينَةِ ، لَا مِنَ الْعَبِيدِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْحَيَوَانِ الْعَتِيقِ الْمُسْتَقَرِّ فِي هَذَا الطَّاعِيَةِ .

الْمَجْلَدُ السَّادِسُ

وَهَذِهِ رُغُونَةٌ مِنْ أَفْبَحِ رُغُونَاتِهِ ، كَأَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ لَا يَحْسَبُ نِسَاءَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا إِلَّا نِسَاءَهُ ، فَيَأْمُرُهُنَّ بِأَمْرِ أَمْرَاتِهِ ، وَكَأَنَّ النِّسَاءَ فِي رَأْيِهِ إِنْ هُنَّ إِلَّا أَسْتِجَابَاتُ عَصِيَّتِهِ تُطْلَقُ وَتُرَدُّ .

إِنَّ لِمَوْجَةِ الْفَسَقِ فِي الْغَرِيزَةِ الطَّاعِيَةِ جُزْأًا وَمَدًّا يَقَعَانِ فِي تَارِيخِ الْفُسَاقِ ؛ فَهَذَا الطَّاعِيَةُ قَدْ جَزَرَتْ فِيهِ الْمَوْجَةُ ، فَأَمَرَ أَنْ يُنْعَمَ النِّسَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، لَا تَطَأُ أَرْضَ الْمَدِينَةِ قَدَمُ أَمْرَاءَةٍ ، وَأَمَرَ الْخَفَافِينَ أَلَّا يَضَعُوا لَهَنَّهُ الْأَخْفَافَ وَالْأَخْذِيَّةَ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ خَرَجْنَ إِلَى الْحَمَامَاتِ هَدَمَ الْحَمَامَاتِ عَلَيْهِنَّ !

وَلَوْ مُدَّتِ الْمَوْجَةُ فِي تَفْسُقِ الْفَاسِقِ لَفَرَضَ عَلَى النِّسَاءِ الْخُرُوجَ وَالْإِتِّصَالَ بِالرَّجَالِ وَالْعَرُضَ لِلِإِبَاحَةِ .

إِنَّ الصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ كِلَاهُمَا فَسَادٌ مَا لَمْ يَكُنِ الصَّلَاحُ نَظَافَةً فِي الرُّوحِ وَسُمُوءًا فِي الْقَلْبِ .

الْمَجْلَدُ السَّابِعُ

يَزْعُمُ الطَّاعِيَةُ أَنَّهُ سَيَهْدِمُ كُلَّ قَدِيمٍ ؛ وَإِنِّي لِأَخْشَى وَاللَّهِ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ فِي بَعْضِ سَطَوَاتِ جُؤُونِهِ : أَنْ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَبْتُ أَوْ أُمُّ يَلْغُ السُّنَيْنَ فَلْيَقْتُلْهُ ، لِتَخْلُصَ الْأُمَّةُ مِنْ قَدِيمِهَا الْإِنْسَانِيِّ ... !

كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَى أَيَّامِ مُعَاصِرِيهِ لَا عَلَى التَّارِيخِ ، وَيَحْكُمُ عَلَى طَاعَةٍ

قَوْمِهِ وَعَصِيَانِهِمْ لَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ وَمِيرَاثِهِمْ مِنَ الْأَسْلَافِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَهْلِكَ
حَتَّى يَتَّبِعَتْ فِي الدُّنْيَا شَيْئَانِ : تَتَنُّ رِمْتِهِ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ، وَتَتَنُّ أَعْمَالُهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ .
إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُسْلَطَ ، كَالْغُبَارِ الْمُسْتَطَارِ لَا يَكُنْسُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعُ ...

وَلَقَدْ رَأَى الْمَأْمُونُ أَنَّ أَكْلَ النَّاسِ الْمُلُوحِيَّاءِ الْخَضِرَاءِ وَالْفُقَاعَ ، وَالْثُرْمُسَ وَالْجَزْجِيرَ ،
وَالزَّيْبَ وَالْعَنْبَ - هَوَى قَدِيمٌ فِي طَبَاعِ النَّاسِ ، فَتَهَى عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ ،
وَوَظَّهَرَ عَلَى أَنَّ جَمَاعَةَ بَاعُوا أَشْيَاءَ مِنْهَا فَضَرَبَهُمْ بِالسَّيَاطِ ، وَأَمَرَ فَطِيفَ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ ،
ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ؛ كَأَنَّ الَّذِي يَحْمِلُ الْمُلُوحِيَّاءِ الْخَضِرَاءِ عَلَى رَأْسِهِ لِيَبِيعَهَا يَلْبَسُ عِمَامَةً
خَضِرَاءَ ...

أَهَذَا - وَيَحُهُ - تَجْدِيدٌ فِي الْأَمَّةِ ، أَمْ تَجْدِيدٌ فِي الْمَعِدَةِ ... ؟

الْمُجَلَّدُ الثَّامِنُ

لَا يَرْضَى الطَّاعِيَةُ إِلَّا أَنْ يَمَحَقَ رُوحَانِيَّةَ الْأَمَّةِ كُلَّهَا ، فَلَا يَتْرُكُ شَيْئًا رُوحَانِيًّا يَكُونُ لَهُ
فِي أَغْصَابِ النَّاسِ أَثَرٌ مِنَ الْوَقَارِ ، وَيَمْنُ يَسْتَظْهِرُ { - وَيَلَهُ - } إِذَا مُحِقتْ رُوحَانِيَّةُ الْأَمَّةِ
وَأُشْرِفَتْ نَزْعَتُهَا الدِّينِيَّةُ عَلَى الْأَنْحِلَالِ ؟ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْوُجُودِ لِأَمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا
تُسْتَمَدُّ مِنْ إِيْمَانِهَا بِالْمَلِكِ الْأَعْلَى الَّذِي يَذْفَعُهَا فِي سِلْمِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ، كَمَا يَذْفَعُهَا فِي
حَرْبِهَا إِلَى الْمَوْتِ بِقُوَّةٍ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ التَّارِيخَ كُلَّهُ تُقَرَّرُهُ فِي الْأَرْضِ بِضَعَةِ مَبَادِيءِ
دِينِيَّةٍ .

هَذَا الْحَاكِمُ الْأَخْرَقُ هُوَ عِنْدِي كَالَّذِي يَقُولُ لِنَفْسِهِ : لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْتَحَ دَوْلَةً ،
فَلَأَفْتَحَ دَوْلَةً فِي مَمْلَكَتِي ... لَقَدْ أَمَرَ بِهِدْمِ الْكُنَائِسِ وَالْبَيْعِ ، حَتَّى بَلَغَ مَا هَدَمَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ
أَلْفًا وَبَيِّعًا .

أَيُّ مَجْنُونٍ أَسْخَفَ جُنُونًا مِنْ هَذَا الَّذِي يَحْسَبُ الْفُؤُسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَالْأَخْشَابِ ؛ تَقْبَلُ
كُلَّهَا بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ أَنْ تَدُقَّ فِيهَا الْمَسَامِيرُ ... ؟

سَيَعْلَمُ إِذَا نَشَبَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَوْلَةٍ أُخْرَى ، أَنَّهُ كَسَرَ أَشَدَّ سُبُوفِهِ مَضَاءً حِينَ كَسَرَ

المجلد التاسع

هَذِهِ هِيَ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ؛ فَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَكْتُبُ عَنْهَا : لَقَدْ تَطَاوَلَ الْمَجْنُونُ إِلَى
الْأُلُوْهِیَّةِ فَأَدْعَاهَا ، وَصَارَ يَكْتُبُ عَنْ نَفْسِهِ : بِاسْمِ الْحَاكِمِ الرَّحْمَنِ !
لَوْ كَانَ أَغْبَى الْأَغْبَاءِ فِي مَوْضِعِهِ لَاتَّقَى شَيْئًا ، لَا أَقُولُ تَقَوَّى الدِّينَ وَالضَّمِيرَ ، وَلَكِنْ
تَقَوَّى التَّفَاقُ السِّيَاسِيَّ ؛ فَكَانَ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَقُولُوا عَنْهُ : « أَبَانَا الَّذِي فِي
الْأَرْضِينَ ... ! » .

وَالْأَفَاثِي جَهْلٍ وَخَبِطٍ ، وَأَيُّ حُمَقٍ وَتَهَوُّرٍ ، أَنْ يَكُونَ إِلَهُ عَلَى حِمَارٍ ، وَإِنْ كَانَ اسْمُ
حِمَارِهِ الْقَمَرُ !

المجلد العاشر

سَيَأْخُذُهُ اللَّهُ بِأَمْرَةٍ ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جَنْسِهِ ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَقَاحَةِ غَرِيزَتِهِ أَنْ أَتَّفَكَ
عَلَى أُخْتِهِ الْأَمِيرَةِ (سِتِّ الْمَلِكِ) ، وَرَمَاهَا بِالْفَاحِشَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَرْكَى النِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ ،
وَأَتَّهَمَهَا بِالْأَمِيرِ (سَيْفِ الدِّينِ بْنِ الدَّوَّاسِ) وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدَبِّرُ قَتْلَهُ ، وَأَنَّهَا اجْتَمَعَتْ لِذَلِكَ
بِسَيْفِ الدِّينِ . فَسَأَمْسِكُ عَنِ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ ، وَأَدْعُ سَائِرَهُ بَيَاضًا حَتَّى أَذْهَبَ
إِلَيْهِمَا فَأَعِينَهُمَا بِمَا عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ ، ثُمَّ أَعُودُ لِلدَّوِينِ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْدُ ...

* * *

وَرَأَيْتُ أَنِّي اجْتَمَعْتُ بِهِمَا وَأَطْمَأَنَّا إِلَيَّ ، فَأَخَذْنَا نُذِيرُ الرَّأْيِ :

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ لِسَيْفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ : « وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَتَّبِعَهُ عِلْمَانَا يَقْتُلُونَهُ إِذَا
خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَى جَبَلِ الْمُقَطَّمِ ، فَإِنَّهُ يَنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ ! » .

فَقُلْتُ أَنَا : « لَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَلَا بِالتَّذْيِيرِ » .

قَالَتْ : « فَمَا الرَّأْيُ وَالتَّذْيِيرُ عِنْدَكَ ؟ » .

قُلْتُ : « إِنَّ لَنَا عِلْمًا يُسَمُّونَهُ (عِلْمَ النَّفْسِ) ، لَمْ يَقَعْ لِعِلْمَانِكُمْ ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ

هَذَا الْعِلْمُ أَنَّ الرَّجُلَ طَائِشُ الْغَرِيزَةِ مَجْنُونُهَا ، وَأَنَّ الْأَشْعَّةَ اللَّطِيفَةَ السَّاحِرَةَ الَّتِي تَتَّبِعُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ ، هِيَ الَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُحْهٍ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؛ فَإِذَا خَبِتْ هَذِهِ الْأَشْعَةُ وَبَطَلَتْ الْغَرِيزَةُ ، بَطَلَتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ كُلِّهَا ، وَكَفَتْ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرَائِزِ جِسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، لَا مِنْ فَضَائِلِهَا وَدِينِهَا . فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنَكِّرُ أَعْمَالَهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْجَدِيدَةِ ، وَيَهْدَأُ يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الصَّحِيحَةِ كَمَا نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الْفَاسِدَةِ ؛ فَإِذَا . . . » .

قَالَ الْأَمِيرُ : « فَإِذَا مَاذَا ؟ » .

قُلْتُ : « فَإِذَا خُصِي . . . » .

فَضَحِكْتُ سِتُّ الْمُلِكِ ضِحْكَةً رَنَتْ رَنِينًا .

قُلْتُ : « نَعَمْ إِذَا خُصِي هَذَا الْحَاكِمُ . . . » .

فَغَلَبَهَا الضَّحِكُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَرَمَتْنِي بِمِنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَ وَجْهِي ، فَأَتَتْنِي وَأَنَا أَقُولُ :

« نَعَمْ إِذَا خُصِي هَذَا الْحَاكِمُ » .

كُفْرُ الدُّبَابَةِ (*) . . .

قَالَ كَلِيلَةُ^(١) وَهُوَ يَعِظُ دِمْنَةَ وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَكَانَ دِمْنَةُ قَدْ دَاخَلَهُ الْغُرُورُ وَزَهَاهُ النَّصْرُ ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلَظَةُ ، وَلَقِيَ الثَّعَالِبُ مِنْ زَيْغِهِ وَالْحَادِهِ عَنَّا شَدِيدًا :
... وَأَعْلَمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتُهُ مِنْ رَأْيِكَ تَأْمًا لَا يَغْتَرِيهِ النَّقْصُ ، هُوَ بِعَيْنِهِ النَّاقِصُ
الَّذِي لَمْ يَتِمَّ ؛ وَالْغُرُورُ الَّذِي تَثَبَّتَ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يُثَبَّتُ أَنَّ
غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ .

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خَيَالٍ ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، وَلَوْ صَدَقَ
كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَذْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لِيَجِيءَ
حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ ، وَيَثْبُتَ الْكَبِيرُ مِنَ
الصَّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقَصُ ، وَيَصِحُّ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ لَهُ ، وَيُفْسَدُ الْفَاسِدُ
مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ ، وَمَا مَثَلُ هَذَا إِلَّا مَثَلُ الْأَرْزَبِ وَالْعُلَمَاءِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْزَبًا سَمِعَتِ الْعُلَمَاءُ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَمَتَى يَتَأَدَّنُ اللَّهُ
بِاتِّقَرِاضِهَا ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ ؛ فَقَالُوا : إِنَّ فِي الْكُجُومِ نُجُومًا مُدَبَّنَةً ، لَوْ أَلْتَفَّ ذَنْبُ
أَحَدِهَا عَلَى جِزْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ النَّافِخِ ، بَلْ أضعِفُ مِنْهَا كَأَنَّهَا زَفَرَةُ
صَدْرِ مَرِيضٍ ، { بَلْ أَوْهَى ، كَأَنَّهَا نَفْثَةٌ مِنْ شَفَتَيْنِ } . فَقَالَتِ الْأَرْزَبُ : مَا أَجْهَلُكُمْ إِلَيْهَا
الْعُلَمَاءُ ! قَدْ وَاللَّهِ خَرِفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ { وَاسْتَحْمَقْتُمْ } ؛ وَلَا تَزَالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٧ ، ٢١ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٢ يوليو/تموز ١٩٣٥ م ، السنة
الثالثة ، الصفحات : ١١٦٣ - ١١٦٦ .

(١) كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ هُنَا أَسْلُوبٌ مِنَ أَسَالِيبِ الْأُسْتَاذِ الرَّافِعِيِّ ، يَعْمَدُ إِلَيْهِ حِينَ يُرِيدُ تَقْرِيرَ الْمَعَانِي بِالتَّمَثِيلِ
وَالْمُحَاوَرَةِ . (الرَّسَالَةُ) .
{ وَانْظُرْ مَقَالَ (فَلَسْفَةُ الطَّائِشَةِ) فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ } .

الْأَذْنَابِ ؛ وَالذَّلِيلُ عَلَى جَهْلِكُمْ هُوَ هَذَا - قَالُوا : وَأَرَنْتَهُمْ ذَنْبَهَا ... !

قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَةَ هَذِهِ الْأَرْزَبِ مِنْ أَوْلِيكَ الْعُلَمَاءِ ؛ فَيَقُولُ : كَذَبُوا وَصَدَقْتُ أَنَا ، وَأَخْطَؤُوا^(١) جَمِيعًا وَأَصَبْتُ ، وَالتَّبَسَّ عَلَيْهِمْ وَأَتَكَشَّفَ لِي ، وَهُمْ زَعَمُوا وَأَنَا الْمُسْتَقِينُ . ثُمَّ لَا دَلِيلَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ دَلِيلِ الْأَرْزَبِ الْخَرْقَاءِ مِنْ هَنَةٍ تَتَحَرَّكُ فِي ذَنْبِهَا .

وَكَانَ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَجَاهِرُ بِالْكُفْرِ فِي قَوْمٍ إِلَّا رَجُلٌ هَانَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَغْبُؤُوا بِهِ ، فَهُوَ الْأَذَلُّ الْمُسْتَضْعَفُ ؛ أَوْ رَجُلٌ هَانُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَغْبُؤُوا بِهِمْ ، فَهُوَ الْأَعَزُّ الطَّاعِيَةُ ؛ ذَلِكَ لَا يَخْشَوْنَهُ فَيَدْعُونَهُ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ حُمَقِهِ ، وَهَذَا يَخْشَوْنَهُ فَيَرْكُزُونَ مُعَارَضَتَهُ وَعَلَيْهِ شَهَادَةُ ظُلْمِهِ ؛ وَمَا شَرٌّ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذَا .

وَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنْ كُنْتَ حَاكِمًا تَشْتَقُ مِنْ يُخَالِفُكَ فِي الرَّأْيِ ، فَلَيْسَ فِي رَأْسِكَ إِلَّا عَقْلُ أَسْمُهُ الْحَبْلُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْكَ الْخَطَا ، فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا عَقْلُ أَسْمُهُ الْحَدِيدُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنَّظَرِ ، فَفِيكَ عَقْلُ أَسْمُهُ الْجِدَارُ ؛ أَمَا إِنْ كُنْتَ تَنَازَلُ وَتُجَادِلُ ، وَتَقْنَعُ وَتَقْتَنِعُ ، وَتَدْعُو النَّاسَ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ بِالْعَمَى - فَفِيكَ الْعَقْلُ الَّذِي أَسْمُهُ الْعَقْلُ .

* * *

قَالَ كَلِيلَةُ : وَأَنَا يَا دِمْنَةُ ، فَلَوْ كُنْتُ قَائِدًا مُطَاعًا ، وَأَمِيرًا مُتَّبَعًا ، لَا يُعَصَى لِي أَمْرٌ ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ رَأْيٌ ، وَلَا يُنْكَرُ مِنِّي مَا يُنْكَرُ مِنَ الْمَخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ ، وَلَا يُقَالُ لِي دَائِمًا إِلَّا إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ : أَصَبْتَ ، { ثُمَّ هِيَ دَائِمًا } أَصَبْتَ ؛ وَلَا يَلْقَانِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي بِالْكَلِمَةِ الْأُخْرَى ، رَهْبَةً مِنْ سَخَطِي رَهْبَةَ الْجُبْنَاءِ ، أَوْ رَغْبَةً فِي رِضَايَ رَغْبَةَ الْمُتَنَافِقِينَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا^(٢) - فَلَوْ كُنْتُ وَكَانُوا عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَأَخْطَؤُوا » بَدَلًا مِنْ : « وَأَخْطَؤُوا » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ خَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا ، وَصَمَّتْ نِيَّاتُهُمْ كُلُّهَا » بَدَلًا مِنْ : « وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لِي بَاطِنُهُمْ جَمِيعًا » .

هَذَا ، لِأَحَالِنِي نَفْسَهُمْ إِلَى نَقْصِ الْعَقْلِ بَعْدَ كَمَالِهِ ، وَرَدَّتْنِي فُسُؤْلُهُمْ إِلَى فُسُؤْلِ الرَّأْيِ
بَعْدَ جُودَتِهِ ، فَأَخْلِقْ بَيْنِي أَنْ أَعْتَبِرَ وَضَعَهُمْ إِيَّايَ فِي مَوْضِعِ الْأَلِهَةِ ، هُوَ إِنْزَالُهُمْ إِيَّايَ فِي
مَنْزِلَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ وَإِلَّا كُنْتُ حَقِيقًا أَنْ يُصَيِّبَنِي مَا أَصَابَ الْعَنْزَ الَّذِي زَعَمُوا لَهَا أَنَّهَا أَثْنَى
الْفِيلِ ...

قَالَ دُمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي إِحْدَى خَرَائِبِ الْهِنْدِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَطَاءِ ، وَكَانَ فِيهَا عَضْرُفُوطٌ
كَبِيرٌ^(١) ، فَمَلَكَتُهُ الْجَمَاعَةُ وَدَهَبَتْ تَأْتِمِرٌ عَلَى^(٢) أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي . فَمَرَّ بِهِلِدِهِ الْخَرِبَةُ فِيلٌ
جَسِيمٌ مِنَ الْفِيلَةِ الْهِنْدِيَّةِ { الْعَظِيمَةِ } ، لَمْ يُحَسِّنْ بِالْعَطَاءِ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقًا بَيْنَ هَلِدِهِ الْأَمَّةِ
{ مِنَ الْحَشَرَاتِ } وَبَيْنَ الْحَصَى مَشُورًا يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهَنَا ؛ قَالُوا : فَغَضِبَ
الْعَضْرُفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ
يَخْتَالُ فِي هَلَاكِهِ^(٣) ؛ فَرَأَاهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ
لَوْ أَرَادَ قَدَمُ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ ؛ فَجَاءَ فَأَعْتَرَضَ الطَّرِيقَ ، وَدَبَّ دَيْبِيَهُ^(٤) إِلَى
قَدَمِ الْفِيلِ^(٥) ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ أَهْتَبَلَ هَلِدِهِ الْغَفْلَةَ مِنْهُ .. وَأَنْدَسَ تَحْتَهَا ، فَأَنْدَسَ
مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ !

ثُمَّ إِنَّ الْعَطَاءَ أَفْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا . فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لِسَبِيلِهِ ، وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا ، نَفَرَتْ
إِلَى أَجْحَارِهَا ، وَأَسْتَكْنَتْ فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ ؛ فَدَخَلَتْ إِلَى الْخَرِبَةِ عَنَزٌ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ
مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا ، وَرَأَتْهَا الْعَطَاءُ فَاجْتَمَعْنَ بِأَتَمِرٍ ...

فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ : هَذِهِ أَثْنَى الْفِيلِ . فَسَأَلَتْ عَظَايَةَ مِنْهُنَّ : وَأَيْنَ الثَّابِتَانِ الْعَظِيمَانِ ؟

(١) الْعَطَاءُ : جَمْعُ عَطَاءَةٍ وَعَظَايَةٍ ، وَهِيَ هَلِدَةُ الدُّوَيْبَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : (السَّلْحِيَّةُ) ، وَالْعَضْرُفُوطُ :
ضَرْبٌ مِنَ الْعَطَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : «عَنْ» بَدَلًا مِنْ : «عَلَى» .

(٣) فِي الْأَصْلِ : «فَنَظَرَ الْعَضْرُفُوطُ كَيْفَ يَصْنَعُ بِهِ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ» بَدَلًا مِنْ :
«قَالُوا : فَغَضِبَ الْعَضْرُفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي
مُدَافَعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَخْتَالُ فِي هَلَاكِهِ» .

قَالَتِ الْأُولَى : إِنَّ الْإِنْسَانَ دُونَ الذُّكُورَةِ فِي خَلْقِهَا ، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكْرُ مَقْلُوبًا أَوْ مُخْتَصَرًا أَوْ مُشَوَّهَا ، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يُشَوِّهْنَهَا ، أَفَلَا تَرَيْنِ النَّاتِبِينَ الْعَظِيمِينَ الْبَارِزِينَ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيمِ ، كَيْفَ نَبَاتًا صَغِيرِينَ مُثْقَلِينَ فَوْقَ رَأْسِ أَثْنَاهُ ... ؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ : إِنَّ جَارَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ ، فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ ؟

قَالَتِ الْآخَرَى : هُوَ هَذِهِ الزَّنْمَةُ الْمُنْدَلَبَةُ مِنْ حَلْقِهَا ، وَذَلِكَ ^(١) خُرْطُومٌ عَلَى قَدْرِ أَنْوَةِ الْأُنْثَى ... !

قَالُوا : ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمْلَكْنَ أَنْتَى الْفِيلِ هَذِهِ ؛ وَأَنَّ يَهْبَنَ لَهَا الْخَرَبَةَ وَأُثْمَهَا . وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ ، فَقَالَتْ { فِي نَفْسِهَا } : لَا جَرَمَ أَنْ تَكُونِ الْعَنْزُ فِئْلَةً فِي أُمَّةٍ مِنَ الْعِظَاءِ ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ ، وَلَا طَاغِيَةَ إِلَّا بِذَلِيلٍ ؛ وَإِنَّ الْعَظْمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ الْحَقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَإِنَّهُ رَبُّ عَظِيمٍ طَاغِيَةٌ مُتَجَبِّرٌ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ الْحِيلَةُ ، وَلَا عَاشَ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ الْكَذِبُ ، وَلَا حَكَمَ إِلَّا كَمَا يَخْكُمُ الْخِدَاعُ . وَهَذِهِ الدُّنْيَا لِلْمَخْطُوطِ كَأَنَّهَا دُنْيَا لَهُ وَخَدَهُ ، فَمَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ ، وَلَوْ أَنَّهَا أَذْبَرَتْ عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لَرَجَعَتْ ^(٢) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، لِيُثْبِتَ الْحَظُّ أَنَّهُ الْحَظُّ .

وَتَقَدَّمَ الْعِظَاءُ إِلَى الْعَنْزِ ، فَقُلْنَ لَهَا : أَبَيْتُهَا الْفِئْلَةُ الْعَظِيمَةُ ! إِنَّ قَرِينَكَ الْعَظِيمَ قَدْ مَسَّ أَمِيرَنَا الْعَضْرَفُوطُ بِقَدَمِهِ فَعَيَّيْتُهِ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ ، وَأَنْتِ أَثْنَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدْ أَخْزَنَّاكَ ^(٣) مَلِكَةً عَلَيْنَا ، وَوَهَبْنَا لَكَ الْخَرَبَةَ وَمَا فِيهَا .

قَالَتِ الْعَنْزُ : فَإِنِّي أَتَّهَبُ مِنْكُمْ هَذِهِ إِلَهِي ، وَنِعَمًا صَنَعْتُمْ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي مَا بَيْنَ الْعِظَايَةِ وَالْفِيلِ ، وَمَا بَيْنَ الْحَصَاةِ وَالْجَبَلِ ، فَإِذَا أَنَا قُلْتُ ، فَأَنَا قُلْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَهُوَ » بَدَلًا مِنْ : « وَذَلِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « رَجَعَتْ » بَدَلًا مِنْ : « لَرَجَعَتْ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَإِنَّا قَدْ أَخْزَنَّاكَ » بَدَلًا مِنْ : « وَأَنْتِ أَثْنَاهُ وَسَيِّدَتُهُ ، فَقَدْ أَخْزَنَّاكَ » .

أَمَرْتُ ، فَأَنَا أَمَرْتُ ؛ وَإِذَا أَنَا فَعَلْتُ ، فَأَنَا فَعَلْتُ . هُنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلِّهَا (أَنَا) وَاحِدَةٌ لَيْسَ مَعَهَا غَيْرُهَا ؛ لِأَنَّ هَهُنَا فِي هَذَا الرَّأْسِ دِمَاحٌ فَيْلَةٌ ، وَفِي هَذَا الْجِسْمِ قُوَّةٌ فَيْلَةٌ ، وَفِي الْخَبَرَةِ كُلِّهَا فَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ فَلَا أَعْرِفَنَّ مِنْكُمْ عَلَى الصُّوَابِ وَالْخَطَأِ إِلَّا الطَّاعَةَ ، طَاعَةَ الْأَعْمَى لِلْبَصِيرِ . أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْحَقَائِقِ أَنَّنِي فَيْلَةٌ وَأَنْتُمْ عِظَاءٌ ؛ وَمَتَى بَدَأَ الْيَقِينُ مِنْ هُنَا سَقَطَ الْخِلَافُ مِنْ بَيْنِنَا وَبَطَلَ الْأَعْتِرَاضُ مِنْكُمْ ، وَقُوَّتِي حَقٌّ لِأَنَّهَا قُوَّةٌ ، وَبَاطِلِي كَذَلِكِ حَقٌّ لِأَنَّهُ مِنْ قُوَّتِي ؛ وَقَدْ قَالَ أَسْلَافُنَا حُكَمَاءُ الْفَيْلَةِ : إِنَّ الْقَوِيَّ بَيْنَ الضَّعَفَاءِ مَسِينَةٌ مُطْلَقَةٌ ، فَهُوَ مُضْلِحٌ حَتَّى بِالْإِفْسَادِ ، حَكِيمٌ حَتَّى بِالْحِمَاقَةِ ، إِمَامٌ حَتَّى بِالْخُرَافَةِ ، عَالِمٌ حَتَّى بِالْجَهَالَةِ ، نَبِيٌّ حَتَّى بِالشُّعُودَةِ . . . !

قَالُوا : وَتُنْكِرُ عَلَيْهَا عِظَايَةَ صَالِحَةٍ عَالِمَةٍ كَانَتْ ذَاتَ رَأْيٍ وَدِينٍ فِي قَوْمِهَا ، وَكُنَّ يُسَمِّيْنَهَا : (الْعِمَامَةَ) ، لِيَبَاضِهَا وَصَلَاحِهَا وَطَهَارَتِهَا ، فَقَالَتْ : وَلَا كُلُّ هَذَا أَثْبَتُهَا الْفَيْلَةُ ؛ لَقَدْ تَحَرَّضْتُ غَيْرَ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّكَ تَحْكُمِينِنَا مِنْ أَجَلِنَا لَا مِنْ أَجَلِكَ ، وَمَا قَوْلُكَ إِلَّا كَلِمَاتٌ تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا^(١) نَحْنُ ؛ فَلَكِ الطَّاعَةُ فِيمَا يُضْلِحُنَا] لَا فِيمَا يُفْسِدُنَا [، { وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ رَدٌّ عَلَيْكَ } ، وَرَأْيُكَ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَعَهُ آرَؤُنَا ، لِتَسْبِيحِ الْأَسْبَابِ أَسْبَابِ الْمُوَافَقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ ، فَتَأْخُذَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَتَتْرَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ؛ وَقَدْ كَانَ يُقَالُ فِي قَدِيمِ الْحِكْمَةِ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُقَدِّمُ رَأْيًا لِلْأُمَّةِ الْحَازِمَةَ كَيْ تَأْخُذَ بِهِ ، أَوْ يَضَعُ لَهَا شَرْعًا لِيَحْمِلَهَا عَلَيْهِ ، أَوْ يَسْئُلَ لَهَا سُنَّةً لِيَتَّبِعَهَا - { إِنَّهُ } يَجِبُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَدِّمِ لِتَحْوِيلِ الْأُمَّةِ أَوْ تَحْرِيرِهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ لِأَهْلِ الشُّوْرَى وَفِي رَأْسِهِ الرَّأْيُ ، وَفِي عُنُقِهِ حَبْلٌ ؛ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيَبْسُطُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ ، وَيُجَادِلُهُمْ وَيُجَادِلُونَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ الرَّأْيُ حَقًّا أَخَذُوا الرَّأْيَ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَخَذُوا الْحَبْلَ فَسَقُوا فِيهِ هَذَا الْمُتَهَوِّرَ .

وَفِي دِينِنَا أَنْ الطَّاعَةَ فِي الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى ؛ وَلَقَدْ كَانَ لَنَا عَضْرُفُوطٌ بِخَائَةِ فِي الْأَدْيَانِ دَرَاسَةٌ لِكُتِبِهَا { عَلَامَةُ نَقَابٍ } ؛ فَكَانَ مِمَّا عَلَّمَنَا : أَنَّ الْمَخْلُوقَ مَبْنِيٌّ عَلَى النَّقْصِ إِذْ هُوَ مَاضٍ إِلَى الْفَنَاءِ ، فَيَجِبُ أَلَّا يَتِمَّ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِمِقْدَارٍ ، وَأَلَّا تَكُونَ الْقُوَّةُ فِيهِ

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا أَعْمَالُنَا » بَدَلًا مِنْ : « تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا » .

إِلَّا بِمِقْدَارٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْعَقْلُ النَّامُ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَجْمُوعُ الْعُقُولِ الْعَظِيمَةِ كُلِّهَا ، وَكَانَ
أَتَمُّ الْأَرَاءِ وَأَصَحُّهَا مَا أَتَبَتِ الْأَرَاءُ نَفْسُهَا أَنَّهُ أَصَحُّهَا وَأَتَمُّهَا . فَلَا الدِّينَ أَتَبَعَتْ أَتَمُّهَا
الْفَيْئَةُ ، وَلَا أَتَبَعَتْ فَيْئًا الْعَقْلُ ، { وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا (التَّفْطِيلُ) الْكَاذِبُ } .

فَلَمَّا سَمِعَتْ الْعَنْزُ ذَلِكَ تَنَفَّسَتْ وَغَضِبَتْ ، وَقَالَتْ : إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ التَّرَهَاتِ مِنْ
الْأَسْتِكْمِ ، وَهَذِهِ الْأَبَاطِيلِ فِي عُقُولِكُمْ ؛ لَا أَسْمَعَنَّ مِنْكُمْ كَلِمَةً الدِّينِ وَلَا كَلِمَةً الْأَنْبِيَاءِ وَلَا
الْعَصَافِيطِ ... فَذَلِكَ وَخِي غَيْرُ وَخِي أَنَا ؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ وَخِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ ، وَإِذَا لَمْ
أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ الَّذِي شَرْطُهُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةٌ . وَذَلِكَ إِنْ
لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غَرِيبَةً عَنْكُمْ ، مَا بُدِّ مِنْ إِحْدَى الْغُرَبَيْنِ ، فَهُوَ أَوَّلُ
الْقَطِيعَةِ ، وَالْقَطِيعَةُ أَوَّلُ الْفَسَادِ . وَمَا دَامَ فِي الدِّينِ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي ، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي ،
وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَى مَشِيئَتِي - فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَذَا ... !

فَضَحِكَتْ (الْعِمَامَةُ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِرَةِ : بَلْ قُولِي : أَنَا مَجْنُونَةٌ بِ ... (أَنَا) ؛ أَفَلَا
يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلَقْتَ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَغْتَرِبِي عَقْلُكَ شَيْءٌ مِمَّا يَغْتَرِبِي الْعُقُولُ ؟ وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّكَ
قَوِيَّةُ الرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ الْقُوَّةِ ، حَسَنَةُ التَّدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ الشَّجَاعَةِ ، مُتَجَاوِزَةُ الْمِقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ
الْحَزْمِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ ؛ وَلَكِنْ أَلَمْ يَقُلِ الْحُكَمَاءُ : إِنَّ الزِّيَادَةَ الْمُسْرِفَةَ فِي
جِهَةِ مِنَ الْعَقْلِ ، تَأْتِي مِنَ النِّقْصِ الْمُتَحَيِّفِ لِجِهَةٍ أُخْرَى ؛ وَإِنَّهُ رَبُّ عَقْلٍ كَانَ تَامًا عَبَقَرِيًّا
فِي أُمُورٍ ، لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ أَبْلَهُ فِي غَيْرِهَا ؛ يُحْسِنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحْسِنُهُ أَحَدٌ ، وَيُحْكِمُ مِنْهَا
مَا لَا يُحْكِمُهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَغْلُطُ فِي الْأُخْرَى مَا لَا يَغْلُطُ أَحَدٌ فِيهِ ؟

قَالُوا : فَجَاشَتِ الْعَنْزُ وَفَارَتْ مِنَ الْغَضَبِ قُوَّةَ الْجَبَّارِ ، وَخِيلَ إِلَيْهَا مِنْ عَمَى الْغَيْظِ
أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَأَنَّ زَنْمَتَهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا خُرُطُومٌ طَوِيلٌ ، وَأَنَّ قَرْنَيْهَا أَنْبَجَ
مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ ؛ وَقَالَتْ : وَيَحْكُمُ ! خُذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةَ) فَاسْتَفُوهَا ؛ فَإِنَّهَا كَمَا
قَالَتْ ؛ تَقَدَّمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَبْلِ ... !

وَكَانَ فِي الْعَطَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَارِبُلٌ وَجُبْنَاءُ ، وَمَاكُولُونَ لِكُلِّ آكِلٍ ؛ فَتَشَبَّحَ ^(١) لَهُمْ أَنَّ

أَتَى الْفِيلَ هَذِهِ ... سَتَخْلُقُهُمْ فَيْلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا ؛ فَإِذَا مَرَدُّوا عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صَرَامَةِ
الْبَاسِ بَحِثْ تَجْعَلْ كُلَّ ظِلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جَبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمُ الْأَرْضُ . ثُمَّ
إِيَّاهُمْ أَنْخَزْلُوا وَتَرَاجَعُوا ، وَأَخِذَتْ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ فَشَقَّتْ ، وَخَمَدَ الرَّأْيُ مِنْ بَعْدِهَا ،
وَأَنْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالِدَيْنُ وَالْعَقْلُ الْخُرُّ ... ؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعِظَاءِ عَلَى الْعَنْزِ تَجَرَّرُ
أَذْيَالَهَا .

قَالُوا : وَاعْتَرَبَ الْمَاعِزَةُ وَأَحَسَّتْ لَهَا وُجُودًا لَمْ يَكُنْ ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةٌ
نَبَاهَةٌ شَانَ الْفَيْلِ الْقَوِيَّ ، فَلَجَّتْ فِي عَمَائِطِهَا وَكَفَرَتْ بِجِنْسِهَا ، وَقَالَتْ : لَمْ يَخْلُقْنِي اللَّهُ
فَيْلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي ؛ فَأَنَا لَا هُوَ ...

وَبَتَّ عِنْدَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِعَنْزٍ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي الدُّنْيَا ؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ وَتَعِيشُ
عَلَى مَذَاهِبِ الْفَيْلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ ؛ فَإِذَا مَشَتْ أُرْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهُا بِنَاءٌ يَتَقَلْقَلُ ، وَإِذَا
أَضْطَجَعَتْ أَذْذَرَتْ الْأَرْضَ أَنْ تَمَسَّكَ لَا تَدْكُهَا بِجَنْبِهَا ... !

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفَيْلُ بِهَذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُمْ بِالْفَيْلَةِ ... وَتَاهَبَتْ
هَذِهِ لِلْقِتَالِ ، وَتَحَصَّصَتْ فِي الْمُبَارَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ ... (وَالْمُعَانَاةِ) فَتَصَبَّتْ قَرْنَيْهَا ،
وَحَرَكَتْ رَمَتَيْهَا ، وَطَاطَأَتْ ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ ، وَبَسَّتْ قَوَائِمَهَا ، وَصَلَبَتْ
عِظَامَهَا ، وَنَفَشَتْ شَعْرَهَا ، وَتَشَوَّكَتْ كَالْقُنْفُذِ ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِضْرَارَهَا ، وَكَانَتْ
عَنْزًا نَاطِيحَةً مُنْذُ كَانَتْ تَتَّبِعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوهَا ، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَيَّلَتْ ... ؟

ثُمَّ إِنَّهَا تَبَتَّ فِي طَرِيقِ الْفَيْلِ لِيَرَى بَعَيْنَيْهِ هَذَا الْهَوْلَ الْهَائِلَ ... فَأَقْبَلَ ، فَمَدَّ
خُرْطُومَهُ ، فَتَالَهَا بِهِ ، فَلَفَّهَا فِيهِ ، فَقَبَضَهُ ، فَرَفَعَهُ ، فَطَوَّحَهَا ، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي
السَّمَاءِ ... !

وَتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلُذْنَ بِأَجْحَارِهِمْ ، ثُمَّ غَدَوْنَ عَلَى رِزْقِهَا ؛ فَإِذَا جِنْفَةُ الْعَنْزِ غَيْرَ
بَعِيدٍ ، فَدَبَبْنَ عَلَيْهَا وَارْتَعَيْنَ فِيهَا ، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيْلَهَا جُنُونُهَا ، وَأَذْرَكْنَ أَنَّ
الْكُذْبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى
أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءً فَيَعْلِيهَا ؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ
بَاطِلِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا ، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِينُكَ الْمَاءَ مُحْمَرًا وَالْمَاءُ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ

فِيهِ ، حَتَّى إِذَا انْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ مَا يُخْفِي الْحَقَّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ :
لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ ؛ ثُمَّ أَتَقَنَّ أَنْ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ ، هِيَ
كَمُحَاوَلَةِ اسْتِنْلَادِ الْفِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ ... !

* * *

قَالَ كَلِيلَةُ . وَأَعْلَمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنْ هَلَدِهِ الْعُتْرُ الْحَمَفَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ الذَّبَابَةِ ، لَمَا
أَخَذَهَا اللَّهُ أَخْذَ الذَّبَابَةِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : رَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمَقَى الذَّبَّانِ ، فُدِرَتْ الْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا أَبَدِيَّةً ،
فَلَوْ انْقَلَبَتْ نُقْطَةً حَبْرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةٌ : سُخْفٍ .

وَوَقَعَتْ هَلَدِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ زَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَ
الْمَرْأَةِ ؛ وَقَالَتْ : إِنَّ هَذَا لِمِنْ أَدَلِّ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ
كَيْفَ يَتَّفِقُ عَلَى مَا يَتَّفِقُ ، عَبَثًا فِي عَبَثٍ ، وَلَا رَبِّبَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَّبُوا النَّاسَ ، إِذْ كَيْفَ
يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلَقْتُ هَلَدِهِ الذَّبَابَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا ... ؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي السَّمَاءِ ، فَأَبْصَرَتْ نُجُومَهَا يَتَلَأَلْنَ وَبَيْنَهَا الْقَمَرُ ؛ فَقَالَتْ : وَهَذَا
دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ ، وَكَذِبِ الْأَذْيَانِ ، وَعَبَثِ الْمُصَادَفَاتِ ؛
فَمَا الْإِيمَانُ بَعِينُهُ إِلَّا الْإِلْحَادُ بَعِينِهِ ، وَوَضَعَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ هُوَ إِنْجَادُ الْأَلُوْهِيَّةِ فِيهِ ، وَإِلَّا
فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا) فِي الْأَرْضِ وَرَفَعُ هَذَا الذَّبَّانِ الْأَبْيَضِ وَيَعْسُوبِهِ
الْكَبِيرُ^(١) إِلَى السَّمَاءِ ... ؟

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ ، فَجَعَلَتْ تَمُورُ فِيهَا ذَهَابًا وَجِيئَةً ، حَتَّى رَجَعَتْ بِقَرَّةِ
الْفَلَاحِ مِنْ مَرْعَاهَا ، فَبِهِتَتِ الذَّبَابَةُ وَجَمَدَتْ عَلَى غُرْبَتِهَا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ ، كَأَنَّهَا
تُرَاوِلُ عَمَلًا ؛ فَلَمَّا أَمَسَتْ قَالَتْ : وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرْزَاقِ فِي الدُّنْيَا ،

(١) { الْيَعْسُوبُ : أَمِيرُ النَّحْلِ وَالذَّبَّانِ وَتَحْوِيهِمَا ، خِيَلٌ لِلذَّبَابَةِ أَنَّ الْقَمَرَ أَمِيرٌ هَذَا الذَّبَابِ
الْأَبْيَضِ ... } .

فَهَاتَانِ ذُبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ وَاکْتَسَبَتَا فِيهِمَا تَأْكُلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظُمَانِ سِمْنَا ؛ وَالنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ الذُّبَابِي يُسْمَوْنَهُمَا عَيْنَيْنِ . . . وَأَنَا فَضَيْتُ الْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعْصُ وَالسَّعُ لَا تُثَقِّبُ لِي ثُقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا انْتَزَعْتُ شَعْرَةً ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ رِزْقِي (أَنَا) وَرِزْقُ هَاتَيْنِ الذُّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقَرَةِ . . . ؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفَسَاءَ تَدِبُ دَيْبِيهَا فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَفْذَارِ ؛ فَظَنَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ : هَذِهِ لَا تَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْكُفْرِ ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا ؛ (أَنَا) لِي أَجْنِحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا ، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ ؛ وَمَا كَانَتْ ذُبَابَةً قَدِيمَةً مِنْ ذُبَابِ الْقُرُونِ الْأُولَى ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بَلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ ، فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرَكَهَ جَنَاحًا^(١) . ثُمَّ إِنَّهَا أَضْغَتْ فَسَمِعَتْ الْخُنْفَسَاءَ تَقُولُ لِأُخْرَى وَهِيَ تُحَاوِرُهَا : إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي ؛ يَا وَيْحَنَا ! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَامُوسًا كَهَذَا الْجَامُوسِ الْعَظِيمِ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ وَلَمْ نَجِدْ . . . ؟

فَقَالَتِ الذُّبَابَةُ : إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْعَاقِلَةِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مُنَاقَلَةً مِنْ أَنَّهَا بَطِينَةٌ مُرَهَقَةٌ بِعَجْزِهَا ، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُنْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا ، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي (أَنَا) السَّابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ . . . !

وَجَعَلَتِ الذُّبَابَةُ لَا يُسْمَعُ مِنْ دَنْدَنْتِهَا إِلَّا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . مِنْ كُفْرِ إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِ ، إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِمَا ؛ حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ ذُبَابَةٍ

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَعْيَهَا ؛ فَبَيَّنَّا الذُّبَابَةَ عَلَى وَجْهِ حَائِطٍ ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعُوضَةً أَوْ بَعُوضَتَيْنِ ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا ، فَوَقَّتْ تَحُلُّكَ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا - دَنْتَ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ انْفَلَقَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسٍ ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا ، فَالْتَقَطَتْهَا .

وَلَمَّا انْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ . . . !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! (*)

يَقُولُونَ : إِنَّ فِي شَبَابِ الْعَرَبِ شَيْخُوخَةَ أَلْهَمِ وَالْعَزَائِمِ ؛ فَالشَّبَابُ يَمْتَدُّونَ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَهُمْ يَنْكَمِشُونَ .

وَإِنَّ أَلْهَوَهُ قَدْ خَفَّ بِهِمْ حَتَّى ثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ حَيَاةُ الْجِدِّ ، فَأَهْمَلُوا الْمُمَكِّنَاتِ فَرَجَعَتْ لَهُمْ كَالْمُسْتَحِيلَاتِ .

وَإِنَّ أَلْهَزَلَ قَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَعْبَةٍ فَأَخْتَصَرُواهَا ؛ فَإِذَا هَزَرُوا بِالْعَدُوِّ فِي كَلِمَةٍ فَكَأَنَّمَا هَزَمُوهُ فِي مَعْرَكَةٍ ...

وَإِنَّ الشَّبَابَ مِنْهُمْ يَكُونُ رَجُلًا تَامًا ، وَرُجُولَةً جَسِمِهِ تَخْتَجُّ عَلَى طُفُولَةِ أَعْمَالِهِ .

وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَ شَبَابِ الْعَرَبِ أَلَّا يَحْمِلُوا أَبَدًا نَبْعَةَ أَمْرِ عَظِيمٍ .

* * *

وَيَزَعُمُونَ أَنَّ هَذَا الشَّبَابَ قَدْ تَمَّتِ الْأَلْفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَغْلَاطِهِ ، فَحَيَاتُهُ حَيَاةُ هَذِهِ الْأَغْلَاطِ فِيهِ .

وَأَنَّهُ أَبْرَعُ مُقَلِّدٍ لِلْغَرْبِ فِي الرِّدَائِلِ خَاصَّةً ؛ وَبِهَذَا جَعَلَهُ الْغَرْبُ كَالْحَيَوَانِ مَحْصُورًا فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلَذَاتِهِ .

وَيَزَعُمُونَ أَنَّ الزُّجَاجَةَ مِنَ الْخَمْرِ تَعْمَلُ فِي هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِينِ عَمَلَ جُنْدِيٍّ أَعْجَبِي فَاتِحِ ...

وَيَتَوَاصُونَ بِأَنَّ أَوَّلَ السِّيَاسَةِ فِي اسْتِعْبَادِ أُمَّةِ الشَّرْقِ ، أَنْ يُتْرَكَ لَهُمْ أَلَا سِتْقَالُ التَّامِّ فِي حُرِّيَةِ الرِّدْنَةِ ...

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٥ ، ٣ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٢ يونيو / حزيران ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٠٠١ - ١٠٠٣ .

وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي الشَّرْقِ مِنَ التَّيْنِ لِلتَّخْرِيبِ : قُوَّةُ أُورُبَّةَ ، وَرَدَائِلُ أُورُبَّةَ .

* * *

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! مَنْ غَيَّرَكُمْ يُكَذِّبُ مَا يَقُولُونَ وَيَزْعُمُونَ عَلَى هَذَا الشَّرْقِ
الْمُسْكِنِينَ ؟

مَنْ غَيَّرَ الشَّبَابَ يَضَعُ الْقُوَّةَ بِإِرَاءِ هَذَا الضَّعْفِ الَّذِي وَصَفُوهُ لِتَكُونَ جَوَابًا عَلَيْهِ ؟
مَنْ غَيَّرَكُمْ يَجْعَلُ الْقُفُوسَ قَوَانِينَ صَارِمَةً ، تَكُونُ الْمَادَّةُ الْأُولَى فِيهَا : قَدَرْنَا لِأَنَّا
أَرَدْنَا ؟

أَلَا إِنَّ الْمَعْرَكَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَسْتِعْمَارِ مَعْرَكَةٌ نَفْسِيَّةٌ ، إِنْ لَمْ يُقْتَلْ فِيهَا الْهَزَلُ قُتِلَ فِيهَا
الْوَجِبُ !

وَالْحَقَائِقُ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَذَا الْأَسْتِعْمَارِ إِنَّمَا يَكُونُ فِيكُمْ أَنْتُمْ بَحْثُهَا التَّحْلِيلِيُّ ،
تَكْذِبُ أَوْ تَصَدِّقُ .

* * *

الشَّبَابُ هُوَ الْقُوَّةُ ؛ فَالشَّمْسُ لَا تَمْلَأُ النَّهَارَ فِي آخِرِهِ كَمَا تَمْلَأُهُ فِي أَوَّلِهِ .
وَفِي الشَّبَابِ نَوْعٌ مِنَ الْحَيَاةِ تَظْهَرُ كَلِمَةُ الْمَوْتِ عِنْدَهُ كَأَنَّهَا أَخْتُ كَلِمَةِ النَّوْمِ .
وَلِلشَّبَابِ طَبِيعَةٌ أَوَّلُ إِذْرَاكِهَا الثَّقَةُ بِالْبَقَاءِ ، فَأَوَّلُ صِفَاتِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى الْعَزَمِ .
وَفِي الشَّبَابِ تَصْنَعُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْحَيَاةِ أُنْمَارَهَا ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا تَصْنَعُ
الْأَشْجَارُ كُلُّهَا إِلَّا خَشَبًا . . .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! أَجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا الشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .

* * *

أَنْقِذُوا فَضَائِلَنَا مِنْ رَدَائِلِ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُبِّيَّةِ ، تُنْقِذُوا أَسْتِقْلَالَنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتُنْقِذُوا
بِذَلِكَ .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ حِينَ يَدْعُو إِلَيْهِ الْعَرَبُ ، ﴿ يَدْعُو لَمَنْ صَرَّهٗ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى

وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٢٢﴾ سورة الحج/ الآية : ١٣ .

لَيْسَ الْمَوْلَى إِذَا جَاءَ بِقُوَّتِهِ وَقَوَائِنِهِ ، وَلَيْسَ الْعَشِيرُ إِذَا جَاءَ بِرِذَائِلِهِ وَأَطْمَاعِهِ .
أَيُّهَا الشَّرْقِيُّ ! إِنَّ الدُّنْيَارَ الْأَجَنِّيَّ فِيهِ رِصَاصَةٌ مَخْبُوءَةٌ ، وَحَقُوقُنَا مَقْتُولَةٌ بِهِئِهِ
الدُّنَانِيرِ .

أَيُّهَا الشَّرْقِيُّ ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجَنِّيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [سورة إبراهيم/ الآية : ٢٢] .

* * *

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! لَمْ يَكُنِ الْعَمِيرُ يَغْسُرُ عَلَى أَسْلَافِكُمْ الْأَوَّلِينَ ، كَانَ فِي يَدِهِمْ مَفَاتِيحُ
مِنَ الْعَنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا .

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السِّرِّ ؟ السِّرُّ أَنَّهُمْ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْمَخْلُوقِ ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ
أَعْمَالِ الْخَالِقِ .

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ ، وَالْمَعْنَى
الْأَرْضِيَّةُ .

وَعَلِمَهُمُ الدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ
وَكِبْرِيَاءَهُ .

وَاخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ اخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا ، عَلَامَتُهُ الْمُسَجَّلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ :
لَا يَذَلُّ .

* * *

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قَلَّةَ الْمَالِ ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَنْخِذِلُ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَتَهْلِكُ
الْمَوَاهِبُ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِي ، وَتَتَبِعُ الْقُوَّةُ ،
وَتَعْمَلُ كُلُّ مُوَهِّبَةٍ .

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمَةِ ، تُفَسِّرُ كَلِمَةَ الْخَوْفِ مِنْهُ رَذِيلَةً غَيْرَ الْخَوْفِ .

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا ، تُضِيحُ الْكَلِمَةَ قَانُونِ الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ .

هَكَذَا اخْتَرَعَ الَّذِينَ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ : أَنَهَزَمَتْ نَفْسُهُ .

* * *

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا : أَطْلُبِ الْمَوْتَ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وَالنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .

وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةٌ مُقَاتِلَةٌ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابُ ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تُسَمَّنُ الشَّاةُ لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَالْحَجَرُ الصَّلْدُ إِذَا تَرَضَّرَصَتْ مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِينَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

* * *

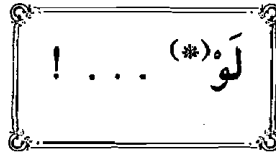
يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَحْيَا فِي السِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا حَيَاتَهُ فِيهَا .

فَالْقُوَّةُ الْقُوَّةُ يَا شَبَابُ ! الْقُوَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةَ التَّرَفِ وَالتَّخَنُّثِ .

الْقُوَّةُ الْفَاصِلَةُ الْمُتَسَامِيَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةٍ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .

الْقُوَّةُ الصَّارِمَةُ الثَّاقَاةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةٍ (لَا) مَعْنَى لَا .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! أَجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا الشَّرْقُ عَرِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .



رَأَيْتُنِي جَالِسًا فِي مَسْرَحِ هَزْلِي بِمَدِينَةِ إِسْكَنْدَرِيَّةَ ، كَمَا يَجْلِسُ الْقَاضِي فِي جَرِيمَةٍ
يَحْمِلُ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَامَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ، وَيَحْمِلُ هُوَ عَقْلَهُ وَحُكْمَهُ . وَقَدْ ذَهَبْتُ لِأَرَى
كَيْفَ يَسَاخَفُ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ؛ فَكَانَ حُكْمِي أَنَّ السَّخَافَةَ عِنْدَنَا سَخِيفَةٌ جَدًّا . . .

رَأَيْتُهُمْ هُنَاكَ يَنْقُدُونَ الْعُيُوبَ بِمَا يُنْسَبُ عُيُوبًا جَدِيدَةً ، وَيَسْبَحُونَ بِأَيْدِيهِمْ سَبَاحَةً
مَاهِرَةً ؛ وَلَكِنْ عَلَى الْأَرْضِ لَا فِي الْبَحْرِ ، وَتَكَادُ نَظَرَتُهُمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْهَزْلِيَّةِ تَكُونُ عَمَى
ظَاهِرًا عَمَّا هِيَ بِهِ حَقِيقَةُ هَزْلِيَّةٍ ؛ وَلَا غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هَذَا التَّمَثِيلِ إِلَّا الرِّقَاعَةَ وَالْإِسْفَافَ
وَالْخَلْطَ وَالْهَذْيَانَ ، إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأَشْبَهَ بِجُمْهُورِهِمُ الَّذِي يَحْضُرُهُمْ ، وَكَانَ هُوَ
الْأَقْرَبَ إِلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ الْعَامِيَّةِ الْبَلِيدَةِ الَّتِي أَغْتَادَتْ مِنْ تَكْلُفِ الْهَزْلِ مَا جَعَلَهَا هِيَ فِي ذَاتِ
نَفْسِهَا هَزْلًا يُسَخَّرُ مِنْهُ .

وَلَا أَسْخَفَ مِنْ تَكْلُفِ الْكُتَّةِ الْبَارِدَةِ قَدْ خَلَتْ مِنَ الْمَعْنَى ، إِلَّا تَكْلُفُ الْمُضْحِكِ
الْمَصْنُوعِ يَأْتِي فِي عَقِبِهَا كَالْبُرْهَانِ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْكُتَّةِ مَعْنًى .

قَالَ قُرْنُ الْمُضْحِكِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ السُّخْفُ الَّذِي يُوَافِقُونَ بِهِ الرُّوحَ الْعَامِيَّةَ
الضَّيِّئَةَ الْكَادِبَةَ الْمَكْذُوبَ عَلَيْهَا ، الَّتِي يَبْلُغُ مِنْ بِلَاهَتِهَا أَحْيَانًا أَنْ تَضْحَكَ لِلْكُتَّةِ قَبْلَ
إِلْقَائِهَا ، لِفَرْطِ حِفَّتِهَا وَرَعُوتِهَا ، وَطُولِ مَا تَكْلَفَتْ وَأَعْتَادَتْ . فَمَا ذَلِكَ أَلْفٌ إِلَّا مَا تَرَى
مِنَ التَّخْلِيطِ فِي الْأَلْفَاظِ ، وَالتَّضْرِيبِ بَيْنَ الْمَعَانِي ، وَإِنْقَاعِ الْغُلَظِ فِي الْمَعْقُولَاتِ ؛ ثُمَّ
لَا ثُمَّ بَعْدَ هَذَا . فَلَا دِقَّةَ فِي التَّأْلِيفِ ، وَلَا عُمُقَ فِي الْفِكْرِ ، وَلَا سِيَاسَةَ فِي جَمْعِ
الْقَضَائِصِ ، وَلَا نَفَازَ فِي أَسْرَارِ النَّفْسِ ، وَلَا جِدَّ يُؤْخَذُ مِنْ هَزْلِيَّةِ الْحَيَاةِ ، وَلَا عَظَمَةَ
تُسْتَخْرَجُ مِنْ صَغَائِرِهَا ، وَلَا فَلَسَفَةَ تُعْرَفُ مِنْ حِمَاقَاتِهَا .

وَالْفَرْقُ بَعِيدٌ بَيْنَ ضَحِكِ هُوَ صِنَاعَةُ ذَهْنٍ لِتَحْرِينِكَ النَّفْسِ ، وَشَحَذِ الطَّنَجِ ، وَتَصَوُّيرِ الْحَقِيقَةِ صُورَةً أُخْرَى ، وَبَيْنَ ضَحِكِ هُوَ صِنَاعَةُ الْبَلَاهَةِ لِلْهُوِ وَالْعَبَثِ وَالْمَجَانَةِ لَا غَيْرُ .

* * *

وَكَانَ مَعِيَ قَرِيبٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ الطَّلَبَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ لِلآدَابِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، فَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا ^(١) حَتَّى جَاءَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ضُبَاطِ الْأُسْطُولِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ، فَجَلَسُوا بِحِذَائِنَا صَفًّا تَلُوحُ عَلَيْهِمْ مَخَايِلُ الظَّفَرِ ، وَلَهُمْ وَقَارُ الْبُطُولَةِ ، وَفِيهِمْ أَرْوَاحُ الْحَرْبِ ؛ وَهُمْ يَبْدُونَ فِي ثِيَابِهِمُ الْبَيْضِ الْمُمْطَرَّةِ ^(٢) كَأَنَّهُمْ ثَلَاثَةٌ تُسَوِّرُ هَبْطَتِ مِنَ الْعَمَامِ إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَا عَيْنِيهَا نَظَرَاتٍ تَدُورُ هُنَا وَهُنَاكَ تُتَكَبَّرُ وَتَعْرِفُ .

وَأَعْجَبَنِي أَنْ أَرَاهُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْهَزَلِيِّ الْمُتَمَلِّي بِالضُّعْفَاءِ ، كَأَنَّهُمْ ثَلَاثُ حَقَائِقَ بَيْنَ الْأَغْلَاطِ ، أَوْ ثَلَاثُ أَغْلَاطٍ كَبِيرَةٍ . . . وَكَانَ أَبْدَعَ مَا أَرَاهُ عَلَى هَيْئَةٍ وَجُوهِهِمْ وَأَسْرُ لَهُ ، تَوَاضَعُ هَذَا الْأَسْتِعْدَادِ الْحَرْبِيِّ وَتَحَوُّلُهُ إِلَى اسْتِعْدَادٍ لِلشَّخَرِيَّةِ . . .

ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ طَوِيلًا ، فَإِذَا صَرَامَةٌ وَشَهَامَةٌ ، وَسَكِينَةٌ وَوَدَاعَةٌ ، وَحُسْنُ سَمْتٍ وَحَلَاوَةٌ هَيْئَةٍ فِي جِلْسَةِ رَزِينَةٍ مُتَوَقِّرَةٍ ، لَا يُشَبِّهُهَا فِي حِسِّ النَّفْسِ الَّتِي نَعْرِفُ مَعَانِي الْقُوَّةِ إِلَّا وَضَعُ ثَلَاثَةِ مَدَافِعٍ مُصَوَّبَةٍ .

وَجَعَلْتُ أَقْلُبُ عَيْنِي فِي النَّاسِ الْمَوْجُودِينَ وَمَلَامِيحِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَرْجَعُ الْبَصَرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ ، فَأَرَى الْمِضْرِيَّ كَالْمُقْتَنِعِ بِأَنَّهُ مَخْدُودٌ بِمَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي غَيْرِهِمَا ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ لَا يَزْحَلُ وَلَا يُغَامِرُ ، وَلَا تَتَقَادَفُهُ الدُّنْيَا ؛ وَأَرَى الْإِنْكِلِيزِيَّ كَالْمُقْتَنِعِ بِأَنَّهُ كُلُّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ يَنْتَظِرُ الْإِنْكِلِيزَ . . .

وَحَيَّلَ إِلَيَّ وَاللَّهِ أَنْ رَجُلًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْإِنْكِلِيزِ الْأَقْوِيَاءِ الْمُعْتَدِينَ بِأَنْفُسِهِمْ لَا يُهَاجِرُ مِنْ بِلَادِهِ إِلَّا وَمَعَهُ نَفْسُهُ وَاسْتِفْلَالُهُ ، وَتَارِيخُهُ وَرُوحُ دَوْلَتِهِ ، وَطَبِيعَةُ أَرْضِهِ ؛ فَهُوَ مُسْتَقِينٌ أَنْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « غَيْرُ قَلِيلٍ » بَدَلًا مِنْ : « إِلَّا يَسِيرًا » .

(٢) أَيْ الْمَكُونَةِ ؛ وَالْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي اسْتَعْمِلْتُ قَدِيمًا فِي مَعْنَى (الْمَكُونَةِ) هِيَ : الْمَطْرِي (بَشْدِيدِ

اللَّهُ لَا يَزِدُّهُ رِزْقًا أَيُّ الرِّزْقِ كَانَ عَلَى مَا يَتَّفِقُ ، بَلْ رِزْقًا إِنِّكَلِيرِيَا ، أَي : فِيهِ كِفَايَتُهُ .

وَرَأَيْتُ شَيْئًا عَجِيبًا مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ طَابِعِ السَّلَامِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَبَيْنَ طَابِعِ الْحَرْبِ عَلَى وَجْهِهِ أُخْرَى ؛ فَفِي تِلْكَ مَعَانِي السُّهُولَةِ وَالْمَلَايَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، وَفِي هَذِهِ مَعَانِي الْعَزْمِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَجْدِ الْحَيَاةِ لَا عَلَى مَادَتِهَا .

وَتَبَيَّنْتُ أَسْلُوبَيْنِ مِنَ الْأَسَالِيبِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ : أَحَدُهُمَا فِي فَرْدٍ قَدْ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّ أُمَّةً تَحْمِلُهُ ، فَهُوَ يَعِيشُ بِأَضْعَفِ مَا فِيهِ ؛ وَالْآخَرُ فِي فَرْدٍ قَدْ وَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ يَحْمِلُ أُمَّةً فَلَا يَدْعُ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً إِلَّا ضَاعَفَهَا .

وَعَرَفْتُ وَجْهَيْنِ مِنْ وَجْهِهِ التَّرْبِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ : أَحَدُهُمَا بِالطَّنْطَنَةِ ، وَالتَّهْوِيلِ ، وَالصُّرَاخِ ، وَاسْتِعَارَةِ أَلْفَافٍ غَيْرِ الْوَاقِعِ لِلوَاقِعِ ، وَتَحْمِيلِ الْأَلْفَافِ غَيْرَ مَا تَحْمِلُ ؛ وَالْآخَرُ بِالْهَذْوِ الَّذِي يَفْهَرُ الْحَوَادِثُ ، وَالصَّبْرَ الَّذِي يَغْلِبُ الزَّمَنَ ، وَالْعَيْنِيَّةَ الَّتِي تَفْرِضُ أَعْمَالَهَا الْعَظِيمَةَ عَلَى صَاحِبِهَا وَتَجْعَلُ أَعْظَمَ أَجْرِهِ عَلَيْهَا أَنْ يَقُومَ بِهَا .

وَمَيَّزْتُ بَيْنَ أَثَرَيْنِ مِنْ أَثَارِ الْأَرْضِ فِي أَهْلِهَا : أَحَدُهُمَا فِي الْمِصْرِيِّ السَّنَحِ الْوَادِعِ الْأَلُوفِ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ كَرَمُ الطَّبِيعَةِ ، وَالْآخَرُ فِي الْإِنْكَلِيرِيِّ الْعَسِرِ الْمُنْغَمِرِ الْقَمُورِ الْمُلْحِ عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّهُ تَطْفُلُ الطَّبِيعَةِ . . .

* * *

وَأَلْقَى ابْنُ الْعَمِّ الَّذِي كَانَ مَعِيَ سَمْعَهُ إِلَى هَؤُلَاءِ الضُّبَاطِ ، وَهُمْ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرُّأْيِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ حَدِيثِهِمْ ، ثُمَّ نَقَلَ إِلَيَّ عَنْهُمْ ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : لَقَدْ فَرَعْتُ مِنْ بَخْنِي الَّذِي وَضَعْتُهُ فِي فَلَسَفَةِ خُمُولِ الشَّرْقِيِّينَ ، وَأَفْضَيْتُ مِنْهُ إِلَى حَقَائِقِ عَجِيبَةٍ ، أَظْهَرَهَا وَأَخْفَاهَا مَعَ أَنَّ أُمَّةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ لَا يُمَكِّنُ الْأَجْنَبِيَّ فِيهَا ، وَلَا تَنْقُلُ وَطْأَتَهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَطُولُ نَوَازُهُ فِي أَرْضِهِمْ ، وَلَا يَحْتَلُّهَا مَنْ يَطْمَعُ فِيهَا ، مَا لَمْ يَكُنْ سَادَتُهَا وَأَمْرَاؤُهَا وَكِبْرَاؤُهَا كَأَنَّهُمْ فِيهَا دَوْلَةٌ مُخْتَلَةٌ .

وَهَؤُلَاءِ الْكِبَرَاءُ هُمْ أَفَّةُ الشَّرْقِ ؛ فَمِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِنَا أَنْ نَزِيدَ فِي تَعْظِيمِهِمْ ، وَأَنْ نَمُدَّ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْعَاجِ ، وَنَبْسُطَ لَهُمُ الْيَمِينَ وَالشَّمَالَ ، وَنُوْهِمَهُمْ أَنْ عَظَمَتَهُمْ هَكَذَا وَلِدَتْ

فِيهِمْ وَهَكَذَا وَلِدُوا بِهَا مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ كَمَا وَلِدُوا بِأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ . . . وَخَاصَّةً عُظَمَاءَ رَجَالِ الْأَدْيَانِ الْمُفْتُونِينَ بِالدُّنْيَا ؛ فَإِنَّا نَصْنَعُ بِغُرُورِ الْجَمِينِ وَسَخَافَاتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ وَطَمَعِهِمْ أَشْيَاءَ اجْتِمَاعِيَّةَ ذَاتِ خَطَرٍ لَا يَصْنَعُ لَنَا مِثْلَهَا إِلَّا الشَّيَاطِينُ ، وَمَنْ لَنَا بِالْحُكْمِ عَلَى الشَّيَاطِينِ ؟ وَهَذَا مَا تَنَبَّهَ لَهُ (غَانِدِي) ذَلِكَ الْمَهْزُولُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي تُقَوِّمُ دُنْيَاهُ بِأَرْبَعَةِ شِلَاتَاتٍ ، وَلَا يَزُنْ أَكْثَرَ مِنْ بِضْعَةِ أَرْطَالٍ مِنَ الْجِلْدِ وَالْعَظْمِ ، وَلَا بَطْشٍ عِنْدَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ جَبَّارٌ سَمَآوِيٌّ فِي يَدِهِ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ يَرَى وَيُسْمَعُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا .

قَالَ ضَابِطُ الْيَمِينِ : وَبِصَنَاعَةِ الْكِبْرِيَاءِ^(١) هَذِهِ الصَّنَاعَةُ يَكُونُ رَجُلُ الشَّعْبِ مِنْ هَلْوََاءِ الشَّرْقِيِّينَ رَجُلٌ تَقْلِيدٌ بِالطَّبِيعَةِ ، وَرَجُلٌ ذَلٌّ بِالْحَالَةِ ، وَرَجُلٌ خُضُوعٌ بِالْجُمْلَةِ ؛ فَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيِّدُ نَفْسِهِ وَلَا سَيِّدُ غَيْرِهِ ، بَلْ أَكْبَرُ مَعَانِيهِ أَنَّ غَيْرَهُ سَيِّدٌ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مَعَهُ دَائِمًا خَبَالٌ أَسْتَعْبَادِهِ .

وَتَكَلَّمَ ضَابِطُ الْيَسَارِ ، وَلَكِنَّ الْمُتَرْجِمَ لَمْ يُمَيِّزْ أَقْوَالَهُ ، لِأَنَّ ثَلَاثَ عَشْرَةَ امْرَأَةً كُنَّ يَصْرُخْنَ فِي الرُّوَايَةِ الْهَزْلِيَّةِ بِلُحْنٍ طَوِيلٍ يَقْلُنَ فِي أَوَّلِهِ : « عَاوِزِينَ رَجَالَهُ تَدْلَعُنَا . . . » وَكَانَتْ الْمُوسِيقَى تَصْرُخُ مَعَهُنَّ وَتَوَلُّوْلُ كَأَنَّهَا هِيَ أَيْضًا امْرَأَةٌ مَخْرُومَةٌ . . .

* * *

ثُمَّ أَرْهَفَ الْمُتَرْجِمُ أُذُنَهُ فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : إِنَّ لِهَلْوََاءِ الشَّرْقِيِّينَ سِتَّ حَوَاسٍ : الْخَمْسُ الْمَعْرُوفَةُ ، وَحَاسَةُ الْخُمُولِ الَّذِي خَدَعَتْهُمْ عَنْهُ الطَّبِيعَةُ الْبَلِيدَةُ فَسَمَّوْهُ التَّرَفَ وَالْهَزْلَ وَاللَّهُوَ ؛ وَالْأُمَةُ الْأَوْرَبِيَّةُ الَّتِي تَحْتَلُّ بِلَادًا شَرْقِيَّةً تَجِدُ فِيهَا لِصْعَانِ الْحَيَاةِ جَيْشًا أَقْوَى مِنْ جَيْشِهَا ؛ فَعَشْرَةُ آلَافٍ جُنْدِيٍّ بِعَتَادِهِمْ وَالْآتِيَهُمْ ، لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا إِلَّا أَلَا سِتْفَزَارَ وَالتَّحْدِي وَاثْبَاتَ أَنَّهُمْ غَاضِبُونَ ؛ وَلَكِنْ مَا أَنْتَ قَائِلٌ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مَكَانٍ كَهَذَا الْمَسْرَحِ بِرَاقِصَاتِهِ وَمُؤَمِّسَاتِهِ وَخُمُورِهِ وَرَوَايَاتِهِ ، وَبِهَلْوََاءِ الرُّجَالِ الْمُخْتَشِينَ الْهَزْلِيِّينَ الرُّقَعَاءَ الَّذِينَ هُمْ وَخَدَهُمُ مُعَاهَدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ نَاجِحَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ شَبَابِ الْأُمَّةِ . . . ؟

قَالَ ضَابِطُ الْيَمِينِ : نَعَمْ ، إِنَّ فَنَّ الْأَخْتِلَالِ فَنٌّ عَسْكَرِيٌّ فِي الْأَوَّلِ ، وَلَكِنَّهُ فَنٌّ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْكِبْرِيَاءُ » بَدَلًا مِنْ : « الْكِبْرِيَاءِ » .

أَخْلَاقِي فِي الْآخِرِ ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ تَعْيِينُ نَقْطَةِ اتِّجَاهِ لِلشَّبَابِ تَكُونُ مُضِيئَةً لَامِعَةً جَذَابَةً مُغْرِبَةً ، وَلَكِنَّهَا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ مَحْرِقَةٌ أَيْضًا ، وَهَذِهِ هِيَ صِنَاعَةُ إِهْلَاكِ الشَّبَابِ بِالضُّوءِ الْجَمِيلِ ، وَمَا عَلَى السِّيَاسِيِّ الْحَاذِقِ فِي الشَّرْقِ إِلَّا أَنْ يَحْمِيَ الرِّذِيلَةَ ، فَإِنَّ الرِّذِيلَةَ سَتَعْرِفُ لَهُ صَنِيعَهُ وَتُخَيِّمُهُ . . .

فَتَكَلَّمَ ضَابِطُ الْبَسَاطَةِ ، وَلَكِنَّ صَوْتَهُ ذَهَبَ فِي عِشْرِينَ صَوْتًا مِنْ رِجَالِ الْمَسْرَحِ وَنِسَائِهِ يَصْنَعُونَ جَمِيعًا : « يَا حِلْوَةُ يَا خَفَافِي ، يَا مُجَنِّتَهُ الشُّبَّانَ . . . »

* * *

وَلَمَّا أَلَمْتُ بِحَوَارِ الضُّبَّاطِ الثَّلَاثَةِ قُلْتُ لِصَاحِبِي : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِمْ أَكَلْنَهُمْ . فَفَعَلَ وَعَرَّفَنِي إِلَيْهِمْ ، وَتَرَجَمَ لَهُمْ مَقَالَةَ (يَا شَبَابَ الْعَرَبِ) وَكَانَ يَحْمِلُهَا . فَكَأَنَّمَا رَمَاهُمْ مِنْهَا بِالْجَنَاشِ وَالْأَسْطُولِ .

ثُمَّ قُلْتُ لِكَبِيرِهِمْ : لَسْتُ أَكْبُرُ أَنْ الْإِنْكِلِيزِيِّ لَوْ دَخَلَ جَهَنَّمَ لَدَخَلَهَا إِنْكِلِيزِيًّا . . . وَلَا أَجْحَدُ أَنَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ مِثْلَ هِدَايَةِ الْحَيَوَانِ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ : دَلِيلٌ مُنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مُنْفَعَتُهُ وَحَسْبُ ، ثُمَّ لَا دَلِيلَ غَيْرَ هَذَا وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا هَذَا . فَإِذَا قَالَ الشَّرْقِيُّ : حَقِّي ، وَقَالَ الْإِنْكِلِيزِيُّ : مُنْفَعَتِي ؛ بَطَلَتِ الْأَدَلَةُ { كُلُّهَا } ، وَرَأَى الشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ الْإِنْكِلِيزِيِّ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُفْنِعَ الذُّنْبَ بِقَانُونِ الْفَضِيلَةِ وَالرَّحْمَةِ .

وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ فِي السِّيَاسَةِ عَجَائِبَ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ أَنْ يَلْقَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَيَقُولَ لَهُ : يَا سَيِّدِي الْعَزِيزُ ! يَكُلْ أَحْتَرَامَ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّى مِنِّي هَذِهِ الصَّفْعَةَ . . .

وَفِي السِّيَاسَةِ مَوَاعِيدُ عَجِيبَةٌ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُ غَرْسَ شَجَرَةٍ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْوَكِيدُ لَهُمْ بِالْأَيَّامِ أَنَّهَا سَتُثْمِرُ رُغْفَانًا مَخْبُوزَةً . . . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطْعَمُ فَتُثْمِرُ الرُّغْفَانِ الْمَخْبُوزَةِ حَشْوُهَا اللَّحْمُ وَالْإِدَامُ .

وَفِي السِّيَاسَةِ مُحَارَبَةُ الْمَسَاجِدِ بِالْمَرَاقِصِ ، وَمُحَارَبَةُ الزَّوْجَاتِ بِالْمُؤَمَّسَاتِ ، وَمُحَارَبَةُ الْعَقَائِدِ بِأَسَانِدَةِ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، وَمُحَارَبَةُ قُوَّةِ الْقُوَّةِ بِقُوَّةِ اللَّذَّةِ . وَلَكِنْ لَوْ فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ أَمَاكِنَ الْلَهْوِ فِي كُلِّ مَعَانِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا غَدْرًا بِالْوَطَنِ فِي كُلِّ مَعَانِيهِ !

وَلَوْ عَرَفَ الشَّبَابُ أَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ هِيَ أَوَّلُ الْمَعْرَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْفَاصِلَةِ !
وَلَوْ أَدْرَكَ الشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقِّ الْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى الشُّعْبِ لَا مَعْنَى
نَفْسِهِ !

وَلَوْ رَجَعَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ آلَةً حَرْبِيَّةً تَصْنَعُ مِنَ الشَّبَابِ رِجَالَ الْقُوَّةِ !
وَلَوْ عَلِمَ الشَّبَابُ أَنَّ رُوحَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ : اُعْتَقِدْ وَلَا تَعْتَقِدْ . وَلَكِنْ أَفْعَلْ وَلَا
تَفْعَلْ !

وَلَوْ أَتَقَنَ الشَّبَابُ أَنَّ فَرَائِضَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ لِامْتِلَاءِ النَّفْسِ بِمَعَانِي
التَّقْدِيرِ !

وَلَوْ فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ إِلَّا هَذِهِ الْمَعَانِي تَجْعَلُ النَّفْسَ فَوْقَ الْمَادَّةِ وَفَوْقَ
الْخَوْفِ وَفَوْقَ الدُّلِّ وَفَوْقَ الْمَوْتِ نَفْسَهُ !

وَلَوْ بَحَثَ الشَّبَابُ النَّفْسَ الْإِنْكِلَبِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لَيَعْرِفَ بِالْبُرْهَانِ أَنَّهَا نِصْفُ مُسْلِمَةٍ فَكَيْفَ
بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً ؟ ...

* * *

وَكَانَ الْمُتَرْجِمُ يَنْقُلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِي ، فَمَا بَلَغَتْ إِلَى حَيْثُ بَلَغْتُ ، حَتَّى شَدَّ الضَّابِطُ
عَلَى يَدَيَّ وَهَزَّهَا ، فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كُنْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةٍ طَوِيلَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَسْرَحِ ،
وَإِذَا يَدُ الْمُتَرْجِمِ نَفْسَهُ هِيَ الَّتِي تَهْزُنِي لِأَنْتَبَهَ ...

فِي مِخْنَةِ فِلِسْطِينَ :

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! (*)

نَهَضَتْ فِلِسْطِينَ تَحُلُّ الْعُقْدَةَ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا بَيْنَ السَّيْفِ ، وَالْمَكْرِ ، وَالذَّهَبِ .
عُقْدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ خَبِيثَةٌ ، فِيهَا لِذَلِكَ الشَّعْبِ الْحُرُّ قَتْلٌ ، وَتَخْرِيبٌ ، وَفَقْرٌ .
عُقْدَةُ الْحُكْمِ الَّتِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيْبٍ : الْوَعْدِ الْكَذِبِ ، وَالْفَنَاءِ الْبَطْنِيِّ ، وَمَطَامِعِ
الْيَهُودِ الْمُتَوَحَّشَةِ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَيْسَتْ هَذِهِ مِخْنَةُ فِلِسْطِينَ ، وَلَكِنَّهَا مِخْنَةُ الْإِسْلَامِ ؛ يُرِيدُونَ أَلَّا
يُثْبِتَ شَخْصِيَّتُهُ الْعَزِيزَةُ الْحُرَّةُ .
كُلُّ قَرِشٍ يُدْفَعُ الْآنَ لِفِلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِجَاهِدِ هُوَ أَيْضًا .

* * *

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حُلَفَاؤُهُمْ فِي هَذَا
الْجِهَادِ .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمَتَكُوبُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي نَكْبَتِهِمْ أَمْتِحَانٌ لِضَمَائِرِنَا نَحْنُ
الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُضْطَهَدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا نَحْنُ : هَلْ
عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذَّلِّ ؟

مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْأَخِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَسْمًا آخَرَ لِمُرُوءَةٍ سَافِرٍ إِخْوَتِهِ أَوْ مَذَلَّتِهِمْ ؟
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قَرِشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَفْرِضَ عَلَى السِّيَاسَةِ

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٤ ، ٢٥ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ١٥ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م ،
السنة الرابعة ، الصفحات : ٩٦١ - ٩٦٣ .

أَحْتَرَامَ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ .

* * *

أَبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ : مِنْ ذَلِكَ الْمَاضِي وَتَشْرِيدِ الْحَاضِرِ .

وَيَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ نِفْمَتَيْنِ طَائِعِيَّيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَالْأُخْرَى مِنْ رَدَائِلِهِمْ .

وَيَخِشُونَ فِي أَدْمَعَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِثَتَيْنِ : أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقْلِيَّةً ، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ .

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدُ ، وَفِي خَيَالِهِمُ الْجُنُونُ ، وَفِي عُقُولِهِمُ الْمَكْرُ ، وَفِي أَيْدِيهِمُ الذَّهَبُ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْثِمًا لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِينِ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ إِلَى هُنَا لِأَنَّ الْعَقْلَ .

* * *

أَبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْزُونَ بَيْنَهُمْ مَرُورَ الدَّنَائِيرِ بِالرَّبِّ الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ .

كُلُّ مِثَّةٍ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِثَّةً وَسَبْعِينَ . . .

حِسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ .

وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ ، وَالْخَيَالُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الدِّينِيِّ ، وَخَيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُلُّ قِرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلِسْطِينِ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبِّتَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يُرِيدُونَ طَرْدَهَا .

* * *

يَقُولُ الْيَهُودُ : إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ .

وَيَرْعُمُونَ : أَنْ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أحراراً فِي فلسطينَ ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ ...

وَقَدْ صَنَعُوا لِلْإِنْكِلِيزِ أَسْطُولا عَظِيماً لَا يَسْبَحُ فِي الْبَحَارِ ، وَلَكِنْ فِي الْخَزَائِنِ ...
وَأَرَادَ الْإِنْكِلِيزُ أَنْ يَطْمِئِنُّوا فِي فلسطينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّدَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ : أَنَا .
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسْتَكُمْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةٍ أَهْلِهَا الْيَهُودُ ؟

* * *

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكِ الْتِي تُوجِدُ الْأَنْيَابَ وَالْمَخَالِبَ فِي كُلِّ أَسَدٍ .
قُوَّةٌ تُخْرِجُ سِلَاحَهَا بِنَفْسِهَا ، لِأَنَّ مَخْلُوقَهَا عَزِيزٌ لَمْ يُوجَدَ لِيُؤْكَلَ ، وَلَمْ يُخْلَقْ لِيَذَلَّ .
قُوَّةٌ تَجْعَلُ الصَّوْتَ نَفْسَهُ حِينَ يُزْمَجِرُ ، كَأَنَّهُ يُعْلِنُ الْأَسَدِيَّةَ الْعَزِيزَةَ إِلَى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ .

قُوَّةٌ وَرَاءَهَا قَلْبٌ مُشْتَعِلٌ كَالْبَرْكَانِ ، تَتَحَوَّلُ فِيهِ كُلُّ قَطْرَةِ دَمٍ إِلَى شَرَارَةِ دَمٍ .
وَلَكِنْ كَانَتْ الْحَوَافِرُ نَهْيً مَخْلُوقَاتِهَا لِيَرْكَبَهَا الرَّاكِبُ ، إِنَّ الْمَخَالِبَ وَالْأَنْيَابَ نُهْيً مَخْلُوقَاتِهَا لِمَعْنَى آخَرٍ^(١) .

* * *

لَوْ سَأَلْتُ : مَا الْإِسْلَامُ فِي مَعْنَاهُ الْأَجْتِمَاعِي ؟ لَسَأَلْتُ : كَمْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ ؟
فَإِنْ قِيلَ : ثَلَاثُ مِئَةِ مِليُونٍ . قُلْتُ : فَالْإِسْلَامُ هُوَ الْفِكْرَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا
ثَلَاثُ مِئَةِ مِليُونٍ قُوَّةٌ .

أَيَجُوعُ إِخْوَانُكُمْ أَهْلِهَا الْمُسْلِمُونَ وَتَشْبَعُونَ ؟ إِنَّ هَذَا الشَّيْءَ ذَنْبٌ يُعَاقِبُ اللَّهُ عَلَيْهِ .
وَالْغِنَى الْيَوْمَ فِي الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَمَسِّكِينَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ ، هُوَ وَصْفُ الْأَغْنِيَاءِ بِاللُّؤْمِ
لَا بِالْغِنَى .

كُلُّ مَا يَنْذُلُهُ الْمُسْلِمُونَ لِفِلِسْطِينَ ، يَدُلُّ دَلَالَاتٍ كَثِيرَةً ، أَقْلَهَا سِيَاسَةُ الْمُقَاوَمَةِ .

* * *

كَانَ أَسْلَافُكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ يَفْتَحُونَ الْمَمَالِكَ ، فَافْتَحُوا أَنْتُمْ أَيْدِيَكُمْ . . .
كَانُوا يَزْمُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ ، فَارْمُوا أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ بِالْذَّنَائِيرِ
وَالذَّرَاهِمِ .

لِمَاذَا كَانَتْ الْقِبْلَةُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا لِعِتَادِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ ؟
لِمَاذَا أَرْتَفَعَتِ الْمَادَنُ إِلَّا لِعِتَادِ الْمُسْلِمُونَ رَفَعَ الصَّوْتِ فِي الْحَقِّ ؟
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! كُونُوا هُنَاكَ . كُونُوا هُنَاكَ مَعَ إِخْوَانِكُمْ بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي .

* * *

لَوْ صَامَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَدَلَ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ لِفِلِسْطِينَ ،
لَأَغْنَاهَا .

لَوْ صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فِلِسْطِينَ ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُفَاخِرًا الْأَنْبِيَاءَ :
هَذِهِ أُمَّتِي !

لَوْ صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفِلِسْطِينَ ، لَقَالَ الْيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَه آبَاؤُهُمْ مِنْ
قَبْلُ : إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . . .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! هَذَا مَوْطِنُ يَزِيدُ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْدُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا سَمَاوِيًّا .
كُلُّ فَرَسٍ يَنْذُلُهُ الْمُسْلِمُ لِفِلِسْطِينَ ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَنَا إِيمَانُ
فُلَانٍ !

قِصَّةُ الْأَيْدِي الْمُتَوَضِّعَةِ (*) . . .

قَالَ رَاوِي الْحَبَرِ : ذَهَبْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ وَالْمَسْجِدُ يَجْمَعُ النَّاسَ بِقُلُوبِهِمْ لِيُخْرِجَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ دُنْيَا ذَاتِهِ ، فَلَا يَفْكَرُ أَحَدٌ أَنَّهُ أَسْمَى مِنْ أَحَدٍ ؛ وَلَقَدْ يَكُونُ إِلَى جَانِبِكَ الصَّانِعُ أَوْ الْأَجِيرُ أَوْ الْفَقِيرُ أَوْ الْجَاهِلُ ، وَأَنْتَ الرَّئِيسُ أَوْ الْعَظِيمُ أَوْ الْغَنِيُّ أَوْ الْعَالِمُ ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى نَفْسِكَ فَتَحْسُنُ كَأَنَّ خَوَاطِرَكَ مُتَوَضِّعَةٌ مُتَطَهَّرَةٌ ، وَتَرَى كَلِمَةَ الْكِبَرِيَاءِ قَدْ فَقَدَتْ رُوحَهَا ، وَكَلِمَةَ التَّوَاضُّعِ قَدْ وَجَدَتْ رُوحَهَا ؛ وَتَشْعُرُ بِالنَّفْسِ الْمُجْتَمِعَةِ قَدْ نَصَبَتْ الْحَرْبَ لِلنَّفْسِ الْمُتَنَفِّرَةِ ؛ وَلَوْ خَطَرَ لَكَ شَيْءٌ بِخِلَافِ ذَلِكَ رَأَيْتَ الْفَقِيرَ إِلَى جَانِبِكَ تَوَيْخًا لَكَ ، وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ سَاكِتًا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِكَ ، وَشَعَرْتَ بِاللَّهِ مِنْ فَوْقِكَ ، وَاسْتَعْلَنْتَ لَكَ رُوحُ الْمَسْجِدِ كَأَنَّهَا تَهْمُ بِطَرْدِكَ { مِنْهُ } ، وَخِئْلَ إِلَيْكَ أَنَّ الْأَرْضَ سَتَانُطِمُ وَجْهَكَ إِذَا سَجَدْتَ { عَلَيْهَا } ، وَاتَّقَنْتَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ أَنَّ لَسْتَ هُنَاكَ فِي دُنْيَاكَ وَلَيْسَ صَاحِبُكَ فِي دُنْيَاكَ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ هُنَاكَ فِي إِنْسَانِيَّةٍ مِيزَانُهَا بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَلَا تَذَرِنِي أَيْكُمَا الَّذِي يَخْفُ وَأَيْكُمَا الَّذِي يَنْقُلُ ^(١) .

قَالَ : وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَذَا الَّذِي لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ ، يَعْرِفُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الدِّينِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، فَتَرَاهُ فِي الْمَسْجِدِ يَمْسِي مُخْتَالًا ، قَدْ تَحَلَّى بِحِلْيَتِهِ ، وَتَكَلَّفَ لَزْهُوَهُ ، فَلَيْسَ الْجُبَّةُ تَسْعُ أَثْنَيْنِ ، وَتَطَاوَلَ كَأَنَّهُ الْمِئْدَنَةُ ، وَتَصَدَّرَ كَأَنَّهُ الْقِبْلَةُ ، وَانْتَفَخَ كَأَنَّهُ مُمْتَلِئٌ بِالْفُرُوقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ؛ وَهُوَ بَعْدَ كُلِّ هَذَا لَوْ كَشَفَ اللَّهُ تُمُودِيَّهَا لَانْكَشَفَ عَنْ تَاجِرِ عِلْمٍ ، بَعْضُ شُرُوطِهِ عَلَى الْفَضِيلَةِ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ، فَلَا يَجِدُ دُنْيَا ذَاتَهُ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ ، فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ كَذِبِ الْعَالَمِ الدِّينِيِّ عَلَى دِينِهِ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٧ ، ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١٠٨٣ - ١٠٨٥ .

(١) اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ عَنْ فَلَاسَفَةِ الْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ كَثِيرَةٍ .

قَالَ الرَّائِي : وَصَعِدَ الْخَطِيبُ الْمِنْبَرَ وَفِي يَدِهِ سَيْفُهُ الْخَشَبِيُّ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ فِي الذُّرْوَةِ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ دَخَلَ فِي سِرِّ هَذِهِ الْخَشَبَةِ ، فَهُوَ يَبْدُو كَالْمَرِيضِ تُقِيمُهُ عَصَاهُ ، وَكَالْهَرَمِ يُمَسِّكُهُ مَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ ؛ وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ كَذِبٌ صَرِيحٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، كَهَيْئَةِ سَيْفِهِ الْخَشَبِيِّ فِي كَذِبِهَا عَلَى السُّيُوفِ وَمَعْدِنِهَا وَأَعْمَالِهَا .

وَتَاللهِ مَا أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَحِلُّ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، أَنْ يَخْطُبَ الْمُسْلِمِينَ خُطْبَةً جُمُعَتِهِمْ وَفِي يَدِهِ هَذَا السَّيْفُ عَلَامَةُ الدَّلِّ وَالضُّعَةِ وَالتَّرَاجُعِ وَالْإِنْقِلَابِ وَالْإِدْبَارِ وَالْهَزَلِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالْفَضِيحَةِ وَالْإِضْحَاكِ ؛ وَمَتَى كَانَ الْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِنَجْرِ السُّيُوفِ مِنَ الْخَشَبِ وَنَحْيِهَا وَتَسْوِيَّتِهَا وَإِزْهَافِ حَدِّهَا الَّذِي لَا يَقْطَعُ شَيْئًا ، ثُمَّ وَضَعِهَا فِي أَيْدِي الْعُلَمَاءِ يَعْلَمُونَ بِهَا ذُؤَابَةَ كُلِّ مَنِيرٍ ، لِيَتَعَلَّقَ بِهَا الْعُيُونُ ، وَتَشْهَدَ فِيهَا الرَّمَرُ وَالْعَلَامَةُ ، وَتَسْتَوْحِيَ مِنْهَا الْمَعْنَوِيَّةَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَجَسَّمَ لِرُؤْيَا ؟

أَفِي سَيْفٍ مِنَ الْخَشَبِ مَعْنَوِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَى الْهَزَلِ وَالسَّخَافَةِ ، وَبَلَاهَةِ الْعَقْلِ وَذِلَّةِ الْحَيَاةِ ، وَمَسْخِ التَّارِيخِ الْفَاتِحِ الْمُنتَصِرِ ، وَالرَّمَرِ لِحُضُوعِ الْكَلِمَةِ وَصِبْيَانِيَّةِ الْإِرَادَةِ ؟
قَالَ : وَكَانَ تَمَامُ الْهُزْءِ بِهَذَا السَّيْفِ الْخَشَبِيِّ الَّذِي صَنَعْتُهُ وَزَارَهُ أَوْفَافُ الْمُسْلِمِينَ ، أَنَّهُ فِي طُولِ صَمْنَصَامَةٍ عَمَرُوا بَيْنَ مَعْدِيكَرِبِ الزُّبَيْدِيِّ فَارِسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ^(١) ، فَكَانَ إِلَى صَدْرِ الْخَطِيبِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ فِي يَدِهِ لَظَهَرَ مَقْبُضُهُ فِي صَدْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهُ وَسَامٌ مِنَ الْخَشَبِ ...

قَالَ : وَكَانَ الْخَطِيبُ إِذَا تَكَلَّفَ وَتَصَنَّعَ وَظَهَرَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ حَمِيَ وَنَارُ ثَائِرُهُ ، ارْتَجَّ وَغَفَلَ عَنْ يَدِهِ ، فَتَضَرَّبَ فِيهَا قَبْضَةُ السَّيْفِ فَتَلَكَّرَهُ فِي صَدْرِهِ كَأَنَّمَا تَذَكَّرُهُ أَنَّ فِي يَدِهِ خَشَبَةً ... لَا تَصْلُحُ لَهُذِهِ الْحَمَاسَةِ ... ! ^(٢)

* * *

(١) كَانَ طُولُ الصَّمْنَصَامَةِ سَبْعَةَ أَشْبَارٍ وَافِيَةً وَعَرْضُهَا شِبْرٌ .

(٢) الْقَاعِدَةُ الشَّرْعِيَّةُ : أَنَّ الْبَلَدَ الَّذِي يُفْتَحُ بِالسَّيْفِ يُخْطَبُ فِيهِ بِالسَّيْفِ . وَلَمَّا ضَعُفَ الْمُسْلِمُونَ أَفْتَفَ السَّيْفُ مِنْهُمْ وَأَطَاعَهُمُ الْخَشَبُ ... !

قَالَ : وَخَطَبَ الْعَالَمُ عَلَى النَّاسِ ، وَكَانَ سِنْفُهُ الْخَشْبِيُّ يَخْطُبُ خُطْبَةً أُخْرَى : فَأَمَّا الْأُولَى فَهِيَ مَحْفُوظَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَلَا تَنْتَهِي حَتَّى يَنْتَهِيَ أَثَرُهَا ، إِذْ هِيَ كَالْقِرَاءَةِ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ؛ وَكَانَتْ فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ كَالدَّرْسِ لِإِقَامَةِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونَِ الْأَجْتِمَاعِ وَالسِّيَاسَةِ ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ حَقِيقَتِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلُ مَا بَيْنَ هَذَا السَّيْفِ مِنَ الْخَشَبِ وَبَيْنَ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى . وَأَمَّا الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ عَقَلْتُهَا أَنَا عَنْ تِلْكَ الْخَشْبَةِ وَكَتَبْتُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ عِبَارَتُهَا :

وَيَحْكُمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَوْ كُنْتُ بَقِيَّةً مِنْ خَشَبِ سَفِينَةِ نُوحٍ الَّتِي أَنْقَذَ فِيهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ ، لَمَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَصْعُونِي هَذَا الْمَوْضِعَ ؛ وَمَا جَعَلَكُمْ اللَّهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حَيْثُ أَنَا ، تَكَادُ شَرَارَةٌ تَذْهَبُ بَيْنِي وَبِكُمْ مَعًا ، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيكُمْ الْمَادَّةَ الْخَشَبِيَّةَ وَالْمَادَّةَ الْمُتَخَشَّبَةَ .

وَيَحْكُمُ ! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لِحَاطِيكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ الثَّارِي الْمُضْطَرِمِّ ، لَمَّا بَقِيَتْ الْخَشْبَةُ فِي يَدِهِ خَشْبَةً . وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيْمَانًا بِإِيْمَانِهِ ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ الْمُنْبِرَ لِيَقُولَ كَلِمَةَ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْعَالِي ، وَكَلِمَةَ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ - وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدْ أَنْتَهَى مِنَ الدَّلِّ إِلَى أَنْ فَقَدْ السَّيْفُ رُوحَهُ فِي يَدِهِ ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَنْ تَفْلِحُوا وَهَذَا حَاطِيكُمْ الْمُتَكَلِّمُ فِيكُمْ ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيِّفُكُمْ الْمُدَافِعُ عَنْكُمْ . أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، غَيِّرُوهُ وَغَيِّرُونِي .

* * *

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ : وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ مَاجَ النَّاسُ إِذْ انْتَبَعَتْ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ يَصْنِعُونَ بِهِمْ يَسْتَوْفِقُونَهُمْ لِيَخْطُبُوهُمْ ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ ، فَذَكَرَ فِلِسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا ، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا ، وَنَكَبَتْهُمْ وَجِهَادُهُمْ وَاخْتِلَالَ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ وَاسْتَعَانَ ، وَدَعَا الْمَوْسِرَ وَالْمُخَفَّ إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيقٍ مَخْتُومَةٍ ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَرَاهِمٍ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ .

قَالَ : وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَبَرَ فِي

وَجُودِهِمْ ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَامِهِمْ ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ ؛ إِذْ أَمْتَرَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخُصْبَةِ فَتَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوعًا أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ : إِنَّ هَذَا الْخُطِيبَ خُطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّاهُ وَهْلُؤَلَاءِ الشُّبَّانُ قَدْ فَضَحُوهُ ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَحْصَى أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ : وَتَبَهَّنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقٍ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَتَابِيرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَّاتِ الْإِدَاعَةِ ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صِنْعَةِ الْخِطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، فَتَكُونَ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ هِيَ الْكَلِمَةُ الْأُسْبُوعِيَّةُ فِي سِيَاسَةِ الْأُسْبُوعِ أَوْ مَسْأَلَةِ الْأُسْبُوعِ ؛ وَبِهَذَا لَا يَجِيءُ الْكَلَامُ عَلَى الْمَتَابِيرِ إِلَّا حَيًّا بِحَيَاةِ الْوَقْتِ ، فَيُضْبِحُ الْخُطِيبُ يَنْتَظِرُهُ النَّاسُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ أَنْتَظَارَ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَطِيعُ الْمَنْبَرُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ عَمَلٌ .

قَالَ : وَخُيِّلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ خُطِيبٍ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ نَاقِصٌ إِلَى النِّصْفِ ، لِأَنَّ السِّيَاسَةَ تَكْرِهُهُ أَنْ يَخْلَعَ إِسْلَامِيَّتَهُ الْوَاسِعَةَ قَبْلَ صُعُودِهِ الْمَنْبَرِ ، وَأَلَّا يَصْعَدَ إِلَّا فِي إِسْلَامِيَّتِهِ الضَّيِّقَةِ الْمَحْدُودَةِ بِحُدُودِ الْوَعظِ الَّذِي هُوَ مَعَ ذَلِكَ نِصْفٌ وَعَظٌ ... فَالْخُطْبَةُ فِي الْحَقِيقَةِ نِصْفُ خُطْبَةٍ ، أَوْ كَأَنَّهَا أَثَرُ خُطْبَةٍ مَعَهَا أَثَرُ سَيْفٍ ...

قَالَ : وَأَخْرَجَ الْقُرُوبِيُّ كَيْسَهُ فَعَزَلَ مِنْهُ دَرَاهِمَ وَقَالَ : هَذِهِ لَطْعَامُ أَتْبَلُغُ بِهِ وَلَاؤَبِيَّ إِلَى الْبَلَدِ ، ثُمَّ أَفْرَغَ الْبَاقِي فِي صِنَادِيْقِي الْجَمَاعَةِ ؛ وَاقْتَدَيْتُ أَنَا بِهِ فَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى وَضَعْتُ فِي صِنَادِيْقِهِمْ كُلِّ مَا مَعِيَ ؛ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ لَوْ بَقِيَ لِي دِرْهَمٌ وَاحِدٌ لَمْضَى يَسْبُتِي مَا دَامَ مَعِيَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ عَنِّي .

* * *

قَالَ الرَّاوِي : ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى ضَرِيحِ صَاحِبِ الْمَسْجِدِ أَرُورُهُ وَأَقْرَأُ فِيهِ مَا تَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَإِذَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، ائْتَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ (الشُّكُّ فِي ثَالِثِهِمْ لِأَنَّهُ حَلِيقُ اللَّحْيَةِ) . ثُمَّ تَوَافَى إِلَيْهِمْ آخَرُونَ فَتَمُّوا سَبْعَةً ؛ وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا بِأَنْفُسِهِمْ صَاحِبَ (الْأَلَّا لِحْيَةٍ) ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْهُمْ عَلَى الْمَذْهَبِ الشَّائِعِ فِي بَعْضِ الْعَصْرِئِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَاةِ الشَّرْعِيِّينَ ، أَحْسَبُهُمْ يَخْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿٩٥﴾ سُوْرَةُ

التين/ الآية : ٤] ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ فَإِنَّمَا تُبْصَرُهُ مِزَانُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، أَيْلِيحِيَّةٌ أَمْ يَلَا لِيحِيَّةٌ ... ؟

وَأَدْرْتُ عَيْنِي فِي وَجُوهِهِمْ ، فَإِذَا وَقَارٌ وَسَمْتُ وَتَوَرَّ لَمْ أَرْ مِنْهَا شَيْئًا فِي وَجْهِ صَاحِبِ (الْأَلَّا لِيحِيَّةٌ) ؛ وَأَنَا فَمَا أَبْصَرْتُ قَطُّ لِيحِيَّةَ رَجُلٍ عَالِمٍ أَوْ عَابِدٍ أَوْ فَيْلَسُوفٍ أَوْ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ ذِي فَنٍّ عَظِيمٍ ، إِلَّا ذَكَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى الشَّعْرِيَّ الْبَدِيعَ الَّذِي وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ ؛ مِنْ أَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) مَلَائِكَةً يُفَسِّمُونَ : وَالَّذِي زَيَّنَ بَيْنِي أَدَمَ بِاللَّحَى .

وَكَانَ مِنَ السَّبْعَةِ رَجُلٌ تَرَكَ لِيحِيَّتَهُ عَافِيَةً عَلَى طَبِيعَتِهَا ؛ فَأَمْنَدْتُ وَعَظَمْتُ حَتَّى نَشَرْتُ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنَ الْهَيْبَةِ تَشْعُرُ النَّفْسُ الرَّقِيقَةُ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ .



قَالَ : وَأَنْصَتَ الشُّيُوخَ جَمِيعًا إِلَى خُطْبِ الشُّبَّانِ ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهَا صَخَبٌ مَعْرَكَةٌ لَا فَنٌّ خَطَابِيَّةٍ ، وَعَلَى قَدَرٍ ضَعِيفٍ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَّ الصَّوْتِ ؛ فَهُمْ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَعِثُّ فِي صَيِّحَاتِ هَارِيَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْفَضْلَاءِ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّيَّانَرِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ » [البخاري ، رقم : ٢٨٨٧ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٣٧٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٤١٣٦] . وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مُنْذُ تَعَبَّدُوا لِهَٰذَيْنِ حِرْصًا وَشُحًا ؛ ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فِائُولِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥٩ سورة الحشر/ الآية : ٩ ؛ ٦٤ سورة التغابن/ الآية : ١٦] ، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرَتْهُمْ الْحَوَادِثُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » [الجامع الصغير] ، رقم : ١٨٦٣ ، وَلَكِنْ مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَّةِ هَذَا الْحَدِيثَ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُجِبُّهُ اللَّهُ .

قَالَ الثَّالِثُ : وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأَقَّةِ : « إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ

صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صِغَارِهِمْ . فَتَخَنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَقَدْ سُلِّطَ الصَّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبْيَانِيَّةِ جَدِيدَةٍ .

قَالَ الرَّائِي : فَقُلْتُ لِصَدِيقِي مَعِي : قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ : لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَافْتِحَامٍ وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى اسْتِفْلَالِ الْحَيَاةِ ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِرِوَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ ، فَيَتَرَلُّونَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ؛ إِذْ تَكُونُ الْحَمَاسَةُ مُتَمَمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ . وَفِي الْحَدِيثِ : « أُمْتِي كَالْمَطَرِ : لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ » [مجمع الزوائد] ، رقم : ١٦٧٠٧ .

* * *

قَالَ الرَّائِي : وَلَمْ يَكِدْ الصَّدِيقُ يَحْفَظْ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَبِهِمْ يَتَّبِعُهُ ، حَتَّى وَقَعَتْ الصَّيْحَةُ فِي الْمَكَانِ ؛ فَجَاءَ أَحَدُ الْخُطَبَاءِ وَوَقَفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ الرَّعْدُ : لَا يُكْرَرُ إِلَّا زَمْجَرَةٌ وَاحِدَةً ؛ وَكَانَ الشُّيُوخُ الْأَجِلَاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قِيلَ ، فَأَطَرُقُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً ؛ وَفَرَّغَ الشَّبَابُ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُتَادِّبًا مُتَخَشِّعًا وَوَضَعَ الْأَصْنَذُوقَ الْمَخْتُومَ .

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ : مِمَّنْ أَنْتَ يَا بُنَيَّ ؟ قَالَ : مِنْ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ . قَالَ الشَّيْخُ : لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا مَكَانُكَ ، وَقَدْ بَدَلْتُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فَيْكَ وَفِي أَصْحَابِكَ . وَسَكَتَ الشَّبَابُ ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ ، وَسَكَتَ الْأَصْنَذُوقُ أَيْضًا . . .

ثُمَّ تَحَرَّكَ النَّفْسُ بُوخِي الْحَالَةِ ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهُمْ يَدَهُ إِلَى جَنِّهِ ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ ، ثُمَّ عَيَّثَ فِيهِ قَلِيلًا^(١) ؛ ثُمَّ . . . ثُمَّ أَخْرَجَ السَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا .

وَأَتَقَلَّتِ الْعَدَوَى إِلَى الْبَاقِينَ ، فَأَخْرَجَ أَحَدُهُمْ مِندِيلَهُ يَتَمَحَّطُ فِيهِ ، وَظَهَرَتْ فِي يَدِ الثَّلَاثِ سُبْحَةُ طَوِيلَةٍ ، وَأَخْرَجَ الرَّابِعُ سِوَاكَاً فَمَرَّ بِهِ عَلَى أَسْنَانِهِ ، وَجَرَّ الْخَامِسُ كُرَّاسَةً

كَانَتْ فِي قَبَائِهِ ، وَمَدَّ صَاحِبُ اللَّحْيَةِ الْعَرِيضَةِ أَصَابِعَهُ إِلَى لِحْيَتِهِ يُخَلِّلُهَا ؛ أَمَّا السَّابِعُ صَاحِبُ (الْأَلَا لِحْيَةٍ) ، فَتَبَيَّنَتْ يَدُهُ فِي جَنِيهِ وَلَمْ تَخْرُجْ ، كَأَنَّ فِيهَا شَيْئًا يَسْتَجِجِي إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ ، أَوْ يَخْشَى إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ مِنْ تَخَجُّلِ الْجَمَاعَةِ .

وَسَكَتَ الشَّابُّ ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ ، وَسَكَتَ الصُّنْدُوقُ أَيْضًا . . .

قَالَ الرَّاوي : وَنَظَرْتُ فَإِذَا وَجُوهُهُمْ قَدْ لَبَسَتْ لِلشَّابِّ هَيْئَةُ الْمُدْرَسِ الَّذِي يُقَرَّرُ لِيَلْمِيذِهِ قَاعِدَةً قَرَّرَهَا مِنْ قَبْلُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَلْفِ تَلْمِيذٍ ؛ فَحَجَلَ الشَّابُّ وَحَمَلَ صُنْدُوقَهُ وَمَضَى . . .

* * *

أَقُولُ أَنَا : فَلَمَّا أَنْتَهَى الرَّاوي مِنْ (قِصَّةِ الْأَيْدِي الْمُتَوَضِّعَةِ) ، قُلْتُ لَهُ : لَعَلَّكَ أَجَبَهَا الرَّاوي أَسْتَيْقَظَتْ مِنَ الْحُلُمِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ الشُّيُوخُ الْأَجَلَاءُ هَذَا الصُّنْدُوقَ ، وَمَا خَتَمَ عَقْلُكَ هَذِهِ الرَّوَايَةَ بِهَذَا الْفَضْلِ إِلَّا بِمَا كَذَبْتَ فِيهِ ذَهْنَكَ مِنْ فَلْسَفَةٍ تَحْوِلُ السِّيفَ إِلَى خَشَبَةٍ ؛ وَلَوْ قَدْ أَمْتَدَّ بِكَ النَّوْمُ لَسَمِعْتَ أَحَدَهُمْ يَقُولُ لِسَائِرِهِمْ : بِمَنْ يَنْهَضُ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ وَبِمَنْ يَصُولُونَ ؟ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « جَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَهٍ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ » [الترمذي ، رقم : ١٩٦١] ؛ ثُمَّ يَمْلَأُونَ الصُّنْدُوقَ . . .

نَجْوَى التَّمَثَالِ (*) (١)

أَيُّهَا الْمُفْتَرِشُ الصَّخْرَةَ يَسُدُّ ذِرَاعَيْهِ أَقْوَى الشَّدِّ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَفْتَلِعَ الصَّخْرَةَ فِيهِمَا .
مُتَنَاهِضًا بِصَدْرِهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ رُبَّصَ فَإِنَّ الْوَبْئَةَ فِي يَدَيْهِ .
مُتَمَطِّيًا بِصُلْبِهِ لِيُشِيرَ مِنْ جِسْمِهِ الْهَادِي إِلَى مَعَانِيهِ الْمُفْتَرِسَةِ .
مُقْعِيًا عَلَى ذَنْبِهِ وَمُتَحَفِّزًا بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةُ أَنْدِفَاعٍ تَهُمُّ أَنْ تَنْقَلِتَ مِنْ جَاذِبِيَةِ الْأَرْضِ .
وَأَنْتِ أَيُّهَا الْهَيْفَاءُ تُمَثِّلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُتَمَدِّنَةَ فِي نَحَافَتِهَا ، وَهِيَ كَهَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ضَارِبَةُ
بِذِرَاعِي أَسَدٍ فِي غِلَظٍ مَذْفَعِينَ ...
حَكِيمَةً فِي النَّظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِي سَرَائِرِ الْأُمَمِ نَظْرَةَ الْمُتَأَمِّلِ ، وَلَكِنَّ يَدَهَا كَيْدَ الْحِكْمَةِ
السِّيَاسِيَّةِ عَلَى تَرْكِيبِ عَقْلِيَّ تَحْتَهُ الْمَخَالِبُ ...
سَاكِتَةً كَأَنَّهَا تَمَثَّلُ السَّلَامِ ، عَلَى أَنَّهَا فِي جِوَارِ الْأُسْدِ كَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ : تَلْمَحُ
فِيهِ إِنْسَانَ الْعَالَمِ وَوَحْشَ الْعَالَمِ ...
يَا أَبَا الْهَوْلِ .
أَنْتَ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسُكُوتٌ لَا يَسْكُتُ .
وَالَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ الْإِنْسَانِ عَلَى جِسْمِ اللَّيْثِ أَنَّهُ قُوَّةُ عَمِيَاءٍ كَالضَّرُورَةِ وَلَكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ
كَالْإِخْتِيَارِ .
وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنْ فَنَى الْغَرِيْزَةِ وَالْعَقْلِ فَنَاءً ثَالِثًا لَا يَزَالُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَظِرُ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَلِدُ
إِنْسَانًا عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ ؟
وَأَنْتِ يَا مِصْرُ :

(*) لم أجدها في « الرسالة » .

(١) تَمَثَّلُ نَهْضَةً وَمِصْرُ الَّذِي صَنَعَهُ التَّمَثَالُ مُخْتَارًا رَمَزًا لِهَذِهِ النَّهْضَةِ ، وَهُوَ أَبُو الْهَوْلِ مُتَحَفِّزًا تَفَتْ إِلَى
جَانِبِهِ امْرَأَةٌ .

أَوَاقِفَةٌ ثَمَّةٌ لِلشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ ، تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَادَكَ يَسْأَلُونَكَ مِنْ آلِافِ
السِّنِينَ بِهَذَا الرَّمْزِ : أَلَا مُعْجِزَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَمُطُّ عَضَلَاتِ الْحَجَرِ ؟

أَلَا بَسْطَةٌ مِنَ الْعِلْمِ تَجْعَلُكَ أَهْبَأَ الْمِصْرِيِّ وَكَأَنَّكَ رَأْسُ لِحْجَمِ الطَّبِيعَةِ ؟

أَلَا فَنٌّ جَدِيدٌ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا الْهَوْلِ فِي الْجَوْفِ تَزِيدُهُ عَلَى قُوَّةِ الْوَحْشِ وَذَكَاءِ الْإِنْسَانِ خِفَةَ الطَّيْرِ ؟
أَمْ تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ : إِنَّ أَجْدَادَكَ يُؤْصُونَكَ بِهَذَا الرَّمْزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ الْأَسَدِيِّ
لَا يُرَكَّبُ مَطَاهُ ، وَكَالرَّأْسِ الْإِنْسَانِيِّ لَا تُقَيَّدُ حُرِّيَّتُهُ ، وَكَالرَّبْصَةِ الْجَبَلِيَّةِ لَا تُسَهَّلُ إِزَاحَتُهَا ،
وَكَالْإِبْهَامِ الْمُرَكَّبِ مِنْ غَامِضَيْنِ لَا يَتَسَرَّرُ بِهِ عَبَثُ الْعَابِثِ ، وَكَالْصَّرَاحَةِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ عُنْصُرٍ
وَاحِدٍ لَا يَغْلُطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ ؟

أَمْ تَقُولِينَ يَا مِصْرُ : إِنَّ تَفْسِيرَ أَبِي الْهَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ التَّهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ
تُخْرِجُ الْبِلَادَ مَنْ يَصْنَعُ أَبَا الْهَوْلِ الثَّانِي ؟

* * *

تَمَثَّلُ التَّهْضَةُ أَمْ صَفْحَةٌ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ الشَّعْبُ فِكْرَهُ عَلَيْهَا ، وَدَوَّنَ فِيهَا إِحْسَاسَهُ
بِتَارِيخِهِ ، وَوَصَفَ بِهَا إدْرَاكَهُ حَيَاةَ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ ؟

أَمْ هُوَ كِتَابَةٌ فَضِّلَ مِنَ التَّارِيخِ بِقَلَمِ الْحَيَاةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ بِلَاغِيَّتِهَا ، خَشِيتُ عَلَيْهِ الْقَنَاءَ
فَدَوَّنَتْهُ فِي أُسْلُوبٍ مِنْ أُسَالِيبِ الْبَقَاءِ الْحَجَرِيِّ الصَّلْدِ ؟

أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْأُمَّةِ أَحَالَهُ الْقُرْ مِنْ زَمَنِ إِلَى مَادَّةٍ ؛ وَمِنْ مَعْنَى إِلَى حِسٍّ ، وَمِنْ
خَبَرٍ إِلَى مَنْظَرٍ ، وَكَأَنَّا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ الْقُرُّ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ ؟

أَمْ هُوَ تَغْيِيرٌ عَنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي خَلَقَتْهَا نَفُوسٌ هَذَا الْجِيلِ تُخَاطَبُ بِهِ النُّفُوسُ الْآتِيَّةُ
لِتُسَمِّعَ عَلَيْهَا ، وَتُضَيِّفَ فِيهِ إِلَى الْمَعْنَى سِرَّ الْمَعْنَى ، وَتَضَعِ الْكَلِمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى لِسَانِ
الطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِالتَّمَثُّالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِالْجِيلِ ؟

أَمْ تَرْكِيبٌ سِيَاسِيٌّ إِذَا فَسَّرْتَهُ اللَّغَةُ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّابِتَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يُثَبِّتُهُ . . . فَلَنْ
يَمْنَحُوهُ مَنْ يُنْكِرُهُ ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ إِنْ أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ . . . فَلَنْ يُخْفِيَهُ مَنْ لَا يَرَاهُ ؟

* * *

بَلْ أَرَاكَ لَا هَوْلَ فِيكَ يَا أَبَا الْهَوْلِ الْجَدِيدِ .

أَفَذَلِكَ مِنْ رِقَّةٍ دَاخَلَتْكَ وَرَحْمَةٍ جَاءَتْكَ مِنْ مَسِّ يَدِ الْمَرْأَةِ . . . ؟

أُمُّ الْهَوْلِ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَ فِي الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ وَمَدُّ الْعَيْنِ النَّسَائِيَّةِ إِلَى بَعِيدِ . . . ؟

أَمْ لَا يَتِمُّ فِي هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجِسْمُ سَبْعٍ إِلَّا . . . إِلَّا بِأَنَامِلِ امْرَأَةٍ ؟

أَلَا مَنْ يُعَلِّمُنِي أَهْلَهُ الْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْذِيبٌ لِلْإِنْسَانِ وَالْوَحْشِ أَمْ تَكْمِلَةٌ عَلَيْهِمَا ؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فِيكَ مِنْ وَضْعِ الرَّجُلِ الْقَوِيِّ رَأْسًا وَلَا جِسْمًا ، وَالْأَسَدِ الْمُفْتَرِسِ جِسْمًا وَلَا رَأْسًا ، ثُمَّ لَا يَكْمُلُ دُونَهُمَا إِلَّا الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا .

إِنَّمَا كُنْتُ يَا أَبَا الْهَوْلِ لُغْزَ الصَّمْتِ ، فَلَمَّا أُضِيفَتْ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغْزَ الْتَطْنِ . . . فَيَا لِلْهَوْلِ !

فَاتِحُ الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ (*) (١)

يَا طَيْرَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى !

لَقَدْ أَنْفَلْتَ مِنْ رَذِيلَةِ الْخَوْفِ وَتَرَكْتَهَا فِي التُّرَابِ مَوْطِئَ الْقَدَمِ ، وَقُلْتَ لَهَا : وَيْحَكَ !
لَقَدْ أَنْ لِلشَّبَابِ الْمِصْرِيِّ ؛ فَهُوَ مُغَامِسٌ فِي مَاءِ الصَّوَاعِقِ (٢) ، مُتَطَوِّحٌ فِي اللَّجَّةِ الْأَرْزَلِيَّةِ
الَّتِي تَغْوِصُ فِيهَا الْكَوَاكِبُ (٣) ، يَطِيرُ بِرُوحِ السَّرَارَةِ ، وَيَهْبِطُ بِرُوحِ الْغَيْثِ ، وَيُلْجِمُ الْجَوَّ
وَيُسْرِجُهُ ، وَيَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَشْوِي عِدْوَهُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ .

وَكُنْتَ بَطَلًا مُغَامِرًا فَخَطَوْتَ فِي طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ بِهِدِهِ الْفَضِيلَةِ وَحَمَلَكَ الْجَوُّ ؛ وَلَوْ
أَنَّكَ خِفْتَ وَكُنْتَ عَلَى جَنَاحِي جِبْرِيلَ لَا عَلَى طَيَّارَةٍ ، لَخَافَ جِبْرِيلُ عَلَى جَنَاحَيْهِ مِنْ
حُطْمَةِ هَذَا الْمَتَنِ التُّرَائِي الطَّاغِيَةِ الَّتِي يَحْكُمُ عَلَى الْأَحْيَاءِ بِالْمَوْتِ بِلا مَوْتٍ ، لِأَنَّهُ أَلْذُلُّ
وَالْخُضُوعُ وَالرَّذِيلَةُ (٤) .

وَحَمَلَكَ الْجَوُّ إِلَى قُبَّةِ السَّمَاءِ ، وَهُنَالِكَ نَظَرَ الْعَالَمُ فَرَأَى لِمِصْرَ التَّامِضَةِ عِلْمَهَا
الْإِنْسَانِي يَتَنَفَّسُ تَحْتَ الْكَوَاكِبِ .

وَحَمَلَكَ الْجَوُّ الْبِنَا ، فَلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِنَرَاكَ ، رَفَعْنَا هَا فِي الْوَقْتِ بَيْنَ شُعُوبِ الْأَرْضِ .

* * *

وَضَرَبْتَ يَا جَنَاحَ مِصْرَ فِي الْهَوَاءِ ، وَأَعْتَانُ السَّمَاءِ (٥) مَمْلُوءَةٌ بِالزَّرْعِ وَالْهَوَجَاءِ

(*) « المقتطف » ؛ المجلد : ٧٦ ؛ مارس/آذار ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(١) [كُنْتُ فِي أَوَّلِ طَيَّارِ مِصْرِي قَدِمَ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَوْرَثَةِ عَلَى طَيَّارَتِهِ ، فِي شَهْرِ فَيْرَايز/شِبَاطِ سَنَةِ
١٩٣٠ م ، وَهُوَ الطَّيَّارُ صِدْفِي وَطَائِرَتُهُ فَائِزَةٌ ، وَكَانَ مَقْدَمُهُ يَوْمًا مَشْهُودًا] .

(٢) كِتَابَةٌ عَنِ السَّحَابِ .

(٣) كِتَابَةٌ عَنِ أَجْوَارِ الْفَضَاءِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « مَوْتٌ بِالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالرَّذِيلَةِ » بَدَلًا مِنْ : « لِأَنَّهُ أَلْذُلُّ وَالْخُضُوعُ وَالرَّذِيلَةُ » .

(٥) نَوَاجِحُهَا ؛ جَمْعُ عَنَانٍ (بِالْفَتْحِ) .

وَالْعَاصِفِ ، وَالسَّمَاءِ فِي فَضْلِهَا الْمُكْنَهَرِ الَّذِي تَخْلَعُ فِيهِ كُلُّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ وَتَمُزُّ^(١) وَتَطْوِي ، فَرَدْتَ بِجُرْأَتِكَ فِي بَرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ بُرْهَانَ قُوَّةِ الْمُخَاطَرَةِ ، وَأَصَفْتَ إِلَى مَنْطِقِهَا وَضْعًا جَدِيدًا مُفْجِعًا مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَّةِ .

وَطَرْتَ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي اعْتِقَادِكَ ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ الْمَوْتِ بِسِرِّ الْإِيمَانِ ، وَالْحَيَاةِ بِسِرِّ الْعَزِيمَةِ .

وَكُنْتَ رَجُلٌ أُمْنِكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا .

وَأَسَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمْرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ ، وَقَذَفَكَ بِهَا فِي مَسَبِحِ الْأَجَلِ .

وَتَجَرَّدْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَادَكَ : إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا شَهَادَةَ فَخْرٍ فِي الدُّنْيَا .

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ الرِّيحِ ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَذْفُوقٌ فِي كُرَةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ .

* * *

وَأَنْتَ يَا « فَائِزَةٌ » ، يَا هَذِهِ الصَّغِيرَةُ الْخَارِجَةُ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهْدِهِ وَعَزِيمَتِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ ، أَعْلَمْتَ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّحُبِ كَمَا تَتَوَاتَبُ الْفَرَاشَةُ عَلَى النَّوَارِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ .

وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَحِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَأَةِ السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمُحَرِّكِكَ الدَّوَارِ تَنْسِجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمِغْزَلٍ .

وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ الرِّيحِ الْهُوجِ^(٢) ، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدْجَجَةِ^(٣) ، فِي كِبَةِ الشَّتَاءِ^(٤) ،

(١) كِتَابَةٌ عَنِ طَبِيعَةِ الشَّتَاءِ ، مِنَ الْغَيْمِ وَالصَّخْرِ وَمَا بَيْنَهُمَا .

(٢) أَصْطِرَابُ الرِّيحِ الْمُتَغَلِّبَةِ .

(٣) الْمُنْتَعِمَةُ .

(٤) كِبَةُ الشَّتَاءِ : شِدَّتُهُ وَدَفْعَتُهُ .

كَأَنَّكَ مُنَاطِرَةٌ تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيمَةِ فِي الطَّبِيعَةِ .

وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذَنَابِ الْأَعَاصِيرِ ، وَتُمْزِرُ السَّحَابَ ^(١) ، وَسَبَّاحِ الْغَيْمِ ذَوَاتِ اللَّبْدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُسْتَعْتَةِ ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ وَأَرْزِيكَ تُطْلِقِينَ عَلَى وَحُوشِ الْجَوِّ مِذْفَعًا رَشَاشًا يَتْرُكُهَا صَرَغَى .

وَإِذْ تَرَاكِ الرَّيْحَ فَتَقُولُ عَنْكِ : رَيْحٌ صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ . وَبِرَاكِ اللَّجْمِ فَيَقُولُ : نَجْمٌ أَفَلَتْ مِنْ النَّظَامِ الْأَرْضِيِّ . وَتَرَاكِ الْمَلَائِكَةَ فَتَقُولُ : وَنَحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ ، كَأَنَّكَ بِمَا خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مِنَّا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَأَلْتَنِي سَجَدْنَاهَا لِآدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ .

... أَعْلِمْتِ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا « فَائِزَةٌ » ، أَنَّ التَّارِيخَ الْمِصْرِيَّ سَيُحوِّلُكَ مِنْ طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَاتِبَةٍ بَدَأَ الْخَلْقَ ، لِأَنَّ فِيكَ بَدَأَ الطَّيْرَانِ فِي مِصْرٍ ؟

* * *

سَلَامًا يَا فَاتِحَ الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ . لَقَدْ أَجَالَتْ الْأَيَّامُ فِدَاحَهَا فَخَرَجَتْ الْقُرْعَةُ عَلَيْكَ ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةً : بِاسْمِ اللَّهِ مَضَعُهَا وَمَجْرَاهَا .

وِطَرْتَ فَإِذَا أَنْتِ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِيئَنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ .

وَهَبَطْتَ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ السَّمَاءِ كِتَابٌ مُجِدٌ حَيٌّ لِلْوَطَنِيَّةِ الطَّافِرَةِ .

بَلْ كِتَابٌ قِصَّةٌ رَائِعَةٌ أَكْفَتْهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فَتَيَيْنِ : ثَوْرَةِ الْجَوِّ وَثَوْرَةِ نَفْسِكَ الْمِصْرِيَّةِ . وَحَكَتْهَا فِي صَوْتَيْنِ : زَفِيفِ الطَّيَّارَةِ وَصَرَخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وَجَعَلَتْهَا فَصْلَيْنِ : أَنْتِ وَالْمَجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مُجَدًّا أَنْ يَخِيَا الشَّعْبُ كُلُّهُ بِضِعَةِ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ !

* * *

فَعَلَى مَهْدِ الْجَوِّ ، وَفِي حَرِيرِ الشَّعَاعِ ، وَتَحْتَ كِلَةِ السَّحَابِ - وُلِدَ لِمِصْرَ يَوْمٌ تَارِيخِيٌّ .

(١) يُقَالُ : رَيْحٌ مُتَذَكِّبَةٌ ؛ إِذَا كَانَتْ تَجِيءُ مِنْ هُنَا مَرَّةً وَمِنْ هُنَا مَرَّةً كَمَا يُسَاوِرُ الذُّبُّ ، فَوَضَعْنَا مِنْ هُنَا كَلِمَةَ ذَنَابِ الرِّبَاحِ . وَالْتِمِيزُ مِنَ السَّحَابِ : قِطْعٌ صِغَارٌ مُتَدَانٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، تَشْبِيهًا بِجِلْدِ اللَّيْلِ ، فَوَضَعْنَا مِنْهَا نُمُوزَ السَّحَابِ .

وَحَرَجَتِ التَّهَانِيُّ الَّتِي طَالَ أَحْتِيَاسُهَا فِي الْقُلُوبِ الْمِصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا لِأَنَّ سَجَانَهَا
ظَلَمَ السِّيَاسَةَ .

وَاتَّجَهَتْ أَفْرَاحُ شَعْبِ كَامِلٍ إِلَى الْفَتَى الْجَرِيءِ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ الْمَوْتِ
فَتَخَطَّاهَا .

وَتَلَقَّى شُعُورُ الْأُمَّةِ رَسُولَهُ الْمِقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلَجَأٌ فِي خِطَارِهِ إِلَّا شُعُورُهُ بِهِدِهِ
الْأُمَّةِ .

وَأَزْتَجَّ الْوَادِي كُلُّهُ كَأَنَّهُ غَمْدٌ يَتَقَلَّبُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السَّيْفُ .

ثُمَّ أَهْدَيْتْ كَلِمَةً مِصْرَ لَا بُدَّ لَهَا فِي جَوْهَا الْكَلِمَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْأُولَى ، وَكَانَتْ
سَاعَةً تَلَأَشَى عِنْدَهَا الزَّمَنُ فَازْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَهَتَفَتْ مَعَنَا الْفَرَاعِنَةُ : بُورِكْتَ
يَا « صِدِّيقِي » !

* * *

لِلَّهِ دُرُكُ أَهْمَا أَبْنِ عَزِيمَةٍ ! كَأَنَّمَا كَشَفْتَ أَهَاوِيلَ الْوُخْيِ وَهَبَطْتَ فِي سَحَابَةٍ مُجَلْجَلَةٍ إِنْ
لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُتْرَلًا فَكَأَنَّمَا حَمَلْتَ شَخْصًا مُتْرَلًا .

وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَنِيمِ الْعَابِسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمِصْرِيِّ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضِحْكَةً
الْفَيْلَسُوفِ السَّاحِرِ فِي حِينِ أَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فِلْسَفَةً . . .

وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرَقِ وَالرَّعْدِ لِهَذَا الشُّكُونِ النَّائِمِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ النَّسِيَانِ
مَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ . . .

وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجِدِّيَّةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلَاوَةِ النَّيْلِيَّةِ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي كَادَ مِنْهَا الشَّعْبُ أَنْ
يَكُونَ سَكْرَ أَخْلَاقٍ يَذَابُ وَيُسْرَبُ . . .

وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مُصَحِّحٍ لِعَقِيدَتِنَا الْمَغْلُوطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، أَنَّ الْقَضَاءَ أَنْ تُقَدِّمَ بِلَا
خَوْفٍ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ أَنْ تَتَّقِيَ بِلَا مُبَالَاهِ .

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ غَمَرَتِ الشَّعْبَ بِمَوْجَةِ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِثَّتْ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ ، وَتَفَخَّتْ رُوحَ
طَيَارَتِكَ الْمَجِيدَةِ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلَتْهَا كُلُّهَا تُرْفَرِفُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ كُلِّ مِصْرِي طَيَّارَةً .

أَجْنَحَةُ الْمَدَافِعِ الْمِصْرِيَّةِ (*) (١)

أَسْتَجِنِحِي^(٢) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِينِي ، إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي .
لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ الْقُوَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّى أَصْبَحَ الطَّيْرَانُ بَغْضَ مَعَانِي الْمَشْيِ ،
وَلَمْ يَبْعُدِ الْعَالَمُ يَذِرِي كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا مَعْنَى إِنْسَانِهِ .
فَلتَمَجِّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرَقِي الَّذِي تَخْرُجُ النَّارُ بِيَدِهِ مِنْ أَعْرَاضِ السَّحَابِ ، وَتُفْرَقُ
فِي أَصَابِعِهِ هَزَاتُ^(٣) الرَّغْدِ ، وَيَجْعَلُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ صُلْصُلَةً وَجَلْجَلَةً ، وَيَحْمِلُ الْأَسْمَ
الْمِصْرِيَّ إِلَى مُعَلَقِ النَّجْمِ ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ التَّعْرِيفَ النَّارِيَّ الَّذِي وَضَعْتَهُ الدُّوَلُ الْعُظْمَى
لِأَسْمَائِهَا .
وَلتَمَجِّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرَقِي الَّذِي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ الْعَالِي ، وَالْعُمَقِ الْعَمِيقِ ،
وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تَحُدُ ؛ وَيَزِيدُ فِي مَعَانِي أَحْيَائِنَا مَعْنَى جَدِيدًا لِأَحْيَاءِ الشُّعْبِ ، وَفِي مَعَانِي
أُمُورَاتِنَا مَعْنَى جَدِيدًا لِمَوْتَى الْكَوَاكِبِ .
إِنْسَانُ بَرَقِي يَتِمُّ بِشَجَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ بُطُولَةً فَلَاحِنًا الْإِنْسَانَ الشَّمْسِيَّ فِي الْأَرْضِ ،
وَيَعْلُو بِكِبَرِيَاءِ مِصْرَ فِي ذُرْوَةِ الْعَالَمِ ، فَتَظْهَرُ طَيَّارَاتُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ
أَنَارُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي النَّوَى .
إِنَّهَا مِصْرُ ، مِصْرُ الْقَادِرَةِ الَّتِي سَحَرَتْ الْقِدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَنَّهَا ، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى حَالِهِ
وَجَلَالَتِهِ ، وَأَنْهَرَمَ الدَّهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسُهَا .

(*) « الْمُقْتَطَف » ؛ المجلد : ٨٤ ؛ يناير/كانون الآخر ١٩٣٤ م ، الصفحات : ٨ - ١٠ .

(١) [كَتَبْتُ فِي اخْتِرَاقِ أَوَّلِ طَيَّارَةِ حَرْبِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ فِي قُدُومِهَا إِلَى مِصْرَ مِنْ أُرُوتِي ، وَقَدْ اخْتَرَقَ فِيهَا

الشَّهِيدَانِ : (حَجَّاجٌ وَدُوسٌ) ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَرٍ/كانون الأول سنة ١٩٣٣ م] .

(٢) أَنِّي : أَخْبَذَنِي الْأَجْنَحَةُ ، وَلَمْ تَأْتِ الْكَلِمَةُ فِي اللُّغَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهَا فِيهِ قِيَاسًا عَلَى
كَلَامِهِمْ .

(٣) كَذَا فِي طَبْعَاتِ « وَخِي الْقَلَمِ » ، وَفِي الْأَصْلِ : « هَزَامَاتُ » .

فَأَسْتَجِجْنِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطَيْرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْشَانَهُ الْبَرَقِي .

* * *

وَلَمَّا فَتِيحَ السَّجِلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِنَكْتَبَ مِصْرَ أَسْمَاءِ الْفَوْجِ الْأَوَّلِ مِنْ نُشُورِهَا الْحَزِينِينَ ،
صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ :

« أَضْرِمِي الشُّعْلَةَ الْأَدَمِيَّةَ الْأُولَى يَا مِصْرُ ، وَافْتَحِي الْقَبْرَ الْجَوِّيَّ الْأَوَّلَ ، وَالْحِدْيَ فِيهِ
مِنْ غُنْصُرَيْكَ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَقْبَاطِ ، وَضِعِي الْحَيَاةَ فِي أَسَاسِ الْحَيَاةِ ، وَاسْتَقْبِلِي عَصْرَكَ
الْجَدِيدَ بِأَذَانِ الْمَسْجِدِ وَدَقِّ الْقَافُوسِ لِيُبَارِكَكَ اللَّهُ ، وَلِيَتَلَقَّ الشَّعْبُ أَوَّلَ طَيَّارِيهِ بِقُلُوبٍ فِيهَا
رُوحُ الْمَعْرَكَةِ ، وَأَكْبَادُ عَرَفَتِ مَسَّ النَّارِ ؛ وَلَا يَنْظُرَنَّ إِلَى طَيَّارَاتِهِ الْأَوَّلِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ
الْتَعَشِينَ فَيَرَى مَجْدَ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ ، فَتُسَطَّعَ نَظَرَاتُهُ بِبَرِيقِ الْكِبَرِيَاءِ ، وَلَمْعَةِ
الْعَزِيمَةِ ، وَشُعَاعِ الْإِيمَانِ ؛ وَيَأْتِلِقَ فِيهَا الثُّورُ السَّمَائِيُّ الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ فِي بَعْضِ
سَاعَاتِهِمْ كَوَاكِبَ ، نُورُ صَلَاةِ الشَّعْبِ عَلَى مَوْتَاهُ الشُّهَدَاءِ » .

وَأَسْتَجَابَ الْقَدَرُ لِصَوْتِ الْمَجْدِ ، فَالْتَجَّ الظَّلَامُ فِي وَضَحِ الصُّبْحِ ، وَأَنْطَفَأَ سِرَاجُ النَّهَارِ
فِي قُبَّةِ الْفَلَكَ ، وَأَطْبَقَتْ نَوَاحِي الْجَوِّ إِطْبَاقَ لَيْلَةٍ تَسَافَطَتْ أَرْكَانُهَا ، وَأَقْبَلَ الضُّبَابُ يَغْرَضُ
أَعْتَزَاضَ جَبَلٍ عَائِمٍ يَتَذَنَّبُ فِي بَحْرِ ، وَاسْتَأْرَضَ السَّحَابُ فَتَخَلَّى عَنْ طَبِيعَتِهِ السَّمَائِيَّةِ
الرَّقِيقَةِ ، وَتَذَامَرَتِ الْعَنَاصِرُ عَلَى الْفِتَالِ يَحْضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَغَشَّتِ السَّمَاءُ بِوَجْهِ
الْمَوْتِ : كَلَحَ فَارِيزٌ وَانْتَفَخَ ، وَتَكَسَّرَتْ فِيهِ الْغُضُونُ كُلُّ غَضَنِ كِسْفَةِ ظَلَامٍ ، وَعَادَ أَوْسَعُ
شَيْءٍ أَضْبَقَ شَيْءً ، فَكَانَ الْفَضَاءُ كَصَدْرِ الْمُخْتَضِرِ : لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عُمْرُ سَاعَةٍ وَأَنْفَاسُهَا .

وَأَبْتَدَرَتْ إِلَى مَجْدِ الْمَوْتِ الطَّيَّارَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْأُولَى ، وَكَانَ فِيهَا إِنْكِلَبَاتَانِ يَقُودَانِهَا
فَأَبَاهَا الْمَوْتُ ، فَذَهَبَتْ فَانْتَحَرَتْ أَسْفًا وَتَرَدَّتْ مُتَحَطِّمَةً ، وَأَنْسَلَ الرَّجُلَانِ مِنْ مَخَالِبِ
الرَّدَى ، وَكَانَا فِي الطَّيَّارَةِ كَوَرَقَتَيْنِ مِنَ اللَّبْتِ فِي فَمِ جَرَادَةٍ هَمَّتْ تَقْضِيهُمَا . . .

وَتَسْتَبِقُ الثَّانِيَةَ فَإِذَا فِيهَا وَدِيعَةُ الْكُزْمِ مِنْ غُنْصُرِي مِصْرَ : « حَجَّاجٍ وَدُوسٍ » ^(١) وَكَانَ سِرًّا

(١) هُمَا فُؤَادُ حَجَّاجٍ ، وَشَهِيدِي دُوسٍ ؛ وَكَانَ فِي الطَّيَّارَةِ الْأُخْرَى الَّتِي تَحَطَّمَتْ الْمِسْتَرِ بَلِيَتْ ،
وَالْمِسْتَرِ سَمِيَتْ .

مِنْ أَسْرَارِ مِصْرَ اجْتِمَاعُهُمَا فِي مَدَاحِصِ الْعَمَامِ وَمَزَالِقِهِ ، لِيَكُونَا هَدِيَّةَ مِصْرَ الْأُزْلَى إِلَى مَجْدِهَا الْحَزْبِيِّ ، ثُمَّ لِيَكُونَا هَدِيَّةَ الْمَجْدِ إِلَى إِحْسَاسِ هَذَا الشَّعْبِ يُحْسِنُ مِنْهُمَا الْعَالَمَ الْمُنْطَوِي لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ النَّصْرِ .

وَأَعْتَسَفَتْ طَيَّارَةُ الشَّهِيدَيْنِ طَرِيقَ الْفَتَاءِ وَمَتَاهَةَ الْحَيَاةِ ، فَذَهَبَتْ عَنْهَا مَعَارِفُ الْأَرْضِ ، وَعُمِيَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي الْبَطْلَيْنِ إِلَى تَصْرِيفِ أَجْلِهِمَا ، وَأَضْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْأَنْفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهُمَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ ؛ وَلَمْ تَكُنْ ^(١) طَيَّارَةً تَحْمِلُهُمَا ، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ أَجْتَرَهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ ، فَأَنْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً فِي الْعَاصِفَةِ ، ثُمَّ أَنْتَهَضَتْ وَائِبَةً ، وَتَمَطَّرَتْ مُنْقَلِبَةً ، فَاسْتَعَلَّتْ فَاسْتَعَرَتْ فَأَنْضَجَتْ رَاكِبِيهَا ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ !

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَنْظَرُ الْحُزْنِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ أَنَّهُمَاكَ الْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبْدِعُ مِنْهُ الشُّرُورَ وَالْقُوَّةَ . اخْتَرَقَ الْبَطْلَانِ لِيَتَسَلَّمَ مِصْرُ فِي نَعَشِيهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنَى تَارِيخُ الْعِزَّةِ الْوُطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِينِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَّاقِي .

* * *

صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةَ الْحَقِيقَةَ ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْأَسْمَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَى طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ نُسُورَ الْجَوِّ ، وَلَكِنْ سَمُّوهُمْ « جَمَرَاتِ الْجَوِّ » .

صَنَعَتْ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ ، وَأَنْ نَفَاجِي شُعُورَنَا الْحَالِمَ فَتَضِدَّهُ بِالْأَمِ الْبَقِظَةِ الْمُثَرَّةِ ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْمِصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونُ : الْعَيْشَ الْعَيْشَ ، وَلَكِنْ الْقُوَّةَ الْقُوَّةَ .

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ ، وَلَيْسَ الْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَى قَوَائِنِ الرُّوحِ وَأَمَالِهَا فَيَسْمُوْ وَيَسْمُوْ ، وَلَا يَدْعُهَا تَتَصَرَّفْ عَلَى

مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَاريفِهَا فَيَذَلُّهَا وَتَذِلُّهُ . وَفِي قَانُونِ الرُّوحِ : لَا قِيَمَةَ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا ؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضَغْطَةِ الْحَيَاةِ : كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا
بَلَى ، قَدْ صَنَعْتَ الْكَأْرُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحُرِّيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى وَاحِدٍ :
وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمُتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا : جَمَالُهَا مُتَوَحِّشٌ ،
وَحَلَاعَتُهَا مُفْتَرِسَةٌ ، وَظَرْفُهَا سَفَاكٌ لِلدَّمِ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِيَّ .

* * *

وَالِى السَّمَاءِ يَا « جَمَرَاتِ الْجَوِّ » ، فَإِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَى السَّحَابِ ، فَلَيْسَتْ الطَّيَّارَةُ نَمَّ
طَيَّارَةً ، بَلْ حَقِيقَةٌ حَيَّةٌ عَامِلَةٌ لِلْمَجْدِ ، فَلْتَحْمِلْ مَعْنَاهَا الْمِصْرِيَّ مِنْ بَطْلِهَا الْمِصْرِيَّ .
وَإِذَا سَبَخْتُمْ فِي مَهْطِ الْقَدَرِ ، فَلَيْسَ الطَّيَّارُ نَمَّ طَيَّارًا ، بَلْ حَيَاةٌ عَبْقَرِيَّةٌ أَرْسَلَتْهَا مِصْرُ
تَسْتَنْزِلُ لِلْحَيَاةِ أَقْدَارًا سَعِيدَةً .

وَإِذَا خُضْتُمْ فِي الْمَعْرِكِ الضَّنْكِ تَبَعْتُمْ فِيهِ الْأَجَالَ عَلَى الرِّيَاحِ ، فَلَيْسَ الْجِسْمُ
الْمِصْرِيُّ هُنَاكَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ نَامُوسًا طَبِيعِيًّا مَاضِيًا إِلَى غَايَةٍ .
وَإِذَا تَقَادَفْتُمْ فِي بَحْرِ السَّمْسِ ، فَأَنْتُمْ هُنَاكَ عَلَى شَبَاكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ مُضِيَّةٍ
تَلْتَمِعُ فِي تَارِيخِ مِصْرَ .

وَإِذَا نَقَذْتُمْ مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ ، فَانْظُرُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ مَعَالِي مِصْرَ^(١) ، وَافْهَمُوهَا
بِقُلُوبِكُمْ ذَاتِيَّةَ الْوَطَنِ الْمِصْرِيَّ تَعْلُو وَتَعْلُو وَلَا تَزَالُ أَبَدًا تَعْلُو .

إِنَّمَا الطَّيَّارَةُ وَسِلَاحُهَا وَطَيَّارُهَا تَأَلَيْفٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعَنَاصِرِ ، مَعْنَاهُ فِي الْعَزِيمَةِ
« لَا بُدَّ » . وَمَتَى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطْلِ مِنْكُمْ : هَلُمَّ مِنْ عَالٍ إِلَى
أَعْلَى ، إِلَى أَكْثَرِ عُلُوٍّ ، إِلَى أَقْصَى حُدُودِ الْوَاجِبِ عَلَى النَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ الْوَاجِبُ الْكُلَّ
وَحِينَ تُعْطِي النَّفْسُ الْكُلَّ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِيَّ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَتِلْكَ الْعُلَى » بَدَلًا مِنْ : « مَعَالِي مِصْرَ » .

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١

الطَّمَاظِمُ السِّيَاسِيُّ (*) ...

كَانَ (م) بَاشَا رَحِمَهُ اللَّهُ ذَاهِيَةً مِنْ ذُهَاهِ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدِهَا أَلْتِوَاءَ الْحَبْلِ ، وَيَسْتَوِي فِي يَدِهَا مَرَّةً أَسْتِوَاءَ السَّيْفِ ، وَلَا يَرَى أَبَدًا إِلَّا مُتَكِمِشًا مُتَحَرِّزًا كَأَنَّهُ لُهُ عَدُوٌّ لَا يَذْرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَى يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ كَانُوا آلَاتٍ لِلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ الْحَقِّ وَغَاصِبِ الْحَقِّ - يَغْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ .

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِيئًا ، غَيْرَ أَنَّ مُلَابَسَتَهُ لِلْسِّيَاسَةِ الدَّائِرَةَ عَلَى مَحْوَرِهَا ، جَعَلَتْ نِصْفَ ذِكَايِهِ مِنَ الذِّكَاءِ وَنِصْفَهُ مِنَ الْمَكْرِ ؛ فَكَانَ فِي مُرَاوَعَتِهِ كَأَنَّهُ ثَلَاثَةُ عُقُولٍ : أَحَدُهَا (١) مِصْرِيٌّ ، وَالْآخَرُ إِنْكِلِيزِيٌّ ، وَالثَّالِثُ خَارِجٌ مِنَ الْحَالِنِينَ .

وَبِهَذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَتِيْرًا عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ ، وَاسْتَمَرَّتْ مَجَارِيهِ مُطَرِّدَةً لَدَيْهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ إِلَى أَلْوَزَارَةِ ، إِذْ كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْهُمْ ، سَرِيعَ الْأَسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ ؛ يَفْهَمُ مَعْنَى أَلْفَاطِهِمْ ، وَمَعْنَى أَلْتِّيَّةِ أَلْتِّي تَكُونُ وَرَاءَ أَلْفَاطِهِمْ ، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَاطِهِمْ ... فَكَانَ هُوَ وَأَمَثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ السِّيَاسَةِ أَلْقَدِيمَةِ ، رِجَالًا كَالْأَفْكَارِ : يُوضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْحُكْمِ كَمَا تُوضَعُ صِينَةُ أَلْسْكَ لِإِفْسَادِ الْيَقِينِ ، أَوْ صِينَةُ أَلْوَهْمِ لِتَوَلِيدِ أَلْخِيَالِ ، أَوْ صِينَةُ أَلْهُوَى لِإِبْجَادِ أَلْفِتَتِهِ .

* * *

وَكَانَ صَدِيقِي (فُلَانٌ) رَحِمَهُ اللَّهُ صَاحِبَ سِرِّهِ (السَّكْرَتِيرِ) ، وَقَدْ وَثَّقَ بِهِ الْبَاشَا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُعَالِنُهُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَبْتُهُ هُمُومُهُ وَأَخْزَانُهُ ، وَيَرَى فِيهِ دُنْيَا خُرَّةً يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٠ ، ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٧ يوليو/تموز ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ١٢٠١ - ١٢٠٣ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَحَدُهُمَا » بَدَلًا مِنْ : « أَحَدُهَا » .

صَافَتْ بِهِ دُنْيَا وَظِيفَتِهِ ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ الْيَقِينَ أَحْيَانًا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتِمَّ بَعْدَ تَحْوِيلِهِ فِي الْكَرْسِيِّ ...

فَحَدَّثَنِي الصَّدِيقُ بَعْدَ مَوْتِ هَذَا الْبَاشَا قَالَ : إِنَّهُ دَعَاهُ يَوْمًا لِإِمَاعَتِهِ الرَّأْيَ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنَّ الرِّئِيسَ الْإِنْكِلِيزِيَّ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ مِنَ الْحَقَائِقِ الصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِكَ ، فَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ بِعَيْنِكَ إِنَّكَ مِصْرِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : لَيْتَن كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ الْحَظْبَ لَهَيِّنٌ ، فَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَّارَةِ سَوْدَاءَ ...

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، هَذَا الْإِنْكِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَالشَّيْطَانِ : ﴿ إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْوَنَهُمْ ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٢٧] ، وَوَاللَّهِ يَا بُنَيَّ إِنِّي لِأَشَدُّ أَنْفَةً مِنْكَ ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْكَرْبِ ، وَلَكِنَّا نَحْنُ الشَّرِيقِيُّنَ قَدْ ضِعْنَا مُنْذُ فَقَدْنَا الشَّخْصِيَّةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ .

أَتَرَأَى تَفْهَمُ شَيْئًا لَوْ قُلْتُ لَكَ : رَجُلٌ ، أَسَدٌ ، جَبَلٌ ، مَدِينَةٌ ، أَسْطُورٌ ؟ إِنَّ تَرْكِيبَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَذَا الْكَلَامِ : فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ اللَّفْظِ بِقَدَرِ مَا فِيهِ مِنْ أَنْجِلَالِ الْمَعْنَى وَأَضْمِحْلَالِهِ . وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ إِذَا أُفْرِدَتْ مَعْنَى صَحِيحٌ يَقُومُ بِهَا وَتَقُومُ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَعْنَى كَلَا مَعْنَى .

أَصْبَحَ الشَّرْفِيُّ يَعِيشُ فِي أُمْتِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَطْرَافِ لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ ، وَنَسِيَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » [كنز العمال ، رقم : ١٤٠٣٣ ، بلفظ : « أَخْرَجْتُ لِدُنْيَاكَ ... » وَالْمَعْنَى وَاحِدًا] . فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ الْمُضْلِحِينَ الْأَجْتِمَاعِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ : « كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » ؟ إِلَّا أَنْ يَقَرَّرَ لِأُمْتِهِ أَنَّ الْفَرْدَ يُنْبِئُ الْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةَ كُلَّهَا ، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِيهَا .

هَذِهِ حِكْمَةُ إِسْلَامِيَّةٍ دَقِيقَةٍ ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا ، وَعِنْدَ الْإِنْكِلِيزِ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرِفُونَ لَفْظُهَا . أَهْمُ الْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ ؟

وَعَلَى قَاعِدَةِ الْإِنْفِرَادِ أَنْفَرَدَ كُلُّ شَيْءٍ ؛ فَاتَرَ الشَّرْفِيُّ حَيَاتَهُ عَلَى وَطْنِهِ ، وَقَدَّمَ لَدَنَّهُ عَلَى وَاجِبِهِ ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ ؛ وَكَانَ طَبِيعِيًّا مَعَ هَذَا أَنْ يَخْتَصِرَ الَّذِينَ اخْتِصَارًا يَجْعَلُهُ مِقْدَارًا بَيْنَ مِقْدَارَيْنِ ، فَلَا هُوَ دِينٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ دِينٍ ؛ وَبِذَلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ ؛ فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْ هَذِهِ الْمَلَائِكَةِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَهُوَ يَخْلِفُ بِهِ كَذِبًا عَلَى دِرْهَمٍ ، وَيُصَلِّي وَيَفْجُرُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَيَتَعَبَّدُ فِي نَفْسِهِ وَيَخُونُ سِوَاهُ فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَمَتَى كَانَتْ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْأُمَّةِ هِيَ هَذِهِ الْفَرْدِيَّةُ وَمَصَالِحُهَا وَدَوَائِيهَا ، كَانَ الْكَذِبُ أَظْهَرَ خِلَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، إِذْ هُوَ أَنْفِرَادُ الْكَاذِبِ بِحُظِّهِ وَمَصْلَحَتِهِ وَدَاعِيَّتِهِ ؛ وَلَا يَكْذِبُ عَلَيْكَ إِلَّا مَنْ يَزْجُو أَنْ تَكُونَ مُغْفَلًا ، أَوْ مَنْ قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْمُعَامَلَةَ الْعَامَّةَ فِي الْأُمَّةِ هِيَ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُغْفَلَيْنِ . . . وَيَكْذِبُونَ فِي هَذَا أَيْضًا فَيَسْمُونَهُ حِدَاقًا وَبَرَاعَةً (وَشَطَارَةً) .

وَإِذَا عَمَّ الْكَذِبُ فَشَاءَ مِنْهُ الْهَزَلُ ؛ فَكُلُّ كَاذِبٍ هَازِلٌ ، وَهَلْ يَجِدُ الْكَاذِبُ وَهُوَ يَكْذِبُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَجْنُونًا ؟ وَمِنْ الْهَزَلِ ضَرْبٌ هُوَ الْمُبَاسَاطَةُ بِالْكَذِبِ ، وَمِنْهُ ضَرْبٌ مِنْ كَذِبِ الْحَقَائِقِ ، وَمِنْهُ مِنْ كَذِبِ الْخَيَالِ ، وَكَيْفَمَا دَارَتْ الْحَالُ لَا تَجِدُهُ إِلَّا كَذِبًا .

وَمَتَى صَارَ الْكَذِبُ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ ، تَقَرَّرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُقَالُ لِيُقَالَ فَقَطْ . أَفَلَسْتَ تَرَى الرَّجُلَيْنِ إِذَا أَخْبَرَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ بِالْخَبَرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْغَرَابَةِ أَوْ الْبُعْدِ ، لَا يُكَلِّمُهُ الْآخَرُ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَهُ : صَحِيحٌ ؟ صِدْقٌ ؟

وَلَا أَضَرَّ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ - عَقِيدَةِ أَنَّ الْكَلَامَ يُقَالُ لِيُقَالَ فَقَطْ - فَإِنَّهَا هِيَ طَابَعُ الْهَزَلِ عَلَى أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ ، وَعَلَى كُلِّ أَحْوَالِهَا ، وَعَلَى حُكُومَتِهَا أَيْضًا .

وَمِنْ الْهَزَلِ وَالْكَذِبِ تَرَانَا مُبَالِغِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لِيَكُونَ لَنَا الْوَاحِدُ كَالْآخَرِ فِي غَيْرِنَا فَجَعَلَهُ مِثْلَ بَصْفَرَيْنِ ، نَحْيُ بِأَحَدِهِمَا مِنْ أَعْتِيَادِنَا الْكَذِبَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَنَحْيُ بِالْآخَرِ مِنْ حَقِيقَةِ إِفْلَاسِنَا .

هَذِهِ مُبَالِغَةُ خَطَرَةٍ ، وَأَخْطَرُ مَا فِيهَا أَنَّ نُرِيدُ بِهَا الْمُبَالِغَةَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، فَتَقْلِبُ مُبَالِغَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْنَا نَحْنُ ، وَعَلَى كَذِبِ طَبَاعَتِنَا ، وَعَلَى فَوْضَى الْعَقْلِ فِينَا . نَعَمْ

وَحَتَّى تَثْبُتَ أَتْنَا لَا عَزَمَ لَنَا ، مِنْ كَوْنِهَا مُبَالِغَةً لَا تَدْقِيقَ فِي مَعْنَاهَا ؛ وَأَنْ لَا صَبَرَ لَنَا ، مِنْ أَنَّهَا لَا ثَبَاتَ لِحَقِيقَتِهَا الْمَهْزُومَةِ ؛ وَأَنْ لَا شِدَّةَ لَنَا فِي طَلَبِ الْحَقِّ ، لِأَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ فِي وَصْفِ الْحَقِّ ؛ وَأَنَّهَا لَا تَتَمَثَّلُ الْعَوَاقِبُ إِذْ تُرْسِلُ الْكَلَامَ إِرْسَالًا وَلَا نَخْشَى مَا يَكُونُ مِنْ عَاقِبَتِهِ .

وَأَيْسَرُ مَا يَفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَالَغَاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الشَّعْبِ فِي التَّغْيِيرِ ، أَنَّ هَذَا الشَّعْبَ لَا يَصْلُحُ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِالْحُكُومَةِ ، فَهُوَ نَفْسُهُ كَالْمُبَالَغَةِ ، وَالْحُكُومَةُ لَهُ كَالْتَضْحِيحِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ فِي أَنَّ الشَّعْبَ الْكَذُوبَ يَلْجَأُ إِلَى حُكُومَتِهِ فِي كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ فِي الْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ الْعِلَّةُ فِي أَنَّ حُكُومَتَهُ تَكْذِبُ عَلَيْهِ بِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي السِّيَاسَةِ .

وَمِنْ أَثَرِ الْكَذِبِ الشَّعْبِيِّ وَالْمُبَالَغَةِ الشَّعْبِيَّةِ ، مَا نَرَاهُ مِنْ أَهْتِمَامِ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا يَقُولُ النَّاسُ عَنْ أَعْمَالِهِ ، فَيَدِيرُهَا عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ قَلَّتْ مَنَفَعَتُهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ حَقِيقَتُهَا ، وَإِنْ جَلَبَتْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرَرِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ مَا هِيَ جَالِبَةٌ ؛ فَقَاعِدَتُهُمْ هِيَ هَذِهِ : لَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْحَيَاةِ لِلْعَمَلِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ فِيمَا يُقَالُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يُقَلَّ شَيْءٌ فَلَا تَعْمَلْ شَيْئًا . . . هَذِهِ يَا بُنَيَّ أُمَّةٌ لَا يَكُونُ حُكَاُمُهَا إِلَّا مُبَالَغَاتٍ أَيْضًا . . .

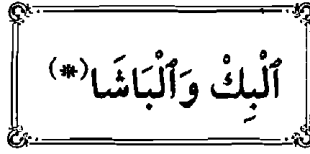
* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَأَرْتَفَعَ مِنَ الطَّرِيقِ صَوْتُ بَائِعٍ يُنَادِي عَلَى سِلْعَتِهِ : أَحْسَنُ مِنْ التُّفَاحِ يَا طَمَاطِمُ . . .

فَضَحِكَ الْبَائِسُ وَقَالَ : هَكَذَا يَقُولُونَ لَنَا عَنِ الطَّمَاطِمِ السِّيَاسِيِّ الْعَفِينِ : إِنَّهُ لَيْسَ تَفَاحًا وَحَسَبُ ، بَلْ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ التُّفَاحِ . . .

إِنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِهَا إِلَّا إِذَا وَضَعَتْ الْكَلِمَةَ فِي مَوْضِعِهَا ، وَإِنْ أَوَّلَ مَا يَذُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْلَاقِ فِي أُمَّةٍ كَلِمَةُ الصِّدْقِ فِيهَا ، وَالْأُمَّةُ الَّتِي لَا يَخْكُمُهَا الصِّدْقُ لَا تَكُونُ مَعَهَا كُلُّ مَظَاهِرِ الْحُكْمِ إِلَّا كَذِبًا وَهَزْلًا وَمُبَالَغَةً .

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٢



وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا [رحمه الله] قَالَ : جَاءَ يَوْمًا إِلَى زِيَارَةِ الْبَاشَا رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيَّ مُتَهَلِّلًا مُشْرِقَ الْوَجْهِ كَأَنَّهُ مُضَاءٌ مِنْ دَاخِلِهِ بِشَمْعَةٍ ... وَبِتَرَنُّحٍ عِظَافُهُ كَأَنَّمَا تَهَزُّهُ أَسْرَارُ عَظْمَتِهِ ؛ وَيَمْشِي مُتَخَلِّعًا كَالْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي أَثْقَلَهَا لَحْمُهَا وَأَثْقَلَتْهَا الْمَعَانِي الْكَثِيرَةُ مِنْ أَغْنِ النَّاطِرِينَ إِلَيْهَا ، وَعَلَى شَفَتَيْهِ خَيَالٌ مِنْ فِكْرَةِ هَلْوَائِ الْكِبَرَاءِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ لَا يَأْمُرُ أَحَدُهُمْ رَجُلًا صَغِيرًا إِلَّا لِيُعْلِمَهُ أَنَّهُ هُوَ كَبِيرٌ ، فَيَكُونُ فِي الْأَمْرِ شَيْئَانِ : الْأَمْرُ وَاللُّؤْمُ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فِي هَيْئَةٍ شَامِخَةٍ لَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . سَبِّحِ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ فِي الْأَسَدِ شَجَرَةَ جَبَّارَةٍ خَرَجَ مِنْهَا الْأَسَدُ كُلُّهُ ...

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . هَذَا (فُلَانٌ بَاشَا) الَّذِي قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ أَمْسَى أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا عَلَيْهِ بِرُبِّيَّةِ الْبَاشَوِيَّةِ ؛ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ وَحَوَّلَتْ الرُّبِّيَّةُ هَذَا التُّرَابَ الَّذِي فِيهِ إِلَى ذَهَبٍ خَالِصٍ ... يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَرْغِمُهُ أَنْ تَقِفَ عَيْنَاهُ عَلَيَّ وَعَلَى الْحَاطِطِ ؛ وَلَا تَجِدُ نَفْسُهُ أَلْمَزْهُوَةً سَبِيلًا إِلَى التَّغْيِيرِ عَنِ الرُّبِّيَّةِ إِلَّا هَذَا الْأَزْدِرَاءُ الْمُنْبِيعُ مِنْ شَخْصِهِ الْعَظِيمِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَشَخْصِهِ . مَا بَيْنَ أَمْسٍ وَالْيَوْمِ زَادَ هَلِيزَةُ الزِّيَادَةِ الْأَدَمِيَّةِ ، أَوْ كَأَنَّمَا كَانَتْ صُورَتُهُ خُطُوطًا فَقَطْ فَوُضِعَتْ فِيهَا الْأَلْوَانُ ...

(بَاشَا) ! هَلِيزَةُ الْبَاءِ وَهَلِيزَةُ الْأَلْفِ وَهَلِيزَةُ الشَّيْنِ الْمَمْدُودَةُ لَيْسَتْ حُرُوفًا خَارِجَةً مِنَ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَامَّةِ ؛ فَإِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ قَدْ تَجَعَّلُ الْبَاءَ فِي بَلِيدٍ مَثَلًا ، وَالْأَلْفَ فِي أَبْلَهٍ ، وَالشَّيْنَ أَلْمَمْدُودَةَ فِي شَاهِدٍ زُورٍ مَثَلًا مَثَلًا ... بَلْ يَلِكُ الْحُرُوفُ مِنْ حُرُوفِ الدَّوْلَةِ ، مُتَنَزَعَةً مِنْ قُوَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى أَنْ تَجَعَلَ لِحَيَاةِ صَاحِبِهَا مِنَ الشَّكْلِ مَا يُسَبِّغُهُ الْفَرْ عَلَى الْحَجَرِ مِنْ شَكْلِ

تَمْنَالِ يُنْصَبُ لِلتَّعْظِيمِ .

قَالَ : وَكُنْتُ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّي لَا يُخْسِنُ إِلَّا كِتَابَةَ اسْمِهِ كَمَا تَكْتُبُ الدَّجَاجَةُ فِي الْأَرْضِ ... فَكَانَتْ الرُّتْبَةُ عَلَيْهِ كِبَاطِلَ لَفْظِ الْحَدِيقَةِ عَلَى صَخْرَةٍ مِنَ الصُّخُورِ الصَّلْدَةِ ؛ وَهَذَا مِمَّا يَخْتَمِلُهُ الْمَجَازُ بِعِلَاقَةِ مَا ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَسُوغُ فِي الْمَجَازِ ، وَلَا فِي مُبَالَغَاتِ الْأَسْتِعَارَةِ ، وَلَا فِي خُرَافَاتِ الْمُسْتَحِيلِ ، أَنْ تَزْعُمَ الصَّخْرَةُ لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَثَبَتْ فِيهَا أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ ...

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ الْإِذْنَ وَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ أَصْبَحَ كَالنُّورَةِ الْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ الدَّوْلَةِ ، فَلَتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا أَعْيَانَهَا . ثُمَّ تَلَقَّاهُ تَلَقَّى الْهَازِلِ الْمُتَهَكِّمِ وَقَالَ لَهُ : أَهْتَنَّاكَ بِالنَّحْوِيِّ ... مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا ... وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَبَسَطَ لَهُ وَجْهَهُ .

وَكَانَ فِي الْبَاشَا دُعَابَةٌ ظَرِيفَةٌ يُعْرِفُ بِهَا ، وَهُوَ كَثِيرُ التَّوَادِرِ وَالْمَلَحِ ، وَلَهُ خَصِيصَةٌ عَجِيبَةٌ ، فَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُدْسٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ يُنْظَرُ فِيهَا وَيَقْرَأُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَى مُحَدِّثِهِ وَيُرَاجِعُهُ وَيُرْدُّ عَلَيْهِ ، فَيَصْرِفُ النَّاسَ وَالْأَوْرَاقَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَيَسْتَعْمِلُ نَاحِيَتَيْنِ مِنْ فِكْرِهِ اسْتِعْمَالًا وَاحِدًا لَا يُخِلُّ بِالْإِصَابَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ .

ثُمَّ قَالَ لِلْبَاشَا الْحَدِيثِ وَعَيْنُهُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ : هَذِهِ أَوْرَاقُ سَرَفَةِ ثَوْرِ عَظِيمٍ ، فَكَمْ يُسَاوِي الثَّوْرُ الْعَظِيمُ الْآنَ ... ؟

قَالَ صَاحِبُنَا الذَّكِيُّ الْفَطِينُ : إِذَا كَانَ مِنَ الثَّيَرَانِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْمَعَارِضِ وَتَنَالُ الْمِينَدَ الْيَاتِ الذَّهَبِيَّةَ فَقَدْ يَبْعُدُ سِعْرُهُ وَيُعَالَى بِهِ .

قَالَ الْبَاشَا : نَعَمْ نَعَمْ ؛ إِنَّ مِنَ الثَّيَرَانِ ثِيْرَانَا يُنْعَمُ عَلَيْهَا بِالْأَوْسَمَةِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الثَّوْرَ الَّذِي سَأَلْتِكَ عَنْهُ يَا بَاشَا هُوَ ثَوْرٌ مِخْرَاطٍ لَا ثَوْرٌ مَعْرُضٍ ...

قَالَ الْآخَرُ : إِذَا كَانَ ثَوْرٌ مِخْرَاطٍ فَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فَلَا يَكُونُ ثَوْرًا عَظِيمًا كَمَا قُلْتَ وَلَيْسَتْ لَهُ

إِلَّا قِيَمَةً مِثْلِهِ .

قَالَ الْبَاشَا : أَرَانِي أَخْطَأْتُ ، وَلَعَنَ اللَّهُ الْعَجَلَةَ ، فَهَلْزِهِ أَوْزَاقُ سَرِقَةِ حِمَارٍ !

* * *

قَالَ صَاحِبُ السُّرِّ : وَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُمَا بِأَوْزَاقِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ يَدَ الْبَاشَا مَمْلُوءَةً لِصَاحِبِنَا بِتَحِيَّاتٍ كُلُّهَا صَفَعَاتٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّى خَرَجَ مُبْتَهِجًا يَمِينُ السُّرُورُ بِعِطْفِيهِ . ثُمَّ دَعَانِي الْبَاشَا وَدَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِالْحَاجَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الرَّجُلُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَ لَنَا فِي الْقَابِ الدَّوْلَةَ لَقَبَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) ... يُنْعَمُ بِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا . أَتَدْرِي يَا بُنَيَّ أَنَّ هَذِهِ الرُّتَبَ وَهَذِهِ الْأَلْقَابَ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَدِيمِ إِلَّا كَوَضْعِ عَلَامَةِ السُّرِّ عَلَى أَهْلِ السُّرِّ لِيَهَابَهُمُ النَّاسُ ، حَتَّى كَأَنَّمَا يُكْتَبُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنْ لَقَبٍ بِكَ أَوْ بِأَسَا : مُلْحَقٌ بِالدَّوْلَةِ ...

وَكَانَ الشَّعْبُ أُمِّيًّا جَاهِلًا لَا يَسْتَطِيعُ الْإِدْرَاكَ وَلَا يُحْسِنُ التَّمْيِيزَ ، فَكَانَتْ الْأَلْقَابُ كَالْقَوَانِينِ الشَّخْصِيَّةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي صِنْفَةٍ مُوجِزَةٍ مَفْهُومَةٍ مُتَعَيِّنَةٍ الدَّلَالَةِ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ لَقَبًا مِنَ الْحُكُومَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : لَقَدْ وَضَعْتَ الْحُكُومَةُ كَلِمَةً الْأَمْرِ فِي شَفَتِي ...

وَكَانَ اللَّقَبُ إِعْلَانٌ مِنَ الْحُكُومَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ لِشَعْبِهَا الْجَاهِلِ : إِنَّ هَذَا إِلَيْكَ وَالْبَاشَا مِمَّنْ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُحْتَرَمَ ^(١) .

مِنْ الْهَزَلِ أَنْ يُشْتَرَى اسْمُ النَّصْرِ الْحَزْبِيِّ أَوْ يُوهَبَ أَوْ يُعَارَ ؛ وَأَفْتَحُ مِنْهُ فِي بَابِ الْهَزَلِ أَنْ يُنْعَمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْأُمِّيِّ بِلَقَبٍ بِأَسَا . وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ بَدَّلَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَدَّلَ ، وَأَضَاعَ مَا أَضَاعَ ، فَكَانَ الَّذِينَ مَنَحُوهُ إِيَّاهُ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا وَضَعُ تَوْقِيعَهُمْ عَلَى أَخِيذِ الثَّمَنِ ...

(١) [بَسَطْنَا شَيْئًا مِنْ فِلَسَفَةِ الرُّتَبِ وَالْأَلْقَابِ فِي مَقَالَةٍ : « بَنَى الْبَاشَا » مِنْ مَقَالَتَيْنَا فِي « الرِّسَالَةِ »] .

وَلَقَدْ أَصْبَحَ الرَّجُلُ تَحْتَ تَأْيِيرِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ مَخْبُولًا بِسُخْرِهَا الْوَهْمِيَّ ، فَحَسِبَ ذَلِكَ إِذْخَالَ لَهُ فِي وَظِنَةٍ كُلِّ حَاكِمٍ ، وَإِشْرَاكَ لَهُ فِي الْحُكْمِ مَتَى أَقْتَضَتْهُ مَجَارِي أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ ، أَوْ حَاجَاتُ أَسْبَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ ذَا قَدْ جَاءَ يَطْلُبُ حَقَّهُ ، فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ لَقَبٍ (بَاشَا) إِلَّا أَنَّ الْحُكُومَةَ قَدْ سَوَّغَتْ سُلْطَنَهُ الظُّهُورَ وَالْعَمَلَ ، فَمَدَّتْ بَاعَهُ وَقَوَّتْ أَمْرَهُ وَنَوَّهَتْ بِأَسْمِهِ لِمَصَالِحِهَا وَعُمَالِهَا ؛ فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ قَدْ أَلْتَحَمَ مِنْذُ الْيَوْمِ بِالسَّبِّ الْحُكُومِيَّ ، وَفِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، هُوَ قَدْ وُلِدَ مِنْ بَطْنِ الْحُكُومَةِ ...

أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّعْبَ لَوْ اسْتَرَدَّ سُلْطَنَهُ الْكَامِلَةَ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَوْ أَيْقَنُوا أَنَّ الْأَلْقَابَ الْفَاطِظَ فَارِغَةٌ مِنَ الْأَمْرِ وَالْتَهْيِ وَالْوَسِيلَةِ وَالشَّفَاعَةِ ، لَمَّا بَقِيَ مَنْ يَغْبُ بِهَا ، وَلَكَانَ حَامِلُهَا هُوَ أَوَّلَ مَنْ يَسْخَرُ مِنْهَا ؟

فَهِيَ إِذَا سَعِيدَةٌ^(١) مِنَ الْحُكُومَةِ وَتَضَلُّلٌ فِي مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الْأُمِّيِّ ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ التَّهْوِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي سِوَاهُ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ^(٢) وَالْعِظَمَاءِ ، كَانَ الْوَزِيرَ الَّذِي يَلْقَبُ بِالْبَاشَا ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبَهُ وَزِيرِينَ ، وَكَانَ مِثْلَ هَذَا الْأُمِّيِّ الْمُغْفَلِ ، يَجْعَلُ فِيهِ لَقَبَهُ شَخْصًا آخَرَ غَيْرَ الْأُمِّيِّ الْمُغْفَلِ ...

أَنَا قَلَّمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يَحْتَاجُ إِلَى الْأَقَابِ يَتَعَزَّظُ بِهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَسْتَحِفُّهَا ؛ وَقَلَّمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يَسْتَحِفُّهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ؛ فَأَيْنَ يَكُونُ مَوْضِعُ هَذِهِ الرُّتَبِ وَالْأَلْقَابِ ؟

مصطفى صادق الرافعي

سيدي بشر بإسكندرية

(١) { الشَّعْبَةُ وَالشَّعْوَذَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْكِبَرَاءُ » بَدَلًا مِنْ : « الْكِبَرِيَاءِ » .

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٣

سَاكِنُو النَّيَابِ (*) . . .

قَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : وَجَاءَنِي يَوْمًا اثْنَانِ مِنَ شُبُوحِ الدِّينِ مِنْ ذَوِي هَيَاتِهِمْ وَأَصْحَابِ الْمَنْزِلَةِ فِيهِمْ ، كِلَاهُمَا هَامَةٌ وَقَامَةٌ ، وَجُبَّةٌ وَعِمَامَةٌ ، وَدَرَجَةٌ مِنَ الْإِمَامَةِ ؛ وَلَهُمَا نَسِيمٌ يَنْفُحُ عَطْرًا حَسِبْتُهُ مِنْ تَرْوِيحِ أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ ؛ وَعَلَيْهِمَا مِنَ الْوَفَارِ كِظْلُ الشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ فِي لَهَبِ الشَّمْسِ تَفِيءُ بِهِ يَمَنَةٌ وَيَسْرَةٌ . فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمَا بِنَظَرِي ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِمَا بِنَفْسِي ، وَوَضَعْتُ حَوَاسِي كُلَّهَا فِي خِدْمَتِهِمَا ؛ وَقُلْتُ : هَلْؤَلَاءِ هُمْ رِجَالُ الْقَانُونِ الَّذِي مَادَّتُهُ الْأَوَّلَى الْقَلْبُ .

مَا أَسْخَفَ الْحَيَاةَ لَوْلَا أَنَّهَا تَذُلُّ عَلَى شَرَفِهَا وَقَدَرِهَا يَبْغِضُ الْأَخْيَاءَ الَّذِينَ تَرَاهُمْ فِي عَالَمِ التُّرَابِ كَأَنَّ مَادَّتَهُمْ مِنَ الشُّحْبِ ، فِيهَا لِيغْيِرَهُمُ الظَّلُّ وَالْمَاءُ وَالنَّسِيمُ ، وَفِيهَا لِأَنْفُسِهِمُ الطَّهَارَةُ وَالْعُلُوُّ وَالْجَمَالُ ؛ يُثْبِتُونَ لِلضُّعْفَاءِ أَنَّ غَيْرَ الْمُتَمَكِّنِ مُمَكِّنٌ بِالْفِعْلِ ، إِذْ لَا يَرَى النَّاسُ فِي تَرْكِيبِ طِبَاعِهِمْ إِلَّا الْإِخْلَاصَ وَإِنْ كَانَ حِرْمانًا ، وَإِلَّا الْمُرُوءَةَ وَإِنْ كَانَتْ مَشَقَّةً ، وَإِلَّا مَحَبَّةَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ أَلَمًا ، وَإِلَّا الْجِدَّةَ وَإِنْ كَانَ عَنَاءً ، وَإِلَّا الْقَنَاعَةَ وَإِنْ كَانَتْ فَقْرًا .

هَلْؤَلَاءِ قَوْمٌ يُؤَلَّفُونَ بِيَدِ الْقُدْرَةِ ، فَهُمْ كَالْكُتُبِ قَدْ انْطَوَتْ عَلَى حَقَائِقِهَا وَخُتِمَتْ كَمَا وُضِعَتْ ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنْ حَقِيقَةِ نِصْفِ حَقِيقَةٍ وَلَا شِبْهَ حَقِيقَةٍ وَلَا تَرْوِيحًا عَلَى حَقِيقَةٍ .

وَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْتَوَاقُيسِ الْاِفْتِصَادِيَّةِ ! فَالْكَسَمَاءُ نَفْسُهَا تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى سَمَاسِرَةٍ لِعَرْضِ الْجَنَّةِ عَلَى النَّاسِ بِالْثَمَنِ الَّذِي يَمْلِكُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَهُوَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٢ ، ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر/تشرين الأول

١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ .

الْعَمَلُ الطَّيِّبُ .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخَيْنِ عَلَى أَعْيَانٍ أَنَّهُمَا مِنْ بَقِيَّةِ الْكِبْوَةِ الْعَامِلَةِ فِيهَا شَرِيعَةُ نَفْسِهَا ، تِلْكَ الشَّرِيعَةُ الَّتِي لَا تَغْيَرُ وَلَا تَبْدُلُ كَيْلَا يَتَغَيَّرَ النَّاسُ وَلَا يَتَبَدَّلُوا . ثُمَّ سَأَلْتُهُمَا عَنْ حَاجَتِهِمَا ، فَإِذَا أَحَدُهُمَا قَدْ عَمِلَ آيَاتًا مِنَ الشَّعْرِ جَاءَ يَمْدَحُ بِهَا الْبَاشَا لِيَزِدَ لِفَيْهِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « مَا أَشْبَهَ حَجَلَ الْجِبَالِ ^(١) بِالْوَانِ صَخْرَهَا ! » هَذَا عَالِمٌ دُنْيَا يَحْدُثُهَا مِنَ الشَّرْقِ الرَّغِيْفِ ، وَمِنَ الْغَرْبِ الدَّيْنَارُ ، وَمِنَ الشَّمَالِ الْجَاهُ ، وَمِنَ الْجَنُوبِ الشَّيْطَانُ . . .

ثُمَّ نَشَرَ وَرَقَةً فِي يَدِهِ وَأَخَذَ يَسْرُدُ عَلَيَّ الْقَصِيدَةَ ، وَهِيَ عَلَى رَوِيِّ الْهَاءِ ، تَنْتَهِي آيَاتُهَا : هَا . هَا . هَا . فَكَانَ يَقْرُؤُهَا شِعْرًا - أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ شِعْرًا - وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا أَنَا قَهْقَهَةً مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هَذَا الْعَالَمِ الدَّيْنِيِّ : هَا . هَا . هَا . هَا . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَأَدْخَلْتُهُمَا عَلَى الْبَاشَا ، فَوَقَفَ الْمَدَّاحُ يَمْدَحُ بِقَصِيدَتِهِ ، وَأَخَذَتْ لِحْيَتُهُ الْوَافِرَةَ تَهْتَزُّ فِي إِنْشَادِهِ كَأَنَّهُا مِنْقُضَةٌ يَنْقُضُ بِهَا الْمَلَلُ عَنْ عَوَاطِفِ الْبَاشَا . . . وَكَانَ لِالْآخِرِ صَمْتٌ عَامِلٌ فِي نَفْسِهِ كَصَمْتِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَنْقُطِرُ الْبَذْرَةَ فِي دَاخِلِهَا ، إِذْ كَانَتْ الْحَاجَةُ حَاجَتَهُ هُوَ ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاحِبِهِ رَافِدًا وَظَهِيرًا يَحْمِلُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالْغَيْثَ ، لِيَتَقَلَّبَ الْأَشْيَاءُ حَوْلَ الْمَمْدُوحِ فَيَأْخُذَهُ السَّخَرُ ، فَيَكُونُ جَوَابُ الشَّمْسِ عَلَى هَذِهِ اللَّغَةِ أَنْ تُضِيءَ يَوْمَ الشَّيْخِ ، وَجَوَابُ الْقَمَرِ أَنْ يَمْلَأَ ظِلَامَهُ ، وَجَوَابُ اللَّيْلِ أَنْ يَفْتَرِسَ عَدْوُهُ ، وَجَوَابُ الْغَيْثِ أَنْ يَهْطَلَ عَلَى أَرْضِهِ .

وَالْبَاشَا لَا يَدْعُ ظَرْفَهُ وَدُعَابَتَهُ ، وَكَانَ قَدْ لَمَحَ فِي أَشْدَاقِ الْعَالَمِ الْمُسْتَاعِرِ أَسَنَاتَا صِنَاعِيَّةً ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ نَظْمِهِ الرِّكِيكَ قَالَ لَهُ : يَا أَسْتَاذُ ! أَحْسَبُنِي لَا أَكُونُ إِلَّا كَاذِبًا إِذَا قُلْتُ لَكَ : لَا فُضُّ فُوكَ . . .

ثُمَّ ذَكَرَ الْآخِرُ حَاجَتَهُ : وَهِيَ رَجَاؤُهُ أَنْ يَكُونَ عُمْدَةُ الْقَرْيَةِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ لَا مِنْ ذَوِي

(١) هَذَا مَثَلٌ عَرَبِيٌّ ، وَالْحَجَلُ : الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ ، يَكُونُ فِي الْجَبَلِ مِنْ لَوْنِ صَخْرِهِ لِلْعِلَّةِ الْمُفَرَّغَةِ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ .

عَدَاوَتِهِ . فَقَالَ لَهُ الْبَاشَا : وَلَقَرَيْتُكُمْ أَيْضًا أَبُو جَهْلٍ ... ؟

* * *

وَلَمَّا أَنْصَرَفَا قَالَ لِي الْبَاشَا : لِأَمْرِ مَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لِأَنْفُسِهِمْ زِيًّا خَاصًّا يَتَمَيَّزُونَ بِهِ فِي النَّاسِ ، كَأَنَّ الدِّينَ بَابٌ مِنَ التَّحَرُّفِ وَالتَّصَرُّفِ ، بَعْضُ النَّاسِ فِي ثِيَابِهِ ؛ فَهَؤُلَاءِ يَسْكُنُونَ الْعُجْبَ وَالْفَقَاطِينَ وَكَأَنَّهَا دَوَائِيهِمْ لَا ثِيَابُهُمْ ...

قَدْ أَفْهَمَ لِهَذَا مَعْنَى صَحِيحًا إِذَا كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَحْصُورًا فِي وَاجِبَاتِ عَمَلِهِ كَالْجُنْدِيِّ فِي مَعَانِي سِلَاحِهِ ، فَيَكُونُ التَّعْظِيمُ وَالتَّوْفِيرُ لِنُوبِ الْعَالَمِ الدِّينِيِّ كَادَاءِ التَّحِيَّةِ لِلنُّوبِ الْعَسْكَرِيِّ : مَعْنَاهُ أَنَّ فِي هَذَا النُّوبِ عَمَلًا سَامِيًّا أَوَّلُهُ بَيْعُ الرُّوحِ وَبَذْلُ النَّفْسِ وَتَرْكُ الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ الْمُجْتَمَعِ ؛ هَذَا نُوبٌ يُفْرَضُ عَلَى الْحَيَاةِ أَنْ تُعْظِمَهُ وَتُجِلَّهُ ، وَنُوبٌ الدِّفَاعِ تَجِبُ لَهُ الطَّاعَةُ وَالْإِنْقِيَادُ ، وَنُوبٌ الْقُوَّةِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا الْمَهَابَةُ وَالْإِعْزَازُ فِي الْوَطَنِ . وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الْعُجْبَةُ الْيَوْمَ ؟ { إِنَّهَا } تُطْعِمُ صَاحِبَهَا ...

أَتَرُ الْجَيْشِ مَعْرُوفٌ فِي دِفَاعِ الْأُمَمِ الْعَدُوَّةِ عَنِ الْبِلَادِ ، فَأَيْنَ أَتَرُ جَيْشِ الْعُلَمَاءِ فِي دِفَاعِ الْمَعَانِي الْعَدُوَّةِ عَنِ أَهْلِ الْبِلَادِ ، وَقَدْ اخْتَلَّتْ هَذِهِ الْمَعَانِي وَضُرِبَتْ وَتَمَلَّكَتْ وَتَرَكَتْ هَذَا الْعَالَمَ الدِّينِيَّ فِي نُوبِهِ كَالْجُنْدِيِّ الْمُنْهَزِمِ : يَحْمِلُ مِنْ هَزِيمَتِهِ فَضِيحَةً وَمِنْ نُوبِهِ فَضِيحَةً أُخْرَى ؟

أَنْتَ يَا بُنَيَّ قَدْ رَأَيْتَ (السَّيِّخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ) وَعَرَفْتَهُ ؛ فَرَجَمَ اللَّهُ هَذَا الرَّجُلَ ، مَا كَانَ أَعْجَبَ شَأْنَهُ ! لَكَأَنَّهُ وَاللَّهِ سَحَابَةٌ مَطْوِيَّةٌ عَلَى صَاعِقَةٍ . وَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ قَدْ كَانَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَرَأْسِهِ طَرِيقٌ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ ؛ لَأَشْبَهَ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَوْلًا .

كَانَ يَزُورُنِي أَحْيَانًا فَأَرَانِي مُرْعَمًا عَلَى أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ مَجْلِسَيْنِ أَحَدُهُمَا قَلْبِي . وَكَانَ لَهُ وَجْهٌ يَأْمُرُ أَمْرًا ، إِذَا تَرَاهُ إِلَّا شَعَرْتَ بِهِ يَرْفَعُكَ إِلَى حَقِيقَةِ سَامِيَةٍ^(١) .

رَجُلٌ نَبَتْ عَلَى أَغْرَاقٍ فِيهَا إِبْدَاعُ الْمُبْدِعِ الْعَظِيمِ الَّذِي هِيَاءُ لِرِسَالَتِهِ ، فَعَوَاطِفُهُ كَالْعِطْرِ فِي شَجَرَةِ الْعِطْرِ الشَّدِيَّةِ ، وَشَمَائِلُهُ كَجَمَالِ السَّمَاءِ فِي زُرْقَةِ السَّمَاءِ الْأَصَافِيَةِ ، وَعَظَمَتُهُ

(١) وَصَفْنَا السَّيِّخَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) فِي كِتَابِنَا «السَّحَابُ الْأَخْمَرُ» وَاسْتَلْهَمْنَا رُوحَهُ فَضَلَّ طَرِيقًا تَجِدُهُ هُنَاكَ .

كَرَوَعَةِ الْبَحْرِ فِي مَنْظَرِ الْبَحْرِ الصَّاحِبِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا أُسْتَاذُهُ (السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِي) فَيَسْأَلُهُ مُنْذِهِشًا : يَا اللَّهُ قُلْ لِي : أَيْنَ أَيْ مَلِكٍ أَنْتَ ؟

لَمْ يَكُنْ أَيْنَ مَلِكٍ وَلَا أَيْنَ أَمِيرٍ ، وَلَكِنَّهُ أَيْنَ الْقُوَاتِ الرُّوحِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ ؛ فِيهِ أَعْدَتُهُ ، وَهِيَ أَلْهَمَتُهُ ، وَهِيَ أَنْطَقَتْهُ ، وَهِيَ أَخْرَجَتْهُ فِي قَوْمِهِ إِعْلَانًا غَيْرِ كِتْمَانٍ ، وَمُصَارَحَةٍ غَيْرِ مُخَادَعَةٍ ، وَهِيَ جَعَلَتْ فِيهِ أَسَدِيَّةَ الْأَسَدِ ، وَهِيَ أَلْقَتْ فِي كَلَامِهِ تِلْكَ الشَّهْوَةَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي تَذَاقُ وَتَحُبُّ ، كَالْحَلَاوَةِ فِي الْحَلْوَى .

هَذَا هُوَ الْعَالَمُ الدِّينِيُّ ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَيْنَ الْقُوَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، لَا أَيْنَ الْكُتُبِ وَحَدَهَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ بِعَمَلِهِ إِلَى الدُّنْيَا ، لَا أَنْ يُدْخِلَ الدُّنْيَا تَحْتَ سَقْفِ الْجَامِعِ ...

وَأَنَا فَمَا يَنْقُضُنِي عَجَبِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ هُمْ بَقَايَا تَضَاعُلِ بِجَانِبِ الْأَصْلِ ؛ يَبْحَثُونَ فِي سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ : كَيْفَ كَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ وَيَمْشِي وَيَتَحَدَّثُ ؛ كَأَنَّهُمْ مِنَ الدُّنْيَا فِي قَانُونِ الْمَائِدَةِ ، وَآدَابِ الْوَلَائِمِ ، وَرُسُومِ الْمُجْتَمَعَاتِ ؛ أَمَّا تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى ، وَهِيَ كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَاتِلُ وَيُحَارِبُ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ ، وَكَيْفَ كَانَ يَسْمُو عَلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ؟ وَكَيْفَ كَانَ بِطَاعَةِ الْقُوَّةِ الصَّرِيحَةِ تَعْدِيلًا فَعَالًا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلتَّوَامِينِ الْجَائِرَةِ ؟ وَكَيْفَ كَانَ يَحْمِلُ الْفَقْرَ لِيَكْسِرَ بِهِ شَرَّةَ التَّوَامِينِ الْاِفْتِصَادِيَّةِ الَّتِي تَقْضِي بِجَعْلِ الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ أَثَارِ السَّعَةِ وَالضَّرِيقِ ، فَتُخْرَجَ مِنَ الْغِنَى مُتَعَفِّقًا وَمِنَ الْفَقْرِ لِيَصَ ؟ وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ ﷺ بِفَقْرِهِ السَّامِي أَنْ يُحَوِّلَ مَعْنَى الْغِنَى فِي نَفْسِ أَصْحَابِهِ ، فَيَجْعَلَهُ مَا اسْتَغْنَى عَنْهُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا { وَتَرَكَ } ، لَا مَا نَالَ مِنْهَا { وَجَمَعَ } ؟ أَمَّا هَذَا وَنَحْوُهُ مِنْ حَقَائِقِ الثَّبُوتِ الْعَامِلَةِ فِي تَنْظِيمِ الْحَيَاةِ ، فَقَدْ أَهْمَلُوهُ ، إِذْ هُوَ لَا يُوجَدُ فِي الْكُتُبِ وَشُرُوحِهَا وَحَوَاشِيهَا ، وَلَكِنْ فِي الْحَيَاةِ وَأَفْعَالِهَا وَأَكْدَارِهَا ؛ وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ شُبُوحُنَا مِنَ الْأُمَّةِ فِي مَوَاضِعَ لَمْ يَضَعْهُمْ فِيهَا الدِّينُ وَلَكِنْ وَضَعَتْهُمْ فِيهَا الْوُظَيْفَةُ ...

أَلَا لَيْتَهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْأَزْهَرِ هَذِهِ الْحِكْمَةَ : سِئِلْ بَعْضَ الْعَرَبِ : بِمِ سَادَ فُلَانٌ فَيَكُفُّ ؟ قَالُوا : اخْتَجْنَا إِلَى عِلْمِهِ وَاسْتَغْنَى عَنْ دُنْيَانَا ...

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٤

الْأَخْلَاقُ الْمُحَارِبَةُ (*)

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا بِهِذَا الْحَدِيثِ قَالَ : كُنَّا فِي ثَوْرَةِ سَنَةِ ١٩١٩ سَنَةِ
الْهَزَاهِزِ وَالْفَتَنِ ، وَقَدْ تَفَاقَمَتِ الثَّوْرَةُ ، وَأَخَذَ الشَّبَابُ يَعْمَلُ ، وَيُفَكِّرُ فِيمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَعْمَلَ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ ؛ وَكَانَ السُّخْطُ الْعَامُّ هُوَ مِيرَاثُ الْوَقْتِ ، فَكَانَتْ قُلُوبُ
الشَّعْبِ تُلْهَمُ وَاجِبَانَهَا إِلَهَامًا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ كُلِّهَا إِلَّا لَذْعَةُ الدِّمِ تُعَيِّنُ اتِّجَاهَ
أَعْمَالِهَا وَتُحَدِّدُهُ .

كَانَتْ الثَّوْرَةُ زَلْزَلَةً وَقَعَتْ فِي التَّارِيخِ ، فَجَاءَتْ تَحْتَ زَمَنِ رَاكِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِأَنْ
يُنْسَفَ ، وَلَا يَنْسِفُهُ إِلَّا مَادَّةُ إِلَهِيَّةٍ كَالْحَرَكَةِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي تُخْرِجُ الْيَوْمَ الْجَدِيدَ مِنَ الْيَوْمِ
الْقَدِيمِ ؛ فَكَانَ الْقَدَرُ يَعْمَلُ بِأَيْدِي الْإِنْكِلِيزِ عَمَلًا مِصْرِيًّا ، وَيَعْمَلُ بِأَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ عَمَلًا
آخَرَ .

وَتَعَلَّمَ الشَّعْبُ مِنْ دَفْنِ شَهْدَائِهِ كَيْفَ يَسْتَنْبِطُ الدِّمَ فَيُنْبِطُ بِهِ الْحُرِّيَّةَ ، وَكَيْفَ يَزْرَعُ
الدَّمْعَ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْعِزَّمَ ، وَكَيْفَ يَسْتَنْبِطُ الْخُزْنَ فَيُصْرِفُهُ لِهَذَا الْمَجْدِ .

وَكَانَ رِصَاصُ الْإِنْكِلِيزِ يُصِيبُ هَدَفَيْنِ مَعًا : فَيَصْرَعُ شَهْدَاءَنَا ، وَيَقْتُلُ الْمَوْتَ السِّيَاسِيَّ
الَّذِي أَحْتَلَّ مَعَهُمْ هَذِهِ الْبِلَادَ . وَقَدْ أَنْعَمُوا عَلَى الشَّعْبِ بِالصَّدَمَةِ الْأُولَى ، فَشَبَّتِ
الْمَعْرَكَةُ الَّتِي تُقَاتِلُ فِيهَا الْأَخْلَاقُ الْقَوْمِيَّةُ لِنَتْنَصِيرَ ؛ وَشَعَرَتْ مِصْرُ فِي جِهَادِهَا بِأَنَّهَا مِصْرُ ،
فَالْتَمَسَ رُوحُهَا التَّارِيخِي رَمْزَهُ الْعَظِيمَ فِي الْأُمَّةِ لِيُظْهِرَ فِيهِ عَابِتًا جَبَّارًا ؛ فَكَانَ هَذَا الرَّمْزُ
الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ هُوَ سَعْدُ زَعْلُولٍ .

* * *

(*) «الرسالة» العدد : ١٦٣ ، ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ = ١٧ أغسطس/آب ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٣٢١ - ١٣٢٣ .

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَكَانَ الطَّلَبَةُ قَدْ غَدَوْا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ يَنْظَاهِرُونَ ، وَقَدْ جَعَلَتْهُمْ
الثَّوْرَةُ كَالْأَرْوَاحِ تَخْلَصُ مِنَ الْمَوْتِ بِالْمَوْتِ فَلَا تَخْشَاهُ وَلَا تُبَالِيهِ^(١) ، وَاسْتَقَلَّتْ عَنِ
الْعَقْلِ بِتَحَوُّلِهَا إِلَى شُعُورٍ مَخْضٍ ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْقَوَائِنِ كُلِّهَا إِلَّا الْقَانُونَ الْخَفِيِّ الَّذِي
لَا يُعْلَمُ مَا هُوَ .

كَانُوا فِي مَعَانِي قُلُوبِهِمْ لَا فِي غَيْرِهَا ، فَلَسْتَ تَرَاهُمْ إِلَّا عُظْمَاءَ فِي عَظَمَةِ الْمَبْدَأِ الَّذِي
يَتَّصِرُونَ لَهُ ، أَقْوِيَاءَ فِي قُوَّةِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَعْمَلُونَ بِهِ ، أَجَلَاءَ فِي جَلَالِ الْوَطَنِ الَّذِي
يَخْيُونَ وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ .

وَكَانُوا فِي الشَّعْبِ هُمْ خَيَالُ الْأَمَةِ الْعَامِلِ الْمُدْرِكِ ، وَشُعُورُهَا الْحَيِّ الْمُتَوَلِّبِ ،
وَقُوَاهَا الْبَارِزَةِ مِنْ أَعْمَاقِهَا ، وَأَمَلُهَا الزَّاحِفَ لِيَقْهَرَ الصُّعُوبَةَ .

يَفَادُونَ بِأَنْفُسِهِمُ الْعَالِيَةَ وَيُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ ذَاتُهُ وَلَا أَغْرَاضُ
شَخْصِهِ . فَمَا أَجَلَ وَمَا أَعْظَمَ ! وَمَا أَرْوَغَ وَمَا أَسْمَى ! أَيُّهَا الْحَيَاةُ ! هَلْ فِيكَ أَشْرَفُ مِنْ
هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِلَّا حَقِيقَةُ الْبُوءَةِ ؟

* * *

قَالَ : وَكَانَ أَخِي هُوَ زَعِيمُ هَذِهِ الطَّلَبَةِ فِي مَدِينَتِنَا ؛ قَوِيٌّ عَلَى الزَّعَامَةِ وَفِيَّ بِهَا ؛
يَحْمِلُ قَلْبًا كَالْجَمْرَةِ الْمُتَلَهِيَةِ ، وَلَهُ صَوْتُ بَعِيدٌ تَحْسَبُ الرَّعْدَ يَقْعَقُعُ بِهِ . إِذَا مَشَى فِي
جِهَادِهِ كَانَ كُلُّ مَا عَلَى الْأَرْضِ تُرَابًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، فَلَا يَمْشِي إِلَّا مُخْتَفِرًا هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا
فِيهَا ، غَيْرَ مُقَدَّسٍ مِنْهَا إِلَّا دِينُهُ وَوَطَنُهُ ؛ وَسِلَاحُهُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ هُوَ سِلَاحٌ عَلَى الظُّلْمِ
وَصِدِّ الظُّلْمِ .

وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَوَدُّ « الْمُظَاهَرَةَ » ، وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ خَالِصَتِهِ وَصَفْوَةِ إِخْوَانِهِ ،
يَمْشُونَ فِي الطَّلَبَةِ تَحْتَ جَوْ مُتَّحِدٍ كَانَ فِيهِ غَضَبُ الشَّبَابِ ، عَنِيفٍ كَأَنَّمَا أَمْتَرَجَ بِهِ الشُّخْطُ
الَّذِي يَفُورُونَ بِهِ ، رَهِيْبٌ كَأَنَّهُ مُتَهَيِّئٌ لِيَنْفَجِرَ ؛ فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعًا مِنَ الطَّرِيقِ يَنْعَطِفُونَ عِنْدَهُ
أَنْصَبَ عَلَيْهِمُ الْمِدْفَعُ الرَّشَاشُ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَا تُبَالِي بِهِ » بَدَلًا مِنْ : « وَلَا تُبَالِيهِ » .

قَالَ : فَإِنِّي لَجَالِسٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الدُّيُونِ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ أَخِي هَذَا يَنْتَفِضُ غَضَبًا كَأَنَّ الْمَعَانِي تَنْبِعُثُ مِنْ جَسَدِهِ لِتَقَاتِلَ ، وَرَأَيْتُ لَهُ عَيْنَيْنِ يَنْظُرُ النَّاطِرُ فِيهِمَا إِلَى النَّارِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛ فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الْقَوْمُ أَطْلَقُوا عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ وَالرَّصَاصَ مَعًا .

وَأَسْتَنْبَأْتُهُ خَبَرَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهُ وَقَعُوا يَتَسَحَّطُونَ فِي دِمَائِهِمْ ، فَوَقَفَ هُوَ شَاخِصًا إِلَيْهِمْ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ مَعَهُمْ ، وَقَدْ أَحَسَّ كَأَنَّمَا خَلَعَ عَنْ جِسْمِهِ نَوَامِيسَ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَعْرِفُ مَا هِيَ الْحَيَاةُ وَلَا مَا هُوَ الْمَوْتُ ؛ وَكَانَ الرَّصَاصُ يَنْطَاطِرُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ تَتَلَقَّاهُ وَتُبْعِثُهُ لَا يَنَالُهُ^(١) . سُبُوهُ . قَالَ : وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ مَا رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنِي رَأْسِي الدِّمَ الْمِصْرِيَّ يُسَلِّمُ عَلَى الدِّمِ الْمِصْرِيِّ ، وَيَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعَانِقُهُ عِنَاقَ الْأَخْبَابِ .

ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ هَذَا الْبَاشَا ؟ وَمَا بِالْهَ لَمْ يَضَعْ شَيْئًا فِي الْأَخْيَاطِ لِهَذِهِ الْفُورَةِ ؟ يَكَادُ الْخِزْيُ وَاللَّهِ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْوُظَائِفِ عَلَى مِقْدَارِ الْمُرْتَبِ^(٢) . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَلَمْ يَمِمْ كَلِمَتَهُ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْنَا الْبَاشَا مُتَكَسِّرَ الْوَجْهِ مِنَ الْحُزَنِ قَدْ تَخَرَّعَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَخِي إِلَى عُرْفَتِهِ وَتَبِعْتُهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : هَوْنَا مَا يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْعِلَّةَ فِيكُمْ أَنْتُمْ يَا شَبَابَ الْأُمَّةِ ، فَكُلُّ مَا أَبْتُلِينَا أَوْ نُبْتَلَى بِهِ هُوَ مِمَّا يَسْتَدْعِيهِ خُمُولُكُمْ وَتَسْتَوْجِبُهُ أَخْلَاقُكُمْ الْمُنْخَاذِلَةُ ؛ إِنَّا مِنْ غَيْرِكُمْ كَالْمَدَافِعِ الْفَارِغَةِ مِنْ ذَخِيرَتِهَا : لَا تَصْلُحُ إِلَّا سُكْلًا ، وَبِهَذِهِ الْعِلَّةِ كَانَ عِنْدَنَا سُكْلُ الْحُكُومَةِ لَا الْحُكُومَةُ .

أَتَذَرِي يَا فَتَى مَا الْحُكُومَةُ الصَّحِيحَةُ فِي مِثْلِ حَالَتِنَا ؟ هِيَ أَنْ تَحْكُمُوا أَنْتُمْ فِي الشَّعْبِ حُكُومَةً أَخْلَاقِيَّةَ نَافِذَةِ الْقَانُونِ ، فَتَضْبِطُوا أَخْلَاقَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، وَتَرْدُّوَهَا كُلَّهَا أَخْلَاقًا مُحَارِبَةً لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْجِدَّ وَالْكَرَامَةَ وَصِرَامَةَ الْحَقِّ ؛ وَإِلَّا فَكَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ . . . هَذَا وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي يُعِينُ الْأَجَانِبَ إِلَى رُشْدِهِمْ وَإِلَى الْحَقِيقَةِ ، فَمَا أَرَاهُمْ يُعَامِلُونَنَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « كَيْلَا يَنَالُهُ » بَدَلًا مِنْ : « لَا يَنَالُهُ » .

(٢) [لَا يَنْسَرُ الْقَارِي أَنْ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩١٩ م] .

إِلَّا كَأَنَّ ثِيَابَ مُعَلَّقَةٍ لَيْسَ فِيهَا لَابِسُوهَا . . .

كَيْفَ يَتَصَعَّلُكَ الْمِصْرِيُّ لِلْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّ فِي الْمِصْرِيِّ حَقِيقَةَ الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ ؟ أَتَرَى بَارِجَةَ حَرْبِيَّةَ تَتَصَعَّلُكَ لِزُورَقٍ صَيِّدٍ جَاءَ يَزْتَرِقُ ؟

إِنَّ فِي بِلَادِنَا الْمُسْكِينَةَ الْأَجَانِبَ ، وَأَمْوَالَ الْأَجَانِبِ ، وَغَطْرَسَةَ الْأَجَانِبِ ؛ لَا لِأَنَّ فِيهَا الْإِخْتِلَالَ ، كَلَّا ، بَلْ لِأَنَّ فِيهَا ضَعْفَ أَهْلِهَا ، وَغَفْلَةَ أَهْلِهَا ، وَكَرَمَ أَهْلِهَا . . . بَعْضُ هَذَا يَا بُنَيَّ شَيْئُهُ يَبْغِضُ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ كَرَمُ الشَّاةِ الضَّعِيفَةِ إِلَّا لَذَّةُ لَحْمِهَا . . . ؟

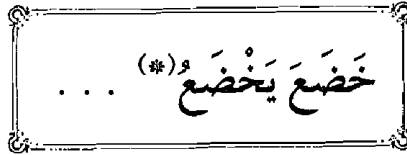
نُرِيدُ لِهَذَا الشَّعْبِ طَبِيعَةً جَدِيدَةً صَارِمَةً ، يَنْظُرُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى الْحَيَاةِ فَيَسْتَشْعِرُ ذَاتَهُ التَّارِيخِيَّةَ الْمَجِيدَةَ فَيَعْمَلُ فِي الْحَيَاةِ بِقَوَائِنِهَا ؛ وَهَذَا شُعُورٌ لَا تُحْدِثُهُ إِلَّا طَبِيعَةُ الْأَخْلَاقِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَسَاهَلُ مِنْ ضَعْفٍ ، وَلَا تَتَسَمَّحُ مِنْ كَذِبٍ ، وَلَا تَتَرَخَّصُ مِنْ غَفْلَةٍ . وَالْحَقِيقَةُ فِي الْحَيَاةِ كَالْحَقِيقَةِ فِي الْمُنْطِقِ : إِذَا لَمْ يَصْدُقِ الْبُرْهَانُ عَلَى كُلِّ حَالَاتِهَا ، لَمْ يَصْدُقْ عَلَى حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهَا ؛ فَإِذَا كُنَّا ضُعَفَاءَ كُرَمَاءَ ، أَعِزَّاءَ ، سَادَةً عَلَى التَّارِيخِ الْقَدِيمِ ، فَكُنْ ضُعَفَاءَ فَقَطْ . . .

إِنَّ الْكِبْرَاءَ فِي الشَّرْقِ كُلُّهُ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لِلرَّأْيِ ، فَلَا تَسُومُوهُمْ غَيْرَ هَذَا ، فَهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا الدَّرْسَ مِنْ أَغْلَاطِهِمْ الْكَثِيرَةِ ، وَبِهَذَا لَنْ تُفْلِحَ حُكُومَةٌ سِيَاسِيَّةٌ فِي الشَّرْقِ الْكَاهِضِ مَا لَمْ يَكُنْ شَبَابُهَا حُكُومَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ يُمِذُّهَا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ الشَّعْبِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ بِالْأَخْلَاقِ الْمُحَارِبَةِ .

يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْقَوِيَّ لَوْ اتَّفَقَ مَعَ الضَّعِيفِ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ، لَكَانَ مَعْنَاهَا لِلْأَقْوَى أَكْثَرُ مِمَّا هُوَ لِلْأَضْعَفِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ الضَّعِيفِ يَكُونُ فِيهِ دَائِمًا شَخْصٌ آخَرُ مُخْتَفٍ ، هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ نَفْسِهِ .

هَكَذَا هِيَ السِّيَاسَةُ ؛ أَمَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَلَا ، إِذْ يَكُونُ الْحَقُّ دَائِمًا بَيْنَ الْأَثْنَيْنِ أَقْوَى مِنَ الْأَثْنَيْنِ .

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : هـ



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا فِيمَا حَدَّثَنِي بِهِ : جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ قُنْصُلُ (الدُّوْلَةِ الْفُلَانِيَّةِ) مِنْ هَذِهِ الدُّوْلِ الصَّغِيرَةِ ؛ الَّتِي لَوْ عَلِمَ الدُّبَابُ فِي بِلَادِهَا أَنَّ فِي مِصْرَ أُمْتِيَازَاتٍ أَجْنَبِيَّةَ ، لَطَمِعَتْ كُلُّ ذُبَابَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي بِلَادِنَا أَسْمُ الطَّيَّارَةِ الْحَرَبِيَّةِ ...

وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَخَلَ عَلَى شَامِخًا بَادِخًا مُتَجَبِّرًا ، كَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ إِلَى هَذَا الدُّنْيَا لِمُقَابَلَةِ الْحَاكِمِ الْمِصْرِيِّ - قَدْ تَكَلَّمَ فِي (التَّلْفُونِ) مَعَ إِسْرَافِيلَ بِأَمْرِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ ...

جَنَى صُغْلُوكُ مِنْ رَعَايَا دَوْلَتِهِ عَلَى مِصْرِي ، فَأَخِذَ كَمَا يُؤْخَذُ أَمْثَالُهُ ، وَقَضَى سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ بَيْنَ أَيْدِي الْمُحَقِّقِينَ يَسْأَلُونَهُ الْأَسْئَلَةَ الْهَيْئَةَ الَّتِي تُحِيطُ بِتَغْرِيفِهِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَلَا يُشَبِّهُهَا فِي سَخَافَةِ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ ثِيَابِهِ مِنْ أَيِّ مَصْنَعٍ هِيَ فِي أَوْرُبَةِ ... فَرَعَمَ الْقُنْصُلُ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا بِشَهْدِ التَّحْقِيقِ ، لِأَنَّ جَنَابَةَ أَجْنَبِيٍّ عَلَى مِصْرِي تَقَعُ أَجْنَبِيَّةٌ ... فَلَهَا شَأْنٌ وَرِعَايَةٌ وَأُمْتِيَازٌ ؛ وَادَّعَى أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ ضَايِقُوا الْمُجْرِمَ وَعَاسَرُوهُ وَتَجَهَّمُوهُ بِالْكَلَامِ ، وَلِهَذَا جَاءَ يَخْجُجُ .

وَرَأَيْتُهُ جَلَسَ مُتَوَقِّرًا كَأَنَّمَا يَشْعُرُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ أَثْقَلُ مِنْ مِذْفَعِ ضَخْمٍ ، لِأَنَّ فِي نَفْسِهِ وَهْمَ الْقُوَّةِ ؛ وَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى مَوْضِعَهُ بَيْنَ السَّقْفِ وَالْأَرْضِ ؛ إِذْ يَحْمِلُ فِي رَأْسِهِ فِكْرَةَ أَنَّهُ الْأَعْلَى ، وَكَانَتْ لَهُ هَيْئَةٌ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْأَجْنَبِيَّ الْمُفْنِمَ هُنَا لَيْسَ هُوَ كُلُّ الْأَجْنَبِيِّ ، بَلْ لَا تَزَالُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ تَتَمَّمُهَا دَوْلَتُهُ ، وَفِي الْجُمْلَةِ كَانَ الرَّجُلُ كَلِمَةً وَاضِحَةً مُفَسَّرَةً تَنْطَلِقُ بِأَنَّ

لِلْقَانُونِ الْمِصْرِيِّ قَانُونًا يَحْكُمُهُ فِي بِلَادِهِ !

وَأَنَا قَدْ دَرَسْتُ الْقَانُونِ الدَّوْلِيَّ ، وَعَرَفْتُ مَا هِيَ الْأُمْتِيَازَاتُ وَمَا أَصْلُهَا ، وَهِيَ لَا تَعْدُو كَرَمَ الْأَرَنْبِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتْ تَمْلِكُ حِمَارًا تَرْكَبُهُ وَتَرْتَفِقُ بِهِ ، فَسَأَلْتُهَا أَرَنْبُ أُخْرَى أَنْ تُزِدَهَا خَلْفَهَا ، فَلَمَّا أُنْذِفَ بِهِمَا الْحِمَارُ اسْتَوْطَأَتْهُ ، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهِ : يَا أُخْتِي ، مَا أَفْرَةَ حِمَارِكَ ! ثُمَّ سَكَتَتْ مُدَّةً وَأَعْجَبَهَا الْحِمَارُ فَقَالَتْ : يَا أُخْتِي ، مَا أَفْرَةَ حِمَارِنَا . . .

وَكُنَّا نَحْنُ الشَّرِيقِيِّينَ مِنَ الضَّغْبِ وَالْعُقْلَةِ ؛ بِحَيْثُ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ الْأَرَنْبِ فِي حِكْمَتِهَا وَتَنْذِيرِهَا وَحَذَرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْرَعَتْ وَدَفَعَتْ صَاحِبَتَهَا وَقَالَتْ لَهَا : أَنْزِلِي - وَبِئْسَ - قَبْلَ أَنْ تَقُولِي : مَا أَفْرَةَ حِمَارِي .

قَالَ : غَيْرَ أَنِّي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَسِيتُ الْقَانُونِ الدَّوْلِيَّ وَكُنْتُ فِي إِلْهَامِ مِصْرِيَّتِي وَحَدَهَا ، فَظَهَرَ لِي ظُهُورًا بَيِّنًا أَنَّ لَا شَيْءَ أَسْمُهُ الْقَانُونُ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ وَلَكِنَّ هُنَاكَ اتِّفَاقًا بَيْنَ كُلِّ خُضُوعٍ وَكُلِّ تَسَلُّطٍ ، هُوَ قَانُونُ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ بِخُصُوصِهِمَا .

وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْبَاشَا فَأَنْبَأْتُهُ ، وَأَسْرَعَ الْبَاشَا فَعَيَّرَ وَجْهَهُ ، وَتَبَسَّطَ ، وَنَهَلَلَ ، وَنَهَيْتَا بِهِذَا لِاسْتِقْبَالِ الْقَادِمِ الْعَزِيزِ ، كَأَنَّهُ أَخَصُّ مُحِبِّهِ يَتَطَلَّعُ إِلَى مُؤَانَسَتِهِ ، وَقَدْ جَاءَ يَزُورُهُ فِي دَارِهِ . ثُمَّ دَخَلَ الْفُتُصْلُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِمَّا دَارَ بَيْنَهُمَا إِلَّا الْكَلِمَةَ الْأُولَى ، وَهِيَ قَوْلُ الْبَاشَا : لِنَبْدَأُ يَا سَيِّدِي مِنَ الْآخِرِ . . .

* * *

وَكَانَتْ فِي الْبَاشَا مَوْهَبَةٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِلَابِ الْأَجَانِبِ خَاصَّةً ، يُدِيرُهُمْ بِلَبَاقَةٍ كَالْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِهِ ؛ حَتَّى قَالَ لِي أَحَدُهُمْ : إِنَّ لِهَذَا الْبَاشَا حَاسَةً زَائِدَةً ، لَوْ سُمِّيَتْ حَاسَةُ الْإِرْضَاءِ لَكَانَ هَذَا أَسْمَهَا الطَّبِيعِيِّ ، وَإِنَّهُ يَعْمَلُ بِهَا كَمَا يَعْمَلُ الْمُفَكِّرُ بِتَفَكُّيرِهِ ؛ فَهُوَ يَنْتَكِرُ الْأَسَالِيبَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي يَصْعَدُ وَيَهْطُ بِهَا مِيزَانُ الْحَرَارَةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَإِنَّ جَلِيسَتَهُ يَكَادُ يَشْعُرُ مِنْ مَهَارَتِهِ فِي التَّمْنِيلِ أَنَّ فِي جَوْ الْمَكَانِ سِتَارًا يُرْفَعُ وَسِتَارًا يُسَدَّلُ بَيْنَ الْفُضُولِ .

فَمَا لَبِثَ الْفُتُصْلُ أَنْ خَرَجَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ عَبَسَ فِي وَجْهِهِ أَنَا وَتَكَرَّهَ لِي كَأَنَّهُ أَصْغَرَ شَأْنِي ، فَازْدَرَنْتِي عَيْنُهُ ، فَوَبَّتْ إِلَى رَأْسِهِ فِكْرَةَ الْأُمْتِيَازَاتِ .

وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الظَّالِمَةُ (الامْتِيازَاتُ) ؛ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ قُوَّةً قَاهِرَةً نَافِذَةً ، وَأَعِينَ بِهَا طِفْلِي لَيَفْتَحِمَ دُورَ النَّاسِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا - لَاسْتَحَى هَذَا الطِّفْلِيُّ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا ؛ إِذْ تَجْمَعُ عَلَيْهِ التَّطَقُّلُ وَالْمَقْتُ مَعًا ، وَلَوْ قِيلَ لِحُسَامٍ بَنَارٍ : إِنَّ لَكَ أَمْتِيازًا عَلَى بَعْضِ السُّيُوفِ أَلَّا تُقَارِعَكَ ، وَإِنَّكَ مَحْمِيٌّ أَنْ تَنَالَكَ سَطَوْنُهَا إِذَا قَارَعْتَهَا - لَأِنْفَ أَنْ يُسَمَّى سَيْفًا بِهِذَا أَوْ بِمِثْلِ هَذَا ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الظَّالِمَةَ الَّتِي يُعِيرُ وَنَهَ إِيَّاهَا ، لَيْسَتْ إِلَّا مَهَانَةٌ لِشَرَفِ الْقُوَّةِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فِيهِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَوَصَفْتُ لِلنَّاسِ هَيْئَةَ الْقُنْصُلِ الَّتِي أَنْصَرَفَ بِهَا ، وَتَقْطِيبَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الدُّبَابَةَ وَقَعَتْ فِي صَحْفَتِي أَنَا مِنْ هَذِهِ الْوَلِيْمَةِ . . . فَصَحَّكَ بِمِلْءِ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ :

سَتَبْطُلُ هَذِهِ الْأَمْتِيازَاتُ ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نِهَازِيهَا إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ الشَّعْبُ إِلَى حَقِيقَتِهِ الْقَوْمِيَّةِ ، فَمَا تَرَكْهَا فِي مَكَانَتِهَا إِلَّا نُرُوزُ الشَّعْبِ عَنْ مَكَانَتِهِ ، وَتَاللهِ لَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَجَانِبَ يَسْأَلُونَنَا بِهِذِهِ الْأَمْتِيازَاتِ : أَيْنَ مَكَانُكُمْ فِي بِلَادِكُمْ . . . ؟

أَنْذِرِي مَا قَالَ هَذَا الْقُنْصُلُ حِينَ تَجَاذَبْنَا الْحَدِيثَ فِيهَا ، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْهُ فِي مَوْضِعِ الْمُحَامِي الَّذِي يَخْذُلُهُ الدَّلِيلُ ، فَيَحَاوِلُ أَنْ يَسْتَنْزِلَ كَرَمَ الْفَضَاةِ بِعَرَضِ بُؤْسِ الْمُتَمِّهِمْ عَلَى شَفَقَتِهِمْ ، لَيْسْتَ عَظِفَ الْقَانُونِ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ بِالْقَانُونِ الَّذِي فِي أَنْفُسِهِمْ ؟

إِنَّهُ قَالَ : لَا يَلُومَنَّ الشَّرْقِيُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ عَلِمُوا الْأَجَانِبَ أَنَّ تَتَفَ رِيشَ الطَّيْرِ أَوَّلَ أَكْلِهِ . . . وَهَذِهِ الْأَمْتِيازَاتُ إِنْ هِيَ إِلَّا مُعَامَلَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طَبِيعَةِ الْخُضُوعِ فِي الشَّعْبِ . نَعَمْ إِنَّهَا مُضِرَّةٌ وَمَعْرَّةٌ ، وَظُلْمٌ وَقَسْوَةٌ ؛ وَلَكِنَّهَا عَلَى ذَلِكَ طَبِيعَةٌ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ فَمَا دَامَ هَذَا الشَّعْبُ لَيْزَنَ الْمَأْخِذِ ، فَإِنَّ هَذَا يُوجِدُ لَهُ مَنْ يَأْخُذُهُ ؛ وَمَا دَامَتِ الْكَلِمَةُ الْأُولَى فِي مُعْجَمِ لُغَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ هِيَ مَادَّةٌ (خَضَعُ يَخْضَعُ) ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَحْمِلُ فِي مَعْنَاهَا الْوَاحِدِ أَلْفَ مَعْنَى ، مِنْهَا : ظَلَمَ يَظْلِمُ ، وَرَكِبَ يَرْكَبُ ، وَمَلَكَ يَمْلِكُ ، وَاسْتَبَدَّ يَسْتَبِدُّ ، وَدَجَلَ يَدْجُلُ ، وَخَدَعَ يَخْدَعُ ؛ فَهَلْ يَكْثُرُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا لِلْأَجَانِبِ : أَمْتِازَ يَمْتَازُ ؟

* * *

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : ثُمَّ زَمَ الْبَاشَا فَمَهُ وَسَكَتَ ؛ فَفَهِمْتُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنْطَبَقَ فَمَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا ، ثُمَّ غَلَبَهُ الضَّجُّ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا طَمَرَ مِنْ ثَوْبِ صُغْلُوكِ أَجَنِّيَّ ، فَوَقَعَ فِي ثَوْبِ صُغْلُوكِ وَطَنِيَّ ، فَتَقَاتَلَا ، فَقَبِضَ عَلَيْهِمَا ، فَأَخِذَا - لَمَّا رَضِيَ بُرْغُوثُ الْأَجَنِّيُّ أَنْ يُحَاكِمَ إِلَّا فِي الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلَطَةِ . . .

ثُمَّ سَكَتَ الْبَاشَا مَرَّةً أُخْرَى كَأَنَّهُ يَقُولُ كَلَامًا آخَرَ لَا يَجُوزُ نَشْرُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ! إِنْ الْأَجَانِبَ لَا يَضَعُونَ الْحِنْلَ إِلَّا عَلَى مَنْ يَحْمِلُ ؛ فَإِذَا نَحْنُ تَوَخَّيْنَا مُرَادَهُمْ أَرَادُوا لِأَنْفُسِهِمْ لَا لَنَا ؛ وَإِذَا وَافَقْنَا لَهُمْ عَرَضًا جَعَلُوهُ كَالدِّينَارِ فِيهِ مِثَّةُ قَرِشٍ ، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ نُصَارِفَهُمْ عَلَيْهِ بِمِثَّةٍ . وَهُمْ - وَيَحْكُ - يَمْتَنَزُونَ فِي مُعَامَلَتِنَا لَا فِي سَطُورِ الْقَوَانِينِ وَالْمُعَاهَدَاتِ ، فَلَنُبْطِلَ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ يَبْطُلُ هَذَا الْأَمْتِيَّازُ .

إِنَّ الْحَقَّ يَا بُنَيَّ أَسْتَحْقَاقُ لَا دَعْوَى ؛ وَهَذَا التَّنَازُعُ عَلَى الْحَيَاةِ يَجْعَلُ وَسَائِلَهُ الطَّبِيعِيَّةَ الْأَنْتِزَاعَ وَالْمُطَالَبَةَ وَالتَّجَرُّدَ لَهُ وَالذُّبَابَ فِيهِ وَالْإِضْرَارَ عَلَيْهِ . وَكُلُّ الْأَقْوِيَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَوْضِعَ الْأَعْتِدَالِ بَيْنَ غَضَبِ الْحَقِّ وَبَيْنَ اسْتِرْدَادِهِ مَوْضِعٌ لَا مَكَانَ لَهُ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ وَالْأَجَنِّيُّ يَغْتَمِدُ عَلَيْنَا نَحْنُ فِي جَعْلِهِ أَكْبَرَ مَنَّا وَأَوْفَرَ حُرْمَةً ؛ فَإِذَا اسْقَطَ^(١) الشَّعْبُ هَذِهِ الْأَمْتِيَّازَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَرُوحِهِ وَأَعْصَابِهِ ، وَنَارَتْ فِيهِ كِبَرِيَاءُ الْوُطَنِيَّةِ فَاسْتَنَكَفَ مِنَ اسْتِخْدَاءِ ، وَنَفَرَ مِنَ الْاِخْتِصَاصِ ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ كَرَامَتَهُ ، وَصَرَفَ أَهْتِمَامَهُ إِلَى حُقُوقِ هَذِهِ الْكَرَامَةِ ، وَأَصَرَ الْأَ يَعْمَلُ أَجَنِّيًّا يَرَى لِنَفْسِهِ أَمْتِيَّازًا عَلَى وَطَنِيٍّ ، وَقَرَّرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَمَكَّنَهُ فِي رُوعِهِ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ إِجْمَاعُهُ عَلَى الدِّينِ - إِذَا جَاءَتْ (إِذَا) هَذِهِ بِشْرُطِهَا مِنَ الشَّعْبِ ، جَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ مِنَ الْأَجَانِبِ بِتُرُؤْلِهِمْ عَنِ الْأَمْتِيَّازَاتِ وَانْحَلَّتِ الْمُسْكِلَةُ . إِنَّا يَا بُنَيَّ لَا نَمْلِكُ ضَغْطَ السِّيَاسَةِ ، وَلَكِنَّا نَمْلِكُ مَا هُوَ أَقْوَى ؛ نَمْلِكُ ضَغْطَ الْحَيَاةِ .

لَهُمُ الْأَمْتِيَّازُ بِأَنَّهُمْ أَجَانِبُ عَنَّا ، فَلْيَكُنْ لَنَا الْأَمْتِيَّازُ الْآخَرُ بِأَنَّنَا أَجَانِبُ عَنْهُمْ فِي الْمُعَامَلَةِ ، مِثْلًا بِمِثْلِ ، وَمَا يَمْلُ الْحَدِيدُ إِلَّا الْحَدِيدُ .

يَقُولُونَ : النَّظَامُ الْاِفْتِصَادِيُّ وَالْمَالُ الْأَجَنِّيُّ . وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ الْمَالَ فِي يَدِ الْأَجَنِّيِّ إِلَّا

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْغَى » بَدَلًا مِنْ : « اسْقَطَ » .

مَالًا وَتَذِيرًا وَسُلْطَةً وَسَيَادَةً ، مِنْ أَنَّهُ فِي يَدِ الْوَطْنِيِّ دَيْنٌ وَإِسْرَافٌ وَرِقٌّ وَذُلٌّ ؟
لَمْ يَظْهَرْ لِي إِلَّا السَّاعَةُ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ تَحْرِيمِ الرَّبَا فِي شَرِيعَتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَايَةَ الْأُمَّةِ
كُلُّهَا فِي ثُرُوتِهَا وَضِيَاعِهَا وَمُسْتَغْلَاتِهَا ، وَحِمَايَةَ الشَّعْبِ وَمُلُوكِهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّخَرُّقِ
وَالْكَرَمِ الْكَاذِبِ ، وَرَدَّ الْأَسْتِعْمَارِ الْاِقْتِصَادِيَّ ، وَشَلَّ الْقُوْدِ الْأَجْنَبِيَّ .
أَمَّا لَوْ أَنَّنَا كَتَبْنَا مِنَ الْأَوَّلِ عَلَى أَبْوَابِ « الْبَنْكِ الْعِقَارِيِّ » وَأَبْوَابِ دُرِّيَّتِهِ : « يَمْنَحُ اللَّهُ
الرَّبَا » . فَهَلْ كَانَتْ تُقْرَأُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ عَلَى أَبْوَابِ تِلْكَ الْبُنُوكِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَّا
هَكَذَا : « مَحَالٌ خَالِيَةٌ لِلْإِنْبَارِ » ؟

مصطفى صادق الرافعي

سيدي بشر . إسكندرية

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٦

فَلْتَعَصَّبْ (*) . . . !

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : جَاءَنِي يَوْمًا صَحْفِيٌّ إِنْكَلِيزِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ
الْمُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ تُطْلِقُهُمْ إِنْكَلِيزَةُ كَمَا تُطْلِقُ مَدَافِعَهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ لِلْبَارُودِ وَالرَّصَاصِ
وَالْقَنَابِلِ ، وَأُزْلَتِكَ لِلْكَذِبِ وَالْتِّهَمِ وَالْمُغَالَطَاتِ .

وَهُوَ أَدُنُّ وَعَيْنٌ وَلِسَانٌ وَقَلَمٌ لَجَرِيدَةِ إِنْكَلِيزِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ، مَعْرُوفَةٌ بِثِقَلِ وَطْأَتِهَا عَلَى الشَّرْقِ
وَالْإِسْلَامِ ؛ تُصْلِحُ بِإِفْسَادٍ ، وَتُدَاوِي الْحُمَى بِالطَّاعُونِ ، وَتَعْمَلُ فِي نَهْضَةِ الشَّرْقِيِّينَ
وَأَسْتِقْلَالِهِمْ مَا يُشْبِهُ قَطْعَ نَذِي الْأُمِّ وَهُوَ فِي شَفَتِي رَضِيْعَهَا الْمُسْكِينِ .

وَدَخَلَ عَلَيَّ هَذَا الْكَاتِبُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا مِنْ غُرْفَتِي صَاحِبُ جَرِيدَةِ أُسْبُوعِيَّةٍ
فِي مَدِينَتِنَا ؛ كَانَ قَدْ نَفَّخَ الصُّفْدَعَ لِيَجْعَلَهَا نُورًا ، فَحَوَّلَ صَحِيفَتَهُ إِلَى جَرِيدَةِ يَوْمِيَّةٍ ، وَهُوَ

(*) « الرسالة » ، العدد : ١٦٥ ، ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٣١ أغسطس / آب ١٩٣٦ م ،
السنة الرابعة ، الصفحات : ١٤٠١ - ١٤٠٣ .

لَا يَجِدُ مَادَّتَهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَسْبَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ كَذَّابُ النَّاسِ عِنْدَنَا كَانَ يَحْسَبُ الْكَذِبَ فِي الْعَمَلِ سَهْلًا مَهْلًا^(١) كَالْكَذِبِ فِي الْقَوْلِ ، فَلَمْ يَتَعَاطَمَهُ الْأَمْرُ^(٢) الْعَظِيمُ ، وَافْتَرَضَ لِعَمَلِهِ كُلِّ أَلْفَاظِ التَّجَاحِ مِنَ اللَّغَةِ ...

وَلَمَّا عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَخَوْفُ بِجَرِيدَتِهِ الْكُتَبَاءَ وَالْأَعْيَانَ وَالْمَيَاسِيرَ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى جَمِيعِهِمْ ، وَيُشْرِكَ أَصَابِعَهُ مَعَ أَصَابِعِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جُيُوبِهِمْ ؛ فَلَمْ تَعِشْ جَرِيدَتُهُ إِلَّا أَيَّامًا وَأَتْلَفَ مَا جَمَعَ ، وَرَهَنَ فِيهَا دَارَهُ الَّتِي لَا يَمْلِكُ غَيْرَهَا ؛ وَعَلِمَ آخِرًا أَنَّ الَّذِي يَكْذِبُ فَيَسْمِي الْخُرُوفَ جَمَلًا ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى الْكَذِبِ نَفْسِهِ ، فَيَزْعُمَ أَنَّ الْثَاقَةَ هِيَ الَّتِي تَنْجُو هَذَا الْخُرُوفَ ...

وَلَمَّا انْقَلَبَتْ هَذِهِ الْجَرِيدَةُ يَوْمِيَّةً كَانَ الْبَاشَا هُوَ مَلْجَأُ الرَّجُلِ وَوَزَرُهُ ، وَكَانَ لِكُلِّ يَوْمٍ فِي الْجَرِيدَةِ أَخْبَارٌ عَنِ الْبَاشَا لَا تَقَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا تُجْمَعُ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَلَكِنْ تَقَعُ فِي ذَهْنِ الْكَاتِبِ ، وَتُجْمَعُ مِنْ صِنَادِيقِ الْخُرُوفِ ؛ حَتَّى قَالَ لِي الْبَاشَا مَرَّةً : إِنَّ أَسْمِي قَدْ أَصْبَحَ مُوَظَّفًا فِي هَذِهِ الْجَرِيدَةِ لِيَجْمَعَ الْأَشْتِرَاكُ ...

وَتَحَرَّرْتُ هَذَا الصَّحْفِيُّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ يَوْمًا عَلَى الْبَاشَا وَفِي مَجْلِسِهِ حَشْدٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّرَاةِ وَالْأَعْيَانِ وَالْعُمَدِ ، وَكَانَ جَمْعُهُمْ لِأَمْرٍ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ الصَّحْفِيُّ حَتَّى ابْتَدَرَهُ الْبَاشَا بِهَذَا السُّؤَالِ : يَا أَسْتَاذُ ! مَا هِيَ تَلْغَرِافَاتُ [بَرْقِيَّاتُ] أَوْرُبَةِ عَنِ الْحَوَادِثِ الَّتِي سَتَقَعُ غَدًا ... ؟

فَضَحَّ الْمَجْلِسُ بِالضَّحِكِ ، وَفَقَدَ الْمُسْكِينُ بِهَذِهِ التُّكْنَةَ أَرْبَعِينَ دِينَارًا كَانَ يُؤْمَلُ أَنْ يَخْرُجَ بِهَا ، وَأَعْلَنَ الْبَاشَا فِي أَطْرَفِ إِعْلَانٍ وَأَبْلَغِهِ كَذِبَ الرَّجُلِ وَرَفَاقَهُ وَإِسْفَاقَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الصَّحَافَةِ الْمُدَوَّرَةِ تَدْوِيرَ الرَّغِيفِ ...

* * *

(١) هَذَا الْأَسْتِغْمَالُ مِمَّا وَضَعْنَاهُ نَحْنُ وَلَيْسَ فِي اللَّغَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَتْبَاعِ كَقَوْلِهِمْ : حَسَنٌ بَسَنٌ ، وَشَيْطَانٌ لَيْطَانٌ ... إلخ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « فَلَمْ يَتَعَاطَمِ لِلْأَمْرِ » بَدَلًا مِنْ : « فَلَمْ يَتَعَاطَمَهُ الْأَمْرُ » .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى الصَّحْفِيِّ الْإِنْكِلِيزِيِّ نَظْرَةً أَكْثَفُهُ بِهَا ، فَإِذَا أَوَّلُ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أَمثَالِهِ عِنْدَنَا - شُعُورُهُ أَنَّ بِلَادَهُ قَدْ رَبَّتُهُ (لِلخَارِجِ) ، فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ إِنْكِلِيزِيٌّ مَرَّتَيْنِ ؛
وَيَأْتِنِي مِنْ ذَلِكَ إِحْسَاسُهُ بِعِزَّةِ الْمَالِكِ وَقُوَّةِ الْمُسْتَعْمِرِ ، فَلَا يَكُونُ حَيْثُ يَكُونُ إِلَّا فِي
صَرَاحَةِ الْأَمْرِ النَّافِذِ ، أَوْ غُمُوضِ الْحِيلَةِ الْمُتَبَهِّمَةِ ؛ وَيَسْتَحْكِمُ بِهِذَا وَذَلِكَ طَبْعُهُ الْعَمَلِيَّ ،
فَهُوَ بِغَرِيزَتِهِ مُقَاتِلٌ مِنْ مُقَاتِلَةِ الْفِكْرِ ، يَلْتَمِسُ مِيدَانَهُ بَيْنَ الْقُوَى الْمُتَضَارِبَةِ لَا يُتَالِي أَنْ يَكُونَ
فِيهِ الْمَوْتُ مَا دَامَ فِيهِ الْعَمَلُ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ تَرَاهُ نَافِذَ الْبَصِيرَةِ قَائِمًا عَلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ ، لِأَنَّ
الْإِنْكِلِيزِيَّ الْبَاطِنَ فِيهِ يُوجِبُهُ الْإِنْكِلِيزِيُّ الظَّاهِرُ مِنْهُ وَيُسَانِدُهُ ؛ وَفِي أَعْمَاقِ الْأَنْثَيْنِ تَجِدُ
إِنْكِلِيزَةً ، وَلَيْسَ غَيْرَ إِنْكِلِيزَةٍ .

ثُمَّ تَفَرَّسْتُ فِي الرَّجُلِ أَرِيدُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، فَإِذَا لَهُ نَفْسٌ مَفْتُوحَةٌ مُقْفَلَةٌ مَعًا ، كَعُزْفِ
الدَّارِ الْوَّاحِدَةِ : يَفْتَحُ بَعْضُهَا لِمَا فِيهِ كَيْمَا يَرَى ، وَيَقْفُلُ بَعْضُهَا عَلَى مَا فِيهِ كَيْلًا يَرَى .

وَلَهُ وَجْهٌ عَمَلِيٌّ يَكَادُ يُحَاسِبُكَ عَلَى نَظَرَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ تَدُورُ فِي هَذَا الْوَجْهِ عَيْنَانِ قَدْ
اعْتَادَتَا وَزْنَ الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي ؛ يَتَلَأَلُ فِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ شِعَاعُ النَّفْسِ الْقَوِيَّةِ الْمُمَرَّنَةِ ، قَدْ
نَقَبَ الثَّقَّةُ بِهَا نِصْفَ هُمُومِ الْحَيَاةِ عَنْ صَاحِبِهَا ، تُمِذُ هَذِهِ النَّفْسَ طَبِيعَةُ مُؤَمِّنَةٍ بِأَنَّ أَكْبَرَ
سُرُورِهَا فِي أَعْمَالِهَا ، فَوَاجِبُهَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَعْمَلَ كُلَّ مَا يَحْسُنُ بِهَا وَكُلَّ مَا يَحْسُنُ مِنْهَا .

لَقَدْ خُبِلَ إِلَيَّ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى نَفْسِيَّةِ هَذَا الْإِنْكِلِيزِيِّ أَنَّ كَلِمَةَ الْخَيِّتَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ
الْإِنْكِلِيزِيِّ غَيْرُ كَلِمَةِ الْخَيِّتَةِ عِنْدَنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ ، فَإِنَّ خَيِّتَةَ النَّفْسِ لَا تَتِمُّ مَعَانِيهَا أَبَدًا فِي
النَّفْسِ الْعَامِلَةِ الدَّائِبَةِ ، الَّتِي يُشْعِرُهَا الْوَاجِبُ أَنَّهُ شَيْءٌ إِلَهِيٌّ لَا يَخِيبُ ، وَأَنَّ مَا يُرْفَضُ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنَ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ لَا يُرْفَضُ فِي السَّمَاءِ .

وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ أَدْرَكَ غَرَضِي بِمَلَكَتِهِ الصَّحَافِيَّةِ الدَّقِيقَةِ ، فَأَجَابَنِي عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي لَمْ
أَسْأَلْهُ ، وَقَالَ لِي مُبْتَدَأًا : إِنَّ أَسَاسَنَا الْشَّخْصِيَّةَ وَحَاسَةَ الْوَاجِبِ ؛ وَإِنَّ فِيكُمْ أَنْتُمْ كُلُّ شَيْءٍ
إِلَّا هَذَيْنِ ؛ فَأَخْلَقْنَا تَظْهَرُ دَائِمًا فِي الْعَمَلِ ، وَأَخْلَقُكُمْ تَظْهَرُ دَائِمًا فِي الْكَلَامِ الْفَارِغِ ؛
وَنَحْنُ نَطْلُبُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَ الْأَلْفَاظَ ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ خَسَرَ الْمِصْرِيُّ أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ
أَعْلَنَ أَنَّهَا مِئَةٌ فَقَطْ ، وَصَدَّقَ النَّاسُ أَنَّهَا مِئَةٌ ؛ لَكَانَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ رِيحٌ تَسْعُ مِئَةً ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ وَرَحَّبَ ؛ ثُمَّ هَمَمْتُ بِالْأَنْصِرَافِ عَنْهُمَا ، وَلَكِنَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ قَالَ : يَا بَاشَا ! إِنَّهُ قَدْ تَمَكَّنَ فِي رُوعِي أَنَّ صَاحِبَ سِرِّكَ هَذَا مُتَعَصِّبٌ دِينِي ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ ابْنُ فَلَانِ الْقَاضِي الشَّرْعِيِّ ، فَطَرَبُوشُهُ ابْنُ الْعِمَامَةِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَكَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُ مِنْ أَيْنَ يَذْبَحُنِي ...

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ لِي : يَا فَلَانُ ! إِنَّ هَذَا الْكَاتِبَ مِنْ تَلَامِيذِ بَرْنَارْدُشُو ، فَهُوَ كَأَسَاتِيذِهِ يَجْعَلُ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ ذَنْبًا كَذِيلِ الْهَرِّ ، ثُمَّ يُنْسِكُهَا مِنْهُ فَإِذَا هِيَ تَعَضُّ وَتَتَلَوَّى ...

وَالْتَفَتَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْكِلِيزِيِّ ثُمَّ قَالَ لَهُ : جَاءَنِي كِتَابُكَ فَإِذَا كُنْتُ تُرِيدُ رَأْيِي فِيهَا تُسَمِّيهِ التَّعَصُّبَ الدِّينِيَّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَجِبْتُ أَنْ تَضَعُوا أَنْتُمْ الْغَلْطَةَ ثُمَّ تَسْأَلُونَا نَحْنُ فِيهَا ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّعَصُّبَ الْكَذِبَ الَّذِي أَكْثَرْتُمْ الْكَلَامَ فِيهِ ، إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ مِنَ الْفَاطِ السِّيَاسَةِ الْأَوْرُبِيَّةِ ، أَرْسَلْتُمُوهُ إِلَيْنَا لِيَقَاتِلَ لَفْظَ التَّعَصُّبِ الْحَقِيقِيِّ ؛ وَمِنْ قَبْلِ هَذَا أَخْتَرَعْتُمْ لَفْظَةَ (الْأَقْلِيَّاتِ) ، وَأَجْرَيْتُمُوهَا فِي لُغَتِكُمُ السِّيَاسِيَّةِ ، لِتَجْعَلُوا بِهَا لِتَعْصِبِنَا الْوُطَنِيَّ شَكْلًا آخَرَ غَيْرَ شَكْلِهِ فُتْسِدُوهُ عَلَيْنَا بِهِذِهِ الْمَادَّةِ الْمُفْسِدَةِ ؛ وَبِذَلِكَ تَضْرِبُونَ أَلِدَ الْيُمْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْمَسُوهَا ، إِذْ تَضْرِبُونَهَا بِسِلِّ أَلِدِ الْيُسْرَى .

إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي نَفْسِهِ عَدُوٌّ شَدِيدٌ عَلَى التَّعَصُّبِ الَّذِي تَفْهَمُونَهُ ، فَهُوَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ ٤١ سورة النساء/ الآية : ١٣٥ .

فَإِذَا كَانَ الْعَدْلُ فِي هَذَا الدِّينِ عَدْلًا صَارِمًا ، وَحَقًّا مَخْضًا لَا يُمَيِّزُ بَشِيءَ الْبَتَّةِ ، لَا ذَاتَ النَّفْسِ الَّتِي فِيهَا أَشْبَهَاءُ الدَّمِ ، وَلَا أَصْلَهَا مِنَ الْأَبَوَيْنِ الَّذِينَ جَاءَتْ مِنْهُمَا وَرَاثَةُ الدَّمِ ، وَلَا أَطْرَافَهَا مِنَ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ نَسَبِ الدَّمِ - إِذَا كَانَ هَذَا ، فَأَيْنَ فِي هَذَا الْعَدْلِ مَحَلُّ الظُّلْمِ ؟

لَعَلَّكَ تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الرُّعُونَةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا فِي الْأَغْصَارِ وَالْأَغْصَالِ مِنَ الْعَامَّةِ ، فَهَلِ هَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ أَفْرِ الدِّينِ ، بَلْ هِيَ أَمْرُ الْجَهْلِ بِالْدِّينِ ؛ إِنَّ هَذَا لَيْسَ تَعْصُّبًا ، بَلْ هُوَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحَمِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْخُرْقَاءِ لَمْ تَجِدُوا أَنْتُمْ لَهُ لَفْظًا ، وَكَانَ أَقْرَبَ الْأَلْفَافِ إِلَيْهِ عِنْدَكُمْ هُوَ

التَّعَصُّبُ ، فَاطْلَقْتُمُوهُ عَلَيْهِ لِلْمَعْنَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ وَالْمَعْنَى الَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ . أَلَا فَاعْلَمَ أَنَّ إِسْلَامَ الْعَامَّةِ الْيَوْمَ هُوَ كَالدَّعْوَى الْمَقْبُولَةِ شَكْلًا وَالْمَرْفُوضَةِ بَعْدَ ذَلِكَ .

قَالَ الْإِنْكِلِيزِيُّ : وَلَكِنْ لِهَؤُلَاءِ الْعَامَّةِ عُلَمَاءٌ دِينِيَّينَ يُدَبِّرُونَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَهُمْ عِنْدَكُمْ وَرَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، أَي : مَنِجِبُ الْفِكْرَةِ وَقُوَّتُهَا .

قَالَ الْبَاشَا : غَيْرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَنْدَسُ فِيهِمْ عِرْقٌ مِنْ تِلْكَ الْوَرَاثَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ بِنَا مَا تَرَى ؛ فَالْقَوْمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَالْأَسْلَافِ الْكُھْرَبَائِيَّةِ الْبُهْطَلَةِ : لَا فِيهَا سَلْبٌ وَلَا إِنْجَابٌ ؛ وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ كَانَتْ فِيهِمْ كُھْرَبَاءُ الْبُيُوتَةِ ، لَكُھْرُبُوا الْأُمَمَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي أَقْطَارِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . إِذَا لَقَامَ فِي وَجْهِهِ الْأَسْتِغْمَارِ الْأَوْرُبِيُّ أَرْبَعُ مِثَّةٍ مَلِیُونَ مُسْلِمٍ جَلَدٍ صَارِمٍ شَدِيدٍ ، مُنْظَاهِرِينَ مُتَعَاوِنِينَ ، قَدْ أَعَدُّوا كُلَّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةِ الْعِلْمِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ ، وَهُمْ لَوْ قَذَفَ كُلُّ مِنْهُمْ بِحَجَرَيْنِ لَرَدَمُوا الْبَحْرَ . . .

أَتُرِيدُ مَعْنَى التَّعَصُّبِ فِي الْإِسْلَامِ ؟ إِنَّهُ بِعَيْنِهِ كَتَّعَصَّبَ كُلُّ إِنْكِلِيزِيٍّ لِلْأُسْطُولِ ؛ فَهُوَ تَشَابُكُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً ، وَأَخَذَهُمْ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ إِلَى آخِرِ الْاسْتِطَاعَةِ ، لِدَفْعِ ظُلْمِ الْقُوَّةِ بِآخِرِ مَا فِي الْاسْتِطَاعَةِ .

وَهُوَ بِذَلِكَ يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ : اسْتِكْمَالُ الْوُجُودِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَالِدَّفَاعُ عَنْ كَمَالِهِ .

وَإِذَا أَنْتَ تَرَجَمْتَ هَذَا إِلَى مَعْنَاهُ السِّيَاسِيِّ ، كَانَ مَعْنَاهُ إِصْرَارَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نَوْعِ الْحَيَاةِ وَكِرَامَتِهَا ، لَا عَلَى اسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَوُجُودِهَا فَقَطْ . وَذَلِكَ هُوَ مَبْدُوكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُهَا الْإِنْكِلِيزِيُّ : لَا تَقْبَلُونَ إِلَّا حَيَاةَ السِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ وَالْحُرِّيَّةِ ، فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ لَوْ عَدَلْتُمْ .

أَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا يَدْرُسُ بَعْضُهُمْ بِلَادَ بَعْضٍ إِلَّا عَلَى الْخَرِيطَةِ . . . مَعَ أَنَّ الْحَقَّ لَمْ يُشْرَعْ فِي دِينِهِمْ إِلَّا لِتَعْوِيدِهِمْ دِرَاسَةَ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ نَفْسِهَا لَا فِي الْوَرَقِ ، ثُمَّ لِيَكُونَ مِنْ مَبَادِيهِمُ الْعَمَلِيَّةِ أَنَّ الْعَالَمَ مَفْتُوحٌ لَا مَقْفَلٌ ؟

إِنَّ التَّعَصُّبَ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ إِعْلَانُ الْأُمَّةِ أَنَّهَا فِي طَاعَةِ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ ، وَأَنَّ لَهَا الرُّوْحَ الْحَادَّةَ لَا الْبَلِيدَةَ ، وَأَنَّ أَسَاسَهَا فِي السِّيَاسَةِ الْإِخْتِرَامُ الذَّاتِي لَا تَقَبُّلُ غَيْرِهِ ، وَأَنَّ أَفْكَارَهَا

الاجتماعية حقائق ثابتة لا أشكال نظرية ، وأن مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق ، وأن قاعدتها ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [سورة المائدة/ الآية : ١٠٥] . فالهداية أولاً والهداية آخرًا : الهداية في القوة ، والهداية في السياسة ، والهداية في الاجتماع . فقل لي بحياتك وحياة إنكسرة : أيعاب ذلك على المسلمين إلا بالالفاظ التي يعيب اللص بها أهل الدار لأنهم يحكمون في وجهه إقبال الباب ... ؟

قال : فوجم الإنكليزي حتى ذهل عن نفسه وصاح :

إِذَا كَانَ هَذَا فَلْتَعَصَّب ، فَلْتَعَصَّب !!

مصطفى صادق الرافعي

سيدي بشر . إسكندرية

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٧

وَزَنُ الْمَاضِي (*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : إِنِّي لَجَالِسُ ذَاتِ يَوْمٍ وَفِي يَدَيَّ كِتَابٌ لِبَعْضِ الْمُتَفَلِّسَةِ مِنْ مَلَاحِدَةِ أُورُبَّةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَا لَا يَفْهَمُ ؛ وَكَانَ الْبَاشَا قَدْ رَأَى مَرَّةً أَنْظَرُ فِيهِ وَأَتَدَبَّرُ مَسَائِلَهُ الْغَامِضَةَ ، فَقَالَ لِي : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَحَدَ الْكِلَابِ كَانَ شَاعِرًا فَيَلْسُونًا ، فَتَنَظَرَ لَيْلَةً فِي النُّجُومِ فَرَأَتْهُ وَحَيَّرَتْهُ ؛ فَالَى أَنْ يَفْهَمَهَا بِعَقْلِهِ وَتَفَرَّغَ لِدَرْسِهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ وَضَعَ فِيهَا كِتَابًا نَفِيسًا ضَخْمًا ، كَانَ أَعْظَمَ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ وَأَشَدَّهَا غُمُوضًا عِنْدَ الْكِلَابِ ، وَكَانَ اسْمُهُ : الْعِظَامُ الْمُبْعَثَةُ فَوْقَنَا ... (١)

قَالَ : فَأَنَا جَالِسٌ أَقْرَأُ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي لَا صَحِيحَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ ... إِذْ

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٦ ، ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ = ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٤٤١ - ١٤٤٣ .

(١) لَا رَيْبَ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ ... قَدْ بَحَثَ فِي كِتَابِ (الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ) لِإِلْتِفَاعِ بَهْنِهِ الْعِظَامُ الْمُبْعَثَةُ ...

دَخَلَ عَلَيَّ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ مُلْحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْخُولِينَ فِي عُقُولِهِمْ ، الْمَفْتُونِينَ بِأُورُبَّةَ وَمَذَاهِبِهَا وَعُلُوبَاتِهَا وَسُفْلِيَّاتِهَا . . . وَهُوَ يَكْتُبُ فِي الصُّحُفِ ، وَيُؤَلِّفُ الرِّسَالِ ، وَقَدْ جَاءَ يَسْتَضِرُّهُ الْبَاشَا عَلَى فَلَاحٍ شَارَكَهُ فِي زِرَاعَةِ أَرْضِهِ ، فَزَرَعَهُ الْفَلَاحُ فِيهَا وَحَصَدَهُ ، وَدَمَاهُ يَكْنِيهِ ، وَابْتَلَاهُ بِغُلَظَتِهِ ، وَتَهَدَّدَهُ بِالنِّقْمَةِ .

وَكَانَ هَذَا الْفَلَاحُ السَّادِجُ الْغَرِيرُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيَّ وَعَرَفَهُ لِي تَعْرِيفًا فَامُوسِيًّا مُحِيطًا مِنْ مَادَّةٍ كَفَرُ يَكْفُرُ . . . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّهُ (بِتَاعُ كَلَامٍ) يَصْدُقُ وَيَكْذِبُ حَسَبَ الطَّلَبِ . . . وَالذِّمَّةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ عِنْدَهُ إِلَّا (عَمَلِيَّةٌ حِسَابِيَّةٌ) ؛ وَهُوَ فِي أَقْوَى جِهَاتِهِ لَا يَنْفَعُ الدُّنْيَا بِمَا تَنْفَعُهَا بِهِ الْبَهِيمَةُ مِنْ أَضْعَفِ جِهَاتِهَا .

أَمَّا الْكَاتِبُ فَيَقُولُ عَنْ هَذَا الْفَلَاحِ : إِنَّهُ لَا يَذَرُنِي أَهْوَى يَتِمُّ بِهِائِمَهُ أَمْ بِهِائِمُهُ هِيَ الَّتِي تَتِمُّهُ ، وَإِنَّ الَّذِي يَرْفَعُ الْقَضِيَّةَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْمَخْلُوقِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا كَالَّذِي يُقْعَقُ بِالْعَصَا عَلَى جُحْرِ فِيهِ الْحَيَّةُ السَّامَّةُ .

وَرَأَى الْمُتَفَلِّسُ الْكِتَابَ عَلَى يَدَيَّ ، فَتَهَلَّلَ وَاسْتَبَشَرَ وَقَالَ لِي : هَذَا نَسَبٌ بَيْنَنَا . . . فَأَذْرَكْتُ مِنْ كَلِمَتِهِ هَذِهِ جُمْلَتَهُ وَتَفْصِيلَهُ ، وَخُجِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَرَى فِيهِ نَفْسَهُ الشَّرْقِيَّةَ كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ . . . فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَشْتَرَيْتُ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ أُورُبَّةَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْتَرِ مِنْهَا دِمَاجِي . . .

وَكَلَّمْتُهُ أَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُ ؛ فَإِذَا هُوَ فِي قَوْمِهِ وَتَارِيخِ قَوْمِهِ كَالسَّائِحِ فِي بِلَادٍ أَعْجَبِيَّةٍ : يَفْتَحُ لَهَا عَيْنَيْهِ وَلَا يَفْتَحُ لَهَا قَلْبَهُ .

* * *

وَكَانَ جَرِينًا فِي كَلَامِهِ مَعَ الْبَاشَا ؛ يَطْرُدُ الْقَوْلَ حَيْثُ شَاءَ حَقًّا وَبَاطِلًا ، ثُمَّ لَا سِنَادَ لِرَأْيِهِ وَلَا تَثْبِيتَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلَ فُلَانٍ وَرَأْيَ فُلَانٍ ، كَانَ فِي رَأْسِهِ عَقْلًا شَحَاذًا . . . ثُمَّ ذَكَرَ آخِرَ الْأَمْرِ مَا جَاءَ لَهُ ، فَحَجَّلَهُ الْبَاشَا وَقَالَ : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ مَسْأَلَةٍ : تَحْتَاجُ إِلَى رَأْيٍ فَيَلْسُوفُ أُورُبِّي . . . وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ .

وَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ الْبَاشَا : يَحْسَبُ هَذَا نَفْسَهُ عَالِمًا ، وَهُوَ صُغْلُوكٌ عِلْمِيٌّ . . . وَإِنَّمَا

يَكُونُ دِمَاغُهُ وَأَذْمَغُهُ أَمْثَالَهُ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ سَلَّةُ الْمُهْمَلَاتِ عِنْدَ الصَّحَافِيِّينَ .

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُبْنَى ضَعْفَ عَقْلِهِ فِي الرَّأْيِ بِقُوَّةِ عِنَادِهِ فِيهِ ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَبَاتَ الْحَقِيقَةِ فَيُظَنُّ حَقِيقَةً ، كَأَن خَضْخَضَةَ الْمَاءِ بِالْيَدِ فِي وَعَاءٍ صَغِيرٍ يَنْقُلُ إِلَى هَذَا الْوِعَاءِ طَبِيعَةَ الْمَوْجِ ؛ وَعِنْدَ أَمْثَالِ هَذَا الْمَفْتُونِ مِنَ الصَّعَالِيكِ الْعِلْمِيِّينَ ، أَنَّكَ إِذَا تَنَاوَلْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيهَا خَطَأً جَرِينًا ، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطْبِكَ الْجَرِيِّ مَسْأَلَةً مِنَ الْعِلْمِ . . . وَإِنَّكَ إِذَا عَانَدْتَ فَنَبَتَ الْخَطَأُ فِي وَجْهِ الثَّاقِدِينَ سَنَةً ، كَانَ حَقِيقَةً مُدَّةَ سَنَةٍ . . .

هُمْ مَفْتُونُونَ زَائِعُونَ ، وَمِنْ فَتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْبُعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الشَّرْقِيَّةِ ، كَالْبُعْدِ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ ؛ وَلَوْ حَقَّقُوا لَرَأَوْهُ بُعْدًا فِي الْغَرَائِزِ لَا فِي الْعَقْلِ ، أَيْ كَالْبُعْدِ بَيْنَ الْفُجُورِ وَمَا أَشْبَهَ الْفُجُورَ ، وَبَيْنَ التَّقْوَى وَمَا أَشْبَهَ التَّقْوَى .

زَعَمَ الْأَحْمَقُ أَنَّ خَصَمَهُ الْفَلَّاحَ رَجُلٌ رَاسِخٌ فِي الْمَاضِي ، كَأَنَّهُ بَاقٍ فِي أَمْسٍ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ ؛ مَعَ أَنَّ أَمْسٍ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْأُمَّةَ يَجِبُ أَنْ تَنْبَدَ مَاضِيهَا ، ثُمَّ أَدْعَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِي . هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ تَخْرُجُ مِنْهَا الرَّابِعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا . . . (١)

وَأَنَا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الصُّغْلُوكِ الْعِلْمِيِّ ، لَمَّا وَجَدْتُ فِي أَسَالِيبِ السُّخْرِيَةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقَارُورَةٍ فَارِغَةٍ وَأَقُولَ لَهُ : أَمْلَأْهَا لِي مِنْ آرَاءِ الْفَلَاسِفَةِ . . .

يَعْقُلُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ عَنْ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ الْمَاضِيَّ بِمَعْنَى مَا مَضَى عَلَى إِطْلَاقِهِ ؛ بَلْ هُوَ يَشْتَرِطُ فِيهِ أَلَّا يُخَالِفَ الْعَقْلَ وَلَا الْعِلْمَ ، وَأَلَّا يُنَاقِضَ الْهِدَايَةَ ؛ ﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتًا أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَكَاةٍ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٠] وَفِي آيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَكَاةٍ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة المائدة/ الآية : ١٠٤] وَفِي الثَّلَاثَةِ : ﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَجَدْنَا

(١) الرَّابِعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا هَذَا السِّيَاقُ الْمُنْطِقِيُّ : هِيَ تَجَرُّدُ الْأُمَّةِ مِنَ الدِّينِ ، وَذَلِكَ مَا يَعْمَلُ لَهُ بَعْضُ الصَّعَالِيكِ الْعِلْمِيِّينَ .

عَلَيْهِ ءَابَاءُ نَآ أَوْلُو كَان الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ؟ ﴿٣١﴾ سورة لقمان / الآية : ٢١ ﴿٢٢﴾ وَفِي الرِّبَاعَةِ : ﴿٣٢﴾ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْدِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ قَتَلَ أَوْلُو جَنْحُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ؟ ﴿٤٣﴾ سورة الزخرف / الآيتان : ٢٣ و ٢٤ .

فَانْظُرْ كَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ الْيَوْمَ بِالْجُمُودِ فِي قَوْلِهِ : (حَسْبُنَا) ، وَكَيْفَ صَوَّرَ مَا نُسَمِّيهِ بِالرَّجْعَةِ فِي قَوْلِهِ : (نَتَّبِعُ) ، وَنَاقِلُ كَيْفَ رَفَضَ الْجُمُودَ وَالرَّجْعَةَ مَعًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْهِدَايَةِ ، أَيُّ : فِي آثَارِهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَيْفَ أَبْطَلَ فِي تِلْكَ الثَّلَاثِ الْاِخْتِجَاجَ بِالْمَاضِي بِهِذَا الْأَسْلُوبِ الدَّقِيقِ الْعَالِي ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ آيَةٍ : أَوْلُو ، أَوْلُو . لَمْ يُغَيِّرْهَا ؛ بَلْ كَرَّرَهَا بِلَفْظِهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ .

فَالْمُعْجِزُ هُنَا مَجِيءُ الْآيَاتِ بِهِذِهِ الصُّورَةِ الْمُنَظِّقَةِ لِإِسْقَاطِ حُجَّتِهِمْ ، وَتَفْيِ مَعْنَى التَّقْدِيرِ عَنِ الْمَاضِي فِيهِمْ ؛ إِذْ كَانَ الْعِلْمُ دَائِمٌ التَّغْيِيرِ ، وَكَانَ الْعَقْلُ دَائِمٌ التَّجْدِيدِ وَالْإِبْدَاعِ ، وَكَانَتِ الْهِدَايَةُ شَدِيدَةً عَلَى الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَاضِي النَّفْسِ ؛ فَكَانَتْهَا جَدِيدَةً عَلَى النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ شَهْوَةٍ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ بِمَاضِيهِ وَحَاضِرِهِ كَأَنَّهُ مَقْسُومٌ قِسْمَيْنِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا : أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ . وَيَقُولُ الْآخَرُ : أَنَا قَدْ كُنْتُ . فَالْإِسْلَامُ بِهِذِهِ الْآيَاتِ قَدْ أَوْجَبَ وَزَنَ الْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ زَمَنِ بِمَا هُوَ الْأَصَحُّ ، وَبِمَا هُوَ الْأَنْفَعُ ، وَبِمَا هُوَ الْأَهْدَى ؛ وَبِاشْتِرَاطِهِ الْهِدَايَةَ فِي جَمِيعِهَا أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْكَمَالَ النَّفْسِيَّ لِلْفَرْدِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُرْتَبِطًا بِالْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْجِنْسِ .

وَهَذَا مَعْنَى عَجِيبٌ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَا تَرَى مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَصْلَحَ فِكْرَةَ الْمَاضِي ؛ فَتَقَلَّبَ مِنْ مَعْنَى الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ لِلنَّاسِ ، إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ كَالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاسِ . وَالْأَخَذُ (بِالْأَهْدَى) فِي أَجْنِمَاعِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، إِنَّمَا هُوَ بِعَيْنِهِ نَامُوسُ التَّرَقِّيِّ وَالْتَّطَوُّرِ .

وَمِنْ أَدَقِّ الْأَسْرَارِ قَوْلُهُ : ﴿٤٣﴾ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٤٣﴾ سورة الزخرف / الآية : ٢٢ و ٢٣ . فَكَلِمَةُ (أُمَّةٍ) هَذِهِ لَمْ يَعْرِفْهَا أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَلَمْ تُفَسِّرْهَا إِلَّا عُلُومٌ هَذَا الزَّمَنِ ، فَهِيَ الْمَشَاعِرُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا مِزَاجُ الشَّعْبِ ، وَفِيهَا يَسْتَقَرُّ الْمَاضِي ؛ كَأَنَّ

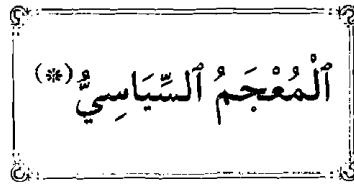
الآيَةُ قَدْ عَبَّرَتْ بِآخِرِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ عُلَمَاءُ النَّفْسِ : مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ أَبِيهِ وَأَبْنُ شَعْبِهِ
أَيْضًا .

فَالْتَعَصَّبُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَلِلْمَجْدِ الصَّحِيحِ ، وَلِلْهُدَايَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى
الْكَمَالِ ؛ وَتَعَصَّبُ الْجِيلُ لِمِثْلِ هَذَا فِي مَاضِيهِ ، هُوَ فِي آسَمِهِ تَعَصَّبٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ
إِنَّمَا هُوَ الْعَمَلُ لِتَسْلِيمِ مَجْدِ الْأُمَّةِ إِلَى الْجِيلِ التَّالِي .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ٨



وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : كُنَّا فِي سَنَةِ ١٩٢٠ ، وَهِيَ بِنْتُ سَنَةِ ١٩١٩^(١) ،
وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى مُقَاطَعَةِ لَجَنَةِ مِلْنَرِ^(٢) Milner لَا تَكَلِّمُهَا ، فَجَعَلَتِ السُّكُوتَ
ثَوْرَةً ، وَأَعْلَنَ الشَّعْبُ أَنَّ كَلِمَتَهُ فِي لِسَانِ الْوَفْدِ يَنْطِقُ بِهَا نُطْقَ النَّبِيِّ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ،
فَمَا يَكُونُ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ أَنْ يَقُولَهَا ، وَلَا أَنْ يَقُولَ أُوحِيَ إِلَيَّ . وَأَبَى الْلُورْدُ مِلْنَرُ Milner أَنَّ
يُصَدَّقَ أَنَّ لِلْمُضَرِّيِّينَ إِجْمَاعًا يُعْتَدُّ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي السِّيَاسَةِ دُخُولًا ثَابِتًا فَرَسَخُوا
فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا مَعَ الْإِنْكِلِيزِ كَالْإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي مِثْلِهِمُ السَّائِرِ :
يَبْتَغِي أَنْ نَكُونَ أَحْرَارًا مِثْلَ أَعْمَالِنَا .

(*) « الرسالة » العدد : ١٦٩ ، ١٢ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٨ سبتمبر / أيلول ١٩٣٦ م ، السنة
الرابعة ، الصفحات : ١٥٦١ - ١٥٦٣ .

(١) سَنَةُ الثَّوْرَةِ الْبُصْرِيَّةِ ، وَقَدْ مَرَّ وَصْفُهَا فِي مَقَالَةٍ « الْأَخْلَاقُ الْمُحَارِبَةُ » .

(٢) هو ألفريد ملنر Alfred Milner (١٨٥٤ - ١٩٢٥ م) سياسي بريطاني ، رَأَسَ لَجَنَةَ بِاسْمِهِ .

وَزَعَمَ اللُّرْدُ لِنَفْسِهِ ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحْزَابَ الْمِصْرِيَّةَ لَا يَتَّفِقُ مِنْهَا أَثْنَانِ أَبَدًا إِلَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ثَالِثٌ يَخْتَلِفَانِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الطَّمَعُ فِي مَنَاصِبِ الْحُكْمِ ؛ وَأُسْتُخْرِجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرِيَّ وَالْمِصْرِيَّ كَشَفَى الْمِفْرَاضِ : لَا يَتَحَرَّكَانِ فِي عَمَلٍ إِلَّا عَلَى تَمَرِيقِ شَيْءٍ بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا (الشَّيْءُ) لَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا شَيْءٌ .

وَدَهَبَ الرَّجُلُ بَطْنَى وَيَحْدُسُ عَلَى مَا يُخَيَّلُ لَهُ الطَّنُّ ، وَقَدْ حَسِبَ أَنْ إِنْكَلَبَةَ يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَقُولَ فِي الْمِصْرِيِّينَ مَا يَقُولُ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ كَمَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ : « إِنَّمَا يَتَقَلَّبُونَ فِي قَبْضَتِي » . وَكَمَا تَقُولُ الْيَوْمَ لِأَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنَ الْعَرَبِ : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [١٤ سورة إبراهيم/ الآية : ١٩ و ٣٥ سورة فاطر/ الآية : ١٦] وَكَانَ اللُّرْدُ هَذَا رَجُلًا مُمَارِسًا لِمَشَاكِلِ السِّيَاسَةِ ، دَخَالًا فِيهَا ، دَاهِيَةً مِنْ دُهَاةِ الْقَوْمِ ، لَهُ فِي قَلْبِهِ عَيْنَانِ وَأُذْنَانِ غَيْرُ مَا فِي وَجْهِهِ كَحُدَاقِ السِّيَاسِيِّينَ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ سِيَاسَةَ قَوْمِهِ لَا تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا دُخُولَ الْإِثْرَةِ بِخَيْطِهَا فِي الثُّوبِ ، إِنْ خَرَجَتْ هِيَ تَرَكَّتِ الْخَيْطُ وَقَدْ جَمَعَ وَشَدَّ فَأَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ مَذْهَبَ الْمِصْرِيِّينَ فِي إِجْمَاعِهِمْ عَلَى الْأَسْتِقْلَالِ ، وَقَدَّرَ أَنَّهُ وَاجِدٌ مِنَ الْفَلَاحِينَ عَوْنًا لَهُ وَمَادَّةَ لِمَكْرِهِ السِّيَاسِيِّ ، وَحَسِبَ الْوَفْدَ صُورَةَ جَدِيدَةً مِنْ طَبَقَةِ (الْبَاشَوَاتِ) الْقَدِيمَةِ ، يَنْزِلُونَ مِنَ الشَّعْبِ مَنَزِلَةَ الْيَدِ الَّتِي تُمْسِكُ الْقَيْدَ ، مِنَ الرَّجُلِ الَّتِي فِيهَا الْقَيْدُ ، وَيَضَعُونَ مَعْنَى كَلِمَةِ الْحَاجَةِ فِي كَلِمَةِ السِّيَاسَةِ ، وَيَقُولُونَ : الْوَطَنَ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ الْجَاءَ ، وَيُقِيمُونَ الشَّعْبَ كَالسَّلَامِ يَنْتَصِبُ قَائِمًا بِأَيْدِيهِمْ لِيُخَمِلَ أَرْجُلَهُمُ الصَّاعِدَةَ عَلَيْهِ .

فَجَاءَ اللُّرْدُ إِلَى مِصْرَ ، فَوَجَدَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا قَدْ حَذَرَتْ مِنْهُ وَتَقَيَّظَتْ لَهُ ، حَتَّى نَصَحَهُ رُشْدِي بَاشَا بِأَنَّهُ لَنْ يَجِدَ فِي مِصْرَ هِرَّةَ تَفَاوُضُهُ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُسْتَقِيمًا أَنَّ أُذُنَ السِّيَاسَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ (كَالرَّادِيُو) لِصَوْتَيْنِ : صَوْتِ الدَّنَائِيرِ وَصَوْتِ الْجَمَاهِيرِ ، فَمَرَّ فِي الْبِلَادِ يَرْسُمُ عَلَى الْهَوَاءِ عِلَامَاتٍ اسْتَفْهَامَ ، وَأَنْصَفَقَ عَنْهُ النَّاسُ وَأَهْمَلُوهُ ، وَكَانَ يَسِيرُ فِي دَائِرَةِ الصَّنَمِ الَّتِي مَرَّكَزُهَا أَبُو الْهَوَلِ ، قَبْدًا وَظَلَّ يَبْدَأُ حَتَّى انْتَهَى وَمَا زَالَ يَبْدَأُ وَسَاحَ فِي الْبِلَادِ سِيَّاحَةً طَوِيلَةً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسَافِرْ إِلَّا مِنْ شَفَةِ أَبِي الْهَوَلِ السُّفْلَى إِلَى شَفَةِ الْعُلْيَا

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَجَاءَ اللُّوردُ لِمُقَابَلَةِ الْبَاشَا ، فَمَرَّ عَلَيَّ مُرُورَ كِتَابٍ مُقْفَلٍ : لَا أَعْرِفُ مِنْهُ إِلَّا الْعُنُونَانِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رَجُلٌ بِمَقْدَارِ الرَّجُلِ الَّذِي يُخَالِفُ أُمَّةً كَامِلَةً تَكَادُ تَحْسِبُهُ مَطْوِيًّا عَلَى رَوْبَعَةٍ ، وَتَرَى لَهُ قُوَّتَيْنِ تُحَسُّ مِنْ أَثَرِهِمَا الرَّهْبَةَ وَالْإِعْجَابَ ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَهُ قُلْتُ : إِنَّ اللَّطْفَ وَالظَّرْفَ أضعَفُ شَمَائِلِهِ ، وَإِنَّ الدَّهَاءَ وَالْحِيلَةَ أَقْوَى مَوَاهِبِهِ .

فَلَمَّا لَقِيتُ الْبَاشَا مِنَ الْعَدِ ، سَأَلْتَنِي : كَيْفَ رَأَيْتَ اللُّوردَ مِلْنِرَ Milner ؟ فَقُلْتُ : وَآلَهُ يَا بَاشَا إِنَّهُ كَالضَّرُورَةِ ، مَا يَتَمَنَّاها أَحَدٌ وَلَكِنَّهَا تَجِيءُ . . .

فَصَحِّحَكَ الْبَاشَا وَقَالَ : يَا لَيْتَ لَنَا نَحْنُ الشَّرْقِيِّينَ { كُلَّ يَوْمٍ } ضُرُورَةٌ تَصْنَعُ مَا صَنَعَ اللُّوردُ ؛ إِنَّهُ كَشَفَ لَنَا فِي ذَاتِ أَنْفُسِنَا عَنْ حَقِيقَةِ مَنْ أَسَمَى الْحَقَائِقِ السِّيَاسِيَّةِ : وَهِيَ أَنَّ الشَّعْبَ الَّذِي يُصِرُّ وَلَا يَزَالُ يُصِرُّ ، يَجْعَلُ الْإِغْرَاءَ لَا يُغْرِئُ وَالْخَوْفَ لَا يُخِيفُ .

وَيَا لَيْتَ الْأُمَمَ الشَّرْقِيَّةَ تَتَعَلَّمُ هَذَا الصَّمْتَ السِّيَاسِيَّ عَنْ مُجَاوِبَةِ الْكَلِمَةِ الْأَسْتِعْمَارِيَّةِ أَحْيَانًا ؛ فَإِنَّ صَمْتَ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ عَنْ جَوَابِ (مِلْنِر Milner) ، كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ قُدْرَةَ الْأُمَّةِ هِيَ الْمُتَكَلِّمَةُ كَلَامَهَا بِهِذَا الصَّمْتِ ، تُعْلِنُ لِلْعَالَمِ أَنَّ الْوَاجِبَ الشَّعْبِيَّ قَدْ وَضَعَ قُفْلَهُ عَلَى كُلِّ فَمٍ .

وَقَدْ فَسَّرَ اللُّوردُ هَذَا الشُّكُوتَ بِتَفْسِيرِهِ السِّيَاسِيِّ ، فَأَذْرَكَ مِنْهُ أَنَّ فِي الشَّعْبِ أَنْفَةٌ وَحَمِيَّةٌ وَقُوَّةٌ ، وَأَنَّ حِسَابَ الضَّمِيرِ الْوَطَنِيِّ أَصْبَحَ لَهُلِهِ الْأَثْنَدَةُ كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ لِلنُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ : كِلَاهُمَا مُسْتَعْلَنٌ يُخَافُ وَيُتَّقَى ، وَكِلاهُمَا لَهُ كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ .

أَيُّهُ مُعْجَزَةٌ هَذِهِ الَّتِي جَعَلَتْ كَلِمَةَ الْأَجْنَبِيِّ تَتَخَذُ فِي أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا ، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا الْبِلَادُ^(١) عَلَى مَعْنَى الرَّفْضِ ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنَ الْكُلِّ ، وَخَضَعَتِ الطَّبَائِعُ بِجُمْلَتِهَا لِقَانُونِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ ، الَّذِي يُلْزِمُهَا أَلَّا تَخْضَعَ لِلْأَجْنَبِيِّ ؟

إِنَّ الْأُمَمَ بَعْضُ مَسَائِلِ نَفْسِيَّةِ كَهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ

(١) فِي الْأَصْلِ : «الْجُلُودُ» بَدَلًا مِنْ : «الْبِلَادُ» .

كَدَرَسِ (مِلنر Milner) ، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوَطَنِيِّ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ .

وَالآنَ تَعَلَّمَتِ الْأُمَّةُ أَنَّ الشَّعْبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ إِلَى الْحَلِّ وَإِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضًا ، وَقَدْ كَانَ (مِلنر Milner) هُوَ أَوَّلُ أَسَاتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا الطَّرِيقَةَ .

وَهَذَا الدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرْسًا لِلشَّرْقِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأَسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَى خِدَاعِ الطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ ، فَيَحْلُونَهَا وَيَعْقِدُونَهَا فِي نَصِّ وَاحِدٍ ؛ وَيُنْبِتُ الْكَلَامُ الَّذِي يَتَفَقَّهُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ الْخِلَافِ ، وَيُنْبِتُ الْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ كَانَ زَوَالُ الْمَقَاوِمَةِ .

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ كَالنِّسَاءِ الْمُشَوَّهَاتِ ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يُزَوِّجُوهُ . . . فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْإِبْصَارِ ، أَعْفَوَهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ : سَنَأْتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهَدِ التَّجْمِيلِ اللَّغَوِيِّ ، فَيَضِقُّونَهَا وَيَضْبِعُونَهَا ، وَيَضْعُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا ، ثُمَّ يَغْرِضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِهِمْ ذَاكَ ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتْ الدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ ، وَلَكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى .

وَلَهُمْ عُقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِرَاعِ الْأَلْفَاظِ ، حَتَّى لَتَكُونَ شِدَّةُ الْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ ، هِيَ بَعَيْنُهَا الطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْغُمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى . وَكَثِيرًا مَا يَأْتُونَ بِالْفَظِ مُنْتَفِخَةٍ تُحَسَّبُ جَزَلَةً بَادِنَةً قَدْ مَلَأَهَا مَعْنَاهَا ، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ أَلْفَاظٌ حُبَالَى ، تَسْتَكْمِلُ حَمْلَهَا مُدَّةً ثُمَّ تَلِدُ . . .

وَلَهُمْ مِنْ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، كَمَا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ الرِّجَالِ السِّيَاسِيِّينَ ؛ فَيَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ دُهَاتِهِمْ رَجُلًا كَالنَّاسِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مَسْمَارٌ دَقُّهُ فِي أَرْضٍ كَذَا أَوْ مَمْلَكَةٍ كَذَا ، وَيَكُونُ اللَّفْظُ لَفْظًا كَاللُّغَةِ ، وَهُوَ مَسْمَارٌ دَقُّهُ فِي رِثْقَةٍ أَوْ مُعَاهَدَةٍ .

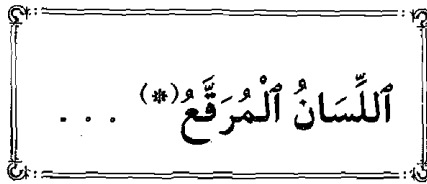
ثُمَّ ضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : إِنَّ أَرْضَنَا تُخْرِجُ الْقُطْنَ ، وَسِيَاسَتُنَا تُخْرِجُ الْفَظَ كَالْقُطَنِ :

لَا تُوضَعُ فِي الْمِغْزَلِ إِلَّا مَدَّتْ وَتَحَوَّلَتْ^(١) . وَإِذَا ذَهَبْنَا نُخَالِفُهُمْ فِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ ، لَمْ نَجِدْ عِنْدَنَا الْمُعْجَمَ السِّيَاسِيَّ الَّذِي يُمْلِي النَّصَّ . أَتَذَرِينِي يَا بَنِي مَا هُوَ الْمُعْجَمُ السِّيَاسِيُّ ؟
أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ كِتَابًا يَتَأَلَّفُ مِنْ مِليونِ كَلِمَةٍ ، لَذَهَبَتْ كُلُّهَا عَيْنًا وَبَاطِلًا وَهَرَاءً ، وَلَسَكُنَتْ ذَلِكَ الْمُعْجَمُ الْحَيُّ ، ذَلِكَ الْمُعْجَمُ الَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْ مِليونِ جُنْدِيٍّ

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ أَلْبَاشًا : ٩



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : جَاءَ « حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ » فَلَانَ لِرِيزَارَةِ أَلْبَاشَا ؛ وَهُوَ رَجُلٌ مِصْرِيٌّ وُلِدَ فِي بَغْضِ الْقُرَى ، مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) مَيَّزَهُ بِجَوْهَرٍ غَيْرِ الْجَوْهَرِ ، وَلَا طَبِيعٍ غَيْرِ الطَّبِيعِ ، وَلَا تَرْكِيبٍ غَيْرِ التَّرْكِيبِ ، وَلَا زَادَ فِي دَمِهِ نُقْطَةً زَهْوٍ ، وَلَا وَضَعَهُ مَوْضِعَ الْوَسْطِ بَيْنَ فَتْنَيْنِ مِنَ الْخَلِيقَةِ . غَيْرَ أَنَّهُ زَارَ فَرَنْسَةَ ، وَطَافَ بِإِنْكِلَتَرَةِ ، وَسَاحَ فِي إِيْطَالِيَةِ ، وَعَاجَ عَلَى أَلْمَانِيَةِ ، وَلَوْنُ نَفْسِهِ أَلْوَانًا ، فَهُوَ مِصْرِيٌّ مُلَوَّنٌ . وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لَا يَرَى فِي بِلَادِهِ وَقَوْمِهِ إِلَّا الْفُرُوقَ بَيْنَ مَا هُنَا وَبَيْنَ مَا هُنَاكَ ، فَمَا يَظْهَرُ لَهُ دِينُ قَوْمِهِ إِلَّا مُقَابِلًا لِشَهَوَاتِ أَحْبَبَهَا وَغَامَرَ فِيهَا ، وَلَا لَعَةُ قَوْمِهِ إِلَّا مَفْرُوزَةٌ بِلُغَةٍ أُخْرَى وَدَ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَارِيخُ قَوْمِهِ إِلَّا مُعْمَى عَلَيْهِ . . . كَالْمَيِّتِ بَيْنَ تَوَارِيخِ الْأُمَمِ .

(١) [لا يَسَّرُ الْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي سَنَةِ ١٩٢٠ م] .

(*) « الرسالة » العدد : ١٨١ ، ٧ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ٢١ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ، السنة

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَرَفِّينَ الْمُتَنَعِّمِينَ : مِصْرِيٌّ الْمَالِ فَقَطْ ، إِذْ كَانَتْ أَسْبَابُهُمْ
وَمُسْتَعْلَاثُهُمْ فِي مِصْرَ ؛ عَرَبِيٌّ الْأَسْمِ لَا غَيْرُ ، إِذْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مِنْ جَنَائَةِ أَهْلِيهِمْ
بِالطَّبِيعَةِ ؛ مُسْلِمٌ مَا مَضَى دُونَ مَا هُوَ حَاضِرٌ ، إِذْ كَانَ لَا حِيلَةَ فِي أَنْسَابِهِمُ الَّتِي أَنْحَدَرُوا
مِنْهَا .

هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَرَفِّينَ الْمُتَنَعِّمِينَ الْمُفْتُونِينَ بِالْمَدِينَةِ : لِكُلِّ مِنْهُمْ جِنْسُهُ
الْمِصْرِيُّ وَلِفِكَرِهِ جِنْسٌ آخَرُ .

قَالَ : وَكَانَ حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ يُكَلِّمُ الْبَاشَا بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلْعَنُهَا الْعَرَبِيَّةُ ، مُرْتَفِعًا
بِهَا عَنْ لُغَةِ الْفَصِيحِ ارْتِفَاعًا مُنَحْطًا . . . نَازِلًا بِهَا عَنْ لُغَةِ السُّوقَةِ نَزُولًا عَالِيًا . . . فَكَانَ
يَرْتَضِخُ لِكُنَّةٍ أَعْجَمِيَّةٍ ، بَيْنَا هِيَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ جَرَسٌ عَالٍ يَطْلُ ، إِذَا هِيَ فِي لَفْظٍ آخَرَ
صَوْتُ مَرِيضٍ يَنْ ، إِذَا هِيَ فِي كَلِمَةٍ ثَالِثَةٍ نَعَمٌ مُوسِقِيٌّ يَرِنُ . وَرَأَيْتُهُ يَتَكَلَّفُ نِسْيَانَ بَعْضِ
الْجُمَلِ الْعَرَبِيَّةِ لِيَلْوِي لِسَانَهُ بِغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ ، لَا تَطْرُقًا وَلَا تَمَلَحًا وَلَا إِظْهَارًا لِقُدْرَةِ أَوْ
عِلْمِ ، وَلَكِنْ اسْتِجَابَةً لِلشُّعُورِ الْأَجْنَبِيِّ الْخَفِيِّ الْمُتَمَكِّنِ فِي نَفْسِهِ . فَكَانَتْ وَطَنِيَّةُ عَقْلِهِ
تَأْتِي إِلَّا أَنْ تُكَذِّبَ وَطَنِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَهُوَ بِإِحْدَاهِمَا زَائِفٌ عَلَى قَوْمِهِ ، وَبِالْآخَرَى زَائِفٌ عَلَى
غَيْرِ قَوْمِهِ .

* * *

فَلَمَّا انْصَرَفَ الرَّجُلُ قَالَ الْبَاشَا : أَفْ لِهَذَا وَأَمْنَالِ هَذَا ! أَفْ لَهُمْ وَلِمَا يَصْنَعُونَ ! إِنَّ
هَذَا الْكَبِيرَ يُلَقَّبُونَهُ « حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّعَادَةِ » ، وَلَاشَرَفُ مِنْهُ وَاللَّهِ رَجُلٌ قَرِيبِيٌّ سَادِجٌ
يَكُونُ لِقَبِّهِ « حَضْرَةُ صَاحِبِ الْجَامُوسَةِ » . . . نَعَمْ إِنَّ الْفَلَاحَ عِنْدَنَا جَاهِلٌ عِلْمِ ، وَلَكِنْ
هَذَا أَفْبَحُ مِنْهُ جَهْلًا ، فَإِنَّهُ جَاهِلٌ وَطَنِيَّةً .

ثُمَّ إِنَّ الْجَامُوسَةَ وَصَاحِبَهَا عَامِلَانِ دَائِبَانِ مُخْلِصَانِ لِلْوَطَنِ ؛ فَمَا هُوَ عَمَلُ حَضْرَةِ
(صَاحِبِ اللِّسَانِ الْمُرَقَّعِ) هَذَا ؟ إِنَّ عَمَلَهُ أَنْ يُعْلِنَ بِرِطَانَتِهِ الْأَجْنَبِيَّةِ أَنَّ لُغَةَ وَطَنِهِ ذَلِيلَةٌ
مَهِينَةٌ ، وَأَنَّهُ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الرُّوحِ السِّيَاسِيِّ لِلُّغَةِ قَوْمِهِ ؛ إِذْ لَا يَظْهَرُ الرُّوحُ السِّيَاسِيُّ لِلُّغَةِ مَا ،
إِلَّا فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا وَتَقْدِيرِهَا عَلَى سِوَاهَا .

كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى مِثْلِ هَذَا أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي بِلَادِهِ إِلَّا بِلُغَتِهِ ، وَكَانَ الَّذِي هُوَ أَوْجِبُ أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهَا عَلَى كُلِّ لُغَةٍ تَرَاهَا فِي أَرْضِهَا ، فَتَرَكَ هَذَا وَهَذَا وَكَانَ هُوَ الْمُرَاحِمَ بِنَفْسِهِ ؛ فَهُوَ عَلَى أَنَّهُ « حَضْرَةٌ صَاحِبِ سَعَادَةٍ » ، لَا يُتْرَلُ نَفْسُهُ مِنَ اللُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ إِلَّا مَنْزِلَةُ خَادِمٍ أَجْنَبِيٍّ فِي حَانَةِ .

أَتَذَرِي مَا هُوَ سِرُّ هَؤُلَاءِ الْكُثَرَاءِ وَهَؤُلَاءِ السَّرَاةِ الَّذِينَ يُطْمَئِنُّونَ إِذَا تَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ؟ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا طَبَقَاتٌ :

أَمَّا وَاحِدَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَصْنَعُونَ هَذَا الصَّنِيعَ مُتَجَذِبِينَ إِلَى أَصْلٍ رَاسِخٍ فِي طَبَاعِهِمْ ، مِمَّا تَرَكَهُ الظُّلُمُ وَالْاِسْتِئْثَادُ وَالْحُمُوقُ فِي زَمَنِ الْحُكْمِ التُّرْكِيِّ ؛ فَهُمْ يُبْذَوْنَ جَوْهَرَ نَفْسِهِمْ لِأَعْيُنِهِمْ وَأَعْيُنِ النَّاسِ ، كَأَنَّ اللُّغَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَامَةُ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ وَاحْتِقَارِ الشَّعْبِ وَأَسْتِمْرَارِ ذَلِكَ الْحُمُوقِ فِي الدَّمِ . . . وَهُمْ بِهَا يَسْتَبَلُونَ .

وَأَمَّا طَبَقَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ هَذَا مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ طِبَاعِ أَحْدَثِهَا التَّفَاقُ وَالْخُضُوعُ وَالذُّلُّ السِّيَاسِيُّ فِي عَهْدِ الْأَخْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ؛ فَاللُّغَةُ الْأَجْنَبِيَّةُ بَيْنَهُمْ تَشْرِيفٌ وَاعْتِبَارٌ ، كَأَنَّهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ الشَّعْبِ الْمَحْكُومِ الَّذِي فَقَدَ السُّلْطَةَ ، وَهُمْ بِهَا يَتَمَجَّدُونَ .

وَأَمَّا جَمَاعَةٌ ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَمَّدُونَ هَذَا يُرِيدُونَ بِهِ عَيْبَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَهْجِينَهَا ، إِذِ اتَّخَذُوا مِنْ عِدَاوَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ طَرِيقَةً اتَّعَلَّوْهَا وَمَذْهَبًا اتَّسَبَّوْا إِلَيْهِ ؛ وَفِيهِمُ الْعَالِمُ بِعُلُومِ أُورُبَّةَ ، وَالْأَدِيبُ بِأَدَبِ أُورُبَّةَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عِدَاوَتِهِمْ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، إِذْ جَعَلَ هَذِهِ اللُّغَةُ حُكُومَةً بَاقِيَةً فِي بِلَادِهِمْ مَعَ كُلِّ حُكُومَةٍ وَفَوْقَ كُلِّ حُكُومَةٍ ؛ وَهُمْ يَزْدُرُونَ هَذَا الدِّينَ وَيُسْقِطُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ وَاجِبَاتِهِ . وَهَؤُلَاءِ قَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، إِذْ يَغْلُوبُ فِي مَصْرِبَتِهِمْ غُلُوبًا قَبِيحًا يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى سَفَهٍ آلِئَاءِ ، وَخِفَةِ الْأَخْلَامِ ، وَطَيْشِ التَّرَعَاتِ ، فِيمَا يَتَّصِلُ بِالدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَدَابِهِ وَلُغَتِهِ . وَمَا أَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَّا قَدْ غَطَى وَصْفُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَقِيعٌ ، عَلَى وَصْفِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ أَوْ أَدِيبٌ أَوْ مَا شَاءَ . إِنَّ هَذَا لَمَقْتُ ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [٤٠ سورة غافر/ الآية : ٣٥] .

طَرِيقَةَ نَفْسِيَةِ فِي النَّفْسِ ؛ فَهُمْ يُفْحِمُونَ فِي كِتَابَتِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ الْكَلِمَاتِ الْأَجْنِبِيَّةَ ، وَيَحْسِبُونَ عَمَلَهُمْ هَذَا تَقَرُّفًا وَمُعَابَاةً وَمُجُونًا ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ لِعَيْنِ الْبَصِيرِ مَوَاضِعَ الْقَطْعِ التَّارِيخِيِّ فِي نَفْسِهِمْ ، وَأَمَاكِنَ الْفَسَادِ الْقَوْمِيِّ فِي طَبِيعَتِهِمْ ، وَجِهَاتِ التَّحَلُّلِ الدِّينِيِّ فِي أَعْتِقَادِهِمْ . هَذَا يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ : (الْتَرَفَرَّةَ Nerve) وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يَقُولَ الْغَضَبَ ، (وَالْفَلِيرَ Flir) وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجْعَلَ فِي مَكَانِهَا الْمُغَارَلَةَ ، (وَسَكَالَنْسَ) وَهُوَ يَعْرِفُ لَفْظَةَ أَنْوَاعِ وَالْوَانِ ، وَهَكَذَا وَهَكَذَا ؛ وَلَا وَاللَّهِ أَنْ تَكُونَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ إِلَّا الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَرُشْدِ قُلُوبِهِمْ .

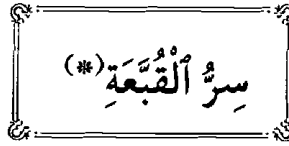
وَمَا بَرَحَ التَّقْلِيدُ السَّخِيفُ لَا يَعْرِفُ لَهُ بَابًا يَلِجُ مِنْهُ إِلَى السُّخْفَاءِ إِلَّا بَابَ التَّهَاوُنِ وَالتَّسَامُحِ ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ أَبْتَلَيْنَا بِتَرْوِيرِ الْعُيُوبِ عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَدَّهَا فِي الْمَحَاسِنِ وَالْفَضَائِلِ ، مِنْ قِلَّةٍ مَا فِيْنَا مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ . وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْمَعْكُوسَةِ نُحَاوِلُ أَنْ نَقْتَسِمَ مِنْ مَرَايَا الْأَوْرَبِيِّنَ ، فَلَا نَأْخُذُ أَكْثَرَ مَا نَأْخُذُ إِلَّا عُيُوبَهُمْ ، إِذْ كَانَتْ هِيَ الْأَسْهَلُ عَلَيْنَا ، وَهِيَ الْأَشْكَالُ بِطَبِيعَتِنَا الضَّعِيفِ الْمُتَسَامِحِ الْمُتَهَاوِنِ .

وَمِنْ هَذَا تَجِدُ مَشَاكِلَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّةَ - عَلَى أَنَّهَا أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ مِنْ مَشَاكِلِ الْأَوْرَبِيِّنَ ، وَعَلَى أَنَّ فِي دِينِنَا وَآدَابِنَا لِكُلِّ مُشْكِلَةٍ حَلَّهَا - تَجِدُهَا هِيَ عَلَيْنَا أَضْعَبَ وَأَشَدَّ ، لِأَنَّنَا ضُعَفَاءُ وَمُتَخَذِلُونَ وَمُقَلِّدُونَ وَمَفْتُونُونَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ كِبَرَانِنَا هُمْ أَكْبَرُ بَلَانِنَا .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : ثُمَّ ضَحِكَ الْبَاشَا ضِخْكَتَهُ السَّاخِرَةَ وَقَالَ : كَيْفَ تَصْنَعُ أُمَّةٌ يَكُونُ أَكْثَرُ الْعَامِلِينَ هُمْ أَكْبَرُ الْعَاظِلِينَ ، إِذْ يَعْمَلُونَ وَلَكِنْ بِرُوحٍ غَيْرِ عَامِلَةٍ ...

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١٠



وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا ، قَالَ : نَجَمَتْ فِي مِصْرَ حَرَكَةٌ يَعْقِبُ أَيَّامَ الْبِدْعَةِ التُّرْكِيَّةِ ، حِينَ لَمْ تَبْقَ لَشَيْءٍ هُنَاكَ قَاعِدَةٌ إِلَّا الْقَاعِدَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُقَرِّرُهَا الْمَسَانِقُ . . . فَمَنْ أَبَى أَنْ يَخْلَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوا رَأْسَهُ ؛ وَمَنْ قَالَ : (لَا) انْقَلَبَتْ (ك) هَذِهِ مَسْنَقَةٌ فَعُلِقَ فِيهَا .

وَكَانَتْ فِكْرُهُ اتِّخَاذُ الْقُبْعَةِ فِي تَرْكِتِهِ غِطَاءَ لِلرَّأْسِ ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزَعَاتٍ مِنْ مِثْلِهَا ، كَمَا يَجِيءُ الْحِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبَسُ الْإِلَاسُ ، فَلَمْ يَشْكُ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبْعَةً عَلَى الرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّأْسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً ، لَيْسَ فِيهَا رُكْعَةٌ وَلَا سَجْدَةٌ ؛ وَإِلَّا فَتَحُنُ نَرَى هَذِهِ الْقُبْعَةَ عَلَى رَأْسِ الزُّنْجِيِّ وَالْهَمْجِيِّ ، وَعَلَى رَأْسِ الْأَبْلَهِ وَالْمَجْنُونِ ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتْ الْأَسْوَدَ أَبْيَضَ ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ طَبِيعِهِ ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتْ الْعَقْلَ الْثَاقِصَ أَوْ رَدَّتِ الْعَقْلَ الذَّاهِبَ ، أَوْ انْقَلَبَتْ آلَةٌ لِحُلِّ مُشْكَلَاتِ الرَّأْسِ أَلْبَلِيدِ ، أَوْ غَصَبَتْ الطَّبِيعَةَ شَيْئًا وَقَالَتْ : هَذَا لِحَامِلِي دُونَ حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ .

وَقَدْ اخْتَبَرُوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْوَجْهَ إِلَّا الْمَدَنِيَّةَ ، وَلَا يَعْرِفُ الْمَدَنِيَّةَ إِلَّا مَدَنِيَّةَ أَوْرُبَّةَ ، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنَى عَنْهُ ؛ حَتَّى لَوْ أَنَّ الْأُورُبِّيَّينَ كَانُوا غُورًا بِالطَّبِيعَةِ ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ غُورًا بِالصَّنَاعَةِ لِئُسْبَهُوا الْأُورُبِّيَّينَ . . . نَعَمْ إِنَّهَا حُجَّةٌ تَامَةٌ لَوْ لَا نَقْصُ قَلِيلٍ فِي الْبُرْهَانِ ، يُمَكِّنُ تَلَافِيهِ بِإِخْرَاجِ طَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كُتُبِ الْفَتْوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، يَظْهَرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالْأَبْطَالُ الْمَعَاوِرُ الَّذِينَ فَهَرُوا الْأُورُبِّيَّينَ لَا بِسِنِّ قُبْعَاتٍ ، لِئُسْبَهُوا الْأُورُبِّيَّينَ . . .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٧١ ، ٢٦ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ١٢ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٤٣ - ١٦٤٤ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِنَا ، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ إِلَى التَّقَبُّعِ فِي مِصْرٍ أَخِيذَاءَ لِتَرْكِيبَةِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَطْلُبُ رَأْيَهُ ، فَكَانَ رَأْيُهُ : (لَا) بِمَدِّ الْأَلْفِ . . . وَعَهَدَ إِلَيَّ بَعْضُهُمْ أَنْ أَسْأَلَ الْبَاشَا ، فَقَالَ :

وَيَنْحَهُمْ ! أَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ مُقَلِّدِينَ لِلتَّقَلِيدِ نَفْسِهِ ؟ إِنَّ هَذِهِ بِدْعَةٌ تَنْحَطُّ عِنْدَنَا دَرَجَةً عَنِ الْأَصْلِ ، فَكَأَنَّهُا بِدْعَتَانِ^(١) . ثُمَّ ضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : كَانَ فِي الْقَدِيمِ رَجُلٌ سَمِعَ أَنَّ الْبَصَلَ بِالْخَلِّ نَافِعٌ لِلصَّفْرَاءِ ، فَذَهَبَ إِلَى بُسْتَانٍ يَمْلِكُهُ وَقَالَ لِرُكَّابِهِ : أَزْرِعْ لِي بَصَلًا بِخَلٍّ . . . هَكَذَا يُرِيدُونَ مِنَ الْقُبُعَاتِ : أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ تَرْكًا بِأَوْرُيَّيْنِ .

لَيْسَتْ هَذِهِ الْقُبْعَةُ فِي تَرْكِيبَةِ هِيَ الْقُبْعَةُ ، بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ سَبَّ لِلْعَرَبِ وَرَدَّ عَلَى الْإِسْلَامِ ، صَاقَتْ بِهَا كُلُّ الْأَسَالِيبِ أَنْ تُظْهِرَهَا وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، فَلَمْ يَفِ بِهَا إِلَّا هَذَا الْأُسْلُوبُ وَحْدَهُ ، وَهِيَ إِعْلَانٌ سِيَاسِيٌّ بِالْمُتَاوَاةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْإِنْحِرَافِ عَنَّا وَأَطْرَاحِنَا ، فَإِنَّ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ أَمْتِهِ لَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَهُوَ فِي ثِيَابِهَا وَشِعَارِهَا ؛ فَبِهَذَا انْفَتَحَ لَهُمْ بَابُ الْخُرُوجِ فِي الْقُبْعَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِمَّا يَجْرِي فِيهِ التَّقْلِيدُ أَوْ يُدْعَى الْإِنْكَارُ ؛ وَإِلَّا فَأَيُّ سِرِّ فِي هَذِهِ الْقُبُعَاتِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْأُمَمُ تُقَاسُ بِمَقَايِيسِ الْخِيَاطِينَ . . . ؟

هَلُمَّا سَيِّفٌ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَقْصًا ، فَعَمِلَ { أَوَّلًا } مَا يَعْمَلُ الْحُسَامُ الْبُتَّارُ ، فَأَجَادَ وَأَبْدَعَ وَأَكْبَرَهُ النَّاسُ وَأَعْظَمُوهُ ؛ ثُمَّ صَنَعَ مَا يَصْنَعُ الْمَقْصُ ، فَمَاذَا عَسَاهُ يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَا يُنْكِرُهُ الْأَبْطَالُ وَالْخِيَاطُونَ جَمِيعًا ؟

أَكْتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ دَهْرَنَا نَبْحَثُ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَأَلَّا يَخِيَا الشَّرْقِيُّ إِلَّا مُسْتَعْبِدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَنْ يَقُولُ لَهُ : أَسْرِعْ لِي . . . ؟ إِنْ بَحَثْنَا فَلَنَبْحَثَ فِي زِيٍّ جَدِيدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَتَكُونُ الْقُوَى الْكَامِنَةُ فِيْنَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجَوْنَا هِيَ الَّتِي اخْتَرَعَتْ لِظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَهَا ، كَمَا يُخْرِجُ زُورُ الْأَسَدِ لِبَدَةَ الْأَسَدِ ، غَايَةً فِي الْمَنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمُلَاءَمَةِ .

أَنَا أَلْبَسُ مَا شِئْتُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَ الْقُبْعَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِيَّيَ الْفَرْدِيَّةُ ، فَلَا أَرَى

(١) { الْأَصْلُ تَقْلِيدُ تَرْكِيبَةٍ لِأَوْرَثَةٍ ، وَهَذِهِ بِدْعَةٌ ؛ فَتَقْلِيدُنَا لِتَرْكِيبَةِ بِدْعَةٍ اسْتَحَفَّ مِنَ الْأَوَّلَى } .

ثُمَّ مَوْضِعَ انْفِرَادٍ وَلَكِنْ مَوْضِعَ مُشَاكَلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ صِفَةً مُنْفَعَةً لِي بَلْ صِفَةً حَقِيقَةً مِنِّي ،
وَيَعْتَرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ الْمَعْنَى الَّتِي يَصِيرُ بِهِ النَّوْعُ إِلَى الْجِنْسِ ، وَالْوَاحِدُ إِلَى الْجَمَاعَةِ . وَمَا
ذُمْتُ مُسْلِمًا أَصْلِي وَأَزْكَعُ وَأَسْجُدُ ، فَالْقُبْعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وَهَلْؤَلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ لَبِسُوهَا فِي مِصْرَ ، إِنَّمَا أَشْتَقُّوْهَا مِنْ الْمَصْدَرِ نَفْسِ الْمَصْدَرِ
الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهُ التَّهْتُّكَ فِي النَّسَاءِ ، وَكِلَاهُمَا مَنْرَجٌ مِنَ الْمُخَالَفَةِ ، وَكِلَاهُمَا صِدٌّ مِنْ صِفَةِ
اجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُومُ بِهَا فَضِيلَةُ شَرَفِيَّةٍ عَامَّةٍ . وَلَيْسَ يَغْدُمُ قَائِلُ وَجْهًا مِنَ الْقَوْلِ فِي تَرْزِينِ الْقُبْعَةِ ،
وَلَا مَذْهَبًا مِنَ الرَّأْيِ فِي الْأَخْتِجَاجِ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْمَذَاهِبَ الْفَلَسَفِيَّةَ لَا يُعْجِزُهَا أَنْ تُقِيمَ لَكَ
الْبُرْهَانَ جَدَلًا مَخْصَصًا عَلَى أَنَّ حَيَاءَ الْمَرْأَةِ وَعِفَّتَهَا إِنَّمَا إِلَّا رَذِيلَتَانِ فِي الْفَنِّ . . . وَإِنْ هُمَا
إِلَّا مَرَضٌ وَضَعْفٌ ، وَإِنْ هُمَا إِلَّا كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، ثُمَّ تَنْتَهِي الْفَلَسَفَةُ إِلَى عَدِّهِمَا مِنَ الْبَلَاهَةِ
وَالْغَفْلَةِ ، وَمَا الْغَفْلَةُ وَالْبَلَاهَةُ إِلَّا أَنْ تُرِيدَ فِلَسَفَةٌ مِنْ فِلَسَفَاتِ الدُّنْيَا أَنْ تُفْجِمَ فِي كِتَابِ
الصَّلَاةِ مَثَلًا فَضْلًا فِي . . . فِي . . . فِي الدَّعَاةِ .

لَا يَهْوُلُكَ مَا أَقَرُّ لَكَ : مِنْ أَنَّ الْقُبْعَةَ الْأُورُبِّيَّةَ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ الْمِصْرِيِّ ، تَهْتُّكَ
أَخْلَاقِي أَوْ سِيَاسِي أَوْ دِينِي أَوْ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ لَبِسُوهَا لَمْ يَلْبِسُوهَا
إِلَّا مُنْذُ قَرِيبٍ ، بَعْدَ أَنْ تَهْتَكِ الْأَخْلَاقُ الشَّرْقِيَّةَ الْكَرِيمَةَ وَتَحُلَّ أَكْثَرُ عُقْدِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ
قَارَبَتِ الْحُرِّيَّةَ الْعَصْرِيَّةَ بَيْنَ التَّقَايُصِ حَتَّى كَادَتْ تَخْتَلِطُ الْحُدُودُ اللَّغَوِيَّةُ ؛ فَحُرِّيَّةُ الْمُنْفَعَةِ
مَثَلًا تَجْعَلُ الصَّادِقَ وَالْكَاذِبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَلَا يُقَالُ : إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مُنْفَعَتُهُ فَصَدَّقَ ،
وَوَجَدَ مُنْفَعَتُهُ فَكَذَّبَ ؛ وَعِنْدَ الْحُرِّيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ أَنَّهُ مَا فَرَّقَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ وَجَعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمَا
حُدُودًا إِلَّا جَهْلَ الْقُدَمَاءِ ، وَفَضِيلَةَ الْقُدَمَاءِ ، وَدِينَ الْقُدَمَاءِ . وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ : الْجَهْلُ
وَالْفَضِيلَةُ وَالذِّينُ ، هِيَ أَيْضًا فِي الْمُعْجَمِ اللَّغَوِيِّ الْفَلَسَفِيُّ الْجَدِيدِ مُتَرَادِفَاتٌ لِمَعْنَى
وَاحِدٍ ، هُوَ الْأَسْتِغْبَادُ أَوْ الْوَهْمُ أَوْ الْخُرَافَةُ .

وَمَتَى أُزِيلَتِ الْحُدُودُ بَيْنَ الْمَعَانِي ، كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَلْتَبَسَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ ، وَأَنْ يَحُلَّ
مَعْنَى فِي مَوْضِعِ مَعْنَى غَيْرِهِ ، وَأَصْبَحَ الْبَاطِلُ بَاطِلًا بِسَبَبٍ وَحَقًّا بِسَبَبٍ آخَرَ ، فَلَا يَخْضَعُ
النَّاسُ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمُتَنَافِرَةِ ، تَجْعَلُ كُلَّ حَقِيقَةٍ فِي الْأَرْضِ شُبْهَةً مُزَوَّرَةً عِنْدَ
مَنْ لَا تَكُونُ مِنْ أَهْوَائِهِ وَتَرْعَائِهِ ، فَيَحْتَاجُ النَّاسُ بِالضَّرُورَةِ إِلَى قُوَّةٍ تَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فَضْلًا

مُسْلَحًا ، فَيَكْسِبُونَ الْقَانُونَ بِمَدَنِيَّتِهِمْ قُوَّةَ هَمَجِيَّةٍ تَضْطَرُّهُ أَنْ يُعِدَّ لِلْوَخْشِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَدْفَعُ هَذِهِ الْوَخْشِيَّةُ أَنْ تُعِدَّ لَهُ .

وَمِنْ اخْتِلَاطِ الْحُدُودِ تَجِيءُ الْقُبْعَةُ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا حَدٌّ يَطْمِسُ حَدًّا ، وَفِكْرَةٌ تَهْزِمُ فِكْرَةً ، وَرَذِيلَةٌ تَقُولُ لِفَضِيلَةٍ : هَا أَنَا ذِي قَدْ جِئْتُ فَأَذْهَبِي .

مَا هُوَ الْأَكْبَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِينِ الصَّغَرِ ؟ وَمَا هُوَ الْأَصْغَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لَا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِينِ الْكِبَرِ ؟ إِنَّهَا الْفُرْضِيُّ كَمَا تَرَى مَا دَامَ الْحَدُّ لَا مَوْضِعَ لَهُ فِي التَّمْيِيزِ وَلَا مَقَرَّ لَهُ فِي الْعُرْفِ وَلَا فَصْلَ بِهِ فِي الْعَادَةِ ؛ وَمِنْ هُنَا كَانَ الدِّينُ عِنْدَ أَقْوَامٍ أَكْبَرَ كَلِمَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي عَامَّةِ لُغَاتِهَا وَأَمْلَاهَا بِالْمَعْنَى ، وَكَانَ عِنْدَ آخَرِينَ أَصْغَرَهَا وَأَفْرَعَهَا مِنَ الْمَعْنَى ؛ وَمَا كَبُرَ عِنْدَ أَوْلَئِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهُ يَسَعُ الْأَجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ وَهُوَ مَخْدُودٌ بِغَايَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَمَا صَغُرَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَّا بِأَنَّ الْأَجْتِمَاعَ لَا يَسَعُهُ فَلَا حَدَّ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ مَعْنَى مُتَوَهِّمٌ لَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا فِي أَحْرَفِ كَلِمَتِهِ .

فَجَمَاعَةُ الْقُبْعَةِ لَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ حَدًّا يَحْدُودُنَهَا بِهِ مِنْ أَخْلَاقِنَا أَوْ دِينِنَا أَوْ شَرْقِيَّتِنَا ، وَقَدْ مَرَقُوا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ فِي زَيْنَا الْوَطْنِيِّ مَا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ السِّرِّ الْخَفِيِّ الَّذِي يُلْهِمُنَا مَا أَوْدَعَهُ التَّارِيخُ مِنْ قَوْمِيَّتِنَا وَمَعَانِي أَسْلَافِنَا .

وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ مِثْلًا قَوْمًا يَرَى أَحَدُهُمْ فِي ظَنِّ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ التَّطَوُّرِ ؛ فَهُوَ فِيمَا يُلَاحِظُهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَ التَّوَامِينِ . . . وَمِنْ هُنَا الثَّقَلُ وَالِدَّعْوَى الْفَارِغَةُ ، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الثَّقَلِ وَفَرَاغِ الدَّعْوَى . وَإِنَّهُ لِحَقٌّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْبِيَاءَ ، وَلَكِنْ أَفْبَحَ مَا فِي الْبَاطِلِ أَنْ يَظُنَّ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ نَبِيًّا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُزَيَّنُ لَهُ لِلشَّرْقِيِّ مِنْ رَذَائِلِ الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا مَنْطِقُ شَهَوَاتٍ فِي جُمْلَتِهِ ، وَلَقَدْ تَسْمَعُ الْجَنَائِعَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الطَّعَامِ ، فَتَرَى كَلَامًا تَحْتَهُ مَعَانٍ وَمَعَانٍ لَا يَعُدُّهَا غَيْرَ الْجَنَائِعِ إِلَّا حِمَاقَةً سَاعَتِهَا . . .

أَحَادِيثُ الْبَاشَا : ١١

سَعْدُ زَغُلُولٍ (*)

وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : أَلْقَى إِلَيَّ الْبَاشَا ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ (سَعْدًا) مُصَبِّحُنَا زَائِرًا^(١) ، وَكَانَتْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ خَاصَّةٌ وَأَسْبَابٌ وَطَبْدَةٌ . وَلِلْبَاشَا مَوْقِعٌ أَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِ سَعْدٍ كَمَا أَعْرِفُ الشُّعْلَةَ فِي بُرْكَانِهَا ؛ أَمَّا سَعْدٌ فَكَانَ قَدْ أَنْتَهَى إِلَى الْتَهَائِيَةِ الَّتِي جَعَلْتَهُ رَجُلًا فِي إِحْدَى يَدَيْهِ السِّخْرُ وَفِي الْأُخْرَى الْمُعْجِزَةُ ، فَهُوَ مِنْ عُظَمَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ كَقَامُوسِ اللُّغَةِ مِنْ كَلِمَاتِ اللُّغَةِ : يُرَدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ فِي تَعْرِيفِهِ ، وَلَا تَصِحُّ الْكَلِمَةُ عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهِ الشَّهَادَةُ عَلَى صِحَّتِهَا .

وَجَاءَنَا سَعْدٌ غُدْوَةً ، فَاسْرَعْتُ إِلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ قُبْلَةً لَا تُشَبِّهُهَا الْقُبْلَاتُ ، إِذْ مُثِّلَتْ لِي مِنْ فَرَحِهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ مَنْفِيَّةً وَرَجَعَتْ إِلَى وَطَنِهَا الْعَزِيزِ حِينَ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْيَدِ .

إِنَّ الرَّجُلَ^(٢) الْعَظِيمَ إِذَا كَانَ بَارًا بِأَيِّهِ عَارِفًا قَدَرَهُ مُذِرْكَ عَظَمَتَهُ ، يَشْعُرُ حِينَ يَقْبَلُ يَدَ أَبِيهِ كَأَنَّهُ يَسْجُدُ بِرُوحِهِ سَجْدَةً لِلَّهِ عَلَى تِلْكَ الْيَدِ الَّتِي يَقْبَلُهَا ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ اتِّصَالًا كَهَرَبَائِيًّا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ سِرِّ وَجُودِهِ ، وَيُخْصِّصُ الْعَالَمَ بِلَمْسَةٍ كَأَنَّهُ قُبْلَتُهُ نَبَضَتْ فِي الْكُونِ ؛ وَكُلُّ هَذَا قَدْ أَحْسَسْتُهُ أَنَا فِي تَقْبِيلِ يَدِ سَعْدٍ ، وَزِدْتُ عَلَيْهِ شُعُورِي بِمِثْلِ الْمَعْنَى الَّتِي يَكُونُ فِي نَفْسِ الْبَاطِلِ حِينَ يَقْبَلُ سَيْفَهُ الْمُنتَصِرَ .

وَضَحِكَ لِي سَعْدُ بَاشَا ضِحْكَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ ، الَّتِي يَبْدُوهَا فَمُهُ ، وَتَتَمُّهَا عَيْنَاهُ ، وَيَشْرَحُهَا وَجْهُهُ كُلُّهُ ، فَتَجِدُ جَوَابَهَا فِي رُوحِكَ كَأَنَّهُ فِي رُوحِكَ أَلْفَاها .

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٠ ، ١٩ شهر رجب سنة ١٣٥٥ هـ = ٥ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٦٠١ - ١٦٠٣ .

(١) يُقَالُ : صَبَّحَهُ (بِشْدِيدِ الْبَاءِ) ، أَيُّ : جَاءَهُ ضَبْحًا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « أَبْنُ الرَّجُلِ » بَدَلًا مِنْ : « الرَّجُلُ » .

وَالرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى سَعْدٍ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ ، رَأَى لَهُ ابْتِسَامَةً كَأَنَّهَا كَمَالٌ يَتَوَاضَعُ ، فَيُحْسِنُ كَأَنَّ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ يَتَّصِلُ مِنْهُ بِشَيْءٍ طَبِيعِيٍّ ، فَيَتَعَشُّ وَيَتَبَسَّمُ فِي وَجْهِهِ الرُّوحِيَّةِ وَثَبَّةً عَالِيَةً تَكُونُ فَرَحًا أَوْ طَرَبًا أَوْ إِعْجَابًا أَوْ خُشُوعًا أَوْ كُلِّهَا مَعًا . غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْمُحْكَمَاءِ إِذَا تَأَمَّلَ وَجْهَ سَعْدٍ وَهُوَ يَضْحَكُ ضِخْكَهُ الْمُطْمَئِنَّةَ الْمُتَمَكِّنَةَ مِنْ مَعْنَاهَا الْمُفِيزِ أَوْ الْمُتَنَكِّرِ أَوْ السَّاخِرِ أَوْ أَيِّ الْمَعَانِي - حَسِبَ نَفْسَهُ يَرَى شَيْئًا مِنَ الْقَوْلِ لَا مِنَ الضَّحِكِ ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْابْتِسَامَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً ، كَأَنَّهَا مَرَّةً تَقُولُ : هَذَا حَقِيقَتِي . وَمَرَّةً تَقُولُ : هَذَا غَيْرُ حَقِيقَتِي .

إِنَّ سَعْدًا الْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٌّ إِلَّا بِعَيْنٍ فِيهَا دَلَالٌ أَخْلَامَهَا ، كَأَنَّهَا هُوَ شَخْصٌ فِكْرَةٌ لَا شَخْصٌ إِنْسَانٌ ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِكَ ، فَأَنْتَ تَشْهَدُهُ بِنَظَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا هَذَا الَّذِي تُبْصِرُهُ بِهِ ، وَالْآخَرُ ذَلِكَ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ .

عَبَقَرِيٌّ كَالْجَمْرَةِ الْمُتَلْتَهَبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعِيشُ بَلْ يَخْتَرِقُ وَيُخْرِقُ ؛ نَائِزٌ كَالزَّلْزَلَةِ فَهُوَ أَبَدًا يَزُولُ وَهُوَ أَبَدًا يَرْجُ مَا حَوْلَهُ ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ الرُّسُلِ ، تِلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا .

رَجُلٌ الشَّعْبِ الَّذِي يُحْسِنُ كُلُّ مِصْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مُلْكًا مِنَ الْمَجْدِ . وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ ، وَأَنْزِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَانْقَضَتْ الزَّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى بَسَارِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي : وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ لَكَأَنَّما زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي أَلْقَابِ الدَّوْلَةِ لَقَبًا جَدِيدًا ، ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ : أَتَدْرِي مَا هَذَا اللَّقَبُ ؟ قُلْتُ : فَمَا هُوَ يَا بَاشَا ؟

قَالَ : وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدٍ ، إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رُبِّيَّةً (نِصْفُ بَاشَا) . . .

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَبْلَغًا تَصَاغَرُ مَعَهُ الْكِبِيرُ ، وَتَضَاعَلُ الْعَظِيمُ ، وَتَقَاصَرَ

السَّامِخُ ؛ نَعَمْ وَحَتَّى تَرَكَ أَقْوَامًا مِنْ خُصُومَةِ الْعُظَمَاءِ ، كَفَلَانَ وَفُلَانَ ، وَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيُلَوِّحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فَرَاغِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّحِهِ ، كَأَنَّهُ ظِلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٍ .

وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةَ عَامِلَةٍ لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأُفُقِ ، حَتَّى كَأَنَّ مَعَايِ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةَ تَنْتَشِرُ فِي الْهَوَاءِ عَلَى النَّاسِ ، فَهُوَ قُوَّةَ مُرْسَلَةٍ لَا تُنْسَكُ ، مَاضِيَةٍ لَا تُرَدُّ ، مَقْدُورَةٌ لَا يُخْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ .

هَذَا وَضَعُ إِلَهِيٍّ خَاصٍّ لَا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، كَمَيِّدَانِ الْحَرْبِ لَا تُشَبِّهُهُ الْأَمَكِنَةُ الْأُخْرَى ؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثَّوْرَةِ الْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا ، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ ؛ بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَعَلَّمَ الْقَانُونُ وَالسِّيَاسَةَ ، وَتُصْلِحُ أَغْلَاطَهَا ، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِيَّةِ الدَّقِيقِ . وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرِّجَالَ مَهْمَا كَانُوا أَذْكَيَاءَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ ، وَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِلَى جَانِبِهِ أَشْيَاءَ ثَابِتَةٍ فِي مَعَانِيهَا ، أَمَّا هُوَ فَتَرَاهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ يَتَلَطَّمُ كَالْأَمْوَاجِ الْعَلَاتِيَّةِ .

وَتِلْكَ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي فَمِهِ أحيانًا فَتَجْعَلُ لِبَعْضِ كَلِمَاتِهِ قُوَّةَ كَقُوَّةِ النَّصْرِ ، وَشُهْرَةً كَشُهْرَةِ مَوْقِعَةِ حَرَبِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ .

وَلَمَّا كَانَ هُوَ الْمُخْتَارَ لِيَكُونَ أَبَا لِلثَّوْرَةِ - حَرَمَتِهِ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ النَّسْلَ ، وَصَرَفَتْ نَزْعَةَ الْأَبُوَّةِ فِيهِ إِلَى أَعْمَالِهِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَفِيهَا عِنَايَتُهُ وَقَلْبُهُ وَهَمُّهُ ، وَهِيَ نَسْلٌ حَيٌّ مِنْ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَيَكَادُ مَعَهَا يَكُونُ أَسَدًا يَزَارُ حَوْلَ أَشْبَالِهِ .

وَلَنْ يَذْكَرَ السِّيَاسِيُّونَ الْمَصْرِيُّونَ مَعَ سَعْدٍ ، وَلَنْ يَذْكَرَ سَعْدٌ نَفْسَهُ إِذَا انْقَلَبَ سِيَاسِيًّا ، فَإِنَّ الْمَكَانَ الْخَالِيَّ فِي الطَّبِيعَةِ الْآنَ هُوَ مَكَانُ رَجُلٍ الْمُقَاوِمَةِ لَا رَجُلٍ السِّيَاسَةِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ سَعْدًا يُشْعِرُ الْأُمَّةَ بِوُجُودِهِ لَذَّةَ كَلْدَةِ الْفُوزِ وَالْإِنْتِصَارِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْزَ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَنْتَصِرْ عَلَى شَيْءٍ ؛ فَاطْمِئْنَانُ الشَّعْبِ إِلَى زَعِيمِ الْمُقَاوِمَةِ ، هُوَ بِطَبِيعَتِهِ كَاطْمِئْنَانِ حَامِلِ السَّلَاحِ إِلَى سِلَاحِهِ .

وَسَعْدٌ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَفْلَحَ فِي أَنْ يَكُونَ أَسْتَاذَ الْمُقَاوِمَةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فَنَسَخَ قَوَانِينَ ، وَأَوْجَدَ قَوَانِينَ ، وَحَمَلَ الشَّعْبَ عَلَى الْإِعْجَابِ بِأَعْمَالِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَتَبَّعَتْ فِيهِ قُوَّةَ الْإِحْسَاسِ

بِالْعَظَمَةِ فَجَعَلَهُ عَظِيمًا ، وَصَرَفَهُ بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ عَنِ الصَّغَائِرِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقْبَلِهِ يُبْدِعُ إِبْدَاعَهُ فِيهِ .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ لَا يَخْيَا بِالسِّيَاسَةِ ، وَلَكِنْ بِالْمُقَاوَمَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ الْعَزْبُ بِإِزَائِهِ ، وَالْفَرِيسَةُ لَا تَتَخَلَّصُ مِنَ الْحَلْقِ الْوَحْشِيِّ إِلَّا بِاعْتِرَاضِ عِظَامِهَا الصُّلْبَةِ الْقَوِيَّةِ { فِي هَذَا الْحَلْقِ } .

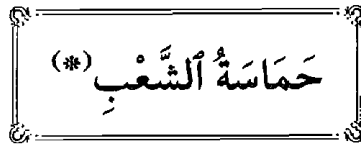
وَكَمْ فِي الشَّرْقِ مِنْ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ يَجْعَلُونَهُ وَزِيرًا ، فَتَكُونُ الْوُظَيْفَةُ هِيَ الْوَزِيرَ لَا نَفْسَ الْوَزِيرِ ، حَتَّى لَوْ خَلَعُوا ثِيَابَهُ عَلَى خَشَبَةٍ وَنَصَبُوهَا فِي كُرْسِيِّهِ ، لَكَانَتْ أَكْثَرَ نَفْعًا مِنْهُ لِلأُمَّةِ ، بِأَنَّهَا أَقَلُّ شَرًّا مِنْهُ ...

يَا بُنَيَّ ، كُلُّ النَّاسِ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِأَلْمَالِ وَالْجَاهِ وَالسِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ مَسْأَلَةُ الشَّرْقِ ، وَلَكِنْ الْمَسْأَلَةُ : مَنْ هُوَ النَّبِيُّ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يَرْضَى أَنْ يُضْلَبَ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ أَلْبَاشَا : ١٢



وَحَدَّثَنِي صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا قَالَ : لَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بَاشَا مِنْ أُوْرُبَّةِ فِي سَنَةِ ١٩٢١ ، كَانَتْ الأُمَّةُ فِي اسْتِقْبَالِهِ كَأَنَّهَا طَائِرٌ مَدَّ جَنَاحَيْهِ ، لَا خِلَافَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، بَلْ كُلُّهُ هُوَ كُلُّهُ ؛ وَكَانَتْ الْمُعَارَضَةُ فِي الْاسْتِحَالَةِ يَوْمِيذٍ كَاسْتِحَالَةِ وَجُودِ رُقْعَةٍ فِي رِيْشِ الطَّائِرِ .

عَلَى أَنَّ ثَوْبَ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ كَثِيرُ الرُّقَعِ دَائِمًا بِالْجَدِيدِ وَالْحَلْقِ ، فَرُقْعَةٌ مِنْ

الْمُعَارِضِينَ ، وَأُخْرَى مِنَ الْمُتَعَتِّينَ ، وَثَلَاثَةً مِنَ الْمُتَخَذِلِينَ ، وَرَابِعَةً مِنَ الْمُعَادِينَ ، وَخَامِسَةً وَسَادِسَةً وَسَابِعَةً مِنَ الْحَاسِدِينَ وَالْمُنَافِسِينَ وَالْمُخْتَلِفِينَ لِسَهْوَةِ الْخِلَافِ ؛ وَرِقَاعٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ هَذَا الْجَوْ الَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا بَطْنِنًا ، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهُ بِسُرْعَةٍ ؛ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ ، لَا يَكَادُ أَهْلُهَا يَتَفَقُّونَ .

وَلَكِنَّ سَعْدًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) رَجَعَ مِنْ أَوْرُبَةِ رَجْعَةٍ الْكَرَامَةِ لِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ ، فَفَارَ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْسَرْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ ، وَانْتَصَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَهْزَمْ ، وَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَعْزَعْ ، وَذَهَبَ صَوْلَةٌ وَرَجَعَ صَوْلَةٌ وَعَزِيمَةٌ ؛ فَكَانَ إِيمَانُ الشَّعْبِ هُوَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ ، وَكَانَتْ الثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي تَحْتَفِلُ بِهِ ، وَبَطَلَتْ الْعِلَلُ كُلُّهَا فَلَمْ يَجِدِ الْإِعْتِرَاضُ شَيْئًا يَعْتَرِضُ^(١) عَلَيْهِ ، وَاتَّفَقَتْ الْأَسْبَابُ فَاجْتَمَعَتِ الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَ سَعْدٌ كَأَنَّهُ رُوحُ الْأُمَّةِ مُتَمَثِّلًا فِي قُدْرَةٍ ، حَاكِمًا بِقُوَّةٍ ، مُتَسَلِّطًا بِبِقِينٍ .

نَعَمْ لَمْ يَنْتَصِرِ الْبَطْلُ ، وَلَكِنَّ الْأُمَّةَ اخْتَفَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ فِيهَا كَمَالًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ هُوَ سِرُّ الْإِنْتِصَارِ ؛ فَكَانَتْ حَمَاسَةُ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَمَاسَةً الْمُبْدِئِ الْمُتَمَكِّنِ : يُظْهِرُ شَجَاعَةَ الْحَيَاةِ ، وَفُورَةَ الْعَزَائِمِ ، وَفَضِيلَةَ الْإِخْلَاصِ ، وَشِدَّةَ الصَّوْلَةِ ، وَعِنَادَ التَّصْمِيمِ ؛ وَيُنْبِتُ بِقُوَّةِ ظَاهِرِهِ قُوَّةَ بَاطِنِهِ ، وَكَانَ فَرَحُ الْأُمَّةِ عِنَادًا سِيَاسِيًّا يَفْرَحُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ قُوِيًّا لَمْ يَضْعُفْ ، وَكَانَ أَبْتِهَاجُهَا مَجْدًا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَافِرًا لَمْ يُنْتَقِصْ ، وَكَانَ الْإِجْمَاعُ رَدًّا عَلَى الْيَأْسِ ، وَكَانَتْ الْحَمَاسَةُ رَدًّا عَلَى الضَّعْفِ .

انْبَعَثَتْ صَوْلَةُ الْحَيَاةِ فِي الشَّعْبِ كُلِّهِ ، وَابْتَدَأَ الْمُسْتَقْبَلُ مِنْ يَوْمِيذٍ ، فَلَوْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِي سَحَابَةٍ مُجَلِّجَةٍ يُسْمَعُ تَسْبِيحُهُمْ لِيُؤَيِّدُوا سَعْدًا - لَمَا زَادُوهُ شَيْئًا ؛ فَقَدْ كَانَ مَحَلَّهُ مِنَ الْقُلُوبِ كَأَنَّهُ الْعَيْنِيَّةُ ، وَكَانَ التَّصْدِيقُ مَبْدُولًا لَهُ كَأَنَّهُ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ ، وَكَانَتْ الطَّاعَةُ مَوْقُوفَةً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ الْبَاعِثُ الطَّبِيعِيُّ ، وَكَانَ الْبَطْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُشْبِهُ نَبِيًّا مِنْ قَبْلِ أَنْ كَلَّا مِنْهُمَا صُورَةً كَامِلَةً لِلِسُّمُوفِ فِي أَفْكَارِ أُمَّةٍ .

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَا يَعْتَرِضُ » بَدَلًا مِنْ : « شَيْئًا يَعْتَرِضُ » .

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَرَجَعَ الْبَاشَا مِنَ الْقَاهِرَةِ وَقَدْ رَأَى مَا رَأَى مِنْ مُسَامَحَةِ الثُّقُوسِ ،
وَصِحَّةِ الْعَهْدِ ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَإِعْدَادِ الشَّعْبِ لِلْمِرَاسِ وَالْمُعَانَاةِ ، فَقَالَ :

تَاللهِ لَقَدْ أَثْبَتَ (سَعَدَ) لِلدُّنْيَا كُلِّهَا أَنَّ مَضَرَ الْجَبَّارَةِ مَتَى شَاءَتْ بَنَتْ الرِّجَالَ عَلَى طَرِيقَةِ
الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَظَمَةِ وَالشُّهْرَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْقُوَّةِ . وَلَقَدْ صَنَعَ هَذَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ مَا تَصْنَعُ
حَرْبٌ كَبِيرَةٌ ، فَجَمَعَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَنَاقَضُ ، وَدَفَعَهَا بِرُوحٍ قَوْمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ
لَا تَخْتَلِفُ ، وَجَعَلَ عِزَّ السِّيَاسَةِ يَفُورُ كَمَا يَفُورُ الْعِرْقُ الْمَجْرُوحُ بِالدَّمِ .

إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ لَا ثَالِثَ بَيْنَهُمَا : إِمَّا الْحَزْمُ إِلَى الْآخِرِ وَإِمَّا الْإِضَاعَةُ . وَلَا
حَزْمَ إِلَّا أَنْ يَبْقَى الشَّعْبُ كَمَا ظَهَرَ الْيَوْمَ : طُوفَانًا حَيًّا ، مُسْتَوِيَّ الطَّبِيعَةِ ، مُنْذِفَ الْحَرَكَةِ ،
غَامِرًا كُلَّ مَا يَغْتَرِضُهُ ، إِلَى أَنْ يُقْضَى الْأَمْرُ وَيَقُولَ أَعْدَاؤُنَا : ﴿ وَتَسْمَاءُ أَقْبَلِي ﴾ [١١ سورة
هود/ الآية : ٤٤] .

هَكَذَا يَعْمَلُ الْوَطَنُ مَعَ أَهْلِهِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ حَيٌّ بَيْنَهُمْ ، حِينَ يَسْتَوِي الْجَمِيعُ فِي الثَّقَةِ ،
وَيَتَازَرُ الْجَمِيعُ فِي الْأَمَلِ ، وَيَشْتَرِكُ الْجَمِيعُ فِي الْعَطْفِ الرُّوحِيِّ ، وَلَا يَبْقَى لِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ
حَظٌّ فِي رَغْبَةٍ غَيْرِ الرَّغْبَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْجَمِيعِ ؛ وَهَكَذَا يَعْمَلُ الْوَطَنُ بِأَهْلِهِ حِينَ يَعْمَلُ مَعَ
أَهْلِهِ .

كَانَ أَعْدَاؤُنَا يَحْسِبُونَنَا دُبَابًا سِيَاسِيًّا لَا شَأْنَ لَهُ إِلَّا بِفَضْلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَلَا عَمَلَ لَهُ فِي
أَزْهَارِهَا وَأَنْثَارِهَا وَعِطْرِهَا وَحُلُوهَا ؛ فَاسْمَعَهُمُ الشَّعْبُ الْيَوْمَ طَيْنِ النَّخْلِ ، وَأَرَاهُمْ إِبْرَ
النَّخْلِ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَنْثَارَ وَالْعِطْرَ وَالْحُلُوهَ هِيَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ .

وَكُنَّا يَتَحَرَّضُونَ أَنَّ مَذْهَبَنَا فِي الْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ فَقَطْ ، وَأَنَّ الْمِضْرِيَّ حَاكِمًا
أَوْ مَحْكُومًا لَا يَمُدُّ أَمَالَهُ الْوُطَنِيَّةَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ مُدَّةِ عُمْرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَطْلَقُوا
أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا . وَمِنْ ثَمَّ طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ النَّاقِصُ
فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ السِّيَاسِيَّ الْمِضْرِيَّ لَا يَتَجَرَّأُ أَنْ يَقُولَ
مَا يَقُولُهُ السِّيَاسِيُّ الْأَوْرَبِيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى الْعَارَ . فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ
مَاتَ وَحْدَهُ ، وَإِذَا جَلَبَ الْعَارَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمَّتِهِ ، بَيْنَ أَنْ سَعَدَا

قَالَهَا ؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا قَدْ يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً .

وَمَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَإِنَّ الذَّرَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي تُخْلَقُ مِنْ دِمَائِنَا نَحْنُ الْمُضَرِّينَ قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الدَّمَاءِ ، فِي هَذَا النَّهَارِ ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَى أَنْ تُولَدَ مُقَيَّدَةً بِقُيُودِ^(١) .

أَتَذَرِنِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْدٍ ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبِهُ فِي الشَّخَرِيَّةِ طَاحُونَةَ تَامَّةِ الْأَدَوَاتِ وَالْآلَاتِ مِنْ آخِرِ طِرَازٍ ، ثُمَّ لَا تُقَدِّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةَ قَمْحٍ وَاحِدَةً لِيَطْحَنَهَا . . . نَتِيجَةُ تَسَخَّرُ مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَأَسْبَابُ تَهْزَأُ بِالنَّتِيجَةِ .

إِنَّ أَوْزُبَةَ لَا تَحْتَرِمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى أَحْتِرَامِهِ ، فَمَا أَرَى لِلْسِّيَاسِيِّينَ فِي هَذَا الشَّرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرْدَ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَاءِ الْحِمَاسَةِ فِي كُلِّ شَعْبٍ شَرْقِيٍّ ، ثُمَّ حَيَاتِطَتِهَا وَحُسْنُ تَوْجِيهِهَا ؛ فَهَذِهِ الْحِمَاسَةُ الشَّعْبِيَّةُ الدَّائِمَةُ الْقَوِيَّةُ الْبَصِيرَةُ ، هِيَ قُوَّةُ الرَّفْضِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفَضَ ، وَقُوَّةُ التَّائِيدِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ ، وَإِحْكَامِ الشَّأْنِ ، وَإِقْرَارِ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ بِالنُّفُسِ ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْحِسِّ وَتَغْوِينُهُ إِذْكَاءُ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ ، وَالتَّحُمُّسُ لَهَا ، وَالْبَذَلُ فِيهَا .

وَمَا عَلَّةُ الْعِلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحِمَاسَةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ ، وَسُوءُ تَذْيِيرِهَا ، وَقُبْحُ سِيَاسَتِهَا ؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأَوْزُبِيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَفُنُونِهِمْ ؛ فَتَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا أَلْفَايِرَةٍ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاقُلٍ وَتَقَرُّدٍ بِالمُصْلَحَةِ وَاسْتِنْدَادٍ بِالرَّأْيِ ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دِرْهَمٌ ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِبَاهُمْ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ كَالنَّخْلَةِ وَالذُّبَابَةِ عَلَى زَهْرَةٍ . . .

لَيْسَتْ لَنَا حِمَاسَةُ الْحَيَاةِ ، وَبِهَذَا تَخْتَلِفُ أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُهُمْ ، وَذَلِكَ هُوَ السِّرُّ أَيْضًا فِي أَنْ أَكْثَرَ حِمَاسَتِنَا كَلَامِيَّةٌ مَحْضَةٌ ؛ إِذْ يَكُونُ الصُّرَاخُ وَالصِّيَاخُ وَالتَّشْدِيقُ وَنَحْوُهَا مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْفَارِغَةِ - تَنْقِيحًا لِلطَّبِيعَةِ السَّائِكَةِ فِينَا ، وَتَوْبِيغًا مِنْهَا بِغَيْرِ أَنْ نَجْهَدَ فِي التَّنْقِيحِ وَالتَّوْبِيغِ . وَمِنْ هَذَا كَانَتْ لَنَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْكَلَامِ يَنْطَلِقُ اللِّسَانُ فِيهَا لِلْخُرُوجِ مِنَ الصَّسْتِ

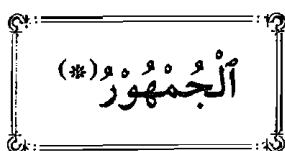
لَا غَيْرَ . . . وَمِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْهَرَاءِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَدُورُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْأَحْزَابِ وَالصُّحُفِ .

إِنَّ حِمَاسَةَ الشَّعْبِ لَا تَكُونُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَقَطْ ؛ بَلْ عَلَى مَعَايِهِ أَيْضًا ، وَعَلَى ضَعْفِهِ بِخَاصَّةٍ ، وَالشَّعْبُ الْفَاتِرُ فِي حِمَاسَتِهِ لَوْ نَالَ حَقِّينِ مَغْضُوبَيْنِ لَعَادَ فَخَسِرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ؛ أَمَّا الشَّعْبُ الْمُتَحَمِّسُ الْقَوِيُّ فِي حِمَاسَتِهِ ، فَلَوْ غُصِبَ حَقِّينِ وَنَالَ أَحَدَهُمَا لَعَادَ فَأَبْتَرَ الْآخَرَ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

أَحَادِيثُ أَلْبَاشَا : ١٣



وَقَالَ صَاحِبُ سِرِّ (م) بَاشَا : كَانَ مِنْ بَعْضِ عَمَلِي فِي الْحُكُومَةِ سَنَةَ ١٩٢٢ أَنْ أَرَأَيْتُ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَابْتِئْتُ الْعُمُيُونَ وَالْأَرْصَادَ ، وَأَعْرِفُ الْمُضْطَرَبَّ وَالْمُنْقَلَبَ فِي أَيَّامِ الْفِتَنِ وَنَوَازِلِ الْمِخْنَةِ ، مُحَافَظَةً عَلَى الْأَمْنِ ، وَمُبَادَرَةً لِمَا يَتَوَقَّعُ ؛ فَكُنْتُ كَالْمَرْصِدِ الْمُهِتِئِ بِآلَاتِهِ لِتَدْوِينِ حَرَكَاتِ الزَّلَازِلِ .

وَأَنْتَهَى إِلَيْنَا يَوْمًا أَنَّ رَاجِفَةً مِنْ هَذِهِ الزَّلَازِلِ سَتَزْجُفُ بِفُلَانٍ مِنْ أَهْلِ الزَّرْأِي الْحُرِّ ؛ الَّذِي يَسْتَقِلُّ وَلَا يَتَابِعُ ، وَيَنْتَقِدُ وَلَا يُحَايِي ، وَيَصْرِّحُ وَلَا يُجْمِعُ ، وَأَنْ قَوْمًا ثَوَّرُوا عَلَيْهِ الْعَبَارَ الْأَدَمِيَّ مِنَ الْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ ، وَأَنْهُمْ يَتَحَيَّنُونَ الْوَقْتَ لِتَوَجُّعِهِ الْمَكِينَةِ لَهُ فِي شَكْلِهَا الْمُفْتَرَسِ مِنْ هَذَا الْجُمْهُورِ النَّاقِمِ .

أَمَّا فَلَانُ هَذَا فَرَجُلٌ سِيَاسِيٌّ عَيْنِيذٌ أَضَاعَ الْحَقَّ كُلَّهُ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَى بِنِصْفِ الْحَقِّ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٢ ، ٣ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة

وَكَلِمَتُهُ فِي السِّيَاسَةِ كَأَنَّمَا تُنْقَى عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْغَيْبِ ؛ فَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهَا وَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِمَا يَتَكَلَّمُ ؛ وَقَدْ ذَهَبَ بِصَوْنِهِ أَنَّهُ فِي قَوْمٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ كَالْحَقِّ الْمَغْلُوبِ : لَا يَمُوتُ لِأَنَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ ، ثُمَّ لَا يَخِيَا لِأَنَّهُ لَا يَنْتَصِرُ . وَقَدْ كَانَ رَجُلًا كَالْمُصْبَاحِ الْوَهَّاجِ فَالْقَوْمَا عَلَيْهِ الْغَطَاءُ ، فَإِذَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ وَيَبْدُو لِلنَّاسِ بِغَيْرِ طَبِيعَتِهِ ، وَتَرَكَ رَأْيَهُ الْحُرَّ الصَّرِيحَ كَالنَّبِيِّ الْمُكَذَّبِ يُرَدُّ عَلَيْهِ صِدْقُهُ ؛ لَا لِأَنَّهُ غَيْرُ صِدْقٍ ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ ، أَوْ غَيْرُ مُلَائِمٍ .

وَمِنْ أَقَاتِنَا نَحْنُ الشَّرَفِيِّينَ أَنَّنَا نَسْتَمِرُّ الْعِدَاوَةَ ، وَنَقْفَادُ لَأَسْبَابِهَا ، وَنَتَطَاوَعُ لَهَا تَطَاوَعُ الصَّغَارِ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ كَأَنَّ الْمُسْتَبِدِّينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي تَارِيخِنَا قَدْ انْتَقَلُوا إِلَى طَبَائِعِنَا ؛ قَرَدُ الْفِكْرِ عَلَى الْفِكْرِ فِي مُنَاقَشَةٍ تَجْرِي بَيْنَنَا - لَا يَكُونُ مِنْ دَفْعِ الْحَقِيقَةِ لِلْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَدِّ الْأَسْتِنَادِ عَلَى الْأَسْتِنَادِ ، وَمِنْ تَوَثُّبِ الطُّغْيَانِ عَلَى الطُّغْيَانِ ؛ فَهُوَ الثَّلْبُ وَالطَّعْنُ وَالتَّجْرِيعُ ، وَهُوَ الْجَفْوَةُ وَالْخُصُومَةُ وَاللَّدْدُ ، وَهُوَ الْمُنَازَعَةُ وَالْعُنْفُ وَالتَّحَامُلُ ؛ وَهُوَ بِهِذِهِ وَنَلَكَ شَرٌّ وَفَسَادٌ وَسُقُوطٌ . وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَنْعَثُ الْفِكْرَ فَيَنْتَهِي إِلَى الْحَقِّ ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهْنِجُ الْخُلُقَ فَيَنْتَهِي إِلَى الشَّرِّ ، وَالرَّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مِثْلًا كَأَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي النَّاسِ لَا عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ ، وَكَشَفُ الْخَطَا عِنْدَنَا تَغْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ ، وَاسْتِلَابُ الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا وَإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَاسْتِلَابِ الْمَلِكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ . . .

وَمِنْ ثُمَّ كَانَ الدَّفَاعُ بِالْمُكَابَرَةِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا ، وَكَانَ الْأَضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ ، وَكَانَ الْإِعْنَاتُ دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ ، وَمَتَى أَعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ أَمْبَرًا طُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا ، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ الْحُرِّ ، وَأَخَذَ يَقْلِبُهُمْ تَقْلِيْبُهُ بَيْنَ التَّوَدُّدِ وَالْمُلَاطَفَةِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ فَضِيلَةَ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضْمَنُ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتَهَا عَلَى الرَّدَائِلِ ، وَإِنْ كُلُّ صَاحِبٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَاحِبَهَا ، وَإِنْ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي

يَوْمَ نُمِيزُ فُضُولَهَا هِيَ ذَاتُهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُجَادِلُهُمْ وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبِلُوهَا -
قَالُوا : هَذَا كَانَ أَمْسٍ ... فَكَأَنَّمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ صِدْدَيْنِ .

نُمِ سَأَلُهُمْ : مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ . فَقَالَ
الْبَاشَا : إِنَّ الْمَعْنَى فِي أَنْ يُخَالِفَكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتِ التَّاحِيَتَانِ ،
وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ
فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ ؟

قَالُوا : إِنَّا الْكَثْرَةُ . قَالَ الْبَاشَا : يَا أَصْدِقَائِي ! إِنَّ خَوْفَ الْكَثْرَةِ مِنْ رَأْيٍ فَرْدٍ أَوْ أَفْرَادٍ
هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنِيَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ ؛ وَعَشْرَةُ جُنَيْهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِالْجُنَيْهِ الْوَاحِدِ ، فَإِنَّهَا
تَسْتَعْرِفُهُ ؛ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ حَالُ عَشْرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي !

نَعَمْ إِنْ قُطِعَ الْخِلَافُ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوُطَنِيَّةِ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ
وَبَاطِنِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ : الْعَصَا أَوْ الْمِثْدَنَةُ ... ؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ مُحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ
بِلَا جِدَالٍ .

إِنْ أَسَاسُ اخْتِلَافِنَا نَحْنُ الشَّرَفِيَّتَيْنِ فِي قُلُوبِنَا ، إِذْ لَا نَعْتَبِرُ الْمَعَانِي الْعَامَّةَ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ
أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِالرَّجَالِ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ حَالَ الرِّجَالِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ لَا نَعْتَبِرُ
أَنْفُسَنَا إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُرْضِينَا أَوْ يُغْضِبُنَا ، وَقَدْ لَا يُغْضِبُنَا إِلَّا الْحَقُّ وَالْجِدُّ ، وَقَدْ لَا يُرْضِينَا
إِلَّا الْبَاطِلُ وَالنَّهَاقُ ، وَلَكِنَّا لَا نُبَالِي إِلَّا مَا نَرْضَى وَمَا نَغْضِبُ .

لَسْتُمْ أَحْرَارًا فِي أَنْ تَجْعَلُوا غَيْرَكُمْ غَيْرَ حُرٍّ ، فَإِنْ يَكُنِ الرَّأْيُ الَّذِي يُعَارِضُكُمْ رَأْيًا حَقًّا
وَتَرَكْتُمْ مُتَابِعَتَهُ فَقَدْ نَصَرْتُمْ الْحَقَّ ؛ وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا فِإِظْهَارُهُ بَاطِلًا هُوَ بُرْهَانُ الْحَقِّ الَّذِي
أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؛ وَلَنْ تُجَرِّدُوا أَحَدًا مِنْ اخْتِيَارِ الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدْتُمْ أَنْتُمْ مِنْ اخْتِيَارِ الْعَدْلِ ، فَإِنْ
فَعَلْتُمْ فَهَذِهِ كِبْرِيَاءُ ظَالِمَةٍ ، تَدَّعِي أَنَّهَا الْحَقُّ ، ثُمَّ تَدَّعِي لِنَفْسِهَا حُكْمَهُ ، فَقَدْ كَذَبَتْ
مَرَّتَيْنِ .

اسْمَعُوا أَيُّهَا السَّادَةُ ! قَامَتْ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرَّأْيِ مُنَاطَرَةٌ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ
الْصُّحُفِ ، وَتَسَاجَلَا فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ ، فَلَمَّا عَجَزَ أضعفهما حُجَّةً وَكَعَمَهُ الْجِدَالُ ، كَتَبَ

مَقَالَتُهُ الْأَخِيرَةَ فَجَاءَتْ سَفِينَةً ، فَلَمْ تُرْضِهِ فَبَيْسَتْهَا وَنَامَ عَنْهَا عَلَى أَنْ يُرْسِلَهَا مِنَ الْعَدَاةِ بَعْدَ أَنْ يُرَدِّدَ نَظَرَهُ فِيهَا وَيُصَحِّحَ آرَاءَهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا عَلَيْهِ . قَالُوا : فَلَمَّا نَامَ تَمَثَّلَتْ لَهُ الْمَقَالَةُ فِي أَحْلَامِهِ جِسْمًا حَيًّا مَوْهُونًا مُتْرَضًّا ، مَخْلُوعًا مِنْ هُنَا مَكْسُورًا مِنْ هُنَاكَ ، مَجْرُوحًا فِيمَا بَيْنَهُمَا ؛ ثُمَّ كَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ : وَيْحَكَ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَغْلِبَ صَاحِبَكَ وَتُسْكِنَهُ عِنَّا ، فَاحْمِلْ مَقَالَتَكَ إِلَى رَأْسِهِ فِي الْعَصَا لَا فِي الْجَرِيدَةِ . . .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَضَحَكَ الْقَوْمُ جَمِيعًا ، وَأَذَعْنُوا وَأَنْصَرَفُوا مُقْتَنِعِينَ ، قَدْ خُلِصَتْ دِخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْحُرِّ ، وَتَنَصَّلُوا مِنْ جَرِيمَةٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا جَاءَ الْبَاشَا بِمُعْجِزٍ مِنَ الْقَوْلِ ، وَلَكِنْ تَصَوُّرُهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نَفْسِهِمْ . فَلَمَّا أَدْبَرُوا تَنَفَّسَ الْبَاشَا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَى إِنْقَازَ غَرِيقٍ وَيُعَانِي فِيهِ حَتَّى نَجَا ؛ ثُمَّ قَالَ لِي : إِنَّ هَذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ سُؤَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا : مَا الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ الْمُعَارَضَةَ فِي الرَّأْيِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَجَارُونَ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ السَّعِيَّةِ الْمُنْكَرَةِ ؟ وَمَا بِالْهَمِّ لَا يُعْطُونَ الرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، بَلْ يُعْطُونَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا الْمُتَقَلِّبَةِ ، حَتَّى لَتَرْجِعَ الْفُرُوقُ الصَّعِيفَةُ الْمُتَجَانِسَةُ فِي أَتْبَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْمُبَايَنَةِ فُرُوقٌ جِنْسِيَّةٌ كَأَلَّتِي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى تُعَادِيهَا [بِهِ] ؟

قُلْتُ : إِنَّ رَأْيَ الْكَثَرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا ! .

قَالَ : هَذَا صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ بِشَرْطَيْنِ لَا يَشَرْطُ وَاحِدٌ : الْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ الرَّأْيُ عَلَى الْقَانُونِ ، وَالثَّانِي أَلَّا تَكُونَ الْحَقِيقَةُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يُنَاقِضُهُ ؛ وَمُحَاوَلَةُ إِكْرَاهِ الْمُعَارَضَةِ نَقْضٌ لِلشَّرْطَيْنِ مَعًا^(١) ؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ الْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ النِّيَّاتِ ، وَأَسْتِوَاءُ الْمَوَافِقِ وَالْمُخَالَفِ فِي هَذَا الْحُكْمِ ، وَمَتَى وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَكَانَتِ النِّيَّةُ صَادِقَةً مُخْلِصَةً ، لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنَوُّعِ الرَّأْيِ ، وَأَنْتَهَيَا إِلَى الْإِتِّفَاقِ بِغَلَبَةِ أَقْوَى الرَّأْيَيْنِ ،

(١) لَا يَنْسَى الْقَارِئُ أَنَّ هَذَا كَانَ سَنَةَ ١٩٢٢ م .

مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

الْحَقِيقَةُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْجَمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَّتِهَا مِنَ الْجَمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا ، إِذْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ عُمْرِهَا السِّيَاسِيِّ ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشْبِهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخُصْمَيْنِ بَعِيرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذِ الْحُكْمِ ، فَهُوَ نِزَاعُ قُوَّةٍ تَفُوزُ بِوَسَائِلِهَا ، لَا نِزَاعُ حَقٍّ يَسْتَغْلِي بِإِدْلَتِهِ .

وَهَذِهِ الْمَجَالِسُ النِّيَابِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ كُلُّهَا صُورٌ مُمَثَّلَةٌ جَافَةٌ ، مُنْقَطَعَةٌ اللَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا ، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَضِرُ الْفَرْعُ وَيُفِيرُ أَثْمَارَهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا يَنْفَسِهِ ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِيُّ .

فَسَبِيلُ الإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالَمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ ، وَمَنْ كَانَ بِسَبِيلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَذْوَةٍ لِلْاجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ ، وَقَوْلٍ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلٍ (لَا) بِالْحُجَّةِ . ثُمَّ يُعْلِنُونَ ذَلِكَ فِي جُمْهُورِهِمْ وَيَنْزِلُونَ مِنْهُ مَنْزِلَةَ الْأُسْتَاذِ وَالْأَبِ وَالصَّدِيقِ فِي تَعْلِيمِهِ وَهَدَايَتِهِ وَإِرْشَادِهِ ؛ وَتَتَّصِلُ هَذِهِ الدُّورُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَتَنْتَهِي بِالْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ . وَبِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُمْلَأُ الْفَرَاغُ الَّذِي نَرَاهُ خَاوِيًا بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْحُكُومَةِ ، وَبَيْنَ الْكُبَرَاءِ وَالْجَمَاهِيرِ ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُ مَصَائِبِنَا مِنْ هَذَا الْفَرَاغِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَضِيعُ فِيهِ مَا يَضِيعُ فِيهِ ، وَيَخْتَفِي مَا يَخْتَفِي .

مِمَّا قَوْمٌ مُوَظَّفُونَ فِي الْحُكُومَةِ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَكُونُ الْحُكُومَةُ نَفْسُهَا مُوَظَّفَةً عِنْدَهُمْ ؟

* * *

(أَعْتَدَارُ) : بِهَذَا الْمَقَالِ أَتَيْتُ أَحَادِيثُ الْبَاشَا ؛ فَقَدْ أَنْبَأَنَا صَاحِبُ السِّرِّ أَنَّهُ سَيَكْتُمُ السِّرَّ

الْمَجْنُونُ (*)
١

جَاءَ يَمْشِي هَادِئًا يَتَخَيَّلُ فِي مَشْيِهِ ، يَرْجُفُ بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ كَأَنَّهُ مِنْ كِبَرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُدْرِكَةٌ أَنَّهُ يَمْشِي فَوْقَهَا . . . وَلَا يَنْقُلُ قَدَمُهُ إِذَا خَطَا حَتَّى يَنْهَضَ بِرَأْسِهِ يُحَرِّكُهُ إِلَى أَعْلَى ، فَمَا تَذَرِي أَهْوَى يُرِيدُ أَنْ يَطْمُنَّ إِلَى رَأْسِهِ مَعَهُ . . . أَمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قَدْ وَضِعَ عَلَى جِسْمِهِ فِي مَوْضِعِ رَأْيَةِ الدَّوْلَةِ ، فَهُوَ يَهْزُهُ هَزَّ الرَّأْيَةِ . . .

وَأَخَذَتْهُ عَيْنِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا طَوْلُ غُرْفَةٍ وَعَرْضُهَا - فَإِذَا هُوَ زَائِعُ الْبَصَرِ كَأَنَّمَا وَقَعَ فِي صَخْرَاءٍ يُقَلِّبُ عَيْنَهُ فِي جِهَاتِهَا مُتَحَيِّرًا مُتَرَدِّدًا ، ثُمَّ كَأَنَّمَا رُفِعَ لَهُ فِي أَقْصَاهَا جَبَلٌ فَأَخَذَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ . . .

وَرَحَّبْتُ بِهِ ، وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي ، فَأَخَذَ يَسْتَغْرِفُ إِلَيَّ بِذِكْرِ أَسْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَبَلَدِهِ ، لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ عَثَرَتْهُ بَنِي عَبَسَ : لِأَرْضِهِ مِنْ طَبِيعَتِهَا جُغْرَافِيًا ، وَمِنْ أَسْمِهِ جُغْرَافِيًا عَلَى حِدَةٍ . . . فَلَمَّا رَأَيْتُ لَا أَثْبَتُهُ مَعْرِفَةً قَالَ : إِنَّ بَكَ نِسْيَانًا .

قُلْتُ : وَكَثِيرًا مَا أَنْسَى ، غَيْرَ أَنَّ أَسْمَكَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَذْكُرُ بِتَارِيخٍ .
قَالَ : هَذِهِ غَلْطَةُ الْجَرَائِدِ . . . وَمَهْمَا تَنَسَّ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَنَسَّ أَنَّكَ أَسْتَادُ « نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ^(١) » . . .

فَسَرَّخْتُ فِيهِ نَظْرِي ، فَإِذَا أَنَا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدٍ أَهْيَفَ ، يَكَادُ بِرِخَاوَتِهِ وَتَفَكُّكِهِ لَا يَكُونُ رَجُلًا ، وَيَكَادُ يَبْدُو أَمْرَأَةً بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَفُتُورِهِمَا .

وَتَوَسَّمتُ فَإِذَا وَجْهٌ سَاكِنٌ مُنْبَسِطٌ الْأَسَارِيرِ مَمْسُوحُ الْمَعَانِي ، يُنْبِئُ بِانْقِطَاعِ صَاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ ، كَأَنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا النَّاسِ ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْسِهِ . . .

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٥ ، ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٥ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٥ م ، السنة

الثالثة ، الصفحات : ١٨٨٣ - ١٨٨٦ .

(١) هَذَا الشَّابُّ الْمَجْنُونُ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ ، وَكَانَ قَدْ أَنْتَهَى إِلَى مَدْرَسَةِ الْمُعَلِّمِينَ الْأَوَّلِيَّةِ ، ثُمَّ خُوِّلَ فِي عَقْلِهِ فَتَرَكَهَا ؛ وَكُلُّ مَا يَمُرُّ فِي هَذَا الْمَقَالِ بَيْنَ قَوْسَيْنِ فَهُوَ بِصَدِّهِ مِنْ كَلَامِهِ .

« وَخِي الْقَلَمِ »

وَتَأَمَّلْتُ فَإِذَا طُفُولَةٌ مُبَلَّدَةٌ قَدْ تَبَيَّنَتْ فِي هَذَا الْوَجْهِ لِتُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ الرَّجُلِ وَالطُّفْلِ
مَجْنُونًا لَا هُوَ طِفْلٌ وَلَا رَجُلٌ .

وَتَفَرَّسْتُ فَإِذَا أَثَارُ مَعْرَكَةٍ بَادِيَةٍ فِي هَذِهِ الصَّفْحَةِ ، قَتَلَاهَا أَفْكَارُ الْمَسْكِينِ وَعَوَاطِفُهُ .
وَتَبَيَّنْتُ فَإِذَا رَجُلٌ مُسْتَرْخٍ ، مُتَقَرِّئُ الْبَدَنِ ، خَائِئِرُ النَّفْسِ ، كَأَنَّهُ قَائِمٌ لِنَوْمِهِ مِنَ النَّوْمِ فَلَا
تَرَالُ فِي عَيْنَيْهِ سِتَّةٌ ، وَكَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مِنْ بَقَايَا حُلُمٍ كَانَ يَرَاهُ . . .
وَحُيِّلَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْخُمُولِ فِي هَذَا الشَّابِّ ، أَنَّ عَلَيْهِ جَوًّا مِنْ تَأَوُّبِهِ ، وَأَنَّ الْمَكَانَ
كُلَّهُ يَتَأَبَّبُ ، فَتَشَاءَبْتُ . . .

* * *

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنِّي ضَحِكَ وَقَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ » رَجُلٌ مِغْنَاطِيئِي
عَظِيمٌ ؛ فَهَا هُوَ ذَا قَدْ أَلْقَى عَلَيْكَ النَّوْمَ . . . وَحَسْبُكَ فَخْرًا أَنْ تَكُونَ أَسْتَادَهُ وَأَخَاهُ وَثِقَتَهُ ،
« فَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِهَا الْيَوْمَ أَدِيبٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ . . . »

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّا لِلَّهِ ، مَا يَعْتَقِدُ الرَّجُلُ أَنَّ عَلَى ظَهْرِهَا مَجْنُونًا غَيْرَهُ وَغَيْرِي ،
وَكَأَنَّمَا أَلَمَ بِذَلِكَ فَقَالَ : لَسْتُ مَجْنُونًا ؛ وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي الْيِمَارِ سَتَانِ . . .
قُلْتُ : أَهْوَا الْيِمَارِ سَتَانِ الَّذِي يُسَمَّى مُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ ؟

قَالَ : لَا ؛ إِنَّ هَذَا الَّذِي تُسَمِّيه أَنْتَ ، { هُوَ } هُوَ مُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ ؛ أَمَّا الَّذِي
سَمَّيْتُهُ أَنَا فَهُوَ مُسْتَشْفَى فَقَطْ . . .

وَذَكَرْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّ مِنَ الْمَجَانِينِ قَوْمًا طُرَفَاءَ يَدْخُلُهُمُ الْفَسَادُ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ فِكْرَةٍ
مُلَازِمَةٍ لَا تَبْرَحُ ، فَلَا يَكُونُ جُنُونُهُمْ جُنُونًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَسَائِرُ أَحْوَالِهِمْ كَأَحْوَالِ
الْعُقَلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ طَيَّاشُونَ مُتَقَلِّبُونَ ، إِذَا أَرَادَهُمْ أَحَدُهُمْ لَمْ يُطْفِئْهُ النَّاسُ مِنْ زَهْوِهِ
وَكِبْرِيَائِهِ وَتَنْطَعِهِ ، كَأَنَّهُ وَاحِدُ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَكَأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَسْرَارًا ؛ وَيَظُنُّ
عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ أَعْقَلَ النَّاسِ فِي أَزْفَى طَبَقَاتِ عَقْلِهِ ، وَمَا جُنُونُهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَحْدَهَا .

وَمِثْلُ هَذَا لَا بُدَّ لَهُ مِمَّنْ يَسْتَجِيبُ لِهَدْيَانِهِ كَيْمَا يُحْرَكَ فِيهِ خِفَّتُهُ وَطِينَتُهُ وَزَهْوُهُ ،
وَلِيَكُونَ عِنْدَهُ الشَّاهِدَ عَلَى هَذَا الوجودِ الْخَيَالِيِّ الْمُبْدَعِ الَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي عَقْلِهِ

الْمُخْتَلِّ . فَإِذَا هُوَ ظَفَرَ بِمَنْ يُحَاسِنُهُ ، أَوْ يُصَانِعُهُ ، أَوْ يُجَارِيهِ ، حَسِبَهُ مُذْعِنًا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا ، فَلَا يَدْعُهُ مِنْ بَعْدِهَا وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ ، وَيَرَاهُ كَأَنَّهُ فِي مُلْكِهِ . . . فَيَتَّخِذُهُ صَفِيًّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ رَقِيقٌ ؛ وَقَدْ يَزْعُمُهُ أَسْتَاذُهُ لِيُفْهِمَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحِسَابِ عَقْلِهِ . . . أَنَّهُ تَلْمِيزُهُ .

وَحَسِبْتُ أَنْ يَكُونَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) لَمْ يُسَمِّنِي أَسْتَاذَهُ إِلَّا بِحِسَابِ مَنْ هَذَا الْحِسَابِ ، فَهُوَ سَيُعْطِي الْأَسْتَاذِيَّةَ حَقَّهَا ، وَلَكِنْ كَمَا هُوَ حَقُّهَا فِي لُغَةِ جُؤْنِهِ . . . فَأَصْبَحُ فِي رَأْيِهِ تَلْمِيزُهُ وَصَنِيعَتُهُ ، وَمُحَدَّثَ هَذَيَانِهِ ، وَنَفْتَهُ وَمَلْجَأَهُ ، وَالْمُحَامِيَّ مِنْ وَرَائِهِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا أَنَا تَرَكْتُهُ جَالِسًا كَانَ هَذَا الْمَجْلِسُ مَثَابَتَهُ مِنْ بَعْدُ ، فَلَا يَعْرِفُ لَهُ مَحَلًّا غَيْرَهُ ، وَيُصْبِحُ كَمَا يُقَالُ فِي تَغْيِيرِ الْقَانُونِ « مَحَلُّهُ الْمُخْتَارَ » ، فَيَتَطَرَّأُ إِلَيَّ لِسَبَبٍ وَلِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَيَقْعُ فِي أَوْقَاتِي وَفُوقَ السَّهْوِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ ، وَيَضِيْعُ فِيهِ مَا يَضِيْعُ . فَأَجْمَعْتُ أَنْ أَصْرِفَهُ رَاضِيًا بِالْيَأْسِ ؛ وَقَدْ أَنْتَهَتْ نَفْسُهُ مِنْ مَعْرِفَتِي ، وَأَنْتَهَى عَقْلُهُ إِلَى الرَّأْيِ أَنِّي لَا أَصْلَحُ لَهُ أَسْتَاذًا ، لَا بِحِسَابِهِ هُوَ وَلَا بِحِسَابِ النَّاسِ .

فَقُلْتُ لَهُ : ظَنَنْتُ بِكَ أَنَّكَ أَسْتَاذُ نَفْسِكَ ، وَلَا يَخْسُنُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَسْتَاذٌ ؛ وَأَرَاكَ قَدْ فَرَعْتَ لِلْأَدَبِ ، أَمَا أَنَا فَمَشْغُولٌ بِأَعْمَالٍ وَظِيفَتِي ، وَقَدْ جَاءَ مِنَ الْعَمَلِ مَا تَرَاهُ ، وَتَكَادُ لَا تَبْقَى بِهِ السَّاعَاتُ الْبَاقِيَّةُ مِنَ الْوَقْتِ وَ . . .

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : إِنَّ الْوَقْتَ لَيْسَ فِي السَّاعَةِ ؛ وَالذَّلِيلُ أَنِّي أُعْطِلُهَا فَيَتَعَطَّلُ الْوَقْتُ ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا يَوْمٌ وَلَا سَاعَةٌ وَلَا ثَانِيَةٌ وَلَا دَقِيقَةٌ .

فَقُلْتُ : وَلَكِنَّكَ إِذَا عَطَلْتَهَا لَمْ تَتَعَطَّلِ الشَّمْسُ الَّتِي تُعَيِّنُ مَنَازِلَ النَّهَارِ ، فَسَيَمُرُّ الظُّهْرُ وَيَجِينُ الْعَصْرُ وَ . . .

قَالَ : وَيَأْتِي غَدٌ ، وَإِنَّمَا أَنَا مَعَكَ الْيَوْمَ فَقَطْ . . . وَيَجِبُ أَنْ تَغْتَبِطَ بِأَنَّكَ أَسْتَاذُ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَقَدْ قَرَأْتُ الْكَثِيرَ فِي الْأَدَبِ وَقَرَأْتُكَ ، فَمَا كَانَ لِي رَأْيٌ إِلَّا رَأْيَتُهُ لَكَ . . . وَلَا صَحَّتْ عِنْدِي نَظَرِيَّةٌ إِلَّا رَأَيْتُكَ قَدْ أَبْدَيْتَهَا ، وَأَنَا لَا أَعْتَقِدُ أَدَبًا فِي مَضَرٍ إِلَّا مَا تَوَافَيْتَا عَلَيْهِ مَعًا « وَلَا أَسْلَمُ جَدًّا ، وَلَا جَدًّا أَسْلَمَ أَنْ فِي مَضَرٍ أَدْبَاءَ يَتَاَلَوْنَ مِنِّي شَيْئًا ،

فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ^(١) ، وَلَئِنْ لَمْ يَدْعُوا (لِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) فَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّهُمْ « وَقَعُوا مِنِّي مَوْقِعَ نَمْلَةٍ عَلَى صَخْرَةٍ ... هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُرِيدُ « سَكَاتِرَ » وَلَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُهَا » ...

فَتَهَلَّلْتُ وَاسْتَبَشَرْتُ ، وَقُلْتُ لَهُ : هَذَا قِرْشٌ فَهَلِّمْ فَأَشْتَرِ بِهِ دَخَائِلَكَ ، وَفِي رِعَايَةِ اللَّهِ . ثُمَّ اسْتَوَيْتُ لِلْفَيْتَامِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ ؛ بَلْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ ...

* * *

وَكَرِهْتُ أَنْ أَعْيِرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ : إِنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » فَتَى قَوِيٍّ الْإِرَادَةِ ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَضْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ ... وَإِذَا لَمْ يَبْثُثْ لَكَ هَذَا الْأَمْرُ عَنْ مُعَايِنَةٍ ... فَمَا أَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ غَرَسْتُ الرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ أَقْتِلَاعَهُ ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ مِنْ عُقْلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أَحْيَانًا فَتُلْهِمُهُمْ آيَاتٍ مِنَ الذِّكَاءِ لَا يَتَفَقُّ مِثْلُهَا إِلَّا لِنَوَابِغِ الْمَنْطِقِ ؛ وَذَكَرْتُ (بُهْلُولَ) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ أَبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَيْصَصًا^(٢) فَقَالَ لَهُ : أَطْعِمْنِي . قَالَ : لَيْسَ هُوَ لِي ، إِنَّمَا هُوَ لِعَانِكَةَ بِنْتِ الْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِأَكْلِهِ لَهَا ...

وَقَالُوا : إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبَرَازِينِ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ ، فَظَنَرَ فِيهِ وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَنَا أَعْلَمُ .

فَقَالُوا : هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُمْ بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ ، فَأَلْطَفُوا بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ . ثُمَّ قَالُوا : أَخْبِرْنَا . قَالَ : أَنَا جَانِعٌ . فَجَاوَزَهُ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحُلْوَاءَ ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَظَنَرَ فِي النَّقْبِ وَقَالَ : هَذَا عَمَلُ الْلُصُوصِ ...

وَكَانَتْ مَجَلَّةُ (الرِّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ : إِنَّهُ

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ هُوَ كَلَامُهُ بِتَضَمُّنِهِ كَمَا نَبَّهْنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَالْبَاقِي تَرْجَمَتَاهُ نَحْنُ عَنْ مَعَانِيهِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي فِي هَذِهِ سَبِيلُهُ .

(٢) طَعَامٌ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُ مِنَ التَّمْرِ وَالسَّمْنِ .

يَقْرَأُ كُلُّ مَقَالَتَيْنِ ، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا . قُلْتُ : فَمَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْهَا ؟ قَالَ : (مَقَالَةُ السَّيِّمَةِ) ...

فَقُلْتُ : مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السَّيِّمَةِ ؟ قَالَ : أَمْسٍ .

قُلْتُ : فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالًا عَنِ السَّيِّمَةِ ، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسٍ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلْمًا فِي مَقَالَةٍ .

فَاعْجَبُهُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ : بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَأَقْرَأُ مَقَالَاتِكَ فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا ...

قُلْتُ : إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ عَنْ نَفْسِكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَهَذَا يَخْصُرُ نُبُوغَكَ فِي قَرْنٍ بَعَيْنِهِ ؛ فَلَوْ قَطَعْتَ الْكَلِمَةَ وَقُلْتَ : (نَابِغَةُ الْقَرْنِ) ، لَصَحَّ أَنْ تَكُونَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ ، وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا .

فَرَأَيْتُ بِهِ شِدْهَةً كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي جُؤُنُوهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ : لَا . لَا ؛ وَإِنَّ هَا هُنَا مَوْضِعَ نَظَرٍ ، فَلَوْ رَضِيتُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ فَقَطْ ، لَجَاءَ مَنْ يَقُولُ : إِنِّي نَابِغَةُ قَرْنٍ خُرُوفٍ ...

* * *

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : حَمَاءَةٌ مَدَّتْ بِمَاءٍ^(١) ، وَإِنَّ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ لَا تَنْفَكُ تَعْرِوُ هَذَا الْمُسْكِينَ مَا وَجَدَ مِنْ يُكَلِّمُهُ ؛ وَالْأَفْكَارُ فِي ذَهْنِهِ مُجْتَمِعَةٌ مُخْتَلِطَةٌ مُسْتَرْسِلَةٌ كَأَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنْ الْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا ، فَلَأَسْكُتَ عَنْهُ وَلَا تَسَاغَلَ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ .

وَسَكُتٌ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَغْتَرِيهِ ، وَكَأَنَّ الشُّكُوتَ قَدْ سَلَطَ أَفْكَارُهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصْنِيعَ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصْنِيعُ غُلَمَانُ الطَّرِيقِ بِالْمَجْنُونِ ، لَا يَرَالُونَ بِهِ حَتَّى يُخْرِدُوهُ وَيُقْفِدُوهُ الْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا . فَعَضِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) وَنَقَلَهُ الْغَضَبُ إِلَى حَالَةٍ زَمَهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ^(٢) ، وَكَلَعَ وَجْهُهُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ يَتَوَرَّ بِهَ الْجُنُونُ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّلْتُ بِسُؤَالِهِ : أَلَمْ يَنْبَغْ فِيهِمْ نَابِغَةٌ ... ؟

(١) هَذَا مَثَلٌ فِي مَعْنَى : رَادَ الطَّيْنِ بِلَّةً ، وَالْحَمَاءَةُ إِذَا مَدَّهَا بِالْمَاءِ زَادَتْ وَأَتَسَمَتْ .

(٢) أَيْ : لَمَعَتْ غَضَبًا .

قَالَ : إِنَّ لَهُ أَخَا يُعَذِّبُهُ ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَيُعَلِّلُهُ بِالسَّلَاسِلِ ، وَيَشُدُّهُ « بِأَمْرَاسٍ كَثَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ »^(١) ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ .

قُلْتُ : فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ ، وَيَخْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْوِيَ إِلَى مَكَانٍ تَتَمَدَّدُ فِيهِ .

قَالَ : إِنِّي مُنْصَرِفٌ وَسَاجِلِسٌ فِي نَدْيٍ كَذَا^(٢) « هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْقَهْوَةِ » .

قُلْتُ : فَهَذَا قَرُوشٌ تَدْفَعُهُ مِمَّا لَهَا ، فَأَذْهَبَ فَاسْتَمْنَعَ بِهَا وَبِالْتَذَخِينِ وَبِالزَّاحَةِ فِي ذَلِكَ الْوَدْيِ ، فَالْمَكَانُ هَا هُنَا كَثِيرُ الضَّجِيجِ وَالْحَرَكَةِ . وَاسْتَوْفَرْتُ لِلْقِيَامِ ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَلَّحَلْ مِنْ مَجْلِسِهِ .

* * *

ثُمَّ قَالَ : أَرَأَيْكَ الْآنَ مُسْتَبْصِرًا أَنِّي (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) بَعِينُهُ .

قُلْتُ : بَلْ بَعِينُهُ الْيُمْنَى وَالْيُسْرَى مَعًا . . .

قَالَ : لَا . لَا ؛ إِنَّكَ نَسِيتَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِي التَّوَكِيدِ : عَيْنُهُ وَنَفْسُهُ وَذَاتُهُ . « أَيْ أَنَا نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ بَعِينُهُ وَنَفْسِهِ وَذَاتِهِ ، فَلَيْسَ غَيْرِي نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ » .

وَكَادَتْ نَفْسِي تَخْرُجُ غَيْظًا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْحِلْمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى الصَّدَقَةِ ؛ وَقُلْتُ : إِنَّ أَدْبَاءَ الْمَجَانِينِ كَثِيرًا مَا يَتَفَوُّ لَهُمُ الْإِبْدَاعُ الطَّرِيفُ إِذَا عَلَلُّوا شَيْئًا ، كَذَلِكَ الْقَاصُّ الَّذِي كَانَ يَقْصُصُ عَلَى الْعَامَّةِ سِيرَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنَّ الذَّنْبَ الَّذِي أَكَلَ يُوسُفَ كَانَ أَسْمُهُ كَذَا ؛ فَرَدُّوا عَلَيْهِ : إِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَأْكُلْ الذَّنْبَ . قَالَ : فَهَذَا هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ .

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : فَمَا الْعِلَّةُ عِنْدَكَ فِي أَنْ الْعَرَبَ لَمْ يَقُولُوا فِي التَّوَكِيدِ : عَيْنُهُ وَذَاتُهُ وَأَنَّهُ وَفَمُهُ وَبَدُّهُ وَرِجْلُهُ ؟

(١) هَذَا عَجَزُ بَيْتٍ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ . بِسَامِ .

(٢) نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ « الْوَدْيَ » لِمَكَانِ الْقَهْوَةِ .

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الْفَضَاءِ ثُمَّ قَالَ : لَيْسُوا مَجَانِينَ فَيَخْلِطُوا هَذَا الْخَلْطَ ، وَإِلَّا وَجِبَ أَنْ يَقُولُوا مَعَ ذَلِكَ : وَعِمَامَتُهُ وَنُوبُهُ وَنَعْلُهُ وَبِعِيرُهُ وَشَاتُهُ وَدَرَاهِمُهُ . « هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ أَجْرَةُ السَّيَّارَةِ إِلَى بَلَدِي وَهِيَ قِرْشَانِ » .

قُلْتُ : هَلْ هِيَ أَجْرَةُ السَّيَّارَةِ وَصَحْبِكَ السَّلَامَةُ ؛ وَنَهَضْتُ وَاقِفًا ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكَ .

* * *

ثُمَّ قَالَ : إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ بَعْدُ « أَنِّي أَقُولُ الشَّعْرَ فِي الْغَزَلِ وَاللَّسِيبِ وَالْمَذْحِ وَالْهَجَاءِ وَالْفَخْرِ ؛ وَأَنِّي فِي الْخَطَابَةِ قِسُّ بْنُ سَاعِدَةَ أَوْ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي ، وَأَنِّي صَخْرٌ لَا يَنْفَجِرُ ... يَابِسٌ لَا يَنْعَصِرُ ، لَسْتُ كَالْحَجَّاجِ بَلْ كَعُمَرَ » .

قُلْتُ : هَذَا شَيْءٌ يَطُولُ بَيْنَنَا وَلَا حَاجَةَ لَكَ بِهِذِهِ الْبَرَاهِينِ كُلِّهَا ، فَقَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ نَابِعَةٌ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَالْخَطَابَةِ وَالتَّرْسُلِ .

قَالَ : وَالْفَلَسَفَةِ ؟

قُلْتُ : وَالْفَلَسَفَةِ وَكُلِّ مَقُولٍ وَمَنْقُولٍ ؛ وَقَدْ أَنْتَهَيْتَا عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ : وَلَكِنَّكَ تَحْسِبُنِي مَجْنُونًا أَوْ مَمْرُورًا « كَمَا حَسِبَنِي الْجَرَائِدُ الَّتِي رَعِمَتْ أَنْ أَخْتِفَانِي فِي الْيَمَارِسْتَانِ كَانَ لِجُنُونِي الْفِكْرِيِّ أَوْ لِدَكَائِي الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْأَصَحُّ ... قَبِيلٌ لِهَذِهِ الْجَرَائِدِ أَنِّي خَرَجْتُ ، وَأَنِّي سَاطِعُ الْأَدَبِ بِطَائِعِ جَدِيدِ » .

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَسْتُ مُرَاسِلَ جَرَائِدِ . قَالَ : « فَأَجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلَهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسِلُهُ ، وَمَا جِئْتُكَ إِلَّا لِهَذَا ؛ وَجِبَ أَنْ تُلْحِقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَهَذِهِ الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلُّهَا ، وَقَدْ تَنَاوَلْتَنِي مِنْ جَمِيعِ التَّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ ؛ فَضَلَّ عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ قَدْ ، وَخَطِيبٌ قَدْ ، وَشَاعِرٌ قَدْ ؛ وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، فَهَلْ أَعُوذُ عَلَيْكَ فِي صِلَتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا ؟ » .

قُلْتُ : إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ ، وَقَدْ بَلَّوْهُمْ وَبَلَّوْا مِنْكَ ؛ فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْ عِنْدَهُمْ .

قَالَ : « إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بَاسِي ، وَقَدْ حَسِبُونِي مَجْنُونًا اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ الشَّعْرِ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَانِي ، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَاكَ ... هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَرُ الْغَدَاءِ ، وَلَا أَكْلُكَ شَيْئًا ... »

قُلْتُ : فَهَذَا قِرْشٌ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ . وَهُمْ الْآنَ يَتَغَدَّوْنَ وَيُوشِكُ إِذَا أَبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَنْقَدُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقِرْشَ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قِرْشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَعَسَلُوا الْآيَةَ . فَلَأُبْقِ هَذَا لِلْعِشَاءِ وَسَأَطْوِي إِلَى اللَّيْلِ ...

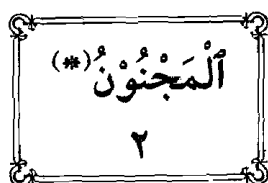
قُلْتُ : فَمَعَكَ الْآنَ ثَمَنُ الدُّخَانِ ، وَالْقَهْوَةِ ، وَالْغَدَاءِ ، وَأَجْرَةُ السَّيَّارَةِ إِلَى بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الثَّالِثِ لِلْهَجْرَةِ وَأَسْمُهُ (طَافُ الْبَصْلِ)^(١) يُغْنِي بِقِيَرَاتٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَانِي . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخُذْ هَذَا الْقِرْشَ ثَمَنًا لِسُكُوتِكَ وَأَنْصَرِفْ .

* * *

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَبًا ، وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعَدَاءُ الطَّوِيلَةَ ... وَفَتَحَتْ الْكَافِذَةَ وَاسْتَقْبَلَتْ الْهَوَاءَ النَّقِيَّ وَأَخَذَتْ فِي رِيَاضَةِ التَّنَفُّسِ الْعَمِيقِ ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْبَابِ ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) مُقْبِلَةٌ مَعَ نَابِغَةِ قُرْنٍ آخَرَ

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وَرَأَيْتُ الْمَجْنُونَيْنِ يَدْخُلَانِ مَعًا ، فَكَأَنَّمَا سَدَّ الْبَابَ وَسَوَّيَاهُ بِالْبِنَاءِ ، وَتَرَكَ الْغُرْفَةَ حَائِطًا مُضْمَتًا لَا بَابَ فِيهِ ، مِمَّا أَعْتَزَّانِي مِنَ الضُّيقِ وَالْحَرَجِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّهُ لَا مَذْهَبَ لِلْعَقْلِ بَيْنَ هَٰذَيْنِ إِلَّا أَنْ يُعَيَّنَ كِلَاهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ ، فَأَرَى أَنْ أَدْعُهُمَا وَأَكُونُ أَنَا

(١) هَذَا مَجْنُونٌ مِنْ مَجَانِينِ الْكُوفَةِ فِي الْقُرْنِ الثَّالِثِ .

(*) « الرِّسَالَةُ » الْعِدَدُ : ١٢٦ ، ٦ شَهْرَ رَمَضَانَ سَنَةِ ١٣٥٤ هـ = ٢ دَيْسَمْبَرِ / كَانُونِ الْأَوَّلِ ١٩٣٥ م ،

السَّنَةِ الثَّالِثَةِ ، الصَّفَحَاتُ : ١٩٢٥ - ١٩٢٨ .

أَصْرَفُهُمَا ؛ وَيَا رَبِّمَا جَاءَ مِنَ النَّوَادِرِ فِي اجْتِمَاعِ مَجْنُونَيْنِ مَا لَا يَأْتِي مِثْلُهُ مِنْ عَقْلَيْنِ
يَجْتَمِعَانِ عَلَى ابْتِكَارِهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَجْنُونُ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ لَا أَمْنُ أَنْ يَتَّبِ
أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ إِذَا خَطَرْتُ بِهِ الْخَطَرَةَ مِنْ شَيْطَانِهِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ظَهِيرٌ عَلَيْهِمَا ، إِنْ
لَمْ يَحِمْ بِهِ الْعَوْنُ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَطُولَ بِهِ الصَّبْرُ . . . وَكَانَ إِلَيَّ قَرِيبٌ مِنِّي الصَّدِيقُ
(١) فَارْسَلْتُ فِي طَلَبِهِ .

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَ بِهِ (تَابِعَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) فَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ
كَالْكِتَابِ الَّذِي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيبُهَا ، وَانْقَلَبَ بِذَلِكَ
الْعِلْمُ الَّذِي كَانَ فِيهَا جَهْلًا وَتَخْلِيطًا ، يَتَّبِ الْكَلَامُ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ غَرِيبَةٍ لَا صِلَةَ
لَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا .

وَهُوَ طَالِبٌ أَزْهَرِي كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يَصِيرَ حَافِظًا كَالْحَفَاطِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الرُّوَاةِ
وَالْفُقَهَاءِ ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمَتْنًا بَعْدَ مَتْنٍ ؛ وَكَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ، فَكُلُّ
مَا أُفْرِغَ فِيهَا مِنْ دَرَسٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ خَبَرٍ ، نَزَلَ مِنْهَا كَالْتَقَرِّ عَلَى آلَةٍ كَاتِبَةٍ ، فَيَنْطَبِعُ فِي ذَهْنِهِ
أَنْطَبَاعُ الْكِتَابَةِ : لَا تُمَحَى وَلَا تُنْسَى .

ثُمَّ أَلْتَأَتِ هَذِهِ اللَّوْنَةُ وَهُوَ يَحْفَظُ مَتْنًا فِي فَهْمِ الشَّافِعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، فَغَبَرَ سِنِينَ
يَتَحَفَّظُهُ ، كُلَّمَا أَنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ ؛ فَيَعُودُ فِي حِفْظِهِ وَرَبِّمَا أَتَبَتْ مِنْهُ الشَّيْءَ بَعْدَ
الشَّيْءِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا بَلَغَ الْآخِرَ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ الْأَوَّلَ ؛ فَلَا يَزَالُ هَذَا دَأْبُهُ لَا يَمَلُّ وَلَا يَجِدُ
لِهَذَا الْعَنَاءِ مَعْنًى ، وَلَا يَزَالُ مُقْبِلًا عَلَى الْكِتَابِ يَجْمَعُهُ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ الْكِتَابُ يَبْدُدُ فِي
ذَاكِرَتِهِ .

وَتَرَكَ الْمَعْهَدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَتَخَلَّى فِي دَارِهِ لِلْحِفْظِ ، وَأَجْمَعَ أَلَا يَدَعُ هَذَا أَلَمَتْنِ أَوْ
يَحْفَظُهُ ، كَأَنَّ فِيهِ الْمَوْضِعَ الَّذِي فَارَقَهُ عَقْلُهُ عِنْدَهُ ، وَبِذَلِكَ رَجَعَ الْمُسْكِينُ آلَةَ حِفْظٍ لَيْسَ
لَهَا مِسَاكٌ ؛ وَأَصْبَحَ كَالَّذِي يَرْفَعُ الْمَاءَ مِنَ الْبَحْرِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي الْبَحْرِ ، لِيُنْزَحَ الْبَحْرُ . . .

* * *

وَجَاءَ (١. ش) ، فَقُلْتُ لَهُ ، وَأَوَمَاتُ إِلَى الْمَجْنُونِ الْأَوَّلِ : هَذَا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

قَالَ : وَهَلِ انْتَهَى الْقَرْنُ الْعِشْرُونَ فَيَعْرِفُ مَنْ نَابِغَتُهُ ؟
فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ : أَجِبْنِي أَنْتَ .

فَسَأَلَهُ : وَهَلِ بَدَأَ الْقَرْنُ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرُونَ ؟
قَالَ : لَا .

قَالَ : فَإِنَّ هَذَا الَّذِي إِلَى جَانِبِي نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ ... فَكَمَا جَارَ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَبْدَأْ ، جَارَ أَنْ أَكُونَ أَنَا نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَنْتَهَ .
قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ زِدْتَ الْمُسْكِكَةَ تَعْقِيدًا مِنْ حَيْثُ تَوَهَّمْتَ حَلَّهَا ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَكَ فِي آنِ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ خَمْسُ وَسِتُّونَ سَنَةً ؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الْفَضَاءِ ، وَهُوَ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا عَسِيرًا نَظَرَ إِلَى الْأَلَا شَيْءٍ ... ثُمَّ قَالَ :
هَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَنْتَبِهُ إِلَّا عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ ... وَكَيْفَ لَا يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَمْسُ وَسِتُّونَ سَنَةً وَأَنَا أَتَقَدَّمُهُ فِي التَّبُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً ... ؟
قُلْتُ لِلْآخِرِ : أَكْذَلِكَ ؟

قَالَ : مِمَّا حَفِظْتَاهُ عَنِ الْحَسَنِ : أَذْرَكُنَا قَوْمًا لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقُلْتُمْ : مَجَانِينُ . وَلَوْ أَذْرَكُوكُمْ لَقَالُوا : شَيَاطِينُ ...
فَصَحَحَ الْأَوَّلُ وَقَالَ : إِنَّهُ تِلْمِيزِي .

قَالَ الثَّانِي : لَقَدْ صَدَقَ فَهُوَ أَسْتَاذِي ، وَلَكِنَّهُ حِينَ يَنْسَى لَا يُذَكِّرُهُ غَيْرِي ...
قُلْتُ : لَا غَرْو ؛ « فِيمَا حَفِظْتَاهُ » عَنِ الزُّهْرِيِّ : إِذَا أَنْكَرْتَ عَقْلَكَ فَأَقْدَحْهُ بِعَاقِلٍ ...

فَعَضِبَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَقَالَ : وَيْحَ لِهَذَا الْجَاهِلِ ، الْأَحْمَقِ ، الْجَاحِدِ لِلْفَضْلِ ، مَعَ جُنُونِهِ وَخَبَلِهِ . أَيَذْكُرْنِي وَهُوَ مُنْذُ كَذَا وَكَذَاسَنَةً يَحْفَظُ مَنَّا وَاحِدًا لَا يُمَسِّكُهُ

عَقْلُهُ إِلَّا كَمَا يُنْسِكُ الْمَاءَ الْعَرَابِيُّ ؟ صَدَقَ وَاللَّهِ مَنْ قَالَ : عَدُوُّ عَاقِلٍ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ .
فَقَالَ الثَّانِي : خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ ، هَآنَذَا قَدْ ذَكَرْتُكَ مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَآنَذَا
رَأَيْتَ .

فَصَحَحَ الثَّابِتُ وَقَالَ : وَلَكِنِّي لَمْ أَرِدْ أَنْ أَقُولَ هَذَا ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أُوَلِّفَ كَلَامًا
آخَرَ عَدُوُّ عَاقِلٍ خَيْرٌ ، خَيْرٌ ، خَيْرٌ ؛ خَيْرٌ مِنْ مَجْنُونٍ جَاهِلٍ

* * *

وَرَأَيْتُ أَنْ فِي اتِّقَاءِ مَجْنُونَيْنِ شَيْئًا طَرِيفًا غَيْرَ جُنُونِهِمَا ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ الْمَجْنُونِ
الْوَاحِدَ هُوَ الْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا الْاِثْنَانِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَجْنَمَاعِهِمَا وَتَحَاوِرِهِمَا فَنُ ظَرِيفٌ مِنْ
الْتَمَثِيلِ ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا ، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا
قِصَّتَهُمَا الْعَقْلِيَّةَ

وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) مِنَ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَهُمْ أُذُنٌ فِي غَيْرِ الْأُذُنِ ،
وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ ، وَأَنْفٌ بِغَيْرِ الْأَنْفِ ؛ إِذْ تَتَلَقَّى أَدْمَعَتُهُمْ أَصْوَاتًا وَأَشْبَاهًا وَرَوَائِحَ مِنْ
ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ الْوُجُودِ ، وَتَذَرِكُهَا بِالتَّوَهُّمِ لَا بِالْحَاسَةِ ، فَتَخْلُقُ هَوَاجِسَهُمْ خَلْقًا بَعْدَ
خَلْقٍ ، وَتَخْطُرُ الْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاعِهِ أَوْ
يَمْسِي أَوْ يَلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِنُهُ أَوْ يَفْعَلُ أَعْمَالًا أُخْرَى .

وَبَيْنَا أَنَا أُدِيرُ الرَّأْيَ فِي إِخْرَاجِ فَضْلِ تَمَثِيلِيٍّ مِنَ الْحِوَارِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ ^(١) ، إِذْ
قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : صَه ! إِنَّ جَرَسَ « التَّلْفُونِ » يَدُقُّ .
قَالَ (ا . ش) : لَا أَسْمَعُ صَوْتًا ، وَلَيْسَ هَلُمَّا « تَلْفُونٌ » .

فَاغْتَاظَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ : إِنَّكَ تَتَقَحَّمُ عَلَى التَّوَابِغِ وَلَسْتَ مِنْ قَدَرِهِمْ ، وَمَا
عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ ؛ وَالْإِنْكَارُ ، وَبِلَكَ ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ الْمَجَانِينِ ،
وَالْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ بُبُوغَهُ أَنْفًا ، وَأَرَاكَ الْآنَ تُنْكِرُ « تَلْفُونَهُ » . . .

(١) سَيَأْتِي هَذَا الْفَضْلُ التَّمَثِيلِيُّ فِي مَقَالٍ آخَرَ .

قَالَ (١ . ش) : وَآيِنَ « التَّلْفُونُ Telephone » ^(١) وَهَذِهِ هِيَ الْعُرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا ؟

فَصَحِّحَكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) وَقَالَ : صَهْ وَيْحَكَ ! لَقَدْ خَلَطْتُ عَلَيَّ ؛ إِنْ أَلْجَسَ يَدُكَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَكَلِّمَهَا حَتَّى يَطُولَ انْتِظَارُهَا ، وَحَتَّى تَدُقَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الثَّالِثَةَ وَذَهَبَ رَنْبُهَا فِي صَوْتِكَ وَلَغَطِكَ . . .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : هِيَ صَاحِبَتُهُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ ؛ وَقَدْ أَسْتَهَامَهَا وَتَيْمَمَهَا وَحَبَّرَهَا وَخَبَّلَهَا ، حَتَّى لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُونًا فِي رَأْسِهِ

قَالَ « النَّابِغَةُ » : وَهَذَا التَّلْفُونُ لَا يُسْمِعُنِي صَوْتَهَا فَقَطْ ، بَلْ هُوَ يُنْشِقِي عِطْرَهَا أَيْضًا . وَقَدْ تَكَلَّمُنِي فِيهِ الْمَلَائِكَةُ أَحْيَانًا ، وَأَنَا سَاخِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيُورٌ تُخْشَى سَطَوَاتُهَا عَلَى الْأَلْبَانِيِّ تَغَارُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَلَّمْتَنِي فِي هَذَا التَّلْفُونِ إِحْدَى الْخُورِ الْعَيْنِ

فُلْنَا : أَوْ تَغَارُ مِنْهَا الْخُورُ الْعَيْنِ ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي : بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْخُورَ الْعَيْنَ يَشْتُمُّهَا وَيَلْعَنُهَا ؛ « فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَذَا الْحَدِيثُ : « لَا تُؤْذِي أَمْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ : لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلِكَ اللَّهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا » [الترمذي ، رقم : ١١٧٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٥٩٦] .

قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) : وَيَلْبِي عَلَى الْمَجْنُونِ ! إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَتَّى هَلَاكِي وَأَنْتِقَالِي وَشَيْكََا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا . وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِينِي ، وَلَوْ هِيَ آذَنِي لَغَضِبْتُ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَوْ غَضِبْتُ لَرَفَعْتُ التَّلْفُونُ . صَهْ ! إِنْ أَلْجَسَ يَدُكَ .

* * *

(١) تلفون Telephone : اختيار له عدة أسماء ، منها : الهاتف والمُسَيَّرَة وغيرهما : وكلمة الهاتف هي الراجعة ، في بلاد الشام . بسلام .

قَالَ ا. ش : إِنَّ لِلنَّوَاعِجِ لَشَأْنَا عَجَبًا ، فَفِي مُدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا ، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ ابْنِهِ . فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَتَنَاعُ بِهِ الْأُضْحِيَّةَ فَلَمْ يُعْطِهِ . وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَرُؤْيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ ابْنَهُ ، فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَابٌ إِلَى النُّبُوَّةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْغُلَامَ فِي صَنِيعَةِ الْعِيدِ وَهُمْ يَذْبَحُهُ ، وَلَوْلَا أَنَّ صَرَخَ الْغُلَامِ فَأَذْرَكَهُ النَّاسُ فَاسْتَنْقَذُوهُ . . .

قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهَلَاءِ الْمَجَانِينِ ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حِدَّتِهِ . وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْيَمَارِسْتَانِ فِي حِينٍ كُنْتُ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ اتَّخَمَ فِي ذَبْحِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ . وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَتَقَدَّتْ بِالذَّبْحِ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَخِيًا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبُشٌّ يَذْبَحُهُ . . . وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمُنْطَقِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) .

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونِ الثَّانِي وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي النُّبُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْأَعْلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلُ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ الْآنَ ؟

قَالَ : إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ ، وَقَدْ بَدَأَ لِي أَنَّهُ يَمَعْنِي هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ . فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ : أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً « يَحْفَظُ الْمَتْنَ » لَمَا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ الْعِلْمِ . هَذَا رَجُلٌ نِصْفُهُ مَيِّتٌ جُنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا ، وَنِصْفُهُ الْآخَرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِالْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ .

قَالَ ا. ش : حَسْبُهُ أَنْ يُقَلِّدَكَ تَقْلِيدَ الْعَامِّيِّ لِإِمَامِهِ فِي الصَّلَاةِ ؛ وَعَسَى أَلَّا تَسْتَكْبِرَ عَلَيْهِ هَذَا ، فَإِنَّهُ يَلْمِيزُكَ .

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : لَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لِأَصْغَاءِ مَعَهُ اللَّيْلِ ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لِأَظْلَمَ مَعَهُ النَّهَارُ . . . وَنَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، فَقَدْ

وَقَفْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِالشَّعْرِ ... وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَرْتُهُ وَتَبَّهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ
بِالشَّعْرِ ، أَلْتَقَتِ إِلَيَّ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّيْنِي وَشَتَمَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ : مَا شَأْنُكَ بِي ؟ هَلْ أَنَا
أُصَلِّي لَكَ أَنْتَ ... ؟

فَغَضِبَ « النَّابِغَةُ » وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ تَحْسَبُونَنِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يُقْلِدَنِي هَذَا
الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُمَسِّكُهُ . وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا اعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ
الْمُمْكِنِ ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .
فُلْنَا : هَذَا عَجِيبٌ ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا أَعُدُّكُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ .
قَالَ ا . ش : هَذَا لَمْ يُعْرِفْ مِثْلَهُ فَكَيْفَ نَعْرِفُهُ ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْ أَحَدٌ ، فَكَيْفَ نَتَوَهَّمُهُ ؟
وَقُلْتُ أَنَا : لَعَلَّكَ رَأَيْتَ نَفْسَكَ فِي الرُّؤْيَا ؟

قَالَ : لَوْ لَمْ تَكُنْ أَسَازُ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ لَمَا عَرَفْتُهَا ؛ وَهَذَا نِصْفُ الصَّوَابِ ؛ وَمَا
دُمْتُ أَسَازِي ، فَلَوْ أَنَّنَا اخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ ، وَكَانَ خِلَافِي
لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي ؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطِئٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ ، وَإِذَا اسْقَطْنَا كَلِمَةً (غَيْرَ) أَظَلُّ أَنَا
مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطِئًا ...

أَنَا لَمْ أَرِ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) فِي الرُّؤْيَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمِرَاةِ عِنْدَ الْحَلَّاقِ ...
وَرَأَيْتُهُ يُقْلِدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى فِي الْإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ ، وَلَكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ
وَسَبَّيْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ...

وَأَوْمَأَ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ وَقَالَ : وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي الْبُيُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي
خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً .

قَالَ « ا . ش » : لَقَدْ قُلْتَهَا مَرَّتَيْنِ كِلْتَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَمَا مَعْنَاكَ فِي هَذِهِ الثَّالِثَةِ ؟

قَالَ : هَذَا الْغِرُّ يَزْعُمُ أَنِّي لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُصَلِّي ، وَيَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ بِأَنِّي صَلَّيْتُ بِالشَّعْرِ
وَأَنِّي شَتَمْتُهُ وَأَنَا رَاكِعٌ ؛ وَلَوْ كَانَ عَاقِلًا لَعَلِمَ أَنَّ شَتْمِي إِثْمًا وَأَنَا رَاكِعٌ نَوَابٌ لَهُ ... وَلَوْ كَانَ
نَابِغَةً لَعَلِمَ أَنَّ الشَّعْرَ كَانَ فِي مَدْحِ دَوْلَةِ النَّحَّاسِ بَاشَا وَأُولِي السُّلَى .

قُلْنَا : وَلَكِنْ الشَّعْرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا تَجُوزُ بِهِ الصَّلَاةُ وَلَوْ فِي مَذْحِ دَوْلَةِ النَّحَّاسِ بِأَشَا .
 قَالَ : لَمْ أَصِلْ بِهِ ، وَلَكِنْ خَطَرَ لِي وَأَنَا أَصْلِي أَنِّي نَسِيتُ الْقَصِيدَةَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَحَقَّقَ
 أَنِّي لَمْ أَنْسَهَا ... فَإِذَا أَنَا تَابِعَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ فِي الْحِفْظِ ، وَهِيَ سِتَّةُ آيَاتٍ . لَا كَهَذَا
 الْمَعْتُوهُ الَّذِي صَبَرَ عَلَى الْمَتْنِ صَبَرَ الْغَرِيبِ عَلَى الْغُرْبَةِ الطَّوِيلَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْفَظْهُ .
 قَالَ « ا . ش » : فَأَمَلِ عَلَيْنَا هَذَا الشَّعْرَ .

فَأَمَلِي عَلَيْهِ^(١) [من مجزوء الكامل] .

يَا حَلِيفَ الشَّهَدِ قُلْ لِي
 إِنْ تَكُنْ تَهْوَى غَزَا
 أَنَا أَهْوَاهَا وَلَكِنْ
 مُنْذُ وَلَّتْ قُلْتُ مَهْلًا
 أَنَا مَجْنُونٌ بِلَيْلِي
 قُلْنَا : وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَذْحًا !

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْرِفُوا أَنِّي أَقُولُ فِي الْغَزَلِ ، أَمَا الْمَدِيحُ فَهُوَ [من الكامل] :
 شَغِفَ الْوَرَى بِمَنَاصِبٍ وَأَمَانِي وَشَغِفَتْ يَا نَحَّاسُ بِالْأَوْطَانِ
 حَسِبُوا الْحَيَاةَ تَفَاخُرًا وَتَنَعُّمًا وَحَسِبْتَهُمُ اللَّهُ وَالْأَوْطَانِ
 ثُمَّ أَرْجَعَ عَلَيْهِ فَسَكَتَ . قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : إِنَّهَا سِتَّةُ آيَاتٍ ، وَقَدْ نَسِيتُ أَرْبَعَةً ،
 وَلَكْتُ أُرِيدُ أَنْ أَدَّكَرَكَ .

فَقَالَ (التَّابِعَةُ) : أَطْنُهُ قَدْ حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَأُرِيدُ أَنْ أَصْلِي ... وَنَظَرَ إِلَى الْلَّاشِيءِ
 فِي الْفَضَاءِ ، ثُمَّ قَالَ . وَالْبَيْتُ الْآخِرُ :

لَا أَبْتَغِي فِي الْمَذْحِ غَيْرَ أَوْلِيِ اللَّهِ
 ثُمَّ أَمَرَ ا . ش . أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الشَّعْرَ فَقَرَأَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنْتَ ، أَنْظُرْ إِلَى قَوْيِ .

(١) هَذَا شِعْرُهُ بِمَعْنَى كَمَا أَمْلَاهُ .

(٢) فَسَّرَ (صَادِقٌ) بِأَنَّهُ أَشْتَادُ تَابِعَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ .

فَنَظَرَ ، ثُمَّ قَالَ : أَنْظُرْ إِلَى تَحْتِ . فَنَظَرَ ثُمَّ سَكَتَ .

قَالَ ا . ش : وَبَعْدُ ؟

قَالَ : وَبَعْدُ فَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِمَّا إِلَى فَرْقٍ وَإِمَّا إِلَى تَحْتِ ...

* * *

وَكَانَ الضَّجَرُ قَدْ نَالَ مِنِّي ، فَرَجَوْتُ ا . ش . أَنْ يَلْبَثَ مَعَهُمَا وَأَذِنْتُ لِلنَّابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنْ يَلْقَانِي فِي الدِّيِّ وَأَنْصَرَفْتُ .

قَالَ ا . ش وَهُوَ يَتَبَيَّنُ : فَمَا غِبْتَ عَنَّا حَتَّى أَخَذَ الْمَجْنُونُ يَشْكُو وَيَتَوَجَّعُ وَيَقُولُ : لَقَدْ حَاقَ بِي الظُّلُمُ ، وَإِنَّ (الرَّافِعِيَّ) رَجُلٌ عَسُوفٌ ظَالِمٌ ، لِأَنِّي أَكْتُبُ لَهُ كُلَّ مَقَالَتِهِ الَّتِي يَنْشُرُهَا فِي (الرَّسَالَةِ) ... وَأَجْمَعُ نَفْسِي لَهَا ، وَأَجْهَدُ فِي بَيَانِهَا ، وَأُذِيبُ عَقْلِي فِيهَا ، وَهُوَ مُسْتَرِنِحٌ وَادِعٌ ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَنْتَحِلَهَا وَيَضَعُ تَوْقِيعَهُ عَلَيْهَا ، وَيَبْعَثُ بِهَا إِلَى الْمَجَلَّةِ ، ثُمَّ هُوَ يَقْبِضُ فِيهَا الذَّهَبَ وَيَتَالُ الشُّهُرَةَ ، وَلَا يَدْفَعُ لِي عَنْ كُلِّ مَقَالَةٍ إِلَّا قَرَشَيْنِ^(١) ...

قَالَ « ا . ش » : فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُرْسِلَ أَنْتَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ إِلَى الْمَجَلَّةِ فَتَقْبِضَ فِيهَا الذَّهَبَ ؟

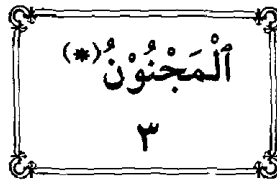
قَالَ : إِنَّ هُنَاكَ أَسْرَارًا أَنَا مُخَصِّصُهَا وَكَاتِمُهَا ، وَلَا يَتَبَيَّنُ أَنْ يَعْلَمَهَا أَحَدٌ فَإِنَّهَا أَسْرَارٌ ... قَالَ لَهُ : فَدَعْ (الرَّافِعِيَّ) وَأَكْتُبْ لِي أَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، وَأَنَا أُعْطِيكَ فِي كُلِّ مَقَالَةٍ دَهْيَيْنِ لَا قَرَشَيْنِ .

قَالَ : هَذِهِ أَسْرَارٌ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا لِلرَّافِعِيِّ ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) لَا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِي كَلَامَهُ إِلَّا أَسْتَاذُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَلَوْ أَدَّعَاهُ غَيْرُهُ لَكَانَ هَذَا حَطًّا مِنْ قَدْرِ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَهَذَا بَعْضُ الْأَسْرَارِ لَا كُلُّ الْأَسْرَارِ ...

قُلْتُ : ثُمَّ جَاءَ الْمَجْنُونَانِ فِي الْعِشِيَّةِ إِلَى الدِّيِّ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) لَا يَزَالُ هَذَا الْمَسْكُونُ مِنْذُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ لَنَا هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، غَيْرَ أَنَّهُ رَفَعَ الْقِيَمَةَ أَخِيرًا ؛ فَجَعَلَهَا عِشْرِينَ قَرَشًا ...



وَكُنَّا فِي اللَّدِّي ثَلَاثَةٌ : أَنَا ، وَ « أ . ش » ^(١) ، وَ « س . ع » ^(٢) ، وَقَدْ هَيَّأْتُ تَدْبِيرًا تَوَافَقْنَا عَلَيْهِ لِتَحْرِيبِكَ هَٰذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ ، وَتَدْوِينِ مَا يَجِيءُ مِنْهُمَا . فَلَمَّا أَقْبَلَا تَحَقَّقْنَا بِهِمَا وَالْطَّفْنَاهُمَا ، وَقُمْنَا ثَلَاثَتَنَا بِسِنِّهِمَا وَإِكْرَامِهِمَا ، حَتَّى حَسَبْنَا أَنَّ فِي كَلِمَةِ « مَجْنُونٍ » مَعْنَى كَلِمَةِ أَمِيرٍ أَوْ أَمِيرَةٍ . . . وَرَأَيْتُ فِي عَيْنِي « نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ » - وَهُوَ أَعْيُنُ أَنْجَلٍ ^(٣) - مَا لَوْ تَرَجَّمْتُهُ لَمَا كَانَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ يُعْتَقَدُ أَنَّ لَهُ نَفْسًا أَنْتَنِي أَغَشَقْتُهَا أَنَا . . . فَكَانَ مُسَدِّدًا فَكِهِ اللَّسَانِ ، تُسْتَلَمَحُ لَهُ الْكَادِرَةُ ، وَتُسْتَظَرَفُ مِنْهُ الْحَرَكَةُ .

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ الْغُرُورُ ، وَاحْتِاجَ الْمَجْنُونُ كَمَا يَحْتَاجُ الْجَمَالُ إِلَى كِبَرِيَائِهِ إِذَا حَاطَتْهُ الْأَعْيُنُ - أَدَارَ بَصَرَهُ فِي الْمَكَانِ ، ثُمَّ قَالَ : أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَصْبِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ هَٰذَا اللَّدِّي فِي ضَوْضَائِهِ وَرِعَاعِهِ وَغَوَايِهِ . إِنْ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا أَخْلَاطٌ وَأَوْشَابٌ وَحُثَالَةٌ . هَٰذَا الْجَالِسُ هُنَاكَ . هَٰذَا الْوَاقِفُ هُنَاكَ . هَٰذَا الْمُسْتَوْفِرُ . هَٰذَا الْمُنْتَقَابِلَانِ . هَٰؤُلَاءِ الْمُتَجَمِّعُونَ . هَٰذَا كُلُّ خَيَالٍ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . مَا هِيَ ؟ مَا هِيَ ؟

هَٰذَا التَّصَائُحُ الْمُنْتَكِرُ . هَٰذَا الضَّرْبُ بِحِجَارَةِ التَّرْدِ . هَٰذِهِ الزَّخْمَةُ الَّتِي أَنْغَمَسْنَا فِيهَا . هَٰذَا الْمَكَانُ الْهَائِجُ مِنْ حَوْلِنَا . هَٰذَا كُلُّ خَيَالٍ حَقِيقَةٍ فِي رَأْسِي . هِيَ ، هِيَ ، هِيَ .

فَأَنْزَعَجَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ ، وَوَقَعَ فِي تَهَاوِيلِ خَيَالِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْنَا تَدْوُرُ عَيْنَاهُ ، وَتَوَجَّسَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ١٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٩ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٩٦٣ - ١٩٦٦ .

(١) هو أمين حافظ شرف . بسام .

(٢) هو سعيّد العُزَيَّان . بسام .

(٣) أي : وَاسِعُ الْعَيْنِ أَنْجَلُهَا ، وَقَدْ مَرَّ وَضَفُهُ فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى .

شَرًّا، ثُمَّ زَاغَ بَصَرُهُ إِلَى الْبَابِ ، وَاسْتَوْفَزَ وَجَمَعَ نَفْسَهُ لِلْفِيَامِ ؛ فَلَمَّا رَأَى صَاحِبَهُ مَا نَزَلَ بِهِ ، فَهَفَهُ وَأَمْعَنَ فِي الضَّحِكِ وَقَالَ : إِنَّمَا خَوْفُهُ الصَّبِيَّانَ وَالضَّرْبَ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ أَنَّهُ مَجْنُونٌ . . .
فَحَرِدَ الْآخَرُ وَاعْتَاطَ وَجَعَلَ يُنَمِّتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

قَالَ « التَّابِغَةُ » : مَا كَلَامُ تَطْنُ بِهٍ طَيْنِ الذُّبَابَةِ أَيُّهَا الْخَبِيثُ ؟

قَالَ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » : أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ الْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا اسْتُنْطِقَ تَجَلَّفَ ، وَإِذَا بَكَى خَارَ ، وَإِذَا ضَحِكَ نَهَقَ . . . كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ السَّاعَةَ ، تَقُولُ : هَاءُ ، هُوَ ، هِيَ . . .
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ « التَّابِغَةِ » ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُنْكَرَةً ، وَهَمَّ أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَجْنُونُ ! لِمَاذَا تَضْطَرُّنِي إِلَى أَنْ أُجِيبَكَ جَوَابَ مَجْنُونٍ . . . لَا نَجُوتُ إِنْ نَجُوتَ مِنِّي !
فَاسْرِعْ « ا . ش » ، وَأَمْسِكْ بِهِ ؛ وَاعْتَرَضَ مِنْ دُونِهِ « س . ع » ، وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ بَدَأْتَهُ وَالْبَادِي أَظْلَمُ .

قَالَ : وَلَكِنْ - وَنَحْه - كَيْفَ قَالَ هَذَا ؟ كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا هَذَا ؟ كَيْفَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا هَذَا يَقُولُهُ ؟ أَنَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ أَحْمَقُ ، وَقَدْ أَرْحَدَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ؟ لَهُمُمْتُ وَاللَّهِ أَنْ أَكْسِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ . . .

* * *

قُلْتُ : إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ حَمَقَةٌ ، فِيهَا يَعِيشُ » . وَالْحَيَاةُ نَفْسُهَا حِمَاقَةٌ مُنْتَظِمَةٌ تَنْظِيمًا عَاقِلًا ؛ وَمَا يُقْبَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ لَدَاتِهَا إِلَّا وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حِمَاقَاتِهِ ؛ وَأَمْنَعُ اللَّذَّةَ مَا طَاشَ فِيهِ الْعَقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ ؛ وَلَوْلَا هَذَا الْحُمَقُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ لَمَا أَحْتَمَلَ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ ؛ أَلَيْسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَكْثَرَكَ غَائِبٌ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْلَكَ حَاضِرٌ فِيهَا ، وَأَنَّ يَقْطَعَكَ الْحَقِيقَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحُلْمِ وَمَا يُشْبِهُ الْحُلْمَ ، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ فِي كَوَكَبٍ وَهَبَطْتَ { مِنْهُ } إِلَى كَوَكَبِنَا هَذَا ، فَمَا فَيْتَكَ لِلْأَرْضِ ^(١) وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا الْقَلِيلُ يَلْتَنِمُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَهُ » بَدَلًا مِنْ : « لِلْأَرْضِ » .

وَأَكْثَرُكُمْ مُتَنَافِرٌ أَوْ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُتَرَاجِعٌ ؟

قَالَ : بَلَى .

قُلْتُ : فَهَذَا الْقَلِيلُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي بِهَا تَعِيشُ ، وَهُوَ أَرْضِيَّةُ الْأَرْضِ فِينِكَ ؛ أَمَّا سَمَاوِيَّةُ السَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ ؛ وَلِهَذَا يَعِيشُ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ عِيشَ الْمَجَانِينِ فِي رَأْيِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الْفَانِيَّةُ ، أَوِ الْمَخْدُوعِينَ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ الظُّوَاهِرُ الْكَاذِبَةُ ؛ فَكُلَّمَا أَتَوْا عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّامِيَةِ انْتَهَى إِلَى الْحَقِيقَةِ مَعَكُوسًا أَوْ مُحَوَّلًا أَوْ مَعْدُولًا بِهِ ؛ وَلَعَلَّ هَذَا أَصَحُّ تَفْسِيرٍ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ » [قال الحافظ العراقي في « تخریج أحاديث الإحياء » : أخرجه البزار . « مجمع الزوائد » ، رقم : ١٣٠٥٠ و ١٧٩١٤ و ١٨٦٧٤] .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ .

فَقَالَ (الثَّابِتُ) : الْمُصِيبَةُ فِينِكَ أَنْتَ هُوَ أَنْتَ ؛ أَلَا فَلْتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ مِنْ بُلَهَاءِ الْبَيْمَارِسْتَانِ لَا مِنْ بُلَهَةِ الْجَنَّةِ . . .

قُلْتُ : ثُمَّ إِنْ أَلَمَّوْتَ لَا بُدَّ آتٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا ، فَيَسْلُبُهُمْ كُلَّ مَا نَالُوهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَيُلْحِقَ مَنْ نَالَ بِمَنْ لَمْ يَنَلْ ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُسَرُّ بِأَنْ يَنَالَ مَا لَا يَبْقَى لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُرُورُهُ مِنْ حِمَاقَتِهِ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَخْزَنُ عَلَى أَنْ يَفُوتَهُ مَا لَا يَبْقَى لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُزْنُهُ حِمَاقَةً أُخْرَى ؟ وَآيُّ شَيْءٍ فِي الْحُبِّ بَعْدَ أَنْ يَنْقُضِيَ الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حِمَاقَةً ضَرَبَتْ فِي الْحَوَاسِّ كُلِّهَا حَتَّى مَلَأَتْ النَّفْسَ ؛ ثُمَّ مَلَأَتْ النَّفْسَ حَتَّى فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ ؛ ثُمَّ فَاضَتْ عَلَى الزَّمَنِ حَتَّى خَبِلَتْ الْعَاشِقُ تَخْبِيلًا لَدَيْدًا تَصْغُرُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ وَتَكْبُرُ ، وَيَجْعَلُ الْوَاقِعَ فِي النَّفْسِ غَيْرَ الْوَاقِعِ فِي دُنْيَاهَا ؟ يُشَبِّهُ كُلَّ عَاشِقٍ حَبِيبَتَهُ بِالْقَمَرِ : فَهَبِ الْقَمَرَ سَمِعَ هَذَا وَفَهِمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يَجِيبَ عَنْهُ ، فَمَاذَا عَسَا يَقُولُ إِلَّا أَنْ يُعْجَبَ مِنْ هَذَا الْحَقِيقِ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ ؟

* * *

فَهَذَا (الثَّابِتُ) وَسَكَنَ غَضَبُهُ وَقَالَ : صَدَقْتُ ، وَلِهَذَا أَنَا لَا أَشَبِّهُ حَبِيبَتِي بِالْقَمَرِ .

قُلْتُ : فِيمَاذَا تُشَبِّهُهَا ؟

قَالَ : لَا أَقُولُ لَكَ حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُهُ أَنْتَ حَبِيبَتِكَ .

قُلْتُ : وَأَنَا كَذَلِكَ لَا أَشَبِّهُهَا بِالْقَمَرِ .

قَالَ : فَبِمَاذَا تُشَبِّهُهَا ؟

قُلْتُ : حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُهُ أَنْتَ . . .

قَالَ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَأَنْتَ أَسْتَأْذِنُ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَاتٍ عَدَدَ كُتَيْبٍ ، وَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْهُمْ تِلْكَ الَّتِي فِي « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ » ، وَأَظُنُّكَ أَخْبَيْتَهَا فِي شَهْرِ مَآيُو/ أَيْارٍ مِنْ سَنَةِ . . . مِنْ سَنَةِ . . .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ : مِنْ سَنَةِ ١٩٣٥ ؛ هَا أَنَا ذَا قَدْ نَبَّهْتُكَ .

قَالَ : يَا وَبِلَكَ ! إِنَّ « أَوْرَاقَ الْوَرْدِ » ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سِنِينَ ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلْهَاءِ الْيِمَارِ سَتَانٍ لَا مِنْ بُلْهٍ أَوْرَاقِ الْوَرْدِ . . . مَاذَا كُنْتَ أَقُولُ ؟

قَالَ « ا . ش » : كُنْتَ تَقُولُ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَاتٍ .

قَالَ : نَعَمْ ، لِأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُمْ بِالْقَمَرِ ، انْتَهَى الْقَمَرُ وَفَرَّغَ التَّشْبِيهُ فَيَظَلُّ الْأُخْرَيَاتُ بِلاَ قَمَرٍ . . . ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ الْقَمَرِ لَا تُعْجِبُنِي ، فَلَوْنَهَا أَذَكَّنْ مُغْبِرٌ^(١) يَضْرِبُ أَحْيَانًا إِلَى السَّوَادِ . . . فَإِذَا عَشِيقُ رَنْجِيَّةٍ فَهَلْهَذَا مَحَلُّ التَّشْبِيهِ بِالْقَمَرِ . . . أَمَّا الْبَيْضُ الرَّعَائِبُ فَتَشْبِيهُهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فَسَادِ الذَّوْقِ .

قَالَ « س . ع » : وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ ؟

قَالَ : لَوْ كُنْتُ نَابِغَةً لَأَبْصَرْتَ فِي دَاخِلِكَ أَخِيْلَةً مِنَ الْجَنَّةِ ؛ أَلَمْ يَقُلْ أَسْتَأْذِنَا إِنَّمَا عَنْ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : إِنَّهُ هَبَطَ مِنْ كَوَكَبٍ إِلَى كَوَكَبٍ ؟ فَفِي كَوَكَبِنَا الْأَوَّلِ يَكُونُ لَنَا سَمْعٌ مُلَوَّنٌ ، وَحِسٌّ مُلَوَّنٌ ؛ نَسْمَعُ قَرَعَ الطَّبْلِ أَزْرَقَ ، وَنَنْفَعُ الْبُوقِ أَحْمَرَ ، وَرَيْنِ النَّعَمِ الْحُلُوَّ أَخْضَرَ^(٢) ، وَالْوُجُودُ كُلُّهُ صَوْرٌ مُلَوَّنٌ ، سَوَاءٌ مِنْهُ مَا يَرَى وَمَا يَحْسُ ، وَمَا هُوَ مُسْتَخْفٍ وَمَا

(١) الْأَكْنَةُ : لَوْنٌ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ .

(٢) هَذَا رَاقِعٌ وَلَيْسَ مِنَ الْخَيَالِ ؛ فَبَعْضُ النَّاسِ يَسْمَعُونَ الْأَصْوَاتَ وَيَحْسُونَ الْأَشْيَاءَ مُلَوَّنَةً ؛ وَعُلَمَاءُ =

هُوَ ظَاهِرٌ .

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخِرِ وَقَالَ : وَأَسْمُ هَذَا الْأَبْلَهِ كَلَفَظِ الْحَبْرِ ، لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسْوَدَ ...

* * *

وَسَكَتَ «الْتَّابِعَةُ» وَسَكَتْنَا ؛ فَقَالَ لَهُ س . ع : مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟

قَالَ : لِأَنِّي أُرِيدُ الشُّكُوتَ .

قَالَ : فَلِمَ أَذًا تُرِيدُ الشُّكُوتَ ؟

قَالَ : لِأَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ ...

وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ الْغَيْظُ مِنَ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ ، فَرَمَى بِعَيْنَيْهِ الْفَضَاءَ يَنْظُرُ اللَّاشْيَاءَ وَقَالَ : إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ النَّسَاءِ ذَوَاتٍ لِحَى أَصْبَحَ هَذَا عَاقِلًا ... فَذَقَ الْآخِرُ بِرِجْلِهِ دَقَاتٍ مَعْدُودَةً ؛ فَتَارَ (الْتَّابِعَةُ) وَقَالَ : مَنْ هَذَا يَشْتُمُّنِي ؟

قَالَ «س . ع» : لَمْ يَشْتُمَكَ أَحَدٌ ، هَذَا خَفَقَ رِجْلَ عَلَى الْأَرْضِ .

قَالَ : بَلْ شَتَمَنِي هَذَا الْخَبِيثُ ، وَسَمِعَنِي لَا يَكْذِبُنِي أَبَدًا ، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُونٌ ، أُسِيءُ الظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ ، وَعَلَامَةُ الْحَازِمِ «الْعَاقِلِ» سُوءُ ظَنِّهِ بِالنَّاسِ . فَهَبَهُ كَمَا قُلْتَ قَدْ خَفَقَ بَنَعْلِهِ ، أَوْ خَبَطَ بِرِجْلِهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَا أَسْمَعُ مَا يَعْنِيهِ . لَقَدْ طَفَحَ الشَّعْرُ عَلَى قَلْبِي فَلَا بُدَّ لِي مِنْ هِجَايِهِ ، وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَذْبَحَهُ وَلَوْ بِالْكَلامِ ، فَإِنِّي إِذَا هَجَوْتُهُ رَأَيْتُ دَمَهُ فِي كَلِمَاتِي ، وَأُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ كَالْعَتَرِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا وَذَبَحْنَاهَا .

ثُمَّ انْتَرَعَ قَلَمَ «س . ع» ، وَقَالَ : هَلِ هِيَ السَّكِينُ . وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ يَا أَسْنَادِي أَنْ تَذْبَحَهُ أَنْتَ بِكَلِمَتَيْنِ وَتَصِفَ لَهُ جُنُونَهُ ، فَقَدْ عَزَبَ عَنِّي الشَّعْرُ . إِنَّ خَفَقَةَ رِجْلٍ عَلَى الْأَرْضِ تَسْتَطِيزُ الْأَرَابَ فَرَعًا ؛ فَيَنْفِزْنَ إِلَى أَجْحَارِهِنَّ وَيَتَهَارَبْنَ ، وَمَا كَانَتْ أَبْيَاتُ الشَّعْرِ

= الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ يَعْرِفُونَ هَذَا وَيَعْلَلُونَهُ بِأَنَّهُ صُورٌ ذَهَبِيَّةٌ قَدْ لِسَهَا مُؤَثَّرٌ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ فَهُوَ يَصْبِغُهَا بِلَوْنِهِ .

فِي ذَهْنِي إِلَّا أَرَانِبَ . . .

أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِينًا ثَبِينًا مِثْلِي ، كَانَ دَقِيقَ الْحِسِّ ؛ وَمَنْ كَانَ فَذَمًا غَبِيًّا مِثْلَ هَذَا ، كَانَ بَلِيدَ الْحِسِّ غَلِيظًا كَثِيفًا ؛ فَإِذَا أَنَا اسْتَشْعَرْتُ الْبَرْدَ رَأَيْتُنِي قَدْ سَافَرْتُ إِلَى الْقُطْبِ السَّمَائِيِّ ؛ أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا اسْتَشْعَرَ بَرْدًا سَافَرَ إِلَى عِبَاءَتِهِ أَوْ لِحَافِهِ . . . إِذْ هُوَ لَا يَعْرِفُ جُغْرَافِيَّةً ، وَلَا يَذَرِي مَا طَحَّاهَا .

قُلْتُ : هَذَا مِنْكَ أَظَرَفُ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي الْحَارِثِ .

قَالَ : وَمَا نَادِرَةُ أَبِي الْحَارِثِ ؟ وَهَلْ هُوَ نَابِغَةٌ ؟

قُلْتُ : جَلَسَ يَتَغَدَّى مَعَ الرَّشِيدِ وَعَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ ، فَأَتَيْ بِخَوَانٍ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ ، فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيْفَهُ قَبْلَهُمَا ، وَالرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ : لَا يَأْكُلُ أَكْلَ الْجَائِعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّسْعِيْتُ مِنْ هُنَا وَهُنَا ؛ فَكَانَ رَغِيْفُهُ لَا يَرَالُ بَاقِيًا ؛ فَصَاحَ أَبُو الْحَارِثِ فَجَاءَهُ : يَا غَلَامُ ! فَرَسِي . فَفَزَعَ الرَّشِيدُ وَقَالَ : وَيْلَكَ مَا لَكَ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَرْكَبَ إِلَى هَذَا الرَّغِيْفِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ . . .

قَالَ (الْثَّابِغَةُ) : وَلَكِنَّ فَرْقًا بَيْنَ أَبِي الْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةِ الْقَزَنِ الْعِشْرِينَ) ، فَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنِّي رُبَّمَا نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَاجِدُ الشَّبَعِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَأْكُلُ بِبَطْنِي لَا بِبَطْنِهِ ، وَلَكِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ هَذَا لَا يَتَّفِقُ لِي أَبَدًا حِينَ أَكُونُ جَائِعًا . . .

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَامَنَا ، فَرُبَّمَا أَبْصَرَ الْحِمَارَ عَلَى ظَهْرِ الْحِمْلِ ، فَيَسْعُرُ كَأَنَّ الْحِمْلَ عَلَى ظَهْرِهِ هُوَ لَا عَلَى ظَهْرِ الْحِمَارِ . . .

قَالَ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » : أَنَّهُ سَرَقَ لِأَعْرَابِيٍّ حِمَارًا ، فَقِيلَ لَهُ : أَسَرَقَ حِمَارَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَأَحْمَدُ اللَّهِ . فَقِيلَ لَهُ : عَلَى مَاذَا تَحْمَدُهُ ؟ قَالَ : عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ حِينَ سَرَقَ . . . فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ حِمَارًا مُثْقَلًا الظَّهْرِ ، حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْحِمْلَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ ، لَا كَمَا يَقُولُ هَذَا . ثُمَّ دَقَّ بِرِجْلِهِ دَقَّاتٍ . . .

فَاسْتَشَاطَ (الْثَّابِغَةُ) وَقَالَ : أَسَمِعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا بَلْ يَقُولُ إِنِّي حِمَارٌ عَلَى ظَهْرِ الْحِمْلِ ؟

قُلْتُ : يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَاَفَا ، وَهَذَا لَا يَعْنِيكَ مِنْهُ وَلَا يَعْنِيهِ مِنْكَ ، فَإِنَّ مِنْ تَوَاضِعِ « النَّوَائِغِ » أَنْ يَشْعُرُوا بِبُؤْسِ الْحَيَوَانِ ، فَإِذَا شَعُرُوا بِبُؤْسِهِ دَخَلَتْهُمْ الرَّقَّةُ لَهُ ، فَإِذَا دَخَلَتْهُمْ الرَّقَّةُ صَارَ خَيَالُ الْحِمْلِ حِمْلًا عَلَى قُلُوبِهِمُ الرِّقِيقَةِ ؛ وَقَدْ يَصْنَعُونَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ : حَكَى الْجَاحِظُ عَنْ ثَمَامَةَ قَالَ : كَانَ (نَابِغَةً) يَأْتِي سَاقِيَةً لَنَا سَحَرًا ؛ فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مَعَ دَابَّتِهَا ذَاهِبًا وَرَاجِعًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ أَيَّامَ الْحَرِّ ، وَفِي الْبَرْدِ أَيَّامَ الْبَرْدِ ، فَإِذَا أَمْسَى تَوَضَّأَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا مِنْ هَذَا أَلْهَمَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا . فَكَانَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ !

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : ثَمَرَةُ الدُّنْيَا السُّرُورُ ، وَلَا سُرُورَ لِلْعُقَلَاءِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا أَغْفَلَ الْعُقَلَاءَ لَمَّا مُحِقَ سُرُورُهُ فِي الدُّنْيَا هَذَا الْمَحْقَ إِلَى أَنْ مَاتَ عَمًا ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

* * *

قَالَ « س . ع » : فَأَعْفُ الْآنَ عَنْ صَاحِبِكَ وَلَا تَذْبَحْهُ بِالْهَجَاءِ .

قَالَ : لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي مِنْ نِسْيَانٍ ، وَهَذَا الْمَجْنُونُ يَرَى نِسْيَانِي مِنْ مَرَضٍ عَقْلِي ، وَكَانَ أَلْوَجْهَ - لَوْ تَهَدَّى إِلَى الْحَقِيقَةِ - أَنْ يَرَاهُ شُدُودًا فِي الْعَقْلِ ، أَيْ : بُتُوغًا عَظِيمًا كَبُتُوغِ ذَلِكَ أَلْفِيلَسُوفِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَنْتَبَتْ^(١) فِي كَمْ مِنَ الزَّمَنِ تُسَلِّقُ الْبَيْضَةَ ؛ فَأَخَذَ بِيَدِهِ السَّاعَةَ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى بَيْضَةً ، ثُمَّ نَسِيَ نِسْيَانَ الْبُتُوغِ ، فَأَلْقَى السَّاعَةَ فِي الْمَاءِ عَلَى النَّارِ ، وَتَبَسَّتْ عَيْنُهُ عَلَى الْبَيْضَةِ يُنْظَرُ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا هِيَ السَّاعَةُ . وَلَوْ قَدْ رَأَاهُ هَذَا الْأَبْلَهُ لَزَعَمَهُ مَجْنُونًا كَمَا يَزَعُمُنِي ، فَإِنَّ الْمَجَانِينَ يَرُونَ الْعُقَلَاءَ مَرْضَى بِمَوَاهِبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا .

وَأَنَا فَلَيْسَ يَهَيِّجُنِي شَيْءٌ مَا تَهَيِّجُنِي كَلِمَاتُ ثَلَاثٍ : أَنْ يُقَالَ لِي مَجْنُونٌ ، أَوْ أَبْلَهُ ، أَوْ أَحْمَقُ . فَمَنْ رَغِبَ فِي صُحْبَتِي فَلْيَتَجَنَّبْ هَذِهِ الثَّلَاثَ كَمَا يَتَجَنَّبُ الْكُفْرَ وَالْكَفْرَ ...

قَالَ أ. ش : فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَثَلًا . مَثَلًا . أَيْ عَلَى التَّمْثِيلِ : مُغْفَلٌ ...

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَغْرِفُ » بَدَلًا مِنْ : « يَنْتَبَتْ » .

فَحَكَ رَأْسَهُ قَلِيلًا وَقَالَ : لَا ! هَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ قَدْرِي ^(١) ...
قُلْتُ : قَبَضُ الْكَلِمَاتِ إِذَا قُطِعَتْ عِنْدَكَ غَيْرَتِ الْحَقَائِقُ ، كَذَلِكَ الْقَرْنُ الَّذِي قُطِعَ
فَرْدَ الْبَقَرَةِ فَرَسًا ؟

قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قُلْتُ : زَعَمُوا أَنَّ أَغْرَابِيَا خَرَجَ إِخْوَتُهُ يَسْتَرْوْنَ خَيْلًا ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ فَجَاءَ بِعَجَلٍ يَقُودُهُ ؛
فَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : فَرَسٌ اشْتَرَيْتُهُ . قَالُوا : يَا مَاتِقُ ! هَذِهِ بَقَرَةٌ ، أَمَا تَرَى قَرْنَيْهَا ؟
فَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَطَعَ قَرْنَيْهَا ، ثُمَّ قَادَهَا إِلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ : قَدْ أَعَدْتُهَا فَرَسًا كَمَا تَرِيدُونَ ...
قَالَ (الْبَاغِيَةُ) : هَذَا غَيْرُ بَعِيدٍ ، فَقَدْ رَأَيْنَا حِينَ ذَبَحْنَا الْعَنْزَ وَكَسَرْنَا قَرْنَيْهَا أَعَدْنَاهَا
كَلْبَةً سَوْدَاءَ ، فَتَقَدَّرْتُهَا وَعَفْتُ لَحْمَهَا وَلَمْ أَطْعَمْ مِنْهَا .

ثُمَّ أَرَمَّا إِلَى الْآخِرِ وَقَالَ : هَذَا لَا يَذْرِي مَا طَحَاهَا ، وَهُوَ مِثْلُ الْعَنْزِ : تَحْسَبُ قَرْنَيْهَا
لِلْقَتَالِ وَالنُّطَاحِ وَمِنْهُمَا تُمْسِكُ لِلذَّبْحِ ؛ فَقُلْ فِي هَذَا يَا أَسْتَاذَ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) .
قُلْتُ لِلْآخِرِ : أَيُضْرِيكَ أَنْ أَقُولَ فِي الْمَعْنَى لَا فِيكَ أَنْتَ ... ؟
قَالَ : نَعَمْ .

فَكَتَبْتُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ عَلَى مَا يُرِيدُ الْبَاغِيَةُ [من مجزوء الكامل] :

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَاهَا	لِقَتَالٍ سَلَحَاهَا
مَا لَهَا قَدْ طَرَحَاهَا	فِي يَدَيْنِ ذَبَحَاهَا ؟

* * *

شَيْمَةً مِثْلِي نَحَاهَا	عَقْلٌ غَرٌّ فَلَحَاهَا
لَيْسَ يَذْرِي مَا طَحَاهَا	بَلْ يَرَى شَمْسَ ضَحَاهَا
حَجَرًا مِثْلَ رَحَاهَا	وَيَرَى اللَّيْلَ مَحَاهَا

ظَلَمًا طَالَتْ لِحَاهَا ...

* * *

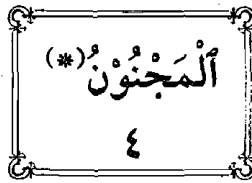
(١) نَصُّ عِبَارَتِهِ : « دِي مِثْلُ أَذْيِ » ...

وَسِرَّ (النَّابِغَةُ) وَأَزْدَهُيْ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : طَالَتْ لِحَاهَا ، طَالَتْ لِحَاهَا . وَمَا كَانَ هَذَا إِلَّا السُّرُورُ الْأَضْعَفُ ؛ أَنَا سُرُورُهُ الْأَكْبَرُ فَمَجِيءُ سَاعِي (الْبَرِيدِ الْمُسْتَعْجَلِ) إِلَى الْتَدْيِ ، وَفِي يَدِهِ رِسَالَةٌ عَنْوَانُهَا : نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فُلَانٌ ، بِنْدِي كَذَا .

وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَهْتِفُ بِالْعُنُوتِ يَسْأَلُ عَنْ صَاحِبِهِ ؛ فَتَطَاوَلَتْ أَغْنَاقُ النَّاسِ ، وَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُ الرِّسَالَةَ وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ مِنَ الْقُدَمَاءِ أَسْقَطَ لَهُ كِتَابٌ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَيَضُمُّ دَوْلَةً إِلَى دَوْلَتِهِ .

ثُمَّ تَرَكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يَفْلُتُهَا وَلَا يَفْضُضُهَا وَتَخُنُّ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ؛ فَتَطَرَّ فِيهَا الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَقَالَ لَهُ : هَذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي ، كَيْفَ هَذَا ؟ إِنَّ هَذَا لَا يُصَدَّقُ ؛ إِنَّكَ لَمْ تَلْقَهَا فِي صُنْدُوقِ الْبَرِيدِ إِلَّا مُنْذُ سَاعَةٍ (١)

مصطفى صادق الرافعي



وَصَاقَ « نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ » بِحَقِّ الْمَجْنُونِ الْآخَرِ ؛ وَرَأَاهُ ذَاهِيَةً دَوَاهٍ ، كُلَّمَا تَعَاقَلَ أَوْ تَحَادَقَ لَمْ يَأْتِ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْشِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ ؛ فَلَا يَبْرَحُ يُجَرِّعُهُ الْغَيْظَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَسْبُغُهُ فِي عَقْلِهِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَخْتَالَ لِصَرْفِهِ عَنِ الْمَجْلِسِ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ

(١) جاء بعد هذه المقالة في الأصل :

الْمُبَشِّرُونَ : كَتَبَ إِلَيْنَا فَاضِلٌ يَذْكُرُ بَعْضَ سَخَافَاتِ الْمُبَشِّرِينَ نَقَلَهَا مِنْ أَحَدِ كُتَيْبِهِمْ ، وَسَأَلْنَا الرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، فَأَبْلَغَ الرَّدُّ عَلَيْنَا هَؤُلَاءِ تَجَبُّهُمُ وَإِهْمَالُ كُلِّ مَا يَكْتُبُونَ ، إِذْ هُمْ مُضَابُونَ بِجُنُونِ الْفِكْرَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُونَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ مَثَلُ رَجُلٍ أَمْرِيكِيٍّ (نَابِغَةٍ) ... يُرِيدُ أَنْ يَقِيمَ لَكَ الْبُرْهَانَ عَلَى أَنَّ الْجَمَلَ الْعَرَبِيَّ إِنَّمَا هُوَ مَصْنُوعٌ فِي مَصَانِعِ فُورْد ...

الرافعي

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٧ ، ٢٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ١٦ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٠٣ - ٢٠٠٦ .

الرَّسَالَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا (الْبَرِيدُ الْمُسْتَعَجَلُ) وَقَالَ لَهُ : خُذْ هَذِهِ فَأَذْهَبْ فَأَلْقِهَا فِي دَارِ الْبَرِيدِ ،
فَسِيَّجِيْ بِهَا السَّاعِي مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ تَذْهَبُ الثَّانِيَةَ فَتُلْقِيْهَا ، وَيَعُوذُ هُوَ فَيَجِيْ بِهَا ،
وَتَكُونُ أَنْتَ تَذْهَبُ وَيَكُونُ هُوَ يَجِيْ ، فَتَضْحَكُ مِنْهُ وَيَضْحَكُونَ

قَالَ « س . ع » : وَلَكِنْ كَمْ يَذْهَبُ هَذَا وَكَمْ يَجِيْ ذَلِكَ ؟

فَعَمَرُهُ (الثَّابِتَةُ) بِعَيْنِهِ أَنْ أَسْكُتَ ؛ فَتَغَافَلَ « س . ع » ، وَقَالَ : كَمْ تُرِيدُ أَنْ يَجِيْ
السَّاعِي لِيَهْتِفَ بِثَابِتَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى أَعْرِفَ كَمْ مَرَّةً أَذْهَبُ ؛ فَإِنْ
السَّاعِي لَا يَجِيْ إِلَّا رَاكِبًا ، وَأَنَا لَا أَذْهَبُ إِلَّا رَاجِلًا ، وَإِنْ لِي رِجْلَيَّ إِنْسَانٍ لَا رِجْلَيَّ
دَابَّةً . . .

قَالَ (الثَّابِتَةُ) : سُبْحَانَ اللَّهِ ! بِقَلِيلٍ مِنَ الْجُنُونِ يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْنُونٌ كَامِلٌ
مُسْتَلَبٌ الْعَقْلُ . بَيِّنْ أَنَّهُ لَا يَأْتِي الثَّابِتَةَ إِلَّا مِنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ ، وَمِنْ الثُّبُوحِ كُلِّهِ بِجَمْعٍ وَسَائِلِهِ
وَأَسْبَابِهِ عَلَى تَعَدُّدِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَصُعُوبَةِ اجْتِمَاعِهَا لِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ (كُتَابَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ،
فَهُوَ الَّذِي تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَتَوَارَثَتْ فِيهِ كُلُّ تِلْكَ الْخِلَالِ . إِنَّهُ لَيْسَ الشَّأْنُ
فِي الْعِلْمِ وَلَا فِي التَّعْلِيمِ ؛ وَلَكِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْمَوْهَبَةِ الَّتِي تُبْدِعُ الْإِنْتِكَارَ ، كَمَوْهَبَةِ (ثَابِتَةِ
الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ؛ فِيهَا^(١) تَجِيْ أَعْمَالُهُ مُنْسَجِمَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا ؛ وَمُتَمَيِّزَةٌ مَعَ
كُونِهَا مُنْسَجِمَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا ؛ وَمُتَلَائِمَةٌ مَعَ كُونِهَا مُتَمَيِّزَةٌ دَالَّةٌ بِنَفْسِهَا عَلَى
نَفْسِهَا . . .

هَذَا « س . ع » ، كَانَ الْأَوَّلَ بَيْنَ خَرِيجِي مَدْرَسَةِ دَارِ الْعُلُومِ ، مَدْرَسَةِ الْأَدَبِ
وَالْعَرَبِيَّةِ ، وَالْمَنْطِقِ وَالتَّحْذِلِ ، وَبِلَاغَةِ اللُّسَانِ وَصِحَّةِ النَّظَرِ ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْكِتَابَ
يُلْقَى فِي الْبَرِيدِ وَعَلَيْهِ طَابِعٌ وَاحِدٌ ، فَيَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ بِهِذَا الطَّابِعِ ، ثُمَّ يَرَى بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ
أَرْبَعَةَ طَوَائِعَ عَلَى هَذِهِ الرَّسَالَةِ الْمُعَنَوِيَّةِ بِأَسْمِ (ثَابِتَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَلَا يُدْرِكُ بِعَقْلِهِ أَنَّ
مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَذِهِ الرَّسَالَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيَّ أَنَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ

(١) فِي الْأَصْلِ : « فِيهَا » بَدَلًا مِنْ : « فِيهَا » .

فَطَرَبَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ ، وَاهْتَزَّ فِي مَجْلِسِهِ ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ »
هَذَا الْحَدِيثُ : « يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . فَلَا تُؤَاخِذْ « س . ع » ، فَإِنَّ
مَدْرَسَةَ دَارِ الْعُلُومِ تُعَلِّمُهُمْ : « فِيهَا قَوْلَانِ » ، وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ ، وَفِيهَا أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ ،
وَلَكِنَّهَا لَا تُعَلِّمُهُمْ فِيهَا أَرْبَعَةُ طَوَائِعَ

ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى « س . ع » ، وَقَالَ لَهُ : لَا عَلَيْكَ ، فَأَنَا صَاحِبُهُ وَخَلِيطُهُ ، وَحَامِلُ
عِلْمِهِ ، وَرَاوِيَةُ أَدَبِهِ ، وَأَكْبَرُ دُعَاتِهِ وَثِقَاتِهِ ، وَمَا عَلِمْتُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ مِنْهُ إِلَّا فِي هَذِهِ
السَّاعَةِ .

قَالَ « ا . ش » : فَإِذَا كَانَ هَذَا ، فَإِنَّ لِقَائِي أَنْ يَقُولَ : لِمَاذَا لَمْ يَضَعْ عَلَى كِتَابِهِ عَشْرَةَ
مِنَ الطَّوَابِعِ ، فَيَجِيءُ بِهِ السَّاعِي عَشْرَ مَرَّاتٍ .

قَالَ (الثَّانِيَةُ) : وَهَذَا أَيْضًا . . . ؟ [من الوافر]

« وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أَمِّ عَمْرٍِ بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَضْحِكُنَا ^(١) »
إِنَّ الشَّمْعَةَ فِي يَدِ الْعَاقِلِ تَكُونُ لِلضَّوءِ فَقَطْ ، وَلَكِنَّهَا فِي يَدِ الْمَجْنُونِ لِلضَّوءِ وَلِإِحْرَاقِ
أَصَابِعِهِ . . . كَمْ السَّاعَةُ الْآنَ ؟

قُلْنَا : هِيَ التَّاسِعَةُ .

قَالَ : وَمَتَى يَنْصَرِفُ أَهْلُ هَذَا الدِّيَارِ ؟

قُلْنَا : لِتِمَامِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ .

قَالَ : فَإِذَا كَانَ السَّاعِي يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَرَّةً ، فَهِيَ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ إِلَى أَنْ يَنْقَضَ
الْمُجْتَمِعُونَ هُنَا ، وَبَيْنَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ قَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ عَرَفُوا (نَابِعَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَجَاءَ قَوْمٌ
غَيْرُهُمْ فَيَعْرِفُونَهُ . وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَجِدُ السَّاعِي هُنَا أَحَدًا ، فَلَا تَكُونُ فَائِدَةٌ مِنْ مَجِئِهِ . . .
فَصَفَّقَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ وَقَالَ : هَذَا وَأَيْنِكَ هُوَ التَّهْدِي إِلَى وَجْهِ الرَّأْيِ وَسَدَادِهِ ،

(١) هُوَ لَعَمْرُؤُ بِنِ كُلُّوْمِ ، مِنْ مُعَلَّقَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَيُزَوِّى لَعَمْرُؤُ بِنِ عَدِيٍّ اللَّخْمِيِّ ابْنِ أُخْتِ جُدَيْمَةَ
الْأَبْرَشِ . بَسَامَ .

وَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الرَّصِينُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى أَصُولِ الْحِسَابِ وَالْجُغَرَاْفِيَةِ . . . « وَمِمَّا حَفِظْنَاهُ » هَذَا الْحَدِيثُ : « لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ » . [مجمع الزوائد] ، رقم : ١٨٠٣٨ ، « كنز العمال » ، رقم : ٤٤١٣٦ ، ٤٤٢٣٧ ، ٤٤٤٣٨٩ فَأَرْبَعَةُ طَوَائِعَ ، لِأَرْبَعِ مَرَّاتٍ ، فِي أَرْبَعِ سَاعَاتٍ ؛ وَمَا عَدَا هَذَا فِإِسْرَافٌ وَتَبَدُّيرٌ ؛ وَ« لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ » . . .

* * *

وَرَضِي (الْتَّابِعَةُ) عَنْ صَاحِبِهِ وَقَالَ لَهُ : لَئِنْ كَانَتْ فِيكَ ضَعْفَةٌ إِنَّ فِيكَ لَبَقِيَّةً تَعْلِقُ بِهَا . . .

ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ وَدَسَّهَا فِي ثَوْبِهِ .

قُلْنَا : وَلَكِنْ أَلَا تَفْضُّهَا لِتَعْرِفَ مَا فِيهَا ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ : أَتَنْ جَارِيَتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ وَالنَّادِرَةِ ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَهَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمُقِهِ - تَحْسُبُونَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّ الرِّسَالَةَ فَارِعَةٌ إِلَّا مِنْ عُنْوَانِهَا ، وَأَنَّ نَابِعَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ هُوَ أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِعَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بَاشَا : (جُورِجُ الْخَامِسُ يُفَاوِضُ جُورِجَ الْخَامِسِ) . . . ؟ لِحَقِّ وَاللَّهِ أَنَّ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبَى الصَّغَايِرَ ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصَّغَايِرُ أَخْيَانًا لِثَبِتِ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ ، وَهَكَذَا تَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كُنَابِعَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) . . .

فَغَضِبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا ؛ فَقَالَ لَهُ (الْتَّابِعَةُ) : أَنْتَ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ . . .

قُلْنَا : وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا بَعْدُ ، فَكَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا .

قَالَ : وَسَيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ . . .

قُلْنَا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئًا مِنْ رَأْيِهِ .

قَالَ : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قُلْنَا : وَيَحْكُ ! أَدْخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ ؟

قَالَ : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مَنْطِقِيٌّ يَتَوَهَّمُ أَطْرَادُهُ . إِنَّهُ سَيَقُولُ : إِنِّي مَجْنُونٌ ...

فَأَخْرَجَ الْآخِرُ لِسَانَهُ ... قَالَ (الْثَّابِغَةُ) : تَبَا لَكَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكَلِمَةَ فِي لِسَانِكَ كَأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِحُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ . وَيَحْكُ يَا مَرْقَعَانِ^(١) ! أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ لَكَ دِمَاعًا مَخْرُوقًا تَسْقُطُ مِنْهُ أَفْكَارُكَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَخْرُوقٌ لَحَفِظْتَ الْمَتْنَ ! إِنَّ كُلَّ تَخْطِئَةٍ لِي مِنْكَ هِيَ اعْتِرَافٌ لِي مِنْكَ بِصَوَابِ .

فَنَظَرَ الْآخِرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً كَانَ تَفْسِيرُهَا فِي حَوَاجِبِهِ ، إِذْ مَطَّ حَوَاجِبُهُ^(٢) وَرَقَصَهَا . فَقَالَ (الْثَّابِغَةُ) : وَنَظَرَاتُهُ خَبِثَةٌ مِلْحَةُ الطَّعْمِ ، مَرْغُوقَةٌ كَمَاءِ الْبَحْرِ الْمُرِّ أُخِذَ مِنَ الْبَحْرِ وَأُضِيفَ إِلَى مِلْحَةِ الطَّيْبِيِّ مِلْحٌ ، أَكَادَ أَنْتَهُوعٌ مِنْ هَذِهِ النَّظَرَةِ فَأَقْبَى .

الآن فَهَمْتُ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : « مِلْحَةٌ فِي عَيْنِ الْحَسُودِ » . فَإِنَّ الْمِلْحَ لَا يَغْلِبُهُ إِلَّا الْمِلْحُ ، كَالْحَدِيدِ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ . هَانُوا كَأَسَا مِنْ مُعْتَقَةِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ لِيَنْظُرَ فِيهَا الْخَبِيثُ هَذِهِ النَّظْرَةَ ، فَإِنَّ الْخَمْرَ لَا بُدَّ مُسْتَحِيلَةٍ « شَرِبْتُ مِلْحَ إِنْكَلِيرِي » ... هَذَا الْأَبْلَةُ ثَقِيلُ الدِّمِ كَانَ دَمُهُ مَأْخُودٌ مِنْ مُسْتَنْقَعٍ ... أَهَذَا الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِسِيءٍ فِي الدُّنْيَا : هُوَ لِي ، إِلَّا الْفَقْرَ وَالْجُنُونَ وَالْخُرَافَةَ - يَكْذِبُ مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْبَرِيدُ الْمُسْتَعْجِلُ ، وَلَا يَصْدُقُ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ إِلَى نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ مِنْ صَاحِبِ السُّمُوءِ الْأَمِيرِ ؟

هَذَا الذَّاهِبُ الْعَقْلُ هُوَ كَالْجَبَانِ الْمُنْقَطِعِ فِي وَخْشَةِ الْقَفْرِ ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ : إِذَا تَوَجَّسَ حَرَكَةً ضَعِيفَةً انْقَلَبَتْ فِي وَهْمِهِ قِصَّةَ جَرِيْمَةٍ مِلُّوْهَا الرُّغْبُ وَفِيهَا الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ ؛ وَلِهَذَا يَخْشَى مَا فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ صَدِيقِي صَاحِبِ السُّمُوءِ . هَاؤُمُ أَفْرُؤُوا الرِّسَالَةَ .

وَقَضَضْنَا الْغِلَافَ ، فَإِذَا وَرَقَتَانِ مَمْهُورَتَانِ يَتَوَقَّعُ أَمِيرٌ مَعْرُوفٌ ، إِحْدَاهُمَا صَدِّيقٌ بِالْفِ جُنَيْهِ تَدْفَعُ (لِلثَّابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، وَالثَّانِيَةُ أَمْرٌ بِالْقَبْضِ عَلَى الْمَجْنُونِ الْآخِرِ ...

(١) الْمَرْقَعَانُ وَالْمَرْقَعُ : الْأَخْمَقُ الَّذِي يَتَمَرَّقُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ فَلَا يَجْمَعُ لَهُ .

(٢) هُمَا حَاجِبَانِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْأَسْلُوبُ هُوَ الْأَنْصَحُ هُنَا ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ .

وَلِرَسُولِهِ إِلَى الْمَارِسَاتِ . . .

* * *

وَدَهَبْتُ أَصْلِحُ بَيْنَهُمَا { صُلْحًا } قُلْتُ : إِنَّ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : يَنْمَسَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : هَذَا مَجْنُونٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذَا مُصَابٌ ؛ إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » [كنز العمال ، رقم : ١٠٤٣٧ ، ١٠٤٥٣] .

فَقَالَ صَاحِبُ الْمَثَنِ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : « إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » .
قُلْتُ : وَلَيْسَ فِيكُمَا مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ . . .
قَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » : وَلَيْسَ فِيكُمَا مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ . . .
قُلْتُ : هَذَا لَيْسَ مِنَ الْحَدِيثِ وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِي .

قَالَ (الْتَابِعَةُ) : أَتَبَأْتُكُمْ أَنَّ هَذَا الْأَبْلَهَ يَضِلُّ فِي دَارِهِ كَمَا يَضِلُّ الْأَعْرَابِيُّ فِي الصَّخْرَاءِ ؛ وَأَنَّ الْأَسْطُولَ الْإِنْكِلِيزِيَّ لَوْ اسْتَقَرَّ فِي سَاقِيَةِ يَدُورٍ فِيهَا نُورٌ ، لَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى التَّصْدِيقِ مِنْ اسْتِقْرَارِ الْعَقْلِ فِي رَأْسِ هَذَا الْأَبْلَهِ ؟ . . .

فَاحْتَدَمَ الْآخَرُ وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » ، وَلَكِنِّي أَسْكَنْتُهُ وَقُلْتُ (لِلْتَابِعَةِ) : إِنَّكَ دَائِمًا فِي ذِرْوَةِ الْعَالَمِ ، فَلَا غَرَوْ أَنْ تَرَى الْمُحِيطَ الْأَعْظَمَ سَاقِيَةً . « وَالتَّوَابِعُ » هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ تَوَابِعُ ، وَلَكِنَّهُمْ فِي رَأْيِ النَّاسِ مَرَضَى بِمَرَضِ الصُّعُودِ الْخَيَالِيِّ إِلَى ذِرْوَةِ الْعَالَمِ . وَمِنْ هَذَا يَكُونُ الْمَجَانِينُ هُمْ الْمَرَضَى بِمَرَضِ التَّرْوَلِ الْحَقِيقِيِّ إِلَى حَضِيضِ الْآدَمِيَّةِ ؛ فَهَنَّاكَ يَعْملُونَ فَتَكُونُ أَفْكَارُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، ثُمَّ تَكُونُ عُقُولُهُمْ مِنْ أَفْكَارِهِمْ ، فَيَكُونُ هَذَا هُوَ الْجُنُونُ فِي عُقُولِهِمْ ؛ وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ : « إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ » .

قَالَ (الْتَابِعَةُ) : لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ ؛ فَنُبُوغُ الْعَقْلِ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ السُّمُومِ فِيهِ ؛ فَالشَّاعِرُ الْعَظِيمُ مَجْنُونٌ بِالْكَوْنِ الَّذِي يَتَخَيَّلُهُ فِي فِكْرِهِ ، وَالْعَاشِقُ مَجْنُونٌ بِكَوْنِ آخَرٍ لَهُ عَيْنَانِ مَكْحُولَتَانِ ؛ وَالْفَيْلسُوفُ مَجْنُونٌ بِالْكَوْنِ الَّذِي يَذَّابُ فِي مَعْرِفَتِهِ ؛ وَتَابِعَةُ الْقَرْنِ

الْعِشْرِينَ مَجْنُونٌ . . . لا . لا . قَدْ نَسِينَا . ش ، فَهُوَ مَجْنُونٌ ، و « س . ع » فَهُوَ مَجْنُونٌ
[من الوافر] :

وَكُلُّ النَّاسِ مَجْنُونٌ بِلَيْلِي وَلَيْلِي لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ
وَمِنْ حَقِّ لَيْلِي أَلَّا تُقَرَّ لَهُمْ ، إِذْ هِيَ لَا تُقَرُّ إِلَّا لِتَابِعَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَحْدَهُ ؛ وَمَا
أَعْجَبَ سِحْرَ الْمَرْأَةِ فِي الْكَوْنِ النَّفْسَانِي لِلرَّجَالِ ؛ أَمَا فِي الْكَوْنِ الْحَقِيقِيِّ فَهِيَ أَثْنَى كِنَانَتْ
الْبَهَائِمِ لَيْسَ غَيْرُ . وَأَعْقَلُ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ كَالْحِمَارِ أَوْ الثَّوْرِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ ذُكُورِ الْبَهَائِمِ .
فَالْحِمَارُ لَا يَعْرِفُ الْحِمَارَةَ إِلَّا أَنَّهَا حِمَارَةٌ ، وَالثَّوْرُ لَا يَعْرِفُ الْبَقَرَةَ إِلَّا أَنَّهَا بَقَرَةٌ ؛ وَلَا
يَنْظُمُونَ شِعْرًا ، وَلَا يَكْتُبُونَ « أَرْزَاقُ الْوَرْدِ » . . . وَإِنَّا الْبَهَائِمُ أَمَاتٌ ^(١) لَا غَيْرُ ، وَلَكِنَّ
الْعَجِيبَ أَنْ ذُكُورَتَهَا لَيْسَتْ أَبَاءَ ؛ فَهَذِهِ الذَّكُورَةُ طُفْلِيَّةٌ فِي الدُّنْيَا ، وَالطُّفْلِيُّ لَا يَأْكُلُ إِلَّا
بِحَيْلَةٍ يَخْتَالُ بِهَا ، فَيَكُونُ صَاحِبَ نَوَادِرَ وَأَصْحَابِكِ وَأَكَاذِبٍ . وَلِهَذَا كَانَ عِشْقُ الرِّجَالِ
لِلنِّسَاءِ ضُرُوبًا مِنْ الْخِدَاعِ وَالْأَكَاذِبِ وَالْأَصْحَابِكِ وَالْحَيْلِ وَالْعَفْلَةِ وَالْبَلَاهَةِ ؛ وَإِذَا نَظَرْنَا
إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ فَهُوَ عِشْقٌ ، أَمَا آخِرُهُ فَهُوَ آخِرُ الْحَيْلَةِ وَالْأَكْذُوبَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الطُّفْلِيِّ : قَدْ
شَبِعْتُ وَقَدْ رَوَيْتُ . . . وَيَحْكُمُ ! أَيْنَ أَوَّلُ الْكَلَامِ ؟

قُلْنَا : أَوَّلُهُ مَا أَعْجَبَ سِحْرَ الْمَرْأَةِ فِي الْكَوْنِ النَّفْسَانِي لِلرَّجَالِ .

قَالَ : نَعَمْ هَذَا هُوَ . إِنَّهُ سِحْرٌ لَا أَعْجَبَ مِنْهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ النَّفْسَانِي إِلَّا سِحْرُ
الذَّهَبِ ؛ فَلَوْ مُسَحَّتِ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ لَكَانَتْ سَبِيكَةً ذَهَبِيَّةً تَلْمَعُ ؛ وَلِهَذَا
يُوجَدُ الذَّهَبُ اللَّصُوصَ فِي الدُّنْيَا ، وَتُوجَدُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ لُصُوصًا آخَرِينَ ، فَيَجِبُ أَنْ
يُصَانَ الذَّهَبُ وَأَنْ تُصَانَ الْمَرْأَةُ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ أَلَيْسَ مِنَ الْمَالِ فَضَّةٌ ، وَهِيَ تُوجَدُ اللَّصُوصَ كَالذَّهَبِ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، وَفِي النِّسَاءِ كَذَلِكَ فَضَّةٌ ، وَفِيهِنَّ التُّحَاسُ ؛ وَلَوْ أَنْتَ أَلْقَيْتَ رِيَالًا فِي
الطَّرِيقِ لَأَخَذَتْ مَعْرَكَةٌ يَخْتَصِمُ فِيهَا رَجُلَانِ ، ثُمَّ لَا يَذْهَبُ بِالرِّيَالِ إِلَّا الْأَفْوَى ، وَلَوْ تَرَكْتَ
قِرْشًا لَتَصَارَبَ عَلَيْهِ طِفْلَانِ ، ثُمَّ لَا يَقْضِي بِهِ إِلَّا مَنْ عَصَّ الْآخِرَ . . .

(١) يُقَالُ فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ : أَمَاتٌ ، وَفِي الْعَاقِلِ : أَمَهَاتٌ .

وَلَكِنَّ (فورد^(١)) الْغَنِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجْمَعُ يَدُهُ عَلَى أَرْبَعِ مِثَّةِ مِلْيُونِ جُنَيْهِ ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنِ الْقَرْشِ ؛ (وَنَابِعَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) الَّذِي يَمْلِكُ (لَيْلَى) ، لَا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ قُرُوشِ النِّسَاءِ ...

قُلْتُ : فَإِنِّي أَحْسَبُكَ أَعْلَمْتَنِي أَنَّ اسْمَهَا فَاطِمَةُ لَا لَيْلَى .

قَالَ : هَلْ يَسْتَفِينُ الشَّعْرُ إِذَا قُلْتُ : وَكُلُّ النَّاسِ مَجْنُونٌ بِفَاطِمَةَ ، وَفَاطِمٌ لَا تَقْرَأُ لَهُمْ ؟
قُلْتُ : لَا .

قَالَ : إِذَا فِيهِ (لَيْلَى) لَيْسَتَفِينُ الشَّعْرُ ... أَمَّا حِينَ أَقُولُ [لِأَمْرِي الْقَيْسِ ، مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَاطِمٌ مَهْلًا بَعْدَ هَذَا التَّدْلِيلِ

فَهِىَ فَاطِمَةُ لِيَصِحَّ الْوَزْنُ ...

قُلْتُ : يُشَبِّهُ وَاللَّهِ أَلَّا يَكُونُ اسْمُهَا لَيْلَى وَلَا فَاطِمَةَ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تُسَمَّى حَسَبَ الْوَزْنِ وَالْبَحْرِ ، فَاسْمُهَا فَعُولُنْ أَوْ مُفَاعَلَتُنْ ...

* * *

ثُمَّ قُلْنَا لَهُ : فَمَا رَأَيْكَ فِي الْحُبِّ ، فَإِنَّهُ لَيَقَالَ : إِنَّكَ أَغَشِقُ النَّاسَ وَأَغْرُلُ النَّاسَ ؟

قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ لَيَقَالَ (وَهُوَ الْأَصَحُّ) .

ثُمَّ أَطْرَقَ يَفَكَّرُ . وَبَدَأَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَذْهُوشٌ ذَاهِبُ الْعَقْلِ ، كَأَنَّهُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى مَسَافَةٍ أَبْعَدَ مِنَ الْمَسَافَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْلِهِ . وَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ النِّسَاءَ قَدْ حُشِرْنَ جَمِيعًا فِي رَأْسِهِ ، وَمَرَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَعْرِضُ مَفَاتِيحَهَا وَغَزَلَهَا ، وَتَلَاثُ هَذَيَانَهُ بِهَذَيَانٍ مِنْ جَمَالِهَا ، فَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْرِضُ وَيَحْجِزُ . ثُمَّ اضْطَرَبَ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُنْسِكَ بِشَيْءٍ أَفَلَّتْ مِنْهُ ؛ فَلَمْ يُنَبِّهْهُ إِلَّا قَوْلُ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » أَنَّ أَعْرَابِيَّةً سُلِّتْ عَنْ الْعِشْقِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ دَاءٌ وَجُنُونٌ ...

(١) هو هنري فورد Henry Ford (١٨٦٣ - ٩٤٧ م) صناعي أميركي عُرف بمصانعه المنتجة للسيارات .

قَالَ : أَسْكُتْ يَا وَئِلَكَ ! لَقَدْ أَطْفَأَتِ الْأَنْوَارَ بِكَلِمَتِكَ الْمَجْنُونَةُ . كَانَ فِي رَأْسِي مَرْقَصٌ عَظِيمٌ تَسْطَعُ الْأَنْوَارُ فِيهِ بَيْنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَخْضَرِ وَالْأَبْيَضِ ؛ وَتَرْقِصُ فِيهِ الْجَمِيلَاتُ مِنَ الطَّوْنِ وَالْقَصِيرَةِ وَالْمَمْشُوقَةِ وَالْبَادِيَةِ ، فَجِئْتُ بِالْذِّاءِ وَالْجُنُونِ قَبْحَكَ اللَّهُ فَأَخْرَجَنِي عَنْهُمْ إِلَيْكَ . أَحْسَبُ أَنَّكَ لَوْ أَتَحَرَّزْتَ لَصَلَحَ الْعَالَمُ أَوْ صَلُحْتُ أَنَا عَلَى الْأَقْلُ . . . فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَشْتَقَّ نَفْسَكَ فَأَنَا آتِيكَ بِالْحَبْلِ الَّذِي كُنْتُ مُقَيِّدًا فِيهِ ، أَيُّ : الْحَبْلِ الَّذِي عِنْدِي فِي الدَّارِ . . . عَلَى أَنَّ رَأْسَكَ الْفَارِغَ مَشْنُوقٌ فِينَا وَأَنْتَ لَا تَدْرِي .

قَالَ الْآخَرُ : مَا أَنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ إِلَّا فِي شَنْقِي وَتَعْلِيْبِي أَوْ فِي شَنْقِ عَقْلِي (عَلَى الْأَصَحِّ) . « وَمِمَّا حَفِظْتَاهُ » قَوْلُ الْأَحْتَفِ بْنِ قَيْسٍ : إِنِّي لِأَجَالِسُ الْأَحْمَقَ سَاعَةً فَاتَّبِعْنِي ذَلِكَ فِي « عَقْلِي » . . .

فَلَمْ يُرْعَنَا إِلَّا قِيَامَ الْمَجْنُونِ مُسَلِّحًا بِحِذَائِهِ فِي يَدِهِ . . . وَهُوَ حِذَاءٌ عَتِيقٌ غَلِيظٌ يَقْتُلُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَحُلْنَا بَيْنَهُمَا وَأَتْبَعْنَاهُ فِي مَكَانِهِ . وَقُلْنَا : هَذَا رَجُلٌ قَدْ غَلِبَ عَلَى عَقْلِهِ فَلَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ؛ فَإِذَا هُوَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، أَفَلَا تَدُلُّ أَنْتَ عَلَى أَنَّكَ عَاقِلٌ ؟ مَا سَأَلْنَاكَ فِي أَنْتِحَارِهِ وَجُنُونِهِ ، بَلْ سَأَلْنَاكَ رَأْيَكَ فِي الْحُبِّ ؛ وَمَا نَشُكُّ أَنَّكَ قَدْ أَطَلْتَ التَّفَكِيرَ لِيَكُونَ الْجَوَابُ دَقِيقًا ، فَإِنَّكَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) ، فَانْظُرْ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ كَذَلِكَ .

قَالَ : نَعَمْ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ أَطَالَ الْفِكْرَ فِي الْجَوَابِ . فَكُتِبَ يَا فُلَانُ (س. ع) :

جَلَسَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ مَجْلِسَ الْأِمْلَاءِ مُزَجِّجًا فَقَالَ^(١) : قِصَّةُ الْحُبِّ هِيَ قِصَّةُ آدَمَ ، خَلَقَ اللَّهُ الْمَرْأَةَ مِنْ ضِلْعِهِ . فَأَوَّلُ عِلَامَاتِ الْحُبِّ أَنْ يَشْعُرَ الرَّجُلُ بِالْأَلَمِ كَأَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحَبَّهَا كَسَرَتْ لَهُ ضِلْعًا . . . وَكُلُّ قَدِيمٍ فِي الْحُبِّ هُوَ قَدِيمٌ بِمَعْنَى غَيْرِ مَعْقُولٍ ، وَكُلُّ جَدِيدٍ فِيهِ هُوَ جَدِيدٌ بِمَعْنَى غَيْرِ مَفْهُومٍ ؛ فَغَيْرُ الْمَعْقُولِ وَغَيْرُ الْمَفْهُومِ هُوَ الْحُبُّ .

وَالْجَمْرَةُ الْحُمْرَاءُ إِذَا قِيلَ : إِنَّهَا أَنْطَفَأَتْ وَبَقِيَتْ جَمْرَةً فَذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الصِّدْقِ مِنْ بَقَاءِ الْحُبِّ حَيًّا بِمَعْنَاهُ الْأَوَّلُ إِذَا أَنْطَفَأَ أَوْ بَرَدَ .

(١) هَذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ جِئْتُ يُرِيدُ التَّخْلِيْطَ .

وَالْعَاشِقُ مَجْنُونٌ . وَجُنُونُهُ مَجْنُونٌ أَيْضًا ، فَهُوَ كَالَّذِي يَرَى الْجَمْرَةَ مُنْطَفِئَةً ، وَيَرَى
مَعَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ حَمْرَاءَ ، ثُمَّ يُمَعِّنُ فِي خَيَالِهِ فَيَرَاهَا وَرْدَةً مِنَ الْوَرْدِ . . . وَإِذَا سَأَلْتَهُ أَنْ
يَصِفَ الْجَمَالَ الَّذِي يَهْوَاهُ كَانَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مَجْنُونُ الْجُنُونِ ، كَالَّذِي يَرَى قَمَرَ السَّمَاءِ أَنَّهُ
قَدْ تَفَتَّتْ وَتَنَاطَرَ وَوَقَعَ فِي الرُّوْضَةِ ، فَكَانَ نَثَرُهُ هُوَ الْيَاسَمِينُ الْأَبْيَضُ الْجَمِيلُ الذَّكِيُّ . . .

وَالْمَجْنُونُ يَرَى الدُّنْيَا بِجُنُونِهِ وَالْعَاقِلُ يَرَاهَا بِعَقْلِهِ ؛ وَلَكِنَّ الْعَاشِقَ الْمَخْبُولَ لَا يَنْظُرُ
مَنْ يَهْوَاهُ إِلَّا بِبَقِيَّةٍ مِنْ هَذَا وَبَقِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا يَخْلُصُ مَعَ حَبِيبِهِ إِلَى جُنُونٍ وَلَا عَقْلِ .
(وَالْمَجْنَهُوْلُ) إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ فِي دِمَاحِ بَشَرِيٍّ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَحَدُ رَأْسَيْنِ : رَأْسِ
الْمَجْنُونِ وَرَأْسِ الْعَاشِقِ . . .

وَلَا صُعُوبَةٌ فِي الْحُكْمِ عَلَى شَيْءٍ بِأَنَّهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ إِلَّا حِينَ يَكُونُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ أَمْرًا
مَعْشُوقَةً . أَمَّا أَوْصَافُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ لِلْجَمَالِ وَالْحُبِّ فَهِيَ كُلُّهَا تَقْلِيدٌ قَدْ تَوَسَّعُوا فِيهِ ؛
وَالْأَصْلُ أَنَّ ثَوْرًا أَحَبَّ بَقَرَةً فَكَانَ يَقُولُ لَهَا : يَا نَجْمَةَ الْقُطْبِ الَّتِي نَزَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ لِتَدُورَ
فِي السَّاقِيَةِ كَمَا دَارَتْ فِي أَلْفَلَكٍ . . .

قَالَ (النَّبِيعَةُ) : هَذَا رَأْيِي فِي حُبِّ الْعَاشِقَيْنِ ؛ أَمَّا حُبِّي أَنَا (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ)
فَيَجْمَعُهُ قَوْلُكَ : قُلٌّ ، وَرَدٌّ ، زَهْرٌ . . .

قُلْنَا : مَا هَذِهِ الْأَلْعَازُ ؟ وَهَلْ لِلْحُبِّ مَتْنٌ كَقَوْلِهِمْ : حُرُوفُ الْقَلْقَلَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ
(قُطْبُ جَدٍ) ، وَحُرُوفُ الزِّيَادَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (سَأَلْتُمُونِيهَا) ؟

فَتَضَاحَكِ (النَّبِيعَةُ) وَقَالَ [مَنْ الْوَافِرُ] :

تَكَاثَرَتِ الْأَطْبَاءُ عَلَى خَرَاشِ

فَلِكَيْلَا نَنْسَى . . . إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ هُوَ بَدْءُ أَسْمٍ ، أَلْفَاءُ فَاطِمَةَ ، وَاللَّامُ لَيْلَى ، وَالْوَاوُ
وَرْدَةً ، وَالرَّاءُ رَبَّابٌ ، وَالْدَّالُّ دَلَالٌ ، وَالزَّايُ زَكِيَّةٌ ، وَالْهَاءُ هِنْدٌ ، وَالرَّاءُ رَبَّابٌ . . .

قُلْنَا : رَبَّابٌ قَدْ مَضَتْ فِي (وَرْدٍ) .

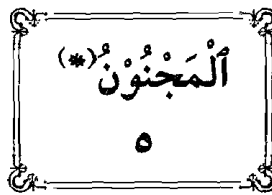
قَالَ : كُنَّا تَهَاجِرُنَا مُدَّةً ثُمَّ اضْطَلَحْنَا بَعْدَ هِنْدٍ . . .

قُلْتُ : هَكَذَا « التَّوَابِعُ » فَإِنَّ رَجُلًا أَدْبِيًّا كَانَتْ كُنْيَتُهُ (أَبَا الْعَبَّاسِ) فَلَمَّا « نَبَغَ » صَيَّرَهَا (أَبَا الْعَيْرِ) ^(١) وَفَتَقَ لَهُ بُبُوغُهُ أَنْ يَجْعَلَهَا تَارِيخًا يَعْرِفُ مِنْهَا عُمُرَهُ . قَالُوا : فَكَانَ يَزِيدُ فِيهَا كُلَّ سَنَةٍ حَرْفًا حَتَّى مَاتَ وَهِيَ هَكَذَا :

أَبُو الْعَيْرِ طَرَدَ طِيلَ طَلِيرِي بَكَ بَكَ بَكَ

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) اسْتَحَقَّتْهُ الطَّرْبُ لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةَ إِلَى رِيَابٍ ؛ وَمِنْ طَبَعِ الْمَجْنُونِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَقَ نَفْسُهُ ، فَإِنَّ قُوَّةَ الضَّبْطِ فِي عَقْلِهِ إِمَّا مَعْدُومَةٌ وَإِمَّا مُخْتَلَّةٌ ؛ وَكُلُّ وَجْهِ تَخَيَّلَ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي الْعَالَمِ ، فَإِذَا تَوَهَّمَ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمُضِي مُتَفَرِّدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَرٌ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْأُخْرَى ، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِالْوَاقِعِ ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ تُحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ ، لَا كَمَا تَتِمَّلُ فِيمَا حَوْلَهُ .

فَيَبِينُ كُلُّ مَجْنُونٍ وَبَيِّنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاعُهُ الْمُتَدَجِّي بِالْغَيُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، لَا تَزَالُ تَعْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ اخْتِلَالِ بَعْضِ الْمَرَاكِزِ الْعَصَبِيَّةِ فِيهِ ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهِذَا الْاِخْتِلَالِ ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ .

(١) { الْعَيْرُ : الْحِمَارُ ، وَنَكَتِي بَعْضُ الْحَنْفَى (أَبُو الْبَقَرِ) قِيَّاسًا عَلَى (أَبُو الْعَيْرِ) } .

(*) « الرسالة » العدد : ١٢٩ ، ٢٧ شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٣ ديسمبر/كانون الأول

١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ٢٠٤٣ - ٢٠٤٧ .

وَمِنْ ذَلِكَ تَنَقَّلِبُ الْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلَامِ ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٌ تَأْتِي فِي عَقْلِ الْمَجْنُونِ كَالْفِصَّةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ ، وَبِذَلِكَ وَنَهَايَتُهُ ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا الشُّكُّ ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا التَّكْذِيبُ ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَيَتِمُّ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ؟ وَلِحَوَاسِّ الْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا الْكُونُ الْخَرِبُ الَّذِي فِي دِمَاغِهِ ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) : إِنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنَيْهِ مِنْظَارًا يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا ...

وَحَدَّثَنَا الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ الرَّافِعِيُّ قَالَ : إِنَّ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُون Lyon بِفِرْنَسَةِ نَابِغَةُ كِتَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ ، ذُكِرَتْ أَمَامَهُ قَبْصَرَةٌ رُوسِيَّةٌ وَخَبِرْتُ مَقْتَلَهَا ، فَاحْفَظْهُ هَذَا وَأَرْمُضْهُ وَقَالَ : يَا وَيْحَهُمْ ! كَذَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيَّ ... فَسَأَلَهُ الدُّكْتُورُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : كَانَ مِنْ خَبَرِ الْقَبْصَرَةِ أَنَّهَا رَأَتْني فَأَحْبَسَنِي ، وَعَلِمَتْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ يُمكنُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ قَلْبُهَا أَنِّي أَنَا رَجُلُهَا لَا الْقَبْصَرُ ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تَتَأَكَّدُ الْقَبْصَرُ وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَنْسَ مِنْهَا فَطَلَقَهَا ، فَحَمَلَتْ كُنُوزَهَا وَحِلَاهَا وَلَجَأَتْ إِلَى حَبِيبِهَا ، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ الْقَبْصَرِ وَلَمْ يُطِيقِ الْعَيْشَ بَعْدَهَا فَاتَّخَذَ ... ثُمَّ طَلَبَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لِمَا مَعَهَا مِنْ كُنُوزٍ ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ حَرِيزٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَخْرَجَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ ... كَيْلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَقَّبُهُ فَيَعْلَمَ مَقَرَّهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَى الْمَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ ... فَقَدْ يَرَى مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَعْلِبُهُ الشُّوْقُ مَرَّةً عَلَى « عَقْلِهِ » ... فَيَلْمِزُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى أَنْ يَرَاهُ مَنْ يَنْبِئُ بِذَلِكَ ، فَتَفْتَضِحُ الْحَبِيبَةُ وَتُؤْخَذُ مِنْهُ .

قَالَ : وَإِنَّ الْقَبْصَرَةَ هِيَ تَخْطِئُ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ فَتُرَاسِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ بِالْأَسْلِكِيِّ رَسَائِلَ تَقْعُ مِنَ الْجَوِّ فِي دِمَاغِهِ فَيَقْرُؤُهَا وَخَدُهُ ، وَإِنَّ أَخَوْفَ مَا يَخَافُهُ أَنْ يَغْلِبَهَا جُنُونُ الْحُبِّ يَوْمًا ، فَتَطِيشُ طَيْشَ الْمَرْأَةِ ، فَتُرَوِّدُ فِي هَذَا الْمَارِسْتَانِ ... فَقَدْ تُقْتَلُ إِذَا رَأَاهَا الشُّيُوعِيُّونَ .

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَهَآكَ ^(١) (نَابِغَةُ) آخَرَ ثَبَّتَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ قَدْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « هُنَاكَ » بَدَلًا مِنْ : « هَاكَ » .

أَسْتَهَامَتْ بِهِ وَأَنَّهَا مُبْتَلَاةٌ فِي حُبِّهَا إِيَّاهُ بِجُنُونِ الْعَبِيرَةِ ، وَقَدْ تَنَامَتْ فِيهِ حَتَّى إِنَّهَا لَتَقْتُلُ نَفْسَهَا إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ لِصَاحِبِهَا هَوًى فِي أَمْرٍ آخَرَ . وَخَبَلَتْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ ، فَأَعْتَقَدَ أَنَّ حَبِيبَتَهُ مِنْ جُنُونٍ غَيْرَتَهَا وَافِعَةٌ بَيْنَ السَّلَامَةِ وَالْتَلَفِ ؛ ثُمَّ تَوَهَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ وَاشِيَا قَدْ أَعْلَمَهَا أَنَّ النِّسَاءَ أَفْتَنَ بِهِ ، فَطَارَ صَوَابُهَا ، فَهِيَ آتِيَةٌ إِلَيْهِ فِي الْمَارِسْتَانِ لِتُؤَيِّخَهُ وَتُسْفِي غَيْظَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ تَنْتَحِرَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ ... وَأَذَارَ (الْتَابِغَةِ) الْفِكْرَ فِي إِقْنَاعِهَا لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا بِالْغَيْبِ ... فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى مَقْنَعٍ تَسْتَقِنُ بِهِ الْمَرْأَةَ أَنَّ لَا أَرْبَ لِلنِّسَاءِ فِيهِ إِلَّا أَنْ ... فَفَعَلَ وَجَبَّ خِصْبَتَيْهِ بِيَدِهِ لِيَقْدَمَهُمَا بُرْهَانًا أَنَّهُ لَهَا وَحْدَهَا ...

* * *

قُلْنَا : وَطَرِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) لِذِكْرِ صَوَابِهِ وَجَمِيلَاتِهِ ، فَجَعَلَ يَتَرَتَّمُ بِهِذَا الشَّعْرِ [من البسيط] :

قَالُوا جُنَيْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
فَقَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » : مَا لَذَّةُ « الْخُبَيْرِ » إِلَّا لِلْمَجَانِينِ ...
فَضَحِكَ (الْتَابِغَةُ) : وَقَالَ : مَا أَسْحَفَكَ مَنْ أَحَقَّ . إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى فَقُلْ :
مَا لَذَّةُ (الْكُفْكِ) . أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْأَبْلَهَ لَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً خَيْرَ لَقَالَ : إِنَّهَا « ل . ح . م » .
وَلَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً لَحِمَ لَقَالَ : « ف . و . ل » ...

إِنَّهُ طِفْلٌ عُمُرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضَبُ الطِّفْلِ وَتَرْقُفُ وَحِمَاقَتُهُ ، وَفِيهِ كَذَلِكَ سُرُورُ الطِّفْلِ وَطَبِيبُهُ وَأَخْلَامُهُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ الطِّفْلِ ... وَهُوَ مِنَ الضَّعْفِ ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِنَايَةِ فِي حَيَاتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَالْبُرِّ بِهِ كَطِفْلِ صَغِيرٍ - بِحَيْثُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أحيانًا أَنِّي أُمُّهُ ...

قُلْنَا : وَتَسْتَسِي بِهِذِهِ الْحَالَةِ أَتَاكَ رَجُلٌ ؟

قَالَ : وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَتَهَمُونَنِي بِالنِّسْيَانِ ، وَهُوَ شَرَعًا جِهَةٌ مُلْزِمَةٌ لِلْحُكْمِ بِالْجُنُونِ . فَمَا النِّسْيَانُ إِلَّا الْكَلِمَةُ الْآخَرَى لِمَعْنَى الضَّعْفِ الْعَقْلِي ؛ وَضَعْفُ الْعَقْلِ هُوَ اللَّفْظُ الْآخَرُ لِمَعْنَى جُنُونِي ؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ مَا أَكْرَهُ مِنَ الْكَلَامِ .

قُلْتُ : لَا ! ! [إِنَّ] النَّسِيَانَ لَا يَكُونُ مِنْكَ نَسِيَانًا بِمَعْنَاهُ فِي الْمَجَانِينِ ، بَلْ بِمَعْنَاهُ فَيْتُكَ أَنْتَ مِنْ تَوَاتُبِ الْأَفْكَارِ النَّابِغَةِ وَتَرَاخُمِهَا فِي تَوَارِدِهَا عَلَى الْعَقْلِ . فَإِذَا تَوَاتَبَتْ وَتَرَاخَتْ كَانَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ يُنْسِيَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَّا الْقَوِيُّ النَّابِغُ حَقَّ نُبُوغِهِ ، فَيَجِيءُ كَالْمُنْقَطِعِ مِمَّا قَبْلَهُ ؛ فَيُحَسِبُ ذَلِكَ نَسِيَانًا وَمَا هُوَ بِهِ . وَقَدْ تَصَطَّلِحُ الْأَفْكَارُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الذَّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ النَّابِغَةُ مُسْرُورًا مَحْبُورًا يَرْقُصُ طَرَبًا . . . فَيَكُونُ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ تَجِيءَ كُلُّهَا مَعًا عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَنَاقُضِهَا ؛ فَيُحَسِبُ ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الذُّهُولِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ الْعِلَّةَ « النَّبُوغِيَّةَ » ؛ وَعُذْرُهُ جَهْلُ هَذِهِ الْعِلَّةِ ، وَهِيَ فِي دِلَالَةِ الْعَقْلِ لَيْسَتْ نَسِيَانًا وَلَا ذُهُولًا .

قَالَ : فَأَعْلِمْنِي كَيْفَ نَسِيَانِ الْمَجَانِينِ ، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أَذْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ الْعَجِيبَ فِيهِمْ ، وَلَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ يَقُوتُهُمْ مَا اسْتَدْنَى لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَقَرَّ وَحَصَلَ فِي عَقُولِهِمْ ؟

قُلْتُ : لَا يَكُونُ النَّسِيَانُ تُهْمَةً بِالْجُنُونِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ ثَلَاثٍ ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا الرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَخْفُوظَةُ :

فَأَمَّا الْأُولَى : فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ سَرِيًّا غَنِيًّا وَعُمَرُ حَتَّى أَذْرَكَهُ الْخَرْفُ ؛ فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَجْهِيزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ ، فَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ دَنَائِيرَ يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا ، وَدَنَائِيرَ أُخْرَى يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْقَبْرِ ، ثُمَّ قَالَ لِغُلَامٍ آخَرَ : ائْمِضْ إِلَيَّ صَاحِبِنَا وَغَاسِلِ مَوْتَانَا فَلَا تَفَادَعُهُ يَغْسِلُهَا .

قَالَ الْكَاتِبُ : فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي أَبْعَثْ خَلْفَ فَلَانَةٍ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تَغْسِلُهَا . قَالَ : يَا فَلَانُ ! مَا تَدْعُ عَقْلَكَ فِي حُزْنٍ وَلَا فَرَحٍ . كَيْفَ نُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ ؟

قَالَ الْكَاتِبُ : نَعَمْ تَأْذُنُ بِذَلِكَ .

قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا يَغْسِلُهَا إِلَّا فَلَانُ .

فَصَاقَ الْكَاتِبُ بِهِذَا الْحُمُقِ وَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ يَغْسِلُ رَجُلٌ أَمْرَأَةً ؟

قَالَ : وَإِنَّمَا أَمَكَ أَمْرَاءُ . . . ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْسَيْتُ . . .

وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ : فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ نَائِمًا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَخَرَجَتْ يَدُهُ مِنْ
الْفِرَاشِ فَبَرَدَتْ ، فَأَذْنَاهَا إِلَى جَسَدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَأَحَسَّ بَرْدَهَا فَأَيْقَظَتْهُ ، فَأَنْتَبَهَ فَرَعَا فَقَبَضَ
عَلَيْهَا بِيَدِهِ الْأُخْرَى وَصَاحَ : اللَّصُّوَصُ . اللَّصُّوَصُ . . . هَذَا اللَّصُّ قَدْ قَبَضْتُ عَلَيْهِ ،
أَذْرِكُونِي لِئَلَّا تَكُونَ فِي يَدِهِ حَدِيدَةٌ يَضْرِبُنِي بِهَا ، فَجَاوَزُوا بِالسَّرَاجِ ، فَوَجَدُوهُ قَابِضًا بِيَدِهِ
عَلَى يَدِهِ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّهَا يَدُهُ . . .

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ : فَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ رَجُلٍ قَدْ وَرِثَ نِصْفَ دَارٍ ، فَفَكَّرَ طَوِيلًا كَيْفَ تَخْلُصُ
الْدَّارُ كُلُّهَا لَهُ ثُمَّ اهْتَدَى إِلَى الْوَسِيلَةِ ؛ فَذَهَبَ إِلَى رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ أَنْ أُبَيْعَكَ حِصَّتِي
مِنَ الدَّارِ وَأَشْتَرِيَ بِشَمَنِهَا النِّصْفَ الْبَاقِي لِتَصِيرَ الدَّارُ كُلُّهَا لِي . . .

* * *

قَالَ (الْتَّابِغَةُ) : لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْجُنُونُ ، وَمَا يُذَكَّرُ مَعَ هَؤُلَاءِ مَجْنُونُ الْمَنِّ وَلَا
« غَيْرُهُ » . . .

فَقَالَ الْآخَرُ : تَاللهِ لَوْلَا أَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) يَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْجُنُونِ لَجَاءَ فِي
الْجُنُونِ بِمَا يَذْهَلُ « الْعُقُولُ » . . .

ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا التَّابِغَةُ يَتَحَفَّرُ لَهُ . . . ؛ فَأَسْرَعَ يَقُولُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » كُنْ حَدِثًا كَأَنَّكَ
غُرٌّ ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ . فَهَذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ
لَا نِسْيَانُ مَجَانِينِ .

قَالَ (الْتَّابِغَةُ) : وَلَكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ الشَّاعِرِ [مِنَ الْبَسِيطِ] :

مَا لَذَةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

فَمَا بَقِيَتْ مَعَ الْجُنُونِ لَذَّةٌ .

قُلْتُ : إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يُرِيدُ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ هُمْ مَجَانِينُ بِالْمَرَضِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْعَشَاقَ
الْمَجَانِينَ بِالْجَمَالِ ؛ وَجُنُونُ الْعَاشِقِ فِي هَذَا أَلْبَابِ كَعُيُوبِ الْعُظَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ ، وَهِيَ
عُيُوبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ الْعُظَمَةِ ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنْ الْعُيُوبِ .

قَالَ : فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْنَنَا آخَرَ يُفَسِّرُ ذَلِكَ الشَّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِي التَّمَثُّلُ بِهِ ؛ ثُمَّ فَكَّرَ وَهَمَّهُمْ ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرْقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ : أَصْنَعُ أَنْتَ أَوَّلَ ، وَسَأَتِّمُنُ « س . ع » . عَلَى شِعْرِي . وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْوَرْقَةَ .

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ : يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ هَكَذَا [من البسيط] :

قَالُوا جُنِثَتْ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعُشَاقَ أَثْقَلَ مِنْ فَقَرَّ تَحَكُّمَ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ
وَنَشَرَ « س . ع » . الْوَرْقَةَ فَإِذَا فِيهَا :

قَالُوا جُنِثَتْ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
إِنَّ الْعُيُوبَ عَنِ الْمَجْنُونِ دَافِعَةٌ بِأَنَّهُ « نَابِغٌ فِي الْقَرْنِ عَشْرِينَ » ...
وَصَحِّحْنَا جَمِيعًا ؛ فَقَالَ النَّابِغَةُ : أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا « س . ع » . إِنَّ مَنْ اتَّخَذَ الْمَجْنُونِ
عَلَى سِرٍّ وَقَالَ لَهُ : أَكْتُمَهُ ؛ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ : أَنْشُرْهُ ...

* * *

ثُمَّ قَالَ : وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ « س . ع » هَذَا « نَابِغَةً » ، وَلَكِنِّي سَأَجْعَلُهُ نَابِغَةً ، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أَصِيعُهُ وَلَا أُخِلُّ بِهِ . فَإِذَا اخْتَجَّتْ يَا « س . ع » إِلَى خِطَابِ رَثَانٍ تُلْقِيهِ فِي حَفْلِ عَظِيمٍ ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدُحُ بِهَا وَزِيرَ الْمَعَارِفِ ، فَالْجَأُ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأٌ لَكَ . وَمَتَى انْتَحَلْتُ شِعْرِي كُنْتَ عِنْدَ النَّاسِ الْمُتَنَبِّئِ أَوْ الْبُحْرِيِّ أَوْ ابْنِ الرُّومِيِّ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعَهُمْ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذْ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ ...

قُلْنَا : فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ ؟

قَالَ : إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ ، فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ إِلَّا يُعْجِبَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ . إِنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ » لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ الْأَحْسَنِ ، وَلَا يَقُولُ عَنْ نَابِغَةٍ هَذَا أَشْهَرُ ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ الْأَشْهَرِ .

قُلْتُ : كَانَ الدُّنْيَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَنْتَ فِيهَا الزَّاهِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُولُ فِي حُسْنِ هَذَا

أَحْسَنُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الشَّهْوَةِ ، وَلَا فِي نَعِيمٍ هَذَا أَطْيَبُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الطَّمَعِ ، وَلَا فِي مَالٍ هَذَا أَكْثَرُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الْحِرْصِ . وَأَحْسَبُكَ لَوْ كُنْتَ تَزَعَى غَنَمًا لَكُنْتَ الْحَقِيقُ فِي عَضْرِنَا بِقَوْلِ تِلْكَ الرَّاغِبَةِ الزَّاهِدَةِ : أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ .

قَالَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قُلْتُ : حُكِيَ عَن بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ فَكَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : يَا رَبِّ ! مَنْ زَوْجَتِي فِي الْجَنَّةِ ؟ فَأَرَيْ فِي مَنَامِهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّهَا جَارِيَةٌ سُودَاءُ فِي أَرْضٍ كَذَا . فَجَاءَ تِلْكَ الْأَرْضَ فَسَأَلَ عَنِ الْجَارِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَا هَذَا ؟ تَسْأَلُ عَنْ جَارِيَةٍ سُودَاءَ مَجْنُونَةٍ كَانَتْ لِي فَأَعْتَقْتُهَا ؟ قَالَ : وَمَاذَا رَأَيْتُمْ مِنْ جُنُونِهَا ؟ قَالَ : كَانَتْ تَصُومُ النَّهَارَ فَإِذَا أَعْطَيْنَاهَا فُطُورَهَا تَصَدَّقَتْ بِهِ ، وَكَانَتْ لَا تَهْدَأُ اللَّيْلَ وَلَا تَنَامُ ، فَضَجَرْنَا مِنْهَا .

قَالَ : فَأَيْنَ هِيَ ؟ قَالَ : تَزَعَى غَنَمًا لِلْقَوْمِ فِي الصَّخْرَاءِ .

فَذَهَبَ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ فِي صَلَاتِهَا ، وَنَظَرَ إِلَى الْغَنَمِ فَإِذَا ذُنُبٌ يَدُلُّهَا عَلَى الْمَرْعَى وَذُنُبٌ يَسُوقُهَا . فَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ صَلَاتِهَا سَلَّمَ عَلَيْهَا ، فَأَنْبَأَتْهُ أَنَّهُ زَوْجُهَا فِي الْجَنَّةِ وَأَنْبَأَهَا أَنَّهُ بَشَرٌ بِهَا ، ثُمَّ سَأَلَهَا : مَا هَذِهِ الذَّنَابُ مَعَ الْأَغْنَامِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ .

قَالَ (الْثَّابِتَةُ) : هَذَا كَذِبٌ لِأَنَّهُ عَجِيبٌ ، وَهُوَ عَجِيبٌ لِأَنَّهُ كَذِبٌ .

قُلْتُ : وَأَيُّ عَجِيبٍ فِي هَذَا ؟ إِنَّ الذَّنْبَ وَالشَّاءَ ، وَالْأَسَدَ وَالْغَزَالَ ، وَالْثُعْبَانَ وَالْعُصْفُورَ ، وَكُلَّ أَكَلٍ وَمَأْكُولٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، لَوْ هِيَ دَخَلَتْ فِي دَائِرَةِ الصَّلَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَانْتَضَمَتْ كُلُّهَا صَفًّا وَاحِدًا يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ . فَهَذِهِ الْجَارِيَةُ نَشَرَتْ رُوحَ الصَّلَاةِ وَالتَّقْوَى عَلَى كُلِّ مَا حَوْلَهَا مِنْ قَلْبِهَا الطَّاهِرِ الْمُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ ، فَوَقَعَ الذَّنْبُ مِنْهَا فِي دَائِرَةِ مِغْنَاطِيْسِيَّةٍ ، فَسُلِبَ وَخَشِيَّتُهُ وَرَجَعَ مُسَخَّرًا لِفِكْرَةِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ إِذْ تَجَانَسَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ بِمَا حَوْلَهَا ، وَأَنْسَجَمَ التَّوَعُّدُ وَالْتَوَعُّ فِي حَرَكَةٍ مُتَجَاوِيَةِ أَنْسَجَامِ الرَّجُلِ الْمِغْنَاطِيْسِيِّ هُوَ وَمَنْ يُتَوَمُّهُ فِي إِزَادَةٍ وَاحِدَةٍ وَفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ .

قَالَ (الْثَّابِتَةُ) : فَإِذَا دَخَلَ الذَّنْبُ مَسْجِدًا يَزْتَجُّ بِالْمُصَلِّينَ ، أَرَاهُ يَصُفُّ أَرْبَعَةً وَيَقِفُ

يَبْتَغِيهِمُ لِلصَّلَاةِ ، أَمْ يُصَلِّي صَلَاتَهُ الدُّنْيِيَّةَ فِي لَحُومِهِمْ ؟

قُلْتُ : وَأَيْنَ هُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بِحَقِيقَةِ الصَّلَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ بِهَا مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْكَوْنِ ، وَمِنَ الزَّمَنِ إِلَى الْأَبَدِ ، وَمِنَ الْأَسْبَابِ إِلَى مُسَبِّبِهَا ، وَمِمَّا فِي الْقَلْبِ إِلَى مَا فَوْقَ الْقَلْبِ ؟ إِنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُصَلُّونَ بِجَوَارِحِهِمْ وَيَبْتَغِيهِمْ وَبَيْنَ أَرْوَاحِهِمْ طُولَ الدُّنْيَا وَعَرَضُهَا ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَتَّصِلُ فِكْرُهُ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ ، كَمَا يَتَّصِلُ فِكْرُ اللَّصِّ بِيَدِهِ ، وَفِكْرُ الْعَاشِقِ بِعَيْنِهِ ، وَفِكْرُ الطِّفْلِ بِمَعِدَتِهِ . . . فَاسْمِعْهُمْ عِنْدَهُمُ الصَّلَاةُ ، وَحَقِيقَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمَا تَرَى .

قَالَ (الثَّابِتُ) : وَلَكِنَّهُ ذَنْبٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ الشَّاةَ لَا أَنْ يَزَعَاها ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا . وَقَالَ الْآخَرُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » رَعَى الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ ، وَلَمْ يَقُولُوا صَلَّى الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ ، فَلَا أَفْهَمُ شَيْئًا .

قُلْتُ : سَأَرِيدُكُمْ عَدَمَ فَهْمٍ . . . إِنْ قَلَبَ تِلْكَ الْمَرَاةَ الْعَظِيمَةَ الطَّاهِرَةَ مُتَّصِلًا بِاللَّهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ طَبَاعِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَا ظِلٌّ مِنْ ظِلَالِ الدُّنْيَا ؛ وَقَدْ تَجَلَّى فِيهِ سِرُّ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ السِّرُّ الَّذِي لَا يَطْعَمُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَلْبَسُ وَلَا يَشْتَبِي وَلَا يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ وَلَا يُخْرِزُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا طَبِيعَتُهُ أَشْوَاقُهُ الْكَوْنِيَّةُ ، وَاتِّصَالُهُ بِتَفَحَاتِ الْقُوَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْمُسَخَّرَةِ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ . فَانْتَشَرَتْ هَذِهِ الْمَوْجَةُ الْكَهْرَبَائِيَّةُ الْأَثِيرِيَّةُ حَوْلَ الْجَارِيَةِ مِنْ قَلْبِهَا ، وَجَاءَ الذَّنْبُ فَالْتَجَّ فِيهَا وَعَمَرَتْهُ الرُّوحَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ ، فَإِذَا هُوَ يَفْتَحُ عَيْنَهُ عَلَى كَوْنٍ غَرِيبٍ قَدْ تَجَلَّى السَّلَامُ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا قُوَّةُ أَمْرَةٍ أَمْرَهَا بِاتِّتِلَافٍ كُلِّ شَيْءٍ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاجْتِمَاعِ الْمُتَنَافِرِينَ فِي حَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ لَا فِي حَالَةٍ انْكَارٍ . فَصَارَ الذَّنْبُ مُسْتَقِظًا ، وَلَكِنَّهُ فِي رُوحِ النَّوْمِ ، وَشَلَّتْ فِيهِ الدُّنْيِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، فَإِذَا هُوَ يَخْمِلُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَطْفَارَ وَقَدْ أُنْسِيَ اسْتِعْمَالَهَا ، وَبَقِيَتْ حَرَكَتُهُ الْحَيَوَانِيَّةُ ، وَلَكِنْ تَعَطَّلَتْ بِوَاعِثِهَا فَبَطَلَ مَعْنَاهَا .

وَمِنْ كُلِّ ذَلِكَ اخْتَفَى الذَّنْبُ الَّذِي هُوَ فِي الذَّنْبِ ، وَبَقِيَ الْحَيَوَانُ حَيًّا كَكُلِّ الْأَحْيَاءِ ، فَنَاسَبَ الشَّاةَ وَفَرَعَ إِلَيْهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ ^(١) الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا عِلَاقَةً جِسْمٍ الْأَكِلِ بِجِسْمِ الْأَكِيلَةِ ، بَلْ

(١) الْأَصْلُ : « تَمُذُّ » بَدَلًا مِنْ : « تَكُنُّ » .

عَلَاقَةُ الرُّوحِ الْحَيِّ بِرُوحِ حَيٍّ مِثْلِهِ ^(١) .

* * *

قَالَ (الثَّابِغَةُ) : أَمَّا أَنَا ، فَقَدْ فَهِمْتُ ، وَلَكِنْ هَذَا الْمَجْنُونُ لَمْ يَفْهَمْ . اكْتُبْ يَا « س . ع » : جَلَسَ نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ مَجْلِسَةً لِلْفَلَسَفَةِ عَلَى غَيْرِ إِعْدَادٍ وَلَا تَمَكُّنٍ ، وَبِدُونِ كُتُبِ الْبَيِّنَةِ . . . وَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ لِرَأْيِهِ وَأَذْعَى لِأَنَّهُ يَتَوَقَّرُ عَلَى الْإِمْلَاءِ بِكُلِّ « مَوَاهِبِ الْعَقْلِيَّةِ » ؛ وَلَمَّا أَنَّ فَكَّرَ الثَّابِغَةُ وَأَعْطَى النَّظَرَ حَقَّهُ وَجَمَعَ فِي عَقْلِهِ الْفَذَّ جَزَالَةَ الرَّأْيِ إِلَى قُوَّةِ التَّفَنُّنِ وَالْإِبْتِكَارِ ، قَالَ مُزْتَجِلًا : إِنَّ فِلْسَفَةَ الذُّنْبِ وَالشَّاةِ حِينَ لَمْ يَأْكُلْهَا وَلَمْ تَنْطَحْهُ ، هِيَ بِالنَّصِّ وَبِالْحَرْفِ كَمَا قَالَ أُنْسَادُ نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ . . .

(حَاشِيَةٌ) : وَإِنَّ مَجْنُونًا لَمْ يَفْهَمْ هَذِهِ الْفِلْسَفَةَ .

فَأَمْتَعَضَ الْآخَرُ وَقَالَ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » [من البسيط] :

وَبَاتَ يَفْدَحُ طُولَ اللَّيْلِ فِكْرَتَهُ وَفَسَّرَ الْمَاءَ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالْمَاءِ
فَقَالَ (الثَّابِغَةُ) : وَيْلَكَ يَا أَبْلَهُ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ نَقُطْوِيهِ أَوْ سَيَّوِيهِ لَمَا كُنْتُ عِنْدِي إِلَّا
جَحْشَوِيهِ أَوْ بَغْلَوِيهِ . . .

(١) رَوَى الصُّنُفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قِصَّةَ حَاكِمٍ إِنْكِلَبِيٍّ كَانَ قَدْ أَقْنَصَ ذَنْبًا هِنَاغَارِيًا وَشَدَّهُ فِي سِلْسِلَةٍ وَجَعَلَهُ فِي حِدَيْقَةِ دَارِهِ إِلَى أَنْ يَرَى فِيهِ رَأْيًا ؛ وَكَانَ لِلْحَاكِمِ طِفْلٌ صَغِيرٌ أَعْجَبَهُ الذُّنْبُ وَمَنْظَرُهُ الْوَحْشِيُّ ، فَتَرَبَّصَ إِلَى اللَّيْلِ ، فَلَمَّا اسْتَقْبَلَ أَهْلُهُ نَوْمًا أَنْسَلَ مِنْ حُجْرَتِهِ وَهَبَطَ الْحَدِيقَةَ وَجَاءَ إِلَى الذُّنْبِ فَوَثَبَ هَذَا بِتَحَفُّزٍ لَا فِتْرَاسِهِ ؛ وَلَكِنْ الطِّفْلُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ الذُّنْبَ كَالْكَلْبِ فَلَمْ يَضْطَرِبْ وَلَمْ يَخَفْ وَلَمْ يُدَاخِلْهُ الشُّكُّ ؛ وَمَضَى إِلَى الْوَحْشِ مَسْرُورًا مُطْمَئِنًّا فَنَازَلَهُ مِنْ شَعْرِهِ وَجَعَلَ يَمْسَحُهُ بِيَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ وَيَغْبِثُ بِهِ ، وَالذُّنْبُ مَذْهُوشٌ ذَاهِلٌ ، ثُمَّ سَكَنَ وَأَسْتَأْسَرَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مَعَ جَزَرٍ مِنْ أَجْرَائِهِ لَا مَعَ طِفْلِ آدَمِيٍّ ؛ وَجَذَبَهُ الطِّفْلُ مِنْ رَقَبَتِهِ حَتَّى أَضْجَعَهُ ثُمَّ أَخَذَهُ وَسَادَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَنَامَ . . . وَاقْتَدَتِ الطِّفْلُ مَرْيَتَهُ فَلَمْ تَجِدْهُ فِي فِرَاشِهِ ، فَتَبَهَّتْ أَهْلُهُ ، وَذَهَبُوا يَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي غُرَفِ الدَّارِ ، ثُمَّ نَزَلُوا إِلَى الْحَدِيقَةِ فَبَصُرُوا بِهِ نَائِمًا وَرَأْسَهُ عَلَى الذُّنْبِ ، وَخَافُوا إِذْ عَاجَ الْوَحْشِ قَرْمُوهُ بِالرَّصَاصِ فَقَتَلُوهُ وَقَامَ الطِّفْلُ يَبْكِي عَلَى صَدِيقِهِ الْوَفِيِّ . . .

هَذَا هُوَ أَثَرُ الرُّوحِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى يَقِينِهَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ مِثْلُ هَذَا الْيَقِينِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ وَكُلُّ مَرُوضِي الْوَحْشِ يَغْلُمُونَ أَنَّ أَوَّلَ وَآخِرَ مَا يُحِثُّونَهَا بِهِ هُوَ تَرَعُ الْخَوْفِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ وَحْدَهُ سِلَاحُ النَّفْسِ فِي النَّفْسِ .

لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْكَلَامَ فِي تِلْكَ الْفَلَسَفَةِ طَرِيقًا نَزْهًا جَمِيلًا حَفَّتْهُ الْأَشْجَارُ وَالْأَرْهَارُ عَنْ جَانِبَيْهِ، وَأَنْدَفَعَتْ فِي سَوَائِهِ (تُمِيلَاتٌ) [أَي: سَيَّارَاتُ] الْأَفْكَارِ خَاطِفَةً كَالْبَرْقِ . فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أَنْتَ أَنْتَهَيْتَنَا مِنْ سَخَافَتِكَ إِلَى طَرِيقِ حَجَرِي تَقَعُّعٍ فِيهِ عَرَبَاتُ الثَّقَلِ تَجْرُهَا الْبِغَالُ الْبَطِينَةُ .

فَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ يَنْتَدِرُ إِلَيْهِ : مَا أَرَدْتُ وَاللَّهِ مَسَاءَتَكَ ، وَلَوْ أَرَدْتُهَا لَقُلْتُ : وَفَسَّرَ الْمَاءَ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالسَّبَرِ [أَي : الْكُحُولِ] فَهَذَا هُوَ الْخَطَأُ ، أَمَّا تَفْسِيرُ الْمَاءِ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالْمَاءِ فَهُوَ صَحِيحٌ .

قَالَ (التَّابِعَةُ) : وَلَكِنَّهُ تَفْسِيرٌ مُفْرَطُ السَّقُوطِ كَتَفْسِيرِ الْمَجَانِينِ ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنِّي مَجْنُونٌ . قُلْتُ : كَلَّا ، إِنَّ تَفْسِيرَ الْمَجَانِينِ يَكُونُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ ، كَالَّذِي حَكَاهُ الْجَاحِظُ قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ : ضَرَبْنَا السَّاعَةَ زَنْدِيْقًا . قَالَ الْآخَرُ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَلْزَنْدِيْقًا ؟ قَالَ : الَّذِي يَقْطَعُ الْمِزْنَيقَا . قَالَ : وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقْطَعُ الْمِزْنَيقَا ؟ قَالَ : رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ التَّيْنَ بِالْحَلِّ

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وَطَالَ الْمَجْلِسُ بِنَا وَبِالْمَجْنُونَيْنِ ، وَالْكَلَامُ عَلَى أَنْحَائِهِ يَنْدَفِعُ مِنْ وَجْهِ إِلَى وَجْهِ ، وَيَمُرُّ فِي مَعْنَى إِلَى مَعْنَى ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أُبْلَغَ بِهِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي جَمَعْتُ مِنْ أَجْلِهَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ ، بَعْدَ مَا أَنْطَلَقْنَا فِي الْقَوْلِ وَانْفَتَحَ الْفُفْلُ الْمَوْضُوعُ عَلَى عَقْلِ كُلِّ مِنْهُمَا .

وَكَانَ قَدْ مَرَّ فِي التَّدْيِي بَائِعُ رِوَايَاتِ مُتَرْجِمَةِ « بُولِيسِيَّةٍ وَغَرَامِيَّةٍ وَلُصُوصِيَّةٍ ! » يَحْمِلُ الرَّجُلُ مِنْهَا مَرْبَلَةً أَخْلَاقِي أَوْرَبِيَّةً كَامِلَةً لِيَنْفُضَهَا فِي نَفُوسِ الْأَحْدَاثِ مِنْ فِتْيَانِنَا وَفَتَيَاتِنَا ،

قُلْتُ (لِنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) : أَتَقْرَأُ الرِّوَايَاتِ ؟

قَالَ : لَا ، إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ لَمْ أَعَاوِدْ ، إِذْ جَعَلْتَنِي الرِّوَايَةَ رِوَايَةً مِثْلَهَا .

قُلْنَا : هَذَا أَغْجَبَ مَا مَرَّ بِنَا مُنْذُ الْيَوْمِ ، فَكَيْفَ صِرْتَ رِوَايَةً ؟

قَالَ : أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ طَبِيعَةَ التَّوَابِغِ ، إِذْ لَيْسَ لَكُمْ حِشْمُهُمُ الْمُزْهَفُ ، وَلَا طَبْعُهُمُ الْمُسْتَحْكِمُ ، وَلَا خَصَائِصُهُمُ الْغَنِيَّةُ ، وَلَا خَوَاطِرُهُمُ الْمُنْعَلِّقَةُ بِمَا فَوْقَ الطَّبِيعَةِ .

قُلْتُ : نَعَمْ أَعْرِفُ ذَلِكَ ؛ وَمَا مِنْ (نَابِغَةٍ) إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ عَلَى طَرَفٍ مِمَّا هُنَا وَطَرَفٍ مِمَّا هُنَاكَ ، فَهُوَ خَرَّاجٌ وَلَاجٌ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ ؛ وَلَهُ نَفْسٌ مُرَكَّبَةٌ تَرْكِبُهَا عَلَى نَوَامِيسٍ مَعْرُوفَةٍ وَأُخْرَى مَجْهُولَةٍ ؛ فَهِيَ تَأْخُذُ مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَعًا ، وَيَخْصُرُهَا الْمَكَانُ مَرَّةً وَيُفْلِتُهَا مَرَّةً ، وَتَكُونُ أَحْيَانًا فِي زَمَانِ الْأَرْضِ ، وَأَحْيَانًا فِي زَمَنِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْقَمَرِ فَصَاعِدًا ... وَلَكِنْ ...

فَقَطَعَ عَلَيَّ وَقَالَ : أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُولُ الَّتِي تَخْصُرُ مِنْ يُسْمُونَهُمُ الْعُقَلَاءَ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، لَا تَوْجِدُ أَهْلَهَا إِلَّا الْهُمُومُ وَالْأَخْزَانُ ، وَالْمَطَامِعُ السَّافِلَةُ ، وَالْأَفْعَالُ الدَّنِيَّةُ ، فَإِنَّهُمْ يَعِيشُونَ فَوْقَ التُّرَابِ .

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَإِذَا عَاشُوا فَوْقَ التُّرَابِ فَبِاضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ مَعَانِي التُّرَابِ فَوْقَهُمْ وَتَخْتَهُمْ وَمِنْ حَوْلِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلْيَسُوا يَفْطَمُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَّا عُمَرًا تَرَابِيًّا فِي كُلِّ مَعَانِيهِ وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُقَيَّدُونَ تَقْيِيدَ الْمَجَانِينِ ، غَيْرَ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَسَلَسِلَهُمْ عَقْلِيَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ ؛ وَبِتَغْلِيلِهِمْ تَغْلِيلَ الْمَجَانِينِ يُسْمَوْنَ أَنْفُسَهُمْ عُقَلَاءَ ، وَأَعْقَلُهُمْ أَتْقَلُهُمْ فَيُودَا ، وَهَذَا مِنَ الْغَرَابَةِ كَمَا تَرَى .

قُلْتُ : نَعَمْ ، أَمَّا الْعُقَلَاءُ بِحَقِيقَةِ الْعَقْلِ ، فَهُمْ الَّذِينَ يَضْحَكُونَ عَلَى هَذُلَاءِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، إِذْ كَانُوا فِي حَالِ كَحَالِ الْمُنْطَلِقِ مِنَ الْمُقَيَّدِ ، وَفِي مَوْضِعٍ كَمَوْضِعِ الْمُعَافَى مِنَ الْمُبْتَلَى . وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَفَوْقَ هَذَا وَذَاكَ ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ السَّعَادَةَ ، إِذْ لَيْسَ لَهُمُ الْعَقْلُ الضَّاحِكُ

السَّاحِرُ الْعَابِثُ الَّذِي خُصَّ بِهِ التَّوَابِغُ وَكَانَ الْأَوْحَدُ فِيهِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) .

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَإِذَا مَلَكُوا السَّعَادَةَ لَمْ يَشْعُرُوا بِهَا ؛ أَمَّا (التَّوَابِغُ) فَقَدْ لَا يَمْلِكُونَهَا ، وَلَكِنْ لَا يَفُوتُهُمُ الشُّعُورُ بِهَا أَبَدًا فَيَجِئُهُمُ الْفَرَحُ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ مَا دَامَ لَهُمُ الْعَقْلُ الصَّاحِكُ السَّاحِرُ الْعَابِثُ الَّذِي دَابَّهُ أَبَدًا أَنْ يَنْسَى لِيَضْحَكَ ، وَلَا قَانُونُ لَهُ إِلَّا إِرَادَةُ صَاحِبِهِ ، عَلَى مَشِئَتِهِ صَاحِبِهِ ، لِمَنْفَعَةِ صَاحِبِهِ . وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَهَمُّ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ ؛ أَنَّ أَعْظَمَ خَصَائِصِ هَذَا الْعَقْلِ الصَّاحِكِ السَّاحِرِ الْعَابِثِ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ صَاحِبِهِ مَا لَا يُحِبُّ وَيُجَبِّئُهُ أَنْ يَخْسَرَ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لِذَلِكَ يَجْعَلُ حِسَابَهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ حِسَابًا يَهُودِيًّا لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِنِجِ خَمْسِينَ فِي الْمِئَةِ ...

قُلْتُ : نَعَمْ ، وَهُوَ دَائِمًا كَالطُّفْلِ ؛ وَمَا أَظَرَفَ بِلَاهَةِ الطُّفْلِ وَمَا أَجْدَاهَا عَلَيْهِ ، إِذْ يَضَعُ بِلَاهَتَهُ دَائِمًا فِي أَرْوَاحِ الْأَشْيَاءِ وَأَسْرَارِهَا ، فَتَخْرُجُ بِلَهَاءِ مِثْلِهِ ، وَتَقْلِبُ لَهُ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا أُمُّ تَضَاحِكِ ابْنِهَا وَتَلَاعِبُهُ . وَلَكِنْ ...

قَالَ : وَلَكِنْ هَذَا مَبْلَغٌ لَا تَبْلُغُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا شُدُودًا فِي أَفْرَادِهَا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ (كِتَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) .

قُلْتُ : نَعَمْ (وَلَكِنْ) كَيْفَ صَارَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) رِوَايَةً^(١) حِينَ قَرَأَ الرِّوَايَةَ !

قَالَ : هَذِهِ نُكْتَةُ التَّبُوغِ ؛ فَلَوْ أَنَّ مُؤَلِّفَهَا كَانَ نَابِغَةً مِثْلَنَا يَتَلَقَّى فِي نَفْسِهِ وَخِي الْأَثِيرِ وَإِشَارَاتِ الرُّوحِ الْأَعْظَمِ ؛ لَعَلِمَ مِنَ الْغَيْبِ أَنَّ (نَابِغَةَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ) سَيَقْرَأُ رِوَايَتَهُ ، فَكَانَ يَتَحَرَّى مَعَانِي غَيْرَ مَعَانِيهِ ، وَيَتَوَخَّى بِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَضْعًا^(٢) آخَرَ لَا تَكُونُ فِيهِ حَبِيبَةُ خَائِنَتُهُ ، وَلَا لِيَصْ عَارِمٌ ، وَلَا قَاتِلُ سَفَاحٍ ، وَلَا سِجْنٌ مُظْلِمٌ ، وَلَا مَحْكَمَةٌ تَقُولُ حَيْثُ وَحَيْثُ ...

قُلْتُ : وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حَبِيبَةٍ خَائِنَةٍ فِي الْوَرَقِ ، وَلِصِّ بَيْنَ الْحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ ، وَقَاتِلِ لَا يَقْتُلُ إِلَّا كَلَامًا ، وَسِجْنٍ وَمَحْكَمَةٍ عَلَى الصَّحِيفَةِ لَا عَلَى الْأَرْضِ ؟

قَالَ : هَذِهِ نُكْتَةُ التَّبُوغِ ، فَمَا اسْتَوْعَبْتُ الْقِصَّةَ حَتَّى عَمَرْتَنِي أَشْخَاصُهَا ، وَأَفْحَمْتُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « رِوَايَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « رِوَايَةٌ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَضْعًا » بَدَلًا مِنْ : « وَضْعًا » .

مِنْهَا عَلَى هَوْلِ هَائِلٍ ، فَخَانَتَنِي الْخَائِثَةُ لَعَنَهَا اللَّهُ . . . وَلَوْلَا خَوْفُ السَّجَنِ وَالْمَحْكَمَةِ لَقَتَلْتُهَا أَشْنَعَ قِتْلَةٍ وَمَثَلْتُ بِهَا أَفْجَحَ تَمَثِيلٍ . وَيَحَ الْخَائِثَةُ كَيْفَ اسْتَمَالَهَا ذَلِكَ الدَّمِيمُ الطَّوِيلُ الْعِمْلَاقُ الْمَشْبُوحُ الْعِظَامِ الْمَفْتُونُ الْعَضَلِ ؟ وَلَكِنِّي لَسْتُ عِمْلَاقًا وَلَا مَبْنِيًا بِنَاءِ الْحَائِطِ ، ثُمَّ كَانَ مَجْنُونًا بِشَهَوَاتِهِ جُنُونُ الْفِيلِ الْأَهَائِجِ ، وَكُنْتُ فِي شَهَوَاتِي عَاقِلًا عَقْلَ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ كَانَ غَنِيًّا غِنَى الْجُهَالِ ، وَكُنْتُ فَقِيرًا فَقَرَ الْعُلَمَاءِ . وَالنِّسَاءُ ؛ قَبَّحَ اللَّهُ النِّسَاءَ . إِنَّهُنَّ زِينَةُ تَطْلُبُ زِينَةَ مِثْلَهَا . وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَمْنَحَ وَجْهَهَا لِلْفَرْدِ يُعْبَلُهُ إِذَا كَانَ الذَّهَبُ يَسَاقُطُ مِنْ قُبُلَاتِهِ . أَمَّا مَنْ كَانَ مِثْلِي ، أَمْوَالُهُ الشَّبَابُ وَالْجَمَالُ وَالْعَقْلُ وَالشَّبُوحُ ، فَهُوَ مُفْلِسٌ عِنْدَهُنَّ أَفْلَاسُ الْفَرْدِ فِي الْغَابَةِ ، فَهُوَ عِنْدَهُنَّ قِرْدٌ لِهَذِهِ الْمُشَابَهَةِ .

قُلْتُ : هَذَا لَيْسَ عَجِيبًا فَإِنَّ اللُّغَوِيِّينَ يُجْرُونَ عَلَى الشَّيْءِ اسْمَ مَا يُقَارِبُهُ فِي الْمَعْنَى .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ : «مِمَّا حَفِظْنَاهُ» أَنَّ اللُّغَوِيِّينَ يُجْرُونَ عَلَى الشَّيْءِ مَا يُقَارِبُهُ فِي الْمَعْنَى . . .

فَقَرَّبَدَ وَجْهَهُ (النَّابِغَةُ) غَضَبًا وَقَالَ : أَيَّيَّ يَلْعَبُ هَذَا الْمَجْنُونُ ؟ إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ اللُّغَوِيِّينَ يُسْمُونَنِي قِرْدًا ، فَهَاتُوا الْقَوَامِيسَ [أَيُّ : الْمَعَارِجِ] كُلَّهَا وَارْجِعُوا إِلَى مَادَّةِ (قِرْد) وَمَادَّةِ (نَابِغَةُ) . . . سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَهْيَا الصَّبِيِّ الْمَعْمَرُ . . . أَلَا فَدَعُونِي أُودِّبُهُ أَدَبَ الصَّبِيَّانِ ، فَإِنَّ اللَّطْمَةَ الْقَوِيَّةَ عَلَى وَجْهِ الطُّفْلِ الْمُكَابِرِ فِي حَقِيقَةٍ ، تُلْمِسُهُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُكَابِرُ فِيهَا إِذْ تُدْخِلُهَا إِلَى عَقْلِهِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ . . .

قَالَ « أ . ش » : أَنْتَ قُلْتَ ، لَاهُو . عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ قِرْدًا أَبَدًا إِلَّا عِنْدَ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ فَاتِنَةٍ مُتَحِيلَةٍ مُتَمَاجِنَةٍ ، قَدْ تَضَعُ الْبَرْدَةَ عَلَى ظَهْرِ الْأَمِيرِ وَتَجْعَلُهُ حِمَارَهَا ، فَيُعْجَبُ الْأَمِيرُ أَنْ يَكُونَ حِمَارَهَا . وَلَسْتَ قِرْدًا مَعَ قِرَادٍ إِلَى جَانِبِ عَنَزٍ وَكَلْبٍ . . .

قَالَ : الْآنَ عَلِمْتُ السَّبَبَ ، فَإِنَّ الْخَائِثَةَ كَانَتْ مُتَحِيلَةً مُؤَلِّفَةً كُتُبَ رِوَايَاتٍ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُوَلَّفُ الْكُتُبَ ، غَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ تُوَلَّفَ الرَّجُلُ أَيْضًا ، وَتَجْعَلُهُ قِصَّةَ { هُوَ } فِيهَا قِرْدٌ . . . وَهَذَا إِذَا كَانَتْ جَمِيلَةً كَامِرَةً الرَّوَايَةِ . أَمَّا إِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، أَوْ عَجُوزًا مَجْمُوعَةً مِنَ السَّنِينِ ؛ فَهَذِهِ وَهَذِهِ كُلُّ أَيَّامِهَا كَيَوْمِ الْأَحَدِ عِنْدَ النَّصَارَى . . . يَوْمٌ لِلْعَطَلَةِ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا مُسَاوَمَةٌ . هَذِهِ وَهَذِهِ كِلَاهُمَا تَجْعَلُ الرَّجُلَ كَالْمَاءِ فِي سَبِيلِ التَّجْمُدِ . . . لَا يَشْتَعِلُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْتَعِرَ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَخْتَرِقَ .

وَمُؤَلَّفَةُ الْكُتُبِ لَا يَكُونُ وَجْهَهَا إِلَّا إِحْدَى وَرَبِيعَتَيْنِ : فَأَمَّا جَمِيلَةٌ ، فَوَجْهَهَا وَثِيقَةٌ بِأَنَّ لَهَا دُيُونًا عَلَى الرِّجَالِ ؛ وَإِمَّا غَيْرَ جَمِيلَةٍ ، فَوَجْهَهَا (مُخَالَصَةٌ) مِنْ كُلِّ الدُّيُونِ ...
قُلْنَا : هَذَا فِي الْحَاثِيَةِ ، فَكَيْفَ سَرَقَكَ اللَّصُّ وَلَسْتَ غَنِيًّا ؟

قَالَ : هَلْذِهِ هِيَ نُكْتَةُ الثُّبُوحِ ؛ وَفِي الثُّبُوحِ أَشْيَاءٌ لَا يَنْكَشِفُ تَفْسِيرُهَا ، وَلَيْسَ فِي جَهْلِهَا مَضَرَّةٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَجَهْلٌ لَا يَضُرُّهُ هُوَ عِلْمٌ لَا يَنْتَفَعُ ، لَكِنَّهُ عِلْمٌ . وَالْبَحْثُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِ (الطَّابِعَةِ) هُوَ كَالْبَحْثِ عَنْ سِرِّ الْحَيَاةِ فِيهِ ، إِذْ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ تِلْكَ بِسِرِّ الْحَيَاةِ لَا بِسِرِّ الْعَقْلِ ، أَيْ : بِالْعَقْلِ الْخَاصِّ بِهِ وَخَدَهُ لَا بِالْعَقْلِ الطَّبِيعِيِّ الْمَشْتَرَكِ بَيْنَ النَّاسِ .

* * *

قُلْتُ : وَمِنْ عَجَائِبِكَ أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ الرِّوَايَاتِ ، وَلَكِنَّكَ مَعَ ذَلِكَ تُؤَلِّفُهَا ...

قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ لَيَكُونُ ، وَإِنْ لَمْ أُؤَلِّفْهَا أَنَا تَأَلَّفَتْ هِيَ لِي . فَإِذَا تَقَدَّمَ اللَّيْلُ وَتَامَ النَّاسُ جَمِيعًا انْتَبَهْتُ أَنَا وَخَدِي لِرِوَايَةِ الْعَالَمِ فَارَأَيْ مَا شِئْتُ أَنْ أَرَى . وَفِي ضَوْءِ النَّهَارِ أَجِدُ النَّاسَ عُقْلَاءَ وَلَكِنِّي فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ أَبْصِرُهُمْ مَجَانِينَ ، فَهَذَا اللَّيْلُ بُرْهَانُ الطَّبِيعَةِ عَلَى جُنُونِ النَّاسِ وَضَعْفِ عَقُولِهِمْ إِذْ هُوَ يُبَيِّنُ حَاجَةَ هَذِهِ الْعُقُولِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّسْيَانِ الْأَبْلَهِ التَّامِّ لَوْلَاهُ مَا عَقِلْتُ فِي نَهَارِهَا وَلَا اسْتَفَامَ لَهَا أَمْرٌ .

يُضَرِّعُ النَّاسُ فِي اللَّيْلِ صَرَخَةَ الْمَجَانِينَ فَيَغْمِضُونَ أَعْيُنَهُمْ وَلَا يَرُونَ شَيْئًا . أَمَّا أَنَا فَارَأَيْ الْعَالَمَ فِي اللَّيْلِ مَسْرَحًا هَزَلِيًا يَضْحُكُ بِالصُّحُكِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَحْمَقِ الَّذِي يَقْطَعُ سَرَاةَ نَهَارِهِ ، وَهُوَ مُعْتَقِدٌ أَنَّهُ قَابِضٌ عَلَى الْوُجُودِ بِالْأَعْيُنِ وَالْأَذَانِ وَالْأَنَافِ ... أَتَيْنَ رَأَيْتُ الْأَسَدَ بِعَيْنِكَ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ وَسَمِعْتَ فِي أُذُنِكَ زَيْتَرَهُ ، أَدْعَيْتِ الدَّغْوَى الْعَرِيضَةَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مَلَكَتَهُ وَقَبَضْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَذَرِي فِي هَذَا أَنَّكَ كَالْمَعْتَوَةِ إِذَا قَبِضَ عَلَى الظِّلِّ بِيَدِهِ ، وَصَاحَ : هَاتُوا الْحَبْلَ لِأَقْيَدَهُ ، لَا يَفْلِتُ ... ؟

قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ رِوَايَتِكَ فَأَخْرِجْ لَنَا فَضْلًا مِنَ الرِّوَايَةِ .

قَالَ : أَيُّمَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ، أَنْ أَكْتُبَ أَوْ أُمَثِّلَ ؟

قُلْنَا : بَلِ التَّمَثِيلُ أَحَبُّ إِلَيْنَا .

فَنَظَرَ إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرَ وَقَالَ : إِنَّ الْمَجْنُونُ فِي طَبِيعَتِهِ يُنْبِغُ مِنَ الْأَشْخَاصِ يَفِضُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، كَيْبُوعِ الْمَاءِ يَسُخُّ الدَّفْعَةَ بَعْدَ الدَّفْعَةِ ، فَهَذَا الْمَسْرُوحُ ، وَالرَّوَايَةُ أَلَا نِ رِوَايَةُ الطَّبِيبِ وَالْمَجْنُونِ ...

* * *

أَنْتَ يَا « س . ع » . عَمَّ هَذَا الْمَجْنُونُ . فَإِذَا قَالَ لَكَ : يَا عَمَّ ! قُلْ لَهُ : أَنَا لَسْتُ ... وَلَكِنِّي أَخُو أَيْنِكَ ... لِنَنْظُرِ أَيْنَتَهُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّيْغَتَيْنِ أَمْ لَا ؛ فَإِنَّهُ فَرْقُ عَقْلِي دَقِيقٌ تُنْتَحَنُ بِهِ الْعُقُولُ ...

تَعَالَ أَيُّهَا الْمَرِيضُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ شِفَاؤُكَ عَلَى يَدَيَّ ، وَفِي يَدَيَّ هَذِهِ لَمْسَةٌ مِنْ لَمَسَاتِ الْمَسِيحِ ، لِأَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ) هُوَ أَلَا نِ طَبِيبُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ...
اتَّقُوا أَنْ تُغْضِبُوهُ أَوْ تُخَيِّفُوهُ ، وَأَقِيمُوا لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَتَحَرَّوْا مَسَرَّتَهُ دَائِمًا ، فَإِنَّ إِدْخَالَ بَعْضِ الشُّرُورِ إِلَى نَفْسِ الْمَجْنُونِ هُوَ إِدْخَالُ بَعْضِ الْعَقْلِ إِلَى رَأْسِهِ .
مَتَى أَكْثَرْتَ يَا « س . ع » عَقْلَ ابْنِ أَخِيكَ وَمَا كَانَ السَّبَبُ ؟ وَكَيْفَ غَلِبَ عَلَى عَقْلِهِ ؟ وَهَلْ « ا . ش » . هُوَ خَالُهُ أَوْ أَخُو أُمِّهِ ... ؟

لَطَفَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ . قُلْ لِي : أَتَذْكُرُ أَمْسِ ؟ أَتَذْكُرُ غَدًا ؟ ... إِنَّ الْأَمْسَ وَالْغَدَ سَاقِطَانِ جَمِيعًا مِنْ حِسَابِ الْمَجَانِينِ ؛ وَمِنْ الرَّحْمَةِ بِهِمْ أَنَّ الدُّنْيَا تَبْدَأُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَدْ اسْتَرَاخُوا مِنْ ثُلُثِي هُمُومِ الزَّمَنِ فِي الْعُقَلَاءِ . وَهُمْ لَا يَصْلُحُونَ أَنْ يَنْفَعُوا النَّاسَ كَالْعُقَلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْعُقَلَاءِ لِلِانْتِفَاعِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الضَّحِكِ وَالْمَرَحِ وَالطَّرَبِ ، وَهَذَا حَسْبُهُمْ مِنَ النُّعْمَةِ عَلَيْهِمْ .

قُلْ لِي أَيُّهَا الْمَجْنُونُ ! أَتَحْسُنُ أَنَّ الدُّنْيَا تَصْنَعُ لَكَ نَفْسَكَ ، أَمْ نَفْسُكَ هِيَ تَصْنَعُ لَكَ الدُّنْيَا ؟
إِنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَحُلُّهَا كُلُّ مَجْنُونٍ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْخَاصَةِ بِهِ ، فَمَا هِيَ طَرِيقَتُكَ فِي حَلِّهَا ؟
مَا لَكَ لَا تُجِيبُ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ؟ (هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ) أَعْطُوهُ قِرْشًا لِيَنْطَلِقَ لِسَانُهُ ، وَاتُّوا الطَّبِيبَ أَجْرُهُ وَافِيًا وَهُوَ لَا يَقِلُّ عَنْ قِرْشَيْنِ ...

نُمَّ مَالِ (النَّابِغَةِ) عَلَى مَجْنُونِ الْمَتَنِ وَسَارَهُ بِشَيْءٍ . فَقُلْنَا : مَا أَمْرُ هَذَا الْمَالِ بِسِرٍّ ؛

هَذَا قِرْشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَذَا نِ قُرْشَانِ لِلطَّيِّبِ .

فَقَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً .

قَالَ الطَّيِّبُ : هَذَا مَرِيضٌ بِنَوْعٍ مِنَ الْجُنُونِ أَسْمُهُ « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » ، وَهُوَ جُنُونُ النَّسَبَانِ الَّذِي يَضَعُ فِي مَكَانِ الْعَقْلِ كَلِمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ^(١) إِلَّا بِهَا ؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ جُنُونُ الشَّكِّ ، فَكُلُّ مَا حَوْلَ الْمَرِيضِ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، وَقَدْ يَتَرَامَى إِلَى جُنُونِ اللَّمْسِ ، فَلَوْ لَمَسْتَهُ بِإِصْبِعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرَبًا ، فَخَافَ مِنَ الْإِصْبِعِ تَلْمُسُهُ خَوْفُهُ مِنَ الْعَقْرَبِ تَلَدُّعُهُ ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءٌ لَأَبَدٌ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَخْصِهَا ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَجَانِينِ الْعَبَقَرِيَّةِ الَّتِي أَنْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِهَا أَوْ شَذَّتْ فِي قُوَّتِهَا ؛ وَلَا هُوَ مِمَّنْ يَتَجَانُّ وَيَتَحَامَتُ التِّمَاسَا لِلرُّزْقِ وَالْعَيْشِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : حِمَاةٌ تَعُولُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلِ أَعُولُهُ .

فَقَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْتَاهُ » حِمَاةٌ تَعُولُنِي ...

فَضَحَكَ (الطَّابِغَةُ) وَقَالَ : هُوَ كَمَا يَبْنَتْ لَكُمْ مُصَابٌ بِجُنُونٍ (مِمَّا حَفِظْتَاهُ) وَهُوَ أَقَلُّ الْجُنُونِ وَأَهْوَنُهُ ، وَعِلَاجُهُ الْبَسْطُ وَالشُّرُورُ وَالْقِرْشُ ؛ وَالضَّرْبُ أَحْيَانًا ... فَإِذَا ثَابَرَ عَلَيْهِ الدَّاءُ تَحَوَّلَ إِلَى جُنُونٍ (مِمَّا ضَرَبْتَاهُ) ... فَيَعْتَدِي الْمُصَابُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَعِلَاجُهُ حَيْثُذُ الْقَمِينِصُ الْمَرْقُومُ^(٢) ؛ فَإِذَا فَدَحَتِ الْعِلَةُ أَنْقَلَبَ الْمَرَضُ إِلَى جُنُونٍ (مِمَّا قَتَلْتَاهُ) . وَعِلَاجُهُ يَوْمِئِذٍ السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ .

وَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ آخِرَ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلَسَفَةُ الطَّبِّ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا مَجَانِينُ ، وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ أَوْفَرُ قِسْطًا مِنْ بَعْضٍ ، كَأَنَّ سَلْبَ الْعَقْلِ هُوَ أَيْضًا حُطُوطٌ كَحُطُوطِ مَوْهَبَةِ الْعَقْلِ . وَأَهْلُ الْمَرِيخِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُسَمُّونَ الْأَرْضَ بِيَمَارِسْتَانَ الْفَلَكِ ... وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَشْيَاءٌ لَأَبَدٌ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَخْصِهَا ؛ وَعِنْدِي فِي الدَّارِ عَاطُوسٌ إِذَا أَسْمَمْتُهُ هَذَا الْمَجْنُونُ عَطَسَ بِهِ عَطَسَةً قَوِيَّةً فَخَرَجَ جُنُونُهُ مِنْ أَنْفِهِ ... قُلْ لِي أَيُّهَا الْمُسْكِينُ ! أَتَخَافُ إِذَا سِرْتَ وَخَذَكَ فِي مَيْدَانٍ وَاسِعٍ كَأَنَّ الْمَيْدَانَ سَيَلْتَفَتْ عَلَيْكَ ؟

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَا يَتَذَكَّرُهُ » بَدَلًا مِنْ : « لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ » .

(٢) الْقَمِينِصُ الْمَرْقُومُ فَمِنْصُ السَّجَنِ يَلْبَسُهُ الْمَسْجُونُ وَيَرْقُمُ عَلَيْهِ الْعَدَدَ الَّذِي يُسَمَّى الْيَوْمَ (النُّمْرَةُ) ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَعْرُوفًا فِي التَّمَذُّنِ الْإِسْلَامِيِّ .

أَتَضْطَرُّ إِذَا مَشَيْتَ فِي مَضَيِّكَ كَأَنَّ الْمَكَانَ سَيَنْطَبِقُ عَلَيْكَ ؟ وَإِذَا كُنْتَ فِي عَرَبَةِ الْقِطَارِ فَهَلْ يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ الْيَمَارِشَانَ قَدْ جَرَهُ الْقِطَارُ وَانْطَلَقَ بِهِ هَارِبًا ؟ وَهَلْ شَعَرْتَ يَوْمًا أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ تَنْتَحِرَ ؟

أَرِنِي هَذَا الْقِرْشَ الَّذِي فِي يَدِكَ . فَمَدَّ إِلَيْهِ الْمَجْنُونُ يَدَهُ بِالْقِرْشِ .
قَالَ (الْتَابِغَةُ) : أَنْظِرِ الْآنَ هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ أَنْ تَغْصِبَنِي هَذَا الْقِرْشَ أَوْ تَسْرِقَهُ مِنِّي ؟
قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ (الْتَابِغَةُ) : إِذَا يَجِبُ أَنْ أُحْرِزَهُ فِي جَنِبِي . . . وَأَسْرَعَ فَأَخْفَاهُ فِي جَنِبِهِ .

* * *

فَصَاحَ الْآخَرُ وَشَغَبَ ، وَقَالَ : سَلَبَنِي وَنَهَبَنِي .
قُلْنَا : لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِلَ بَيْنَكُمَا شَرْ فِي تَمَثُّلِ الرِّوَايَةِ فَهَذَا قِرْشُ آخَرَ ، وَلَكِنْ أَفِي الْفَلَسَفَةِ عِنْدَ (الْتَابِغَةِ) إِبَاحَةُ السَّرِقَةِ وَالْغَضَبِ ؟ .

قَالَ : فَالْرِّوَايَةُ الْآنَ هِيَ رِوَايَةُ الْفَيْلَسُوفِ الْعَظِيمِ أَفْلَاطُونٍ وَتَلْمِيذِهِ أَرِسْطُو .
قُلْ لِي وَيَحَكَ يَا أَرِسْطُو ! أَعْلِمْتُ أَنَّ فِي الْمَجَانِينَ أَغْنِيَاءَ يَسْرِقُونَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ وَلَيْسَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ . فَمَا عِلَّةُ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَمَا وَجْهُهُ فِي مَقُولَةِ الْجُنُونِ ؟ .

أَعَجَزْتَ عَنِ الْجَوَابِ ؟ إِذَا فَاعْلَمْ يَا أَرِسْطُو أَنَّ الْمُصَابَ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْجُنُونِ إِذَا اشْتَرَى هَذَا الشَّيْءَ بِدَرَاهِمٍ كَانَتْ قِيَمَتُهُ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَحَدَهُ ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا قِيَمَةَ لِلدَّرَاهِمِ فِي مَالِهِ فَلَا يَخْفَلُ بِالشَّرَاءِ ، بَيْنَ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَهُ كَانَتْ قِيَمَتُهُ عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ ، فَيَحِبُّهُ بِلَذَّةٍ لَا تَشْتَرِيهَا كُلُّ أَمْوَالِهِ وَلَا كُلُّ أَمْوَالِ الدُّنْيَا . فَهَذَا جُنُونٌ بِاللَّذَّةِ لَا بِالسَّرِقَةِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ ضَرَبٌ مِنَ الْعِشْقِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ إِذَا لَمْ يُسْرِقْ كَأَنَّهُ الْمَرْأَةُ الْمَغشُوقَةُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَى عَاشِقِهَا .

وَالْجِيَاعُ إِذَا سَرَقُوا لِیَأْكُلُوا وَيُنْسِكُوا الرَّمَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَقَالُ فِي لُغَةِ الْفَلَسَفَةِ : إِنَّهُمْ سَرَقُوا بَلْ أَخَذُوا . . . فَيَاضْطَرُّرِ جَاعُوا وَبِاضْطَرَارٍ مِثْلِهِ أَكَلُوا ، وَالسَّارِقُ هُنَا هُوَ الْغَنِيُّ ^(١) الَّذِي مَنَعَهُمُ الْإِحْسَانُ وَالْمَعُونَةُ . . .

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْفَنَى » بَدَلًا مِنْ : « الْغَنَى » .

فَالدُّنْيَا مَعْكُوسَةٌ مُنْقَلِبَةٌ أَوْضَاعُهَا يَا أَرِسْطُو ، وَلَوْ اسْتَقَامَتْ هَذِهِ الْأَوْضَاعُ لَوُجِدَتْ
السَّعَادَةُ فِي الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا . وَكَيْفَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّاسُ مَخْلُوقُونَ
بِعُيُوبِهِمْ ؟ وَيَا لَيْتَهُمْ مَخْلُوقُونَ بِعُيُوبِهِمْ فَقَطْ ، وَلَكِنَّ الطَّامَّةَ الْكَبِيرَى أَنَّ عُيُوبَهُمْ تَعْمَلُ دَائِمًا
عَلَى أَنْ تَرَى فِي الْآخَرِينَ عُيُوبًا مِثْلَهَا .

كُلُّ حِمَارٍ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ جَوْفَهُ بِنَبَا وَفُؤَلًا وَشَعِيرًا ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرِ حِمَارًا قَطْ يُرِيدُ أَنْ
يَمْلَأَ لِنَفْسِهِ الْإِسْطَبْلَ ؛ فَإِذَا وَجَدَ إِنْسَانًا هَذِهِ هِمَّتُهُ وَهَذَا عَمَلُهُ فَاسْمُهُ إِنْسَانٌ لَا حِمَارٌ . . .
يَا أَرِسْطُو ! إِنَّ مُعْضِلَةَ الْمُعْضِلَاتِ أَنْ يُحَاوِلَ إِنْسَانٌ حَلَّ مُشْكِلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ مَخْضَةٍ قَائِمَةٍ
فِي نَفْسِ حِمَارٍ أَوْ ثَابِتَةٍ فِي ذَهْنِهِ الْحِمَارِيِّ . . . وَمِثْلُ هَذَا أَنْ يُحَاوِلَ حِمَارٌ حَلَّ مُشْكِلَةٍ
نَفْسِيَّةٍ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ أَوْ فِي قَلْبِهِ ، فَلَا حَلَّ لِمَشَاكِلِ الْعَالَمِ أَبَدًا مَا دَامَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ غَيْرِهِ
كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ . . .

وَالْمُعْضِلَاتُ النَّفْسِيَّةُ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَجِيءَ الْمَلَائِكَةُ لِتُحَارِبَ
الشَّيَاطِينَ بِالْبَرَقِ وَالرَّعْدِ دِفَاعًا عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَهَا ، وَأَرْسَلَ لِلْإِنْسَانِ
مَلَائِكَةً أُخْرَى إِنْ شَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ عَمِلَتْ ، وَإِنْ شَاءَ عَجَزَتْ ؛ وَهِيَ فَضَائِلُ الْأَدْيَانِ
الْمُتَنَزِّلَةِ . فَإِذَا مَنَعَهَا الْإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ ، فَعَمِلَتْ عَمَلَهَا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ الْمَلِكُ بَلْ فَوْقَ
الْمَلِكِ ، وَإِذَا أضعَفَهَا وَمَحَقَهَا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ الشَّيْطَانُ وَأَسْفَلَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

يَا أَرِسْطُو^(١) ! « هَذَا الْعَالَمُ عِنْدِي كُنْةٌ مِنَ الْعَدَمِ اتَّفَقَتْ عَلَى الظُّهُورِ وَسَتَخَفِي .
وَالْعَالَمُ عِنْدِي ضَعْفٌ رُكْبٌ وَقُوَّةٌ رُكْبَتْ . وَالْعَالَمُ عِنْدِي لَا شَيْءَ . وَالْعَالَمُ بَيْنَ بَيْنٍ .
وَالْعَالَمُ قِسْمَانِ : مِنْهُمُ الْفَلَّاحُ الزَّرَّاعِيٌّ وَذَلِكَ أَفْضَلُ فَلَسَفَةٌ طَبِيعِيَّةٌ . . . وَالْعَالَمُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ . وَالْأَدَبُ هُوَ الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ بِلَا أَدَبٍ . وَالْأَدَبُ
ضَرْبَانِ : أَدَبٌ نَفْسَانِيٌّ وَأَدَبٌ مُكْتَسَبٌ . وَقَدْ يَكُونُ طَبِيعِيًّا كَمَا هُوَ عِنْدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ
الْعِشْرِينَ . وَمَنْ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ؟ هُوَ شَخْصٌ مَاتَ بِلَا مَوْتٍ ، وَيَخْيَا بِلَا حَيَاةٍ » .

(١) هَذِهِ الْأَنْطُرُ الَّتِي وَصَفْنَاهَا بَيْنَ الْقَوَسَيْنِ هِيَ مِنْ كَلَامِ الْمُجْتَنُونَ بِاللُّصِّ ، وَكُنَّا سَأَلْنَاهُ أَنْ يَكْتُبَ رَأْيَهُ
فِي الْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ فَكَتَبَ عَلَى الدِّيْبَةِ مَقَالَةً كُلُّهَا تَخْلِيْطٌ وَتَنَزُّرٌ ؛ فِيهَا كَلِمَاتٌ كَاعَمَتِي مَا تَجِيءُ بِهِ
مَدَاهِبُ الْفَلَسَفَةِ .

أَتُرِيدُ يَا أَرِسْطُو أَنْ تَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيبِ الْعَالَمِ ؟ أَلَا مَرَّ بِسِيرٍ غَيْرِ عَسِيرٍ ، فَإِنَّ سِرَّ تَرْكِيبِهِ
كَسِرِّ تَرْكِيبِ الْقِرَاشِ الَّذِي فِي يَدِكَ ، فَدَعْنِي أَظْهَرُكَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَمُدَّ يَدَكَ بِالْقِرَاشِ
لَأُبَيِّنَ لَكَ سِرَّ التَّرْكِيبِ فِيهِ . . .

* * *

وَلَكِنَّ الْمَجْتُونَ الْآخِرَ أَسْرَعَ فَعَيَّبَ الْقِرَاشَ فِي جَبِيهِ . فَقَالَ (الْتَابِعَةُ) : هَذَا سِيَاسِيٌّ
دَاهِيَةٌ خَبِيثٌ . وَالرَّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ سِيَاسِيٍّ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

لَيْسَ فِي حَقِيقَةِ السِّيَاسَةِ إِلَّا الرَّدُّ مِنْ أَفْعَالِ السِّيَاسِيِّينَ . وَالْأَلْفَاظُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي
تَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى هِيَ الَّتِي لَا تَحْمِلُ مَعْنَى . فَلْيَحْذَرِ الشَّرْقُ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ سِيَاسِيٍّ يَحْتَمِلُ
مَعْنَيْنِ ، أَوْ مَعْنَى وَنِصْفَ مَعْنَى ، أَوْ مَعْنَى وَشِبْهَ مَعْنَى ؛ فَإِنْ قَالُوا لَنَا : (أَحْمَرُ) ؛ قُلْنَا :
أَكْتَبُوهُ بِهَذَا الْلفظِ ؛ فَإِذَا كَتَبُوهُ قُلْنَا لَهُمْ : أَرُسُّمُوا إِلَى جَانِبِ مَعْنَاهُ بِاللُّونِ الْأَحْمَرَ لِتَشْهَدَ
الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ أَحْمَرٌ لَا غَيْرُ . . . وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَجِبُ أَنْ تُكْتَبَ
الْمُعَاهَدَاتُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ أَوْرَبَةٍ وَالشَّرْقِ .

إِنَّهُمْ يَكْتَبُونَ لَنَا جَرِيدَةً بِأَسْمَاءِ الْأَطْعِمَةِ ثُمَّ يَقُولُونَ : أَكَلْتُمْ وَشَبِعْتُمْ . . . وَلَقَدْ رَأَيْتُ
(مُظَاهَرَاتٍ) كَثِيرَةً وَلَا كَالْمُظَاهَرَةِ الَّتِي أَتَمَّنَّاهَا ؛ فَمَا أَتَمَّنَى إِلَّا أَنْ يُخْرِجَ كُلُّ الْمَجَانِينِ فِي
مُظَاهَرَةٍ

وَهَذَا الْأَبْلَهُ الَّذِي أَمَانًا لَيْسَ وَطَنِيًّا وَلَا فِيهِ ذَرَّةٌ مِنَ الْوَطَنِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَ وَطَنِيًّا أَوْ زَعَمَ
أَنَّهُ وَطَنِيٌّ ، فَلْيُخْرِجِ الْقِرَاشَ الَّذِي فِي جَبِيهِ . . . لِيَكُونَ فَالًا حَسَنًا لِيُخْرِجَ جَيْشَ الْاِخْتِلَالِ
مِنْ مِصْرَ . . .

* * *

وَلَكِنَّ الْمَجْتُونَ لَمْ يُخْرِجِ الْقِرَاشَ وَتَرَكَ جَيْشَ الْاِخْتِلَالِ فِي مَكَانِهِ .
فَقَالَ (الْتَابِعَةُ) : الرَّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ الشَّرْطِيِّ وَاللِّصِّ . وَبِحَقِّ مِنَ الْقَانُونِ يَكُونُ
لِلشَّرْطِيِّ أَنْ يُفَتِّشَ هَذَا اللَّصَّ لِيُخْرِجَ الْقِرَاشَ مِنْ جَبِيهِ . . .

* * *

غَيْرَ أَنَّ الْمَجْنُونِ اَمْتَنَعَ . فَقَالَ (الثَّانِيَةُ) : كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِدُنِي مَعَ هَذَا الْحَبِيبِ ،
فَالرَّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ هَارُونَ الرَّشِيدِ مَعَ الْبَرَامِكَةِ . وَيجِبُ أَنْ يَنْكُبَ الرَّشِيدُ هَؤُلَاءِ الْبَرَامِكَةَ
لِيَسْتَصْفِيَ الْقِرَشَ ...

* * *

يَبْدَأُنَا مَعْنَاهُ أَنْ يَنْكُبَ « الْبَرَامِكَةَ » ، فَقَالَ : الرِّوَايَةُ الْآنَ رِوَايَةُ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقَةِ ،
وَنَظَرَ طَوِيلًا فِي الْمَجْنُونِ وَصَعَّدَ فِيهِ عَيْنَهُ وَصَوَّبَ فَلَمْ يَرَ إِلَّا مَا يَذْكُرُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، فَتَهَدَّى إِلَى
رَأْيٍ عَجِيبٍ . فَوَقَعَ عَلَى قَدَمَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ امْرَأَةً فِي حَدَائِهَا ... وَجَعَلَ يُنَاجِي الْحِذَاءَ بِهَذِهِ
الْمُنَاجَاةِ :

إِنَّ سَخَافَاتِ الْحُبِّ هِيَ أَقْوَى الدَّلِيلِ عِنْدَ أَهْلِهِ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ غَيْرُ سَخِيفٍ ؛ فَكُلُّ فِكْرَةٍ
فِي الْحُبِّ مَهْمًا كَانَتْ سَخِيفَةً ، عَلَيْهَا جَلَالُ الْحُبِّ ؛ وَلِلْحِذَاءِ فِي قَدَمَيْكَ يَا حَبِيبَتِي جَمَالٌ
الضُّنْدُوقِ الْمَمْلُوءِ ذَهَبًا فِي نَظَرِ الْبَخِيلِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْكَ أَنْتِ فِيهِ سِرٌّ جَمَالِكَ أَنْتِ .
وَالْحِذَاءُ فِي قَدَمَيْكَ لَيْسَ حِذَاءً ، وَلَكِنَّهُ بَعْضُ حُدُودِ جِسْمِكَ الْجَمِيلِ ، فَلَا أَكُونُ كُلَّ
الْعَاشِقِ حَتَّى أَحِيطَ بِكُلِّ حُدُودِكَ إِلَى الْحِذَاءِ .

إِنَّ جِسْمَكَ يَا حَبِيبَتِي كَالْمَاءِ الْجَارِي الْعَذْبِ ؛ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ رُوحُ الْمَاءِ كُلُّهُ ؛
وَحِينَمَا وَقَعَتِ الْقُبْلَةُ مِنْ جِسْمِكَ كَانَ فِيهَا رُوحُ شَفَتَيْكَ الْوَرْدِيَّتَيْنِ . هَلْذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى قَدَمَيْكَ
يَا حَبِيبَتِي ؛ وَهَلْذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى سَاقِكَ ؛ وَهَلْذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى ثَوْبِكَ ، وَهَلْذِهِ قُبْلَةٌ عَلَى
جَنِيحِكَ

وَكَادَتْ يَدُ (الثَّانِيَةِ) تَخْرُجُ بِالْقِرَشِ ؛ فَعَضَّهُ الْمَجْنُونُ فِي كَتِفِهِ عَضَّةً وَخَشِيبَةً ، فَجَاهُ
الْخَوْفِ مِنْهَا فَطَارَ صَوَابُهُ ، فَصَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً دَوَّى لَهَا الْمَكَانَ وَتَرَدَّدَتْ كَصَرَصَرَةِ
الْبَارِئِي فِي الْجَوِّ ، ثُمَّ اعْتَرَاهُ الطَّيْفُ ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَاخْتَلَطَ وَتَخَبَّطَ
(وَالرَّوَايَةُ الْآنَ) ٢ . رِوَايَةُ عَرَبَةِ الْأِسْعَافِ

رفع
عبد الرحمن المحمدي
أسكنه الله الفردوس

وَحْيُ الْقَلَمِ

”بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِّنَ التَّنْزِيلِ“ أَوْ قَبَسٌ مِّنْ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
سَعْدُ بَانَا زَغُول
فِي تَقْرِيطِهِ ”إِعْجَازُ الْقُرْآنِ“ لِلزَّافِيِّ

تَمَثَّبَهُ
فَضْطَفَى صَادِقُ الزَّافِيِّ

بِعَنَایَةِ
بِسَامِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْحَجَّابِيِّ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ الْأَعْظَمُ وَالْجَمَالُ الْفَنِّي فِي الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ (١) (٢)

لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْفَصْلَ وَهَمَمْتُ بِهِ عَرَضْتُ لِي مَسْأَلَةٌ نَظَرْتُ فِيهَا أَطْلُبُ جَوَابَهَا ، ثُمَّ قَدَّرْتُ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ فِي أَوْزَنَةِ لَعَهْدِنَا هَذَا رَجُلًا يُحَسِّنُ الْعَرَبِيَّةَ الْمُبِينَةَ ، وَقَدْ بَلَغَ فِيهَا مَبْلَغَ أَنْتَمَتِهَا عِلْمًا وَذَوْقًا ، وَدَرَسَ تَارِيخَ النَّبِيِّ ﷺ دَرَسَ الرُّوحِ لِأَعْمَالِ الرُّوحِ ، وَتَفَقَّهَ فِي شَرِيعَتِهِ فَقَهَ الْحِكْمَةَ لِأَسْرَارِ الْحِكْمَةِ ، وَاسْتَوْعَبَ أَحَادِيثَهُ وَاعْتَبَرَهَا بِفَرْقِ التَّقْدِ الْبَيَانِيِّ الَّذِي يَبْحَثُ فِي خَصَائِصِ الْكَلَامِ عَنْ خَصَائِصِ النَّفْسِ ، وَتَمَثَّلْتُ أَنِّي لَقِيتُ هَذَا الرَّجُلَ فَسَأَلْتُهُ : مَا هُوَ الْجَمَالُ الْفَنِّي عِنْدَكَ فِي بَلَاغَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ وَمَاذَا تَسْتَخْرِجُ لَكَ فَلَسِفَةَ الْبَيَانِ مِنْهُ ؟ وَمَا سِرُّهُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ ؟

وَلَمْ يَكْذِبْ بِخَطَرٍ لِي ذَلِكَ حَتَّى أَنْكَشَفَ الْخَاطِرُ عَنْ وَجْهِ آخَرَ ، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ بَعِيْنِهِ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ لِأَبْلَغِ أَوْلَثِكَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ ، وَآمَنُوا بِهِ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وَقَدْ صَحِبَهُ فَطَالَتْ صُحْبَتُهُ ، لَا يَفُوتُهُ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْمَلَأِ شَيْءٌ ، وَخَالَطَهُ حَتَّى كَانَ لَهُ فِي الْإِحَاطَةِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ كَبْغُضِ التَّارِيخِ ، فَتَدَبَّرَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سِرُّ الْجَمَالِ فِي بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وَمَا مَرَجَعُهُ الَّذِي يُرَدُّ إِلَيْهِ ؟

لَوْ دَارَ السُّؤَالُ دَوْرَتَيْهِ فِي هَذِهِ السَّلَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي رَجَعَتْ أَنْ تَكُونَ فَلَسِفَةً تَشْعُرُ وَتُحَسِّنُ ، وَفِي تِلْكَ الْفَلَسَفَةِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُلْهَمَةِ الَّتِي بَلَغَتْ أَنْ تَكُونَ سَلَفَةً تَذَرُسُ وَتُفَكِّرُ - لَمَّا خَلَصَ مَنْ كِلْتَيْهِمَا إِلَّا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ تَلْتَقِي عَلَيْهِ حَقِيقَةُ الْبَيَانِ مِنْ طَرَفَيْهَا : وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَمَالُ الْفَنِّي فِي بَلَاغَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ عَلَى الْكَلَامِ مِنْ رُوحِهِ النَّبَوِيَّةِ

(١) أَنشَأَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْبَحْثُ جَوَابًا لِرَجَاءِ « الْهُدَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ » فِي بَعْدَادَ سَنَةِ ١٣٥٢ هـ ؛ وَأَنْظَرَ « فِتْرَةَ جَمَام » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَانِ .

(٢) بَسَطْنَا الْكَلَامَ فِي كِتَابِنَا « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » عَنْ بَلَاغَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهٍ كَثِيرَةٍ ، وَبَقِيَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي تَرَاهُ ، فَهَذِهِ الْمَقَالَةُ كَالْتَّكْمِلَةِ عَلَى مَا هُنَاكَ .

الْجَدِيدَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَتَارِيخِهَا .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ لَا أَصْنَعُ شَيْئًا غَيْرَ تَفْصِيلِ هَذَا الْجَوَابِ وَشَرْحِهِ بِاسْتِخْرَاجِ مَعَانِيهِ ، وَاسْتِنْبَاطِ أدْلَتِهِ ، وَالْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِهِ وَحَقَائِقِهِ ؛ وَلَقَدْ دَرَسْتُ كَلَامَهُ ﷺ ، وَقَضَيْتُ فِي ذَلِكَ أَيَّامًا أَتَّبَعُ السَّرَّ الَّذِي وَقَعَ فِي التَّارِيخِ الْفَقْرِ الْمُجْدِبِ فَأَخْصَبَ بِهِ وَأَنْبَتَ لِلدُّنْيَا أَزْهَارَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْجَمِيلَةَ ، فَكَانُوا نَاسًا إِنْ عِبْتَهُمْ بِشَيْءٍ لَمْ تُعْنِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ دُونَ الْمَلَائِكَةِ ، وَكَانُوا نَاسًا دَارَتِ الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ فِي عَهْدِهِمْ ثَلَاثَ دَوَرَاتٍ : وَاحِدَةً حَوْلَ الشَّمْسِ ، وَثَانِيَةً حَوْلَ نَفْسِهَا ، وَثَالِثَةً حَوْلَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَلَامَ النَّبَوِيَّ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي وَيُلْهِمُنِي مَا أَفْصَحَ بِهِ عَنْهُ ، فَلَكَّأَنِّي بِهِ يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ : إِنِّي أَصْنَعُ أُمَّةً لَهَا تَارِيخُ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدُ ، فَإِنَّا أَقْبِلُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَأَذْهَبُ هُنَاكَ وَهُنَا ، مَعَ الْقُلُوبِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَقَائِقِ لَا مَعَ الْكَلَامِ وَالنَّاسِ وَالْوَقْتِ .

إِنَّ هَلْهُنَا دُنْيَا الصَّخْرَاءِ سَتَلِدُ الدُّنْيَا الْمُتَحَضَّرَةَ الَّتِي مِنْ ذُرِّيَّتِهَا أَوْرَبَةٌ وَأَمْرِيكَةُ ، فَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ يَعْمَلَانِ فِي حَيَاةِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِتَوْرٍ مُتَمِّمٍ لِمَا يَعْمَلُهُ نُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَغْرُونَ الدُّنْيَا بِأَسْلِحَةٍ هِيَ فِي ظَاهِرِهَا أَسْلِحَةُ الْمُقَاتِلِينَ ، وَلَكِنَّهَا فِي مَعَانِيهَا أَسْلِحَةُ الْأَطِبَّاءِ ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ثُمَّ مَضُوا إِلَى سَبِيلِهِمْ وَبَقِيَ الْكَلَامُ مِنْ بَعْدِهِمْ غَازِيًا مُحَارِبًا فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ حَرْبَ تَغْيِيرٍ وَتَحْوِيلٍ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامُ إِلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ^(١) .

هَذَا مَنْطِقُ الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي ، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرُوهُ وَأَنَا أَتَمَثَّلُهُ مُرْسَلًا بِتِلْكَ الْفَصَاحَةِ الْعَالِيَةِ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَمُرُّ إِعْجَازُ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ بِهِ الصَّوْتُ الْبَشَرِيُّ إِلَى الْعَالَمِ ، فَلَا أَرَى ثُمَّ إِلَّا أَنَّ شَيْئًا إِلَهِيًّا عَظِيمًا مُتَّصِلًا بِرُوحِ الْكَوْنِ كُلِّهِ اتَّصَلَ بِبَعْضِ السَّرِّ

(١) فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « لَيَدْخُلَنَّ هَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ » . وَكَانَ الْعِبَارَةَ نَصْرَ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَمُوتُ حِينَ تَطْلُبُ الدُّنْيَا ظِلَامَهَا الشَّعْرِيَّ . . . إِذَا طُمَسَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ بِلَذَائِهَا ، وَأَطْلَمَتِ آفَاقُهَا الزُّوْحَانِيَّةُ ؛ فَيَجِيءُ الْإِسْلَامُ فِي قُوَّةِ أَخْلَاقِهِ كَسَبَابِ الْفَجْرِ ، يَبْعَثُ حَيَاةَ النُّورِ الْإِنْسَانِيَّ بَعَثًا جَدِيدًا ، وَهَذَا هُوَ رَأْيُنَا فِي مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ : لَا بُدَّ مِنْ أَنْجِلَالِ أَوْرَبَةٍ وَأَمْرِيكَةٍ ، كَمَا يَصِفُهُ النَّهَارُ ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ ، ثُمَّ يُظْلِمُ ، ثُمَّ تَطْلُبُ الطَّيْنَةُ نُورَهَا الْخَيَّ مِنْ بَعْدُ .

بِبَعْضِ السَّرِّ ، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ إِنْسَانِي هُوَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَجِيءُ فِي كَلِمَاتٍ قَوِيَّةٍ رَائِعَةٍ ، فَتُهَا فِي بَلَاغَتِهَا كَالشَّبَابِ الدَّائِمِ .

كُنْتُ أَنَا مُلَهُ قِطْعًا مِنَ الْبَيَانِ فَأَرَاهُ يَنْقُلُنِي إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا مُلُ فِيهَا رَوْضَةً تَنْفَسُ عَلَى الْقَلْبِ ، أَوْ مَنْظَرًا يَهْزُ جَمَالُهُ النَّفْسَ ، أَوْ عَاطِفَةً تَزِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ فِي الدَّمِ ، عَلَى هُدُوءٍ وَرَوْحٍ وَإِحْسَاسٍ وَلَذَّةٍ ؛ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُصْلِحُ مِنَ الْجِهَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نَفْسِي ، ثُمَّ يَزِدُّ اللَّهُ مِنْهُ رِزْقَ الثُّورِ ، فَإِذَا أَنَا فِي ذَوْقِ الْبَيَانِ كَأَنَّمَا أَرَى الْمُتَكَلِّمَ ﷺ وَرَاءَ كَلَامِهِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنِّي كَثِيرًا مَا أَقِفُ عِنْدَ الْحَدِيثِ الدَّقِيقِ أَتَعَرَّفُ أَسْرَارَهُ ، فَإِذَا هُوَ يَشْرَحُ لِي وَيَهْدِينِي بِهِدْيِهِ ، ثُمَّ أَحْسُهُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِي مَا يَقُولُ الْمُعَلِّمُ لِتَلْمِيزِهِ : أَفَهِمْتُ ؟

وَقَفْتُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنْ قَوْمًا رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَقْسَمُوا ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَتَقَرَّرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعُهُ بِفَأْسٍ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا تَصْنَعُ ؟ قَالَ : هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ ! فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِي نَجَا وَنَجَوَا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا » (١) .

فَكَانَ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي نَفْسِي كَلَامٌ طَوِيلٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ مَعَنا الْبَحْرَ وَيُسْمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُجَدِّدِينَ ، وَيَتَحَلَّلُونَ ضُرُوبًا مِنَ الْأَوْصَافِ : كَحُرِّيَّةِ الْفِكْرِ ، وَالْعِفْرِ ، وَالْإِصْلَاحِ ؛ وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ يَنْقُرُ مِنْ سَفِينَةِ دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَأَدَابِنَا بِفَأْسِهِ ، أَيْ :

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ [رقم : ٢٤٩٣] هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ مِنَ الْجَمَالِ الْقَنِيِّ ؛ قَالَ : « مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ؛ فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ! فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوَا جَمِيعًا » . [وروى هذا الحديث أيضًا : الترمذي ، رقم : ٢١٧٣ ؛ الإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ١٧٨٩٧ ، ١٧٩٠٤ ، ١٧٩١٢ ، ١٧٩٤٤] .

فَهَذَا تَمْثِيلٌ لِحَالَةِ طَائِفَةٍ فِي (الْأَسْفَلِ) تَعْمَلُ لِرَحْمَةِ مَنْ هُمْ فِي (الْأَعْلَى) : عَاطِفَةٌ شَرِيفَةٌ وَلِكَيْتَها سَافِلَةٌ ، وَحِمِيَّةٌ مُلْتَهَبَةٌ وَلِكَيْتَها بَارِدَةٌ ، وَرَحْمَةٌ خَالِصَةٌ وَلِكَيْتَها مُهْلِكَةٌ ؛ وَلَكِنْ تَجِدُ كَهَذَا التَّمَثِيلَ فِي تَصَوُّرِ الْبَلَادَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعَقْلَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِأَنَّا هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَثْبُلَةُ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ وَالْحِكْمَةِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ مِنْ أَلْفٍ وَثَلَاثٍ مِثْرَ سِتْرٍ : أَنْتُمْ الْمُضِلُّونَ إِصْلَاحًا مَخْرُوفًا ! ... !

بِقَلَمِهِ . . . زَاعِمًا أَنَّهُ مَوْضِعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يَضَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ وَيَتَوَلَّاهُ كَيْفَ أَرَادَ ، مُوَجِّهًا لِحِمَاقَتِهِ وَجُوهًا مِنَ الْمَعَادِيرِ وَالْحُجَجِ ، مِنَ الْمَدِينَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ، جَاهِلًا أَنَّ الْقَانُونَ فِي السِّفِينَةِ إِنَّمَا هُوَ قَانُونُ الْعَاقِبَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَالْحُكْمُ لَا يَكُونُ عَلَى الْعَمَلِ بَعْدَ وَقُوعِهِ كَمَا يُحْكَمُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى ، بَلْ قَبْلَ وَقُوعِهِ ؛ وَالْعِقَابُ لَا يَكُونُ عَلَى الْجُرْمِ يَقْتَرِفُهُ الْمُجْرِمُ كَمَا يُعَاقَبُ اللَّصُّ وَالْقَاتِلُ وَغَيْرُهُمَا ، بَلْ عَلَى الشُّرُوعِ فِيهِ ، بَلْ عَلَى تَوَجُّهِ النَّبِيِّ إِلَيْهِ ؛ فَلَا حُرِّيَّةَ هُنَا فِي عَمَلٍ يُفْسِدُ خَشَبَ السِّفِينَةِ أَوْ يَمْسُهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ مَا دَامَتْ مُلْجَبَّةً فِي بَحْرِهَا ، سَائِرَةً إِلَى غَايَتِهَا ؛ إِذْ كَلِمَةُ (الْخَرَقِ) لَا تَحْمِلُ فِي السِّفِينَةِ مَعْنَاهَا الْأَرْضِيَّ ، وَهُنَاكَ لَفْظَةٌ (أَصْغَرَ خَرَقٍ) لَيْسَ لَهَا إِلَّا مَعْنَى وَهُوَ (أَوْسَعُ قَبْرِ) . . .

فَفَكَّرَ فِي أَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ الدُّنْيَا مَهْمَا يَكُنْ مِنْ حُرِّيَّتِهِ وَأَنْظِلَاقِهِ ، فَهُوَ هَهُنَا مَحْدُودٌ عَلَى رَغْمِ أَنَّهُ يَحْدُودُ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَدِيدِ تَفْسِيرُهَا فِي لُغَةِ الْبَحْرِ حُدُودُ الْحَيَاةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَكَمَا أَنَّ لَفْظَةَ (الْخَرَقِ) يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي الْبَحْرِ الْقَبْرِ وَالْعَرَقُ وَالْهَلَاكُ ، فَكَلِمَةُ (الْفَلَسَفَةِ) يَكُونُ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيهَا فِي الْاجْتِمَاعِ الْحِمَاقَةُ وَالْغَفْلَةُ وَالْبَلَاهَةُ ، وَكَلِمَةُ الْحُرِّيَّةِ يَكُونُ مِنْ مَعَانِيهَا الْجِنَايَةُ وَالزَّيْغُ وَالْفَسَادُ^(١) وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ فَالْقَلَمُ فِي أَيْدِي

(١) أَكْثَرُائُهُمْ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ صِنْفَانِ لَيْسَ لَهُمَا ثَالِثٌ ، وَقَدْ وَصَفَهُمَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ [رقم : ٣٦٠٧ ، ٧٠٨٤] بِسَنَدِهِ إِلَى حَدِيثَةِ بِنِ الْيَمَانِ قَالَتْ : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ؛ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مُحَافَةً أَنْ يُذَكِّرَنِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، وَفِيهِ دَخَرٌ ؟ قُلْتُ : وَمَا دَخَرُهُ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! صِفْهُمْ لِي . قَالَ : « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّتِنَا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَدْرِكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ » قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا ؟ قَالَ : « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنَّ تَعْصَلَ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَذَرِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ » [وهو أيضًا عند مسلم ، رقم : ١٨٤٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٤٢٤٤ ، ابن ماجه ، رقم : ٣٩٧٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٧١ ، ٢٢٨١٧ ، ٢٢٨٨١ ، ٢٢٩١٦ ، ٢٢٩٢٢ ، ٢٢٩٣٩] أَنْتَهَى الْحَدِيثُ .

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : « يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ . . . تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْإِصْلَاحَ =

بَعْضِ الْكُتَابِ مِنْ مَعَانِيهِ الْفَاسُ ، وَالْكَاتِبِ مِنْ مَعَانِيهِ الْمُخَرَّبُ ، وَالْكِتَابَةُ مِنْ مَعَانِيهِ الْخِيَانَةُ ؛ قَالَ لِي الْحَدِيثُ : أَفْهَمْتَ ؟ .

هَكَذَا يَجِبُ تَأْمُلُ الْجَمَالَ الْفَنِّيَّ فِي كَلَامِهِ ﷺ ، فَهُوَ كَلَامٌ كُلَّمَا زِدْتَهُ فِكْرًا زَادَكَ مَعْنَى ، وَتَفْسِيرُهُ قَرِيبٌ قَرِيبٌ كَالرُّوحِ فِي جِسْمِهَا الْبَشَرِيِّ ، وَلَكِنَّهُ بَعِيدٌ بَعِيدٌ كَالرُّوحِ فِي سِرِّهَا الْإِلَهِيِّ ، فَهُوَ مَعَكَ عَلَى قَدَرِ مَا أَنْتَ مَعَهُ ، إِنْ وَقَفْتَ عَلَى حَدٍّ وَقَفْتَ ، وَإِنْ مَدَدْتَ مَدًّا ، وَمَا أَدَيْتَ بِهِ تَأْدَى ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا تَرَاهُ لِكُلِّ بُلْغَاءِ الدُّنْيَا مِنْ صِنَاعَةِ عَبَثِ الْقَوْلِ ، وَطَرِيقَةِ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ ، وَاسْتِخْرَاجِ وَضْعٍ مِنْ وَضْعٍ ، وَالْقِيَامِ عَلَى الْكَلِمَةِ حَتَّى تَبْيَضَ كَلِمَةٌ أُخْرَى . . . ، وَالرَّغْبَةُ فِي تَكْثِيرِ سَوَادِ الْمَعَانِي ، وَتَرْكِ اللَّسَانِ يَطِيشُ طَيْشَهُ اللَّغْوِيِّ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ ، وَيَخْذُلُ الْكَلَامَ عَلَى مَعَانِيهِ الْفَاطِظِ ، وَيَجْتَلِبُ لَهُ مِنْهَا وَيَسْتَكْرِهَهَا عَلَى أَغْرَاضِهِ ؛ وَيَطْلُبُ لِصِنَاعَتِهِ مِنْ حَيْثُ أَدْرَكَ وَعَجَزَ ، وَمِنْ حَيْثُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ قِيلَ لِنَصِيرِهِ بِهِ الْمَعَانِي إِلَى حَقَائِقِهَا ، فَهُوَ مِنْ لِسَانٍ وَرَاءَهُ قَلْبٌ ، وَرَاءَهُ نُورٌ ، وَرَاءَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ؛ وَهُوَ كَلَامٌ فِي مَجْمُوعِهِ كَأَنَّهُ دُنْيَا أَصْدَرَهَا ﷺ عَنْ نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ ، لَا تَبْرَحُ مَاضِيَةً فِي طَرِيقِهَا السَّوِيِّ عَلَى دِينِ الْفِطْرَةِ ، فَلَا تَتَّسِعُ لِخِلَافٍ ، وَلَا يَقَعُ بِهَا التَّنَافُرُ ، وَالْخِلَافُ وَالتَّنَافُرُ إِنَّمَا يَكُونَانِ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ بِطَبِيعَتِهَا ، لِقِيَامِهَا عَلَى قَانُونِ التَّنَازُعِ تَعْدُو بِهِ وَتَجْتَرِمُ وَتَأْتُمُ ، فَبِهَا نَازِلَةٌ إِلَى الشَّرِّ ، وَالشَّرُّ بَعْضُهُ أَسْفَلُ مِنْ بَعْضٍ ، أَمَّا رُوحَانِيَّةُ الْفِطْرَةِ فَمَتَّسِقَةٌ بِطَبِيعَتِهَا ، لَا تَقْبَلُ فِي ذَاتِهَا أَفْتِرَاقًا

لِلْمُسْلِمِينَ لَا مِنْ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ بَلْ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى فِيهَا مَعْرُوفُهَا وَمُنْكَرُهَا ، وَفِيهَا عِلْمُهَا وَجَهْلُهَا ، وَفِيهَا عَقْلُهَا وَحِمَاقَتُهَا . وَلَعَلَّ مِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ : الْمَدِينَةُ الْأُورُشَلِيمِيَّةُ بِحَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا . . . وَتَأْمُلُ قَوْلَهُ : « إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ » فَلَيْسَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ بَلْ إِلَى أَبْوَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَعَلَّ آخِرَ مَا فَتَحُوا مِنْهَا بَابَ الْآدَبِ الْمَكْشُوفِ . . .

ثُمَّ تَأْمُلُ قَوْلَهُ ﷺ : « وَلَوْ أَنْ تَعْصُ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ » فَإِنَّ مَعْنَاهُ الْاسْتِمْسَاكُ بِمَا بَقِيَ عَلَى الطَّبِيعَةِ السَّلَامَةِ مِمَّا لَا يَسْتَطِيعُ أَوْلَانِكَ أَنْ يُغَيِّرُوهُ وَلَا أَنْ يُجَدِّدُوهُ ، أَيْ : بِالْاسْتِمْسَاكِ وَلَوْ بِأَصْلِ وَاحِدٍ مِنْ قَدِيمِ الْفَضِيلَةِ وَالْإِيمَانِ ، وَعِبَارَةُ الْعَصِّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ تُعْتَلِّقُ أَبَدًا وَأَبْلَغُ وَضُفٍّ لِمَنْ يَلْزِمُ أَصُولَ الْفَضَائِلِ فِي هَذَا الزَّمَنِ ، وَمَبْلَغُ مَا يُعَانِيهِ فِي التَّمَسُّكِ بِفَضِيلَتِهِ ، وَهِيَ وَحْدَهَا فَرٌّ كَأَجْمَلِ مَا يُبَدِّعُهُ مُصَوِّرُ عَقَبَرِيٍّ .

وَلَا اخْتِلَافًا ، إِذْ كَانَ أَوَّلُهَا اَلْعُلُوُّ فَوْقَ اَلدَّائِيَّةِ ، وَقَانُونُهَا اَلتَّعَاوُنَ عَلَى اَلْبِرِّ وَاَلتَّقْوَى ، فَهِيَ صَاعِدَةٌ إِلَى اَلْخَيْرِ ، وَاَلْخَيْرُ بَعْضُهُ أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ .

فَكَلَامُهُ ﷺ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِهِ : كُلُّهُ دِينٌ وَتَقْوَى وَتَعْلِيمٌ ، وَكُلُّهُ رُوحَانِيَّةٌ وَقُوَّةٌ وَحَيَاةٌ ، وَإِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ وَقَدْ أَخَذْتُ بِطَهْرِهِ وَجَمَالِهِ - أَنَّ مِنَ اَلْفَنِّ اَلْعَجِيبِ أَنْ يَكُونَ هَذَا اَلْكَلَامُ صَلَاةً وَصِيَامًا فِي اَلْأَلْفَاظِ .

أَمَّا أَسْلُوبُهُ ﷺ فَأَجَدُّ لَهُ فِي نَفْسِي رُوحَ اَلشَّرِيعَةِ وَنِظَامِهَا وَعَزِيمَتُهَا ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا قُوَّةٌ ، قُوَّةُ أَمْرِ نَافِلٍ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَإِنْ لَهُ مَعَ ذَلِكَ نَسَقًا هَادِثًا هُدُوءَ اَلْيَقِينِ ، مُبَيَّنًا بَيَانَ اَلْحِكْمَةِ ، خَالِصًا خُلُوصَ اَلسَّرِّ ، وَاقِعًا مِنَ اَلنَّفْسِ اَلْمُؤْمِنَةِ مَوْقِعَ اَلنَّعْمَةِ مِنْ شَاكِرِهَا ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَمْرُ الرُّوحِ اَلْعَظِيمَةِ اَلْمُوجَّهَةِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَوَحْيِهِ ، لِيَتَوَجَّهَ اَلْعَالَمُ بِهَا كَأَنَّهُ مِنْهُ مَكَانُ اَلْمَحْوَرِ ، وَدَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ هِيَ دَوْرَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبِمَا حَوْلَهُ ، رُوحُ نَبِيِّ مُصْلِحٍ رَحِيمٍ ، هُوَ بِإِصْلَاحِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي اَلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ بِاَلْإِسْبَوَةِ فَوْقَهَا ، وَهُوَ بِهَلْدِهِ وَتِلْكَ فِي شِمَائِلِهِ وَطِبَاعِهِ مَجْمُوعُ اَلْإِنْسَانِيَّ عَظِيمٍ لَوْ شَبَّهَ بِشَيْءٍ لَقِيلَ فِيهِ : إِنَّهُ كَمَجْمُوعِ اَلْفَرَاقَاتِ اَلْخَمْسِ لِعُمْرَانِ اَلدُّنْيَا .

وَمَنْ دَرَسَ تَارِيخَهُ ﷺ وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنَ اَلنَّظَرِ وَاَلْفِكْرِ وَاَلتَّحْقِيقِ ، رَأَى نَسَقًا مِنَ اَلتَّارِيخِ اَلْعَجِيبِ كِنِظَامِ فَلَكٍ مِنَ اَلْأَفْلَاكِ مُوجَّهٍ بِاَلثُّورِ فِي اَلثُّورِ مِنْ حَيْثُ يَبْدَأُ إِلَى حَيْثُ يَنْتَهِي ، فَلَيْسَ يَمْتَرِي عَاقِلٌ مُمَيِّزٌ أَنَّ هَذِهِ اَلْحَيَاةَ اَلشَّرِيفَةَ ، بِذَلِكَ اَلنِّظَامِ اَلدَّقِيقِ ، فِي ذَلِكَ اَلتَّوَجُّهِ اَلْمُحْكَمِ - لَا يُطَبِّقُهَا بَشَرٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ عَلَى نَامُوسِ اَلْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي لَحْمِهِ وَدَمِهِ مَعْنَى اَلثُّورِ وَاَلْكَهْرَبَاءِ عَلَى نَامُوسِ أَقْوَى مِنَ اَلْحَيَاةِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ ﷺ فِي اَلصَّبْرِ وَاَلثَّبَاتِ وَاسْتِقْرَارِ اَلنَّفْسِ وَأَطْمِئْنَانِهَا عَلَى زَلَالِ اَلدُّنْيَا ، وَلَا فِي اَلرَّحْمَةِ وَرِقَّةِ اَلْقَلْبِ وَاَلسُّمُوِّ فَوْقَ مَعَانِي اَلْبَقَاءِ اَلْأَرْضِيِّ ؛ فَهُوَ قَدْ خَلَقَ كَذَلِكَ لِيُغَلِّبَ اَلْخَوَادِثَ وَيَسَلِّطَ عَلَى اَلْمَادَّةِ ، فَلَا يَكُونُ شَأْنُهُ شَأْنَ غَيْرِهِ مِنَ اَلنَّاسِ : تَذْفِئُهُمْ مَعَانِي اَلْثَّرَابِ وَهُمْ أَحْيَاءُ فَوْقَ اَلْثَّرَابِ ، أَوْ يَحْدُثُهُمُ اَلْجِسْمُ اَلْإِنْسَانِيُّ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ بِحُدُودِ طِبَاعِهِ وَنَزَعَاتِهِ ؛ وَبِذَلِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ اَلصَّلَاةُ وَاَلسَّلَامُ مَنَبَعُ تَارِيخٍ فِي اَلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا دَائِمًا ، وَلَرَأْسُ اَلدُّنْيَا نِظَامُ أَفْكَارِهِ اَلصَّحِيحَةِ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَنْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْزَا الْمَمِيَّتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَأَنحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ لَا يُنَجِّيْكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : اَللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبُوَانٌ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا^(١) فَتَأَيَّيْتُ فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِخْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِنْقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا . اَللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَأَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ » .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ الْآخَرُ : اَللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي ، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ^(٢) فَجَاءَنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخْلِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ! فَفَعَلْتُ ، حَتَّى إِذَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ : لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تُفَضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ! فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا . اَللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ! فَأَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا » .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَقَالَ الثَّالِثُ : اَللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءً فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ ، فَشَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي . فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ : مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْعَنَمِ وَالرَّقِيقِ ؛ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! لَا تَسْتَهْزِئْ بِي ! فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ! فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَسَاقَهُ فَلَمْ يَتْرِكْ لِي شَيْئًا ، اَللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ فَأَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْسُونَ » أَنْتَهَى الْحَدِيثُ . [رواه البخاري ، رقم : ٢٢٧٢ و ٣٤٦٥ ، مسلم ، رقم : ٢٧٤٣] .

(١) أَي : لَا يَسْقِي الْعَبُوقَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ أَوْ جَمَاعَتِهِ قَبْلَهُمَا .

(٢) سَنَةٌ : جَدْبٌ وَفَقْرٌ .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَذْرِي ، أَهَذَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَكَلَّمُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَحُقُوقِهَا بِكَلَامٍ بَيْنَ صَرِيحٍ لَا فَلَاسَفَةَ فِيهِ ، يَجْعَلُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ مِنَ النَّيَّةِ هُوَ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ مِنَ الدِّينِ ؟ أَمْ هِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ بِهَذَا الْبَيَانِ الْعَالِيِّ ، فِي شِعْرِ مِنْ شِعْرِهَا ، ضَارِبَةً فِيهِ الْأَمْثَالَ ، مُشِيرَةً فِيهِ إِلَى الزُّمُورِ ، وَاضِعَةً إِنْسَانَهَا بَيْنَ شِدَّةِ الطَّبِيعَةِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ ، مُحْكِمَةً عَنَاصِرَ رِوَايَتِهَا الشُّعْرِيَّةِ ، مُحَقِّقَةً فِي بَيَانِهَا الْمَكْشُوفِ أَعْمَضَ مَعَانِيهَا فِي فَلَاسَفَةِ الْحَاسَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ حِينَ تَتَّصِلُ بِأَشْيَائِهَا فَتُظْهِرُ الضَّرُورَةَ الْبَشَرِيَّةَ وَتَخْتَفِي الْحِكْمَةَ ، وَفَلَاسَفَةُ الرُّوحِ حِينَ تَتَّصِلُ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا فَتُظْهِرُ الْحِكْمَةَ وَتَخْتَفِي الضَّرُورَةَ - مُبَيِّنَةً أَثَرَهُ هَذِهِ وَتَلْكَ فِي طَبِيعَةِ الْكَوْنِ ، مُقَرَّرَةً أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْعَالِيَةَ لَنْ تَكُونَ فِيمَا يَتَأَلَّاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ لَذَّتِهِ ، وَلَا فِيمَا يَنْجَحُّ مِنْ أَغْرَاضِهِ ، وَلَا فِيمَا يُفْنِعُهُ مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلَا فِيمَا يُلُوحُّ مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَا فِيمَا يَنْتَظِمُ مِنْ قَوَانِينِهِ ؛ بَلْ هِيَ السَّمُوءُ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْكَاذِبَةِ كُلِّهَا ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْأَثَرِ فَيَسْمِيْنَهَا النَّاسُ بِرَأٍ ، وَالرَّحْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الشَّهْوَةِ فَيَسْمِيْنَهَا النَّاسُ عِفَّةً ، وَالرَّحْمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الطَّمَعِ فَيَسْمِيْنَهَا النَّاسُ أَمَانَةً ؛ وَهِيَ فِي ضَبْطِ الرُّوحِ ثَلَاثٌ مِنَ الْخَوَاسِ : حَاسَةُ الدَّعَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْخُمُولِ ، وَحَاسَةُ اللَّذَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْهَوَى ، وَحَاسَةُ التَّمَلُّكِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَظُّ الْقُوَّةِ .

وَتَرِيدُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى ذَلِكَ فِي نَسَقِ شِعْرِهَا أَنَّهَا تُثَبِّتُ أَنَّ الْبِرَّ مِنَ الْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ هُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ كَالْأَسَاسِ لَهُمَا ؛ فَمَنْ نَشَأَ عَلَى بَرٍّ أَبَوِيَّةٍ كَانَ خَلِيقًا أَنْ يَتَحَقَّقَ بِالْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَأَنَّ الْعِفَّةَ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالْبِرَّ هِيَ مَسَاكُهُمَا وَجَامِعَتُهُمَا فِي النَّفْسِ ، وَأَنَّ الْأَمَانَةَ مِنَ الْبِرِّ وَالْعِفَّةَ هِيَ كَمَالُ هَذِهِ الْفَضَائِلِ ، وَكُلُّهُنَّ دَرَجَاتٌ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهَا أَسْمَى مِنْ بَعْضٍ فِي الشَّأْنِ وَالْمَنْزِلَةِ ، وَبَعْضُهَا طَرِيقٌ لِبَعْضٍ يَجُزُّ سَبَبٌ مِنْهَا سَبَبًا مِنْهَا ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَحْدَهَا الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا هِيَ هَذَا الْحُبُّ ، بَادِنًا مِنَ الْوَلَدِ لِأَبَوِيَّةٍ ، وَهُوَ الْحُبُّ الْخَاصُّ ، ثُمَّ مِنَ الْمُحِبِّ لِحَبِيبَتِهِ ، وَهُوَ الْحُبُّ الْآخِصُّ ، ثُمَّ مِنَ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُوَ الْحُبُّ مُطْلَقًا بِعُمُومِهِ وَبِغَيْرِ أَسْبَابِهِ الْمُتَلَجِّجَةِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَرِيزَةِ ؛ وَهِيَ دَرَجَاتٌ كَدَرَجَاتِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا مِنْ طُفُولَتِهَا إِلَى شَبَابِهَا إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ، وَمِنْ الْعَاطِفَةِ إِلَى الرَّغْبَةِ إِلَى الْعَقْلِ .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا دَامَ كَمَالُ الْفَضِيلَةِ هُوَ الْأَمَانَةُ ، فَمَا قَبْلَهَا أَنْوَاعٌ مِنْهَا ؛ فَبِرُّ الْوَلَدِ أَمَانَةُ الطَّبِيعِ

الْمُتَأَدَّبِ ، وَعِفَّةُ الْمُحِبِّ أَمَانَةُ الْقَلْبِ الْكَرِيمِ ، وَالثَّلَاثَةُ أَمَانَةُ الْخُلُقِ الْعَالِي ، وَهِيَ أَسْمَاهُنَّ ، لِأَنَّهَا لَنْ تَكُونَ خُلُقًا ثَابِتًا إِلَّا وَقَدْ خَضَعَ لِقَانُونِهَا الطَّبْعُ وَالْقَلْبُ ، وَدَخَلَ فِي أَسْبَابِهَا الْأَدَبُ وَالْكَرَمُ ؛ فَالْأَمَانَةُ الْكَامِلَةُ فِي هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ هِيَ الْأَمَانَةُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ الْمُتَمِّصِلَةُ بِالْمَرْءِ مِنْ أَعْبَدِ جِهَاتِهِ ، دُونَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَبٍ ، أَوْ أُمٍّ ، أَوْ قَرِيبٍ ؛ وَدُونَ الَّتِي هِيَ أَحْصَى وَهِيَ إِنْسَانِيَّةُ الْحُبِّ .

وَنَرَى فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ أَنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَثَلُوا رِوَايَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفَاصِلَةَ فِي فُضُولِهَا الثَّلَاثَةِ ، لَا يَقُولُ : إِنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ صَالِحِ أَعْمَالِهِ إِلَّا (ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) ، وَقَدْ تَطَابَقُوا جَمِيعًا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَدَقِّ مَا فِي فِلَسَفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي شِعْرِهَا ذَلِكَ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ الرَّجُلَ فِي صَالِحِ عَمَلِهِ إِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا نَفْسَهُ ، يَمْنَعُهَا مَا تَحْرِصُ عَلَيْهِ مِنْ حَظِّهَا أَوْ لَذَّتِهَا أَوْ مَنَافِعَتِهَا ، أَيْ : مُنْخَلِعًا مِنْ طَبِيعَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ الْمُتَنَارِعَةِ لِسِوَاهَا ، الْمُتَنَفِّرِدَةِ بِذَاتِهَا ، مُتَحَقِّقًا بِالطَّبِيعَةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي لَا يَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ رَحْمَةُ الْإِنْسَانِ غَيْرُهُ ، أَيْ : أَنْدِمَاجُهُ بِاسْتِطَاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَإِعْطَاؤُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَمُعَاوَنَتُهُ كَفَّ أَذَاهُ .

وَالْحَدِيثُ كَالنَّصِّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ فِي النَّفْسِ هِيَ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ ، لَا يَصْلُحُ دِينٌ بِغَيْرِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا مِنْ نَفْسٍ تَخْلُو مِنْهَا ؛ وَإِذَا كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أَسَاسَ مَا يُفْرَضُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ ، فَهِيَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَسَاسُ مَا يَصْلُحُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ ؛ وَبِهَذَا كُلُّهُ تَكُونُ الْغَايَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا كَلَامُهُ ﷺ ، أَنَّ تَنْشِئَةَ النَّاسِ عَلَى الْبِرِّ وَالْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ وَحْدَهَا الطَّرِيقَةُ الْعَمَلِيَّةُ الْمُمَكِّنَةُ لِحُلِّ مُغْضِلَةِ الشَّرِّ وَالْجَرِيمَةِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ .

وَأَنْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ نَهَايَةَ السُّمُوءِ فِي رَحْمَةِ الْمَالِ الَّتِي يَصِفُونَهُ بِأَنَّهُ شَفِيقُ الرُّوحِ ، فَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْرُجُ فِيهَا لِغَيْرِهِ مِنْ بَعْضِ مَالِهِ ، بَلْ يَنْخَلِعُ مِنْ بَعْضِ رُوحِهِ ؛ وَهَذَا يُقَرِّرُ لَكَ فِلَسَفَةً أُخْرَى : أَنَّ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الصَّحِيحَةَ فِي الْعَطَاءِ دُونَ الْأَخْذِ ، وَأَنَّ الزَّائِفَةَ هِيَ فِي الْأَخْذِ دُونَ الْعَطَاءِ ؛ وَذَلِكَ آخِرُ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فِلَسَفَةُ الْأَخْلَاقِ ؛ فَمَا الْمَرْءُ إِلَّا ثَمَرَةٌ تَنْضَجُ بِمَوَادِّهَا ، حَتَّى إِذَا نَضَجَتْ وَأَخْلَوْلَتْ كَانَ مَظْهَرُ كَمَالِهَا وَمَنَافِعَتِهَا فِي الْوُجُودِ أَنْ تَهَبَ حَلَاوَتَهَا ؛ فَإِذَا هِيَ أَمْسَكَتِ الْحَلَاوَةَ عَلَى نَفْسِهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا هَذِهِ الْحَلَاوَةُ بِعَيْنِهَا سَبَبٌ فِي

عَفَنِيهَا وَفَسَادِهَا مِنْ بَعْدُ . أَفَهَمْتَ ؟

وَمَا دُمْنَا قَدْ وَصَفْنَا رَحْمَةَ الْمَالِ ، فَإِنَّا نُنِمْ الْكَلَامَ فِيهَا بِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَجِيبِ فِي قَرْنِ تَمَثُّلِهِ وَبِلَاغَةِ فَتَنِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّانٍ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ تَلْدِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ؛ فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتِ أَوْ وَفَرَّتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ » . أَنْتَهَى . [البخاري ، رقم : ١٤٤٤ ، ٢٩١٧ ، ٥٧٩٧ ؛ مسلم ، رقم : ١٠٢١ ؛ النسائي ، رقم : ٢٥٤٧ ، ٢٥٤٨ ؛ «مسند أحمد» ، رقم : ٧٤٣٤ ، ٨٨١٤ ، ١٠٣٩١] .

فَأَنْتَ تَرَى ظَاهِرَ الْحَدِيثِ ، وَلَكِنَّ فَتَنَ الْعَجِيبِ فِي هَذَا الْحَدِيدِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ طَبِيعَةُ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، فَهِيَ مِنْ أَشَدِّ الطَّبَائِعِ جُمُودًا وَصَلَابَةً وَأَسْتِعْصَاءً مَتَى اعْتَرَضَتْهَا حُطُوطُ النَّفْسِ الْحَرِيصَةِ وَأَهْوَاؤُهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ السَّخَاءَ بِالْمَالِ يَنْسُطُ مِنْهَا وَيَنْتَهِي فِي الطَّبَعِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَهَا لَيْتَةً ، فَلَا تَزَالُ تَمْتَدُّ وَتَسْبُغُ حَتَّى يَكُونَ كَمَالُ طَبَعِ السَّخَاءِ وَهُوَ كَمَالُ طَبَعِ الْخَيْرِ فِي النَّفْسِ الْكَرِيمَةِ ، فَمَنْ أَلَزَمَ نَفْسَهُ الْجُودَ وَالْإِنْفَاقَ رَاضِهَا رِيَاضَةً عَمَلِيَّةً كَرِيَاضَةَ الْعَضَلِ بِأَنْقَالِ الْحَدِيدِ وَمُعَانَاةَ الْقُوَّةِ فِي الصَّرَاعِ وَنَحْوِهِ : أَمَّا الشُّحُّ فَلَا يُنَاقِضُ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ وَلَكِنَّهُ يَدْعُهَا جَامِدَةً مُسْتَعْصِيَةً ، لَا تَلِينُ وَلَا تَسْتَجِيبُ وَلَا تَتَّسِعُ .

وَقَدْ جَعَلَ الْحُجَّةَ مِنَ الثُّدِيِّ إِلَى التَّرَاقِي ، وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ مَا فِي الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ مُنْفِقٌ عَلَى ضُرُورَاتِهِ ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْكَرِيمُ وَالْبَخِيلُ ، فَهُمَا عَلَى قَدَرِ سَوَاءٍ مِنْ هَذِهِ الثَّاحِيَةِ ؛ وَإِنَّمَا التَّفَاوُثُ فِيمَا زَادَ وَسَبَغَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَدِّ ، فَهَلْهَذَا يَنْسُطُ الْكَرِيمُ بَسْطَهُ الْإِنْسَانِيَّ ، أَمَّا الْبَخِيلُ فَهُوَ « يُرِيدُ » لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ ، الْإِرَادَةُ عَمَلٌ عَقْلِيٌّ لَا أَكْثَرُ ، فَإِذَا هُوَ حَاوَلَ تَحْقِيقَ هَذِهِ الْإِرَادَةِ وَقَعَ مِنْ طَبِيعَةِ نَفْسِهِ الْكَرَّةُ فِيمَا يُعَانِيهِ مَنْ يُوسِعُ جُبَّةَ الْحَدِيدِ لَزَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِهَا فِي مَكَانِهَا ، فَهِيَ مُسْتَعْصِيَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ .

أَلَا تَرَى كَيْفَ تَوَجَّهَ الْحُجَّةُ ؛ وَكَيْفَ تَدُقُّ الْفَلَسَفَةُ وَهِيَ فِي أَظْهَرِ الْبَيَانَ وَأَوْضَحِهِ ؟ وَهَلْ تُحْسَبُ طَبِيعَةُ الْبَخِيلِ فِي دِفَاقَتِهَا النَّفْسِيَّةِ لَوْ هِيَ نَطَقَتْ - بِالْعَةِ مِنْ وَصْفِ نَفْسِهَا هَذَا

أَلَمَبَنَغْ مِنْ جَمَالِ الْفَنِّ وَإِبْدَاعِهِ ؟ وَهُوَ بَعْدُ وَصَفَ لَوْ نُقِلَ إِلَى كُلِّ لُغَاتِ الْأَرْضِ لَزَانَهَا جَمِيعًا ، وَلَكَانَ فِي جَمِيعِهَا كَالْإِنْسَانِ نَفْسِهِ : لَا يَخْتَلِفُ تَرْكِيبُهُ ، فَلَنْ يَكُونَ بِثَلَاثَةِ أَغْنِ ، لَا فِي بِلَادِ شِكْسْبِيرِ Shakespeare وَلَا فِي بِلَادِ الزُّنُوجِ !

إِنْ كَلَامَ نَبِيَّنَا ﷺ يَجِبُ أَنْ يُتَرْجَمَ بِفَلْسَفَةِ عَصْرِنَا وَأَدَابِهِ ، فَسَرَاهُ حَيْثُ كَانَ قِتْلَ مَرَّةٍ أُخْرَى مِنْ فَمِ الْبُيُوتِ ، وَسَرَاهُ فِي شَرْحِهِ الْفَلْسَفِيُّ كَالْأَزْهَارِ النَّاصِرَةِ : حَيَاتُهَا بِشَاشَتِهَا فِي الثُّورِ ، وَتَعْرِفُهُ إِنْسَانِيَّةٌ قَائِمَةٌ تُصَحِّحُ بِهَا أَغْلَاطَ الزَّمَنِ فِي أَهْلِهِ ، وَأَغْلَاطَ النَّاسِ فِي زَمَنِهِمْ ؛ وَتَجِدُهُ يَرِفُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ الْمُسْكِنَةِ بِحَنَانٍ كَحَنَانِ الْأُمِّ عَلَى أَطْفَالِهَا ، وَالنَّاسِ الْآنَ كَالْأَطْفَالِ غَابَتْ أُمُّهُمْ ، فَهُمْ فِي تَنَافُرٍ صَبِيَانِيٍّ . . . وَمَا الْأُمُّ بِطَبِيعَتِهَا إِلَّا الْمِيزَانُ لَا سِتِنَادِهِمْ ، وَالْحِكْمَةُ لَطِيشُهُمْ ، وَالْإِتْلَافُ لِتَنَافُرِهِمْ ، وَالنَّظَامُ لِعَبَثِهِمْ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَحَنَانُ قَلْبِهَا الْكَبِيرِ هُوَ الْقَانُونُ لِكُلِّ قَضَايَا هَذِهِ الْقُلُوبِ الصَّغِيرَةِ .

وَقَدْ كَتَبْنَا فِي فِلْسَفَةِ الْأَدَبِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَمَعَانِيهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَدِيبَ النَّامَ الْأَدَاءَ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكُونِيُّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ الْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْأَدِيبِ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَجَهِّةِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَجَهِّةِ إِلَى النَّفْسِ ؛ وَلِذَلِكَ فَمَوْضِعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا الْأَسْرَارِ . وَأَنَّ الْأَدِيبَ مُكَلَّفٌ تَصْحِيحَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَنَفْيَ التَّرْوِيرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصَهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَى تَتَابُعِ الضَّرُورَاتِ ، ثُمَّ تَصْحِيحَ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْوُجُودِ ، وَنَفْيَ الْوُثْنِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَالسُّمُوءَ بِهَا إِلَى فَوْقِ ، ثُمَّ إِلَى فَوْقِ ، وَدَائِمًا إِلَى فَوْقِ ^(١) .

فَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا الْمَقَالَ ، وَاعْتَبَرْتَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَا بَيَّنَّا وَشَرَحْنَا ، وَأَخَذْتَهُ مِنْ عَصْرِهِ وَمِنَ الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، وَنَظَرْتَ إِلَى أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَاسْتَبْرَأْتَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ

(١) نُشِرَ هَذَا الْمَقَالَ فِي مُقْتَطَفِ شَهْرِ يُولْيُو/نَمُوز سَنَةِ ١٩٣٢ ، وَأَكْثَرُ مَا فِيهِ يَعُدُّ مَثَمًا لِفَلْسَفَةِ هَذَا الْفَصْلِ ؛ وَتَجْمَعُ كُلُّ مَقَالَتَيْنَا فِي كِتَابٍ يَصْدُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي آخِرِ صَيْبِ هَذَا الْعَامِ .
قُلْتُ [وَالْفَائِلُ هُوَ سَعِيدُ الْعُرَيْانَ] : وَأَحْسَبُهُ كَانَ يَعْنِي كِتَابَهُ « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ » ، وَقَدْ اسْتَعْنَى عَنْهُ بِهَذَا الْكِتَابِ « وَخِي الْفَلَم » ، وَقَدْ نَشَرْنَا هَذِهِ الْمَقَالَ فِي هَذَا الْجُزْءِ ، وَأَنْظُرُ « فِتْرَةَ جَمَام » مِنْ كِتَابَتَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » .

خَوَاصُّ الْفَنِّ بِمِثْلِ مَا نَبَّهْنَاكَ إِلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي مَرَّ بِكَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ حَقِيقَةٍ فَنِّيَّةٍ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا بِخَاصَّةٍ فِيهَا ، وَأَنَّ سِرَّ جَمَالِهَا فِي خَاصَّتِهَا - إِذَا جَمَعْتَ ذَلِكَ لَمْ تَرِ مَذْهَبًا عَنِ الْإِفْرَارِ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا هُوَ أَعْظَمُ نَبِيٍّ وَأَعْظَمُ مُصْلِحٍ ، فَهُوَ أَعْظَمُ أَدِيبٍ ؛ لِأَنَّ فَتْنَهُ الْأَدَبِيَّ أَعْظَمُ فَنٍّ يُحَقِّقُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَيَاةَ أَخْلَاقِهَا ، وَهُوَ بِكُلِّ ذَلِكَ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ .

* * *

قَالَفْنُ فِي هَذِهِ الْبَلَاغَةِ هُوَ فِي دَقَائِقِهِ أَثَرُ تِلْكَ الرُّوحِ الْعُلْيَا بِكُلِّ خَصَائِصِهَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَخْتَاجُ إِلَيْهَا الْوُجُودُ الرُّوحَانِيُّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَلِذَا تَرَى كَلَامَهُ ﷺ يُخْرُجُ مِنْ حُدُودِ الزَّمَانِ ، فَكُلُّ عَصْرٍِ وَاجِدٌ فِيهِ مَا يُقَالُ لَهُ ، وَهُوَ بِذَلِكَ نُبُوءَةٌ لَا تَنْقَضِي ، وَهُوَ حَيٌّ بِالْحَيَاةِ ذَاتِهَا ، وَكَأَنَّمَا هُوَ لَوْزٌ عَلَى وَجْهِ مِنْهَا كَمَا تَرَى الْبَيَاضَ مَثَلًا هُوَ اللَّوْنُ عَلَى وَجْهِ طَائِفَةٍ مِنَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ...

فَإِذَا نَظَرْتَ فِي هَذَا الْفَنِّ فَانْظُرْهُ فِي حَدِيثِهِ ، وَفِي عَمَلِهِ ، وَفِي الدُّنْيَا الَّتِي أَلْفَهَا مِنَ التَّارِيخِ تَأَلَّفَ الْقِطْعَةُ الْبَلِيغَةُ النَّادِرَةُ مِنَ الْكَلَامِ ، وَرَدَّ كُلُّ مَا تَدَبَّرْتَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى تِلْكَ الرُّوحِ الْجَدِيدَةِ عَلَى تَارِيخِ الْأَرْضِ ، فَلْتَعْلَمَنَّ حِينَئِذٍ أَنَّ كُلَّ بَلِيغٍ هُوَ شَمْعَةٌ مُضِيئَةٌ صُنِعَتْ لَهَا مَادَّةُ النُّورِ نُورًا وَجَمَالًا ، بِجَانِبِ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا مَادَّةُ النُّورِ نُورًا وَجَمَالًا وَحَيَاةً وَقُوَّةً ، هُنَاكَ نُورٌ لِذِي عَيْنَيْنِ وَهُنَا النُّورُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ ؛ وَذَلِكَ يَتَخَايَلُ كَالْحُلْمِ ، وَهَذَا يُفَصِّحُ كَالْحَقِيقَةِ ، وَذَلِكَ ضَوْءٌ مِنْ حَوْلِهِ الظُّلْمَةُ دَانِيَةٌ ، وَهَذَا قَدْ طَرَدَ الظُّلْمَةُ عَنْ نِصْفِ الدُّنْيَا إِلَى نِصْفِ الدُّنْيَا ؛ وَالْأَوَّلُ نُورٌ بِلَا رُوحٍ ، وَالثَّانِي هُوَ رُوحُ النُّورِ .

تِلْكَ فِي رَأْيِنَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَ يَفْهَمُهَا بِهَا أَصْحَابُهُ ﷺ ، كَمَا يَفْهَمُ الشَّاعِرُ نُورَ الْقَمَرِ فِي لَبْلَةٍ صَيْفٍ بِمَعَانٍ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَمِنَ النَّفْسِ وَالْحَالَةِ ، وَمِنَ الْهَيْئَةِ وَالشَّكْلِ ، وَمِنَ الْعَيْنِ وَالْفِكْرِ ، وَمِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفِيهِ النُّورُ وَزِيَادَةُ ، أَيْ الْحَقِيقَةُ وَمَا تَرْتَفِعُ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ كَانُوا مَعَهُ كَأَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ الْفَنِّ مَعَ الْفَنِّ إِعْجَابًا وَحُبًّا وَانْفِيسَادًا وَطَاعَةً حَتَّى أَنْخَلَعُوا مِنْ عَصَرِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَخَرَجُوا مِنْ أَخْوَالِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ ، وَأَنْجَذَبُوا إِلَيْهِ أَشَدَّ أَنْجِذَابٍ عَرَفَهُ التَّارِيخُ ، وَأَصْبَحُوا مُصَرِّفِينَ مَعَهُ تَصْرِيفَ الْحَوَادِثِ لَا تَصْرِيفَ الْأَشْخَاصِ ، وَعَادَتْ أَنْفُسُهُمْ وَكَأَنَّ تَأْتِيرَ الْأَرْضِ يَلْتَقِي فِيهَا بِتَأْتِيرِ

السَّمَاءِ فَيُغَسَّلُ فِي سُحْبٍ عَالِيَةٍ فَلَا يَكُونُ فِيهَا كَمَا يُرِيدُهُ النَّاسُ بَلْ كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ ، وَرَجَعَتْ قُلُوبُهُمْ لَا تَلْبَسُ عَنْ دِينِهَا رَأْيًا وَلَا هَوًى ، وَكَأَنَّمَا وُضِعَ لَهَا هَذَا الدِّينُ حَرَسًا عَلَى كُلِّ سَمْعٍ وَعَلَى كُلِّ بَصَرٍ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَأُولَئِكَ قَوْمٌ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَفْرَغَهُمْ ثُمَّ مَلَأَهُمْ ، وَمَا أَنتَقَلُوا إِلَى مَثَرِلَتِهِمُ الْعَالِيَةِ فِي النَّارِ بَعْدَ أَنْ نَقَلَهُمْ هُوَ إِلَى مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنْازِلِ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ .

وَنَاهِيكَ مِنْ رِجَالٍ يُمَثِّلُ لَهُمْ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي يَضْرِبُهُ لَهُمْ فِي الْإِيمَانِ لِيَبْلُغُوهُ أَوْ يُقَارِبُوهُ ، فَعَنْ خُبَابِ بْنِ الْأَرْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، قُلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ قَالَ : « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُسَقُّ بِأَنْثَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » . [البخاري ، رقم : ٣٦١٢ ، ٣٨٥٢ ، ٦٩٤٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٦٤٩ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٠٥٥٣ ، ٢٠٥٦٨ ، ٢٦٦٧٥] .

فَانْظُرْ يَا هَذَا ، فَإِنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ قُوَى الْكَوْنِ فَجَاءَتْ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فَتَزَلَّتْ فِي عِبَارَةٍ مِنَ الْكَلَامِ لَتَمَلَأَ نَفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ بِقُوَّاتِهَا لَمَّا وَضِعَتْ إِلَّا هَذَا الْوَضْعَ مِنْ هَذَا التَّمَثِيلِ بِأَمْشَاطِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْنَانِ الْمِنْشَارِ فِي عَظْمِ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ وَلَحْمِهِ ، وَظَاهِرُ التَّمَثِيلِ عَلَى مَا رَأَيْتَ مِنَ الْعَجَبِ ، وَلَكِنَّ لَهُ بَاطِنًا أَعْجَبَ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ الْبَلَاغَةُ كُلُّ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانُ حَقُّ الْبَيَانِ ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ ﷺ أَنَّ الْحَدِيدَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَمْرَعُ مِنْ أُولَئِكَ الْأَقْوِيَاءِ بِإِيمَانِهِمْ عَظَمًا وَلَحْمًا وَعَصَبًا ، بَلْ هُوَ حَدِيدٌ يَأْكُلُ حَدِيدًا مِثْلَهُ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ ، فَإِنَّ لِلرُّوحِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُسَلِّطَةَ عَلَى جِسْمِهَا قُوَّةَ تَصْنَعُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةَ ، فَيَمُرُّ الْحَدِيدُ فِي الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالْعَصَبِ يَسْلُبُهَا الْحَيَاةَ ، وَلَكِنَّهَا تَسْلُبُهُ شِدَّتُهُ وَجَلْدُهُ وَصَبْرُهُ !

* * *

وَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ التَّمَثِيلِ فِي كَلَامِهِ ﷺ يَنْطَوِي فِيهِ مِنْ إِبْدَاعِ الْفَنِّ الْبَيِّنِيِّ وَإِعْجَازِهِ مَا يَفُوتُ حُدُودَ الْبُلْغَاءِ ، حَتَّى لَا تَشْكُ إِذَا أَنْتَ تَدَبَّرْتَهُ بِحَقِّهِ مِنَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ أَنَّ بَلَاغَتَهُ إِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ كَبَلَاغَةِ الْحَيَاةِ فِي الْحَيِّ : هِيَ الْبَلَاغَةُ وَلَكِنَّهَا أَبَدُغٌ مِمَّا هِيَ ، لِأَنَّهَا الْحَيَاةُ أَيْضًا .

وَأَنْتَ خَيْرٌ أَنْ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمَ ﷺ كَانَتْ تَأْخُذُهُ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ أَحْوَالٌ وَصِفَتْ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَنْفَصِدُ عَرَقًا . [البخاري ، رقم : ٢ ، ٣٢١٥ ؛ مسلم ، رقم : ٢٣٣٣] .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ [البخاري ، رقم : ٢٦٦١ ، ٤١٤١] عَنْهَا قَالَتْ : فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْتَحْدِرُ عَنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ .

وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ [البخاري ، رقم : ٣٨٣٢ ، ٤٥٩٢ ؛ مسلم ، رقم : ١٨٩٨] : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِي ، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي .

وَفِي حَدِيثِ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ [البخاري ، رقم : ١٥٣٦ ؛ مسلم ، رقم : ١١٨٠] حِينَ قَالَ لِعُمَرَ : أَرِنِي النَّبِيَّ ﷺ حِينَ يُوحَى إِلَيْهِ - : فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَيَّ ، فَجِئْتُ وَعَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَوْبٌ قَدْ أَظْلَمَ بِهِ ، فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخَمَّرُ الْوَجْهِ وَهُوَ يَغْطِي ، أَنِي يُرَدُّ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ثِقَلِ الْوَحْيِ .

فَهَذِهِ كُلُّهَا أَحْوَالٌ تَصِفُ عَمَلِ الدَّمَاعِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جُهْدِ الْقَوَى الْعَصَبِيَّةِ ، لِيَرْتَفَعَ بِالْحَيَاةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَيَتَرَكُّهَا لَوَعِي الرُّوحِ وَخَدَهَا ، لَا يُشَارِكُهَا فِي هَذَا الْوَعْيِ فِكْرٌ وَلَا هَاجِسٌ ، وَلَا يَتَّصِلُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حَيَاةِ الْحَيِّ ، فَيَتَحَقَّقُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَجُودٌ آخَرٌ غَيْرُ وَجُودِهِ الْمَخْدُودِ بِجِسْمِهِ وَطَبَاعِهِ وَدُنْيَاهُ ؛ وَيَخْرُجُ بِوَعْيِهِ مِنْ هَذِهِ الْجَادِبِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الطَّبِيعَةِ مِنْ قُوَى الْغَيْبِ ؛ وَبِذَلِكَ يَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ الْكَوْنِ ثُمَّ يُفْصَمُ عَنْهُ وَقَدْ وَعَى مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ .

وَمَا وَصَفَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ أَنَّ فَخِذَهُ كَادَتْ تُرَضُّ - بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ رُوحَهُ ﷺ تَنْسَرِحُ مِنْ جِسْمِهِ سَاعَةَ الْوَحْيِ فَيَثْقُلُ الْجِسْمُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخِفُّ بِالرُّوحِ وَتَبَقَّى وَظَائِفُ الْحَيَاةِ عَامِلَةٌ أَعْمَالُهَا بَعْسٌ وَبُطْءٌ ، لِاتِّصَالِهَا بِشُعَاعٍ مِنَ الرُّوحِ دُونَ الرُّوحِ بِجُمْلَتِهَا ، وَلَسْنَا هُنَا بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنِ الْوَحْيِ ، فَلَهُ مَوْضِعٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا « أَسْرَارُ الْأَعْجَازِ »^(١) ، وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ التَّهْيِئَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِلذِّكِّ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ لَهَا أَثَرُهَا الْعَظِيمُ فِي فَنِّ

(١) أَنْظَرُ كِتَابَنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْفُرْيَانِ .

بَلَاغَتِهِ ﷺ ، وبها أَمْتَارَ عَنْ كُلِّ بُلْغَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ أَلْمُلْهَمَ مِنْ أَفْذَاذِ الْعَبَقَرِيِّينَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ بَعْضُ هَذَا الَّذِي رَأَيْتَ ، وَفِي بَعْضِ هَذَا أَبْدَعُ مَا وَرَثَتِ الدُّنْيَا مِنْ فُتُونِ الْبَيَانِ ، وَكَأَنَّ فِي الدِّمَاغِ مَادَّةٌ فِي مَوْضِعٍ مِنْهُ يُمَيِّزُ بِهَا مَنْ تَخْتَارُهُمُ السَّمَاءُ لِحِكْمَتِهَا وَإِلْهَامِهَا ، وَإِذَا كَانَ فَرْقُ الْعَبَقَرِيِّينَ هُوَ أَسْمَى الْكَلَامِ الْإِنْسَانِي ، لِمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ هَذِهِ التَّهْنِئَةِ ، فَإِنَّ فَتْنَهُ ﷺ يَكُونُ وَلَا جَرَمَ مِنْ بَابِ الْأَكْبَرِ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ فِي إِلْهَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا .

وَلِهَذِهِ الْقُوَّةِ الدَّادِرَةِ كَانَ بَيَانُهُ قَوِيًّا عَلَى مَرْجِ مَعَانِيهِ بِالنَّفْسِ بِمَا فِيهِ مِنْ صَنَعَةِ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا فَلَسَفَةُ الْبَيَانِ الْفَنِّيُّ أَنْ تَمْتَدَّ الْحَيَاةُ مِنَ النَّفْسِ إِلَى اللَّفْظِ ، فَتَضَعُ فِيهِ صُنْعَهَا ، فَتَفْصِلُ الْعِبَارَةَ الْفَنِّيَّةَ عَنْ كَاتِبِهَا أَوْ قَائِلِهَا وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِهِ ، لِتَسْتَحِيلَ عِنْدَ قَارِئِهَا أَوْ سَامِعِهَا قِطْعَةً مِنَ الْحَيَاةِ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِدْرَاكِ ؛ فَالْبَيَانُ الْفَنِّيُّ هُوَ الْوَسِيلَةُ لِحَمْلِ الْوُجُودِ وَبَعَثَرَتِهِ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ ، وَخَلَقَهُ خَلْقًا آخَرَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » [البخاري ، رقم : ٥١٤٦ ، ٥١٦٧ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٠٢٨ ؛ أبو داود ، رقم : ٥٠٠٧ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٤٦٣٧ ، ٥٢١٠ ، ٥٢٦٩ ، ٥٦٥٤ ؛ موطأ مالك ، رقم : ١٨٥٠] ؛ جَعَلَ نَوْعًا مِنَ الْبَيَانِ هُوَ السِّحْرُ ، لَا الْبَيَانُ كُلُّهُ ، فَالْحَدِيثُ كَالنَّصِّ عَلَى مَا تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ الْأَوْرُثِيَّةُ الْيَوْمَ بِـ « الْبَيَانِ الْفَنِّيِّ » ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ مِنَ الْبَيَانِ فَنًّا هُوَ سِحْرٌ مِنْ عَمَلِ النَّفْسِ فِي اللَّغَةِ تَغْيِيرُهُ بِهَ الْأَشْيَاءَ وَلَهُ عَجَبُ السِّحْرِ وَتَأْيِيذُهُ وَتَصَرُّفُهُ ؛ وَهَذَا مَعْنَى لَمْ يَنْتَبَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَذْكُرُ مَعَهُ كُلُّ مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ ، وَبِذَلِكَ التَّأْوِيلِ يَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ قَدْ اُحْتَوَى أَسْمَى حَقِيقَةِ فَلَسَفِيَّةِ لِلْفَنِّ .

وَمِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْقُوَّةِ أَيْضًا مَا تَرَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْوُضُوحِ فِي كَلَامِهِ ﷺ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْبَلَاغَةَ النَّبَوِيَّةَ الْعَجِيبَةَ قَائِمَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظُ الْحَقِيقَةِ لَا لَفْظُ اللَّغَةِ ، فَالْعَيْنَاةُ فِيهَا بِالْحَقَائِقِ ، ثُمَّ الْحَقَائِقُ هِيَ تَخْتَارُ أَلْفَاظَهَا اللَّغَوِيَّةَ عَلَى مَنَازِلِهَا ؛ وَبِذَلِكَ يَأْتِي الْكَلَامُ كَأَنَّهُ نَطَقَ لِلْحَقِيقَةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا ، وَالْكَلِمَةُ الصَّادِقَةُ تَنْطِقُ مَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَصُورَتُهَا اللَّغَوِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا صَرِيحَةً مُنْكَشِفَةً عَنْ مَعْنَاهَا الْمُضِيِّ كَأَنَّمَا أُلْفِيَ فِيهَا الثُّورُ .

وَهُوَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ لَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَعَمَّلُ ، وَلَمْ يَكُنْ وَلَمْ يُؤَلَّفْ ، وَمَعَ هَذَا لَا تَجِدُ فِي بَلَاغَتِهِ مَوْضِعًا يَقْبَلُ التَّنْقِيحَ ، أَوْ تَعْرِفَ لَهُ رِفَّةً مِنَ الشَّانِ كَأَنَّمَا بَيَّنَّ الْأَلْفَاظُ وَمَعَانِيهَا فِي

كُلِّ بِلَاغَتِهِ مِفْيَاسٌ وَمِيزَانٌ ، أَوْ كَانَ هَذِهِ الْبِلَاغَةُ تَنْبِيْهُنَّ بِالْكَلَامِ عَلَى طَبِيعَةٍ عَامِلَةٍ فِيهِ بِقَوَاهَا
الذَّائِبَةِ الثَّابِتَةِ ، فَفَتْهَا الْجَمِيلُ هُوَ التَّرْكِيبُ الَّذِي تَجِيءُ فِيهِ كَمَا تَرَى الشَّجَرَ مَثَلًا كَاسِيًا مِنْ
وَرَقِهِ وَزَهْرِهِ ؛ فَأَنْتَ مِنْهُ بِإِزَاءِ عَمَلٍ جَمِيلٍ لِأَنَّكَ بِإِزَاءِ حَقِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ قَدْ أَنْفَرَدْتَ فِي ذَاتِهَا ،
وَمَعْنَى أَنْفَرَادِهَا فِي ذَاتِهَا أَنَّهَا كَذَلِكَ هِيَ ، فَلَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ لِّشَيْءٍ غَيْرِ مَا هُوَ فِيهَا ؛ ثُمَّ
لَا تَنْسَ أَنَّ الثُّبُوَّةَ أَكْبَرُ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ الْوُضُوحِ اللَّيَّانِيِّ الْعَجِيبِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَغْلِقُ فِي
الْبِلَاغَةِ بِإِنْسَانٍ إِلَّا وَهِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ ؛ وَلَعَلَّ غُمُوضَ بَعْضِ الْفَلَسَافَةِ وَبَعْضِ الشُّعْرَاءِ هُوَ مِنْ
دَلِيلِ الطَّبِيعَةِ عَلَى أَنَّهُمْ زَائِدُونَ فِي الطَّبِيعَةِ . . . أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ أَسَالِيهِمُ الْفَلَسَفِيَّةَ وَالشُّعْرِيَّةَ
مَا يَجْعَلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ أَحْيَانًا هُوَ نَقْضُ مَعْنَاهَا^(١) إِذْ يَتَصَنَّعُونَ لِلْفِكْرِ وَيَسْتَعْجِلُونَ لَهُ
وَيُسْقِفُونَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْأَلْفَافِ بِالْأَلْفَافِ ، فَهَلْهَذَا الْبَدِيعُ الْلَفْظِيُّ وَهَذَا
« الْبَدِيعُ الْفِكْرِيُّ » ، وَلَا طَائِلَ وَرَاءَهُمَا إِلَّا صِنَاعَةٌ وَبَهْرَجَةٌ .

وَمَتَى كَانَ اللَّيْثِيُّ قِسْمًا مِنَ الْحَيَاةِ ، بَلْ مَادَّةٌ لِمَعَانِيهَا الْجَدِيدَةِ ، فَلَنْ يَكُونَ بَيَانُهُ إِلَّا عَلَى
مَا وَصَفْنَا لَكَ جَمَالًا ، وَوُضُوحًا وَمَنْفَعَةً وَدَقَّةً وَسُمُوءًا بِقَدْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ .

* * *

وَهَذَا مَعْنَى تَرِيدُ أَنْ تُنَبِّهَ إِلَيْهِ وَتَتَكَلَّمَ فِي سِرِّهِ وَحَقِيقَتِهِ ، فَإِنَّكَ تَقْرَأُ مَا جُمِعَ مِنَ الْكَلَامِ
الَّتَبَوِيِّ فَلَا تُصِيبُ فِيهِ مَا تُصِيبُهُ فِي بِلَاغَةِ أَدْبَاءِ الْعَالَمِ مِمَّا فَتُهُ الْكَلَامُ فِي الْمَرْأَةِ ، وَالْحُبِّ ،
وَجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَهُوَ فِي بِلَاغَةِ النَّاسِ كَالْقَلْبِ فِي الْجِسْمِ : لَا تَخْلُو مِنْهُ وَلَا تَقُومُ إِلَّا بِهِ ؛
حَتَّى تَجِدَ الْكَلَامَ فِي الْمَرْأَةِ وَخَدَهَا شَطْرَ الْأَدَبِ الْإِنْسَانِيِّ ، كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ شَطْرُ
الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَا يُعْرِفُ لَهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ إِلَّا كَلِمَاتٌ بَيَانِيَّةٌ جَاءَتْ بِمَا يَقُوتُ الْوُصْفُ
مِنْ الْجَمَالِ وَالِدَقَّةِ ، مُنَاهِيَّةٌ فِي الْحُسْنِ ، ظَاهِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ ، يَظْهَرُ فِي وَجْهِ بِلَاغَتِهَا
مَا يَظْهَرُ فِي وَجْهِ الْعُذْرَاءِ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ ؛ كَقَوْلِهِ فِي النِّسَاءِ : « رَفَقًا بِالْقَوَارِيرِ »
[البخاري، رقم: ٦١٤٩؛ مسلم، رقم: ٢٣٢٣]، وَقَوْلُهُ لِأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَقَدْ كَسَاهُ قُبْطِيَّةً^(٢)

(١) مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ « غِيَةِ Goethe » شَاعِرِ الْأَلَمَانِ : إِنَّ الْكُلَّ بَاطِلٌ ، مَعْنَاهُ أَنَّ الْكُلَّ لَيْسَ بِبَاطِلٍ
وَلَعَلَّ هَذَا فِي « الْبَدِيعِ الْفِكْرِيِّ » مِنْ بَابِ كُلِّ الشَّيْءِ لِلْإِنْبَاتِ . . .

(٢) بِضَمِّ الْقَافِ : ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابٍ مُضَرَّ رَقِيقَةً بَيْضَاءَ ، وَضُمُّو « قَافَةً » فَرَقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُنْسَبُ إِلَى الْقُبْطِ
مِنْ غَيْرِ الثِّيَابِ .

فَكَسَاهَا أَمْرَاتُهُ : « أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا » [« مسند أحمد » ، رقم : ٢١٢٧٩ ، ٢١٢٨١ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٨٦١١] قَالَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ : وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ ؛ وَالْمُرَادُ أَنَّ الْقُبْطِيَّةَ بِرَقَّتِهَا تَلَصُّ بِالْجِسْمِ ، فَتُبِينُ حَجْمَ الثَّوْدَيْنِ ، وَالرَّادِفَتَيْنِ ، وَمَا يَسْتَدُّ مِنَ لَحْمِ الْعَصْدَيْنِ وَالْفَخِذَيْنِ ، فَيَعْرِفُ النَّاطِرُ إِلَيْهَا مَقَادِيرَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، حَتَّى تَكُونَ كَالظَّاهِرَةِ لِلْخِطِّهِ ، وَالْمُمْكِنَةِ لِلْمَسِّهِ ، فَجَعَلَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِهَذِهِ الْمَحَالِّ كَالْوَصِيفَةِ لِمَا خَلْفَهَا . وَالْمُخْبِرَةَ عَمَّا اسْتَرَّتْ بِهَا ؛ وَهَذِهِ مِنْ أَحْسَنِ الْعِبَارَاتِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلِهَذَا الْغَرَضِ رَمَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّا كُمْ وَلُبْسَ الْقُبَاطِيِّ ، فَإِنَّهَا إِلَّا تَشَفُّ تَصِفُ » [« كنز العمال » ، رقم : ٤٢٠٣١] فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا عُذْرَةَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَمَنْ تَبِعَهُ فَإِنَّمَا سَلَكَ فَجَّهُ .

قُلْنَا : وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ ، وَلَكِنَّ فِي عِبَارَةِ الْحَدِيثِ سِرًّا هُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ الشَّرِيفُ ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ حَقِيقَةُ الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ بِخَاصَّتِهَا ، وَلَا نَظْلُ أَنْ بَلِيغًا مِنْ بُلْغَاءِ الْعَالَمِ يَتَأَتَّى لِمِثْلِهِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقُلْ : أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ أَعْضَائِهَا ، بَلْ قَالَ : حَجْمَ عِظَامِهَا ، مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ لَحْمَ الْأَعْضَاءِ فِي حَجْمِهِ وَتَكْوِينِهِ ، وَذَلِكَ مُنْهَى السُّمُوِّ بِالْأَدَبِ ، إِذْ ذَكَرُ « أَعْضَاءُ » الْمَرْأَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَبِهَذَا الْمَعْرِضِ ، هُوَ فِي الْأَدَبِ الْكَامِلِ أَشْبَهُ بِالرَّفِثِ ، وَلَفْظَةُ « الْأَعْضَاءُ » تَحْتَ اللَّوْبِ الرَّفِيقِ الْأَبْيَضِ تُنْبِئُ إِلَى صُورٍ ذَهْنِيَّةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ الَّتِي عَدَّهَا الرَّضِيُّ فِي شَرْحِهِ ، وَهِيَ تُؤْمِي إِلَى صُورٍ أُخْرَى مِنْ وَرَائِهَا ، فَتَنَزَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ ، وَضَرَبَ الْحِجَابَ اللَّغْوِيَّ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي السَّافِرَةِ . . . وَجَاءَ بِكَلِمَةِ « الْعِظَامِ » لِأَنَّهَا اللَّفْظَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الْمُبْرَأَةُ مِنْ كُلِّ نَزْعَةٍ ، لَا تَقْبَلُ أَنْ تَلْتَوِي ، وَلَا تُثِيرُ مَعْنَى ، وَلَا تَحْمِلُ غَرَضًا ، إِذْ تَكُونُ فِي الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ ، بَلْ هِيَ بِهِذَا أَحْصَى ؛ وَفِي الْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ ، بَلْ هِيَ هُنَا أَلْيَقُ ؛ وَفِي الشَّبَابِ وَالْهَرَمِ ؛ بَلْ هِيَ فِي هَذَا أَوْضَحُ . وَالْأَعْضَاءُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْعِظَامِ ، فَالْمَجَازُ عَلَى مَا نَرَى ، وَالْحَقِيقَةُ هِيَ مَا عَلِمْتَ .

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ فِي الْوَصْفِ الطَّبِيعِيِّ قَوْلُهُ ﷺ وَهُوَ يَذْكُرُ أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ : « الْعَصْرُ إِذَا كَانَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ، وَكَذَلِكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ حَيَّةً ؛ وَالْعِشَاءُ إِذَا غَابَ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ

تَمْضِي كَوَاهِلُ اللَّيْلِ « وَكَوَاهِلُ اللَّيْلِ : أَوَائِلُهُ وَفُرُوعُهُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهُ . كَالَّذِي يَتَقَدَّمُ الْمَطَايَا مِنْ أَعْنَاقِهَا الْمُتَمَتِّدَةِ بَعْضُ الْأَمْتِدَادِ .

وَقَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ : مَتَى يُصَلِّي الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِذَا مَلَأَ اللَّيْلُ بَطْنَ كُلِّ وَادٍ » . [مسند أحمد ، رقم : ٢٢٥٨٥] .

وَقَوْلُهُ : « إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَأَخْرُجُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَرْتَفِعَ » . [البخاري ، رقم : ٥٨٣ ؛ مسلم ، رقم : ٨٢٨] .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ ؟ قَالَ : بَلَى ! وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ ؛ قَالَ : فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَأَسْتَوَاوُهُ وَأَسْتَخْصَادُهُ فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ » . [البخاري ، رقم : ٣٣٤٨ ، ٧٥١٩ ؛ مسند أحمد ، رقم : ١٠٢٦٤] .

وَقَوْلُهُ : « بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَأَشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَتَرَلَّ بَثْرًا ، فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي ! فَمَلَأَ حُقَّةً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ فَسَفَى الْكَلْبُ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ! فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . [البخاري ، رقم : ٣٣٦٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٢٤٤ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٥٥٠ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٨٦٥٧ ، ١٠٣٢١ ، ١٠٣٧٣ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٧٢٩] .

فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْفَنِّ الْبَدِيعِ الْكَادِرِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ ﷺ إِلَّا فِي مِثْلِ مَا رَأَيْتَ ، فَلَا يُرَادُ مِنْهُ اسْتِجْلَابُ الْعِبَارَةِ ، وَلَا صِنَاعَةُ الْخَيَالِ ، فَيُظَنُّ مَنْ لَا يُمَيِّزُ وَلَا يَحْقُقُ أَنَّ خُلُوَ الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ فَنٍّ وَصِفِ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ ، دَلِيلٌ عَلَى مَا يُنْكِرُهُ أَوْ يَسْتَجْفِيهِ ، وَيَقُولُ : بَدَاوَةٌ وَسَدَاجَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا تُشَبِّهُهُ الْغَفْلَةُ عَلَى جَهْلَةِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ مِنْ ضِعَافٍ أَدْبَانِيًا وَجَهْلَةً^(١) كِتَابِنَا ؛ وَإِنَّمَا انْتَفَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِانْتِفَاءِ الشَّعْرِ عَنْهُ وَكَوْنِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ - كَمَا بَسَطْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ^(٢) - فَعَمَلُهُ أَنْ يَهْدِيَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا أَنْ

(١) فِي مُعْظَمِ الطَّبَعَاتِ : « جُلَّةٌ » بَدَلًا مِنْ : « جَهْلَةٌ »

(٢) كِتَابِنَا « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » .

يُرَيْنَ لَهَا ، وَأَنْ يَذْلِكَهَا عَلَى مَا يَجِبُ فِي الْعَمَلِ ، لَا مَا يَحْسُنُ فِي صِنَاعَةِ الْكَلَامِ ؛ وَأَنْ يَهْدِيَهَا إِلَى مَا تَفَعَّلُهُ لَتَسْمُو بِهِ ، لَا إِلَى مَا تَتَخَيَّلُهُ لَتَلْهُو بِهِ . وَالْخَيَالُ هُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيقِيُّ عِنْدَ النَّفْسِ فِي سَاعَةِ الْأَنْفِعَالِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ فَقَطْ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَبَدًا حَقِيقَةً ثَابِتَةً ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَذِبًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

ثُمَّ هُوَ ﷺ لَيْسَ كَعَبْرَةٍ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ : يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ لِيَسْتَمْلِيَ مِنْهَا ؛ بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَصْدَرِهَا الْأَرْثِيِّ لِيُمْلِيَ فِيهَا ؛ وَقَدْ كَانَتْ آخِرُ ابْتِسَامَةٍ لَهُ فِي الدُّنْيَا ابْتِسَامَتُهُ لِلصَّلَاةِ^(١) يَتَهَلَّلُ لَطَهَارَةِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ وَجَمَالِهَا قَائِمَةً بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهَا ، مُنْسَكِبًا فِي طَهَارَتِهَا رُوحَ الثُّورِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَبْدُو الْكَوْنُ فِي عَيْنِهِ عَلَى مَا يَرَى مِمَّا يُشَبِّهُ مَا فِي نَفْسِهِ ، فَكُلُّ مَا رَأَاهُ الْمُصَلِّي الْخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ^(٢) يَبْدُو لَهُ كَأَنَّهُ يُصَلِّي فِي ضَرْبٍ مِنَ الْعِبَادَةِ عَلَى نَحْوِ مِنَ الدِّينِ ، وَكُلُّ مَا رَأَاهُ السَّكْرَانُ فِي سُكْرِهِ يَكَادُ يَرَاهُ مُخَبَّطًا يُعْزِبُ مَا يَتِمَّاسُكُ !

ثُمَّ إِنَّ الْكَلَامَ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَسَالِيبِ اللَّيْبَانِيَّةِ ، إِنَّمَا هُوَ بَابٌ مِنَ الْأَحْلَامِ ، إِذْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ عَيْنِي شَاعِرٍ ، أَوْ نَظْرَةِ عَاشِقٍ ، وَهَذَا نَبِيٌّ يُوْحَى إِلَيْهِ ، فَلَا مَوْضِعَ لِلْخَيَالِ فِي أَمْرِهِ ، إِلَّا مَا كَانَ تَمَثُّلًا يُرَادُ بِهِ تَقْوِيَةُ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ بِحَقِيقَةِ مَا فِي بَعْضِ مَا يَعْزُضُ مِنْ بَابِ الْإِرْشَادِ وَالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا مَرَّ بِكَ مِنْ أَمْثَلَتِهِ ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ! » [البخاري ، رقم : ٦٣٠٨] وَهَذَا كَلَامٌ أَبْلَغُ مَا أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ تِلْكَ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ بِإِحْسَاسِهَا الرَّفِيقِ ، كَأَنَّهُ حَاسَّةٌ مِنَ الثُّورِ كُتِبَتْ فِي شُعُورِهَا ، وَتِلْكَ النَّفْسُ الْفَاجِرَةُ بِإِحْسَاسِهَا الْغَلِيطِ كَأَنَّهُ ، حَاسَّةٌ مِنَ التُّرَابِ . . .

- (١) عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي بِهِمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْأَنْتَنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ بَنَظَرٍ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةٌ مُصْحَفٌ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَقْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ ، فَتَكَصَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقْبَتِهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ ، وَطَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ : أَنْ أَتَيْنَا صَلَاتَكُمْ ، وَأَرْخَى السِّتْرَ ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ . [البخاري ، رقم : ٦٨٠ ؛ مسلم ، رقم : ١١٦٧] .
- (٢) مِنَ الْكَلِمَاتِ الْجَمِيلَةِ الدَّقِيقَةِ فِي نَحْوِ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لَا تَرَالُونَ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرْتُمُ الصَّلَاةَ ! » . [البخاري ، رقم : ٦٩٠ ؛ مسلم ، رقم : ٦٤٠] .

وَيَكَادُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَسْمَعُ هَذَا الْوَصْفَ يَذْكُرُهُ ذُنُوبَهُ - أَنْ يُحْسَنَ بِحَرَكََةِ جَبَلٍ يَهُمُّ أَنْ يَنْقَلِعَ فَيَمِيلَ عَلَيْهِ ، أَمَّا الْفَاجِرُ فَيَسْمَعُهُ يَذْكُرُهُ ذُنُوبَهُ فَإِذَا هِيَ فِي خَيَالِهِ نَقْطٌ سُودٌ تَمُرُّ مُرُورَ الدُّبَابِ ، لَيْسَ مِنْهُ إِلَّا الْحِسُّ بِهِ ، كَمَا يُحْسِنُ مَنْ يُضْرَبُ عَلَى أَنْفِهِ بِرِجْلِ دُبَابَةٍ . . . وَجَعَلَ الدُّبَابُ يَمُرُّ عَلَى أَنْفِهِ دُونَ عَيْنِهِ أَوْ فِيهِ ، وَذَلِكَ مُنْتَهَى الْجَمَالِ فِي التَّصْوِيرِ ، لِأَنَّ الدُّبَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَى الْفَمِ أَوْ الْعَيْنِ ثَبَتَ وَالْحُجَّ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَى فَصِيَةِ الْأَنْفِ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ وَمَرَّ مُرُورَهُ .

الْكُونُ فِي نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الْحِكْمَةِ لَا آيَةُ الْفَنِّ ، وَمَنْظَرُ الْمُسْتَنِينَ لَا مَنْظَرُ الْمُتَخَيَّلِ ، وَمَادَّةُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ لَا مَادَّةُ النَّالَةِ لِلْإِنْسَانِ ، وَبِذَلِكَ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ أَشْيَاءَ وَكَرِهَ أَشْيَاءَ لَا يَكُونُ الْفَنُّ بِغَيْرِهَا فَنًّا ، فِي ضُرُوبٍ مِنَ الشَّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ وَالمُوسِيقِيِّ وَالْحُبِّ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْظُرُ لِلْإِنْسَانِ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، وَحَاضِرًا وَآتِيًا ، وَوَاجِبًا وَمَنْفَعَةً ، وَلَذَّةً وَالْمَا ؛ وَهَذِهِ كُلُّهَا لَا إِطْلَاقَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْقَيْدِ ، عَلَى حِينٍ أَنَّ الْفَنَّ لَا قَيْدَ فِيهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الْإِطْلَاقِ ، وَأَسَاسُ الدِّينِ حَظُّ الْجَمَاعَةِ وَفِيُودِهَا ، وَأَسَاسُ الْفَنِّ حَظُّ الْفَرْدِ وَحُرِّيَّتُهُ ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ لَا تَبْدُو فِي حَالَةِ تَرْكِيبٍ وَانْتِظَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لِلْكُلِّ ، فَإِذَا كَانَتْ لِفَرْدٍ ظَهَرَتْ فِي هَيْئَةِ انْحِلَالٍ وَانْتِقَاصٍ ، وَأَصْبَحَتْ فِي الْكُونِ كُلِّهِ كَأَنَّهَا عُمُرُ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْفَنِّ أَلْوَانًا لَا بُدَّ مِنْهَا لِتَصْوِيرِهِ الْجَمِيلِ الَّذِي تُعْجَبُ بِهِ النَّفْسُ ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ فِيهَا . . . أَيُّ هُوَ أَشَدُّهَا زُهْوًَا وَإِشْرَاقًا وَجَمَالًا فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِّيِّ لِكُلِّ مَا فِي الْمَرْأَةِ وَالْحُبِّ وَالْجَمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ الْحَيَاةَ الْقَوِيَّةَ حِينَ تُمَارِجُهَا هَذِهِ الْفُنُونُ تَكْسِبُ مَرَحًا وَنَشَاطًا وَيَكُونُ لَهَا رَوْنَقٌ ، وَفِيهَا مَتَاعٌ ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ بِهَا كَذَلِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تَخْتَسِي خَمَرَهَا . . . فَلَهَا بَعْدُ مِنْ عَاقِبَةِ هَذِهِ الْفُنُونِ شَيْبَةٌ بِمَا يَكُونُ لِلْجِسْمِ الْقَوِيِّ مِنْ عَاقِبَةِ الْخَمْرِ إِذَا تَغَلَّغَتْ الْخَمْرُ فِي شِعَابِ كَبِدِهِ وَأَحَالَتْ رَطْبَتَهَا يَابَسَةً ، كَمَا وَقَعَ فِي أَطْوَارِ كَثِيرَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْأُمَمِ ؛ فَلَيْسَ الْاِغْتِيَارُ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ بِمَا يَغْرِضُ مِنْ تَأْثِيرِ السَّاعَةِ الزَّائِلَةِ بِأَفْرَاحِهَا وَفَنِّ حَيَاتِهَا ، بَلِ الشَّأْنُ لِلْعَاقِبَةِ الْمَخْتُومَةِ مَتَى جَاءَتْ سَاعَتُهَا الْبَاقِيَّةُ بِأَخْزَانِهَا وَفَنِّ هَلَاكِهَا ، فَالْإِسْلَامُ فِيمَا حَرَّمَ وَكَرِهَ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَرَادَ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَحْيَا ، لِأَنَّهُ لَا يُفَرِّقُ صُورَةً مِنْ صُورِ انْتِحَارِهَا .

وَمَنْ كَانَ أَكْبَرُ عَمَلِهِ إِنْشَاءَ الْحَقَائِقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَقْرِيرُهَا شَرِيعَةً وَعَاطِفَةً وَأَعْمَالًا ، فَلَا جَرَمَ كَانَ فَتَاهُ غَيْرَ الَّذِي أَكْبَرُ عَمَلِهِ تَمْوِينُهُ تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَزَخْرَفَتُهَا لِيَقَعَ الْإِحْسَاسُ بِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا ، فَتَخَفَّ بِالْوَاقِعِ مِنْهَا عَلَى النَّفْسِ خِفَّةُ الْكَذِبِ عَلَى سَاعَةِ تَصْدِيقِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ أَكْبَرُ عَمَلِ الشُّعْرِ .

وَهَلُمَّا سِرًّا دَقِيقًا لَا يَتِمُّ كَلَامُنَا إِلَّا بِشَرْحِهِ ، لِنَقْطَعَ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، فَيَظْهَرُ حَقُّهُ مِنْ بَاطِنِهِ : قُلْنَا أَيْمًا إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ : يَتَّصِلُ بِالطَّبِيعَةِ يَسْتَمْلِكُ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَصْدَرِهَا الْأَزَلِيِّ لِئَمْلِي فِيهَا . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَعْزُضُ لَهُ مِنْ زَيْغِ النَّفْسِ مَا يَعْزُضُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، فَأَحْكَمَ حُكْمَاءُ الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَ جُزْءًا صَغِيرًا مِنَ الْكَوْنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ حَوَاسُّ الْجِسْمِ غَيْرَ مُهَيَّاةٍ لِذَلِكَ ؛ فَفَهْمُ جُزْءٍ مِنَ الْكَوْنِ فَهْمًا صَادِقًا ، جَزْمًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِفَهْمِ الْكَوْنِ بِأَجْمَعِهِ ، فَهُوَ كُلُّهُ ذَرَّةٌ مُكْتَبَرَةٌ إِلَى مَا لَا يَنْتَهِي وَلَا يُحَدُّ ، وَلَيْسَتْ الشُّبُوهُ شَيْئًا غَيْرَ الْإِتِّصَالِ بِالسَّرِّ .

وَالْحَاضِرُ الَّذِي يَكُونُ فِي إِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ ، هُوَ حَاضِرٌ لَيْسَ غَيْرٌ ، لِأَنَّهُ يَتَحَوَّلُ وَيَفْتَنُ ، فَهُوَ مِنَ الزَّيْغِ الَّذِي يَغْتَرِي النَّفْسَ ، وَمِنْهُ كُلُّ أَغْرَاضِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الْفَانِيَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ طَابِعُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ هُوَ تَجَرِيدُهُ مِنَ زَيْغِ الْهَوَىِّ وَسَرَفِ الطَّبِيعَةِ ، فَهُوَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ وَلَا يُطِيقُهُ أَحَدٌ ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ وَشَمَائِلَهُ وَحَدِيثَهُ أَنْ يَنْبَحَثَ دَائِمًا عَنْ طَابِعِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ سَيَرَى حِينَئِذٍ كَأَنَّهُ يَذَرُهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ لَا مَعَ النَّاسِ ، وَسَيَظْهَرُ لَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ غَايَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ الْعُلْيَا إِلَّا فِيهَا ، وَأَنَّ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا ، وَكَانَ أَيْضًا حَرَكَةً فِي تَقْدَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَأَنَّ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنَّهُ أَطَاقَ فِي تَارِيخِهِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْبَشَرِيَّةُ فِي تَارِيخِهَا وَأَنَّ كُلَّ أُمُورِهِ ﷺ مَوْضُوعَةٌ وَضْعًا إِلَهِيًّا كَأَنَّهَا صِفَاتُ كَوْنِهَا اللَّهُ وَعَلَقَهَا فِي التَّارِيخِ لِمَعَانِي الْحَيَاةِ ، تَعْلِقُ الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ لِمَوَادِّ الْحَيَاةِ .

إِنَّ الشَّهَوَاتِ وَالْمَصَالِحَ إِنَّمَا هِيَ حَضَرُ النَّفْسِ فِي جَانِبٍ مِنَ الشُّعُورِ مَخْدُودٍ بِذَلَالَتِ وَهْمٍ وَأَحَاسِنَسٍ تَجْعَلُ غَرَضَ الْإِنْسَانِ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ فَهُوَ كَمَا يَمْلَأُ مِعْدَتَهُ وَيَتَأَتَّقُ فِي الْإِخْتِيَارِ لَهَا ، يُرِيدُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَنْ يَمْلَأَ شَخْصَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بَعِيْنَهَا ، طَرِيقَةِ إِشْبَاعِ

مَعْدَتِهِ ... وَبِهَذَا تَسَخَّرَ مِنْهُ حَقَائِقُ الْكَوْنِ ، لِأَنَّهَا لَا تَحْدُ بِشَخْصٍ ، وَلَا تَنْحَصِرُ فِي أَحَدٍ ، وَكُلُّ مَنْ كَانَتْ حُدُودُهُ الْإِنْسَانِيَّةَ جِسْمَهُ وَلَذَاتِ جِسْمِهِ ، فَهُوَ فِي مِقْدَارِ هَذَا الْكَوْنِ كَالْمَيِّتِ الْمَحْدُودِ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِقَبْرِهِ وَتَرَابِ قَبْرِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَجِدُ جِسْمَهُ وَأَكَاذِيبَ الطَّبِيعَةِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَجِدَ الرُّوحَ وَحَقَائِقَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ هَذِهِ فَلَنْ يَعْرِفَ الْكَوْنَ وَأَسْرَارَهُ ؛ وَإِذَا فَقَدَ هَذَا فَهُوَ الْحَاضِرُ الضَّبِيبُ الْمَشْوِيُّ الْمَكْدُوبُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَفَقَهُ شَهْوَةَ إِحْسَاسِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْدُوعًا ، وَشَهْوَةَ نَظَرِهِ وَإِنْ كَانَ مُلَبَّسًا عَلَيْهِ ، وَشَهْوَةَ خَيَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ النَّمُوِيَّةُ وَالزُّورُ ، وَالْحَاضِرُ الضَّبِيبُ الْمَشْوِيُّ الْمَكْدُوبُ الْخَادِعُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي لُغَةِ الْفُرَّانِ وَالْحَدِيثِ « بِالْذُّنْيَا » ؛ فَإِذَا اتَّسَعَ الْإِنْسَانُ لِرُوحِهِ وَأَذْرَكَ حَقِيقَتَهَا ، وَوَعَى مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَوْنِ ، وَأَخَذَ يُحَقِّقُ هَذِهِ الرُّوحَ السَّمَاوِيَّةَ فِي أَعْمَالِهِ ، وَتَخَطَّى حُدُودَ جِسْمِهِ إِلَى فِكْرَةِ الْخُلُودِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي لُغَةِ الْفُرَّانِ وَالْحَدِيثِ بِـ « الْآخِرَةِ » فَهُمَا كَلِمَتَانِ فِي مُنْتَهَى الْإِبْدَاعِ مِنَ الْفَنِّ وَالْفَلَسَفَةِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ يُؤَوَّلُ قَوْلُهُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ : « مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ؛ وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ » . [ابن ماجه ، رقم : ٤١٠٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٠٨٠] .

وَأَنْتَ إِذَا فَسَّرْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِمَا وَصَفْنَا لَكَ وَوَجَّهْتَهَا عَلَى ذَلِكَ التَّأْوِيلِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مَعَانِيهَا لَا تَنْقُصُنِي . وَأَذْرَكَتَ سِرَّ قَوْلِهِ ﷺ : « إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمِيهِ » [« مسند أحمد » ، رقم : ٢٠٦١١] فَاتَّسَعَ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ وَمُمَادَّتُهَا لِحَقَائِقِ الْكَوْنِ ، يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَالْكَوْنِ نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا غَيْرَ مُفَرَّقٍ عَلَى هُمُومِ الْحَيَاةِ ؛ وَيَجْعَلُ الْغِنَى مَعْنَى لَا مَادَّةَ ؛ وَلَوْ أَمْتَلَكَ إِنْسَانٌ مِنَ النَّاسِ كُلِّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَكَانَ لَهُ كَنْزٌ فِي الْمَشْرِقِ وَكَثْرٌ فِي الْمَغْرِبِ ؛ لَمَا بَلَغَ شَيْئًا قَلِيلًا مِنْ لَذَّةِ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَلْبِهِ ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تُضَيِّحُ الدُّنْيَا الْعَرِضَةَ الَّتِي يَهْلِكُ النَّاسُ فِي تَحْصِيلِهَا وَلَيْسَتْ إِلَّا ضَرُورَةً صَغِيرَةً ؛ قَدْ تَكُونُ فِي ثَوْبٍ وَلَقِيَمَاتٍ وَتَخَوِّهَا مِمَّا لَا خَطَرَ لَهُ ، وَهَذَا هُوَ إِزْغَامُهَا وَهِيَ مَالِكَةٌ أَلْمُلُوكِ ، فَإِذَا ضَاقَ الْإِنْسَانُ عَنْ رُوحِهِ أَصْبَحَتِ النَّفْسُ كَالْمُنْخَلِ يُوضَعُ الدَّقِيقُ النَّاعِمُ فِيهِ لِيُخْرَجَ مِنْهُ فَيَمْسِكُهُ كُلُّهُ وَلَا يَمْسِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَوَضَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهَا مَعْنَى الْفَقْرِ ، فَهِيَ تَعْمَلُ

أَبَدًا لِيَتَمَتَّلَى ، وَلَا تَمْتَلِئُ أَبَدًا ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُنْخَلُّ مُتَّخِذًا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي صُنِعَ بِهَا ، فَفَقَرُهُ وَلَا جَرَمَ مُعَلَّقٌ عَلَيْهِ مِنْ ذَاتِ تَرْكِيبِهِ . « أَفْهَمْتَ . . . » ؟ .

وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَسَاوِقًا مَعَ الْحَقِيقَةِ ، مُتَّصِلًا بِهَا ، مَحْدُودًا بِرَبِّهِ لَا يَنْفُسِهِ ، كَانَ لِذَلِكَ خَارِجًا مِنْ حَاضِرٍ مَا نَحْنُ فِيهِ ، مُمْتَدًّا بِمَعْنَاهُ الْإِنْسَانِيَّ الْكَامِلِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي وَرَاءَ الْحَيَاةِ ، فَمَا نَحْصُرُهُ نَحْنُ بِطَبِيعَتِنَا فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ لَا يَلْتَفِتُ هُوَ إِلَيْهِ بِطَبِيعَتِهِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُ الْغِنَى وَالْحِلْيَةِ وَاللَّعِينِ وَالْمَتَاعِ وَالْجَمَالِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ، وَمَا دَاخَلَ الطَّبِيعَةَ مِنْ مِثْلِ مَعَانِيهَا ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، فَهَذَا كُلُّهُ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْمَطْمَعِ فِيهِ ؛ إِذْ كَانَ ضَعْفُ إِدْرَاكِهِمْ وَضِيقُ وَعْيِهِمْ مِمَّا يُبْدِعُ لَهُمْ أَكَاذِيبَ الْخَيَالِ ، فَتَجِيءُ مِنْ ذَلِكَ أَوْصَافُهُمْ وَتُقْنُونُ أَوْصَافِهِمْ ، أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَى ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغِنَى عَنْهُ وَالسُّمُوِّ عَلَيْهِ ! إِذْ كَانَ لَا يَنْظُرُ بِطَبِيعَةِ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا أَعْلَى النَّظَرَيْنِ وَأَطْهَرَهُمَا ، فَآخِرُ إِدْرَاكِنَا لِلْحَقِيقَةِ وَالطَّبِيعَةِ أَوَّلُ إِدْرَاكِهِ هُوَ لِلطَّبِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَمَا تَعَجَّرَ عَنْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَبَدُّأً مِنْهُ السُّبُوءَةُ .

وَعَلَى هَذَا ، فَإِنَّ مِنْ أَقْوَى الْبَرَاهِينِ عَلَى كَمَالِهِ ﷺ وَتُبُوتهِ وَاتِّسَاعِ رُوحِهِ وَنَفَازِ إِدْرَاكِهِ لِحَقَائِقِ الْكَوْنِ - أَنَّهُ لَمْ يَتَبَسَّطْ فِي الْفُنُونِ كَمَا يَصْنَعُ الْبُلْغَاءُ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَا خَذَهُمْ فِيهَا ؛ إِذْ كَانَتْ كُلُّهَا مِنْ أَكَاذِيبِ الْقَلْبِ وَالْمَكْرِ وَالْعَيْنِ .

وَفِي قَانُونِ الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ هِيَ كُلُّ الْأَشْيَاءِ وَهِيَ كَمَا هِيَ ، أَمَّا فِي قَانُونِ الْكَذِبِ فَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا هِيَ مَا تَخْتَارُهُ أَنْتَ مِنْهَا ، وَكَمَا تَخْتَارُهُ .

بِحَسَبِ الدُّنْيَا مِنْ جَمَالٍ فَتَنَهُ ﷺ مَا يُضَيِّفُ إِلَى الْحَيَاةِ عَظَمَةَ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، وَيَذْفَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي طَرِيقِهَا الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الْأَبِّ وَالْأُمِّ ، طَرِيقُ الْإِخِ إِلَى أَخِيهِ ، يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ كَمَا هُوَ فِي الدِّمِّ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ رَحْمَةً وَمَوَدَّةً ، وَبِحَسْنِهَا مِنْ جَمَالِ هَذَا الْفَنِّ مَا يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ؛ فَيَقْرَهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ وُجُودِهِ الْإِنْسَانِيَّ ، وَيَجْعَلُ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا تَرْبِيَةً لِلْقَلْبِ ؛ يَكْبُرُ بِهَا ثُمَّ يَكْبُرُ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَكْبُرُ حَتَّى يَسْعَ لِحَقِيقَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْكُبْرَى : « اللَّهُ أَكْبَرُ » .

قُرْآنُ الْفَجْرِ (*) (١)

كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ سِنِّي وَقَدْ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ حِفْظًا وَجَوْدَتُهُ بِأَحْكَامِ الْقِرَاءَةِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ فِي مَدِينَةِ (دَمَنْهَوْر : عَاصِمَةِ الْبُحَيْرَةِ) وَكَانَ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَبِيرَ الْقَضَاةِ الشَّرْعِيِّينَ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَغْتَكِفُ كُلَّ سَنَةٍ فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ عَشْرَةَ الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ؛ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَبْرُحُهُ إِلَّا لَيْلَةً عِنْدَ الْفِطْرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الصَّوْمِ ؛ فَهَنَّاكَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَصِلُ بِمَعْنَاهُ الْحَقُّ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الزَّائِلِ بِمَعْنَى الْخَالِدِ ، وَيُطِلُّ عَلَى الدُّنْيَا إِطْلَالَ الْوَاقِفِ عَلَى الْأَيَّامِ السَّائِرَةِ ! وَيَعْيُرُ الْحَيَاةَ فِي عَمَلِهِ وَفِكْرِهِ ، وَيَهْجُرُ تُرَابَ الْأَرْضِ فَلَا يَمْشِي عَلَيْهِ ، وَتُرَابَ الْمَعَانِي الْأَرْضِيَّةِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ ، وَيَدْخُلُ فِي الزَّمَنِ الْمُتَحَرَّرِ مِنْ أَكْثَرِ قُبُودِ النَّفْسِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي الْمَكَانِ الْمَمْلُوءِ لِلْجَمِيعِ بِفِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ ؛ ثُمَّ لَا يَرَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا هَذَا النَّوعَ الْمُرْطَبَ الرُّوحَ بِالْوُضُوءِ ، الْمَدْعُوَ إِلَى دُخُولِ الْمَسْجِدِ بِدَعْوَةِ الْقُوَّةِ السَّامِيَةِ ، الْمُنْحَنِي فِي رُكُوعِهِ لِيَخْضَعَ لِعِزِّ الْمَعَانِي الدَّلِيلَةِ ، أَلْسَاجِدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ لِيُذَرِّكَ مَعْنَى الْجَلَالِ الْأَعْظَمِ .

وَمَا هِيَ حِكْمَةُ هَذِهِ الْأَمْكَنَةِ الَّتِي تُقَامُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ ؟ إِنَّهَا أَمْكَنَةٌ قَائِمَةٌ فِي الْحَيَاةِ ، تُشْعِرُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ فِي نِزَاعِ الدُّنْيَا أَنَّهُ فِي إِنْسَانٍ لَا فِي بَهِيمَةٍ . . .

* * *

وَذَهَبْتُ لَيْلَةً فَبِتُّ عِنْدَ أَبِي فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَلَمَّا كُنَّا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ أَيْقَظَنِي لِلْسَّحُورِ ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَتَوَضَّأْتُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَى قِرَاءَتِهِ ؛ فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ الْأَعْلَى هَتَفَ بِالْدُّعَاءِ الْمَثَانُورِ : « اَللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ بِهِاءِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ؛ أَنْتَ قِبَامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ ؛ أَنْتَ الْحَقُّ وَمِنْكَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٧ ، ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ فبراير/شباط ١٩٣٧ م ، السنة

الخامسة ، الصفحات : ١٦١ - ١٦٣ .

(١) أَنْشَأَهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، فَأَعْجَبَ لَهُ يَذْكُرُ أَوْلِيَّتَهُ وَهُوَ عَلَى أَبْوَابِ آخِرَتِهِ ! سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

الْحَقُّ . . . » إِلَى آخِرِ الدَّعَاءِ .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ يَتَابِعُونَ الْمَسْجِدَ ، فَأَنحَدَرْنَا مِنْ تِلْكَ الْعِلْيَةِ الَّتِي يُسْمَوْنَهَا (الدَّكَّةَ) وَجَلَسْنَا نَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ . وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ تَضَاءُ بِقَنَادِيلِ الزَّيْتِ ، فِي كُلِّ قَنَادِيلٍ ذِبَالَةٌ يَزْتَعِشُ الثُّورُ فِيهَا خَافِتًا ضَبِيلًا يَبِصُّ بِصَبِيصًا كَأَنَّهُ بَعْضُ مَعَانِي الضَّوءِ لَا الضَّوءُ نَفْسُهُ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الْقَنَادِيلُ وَالظَّلَامُ يَزْتَعِجُ حَوْلَهَا ، تَلَوُّحُ كَأَنَّهَا شُقُوقٌ مُضِيئَةٌ فِي الْجَوِّ ، فَلَا تَكْشِفُ اللَّيْلَ وَلَكِنْ تَكْشِفُ أَسْرَارَهُ الْجَمِيلَةَ . وَتَبْدُو فِي الظُّلْمَةِ كَأَنَّهَا تَفْسِيرٌ ضَعِيفٌ لِمَعْنَى غَامِضٍ يُؤْمَى إِلَيْهِ وَلَا يُبَيِّنُهُ ، فَمَا تَشْعُرُ النَّفْسُ إِلَّا أَنَّ الْعَيْنَ تَمْتَدُّ فِي ضَوْئِهَا مِنَ الْمَنْظُورِ إِلَى غَيْرِ الْمَنْظُورِ ، كَأَنَّهَا سِرٌّ يَكْشِفُ عَنْ سِرٍّ .

وَكَانَ لَهَا مَنْظَرٌ كَمَنْظَرِ الثُّجُومِ يُتِمُّ جَمَالَ اللَّيْلِ بِإِلْقَائِهِ الشُّعْلَ فِي أَطْرَافِهِ الْعُلْيَا وَالْبَاسِ الظَّلَامَ زِينَتَهُ الثُّورَانِيَّةَ ؛ فَكَانَ الْجَالِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَقْتُ السَّحَرِ يَشْعُرُ بِالْحَيَاةِ كَأَنَّهَا مَحْبُوءَةٌ ، وَيُحْسِنُ فِي الْمَكَانِ بَقَايَا أَحْلَامِ ، وَيَسْرِى حَوْلَهُ ذَلِكَ الْمَجْهُولُ الَّذِي سَيَخْرُجُ مِنْهُ الْغَدُ ؛ وَفِي هَذَا الظَّلَامِ الثُّورَانِيَّ تَتَكَشَّفُ لَهُ أَعْمَاقُهُ مُنْسَكِبًا فِيهَا رُوحَ الْمَسْجِدِ ، فَتَعْتَرِيهِ حَالَةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَسْتَكِينُ فِيهَا لِلْقَدَرِ هَادِنًا وَادِعًا رَاجِعًا إِلَى نَفْسِهِ ، مُجْتَمِعًا فِي حَوَاسِهِ ، مَتَفَرِّدًا بِصِفَاتِهِ ، مُنْعَكِسًا عَلَيْهِ نُورٌ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ سُلْطَانٍ مَا يُضِيءُ عَلَيْهِ النَّهَارُ ، أَوْ كَانَ تِلْكَ الظُّلْمَةُ قَدْ طَمَسَتْ فِيهِ عَلَى أَلْوَانِ الْأَرْضِ .

ثُمَّ يَشْعُرُ بِالْفَجْرِ فِي ذَلِكَ الْغَبَسِ عِنْدَ اخْتِلَاطِ آخِرِ الظَّلَامِ بِأَوَّلِ الضَّوءِ ، شُعُورًا نَدِيًّا كَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ هَبَطَتْ تَحْمِلُ سَحَابَةً رَقِيقَةً تَمْسَحُ بِهَا عَلَى قَلْبِهِ لِيَتَنَصَّرَ مِنْ يُنْسِ ، وَيَرِقَّ مِنْ غُلْظَةٍ . وَكَأَنَّمَا جَاوَوْهُ مَعَ الْفَجْرِ لِيَتَنَاوَلَ النَّهَارَ مِنْ أَيْدِيهِمْ مَبْدُوءًا بِالرَّحْمَةِ ، مُفْتَتِحًا بِالْجَمَالِ ، فَإِذَا كَانَ شَاعِرَ النَّفْسِ الَّتِي فِيهِ الثُّورُ السَّمَاوِيُّ بِالْثُّورِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَإِذَا هُوَ يَتَلَاوُ فِي رُوحِهِ تَحْتَ الْفَجْرِ .

* * *

لَا أُنْسَى أَبَدًا تِلْكَ السَّاعَةَ وَنَحْنُ فِي جَوْ الْمَسْجِدِ ، وَالْقَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ كَالثُّجُومِ فِي مَنَاطِحِهَا مِنَ الْفَلَكَ ، وَتِلْكَ الشُّرُجُ تَرْتَعِشُ فِيهَا أَرْتَعَاشُ خَوَاطِرِ الْحُبِّ ، وَالنَّاسُ جَالِسُونَ ، عَلَيْهِمْ وَقَارٌ أَرْوَاحِهِمْ ، وَمِنْ حَوْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ هُدُوءٌ قَلْبِهِ ؛ وَقَدْ أَسْتَبْهَمَتِ الْأَشْيَاءُ فِي نَظَرِ

الْعَيْنِ لِيَلْبَسَهَا الْإِحْسَاسُ الرُّوحَانِي فِي النَّفْسِ ، فَيَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ وَمَعْنَاهُ الَّذِي لَيْسَ مِنْهُ ، فَيُخْلَقُ فِيهِ الْجَمَالُ الشَّعْرِيُّ كَمَا يُخْلَقُ لِلنَّظَرِ الْمُتَخَيَّلُ .

لَا أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ السَّاعَةَ وَقَدْ أَنْبَعَثَ فِي جَوْ الْمَسْجِدِ صَوْتُ غَرْدٍ رَحِيمٍ ، يَشُقُّ سُدْفَةَ اللَّيْلِ فِي مِثْلِ رَنِينِ الْجَرَسِ تَحْتَ الْأُفُقِ الْعَالِي وَهُوَ يَرْتَلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ النَّحْلِ :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [١٢٥] وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴿ [١٦] سورة النحل / الآيات :

. [١٢٥ - ١٢٨] .

* * *

وَكَانَ هَذَا الْقَارِيءُ يَمْلِكُ صَوْتَهُ أَنْتُمْ مَا يَمْلِكُ دُو الصَّوْتِ الْمُطْرِبِ ، فَكَانَ يَتَصَرَّفُ بِهِ أَحْلَى مِمَّا يَتَصَرَّفُ الْقَمَرِيُّ وَهُوَ يُنَوِّحُ فِي أَنْعَامِهِ ، وَبَلَغَ فِي التَّطَرُّبِ كُلَّ مَبْلَغٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْقَادِرُ ، حَتَّى لَا تَفْسُرَ اللَّذَّةُ الْمَوْسِيقِيَّةُ بِأَبَدٍ مِمَّا فَسَّرَهَا هَذَا الصَّوْتُ ، وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْبَلْبَلِ هَزَنَةُ الطَّبِيعَةِ بِأَسْلُوبِهَا فِي جَمَالِ الْقَمَرِ ، فَاهْتَرَّ يُجَاوِبُهَا بِأَسْلُوبِهِ فِي جَمَالِ التَّغْرِيدِ .

كَانَ صَوْتُهُ عَلَى تَرْتِيبٍ عَجِيبٍ فِي نِعْمَاتِهِ ، يَجْمَعُ قُوَّةَ الرِّقَّةِ وَبَيْنَ رِقَّةِ الْقُوَّةِ ، وَيَضْطَرِبُ أَضْطِرَابًا رُوحَانِيًّا كَالْحَزْنِ اعْتَرَاهُ الْفَرَحُ عَلَى فَجْأَةٍ ، يَصْنَعُ الصَّيْحَةَ تَرَجُّعُ فِي الْجَوِّ وَفِي النَّفْسِ ، وَتَتَرَدَّدُ فِي الْمَكَانِ وَفِي الْقَلْبِ ، وَتَحْوِلُ بِهَا الْكَلَامَ الْإِلَهِيَّ إِلَى شَيْءٍ حَقِيقِيٍّ ، يَلْمَسُ الرُّوحَ فَيَرْفُضُ عَلَيْهَا بِمِثْلِ التَّدْنِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَفُّ رَفِيفًا ، وَإِذَا هِيَ كَالزَّهْرَةِ الَّتِي مَسَحَهَا الطَّلُّ .

وَسَمِعْنَا الْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَأَوَّلِ مَا نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ ، فَكَانَ هَذَا الصَّوْتُ الْجَمِيلُ يَدُورُ فِي النَّفْسِ كَأَنَّهُ بَعْضُ السَّرِّ الَّذِي يَدُورُ فِي نِظَامِ الْعَالَمِ ؛ وَكَانَ الْقَلْبُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الْآيَاتِ كَقَلْبِ الشَّجَرَةِ يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ وَيَكْسُوها مِنْهُ .

وَاهْتَرَّ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا تَجَلَّى الْمُتَكَلِّمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كَلَامِهِ ، وَبَدَأَ الْفَجْرُ

كَأَنَّهُ وَاقِفٌ يَسْتَأْذِنُ اللَّهَ أَنْ يُضِيءَ مِنْ هَذَا التُّورِ ! .

وَكُنَّا نَسْمَعُ قُرْآنَ الْفَجْرِ وَكَأَنَّمَا مُحِيتِ الدُّنْيَا الَّتِي فِي الْخَارِجِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَيُطْلَبُ بِاطْلُهَا ، فَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا الْإِنْسَانِيَّةُ الطَّاهِرَةُ وَمَكَانُ الْعِبَادَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ مُعْجَزَةُ الرُّوحِ مَتَى كَانَ الْإِنْسَانُ فِي لَذَّةِ رُوحِهِ مُزْتَفِعًا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ .

أَمَّا الطِّفْلُ الَّذِي كَانَ فِي يَوْمَيْهِ فَكَأَنَّمَا دُعِيَ بِكُلِّ ذَلِكَ لِتَحْمِيلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَيُؤَدِّيَهَا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَجِيئُ فِيهِ مِنْ بَعْدُ ؛ فَأَنَا فِي كُلِّ حَالَةٍ أَخْضَعُ لِهَذَا الصَّوْتِ : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [١٦ سورة النحل / الآية : ١٢٥] ؛ وَأَنَا فِي كُلِّ ضَائِقَةٍ أَخْشَعُ لِهَذَا الصَّوْتِ : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [١٦ سورة النحل / الآية : ١٢٧] ! .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

اللُّغَةُ وَالِدِّينُ وَالْعَادَاتُ

بِاعْتِبَارِهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْأَسْتِقْلَالِ (*) (١)

لَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْأُمَّةِ فِي هَذَا الظَّاهِرِ الَّذِي يَبْدُو مِنْ شَعْبٍ مُجْتَمِعٍ مَخْكُومٍ بِقَوَائِنِهِ وَأَوْضَاعِهِ ؛ وَلَكِنْ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ هِيَ الْكَائِنُ الرُّوحِيُّ الْمُكْتَنُ فِي الشَّعْبِ ، الْخَالِصُ لَهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ فِي تَرْكِيبِهِ ؛ كَعَصِيرِ الشَّجَرَةِ : لَا يُرَى عَمَلُهُ وَالشَّجَرَةُ كُلُّهَا هِيَ عَمَلُهُ .

وَهَذَا الْكَائِنُ الرُّوحِيُّ هُوَ الصُّورَةُ الْكُبْرَى لِلنَّسَبِ فِي ذَوِي الْوَشِيجَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ ، يَبْدُو أَنَّهُ يُحَقِّقُ فِي الشَّعْبِ قَرَابَةَ الصِّفَاتِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ : فَيَجْعَلُ لِلْأُمَّةِ شَأْنَ الْأُسْرَةِ ، وَيَخْلُقُ فِي الْوَطَنِ مَعْنَى الدَّارِ ، وَيُوجِدُ فِي الْأَخْتِلَافِ نَزْعَةَ الشَّابِهِ ، وَيَرُدُّ الْمُتَعَدِّدَ إِلَى طَبِيعَةِ الْوَحْدَةِ ، وَيُبْدِعُ لِلْأُمَّةِ شَخْصِيَّتَهَا الْمُتَمَيِّزَةَ ، وَيُوجِبُ لِهَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ بِإِزَاءِ غَيْرِهَا قَانُونَ التَّنَاصُرِ وَالْحِمَايَةِ ، إِذْ يَجْعَلُ الْخَوَاطِرَ مُشْتَرَكَةً ، وَالِدَوَاعِيَ مُسْتَوِيَةً ، وَالتَّوَانِعَ مُتَاوِرَةً ، فَتَجْتَمِعُ الْأُمَّةُ كُلُّهَا عَلَى الرَّأْيِ : تَتَسَانَدُ لَهُ بِقَوَاهَا ، وَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا فِيهِ ؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ يَكُونُ رُوحُ الْأُمَّةِ قَدْ وَضِعَ فِي كَلِمَةِ الْأُمَّةِ مَعْنَاهَا .

وَالْخَلْقُ الْقَوِيُّ الَّذِي يُنْشِئُهُ لِلْأُمَّةِ كَائِنُهَا الرُّوحِيُّ ، هُوَ الْمَبَادِيءُ الْمُنْتَزَعَةُ مِنْ أَثَرِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ وَالْعَادَاتِ ، وَهُوَ قَانُونٌ نَافِذٌ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، إِذْ يَعْمَلُ فِي الْحَيَرِ الْبَاطِنِ مِنْ وَرَاءِ الشُّعُورِ ، مُتَسَلِّطًا عَلَى الْفِكْرِ ، مُصَرِّفًا لِبَوَاعِثِ النَّفْسِ ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَمْلَأُ الْحَيَّ بِنُوعِ حَيَاتِهِ ، وَهُوَ طَائِعُ الزَّمَنِ عَلَى الْأَمْرِ ، وَكَأَنَّهُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَضَعُ الْأَجْدَادِ عَلَامَتَهُمُ الْخَاصَّةَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ .

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٥ ، ٢١ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ١٣ أبريل / نيسان ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحات : ٥٦١ - ٥٦٤ .

(١) أَنْشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي عَهْدِ عَلِيِّ مَاهِرٍ بِأَسَاسِ سَنَةِ ١٩٣٦ ، وَأَنْظَرَ « فِي النَّقْدِ » مِنْ كِتَابَاتِ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

أَمَّا اللُّغَةُ ، فَهِيَ صُورَةُ وُجُودِ الْأُمَّةِ بِأَفْكَارِهَا وَمَعَانِيهَا وَحَقَائِقِ نَفْسِهَا ، وَجُودًا مُتَمَيِّزًا قَائِمًا بِخَصَائِصِهِ ، فَهِيَ قَوْمِيَّةُ الْفِكْرِ ، تَتَّحِدُ بِهَا الْأُمَّةُ فِي صُورِ التَّفَكُّيرِ وَأَسَالِيبِ أَخْذِ الْمَعْنَى مِنَ الْمَادَّةِ . وَالذِّقَّةُ فِي تَرْكِيبِ اللُّغَةِ دَلِيلٌ عَلَى دِقَّةِ الْمَلَكَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعُمْقُهَا هُوَ عُمُقُ الرُّوحِ وَدَلِيلُ الْحِسِّ عَلَى مِيلِ الْأُمَّةِ إِلَى التَّفَكُّيرِ وَالْبَحْثِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ ، وَكَثْرَةُ مُشْتَقَّاتِهَا بَرْهَانٌ عَلَى نَزْعَةِ الْحُرِّيَّةِ وَطِمَاحِهَا ، فَإِنَّ رُوحَ الْأَسْتِعْبَادِ ضَيِّقٌ لَا يَتَسَّعُ وَدَأْبُهُ ۥ فِي الْمُسْتَعْبِدِينَ ۥ ۥ لُزُومُ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَةِ .

وَإِذَا كَانَتِ اللُّغَةُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمَّتُهَا حَرِيصَةً عَلَيْهَا ، نَاهِضَةً بِهَا ، مُتَّسِعَةً فِيهَا ، مُكْبِرَةً شَأْنَهَا ؛ فَمَا يَأْتِي ذَلِكَ إِلَّا مِنْ رُوحِ التَّسَلُّطِ فِي شَعْبِهَا وَالْمُطَابَقَةِ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَعَمَلِ طَبِيعَتِهِ ، وَكَوْنِهِ سَيِّدَ أَمْرِهِ ، وَمُحَقِّقُ وُجُودِهِ ، وَمُسْتَعْمِلُ قُوَّتِهِ ، وَالْأَخِذُ بِحَقِّهِ ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْهُ التَّرَاجُحُ وَالْإِهْمَالُ ، وَتَرَكَ اللُّغَةَ الطَّبِيعِيَّةَ الشُّوقِيَّةَ ، وَاصْغَارَ أَمْرُهَا ، وَتَهَوَّنَ خَطَرُهَا ، وَإِثَارُ غَيْرِهَا بِالْحُبِّ وَالْإِكْبَارِ ؛ فَهَذَا شَعْبٌ خَادِمٌ لَا مَخْذُومٌ ، تَابِعٌ لَا مُتَّبَوِّعٌ ، ضَعِيفٌ عَنْ تَكَالُيفِ السِّيَادَةِ ، لَا يَطِيقُ أَنْ يَحْمِلَ عَظَمَةَ مِيرَاثِهِ ، مُجْتَزئٌ بِبَعْضِ حَقِّهِ ، مُكْتَفٍ بِضَرُورَاتِ الْعَيْشِ ، يُوَضَّعُ لِحُكْمِهِ الْقَانُونُ الَّذِي أَكْثَرُهُ لِلْحَرَمَانِ وَأَقْلُهُ لِلْفَائِدَةِ الَّتِي هِيَ كَالْحَرَمَانِ .

لَا جَرَمَ كَانَتْ لُغَةُ الْأُمَّةِ هِيَ الْهَدَفُ الْأَوَّلُ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ ؛ فَلَنْ يَتَحَوَّلَ الشَّعْبُ أَوْلَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مِنْ لُغَتِهِ ، إِذْ يَكُونُ مَنشَأُ التَّحَوُّلِ مِنْ أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَأَمَالِهِ ، وَهُوَ إِذَا انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ لُغَتِهِ انْقَطَعَ مِنْ نَسَبِ مَاضِيهِ ، وَرَجَعَتْ قَوْمِيَّتُهُ صُورَةً مَحْفُوظَةً فِي التَّارِيخِ ، لَا صُورَةً مُحَقَّقَةً فِي وُجُودِهِ . فَلَيْسَ كَاللُّغَةِ نَسَبٌ لِلْعَاطِفَةِ وَالْفِكْرِ ؛ حَتَّى إِنْ أَبْنَاءُ الْأَبِ الْوَاحِدِ لَوْ اخْتَلَفَتْ أَلْسِنَتُهُمْ فَتَشَأَ مِنْهُمْ نَاشِئٌ عَلَى لُغَةٍ ، وَنَشَأَ الثَّانِي عَلَى أُخْرَى ، وَالثَّلَاثُ عَلَى لُغَةٍ ثَالِثَةٍ ، لَكَانُوا فِي الْعَاطِفَةِ كَأَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ آبَاءٍ .

وَمَا ذَلِكَ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلِكَ ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ ؛ وَمِنْ هَذَا يَفْرِضُ الْأَجْنَبِيُّ الْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ قَرْصًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ وَيَرْكِبُهُمْ بِهَا ، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا ، وَيَسْتَلْحِقُهُمْ مِنْ نَاحِيَّتِهَا ؛ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سِجْنًا مُؤَبَّدًا ، وَأَمَّا الثَّانِي فَالْحُكْمُ عَلَى مَاضِيهِمْ بِالْقَتْلِ مَحْوًا

وَنَسِيَانًا ؛ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا ؛ فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ .

وَالَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةَ يَتَرَعُّونَ إِلَى أَهْلِهَا بِطَبِيعَةِ هَذَا التَّلَاقِ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِلْغَتِهِمْ قُوَّةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ مِنْ قِبَلِ الدِّينِ أَوْ الْقَوْمِيَّةِ ؛ فَتَرَاهُمْ إِذَا وَهَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْعَصَبِيَّةُ يَخْجَلُونَ مِنْ قَوْمِيَّتِهِمْ ، وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَيَنْسَلِخُونَ مِنْ تَارِيخِهِمْ ، وَتَقُومُ بِأَنْفُسِهِمْ الْكَرَاهَةُ لِلْغَتِهِمْ وَأَدَابِ لُغَتِهِمْ ، وَلِقَوْمِهِمْ وَأَشْيَاءَ قَوْمِهِمْ ؛ فَلَا يَسْتَطِيعُ وَطَنُهُمْ أَنْ يُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ رُوحِهِ ؛ إِذْ لَا يُوَافِقُ مِنْهُمْ اسْتِجَابَةٌ فِي الطَّبِيعَةِ ؛ وَيَتَقَادُونَ بِالْحَبِّ لِغَيْرِهِ ؛ فَتَجَاوَزُونَهُ وَهُمْ فِيهِ ، وَيَرْتُونَ دِمَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِهِمْ ثُمَّ تَكُونُ الْعَوَاطِفُ فِي هَذِهِ الدَّمَاءِ لِلْأَجْنَبِيِّ وَمِنْ ثُمَّ تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ قِيَمَةُ الْأَشْيَاءِ بِمَصْدَرِهَا لَا بِنَفْسِهَا ، وَبِالْخَيَالِ الْمُتَوَهَّمِ فِيهَا لَا بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا ؛ فَيَكُونُ شَيْءُ الْأَجْنَبِيِّ فِي مَذْهَبِهِمْ أَجْمَلَ وَأَمْنًا ، لِأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمَيْلُ وَفِيهِ الْإِكْبَارُ وَالْإِعْظَامُ ؛ وَقَدْ يَكُونُ الْوَطَنِيُّ مِثْلَهُ أَوْ أَجْمَلَ مِنْهُ بَيْنَ أَنَّهُ فَقَدَ الْمَيْلَ ، فَضَعُفَتْ صِلَتُهُ بِالنَفْسِ ، فَعَادَتْ كُلُّ مُمَيَّرَاتِهِ { فَضَعُفَتْ } لَا تُمَيَّرُهُ .

وَأَعْجَبَ مَنْ هَذَا فِي أَمْرِهِمْ ، أَنَّ أَشْيَاءَ الْأَجْنَبِيِّ لَا تَحْمِلُ مَعَانِيهَا السَّاحِرَةَ فِي نَفْسِهِمْ إِلَّا إِذَا بَقِيَتْ حَامِلَةً أَسْمَاءَهَا الْأَجْنِبِيَّةَ ، فَإِنْ سُمِّيَ الْأَجْنَبِيُّ بِلُغَتِهِمْ الْقَوْمِيَّةِ نَقَصَ مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ وَتَصَاغَرَ وَظَهَرَتْ فِيهِ ذِلَّةٌ . . . وَمَا ذَاكَ إِلَّا صِغَرُ نَفْسِهِمْ وَذِلَّتُهَا ، إِذْ لَا يَتَشَخَّصُونَ لِقَوْمِيَّتِهِمْ فَلَا يُلْهِمُهُمُ الْحَرْفُ مِنْ لُغَتِهِمْ مَا يُلْهِمُهُمُ الْحَرْفُ الْأَجْنَبِيُّ .

وَالشَّرْقُ مُتَبَلِّئٌ بِهِذِهِ الْعِلَّةِ ، وَمِنْهَا جَاءَتْ مَسَاكِلُهُ أَوْ أَكْثَرُهَا ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ أُمَّةٌ عَزِيزَةٌ الْجَانِبِ تُقَدِّمُ لُغَةً غَيْرَهَا عَلَى لُغَةِ نَفْسِهَا ، وَبِهَذَا لَا يَعْرِفُونَ لِلْأَشْيَاءِ الْأَجْنِبِيَّةِ مَوْضِعًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِ الْأَشْيَاءِ الْوَطَنِيَّةِ ؛ وَلَوْ أَخَذْنَا نَحْنُ الشَّرْقِيُّونَ بِهِذَا ، لَكَانَ هَذَا وَحْدَهُ عِلَاجًا حَاسِمًا لِأَكْثَرِ مَسَاكِلِنَا .

فَاللُّغَاتُ تَتَنَازَعُ الْقَوْمِيَّةَ ، وَلَهَايَ وَاللَّهِ أَحْتِيَالٌ عَقْلِيٌّ فِي الشُّعُوبِ الَّتِي ضَعُفَتْ عَصَبِيَّتُهَا ؛ وَإِذَا هَانَتْ اللُّغَةُ الْقَوْمِيَّةُ عَلَى أَهْلِهَا ، أَثَرَتْ اللُّغَةُ الْأَجْنِبِيَّةُ فِي الْخُلُقِ الْقَوْمِيِّ مَا يُؤَثِّرُ الْجَوُّ الْأَجْنَبِيُّ فِي الْجِسْمِ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَأَقَامَ فِيهِ .

أَمَّا إِذَا قَوِيَّتِ الْعَصَبِيَّةُ ، وَعَزَّتِ اللُّغَةُ ، وَثَارَتْ لَهَا الْحِمِيَّةُ ؛ فَلَنْ تَكُونَ اللُّغَاتُ

الْأَجَنِيَّةُ إِلَّا خَادِمَةٌ يُزْتَفَقُ بِهَا ، وَيَرْجِعُ شَبْرُ الْأَجَنِيِّ شَبْرًا لَا مِثْرًا . . . وَتَكُونُ تِلْكَ الْعَصِيَّةُ لِلُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ مَادَّةً وَعَوْنًا لِكُلِّ مَا هُوَ قَوْمِيٌّ فَيَصْبِحُ كُلُّ شَيْءٍ أَجَنِيٍّ قَدْ خَضَعَ لِقُوَّةِ قَاهِرَةٍ غَالِبَةٍ ، هِيَ قُوَّةُ الْإِيمَانِ بِالْمَجْدِ الْوُطَنِيِّ وَاسْتِفْلَالِ الْوُطَنِ ؛ وَمَتَى تَعَيَّنَ الْأَوَّلُ أَنَّهُ الْأَوَّلُ ، فَكُلُّ قُوَى الْوُجُودِ لَا تَجْعَلُ الَّذِي بَعْدَهُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ الثَّانِي .

* * *

وَالَّذِينَ هُوَ حَقِيقَةُ الْخُلُقِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي الْأُمَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْقُلُوبَ كُلَّهَا طَبَقَةً وَاحِدَةً عَلَى اخْتِلَافِ الْمَظَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ عَالِيَةٍ وَنَازِلَةٍ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ بِذَلِكَ الضَّمِيرُ الْقَانُونِيُّ لِلشَّعْبِ ، وَبِهِ لَا بَعِيرُهُ ثَبَاتُ الْأُمَّةِ عَلَى فَضَائِلِهَا النَّفْسِيَّةِ ، وَفِيهِ لَا فِي سِوَاهُ مَعْنَى إِنْسَانِيَّةِ الْقَلْبِ .

وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ الَّتِي يُعَوَّلُ عَلَيْهَا فِي إِيقَاطِ ضَمِيرِ الْأُمَّةِ وَتَنْبِيهِ رُوحِهَا ، وَاهْتِجَاجِ خَيَالِهَا : إِذْ فِيهِ أَعْظَمُ السُّلْطَةِ الَّتِي لَهَا وَخَدَهَا قُوَّةُ الْغَلْبَةِ عَلَى الْمَادِّيَّاتِ ؛ فَسُلْطَانُ الَّذِينَ هُوَ سُلْطَانُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى ذَاتِهِ وَطَبِيعَتِهِ ؛ وَمَتَى قَوِيَ هَذَا السُّلْطَانُ فِي شَعْبٍ ، كَانَ حَمِيًّا أَبْيَا ، لَا تُزْعِمُهُ قُوَّةٌ ، وَلَا يَغْنُو لِلْقَهْرِ .

وَلَوْلَا الَّتَيْنِ بِالْشَّرِيعَةِ ، لَمَا اسْتَقَامَتِ الطَّاعَةُ لِلْقَانُونِ فِي النَّفْسِ ، وَلَوْلَا الطَّاعَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْقَوَانِينِ ؛ لَمَا انْتَضَمَتِ أُمَّةٌ ؛ فَلَيْسَ عَمَلُ الَّذِينَ إِلَّا تَحْدِيدُ مَكَانِ الْحَيِّ فِي فَضَائِلِ الْحَيَاةِ ؛ وَتَعْيِينَ تَبَعَتِهِ فِي حُقُوقِهَا وَوَجِبَاتِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ نِظَامًا مُسْتَقَرًّا فِيهِ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَدَفَعَ الْإِنْسَانَ بِهَذَا النُّظَامِ نَحْوَ الْأَكْمَلِ ، وَدَائِمًا نَحْوَ الْأَكْمَلِ .

وَكُلُّ أُمَّةٍ ضَعْفَ الَّذِينَ فِيهَا اخْتَلَتْ هُنْدُسَتُهَا الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَمَاجَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، فَإِنَّ مِنْ دَقِيقِ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا الدِّينِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الْغَايَةَ الْأَخِيرَةَ مِنَ الْحَيَاةِ { غَايَةً } فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَذَلِكَ لِنَسْطِمْ الْغَايَاتِ الْأَرْضِيَّةَ فِي النَّاسِ ، فَلَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ فَيَغْتَنِي الْغَنِيِّ وَهُوَ آمِنٌ ، وَيَفْتَقِرُ الْفَقِيرُ وَهُوَ قَانِعٌ ، وَيَكُونُ ثَوَابُ الْأَعْلَى فِي أَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَسْفَلِ بِالْمَبْرَةِ ، وَثَوَابُ الْأَسْفَلِ فِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَى تَرْكِ الْأَعْلَى فِي مَنْزِلَتِهِ ؛ ثُمَّ يَنْصَرِفُ الْجَمِيعُ بِفَضَائِلِهِمْ إِلَى تَحْقِيقِ الْغَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي لَا يَكْبُرُ عَلَيْهَا الْكِبِيرُ ، وَلَا يَصْغُرُ عَنْهَا الصَّغِيرُ ؛ وَهِيَ الْحَقُّ ، وَالصَّلَاحُ ، وَالْخَيْرُ ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .

وَمَا دَامَ عَمَلُ الدِّينِ هُوَ تَكْوِينُ الْخَلْقِ الثَّابِتِ الدَّائِبِ فِي عَمَلِهِ ، الْمُعْتَزِّ بِقُوَّتِهِ ،
الْمُطْمَئِنِّ إِلَى صَبْرِهِ ، النَّافِرِ مِنَ الضَّعْفِ ، الْأَبْيُّ عَلَى الدَّلِّ ، الْكَافِرُ بِالْإِسْتِعْبَادِ ، الْمُؤْمِنُ
بِالْمَوْتِ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ حُوزَتِهِ ، الْمَجْزِي بِتَسَامِيهِ وَبَذَلِهِ وَعَطْفِهِ وَإِثَارِهِ وَمُفَادَاتِهِ ،
وَالْعَامِلِ فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَاعَةِ ، الْمُقَيَّدُ فِي مَنَافِعِهِ بِوَاجِبَاتِهِ نَحْوُ النَّاسِ - مَا دَامَ عَمَلُ الدِّينِ
هُوَ تَكْوِينُ هَذَا الْخَلْقِ - فَيَكُونُ الدِّينُ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ جَعَلَ الْحِسَّ بِالشَّرِيعَةِ أَقْوَى مِنَ الْحِسِّ
بِالْمَادَةِ ؛ وَلَعَمْرِي مَا يَجِدُ الْإِسْتِقْلَالَ قُوَّةً هِيَ أَقْوَى لَهُ وَأَرَدُ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى إِذَا تَقَرَّرَ
فِي نَفْسِ الْأُمَّةِ وَأَنْطَبَعَتْ عَلَيْهِ .

وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ وَاجِبُهَا أَنْ تَشْرَفَ وَتَسُوْدَ وَتَعْتَزَّ ، يَكُونُ وَاجِبُ هَذَا
الْوَاجِبِ فِيهَا أَلَّا تَسْقُطَ وَلَا تَخْضَعَ وَلَا تَدَلَّ .

وَبِتِلْكَ الْأَصُولِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُنْشِئُهَا الدِّينُ الصَّحِيحُ الْقَوِيُّ فِي النَّفْسِ ، يَهَيِّئُ النَّجَاحَ
السِّيَاسِيَّ لِلشَّعْبِ الْمُحَافِظِ عَلَيْهِ الْمُتَنَصِّرِ لَهُ ؛ إِذْ يَكُونُ مِنَ الْخِلَالِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي زُعَمَائِهِ
وَرِجَالِهِ الثَّبَاتُ عَلَى التَّرَعَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَالصَّلَابَةُ فِي الْحَقِّ ، وَالْإِيمَانُ بِمَجْدِ الْعَمَلِ ،
وَتَغْلِيْبُ ذَلِكَ عَلَى الْأَحْوَالِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُ ذَا الرِّأْيِ لِنَفْتِنَتِهِ عَنْ رَأْيِهِ وَمَذْهَبِهِ : مِنْ
مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مَنْصِبٍ ، أَوْ مُوَافَقَةِ أَلْهَوَى ، أَوْ خَشْيَةِ الثَّقَمَةِ ، أَوْ خَوْفِ الْوَعِيدِ ، إِلَى
غَيْرِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَمِيلُ بِهِ الْبَاطِلُ أَوْ يُزْهَبُ بِهِ الظُّلْمُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ ، الْقَوِيَّ الْإِيمَانَ ، الْمُؤْمِنَلِي ثِقَةً وَبِقِيَّتَا وَوَفَاءً
وَصِدْقًا وَعَزْمًا وَإِصْرَارًا عَلَى فَضِيلَتِهِ وَثَبَاتًا عَلَى مَا يُلْقَى فِي سَبِيلِهَا - لَا يَكُونُ رَجُلًا
كَالنَّاسِ ؛ بَلْ هُوَ رَجُلٌ الْإِسْتِقْلَالِ الَّذِي وَاجِبُهُ جُزْءٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ وَغَايَتُهُ السَّامِيَّةُ لَا تَنْفَصِلُ
عَنْهُ ، هُوَ رَجُلٌ صِدْقِ الْمُبْدَأِ ، وَصِدْقِ الْكَلِمَةِ ، وَصِدْقِ الْأَمَلِ ، وَصِدْقِ التَّرَعَةِ ؛ وَهُوَ
الرَّجُلُ الَّذِي يَنْفَجِرُ فِي التَّارِيخِ كُلَّمَا اخْتَاَجَتِ الْحَيَاةُ الْوُطَنِيَّةُ إِلَى إِطْلَاقِ قِتَالِهَا لِلنَّصْرِ .

* * *

وَالْعَادَاتُ هِيَ الْمَاضِي الَّذِي يَعِيشُ فِي الْحَاضِرِ ، وَهِيَ وَحْدَةُ تَارِيخِيَّةٍ فِي الشَّعْبِ ،
تَجْمَعُهُ كَمَا يَجْمَعُهُ الْأَصْلُ الْوَاحِدُ ، ثُمَّ هِيَ كَالَّذِينَ فِي قِيَامِهَا عَلَى أُسَاسِ أَدَبِي فِي النَّفْسِ ،
وَفِي اشْتِمَالِهَا عَلَى التَّحْرِيمِ وَالتَّخْلِيلِ ، وَتَكَادُ عَادَاتُ الشَّعْبِ تَكُونُ دِينًا ضَيِّقًا خَاصًّا بِهِ ،

يَحْصُرُهُ فِي قَبِيلِهِ وَوَطَنِهِ ، وَيُحَقِّقُ فِي أَفْرَادِهِ الْأَلْفَةَ وَالتَّشَابُكَ ، وَيَأْخُذُهُمْ جَمِيعًا بِمَذْهَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ إِجْلَالُ الْمَاضِي .

وَإِجْلَالُ الْمَاضِي فِي شَعْبٍ تَارِيخِيٍّ هُوَ الْوَسِيلَةُ الرَّوْحِيَّةُ الَّتِي يَسْتَوْحِي بِهَا الشَّعْبُ أَبْطَالَهُ ، وَفَلَاسِفَتَهُ ، وَعُلَمَاءَهُ ، وَأَدَبَاءَهُ ، وَأَهْلَ الْفَنِّ مِنْهُ ، فَيُوحُونَ إِلَيْهِ وَخِي عَظَمَائِهِمُ الَّتِي لَمْ يَغْلِبْهَا الْمَوْتُ ؛ وَبِهَذَا تَكُونُ صُورُهُمُ الْعَظِيمَةُ حَيَّةً فِي تَارِيخِهِ ، وَحَيَّةً فِي أَمَالِهِ وَأَعْصَابِهِ .

وَالْعَادَاتُ هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَجْعَلُ الْوَطْنَ شَيْئًا نَفْسِيًّا حَقِيقِيًّا ، حَتَّى لَيْشَعُرَ الْإِنْسَانُ أَنَّ لِأَرْضِهِ أُمُومَةً الْأُمِّ الَّتِي وَلَدَتْهُ ، وَلِقَوْمِهِ أُبُوءَ الْأَبِ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ يَغْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ أَغْتَرَبَ عَنْ وَطَنِهِ ، وَخَالَطَ غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْ غَيْرِ عَادَاتِهِ ؛ فَهُنَاكَ ، هُنَاكَ يُثْبِتُ الْوَطْنَ نَفْسَهُ بِعَظَمَةٍ وَجَبْرُوتٍ وَكَأَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الدُّنْيَا .

وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ النَّاشِئَةُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَثَرِ الْعَادَاتِ هِيَ الَّتِي تُنْبِئُهُ فِي الْوَطَنِيِّ رُوحَ التَّمَيُّزِ عَنِ الْأَجْنَبِيِّ ، وَتُوحِشُ نَفْسَهُ مِنْهُ كَأَنَّهَا حَاسَّةُ الْأَرْضِ تُنْبِئُهُ أَهْلَهَا وَتُنذِرُهُمُ الْخَطَرَ .

وَمَتَى صَدَقَتِ الْوَطَنِيَّةُ فِي النَّفْسِ أَقْرَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَجْنَبِيٍّ فِي حَقِيقَتِهِ الْأَجْنَبِيَّةِ ؛ فَكَانَ هَذَا هُوَ أَوَّلُ مَظَاهِرِ الْأَسْتِقْلَالِ ، وَكَانَ أَقْوَى الدَّرَائِعِ إِلَى الْمَجْدِ الْوَطَنِيِّ .

* * *

وَبِاللُّغَةِ وَالْدِّينِ وَالْعَادَاتِ ، يَنْحَصِرُ الشَّعْبُ فِي ذَاتِهِ السَّامِيَّةِ بِخَصَائِصِهَا وَمُقَوِّمَاتِهَا ، فَلَا يَسْهَلُ انْتِرَاعُهُ مِنْهَا وَلَا انْتِسَافُهُ مِنْ تَارِيخِهِ ، وَإِذَا أُلْجِيَ إِلَى حَالٍ مِنَ الْقَهْرِ لَمْ يَنْخَذِلْ وَلَمْ يَبْضَعْضَعْ ، وَاسْتَمَرَّ يَعْمَلُ مَا تَعْمَلُهُ الشُّوَكَةُ الْحَادَّةُ : إِنْ لَمْ تَتْرِكْ لِنَفْسِهَا ، لَمْ تُعْطِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَّا الْوَحْزَ .

* * *

تَجْدِيدُ الْإِسْلَامِ (*) (١)
رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ (٢)

(الْأَزْهَرُ) هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ لَا يُقَابِلُهَا فِي خِيَالِ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَّا كَلِمَةُ (الْهَرَمِ) ، وَفِي كِلْتَا اللَّفْظَتَيْنِ يَكْمُنُ سِرٌّ خَفِيٌّ مِنْ أَسْرَارِ التَّارِيخِ تَجَعَّلْ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ مِيزَاتًا عَقْلِيًّا لِلْأُمَّةِ ، يُنْسِي مَادَّةَ اللَّغَةِ فِيهَا ، وَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا مَادَّةُ النَّفْسِ ؛ إِذْ تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَغْيِيرًا عَنْ شَيْءٍ ثَابِتٍ ثَبَاتَ الْفِكْرَةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ ، مُسْتَقَرٌّ فِي الرُّوحِ الْقَوْمِيَّةِ اسْتِقْرَارُهُ فِي الزَّمَنِ ، مُتَجَسِّمٌ مِنْ مَعْنَاهُ كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ أَفْرَدَتْهُ بِمَادَّتِهِ دُونَ مَا يُشَارِكُهُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ ، فَالْحَجَرُ فِي الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ يَكَادُ يَكُونُ فِي الْعَقْلِ زَمَانًا لَا حَجَرًا ، وَفَقًا لَا جِسْمًا ؛ وَالْمَكَانُ فِي الْأَزْهَرِ يَغِيبُ فِيهِ مَعْنَى الْمَكَانِ ، وَيَتَقَلَّبُ إِلَى قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ سَاحِرَةٍ تُوْجَدُ فِي الْمَنْظُورِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ .

وَعِنْدِي أَنْ الْأَزْهَرِ فِي زَمَانِنَا هَذَا يَكَادُ يَكُونُ تَفْسِيرًا جَدِيدًا لِلْحَدِيثِ : « مِصْرُ كِنَانَةِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » [راجع « المقاصد الحسنة » ، رقم : ١٠٢٩ ؛ و« كشف الخفاء » ، رقم : ٢٣٠٩] فَعَلَمَاؤُهُ الْيَوْمَ أَسْهَمُوا نَافِذَةً مِنْ أَسْهَمِ اللَّهِ يَزِمِي بِهَا مَنْ أَرَادَ دِينَهُ بِالشُّوْءِ ، فَيُمَسِّكُهَا لِلْهَيْبَةِ وَيَزِمِي بِهَا لِلنُّصْرِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى أَوَّلَ مَعَانِيهِمْ فِي هَذَا الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ الَّذِي أُبْتُلِيَ بِمِلْءِ عَشْرِينَ قَرْنًا مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْأَدْيَانِ وَإِهْمَالِهَا وَالْإِلْحَادِ فِيهَا .

أَوَّلُ شَيْءٍ فِي رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ : أَنْ يَكُونَ أَهْلُهُ قُوَّةَ إِلَهِيَّةٍ مُعَدَّةَ لِلنُّصْرِ ، مُهَيَّأَةً لِلنُّضَالِ ، مُسَدَّدَةً لِلْإِصَابَةِ ، مُقَدَّرَةً فِي طَبِيعَتِهَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ ؛ تُشْعِرُ النَّاسَ بِالْأَظْمِنَانِ إِلَى عَمَلِهَا ، وَتُوْحِي إِلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهَا الْإِيمَانَ الثَّابِتَ بِمَعْنَاهَا ؛ وَلَكِنْ يَأْتِي لَهُمْ هَذَا إِلَّا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى طَبِيعَتِهِمُ الصَّحِيحَةِ ، فَلَا يَكُونُ الْعِلْمُ تَحَرُّفًا وَلَا مِهْنَةً وَلَا

(*) « الرسالة » العدد : ١٤٤ ، ١٤ محرم سنة ١٣٥٥ هـ = ٦ أبريل / نيسان ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ،

الصفحات : ٥٢٣ - ٥٢٥ .

(١) { أَنْشَأَهَا لِلْمُسَابَقَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْعَامَّةِ } .

(٢) لَمْ تَتَكَلَّمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ عَنِ اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ وَتَفْصِيلِ عُلُومِ الْأَزْهَرِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَادَّةُ الْأَزْهَرِ لَا رِسَالَتُهُ الْجَدِيدَةُ فِي رَأْيِنَا .

مَكْسِبَةً^(١) ، وَلَا يَكُونُ فِي أَوْرَاقِ الْكُتُبِ خَيَالٌ (أَوْرَاقِ الْبُتْكِ) . . . بَلْ تَظْهَرُ فِيهِمُ الْعَظَمَةُ الْرُوحَانِيَّةُ أَمْرَةً نَاهِيَةً فِي الْمَادَّةِ ، لَا مَأْمُورَةٌ مِنْهِيَ بِهَا ؛ وَبَرَزَ كُلُّ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَيَكُونُ مُقَرَّرَ خُلُقٍ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمٌ عِلْمِ الْحَيَاةِ ، لِيَنْبُتَ مِنْهُمْ مِغْنَطِيسُ الْبُتُوَةِ يَجْذِبُ الْبُتُوسَ بِهِمْ أَقْوَى مِمَّا تَجْذِبُهَا ضَلَالَاتُ الْعَصْرِ ؛ فَمَا يَخْتَاجُ النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِلَى الْعَالَمِ وَإِنَّ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ لَتَمْلَأَ الدُّنْيَا - وَإِنَّمَا يَخْتَاجُونَ إِلَى ضَمِيرِ الْعَالَمِ .

وَقَدْ عَجَزَتِ الْمَدِينَةُ أَنْ تُوَجِدَ هَذَا الضَّمِيرَ ، مَعَ أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي حَقِيقَتِهِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا قَانُونُ هَذَا الضَّمِيرِ ، إِذْ هُوَ دِينٌ قَائِمٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى صُورَتِهِ وَلَكِنْ إِلَى عَمَلِهِ ؛ فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ الْأَزْهَرُ مِنْ رِسَالَتِهِ ، ضَمَائِرُ أَهْلِهِ .

وَالنَّاسُ خَاضِعُونَ لِلْمَادَّةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِمْ ، وَيَقَانُونُ آخَرُ هُوَ قَانُونُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ . . . فَهُمْ مِنْ نَمٍّ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا بَيْنَهُمُ الْمُتَسَلِّطَ عَلَى الْمَادَّةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِ ؛ لِيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ الْقُوَى الدِّينِيَّةَ مَغْلُوبَةً ؛ ثُمَّ لِيَجِدُوا فِي هَذَا الْإِنْسَانِ أَسَاسَ الْقُدُورَةِ وَالْاِخْتِدَاءِ فَيَتَّصِلُوا مِنْهُ بِقُوَّتَيْنِ : قُوَّةَ التَّعْلِيمِ ، وَقُوَّةَ التَّحْوِيلِ .

{ وَ } هَذَا هُوَ سِرُّ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلُ الَّذِي نَقَذَ بِهِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ وَلَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ يَصُدُّهُ ، إِذْ كَانَ يَنْقُذُ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَفْسَهَا .

* * *

وَمِنْ أَخْصَصَ وَاجِبَاتِ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، أَنْ يَعْمَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لِإِقْرَارِ مَعْنَى الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ فِي الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمُ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحُوا مُسْلِمِينَ بِالنَّسَبِ لَا غَيْرُ . . . وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ^(٢) .

وَالْحُكُومَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَاجِزَةٌ فِي هَذَا ، بَلْ هِيَ مِنْ أَسْبَابِ هَذَا الشَّرِّ ؛ لِأَنَّ لَهَا وَجُودًا سِيَاسِيًّا وَوُجُودًا مَدِينِيًّا ؛ أَمَّا الْأَزْهَرُ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَصْلُحُ لِإِتِمَامِ نَقْصِ الْحُكُومَةِ فِي هَذَا الْبَابِ ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْعُهُ مَا تَعَجَّرُ عَنْهُ ، وَأَسْبَابُ نَجَاحِهِ مُهَيَّأَةٌ ثَابِتَةٌ إِذْ كَانَ لَهُ

(١) { أَيُّ : أَخِيرَافُ الْعِلْمِ لِلتَّكْسِبِ بِهِ كَمَا تَرَاهُ الْيَوْمَ } .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْإِسْلَامُ » بَدَلًا مِنْ : « إِسْلَامِهِ » .

بِقُوَّةِ التَّارِيخِ حُكْمُ الزَّعَامَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَتْ فِيهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةُ الْوَحْيِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ ثُمَّ كَانَ هُوَ صُورَةُ الْمَزَاجِ النَّفْسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمَخْضِ ؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ فَرَطٌ فِي وَاجِبِ هَذِهِ الزَّعَامَةِ ؛ وَفَقَدْ أَلْقَوُا الْبَقِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُ بِهَا ، وَهِيَ قُوَّةُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّتِي كَانَتْ تَجْعَلُ الرَّجُلَ مِنْ عُلَمَائِهِ كَمَا قُلْنَا مَرَّةً : إِنْسَانًا تَخَيَّرَهُ الْمَعَانِي السِّيَاسِيَّةُ تَظْهَرُ فِيهِ بِأَسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُتَتَرَعَةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَذَا الْمِثَالِ نَفْسِهِ .

وَالْعَقِيدَةُ فِي سَوَادِ النَّاسِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَى هِيَ أَوَّلُ مَغْلُوبٍ فِي قُوَى الْحَيَاةِ .

لَقَدْ اِعْتَادَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَدِيمٍ أَنْ يَجْعَلُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ^(١) ، وَيَتَأَسَّوْنَ بِهِمْ ، وَيَمْتَحُونَهُمْ الطَّاعَةَ ، وَيَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ فِي سِيرَتِهِمْ التَّفْسِيرَ لِمُشْكِلَاتِ النَّفْسِ . وَيَعْرِفُونَ بِهِمْ مَعْنَى صِغَرِ الدُّنْيَا وَمَعْنَى كِبَرِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ ؛ وَكَانَ غَيَّ الْعَالَمِ الدِّينِيِّ شَيْئًا غَيْرَ الْمَالِ ، بَلْ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الْمَالِ ؛ إِذْ كَانَ يَجِدُ حَقِيقَةَ الْغَيِّ فِي إِجْلَالِ النَّاسِ لِفَقْرِهِ كَأَنَّهُ مُلْكٌ لَا فَقْرٌ ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةَ حَاكِمَةٍ فِيهَا الصَّلَابَةُ وَالشَّدَّةُ وَالْهَيْبَةُ وَالسَّمُوُّ وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ التَّرَعَاتِ الْأَسْتِفْلَالِيَّةِ ؛ وَيَكَادُ الزُّهْدُ الصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ حَقَائِقَ مُؤَثَّرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَغْنِيَانِهِمْ وَفُقَرَانِهِمْ ، لَا حَقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ النَّاسَ مِنْهَا أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا .

* * *

وَعُلَمَاءُ الْأَزْهَرِ فِي الْحَقِيقَةِ قَوَائِنُ نَفْسِيَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَى الشَّعْبِ ، وَعَمَلُهُمْ أَرَدُّ عَلَى النَّاسِ مِنْ قَوَائِنِ الْحُكُومَةِ ، بَلْ هُمْ التَّصْحِيحُ لِهَؤُلَاءِ الْقَوَائِنِ إِذَا جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى عِلَالِهَا وَأَسْبَابِهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا وَجُودَهُمْ ، وَأَنْ يَتَنَاوَلُوا الْأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَزْوَاحِهَا ، وَأَنْ يُعِيدُوا تَلَامِيذَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ كَمَا يُعِيدُونَ الْقَوَائِنَ الدَّقِيقَةَ ، لَا طُلَابًا يَزْتَرِفُونَ بِالْعِلْمِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَيَتَّبِعُونَهُمْ » بَدَلًا مِنْ : « فَهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ »

أَيْنَ صَوْتُ الْأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَائِجَةِ بِمَا فِي السَّطْحِ وَمَا فِي الْقَاعِ . . .
وَأَيْنَ وَخِي هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي مِثْلَاقُهَا أَنْ تَجْعَلَ الْكِبُوءَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَقَعَ فِي الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ
لَا خَبِيرَ تَارِيخِيَّ فِيهَا ؟

لَقَدْ أَصْبَحَ إِيْمَانُ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ الْإِيْمَانِ لَا الْإِيْمَانُ نَفْسُهُ ، وَرَجَعَ الْإِسْلَامُ فِي كُتُبِهِ
الْفِقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَذْيَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لَا دِينَ وَاحِدَ ، فَرِسَالَةُ الْأَزْهَرِ أَنْ يُجَدِّدَ عَمَلَ الْكِبُوءِ فِي
الشَّعْبِ ، وَأَنْ يُنْقِىَ عَمَلَ التَّارِيخِ فِي الْكُتُبِ ، وَأَنْ يُبْطِلَ عَمَلَ الْوُثَيْتَةِ فِي الْعَادَاتِ ، وَأَنْ
يُعْطِيَ الْأُمَّةَ دِينَهَا الْوَاضِحَ الْمُسَمَّحَ الْمُسَيَّرَ ، وَقَانُونَهَا الْعَمَلِيَّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا .

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ جَرِيئًا فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الرُّوْحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،
جَرِيئًا فِي عَمَلِهِ لِهَذِهِ الْقِيَادَةِ ، آخِذًا بِأَسْبَابِ هَذَا الْعَمَلِ ، مُلِحًّا فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ،
مُصِرًّا عَلَى هَذَا الطَّلَبِ ، وَكُلُّ هَذَا يَكُونُ عِبْنًا إِنْ لَمْ يَكُنْ رِجَالُ الْأَزْهَرِ وَطَلَبَتُهُ أَمْثَلَةً مِنْ
الْأَمْثَلَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ وَالصَّلَاةِ لِبِتْدَاءِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ فِيهِمْ ، فَإِنَّهَا إِنْ بَدَأَتْ
لَا تَقِفُ ؛ وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى حَاكِمٌ بِطَبِيعَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، مُطَاعٌ بِحُكْمِهِ فِيهَا ، مَحْبُوبٌ
بِطَاعَتِهَا لَهُ .

وَالْمَادَّةُ الْمُطَهَّرَةُ لِلدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ لَا تَجِدُهَا الْأُمَّةُ إِلَّا فِي الْأَزْهَرِ ، فَعَلَى الْأَزْهَرِ أَنْ يُبَيِّنَ
أَنْ فِيهِ تِلْكَ الْمَادَّةُ بِإِظْهَارِ عَمَلِهَا^(١) لَا بِالْإِصَاقِ الْوَرَقَةِ الْمَكْتُوبِ فِيهَا الْأَسْمُ عَلَى الرُّجَاةِ . . .
وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ وَاجِبُ الْأَزْهَرِ أَنْ يَطْلُبَ الْإِشْرَافَ عَلَى التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي
الْمَدَارِسِ ، وَأَنْ يَذْفَعَ الْحَرَكَةَ الدِّينِيَّةَ دَفْعًا بِوَسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ ، أَوَّلُهَا أَنْ يَحْمِلَ وَرَارَةَ
الْمَعَارِفِ عَلَى إِقَامَةِ فَرْضِ الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ مَدَارِسِهَا ، مِنْ مَدْرَسَةِ حُرِّيَّةِ الْفِكْرِ . . .
فَتَنَازِلًا ؛ وَالْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا تُشَدُّ رَأْيِي الْأَزْهَرِ فِي هَذَا .

وَإِذَا نَحْنُ اسْتَخْرَجْنَا التَّفْسِيرَ الْعَمَلِيَّ لِهَذِهِ الْكُرْنِيْمَةِ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية : ١٢٥] : دَلَّكُنَا آيَةُ بِنَفْسِهَا عَلَى كُلِّ تِلْكَ
الْوَسَائِلِ ، فَمَا الْحُكْمَةُ هُنَا إِلَّا السِّيَاسَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْعَمَلِ ، وَلَيْسَتْ الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَفِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ الْمُتَأَخَّرَةِ : « بِإِظْهَارِهَا لَهُمْ » .

إِلَّا الطَّرِيقَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي الدَّعْوَةِ .

الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَيْسَ النَّبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا تَارِيخٌ شَدَائِدَ وَمَحَنٍ ، وَمُجَاهَدَةٌ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ ، وَمُرَاعِمَةٌ لِلْوُجُودِ الْفَاسِدِ ، وَمُكَابَلَةٌ لِلصَّحِيحِ لِلْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلأُمَّةِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ الَّذِي يُورَثُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ لَا الْعِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ فَقَطْ .

* * *

وَإِذَا قَامَتْ رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَأَصْبَحَ وَجُودُهُ هُوَ الْمَعْنَى الْمُتَمَمَّ لِلْحُكُومَةِ ، الْمُعَاوَنَ لَهَا فِي ضَبْطِ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ لِلشَّعْبِ وَحَيَاتِهَا وَأَمْنِهَا وَرَفَاهَتِهَا وَأَسْتِقْرَارِهَا - اتَّجَهَتْ طَبِيعَتُهُ إِلَى آدَاءِ رِسَالَتِهِ الْكُبْرَى لِلْفَرَنِ الْعِشْرِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَقَّقَ الدَّرَائِعَ إِلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، مِنْ فَتْحِ بَابِ الْأَجْتِهَادِ ، وَتَنْقِيَةِ التَّارِيخِ الْفِقْهِيِّ ، وَتَهْدِيبِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَالسُّمُوءِ بِهِ عَنِ الْمَعَانِي الْكَلَامِيَّةِ الْجَدَلِيَّةِ السَّخِيفَةِ ؛ ثُمَّ أَسْتَخْرَاجِ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُكْتَنَةِ فِيهِ ، لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْعِلْمِيَّةِ الْأَخِيرَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ الَّتِي تُنَمِّسُ الْإِسْلَامَ عَلَى سُتْبِهِ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، لَا يُنْكِرُهُ هَذَا وَلَا يُغَيِّرُهُ ذَاكَ ، وَبَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ قَدْ اسْتَفَاضَ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ بِكُتُبِهِ وَدُعَائِهِ وَمَبْعُوثِيهِ مِنْ حَامِلِي عِلْمِهِ وَرُسُلِ إلهَامِهِ .

أَمَّا تِلْكَ الرِّسَالَةُ الْكُبْرَى ، فَهِيَ بَثُّ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَوْرُبَةِ وَأَمْرِيكَه وَالْيَابَانِ ، بِلُغَاتِ الْأَوْرُوبِيِّينَ وَالْأَمْرِيكِيِّينَ وَالْيَابَانِيِّينَ ، فِي أَلْسِنَةِ أَزْهَرِيَّةٍ مُزَهَّفَةٍ مَضْفُولَةٍ لَهَا بَيَانُ الْأَدَبِ ، وَدَقَّةُ الْعِلْمِ ، وَإِحَاطَةُ الْفَلَسَفَةِ ، وَإِلْهَامُ الشُّعْرِ ، وَبَصِيرَةُ الْحِكْمَةِ ، وَقُدْرَةُ السِّيَاسَةِ ؛ أَلْسِنَةُ أَزْهَرِيَّةٍ لَا يُوجَدُ آلَانُ مِنْهَا لِسَانٌ وَاحِدٌ فِي الْأَزْهَرِ ، وَلَكِنَّهَا لَنْ تُوجَدَ إِلَّا فِي الْأَزْهَرِ ؛ وَلَا قِيَمَةَ لِرِسَالَتِهِ فِي الْفَرَنِ الْعِشْرِينَ إِذَا هُوَ لَمْ يُوْجَدْهَا فَتَكُونُ الْمُتَكَلِّمَةُ عَنْهُ ، وَالْحَامِلَةُ لِرِسَالَتِهِ . وَمَا هَذِهِ الْبِغْثَاتُ الَّتِي قَرَّرَ الْأَزْهَرُ اتَّبَعَاتِهَا إِلَى أَوْرُبَةِ إِلَّا أَوَّلُ تَارِيخِ تِلْكَ الْأَلْسِنَةِ .

إِنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي نَشَرَتْ الْإِسْلَامَ مِنْ قَبْلُ لَمْ تَكُنْ أَجْنَحَةَ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَا كَانَتْ قُوَّةً مِنْ جَهَنَّمَ ، وَلَا تَرَاثُ هِيَ الَّتِي تَنْشُرُهُ ؛ فَلَيْسَ مُسْتَحِيلًا وَلَا مُتَعَذِّرًا أَنْ يَغْزُوا هَذَا الدِّينُ أَوْرُبَةَ وَأَمْرِيكَه وَالْيَابَانَ كَمَا غَزَا الْعَالَمَ الْقَدِيمَ . وَلَمْ يَكُنِ السَّلَاحُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا طَرِيقَةً لِإِيجَادِ

إِسْلَامٍ^(١) فِي الْأُمَّةِ الْغَرِيبَةِ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا وَجِدَ تَوَلَّى هُوَ الدَّعْوَةَ لِنَفْسِهِ بِقُوَّةِ التَّائُمُسِ الطَّبِيعِيِّ الْقَائِمِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَحَ هُوَ الْأَبْقَى، وَانْحَارِثَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ قَانُونُ طَبِيعَتِهَا السَّلِيمَةِ، وَدِينُ فِطْرَتِهَا الْقَوِيَّةِ؛ وَقَدْ ظَلَّ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ وَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُهُ إِلَّا التَّاجِرُ، كَمَا كَانَ يَنْتَشِرُ وَحَامِلُهُ الْجَنِيشُ؛ فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا تَغْيِيرُ السِّلَاحِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَجَعْلُهُ سِلَاحًا مِنْ فِلَسَفَةِ الدِّينِ وَأَسْرَارِ حِكْمَتِهِ؛ فَهَذَا الدِّينُ كَمَا قُلْنَا فِي بَعْضِ كَلَامِنَا^(٢): أَعْمَالٌ مُفَصَّلَةٌ عَلَى النَّفْسِ أَدَقَّ تَفْصِيلٍ وَأَوْفَاهُ بِمَصْلَحَتِهَا، فَهُوَ يُعْطِي الْحَيَاةَ فِي كُلِّ عَصْرِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الثَّابِتَ الْمُسْتَقَرَّ تَنْظُمٌ بِهِ أَحْوَالُ النَّفْسِ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَيَدْعُو لِلْحَيَاةِ عَقْلَهَا الْعَمَلِيَّ الْمُتَجَدِّدَ الْمُتَغَيِّرَ تَنْظُمٌ بِهِ أَحْوَالُ الطَّبِيعَةِ عَلَى قَصْدٍ وَهَدًى؛ وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَحْصَى مَعَانِيهِ، لَا يُغْنِي عَنْهُ فِي ذَلِكَ دِينٌ آخَرُ، وَلَا يُؤَدِّي تَأْدِيتَهُ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَدَبٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا فِلَسَفَةٌ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ فِي الْأَرْضِ لِمَعَانِي الثُّورِ، بِإِرَاءِ الشَّمْسِ نَبْعَ الثُّورِ فِي السَّمَاءِ.

لَيْسَ عَلَى الْأَزْهَرِ إِلَّا أَنْ يُوجَدَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ الْأُمَمِ مَا يَسْتَمِرُّ، ثُمَّ لَا اسْتِمْرَارَ هُوَ يُوجَدُ مَا يَنْبُتُ، وَالنَّبَاتُ يُوجَدُ مَا يَدُومُ؛ وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنِّي شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، قُرْبَ مُبْلَغِ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ».

[الترمذي، رقم: ٢٦٥٧؛ ابن ماجه، رقم: ٢٣٢٢].

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْمُبْلَغَ الَّذِي هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنَ السَّامِعِ لَنْ يَكُونَ فِي التَّارِيخِ بِأَدَقِّ الْمَعْنَى إِلَّا أَوْزُبَةً وَأَمْرِيكَةً فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعِلْمِيِّ إِذَا نَحْنُ عَرَفْنَا كَيْفَ نُبْلَغُ.

أَنَا مُسْتَقْبِلٌ أَنْ فِيلْسُوفَ الْإِسْلَامِ الَّذِي سَيَنْتَشِرُ الدِّينُ عَلَى يَدِهِ فِي أَوْزُبَةٍ وَأَمْرِيكَةٍ لَنْ يَخْرُجَ إِلَّا مِنَ الْأَزْهَرِ، وَمَا كَانَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَّا أَوَّلَ التَّطَوُّرِ الْمُتَنَهِي إِلَى هَذِهِ الْعَالِيَةِ، وَسَيَكُونُ عَمَلُ فَلَاسِفَةِ الْأَزْهَرِ اسْتِخْرَاجَ قَانُونِ السَّعَادَةِ لِتِلْكَ الْأُمَمِ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَأَعْمَالِهِ؛ ثُمَّ مُحَاطَبَةُ الْأُمَمِ بِأَفْكَارِهَا وَعَوَاطِفِهَا، وَالْإِفْضَاءَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى ضَمِيرِهَا الْأَجْتِمَاعِيِّ، فَإِنَّ أَوَّلَ الدِّينِ هُنَاكَ أُسْلُوبُهُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ.

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ: «الْإِسْلَامُ» بَدَلًا مِنْ: «إِسْلَام».

(٢) أَنْظَرُ مَقَالَةَ «الْإِشْرَاقِ الْإِلَهِيِّ» وَخِي الْقَلَمِ {.

هَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَجِبَتْ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِوَسَائِلِهَا مِنَ الْآنِ ،
وَمِنْ وَسَائِلِهَا أَنْ يُعَالِنَ بِهَا لِتَكُونَ مُوَفَّقًا عَلَيْهِ ، وَيَحْسُنَ بِالْأَزْهَرِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ
كُلُّ مُفَكِّرٍ إِسْلَامِيٍّ ذِي إِلْهَامٍ أَوْ بَحْثٍ دَقِيقٍ أَوْ إِحَاطَةٍ شَامِلَةٍ ؛ فَتَكُونَ لَهُ أَلْقَابٌ عَلَيْهِ
يَمْنَحُهُمْ إِيَّاهَا وَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا فِيهِ ، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِعَمَلِهِمْ وَإِلْهَامِهِمْ وَآرَائِهِمْ .

وَبِهَذِهِ الْأَلْقَابِ يَمْتَدُّ الْأَزْهَرُ إِلَى حُدُودِ فِكْرِيَّةٍ بَعِيدَةٍ ، وَيُضَيِّحُ أَوْسَعَ فِي أَثَرِهِ عَلَى
الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيَحَقِّقُ لِنَفْسِهِ الْمَعْنَى الْجَامِعِيَّةَ .

وَفِي تِلْكَ السَّبِيلِ يَجِبُ عَلَى الْأَزْهَرِ أَنْ يَخْتَارَ أَيْامًا فِي كُلِّ سَنَةٍ يُجْمَعُ فِيهَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ (فِرْشُ الْإِسْلَامِ) ؛ لِيَجِدَ مَادَّةَ التَّفَقُّهِ الْوَاسِعَةِ فِي نَشْرِ دِينِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ عَلَى
الْأَرْضِ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةً لَا يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَمَا يَخْتَاجُ هَذَا التَّدْبِيرُ لَأَكْثَرِ مِنْ إِقْرَارِهِ وَتَنْظِيمِهِ
وإِعْلَانِهِ فِي الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَوَاسِمِهَا الْكُبْرَى ، وَخَاصَّةً مُوسِمَ الْحَجِّ .

وَهَذَا الْعَمَلُ هُوَ نَفْسُهُ وَسَيْلَتُهُ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ فِي تَنْبِيهِ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَحْقِيقِ
الْمُعَاوَنَةِ فِي نَشْرِ الدِّينِ وَحَيَاطَتِهِ ، وَعَسَى أَنْ تَكُونَ لَهُ نَتَائِجُ أُجْتِمَاعِيَّةٌ لَا مَوْضِعَ لِتَفْصِيلِهَا
{ هُنَا } ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ (فِرْشُ الْإِسْلَامِ) مَادَّةً لِأَعْمَالٍ إِسْلَامِيَّةٍ ذَاتِ بَالٍ ، وَهُوَ عَلَى أَيِّ
الْأَحْوَالِ صِلَةٌ رُوحِيَّةٌ تَجْعَلُ الْأَزْهَرَ كَأَنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَا أَخِذَهُ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةِ الْأَزْهَرِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ : اهْتِدَاءُ الْأَزْهَرِ إِلَى حَقِيقَةِ
مَوْضِعِهِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [١١ سورة
هود/ الآية : ١٢٠] .

الأسد (*)

جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّوْذِبَارِيُّ الْبَغْدَادِيُّ^(١) فِي مَجْلِسٍ وَعَظَهُ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفَاةِ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بُنَانِ الْحَمَالِ الرَّاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ^(٢) ، وَكَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِعِبَادَتِهِ وَرُزْهِدِهِ ؛ وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي جَنَازَتِهِ ، فَكَانَ يَوْمُهُ يَوْمًا كَالْبَرْهَانِ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ لِأَهْلِ هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا أَقْنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَأَبَاطِيلِهَا كَالْأَعْمَى فِي سُوءِ تَمْيِيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التُّرَابِ وَلَوْنِ الدَّقِيقِ . إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ أَمْرِيٍّ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ مِثْلَ هَذِهِ النَّظَرَةِ ، بِاللَّمْسِ لَا بِالْبَصَرِ ، وَبِالْتَّوَهُمِ لَا بِالْخَفِيقِ ، وَعَلَى دَلِيلِ نَفْسِهِ فِي الشَّيْءِ لَا عَلَى دَلِيلِ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِالْإِذْرَاكِ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ الْإِذْرَاكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَوْتَ فَيَكُونُ كَالْمَاءِ صَبَّ عَلَى الدَّقِيقِ وَالتُّرَابِ جَمِيعًا ، فَلَا يَرْتَابُ مُبْصِرٌ وَلَا أَعْمَى ، وَيَبْطُلُ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَيَحِقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ .

وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِيٍّ فَقَالَ : كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنَا الْجُنَيْدِ^(٣) فِي بَغْدَادَ ، فَجَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ الْحَسَنِ - شَيْخِ الرِّيِّ وَالْجَبَالِ فِي وَقْتِهِ^(٤) - يَقُولُ فِيهِ : لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ دُقَّتْهَا لَمْ تَذُقْ بَعْدَهَا خَيْرًا أَبَدًا ! قَالَ : فَجَعَلْتُ أَفَكُّرُ فِي طَعْمِ النَّفْسِ مَا هُوَ ، وَجَاءَنِي مَا لَمْ أَرْضَهُ مِنَ الرَّأْيِ حَتَّى سَمِعْتُ بِخَبَرِ بُنَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طُؤْلُونٍ أَمِيرِ مِصْرَ ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ قُدُومِي إِلَى هُنَا لَأَرَى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَأَنْتَفِعَ بِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٩ ، ١٥ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٦ أبريل/نيسان ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٦٨٥ - ٦٨٨ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٢٢ هـ . [وَالْبَعْضُ يُضْبِطُهُ : الرَّوْذِبَارِيُّ ؛ وَنَسَبُهُ إِلَى مَوْضِعٍ عِنْدَ طُوسَ ، وَقِيلَ : إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى بَغْدَادَ] .

(٢) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢١٦ هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٩٨ هـ .

(٤) كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٣٠٤ هـ .

وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالنَّفْسِ الْكَامِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ ،
هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ كِتَابٌ مِنَ الْكُتُبِ الْبَيِّنَةِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَمَاءَ ؛ وَإِنْ كَانَ
فِي كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ ، وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِهِ خِزَانَةٌ كُتُبٍ ؛ فَلَا تُغْنِي هَذِهِ الْكُتُبُ عَنْ
الرَّجَالِ ، فَإِنَّمَا هِيَ صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهِي إِلَى الْعَقْلِ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْكَامِلَ صَوَابٌ يَنْتَهِي إِلَى
الرُّوحِ ، وَهُوَ فِي تَأْيِيدِهِ عَلَى النَّاسِ أَقْوَى مِنَ الْعِلْمِ ، إِذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْحَقَائِقِ فِي أَعْمَلِ الْوَاقِعِ
وَحَيَاتِهَا عَامِلَةٌ مُرْتَبَةٌ دَاعِيَةٌ إِلَى نَفْسِهَا ، وَلَوْ أَقَامَ النَّاسُ عَشْرَ سِنِينَ يَتَنَظَّرُونَ فِي مَعَانِي
الْفَضَائِلِ وَوَسَائِلِهَا ، وَوَضَعُوا فِي ذَلِكَ مِثَّةَ كِتَابٍ ، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فَاضِلًا بِأَصْدَقِ مَعَانِي
الْفَضِيلَةِ ، وَخَالَطُوهُ وَصَحَّبُوهُ - لَكَانَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَكْبَرَ فَائِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةِ وَأَجْدَى عَلَى
النَّاسِ مِنْهَا وَأَدَلَّ عَلَى الْفَضِيلَةِ مِنْ مِثَّةِ كِتَابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتَابٍ ؛ وَلِهَذَا يُرْسِلُ اللَّهُ النَّبِيَّ مَعَ كُلِّ
كِتَابٍ مُثَرَّلٍ لِيُعْطِيَ الْكَلِمَةَ قُوَّةً وَجُودَهَا ، وَيُخْرِجَ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ مِنَ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ ،
وَيُنْشِئَ الْفَضَائِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّنْسِلِ مِنْ إِنْسَانِيهَا الْكَبِيرِ .

وَمَا مِثْلُ الْكِتَابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقَائِقَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ ، إِلَّا كَوَضْعِ الْإِنْسَانِ يَدَهُ
تَحْتَ إِطْبَاقِ لَبَازِجِ جِسْمِهِ عَنِ الْأَرْضِ ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ وَلِكِنَّهُ لَنْ يَرْتَفِعَ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ شَرُّ
النَّاسِ هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُعَلِّمِينَ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَخْلَافُهُمْ دُرُوسًا أُخْرَى تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ
الْكَلَامِ ، فَإِنْ أَحَدَهُمْ لِيَجْلِسَ مَجْلِسُ الْمُعَلِّمِ ثُمَّ تَكُونُ حَوْلَهُ رِذَائِلُهُ تُعَلِّمُ تَعْلِيمًا آخَرَ مِنْ
حَيْثُ يَذَرْنِي وَلَا يَذَرْنِي ، وَيَكُونُ كِتَابُ اللَّهِ مَعَ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ مِنْهُ ، وَكِتَابُ الشَّيْطَانِ مَعَ
الْإِنْسَانِ الْخَفِيِّ فِيهِ .

* * *

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَقَدِمْتُ إِلَى مِصْرَ لَأَرَى أَبَا الْحَسَنِ وَآخَذَ عَنْهُ وَأَحَقَّقَ مَا سَمِعْتُ مِنْ
خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، فَلَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ تَلَامِيذِ شَيْخِنَا الْجُنَيْدِ ، يَتَلَأَّلُ فِيهِ نُورُهُ
وَيَعْمَلُ فِيهِ سِرُّهُ ، وَهُمَا كَالشَّمْعَةِ ، وَالشَّمْعَةُ فِي الضُّوئِ وَإِنْ صَغُرَتْ وَاحِدَةً وَإِنْ كَبُرَتْ
وَاحِدَةً ، وَعَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وَجُودُهُ فَيَمُنَّ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ ،
كَأَنَّ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَبَيْنَهُ نَسَبًا شَابِكًا ، فَلَهُ مَعْنَى أُبُوءَةِ الْأَبِ فِي أَبْنَائِهِ : لَا يَرَاهُ مَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ
إِلَّا أَحْسَنَ أَنَّهُ شَخْصُهُ الْأَكْبَرُ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ التَّكْمِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ لِلنَّاسِ ، وَكَأَنَّهُ

مَخْلُوقٌ خَاصَّةً لِإِبْرَاقَاتِ أَنْ غَيْرِ الْمُسْتَطَاعِ مُسْتَطَاعٌ .

وَمِنْ عَجِيبِ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنَّ الْأَمْرَاضَ الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ بِالْعَدْوَى فَيَمْنُ قَارِبَهَا أَوْ لَامَسَهَا ، وَأَنَّ الْقُوَى الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ كَذَلِكَ بِالْعَدْوَى فَيَمْنُ اتَّصَلَ بِهَا أَوْ صَاحَبَهَا ، وَلِهَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّالِحِينَ وَيَجْعَلُ التَّقْوَى فِيهِمْ إِصَابَةً كِإِصَابَةِ الْمَرَضِ تَصْرِفُ عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا كَمَا يَصْرِفُ الْمَرَضُ عَنْهَا ، وَتَكْسِرُ النَّفْسَ كَمَا يَكْسِرُهَا ذَاكُ ، وَتَقْفِدُ الشَّيْءَ مَا هُوَ بِهِ شَيْءٌ ، فَتَتَحَوَّلُ قِيَمَتُهُ ، فَلَا يَكُونُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَلَهْمِ بَلْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ .

وَإِذَا عَدِمَ النَّاسُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي يُغْدِيهِمْ بِقُوَّتِهِ الْعَجِيبَةِ ، فَقَلَمَّا يَصْلُحُونَ لِلْقُوَّةِ ؛ فَكِبَارُ الصَّالِحِينَ وَكِبَارُ الزُّعَمَاءِ وَكِبَارُ الْقَوَادِ وَكِبَارُ الشُّجْعَانِ وَكِبَارُ الْعُلَمَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ - كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَكُلُّهُمْ فِي الْحِكْمَةِ كَكِبَارِ الْمَرْضَى .

* * *

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَهَمَمْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلَ الشَّيْخَ عَنْ خَبْرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، فَقَطَعْتَنِي هَيْبَتُهُ ، فَقُلْتُ : أَحْتَالُ بِسُؤَالِهِ عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ الرَّيِّ : « لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ » ؛ وَبَيْنَمَا أَهْيَأُ فِي نَفْسِي كَلَامًا أُجْرِي فِيهِ هَذِهِ الْعِبَارَةَ ، جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِلشَّيْخِ : لِي عَلَى فُلَانٍ مَنَّةٌ دِينَارٍ ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الْوَرِيقَةُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا الدِّينُ ، وَأَخْشَى أَنْ يُنْكَرَ إِذَا هُوَ عَلِمَ بِضِيَاعِهَا ؛ فَأَدْعُ اللَّهَ لِي وَلَهُ أَنْ يُظْفِرَنِي بِدِينِي وَأَنْ يُبَيِّنَهُ عَلَيَّ الْحَقَّ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنِّي رَجُلٌ قَدْ كَبُرَتْ وَأَنَا أَحِبُّ الْحَلْوَى ، فَأَذْهَبَ فَاشْتَرَى رَطَلًا مِنْهَا وَاتَّيَنِي بِهِ حَتَّى أَدْعُو لَكَ !

فَذَهَبَ الرَّجُلُ فَاشْتَرَى الْحَلْوَى وَوَضَعَهَا لَهُ الْبَائِعُ فِي وَرَقَةٍ فَإِذَا هِيَ الْوَرِيقَةُ الضَّائِعَةُ ، وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ فَخَبَّرَهُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذِ الْحَلْوَى فَاطْعِمْهَا صَبِيحَتَكَ لَا أَذَاقَنَا اللَّهُ طَعْمَ أَنْفُسِنَا فِيمَا نَسْتَهِي ! ثُمَّ إِنَّهُ التَّمَّتْ إِلَيَّ وَقَالَ : لَوْ أَنَّ شَجَرَةَ أَشْتَهَيْتَ غَيْرَ مَا بِهِ صِحَّةٌ وَجُودٌ وَكَمَالٌ مَنَفَعَتِهَا فَأَذِيقَتْ طَعْمَ نَفْسِهَا لَأَكَلْتُ نَفْسَهَا وَذَوْتُ .

* * *

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَالْمُعْجَزَاتُ الَّتِي تَحْدُثُ لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَالْكَرَامَاتُ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَتَقِيَاءِ ، وَمَا يَخْرُقُ الْعَادَةَ يَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ - كُلُّ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْفُدَرَةِ عَنِ الرَّجُلِ الْأَشَادِ : هُوَ هَذَا .

فَلَمْ تَبْقَ بَيْنِي حَاجَةٌ إِلَى سُؤَالِ الشَّيْخِ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طُولُونَ ، وَكُنْتُ كَأَنِّي أَرَى بِعَيْنِي رَأْسِي كُلَّ مَا سَمِعْتُ ، بَيْنَ أَنِّي لَمْ أَنْصَرِفْ حَتَّى لَقِيتُ أَبَا جَعْفَرٍ الْقَاضِي أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ ابْنِ قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي^(١) ذَلِكَ الَّذِي يُحَدِّثُ بِكُتُبِ أَبِيهِ كُلَّهَا مِنْ حِفْظِهِ وَهِيَ وَاحِدَةٌ وَعِشْرُونَ مُصَنَّفًا فِيهَا الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ ، فَقَالَ لِي : لَعَلَّكَ أَشْتَفَيْتَ مِنْ خَبَرِ بُتَانَ مَعَ ابْنِ طُولُونَ . فَمِنْ أَجْلِهِ زَعَمْتَ جَنَّتْ إِلَى مِصْرَ .

قُلْتُ : إِنَّهُ تَوَاضَعَ فَلَمْ يُخْبِرْنِي ، وَهَيْبَتُهُ فَلَمْ أَسْأَلْهُ .

قَالَ : تَعَالَ أَحَدُنَا الْحَدِيثَ .

كَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ^(٢) مِنْ جَارِيَةِ تُرْكِيَّةٍ ، وَكَانَ طُولُونَ أَبُوهُ مَمْلُوكًا حَمَلَهُ نُوْحُ بْنُ أَسَدٍ عَامِلٌ بُخَارَى إِلَى الْمَأْمُونِ فَبِمَا كَانَ مُوَطَّأً عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالرَّقِيقِ وَالْبَرَادِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَوُلِدَ أَحْمَدُ فِي مَنْصَبٍ ذَلَّةٍ تَسْتَظْهُرُ بِالطُّغْيَانِ ، وَكَانَتْ هَاتَانِ طَبِيعَتَيْهِ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ ، فَذَهَبَ بِهَيْبَتِهِ مَذْهَبًا بَعِيدًا ، وَنَشَأَ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ عَلَى أَنْ يُبَيِّنَ هَذَا الْقَفْصَ وَيَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَطَلَبَ الْفُرُوسِيَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْحَدِيثَ ، وَصَحِبَ الزُّهَادَ وَأَهْلَ الْوَرَعِ ، وَتَمَيَّزَ عَلَى الْأَثَرِ ، وَطَمَحَ إِلَى الْمَعَالِي . وَظَلَّ يَزِمِي بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَكْبُرُ وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ ، كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْ أَصْلِهِ وَيَلْتَحِقَ بِالْأَمْرَاءِ ؛ فَلَمَّا أَلْتَحَقَ بِهِمْ ظَلَّ يَكْبُرُ لِيَلْحَقَ بِالْمُلُوكِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ عَلَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ .

قَالَ : كَانَ عَقْلُهُ مِنْ أَثَرِ طَبِيعَتَيْهِ كَالْعَقْلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، فَلَهُ يَدٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَيَدُهُ الْأُخْرَى مَعَ الشَّيَاطِينِ ، فَهُوَ الَّذِي بَنَى الْمَارِسْتَانَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ وَأَقَامَ فِيهِ الْأَطِبَّاءَ . وَشَرَطَ إِذَا جِئَ بِالْعَلِيلِ أَنْ تُنْزَعَ ثِيَابُهُ وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمِينِ الْمَارِسْتَانِ ثُمَّ يُلْبَسَ ثِيَابًا وَيُفَرَّشَ لَهُ وَيُعْدَى عَلَيْهِ وَيُرَاحَ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْدِيَةِ وَالْأَطِبَّاءِ حَتَّى يَبْرَأَ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا قَبْلَ إِمَارَتِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِي الْمَظَالِمِ مِنْ أَمْرَاءِ مِصْرَ ، وَهُوَ صَاحِبُ يَوْمِ الصَّدَقَةِ ، يُكْثِرُ مِنْ صَدَقَاتِهِ كُلَّمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَمَرَاتِبُهُ لِذَلِكَ فِي كُلِّ أَسْبُوعٍ ثَلَاثَةُ آلَافٍ دِينَارٍ سِوَى مَطَابِخِهِ الَّتِي

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٢٢ هـ .

(٢) كَانَتْ إِمَارَةُ ابْنِ طُولُونَ نَحْوَ ٢٦ سَنَةً ، وَتُوُفِّيَ ٢٧٠ هـ .

أَقِيمَتْ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي دَارِهِ وَغَيْرِهَا ، يُذْبِحُ فِيهَا الْبَقَرُ وَالْكَبَاشُ وَيُغْرِفُ لِلنَّاسِ ، وَلِكُلِّ مِسْكِينٍ أَرْبَعَةُ أَرْغِفَةٍ يَكُونُ فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا فَالْوَدَجُ^(١) ، وَفِي الْآخَرَيْنِ مِنَ الْقُدُورِ ، وَيُنَادِي : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَخْضُرَ دَارَ الْأَمِيرِ فَلْيَخْضُرْ ! وَتُفْتَحُ الْأَبْوَابُ ، وَيَدْخُلُ النَّاسُ وَهُوَ فِي الْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاكِينِ وَيَتَأَمَّلُ فَرَحَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَيَحْمِلُونَ ، فَيَسْرُهُ ذَلِكَ وَيَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعَمَتِهِ ؛ وَكَانَ رَاتِبٌ مَطْبَخِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ ؛ وَاقْتَدَى بِهِ ابْنُهُ خُمَارُونَهُ ، فَأَنْشَأَ بَعْدَهُ مَطْبَخَ الْعَامَةِ^(٢) يُنْفِقُ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ كُلِّ شَهْرٍ .

وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرْسَلَهُ ابْنُ طُولُونَ إِلَى فَقَرَاءِ بَغْدَادَ وَعُلَمَائِهَا فِي مُدَّةٍ وَلَايَتِهِ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِثْقَلِي أَلْفِ دِينَارٍ^(٣) . وَكَانَ كَثِيرَ التَّلَاوَةِ لِلْقُرْآنِ ، وَقَدْ اتَّخَذَ حُجْرَةً بِقُرْبِهِ فِي الْفَصْرِ وَضَعَ فِيهَا رِجَالًا سَمَاهُمْ بِالْمُكَبِّرِينَ ، يَتَعَاقَبُونَ اللَّيْلَ نُبَاتًا يَكْبُرُونَ ، وَيُسَبِّحُونَ ، وَيَحْمَدُونَ ، وَيُهَلِّلُونَ ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ تَطَرُّبًا وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ الرَّهْدِ ، وَيُؤَدِّنُونَ أَوْقَاتَ الْأَذَانِ ؛ وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةَ فِي سِتَّةِ خُمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِثْقَلِي أَلْفِي أَلْفٍ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى طَرْسُوسَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ فَتْحَهَا ، فَلَمَّا نَابَذَهُ أَهْلُهَا وَقَاتَلَهُمْ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَنْهَزِمُوا عَنْهَا ، لِيَبْلُغَ ذَلِكَ طَاغِيَةُ الرُّومِ ، فَخَلِمَ أَنَّ جُبُوشَ ابْنَ طُولُونَ عَلَى كَثَرَتِهَا وَشِدَّتِهَا لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرْسُوسَ ، فَيَكُونُ بِهِذَا كَأَنَّهُ قَاتَلَهُ وَصَدَّهُ عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَيَجْعَلَ هَذَا الْخَبَرَ كَالْجَنَاشِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ !

وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا طَائِشَ السَّيْفِ ، يَجُورُ وَيَغْشَى ، وَقَدْ أَخْصِي مِنْ قَتْلِهِمْ صَبْرًا أَوْ مَاتُوا فِي سَجْنِهِ فَكَانُوا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ؛ وَأَمَرَ بِسَجْنِ قَاضِيهِ بَغَارٍ بِنِ قُتَيْبَةٍ فِي حَادِيَةِ مَعْرُوفَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : عَرَفْتُ قَوْلَ النَّاسِ مَا فِي الدُّنْيَا مِثْلُ بَغَارٍ ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرَفْتَ ! ثُمَّ حَبَسَهُ وَقَيَّدَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ جَمِيعَ عَطَايَاهُ مُدَّةَ وَلَايَتِهِ الْقَضَاءِ ، فَكَانَتْ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ . قِيلَ : إِنَّهَا وَجِدَتْ فِي بَيْتِ بَغَارٍ بِخَنَمِهَا لَمْ يَمْسَسْهَا زُهْدًا وَتَوَرُّعًا .

وَلَمَّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبُو الْحَسَنِ يُعْتَفُّ وَيَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُتَكَبِّرِ طَائِشَ عَقْلُهُ

(١) نَوْعٌ مِنَ الْحُلُوفِ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ (الْبَالُوْطَةُ) .

(٢) هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَطْعَمِ الشُّعْبِ .

(٣) الدِّينَارُ : نِصْفُ جُنَيْدٍ مِصْرِيِّ فَبَعْدَهُ ذَلِكَ مِائِيُونَ وَمِئَةُ أَلْفِ جُنَيْدٍ ، صَدَقَاتُهُ عَلَى بَغْدَادَ وَخَدَهَا رَحِمَهُ اللَّهُ . [وَالدِّينَارُ يُعَادِلُ أَرْبَعَةَ غَرَامَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ] .

وَأَمَرَ بِالْقَائِمِ إِلَى الْأَسَدِ ، وَهُوَ الْخَبَرُ الَّذِي طَارَ فِي الدُّنْيَا وَبَلَغَكَ فِي بَعْدَادَ . . .

* * *

قَالَ وَكُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَجِئْتُ بِالْأَسَدِ مِنْ قَصْرِ أَيْمِهِ خُمَارَوَيْهِ ؛ وَكَانَ خُمَارَوَيْهِ هَذَا مَشْغُوفًا بِالصَّيْدِ ، لَا يَكَادُ يَسْمَعُ سَبْعُ فِي غَيْضَةٍ أَوْ بَطْنٍ وَادٍ إِلَّا قَصَدَهُ وَمَعَهُ رِجَالٌ عَلَيْهِمْ لُبُودٌ ، فَيَدْخُلُونَ إِلَى الْأَسَدِ وَيَتَنَاوَلُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ غَايَةِ عَنَوَةٍ وَهُوَ سَلِيمٌ ، فَيَضَعُونَهُ فِي أَقْفَاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ الصَّنْعِ ، يَسَعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا السَّبْعُ وَهُوَ قَائِمٌ .

وَكَانَ الْأَسَدُ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ مَا عِنْدَهُمْ ، جَسِيمًا ، ضَارِبًا ، عَارِمٌ الْوَحْشِيَّةِ ، مُتَزَيِّلُ الْعِضْلِ ، شَدِيدٌ عَصَبِ الْخَلْقِ ، هَرَّاسًا ، فَرَّاسًا ، أَهْرَتْ الشَّدَقِ يُلُوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرَوْعَتِهِ كَفَتْحَةِ الْقَبْرِ يُبْنِي أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ ، وَيُظْهَرُ وَجْهُهُ خَارِجًا مِنْ لَبْدَتِهِ ، بِهِمْ أَنْ يَنْقَدِفَ عَلَى مَنْ يَرَاهُ فَيَأْكُلُهُ ! .

وَأَجْلَسُوا الشَّيْخَ فِي قَاعَةٍ وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ الْقَفْصِ مِنْ أَغْلَاهُ فَجَذَبُوهُ فَارْتَفَعَ ؛ وَهَجَّهَجُوا بِالْأَسَدِ يَرْجُرُونَهُ ، فَأَنْطَلَقَ يُرْمِجُ وَيَزَارُ رَئِيْرًا تَشْقُ لَهُ الْمَرَاثِرُ ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرَّعْدُ وَرَاءَهُ الصَّاعِقَةُ ! .

ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ وَأَفْشَعَرَ ، ثُمَّ تَمَطَّى كَالْمَنْجَنِيْقِ يَفْدِفُ الصَّخْرَةَ ، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ إِلَّا طَرْفَةٌ عَيْنٍ ؛ وَرَأَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَاكِنًا مُطَرِّقًا لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَسَدِ وَلَا يَخْفِلُ بِهِ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ كَادَ يَنْهَتِكُ حِجَابَ قَلْبِهِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَالْإِشْفَاقِ عَلَى الرَّجُلِ .

وَلَمْ يَزْعِنَا إِلَّا دُحُولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ ، فَأَفْعَى عَلَى ذَنْبِهِ ، ثُمَّ لَصِقَ بِالْأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِرَاعِيهِ ، ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرَى كَأَنَّهُ غَيْرُ الْأَسَدِ ، فَمَشَى مُتَرَفِّقًا ثَقِيلَ الْخَطْوِ نُسْمَعُ لِمَفَاصِلِهِ قَعْقَعَةً مِنْ شِدَّتِهِ وَجَسَامَتِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَطَفَقَ يَخْتَكُّ بِهِ وَيَلْحَظُهُ وَيَسْمُهُ كَمَا يَصْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صَاحِبِهِ الَّذِي يَأْتِسُّ بِهِ ، وَكَأَنَّهُ يُغْلِبُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مُصَاوَلَةً بَيْنَ الرَّجُلِ الْتَقِيَّ وَالْأَسَدِ ، وَلَكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طُولُونَ وَإِرَادَةِ اللَّهِ ! .

وَضَرَبَتْهُ رُوحُ الشَّيْخِ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَدَمِيِّ عَمَلٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزَاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ ، فَلَوْ أَكَلَ الضُّوءُ وَالْهَوَاءُ وَالْحَجَرُ وَالْحَدِيدُ ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الرَّجُلُ

الْمُتَمَلِّلُ فِي رُوحَانِيَّتِهِ لَا يُجِسُّ لِصُورَةِ الْأَسَدِ مَعْنًى مِنْ مَعَانِيهَا الْفَاتِكَةِ ، وَلَا يَرَى فِيهِ إِلَّا حَيَاةً خَاضِعَةً مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ الْعُظْمَى الَّتِي هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا ، كَحَيَاةِ الدَّوْدَةِ وَالثَّمَلَةِ وَمَا دُونَهَا مِنَ الْهَوَامِّ وَالذَّرِّ ! .

وَوَرَدَ التَّوَرُّ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَكَانَ مُنْذِمًا فِي يَقِينِ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . [٥٢ سورة الطور / الآية : ٤٨] .

وَرَأَى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللَّهِ ، فَخَافَ مِنْهُ ، وَكَمَا خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذَاتِهِ وَمَعَانِيهَا النَّاقِصَةِ ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ مَعَانِيهَا الْوَحْشِيَّةِ ؛ فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلَا ضَرَاوَةٌ وَلَا جُوعٌ وَلَا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ .

وَنَسِيَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ فَكَأَنَّمَا رَأَاهُ الْأَسَدُ مَيْتًا وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ (أَنَا) الَّتِي يَأْكُلُهَا ، وَلَوْ أَنَّ خَطَرَهُ مِنْ هَمِّ الدُّنْيَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ اخْتَلَجَتْ فِي نَفْسِهِ خَالِجَةٌ مِنَ الشَّكِّ ، لَفَاحَتْ رَائِحَةُ لَحْمِهِ فِي خِيَاشِيمِ الْأَسَدِ ، فَتَمَزَّقَ فِي أَنْثَابِهِ وَمَخَالِبِهِ .

* * *

قَالَ : وَأَنْصَرَفْنَا عَنِ النَّظَرِ فِي السَّبْعِ إِلَى النَّظَرِ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ ، فَإِذَا هُوَ سَاهِمٌ مُفَكَّرٌ ، ثُمَّ رَفَعُوهُ ، وَجَعَلَ كُلُّ مَنَّا يَظُنُّ ظَنًّا فِي تَفْكِيرِهِ ، فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّ الْخَوْفَ أَذْهَلُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَقَائِلٍ : إِنَّهُ لَا أَنْصِرَافَ بِعَقْلِهِ إِلَى الْمَوْتِ ؛ وَثَالِثٍ يَقُولُ : إِنَّهُ سَكُونُ الْفِكْرَةِ لِمَنْعِ الْحَرَكَةِ عَنِ الْجِسْمِ فَلَا يَضْطَرِبُ ؛ وَرَّعَمَ جَمَاعَةٌ أَنَّ هَذِهِ حَالَهُ مِنَ الْاسْتِغْرَاقِ يَسْحَرُ بِهَا الْأَسَدُ ؛ وَآخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَتَجَارَيْنَا فِيهِ ، حَتَّى سَأَلَهُ ابْنُ طُولُونٍ : مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ وَفِيمَ كُنْتَ تُفَكِّرُ ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ : لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ ، أَهُوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ ؟ ...

أَمْرَاءُ لِلْبَيْعِ (*)

قَالَ الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ - الْمُلَقَّبُ طَوِيرَ اللَّيْلِ - أَحَدُ أَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ
بِالْمَدْرَسَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ^(١) :

كَانَ شَيْخُنَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو مَجْدٍ الدِّينِ ، أَبُو دَقِيقٍ الْعَيْنِ^(٢)
لَا يُخَاطَبُ السُّلْطَانُ إِلَّا بِقَوْلِهِ : (يَا إِنْسَانُ) فَمَا يَخْشَاهُ ، وَلَا يَتَعَبَّدُ لَهُ ، وَلَا يَنْحَلُّهُ الْقَابِ
الْجَبْرُوتِ وَالْعَظَمَةِ ، وَلَا يُزَيَّنُهُ بِالْتَّفَاقِ ، وَلَا يُدَاجِيهِ كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؛ وَكَانَ
هَذَا عَجَبًا ؛ غَيْرَ أَنْ تَمَامَ الْعَجَبِ أَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ يُخَاطَبُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا بِهَذَا الَّلَفْظِ عَيْنِهِ
(يَا إِنْسَانُ) ؛ فَمَا يَغْلُو بِالسُّلْطَانِ وَالْأَمْرَاءِ وَلَا يَنْزِلُ بِالضُّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَلَا يَرَى أَحْسَنَ
مَا فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَّا الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ !

ثُمَّ كَانَ لَا يُعْظَمُ فِي الْخِطَابِ إِلَّا أَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ ، فَإِذَا خَاطَبَ مِنْهُمْ أَحَدًا قَالَ لَهُ :
(يَا فَقِيهَ) عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُسَمَّحُ بِهَذَا إِلَّا لِمِثْلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الرَّفْعَةِ^(٣) ، ثُمَّ
يَخْصُرُ عِلَاءَ الدِّينِ أَبِي الْبَاجِيِّ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ : (يَا إِمَامَ) ؛ إِذْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي صِنَاعَةِ
الْحُجَّةِ ، لَا يَكَادُ يَقْطَعُهُ أَحَدٌ فِي الْمُنَاطَرَةِ وَالْمُبَاحَثَةِ ؛ فَهُوَ كَالْبَرْهَانِ إِجْلَالُهُ إِجْلَالُ الْحَقِّ ،
لَأَنَّ فِيهِ الْمَعْنَى وَتَثْبِيتَ الْمَعْنَى .

وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : يَا سَيِّدِي ! أَرَأَيْكَ تُخَاطَبُ السُّلْطَانُ بِخِطَابِ الْعَامَّةِ ، فَإِنْ عَلَوْتَ قُلْتَ :
(يَا إِنْسَانُ) ، وَإِنْ نَزَلْتَ قُلْتَ : (يَا إِنْسَانُ) ، أَفَلَا يُسَخِّطُهُ هَذَا مِنْكَ وَقَدْ تَذَوَّقَ حَلَاوَةَ
أَلْفَاطِ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ ، وَخَصَّهُ التَّفَاقُ بِكَلِمَاتٍ هِيَ ظِلُّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا

(*) « الرسالة » العدد : ٢٠٠ ، ٢٢ صفر سنة ١٣٥٦ هـ = ٣ مايو / أيار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ،

الصفحات : ٧٢٨ - ٧٣١ .

(١) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٧ هـ .

(٢) كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٧٠٢ هـ .

(٣) تُوُفِّيَ سَنَةَ ٧١٠ هـ .

ثُمَّ جَعَلَهُ الْمُلْكُ إِنْسَانًا بِذَاتِهِ فِي وَجُودِ ذَاتِهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ غَيْرِهِ كَالْجَبَلِ وَالْحَصَاةِ .
يَسْتَوِيَانِ فِي الْعُنْصُرِ وَيَتَبَايَانِ فِي الْقَدْرِ ، وَأَقْلَهُ مَهْمَا قَلَّ هُوَ أَكْثَرُهَا مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَوُجُودُهُ
شَيْءٌ وَوُجُودُهَا شَيْءٌ آخَرُ ؟

فَبَسَّمَ الشُّنْخُ ، وَقَالَ : يَا وَلَدِي ! أَيْنُ هَذَا ؟ إِنَّا نُفُوسٌ لَا أَلْفَاظُ ، وَالْكَلِمَةُ مِنْ
قَائِلِهَا هِيَ بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهِ لَا بِمَعْنَاهَا فِي نَفْسِهَا ، فَمَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ الشَّرِيعَةِ أَنْ يَنْطِقَ
بِكَلَامٍ يَرُدُّهُ الشَّرْعُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ نَافَقَ الدِّينُ لَبُطْلُ أَنْ يَكُونَ دِينًا ، وَلَوْ نَافَقَ الْعَالِمُ الدِّينِي لَكَانَ
كُلُّ مُتَافِقٍ أَشْرَفَ مِنْهُ ، فَلَطَخَهُ فِي الثُّوبِ الْأَبْيَضِ لَيْسَتْ كَلَطَخَهُ فِي الثُّوبِ الْأَسْوَدِ ،
وَالْمُتَافِقُ رَجُلٌ مُعْطَى فِي حَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ عَالِمَ الدِّينِ رَجُلٌ مَكْشُوفٌ فِي حَيَاتِهِ لَا مُعْطَى ،
فَهُوَ لِلْهِدَايَةِ لَا لِلتَّلْبِيسِ ، وَفِيهِ مَعَانِي الثُّورِ لَا مَعَانِي الظُّلْمَةِ ، وَذَلِكَ يَتَّصِلُ بِالدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ
الْعَمَلِ ، فَإِذَا نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ ، وَالْعَالِمُ يَتَّصِلُ بِالدِّينِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَمَلِ وَنَاحِيَةِ التَّيْبِنِ ، فَإِذَا
نَافَقَ فَقَدْ كَذَبَ وَغَشَّ وَخَانَ .

وَمَا مَعْنَى الْعُلَمَاءِ بِالشَّرْعِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَمْتِدَادٌ لِعَمَلِ الثُّبُورَةِ فِي النَّاسِ دَهْرًا بَعْدَ دَهْرٍ ،
يَنْطِقُونَ بِكَلِمَتِهَا ، وَيَقُومُونَ بِحُجَّتِهَا ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَافِهَا كَمَا تَأْخُذُ الْمِرَاةُ الثُّورَ ،
تَحْوِيهِ فِي نَفْسِهَا وَتُلْقِيهِ عَلَى غَيْرِهَا ، فَهِيَ أَدَاةٌ لِإِظْهَارِهِ وَإِظْهَارِ جَمَالِهِ مَعًا .

أَتَذَرِي يَا وَلَدِي مَا الْفَرْقُ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْحَقِّ وَعُلَمَاءِ السُّوءِ وَكُلُّهُمْ آخِذٌ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ
لَا يَخْتَلِفُ ؟ إِنَّ أَوَّلِيكَ فِي أَخْلَافِهِمْ كَاللُّوْحِ مِنَ الْبِلُورِ : يُظْهِرُ الثُّورَ نَفْسَهُ فِيهِ وَيُظْهِرُ حَقِيقَتَهُ
الْبِلُورِيَّةَ ، وَهَذَا لِأَخْلَافِهِمْ كَاللُّوْحِ مِنَ الْخَشَبِ يُظْهِرُ الثُّورَ حَقِيقَتَهُ الْخَشَبِيَّةَ لَا غَيْرَ !
وَعَالِمُ السُّوءِ يُفَكِّرُ فِي كُتُبِ الشَّرِيعَةِ وَخَدَّهَا ؛ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَوَّلَ وَيَخْتَالَ وَيُغَيِّرَ
وَيُبَدِّلَ وَيُظْهِرَ وَيُخْفِي ، وَلَكِنَّ الْعَالِمَ الْحَقَّ يُفَكِّرُ مَعَ كُتُبِ الشَّرِيعَةِ فِي صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ ،
فَهُوَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ يَسْأَلُهُ : مَاذَا تَفْعَلُ وَمَاذَا تَقُولُ ؟

وَالرَّجُلُ الدِّينِي لَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَافُهُ وَلَا تَتَفَاوَتْ وَلَا يَجِيءُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ حَوَادِثِ الْيَوْمِ ،
فَهُوَ بِأَخْلَافِهِ كُلِّهَا ، لَا يَكُونُ مَرَّةً يَبْغِضُهَا وَمَرَّةً يَبْغِضُهَا ، وَلَنْ تَرَاهُ مَعَ دَوْبِ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ
الْحُكْمِ وَالنُّعْمَةِ كَعَالِمِ السُّوءِ هَذَا الَّذِي لَوْ نَطَقَتْ أَفْعَالُهُ لَقَالَتْ اللَّهُ بِلِسَانِهِ : هُمْ يُعْطُونَنِي
الدَّرَاهِمَ وَالْذَنَانِيرَ ، فَأَيْنَ دَرَاهِمُكَ أَنْتَ وَذَنَانِيرُكَ ؟

إِنَّ الدُّنْيَا يَا وَلَدِي إِذَا كَانَ صَحِيحًا فِي أَحَدٍ وَجْهَيْهِ دُونَ الْآخَرِ ، أَوْ فِي بَعْضِهِ دُونَ بَعْضِهِ ، فَهُوَ رَأَيْتُ كُلَّهُ ، وَأَهْلُ الْحُكْمِ وَالْجَاهِ حِينَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ هَؤُلَاءِ يَتَعَامَلُونَ مَعَ قُوَّةِ الْهَضَمِ فِيهِمْ . فَيُنْزِلُونَهُمْ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْبَهَائِمِ : تَقَدَّمُ أَعْمَالُهَا لِتَأْخُذَ لِبَطْنِهَا ، وَالْبَطْنُ الْأَكْلُ فِي الْعَالَمِ الشُّؤْمُ يَأْكُلُ دِينَ الْعَالَمِ فِيمَا يَأْكُلُهُ . . .

فَإِذَا رَأَيْتَ لِعُلَمَاءِ الشُّؤْمِ وَقَارًا فَهُوَ الْبَلَادَةُ ، أَوْ رِقَّةٌ فَسَمَّيْتُهَا الضَّعْفَ ، أَوْ مُحَاسَنَةً فَقُلْتُ إِنَّهَا التَّقَا ، أَوْ سُكُونًا عَنِ الظُّلْمِ فَتِلْكَ رَشُوءَةٌ يَأْكُلُونَ بِهَا !

* * *

قَالَ الْإِمَامُ : وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ شَيْخِي سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ عِزِّ الدِّينِ أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ ^(١) فَلَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَيْئًا تَصْنَعُهُ طَبِيعَتُهُ كَمَا يَصْنَعُ جِسْمُهُ الْحَيَاةَ ، فَلَا يُبَالِي هَلْكَ فِيهِ أَوْ عَاشَ ، إِذْ هُوَ فِي الدَّمِ كَالْقَلْبِ ، لَا تَنَالُهُ يَدُ صَاحِبِهِ وَلَا يَدُ غَيْرِهِ ؛ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ وَلَا تَرْفٍ وَلَا نَعِيمٍ ، فَكَانَ تَجَرُّدُهُ مِنْ أَوْهَامِ الْقُوَّةِ قُوَّةً لَا تُغْلَبُ ؛ وَأَنْتَرَعَ خَوْفَ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِهِ فَعَمَرَتْهُ الرُّوحُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُخَيِّفُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَخَافُ ؛ وَكَانَ بِهِدِهِ الرُّوحُ كَأَنَّهُ تَحْوِيلٌ وَتَبْدِيلٌ فِي طَبَاعِ النَّاسِ ، حَتَّى قَالَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرسُ وَقَدْ رَأَى كَثْرَةَ الْخَلْقِ فِي جَنَازَتِهِ حِينَ مَرَّتْ تَحْتَ الْقَلْعَةِ : الْآنَ اسْتَقَرَّ أَمْرِي فِي الْمُلْكِ ، فَلَوْ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ دَعَا النَّاسَ لِلْخُرُوجِ عَلَيَّ لَأَنْتَرَعَ مِثْلِي الْمَمْلَكَةَ !

وَكَانَ سُلْطَانُهُ فِي دِمَشْقَ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ ، فَاسْتَجَدَّ بِالْإِفْرَنْجِ عَلَى الْمَلِكِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ سُلْطَانِ مِصْرَ ؛ فَغَضِبَ الشَّيْخُ وَأَسْقَطَ اسْمَ الصَّالِحِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَخَرَجَ مُهَاجِرًا ، فَاتَّبَعَهُ الصَّالِحُ بَعْضَ خَوَاصِّهِ يَتَلَفَّفُ بِهِ وَيَقُولُ لَهُ : مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَيَّ مَتَاصِيكَ وَمَا كُنْتُ عَلَيْهِ وَأَكْثَرُ مِمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ إِلَّا تَتَخَشَّعَ لِلْسُلْطَانِ وَتُقَبَّلَ يَدُهُ .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : يَا مَسْكِينُ ! أَنَا لَا أَرْضَى أَنْ يُقَبَّلَ السُّلْطَانُ يَدِي ! أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا فِي

وَادٍ .

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ ، بَرَكَةُ الدُّنْيَا فِي عَصْرِهِ ؛ تُوفِّيَ سَنَةَ

ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ٦٣٩ هـ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ تَجَمُّ الدِّينِ أَيُّوبَ ، وَتَحَقَّى بِهِ ، وَوَلَّاهُ خِطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا ، وَكَانَ أَيُّوبُ مَلِكًا شَدِيدَ الْبَأْسِ ، لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَهُ إِلَّا مُجِيبًا ، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ ابْتِدَاءً ؛ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْمَمَالِيكِ التُّرُكِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لغيرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، حَتَّى كَانَ أَكْثَرُ أُمَرَاءِ عَسْكَرِهِ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالْخُسُوفَةِ وَالْبَأْسِ وَالْفَطَاظَةِ وَالْاسْتِهَانَةِ بِكُلِّ أَمْرٍ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْعِيدِ صَعِدَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْزِضُ الْجُنْدَ وَيُظْهِرُ مُلْكَهُ وَسَطَوَتَهُ وَالْأُمَرَاءُ يُقْبِلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَتَادَاهُ الشَّيْخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ لِيَسْمَعَ هَذَا الْمَلَأُ الْعَظِيمُ : يَا أَيُّوبُ ! ثُمَّ أَمَرَهُ بِإِنطَالٍ مُتَكَرِّرٍ أَنْتَهَى إِلَى عِلْمِهِ فِي حَاتَةِ تَبَاعٍ فِيهَا الْحَمَرُ ؛ فَرَسَمَ السُّلْطَانُ بِإِنطَالِ الْحَاتَةِ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ .

فَحَدَّثَنِي الْبَاجِي قَالَ : سَأَلْتُ الشَّيْخَ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الْقَلْعَةِ وَقَدْ شَاعَ الْخَبَرُ ، فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي ! كَيْفَ كَانَتْ الْحَالُ ؟

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ الْعَظَمَةِ فَخْشِيئَةً عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَدْخُلَهَا الْغُرُورُ فُتْبِطْرُهُ ، فَكَانَ مَا بَادَيْتُهُ بِهِ .
قُلْتُ : أَمَا خَفْتُهُ ؟

قَالَ : يَا بُنَيَّ ! اسْتَحْضَرْتُ هَيْبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَ السُّلْطَانُ أَمَامِي كَالْقِطِّ^(١) . وَلَوْ أَنَّ حَاجَةً مِنَ الدُّنْيَا فِي نَفْسِي لَرَأَيْتُهُ الدُّنْيَا كُلَّهَا ؛ بَيْنَ أَنِّي نَظَرْتُ بِالْآخِرَةِ فَأَمْتَدَّتْ عَيْنِي فِيهِ إِلَى غَيْرِ الْمَنْظُورِ لِلنَّاسِ ، فَلَا عَظَمَةَ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا بَقَاءَ وَلَا دُنْيَا ، بَلْ هُوَ لَا شَيْءَ فِي صُورَةٍ شَيْءٍ .

نَحْنُ يَا وَلَدِي مَعَ هَؤُلَاءِ كَالْمَعْنَى الَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنَى آخَرَ ، فَإِذَا أَمَرْنَاهُمْ فَالَّذِي يَأْمُرُهُمْ فِينَا هُوَ الشَّرْعُ لَا الْإِنْسَانُ ؛ وَهُمْ قَوْمٌ يَرُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الْحَقَّ فِي إِسْكَاتِ الْكَلِمَةِ الْأَصْحِيحَةِ أَوْ طَمَسِهَا أَوْ تَحْرِيفِهَا ؛ فَمَا بُدَّ أَنْ يُقَابِلُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِمَنْ يَرُونَ لَأَنْفُسِهِمُ الْحَقَّ فِي إِنطَاقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَبَيَانِهَا وَتَوْضِيحِهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهَلَّتْ الْمَعْنَى بِإِزَاءِ الْمَعْنَى ؛ فَلَا خَوْفَ وَلَا مُبَالَاهَ وَلَا شَأْنَ لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

(١) هَذِهِ كَلِمَاتُ الشَّيْخِ بِحُرُوفِهَا .

وَأِنَّمَا الشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْعَالَمُ لِحُطُوطِ نَفْسِهِ وَمَنَافِعِهَا ، فَيَكُونُ بَاطِلًا مُزَوَّرًا فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَهَلْهُنَا تَكُونُ الذَّاتُ مَعَ الذَّاتِ ، فَيَخْشَعُ الضَّعْفُ أَمَامَ الْقُوَّةِ ، وَيَذِلُّ الْفَقْرُ بَيْنَ يَدَيِ الْغِنَى ، وَتَرْجُو الْحَيَاةُ لِنَفْسِهَا وَتَخْشَى عَلَى نَفْسِهَا ، فَإِذَا الْعَالَمُ مِنَ السُّلْطَانِ كَالْخَشَبَةِ الْبَالِيَةِ النَّخِرَةَ حَاوَلَتْ أَنْ تُقَارَعَ السَّيْفَ ! .

كَلَّا يَا وَلَدِي ! إِنَّ السُّلْطَانَ وَالْحُكَّامَ أَدَوَاتٌ يَجِبُ تَعْيِينُ عَمَلِهَا قَبْلَ إِقَامَتِهَا ، فَإِذَا تَفَكَّكَتْ وَاخْتَبَجَتْ إِلَى مَسَامِيرَ دُقَّتْ فِيهَا الْمَسَامِيرُ ، وَإِذَا انْفَتَقَ الثُّوبُ فَمِنْ أَيْنَ لِلإِبْرَةِ أَنْ تَسْلُكَ بِالْخَيْطِ الَّذِي فِيهَا إِذَا هِيَ لَمْ تَخِرْهُ ؟

إِنَّ الْعَالَمَ الْحَقَّ كَالْمِسْمَارِ ، إِذَا أُوجِدَ الْمِسْمَارُ لِذَاتِهِ دُونَ عَمَلِهِ كَفَرَتْ بِهِ كُلُّ خَشَبَةٍ ...

* * *

قَالَ الْإِمَامُ تَغْيِي الدِّينِ : وَطَعَى الْأَمْرَاءَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَتَفَلَّتْ وَطْأَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ ، وَحَيْثُمَا وَجَدَتْ الْقُوَّةَ الْمُسْلِطَةَ الْمُسْتَبِدَّةَ جَعَلَتْ طُغْيَانَهَا وَاسْتِنْدَادَهَا أَدَبًا وَشَرِيعَةً ، إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِإِزَانِهَا قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ أَقْوَى مِنْهَا ، فَفَكَّرَ شَيْخُنَا فِي هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ خِدَاعَ الْقُوَّةِ الْكَاذِبَةِ لِشُعُورِ النَّاسِ بَابٌ مِنَ الْفُسَادِ ، إِذْ يَخْسَبُونَ كُلَّ حَسَنٍ مِنْهَا هُوَ الْحَسَنُ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا فِي ذَاتِهِ وَلَا أَقْبَحَ مِنْهُ . وَيَرَوْنَ كُلَّ قَبِيحٍ عِنْدَهَا هُوَ الْقَبِيحُ ، وَإِنْ كَانَ حَسَنًا وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ .

وَقَالَ : مَا مَعْنَى الْإِمَارَةِ وَالْأَمْرَاءِ ؟ وَإِنَّمَا قُوَّةُ الْكُلِّ الْكَبِيرِ هِيَ عِمَادُ الْفَرْدِ الْكَبِيرِ ، فَلِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْكُلِّ حَقُّهُ وَعَمَلُهُ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْإِمَارَةُ أَعْمَالًا نَافِعَةً قَدْ كَثُرَتْ وَعَظُمَتْ ، فَاسْتَحَقَّتْ هَذَا اللَّقَبَ بِطَبِيعَةٍ فِيهَا كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْعَشْرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاحِدِ ، لَا أَهْوَاءَ وَشَهَوَاتٍ وَرَذَائِلَ وَمَفَاسِدَ تَتَّخِذُ لِقَبِهَا فِي الضَّعْفَاءِ بِطَبِيعَةِ كَطَبِيعَةِ أَنَّ الْوُخْشَ مُفْتَرِسٌ .

وَفَكَّرَ الشَّيْخُ فَهَدَاهُ تَفَكُّيرُهُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءَ مَمَالِكُكَ ، فَحُكْمُ الرِّقِّ مُسْتَنْصَحَبٌ عَلَيْهِمْ لِيَبْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَجِبُ شَرْعًا بَيْنَهُمْ كَمَا بَيْنَ الرِّقِّ .

وَبَلَغَهُمْ ذَلِكَ فَجَزَعُوا لَهُ وَعَظَمَ فِيهِ الْخَطْبُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ اخْتَدَمَ الْأَمْرَاءُ وَأَيْقَنُوا أَنََّّهُمْ بِإِذَاءِ الشَّرْعِ لَا بِإِذَاءِ الْقَاضِي ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ .

وَأَتَى الشَّيْخَ أَنَّهُ لَا يَصُحُّ لَهُمْ بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ وَلَا زَوَاجٌ وَلَا طَلَاقٌ وَلَا مُعَامَلَةٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَصُحُّ لَهُمْ شَيْئٌ مِنْ هَذَا حَتَّى يُبَاعُوا وَيَخْصَلَ عِتْقُهُمْ بِطَرِيقِ شَرْعِيٍّ !

ثُمَّ جَعَلُوا يَتَسَبَّبُونَ إِلَى رِضَاةِ ، وَيَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ بِالشَّفَاعَاتِ ، وَهُوَ مُصِرٌّ لَا يَغْبَأُ بِجَلَالَةِ أَخْطَارِهِمْ ، وَلَا يَخْشَى اتِّسَامَهُ بِعَدَاوَتِهِمْ ، فَرَفَعُوا الْأَمْرَ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ وَحُكْمِهِ .

وَأَسْتَشَنَعَ السُّلْطَانُ فِعْلَهُ وَحَقَّقَ عَلَيْهِ وَأَنْكَرَ مِنْهُ دُخُولَهُ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ ، وَقَبَّحَ عَمَلَهُ وَسَيَّأَسْتَهُ وَمَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا نَفْسُهُ وَمَا تَكَادَ تَصِلُ يَدُهُ إِلَى مَا يُغْنِيهِ ، وَهُمْ وَافِرُونَ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْقُوَّةُ وَلَهُمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ .

وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ فَغَضِبَ وَلَمْ يُبَالِ بِالسُّلْطَانِ وَلَا كَبَّرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُ ، وَأَزْمَعَ الْهَجْرَةَ مِنْ مِصْرَ ، فَأَكْثَرَى حِمِيْرًا أَرْكَبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عَلَيْهَا وَمَشَى هُوَ خَلْفَهُمْ يُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمْ يَبْعُدْ إِلَّا قَلِيلًا نَحْوَ نِصْفِ بَرِيدٍ حَتَّى طَارَ الْخَبْرُ فِي الْقَاهِرَةِ ، فَفَرَعَ النَّاسُ ، وَتَبِعُوهُ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلَا أَمْرَاءٌ وَلَا صَبِيٌّ ، وَسَارَ فِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالصُّلَحَاءُ وَالتُّجَّارُ وَالْمُخْتَرِفُونَ ، كَانَ خُرُوجُهُ خُرُوجُ نَبِيٍّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَأَسْتَعْلَنَتِ قُوَّةُ الشَّرْعِ فِي مَظْهَرِهَا .

أَلْحَاكِمِ الْأَمْرِ مِنْ هَذِهِ الْجَمَاهِيرِ ، فَقِيلَ لِلْسُّلْطَانِ : إِنْ ذَهَبَ هَذَا الرَّجُلُ ذَهَبَ مُلْكُكَ . فَارْتَفَعَ السُّلْطَانُ ، فَارْكَبَ بِنَفْسِهِ وَلَحِقَ بِالشَّيْخِ يَتَرَضَّاهُ وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ غَضَبَ الْأُمَّةِ ، وَأَطْلَقَ لَهُ يَأْمُرُ بِمَا شَاءَ ، وَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ الدُّنْيَا وَالْآزْهَرُ وَالْعَيْشُ وَالْجَاهُ وَلَيْسَ طَلِيسَانِ الْعُلَمَاءِ كَمَا يَلْصِقُ الرَّيْشُ عَلَى حَجَرٍ فِي صُورَةِ طَائِرٍ .

وَرَجَعَ الشَّيْخُ ، وَأَمَرَ أَنْ يُعْفَدَ الْمَجْلِسُ وَيُجْمَعَ الْأَمْرَاءُ وَيُنَادَى عَلَيْهِمُ لِلْمَسَاوِمَةِ فِي بَيْنِهِمْ ، وَضَرَبَ لِذَلِكَ أَجَلًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ قَدْ تَعَالَمَهُ كُلُّ الْقَاهِرَةِ ، لِيَتَهَيَّأَ مَنْ يَتَهَيَّأُ لِلشِّرَاءِ وَالسَّوْمِ فِي هَذَا الرَّقِيقِ الْعَالِي .

وَكَانَ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْمَمَالِكِ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ ، فَبَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ يُلَاطِفُهُ وَيَسْتَرْضِيهِ ، فَلَمْ يَغْبَأِ الشَّيْخُ بِهِ ، فَهَاجَ هَائِجُهُ وَقَالَ : كَيْفَ يَبِينُنَا هَذَا الشَّيْخُ وَيُنَادِي عَلَيْنَا وَيُنْزِلُنَا مَنَزِلَةَ الْعَبِيدِ وَيُفْسِدُ مَحَلَّتَنَا مِنَ النَّاسِ وَيَبْتَدِلُ أَقْدَارَنَا وَنَحْنُ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟ وَمَا الَّذِي يَفْقُدُ هَذَا الشَّيْخُ مِنَ الدُّنْيَا فَيُذْرِكُ مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ إِنَّهُ يَفْقُدُ مَا لَا يَمْلِكُ وَيَفْقُدُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ ، فَلَا جَرَمَ لَا يُبَالِي وَلَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيِهِ مَا دَامَ هَذَا الزَّرْأِيُّ لَا يَمُوتُ فِي مَنَافِعِهِ ، وَلَا شَهَوَاتِهِ وَلَا فِي أَطْمَاعِهِ ، كَالَّذِينَ تَرَاهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا ، أَمَا وَاللَّهِ لَا ضَرْبَتُهُ بِسِنِّيهِ هَذَا ، فَمَا يَمُوتُ رَأْيُهُ وَهُوَ حَيٌّ .

ثُمَّ رَكِبَ النَّائِبُ فِي عَسْكَرِهِ ، وَجَاءَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ ، وَطَرَقَ الْبَابَ .
فَخَرَجَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّطِيفِ وَرَأَى مَا رَأَى ، فَانْقَلَبَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : أَنْجُ بِنَفْسِكَ إِنَّهُ الْمَوْتُ ، وَإِنَّ السَّيْفَ وَإِنَّهُ ... وَإِنَّهُ ...

فَمَا أَكْثَرَتْ الشَّيْخُ لِذَلِكَ وَلَا جَرَعَ وَلَا تَغَيَّرَ ، بَلْ قَالَ لَهُ : يَا وَلَدِي ! أَبُوكَ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ !

وَخَرَجَ لَا يَعْرِفُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ ، فَلَيْسَ فِيهِ الْإِنْسَانِيُّ بَلِ الْإِلَهِيُّ ، وَنَظَرَ إِلَى نَائِبِ السَّلْطَنَةِ وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ ، فَانْطَلَقَتْ أَشِعَّةُ عَيْنَيْهِ فِي أَعْصَابِ هَذِهِ الْيَدِ فَبَيَسَتْ وَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْهَا .

وَتَنَاوَلَهُ بِرُوحِهِ الْقَوِيَّةِ ، فَاضْطَرَبَ الرَّجُلُ وَتَزَلَزَلَ ، وَكَأَنَّمَا تَكَسَّرَ مِنْ أَعْصَابِهِ فَهُوَ يَزْعَدُ وَلَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَهْدَأُ .

وَأَخَذَ النَّائِبُ يَبْكِي وَيَسْأَلُ الشَّيْخَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا سَيِّدِي ! مَا تَصْنَعُ بِنَا ؟

قَالَ الشَّيْخُ : أَنَادِي عَلَيْكُمْ وَأَبْنِعُكُمْ !

- وَفِيمَ تَصْرِفُ ثَمَنَنَا ؟

- فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ .

- وَمَنْ يَقْبِضُهُ ؟

— أنا .

وَكَانَ الشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ (أَنَا) ، فَتَمَّ لِلشَّيْخِ مَا أَرَادَ ، وَنَادَى عَلَى الْأُمَرَاءِ وَاحِدًا
وَاحِدًا ، وَاشْتَطَّ فِي نَمَنِهِمْ ، لَا يَبْنِعُ الْوَاحِدَ حَتَّى يَبْلُغَ الثَّمَنُ آخِرَ مَا يَبْلُغُ ، وَكَانَ كُلُّ أَمِيرٍ
قَدْ أَعَدَّ مِنْ شِيعَتِهِ جَمَاعَةً يَسْتَأْمُونَهُ لِيَسْتَرْوَهُ ...

وَدُمِعَ الظُّلْمُ وَالْفَقْارُ وَالطُّغْيَانُ وَالتَّكَبُّرُ وَالْاِسْتِطَالَةُ عَلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي
أَعْلَنَهَا الشَّرْعُ :

أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ ... ! أُمَرَاءُ لِلْبَيْعِ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الْعَجُوزَانِ (*)
١

قَالَ مُحَدِّثِي : أَلْتَقَى هَذَانِ الشَّيْخَانِ بَعْدَ فَرَاقٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَكَانَتْ مَثَابَتُهُمَا ^(١) ذَلِكَ الْمَكَانَ الْقَائِمَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي إِسْكَندَرِيَّةَ فِي جِهَةِ كَذَا ، وَهُمَا صَدِيقَانِ كَانَا فِي صَدْرِ أَيَّامِهِمَا - حِينَ كَانَتْ لَهُمَا أَيَّامٌ . . . رَجُلِي حُكُومَةٍ يَعْمَلَانِ فِي دِيْوَانٍ وَاحِدٍ ، وَكَانَا فِي عَيْشِهِمَا أَخَوَيْنِ جَدَّ وَهَزَلٍ ، وَفَضَائِلَ وَرَذَائِلَ ، يَجْتَمِعَانِ دَائِمًا اجْتِمَاعَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، فَلَا تَنْقَطِعُ وَسِيلَةُ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا فِي الْحَيَاةِ قَرَابَةٌ أَلَا يُتَسَامَى مِنَ الْإِتْسَامَةِ ، وَالذَّمَّةِ مِنَ الذَّمَّةِ .

وَلَبَّيْنَا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ تَبَدَّدَا ، وَأَخَذَتْهُمَا أَلْفَافُ كَذَابِ « الْمُؤَظَّفِينَ » : يَنْتَظِمُونَ وَيَنْتَشِرُونَ ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ تَرْفَعُهُ أَرْضٌ وَتُخْفِضُهُ أُخْرَى ، وَكَانَ « الْمُؤَظَّفُ » مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . [٣١ سورة لقمان / الآية : ٣٤] .
وَأَفْتَرَقَ الصَّدِيقَانِ عَلَى مَضَضٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ أَمْرُ الْحُكُومَةِ يَنْقُلُ بَعْضُ « مُؤَظَّفِيهَا » هُوَ أَمْرَهَا يَتَمَرَّقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ؛ ثُمَّ تَصَرَّفَتْ بِهِمَا الدُّنْيَا فَذَهَبَا عَلَى طَرَفَيْ طَرِيقٍ لَا يَلْتَقِيَانِ ، وَأَصْبَحَ كِلَاهُمَا مِنَ الْآخِرِ كَيَوْمِهِ الَّذِي مَضَى : يُحْفَظُ وَلَا يُرَى .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مَعَ الْأَسْتَاذِ (م) ، وَهُوَ رَجُلٌ فِي السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَابٌّ لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْعُمْرِ إِلَّا سَبْعِينَ سَنَةً . . .
وَيَزَعُمُ أَنَّ فِي جِسْمِهِ الْتَامُوسَ الْأَخْضَرَ الَّذِي يُخْبِي الشَّجَرَةَ حَيَاةً وَاحِدَةً إِلَى الْآخِرِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٠ ، ٢٧ صفر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٨ مايو / أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ،

الصفحات : ٨٠٥ - ٨٠٧ .

(١) أي : الْمَكَانَ الَّذِي اجْتَمَعَا فِيهِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ .

رَجُلٌ فَارَةٌ ، مُتَأَنِّتٌ ، فَاحِرُ الزَّيْرِ ، جَمِيلُ السَّمْتِ ، فَارِغُ الشَّطَاطِ^(١) ، كَالْمَصْبُوبِ فِي قَالِبٍ لَا عَوْجَ فِيهِ وَلَا انْحِنَاءَ ، مُجْتَمِعٌ كُلُّهُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ ، قَدْ حَفِظْتَهُ أَسَالِيبُ الْقُوَّةِ الَّتِي يُعَانِيهَا فِي رِيَاضَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَهُوَ مُنْذُ كَانَ فِي أَنْفَتِهِ وَشَبَابِهِ لَا يَمْسِي إِلَّا مُسْتَأَخِرَ الصَّدْرِ^(٢) ، مُشْدُودَ الظَّهْرِ ، مُرْتَفِعَ الْعُنُقِ ، مُسْنِدًا قَفَاهُ إِلَى طَوْقِهِ ، وَيَذَلِكُ شَبٌّ وَشَابَ عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَاحِدٍ ، وَكُلَّمَا سُئِلَ عَنْ سِرِّ قَامَتِهِ وَعُودِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ : إِنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ إِسْنَادِ الْقَفَا^(٣) .

وَهُوَ دَائِمًا عَطِرٌ عَبْقٌ ، ثُمَّ لَا يَمَسُّ إِلَّا عِطْرًا وَاحِدًا لَا يُغَيِّرُهُ ، يَرَى أَنَّ هَذَا الطَّيِّبَ يَحْفَظُ خَيَالَ الصَّبَا ، وَأَنَّهُ يُنْقِي لِلْأَيَّامِ رَائِحَتَهَا .

وَلَهُ فَلَسَفَةٌ مِنْ حِسِّهِ لَا مِنْ عَقْلِهِ ، وَلِفَلَسَفَتِهِ قَوَاعِدُ وَأُصُولٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، وَمِنْ بَعْضِ قَوَاعِدِهَا الزَّهْرُ ، وَمِنْ بَعْضِهَا الْمَوْسِيقَى ، وَمِنْ بَعْضِهَا الصَّلَاةُ أَيْضًا ؛ وَكُلُّ تِلْكَ هِيَ عِنْدَهُ قَوَاعِدُ لِحِفْظِ الشَّبَابِ . وَمِنْ فَلَسَفَتِهِ أَنَّ مَبَادِيَّ الشَّبَابِ وَعَادَاتِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرِ اتَّصَلَ الشَّبَابُ فِيهَا وَأَطْرَدَ فِي الرُّوحِ ، فَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةٌ تَحْرُسُ قُوَّةَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ ، وَتُمْسِكُ عَلَى الْجِسْمِ حَالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ الْأُولَى .

وَهُوَ يَزِيدُ فِي حِكْمَةِ الصَّلَاةِ فِكْرَةً رِيَاضِيَّةً عَمَلِيَّةً لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهَا أَحَدٌ : هِيَ رِيَاضَةُ الْبُطْنِ وَالْأَمْعَاءِ بِالزُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ ؛ وَيَقُولُ : إِنَّ ثَرَوَةَ الصَّلَاةِ تَكْثُرُ فِي صُنْدُوقَيْنِ ، أَحَدُهُمَا الرُّوحُ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْآخَرُ الْبُطْنُ لِمَا قَبْلَ الْمَوْتِ ؛ وَيَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَفْرِضْ صَلَاةَ الصُّبْحِ قَبْلَ الشَّمْسِ إِلَّا لِجَعْلِ الْفَجْرِ يَنْصَبُ فِي الرُّوحِ كُلِّ يَوْمٍ .

* * *

- (١) مُنْتَدِ الطُّوَلِ .
 (٢) يُقَالُ : مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ : لِلْهَرَمِ الْمُنْحَنِ الظَّهْرِ ؛ فَآخِذًا مِنْهَا مُسْتَأَخِرَ الصَّدْرِ ، وَذَلِكَ بُرُوزُهُ حِينَ يَكُونُ مُشْدُودًا ، فَيَكُونُ أَعْلَاهُ إِلَى الْوَرَاءِ .
 (٣) هَذِهِ حَقِيقَةُ رِيَاضِيَّةٍ ، وَلَهَا أَقْوَى الْأَثَرِ فِي شَدِّ الْجِسْمِ وَانْتِصَابِ الْقَامَةِ إِذَا اعْتَادَهَا الْإِنْسَانُ . . . وَالْمُرَادُ بِالطُّوْقِ : التَّيَبُّةُ (الْيَاقَةُ) .

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَبَيْنَمَا نَحْنُ جَالِسَانِ مَرَّ بِنَا شَيْخٌ أَعْجَفُ مَهْزُولٌ مُوْهُونٌ فِي جِسْمِهِ ، يَذْلِفُ مُتْقَاصِرُ الْخَطْرِ كَأَنَّهُ حِمْلُ السَّيْنِ عَلَى ظَهْرِهِ ، مُرْعِشٌ مِنَ الْكِبَرِ ، مُسْتَقْدِمُ الصَّدْرِ ، مُنَحْنٌ ، يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا ، وَيَذُلُّ أَنْحَاؤُهُ عَلَى أَنَّ عُمُرَهُ قَدْ أَغْوَجَ أَيْضًا . وَهُوَ يَبْدُو فِي ضَعْفِهِ وَهْزَالِهِ كَأَنَّهُ نِيَابَةٌ مُلِثَتْ عِظَامًا لَا إِنْسَانًا ، وَكَأَنَّهَا مَا خِيطَتْ إِلَّا لِتُؤَسِّكَ عِظَامًا عَلَى عِظَمٍ ...

قَالَ : فَحَمَلْتَنِي إِلَيْهِ (م) ثُمَّ صَاحَ : رَيْنَا ! رَيْنَا . فَالْتَفَتَ الْعَجُوزُ ، وَمَا كَادَ يَأْخُذُنَا بَصَرُهُ حَتَّى انْفَتَلَ إِلَيْنَا وَأَقْبَلَ ضَاحِكًا يَقُولُ : أَوْه ! رَيْتُ ، رَيْتُ ! .

وَنَهَضَ (م) ، فَاخْتَضَعَهُ ، وَتَلَاَرَمَا طَوِيلًا ، وَجَعَلَ رَأْسَاهُمَا يَدُورَانِ وَيَتَطَوَّرَانِ ، وَكِلَاهُمَا يَقْبَلُ صَاحِبَهُ قُبْلًا ظَامِنَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلَيْهِمَا فِي صَدِيقَتَيْنِ ، حَتَّى لَحِجِلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَا يَتَعَانَقَانِ وَلَا يَتَلَاَمَنَانِ ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فِكْرَةٌ يَغْتَنِقَانِهَا وَيُقْبَلَانِهَا مَعًا ...

وَقُلْتُ : مَا هَذَا أَتَيْهَا الْعَجُوزَانِ ؟

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : هَذَا صَدِيقِي الْقَدِيمُ (ن) ، تَرَكْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ الشَّبَابِ ، فَهِيَ هُوَ ذَا مُعْجِزَةٍ أُخْرَى مِنْ مُعْجِزَاتِ الْهَرَمِ ، وَلَمْ يَبْقَ كَامِلًا مِنْهُ إِلَّا أَسْمُهُ ...

ثُمَّ اَلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْنَا ؟

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَى : زَادَ الْعُمُرُ فِي رِجْلِي رِجْلًا مِنْ هَذِهِ الْعَصَا ، وَرَجَعَ مَصْدَرُ الْحَيَاةِ فِي مَصْدَرِ اللَّالَامِ وَالْأَوْجَاعِ ، وَدَخَلْتُ فِي طَبِيعَتِي عَادَةً رَابِعَةً مِنْ نَعَاطِي الدَّوَاءِ .

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : قَبِّحَ اللَّهُ هَذِهِ الْعَادَةَ الدَّخِيلَةَ ، فَمَا هِيَ الْعَادَاتُ الثَّلَاثُ الْأَصْلِيَّةُ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ : هِيَ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالنَّوْمُ ... ثُمَّ أَنْتَ يَا رَيْتُ كَيْفَ تَقْرَأُ الصُّحُفَ

أَلَا ؟

قَالَ (م) : أَقْرَؤُهَا كَمَا يَقْرَؤُهَا النَّاسُ ، فَمَا سُؤَالُكَ عَنْ هَذَا ؟ وَهَلْ تُقْرَأُ الصُّحُفُ يَوْمًا

غَيْرَ مَا تُقْرَأُ فِي يَوْمٍ ؟ .

قَالَ : آه ! إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ أَقْرَأُ فِي الصُّحُفِ أَخْبَارُ الْوَفَايَاتِ ، لِأَرَى بَقَايَا الدُّنْيَا ، ثُمَّ (إِعْلَانَاتُ الْأَذْوِيَةِ) . . . وَلَكِنْ كَيْفَ أَنْتَ يَا رَيْثُ ؟ إِنِّي لَأَرَاكَ مَا تَزَالُ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ذَلِكَ أَلْعَيْشِ الرَّحِييِّ ، وَأَرَاكَ تَحْمِلُ شَيْخُوخَتَكَ بِقُوَّةٍ ، كَانَ الدَّهْرُ لَمْ يَخْرُمْكَ ^(١) مِنْ هُنَا وَلَا مِنْ هُنَا ، وَكَأَنَّهُ يَلْمَسُكَ بِأَصَابِعِهِ لَا بِمَسَامِيرِهِ ، فَهَلْ أَصَبْتَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : نَاشِدُكَ اللَّهُ ، أَفِي مُعْجَزَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مُعْجَزَةٌ لِعَظَمِي ؟

قَالَ (م) : وَلَيْحَكَ يَا رَيْثَا ! إِنَّكَ عَلَى الْعَهْدِ لَمْ تَبْرَحْ كَمَا كُنْتَ مَرْبَلَةً أَفْكَارٍ . . . مَاذَا يَصْنَعُ فَيْكَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَأَنْتَ كَمَا أَرَى بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْعَظَمِ وَالْخَشَبِ . . . ؟

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَصَحِّحْنَا جَمِيعًا ، ثُمَّ قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَكِنْ مَا (رَيْثَا وَرَيْت) ؟ وَمَا هَذِهِ اللَّغَةُ ؟ وَفِي أَيِّ مُعْجَمٍ تَفْسِيرُهَا ؟

قَالَ : فَتَعَامَرَ الشَّيْخَانِ ، ثُمَّ قَالَ (م) : يَا بُنَيَّ ! هَذِهِ لُغَةٌ مَاتَتْ مَعَانِيهَا وَبَقِيَتْ أَلْفَاظُهَا ، فَهِيَ كَيْتُكَ الْأَلْفَاظِ الْأَثَرِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .

قُلْتُ : وَلَكِنْ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى لَمْ تَنْقُضْ إِلَّا فِيكُمَا . . . وَلَا يَزَالُ كُلُّ شَابٍّ فِي هَذِهِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَمَا أَحْسَبُ (رَيْثَا وَرَيْت) فِي لُغَتِكُمَا الْقَدِيمَةِ إِلَّا بِمَعْنَى (سُوسُو ، وَزُوزُو) فِي اللَّغَةِ الْحَدِيثَةِ ؟

فَقَالَ (م) : أَسْمَعْ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٩٣٥ ^(٢) مَتَى سَأَلَ فِي رَجُلِ سَنَةِ ١٨٩٥ : مَا مَعْنَى رَيْثَا وَرَيْت ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ : إِنَّ (رَيْثَا) مَعْنَاهَا (كَاتْرِيْنَا Cathrina) ؛ وَكَانَ (ن) بِهَا صَبًا مُغْرَمًا ، وَكَانَ مُقْتَتَلًا قَتَلَهُ حُبُّهَا . أَمَّا (رَيْت) ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَخْرُمْكَ » بَدَلًا مِنْ : « يَخْرُمْكَ » .

(٢) كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي صَيْفِ سَنَةِ ١٩٣٥ فِي إِسْكَنْدَرِيَّةِ .

فَأَمْتَعَضَ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَسْمَعُ يَا بُنَيَّ ! إِنَّ رَجُلَ سَنَةِ ١٨٩٥ فِي يَقُولُ لَكَ : إِنَّ (رَبَّتْ) مَعْنَاهَا (مَرْغَرِيْت Margarite) ، وَكَانَتْ الْجَوِيَّ الْبَاطِنَ ، وَكَانَتْ اللَّوْعَةَ وَالْحَرِيقَ الَّذِي لَا يَنْطَفِئُ فِي قَلْبِ الْأُسْتَاذِ (م) .

قُلْتُ : فَأَنْتُمَا أَهْلُهَا الْعَجُوزَانِ مِنْ عُشَاقِ سَنَةِ ١٨٩٥ ، فَكَيْفَ تَرَيَانِ الْحُبَّ الْآنَ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَوَاخِرَ الْعُمْرِ كَالْمَنْفَى . . . وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَنْتَ وَأَنْتُمَا وَأَنْتُمْ . . . غَيْرَ أَنَّ الْمَعَانِي تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَعِيدًا . قُلْتُ : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا .

قَالَ : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا كَلِمَةَ (الْأَكْلِ) ، فَلَهَا عِنْدَنَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : الْأَكْلُ ، وَسَوْءُ الْهَضْمِ ، وَوَجَعُ الْمَعِدَةِ . وَكَلِمَةُ (الْمَشْيِ) فَلَهَا أَيْضًا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : الْمَشْيُ ، وَالْتَعَبُ ، وَغَمَزَاتُ الْعَظْمِ . . . وَكَلِمَةُ (النَّسِيمِ) : النَّسِيمُ الْعَلِيلُ يَا بُنَيَّ : زَيْدٌ لَنَا فِي مَعْنَاهَا : تَحْرُكُ (الرُّوْمَاتِرِمْ) . . .

فَضَحِكَ (م) وَقَالَ : يَا « شَيْخُ » . . .

قَالَ الْعَجُوزُ : وَتِلْكَ الزِّيَادَةُ يَا بُنَيَّ لَا تَجِيءُ إِلَّا مِنْ نَقْصٍ ، فَهَذَا بَقِيَّةٌ مِنْ يَدَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ رِجْلَيْنِ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ بَطْنٍ ، وَبَقِيَّةٌ مِنْ وَرَمٍ وَمِنْ ، وَمَجْمُوعُ كُلِّ ذَلِكَ بَقِيَّةٌ مِنْ إِنْسَانٍ . قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : الْبَقِيَّةُ فِي حَيَاتِكَ . . .

قَالَ (ن) : وَبِالْجُمْلَةِ يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ فِي الرَّجُلِ الْهَرِمِ تَكُونُ حَوْلَ ذَاتِهَا لَا حَوْلَ الْأَشْيَاءِ ، وَمَا أَغْجَبَ أَنْ تَكُونَ أَقْصَرُ حَرَكَتِي الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا كَذَلِكَ ، وَإِذَا قَالَ الشَّابُّ فِي مُعَامَرَتِهِ : لِيَمُضِ الزَّمَنُ وَلِتَتَصَرَّمِ الْأَيَّامُ ! فَإِنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الَّتِي تَنْصَرِمُ وَالزَّمَنُ هُوَ الَّذِي يَمُرُّ ، أَمَّا الشُّيُوخُ فَلَنْ يَتَمَتَّعُوا أَبَدًا ، فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : لِيَمُضِ الزَّمَنُ ، فَكَأَنَّمَا قَالَ : فَلَا مُضٍ أَنَا . . .

فَصَاحَ (م) : يَا شَيْخُ ! . . . يَا شَيْخُ ! . . .

ثُمَّ قَالَ الْعَجُوزُ : وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَعْلَمَ نَفْسُهُ يَهْرُمُ مَعَ الرَّجُلِ الْهَرِمِ ، فَيُضْبِحُ مِثْلَهُ ضَعِيفًا لَا غَنَاءَ عِنْدَهُ وَلَا حِيلَةَ لَهُ ، وَكُلُّ مَصَانِعٍ لِكَثِيرٍ وَمَصَانِعٍ بَنَكٍ مُضِرٌّ وَالْيَابَانِ

وَالْأَمْرَيْنِ كَيْتَيْنِ ، وَمَا بَقِيَ مِنْ مَصَانِعِ الدُّنْيَا ، لَا فَائِدَةَ مِنْ جَمِيعِهَا ، فَهِيَ عَاجِزَةٌ أَنْ تَكْسُو عِظَامِي . . .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَقَهَقَهُ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : كَذْتُ وَاللَّهِ أَنْتَحَشَبُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، وَكَادَتْ مَعَانِي الْعَظَمِ تَخْرُجُ مِنْ عِظَامِي ، لَقَدْ كَانَ الْمُتَوَحِّشُونَ حُكَمَاءَ فِي أَمْرِ شَيْئُوهِمْ ، فَإِذَا عَلَتْ أَلْسُنُ بَجْمَاعَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ أَحْيَاءَ إِلَّا بِأَمْتِحَانٍ ، فَهُمْ يَجْمَعُونَهُمْ وَيُلْجِئُونَهُمْ إِلَى شَجَرَةٍ غَضِيَّةٍ الْمِهْرَةِ ، فَيُكْرِهُونَهُمْ أَنْ يَصْعَدُوا فِيهَا ثُمَّ يَتَدَلَّوْا مِنْهَا وَقَدْ عَلِقَتْ أَيْدِيهِمْ بِأَغْصَانِهَا ، فَإِذَا صَارُوا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ اجْتَمَعَ الْأَشِدَّاءُ مِنْ فِتْيَانِ الْقَبِيلَةِ فَيَأْخُذُونَ بِجَذَعِ الشَّجَرَةِ يَزْجُونَهَا وَيَنْفَضُّونَهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَمَنْ ضَعُفَتْ يَدَاهُ مِنْ أُولَئِكَ الشُّيُوخِ أَوْ كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعِيهِ فَأَفَلَّتْ الْغُصْنُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ فَوْقَ : أَخَذُوهُ فَأَكْلُوهُ ؛ وَمَنْ اسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَى حِينٍ ! .

فَأَفْشَرَ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ ! هَذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، وَلَعَنَهَا اللَّهُ مِنْ حِكْمَةٍ ، فَإِنَّهُمْ يَطْبُخُونَهُمْ فِي الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْأَكْلِ ، أَوْ هُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَذَلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طُبُورًا فَيَكُونُ لَحْمُهُمْ أَطْيَبَ وَالَّذِ ، وَيَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّجَرَةِ حَمَائِمَ وَعَصَافِيرَ .

قَالَ (م) : إِنْ كَانَ فِي الْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ « بَابُ لِمَ » ، وَلَا « بَابُ كَيْفَ » وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لَأَكْلَوْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَةُ الطَّبِيعَةِ لِأَهْلِ الطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ رُؤْيَا الرَّجُلِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقَبَهَا يُبْعِدُ عَنْهُ الضَّعْفَ وَالتَّخَلُّلَ ، وَيَذْفَعُهُ إِلَى مُعَانَاةِ الْقُوَّةِ ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ انْتِشَارًا عَلَى الْحَيَاةِ وَطَمَعًا فِيهَا وَتَنَشُّطًا لِأَسْبَابِهَا ، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخِرَ شَيْءٍ يَهْرُمُ ، وَلَا يَزَالُ فِي الْحِدَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالْوَتْبَانِ ، فَلَا يَنْعَزُ قَبْلَ يَوْمِهِ الطَّبِيعِيِّ ، وَيَكُونُ الْمُتَوَحِّشُونَ بِهِذَا قَدْ أَحْتَالُوا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَاضْطَرُّوْهَا إِلَى مَجْهُودِهَا ، وَأَكْرَهُوْهَا عَلَى أَنْ تَبْدُلَ مِنَ الْقُوَّةِ آخِرَ مَا يَسَعُ الْجِسْمَ .

قَالَ (ن) : فَتَعَمَّ إِذَا ، وَلَعَنَّ اللَّهُ مَعَانِي الضَّعْفِ : كَذْتُ وَاللَّهِ أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًّا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تُؤْكَلَ ، فَتَظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا ، وَتَرَى

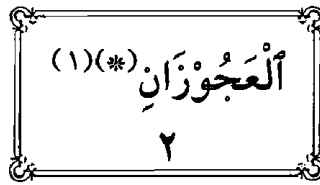
الْعُمْرَ كَمَا يَرَى الْبَحِيلُ ذَهَبُهُ : مَهْمَا يَبْلُغَ فَكَثُرَتْهُ غَيْرَ كَثِيرَةٍ .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَأَضْجَرَنِي حِوَارُهُمَا ، إِذْ لَمْ يَعُدْ فِيهِ إِلَّا أَنَّ جِسْمَ هَذَا يَرُدُّ عَلَى جِسْمِ هَذَا ، وَإِنَّمَا الشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ زَمَانٍ يَتَكَلَّمُ وَيَقْصُ وَيَعْطُ وَيَنْتَقِدُ ، وَلَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيقَةٍ إِنْ لَمْ تَرْحَلْ أَنْتَ فِيهِ إِلَى دُنْيَا قَدِيمَةٍ . فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



قَالَ مُحَدِّثِي : وَلَمَّا قُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ ! أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؛ نَظَرَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٥١ ، ٤ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ مايو/أيار ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ٨٤٣ - ٨٤٥ .

(١) الْجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ اللَّغَةِ عَلَى أَنَّ (الْعَجُوزَ) وَصْفٌ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ إِذَا شَاخَتْ وَهَرِمَتْ ، وَلَكِنْ جَاءَ فِي « اللِّسَانِ » : « وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ عَجُوزٌ » وَنَقَلَهُ صَاحِبُ « النَّجَّاحِ » عَنِ الصَّاعِي ، وَنَحْنُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ، وَلَوْ لَمْ يَأْتِ فِيهِ نَصٌّ عَنِ الْعَرَبِ لَا بَتَدَعْنَاهُ وَزِدْنَاهُ فِي اللَّغَةِ ؛ وَوَجْهُهُ عِنْدَنَا أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَا الْهَرَمَ فَقَدْ خَصَّصَ الْأُكُورَةَ وَالْأُنُوثَةَ ؛ فَلَمْ يَعُودَا رَجُلًا وَأَمْرًا ، فَاسْتَوَيَا فِي الْعَجْزِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ قِيمَتًا أَنْ يُشَارِكَ الْمَرْأَةُ فِي وَصْفِهَا ، فَيَقَعُ اللَّفْظُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا ١ .

وَإِنَّمَا امْتَنَعَ الْعَرَبُ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ (عَجُوزٌ) وَخَصُّوا ذَلِكَ بِالْمَرْأَةِ ، تَعَشُّقًا وَظُلْمًا وَطُغْيَانًا ، كَدَابِهِمْ مَعَ النِّسَاءِ ، فَإِذَا شَاخَتِ الْمَرْأَةُ فَقَدْ بَطَلَتْ أُنُوثَتُهَا عِنْدَهُمْ وَعَجَزَتْ عَنْ حَاجَةِ الرَّجُلِ وَعَجَزَتْ فِي كَثِيرٍ ، وَنَفَتْهَا الطَّبِيعَةُ وَبَرَأَتْ مِنْهَا ؛ أَمَّا الرَّجُلُ فَبِالْخِلَافِ ؛ لِأَنَّهُ رَجُلٌ ؛ وَإِذَا شَاخَ وَبَطَلَ وَعَجَزَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَابِرَ فِي الْمَعْنَى - كَابَرُ فِي اللَّفْظِ ... وَأَبَى أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ (عَجُوزٌ) ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ .

أَلَا إِنَّ هَذَا تَزْوِيرٌ فِي اللَّغَةِ ، وَإِنْ كَانَ لِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ فَذَلِكَ فِي أَوْصَافِ الْقُدْرَةِ لَا فِي أَوْصَافِ الْعَجْزِ !

إِلَيَّ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ (ن) وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ! أَحَسْبُ رُؤْيَاكَ إِيَّايَ قَدْ دَنَتْ بِكَ مِنَ
الْآخِرَةِ ... فَتَرِيدُ أَنْ تَلُودَ بِأَخْبَارِ شَبَابِنَا لِنَنْظُرَ إِلَيْنَا وَفِينَا رُوحُ الدُّنْيَا .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ لَا تُرِيدُ الْآخِرَةَ وَأَكْثَرُكَ الْآنَ فِي « الْمَجْهُولِ » ؟

قَالَ : وَيَحَكَ يَا (م) ! لَا تَزَالُ عَلَى وَجْهِكَ مِسْحَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ هُنَا وَهُنَا ، كَانَ
الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ فِي دَاخِلِكَ مَا اخْتَلَّ مِنْ قَوَائِنِ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا تَسْتَبِينُ فِيكَ السُّرُ
وَقَدْ بَقِيََتْ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَمَا أَحَسْبُ الشَّيْطَانَ فِي تَنْظِيفِكَ إِلَّا كَالَّذِي يَكْنُسُ بَيْتَهُ ...

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ بَيِّتٌ قَدْ تَرَكَهُ الشَّيْطَانُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ كَلِمَةً :
(لِلإِبْجَارِ) ...

فَضَحِكَ (ن) وَقَالَ : تَاللهِ إِنَّ الْهَرَمَ لَهُوَ إِعَادَةُ دَرْسِ الدُّنْيَا . وَفَهْمُهَا مَرَّةً أُخْرَى فَهَمَّا
لَا خَطَأَ فِيهِ ، إِذْ يَنْظُرُ الشَّيْخُ بِالْعَيْنِ الطَّاهِرَةِ ، وَيَسْمَعُ بِالْأُذُنِ الطَّاهِرَةِ ، وَيَلْمَسُ بِالْيَدِ
الطَّاهِرَةِ ... وَتَاللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا أَنَّهُ وَقَاحَةُ الْأَعْصَابِ .

قَالَ (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ إِنَّمَا أَصْبَحْتَ بِلَا شَيْطَانٍ ، لِأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ أَدَبَ
أَعْصَابَكَ ...

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ : وَعِنْدَ مَنْ غَيْرِنَا نَحْنُ الشُّيُوخُ تُطَاعُ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الْأَدْبِيَّةُ
حَقٌّ طَاعَتُهَا ؟ عِنْدَ مَنْ غَيْرِ الشُّيُوخِ تُقَدَّسُ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكْمِ الْعَالِيَةِ : لَا تَعْتَدِ عَلَى
أَحَدٍ ... لَا تُفْسِدِ أَمْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ...

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحِكُنَا جَمِيعًا ، وَكَانَ الْعَجُوزُ (ن) مِنْ آيَاتِ فِي الظَّرْفِ
وَالنُّكْتَةِ ، فَقَالَ : تَنْظُنِي يَا بُنَيَّ فِي السَّبْعِينَ ؟ فَوَاللهِ مَا أَنَا بِمُجْمَلَتِي فِي السَّبْعِينَ ؛ وَاللهِ
وَاللهِ .

قَالَ (م) : لَقَدْ أَهْتَرَ الشَّيْخُ^(١) يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ خَرَفِهِ فَلَا تُصَدِّقْهُ .

(١) أَيُّ : أَخْطَأَ فِي الرَّأْيِ مِنْ تَأْتِيرِ الْكِبَرِ .

قَالَ (ن) : وَاللَّهِ مَا خَرِفْتُ وَمَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا ، فَهَلَهُنَا مَا عُمَرُ خَمْسُ سَنَوَاتٍ فَقَطْ ، وَهُوَ أَسَنَانِي ...

قُلْتُ : « وَرَيْنَا وَرَيْتِ » وَسَنَةَ ١٨٩٥ ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : أَنْتِ يَا بُنَيَّ مِنَ الْمَجْدِدِينَ ، فَمَا هَوَاكَ فِي الْقَدِيمِ وَمَا شَأْنُكَ بِهِ ؟
وَمَا كَادَ الْعَجُوزُ (ن) يَسْمَعُ هَذَا حَتَّى طَرَفَ بِعَيْنَيْهِ^(١) وَحَدَّدَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : أَيْتُكَ
لَأَنْتِ هُوَ ؟ لَعَمْرِي إِنْ فِي عَيْنَيْكَ لَصَجِيبًا وَكَذِبًا وَجِدَالًا وَآخِثَالًا وَزَعَمًا وَدَعْوَى وَكُفْرًا
وَالْحَادَا ، وَلَعَمْرِي ...

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : ﴿ لَعَنَكَ إِتْمَمَ لَيْ سَكْرَتِهِمْ يَعْهَوْنَ ﴾ [١٥ سورة الحجر/ الآية : ٧٢] ،
لَقَدْ وَقَعَ التَّجْدِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي الشُّيُوخِ أَجْسَامًا وَالشُّيُوخِ عُقُولًا ؛ فَهَلْؤَلَاءِ عِنْدَ النَّهَائَةِ ،
وَعَزِيزٌ مُسْتَنَكِرٌ مِنْ ضَعْفِهِمْ أَنْ يَدِينُوا بِالْمَاضِي ، فَإِنَّ حَيَاتَهُمْ لَا تَلْمَسُ الْحَاضِرَ إِلَّا بِضَعْفٍ !

قَالَ الْعَجُوزُ : رَحِمَ اللَّهُ الشَّيْخَ (ع) ، وَكَانَ هَذَا يَا بُنَيَّ رَجُلًا يَنْسَخُ لِلْعُلَمَاءِ فِي زَمَانِنَا
الْقَدِيمِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَشْرَةَ قُرُوشٍ أَجْرًا عَلَى الْكُرَاسَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَهُوَ رَدِيءُ الْخَطِّ ، فَإِذَا
وَرَّقَ لِأَدِيبٍ وَلَمْ يُعْجِبْهُ خَطُّهُ فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ تَعَلَّقَ الشَّيْخُ بِهِ وَطَالَبَهُ بِعِشْرِينَ قِرْشًا عَنِ
الْكُرَاسَةِ ، مِنْهَا عَشْرَةٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَعَشْرَةٌ غَرَامَةٌ لِإِهَانَةِ الْكِتَابَةِ ...

نَعَمْ يَا بُنَيَّ ! إِنْ لِلْمَاضِي فِي قُلُوبِنَا مَوَاقِعَ يَنْزِلُ فِيهَا فَيَسْمَكُنْ ، وَلَكِنَّ قَاعِدَةَ (اِثْنَانِ
وَإِثْنَانِ : أَرْبَعَةٌ) لَا تَعُدُّ فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْحَاضِرِ وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْحَقِيقَةُ بِنَفْسِهَا
لَا بِاسْمِهَا ، وَلَيْسَتْ تَحْتَاجُ النَّارَ إِلَى تَوْبِ الْمَرْأَةِ إِلَّا فِي رَأْيِ الْمُعْقِلِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْعَجُوزُ : زَعَمُوا أَنَّ مُعْقِلًا كَانَ يَرَى أَمْرَأَتَهُ تُضْرِمُ الْحَطَبَ فَتَنْفُخُ فِيهِ حَتَّى يَشْتَعِلَ ،
فَاحْتَاجَ يَوْمًا فِي بَغْضِ شَأْنِهِ إِلَى النَّارِ ، وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَأَتُهُ فِي دَارِهَا ، فَجَاءَ بِالْحَطَبِ وَأَضْرَمَ
فِيهِ وَجَعَلَ يَنْفُخُ ، وَكَانَ الْحَطَبُ رَطْبًا ، فَذَخَنَ وَلَمْ يَشْتَعِلْ ، فَفَكَرَ الْمُعْقِلُ قَلِيلًا ، ثُمَّ

ذَهَبَ فَلَيْسَ ثَوْبَ أَمْرَأَةٍ وَعَادَ إِلَى النَّارِ وَكَانَ الْحَطْبُ قَدْ جَفَّ ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْفُخُ حَتَّى اجْتَمَعَ وَتَضَرَّمَ ، فَأَيَقُنُ الْمَغْفَلُ أَنَّ النَّارَ تَخَافُ أَمْرَأَتَهُ . . . وَأَنَّهَا لَا تَتَضَرَّمُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ ثَوْبَهَا ! .

* * *

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ أَصْبَحَ عِنْدَنَا كَفُنُونِ الْحَرْبِ : تُبْدِعُ مَا تُبْدِعُ لِتَغْيِيرِ مَا لَا يَتَغَيَّرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَعَلَى مَا بَلَغَتْ وَسَائِلُ الْمَوْتِ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُمَيِّتَ أَحَدًا مَرَّتَيْنِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ يَا بُنَيَّ كَثِيرًا فَلَمْ أَرْ إِلَى الْآنَ مِنْ آثَارِ الْمُجَدِّدِينَ عِنْدَنَا شَيْئًا ذَا قِيَمَةٍ ، مَا كَانَ مِنْ هُرَاءٍ وَتَقْلِيدِ زَائِفٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، وَمَا كَانَ جَيْدًا فَهُوَ كَالْتَفَائِسِ فِي مُلْكِ اللَّصِّ : لَهَا اِغْتِيَارَانِ ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ مُقْتَنِيهَا . . . فَالْآخَرُ عِنْدَ الْقَاضِي^(١) .

كَلَّا أَيُّهَا اللَّصُّ ، لَنْ تُسَمَّى مَالِكًا بِهَذَا الْأُسْلُوبِ ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ تَسْخَرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْحَقِّ وَمِنَ نَفْسِكَ .

يَقُولُونَ : الْعِلْمُ وَالْفَنُّ وَالْغَرِيزَةُ وَالشَّهْوَةُ وَالْعَاطِفَةُ وَالْمَرْأَةُ وَحُرِّيَةُ الْفِكْرِ وَأَسْتِفْلَالُ الرَّأْيِ وَنَبَذُ التَّقَالِيدِ وَكَسْرُ الْقُيُودِ ، إِلَى آخِرِهِ وَإِلَى آخِرِهَا . . . فَهَذَا كُلُّهُ حَسَنٌ مَقْبُولٌ سَائِعٌ فِي الْوَرَقِ إِنْ كَانَ فِي مَقَالَةٍ أَوْ قِصَّةٍ ، وَهُوَ سَائِعٌ كَذَلِكَ حِينَ يَنْحَصِرُ فِي حُدُودِهِ الَّتِي تَصْلُحُ لَهُ مِنْ ثِيَابِ الْمُمَثِّلِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِ الثُّمُوسِ الَّتِي يُمَثِّلُ بِهَا الْقَدَرُ فُصُولَهُ السَّاحِرَةَ أَوْ فُصُولَهُ الْمُبْكِيَّةَ ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ يُخْرِجُونَ هَذَا كُلَّهُ لِلْحَيَاةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهَا الْمُوجِبَةِ ، تَرُدُّهُ الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ السَّالِبَةِ ، إِذْ لَا تَرَايَ تَخْلُقُ خَلْقَهَا وَتَعْمَلُ أَعْمَالَهَا بِهِمْ وَيَغْيِرُهُمْ ، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ هَذَا الْقَانُونُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الْمَرِيضَ حِينَ يُهْدَمُ مِنْ صَاحِبِهِ - يُهْدَمُ فِي الْكَوْنِ بِصَاحِبِهِ ، فَفِيهَا أَيْضًا الْقَانُونُ الْآخَرُ الَّذِي يَجْعَلُ الْفِكْرَ الصَّحِيحَ السَّامِيَّ حِينَ يُبْنَى مِنْ أَهْلِهِ - يُبْنَى فِي الْكَوْنِ بِأَهْلِهِ .

* * *

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ سِلْكِي الْكَهْرَبَاءِ كَانَ فَيَلْسُوفًا مُجَدِّدًا ، فَقَالَ

(١) فِي كِتَابِنَا « نَحْتُ رَايَةَ الْقُرْآنِ » كَلَامٌ كَثِيرٌ عَنِ التَّجْدِيدِ وَالْمُجَدِّدِينَ . وَمَا نَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ حَقًّا وَمَا نَرَاهُ بَاطِلًا .

لِلْآخِرِ : مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجْعِيًّا ، إِذْ كُنْتَ لَا تَتَّبِعُنِي أَبَدًا وَلَا تَتَّصِلُ بِي ، وَلَا تَجْرِي فِي طَرِيقَتِي ، وَلَنْ تَفْلِحَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ مَا خَذِي وَتَتْرَكَ مَذْهَبَكَ إِلَيَّ مَذْهَبِي . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْعَظِيمُ ! لَوْ أَنِّي اتَّبَعْتُكَ لَبَطَلْنَا مَعًا ، فَمَا أَذْهَبُ فَيْكَ وَمَا تَذْهَبُ فِيَّ ، وَمَا عَلِمْتُكَ تَشْتِمُنِي فِي رَأْيِكَ إِلَّا بِمَا تَمْدَحُنِي بِهِ فِي رَأْيِي .

قَالَ الْعَجُوزُ : وَهَذَا هُوَ جَوَابُنَا إِذَا كُنَّا رَجْعِيَيْنَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ أَوِ الْفَضِيلَةِ أَوِ الْحَيَاءِ أَوِ الْعِفَّةِ إِلَى آخِرِهَا وَإِلَى آخِرِهِ ، وَنَحْنُ لَا نَرَى هَؤُلَاءِ الْمُجَدِّدِينَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَّا ضُرُورَاتٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْحَيَاةِ وَشَهَوَاتِهَا وَحِمَاقَاتِهَا تَلَبَّسَتْ بِغَضِّ الْعُقُولِ كَمَا يَتَلَبَّسُ أَمْثَالُهَا بِغَضِّ الطَّبَاعِ فَتَزِينُ بِهَا ، وَلِلْحَيَاةِ فِي لُغَتِهَا الْعَمَلِيَّةِ مُتَرَادِفَاتٌ كَالْمُتَرَادِفَاتِ اللَّفْظِيَّةِ : تَكُونُ الْكَلِمَتَانِ وَالْكَلِمَاتُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَالْمُخَرَّبُ وَالْمُخَرَّفُ وَالْمُجَدَّدُ بِمَعْنَى ! .

كُلُّ مُجَدِّدٍ يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَاعِدَةً نَفْسِهِ هُوَ ، فَلَوْ أَطَعْنَاهُمْ لَمْ تَبْقَ لِشَيْءٍ قَاعِدَةٌ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى سُنَّتِهَا وَمَا تَضَلُّعُ بِهِ مِنَ الضَّبْطِ وَالْإِحْكَامِ ، وَالْجَلْبِ لَهَا وَالِدْفَعِ عَنْهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِوَسَائِلِهَا الدَّقِيقَةِ الْمَمُوزُونَةِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَالسَّهْلَةِ فِي عَمَلِهَا الصَّغْبَةِ فِي تَذْيِيرِهَا ، فَعَلَى نَحْوِ مِمَّا كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي بَطْنِ الْأُمِّ يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ فِي بَطْنِ الْكُونِ بِخُذُودِ مَرْسُومَةٍ وَقَوَاعِدِ مُهَيَّأَةٍ وَحَيَرٍ مَعْرُوفٍ ؛ وَإِلَّا بَقِيَتْ حَرَكَاتُ هَذَا الْإِنْسَانِ فِي مَغْنَاهَا كَحَرَكَاتِ الْجَنِينِ ، يَزِيدُ وَيُنْقُصُ لِيَخْرُجَ عَنْ قَانُونِهِ ، فَإِنْ أَسْتَمَرَ عَمَلُهُ الْقَبِيحَ بِهِ مَسْحًا مُشَوَّهًا مِنْ جَسَدٍ كَانَ يَعْمَلُ فِي تَنْظِيمِهِ ، أَوْ قَذَفَ بِهِ مَيِّتًا مِنْ جِسْمٍ كَانَ كُلُّ مَا فِيهِ يَعْمَلُ لِحَيَاتِهِ وَصِيَانَتِهِ .

هَذَا الْجِسْمُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْجَنِينِ مَا دَامَ فِيهِ ، وَهَذَا الْأَجْتِمَاعُ كُلُّهُ يَشْرَعُ لِلْفَرْدِ مَا دَامَ فِيهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ إِذَا كَانَ الْجَنِينُ مُجَدِّدًا لَا يُعْجِبُهُ مَثَلًا وَضَعُ الْقَلْبِ وَلَا يُرْضِيهِ عَمَلُ الْأُمِّ^(١) وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُقَيَّدًا لِأَنَّهُ حُرٌّ ؟ .

أَنْظُرْ إِلَى هَذَا الشَّرْطِيِّ فِي هَذَا الشَّارِعِ يَضْرِبُ مُقْبِلًا لِيُذَيِّرَ ، وَمُذَيِّرًا لِيُقْبِلَ ؛ وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ الْحُكُومَةُ ثِيَابًا يَتَمَيَّزُ بِهَا ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ لُغَةً غَيْرَ لُغَةِ الثِّيَابِ ، وَكَأَنَّهُا تَقُولُ : أَيُّهَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْأُمُّ » بَدَلًا مِنْ : « الْأُمُّ » .

النَّاسُ ! إِنَّ هَلْمَنَا الْإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ قَائِمٌ دَائِمًا ؛ وَالَّذِي هُوَ قُوَّةٌ أَبَدًا ، وَالَّذِي هُوَ سَجْنٌ حِينًا ، وَالَّذِي هُوَ الْمَوْتُ إِذَا أَقْتَضَى الْحَالَ .

أَتَحْسَبُ يَا بُنَيَّ هَذَا الشَّرْطِيَّ قَائِمًا فِي هَذَا الشَّارِعِ كَجُذْرَانِ هَلْذِهِ الْمَنَازِلُ ؟ كَلَّا يَا بُنَيَّ ! إِنَّهُ وَاقِفٌ أَيْضًا فِي الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَفِي الْحِسِّ الْبَشَرِيِّ وَفِي الْعَاطِفَةِ الْحَيَّةِ ؛ فَكَيْفَ لَا يَمَحُوهُ الْمُجَدِّدُونَ مَعَ أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ إِزْغَامٌ بِمَعْنَى ، وَإِكْرَاهٌ بِمَعْنَى غَيْرِهِ ، وَقَيْدٌ فِي حَالِهِ ، وَبَلَاءٌ فِي حَالِهِ أُخْرَى ؟ .

لَكِنَّهُ إِزْغَامٌ لِيَقَعَ بِهِ التَّبَسُّيرُ ، وَإِكْرَاهٌ لِيَنْطَلِقَ بِهِ الرَّغْبَةُ ، وَقَيْدٌ لِيَتَجَمَّدَ بِهِ الْحُرِّيَّةُ ؛ وَكَانَ هُوَ نَفْسُهُ بَلَاءً مِنْ نَاحِيَةٍ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عِصْمَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي تُقَابِلُهَا .

يَا بُنَيَّ ! كُلُّ دِينٍ صَالِحٍ ، وَكُلُّ فُضِيلَةٍ كَرِيمَةٍ ، وَكُلُّ خُلُقٍ طَيِّبٍ - كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقِ الْمَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَهَذَا الشَّرْطِيِّ بَعِيْنِهِ : فِيمَا تَخْرِيبُ الْعَالَمِ أَهْلِهَا الْمُجَدِّدُونَ ، وَإِمَا تَخْرِيبُ مَذَهَبِكُمْ ...

* * *

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : أَتَبَحُّثُ عَمَّا نَتَسَلَّطُ بِهِ أَمْ نَبْحَثُ عَمَّا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا ؟ وَهَلْ نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ غَرَائِزَنَا أَقْوَى مِنَّا وَأَشَدَّ ، أَوْ نَكُونَ نَحْنُ أَشَدَّ مِنْهَا وَأَقْوَى ؟ هَلْذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ لَا مَسْأَلَةُ الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي يَعْظُمُ بِنَا وَنَعْظُمُ بِهِ ، فَسَدَ الْحِسُّ وَفُسَدَتِ الْحَيَاةُ ، وَكُلُّ الْأَدْبَانِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِنَّ هِيَ إِلَّا وَسَائِلُ هَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْسُّمُورِ بِالْحَيَاةِ فِي آمَالِهَا وَغَايَاتِهَا عَنِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا فِي وَقَائِعِهَا وَمَعَانِيهَا .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَرَأَيْتُنِي بَيْنَ الْعَجُوزَيْنِ كَأَنِّي بَيْنَ نَابِيْنِ ، وَلَمْ أَكُنْ مُجَدِّدًا عَلَى مَذَهَبِ إِبْلِيسَ الَّذِي رَدَّ عَلَى اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَظَنَّ لِحُمُقِهِ أَنَّ قُوَّةَ الْمُنْطِقِ تُغَيِّرُ مَا لَا يَتَغَيَّرُ ؛ فَسَكْتُ ، حَتَّى إِذَا فَرَعًا مِنْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ قُلْتُ : وَالرَّحْلَةَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ؟ .

الْعَجُوزَانِ (*)
٣

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَتَبَيَّنَ فِي الْعَجُوزِ (ن) أَثَرُ النَّعْبِ ، فَتَوَجَّعَ وَأَخَذَ يَتَنُّ كَأَنَّ بَعْضَهُ قَدْ مَاتَ لَوْفَتِهِ . . . أَوْ وَقَعَ فِيهِ اخْتِلَالٌ جَدِيدٌ ، أَوْ نَالَتُهُ ضَرْبَةُ الْيَوْمِ ، وَالشَّيْخُ مَتَى دَخَلَ فِي الْهَرَمِ دَخَلَ فِي الْمَعْرَكَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَيَّامِهِ .

ثُمَّ تَأَنَّفَأَ وَتَمَلَّمَ وَقَالَ : إِنَّ أَوَّلَ مَا يَظْهَرُ عَلَى مَنْ شَاخَ وَهَرِمَ ، هُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ غَيَّرَتِ الْقَانُونَ الَّذِي كَانَتْ تَحْكُمُهُ بِهِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : إِنَّ صَاحِبَنَا كَانَ قَاضِيًا يَحْكُمُ فِي الْمَحَاكِمِ ، وَارَى الْمَحَاكِمَ قَدْ حَكَمَتْ عَلَيْهِ بِهِذِهِ الشَّيْخُوخَةِ (مُطَبَّقَةً فِيهَا) بَعْضَ الْمَوَادِّ مِنْ قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ ، فَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا إِلَى الْحَبْسِ الثَّلَاثِ .

فَصَحِّحَكَ (ن) وَقَالَ : قَدْ عَرَفْنَا « الْحَبْسَ الْبَسِيطَ » وَ « الْحَبْسَ مَعَ الشُّغْلِ » فَمَا هُوَ هَذَا « الْحَبْسِ الثَّلَاثُ ؟ » .

قَالَ : هُوَ « الْحَبْسُ مَعَ الْمَرَضِ » . . .

قَالَ (ن) : صَدَقْتَ لَعَمْرِي ، فَإِنَّ آخِرَ أَجْسَامِنَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِحِسَابِ مَنْ صَنَعَةِ أَعْمَالِنَا ، وَكَأَنَّ كُرْسِيَّ الْوِظَافَةِ الْحُكُومِيَّةِ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ كُرْسِيَّ الْحُكُومَةِ ، فَهُوَ يَضْرِبُ الضَّرَائِبَ عَلَى عِظَامِ الْمُوظَّفِينَ . . . أَتَذَرِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ ﴾ [١٦ سورة النحل / الآية : ٧٠ ؛ ٢٢ سورة الحجج / الآية : ٥] وَلَمْ سَمَّاهُ الْأَزْدَلُ ؟ .

قُلْنَا : فَلِمَ سَمَّاهُ كَذَلِكَ ؟

قَالَ : لِأَنَّهُ خَلَطَ الْإِنْسَانَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَمَسَّخَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، فَلَا هُوَ رَجُلٌ وَلَا

شَابٌ وَلَا طِفْلٌ ، فَهُوَ أَرْدَأُ وَأَرْدَلُ مَا فِي الْبِضَاعَةِ . . .

فَاسْتَضَحَكَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ شَيْخًا حِينَ كُنْتُ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِي ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَنِي قَتَى حِينَ بَلَغْتُ السَّبْعِينَ .

قَالَ (ن) : كَانَ الْحَيَاةُ تُصَحِّحُ نَفْسَهَا فِيكَ .

قَالَ : بَلْ أَنَا أَكْرَهْتُهَا أَنْ تُصَحِّحَ نَفْسَهَا ، فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ سَعَى الْإِنْفَاقِ فِي الشَّبَابِ هِيَ ضَائِقَةُ الْإِفْلَاسِ فِي الْهَرَمِ ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّ لِلطَّيْبَةِ « عَدَادًا » لَا يُخْطِئُ الْحِسَابَ ، فَإِذَا أَنَا أَقْتَصَدْتُ عَدَّتْ لِي ، وَإِذَا أَسْرَفْتُ عَدَّتْ عَلَيَّ ، وَلَنْ تُعْطِيَنِي الدُّنْيَا بَعْدَ الشَّبَابِ إِلَّا مِمَّا فِي جِسْمِي ، إِذْ لَا يُعْطِي الْكَوْنُ حَيًّا أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْهُ ، فَكُنْتُ أَجْعَلُ نَفْسِي كَالشَّيْخِ الَّذِي تَقُولُ لَهُ الْمَلَذَّاتُ الْكَثِيرَةُ : لَسْتُ لَكَ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ لِدَاتِي كُلُّهَا فِي قِيُودِ الشَّرِيعَتَيْنِ : شَرِيعَةِ الدِّينِ وَشَرِيعَةِ الْحَيَاةِ .

قَالَ : وَعَرَفْتُ أَنَّ مَا يُسْمِيهِ النَّاسُ وَهْنَ الشَّيْخُوخَةِ لَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ وَلَكِنْ مِنَ الشَّبَابِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْإِنْسَانِ فِي تَسْمِينِ جِسْمِهِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْإِغْفَالِ وَالْإِرْهَاقِ وَالشُّرُورِ وَالْحُزْنَ وَاللَّذَّةَ وَالْأَلَمَ ، فَكُنْتُ مَعَ الْجِسْمِ فِي شَبَابِهِ لِيَكُونَ مَعِيَ بَعْدَ شَبَابِهِ ، وَلَمْ أَبْرَحْ أُنْعَاهِدُهُ كَمَا يَنْعَاهِدُ الرَّجُلُ دَارَهُ : يَزِيدُ مُحَاسِنَهَا وَيَنْفِي عُيُوبَهَا وَيَحْفَظُ قُوَّتَهَا وَيَنْفِي ضَعْفَهَا ، وَيَجْعَلُهَا دَائِمًا بِأَلْهِمًا وَهَمًّا ، وَيَنْظُرُ فِي يَوْمِهَا الْقَرِيبِ لِعِدِّهَا الْبَعِيدِ ، فَلَا يَنْقَطِعُ حِسَابُ آخِرِهَا وَإِنْ بَعْدَ هَذَا الْآخِرِ ، وَلَا يَزَالُ أَبَدًا يَخْطِطُ لِمَا يَخْشَى وَقُوعَهُ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ .

قَالَ الْعَجُوزُ (ن) : صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، فَمَا أَفْلَحَ إِلَّا مَنْ أَعْتَمَمَ الْإِمْكَانَ ، وَمَا نَوْعُ الشَّيْخُوخَةِ إِلَّا مِنْ نَوْعِ الشَّبَابِ ، وَهَذَا الْجِسْمُ الْإِنْسَانِيُّ كَالْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ فِيهَا (مَجْلِسُهَا الْبَلَدِيُّ) أَلْقَائُهُمْ عَلَى صِيَانَتِهَا وَنِظَامِهَا وَتَقْوِيَتِهَا ، وَرَيْسُ هَذَا الْمَجْلِسِ الْإِرَادَةُ ، وَقَانُونُهُ كُلُّهُ وَاجِبَاتٌ ثَقِيلَةٌ ، وَهُوَ كَثِيرُهُ مِنَ الْقَوَانِينِ : إِذَا لَمْ يَنْقُذْ مِنَ الْأَوَّلِ لَمْ يُغْنِ فِي الْآخِرِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَكُلُّ جِهَازٍ فِي الْجِسْمِ هُوَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَاءِ ذَلِكَ (الْمَجْلِسِ الْبَلَدِيِّ) ؛ فَجِهَازُ التَّنَفُّسِ وَجِهَازُ الْهَضْمِ وَالْجِهَازُ الْعَضَلِيُّ وَالْجِهَازُ الْعَصَبِيُّ وَالْدَّوْرَةُ

الْذَمِيَّةُ ، هَذِهِ كُلُّهَا يَجِبُ أَنْ تُتْرَكَ عَلَى حُرِّيَّتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ وَأَنْ تُعَانَ عَلَى سُنَّتِهَا ، فَلَا يُحَالُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا بِرِشْوَةٍ مِنْ لَذَّةٍ ، أَوْ مَفْسَدَةٍ مِنْ زِينَةٍ ، أَوْ مَطْعَمَةٍ فِي رَفَاهِيَّةٍ ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِمَّا يُفْسِدُ حُكْمَهَا أَوْ يُعْطِلُ عَمَلَهَا أَوْ يُضْعِفُ طَبِيعَتَهَا .

وَالْقَاعِدَةُ فِي الْعُمُرِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّبَابُ هُوَ الطُّفُولَةُ الثَّانِيَّةُ فِي بَرَاءَتِهِ وَطَهَارَتِهِ كَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ هِيَ الشَّبَابُ الثَّانِي فِي قُوَّتِهَا وَنَشَاطِطِهَا ؛ وَمَا رَأَيْتُ كَالَّذِينَ وَسِيلَةً تَجْعَلُ الطُّفُولَةَ مُمْتَدَّةً بِحَقَائِقِهَا إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ ، فِسْرُ الطُّفُولَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي قُوَّتِهَا عَلَى حَذْفِ الْفُضُولِ وَالزَّوَائِدِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَلَا يُطْعِمُهَا الْغِنَى ، وَلَا يَكْسِرُهَا الْفَقْرُ ، وَلَا تُذِلُّهَا الشَّهْوَةُ ، وَلَا يُفْرِعُهَا الطَّمْعُ ، وَلَا يَهْوِلُهَا الْإِخْفَاقُ ، وَلَا يَتَعَاظَمُهَا الضَّرُّ ، وَلَا يُخَفِّفُهَا الْمَوْتُ ؛ ثُمَّ لَا تَمَلُّ وَهِيَ الصَّابِرَةُ ، وَلَا تُبَالِغُ وَهِيَ الرَّاغِبَةُ ، وَلَا تُشْكُ وَهِيَ الْمُؤَقِنَةُ ، وَلَا تُسْرِفُ وَهِيَ الْقَانِعَةُ ، وَلَا تَتَلَبَّدُ وَهِيَ الْعَامِلَةُ ، وَلَا تَجْمُدُ وَهِيَ الْمُتَحَوِّلَةُ ؛ ثُمَّ هِيَ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَّا الْعَطْفَ وَالْحُبَّ وَالنَّبَاشَةَ وَطَبَائِعَ الْخَيْرِ الَّتِي يَمْلِكُهَا كُلُّ قَلْبٍ ؛ وَلَا تُوجِبُ شَرِيْعَتُهَا فِي الْمُعَامَلَةِ إِلَّا قَاعِدَةَ الرَّحْمَةِ ، وَلَا تُقَرِّرُ فَلَسَفَتُهَا لِلْحَيَاةِ ، إِلَّا طَهَارَةَ النَّظَرِ ؛ ثُمَّ تَهَكِّمُ بِالدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُّ لَهَا ، وَتُسْتَعْنِي فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ ، وَتُسْتَخْرِجُ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهَا دَائِمًا مِمَّا أَمْكَنَ ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

وَبِكُلِّ هَذَا تَعْمَلُ الطُّفُولَةُ فِي حِرَاسَةِ الْحَيَاةِ الْغَضَبَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا وَنُمُوِّهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا رَهَا طِفْلٌ وَلَا شَبَّ غُلَامٌ وَلَا رَأَتْ الْعُيُونُ بَيْنَ هُمُومِ الدُّنْيَا ذَلِكَ الرُّوَاءَ وَذَلِكَ الْمَنْظَرَ عَلَى وَجْهِهِ الْأَطْفَالِ يُبَيِّنَانِ أَنَّ الْبَرَاءَةَ فِي النَّفْسِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مِنْ خَصَائِصِ الدِّينِ وَبِهِ يَعْمَلُ الدِّينُ فِي تَهْذِيبِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَاقِهَا عَلَى أَصُولِهَا الْقَوِيَّةِ السَّلِيمَةِ . وَمَتَى قَوِيَ هَذَا الدِّينُ فِي إِنْسَانٍ لَمْ تَكُنْ مَفَاسِدُ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حُدُودِهِ ، حَتَّى كَانَتْ فِي أَرْضٍ وَهِيَ فِي أَرْضٍ أُخْرَى ؛ وَأَصْبَحَتْ الْبَرَاءَةُ فِي نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الطَّبِيعَةِ .

ثُمَّ قَالَ : وَالْعَجِيبُ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ أَبَدًا بِأَحْسَنِ مَعَانِيهِ وَأَكْمَلِهَا إِلَّا فِي قَلْبَيْنِ : قَلْبِ الطِّفْلِ لِأَنَّهُ طِفْلٌ ، وَقَلْبِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ .

فَقَالَ الْعَجُوزُ (ن) : إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتُ ، وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْآدَمِيَّةِ الْبَاطِلَةِ ،

فَإِنَّ الشَّهْوَةَ الْوَاحِدَةَ فِي أَلْفِ نَفْسٍ لَتَجْعَلَ الْحَقِيقَةَ الْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا أَلْفُ حَقِيقَةٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَنَازِعَةٍ ، وَالطَّامِعَانِ فِي أَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ شَهْوَةٌ أَحَدِهِمَا هِيَ الشَّهْوَةُ ، وَهِيَ الْقَتْلُ ؛ وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَالْحَادِهِمْ ، يُزْرُونَ عَلَى الْأَدْيَانِ بِأَنَّهَا تَكَالِيفُ وَقِيُودٌ وَصِنَاعَةٌ لِلْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِصِنَاعَةِ آلَاءِ النَّفْسِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَرِّكَ الْمُخْتَلِفِينَ حَرَكَةً وَاحِدَةً ، فَمَا أَتَيْتِ الْإِنْسَانِيَّةُ بِشَيْءٍ كَمَا أَتَيْتِ بِهَذَا الْخِلَافِ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَبْوَابَ التَّجَنِّي ، وَيَجْعَلُ الْفُتْرَةَ وَسُوءَ الظَّنِّ أَقْرَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْثَقَةِ .

لَقَدْ جَاءَ الْعِلْمُ بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَلَكِنْ فِيمَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمَتَافِعِهِ ، فَهَلْ غَيْرُ الَّذِينَ يَجِيءُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْعَمَلِيَّةِ فِيمَا بَيْنَ النَّفْسِ وَالنَّفْسِ ، وَبَيْنَ النَّفْسِ وَهُمُومِهَا ، وَبَيْنَ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ وَاجِبٌ ؟ .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : صِلَ عَمَكَ يَا بُنَيَّ بِالْحَدِيثِ الَّذِي مَضَى ، فَأَيْنَ بَلَعْنَا آتِفًا مِنْ أَمْرِ التَّجْدِيدِ وَالْمُجَدِّدِينَ ؟ وَمَاذَا قُلْنَا وَمَاذَا قُلْتَ ؟ أَمَا إِنَّ الْحِمَاقَةَ الْجَدِيدَةَ وَالرَّذِيلَةَ الْجَدِيدَةَ وَالْخَطَأَ الْجَدِيدَ ، كُلُّ ذَلِكَ إِنْ كَانَ جَدِيدًا مِنْ صَاحِبِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا أَبَدًا مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا إِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ فِي اسْتِعْمَالِ كُلِّ أَدَبٍ حَقُّهُ فِي الْوَقَاحَةِ وَالْجَهْلِ وَالْخَطَأِ وَالْعُزُورِ وَالْمُكَابَرَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَلَيْسَ الظَّاهِرُ بِمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بِالْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، فَمُسْتَشْفَى الْمَجَازِبِ قَصْرٌ مِنَ الْقُصُورِ فِي ظَاهِرِهِ ، وَلَكِنَّ الْمَجَازِبَ هُمْ حَقِيقَتُهُ لَا الْبِنَاءُ ، وَكُلُّ مُجَدِّدٍ عِنْدَنَا يَزْعُمُ لَكَ أَنَّهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْتَشْفَى مَجَانِينَ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَجَانِينَ فِيهِ طِبَاعُ وَشَهَوَاتُ وَتَزَوَّاتُ : وَعَلَى هَذَا مَا الَّذِي يَمْنَعُ الْقُجُورَ الْمُتَوَقَّعَ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ الْأَدَبَ الْمَكْشُوفَ ؟ .

قَالَ (ن) : وَإِذَا أَنْتَ ذَهَبْتَ تَغْتَرِضُ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ زَعَمُوا لَكَ أَنَّ لِلْفَنِّ وَقَاحَةً مُقَدَّسَةً . . . وَأَنَّ (لَا أَدِيَّةً) رَجُلِ الْفَنِّ هِيَ (الْأَخْلَاقِيَّةُ الْعَالِيَةُ) . . .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : فَوَاقِحَةُ الشَّهْوَةِ إِذَا اسْتَعْلَنْتَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَيَاءِ وَأَهْلِ الْفَضِيلَةِ وَدَعَتْ إِلَى مَذْهَبِهَا ، كَانَتْ تَجْدِيدًا مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ هُوَ أَقْدَمُ مَا فِي الْأَرْضِ ، إِذْ هُوَ بِعَيْنِهِ مَذْهَبُ كُلِّ رَوْحَانٍ اجْتَمَعَ مِنَ الْبَهَائِمِ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْبَهَائِمَ . . .

قَالَ (ن) : وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مُتَسَخِّطٍ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ يُخْرَجُ مِنْ كُفْرِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ أَدَبًا جَدِيدًا ، وَفِي مَعْرُورٍ يَتَغَفَّلُ النَّاسُ ، وَفِي لَصِّ آرَاءٍ ، وَفِي مُقْلَدٍ تَقْلِيدًا أَعْوَرَ - كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَشْبَاهِهِمْ مُتَكَلِّ بِعِلَّةٍ ، فَمَذْهَبُهُ رِسَالَةٌ عَلَيْهِ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَكُونُ ثَبَاتُهُ عَلَى الرَّأْيِ الْفَاسِدِ إِلَّا مِنْ ثَبَاتِ الْعِلَّةِ فِيهِ .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَكُنْتُ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ ، فَأَرَمَضَنِي ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لِلْعَجُوزَيْنِ : إِنَّ هَذَا نِصْفُ الصَّحِيحِ ، أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَهُوَ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ الدِّفَاعَ عَنِ الَّذِينَ وَالْفَضِيلَةِ ، نَعَمْ ، إِنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ حَقَّهُمْ فِي الْوَقَاحَةِ ، وَلَكِنَّ الْقُرُوشَ تَسْتَعْمِلُ حَقَّهَا . . .

فَصَحِّحْكَ الْعَجُوزُ (ن) وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ! فَإِنَّ الْجَدِيدَ فِي كُلِّ حِمَارٍ هُوَ أَنْ يَزْعُمَ أَنْ نَهَيْقَهُ مُوسِيقَى ، فَالْحِمَارُ وَالنَّهْيَقُ وَالْمُوسِيقَى كُلُّ ذَلِكَ لَا جَدِيدَ فِيهِ ، وَلَكِنَّ التَّسْمِيَةَ وَخَدَهَا هِيَ الْجَدِيدَةُ ، غَيْرَ أَنَّ التَّصْدِيقَ وَالتَّكْذِيبَ هُنَا فِي آذَانِ الْمُوسِيقِيِّينَ لَا فِي حَلْقِ حِمَارِنَا الْمُخْتَرَمِ . . .

قَالَ (م) : وَزَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا نَصَبَ فَخًا لَصِيدِ الْعَصَافِيرِ ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَظَرَّ مِنْ هَذَا الْفَخِّ إِلَى شَيْءٍ جَدِيدٍ ، فَقَالَ : يَا هَذَا ! مَا لَكَ مَطْمُورًا فِي التُّرَابِ ؟ قَالَ الْفَخُّ : ذَلِكَ مِنَ التَّوَاضُعِ لِخَلْقِ اللَّهِ ! قَالَ : فَمِمَّ كَانَ أَنْحَاؤُكَ ؟ قَالَ الْفَخُّ : ذَلِكَ مِنْ طُولِ عِبَادَتِي لِلَّهِ ؛ قَالَ : فَمَا هَذِهِ الْحَبَّةُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ الْفَخُّ : أَعَدَدْتُهَا لَطُيُورِ اللَّهِ الصَّائِمِينَ يُفْطِرُونَ عَلَيْهَا . قَالَ الْعُصْفُورُ : فَتَبِيحُهَا لِي ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَتَقَدَّمَ الْمَسْكِينُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا أَلْتَفَطَهَا وَقَعَ الْفَخُّ فِي عُنُقِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ يَخْتَنِقُ : إِنْ كَانَ الْعِبَادُ يَخْفِقُونَ مِثْلَ هَذَا الْخَنْقِ فَقَدْ خُلِقَ إِبْلِيسُ جَدِيدٌ . . .

قَالَ (ن) : فَالْحَقِيقَةُ أَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي تَجَدَّدَ لِيَصْلُحَ لِزَمَنِ الْآلَاتِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَعَصَرَ السُّرْعَةِ وَالتَّحَوُّلِ ، وَمَا دَامَ الرُّقْبَى مُطْرِدًا وَهَذَا الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ فِي تَسْخِيرِ الطَّبِيعَةِ ، فَسَيَنْتَهِي الْأَمْرُ بِتَسْخِيرِ إِبْلِيسَ نَفْسَهُ مَعَ الطَّبِيعَةِ ... لَا سِتِّخْرَاجَ كُلِّ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ .

قَالَ (م) : وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنَّ إِبْلِيسَ هَذَا ؛ أَتَرَاهُ انْقَلَبَ أَوْرِيئًا لِلأَوْرَبِيِّينَ ؟ وَإِلَّا فَمَا بَالُهُ يُخْرِجُ فِيهِمْ مُجَدِّدِينَ مِنْ جَبَابِرَةِ الْعَقْلِ وَالْخَيَالِ ، ثُمَّ لَا يُؤْتِنَانَا نَحْنُ إِلَّا مُجَدِّدِينَ مِنْ جَبَابِرَةِ التَّقْلِيدِ وَالْحِمَاقَةِ ؟ .

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَقُلْتُ لَهُمَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ الْقَدِيمَانِ ! سَأَنْشُرُ قَوْلَكُمَا هَذَا لِيَفْرَاهُ الْمُجَدِّدُونَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : وَأَنْشُرْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرَّبِيعَ صَاحِبَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ، مَرَّ يَوْمًا فِي أَرْقَةِ مِصْرَ فَتَثَرَتْ عَلَى رَأْسِهِ إِجَانَةٌ^(١) مَمْلُوءَةٌ رَمَادًا ، فَتَرَلَّ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَخَذَ يَنْفُضُ ثِيَابَهُ وَرَأْسَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَا تَرْجُرُهُمْ ؟ قَالَ : مَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ وَصُورَاحَ بِالرَّمَادِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ ... !

* * *

ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَاسْتَوَلَى عَلَى الْعَجُوزَانِ ، وَرَأَيْتُ قَوْلَهُمَا يَغْلُزُ قَوْلِي ، وَكُنْتُ فِي السَّابِغَةِ وَالْعَشْرِينَ ، وَهِيَ سِرُّ الْحِدَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَمَا حَسِبْتَنِي مَعَهُمَا إِلَّا ثُلُثَ عَجُوزٍ ... مِمَّا أَتَرَاهُ عَلَيَّ ، وَانْقَلَبْتُ لَا أَرَى فِي الْمُجَدِّدِينَ إِلَّا كُلَّ سَقِيمٍ فَاسِدٍ ، وَاعْتَبَرْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعِلَّتِهِ ، فَإِذَا الْقَوْلُ مَا قَالَ الشَّيْخَانِ ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ رَأْيٍ مَرِيضٍ مَرَضٌ ، وَوَرَاءَ كُلِّ اتِّجَاهٍ إِبْرَةٌ مِغْنَاتِيْسِيَّةٌ طَرَفُهَا إِلَى الشَّيْطَانِ ...

وَفَرَعْنَا مِنْ هَذَا ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخَيْنِ : لَقَدْ حَانَ وَقْتُ تَزْوُلِكُمَا مِنْ بَيْنِ الْغُيُومِ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفَانِ ، أَمَا كُنْتُمَا فِي سَنَةِ ١٨٩٥ مِنْ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ... ؟ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



قَالَ مُحَدَّثُنَا : وَكُنْتُ قَدْ صِفْتُ بِهِذِهِ اللَّجَاجَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ ، وَرَأَيْتُنِي مُضْطَغِنًا عَلَى الشَّيْخَيْنِ مَعًا ؛ فَقُلْتُ لِلْعَجُوزِ (ن) : حَدِّثْنِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - بِشَيْءٍ مِنْ قَدِيمِكُمَا ، فَأَنْتُمَا أَخْتِصَارُ لِكُلِّ مَا مَرَّ مِنَ الْحَيَاةِ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَضْلِهِ الْمُطَوَّلِ إِلَّا فِي الْحُبِّ . . . وَمَا زِلْتُمَا فِي جِدِّ الْحَدِيثِ تَعَبَتَانِ بَيْنِي مُنْذُ الْيَوْمِ ، فَقَدْ عَدَلْتُمَا بَيْنِي إِلَى شَأْنِكُمَا وَرَأَيْكُمَا فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، وَبَقِيَ أَنْ أُمِيلَ بِكُمَا مِثْلَةَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ، وَقَدْ وَاللَّهِ كَادَ يَنْتَحِرُ قَلْبِي بِأَسَا مِنْ خَبَرِ (كَاتَرِينَا Cathrina وَمَرْغَرِيَّتَ Margarite) ؛ وَلَكَانَكَ تَخْشَى إِذْ أَعْلَمْتَنِي خَبَرَ صَاحِبَيْكَ هَذِهِ وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً - مَا تَخَافُهُ مِنْ رَجُلٍ سَيَفْجُوكَ مَعَهَا فِي الْخُلُوةِ عَلَى حَالٍ مِنَ الرِّيْبَةِ فَيَأْخُذُكَ « مُتَلَبِّسًا بِالْجَرِيمَةِ » كَمَا تَقُولُونَ فِي لُغَةِ الْمَحَاكِمِ . . .

قَالَ : فَضَحِكَ الْعَجُوزَانِ ، وَقَالَ (ن) : لَا وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ ! وَلَكِنِّي أَقُولُ مَا قَالَ ذَلِكَ الْحَكِيمُ الْعَرَبِيُّ لِقَوْمِهِ وَقَدْ بَلَغَ مِثْنِي سَنَةً : « قَلْبِي مُضْغَةٌ مِنْ جَسَدِي ، وَلَا أَطْنُهُ إِلَّا قَدْ نَحَلَ كَمَا نَحَلَ سَائِرُ جَسَدِي »^(١) ، وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ ! أَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الْحُبُّ عَنِ الشَّيْخِ وَبَقِيَ مِنْهُ الْحَنَانُ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ ؛ فَيُحِبُّ الْعَجُوزُ مَكَانًا أَوْ شَيْئًا أَوْ مَعْنَى أَيْ ذَلِكَ كَانَ ، لِيُعِينَهُ ذَلِكَ إِلَى الدُّنْيَا أَوْ يُبْقِيَهُ فِيهَا (بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ) .

فَضَحِكَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : وَلَعَلَّ تَرْثَرَةَ الْعَجُوزِ (ن) هِيَ الْآنَ مَعْشُوقَةُ الْعَجُوزِ (ن) .

(*) « الرسالة » العدد : ١٥٣ ، ١٨ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ يونيو/حزيران ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ٩٤١ - ٩٤٤ .

(١) هُوَ أَكْثَرُ بَنِي صَيْفِي حَكِيمُ الْعَرَبِ ، قَالَهَا لِقَوْمِهِ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى الثُّغَمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ كَيْلًا يَتَكَلَّمُوا عَلَيْهِ فِي حِيلَةٍ وَلَا مَنْطِقِي ؛ وَيُقَالُ : إِنَّهُ عَاشَرَ ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَفِي مَعْنَى السَّنَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ .

ثُمَّ قَالَ : وَكُلُّ شَيْءٍ يَرِيقُ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ الْهَرَمَ وَيُحَوِّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ لَا يُطِيقُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَّا مَعْنَاهُ الْغَلِيظَ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ الْعَجُوزُ مِنْ مَعَانِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا لَا يَهْنَأُ الشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ ، وَقَدَّرَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ لَا عَلَى مَا كَانَ فِيهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ وَجِسْمِهِ الْمَاضِي أَنَّ هَذَا الْمَاضِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ أَعْضَاؤُهُ ، فَهُوَ مُجْتَمِعٌ مِنْ أَعْمَالِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، مَاضٍ فِي تَحْقِيقِ وَجُودِهَا وَمَعَانِيهَا ؛ أَمَّا الْحَاضِرُ ؛ أَمَّا الْجِسْمُ الْهَرِمُ ، فَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ يَحْمِلُ أَعْضَاءَهُ كُلَّهَا وَكَأَنَّهُا مَلْفُوفَةٌ فِي ثِيَابِهِ كَمَتَاعِ الْمُسَافِرِ قَبْلَ السَّفَرِ . . . وَكَأَنَّ بَعْضَهَا يُسَلِّمُ عَلَى بَعْضِ سَلَامِ الْوَدَاعِ يَقُولُ : تُفَارِقُنِي وَأَفَارِقُكَ ^(١) .

فَتَمَلِّمَلِ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : أَفُتْ لَكَ وَلِمَا تَقُولُ ! لَا جَرَمَ أَنَّ هَذِهِ لُغَةُ عِظَامِكَ الَّتِي لَا صَلَابَةَ فِيهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ لَا تَجِيءُ مَعَانِيكَ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا وَاهِنَةً نَاحِلَةً فَقَدْتَ أَكْثَرَهَا وَبَقِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ النَّهَايَةِ ، أَلَيْسَ فِي الْهَرَمِ إِلَّا أَنْ يَبْقَى الْجِسْمُ لِيَكُونَ ظَاهِرًا فَقَطْ كَعُمُشُوشِ الْعُقُودِ ^(٢) بَعْدَ ذَهَابِ الْحَبِّ مِنْهُ ، يَقُولُ : كَانَ هُنَا وَكَانَ هُنَا .

أَلَا فَاعْلَمْ يَا (ن) أَنَّ هَذِهِ الشَّيْخُوخَةُ إِنَّمَا هِيَ غَلَبَةُ رُوحَانِيَّةِ الْجِسْمِ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ ، فَهَذَا طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ لَا تَدْعُهُ الْحَيَاةُ إِلَّا وَفِيهِ لَذَّتُهُ وَسُرُورُهُ كَمَا تَصْنَعُ بِسَائِرِ أَطْوَارِهَا ، غَيْرَ أَنَّ لَذَاتِهِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ ، وَمَسَرَاتِهِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَكُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ الْعُمْرِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً فِي إِدْرَاكِ الرُّوحِ وَقُوَّتِهَا وَشِدَّتِهَا وَنُورِهَا ، وَقِيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ وَكَانَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ : كَيْفَ تَجِدُ الْعِلَّةَ ؟ فَقَالَ : سَلُوا الْعِلَّةَ عَنِّي كَيْفَ تَجِدُنِي ؟

وَأِنَّمَا تَنْقُلُ الشَّيْخُوخَةَ عَلَى صَاحِبِهَا إِذَا هِيَ ائْتَكَسَتْ فِيهِ وَكَانَتْ مُرَاغِمَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(١) فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعَالِجُ كَرَبَ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَإِنْ مَقَاصِلُهُ لَيَسْلَمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، يَقُولُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ ، تُفَارِقُنِي وَأَفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » [قال الحافظ العراقي في « تخریج أحادیث الإحياء » : رويناه في « الأربعين » لأبي هذبة إبراهيم بن هذبة ، عن أنس بن مالك . انتهى . وراجع « كثر العمال » ، رقم : ٤٢١٨٣ .]

(٢) هُوَ مَا يَبْقَى مِنَ الْعُقُودِ بَعْدَ أَكْلِ مَا فِيهِ مِنَ الْحَبِّ .

الْحَيَاةَ ، فَيَطْمَعُ الشَّيْخُ فِيمَا مَضَى وَلَا يَرَالِ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيَسْخَطُ عَلَى ذَهَابِهِ وَيَتَصَنَّعُ لَهُ وَيَتَكَلَّفُ أَسْبَابَهُ ، وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ الْحَيَاةَ رَذَّةٌ طِفْلاً كَالطُّفْلِ ، أَكْبَرُ سَعَادَتِهِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ الْبَرِيَّةِ ، وَأَفْوَى لَذَّتِهِ أَنْ يَتَفَقَّ الْجَمَالُ الَّذِي فِي خَيَالِهِ وَالْجَمَالُ الَّذِي فِي الْكَوْنِ ، وَإِنَّهُ لَكَمَا قُلْتَ أَنْتَ : لَا يَهْنَأُ الشَّيْخُ إِلَّا إِذَا عَاشَ بِأَفْكَارِ جِسْمِهِ الْحَاضِرِ .

وَمَا أَصْدَقَ وَأَحْكَمَ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعَذِلُهُ وَقَسْطُهُ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الرُّضَى وَالْيَقِينِ ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسَّخَطِ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٦٢٩١] . فَهَذِهِ هِيَ قَاعِدَةُ الْحَيَاةِ : لَا تُعَامِلُكَ الْحَيَاةُ بِمَا تَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ بِمَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ السَّعَادَةُ حَقِيقَةً مُمَكِّنَةً مَوْجُودَةً ، بَلْ تَكُونُ فِي كُلِّ مَا أُمَكَّنَ وَكُلِّ مَا وُجِدَ ، وَإِذَا كَانَ الرُّضَى هُوَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَ النَّفْسِ وَصَاحِبِهَا ، وَكَانَ الْيَقِينُ هُوَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَ النَّفْسِ وَخَالِقِهَا ، فَقَدْ أَصْبَحَ قَانُونُ السَّعَادَةِ شَيْئًا مَعْنَوِيًّا مِنْ فَضِيلَةِ النَّفْسِ وَإِيمَانِهَا وَعَقْلِهَا ، وَمِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي فِيهَا ، لَا شَيْئًا مَادِّيًّا مِنْ أَعْضَائِهَا وَمَتَاعِهَا وَدُنْيَاهَا وَالْأَخْيَلَةِ الْمُتَقَلَّبَةِ عَلَيْهَا .

* * *

فَاطَرَقَ الْعَجُوزُ (ن) قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [١٩ سورة مريم / الآية : ٤] أَلَا مَا أَحْكَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ! فَوَاللَّهِ إِنْ قَرَأْتُ وَلَا قَرَأَ النَّاسُ فِي تَصَوُّيرِ الْهَرَمِ الْفَاقِي أَبَدَعَ مِنْهَا وَلَا أَدَقَّ وَلَا أَوْفَى ، أَلَا تَحْسُرُ أَنَّ قَائِلَهَا يَكَادُ يَسْقُطُ مِنْ عَجْفٍ وَهْزَالٍ وَإِعْيَاءٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ قَائِمًا فِي الْحَيَاةِ قِيَامَهُ فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنَّ تَنَاقُضَ هَذِهِ الْحَيَاةِ قَدْ وَقَعَ فِي جِسْمِهِ فَأَخْلَ بِهِ ، وَأَنَّ مَعَانِي التُّرَابِ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِهِذَا الْجِسْمِ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا ، فَأَخَذَ يَتَفَتَّ كَأَنَّمَا لَمَسَ الْقَبْرَ عِظَامَهُ وَهُوَ حَيٌّ ، وَأَنَّهُ بِهِذَا كُلِّهِ أَوْشَكَ أَنْ يَنْكَسِرَ أَنْكَسَارَ الْعَظَمِ بَلَغَ الْمَبْرَدُ فِيهِ آخِرَ طَبَقَاتِهِ ؟ .

قَالَ مُحَدِّثُنَا : فَقُلْتُ لَهُ تَرَى لَوْ أَنَّ نَابِعَةً مِنْ نَوَائِغِ التَّصَوُّيرِ فِي زَمَنِنَا هَذَا ، تَنَاولَ بِفَهْمِهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَجِيبَ فَكَتَبَهُ صُورَةً وَالْوَنَاءَ ، لَا أَحْرُفًا وَكَلِمَاتٍ ، فَكَيْفَ تَرَاهُ يَصْنَعُ ؟

قَالَ : كَانَ يَصْنَعُ هَكَذَا : يَرَسُمُ مَنْظَرَ الشَّيْءِ فِي سَمَاءٍ تَعْلَقُ سَحَابُهَا كَثِيفًا مُتَرَاكِبًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ يُخَيَّلُ أَنَّ السَّمَاءَ تَدْنُو مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَدَّتِ السُّحُبُ الْأَفَاقَ وَأَظْلَمَ بِهَا

الْحِجُو ظِلَامُهُ تَحْتَ النَّهَارِ الْمُنْعَطَى ، وَاسْتَطَارَتْ بَيْنَهَا وَشَائِعُ مِنَ الْبَرَقِ ، ثُمَّ يَنْزُكُ مِنَ الشَّمْسِ جَانِبَ الْأَفُقِ لَمَعَةً كَضَوْءِ الشَّمْعَةِ فِي فَتْحٍ مِنْ فُتُوحِ السَّحَابِ ، ثُمَّ يَرْسِلُ فِي الصُّورَةِ رِيحًا بَارِدَةً هَوَّجَاءَ ، يَذُلُّ عَلَيْهَا أَنْجَاءَ الشَّجَرِ وَتَقْلُبُ الْبُتَاتِ ؛ ثُمَّ يَرْسِمُ رِجَالًا وَنِسَاءً يَغْلِي السَّيَابَ فِيهِمْ غَلَبَاتُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَحُبِّ وَصَبَابَةٍ ، وَتَغْلِي فِيهِمْ أَفْكَارُ أُخْرَى . . . وَهُمْ جَمِيعًا فِي هَيْئَةِ الْمُسْرِعِينَ إِلَى مَرَقَصٍ ؛ وَهُمْ جَمِيعًا مِنَ الْمُجَدِّدِينَ . . .

ثُمَّ يَرْسُمُ يَا بُنَيَّ فِي آخِرِهِمْ (عَلَى بُعْدٍ مِنْهُمْ) عَمَّكَ الْعُجُوزَ (ن) ، يَرْسُمُهُ كَمَا تَرَاهُ ، مُنْحَلَّ الْقُوَّةَ ، مُنْحَنِي الصُّلْبِ ، مُزْعَسًا مُتَزَلِّزًا مُتَضَعِّضًا ، قَدْ رَغَزَعَتْهُ الرِّيحُ ، وَضَرْبُهُ الْبَرْدُ ، وَخَفَقَتْهُ السُّحُبُ ؛ وَلَهُ وَجْهٌ عَلَيْهِ ذُبُولُ الدُّنْيَا ، يُبْنَى أَنْ دَمَهُ قَدْ وُضِعَ مِنْ جِسْمِهِ فِي بَرَادَةٍ ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ أَسْبَابُ رُؤُمَاتِ رُيْثِ RHEUMATISM ^(١) . . .

ثُمَّ يُصَوِّرُهُ وَقَدْ وَقَفَ هُنَاكَ سَاهِمًا كَثِيثًا ، رَافِعًا رَأْسَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ .

* * *

قَالَ الْمُحَدِّثُ : وَضَحِكْنَا جَمِيعًا ، ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : لَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْأَدَمِيَّةَ كَالآلَةِ صَاحِبِهَا مُهَنْدِسُهَا ؛ فَإِنْ صَلَحَتْ وَاسْتَقَامَتْ فَمِنْ عِلْمِهِ بِهَا وَحَيَاتِيَّتِ لَهَا ، وَإِنْ فَسَدَتْ وَاخْتَلَّتْ فَمِنْ عَبِيهِ فِيهَا وَإِهْمَالِهِ إِيَّاهَا ، وَلَيْسَ عَلَى الطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ سَبِيلٌ لَا نِئَمَةٍ ؛ وَالشَّيْخُ الضَّعِيفُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا الصُّورَةُ الْهَزَلِيَّةُ لِمَفَاسِدِ شَبَابِهِ وَضَعْفِهِ وَلَيْثِهِ وَدَعْوَتِهِ ، تُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِيَسْخَرَ مَنْ يَسْخُرُ وَيَتَعَبَّ مَنْ يَتَعَبُّ .

قَالَ (ن) : أَكْذَلِكَ هُوَ يَا أُسْتَاذُ ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ : بَلِ هِيَ الصُّورَةُ الْجَدِيدَةُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي دَأَبُهَا أَلَّا تُصْرَحَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي الْآخِرِ ، فَتُظْهِرُهَا الدُّنْيَا لِيُجِلَّ الْحَقِيقَةُ مَنْ يُجِلُّهَا ، وَلَيْسَ إِلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُعْرِفُ مِنَ خَرَابِ الصُّورَةِ خَرَابُ الْمَعْنَى .

قَالَ الْعُجُوزُ (ن) : أَوَ مِنْ إِجْلَالِ الشَّيْخُوخَةِ وَاحْتِرَامِ النَّاسِ إِيَّاهَا ! إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ احْتِرَامًا لِلشَّيْخِ وَالشَّيْخُ لَا يَرَاهُ إِلَّا تَعَزُّيَةً . وَمَا الْأَشْيَاخُ الْهَرَمَى إِلَّا جَنَازَاتٌ قَبْلَ وَقْفِهَا ، لَا تُؤَحِي

(١) تَتَرَجَّمُ الْيَوْمَ بِهِ الرَّثِيَّةُ ، أَوْ دَاءُ الْتِهَابِ الْمَفَاصِلِ الرَّثَوِيِّ . بَسَام .

إِلَى النَّاسِ شَيْئًا غَيْرَ وَخِي الْجَنَارَةِ مِنْ مَهَابَةِ وَخْشُوعِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ : إِنَّمَا أَنْتَ دَائِمًا فِي حَدِيثِ نَفْسِكَ مَعَ نَفْسِكَ ، وَلَوْ كُنْتَ نَهْرًا يَا مُسْتَنْقِعُ لَمَا كَانَ فِي لُعْتِكَ هَلَدٌ إِلَّا خَرَفٌ مِنَ الْبُعُوضِ .

قَالَ الْعَجُوزُ الظَّرِيفُ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي نَتَنَازَعُهَا بَيْنَنَا ، تَرُدُّ عَلَيَّ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ الْفَانُونِ الَّذِي لَكَ وَخَدَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ أَهْلُهَا الْقَاضِي .

قَالَ (م) : صَرِّحْ وَبَيِّنْ فَمَا فَهَمْنَا شَيْئًا .

قَالَ الْعَجُوزُ : هَذَا كَلَامٌ قُلْتُهُ قَدِيمًا فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ قَضِيَّةُ شَيْخٍ هَرِمٍ كَانَ قَدْ سَرَقَ دَجَاجَةً ؛ وَتَوَسَّمْتُهُ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَذْكَى النَّاسِ ، وَإِذَا هُوَ يَجِلُّ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الثُّمَمَةِ ، وَلَكِنْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ سَرَقَ ، وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَيْهِ وَوَجِبَ الْحُكْمُ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ! أَمَا تَسْتَحْيِي وَأَنْتَ شَائِبٌ أَنْ تَكُونَ لِيصًا ؟ .

قَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَجُوعَ ؟

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ جَوَابِهِ مَا حَيَّرَنِي ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا جُوعْتَ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْرِقَ ؟

قَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! كَأَنَّكَ تَقُولُ لِي : وَإِذَا جُوعْتَ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْكُلَ ؟

فَكَانَتْ هَذِهِ أَشَدَّ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَإِذَا أَكَلْتَ أَمَا تَأْكُلُ إِلَّا حَرَامًا ؟

فَقَالَ : يَا سَيِّدِي الْقَاضِي ! إِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيَّ مُحْتَاجًا لَا أَجِدُ شَيْئًا ، لَمْ تَرْنِي سَارِقًا حِينَ وَجَدْتُ شَيْئًا .

فَأَفْهَمَنِي الرَّجُلُ عَلَى جَهْلِهِ وَسَدَاجَتِهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ سَرَقَ أَفَلَاطُونُ Platon لَكَانَ مِثْلَ هَذَا ؟ فَتَرَكْتُ الْكَلَامَ بِالْفَلَسَفَةِ وَتَكَلَّمْتُ بِالْفَانُونِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الرَّجُلُ مَعَهُ قَوْلًا يُرَاجِعُنِي بِهِ ، فَقُلْتُ : وَلَكِنَّكَ جِئْتَ إِلَى هَذِهِ الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبُ مِنْ هَذِهِ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالسَّجْنِ سَتَيْنِ .

* * *

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَأَرْمَضَنِي هَذَا الْعَجُوزُ الثَّرَنَارُ وَمَلَأَ صَدْرِي ، إِذْ مَا بَرَحَ يُدِيرُنِي وَأُدِيرُهُ عَنْ كَاثَرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيَّتِ Margarite ، وَرَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ هَرِمَ فِيهِ إِلَّا لِسَانَهُ ،

فَحَمَلَنِي الضَّجَرُ وَالطَّيْشُ عَلَى أَنْ قُلْتُ لَهُ : وَهَبِ الْقَضِيَّةَ كَانَتْ هِيَ قَضِيَّةَ كَاثَرِينَا Cathrine
وَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْكَ مُتَهَمَةً ، أَفَكُنْتُ قَائِلًا لَهَا : جِئْتُ إِلَى الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنْ
الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالْحَبْسِ سَتَيْنِ ؟

وَجَرَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى لِسَانِي وَمَا أَلْقَيْتُ لَهَا بَالًا وَلَا عَرَفْتُ لَهَا خَطَرًا ؛ فَأَكْفَهَرَ الْقَاضِي
الْعَجُوزُ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ غَضَبًا ، وَقَالَ : يَا بَغِيضُ ! أَحَسِبْتَنِي كُنْتُ قَائِلًا لَهَا : جِئْتُ إِلَى
الْمَحْكَمَةِ بِالسَّرِقَةِ فَلَا تَذْهَبِينَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ إِلَّا بِالْقَاضِي ...

وَعَضِبَ الْأُسْتَاذُ (م) وَقَالَ : وَيَحَكَ ! أَهَذَا مِنْ أَدَبِكُمُ الْجَدِيدِ الَّذِي تَأْدَبْتُمْ بِهِ عَلَى
أَسَاتِذَةِ مِنْهُمْ الْفَجَرَةُ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِدِينِ الْغَرِيزَةِ وَيُسَوِّغُونَكُمْ
مَذَاهِبَ الْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ فِي حُرِّيَةِ الدِّمِ ... ؟ أَمَا إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنْكُمْ نَشَأْتُمْ عَلَى حُرِّيَةِ الرَّأْيِ ،
وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ بَيْنَ اثْنَيْنِ لَا تَكُونُ حُرَّةً كُلُّ الْحُرِّيَةِ إِلَّا وَهِيَ أَحْيَانًا سَفِيهَةٌ كُلُّ السَّفَاهَةِ كَهَلَدِهِ
الْقَوْلَةِ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا .

لَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي زَمَنِنَا الْمَاضِي أَنَاسًا عَلَى حِدَّةٍ ، وَكَانَتْ آدَابُ حَالَاتٍ عَقْلِيَّةً ثَابِتَةً
لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَكَانَ الْأُسْتَاذُ الْكَافِرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ لَا يَكُونُ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَّا
كَالْمُؤَسَّسِ : تَجْهَدُ أَنْ تُرَبِّي بِنْتَهَا عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا !

قَالَ الْمُحَدِّثُ : فَلَجَلَجْتُ وَذَهَبْتُ أَعْتَذِرُ ، وَلَكِنَّ الْعَجُوزَ (ن) قَطَعَ عَلَيَّ وَأَنْشَأَ يَقُولُ
وَقَدْ أَنْفَجَرَ غَيْظُهُ : لَقَدْ تَمَّتْ فِي هَؤُلَاءِ صِنْعَةُ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي ذَلِكَ
الْوَاعِظِ الْمُعَلِّمِ الْقَدِيمِ الَّذِي حَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْصُصُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ كُلِّ أَرْبَعَاءٍ (١)
فَيَعْلَمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيَعْظُمُهُمْ وَيَحَذِّرُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بِاللَّهِ وَجَنَّتُهُ وَنَارَهُ ؛ قَالُوا : فَأَحْبَسْ
عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَطَالَ أَنْتِظَارُهُمْ لَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُ فَقَالَ :
يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ : أَنْصَرِفُوا فَإِنِّي أَصْبَحْتُ مَخْمُورًا ...

هَذَا الْقَاصُّ الْمَخْمُورُ هُوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السُّخَفَاءِ إِمَامٌ فِي مَذْهَبِ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، وَفَضِيلَتُهُ

(١) هُوَ أَبُو كَعْبٍ الْقَاصُّ ، ذَكَرَهُ الْجَاهِظُ فِي « الْحَيَوَانِ » وَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يَقْصُصُ كُلَّ أَرْبَعَاءٍ فِي مَسْجِدِ
عَتَابٍ بِالْبَصْرَةِ .

عِنْدَهُمْ أَنَّهُ صَرِيحٌ غَيْرُ مُتَافِقٍ . . . وَكَانَ يَكُونُ^(١) هَذَا قَوْلًا فِي إِمَامِ الْمَسْجِدِ لَوْلَا أَنَّهُ إِمَامُ الْمَسْجِدِ ؛ غَيْرَ أَنَّ حُرِّيَّةَ الْفِكْرِ تُبْنَى دَائِمًا فِي كُلِّ مَا تُبْنَى عَلَى غَيْرِ الْأَصْلِ ، وَعِنْدَهَا أَنَّ الْمَنْطِقَ الَّذِي مَوْضُوعُهُ مَا يَجِبُ ، لَيْسَ بِالْمَنْطِقِ الصَّحِيحِ ؛ إِذَا لَا يَجِبُ شَيْءٌ مَا دَامَ مَذْهَبُهَا الْإِطْلَاقُ وَالْحُرِّيَّةُ .

كُلُّ مَفْتُونٍ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعَالَمَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَفَكُّيرِهِ كَمَا مَرَّ مِنْ إِرَادَةِ الْخَالِقِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَخْكُمَ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ سَخِيفَةٍ تَجْعَلُهُ يَخْكُمُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ : (كُنْ) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جَهْلُهُ ؛ وَمَذْهَبُهُ الْأَخْلَاقِيُّ : أَطْلُبْ أَنْتَ الْقُوَّةَ لِلْمَجْمُوعِ ، أَمَا أَنَا فَالْتَمِسْ لِنَفْسِي الْمَنْفَعَةَ وَاللَّذَّةَ ! وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الْمُجْتَمَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَيَحْمِلُونَهُ وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَةِ الْبَرَاغِيثِ فِي جَنَاحِ النَّسْرِ .

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْبَرَاغِيثِ اتَّصَلَتْ بِجَنَاحِ نَسْرِ عَظِيمٍ وَاسْتَمَرَّتْهُ وَرَعَتْ فِيهِ ، فَصَابَرَهَا النَّسْرُ زَمَنًا ، ثُمَّ تَأَذَّى بِهَا ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا عَنْهُ ، فَطَفِقَ يَخْفِقُ بِجَنَاحَيْهِ يُرِيدُ نَقْضَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ الْبَرَاغِيثُ : أَيُّهَا النَّسْرُ الْأَحْمَقُ ! أَمَا تَعْلَمُ أَنَّنَا فِي جَنَاحَيْكَ لِنَحْمِلَكَ فِي الْجَوِّ . . .

أَمَا أَسَانِدُهُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ الْفِكْرِيَّةَ الْأَدَبِيَّةَ ، فَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ : إِنَّ بَعْرَةَ مِنَ الْبَعْرِ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةٍ !

قَالَ (م) : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ بَعْرَةَ كُنْشٍ كَانَتْ مُعَلِّمَةً فِي مَدْرَسَةِ الْحَصَى ، فَالْقَتْ لِنَلَامِيذِهَا كِتَابًا أَحْكَمَتْهُ وَأَطَالَتْ لَهُ الْفِكْرَةَ ، وَبَلَغَتْ فِيهِ جَهْدَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ لِتُظْهِرَ عِبَرِيَّتَهَا الْجَبَّارَةَ ، فَكَانَ الْبَابُ الْأَكْبَرُ فِيهِ أَنَّ الْجَبَلَ خُرَافَةٌ مِنَ الْخُرَافَاتِ ، لَا يَسُوعُ فِي الْعَقْلِ الْحُرِّ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَصِحُّ غَيْرُ هَذَا فِي الْمَنْطِقِ . قَالَتْ : وَالْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْجَبَلَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَكُونُ فِي قَدْرِ الْكُنْشِ الْكَبِيرِ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي قَدْرِ الْكُنْشِ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْعُرَهُ الْكُنْشُ . . . ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ (م) : هَذَا مَنْطِقُ جَدِيدٍ سَدِيدٌ لَوْلَا أَنَّهُ مَنْطِقُ بَعْرَةٍ !

قَالَ (ن) : وَكُلُّ قَدِيمٍ لَهُ عِنْدَهُمْ جَدِيدٌ . فَكَلِمَةُ (رَجُلٍ) قَدْ تَخَشَّتْ ، وَكَلِمَةُ (شَابٍ) قَدْ تَأَثَّتْ ، وَكَلِمَةُ (عَفِيفَةٍ) قَدْ تَدَنَّسَتْ ، وَكَلِمَةُ (حَيَاءٍ) قَدْ تَنَجَّسَتْ ؛ وَالزَّمَنُ الْجَدِيدُ أَلَّا يَعْرِفَ الطَّالِبُ فِي هَذَا الْعَامِ مَاذَا تَكُونُ أَخْلَافُهُ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ وَالْحَيَاةُ الْجَدِيدَةُ أَنْ تُتَفَنَّيَ الْغِشَّ أَكْثَرَ مِمَّا تُتَفَنَّيَ الْعَمَلَ وَالذَّمَّةُ الْجَدِيدَةُ أَنْ مَالَ غَيْرِكَ لَا يُسَمَّى مَالًا إِلَّا حِينَ يَصِيرُ فِي يَدِكَ وَالصَّدَقُ الْجَدِيدُ أَنْ تَكْذِبَ مِثَّةَ مَرَّةٍ ، فَعَسَى أَنْ يُصَدِّقَ النَّاسُ مِنْهَا مَرَّةً ثُمَّ الْإِنْسَانُ الْجَدِيدُ ، وَالْحُبُّ الْجَدِيدُ ، وَالْمَرْأَةُ الْجَدِيدَةُ ، وَالْأَدَبُ الْجَدِيدُ ، وَالْأَبْنُ الْجَدِيدُ ، وَمَا أَذْرِي وَمَا لَا أَذْرِي !

قَالُوا : السُّوْبَرْمَانُ Superman ! وَتَنَطَّعُوا فِي إِخْرَاجِ الْمَخْلُوقِ الْكَامِلِ بِغَيْرِ دِينِهِ وَأَخْلَافِهِ ، فَسَخَّرْتَ مِنْهُمْ الطَّبِيعَةَ فَلَمْ تُخْرِجْ إِلَّا التَّافِصَ أَفْحَشَ النَّقْصِ ، وَتَرَكْتَهُمْ يَعْمَلُونَ فِي النَّظَرِيَّةِ وَعَمِلْتَ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ .

* * *

قَالَ مُحَدِّثُنَا : وَنَهَضَ الْعَجُوزُ (ن) وَهُوَ يَقُولُ : تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ ! لَوْ فَهِمُوا عَنْكَ لَفَهِمُوا الْحِكْمَةَ فِي أَنَّكَ قَدْ فَتَحْتَ عَلَى الْعِلْمِ الْجَدِيدِ بِالْغَازَاتِ السَّامَةِ

قَالَ : وَلَمَّا أَنْصَرَفَ الْعَجُوزُ (ن) ، قُلْتُ لِلْأُسْتَاذِ (م) : وَلَكِنْ مَا خَبِرُ كَاثَرِينَا Cathrine وَمَرْغَرِيتَ Margarite وَسَنَةِ ١٨٩٥ ؟

قَالَ : أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ! أَمَا أَذْرَكْتَ بَعْدُ أَنَّ الْعَجُوزَيْنِ قَدْ سَخَّرَا مِنْكَ بِأَسْلُوبِ جَدِيدٍ

السَّطَرُ الْأَخِيرُ مِنَ الْقِصَّةِ (*) (١)

رَجَعْتُ إِلَى أَوْرَاقٍ قَدِيمَةٍ يَبْلُغُ عُمرُهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ لِوَادَهَا ، تَزِيدُ قَلِيلًا أَوْ تَنْقُصُ قَلِيلًا ؛ وَجَعَلْتُ أَفْلَحِي هَذِهِ الْأَوْرَاقَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا أَنَا عَلَى أَطْلَالِ الْأَيَّامِ فِي مَدِينَةِ قَانِئَةٍ مِنْ تَارِيخِي الْقَدِيمِ ، نَائِمَةٌ تَحْتَ ظِلْمَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ أُنُورَ عَهْدِ مَضَى ، وَإِذَا أَنَا مِنْهَا كَالَّذِي اغْتَرَبَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَنْ وَطَنِهِ ثُمَّ أَبَإَ إِلَيْهِ ، فَمَا يَرَى مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهُ بِهِ عَهْدٌ فِي أَيَّامِ حَدَثَانِهِ وَنَشَاطِهِ إِلَّا اتَّصَلَ بَيْنَهُمَا سِرٌّ ، وَمِنْ طَبِيعَةِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ فِي حَيْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ كَأَنَّهُ ذُو قَلْبٍ مِثْلِهِ لَهُ حَيْنٌ وَنَجْوَى !

وَذَلِكَ التَّلَاشِي الْمَحْفُوظُ فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ ، يَحْفَظُ لِي فِيهَا فِيمَا تَحْتَوِيهِ نَفْسًا وَطَبِيعَةً كَانَتْ نَفْسَ شَاعِرٍ وَطَبِيعَةً رَوْضَةٍ ، فِي عَهْدٍ مِنَ الصَّبَا كُنْتُ فِيهِ أَتَقَدَّمُ فِي الشَّبَابِ وَفِي الْكُونِ مَعًا ، كَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُخْلَقُ فِيَّ خَلْقًا آخَرَ ؛ فَإِذَا قَرَضْتُ شِعْرًا وَأَسْتَوِي لِي عَلَى مَا أَحِبُّ ، أَحْسَنْتُ إِحْسَاسَ الْمَلِكِ الَّذِي يَضُمُّ إِلَى مَمْلَكَتِهِ مَدِينَةً جَدِيدَةً ، وَإِذَا تَنَاوَلْتُ طَاقَةً مِنَ الزَّهْرِ وَتَأَمَّلْتُهَا عَلَى مَا أَحِبُّ ، شَعَرْتُ بِهَا كَأَجْمَلِ غَايَةِ مِنَ الشَّاءِ تُوحِي إِلَيَّ وَخِي الْجَمَالِ كُلِّهِ ، وَإِذَا وَقَفْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، تَرَجَّجَ الْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ فِي نَفْسِي ، فَكُنْتُ مَعَهُ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ وَأَوْسَعَ مِنَ السَّمَاءِ . أَمَّا الْحُبُّ . . . ؟ أَمَّا الْحُبُّ فَكَانَتْ لَهُ مَعَانِيهِ الصَّغِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَضَرُورَاتِ الطِّفْلِ لِلطِّفْلِ ؛ لَيْسَ فِيهَا كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّ فِيهَا أَكْبَرَ السَّعَادَةِ ، وَفِيهَا نَضْرَةُ الْقَلْبِ .

عَهْدٌ مِنَ الصَّبَا كَانَتْ فِيهِ طَرِيقَةُ الْعَقْلِ مِنْ طَرِيقَةِ الْحُلْمِ ؛ وَكَانَتْ الْعَاطِفَةُ هِيَ عَاطِفَةُ فِي النَّفْسِ ، وَهِيَ فِي وَقْتٍ مَعًا خُدْعَةٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ ؛ وَكَانَ مَا يَأْتِي يُنْسِي دَائِمًا مَا مَضَى وَلَا يُذَكِّرُ بِهِ ، وَكَانَتْ الْأَيَّامُ كَالْأَطْفَالِ السَّعْدَاءِ : لَا يَتَأَمُّ أَحَدُهُمْ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَعِبَ وَلَهُوَ ،

(*) « الرسالة » العدد : ٧٨ ، ٢٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ = ٣١ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٤ م ،

السنة الثانية ، الصفحات : ٢١٢٣ - ٢١٢٦ .

(١) أَنْظَرُ « قِصَصُ الرَّافِعِيِّ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

وَلَا يَسْتَقِظُ إِلَّا عَلَى فِكْرَةٍ لَهُ وَلَعِبٍ ؛ وَكَانَتْ أَلْلَعَةُ نَفْسِهَا كَأَنَّ فِيهَا أَلْفَاظًا مِنَ الْحُلُوفِ ،
وَكَانَتْ أَلْأَلَامُ - عَلَى قِلَّتِهَا - كَالْمَرِيضِ الَّذِي مَعَهُ دَوَاؤُهُ الْمُجَرَّبُ ، وَكَانَتْ فَلَسَفَةُ الْجَمَالِ
تَضْحَكُ مِنْ فَيْلَسُوفِهَا الصَّغِيرِ ، الْوَاضِحُ كُلُّ الْوُضُوحِ الْمُقْتَصِرُ بِكُلِّ لَفْظٍ عَلَى مَا يُعْرِفُ مِنْ
مَعْنَاهُ ، الْمُتَفَلِّسُ فِي تَحْقِيقِ الرَّغْبَةِ أَكْثَرُ مِمَّا يَتَفَلَّسُ فِي تَخِيلِ الْفِكْرَةِ !
هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي مِنْ أَحْصَى خَصَائِصِهِ أَنْ تَعْمَلَ ، فَيَكُونَ الْعَمَلُ فِي نَفْسِهِ عَمَلًا ، وَيَكُونَ
فِي نَفْسِكَ لَذَّةً .

* * *

فِي أَوْرَاقِي تِلْكَ بَحْثٌ عَنْ قِصَّةِ عُنْوَانِهَا « الدَّرْسُ الْأَوَّلُ فِي عُلْبَةِ كِبَرِيَّتِ » كَتَبْتُهَا فِي
سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَأَنَا لَا أَذْرِي يَوْمَئِذٍ أَنَّهَا قِصَّةٌ يَسْبُحُ فِي جَوْهَا قَدَرُ رِوَايَتِي عَجِيبٌ ، سَيَأْتِي بَعْدَ
ثَلَاثِينَ سَنَةً فَيَكْتُبُ فِيهَا السَّطْرَ الْأَخِيرَ الَّذِي تَتِمُّ مَعَهُ فَلَسَفَةُ مَعْنَاهَا .

وَهَآنَا ذَا أَنْشُرُهَا كَمَا كَتَبْتُهَا ، وَكَانَ هَذَا الْقَلَمُ إِذْ ذَاكَ غَضًّا لَمْ يَضْلُبْ ، وَكَانَ
كَالْغَضَنِ تَمِيلُ بِهِ النَّسَمَةُ ، عَلَى أَنَّ أَسَاسَ بَلَغَتِهِ قَدْ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ ، بَلَاعَةٌ فَرَحِهِ أَوْ بَلَاعَةٌ
حُزْنِهِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ :

« عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الرَّحِيمِ » غُلَامٌ فَلَاحٌ ، قَدْ شَهِدَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا تِسْعَةَ أَغْوَامٍ ،
مَرَّتْ بِهِ كَمَا يَمُرُّ الزَّمَنُ عَلَى مَيِّتٍ : لَا تَرِيدُهُ حَيَاةُ الْأَحْيَاءِ إِلَّا إِهْمَالًا ، فَتَشَأْ مَنْشَأَ أَمْنَالِهِ
مِمَّنْ فَقَدُوا أُلُودَ الدِّينِ ، وَأَنْتَرَعُوا مِنْ شَمْلِهِمْ فَتَرَكُوا لِلطَّبِيعَةِ تَفْصِيلُهُمْ وَتَصِلُهُمْ بِالْحَيَاةِ ،
وَنُضِيقَ لَهُمْ فِيهَا وَثُوسَعُ .

وَهَيَّاتِ الطَّبِيعَةُ مِنْهُ إِنْسَانًا حَيَوَانِيًّا ، لَا يَبْلُغُ أَشَدَّهُ حَتَّى يُغَالِبَ عَلَى الرِّزْقِ بِالْحِيلَةِ أَوْ
الْجَرِيمَةِ ، وَيَسْتَخْلِصَ قُوَّتَهُ كَمَا يَزْتَرِقُ الْوَحْشُ بِالْمُخْلَبِ وَالنَّابِ ؛ وَلَكِنْ يَكُونُ بَعْدَ إِلَّا
مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْفَاتِكَةِ الْجَرِيمَةِ ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ مَتَى أَبْتَدَأَتْ عَمَلَهَا فِي
تَحْوِيلِ الْإِنْسَانِ عَنْ إِنْسَانِيَّتِهِ ، نَزَلَتْ بِهِ إِلَى أَلْعَالِمِ الْحَيَوَانِيِّ ، وَوَصَلَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ
وَالدَّنَاءَةِ ، ثُمَّ لَا تَتْرُكُ عَمَلَهَا حَتَّى يَتَحَوَّلَ هُوَ إِلَيْهَا .

وَأَلِفَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي بَلَدِهِ حَانُوتَ رَجُلٍ فَقِيرٍ ، يَسْتَعْنِي بِالْبَيْعِ عَنِ التَّكْفُفِ وَعَنِ

الْمَسْأَلَةِ ؛ فَكَانَ الْغُلَامُ يُكْثِرُ الْوُقُوفَ عِنْدَهُ ، وَكَانَ يَطْعَمُ مِنْ صَاحِبِهِ أَحْيَانًا كَرِزْقِ الطَّيْرِ ،
فَتَانًا وَبَقَايَا ؛ إِذْ كَانَ الْغُلَامُ شَحَاذًا ، وَكَانَ صَاحِبُ الْحَانُوتِ لَا يَرْتَفِعُ عَنِ الشَّحَاذَةِ إِلَّا
بِمَثْرُةٍ تَجْعَلُ النَّاسَ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ بِالشَّرَاءِ مِنْ هَنَاتِهِ الَّتِي يُسَمِّيهَا بِضَاعَةً : كَالْخِيطِ ،
وَالْإِبْرَةِ ، وَالْكَبْرِيتِ ، وَالْمِلْحِ ، وَغَزَالِ اللَّوْلَدِ ، وَكُحْلِ اللَّصْبَايَا ، وَنَشُوقِ اللَّعْجَائِزِ نُسخةَ
الشَّيْخِ الشَّعْرَانِيِّ ، وَمَا لَفَّ لَفَّهَا مِمَّا يَصْعَدُ ثَمَنُهُ مِنْ كُسُورِ الْمِلِّيمِ ، إِلَى الْمِلِّيمِ
وَكُسُورِهِ ...

وَتَغَفَّلَهُ الْغُلَامُ مَرَّةً وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى ذَخَائِرِ الْحَانُوتِ ، فَالْتَقَطَتْ « عُلبَةُ كِبْرِيتٍ » كَانَ
الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يَسْرِقَهَا وَأَنْ يَشْتَرِيَهَا - نِصْفَ مِلِّيمٍ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لَهُ « بِالْعَشْرَيْنِ الْخُرْدَةُ » ؟ وَهِيَ
عِنْدَ مِثْلِهِ دِينَارٌ مِنَ الذَّهَبِ يَرْنُ رَنْتِنًا وَيَرْقُصُ عَلَى الظَّفَرِ رَفْصَةً إِنْكِلِيزِيَّةً ؟ .

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْعُلبَةِ ؟ هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ تُجَادِلَهُ وَلَكَّمَا تَسْكُنُ رَعِشَةُ يَدِهِ مِنْ هَوْلِ الْإِنِّمِ ،
وَلَكِنَّ الْغُلَامَ كَانَ طَبِيعِيًّا وَلَمْ يَكُنْ فَيَلْسُوفًا ، وَلِذَلِكَ رَأَى أَنْ يُخْرِزَ الْحَقِيقَةَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ
بَدُهُ عَلَيْهَا . وَقَدْ أَصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَادَّةَ السَّرِيقَةِ هِيَ « مَدُّ الْيَدِ » أَخْطَأَتْ أَمْ أَصَابَتْ ،
وَجَاءَتْ بِالْغَالِي أَوْ جَاءَتْ بِالرَّخِيسِ ؛ فَضَمَّ يَدَهُ عَلَى الْعُلبَةِ وَانْتَزَعَهَا ، وَتَرَكَ فِي مَكَانِهَا
فَضِيلَةَ الْأَمَانَةِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لَهُ النَّاسُ قِيمَتَهَا ، فَهَانَتْ كَذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَنْطَلَقَ وَهِيَ
تَتَادِيهِ :

أَيُّهَا الْغُلَامُ ! أَتَدْفَعُ ثَمَنَ عُلبَةِ الْكَبْرِيتِ سَتَيْنِ مِنْ عُمُرِكَ ؟ وَهَلْ خَلَا النَّاسُ مِمَّنْ
يَعْرِفُونَ لِعُمُرِكَ قِيمَةً ؟ .

وَأَزْتَدَّ رَجْعُ الصَّوْتِ الْخَفِيِّ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، فَضَرَبَ قَلْبُهُ ضَرْبَاتٍ مِنْ
الْخَوْفِ ، وَتَرَا نَزْوَةً مُضْطَرِبَةً ؛ فَالْتَفَتَ الْغُلَامُ مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ أَمْعَنَ فِي الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْأَمَانَةَ
تَتَادِيهِ :

أَيُّهَا الْغُلَامُ ! إِنَّ لَكَ فِي الْآخِرَةِ نَارًا لَا تُوقَدُ بِهَذَا الْكَبْرِيتِ ، وَلَكَّ فِي الدُّنْيَا سِجْنٌ
كَهْلِهِ الْعُلبَةُ ، فَالْعَبَ الْعَبَّ مَا دَامَ النَّاسُ قَدْ أَهْمَلُوكَ ! الْعَبَّ بِالثَّقَابِ الَّذِي فِي يَدِكَ
فَسَيَمْنُدُ فِيكَ مَعْنَى اللَّهِ حَتَّى يَجْعَلَ حَيَاتَكَ فِي أَعْمَارِ النَّاسِ دُخَانًا وَنَارًا ؛ وَسَتَكُونُ
أَيَّامُكَ أَعْوَادًا كَهَذَا الْكَبْرِيتِ : تَشْتَعِلُ فِي الدُّنْيَا وَتُحْرِقُ .

وَكَاَنَّ أَذْنَابَ السَّيَاطِ كَانَتْ تُلْهَبُ ظَهْرَ الْغُلَامِ الْمُسْكِينِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَلْتَفِتُ هَلْهُ
الْمَرَّةَ حَتَّى كَانَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ الْحَانُوتِ ، وَإِذَا هُوَ بِكَلِمَةٍ مِنْ لُغَةٍ كَفَّهُ الْغَلِيظَةَ ، خُبِلَتْ
لَهُ فِي شِعْرِهَا أَنَّ جِدَارًا انْقَضَ عَلَيْهِ ، وَتَلَتْهَا جُمْلَةً مِنْ قَوَافِي الصَّفْعِ جَلَجَلَتْ فِي أُذُنِهِ
كَالزَّعْدِ ، وَأَغْقَبَ ذَلِكَ مِثْلَ الْمَوْجِ مِنْ جَمَاعَاتِ الْأَطْفَالِ أَحَاطَ بِهِ ، فَتَرَكَ هَذَا الزُّورَقَ
الْإِنْسَانِي الصَّغِيرَ يَتَكَفَّمُ عَلَى صَدَمَاتِ الْأَيْدِي ، فَمَا أَحَسَّ الْغُلَامُ النَّعْسَ إِلَّا أَنَّ الْكِبْرِيَّتَ
الَّذِي فِي يَدِهِ قَدْ انْقَدَحَ فِي رَأْسِهِ ، وَكَانَتْ أَنَامِلُ صَاحِبِ الْحَانُوتِ كَأَنَّمَا تَحْكُ أَغْوَادَهُ فِي
جِلْدِ وَجْهِهِ الْخَشِنِ .

* * *

وَدَهَبُوا بِهِ إِلَى (دَوَارِ) الْعُمْدَةِ يَقْضِي فِيهِ اللَّيْلَ ، ثُمَّ يُضْبِحُ عَلَى رِحْلَةٍ إِلَى الْمَرْكَزِ
وَالْيَابَةِ ، وَانْطَرَحَ الْمُسْكِينُ مُنْتَظِرًا حُكْمَ الصَّبَاحِ ، مُؤَمِّلًا فِي عَقْلِهِ الصَّغِيرِ أَلَّا يَفْصَحَ النَّهَارُ
حَتَّى يَكُونُ « سَيِّدَنَا عِزْرَائِيلَ » قَدْ طَمَسَ الْجَرِيمَةَ وَشُهُودَهَا ثُمَّ أَغْفَى مُطْمَئِنًّا إِلَى مَلِكِ
الْمَوْتِ وَأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ فِي عَمَلِهِ بِجِدِّ ، وَأَيْقَنَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّ سَيَسْجُدُ فِي الْخَمِينِ مِمَّا يُورَعُ فِي
الْمَقْبَرَةِ صَدَقَةَ عَلَى أَرْوَاحِ الْعُمْدَةِ ، وَصَاحِبِ الْحَانُوتِ ، وَالْخَفِيرِ الَّذِي عَهَدُوا إِلَيْهِ جَزَهُ
إِلَى الْمَرْكَزِ . . . ! وَكَيْفَ يَشْكُ فِي أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِهِمْ وَهُوَ قَدْ تَوَسَّلَ بِالرَّوْلِيِّ فَلَانٍ وَنَذَرَ لَهُ
شَمْعَةً يَسْرِقُهَا مِنْ حَانُوتِ آخَرَ . . . !

هَكَذَا عَرَفَ الشَّرَّ قَلْبُ هَذَا الصَّبِيِّ ، وَأَنْتَهَى بِهِ عَذْلُ النَّاسِ إِلَى أَقْطَعِ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ ،
وَكَانَتْهُمْ بِذَلِكَ الْقَانُونِ الَّذِي يُضْلِحُونَهُ بِهِ عَلَى زَعْمِهِمْ ، قَدْ نَاولُوهُ سُبْحَةَ لِيُظْهَرَ بِهَا مَظْهَرَ
الْصَّالِحِينَ ، وَلَمْ يَفْهَمُوهُ شَيْئًا فَفَهِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ : هَذِهِ الْجَرِيمَةُ وَاحِدَةٌ ، فَعُدَّ جَرَائِمَكَ
عَلَى هَذِهِ السُّبْحَةِ لِنَعْرِفَ كَمْ تَبْلُغُ !

كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ لُغْبَةً لَا سَرَقَةَ ، وَكَانَتْ يَدُ الْغُلَامِ فِيمَا فَعَلَتْ مُسْتَحِجَّةً لِقَانُونِ الْمَرْحِ
وَالنَّشَاطِ وَالْحَرَكََةِ ، كَمَا تَكُونُ أَعْضَاءُ الطِّفْلِ لَا كَمَا تَكُونُ يَدُ الْبَالِغِ ؛ وَكَانَ أَشْبَهَ بِالرَّضِيعِ
يَمُدُّ يَدَهُ لِكُلِّ مَا يَرَاهُ ، لَا يُمَيِّزُ ضَارَةً وَلَا نَافِعَةً ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَشْعُرَ وَيُحَقِّقَ طَبِيعَتَهُ ، وَكَانَ
كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ وَقُصَارَى مَا بَلَغَ - أَنَّ خَيَالَ هَذَا الْغُلَامِ أَلْفَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ اللَّهِو ، وَأَنَّ
الْكِبَارَ أَخْطَؤُوا فِي فَهْمِهَا وَتَوَجَّهَ . . . ! لَيْسَتْ سَرَقَةُ الطِّفْلِ سَرَقَةً ، وَلَكِنَّهَا حَقٌّ مِنْ

حُقُوقِ ذَكَائِهِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ .

* * *

وَأَنْتَهَى « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » إِلَى الْمَحْكَمَةِ ، فَقَضَتْ بِسَجْنِهِ فِي (إِصْلَاحِيَّةِ الْأَحْدَاثِ) مُدَّةَ سَتَيْنِ ، وَأَسْتَأْنَفَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي بَلَدِهِ ، صَدَقَةً وَاحْتِسَابًا . . . إِذْ لَمْ يُكَلِّفِ الْأَسْتِنَافُ إِلَّا كِتَابَةَ وَرَقَةٍ ؛ فَلَمَّا مَثَلَ الصَّغِيرُ أَمَامَ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لِفَقْرِهِ مُحَامٌ يَذْفَعُ عَنْهُ ، وَلَكِنْ أَنْطَلَقَ مِنْ دَاخِلِهِ مُحَامٌ شَيْطَانِيٌّ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ ، هُوَ سُخْرِيَّةُ الْجَرِيمَةِ مِنَ الْمَحْكَمَةِ ، وَسُخْرِيَّةُ عَمَلِ الشَّيْطَانِ مِنْ عَمَلِ الْقَاضِي . . . !

سَأَلَهُ الرَّئِيسُ : « مَا أَسْمُكَ ؟ » .

- « أَسْمِي عَبْدُهُ ، وَلَكِنَّ الْعُمْدَةَ يُسَمِّيَنِي : يَا ابْنَ الْكَلْبِ ! » .

- « مَا سِئْلُكَ ؟ » .

- « أَبُونَا هُوَ الَّذِي كَانَ سَتَانٌ » .

- « عُمْرُكَ إِيَّاهُ ؟ » .

- « عُمْرِي ؟ عُمْرِي مَا عَمِلْتُ شَقَاوَةً ! » .

الْتِيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « ذَكَاءٌ مُخِيفٌ يَا حَضْرَاتِ الْقُضَاةِ ! عُمْرُهُ تِسْعُ سَنَوَاتٍ ! » .

الرَّئِيسُ : « صَنَعْتُكَ إِيَّاهُ ؟ » .

- « صَنَعْتَنِي أَلْعَبُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمَ ، وَأَضْرَبَ الَّذِي يَضْرِبُنِي ! » .

- « تَعِيشُ فِينِ ؟ » .

- « فِي الْبَلَدِ ! » .

- « تَأْكُلُ مِنْينِ ؟ » .

- « أَكُلُ مِنَ الْأَكْلِ ! » .

كَانَ أَبُو الْغُلَامِ سَتَانًا ، وَمِثْلُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْعَامِيَّةِ فِي الْقِصَّةِ هُوَ مِلْحُ الْقِصَّةِ .

الْتِيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « يَا حَضْرَاتِ الْقَضَاةِ ! مِثْلُ هَذَا لَا يَسْرِقُ عَلَيْهِ كِبَرِيَّتِ إِلَّا لِإِخْرَاقِ بِهَا الْبَلَدَ . . . » .

الرَّئِيسُ : « أَلَكِ أُمُّ ؟ » .

- « أُمِّي غَضِبَتْ عَلَى أَبَوَيَا ، وَرَاحَتْ قَعَدَتْ فِي التَّرْتِيَةِ ؛ مَا رَضِيَتْشِ تَرْجَعِ ! » .

- « وَأَبُوكِ ؟ » .

- « أَبُويَا لَأَخْرَجُ غَضِبَ وَرَاحَ لَهَا » .

الرَّئِيسُ ضَاحِكًا : « وَأَنْتِ ؟ » .

- « وَاللَّهِ يَا أَفْنَدِي عَاوِزَ أَغْضَبَ ، مُشْ عَارِفَ أَغْضَبَ إِدْرَاي ! » .

- « إِنَّتِ سَرَقْتَ عَلَيْهِ الْكِبَرِيَّتِ ؟ » .

- « دِينِي هِيَ طَارَتْ مِنَ الدُّكَّانِ ، حَسِبْتُهَا عُصْفُورَةً وَمَسَكْتُهَا . . . » .

الْتِيَابَةُ : « وَلِيَّةَ مَا طَارَتْشِ الْعُلْبُ اللَّيِّ مَعَهَا فِي الدُّكَّانِ ؟ » .

- « أَنَا عَارِفٌ ؟ يُمْكِنُ خَافَتْ مِنِّي ! » .

الْتِيَابَةُ لِلْمَحْكَمَةِ : « جَرَاءَةُ مُخِيفَةً يَا حَضْرَاتِ الْقَضَاةِ ! الْمُتَّهَمُ وَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنِّ ، يَشْعُرُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَخَافُهُ ! » .

فَصَاحَ الْعُلَامُ مَسْرُورًا مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ . « وَاللَّهِ يَا أَفْنَدِي إِنَّتِ رَاجِلُ طَيِّبٍ ! أَذْيُكَ عَرَفْتَنِي ، رَبَّنَا بِكَفَيْكَ شَرَّ الْعُمْدَةِ وَالْغَفِيرِ ! » .

* * *

وَأَمْضَى الْحُكْمُ فِي الْأَسْتِثْنَاءِ ، وَخَرَجَ الصَّغِيرُ مَعَ رِجَالِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ يُسَوِّقُهُمُ الْجُنْدُ ، ثُمَّ اخْتَسَمُوا الْجَمِيعُ فِتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ عِنْدَ كَاتِبِ الْمَحْكَمَةِ ، لِيَسْتَوْفِيَ أَعْمَالَهُ الْكِتَابِيَّةَ ، ثُمَّ يُسَافِقُونَ مِنْ بَعْدِ إِلَى السَّجْنِ .

وَجَلَسَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » ، عَلَى الْأَرْضِ ، وَقَدْ أَكْتَنَفَهُ عَنْ جَانِبِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُجْرِمِينَ يَتَحَادَثُونَ وَيَتَغَامَرُونَ ! وَكُلُّهُمْ رِجَالٌ وَلَكِنَّهُ وَحْدَهُ الصَّغِيرُ بَيْنَهُمْ . فَاطْمَأَنَّ شَيْئًا قَلِيلًا ، إِذْ

قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا لَآءٍ قَدْ أُرِيدَ بِهِمْ شَرٌّ لَمَا سَكَنُوا هَذَا السُّكُونَ ، وَإِنَّ الَّذِي يُرَادُ بِهِمْ لَا يَنَالُهُ هُوَ إِلَّا أَصْغَرُ مِنْهُ ، كَصَفْعَةٍ أَوْ صَفْعَتَيْنِ مَثَلًا . . . وَهُوَ يَسْمَعُ أَنَّ الرِّجَالَ يَقْتُلُونَ وَيَحْرَقُونَ وَيَسْمُونَ وَيَمْتَدُونَ وَيَنْهَبُونَ ؛ وَمَا تَكُونُ (عَلْبَةُ الْكِبْرِيَّتِ) فِي جَنْبِ ذَلِكَ ؟ وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّهَا صَاحِبُهَا ، وَقَدْ نَالَ هُوَ مَا كَفَاهُ قَبْلَ الْحُكْمِ ؟

وَمَا لَيْتَ بَعْدَ هَذَا الْخَاطِرِ الْحَمِيلِ أَنْ رَدَّ الْأَطِمِثَانِ فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعًا كَادَ يُرِيقُهَا الْجَزَعُ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَلْقَ اعْتَادَهُ ، فَالْتَمَتَ إِلَى كِتَابِ الْمَحْكَمَةِ مَرَّةً وَإِلَى الْجُنْدِ مَرَّةً ، ثُمَّ لَوَى وَجْهَهُ وَلَمْ يَسْتَبِخْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَى الْفِكْرِ فِيهِمْ ، لِأَنَّهُ قَابِلٌ مَهَابَتَهُمْ بِالْهَيْةِ بَلَدِهِ : الْعُمْدَةُ وَالْمَشَايِخُ وَالْخُفَرَاءُ ؛ فَأَذْرَكَ أَنَّ الْجُنُودَ هُمُ الْحُكُومَةُ الْقَادِرَةُ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَزْرَارِهِمُ اللَّامِعَةِ ، وَخَنَاجِرِهِمُ الصَّقِيلَةِ وَتَمَشَّتْ فِي قَلْبِهِ رَهْبَةٌ هَذِهِ الْخَنَاجِرِ ، فَأَضْطَرَبَ خَشْيَةً أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ إِلَى مَنْ يَذْبَحُهُ ، فَظَرَّ إِلَى الَّذِي يَلِيهِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَسَأَلَهُ : « رَاحَ يَأْخُذُونِي فِينِ ؟ » فَاجَابَتْهُ لَكَمَّةٌ خَفِيفَةٌ أَنْطَلَقَ لَهَا دَمْعُهُ ، حَتَّى أَسْكَنَتْهُ الَّذِي يَلِيهِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ ، وَكَانَ فِي رَأْيِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ !

ثُمَّ اتَّصَلَ الْجَزَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَعَيْنَيْهِ ، فَهُمَا تَضَطَّرِبَانِ إِلَى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ، وَكَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَشِفَّ مِنْ أَثَمَاتِ سَيِّئَاتِهِ الْمَوْتُ ذُبْحًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَعْنَى (الِإِصْلَاحِيَّةِ) ، وَحَكَمَ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَزَحْمُوا هَذِهِ الطُّفُولَةَ بِكَلِمَةٍ مُفَسِّرَةٍ . وَعَدَلُ التَّرْبِيَةِ غَيْرُ عَدْلِ الْقَانُونِ ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْقَاضِي الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الطُّفْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ حُكْمَهُ أَشْبَهَ بِصِغَةِ الْقِصَّةِ مِنْهُ بِصِغَةِ الْحُكْمِ ، وَأَنْ يَدَعَ الْجَرِيمَةَ تَنْطَلِقُ وَتَذْهَبُ فَلَا يَقُولُ لَهَا أَمْكُنِي . . .

وَبَقِيَ لِلْخَنَاجِرِ رَهْبَتُهَا فِي نَفْسِ هَذَا الْمُسْكِينِ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَادُوهُ إِلَى حَبْلِ الشَّقَاقَةِ لِأَفْهَمَهُ (الْحَبْلُ) مَعْنَى الْعُقُوبَةِ ، أَمَا وَهُوَ بَيْنَ هَذِهِ الْخَنَاجِرِ الْمُغْمَدَةِ - وَفِي الْخَنَاجِرِ مَعْنَى الذَّنْبِ - فَاتَّمَا هُوَ الذَّنْبُ لَا غَيْرُهُ .

وَطَرَقَتْ أُذُنُهُ فَهْمَةُ الْمُجْرِمِ عَنْ يَمِينِهِ فَاسْتَفْذَنَتْهُ مِنْ هَذَا الْخَاطِرِ ، فَكَبَّتْ عَيْنُهُ فِي الرَّجُلِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى وَجْهًا مَثَلًا لَهَا ، وَجِسْمًا رَابِطَ الْجَاشِ ، وَهَزُؤًا وَسُخْرِيَةً بِهِؤُلَاءِ الْجُنُودِ وَخَنَاجِرِهِمْ .

وَاسْتَرَاحَ الْغُلَامُ إِلَى صَاحِبِهِ هَذَا ، وَالْحَـجَّ بَنَظَرِهِ عَلَيْهِ ، وَابْتَدَأَ يَتَعَلَّمُ فِي وَجْهِهِ

الْفَلَسَفَةُ ، وَلَيْسَتْ الْفَلَسَفَةُ مَقْصُورَةٌ عَلَى الْكُتُبِ ، بَلْ إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَالَةً تَشْغَلُهُ ، فَتَنْظَرُهُ فِي أَعْيَانٍ دَقَائِقِهَا وَكَشَفِ مَسْتَوْرَهَا هُوَ الْفَلَسَفَةُ بِعَيْنِهَا .

وَقَالَ الْغُلَامُ لِنَفْسِهِ :

هَذَا الرَّجُلُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ ، فَهُوَ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ وَلَا يَبَالِي ، بَلْ يُقَهِّقُهُ ضَحِكًا ، فَهَذَا الْحُكْمُ إِذَنْ لَا يُخِيفُ ؛ لَا ، بَلْ هُوَ تَعَوَّدَ الْأَحْكَامَ ، إِذَنْ فَمَنْ تَعَوَّدَ الْأَحْكَامَ لَمْ يَخَفِ الْأَحْكَامَ ؛ إِذَنْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ سَتَتَعَوَّدُ ، فَإِنَّ الْخَوْفَ هَذِهِ الْمَرَّةَ قَدْ عَطَّكَ مِنْ « عُلْبَةِ الْكِبَرِيَّتِ » فِي حَرِينِي مُتَسَعِّرٍ ، وَمَا قَدَرُ « عُلْبَةِ الْكِبَرِيَّتِ » ؟ فَلَوْ كَانَتْ السَّرِيقَةُ جَامُوسَةً مَا لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، يَا لَيْتَنِي إِذَا ... وَلَكِنِّي لَا أَرَا صَغِيرًا ، فَمَتَى كَبُرْتُ ... آه مَتَى كَبُرْتُ ... » .

وَبَدَأَ الْقَانُونُ عَمَلَهُ فِي الْغُلَامِ ، فَطَرَدَ مِنْهُ الطُّفْلَ وَأَقْرَفَ فِيهِ الْمُجْرِمَ .

* * *

وَأَطْرَقَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » هَادِئًا سَاكِنًا ، وَقَامَتْ فِي نَفْسِهِ مَحْكَمَةٌ مِنَ الْأَبَالِسَةِ ، بِقَضَائِهَا وَنِيَابَتِهَا ، يُجَادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيُدَاوِلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَ هَذَا الْغُلَامِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ . وَقَالَ شَيْطَانُ مِنْهُمْ : « وَلَكِنَّا نَخْشَى أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ (الْإِصْلَاحِيَّةَ) سَتُخْرِجُهُ بَعْدَ سَتَيْنِ شَرِيفًا يَخْتَرِفُ ؛ وَالثَّانِي أَنَّ النَّاسَ رُبَّمَا تَوَلَّوْهُ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْمَدَارِسِ رَحْمَةً وَشَفَقَةً ، فَيَخْرُجُ شَرِيفًا يَخْتَرِفُ » .

وَمَا أَسْرَعَ مَا نَفَى الْخَوْفَ عَنْهُمْ قَوْلُ الْغُلَامِ نَفْسِهِ بِلَهَجَةٍ فِيهَا الْحِفْدُ وَالْغَيْظُ ، وَقَدْ صَفَعَهُ الْجُنْدِيُّ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى السَّجْنِ - : « وَدَا كُلُّهُ عَلَى شَأْنِ عُلْبَةِ كِبَرِيَّتِ ... ؟ » .

فِي سَنَةِ ١٩٣٤ قَضَتْ مَحْكَمَةُ الْجِنَايَاتِ بِالْمَوْتِ شَفْعًا عَلَى قَاتِلِ مُجْرِمِ خَبِيثٍ ، عَيَّارٍ مُتَشَطِّرٍ ، اسْمُهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الرَّحِيمِ » .

عَاصِفَةُ الْقَدَرِ (١)

عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي إِفْلِيمِ (الْغَزَبِيَّة) مِنْ هَذَا الْبَرِّ ، قَرْيَةٌ لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ وَلَكِنْ رُوحُ الْجَبَلِ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَإِذَا [أَنْتَ] أَعْتَبَرْتَهُ بِالرَّجَالِ قُوَّةً وَضَعْفًا رَأَيْتَهُ يَنْهَضُ فِيهِمْ بِمَنْكِبَيْهِ نَهْضَةَ الْجَبَلِ فِيمَا حَوْلَهُ ، وَهُوَ بَظُلِّ الْقَرْيَةِ وَلَوْاءُ كُلِّ مَعْرَكَةٍ تَنْشُبُ فِيهَا بَيْنَ فِتْيَانِهَا [وَبَيْنَ] وَفِتْيَانِ الْقَرْيَةِ الْمُتَنَاهِتَةِ حَوْلَهَا ، وَلَا تَرَالُ هَلِهِ الْمَعَارِكُ بَيْنَ شُبَّانِ الْقَرْيَةِ كَأَنَّهَا مِنْ حَرَكَةِ الدَّمِ الْحَرِّ الْفَاتِحِ الْمُتَوَارِثِ فِيهِمْ مِنْ أَجْيَالٍ بَعِيدَةٍ ، يَنْحَدِرُ مِنْ جَبَلٍ إِلَى جَبَلٍ وَفِيهِ تِلْكَ الْقَطَرَاتُ الثَّابِتَةُ الَّتِي كَانَتْ تَغْلِي وَتَقُورُ^(٢) ، وَهِيَ كَعَهْدِهَا لَا تَرَالُ تَغْلِي وَتَقُورُ ، وَيَلْقُبُونَ هَذَا الرَّجُلَ الشَّدِيدَ (بِالْجَمَلِ) لِمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ جَسَامَةِ خَلْقِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى الشَّدَائِدِ ، وَاحْتِمَالِهِ فِيهَا ، وَكَوْنِهِ مَعَ ذَلِكَ سَلِسَ الْفِيَادَةِ^(٣) سَلِيمَ الْفِطْرَةِ رَفِيقَ الطَّبْعِ ، عَلَى أَنَّهُ أَبْطَشُ ذِي يَدَيْنِ إِنْ ثَارَ ثَائِرُهُ ، وَلَهُ إِيمَانٌ قَوِيٌّ يَسْتَمْسِكُ بِهِ كَمَا يَتَمَسَّكُ الْجَبَلُ بِعُنْصُرِهِ الصَّخْرِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْلُطُهُ بَعْضُ الْخُرَافَاتِ ، إِذْ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ بَعْضِ الْجَرَائِمِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا فَرْطُ الْقُوَّةِ وَالْمُرُوءَةِ فِي مِثْلِهِ مَعَ مِثْلِهِ .

وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ مِنْ بَحْرِ ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا شَابًا أَعْتَفَ طَيْشًا وَعُتُورًا مِنَ الْمَوْجَةِ عَلَى بَحْرِهَا فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاتِيَةٍ ، حُلُوُ الْمَنْظَرِ لِنِكَتِهِ مُرُّ الطَّعْمِ ، صَافِي الْوَجْهِ لَنِكَتِهِ لَهُ غُورًا بَعِيدًا مِنَ الدَّهَاءِ وَالْخُبْثِ ، وَهُوَ ابْنُ عُمْدَةِ الْبَلَدَةِ وَوَاحِدُ أَبَوَيْهِ وَالْوَارِثُ مِنْ دُنْيَاهُمَا الْعَرِيزَةِ ، يَسْطُرُ يَدَيْهِ عَلَى خَمْسِ مِثَّةٍ فِدَانٍ ، وَقَدْ أَفْسَدَتْهُ النَّعْمَةُ وَأَهَانَتْهُ عِزَّتُهُ عَلَى أَهْلِهِ ، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ حَسَنَتَانِ لِتَخْرُجَ مِنْهُمَا سَيِّئَةٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ بِأَسْلُوبٍ مِنَ الْأَسَالِيبِ ، لَمَا وَسَعَهَا إِلَّا أَسْلُوبُ نَشَاتِهِ مِنْ أَبَوَيْهِ الطَّيِّبِينَ . تَعَلَّمَ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى الْعِلْمِ ، فَجَعَلَتْ

(١) أُنْشَأَهَا لِلْمُقْتَضَبِ سَنَةِ ١٩٢٥ ، [وُنُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ «الرَّسَالَةِ» الْعِدَدُ : ٣٥٨ ، ٦ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ

١٣٥٩ هـ = ١٣ مايو / أيار ١٩٤٠ م ، السَّنَةُ الثَّامِنَةُ ، الصَّفَحَاتُ : ٨٣٥ - ٨٣٩] .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «تَقُورُ وَتَغْلِي» بَدَلًا مِنْ : «تَغْلِي وَتَقُورُ» .

(٣) فِي «الرَّسَالَةِ» : «الْفِيَادَةُ» بَدَلًا مِنْ : «الْفِيَادَةُ» .

تَلَفُظُهُ الْمَدَارِسُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهُ نَوَاهُ ثَمَرَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ : إِنَّ خَمْسَ مِثَّةٍ فَدَانٍ لَا تَسَعُهَا مَدْرَسَةٌ . . . وَذَهَبَ إِلَى فِرْنَسَةِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ الَّذِي اسْتَعَصَى عَلَيْهِ فِي مِصْرَ ، فَأَرْهَفَ ذَلِكَ الْعِلْمُ . . . خَيَالَهُ وَصَقَلَ حِسَّهُ ، وَرَجَعَ مِنْ بَارِيسَ Paris رَقِيقَ الْحَاشِيَةِ ، حَتَّى مُنْظَرَفًا ، لَا يَصْلُحُ شَرْفِيًّا وَلَا غَرِيبًا !

وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ غَابَةٌ ، لَكِنَّ فِيهَا عَذْرَاءٌ تَلْتَفُّ مِنْ جِسْمِهَا فِي رِدَاءِ الْجِمَالِ الطَّبِيعِيِّ الرَّائِعِ ، وَلَهَا نَفْسٌ أَشَدُّ وَعُورَةٌ مِمَّا تَنْطَوِي الْعَابَةُ عَلَيْهِ ؛ فَبَيْنَ ظَاهِرِهَا الرُّونْقُ الَّذِي يَفْتِنُ فَيَجْذِبُ إِلَيْهَا ، وَفِي بَاطِنِهَا الْقُوَّةُ الَّتِي تَلْتَوِي فَتَدْفَعُ عَنْهَا ؛ وَهِيَ ابْنَةُ عَمٍّ (الْجَمَلِ) وَأَسْمُهَا (خَضْرَاءُ) ، وَكَأَنَّ فِيهَا زَهْوُ خَضِرَةِ الرَّيِّعِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْشَقُ إِلَّا الْقُوَّةَ ، فَمَا يُرَى لَهَا مِنَ الرَّجَالِ إِلَّا ابْنُ عَمِّهَا ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْإِعْجَابِ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا إِعْجَابُ الْمَرْأَةِ بِرَجُلٍ مِنَ الرَّجَالِ مِفْتَاحٌ مِنْ مَفَاتِيحِ قَلْبِهَا .

وَكَانَتْ (خَضْرَاءُ) جَاهِلَةً كِنَسَاءِ الْقُرَى ، بَيِّنَةٌ أَنَّهَا تَلْمِيزَةٌ بَارِعَةٌ لِلطَّبِيعَةِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا وَزَاوَلَتْ أَعْمَالَهَا ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ أَقْوَى نَفْسًا وَأَشَدُّ مِرَاسًا مِنَ الْفَتَيَاتِ الْمُتَعَلِّمَاتِ ؛ إِذِ اتَّخَذَتْ شَكْلًا ثَابِتًا مِنْ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ ، وَالْحَيَاةُ هِيَ صَنَعَتُهَا هَذِهِ الصَّنِعةُ أَوْ أَقَامَتُهَا عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، عَلَى حِينِ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَاتِ يُمَضِينَ أَيَّامَ النِّشَاءِ وَسِنَّ الْغُرْبَةِ فِي التَّلَقِّيِ عَنِ الْأَلْفَافِ وَالْكَتُبِ ، وَفِي تَوْهُمِ الصُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْاجْتِمَاعِ دُونَ مُبَاشَرَتِهَا ، وَفِي تَوْفِي أَعْمَالِ الْحَيَاةِ بَدَلًا مِنْ مُحَاطَتِهَا ؛ فَيُؤَوَّلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَى قُوَّةٍ فِي التَّحْيَلِ قَلَّمَا تُرْضِي الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُؤَلِّمَةَ حِينَ تُصَادِمُهَا يَوْمًا { مَا } ؛ وَتَنِمُّ الْوَاحِدَةُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ بِإِغْتِيَارِ أَنَّهَا تَمَّتْ تَلْمِيزَةٌ لِلْمَدْرَسَةِ لَا أَمْرًا لِلْحَيَاةِ بِمَا فِيهَا مِمَّا يُعْجِبُ وَمَا لَا يُعْجِبُ .

وَكَانَتْ خَضْرَاءُ أَشْبَهَ بِدَوْرَةِ الْكُتَّارِ ؛ تَفْتَحُ أَجْفَانَهَا عَلَى أَشْعَةِ الْفَجْرِ كُلِّ يَوْمٍ ، وَلَا تَزَالُ نَهَارَهَا فِي دَابٍ وَعَمَلٍ ، فَتَقَى ذَلِكَ عَنْ أَخْلَاقِهَا مَا يَجْلِبُهُ السُّكُونُ مِنَ الْخُمُولِ وَالْمِيلِ إِلَى الْعَبَثِ وَاللُّعَابَةِ ، وَحَصَلَتْ لَهَا مِنَ الْحَيَاةِ حَقِيقَةٌ عَرَفَتْ مِنْهَا أَنَّ الْمَرْأَةَ عَامِلٌ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوَامِلِ فِي النِّظَامِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ عَلَيْهِ أَنْ يَضِيرَ عَلَى الْكَدِّ وَالتَّعَبِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ بِطَبِيعَتِهِ الْحَقِيقَةِ لَا بِطَبِيعَتِهِ الْمُزَوَّرَةِ الْمَصْنُوعَةِ ، وَرَأَتْ الرَّجُلَ يَسْتَأْثِرُ بِجَلَالِ الْأَعْمَالِ وَلَا يَتْرُكُ لِلْمَرْأَةِ إِلَّا كَمَا يَتْرُكُ عَقْرَبُ السَّاعَاتِ لِغُرَبِ الثَّوَانِي فِي الرُّفْعَةِ الَّتِي تَجْمَعُهَا ؛ فَهَذَا الصَّغِيرُ لَا يَبْرَحُ يَضْرِبُ فِي « دَائِرَتِهِ الضَّيِّقَةِ » يَهْتَرُ مِنْ جُزْءٍ إِلَى جُزْءٍ ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّ الدَّقِيقَةَ

فِي سِتْنِ هَرَّةٍ كَامِلَةٍ ذَهَبَ الْأَوَّلُ بِفَضْلِهَا كُلِّهَا وَخَطَا بِهَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ؛ ثُمَّ يَعُودُ الْمُسْتَضْعَفُ ^(١) الْمُسْكِنُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ ، وَلَا يَزَالُ [هَذَا] دَابُّهُمَا ، وَإِنَّ أَكْثَرَهُمَا عَمَلًا وَتَعَبًا هُوَ أَقْلُهُمَا قِيَمَةً وَظُهُورًا ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الضَّعِيفَ الْمَغْبُوثَ لَمْ يَنْلُهُ مَا نَالَهُ إِلَّا مِنْ كَوْنِهِ هُوَ وَخَدَهُ الَّذِي بُنِيَ فِي هَذَا النُّظَامِ عَلَى فَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَالِدَقَّةِ ، لِيَكُونَ أَسَاسًا لِلْآخِرِ ، فَعَرَفَتْ (خَضِرَاءُ) كَيْفَ تَقَيَّدُ طَبِيعَتُهَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، وَتَقَرُّهَا عَلَى الصَّبْرِ وَالرَّضَا وَالشُّكْرِ إِلَى حَظِّهَا الطَّبِيعِيِّ وَالْإِغْتِيَاظِ بِهِ ؛ إِذْ كَانَ فَضْلُ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ لَيْسَ فِي كَوْنِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فَضْلًا أَوْ أَسْبَابَ فَضْلٍ ، بَلْ فِي كَوْنِهَا هِيَ أَكْثَرُ مِنْهُ حُبًّا وَتَسَامُحًا وَصَبْرًا وَإِتْيَارًا ، فَفَضْلُهَا الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ الْأَفْضَلَ ، كَمَا تَجُوعُ الْأُمُّ لِتُطْعِمَ ابْنَهَا !

* * *

وَرَأَاهَا (ابْنُ الْعُمْدَةِ) وَلَمَّا تَمَضَى أَيَّامٌ عَلَى رُجُوعِهِ مِنْ أَوْرَبَةِ ، وَقَدْ لَبِثَ هُنَاكَ بِضْعَ سِنِينَ ، وَكَانَ عَهْدُهُ بِالْفَتَاةِ صَغِيرَةً ، فَوَثِّبَتْ إِلَى نَفْسِهِ وَثْبَةً وَاحِدَةً ، وَرَأَى شَبَابًا وَجَمَالًا وَرَوْعَةً زَيَّنَتْهَا فِي قَلْبِهِ وَسَوَّلَتْ لَهُ مَطْمَعًا مِنَ الْمَطَامِعِ وَجَعَلَتْهُ يَرَى مَا يَرَى بِمَعْنَى وَيَفْهَمُ مِنْهُ مَا يَفْهَمُ بِمَعْنَى غَيْرِهِ .

وَكَانَتْ حِينَ رَأَاهَا وَاقِفَةً عَلَى الثَّلِيلِ تَمْلَأُ جَرَّتَهَا مَعَ نِسَاءٍ مِنْ قَوْمِهَا وَهُنَّ يَتَعَابَنْنَ وَيَتَضَاحَكْنَ ، كَأَنَّ لِحْضِبِ الْأَرْضِ فِي أَرْوَاحِهِنَّ أَثَرًا بَادِيًا ، فَإِذَا مَا أَقْبَلْنَ عَلَى النَّهْرِ لِشَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِنَّ تَنَدَّتْ رُوحَ الْمَاءِ عَلَى ذَلِكَ الْأَثَرِ فَاهْتَزَّتْ وَاهْتَزَّتِ الْمَرْأَةُ بِهِ ، فَإِنَّ كَانَتْ ذَاتُ مِسْحَةٍ مِنْ جَمَالٍ رَأَيْتَ لَهَا رَفِيفًا كَرَفِيفِ الزَّهْرَةِ حِينَ يَمْسَحُهَا الثَّلَدُ ، وَذَهَبَتْ تَتَمَوَّجُ ^(٢) فِي جَنِينِهَا وَقَدْ حَسَرَتْ عَنْ ذِرَاعَيْهَا ، وَلَمَسَ الْمَاءُ دَمْعَهَا الْجَذَابَ ، فَأَرْسَلَ فِيهِ تَبَارًا مِنَ الْعَافِيَةِ وَالنَّشَاطِ يَتَّصِلُ مِنْهَا بِقَلْبٍ مَنْ يَرَاهَا إِنْ هُوَ كَانَ شَاعِرًا يُحْسِشُ ، فَإِنَّ كَانَتْ رُوحُ الرَّجُلِ ظَمَأَى وَرَأَى الْمَرْأَةَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، فَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا ^(٣) يَشْرَبُ مِنْهَا بِعَيْنَيْهِ شُرْبًا يَجِدُ لَهُ فِي قَلْبِهِ نَشْوَةَ كُنْشَوَةِ الْخَمْرِ ؛ وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ الْفَتَاةُ مِنْ نَفْسِ هَذَا الْفَتَى ، فَزَيَّنَتْ لَهُ الْخُبْتُ الَّذِي فِيهِ أَضْعَافُ مَا زَيَّنَتْ لَهُ الْجَمَالُ الَّذِي فِيهَا ، وَقَذَفَهَا الْقَدَرُ إِلَى قَلْبِهِ لِيُخْرِجَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ تَارِيخَ جَرْنِمَةٍ ؛ فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا بِعَيْنٍ أَحَدًا مِنَ آلَةِ التَّصْوِيرِ لَا تَقْوِيَّتُهَا حَرَكَةً ، وَسَلَّطَ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «الْمُسْتَضْعَفُ» بَدَلًا مِنْ : «الْمُسْتَضْعَفُ» .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لَتَمَوَّجُ» بَدَلًا مِنْ : «تَتَمَوَّجُ» .

(٣) فِي «الرَّسَالَةِ» : «أَحْبَهُ أَنْ» بَدَلًا مِنْ : «أَحْسَبُهُ إِلَّا» .

عَلَيْهَا فِكْرُهُ وَذَوْقُهُ ، وَأَيْقَظَ لَهَا فِي نَفْسِهِ الْمَعَانِي الرَّاقِدَةَ ، فَكَبَّتْ فِي قَلْبِهِ عِدَّةٌ مِنْ تَمَائِيلِ الْجَمَالِ تَجَسَّدَتْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى شَكْلِ كَأَنَّمَا أَفْرَعَتْ فِيهِ إِفْرَاعًا .

* * *

وَكَانَتْ نَفْسُ ابْنِ الْعُمْدَةِ مِنَ الْتُفُوسِ الْخَيَالِيَّةِ الْمُتَوَثِّبَةِ ؛ إِذْ قَامَتْ مِنْ نَشَاتِهَا عَلَى أَنْ تَطْلُبَ فَتَحَابَ ، وَتَأْمُرَ فَتَطَاعَ ، وَتَسْتَهِي فَتَجِدَ ، وَكَأَنَّهُ مَا خُلِقَ إِلَّا لِيَسْتَعْبِدَ قَلْبِي وَالذِّينَ ، وَكَأَنَّا سَادَجِينَ لَا يَعْرِفَانِ مِنْ عِلْمِ التَّرْبِيَةِ إِلَّا أَنَّ لِلْحُكُومَةِ مَدَارِسَ لِلتَّرْبِيَةِ ، وَمُؤَسَّرِينَ لَا يَفْهَمَانِ مِنْ مَعْنَى الْحَاجَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْمَالِ ، وَمُنْفَطِعِينَ مِنَ النَّسْلِ إِلَّا مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُؤَلَّدْ لَهُمَا بَلْ قَدْ وُلِدَا لَهُ . . . فَلَهُ الْأَمْرُ عَلَيْهِمَا مِنْ كَوْنِهِ لَا أَمْرَ لَهُمَا عَلَيْهِ ؛ وَبِذَلِكَ أَسْرَفَا لَهُ مِنْ فَضَائِلِ الرَّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَالْإِشْفَاقِ وَمَا إِلَيْهَا ، وَهِيَ فِي نَفْسِهَا فَضَائِلُ ، وَلَكِنْ مَتَى أَسْرَفَ بِهَا آلَاءُ عَلَى أَوْلَادِهِمْ لَمْ تُنْشِئْ فِي أَوْلَادِهِمْ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ أَضْدَادِهَا ، كَالشَّجَرِ تَفْرِطُ عَلَيْهِ الرِّيحُ فَلَا يُخْدِتُ فِيهِ إِلَّا الْبَيْسَ ، وَالذَّوِيَّ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ تَسْقِيهِ أَلْمُوتَ مَا دُمْتَ تَرْوِيهِ بِمِقْدَارٍ مِنْ هَوَاكَ لَا بِمِقْدَارِ حَاجَتِهِ .

وَنَشَأَ الْفَتَى فِي أَحْوَالِ أَجْتِمَاعِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ جَعَلَتْ مِنْ أَحْصَى طِبَاعِهِ تَمْوِينَهُ نَفْسِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَالتَّبَاهِي بِالْعَتَى ، وَالتَّنَبُّلُ بِالْأَصْدِقَاءِ وَالْحَاشِيَةِ مِنْ وَرَرَائِهِ وَعَمَالِهِ ، وَالتَّهَيُّؤُ بِاللِّيَابِ وَالْأَزْيَاءِ ؛ فَانْصَرَفَ بَاطِنُهُ إِلَى تَجَمُّلِ ظَاهِرِهِ ، وَرَدَّ ظَاهِرُهُ عَلَى بَاطِنِهِ بِالشَّهَوَاتِ وَالذَّنَائَا ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ جَمِيلٌ فَاتِنٌ كَأَنَّمَا خُلِقَتْ صُورَتُهُ « لِلصَّفْحَةِ الْحَسَّاسَةِ » مِنْ قُلُوبِ النَّسَاءِ ؛ وَذَلِكَ مُلْكٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ أَبْوَهُ الرَّجُلِ الْأَطْيَبُ مِنْهُ إِلَّا كَمَا يَكُونُ وَزِيرٌ مَالِيَّةٍ الدَّوْلَةَ . . .

وَلَمَّا أُرْسِلَ إِلَى بَارِيسَ Paris وَقَعَ مِنْهَا فِي بَلَدٍ عَجِيبٍ كَأَنَّهُ خَيَالٌ مُتَحَيَّلٌ ، لَا يَوْمُهُ الرَّجُلُ^(١) فِي الدُّنْيَا مِنْ كَامِلٍ أَوْ نَاقِصٍ ، وَعَالِمٍ أَوْ جَاهِلٍ ، وَشَرِيفٍ أَوْ سَاقِطٍ ؛ إِلَّا رَأَى فِيهِ مَا يَمْلَأُ كُلَّ مَدَاخِلِ نَفْسِهِ وَمَخَارِجِهَا ، فَلَوْ قَامَتْ مَدِينَتُهُ مِنْ أَحْلَامِ التُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَطَهَرِهَا وَفُجُورِهَا ، وَاخْتِلَالِهَا وَنَظَامِهَا ، لَكَانَتْ هِيَ بَارِيسَ Paris ؛ وَانْقَطَعَ الشَّابُّ هُنَاكَ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى صُورِ نَفْسِهِ مِنْ أَصْدِقَاءِ الشُّؤْ ، فَلَا أَهْلٌ فَيُلْزِمُوهُ الْفَضِيلَةَ ، وَلَا إِخْوَانٌ فَيَرُدُّوهُ إِلَى الرَّأْيِ ، وَلَا خُلُقٌ مَتِينٌ فَيَعْتَصِمُ بِهِ ، وَلَا نَفْسٌ مُرَّةٌ فَيَفِيءُ إِلَيْهَا ، وَلَا فَقْرٌ . . . فَيَجِدُ لَهُ حُدُودًا فِي الشَّهَوَاتِ يَقِفُ عِنْدَهَا ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا خَيَالٌ مُتَوَقِّدٌ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «رَجُلٌ» بَدَلًا مِنْ : «الرَّجُلُ» .

وَمَزَاجٌ مَشْبُوبٌ وَتَرْبِيَةٌ مُدَلَّلَةٌ وَطَبْعٌ جَرِيءٌ وَمَالٌ يُمُرُّ فِي إِنْفَاقِهِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ أَبٌ غَنِيٌّ مَخْذُوعٌ كَأَنَّهُ فِي يَدِ ابْنِهِ كُرَّةُ الْخَيْطِ : كُلَّمَا جَذَبَ مِنْهَا مَدَّتْ لَهُ مَدًّا ، ثُمَّ مَا هُنَاكَ مِنْ فُتُونِ الْجَمَالِ وَمُتَعِ اللَّذَاتِ وَأَسْبَابِ اللَّهِو ، مِمَّا يَنْتَاهِي إِلَيْهِ فَسَادُ الْقَاسِدِ ، وَمَا هُوَ فِي ذَاتِهِ كَأَنَّهُ عُقُوبَةٌ مُشْتَاصِلَةٌ لِلْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ ؛ فَكَانَ الشَّيْطَانُ الْبَارِئِيُّ مِنْ هَذَا الْمُسْكِينِ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَرِجْلِهِ وَيَدِهِ ، يُوجِّهُهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ ذَهَبَ لِيَذْرُسَ ، فَدَرَسَ مَا شَاءَ وَرَجِعَ أَسْتَاذًا فِي كُلِّ عُلُومِ النَّفْسِ الْمُخْتَلَّةِ الطَّائِشَةِ وَفُتُونِهَا ، وَأَصَافَ إِلَى هَذِهِ وَتِلْكَ كَلِمَاتٍ يَلُوي بِهَا لِسَانُهُ مِنْ عُلُومِ وَأَقَاوِيلَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ الْحَادِثَ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّابَّ لَمْ يُفْلِحْ قَطُّ فِي مَدْرَسَتِهِ .

فَلَمَّا وَقَعَتْ (خَضْرَاءُ) مِنْهُ ذَلِكَ الْمَوْقِعَ وَأَخَذَتْ مَاخُذَهَا فِي نَفْسِهِ ، آغْتَدَاهَا نَزْوَةً مِنْ نَزَوَاتِهِ ، فَمَا بِمِثْلِهِ أَنْ يُحِبَّ مِثْلَهَا ، وَلَا هِيَ كِفَايَتُهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُوَ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِهِ ، أَوْ حَادِثَةً تَجْرِي فِيهَا حَالٌ مِنْ أَحْوَالِهِ الْعَرَامِيَّةِ ، وَحَسِبَهَا أَمْرًا لَيْسَ لِقَلْبِهَا أَبْوَابٌ تَمْتَنِعُ عَلَى مِثْلِهِ ، فَقَدَّرَ أَنْ غَنَاهُ وَفَقَّرَهَا يَفْتَلَعَانِ بَابًا ، وَعِلْمَهُ وَجَهْلَهَا يُحْطِمَانِ بَابًا آخَرَ ، وَجَمَالَهُ وَخَدَهُ يَضْعُ مَا بَقِيَ مِنْ الْأَفْقَالِ عَمَّا بَقِيَ مِنَ الْأَبْوَابِ ! وَكَانَ يَحْسُبُ أَنَّ جَمَالَ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ كَالْحِلْيَةِ مِنْ بَائِعِهَا ؛ فَكُلُّ مَنْ مَلَكَ نَمَتَهَا فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا هَذَا الثَّمَنُ ، وَلَكِنْ الْأَيَّامُ جَعَلَتْ تَأْتِي وَتَمُرُّ وَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَغْرِضَ لَهَا وَهِيَ تَرْمِيهِ مِنْ صُدُودِهَا كُلِّ يَوْمٍ بِدَاعِيَةٍ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى ، وَكَانَ لَا يَجِدُ بِنَفْسِهِ قُوَّةً أَنْ يَزِيدَهَا عَلَى النَّظَرِ شَيْئًا ، وَتَرَكَ لَوَجْهِهِ وَتَيَابِيهِ وَنَظَرَاتِهِ وَغَنَاهُ أَنْ تَصِلَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَقَلْبِهَا بِسَبَبٍ ؛ فَلَمْ يَنْلُ طَائِلًا ، وَتَمَادَى فِي حُبِّهِ ، وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةُ غَمَرَتِهِ بِهِذِهِ الْمَرْأَةِ ، أَمَّا هِيَ فَاشْعَرَتْهَا غَرِيزَتُهَا بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْهَا ، وَكَانَتْ مُسَمَّاءَ لَابِنِ عَمَّهَا^(١) فَكَانَتْ تَتَحَاشَى هَذَا الشَّابَّ وَتَحْذَرُهُ حَذَرًا شَدِيدًا ، وَتَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ يُحْصُونَ عَلَيْهَا النَّظْرَةَ وَالْإِلْتِفَاتَةَ وَيُخْصُونَ عَلَيْهِ مِنْ مِثْلِهِمَا ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهَا أَنَّ لِهَذَا الرَّجُلِ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا حِيلَةً وَهُوَ يَسْتَطِيعُهَا بِغَنَاهُ وَمَنْزِلَتِهِ .

وَكَانَ لِلرَّجُلِ خَادِمٌ دَاهِيَةٌ قَدْ تَخَرَّجَ فِي مَجَالِسِ الْقَضَاءِ . . . مِنْ كَثْرَةِ مَا حُكِمَ عَلَيْهِ مِنْ تَرْوِيرِ^(٢) وَاحْتِيَالٍ وَغَشٍّ وَأَدْعَاءٍ وَإِنْكَارٍ وَنَحْوِهَا ، وَقَدْ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ وَاتَّخَذَهُ مُوَانِسًا

(١) مُعَدَّةٌ لِخُطْبَتِهِ ، أَوْ كَمَا يَقُولُونَ : قُرِئَتْ مَعَ أَهْلِهَا الْفَاتِحَةُ .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «فِي تَرْوِيرٍ» بَدَلًا مِنْ : «مِنْ تَرْوِيرٍ» .

وَرَفِيقًا ، وَجَعَلَهُ دَسِيسًا^(١) إِلَى شَهَوَاتِهِ السَّافِلَةِ ، وَكَانَ يُسَمِّيه فِيمَا بَيْنَهُمَا (إِبْلِيسَ) ؛ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَزِمْنِيَا بِهِ قَالَ : يَا سَيِّدِي ! هَذِهِ قَضِيَّةٌ أُحْتِيَالَ عَلَيْهَا ، فَإِذَا دَخَلَ ابْنُ عَمِّهَا خَصْمًا فِي الدَّعْوَى كَانَتْ قَضِيَّةً أُحْتِيَالَ عَلَى عُمُرِي أَنَا !

قَالَ : وَيَحَكَ أَيُّهَا الْأَبْلَةُ ! فَأَيْنَ دَهَاؤُكَ وَمَكْرُكَ ؟ وَإِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَى أَمْرَةٍ فَقِيرَةٍ عَيْشُهَا كِفَافُهَا ، وَأَنْتَ تَعِدُّهَا وَتُثَمِّنُهَا وَتَبْذُلُ عَنِّي مَا شِئْتَ ، وَمَتَى أَطْمَعْتَهَا فِي الْمَالِ ، فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ سَيُوجَدُ مَا يُوْجِدُهُ^(٢) فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسْرِئِي مَا لَا يُسْرِئِي ، وَيَبِينُ مَا لَا يَبِينُ !

قَالَ (إِبْلِيسُ) : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، وَكَذَلِكَ هُوَ ، وَلَكِنَّ خَوْفَ الْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ الْمَالِ !
قَالَ : فَأَنْتَ إِذَا لَا تَقْبَلُ ؟

قَالَ : وَلَا أَرْفُضُ ...

قَالَ الشَّابُّ : فَأَتَلَكَ اللَّهُ ! لَقَدْ فَهِمْتُ ! سَأَشْتَرِيهَا مِنْكَ بِشَتَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لَكَ وَالْآخَرُ لَهَا ؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا وَمِنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا ؟

قَالَ (إِبْلِيسُ) : لَمَّا كُنْتُ فِي السَّجْنِ عَرَفْتُ لِصًّا فَاتَيْكَأُ أَغْيَا قَوْمَهُ خُبْنًا وَشَرًّا ؛ وَهَذَا السَّجْنُ يَخْسِبُهُ النَّاسُ عِقَابًا وَرَدْعًا وَمَنْهَاجًا عَنِ الْإِثْمِ ، عَلَى أَنَّهُ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تُنْشِئُهَا الْحُكُومَةُ بِنَفْسِهَا لِتَلْقَى عُلُومَ الْجَرِيمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمَعَ كِبَارُهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا فِيهِ ، فَالْسَّجْنُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ حَلِّ الْمُسْكِلةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يُخْدِتُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مُسْكِلةً لَا تُحَلُّ !

قَالَ الْفَتَى : وَيَحَكَ ! أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ إِنَّمَا أُرْسِلُكَ إِلَى الْمَرْأَةِ لَا إِلَى السَّجْنِ !

قَالَ : ۞ نَعَمْ ، ۞ تُرْسِلْنِي أَنْتَ إِلَيْهَا وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ يُرْسِلُنِي ابْنُ عَمِّهَا : إِلَى السَّجْنِ ، أَمْ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ... ! فَاسْمَعْ يَا سَيِّدِي : كَانَ مِنْ نَصَائِحِ أَسْتَاذِي فِي ذَلِكَ السَّجْنِ ، أَنَّ الْحِيلَةَ عَلَى رَجُلٍ يَتَّبِعِي لِأَحْكَامِهَا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهَا أَمْرَةً ، وَالْكَيْدُ لَأَمْرَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ ... صَه ! أَنْظُرْ أَنْظُرْ !

(١) جَاسُوسًا وَصَاحِبَ سِرٍّ .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لَا يُوْجَدُ» بَدَلًا مِنْ : «يُوْجَدُ» .

فَالْتَمَتَ الشَّابُّ ، فَإِذَا (الْجَمْلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّأُ فِي مِشْيِهِ ، وَكَانَ غَلِيظًا ، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقَتِيدًا إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِهِ ، فَلَمَّا حَاذَاهُمَا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! قَرَدًا جَمِيعًا ، وَرَمَى ابْنُ الْعُمْدَةِ بِنَظَرَةٍ ثُمَّ مَضَى لِرُوحِهِ ، فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى بَلَغَهُ صَوْتُ الشَّابِّ يُنَادِيهِ : يَا فُلَانُ ! فَأَتَكَفَّأُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ : لَقَدْ بَعُدَ عَهْدُكَ بِالْقُوَّةِ عَلَى مَا أَرَى .

|| قَالَ : فَمَا ذَاكَ ؟ ||

قَالَ : أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ فُلَانًا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي تُجَاوِرُنَا سَيَقْتَرِنُ بِرُوحَتِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ الْمُوقَعَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَلَدِنَا وَتِلْكَ الْبَلَدَةِ يَوْمَ عُرْسِ فُلَانٍ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَكَيْفَ أَنْدَفَعُوا عَلَى أَهْلِ بَلَدِنَا وَحَطَّمُوا فِيهِمْ تِلْكَ الْحِطْمَةَ الشَّدِيدَةَ ، وَلَوْ لَا أَنْتَ أَدْرَكْتَهُمْ وَرَمَيْتَهُمْ بِنَفْسِكَ حَتَّى دَفَعْتَهُمْ عَنِ النَّاسِ وَسَقَتَهُمْ أَمَامَكَ سَوْفَ النَّعَاجِ ، لَكَانَتْ بَلَدُنَا الْيَوْمَ أَذَلَّ الْبِلَادِ ، وَلَا سَتَطَالُوا عَلَيْنَا بِأَنَّهُمْ غَلَبُونَا ؛ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبِي هَذَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ بِهَرَاوَتِكَ يَوْمَئِذٍ خَمْسًا وَعِشْرِينَ هَرَاوَةً ، فَأَطْرَقَهَا كُلُّهَا فِي جَوْلِكَ ، وَهَزَمْتَ أَصْحَابَهَا بَعْدَ أَنْ أَحَاطُوا بِكَ وَتَكَلَّبُوا^(١) عَلَيْكَ ، فَأَنْتَ فَخَرْتَ بَلَدِنَا وَصَاحِبَ رِعَايَتِهَا ، وَمَا أَرَى لَكَ إِلَّا أَنْ تَشْهَرَ هَلْدِهِ الْفُرْصَةَ وَتُسْرِعَ الْوُثْبَةَ إِلَيْهِمْ بِرِجَالِكَ ، فَتُجْزِيَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَنِيعًا بِصَنِيعٍ مِثْلَهُ !

فَهَزَّ الْجَمْلُ كَتَفَيْهِ الْعَرِنِضَتَيْنِ وَقَالَ : بَلْ سَأَنْتَظِرُهُمْ فِي يَوْمِ عُرْسِي بِابْنَةِ عَمِّي ... !

قَالَ الشَّابُّ : أَبْلَغْتَ مَا أَرَى ؟ فَإِنَّكَ لَتَخَافُهُمْ !

قَالَ : لَا أَخَافُهُمْ ، وَلَكِنْ أَخَافُ الْحُكُومَةَ أَنْ تُؤَخَّرَ يَوْمَ زَوَاجِي ... سَنَةً أَوْ سَتَيْنِ ! قَالَ الْفَتَى : فَإِنَّ عَمَلَكَ هَذَا لَا يَشُدُّ مِنْ نَفُوسِ رِجَالِنَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ أُولَئِكَ سَيَنْتَظِرُونَكَ وَيُعِدُّونَ لَكَ ، فَإِذَا لَمْ تَتَاجَزْهُمْ فِي بَلَدِهِمْ عَذَّوَمَا عَلَيْكُمْ هَزِيمَةٌ مِنْ الْهَزَائِمِ ، وَكَانَهُمْ ضَرَبُوكُمْ بِلَا ضَرْبٍ !

قَالَ الْجَمْلُ : هُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الضَّرْبِ بِلَا ضَرْبٍ ، لِأَنَّهُمْ رِجَالٌ ، وَالَّذِي يَضْرِبُ بِلَا ضَرْبٍ لَا يَكُونُ رَجُلًا ... وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ !

(١) فِي «الرِّسَالَةِ» : «وَتَكَلَّبُوا» بَدَلًا مِنْ : «وَتَكَلَّبُوا» .

ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَمَّا أَبْعَدَ قَالَ الشَّابُّ : لَقَدْ بَدَأْتُ الْحَزْبَ وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَحْطَمَ هَذَا الْفَلَاحَ
 اللَّعِينَ ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ الْآنَ مِنْ وَجْهِهِ أَنَّ عَيْنَهُ عَلَيَّ ، وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ ابْنَتَهُ^(١) عَمَّهُ لَا تَمْتَنِعُ
 بِقُوَّتِهَا بَلْ بِقُوَّتِهِ ، وَلَوْ لَا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِنْ انْحِطَاطِ الْغَرِيزَةِ كَالْوَحْشِ فِي الدَّفَاعِ عَنْ أَثْنَاءِهِ . . .
 قَالَ (إِبْلِيسُ) : لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الْقِصَّةَ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى الْفَتَاةِ وَهِيَ بَعْدَ فِتْنَةٍ ،
 فَإِذَا هُوَ وَصَلَ إِلَى أَمْرَأَتِهِ قَطَعْتَ أَنْتَ بِهِدِيهِ الْخُطْوَةَ نِصْفَ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا . . . وَسَنَبُلُوْهُ هِيَ مِنْ
 غِلْظَتِهِ وَخُشُونَةِ طَبْعِهِ مَا يُسَهِّلُ لَكَ أَنْ تُعَلِّمَهَا قِيَمَةَ ظَرْفِكَ وَرِقِّكَ ، وَسَجْدُ مِنْ سُوءِ
 مُعَامَلَتِهِ وَفُتِحَ تَسَلُّطُهُ مَا يَفْتَحُ قَلْبَهَا لِمَنْ يَأْتِيهَا مِنْ قِبَلِ الرَّفْقِ وَاللِّينِ ، وَسَتَصِيبُ عِنْدَهُ مِنْ
 ضَيِّقِ الْمَعِيشَةِ وَقِلَّتِهَا وَيُنْسِيهَا مَا يُنْهِيهَا مَعْنَى ذَلِكَ الْعَيْشِ الْخُلُوِ الْخَضِرِ الَّذِي تَعْرِضُهُ
 عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا بُدَّ مُنْبَلِّغِهَا بِغَيْرَتِهِ الْعَمِيَاءَ بَعْدَ مَا عَرَفَ مِنْ حُبِّكَ إِثَّاها ، وَالْغَيْرَةُ مِنْكَ هِيَ
 تَوْجِدُكَ بَيْنَهُمَا دَائِمًا وَتُبَّهِ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ كُلَّمَا كَرِهَتْ مِنْ رَجُلٍهَا شَيْئًا لَا تَرْضَاهُ .

وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مُدَّةً يَسِيرَةً حَتَّى أَهْدَيْتِ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا ، وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ الزَّفَافُ لِيَتَأَنَّى^(٢)
 لَهُ أَنْ يَنْصُبَ يَدَهُ الْقَوِيَّةَ حِجَابًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذَا الْمَفْتُونِ ، وَلِيَكْتَسِبَ مِنَ الْقَانُونِ حَقًّا لَمْ يَكُنْ
 لَهُ مِنْ قَبْلُ إِذَا هُوَ مَدَّ هَذِهِ الْيَدَ وَعَصَرَ فِي قَبْضَتِهَا تِلْكَ الرَّقِيبَةَ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ ؛ وَرَأَى
 الشَّابُّ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَ لَا تَعْتَدِلُ بِهِ وَبِخُصْمِهِ مَعًا ، وَكَانَتِ الْغَيْرَةُ تَأْكُلُ مِنْ قَلْبِهِ أَكْلًا ، وَكَانَ
 يَعْزِضُ لِلْمَرْأَةِ كُلَّمَا خَرَجَتْ بِمَكْتَلِهَا^(٣) إِلَى الشُّوقِ أَوْ بِجَرَّتِهَا إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّهُ حِينئِذٍ يَكُونُ فِي
 الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ . . . فَكَانَتْ إِذَا رَأَتْهُ لَمْ تَزِدْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا إِذَا هِيَ أَبْصَرَتْ
 حِمَارًا يَمُدُّ عَيْنَهُ إِلَيْهَا ! فَعَمَدَ إِلَى أَمْرَأَةٍ مُقَيَّبَةٍ^(٤) تَرَفُّ الْعَرَائِسَ ، وَهِيَ الَّتِي زَقَّتْ
 (خَضِرَاءَ) ، فَافْكَرَمَهَا وَأَتَحَفَهَا وَسَالَهَا أَنْ تُسَعِّفَهُ بِبَعْضِ مَا تَخَالَ بِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ سَبِيلَهُ إِلَى
 الْمَرْأَةِ ؛ وَتَحَمَّلَ عَلَيْهَا (بِإِبْلِيسِهِ) حَتَّى اسْتَوْثَقَ مِنْهَا ، فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَمَامَ (خَضِرَاءَ) ؛
 تَسْتَجِرُّ بِذَلِكَ أَنْ تَلْفِتَهَا إِلَى نِعْمَتِهِ وَجَمَالِهِ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ أَغْلَظَتْ لَهَا وَسَبَّهَا وَحَذَرَتْهَا أَنْ

(١) فِي «الرَّسَالَةِ» : «بِنْتُ» بَدَلًا مِنْ : «ابْنَتُهُ» .

(٢) فِي «الرَّسَالَةِ» : «لِيَتَأَنَّى» بَدَلًا مِنْ : «لِيَتَأَنَّى» .

(٣) هُوَ مَا يُسَمَّى الْغُلَقُ .

(٤) فِي «الرَّسَالَةِ» : «مُقَيَّبَةٍ» بَدَلًا مِنْ : «مُقَيَّبَةٍ» .

تَعُودُ إِلَى مِثْلِ كَلَامِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا آخِرَ مَا قَالَتْ : وَأَعْلَمِي أَنِّي لَوْ دُفِعْتُ إِلَى طَرِيقَيْنِ وَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا ، ثُمَّ كَانَ أَحَدُهُمَا حَصَاهُ الدَّنَانِيرُ وَهُوَ طَرِيقُ الْعَارِ ، وَالْآخَرُ حَصَاؤُهُ الْجَمْرُ وَيُفْضِي إِلَى الشَّرَفِ ، إِذْ لَسْتِ زَهَتْ أَنْ أَدُسَّ نَعْلِي بِالذَّهَبِ وَلَسْتُ لَحْمَ قَدَمِي عَلَى الْجَمْرِ نَثْرًا .

وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى^(١) حُبًّا أَبَدًا ، فَإِنَّمَا فَارَ فَبَرَدَ وَرَجَعَ سُلُوءًا ، وَإِنَّمَا خَابَ فَأَضْطَرَمَّ وَتَحَوَّلَ إِلَى حَقْدٍ وَنَقْمَةٍ ؛ وَكَذَلِكَ أَنْفَجَرَ الشَّابُّ غَيْظًا ، وَوَجَدَ عَلَى الْخِيَّةِ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً ، وَأَخَذَ يُدِيرُ رَأْيَهُ ، فَتَقَتَّ لَهُ الْحِيلَةُ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلَ الشَّهْمَ بِشَهَامَتِهِ ؛ وَالْمَرْأَةُ الْعَقِيفَةُ بِعَقْفَتِهَا ؛ فَوَاطَأَ إِبْلِيسُ عَلَى أَنْ يَذْفَعَ إِلَى تِلْكَ الْمُقَيَّنَةِ^(٢) مِنْدِيلًا مِنَ الْحَرِيرِ عَقْدَ طَرَفُهُ عَلَى دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، ثَلْفِيهِ فِي صُنْدُوقِ (خَضْرَاءَ) وَتَدُسُّهُ فِي طَيِّ مِنْ أَطْوَاءِ ثِيَابِهَا ، فَذَهَبَتِ الْمَرْأَةُ ، وَمَا زَالَتْ بِخَضْرَاءَ تَسْتَصْلِحُهَا وَتَعْتَدِرُ إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَلَتْ ضَعِيئَتَ قَلْبِهَا ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَنْ تَأْتِيَهَا (بِالْعَيْشِ وَالْمِلْحِ) لِتُصِيبَ كِلْتَاهُمَا مِنْهُ وَتَتَحَرَّمَ بِحُرْمَتِهِ ؛ فَلَمَّا نَهَضَتْ تَأْتِيَهَا اسْرَعَتْ الْخِيَّةُ إِلَى الصُّنْدُوقِ فَدَسَّتِ الْمُنْدِيلَ فِي أَعْدِ مَوَاضِعِهِ وَأَخْفَاهَا ، وَكَانَ مُنْدَى بِالْعَطْرِ لِيَنِمَّ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يَنِمَّ أَحَدٌ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ رَجَعَتْ بِمَا فَعَلَتْ إِلَى الشَّابِّ ، فَأَطْلَقَ خَادِمُهُ يَهْمِسُ لِبَعْضِ أَصْدِقَاءِ الْجَمَلِ أَنَّهُ رَأَى الْيَوْمَ فِي يَدِ (خَضْرَاءَ) دِينَارًا ذَهَبًا عَلَى نُذْرَةِ الذَّهَبِ وَعِزَّتِهِ ؛ فَجَعَلَ هَذَا الدَّنِيَارُ يَطِيرُ مِنْ نَفْسِي إِلَى نَفْسِ بَقْوَةِ الذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ ، وَالْحُبُّ الَّذِي أَعْطَاهُ ، وَالْجَمَالُ الَّذِي أَخَذَهُ ؛ ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْجَمَلِ ، فَكَأَنَّمَا حَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ إِلَى دَارِهِ كَالْمَجْنُونِ وَقَدْ حَمِيَ دَمُهُ الْعُخْرُ ، وَجَاشَ جَاشُهُ الْعَنِيفُ وَلَمْ تَكُنْ أَمْرَأَتُهُ فِي الدَّارِ ، فَتَنَرَّ مَا فِي الصُّنْدُوقِ ، وَمَا كَادَتْ تَقْعُمُهُ رَائِحَةُ الْعُطْرِ حَتَّى نَفَخَ الشَّيْطَانُ بِهَا نَفْخَةَ الْغَضَبِ الْكَافِرِ ، ثُمَّ عَثَرَ عَلَى الْمُنْدِيلِ ، وَرَأَى بِصِيصَ الدَّنِيَارِ ، فَدَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَأَيَقَنَ أَنَّ الْعَارَ قَدْ طَرَقَ بَابَهُ ، وَأَنَّ الْبَابَ قَدْ فُتِحَ لَهُ ؛ ثُمَّ رَدَّ نَفْسَهُ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَرَدَّ مَعَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَوْضِعِهِ ، وَتَلَفَّفَ رَأْيُهُ عَلَى جَرِيمَتَيْنِ ، وَخَرَجَ وَرُوحُهُ تَصْرُخُ مِنْ ضَرْبِهِ بِمُنْدِيلِ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ تَنْهَوِي عَلَيْهِ الصَّرَبَاتُ الْقَانِلَةُ نَهْشُ مِنْهُ وَلَا يَتَاوَهُ!

وَذَكَرَ أَنَّ (حَمَاتَهُ) أَثْنَتْ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ عَلَى ابْنِ الْعُمْدَةِ وَوَصَفَتْهُ بِالرَّقَّةِ وَالْغِنَى ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا أَنْ تَأْتِيَ فَتَبَيَّنَ عِنْدَ أَمْرَاتِهِ لِأَنَّهُ عَلَى سَفَرٍ ، وَكَانَ كَالْأَعْمَى فِي ضَلَالَتِهِ : لَا يَرَى الْأَشْيَاءَ إِلَّا كَمَا يَتَخَيَّلُهَا فِي نَفْسِهِ دُونَ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا ، فَسَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ : أَيْنَ أَرْمَعْتَ وَمَا

(١) فِي (الْإِسَالَةِ) : « وَأَمَّا الْحُبُّ فَلَا يَبْقَى » بَدَلًا مِنْ : « وَالْحُبُّ لَا يَبْقَى » .

(٢) فِي (الْإِسَالَةِ) : « الْمُقَيَّنَةِ » بَدَلًا مِنْ : « الْمُقَيَّنَةِ » .

تَبْغِي مِنْ سَفَرِكَ وَكَمْ تَلْبِثُ عَنَّا ؟ فَكَأَنَّهُ سَمِعَهَا تَقُولُ : أَرْحَلُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَغِيبَ عَنَّا زَمَنًا طَوِيلًا ، فَبِنَا إِلَى غِيَابِكَ حَاجَةً شَدِيدَةً ! وَكَأَدَ يَنْطِشُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ كَاتَمَ صَدْرُهُ اللَّوْعَةَ وَذَكَرَ اسْمَ جِهَةِ بَعِيدَةٍ وَمَضَى وَالْأَنْكَسَارُ يُعْرِفُ فِيهِ !

* * *

فَرَعَ النَّاسُ بَعْدَ أَيَّامٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذْ بَيْتُ الْجَمَلِ يَخْتَرِقُ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، وَاقْتَحَمُوهُ فَإِذَا الْمَرْأَةُ وَأُمُّهَا فَحِمَتَانِ ؛ وَأَنْطَلَقَتْ أَشْرَارُ^(١) الْأَلْسِنَةِ ، وَقُبِضَ عَلَى الرَّجُلِ فِي بَلَدٍ أُخْرَى ، وَتَوَلَّى ابْنُ الْعُنْدَةِ تَوَجِيهَ الْبَيْتَةِ عَلَيْهِ ، وَشَهِدَ الشُّهُودُ عَلَى الدَّيْنَارِ ، وَشَهِدَ الدَّيْنَارُ عَلَى الثَّارِ ، وَأَنْكَرَ « الْجَمَلُ » وَلَمْ يَقْصُرْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ ، وَدَافَعَ عَنْ أَمْرَاتِهِ وَبَالَغَ فِي أَمَانَتِهَا وَعِفَّتِهَا ، وَشَهِدَ أَنَّهُ لَا يَغْلُمُ عَلَيْهَا مِنْ سُوءٍ ، وَأَنَّهَا أَطْهَرُ النِّسَاءِ وَأَبْرَاهَنَ ، ثُمَّ كَانَ الْحُكْمُ أَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ شَتَقًا !

* * *

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِنْفَادِ الْحُكْمِ سئِلَ الرَّجُلُ : هَلْ مِنْ شَيْءٍ تُرِيدُهُ ؟ فَطَلَبَ دَخِينَتَهُ^(٢) فَقَدَّمَهَا لَهُ قِيمُ السَّعْنِ ، فَأَشْعَلَهَا وَنَفَخَ مِنْ دُخَانِهَا نَفْخَةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ وَعُمُرُهُ يَفْتَنُ مَعَ الدَّخِينَةِ نَفْسًا فِي نَفْسٍ ، وَعَادَ هَذَا الدُّخَانُ الْمُتَطَايِرُ كَأَنَّهُ سَحَابٌ يَسْبِغُ فِيهِ الْوُحْيُ بَيْنَ حُدُودِ الدُّنْيَا وَحُدُودِ الْآخِرَةِ ؛ قَالَ الْمُسْكِينُ : لَمْ أَتَعْلَمْ ، وَلَوْ تَعَلَّمْتُ مَا وَقَفْتُ هُنَا ؛ وَلَكِنْ رُبَّمَا كُنْتُ خَرَجْتُ نَدْلًا كَبْعَضِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَعْيشُونَ أَشْرَافًا وَفِيهِمْ أَرْوَاحُ الْقَتْلَةِ وَاللُّصُوصِ !

لَمْ أَقِرْ لِأَحَدٍ بِجَرِيمَتِي خَشْيَةً أَنْ تُذَكَرَ كَلِمَةُ الْعَارِ مَعَ اسْمِي ، وَأَثَرْتُ أَنْ أَمُوتَ بِالشَّنَقِ عَلَى أَنْ أَحْيَا وَيَمُوتَ اسْمِي بِالْعَارِ !

وَلَكِنِّي سَأَعْرِفُ آلَانَ أَمَامَكُمْ وَأَنْتُمْ السَّاعَةَ عَلَى قَبْرِي ، فَكُونُوا كَالْمَلَائِكَةِ لَا يَشْهَدُونَ بِمَا عَرَفُوا إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ .

أَعْتَرَفُ أَنِّي قَتَلْتُ زَوْجَتِي وَأُمُّهَا ؛ وَقَدْ تَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ امْرَأَةً فَضْلًا عَنِ اثْنَيْنِ ؛ إِنِّي رَجُلٌ سَأَشْتَقُ ، أَمَّا النِّسَاءُ فَلَا يُشْتَقْنَ وَإِنَّمَا يُرْسَلَنَّ الرِّجَالُ إِلَى الْمِشْقَةِ . . لَمْ أَرَأَيْ ؛ إِذْ تَرَكْنِي طِفْلًا ، وَلَكِنْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ، فَأَنَا رَجُلٌ وَأَبْنُ رَجُلٍ ،

(١) فِي « الرِّسَالَةِ » : « أَشْرَارُ » بَدَلًا مِنْ : « أَشْرَارُ » .

(٢) وَضَعْنَاهَا لِلتَّيْبِجَارَةِ ، وَهِيَ أَلْيَقُ الْأَلْفَاطِ بِهَا .

وَلَمْ يُدِلْنِي رَجُلٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ لَوْ خَلَقَ اللَّهُ قُوَّةَ مِثَّةِ جَبَّارٍ فِي جِسْمِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَأَذَلَّتْهُ أَمْرَاءُ !
إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شِيَمَةِ الرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ النِّسَاءَ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ تَذِلُّ الرَّجُلَ ذُلًّا يُهَوِّنُ عَلَيْهِ
قَتْلَ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ لَا يُهَوِّنُ عَلَيْهِ قَتْلَهَا ؟ .

عَلِّمُوا الْمُتَعَلِّمِينَ لِيَصِيرُوا فِي الشَّرَفِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ كَرَجُلٍ جَاهِلٍ مِثْلِي : لَا يَرَى
لِلْحَيَاةِ كُلِّهَا قِيَمَةً إِذَا كَانَ فِيهَا مَعْنَى الْعَارِ ، وَيُقَدِّمُ عُنُقَهُ لِلْمِشَقَّةِ حَتَّى لَا يُنْكَسَ رَأْسُهُ لِلذُّلِّ !
أَصْلِحُوا الْقَانُونَ الَّذِي يَحْكُمُ بِالْمَوْتِ شَنْقًا وَيُزْهِقُ الْأَرْوَاحَ الْكَبِيرَةَ ، فِي حِينٍ تَغْلِبُهُ
الْأَرْوَاحُ الصَّغِيرَةُ بِجِيلِهَا الدَّنِيئَةِ ! .

وَمَعَ ذَلِكَ سَأَلَنِي اللَّهُ وَهُوَ يَعْلَمُ سِرِّيَّيْنِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا أَوْ مُجْرِمًا !
قِيمُ السَّجْنِ : سَلَفَاءُ طَاهِرًا .

السَّجِينُ : أَرَأَيْتُمْ مَنِّي خُلِقَ سُوءٌ ؟ أَتَعْتَقِدُ عَلَيَّ ذَنْبًا مَدَّةَ سِجْنِي ؟
الْقِيَمُ : كُلُّنَا رَاضُونَ عَنْكَ .

السَّجِينُ : هَذَا مِثْلُ مَنْ أَخْلَقَنِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ آخِرَ كَلِمَةٍ أَسْمَعُهَا مِنْ إِنْسَانٍ
عَلَى الْأَرْضِ - كَلِمَةُ الرِّضَا .

.....

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ! .

* * *

نَظَرْتُ رِيشَةً مِنْ رَعَبِ الْعُصْفُورِ إِلَى الثُّجُومِ فَحَسِبْتُهَا رِيشًا مُتَنَائِرًا ، فَأَمْتَنَتِ الْعَاصِفَةُ
وَقَالَتْ : إِلَى السَّمَاءِ ! وَدَارَتْ بِهَا الْعَاصِفَةُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَدَوَّرَ ، ثُمَّ رَمَتْ بِهَا حَيْثُ وَقَعَتْ
لَمْ تَبَالٍ فِي مَوْضِعٍ نَفَعَ أَمْ ضُرَّ ؛ فَأَقْبَلَتِ الرِّيشَةُ تَسْحَاطُ وَتَزْعُمُ أَنَّهَا فَوْضَى نَائِرَةٌ لَا حِكْمَةَ
فِي خَلْقِهَا ، وَأَنَّ الرِّيَّاحَ بَعْثَرَةٌ فِي نِظَامِ الْعَالَمِ . . . وَكَانَ إِلَى جَانِبِهَا شَجَرَةٌ تَهْتَزُّ وَلَا
تَطِيرُ . . . فَلَمَّا وَعَتْ مَقَالَاتَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : أَيُّهَا الرِّيشَةُ ! إِنَّ الرِّيَّاحَ لَا تَكُونُ بَعْثَرَةً
فِي نِظَامِ الْعَالَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَالَمُ رِيشًا كُلُّهُ ! .

الْقَلْبُ الْمِسْكِينُ (*) (١)
١

أَقْبَلَ عَلَيَّ صَاحِبِي الْأَدِيبُ وَقَالَ : أَنْظُرْ ! هَذِهِ هِيَ ! وَقَدْ حَلَّتْ بِهِذَا الْبَلَدِ وَمَالِي عَهْدُ بِهَا مِنْذُ سَنَةٍ . وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَهُ ، فَنَظَرْتُ إِلَى صُورَةِ أَمْرَأَةٍ كَأَحْسَنِ النِّسَاءِ وَجْهًا وَجِسْمًا ، تَتَأَوَّدُ فِي غِلَالَةٍ مِنَ اللَّادِ (٢) .

وَكَانَ شُعَاعُ الضُّحَى فِي وَجْهَهَا ، وَكَأَنَّهَا الْقَمَرُ طَالِعًا مِنْ غَيْمَةٍ ، وَيَكَادُ صَدْرُهَا يَتَنَهَّدُ وَهِيَ صُورَةٌ ، وَتَبْدُو هَيْئَةً فَمِهَا كَأَنَّهَا وَغْدٌ بِقُبْلَةٍ ، وَفِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةٌ كَأَلْسُكُوتٍ بَعْدَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قِيلَتْ هَمَسًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُحِبِّهَا . . .

فَقُلْتُ : هَذِهِ صُورَةٌ مَا أَرَاهَا قَدْ رَسَمَهَا إِلَّا أَتْنَانِ : الْمُصَوِّرُ وَإِنِّيلِسُ ، فَمَنْ هِيَ ؟
قَالَ : سَلَهَا ، أَمَا تَرَاهَا تَكَادُ تَتَبُّ مِنَ الْوَرَقَةِ ؟ إِنَّهَا إِلَّا تُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ أَخْبَرَكَ عَنْهَا وَجْهَهَا أَنَّهَا أَجْمَلُ النِّسَاءِ وَأَظْرَفُهُنَّ ، وَأَحْسَنُ مَنْ شَاهَدْتَ وَجْهًا وَأَعْيُنًا ، وَتَغْرَا وَجِيدًا ، وَالَّذِي بَعْدَ ذَلِكَ . . .

قُلْتُ : وَيَحَكَ ! لَقَدْ شَعَرْتُ بِغَيْدِي ، إِنَّ هَذَا شِعْرٌ مَوْزُونٌ [من الطويل] :
وَأَحْسَنُ مَنْ شَاهَدْتَ وَجْهًا وَأَعْيُنًا وَتَغْرَا وَجِيدًا وَالَّذِي بَعْدَ ذَلِكَ . . .
قَالَ : إِنَّ شَيْطَانَ هَذِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا شَاعِرًا : أَلَسْتُ تَرَاهُ نَاطِمًا مِنْ فُتُونِهَا ، عَلَى الرَّسْمِ شِعْرًا مُعْجَزًا كُلَّ شَاعِرٍ ؟

قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا شِعْرٌ مَوْزُونٌ [من الطويل] :

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٣ ، ١٠ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٦ م ، السنة الرابعة ، الصفحات : ١٧٢٣ - ١٧٢٥ .

(١) أَنْظُرْ قِصَّةَ صَاحِبَةِ هَذَا الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ فِي « عَوْدَ عَلَيَّ بِدءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » ، وَهِيَ صَاحِبَةُ « الْجَمَالِ الْبَائِسِ » . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

(٢) اللَّادُ : الْحَرِيرُ الصَّنِيبِيُّ الرَّفِيقُ ، وَالْغِلَالَةُ : مِثْلُ الْقَمِيصِ الَّذِي نَخَتَ الثِّيَابِ .

أَلَسْتَ تَرَاهُ نَاطِمًا مِنْ فُتُونِهَا عَلَى الرَّسْمِ شِعْرًا مُعْجَزًا كُلَّ شَاعِرٍ
قَالَ : بَلَى وَاللَّهِ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ شَيْطَانُهَا يُرِيكَ لِهَذَا الْجِسْمِ رُوحًا رَشِيقَةً ، تَلِينُ
كِلَيْنِ الْجِسْمِ بَلْ هِيَ أَرْشَقُ .

قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا ، وَالْقَافِيَةُ الَّتِي بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ : وَبِهَا شَقُوا ...

فَصَحَحَ صَاحِبُنَا وَقَالَ : حَرِّكَ الصُّورَةَ فِي يَدِكَ ، فَإِنَّكَ سَتَرَاهَا وَمَا تَشْكُ أَنَّهَا تَرْقُصُ .

قُلْتُ : الْآنَ أَنْقَطَعَ شَيْطَانُكَ ، فَهَذَا لَيْسَ شِعْرًا وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ وَرَنٌ .

وَتَضَاحَكَ وَصَحَّحَكَ الشَّيْطَانُ ، وَظَهَرَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فِي الرَّسْمِ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : أَنْظُرْ إِلَى هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ، إِنَّهُمَا مِنَ الْمُيُونِ الَّتِي تَفْتِنُ
الرَّجُلَ وَتَسْحَرُهُ مَتَى نَظَرْتَ إِلَيْهِ ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُضْنِيهِ مَتَى غَابَتْ عَنْهُ ؛ إِنَّ فِي شُعَاعِهِمَا قُدْرَةً
عَلَى وَضْعِ الْتُورِ فِي الْقَلْبِ السَّعِيدِ ، كَمَا أَنَّ فِي سَوَادِهِمَا الْقُدْرَةَ عَلَى وَضْعِ الظُّلْمَةِ فِي
الْقَلْبِ الْمَهْجُورِ .

وَأَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْقَلَمِ ، إِلَى هَذَا الْقَلَمِ الَّذِي تَعْجِزُ كُلُّ حَدَائِقِ الْأَرْضِ أَنْ تُخْرِجَ وَرْدَةً
حَمْرَاءَ تَشْبِهُهُ .

وَأَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْجِيدِ تَحْتَهُ ذَلِكَ الصَّدْرُ الْعَارِي ، فَوْقَهُ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْمُسْرِقُ تِلْكَ ثَلَاثَةٌ
أَنْوَاعٍ مِنَ الضُّوءِ ، أَمَّا الْوَجْهُ فَفِيهِ رُوحُ الشَّمْسِ ، وَأَمَّا الْجِيدُ فَفِيهِ رُوحُ النَّجْمِ ، وَأَمَّا
الصَّدْرُ فَفِيهِ رُوحُ الْقَمَرِ الضَّاحِي .

أَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْمَسَافَةِ الْبَيْضَاءِ مِنْ أَعْلَى جَبِينِهَا إِلَى أَسْفَلِ نَهْدَيْهَا ، تِلْكَ مِنْطَقَةُ
الْقُبُلَاتِ فِي جُغْرَافِيَةِ هَذَا الْجَمَالِ ...

أَنْظُرْ إِلَى الصَّدْرِ يَحْمِلُ ذَيْنِكَ التَّهْدِيَيْنِ النَّاهِدَيْنِ ؛ إِنَّهُ الْمَعْرِضُ الَّذِي اخْتَارَتْهُ الطَّبِيعَةُ
مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ لِلْإِعْلَانِ عَنْ ثِمَارِ الْبُسْتَانِ ...

أَنْظُرْ إِلَى التَّهْدِيَيْنِ ، لِمَ بَرَزَا فِي صَدْرِ الْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا كَانَا يَتَحَدَّثَانِ الصَّدْرَ الْآخَرَ ... ؟

وَأَنْظُرْ لِهَذَا الْخَضِرِ الدَّقِيقِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ ، أَلَا تَرَاهُ فِتْنَةً مُتَوَاصِعَةً بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مُتَكَبِّرَتَيْنِ ... ؟

أَنْظُرْ إِلَيْهَا كُلُّهَا ، أَنْظُرْ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَمَالِ ، وَهَذَا السُّخْرِ ، وَهَذَا الْإِغْرَاءِ ؛ أَلَا تَرَى الْكَثْرَ الَّذِي يُحَوِّلُ الْقَلْبَ إِلَى لَصٍّ ... ؟

هَذِهِ مَخْلُوقَةٌ مَرَّتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ اللَّهِ فِي الْعَالَمِ ، وَالْأُخْرَى مِنْ حُبِّي أَنَا فِي نَفْسِي أَنَا : فَكَلِمَةُ « جَمِيلَةٌ » الَّتِي تَصِفُ الْمَرْأَةَ التَّامَّةَ ، لَا تَصِفُهَا هِيَ إِلَّا بَعْضَ الْوَصْفِ ، وَرَسْمُهَا هَذَا الَّذِي تَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ حُدُودٌ لِتِلْكَ الرُّوحِ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّسْلُطِ ، وَهِيَاهُ يَظْهَرُ مِنْ تِلْكَ الرُّوحِ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنَ الْجَمْرَةِ الْمُشْتَعِلَةِ رَسْمُ هَذِهِ الْجَمْرَةِ فِي وَرْقَةٍ .

أَشْهَدُ مَا نَظَرْتُ مَرَّةً إِلَى هَذَا الرَّسْمِ ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَجَدْتُ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي نَفْسِهَا وَبَيْنَهَا فِي الصُّورَةِ ، كَأَنَّهُ اعْتِدَارٌ نَاطِقٌ مِنْ آلَةِ التَّصْوِيرِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَدَاةً .

* * *

قُلْتُ : اللَّهُمَّ غَفِرَا ، ثُمَّ مَاذَا يَا صِدِّيقِي الْمَجْنُونِ ؟

فَاطْرَقَ الْأَدِيبُ مَهْمُومًا ، وَكَانَتْ أَفْكَارُهُ تَنْفَجِرُ فِي دِمَاعِهِ أَنْفِجَارًا هُنَا وَأَنْفِجَارًا هُنَاكَ ؛ ثُمَّ رَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ وَقَالَ :

هَذِهِ الْغَانِيَةُ قَدْ حَبَسَتْ أَفْكَارِي كُلَّهَا فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا هِيَ ؛ وَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَ نَفْسِي وَمَنَافِذَهَا إِلَى الدُّنْيَا ، وَأَلْهَبَتْ فِي دَمِي جَمْرَةً مِنْ جَهَنَّمَ فِيهَا عَذَابُ الْإِحْرَاقِ وَلَيْسَ فِيهَا الْإِحْرَاقُ نَفْسُهُ كَيْلًا يَنْتَهِي مِنْهَا الْعَذَابُ !

وَبَيْنَمَا حُبٌّ بِغَيْرِ طَرِيقَةِ الْحُبِّ ، فَإِنَّ طَبِيعَتِي الرُّوحَانِيَّةَ الْكَامِلَةَ نَهَوْنِي فِيهَا طَبِيعَتَهَا الْبَشَرِيَّةَ النَّاقِصَةَ ، فَأَنَا أَمَارِجُهَا بِرُوحِي فَأَنَا لَمْ لَهَا ، وَأَنْجَبْتُهَا بِجِسْمِي فَأَنَا لَمْ يَهَا .

حُبٌّ عَقِيمٌ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ لَا يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْوَاقِعِ ...

حُبٌّ عَجِيبٌ لَا تَنْتَفِي مِنْهُ أَلَامُهُ وَلَا تَكُونُ فِيهِ لَذَاتُهُ .

حُبٌّ مُعَقَّدٌ لَا يَرَالُ يَلْقَى الْمَسْأَلَةَ بَعْدَ الْمَسْأَلَةِ ، ثُمَّ يَرْفُضُ الْحُلَّ الَّذِي لَا تَحُلُّ الْمَسْأَلَةَ

إِلَّا بِهِ .

حُبِّ أَحْمَقُ يَغْشَى الْمَرْأَةَ الْمَبْدُولَةَ لِلنَّاسِ ، وَلَا يَرَاهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا قَدِيسَةً لَا مَطْمَعَ فِيهَا .
حُبِّ أَبْلَهَ لَا يَزَالُ فِي حَقَائِقِ الدُّنْيَا كَالْمُنْتَظَرِ أَنْ تَقَعَ عَلَى شَفَتَيْهِ قُبْلَةٌ مِنَ الْقَلَمِ الَّذِي فِيهِ
الصُّورَةُ .

حُبِّ مَجْنُونُ كَالَّذِي يَرَى الْحَسَنَاءَ أَمَامَ مِرَاتِهَا فَيَقُولُ لَهَا : أَذْهَبِي أَنْتِ وَسَتَبْقَى لِي هَذِهِ
الَّتِي فِي الْمِرْأَةِ ...

* * *

قُلْتُ : اللَّهُمَّ رَحْمَةً ! ثُمَّ مَاذَا يَا صَاحِبِي الْمُسْكِينِ ؟

قَالَ : ثُمَّ هَذِهِ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا هِيَ الَّتِي لَا أُرِيدُ الْأَسْتِمْنَاعَ بِهَا وَلَا أُطِيقُهُ وَلَا أَجِدُ فِي
طَبِيعَتِي جُزْأَةً عَلَيْهِ ، فَكَأَنَّمَا أَلْهَبْتُ الْفَقِيرَ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لِيصًا ، يَقُولُ لَهُ
شَيْطَانُ الْمَالِ : تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْمَعَ ، وَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْحَاجَةِ : وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ ، وَيَقُولُ
هُوَ لِنَفْسِهِ : لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا الْفَضِيلَةَ !

إِنَّ عَذَابَ هَذَا بِشَيْطَانَيْنِ لَا بِشَيْطَانٍ وَاحِدٍ ، غَيْرَ أَنْ لَدَّتُهُ فِي انْتِصَارِهِ كَلْدَةً مَنْ يَقْهَرُ
بَطْلَيْنِ كِلَاهُمَا أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدُّ .

* * *

قُلْتُ : اللَّهُمَّ عَفْوًا ، ثُمَّ مَاذَا يَا قَاهِرَ الشَّيْطَانَيْنِ ؟

فَأُطْرَقَ مَلِكًا كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي أَمْرِ قَدْ حَيَّرَهُ لَا يَتَوَجَّهُ لَهُ فِي أَمْرِهِ وَجْهٌ ، ثُمَّ تَنَهَّدَ وَقَالَ :
يَا طُولَ عِلَّةٍ قَلْبِي ! مَنْ أَيْنَ أَجِيءُ لِأَحْلَامِي بِغَيْرِ مَا تَجِيءُ الْأَحْلَامُ بِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَحْتَ
الْتَوَمِ وَوَرَاءَ الْعَقْلِ وَفَوْقَ الْإِرَادَةِ ؟ لَقَدْ بَلَغَ بِي هَوَاهَا أَنْ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِ الْحُبِّ فِي كِتَابٍ
أَوْ رَوَايَةٍ أَوْ شِعْرِ أَوْ حَدِيثٍ - أَرَاهَا مُوجَّهَةٌ إِلَيَّ أَنَا .

ثُمَّ قَالَ : أَنْطَلِقْ بِنَا فَتَرَاهَا حَتَّى تَعْلَمَ مِنْهَا عِلْمًا ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ الْمَسْرَحِ ، هِيَ فِي ذَلِكَ
الْأَشْرِّ ، هِيَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، هِيَ كَاللُّؤْلُؤَةِ لَا تَتَرَبَّيْ لُؤْلُؤَةً إِلَّا فِي أَعْمَاقِ بَحْرِ .

* * *

وَدَهَبْنَا إِلَى مَسْرَحٍ يَقُومُ فِيهِ حَدِيثُ عَنَاءٍ مُتَرَامِيَةِ الْجِهَاتِ بَعِيدَةِ الْأَطْرَافِ تَظْهَرُ تَحْتَ
الَّيْلِ مِنْ ظُلُمَاتِهَا وَأَنْوَارِهَا كَأَنَّهَا مُنْقَلَةٌ بِمَعَانِي الْهَجْرِ وَالْعَشَقِ .

وَتَقَدَّمْنَا نَسِيرٌ فِي الْغَبَشِ ، فَقَالَ صَاحِبُنَا الْمُحِبُّ : إِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ الظَّلَامَ هُنَا حَيٌّ كَأَنَّ
فِيهِ غَوَامِضَ قَلْبٍ كَبِيرٍ ، فَمَا أَرَى فَرْقًا بَيْنَ أَنْ أَجْلِسَ فِيهِ وَبَيْنَ الْجُلُوسِ إِلَى فَيْلَسُوفٍ عَظِيمٍ
مَهْمُومٍ بِهِمْ إِلَّا نِهَايَةً ، فَتَعَالَ نَبْزُزْ إِلَى ذَلِكَ الثُّورِ حَوْلَ الْمَسْرَحِ لِنَرَاهَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ ، فَإِنَّ
رُؤْيَيْهَا سَيَدَّةٌ غَيْرُ رُؤْيَيْهَا رَاقِصَةٌ ، وَلِهَذَا جَمَالَ فَنٌّ وَلِتِلْكَ فَنٌّ جَمَالٍ .

وَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى وَافَتْ ، وَرَأَيْنَاهَا تَمُشِي مِشْيَةَ الْخَفِرَاتِ كَأَنَّمَا تَحْتَرِمُ أَفْكَارَ
النَّاسِ ، يَزْهُوْهَا عَلَى ذَلِكَ إِحْسَاسٌ نَبِيلٌ كإِحْسَاسِ الْمَلِكَةِ الشَّاعِرَةِ بِمَحَبَّةِ شَعْبِهَا ؛
وَأَتَنَفَّصَ مَجْهُونًا وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهَا تَمُرُّ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ لَا فِي طَرِيقِهَا . وَكَأَنَّ لَذَّةَ قُرْبِهَا مِنْهُ
هِيَ الْمُمْكِنُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ غَيْرُهُ .

وَكَانَ عَجَبًا مِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَحَرَّكَ الْهَوَاءُ فِي الْحَدِيثَةِ وَأَضْطَرَّتْ أَشْجَارُهَا ، فَقَالَ :
أَنْتِ تَرَى ؛ فَهَذَا اخْتِجَاجٌ مِنْ رَاقِصَاتِ الطَّبِيعَةِ عَلَى دُخُولِ هَذِهِ الرَّاقِصَةِ . قُلْتُ : آه
يَا صَدِيقِي ! إِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَكُونُ أَمْرًا بِمَعَانِيهَا إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ فِي جَوْ قَلْبٍ يَعْشَقُهَا .

وَتَقَدَّمْنَا إِلَى الْمَسْرَحِ ، وَتَحَرَّى صَاحِبُنَا مَوْضِعًا يَكُونُ فِيهِ مَنْظَرُ الْعَيْنِ مِنْ صَاحِبِيهِ
وَيَكُونُ مُسْتَحْفِيًا مِنْهَا ، ثُمَّ رَفَعَ السَّتَارَ عَنْهَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ يَكْتَنِفَانِهَا ، وَقَدْ لَبَسْنَ ثَلَاثَتَهُنَّ أَتُوبَ
الرَّيْفِيَّاتِ ، وَظَهَرْنَ كَهَيَاتُنَّهُنَّ حِينَ يَجْنِبْنَ الْقَطْنَ .

وَبَرَزَتْ (تِلْكَ) فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ ، وَهِيَ بَيْضَاءُ بَيَاضِ الْقَمَرِ حِينَ يَتِمُّ ، وَقَدْ
شَدَّتْ وَسَطَهَا بِمِشْدَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ ، فَتَحَبَّكَتْ بِهَا وَظَهَرَتْ شَيْئَيْنِ : أَعْلَى وَأَسْفَلَ ؛
ثُمَّ أَلْقَتْ عَلَى شَعْرِهَا الذَّهَبِيَّ فَلَنَسُوهُ حُمْرَاءَ مِنْ ذَلِكَ الْحَرِيرِ أَمَالَتَهَا جَانِبًا فَحَبَسَتْ شَيْئًا مِنْهُ
وَأَظْهَرَتْ سَائِرَهُ ، وَأَخَذَتْ يَدَيْهَا صَفَاقَتَيْنِ^(١) ، وَأَقْبَلَ الثَّلَاثُ يَرْقُضْنَ وَيُعْنَيْنِ نَشِيدَ
الْفَلَاحَةِ .

(١) الصَّفَاقَاتُ ، هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : السَّجَّاتُ ، تَكُونُ فِي أَصَابِعِ الرَّاقِصَةِ ، وَالْكَلِمَةُ وَارِدَةٌ فِي كِتَابِ
«الْأَغَانِي» .

لَمْ أَنْظُرْ إِلَى غَيْرِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ صَاحِبَتَهُ دَلِيلَيْنِ عَلَى جَمَالِهَا لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ؛ وَمَا أَحْسَبُ الْحَرِيرَ الْأَخْمَرَ ، كَانَ مَعَهَا أَخْمَرَ وَلَا الْأَسْوَدَ كَانَ عَلَيْهَا أَسْوَدَ ، وَلَا لَوْنُ الذَّهَبِ فِي مِعْصِمِهَا كَانَ لَوْنُ الذَّهَبِ ؛ كَلَّا كَلَّا ، هَذِهِ أَلْوَانُ فَوْقَ الطَّبِيعَةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَلْوَجَهَ يُشْرِقُ عَلَيْهَا بِالْجَمَالِ وَالْحَيَاةِ ، وَذَلِكَ الْجِسْمُ يَفْنِضُ لَهَا بِالْخِفَّةِ وَالطَّرَبِ ، وَتِلْكَ أَلْوَانُ تَبْعَثُ فِيهَا الْمَرَحَ وَالشَّوْهَ ؛ هَذَا مَزِيَجٌ مِنْ خَمْرِ الْأَلْوَانِ لَا مِنْ الْأَلْوَانِ نَفْسِهَا .

وَقَالَ مَجْنُونُنَا : إِنْ أَجَمَلَ الْجَمَالُ فِي الْمَرْأَةِ أَلْفَانَتَهُ هُوَ ذَاكَ الَّذِي يَجْعَلُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَوْعَ شُعُورِهِ بِهَا ، وَأَنَا أَشْعُرُ السَّاعَةَ أَنَّ قَلْبِي نِصْفُ قَلْبٍ فَقَطْ ، وَأَنَّ نِصْفَهُ الْآخَرُ فِي هَذِهِ وَحْدَهَا ؛ فَمَا شُعُورُكَ أَنْتَ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! إِنْ اللَّهُ رَحِيمٌ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ أَخْفَى الْقَلْبَ وَأَخْفَى بَوَاعِثَهُ لِيُظَلَّ كُلُّ إِنْسَانٍ مَخْبُوءًا عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ ؛ فَدَعْنِي مَخْبُوءًا عَنْكَ !
قَالَ : لَا بُدَّ !

قُلْتُ : إِنْ الْمِضْبَاحَ فِي الْمَوْضِعِ النَّجِسِ لَا يَبْعَثُ الثُّورَ نَجَسًا ، وَمَا أَشْعُرُ إِلَّا أَنَّ الثُّورَ الَّذِي فِي قَلْبِي قَدْ أَمْتَرَجَ بِالثُّورِ الَّذِي فِي عَيْنِهَا .
ثُمَّ كَانَتْ أَحْسَنَ بِأَنَّ إِنْسَانًا قَدْ أَمْتَلَأَ بِهَا ، فَأَدَارَتْ وَجْهَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ فَتَلَمَّحَتْ صَاحِبَتَا ، وَجَعَلَتْ تُقَطِّعُ الطَّرْفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ كَأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَتَجْهَلُهُ ، ثُمَّ تَبَيَّنَتْ إِلْحَاحَ نَظَرِهِ فَضَحِكَتْ لِأَنَّهَا تَعْرِفُهُ وَلَا تَجْهَلُهُ !

أَمَّا هُوَ ؛ أَمَّا الْمَجْنُونُ ؛ أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ... !

الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ (*)
٢

... أَمَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ، فَرَأَى الضَّخْكَ الَّتِي أَلْقَتْ بِهَا صَاحِبَتُهُ وَهِيَ تَرْقُصُ حِينَ عَرَفَتْهُ - غَيْرَ مَا رَأَيْتُهَا أَنَا وَغَيْرَ مَا رَأَى النَّاسُ : كَانَتْ لَنَا نَحْنُ أَيْتِسَامًا عَذْبًا مِنْ فَمِ جَمِيلٍ يَتِمُّ جَمَالُهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَكَانَتْ لَهُ هُوَ لُغَةً مِنْ هَذَا الْقَلَمِ الْجَمِيلِ يَتِمُّ بِهَا حَدِيثُنَا قَدِيمًا كَانَ بَيْنَهُمَا ؛ وَاعْتَرَانَا مِنْهَا الطَّرْبُ وَاعْتَرَاهُ مِنْهَا الْفِكْرُ ، وَوَصَفَتْ لَنَا نَوْعًا مِنَ الْخُسْنِ وَوَصَفَتْ لَهُ نَوْعًا مِنَ الشُّوقِ ، وَمَرَّتْ عَلَيْنَا شُعَاعًا فِي الضُّوءِ وَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ هُوَ كِبَاطِقَةِ الزِّيَارَةِ عَلَيْهَا أَسْمٌ مَكْتُوبٌ ...

وَقَوِي إِحْسَاسُ الرَّاقِصَةِ الْجَمِيلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ قَانَبَتْ يَدُهَا عَلَى نَفْسِهِ ضُرُوبًا مِنَ الدَّلَالَةِ الْخَفِيَّةِ ، وَرَجَعَتْ بِهَذَا الْإِحْسَاسِ كَالْحَقِيقَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْغَامِضَةِ الْمَمْلُوءَةِ بِفُنُونِ الرَّمْزِ وَالْإِيمَاءِ ، وَكَانَتْهَا زَادَتْ بِهَذَا الْعُمُوضِ زِيَادَةً ظَاهِرَةً ؛ وَلِلْمَرَأَةِ لَحَظَاتُ تَكُونُ فِيهَا يَفْكُرِينَ حِينَمَا يَكُونُ أَحَدُ الْفِكْرَيْنِ مَائِلًا أَمَامَهَا فِي رَجُلٍ تَهَوَّاهُ ؛ فِيهِ هَذِهِ السَّاعَةِ تَتَحَدَّثُ الْمَرَأَةُ بِكَلَامٍ فِيهِ صَمْتُ يَشْرَحُ وَيُفَسِّرُ ، وَتَضْطَرِبُ بِحَرَكَةٍ فِيهَا اسْتِرْخَاءٌ يَمِيلُ وَيَعْتَنِقُ ، وَتَنْظُرُ بِالْحَاطِظِ فِيهَا أَنْكِسَارٌ يَأْمُرُ وَيَتَوَسَّلُ ، وَكَانَتْ هِيَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ .. فَغَلَبَتْ وَاللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا الْمُسْكِينِ وَتَرَكَتْ نَفْسَهُ كَأَنَّهَا تَقَطَّعُ فِيهِ مِنْ أَسْفٍ وَحَسْرَةٍ ؛ ثُمَّ كَانَتْ لَهُ كَالزُّهْرَةِ الْعَرِيقَةِ : يَبْنُو وَيَبْنُو جَمَالَهَا وَعِطْرُهَا وَهَوَاؤُهَا وَالْحَاسَةُ الَّتِي فِيهِ .

وَجَعَلَ يَنْسَحِبُهَا مِنْ خِلَالِ أَعْضَائِهَا وَهِيَ تَرْقُصُ ، ثُمَّ قَالَ لِي : أَنْظُرْ وَيَحْكُ ! لَكَأَنَّ قِيَابَهَا تَقْصُفُهَا وَتَلْتَصِقُ بِهَا ضَمٌّ ذِي الْهَوَى لِمَنْ يَهْوَى .

قُلْتُ : مَا هِيَ إِلَّا كَهَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرْقُصَانِ مَعَهَا : أَمْرَأَةٌ بَيْنَ أَمْرَأَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ أَحْسَنَ الثَّلَاثِ .

قَالَ : كَلَّا ! هَذِهِ وَحْدَهَا قَصِيدَةٌ مِنْ أَرْوَاعِ الشُّعْرِ تَتَحَرَّكُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَقْرَأَ ، وَتُرَى بَدَلًا مِنْ أَنْ تُسَمِعَ ؛ قَصِيدَةٌ بِلاَ أَلْفَاظٍ ، وَلَكِنْ مَنْ شَاءَ وَضَعَ لَهَا أَلْفَاظًا مِنْ دَمِهِ إِذَا هُوَ فَهَمَّهَا بِخَوَاسِئِهِ وَفِكَرِهِ وَشُعُورِهِ .

قُلْتُ : وَالْأَخْرِيَانِ ؟

قَالَ : كَلَّا كَلَّا ، هَذَا فَنٌّ آخَرُ ، فَالْوَاحِدَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمِسْكِينَاتِ إِنَّمَا تَرْقُصُ بِمَعْدَتِهَا . . . تَرْقُصُ لِلْخُبْرِ لَا غَيْرُ ؛ أَمَّا (تِلْكَ) فَرَقِصُهَا الطَّرْبُ مَصْنُوعًا عَلَى جِسْمِهَا وَمَصْنُوعًا مِنْ جِسْمِهَا ، إِنَّهَا كَالطَّائِفِ فِي أَصْبَاحِهِ ، فِي رَيْشِهِ ، فِي خِيَلَانِهِ ، بَخْتَرَةٍ يَضَاعِفُهَا الْحُسْنُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَلَوْ خَلَقَ اللَّهُ جِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرَهَا وَأَخْضَرَهَا وَأَصْفَرَهَا وَأَزْرَقَهَا ، وَالْآخَرُ مِنَ الْأَزْهَارِ فِي أَلْوَانِهَا وَوَشِيِّهَا ، ثُمَّ اخْتَلَلَ الطَّائِفُ بَيْنَهُمَا نَاشِرًا ذَبْلُهُ فِي كِبَرِيَاءِ رُوحِهِ الْمَلُونَةِ - لَظَهَرَ فِيهِ وَحْدَهُ اللَّوْنُ الْمَلِكُ بَيْنَ أَلْوَانٍ هِيَ رَعِيَّتُهُ الْخَاضِعَةُ .

* * *

وَأَتَتْهُ رَفُصُ الْحَسَنَاءِ أَلْفَاتِنَّةً وَغَابَتْ وَرَاءَ السَّيَّارَةِ بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَتْ قُبْلَةً فِي الْهَوَاءِ . . . فَقَالَ صَاحِبُنَا : آه ! لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْحَسَنَاءَ تَصَدَّقَتْ بِدِرْهَمٍ عَلَى فَقِيرٍ ، لَجَعَلْتُهُ لِمَسَّةٍ يَدِهَا دِرْهَمًا وَقُبْلَةً . . .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! قُبْلَةٌ مُحَرَّرَةٌ مُسَدَّدَةٌ وَقَدْ رَأَيْتُهَا وَقَعَتْ هُنَا . . . وَلَكِنَّكَ دَائِمًا فِي خِصَامِ بَيْنِ نَفْسِكَ وَبَيْنَ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ؛ تَغْشَقُ الْقُبْلَةَ وَتُخَاصِمُ الْقَلَمَ الَّذِي يُلْقِيهَا ، وَتَبْنِي الْعُشَّ وَتَتَرَكُهُ فَارِعًا مِنْ طَبِيرِهِ ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُحِبُّكَ لَا بُدَّ مُنْتَهِيَةٍ^(١) إِلَى الْجُنُونِ مَا دَامَتْ مَعَكَ فِي غَيْرِ الْمَفْهُومِ وَغَيْرِ الْمَعْقُولِ وَغَيْرِ الْمُمَكِنِ .

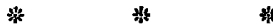
ثُمَّ بَدَأَ فَضَّلَ آخَرَ عَلَى الْمَسْرَحِ وَظَهَرَ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ وَقِصَّةٌ ؛ وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ شَيْخٌ يُمَثِّلُ فَقِيهًا ، وَآخَرُ يُمَثِّلُ شَرْطِيًّا ؛ فَقَالَ صَاحِبُنَا الْفَيْلَسُوفُ : لَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الثِّيَابُ فَارِغَةً وَكَانَتْهَا أَلَانٌ تَنْطِقُ أَنَّ صِحَّةَ أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ صِحَّةُ الظَّاهِرِ فَقَطْ ، مَا دَامَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَنْ تَنْتَهِيَ » بَدَلًا مِنْ : « مُنْتَهِيَةٌ » .

الظَّاهِرُ يُخْلَعُ وَيَلْبَسُ بِهِذِهِ السُّهُولَةُ ، فَكَمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ شُرَفَاءَ لَوْ حَقَّقْتَ أَمْرَهُمْ وَبَلَوْتَ أَلْبَاطِنَ مِنْهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ إِنَّمَا يُشْرِفُونَ الرَّدَائِلَ لِأَنَّهُمْ يَزْتَكِبُونَهَا بِشَرَفِ ظَاهِرٍ . . . وَكَمْ مِنْ أَغْنِيَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّصُوصِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ بِقَانُونٍ . . . وَكَمْ مِنْ فَقَهَاءَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَجَرَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَفْجَرُونَ بِمَنْطِقٍ وَحِجَّةٍ . . . لَيْسَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ بِهِذِهِ السُّهُولَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا مَنْ يَظُنُّ ، وَإِلَّا فَفِيمَ كَانَ تَعَبُ الْأَنْبِيَاءِ وَشَقَاءُ الْحُكَمَاءِ وَجِهَادُ أَهْلِ الثُّمُوسِ ؟ .

الْعُقْدَةُ السَّمَاوِيَّةُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ إِلَّا حَيَوَانًا مُلَطَّفًا تَلَطِّفًا إِنْسَانِيًّا ، ثُمَّ أَرَاهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَقَالَ لَهُ : أَجْعَلْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ إِنْسَانًا وَجِئْنِي . قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! فَمَا تَقُولُ فِي حُبِّكَ هَذِهِ الرَّاقِصَةَ وَأَنْتَ حَيَوَانٌ مُلَطَّفٌ تَلَطِّفًا إِنْسَانِيًّا ؟ .

قَالَ : وَيْحَكَ ! وَهَلِ الْعُقْدَةُ إِلَّا هُنَا ؟ فَهَذِهِ مَبْدُوءَةُ مُمَكِّنَةٍ ، ثُمَّ هِيَ لِي كَالضَّرُورَةِ الْفَاحِرَةِ ، فَلَا يَكُونُ حُبُّهَا إِلَّا إِغْرَاءً بِنَيْلِهَا ، وَلَا تَكُونُ سُهُولَةُ نَيْلِهَا إِلَّا إِغْرَاءً لِذَلِكَ الْإِغْرَاءِ ؛ فَأَنَا مِنْهَا لَسْتُ فِي أَمْرَةٍ وَحُبٍّ ، وَلَكِنِّي فِي أَمْتِحَانٍ شَدِيدٍ عَسِرٍ ؛ أَغَالِبُ نَامُوسًا مِنْ نَوَامِيسِ الْكَوْنِ ، وَأُدَافِعُ قَانُونَنَا مِنْ قَوَانِينِ الْعَرِيزَةِ ، وَأُظْهِرُ قُوَّتِي عَلَى قُوَّةِ الضَّرُورَةِ الْمُسِيرَةِ بِأَسْبَابِهَا ، وَهِيَ أَشَدُّ الضَّرُورَاتِ عُنْفًا وَالْحَاحَا وَقَهْرًا لِلنَّفْسِ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ ، وَأَنَّهَا مُهَيَّأَةٌ سَهْلَةٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمَخْبُوبَةَ كَانَتْ مُتَمَتِّعَةً بِعَيْدَةِ الْمَنَالِ ، لَمَا كَانَتْ لِي فَضِيلَةٌ فِي هَذَا الْحُبِّ الْعَنِيفِ ، وَلَكِنَّهَا دَانِيَةٌ مُسِيرَةٌ عَلَى الشَّغَفِ وَالْهَوَى ؛ فَهَذَا هُوَ الْأَمْتِحَانُ لِأَصْنَعُ أَنَا بِنَفْسِي فَضِيلَةَ نَفْسِي ! .



وَمَرَّ الْفَضْلُ الَّذِي مَثَلُوهُ وَمَا تَسْعُرُ مِنْهُ بِتَمَثِيلٍ ، فَقَدْ كَانَ كَالصُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُعْتَرِضَةِ لِلْعَقْلِ وَهُوَ يُعَكِّرُ فِي غَيْرِهَا ، وَكَانَتْ (الْحَقِيقَةُ) فِي شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ هَذَا ، وَمَتَى لَمْ يَتَعَلَّقِ الشُّعُورُ بِالْفَنِّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَنٌّ ؛ وَهَذَا هُوَ سِرُّ كُلِّ أَمْرَةٍ مَخْبُوبَةٍ ، فَهِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُثِيرُ شُعُورَ الْمُحِبِّ فِي نَفْسِهِ فَيَشْعُرُ مِنْ حُسْنِهَا بِحَقِيقَةِ الْحُسْنِ الْمُطْلَقِ ، وَيَجِدُ فِي مَعَانِيهَا جَوَابَ مَعَانِيهِ ، وَتَأْنِيهِ كَأَنَّهَا صُنِعَتْ لَهُ وَخُدَتْ ، وَتَجْعَلُ لَهُ فِي الزَّمَانِ زَمَنًا قَلْبِيًّا يَخْصُرُ وَجُودَهُ فِي وَجُودِهَا .

وَلَيْسَ فَنُ الْحُبِّ شَيْئًا إِلَّا اسْتِطَاعَةَ الْحَبِيبِ أَنْ يَجْعَلَ شَهَوَاتِ الْمُحِبِّ شَاعِرَةً بِهِ مُمْتَلِكَةً مِنْهُ مُتَعَلِّقَةً عَلَيْهِ ، كَأَنَّ بِهِ وَخْدَهُ ظُهُورَ جَسَدِيَّةٍ هَذَا الْجَسَدِ وَرُوحَانِيَّةٍ هَذَا الرُّوحِ ؛ وَكُلُّ مَا يَتَرَكُّ بِهِ الْمَحْبُوبُ لِلْمُحِبِّ فَإِنَّمَا هُوَ وَسَائِلُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ لِإِظْهَارِ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي فِيهِ ، كَيْمَا تَكْبُرُ فَيُذَرِّكُهَا الْمُحِبُّ بِدَقَّةٍ ، وَتَتَوَرُّ فَيَحْشُهَا الْعَاشِقُ بِعُتْفٍ ، وَتَسْتَبْدُ فَيَخْضَعُ لَهَا الْمَسْكِينُ بِقُوَّةٍ .

وَالشَّهَوَاتِ كَالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَغْصَابِ الْإِنْسَانِ ، وَهِيَ تَتَّبِعُ فِكْرَهُ وَخَيَالَهُ وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، أَوِ التَّنَبُّهِ وَالْخُمُودِ ، أَوِ الْحِدَّةِ وَالسُّكُونِ ، غَيْرَ أَنَّهَا فِي الْحُبِّ تَجِدُ لَهَا فِكْرًا وَخَيَالًا مِنَ الْمَحْبُوبِ ، فَتَكُونُ كَأَنَّهَا قَدْ غَيَّرَتْ طَبِيعَتَهَا بِسِرٍّ مَجْهُولٍ مِنْ أَسْرَارِ الْأَلُوهِيَّةِ . وَمِنْ هُنَا يَنَالُ الْحَبِيبُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَرَدْ وَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ ، وَتَرَاهُ فِي وَهْمٍ مُحِبِّهِ يَفْرِضُ فَرْضًا وَيُسْرِعُ شَرِيعَةً مِنْ حَيْثُ لَا قِيَمَةَ لِفَرْوَضِهِ وَشَرِيعَتِهِ إِلَّا فِي الشَّهْوَةِ الْمُؤْمَنَةِ بِهِ وَخَدَهَا .

وَمِنْ ثَمَّ لَا عِصْمَةَ عَلَى الْمُحِبِّ إِلَّا إِذَا وَجِدَ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ ، أَقْوَاهُمَا الْإِيْمَانُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ؛ وَبَيْنَ خَوْفَيْنِ ، أَشَدَّهُمَا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ ؛ وَبَيْنَ رَغْبَتَيْنِ ، أَعْظَمُهُمَا الرَّغْبَةُ فِي السُّمُوِّ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَاشِقُ ذَا دِينٍ وَفَضِيلَةٍ فَلَا عِصْمَةَ عَلَى الْحُبِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَقْوَى الْإِيْمَانَيْنِ الْحَرِصَّ عَلَى مَكَانَةِ الْمَحْبُوبِ فِي النَّاسِ ، وَأَشَدَّ الْخَوْفَيْنِ الْخَوْفَ مِنَ الْقَانُونِ ... وَأَعْظَمَ الرَّغْبَتَيْنِ الرَّغْبَةَ فِي نَتِيجَةِ مَشْرُوعَةٍ كَالزَّوْاجِ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَقَلَّمَا تَجِدُ الْحُبَّ إِلَّا وَهُوَ فِي جَرَاءَةِ كُفْرَيْنِ وَحِمَاقَةٍ جُنُونَيْنِ ، وَانْحِطَاطِ سَفَالَتَيْنِ ، وَبِهَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِنْسَانَيْنِ إِلَّا دُونَ مَا هُوَ فِي بِهِمَتَيْنِ ! .

* * *

ثُمَّ جَاءَ الْفَصْلُ الثَّالِثُ وَظَهَرَتْ فِيهِ عَلَى الْمَسْرَحِ ، ظَهَرَتْ هَذِهِ الْمَرْءَةُ فِي ثَوْبٍ مَرْكَبَةٍ أَوْزُبِيَّةٍ تَخَاصِرُ عَشِيقًا لَهَا ، فَيَرَقْصَانِ فِي أَدَبٍ أَوْزُبِيٍّ مُتَمَدِّنٍ ... مُتَمَدِّنٍ بِنِصْفٍ وَقَاحَةٍ ؛

مُتَأَدِّبٍ ... مُتَأَدِّبٍ يَنْصِفُ نَسْفُلٍ ؛ مَشْرُوعٌ ... مَشْرُوعٌ يَنْصِفُ كُفْرٍ ؛ هُوَ عَلَى النُّصْفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لَيَجْعَلَ الْعَذْرَاءَ نِصْفَ عَذْرَاءٍ ؛ وَالزَّوْجَةَ نِصْفَ زَوْجَةٍ ... ! .

وَكَانَ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْرَ الْعَشِيقِ قَتَاةً أُخْرَى غُلَامِيَّةً مُجَمِّمَةً الشَّعْرِ^(١) مَمْسُوخَةٌ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ : فَلَمَّا رَأَاهَا صَاحِبِنَا قَالَ : هَذَا أَفْضَلُ ..

وَهَشَّتِ الْحَسَنَاءُ وَتَبَسَّمَتْ وَأَخَذَتْ فِي رَفِصِهَا الْبَدِيعِ ، فَأَنْفَصَلَ عَنِّي الصَّدِيقُ وَأَهْمَلَنِي وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا بِالنَّظَرَةِ بَعْدَ النَّظَرَةِ بَعْدَ النَّظَرَةِ ، كَأَنَّهُ يُكَرِّرُ غَيْرَ الْمَفْهُومِ لِيَفْهَمَهُ ، وَرَجَعَ وَإِلَّا هَا كَأَنَّهُ فِي عَالَمٍ مِنْ غَيْرِ زَمَنٍ تَقَدَّمَهُ عَنْ عَالِمِنَا سَاعَةً أَوْ تَوَخَّرَهُ سَاعَةً ؛ وَكَانَتْ جُمْلَةُ حَالِهِ كَأَنَّهُا تَقُولُ لِي : إِنَّ الدُّنْيَا أَلَاكَ أَمْرَاءُ ! وَكَانَ مِنَ الشَّرُورِ كَأَنَّمَا نَقَلَهُ الْحُبُّ إِلَى رُتْبَةِ آدَمَ ، وَنَقَلَ صَاحِبَتَهُ إِلَى رُتْبَةِ حَوَاءَ ، وَنَقَلَ الْمَسْرَحَ إِلَى رُتْبَةِ الْجَنَّةِ !

وَالْعَجَبُ أَنَّ الْقَمَرَ طَلَعَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَأَفَاضَ نُورًا جَدِيدًا عَلَى الْمَسْرَحِ الْمَكْشُوفِ فِي الْحَدِيقَةِ ، فَكَأَنَّهُ فَعَلَ هَذَا لِيُبَيِّنَ الْحُسْنَ وَالْحُبَّ ، وَأَخَذَ شُعَاعُ الْقَمَرِ السَّمَاءَ يَرْفُصُ حَوْلَ هَذَا الْقَمَرِ الْأَرْضِيِّ ، فَكَانَتْ الصَّلَةُ تَامَّةً وَثَبَّتَةً بَيْنَ نَفْسِ صَاحِبِنَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْقَمَرَيْنِ .

مَا هَذَا الْوَجْهَ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ ؟ إِنَّهُ بَيْنَ اللَّحْظَةِ وَاللَّحْظَةِ يُعْبَرُ تَغْيِيرًا جَدِيدًا بِقَسَمَاتِهِ وَمَلَامِحِهِ الْفَتَانَةِ : كُلُّ الْبَيَاضِ الْخَاطِفِ فِي نُجُومِ السَّمَاءِ يَجُولُ فِي أَدِيمِهِ الْمُسْرِقِ ، وَكُلُّ السَّوَادِ الَّذِي فِي عُيُونِ أَلْمَهَا يَجْتَمِعُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَكُلُّ الْحُمْرَةِ الَّتِي فِي الْوَرْدِ هِيَ فِي حُمْرَةِ هَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ .

مَا هَذَا الْجِسْمُ الْمُتَمَرِّنُ الْمُتَمَوِّجُ الْمُفْرَغُ كَأَنَّهُ يَنْدَفِقُ هُنَا وَهُنَا ؟ إِنَّهُ جِسْمٌ كَامِلٌ الْأُنُوثَةِ ، إِنَّهُ صَارِخٌ صَارِخٌ ، إِنَّهُ عَالَمٌ جَمَالٍ كَمَا تَقُولُ الْفَلَسَفَةُ حِينَ تَصِفُ الْعَالَمَ : فِيهِ « جِهَةٌ فَوْقَ » وَ« جِهَةٌ تَحْتَ » ؛ لَوْ أَمْتَدَّتْ لَهُ يَدُ عَاشِقَةٍ لَجَعَلَ فِي خَمْسِ أَصَابِعِهَا خَمْسَ حَوَاسٍ ...

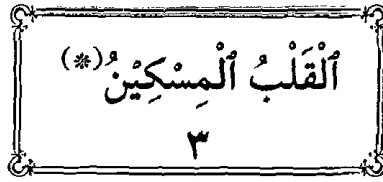
(١) الْمُجَمِّمَاتُ : هُنَّ اللَّوَاتِي يَتَّخِذْنَ شُعُورَهُنَّ جُمَّةً (بِضَمِّ الْجِيمِ) ، أَيْ : يَقْضُصْنَهَا ؛ كَمَا يَفْعَلُ نِسَاءُ هَذِهِ الْأَيَّامِ تَشْبِيهَا بِالرَّجَالِ ؛ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَصْنَعُهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ وَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ كَرَاهَةً لِهَذَا التَّشْبِيهِ ؛ فَقَصَّ الشَّعْرَ (عَلَى الْمُدَوَّةِ) هُوَ التَّجْنِيمُ .

مَا هَذَا ؟ مَا هَذَا ؟ لَقَدْ خُتِمَ الرَّفْصُ بِقُبْلَةٍ أَلْقَاهَا الْخَلِيلُ عَلَى شَفَتِي الْخَلِيلَةِ ، وَكَانَتْ تَرَكَّتْ خَضْرَاهَا فِي يَدَيْهِ وَأَنْفَلَتْ تَمِيلُ بِأَعْلَاهَا رَاجِعَةً بِرَأْسِهَا إِلَى خَلْفِ ، نَازِلَةً بِرُؤُودَا رُؤُودَا إِلَى الْأَرْضِ ، هَارِبَةً بِشَفَتَيْهَا مِنَ الْقَمِ الْمُطِلِّ عَلَيْهَا ؛ وَكَانَ هَذَا الْقَمُ يَنْزِلُ رُؤُودَا رُؤُودَا لِيُذْرِكَ الْهَارِبَ ...

وَقَبْلَ أَنْ تَقَعَ الْقُبْلَةُ انْفَلَتْ لَفَتَةً إِلَى ... ثُمَّ تَلَقَّتِ الْقُبْلَةُ ، أَمَا هُوَ ، أَمَا مَجْنُونُنَا أَمَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ... ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



أَمَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ، فَرَمَقَهَا وَهِيَ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ الْغَفَاتِ الطَّيِّبَةِ بِسَوَادِ عَيْنَيْهَا ، يَجْعَلُ سَوَادَهُمَا الْجَمِيلُ فِي النَّظَرَةِ الْوَاحِدَةِ نَظْرَتَيْنِ لِعَاشِقِ الْجَمَالِ ، تَقُولُ إِحْدَاهُمَا : أَنْتِ ، وَتَقُولُ الْأُخْرَى : أَنَا ؛ ثُمَّ رَأَاهَا^(١) وَقَدْ كَسَرَتْ أَحْقَانَهَا وَتَفَتَّرَتْ فِي يَدَيِ الْمُمْتَلِ الْعَشِيقِ وَأَفْصَحَ مَنْظَرَهَا بِبَلَاغَةٍ ... بِبَلَاغَةِ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمُخْبَوِيَةِ بَيْنَ ذِرَاعِي مَنْ تُحِبُّهُ ، ثُمَّ اخْتَلَجَتْ وَصُوبَتْ وَجْهَهَا ، وَأَهْدَفَتْ شَفَتَيْهَا ، وَتَلَقَّتِ الْقُبْلَةَ .

وَكَانَ بِهِ مِنْهَا مَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، فَأَنْبَعَتْ مِنْ صَدْرِهِ آهَةٌ مُغُولَةٌ تَرِي أَنْيْنَا ، غَيْرَ أَنَّهَا كَلَمَتُهُ بِعَيْنَيْهَا أَنَّهَا تَقْبَلُهُ هُوَ ؛ فَلَا رَيْبَ قَدْ حَمَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى التَّسَمَّاتِ شَيْئًا جَمِيلًا عَنْ ذَلِكَ الْقَمِ ، لَمَسَتْ بِهِ النَّفْسُ النَّفْسَ ، وَالْقُبْلَةُ هِيَ هِيَ ، وَلَكِنْ وَقَعَ خَطَأً فِي طَرِيقَةِ إِرْسَالِهَا ... { وَ } لَيْسَ تَحْتَ الْخِيَالِ شَيْءٌ مُوجُودٌ ، وَلَكِنَّ الْخِيَالَ الْمُسَرَّحَ بَيْنَ الْحَيِّينِ تَكُونُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٦ ، ٢ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٦ نوفمبر / تشرين الآخر ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٨٦٣ - ١٨٦٥ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَرَاهَا » بِذَلَا مِنْ : « رَأَاهَا » .

فِيهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَاجِبَةٌ الوجودِ ؛ إِذْ هُوَ بِطَبِيعَتِهِ مَجْرَى أَحْلَامٍ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، وَمَسْرَحٍ
شُعُورٍ يَصْدُرُ وَيَرُدُّ بَيْنَ الْقَلْبَيْنِ فِي حَيَاةٍ كَامِلَةٍ الْإِحْسَاسِ مُتَجَاوِيَةِ الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذَا الْخِيَالِ
يَكُونُ مَعَ الْقَلْبَيْنِ الْمُتَحَايَيْنِ رُوحٌ طَبِيعِيٌّ كَأَنَّهُ قَلْبٌ ثَالِثٌ يَنْقُلُ لِلوَاحِدِ عَنِ الْآخَرِ ، وَيَصِلُ
السِّرَّ بِالسِّرِّ ، وَيَزِيدُ فِي الْأَشْيَاءِ وَيُنْقِصُ مِنْهَا ، وَيَدْخُلُ فِي غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ فَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ مِنْ
الْحَقِيقِيِّ ؛ وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ فَرَحٌ وَلَا حُزْنٌ ، وَلَا أَمَلٌ وَلَا يَأْسٌ ، وَلَا سَعَادَةٌ وَلَا شَقَاءٌ ، إِلَّا
وَكُلُّ ذَلِكَ مُضَاعَفٌ لِلْمُحِبِّ الصَّادِقِ بِقَدْرِ قَلْبَيْنِ ؛ وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ قُبْلَةَ الشَّغَفِ وَالْهَوَى ،
يَعْرِفُونَ أَنَّ الْعَاشِقَ يَقْبَلُ بِلَذَّةٍ أَرْبَعَ شِفَاهٍ .

* * *

وَأَنْسَدَلَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْقُبْلَةِ سِتَارَةُ الْمَسْرَحِ ، وَغَابَتِ الْجَمِيلَةُ الْمَغْشُوقَةُ غَيْبَةً التَّمَثِيلِ ،
فَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : إِنَّ رُوحِي كَمَا مَتَرَوْجَتَانِ ...
قَالَ : آه ! وَمَدَهَا مِنْ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ دِفْءٌ سَقِيمٌ .
قُلْتُ : وَمَاذَا بَعْدَ آه ؟ .

قَالَ : وَمَاذَا كَانَ قَبْلَهَا ؟ إِنَّهُ الْحُبُّ : فِيهِ مِثْلُ مَا فِي (عَمَلِيَّةِ جِرَاحِيَّةٍ) مِنْ تَنْهَدَاتِ الْأَلَمِ
وَلَذَعَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا مُفَرَّقَةٌ عَلَى الْأَوْقَاتِ وَالْأَسْبَابِ ، مُبْعَثَةٌ غَيْرُ مَجْمُوعَةٍ ! « آه » : هَذِهِ
هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تَفْرُغُ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَهِيَ تُقَالُ بِلَهْفَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمُصِيبَةِ
الْدَّاهِمَةِ ، وَالْأَلَمِ الْبَالِغِ ، وَالْمَرَضِ الْمُدْنِفِ ، وَالْحُبِّ الشَّدِيدِ ؛ فَحِينَمَا تُوشِكُ النَّفْسُ أَنْ
تَخْتَنِقَ تَتَنَفَّسُ بِـ « آه » !

قُلْتُ : أَمَا رَأَيْتَهَا مَرَّةً وَقَدْ أَوْشَكَتْ نَفْسُهَا أَنْ تَخْتَنِقَ ... ؟

قَالَ : لَقَدْ هِجَتَ لِي دَاءٌ قَدِيمًا ؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْحَبِيبَةِ سَاعَاتٍ مَغْرُوسَةً فِي رَمَنِي غَرَسِ
الشَّجَرِ ، فَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تَتَمُرُّ هَذِهِ السَّاعَاتُ مَرَّهَا وَحُلُوهَا فِي نَفْسِي كَمَا يُنْمِرُ الشَّجَرُ
الْمُخْتَلِفُ . وَلَقَدْ رَأَيْتَهَا ذَاتَ مَرَّةٍ فِي سَاعَةٍ هَمَّهَا ! ثُمَّ ضَحِكَ وَسَكَتَ .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟ وَكَيْفَ أَرَاكَ الْوَجْدَ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا ؟

قَالَ : أَنْصَدُقُنِي ؟

قُلْتُ : نَعَمْ .

قَالَ : رَأَيْتُ أَلْهَمَ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْجَمِيلَةِ كَأَنَّهُ هَمٌّ مُؤْتَتْ يَعْشَقُهُ هَمٌّ مُدَكَّرٌ . . . فَلَهُ جَمَالٌ وَدَلَالٌ وَفَنَّةٌ وَجَادِيَّةٌ ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا يَصْنَعُ مِنْ حُزْنِهَا حُزْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى أَلْهَمَ لِقَلْبِهَا ! وَالْآخَرُ بِمَعْنَى الثَّوْرَةِ لِقَلْبِي !

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ! هَذَا كَلَامٌ آخَرُ ؛ فَهَذِهِ أَمْرَاءُ نَاعِمَةٌ بَضَّةٌ مَطْوِيٌّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضِهَا ، لَفَاءٌ مِنْ جِهَةٍ هَيْفَاءٌ مِنْ جِهَةٍ ، ثَقِيلَةٌ شَيْءٌ وَخَفِيفَةٌ شَيْءٌ ، جَمَعَتْ الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَفَنًّا بَارِعًا فِي هَذَا وَفَنًّا مُفْرَدًا فِي ذَاكَ ، وَهِيَ جَمِيلَةٌ كُلُّ مَا تَتَأَمَّلُ مِنْهَا ، سَاحِرَةٌ كُلُّ مَا تَتَخَيَّلُ فِيهَا ، وَهِيَ مَرَّاحَةٌ دَخْدَاحَةٌ^(١) ، وَهِيَ تَطَالِعُكَ وَتُطِمِعُكَ ، وَأَنْتَ أَمْرُوٌّ عَاشِقٌ وَرَجُلٌ قَوِيٌّ الرُّجُولَةِ ، فَالْجَمِيلَةُ وَالْمَرَأَةُ هُمَا لَكَ فِي هَذَا الْجِسْمِ الْوَاحِدِ ، إِنْ ذَهَبَتْ تَفْصِلُهُمَا فِي خَيَالِكَ أَمْتَرَجَتْ فِي دَمِكَ ، وَلَوْ أَمْسَكَتُ أَلَّهُ التَّصْوِيرِ نَظْرَاتِكَ إِلَيْهَا لَبَانَتْ فِيهَا أَطْرَافُ اللَّهَبِ الْأَحْمَرِ مِمَّا فِي نَفْسِكَ مِنْهَا ، وَلَعَمْرِي لَوْ مَرَّتْ عَرَبَةٌ تَذْرُجُ فِي الطَّرِيقِ وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا نَظْرَتَكَ لِهَذِهِ الْمَرَأَةِ بِهِذِهِ الْغَرِيزَةِ الْمُخْتَسِبَةِ الْمَكْفُوفَةِ^(٢) لَطَنَّتْكَ سَتْرَى الْعَجَلَةِ الْخَلْفِيَّةِ عَاشِقًا مُهْتَاجًا يُطَارِدُ الْعَجَلَةَ الْأَمَامِيَّةَ وَهِيَ تَفِرُّ مِنْهُ فِرَارَ الْعَذْرَاءِ . . . !

* * *

فَصَحِّحْكَ وَقَالَ : لَا ، لَا ؛ إِنَّ نَوْعَ التَّصْوِيرِ لِلنَّاسِ هُوَ نَوْعُ الْمَعْرِفَةِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ ، وَمِنْ كُلِّ حَيِّبٍ وَحْيِيَّةٍ تَجْتَمِعُ مُقَدِّمَةٌ وَنَتِيجَةٌ بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ فِي الْمَعْنَى ، وَالْمُقَدِّمَةُ عِنْدِي أَنَّ إِبْلِيسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّةٍ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ النَّتِيجَةُ وَضَعُهُ فِي إِبْلِيسِيَّةٍ ؛ وَمَا أَتَصَوَّرُ فِي هَذِهِ الْجَمِيلَةِ إِلَّا الْفَرَّ الَّذِي أَسْبَعَهُ الْجَمَالُ عَلَيْهَا ، فَهِيَ فِي مَعْرِفَتِي وَخَيَالِي كَالْتَّمَثَالِ الْمُبْدَعِ إِبْدَاعَهُ^(٣) : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا إِلَّا إِظْهَارَ شَكْلِهِ الْجَمِيلِ النَّامِّ حَافِلًا بِمَعَانِيهِ .

(١) هَذِهِ كَلِمَةٌ اسْتَعْمَلَهَا بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي مَعْنَى الطَّرِيفَةِ (الْمُدْرَدَحَةِ) . وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَعْنَاهَا فِي اللَّغَةِ ، وَلَكِنَّ الْأَسْتِعْمَالَ صَحِيحٌ عِنْدَنَا ، وَاللُّغَةُ لَا تَأْبَاهُ .

(٢) يَسْتَعْمِلُ الْكُتَّابُ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَفْظَ (الْمَكْبُوتَةِ) ؛ وَهُوَ تَعْيِيرٌ ضَعِيفٌ ، وَالْأَفْصَحُ مَا ذَكَرْنَا هُنَا .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « بَدَاعَةٌ » بَدَلًا مِنْ : « إِبْدَاعَةٌ » .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْأُولَى وَلَا الثَّانِيَةُ وَلَا الثَّلَاثَةُ فَيَمْنَحُ أَحَبُّتُ^(١) ؛ إِنَّهَا تَكْرَارٌ
وَإِنْصَاحٌ وَتَكْمِلَةٌ لِشَيْءٍ لَا يَكْمُلُ أَبَدًا ، وَهُوَ هَذِهِ الْمَعَانِي السُّوِيَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي يَرِيدُ
الشَّيْطَانُ فِيهَا مِنْ عَشَقِ كُلِّ عَاشِقٍ ؛ إِنَّ بَطْنَ الْمَرْأَةِ يَلِدُ ، وَوَجْهَ الْمَرْأَةِ يَلِدُ ! .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ كَانَ وَجْهَهَا كَوَجْهِ صَاحِبِكَ ، وَلَكِنْ مَا بَالُ الدَّمِيمَةِ ؟ .

قَالَ : لَا ، هَذَا وَجْهَ عَاقِرٍ ...

* * *

قُلْتُ : وَلَكِنَّ الْخَطَأَ فِي فَلْسَفَتِكَ هَذِهِ أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ نَظْرَةَ عَمَلِيَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ
نُفْسٌ تَمْنَعُهَا أَنْ تَعْمَلَ ؛ فَتَأْتِي فَلْسَفَتُكَ بَعِيدَةً مِنَ الْفَلْسَفَةِ ، وَكَأَنَّكَ تَعْدُو الْمَعْدَةَ الْجَائِعَةَ
بِرَائِحَةِ الْخُبْرِ فَقَطْ .

قَالَ : نَعَمْ هَذَا خَطَأٌ ، وَلَكِنَّهُ الْخَطَأُ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَقَائِقَ الْخَالِيَةَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ ؛
فَإِذَا سَخِزْتَ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْمَادِّيَّةِ بِأَسْلُوبٍ فِيهِذَا الْأَسْلُوبِ عَيْنُهُ تَثْبُتُ الْحَقِيقَةُ نَفْسَهَا فِي
شَكْلِ آخَرَ قَدْ يَكُونُ أَجْمَلَ مِنْ شَكْلِهَا الْأَوَّلِ .

أَتَعْلَمُ كَيْفَ كَانَتْ نَظْرَتِي إِلَى نُورِ الْقَمَرِ عَلَى هَذِهِ وَإِلَى حُسْنِ هَذِهِ عَلَى الْقَمَرِ ؟ إِنَّ
الْقَمَرَ كَانَ يُسَيِّنِي بِشَرِيَّتِهَا فَأَرَاهَا مُتَمِّمَةً لَهُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي مِرَاةٍ ، فَهِيَ خَيَالٌ وَجْهَهُ ؛
وَكَانَتْ هِيَ تُسَيِّنِي مَادَّةَ الْقَمَرِ فَأَرَاهُ مُتَمِّمًا لَهَا كَأَنَّهُ خَيَالٌ وَجْهَهَا .

أَتَدْرِي مَا نَظْرَةُ الْحُبِّ ؟ إِنَّ فِي هَذَا الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي شَرَارَةً كَهْرَبَائِيَّةً مَتَى أَنْفَدَحَتْ
زَادَتْ فِي الْعَيْنِ الْحَاظَا كَشَافَةً ، وَزَادَتْ فِي الْحَوَاسِّ أَضْوَاءَ مُدْرِكَةٍ ؛ فَيَتَفَدَّى الْعَاشِقُ بِنَظَرِهِ
وَحَوَاسِّهِ جَمِيعًا فِي حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، فَتَكُونُ لَهُ عَلَى النَّاسِ زِيَادَةٌ فِي الرُّؤْيَا وَزِيَادَةٌ فِي
الْإِدْرَاكِ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلًا فَيَمَّا يَرَاهُ وَمَا يُدْرِكُهُ ؛ وَبِهَذِهِ الزِّيَادَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَى النَّفْسِ تَكُونُ
لِلدُّنْيَا حَالَةٌ جَدِيدَةٌ فِي هَذِهِ النَّفْسِ ، وَيَأْتِي السُّرُورُ جَدِيدًا وَيَأْتِي الْحُزْنُ جَدِيدًا أَيْضًا ؛

(١) { أَنْظَرُ فَصْلَ « الرَّافِعِيُّ الْعَاشِقُ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

قَالَتْ قُبْلَةَ يَتَنَاوَلَهَا أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ أَلْفِ حَبِيبٍ ؛ هِيَ أَلْفُ نَوْعٍ مِنَ اللَّذَّةِ وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَوْ بَكَى أَلْفُ عَاشِقٍ مِنْ هَجَرِ أَلْفِ مَعْشُوقٍ لَكَانَ فِي كُلِّ دَمْعٍ نَوْعٌ مِنَ الْحُزَنِ لَيْسَ فِي الْآخِرِ !

* * *

قُلْتُ : فَتَنُغْ تَصَوَّرْكَ لِهَذِهِ الرَّاقِصَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا ، أَنْ إِنْ لَيْسَ هُنَا فِي غَيْرِ إِبْلِيسِيَّةٍ . . .
قَالَ : هَكَذَا هِيَ عِنْدِي ، وَبِهَذَا أَسْخَرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِبْلِيسِيَّةِ .
قُلْتُ : أَوْ تَسْخَرُ الْحَقِيقَةَ الْإِبْلِيسِيَّةَ مِنْكَ ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى . . .

فَضَحِكَ طَوِيلًا وَقَالَ : سَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبَةٍ : أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ لَا تَظْهَرُ أَبَدًا إِلَّا فِي الْحَرِيرِ الْأَسْوَدِ ؛ وَهِيَ رَقِيقَةُ الْبَشَرَةِ نَاصِعَةُ اللَّوْنِ ، فَيَكُونُ لَهَا مِنْ سَوَادِ الْحَرِيرِ بَيَاضُ الْبَيَاضِ وَجَمَالُ الْجَمَالِ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أُمْسِ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي طَرِيقِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لِأَرَاهَا ، وَكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِمًا يَتَدَجَّى ، وَقَدْ لَبَسَ وَتَلَبَّسَ وَغَلَبَ عَلَى مَصَابِيحِ الطَّرِيقِ فَحَصَرَ أَنْوَارَهَا حَتَّى جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مِضْبَاحَيْنِ ظِلْمَةٌ قَائِمَةٌ كَالرَّقِيبِ بَيْنَ حَبِيبَيْنِ يَمْنَعُهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا ؛ فَبَيْنَا أَقْلَبُ عَيْنِي فِي الْكُورِ وَالْعَسَى وَأَنَا فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَفْكَارُ الْمُخْزِنَةُ أَشَدَّ حُزْنًا - إِذْ رُفِعَ لِي مِنْ بَعِيدٍ شَبَحٌ أَسْوَدٌ يَمْشِي مِشْيَةً مُتَفَتِّرًا فَصِيرَ الْخَطْوِ يَهْتَزُّ وَيَبْتَخِرُ ؛ فَتَبَصَّرْتُهُ فِي هَيْئَةٍ فَمَا شَكَّكْتُ أَنَّهَا هِيَ . وَفُتِحَتِ الْجَنَّةُ الَّتِي فِي خَيَالِي وَبَرَزَتِ الْحَقَائِقُ الْكَثِيرَةُ تَلْتَمِسُ مَعَانِيهَا فِي لَذَّةِ الْحُبِّ ، وَكَانَ الطَّرِيقُ خَالِيًا ، فَأَحْسَسْتُ بِهِ لَنَا وَحْدَنَا كَالْمَسَافَةِ الْمُخْصُورَةِ بَيْنَ ثَغْرَيْنِ مُتَعَاشِقَيْنِ يَذْنُو أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ ، وَأَسْرَعْتُ إِسْرَاعَ الْقَلْبِ إِلَى الْفُرْصَةِ حِينَ تُمْكِنُ ؛ فَلَمَّا صِرْتُ بِحَيْثُ أَتَبَيَّنَ ذَلِكَ الشَّبَحُ إِذَا هُوَ . . . إِذَا هُوَ قَسِيسٌ . . .

* * *

فَقُلْتُ : يَا عَجَبًا ! مَا أَظْرَفَ مَا دَاعَبَكَ إِبْلِيسُ هَذِهِ الْمَرَّةَ ! وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ : إِنَّهُ
يَا صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ . . .

وَكَانَ الْمُمَثِّلُونَ يَتَنَاوَبُونَ الْمَسْرَحَ وَنَحْنُ عَنْهُمْ فِي شُغْلٍ ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ نَوْبُهَا قَدْ جَاءَتْ

بَعْدُ ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِي قُلْتُ لِصَاحِبِنَا : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْعَثَ إِلَيْهَا فَلَنَا يَسْتَفْتِحَ
كَلَامَهَا ثُمَّ يَدْعُوَهَا ، فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا { إِلَّا } كَلِمَةٌ « تَعَالَى » أَوْ « تَفَضَّلِي » .

قَالَ : كَلَّا ، يَجِبُ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنِّي لِأَرَاهَا فِي نَفْسِي أَشْكَالًا وَأَشْكَالًا ؛ وَيَجِبُ أَنْ
تَبْتَعِدَ لِأَلَمَسَهَا لَمَسَاتِ رُوحِيَّةٍ ؛ وَيَجِبُ أَنْ أَجْهَلَ مِنْهَا أَشْيَاءَ لِأَحَقِّقَ فِيهَا عِلْمَ قَلْبِي ؛
وَيَجِبُ أَنْ تَدَعَ جِسْمَهَا وَأَدَعَ جِسْمِي وَمُنَاكَ نَلْتَقِي رَجُلًا وَأَمْرًا وَلَكِنْ عَلَى فَهْمٍ جَدِيدٍ
وَطَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ . بِهَذَا أَلْفَهُمْ أَنَا أَكْتُبُ ، وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ أَنَا أَحِبُّ !

مَا هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يَفْتِنُنِي مِنْهَا ؟ هُوَ هَذَا الْكُلُّ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ .

وَمَا هُوَ هَذَا الْكُلُّ ؟ هُوَ الَّذِي يُفَسِّرُ نَفْسَهُ فِي قَلْبِي بِهَذَا الْحُبِّ .

وَمَا هُوَ هَذَا الْحُبُّ ؟ هُوَ أَنَا وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْيَأْسِ .

نَعَمْ أَنَا بَائِسٌ ، وَلَكِنْ شُعُورُ الْبُؤْسِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْغِنَى فِي الْفَنِّ : لَا يَكُونُ هَذَا الْغِنَى
إِلَّا مِنْ هَذَا الشُّعُورِ الْمُؤْلِمِ ، وَالْحَبِيبُ الَّذِي لَا تَنَالُهُ ، هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ قُدْرَةَ الْجَمَالِ
وَالسَّخَرِ ، يَجْعَلُكَ لَا تَذَرِي أَيْنَ يَخْتَبِئُ مِنْهُ جَمَالُهُ فَيَدْعُكَ تَبَحُّثُ عَنْهُ بِلَذَّةٍ ، وَلَا تَذَرِي أَيْنَ
يُسْفِرُ جَمَالُهُ مِنْهُ^(١) فَيَدْعُكَ تَرَاهُ بِلَذَّةٍ أُخْرَى ، أَنَا أَنْضِجُ هَذِهِ الْحُلُوفَ عَلَى نَارِ مَشْبُوبَةٍ ،
عَلَى نَارِ مَشْبُوبَةٍ فِي قَلْبِي !

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي الْمُسْكِينِ ! هَذِهِ مُشْكِلَةٌ عَرَضَتْ بِهَا الْمُصَادَقَةُ وَسَتَحُلُّهَا الْمُصَادَقَةُ
أَيْضًا . وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ لَمْ أَفْرُغْ مِنَ الْكَلِمَةِ حَتَّى رَأَيْتَا (الْمُشْكِلَةَ) مُقْبِلَةً عَلَيْنَا . . .

أَمَّا هُوَ ، أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : « مِنْهُ جَمَالُهُ » بَدَلًا مِنْ : « جَمَالُهُ مِنْهُ » .

الْقَلْبُ الْمِسْكِينُ (*)

٤

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ، فَمَا كَادَ يَرَى الْحَبِيبَةَ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ تَتِمَّمُنَا حَتَّى بَغَتْهُ ذَلِكَ ، فَسَاوَرَهُ الْقَلْقُ ، وَأَعْتَزَاهُ مَا يَغْتَرِي الْمُحِبَّ الْمَهْجُورَ إِذَا فَاجَأَهُ فِي الطَّرِيقِ هَاجِرُهُ ؛ أَرَأَيْتَ مَرَّةً عَاشِقًا جَفَاءَ الْحَبِيبِ وَأَمْتَنَعَ عَلَيْهِ دَهْرًا لَا يَرَاهُ ، وَصَارَ مَهْمُ مَدَّةٍ لَا يُكَلِّمُهُ ، فَتَزَعُ نَوْمَهُ مِنْ لَيْلِهِ ، وَرَاحَتَهُ مِنْ نَهَارِهِ ، وَدُنْيَاهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَبَلَغَ بِهِ مَا بَلَغَ مِنَ الشَّقَمِ وَالضَّغْنِ ، ثُمَّ بَيْنَا هُوَ يَمْشِي إِذْ بَاغَتْهُ ذَلِكَ الْحَبِيبُ مُنْجِدِرًا فِي الطَّرِيقِ ؟

إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ حِينَئِذٍ قَلْبَ هَذَا الْمِسْكِينِ لَرَأَيْتَهُ عَلَى زَلْزَلَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ ، وَكَأَنَّهُ فِي ضَرْبَاتِهِ مُتَلَعِمٌ يُكَرِّرُ كَلِمَةً وَاحِدَةً : هِيَ هِيَ هِيَ .

وَلَوْ نَفَذْتَ إِلَى حِسِّ هَذَا الْبَائِسِ لَرَأَيْتَهُ يَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِ الْمُخْتَضِرِ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ نَفَتْ مِنْهَا !

وَلَوْ أَطْلَعْتَ عَلَى دَمِهِ فِي عُرْوَةِهُ لَأَبْصَرْتَهُ مَخْذُولًا يَتَرَجَعُ كَأَنَّ الدَّمَ الْآخِرَ يَطْرُدُهُ .
إِنَّهَا لَخُطَّةٌ يَرَى فِيهَا الْمَهْجُورُ بَعْثِيَّتَهُ أَنْ كُلَّ شَهْوَاتِهِ فِي خِيْبَةٍ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ الْحُبُّ مَعَ كُلِّ شَهْوَةٍ نَوْعًا مِنَ الدَّلِّ ، فَيَكُونُ بِإِزَاءِ الْحَبِيبِ كَالْمُنْهَزِمِ مِثَّةً مَرَّةً أَمَامَ الَّذِي هَزَمَهُ مِثَّةً مَرَّةً .
لَخُطَّةٌ لَا يَشْعُرُ الْمِسْكِينُ فِيهَا مِنَ الْبَغْتَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ إِلَّا أَنَّ رُوحَهُ وَبَّتْ إِلَى رَأْسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فَجَاءَتْهُ إِلَى قَدَمَيْهِ !

* * *

غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَنَا نَحْنُ لَمْ يَكُنْ مَهْجُورًا مِنْ صَاحِبِيَّتِهِ ؛ وَلَكِنْ مِنْ عَجَائِبِ الْحُبِّ أَنَّهُ يَعْمَلُ أَحْيَانًا عَمَلًا وَاحِدًا بِالْعَاطِفَتَيْنِ الْمُخْتَلِفَتَيْنِ ، إِذْ كَانَ دَائِمًا عَلَى حُدُودِ الْإِسْرَافِ مَا دَامَ

(*) «الرسالة» العدد : ١٧٧ ، ٩ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٣ نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٠٣ - ١٩٠٥ .

حُبًّا ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ قَرِيبٌ مِنْ ضِدِّهِ ، وَالصَّدَقُ فِيهِ مِنْ نَاحِيَةِ مُهَيَّأٍ دَائِمًا لِأَنْ يُقَابَلَ بِتُهْمَةٍ الْكَذِبِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَالْيَقِينُ مُعَدُّ لَهُ الشُّكُّ بِالطَّبِيعَةِ ؛ وَالْحُبُّ نَفْسُهُ قَضَاءٌ عَلَى الْعَدْلِ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْضَعُ لِقَانُونٍ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَالْحَبِيبُ - مَعَ أَنَّهُ حَبِيبٌ - يَخَافُهُ عَاشِقُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ حَبِيبٌ !

وَقَدْ يَصْفَرُّ الْعَاشِقُ لِمُبَاغَةِ اللَّقَاءِ كَمَا يَصْفَرُّ لِمُبَاغَةِ الْهَجْرِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُ صَاحِبِنَا عِنْدَمَا رَأَاهَا مُقْبِلَةً عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَخْشَى إِلْمَامَتَهَا بِهِ ، تَوَقُّيًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ ظُنُونِ النَّاسِ ، وَأَكْثَرَ مَا يُحْسِنُهُ النَّاسُ هُوَ أَنْ يُسَيِّرُوا الظَّنَّ ، وَهُوَ رَجُلٌ ذُو شَأْنٍ صَخِيمٍ ، وَمَقَالَةٌ السُّوءِ إِلَى مِثْلِهِ سَرِيعَةٌ إِذَا رُنِيَ مَعَ مِثْلِهَا وَكَانَتْ هِيَ أَلَمَتْ بِكُلِّ هَذَا أَوْ طَالَعَهَا بِهِ وَجْهُهُ الْمُتَوَقِّرُ الْمُتَزَمْتُ ، فَعَدَلْتُ عَنْ طَرِيقِهَا إِلَيْنَا وَوَقَفْتُ عَلَى رَئِيسِ فِرْقَةِ الْمَوْسِيقَى ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطَوَاتٌ ، وَرَأَيْتُهَا قَدْ هَيَّأَتْ فِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةً غَاضِبِنَا بِهَا ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ صَالَحَتَنَا بِأُخْرَى !

وَكَانَتْهَا أَلْفَتْ لِرَئِيسِ الْمَوْسِيقَى أَمْرًا لِيَتَأَهَّبَ أَهْبَتَهُ لِدَوْرَهَا ، ثُمَّ هَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ وَعَيْنَاهَا إِلَيْنَا ، فَقَالَ صَاحِبُنَا وَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهَا : إِنَّهَا نَبِيلَةٌ حَتَّى فِي سَقُوطِهَا !

وَلَا أَذْرِي مَاذَا كَانَتْ تَقُولُ لِرَئِيسِ الْمَوْسِيقَى ، وَلَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَمْ يَظْهَرْ لِي وَفَتَيْدٍ إِلَّا كَأَنَّهُ تَلِينُفُونُ مُعَلَّقٌ !

* * *

كَانَتْ عَيْنَاهَا إِلَى صَاحِبِهَا لَا تَنْزِلَانِ عَنْهُ وَلَا تَتَحَوَّلَانِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُسَارِقُهُ الْنَظَرُ بَلْ تُغَالِبُهُ عَلَيْهِ مُعَالَبَةً ؛ وَرَأَيْتُهُ كَذَلِكَ قَدْ ثَبَّتَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا ، فَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ قَدْ أَنْحَصَرَ جَمَالُهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَغْنِي عَاشِقَةٍ ؛ وَكَانَتْ تُطَارِحُهُ وَيُطَارِحُهَا كَلَامًا مَخْبُوءًا تَحْتَ هَذِهِ النَّظَرَاتِ ، قَدْ نَسِيَا مَا حَوْلَهُمَا ، وَشَعْرًا بِمَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ حَبِيبَيْنِ إِذَا التَّقْيَا فِي بَعْضِ لَحْظَاتِ الرُّوحِ السَّامِيَةِ : أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْعَظِيمَ لَا يَعْمَلُ إِلَّا لَانْتِنِينَ فَقَطْ : هُوَ وَهِيَ .

وَكَانَ فَمُهَا الْجَمِيلُ لَا يَزَالُ يُسَاقِطُ أَلْفَاظَهُ لِرَئِيسِ الْمَوْسِيقَى ، وَكَانَتْهَا تَسْرُدُ لَهُ حِكَايَةَ

مَرْوِيَّةٌ ، أَوْ تُعَارِضُ بِحَافِظَتِهِ كَلَامًا تَحْفَظُهُ مِنْ كَلَامِ التَّمَنِّيْلِ أَوْ الْغِنَاءِ ؛ فَهِيَ تَتَحَدَّثُ وَعَيْنَاهَا مُفَكَّرَتَانِ شَاخِصَتَانِ ، فَلَمْ يُنْكِرِ الرَّجُلُ هَيْبَتَهَا هَذِهِ ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَتْ عَيْنَاهَا ؟ .

لَقَدْ أَرَادَتْ فِي الْبَدْءِ أَنْ تَجْعَلَ قُوَّةَ نَظَرَاتِهَا كَلَامًا ، حَتَّى لَحِسِبْتُ أَنَّ هَذِهِ النُّظَرَاتِ الْأُولَى تَهْتَفُ مِنْ بَعِيدٍ : أَنْتَ يَا أَنْتَ !

ثُمَّ بَدَأَ فِي عَيْنَيْهَا قُتُورُ الظُّلَمِ ، ظَمًا الْحُبِّ الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَمَرِّدِ ، لِأَنَّهُ حُبُّ الْمَرْأَةِ الْمَعْشُوقَةِ ، وَلَآنَ لَهُ لَدَّتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا فِي أَنْ يَتَقَى ظَمًا إِلَى حِينٍ ...

ثُمَّ أَرْسَلَتْ الْأَلْحَاطُ الَّتِي تَتَوَهَّجُ أَحْيَانًا فَوْقَ كَلَامِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ ؛ فَتَضَرِّمُ فِي كَلَامِهَا شَرَارَةً مِنَ الرُّوحِ تُظْهِرُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ يُحْرِقُ وَيَحْرِقُ ...

ثُمَّ تَوَجَّعَتِ النُّظَرَاتُ لِأَنَّهَا تَصِلُهَا بِالرَّجُلِ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الرِّجَالَ ، فَلَا يَسْتَوْهَبُ خُضُوعَهَا وَلَا يَشْتَرِيهِ ؛ وَالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ عِنْدَ مِثْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ هُوَ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الْبَاقِينَ مِمَّنْ تَعْرِفُهُمْ ، فَإِذَا أَحَبَّهَا فَكَأَنَّمَا أَحَبَّهَا عَذْرَاءُ خَفِرَةٌ لَمْ تُمَسَّ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ ذَلِكَ يَصِلُهَا بِمَا ضِيهَا وَطَهَارَتِهَا وَحَيَاتِهَا وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَمَثَّلَهُ إِلَّا فِي مِثْلِ حُبِّهِ .

ثُمَّ ذَبَلَتْ عَيْنَاهَا الْجَمِيلَتَانِ ، وَمَا هُوَ دُبُولُ عَيْنِي أَمْرًا تَنْظُرُ إِلَى مُحِبِّهَا ؛ إِنَّهُ هُوَ اسْتِسْلَامُ فِكْرِهَا لِفِكْرِهِ ، أَوْ عِتَادُ مَعْنَى فِيهَا لِمَعْنَى فِيهِ ، أَوْ تَوْكِيدُ خَاطِرَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوَكُّيدِ ، وَمَرَّةٌ هُوَ كَقَوْلِهَا : لِمَذَا ؟ وَتَارَةً هُوَ كَقَوْلِهَا : أَفْهَمْتُ ؟ وَأَحْيَانًا هُوَ انْتِهَاءُ مُقَاوَمَةٍ .

* * *

وَتَمَّتِ الْحِكَايَةُ الْمَرْوِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُلْقِيهَا لِلتَّلِينُونَ ... فَكَرَّرَتْ رَاجِعَةً إِلَى الْمَسْرَحِ بَعْدَ أَنْ صَاحَتْ نَظَرَاتُهَا مَرَّةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَتْ : أَنْتَ يَا أَنْتَ ...

فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا : وَيَحَكَ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! لَوْ اخْتَارَ الشَّيْطَانُ عَيْنَيْنِ سَاحِرَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا إِلَيْكَ نَظَرَ الْفِتْنَةِ لَمَا اخْتَارَ إِلَّا عَيْنَيْهَا ، فِي وَجْهِهَا ، فِي هَيْبَتِهَا ، فِي مَوْقِفِهَا ، وَأَرَاكَ مَعَ هَذَا كَمُتَنَظِّرٍ مَا لَا يُوجَدُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ ، وَأَرَاهَا مَعَكَ فِي حُبِّهَا كَالْحَيَوَانِ الْأَلْيَفِ إِذَا طَمِعَ فِي الْمُسْتَحِيلِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ الْمُسْتَحِيلُ الَّذِي يَطْمَعُ فِيهِ الْحَيَوَانُ الْأَلْبَنُ ؟

قُلْتُ : ذَلِكَ حِينَ يَطْمَعُ فِي أَنْ تَكُونَ لَهُ حُقُوقٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَوْقَ الْأَلْفَةِ وَالْمَنْفَعَةِ .

قَالَ : لَقَدْ أَغْمَضْتَ فِي الْعِبَارَةِ ، فَبَيَّنْ لِي شَيْئًا مِنَ الْبَيِّنِ .

قُلْتُ : هَبْ كَلِمَةً تَأْلُفُ صَاحِبَهَا وَتُجِبُّهُ فِيهِ لَهُ دَلِيلَةٌ مَطْوَاعٌ ، ثُمَّ يَتْلُغُ بِهَا الْحُبُّ أَنْ

تَطْمَعُ فِي أَنْ يَكُونَ لَهَا تَمَامُ الشَّرَفِ ، فَلَا يَقُولُ صَاحِبُهَا عَنْهَا : هَذِهِ كَلْبَتِي ، بَلْ يَقُولُ : هَذِهِ زَوْجَتِي ...

قَالَ : وَي مِنْكَ ! وَي مِنْكَ ! ^(١) لَقَدْ ضَرَبْتَ عَلَى رَأْسِ الْمِسْمَارِ كَمَا يَقُولُونَ : هَذَا

هُوَ الْمُسْتَحِيلُ الَّذِي يَبْنِي وَبَيْنَهَا ، هَذَا هُوَ الْمَثَلُ . يَا لَفْظِ الْحَلْوَى ! يَا لَفْظِ الْحَلْوَى ! لَوْ كَرَّرْتُكَ بِلسَانِي أَلْفَ مَرَّةٍ فَهَلْ تَضَعُ فِي لِسَانِي طَعْمَهَا ...

قُلْتُ : خَفِضَ عَلَيْكَ يَا صَاحِبَ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِينَ ، فَلَسْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَاشِقٍ .

قَالَ : بَلْ أَنَا مَعَ هَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ لِأَنَّ فِي الْعَاشِقِ رَاغِبًا وَفِيَّ أَنَا رَاهِبٌ ، وَفِيهِ

الْجَرِيءُ وَفِيَّ الْمُنْكَمِسُ ؛ وَتَغْتَرِفُ الْعُرْفَةَ مِنَ الشَّلَالِ الْمُتَحَدِّرِ فَيَحْسُوهَا فَيَزَوِّي ،

وَأَغْرِفُ أَنَا الْعُرْفَةَ بِيَدِي ، وَأُبْقِيهَا فِي يَدِي ، وَأَطْمَعُ أَنْ تَهْدِرَ فِي يَدِي كَالشَّلَالِ ... أَنَا

أَكْثَرُ مِنْ عَاشِقٍ ؛ فَإِنَّهُ يَعْشَقُ لِيُنْتَهِي مِنَ أَلَمِ الْجَمَالِ ، وَأَعْشَقُ أَنَا لِأَسْتَمِرَّ فِي هَذَا الْأَلَمِ !

هَذِهِ هَذِهِ ، الْعَجِيبُ يَا صَدِيقِي ! أَنَّ خَيَالَ الْإِنْسَانِ يَلْتَقِطُ صُورًا كَثِيرَةً مِنْ صُورِ

الْجَمَالِ تَجِيءُ كَمَا يَنْفُو ، وَلَكِنَّهُ يَلْتَقِطُ صُورَةً وَاحِدَةً بِإِتْقَانٍ عَجِيبٍ ، هِيَ صُورَةُ الْحُبِّ ؛

فَهَذِهِ هَذِهِ .

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ إِنْجِلِسَ هُنَا فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهِ الْإِنْجِلِسِيَّةِ وَلَمْ تَقْهَمْ عَنِّي ^(٢) ؟ فَأَقْهَمِ آلَانَ أَتْنَا

إِنْ كُنَّا لَا نَرَى الْمَلَائِكَةَ فَإِنَّهُ لِيُخَيَّلَ إِلَيْنَا أَنَّ نَرَاهَا فَيَمْنُ نُحِبُّهُمْ ؛ وَمَا دَامَ سِرُّ الْحُبِّ يُبَدِّلُ

الزَّمْنَ وَالنَّفْسَ وَيَأْتِي بِأَشْيَاءَ مِنْ خَارِجِ الْحَيَاةِ ، فَكُلُّ حَقَائِقِ هَذَا الْحُبِّ فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهَا .

هَذِهِ هَذِهِ ؛ لَا أَطْلُبُ فِي غَيْرِهَا أَمْرًا أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَهَذَا كَالْمُسْتَحِيلِ ، وَلَكِنِّي

(١) أَيُّ : عَجِبْتُ ، يَتَعَجَّبُ مِنْ فِعْلِهِ .

(٢) مَرَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ .

الْتَمِسُ فِيهَا هِيَ أَمْرَاءَ أَطْهَرَ مِنْهَا ، وَهَذَا كَالْمُسْتَحِيلِ أَيْضًا ؛ إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ ، وَلَكِنْ
وَأَسْفَاهُ ، إِنَّهَا أَجْمَلُ جِسْمٍ لِلْمَعَانِي الَّتِي يَجِبُ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْهَا !

* * *

وَسَكَتَ صَاحِبُنَا ؛ إِذْ رُفِعَتْ سِتَارَةُ الْمَسْرَحِ وَظَهَرَتْ هِيَ مَرَّةً أُخْرَى ، ظَهَرَتْ فِي زِينَةٍ
لَا غَايَةَ بَعْدَهَا ، تُمَثِّلُ الْعُرُوسَ لَيْلَةَ جَلُوتِهَا ؛ أَلَا مَا أَمْرُهَا سُخْرِيَّةٌ مِنْكَ أَيُّهَا الْمِسْكِينَةُ !
عُرُوسٌ وَلَكِنْ لِمَنْ ؟

كَانَتْ تَبْرُقُ عَلَى الْمَسْرَحِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ نُورُهُ نُورٌ وَجَمَالٌ وَعَوَاطِفُ شِعْرِ .
وَأَقْبَلَتْ تَتِمَّائِلٌ بِجِسْمٍ رَخِصٍ لَيْتَ مُسْتَرْسِلٍ الْأَعْطَافِ يَتَدَفَّقُ الْجَمَالَ وَالشَّبَابَ فِيهِ مِنْ
أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ .

وَأَظْهَرَ وَجْهَهَا حُسْنًا وَأَبْدَى جِسْمَهَا حُسْنًا آخَرَ ، فَتَمَّ الْحُسْنُ بِالْحُسْنِ .
وَاقِفَةً كَالثَّائِمَةِ ، فَالْجَوُّ جَوُّ الْأَحْلَامِ ، وَكَانَ الْحُبُّ يَخْلُمُ ، وَكَانَ السُّرُورُ يَخْلُمُ !
مُهْتَزَّةً كَالْمَوْجِ فِي الْمَوْجِ . هَلْ خُلِقَتْ رُوحَ الْبَحْرِ فِي جِسْمِهَا الْمُتَرَجِّجِ فَشَيْءٌ يَغْلُو
وَشَيْءٌ يَهْبِطُ وَشَيْءٌ يُتَوَرَّدُ وَيَضْطَرِبُ ؟

ثُمَّ دَقَّتِ الْمَوْسِيقَى بِالْحَانِيهَا الْمُتَكَلِّمَةِ ، وَدَقَّتْ أَعْضَاءُ هَذَا الْجِسْمِ بِالْحَانِيهَا
الْمُتَحَرِّكِ ، وَأَحْسَسْنَا كَأَنَّ رُوحَ الْحَدِيقَةِ جَالِسَةً بَيْنَنَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَتَعَجَّبُ . تَتَعَجَّبُ مِنْ
قَوَامِهَا لِلْفَضْلِ الْحَيِّ ، وَمِنْ بَدَنِهَا لِلزَّهْرِ الْحَيِّ ، وَمِنْ عَطْرِهَا لِلنَّسِيمِ الْحَيِّ .

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ . . . ؟

الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ (*) (١)

٥

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ فَتَزَعَرَتْ كِبْدُهُ مِمَّا رَأَى ؛ وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْفَتَانَةِ
تُمَثِّلُ زِفَافَ الْعُرُوسِ وَقَدْ أَشْرَقَ فِيهَا رَوْثُهَا وَسَطَعَتْ وَلَمَعَتْ ، فَبَدَتْ لَهُ مُفَسَّرَةً فِي هَذِهِ
الْغَلَائِلِ ، غَلَائِلِ الْعُرُسِ ، وَمَا غَلَائِلُ الْعُرُسِ ؟

إِنَّهَا تِلْكَ الثِّيَابُ الَّتِي تَكْمُو لَابِسَتَهَا إِلَى سَاعَةِ فَقَطْ . . . ثِيَابٌ أَجْمَلُ مَا فِيهَا أَنَّهَا تُقَدِّمُ
الْجَمَالَ إِلَى الْحُبِّ ، فَازْهَى أَلْوَانُهَا أَلْوَنُ الْمُشْرِقِ مِنْ رُوحِ لَابِسَتِهَا ، وَأَسْطَعُ الْأَنْوَارِ عَلَيْهَا
الْكُورُ الْمُتَبَعِثُ مِنْ قَرَحِ قَلْبَيْنِ .

تِلْكَ الثِّيَابُ الَّتِي تَكُونُ سَكْبًا مِنْ خَالِصِ الْحَرِيرِ وَرَفِيعِ الْحَزِّ ، وَحِينَ تَلْبَسُهَا مِثْلُ هَذِهِ
الْفَاتِنَةِ تَكَادُ تَنْطِقُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَرِيرِ ، إِذْ تَعْلَمُ أَنَّ الْحَرِيرَ مَا تَحْتَهَا . . .

ثُمَّ تَهْدَدُ الْمُسْكِينُ وَقَالَ : أَفَهِمْتُ ؟

قُلْتُ : فَهِمْتُ مَاذَا ؟

قَالَ : هَذَا هُوَ انْتِقَامُهَا .

قُلْتُ : يَا عَجَبًا ! أَتَرِيدُهَا فِي ثِيَابِ رَاهِبَةٍ ، مُكَبَّكَةٍ فِيهَا كَمَا أَلْقَيْتَ الْبِضَاعَةَ فِي
غُرَارَةٍ ، بَيْنَ سَوَادِ هُوَ شِعَارُ الْحِدَادِ عَلَى الْأُنُوثَةِ أَلْهَالِكَةِ ، وَبَيَاضِ هُوَ شِعَارُ الْكَفَنِ لِهَذِهِ
الْأُنُوثَةِ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ١٧٩ ، ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ١٩٨٣ - ١٩٨٥ .

(١) نُرْجِعُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْءَاءُ قَدْ أَدْرَكُوا الْغُرُوضَ مِنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ عَلَى هَذَا السَّرْدِ الَّذِي وَصَفْتُهُ لَنَا
إِخْدَى الْأَدِيبَاتِ بِأَنَّ « فِيهِ أَشْيَاءَ مَادِّيَّةَ » ؛ فَتَحْنُ نُرْمِي إِلَى تَصْوِيرِ الْغُرْبَةِ ثَائِرَةً مُهْتَاجَةً بِكُلِّ أَسْبَابِ
الْكُورَةِ وَالْأَهْتِاجِ ، وَلَكِنَّهَا مَكْفُوحَةٌ بِأَسْبَابِ أُخْرَى مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ وَفَلَسَفَةِ
الْعَقْلِ . . .

قَالَ : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا ؛ إِنَّ الرُّوَايَةَ الَّتِي تُمَثِّلُ فِيهَا بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ ، هِيَ الَّتِي
أَخْتَأَجْتُ إِلَى هَذَا الْفَضْلِ يَفُوقُ بِهِ الْمَعْنَى ؛ وَكُلُّ عَاشِقَةٍ فَعِشْقُهَا هُوَ الرُّوَايَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ
فِيهَا ، يُؤَلِّفُهَا هَذَا الْمَوْقِفُ الَّذِي أَسْمُهُ الْحُبُّ ، وَلَا تَذَرِينِي هِيَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَاذَا يُؤَلِّفُ ؛
غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَفْتَأُ يُؤَلِّفُ وَيَصْنَعُ وَيُنْفِخُ كَمَا تَنْتَزِلُ بِهِ الْحَالُ بَعْدَ الْحَالِ ، وَكَمَا تَعْرِضُ بِهِ
الْمُصَادَفَةُ بَعْدَ الْمُصَادَفَةِ ؛ وَعَلَيْهَا هِيَ أَنْ تُمَثِّلَ . . .

قُلْتُ : فَهَذَا ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ يَكُونُ هَذَا أَنْتَقَامًا ؟

قَالَ : إِنَّ الْأَفْكَارَ أَشْيَاءَ حَقِيقَتِيَّةً ، وَلَوْ كُشِفَ لَكَ الْجَوْ هَذِهِ السَّاعَةَ لَرَأَيْتَهُ مُسْطَوِّرًا
عِبَارَاتٍ عِبَارَاتٍ كَأَنَّهُ مَقَالَةٌ جَرِيدَةٍ .

هَذَا الْفَضْلُ حِوَارٌ طَوِيلٌ فِي الْهُمُومِ وَالْآلَامِ وَرِقَّةِ الشَّوْقِ وَنَهَالِكِ الصَّبْرِ ؛ لَوْ كَتَبَ لَهُ
عُتْرَانُ لَكَانَ عُتْرَانُهُ هَكَذَا : مَا أَشْهَاهَا وَمَا أَخْطَاهَا ! إِنَّ الْهَوَاءَ بَيْنَ كُلِّ عَاشِقَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ
يَأْخُذُ وَيُعْطِي .

قُلْتُ : يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ ! مَا أَعْجَبَ مَا تَدْفُقُ ! لَقَدْ أَدْرَكْتُ الْآنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَسْلَحُ بِمَا
شَاءَتْ ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تُدَافِعَ ، وَلَكِنْ لِتَزِيدَ أَسْلِحَتَهَا فِي سِلَاحٍ مِنْ تُحِبُّهُ فَتَزِيدُهُ قُوَّةً عَلَى
قَهْرِهَا وَإِخْضَاعِهَا . . .

* * *

أَمَّا هَذِهِ (الْعُرُوسُ) ، فَكَانَتْ أَفْكَارُهَا لَا تَجِدُ أَلْفَاظًا تُحَدِّثُهَا فِيهِ تَظْهَرُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ :
مُرْسَلَةً إِرْسَالًا فِي اللَّفْتَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْقَعْدَةِ ، وَهِيَ مَنْ عَلِمَتْ : أَمْرًا تَعِيشُ
لِلْحَقَائِقِ ، وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ ، كَكُلِّ ذِي صَنْعَةٍ فِي صَنْعَتِهِ ، فَكَانَتْ فِي تَمَادِينِهَا خَطَرًا أَيْ خَطَرِ
عَلَى صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ ، تُمَثِّلُ شَيْئًا لَا أَدْرِي أَهْوَ ظَاهِرٌ بِخَفَائِهِ أَمْ هُوَ خَافٍ
بِظُهُورِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ صَاحِبَتًا مِنْهَا فِيمَا لَمْ يَدْخُلْ فِي حِسَابِهِ ، فَكَانَتْ الْخَبِيئَةُ الْمَاجِنَةُ تُسَكِّرُهُ
بِمُسْكِرِ حَقِيقَتِي ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِسْمِهَا لَا مِنْ رُجَاجَةِ خَمِرٍ .

وَكَانَتْ لِدِهْنِهِ الْمُتَخَيَّلِ كَالسَّحَابَةِ الْمُمْتَلِئَةِ بِالْبَرْقِ ، تُوَمِضُ كُلَّ لَحْظَةٍ بِأَنْوَارٍ بَعْدَ
أَنْوَارٍ ، وَبَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ تَرْمِي الصَّاعِقَةُ .

وْظَهَرَتْ كَأَنَّهَا أَمْرَاءُ مَخْلُوقَةٌ مِنْ دَمٍ وَلَهَبٍ ، فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ حَيْثُ أَنْ أَلْحُبُّ إِنْ هُوَ إِلَّا
الْغَرِيزَةُ الْبَهِيمِيَّةُ بِعَيْنِهَا مُحَاوَلَةٌ أَنْ تَكُونَ شَيْئًا لَهُ وَجُودٌ فَتَيَّ إِلَى وَجُودِهِ الطَّبِيعِيِّ ، فَهُوَ
مُصِيبَتَانِ فِي وَاحِدَةٍ ، وَكُلُّ عَمَلِهِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّذَّةَ الْكَدَّ ، وَالْأَلَمَ أَشَدَّ ، وَالْقِلَّةَ كَثْرَةً ، وَالْكَثْرَةَ
أَكْثَرَ ، وَمَا هُوَ نِهَائِيَّةٌ كَأَنَّهُ لَا نِهَائِيَّةَ . . .

هَذِهِ (الْعُرُوسُ) كَانَتْ قَبْلَ الْآنَ وَاقِفَةً عَلَى حُدُودِ صَاحِبِهَا ، أَمَّا الْآنَ فَإِنَّهَا تَقْتَحِمُ
الْحُدُودَ وَتَغْزُو غَزْوَهَا وَتَمْتَلِكُ . . .

يَا لِسِحْرِ الْحُبِّ مِنْ سِحْرِ ! كُلُّ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ جَمَالٍ تَظْهَرُهُ الطَّبِيعَةُ لِعَاشِقِهَا فِي
إِحْدَى صُورِ الْفَهْمِ ؛ أَمَّا الْحَبِيبُ الْجَمِيلُ فَهُوَ وَخْدُهُ الَّذِي يَظْهَرُ لِعَاشِقِهِ فِي كُلِّ صُورِ
الْفَهْمِ ، وَبِهَذَا يَكُونُ الْوَقْتُ مَعَ أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ ، فَبِئْسَ سَاعَةٌ يَكُونُ الْعَقْلُ ، وَفِي
سَاعَةٍ يَكُونُ الْجُنُونُ .

يَا لِسِحْرِ الْحُبِّ ! لَقَدْ أَرَادَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَذْهَبَ بِعَقْلِ صَاحِبِهَا ، وَأَنْ تَنْقُلَهُ إِلَى
وَحْشِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ الْكَامِنِ فِيهِ ، وَأَنْ تَقْدِفَ بِهِ إِلَى بَعِيدٍ بَعِيدٍ وَرَاءَ فُضَائِلِهِ وَعِصْمَتِهِ ،
فَسَتَحَتْ لَهُ كَمَا يَسْتَحُ الصَّبْدُ لِلصَّائِدِ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ لَحْمَهُ الشَّهْيَ . . . وَتَرَكْتَ شَعُورَهُ
جَائِعًا إِلَى مَحَاسِنِهَا بِمِثْلِ جُوعِ الْمَعْدَةِ . . . وَبَرَزَتْ لَهُ صَرِيحَةٌ كَمَا هِيَ ، وَلَمَّا هِيَ ، وَمِنْ
حَيْثُ أَنَّهَا هِيَ هِيَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ حِينَ أَلْبَسَتْ جِسْمَهَا ثِيَابَ الْحَقِيقَةِ الْمُؤَنَّثَةِ .

أَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا امْتَلَأَتْ أَلْهَاءُ وَأَلْيَاءُ مِنْ قَلْبِ رَجُلٍ يُحِبُّ ! وَأَوْ مِنْ (هِيَ) إِذَا خَرَجَتْ
هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ لُغَةِ النَّاسِ إِلَى لُغَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ !

إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرَةٍ . . . أَمْرَةً يُقَالُ لَهَا : (هِيَ) ^(١) بِإِغْتِيَارِ الضَّمِيرِ لِلتَّائِيثِ فَقَطْ ، كَمَا يُعْتَبَرُ
فِي الدَّائِيَّةِ وَالْحَشْرَةِ وَالْأَدَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ هَذِهِ الْمُؤَنَّثَاتِ الَّتِي يَرْجِعُ عَلَيْهَا هَذَا الضَّمِيرُ ،
وَلَكِنْ (هِيَ) الْمَفْرَدَةُ فِي الْكُلِّ لَا تُوجَدُ فِي النِّسَاءِ إِلَّا حِينَ يُوجَدُ لَهَا (هُوَ) . . .

* * *

(١) قُلْتُ : هُنَا رِسَالَةٌ إِلَى « فُلَانَةٍ » مِنْ تِلْكَ الرِّسَائِلِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمَا بَعْدَ الْفُطَيْعَةِ . . . وَأَنْظُرْ « رِسَائِلُ
الْأَخْزَانِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْعُرْيَانِ .

أَنَا . . . أَنَا الَّذِي يَقْصُصُ لِلْقُرَّاءِ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، قَدْ كَابَدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ وَإِفْرَاطِ الْوَجْدِ مَا يُفْعِمُ^(١) قَلْبَيْنِ مُسْكِنَيْنِ لَا قَلْبًا وَاحِدًا ، وَكَانَتْ لِي (هِيَ) مِنْ أَلْهِيَّاتٍ عَانَيْتُ فِيهَا الْحُبَّ وَالْأَلَمَ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَقَدْ ذَهَبَتْ بِي فِي هَوَاهَا كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا مَذْهَبًا يُحِلُّ حَرَامًا ، أَوْ مَذْهَبًا يُحِلُّ بِمُرُوءَةٍ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الشَّيْءَ السَّامِيَّ فِي الْحُبِّ هُوَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْعَاشِقِ مُجْرِمٌ .

فَالشَّانُ كُلُّ الشَّانِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الرَّجُلُ الْفَضْلُ بَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ جَمَالِ الْأُنْثَى يَظْهَرُ عَلَيْهَا ، وَبَيْنَ الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ الْأُنْثَى تَظْهَرُ فِي جَمَالِهَا ، فَهُوَ فِي الْأَوَّلَى يَشْهَدُ الْإِلَهِيَّةَ فِي إِبْدَاعِهَا السَّامِيَّ الْجَمِيلِ ، وَفِي الْأُخْرَى لَا يَرَى غَيْرَ الْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَوَانِيَّتِهَا الْمُتَجَمِّلَةِ . . .

وَقَدْ أَذْرَكْتُ مِنْ فَلَسَفَةِ الْحُبِّ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْكُبْرَى لِهَذَا الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ الَّذِي يَمْلَأُ الْعَالَمَ - قَدْ جَعَلَتْ حَيْنَ الْعِشْقِ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ هُوَ أَوَّلُ أُمْنِيَّتِهَا الْعَمَلِيَّةِ فِي تَعْلِيمِهِ الْحَيْنِ إِلَيْهَا إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، فَكَمَا يُحِبُّ إِنْسَانٌ بِرُوحِ الشَّهْوَةِ يُحِبُّ إِنْسَانٌ آخَرَ بِرُوحِ الْعِبَادَةِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ : (تَلَطُّيفُ السَّرِّ) أَيْ : جَعْلُهُ مُسْتَعِدًّا لِلتَّوَجُّهِ إِلَى التُّورِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَقَدْ عَدَّوْا فِيمَا يُعِينُ عَلَيْهِ الْفِكْرَ الدَّقِيقَ وَالْعِشْقَ الْعَنِيفَ .

وَكَذَلِكَ تَبَيَّنْتُ ، مِمَّا عَلَّمَنِي الْحُبُّ أَنَّ طَرْدَ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ، كَانَ مَعْنَاهُ ثَقُلَ مَعَانِي الْفِرْدَوْسِ وَعَرَضَهَا لِكُلِّ آدَمَ وَحَوَاءَ يُمَثِّلَانِ الرِّوَايَةَ . . . فَإِذَا « قُطِفَا الشَّمْرَةَ » طُرِدَا مِنْ مَعَانِي الْجَنَّةِ^(٢) ، وَهَبَطَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أُخْيَلَةِ السَّمَاءِ إِلَى حَقَائِقِ الْأَرْضِ .

نَعَمْ هُوَ الْحُبُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي كُلِّ عَاشِقٍ لِكُلِّ جَمِيلٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِهِ يَكُونُ فِي جَمَالِ الْعَمَلِ أَوْ قُبْحِ الْعَمَلِ ، وَهَذِهِ النُّفُوسُ مَصَانِعُ مُخْتَلِفَةٍ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ ، فَالْحُبُّ فِي بَعْضِهَا يَكُونُ قُوَّةً وَفِي بَعْضِهَا يَكُونُ ضَعْفًا ، وَفِي نَفْسٍ يَكُونُ أَلْهَوًى حَيَوَانِيًّا يُرَاكِمُ الظُّلْمَةَ عَلَى الظُّلْمَةِ فِي الْحَيَاةِ ، وَفِي أُخْرَى يَكُونُ رُوحَانِيًّا يَكْشِفُ الظُّلَامَ عَنِ الْحَيَاةِ . وَالْمُعْجِزَةُ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَنَّ لَهُ مَعَ طَبِيعَةٍ كُلِّ شَيْءٍ طَبِيعَةَ الْإِحْسَاسِ بِهِ ، فَهُوَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ نَفْسِهِ فِي الْأَلَمِ ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ هَبَّةً مِنْ مَعَانِي الْحِرْمَانِ ؛

(١) فِي الْأَصْلِ : « يَمْلَأُ » بَدَلًا مِنْ : « يُفْعِمُ » .

(٢) أَيْ : طُرِدَا كَالطَّرْدِ مِنَ الْجَنَّةِ .

وَبِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ يَسْمُو مَنْ يَسْمُو ، وَهِيَ عَلَى أَتَمِّهَا وَأَقْوَاهَا فِي عَظَمَاءِ الثُّقُوسِ ، حَتَّى لَكَانَ
الْأَشْيَاءُ تَأْتِي هَلْوَلاءِ الْعُظَمَاءِ سَائِلَةً : مَاذَا يُرِيدُونَ مِنْهَا ؟
فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمُو بِالْحُبِّ فَلْيَضَعُهُ فِي نَفْسِهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ : الْخُلُقِ الرَّفِيعِ وَالْحِكْمَةِ
النَّاضِجَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا أَقَلَّ مِنْ شَيْئَيْنِ : الْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ ^(١) .

* * *

أَنَا ... أَنَا الَّذِي يَقْصُ لِلْفُرَّاءِ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، أَعْرِفُ هَذَا كُلَّهُ ، وَبِهَذَا كُلِّهِ فَهِمْتُ قَوْلَ
صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : إِنَّ ظُهُورَ صَاحِبِهِ فِي فَضْلِ الْعُرُوسِ هُوَ انْتِقَامُهَا ، حَاصِرَتْ
عَيْنَاهَا عَيْنِيهِ ، وَرَحَفَتْ مَعَانِيهَا عَلَى مَعَانِيهِ ؛ وَقَاتَلَتْ قِتَالَ جِسْمِ الْمَرْأَةِ الْمَخْبُوتَةِ فِي مَعْرَكَةِ
حُبِّهَا ، وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : كَأَنَّمَا لَيْسَتْ هَذِهِ الْثِيَابُ لِتُظَهَرَ لَهُ بِهَا ثِيَابٌ ...
وَأَرَدْتُ أَنْ أُعِينَهَا بِمَا صَنَعَتْ نَفْسُهَا لَهُ ، وَأَنْ أُعِينَهُ هُوَ بِدُخُولِهِ فِيهَا لَا يَنْسِبُهُ ، وَقُلْتُ
فِي غَيْرِ طَائِلٍ وَلَا جَذْوَى ، فَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالَّذِي يَعِيبُ الْوَرْدَ بِقَوْلِهِ : يَا عِطْرَ الشَّدَى ، وَيَا
أَحْمَرَ الْخَلْدَيْنِ !

وَقَدْ أَمْسَكَ عَنْ جَوَابِي ، وَكَانَتْ مَحَاسِنُهَا تَجْعَلُ كَلِمَاتِي شَوْهَاءَ ، وَكَانَ وُضُوحُهَا
يَجْعَلُ مَعَانِي غَامِضَةً ، وَكَانَتْ حَلَاوَتُهَا تَجْعَلُ أَقْوَالِي مُرَّةً ، وَكَانَتْ ثِيَابُ الْعُرْسِ وَهِيَ تُرْفُ
تُرِيهِ الْفَاطِظِي فِي ثِيَابِ الْعَجُوزِ الْمُطْلَقَةِ ، وَكُلَّمَا غَاضِبْتُهُ مَعَ نَفْسِهِ أَوْفَعْتُ هِيَ الصِّلَحَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

وَالْعَجِيبُ الْعَجِيبُ فِي هَذَا الْحُبِّ أَنْ فَتَحَ الْعَيْنَيْنِ عَلَى الْجَمِيلِ الْمَحْبُوبِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ
تَغْمِيزِهَا لِلنُّومِ وَرُؤْيَا الْأَحْلَامِ ؛ لَيْسَ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَكُونُ أَبَدًا إِلَّا هَذَا ؛ فَمَهْمَا أُعْطِيتَ
مِنْ جَدَلٍ فَإِقْتَاعُكَ الْمُحِبِّ الْمُسْتَهَامَ كإِقْتَاعِكَ الْتَائِمِ الْمُسْتَقْلَ ^(٢) ؛ وَكَيْفَ وَلَهُ الْفَاطُ مِنْ
عَقْلِهِ لَا مِنْ عَقْلِكَ ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ نِسْبَانُهُ إِيَّاكَ ، وَقَدْ تَرَكَكَ عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا وَعَاصٍ هُوَ فِي
دُنْيَا بَاطِنِهِ لَا يَمْلِكُ فِيهَا أَحَدًا وَلَا رَدًّا إِلَّا مَا تُعْطِي وَمَا تَمْنَعُ .

* * *

(١) بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ عَلَى وَجْهِ آخَرٍ .

(٢) [يَفْتَحُ الْقَابَ ، أَيْ : الَّذِي أَتَقَلَّهُ النَّوْمُ] .

ثُمَّ ... ثُمَّ غَابَتْ (الْعُرُوسُ) بَعْدَ أَنْ نَظَرَتْ لَهُ وَضَحِكَتْ .

ضَحِكَتْ بِحُزْنٍ ، حُزْنٍ ^(١) الَّذِي يَسْخَرُ مِنْ حَقِيقَةِ لَأَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ حَقِيقَةِ غَيْرِهَا ؛ وَكَانَ مَنَظَرُهَا الْجَمِيلُ الْمُتَكَسِّرُ فَلَسَفَةً تَامَّةً مُصَوَّرَةً لِلْخَيْرِ الَّذِي اعْتَدَى عَلَيْهِ الشَّرُّ فَأَحَالَهُ ، وَالْإِرَادَةِ الَّتِي أَكْرَمَهَا الْقَدَرُ فَأَخْضَعَهَا ، وَالْعِفَّةِ الْمُسْكِنَةِ الَّتِي أَذَلَّتْهَا ضَرُورَةُ الْحَيَاةِ ، وَالْفَضِيلَةِ الْمَغْلُوبَةِ الَّتِي حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ فَضِيلَةً !

وَيَا مَا كَانَ أَجْمَلَهَا نَاطِرَةً بِمَعَانِي الْبُكَاءِ ضَاحِكَةً بِغَيْرِ مَعَانِي الضَّحِكِ ؛ تَتَهَدَّدُ مَلَامِحُ وَجْهِهَا وَفَمُهَا يَنْتَسِمُ !

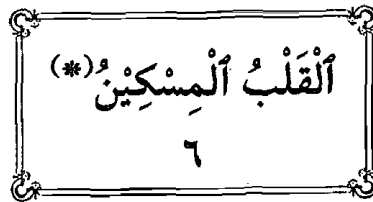
كَانَ مَنَظَرُهَا نَاطِقًا بِأَنَّ قَلْبَهَا الْحَزِينَ يَسْأَلُ سُؤَالَ أَبَدَاءٍ عَلَى وَجْهِهَا بِلُطْفٍ وَرِقَّةٍ ؛ كَانَ يَسْأَلُ إِنْسَانًا : أَلَا تُحِلُّ هَذِهِ الْعُقْدَةَ ... ؟

وَأَنْقَضَى التَّمَثِيلُ وَتَنَاهَضَ النَّاسُ .

أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



أَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ فَقَامَ لِيُخْرِجَ وَقَدْ تَفَارَطَتْهُ الْهُمُومُ وَتَسَابَقَتْ إِلَيْهِ فَأَنْكَسَرَ وَتَفَتَّرَ ؛ وَكَأَنَّمَا هُوَ قَدْ فَارَقَ صَاحِبَتَهُ بَاكِيًا وَبَاكِيًا مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى بُكَاءَهُ غَيْرَهَا وَلَا يَرَى بُكَاءَهَا غَيْرَهُ !

وَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَى مَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا تَغَشَّى الدُّنْيَا لَوْنُ نَفْسِهِ الْحَزِينَةِ ؛ إِذْ كَانَتْ نَفْسُهُ أَلْقَتْ

(١) حُزْنُ الثَّانِيَةِ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ] .

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٠ ، ٣٠ شهر رمضان سنة ١٣٥٥ هـ = ١٤ ديسمبر / كانون الأول ١٩٣٦ م ،

السنة الرابعة ، الصفحات : ٢٠٢٣ - ٢٠٢٥ .

ظَلَّهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَرَاهُ ؛ وَجَعَلَ يَذْلُفُ وَلَا يَمْسِي كَأَنَّهُ مُنْقَلَبٌ بِحِمْلِ يَحْمِلُهُ عَلَى قَلْبِهِ .

إِنَّهُ لَيْسَ أَخَفَّ وَزْنًا مِنَ الدَّمْعِ ، وَلَكِنَّ الثُّمُوسَ الْمُتَالِمَةَ لَا تَحْمِلُ أَثْقَلَ مِنْهُ ، حَتَّى لَيْتَنِي عَلَى النَّفْسِ أَحْيَانًا وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا بِنَاءٌ قَائِمٌ يَتَهَدَّمُ عَلَى جِسْمٍ ؛ وَبَعْضُ التَّنْهَدَاتِ عَلَى رِقَّتِهَا وَخِفَّتِهَا ، قَدْ تَشْعُرُ بِهَا النَّفْسُ فِي بَعْضِ هَمِّهَا كَأَنَّهَا جَبَلٌ مِنَ الْأَخْزَانِ أَخَذَتْهُ الرَّجْفَةُ فَمَادَتْ بِهِ ، فَتَقَلَّقَلْ ، فَهُوَ يَتَقَلَّقُ وَيَتَهَاوَى عَلَيْهَا .

أَو ... حِينَ يَتَغَيَّرُ الْقَلْبُ فَيَتَغَيَّرُ كُلُّ شَيْءٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ! لَقَدْ كَانَ صَاحِبُنَا مُنْذُ قَلِيلٍ وَكَأَنَّ كُلَّ سُورٍ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ لَهُ : أَنَا لَكَ ! فَعَادَ آلَانْ وَمَا يَقُولُ لَهُ : « أَنَا لَكَ » إِلَّا أَلَهُمْ ؛ وَالتَّقَى هُوَ وَالظَّلَامُ وَالْعَالَمُ الصَّامِتُ !

جَعَلَ يَذْلُفُ وَلَا يَمْسِي كَأَنَّهُ مُنْقَلَبٌ بِحِمْلِ يَحْمِلُهُ عَلَى قَلْبِهِ ؛ وَمَتَى وَقَعَ الطَّائِرُ مِنَ الْجَوِّ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ ، انْقَلَبَتِ التَّوَامِسُ كُلُّهَا مُعْطَلَةً فِيهِ ، وَظَهَرَ الْجَوُّ نَفْسَهُ مَكْسُورًا فِي عَيْنِ الطَّائِرِ الْمُسْكِنِ ؛ وَتَنَفَّصَ رُوحُهُ عَنِ السَّمَاءِ وَأَنْوَارِهَا ، حَتَّى لَوْ غَمَرَهُ الثُّورُ وَهُوَ مُلْقَى فِي التُّرَابِ لَأَحْسَهُ عَلَى التُّرَابِ وَحْدَهُ لَا عَلَى جِسْمِهِ ...

ثُمَّ خَرَجْنَا ، فَأَتَيْنَا صَاحِبَنَا مِمَّا كَانَ فِيهِ ؛ وَبِهِذِهِ الْأَنْتِبَاهَةِ الْمُؤَلِمَةِ أَدْرَكَ مَا كَانَ فِيهِ عَلَى وَجْهِ آخَرٍ ، فَتَعَذَّبَ بِهِ عَذَابَيْنِ : أَمَّا وَاحِدٌ فَلَأَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَدَمْ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَأَنَّهُ زَالَ وَلَمْ يَعُدْ ؛ وَالسُّرُورُ فِي الْحُبِّ شَيْءٌ غَيْرُ السُّرُورِ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ ؛ إِذْ هُوَ فِي الْأَوَّلِ رُوحٌ تَتَضَاعَفُ بِهِ الرُّوحُ ؛ فَكُلُّ مَا سَرَكَ وَأَنْتَهَى شَعَرَتْ أَنَّهُ أَنْتَهَى ، وَلَكِنْ مَا يَنْتَهِي مِنْ سُورٍ الْعَاشِقِ الْمُسْتَهَامِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ مَاتَ ، فَلَهُ فِي نَفْسِهِ حُزْنُ الْمَوْتِ وَهُمْ الْكُلُّ ، وَلَهُ فِي نَفْسِهِ هَمُّ الشُّكْلِ وَحُزْنُ الْمَوْتِ !

* * *

وَيَنْظُرُ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ فَإِذَا الْأَنْوَارُ قَدْ انْطَفَأَتْ فِي الْحَدِيثَةِ ، وَإِذَا أَلَمَ مَرُّ أَيْضًا كَأَنَّمَا كَانَ فِيهِ مَسْرُوحٌ وَأَخَذُوا يُطْفِئُونَ أَنْوَارَهُ .

كَانَ وَجْهَ الْقَمَرِ فِي مِثْلِ حُزْنِ وَجْهِ الْعَاشِقِ الْمُبْتَعِدِ عَنْ حَبِيبَتِهِ إِلَى أَطْرَافِ الدُّنْيَا ، فَكَانَ أَيْبَضَ أَصْفَرَ مُكَمَّمًا ، تَحَايَلُ فِيهِ مَعَانِي الدُّمُوعِ الَّتِي يُمَسِّكُهَا التَّجَلُّدُ أَنْ تَتَسَاقَطَ .

قُلْتُ : أَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ حَبِيبٍ هُوَ الْعَالَمُ الشَّخْصِيُّ لِمُحِبِّهِ .

قَالَ : وَلِذَلِكَ يَعِينُ الْمُحِبُّ الْمَهْجُورُ ، أَوْ الْمَفَارِقُ ، أَوْ الْمُتَنَظِّرُ ، وَكَأَنَّهُ فِي أَيَّامِ خَلَّتْ ، وَتَرَاهُ كَأَنَّمَا يَجِيءُ إِلَى الدُّنْيَا كُلِّ يَوْمٍ وَيَرْجِعُ .

قُلْتُ : إِنَّ مِنْ بَعْضِ مَا يَكُونُ بِهِ الْجَمَالَ جَمَالًا أَنَّهُ ظَالِمٌ قَاهِرٌ عَنِيفٌ ، كَأَلَمَلِكٍ يَسْتَبِيدُ لِيَسَحِّقَ مِنْ نَفَادِ أَمْرِهِ ؛ وَكَأَنَّ الْجَمِيلَ لَا يَتِمُّ جَمَالُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْيَانًا غَيْرَ جَمِيلٍ فِي الْمُعَامَلَةِ ! .

قَالَ : وَلَكِنَّ الْأَمْرَ مَعَ هَذِهِ الْحَبِيبَةِ بِالْخِلَافِ ؛ فَهِيَ تَطْلُبُنِي وَأَتَنَكَّبُهَا ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ لِكِبْهَا مُقْبِلَةٌ عَلَى أَمْتِنَاعِي ؛ وَكَأَنَّهَا طَالِبٌ يَعْدُو وَرَاءَ مَطْلُوبٍ يَفِرُّ ، فَلَا هَذَا يَقِفُ وَلَا ذَاكَ يُدْرِكُ .

قُلْتُ : فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ الْمُسْكِلَةُ ، وَمَتَى كَانَتِ الْحَبِيبَةُ مِثْلَهَا ، وَكَانَ الْمُحِبُّ مِثْلَكَ ، فَقَدْ جَاءَتِ الْعُقْدَةُ بَيْنَهُمَا مَعْقُودَةً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا فَلَا حَلَ لَهَا .

قَالَ : كَذَلِكَ هُوَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ فِي الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ كَبُؤْسِ الْعَاشِقِ الَّذِي لَا يَتَدَبَّرُ كَيْفَ يَأْخُذُ حَبِيبَتَهُ ، وَلَكِنَّ كَيْفَ يَتْرُكُهَا ؟ مَا هِيَ الْمَسَافَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ؟ خُطْوَةٌ خَطَوَتَانِ ؟ كَلَّا ، كَلَّا ؛ بَلْ فَضَائِلُ وَفَضَائِلُ تَمْلَأُ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُتْرَاحِيَةٌ مُنْتَدَّةٌ ذَاهِبَةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَازَةٍ ؛ وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ الْفَاسِدُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْحَبِيبِ إِلَّا (نَعَمْ) بِلا شَرْطٍ وَلَا قَيْدٍ لِأَنَّهُ فَاسِدٌ ، فَالْحُبُّ الطَّاهِرُ يَقْبَلُ (لَا) لِأَنَّهُ طَاهِرٌ ؛ ثُمَّ هُوَ لَا يَرْضَى (نَعَمْ) إِلَّا بِشَرْطِهَا وَقَيْدِهَا مِنَ الْأَدَبِ وَالشَّرِيعَةِ وَكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ .

وَإِذَا لَمْ يَنْتَهِ الْحُبُّ بِالْإِثْمِ وَالرَّذِيلَةِ . فَقَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ حُبٌّ ؛ وَشَرْفُهُ حِينَئِذٍ هُوَ سِرُّ قُوَّتِهِ وَعُضْرُ دَوَامِهِ .

أَتَعْرِفُ أَنَّ بَعْضَ عِشَاقِ الْعَرَبِ تَمَّتْ لَوْ كَانَ جَمَلًا وَكَانَتْ حَبِيبَتُهُ نَاقَةً . . . ؟ إِنَّهُ يَهْلِكُ يَوْذًا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا الْعَقْلُ وَالْقَانُونُ وَهَذَا الْحِرْزَانُ الَّذِي يُسَمَّى الشَّرَفَ ، وَأَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا إِلَّا قَيْدٌ غَرِيزَتِهَا الَّذِي يَنْحَلُّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي لَحْظَةٍ مَا ، وَأَنْ يُتْرِكَ لِقُوَّتِهِ وَتُتْرِكَ هِيَ لِضَعْفِهَا ، وَالْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ فِي قَانُونِ الطَّبِيعَةِ هُمَا مِلْكٌ وَتَمْلِكُكَ وَأَغْتِصَابٌ وَتَسْلِيمٌ .

قُلْتُ : وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ عَاشِقٍ لِيُمَثِّلَ هَذِهِ الزَّافِصَةَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا الْحَيَوَانُ ، فَإِنَّ بَيْنَهُمَا قُوَّةً وَضَعْفًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَمَعَهُ الثَّمَنُ وَبِهَا الْحَاجَةُ ، وَهُمَا فِي قَانُونِ الصَّرُورَةِ مِلْكٌ وَتَمْلِيكٌ .

قَالَ : وَهَذَا مِمَّا يَقْطَعُ فِي قَلْبِي ، فَلَوْ أَنَّ لِلْأُمَّةِ دِينًا وَشَرَفًا لَمَا بَقِيَ مَوْضِعُ الزَّوْجَةِ فَارِعًا مِنْ رَجُلٍ ، وَإِنْ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا إِنَّمَا يَنْزِلُ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْخَالِيَةِ أَوَّلَ مَا يَنْزِلُ ، فَكُلُّ بَعْضٍ هِيَ فِي الْمَعْنَى دِينٌ مَنْرُوكٌ وَشَرَفٌ مُبْتَدَلٌ فِي الْأُمَّةِ .

* * *

قُلْتُ : فَحَدِّثْنِي عَنْكَ ، مَا هَذَا الْوَجْدُ بِهَا ؟ وَمَا هَذَا الْاخْتِرَاقُ فِيهَا ؟ وَأَنْتَ قَدْ كُنْتَ بَيْنَ يَدَيْهَا خَيَالِيًّا مَحْضًا كَأَنَّمَا جَمَعْتَهَا فِي حَوَاسِكَ فَأَخَذْتَهَا وَتَرَكْتَهَا فِي وَفْتٍ مَعًا ، وَحَوَاسِكَ هَذِهِ لَا تَزَالُ كَمَا هِيَ ، بَلْ هِيَ قَدْ زَادَتْ حِدَّةً ، فَكَمَا صَنَعْتَ لَكَ مِنْ قُرْبٍ تَصْنَعُ لَكَ مِنْ بُعْدٍ .

قَالَ : أَنَا فِي مَحْضِهَا أَحْبَبْتُهَا كَمَا رَأَيْتُ بِالْقَدْرِ الَّذِي تَقُولُ هِيَ فِيهِ إِنَّكَ لَا تُحِبُّنِي . إِذْ كَانَ بَيْنَنَا آخِرُ أَسْمِهِ الْخُلُقُ ، وَلِلْكَيْفِ فِي غِيَابِهَا أَفْقَدُ هَذَا الْمِيزَانَ الَّذِي يَرِنُ الْمِقْدَارُ وَيُحَدِّدُهُ ، وَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ الْعَاشِقُ فِي غَيْبَةِ الْمَعْشُوقِ ، فَأَعْلَمَ أَنَّ كِبَرِيَاءَهُ حِينَئِذٍ لَا تَرَى بِإِزَائِهَا مَا تَقَاوَمُهُ ، فَتَخْلَى عَنْهُ وَتَحْدُلُهُ ، وَفَضِيلَتُهُ لَا تَجِدُ مَا تَسْتَعْلِنُ فِيهِ ، فَتَتَوَارَى وَتَدَعُهُ ، وَشَخْصِيَّتُهُ لَا تَجِدُ مَا تَبْرُزُ لَهُ ؛ فَتَخْتَفِي وَتُهْمِلُهُ ، فَمَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ الْمُسْكِينُ وَحْدَهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنَ الْوَهْنِ وَالنَّقْصِ وَحِدَّةِ السَّوْقِ ، وَهُنَا يَنْتَقِمُ الْحُبُّ مِمَّا زَوَّرَتْ عَلَيْهِ الْكِبَرِيَاءُ وَالْفَضِيلَةُ وَالشَّخْصِيَّةُ ، فَيَضْرِبُ بِحَقَائِقِهِ ضَرْبَاتٍ مُؤْلِمَةً لَا تَقُومُ لَهَا الْقُوَّةُ ، وَيَجْعَلُ غِيَابَ الْحَبِيبِ كَأَنَّهُ حُضُورُهُ مُسْتَخْفِيًا لِرُؤْيَةِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي كُتِمَتْ عَنْهُ ، وَكَمْ مِنْ عَاشِقَةٍ مُتَكَبِّرَةٍ عَلَى مَنْ تَهَوَّاهُ تُصَدِّهُ وَتُبَاعِدُهُ ، وَهِيَ فِي خُلُوتِهَا سَاجِدَةٌ عَلَى أَقْدَامِ خَيَالِهِ تُمَرِّغُ وَجْهَهَا هُنَا وَهُنَا عَلَى هَذِهِ الْقَدَمِ وَعَلَى هَذِهِ الْقَدَمِ !

أَلَا إِنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْحُبِّ مِنْ تَمَثُّلِ رِوَايَةِ الْأَمْتِنَاعِ أَوِ الصَّدِّ أَوْ التَّهَافُوتِ أَوْ أَيِّ الرِّوَايَاتِ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَكِنَّ رِيَابَ الْمَسْرَحِ هِيَ دَائِمًا رِيَابُ اسْتِعَارَةٍ مَا دَامَ لَا يَسُهَا فِي دَوْرِهِ مِنَ الْقِصَّةِ .

* * *

ثُمَّ وَضَعَ الْمُسْكِينُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ : آوِ ! إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ يُغَاضِبُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا مَتَى أَرَادَ أَنْ يَشْعُرَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ غَضَبَانٌ .

مَنْ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ أَحْزَانَهُ ؟ وَلَكِنْ مَنْ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْرِفُ أَسْرَارَ أَحْزَانِهِ وَحِكْمَتَهَا ؟ أَمَا إِنَّهُ لَوْ كُشِفَ السُّرُّ لَرَأَيْنَا الْأَفْرَاحَ وَالْأَحْزَانَ عَمَلًا فِي النَّفْسِ مِنْ أَعْمَالٍ تَنَارُعُ الْبَقَاءِ ، فَهَذَا النَّامُوسُ يَعْمَلُ فِي إِيْجَادِ الْأَصْلَحِ وَالْأَقْوَى ، ثُمَّ يَعْمَلُ كَذَلِكَ لِإِيْجَادِ الْأَفْضَلِ وَالْأَرْقِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ أَلَامُ الْحُبِّ قُوَّةً قَوِيَّةً حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ تُهَيِّئُ أَحَدَ الْقَلْبَيْنِ لِيَسْحَقَ الْقَلْبَ الْآخَرَ .

آهِ مِنْ هَذِهِ اللَّوَاعِجِ ! إِنَّهَا مَا تَكَادُ تَضْطَرُّمُ حَتَّى تَرْجِعَ النَّفْسُ وَكَأَنَّهَا مَوْقِدٌ يَشْتَعِلُ بِالْجَمْرِ ، وَبِذَلِكَ يَصْهَرُ الْمَعْدِنُ الْإِنْسَانِيُّ وَيُصْنَعُ صَنْعَةً جَدِيدَةً ، وَإِلَى أَنْ يَنْصَبِرَ وَيَتَصَفَّى وَيُصْنَعُ ، مَاذَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيبِهِ ؟ يَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحُهُ الْتَارِي .

* * *

قُلْتُ : بَخِ بَخِ ^(١) ! هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْحُبُّ ؛ إِنَّهَا حِينَ تَهِيْجُ فِي نَفْسِكَ الْحَيْنِينَ إِلَيْهَا تُعْطِيكَ مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ جَمَالِهَا وَمَا هُوَ أَبْدَعُ مِنْ جِسْمِهَا ، إِذْ تُعْطِيكَ أَقْوَى الشَّعْرِ وَأَحْسَنَ الْحِكْمَةِ .

قَالَ : وَأَقْوَى الْأَلَمِ وَأَشَدَّ اللَّوْعَةِ ، يَا عَجَبًا ! كَأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تُقَدِّمُ فِي عَشْقِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عَشْقَهَا هِيَ ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْجَفْوَةُ ، أَوْ حُمَ الْبَيْنُ ، أَوْ اغْتَرَى الْيَأْسُ - قَدَّمَ الْمَوْتَ نَفْسَهُ فَكُلُّ ذَلِكَ شِبْهُ الْمَوْتِ .

إِنَّ الْحُزْنَ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ الْعَدُوِّ يَجِيءُ مَعَهُ بِقُوَّةٍ تَحْمِلُهُ وَتَتَجَلَّدُ لَهُ وَتُكَابِرُ فِيهِ ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ ذَلِكَ فِي حُزْنٍ مَبْنَعُهُ الْحَبِيبُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ الْقُوَّةُ إِذَا ضَمَعَتْ الْقَلْبَ ؟

* * *

(١) كَلِمَةُ الْإِعْجَابِ تُقَالُ عِنْدَ الرُّضَى وَالْمَدْحِ ، وَمِثْلُهَا (رَوْ) وَهَلِهِ فَارِسِيَّةٌ .

قُلْتُ : لَا يَصْنَعُ اللَّهُ بِكَ إِلَّا خَيْرًا ؛ فَإِذَا كَانَ غَدٌ وَأَنْسَلَخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ ، جِئْنَا إِلَيْهَا
فَرَأَيْنَاهَا فِي الْمَسْرَحِ ، وَلَعَلَّ الْأَمْرَ يَصْدُرُ مَصْدَرًا آخَرَ ، قَالَ : أَرْجُو ...

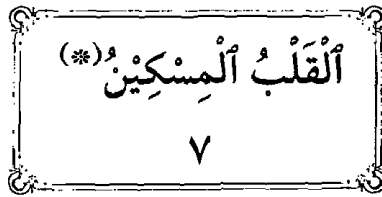
وَلَمْ يَكَدْ يَنْطَلِقُ بِهِذِهِ الرَّجِيَّةِ حَتَّى مَرَّ بِنَا سَبْعَةُ رِجَالٍ يَقْفَهُونَ ، ثُمَّ تَلَاقَيْنَا وَجِئْنَا ؛
وَيَا وَيْلَتَنَا عَلَى الْمِسْكِينِ حِينَ عَلِمَ أَنَّهَا رَحَلَتْ ؛ لَقَدْ أَذْرَكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يَضْحَكُ بِسَبْعَةِ
أَفْوَاهٍ ... مِنْ قَوْلِهِ : أَرْجُو .

وَلِمَاذَا رَحَلَتْ ؟ لِمَاذَا ؟

وَأَمَّا هُوَ ... ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وَأَمَّا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمِسْكِينِ ، فَمَا عَلِمَ أَنَّهَا قَدْ رَحَلَتْ عَنْ لَيْلَتِهِ حَتَّى أَظْلَمَ الظَّلَامُ
عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةً أَضَاءَ شَيْءٌ لَا يُرَى ، فَإِذَا غَابَتْ انْطَفَأَ هَذَا الضُّوءُ ؛ وَرَأَيْتُهُ
وَاجِمًا كَاسِفَ الْبَالِ يَتَنَارَعُهُ فِي نَفْسِهِ مَا لَا أَذْرِي ، كَانَ غِيَابَهَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ إِندَارٌ حَرْبٍ .

لِمَاذَا كَانَ الشُّعْرَاءُ يَتَوَحَّشُونَ عَلَى الْأَطْلَالِ وَيَلْتَاغُونَ بِهَا وَيَزْتَمِضُونَ مِنْهَا وَهِيَ أَحْجَارُ
وَأَنَارُ وَبَقَايَا ؟ وَمَا الَّذِي يَتَلَقَّاهُمْ بِهِ الْمَكَانُ بَعْدَ رَحِيلِ الْأَحْيَةِ ؟ يَتَلَقَّاهُمْ بِالْفَرَاغِ الْقَلْبِيِّ الَّذِي
لَا يَمْلَأُهُ مِنَ الْوُجُودِ كُلُّهُ إِلَّا وَجُودُ شَخْصٍ وَاحِدٍ ؛ وَعِنْدَ هَذَا الْفَرَاغِ تَقِفُ الدُّنْيَا مَلِيًّا كَأَنَّهَا
انْتَهَتْ إِلَى نَهَايَةِ فِي النَّفْسِ الْعَاشِقَةِ ، فَتَبْطُلُ حِينَئِذٍ الْمُبَادَلَةُ بَيْنَ مَعَانِي الْحَيَاةِ وَبَيْنَ شُعُورِ
الْحَيِّ ؛ وَيَكُونُ الْعَاشِقُ مُوجُودًا فِي مَوْضِعِهِ وَلَا تَجِدُهُ الْمَعَانِي الَّتِي تَمُرُّ بِهِ ، فَتَرْجِعُ مِنْهُ

كَالْحَقَائِقِ تُلِمُّ بِالْفَرَاغِ الْعَقْلِيِّ مِنْ وَعْيِ سَكْرَانٍ .

يَا أَثَرُ الْحَبِيبِ حِينَ يُفَارِقُ الْحَبِيبُ ! مَا الَّذِي يَجْعَلُ فِيكَ تِلْكَ الْقُدْرَةَ السَّاحِرَةَ ؟ أَهْوَى فَصْلُكَ بَيْنَ زَمَنٍ وَزَمَنٍ ، أَمْ جَمْعُكَ الْمَاضِي فِي لَحْظَةٍ ؛ أَمْ تَحْوِيلُكَ الْحَيَاةَ إِلَى فِكْرَةٍ ، أَمْ تَكْبِيرُكَ الْحَقِيقَةَ إِلَى أَضْعَافِ حَقِيقَتِهَا ، أَمْ تَصَوِيرُكَ رُوحِيَّةَ الدُّنْيَا فِي الْمِثَالِ الَّذِي تُحْسِنُهُ الرُّوحُ ، أَمْ إِشْعَارُكَ النَّفْسَ كَالْمَوْتِ أَنَّ الْحَيَاةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْإِنْقِلَابِ ، أَمْ قُدْرَتُكَ عَلَى زِيَادَةِ حَالَةِ جَدِيدَةٍ لِلْهَمِّ وَالْحُزَنِ ، أَمْ رُجُوعُكَ بِاللَّذَّةِ تُرَى وَلَا تُنْكِرُ ، أَمْ أَنْتَ كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا وَيَمْتَلِئُ بِكَ وَحْدَكَ ؟

يَا أَثَرُ الْحَبِيبِ حِينَ يُفَارِقُ الْحَبِيبُ ! مَا هَذِهِ الْقُوَّةُ السَّخَرِيَّةُ فِيكَ تَجْتَذِبُ بِهَا الصَّدْرَ لِيَضُمَّكَ ، وَتَسْتَهْوِي بِهَا أَلْفَمَ لِيَعْبُثَكَ ، وَتَسْتَدْعِي الدَّمْعَ لِيَنْفَرَّ لَكَ ، وَتَهْتَابُ الْحَيْنَ لِيَنْبَعِثَ فِيكَ ؟ أَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّكَ أَثَرُ الْحَبِيبِ ، أَمْ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَفْرُغُ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَجِدُ مَا يَحْفِقُ عَلَيْهِ سِوَاكَ ؟

* * *

وَوَقَفَ صَاحِبُنَا الْمَسْكِينُ مَحْزُونًا كَانَ شَيْئًا يَصِلُهُ بِكُلِّ هُمُومٍ الْعَالَمِ ؛ وَتِلْكَ هِيَ طَبِيعَةُ الْأَلَمِ الَّذِي يُفَاجِئُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَكْمَنٍ لَدُنْهِ وَمَوْضِعٍ سُرُورِهِ ، فَيَلْبِسُهُ نَوْعًا مِنَ الْحَيَاةِ بِطَرِيقَةِ سَلْبِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْئًا مَاتَ قِيْدُهُ فِي قَبْرِ الْمَاضِي ، يَكُونُ أَلَمًا لِأَنَّ فِيهِ الْمَضْمَنَ ، وَكَابَةً لِأَنَّ فِيهِ الْحَيِيَّةَ ، وَدُهُولًا لِأَنَّ فِيهِ الْحَسْرَةَ ؛ وَتَتِمُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْهُمُومِ بِالْأَضْيَقِ الشَّدِيدِ فِي النَّفْسِ ، لِاجْتِمَاعِ ثَلَاثَتِهَا عَلَى النَّفْسِ ؛ فَإِذَا الْمَسْكِينُ مَبْغُوثٌ مَبْغُوثٌ ، كَانَ الْأَلَمُ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ، فَقَلْبُهُ مِنْهَا صُدُوعٌ صُدُوعٌ . . .

وَجَعَلْتُ أَغْدِلُ صَاحِبَنَا فَلَا يَغْدِلُ ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَهُ وُجُودَ الصَّبْرِ كُنْتُ كَأَنَّمَا أُبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُوجُودٍ ؛ ثُمَّ تَنَفَّسَ وَهُوَ يَكَادُ يَنْشَقُّ غَيْظًا وَقَالَ : لِمَاذَا رَحَلْتُ ؟ لِمَاذَا ؟

قُلْتُ : أَنْتَ أَذَلَّتْ جَمَالَهَا بِهِذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَرَى أَنَّكَ تُعْزُجُ جَمَالَهَا بِهِ ، وَقَدْ أَشْتَدَدْتَ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِكَ ، وَتَعَنَّتْ عَلَى قَلْبِكَ وَقَلْبِهَا ؛ كَانَتْ ظَرِيفَةً الْمَذْهَبِ فِي عَشِقِهَا وَكُنْتُ خَشِنًا فِي حُبِّكَ ، وَسَوَّغْتُكَ حَقًّا فَرَدَّدَتْهُ عَلَيْهَا ، وَتَهَالَكْتَ وَانْقَبَضَتْ أَنْتَ ، وَرَفَعْتَ قَدْرَكَ

عَنْ نَفْسِهَا تَحَبُّبًا وَتَوَدُّدًا فَخَفَضَتْ قَدْرَهَا عَنْ نَفْسِكَ مِنْ أَطْرَاحٍ وَجَفَاءٍ ، وَأُسْتَفْرَعَتْ وَسْعَهَا فِي رِضَاكَ فَتَغَاظَبَتْ ، وَنَضَّتْ عَنْ مَحَاسِنِهَا شَيْئًا شَيْئًا تَسْأَلُ بِكُلِّ شَيْءٍ سُؤَالَ فَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ مِنْ جَوَابِهَا فِي شَيْءٍ ...

وَمِنْ طَبِيعِ الْمَرْأَةِ أَنَّهَا إِذَا أَحَبَّتْ أَمْتَنَتْ أَنْ تَكُونَ الْبَادِئَةُ ، فَالْتَوَتْ عَلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ عَاشِقَةٌ ، وَجَاحَدَتْ وَهِيَ مُفَرَّةٌ ؛ إِذْ تُرِيدُ فِي الْأَوَّلَةِ أَنْ تَتَحَقَّقَ أَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُقَدَّمَ لَهَا الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْمُهَاجَمَةَ ، وَفِي الثَّلَاثَةِ هِيَ تُرِيدُ أَلَّا تَأْخُذَهَا إِلَّا قُوَّةُ قُوَّةٍ فَتَمْتَحِنُ هَذِهِ الْقُوَّةَ ، وَمَعَ هَذِهِ الثَّلَاثِ تَأْتِي طَبِيعَةُ الشَّرُّورِ فِيهَا وَالْإِسْتِمْتَاعُ بِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الشَّرُّورِ وَهَذَا الْإِمْتِنَاعِ شَأْنٌ وَاقِعٌ ، فَتُذِنَقُ صَاحِبِهَا الْمَرْءَ قَبْلَ الْحُلُولِ لِيَكْبُرَ هَذَا بِهِذَا .

غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا غَلَبَهَا الْوَجْدُ وَآكَرَهَا الْحُبُّ عَلَى أَنْ تَبْتَدِيَ صَاحِبَهَا ، ثُمَّ ابْتَدَأَتْ وَلَمْ تَجِدِ الْجَوَابَ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَلَى مَا تُحِبُّ ، فَإِنَّ الْإِبْتِدَاءَ حِينَئِذٍ يَكُونُ هُوَ الْنَهَائِيَّةَ ، وَيَتَقَلَّبُ الْحُبُّ عَدُوَّ الْحُبِّ ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ أَمْرًا وَضَعْتُهَا كِبَرِيَاوَهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ وَقَالَتْ لِصَاحِبِهَا : سَأَتَاكُمُ وَلَكِنْ لَنْ أُغْلِبَ ، فَكَانَ الَّذِي وَقَعَ وَآسَفَاهُ - أَنَّهَا تَاكَلَمَتْ حَتَّى جُنَّتْ ، وَلَكِنْ لَمْ تُغْلَبْ ^(١) ...

قَالَ : فَمَا بَالُ هَذِهِ ؟ أَمَا تَرَاهَا تَبْتَدِي كُلَّ يَوْمٍ رَجُلًا ؟

قُلْتُ : إِنَّهَا تَبْتَدِي مُتَكَسِّبَةً لَا عَاشِقَةً ، فَإِذَا أَحَبَّتِ الْحُبَّ الصَّحِيحَ أَرَادَتْ قِيَمَتَهَا ، [قِيَمَتُهَا] فِيمَا هُوَ قِيَمَتُهَا ؛ وَأَنَا أَحْسِبُهَا تُحِبُّ فِينِكَ هَذَا الْعُتْفَ وَهَذِهِ الْقَسْوَةَ وَهَذِهِ الْكُرُوحِيَّةَ الْجَبَّارَةَ ؛ فَإِنَّهَا لَدَاتُ جَدِيدَةٍ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا تَجِدُ مَنْ يُخَضِّعُهَا ، وَفِي طَبِيعَةِ كُلِّ أَمْرَأَةٍ شَيْءٌ لَا يَجِدُ تَمَامَهُ إِلَّا فِي عُتْفِ الرَّجُلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ الْعُتْفُ الَّذِي أَوَّلُهُ رِقَّةٌ وَآخِرُهُ رِقَّةٌ !

* * *

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ عَجَائِبَ الْحُبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَجِيبَةً ، وَالشَّيْءُ الْغَرِيبُ يُسَمَّى غَرِيبًا فَيَكْفِي ذَلِكَ بَيَانًا فِي تَعْرِيفِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي الْحُبِّ سُمِّيَ غَرِيبًا فَلَا تَكْفِيهِ التَّسْمِيَةُ ،

(١) { أَنْظُرْ نَصَّةَ هَذِهِ الْحَبِيبَةِ الَّتِي تَاكَلَمَتْ حَتَّى جُنَّتْ فِي « الزَّافِعِي الْعَاشِقُ » مِنْ « حَيَاةِ الزَّافِعِي » . }

فَيُوصَفُ مَعَ التَّسْمِيَةِ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَلَا يَبْلُغُ فِيهِ الْوَصْفُ ، فَيَقَعُ التَّعَجُّبُ مَعَ الْوَصْفِ وَالتَّسْمِيَةِ مِنْ أَنَّهُ شَيْءٌ غَرِيبٌ ، ثُمَّ تَبْقَى وَرَاءَ ذَلِكَ مِثْرَةٌ لِلْإِغْرَاقِ فِي التَّعَجُّبِ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَهَكَذَا يَشْعُرُونَ .

فَكُلُّ أَسْرَارِ الْحُبِّ مِنْ أَسْرَارِ الرُّوحِ وَمِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَكَأَنَّ الثُّبُوءَ ثُبُوتَانِ : كَبِيرَةٌ وَصَغِيرَةٌ ، وَعَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . فَأَحَدَاهُمَا بِالنَّفْسِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأُخْرَى بِالْقَلْبِ الرَّقِيقِ فِي الْعُشَّاقِ ، وَفِي هَذِهِ مِنْ هَذِهِ شَبَةٌ ، لَوْجُودِ الْعَظَمَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي كِلْتُمَاهُمَا غَالِبَةً عَلَى الْمَادَّةِ ، مُجَرَّدَةٌ مِنْ إِنْسَانِ الطِّينِ إِنْسَانًا مِنَ الثُّورِ ، مُحَرَّكَةٌ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ الْأَدَمِيَّةُ حَرَكَةَ جَدِيدَةٍ فِي السُّمُوِّ ، ذَاهِبَةٌ بِالْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى مَا هُوَ الْأَخْسَنُ وَالْأَجْمَلُ ، وَاضِعَةٌ مَبْدَأُ التَّجْدِيدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَمُرُّ بِالنَّفْسِ ، مُتَّبِعَةٌ بِالْأَفْرَاحِ مِنْ مَصْدَرِهَا الْعُلُويِّ السَّمَاوِيِّ .

بَيِّنْ أَنَّ فِي الْعُشْقِ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةٍ ، فَإِذَا تَسَقَّلَ الْحُبُّ فِي جَلَالٍ ، وَاسْتَعْلَنَتِ الْبَهِيمِيَّةُ فِي عَظَمَةٍ ، وَتَجَرَّدَ مِنْ إِنْسَانِ الطِّينِ إِنْسَانُ الْحَجَرِ ، وَتَحَرَّكَتِ الطَّبِيعَةُ الْأَدَمِيَّةُ حَرَكَةَ جَدِيدَةٍ فِي السُّقُوطِ ، وَذَهَبَتِ الْمَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى مَا هُوَ الْأَفْحُحُ وَالْأَسْرَأُ ، وَتَجَدَّدَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ مَعْنًى فَاسِدٌ ، وَانْتَبَعَتِ الْأَفْرَاحُ مِنْ مَصْدَرِهَا السُّفْلِيِّ - إِذَا وَقَعَ كُلُّ هَذَا مِنْ الْحُبِّ فَمَا عَسَاهُ يَكُونُ ؟

لَا يَكُونُ إِلَّا أَنَّ الشَّيْطَانَ يُقْلِدُ الثُّبُوءَ الصَّغِيرَةَ فِي بَعْضِ الْعُشَّاقِ ، كَمَا يُقْلِدُ الثُّبُوءَ الْكَبِيرَةَ فِي بَعْضِ الدَّجَالِينَ .

* * *

هَكَذَا قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنِ الْحُبِّ وَتَخَنُّ جَالِسَانِ فِي الْحَدِيثَةِ ، وَكُنَّا دَخَلْنَاهَا لِيُجَدِّدَ عَهْدًا بِمَجْلِسِهِ فَلَعَلَّهُ يَسْكُنُ بَعْضُ مَا بِهِ ، وَاسْتَفَاضَ كَلَامُنَا فِي وَصْفِ تِلْكَ الْعَبْهَةِ ^(١) الْفَتَانَةِ الَّتِي أَحَلَّتْهُ هَذَا الْمَحَلَّ وَبَلَغَتْ بِهِ مَا بَلَغَتْ ، وَكَانَ فِي رِقَّةٍ لَا رِقَّةَ بَعْدَهَا ، وَفِي حُبٍّ لَا نِهَابَةَ وَرَاءَهُ لِمُحِبٍّ ؛ وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرَى الْحَدِيثَ عَنْهَا كَأَنَّهُ

(١) هِيَ الَّتِي جَمَعَتِ الْحُسْنَ وَالْجِسْمَ وَالْإِمْتِلَاءَ وَجَمَالَ الْخِلْقَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، كَهَذِهِ الَّتِي نَحْنُ فِي وَصْفِهَا مُنْذُ شَهْرَيْنِ ...

إِحْضَارُهَا بِصُورَةٍ مَا !

وَأَنْفَعُ مَا فِي حَدِيثِ الْعَاشِقِ عَنْ حُبِّهِ وَالْمِهِ أَنَّ الْكَلَامَ يُخْرِجُهُ مِنْ حَالَةِ الْفِكْرِ ، وَيُؤْنَسُ قَلْبُهُ بِالْأَلْفَاظِ ^(١) ، وَيُخَفَّفُ مِنْ حَرَكَةِ نَفْسِهِ بِحَرَكَةِ لِسَانِهِ ، وَيُوجِّهُ حَوَاسَّهُ إِلَى الظَّاهِرِ الْمُتَحَرِّكِ ؛ فَتَسْلُبُهُ الْفَاطَةُ أَكْثَرَ مَعَانِيهِ الْوَهْمِيَّةِ ، وَتَأْتِيهِ بِالْحَقَائِقِ عَلَى قَدَرِهَا فِي اللُّغَةِ لَا فِي النَّفْسِ ؛ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ حِيلَةٌ عَلَى الثَّنِيَّانِ وَتَعَلُّلٌ إِلَى سَاعَةٍ ؛ وَهُوَ تَذْيِيرٌ مِنَ الرَّحْمَةِ بِالْعَاشِقِينَ فِي هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُسَمَّى الْفِرَاقَ أَوْ الْهَجَرَ .

وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا عَجِبْتُ لَهُ أَنَّ صَدِيقًا مَرَّ بِنَا فَدَعَاؤُ صَاحِبِنَا وَقَالَ وَهُوَ يَوْمِي إِلَيَّ : أَنَا وَفُلَانٌ هَذَا مُخْتَلِفَانِ مُنْذُ الْيَوْمِ : لَا هُوَ يُفِيمُ عِذْرًا وَلَا أَنَا أَفِيمُ حُجَّةً ، وَأَحْسَبُ أَنَّ عِنْدَكَ رَأْيَا ؛ فَاقْضِ بَيْنَنَا .

وَيَسْأَلُهُ الصَّدِيقُ : مَا الْقَضِيَّةُ ؟

فَيَقُولُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيَّ : إِنَّ هَذَا قَدْ تَخَرَّقَ قَلْبُهُ مِنَ الْحُبِّ فَلَا يَذَرِي مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ لِقَلْبِهِ بِرُفْعَةٍ . . . وَأَنَّهُ يَعْسُقُ فُلَانَةَ الرَّاقِصَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي هَذَا الْمَسْرَحِ ، وَيَزْعُمُ لِي . . . أَنَّهَا أَجْمَلُ وَأَفْتَنُ وَأَحْلَى مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ وَجْهَيْهَا وَبَيْنَ الْقَمَرِ وَجْهُ أَمْرَأَةٍ أُخْرَى فِي كُلِّ مَا يُضِيءُ الْقَمَرُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ عَيْنَيْهَا مِمَّا لَا يُنْسَى أَبَدًا أَبَدًا . . . لِأَنَّ الْحَاطَهَا تَذُوبُ فِي الدَّمِ وَتَجْرِي فِيهِ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَوْ أَرَادَ مُتَاجَزَةَ الْعِفَّةِ وَالزُّهْدِ فِي حَرْبِ حَاسِمَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَزْهَدِ الْعِبَادِ لَتَرَكَ كُلَّ حِيلِهِ وَأَسَالِيهِ وَقَدَّمَ جِسْمَهَا وَقَتْلَهَا . .

فَيَقُولُ لَهُ الْمَسْئُورُ : وَمَا رَأْيُكَ أَنْتَ ؟

فَيَجِيبُهُ : لَوْ كَانَ عَنْهَا صَاحِبًا لَقَدْ صَحَا ، إِنَّ الْمُسْكِلَةَ فِي الْحُبِّ أَنَّ كُلَّ عَاشِقٍ لَهُ قَلْبُهُ الَّذِي هُوَ قَلْبُهُ ، وَحَسْبُهَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ يَصِفُهَا ، وَمَا يَذَرِيْنَا مِنْ تَصَارِيفِ الْقَدَرِ بِهِذِهِ الْمُسْكِنَةِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا لَهَا ، فَلَعَلَّهَا الْجَمَالُ حَكِيمٌ عَلَيْهِ أَنْ يُعَدِّبَ بِقُبْحِ النَّاسِ ، وَلَعَلَّهَا الشُّرُورُ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ يُسْجَنَ فِي أَحْرَازٍ !

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : « بِالْأَتْعَاطِ » بَدَلًا مِنْ : « بِالْأَلْفَاظِ » .

وَقُلْتُ لَهُ : يَا صَدِيقِي الْمُسْكِينِ ! أَوْ كُلُّ هَذَا لَهَا فِي قَلْبِكَ ؟ فَمَا هَذَا الْقَلْبُ الَّذِي تَحْمِلُهُ وَتَتَعَذَّبُ بِهِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ وَاللَّهِ قَلْبُ طِفْلِ ، وَمَا حُبُّهُ إِلَّا التَّمَسُّهُ الْحَنَانَ الثَّانِي مِنَ الْحَبِيبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَنَانِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأُمِّ ؛ وَكُلُّ كَلَامِي فِي الْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءُ هَذَا الْقَلْبِ عَلَى فِكْرِهِ كَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ خَلْقَ تَفَكُّيرِهِ .

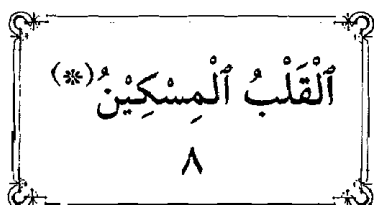
أَوْ يَا صَدِيقِي ! إِنَّ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِهِذِهِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْتَمِرُّ طِفْلاً بَعْدَ زَمَنِ الطُّفُولَةِ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ : مَنْ كَانَ فِيلْسُوفًا عَظِيمًا ، وَمَنْ كَانَ مُعَقِّلاً عَظِيمًا !

* * *

وَأَفْتَرَقْنَا ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ خَبْرَهُ فَلَقِيْتُهُ مِنَ الْعَدِ ، وَكَانَ لِي فِي أَحْلَامِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ أَعْجَبُ ، أَمَا أَنَا فَلَا يَغْنِي الْقُرَاءُ شَأْنِي وَفَصَّنِي .
وَأَمَّا هُوَ ... ؟!

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وَأَمَّا هُوَ ، فَحَدَّثَنِي بِهِذَا الْحَدِيثِ الْعَجِيبِ مِنْ لَطَائِفِ إلهَامِهِ وَقَفَّهِ ، قَالَ : أَنْصَرَفْتُ إِلَى دَارِي وَقَدْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهَا وَأَنْ يَكُونَ هَذَا مِنِّي ، وَهِيَ إِنْ غَابَتْ أَوْ حَضَرَتْ فَأَتَيْتُ لِي كَالسَّمْسِ لِلدُّنْيَا : لَا تَظْلِمُ الدُّنْيَا فِي نَاحِيَةٍ إِلَّا مِنْ أَنَّهَا تُضِيءُ فِي نَاحِيَةٍ ، فَظَلَمْتُهَا مِنْ عَمَلِ نُورِهَا ، وَكَانَتْ لَيْلَتِي فَارِغَةً مِنَ النَّوْمِ فَبْتُ أَتَمَلَّمُ ، وَجَعَلَ الْقَلْبُ يَدُقُّ فِي جَنَبِي كَأَنَّهُ آلهٌ فِي سَاعَةٍ لَا قَلْبَ إِنْسَانٍ ، وَكَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَوْلِي صَمْتُ كَصَمْتِ الَّذِي سَكَتَ

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٤ ، ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ هـ = ١١ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة

بَعْدَ خُطْبَةِ طَوِيلَةٍ ، وَفِي أَنَا صَمْتُ آخِرٍ كَصَمْتِ الَّذِي سَكَتَ بَعْدَ سُؤَالٍ لَا جَوَابَ عَلَيْهِ ،
وَكَانَ الْهَوَاءُ رَاكِدًا كَالسُّكْرَانِ الَّذِي أَنْطَرَحَ مِنْ ثِقَلَةِ السُّكْرِ بَعْدَ أَنْ هَذَى طَوِيلًا وَعَزِيدَ ،
وَالْوُجُودُ كُلُّهُ يَبْدُو كَالْمُخْتَبِ ، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَخْتِنَاقِ فِي قَلْبِي وَأَفْكَارِي ، وَنَظَرْتُ نَظْرَةً فِي
النُّجُومِ فَإِذَا هِيَ تَتَغَوَّرُ نَجْمًا بَعْدَ نَجْمٍ ، كَانَ مَعْنَى الرِّجْلِ أَنْتَشَرَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ إِذْ
رَحَلَتِ الْحَبِيبَةُ ؛ وَكَانَ كُلُّ وَجْهِ مُضِيءٍ يَقُولُ لِي كَلِمَةً : لَا تَنْتَظِرْ !

فَلَمَّا عَسَعَسَ اللَّيْلُ رَمِيتُ بِنَفْسِي فَنِمْتُ وَالْعَقْلُ يَقْطَانُ ، وَصَنَعَتِ الْأَحْلَامُ مَا تَصْنَعُ ،
فَرَأَيْتُهَا هِيَ فِي تِلْكَ الشُّمُوفِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا عَرُوسًا ، وَمَا أَعْجَبَ كِبْرِيَاءَ الْمَرْأَةِ
الْمَحْبُوبَةِ ! إِنَّهَا لَتَبْدُو لِعَيْنِي مُحِبًّا كَالْعَارِيَةِ وَرَاءَ سِتْرِ رَقِيقٍ يَشْفُ عَنْهَا كَالضَّوءِ ، ثُمَّ تَذِلُّ
بِنَفْسِهَا أَنْ تَرْفَعَ هَذَا السُّتْرَ ، فَإِنْ لَمْ يَتَجَرَّأْ هُوَ لَمْ يَتَجَرَّأْ هِيَ ، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَهُ : قَدْ رَفَعْتُهُ
بِطَرِيقَتِي فَارْفَعُهُ أَنْتَ بِطَرِيقَتِكَ ..

وَكَانَتْ مُصَوَّرَةً فِي الْحُلُمِ تَصَوِيرًا آخَرَ ، فَلَا يَنْسَكِبُ مِنْ جِسْمِهَا مَعْنَى الْحُسْنِ الَّذِي
أَتَأَمَّلُهُ وَأَعْقِلُهُ ، وَلَكِنْ مَعْنَى السُّكْرِ الَّذِي يَتْرُكُ الْمَرْءَ بِلَا عَقْلِ ، وَلَمْ تَكُنْ غَلَاظِلْهَا عَلَيْهَا
كَالْثِيَابِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا ظَهَرَتْ لِي كَاللُّونِ عَلَى الْوَرْدَةِ الزَّاهِيَةِ : تُظْهِرُ فِتْنَةً وَتُثْمِرُ
فِتْنَةً .

أَيُّهَا الْأَحْلَامُ ! مَاذَا تُبْدِعِينَ إِلَّا مَخْلُوقَاتِ الدَّمِ الْإِنْسَانِيِّ ، مَاذَا تُبْدِعِينَ ؟
قُلْتُ : يَا صَدِيقِي ! دَعِ الْآنَ هَذِهِ الْفَلَسَفَةَ وَخُذْ فِي قِصِّ مَا رَأَيْتَ ، ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ
الْوَرْدَةِ وَلَوْنِ الْوَرْدَةِ ؟

قَالَ : إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ دَائِمًا ، إِنَّهُ الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ ، لَقَدْ ضَحِكْتُ لِي وَقَالَتْ :
هَآنَذَا قَدْ جِئْتُ ! وَأَقْبَلَتْ تُرَائِنِي بِوَجْهِهَا ، وَتَتَغَوَّرُ بِعَيْنَيْهَا ، وَتَنْتَهَدُ بِصَدْرِهَا ، وَأَلْقَتْ
يَدَهَا فِي يَدِي ، فَأَحْسَنْتُ الْيَدَيْنِ تَعَانَقَانِ وَلَا تَتَصَافَحَانِ ؛ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمَا نَائِمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى ، وَسَكَنَتَا هُنَيْهَةً وَقَدْ خَبِلَ إِلَيْنَا أَتْنَا إِذَا تَكَلَّمْنَا اسْتَيْقِظَتْ يَدَانَا !

أَمَا صَافَحَتْكَ أَمْرَأَةٌ تُحِبُّهَا وَتُحِبُّكَ ؟ أَمَا أَحْسَنْتَ بِيَدِهَا قَدْ نَامَتْ فِي يَدِكَ وَلَوْ لَخِطَّةٌ ؟
أَمَا رَأَيْتَ بِعَيْنَيْكَ نِعَاسَ يَدِهَا وَهُوَ يَنْقِلُ إِلَى عَيْنَيْهَا ، فَإِذَا هُمَا فَائِرَتَانِ ذَابِلَتَانِ ، وَتَحَتَّ

أَجْفَانِيهْمَا حُلْمٌ قَصِيرٌ ؟

قُلْتُ : يَا صَدِيقِي دَعْ الْفَلَسَفَةَ ؛ ثُمَّ كَانَ مَاذَا بَعْدَ أَنْ نَامَتْ يَدٌ عَلَى يَدٍ ؟

قَالَ : ثُمَّ كَانَتْ سُخْرِيَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ أَقْبَحَ سُخْرِيَّةٍ قَطُّ .

قُلْتُ : حَسْبِي لَكَأَنَّكَ شَرَحْتَ لِي مَا يَفِي . . .

فَضَحِكَ طَوِيلًا وَقَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْخَرُ الْآنَ مِنْكَ أَيْضًا ، وَكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ لَكَ [من

البيسط] :

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ^(١) . . .

أَفْتَذِرِي مَا الَّذِي كَانَ وَمَا بَقِيَّةُ الْخَبَرِ ؟

لَقَدْ كُنْتُ مُؤَلِّمًا بِامْتِحَانٍ قَوَّيْتُ فِيهِ الضَّغْطَ بِيَدَيَّ عَلَى أَعْوَادٍ مَنْصُوبَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ ، أَوْ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ الْأَقْوِيَاءِ إِذَا سَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ^(٢) ؛ فَلَمَّا صَافَحْتَنِي لِبُتْ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى يَدِهَا قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَتَنَبَّهَتْ فِي هَذِهِ الْعَادَةِ ، فَمَسَخَتْ الْحُلْمَ وَأَنْصَرَفَ وَهْمِي إِلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ وَأَشْنَعِهَا وَأَبْعَدَهَا مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَلَذَاتِ الْحُبِّ ؛ فَإِذَا بِإِزَائِي وَجْهٌ ، وَجْهٌ مَنْ ؟ وَجْهٌ مُصَارِعِ الْأَمَانِيِّ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَضْغَطُ عَلَى يَدِهِ . . .

* * *

قُلْتُ : إِنَّمَا هَذِهِ كِبَرِيَاؤُكَ أَوْ عَقَّتُكَ تَنَبَّهَتْ فِي تِلْكَ الشَّلَّةِ مِنْ يَدِكَ ، وَلَا يَزَالُ أَمْرُكَ

عَجِيبًا ؛ فَهَلْ مَعَكَ أَنْتَ مَلَائِكَةٌ وَمَعَ النَّاسِ شَيَاطِينٌ ؟

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنِّي رَأَيْتُ فِي أَضْعَافِ أَحْلَامِي كَانَ قَلْبِي الْمُسْكِنِينَ يُخَاصِمُنِي وَأُخَاصِمُهُ ؛ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَحْتَاءِ الضُّلُوعِ كَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الظَّلِّ يَرَى وَلَا يُرَى إِذَا لَا شَكَلَ لَهُ ؛ وَسَبَّيْ وَسَبَّيْتُهِ ، وَقُلْتُ لَهُ وَقَالَ لِي ، وَتَغَالَطْنَا كَأَنَّنَا عَدَوَانِ ؛ فَهُوَ يَرَى أَنِّي أَنَا أَمْنَعُهُ

(١) [هَذَا صَدْرُ بَيْتٍ لِأَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ ، وَعَجَزُهُ :

فَطُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ] .

(٢) { أَنْظُرْ « مِنْ شُؤْنِهِ الْأَجْمَاعِيَّةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

لَدَتْهُ ، وَارَى أَنَّهُ هُوَ يَمْنَعُنِي ، وَأَنَّهُ أَشْفَى بِي عَلَى مَا أَشْفَى ؛ وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ : لَا قَرَارَ عَلَى جَنَائِكَ فَأَذْهَبَ عَنِّي وَلَا تَسَمَّ بِاسْمِي فَإِنَّهُ لَا فُلَانَ لَكَ ^(١) بَعْدَ الْيَوْمِ ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ لَعَلِمْتُ أَنَّ لِمَسَّةِ يَدِ الرَّجُلِ لِيَدِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ نَوْعَ مُخَفَّفٍ مِنَ التَّقْيِيلِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكَتْهُ يَرْتَفِعُ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى تَقْيِيلٍ فِيمَهِ لَفَمِهَا ؛ وَلَوْلَا أَنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ ، لَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الضَّمَّ بَيْنَ الْيَدَيْنِ نَوْعٌ مُخَفَّفٌ مِنَ الْعِنَاقِ ، فَإِذَا هِيَ تَرَكَتْهُ يَسْتَدُ فِي الدَّمِ أَنْتَهَى يَوْمًا إِلَى ضَمِّ الصَّدْرِ لِلصَّدْرِ ؛ وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنَّكَ مَخْذُولٌ ! وَقَالَ لِي فِيمَا قَالَ : وَأَنْتَ أَيُّهَا الْخَائِبُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَنَامِلَهَا أَرْخَصَةٌ هِيَ أَنَامِلُهَا ، لَا أَغَوَاذُكَ مِنَ الْحَدِيدِ ؟ فَكَيْفَ شَدَدْتَ عَلَيْهَا وَيَحَكَ تِلْكَ الشَّدَّةُ الَّتِي أَخْرَجْتَ لَكَ وَجْهَ الْمُصَارِعِ ؟ وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنَّكَ خَائِبٌ !

قُلْتُ : فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْعَدُوُّ ؛ لَقَدْ تَرَكْتَنِي مِنَ الْهُمُومِ كَالشَّجَرَةِ الْمُنْخَرِبَةِ قَدْ بَلَيْتْ وَصَارَتْ فِيهَا التَّخَارِبُ ؛ فَلَا حَيَاتُهَا بِالْحَيَاةِ وَلَا مَوْتُهَا بِالْمَوْتِ ، وَكَمْ عَلَقْتَنِي بِفَاتِنَةٍ بَعْدَ فَاتِنَةٍ لَا عَنْهَا إِفْصَارٌ يَنْتَهِي وَلَا فِيهَا مَطْمَعٌ يَنْتَدِي ؛ مَا أَنْتَ فِيَّ إِلَّا وَحْشٌ أَكْبَرُ لَدَيْهِ لَطْعُ الدَّمِ !

* * *

وَأَسْتَدَارَ الْخُلُمُ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتَنِي فِي مَحْكَمَةِ الْجِنَايَاتِ ، وَكَأَنِّي شَكَوْتُ قَلْبِي إِلَيْهَا فَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَفْصِ الْحَدِيدِيِّ بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ يَنْتَظِرُ مَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْفُضْلِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَ الْمُسْتَشَارُونَ الثَّلَاثَةُ إِلَى مَنَصَةِ الْحُكْمِ ، وَجَلَسَ النَّائِبُ الْعَامُّ فِي مَجْلِسِهِ يَتَوَكَّلُ إِقَامَةَ الدَّعْوَى وَيَبِينُ أَوْرَاقَهُ يَنْظُرُ فِيهَا ، وَرَأَيْتُ مِنْهَا غِلَافًا كُتِبَ عَلَى ظَاهِرِهِ : قَضِيَّةُ الْقَلْبِ الْمَسْكِينِ .

وَتَكَلَّمَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ : لَيْسَ فِي قَضِيَّةِ الْقَلْبِ مُحَامٍ ، فَأَبْغَوْهُ مَنْ يُدَافِعُ عَنْهُ ؛ ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَنْ عَسَى تَخْتَارُ لِلدَّفَاعِ عَنْكَ ؟

قَالَ الْقَلْبُ : أَوْ هُنَا مَوْضِعٌ لِلَاخْتِيَارِ يَا حَضْرَةَ الرَّئِيسِ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ تَحْتَ هَذِهِ - وَأَوْمَأَ

إِلَى السَّمَاءِ - وَلَا فَوْقَ هَذِهِ وَأَوْمًا إِلَى الْأَرْضِ - إِلَّا ...
فَبَدَرَ اللَّائِبُ الْعَامَ وَقَالَ : إِلَّا الْحَبِيبَةُ ؟ أَكْذَلِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّهَا أَسْتَاذَةٌ فِي الرَّفْصِ لَا فِي
الْقَانُونِ !

الْقَلْبُ : وَلَكِنِّي لَا أَخْتَارُ غَيْرَهَا مَحْكُومًا لِي أَوْ مَحْكُومًا عَلَيَّ ؛ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيهَا
وَأَنْظُرُوا أَنْتُمْ فِي الْقَضِيَّةِ ...

الرَّئِيسُ : فَلْيَكُنْ ؛ فَهَذِهِ جَرِيْمَةُ عَوَاطِفِ ، إِنْذَنْ لَهَا أَيُّهَا الْآذِنُ .

فَنَادَى الْمُحْضَرُ^(١) : الْأُسْتَاذَةُ ! الْأُسْتَاذَةُ !

وَجَاءَتْ مُبَادِرَةٌ ، وَدَخَلَتْ تَمْشِي مَشْيَهَا وَقَدْ أَفَرَّتْ نَفْسُهَا عَنِ الثُّورِ الَّذِي يَسْطَعُ فِي
النَّفْسِ ؛ وَأَوْمَضَتْ بِوَجْهِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَصَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَبْصَارَهُمْ إِلَيْهَا وَقَدْ نَظَرُوا
إِلَى فِتْنَةٍ مِنْ أَلْفَتَيْنِ ؛ وَثَارَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ نَزْعَةٌ ، وَغَلَبَتِ الْحَقِيقَةُ الْبَشَرِيَّةُ فَانْتَفَضَتْ طِبَاعُ
الْمَوْجُودِينَ فِي قَاعَةِ الْجَلْسَةِ ، وَأَبْطَلَ قَانُونُ جَمَالِهَا قَانُونِ الْمَحْكَمَةِ ، فَوَقَعَتِ الضَّجَّةُ
وَعَلَبَتِ الْأَصْوَاتُ وَاخْتَلَطَتْ ؛ وَتَرَدَّدَتْ بَيْنَ جُذُرَانِ الْمَكَانِ صَدَى فِي صَدَى كَأَنَّ الْجُذُرَانَ
تَتَكَلَّمُ مَعَ الْمُتَكَلِّمِينَ .

أَصْوَاتُ أَصْوَاتٍ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَبَارَكَ اللَّهُ ! تَبَارَكَ اللَّهُ ! آوِ آوِ ! آوِ آوِ !
وَسَمِعَ صَوْتٌ يَقُولُ : أَتِهْمُونِي أَنَا أَيْضًا ... فَفَرَّتِ الْكَلِمَاتُ : وَأَنَا ، وَأَنَا ، وَأَنَا !
وَاخْتَفَتِ الْمَحْكَمَةُ وَأَنْبَعَتْ الْمَسْرَحُ بِدُخُولِ فَاتِنَتِهِ الرَّاقِصَةِ ؛ وَكَانَ الْمُسْتَشَارُونَ وَاللَّائِبُ
الْعَامُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ صُورٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْحَائِطِ : لَا يَخْشَاهَا أَحَدٌ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى
مَا يَضَعُ !

فَصَاحَ الرَّئِيسُ : هُنَا الْمَحْكَمَةُ ! هُنَا الْمَحْكَمَةُ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ... الْمَحْكَمَةُ
الْمَحْكَمَةُ !

اللَّائِبُ الْعَامُ : هَذَا بَدْءٌ لَا تَرْضَاهُ النَّيَابَةُ وَلَا تَقْبَلُ أَنْ تَنْسَحِبَ عَلَيْهِ ، نَعَمْ إِنَّ هَذَا
الْوَجْهَ الْجَمِيلَ أَبْرَعُ مُحَامٍ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَنَعَمْ إِنَّ جِسْمَهَا ... آوِ مَاذَا ؟ إِنَّكُمْ تَأْتُونَ

(١) هُوَ الْمُؤَلَّفُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجَلْسَةِ لِلتَّاءِ عَلَى الْخُصُومِ .

بِالشَّهَوَةِ الْغَالِبَةِ الْقَاهِرَةِ لِدَفَاعِ عَنِ الْمُشْتَهَى ... عَنِ الْمُتَّهَمِ ، هَذَا وَضَعُ كَوْضَعِ الْعُذْرِ
إِلَى جَانِبِ الذَّنْبِ ، وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ...

فَبَدَرَتْ الْمُحَامِيَةُ تَقُولُ فِي نَعْمَةٍ دَلَالٍ وَفُتُورٍ : وَكَأَنَّكُمْ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ قَدْ
نَسِيتُمْ أَنَّ الثَّائِبَ الْعَامَّ لَهُ قَلْبٌ أَيْضًا ...

وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الثَّائِبِ ، وَتَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ؛ فَقَالَ :

يَا حَضْرَةَ الرَّئِيسِ ...

الرَّئِيسُ مُبْتَسِمًا : وَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ ، وَأَرْجُو أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَانِيَةً ، وَمَعْنَى هَذَا كَمَا هُوَ
ظَاهِرٌ أَلَّا تَكُونَ لَهَا ثَالِثَةً ...

(ضِحْكٌ) .

* * *

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَكُنْتُ بِلَا قَلْبٍ ... فَلَمْ أَلْفِتْ لِلْجَمَالِ ، بَلْ رَاعَيْتُ
ذِكَاءَ الْمُحَامِيَةِ وَنَفَادُهَا وَحُسْنَ أَهْدَانِهَا إِلَى الْحُجَّةِ فِي أَوَّلِ ضَرْبَاتِهَا ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ
أَشَدَّ التَّعَجُّبِ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الثَّائِبَ الْعَامَّ سَبَقَ فِي لِسَانِهَا لَا كَمَا يَقَعُ مِثْلُهُ فِي لِسَانِ الْمُحَامِيِ
الْقَدِيرِ ، وَلَكِنْ كَمَا يَقَعُ رَوْجٌ فِي لِسَانِ زَوْجَةٍ مَعْشُوقَةٍ مُتَدَلِّلَةٍ تُجَادِلُهُ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ بَعْضُهَا
الْكَلَامُ .. وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : يَا رَحْمَةَ اللَّهِ ! لَا تَجْعَلِي مِنَ السَّاءِ الْجَمِيلَاتِ الْفَاتِنَاتِ
مُحَامِيَاتٍ فِي هَذِهِ الْمَحَاكِمِ ، فَلَوْ أَلْبَسُوهُنَّ لِحَى مُسْتَعَارَةً لَكَانَ الصَّوْتُ الرَّخِيمُ وَخْدَهُ مِنْ
تِلْكَ الْأَفْوَاهِ الْجَمِيلَةِ الْعَذِيَّةِ ، نِدَاءً قَانُونِيًّا لِلْقَبْلَاتِ ...

وَنَهَضَتِ الْمُحَامِيَةُ الْعَجِيبَةُ فَسَلَطَتْ عَيْنَيْهَا السَّاحِرَتَيْنِ عَلَى الثَّائِبِ ، ثُمَّ قَالَتْ تُخَاطِبُ
الْمَحْكَمَةَ : قَبْلَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَضِيَّةِ الْحُبِّ وَالْجَمَالِ ، قَضِيَّةِ قَلْبِي الْمُسْكِينِ ...
أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الرَّأْيَ الْقَانُونِيَّ فِي اعْتِبَارِ الْجَرِيمَةِ . أَهِيَ شَخْصِيَّةٌ ، فَتُقَصَّرُ عَلَى صَاحِبِهَا ؛
أَوْ خَاصَّةٌ ، فَتَضُرُّ غَيْرَ جَانِبِهَا ؛ أَوْ عَامَّةٌ ، فَيَسْتَأْوِلُهَا الْعُمُومُ الْمَخْدُودُ لِمَنْ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةُ
الْحُبِّ ؛ أَوْ هِيَ أَعَمُّ ، فَيَسْتَأْوِلُهَا الْعُمُومُ الْمَطْلُوقُ لِلْهَيْئَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ؛ مَا هِيَ جَرِيمَةُ
قَلْبِي .. ؟

الرئيس : مَا رَأَيْتِ النَّبَاةَ ؟

النائب ضاحكاً : (غَزَالَتَهَا رَاقِبَةً) كَمَا يَقُولُ الرَّافِصَاتُ وَالْمُمَثِّلَاتُ .. أَرَأَيْتِ أَنَّهَا جَرِيْمَةٌ آتِيَةٌ مِنْ ضَرْبِ الْخَاصِّ فِي الْعَامِّ ... (ضَحِكُ) .

المُحَامِيَّةُ : جَوَابُ كَجَوَابِ الْقَائِلِ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ . كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ الْجَمِيلَةَ وَيَخَافُهَا ، وَكَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ قَسْوَةً عَظِيمَةً وَتُغْلِظُ لَهُ الْكَلَامَ ، وَهُوَ يَفْرُقُ مِنْهَا وَلَا يُخَالِفُهَا ، فَرَأَاهَا يَوْمًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهَا ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ وَيَشْكُو قَسْوَتَهَا ؛ فَقَالَ : يَا فَلَانَةُ ! قَدْ وَاللَّهِ أَحْرَقَ قَلْبِي ... وَلَمْ تَدْعُهُ يَتِيمُ الْكَلِمَةِ ، فَحَدَدْتَ نَظَرَهَا إِلَيْهِ وَقَطَبْتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : أَحْرَقَ قَلْبُكَ مَاذَا ؟ فَخَافَ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ لَهَا : سُوءُ أَخْلَاقِكَ . فَقَالَ : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ضَحِكُ) . وَرَثَتْ ضِحْكَةَ الْمُحَامِيَّةِ فَاضْطَرَبَتْ لَهَا الْقُلُوبُ ، وَوَقَعَتْ فِي كُلِّ دَمٍ ، وَفِي دَمِ النَّائِبِ أَيْضًا ، فَانْخَزَلَ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ يَقُولَ : أَخْتِجُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي ..

الرئيس : لِنَدْخُلْ فِي الْمَوْضُوعِ وَلِتَكُنِ الْمُرَافَعَةُ مُطْلَقَةً ، فَإِنَّ الْخُدُودَ فِي جَرَائِمِ الْقَلْبِ تُسَدَّلُ وَتُرْفَعُ كَهَلِذِهِ السَّائِرِ فِي مَسْرَحِ التَّمَثِيلِ ، وَعِشْرُونَ سِتَارَةً قَدْ تَكُونُ كُلُّهَا لِرِوَايَةِ وَاحِدَةٍ .

* * *

النائب العامُ : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! ، لَا يَطُولُ أَتْهَامِي ، فَإِنَّ هَذَا الْقَلْبَ هُوَ نَفْسُهُ تَهْمَةٌ مُتَكَلِّمَةٌ .

المُحَامِيَّةُ ، وَلِكِنَّهُ قَلْبٌ .

النائب : وَأَنَا يَا سَيِّدَتِي لَمْ أَحْرِفِ الْكَلِمَةَ وَلَمْ أَقُلْ إِنَّهُ كَلْبٌ . (ضَحِكُ) وَتَضَرَّجَ وَجْهُ الْمُحَامِيَّةِ وَخَجَلَتْ^(١) .

(١) إِذَا كَانَ كَلْبًا فَهُوَ يَتَّبِعُ كَلْبَةً ... وَهَلِذِهِ هِيَ غَنَزَةُ النَّائِبِ لِلْمُحَامِيَّةِ ، وَلَا يَنْسُ الْقُرْآنُ أَنَّ الْمَحْكَمَةَ فِي الْكُتُبِ ، وَفِي الْكُتُبِ عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا النَّائِبَ كَأَكْثَرِ شُبَّانِ الْعَصْرِ فِي هَلِذِهِ الْمَدِينَةِ الْفَاسِدَةِ ، لَا يَتَزَوَّجُونَ ، لِأَنَّ الْمَدِينَةَ جَعَلَتْهُمْ بَيْنَ الْفَتَيَانِ « أَنْصَافُ مُتَزَوِّجِينَ » عَلَى وَزْنِ أَنْصَافِ عَذَارَى بَيْنَ =

الرَّئِيسُ : الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ :

النَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ أَلَمَ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي شَخْصٍ أَلْجَانِيٍّ أَوْ مَالِيٍّ . أَوْ صِفَتِهِ كَأَنْ يَكُونَ زَوْجًا مَثَلًا ، أَوْ صِبْيَةً أَدَبِيَّةً ، فَأَمَّا الشَّخْصُ فَهَذَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا أَلَمُ الْمَالِ فَتَنَمٌ ، إِنَّ الْقَلْبَ الْمُسْكِنِينَ قَرَّرَ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ أَلَّا يَبْتَنَعَ أَبَدًا تَذَكُّرَةً دُخُولٍ إِلَى جَهَنَّمَ ... (ضَحِكٌ) .

الْمُحَامِيَّةُ : اسْتَمِيعُ النَّائِبَ عُدْرًا إِذَا أَنَا .. إِذَا أَنَا فَهَمْتُ مِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ أَنَّ حَضَرَتَهُ يَغْرِفُ عَلَى الْأَقْلَى أَيْنَ تَبَاعُ هَذِهِ « التَّذَاكُرُ » .. (ضَحِكٌ) وَتَفَرَّجَ وَجْهُ النَّائِبِ أَلْعَامُ وَخَجَلَ .

الرَّئِيسُ : كُنْتُ رَجَوْتُ أَلَّا تَكُونَ لِلأُولَى ثَانِيَةً ، وَقُلْتُ : إِنَّ مَعْنَى هَذَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ أَلَّا يَكُونَ لَهَا ثَالِثَةً ، فَهَلْ أَنَا مُخْتَاَجٌ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمَعْنَى الْمُنْطِقِيَّةَ أَلَّا يَكُونَ لِلثَّالِثَةِ رَابِعَةً ..

النَّائِبُ : يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! وَأَمَّا الصِّفَةُ ، فَهَذَا الْقَلْبُ الْمُسْكِنِينَ قَلْبُ رَجُلٍ مُتَزَوِّجٍ ، وَلَا تَعْرِفُكُمْ صُوفِيَّةُ هَذَا الْقَلْبِ ، وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ تَأْلَهُهُ وَزَعْمُهُ السُّمُو ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَغْشَى رَاقِصَةً ، وَهَذَا أَعْتَدَاءُ فِي ضِمْنِهِ أَعْتَدَاءُ عَلَى الزَّوْاجِ وَعَلَى الشَّرَفِ ، وَهَبْوُهُ مُتَصَوِّفًا مُتَأَلِّهَا وَلَمْ يَتَّصِلْ بِالرَّاقِصَةِ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ أَخَذَهَا وَأَتَّخَذَهَا وَلَكِنْ بِأَسْلُوبِهِ الْخَاصِّ .. وَبِهَذَا أَقْتَرَفَ الْجَرِيْمَةَ ؛ أَوْ ! إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ نَاقِصَةٌ ، وَذَلِكَ نَقْصٌ فِيهَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ نَقْصًا فِي الْحُكْمِ أَيْضًا ، فَأَيُّمُوهُ أَنْتُمْ . يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! إِنَّ النِّقْصَ فِيهَا أَنَّهَا لَا شُهُودَ فِيهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا عَمَلُ إِلَهِيٍّ لَا يَظْهَرُ إِلَّا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور/ الآية : ٢٤] .

الْمُحَامِيَّةُ : هَذَا تَعْبِيرٌ أَكْبَرُ مِنْ قُدْرَةِ قَاتِلِهِ وَمِنْ مَنَزَلَتِهِ وَوُظُفَتِهِ ، هَذَا تَعْبِيرٌ جَسُورٌ ! يَا حَضَرَةَ النَّائِبِ ! مَنْ الَّذِي لَا يَحْمِلُ شُهُودًا فِي لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، بَلْ أَلْفَ شَاهِدٍ عَلَى

= الْفَتَايَاتِ ... وَفِي الرُّؤْيَا عَلِمْنَا أَنَّهُ يُخَادِنُ رَاقِصَةً ، وَيُقَالُ : مُمَلَّلَةٌ - يَبْتَنَاهَا وَيَبْنَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِينَ مُنَافَسَةً ...

لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ .. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَقْهُومًا بَيْنَنَا يَا حَضْرَةَ النَّائِبِ أَنْ الثُّونَ وَالْبَاءَ فِي لَفْظَةٍ
(نَائِبٍ) غَيْرِ الثُّونِ وَالْبَاءِ فِي لَفْظَةٍ (نَبِيٍّ) .

النَّائِبُ : يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! لَا أَرَى مِمَّا يُخْرِجُنِي فِي الْأَتِّهَامِ أَنْ أَصْرَحَ لَكُمْ أَنَّ
مِمَّا حَيَّرَنِي فِي هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ أَنْ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافِ الْجَرَائِمِ إِلَّا ثَلَمُ الْكَرَامَةِ ، فَلَا قَذْفَ
وَلَا سَبَّ وَلَا هَتَكَ عَرَضَ وَلَا فُجُورَ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا كَأَسَ خَمَرٍ لِلرَّاقِصَةِ ..

الْمُحَامِيَّةُ : لَا أَرَى أَمَامَ حَضْرَةِ النَّائِبِ كَأَسَ مَاءٍ ، وَسَيَجِفُّ حَلْقُهُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ،
فَلَعَلَّ الْمَحْكَمَةَ تَأْمُرُ لِي بِكَأْسٍ .. (ضَحِكَ) .

النَّائِبُ : يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! يَعَشُقُ رَاقِصَةً ، أَسْمُ فَاعِلٍ مِنْ رَقَصَ يَرْقُصُ ،
أَمْرَأَةً لَا تَلْبَسُ ثِيَابًا ، بَلْ غُرْيَا فِي شَكْلِ ثِيَابٍ .. أَمْرَأَةً لَا كَالنِّسَاءِ ، كَذِبُهَا هُوَ صِدْقٌ مِنْ
شَفَتَيْهَا ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُمَا حَمَرَاوَانِ رَقِيقَتَانِ عَذْبَتَانِ مَحْبُوبَتَانِ مَطْلُوبَتَانِ ..

الْمُحَامِيَّةُ تَضْحَكُ ..

النَّائِبُ بَعْدَ أَنْ تَتَعَمَّقَ : أَمْرَأَةً لَا كَالنِّسَاءِ ، جَعَلَتْهَا الْحِرْقَةُ أَمْرَأَةً فِي الْعَمَلِ وَرَجُلًا فِي
الْكَسْبِ ..

الْمُحَامِيَّةُ : وَلَكِنَّكَ لَا تَذَرِنِي تَحْتَ أَيِّ حِمْلٍ سَقَطَ ^(١) الْمِسْكِينَةُ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي
الرِّذَائِلِ رِذَائِلُ كَبْعَضِ أَصْحَابِ الْأَلْقَابِ : ذَاتُ عَظْمَةٍ ..

النَّائِبُ : يُحِبُّ رَاقِصَةً ، أَيُّ يَضَعُهَا فِي عَقْلِهِ الْبَاطِنِ وَيَسْتَهْنِيهَا ، نَعَمْ يَسْتَهْنِيهَا ؛ فَمِنْ
عَقْلِهِ الْبَاطِنِ ، وَيَتَغَيَّرُ اللَّغَةُ . مِنْ وَاعِيَّتِهِ - تَخْرُجُ الْجَرِيْمَةُ أَوْ عَلَى الْأَقْلُ ، فِكْرَةُ الْجَرِيْمَةِ .

وَالصُّنِيتُ الْأَدَبِيُّ يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ؟ هَلْ مِنْ كَرَامَةٍ لِمَنْ يَعَشُقُ رَاقِصَةً ؟ لَا بَلْ
هَلْ مِنْ كَرَامَةٍ فِي الْحُبِّ ؟ أَلَمْ يَقُولُوا : إِنَّ كَرَامَةَ الرَّجُلِ [الْعَاشِقِ] تَكُونُ تَحْتَ قَدَمِي
الْمَرْأَةِ الْمَعْشُوقَةِ كَالْمَمْسَحَةِ الْخَشِينَةِ تَمْسَحُ بِهَا نَعْلَيْهَا !

الْحُبُّ ؟ مَا هُوَ الْحُبُّ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ فِكْرَةً ، بَلْ هُوَ شَيْطَانٌ يَتَلَبَّسُ لِجِسْمِ الْعَاشِقِ لِيَعْمَلَ

(١) هَذِهِ الْكَلِمَةُ لِفَتْكُورِ هَيْتُو .

أَعْمَالُهُ بِأَدَاةِ حَيَّةٍ ، وَهَذَا التَّرَكِيبُ الْحَيَوَانِيُّ لِلْإِنْسَانِ هُوَ الَّذِي يُهَيِّئُ مِنَ الْحُبِّ مَدَاحِلَ وَمَخَارِجَ لِلشَّيَاطِينِ فِي جِسْمِهِ ، وَهَلْ رَضِيَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِنِينَ بِجَنَائِهِ عَلَيْهِ ، وَعَظِيمَ مَا أَنْتَهَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِ السَّامِيَةِ ؟ هَلْ رَضِيَ بِعَشْفِهِ رَاقِصَةً ؟ إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ الرُّضَى الصَّحِيحَ أَوْ رَضِيَ بِقَدْرِ مَا ؛ فَعَلَى كُلِّهِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مَانِعٌ ؛ وَالْمَانِعُ مِنَ الرُّضَى هُوَ الْمَوْجِبُ لِلْعُقُوبَةِ .

الْمُحَامِيَةُ : وَلَكِنَّ قَدْرًا مِنَ الرُّضَى يَنْزِلُ بِالْجَنَائَةِ فَيُرْذَلُهَا إِلَى جُنْحَةٍ كَمَا فِي الْقَانُونِ الْأَنْكِلِيزِيِّ ، وَقَدْ قَرَّرَ الشُّرَاحُ أَنَّهُ مَا دَامَ الرُّضَى غَيْرَ مُسْتَلَبٍ بِكُلِّهِ ، فَالْجَرِيمَةُ غَيْرُ وَاقِعَةٍ بِكُلِّهَا .

الثَّابِتُ : جُنْحَةُ كُلِّ قَلْبٍ هِيَ جَنَائَتُهُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ بِخُصُوصِهِ ، عَلَى طَرِيقَةِ « حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُفْرَبِينَ » ^(١) ؛ وَالْعَبْرَةُ هُنَا بِالْوَقَاعِ لَا بِالصَّفَةِ الْقَانُونِيَّةِ ، وَقَدْ قَرَّرَ الشُّرَاحُ أَنَّ الْوَقَاعَ قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا سَبَبًا فِي تَشْدِيدِ الْعُقُوبَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْعُقُوبَةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ . لَا أَطْلُبُ الْحُكْمَ بِالْمَادَّةِ ٢٣٠ عُقُوبَاتٍ بَلْ بِالْمَوَادِّ مِنْ ٢٣٠ إِلَى ٢٤١ ضَرْبَةً وَاحِدَةً .

الْمُحَامِيَةُ : قَدْ نَسِيتَ أَنَّ هَذَا قَلْبٌ وَعُقُوبَتُهُ عُقُوبَةٌ لِصَاحِبِهِ الْبَرِيِّ .

الثَّابِتُ : إِذَنْ أَطْلُبُ عِقَابَهُ بِحُزْمَانِهِ الْجَمَالِ ، وَهَذَا أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ بِأَثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَادَّةً وَبِعِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ .

الرَّئِيسُ : وَمَا هِيَ الطَّرِيقَةُ لِتَنْفِيزِ الْحُكْمِ بِهِذَا الْحُزْمَانِ ؟

الثَّابِتُ : تَأْمُرُ الْمَحْكَمَةُ بِالْمَرَاقِصِ كُلِّهَا فَتُغْلَقُ ، وَبِالْمَسَارِحِ كُلِّهَا فَتُغْلَقُ ، وَبِالسِّيْنَمَا فَتَبْطَلُ إِلَّا مَا لَا جَمَالَ فِيهِ مِنْهَا وَلَا غَزَلَ وَلَا حُبَّ ، وَيُحْرَمُ السُّفُورُ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا الْعَجَائِزُ وَالْدَّمِيمَاتُ ، وَيُمْنَعُ نَشْرُ صُورِ الْجَمَالِ فِي الصُّحُفِ وَالْكِتَابِ ، وَ...

الْمُحَامِيَةُ : قُلْ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : يَجِبُ إِصْلَاحُ الْعَالَمِ كُلِّهِ لِإِصْلَاحِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ !

* * *

وَجَلَسَ الثَّابِتُ ، فَالْتَمَتِ الرَّئِيسُ إِلَى الْمُحَامِيَةِ وَقَالَ لَهَا : وَأَمَّا هُوَ ... ؟

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ (*) تِمَّةٌ

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَوَقَفَتِ الْمُحَامِيَةُ وَكَانَتْهَا بَيْنَ الْحُرَّاسِ تَرْدَحُمُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلْمَوْجُودِينَ ظُهُورُ الْجَمَالِ لِلْحُبِّ ، وَنَقَلَتْهُمْ فِي الزَّمَنِ إِلَى مِثْلِ السَّاعَةِ الْمُصَوَّرَةِ الَّتِي يَنْتَظِرُ فِيهَا الْأَطْفَالُ سَمَاعَ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ ، سَاعَةٍ فِيهَا كُلُّ صُورِ اللَّذَّةِ لِلْقَلْبِ .

وَكَانَتْ تُدْفِعُ بِكَلَامِهَا ، وَوَجْهَهَا يُدْفِعُ عَنْ كَلَامِهَا ، فَلَوْ نَطَقَتْ غَيًّا أَوْ رُشْدًا فَلِهَذَا صَوَابٌ وَلِهَذَا صَوَابٌ ، لِأَنَّ أَحَدَ الصَّوَابَيْنِ مَنْظُورٌ بِالْأَعْيُنِ .

كَانَ صَوْتُ النَّائِبِ الْعَامِّ كَلَامًا يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ ، أَمَّا صَوْتُ الْمُحَامِيَةِ الْجَمِيلَةِ فَكَانَ يُسْمَعُ وَيُفْهَمُ وَيُحَسُّ وَيَذَاقُ ؛ تَلْقِيهِ هِيَ مِنْ نَاحِيَةٍ مَا يَذَرُكَ ، وَتَلْقَاؤُهَا النَّفْسُ مِنْ نَاحِيَةٍ مَا يُغْشَقُ ، فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِحَقِيقَتَيْنِ مِنْ مَعْنَاهُ وَمَعْنَاهَا ، وَهُوَ كُلُّهُ حَلَاوَةٌ مِنْ فَمِهَا الْحُلُوفُ .

* * *

وَبَدَأَتْ فَتَنَّاوَلَتْ مِنْ أَشْيَائِهَا مِرَاةً صَغِيرَةً فَنَظَرَتْ فِيهَا .

النَّائِبُ الْعَامُّ : مَا هَذَا يَا أَسْتَاذَهُ ؟

الْمُحَامِيَةُ : إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ تَأْلِفُ عَيْنِي ، فَأَنَا أَسْأَلُ عَيْنِي قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ !

النَّائِبُ : نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي ؛ وَلَكِنِّي أَرْجُو أَلَّا تُذْخِلِي الْقَضِيَّةَ فِي سِرِّ الْمِرَاةِ وَأَخَوَاتِهَا ... إِنَّ الْكِبَابَةَ تَخْشَى عَلَى أَتْهَامِهَا إِذَا تَكَحَّلَتْ لُغَةُ الدَّفَاعِ !

فَضَحِكَتِ الْمُحَامِيَةُ ضِحْكَةً كَانَتْ أَوَّلَ الْبَلَاغَةِ الْمُؤَثِّرَةِ ...

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٥ ، ٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ١٨ يناير / كانون الآخر ١٩٣٧ م ، السنة

الخامسة ، الصفحات : ٨٥ - ٨٧ .

الْثَّائِبُ : مِنَ الْوَقَارِ الْقَانُونِي أَنْ تَكُونَ الْمُحَامِيَةُ الْفَتَانَةُ غَيْرَ فَتَانَةٍ وَلَا جَذَابِيَّةَ أَمَامَ الْمُحَكَّمَةِ .
الْمُحَامِيَةُ : تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَهَا عَجُوزًا بِأَمْرِ الْثَّيَابَةِ ... ؟ (صَحِيحٌ) .

الْثَّائِبُ : جَمَالُ حَسَنَاءَ ، فِي ظَرْفِ غَائِبَةٍ ، فِي شَمَائِلِ رَاقِصَةٍ ، فِي حِمَاسَةِ عَاشِقَةٍ ،
فِي ذِكَاةٍ مُحَامِيَةٍ ، فِي قُدْرَةِ حُبٍّ - هَذَا كَثِيرٌ !

الْمُحَامِيَةُ : يَا حَضْرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ! لَمْ تَكُنِ الْمِرْأَةُ هَفْوَةً مِنْ طَبِيعَةِ الْمِرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا
الْكَلِمَةُ الْأُولَى فِي الدِّفَاعِ . كَلِمَةٌ كَانَتْ الْجَوَابُ عَنْهَا مِنَ الثَّائِبِ الْعَامِّ أَنَّهُ أَقَرَّ بِتَأْيِيرِ الْجَمَالِ
وَحَظَرِهِ ، حَتَّى لَقَدْ خَشِيَ عَلَى أَتَهَامِهِ إِذَا تَكَلَّمَتْ لَهُ لُغَتِي .
الْقَضَاءُ يَتَبَسَّمُونَ .

الْثَّائِبُ : لَمْ أَرِذْ عَلَى أَنْ طَلَبْتُ الْوَقَارَ الْقَانُونِي ؛ الْوَقَارَ ، نَعَمْ الْوَقَارَ ؛ فَإِنَّ الْمُحَامِيَةَ
أَمَامَ الْمُحَكَّمَةِ ، هِيَ مُتَكَلِّمٌ لَا مُتَكَلَّمَةٌ .

الْمُحَامِيَةُ : مُتَكَلِّمٌ بِلِخِيَةِ مُقَدَّرَةٍ مَنَعَ مِنْ ظُهُورِهَا التَّعَذُّرُ . (صَحِيحٌ) .

كَلاَّ يَا حَضْرَةَ الثَّائِبِ ؛ إِنَّ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةَ قَانُونًا آخَرَ تُنْتَرَعُ مِنْهُ شَوَاهِدٌ وَأَدِلَّةٌ ؛ قَانُونُ
سِحْرِ الْمِرْأَةِ لِلرَّجُلِ ، فَلَوْ أَقْتَضَانِي الدِّفَاعُ أَنْ أَرْقُصَ لَرَقِصْتُ ، أَوْ أُغَنِّيَ لَغَنَيْتُ ، أَوْ أُثَبِّتَ
سِحْرَ الْجَمَالِ لِأُثَبِّتُهُ أَوَّلَ شَيْءٍ فِي الثَّائِبِ الْعَامِّ ...

الرَّئِيسُ : يَا أَسْتَاذَةً !

الْمُحَامِيَةُ : لَمْ أَجَاوِزِ الْقَانُونَ ، فَالْثَّائِبُ فِي جَرِيمَتِنَا هُوَ خَصْمُ الْقَضِيَّةِ ، وَهُوَ أَيْضًا
خَصْمُ الطَّبِيعَةِ النَّسُوبَةِ .

الْثَّائِبُ : لَوْ حَدَثَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ لَكَانَ إِنْجَاءً لِعَوَاطِفِ الْمُحَكَّمَةِ ... فَأَنَا أَسْتَجِبُ !

الْمُحَامِيَةُ : أَسْتَجِبُ مَا شِئْتَ ، فَنِي قَضَايَا الْحُبِّ يَكُونُ الْعَدْلُ عَدْلَيْنِ ؛ إِذْ كَانَ
الْأَضْطِرَّاءُ قَدْ حَكَمَ بِقَانُونِهِ قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ أَنْتَ بِقَانُونِكَ .

الْثَّائِبُ : هَذِهِ الْعُقْدَةُ لَيْسَتْ عُقْدَةً فِي مِندِيلٍ يَا سَيِّدَتِي ، بَلْ هِيَ عُقْدَةٌ فِي الْقَانُونِ .

الْمُحَامِيَةُ : وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةً إِخْلَاءٍ دَارٍ يَا سَيِّدَتِي ، بَلْ هِيَ قَضِيَّةُ إِخْلَاءِ

قَلْبٍ !

الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

المحاميه : يا حضرات المستشارين ! إذا انتفى القصد الجنائي وجبت البراءة ، هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الجودي في جريمة قلبي المسكين ؟
النائب : أوله حب راقصة .

المحاميه : آه ! دائما هذا الوصف ؟ هبوا في معناها غير جدية بأن يعرفها لأنه رجل تقي ، أفليست في حسنيتها جدية بأن يحبها لأنه رجل شاعر ؟ أحكموا يا حضرات القضاة ! هذه راقصة ترتزق وترتفع ، ومعنى ذلك أنها رهن بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التي تدفع . فلماذا لم يتلها وهي متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفي آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقا بإعجابكم القانوني كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوة فكر ، فما الذي يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها ... ؟
القضاة يتسممون .

النائب : نسيت المحاميه أنها محاميه ، وانتقلت إلى شخصيتها الواقفة على النهاية وفي آخر أوصاف الشوق ... فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة .
المحاميه : آه ! دائما الراقصة ، من هي هذه المسكينه الأسيرة في أيدي الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مفهورة ، أليست هي الجائعة التي لا تجد من الفاجرين إلا لحم الميتة ؟ نعم إنها زلت ، إنها سقطت ، ولكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها ! وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها ! يا للرحمة للبيئمة من الأهل ، وأهلها موجودون ! والمقطعة من الناس ، والناس حولها !

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي ، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب ، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط ، فلتن له : شألك بنفسك ؛ ونفستم أيديكم منه فأضغتموه مرة أخرى ،

وَيَحْكُمُ يَا قَوْمُ ! غَيْرُوا اتِّجَاهَ الْأَسْبَابِ فِي هَذَا الْأَجْتِمَاعِ الْفَاسِدِ ، تُخْرِجُ لَكُمْ مُسَبِّبَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ فَاسِدَةٍ .

تَأْتِي الْمَرْأَةُ مِنْ أَعْمَالِ الرَّجُلِ لَا مِنْ أَعْمَالِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ تَابِعَةٌ وَتَظْهَرُ كَأَنَّهَا مَتَّبِعَةٌ ، وَذَلِكَ هُوَ ظُلْمُ الطَّبِيعَةِ لِلْمُسْكِينَةِ ؛ وَمِنْ كَوْنِهَا تَظْهَرُ كَأَنَّهَا مَتَّبِعَةٌ ، يَظْلِمُهَا الْأَجْتِمَاعُ ظُلْمًا آخَرَ فَيَأْخُذُهَا وَحْدَهَا بِالْجَرِيمَةِ ، وَيُقَالُ : سَافِلَةٌ وَسَاقِطَةٌ ، وَمَا جَاءَتْ إِلَّا مِنْ سَافِلٍ وَسَاقِطٍ !

لِمَاذَا أَوْجَبَتِ الشَّرِيعَةُ الرَّجْمَ بِالْحِجَارَةِ عَلَى الْفَاسِقِ الْمُخْصَنِ ؟ أَمِ هِيَ تُرِيدُ الْقَتْلَ وَالْعَذِيبَ وَالْمُتْلَةَ ؟ كَلَّا ، فَإِنَّ الْقَتْلَ مُمَكِّنٌ بِغَيْرِ هَذَا بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا ، وَلَكِنَّهَا الْحِكْمَةُ السَّامِيَّةُ الْعَجِيبَةُ : إِنَّ هَذَا الْفَاسِقَ هَدَمَ بَيْنًا فَهُوَ يُرْجَمُ بِحِجَارَتِهِ !

مَا أَجَلُّكَ وَأَسْمَاكِ يَا شَرِيعَةَ الطَّبِيعَةِ ، كُلُّ الْأَحْجَارِ يَجِبُ أَنْ تَتَّقِمَ لِحَجَرِ دَارِ الْأُسْرَةِ إِذَا أَتَهَدَمَ .

تَسْتَنْفِطُونَ الْمُسْكِينَةَ ، وَلَوْ ذَكَرْتُمْ أَلَامَهَا لَوَجَدْتُمْ فِي أَلْسِنَتِكُمْ كَلِمَاتِ الْإِصْلَاحِ وَالرَّحْمَةِ لَا كَلِمَاتِ أَلْذَمِّ وَالْعَارِ ؛ إِنَّهَا تَسْعَى بِرَذِيلِهَا إِلَى الرِّزْقِ ؛ فَهَلْ مَعْنَى هَذَا إِلَّا أَنَّهَا تَسْعَى إِلَى الرِّزْقِ بِأَقْوَى قُوَّتِهَا ؟ نَعَمْ ، إِنَّ ذَلِكَ مَعْنَى الْفُجُورِ ، وَلَكِنْ أَلَيْسَ هُوَ نَفْسُهُ مَعْنَى الْقُوَّةِ أَثِمًا لِلنَّاسِ ؟

الرَّئِيسُ - وَهُوَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ - : الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ !

الْمُحَامِيَّةُ : مَا هُوَ الْفِعْلُ الْوُجُودِيُّ فِي جَرِيمَةِ قَلْبِي الْمُسْكِينِ ؟ مَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْ جَرِيمَةٍ يَضْرِبُ صَاحِبُهَا الْمَثَلَ بِنَفْسِهِ لِلشَّبَابِ فِي تَسَامِي غَرِيزَتِهِ عَنْ مَعْنَاهَا إِلَى أَطْهَرِ وَأَجْمَلِ مِنْ مَعْنَاهَا ؟ لَيْسَ الْقَانُونُ إِنْ كَانَ الْقَانُونُ يُعَاقِبُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ صَارَ إِلَى عَمَلٍ دِينِيٍّ مِنْ أَعْمَالِ الْفَضِيلَةِ !

الثَّانِي : أَلَا يَخْجَلُ مِنْ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ رَاقِصَةً ؟

الْمُحَامِيَّةُ : وَمِمَّ يَخْجَلُ ؟ أَمِنْ جَمَالِ شُعُورِهِ أَمْ مِنْ قَرْنِ شُعُورِهِ ؟ أَيْخَجَلُ مِنْ عَظَمَةِ فِي سُمُورٍ فِي كَمَالٍ ؟ أَيْخَجَلُ الْبَطْلُ مِنْ أَعْمَالِ الْحَرْبِ وَهِيَ نَفْسُهَا أَعْمَالُ النَّصْرِ وَالْمَجْدِ ؟

أَتَأَذُنُونَ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ أَنْ أَصِفَ لَكُمْ جَمَالَ صَاحِبَتِهِ وَأَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنْ سِرِّ فَتْهَا الَّذِي هُوَ سِرُّ الْبَيَانِ فِي فَتْهِ ؟

الْثَّابِتُ : إِنَّهَا تَتَمَاجَنُ عَلَيْنَا يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ، فَالَّذِي يُحَاكِمُ عَلَى الشُّكْرِ لَا يَدْخُلُ الْمَحْكَمَةَ وَمَعَهُ الزُّجَاجَةُ ..

الرَّئِيسُ : لَا حَاجَةَ إِلَيَّ هَذَا النَّوعِ مِنْ تَرْجَمَةِ الْكَلَامِ إِلَى أَعْمَالٍ يَا حَضْرَةَ الْأُسْتَاذَةِ .

الْمُحَامِيَةُ : كَثِيرًا مَا تَكُونُ الْأَلْفَاظُ مُتَرْجَمَةً خَطَأً بِنِثَاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا أَوْ الْمُصْغِينَ إِلَيْهَا ؛ فَكَلِمَةُ الْحُبِّ مَثَلًا قَدْ تَنْتَهِي إِلَى فِكْرٍ مِنَ الْأَفْكَارِ حَامِلَةً مَعْنَى الْفُجُورِ ، وَهِيَ بِعَيْنِهَا تَبْلُغُ إِلَى فِكْرٍ آخَرَ حَامِلَةً إِلَى سُمُوهِ مِنْ سُمُوِّهَا ؛ وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا يَخْتَلِفُ مَعْنَى كَلِمَةِ الْحِجَابِ عِنْدَ الشَّرْقِيِّينَ وَالْأَوْرُوبِيِّينَ ؛ فَالْأَصْلُ فِي مَدَنِيَّةِ هَؤُلَاءِ إِبَاحَةُ الْمَعَانِي الْخَفِيفَةِ مِنَ الْعِقَّةِ ... وَإِكْرَامُ الْمَرْأَةِ إِكْرَامٌ مُغَازَلَةٌ ... يَقُولُونَ : إِنَّ رَفْعَ الْوَاحِدِ غَيْرُ رَفْعِ الْعَشْرَةِ ، فَيَضَعُونَهُ فِي حَيَاةِ الْمَرْأَةِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا يَجِيءُ « الْصَفْرُ » فَإِذَا هُوَ الْعَشْرَةُ بِعَيْنِهَا !

أَمَّا الشَّرْقِيُّونَ فَالْأَصْلُ فِي مَدَنِيَّتِهِمُ التَّزَامُ الْعِقَّةُ وَإِفْرَارُ الْمَرْأَةِ فِي حَقِيقَتِهَا ، لَا جَرَمَ كَانَ الْحِجَابُ هُنَا وَهُنَاكَ بِالْمَعْنِيَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ : الْأَسْتِنَادُ وَالْعَدْلُ ، وَالْقِسْوَةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَ ..

الْثَّابِتُ : وَامْرَأَةُ الْبَيْتِ وَامْرَأَةُ الشَّارِعِ ..

الْمُحَامِيَةُ : وَبَصَرَ الْقَانُونِ وَعَمَى الْقَانُونِ ..

الرَّئِيسُ : وَحُسْنُ الْأَدَبِ وَسُوءُ الْأَدَبِ ... الْمَوْضُوعُ الْمَوْضُوعُ .

الْمُحَامِيَةُ : لَا وَالَّذِي شَرَفَكُمْ بِشَرَفِ الْحُكْمِ يَا حَضَرَاتِ الْمُسْتَشَارِينَ ، مَا يَرَى الْقَلْبُ الْمُسْكِنُ فِي حَبِيبَتِهِ إِلَّا تَعْبِيرَ الْجَمَالِ ، فَهُوَ يَفْهَمُهَا فَهْمَ التَّغْيِيرِ كَكُلِّ مَوْضُوعَاتِ الْفَنِّ ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّ حَقِيقَةَ الْجَمَالِ تَعَرَّفَتْ إِلَيْهِ فِيهَا ، أَتَيْنَ أَحْسَنَ الشَّاعِرِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ ، فِي مَنْظَرٍ مِنْ مَنَاطِرِهَا ، قُلْتُمْ : أَجْرَمَ وَأَيْمَ ؟

هَذَا قَلْبُ ذُو الْأَفْكَارِ ، وَسَبِيلُهُ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ ، قَدْ تَقُولُونَ : إِنَّ فِي الطَّبِيعَةِ جَمَالًا غَيْرَ جَمَالِ الْمَرْأَةِ فَلْيَأْخُذْ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَلْيُعْطِ مِنْهَا ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي

يُخَيِّبِ الطَّبِيعَةَ إِلَّا أَخَذَهَا مِنَ الْقَلْبِ ؟ وَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَخَذِهَا مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا بِالْحُبِّ ؟ وَقَدْ تَقُولُونَ : إِنَّهُ يَتَأَلَّمُ وَيَتَعَذَّبُ ، وَلَكِنْ سَلُوهُ : أَهْوَى يَتَأَلَّمُ بِإِذْرَاكِهِ أَلَا تَلَمُّ فِي الْحُبِّ ، أَوْ بِإِذْرَاكِهِ قَسْوَةَ الْحَقِيقَةِ وَأَسْرَارَ التَّعْقِيدِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ؟ ..

إِنَّ شُعْرَاءَ الْقُلُوبِ لَا يَكُونُونَ دَائِمًا إِلَّا فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ : هُمْ أَكْبَرُ مِنَ الْهَمِّ ، وَفَرَحُ أَكْثَرُ مِنَ الْفَرَحِ ، فَإِذَا عَشِقُوا تَجَاوَزُوا مَوْضِعَ الْوَسْطِ الَّذِي لَا يَكُونُ الْحُبُّ الْمُعْتَدِلُ إِلَّا فِيهِ ، وَمِنْ هَذَا فَلَيْسَ لَهُمْ آلامٌ مُعْتَدِلَةٌ وَلَا أَفْرَاحٌ مُعْتَدِلَةٌ .

هَذَا قَلْبٌ مُخْتَارٌ مِنَ الْقُدْرَةِ الْمُوْجِبَةِ إِلَيْهِ ، فَالَّتِي يُجِبُهَا لَا تَكُونُ إِلَّا مُخْتَارَةً مِنْ هَلِهِ الْقُدْرَةِ اخْتِيَارَ مَلِكِ الْوَحْيِ ، وَهُمَا بِهِذَا قُوَّتَانِ فِي يَدِ الْجَمَالِ لِإِبْدَاعِ أَثَرٍ عَظِيمٍ مِلءٌ قُدْرَتَيْنِ كِلَاهُمَا عَظِيمَةٌ ..

فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ حُبَّ هَذَا الْقَلْبِ جَرِيْمَةٌ عَلَى نَفْسِهِ ، قَالَتِ الْحَقِيقَةُ الْفَنِيَّةُ : بَلِ امْتِنَاعُ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ جَرِيْمَةٌ .

إِنَّ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ تَأْتِي مِنْهُمَا مِثَّةٌ ، فَهَذَا بِدَيْهِيٍّ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ أَبْيَنَ وَلَا أَظْهَرَ وَلَا أَوْضَحَ مِنْ قَوْلِنَا : إِنَّ هَذَا الْعَاشِقَ وَهَذِهِ الْمَعْشُوقَةَ يَأْتِي مِنْهُمَا فَنٌ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ : وَأَنْصَرَفَ الْقَضَاءُ إِلَى غُرْفَتِهِمْ لِيَتَدَاوَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا يَحْكُمُونَ بِهِ ، وَأَوْمَأَتْ لِي الْمُحَامِيَةُ الْجَمِيلَةُ تَدْعُونِي إِلَيْهَا ، فَتَهَضَّتْ أَفْوَمٌ ، فَإِذَا أَنَا جَالِسٌ وَقَدْ أَنْتَبَهْتُ مِنَ النَّوْمِ .

* * *

(جائزَةٌ) ^(١) لِمَنْ يُخَسِّنُ كِتَابَةَ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خَمْسُ نَسَخٍ مِنْ كِتَابِ « وَخِي

(١) { قُلْتُ : وَرَدَّتْ إِلَى الْمُؤَلِّفِ مِثَالُ الرِّسَالِ بِحُكْمِ أَصْحَابِهَا فِي قَضِيَّةِ (الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ) ، وَلَكِنْ مُسَابِقَةُ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ لَمْ يُفْصَلْ فِيهَا ، لِأَنَّ قَاضِيَهَا الْأَوَّلَ وَمَتِّعِيهَا الْأَوَّلَ قَدْ غَالَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَرَى رَأْيَهُ وَيَحْكُمَ حُكْمَهُ } .

الْقَلَمِ « وَتُرْسَلُ الْمَقَالَاتُ (بِاسْمِنَا إِلَى طَنْطَا) وَالْمَوْعِدُ (إِلَى آخِرِ شَهْرِ يَنَّايزُ/ كَانُونِ الْآخِرِ هَذَا) وَالشَّرْطُ رَضَى الْمُحْكَمِينَ ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْمُسْكِينِ وَصَاحِبُهُ . . . »^(١)

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) [جاء في « الرسالة » العدد : ١٩١ ، ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ١ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحة : ٣٢٨ : الْحُكْمُ فِي قَضِيَّةِ « الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ » تَلَقَّيْنَا أَرْبَعِينَ حُكْمًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَسَتَجْتَمِعُ اللَّجْنَةُ لِاخْتِيَارِ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ شَرْطُنَا ، وَهُوَ (إِحْسَانُ الْكِتَابَةِ) ، ثُمَّ نَعْلِنُ حُكْمَهَا . الرَّافِعِيُّ] .

أَنْتَصَارُ الْحُبِّ (*) (١)

كُلُّ مَا يُكْتَبُ عَنْ حَيِّثٍ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْضُ مَا يُفْهَمُ مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِ أَحَدِهِمَا يُنْظَرُ إِلَى وَجْهِ الْآخَرِ .

وَمَا تَعْرِفُهُ الْعَيْنُ مِنَ الْعَيْنِ لَا تَعْرِفُهُ بِالْفَاظِ ، وَلَكِنْ بِأَسْرَارٍ ..
وَالْعَلِيلُ الْمُتَسَعِّرُ فِي دَمِ الْعَاشِقِ ، كَجُنُونِ الْمَجْنُونِ : يَخْتَصُّ بِرَأْسِهِ وَحْدَهُ .
وَضَمَّةُ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ إِحْسَاسٌ لَا يُسْتَعَارُ مِنْ صَدْرِ آخَرَ ، كَمَا لَا يُسْتَعَارُ الْمَوْلُودُ لِطَنٍ لَمْ يَحْمِلْهُ .

وَكَلِمَةُ الْقُبْلَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا وَضْعُ الْقَمِ ، لَنْ يَتَّقِلَ إِلَيْهَا مَا تَذَوُّقُهُ الشَّفَتَانِ !

* * *

وَيَوْمُ الْحُبِّ يَوْمٌ مَمْدُودٌ ، لَا يَنْتَهِي فِي الزَّمَنِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ يَوْمُ الشُّلُوفِ فِي الزَّمَنِ ...
فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْخَلْقُ أَنْ يَصْنَعُوا حَدًّا يَفْصِلُ بَيْنَ وَقْتَيْنِ لِيَنْتَهِيَ أَحَدُهُمَا ... ؟
وَهَبْهُمْ صَنَعُوا الشُّلُوفَانِ مِنْ مَادَّةِ اللَّصِيحَةِ وَالْمُتَفَعِّعَةِ ، وَمِنْ أَلْفِ بُرْهَانٍ وَبُرْهَانٍ ، فَكَيْفَ لَهُمْ بِالْمُسْتَحِيلِ ، وَكَيْفَ لَهُمْ بِوَضْعِ الشُّلُوفَانِ فِي الْقَلْبِ الْعَاشِقِ ؟
وَإِذَا سَأَلَتِ النَّفْسُ مِنْ رِفْقَةِ الْحُبِّ ، فَبِأَيِّ مَادَّةٍ تُصْنَعُ فِيهَا صَلَابَةُ الْحَجَرِ ؟ ...

* * *

(*) « الرسالة » العدد : ١٨٦ ، ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ = ٢٥ يناير/كانون الآخر ١٩٣٧ م ،
السنة الخامسة ، الصفحات : ١٢٦ - ١٢٧ .

(١) شَفَلْنَا مَقَالَاتٍ « الْقَلْبُ الْمُسْكِنُ » عَنِ الْكِتَابَةِ فِي حَادِثَةِ (الْقَلْبِ الْمُسْكِنِ الْأَعْظَمِ) ، قَلْبِ الْمَلِكِ
إدوارد Edward عِنْدَمَا وَقَعَتِ الْحَادِثَةُ .

{ قُلْتُ : وَحَادِثَةُ تَخَلِّي الْمَلِكِ إدوارد Edward عَنْ عَرْشِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٩٣٧
مِنْ أَجْلِ أَمْرَأَةٍ - ذَائِعَةٌ مَشْهُورَةٌ } .

وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا إِظْهَارُ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ حَامِلًا لِلْجِسْمِ الْآخِرِ كُلِّ أَسْرَارِهِ ، يَفْهَمُهَا
وَحْدَهُ فِيهِ وَحْدَهُ ؟

وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا تَعَلُّقُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ الَّتِي لَا يَمْلَأُهَا إِلَّا خَسَاسٌ ؟
وَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا إِسْرَاقُ الْتَوَرُّ الَّذِي فِيهِ قُوَّةُ الْحَيَاةِ ، كَتَوَرُّ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ وَحْدَهَا ؟
وَهَلْ فِي ذَهَبِ الدُّنْيَا وَمِثْلِكَ الدُّنْيَا مَا يَشْتَرِي الْأَسْرَارَ ، وَالْإِخْسَاسَ ، وَذَلِكَ الْتَوَرُّ
الْحَيَّ ؟ ...
فَمَا هُوَ الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ الْحُبُّ ؟

* * *

مَا هُوَ هَذَا السَّرُّ فِي الْجَمَالِ الْمَعْشُوقِ ، إِلَّا أَنَّ عَاشِقَهُ يُذَرِكُهُ كَأَنَّهُ عَقْلٌ لِلْعَقْلِ ؟
وَمَا هُوَ هَذَا الْإِذْرَاكُ إِلَّا أَنْ حِصَارَ الشُّعُورِ فِي جَمَالٍ مُتَسَلِّطٍ كَأَنَّهُ قَلْبٌ لِلْقَلْبِ ؟
وَمَا هُوَ الْجَمَالُ الْمُسَلِّطُ بِإِنْسَانٍ عَلَى إِنْسَانٍ ، إِلَّا ظُهُورُ الْمَخْبُوبِ كَأَنَّهُ رُوحٌ لِلرُّوحِ ؟
وَلَكِنْ مَا هُوَ السَّرُّ فِي حُبِّ الْمَخْبُوبِ دُونَ سِوَاهُ ؟ ... هُنَا تَقِفُ الْمَسْأَلَةُ وَيَنْقَطِعُ
الْجَوَابُ .
هُنَا سِرٌّ خَفِيٌّ كَسِرِّ الْوَحْدَانِيَّةِ ، لِأَنَّهَا وَحْدَانِيَّةٌ (أَنَا وَأَنْتِ) .

* * *

نَاقِشُوا الْحُبَّ ، فَقَالُوا : أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دُنْيَا الْمَادَّةِ ، وَالرُّوحَانِيَّةُ الْيَوْمَ كَالْعِظَامِ الْهَرِمَةِ
لَا تَكْتَسِي اللَّحْمَ الْعَاشِقَ .
وَقَالَ الْحُبُّ : لَا ، بَلِ الْمَادَّةُ لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي الرُّوحِ ، وَهَذَا الْقَلْبُ لَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى يَدٍ
وَلَا رِجْلٍ .
نَاقِشُوا الْحُبَّ ، فَقَالُوا : إِنَّ الْعَصْرَ عَصْرُ آلَاتٍ ، وَالْعَمَلُ الرُّوحِي لَا وَجُودَ لَهُ فِي
الْآلَةِ وَلَا مَعَ الْآلَةِ .
قَالَ الْحُبُّ : لَا ، يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى الْقَلْبُ دَائِمًا كَمَا صَنَعَهُ الْخَالِقُ ...

وَقَالُوا: الضَّعِيفَانِ: الْحُبُّ وَالذِّينُ، وَالْقَوِيَّانِ: الْمَالُ وَالْجَاهُ؛ فِيمَاذَا رَدَّ الْحُبُّ؟...

* * *

جَاءَ بِلَوْلَاةِ رُوحَانِيَّةٍ فِي مِسْرِ سَمْبُسُون Misses Sampson ؛ وَوَضَعَ إِلَيْهَا فِي مِيزَانِ الْمَالِ وَالْجَاهِ أَعْظَمَ تَاجٍ فِي الْعَالَمِ : تَاجُ إِدْوَارْدَ الثَّامِنِ Edward VIII « مَلِكِ بَرِيطَانِيَّةِ الْعُظْمَى وَإِرْلَنْدَةَ وَالْمُمْتَلَكَاتِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِيمَا وَرَاءَ الْبَحَارِ وَمَلِكِ - أَمْبِرَاطُورِ الْهِنْدِ » .
وَتَنَافَسَتِ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْمَادِّيَّةُ ، فَرَجَعَ التَّاجُ وَمَا فِيهِ إِلَّا أضعفَ الْمَعْنِيِّينَ مِنَ الْقَلْبِ .
وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِ أَخْتِرَاعٍ فِي الْإِعْلَانِ ، فَهَزَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ هَزَّةً صَحَافِيَّةً :
الْحُبُّ .. الْحُبُّ .. الْحُبُّ .

* * *

مِسْرُ سَمْبُسُون Misses Sampson ، تِلْكَ الْجَمِيلَةُ بِنِصْفِ جَمَالِ ، الْمُطْلَقَةُ مَرَّتَيْنِ .
هَذَا هُوَ اخْتِيَارُ الْحُبِّ !
وَلَكِنَّهَا الْمَعْشُوقَةُ ؛ وَكُلُّ مَعْشُوقَةٍ هِيَ عَذْرَاءٌ لِحَبِيبِهَا وَلَوْ تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ ؛ هَذَا هُوَ
سِخْرُ الْحُبِّ !
وَلَكِنَّهَا الْفَاتِنَةُ كُلُّ الْفِتْنَةِ ، وَالظَّرِيفَةُ كُلُّ الظَّرْفِ ، وَالْمَرْأَةُ كُلُّ الْمَرْأَةِ ، هَذَا هُوَ فِعْلُ
الْحُبِّ !
وَلَكِنَّهَا الْعَقْلُ لِلْأَعْصَابِ الْمَجْنُونَةِ ، وَالْأَنْسُ لِلْقَلْبِ الْمُسْتَوْحِشِ ، وَالْتَوَرُّ فِي ظُلْمَةٍ
الْكَاثَةِ ؛ هَذَا هُوَ حُكْمُ الْحُبِّ !
وَمِنْ أَجْلِهَا يَقُولُ مَلِكُ إِنْكِلْتَرَةَ لِلْعَالَمِ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ بِدُونِ الْمَرْأَةِ الَّتِي
أَحِبُّهَا » فَهَذَا هُوَ إِعْلَانُ الْحُبِّ ...

* * *

إِذَا أَخَذُوهَا عَنْهُ أَخَذُوهَا مِنْ دَمِهِ ، فَذَلِكَ مَعْنَى مِنَ الدَّبْحِ .
وَإِذَا أَنْتَرَعُوهَا أَنْتَرَعُوهَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَذَلِكَ مَعْنَى مِنَ الْقَتْلِ .
وَهَلْ فِي غَيْرِهَا هِيَ رُوحُ اللَّهْفَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ، فَيَكُونُ الْمَذْهَبُ إِلَى غَيْرِهَا ؟

لَكَائِهِمْ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَمُوتَ مَوْتًا فِيهِ حَيَاةٌ .
وَكَاثِمُهُمْ يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يُجَنَّ جُنُونًا بِعَقْلِ . . . هَذَا هُوَ جَبْرُوتُ الْحُبِّ !

* * *

وَلِلْسَيَّاسَةِ حُجَجٌ ، وَعِنْدَ مِسزِ سَمْبِسُون Misses Sampson حُجَجٌ ، وَعِنْدَ الْهَوَى . . .
الْتَّاجُ ، الْمَلِكِيَّةُ ، امْرَأَةٌ مُطْلَقَةٌ ، امْرَأَةٌ مِنَ الشَّعْبِ ؛ فَهَذَا مَا يَقُولُهُ السِّيَّاسَةُ .
وَلَكِنَّهَا امْرَأَةٌ قَلْبِهِ ، تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ لِيَكُونَ لَهُ فِيهَا إِمْتِنَاعٌ ثَلَاثِ زَوَاجَاتٍ ؛ وَهَذَا
مَا يَقُولُهُ الْحُبُّ !
وَاللَّخْظَةُ النَّاعِسَةُ ، وَالْإِنْسَامَةُ النَّائِمَةُ ، وَالْإِشَارَةُ الْحَالِمَةُ وَكَلِمَةُ (سَيِّدِي) ^(١) ؛ هَذَا
مَا يَقُولُهُ الْجَمَالُ .
وَأَتَنَصَّرَ الْحُبُّ عَلَى السِّيَّاسَةِ ، وَأَبَى الْمَلِكُ أَنْ يَكُونَ كَالْأَمِّ الْأَزْمَلَةِ فِي مَلِكِ أَوْلَادِهَا
الْكِبَارِ . . .

* * *

الْعَرْشُ يَقْبَلُ رَجُلًا خَلْفًا مِنْ رَجُلٍ ، فَيَكُونُ الثَّانِي كَالْأَوَّلِ .
وَالْحُبُّ لَا يَقْبَلُ امْرَأَةً خَلْفًا مِنْ امْرَأَةٍ ، فَلَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى .
وَطَارَتْ فِي الْعَالَمِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ : « أَنَا إدوارد الثَّامِنُ Edward VIII . . . أَتَخَلَّى عَنِ
الْعَرْشِ وَذَرِّتِي مِنْ بَعْدِي ! »
« وَأَعْلَنَ الْحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ بِأَحَدِ أَخْتِرَاعِ فِي الْإِعْلَانِ ؛ فَهَرَّ الْعَالَمُ كُلُّهُ هَرَّةً صَحَافِيَّةً » .
الْحُبُّ . . . الْحُبُّ . . . الْحُبُّ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

(١) لَا تُخَاطَبُ مِسزُ سَمْبِسُون Misses Sampson إدوارد Edward إِلَّا بِكَلِمَةِ: (سَيِّدِي)، وَلَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلَا تُسَمِّيهِ إِلَّا قَالَتْ: (سَيِّدِي). وَلَنْ يَأْمُرَ الْحُبُّ امْرَأَةً بِأَلْبَسَ وَلَا أَرْقَ مِنْ كَلِمَةِ الْعُبُودِيَّةِ اللَّطِيفَةِ هَذِهِ حِينَ تَنْطِقُ بِهَا الْمَرْأَةُ فِي صَوْتِ قَلْبِهَا وَغَرِيزَتِهَا؛ وَقَدْ كَانَ هَذَا أَدَبُ نِسَاءِ الشَّرْقِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ، أَمَّا الْيَوْمَ . . .

قُبُلَةٌ بِالْبَارُودِ (*)
لَا بِالنَّمَاءِ الْمُقَطَّرِ (١) ...

حَيَّاكُمْ اللَّهُ يَا شَبَابَ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُكُمْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَصْرُخُ مِنْهَا الشَّيَاطِينُ ...

كَلِمَاتٌ لَوْ أَنْتَسَبْنَ لَأَنْتَسَبْتُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى آيَةٍ مِمَّا نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ فِي كِتَابِ اللَّهِ .
فَطَلَبُ تَعْلِيمِ الَّذِينَ لِشَبَابِ الْجَامِعَةِ يَنْتَمِي إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٣] .

وَطَلَبُ الْفَضْلِ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٣] .

وَطَلَبُ إِنْجَادِ الْمَثَلِ الْأَخْلَاقِيِّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ شَبَابِهَا الْمُتَعَلِّمِ هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ : ﴿ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [٤٥ سورة البقرة/ الآية : ٢٠] .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابَ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ، إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

* * *

حَيَّاكُمْ اللَّهُ يَا شَبَابَ الْجَامِعَةِ ؛ لَقَدْ كَتَبْتُكُمْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُصَفِّقُ لَهَا الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٤ ، ٩ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ٢٢ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ، الصفحات : ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(١) رَفَعَ طَلَبَةُ الْكَلِمَاتِ فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى مُدِيرِهَا وَعُمَدَانِهَا وَأَسَاتِذَتِهَا - طَلَبًا يَلْتَمِسُونَ فِيهِ إِدْخَالَ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ وَالْفَضْلَ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ ، إِذْ « لَا إِصْلَاحَ إِلَّا بَعْدَ إِصْلَاحِ رُوحِ الشُّبَّانِ النَّاهِضِ ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ رُوحِهِ وَسُمُوْ أَخْلَاقِهِ سِلَاحٌ يَحَارِبُ بِهِ الرَّذِيلَةَ وَيَنْصُرُ بِهِ الْفَضِيلَةَ » . قَالُوا : « وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُمَّةَ بِأَسْرَهَا قَدْ أَحْسَتْ بِنَقْصِ النَّاحِيَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمِصْرِيِّ ، وَنَقْصِ أَخْلَاقِ الْفَرْدِ وَوَطَنِيَّتِهِ تَبَاعًا » .

{ قُلْتُ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَارِسْ / آذار سنة ١٩٣٧ } . سعيد الغريان .

كَلِمَاتٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ جَدِيدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّ كُلَّ جَدِيدٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِيهَا .

كَلِمَاتُ الْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي نُرِيدُ أَنْ نَقُودَ التَّارِيخَ مَرَّةً أُخْرَى بِقُوَّةِ النَّصْرِ لَا بِعَوَامِلِ الْهَزِيمَةِ .

كَلِمَاتُ الشَّبَابِ الطَّاهِرِ الَّذِي هُوَ حَرَكَةُ الرُّقْيِ فِي الْأُمَّةِ كُلِّهَا ، فَسَيَكُونُ مِنْهَا الْمُحَرِّكُ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا .

كَلِمَاتٌ لَيْسَتْ قَوَانِينُ ، وَلَكِنَّهَا سَتَكُونُ هِيَ السَّبَبُ فِي إِصْلَاحِ الْقَوَانِينِ .
قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ، إِنَّ الْخُطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

* * *

يُرِيدُ الشَّبَابُ مَعَ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ حَقِيقَةَ الدِّينِ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعَلِّمُ الصَّبْرَ وَلَا الصَّدْقَ وَلَا الدِّمَّةَ .

يُرِيدُونَ قُوَّةَ النَّفْسِ مَعَ قُوَّةِ الْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْقَانُونَ الْأَدَبِيَّ فِي الشَّعْبِ لَا يَضَعُهُ الْعَقْلُ وَحْدَهُ وَلَا يُنْقِذُهُ وَحْدَهُ .

يُرِيدُونَ قُوَّةَ الْعَقِيدَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَنْفَعَهُمْ فِي بَعْضِ شِدَائِدِ الْحَيَاةِ مَا تَعَلَّمُوهُ نَفَعَهُمْ مَا اعْتَقَدُوهُ .

يُرِيدُونَ السُّمُوَ الدِّينِيَّ ، لِأَنَّ فِكْرَةَ إِدْرَاكِ الشَّهَوَاتِ بِمَعْنَاهَا هِيَ فِكْرَةُ إِدْرَاكِ الْوَاجِبَاتِ بِغَيْرِ مَعْنَاهَا .

يُرِيدُونَ الشَّبَابَ السَّامِيَّ الطَّاهِرَ مِنَ الْجَنَسَيْنِ ، كَيْ تُولَدَ الْأُمَّةُ الْجَدِيدَةُ سَامِيَّةً طَاهِرَةً .
قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ الْخُطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . .

* * *

أَحْسَ الشَّبَابُ أَنَّهُمْ يَنْقِذُونَ مِنْ قُوَّةِ الْمَنَاعَةِ الرُّوحِيَّةِ بِقَدْرِ مَا أَهْمَلُوا مِنَ الدِّينِ .
وَمَا هِيَ الْفَضَائِلُ إِلَّا قُوَّةُ الْمَنَاعَةِ عَنْ أَضْدَادِهَا ؟ فَالْصَّدْقُ مَنَاعَةٌ مِنَ الْكَذِبِ ، وَالشَّرَفُ

مَنَاعَةٌ مِنَ الْخِسَّةِ .

وَالشَّبَابُ الْمُنْقَلُ بِفُرُوضِ الْقُوَّةِ هُوَ الْقُوَّةُ نَفْسُهَا ، وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا فُرُوضُ الْقُوَّةِ عَلَى النَّفْسِ ؟ .

وَشَبَابُ الشَّهَوَاتِ شَبَابٌ مُفْلِسٌ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، يُنْفَقُ دَائِمًا وَلَا يَكْسِبُ أَبَدًا ! .

وَالْمَدَارِسُ تُخْرِجُ شُبَّانَهَا إِلَى الْحَيَاةِ . فَتَسْأَلُهُمُ الْحَيَاةُ : مَاذَا تَعَوَّذْتُمْ لَا مَاذَا تَعَلَّمْتُمْ ! .

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ؛ إِنَّ الْخَطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا . . .

* * *

وَأَحْسَ الشَّبَابُ مَعْنَى كَثَرَةِ الْفَتَيَاتِ فِي الْجَامِعَةِ ، وَأَذْرَكُوا مَعْنَى هَذِهِ الرِّقَّةِ الَّتِي خَلَقَتْهَا الْحِكْمَةُ الْخَالِيقَةُ .

وَالْمَرْأَةُ آدَاءُ اسْتِمَالَةٍ بِالطَّبِيعَةِ ، تَعْمَلُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مَا تَعْمَلُهُ بِالْإِرَادَةِ ، لِأَنَّ رُؤْيَتَهَا أَوَّلَ عَمَلِهَا .

نَعَمْ إِنَّ الْمِغْنَاتِيسَ لَا يَتَحَرَّكُ حِينَ يَجْدِبُ ، وَلَكِنَّ الْحَدِيدَ يَتَحَرَّكُ لَهُ حِينَ يَنْجَذِبُ .

وَمَتَى فَهِمَ أَحَدُ الْجُنْسَيْنِ الْجِنْسَ الْآخَرَ ، فَهِمَهُ بِإِذْرَاكِينِ لَا بِإِذْرَاكِ وَاحِدٍ !

وَجَمَالُ الْمَرْأَةِ إِذَا انْتَهَى إِلَى قَلْبِ الرَّجُلِ ، وَجَمَالُ الرَّجُلِ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ الْمَرْأَةِ . . .

. . . هُمَا حَيْنَتَيْدِ مَعْنِيَانِ . وَلَكِنَّهُمَا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الْعِلْمِ مَعْنِيَانِ مُتَزَوَّجَانِ . . .

* * *

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالَ الْجَامِعَةِ ! إِنْ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَسْمُهُ حُرِّيَّةُ الْأَخْلَاقِ .

وَتَقُولُونَ : أَوْرَبَّةٌ وَتَقْلِيدُ أَوْرَبَّةٍ ! وَتَحْنُ نُرِيدُ الشَّبَابَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِاسْتِفْلَالِنَا

لَا لِيُخْضِعِنَا لِأُورُبَّةَ .

وَتَقُولُونَ : إِنَّ الْجَامِعَاتِ لَيْسَتْ مَحَلَّ الدِّينِ ، وَمَنِ الَّذِي يَجْهَلُ أَنَّهَا بِهِذَا صَارَتْ مَحَلًّا لِفَوْضَى الْأَخْلَاقِ .

وَتَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّبَابَ تَعَلَّمُوا مَا يَكْفِيهِ مِنَ الدِّينِ فِي الْمَدَارِسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِي الْجَامِعَةِ .

أَفْتَرُونَ الْإِسْلَامَ دُرُوسًا إِبْتِدَائِيَّةً وَثَانَوِيَّةً فَقَطْ ؛ أَمْ تُرِيدُونَهُ شَجَرَةً تُغْرَسُ هُنَاكَ لِتُقْلَعَ عِنْدَكُمْ ...

لَا ، لَا ؛ يَا رِجَالِ الْجَامِعَةِ ! إِنَّ قُبُلَةَ الشَّبَابِ الْمُجَاهِدِ تُمَلَأُ بِالْبَارُودِ لَا بِالْمَاءِ الْمَقَطَّرِ .

* * *

إِنَّ الشَّبَابَ مَخْلُوقُونَ لِغَيْرِ زَمَانِكُمْ ، فَلَا تُفْسِدُوا عَلَيْهِمُ الْحَاسَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي يُحْسِنُونَ بِهَا زَمَنَهُمْ .

لَا تَجْعَلُوهُمْ عَيْنِدَ آرَائِكُمْ وَهُمْ شَبَابُ الْإِسْتِفْلَالِ ؛ إِنَّهُمْ تَلَامِيذُكُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَيْضًا أَسَاتِذَةُ الْأُمَّةِ .

لَقَدْ تَكَلَّمَ بِلِسَانِكُمْ هَذَا الْبِنَاءُ الصَّغِيرُ الَّذِي يُسَمَّى : الْجَامِعَةُ ، وَتَكَلَّمَ بِاللِّسَانِ هَذَا الْبِنَاءُ الْكَبِيرُ الَّذِي يُسَمَّى : الْوَطَنُ .

أَمَّا بِنَاؤُكُمْ فَمَخْدُودٌ بِالْآرَاءِ وَالْأَحْلَامِ وَالْأَفْكَارِ ، وَأَمَّا الْوَطَنُ فَمَخْدُودٌ بِالْمَطَامِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْحَقَائِقِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَدَوْا الْعَالَمَ ، قَدْ هَدَوْهُ بِالرُّوحِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَنْمَلُونَ بِهَا لَا بِأَحْلَامِ الْفَلَاسِفَةِ .

لَا ، لَا ؛ إِنَّ الْفَضِيلَةَ فِطْرَةٌ لَا عِلْمٌ ، وَطَبِيعَةٌ لَا قَانُونٌ ، وَعَقِيدَةٌ لَا فِكْرَةٌ ؛ وَأَسَاسُهَا أَخْلَاقُ الدِّينِ لَا آرَاءُ الْكُتُبِ .

* * *

مَنْ هَذَا الْمُتَكَلِّمُ يَقُولُ لِلْأُمَّةِ : الْجَامِعِيُّونَ لَنْ يَقْبَلُوا أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ فِي شُؤْنِهِمْ مَهْمَا
يَكُنْ أَمْرُهُ ؟

أَهَذَا صَوْتُ جَرَسِ الْمَدْرَسَةِ لِأَطْفَالِ الْمَدْرَسَةِ تِرِنْ ... تِرِنْ ... فَيَجْتَمِعُونَ
وَيَنْصَاعُونَ ؟

كَلَّا يَا رَجُلُ ! لَيْسَ فِي الْجَامِعَةِ قَالِبٌ يُصَبُّ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قِيَاسِكَ الَّذِي تُرِيدُ .
إِنَّ التَّعْلِيمَ فِي الْجَامِعَةِ بِغَيْرِ دِينٍ يَعْصِمُ الشَّخْصِيَّةَ ، هُوَ تَعْلِيمُ الرَّذِيلَةِ تَعْلِيمَهَا
الْعَالِي ...

﴿ وَيَسْتَنْبِطُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَفِي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشْمَرُ مُعْجِزِينَ ﴾ [١٠ سورة يونس / الآية :
. [٥٣]

قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ يَا شَبَابُ ، قُوَّةُ الْأَخْلَاقِ ... إِنَّ الْخُطْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَبْدَأُ مِنْ هُنَا ...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

شَيْطَانٌ وَشَيْطَانَةٌ ... (١)

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلَبُهَا مِنْ وَرَعٍ يَخْجِزُهُمْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَدِينٍ يَخْلُصُ بِهِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ ؛ ثُمَّ مَا أَبْتَغُوهُ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالْفَتَيَاتِ ، تَطْهِيرًا لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ ، وَاتَّقَاءَ لِسُوءِ الْمُخَالَطَةِ ، وَبُعْدًا عَنْ مَطِيَّةِ الْإِنِّمِ ، وَتَوْفِيرًا لِأَسْبَابِ الرُّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوثَةِ عَلَى الْأُنْثَى .

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرْتَهُ الصُّحُفُ ، وَاسْتَقْصَيْتُ وَبَالَغْتُ ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِي مَعَانِيهَا ؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَّبِعُ بَابَ « فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ » فِي الْمَجَلَّاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْأَخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ وَتُسَمِّي الْأَسْمَاءَ وَتَصِفُ الْأَوْصَافَ وَتَذْكُرُ الْوَادِرَ ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ بِتَرْجِمِ نَفْسِهِ إِلَيَّ فِي رُؤْيَا رَأَيْتُهَا وَهَلَا نَدَا أَفْضُهَا :

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعَ بِالْيَقِينِ عَنِ الطَّنِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الطَّنَّةَ تَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ ، لِخَفَائِهَا وَكَثْرَةِ وُجُودِهَا ، فَإِنْ كَانَ فِي اخْتِلَاطِ الْجِنْسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَاقِعِ ...

... ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتَّبِعُ أَنْفَهَا تَتَّسِمُ الْهَوَاءَ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئًا ، حَتَّى مَالَتْ إِلَى خَمَرٍ ^(١) هُنَاكَ مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ عَنْ يَمِينِ

(١) لَمَّا كَتَبَ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَقَالَهُ السَّابِقَ فِي تَحِيَّةِ شَبَابِ الْجَامِعَةِ ، رَاحَ يَتَّبِعُ مَا تَنْشُرُ الصُّحُفُ مِنْ حَدِيثِ (فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ) فِي مُنَاقَشَةِ دَعْوَةِ الطُّلَّابِ ؛ فَوَقَعَ لَهُ مِنْ حَدِيثَيْنِهَا أَوْحَى إِلَيْهِ مَوْضُوعُ هَذَا الْمَقَالِ ، فَكَتَبَهُ يَعْزُضُ بِفُلَانٍ وَفُلَانَةٍ وَيَزِيدُ مِنْ خَبَرِهِمَا وَيَزِيدُ رَدَّهُ عَلَيْهِمَا ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى الرَّسَالَةِ ، وَلَكِنْ صَاحِبُ الرَّسَالَةِ أَبَى عَلَيْهِ نَشْرَهُ ، حِفَاطًا عَلَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فُلَانٍ [أَيْ : طَهَ حُسَيْنَ] مِنْ صِلَاتِ الْوُدِّ ؛ وَبَقِيَ الْمَقَالُ فِي مَكْتَبِ الْمُؤَلِّفِ حَتَّى غَالَتْهُ مَيِّتُهُ ! سَعِيدُ الْعُرْيَانِ .

(٢) الْخَمَرُ (يَفْتَحُ الْمَيْمِ) : مَا وَارَاكَ مِنْ شَجَرٍ وَغَيْرِهِ .

الطَّرِيقِ ، فَوَقَفْتُ عِنْدَهُ تَتَفَسَّرُ وَتَتَهَدُّ ؛ ثُمَّ تَبَصَّرْتُ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَى الْجَامِعَةِ إِقْبَالَ الْمَغِيرِ فِي غَارَتِهِ ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا وَحَيَّاهَا بِتَحِيَّةِ الشَّيَاطِينِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : مَا وَقُوفُكَ أَيْتُهَا الْحَبِيبَةُ ؟ وَكَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتِكَ الَّتِي أَنْتِ مُوَكَّلَةٌ بِهَا ؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَفْعَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ إِذَا لَمْ تُوَازِرْهُ الشَّيْطَانَةُ .

قَالَتْ : إِنَّمَا اجْتَذَبَتْنِي إِلَى هُنَا رَائِحَةُ عَاشِقَيْنِ كَانَا فِي هَذَا الظِّلِّ يُوَارِيهُمَا عَنِ الْأَعْيُنِ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَرْكُومًا ، أَفَكُنْتَ فِي الْأَزْهَرِ . . ؟ .

فَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يَضْحَاكُ وَقَالَ : أَنَا مُرْسَلٌ مِنْ مُسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ مَدَدًا لِشَّيَاطِينِ الْجَامِعَةِ ؛ فَقَدْ أَحْتَاجُوا إِلَى التَّجْدَةِ . . وَلَكِنْ أَنْتِ كَيْفَ تَرَكْتِ صَاحِبَتِكَ مِنْ أَجْلِ رَائِحَةِ قُبْلَةٍ عَلَى خَمْسِ مِثَّةٍ مِثْرٍ ؟ مَا أَحْسَبُهَا إِلَّا جَالِسَةً تَكْتُبُ فِي مَنَعِ اخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ وَوُجُوبِ إِدْخَالِ التَّلْعِيمِ الدِّينِيِّ فِي الْجَامِعَةِ ! .

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : إِنَّ صَاحِبَتِي لِأَبْرُعُ مِثِّي فِي الْبَرَاعَةِ ، وَأَدْقُ فِي الْحِيلَةِ ، وَأَهْدَى لِلْمَعَادِيرِ ، وَأَنْفَذُ إِلَى الْغَرَضِ ، وَمِثْلُهَا قَلِيلٌ هُنَا ، وَلَكِنْ قَلِيلَ الشَّرِّ لَيْسَ قَلِيلًا ، فَإِنَّهُ وَصْلَةٌ وَطَرِيقٌ كَمَا تَعْلَمُ ؛ وَمَا تَجِدُ الْفَتَاةَ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ يَنْفِي عَنْهَا الرِّيبَةَ وَهُوَ يُذِنُهَا مِنْهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَاطِ مَعَ الْفَتَيَانِ ، وَيُهَيِّئُ لِعَقْلِهَا أَسْبَابًا تَكُونُ فِيهَا أَسْبَابُ قَلْبِهَا ؛ وَقَدْ كُنْتُ أَنْتِ فِي أَوْرُبَةٍ أَفَمَا رَأَيْتِ هُنَاكَ شَابًا وَشَابَةً حَوْلَ كِتَابِ عِلْمٍ وَكَانَهُمَا عَلَى رُجَاجَةٍ خَمِرٍ ؟ .

إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ شَيْءٌ وَمُخَالَطَةُ الشُّبَّانِ شَيْءٌ آخَرُ ؛ فَذَلِكَ يُطْلِقُ فِكْرَهَا بِتَجَاوُزِ الْحُدُودِ ، وَالْاِخْتِلَاطُ يَجْعَلُ فِكْرَهَا يَخْضُرُهَا فِي حُدُودِ إِحْسَاسِهَا ؛ وَأَحَدُهُمَا يُزْهِفُ ذَهْنَهَا لِإِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ ، وَالْآخَرُ يُزْهِفُ عَوَاطِفَهَا لِإِدْرَاكِ الرَّجُلِ ، وَقَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ الْأُنْثَى فَمَا تُخَلِّقُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى غَيْرِ الطَّبِيعَةِ الْمَفْطُورَةِ عَلَى الْحُبِّ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمُمَكِّنَةِ ، وَالصُّورَةُ هِيَ الشَّابُّ هُنَا مَا دَامَ الشَّابُّ هُنَا ؛ وَأَنَا الشَّيْطَانَةُ قَدْ تَعَلَّمْتُ فِي الْجَامِعَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ : « لَا حَيَاءَ فِي الْعِلْمِ » هِيَ الَّتِي تَقُرَّرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَاعِدَةٌ : « لَا حَيَاءَ فِي الْحُبِّ » .

قَالَ الشَّيْطَانُ : أَنْتِ أَدْرِي بِسُلْطَانِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنْ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَا أَنَّ مَفَاسِدَ أَوْرُبَةٍ تَدْخُلُ إِلَى الشَّرْقِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا الْخَمْرُ وَالنِّسَاءُ وَالْعَادَاتُ وَالْقَوَائِنُ

وَالْكُتُبُ وَنَظَامُ الْمَدَارِسِ !

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : وَإِنَّ سُلْطَانَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ يَبْتَغِي دَائِمًا عَنْ رَعِيَّتِهِ مَا لَمْ يُكْبَحْ وَيُرَدَّ عَنْ الْبَحْثِ : إِذْ هُوَ لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سُلْطَانٌ إِلَّا بِتَفَادٍ حُكْمِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ ؛ وَمِنْ رَعِيَّتِهِ نَظَرَاتُ الْإِعْجَابِ ، وَكَلِمَاتُ الثَّنَاءِ ، وَعِبَارَاتُ الْإِعْزَاءِ ، وَعَوَاطِفُ الْمَمِيلِ ، وَمَعَانِي الْخُضُوعِ ؛ وَرَبَّ كَلِمَةٍ مِنَ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ وَيَكُونُ الرَّجُلُ كُلُّهُ فِيهَا ذَاهِبًا إِلَى قَلْبِهَا مُتَدَسِّسًا إِلَى خِيَالِهَا ، وَكَمْ مِنْ أُمٍّ تَرَى ابْنَتَهَا رَاجِعَةً إِلَى الدَّارِ ، وَتُحَسُّ بِالْغَرِيزَةِ السُّوْرِيَّةِ أَنَّ مَعَ ابْنَتِهَا خِيَالًا مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ .

وَمِمَّ يَنْبَعُ الْحُبُّ إِلَّا مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْمُجَادَبَةِ وَالْمُنَازَعَةِ الَّتِي يُسْمُونَهَا هُنَا مُنَافَسَةً بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ وَيَعُدُّونَهَا حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِ الْأَخْتِلَاطِ ؟ نَعَمْ ، إِنَّهَا مَشْحَذَةٌ لِلْأَذْهَانِ وَدَاعِيَةٌ إِلَى بُلُوغِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْأَجْتِهَادِ ، وَبِهَا يَرِقُّ اللِّسَانُ وَتَنْحَلُّ عُقْدَتُهُ ، وَيُضِيحُ الشَّابُّ كَمَا يَقُولُونَ : « ابْنُ نُكْتَةٍ وَيَفْهَمُ الطَّائِرَةَ . . . » وَتَعُودُ الْفَتَاةُ وَهِيَ تَجْتَهِدُ أَنْ تَكُونَ حَلَاوَةً تَذُوقُهَا الرُّوحُ ، وَلَكِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنَّبَاتِ وَالْأُمُورُ بِخَوَاتِيمِهَا ، وَالطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا تُوَازِنُ الْعَقْلَ الْعَلِمِيَّ بِالْجَهْلِ الْخُلُقِيِّ ؛ وَلَعَلَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فُتُونًا فِي فِسْقِهِ وَفُجُورِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَالِمًا مِنْ أَهْلِ الْفَنِّ أَوْ زُنْدِيقًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَلَا يُصَحِّحُ هَذِهِ الْمُوَازَنَةَ إِلَّا الدِّينُ ، فَهُوَ الَّذِي يُقَرِّرُ الْقَوَاعِدَ الثَّابِتَةَ فِي كِلْتَا النَّاحِيَتَيْنِ ، وَهَذَا مَا يَطْلُبُهُ الْمَجَانِينُ مِنْ شُبَّانِ هَذِهِ الْجَامِعَةِ وَيُوشِكُ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ ، لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُبْتَلَاةٌ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ دِينِهَا بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ حَتَّى يَضِيحَ الرَّأْيُ .

أَسْمَعُ وَيَحْكُ هَذَا الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأ . . . فَالْقَى الشَّيْطَانُ سَمْعَهُ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ عَلَى جَمَاعَةٍ كَلَامًا فِي صَحِيفَةٍ لِاحْدَى خَرِيجَاتِ الْجَامِعَةِ تَقُولُ فِيهِ : « وَلِهَذَا أَصْرَحُ أَنَّ تَجَرِبَةَ اشْتِرَاكِ الْجِنْسَيْنِ فِي الْجَامِعَةِ نَجَحَتْ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ ، وَلَمْ يَخْذُلْ خِلَافُهَا قَطُّ مَا يَدْعُو إِلَى فَلَقِ الْقَلْقَيْنِ وَالْمُنَادَاةِ بِالْفَضْلِ ؛ بَلْ بِالْعَكْسِ حَدَثَ مَا يَدْعُو إِلَى تَشْجِيعِ الْأَخْذِ بِالتَّجَرِبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » .

فَفَهَّمَهُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ : « قَلَقُ الْقَلْقَيْنِ » . . . مَا رَأَيْتُ كَلَامًا أَغْلَظَ وَلَا أَجْفَى مِنْ هَذَا ، إِنَّهَا لَوْ دَافَعَتْ عَنِ الشَّيْطَانِ بِهَذِهِ الْقَافَاتِ لَخَسِرَ الْقَضِيَّةَ . . .

ثُمَّ لَهَزَ الشَّيْطَانَةُ لَهْزَةً وَقَالَ لَهَا : كَذَبْتَ عَلَيَّ أَيُّهَا الْخَيِّئَةُ ! فَمَا لَكَ عَمَلٌ فِي الْجَامِعَةِ وَأَنْتِ تَخْرُجِينَ لِرَاحَةِ قُبْلَةٍ بَيْنَ عَاشِقَيْنِ عَلَى مَسَافَةٍ خَمْسِ مِثْرٍ ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقَافَاتِ لِهِيَ الدَّلِيلُ أَقْوَى الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْفَتَاةَ هُنَا تُنْظَرُ فَتَاةٌ حِينَ تُرَى ، وَلَكِنَّهَا تُسْمَعُ رَجُلًا حِينَ تَتَكَلَّمُ !

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : وَلَكِنْ أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهَا : « تَشْجِيعُ [الْأَخِذِ بِ] التَّجْرِيبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » . . ؟ أَلَا يُرْضِيكَ هَذَا الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُو « إِلَى قَلْبِ الْفَلَقَيْنِ » ؟ ثُمَّ إِنِّي أَنَا فَلَانَةُ الشَّيْطَانَةِ قَدْ كُنْتُ السَّبَبَ فِي حَادِثَةٍ وَقَعَتْ وَطُرِدَ فِيهَا طَالِبٌ مِنَ الْجَامِعَةِ ، أَفَلَا يُرْضِيكَ الْإِغْرَاءُ وَالْكَذِبُ فِي بَضْعِ كَلِمَاتٍ ؟ .

قَالَ الشَّيْطَانُ : كُلُّ الرِّضَا ، فَهَذَا فَرٌّ آخَرُ ؛ وَالْمُعَلِّمُ الَّذِي يُنْكِرُ حَادِثَةً وَقَعَتْ مِنْ تَلْمِيزِهِ وَلَا يَقْرَأُ بِأَنْهَا وَقَعَتْ ، لَا يَكُونُ انْكَارُهُ إِلَّا إِجَارَةً لَوْقُوعِ مِثْلِهَا !

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : وَهَبِ الْحَادِثَةَ لَمْ تَقَعْ ، فَكَيْفَ تَعْرِفُ الْجَامِعَةُ مَا يَخْدُثُ فِي الْقُلُوبِ ؟ وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ قِصَّةَ تَوَلُّفِهَا أَرْبَعَ أَعْيُنٍ فِي وَجْهَيْنِ ؟ وَكَيْفَ تُكْشِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَوَّلُ وَجُودِهَا كِتْمَانُ الْكَلَامِ عَنْهَا ، وَأَوَّلُ الْكَلَامِ عَنْهَا الْهَمْسُ بَيْنَ اثْنَيْنِ دُونَ غَيْرِهِمَا ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي طَاقِهِ أَنْ يُمَدَّ يَدُهُ إِلَى قَلْبَيْنِ أَصْبَحَا فِي تَلْقَى الرِّسَائِلِ كَصُنْدُوقِي الْبَرِيدِ . . ؟

أَسْمَعْ أَسْمَعْ هَذَا الْآخَرَ . . فَاسْتَرْقَ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي صَحِيفَةٍ أُخْرَى عَلَى جَمَاعَتِهِ :

« وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِتِّصَالَ بَيْنَ الطَّالِبَاتِ وَالطَّلَبَةِ خَطَرٌ ، إِنَّمَا يُسَيِّنُونَ إِلَى أَخْلَاقِكُمْ . . وَالْحَقُّ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ! أَنَّ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى أَنْ أَغْضَبَ وَأُثَوِّرَ إِنَّمَا هُوَ الدَّفَاعُ عَنِ الْكِرَامَةِ الْجَامِعِيَّةِ » .

قَالَ الشَّيْطَانُ : كُلُّ الرِّضَا كُلُّ الرِّضَا . . هَذَا كَلَامٌ دَاهِيَةٌ أَرِيبٌ ، فَلَقَدْ أَحْسَنَ قَاتِلُهُ اللَّهُ ! إِنَّهَا عِبَارَاتٌ جَامِعِيَّةٌ مُخَكَّمَةٌ السَّبْكُ تَقُومُ عَلَى أَصُولِهَا مِنْ فَرْقِ السِّيَاسَةِ الْخَطَاطِيَّةِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظَنَّهُ بِتَهْمَةٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَحَّرِقَ عَلَى النَّاسِ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا وَلَا بِمِثْلِ هَذَا .

وَلَيْسَ لَنَا أَقْوَى مِنْ هَذَا الطَّنَعِ الْقَوِيِّ الَّذِي يَشْعُرُ بِالنَّقْصِ ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا إِبْتَاتُ ذَاتِهِ فِي كُلِّ مَا يُجَادِلُ فِيهِ دُونَ إِبْتَاتِ الصُّوَابِ وَلَوْ كَانَ النَّاسُ جَمِيعًا فِي هَذَا الْجَانِبِ وَكَانَ هُوَ وَخَدَهُ فِي جَانِبِ الْخَطَا .

وَلَكِنْ أَفْ ! مَاذَا صَنَعَ هَذَا الْقَائِلُ ؟ وَأَيْنَ التُّهْمَةُ الَّتِي لَا تَبْدُلُ اسْمَهَا فِي اللُّغَةِ ؟ وَأَيْنَ الذَّنْبُ الَّذِي يَرْضَى أَنْ تُوَضَعَ اليَدُ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ إِنكَارُ الْمُذْنِبِ إِلَّا أَحْتِجَاجٌ مِنْ كَرَامَتِهِ الرَّائِفَةِ وَإِظْهَارِ الْغَضَبِ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ ؟ ..

إِنَّ هَذَا كَغَيْرِهِ مِنَ الضَّعَفَاءِ حِينَ يُمَارُونَ ، أَلَا مَا أَكْذَبَ الْكَذِبُ هُنَا ! فَإِنَّ الْفَسَادَ لَيَقْعُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْجِنْسَيْنِ فِي الْجَامِعَاتِ الْأَوْرُبِيَّةِ ثُمَّ لَا يُعَدُّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِسَاءَةً إِلَى الْأَخْلَاقِ ، وَلَا غَضًا مِنَ الْكَرَامَةِ الْجَامِعِيَّةِ ، وَفِي فَرَنْسَةِ يَجْتَمِعُ الشُّبَّانُ وَالْفَتَيَاتُ مِنْ طَلَبَةِ الْجَامِعَةِ وَيَخْتَسُونَ الْخَمْرَ وَيَتَرَاقِصُونَ وَيَتَوَاعَدُونَ ثُمَّ لَا تَقُولُ لَهُمْ الْأَخْلَاقُ : أَيْنَ أَنْتُمْ ... ؟ وَهُنَاكَ فِي الْأَنْدِيَةِ الْخَاصَّةِ بِالطَّلِبَةِ يَتَخَبُّونَ مَلَكَ الْجَمَالِ مِنْ بَيْنِ الطَّالِبَاتِ كُلِّ سَنَةٍ ، ثُمَّ يَنْزِعُونَ بِأَيْدِيهِمْ ثِيَابَهَا الَّتِي تُسَمَّى ثِيَابًا ، وَيَطُوفُونَ بِهَا عُرْفَ النَّادِي كَعُرُوسٍ وَاحِدَةٍ مَجْلُوءَةٍ عَلَى مَنَةِ زَوْجٍ فِي الْمَعْنَى ، « وَبُونُسَوَارْ Bon Soir » أَيُّهَا الْكَرَامَةُ الْجَامِعِيَّةُ ..

وَالْاخْتِلَاطُ هُنَاكَ يَقْرُبُ أَنْ يَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَشْتِرَاقِيَّةِ ، وَكُلُّ مَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ لُغَةِ الْحَيَاءِ هُوَ أَنْ يَتَلَطَّفُوا فَيَقُولُوا : إِنَّ هَذِهِ الطَّالِبَةَ صَدِيقَةٌ فَلَا تَطَالِبِ ، يُعَبَّرُونَ بِلَفْظِ الصَّدَاقَةِ عَنْ أَوَّلِ الْمَعْنَى وَيَدْعُونَ سَائِرَ أَحْوَالِهِ ، إِذْ لَا يُبَالِي أَمْرُهُمَا أَحَدٌ لَا مِنَ الطَّلِبَةِ وَلَا مِنَ الْأُسْتَاذِينَ ... وَهُنَاكَ يُعْتَذَرُ لِلشَّبَابِ فِي مِثْلِ هَذَا بِأَنَّهُ شَابٌ ، فَتَقُومُ كَلِمَةُ الشَّبَابِ فِي الْعُرْفِ بِمَعْنَى كَلِمَةِ الْضَّرُورَةِ فِي الشَّرْعِ !

وَهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الْجَامِعَةَ لِحُرِّيَةِ الْفِكْرِ ، وَمِنْ حُرِّيَةِ الْفِكْرِ حُرِّيَةُ التَّرَعَةِ ، وَمِنْ هَذِهِ حُرِّيَةُ الْمَثَلِ الشَّخْصِيِّ ، وَمِنْ حُرِّيَةِ الْمَثَلِ حُرِّيَةُ الْحُبِّ ؛ وَهَلْ يَعْرِفُ الْحُبُّ فِي الْجَامِعَةِ أَنَّهُ فِي الْجَامِعَةِ فَيَسْتَحِي وَيَكُونُ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ مَا هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؟ أَوْ لَيْسَ فِي لُغَةِ الزَّوْاجِ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ « نِسْيَانِ مَاضِي الْفَتَاةِ » ..

وَلَكِنْ أَسْمَعِي أَسْمَعِي ..

فَأَصَابَتْ الشَّيْطَانَةُ ؛ فَإِذَا طَالِبٌ مِنَ الْأَزْهَرِ يَقْرَأُ لِطَالِبٍ مِنْ كُتَيْبَةِ الْحُقُوقِ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ دِفَاقِ أَحَدِ خَزَنَتِي الْجَامِعَةِ :

« وَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا الْأَزْهَرِيِّينَ يَسْخَطُونَ عَلَى الْجَامِعَةِ وَآخِلَاتِ الْجِنْسَيْنِ فِيهَا ، وَفِي مِصْرٍ نَوَاحٍ أُخْرَى هِيَ أَحَقُّ بِحَزْبِهِمْ وَأَوْلَى بِاهْتِمَامِهِمْ ؟ لَعَلَّهُمْ قَدْ نَسُوا حَالَنَا فِي الصَّيْفِ عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَالنَّاسُ يُمْكُثُونَ هُنَاكَ شُهُورًا عَرَايَا أَوْ كَالْعَرَايَا . »

فَقَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : مَا لَهُ وَلِهَذَا ؟ لَقَدْ أَخْزَى نَفْسَهُ وَأَخْزَى الْجَامِعَةَ ، وَهَلْ صَنَعَ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ لِلْأَزْهَرِيِّينَ : إِنَّ أَهْوَنَ الْفَسَادِ مِنْ هَذَا الْأَخْطِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ ، وَأكْثَرُهُ فِي شَوَاطِئِ الْبَحْرِ ؛ فَمَا بِالْكُمِّ تَدْعُونَ أَشَدَّهُ وَتَأْخُذُونَ عَلَى أَهْوَنِهِ ؟ .

قَالَ الشَّيْطَانُ : وَيَحَهُ ! وَهَلْ يَأْخُذُونَ عَلَى أَهْوَنِهِ فِي الْجَامِعَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ فِي الْجَامِعَةِ لَا فِي مَكَانٍ آخَرَ ؟ وَلَكِنْ أَسْمِعْنِي ، مَا هَذَا ؟ ...

فَأَزَاعِيَا الصَّوْتِ سَمِعَهُمَا ، فَإِذَا طَالِبٌ يَقْرَأُ فِي مَجَلَّةٍ : « ظَهَرَتِ الْآنِسَةُ فُلَانَةً وَهِيَ تَلْبَسُ فُسْتَانًا أَحْمَرَ شَفَتَيْهِ بِنِيبِي كَرْنِييَ مُشْعَرٍ بِنِيبِي وَفُيُوتُكَةُ أَحْمَرٌ عَلَى أَيْبُضٍ » ...

قَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : هَذَا ! هَذَا ! فَهَلْ هِيَ إِلَّا أَلْوَانُ أَفْكَارٍ تَحْتَ أَلْوَانِ ثِيَابٍ ؟ وَهَلْ يَظْهَرُ سُلْطَانُ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَرْأَةِ بَاحِثًا عَنْ رَعِيَّتِهِ إِلَّا فِي أَلْوَانِ جَمِيلَةٍ هِيَ أَسِيلَةُ لِلْعِيُونِ ؟ لَقَدْ مَثَلَ سِرْبٌ مِنَ الطَّالِبَاتِ فِي هَذِهِ الْجَامِعَةِ فَضْلًا فِي بَعْضِ الْحَفَلَاتِ سَمَّوْهُ « عَرَضُ الْأَزْيَاءِ » وَالْفَتَاةُ تَعْرِضُ الثُّوبَ ، وَالثُّوبُ يَعْرِضُ الْجِسْمَ ، وَالْجِسْمُ وَالثُّوبُ مَعًا يَعْرِضَانِ الْفَتَاةَ ! وَعَرَضُ الْأَزْيَاءِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْجَامِعَةِ بِإِهْمَالِ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَلَا يَبْدِيكَ رِيثَتَهُنَّ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] ! .

قَالَ الشَّيْطَانُ : خَبَرْنِي عَنْ صَاحِبِكَ الَّتِي أَنْتَ مُوَكَّلَةٌ بِهَا . أَتَرَيْنَهَا كَانَتْ تَأْتِي إِلَى هَذِهِ الْجَامِعَةِ لَوْ أَلْبَسُوهُنَّ مِثْلَ ثَوْبِ الرَّاهِبَةِ وَحَمَرُوهُنَّ بِالْخِمَارِ وَأَصَاعُوا مَسَاحَةَ الْجِسْمِ فِي مَسَاحَةِ الثُّوبِ وَأَجْلَسُوهُنَّ فِي آخِرِ الصُّفُوفِ كَأَنَّهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ ؟ لَقَدْ فَعَلُوا مِثْلَ هَذَا فِي بَعْضِ جَامِعَاتِ أَوْرُبَّةَ ، فَحَرَّمُوا صِنْعَ الشَّفَاهِ عَلَى الْفَتَاتِ ، وَمَنَعُوهُنَّ إِنْدَاءَ الزَّيْنَةِ ؛ فَأَمْتَنَعَتِ الزَّيْنَةُ وَالْمَتَرَّيْنَةُ مَعًا ، وَهَجَزَتِ الْجَامِعَةَ ، وَقُلْنَ فِيمَا قُلْنَ : إِنَّ الْمَرْأَةَ وَالْأَحْمَرَ

وَالْأَبْيَضَ وَنَحْوَهَا هِيَ الْحَقَائِقُ فِي عِلْمِ الْمَرْأَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَسَالِبِ بَحْثِ كُلِّ فِتْنَةٍ عَنْ رَجُلِهَا الْمَخْبُوءِ بَيْنَ الرِّجَالِ فِي الْجَامِعَةِ أَوْ غَيْرِ الْجَامِعَةِ ، وَالْعِلْمُ وَسِيلَةُ عَيْشٍ ، وَالرَّجُلُ وَسِيلَةُ مِثْلِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ أَجْدَى الْوَسِيلَتَيْنِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَحَقُّهُمَا بِالْعِنَايَةِ ، إِذْ هِيَ لَا تَتَرَوَّجُ الْكِيمِيَاءَ وَلَا الطَّبِيعَةَ وَلَا الْقَانُونَ ، وَمَعْنَى هَذَا بَغْيُ اللُّغَةِ الَّتِي هُنَا فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّ جُودَ الْفِتْنَةِ مَعَ الشُّبَّانِ لِلتَّعْلِيمِ ، هُوَ كَذَلِكَ وَجُودُهَا بَيْنَهُمْ لِلْاِسْتِمَالَةِ وَالْمَكْرِ النَّسْوِيِّ الْجَذَابِ .

أَسْمِعِي أَسْمِعِي ! مَا هَذَا الصَّوْتُ الْمُتَنَكِّرُ الْجَافِي الْخَشِنُ ؟ .

فَتَسَمَعَتْ ، فَإِذَا الطَّالِبُ الْأَزْهَرِيُّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ : قَالُوا : وَيَحْرُمُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَرَى شَيْئًا مِنَ الرِّجُلِ وَلَوْ بِلَا مِثْلِ وَلَا خَوْفَ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا هِيَ أَضْطَرَّتْ إِلَى مُدَاوَاةٍ أَوْ آدَاءِ شَهَادَةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - جَارَ نَظَرُهَا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ .

فَقَالَتِ الشَّيْطَانَةُ : هَذَا كَلَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ ... لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَائِعًا لَوْ أَنَّ الشُّبَّانَ يَتَعَلَّمُونَ فِي الْجَامِعَةِ لِيَحْمِلُوا مَعَهُمُ الْحَقَّ كَمَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعِلْمَ ؛ وَكَيْفَ لَهُمْ بِهَذَا وَمَعَانِي الدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ كَأَسْمَاءِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فِي كُتُبِ الْجُغَرَاْفِيَةِ ، لَا هُمْ رَأَوْهَا وَلَا هُمْ حَقَّقُوهَا ؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الدِّينِ هُنَا ، فَيَقُولُ لَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ : أَلَمْ تَعْرِفُوا الصَّلَاةَ وَأَنَّهَا الصَّلَاةُ ، وَالصَّيَامَ وَأَنَّهُ الصَّيَامُ ، وَالزَّكَاةَ وَأَنَّهَا الزَّكَاةُ ، وَالْحَجَّ وَأَنَّهُ الْحَجُّ ؟ وَهَذَا كَلَامٌ يُشَبِّهُ دَرَسَ مَوَاقِعِ الْبِلَادِ عَلَى الْخَرِيطَةِ ، فَبَارِيسُ Paris كَلِمَةٌ ، وَلَنْدُنُ London كَلِمَةٌ ، لَا غَيْرَ ؛ أَمَّا الْحَقِيقَةُ الْعَظِيمَةُ الْهَائِلَةُ فَشَيْءٌ غَيْرُ هَذَا الْكَلَامِ الْجُغَرَاْفِيِّ التَّعْلِيمِيِّ ؛ إِذْ مَا هِيَ كُلُّ فُرُوضِ الدِّينِ إِلَّا أَغْمَالٌ دَقِيقَةٌ نَائِبَةٌ يَجِبُ فَرَضُهَا عَلَى الْجَمِيعِ لِتَحْقِيقِ النَّفْسِيَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْجَمْعِ ، وَهِيَ سِرُّ الْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالتَّجَاحِ ، فَتَعْلِيمُ الدِّينِ فِي الْجَامِعَةِ هُوَ إِفْتِنَاعُ النَّفْسِ بِجَعْلِ فُرُوضِهِ مِنْ قَوَائِمِهَا الثَّابِتَةِ ، لَا بِآدَاءِ هَذِهِ الْفُرُوضِ فَقَطْ ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِدَرْسِهِ كَمَا تَدْرُسُ فَلَسَفَةُ الْقَوَانِينِ وَالْاِفْتِصَادِ وَالتَّرْبِيَةِ ، أَيْ : بِاِغْتِيَارِهِ عِلْمَ فَلَسَفَةِ الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأُمَّةِ ، ثُمَّ بِجَعْلِ الْمُدَرِّسِينَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِهِ ، لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَى الْإِفْتِنَاعِ ، فَلَا يَنْقَلِبُ الدَّرْسُ هُزْأً وَسُخْرِيَةً ؛ وَبِذَلِكَ يَخْرُجُ الشَّابُّ مِنَ الْجَامِعَةِ وَفِي رُوحِهِ قُوَّةٌ نَائِبَةٌ تَعْمَلُ بِهِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ ، وَتُوجِّهُهُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَحْفَظُهُ بَيْنَ أَهْوَاءِ الْحَيَاةِ

وَشَدَائِدِهَا ، وَتَجَعَلُهُ دَائِمًا يَشْعُرُ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ السَّامِي مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَ فِي أَقَلِّ
مَرَاتِبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَرْجِعُ الشُّبَّانُ فِي الْأُمَّةِ آلَاتِ قُوَّةٍ مُنَظَّمَةٍ عَامِلَةٍ ، وَأَيْسَرُ
مَا تَعْمَلُهُ هَذِهِ الْآلَاتُ ، إِزَالَةُ الْمُتَنَكِّرَاتِ ، وَصُنْعُ الشَّعْبِ صَنَعَةً جَدِيدَةً لِلسَّلَامِ وَالْحَرْبِ ،
وَوَ ، وَ ، وَ ، وَ ...

قَالَ الشَّيْطَانُ : وَمَاذَا أَتَيْتُهَا الْخَبِيرَةُ ؟ لَقَدْ هَوَّلَتْ عَلَيَّ !

قَالَتْ : وَطَرَدْنَا نَحْنُ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجَامِعَةِ !

قَالَ : أَسْكَنْتِي وَنَحَكِ ! فَمَا أُرْسِلْتُ مِنْ مُسْتَشْفَى الْمَجَانِينَ إِلَّا لِهَذَا ؛ فَلَنْ يَقَعَ الْفَضْلُ
بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ ، وَلَنْ يَدْخُلَ التَّعْلِيمُ الدِّينِي فِي الْجَامِعَةِ ، وَسَيُدَافِعُونَ بِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ ضَرْبٌ
مِنَ الْجُنُونِ ...

*

*

*

نَهْضَةُ الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ (*)

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ النَّهْضَةَ وَافِعَةً فِي الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ ، مُسْتَطَبَّةٌ فِي أَرْجَائِهَا أَسْطَرَارَةُ الشَّرِّ بِضُرْمٍ فِي كُلِّ جِهَةٍ نَارًا حَامِيَةً ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ لِعَنْصَرِهِ الْمُلتَهَبِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشَّرْقَ قَدْ تَنَلَّتْ مِنْ أَوْهَامِ السِّيَاسَةِ وَخُرَافَاتِهَا ، وَقَدْ اخْتَلَفَ عَلَى الْغَرْبِ بَعْدَ أَنْ طَابَقَهُ زَمَنًا ، وَتَابَعَهُ مَدَّةً ، وَعَرَفَهُ بِمِقْدَارِ مَا بَلَاهُ ، وَكَذَّبَهُ بِقَدْرِ مَا صَدَّقَهُ ، وَتَفَرَّقَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْعَقْلَ الشَّرْقِيَّ قَدْ تَطَوَّرَ وَأَدْرَكَ مَعْنَى نَكْثِ الْعَهْدِ وَنَقْضِ الشَّرْطِ فِي السِّيَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ بَعِيْنُ الْعَهْدِ وَالشَّرْطِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ مَا دَامَتْ الْمَفَاوِضَةُ وَالتَّعَاوُدُ بَيْنَ الذُّبِّ وَالشَّاءِ . . . وَلَا رَيْبَ أَنَّ الشَّرْقَ يُجَادِثُ الْآنَ مَقَالِيدَهُ الَّتِي أَلْفَاهَا ، وَيَضْرِبُ عَلَى سَلَاسِلِهِ الَّتِي تَقْيِدُ بِهَا ، وَيُكَابِدُ الصُّعُودَ وَالْهَبُوطَ فِي نَهْضَتِهِ هَذِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ بَلَغَ مِنْ إِعْصَائِهِ عَلَى الذُّلِّ وَقَرَارِهِ عَلَى الضُّمَيْمِ ، وَجَهْلِهِ وَتَجَاهُلِهِ - أَنْ أَوْزِيَّةً رَبَطَتْ أَفْطَارَهُ كُلَّهَا فِي بَضْعَةِ أَسَاطِيلَ تَجْدِيْهَا جَذَبَ الْكَوَاكِبِ لِلْأَرْضِ .

غَيْرَ أَنِّي مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا أَسْمِي هَذِهِ النَّهْضَةَ نَهْضَةً إِلَّا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ وَالتَّوْشِعِ فِي الْعِبَارَةِ ، وَالذَّلَالَةِ بِمَا كَانَ عَلَى مَا يَكُونُ : فَإِنَّ أَسْبَابَ النَّهْضَةِ الصَّحِيْحَةَ الَّتِي تَطْرُدُ أَطْرَادَ الزَّمَنِ ، وَتَنْمُو نُمُو الشَّبَابِ وَتَنْدَفِعُ أَنْدِفَاعَ الْعُمَرِ إِلَى أَجَلٍ بَعِيْنِهِ - لَا يَرَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِثْلُ هَذَا الْمَوْتِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلَفِنَا وَأَوَّلِيْنَنَا ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْأَخْلَاقُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَأَيْنَ

(١) كُتِبَ هَذَا الْمَقَالُ جَوَابًا لِلْاسْتِغْنَاءِ الْآتِي الَّذِي وَجَّهْتُهُ إِلَيْهِ إِحْدَى الْمَجَالَتِ الْعَرَبِيَّةِ :

أ - هَلْ تَتَعَدُّونَ أَنَّ نَهْضَةَ الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ قَائِمَةٌ عَلَى أَسَاسٍ وَطِيْدٍ يَضْمَنُ لَهَا الْبَقَاءَ ، أَمْ هِيَ فَوْرَانٌ وَفَتِي لَا يَلْبَثُ أَنْ يَخْتَمِدَ ؟

ب - هَلْ تَتَعَدُّونَ بِإِمْكَانٍ تَضَامُنِ هَذِهِ الْأَفْطَارِ وَتَأَلْفِهَا ؟ وَمَتَى ؟ وَبِأَيِّ الْعَوَامِلِ ؟ وَمَا شَأْنُ اللُّغَةِ فِي ذَلِكَ ؟

ج - هَلْ يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ أَفْتِيَاثُ عَنَاصِرِ الْمَدِينَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ وَبِأَيِّ قَدْرِ ؟ وَعِنْدَ أَيِّ حَدٍّ يَجِبُ أَنْ يَقِفَ هَذَا الْأَفْتِيَاثُ ، فِي النِّظَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، وَفِي الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ ، وَفِي الْعَادَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَفِي الْكُرِّيَّةِ وَالتَّغْلِيمِ ؟ سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

الْمِرَاجُ الْعَقْلِيُّ الصَّحِيحُ لِأَمَمِ الشَّرْقِ ، وَمَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ مِنْ رُوحٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ؟ ثُمَّ أَيْنَ الْمُضْلِحُونَ الَّذِينَ لَا يُسَاسِمُونَ بِمُلْكٍ وَلَا إِمَارَةٍ ، وَلَا يَطْلُبُونَ بِالْإِصْلَاحِ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا أَوْ بَاطِلًا مِنْ زُخْرِفِهَا ؟ ثُمَّ أَيْنَ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ تَجْعَلُهُمْ مَبَادِئَهُمُ الْعَالِيَةَ الْقَوِيَّةَ أَوَّلَ ضَحَايَاهَا ، وَتَرْوِي مِنْهُمْ عِرْقَ الثَّرَى الَّذِي يَغْتَذِي مِنْ بَقَايَا الْأَجْدَادِ لِيَنْبُتَ مِنْهُ الْأَحْفَادُ ؟

إِنَّ الْجَوَابَ عَلَى نَهْضَةِ أُمَّةٍ نَهْضَةً ثَابِتَةً لَا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ وَقُتُوبِهِ ، بَلْ مِنْ مَبْدَأٍ ثَابِتٍ مُسْتَمِرٍّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي نُفُوسِ أَهْلِهَا ، وَلَكِنْ يَكُونُ هَذَا الْمَبْدَأُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَخُلُقٌ عَزِيزٌ ، وَاسْتِهَانَةٌ بِالْحَيَاةِ ، وَصِبْغَةٌ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ .

فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ فَلَا تَنْقُصُ الشَّرْقِيِّينَ ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِيهَا لِسَاسَةِ الْغَرْبِ الَّذِينَ بَصَرُونَا بِأَنْفُسِنَا ، إِذْ وَضَعُونَا مَعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى أَمَامَ مِرَاةٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ ، وَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي فِي الْمِرَاةِ غَيْرُ هَذَا الْفَرْدِ الَّذِي فِيهَا . . . وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُلُقُ وَأَيْنَ الْعِزَّةُ الْقَوْمِيَّةُ وَأَيْنَ الْعَصِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَهَذِهِ مَفَاسِدُ أَوْرِيَّةٍ كُلُّهَا تَنْصَبُ فِي أَخْلَاقِ الشَّرْقِيِّينَ كَمَا تَنْصَبُ أَفْدَارُ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ فِي نَهْرٍ صَغِيرٍ عَذِبٍ ، فَلَا الَّذِي بَقِيَ فِينَا أَخْلَاقًا ، وَلَا الْأَخْلَاقُ بَقِيَتْ فِينَا دِينًا ، وَأَصْبَحَتِ الْمِيزَةُ الشَّرْقِيَّةُ فَاسِدَةً مِنْ كُلِّ جُوهٍ فِي الرُّوحِ وَالذُّوقِ ، وَلَمْ يَعُدْ لَنَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى الْمَدَنِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَأَخَذَ الْحَمَقَى وَالضَّعْفَاءُ مِتًا يُحَاوِلُونَ فِي إِصْلَاحِهِمْ أَنْ يُؤَلَّفُوا الْأُمَّةَ عَلَى خُلُقٍ جَدِيدٍ يَنْتَزِعُونَهُ مِنَ الْمَدَنِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخُلُقَ الطَّارِئَ لَا يَرْسُخُ بِمِقْدَارِ مَا يُفْسِدُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّاسِخَةِ . وَهُمْ يَغْتَبِطُونَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَثَلًا : إِنَّ مِصْرَ قِطْعَةً مِنْ أَوْرِيَّةٍ ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ تَعْطِيلِ الْمَدَنِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَالذَّهَابِ بِهَا ، وَإِفْسَادِهَا ، وَتَعْرِضِهَا لِلذَّمِّ ، وَتَسْلِيطِ الْبَلَاءِ عَلَيْهَا ، مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى التَّبَسُّطِ فِي شَرْحِهِ .

لَسْتُ أَقُولُ : إِنَّ نَهْضَةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا أَسَاسَ لَهَا ؛ فَإِنَّ لَهَا أَسَاسًا مِنْ حِمِيَّةِ الشَّبَابِ ، وَعِلْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَمِنْ جَهْلِ أَوْرِيَّةِ الَّذِي كَشَفَتْهُ الْحَزْبُ ، وَلَكِنَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قُوَّتِهِ وَكَفَايَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِإِقَامَةِ الْأَحْدَاثِ الْكُبْرَى وَاهْتِجَاجِ الْعَوَاطِفِ السِّيَاسِيَّةِ - لَا يَحْمِلُ ثِقَلَ الزَّمَنِ الْمُتَمَدِّدِ ، وَلَا يَكْفِي لَأَنْ يَكُونَ أَسَاسًا وَطِيدًا يَقُومُ عَلَيْهِ بِنَاءُ عِدَّةِ قُرُونٍ مِنْ

الْحَضَارَةُ الشَّرْقِيَّةُ الْعَالِيَّةُ ، بَلْ مَا أَسْرَعَهُ إِلَى الْهَذَمِ وَالْقَفْصِ ، لَوْ صَدَمَتْهُ الْأَسَالِيبُ اللَّيِّسَةُ مِنْ الدَّهَاءِ الْأَوْرُبِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهَا . . .

إِذْ قُدِّرَ لِأَوْرُبَهُ أَنْ تَفُوزَ بِأَسْلُوبِهَا الْجَدِيدِ ، أَسْلُوبِ اسْتِعْبَادِ الشَّرْقِ بِالصَّدَاقَةِ . . . عَلَى طَرِيقَةِ ادِّعَاءِ الثَّغْلِبِ لِلدَّجَاجِ أَنَّهُ قَدْ حَجَّ وَتَابَ وَجَاءَ لِيُصَلِّيَ بِهَا . . .

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ نَهْضَةَ هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ لَا تُعْتَبَرُ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسٍ وَطَنِيٍّ إِلَّا إِذَا نَهَضَ بِهَا الرُّكْنَانِ الْخَالِدَانِ : الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ وَمَا عَدَاهُمَا فَعَسَى أَنْ لَا تَكُونَ لَهُ قِيَمَةٌ فِي حُكْمِ الزَّمَنِ الَّذِي لَا يَقْطَعُ بِحُكْمِهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ مِنَ الْمَبْدَأِ وَالنَّهَائَةِ .

وظَاهِرٌ أَنَّ أَغْلِيَّةَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ وَمَادَّيْهِ الْعُظْمَى هِيَ الَّتِي تَدِينُ بِالْإِسْلَامِ ، وَمَا الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا مَجْمُوعَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ قَوِيَّةٌ تَرْمِي إِلَى شَدِّ الْمَجْمُوعِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَعَمْرِي إِنِّي لَأَحْسِبُ عَظَمَاءَ أُمْرِيكَ كَأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ النَّارِخِ الْحَدِيثِ فِي مُعْظَمِ أَخْلَاقِهِمْ ، لَوْلَا شَيْءٌ مِنَ الْفَرْقِ هُوَ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَنْحَطُّوا إِذَا هُمْ بَلَّغُوا الْقِمَّةَ ، فَإِنَّ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا أَنَّ قِمَّةَ الْحَضَارَةِ الرَّفِيعَةِ هِيَ بِعَيْنِهَا مَبْدَأُ سُقُوطِ الْأُمَمِ ، وَهَذَا عِنْدَنَا هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ يَكْرَهُ لِأَهْلِهِ أَنْوَاعَ التَّرَفِ وَالزُّبْنَةِ وَالْإِسْتِرْحَاءِ ، وَلَا يَرَى التَّحْتَ وَالنَّصُورَ وَالْمُوسِيقَى وَالْمُعَالَاةَ فِيهَا وَفِي الشَّعْرِ إِلَّا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَا يَحْرُمُ إِنْ وَجَدَ سَبَبٌ لِتَحْرِيمِهِ ، إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْقُتُونُ فِي الْعَالِبِ وَفِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الَّتِي تُؤَدِّي فِي نَهَائِيَّتِهَا إِلَى سُقُوطِ أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ ، بِمَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ أَسَالِيبِ الرِّفَافِيَّةِ وَالضَّعْفِ الْمُتَفَتِّنِ ، وَمَا تُخْدِثُهُ لِلنَّفْسِ مِنْ قُتُونِ اللَّذَاتِ وَالْإِغْرَاقِ فِيهَا وَالْإِسْتِهْنَارِ بِهَا ؛ وَمَا سَقَطَتْ الدَّوْلَةُ الرُّومَانِيَّةُ وَلَا الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَّا بِكَأْسٍ وَأَمْرَأَةٍ وَوَتَرٍ ، وَخَيَالٍ شِعْرِيٍّ يَفْتَنُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَيُرِيئُهَا .

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لِلْأُمَّةِ فِي نَهْضَتِهَا مِنْ أَنْ تَتَغَيَّرَ ، فَإِنَّ رُجُوعَنَا إِلَى الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكَرِيمَةِ أَعْظَمُ مَا يَصْلُحُ لَنَا مِنَ التَّغْيِيرِ وَمَا نَصْلُحُ بِهِ مِنْهُ ، فَلَقَدْ بَعُدَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِهَا ، وَانْقَطَعَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبُغْضِ الْآخَرِ ، وَإِذَا نَحْنُ نَبْذُنَا الْخَمَرَ ، وَالْفُجُورَ ، وَالْقِمَارَ ، وَالْكَذِبَ ، وَالزُّبْنَ ؛ وَإِذَا أَنْفَتْنَا مِنَ التَّخَنُّثِ ، وَالتَّبَرُّجِ ، وَالْإِسْتِهْنَارِ بِالْمُنْكَرَاتِ ، وَالْمُبَالِغَةِ فِي الْمُجُونِ وَالسُّخْفِ وَالرَّقَاعَةِ ، وَإِذَا أَخَذْنَا فِي أَسْبَابِ الْقُوَّةِ ، وَأَصْطَنَعْنَا

الْأَخْلَاقَ الْمَتِينَةَ : مِنَ الْإِرَادَةِ ، وَالْإِفْدَامِ ، وَالْحِمِيَةِ ، وَإِذَا جَعَلْنَا لَنَا صِبْغَةً خَاصَّةً نُمَيِّرُنَا مِنْ سِوَانَا ، وَتَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّنَا أَهْلُ رُوحٍ وَخُلُقٍ - إِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَلَعَمْرِي أَيُّ ضَمِيرٍ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ وَهَلْ تِلْكَ إِلَّا الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الصَّحِيحَةُ ، وَهَلْ فِي الْأَرْضِ نَهْضَةٌ ثَابِتَةٌ تَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا ؟

إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ هَذَا الدِّينِ الْأَخْلَاقِي أَنَّهُ صُلْبٌ فِيمَا لَا بُدَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْهُ إِذَا ارَادَتْ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ ، وَلَكِنَّهُ مَرِنٌ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْأَزْمَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِمَّا لَا يَأْتِي عَلَى أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَيْسَ يَحْقُقُ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الدِّينُ شَيْءٌ فِي نَهْضَةِ الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ خَاصَّةً ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْأَصْلُ الرَّاسِخُ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَعْصَابِ ، وَمَتَى نَهَضَ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُمْ مَادَّةُ الشَّرْقِ ، نَهَضَ إِخْوَانُهُمْ فِي الْوَطَنِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْأُخْرَى ، وَأَضْطَرُّوا أَنْ يُجَاسِئُوهُمْ فِي أَغْلَبِ أَخْلَاقِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا حَجَرَ عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَبْغُضِ الْحَجَرِ عَلَى حُرِّيَّةِ الْمَرِيضِ إِذَا أَوْجَزَتْهُ الدَّوَاءُ الْمُرُّ .

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةً بِنَصِّ دِينِهِمْ ، وَكَانَتْ مَبَادِئُهُمْ وَاحِدَةً ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا ، فَلَا جَزَمَ كَانَ مِنَ السَّهْلِ - لَوْ رَجَعُوا إِلَى أَخْلَاقِ دِينِهِمْ وَاتَّبَعُوا مَا يَصُدُّهُمْ عَنْهَا - أَنْ يُؤَلَّفُوا مِنَ الشَّرْقِ كُلِّهِ دَوْلًا مُتَّحِدَةً يَخْشُبُ لَهَا الْغَرْبُ حِسَابًا ذَا أَرْقَامٍ لَا تَنْتَهِي . . .

إِنَّ هَذَا الشَّرْقَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَبَادِي وَالْأَخْلَاقِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَامِتَةٌ فِيهِ ، وَمُسْتَقْبَلَةٌ كَامِنٌ فِيهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَضْلُحُ فِي الْكُتُبِ وَلَا فِي الْقُنُونِ ، بَلْ فِي الرِّجَالِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا ، فَالْقُلُوبُ وَالْأَذْمَغَةُ هِيَ أَسَاسُ النَّهْضَةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ ، وَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنَا هَذِهِ النَّهْضَةَ الزَّاهِنَةَ وَجَدْنَا أَسَاسَهَا خَرِبًا مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَوَجَدْنَا الْمَكَانَ الَّذِي لَا يَمْلَأُهُ إِلَّا الْقَلْبُ الْكَبِيرُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا خَيَالُ كَاتِبٍ مِنَ الْكُتَّابِ ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي لَا يَسُدُّهُ إِلَّا الرَّأْسُ الْعَظِيمُ قَدْ سَدَّتْهُ قِطْعَةٌ مِنْ صَحِيفَةٍ . . .

وَلَقَدْ تَنَبَّأَ نَبِيُّ هَذَا الدِّينِ ﷺ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الشَّرْقُ الْعَرَبِيُّ بِإِزَاءِ الْغَرْبِ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ بَنُو الْأَصْفَرِ ^(١) اجْتِمَاعَ الْأَكَلَةِ

(١) بَنُو الْأَصْفَرِ : هُمُ الرُّومُ ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْرَبِيِّينَ .

عَلَى الْأَفْصَاحِ ؟ » فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ كَثْرَةِ ؟ قَالَ : « بَلْ مِنْ كَثْرَةِ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ ^(١) كَغُثَاءِ السَّيْلِ قَدْ أَوْهَنَ قُلُوبُكُمْ حُبَّ الدُّنْيَا » [ابو داود ، رقم : ٤٢٩٧ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٨٩١] .

فَوَهْنُ الْقُلُوبِ بِحُبِّ الدُّنْيَا - عَلَى مَا يَنْطَوِي فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ - هُوَ عِلَّةُ الشَّرِّ ، وَلَا دَوَاءَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ غَيْرُ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا أَخْلَاقَ بِغَيْرِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ عِمَادُهَا . أَلَا وَإِنَّ أَسَاسَ التَّهْضَةِ قَدْ وُضِعَ ، وَلَكِنْ بَقِيَتِ الصَّخْرَةُ الْكُبْرَى وَسَوْضِعُ يَوْمًا ، وَهَذَا مَا أَعْتَقِدُهُ ، لِأَنَّ الْغَرْبَ يَدْفَعُ مَعَنَا هَذِهِ الصَّخْرَةَ لِيَقْرَهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْأَسَاسِ ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَدْفَعُنَا نَحْنُ إِلَى الْحُفْرَةِ لِيَدْفِنَنَا فِيهَا . . . وَهَذَا عَمَى فِي السِّيَاسَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخِذْلَانٍ مِنَ اللَّهِ لِأَمْرِ قَدَرُهُ وَقَضَاهُ .

* * *

وَإِنِّي لَأَرَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْأَفْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَقْتَسِبُوا مِنْ عَنَاصِرِ الْمَدِينَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَقْتِبَاسَ التَّقْلِيدِ ، بَلِ اقْتِبَاسَ التَّحْقِيقِ ، بَعْدَ أَنْ يُعْطُوا كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ التَّمْجِيسِ ، وَيَقْلَبُوهُ عَلَى حَالَتِهِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ التَّقْلِيدَ لَا يَكُونُ طَبِيعَةً إِلَّا فِي الطَّبَقَاتِ الْمُنَحْطَةِ ، وَصِنَاعَةِ التَّقْلِيدِ وَصِنَاعَةُ الْمَسْنُوعِ فَرَعَانِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَمَا قَلَدَ الْمُقْلَدُ بِلَا بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ إِلَّا أَتَى عَلَى شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَلَكَهَ الْإِنْتِكَارَ وَذَهَبَ بِنَغْصِ خَاصِّيهِ الْعَقْلِيَّةِ ، عَلَى أَنَّا لَا نُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا نَأْخُذَ مِنَ الْقَوْمِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَعِيدٌ بَيْنَ الْأَخْذِ فِي الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْعُلُومِ ، وَبَيْنَ الْأَخْذِ مِنْ زُخْرِفِ الْمَدِينَةِ وَأَهْوَاءِ النَّفْسِ وَقُتُونِ الْخَيَالِ وَرَوْنِقِ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ ، إِذِ الْفَكْرُ الْإِنْسَانِيُّ إِنَّمَا يُنْتِجُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا ، فَلَيْسَ هُوَ مُلْكًا لَأُمَّةٍ دُونَ أُخْرَى ؛ وَمَا الْعَقْلُ الْقَوِيُّ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ قُوَّةِ الطَّبِيعَةِ .

فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا مِنَ النِّظَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، فَلْنَأْخُذْ مَا يَتَّقُ مَعَ الْأَصْلِ الرَّاسِخِ فِي آدَابِنَا مِنَ الشُّرُورِ وَالْحُرِّيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَى أَخْلَاقِ الْأُمَّةِ وَلَا يُفْسِدُ مَرَاجِعَهَا وَلَا يُضْعِفُ قُوَّتَهَا .

(١) الْغُثَاءُ : مَا يَخِلُهُ السَّيْلُ مِنَ الْهَشِيمِ وَنَحْوِهِ مِمَّا نَحْطُمُ وَتَعَمَّنُ وَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ فِيهِ .

وَإِذَا نَقَلْنَا مِنَ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ ، فَلَنَدْعُ خُرَافَاتِ الْقَوْمِ وَسَخَافَاتِهِمُ الرُّوَايَةَ إِلَى لُبِّ
الْفِكْرِ وَرَائِعِ الْخَيَالِ وَصَمِيمِ الْحِكْمَةِ ، وَلَنَسْتَبْجِ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْأَسْتِفْصَاءِ وَالتَّحْقِيقِ ،
وَأَسْلُوبَهُمْ فِي التَّنْقِذِ وَالْجَدَلِ ، وَتَأْتِيهِمْ إِلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْبَيِّنَاتِ الْجَمِيلَةِ
الَّتِي هِيَ الْحِكْمَةُ بِعَيْنِهَا .

وَأَمَّا فِي الْعَادَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، فَلَنَذْكُرُ أَنَّ الشَّرْقَ شَرْقٌ وَالْغَرْبَ غَرْبٌ ، وَمَا أَرَى هَذِهِ
الْكَلِمَةَ تَصْدُقُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَعْنَى وَحْدَهُ - وَالْقَوْمُ فِي نِصْفِ الْأَرْضِ وَنَحْنُ فِي نِصْفِهَا
الْآخِرِ ، وَلَهُمْ مِرَاجٌ وَقَلِيمٌ وَطَبِيعَةٌ وَمِيرَاثٌ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَلَكِنَّا مَا يَفْقَهُ وَمَا يَخْتَلِفُ ، وَإِنَّ
أَوَّلَ الْأَدِلَّةِ عَلَى اسْتِقْلَالِنَا أَنْ نَنْسَلِخَ مِنْ عَادَاتِ الْقَوْمِ ، فَإِنَّ هَذَا يُؤَدِّي بِلَا رَيْبٍ إِلَى إِبْطَالِ
صِفَةِ التَّقْلِيدِ فِينَا ، وَبِخَمِلِنَا عَلَى أَنْ نَتَّخِذَ لِنَفْسِنَا مَا يَلَانِيهِمْ طَبَائِعَنَا وَيُنَمِّي أذْوَاقَنَا الْخَاصَّةَ
بِنَا ، وَتُطْلِقُ لَنَا الْحُرِّيَّةَ فِي الْأَسْتِفْلَالِ الشَّخْصِيِّ ، وَلَقَدْ كُنَّا سَادَةَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ
الْعَادَاتُ الْغَرَبِيَّةُ الَّتِي رَأَيْنَا مِنْهَا وَمِنْ أَثَرِهَا فِينَا مَا أَفْسَدَ رُجُولَةَ رِجَالِنَا وَأُثُوَّةَ نِسَائِنَا عَلَى
السَّوَاءِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا الشُّبَّانُ الْمَسَاكِينُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَيَعْمَلُونَ
عَلَى بَثِّهَا فِي طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ إِلَّا كَالَّذِي يَحْسَبُ أَنَّ أَوْرَثَهُ يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ طُرْبُوشِهِ . . .
وَلَقَدْ غَفَلْنَا عَنْ أَنَّكَ نَدْعُوا الْأَوْرَثِينَ إِلَى أَنْفُسِنَا وَإِلَى التَّسَلُّطِ عَلَى بِلَادِنَا بِإِنْتِحَالِنَا عَادَاتِهِمْ
الْاجْتِمَاعِيَّةَ لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَوَجْهٌ مِنَ التَّقَرُّبِ بَيْنَ جَنَسَيْنِ يُعِينُ عَلَى
أَنْدِمَاجِ أَضْعَفِهِمَا فِي أَقْوَاهُمَا ، وَيُضَيِّقُ دَائِرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ هُوَ مِنْ أَيْنٍ أَعْتَبَرْتُهُ
وَجَدْتُهُ فِي فَائِدَتِهِ لِلْأَوْرَثِينَ أَشْبَهَ بِتَلْبِينِ اللَّقْمَةِ الصُّلْبَةِ تَحْتَ الْأَسْنَانِ الْفَاطِعَةِ ، وَهَلْ نَسِيَ
الشَّرْقِيُّونَ أَنَّ لَا حُجَّةَ لِلْغَرْبِ فِي اسْتِعْبَادِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ تَمْدِيدَهُمْ ١٩

وَحَيْثُمَا قُلْنَا : « الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ » فَإِنَّمَا نُرِيدُ الْأَخْلَاقَ الَّتِي قَامَ بِهَا ، وَالْقَانُونُ الَّذِي
يُسَيِّطُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ عَلَى النَّفْسِ الشَّرْقِيَّةِ ؛ وَهَذَا فِي رَأْيِنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ (١) .

(١) حَذَفْنَا مِنْ هَذَا الْمَقَالِ بَعْضَ عِبَارَاتٍ حَذَفَهَا الْمُؤَلِّفُ بِقَلَمِهِ فِي الْأَصْلِ الَّذِي تَحْتَ أَيْدِينَا . سَعِيدُ
الْعُرْيَانِ .

لَا تَجْنِي الصَّحَافَةَ عَلَى الْأَدَبِ (*)
وَلَكِنْ عَلَى فَنِّيهِ (١)

قَالُوا : إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُنْكَرُ أَنْ يُقَالَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ : (مَالِحٌ) ، وَيَقُولُ : إِنَّمَا هُوَ مَلِخٌ ، وَإِنَّ (مَالِحًا) هَذِهِ عَامِيَّةٌ ؛ فَلَمَّا أَنْشَدُوهُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا لَذِي الرُّمَّةِ يَخْتَجُونَ بِهِ عَلَيْهِ ، قَالَ : إِنَّ ذَا الرُّمَّةِ قَدْ بَاتَ فِي حَوَانِيتِ الْبَقَالَيْنِ بِالْبُصْرَةِ زَمَانًا ...

يُرِيدُ شَيْخُنَا هَذَا : أَنَّ (الْمَالِحَ) فِي الْأَكْثَرِ الْأَعْمُ يَكُونُ مِمَّا يَبِيعُهُ الْبَقَالُونَ ، وَلَغَتْهُمْ عَامِيَّةٌ مُزَالَةٌ عَنْ سَنِيهَا الْفَصِيحِ ، مَضْرُوفَةٌ إِلَى وَجْهَيْهَا التَّجَارِي ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ بَاتَ ذُو الرُّمَّةِ فِي حَوَانِيتِ الْبَقَالَيْنِ زَمَانًا حَتَّى عَلِقَتْ الْكَلِمَةُ بِمَنْطِقِهِ وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الطَّبْعُ الْعَامِي ، وَلَمْ يُخَالِطْ عَرَبِيَّتَهُ غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَحْدَهَا ؟ لَمْ يَقُلْ الْأَصْمَعِيُّ شَيْئًا ، وَلَكِنْ رِوَايَتُهُ تُخْبِرُ أَنَّ ذَا الرُّمَّةِ انْحَدَرَ مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى الْبُصْرَةِ يَلْتَمِسُ مَا يَلْتَمِسُهُ الشُّعْرَاءُ ، فَلَمَّا كَانَ بِهَا اسْتَضَاقَ بِهَا فَلَمْ يُصِبْ لِحَافَهُ غَيْرَ الْخُبْرِ ، وَلَمْ يَجِدْ لِلْخُبْرِ غَيْرَ (الْمَالِحِ) يُسَبِّغُهُ بِهِ لِيَجِدَ الْمَسْلَكَ فِي حَلْفِهِ ، قَالُوا : فَبَاتِي الْبَقَالَيْنِ فَيَتَنَاقُ مِنْهُمْ السَّمَكَةُ (الْمَالِحَةُ) وَالْبَقْلَةُ (الْمَالِحَةُ) ، وَيَعْرِفُونَهُ مُضَيَّفًا إِلَى فَرْجٍ ، فَيَنْسُونُ لَهُ فِي الثَّمَنِ إِلَى أَجَلٍ ، حَتَّى يَمْتَدِّحَ وَيَتَالَ الْجَائِزَةَ . قَالُوا : ثُمَّ يُمِطُّهُ الْمَمْدُوحُ وَيَلْوِي بِهِ وَلَا يَرَى فِي تَلْفِيْقِ الْعَيْشِ رُخْصًا إِلَّا فِي (الْمَالِحِ) ، فَيَتَتَابِعُ فِي الشَّرَاءِ وَيَمْمِضُونَ فِي إِسْلَافِهِ إِنْقَاءً عَلَيْهِ وَحُسْنَ نَظَرٍ مِنْهُمْ لِمَنْزِلَتِهِ وَشِعْرِهِ ، وَيَرَى هُوَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِلْفَوَاءِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسُهُ . فَمَا بُدَّ أَنْ يَتَرَاءَى لَهُمْ بَيْنَ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةِ ، فَيَخَالِطُهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ عَلَى طَبْعِهِمْ وَهُوَ عَلَى سَجِيَّتِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَقْتَضُونَهُ ثَمَنًا ، وَلَا يَزَالُونَ يَمْدُونُ لَهُ ، فَلَا يَرَا (الْمَالِحُ) أَيْسَرَ مَتَالًا عَلَيْهِ ، كَمَا هُوَ إِلَى نَفْسِهِ أَشْهَى ، وَفِي

(*) « الرسالة » العدد : ٥٠ ، ٦ شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ = ١٨ يونيو / حزيران ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ، الصفحات : ١٠٠٥ - ١٠٠٨ .

(١) { بِهَذَا الْمَقَالِ بَدَأَ الْمُؤَلِّفُ عَمَلَهُ فِي الرِّسَالَةِ ؛ وَأَنْظَرَ « عَمَلَهُ فِي الرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . }

جَوْفِهِ أَمْرًا ، لِمَكَانِ أَعْرَابِيَّتِهِ وَخُسُونَةِ عَيْشِهِ ؛ فَيَصِيبُ عَنْدهُمْ مَرْتَعَةً مِنْ هَذَا (الْمَالِحِ) .
قَالُوا : ثُمَّ يَرَى الْبِقَالُونَ أَنْ لَا ضَمَانَ لِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ مَعَهُمْ ، فَيُلْزِمُونَهُ
الْحَوَانِيتَ بِيَاضِ يَوْمِهِ ، وَيُغْلِقُونَهَا عَلَيْهِ سَوَادَ لَيْلَتِهِ ، فَهُمْ يُمَسِّكُونَهُ بِالْثَّهَارِ ، وَتُمْسِكُهُ
الْحَنِيطَانُ وَالْأَبْوَابُ بِاللَّيْلِ !

فَلَمَّا عَظُمَ الدِّينُ ، وَبَلَغَ الْجُمْلَةُ الَّتِي فَاتَتْ حِسَابَ الْأَيَّامِ إِلَى حِسَابِ الْأَهْلَةِ ، أَخْضَرَ
الشَّاعِرُ كَرْبَهُ وَهَمَّهُ ، وَلَمْ يَعُدِ (الْمَالِحُ) يَنْجِعُ فِيهِ ، وَلَا يَجِدُ بِهِ غِذَاءً بَلْ حَرِيقًا فِي الدَّمِ ،
وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَمْتَحَنَ بِهِذَا (الْمَالِحِ) الْحَبِيبِ ، وَأَشْرَطَ نَفْسَهُ فِيهِ ، وَأَزْنَتْهَا بِهِ ؛ فَلَا يَزَالُ
مِنْ (الْمَالِحِ) هَمٌّ فِي نَفْسِهِ ، وَمَغْصَصٌ فِي جَوْفِهِ ، وَلَفْظٌ عَلَى لِسَانِهِ ، وَدَيْنٌ عَلَى دِمَتِهِ ؛ وَلَا
يَزَالُ مَهْمُومًا بِهِ ؛ إِذْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ مِنْ طَرِيقَيْنِ : إِمَّا الْوَفَاءَ وَلَا قُدْرَةَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْلِسٍ ،
وَإِمَّا الْحَبْسُ وَلَا طَاقَةَ بِهِ لِشَاعِرٍ ؛ وَحَبْسُ ذِي الرُّمَةِ فِي ثَمَنِ (الْمَالِحِ) هُوَ حَبْسٌ عِنْدَ
الشُّرْطَةِ ، وَلَكِنَّهُ قَتْلٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ عِنْدَ صَاحِبِهِ (مَيَّةً) إِذَا تَرَامَى إِلَيْهَا الْحَبْرُ ؛ وَالْأَعْرَابِيُّ
الْجِلْفُ الَّذِي يُحْبَسُ فِي ثَمَنِ (الْمَالِحِ) عِنْدَ الْوَالِي بَعْدَ أَنْ بَاتَ زَمَنًا رَهْنًا بِهِ فِي حَوَانِيتِ
الْبِقَالِينَ لَا يَصْلُحُ عَاشِقًا لِمَيٍّ ، وَهِيَ مَنْ هِيَ !

[من الطويل] :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الْحَوَاشِي
فَلَا (الْمَالِحُ) مِنْ غِذَائِهَا ، وَلَا لَفْظُ (الْمَالِحِ) مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يَكُونُ فِي فَمِهَا الْعَذَبُ ،
وَأَبْعَدَ اللَّهُ جَارِبَتَهَا الزَّنْجِيَّةَ إِنْ لَمْ تَأْتَفْ لِنَفْسِهَا وَمَكَانِهَا مِنْ عِشْقِي هَذَا الْأَعْرَابِيَّ الْغَلِيطَ
الْخَسِيفَ الَّذِي الْحَقُّهُ (الْمَالِحُ) بِاللُّصُوفِ وَالْغَارِمِينَ ، وَأَخْرَاهَا اللَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِشْقُ هَذَا
الْأَعْرَابِيِّ لَهَا سَوَادًا عَلَى سَوَادِهَا فِي النَّاسِ ، فَكَيْفَ بِمَيٍّ وَهِيَ أَصْفَى مِنَ الْمِرَاةِ اللَّقِيقَةِ ،
وَأَبْيَضُ مِنَ الزَّهْرِ الْبَيْضَاءِ ؟

قَالُوا : وَيَصْنَعُ اللَّهُ لِعَيْنَانِ الْمَسْكِينِ ، فَيَمْدَحُ وَيُنَافِقُ وَيَخْتَالُ ، وَيَعِدُّهُ الْمَمْدُوحُ
بِالْجَائِزَةِ إِذَا غَدَا عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ وَالشَّمْسُ نَازِلَةً إِلَيْ خِدْرِهَا ، فَيَتَكَفَّى الشَّاعِرُ إِلَى
حَوَانِيتِ غُرْمَائِهِ مِنَ الْبِقَالِينَ يَبِينُ فِيهَا أُخْرَى لِيَالِيهِ ، وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِ وَقَدْ سَمِعُوهُ أَكَلًا
وَمَاطِلًا ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَلَا يَغْنَدُونَهُ إِلَّا فَأَرَا مِنْ فِتْرَانِ حَوَانِيتِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ يَأْكُلُ فَيَسْتَرْفِي ، وَلَمْ

يَعْدُ اسْمُهُ عِنْدَهُمْ ذَا الرُّمَةِ بَلْ ذَا الْعُمَةِ . . . فَلَمْ يُعْطَوْهُ لِعَشَائِهِ هَذِهِ الْأَمْرَةَ إِلَّا مَا فَسَدَ وَخَبَتْ مِنْ عَتِيقِ (الْمَالِحِ) ، فَهُوَ نَيْنٌ يُسَمَّى طَعَامًا ، وَدَاءٌ يُنَاجِ بِشْمَنِ ، وَهَلَاكٌ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْأَضْطِرَارُ كَمَا يَحْمِلُ عَلَى أَكْلِ الْجِحْفَةِ ؛ وَكَانُوا قَدْ وَضَعُوهُ فِي آيَةِ قَدَرَةٍ مُتَلَجِّنَةٍ طَالَ عَهْدُهَا بِالْغَسْلِ وَالنَّظَافَةِ ، وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَقَنِ قَدِيمٍ ، فَلَصِقَ بِهَا مَا لَصِقَ ، وَتَرَكَبَ عَلَيْهَا مَا تَرَكَبَ ، وَوَقَعَ فِيهَا مَا وَقَعَ .

ثُمَّ يَتَهَيَّأُ الشَّاعِرُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ يَرْجُو أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَتُهَا ، فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُ وَيُفْرَجُ عَنْهُ ، وَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ قَدْحٌ مِنَ الْمَاءِ لَوْضُوئِهِ ، وَلَكِنَّ (الْمَالِحِ) الَّذِي تَعَدَّى بِهِ كَانَ قَدْ أَحْرَقَ جَوْفَهُ وَأَضْرَمَ عَلَى أَحْسَائِهِ وَهُوَ فِي صَيْفٍ قَانِظٍ ، فَمَا زَالَ يُطْفِئُهُ بِالشَّرْبَةِ بَعْدَ الشَّرْبَةِ ، وَالْمَصَّةِ بَعْدَ الْمَصَّةِ ، حَتَّى أَشْتَفَّ الْقَدْحَ وَآتَى عَلَيْهِ ، فَيَكْسِلُ عَنِ الصَّلَاةِ وَيَلْعَنُ (الْمَالِحِ) وَمَا جَرَّ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ يَعْضُهُ الْجُوعُ فَيَكْسِرُ خُبْزَتَهُ وَيُسَمِّي وَيَغْمِسُ اللَّقْمَةَ ثُمَّ يَزْفَعُهَا فَيَجِدُ لَهَا رَائِحَةً مُنْكَرَةً ، فَيَنْظُرُ فِي الْآيَةِ وَقَدْ نَفَذَ إِلَيْهِ الضُّوءُ مِنْ قِنْدِيلِ الْحَارِسِ ، فَإِذَا فِي (الْمَالِحِ) خُنْفَسَاءُ قَدْ انْفَجَرَتْ شِبَعًا ، وَيَدْفُقُ النَّظْرَةُ فَإِذَا دُوبِيَّةٌ أُخْرَى قَدْ تَمَسَّحَتْ وَهَرَأَا (الْمَالِحِ) وَفَعَلَ بِهَا وَفَعَلَ ! قَالُوا : وَتَثِبَ نَفْسُهُ إِلَى حَلْفِهِ ، وَلَا يَرَى الْأَطَاعُونَ وَالْبَلَاءُ الْأَضْفَرَ وَالْأَحْمَرَ إِلَّا هَذَا (الْمَالِحِ) ، فَيَسْجُو إِلَى كُوَّةِ الْحَانُوتِ يَسْتَسِمُّ الْهَوَاءَ مِنْهَا وَيَتَطَعَّمُ الرُّوحَ وَهِيَ مُضَيَّئَةٌ بِالْحَدِيدِ ، وَلَا يَزَالُ يُرَاعِي مِنْهَا اللَّيْلَ وَيُقَدِّرُهُ مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً بِحِسَابِ الْبَادِيَةِ ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ يَلْعَنُ (الْمَالِحِ) عَدَدَ مَا يُسَبِّحُ الْعَابِدُ الْقَائِمُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَيَطُولُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا كَادَ يَنْشَقُّ لَمَعَ الْفَجْرِ لِعَيْنِهِ ، فَلَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ إِلَّا كَالْعَدِيرِ يَتَفَجَّرُ بِالْمَاءِ الصَّافِي ، وَيَوْدُ لَوْ أَنْصَبَ هَذَا الضُّوءُ فِي جَوْفِهِ لِيَغْسِلَهُ مِنْ (الْمَالِحِ) وَأَوْضَارِ (الْمَالِحِ) . ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَصَاحِبِ الْحَانُوتَ فَيَنْتَحِلُ لَهُ ، وَيَعْدُو دُو الرُّمَةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ فَيَقْبِضُ الْجَائِزَةَ وَيَنْقَلِبُ إِلَى حَوَانِيتِ الْبُقَالَيْنِ فَيَوْفِي أَصْحَابَهَا مَا عَلَيْهِ ؛ وَلَا يَبْقَى مَعَهُ إِلَّا دَرَاهِمُ مَعْدُودَةٌ ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى حِمَارٍ أَكْثَرَاهُ وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ آفَاقُ الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّمَا فَرَّ مِنْ مَوْتٍ غَيْرِ الْمَوْتِ ، لَيْسَ اسْمُهُ الْبَوَارُ وَلَا الْهَلَاكُ وَلَا الْقَتْلُ ، وَلَكِنَّ اسْمَهُ (الْمَالِحِ) !

قَالُوا : وَيَحَرِّكُهُ الْحِمَارُ لِلشَّعْرِ كَمَا كَانَتْ تُحَرِّكُهُ الثَّاقَةُ ، فَيَقُولُ : أَخْرَاكَ اللَّهُ مِنْ حِمَارٍ بَصْرِيٍّ ، إِنَّ أَنْتَ فِي الْمَرَائِبِ إِلَّا (كَالْمَالِحِ) فِي الْأَطْعِمَةِ ، ثُمَّ يَغْلِيهِ الطَّبْعُ وَيَنْزُو بِهِ

الطَّرْبُ ، وَتَهْزُهُ الْحَيَاةُ ، فَيَهْتَا جُ لِلشَّعَرِ وَيَذْكُرُ شَوْقَهُ وَحُبَّهُ وَدَارَ مَيِّ ، وَفِي (عَقْلِهِ الْبَاطِنِ) حَوَانِيَتْ وَحَوَانِيَتْ مِنْ (الْمَالِحِ) ، فَيَأْتِي هَذَا (الْمَالِحِ) فِي شِعْرِهِ وَيَدْخُلُ فِي لُغَتِهِ ، فَيَقُولُ الشَّعَرُ الَّذِي أَهْمَلُ الْأَصْمَعِي رِوَايَتَهُ لِأَنَّهُ فِيهِ (الْمَالِحِ) ؛ وَمَا أَذْرِي أَنَا مَا هُوَ ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِثْلُ قَوْلِ الْآخِرِ [وَهُوَ مَجْنُونٌ لَيْلَى قَيْسُ بْنُ الْمُلَوَّحِ ، مِنْ الطُّوَيْلِ] :

وَلَوْ تَقَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ (مَالِحُ) لِأَصْبَحَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا عَذْبًا أَوْ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ [وَهُوَ عَذَافِرُ الْكِنْدِيِّ ، مِنْ الرَّجَزِ] :

بَضْرِيَّةٌ تَزَوَّجَتْ بَضْرِيًّا يُطْعِمُهَا (الْمَالِحُ) وَالطَّرِيًّا

* * *

هَذِهِ هِيَ الرِّوَايَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ الَّتِي تُفَسِّرُ كَلَامَ الْأَصْمَعِيِّ ، وَلَا مَذْهَبَ عَنْهَا فِي التَّلْغِيلِ إِذْ^(١) صَارَ (الْمَالِحُ) كَلِمَةً نَفْسِيَّةً فِي لُغَةِ ذِي الرُّمَّةِ ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَصْمَعِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، فَالْجُلُ مِنْ الْحُجَجِ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا فِي كَلِمَةِ (الْمَالِحِ) ، فَإِنَّهُ هُنَا عَامِّي بَقَالِ حَوَانِيَّتِي نَزَلَ بِطَبْعِهِ عَلَى حُكْمِ الْعَيْشِ ، وَغَلَبَهُ مَا لَا بُدَّ أَنْ يَغْلِبَ مِنْ تَسَلُّطِ (وَأَعْيِيهِ الْبَاطِنَةُ)^(٢) .

وَالْحِكْمَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّ أَبْلَغَ النَّاسِ يَنْحَرِفُ بِعَمَلِهِ كَيْفَ شَاءَتْ الْحَرْفَةُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ الْمُشَابَهَةُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ ، فَرُبَّمَا أَرَادَ بِكَلَامِهِ وَجْهًا وَجَاءَ بِهِ الْهَاجِسُ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَإِذَا كَانَ فِي النَّفْسِ مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِهَا أَفْسَدَهُ الْعَمَلُ - ظَهَرَ فَسَادُهُ فِي الدُّوْقِ وَالْإِذْرَاكِ فَطَمَسَ عَلَى مَوَاضِعَ أُخْرَى ، فَلَا تَنْتَظِرُ مِنْ صَحَافِي قَدِ أَرْزَهَنَ نَفْسُهُ بِحَرْفَةِ الْكَلَامِ أَلَّا يَكُونُ لَهُ فِي الْأَدَبِ وَالْبَلَاغَةِ (مَالِحُ) كَمَالِحِ ذِي الرُّمَّةِ ، وَإِنْ كَانَ أَبْلَغَ النَّاسِ لَا أَبْلَغَ كُتَّابِ الصُّحُفِ وَخَدَّهْمُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « إِذَا » بَدَلًا مِنْ : « إِذْ » .

(٢) وَصَعْنَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ لِمَا يُسَمَّى : (الْعَقْلُ الْبَاطِنُ) ، وَهِيَ أَدْوَى فِي التَّغْيِيرِ تَشْتَوِي فِي كُلِّ مَعَانِي الْكَلِمَةِ ، وَلَا مَعْنَى لِأَنَّهُ يَكُونُ هُنَاكَ عَقْلٌ ، ثُمَّ يَكُونُ بَاطِنًا غَافِلًا ، فَإِنَّ هَذَا « بَعِيدٌ » لَا يُسَوِّغُهُ الْأَشْتِقَاقُ .

وَالْمَالِحُ) الَّذِي رَأَيْنَاهُ لِكَاتِبٍ بَلِيغٍ مِنْ أَصْحَابِنَا^(١) أَنَّهُ كَتَبَ فِي إِحْدَى الصُّحُفِ عَنْ دِيَوَانٍ هُوَ فِي شِعْرِ هَذِهِ الْأَيَّامِ كَالْبَعِثِ بَعْدَ مَوْتِ شَوْقِي وَحَافِظِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، فَيَأْتِي بِالْمَجَازِ بَعْدَ الْأَسْتِعَارَةِ بَعْدَ الْكِتَابَةِ مِمَّا قَالَهُ الشَّاعِرُ ثُمَّ يَقُولُ : هَذَا عَجِيبٌ تَصَوُّرُهُ . لَا أَعْرِفُ مَاذَا يُرِيدُ . أَلَيْلَى لِلشَّعَاعِ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، وَلَا يَرَالُ يَنْسَحِبُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنَ التَّقْدِ ثُمَّ يُعَقِّبُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « وَالْأَصْلُ فِي الْكِتَابَةِ أَنَّهَا لِلْإِفْهَامِ ، أَيْ نَقْلُ الْخَاطِرِ أَوْ الْإِحْسَاسِ مِنْ ذِهْنٍ إِلَى ذِهْنٍ وَمِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ الْعِبَارَةُ يَتَعَاوَرُهَا الضَّعْفُ وَالْإِبْهَامُ وَالرَّكَكَاةُ وَقِلَّةُ الْعِنَايَةِ بِدَقَّةِ الْأَدَاءِ ، وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَعْمِلُ اللَّفْظَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ بِهِ ، فَكَيْفَ تَتَوَقَّعُ مِنِّي أَنْ أَفْهَمَ مِنْكَ ؟ » .

لَا ، لَا ، هَذَا (مَالِحٌ) مِنْ مَالِحِ الْأَدَبِ ، فَإِذَا كَانَ الضَّعْفُ وَالْإِبْهَامُ وَالرَّكَكَاةُ وَسُوءُ الْإِفْهَامِ وَضَعْفُ الْأَدَاءِ - آتِيَةً فِي رَأْيِي الْكَاتِبِ مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ لَهُ - فَإِنَّ مَحَاسِنَ النَّبَاتِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْأَسْتِعَارَةِ وَالْمَجَازِ وَالْكِتَابَةِ لَيْسَ لَهَا مَاتِي كَذَلِكَ إِلَّا اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَلِغَيْرِ مَا أُرِيدَ لَهُ .

وَعَلَى طَرِيقَةِ الْكَاتِبِ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ نُشُورًا ﴾ [سورة الفرقان/ الآية : ٢٣] ؟ .

أَتَرَاهُ يَقُولُ : كَيْفَ قَدِمَ اللَّهُ ، وَهَلْ كَانَ غَائِبًا أَوْ مُسَافِرًا ، وَكَيْفَ قَدِمَ إِلَى عَمَلٍ ، وَهَلِ الْعَمَلُ بَيْتٌ أَوْ مَدِينَةٌ ؟

ثُمَّ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ ﴾ [سورة هود/ الآية : ٤٤] أَيْسَأَلُ : وَهَلِ لِلْأَرْضِ حُلُقٌ تُحَرِّكُهُ عَضَلَاتُهُ لِلْبَلْعِ ، وَإِذَا كَانَ لَهَا حُلُقٌ أَفَلَا يَجُوزُ أَنْ تَرْمِي فِيهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى غَرْغَرَةٍ وَعِلَاجٍ وَطَبِّ ؟ .

وَمَاذَا يَقُولُ فِي حَدِيثِ الْبَخَارِيِّ لِرَقْم : ٢٥١٠ ، مُسْلِم ، رَقْم : ١٨٠١ ، أَبُو دَاوُد ، رَقْم : ٢٧٦٨ ، وَالنَّصُّ فِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » : [« إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّمِّ » ، أَوْ « صَوْتًا يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُّ » - كَمَا فِي الْأَغَانِي - أَيُوجِّهُ الْأَعْيَاضَ عَلَى الصَّوْتِ وَجَزَجِهِ وَدَمِهِ ، وَيَسْأَلُ :

(١) { يَغْنِي : الْمَازِنِي ، وَكَانَ لَهُ تَقْدِيدُ دِيَوَانِ « الْمَلَّاحِ النَّابِي » } .

بِمَاذَا جُرِحَ ، وَمَا لَوْ هَذَا الدِّمِ ، وَهَلْ لِلصَّوْتِ عُرُوقٌ فَيَجْرِي الدِّمُ فِيهَا ؟ .

إِنَّ الْإِفْهَامَ وَنَقْلَ الْخَاطِرِ وَالْإِحْسَاسِ لَيْسَتْ هِيَ الْبَلَاغَةُ وَإِنْ كَانَتْ مِنْهَا ، وَإِلَّا فَكِتَابَةُ الصُّحُفِ كُلُّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي الْأَدَبِ ، إِذْ هِيَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ لَا يُفْذَحُ فِيهَا وَلَا يُغْضُ مِنْهَا ، وَمَا قَصَرْتُ قَطُّ فِي نَقْلِ خَاطِرٍ وَلَا اسْتَغْلَقْتُ دُونَ إِفْهَامِ .

هَلْهَذَا خِوَانٌ فِي مَطْعَمٍ كَمَطْعَمِ (الْحَانِي) مَثَلًا ، عَلَيْهِ الشَّوَاءُ وَالْمِلْحُ وَالْفِلْفِلُ وَالْكَوَامِيخُ أَصْنَافًا مُصَنَّفَةٌ ، وَآخَرُ فِي وَلِيْمَةِ عُرْسٍ فِي قَصْرِ وَعَلَيْهِ الْوَانَةُ وَأَزْهَارُهُ وَمِنْ فَوْقِهِ الْأَشِعَّةُ وَمِنْ حَوْلِهِ الْأَشِعَّةُ الْأُخْرَى مِنْ كُلِّ مُضِيئَةٍ فِي الْقَلْبِ بِنُورٍ وَجْهَهَا الْجَمِيلُ ؛ أَفْتَرَى السُّهُولَةَ كُلَّ السُّهُولَةِ إِلَّا فِي الْأَوَّلِ ؟ وَهَلِ التَّعْقِيدُ كُلُّ التَّعْقِيدِ إِلَّا فِي الثَّانِي ؟ وَلَكِنْ أَيْ تَعْقِيدٌ هُوَ ؟ إِنَّهُ تَعْقِيدٌ فَتَيَّ لَيْسَ إِلَّا ؛ وَبِهِ يَنْصَافُ الْجَمَالُ إِلَى الْمُنْفَعَةِ ، فَتَجْتَمِعُ الْفَائِدَةُ وَالْإِسْتِمْتَاعُ وَتَزْكِي الْمَائِدَةُ وَالنَّفْسُ مَعًا ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ تَعْقِيدٌ فَتَيَّ لَأَمَّ بَيْنَ إِبْدَاعِ الطَّبِيعَةِ وَإِبْدَاعِ الْفِكْرِ ، وَجَاءَ بِرُوحِ الْمُوسِقَى الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْكَوْنُ الْجَمِيلُ فَبَثَّهَا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَائِدَةُ الْجَمِيلَةُ ، وَاسْتَنْزَلَ سِرَّ الْجَاذِبِيَّةِ فَجَعَلَ لِلْمَائِدَةِ بِمَا عَلَيْهَا شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْقُلُوبِ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ لِلْقُلُوبِ شُعُورًا مُتَّصِلًا بِالْمَائِدَةِ .

وَهَذَا التَّعْقِيدُ الَّذِي صَوَّرَ فِي الْجَمَادِ دِقَّةً فَنَ الْعَاطِفَةِ ، هُوَ بَعِيْنُهُ فَنِيَّةُ السُّهُولَةِ وَرُوحِيَّتُهَا ؛ وَتِلْكَ السَّدَاجَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ الْأُخْرَى هِيَ السُّهُولَةُ الْمَادِّيَّةُ بِغَيْرِ فَنٍ وَلَا رُوحٍ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا أَنْ إِحْدَاهُمَا تَحْمِلُ قَصِيدَةَ رَائِعَةٍ مِنَ الطَّعَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ ، وَالْأُخْرَى تَحْمِلُ مِنَ الطَّعَامِ مَقَالَةَ كَمَقَالَاتِ الصُّحُفِ !

وَالْوَجْهُ فِي الشَّوْهَاءِ وَفِي الْجَمِيلَةِ وَاحِدٌ : لَا يَخْتَلِفُ بِأَعْضَائِهِ وَلَا مَنَافِعِهِ ، وَلَا فِي تَأْدِيَتِهِ مَعَانِي الْحَيَاةِ عَلَى أَنْتَمَها وَأَكْمَلَهَا ؛ بَيِّدَ أَنَّ أَنْسَجَامَ الْجَمِيلِ يَأْتِي مِنْ إِعْجَازِ تَرْكِيبِهِ وَتَقْدِيرِ قَسَمَاتِهِ وَتَدْقِيقِ تَنَاسُبِهِ ، وَجَعَلَهُ بِكُلِّ ذَلِكَ يُظْهِرُ فَتَهُ النَّفْسِيِّ بِسُهُولَةٍ مُنْسَجِمَةٍ هِيَ فَنِيَّتُهُ وَرُوحِيَّتُهُ ، أَمَّا الْآخَرُ فَلَا يَقْبَلُ هَذَا الْفَنَ وَلَا يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا ؛ إِذَا كَانَ قَدْ فَقَدَ التَّدْقِيقَ الْهَنْدَسِيَّ الَّذِي هُوَ تَعْقِيدُ فَنَ التَّنَاسُبِ ؛ وَجَاءَ عَلَى الْمَقَايِسِ السُّهُولَةِ مِنْ طَوِيلٍ إِلَى قَصِيرٍ ، إِلَى مَا يَسْتَدِيرُ وَمَا يَعْزُضُ ، إِلَى مَا يَنْتَأُ مِنْ هُنَا وَيَنْخَسِفُ مِنْ هُنَاكَ ، كَالْوَجْهِ الْبَارِزَةِ ، وَالشَّدَقِ الْغَائِرِ ؛ فَهَذِهِ السُّهُولَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي الْوَضْعِ كَمَا يَتَّفِقُ ، هِيَ بَعِيْنُهَا التَّعْقِيدُ الْمُطْلَقُ

عِنْدَ الْفَنِّ الَّذِي لَا مَحَلَّ فِيهِ لِلْفُظَّةِ : (كَمَا يَنْفَقُ) .

وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْجَمَالُ جَمِيلًا هِيَ بِعَيْنِهَا الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْبَيَانُ بَلِيغًا ،
فَالْمَرْجِعُ فِي أَنتِيهِمَا إِلَى تَأْيِيرِهِمَا فِي النَّفْسِ ، وَأَنْتَ فَقُلْ : إِنَّ هَذَا مَفْهُومٌ وَهَذَا غَيْرُ
مَفْهُومٍ ، وَذَلِكَ سَهْلٌ وَالْآخَرُ مُعَقَّدٌ ، وَوَاضِحٌ وَمُغْلَقٌ ، وَمُسْتَقِيمٌ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَمُحَوَّلٌ عَنْ
طَرِيقَتِهِ ؛ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ نَعْبِيهِ أَوْ تَمْدَحُهُ فِي الْجَمَالِ أَوْ الْبَلَاغَةِ أَكْثَرَ مِمَّا
تَدُلُّ عَلَى مَا يُمْدَحُ أَوْ يُعَابُ فِي نَفْسِكَ وَذَوْقِكَ وَإِذْرَاكِهَا .

وَمَعَانِي الْاِخْتِلَافِ لَا تَكُونُ فِي الشَّيْءِ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ، بَلْ فِي الْأَنْفُسِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَيْهِ :
فَإِنَّ مُحَالًا أَنْ تَكُونَ الْجَبِينَةُ مَمْدُوحَةً مَذْمُومَةً لِجَمَالِهَا فِي وَقْتٍ مَعَ ، وَإِلَّا كَانَتْ قَبِيحَةً بِمَا
هِيَ بِهِ حَسَنَاءُ ، وَهَذَا أَشَدُّ بُعْدًا فِي الْاِسْتِحَالَةِ ، وَحُكْمُكَ عَلَى شَيْءٍ هُوَ عَقْلُكَ أَنْتَ فِي
هَذَا الشَّيْءِ .

وَمَتَى اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى مَعْنَى يَسْتَحْسِنُونَهُ وَجَذَتِ دَوَاعِي الْاِسْتِحْسَانِ فِي أَنْفُسِهِمْ
مُخْتَلِفَةً ، وَكَذَلِكَ هُمْ فِي دَوَاعِي الذَّمِّ إِذَا عَابُوا ؛ وَلَكِنْ مَتَى تَعَيَّنَتِ الْوُجُوهُ الَّتِي يَكُونُ
الْحُكْمُ ، وَرَجَعَ إِلَيْهَا الْمُخْتَلِفُونَ ، وَالتَّزَمُوا الْأُصُولَ الَّتِي رَسَمَتْهَا ، وَتَقَرَّرَتْ بِهَا الطَّرِيقَةُ
عِنْدَهُمْ فِي الذَّوْقِ وَالْفَهْمِ ، فَذَلِكَ يَنْفِي أَسْبَابَ الْاِخْتِلَافِ لِمَا يَكُونُ مِنْ مَعَانِي التَّكَافُؤِ
وِخَاصَّةً الْمُنَاسِبَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ الشَّرْطُ فِي نَقْدِ الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَاتِبٍ مُبْدِعٍ فِي بَيَانِهِ لَمْ
تُفْسِدْهُ نَزْعَةٌ أُخْرَى ، وَفِي نَقْدِ الشَّعْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْ شَاعِرٍ عَلَتْ مَرَبَّتُهُ وَطَالَتْ مُمَارَسَتُهُ لِهَذَا
الْفَنِّ فَلَيْسَ لَهُ نَزْعَةٌ أُخْرَى تُفْسِدُهُ .

وَمَا الْمَجَارَاتُ وَالْاِسْتِعَارَاتُ وَالْكِنَايَاتُ وَنَحْوَهَا مِنْ أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ إِلَّا أَسْلُوبٌ
طَبِيعِيٌّ لَا مَذْهَبَ عَنْهُ لِلنَّفْسِ الْفَنِّيَّةِ ، إِذْ هِيَ بِطَبِيعَتِهَا تُرِيدُ دَائِمًا مَا هُوَ أَعْظَمُ ، وَمَا هُوَ
أَجْمَلُ ، وَمَا هُوَ أَدْقُ ؛ وَرُبَّمَا ظَهَرَ ذَلِكَ لِغَيْرِ هَذِهِ النَّفْسِ تَكَلُّفًا وَتَعَشُّفًا وَوَضْعًا لِلْأَشْيَاءِ فِي
غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ؛ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ عَمَلٌ فَارِغٌ وَإِسَاءَةٌ فِي التَّأْدِيَةِ ، وَتَمَحَلُّ لَا عِبْرَةَ بِهِ ،
وَلَكِنْ فِتْنَةٌ لِلنَّفْسِ الشَّاعِرَةِ تَأْتِي إِلَّا زِيَادَةَ مَعَانِيهَا ، فَتَصْنَعُ الْفَاطَهَا صِنَاعَةً تُزِيلُهَا مِنَ الْقُوَّةِ
مَا يَنْفَدُ إِلَى النَّفْسِ وَبُضَاعِفُ إِحْسَاسِهَا ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا تَكُونُ الزِّيَادَةُ فِي صُورِ الْكَلَامِ وَتَقْلِيْبِ
الْفَاطِطَةِ وَإِرَادَةِ مَعَانِيهِ إِلَّا تَهْنِئَةً لِهَذِهِ الزِّيَادَةِ فِي شُعُورِ النَّفْسِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ يَأْتِي الشَّعْرُ دَائِمًا

زَائِدًا بِالصَّنَاعَةِ الْبَيِّنَةِ ، لِتُخْرِجَهُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَنْ يَكُونَ طَبِيعِيًّا فِي الطَّبِيعَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ رُوحَانِيًّا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالشُّعُورُ الْمُهْتَاجُ الْمُتَفَرِّزُ غَيْرُ السَّاكِنِ الْمُتَلَبِّدِ ، وَالْبَيَانُ فِي صِنَاعَةِ اللُّغَةِ يُقَابِلُ هَذَا اللَّخْوَ ، فَتَجِدُ مِنَ التَّعْبِيرِ مَا هُوَ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ ، وَمَا هُوَ جَامِدٌ مُسْتَلَقٌ كَالثَّائِمِ أَوْ كَالْمَيِّتِ ؛ وَبِهَذَا لَا تَكُونُ حَقِيقَةُ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَيِّنَةِ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا صِنَاعَةٌ فَنِيَّةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا لِإِحْدَاثِ الْإِهْتِيَاجِ فِي أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْحَسَّاسَةِ كَيْ تُعْطِيَ الْكَلِمَاتِ مَا لَيْسَ فِي طَاقَةِ الْكَلِمَاتِ أَنْ تُعْطِيَهُ .

لَقَدْ تَكَلَّمُوا أَحْيَرًا فِي جَنَائِبِ الصَّحَافَةِ عَلَى الْأَدَبِ ، وَالصَّحَافَةُ عِنْدِي لَا تَجْنِي عَلَى الْأَدَبِ ، وَلَكِنْ عَلَى فَنِيِّهِ ؛ فَلَهَا مِنَ الْأَثَرِ عَلَى سَلِيقَةِ الْبَلِغِ وَطَبِيعِهِ قَرِيبٌ مِمَّا كَانَ لِحَوَائِثِ الْبَقَالَيْنِ فِي الْبَصَرَةِ عَلَى طَبْعِ ذِي الرُّمَّةِ وَسَلِيقَتِهِ ، وَكُلَّمَا قَرَّبَ الصَّحَافِيُّ مِنَ الصَّنْعَةِ وَحَقَّقَهَا عَلَى الْجُمْهُورِ ، بَعُدَ عَنِ الْفَنِّ وَجَمَالِهِ وَحَقِّهِ عَلَى النَّفْسِ ، وَهَذَا وَاضِحٌ بِلَا كَبِيرٍ تَأَثَّلَ ، بَلْ هُوَ وَاضِحٌ بِغَيْرِ تَأَثَّلٍ ...

مصطفى صادق الرافعي

صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ

١

لَمَّا ظَهَرَ كِتَابِي «وَحْيُ الْقَلَمِ» حَمَلْتُ مِنْهُ إِلَى فُضَلَاءِ كُتَابَتَا فِي دُورِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَهْدِيهِ إِلَيْهِمْ لِيُقَرُّوهُ وَيَكْتُبُوا عَنْهُ ، وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِيَّ ، كَالنَّجْمِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُسْتَنْفَعٌ ؛ فَمَا أَعْلَمُ فِي طَبِيعَتِي مَوْضِعًا لِلتَّفَاقُي تَحَوَّلَ فِيهِ الْبَصَلَةُ إِلَى تَفَاحَةٍ ، وَلَا مَكَانًا مِنَ الْخَوْفِ تَنَقَّلَ فِيهِ التَّفَاحَةُ إِلَى بَصَلَةٍ ، وَلَسْتُ أَهْدِي مِنْ كُتُبِي إِلَّا إِحْدَى هَدِيَّتَيْنِ : فِيمَا التَّجَبُّهُ لِمَنْ أَتَى بِأَدْبِهِمْ وَكَفَايَتِهِمْ وَسَلَامَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَإِنَّمَا إِنْذَارُ حَرْبٍ لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ !
وَالْقُرْآنُ نَفْسُهُ قَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ فِيهِ أَقْوَالَ مَنْ عَابَوْهُ ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ مُخْتَاةٌ إِلَى مَنْ يُتَكْرَمُ وَيُرَدُّهَا ، كَحَاجَتِهَا إِلَى مَنْ يُقَرُّ بِهَا وَيَقْبَلُهَا ؛ فَهِيَ بِأَحَدِهِمَا تُثَبِّتُ وَجُودَهَا ، وَبِالْآخَرِ تُثَبِّتُ قُدْرَتَهَا عَلَى الوجودِ وَالاستمرارِ .

وَالشُّعُورُ بِالْحَقِّ لَا يَخْرُسُ أَبَدًا ، فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ قَوِيَّةً صَرِيحَةً مَرَّ مِنْ بَاطِنِهَا إِلَى ظَاهِرِهَا فِي الْكَلِمَةِ الْخَالِصَةِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَمْ صُدِّقَ فِيهِمَا ؛ وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مُتَلَوِّيةً اعْتَرَضَتْهُ الْأَغْرَاضُ وَالذَّخَائِلُ ، فَمَرَّ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى بَاطِنٍ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى الظَّاهِرِ فِي الْكَلِمَةِ الْمَقْلُوبَةِ ؛ إِذْ يَكُونُ شُعُورًا بِالْحَقِّ يُغْطِيهِ غَرَضٌ آخَرُ كَالْحَسَدِ وَنَحْوِهِ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَوْ نَعَمْ كَذَبَ فِيهِمَا جَمِيعًا .

* * *

وَكُنْتُ فِي طَوَافِي عَلَى دُورِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ أَحْسُ فِي كُلِّ مِنْهَا سُؤَالَ يَسْأَلُنِي بِهِ الْمَكَانُ : لِمَاذَا لَمْ تَجِبْ ؟ فَإِنِّي فِي أَبْتِدَاءِ أَمْرِي كُنْتُ نَزَعْتُ إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّحَافَةِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُتَعَلِّمٌ رِيضٌ وَمُتَأَدِّبٌ نَاشِئٌ ، وَلَكِنَّ أَيْ رَحِمَهُ اللَّهُ رَدَّنِي عَنْ ذَلِكَ وَوَجَّهَنِي فِي

سَيَلِنِي هَذِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، فَلَوْ أَنَّنِي نَشَأْتُ صَحَافِيًا لَكُنْتُ الْآنَ كَبَعْضِ الْحُرُوفِ الْمَكْسُورَةِ فِي الطَّنَجِ .

وَلِلصَّحَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَأْنٌ عَجِيبٌ ، فَهِيَ كُلَّمَا تَمَتَّتْ نَقَصَتْ ، وَكُلَّمَا نَقَصَتْ تَمَتَّتْ ؛ إِذْ كَانَ مَذَارُ الْأَمْرِ فِيهَا عَلَى أَعْتِبَارٍ أَكْثَرَ مَنْ يَقْرَؤُوهَا أَنْصَافُ قُرَاءٍ أَوْ أَنْصَافُ أُمِّيِّينَ ؛ وَهِيَ بِهَذَا كَالطَّرِيقَةِ لِتَعْلِيمِ الْقِرَاءَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ الْأَدَبِيَّةِ ، فَتَمَامُهَا بِمُرَاعَاةِ قُوَاعِدِ النَّقْصِ فِي الْقَارِئِ ... وَمَا بُدِّ أَنْ تَتَّقِيَهُ بِأَوْهَامِ الْجُمْهُورِ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَّقِيَهُ بِحَقِيقَةِ نَفْسِهَا ؛ فَهِيَ مَعَهُ كَالزَّوْجَةِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ بَعْدَ ، لَهَا مِنْ رَجُلِهَا مَنْ يَأْمُرُهَا وَيَجْعَلُهَا فِي حُكْمِهِ وَهَوَاهُ ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَيْتَانِهَا مَنْ تَأْمُرُهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ فِي طَاعَتِهَا وَرَأْيِهَا وَأَدَبِهَا ؛ ثُمَّ هِيَ عَمَلُ السَّاعَةِ وَالْيَوْمِ ؛ فَمَا أَبْعَدَهَا مِنْ حَقِيقَةِ الْأَدَبِ الصَّحِيحِ ، إِذْ يَنْظُرُ فِيهِ إِلَى الْوَقْتِ الدَّائِمِ لَا إِلَى الْوَقْتِ الْغَائِبِ ، وَيُرَادُّ بِهِ مَعْنَى الْخُلُودِ لَا مَعْنَى النُّشْيَانِ .

وَلَا يَقْتُلُ الْبُتُوغَ شَيْءٌ كَالْعَمَلِ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ بِطَرِيقَتِهَا ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الْبُتُوغِ (مَا يَجِبُ كَمَا يَجِبُ) ، وَأَدَبُهُ الْعُمُوقُ وَالتَّغْلُغُ فِي أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَإِخْرَاجِ الثَّمَرَةِ الصَّغِيرَةِ مِنْ مِثْلِ الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ بِعَمَلٍ طَوِيلٍ دَقِيقٍ ؛ أَمَّا هِيَ فَأَسَاسُهَا (مَا يُمَكِّنُ كَمَا يُمَكِّنُ) ، وَدَأْبُهَا السَّرْعَةُ وَالتَّصَفُّحُ وَالْإِلْمَامُ وَصِنَاعَةُ كَصِنَاعَةِ الْعُنْوَانِ لَا غَيْرَ .

فَلَيْسَ يَخْسُنُ بِالْأَدَبِ أَنْ يَعْمَلَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ الْيَوْمِيَّةِ إِلَّا إِذَا نَضَجَ وَتَمَّ وَأَصْبَحَ كَالدَّوْلَةِ عَلَى « الْخَرِيطَةِ » لَا كَالْمَدِينَةِ فِي الدَّوْلَةِ فِي الْخَرِيطَةِ ، فَهُوَ حِينَئِذٍ لَا يَسْهَلُ مَحْوُهُ وَلَا تَبْدِيلُهُ ... ثُمَّ هُوَ يَمُدُّهَا بِالْقُوَّةِ وَلَا يَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ مِنْهَا ، وَيَكُونُ نَاجًا مِنْ تِنَجَانِهَا لَا خَرَزَةً مِنْ خَرَزَاتِهَا ، وَيَقُومُ فِيهَا كَالْمَنَارَةِ الْعَظِيمَةِ ثَلَقِي أَسْعَتَهَا مِنْ أَعْلَى الْجَوِّ إِلَى مَدَى بَعِيدٍ مِنَ الْأَفَاقِ ، لَا كِمَصْبَاحٍ مِنْ مَصَابِيحِ الشَّارِعِ !

وَحَالَةُ الْجُمْهُورِ عِنْدَنَا تَجْعَلُ الصَّحَافَةَ مَكَانًا طَبِيعِيًّا لِرَجُلِ السِّيَاسَةِ قَبْلَ غَيْرِهِ ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ السِّيَاسِيُّ هُوَ صَوْتُ الْحَوَادِثِ سَائِلًا وَمُجِيبًا ، ثُمَّ يَلِينُهُ الرَّجُلُ شِبْهُ الْعَالِمِ ، ثُمَّ الرَّجُلُ شِبْهُ الْمُمَثِّلِ الْهَزْلِيِّ ... وَالْأَدَبُ الْعَظِيمُ فَوْقَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا . غَيْرَ أَنَّهُ عِنْدَنَا فِي الصَّحَافَةِ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا !

وَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ طَوَافِي عَلَى دُورِ الصُّحُفِ جَاءَتْ هِيَ تَطُوفُ بِي فِي نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ أَدْخُلُ إِحْدَاهَا لِأَهْدِي « وَحْيَ الْقَلَمِ » إِلَى الْأَدِيبِ الْمُتَخَصِّصِ فِيهَا لِلْكِتَابَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَدَلُونِي عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مَرْبُوعٌ ، مُشَوَّهٌ الْخَلْقِ ، صَغِيرُ الرَّأْسِ ، دَقِيقُ الْعُنُقِ ، جَاحِظُ الْعَيْنَيْنِ ، تَدُورَانِ فِي مَخَجَرِيهِمَا دَوْرَةٌ وَخَشِيَّةٌ كَأَنَّمَا رَعَبَتْهُ الْحَيَاةُ مُذْ كَانَ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، لِأَنَّهُ خُلِقَ لِلْإِحْسَاسِ وَالْوَصْفِ ، أَوْ كَأَنَّمَا رُكِبَ فِيهِ هَذَا النَّظَرُ السَّاحِرُ لِيَرَى أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى غَيْرُهُ مِنْ أَسْرَارِ السُّخْرِيَةِ فَيَتَّبِعُ فِي فُتُونِهَا ، أَوْ هُوَ قَدْ خُلِقَ بِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الْجَاحِظَتَيْنِ دَلَالَةً عَلَيْهِ مِنَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ أُرْسِلَ لِتَدْقِيقِ النَّظَرِ .

وَقَالَ الَّذِي عَرَفَنِي بِهِ : حَضَرْتُهُ عَمَرُو أَفندي الْجَاحِظُ . . . وَهُوَ أَدِيبُ الْجَرِيدَةِ .

قُلْتُ : شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ عَمَرُو بْنُ بَخْرِ ؟

فَضَحِكَ الْجَاحِظُ وَقَالَ : وَأَدِيبُ الْجَرِيدَةِ ، أَيُّ شَحَاذِ الْجَرِيدَةِ ، يَكْتُبُ لَهَا كَمَا يَقْرَأُ الْفَارِئُ عَلَى ضَرْبِ نَجِجٍ ؛ بِالرَّغِيفِ وَالْجُبْنِ وَالْبَيْضِ وَالْقُرْشِ . .

قُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ ! فَكَيْفَ أَنْتَهَيْتَ يَا أَبَا عُمَانَ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ وَكُنْتَ مِنْ أَعَاجِبِ الدُّنْيَا ؟ وَكَيْفَ حَبَبْتَ فِي الصَّحَافَةِ وَكُنْتَ رَأْسًا فِي الْكَلَامِ ؟

قَالَ : نَجَحْتُ أَخْلَاقِي فَخَابَتْ آمَالِي ، وَلَوْ جَاءَ الْوَضْعُ بِالْعَكْسِ لَكَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ؛ وَالْمُصْنِئَةُ فِي هَذِهِ الصُّحُفِ أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا هُوَ قَانُونُ كُلِّ رَجُلٍ هُنَا .

قُلْتُ : وَذَلِكَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مَا قَانُونُهُ ؟

قَالَ : لَهُ ثَلَاثَةُ قَوَائِنَ : الْجِهَاتُ الْعَالِيَةُ وَمَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنْهَا ، وَالْجِهَاتُ النَّازِلَةُ وَمَا يُوجِبُهُ إِلَيْهَا ، وَقَانُونُ الصِّلَةِ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ وَهُوَ . .

قُلْتُ : وَهُوَ مَاذَا ؟

فَحَمَلَنِي فِيَّ وَقَالَ : مَا هَذِهِ الْبَلَادَةُ ؟ وَهُوَ الَّذِي « هُوَ » . . . أَمَا تَرَى الصَّحِيفَةَ كَكُلِّ شَيْءٍ يُبَاعُ ؟ وَأَنْتَ فَخْبَرْتَنِي - وَلَكَ الدَّوْلَةُ وَالصُّوْلَةُ عِنْدَ الْقُرَّاءِ - أَلَمْ تَرَ بِعَيْنِكَ أَنَّكَ لَوْ جِئْتَ تَدْفَعُ ثَمَانًا مِثَّةَ قِرْشٍ ، لَكُنْتَ فِي نَفْسِهِمْ أَعْظَمَ مِمَّا أَنْتَ وَقَدْ جِئْتَ تُهْدِي ثَمَانًا مِثَّةَ صَفْحَةٍ مِنَ الْبَيَانِ وَالْأَدَبِ ؟

قُلْتُ : يَا أَبَا عُمَانَ ! فَمَاذَا تَكْتُبُ هُنَا ؟

قَالَ : إِنَّ الْكِتَابَةَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ صُورَةٌ مِنَ الرُّؤْيَا ، فَمَاذَا تَرَى أَنْتَ فِي ...
وَفِي ... وَفِي ... ؟ لَقَدْ كُنَّا نَرَوِي فِي الْحَدِيثِ : « يَكُونُ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ
كَمَا تَلْحَسُ الْأَرْضُ الْبَقْرَةَ بِلسَانِهَا » [راجع «مسند أحمد» ، رقم : ١٥٢٠] ، فَلَعَلَّ مِنْ هَذِهِ
الْأَلْسِنَةِ الطَّوِيلَةِ لِسَانُ صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ ..

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ يَا شَيْخَنَا قَدْ نَسِيتَ الْقُرَاءَ وَحُكْمَهُمْ عَلَى الصَّحِيفَةِ .

قَالَ : الْقُرَاءُ مَا الْقُرَاءُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقُرَاءُ ! وَهَلْ أَسَاسُ أَكْثَرِهِمْ إِلَّا بِلَادَةٌ
الْمَدَارِسِ ، وَسَخَافَةُ الْحَيَاةِ ، وَضَعْفُ الْأَخْلَاقِ ، وَكَذِبُ السِّيَاسَةِ ؟ إِنَّ الْإِبْدَاعَ كُلَّ الْإِبْدَاعِ
فِي أَكْثَرِ مَا تَكْتُبُ هَذِهِ الصُّحُفُ ، أَنْ تَجْعَلَ الْكَذِبَ يُكْذِبُ بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ .. وَمَا دَامَ
الْمَبْدَأُ هُوَ الْكَذِبُ فَلَمْ يَظْهَرْ هُوَ أَهْزَلُ ، وَالنَّاسُ فِي حَيَاةٍ قَدْ مَاتَتْ فِيهَا أَلْمَعَانِي الشَّدِيدَةُ
الْفُرُوقَةُ السَّامِيَةُ ، فَهُمْ يُرِيدُونَ الصَّحَافَةَ الرَّخِيصَةَ ، وَاللُّغَةَ الرَّخِيصَةَ ، وَالْقِرَاءَةَ الرَّخِيصَةَ ،
وَبِهَذَا أَصْبَحَ الْجَاحِظُ وَأَمْنَالُهُ هُمْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةُ) .

* * *

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُمَانَ إِلَى رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ ، فَتَهَيَّأَ إِلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ بِعَيْنَيْنِ لَا يُقَالُ
فِيهِمَا جَاحِظَانِ ، بَلْ خَارِجَتَانِ ... وَقَالَ : أَفْ ! ﴿ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَكُطِلَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ [١١ سورة هود/ الآية : ١٦] .

« كَلَّا وَالَّذِي حَرَّمَ التَّرْتُّدَ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَقَبَّحَ التَّكَلُّفَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ ، وَبَهَرَجَ
الْكَذَّابِينَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، لَا يَظُنُّ هَذَا إِلَّا مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ » ^(١) .

قُلْتُ : مَاذَا دَهَكَ يَا أَبَا عُمَانَ ؟

قَالَ : وَيَحَى صَحَافَةُ ! قُلْ فِي عَمَلِكَ مَا قَالَ الْمَثَلُ : جَحَظَ إِلَيْهِ عَمَلُهُ ^(٢) .

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

(٢) يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي عَمَلِهِ رَأَى سُوءَ مَا صَنَعَ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ مَا الْقِصَّةُ ؟

قَالَ : وَبِهَا صَحَافَةٌ ! وَقَالَ الْأَخْتَفُ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِخَصْلَةٍ مِنْهُمْ كَانَ مِنْ صَالِحِي الْقَوْمِ : دِينٌ يُرْسِدُهُ ، أَوْ عَقْلٌ يُسَدِّدُهُ ، أَوْ حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أَوْ حَيَاءٌ يَفْتَأُهُ » . وَقَالَ : « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ أَرْبَعٍ : مُؤْمِنٌ يَحْسُدُهُ ، وَمُتَأَفِّقٌ يُبَغِضُهُ ، وَكَافِرٌ يُجَاهِدُهُ ، وَشَيْطَانٌ يَفْتِنُهُ . وَأَرْبَعٌ لَيْسَ أَقَلُّ مِنْهُمْ : الْيَقِينُ ، وَالْعَدْلُ ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ ، وَأَخٌ فِي اللَّهِ » . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ (١) . . .

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ، دَعْنَا آلَانَ مِنَ الرُّوَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالْحَسَنِ وَالْأَخْتَفِ ؛ فَمَاذَا دَهَاكَ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ؟

قَالَ : لَمْ أَحْسِنِ الْمُهَارَرَةَ فِي الْمَقَالِ الَّذِي كَتَبْتُهُ الْيَوْمَ . . وَيَقُولُ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ : إِنَّ نِصْفَ التَّنْوِيهِ رَذِيلَةٌ ؟ فَإِنَّ نِصْفَهُ الْآخَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَمْوِيهِ . وَيَقُولُ : إِنَّ سُمُو الْكِتَابَةِ أَنْحِطَاطٌ فَصِيحٌ ، لِأَنَّ الْقُرَّاءَ فِي هَذَا الْعَهْدِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَدِرَاسَةِ كُتُبِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُصَحَاءِ ، بَلْ مِنْ الرُّوَايَاتِ وَالْمَجَلَّاتِ الْهَزْلِيَّةِ . وَحِفْظُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامُ الْعُلَمَاءِ يَضَعُ فِي النَّفْسِ قَانُونَ النَّفْسِ ؛ وَيَجْعَلُ مَعَانِيهَا مُهَيَّأَةً بِالطَّبِيعَةِ لِلِاسْتِجَابَةِ لِتِلْكَ الْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ ؛ وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُ الرُّوَايَاتُ وَالْمَجَلَّاتُ وَصُورُ الْمُثَلَّلَاتِ وَالْمُعْتَبَاتِ وَخَبَرُ الطَّالِبِ فُلَانٍ وَالطَّالِبَةِ فُلَانَةٍ وَالْمَسَارِحِ وَالْمَلَاهِي ؟

وَيَقُولُ رَئِيسُ التَّخْرِيرِ : إِنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ نَفْسَهُ : مَا يَقَالُ عَنِّي فِي التَّارِيخِ ؟ هُوَ كَاتِبُ الصَّحَافَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، لِأَنَّ الْقُرُوشَ هِيَ الْقُرُوشُ ، وَالتَّارِيخُ هُوَ التَّارِيخُ ؛ وَمَطْبَعَةُ الصَّحِيفَةِ النَّاجِحَةُ هِيَ بِنْتُ خَالَةِ مَطْبَعَةِ الْبَنكِ الْأَهْلِيِّ ؛ وَلَا يَتَحَقَّقُ نَسَبٌ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي إِخْرَاجِ الْوَرَقِ الَّذِي يُصَرَّفُ كُلُّهُ وَلَا يُرَدُّ مِنْهُ شَيْءٌ !

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِظْهَارَ الْمَخَازِي مَكْتُوبَةٍ ، كَحَوَادِثِ الْفُجُورِ وَالسَّرِقَةِ وَالْقَتْلِ وَالْعِشْقِ

(١) هَذِهِ طَرِيقَةُ الْجَاحِظِ بِخَلْطِ الْكَلَامِ دَائِمًا بِالنَّقْلِ .

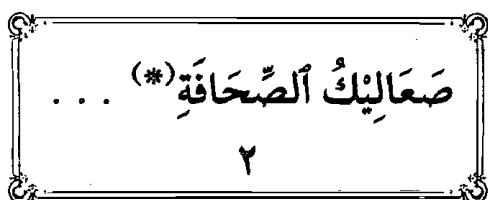
وَعَبْرَهَا ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَخْبَارُ تَرْوَى وَتُقْصُّ لِلْحِكَايَةِ أَوْ الْعِبَرَةِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا أَخْبَارُهُمْ إِلَى
أَعْصَابِ الْقُرَاءِ ...

* * *

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ..

مصطفى صادق الرافعي

طنطا



وَعَابَ شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ بَعْضَ سَاعَةٍ ، ثُمَّ رَجَعَ تَدُورُ عَيْنَاهُ فِي
جَحَاطِيهِمَا وَقَدْ أَكْفَهَرَ وَجْهُهُ وَعَبَسَ كَأَنَّمَا يَجْرِي فِيهِ الدَّمُ الْأَسْوَدُ لَا الْأَحْمَرُ ، وَهُوَ يَكَادُ
يَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ ، وَبَعْضُهُ يَغْلِي فِي بَعْضِهِ كَالْمَاءِ عَلَى النَّارِ ؛ فَمَا جَلَسَ حَتَّى جَاءَتْ ذُبَابَتَانِ
فَوْقَتَنَا عَلَى كَتَفَيْ أَنْفِهِ تَيْمَانِ كَابَةِ وَجْهِهِ الْمُسْوَاهُ ، فَكَانَ مَنْظَرُهُمَا مِنْ عَيْنَيْهِ السَّوْدَاوَيْنِ
الْجَاحِظَتَيْنِ مَنْظَرَ ذُبَابَتَيْنِ وَلَدَتَا مِنْ ذُبَابَتَيْنِ ...

وَتَرَكَهُمَا الرَّجُلُ لِشَانِهِمَا وَسَكَتَ عَنْهُمَا ؛ فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا عُمَانَ ! هَاتَانِ ذُبَابَتَانِ ،
وَيُقَالُ : إِنَّ الذُّبَابَ يَحْمِلُ الْعَذْوَى .

فَضَحِكَ ضِحْكَةً الْمَغِيْظِ ، وَقَالَ : إِنَّ الذُّبَابَ هُنَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَطْبَعَةِ لَا مِنَ الطَّبِيعَةِ .
فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْجَرَائِدِ حَشَرَاتٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ : مِنْهَا مَا يُسْتَقْدَرُ ، وَمَا تَنْقَلِبُ لَهُ
النَّفْسُ ، وَمَا فِيهِ الْعَذْوَى ، وَمَا فِيهِ الضَّرَرُ ؛ وَمَا بُدِّ أَنْ يَعْتَادَ الْكَاتِبُ الصَّحَافِيُّ مِنَ الصَّبْرِ
عَلَى بَعْضِ الْقَوْلِ مِثْلَ مَا يَعْتَادُ الْفَقِيرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى بَعْضِ الْحَشَرَاتِ فِي نِيَابِهِ ؛ وَقَدْ يُرِيدُهُ

صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ أَوْ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ كَلَامًا لَوْ أَعْفَاهُ مِنْهُ وَأَزَادَهُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ الْقَمَلَ وَالْبَرَاعِيَةَ مِنْ أَهْدَامِ الْفُقَرَاءِ وَالصَّعَالِيكِ بِقَدْرِ مَا يَمْلَأُ مَقَالَةً . . . كَانَ أَخَفَّ عَلَيْهِ وَأَهْوَنَ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَصْرَحَ فِي مَعْنَى الطَّلَبِ وَالتَّكْلِيفِ ^(١) .

وَكَيْفَمَا دَارَ الْأَمْرُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ الصَّخْفِ لَوْ مَسَحَهُ اللَّهُ شَيْئًا غَيْرَ الْحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ ، لَطَارَ كُلُّهُ دُبَابًا عَلَى وَجْهِ الْقُرَاءِ ! .

قُلْتُ : وَلَكِنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ذَهَبْتَ مُتَطَلِّقًا إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ وَرَجَعْتَ مُتَعَقِّدًا ، فَمَا الَّذِي أَتَكَرَّرَتْ مِنْهُ ؟ .

قَالَ : « لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَشْتَهِيهِ الْغَرِيزُ وَالْجَاهِلُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، لَبْطَلَ النَّظَرُ وَمَا يَسْخَدُ عَلَيْهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَعَانِيهَا وَالْعُقُولُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَلَعَدِمَتِ الْأَشْيَاءُ حُظُوظَهَا وَحُقُوقَهَا » ^(٢) . هُنَاكَ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِالسِّيَاسَةِ كَمَا هِيَ السِّيَاسَةُ فِي هَذَا الْبَلَدِ . . . يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرَ مَعَانِيهَا ، وَيَرْبِطُ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ بِأَسْبَابٍ غَيْرِ أَسْبَابِهَا ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَتَائِجَ غَيْرَ نَتَائِجِهَا ، وَيُلْفِقُ لَهَا مِنَ الْمَنْطِقِ رُفْعًا كَهَذَا الرُّفْعِ فِي الثُّوبِ الْمَفْتُوقِ ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِذَلِكَ رَدًّا عَلَى جَمَاعَةٍ خُصُومِهِ وَهِيَ رَدُّ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمَاعَتِهِ ، وَلَا يَرْضَى مَعَ الرَّدِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَالْأَعَاصِيرِ تَدْفَعُ مِثْلَ تِيَارِ الْبَحْرِ فِي الْمُسْتَنْفَعِ الرَّائِدِ .

ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَهَا رَئِيسَ التَّحْرِيرِ غَيْرَ عَمَّكَ أَبِي عُثْمَانَ فِي لَطَافَةِ حِسِّهِ وَقُوَّةِ طَبِيعِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَصِدِّهِ ، كَانَ أَبَا عُثْمَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَلَا مِنَ الْمُتَمَيِّزِينَ فِي الرَّأْيِ ، وَلَا مِنَ الْمُسْتَدِلِّينَ بِالذَّلِيلِ ، وَلَا مِنَ النَّاطِرِينَ بِالْحُجَّةِ ؛ وَكَأَنَّ أَبَا عُثْمَانَ هَذَا رَجُلٌ حُرُوفِي . . . كَحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ : تَرَفَعُ مِنْ طَبَقَةٍ وَتَوْضَعُ فِي طَبَقَةٍ وَتَكُونُ عَلَى مَا شِئْتَ ، وَأَدْنَى حَالَاتِهَا أَنْ تَمُدَّ إِلَيْهَا أَلِيْدٌ فَإِذَا هِيَ فِي يَدِكَ .

وَأَنَا أَمْرٌ وَسَيِّدٌ فِي نَفْسِي ، وَأَنَا رَجُلٌ صَدِيقٍ ، وَلَسْتُ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَتَأَمُّونَ وَلَا

(١) هَذِهِ طَرِيقَةُ الْجَاحِظِ فِي الْإِغْرَاقِ حِينَ يَتَهَكَّمُ .

(٢) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَاحِظِ .

يَتَذَمُّونَ ؛ فَإِنْ خُضْتُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْقَضَ طَبْعِي وَضَعْتُ اسْتِطَاعَتِي وَبَيَّنَّ النَّقْصُ فِيمَا أَكْتُبُ ، وَتَزَلْتُ فِي الْجِهَتَيْنِ ؛ فَلَا يَطْرُدُ لِي الْقَوْلُ عَلَى مَا يَرْجُو ، وَلَا يَسْتَوِي عَلَى مَا أَحَبُّ ؛ فَذَمُّنْتُ أَنْاقِضُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ؛ فَبُهِتَ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِي ، كَانَ الْكَاتِبُ عِنْدَهُ خَادِمٌ رَأَاهُ كَخَادِمٍ مَطْبُخِهِ وَطَعَامِهِ ، هَذَا مِنْ هَذَا !

ثُمَّ قَالَ لِي : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أُعْتَمَكَ ؛ وَبِهَذَا الْقَوْلِ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يُعْتَفَ أَبَا عُثْمَانَ . . . وَلَهَمْتُ وَاللهُ أَنْ أَنْشِدَهُ قَوْلَ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ [من الكامل] :

أَكْلَيْبُ . . . مَا لَكَ كُلَّ يَوْمٍ ظَالِمًا وَالظُّلَمُ أَنْكَدُ وَجْهَهُ مَلْعُونُ . . .
لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ الْآخِرِ [من الطويل] :

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرُ حَزِّ الْغَلَاصِمِ
وَحَزُّ الْغَلَاصِمِ « وَقَطْعُ الدَّرَاهِمِ » مِنْ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ . . .

وَقَالَ سَعِيدُ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ : « لَأَنْ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهِهِ وَنِصْفُ لِسَانِهِ عَلَى مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ الْمَنْظَرِ وَعَجْزِ الْمَخْبَرِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » .

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ . . .

وَهُمْ شَيْخُنَا أَنْ يَمُرَّ فِي الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ عَلَى طَرِيقَتِهِ ، فَقُلْتُ : وَقَالَ رَئِيسُ التَّحْرِيرِ . . . ؟
فَضَحِكَ وَقَالَ : أَمَّا رَئِيسُ التَّحْرِيرِ فَيَقُولُ : إِنَّ الْخَلَابَةَ وَالْمُؤَارَبَةَ وَتَقْلِيدَ الْمَنْطِقِ هِيَ كُلُّ الْبَلَاغَةِ فِي الصَّحَافَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَلَهِيَ كَقَلْبِ الْأَعْيَانِ فِي مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَكَمَا انْقَلَبَتِ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى ، وَهِيَ عَصَا وَهِيَ مِنَ الْخَشَبِ ، فَكَذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْحَادِثَةُ فِي مُعْجَزَاتِ الصَّحَافَةِ إِذَا تَعَاطَاهَا الْكَاتِبُ الْبَلِيبُ بِالْفِطْنَةِ الْعَجِيبَةِ وَالْمَنْطِقِ الْمُلَوَّنِ وَالْمَعْرِفَةِ بِأَسَالِبِ السِّيَاسَةِ ؛ فَتَكُونُ لِلتَّهْوِيلِ وَهِيَ فِي ذَاتِهَا أَطْمِئْنَانٌ ، وَلِلتَّهْمَةِ وَهِيَ فِي نَفْسِهَا بَرَاءَةٌ ؛ وَلِلْجَنَائَةِ وَهِيَ فِي مَعْنَاهَا سَلَامَةٌ ؛ وَلَوْ نَفَخَ الصَّحَافِيُّ الْحَادِثُ فِي قَبْضَةٍ مِنَ الْكُتُبِ لَاسْتَطَارَتْ مِنْهَا النَّارُ وَارْتَفَعَ لَهَبُهَا الْأَحْمَرُ فِي دُخَانِهَا الْأَسْوَدِ . قَالَ : وَإِنَّ هَذَا الْمَنْطِقَ الْمُلَوَّنَ فِي السِّيَاسَةِ إِنَّمَا هُوَ إِنْفَانُ الْحِيلَةِ عَلَى أَنْ يُصَدِّقَكَ النَّاسُ ؛ فَإِنَّ الْعَامَّةَ

وَأَشْبَاهَ الْعَامَّةِ لَا يُصَدِّقُونَ الصَّدَقَ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنْ لِلْغَرَضِ الَّذِي يُسَاقُ لَهُ ، إِذْ كَانَ مَدَارُ الْأَمْرِ فِيهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَأَذْفَهُمْ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ بِالْكَذِبِ فَلَنْ يَعْرِفُوهُ إِلَّا صِدْقًا وَفَوْقَ الصَّدَقِ ، وَهُمْ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ يُقِيمُونَ الْبَرَاهِينَ الْعَجِيبَةَ وَتُسَاعِدُونَ بِهَا مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ مَتَى أَحْكَمَ الْكَذِبِ ، لِيُحَقِّقُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ بَحْثُوا وَنَظَرُوا وَدَقَّقُوا ...

ثُمَّ قَالَ أَبُو عُمَانَ : وَمَعْنَى هَذَا كُلُّهُ أَنَّ بَعْضَ دُورِ الصَّحَافَةِ لَوْ كَتَبَتْ عِبَارَةً صَرِيحَةً لِلإِعْلَانِ لَكَانَتْ الْعِبَارَةُ هَكَذَا : سِيَاسَةٌ لِلْبَيْعِ ...

* * *

قُلْتُ : يَا شَيْخَنَا ! فَإِنَّكَ هُنَا عِنْدَهُمْ لَتَكْتُبَ كَمَا يَكْتُبُونَ ، وَمَقَالَاتُ السِّيَاسَةِ الْكَاذِبَةِ كَرَسَائِلِ الْحُبِّ الْكَاذِبِ : تَقْرَأُ فِيهَا مَعَانٍ لَا تَكْتُبُ ، وَيَكُونُ فِي عِبَارَتِهَا حَيَاءٌ وَفِي ضَمْنِهَا طَلَبٌ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ . . . وَالْحَوَادِثُ عِنْدَهُمْ عَلَى حَسَبِ الْأَوْقَاتِ ، فَلَا تَبْيِضُ أَسْوَدُ فِي اللَّيْلِ ، وَالْأَسْوَدُ تَبْيِضُ بِالنَّهَارِ ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى فُلَانٍ كَيْفَ يَصْنَعُ وَكَيْفَ لَا يُعْجِزُهُ بُرْهَانٌ وَكَيْفَ يُخْرِجُ الْمَعَانِي ؟

قَالَ : بَلَى ! نَعَمْ الشَّاهِدُ هُوَ وَأَمثَالُهُ ! إِنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ حَتَّى فِي تَارِيخِ حَفْرِ زَمْزَمَ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ بَعْضِ الْقَضَاةِ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ ، فَأَرَادَ هَذَا أَنْ يُجَرِّحَ شَهَادَتَهُ ، فَقَالَ لِلْقَاضِي : أَتَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ يَمْلِكُ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يُحْجِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ الشَّاهِدُ : بَلَى قَدْ حَاجَجْتُ . قَالَ الْخَصْمُ : فَاسْأَلْهُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ زَمْزَمَ كَيْفَ هِيَ ؟ قَالَ الشَّاهِدُ : لَقَدْ حَاجَجْتُ قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ زَمْزَمُ فَلَمْ أَرَهَا ...

قَالَ أَبُو عُمَانَ : فَهَلْزِهِ هِيَ طَرِيقَةُ بَعْضِهِمْ فِيمَا يُرْكَنُ بِهِ نَفْسُهُ : يَنْزِلُونَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ ارْتَفَعُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّغْيِيرِ ، إِذْ كَانَتْ الْحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ جَدًّا فِي الصُّحُفِ لِنَفْيِ الْمَنِيِّ وَإِثْبَاتِ الْمُثْبِتِ ، لَا عَمَلًا يَعْمَلُونَهُ بِالْقَنِيِّ وَالْإِثْبَاتِ . وَمَتَى اسْتَقَلَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَجَبَ تَغْيِيرُ هَذِهِ الصَّحَافَةِ وَإِكْرَاهُهَا عَلَى الصَّدَقِ ، فَلَا يَكُونُ الشَّأْنُ حَبِيبًا فِي إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ الصَّحَافِيَّةِ إِلَّا مِنْ مَعْنَاهَا الْوَاقِعِ .

وَالْحَيَاةُ الْمُسْتَفْلَةُ ذَاتُ قَوَاعِدَ وَقَوَائِنَ دَقِيقَةٍ لَا يَتَرَخَّصُ فِيهَا مَا دَامَ أَساسُهَا إِنْجَادَ الْقُوَّةِ وَحَيَاةَ الْقُوَّةِ وَإِعْمَالَ الْقُوَّةِ ، وَمَا دَامَتْ طَبِيعَتُهَا قَائِمَةً عَلَى جَعْلِ أَخْلَاقِ الشَّعْبِ حَاكِمَةً لَا مَحْكُومَةً ؛ وَقَدْ كَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ إِلَى الْآنَ هُوَ إِنْجَادُ الضَّعْفِ وَحَيَاةَ الضَّعِيفِ وَبَقَاءُ الضَّعْفِ ؛ فَكَانَتْ قَوَاعِدُنَا فِي الْحَيَاةِ مَغْلُوطَةٌ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْخَلْقُ الْقَوِيُّ الصَّحِيحُ هُوَ الشَّاذُّ النَّادِرُ يَظْهَرُ فِي الرَّجُلِ بَعْدَ الرَّجُلِ وَالْفَتْرَةِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ عِنْدَنَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُنَافِقِ أَكْثَرَ مِنَ الْحُرِّ ، وَمِنَ الْكَاذِبِ أَكْثَرَ مِنَ الصَّادِقِ ، وَمِنَ الْمُمَارِئِ أَكْثَرَ مِنَ الصَّرِيحِ ؛ فَلَا جَرَمَ أَرْتَفَعَتِ الْأَلْقَابُ فَوْقَ حَقَائِقِهَا ، وَصَارَتْ نُعُوتُ الْمَنَاصِبِ وَكَلِمَاتُ « بَاشَا وَبِكْ » مِنَ الْكَلَامِ الْمُقَدَّسِ صَحَافِيًا . .

يَا لِعِبَادِ اللَّهِ ! يَا بَنِيهِمْ. اسْمُ الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مُوضِعًا فِي « مَحَلِّيَّاتِ الْجَرِيدَةِ » ؛ وَيَا بَنِيهِمْ اسْمُ الْبَاشَا أَوْ الْبِكْ أَمْ صَاحِبِ الْمَنَصِبِ الْكَبِيرِ ، فِيمَاذَا تَشَرَّفُ « الْمَحَلِّيَّاتِ » إِلَّا بِهِ ؟ وَهَذَا طَبِيعِي ، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَةِ النَّفَاقِ ؛ وَهَذَا وَاجِبٌ ، وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ الْخُضُوعُ هُوَ الْوَاجِبُ ؛ وَلَوْ أَنَّ لِلْأَدِيبِ وَزَنًا فِي مِيزَانِ الْأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مِيزَانِ الصَّحَافَةِ ، فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الصَّحَافَةَ هُنَا هِيَ صُورَةٌ مِنْ عَامِّيَةِ الشَّعْبِ لَيْسَ غَيْرُ . . وَمَنْ ذَا الَّذِي يُصَحِّحُ مَعْنَى الشَّرَفِ الْعَامِلِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَارِيخِهَا ، وَأَكْثَرُ الْأَلْقَابِ عِنْدَنَا هِيَ أَغْلَاطٌ فِي مَعْنَى الشَّرَفِ . . ؟

ثُمَّ ضَحِكَ أَبُو عَثْمَانَ وَقَالَ : زَعَمُوا أَنَّ ذُبَابَةً وَقَعَتْ فِي بَارِجَةِ (أَمِيرَانَ) إِنْكِلِيزِيَّيْ أَيَّامَ الْحَرْبِ الْعَظُمَى ، فَرَأَتْ الْقَائِدَ الْعَظِيمَ وَقَدْ نَشَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ دَرَجًا مِنَ الْوَرَقِ وَهُوَ يُخَطِّطُ فِيهِ رَسْمًا مِنْ رُسُومِ الْحَرْبِ ، وَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ يُلْقِي النُّقْطَةَ بَعْدَ النُّقْطَةِ مِنَ الْجِدَادِ وَيَقُولُ : هَذِهِ مَدِينَتُهُ كَذَا ، وَهَذَا حِصْنُ كَذَا ، وَهَذَا مِيدَانُ كَذَا . قَالُوا : فَسَحَرَتْ مِنْهُ الذُّبَابَةُ وَقَالَتْ : مَا أَيْسَرَ هَذَا الْعَمَلُ وَمَا أَخَفَّ وَمَا أَهْوَنُ ! ثُمَّ وَقَعَتْ عَلَى صَفْحَةٍ بَيْضَاءَ وَجَعَلَتْ تُلْقِي وَنِيْمَهَا^(١) هُنَا وَهُنَا ، وَتَقُولُ : هَذِهِ مَدِينَتُهُ ، وَهَذَا حِصْنُ . .

* * *

(١) وَنِيْمُ الذُّبَابِ : هُوَ . . . أَيُّ : هَذِهِ النُّقْطَةُ الشَّوْذُ الَّتِي يُخْذِلُهَا .

وَأَلْتَفَتُ الْجَاحِظُ كَأَنَّمَا تَوَهَّمُ الْجَرَسَ يَدُقُّ .. فَلَمَّا لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، قَالَ : لَوْ أَنَّي
أَصْدَرْتُ صَحِيفَةً يَوْمِيَّةً لَسَمَّيْتُهَا (الْكَاذِبُ) فَمَهْمَا أَكْذَبْتُ عَلَى النَّاسِ فَقَدْ صَدَقْتُ فِي
الْأَسْمِ ، وَمَهْمَا أَخْطِئُ فَلَنْ أُخْطِئَ فِي وَضْعِ التَّفَاقِ تَحْتَ عُنْوَانِهِ .

قَالَ : ثُمَّ أَخْطُ تَحْتَ أَسْمِ الْجَرِيدَةِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ بِالْخَطِّ الثُّلُثِ هَذَا نَصُّهَا :

مَا هِيَ عِزَّةُ الْأَذَلَاءِ ؟ هِيَ الْكَذِبُ الْهَازِلُ .

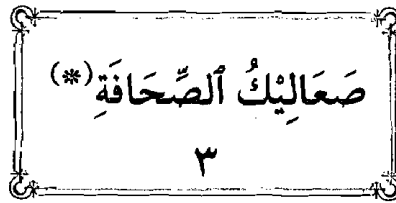
مَا هِيَ قُوَّةُ الضُّعَفَاءِ ؟ هِيَ الْكَذِبُ الْمُكَابِرُ .

مَا هِيَ فَضِيلَةُ الْكَذَّابِينَ ؟ هِيَ اسْتِمْرَارُ الْكَذِبِ .

قَالَ : ثُمَّ لَا يُحَرَّرُ فِي جَرِيدَتِي إِلَّا « صَعَالِيكُ الصَّحَافَةِ » مِنْ أَمْثَالِ الْجَاحِظِ ، ثُمَّ
أَكْذَبُ عَلَى أَهْلِ أَلْمَالِ فَأَمْجِدُ الْفُقَرَاءَ الْعَامِلِينَ ، وَعَلَى رِجَالِ الشَّرَفِ فَأُعْظِمُ الْعُمَّالَ
الْمَسَاكِينَ ، وَعَلَى الْأَلْقَابِ فَأَقْدِمُ الْأُدَبَاءَ وَالْمُؤَلِّفِينَ ، وَ ...
وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ ...

طنطا

مصطفى صادق الرافعي



وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ أَبُو عُثْمَانَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ فِي عَمَلٍ
وَأَدَائِهِ ، بَلْ كَانَ عِنْدَ رَئِيسِ الشَّرْطَةِ فِي جِنَايَةٍ وَعَقَابِهَا ، فَظَهَرَ مُنْقَلِبَ السَّحْنَةِ انْقِلَابًا دَمِيمًا
شَوْهَ تَشْوِيهِهُ وَزَادَ فِيهِ زِيَادَاتٍ .. وَرَأَيْتُهُ مَمْطُوطَ الْوَجْهِ مَطًّا شَنِيعًا بَدَتْ فِيهِ عَيْنَاهُ
الْجَاحِظَتَانِ كَأَنَّهُمَا غَيْرُ مُسْتَقَرَّتَيْنِ فِي وَجْهِهِ ، بَلْ مُعَلَّقَتَانِ عَلَى جَبْهَتِهِ .

وَجَعَلَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْهِ بِالْأُخْرَى وَيَقُولُ : هَذَا بَابٌ عَلَى حِدَةٍ فِي الْأَمْتِحَانِ وَالْبُلُوَى ، وَمَا فِيهِ إِلَّا الْمَوْزُونَةُ الْعَظِيمَةُ وَالْمَشَقَّةُ الشَّدِيدَةُ ، وَالْعَمَلُ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ إِنَّمَا هُوَ امْتِحَانُكَ بِالصَّبْرِ عَلَى اثْنَيْنِ : عَلَى ضَمِيرِكَ ، وَعَلَى رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ ! « وَسَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَبَا لُقْمَانَ الْمَمْرُورَ عَنِ الْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ عَلَيَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . . . فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَيْنَاءِ مُحَمَّدٌ : أَفَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : بَلَى حَنْزَرَةٌ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ . . . قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ؟ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ يَتَجَزَّأُ . . . قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ ؟ قَالَ : يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . وَالزُّبَيْرُ يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . . . قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ ؟ قَالَ : لَا يَتَجَزَّأُ .

فَقَدْ فَكَّرْنَا فِي تَأْوِيلِ أَبِي لُقْمَانَ حِينَ جَعَلَ الْأَنَامَ أَجْزَاءً تَتَجَزَّأُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ ذَهَبَ ؟ فَلَمْ نَقَعْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَبُو لُقْمَانَ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْمُتَكَلِّمِينَ يَذْكُرُونَ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ، هَالَهُ ذَلِكَ وَكَبَّرَ فِي صَدْرِهِ وَتَوَهَّمَ أَنَّهُ الْبَابُ الْأَكْبَرُ مِنْ عِلْمِ الْفَلَسَفَةِ ، وَأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا عَظُمَ خَطَرُهُ سَمَّوْهُ بِالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ » (١) .

قُلْتُ : وَرَجَعَ بِنَا الْقَوْلُ إِلَى رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ . . .

فَصَحِّحَكَ حَتَّى أَسْفَرَ وَجْهَهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَيْنِسَ التَّخْرِيرِ قَدْ تَلَقَّى السَّاعَةَ أَمْرًا بِأَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ الْيَوْمَ هُوَ فُلَانٌ ؛ وَأَنَّ فَلَانًا الْآخَرَ يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ . . . وَأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي يُنْتَى عَلَيْهِ رَأْيِي الصَّحِيفَةُ فِي هَذَا الْكَلَامِ هُوَ شَأْنٌ كَذَا فِي عَمَلٍ كَذَا ؛ وَأَنَّ هَذَا الْخَبَرَ يَجِبُ أَنْ يُصَوَّرَ فِي صِنْعَةٍ ثَلَاثِمُ جُوعِ الشَّعْبِ فَتَجْعَلُهُ كَالْخَبْرِ الَّذِي يَطْعَمُهُ كُلُّ النَّاسِ ، وَتُثَبِّتُ لَهُ شَهْوَةَ فِي الثُّغُورِ كَشَهْوَةِ الْأَكْلِ ، وَطَبِيعَةَ كَطَبِيعَةِ الْهَضْمِ . . . وَقَدْ رَمَى إِلَيَّ رَيْنِسُ التَّخْرِيرِ بِجُمْلَةِ الْخَبَرِ ، وَعَلَيَّ أَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ أَضْرِمَ النَّارَ وَأَنْ أَجْعَلَ الثُّرَابَ دَقِيقًا أَيْضًا يُعْجَنُ وَيُخْبَزُ وَيُؤْكَلُ وَيَسْنُوعُ فِي الْحَلَقِ وَتَسْتَمِرُّهُ الْمَعِدَةُ وَيَسْرِي فِي الْعُرُوقِ .

وَإِذَا أَنَا كَتَبْتُ فِي هَذَا اخْتَجْتُ مِنَ التَّرْقِيعِ وَالْتَمُونِيهِ ، وَمِنَ التَّدْلِيسِ وَالْتَغْلِيطِ ، وَمِنَ الْخَبِّ وَالْمَكْرِ ، وَمِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ - إِلَى مِثْلِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الزَّانِدُ وَالْذَّهْرِيُّ وَالْمُعْطَلُ

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَبَاحِظِ .

فِي إِقَامَةِ الْبُرْهَانَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِ عَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ فَاسِدٌ بِالضَّرُورَةِ إِذْ كَانَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، أَنَّهُ فَاسِدٌ ؛ وَأَيْنَ تَرَى إِلَّا فِي تِلْكَ التَّحَلِّي وَفِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ أَنْ يُنَكَّرَ الْمُتَكَلِّمُ وَهُوَ عَارِفٌ أَنَّهُ مُنْكَرٌ ، وَأَنْ يَجْتَرِي وَهُوَ مُوقِنٌ أَنَّهُ مُجْتَرِي ، وَكَابِرٌ وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ يَكَابِرُ ؟ فَقَدْ ظَهَرَ تَقْدِيرٌ مِنْ تَقْدِيرٍ ، وَعَمَلٌ مِنْ عَمَلٍ ، وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذْهَبٍ ؛ وَالْآفَةُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْإِفْتِنَاعِ وَالْجَدَلِ وَالْمُغَالَطَةِ إِلَّا الْحَقَائِقَ الْمُؤَكَّدَةَ ؛ يَأْخُذُونَهَا إِذَا وَجَدَتْ وَيَضَعُونَهَا إِنْ لَمْ تَوْجَدْ ، إِذْ كَانَ التَّأْيِيدُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجَعْلِ الْقَارِئِ كَالْحَالِمِ : يَمْلِكُهُ الْفِكْرُ وَلَا يَمْلِكُ هُوَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَيُلْقَى إِلَيْهِ وَلَا يَمْتَنِعُ ، وَيُعْطَى وَلَا يُرَدُّ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ .

قُلْتُ : وَلَكِنْ مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَرَادُوكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مِنْ تُرَابِهِ دَقِيقًا أَيْضًا ؟

قَالَ : هُوَ بَعِيْنُهُ ذَلِكَ الشَّأْنُ الَّذِي كَتَبْتُ فِيهِ لِهَلِذِهِ الصَّحِيفَةِ نَفْسَهَا ، أَنْفَضُهُ وَأَسْفَهُهُ وَأَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ جُزْءًا يَتَجَرَّأُ ... فَإِنْ صَنَعْتُ الْيَوْمَ بِلَاغَتِي فِي تَأْيِيدِهِ وَتَرْيِيهِهِ وَالْإِشَادَةِ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا كَاسِرًا لِي ، وَلَا حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِ نَفْسِي - فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْجَاحِظُ تَكْدِيبًا لِلْجَاحِظِ ، آه لَوْ وُضِعَ الرَّادِئِيُّ فِي غُرْفِ رُؤَسَاءِ التَّخْرِيرِ لِيَسْمَعَ النَّاسُ ...

قُلْتُ : يَا أَبَا عُمَانَ ! هَذَا كَقَوْلِكَ : لَوْ وُضِعَ الرَّادِئِيُّ فِي غُرْفِ قُوَادِ الْجُيُوشِ أَوْ رُؤَسَاءِ الْحُكُومَاتِ .

قَالَ : لَيْسَ هَذَا مِنْ هَذَا ، فَإِنَّ لِلْجَيْشِ مَعْنَى غَيْرَ الْحَذَقِ فِي تَذْيِيرِ الْمَعَاشِ وَالتَّكْشِبِ وَجَمْعِ الْمَالِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهِ أَسْرَارُ قُوَّةِ الْأُمَّةِ وَعَمَلُ قُوَّتِهَا ؛ وَلِلْحُكُومَةِ دَخَائِلُ سِيَاسِيَّةٌ لَا يُحَرِّكُهَا أَنْ فُلَانًا أَرْتَفَعَ وَأَنْ فُلَانًا انْخَفَضَ ، وَلَا تُصَرِّفُهَا الْعَشْرَةُ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْسَةِ ؛ وَفِي أَسْرَارِهَا أَسْرَارُ وُجُودِ الْأُمَّةِ وَنِظَامِ وَجُودِهَا .

قَالَ أَبُو عُمَانَ : وَإِنَّمَا نَزَلَ بِصَحَافَتِنَا دُونَ مَنْزِلَتِهَا أَنَّهُ لَا تَجِدُ الشَّعْبَ الْقَارِيَّ الْمُمَيَّرَ ؛ الصَّحِيحَ الْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَ التَّمْيِيزِ ، ثُمَّ هِيَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ أَمْوَالُهَا فِي إِبْجَادِهِ وَتَنْشِيطِهِ ؛ وَعَمَلُ الصَّحَافَةِ مِنَ الشَّعْبِ عَمَلُ التِّيَّارِ مِنَ الشُّفَنِ فِي تَحْرِيكِهَا وَتَنْسِيرِ مَجْرَاهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْمُضْهِكَ أَنْ تَيَّارَنَا يَذْهَبَ مَعَ سَفِينَةٍ وَيَرْجِعُ مَعَ سَفِينَةٍ ... وَلَوْ أَنَّ الصَّحَافَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَجَدَتْ الشَّعْبَ قَارِنًا مُذَرِّكًا مُمَيَّرًا مُعْتَبَرًا مُسْتَبْصِرًا لَمَا رَمَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى الْحُكُومَاتِ

وَالْأَحْزَابِ عَجْزًا وَضَعْفًا وَفُسُؤَلَةً ، وَلَا خَرَجَتْ عَنِ الشَّيْءِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ ، فَإِنَّ الشَّعْبَ تَحْكُمُهُ الْحُكُومَةُ ، وَإِنَّ الْحُكُومَةَ تَحْكُمُهَا الصَّحَافَةُ ، فَهِيَ مِنْ نَمِّ لِسَانِ الشَّعْبِ ، وَإِنَّمَا يَقْرَؤُهَا الْقَارِئُ لِيَرَى كَلِمَتَهُ مَكْتُوبَةً ، وَشُعُورُ الْفَرْدِ أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي رِقَابَةِ الْحُكُومَةِ وَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ حَرَكَةِ السِّيَاسَةِ وَالْاجْتِمَاعِ ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَنَعَ كُلَّ يَوْمٍ صَحِيفَةَ الْيَوْمِ .

قَالَ أَبُو عُمَانَ : فَالْصَّحَافَةُ لَا تَقْوَى إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَارِئًا ، وَحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ قَارِئٍ لِلصَّحِيفَةِ كَأَنَّهُ مُحَرَّرٌ فِيهَا ، فَهُوَ مُشَارِكٌ فِي الرَّأْيِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِمَّنْ يَدُورُ عَلَيْهِمُ الرَّأْيُ ، مُتَّبِعٌ لِلْحَوَادِثِ لِأَنَّهُ هُوَ مِنْ مَادَّتِهَا أَوْ هِيَ مِنْ مَادَّتِهِ ، وَهُوَ لِذَلِكَ يُرِيدُ مِنَ الصَّحِيفَةِ حِكَايَةَ الْوَقْتِ وَتَفْسِيرَ الْوَقْتِ ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ كَمَا يَكُونُ التَّفَكِيرُ الصَّحِيحُ لِلْفِكْرِ ؛ فَيُلْزِمُهَا الصَّدَقَ وَيَطْلُبُ مِنْهَا الْقُوَّةَ وَيَلْتَمِسُ فِيهَا الْهِدَايَةَ : وَتَأْتِي إِلَيْهِ فِي مَطْلَعِ كُلِّ يَوْمٍ أَوْ مَغْرِبِهِ كَمَا يَدْخُلُ إِلَى دَارِهِ أَحَدُ أَهْلِهِ السَّاكِنِينَ فِي دَارِهِ .

وَفِي قِلَّةِ الْقِرَاءَةِ عِنْدَنَا آفَتَانِ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَهِيَ الْقِلَّةُ الَّتِي لَا تُغْنِي شَيْئًا ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فَهُمْ عَلَى قَلْبِهِمْ لَا تَرَى أَكْبَرَ شَأْنِهِمْ إِلَّا عِبَادَةَ قَوْمٍ لِقَوْمٍ ، وَزِرَايَةَ أَنْاسٍ بِآخَرِينَ ، وَتَعَلُّقَ نِفَاقٍ بِنِفَاقٍ ، وَتَضَدِّيقَ كَذِبٍ لِكَذِبٍ ؛ وَآفَةٌ ثَالِثَةٌ تَخْرُجُ مِنْ اجْتِمَاعِ الْاِئْتِنَانِ : وَهِيَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَكُونُونَ فِي قِرَاءَتِهِمُ الصَّحِيفَةَ إِلَّا كَالنَّظَّارَةِ اجْتَمَعُوا لِيَشْهَدُوا مَا يَتْلَهُونَ بِهِ ، أَوْ كَالْفُرَاحِ يَلْتَمِسُونَ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْوَقْتَ ، فَهُمْ يَأْخُذُونَ السِّيَاسَةَ مَاخَذَ مَنْ لَا يُشَارِكُ فِيهَا ، وَيَتَعَاطَوْنَ الْجِدَّ تَعَاطِي مَنْ يَلْهُو بِهِ ، وَيَتَلَقَّوْنَ الْأَعْمَالَ بِرُوحِ الْبَطَالَةِ ، وَالْعَزَائِمَ بِأَسْلُوبِ عَدَمِ الْمُبَالَاهِ ، وَالْمُبَاحَثَةَ بِفِكْرَةِ الْإِهْمَالِ ، وَالْمُعَارَضَةَ بِطَبِيعَةِ الْهُزْءِ وَالتَّخْقِيرِ ، وَهُمْ كَالْمُصَلِّينَ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَمَثَلٌ لِنَفْسِكَ نَوْعًا مِنَ الْمُصَلِّينَ إِذَا أَصْطَفَقُوا وَرَاءَ الْإِمَامِ تَرَكُوهُ يُصَلِّي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْهُمْ وَأَنْصَرَفُوا . . .

قَالَ أَبُو عُمَانَ : بِهِذَا وَنَحْوِهِ جَاءَتِ الصُّحُفُ عِنْدَنَا وَأَكْثَرُهَا لَا ثَبَاتَ لَهُ إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ بَيْنَ مَنَافِعِهِ وَوَسَائِلِ مَنَافِعِهِ ، وَمِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ كَانَ أَقْوَى الْمَادَّةِ عِنْدَنَا أَنْ تَظْهَرَ الصَّحِيفَةُ مَمْلُوءَةً حُكُومَةً وَسُلْطَةً وَبَاشَوَاتٍ وَبَيْكَوَاتٍ . . . وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ مَحَلَّ الْبَاشَا وَالْبِكِ وَالْحَوَادِثِ الْحُكُومِيَّةِ التَّفْهَةِ لَا يَكُونُ مِنَ الْجَرِيدَةِ إِلَّا فِي مَوْضِعِ قَلْبِ الْحَيِّ مِنَ الْحَيِّ .

ثُمَّ اسْتَضَحَكَ شَبِيحًا وَقَالَ : لَقَدْ كَتَبْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مَقَالََةً أَقْرَحُ فِيهَا عَلَى الْحُكُومَةِ تَصْصِيحَ هَذِهِ الْأَلْقَابِ ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ لَقَبٍ جَدِيدٍ يَكُونُ هُوَ الْمُفَسِّرُ لِحَمِيئِهَا وَيَكُونُ هُوَ اللَّقَبُ الْأَكْبَرُ فِيهَا ، فَإِذَا أَنْعِمَ بِهِ عَلَى إِنْسَانٍ كَتَبْتُ الصُّحُفَ هَكَذَا : أَنْعَمَتِ الْحُكُومَةُ عَلَى فُلَانٍ بِلَقَبِ (ذُو مَالٍ) .

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ . . .

* * *

فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا ثُمَّ عَادَ مُتَهَلِّلًا ضَاحِكًا وَقَدْ طَابَتْ نَفْسُهُ ، فَلَيْسَ لَهُ جُحُوظُ الْعَيْنَيْنِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الطَّبِيعِيِّ ، وَجَلَسَ إِلَيَّ وَهُوَ يَقُولُ :

بَيْنَ أَنْ رَئِيسَ التَّخْرِيرِ لَمْ يَنْشُرْ ذَلِكَ الْمَقَالَ ، وَلَمْ يَرَفِهِ اسْتِظْرَافًا وَلَا ابْتِكَارًا وَلَا نُكْتَةً وَلَا حُجَّةً صَادِقَةً ، بَلْ قَالَ : كَأَنَّكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ تُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ عَدَدُ الْيَوْمِ عَدَدَ الْغَدِ ، فَإِذَا نَحْنُ زَهْدَنَا فِي الْأَلْقَابِ وَأَصْغَرْنَا أَمْرَهَا وَتَهَكَّمْنَا بِهَا ، وَقُلْنَا : إِنَّهَا أَفْسَدَتْ مَعْنَى التَّقْدِيرِ الْإِنْسَانِي ، وَتَرَكَتْ مَنْ لَمْ يَتْلَهَا مِنْ ذَوِي الْجَاهِ وَالْغِنَى يَرَى نَفْسَهُ إِلَى جَانِبِ مَنْ نَالَهَا كَالْمَرْأَةِ الْمُطْلَقَةِ بِجَانِبِ الْمُتَزَوِّجَةِ . . . وَقُلْنَا : إِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ تَكَادُ تَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الدَّفْعِ إِلَى التَّمَلُّقِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّفَاقِ لِمَنْ بِيَدِهِمُ الْأَمْرُ ، أَوْ وَسِيلَةً إِلَى مَا هُوَ أَحْطُّ مِنْ ذَلِكَ كَمَا كَانَ شَأْنُهَا فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْبَائِدَةِ حِينَ كَانَ الْوَسَامُ كَالرَّفْعَةِ مِنْ جِلْدِ الدَّوْلَةِ ، يُرْفَعُ بِهَا الصَّدْرُ الَّذِي شَقُوهُ وَأَنْتَرَعُوا ضَمِيرَهُ - إِذَا نَحْنُ قُلْنَا هَذَا وَفَعَلْنَا هَذَا ، لَمْ نَجِدِ الشَّعْبَ الَّذِي يَحْكُمُ لَنَا ، وَوَجَدْنَا ذَوِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا ، فَكُنَّا كَمَنْ يَتَقَدَّمُ فِي التَّهْمَةِ بِغَيْرِ مُحَامٍ إِلَى قَاضٍ ضَعِيفٍ .

يَا أَبَا عُثْمَانَ ! إِنَّمَا هِيَ حَيَاةٌ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءَ : الصَّحِيفَةُ ثُمَّ الصَّحِيفَةُ ، ثُمَّ الْحَقِيقَةُ . . . فَالْفِكْرَةُ الْأُولَى لِلصَّحِيفَةِ ، وَالْفِكْرَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ لِلصَّحِيفَةِ أَيْضًا ؛ وَمَتَى جَاءَ الشَّعْبُ الَّذِي يَقُولُ : لَا . . . بَلْ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، ثُمَّ الْحَقِيقَةُ ، ثُمَّ الصَّحِيفَةُ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يُقَالُ فِي الصَّحَافَةِ مَا قِيلَ لِلْيَهُودِ فِي كِتَابِ مُوسَى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرِاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [٦١ سورة الأنعام/ الآية : ٩١] .

قُلْتُ : أَرَأَيْكَ يَا أَبَا عُمَانَ لَمْ تُنَكِّزْ شَيْئًا مِنْ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، فَشَقَّ عَلَيْكَ أَلَّا تَتْلُبَهُ ، فَعَمَزْتَهُ بِالْكَلَامِ عَنْ مَرَّةٍ سَالِفَةٍ .

قَالَ : أَمَّا هَذِهِ الْمَرَّةُ فَأَنَا الرَّئِيسُ لَا هُوَ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا لَا يَكُونُ عَمَّاكَ أَبُو عُمَانَ مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ) ، إِنَّ الرَّجُلَ أَشْتَبَهَ فِي كَلِمَةٍ : مَا وَجْهَهَا : أَمْرُوعَةٌ هِيَ أَمْ مَنْصُوبَةٌ ؟ وَفِي لَفْظَةٍ : مَا هِيَ : أَعَرَبِيَّةٌ أَمْ مُوَلَّدَةٌ ؟ وَفِي تَغْيِيرِ أَعْجَمِيٍّ : مَا الَّذِي يُؤَدِّيهِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحِيحَةِ ؟ وَفِي جُمْلَةٍ : أَهِيَ فِي نَسْفِهَا أَفْصَحُ أَمْ يُبَدِّلُهَا ؟

إِنَّ الْمُعْجَمَ هُنَا لَا يُفِيدُهُمْ إِلَّا إِذَا نَطَقَ . .

وَلَقَدْ ابْتُلِيتُ هَذِهِ الْأَمَّةُ فِي عَهْدِهَا الْأَخِيرِ بِحُبِّ السُّهُولَةِ مِمَّا أَثَّرَ فِيهَا الْأَخْتِلَالُ وَسِيَاسَتُهُ وَتَحَمُّلُهُ الْأَعْبَاءَ عَنْهَا وَاسْتَهْدَافُهُ دُونَهَا لِلخَطَرِ ، فَشَبَّهَ الْعَامِّيَّةُ فِي لُغَةِ الصُّحُفِ وَفِي أَخْبَارِهَا وَفِي طَرِيقِهَا إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْ سُهُولَةٍ تِلْكَ الْحَيَاةِ : وَكَأَنَّهُ تَثَبُّتٌ لِلضَّغْفِ وَالْخَوَرِ ، وَأَنْتَ خَيْرٌ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَوَّلُ بِمَا تُخْدِثُ لَهُ طَبِيعَتُهُ عَالِيًا أَوْ نَازِلًا ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ السُّهُولَةُ مِنْ شِبْهِ الْعَامِّيَّةِ إِلَى نِصْفِ الْعَامِّيَّةِ فِي كِتَابَةِ أَكْثَرِ الْمَجَلَّاتِ وَفِي رَسَائِلِ طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ ، لِنَبْدِوِ الْمَقَالَةِ فِي أَلْفَاطِهَا وَمَعَانِيهَا كَأَنَّهَا الْفُتْنُذُ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ مَا كُلَّهُ صِغَارِهِ ، فَقَرَضَ عُقُودًا مِنَ الْعَنْبِ ، فَأَلْقَاهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتْرَبَهُ وَتَمَرَّغَ فِيهِ ، ثُمَّ مَشَى يَحْمِلُ كُلَّ حَبَّةٍ مَرْضُوضَةً فِي عِشْرِينَ إِبْرَةً مِنْ شَوْكِهِ .

* * *

ثُمَّ مَدَّ أَبُو عُمَانَ يَدَهُ فَتَنَاوَلَ مَجَلَّةً مِمَّا أَمَامَهُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَيْهَا اتَّفَاقًا ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ : أَقْرَأْ وَلَا تَتَجَاوَزْ عُنْوَانَ كُلِّ مَقَالَةٍ ؛ فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْعَتَاوِينَ :

« مَسْؤُولِيَّةُ طَبِيبٍ عَنْ فِتَاةٍ عَذْرَاءَ » ، « مَوَدَّةُ الرَّاقِصَاتِ الصِّبْنِيَّاتِ » ، « تَخَرُّ مَغْشِيًا عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا صُورَةَ حَبِيبِهَا » ، « هَلْ تُغَيَّرُ قَبُولُ الْهَدِيَّةِ دَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ » ، وَإِذَا كَانَتْ مَلَاسٍ دَاخِلِيَّةً . . . فَهَلْ تُغَيَّرُ وَعَدًا بِالزَّوْاجِ ؟ » ، « هَلْ يَحِقُّ لِلْأَبِ أَنْ يُطَالَبَ

صَدِيقُ ابْنَتِهِ . . . بِتَعْوِضٍ إِذَا كَانَتْ ابْنَتُهُ غَيْرَ شَرِيعَةٍ ، « بَيْنَ خَطِيبَتَيْنِ لِشَابٍّ وَاحِدٍ » ،
« بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ أَخْبَارَ السَّهْرَةِ . . لِمَاذَا أَطْلَقْتَ عَلَيْهِ الرِّصَاصَ ؟ » ، « عَرُوسٌ
تَأْخُذُ (شَبَكَةً) مِنْ شَابِّينَ ثُمَّ تَطْرُدُهُمَا » ، « زَوْجَةُ الْمُوْطَفِ أَيْنَ ذَهَبَتْ » ، « لِمَاذَا خُطِفَتْ
الْعَرُوسُ فِي الْيَوْمِ الْمَحْدَدِ لِلزَّفَافِ ؟ » ، « فِي الطَّرِيقِ : حُبٌّ بِالْإِكْرَاهِ » ، « فَلَا تُنَوَّنْ
وَفَلَانَاتٌ ، زَوَاجٌ وَطَلَاقٌ ، وَأَخْبَارُ الْمَرَاقِصِ ، وَحَوَادِثُ أَمَاكِنِ الدَّعَارَةِ . . . ، إلخ ،
إلخ » .

فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ : هَذِهِ هِيَ حُرِّيَّةُ النَّسْرِ ؛ وَلَكِنْ كَانَ هَذَا طَبِيعِيًّا فِي قَانُونِ الصَّحَافَةِ إِنَّهُ
لَمْ يَكُنْ كَبِيرٌ فِي قَانُونِ التَّرْبِيَةِ ، فَإِنَّ الْأَخْدَاتِ وَالضُّعَفَاءَ يَجِدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَالْتَّخْيِيرِ بَيْنَ
الْأَخْذِ بِالْوَجِبِ وَبَيْنَ تَرْكِهِ ، وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْ جَوَازِ نَشْرِهِ إِلَّا هَذَا . « وَبَابٌ آخَرُ مِنْ هَذَا
الشَّكْلِ فَبِكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقْفُوا عِنْدَهُ . وَهُوَ مَا يَصْنَعُ الْخَبْرُ وَلَا سِيَّمَا إِذَا
صَادَفَ مِنَ السَّامِعِ قِلَّةَ تَجَرُّبَةٍ ، فَإِنَّ قَرْنَ بَيْنَ قِلَّةِ التَّجَرُّبَةِ وَقِلَّةِ التَّحَقُّطِ - دَخَلَ ذَلِكَ الْخَبْرُ
إِلَى مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْقَلْبِ دُخُولًا سَهْلًا ، وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِينًا وَطَبِيعَةً قَابِلَةً وَنَفْسًا سَاكِتَةً ،
وَمَتَّى صَادَفَ الْقَلْبَ كَذَلِكَ رَسَخَ رُسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ .

وَمَتَّى أُلْقِيَ إِلَى الْفَتَيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْفَتَيَاتِ فِي وَقْتِ الْغَرَارَةِ وَعِنْدَ غَلَبَةِ الطَّبِيعَةِ
وَشَبَابِ الشَّهْوَةِ وَقِلَّةِ التَّشَاغُلِ وَ . . . » (١) .

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّخْرِيرِ . .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

* * *

(١) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الْجَا حِظِّ .

صَعَالِيكَ الصَّحَافَةُ (*) ... (١)
تِمَّةٌ
٤

جَاءَ أَبُو عُثْمَانَ وَفِي بُرُوزِ عَيْنَيْهِ مَا يَجْعَلُهُمَا فِي وَجْهِهِ شَيْئًا كَعَلَامَتِي تَعَجَّبِ الْقَتْنُهُمَا
الطَّبِيعَةُ فِي هَذَا الْوَجْهِ ، وَقَدْ كَانُوا يُلْقِبُونَهُ (الْحَدَقِي) فَوْقَ تَلْقِيهِ بِالْجَاحِظِ ، كَانَ لَقَبًا
وَاحِدًا لَا يَبِينُ عَنْ فُتُوحِ هَذَا الشُّؤْءِ فِي عَيْنَيْهِ إِلَّا بِمُرَادِفٍ وَمُسَاعِدٍ مِنَ اللَّغَةِ ... وَمَا تَذَكَّرْتُ
الْقَلْبَيْنِ إِلَّا حِينَ رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ .

وَأَنْحَطَ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّ بَعْضَهُ يَرْمِي بَعْضَهُ مِنْ سَخَطٍ وَغَيْظٍ ، أَوْ كَأَنَّ مِنْ جِسْمِهِ
مَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ الْمُسَوِّءِ ؛ ثُمَّ نَصَبَ وَجْهَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَبَدَتْ عَيْنَاهُ فِي
خُرُوجِهِمَا كَأَنَّمَا تَهْمَانِ بِالْفِرَارِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي تَحْيَا الْكَابَةُ فِيهِ كَمَا يَحْيَا اللَّهُ فِي
الْقَلْبِ ، ثُمَّ سَكَتَ عَنِ الْكَلَامِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كَانَتْ تُكَلِّمُهُ .

فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ الصَّمْتَ وَقُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ! رَجَعْتَ مِنْ عِنْدِ رَئِيسِ التَّخْرِيرِ زَائِدًا شَيْئًا
أَوْ نَاقِصًا شَيْئًا ، فَمَا هُوَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٢ ، ٢٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ = ٨ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة
الخامسة ، الصفحات : ٣٦٦ - ٣٦٨ .

(١) كَتَبَ الْأُدْكُورُ ذِكْرِي مُبَارَكًا مَقَالًا فِي جَرِيدَةِ « الْمِصْرِي » الْعَرَاءِ زَعَمَ فِيهِ أَنَّنَا قُلْنَا : « إِنَّ الصَّحَافَةَ
لَا تَنْجَحُ إِلَّا فِي أَيْدِي الصَّعَالِيكِ » وَلَا نَذَرِي كَيْفَ أَحَسَّ هَذَا الْمَعْنَى ، ثُمَّ تَهَدَّدَنَا !! فَقَالَ :
« مَا رَأَيْكَ إِذَا وَقَفَ لَكَ أَحَدُ الصَّحَفِيِّينَ (وَلَعَلَّهُ يَعْني نَفْسَهُ) فِي مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ !! وَرَمَاكَ بِحُبِّ
التَّكَلُّفِ وَالْأَفْئَالِ فِي عَالَمِ الْإِنْشَاءِ وَالتَّأْلِيفِ ؟ » « مَا رَأَيْكَ إِذَا حَمَلَكَ رَجُلٌ مِنْهُمْ (وَلَعَلَّهُ يَعْني
نَفْسَهُ) عَلَى عَاتِقِهِ وَالْقَى بِكَ فِي هَاوِيَةِ التَّارِيخِ لِتَعِيشَ مَعَ صِغَصَعَةِ بْنِ صُوحَانَ ؟ أَبْلَغَ خُطْبَاءِ الْعَرَبِ
وَأَنْطَقِيهِمْ .

وَجَوَابُنَا لِصَاحِبِنَا هَذَا : إِنَّ وَرَارَةَ الدَّاخِلِيَةِ أَطْلَعَتْ عَلَى مَقَالِهِ فَأَمَرَتْ جَمِيعَ الْمَحَالِّ الَّتِي تَبِيعُ لَعَبِ
الْأَطْفَالِ ، أَلَّا يَتَّبِعُوا « مَعْرَكَةَ فَاصِلَةٍ » وَلَا « هَاوِيَةَ تَارِيخٍ » .

قَالَ : رَجَعْتُ زَائِدًا أَنِّي نَاقِصٌ . وَهَلْهُنَا شَيْءٌ لَا أَقُولُهُ ، وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُونَ مُطَمِّتِينَ لَوَقَّفُوا عَلَى عَمَلِكَ وَأَمْثَالِ عَمَلِكَ مِنْ كِتَابِ الصُّحُفِ يَتَعَجَّبُونَ لِهَذَا النَّوعِ الْجَدِيدِ مِنَ الشُّهَدَاءِ ! .

وَقَالَ ابْنُ يَحْيَى النَّدِيمُ : دَعَانِي الْمُتَوَكِّلُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَحْمُورٌ ، فَقَالَ : أَنُشِدْنِي قَوْلَ عُمَارَةَ فِي أَهْلِ بَغْدَادٍ ، فَأَنشَدْتُهُ [لِدُعْبَلِ الْخُرَاعِيِّ ، مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مَلُوكَ مُحَرَّمٍ أَيْعُ « حَسَنًا » وَأَبْنِي هِشَامٍ بِدِرْهِمٍ
وَأُعْطِي « رَجَاءً » بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً وَأَمْنَحُ « دِينَارًا » بِغَيْرِ تَنَدُّمٍ
قَالَ أَبُو عُمَانَ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَإِنْ طَلَبُوا مِنِّي الزِّيَادَةَ زِدْتُهُمْ أَبَا دُلْفٍ وَالْمُسْتَطِيلَ بَنَ أَكْثَمٍ
وَنِلِّي عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ ! أَتُنَانِ بِدِرْهِمٍ ، وَأَتُنَانِ زِيَادَةً فَوْقَهُمَا لِعَظَمِ الدَّرْهِمِ ، وَأَتُنَانِ
زِيَادَةً عَلَى الزِّيَادَةِ لِجَلَالَةِ الدَّرْهِمِ ، كَأَنَّهُ رَتِيسُ تَخْرِيرِ جَرِيدَةٍ يَرَى الدُّنْيَا قَدْ مُلِثَتْ كُتَابًا ،
وَلَكِنْ هَلْهُنَا شَيْئًا لَا أَقُولُهُ .

وَرَعَمُوا أَنْ كَسَرَى أَبْرُويزَ كَانَ فِي مَنَزِلِ أَمْرَأَتِهِ شِيرِينَ ، فَأَتَاهُ صَيَّادٌ بِسَمَكَةٍ عَظِيمَةٍ ،
فَأَعْجَبَ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِرْهِمٍ ، فَقَالَتْ لَهُ شِيرِينَ : أَمَرْتَ لِلصَّيَّادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ
دِرْهِمٍ ! فَإِنْ أَمَرْتَ بِهَا لِرَجُلٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَالَ : إِنَّمَا أَمَرْتُ لِي بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لِلصَّيَّادِ ! فَقَالَ
كَسَرَى : كَيْفَ أَصْنَعُ وَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ ؟

قَالَتْ : إِذَا أَتَاكَ فَقُلْ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذَكَرَ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟ فَإِنْ قَالَ أُنْثَى ،
فَقُلْ لَهُ : لَا تَقْعُ عَيْنِي عَلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِقَرِينِهَا ، وَإِنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقُلْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا عَدَا الصَّيَّادُ عَلَى الْمَلِكِ ، قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ السَّمَكَةِ ، أَذَكَرَ هِيَ أَمْ أُنْثَى ؟
قَالَ : بَلْ أُنْثَى ؛ قَالَ الْمَلِكُ : فَأَتِينِي بِقَرِينِهَا . فَقَالَ الصَّيَّادُ : عَمَرَ اللَّهُ الْمَلِكُ ! إِنَّهَا كَانَتْ
يَكْرَاهُ لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ . . .

قُلْتُ : يَا أَبَا عُمَانَ ! فَهَلْ وَقَعْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُعْضِلَةِ مَعَ رَتِيسِ التَّخْرِيرِ ؟
قَالَ : لَمْ يَنْفَعْ عَمَلُكَ أَنْ سَمَكَتُهُ كَانَتْ يَكْرَاهُ ، فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَرِيدَةِ ؛ وَمَا

بَلَاغَةُ أَبِي عُمَانَ الْجَاحِظِ بِجَانِبِ بَلَاغَةِ التَّلِغْرَافِ وَبَلَاغَةِ الْحَبْرِ وَبَلَاغَةِ الْأَرْقَامِ وَبَلَاغَةِ الْأَصْفَرِ وَبَلَاغَةِ الْأَبْيَضِ . . . وَلَكِنَّ هَلْهَنَا شَيْئًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ .

وَسَمَكْتَنِي هَذِهِ كَانَتْ مَقَالَةً جَوْدَتْهَا وَأَحْكَمْتُهَا وَبَلَّغَتْ بِالْفَاطِطِهَا وَمَعَانِيهَا أَعْلَى مَنَازِلِ الشَّرَفِ وَأَسْنَى رُتَبِ الْبَيَانِ ، وَجَعَلَتْهَا فِي الْبَلَاغَةِ طَبَقَةً وَحْدَهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْأَوْزُبِيُّونَ (صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ الصَّحَافَةِ) قَالَ الْمَأْمُونُ : « الْكِتَابُ مُلُوكٌ عَلَى النَّاسِ » فَأَرَادَ عَمُّكَ أَبُو عُمَانَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَلِكًا بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ فَإِذَا هُوَ بِهَا مِنْ (صَعَالِيكِ الصَّحَافَةِ) .

لَقَدْ كَانَتْ كَالْعُرُوسِ فِي زِينَتِهَا لَيْلَةً الْجُلُودَةِ عَلَى مُجِبَّهَا ، مَا هِيَ إِلَّا الشَّنْشُ الْأَصَاحِيَّةُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَشَوَاقُ وَلَذَاتُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا اكْتِشَافُ أَسْرَارِ الْحُبِّ ، وَمَا هِيَ إِلَّا هِيَ ؛ فَإِذَا الْعُرُوسُ عِنْدَ رَيْنِسِ التَّخْرِيرِ هِيَ الْمُطْلَقَةُ ، وَإِذَا الْمُعْجِبُ هُوَ الْمُضْحِكُ ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ : أَمَا نَظَرِيًّا فَتَعَمَّ ، وَأَمَا عَمَلِيًّا فَلَا ؛ وَهَذَا عَصْرٌ خَفِيفٌ يُرِيدُ الْخَفِيفَ ، وَزَمَنٌ عَامِيٌّ يُرِيدُ الْعَامِيَّ ، وَجُمْهُورٌ سَهْلٌ يُرِيدُ السَّهْلَ ؛ وَالْفَصَاحَةُ هِيَ إِعْرَابُ الْكَلَامِ لَا سِيَاسَتُهُ بِقُوَى الْبَيَانِ وَالْفِكْرِ وَاللُّغَةِ ، فَهِيَ الْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فُنُونِهَا وَأَسْتَقَرَّتْ فِي عِلْمِ النَّحْوِ .

وَحَسْبُكَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَارِئِ الْعَامِيَّ : أَنَّكَ أَنْتَ لَا تَلْحَنُ وَهُوَ يَلْحَنُ .

قَالَ أَبُو عُمَانَ : وَهَذِهِ أَكْرَمَكَ اللَّهُ مَنَزَلَةً يَقُلُ فِيهَا الْخَاصِّي وَيَكْثُرُ الْعَامِي ، فَيُوشِكُ أَلَّا يَكُونَ بَعْدَهَا إِلَّا غَلَبَةُ الْعَامِيَّةِ ، وَيَرْجِعُ الْكَلَامُ الصَّحَافِي كُلُّهُ سُوقِيًّا بَلَدِيًّا (حَنْشَصِيًّا) ^(١) ، وَيَنْقَلِبُ النَّحْوُ نَفْسُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا التَّكَلُّفُ وَالتَّوَعُّرُ وَالتَّفَعُّرُ كَمَا يَرَوْنَ الْآنَ فِي الْفَصَاحَةِ ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَقْلِ ؛ وَالْأَقْلُ يَنْتَهِي إِلَى الْعَدَمِ ، وَالْآنِحْدَارُ سَرِيعٌ يَبْدَأُ بِالْخَطَرَةِ الْوَاحِدَةِ ثُمَّ لَا تَمْلِكُ بَعْدَهَا الْخَطَا الْكَثِيرَةَ .

لَا جَرَمَ فَسَدَ الذَّوْقُ وَفَسَدَ الْأَدَبُ وَفَسَدَتْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ كُلُّهَا صَالِحَةً ، وَجَاءَتْ فُنُونٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مَا هِيَ إِلَّا طَبَائِعُ كِتَابِهَا تَعْمَلُ فِيمَنْ يَفْرُوها عَمَلُ الطَّبَاعِ الْحَيَّةِ فِيمَنْ يُخَالِطُهَا ، وَلَوْ كَانَ فِي قَانُونِ الدَّوْلَةِ تَهْمَةٌ إِفْسَادِ الْأَدَبِ أَوْ إِفْسَادِ اللُّغَةِ ، لَقَبِضَ عَلَى كَثِيرِينَ

(١) [حَنْشَصِيًّا ، أَي : خَارِجًا عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ كَلَامًا وَأَفْعَالًا] .

لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا صِنَاعَةَ لَهْوٍ وَمَسَلَّةَ فَرَاغٍ وَفَسَادًا وَإِفْسَادًا ؛ وَالْمُصْنِبَةُ فِي هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَ لَكَ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَنْشِطُونَ الْقُرَاءَ وَيُلْهَوْنَهُمْ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي هَذِهِ التَّهْضَةِ لِمُعَالَجَةِ اللَّهِوِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِنَا السِّيَاسِيَّ عَدَمًا ؛ ثُمَّ لِمَلْءِ الْفَرَاغِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاتِنَا الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بَطَالَةً ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا جَعَلَ عَمَّاكَ أَبَا عُثْمَانَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ مِنْ (صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ) وَتَرَكَهُ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الْكُتَّابِ كَأَنَّهُ فِي أَمْسٍ وَكَأَنَّهُمْ فِي غَدٍ .

وَدَقَّ الْجَرَسُ يَدْعُو أَبَا عُثْمَانَ إِلَى رَئِيسِ التَّحْرِيرِ . . .

* * *

فَمَا شَكَّكَ أَنَّهُمْ سَيَطْرُدُونَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزُرْهُ لِسَانًا مَطْبَعِيًّا تَرْتَارًا يَكُونُ كَالْمُتَّصِلِ مِنْ دِمَاغِهِ بِصُنْدُوقِ حُرُوفٍ . . . وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَهَؤُلَاءِ السِّيَاسِيِّينَ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّفَاقُ وَيَتَلَوَّنُ ، وَلَا كَهَؤُلَاءِ الْأُدْبَاءِ الَّذِينَ يَتِمُّ بِهِمُ التَّضْلِيلُ وَيَتَشَكَّلُ .

وَرَجَعَ شَيْخُنَا كَالْمَخْنُوقِ أَرْحِي عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ : وَيَلْبِي عَلَى الرَّجُلِ ! وَيَلْبِي مِنَ الْكَلَامِ الظَّرِيفِ الَّذِي يُقَالُ فِي الْوَجْهِ لِيُدْفَعَ فِي الْقَفَا . . . كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَمْلِكَ هَذِهِ الصَّحَافَةَ الْيَوْمِيَّةَ إِلَّا مَجَالِسُ الْأُمَّةِ ؛ فَذَلِكَ هُوَ إِصْلَاحُ الْأُمَّةِ وَالصَّحَافَةِ وَالْكِتَابِ جَمِيعًا ؛ أَمَّا فِي هَذِهِ الصُّحُفِ ، فَالْكَاتِبُ يَخْزِرُ عَيْشَهُ عَلَى نَارٍ تَأْكُلُ مِنْهُ قَدَرًا مَا يَأْكُلُ مِنْ عَيْنِهِ ، وَلَوْ أَنَّ عَمَّاكَ فِي خَفْضٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَسَعَةٍ ، لَكَانَ فِي اسْتِعْنَائِهِ عَنْهُمْ حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّ السَّيْفَ الَّذِي لَا يَجِدُ عَمَلًا لِلْبَاطِلِ ، تَفْضُلُهُ الْإِبْرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ لِلْخِيَاطِ ، وَمَاذَا يَمْلِكُ عَمَّاكَ أَبُو عُثْمَانَ ؟ يَمْلِكُ مَا لَا يَنْزِلُ عَنْهُ بُدُولُ الْمُلُوكِ ، وَلَا بِالدُّنْيَا كُلِّهَا ، وَلَا بِالسَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؛ إِذْ يَمْلِكُ عَقْلَهُ وَبَيَانَهُ ، عَلَى أَنَّهُ مُسْتَأَجَرٌ هُنَا بِعَقْلِهِ وَبَيَانِهِ ؛ يَغْفُلُ مَا شَاؤُوا وَيَكْتُبُ مَا شَاؤُوا .

لَكَ اللَّهُ أَنْ أَصْدُقَكَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْحِرْفَةِ الْيَوْمِيَّةِ : إِنْ الْكَاتِبُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ صَحِيفَةٍ إِلَى صَحِيفَةٍ ، تَخْرُجُ كِتَابَتُهُ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ . . .

وَرَأَيْتُ شَيْخَنَا كَأَنَّمَا وَضَعَ لَهُ رَئِيسُ التَّحْرِيرِ مِثْلَ الْبَارُودِ فِي دِمَاغِهِ ثُمَّ أَسْجَلَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُمَازِحَهُ وَأُسَرِّي عَنْهُ ، فَقُلْتُ : أَسْمَعْ يَا أَبَا عُثْمَانَ ! جَاءَتْنِي بِالْأَمْسِ قَضِيَّةٌ يَرْفَعُهَا صَاحِبُهَا إِلَى الْمَخْكَمَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ فِي عَرَضِ دَعْوَاهُ : إِنْ جَارَ بَيْتِي غَضَبُهُ قِطْعَةً مِنْ أَرْضِ

فَتَأْتِيهِ الَّذِي تَرَكَهُ حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَبَنَى فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ دَارًا ، وَفَتَحَ لِهَذِهِ الدَّارِ نَافِذَاتٍ ، فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ الْقَاضِي أَنْ يَخْكُمَ بِرَدِّ الْأَرْضِ الْمَغْصُوبَةِ ، وَهَذَا هَذِهِ الدَّارِ الْمَبْنِيَّةِ فَوْقَهَا ، وَ... وَ... وَسَدَّ نَافِذَاتِهَا الْمَفْتُوحَةَ ... ١

فَصَحَحَكَ الْجَاحِظُ حَتَّى أَمْسَكَ بَطْنَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ : هَذَا أَدِيبٌ عَظِيمٌ كَبَعَضِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْأَدَبَ فِي الصَّحَافَةِ ؛ كَثُرَتْ أَلْفَاظُهُ وَنَقَصَ عَقْلُهُ ، « وَسُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَتَى يَكُونُ الْأَدَبُ شَرًّا مِنْ عَدَمِهِ ؟ قَالَ : إِذَا كَثُرَ الْأَدَبُ وَنَقَصَتِ الْقَرِيحَةُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ : مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ ؛ كَانَ حَتْفُهُ فِي أَغْلَبِ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ ، وَهَذَا كُلُّهُ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ » (١) .

وَالْأَدَبُ وَحْدَهُ هُوَ الْمَرْكُوزُ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ لِمَنْ يَقُولُهُ كَيْفَ يَقُولُهُ ، إِذَا كَانَ أَرْخَصَ مَا فِيهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ لِأَنَّ الْأَمَمَ الْحَيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَدَبٌ ، ثُمَّ هُوَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْأَسْمِ الْعَظِيمِ مِلْءُ فَرَاغٍ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ ، وَصَفْحَةُ الْأَدَبِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْجَرِيدَةِ الْيَوْمِيَّةِ كَبَقْعَةِ الصَّدَا عَلَى الْحَدِيدِ : تَأْكُلُ مِنْهُ وَلَا تُعْطِيهِ شَيْئًا .

ثُمَّ يَأْتِي مَنْ تَتَرَكُ لَهُ هَذِهِ الصَّفْحَةُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ (رئيس تحرير) عَلَى الْأَدْبَاءِ ، فَمَا يَدْعُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ التَّبَوُّغِ وَلَا نَعْتًا مِنْ نُعُوتِ الْعَبَقَرِيَّةِ إِلَّا نَحَلَهُ نَفْسَهُ وَوَضَعَهُ تَحْتَ نِيَابِهِ ، وَمَا أَيْسَرَ الْعِظْمَةَ وَمَا أَسْهَلَ مَتَالَهَا إِذَا كَانَتْ لَا تَكْلُفُكَ إِلَّا الْجَرَاءَةَ وَالِدَّعْوَى وَالزَّعَمَ ، وَتَلْفِيْقُ الْكَلَامِ مِنْ أَعْرَاضِ الْكُتُبِ وَحَوَاشِي الْأَخْبَارِ .

وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي كِتَابَتِهِ كَالْعَامَةِ ، فَإِذَا عَبَثَ بِالرَّكَائِكَةِ وَالسُّخْفِ وَالْإِثْنَالِ وَفَرَاغِ مَا يَكْتُبُ ، قَالَ : هَذَا مَا يَلَائِمُ الْقُرَاءَ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ فِيمَا يَدَّعِي لِنَفْسِهِ وَمَا يَهْوُلُ بِهِ لِقَوِيَّةِ شَأْنِهِ وَإِصْغَارِ مَنْ عَدَاهُ ، فَإِذَا كَذَبَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ قَالَ : هَذَا مَا يُلَاثِمُنِي ، وَهُوَ وَائِقٌ أَنَّهُ فِي نَوْعٍ مِنَ الْقُرَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَمْلَأَهُمُ بِهِذِهِ الدَّعَاوَى كَمَا تُمَلَأُ السَّاعَةُ ، فَإِذَا هُمْ جَمِيعًا يَقُولُونَ : تَكِ تَكِ ... تَكِ تَكِ ...

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ أَنْ يَكُونَ السَّامِعُ يَفْهَمُ مَعْنَى الْقَائِلِ ، جَعَلَ الْفَصَاحَةَ وَاللُّكْنَةَ

وَالْخَطَا وَالصَّوَابَ وَالْإِغْلَاقَ وَالْإِبَانَةَ وَالْمَلْحُونَ وَالْمُعْرَبَ ، كُلُّهُ سَوَاءٌ وَكُلُّهُ بَيَانٌ ^(١) وَكَانَ الْمَكِّي طَيْبَ الْحُجَّجِ ، ظَرِيفَ الْحَيْلِ ، عَجِيبَ الْعِلَلِ ، وَكَانَ يَدْعِي كُلَّ شَيْءٍ عَلَى غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَلَمْ يُحْكَمْ شَيْئًا قَطُّ مِنَ الْجَلِيلِ وَلَا مِنَ الدَّقِيقِ ؛ وَإِذْ قَدْ جَرَى ذِكْرُهُ فَسَأُحَدِّثُكَ بِنَغْصِ أَحَادِيثِهِ ، قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : أَعْلِمْتَ أَنَّ الشَّارِي حَدَّثَنِي أَنَّ الْمَخْلُوعَ - أَيَّ الْأَمِينِ - بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ بِجِرَابٍ فِيهِ سُمْسُمٌ ، كَأَنَّهُ مُخْبِرُهُ أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْجُنْدِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْمَأْمُونِ بَعَثَ لَهُ بِدِينِكَ أَعْوَرَ ، يُرِيدُ أَنَّ طَاهِرَ بْنِ الْحُسَيْنِ يَقْتُلَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ كَمَا يَلْقُطُ الدَّيْكَ الْحَبَّ ؟

قَالَ : فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ أَنَا وَلَدْتُهُ ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ كَيْفَ سَارَ فِي الْآفَاقِ ^(٢) .

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَثْمَانَ : وَقَدْ زَعَمَ أَحَدُ أَدْبَائِكُمْ أَنَّهُ أَكْتَشَفَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ أَكْثِشَافًا أَهْمَلَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ وَعَفَلَ عَنْهُ الْمُتَأَخِّرُونَ ! فَتَظَرَّ عَمَّكَ فِي هَذَا الَّذِي أَدْعَاهُ ، فَإِذَا الرَّجُلُ عَلَى التَّحْقِيقِ كَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْتَشَفَ أَمْرِيكَ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الْجُغْرَافِيَةِ ... ^(٣) .

وَمَا بَرَأَ الْبُلْهَاءُ يُصَدِّقُونَ الْكَلَامَ الْمَشْهُورَ فِي الصُّحُفِ ، لَا بِأَنَّهُ صِدْقٌ وَلَكِنْ بِأَنَّهُ « مَكْتُوبٌ فِي الْجَرِيدَةِ » . . . فَلَا عَجَبَ أَنْ يَظُنَّ كَاتِبُ صَفْحَةِ الْأَدَبِ - مَتَى كَانَ مَغْرُورًا - أَنَّهُ إِذَا تَهَدَّدَ إِنْسَانًا فَمَا هَدَّدَهُ بِصَفْحَتِهِ ، بَلْ بِحُكُومَتِهِ . . .

نَعَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ! إِنَّهَا حُكُومَةٌ وَدَوْلَةٌ ؛ وَلَكِنْ وَيْحَكَ ! إِنَّ ثَلَاثَ ذُبَابَاتٍ لَيْسَتْ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ أَسْطُورٍ إِنْكَلَرَةٍ . . . !

* * *

وَضَحِكَ أَبُو عَثْمَانَ وَضَحِكْتُ ! فَاسْتَيْقَظْتُ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) هَذَا مِنْ كَلَامِ الْجَاظِ .

(٢) { يَغْنِي زَيْكِي مُبَارَكٌ فِي دَعْوَى مَغْرِفَتِهِ أَوَّلَ مَنْ اخْتَرَعَ فَنَّ الْمَقَامَاتِ } .

أَبُو حَنِيفَةَ وَلَكِنْ بَغِيرِ فَقِهِ (*) (١) !

قَدْ أَتَيْنَا فِي الْأَدَبِ إِلَى نَهَايَةِ صَحَافِيَّةٍ عَجِيبَةٍ ، فَاصْبَحَ كُلُّ مَنْ يَكْتُبُ يُنْشَرُّ لَهُ ، وَكُلُّ مَنْ يُنْشَرُّ لَهُ يُعَدُّ نَفْسُهُ أَدِيبًا ، وَكُلُّ مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ أَدِيبًا جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ مَذْهَبٍ وَأَنْ يَقُولَ فِي مَذْهَبِهِ وَبَرْدًا عَلَى مَذْهَبٍ غَيْرِهِ .

فَعِنْدَنَا الْيَوْمَ كَلِمَاتُ ضَخْمَةٍ تَدُورُ فِي الصُّحُفِ بَيْنَ الْأَدْبَاءِ كَمَا تَدُورُ أَسْمَاءُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ بَيْنَ السِّيَاسِيِّينَ الْمُتَنَازِعِينَ عَلَيْهَا ، يَتَعَلَّقُ بِهَا الطَّمَعُ ، وَتَنْبُعُ لَهَا الْفِتْنَةُ ، وَتَكُونُ فِيهَا الْخُصُومَةُ وَالْعَدَاوَةُ ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ : أَدَبُ الشُّيُوخِ وَأَدَبُ الشُّبَابِ ؛ وَدِكْتَاتُورِيَّةُ الْأَدَبِ وَدِيمُقْرَاطِيَّةُ الْأَدَبِ ، وَأَدَبُ الْأَلْفَاظِ وَأَدَبُ الْحَيَاةِ ، وَالْجُمُودُ وَالْتَحَوُّلُ ، وَالْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ ، ثُمَّ مَاذَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ ؟

وَرَاءَ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ أَبَا حَنِيفَةَ وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ فَقِهِ ، وَالشَّافِعِيَّ وَلَكِنْ بَغِيرِ أَجْنَهَادٍ ، وَمَالِكٍ وَلَكِنْ بَغِيرِ رَوَايَةٍ ، وَأَبْنِ حَنْبَلٍ وَلَكِنْ بَغِيرِ حَدِيثٍ ؛ أَسْمَاءُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَمَلِ أَنَّهَا كَذِبٌ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ رَدُّ عَلَيْهِ .

وَلَيْسَ يَكُونُ الْأَدَبُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا ذَهَبَ يَسْتَحْدِثُ وَيَخْتَرِعُ عَلَى مَا يَضُرُّهُ التَّوَابِعُ مِنْ أَهْلِهِ حَتَّى يُورِّخَ بِهِمْ ، فَيَقَالُ : أَدَبُ فُلَانٍ ، وَطَرِيقَةُ فُلَانٍ ، وَمَذْهَبُ فُلَانٍ ؛ إِذَا لَا يَجْرِي الْأَمْرُ فِيمَا عَلَا وَتَوَسَّطَ وَنَزَلَ إِلَّا عَلَى إِبْدَاعٍ غَيْرِ تَقْلِيدٍ ، وَتَقْلِيدٍ غَيْرِ اتِّبَاعٍ ، وَاتِّبَاعٍ غَيْرِ تَسْلِيمٍ ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّأْيِ وَتُبُوغِ الرَّأْيِ وَاسْتِقْلَالِ الرَّأْيِ حَتَّى يَكُونَ فِي الْكِتَابَةِ إِنْسَانٌ جَالِسٌ هُوَ كَاتِبُهَا ، كَمَا أَنَّ الْحَيَّ الْجَالِسَ فِي كُلِّ حَيٍّ هُوَ مَجْمُوعُهُ الْعَصَبِيُّ ، فَيَخْرُجُ ضَرْبٌ مِنَ الْأَدَابِ كَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّحَوُّلِ فِي الوجودِ الْإِنْسَانِيِّ يَرْجِعُ بِالْحَيَاةِ إِلَى ذَرَاتٍ مَعَانِيهَا ، ثُمَّ يَرْسُمُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي مِثْلَ مَا أَبْدَعَتْ ذَرَاتُ الْخَلِيقَةِ فِي تَرْكِيبٍ مِنْ تَرْكِيبٍ ، فَلَا يَكُونُ

(*) « الرسالة » العدد : ١٩٣ ، ٢ محرم سنة ١٣٥٦ هـ = ١٥ مارس / آذار ١٩٣٧ م ، السنة الخامسة ،

الصفحات : ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(١) { وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ الْمَعْرَكَةِ الْأَخِيرَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَكْبِي مُبَارَكٌ } .

لِلْأَدِيبِ تَعْرِيفٌ إِلَّا أَنَّهُ الْمُقَلَّدُ الْإِلَهِيُّ^(١) .

وَإِذَا عَتَبْنَا هَذَا الْأَصْلَ ، فَهَلْ يَبْدَأُ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي عَصْرِنَا أَوْ يَنْتَهِي ؛ وَهَلْ تُرَاهُ يَغْلُو أَوْ يَنْزِلُ ، وَهَلْ يَسْتَجْمِعُ أَوْ يَنْفَضُ ، وَهَلْ هُوَ مِنْ قَدِيمِهِ الصَّرِيحِ بَعِيدٌ مِنْ بَعِيدٍ ، أَوْ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ هُوَ فِي مَكَانٍ بَيْنَهُمَا ؟

هَذِهِ مَعَانٍ لَوْ ذَهَبْتُ أَفْضَلُهَا لَاقْتَحَمْتُ تَارِيخًا طَوِيلًا أَمُرُّ فِيهِ بِعِظَامِ مُبْعَثَةٍ فِي ثِيَابِهَا لَا فِي قُبُورِهَا . . وَلَكِنِّي مُوجِزٌ مُقْتَصِرٌ عَلَى مَعْنَى هُوَ جُهِوْرُ هَذِهِ الْأَطْرَافِ كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ يَرْجِعُ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ التَّعَادِي بَيْنَ الْأَذْوَاقِ وَالْإِسْفَافِ بِمَنَازِعِ الرَّأْيِ وَالْخَلْطِ وَالْاضْطِرَابِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، حَتَّى أَصْبَحَ أَمْرُ الْأَدَبِ عَلَى أَقْبَحِهِ وَهُمْ يَرَوْنَهُ عَلَى أَحْسَنِهِ ، وَحَتَّى قِيلَ فِي الْأُسْلُوبِ : أُسْلُوبٌ تَلْغَرَايُ ، وَفِي الْفَصَاحَةِ : فَصَاحَةٌ غَامِيَّةٌ ، وَفِي اللَّغَةِ : لُغَةٌ الْجَرَائِدِ ، وَفِي الشَّعْرِ : شِعْرُ الْمَقَالَةِ ؛ وَنَجَمَتِ النَّاجِمَةُ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، وَزَيَّرُنْ لَهُمْ أَنَّهَا الْقُوَّةُ قَدْ اسْتَخْصَفَتْ وَاسْتَدَثَّتْ ، وَنَازَعَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ إِلَى سُخْرِيَةِ التَّقْلِيدِ وَإِلَى أَنْ يَكُونَ لَصِيقًا دَعِيًّا فِي آدَابِ الْأُمَمِ ، وَاسْتَهْلَكَهُ التَّضْيِيعُ وَسُوءُ النَّظَرِ لَهُ عَلَى حِينٍ يُؤْتَى لَهُمْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِهِ وَصِيَانَتِهِ وَحُسْنِ الصَّنِيعِ فِيهِ وَمِنْ تَوْفِيرِ الْمَادَّةِ عَلَيْهِ .

أَيْنَ تُصِيبُ الْعِلَّةُ إِذَا التَّمَسَّتْهَا ؟ أَفِي الْأَدَبِ مِنْ لُغَتِهِ وَأَسَالِيْبِ لُغَتِهِ ، وَمَعَانِيهِ وَأَعْرَاضِ مَعَانِيهِ ؟ أَمْ فِي الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ وَمَا يَتَّفِقُ مِنْ أَسْبَابِهِمْ وَجَوَادِيهِمْ ؟

إِنْ تَقُلْ : إِنَّهَا فِي اللَّغَةِ وَالْأَسَالِيْبِ وَالْمَعَانِي وَالْأَعْرَاضِ ، فَهَذِهِ كُلُّهَا نَصِيْبُ إِلَى حَيْثُ يُرَادُ بِهَا ، وَتَتَقَلَّدُ الْبَلِيَّةُ مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ فِيهَا ، وَقَدْ اسْتَوْعَبَتْ وَاتَّسَعَتْ وَمَادَتْ الْعُصُورَ الْكَثِيرَةَ إِلَى عَهْدِنَا ، فَلَمْ تُؤْتَ مِنْ ضِيْقٍ وَلَا جُمُودٍ وَلَا ضَعْفٍ ، ثُمَّ هِيَ مَادَّةٌ ، وَلَا عَلَيْهَا مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ مِنْهَا حَيْثُ يَمْلَأُ كَفَّهُ أَوْ حَيْثُ تَقَعُ يَدُهُ عَلَى حَاجَتِهِ .

وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ الْعِلَّةَ فِي الْأَدْبَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ وَدَوَاعِيهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ ؛ سَأَلْنَاكَ : وَلِمَ قَصَرُوا عَنِ الْغَايَةِ ، وَلِمَ وَقَعُوا بِالْخِلَافِ ، وَكَيْفَ ذَهَبُوا عَنِ الْمَصْلَحَةِ ، وَكَيْفَ اعْتَقَمَتِ الْخَوَاطِرُ وَقَسَدَتِ الْأَذْوَاقُ مَعَ قِيَامِ الْأَدَبِ الصَّحِيحِ فِي كُتُبِهِ مَقَامَ أُمَّةٍ مِنْ أَهْلِهِ

(١) اسْتَوْفَيْنَا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَقَالَةِ « الْأَدَبِ وَالْأَدِيبِ » .

أَعْرَابًا وَفُصَحَاءَ وَكُتُبًا وَشُعْرَاءَ ، وَمَعَ انْفِسَاحِ الْأَفْقِ الْعَقْلِيِّ فِي هَذَا الدَّهْرِ وَاجْتِمَاعِهِ مِنْ أَطْرَافِهِ لِمَنْ شَاءَ ، حَتَّى لَتَجِدَ عَقُولَ نَوَابِغِ الْقَارَاتِ الْخَمْسِ تُحْتَقَبُ فِي حَقِيقَةِ مِنَ الْكُتُبِ ، أَوْ تُصَنِّدُ^(١) فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْأَسْفَارِ .

كَيْفَ ذَهَبَ الْأَدَبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ نَشْرًا مُتَبَدِّدِينَ تَعْلُو بِهِمُ الدَّائِرَةُ وَتَهْبِطُ ، فَكُلُّ أَعْلَى وَكُلُّ أَسْفَلٍ ؟ هَذَا فَلَانٌ شَاعِرٌ قَدْ أَحَاطَ بِالشَّعْرِ عَرَبِيٍّ وَغَرَبِيٍّ وَهُوَ يَنْظُمُهُ وَيَفْتَنُ فِي أَغْرَاضِهِ وَيَوْلِّدُ وَيَسْرِقُ وَيَنْسَخُ وَيَمَسِّخُ ، وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ الشَّاعِرُ الَّذِي فَقَدْتَهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تَارِيخِهَا ، وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَدَهَا آيَتَاءٌ وَمِخَنَةٌ ، وَهُوَ كَكُلِّ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُورِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي لُغَاتٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ لَظَهَرُوا نُجُومًا ، وَلَكِنَّ الْعَرَبِيَّةَ جَعَلَتْ كُلًّا مِنْهُمْ حَصَاةً بَيْنَ الْحَصَى ، وَتَقْرَأُ شِعْرَهُ فَإِذَا هُوَ شِعْرٌ تَتَوَهَّمُ مِنْ قِرَاءَتِهِ تَقْطِيعُ ثِيَابِكَ ، إِذْ تُجَادِبُ نَفْسَكَ لِتَفِرَّ مِنْهُ فِرَارًا .

وَهَذَا فَلَانٌ الْكَاتِبُ الَّذِي وَالَّذِي . . وَالَّذِي يَرْفَعُ إِلَى أَقْصَى السَّمَوَاتِ عَلَى جَنَاحِي دُبَابَةٍ .

وَهَذَا فِرْعَوْنُ الْأَدَبِ الَّذِي يَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ! وَهَذَا فَلَانٌ وَهَذَا فَلَانٌ . . .
أَيْنَ يَكُونُ الزَّمَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ لِيَعْرِفُوا مَا هُمْ فِيهِ كَمَا هُمْ فِيهِ ، وَلِيَضْبِطُوا آرَاءَهُمْ وَهَوَاجِسَهُمْ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ حِسَابَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ لَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ ، فَالْوَاحِدَةُ مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ وَإِنْ تَوَهَّمُوهَا مِثْلَ وَتَوَهَّمَهَا بَعْضُهُمْ أَلْفًا أَوْ أَلْفَيْنِ ، وَمَتَى قَالَ النَّاسُ : غَلِطُوا ، فَقَدْ غَلِطُوا ، وَمَتَى قَالُوا : سَخَفَاءُ ، فَهُمْ سَخَفَاءُ .

وَأَيْنَ الزَّمَامُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ انْطَلَقُوا كَأَنَّهُمْ مُسَخَّرُونَ بِالْجَبْرِ عَلَى قَانُونٍ مِنَ التَّذْمِيرِ وَالتَّخْرِيبِ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا طَبِيعَةٌ مُكَابِرَةٌ لَا إِفْرَارَ مِنْهَا ، بَاغِيَةٌ لَا إِنْصَافَ مَعَهَا ، نَافِرَةٌ لَا مَسَاسَإَ إِلَيْهَا ، مُتَهَمَةٌ لَا ثِقَةَ بِهَا ، طَبِيعَةٌ يَتَحَوَّلُ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا إِلَى أَثَرٍ مِنْهَا كَمَا يَتَحَوَّلُ مَاءُ الشَّجَرِ فِي الْعُودِ الرُّطْبِ الْمُسْتَعِيلِ إِلَى دُخَانٍ أَسْوَدَ ! .

* * *

(١) كَلِمَةٌ وَضَعْنَاهَا عَلَى قِيَاسِ تُحْتَقَبُ .

يَرْجِعُ هَذَا الْخَلْطُ فِي رَأْيِي إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ خُلُوُّ الْعَصْرِ مِنْ إِمَامٍ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ يَلْتَفِي عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ وَيَكُونُ مِلءُ الدَّهْرِ فِي حِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَلِسَانِهِ وَمَنَاقِبِهِ وَسَمَائِلِهِ ؛ فَإِنْ مِثْلَ هَذَا الْإِمَامِ يُخَصُّ دَائِمًا بِالْإِرَادَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إِلَّا النَّصْرُ وَالْعَلْبَةُ ، وَالَّتِي تُعْطِي الْقُوَّةَ عَلَى قَتْلِ الصَّغَائِرِ وَالسَّفَاسِفِ ؛ وَهُوَ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْمِيزَانِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الرَّاْيِ ، وَضِعَ فِيهِ بِالْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ مِنْ أَنْصَارِهِ وَالْمُعْجِبِينَ بِآدَابِهِ ، وَبِالسَّوَادِ الْعَالِبِ مِنْ كُلِّ الْقَاعِلِيَّاتِ الْمُحِيطَةِ بِهِ وَالْمُنْجَذِبَةِ إِلَيْهِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَنْهَيَا قُوَّةَ التَّرْجِيحِ وَيَتَعَيَّنُ الْيَقِينُ وَالشَّكُّ ؛ وَالْمِيزَانُ الْيَوْمَ فَارِغٌ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ فَلَا يُرَجَّحُ وَلَا يُعَيَّنُ .

وَمَكَانُهُ هَذَا الْإِمَامُ تَحْدُ الْأَمْكِنَةَ ، وَمَقْدَارُهُ يَزِنُ الْمَقَادِيرَ ، فَيَكُونُ هُوَ الْمَنْطِقَ الْإِنْسَانِيَّ فِي أَكْثَرِ الْخِلَافِ الْإِنْسَانِيِّ : تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ ، فَتَلْزَمُ وَإِنْ أَنْكَرَهَا الْمُنْكَرُ ، وَنَمَضِي وَإِنْ عَانَدَ فِيهَا الْمُعَانِدُ ، وَيُؤْخَذُ بِهَا وَإِنْ أَصَرَ الْمَصِرُّ عَلَى غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى الْقِيَاسِ يَبِينُ التَّطَرُّفُ فِي الزِّيَادَةِ أَوْ النَقْصِ ، وَالْإِجْمَاعُ إِذَا ضَرَبَ ضَرْبَ الْمَغْصِيَةِ بِالطَّاعَةِ ، وَالزِّيغُ بِالْإِسْتِقَامَةِ ، وَالْعِنَادُ بِالتَّسْلِيمِ ؛ فَيَخْرُجُ مَنْ يَخْرُجُ وَعَلَيْهِ وَسْمُهُ ، وَيَزِيغُ مَنْ يَزِيغُ وَفِيهِ صِفَتُهُ ، وَيَصِرُّ الْمُكَابِرُ وَأَسْمُهُ الْمُكَابِرُ لَيْسَ غَيْرَ ، وَإِنْ هُوَ تَكْذَّبَ وَتَأَوَّلَ ، وَإِنْ زَعَمَ مَا هُوَ زَاعِمٌ .

وَلِكُلِّ الْقَوَاعِدِ شَوَادُّ ، وَلِكِنَّ الْقَاعِدَةَ هِيَ إِمَامٌ بِأَبَها ؛ فَمَا مِنْ شَاذٍّ يَخْسِبُ نَفْسَهُ مُنْطَلِقًا مُخَلًى ، إِلَّا هُوَ مَحْدُودٌ بِهَا مَزْدُودٌ إِلَيْهَا ، مُتَّصِلٌ مِنْ أَوْسَعِ جِهَاتِهِ بِأَضْيَقِ جِهَاتِهِ ؛ حَتَّى مَا يَعْرِفُ أَنَّهُ شَاذٌّ إِلَّا بِمَا تُعْرِفُ بِهِ أَنَّهَا قَاعِدَةٌ ، فَيَكُونُ شَأْنُهُ فِي نَفْسِهِ بِمَا تُعَيَّنُ هِيَ لَهُ عَلَى مَكْرَهَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

وَالْإِمَامُ يَنْبُتُ فِي آدَابِ عَصْرِهِ فِكْرًا وَرَأْيًا ، وَيَزِيدُ فِيهَا قُوَّةً وَإِنْدَاعًا ، وَيَزِيدُ مَاضِيَهَا بِأَنَّهُ فِي نَهَائِيَّتِهِ ، وَمُسْتَقْبَلَهَا بِأَنَّهُ فِي بَدَائِيَّتِهِ ، فَيَكُونُ كَالْتَّعْدِيلِ بَيْنَ الْأَزْمِنَةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَالْإِنْتِقَالِ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ؛ لِأَنَّ هَذَا الْإِمَامَ إِنَّمَا يُخْتَارُ لِإِظْهَارِ قُوَّةِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ بَعْضِ وَجُوهِهَا وَإِثْبَاتِ شُمُولِهَا وَإِحَاطَتِهَا كَأَنَّهُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْجِنْسِ يَأْنَسُ الْجِنْسُ فِيهَا إِلَى كَمَالِهِ الْبَعِيدِ ، وَيَتَلَقَّى مِنْهُ حُكْمَ التَّمَامِ عَلَى النَّفْصِ ، وَحُكْمَ الْقُوَّةِ عَلَى الضَّعْفِ ، وَحُكْمَ الْمَأْمُولِ عَلَى الْوَاقِعِ ، وَيَجِدُ فِيهِ قَوْمَهُ كَمَا يَجِدُونَ فِي الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يُكَابِرُ عِنْدَهَا

مُسْتَطَعٌ بِتَأْوِيلِ ، وَفِي الْقُوَّةِ الَّتِي لَا يُخَالِفُ عِنْدَهَا مُبْطِلٌ بَعْدًا ؛ وَفِي الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يَرْوَعُ مِنْهَا مُتَعَسِّفٌ بِحِيلَةٍ ، وَلَنْ يَضِلَّ النَّاسُ فِي حَقِّ عَرَفُوا حَدَّهُ ، فَإِنَّ مَا وَرَاءَ الْجَدِّ هُوَ التَّعَدِّي ؛ وَلَنْ يُخْطِئُوا فِي حُكْمِ أَصَابُوا وَجْهَهُ ، فَإِنَّ مَا عَدَا أَلَوْجَهُ هُوَ الْخِلَافُ وَالْمِرَاءُ .

وَقَدْ طُبِعَ النَّاسُ فِي بَابِ الْقُدْوَةِ عَلَى غَرِيزَةٍ لَا تَتَحَوَّلُ ؛ فَمَنْ أَنْفَرَدَ بِالْكَمَالِ كَانَ هُوَ الْقُدْوَةُ ، وَمَنْ غَلَبَ كَانَ هُوَ السَّنَمْتُ ؛ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِمَّنْ يَتَقَاتُسُونَ بِهِ وَيَتَوَارَتُونَ فِيهِ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا عَلَى مَرَاشِدِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ، فَالْإِمَامُ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ مِنْ عَقْلِ . فَهُوَ يَتَسَلَّطُ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاقِصِ وَالْوَافِي مِنْ كُلِّ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ ، ثُمَّ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيهِ أَوْزَانُ الْقُوَى وَزَنًا بَعْدَ وَزْنٍ ، وَكَانَتْ فِيهِ مَنَازِلُ أَحْوَالِهَا مَنَزِلَةً بَعْدَ مَنَزِلَةٍ .

هُوَ إِنْسَانٌ ، تَخَيَّرَ بَعْضُ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ لِنَظَرِهِ فِيهِ بِأَسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ ، فَيَكُونُ فِي قَوْمِهِ ضَرْبًا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِقَاعِدَةٍ مُتَرَعَّةٍ مِنْ مِثَالِهَا ، مَشْرُوحَةٍ بِهَذَا الْمِثَالِ نَفْسِهِ ، فَإِلَيْهِ يُرَدُّ الْأَمْرُ^(١) فِي ذَلِكَ ، وَيَبْلُغُهُ يَنْلَى ، وَعَلَى سَبِيلِهِ يُنْهَجُ ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِالْفَنِّ الَّذِي هُوَ إِمَامٌ فِيهِ ، إِلَّا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِقُوَى الثَّقُوسِ كَأَنَّهُ هِدَايَةٌ فِيهَا ، لِأَنَّهُ يَفْتَهُ حَكَمَ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ قُوَّةً وَتَنْبِيْهَا ، وَتَسْهِيْلًا وَإِنْصَاحًا ، وَإِبْلَاغًا وَهِدَايَةً ؛ وَيَكُونُ رَجُلًا وَإِنَّهُ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَفِي الْأَنْفُسِ كُلِّهَا ، وَيُعْطَى مِنْ إِجْلَالِ النَّاسِ مَا يَكُونُ بِهِ أَسْمُهُ ، كَأَنَّهُ خَلَقَ مِنَ الْحُبِّ طَرِيقَهُ عَلَى الْعَقْلِ لَا عَلَى الْقَلْبِ .

وَلَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ حِكْمَةِ إِقَامَةِ الْخَلِيقَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَوُجُوبِ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَا بُدَّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ ضَوْءٍ فِي لَحْمٍ وَدَمٍ ، وَبَعْضُ مَعَانِي الْخَلِيقَةِ فِي تَنْصِيْبِهِ كِبَعْضِ مَعَانِي « الشَّهِيدِ الْمَجْهُولِ » فِي الْأُمَمِ الْمُحَارَبَةِ الْمُتَنَصِّرَةِ الْمُتَمَدِّنَةِ : رَمَزُ التَّقْدِيسِ ، وَمَعْنَى الْمَفَادَاةِ ، وَصَنَتْ يَتَكَلَّمُ ، وَمَكَانٌ يُوجِي ، وَقُوَّةٌ تُسْتَمَدُّ ، وَأَنْفِرَادٌ يَجْمَعُ ؛ وَحُكْمُ الْوُطَنِيَّةِ عَلَى أَهْلِهَا بِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ فِي شَرَفِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ؛ بَلِ الْحَرْبُ مَخْبُوءَةٌ فِي حُفْرَةٍ ، وَالنَّصْرُ مُعْطَى بِقَبْرِ ؛ بَلِ الْمَجْهُولُ الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ .

* * *

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْأُمُورُ » بَدَلًا مِنْ : « الْأَمْزُ » .

فَعَصَرْنَا هَذَا مُضْطَرِبٌ مُخْتَلٌ ، إِذْ لَا إِمَامَ فِيهِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَإِذْ كُلُّ مَنْ يَزْعُمُ
 نَفْسَهُ إِمَامًا هُوَ مِنْ بَعْضِ جِهَاتِهِ كَأَنَّهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَلَكِنْ بِغَيْرِ فِقْهِ !
 وَلَعَمْرِي مَا نَشَأَ قَوْلُهُمْ « الْجَدِيدُ وَالْقَدِيمُ » إِلَّا لِأَنَّ هَلُنَا مَوْضِعًا خَالِيًا يُظْهِرُ خِلَافَهُ
 مَكَانَ الْفَضْلِ بَيْنَ الثَّائِحِينَ وَيَجْعَلُ جِهَةً تَنْمَازُ^(١) مِنْ جِهَةٍ ، فَمُنْذُ مَاتَ الْإِمَامُ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ
 مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - جَرَتْ أَحْدَاثٌ ، وَتَنَاتَ رُؤُوسٌ ، وَزَاغَتْ طَبَائِعُ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ
 رَجُلٌ بَلْ رُفِعَ قُرْآنٌ .

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) فِي الْأَصْلِ : « تَنْمَازُ » بَدَلًا مِنْ : « تَنْمَازُ » .

الْأَدَبُ وَالْأَدِيبُ (*) (١)

إِذَا اُعْتَبِرْتَ الْخَيَالَ فِي الذِّكَاءِ الْإِنْسَانِي وَأَوَّلَيْتَهُ دَقَّةَ النَّظَرِ وَحُسْنَ التَّمْيِيزِ ، لَمْ تَجِدْهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْلِيدًا مِنَ النَّفْسِ لِلْأُلُوْهِيَّةِ بِوَسَائِلٍ عَاجِزَةٍ مُنْقَطِعَةٍ ، قَادِرَةٍ عَلَى التَّصَوُّرِ وَالْوُحْمِ بِمِقْدَارِ عَجْزِهَا عَنِ الْإِبْجَادِ وَالتَّخْفِيقِ .

وَهَذِهِ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ الْآتِيَّةُ مِنَ الْمَجْهُولِ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهَا ، وَالرَّاجِعَةُ إِلَيْهِ آخِرَ حَيَاتِهَا ، وَالْمُسَدَّدَةُ فِي طَرِيقِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهَا ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي خَيَالِهَا أَنَّ الشَّيْءَ الْمَوْجُودَ قَدْ أَنْتَهَى بِوُجُودِهِ ، وَلَا تَرْضَى طَبِيعَتُهَا بِمَا يَنْتَهِي ؛ فَهِيَ لَا تَتَعَاطَى الْمَوْجُودَ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَيَالِهَا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَمَا يَبْدَأُ ، وَتَمَّ فَمَا يُزَادُ ، وَخَلَدَ فَلَا يَتَحَوَّلُ ؛ بَلْ لَا تَزَالُ تَضْرِبُ ظَنًّا وَتُصَرِّفُ وَهْمَهَا فِي كُلِّ مَا تَرَاهُ أَوْ يَتَلَجَّلُ فِي خَاطِرِهَا ، فَلَا تَبْرَحُ تَتَلَمَّحُ فِي كُلِّ وُجُودٍ غَيْبًا ، وَتَكْشِفُ مِنَ الْغَايِبِ ، وَتَزِيدُ فِي غُمُوضِهِ ، وَتَجْرِي دَابًّا عَلَى مَجَارِيهَا الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي تُوثِقُ صِلَتَهَا بِالْمَجْهُولِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ فِي أَمْرِهَا مَعَ الْمَوْجُودِ مِمَّا لَا وُجُودَ لَهُ ، تَعَلَّقُ بِهِ وَتَسْكُنُ إِلَيْهِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ لَا بُدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ - مَعَ الْمَعَانِي الَّتِي لَهُ فِي الْحَقِّ - مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَهُ فِي الْخَيَالِ ؛ وَهَذَا هُنَا مَوْضِعُ الْأَدَبِ وَالْبَيَانِ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَكِلَاهُمَا طَبِيعِيٌّ فِيهَا كَمَا تَرَى .

وَإِذَا قِيلَ الْأَدَبُ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ الْبَيَانِ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَخْلُقُ فِتْصُورًا فَتُحْسِنُ الصُّورَةَ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ تَمَامُ التَّرْكِيبِ فِي مَغْرِضِهِ وَجَمَالِ صُورَتِهِ وَدَقَّةَ لِمَحَاتِهِ ؛ بَلْ يَنْزِلُ الْبَيَانُ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي يَلْبَسُهُ مِثْلَ الثَّوْبِ مِنَ الثَّمَرَةِ وَحَدَا قَبْلَ الثَّوْبِ شَيْئًا مُسَمًّى أَوْ مُمْتَرًا بِنَفْسِهِ ، فَلَنْ تَكُونَ بغيرِ الثَّوْبِ شَيْئًا تَامًا وَلَا صَحِيحًا ، وَمَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَسْتَوْفِيَ كَمَالَ عُمْرِهَا الْأَخْضَرِ الَّذِي هُوَ بَيَانُهَا وَبَلَاغَتُهَا .

(*) « الرسالة » العدد : ١١٠ ، ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ = ١٢ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٨٣ - ١٢٨٧ .

(١) أَنْظُرْ « عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » . سَعِيدُ الْمُغْرِبَانِ .

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَيْفَمَا تَنَاوَلْتَهَا فَهِيَ هِيَ حَتَّى تُمَضِّبَهَا عَلَى هَذَا أَلْوَجْهِ الَّذِي رَأَيْتَ فِي
الْثَمَرَةِ وَتُضَجِّجَهَا ؛ فَإِنَّ أَلْبَيَانَ صِنَاعَةَ الْجَمَالِ فِي شَيْءٍ جَمَالُهُ هُوَ مِنْ فَائِدَتِهِ ، وَفَائِدَتُهُ مِنْ
جَمَالِهِ ؛ فَإِذَا خَلَا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَلْتَحَقَ بغيرِهِ ، وَعَاةُ بَابَا مِنْ أَلَا سَتَعْمَالٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ بَابَا
مِنَ التَّأْتِيرِ ؛ وَصَارَ الْفَرْقُ بَيْنَ حَالَيْهِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ اللَّبَاتِ ، وَبَيْنَ
الْفَاكِهَةِ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنَ الْخَمْرِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْأَصْلُ فِي الْأَدَبِ أَلْبَيَانَ وَالْأَسْلُوبَ فِي جَمِيعِ
لُغَاتِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَالْغَرَضُ الْأَوَّلُ لِلْأَدَبِ الْمُبِينِ أَنْ يَخْلُقَ لِلنَّفْسِ دُنْيَا الْمَعَانِي الْمُلَائِمَةَ لِنَبْلِكَ التَّرَعَةِ
الثَابِتَةِ فِيهَا إِلَى الْمَجْهُولِ وَإِلَى مَجَازِ الْحَقِيقَةِ ، وَأَنْ يُلْقِيَ الْأَسْرَارَ فِي الْأُمُورِ الْمَكْشُوفَةِ بِمَا
يَتَخَيَّلُ فِيهَا ، وَيَرُدُّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَيَاةِ كَثِيرًا وَافِيًا بِمَا يُضَاعِفُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَيُزَكِّهِ الْمَاضِي
مِنْهَا ثَابِتًا قَارًا بِمَا يُخْلَدُ مِنْ وَصْفِهِ ، وَيَجْعَلُ الْمُؤَلَّمُ مِنْهَا لَذًا خَفِيفًا بِمَا يَبُثُّ فِيهِ مِنْ
الْعَاطِفَةِ ، وَالْمَمْلُوءُ مُمْتِعًا خُلُوعًا بِمَا يَكْشِفُ فِيهِ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحِكْمَةِ ؛ وَمَدَارُ ذَلِكَ كُلُّهُ
عَلَى إِنْتَاءِ النَّفْسِ لَذَّةَ الْمَجْهُولِ ، الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا لَذَّةُ مَجْهُولَةٍ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ
طُلْعَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، لَا تَبْتَغِي مَجْهُولًا صَرَفًا وَلَا مَعْلُومًا صَرَفًا ، كَأَنَّهَا مُدْرِكَةٌ يَفْطَرُهَا أَنْ لَيْسَ فِي
الْكَوْنِ صَرِيحٌ مُطْلَقٌ وَلَا خَفِيٌّ مُطْلَقٌ ؛ وَإِنَّمَا تُبْتَغَى حَالَةٌ مُلَائِمَةٌ بَيْنَ هَذَيْنِ ، يُتَوَرَّعُ فِيهَا قَلْقُ
أَوْ يَسْكُنُ مِنْهَا قَلْقٌ .

وَأَشْوَاقُ النَّفْسِ هِيَ مَادَّةُ الْأَدَبِ ؛ فَلَيْسَ يَكُونُ أَدَبًا إِلَّا إِذَا وَضَعَ الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ الَّتِي
لَيْسَ لَهَا مَعْنَى ، أَوْ كَانَ مُتَّصِلًا بِسِرِّ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكْشِفُ عَنْهُ أَوْ يُؤَمِّمُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ، أَوْ
غَيْرَ لِلنَّفْسِ هَذِهِ الْحَيَاةَ تَغْيِيرًا يَجِيءُ طَبَاقًا لِعَرْضِهَا وَأَشْوَاقِهَا ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَزْحَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ
جَوْ إِلَى جَوْ غَيْرِهِ ، يَنْفُلُهُ الْأَدَبُ مِنْ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى ، فِيهَا شَعُورُهَا
وَلَذَّتُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَكَانٌ وَلَا زَمَانٌ ؛ حَيَاةٌ كُمَلَّتْ فِيهَا أَشْوَاقُ النَّفْسِ ، لِأَنَّ فِيهَا اللَّذَاتِ
وَالْآلَامَ بِغَيْرِ ضَرُورَاتٍ وَلَا تَكَالِيفٍ ؛ وَلَعَمْرِي مَا جَاءَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي الْأَدْبَانِ عَيْنًا ؛ فَإِنَّ
خَالِقَ النَّفْسِ بِمَا رَكَّبَهُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ ، لَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ أَنَّهُ قَدْ أَنْتَمَّ خَلْقُهَا إِلَّا بِخَلْقِ الْجَنَّةِ
وَالنَّارِ مَعًا ؛ إِذْ هُمَا الصُّورَتَانِ الدَّائِمَتَانِ الْمُتَكَافِئَتَانِ لِأَشْوَاقِهَا الْخَالِدَةِ إِنْ هِيَ اسْتَقَامَتْ
مُسَدَّدَةً أَوْ انْعَكَسَتْ حَائِلَةً .

وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ النَّفْسَ لَا تَحَقِّقُ مِنْ حُرِّيَّتِهَا وَلَا تَنْطَلِقُ أَنْطِلَاقَهَا الْخَالِدَةَ فَتُحْسِرُ
وَحْدَةَ الشُّعُورِ وَوَحْدَةَ الْكَمَالِ الْأَسْمَى - إِلَّا فِي سَاعَاتٍ وَفتراتٍ تَنْسَلُ فِيهَا مِنْ زَمَنِهَا
وَعَيْشِهَا وَنَفَائِصِهَا وَأَضْطَرَّابِهَا إِلَى (مِنْطَقَةِ حَيَاةٍ) خَارِجَةٍ وَرَاءَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ؛ فَإِذَا هَبَطَتْهَا
النَّفْسُ ، فَكَأَنَّمَا انْتَقَلَتْ إِلَى الْجَنَّةِ وَاسْتَرْوَحَتْ الْخُلْدَ ؛ وَهَذِهِ الْمِنْطَقَةُ السَّخَرِيَّةُ لَا تَكُونُ
إِلَّا فِي أَرْبَعَةٍ : حَبِيبٍ فَاتِنٍ مَعْشُوقٍ أُعْطِيَ قُوَّةَ سِحْرِ النَّفْسِ ؛ فَهِيَ تَنْسَى بِهِ ؛ وَصَدِيقٍ
مَحْبُوبٍ وَفِي أَوْتِي قُوَّةَ جَذْبِ النَّفْسِ ، فَهِيَ تَنْسَى عِنْدَهُ ؛ وَقِطْعَةً أَدَبِيَّةً آخِذَةً ، فَهِيَ سَاحِرَةٌ
كَالْحَبِيبِ أَوْ جَادِيَّةٌ كَالصَّدِيقِ ؛ وَمَنْظَرٍ فَنِّي رَائِعٍ ، فَبَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْءٌ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا تُنْسِي الزَّمَنَ زَمَنَهُ مُدَّةً تَطُولُ وَتَقْصُرُ ، وَذَلِكَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ
الْإِنْسَانِيَّةَ تُصِيبُ مِنْهَا أَسَالِيبُ رُوحِيَّةٍ لِاتِّصَالِهَا هُنَيْهَةً بِالرُّوحِ الْأَزَلِيِّ فِي لَحْظَاتٍ مِنَ الشُّعُورِ
كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَكَأَنَّهَا مِنَ الْأَزَلِيَّةِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقَرَّرَ أَنَّ أَسَاسَ الْقَرْنِ
عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ ثَوْرَةُ الْخَالِدِ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَانِي فِيهِ ، وَأَنَّ تَصَوُّيرَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ فِي
أَوْهَامِهَا وَحَقَائِقِهَا بِمِثْلِ اخْتِلَاجَاتِهَا فِي الشُّعُورِ وَالتَّأَثُّرِ - وَهُوَ مَعْنَى الْأَدَبِ وَأُسْلُوبِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْإِتِّسَاقَ وَالْخَيْرَ وَالْحَقَّ وَالْجَمَالَ - وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْرَارَهَا -
أُمُورٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ فِي عَالَمٍ يَقُومُ عَلَى الْأَضْطَرَابِ وَالْآثَرَةِ وَالْتَّرَاعِ وَالشَّهَوَاتِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ
يَأْتِي الشَّاعِرُ وَالْأَدِيبُ وَذُو الْقَلَمِ عِلَاجًا مِنْ حِكْمَةِ الْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَيُبْدِعُونَ لَتِلْكَ الصِّفَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ عَالَمَهَا الَّذِي تَكُونُ طَبِيعِيَّةً فِيهِ ، وَهُوَ عَالَمُ أَرْكَانِهِ الْإِتِّسَاقُ فِي الْمَعَانِي
الَّتِي يَجْرِي فِيهَا ؛ وَالْجَمَالُ فِي التَّعْبِيرِ الَّذِي يَتَأَدَّى بِهِ ؛ وَالْحَقُّ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ ؛
وَالْخَيْرُ فِي الْغَرَضِ الَّذِي يُسَاقُ لَهُ ؛ وَيَكُونُ فِي الْأَدَبِ مِنَ الْقَصَصِ وَالْكَمَالِ بِحَسَبِ
مَا يَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ ، وَلَا مَعْيَارَ أَدَقُّ مِنْهَا إِنْ ذَهَبَتْ تَغْيِيرُهُ بِالظَّنِّ وَالرَّأْيِ ، فَقَبِي
عَمَلِ الْأَدِيبِ تَخْرُجُ الْحَقِيقَةُ مُضَافًا إِلَيْهَا الْقَلْبُ ، وَيَجِيءُ التَّغْيِيرُ مَرِيدًا فِيهِ الْجَمَالُ ، وَتَتَمَثَّلُ
الطَّبِيعَةُ الْجَامِدَةُ خَارِجَةً مِنْ نَفْسِ حَيَّةٍ ، وَيَظْهَرُ الْكَلَامُ وَفِيهِ رَفَعُ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَحَرَارَتُهَا
وَشُعُورُهَا وَانْتِظَامُهَا وَدَفْقُهَا الْمُؤَسِّيقِي ، وَتَلْبَسُ الشَّهَوَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ شَكْلَهَا الْمُهَذَّبَ لِتَكُونَ
بِسَبَبِ مِنْ تَقْرِيرِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ، الَّذِي هُوَ السَّرُّ فِي ثَوْرَةِ الْخَالِدِ مِنَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْفَانِي ،
وَالَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْقَلَمِ مَعًا ، وَبِهَذَا يَهَبُ لَكَ الْأَدَبُ تِلْكَ الْقُوَّةَ

الْعَامِضَةَ الَّتِي تَتَسَعُّ بِكَ حَتَّى تَشْعُرَ بِالدُّنْيَا وَأَحْدَاثِهَا مَارَةً مِنْ خِلَالِ نَفْسِكَ ، وَتُحِسَّ الْأَشْيَاءَ كَأَنَّهَا اتَّقَلَّتْ إِلَى ذَاتِكَ مِنْ ذَوَاتِهَا ، وَذَلِكَ سِرُّ الْأَدِيبِ الْعَبْقَرِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى الرَّأْيَ بِالْاِعْتِقَابِ^(١) وَالْاجْتِهَادِ كَمَا يَرَاهُ النَّاسُ ، وَإِنَّمَا يُحِسُّ بِهِ ، فَلَا يَقَعُّ لَهُ رَأْيُهُ بِالْفِكْرِ ، بَلْ يُلْهَمُهُ إِلَهَامًا ، وَلَيْسَ يُؤَاتِيهِ الْإِلَهَامُ إِلَّا مِنْ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ تَمَرُّ فِيهِ بِمَعَانِيهَا وَتَغَيُّرُهُ كَمَا تَغَيَّرُ الشُّقْنُ النَّهَرُ ، فَيُحِسُّ أَثَرَهَا فِيهِ فَيُلْهَمُ مَا يُلْهَمُ ، وَيَحْسِبُهُ النَّاسُ نَافِذًا بِفِكْرِهِ مِنْ خِلَالِ الْكَوْنِ ، عَلَى حِينِ أَنْ حَقَائِقَ الْكَوْنِ هِيَ النَّافِذَةُ مِنْ خِلَالِهِ .

وَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ تُعْرِفَ الْأَدِيبَ مَنْ هُوَ ، لَمَا وَجَدْتُ أَجْمَعَ وَلَا أَدَقَّ فِي مَعْنَاهُ مِنْ أَنْ تُسَمِّيَهُ الْإِنْسَانَ الْكُوْنِيَّ ، وَغَيْرُهُ هُوَ الْإِنْسَانُ فَقَطْ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَبْلُغُ مِنْ غُمُقِ تَأَثُّرِهِ بِجَمَالِ الْأَشْيَاءِ وَمَعَانِيهَا ، ثُمَّ مَا يَقَعُّ مِنْ اتِّصَالِ الْمَوْجُودَاتِ بِهِ بِأَلَامِهَا وَأَفْرَاحِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ فِيهِ مَعَ خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ خَاصِيَّةُ الْكَوْنِ الشَّامِلِ . فَالطَّبِيعَةُ تَنْبُتُ بِجَمَالٍ فَتَهِيَ الْبَدِيعُ أَنَّهُ مِنْهَا ، وَتَذُلُّ السَّمَاءُ بِمَا فِي صِنَاعَتِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْأَسْرَارِ أَنَّهُ كَذَلِكَ مِنْهَا ، وَتُبْزَهُنَّ الْحَيَاةُ بِفَلْسَفَتِهِ وَأَرَائِهِ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا مِنْهَا ، وَهَذَا وَذَلِكَ هُوَ الشُّمُولُ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ ، وَالْاِتِّسَاعُ الَّذِي كُلُّ آخِرٍ فِيهِ لَشَيْءٍ أَوَّلٌ فِيهِ لَشَيْءٍ .

وَهُوَ إِنْسَانٌ يَذُلُّهُ الْجَمَالُ عَلَى نَفْسِهِ لِيَذُلَّ غَيْرُهُ عَلَيْهِ ، وَيَذُلُّكَ زِينَةُ عَلَى مَعْنَاهُ مَعْنَى ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ فِي إِحْسَاسِهِ قُوَّةُ إِنْشَاءِ الْإِحْسَاسِ فِي غَيْرِهِ ، فَاسَّاسُ عَمَلِهِ دَائِمًا أَنْ يَرِيدَ عَلَى كُلِّ فِكْرَةٍ صُورَةً لَهَا ، وَيَرِيدَ عَلَى كُلِّ صُورَةٍ فِكْرَةً فِيهَا ، فَهُوَ يُبْدِعُ الْمَعَانِي لِلْأَشْكَالِ الْحَامِدَةِ فَيُوجِدُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَيُبْدِعُ الْأَشْكَالَ لِلْمَعَانِي الْمُجَرَّدَةِ فَيُوجِدُهَا هِيَ فِي الْحَيَاةِ ، فَكَأَنَّهُ خُلِقَ لِيَتَلَقَّى الْحَقِيقَةَ وَيُعْطِيَهَا لِلنَّاسِ وَيَرِيدُهُمْ فِيهَا الشُّعُورَ بِجَمَالِهَا الْفَنِيِّ ، وَيَأْذُبُهَا بِالْعُلَمَاءِ تَنْمُو مَعَانِي الْحَيَاةِ ، كَأَنَّمَا أَوْجَدَتْهُمْ الْحِكْمَةُ لِتَنْقُلَ بِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمَ يَمُرُّ فِي أَدِمَتِهِمْ لِيَحَقِّقَ نَفْسُهُ .

وَمُشَارَكَةُ الْعُلَمَاءِ لِلْأَدْبَاءِ تَوْجِبُ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْأَدِيبُ بِالْأَسْلُوبِ الْبَيَانِيِّ ، إِذْ هُوَ كَالطَّابَعِ عَلَى الْعَمَلِ الْفَنِيِّ ، وَكَالشَّهَادَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَوْهُوبِ الَّذِي جَاءَتْ

(١) الْاِعْتِقَابُ : إِطَالَةُ النَّظَرِ وَكَذَلِكَ الْفِكْرِ .

مِنْ طَرِيقِهِ ، ثُمَّ لِأَنَّ الْأَسْلُوبَ هُوَ تَخْصِصٌ لِنَوْعٍ مِنَ الدُّوْقِ وَطَرِيقَةٍ مِنَ الْإِدْرَاكِ كَانَ الْجَمَالَ يَقُولُ بِالْأَسْلُوبِ : إِنَّ هَذَا هُوَ عَمَلُ فُلَانٍ .

وَفَصْلُ مَا بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْأَدِيبِ ، أَنَّ الْعَالِمَ فِكْرَةٌ ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ فِكْرَةٌ وَأَسْلُوبُهَا ، فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أَعْمَالٌ مُتَّصِلَةٌ مُتَّصِلَةٌ يُشَارُ إِلَيْهِمْ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، عَلَى حِينٍ يُقَالُ فِي كُلِّ أَدِيبٍ عِبْرَتِي : هَذَا هُوَ ، هَذَا وَحْدَهُ . وَعِلْمُ الْأَدِيبِ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ بِأَسْرَارِهَا الْمُتَّجِهَةِ إِلَى النَّفْسِ ، وَلِذَلِكَ فَمَوْضِعُ الْأَدِيبِ مِنَ الْحَيَاةِ مَوْضِعُ فِكْرَةٍ حُدُودُهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا الْأَسْرَارُ .

وَإِذَا رَأَى النَّاسُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ تَرْكِيبًا تَامًا قَائِمًا بِحَقَائِقِهِ وَأَوْصَافِهِ ، فَالْأَدِيبُ الْعَبْرَتِي لَا يَرَاهَا إِلَّا أَجْزَاءً ، كَأَنَّمَا هُوَ يَشْهَدُ خَلْقَهَا وَتَرْكِيبَهَا ، وَكَأَنَّمَا أَمَرَهَا فِي (مَعْمَلِهِ) ، أَوْ كَانَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - دَعَاهُ لِيَرَى فِيهَا رَأْيَهُ . . . وَبِذَلِكَ يَجِيءُ التَّابِعُ مِنْ أَدَبِ الْعَبَاثَةِ وَبَعْضُهُ كَالْمُقْتَرَحَاتِ لِتَجْمِيلِ الدُّنْيَا وَتَهْذِيبِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَبَعْضُهُ كَالْمُوَافَقَةِ وَإِقْرَارِ الْحِكْمَةِ ؛ وَأَسَاسُهُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ النَّقْدُ ثُمَّ النَّقْدُ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ النَّقْدِ ؛ كَانَ الْقُوَّةُ الْأَرْثِيَّةُ تَقُولُ لِهَذَا الْمُلْهَمِ : أَنْتَ كَلِمَتِي فَقُلْ كَلِمَتَكَ . . .

* * *

وَتَرَى الْجَمَالَ حَيْثُ أَصْبَتْهُ شَيْئًا وَاحِدًا لَا يَكْبُرُ وَلَا يَصْغُرُ ، وَلَكِنَّ الْحِسَّ بِهِ يَكْبُرُ فِي أَنْاسٍ وَيَصْغُرُ فِي أَنْاسٍ ؛ وَهَذَا يَتَأَلَّهُ الْأَدَبُ ؛ فَهُوَ خَالِقُ الْجَمَالِ فِي الدُّهْنِ ، وَالْمُمْكِنُ لِلْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى إِدْرَاكِهِ وَتَبْيِينِ صِفَاتِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ لِهَذَا الْعَالَمِ قِيَمَتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ بِإِضَافَةِ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ إِلَيْهِ ، وَمُحَاوَلَتِهِ إِظْهَارَ النَّظَامِ الْمَجْهُولِ فِي مُتَنَاقِضَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْأَرْتِفَاعِ بِهَذِهِ النَّفْسِ عَنِ الْوَاقِعِ الْمُنْحَطِّ الْمُجْتَمِعِ مِنْ غِشَاوَةِ الْفِطْرَةِ وَصَوْلَةِ الْغَرِيزَةِ ، وَغَرَارَةِ الطَّبْعِ الْحَيَوَانِيِّ .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْأَدَبِ عَلَى ذَلِكَ ، فَبِأَضْطِرَارٍ أَنْ تَتَهَذَّبَ فِيهِ الْحَيَاةُ وَتَتَأَدَّبَ ، وَأَنْ يَكُونَ تَسَلُّطُهُ عَلَى بَوَاعِثِ النَّفْسِ دُرْبَةً لِإِضْلَاحِهَا وَإِقَامَتِهَا ، لَا لِإِفْسَادِهَا وَالْإِنْحِرَافِ بِهَا إِلَى الزَّيْنِ وَالضَّلَالَةِ ، وَبِأَضْطِرَارٍ أَنْ يَكُونَ الْأَدِيبُ مُكَلِّفًا تَضَحِيحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَفْيِ التَّزْوِيرِ عَنْهَا ، وَإِخْلَاصِهَا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهَا عَلَى تَتَابُعِ الضَّرُورَاتِ ؛ ثُمَّ تَضَحِيحِ الْفِكْرَةِ

الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الْوُجُودِ ، وَنَفَى الْوُثَيْيَّةَ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَالسُّمُوءَ بِهَا إِلَى فَوْقِ ، ثُمَّ إِلَى فَوْقِ ، وَدَائِمًا إِلَى فَوْقِ !

وَإِنَّمَا يَكْلَفُ الْأَدِيبُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ ، مِنْ خَصَائِصِهِ التَّمْيِيزُ وَتَقْدُّمُ النَّظَرِ وَتَسْقُطُ الْإِلْهَامُ ، وَلِأَنَّ الْأَضْلَ فِي عَمَلِهِ الْفَنِّيَّ أَلَّا يَبْتَغِ فِي الشَّيْءِ نَفْسَهُ ، وَلَكِنْ فِي الْبَدِيعِ مِنْهُ ؛ وَالْأَلَّا يَنْظُرَ إِلَى وَجُودِهِ ، بَلْ إِلَى سِرِّهِ ، وَلَا يُعْنَى بِتَرْكِيبِهِ ، بَلْ بِالْجَمَالِ فِي تَرْكِيبِهِ ، وَلِأَنَّ مَادَّةَ عَمَلِهِ أَحْوَالُ النَّاسِ ، وَأَخْلَافُهُمْ ، وَالْوَانُ مَعَاشِهِمْ ، وَأَخْلَامُهُمْ ، وَمَذَاهِبُ أُخْلِيَتِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فِي مَعْنَى الْفَنِّ ، وَتَفَاوُثُ إِحْسَاسِهِمْ بِهِ ، وَأَسْبَابُ مَغَاوِيهِمْ وَمَرَاشِدِهِمْ ، يُسَدِّدُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ رَأْيَهُ ، وَيُجِيلُ فِيهِ نَظَرَهُ ؛ وَيَخْلِطُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُنْفِذُهُ مِنْ حَوَاسِهِ ، كَأَنَّمَا لَهُ فِي السَّرَائِرِ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ ، وَكَأَنَّهُ وَلِيَّ الْحُكْمِ عَلَى الْجُزْءِ الْخَفِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، يَقُومُ عَلَى سِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى الْمَثَلِ الْأَعْلَى . وَهَلْ يُخَلِّقُ الْعَبَقَرِيُّ إِلَّا كَالْبُرْهَانِ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ وَالَّذِي هُوَ أَبْدَعُ ، حَتَّى لَا يَنَاسَ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيَّ وَلَا يَنْخَذِلَ ، فَيَسْتَمِرُّ دَائِمًا فِي طَلَبِ الْكَمَالِ وَالْإِبْدَاعِ الَّذِينَ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ؟

فَالْأَدِيبُ يُشْرِفُ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ بَصِيرَتِهِ ، فَإِذَا وَقَّاعَ الْحَيَاةَ فِي حَذْوٍ وَاحِدٍ مِنَ التَّرَاغُ وَالْتِنَاقُصِ ، وَإِذَا هِيَ دَائِبَةٌ فِي مَحْوِ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، تَارِكَةٌ كُلَّ حَيٍّ مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ شَخْصٌ قَائِمٌ مِنْ عَمَلِهِ وَحَوَادِثِهِ وَأَسْبَابِ عَيْشِهِ ؛ فَإِذَا تَلَجَّجَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَدِيبِ اتَّجَهَتْ هَذِهِ النَّفْسُ الْعَالِيَةُ إِلَى أَنْ تَحْفَظَ لِلدُّنْيَا حَقَائِقَ الضَّمِيرِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَقَامَتْ حَارِسَةً عَلَى مَا ضَيَّعَ النَّاسُ ، وَشُحْرُتْ فِي ذَلِكَ تَسْخِيرًا لَا تَمْلِكُ مَعَهُ أَنْ تَأْتِيَ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَوِي لَهَا أَنْ تُغْمِصَ فِيهِ ؛ وَتُقَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ كُلُّهَا وَوُضِعَتْ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهَا أَيْنَ تَوَجَّهَتْ فَتَأَكَّدَ الْأَمْرُ فِيهَا ، وَوُصِلَ بِهَا ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا مِنْ خَالِصَةِ اللَّهِ ، وَأَنَّ رِسَالَتَهَا لِلْعَالَمِ هِيَ تَقْرِيرُ الْحُبِّ لِلْمُتَعَادِينَ ، وَبَسْطُ الرَّحْمَةِ لِلْمُتَنَازِعِينَ ، وَأَنْ تَجْمَعَ الْكُلَّ عَلَى الْجَمَالِ وَهُوَ لَا يُخْتَلَفُ فِي لَدَّتِهِ ، وَتَصِلَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ وَهِيَ لَا تَتَفَرَّقُ فِي مَوْعِظَتِهَا ، وَتُسْعِرُهُمُ الْحِكْمَةَ وَهِيَ لَا تَتَنَازَعُ فِي مَنَاحِنِهَا ؛ فَالْأَدَبُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يُشْبِهُ الَّذِينَ : كِلَاهُمَا يُعِينُ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ فِي عَمَلِهَا ، وَكِلاهُمَا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ الَّذِينَ يَغْرِضُ لِلْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِيَأْمُرَ وَيَنْهَى ، وَالْأَدَبُ يَغْرِضُ لَهَا لِيَجْمَعَ وَيُقَابِلَ ؛

وَالَّذِينَ يُوجِّهُهُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ وَالْأَدَبُ يُوجِّهُهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ وَخِي اللَّهِ إِلَى الْمَلَكِ إِلَى نَبِيِّ مُخْتَارٍ ، وَهَذَا وَخِي اللَّهِ إِلَى الْبَصِيرَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مُخْتَارٍ .

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَدَبِ مِثْلُ أَعْلَى يَجْهَدُ فِي تَحْقِيقِهِ وَيَعْمَلُ فِي سَبِيلِهِ ، فَهُوَ أَدِيبٌ حَالَةٌ مِنَ الْحَالَاتِ ، لَا أَدِيبٌ عَصْرٍ وَلَا أَدِيبٌ جِيلٍ ؛ وَبِذَلِكَ وَخْدَهُ كَانَ أَهْلُ الْمَثَلِ الْأَعْلَى فِي كُلِّ عَصْرٍ هُمْ الْأَرْقَامُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي يُلْقِنُهَا الْعَصْرُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ لِيَحْسُبَ رِبْعَهُ وَخَسَارَتَهُ . . .

لَا يَخْدَعَنَّكَ عَنْ هَذَا أَنْ تَرَى بَعْضَ الْعَبَقَرِيِّينَ لَا يُؤْتَى فِي أَدَبِهِ أَوْ أَكْثَرِهِ إِلَّا إِلَى الرَّدَائِلِ ، يَتَغَلَّغِلُ فِيهَا ، وَيَتَمَلَّأُ بِهَا ، وَيَكُونُ مِنْهَا عَلَى مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا السَّفَلَةُ وَالْحَشَوَةُ مِنْ طَعَامِ النَّاسِ وَرُعَاعِهِمْ ؛ فَإِنَّ هَذَا وَأَصْرَابَهُ مُسَخَّرُونَ لِخِدْمَةِ الْفَضِيلَةِ وَتَحْقِيقِهَا مِنْ جِهَةٍ مَا فِيهَا مِنَ النَّهْيِ ؛ لِيَكُونُوا مَثَلًا وَسَلَفًا وَعِبْرَةً ؛ وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْمُوعِظَةُ بِرَدَائِلِهِمْ أَقْوَى وَأَسَدَّ تَأْثِيرًا مِمَّا هِيَ فِي الْفَضَائِلِ ؛ بَلْ هُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَأْمُرُ فِيهَا النَّهْيُ أَقْوَى مِمَّا يَأْمُرُ الْأَمْرُ ، عَلَى نَحْوِ مَا يَكُونُ مِنْ قِرَاءَتِكَ مَوْعِظَةِ الْفَضِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تَأْمُرُكَ أَنْ تَكُونَ عَفِيفًا طَاهِرًا ، ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ رُؤْيَاكَ الْفَاجِرِ الْمُتَبَلِّغِ الْمَشْوَةِ الْمُتَحَطِّمِ الَّذِي يَنْهَاكَ بِصُورَتِهِ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ ؛ وَلِهَذَا الْحَقِيقَةُ الْقَوِيَّةُ فِي أَثَرِهَا - حَقِيقَةُ الْأَمْرِ بِالنَّهْيِ - يَعْمَدُ النَّوَاعِجُ فِي بَعْضِ أَدَبِهِمْ إِلَى صَرْفِ الطَّبِيعَةِ النَّفْسِيَّةِ عَنْ وَجْهِهَا ، بِعَكْسِ نَتِيجَةِ الْمُوقِفِ الَّذِي يُصَوِّرُونَهُ ، أَوْ الْإِحَالَةَ فِي الْحَادِثَةِ الَّتِي يَصِفُونَهَا ؛ فَيَنْتَبِهُ الرَّاهِبُ النَّحْوِي فِي الْقِصَّةِ مُلْحِدًا فَاجِرًا ، وَتَرْتَدُّ الْمَرْأَةُ النَّحْوِيَّةُ قَدِيسَةً ، وَيَرْجِعُ الْإِبْنُ الْبَرُّ قَاتِلًا مَجْنُونًا جُنُونَ الدَّمِ ؛ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَجْرِي فِي هَذَا النَّسَقِ ، كَمَا تَرَاهُ لِأَنَّا طَوَّلَ فِرَانْسُ ANOTOLE FRANCE وَشَكْسْبِيرُ WILLIAM SHAKESPEARE وَغَيْرُهُمَا ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ وَلَا شَرٍّ ، وَلَكِنَّهُ أُسْلُوبٌ مِنَ الْفَنِّ ، يُقَابِلُهُ أُسْلُوبٌ مِنَ الْخَلْقِ ، لِيُبْدِعَ أُسْلُوبًا مِنَ التَّأْتِيرِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ شَاءٌ مَعْدُودٌ يَنْبَغِي أَنْ يَنْحَصَرَ وَلَا يَتَعَدَّى ، لِأَنَّهُ وَصَفَ لِأَحْوَالِ دَقِيقَةٍ طَارِئَةٍ عَلَى النَّفْسِ ، لَا تَعْبِيرُ عَنْ حَقَائِقَ ثَابِتَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ فِيهَا .

وَالشَّرُّ فِي الْعَبَقَرِيِّ الَّذِي تِلْكَ صِفَتُهُ وَذَلِكَ أَدَبُهُ ، أَنْ يَغْلُو بِالرَّدَائِلِ . . . فِي أُسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ ، أَخِذًا بِغَايَةِ الصَّنْعَةِ ، مُتَنَاهِيًا فِي حُسْنِ الْعِبَارَةِ ؛ حَتَّى يُضْهِجَ وَكَأَنَّ الرَّدَائِلَ هِيَ اخْتَارَتْ مِنْهُ مَفْسَرَهَا الْعَبَقَرِيُّ الشَّادُّ الَّذِي يَكُونُ فِي شُمُوفِهِ أَلْبَيَانِي هُوَ وَخْدَهُ الطَّرْفَ

الْمُقَابِلَ لِسُمُو الْعِبَارَةِ عَنِ الْفَضِيلَةِ ، فَيَصْنَعُ الْإِلَهَامُ فِي هَذَا وَفِي هَذَا صُنْعَهُ الْفَنِّي بِطَرِيقَةٍ بَدِيعَةِ التَّأْنِيثِ ، أَصْلُهَا فِي أَدِيبِ الْفَضِيلَةِ مَا يُرِيدُهُ وَيُجَاهِدُ فِيهِ ، وَفِي أَدِيبِ الرِّذِيلَةِ مَا يَقُودُهُ وَيَنْدَفِعُ إِلَيْهِ ؛ كَأَنَّ مِنْهُمَا إِنْسَانًا صَارَ مَلَكًا يَكْتُبُ ، وَإِنْسَانًا عَادَ حَيَوَانًا يَكْتُبُ . . .

وَإِذَا أَنْتَ مِثْلَتْ بَيْنَ رَذِيلَةِ الْأَدِيبِ الْعَبْقَرِيِّ فِي فَنِّهِ ، وَرَذِيلَةِ الْأَدِيبِ الْفَسَلِ الَّذِي يَتَشَبَّهُ بِهِ - فِي التَّأْلِيفِ وَالرَّأْيِ وَالْمُتَابَعَةِ وَالْمَذْهَبِ - رَأَيْتَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْأُخْرَى كِبَاءَ الرَّجُلِ الشَّاعِرِ مِنْ بُكَاءِ الرَّجُلِ الْغَلِيظِ الْجِلْفِ : هَذَا دُمُوعُهُ أَلْمُهُ ؛ وَذَلِكَ دُمُوعُهُ أَلْمُهُ وَسِعْرُهُ ؛ وَفِي كِتَابَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ الْعَبْقَرِيِّينَ خَاصَّةً يَتَحَقَّقُ لَكَ أَنَّ الْأُسْلُوبَ هُوَ أَسَاسُ الْفَنِّ الْأَدَبِيِّ ؛ وَأَنَّ اللَّذَّةَ بِهِ هِيَ عَلَامَةُ الْحَيَاةِ فِيهِ ؛ إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ قِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ ، شَاهِدَهَا مِنْ نَفْسِهَا عَلَى أَنَّهَا بِأُسْلُوبِهَا لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا نُكْتَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَاهِتِاجِ الْبَوَاعِثِ فِي نَفْسِ قُرَائِهَا ؛ وَأَنَّهَا عَلَى ذَلِكَ هِيَ أَيْضًا مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَطْرُوحَةٌ لِلنَّظَرِ وَالْحَلِّ ؛ بِمَا فِيهَا مِنْ جَمَالِ الْفَنِّ وَدَقَاقِ التَّحْلِيلِ .

* * *

وَاللَّذَّةُ بِالْأَدَبِ غَيْرُ التَّلَهِّيِّ بِهِ وَاتِّخَاذِهِ لِلْعَبَثِ وَالْبَطَالَةِ فَيَجِيءُ مَوْضُوعًا عَلَى ذَلِكَ فَيَخْرُجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مَلْهَاءً وَسُخْفًا وَمَضِيعَةً . فَإِنَّ اللَّذَّةَ بِهِ آتِيَةٌ مِنْ جَمَالِ أُسْلُوبِهِ وَبَلَاغَةِ مَعَانِيهِ وَتَنَاقُلِهِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ بِالْأَسَالِبِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي فِي النَّفْسِ ، وَهِيَ الْأَصْلُ فِي جَمَالِ الْأُسْلُوبِ ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ هَذِهِ اللَّذَّةِ مَنْفَعَةٌ كُلُّهُ كَسَائِرِ مَا رُكِبَ فِي طَبِيعَةِ الْحَيِّ ؛ إِذْ يُحَسُّ الدَّوْقَ لَذَّةِ الطَّعَامِ مَثَلًا عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ فِعْلِهَا الطَّبِيعِيِّ اسْتِمْرَاءَ التَّغْذِيَةِ لِبِنَاءِ الْجِسْمِ وَحِفْظِ الْقُوَّةِ وَزِيَادَتِهَا ؛ أَمَّا التَّلَهِّيُّ فَيَجِيءُ مِنْ سُخْفِ الْأَدَبِ ، وَفَرَاغِ مَعَانِيهِ ؛ وَمُؤَاتَانَةِ الشَّهَوَاتِ الْخَسِيسَةِ ؛ وَالنِّمَاسَةِ الْجَوَانِبِ الضَّيِّقَةِ مِنَ الْحَيَاةِ ؛ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَكُونُ أَدَبُ الشَّعْبِ وَلَا الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ بَلْ أَدَبُ فِتْنَةٍ بَعِيْنَهَا وَأَحْوَالِهَا ؛ فَإِنَّ أَدِيبَ صِنَاعَتِهِ أَوْ أَدِيبَ جَمَاعَتِهِ ، غَيْرُ أَدِيبِ قَوْمِهِ وَأَدِيبِ عَصْرِهِ : أَحَدُهُمَا إِلَى حَدٍّ مَحْدُودٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَالْآخَرُ عَمَلُ جَامِعٍ مُسْتَمِرٍّ مُتَفَقِّنٍ ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُ الْأَدَبِيَّ هُوَ وَجُودُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي قَوْمِهِ لَا يَبْرَحُ يَقُولُ لَهُ : أَكْتُبْ . . .

وَمِنَ الْأَصُولِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَخَلَّفُ ، أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِلشَّعْبِ ، كَانَ الْأَدَبُ أَدَبَ الشَّعْبِ فِي حَيَاتِهِ وَأَفْكَارِهِ وَمَطَامِحِهِ وَأَلْوَانِ عَيْشِهِ ، وَزَخَرَ الْأَدَبُ بِذَلِكَ وَتَنَوَّعَ وَافْتَنَّ

وَبُنِيَ عَلَى الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ الشَّعْبِ ، كَانَ الْأَدَبُ أَدَبَ الْحَاكِمِينَ وَبُنِيَ عَلَى التَّفَاقِ وَالْمُدَاهَنَةِ وَالْمُبَالَغَةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالْكَذِبِ وَالتَّنْذِيلِ ؛ وَنَصَبَ الْأَدَبُ مِنْ ذَلِكَ وَقَلَ وَتَكَرَّرَ مِنْ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَفِي الْأَوَّلَى يَتَسَّعُ الْأَدِيبُ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْحَيَاةِ وَفُتُونِهَا وَأَسْرَارِهَا فِي كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ إِلَى الْإِحْسَاسِ بِالْكَوْنِ وَمَجَالِيهِ وَأَسْرَارِهِ فِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ . أَمَّا الثَّانِيَةُ فَلَا يُحِسُّ فِيهَا إِلَّا أَحْوَالَ نَفْسِهِ وَخَلِيطِهِ ، فَيُضَيِّحُ أَدَبُهُ أَشْبَهُ بِمَسَافَةِ مَخْدُودَةٍ مِنَ الْكَوْنِ الْوَاسِعِ ، لَا يَرَالُ يَذْهَبُ فِيهَا وَيَجِيءُ حَتَّى يَمَلَّ ذَهَابَهُ وَمَجِيئَهُ .

وَالْعَجَبُ الَّذِي لَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَحَدٌ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ مَنْ دَرَسُوا الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، أَنَّكَ لَا تَجِدُ تَفْهِيمَ الْمَعْنَى الْفَلَسَفِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلْأَدَبِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهِ إِلَّا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَدَهَا ، وَلَمْ يَفْعَلْ عَنْهُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ وَحَدَهُمْ !

فَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُقَرَّرُ الْأُسْلُوبُ شَرْطًا فِيهِ ، وَيَأْتِي بِقُوَّةِ اللُّغَةِ صُورَةً لِقُوَّةِ الطَّبَاعِ ، وَبِعَظَمَةِ الْأَدَاءِ صُورَةً لِعَظَمَةِ الْأَخْلَاقِ ؛ وَبِرَفَّةِ الْبَيَانِ صُورَةً لِرَفَّةِ النَّفْسِ ، وَبِدِقَّةِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الْعُمُقِ صُورَةً لِدِقَّةِ النَّظَرَةِ إِلَى الْحَيَاةِ ؛ وَيُرِيدُ أَنْ الْكَلَامَ أُمَّةً مِنَ الْأَلْفَاظِ عَامِلَةً فِي حَيَاةِ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ ، ضَابِطَةً لَهَا الْمَقَائِيسَ التَّارِيخِيَّةَ ، مُحْكِمَةً لَهَا الْأَوْضَاعَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، مُشْتَرِطَةً فِيهَا الْمَثَلَ الْأَعْلَى ، حَامِلَةً لَهَا الثُّورَ الْإِلَهِيَّ عَلَى الْأَرْضِ ...

... وَإِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ الَّذِي يُنْشِئُ الْأُمَّةَ إِنْشَاءً سَامِيًا ؛ وَيُدْفَعُهَا إِلَى الْمَعَالِي دَفْعًا ، وَيَرْدُّهَا عَنْ سَفَاسِفِ الْحَيَاةِ ، وَيُوجِّهُهَا بِدِقَّةِ الْإِبْرَةِ الْمِغْنَاتِيْسِيَّةِ إِلَى الْآفَاقِ الْوَاسِعَةِ ، وَيُسَدِّدُهَا فِي أَغْرَاضِهَا التَّارِيخِيَّةِ الْعَالِيَةِ تَسْدِيدَ الْفُتْبَالَةِ خَرَجَتْ مِنْ مِدْفَعِهَا الضَّخْمِ الْمُحَرَّرِ الْمُخْحَمِ ، وَيَمْلَأُ سَرَائِرَهَا يَقِينًا وَنَفْسَهَا حَزْمًا وَأَبْصَارَهَا نَظْرًا وَعُقُولَهَا حِكْمَةً ، وَيَنْفُذُ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ الْكَوْنِ إِلَى أَسْرَارِ الْأُلُوْهِيَّةِ ...

... إِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْوُجُوْهِ مِنَ الْأَعْتِبَارِ - وَجَدْتَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ الْأَصْلَ الْحَيِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا الْأَصْلَ مُقَدَّسًا ، وَفَرَضَ هَذَا التَّقْدِيسَ عَقِيدَةً ، وَأَعْتَبَرَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ ثَابِتَةً لَنْ تَتَغَيَّرَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَنْبَغْ لَهُ الْأَدَبَاءُ وَلَمْ يَخْذُوا بِالْأَدَبِ حَذْوَهُ ، وَحَسِبُوهُ دِينًا فَقَطْ ، وَذَهَبُوا بِأَدَبِهِمْ إِلَى الْعَبَثِ وَالْمُجُونِ

وَالْتَّفَاقِ ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُحْتَضَرٍ بِالْعِلَلِ الْقَاتِلَةِ ، ذَاهِبٍ إِلَى الْفَنَاءِ
الْحَتْمِ ! .

وَالْقُرْآنُ بِأُسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا :
إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ السُّمُوءُ بِضَمِيرِ الْأُمَّةِ .

وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلْأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا : إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ
وَلِللُّغَتِهَا فِي مَوَاهِبِ قَلَمِهِ لَقَبٌ مِنَ الْقَابِ التَّارِيخِ .

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

*

*

*

سِرُّ النَّبُوغِ فِي الْأَدَبِ (*)

لَوْ تَرَجَمْنَا الْخَاطِرَةَ الَّتِي تَمُرُّ فِي ذَهْنِ الْحَيَوَانِ الذَّكِيِّ حِينَ يَنْفَادُ فِي يَدِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ أَبْلَهَ بِصِرْفِهِ وَيُدِيرُهُ عَلَى أَعْرَاضِهِ ، فَتَقَلَّبْنَاهَا مِنْ فِكْرِ الْحَيَوَانِ إِلَى لُغَتِنَا ، وَأَدْنَيْنَاهَا بِمَعْنَى مِمَّا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ - لَكَانَتْ فِي الْعِبَارَةِ هَكَذَا : مَا أَنْتَ أَهْيَا الْأَبْلَهَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْمُدْبِرَةِ لِلْكَوْنِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَسَلَّم . . . ذَلِكَ أَنَّ التَّرَكِيبَ الَّذِي يَبِينُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَيَوَانِ قَدْ جَعَلَ دِمَاعَ هَذَا الْحَيَوَانِ خَاتَمًا مِنَ اللَّهِ دَمَعٌ بِهِ عَلَى خَصَائِصِهِ فَأَفْرَعَهُ اللَّهُ فِي جِلْدِهِ ، وَوَضَعَ فِي رَأْسِهِ ذَلِكَ الْقِفْلَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي حَبَسَهُ فِي بَابِ الْأَضْطِرَارِ مِنْ غَرَائِزِهِ الْبَهِيمِيَّةِ ، وَأَقْفَلَ بِهِ عَلَى الدُّنْيَا الْعَقْلِيَّةِ الْمُتَسَعِّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ ، فَالْكَوْنُ عِنْدَهُ لَغَوٌ كُلُّهُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَقَائِقٌ يَسِيرَةٌ ، ثُمَّ لَا تَفْسِيرَ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ إِلَّا مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ، فَجِلْدُهُ أَدَقُّ تَفْسِيرٍ فَالْكَيْ . . . لِلشَّمْسِ وَالنُّورِ وَالْهَوَاءِ وَمَا يَجِيءُ مِنْهَا ، وَجَوْفُهُ أَصَحُّ تَغْيِيرٍ جُغْرَافِيٍّ . . . لِلنُّكْرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمَا تَحْمِلُ ، وَجَوْفُهُ وَسِبْعُهُ هُمَا كُلُّ فَلَسَفَةِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِي الْعَالَمِ ! .

فَأَسَاسُ الذِّكَاءِ عَالِيًا وَنَازِلًا هُوَ التَّرَكِيبُ الطَّبِيعِيُّ لَا غَيْرُهُ ، لَوْ زَادَتْ فِي الدِّمَاغِ ذَرَّةٌ أَوْ نَقِصَتْ لَزَادَتْ لِلدُّنْيَا صُورَةٌ أَوْ نَقِصَتْ ، فَبِالضَّرُورَةِ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِيمَا نَرَى مِنْ تَبَايُنِ حِدَّةِ الذِّكَاءِ فِي أَفْرَادِ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَمَا نَشْهَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ ، مِنْ الْفِطْنَةِ إِلَى الذِّكَاءِ^(١) إِلَى الْأَلْمَعِيَّةِ إِلَى الْجَهَنَذَةِ إِلَى النَّبُوغِ إِلَى الْعَبَقَرِيَّةِ ؛ وَهِيَ طَبَقَاتٌ مِنْ أَلْفَافِ اللُّغَةِ لِأَحْوَالٍ قَائِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي تَرْجِعُ إِلَى دَرَجَاتٍ ثَابِتَةٍ فِي تَرَكِيبِ الدِّمَاغِ .

وَمِمَّا يَسْجُدُ لَهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ سَجْدَةً طَوِيلَةً إِذَا هُوَ تَأَمَّلَ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ وَمَرَّ يَتَصَفَّحُ مِنْ أَسْرَارِ مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى النَّبُوغِ - أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْرَارَ الْأَلُوْهِيَّةِ

(*) « الْمُنْتَظَفُ » بَنَازِلُ / كَانُونِ الْآخِرَةِ ١٩٣٣ م ، الصفحات : ٢٥ - ٣٣ .

(١) عِنْدَنَا أَنَّ الْفِطْنَةَ فِي اللُّغَةِ ، دُونَ الذِّكَاءِ ؛ تَقَابُلُ مَا عِنْدَ الْحَيَوَانِ مِنَ النَّبُوغِ ؛ وَالذِّكَاءِ : التَّوَقُّدُ وَاللَّهْيَانُ .

هُوَ كُرَّةٌ مُتَقَذِفَةٌ فِي الْفَضَاءِ الْأَبَدِيِّ ، وَأَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُ أَسْرَارَ الْإِنْسَانِيَّةِ ، هِيَ كُرَّةٌ طَائِرَةٌ فِيمَا مَدَّ لَهَا مِنَ الْوُجُودِ ، وَأَنَّ كُلَّ حَيٍّ فِيهَا يَحْمِلُ أَسْرَارَ حَيَاتِهِ فِي كُرَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ رَأْسُهُ ، وَأَنَّ الْوُجُودَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئًا ، فِي النَّظَرِ وَلَا فِي الْحِسِّ وَلَا فِي الْفَهْمِ إِلَّا كَمَا يَرَى وَيَحْسُ وَيُفْهَمُ فِي هَذَا الرَّأْسِ بِعَيْنِهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَيَضَعُ الدَّنْدِيرِجُ إِلَى الْكَبِيرِ إِلَى الْأَكْبَرِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الصَّغِيرِ إِلَى الْأَصْغَرِ ، ثُمَّ لَا مَعْنَى لِمَا صَعِدَ إِلَّا مِمَّا نَزَلَ ، وَبِهَذَا سَتَكُونُ آخِرَةُ جَمِيعِ الْعُلُومِ مَتَى نَفَذَ الْعُلَمَاءُ إِلَى السِّرِّ الْحَقِيقِيِّ ، أَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ فِيهِمْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا .

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ بِتَرْكِيبِ أَدْمِغَتِهِمْ عَلَى شِبْهِهِ مِنْ هَذَا الدَّنْدِيرِجِ ؛ فَأَمَّا وَاحِدٌ فَيَكُونُ دِمَاغُهُ بِاعْتِبَارِهِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فِي الذِّكَاءِ وَالْعَقْلِ كَالْوُجُودِ الْمُحِيطِ ، وَأَمَّا آخَرُ فَكَالشَّمْسِ ، ثُمَّ غَيْرُهُمَا كَالْأَرْضِ ، ثُمَّ الرَّابِعُ كَالْإِنْسَانِ ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْهُمْ كَالْحَيَوَانِ وَمِنْهُمْ كَالْحَشَرَةِ ؛ وَلَا عِلَّةَ لِكُلِّ هَذَا إِلَّا مَا هِيَآتِ الْأَفْدَارُ « بِأَسْبَابِهَا الْكَثِيرَةِ » لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي تَرْكِيبِ دِمَاغِهِ فِي نَوْعِ الْمَادَّةِ السُّنْجَابِيَّةِ مِنَ الْمُخِّ ، وَأَحْوَالِ التَّرْكِيبِ فِي الْمَلَايِينِ مِنَ الْخَلَايَا الْعَصَبِيَّةِ ، وَمَا لَا يُعَدُّ مِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْخَلَايَا وَشُعَبِهَا ؛ ثُمَّ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ هَذِهِ الْفُرُوعِ الَّتِي هِيَ لِكُلِّ رَأْسٍ كَرْمَلِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ، ثُمَّ اخْتِلَافُ مَقَادِيرِ الْمَوَادِّ الْكِيمَاوِيَّةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ فِي غُدَدِ الْجِسْمِ وَتَتَفَنَّنُهَا الْغُدَدُ فِي الدَّمِ .

فَقَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ النَّابِغُ الْمُتَمَرِّدُ عَلَى الْعُقُولِ آتِيًا مِنْ قَطْرَةٍ فِي هَذِهِ الْغُدَدِ ، كَمَا يَنْبُعُ الْعِمْلَاقُ الْمَارِدُ بِعِظَامِهِ الْمُتَمَتِّدَةِ وَالْوَاحِدِ الْمَشْبُوحَةِ مِنْ غُدَّتِهِ السُّخَامِيَّةِ لَا غَيْرَهَا .

فَالذِّكِيُّ مِنْ ذَكِّيٍّ مِثْلِهِ إِنَّمَا هُوَ كَالْجَيْشِ مِنْ جَيْشٍ بِإِزَائِهِ : يَقَعُ اخْتِلَافٌ بَيْنَهُمَا فِيمَا اشْتَمَلَا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الْجُنْدِ ، وَصِفَاتِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَأَحْوَالِهِمْ مِنَ النَّظَامِ وَالْإِخْلَالِ ، وَقُوَّةِ آلَاتِهِمْ وَمِقْدَارِهَا وَنَوْعِ الْإِخْتِرَاعِ فِيهَا ، ثُمَّ طَبِيعَةِ مَوْضِعِهِمْ وَحُسْنِ تَوْجِيهِهِمْ وَقِيَادَتِهِمْ ، وَمَا اكْتَنَفَتْهُمْ مِنْ صَغْبٍ أَوْ سَهْلٍ ، وَمَا تَظَاهَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَفْدَارِ ، ثُمَّ التَّوَفِيقُ الَّذِي لَا حِيلَةَ فِيهِ إِنْ وَقَعَ فِي حِصَّةِ أَحَدِهِمَا وَاسْتَقَرَّ ، أَوْ وَقَعَ هَوْنًا وَطَارَ لِلْآخَرِ ؛ وَيَنْخُورُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ تَكُونُ الْمُقَاضَلَةُ إِذَا وَازَنْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ التَّوَابِغِ فِي حَقِيقَةِ بُنْوَغِهِمَا .

فَالْتَّابِعَةُ خَلَقُ مِنْ خَالِقِهِ ، يُضْنَعُ كَمَا تَرَى بِأَقْدَارِ اللَّهِ ؛ إِذْ هُوَ قَدَّرَ عَلَى قَوْمِهِ وَعَلَى عَصْرِ ، وَهُوَ مِنَ النَّاسِ كَالْوَرَقَةِ الرَّابِحَةِ مِنْ وَرَقِ السَّحْبِ (الْيَانَصِيبِ) ، سَلَّةٌ يَدٌ جَعَلَتْهَا مَالًا وَتَرَكْتَ الْبَاقِيَاتِ وَرَقًا وَأَخْدَثْتَ بَيْنَهُمَا الْفَرْقَ الدَّهْبِيَّ ؛ وَبِهَذَا لَا يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَزِيدَ الدُّنْيَا نَابِغَةً إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْكَوَاكِبِ نَجْمًا فَيَصْنَعُهُ . وَهَبَهُ صَنْعَهُ مِنَ الْكَهْرُبَاءِ ، فَيَبْقَى أَنْ يَحْمِلَهُ ، وَإِذَا حَمَلَهُ بَقِيَ أَنْ يَزْعُمَهُ إِلَى السَّمَوَاتِ ؛ وَهَبَهُ قَدْرَ رَفَعَهُ فَيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ . . . يَبْقَى عَلَيْهِ أَنْ يَفْحِمَهُ فِي الشُّجُومِ وَيُزْسِلَهُ فِيهَا يَدُورُ وَيَتَفَلَّكُ .

وَكَمَا يُخْلَقُ التَّابِعَةُ بِتَرْكِيبِهِ ، تُخْلَقُ لَهُ الْأَحْوَالُ الْمُلَانِمَةُ لِعَمَلِهِ الَّذِي خُصَّ بِهِ فِي أَسْرَارِ التَّقْدِيرِ عَامِلًا نَافِعًا ، وَإِنْ كَانَتْ لَا ثَلَاثُمُهُ هُوَ مُنْتَفِعًا ؛ فَإِنَّهُ هُوَ غَيْرُ مَقْصُودٍ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَسِيلَةٌ أَوْ آلَةٌ تُكَابِدُ مَا تَحْتَمِلُ فِي أَعْمَالِهَا ، وَيُوَيِّئُ لَهَا لِتَأْخُذَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَتُعْطِيَ عَلَى طَرِيقَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ يَرْجِعُ التَّقْدِيرُ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ التَّابِعَةُ دَلِيلًا لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ وَحْدَهُ أَمْرُهُ الْأَمْرُ .

وَإِذَا كَانَ الْجَمَالُ يَسْتَعْلِنُ فِي كَلَامِ هَذِهِ النَّوَائِجِ ، وَالْخَيَالُ يَظْهَرُ فِي تَعْبِيرِهِمْ ، وَالْحِكْمَةُ تَهْبِطُ إِلَى الدُّنْيَا فِي تَفْكِيرِهِمْ ، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى هُمْ الدَّاعُونَ إِلَيْهِ ، وَالْأَشْوَاقُ النَّفْسِيَّةُ هُمْ مُوقِظُوهَا ، وَالْعَوَاطِفُ هُمْ الْمُصَوِّرُونَ لَهَا ، وَسُرُورُ الْحَيَاةِ هُمْ الَّذِينَ حَوَّلُوهُ إِلَى الْفَنِّ - إِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ فَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ تَوْكِيدٌ لِاتِّصَالِهِمْ بِالْقُوَّةِ الْأَرْزَلِيَّةِ الْمُدْبِرَةِ ، وَأَنْتُمْ أَدَوَاتُهَا فِي هَذِهِ الْمَعَانِي ؛ فَمَا هِيَ أَعْمَالُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ أَعْمَالُهَا ، وَقَدْ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ التَّابِعَةَ يَلْتَمِسُ الْقُوَى الْمُحِيظَةَ بِهِ لِيُبْدِعَ مِنْهَا ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا هِيَ تَلْتَمِسُهُ لِيُبْدِعَ بِهِ .

وَبَعْدُ ، فَالْتَّابِعَةُ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَلَكَ ، فَهُوَ يَخْزُنُ الْأَشِعَّةَ الْعَقْلِيَّةَ وَيُرِيْقُهَا ، وَفِي يَدِهِ الْأَنْوَارُ وَالظَّلَالُ وَالْأَلْوَانُ يَعْمَلُ بِهَا عَمَلُ الْفَجْرِ كُلَّمَا أَظْلَمَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَانِي الْحَيَاةِ ؛ وَلَا تَزَالُ الْحِكْمَةُ تُلْقِي إِلَيْهِ الْفِكْرَةَ الْجَبِينَةَ لِتُعْطِيَهَا هُوَ صُورَةَ فِكْرَتِهَا ، وَتُوَحِّيَ إِلَيْهِ مَعْنَى الْحَقِّ لِیُؤَيِّنَهَا هُوَ مَعْنَى جَمَالِ الْحَقِّ ؛ وَالطَّبِيعَةُ خَلَقَهَا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ مَعْقُولَةٌ إِلَّا بِالْعِلْمِ ، وَلَيْسَتْ جَمِيلَةً إِلَّا بِالشَّعْرِ ، وَلَيْسَتْ مُحَبُّبَةً إِلَّا بِالْفَنِّ ؛ فَالْنَوَائِجُ فِي هَذَا كُلِّهِ هُمْ شُرُوحٌ وَتَفَاسِيرُ حَوْلَ كَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَكُلُّهُمْ يَشْعُرُ بِالْوُجُودِ فَنَّا كَامِلًا وَيَشْعُرُ بِنَفْسِهِ شَرَحًا لِأَشْيَاءٍ مِنْ هَذَا الْفَنِّ ، وَيَرَى مَعَانِي الطَّبِيعَةِ كَأَنَّمَا تَأْتِيهِ تَلْتَمِسُ فِي كِتَابَتِهِ وَشِعْرِهِ حَيَاةَ أَكْبَرِ

وَأَوْسَعَ مِمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ حَقَائِقِهَا الْمَحْدُودَةِ ، وَتَتَعَرَّضُ لَهُ أَحْزَانُ الْإِنْسَانِيَّةِ تَسْأَلُهُ أَنْ يُصَحِّحَ
الرَّأْيَ فِيهَا بِاسْتِخْرَاجِ مَعْنَاهَا الْخَيَالِي الْجَمِيلِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ أَلَامًا وَأَحْزَانًا إِلَّا أَنَّ مَعْنَاهَا
الْخَيَالِي هُوَ سُورُورٌ تَحْمِلُهُ لِلنَّاسِ ؛ إِذْ كَانَ مِنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تَسْكُنَ إِلَى وَصْفِ
الْأَمَةِ وَفَلَسَفَةِ حِكْمَتِهَا حِينَ تَبْدُو بِصَاثِرِهَا حَامِلَةً أَثَرَهَا الْإِلَهِيِّ ، كَأَنَّ الْمُؤَلَّمَ لَيْسَ هُوَ
الْأَلَمُ ، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ سِرُّهُ .

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَالْكَوْنُ يَخْتَارُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُفَسِّرَهُ الْعَبْقَرِيَّ لِيَكْشِفَ مِنْ غُمُوضِهِ وَيَزِيدَ فِيهِ
أَيْضًا . . . ثُمَّ لِيُؤْتِيَ النَّاسَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى مِنَ الْمَعْنَى عَلَى يَدِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى مِنَ الْفِكْرِ ؛
وَلِهَذَا تُصِيبُ الْكَلَامَ الَّذِي يَكْتُبُهُ النَّابِغَةُ الْمُلهِمُ فِي أَوْقَاتِ التَّجَلِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ صَوَّرَ نَفْسَهُ
وَصَاغَهَا ، أَوْ كَأَنَّهُ قِطْعَةً مِنَ الْحِسِّ قَدْ جَمَدَتْ فِي أَسْطُرٍ ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ تُشْعِرَكَ الْجُمْلَةُ أَنَّهَا
قُدِّرَتْ وَحَيَا ، إِذْ لَا تَجْذِهَا إِلَّا وَكَأَنَّ فِي كَلِمَاتِهَا رُوحًا يَزْتَعِشُ ؛ وَلَقَدْ يَخْطُرُ لِي وَأَنَا أَفْرَأُ
بَعْضَ الْمَعَانِي الْجَمِيلَةِ لِذَهْنٍ مِنَ الْأَذْهَانِ الْمُلهِمَةِ كَشِكْسِينِيرِ Shakespeare وَالْمُسْتَبَيِّ
وغيرهما - حِينَ أَنَامُلُ اخْتِرَاعِ الْمَعْنَى وَإِبْدَاعِ سِيَاقِهِ وَضَحَى الْبَيَانِ عَلَيْهِ وَإِشْرَاقِهِ فِيهِ وَمَا أُبَيِّنُ
لَهُ مِنْ جَلَالٍ ظَاهِرٍ فِي شَكْلِ حَيٍّ يَلْمَحُ بِسِرِّهِ فِي النَّفْسِ - يُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سِرَّ الطَّبِيعَةِ
الْقَادِرِ يَعْمَلُ عَمَلَهُ أَحْيَانًا بِذَهْنٍ إِنْسَانِيٍّ لِيَخْلُقَ تَغْيِيرًا عَنْ جَلَالِهِ فِي مِثْلِ جَلَالِهِ .

وَأَنْتَ فَلَوْ أَخَذْتَ مَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْآتِيَةِ مِنَ الْإِلْهَامِ ، وَأَجَرْتَهُ فِي كِتَابَةِ كَاتِبٍ
أَوْ شِعْرِ شَاعِرٍ مِنَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا أَذْهَانُهُمْ يَكْذُبُونَهَا ، وَكُتُبُهُمْ يَجْعَلُونَهَا أَذْهَانَهُمْ
أَحْيَانًا . . . لَرَأَيْتَ الْفَرْقَ بَيْنَ شَيْءٍ وَشَيْءٍ فِي أَحْسَنِ مَا أَنْتَ وَاجِدُهُ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى
بَيْنَ زَهْرَةٍ حَرِيرِيَّةٍ جَاءَتْ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ بِالْإِبْرَةِ وَالْحَيْطِ ، وَزَهْرَةٍ أُخْرَى قَدْ انْتَبَقَتْ عَطَرَةً
نَاصِرَةً فِي غُضَنِهَا الْأَخْضَرِ مِنْ عَمَلِ الْحَيَاةِ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَالْعَبْقَرِيُّ هُوَ أَبَدًا وَرَاءَ مَا لَا يَنْتَهِي مِنْ جَمَالٍ أَوَّلُهُ فِي نَفْسِهِ وَآخِرُهُ فِي الْجَمَالِ الْأَقْدَسِ
الَّذِي مَسَحَ عَلَى هَذِهِ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ السَّامِيَةِ ؛ فَمَا دَامَ فِيهِ سِرُّ الْعَبْقَرِيَّةِ فَهُوَ دَائِبٌ يَعْمَلُ
مُمَرِّقًا حَيَاتَهُ فِي سُبُحاتِ الثُّورِ تَمَرِّيقًا يَجْتَمِعُ مِنْهُ أَدَبُهُ ، وَمَا أَدَبُهُ إِلَّا صُورَةُ حَيَاتِهِ ؛ وَهُوَ
كُلَّمَا أَبْدَعَ شَيْئًا طَلَبَ الَّذِي هُوَ أَبْدَعُ مِنْهُ ، فَلَا يَزَالُ مُتَأَلِّمًا إِنْ عَمِلَ لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ لَا تَقِفُ عِنْدَ
غَايَةٍ مِنْ عَمَلِهِ ، وَمُتَأَلِّمًا إِنْ لَمْ يَعْمَلْ لِأَنَّ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ بَعِيْنَهَا لَا تَهْدَأُ إِلَّا فِي عَمَلٍ ، وَهِيَ

طَبِيعَةً مُتَمَرِّدَةً بِذَلِكَ الْجَمَالِ الْأَقْدَسِ تَمَرُّدَ الْعَشِيِّ فِي حَامِلِهِ ؛ إِذْ هُمَا صُورَتَانِ لِأَمْرِ وَاحِدٍ كَمَا سَنُشِيرُ إِلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَا تَجِدُهُ فِي نَفْسِ الْعَاشِقِ الْمُتَدَلِّهِ مِمَّا يَتَرَامَى بِهِ إِلَى جُؤُنُوهِ وَهَلَاكِهِ ، تَجِدُ شَبَهًا مِنْهُ فِي نَفْسِ الْعَبْقَرِيِّ ؛ فِكِلَاهُمَا قَانُونُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ وَحَدَاهَا ؛ إِذْ قَدْ اتَّخَذَتْ حَيَاتُهُ شَكْلَهَا الْفَنِّيَّ مِنْ ذَوْقِهِ هُوَ وَحَدَهُ ؛ فَلَيْسَ يَتَّبِعُ طَرِيقَةَ أَحَدٍ ، بَلْ هُوَ طَرِيقَةٌ نَفْسِهِ ^(١) ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَرْسِلٌ أَبَدًا إِلَى جَمَالٍ مُسْتَفِيزٍ عَلَى رُوحِهِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَسْتَمِدُّ مِنْهُ . وَكِلَاهُمَا لَا يَجِدُ الْمَعْنَى الْجَمِيلَ فِي الطَّبِيعَةِ مَعْنَى بَلْ رَسُولًا مِنَ الْجَمَالِ أُرْسِلَ إِلَيْهِ وَحَدَهُ ، وَلَا يَزَالُ يَشْعُرُ فِي كُلِّ وَفْتٍ أَنَّ لَهُ رَسَائِلَ وَرُسُلًا هُوَ بَعْدُ فِي أَنْتِظَارِهَا ؛ وَكِلَاهُمَا مَتَى ظَفِرَ بِشَيْءٍ مِنْ مَصْدَرِ الْجَمَالِ أَنْتَهَى مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ إِلَى الظَّنِّ أَنَّهُ رِيحٌ مِنَ الْكُونِ رَبْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قَبْلُ . وَكِلَاهُمَا مُتَهَالِكٌ بَيْنَ قِيُودِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي الْحَيَاةِ وَالْوَاقِعِ ، وَبَيْنَ حُرِّيَّتِهَا الَّتِي فِي خِيَالِهِ وَأَمَلِهِ ، كَأَنَّ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ أَنْ يَقْطَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا قَيْدًا مِنْ قِيُودِ الْأَجْتِمَاعِ أَوْ الْعَيْشِ ؛ وَكِلَاهُمَا مُتَّصِلٌ بِقُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ وَرَاءَ مَا يَرَى وَمَا يُحَسُّ تَجَعَلَ نَظَرَتُهُ فِي الْأَشْيَاءِ خَاصَّةً لِقَانُونِ النَّظَرَةِ الْعَاشِقَةِ فِي الْعَيْنَيْنِ السَّاحِرَتَيْنِ الْمَعْشُوقَتَيْنِ ، فَإِذَا مَدَّ عَيْنَيْهِ فِي شَيْءٍ جَمِيلٍ ، فَهَنَّاكَ سُؤَالَ وَجَوَابُهُ ، وَوَحْيٌ وَتَرْجَمَتُهُ ،

(١) لَا وَجْهَ عِنْدَنَا لِمَا اسْتَعْمَلَهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ فِي الْأَدَبِ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَدْرَسَةُ أَمْرِي الْقَلَمِ وَمَدْرَسَةُ الْكَاتِبَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، تَرْجَمَةٌ خَرْفِيَّةٌ لِقَوْلِ الْأَوْرَبِيِّينَ : مَدْرَسَةُ فُلَانٍ وَمَدْرَسَةُ فُلَانٍ ؛ فَإِنَّ الْأَدَبَ إِنْ كَانَ تَقْلِيدًا فَهُوَ أَدَبٌ مُنْحَطٌّ لَا يُجْعَلُ مَدْرَسَةً يُخْتَدَى عَلَيْهَا وَيَخْرُجُ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ إِبْدَاعًا فَلَيْسَ الْإِبْدَاعُ مَدْرَسَةً نَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّلَقُّينِ وَيَخْرُجُ بِهَا الْوَاحِدُ وَالْمِثَّةُ وَالْأَلْفُ عَلَى طَرَازٍ لَا يَخْتَلِفُ ؛ إِنَّمَا تَنْطَبِئُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْمُسْتَفَرَّةِ فِي الْفُنُونِ التَّعْلِيمِيَّةِ ، وَفِي هَذَا لَا تُطْلَقُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا عَلَى فِتْنَيْنِ فَقَطْ ، هُمَا الْبَصْرِيُّونَ وَالْكُوفِيُّونَ ، عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ مَذْهَبٍ هِيَ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي هَذَا ، وَهِيَ أَسَدٌ مِنْهَا ؛ إِذْ يَدُلُّ الْمَذْهَبُ عَلَى مَنَحَى اخْتَارَهُ الرَّأْيُ وَذَهَبَ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّهُ عَنْ تَحْقِيقٍ فِي صَاحِبِهِ وَتَابِعِيهِ ؛ أَمَّا تَسْمِيَةُ مَجْمُوعَةِ الْإِلَهَامَاتِ الَّتِي مَرَّتْ فِي ذَهْنِ نَابِغَةٍ مِنَ التَّوَابِعِ بِالمَدْرَسَةِ ، فَتَسْمِيَةٌ مُضْجِكَةٌ بَارِدَةٌ ؛ إِذِ الْإِلَهَامُ بَصِيرَةٌ مُخَصَّةٌ ، وَمَا هُوَ مِمَّا يُقَلَّدُ ، وَقَلَمًا تَشَابَهَ ذَهْنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي عَنَاصِرِ التَّكْوِينِ الَّتِي يَأْتِي مِنْهَا الْكُلُّوْغُ ؛ وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : طَرِيقَةُ فُلَانٍ وَطَرِيقَةُ فُلَانٍ ، فَالطَّرِيقَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الصَّحِيحَةُ ، لِأَنَّ عَلَيْهَا ظَاهِرَ الْعَمَلِ وَأَسْلُوبَهُ ، يَتَوَجَّهُ بِهَا مَنْ يَتَوَجَّهُ ، وَيُقَلَّدُ فِيهَا مَنْ يُقَلَّدُ ، أَمَّا سِرُّ الْعَمَلِ فَهُوَ سِرُّ الْعَامِلِ أَيْضًا ، وَهُوَ شَيْءٌ فِي الرُّوحِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَهُوَ فِي الْعَبْقَرِيِّ أَمْرٌ لَا يَسْتَطِيعُهُ إِنْسَانٌ وَشَدٌّ فِي إِنْسَانٍ بِخُصُوصِهِ .

وَمُرُورٌ مِنْ يَقْظَةٍ إِلَى حُلُمٍ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ حَقِيقَةٍ إِلَى خَيَالٍ ! .

غَيْرَ أَنَّ طَبِيعَةَ الْعَبْقَرِيِّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ أَلَمًا تَنْفِرُ بِهِ لَا تَسْتَقِرُّ مَعَهُ عَلَى رِضَا وَلَا يَبْرَحُ يُسَلِّطُ الْإِغْنَاتَ عَلَيْهَا وَيَسْتَعْرِفُهَا بِالْهَمُومِ السَّامِيَةِ ؛ وَذَلِكَ أَلَمُ الْكَمَالِ الْفَتِيِّ الَّذِي لَا يُدْرِكُ الْعَبْقَرِيُّ غَايَتَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ قَدْ أَدْرَكَ غَايَاتٍ وَغَايَاتٍ ؛ فَطَبِيعَةُ كُلِّ عَبْقَرِيٍّ تَجْهَدُ جُهْدَهَا فِي الْعَمَلِ لِتُخْرِجَ بِهِ مِمَّا يَسْتَطِيعُهُ النَّاسُ ، فَإِذَا تَأَتَّى صَاحِبُهَا لِذَلِكَ وَكَابَدَ فِيهِ وَأَدْرَكَ مِنْهُ وَبَلَغَ وَأَعْجَزَ أَنْدَفَعَتْ طَبِيعَتُهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِمَّا يَسْتَطِيعُ هُوَ . . . كَأَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَدَاخِلٌ فِي الطَّبِيعَةِ فِي وَفْتٍ مَعًا ، وَكَأَنَّهُ نَفْسُهُ وَفَوْقَ نَفْسِهِ فِي حَالٍ ، وَهَذَا سِرُّ خُرَيْتِهِ وَسُموهُ ، كَمَا أَنَّهُ سِرُّ أَلَمِهِ وَحَيْرَتِهِ . . .

وَمِنْ أَثَرِ ذَلِكَ مَا تُحِسُّهُ أَنْتَ إِذَا قَرَأْتَ لِلْأَدِيبِ الْبَلِغِ النَّامِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالْأَسْلُوبِ وَالذُّهْنِ الْمُلْهَمِ ؛ فَإِنَّكَ تَقِفُ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ يَمْلَأُ نَفْسَكَ وَيَتَمَدَّدُ فِيهَا وَيَهْتَرُّ بِهَا طَرَبًا وَإِعْجَابًا ، فَتَقُولُ : لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ! ثُمَّ تَوَمَّلْ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَجِدَ مِنْهُ هُوَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا . . . كَأَنَّهُ وَإِنْ تَنَاهَى إِلَى الْغَايَةِ لَا يَزَالُ عِنْدَكَ فَوْقَ الْغَايَةِ ؛ وَهَذَا غَرِيبٌ ، وَلَكِنْ لَا دَلِيلَ عَلَى الْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا الْغَرَابَةُ دَائِمًا ؛ فَهِيَ نِظَامٌ لَا نِظَامَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهَا طَرِيقَةٌ لَا طَرِيقَةَ لَهَا ؛ وَبِهَذِهِ الْغَرَابَةِ جَاءَتْ الْعَبْقَرِيَّةُ كُلُّهَا أَمثلةً وَلَيْسَ فِيهَا قَوَاعِدُ يُخْتَدَى عَلَيْهَا وَلَا هِدَايَةٌ فِيهَا إِلَّا مِنَ الرُّوحِ ؛ وَإِذَا كَانَ الْفَنُّ قُدْرَةً مُتَصَرِّفَةً فِي الْجَمَالِ ، فَالْعَبْقَرِيَّةُ قُدْرَةٌ مُتَصَرِّفَةٌ فِي الْفَنِّ ، وَالتَّلَابُغَةُ كَالْمُتَكَيِّسِ^(١) الَّذِي مَعَهُ قُوَى الْعَقْلِ وَيُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَى قَدْرِهِ مِنْهَا ، وَلَكِنَّ الْعَبْقَرِيَّ كَالْإِلَهِيِّ الَّذِي مَعَهُ قُوَى الرُّوحِ وَيُرِيدُ أَنْ يَزِيدَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِهِمْ بِهَا ؛ وَذَلِكَ مَرْجِعُهُ الْفِكْرُ الدَّقِيقُ الْبَاحِثُ ، وَهَذَا مَنَاطُهُ الْبَصِيرَةُ الشَّفَافَةُ النَّافِذَةُ ، وَهِيَ أَغْرَبُ الْغَرَائِبِ فِي الْإِنْسَانِ ، إِذْ هِيَ الْجِهَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي هَذَا الْمَخْلُوقِ الْمُقَيَّدِ ، وَبِهَا تَسْعُ النَّفْسُ لِإِذْرَاكِ الْمُطْلَقِ الظَّاهِرِ مِنْ خِلَالِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَفِيهَا تَتَحَوَّلُ الْأَشْيَاءُ مِنْ نِظَامِ الْحَاسَةِ إِلَى نِظَامِ الرُّوحِ ، فَيَسْمَعُ الْمَرْئِي وَيُبْصِرُ الْمَسْمُوعُ ، وَتَخْلَعُ الْأَجْسَامُ أَنْعَامًا ، وَتَلْبَسُ الْأَصْوَاتُ أَشْكَالًا ، وَيَبْدُو عِنْدَهَا كُلُّ مَخْلُوقٍ وَكَأَنَّ فِيهِ بَقِيَّةَ زَائِدَةٍ عَلَى خَلْقِهِ تَرَكَّتْ لِيَعْمَلَ فِيهَا الْكَاتِبُ

(١) مِنَ الْكَيْسِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ ، فَيَكُونُ عَاقِلًا وَيُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ عَلَى مِقْدَارِهِ .

أَوِ الشَّاعِرِ الْمُحَدِّثِ^(١) عَمَلَ فَتَهُ الزَّائِدَ عَلَى الطَّبِيعَةِ بِالْحَاسَةِ الزَّائِدَةِ عَلَى ذِهْنِهِ ، وَهِيَ الَّتِي نُسَمِّيهَا إِلَٰهَامًا .

هَذِهِ الْحَاسَةُ هِيَ كَذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْغَرَائِبِ ، تَكُونُ فِي صَاحِبِهَا الْمَوْهُوبِ كَمَا تَكُونُ حَاسَةُ الْأَتَجَاهِ فِي الطُّيُورِ الَّتِي تَقْطَعُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ إِلَى غَايَاتِهَا الْبَعِيدَةِ مِنْ قُطْبِ الْأَرْضِ إِلَى قُطْبِهَا الْآخَرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ تَحْمِلُهُ ، وَلَا رَسْمٍ تَنْظُرُ فِيهِ ، وَلَا عِلْمٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ؛ وَكَمَا تَكُونُ حَاسَةُ التَّمْيِيزِ فِي النَّحْلِ الَّذِي يَنْبِئُ عَسَلَتَهُ عَلَى هَنْدَسَةٍ لَيْسَتْ مِنْ كِتَابٍ وَلَا مَدْرَسَةٍ ، وَحَاسَةُ التَّذْيِيرِ فِي النَّحْلِ الَّذِي يُدَبِّرُ مَمْلَكَتَهُ بِغَيْرِ عُلُومِ الْمَمَالِكِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَكَثِيرًا مَا يَجِيءُ الْأَدِيبُ الْمُلْهَمُ مِنْ حَقَائِقِ الْفِكْرِ وَبَيَانِهِ وَأَسْرَارِ الطَّبَائِعِ وَأَوْصَافِهَا بِمَا يُعْطِي عَلَى فَلَسَفَةِ الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمِ الْعُلَمَاءِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ هُوَ عِنْدِي قَوْقُ الْعِلْمِ ، لَا أَقُولُ بِدَرَجَةٍ وَلَكِنْ بِحَاسَةٍ .

وَبِإِلَٰهَامٍ يَكُونُ لِكُلِّ عَبْقَرِيٍّ ذِهْنُهُ الَّذِي مَعَهُ وَذِهْنُهُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ ، إِذَا كَانَتْ لَهُ مِنْ وَرَاءِ خَيَالِهِ قُوَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ لَيْسَتْ فِيهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَعْمَلُ كَمَا تَعْمَلُ الْأَعْضَاءُ فِي جِسْمِهِ ، هَيْئَةً مُنْقَادَةً كَأَنَّهَا تَتَصَرَّفُ عَلَى أَطْرَادِ الْعَادَةِ بِلاَ فِكْرٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا عُسْرِ مَا دَامَتْ تَنْجَلِي عَلَيْهِ .

وَلَيْسَتْ تَتَّصِلُ هَذِهِ الْقُوَّةُ إِلَّا بِتَرْكِيبِ عَصَبِيٍّ تَكُونُ فِيهِ الْخَصَائِصُ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَتَلَقَّى عَنْهَا ، وَهِيَ فِي الْعَبْقَرِيِّينَ خَصَائِصُ مَرَضِيَّةٍ فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ ، بَلْ لَعَلَّهَا كَذَلِكَ دَائِمًا ، لِيَتَسَرَّ بِهَا الْعَبْقَرِيُّ لِحَالَةِ خَفِيفَةٍ مِنَ الْمَوْتِ . . . يَحْمِلُ بِهَا كَدَّهُ وَتَعَبَهُ وَمَا يُعَانِيهِ مِنْ مَضَضِ الْفِكْرِ وَثِقَلَيْهِ ، ثُمَّ لِيَكُونَ هَذِهِ الْحَالَةُ كَالْتَقَرُّبِ بَيْنَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ فِيهِ وَبَيْنَ عَالَمِ الْغَيْبِ

(١) هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي تُقَابِلُ مَا نُسَمِّيهِ الْعَبْقَرِيَّ بِلُغَةِ عَصْرِنَا ، كَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُحَدِّثُهُ بِأَسْرَارِهَا ، أَوْ تُحَدِّثُهُ بِهَا قُوَّةٌ أَعْلَى مِنَ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ مُحَدِّثًا فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ سَمْعٍ مِنَ الْغَيْبِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا زَعَمَ الْعَرَبُ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يَنْفُثُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَهُوَ وَصْفٌ دَقِيقٌ لِلْعَبْقَرِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ بِاللُّغَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ صَحَّحَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِشَاعِرِهِ حَسَّانَ : « قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ » [مسند أحمد ، رقم : ١٨١٦٨] وَكَلِمَةُ « رُوحُ الْقُدُسِ » تَنْطَوِي عَلَى فَلَسَفَةِ الْعَبْقَرِيَّ كُلِّهَا .

منه ، فالتزكيب العَصِي فِي دِمَاحِ الْعَبْقَرِيِّ إِنْسَانٌ عَلَى حَيَالِهِ مَعَ إِنْسَانٍ آخَرَ ، أَحَدُهُمَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ وَالثَّانِي لِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ هَذِهِ الْفَتَةِ كَالْمُضْبَاحِ : يَنْقُذُ وَيَنْطَفِئُ لِأَنَّهُ آلَهُ نُورٍ تَعْرِضُ لَهَا الْعِلَالُ فَتَذْهَبُ بِقُدْرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَتَنْضُبُ مَادَّةُ الثُّورِ مِنْهَا ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَتَكُونُ مُضِيئَةً فَتَنْطَفِئُ لِسَبَبٍ لَيْسَ مِنْهَا وَلَا مِنْ نُورِهَا ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ لَا تَمْلِكُ مِنْهَا حَالَةً ، فَبَيْنَمَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الدُّنْيَا مِنْ أَثَارِهِ الثَّابِغَةِ ، تَرَاهُ فِي حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ يَذْأَبُ لَا يَأْتِلِي فَبِحِجْدٍ فِي الْعَمَلِ وَيَبْذُلُ الْوُسْعَ فِيهِ وَيَصْبِرُ عَلَى مَطَاوِلَةِ اللَّتَمِ فِي إِحْكَامِهِ وَيَقْبِضُ بِهِ فَيْضًا وَكَأَنَّ فِي طَبِيعَتِهِ الرَّبِيعَ الْمُتَمَتِّحَ طُولَ أَيَّامِهِ بِالْجَمَالِ - إِذَا هُوَ فِي حَالَةٍ أُخْرَى يَتَلَكَّأُ وَيَتَرَبَّصُّ لَا يَعْمَلُ شَيْئًا كَأَنَّمَا دَخَلَ فِي قَرْنِحَتِهِ الشَّتَاءُ ، وَفِي ثَالِثَةٍ يَبْتَاطُ وَيَتَلَبَّثُ فَلَا يَعْنُ لَهُ جَدِيدٌ كَأَنَّمَا حُسِنَ عَنْهُ فِكْرُهُ أَوْ نَبَأَ طَبْعُهُ أَوْ هُوَ فِي قَبْضِ طَبِيعَتِهِ وَخُمُولِهَا وَضَجَرِهَا ، ثُمَّ لَا تَمْنُضِي عَلَى ذَلِكَ إِلَّا قُوَّةٌ وَسَاعَةٌ ، فَإِذَا عَلَى صِفَتِهِ هَوَاءٌ نُوفَمِيرٌ / تَشْرِينُ الثَّانِي وَدِسْمِيرٌ / كَانُونُ الْأَوَّلِ . . . وَإِذَا هُوَ مُنْبَعِثٌ مِلءُ الْقُوَّةِ وَالشَّاطِطِ ، وَرَبَّمَا يَأْخُذُ فِي غَرَضٍ مِنَ الْكِتَابَةِ قَدْ رَسَمَ لَهُ الْمَعْنَى وَهَيَّا لَهُ الْمَادَّةَ ، فَلَا يَكَادُ يَمْضِي لِنَحْوٍ مِنْهُ حَتَّى تَتَنَاسَخَ فِي ذَهْنِهِ الْمَعَانِي ، فَإِذَا هُوَ يَكْتُبُ مَا لَا يُشْبِهُ مَا كَانَ أَتَبَدَّأَ بِهِ ، وَيَأْتِيهِ غَيْرُ مَا كَانَ قَدْ أَرَادَهُ ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فَهُوَ يَسْتَمْلِي ؛ وَقَدْ يَتَبَدَّى مَعْنَى ثُمَّ يَقْطَعُ عَنْهُ بِطَارِئٍ مِنْ عَمَلٍ أَوْ حَدِيثٍ ، ثُمَّ يَعَاوِدُهُ فَإِذَا مَعْنَى آخَرَ وَإِذَا جِهَةٌ مِنَ الْفِكْرِ هِيَ جِهَةُ الْإِنْدَاعِ وَالْإِخْتِرَاعِ فِي مَوْضُوعِهِ ، وَإِذَا هُوَ إِنَّمَا كَانَ يُعْجِزُ بِذَلِكَ الصَّارِفِ عَنْ مَعْنَاهُ الْأَوَّلِ جَرًّا لِيَدْعَهُ إِلَى الْأَكْمَلِ وَالْأَصَحِّ ، وَأَيَقِنَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ اسْتَوْفَى عَلَى مَا بَدَأَ لِأَسَفٍّ وَضَعْفٍ وَجَاءَ بِمَا غَيْرُهُ أَقْدَرُ عَلَيْهِ ؛ كَأَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْخَفِيَّةَ الَّتِي تُلْهِمُهُ تَنْفُحُ لَهُ أَيْضًا بِأَسَالِيهَا الْغَرِيبَةِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ آخِذًا فِي عَمَلِهِ مَاضِيًا عَلَى طَبِيعِهِ مُسْتَرْسِلًا إِلَى مَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي نَقْفًا مِنْ هُنَا لِقْفًا^(١) مِنْ هُنَاكَ ثُمَّ يَنْظُرُ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَسَّحَ لَوْحَ حَيَالِهِ ، وَيَطْلُبُ الْمَعْنَى فَلَا يُنَاجِ لَهُ ، وَيَتِمَادَى فَلَا يَزِيدُ إِلَّا كَدًّا وَعُسْرًا ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ إِلْهَامُهُ فِي غَمُوضٍ مِنَ الْإِبْدِيَّةِ^(٢) ؛

(١) يُقَالُ : هُوَ تَقَفَ لِقْفًا ، أَي : سَرِعَ الْفَهْمُ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهُ كَمَا تَرَى فَجَاءَ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ أَصْلِهِ .

(٢) قَالُوا : كَانَ الْفَرَزْدَقُ وَهُوَ فَخْلٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَى السَّاعَةِ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ =

وَكُلُّ مَنْ أَرْتَا ضَ بَصَانَةِ الْفِكْرِ وَاسْتَحْكَمَتْ لَهُ عَادَتُهَا وَمَرَّ فِي دَرَجَاتِهَا حَتَّى بَلَغَ الْمَكَانَةَ الَّتِي يَسْتَشْرِفُ مِنْهَا لِلْإِلْهَامِ وَيَتَعَرَّضُ فِيهَا بِرُوحِهِ وَبَصِيرَتِهِ لِنَبْضَاتِ الْوَحْيِ وَأَنْكِشَافَاتِ الْغَيْبِ ، يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَعْنَى يَدْنِي بِهَا فِي صِنَاعَتِهِ إِنَّمَا يَقَعُ لَهُ إِلْهَامًا مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْحَيِّ الْمُتَمَدِّدِ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا ؛ ظَاهِرًا فِي شَيْءٍ مِنْهَا بِالضُّوءِ ، وَفِي أَشْيَاءَ بِالْأَلْوَانِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْحَرَكَةِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالْأَنْسِجَامِ ، وَفِي بَعْضِهَا بِالزُّوْعَةِ وَالْفَخَامَةِ ، وَفِي غَيْرِهَا بِنِصْبَةِ الْهَيْئَةِ ؛ وَظَاهِرًا فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ ؛ وَيَعْرِفُ كَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الشَّامِلَ الَّذِي لَا يَحْدُ هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ الْوُجُودَ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِ التَّوَانِجِ ^(١) مَتَى نَبْضَ فِي هَلْهِهِ النَّفْسِ الرَّفِيقَةِ وَأَشْعَرَهَا سِرَّهُ ، وَإِذَا هُمْ التَّائِبَةُ أَنْ يَتَوَضَّعَ لَا يَرَى شَيْئًا ، وَإِذَا أَرَادَ حُجَّةَ عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعِ الْجَلَاءَ عَنْ بَيَانِهِ بِكَلِمَةٍ ، وَإِذَا التَّمَسَّ التَّعْرِيفَ بِهِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا مَا يَشْهَدُ لَهُ إِحْسَاسُهُ وَقَلْبُهُ ؛ وَهَذَا الَّذِي يَنْقَدِحُ فِي أَذْهَانِ التَّوَانِجِ أَفْكَارًا حِينَ يَفْضُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ مِنْ قِرَاءَةٍ أَوْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ حَالَةٍ أَوْ مَرَّاسٍ ، هُوَ هُوَ بَعِيْنُهُ الَّذِي يَنْقَدِحُ عَشْقًا فِي قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ حِينَ يَتَرَأَّى لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي مَعْنَى عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ التَّائِبَةُ فِي الْأَدَبِ لَا يَسِمُ نَمَامُهُ إِلَّا إِذَا أَحَبَّ وَعَشِقَ ، وَكَانَ الْأَدَبُ نَفْسُهُ فِي تَخْصِيلِ حَقِيقَتِهِ الْفَلَسْفِيَّةِ لَيْسَ شَيْئًا سِوَى صِنَاعَةِ جَمَالِ الْفِكْرِ ...

وَهَذَا الْعَمَلُ فِي الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ الْخَاصِّ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَدْمِغَةِ هُوَ الَّذِي كَانَ يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِالتَّوَلِيدِ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَثَرَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ وَلَا أَدْرَكُوا

= أَضْرَاسِي أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ عَمَلٍ يَنْبَغُ مِنَ الشَّعْرِ ! وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَمَلِهِ إِذَا اسْتَضَعَبَ الشَّعْرُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَبَ نَاقَتَهُ وَيَطُوفُ وَحْدَهُ خَالِيًا مُتَفَرِّدًا فِي شِعَابِ الْجِبَالِ وَيَطُوفُ الْأَوْدِيَةَ فَيَنْقَادُ لَهُ الْكَلَامُ ؛ وَأَخْبَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الشَّعْرِ وَتُجْتَلَبُ بِهَا نَافِئُهُ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا عِلَلٌ مِنَ النَّفْسِ تَعَارِضُ حَالَةَ الْإِلْهَامِ إِلَى أَنْ تَزُولَ وَتَضْفُو النَّفْسُ مِنْهَا ، أَوْ أَسْبَابُ تَقَبُّقٍ وَلَا تَلْهِمُ شَيْئًا إِلَى أَنْ تَتَغَيَّرَ بِأَسْبَابٍ مُلْهِمَةٍ .

(١) هُنَاكَ فَرْقٌ عِلْمِيٌّ بَيْنَ مَا يُسَمَّى بُنُوْعًا وَمَا يُسَمَّى عِبْقَرِيَّةً ، وَلَكِنَّا فِي هَذَا الْفَصْلِ أَطْلَقْنَا الْكَلَامَ وَقَيَّدْنَا فِي مَوَاضِعَ بِخُصُوصِهَا ، وَتَكَادُ الْفُرُقُ بَيْنَ التَّائِبَةِ وَالْعَبْقَرِيِّ فِي جَمَاعِ أَمْرِهِ أَنْ يَكُونَ كَالْفَرْقِ بَيْنَ التَّلْغَرِافِ الَّذِي طَرِيقُهُ مَادَّةُ السِّلْكِ وَبَيْنَ الْآخِرِ الَّذِي طَرِيقُهُ رُوحُ الْجَوْ ؛ فَكِلَاهُمَا هُوَ الْآخِرُ ، وَلَكِنْ أَحَدُهُمَا لَا يَدُلُّهُ مِنْ طَرِيقِي مَسْلُوكٍ وَالْآخَرُ طَرِيقُهُ كُلُّ الطَّرِيقِ ، أَيْ : فَوْقَ أَنْ يَقَيَّدَ بِطَرِيقَةٍ .

مِنْ سِرِّهِ شَيْئًا ؛ وَأَحْسَنُ مَا قَرَأْنَاهُ فِيهِ قَوْلُ ابْنِ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ « الْعُمْدَةِ » : « إِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الشَّاعِرِ تَوْلِيدٌ مَعْنَى وَلَا اخْتِرَاعُهُ ، أَوْ اسْتِظْرَافٌ لَفْظٍ وَأَبْدَاعُهُ ، أَوْ زِيَادَةٌ فِيمَا أَحْجَفَ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَعَانِي ، أَوْ نَقْصٌ مِمَّا أَطَالَهُ سِوَاهُ مِنَ الْأَلْفَافِ ، أَوْ صَرْفٌ مَعْنَى إِلَى وَجْهِ عَنْ وَجْهِ آخَرَ - كَانَ اسْمُ الشَّاعِرِ عَلَيْهِ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا فَضْلُ الْوِزْنِ » . هَذَا كَلَامُ ابْنِ رَشِيْقٍ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلِيْطٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعِنَا إِلَّا لَفْظُ التَّوْلِيدِ .

وَمِمَّا لَا نَقْضِي مِنْهُ عَجَبًا فِي تَتَبُّعِ فَلَسَفَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَجِيْبَةِ ، أَنَّنَا نَرَى أَكْثَرَ الْأَفَافِهَا كَالْتَّامَةِ لَا يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِنْ دَقَائِقِ الْمَعْنَى فِي أَصْلِ وَضْعِهَا ، عَلَى حِينٍ لَا يَفْهَمُ عُلَمَاؤُهَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَافِ إِلَّا بَعْضَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا مَثَرَةٌ تَتَزَلُّ مِنْ تَزَلُّلِ مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ ؛ وَقَدْ نَبَّهْنَا إِلَى هَذَا فِي كِتَابِنَا « تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ » وَأَفْضَلْنَا فِيهِ وَأَسْتَوْفَيْنَا هُنَاكَ مِنْ فَلَسَفَتِهِ ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ هَذَا بِالْعَجَائِبِ الَّتِي تَفُوتُ الْعَقْلَ ، حَتَّى إِنَّ أَكْثَرَ الْأَفَافِ لَتَكَادُ تَكُونُ مَخْتُوْمَةٌ نَزَلَتْ كَذَلِكَ لِنَقْضِ الْعُلُومَ وَالْفَلَسَفَةَ خَوَاتِمَهَا فِي عَصُورِ آيَةٍ لَا رَيْبَ فِيهَا ^(١) ؛ وَكَلِمَةُ التَّوْلِيدِ الَّتِي لَمْ يَفْهَمُ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ إِلَّا أَخَذَ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى غَيْرِهِ بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَخْذِ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا فِي كُتُبِ الْأَدَبِ - هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْرَارِ الْبُيُوغِ وَلَا تَجِدُ مَا يَسُدُّ فِي ذَلِكَ مَسَدَهَا أَوْ يُحِيطُ بِحَاطَتِهَا ، وَلَا نَظْرٌ فِي لُغَةٍ مِنْ اللُّغَاتِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي هَذِهِ الدَّلَالَةِ وَاسْتِنْعَابِهَا كُلِّ أَسْرَارِ الْمَعْنَى ؛ إِذْ هِيَ بِلَفْظِهَا نَصْرٌ عَلَى حَيَاةِ الْكَوْنِ فِي الدَّهْنِ الْإِنْسَانِي ، وَأَنَّهُ يَتَّخِذُهُ وَسِيْلَةً لِإِبْدَاعِ مَعَانِيهِ ، كَمَا يَتَّخِذُ سِرُّ الْحَيَاةِ بَطْنَ الْأَمِّ وَسِيْلَةً لِإِبْدَاعِ مَوْجُودَاتِهِ ؛ وَأَنَّ الْمَعَانِي تَتَلَاقَحُ فَيَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي أَسْلُوبٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ وَحْدَهَا الطَّرِيقَةُ لِتَطْوُرِ الْفِكْرِ وَإِخْرَاجِ سُلَالَتٍ مِنَ الْمَعَانِي بَعْضُهَا أَجْمَلُ مِنْ بَعْضٍ ، كَمَا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي السَّلْسِلِ بِوَسَائِلِ التَّلَفِيْحِ مِنَ الدَّمَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَأَنَّ الْبُيُوغَ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا التَّرَكِيبُ الْعَصَبِيُّ الْخَاصُّ فِي الدَّهْنِ ، ثُمَّ نُمُو هَذَا التَّرَكِيبِ مَعَ الْحَيَاةِ

(١) عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَكَنَفِ أَسْرَارِهِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ سَيَبْنِي كِتَابُنَا الْجَدِيدُ « أَسْرَارُ الْإِعْجَازِ » .
(قُلْتُ : وَأَنْظُرْ خَاتِمَةَ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ ») .

فِي طَرِيقَةِ سَوَاءٍ هِيَ وَطَرِيقَةُ الْوَلَادَةِ الْمُخَيَّيَةِ الَّتِي مَرَّجِعُهَا كَذَلِكَ إِلَى تَرْكِيبِ خَاصٍّ فِي أَحْشَاءِ الْأُنْثَى : يَنْمُو ثُمَّ يَذْرُكُ ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ الْمُعْجَزَ ؛ وَإِذَا كَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ زَوْجَانِ ، فَالْكَلِمَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّ أَذْهَانَ التَّوَابِعِ أَذْهَانٌ مُؤَنَّثَةٌ فِي طِبَاعِهَا الَّتِي بُنِيتَ عَلَيْهَا ، وَهَذَا صَحِيحٌ ، إِذْ هِيَ أَقْوَى الْأَذْهَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي الْحِسِّ بِالْآلَامِ وَالْمَسَرَّاتِ ، وَمَعَانِي الدُّمُوعِ وَالْإِنْتِسَامِ أَسْرَعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةٌ فِيهَا ؛ وَهِيَ وَحْدَهَا الْمُبْدِعَةُ لِلْجَمَالِ وَالْمُنَشِئَةُ لِلذَّوْقِ ، وَعَمَلُهَا فِي ذَلِكَ هُوَ قَانُونٌ وَجُودِهَا ؛ ثُمَّ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَالْإِعْطَاءِ وَالرِّضَا بِالْجِزْمَانِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَإِذْمَانِ الصَّبْرِ عَلَى التَّعَبِ وَالذَّقَّةِ وَالْاهْتِمَامِ بِالتَّفَاصِيلِ وَأَسَاسِهَا الْحُبُّ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ طِبَاعِ الْأُنْثَى وَهِيَ التَّابِعَةُ فِيهِ ، بَلْ هِيَ التَّابِعَةُ بِهِ .

فَسِرُّ التَّبَوُّغِ فِي الْأَدَبِ وَفِي غَيْرِهِ هُوَ التَّوَلُّيدُ ، وَسِرُّ التَّوَلُّيدِ فِي نَضْجِ الذَّهْنِ الْمُهِمَّ بِأَدَوَاتِهِ الْعَصَبِيَّةِ ، الْمُنْتَجِبَةُ إِلَى الْمَجْهُولِ وَمَعَانِيهِ كَمَا تَنْجِبُهُ كُلُّ آلَاتِ الْمَرْصَدِ الْفَلَائِكِيِّ إِلَى السَّمَاءِ وَأَجْرَاهَا ؛ وَبِذَلِكَ الْعُنْصُرِ الذَّهْنِيِّ يَرِيدُ التَّابِعَةُ عَلَى غَيْرِهِ ، كَمَا يَرِيدُ الْمَاسُ عَلَى الرُّجَاجِ ، وَالْجَوْهَرُ عَلَى الْحَجَرِ ، وَالْقَوْلَادُ عَلَى الْحَدِيدِ ، وَالذَّهَبُ عَلَى الثُّحَاسِ ؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا تَبَغَتْ بُتُوغَهَا بِالتَّوَلُّيدِ فِي سِرِّ تَرْكِيبِهَا ، وَتَتَفَاوَتْ التَّوَابِعُ أَنْفُسُهُمْ فِي قُوَّةِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ ، فَبَعْضُهُمْ فِيهَا أَكْمَلَ مِنْ بَعْضٍ ، وَتَمُدُّ لَهُمْ فِي الْخِلَافِ أَحْوَالُ أَرْزَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَحَوَادِثِهِمْ وَنَحْوُهَا ، وَبِهَذِهِ الْمُبَانِيَةِ تَجْتَمِعُ لِكُلِّ مِنْهُمْ شَخْصِيَّةٌ وَتَتَسَقُّ لَهُ طَرِيقَةٌ ؛ وَبِذَلِكَ تَتَنَوَّعُ الْأَسَالِيبُ ، وَيُعَادُ الْكَلَامُ غَيْرَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ ، وَتَتَجَدَّدُ الدُّنْيَا بِمَعَانِيهَا فِي ذَهْنِ كُلِّ أَدِيبٍ يَفْهَمُ الدُّنْيَا وَتَتَخَذُ الْأَشْيَاءُ الْجَارِيَةِ فِي الْعَادَةِ غَرَابَةً لَيْسَتْ فِي الْعَادَةِ وَيَرْجِعُ الْحَقِيقِيُّ أَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ .

وَقَدْ سِئِلَ مُصَوِّرٌ مُبْدِعٌ بِمَاذَا يَمْرُجُ أَلْوَانُهُ فَتَاتِي وَلَهَا إِشْرَافُهَا وَجَمَالُهَا وَبُتُوغُ مَبَانِيهَا وَرُؤُوسُ الْحَيَاةِ بِهَا فِي الصُّورَةِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا أَمْرُجُهَا بِمُخَيِّ . وَهَذَا هَذَا ، فَإِنَّ أَلْوَانَ عِنْدَ النَّاسِ جَمِيعًا وَلَكِنْ مَخْهُ عِنْدَهُ وَخَدَهُ وَلَهُ تَرْكِيبُهُ الْخَاصُّ بِهِ وَخَدَهُ وَسِرُّ الصَّنَاعَةِ فِي تَوَلُّيدِ هَذَا الدَّمَاعِ ، فَكَأَنَّ أَلْوَانَهُ فِي صِنَاعَتِهِ جَاءَتْ مِنْهُ بِخُصُوصِهِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْعَبْقَرِيُّ ، فَإِنَّكَ لَتَجِدُ الشُّعْرَ فِي وَرْنٍ خَاصٍّ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُسَمُّ الْعَرَضُ مِنْهُ وَيُضَيَّفُ إِلَى

مَعَانِيهِ أَنْفًا مِنَ الْجَمَالِ وَحُسْنِهِ وَإِلَى صَوْتِهِ نَغْمًا مِنَ الْمُوسِيقَى وَطَرَبِهَا . فَمَا أَشْبَهَ الْجِهَارَ
الْعَصِيَّ فِي دِمَاحِ كُلِّ نَابِغَةٍ أَنْ يَكُونَ وَزَنًا شِعْرِيًّا لِهَذَا النَّابِغَةِ بِخَاصَّتِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ
الْأَدِيبَ الْحَقَّ إِلَّا وَجَدْتَ كُلَّ مَا يَكْتُبُهُ يَجِيءُ فِي وَزْنٍ خَاصٍّ بِهِ حَتَّى لَا يَخْرُجَ عَنْهُ مَرَّةً ، أَوْ
تَزِيدَ أَنْتَ فِيهِ وَتُنْقِصَ إِلَّا ظَهَرَ لَكَ أَنَّهُ مَكْسُورٌ . . . ؟

وَالذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ لَا يَتَّخِذُ الْمَعَانِي مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَنَظَرٍ وَتَعَقُّبٍ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا أَوْ يَتَعَلَّقُ
عَلَيْهَا ، فَهَذَا عَمَلُ الذَّهْنِ الذَّكِيِّ وَحْدَهُ ، وَهُوَ غَايَةُ الْغَايَاتِ فِيهِ ، يَبْحَثُ وَيَنْظُرُ وَيَتَصَفَّحُ
وَيَجْمَعُ مِنْ هُنَا ، وَيَأْخُذُ مِنْ ثَمَّ ، وَيَعْتَزُّضُ وَيُصَحِّحُ ، وَيَأْتِيكَ بِالْمَقَالَةِ يَحْسَبُ فِيهَا كُلَّ
شَيْءٍ وَمَا فِيهَا إِلَّا أَشْيَاؤُهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ . أَمَّا الذَّهْنُ الْعَبْقَرِيُّ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا مَادَّةُ
عَمَلٍ ، فَلَا تَكَادُ تُلَاقِيهِ حَتَّى تَتَحَوَّلَ فِيهِ وَتَنُمُوَ وَتَتَنَوَّعَ وَتَسَاقَطَ لَهُ أَشْكَالًا وَصُورًا فِي مِثْلِ
خَطَرَاتِ الْبَرَقِ ، وَرُبَّمَا عَمَرَ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ فِي جَمَالِهِ وَسُمُوهِ وَقُوَّةِ تَأَثِيرِهِ مَقَالَاتٍ عِدَّةً
لِأَوَّلِكَ الْأَذْكِيَاءِ ، فَتَسَخَّهَا نَسَخًا ، وَجَعَلَهَا مِنْهُ كَالشَّمُوعِ الْمُوقَدَةِ بِإِزَاءِ الشَّمْسِ . فَإِذَا
ذَهَبَتْ ثَوَازِنُ بَيْنَ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَمِثْلِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الرُّوعَةِ وَالْجَلَالِ ، وَرَأَيْتَ
عَرَبِيَّةَ الْمَقَالَةِ وَغُرُورَهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ تَقُولَ لَهَا : يَا حَصَاةَ الْمِيزَانِ فِي إِحْدَى كِفَتَيْهِ ! أَلَا
يَكْفِيكَ الْجَبَلُ فِي الْكِفَةِ الْأُخْرَى . . . ؟

وَقَدْ عَرَفَ الْأَدَبَاءُ جَمِيعًا أَنَّ كَاتِبَ فَرَنْسَةِ الْعَظِيمِ أَنَاتُولُ فَرَانْسَ Anatole France كَانَ
يَكْتُبُ الْجُمْلَةَ ثُمَّ يُنْقِصُهَا ثُمَّ يُهْدِبُهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا ، وَهَكَذَا خَمْسَ مَرَّاتٍ إِلَى
ثَمَانٍ ، وَيُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، وَيَحْتَسِبُونَ هَذَا تَحَكُّمًا وَتَهْدِينًا وَمَا هُوَ
مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، وَلَا أَحْسَبُ الْأَوْرَبِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ تَنَبَّهُوا إِلَى سِرِّ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، وَإِنَّمَا سِرُّهَا
مِنْ جِهَارِ التَّوَلِيدِ فِي رَأْسِ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْعَظِيمِ ، فَإِذَا قَرَأَ كِتَابَهُ حَوْلَهَا فِكْرَةً ، وَأَبْدَعَ لَهُ مِنْهَا
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ فِي ذَلِكَ أَوْ يَتَكَلَّفَ لَهُ إِلَّا مَا يَتَكَلَّفُ مَنْ يَهْزُ إِلَى إِلَهٍ بِجَذَعِ الشَّجَرَةِ لِسَاقِطٍ عَلَيْهِ
ثَمَرًا نَاصِبًا حُلُومًا جَنِيًّا . فَكُلَّمَا قَرَأَ وَلَدَ ذَهْنُهُ ، فَيَنْبُتُ مَا يَأْتِيهِ ، فَلَا تَزَالُ صُورَةٌ مِنْ صُورَةٍ
حَتَّى يَجِيءَ الْمَعْنَى فِي النِّهَايَةِ ، وَإِنَّهُ لَا غَرْبَ الْغَرَائِبِ لَا يَكَادُ الْعَقْلُ يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقَتِهِ
وَسِيَاقِ الْفِكْرِ فِيهِ ، إِذْ كَانَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا مُحَوَّلًا عَنْ وَجْهِهِ مَرَّاتٍ لَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

فَجِهَارُ التَّوَلِيدِ مَتَى اسْتَمَرَّ وَاسْتَحْكَمَ فِي إِنْسَانٍ أَصْبَحَ لَهُ بِمَقَامِ مَلِكِ الْوَحْيِ مِنَ النَّبِيِّ ،

وَهُوَ عِنْدَنَا دَلِيلٌ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى صِحَّةِ السُّوَرَةِ وَحُدُوثِ الْوَحْيِ وَإِمْكَانِهِ ، إِذْ لَا تَتَصَرَّفُ بِهِ إِلَّا قُوَّةٌ غَيْبِيَّةٌ لَا عَمَلَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا ، بَلْ هِيَ تُبْدِعُ إِبْدَاعَهَا وَتُلْقِي عَلَيْهِ الْقَاءَ . وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهَا أَذْرَكَ مِنْهَا ، وَلَا كُلُّ مَنْ أَذْرَكَ مِنْهَا بَلَغَ بِهَا ، بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ الْمُخْتَصِمِ كَجِهَازِ الْأَسْلُكِيِّ الدَّقِيقِ الْمَصْنُوعِ لِنَتَلَقَّى أَبْعَدَ الْأَمْوَاجِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ وَأَقْوَاهَا . وَهَذِهِ الْقُوَّةُ إِنْ أَرَادَتْ مَعَانِي الْجَمَالِ أَخْرَجَتْ الشَّاعِرَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ كَشْفَ السِّرِّ عَنِ الْأَشْيَاءِ أَخْرَجَتْ الْأَدِيبَ ، وَإِنْ أَرَادَتْ حَقَائِقَ الْوُجُودِ أَخْرَجَتْ الْحَكِيمَ . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ أَمْرٌ تَغْيِيرِ الْحَيَاةِ وَصَبَّ أَرْزَاقِ جَدِيدَةٍ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالْوُثُوبِ بِهِلْهِهِ الدُّنْيَا دَرَجَةً أَوْ دَرَجَاتٍ فِي الرُّقْمِ - فَهَذَا تَكُونُ الْوَسِيلَةُ أَكْبَرَ مِنَ الْبَصِيرَةِ ، فَلَيْسَ لَهَا مِنْ قُوَّةِ الْغَيْبِ إِلَّا الْوَحْيُ ، وَيَكُونُ الْغَرَضُ أَكْبَرَ مِنَ الشَّاعِرِ وَالْأَدِيبِ وَالْحَكِيمِ ، فَلَا يُخْتَارُ إِلَّا النَّبِيُّ . ثُمَّ لَا يُوْحَى إِلَيْهِ إِلَّا وَهُوَ فِي حَسْرَةٍ لِسَاعَةِ الْوَحْيِ وَخَدَهَا ، وَهِيَ سَاعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الزَّمَنِ ، بَلْ مِنَ الرُّوحِ الْمُتَصَرِّفِ عَنِ الزَّمَنِ وَمَا فِيهِ لِيَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ الْخُلْدِ ، وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ خُلُوعُ النَّابِغَةِ بِنَفْسِهِ فِي سَاعَةِ التَّوَلِيدِ .

فَسِرُّ التَّبَوُّغِ مِنْ سِرِّ الْوَحْيِ ، لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ ، وَمَا أَسْهَلَ سِرِّ الْوَحْيِ وَأَيْسَرَ أَمْرَهُ ، وَلَكِنْ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَخَدَهُمْ ، وَهَذَا كُلُّ الصُّعُوبَةِ . . « أَنْ تَكُونَ أَوْ لَا تَكُونَ ، هَذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ » .

نَقْدُ الشُّعْرِ وَفَلَسَفَتُهُ (*)

الشَّاعِرُ فِي رَأْيَا هُوَ ذَاكَ الَّذِي يَرَى الطَّبِيعَةَ كُلَّهَا بِعَيْنَيْنِ لَهُمَا عَشْقٌ خَاصٌّ وَفِيهِمَا غَزَلٌ عَلَى حِدَةٍ ، وَقَدْ خُلِقْنَا مُهَيَّأَتَيْنِ بِمَجْمُوعَةِ النَّفْسِ الْعَصَبِيَّةِ لِرُؤْيَةِ السُّحْرِ الَّذِي لَا يَرَى إِلَّا بِهِمَا ، بَلِ الَّذِي لَا وَجُودَ لَهُ فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ لَوْلَا عَيْنَا الشَّاعِرِ ، كَمَا لَا وَجُودَ لَهُ فِي الْجَمَالِ الْحَيِّ لَوْلَا عَيْنَا الْعَاشِقِ .

فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ أَعْمَى كَهُومِيروس Homerus وملتون Milton وَبَشَّارَ وَالْمَعْرِي وَأَصْرَافِيهِمْ ، انْبَعَثَ الْبَصَرُ الشُّعْرِيُّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ حَاسَةٍ فِيهِ ، وَأَبْصَرَ مِنْ خَوَاطِرِهِ الْمُنْبَتَّةِ فِي كُلِّ مَعْنَى ، فَادَّأَى بِالنَّفْسِ فِي الْوُجُودِ الْمُظْلِمِ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ بِهِذِهِ النَّفْسِ فِي الْوُجُودِ الْمُضِيِّ ، وَقَصَّرَ عَنِ الْمُبْصِرِينَ فِي مَعَانٍ وَأَزْبَى عَلَيْهِمْ فِي مَعَانٍ أُخْرَى ، فَيَجْتَمِعُ لِلشُّعْرِ مِنْ هُنَاوَلَا وَأُولَئِكَ مَدُّ النَّفْسِ الْمُلْهَمَةِ مِمَّا بَيْنَ أَطْرَافِ الثُّورِ إِلَى أَغْوَارِ الظُّلْمَةِ .

وَالشُّعْرُ فِي أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ ذَاتِهَا ، وَلِهَذَا تَمْتَارُ قَرِيحَةُ الشَّاعِرِ بِقُدْرَتِهَا عَلَى خَلْقِ الْأَلْوَانِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَلَوْنُهُ لِإِظْهَارِ حَقَائِقِهِ وَدَقَائِقِهِ حَتَّى يَجْرِيَ مَجْرَاهُ فِي النَّفْسِ وَيَجُوزَ مَجَارَهُ فِيهَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ نَعَاوَرَهُ النَّاسُ مِنْ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا فَهُوَ إِنَّمَا يُعْطِيهِمْ مَادَّةً فِي هَيْئَتِهِ الصَّامِتَةِ ، حَتَّى إِذَا أُنْتَهَى إِلَى الشَّاعِرِ أَغْطَاهُ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي صُورَتِهَا الْمُتَكَلِّمَةِ ، فَأَبَانَتْ عَنْ نَفْسِهَا فِي شِعْرِهِ الْجَمِيلِ بِخَصَائِصٍ وَدَقَائِقَ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا النَّاسُ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ فِيهَا .

فَالشُّعْرُ تَتَكَلَّمُ الطَّبِيعَةُ فِي النَّفْسِ وَتَتَكَلَّمُ النَّفْسُ لِلْحَقِيقَةِ وَتَأْتِي الْحَقِيقَةُ فِي أَطْرَفِ أَشْكَالِهَا وَأَجْمَلِ مَعَارِضِهَا ، أَيْ : فِي الْبَيَانِ الَّذِي تَصْنَعُهُ هَذِهِ النَّفْسُ الْمُلْهَمَةُ حِينَ تَتَلَقَّى الثُّورَ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا وَتَعَكِّسُهُ فِي صِنَاعَةِ نُورَانِيَّةٍ مُتَوَجِّةٍ بِالْأَلْوَانِ فِي الْمَعَانِي وَالْكَلِمَاتِ وَالْأَنْغَامِ .

وَالْإِنْسَانُ مِنَ النَّاسِ يَعْيشُ فِي عُمْرٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يَبْدُو كَأَنَّهُ فِي أَعْمَارٍ كَثِيرَةٍ مِنْ عَوَاطِفِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَنْطَوِي عَلَى نَفْسٍ مُخْتَلِفَةٍ تَجْمَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَبِذَلِكَ خَلَقَ لِيَقْبِضَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى الدُّنْيَا ، كَأَنَّمَا هُوَ نَبْعٌ إِنْسَانِيٌّ لِلْإِحْسَاسِ يَتَعَرَّفُ النَّاسُ مِنْهُ لِيَرِيْدَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَانِي وَجُودِهِ الْمَحْدُودِ مَا دَامَ هَذَا الْوُجُودُ لَا يَزِيدُ فِي مُدَّتِهِ ، ثُمَّ لِيَرْهَفَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ أَغْصَابَهُ فَتُدْرِكَ شَيْئًا مِمَّا فَوْقَ الْمَحْسُوسِ ، وَتُكْتَنُهُ طَرْفًا مِنْ أَطْرَافِ الْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تَتَّسِعُ بِالنَّفْسِ وَتُخْرِجُهَا مِنْ حُدُودِ الضَّرُورَاتِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا لِتَصِلَهَا بِلَذَاتِ الْمَعَانِي الْحُرَّةِ الْجَمِيلَةِ الْكَامِلَةِ ، وَكَأَنَّ الشَّعْرَ لَمْ يَجِبْ فِي أَوْزَانٍ إِلَّا لِيَحْمِلَ فِيهَا نَفْسَ قَارِئِهِ إِلَى تِلْكَ اللَّذَاتِ عَلَى اهْتِزَازَاتِ النِّعَمِ ، وَمَا يُطْرِبُ الشَّعْرُ إِلَّا إِذَا أَحْسَسْتَهُ كَأَنَّمَا أَخَذَ النَّفْسَ لَحْظَةً وَرَدَّهَا .

وَالشَّاعِرُ الْحَقِيقِيُّ بِهَذَا الْأَسْمِ - أَيِ : الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الشَّعْرِ وَيَفْتَتِحُ مَعَانِيَهُ وَيَهْتَدِي إِلَى أَسْرَارِهِ وَيَأْخُذُ بِغَايَةِ الصَّنْعَةِ فِيهِ - تَرَاهُ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ مَا يُعَانِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَا يَتَعَاطَى وَصْفَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ يُفَكِّرُ بِعَقْلِهِ عَلَى أَنَّهُ عَقْلٌ هَذَا الشَّيْءُ مُضَافًا إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ ، وَبِهَذَا تَنْطَوِي نَفْسُهُ عَلَى الْوُجُودِ فَتَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ فِي خِلْقَةٍ جَمِيلَةٍ مِنْ مَعَانِيهَا ، وَتُصْبِحُ هَذِهِ النَّفْسُ خَلِيقَةً أُخْرَى لِكُلِّ مَعْنَى دَاخِلَهَا أَوْ اتَّصَلَ بِهَا ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَا رَيْبَ أَنَّ نَفْسَ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ نَكَادُ تَكُونُ حَاسَةً مِنْ حَوَاسِّ الْكَوْنِ .

وَلَوْ سُلِّتَ أَرْزَاقُ الدُّنْيَا كَيْفَ فَهَمَّ أَهْلُهَا مَعَانِي الْحَيَاةِ السَّامِيَةِ وَكَيْفَ رَأَوْهَا فِي أَنْارِهَا الْأَلُوهِيَّةِ عَلَيْهَا ، لَقَدَّمَ كُلُّ جِيلٍ فِي الْجَوَابِ عَلَى ذَلِكَ مَعَانِي الدِّينِ وَمَعَانِي الشَّعْرِ .

وَلَيْسَتْ الْفِكْرَةُ شِعْرًا إِذَا جَاءَتْ كَمَا هِيَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، فَهِيَ فِي ذَلِكَ عِلْمٌ وَفَلَسَفَةٌ ، وَإِنَّمَا الشَّعْرُ فِي تَصَوُّرٍ خَصَائِصِ الْجَمَالِ الْكَامِلَةِ فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ عَلَى دِقَّةٍ وَلَطَافَةٍ كَمَا تَتَحَوَّلُ فِي ذَهَنِ الشَّاعِرِ الَّذِي يُلَوِّثُهَا بِعَمَلِ نَفْسِهِ فِيهَا وَيَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَسْرَارِهَا .

فَالْأَفْكَارُ مِمَّا تُعَانِيهِ الْأَذْهَانُ كُلُّهَا وَيَتَوَاطَأُ فِيهِ قَلْبُ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلِسَانُهُ ، يَبْدُو أَنَّ قَلْبَ الشَّاعِرِ هُوَ قَلْبٌ خَصَائِصُهَا الْجَمِيلَةِ الْمُؤَثِّرَةِ ، وَكَأَنَّ الْخَيَالَ الشَّعْرِيَّ نِخْلَةً مِنَ الشَّحْلِ نَلِمُ بِالْأَشْيَاءِ لِيُبْدِعَ فِيهَا الْمَادَّةَ الْحُلُوهَ لِلذَّوْقِ وَالشُّعُورِ ، وَالْأَشْيَاءُ بَاقِيَةٌ بَعْدَ كَمَا هِيَ لَمْ يَغْيَرْهَا

الخيال ، وجاء منها بما لا تحسبه منها ؛ وهذه القوة وحدها هي الشعريّة .

فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم في نفس قارئها حسب ، وإنما هو يصنعها ويخذو الكلام فيها بغضه على بغض ، ويتصرف بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معاً ؛ وعبريّة الأدب لا تكون في تقرير الأفكار تقريراً علمياً بحثاً ، ولكن في إرسالها على وجه من التشديد لا يكون بينه وبين أن يقرها في مكانها من النفس الإنسانية حائل . وكثيراً ما تكون الأفكار الأدبيّة العالِيّة التي يُلهمها أفذاذ الشعراء والكتاب هي أفكار عقل التاريخ الإنساني ، فلا تفصل عنهم الفكرة في أسلوبها البياني الجميل حتى تتخذ وضعها التاريخي في الدنيا ، وتقوم على أساسها في أعمال الناس ، فتتحقق في الوجود ويعمل بها ؛ وهذا طرف مما بين الأدب العالِي وبين الأدبان من المشابهة .

ومتى نزلت الحقائق في الشعر وجب أن تكون موزونة في شكلها كوزنه ، فلا تأتي على سردها ولا تؤخذ هوناً كالكلام بلا عمل ولا صناعة ، فإنها إن لم يجعل لها الشاعر جمالاً ونسقاً من البيان يكون لها شينها بالوزن ، ويضع فيها روحاً موسيقيّة بحيث يجيء الشعر بها وله وزن في شكله وروحه . فذلك حقائق مكسورة تلوح في الذوق كالنظم الذي دخلته العلل فجاء مختلفاً قد زاغ أو فسد .

والخيال هو الوزن الشعري للحقيقة المرسلة ، وتخلل الشاعر إنما هو إلقاء الثور في طينة المعنى ليشف به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانيّة ، ويرفع الإنسانيّة درجة سماويّة ؛ وكلّ بدائع العلماء والمخترعين هي منه بهذا المعنى ، فهو في أصله ذكاء العلم ، ثم ينمو فيكون هو بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد سموة فيكون روح الشعر ؛ وإذا قبلت هذا اللسق فأنحدرت به نازلاً كما صعدت به ، حصل معك أن الخيال روح الشعر ، ثم ينحط شيئاً فيكون بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد انحطاطاً فيكون ذكاء العلم ؛ فالشاعر كما ترى هو الأول إن ارتقت الدنيا ، وهو الأول إن انحطت الدنيا ؛ وكأنما إنسانيّة الإنسان تبدأ منه .

* * *

إذا قرزنا للشعر هذا المعنى وعرفنا أنه فن النفس الكبيرة الحساسة الملهمة حين

تَتَنَاوَلُ الوجودَ مِنْ فَوْقِ وجودِهِ فِي لُطْفِ رُوحَانِي ظَاهِرٍ فِي الْمَعْنَى وَاللُّغَةِ وَالْأَدَاءِ - وَجِبَ أَنْ نَعْتَبِرَ نَقْدَ الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مِمَّا قَرَرْنَاهُ ، وَأَنْ نَقِيَمُهُ عَلَى هَذِهِ الْأَصُولِ ، فَإِنَّ التَّقْدِ الْأَدَبِيَّ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - وَخَاصَّةً نَقْدَ الشَّعْرِ - أَصْبَحَ أَكْثَرُهُ مِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَسَاءَ التَّصَرُّفُ بِهِ ، وَوَقَعَ الْخَلْطُ فِيهِ ، وَتَنَاوَلَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهِ بِعِلْمٍ نَاقِصٍ ، وَطَبِيعٍ ضَعِيفٍ ، وَذَوْقٍ فَاسِدٍ ، وَطَمَعٍ فِيهِ مَنْ لَا يُحْصِلُ مَذْهَبًا صَحِيحًا . وَلَا يَنْجُو لِرَأْيٍ جَيِّدٍ ، حَتَّى جَاءَ كَلَامُهُمْ وَإِنَّ فِي اللَّغْوِ وَالتَّخْلِيطِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَخَفٌ مَحْمَلًا ، فَإِنَّكَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي حَقِيقَةِ مَكْشُوفَةٍ تَعْرِفُهَا تَخْلِيطًا وَلَغْوًا ، وَلِلذِّكَكَ مِنْ نَقْدِ أَوْلَئِكَ فِي آدَبِ مَرْوَرٍ وَدَعْوَى فَارِعَةِ وَزَوَائِدِ مِنَ الْفُضُولِ وَالتَّعَسُّفِ يَتَزَيَّدُونَ بِهَا لِلتَّفَنُّحِ وَالصَّوْلَةِ وَإِيْهَامِ النَّاسِ أَنَّ الْكَاتِبَ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا هُوَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ . . عَلَى أَنَّ جُهْدَ عَمَلِهِ إِذَا فَتَشْتَهُ وَاعْتَبِرْتَ عَلَيْهِ مَا يُخَالِطُ فِيهِ ، أَنَّهُ يَكْتُبُ حَيْثُ يُرِيدُ التَّقْدِ أَنْ يُحَقِّقَ ، وَيَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْوَرَقِ حَيْثُ يَقْتَضِيهِ الْبَحْثُ أَنْ يَمْلَأَ فَرَاغًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

وَقَدْ قُلْنَا فِي كِتَابِنَا «تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ» : إِنَّ أَسْتَادَ آدَابِ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِتَارِيخِهَا وَتَقْصِي مَوَادِّهَا - ذَوْقًا فَنِيًّا مُهَذَّبًا مَضْغُولًا ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ هَذَا الذَّوْقُ إِلَّا مِنْ إِبْدَاعٍ فِي صِنَاعَتِي الشَّعْرِ وَالتَّنْثِيرِ ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَى هَؤُلَاءِ (أَيَّ : الْإِحَاطَةِ وَالذَّوْقِ) تِلْكَ الْمَوْهَبَةُ الْغَرِيْبَةُ الَّتِي تَلْفُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالْمُخَيَّلَةِ فَتُبْدِعُ مِنَ الْمَوْرُخِ الْفِيلِسُوفِ الشَّاعِرِ الْعَالِمِ شَخْصًا مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هُوَ الَّذِي نُسَمِّيهِ : الثَّاقِدَ الْأَدَبِيَّ .

هَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الثَّاقِدِ فِي رَأْيِنَا ، فَانْظُرْ أَيْنَ تَجِدُهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَسَاتِيذَةِ الْمُخْتَصَرِينَ . . . فِي آدِبِهِمْ ، الْمُطَوَّلِينَ . . . فِي الْقَابِيهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَعَاطُونَ التَّقْدِ وَلَيْسَ لَهُمْ وَسَائِلُهُ إِلَّا مَا كَانَ ضَعْفَةً وَقَلَّةً وَإِدْبَارًا ، وَقَدْ فَاتَهُمْ مَا لَا تَحْمِلُهُ أَفْئَادُهُمْ وَلَا تَبْلُغُهُ قُوَاهُمْ ، وَجَهِلُوا أَنَّ الثَّاقِدَ الْأَدَبِيَّ إِنَّمَا يَلْقَى دَرْسًا عَالِيًا لَا يَدُلُّ فِيهِ عَلَى الْعُيُوبِ الْفَنِّيَّةِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي تَقَابِلُهَا فِي أَسْمَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ الْقَرْنُ مِنْ أَثَارِ تَارِيخِهِ ؛ فَيَكُونُ التَّقْدِ تَهْدِيئًا وَتَخْلِيصًا لِفُتُونِ الْأَدَبِ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةِ يَجْلُوها عَلَى النَّاسِ وَيُبْدِعُ فِيهَا وَيَزِيدُ فِي مَادَّتِهَا وَيُسَهِّلُهَا عَلَى الْقُرَّاءِ وَيَحْصِلُهَا لَهُمْ تَحْصِيلًا لَا يَبْلُغُونَهُ بِنَفْسِهِمْ ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ مَا هُوَ قَوِيٌّ ، وَمِنْ كُلِّ قَوِيٍّ مَا هُوَ أَقْوَى .

وَرَأَيْنَاهُمْ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا عَلَى كَلَامِ الشَّاعِرِ ، فَيَجِيءُ عَمَلُهُمْ

فِي الْجُمْلَةِ كَأَنَّهُ تَصْنِيفٌ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ وَشَرَحَ لَهُ وَتَصَفَّحَ عَلَى بَعْضِ مَعَانِيهِ ، وَبِهَذَا يَرْجِعُ الشَّاعِرُ وَإِنَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي نَاقِدِهِ يُدِيرُهُ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَجِيءُ هَذَا النَّاقِدُ زَائِدًا مُتَطَفِّلًا ، فَتَأْتِي كِتَابَتُهُ وَإِنَّهَا لَضَرْبٌ مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنْقُودِ بِنَاقِدِهِ ، وَيُضَيِّحُ وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى الْعَكْسِ ، فَالشَّاعِرُ الْمُنْقُودُ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَكِنَّهُ أَبَانَ قُصُورَ النَّاقِدِ وَجَهْلَهُ ، فَهُوَ النَّاقِدُ وَإِنْ سَكَتَ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُنْقُودُ وَإِنْ تَكَلَّمَ !

وَهَذَا الْمُتَعَلِّقُ عَلَى أَخْبَارِ الشَّاعِرِ وَشِعْرِهِ كَتَعَلَّقَ « التَّلْخِصِ » عَلَى أَصْلِهِ « الْمُطْوَلِ » وَالشَّرْحَ عَلَى مَتْنِهِ الْمُوجِزِ ، إِنَّمَا هُوَ كَاتِبٌ يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ مَادَّةَ إِنْشَائِيَّةٍ ، فَيَتَصَرَّفُ بِهَا لِيَكْتُبَ ، وَلَا يَرَادُ مِنَ النَّقْدِ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ مَادَّةَ إِنْشَاءٍ ، بَلْ مَادَّةَ حِسَابٍ مُقَدَّرٍ بِحَقَائِقِ مُعَيَّنَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا ؛ فَتَقْدُّ الشَّعْرَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِلْمٌ حِسَابِ الشَّعْرِ ، وَقَوَاعِدُهُ الْأَرْبَعُ الَّتِي تُقَابِلُ الْجَمْعَ وَالطَّرْحَ وَالضَّرْبَ وَالْقِسْمَةَ هِيَ الْإِطْلَاعُ وَالذَّوْقُ وَالْخِيَالُ وَالْفَرِيحَةُ الْمُلْهِمَةُ .

وَتَمَّ ضَرْبٌ آخَرٌ مِنْ تَعَلُّقِ الضُّعَفَاءِ ، يَتَنَاوَلُ الشَّاعِرُ بِأَعْيَانِهِ رَجُلًا لَهُ مَوْضِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَمَنْزِلُهُ مِنَ الْحَيَاةِ ، ثُمَّ لَا يَعْدُو ذَلِكَ ^(١) ؛ وَهُوَ تَرْوِيضٌ لِلْمُورِّخِ بِجَعْلِهِ نَاقِدًا ، وَتَرْوِيضٌ لِلنَّاقِدِ يَرُدُّهُ مُورِّخًا ، عَلَى أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي النَّقْدِ الصَّحِيحِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَلَا تَنْفَعُ بِهِ بَصِيرَةُ النَّقْدِ ، إِذِ الشَّاعِرُ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ وَحَيٌّ فِي الْأَحْيَاءِ وَعُمُرٌ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُورِّخَةِ ، وَلَكِنْ بِمَوْضُوعِهِ مِنْ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ وَصِلَةِ نَفْسِهِ بِهَا وَقُدْرَةِ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَى أَنْ تَنْفَعُ إِلَى حَقَائِقِ الطَّبِيعَةِ فِي كَائِنَاتِهَا عَامَّةً ، وَفِي إِنْسَانِهَا خَاصَّةً ، ثُمَّ يَقْدِرُ مِثْلُ هَذِهِ فِي النَّقْدِ إِلَى أَسْرَارِ اللُّغَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْوُجُودُ الْمَعْنَوِيُّ لِكُلِّ ذَلِكَ ، وَالتَّصَرُّفُ بِهَا عَلَى طَبَقَاتٍ مَعَانِيَةٍ حَتَّى لَا تَقْصُرَ عَنِ الْغَايَةِ وَلَا تَقَعُ دُونَ الْقَصْدِ ، فَإِنَّ الشَّعْرَ إِنْ هُوَ إِلَّا ظُهُورُ عَظَمَةِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ بِمَظْهَرِهَا اللَّغَوِيِّ ، وَلَكِنْ كَانَ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ تَارِيخٌ لَا يَتِمُّ النَّقْدُ إِلَّا بِهِ ، فَهُوَ تَارِيخُ الشَّعْرِ فِي نَفْسِ قَائِلِهِ ، ثُمَّ تَارِيخُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي مَعَانِيِ الشَّعْرِ مِنْ عَصْرِهَا ، ثُمَّ أَدَبُ هَذَا الشَّاعِرِ مِنَ الْوُجُودِ الْأَدَبِيِّ لِلُّغَةِ الَّتِي نَظَّمَ بِهَا ؛ وَذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ

(١) لَمْ نَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَمثلةً وَلَمْ نَعَيِّنْ أَسْمَاءَ حَتَّى لَا يَمْتَدَّ الْكَلَامُ فَتَخْرُجَ الْمَقَالَةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ كِتَابًا ، وَلَكِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ الشَّعْرَ وَمَا يَكْتُبُ فِي نَقْدِهِ ، وَالْمُحَاضَرَاتِ الَّتِي تُلْقَى عَنِ الشُّعْرَاءِ فَقَدْ وَجَدْتَ الْأَمْثِلَةَ وَالْأَسْمَاءَ ...

فِيهِ تَارِيخُ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ مُحْصَلًا مِنْ نَوَاحِيهِ فِي جِهَاتِ الْحَيَاةِ ، مُتَعَمِّقًا فِيهِ بِالِاسْتِفْصَاءِ ، مُتَغَلِّغًا إِلَيْهِ بِالنَّقْدِ ...

* * *

وَإِنَّ لَنَا رَأْيًا بَسْطَنَاهُ مَرَارًا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْرُضَ لِنَقْدِ الشَّاعِرِ وَالْكَلَامِ عَنْهُ إِلَّا شَاعِرٌ كَبِيرٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي النَّقْدِ ، أَوْ كَاتِبٌ عَظِيمٌ يَكُونُ ذَا طَبِيعَةٍ فِي الشَّعْرِ ، أَيْ لَا بُدَّ مِنَ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ مَعًا لِنَقْدِ الشَّعْرِ وَخَدِّهِ ، فَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالذَّوْقِ وَالْإِحْسَاسِ وَالْإِلْهَامِ جَمِيعًا ، فَيَكْبُرُ النَّاقِدُ وَجُوهَ النَّقْصِ الْفَنِيِّ ، وَيَعْرِفُ بِمَنْ تَقَصَّتْ وَمَاذَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا وَمَا وَجَهُ تَمَامِهَا ، ثُمَّ يَعْرِفُ مِنَ الْكَمَالِ الْفَنِيِّ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَيُحَسُّ عَلَى الْحَالَتَيْنِ بِالْمَعْنَايِ الَّتِي أَحَسَّهَا الشَّاعِرُ حِينَ انْتَرَعَ شِعْرُهُ مِنْهَا ، وَمَا كَانَ يَخَالِجُهُ وَفَتْنُهُ مِنَ الْفِكْرِ وَيَتَمَثَّلُ لَهُ مِنَ الصُّورِ الْمَعْنَوِيَةِ الَّتِي أَلْهَمَتْهُ إِلَهَامُهَا ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَايَ الْمَكْتُوبَةَ هِيَ شِعْرُ الشَّاعِرِ ، وَلَكِنَّ تِلْكَ الْمَعْنَايَ الْمَحْسُوسَةَ هِيَ شِعْرُ الشَّاعِرِ ، وَإِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالتَّوَهُّمِ وَالِاسْتِزْسَالِ إِلَى مَا وَرَاءَ الشَّعْرِ مِنْ بَوَاعِيهِ ، وَمَا تَمَوَّجَتْ بِهِ رُوحُ الشَّاعِرِ عِنْدَ عَمَلِهِ ، وَمَا عَرَضَتْ لَهَا بِهِ طَبَائِعُ الْمَعْنَايِ ، وَهَذَا كُلُّهُ لَا يُحِسُّهُ النَّاقِدُ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فِي قُوَّةٍ مَنْ يَنْقُذُهُ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ طَبِيعَةً شِعْرِيَّةً .

وَالنَّقْدُ إِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ لِسَانًا يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَلَامَ مُتَمِّمٍ فِي مَحْكَمَةٍ لِلْقِيَمِ حُجَّةٌ أَوْ يُزِيحُ شُبْهَةً أَوْ يُقَرِّرُ حَقِيقَةً أَوْ يَبْسُطُ مَعْنًى أَوْ يُوجِّهُ عِلَّةً أَوْ يَكْشِفُ خَافِيًا أَوْ يُبَيِّنُ نَقِصَةً أَوْ يُظْهِرُ إِحْسَانًا ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ نَقْضُ السَّيِّئَةِ وَالْحَسَنَةِ ، وَوُقُوعُ أَدَلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ وَالذَّوْقِ مَوَاقِعِهَا ، وَتَكَلُّمُ الْكَلَامِ بِذَاتِ نَفْسِهِ مَا تُنْكِرُ مِنْهُ وَمَا تَسْتَحْجِدُ ، وَالشَّاعِرُ وَالنَّاقِدُ يَلْتَقِيَانِ جَمِيعًا فِي الْقَارِي فَوَجَبَ مِنْ ثُمَّ أَنْ يَكُونَ النَّاقِدُ قُوَّةً تَكْشِفُ قُوَّةَ مِثْلِهَا أَوْ دُونَهَا لِيُصَحِّحَ فَرْقًا مِثْلَهُ أَوْ يُقَرِّره أَوْ يُزِيدَ عَلَيْهِ فَضْلَ بَيَانٍ وَمَرَيَّةَ فِكْرٍ ، وَبِهَذَا يُصْبِحُ الْقَارِي كَالسَّائِحِ الَّذِي مَعَهُ الدَّلِيلُ وَأَمَامَهُ الْمَنْظَرُ ، أَيْ : مَعَهُ التَّارِيخُ النَّاطِقُ وَبَارِزُهُ التَّارِيخُ الصَّامِتُ . وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ وَشِعْرُهُ إِنَّمَا هُمَا النَّفْسُ الْمُتَمَتِّزَةُ وَحَوَادِثُهَا وَإِلْهَامُهَا وَمَعَانِي الْحَيَاةِ فِيهَا ، فَلَيْسَ يَتَجَهَّ أَنْ يَكُونَ النَّاقِدُ تَأَمُّلاً إِلَّا بِنَفْسٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي دَقَّةِ الْحِسِّ وَلُطْفِ النَّظَرِ وَالِاسْتِشْفَافِ وَقُوَّةِ التَّأَثُّرِ بِمَعَانِي الْحَيَاةِ وَسُمْوُ الْإِلْهَامِ وَالْعَبَقَرِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ يَجِيءُ النَّقْدُ الصَّحِيحُ بَيَانًا خَالِصًا

مَنْخُولًا كَأَنَّهُ شَرَحُ نَفْسٍ لِنَفْسٍ مِثْلَهَا .

وَلَيْسَ الْأَنْفُ هُوَ الَّذِي يَنْفُذُ الْوَرْدَةَ الْعَطِرَةَ الْفَيَاحَةَ ، وَإِنَّمَا تَنْفُذُهَا الْحَاسَةُ الَّتِي فِي الْأَنْفِ ، وَنَاقِذُ الشَّعْرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا فَهُوَ أَنْفٌ صَحِيحُ التَّرَكِيبِ ، وَلَكِنْ بِالْجِلْدِ وَالْعَظْمِ دُونَ تِلْكَ الْحَاسَةِ الَّتِي هِيَ رُوحُ الْعَصَبِ الْمُنْبِثُ فِي هَذَا التَّرَكِيبِ وَالْمُتَّصِلِ بِمَا وَرَاءَهُ مِنْ أَغْصَابِ الدِّمَاغِ ، فَهَذَا الْأَنْفُ . . . يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْوَرْدَةَ وَلَكِنْ بِحَسٍّ غَلِيظٍ مَحَقَّتُهُ آلاَفُهُ كَمَا يَتَنَاوَلُ حَجَرًا أَوْ حديدًا أَوْ خَشَبًا أَهْيَا كَانَ ؛ فَالْوَرْدَةُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ يَمْتَّازُ بِاللَّيْنِ وَيَخْتَصُّ بِالْعُذْمَةِ وَيَسْتَطِيعُ بِالرُّوْتِ وَيَزْهُو بِاللُّونِ ، وَيَذْهَبُ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْوَرْدَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ الْوَرْدَةُ .

وَمَتَى كَانَ الْبَحْثُ هُوَ الْبَحْثُ فِي السَّمَاءِ وَأَفْلَاحِهَا وَأَجْرَامِهَا فَلَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا النَّاطِرُ الْمُرَكَّبُ ، أَيِ : الَّذِي مَعَهُ عَيْنُهُ وَتَلَسَّكُوبُهُ وَعِلْمُهُ جَمِيعًا ، إِنْ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقْدِرُ تَقْصِيرُهُ يَكُونُ ضَعْفُهُ ، وَإِنْ تَمَّ فَيَقْدِرُ تَمَامُهُ يَكُونُ وَقَاؤُهُ ، وَلَوْ أَمَكَّنَ أَنْ يَنْفَصِلَ الشَّاعِرُ مِنْ شِعْرِهِ فَيَقْطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ نَسَبِ نَفْسِهِ ، وَيَتَبَعَدَ عَنِ الشَّعْرِ لِبَرَاهُ جَدِيدًا عَلَيْهِ ، وَيُمِيرُّهُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ - لَكَانَ هُوَ النَّاقِذُ ، فَنَاقِذُ الشَّعْرِ هُوَ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ ، وَلَكِنْ فِي وَضْعِ أَنْتُمْ وَأَوْفَى ، وَحَالَةِ آيِينَ وَأَبْصَرَ ، أَيِ : كَأَنَّهُ الشَّاعِرُ نَفْسُهُ مُنْقَمَحًا تَامًا بِغَيْرِ ضَعْفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ .

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَى مِنْ آيَةِ التَّقْدِيدِ الْبَدِيعِ الْمُخَكَّمِ إِذَا قَرَأْتَهُ مَا يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ الشَّعْرَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ عَرْضًا وَيُحْصِلُ لَكَ أَمْرَهُ وَيُبَيِّنُ حَالَتَهُ فِي ذَهْنِ شَاعِرِهِ ، وَكَيْفَ تَوَافَى وَأَتَتَلَفَ ، وَكَيْفَ انْتَرَعَهُ الشَّاعِرُ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ قَدْرِ الْإِلْهَامِ ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْإِنْسَانِ وَمَا أَتَّفَقَ لَهُ مِنْ حَظِّ الطَّبِيعَةِ وَالْأَشْيَاءِ ، وَبِالْجُمْلَةِ يُورِدُ التَّقْدِيدَ عَلَيْكَ مَا تَرَى مَعَهُ كَأَنَّ حَرَكَةَ الدَّمِ وَالْأَغْصَابِ قَدْ عَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الشَّعْرِ .

* * *

أَلَا وَإِنَّ شِعْرَنَا الْعَرَبِيَّ الْجَمِيلَ قَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى مَنْ يُعَلِّمُ الْقَارِئَ كَيْفَ يَذُوقُهُ وَيَبَيِّنُهُ وَيَخْلُصُ إِلَى سِرِّ التَّأْثِيرِ فِيهِ ، وَيُخْرِجُهُ مَخْرَجًا سَرِيًّا فِي أَنْعَامِهِ

وَالْحَانَهُ ، وَيَأْتِي بِهِ مِنْ نَفْسٍ شَاعِرِهِ وَمِنْ نَفْسِهِ جَمِيعًا ، فَقُوَّةُ التَّمْيِيزِ فِي هَذَا كُلِّهِ عَلَى تَسْنِيدٍ وَصَوَابٍ هِيَ الَّتِي يُعْطِيهَا التَّقَدُّ لِقُرَائِهِ ، وَالشَّعْرُ فِكْرٌ وَقِرَاءَتُهُ فِكْرٌ آخَرٌ ، فَإِنْ قَصَرَ هَذَا عَنْ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ لِيَصِلَ بِهِ وَيَتَغَلَّظَ فِيهِ ، فَلَا بُدَّ لِلْفِكَرَيْنِ مِنْ صِلَةٍ فِكْرِيَّةٍ هِيَ كِتَابَةُ التَّقَدُّ الَّذِي هُوَ مِنْ نَاحِيَةِ كَمَالٍ لِلطَّبِيعَةِ النَّاقِصَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى شَرْحٌ لِلطَّبِيعَةِ الْكَامِلَةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ ثَلَاثَةٍ هُوَ بِذَوِّهِ وَفَتْهُ قَانُونُ الْإِنْتِظَامِ الَّذِي يُبَيِّنُ بِهِ مَا اسْتَقَامَ فِي الْكَلَامِ وَمَا اعْوَجَّ .

وَطَرِيقَتُنَا نَحْنُ فِي تَقْدِ الشَّعْرِ تَقْوَمُ عَلَى رُكْنَيْنِ : الْبَحْثُ فِي مَوْهَبَةِ الشَّاعِرِ ، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ نَفْسَهُ وَإِلَهَامَهُ وَحَوَادِثَهُ ؛ وَالْبَحْثُ فِي فَتَى الْبَيَانِي ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ أَلْفَاظَهُ وَسَبْكَهُ وَطَرِيقَتَهُ ؛ وَسَنَقُولُ فِيهِمَا مَعًا .

فَأَمَّا الْكَلَامُ فِي فَنِّ الشَّعْرِ ، فَالْمُرَادُ بِالشَّعْرِ - أَيْ : نَظْمِ الْكَلَامِ - هُوَ فِي رَأْيِنَا التَّأْيِيرُ فِي النَّفْسِ لَا غَيْرُ ، وَالْفَنُّ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ هَذَا التَّأْيِيرُ ، وَالْإِخْتِيَالُ عَلَى رَجَاةِ النَّفْسِ لَهُ ، وَأَهْتِزَّازُهَا بِالْأَلْفَاظِ الشَّعْرِ وَوَزْنِهِ ، وَإِدَارَةُ مَعَانِيهِ ، وَطَرِيقَةُ تَأْدِيَتِهَا إِلَى النَّفْسِ ، وَتَأْلِيفِ مَادَّةِ الشَّعْرِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ تَأْلِيفًا مُتَلَايِمًا مُسْتَوِيًا فِي نَسْجِهِ لَا يَقَعُ فِيهِ تَفَاوُتٌ وَلَا إِخْتِلَالٌ ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ تَعَسُّفٌ وَلَا اسْتِكْرَاهٌ ؛ فَيَأْتِي الشَّعْرُ مِنْ دِقَّتِهِ وَتَرْكِيبِهِ الْحَيِّ وَنَسَقِهِ الطَّبِيعِيِّ كَأَنَّمَا يُقَرَّعُ بِهِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ لِيَفْتَحَ لِمَعَانِيهِ إِلَى الرُّوحِ ؛ وَالشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ إِذَا تَمَّتْ لَهُ فِي صِنَاعَتِهِ وَسَائِلِ التَّأْيِيرِ وَأَحْكَمِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ ، كَانَ أَسْمَى شِعْرِ إِنْسَانِيٍّ ، فَتَرَاهُ يَطْرُدُ بِالْأَلْفَاظِ الْجَمِيلَةِ السَّائِعَةِ وَكَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ فِيهَا مَعَانِيٍّ ، بَلْ يَحْمِلُ حَرَكَاتٍ عَصَبِيَّةً لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنْسَابَ فِي الدَّمِ حَائِلٌ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا أَنْ يَغْمُرَكَ بِالطَّرَبِ وَيَهْزِكَ مِنْ أَعْمَاقِ النَّفْسِ وَيُورِدَ عَلَيْكَ مِنْ نَفْحَةِ الرُّوحِ مَا إِنْ تَذَبَّرْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَأَفْصَحْتَ عَنْهُ شُعُورَكَ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ وَجْهًا مِنْ نِسْيَانِ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْإِنْتِقَالِ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى مِنَ الشُّرُورِ وَالْإِهْتِيَاجِ وَالْأَلَمِ وَالشُّجُوِّ يَحْيَاهَا الدَّمُ التَّائِرُ وَخَدَهُ غَيْرَ مُشَارِكٍ فِيهَا إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ .

وَالَّذِينَ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي مِزَاجِهِ الْخَاصِّ - فَلَا يَتَبَيَّرُونَهُ حَتَّى ذَا طِبَاعٍ وَخَصَائِصَ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا وَالتَّوَلُّوْا عَلَى حُكْمِهَا وَتَلَقَّيْهَا بِمَا يُؤَافِقُهَا ، كَمَا لَا بُدَّ مِنْ أَشْبَاهِ ذَلِكَ لِأَمْرَةِ جَمِيلَةٍ - تَرَاهُمْ يُخْلَوْنَ بِقَوَانِينِ صِنَاعَتِهِ الْبَيَانِيَّةِ ، وَيُنْزِلُونَ أَلْفَاظَهُ دُونَ

مَنَازِلَهَا ، وَيُزِيلُونَ مَعَانِيَهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهَا الشُّعْرِيَّةِ ، وَيَسْتَلُونَهُ بِفُضُولِ كَثِيرَةٍ هِيَ كَالْأَفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ ، فَيَأْتُونَ بِنَظْمٍ تَقْرَؤُهُ إِذَا قَرَأْتَهُ وَأَنْتَ تَتَلَوَّى كَأَنَّمَا يُفْرَعُ عَلَى قَلْبِكَ بِقَبْضَةٍ يَدٍ أَوْ يَدُقُّ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ . . . وَقَدْ فَشَا هَذَا النَّوعُ مِنَ الشُّعْرِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَأَصْبَحَ مَظْهَرًا لِمَا فَسَدَ مِنْ ذَوْقِ الْأَدِيبِ وَمَا آلَتْ مِنَ أَمْرِ اللُّغَةِ وَمَا أَغْوَجَ مِنْ طُرُقِ الْفَلَسَفَةِ وَمَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلَوَى مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَوْزُبِيِّ ، وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْقَصِيدَةَ مِنْ هَذَا الشُّعْرِ كَأَمْرًا سُلِخَ وَجْهُهَا وَوُضِعَتْ لَهَا جِلْدَةٌ وَجْهٌ مَيِّتٌ . . . وَالنَّائِظُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَصْرِفُ الشُّعْرَ عَلَى حُدُودِهِ النَّفْسِيَّةِ وَلَا يُحْكِمُهُ فِيهَا ، بَلْ تُصَرِّفُهُ الْأَلْفَاظُ كَيْفَ اتَّفَقَتْ لَهُ عَلَى وَجْهِهَا الْمُتَلَوِّيَّةِ ، وَتَسُوسُهُ الْمَعَانِي سِيَاسَةً عَمِيَاءَ فَقَدَتْ بَاصِرَتَيْهَا مَعًا ، وَيَحْسَبُونَ كَلَامَهُمْ مِنَ الثُّورِ الْعَقْلِيِّ وَلَكِنَّهُ الثُّورُ فِي قِطْعِهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مِثْلِ فِي الثَّانِيَةِ ، فَلَا يَكَادُ يُقَالُ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ وَيُنْسَى وَيَلْحَقَ بِاللَّا نِهَآيَةِ . . .

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الصَّنَاعَةِ الْفَاسِدَةِ هُوَ بَعِيْنُهُ ذَلِكَ النَّوعُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي أَفْسَدَ الشُّعْرَ مِنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَدِيمَ كَانَ فَسَادًا فِي الْأَلْفَاظِ يَجْعَلُهَا كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ الصَّنَعَةِ ، وَالْحَدِيثُ جَاءَ فَسَادًا فِي الْمَعَانِي يَجْعَلُهَا كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا مُحَالًا مِنَ الْبَيَانِ .

وَزَعُمُ أَصْحَابُ هَذَا الشُّعْرِ أَنَّهُمْ فَلَاسِفَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَلِكَ فِي سَرِقَةِ الْفَلَاسِفَةِ لَا غَيْرَ . . . وَلَوْ عَلِمُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الْأَفَاظَ الشُّعْرِيَّةَ هِيَ الْأَفَاظُ مِنَ الْكَلَامِ يَضَعُ الشُّعْرُ فِيهَا الْكَلَامَ وَالْمُوسِيقَى مَعًا فَتَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنْ طَبِيعَةِ اللُّغَةِ الْعَامَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِالِدَّلَالَةِ وَخَدَهَا إِلَى طَبِيعَةِ لُغَةٍ خَاصَّةٍ أَزْفَى مِنْهَا تُؤَدِّي الْمَعْنَى بِالِدَّلَالَةِ وَالنَّعْمَ وَالذَّوْقَ ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ فِي الشُّعْرِ تُجْتَلَبُ لِمَعْنَاهَا مِنْ تَرْكِيبِهِ ، ثُمَّ لِمَوْضِعِهَا مِنْ نَسَقِهِ ، ثُمَّ لِمَجْرَسِهَا فِي الْحَانِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لِلْكَلِمَةِ لَوْنَهَا الْمَعْنَوِيَّ فِي جُمْلَةِ التَّصْوِيرِ بِالشُّعْرِ ؛ وَمَا يَمُرُّ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ بِلَفْظَةٍ مِنَ اللُّغَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّمَا تُكَلِّمُهُ تَقُولُ : دَعْنِي أَوْ خُذْنِي .

وَكَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْأَزْهَارِ مِنْ جَوْ الْأَشْجَةِ ، كَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلْمَعَانِي الشُّعْرِيَّةِ مِنْ جَوْ اللُّغَةِ الْبَيَانِيَّةِ ، فَالْبَيَانُ إِنَّمَا هُوَ أَشْجَةُ مَعَانِي الْقَصِيدَةِ ، وَقَدْ يَحْسَبُونَ أَنَّ الصَّنَاعَةَ الْبَيَانِيَّةَ صِنَاعَةٌ مُتَكَلِّفَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا فِي جَمَالِ الشُّعْرِ وَدَقَّةِ التَّغْيِيرِ ، وَمَا تُنْكِرُ أَنَّ مِنَ الْبَيَانِ الْجَمِيلِ أَشْيَاءَ مُتَكَلِّفَةً ، وَلَكِنَّهَا تَنْزِلُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ مِثْرَةً كَمِثْرَةِ الظَّرْفِ وَالذَّلِّ وَالْخَلَاعَةِ فِي

الْحَيِّبَةِ الْجَمِيلَةِ .

إِنَّ هَذِهِ الْمُتُونُ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ الْخَلْقَةِ وَالتَّرَكِيبِ فِي الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّهَا مَتَى ظَهَرَتْ فِي الْجَمَالِ الْفَاتِنِ أَصْبَحَ يَدُونَهَا - وَهُوَ جَمِيلٌ دَائِمًا - كَأَنَّهُ غَيْرُ جَمِيلٍ أَحْيَانًا .

هُنَا صِنَاعَةٌ هِيَ رُوحُ الْحُسْنِ فِي الْحَيَاةِ ، وَصِنَاعَةٌ مِثْلُهَا هِيَ رُوحُ الْحُسْنِ أَحْيَانًا فِي الْبَلَاغَةِ^(١) ، وَمَا التَّرَاكِبُ الْبَيَانِيَّةُ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الشَّعْرِ الْحَيِّ إِلَّا كَالْمَلَامِحِ وَالتَّقَاسِيمِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الْجَمَالِ الْحَيِّ ، وَكَثِيرًا مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ حِينَ أَنَا مُلْهُ بِلَاغَةِ اللَّفْظِ الرَّشِيقِ إِلَى جَانِبِ لَفْظِ جَمِيلٍ فِي شِعْرِ مُحْكَمِ السَّبْكِ ، أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ كَحُبِّ رَجُلٍ مُتَأَنِّي يَتَقَرَّبُ مِنْ حُبِّ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَعَظْفٍ أُمُومَةٍ عَلَى طُفُولَةٍ ؛ وَحَنِينٍ عَاطِفَةٍ لِعَاطِفَةٍ ، إِلَى أَشْبَاهِ وَنَظَائِرٍ مِنْ هَذَا التَّسْقِ الرَّقِيقِ الْحَسَّاسِ ؛ فَإِذَا قَرَأْتُ فِي شِعْرِ أَصْحَابِنَا أَوْلَيْكَ رَأَيْتُ مِنْ لَفْظِ كَالشُّرْطِيِّ أَخَذَ بِتَلَابِيهِ لَفْظِ كَالْمُجْرِمِ ... إِلَى كَلِمَتَيْنِ هُمَا مَعًا كَالضَّارِبِ وَالْمَضْرُوبِ ... إِلَى هَمَجٍ وَرَعَاعٍ وَهَرْجٍ وَمَرْجٍ وَهِنَجٍ وَفَنَنَةٍ ؛ أَمَّا الْقَافِيَةُ فَكَثِيرًا مَا تَكُونُ فِي شِعْرِهِمْ لَفْظًا مُلَاكِمًا ... لَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا رَأْسُ الْقَارِي .

وَكَمَا يُهْمَلُونَ اخْتِيَارَ اللَّفْظِ وَالْقَافِيَةِ يَتَسَهَّلُونَ فِي اخْتِيَارِ الْوَزْنِ الْمُلَائِمِ لِمُوسِيقِيَّةِ الْمَوْضُوعِ ، فَإِنَّ مِنَ الْأُوزَانِ مَا يَسْتَمِرُّ فِي غَرَضٍ مِنَ الْمَعَانِي وَلَا يَسْتَمِرُّ فِي غَيْرِهِ ؛ كَمَا أَنَّ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَطْرُدُ فِي مَوْضُوعٍ وَلَا يَطْرُدُ فِي سِوَاهِ ، وَإِنَّمَا الْوَزْنُ مِنَ الْكَلَامِ كَزِيَادَةِ اللَّحْنِ عَلَى الصَّوْتِ : يُزَادُ مِنْهُ إِضَافَةٌ صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ النَّفْسِ إِلَى صِنَاعَةٍ مِنْ طَرَبِ الْفِكْرِ ، فَالَّذِينَ يُهْمَلُونَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُونَ شَيْئًا مِنْ فِلْسَفَةِ الشَّعْرِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُفْسِدُونَ أَقْوَى الْطَبِيعَتَيْنِ فِي صِنَاعَتِهِ ؛ إِذِ الْمَعْنَى قَدْ بَاتِي نَثْرًا فَلَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ عَنِ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْنَى ، بَلْ رُبَّمَا زَادَهُ النَّثْرُ إِحْكَامًا وَتَفْصِيلًا وَقُوَّةً بِمَا يَهَيِّئُ فِيهِ مِنَ الْبَسْطِ وَالشَّرْحِ وَالتَّسْلُسِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الشَّعْرِ يَأْتِي غِنَاءٌ ، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ النَّثْرُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ .

فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الشَّاعِرُ أَنْ يَأْتِيَ فِي نَظْمِهِ بِالرَّوِيِّ الْمُتَوَقِّعِ وَالشَّجِّ الْمُنْتَلِمِ وَالْحَبْكِ

(١) لَنَا كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي فِلْسَفَةِ الْأَسْلُوبِ الْبَيَانِيِّ سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي كِتَابِنَا الْجَدِيدِ « أَشْرَارُ الْإِعْجَازِ » .
{ قُلْتُ : وَاقْرَأْ حَدِيثَنَا عَنْ « أَشْرَارِ الْإِعْجَازِ » فِي كِتَابِ « حَيَاةِ الرَّافِعِيِّ » } .

الْمُسْتَوِي وَالْمَعَانِي الْجَيِّدَةِ الَّتِي تَخْلُصُ إِلَى النَّفْسِ خُلُوصَ طَبِيعَةٍ إِلَى طَبِيعَةٍ تُمَارِجُهَا وَرَأَيْتُهُ يَأْتِي بِالشَّعْرِ الْجَافِي الْغَلِيظِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُسْتَوْخَمَةِ الرَّدِئَةِ وَالْقَافِيَةِ الْقَلْفَةِ النَّافِرَةِ وَالْمَجَازَاتِ الْمُتَفَاوِتَةِ الْمُضْطَرِبَةِ وَالْاِسْتِعَارَاتِ الْبَعِيدَةِ الْمَمْسُوخَةِ - فَأَعْلَمَ أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّعْرِ وَأَبْتَلَاهُ مَعَ ذَلِكَ بِزِنَعِ الطَّبِيعَةِ وَسَرَفِ التَّقْلِيدِ ، فَمَا يَجِيءُ الشَّعْرُ عَلَى لِسَانِهِ فِي يَبْتِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ اللَّغْوُ عَلَى لِسَانِهِ فِي مَتْنٍ يَبْتِ أَكْثَرَ أَوْ أَقْلَ .

ذَلِكَ قَوْلُنَا فِي فَنِّ الشَّاعِرِ ؛ أَمَّا الْكَلَامُ فِي مَوْهَبَةِ الَّتِي بِهَا صَارَ شَاعِرًا وَعَلَى مِقْدَارِهَا يَكُونُ مِقْدَارُهُ وَاتِّصَالَ أَسْبَابِهِ أَوْ انْقِطَاعُهَا مِنَ الشَّعْرِ ، فَذَلِكَ بَابٌ لَا يُمْكِنُ بَسْطُ الْمَعْنَى فِيهِ وَلَا تَخْصِيلُ دَقَائِقِهِ إِلَّا إِذَا صُوِّرَتْ رُوحُ الشَّاعِرِ فِي تَرْكِيبِهَا الدَّقِيقِ الْمُعْجِزِ وَوُزِنَتْ فِي مِيزَانِهَا الْإِلَهِيِّ وَعُرِفَ نَقْصُهَا إِنْ نَقَصَتْ وَتَمَامُهَا إِنْ تَمَّتْ ، وَامْكَنُ تَتَبُّعُ مَوَاقِعِهَا مِنْ أَسْرَارِ الْأَشْيَاءِ وَمَسَاقِطِهَا مِنْ مَنَازِلِ الْإِلَهَامِ ؛ وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ النَّفْسِيِّ ، فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ الْقَوِيَّةَ يَلْمَحُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَقَدْ تَكُونُ لَمَحَةُ الرُّوحِ الشَّاعِرَةِ لِرُوحِ مِثْلِهَا هِيَ تَدْبُرُهَا وَوَزَنَهَا وَإِدْرَاكَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَمَا تَرَى مِنْ وَضْعِ الثُّورِ بِإِزَاءِ الثُّورِ ، فَإِنَّ هَذَا الْوَضْعَ هُوَ نَفْسُهُ وَزَنُ لِكِلَيْهِمَا فِي مِيزَانِ الْبَصَرِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مُوَازَنَةٍ إِلَّا فِي التَّالُّقِ وَالشُّعَاعِ ، فَهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نُورَانِ يُضِيئَانِ ، وَلَكِنَّهُمَا أَيْضًا كَلِمَتَانِ يَبِينَانِ عَمَّا فِيهِمَا مِنَ الْأَكْثَرِ وَالْأَقْلَ .

لِهَذَا قُلْنَا : إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يَسْعُ لِنَقْدِهِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحٌ شِعْرِيَّةٌ تُكَافِئُهُ فِي وَزْنِهَا أَوْ تُزِيهِ عَلَى مِقْدَارِهِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ قُوَى رُوحِيَّةً لِإِدْرَاكِ الْجَمَالِ وَخَلْقِهِ فِي الْأَشْيَاءِ خَلْقًا هُوَ رُوحُ الشَّعْرِ وَرُوحُ فَنِّهِ ، وَقُوَى أُخْرَى لِصِلَةِ الْعَوَاطِفِ بِالْفِكْرِ صِلَةً هِيَ سِرُّ الشَّعْرِ وَسِرُّ فَنِّهِ ، وَقُوَى غَيْرَ هَذِهِ وَتِلْكَ لِتَحْوِيلِ مَا يُخَالِجُ النَّفْسَ الشَّاعِرَةَ تَحْوِيلَ الْمُبَالِغَةِ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشَّعْرِ وَقُوَّةُ فَنِّهِ ، وَبِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْقُوَى كُلِّهَا تَمْتَازُ رُوحُ الشَّاعِرِ مِنْ غَيْرِ الشَّاعِرِ ؛ أَمَّا مَا تَمْتَازُ بِهِ هَذِهِ الرُّوحُ مِنْ رُوحِ شَاعِرَةٍ مِثْلِهَا فَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ تَفَاوُتِ الْمَقَادِيرِ الَّتِي يَهْبُهَا اللَّهُ وَحْدَهُ ، فَيُخْصُ شَاعِرًا بِالزِّيَادَةِ وَآخَرَ بِالنَّقْصِ ، وَيَهْبُ أَسْبَابُهَا الَّتِي تَكُونُ عَنْهَا فَيُوسَعُ لِوَاحِدٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْآخَرِ ؛ وَإِذَا تَمَّتْ تِلْكَ الْقُوَى وَاسْتَحْكَمَتْ نَهْيًا مِنْهَا لِلشَّاعِرِ

جِهَازُ عَصَبِيٍّ خَالِصٌ هُوَ جِهَازُ التَّوَلُّيدِ لَا يَمُرُّ بِهِ مَعْنَى إِلَّا تَجَسَّدَ فِيهِ بِصُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ .
وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَقَالِنَا « سِرُّ التَّبَوُّغِ فِي الْأَدَبِ » وَهُوَ لَا غَيْرَهُ سِرُّ
الْعَبَقَرِيَّةِ .

فَأَمَثَلُ الطَّرِيقِ فِي نَقْدِ مَوْهَبَةِ الشَّاعِرِ إِذْ رَاحَتْهَا بِالرُّوحِ الشَّعْرِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ
إِحْسَاسِهَا ، وَالتَّقَادُّ إِلَى بَصِيرَتِهَا ، وَاكْتِنَاهُ مَقَادِيرِ الْإِلْهَامِ فِيهَا ، وَتَأَمُّلُ آثارِهَا فِي الْجَمَالِ ،
وَتَدَبُّرُ طَبِيعَتِهَا الْمُسَبِّغَةِ فِي الْحِسِّ وَالْفَهْمِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَتَبَيُّنُ قُدْرَتِهَا عَلَى الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ
بِأَشْجَى وَأَرْقَ مَا تَهْتَاجُ فِي النَّفْسِ الْحَسَّاسَةِ ، وَمَعْرِفَةُ قُوَّةِ التَّخَوُّلِ فِي عَوَاطِفِهَا لِلْمَعَانِي
الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ تَخَوُّلًا يَجْعَلُ الْقُوَّةَ أَقْوَى مِمَّا تَبْلُغُ ، وَالْحَقِيقَةَ أَكْبَرَ مِمَّا تَظْهَرُ ، وَتَأْتِي
بِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَهُ شَيْءٌ ؛ وَلَيْسَ يَنْتَهِي التَّقَادُّ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْبَحْثِ فِي الْأَغْرَاضِ ، أَيْ :
« الْمَوَاضِعِ » الَّتِي نَظَمَ فِيهَا الشَّاعِرُ وَمَا يَصِلُهُ بِهَا مِنْ أُمُورٍ عَيْشِهِ وَأَحْوَالِ زَمَانِهِ وَكَيْفَ
تَنَاولَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ وَمِنْ نَاحِيَةٍ وَمَاذَا أَبْدَعَ ، ثُمَّ فِي أَيْ الْمَنَازِلِ يَقَعُ شِعْرُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ فِي
تَارِيخِ لَعْنَتِهِ وَآدَابِهَا ، ثُمَّ نَظَرَتْهُ الْفَلَسَفَةُ إِلَى الْحَيَاةِ وَمَسَائِلِهَا ، وَاتَّسَاعُهُ لِأَفْرَاحِهَا وَآلَمِهَا ،
وَقُوَّةُ أَمْوَاجِ الرُّوحِيَّةِ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّجَافِ الْمُتَضَرِّبِ الَّذِي يَبْلُغُ فِي نَفُوسِ
بَعْضِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يَكُونَ كَالْأَقْيَانُوسِ وَفِي بَعْضِهَا أَنْ يَكُونَ كَالْمُسْتَنْفَعِ . . . ثُمَّ دَقَّةُ فَهْمِهِ عَنْ
وَحْيِ الطَّبِيعَةِ ، وَالْإِشْرَافُ عَلَى جَلِيلَةِ مَعْنَاهَا بِالْهَمْسَةِ وَاللَّمْسَةِ ، وَتَسْقُطُ إِلْهَامِ الْغَيْبِ مِنْهَا
بِالْإِيْمَاءَةِ وَاللَّحْظَةِ ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَسْتَوَسِقُ لِلتَّقَادُّ الْعَظِيمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ رُوحِهِ الشَّعْرِيَّةِ
الَّتِي اخْتَصَرَ بِهَا ، مُحِيطًا بِآثَارِ الشُّعْرَاءِ فِي لَعْنَتِهِ ، بِصِيرًا بِمَا حَلَّهَا ، مُحْكِمًا لِأَسْبَابِ
الْمُؤَاوَنَةِ بَيْنَهَا ، مُتَصَرِّفًا مَعَ ذَلِكَ بِأَدَاةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ اللَّغَةِ وَالْبَيَانِ وَقُنُونِ الْأَدَبِ .

وَإِذَا كَانَ مِنْ نَقْدِ الشَّعْرِ عِلْمٌ ، فَهُوَ عِلْمٌ تَشْرِيحِ الْأَفْكَارِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ فَنٌّ فَهُوَ فَنٌّ
دَرْسِ الْعَاطِفَةِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ إِظْهَارِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ فِي اللَّغَةِ . . .

فَيْلَسُوفٌ وَفَلَّاسِفَةٌ . . . (*)

أَتَأْمَلُ الْآنَ هَذَا الْقَلَمَ فِي يَدِي - وَأَنَا أَفَكِّرُ فِيمَا سَأَكْتُبُهُ لِلزُّهْرَاءِ - فَأَرَى نَصَابَ الْقَلَمِ أَضْلَاعًا حُمْرًا فِي لَوْنِ الْمَرْجَانِ ، تَنْسِرِحُ فُلَيْلًا ، ثُمَّ تَسْتَدِيرُ ، ثُمَّ تَسْتَدِقُّ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا قَادِمَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا قَصَبَةٌ رِيَشِيَّةٌ مِنْ جَنَاحٍ ، وَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ الْمَرْهُو يُقُولُ لِلْأَسْوَدِ : إِنَّمَا أَنْتَ غَلَطْتَ الَّذِي صَنَعَنِي ، فَكَيْفَ أُلْهِمَ فِي هَذَا الْإِلَهَامِ ؟ فَوَسَمَنِي بِهِذَا الْمَيْسَمِ مِنْ حُسْنٍ وَلَوْنٍ وَتَرْكِيبٍ ، ثُمَّ اغْتَرَضْتُهُ الْغَفْلَةُ فَبَكَتُ فَأَخْطَأُ ، وَأَذْرَكَ الْعَجْزُ فَلَمْ يُمَيِّرْ ، وَدَخَلَ عَلَى رَأْيِهِ الْوَهْمُ فَإِذَا هُوَ يَصِلُكَ بَنِي كَالسَّيِّئَةِ بَعْدَ الْحَسَنَةِ ، وَيُثْرِلُكَ مِثْلُ مَثَرَةِ الْقُبْحِ مِنَ الْجَمَالِ ! فَأَيْنَ كَانَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ الَّتِي بَلَغَ بِهَا فِي أَحْسَنِ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ حِينَ بَلَغَ فَبِكَ أَسْوَأَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَضَعُ ؟ فَيَقُولُ الْأَسْوَدُ : إِنَّمَا فَبِكَ أَنْتَ غَلَطْتَ الصَّانِعِ وَبِكَ أَخْطَأَ جِهَةَ الْفَرَسِ ، فَلَمْ يَزِنْ مِنْكَ مَا كَانَ وَزَنَ مِثِّي ، وَلَا قَدَّرَ لَكَ مِثْلَ مَا قَدَّرَ لِي ، وَجِئْتَ غَلِيظًا غَيْرَ مُقَدُّودٍ ، وَكُنْتَ إِلَى الْغَرَضِ وَلَمْ تَكُنْ إِلَى الطُّوْلِ ، وَكُنْتَ أَحْمَرًا وَلَمْ تَكُنْ أَسْوَدًا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا فَاسِدَ الْحِمْسِ ، مُتَغَيِّرَ الذَّوْقِ ، وَمَا أَرَاكَ صَنَعَكَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَّا فِي سَاعَةِ هَمٍّ قَارَبَتْ بَيْنَ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ ، فَمَارَجَتْ بَيْنَ رَأْيِهِ وَعَمَلِهِ ، فَجَمَعَتْ بَيْنَ عَمَلِهِ وَغَلَطِهِ .

ذَلِكَ مَنْطِقُ اللَّوْنَيْنِ فِيمَا أَذْرَكَتُ مِنْهُمَا ، وَكِلَاهُمَا مُخْطِئٌ فِي جِهَةٍ مَا هُوَ مُسْتَدِلٌّ بِهِ أَوْ مُتَنْظَرٌ فِيهِ ، وَالْحَقِيقَةُ مِنْ وَرَائِهِمَا ، إِذِ الْحِكْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَحَدِهِمَا لِحُمْرَةِ أَوْ سَوَادِ ، بَلْ هِيَ فِي أُنْتِيهِمَا جَمِيعًا لِاتِّلَافِهِمَا جَمِيعًا ، فَلَا تَنْقَسِمُ عَلَيْهِمَا قِسْمَةً مَا ، لِأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْهُمَا بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ أُنْتِيهِمَا ، وَمَا لَا يَخْرُجُ أَبَدًا إِلَّا مِنْ أُنْتَيْنِ فَهُوَ أَبَدًا وَاحِدٌ لَا يَنْصَفُ لَهُ ؛ كَالطُّفْلِ مِنْ أَبَوَيْهِ : لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّكَ لَنْ تَعْرِفَ شَطْرَهُ مِنْ أَبِيهِ .

أَفِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْسِمَ طِفْلًا وَاحِدًا فَيَجْعَلُهُ طِفْلَيْنِ تَعْتَدِلُ بِهِمَا الْحَيَاةُ وَتَمُدُّهُمَا بِرُوحَيْنِ مِنْ رُوحٍ وَاحِدَةٍ ؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هَذَا الْخَالِقَ الْأَرْضِيَّ . . . إِلَّا فِي طَائِفَتَيْنِ : الْأُولَى قَوْمٌ مِنْ ذَاهِبِي الْعُقُولِ يَخْلُقُونَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ، وَالثَّانِيَةُ

قَوْمٌ مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ . . . عِنْدَنَا تَعْرِفُ لَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ وَسُخْفِ الرَّأْيِ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ ، إِذْ كَانَ النَّاسُ لَا يُجَاوِزُونَ الْحَقَائِقَ ، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ إِنْ جَاوَزُواهَا وَعَدُوا عَلَيْهَا خَرَجُوا إِلَى طَبَقَةٍ فَوْقَ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ . وَلِلْجُنُونِ طَرَفَانِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَلَّا يَعْقِلَ الْمَجْنُونُ عَنِ النَّاسِ ، وَالْآخَرُ : أَلَّا يَعْقِلَ النَّاسُ عَنِ الْعَاقِلِ ، فَذَلِكَ ذَلِكَ وَهَذَا هَذَا ، وَكَانَ فِي رَأْسِ كُلِّ مِنْهُمَا مُضْمَرَةٌ مِنْ قُوَّةِ الْخَلْقِ تَنْطَوِي عَلَى مَحْجُوزَةِ إِلَهِيَّةٍ ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا فَوْقَ الطَّبِيعَةِ لِأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْأَسْرَارِ الْمَجْهُولَةِ الَّتِي لَا تَسْتَبِينُ عِنْدَنَا مِنْ حَقَائِقِهَا ، ثُمَّ لَا تَخْفَى عِنْدَهُمْ مِنْ أَسْتَبَانَتِهَا .

يُضْحِكُنِي مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الدِّينَ مَرَّةً عَادَةً ، وَتَارَةً أُخْرَى ، وَحِينَ خُرَافَةٍ ، وَطَوْرًا أَسْتِعْبَادًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَهُمْ رَأْيٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ بِالْحُجَّةِ وَيَسْتَدُونَهُ بِالذَّلِيلِ ، فَلَمَّا جَاءَ طَاغُورُ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمَتَصَوِّفِ إِلَى مِصْرَ ، وَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَسَمِعُوهُ ، خَرَجُوا يَتَكَلَّمُونَ كَأَنَّمَا كَانُوا فِي مَعْبِدٍ ، وَكَأَنَّمَا تَزَلَّتْ عَلَيْهِمْ حَقِيقَتُهُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَكَأَنَّمَا اتَّصَعَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ الرَّجُلُ ، فَلَا يَعْرِفُونَهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، بَلْ كَانُوا فِي غَشِيَةٍ قَدْ فَرَّوْا لَهَا وَسَكَنُوا إِلَيْهَا ، وَمَا أَرَاهُمْ صُرُفُوا عَنْ عُقُولِهِمْ وَلَا صُرِفَتْ عُقُولُهُمْ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّ طَاغُورَ شَاعِرٍ فِيلَسُوفٍ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ لُصُوصِ كُتُبِهِ وَآرَائِهِ ، وَيَقَعُونَ مِنْهُ مَوْعِ السَّفْسَاطَةِ الْفَارِغَةِ مِنَ الْبُرْهَانِ الْقَائِمِ ، وَإِذَا قِينِسُوا إِلَيْهِ كَانُوا كَالذَّبَابِ تَزْعُمُ أَنْفُسَهَا نُسُورَ الْمَزَابِلِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تُكَابِرُ فِي أَنَّ مِنْ الْهَرُورِ بِهَا قِيَّاسُهَا بِنُسُورِ الْجَوِّ .

لَقَدْ ضَرَبَهُمْ طَاغُورٌ ، لَا بِأَنَّهُ لَمَسَهُمْ ، بَلْ بِأَنَّهُمْ لَمَسُوهُ . . . وَفَضَحَهُمْ فَضِيحَةَ اللَّوْلُؤَةِ لِلزَّجَاجِ الْمُدْعَى أَنَّهُ لَوْلُؤٌ ، وَأَظْهَرَ لَنَا تَجَمُّلَهُمُ الْعَقْلِيَّ كَهَذِهِ الْأَصْبَاغِ فِي وَجْهِ الشُّوْهَاءِ : تَذَهَبُ تَتَصَنَّعُ وَلَا تَدْرِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أَذْهَانِهَا وَأَصْبَاغِهَا رُوحُ التَّقَاسِ ، فَفِي وَجْهِهَا هِيَ مَعْنَى الْحَاطِطِ .

لَقَدْ قَرَأْتُ كُلَّ مَا كَتَبُوا عَنْ طَاغُورِ التَّمِيسُ فِيهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ لِأَرَى كَيْفَ يَكُونُ جَبَابِرَةُ الْعُقُولِ حِينَ تَتَكَشَّفُ عَنْهُمْ الْمَعَاذِيرُ وَتَتَرَاخُ الْعِلَلُ وَتُنْتَهَكُ الْأَسْتَارُ ، فَإِذَا هُمْ فِي كُلِّ

مَا كَتَبُوهُ لَا يُحْسُونَ إِلَّا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، وَلَا يَصِفُونَ إِلَّا هَذَا الْحِسَّ ، فَلَمْ يُخْرِجْهُمْ عِنْدَنَا إِلَّا هَذَا الْوَصْفُ ، لَا جَرَمَ فَكُلُّ مَا أَتَيْنَا بِهِ عَلَى الشَّاعِرِ الْفَيْلَسُوفِ قَرَأْنَاهُ ذَمًّا لَهُمْ ، وَعَرَفْتَاهُ قَدْحًا فِيهِمْ ، وَأَخَذْنَاهُ نَهْمَةً عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَا أَعْظَمُوا مِنْ أَمْرِهِ صَغَرَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَقَدْ جَعَلُوهُ إِنْسَانًا كَأَنَّمَا تَنْتَهِي قِمَّةُ هَذِهِ الدُّنْيَا عِنْدَ قَدَمِهِ ، وَتَبْدَأُ قَدَمُهُ مِنْ قِمَّةِ الدُّنْيَا ، فَمَا عَرَفْنَا مِنْ ذَلِكَ قِيَاسًا لِسُمُو طَاغُورَ وَارْتِفَاعِ نَفْسِهِ ، بَلْ قِيَاسًا لِانْحِطَاطِ أَنْفُسِهِمْ وَهَوَانِ أَمْرِهِمْ وَقِلَّةِ خَطَرِهِمْ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُقْلَدَ الْمَخْدُوعَ لَا يَزَالُ يَطُولُ فِي تَقْلِيدِهِ وَلَا يَزَالُ يَتَوَعَّرُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يَرَاهُ وَيَعْتَسِفُ طُرُقَ الْعِلْمِ اعْتِسَافًا ، حَتَّى يَزِمِيهِ اللَّهُ بِأَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُقْلَدُهَا ، فَإِذَا هُوَ مُفْحَمٌ يَقَاصِرُ مِنْ طُولِ ، وَيَسْهَلُ مِنْ وَغْرِ ، وَيَهْتَدِي مِنْ تَعَسُفٍ ، وَيَنْحَطُّ إِلَى الْوَهْدَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى الْجَبَلِ ، وَيُسَلِّمُ فِي نَفْسِهِ ، وَيُذْعِنُ بِرَأْيِهِ ، وَيَتَقَادُّ مِنْ حَيْثُ يَأْتِي وَمِنْ حَيْثُ لَا يَأْتِي ، وَيُصْبِحُ وَقَدْ غَمَرَتْهُ بِلُكِ النَّفْسِ أَشْبَهُ بِالظَّلِّ مِمَّا يَزِمِيهِ وَيَنْفِيءُ بِهِ ، فَهُوَ مَسْحُوفٌ فِي تَمَثُّلِهِ الصُّورَةَ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهَا بِمَا يَطُولُ وَيَقْصُرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِمْ سَخِيفٌ مُظْلِمٌ لِحَقِيقَةِ شَرِيفَةِ نَبْرَةِ .

وَأَنْتَ أَفَلَا تَرَى هَذَا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُقُولِ كَتَلِكَ الشَّيْمَةِ فِي أَخْلَاقِ الْعَامَّةِ ، إِذْ لَا يَصْلُحُونَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا مَا يَرْبُطُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ، ثُمَّ يَغْمَلُونَ بِهَا تَحْقِيقِي . وَيَحْمِلُونَ بِهَا تَمْيِيزِي ، ثُمَّ لَا تَكُونُ نَهْمَةً أَنْفُسِهِمْ مَعَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ - إِذَا اجْتَمَعُوا بِهِ - إِلَّا فِي التَّسْلِيمِ لَهُ ، وَاتَّقَاءِ حَقَائِقِهِ ، وَالتَّرُّولِ عَنْ آرَائِهِمْ إِلَى رَأْيِهِ ، وَالْخُرُوجِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ !

لَقَدْ قُلْنَا مِنْ قَبْلُ : إِنَّ جَبَابِرَةَ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَنَا وَسَادَتَنَا لِيَصْرَفُوا عُقُولَنَا وَيَغَيِّرُوا عَقَائِدَنَا وَيُضِلُّوْا آدَابَنَا وَيُدْخِلُونَا فِي مَسَاطِطِ اللَّهِ وَيَهْجُمُوا بِنَا عَلَى مَحَارِمِهِ وَيُرْكِبُونَا مَعَاصِيهِ - إِنْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا عَامَّةٌ وَجَهْلَةٌ وَحَمَقَى إِذَا وُزِنُوا بِعُلَمَاءِ الْأُمَمِ وَقِسُّوا إِلَى حُكَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَا يَكْتُبُونَ لِلْأُمَّةِ فِي نَصِيحَتِهَا وَتَعْلِيمِهَا إِلَّا مَا يَنْحَوِّلُ مِنْ كَلِمَاتٍ وَجَمَلٍ فِي الصُّحُفِ وَالْكَتُبِ إِلَى أَنْ يَصِيرُوا فِي الْوَاقِعِ فُسَاقًا وَفَجَرَةً وَمُلْجِدِينَ وَسَاخِرِينَ وَمُفْسِدِينَ ؛ فَالْمُصِيبَةُ فِيهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِلْمِ النَّاقِصِ فِي وَزْنِ الْمُصِيبَةِ بِهِمْ مِنْ

نَاحِيَةِ الْخُلُقِ الْفَاسِدِ ، وَهَاتَانِ مَعًا فِي وَزْنِ الْمُصْنِيَةِ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْنُونَ بِهَا عَلَى الْأُمَّةِ
لِتَهْدِيَهَا فِيمَا يَعْمَلُونَ ، وَتَجْدِيدَهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ ...

لَمْ أَنْخَدِغْ قَطُّ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ فَلَاسِفَةٍ أَوْ دَكَاتِرَةٍ أَوْ جَبَابِرَةٍ ، وَلَسْتُ أَضْعُ أَمْرَهُمْ إِلَّا عَلَى
حَقِّهِ ، فَإِنِّي لِأَعْرِفُ أَنَّ الْهَرَّ مِنْ قَبِيلَةِ الْأَسَدِ ، وَلَكِنَّ أَسَدِيَّتَهُ عَلَى الْفَارِثَةِ وَخَدَهَا ...
وَلَعَلَّمْ عَاقِبَتَهُ الْجَهْلُ خَيْرٌ لِلأُمَّةِ مِنْ عَوَاقِبِ عِلْمِهِمْ وَتَخَبُّطِهِمْ وَحِمَاقَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ
مُقَلِّدُونَ ، وَلَهُمْ طِبَاعٌ مُعْتَلَّةٌ زَائِغَةٌ ، وَعُقُولٌ لَا مِسَالَكَ لَهَا مِنْ دِينٍ أَوْ ضَمِيرٍ ؛ فَمَا يَجْنَحُونَ
إِلَّا إِلَى بَذْعَةِ سَيِّئَةٍ ، أَوْ آفَةٍ مَخْذُورَةٍ ، أَوْ فِكْرَةٍ مُتَّهَمَةٍ ؛ وَلَا يَعْمَلُونَ إِلَّا مَا يُشْبِهُ الظَّنَّ بِهِمْ ،
وَالرَّأْيَ فِيهِمْ ؛ مِنْ تَمْدِينِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَالْحَاقِقِهَا بِالْعِلْمِ أَوْ الْفَلَسَفَةِ ، مَعَ بَقَاءِ الْعَقْلِ
نَاضِجًا صَاحِحًا يَحْكُمُ عَلَى هَذَا الْخَبِيثِ كَمَا كَانَ يَحْكُمُ عَلَى ذَلِكَ الطَّيِّبِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ
سَبِيلٍ إِلَى هَذَا إِلَّا مِنْ جِهَةٍ تَحْوِيلِ الْأَخْلَاقِ ، فَإِنْ هِيَ اسْتَمْسَكَتْ وَلَمْ تَتَحَوَّلْ فَهَا هُنَا
مَوْضِعُ التَّرَاعِ وَمَحَلُّ الْخِلَافِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ حَرْبٍ مِثْلَ كَحَرْبِ الْأَسْتِقْلَالِ ، ثُمَّ حَرْبٍ مِنْهُمْ
كَحَرْبِ الْأَسْتِعْمَارِ ...

فَالَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لَيْسَ الْقَدِيمَ وَالْجَدِيدَ ، وَلَا التَّأَخَّرَ وَالتَّقَدَّمَ ، وَلَا الْجُمُودَ
وَالْتَحَوَّلَ ؛ وَلَكِنَّ أَخْلَاقَنَا وَتَجَرُّدَهُمْ مِنْهَا ، وَدِينَنَا وَالْحَادِثُ فِيهِ ، وَكَمَالَنَا وَنَقْصَهُمْ ،
وَتَوَثُّقَنَا وَانْحِلَالَهُمْ ، وَاعْتِصَامَنَا بِمَا يُمْكِنُنَا وَتَرَاحِيهِمْ تَرَاحِي الْحَبْلِ لَا يَجِدُ مَا يَشُدُّهُ .

وَالْآنَ أَنْظُرُ إِلَى قَلَمِي فَأَرَى شَطْرَهُ الْأَسْوَدَ مَا جُعِلَ كَذَلِكَ إِلَّا لِيَرِيدَ فِي جَمَالِ حُمْرَتِهِ
وَبَرِيقِهَا ، وَيُكْسِبَهَا لَمْعَةً لَا تَأْتِيهَا إِلَّا مِنَ السَّوَادِ خَاصَّةً ؛ وَالشَّرُّ خَيْرٌ إِذَا بَقِيَ مَحْضُورًا فِي
مَوْضِعِهِ وَلَمْ يَتَجَاوِزْهُ ؛ فَإِذَا تَبَهَّتِ الْأُمَّةُ لِجَبَابِرَةِ الْعُقُولِ هَؤُلَاءِ ، قُلْنَا : لَا بَأْسَ بِالسَّوَادِ
الْمُظْلِمِ إِذَا كَانَتْ حِكْمَتُهُ حُمْرَاءَ ...

شَيْطَانِي وَشَيْطَانُ طَاغُورَ . . . (*)

طَاغُورُ هَذَا شَاعِرُ الْهِنْدِ ، مَرَّ بِمَضَرٍ مُرُورٍ شَمْسِ السَّنَاءِ بِالْيَوْمِ الْمَطِيرِ : لَا يَبْعُ نُورُهَا إِلَّا فِي الْقُلُوبِ مِمَّا تَسْتَحِفُّ وَتَسْتَهْوِي ، وَمِمَّا تَمْتَنِعُ وَتَتَأَنَّى ، وَمِمَّا تَرِقُّ وَتَلْطَفُ ؛ وَتَنْقَدِحُ بَيْنَ الشُّحْبِ الْهَامِيَةِ فَإِذَا لَهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالسَّحَرِ وَالْعَجَبِ مَا يَكُونُ لِحِمْرَةٍ تُخْرِجُهَا السَّمَاءُ مُعْجِزَةً لِلنَّاسِ فَيَرَوْنَهَا تُرْسِلُ الشُّعَاعَ مَرَّةً وَتُمْطِرُ الْمَاءَ مَرَّةً .

لَمْ أَلَقْ طَاغُورَ وَلَكِنِّي أَنْفَذْتُ إِلَيْهِ شَيْطَانِي ، وَقُلْتُ أَوْصِيهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ لِوَجْهِهِ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هِنْدِيٌّ ، وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ ؛ فَمَا أَرْضُ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَرْضٍ ؛ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ ، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ ، فَمَا طَبِيعَةٌ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةٍ ؛ وَأَنَّهُ حَكِيمٌ ، وَلَكِنَّهُ تَرْكِيْبٌ مَا جُبِلَتْ لَهُ طَبِيعَةٌ غَيْرُ الطَّبِيعَةِ ؛ وَأَنَّهُ سَمَاوِيٌّ ، غَيْرَ أَنَّهُ سَمَاوِيٌّ كَعُلَمَاءِ الْفَلَكَ . سَمَاوَةٌ فِي مَنْظَارِ وَكِتَابٍ وَقَلَمٍ وَجَبَرٍ . . . فَأَذْهَبَ إِلَيْهِ فَدَاخَلَ شَيْطَانَهُ ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لِكُلِّ الشُّعْرَاءِ ، وَرَبَّمَا عَرَفْتَ شَيْطَانَهُ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِكَ أَوْ خَالِصَةِ أَهْلِكَ ، ثُمَّ أَتَيْتَنِي بِكَلَامِهِ عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُفَكِّرٌ فِيهِ ، لَا عَلَى جِهَةٍ مَا هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِهِ ؛ وَخُذْ مَا يَهْجِسُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَدَعْ مَا يَجْرِي فِي لِسَانِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا سَيَاتِي بِهِ إِخْوَانُكَ مِنْ « مَنْدُوبِي الصُّحُفِ » . . . وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ حَكِيمٍ مُهَيَّئٌ لِمَسَائِلَ مَنْ حَوْلَهُ كَلَامًا ، غَيْرَ أَنَّ مَعَانِي مَنْ حَوْلَهُ مُهَيَّئَةٌ لَهُ لِمَسَائِلَ أُخْرَى يُفَكِّرُ فِي كُلِّ جَوَابٍ عَلَيْهَا وَلَا يَنْطِقُ بِجَوَابٍ عَلَيْهَا .

* * *

فَحَدَّثَنِي شَيْطَانِي بَعْدَ رُجُوعِهِ قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : لَمَّا هَبَطَ طَاغُورُ هَذَا الْوَادِي نَظَرَ نَظْرَةً فِي الشَّمْسِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتِ هُنَا وَأَنْتِ هُنَاكَ ، تَقْرَيْنِ بِأَثَرٍ وَتَبْعِدِينَ بِأَثَرٍ ، وَتُطْلَعِينَ بِجَوْ وَتَغْرِبِينَ بِجَوْ ، فَلَا تَخْتَلِفِينَ وَتَخْتَلِفُ بِكَ الْأَقَالِيمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَقَالِيمِ الْأُمَمُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأُمَمِ الْأَفْكَارُ وَالْمَنَازِعُ ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِالْأَفْكَارِ وَالْمَنَازِعِ أَغْرَاضُهَا

وَمَصَالِحُهَا ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ بِمَصَالِحِهَا وَأَغْرَاضِهَا الْحَقَائِقُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَإِنَّمَا الْبَاطِلُ وَالْحَقُّ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ هَذِهِ الْحَقَائِقُ أَوْ تَسْتَذِيرُ ؛ وَقَدْ غَلَبَتِ السِّيَاسَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْإِنْسَانِيَّةُ جُغْرَافِيَّةً ، لَهَا شُعُوبٌ وَلَهَا مُسْتَعْمَرَاتٌ ، فَأَلَاخَاءُ فِي الْعَرْبِ سِيَادَةٌ فِي الشَّرْقِ ، وَالْمَسَاوَاةُ هُنَاكَ أَمْتِيَارٌ هُنَا ، وَالْحُرِّيَّةُ فِي مَمْلَكَةِ اسْتِغْبَادٍ لِمَمْلَكَةٍ ، وَالنَّحِيَّةُ فِي مَوْضِعٍ صَفْعَةٍ فِي مَوْضِعٍ ، وَالضِّيَافَةُ فِي مَكَانٍ اسْتِثْكَالٌ فِي مَكَانٍ ، ﴿ وَلَا يَرَالُونُ مَخْلُفِينَ ﴾ [١١] سُوْرَةُ هُوْدٍ / الْآيَاتَانِ : ١١٨ وَ ١١٩ : فَلَنْ يَصِلَ النَّاسُ بِالرُّوحِ الْأَعْلَى إِلَّا مِنْ الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَنْ تَتَغَيَّرَ فِيهِمْ ، جِهَةِ الدُّمُوعِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي أَسْوَدَ وَلَا أَحْمَرَ ، وَالَّتِي لَا تَتَّبِعُ إِلَّا مِنَ الرَّقَّةِ وَالْوُجْدِ وَالْأَخْزَانِ وَالْأَلَامِ ، وَهِيَ بِذَلِكَ نَسَبُ كُلِّ قَلْبٍ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ ، فَلَوْ غَمَرَ الْعَالَمُ كُلُّهُ بَلَاءٌ وَاحِدٌ لَا تَخْرُجُ مِنْهُ أَرْضٌ أَهْلُهَا وَلَا تَتَحَاجَرُ الْأُمَمُ فِيهِ ، لَا سَتَلَبَ مَطَامِعِ النَّاسِ بَغْضَهُمْ فِي بَغْضٍ ، وَأَرْجَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ الزَّائِغَةَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ، فَتَجَرَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَاتَّصَلُوا بِاللَّانِيَهَاةِ وَهُمْ فِي النَّهَايَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَلَاءٌ عَامٌّ فَفَكَرْ عَامٌّ فِي بَلَاءٍ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ الْمُتَطَلِّعَةَ ، وَيَكُونُ كَالذَّاءِ تَلَبَّسَ بِالْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ كَالَّذِي تَصِفُهُ الْأَذْيَانُ مِنْ جَهَنَّمَ وَالْمَصِيرُ إِلَيْهَا وَالْحِسَابُ عِنْدَهَا وَالْجَزَاءُ عَلَى الشَّرِّ بِهَا ، حَتَّى لَا يَبْقَى نَفْسٌ إِلَّا وَهِيَ فِي وَثَاقٍ مِنْ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا ، وَلَا يَبْقَى شَرٌّ يُتَحَيَّلُ أَوْ يُسْتَهْتَمُ إِلَّا وَهُوَ كَالْمَتَاعِ النَّفِيسِ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْرَانٍ تَسَاقُطُ وَتَخْتَرِقُ لَا يَجِدُ فِي كُلِّ اللُّصُوصِ لَصًا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ فَالْحُبُّ الْعَامُّ حَتَّى لَا يَبْقَى جِنْسٌ وَلَا سِلَاحٌ وَلَا سِيَاسَةٌ وَلَا دَوْلٌ ، وَلَا تَكُونُ الْمَمَالِكُ إِلَّا بَيُوتًا إِنْسَانِيَّةً بَيْنَ الْوَاحِدَةِ وَالْكُلِّ مِنَ الشَّابِكَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا بَيْنَ الْكُلِّ وَالْوَاحِدَةِ ، وَحَتَّى تَقُولَ مِصْرٌ لِإِنْكِلَاثَةِ : يَا بِنْتَ عَمِّي !... فَإِنْ اسْتَحَالَ كُلُّ هَذَا فَالْحُرِّيَّةُ الْعَامَّةُ عَلَى أَنْ تَكُونَ مَخْدُودَةً مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا بِالشَّعْرِ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ مَخْدُودًا بِالطَّبِيعَةِ ، وَالطَّبِيعَةُ مَخْدُودَةٌ بِاللَّهِ ، فَيَنْتَرِعُ النَّوْمُ مِنَ الْأَرْضِ لِتَتَّصِلَ الْيَقَظَةُ بِالْحُلُمِ ... مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ النَّوْمِ .

قَالَ شَيْطَانُ طَاغُورَ :... ثُمَّ ابْتَسَأَ طَاغُورُ وَقَالَ : كُلُّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ أَوْ كَالْمُسْتَحِيلِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْأَمَلِ مُمَكِّنٌ أَوْ كَالْمُمَكِّنِ ؛ وَلِلْفِطْرِ مَعْنِيَانِ : أَحَدُهُمَا مَا يَكُونُ ، وَالثَّانِي مَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ، ذَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَّا ، لِأَنَّهُ جَانِبُ النَّظَامِ الْإِلَهِيِّ ، وَهَذَا لَا بُدَّ

لَنَا مِنْهُ لِأَنَّهُ جَانِبُ الْخَيَالِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَعْمَلُ وَلَا تَتَكَلَّمُ ، وَهَذَا مِنْ الشَّعْرِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ وَلَا يَعْمَلُ . آه آه ! إِنَّمَا السَّلَامُ الْعَامُّ أَنْ يَكُونَ الْوُجُودُ شَرِكَةً إِلَهِيَّةً إِنْسَانِيَّةً بَرَضًا وَاتِّفَاقٍ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ . . . وَلَعَمْرِي إِنْ كُلُّ الْمُسْتَحِيلَاتِ مُمَكِّنَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا الْمُسْتَحِيلِ .

ثُمَّ تَبَسَّمُ طَاغُورُ إِذْ خَطَرَ لَهُ أَنَّهُ شَاعِرٌ عَلَيْهِ أَنْ يَصِفَ الْوُرْدَةَ وَيَقُولَ فِيهَا مَا يَجْعَلُهَا بَيْنَ شِعْرِ فِي كِتَابِ الطَّبِيعَةِ لَهُ وَزَنٌ وَنَعَمٌ ، وَلَكِنْ عَلَى الطَّبِيعَةِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ تُنْبِتَهَا نَاصِرَةَ عِطْرَةٍ جَمِيلَةٍ تَتَمَيَّزُ مِنْ غَيْرِهَا بِرَائِحَةٍ وَلَوْنٍ وَشَكْلِ .

قَالَ شَيْطَانُهُ : وَلَمَّا أَتَيْتُ مِنْ تَأْمُلِهِ إِلَى هَذِهِ الْخَاطِرَةِ قَدَّمْتُ لَهُ سَيِّدَةَ هِنْدِيَّةَ عُقُودِ الزَّهْرِ ، وَبَيْنَا هِيَ تُقَلِّدُهُ إِيَّاهَا قَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ هَذِهِ الْأَزْهَارَ مِنْ مَعَانِي الْمَاءِ أَلْعَذِبِ ؛ فَإِذَا أَنْطَلَقْنَا فِي أَوْهَامِنَا وَرَاءَ الْحُبِّ الْعَامِّ وَالسَّلَامِ الْعَامِّ فَلِمَنْ تَكُونُ مَعَانِي الْمَاءِ الْمِلْحِ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ وَمِنْ أَزْهَارِهِ الْأَسْطُورُ الْإِنْكِلِيزِي . . .

* * *

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَلَمَّا اسْتَقَرَّ طَاغُورُ فِي قَصْرِ سَوْفِي بِكَ وَرَأَهُ فِي مِثْلِ حُسْنِ الدِّينَارِ وَنَقْشِهِ وَنَفَاسَتِهِ ، قَالَ : لَا جَرَمَ هَذِهِ أُمَّةٌ أَغْنَتْ شَاعِرَهَا ، فَمَا أَخْطَى التَّقْدِيرُ ، وَإِنْ أَخْطَأَتْهُ فَلَا أَبْعُدُ عَنِ الْمُقَارَنَةِ إِذَا حَسِبْتَ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ يَطْبِيعُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفَ مَلْيُونِ نُسخَةٍ مِنْ كُلِّ دِيْوَانِ شِعْرِ أَوْ دَفْتَرِ حِكْمَةٍ أَوْ كِتَابِ قِصَّةٍ ، وَلَيْتَنِي أَعْرِفَ الْعَرَبِيَّةَ لِأَعْرِفَ كَيْفَ يُبْدِعُ هَذَا الشَّعْبُ فَلَسَفَتَهُ فِي أَغَانِيهِ الْمُتَّصِلَةِ بِغُيُومِ السَّمَاءِ الْمُتَّكِلِمِ بِأَحْسَنِ وَأَظْهَرَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَرْجَمَةً لِلْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي يَتَوَارَثُهَا شَعْبٌ خَالِدٌ .

الشَّعْرُ فِكْرَةٌ الْوُجُودِ فِي الْإِنْسَانِ ، وَفِكْرَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يُخْلَقَ هَذَا الْإِنْسَانُ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْلَقَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ مَعَانٍ وَأَلْفَافٍ ، وَإِلَّا خَرَجَ حَيَوَانًا أَعْجَمَ ، فَالشَّاعِرُ يُبْدِعُ أُمَّةً كَامِلَةً ، إِنْ لَمْ يَخْلُقْهَا فَإِنَّهُ يَخْلُقُ أَفْكَارَهَا الْجَمِيلَةَ وَحِكْمَتَهَا الْخَالِدَةَ وَآدَابَهَا الْعَالِيَةَ وَسِيَاسَتَهَا الْمُتَوَفَّقَةَ ، وَمَا أَحْسَبَ النَّهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِلَّا بِالْأَغَانِي وَالْأَنَاشِيدِ ، فَتَأْتِي مِنْ إِنْكَلَرَةِ جُنُودٍ وَتَخْرُجُ لَهَا مِنْ دُورِ الْغِنَاءِ وَالْتِمَثِيلِ جُنُودٌ

أُخْرَى ؛ لَقَدْ كُنْتُ مُلْهِمَا حِينَ قُلْتُ مَرَّةً : « إِنَّ اللَّهَ يُخَاطَبُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْمَوْسِقَى »^(١) .

نَعَمْ عَنْ طَرِيقِ الْمَوْسِقَى ، فَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مُوسِقَى فِي نَفْسِهِ ، حَتَّى حِينَ يَتَطَاوَرُ النَّاسُ وَيَذْبَحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَإِنَّ صَلَصلةَ الْأَسْلِحَةِ وَدَوِيَّ الْقَنَابِلِ وَأَزِيرَ الرِّصَاصِ وَنَصَائِحِ الْجُنُودِ - كُلُّ ذَلِكَ لَحْنٌ أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ « وَمُوسِقَاهُ » ... لِحَنَاتِ الْأَمَمِ .

* * *

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَلَمَّا رَأَى طَاغُورُ الْأُسْتَاذَ الْفَاضِلَ مُدِيرَ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ - وَهِيَ الَّتِي دَعَتْهُ إِلَى الْإِقَاءِ مُحَاضِرَتِهِ - قَالَ : نَعَمْ وَحُبًّا وَكَرَامَةً ، إِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ فِي الْعَقْلِ أَنْ تَدْعُو هَذِهِ الْجَامِعَةَ شَاعِرًا رُوحَانِيًّا مُلْهِمًا إِلَّا وَهِيَ فَلَنْ نَبْرِيَّ يَعُدَّهُ اللَّهُ مِنْ نُجُومِهِ ، وَمَا أَحْسَبُ أُسْتَاذَ آدَابِهَا الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا تِلْكَ الذَّرَّةَ اللَّوْلُؤِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تُجَاوِرُنِي فِي طِينَةِ الْخَلْقِ الْأَزَلِيِّ . فَلَوْ أَنَّ الذَّرَّاتِ الثَّمَانِ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَنَا خُلِقَتْ فِي عَصْرِنَا هَذَا وَتَوَرَّعَتْ عَلَى الْأَمَمِ الْفَلَسَفِيِّ لَكُنَّا وَإِنَّاها كَوَصَايَا اللَّهِ الْعَشْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِّي ... وَلَمَّا لَأْنَا طَيِّبَاتِهَا إِيْمَانًا بِاللَّهِ . وَلَصَارَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ عَشْرُ آلَاتِ سَمَآوِيَّةٍ لَا سِلْكِيَّةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ ، تَبَاهِي الْجَامِعَةُ الْمِصْرِيَّةُ بِأَنَّ فِيهَا إِحْدَاهَا ... لَقَدْ نَغَصَ عَلَيَّ هَذِهِ الشُّبْخُوحَةُ أَنِّي لَمْ أَتَعَلَّمِ الْعَرَبِيَّةَ ، وَكَيْفَ لِي بِأَنْ أُرْتَلَّ أَنَا شَيْدُ أُسْتَاذِ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأَسْتَمْتِعَ بِالْحَانَةِ السَّمَآوِيَّةِ فِي شِعْرِهِ وَأَغَانِيهِ ، وَأَسْمَعَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ هَذِهِ الْمِثْدَنَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْجَامِعَةِ تَهْتِفُ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ الرَّهْبَانِيَّةِ صَارِخَةً بِحَقِيقَةِ الْوُجُودِ فِي الْوُجُودِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...

قَالَ شَيْطَانِي : وَكَانَ شَيْطَانُ الذُّكُورِ طَهَ حُسَيْنِ أُسْتَاذَ الْجَامِعَةِ حَاضِرًا مَعَنَا ، فَلَمَّا أَلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ طَاغُورَ قَالَ لِي : حَقًّا إِنَّ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ لَا يَعْرِفَ هَذَا الْهِنْدِيُّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، لِأَنَّهُ لَوْ عَرَفَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمَا أَرْضَنَهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَلَا آدَابُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا أُسْتَاذُ آدَابِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ! فَقُلْتُ : أَسْكُتْ وَيَحَكَ ! دَعِ الرَّجُلَ فِي أَخْلَامِهِ ، وَلَا تَكُنْ غِيْمَةً

(١) هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ كَلَامِ طَاغُورَ فِي مُحَاضِرَتِهِ مِمَّا تَرَجَمَتْهُ جَرِيدَةُ السِّيَاسَةِ .

سَمَائِهِ الْمُشْرِقَةَ ، أَمَا تَرَاهُ يَحْلُمُ ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ : « وَالْحَقِيقَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ جَمَالٌ لَيْسَ يَغْدِلُهُ جَمَالٌ ؛ أَلَسْتَ تَرَى إِلَى صُورَةِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ أَبَدَاعَهَا فَتَانَ مَاهِرٌ ، إِنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى الصُّورَةِ فَتَقْرَأُ بِجَمَالِهَا ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ الَّتِي فِيهَا لَيْسَتْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَمَالِ ، لَكِنَّمَا جَمَالُ الصُّورَةِ أَنَّهَا تُمَثِّلُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ عَلَى حَقِيقَتِهَا » ^(١) فَهَذِهِ كَلِمَاتٌ فِي سُبْحَاتِ الثُّورِ ، وَهِيَ مِنْ لُغَةِ السَّمَاءِ ذَاتِ الْكَوَاكِبِ لَا مِنْ لُغَةِ النَّفْسِ ذَاتِ الْعَوَاطِفِ ، وَإِلَّا فَهَلْ يَصِحُّ فِي الْعَقْلِ أَنْ تَصَوِّرَ الْعَجُوزَ الَّتِي أَضْطَرَبَ مِيزَانُ الْخَلْقِ فِيهَا حَتَّى لَا يَرْنَ مِنْهَا إِلَّا بَقَايَا الْخَلْقَةِ وَأَنْقَاصَ الْعُمْرِ وَخَرَائِبَ الْمَرْأَةِ . . . يَكُونُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ شَوْهَتِهَا وَتَهْدُمُهَا وَتَشْنُ جَلِيدَهَا وَمَوْتَ ظَاهِرَهَا - جَمَالًا فِي الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ فِي الْأَصْلِ ؟ أَفَلَيْسَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا لَمُلِئَتْ الْمَتَاحِفُ وَالْقُصُورُ بِالْوُجْهِ الْعَجَائِزِ ، وَلَمَّا بَقِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ عَجُوزٌ إِلَّا ذَهَبَتْ لِأَحَدِ الْمُصَوِّرِينَ يَقُولُ لَهُ : أَخْلُقْنِي . . !

* * *

حَدَّثَنِي شَيْطَانِي قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْطَانُ طَاغُورَ قَالَ : وَكَانَ طَاغُورُ رَطَبَ اللِّسَانِ فِي مُحَاضَرَتِهِ ، كَانَ غَابَةً مِنْ غَابَاتِ الْهِنْدِ أَمَدَتْهُ بِكُلِّ مَا اعْتَصَرَتْهُ الشَّمْسُ فِيهَا مَاءٌ وَحَيَاةٌ وَنُضْرَةٌ ، فَهُوَ فِي كَلَامِهِ وَمَعَانِيهِ وَرَقٌّ وَرَهْرٌ وَنَسِيمٌ وَظِلٌّ وَخَفِيفٌ وَتَغْرِيدٌ يَسْحَرُ النَّاطِرَ إِلَيْهِ إِذْ لَا يَرَى النَّاطِرُ شَكْلَهُ الْإِنْسَانِيَّ فِيهِ بَلْ يَرَاهُ شَيْئًا مِنْ خَيَالِهِ كَأَنَّمَا أَنْفَصَلَ مِنْهُ فَتَمَثَّلَ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَلَوْ أَنَّكَ أَطْلَعْتَ يَوْمًا فِي الْمَرْأَةِ فَإِذَا خَيَالُكَ فِيهَا يُكَلِّمُكَ وَيَسْتَأْنِسُكَ وَيَلْطَفُ لَكَ ، لَمَّا أَذْهَشَكَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَطْرَبَكَ وَلَا اسْتَخْرَجَ مِنْ عَجَبِكَ وَذُهُولِكَ إِلَّا كَالَّذِي يَغْتَرِي نَفْسَكَ حِينَ يُكَلِّمُكَ طَاغُورُ . وَتَرَاهُ يَسْتَخْلِصُ آرَاءَهُ الْمُتَصَرِّفَةَ بِكَلَامِهِ مِنْ رُوحِ التَّوَانِيسِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُدْبِرَةِ لِلْكَوْنِ ؛ فَتَحْسُهُ يُضَيِّفُ إِلَيْكَ زِيَادَةً لَيْسَتْ فِيكَ ، فَمَهْمَا كَبُرَتْ بِهِ تَصَغُرُ نَفْسُكَ عِنْدَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ هُوَ يَتَّصِلُ بِرُوحِكَ مَرَّةً فِي جَلَالِ حُبِّ الْأَبِّ لِطِفْلِهِ ، وَمَرَّةً فِي رِقَّةِ فَرْحِ الطِّفْلِ بِأَبِيهِ ؛ فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ بِمَوْقِفٍ عَجِيبٍ مِنْ مُعْجَزَةِ إِنْسَانِيَّةِ تَرَوْعُكَ بِطِفْلِ شَيْخٍ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ

(١) هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِمَّا تَرَجَمَتْهُ جَرِيدَةُ السِّيَاسَةِ مِنْ مُحَاضَرَةِ طَاغُورَ ، وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ الصَّنَاعَةَ فِي نَقْلِ الصُّورَةِ مُحْكَمَةٌ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الصُّورَةَ جَمِيلَةٌ ، وَالْمَعْنَى الَّذِي يَزِمُنِي إِلَيْهِ الشَّاعِرُ مَعْرُوفٌ ، وَقَدْ كَتَبْتَاهُ فِي « السَّحَابِ الْأَحْمَرِ » ، وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهُ أَوْ أَخْطَأَتِ التَّرْجَمَةُ .

طَرَفَا الْعُمُرِ وَجَاءَ كَأَنَّهُ مَظْهَرُ رُوحِهِ الَّتِي لَا عُمُرَ لَهَا .

إِنْسَانٌ كَهَرَبَائِيٍّ يُحَاوِلُ أَنْ يَزِيدَ فِي تَرْكِيبِ النَّاسِ عَظْمَةً مِنْ حَدِيدٍ أَوْ عَصَبًا مِنْ سِلْكٍ ،
لِتَصِلَ بِهِمْ جَمِيعًا تِلْكَ الشُّعْلَةُ الطَّائِفَةُ ، فَإِذَا هُمْ خَلَقُوا آخَرَ كَأَهْلِ الْجَنَّةِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَيَأْيَمَانِهِمْ ؛ وَلَكِنَّهُ بَصُرَ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْرَحِ بِإِعْلَانِ السَّيِّمَةِ الَّتِي تُجَاوِرُهُ وَمَا
عَلَيْهِ مِنَ اتِّصَاوِيرٍ وَالْتِهَاقِ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : بَعْدَ قَلِيلٍ تَجِيءُ إِلَى هُنَا لَتَذُنَ London
وَبَارِيسُ Paris وَنِيُورُوكُ New York وَغَيْرُهَا مِنْ أَرْضِ اللَّهِ بِنَاسِهَا وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا ، يَرَاهَا
الْجَالِسُونَ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَيَتَصَلُّونَ بِهَا اتِّصَالًا بَعِيدًا لَا يَجْعَلُهُمْ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْلِفُهُمْ
مِنْهَا ؛ وَيَجِبُ لِعُمُرَانِ هَذِهِ الْأَرْضِ أَنْ يَبْقَى أَهْلُ مِصْرَ فِي مِصْرٍ فَلَا يَدْعُوهَا جَمِيعًا لِيَتَّصِلُوا
جَمِيعًا بِمَا تَشْتَاقُهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ بَارِيسَ Paris أَوْ غَيْرِ بَارِيسَ Paris مِنْ حَقَائِقِ الْعَالَمِ الْكُبْرَى ،
وَلَا يَخْسُنُ هَذَا الْإِتِّصَالُ إِلَّا إِذَا خَصَّ وَلَمْ يَغْمَ ، فَيَقُومُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْإِثْنَانِ وَالْجَمَاعَةُ وَتَبْقَى
الْأُمَّةُ بِمَا هِيَ وَكَمَا هِيَ ، لِأَنَّهَا بِذَلِكَ وَحْدَهُ أُمَّةٌ ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ بِطَبَائِعِهِمْ نَاسٌ ، وَالْكَوْنُ
بِاخْتِلَافِهِ كَوْنٌ ، فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْحُبُّ الْعَامُّ وَالسَّلَامُ الْعَامُّ وَالْإِتِّصَالُ الْعَامُّ ، بِالْحَقِيقَةِ
الرُّوحِيَّةِ الْعُلْيَا ؛ ثُمَّ تَبَسَّمَ وَقَالَ : مَا أَشْبَهْتَنِي بِهِذِهِ السَّيِّمَةِ ، غَيْرَ أَنَّ شَرِيظَتِي لَا يَرَى فِيهِ
النَّاسُ رِوَايَةً مِنْ لَنْدُنَ London وَبَارِيسَ Paris ، بَلْ رِوَايَةً وَقَعَتْ حَوَادِثُهَا فِي جَنَّةِ
الْخُلْدِ ...

فَلَسَفَةُ الْقِصَّةِ

وَلِمَاذَا لَا أَكْتُبُ فِيهَا (*) ... ؟ (١)

لَمْ أَكْتُبْ فِي الْقِصَّةِ إِلَّا قَلِيلًا ، إِذَا أَنْتِ أَرَدْتِ الطَّرِيقَةَ الْكِتَابِيَّةَ الْمُصْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيَّتِهَا
بِهَذَا الْأَسْمِ ، وَلَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ لَا أَرَانِي وَضَعْتُ كُلَّ كُتُبِي وَمَقَالَاتِي إِلَّا فِي قِصَّةٍ يَعْنِيهَا ،
هِيَ قِصَّةُ هَذَا الْعَقْلِ الَّذِي فِي رَأْسِي ، وَهَذَا الْقَلْبِ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيَّ ...

[[شَاعَ أَدَبُ الْقِصَّةِ فِي أَوْرَثَةِ ، وَطَعَى عِنْدَهُمْ عَلَى الْمَقَالَةِ وَالْكِتَابِ وَدِيَوَانِ الشُّعْرِ
جَمِيعًا ، فَقَامَ عِنْدَنَا الْمُتَابِعُونَ فِي الرَّأْيِ ، وَالْمُقَلِّدُونَ فِي الْهَوَى ، وَالضُّعَفَاءُ بِطَبِيعَةِ
التَّقْلِيدِ وَالْمُتَابَعَةِ - قَامُوا يَدْعُونَ إِلَى هَذَا الْفَنِّ مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَلَا يَرَوْنَ مَنْ لَا يَكْتُبُ فِيهِ إِلَّا
مُذَبِّرًا عَنْ عَصْرِهِ وَأَدَبِ عَصْرِهِ . وَلَا جَرَمَ إِذَا كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ مُذَبِّرِينَ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَمَعْنَى
الْحَقِيقَةِ ، وَأَنْتِ مَتَى كَانَ وَجْهَكَ إِلَى الْبَاطِلِ وَظَهْرَكَ إِلَى الْحَقِّ ، فَمَهْمَا تَتَقَدَّمُ فِي رَأْيِ
نَفْسِكَ فَإِنَّمَا تَتَأَخَّرُ فِي رَأْيِ الْحَقِّ ، وَكُلَّمَا قَطَعْتَ إِلَى غَايَتِكَ رَأَيْتَ الَّذِي وَرَاءَكَ مُتَخَلِّفًا

(*) « الرسالة » العدد : ٤٠ ، ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٢ هـ = ٩ أبريل / نيسان سنة ١٩٣٤ م ، السنة

الثانية ، الصفحات : ٥٦٩ - ٥٧٠ .

هَذِهِ الْمَقَالَةُ هِيَ مَا اسْتَخْلَصَهُ السَّيِّدُ أَسْعَدُ حَتًّا مِنْ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ وَنَشَرَهُ فِي « الرِّسَالَةِ » قَبْلَ
أَنْ يَعْمَلَ الرَّافِعِيُّ مَعَ « الرِّسَالَةِ » ، وَقَدَّمَ السَّيِّدُ أَسْعَدُ حَتًّا لَهَا بِقَوْلِهِ : سَأَلْتُ الْأُسْتَاذَ مُصْطَفَى
الرَّافِعِيَّ ، لِمَاذَا لَا يَكْتُبُ فِي الْقِصَّةِ ، وَلِمَاذَا يَخْلُو أَدَبُهُ مِنْهَا ؟ فَأَجَابَ :

وَحَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : هَذَا هُوَ رَأْيِي الْأُسْتَاذَ الرَّافِعِيَّ نَشَرَهُ عَلَى أَضْلِهِ ، لِيَنْظُرَ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنْ شَبَابِنَا
الْثَّائِبِينَ ، الَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَى كِتَابَةِ الْقِصَّةِ ، لَعَلَّ فِيهِ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُقِيدُهُمْ ، وَيُمَهِّدُ لَهُمْ سَبِيلَ الْكَمَالِ
فِي إِنْتَاجِهِمْ . بِسَام .

(١) { وَجْهٌ إِنَّمَا سَوَّالٌ : لِمَاذَا لَا نَكْتُبُ فِي الْقِصَّةِ ؟ وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ نَكْتُبَ مَقَالَاتَنَا فِي مَجَلَّةِ

الرِّسَالَةِ ، فَدَدْنَا بِهِذَا الرَّدَّ } .

{ قُلْتُ : وَانْظُرْ « عَمَلُهُ فِي الرِّسَالَةِ » مِنْ كِتَابَتِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

مُتَرَجِعًا بِمِقْدَارِ مَا أَبْعَدْتَ كَأَنَّهُ فِي أَمْسٍ ، وَكَأَنَّكَ فِي غَدٍ ، وَلَا يَوْمَ بَيْنَكُمَا يَجْمَعُ مِنْكُمَا مَا تَفَرَّقَ ۥ .

أَنَا لَا أَغْبَا بِالْمَظَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا يَوْمٌ وَيَنْسُخُهَا يَوْمٌ آخَرُ ، وَالْقِبْلَةُ الَّتِي أَتَجَّهُ إِلَيْهَا فِي الْأَدَبِ إِنَّمَا هِيَ النَّفْسُ الشَّرِيفَةُ فِي دِينِهَا وَفَضَائِلِهَا ، فَلَا أَكْتُبُ إِلَّا مَا يَنْعُمُهَا حَيَّةٌ وَيَزِيدُ فِي حَيَاتِهَا وَسُمُو غَايَتِهَا ، وَيُمْكِنُ لِفَضَائِلِهَا وَخَصَائِصِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَلِذَا لَا أَمْسُ مِنَ الْأَدَابِ كُلِّهَا إِلَّا نَوَاحِيهَا الْعُلْيَا ؛ ثُمَّ إِنَّهُ يُخِيلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنِّي رَسُولُ لُغَوِيٍّ بُعِثْتُ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْقُرْآنِ وَلُغَتِهِ وَبَيَانِهِ ، فَأَنَا أَبَدًا فِي مَوْقِفِ الْجَيْشِ : (تَحْتَ السَّلَاحِ) ، لَهُ مَا يُعَانِيهِ وَمَا يَتَكَلَّفُهُ وَمَا يُحَاوِلُهُ وَيَنْفِي بِهِ ، وَمَا يَتَحَامَاهُ وَمَا يَتَحَفَّظُ فِيهِ ، وَتَارِيخُ نَصْرِهِ وَهَزِيمَتِهِ فِي أَعْمَالِهِ دُونَ سِوَاهَا ؛ وَكَيْفَ أَعْرَضْتُ الْجَيْشَ رَأَيْتُهُ فَنَفسِهِ ، لَا فَتْكَ أَنْتَ وَلَا فَنٌّ سِوَاكَ ؛ إِذْ هُوَ لَطِيفَتُهُ وَغَايَتُهُ وَمَا يَتَأَدَّى بِهِ لِلْحَيَاةِ وَالتَّارِيخِ .

]] وَقَدْ عَابَنِي مَرَّةً أَحَدُ الْكُتَّابِ بِأَنِّي (لَا أَكْتُبُ فِي الدَّرَامَا [الْفَنِّ الْمَسْرَحِيِّ وَالتَّمْلِيكِ]) ؛ فَلَوْ أَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ وَقَفَ عَلَى شَاطِئِ الْمُحِيطِ وَجَعَلَ يَتَهَكَّمُ بِالْأَسْطُولِ الْإِنْكِلِيزِيِّ فَيُزِيرِي عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ شُيُوعِيًّا وَلَا بَلْشَفِيًّا ، فَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الْأَسْطُولُ إِذَا هُوَ أَجَابَهُ ؟ إِلَّا أَنْ يَقُولَ شَيْئًا كَهَذَا : تَبَارَكَ مَنْ صَنَعَ الْإِنْسَانَ مِذْقَعَ لَحْمٍ لِإِطْلَاقِ الْكَلَامِ الْفَارِغِ .

أَنَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا أَزَالُ إِلَى الْآنِ مَعَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي فَنِّهِ وَبَيَانِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا مَعَ الْحِكَايَةِ وَلُغَتِهَا وَعَوَاطِفِهَا ، فَأَكْبُرُ عَمَلِي إِضَافَةَ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ إِلَى أَدَبِنَا وَبَيَانِنَا مُتَحَاشِيًا جَهْدَ الطَّاقَةِ أَنْ أَنْقُلَ إِلَى كِتَابَتِي دَوَابَّ الْأَرْضِ أَوْ دَوَابَّ النَّاسِ أَوْ دَوَابَّ الْحَوَادِثِ ، فَإِنَّ الْكُتُبَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ طَبَائِعِ كِتَابَتِهَا تَعْمَلُ فِيمَنْ يَفْرُوها عَمَلُ الطَّبَاعِ الْحَيَّةِ فِيمَنْ يُخَالِطُهَا . وَالرَّوَايَةُ إِذَا وَضَعَهَا كَاتِبٌ فَاجِرٌ ، فَيَهِيَ عِنْدِي لَيْسَتْ رِوَايَةً ، بَلْ هِيَ عَمَلٌ يَجِبُ أَنْ يُسَمَّى فِي قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ (فُجُورًا بِالْكِتَابَةِ) .

إِنَّ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ مِنَ الْقِصَصِ ، وَبِخَاصَّةٍ هَذِهِ الَّتِي عَمَرَتْ الْكِتَابَةَ عِنْدَنَا - إِنَّمَا هِيَ صِيَاغَةٌ لَهُوَ ، وَمَسَلَاةٌ قَرَاغٌ ، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ فِي عِلَاجِ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَفِي تَخْفِيفِ حُطْمَةِ الْاجْتِمَاعِ فِي أُرُوبَةٍ وَأَمْرِيكَةٍ ، وَلَكِنْ مَا مَوْضِعُهُ عِنْدَنَا فِي الشَّرْقِ ،

وَالشَّرْقُ إِنَّمَا نَعْمَلُ فِي نَهَضَتِهِ لِمُعَالَجَةِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ وَجُودِهِ السِّيَاسِيَّ عَدَمًا ،
وَلِمَلِّءِ الْفَرَاغَ الَّذِي جَعَلَ نِصْفَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْتًا ؟ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْقِصَّةِ هُوَ لِرِجَالِنَا
وِنِسَائِنَا إِذَا قَرَّوْهُ وَتَلَّهَوْا بِهِ أَشْبَهَ بِإِذْخَالِ أُولَئِكَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ - إِذْخَالِهِمْ وَإِذْخَالِهِنَّ عَلَى
الْكِبَرِ - فِي مَدَارِسِ رِيَاضِ الْأَطْفَالِ .

الْأَطْفَالُ يَسْتَلِدُونَ الْحِكَايَةَ بِالْفِطْرَةِ لِأَنَّهَا تَجِيئُهُمْ بِالدُّنْيَا الَّتِي يَغْسُرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَذْهَبُوا
إِلَيْهَا أَوْ يُعَامِرُوا فِيهَا ، وَتُهَيِّئُ لَهُمْ أَنْ يُشْعِرُوا خَيَالَهُمْ قُوَّةَ الْخَلْقِ ، فَتَكُونُ لَدَتُّهُمْ عَلَى مِقْدَارِ
مِنْ بُعْدِ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَعَلَى مِقْدَارِ مِثْلِهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْعَجْزِ فِي خَيَالِهِمْ ، وَهَذَا الضَّعْفُ فِي
الَّتَاجِيئِينَ هُوَ بَعِيْنُهُ الَّذِي يَجْعَلُ لِأَكْثَرِ الْقِصَصِ شَأْنًا عِنْدَ سُخْفَاءِ النَّاسِ وَقُرَاعِهِمْ ، وَأَهْلِ
الْحُمُقِ فِيهِمْ ، يُسَعِّرُهُمْ شَهَوَاتِ وَخَيَالَاتٍ وَأَوْهَامًا مِنَ الْبَاطِلِ . فَذَلِكَ إِذَا لَيْسَ أَدَبًا يُكْتَبُ
وَيُقْرَأُ ، بَلْ هُوَ بَلَاءٌ أَجْتِمَاعِي يُطْبَعُ وَيُوْرَعُ فِي النَّاسِ ... ۞

أَلَا تَرَى أَنَّ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ تُوضَعُ قِصَصًا ، ثُمَّ تُقْرَأُ فَتَبْقَى قِصَصًا ؟ وَإِنْ هِيَ صَنَعَتْ
شَيْئًا فِي قُرَائِهَا لَمْ تَرُدَّ عَلَى مَا تَفْعَلُ الْمُخَدَّرَاتُ : تَكُونُ مُسْكَنَاتٍ عَصَبِيَّةٍ إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ
تَنْقَلِبُ هِيَ بِنَفْسِهَا بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى مُهَيِّجَاتٍ عَصَبِيَّةٍ ؟

وَأَنَا لَا أَنْكُرُ أَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَدَبًا عَالِيًا ، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَدَبَ الْعَالِيَّ فِي رَأْيِي لَا يَكُونُ إِلَّا
بِأَخْذِ الْحَوَادِثِ وَتَرْبِيَّتِهَا فِي الرِّوَايَةِ كَمَا يُرَبِّي الْأَطْفَالُ عَلَى أُسْلُوبِ سَوَاءٍ فِي الْعِلْمِ
وَالْفَضِيلَةِ ؛ فَالْقِصَّةُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ مَدْرَسَةٌ لَهَا قَانُونٌ مَسْنُونٌ ، وَطَرِيقَةٌ مُمَخَّصَةٌ ، وَغَايَةٌ
مُعَيَّنَةٌ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاوَلَهَا غَيْرُ الْأَفْذَادِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْفِكْرِ الَّذِينَ تَنْصِبُهُمْ مَوَاهِبُهُمْ لِلِقَاءِ
الْكَلِمَةِ الْحَاسِمَةِ فِي الْمُسْكَلَةِ الَّتِي تُثِيرُ الْحَيَاةَ أَوْ تُثِيرُهَا الْحَيَاةُ ، وَالْأَعْلَامُ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْبَيَانِ
الَّذِينَ رَزَقُوا مِنْ أَدَبِهِمْ قُوَّةَ التَّرْجَمَةِ عَمَّا بَيْنَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ ، وَمَا بَيْنَ الْحَيَاةِ
وَمَوَادِّهَا النَّفْسِيَّةِ فِي هَوْلَاءِ وَهَوْلَاءِ ، تَتَخَيَّلُ الْحَيَاةَ فَتُبْدِعُ أَجْمَلَ شِعْرِهَا ، وَتَتَأَمَّلُ فَتَخْرُجُ
أَسْمَى حِكْمَتِهَا ، وَتُسَرِّعُ فَتَضَعُ أَصَحَّ قَوَائِمِهَا .

وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ يَخْتَرِفُونَ كِتَابَةَ الْقِصَصِ ؛ فَهُمْ فِي الْأَدَبِ رَعَاعٌ وَهَمَجٌ ، كَانَ مِنْ
أَثَرِ قِصَصِهِمْ مَا يَتَحَبَّطُ فِيهِ الْعَالَمُ الْيَوْمَ مِنْ فَوْضَى الْغُرَاثِ ، هَذِهِ الْفَوْضَى الْمَمْقُوتَةُ الَّتِي لَوْ

حَقَّقَتْهَا فِي الْفُؤُسِ لَمَّا رَأَيْتَهَا إِلَّا عَامِيَّةَ رُوحَانِيَّةَ مُنَحْطَةِ تَسَكُّعٍ فِيهَا النَّفْسُ مُشْرَدَّةً فِي طُرُقِ
رَدَائِلِهَا .

إِذَا قَرَأْتَ الرِّوَايَةَ الزَّائِفَةَ أَحَسَسْتَ فِي نَفْسِكَ بِأَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَسْفُلُ ، وَإِذَا قَرَأْتَ الرِّوَايَةَ
الصَّحِيحَةَ أَدْرَكْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَشْيَاءَ بَدَأَتْ تَعْلُو ؛ تَنْتَهِي الْأَوَّلَى فِينِكَ بِأَثَرِهَا السَّيِّئِ ، وَتَبْدَأُ
الثَّانِيَةُ مِنْكَ بِأَثَرِهَا الطَّيِّبِ ؛ وَهَذَا عِنْدِي هُوَ فَرْقٌ مَا بَيْنَ فَنِّ الْقِصَّةِ ، وَفَنِّ التَّلْفِينِ
الْقِصَصِيِّ !!

* * *

شَعْرُ صَبْرِي (*)

فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ مَارِسٍ / آذَارِ مِنْ سِتِّينَا ^(١) هَذِهِ نَزَعُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ عَنْ
رَأْسِهِ عِمَامَةً الْمَشِيخَةِ وَنَشَرَهَا لِلْمَوْتِ ، فَكَانَتْ الْكَفَنَ الَّذِي طَوَى فِيهِ بَقِيَّةُ شَيْخِ الْأَدَبِ :
الْمَرْحُومِ إِسْمَاعِيلُ بَاشَا صَبْرِي .

كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ نَشُؤُوا فِي تَارِيخٍ لَا يُنْشِئُ رَجُلًا ؛ وَجَاؤُوا فِي غَيْرِ
زَمَنِهِمْ لِيَجِيءَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ بَعْدُ ، وَهَلْؤَلَاءِ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ قُوَّةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَهُمْ أَفْدَارُ
وَأَحْدَاثُ تُولَدُ وَتَنْشَأُ وَتَنْمُو فِي أُسْلُوبِ إِنْسَانِيٍّ لِيَتِمَّ بِهَا شَيْءٌ كَانَ نَقْصًا ، وَيَحْسُنُ شَيْئًا كَانَ
هُجْنَةً ، وَيُوجِدُ أَمْرًا كَانَ عَدَمًا ، ثُمَّ لِيَكُونَ لِلزَّمَنِ مِنْهَا حُدُودٌ يَبْدَأُ عِنْدَ الْوَاحِدِ مِنْهَا فَيَتَغَيَّرُ
فِيهِ وَيَتَحَوَّلُ بِهِ وَيَخْرُجُ مَعَهُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهِ زَمَنًا جَدِيدًا فِي رَجُلٍ جَدِيدٍ .

كَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي فِي مَنْحَى مِنْ مَنَاحِي الشَّعْرِ ، وَكَانَ الْبَارُودِيُّ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - فِي
مَنْحَى آخَرَ ؛ فَهُمَا طَرَفَا الْمَحْوَرِ الَّذِي اسْتَدَارَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَلَكَ لِيَبْدَأَ بَعْدَ تَارِيخِهِ أَلَمِيتِ
تَارِيخًا حَيًّا ، وَلِيَخْرُجَ مِنَ الْجَوِّ الْقَاتِمِ فِي أَغْرَاضِ الْأَرْضِ إِلَى الْفَضَاءِ الْمُشْرِقِ بِمَعَانِي
السَّمَاءِ ، ثُمَّ لِيَتَفَضَّرَ عَنْهُ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ الْعُلُويَّةِ مَا لَصِقَ بِهِ مِنْ طِبَاعِ أَهْلِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ ،
وَيُعْلَقَ بِهَا مَا فَتَحَ الزَّمَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ هَذِهِ الْحَرْفَةِ ، فَكَانَ الشَّعْرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَجُلٍ
كَالْمَلِكِ ، فَاصَابَ رَجُلَيْنِ ، وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَنْ رَأَيْتُهُمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ نَفْسًا تُعَدُّ
مَعَهُمَا ، وَلَا خُلُقًا يَجْرِي فِي أَخْلَاقِهِمَا ، وَلَا ظَرْفًا وَلَا رِقَّةً وَلَا أَدَبًا وَلَا شَيْئًا يَصْلُحُ أَنْ
يَكُونَ شَرْحًا مِنْهُمَا ، أَوْ تَوْكِيدًا لِشَيْءٍ فِيهِمَا ، أَوْ تَقْوِيَةً لِمَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِمَا ، كَأَنَّمَا وَجَدَا
لِيَكُونَ أَحَدُهُمَا مَبْدَأً وَالْآخَرُ نِهَائَةً ، وَلِيَتَفَرَّدَا أَنْفَرَادًا أَطْرَفَيْنِ مِنَ الْمَسَافَةِ بِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ .

كَانَ الشَّعْرُ لِعَهْدِهِمَا بَقِيَّةَ رَتْةٍ فِي مَعْرِضِ خَلْقٍ مِمَّا كَانَ يُسَمِّيهِ أَدْبَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَغْرَاضِ
الْمُشْرِقَةِ وَطَرِيقَةِ الْمَشَارِقَةِ ، وَهُمْ يَعْتُونُ بِذَلِكَ الصَّنَاعَةَ وَالتَّكْلُفَ لِلْبَدِيعِ وَالْإِنْصِرَافَ إِلَى

(*) « الْمُقْتَطَفُ » : مَائُو / أَيَّارُ سَنَةِ ١٩٢٣ .

(١) هُوَ إِسْمَاعِيلُ بَاشَا صَبْرِي ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَهْرِ مَارِسٍ / آذَارِ سَنَةِ ١٩٢٣ م .

الْلَفْظِ وَاسْتِكْرَاهِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادُوا ، إِلَى مَا يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ فِي بَابِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ هَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا يُسَاعُ وَيُخْتَمَلُ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ وَأَكْثَرِ النَّاسِ لِلْهَجْرَةِ ، ثُمَّ فِي أَيَّامٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، غَيْرَ أَنَّهُ بَلِي وَتَهْتَكُ فِي مِصْرٍ خَاصَّةً وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَى مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ إِلَّا رُقْعٌ وَخُيُوطٌ فِي قَصَائِدَ وَمَقَاطِيعَ .

ثُمَّ كَانَ أَكْثَرُ الشُّعْرَاءِ يَوْمَئِذٍ إِنَّمَا يَخْتَرِفُونَ فَنَّ الْأَدَبِ صِنَاعَةَ كَسَائِرِ الْمِهَنِ وَالصَّنَاعَاتِ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْعَيْشِ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَأْكِلِينَ وَالْمُتَكَسِّبِينَ مِنَ السُّوقَةِ وَالْمُرْتَزِقَةِ .

* * *

ظَهَرَ الْبَارُودِيُّ وَنَبَعَ فِي شِعْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ صَبْرِي الشُّعْرُ بِسَنَوَاتٍ ، وَلَكِنَّ الْأَدَبَ الْفَارِسِيَّ وَالْجَزَالَ الْعَرَبِيَّةَ هُمَا اللَّذَانِ نَحَوْلَا فِيهِ ، ثُمَّ نَبَعَ صَبْرِي بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنِ ، فَتَحَوَّلَ فِيهِ الْأَدَبُ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالرُّقَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَهَذَا مَوْضِعُ التَّفَاوُتِ فِي شِعْرِ الرَّجُلَيْنِ الَّذِينَ اقْتَصَا الْخَيَالَ الشُّعْرِيَّ مِنْ طَرَفِي الْأَرْضِ ، وَكِلَاهُمَا يَذْهَبُ مَذْهَبًا وَيَرْجِعُ إِلَى طَبِيعٍ وَيَرَوْضُ شِعْرَهُ عَلَى وَجْهِ ؛ فَالْبَارُودِيُّ يَسْتَجِزِلُ وَيَجْمَعُ إِلَى سَبْكِهِ الْجَيِّدِ قُوَّةَ الْفَخَامَةِ وَشِدَّةِ الْجَزَالَةِ ؛ ثُمَّ يَغْتَرِضُ الْخَيَالَ مِنْ حَيْثُ يَهْبِطُ عَلَى النَّفْسِ فِي مَرِّ الْوَحْيِ ؛ وَصَبْرِي يَسْتَرْقُ وَيُضَيِّفُ إِلَى صَفَاءِ لَفْظِهِ جَمَالَ التَّخْيِيرِ وَحَلَاوَةِ الرُّقَّةِ ، وَيُعَارِضُ الْفِكْرَ مِنْ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ ، وَالْبَارُودِيُّ لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ اللَّسَانِ يُقِيمُ عَلَيْهِ حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ ، وَصَبْرِي لَا يَرَى إِلَّا مِيزَانَ الذَّوْقِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ اللَّسَانِ ؛ وَقَدْ يُسْرَتُ لِكِلَيْهِمَا أَسْبَابُ نَاحِيَّتِهِ فِي أَحْسَنِ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ ؛ فَجَاءَ الْبَارُودِيُّ حَافِظًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ دَوَائِنِ الْعَرَبِ وَالْمُؤَلَّدِينَ ، وَجَاءَ صَبْرِي مُفَكِّرًا كَأَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ أَذْوَاقٍ وَأَفْكَارٍ ، وَهُمَا يَشْتَرِكَانِ مَعًا فِي التَّلَوُّمِ عَلَى صِنْعَةِ الشُّعْرِ وَالتَّنَاقُتِ فِي عَمَلِهِ وَتَقْلِيلِهِ عَلَى وُجُوهِ مِنَ التَّصَفُّحِ ، وَتَمَحْنِصِهِ بِالْتَّقْدِ وَالْإِتْبَالِ لَفْظًا وَجُمْلَةً جُمْلَةً ، ثُمَّ مَطَاوَلُهُ مَعَانِيَهُ وَمُصَابِرَتُهَا كَأَنَّمَا يَشْتَرِعَانِ مَحَاسِنَهَا مِنْ أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ فِيهِمَا ، وَقَالَ لِي صَبْرِي بَاشَا مَرَّةً وَقَدْ جَارَيْتُهُ فِي بَعْضِ هَذَا الْمَعْنَى : إِنَّهُ يَعْلَمُ هَذَا مِنَ الْبَارُودِيِّ وَمِنْ نَفْسِهِ . قُلْتُ : أَفِيُتْلَغُ بِهِ ذَلِكَ أَنْ يَمْحُو بَيَاضَ الْيَوْمِ فِي سَوَادِ بَيْتٍ وَاحِدٍ ؟ قَالَ : وَفِي سَوَادِ شَطْرَةِ أَحْيَانًا ! وَلَيْسَ يُنْقِصُهُمَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْئًا ، فَإِنْ خَبَرَ زُهَيْرٍ فِي حَوْلِيَاتِهِ مَعْرُوفٌ وَقَدْ عَمِلَ سَبْعَ قَصَائِدَ فِي سَبْعِ سِنِينَ : يَحُوكُ الْقَصِيدَةَ مِنْهَا فِي سَنَةٍ .

وَقُلُّوا عَنْ مَرْوَانَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَعْمَلُ الْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأُحْكِمُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَأَعْرِضُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ أَخْرُجُ بِهَا إِلَى النَّاسِ ؛ فَقِيلَ : هَذَا هُوَ الْحَوْلِيُّ الْمُنْتَحُ .

كَانَ مَرْجِعُ الْبَارُوْدِيِّ إِلَى الْحِفْظِ ، فَنَبَعَ فِي وَثَبَاتٍ قَلِيلَةٍ ؛ أَمَّا صَبْرِي فَأَحْتَاجُ إِلَى زَمَنٍ حَتَّى أَسْتَخْكَمَتِ نَاحِيَتُهُ وَأَتَتْهُ أَسْبَابُهُ عَلَى الْإِجَادَةِ ، لِأَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى الدُّوقِ ، وَهَذَا يُكْتَسَبُ بِالْمِرَانِ وَيَنْضُجُ عِنْدَ نَضُوجِ الْفِكْرِ ، وَلَا يَأْتِي بِالْمَاءِ وَالرَّوْتِ حَتَّى تَأْتِي لَهُ أَسْبَابُ كَثِيرَةٌ ؛ وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ فِي الرَّجُلَيْنِ مِنْ أَوَائِلِ شِعْرِهِمَا ؛ فَقَدْ رَأَى الْبَارُوْدِيُّ أَبَاهُ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ بِأَبْيَاتِهِ الدَّلَالِيَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا [من البسيط] :

لَا فَارِسَ الْيَوْمَ يَحْمِي السَّرْحَ بِالْوَادِي طَاحَ الرَّدَى بِشَهَابِ الْحَيِّ وَالنَّادِي
وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ عَشَرَ بَيْتًا ، وَجِدَّهَا جَيْدٌ . وَكَأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ لِسَانِ أَعْرَابِيٍّ ، وَإِنَّمَا جَاءَتْهُ
مِنْ صَنْعَةِ الْحِفْظِ ، كَالَّذِي اتَّفَقَ لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ فِي أَبْيَاتِهِ الْخَائِئَةِ الَّتِي كَتَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ
وَعُمُرُهُ أَرْبَعُ عَشْرَةِ سَنَةً ، وَكَانَ أَبُوهُ مُعْتَقَلًا بِقَلْعَةِ شِيرَازَ وَمَطَّلَعُهَا [من الخفيف] :

أَبْلَغَا عَنِّي الْحُسَيْنَ الْوُكَا إِنَّا ذَا الطَّوْدِ بَعْدَ بُعْدِكَ سَاخَا
وَالشَّهَابَ الَّذِي أَصْطَلَيْتَ لَظَاهُ عَكَسَتْ ضَوْؤُهُ الْخُطُوبُ فَبَاخَا
هَذَا ، عَلَى أَنَّ الْبِدَايَةَ كَمَا يُقَالُ مَرَّلَةٌ ، وَقَدْ وَفَّقْنَا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى أَوَّلِ مَا نَشَرِ مِنْ
شِعْرِ صَبْرِي بِأَشَا ، وَذَلِكَ قَصِيدَتَانِ نُشِرَتَا فِي مَجَلَّةِ « رَوْضَةِ الْمَدَارِسِ » فِي مَدْحِ إِسْمَاعِيلَ
بَاشَا ، فَنُشِرَتِ الْأُولَى فِي الْعَدَدِ الصَّادِرِ فِي غَايَةِ شَوَالِ سَنَةِ ١٢٨٧ لِلْهِجْرَةِ = ١٨٧٠
لِلْمِيلَادِ ؛ وَنُشِرَتِ الثَّانِيَةُ فِي عَدَدِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ سَنَةِ ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م ، وَبَيْنَهُمَا
خَمْسَةُ أَشْهُرٍ ، كَانَتْ وَثَبَتْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مُتْقَاصِرَةٌ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُطْءِ نُضْجِهِ بِطَبِيعَةِ
الْأَسْبَابِ الَّتِي تَسَبَّبَ بِهَا إِلَى الشَّعْرِ ؛ وَكَانَتْ « الرُّوضَةُ » يَوْمَئِذٍ تَنْشُرُ لَطَائِفَ مِنْ فُحُولِ
دَهْرِهِمْ ، كَالسَّيِّدِ صَالِحِ مَجْدِي ، وَرَفَاعَةَ بَكِّ رَافِعٍ ، وَمُحَمَّدَ أَفْنَدِي قَذْرِي « وَتَابِعَةَ الزَّمَانِ
مُحَمَّدَ أَفْنَدِي رِضْوَانَ » وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَتْ تَسْتَقْبِلُ قَصَائِدَهُمْ بِسَجَعَاتٍ دَاوِيَةٍ مُفْرَقَةٍ ، هِيَ
لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِطَلَقَاتِ مَدَافِعِ النَّحِيَّةِ لِلْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ ، فَلَمَّا نَشَرْتُ لِصَبْرِي قَالَتْ فِي

الْقَصِيدَةِ الْأُولَى : « تَهَنَّتْ بِالْعَبْدِ الْأَكْبَرِ لِلْخُدَيْوِي الْأَعْظَمِ بِقَلَمِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي أَفْنَدِي » .
وَقَالَتْ فِي الثَّانِيَةِ : « قَصِيدَةُ رَائِيَّةٍ فِي مَدْحِ الْحَضْرَةِ الْخُدَيْوِيَّةِ مِنْ نَظْمِ الشَّابِّ التَّجَنُّبِ
إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي أَفْنَدِي مِنْ تَلَامِيذِ مَدْرَسَةِ الْإِدَارَةِ » وَمَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ الْأُولَى [من الكامل] :

سَفَرْتُ فَلَاحَ لَنَا هِلَالَ سُعُودٍ وَنَمَّا الْغَرَامُ بِقَلْبِي الْمَعْمُودِ
وَلَا شَيْءَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ حُرُوفِ الْمَطْبَعَةِ . . . وَمَطْلَعُ الثَّانِيَةِ [من الطويل] :

أَغْرَتْكَ الْغَرَاءُ أَمْ طَلَعَةُ الْبَذْرِ وَقَامَتْكَ الْهَيْفَاءُ أَمْ عَادِلُ السُّمْرِ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ بَيِّنَتْ وَقَفْتُ عِنْدَهُ أَرَى صَبْرِي بِأَشَا فِي صَبْرِي أَفْنَدِي كَأَنَّهُ خَيَالُ
مَوْلُودٍ يَسْتَهْلُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ [من الطويل] :

فَطَوَّلَ مِنَ الْهَجْرَانِ عَلَّ وَفُوفَا يَطْوُلُ مَعَا - يَا قَاتِلِي - سَاعَةَ الْحَشْرِ
وَيَكَادُ هَذَا الْبَيْتُ يَكُونُ أَوَّلَ انْقِلَابٍ لِلْفِكْرَةِ فِيهِ : وَهُوَ غَرِيبٌ ، وَالتَّأَمُّلُ فِيهِ أَغْرَبٌ ،
وَلَكِنَّهُ يُدُلُّ عَلَى خَيَالٍ سَيِّبُ يَوْمًا عَلَى أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ .

وَفِي ذَلِكَ الزَّمَنِ عَيْنُهُ كَانَ الْبَارُودِي شِهَابًا يَلْتَهِبُ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَهُ وَأَسْتَجْمَعَ
أَسْبَابَ نِهَائِهِ ، بَلْ هُوَ نَظْمٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِسِتِّ سَنَوَاتٍ قَصِيدَتُهُ الشَّهِيرَةِ [من الكامل] :

أَخَذَ الْكَرَى بِمَعَاقِدِ الْأَجْفَانِ وَهَفَا السُّرَى بِأَعْيَةِ الْقُرْسَانِ
فَلَمْ يَكُنْ لِيَذْهَبَ وَجْهُ الشَّعْرِ عَنْ صَبْرِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُغْضِي عَنِ اخْتِدَاءِ هَذِهِ الصَّنَعَةِ
الْبَارِعَةِ وَيَأْخُذَ فِي غَيْرِهَا لَوْلَا أَنَّ فِيهِ طَبْعًا مُسْتَقِلًّا يَذْهَبُ إِلَى كَمَالِهِ فِي أُسْلُوبٍ آخَرَ
كَأُسْلُوبِ كُلِّ زَهْرَةٍ فِي غُصْنِهَا ، وَأَخْصَّ أَحْوَالَ صَبْرِي أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا فَجَاءَ أَكْبَرُ
مِنْ شَاعِرٍ ، وَكَانَ السَّبَبُ الَّذِي صَرَفَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

* * *

يَتَّبِعُ الشَّاعِرُ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْهَا: طَرِيقَةُ الدَّرْسِ الَّتِي عَالَجَ بِهَا الشَّعْرَ ، وَكُتِبَ هَذِهِ
الطَّرِيقَةُ ، وَالرِّجَالُ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَلُهَا فِي نَفْسِهِ . ثُمَّ . . . وَيَا لَهِ مِنْ ثُمَّ هَذِهِ ، فَهِيَ اللَّمْنَةُ
السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَى فُؤَادِ الشَّاعِرِ مِنْ وَجْهِ جَمِيلٍ ، وَالْثَلَاثُ الْأُولَى تُنْشِئُ بُؤْغًا

مَعْرُوفًا فِي نَوْعِهِ وَمِقْدَارِهِ ، وَلَكِنَّ الْأَخِيرَةَ هِيَ طَرِيقُ الْقَدَرِ الَّتِي لَا يُعْرِفُ آخِرُهَا : وَإِذَا تَجَدَّدَتْ فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ أَوْ اتَّصَلَتْ تَجَدَّدَ بِهَا بُؤُغُهُ أَوْ اتَّصَلَ ، فَعَلَى قَدَرٍ مَا يُحِبُّ تَخْبُوهُ السَّمَاءُ مِنْ أَسْرَارِ الْجَمَالِ ، وَهِيَ نَفْسُهَا أَجْمَلُ أَسْبَابِ الشَّعْرِ وَأَجْمَلُ مَعَانِيهِ وَأَجْمَلُ غَايَاتِهِ ، فَهِيَ هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي تُوَلَّفُ بَيْنَ نَفْسِ الشَّاعِرِ وَبَيْنَ مَعْنَى الْجَمَالِ الشَّعْرِيِّ فِي هَذَا الْكُونِ كُلِّهِ ، وَإِذَا أَنْتَ نَزَعْتَ النَّظْرَةَ وَالْإِبْتِسَامَةَ - وَهُمَا عُضْرَا تِلْكَ الْمَادَّةِ - مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ ، نَزَعْتَ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا مِنْ شِعْرِهِ ، فَمَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ لِلْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي ، وَتَسْمَعُ شِعْرَهُ فَلَا تَجْزِيهِ بِهِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِكَ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ . . . وَصَبْرِي لَمْ يَذْرُسِ الشَّعْرَ فِي الْكُتُبِ أَكْثَرَ مِمَّا دَرَسَهُ فِي الْوُجُوهِ وَالْعُيُونِ ، وَقَدْ عَالَجَ هَذَا الشَّعْرَ فِي بَدَائِيهِ لِيَتَأْتَى إِلَيْهِ مِنْ طَرَفِهِ الْبَعِيدَةِ ؛ أَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا أَمْلَنَتْهُ فَكَانُوا رِجَالِ الظَّرْفِ وَالزَّرْقَةِ وَالْكُتَيْةِ الْمِصْرِيَّةِ الشَّهِيرَةِ ، الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا الطَّنْبُجُ الْمِصْرِيُّ وَنَصَّ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ ، كَالسَّكَاكِينِ وَغَيْرِهِ ؛ بَلْ كَانَ عَصْرُهُ كُلُّهُ عَصْرَ هَذِهِ الْكُتَيْةِ ، فَتَحَوَّلَتْ فِي طَبْعِهِ الرَّقِيقِ الْمُبْتَكِرِ تَحَوُّلًا رَقِيقًا مُبْتَكِرًا أَرْجَمَهَا إِلَى الظَّرْفِ الْمَخْضِ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ طَبَاعِهِ كَمَا يَجْتَمِعُ السَّحَابُ مِنَ الْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي شِعْرِهِ أَحَقُّ النَّاسِ بِقَوْلِ ابْنِ سَعِيدٍ الْمَغْرِبِيِّ [من الطويل] :

أَسْكَانَ مِصْرٍ جَاوَرَ الثَّيْلَ أَرْضَكُمْ فَأَكْسَبَكُمْ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ
وَكَانَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ سِخْرٍ فَمَا بَقِيَ سِوَى أَثَرٍ يَبْدُو عَلَى النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ الْحُبِّ : يَمْرُجُ ذِكْرِي مَاضِيهِ بِحَاضِرِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهُمَا حُبًّا جَدِيدًا ؛ وَكَانَ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ مَجْرُوحُ الْقَلْبِ ، فَلَا يَرَاكَ بَيْنَ حَتَّى فِي بَعْضِ أَنْفَاسِهِ ، إِذْ يُرْسِلُ النَّفْسَ الطَّوِيلَ بَيْنَ هُنَيْهَةٍ وَأُخْرَى كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ أَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا بَاقِيًا فِي نَفْسِهِ ؛ وَتِلْكَ هَمَمَةٌ لَا تَكُونُ فِي شَاعِرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بِغَيْرِ مَعْنَى .

كَانَتْ النَّظْرَةُ وَالْإِبْتِسَامَةُ تَتِمَّلُ لَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَتَعْتَزُّهُ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَرَاهَا ، فَيَجِدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحًا مِنَ الشَّعْرِ ، وَيَفْرَأُ لِمَحَاتِهَا مَتَى اتَّوَلَّتْ ، وَكَانَ يَعِيشُ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ مَعْنَى فِي قَصِيدَةٍ هُوَ أَمِيرُ أَيْكَانِهَا .

فَشَاعَرْنَا هَذَا أَخْرَجَهُ اثْنَانِ : الظَّرْفُ وَالْجَمَالُ ؛ وَهَذَا سِرُّ إِبَائِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ ،

لَأَنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْمِخْنَةِ وَالْبُلُوَى الَّتِي ابْتُلُوا بِهَا . . .

وَلَقَدْ هَمَّ صَبْرِي فِي أَوَاخِرِ عُمْرِهِ بِمَخَوِ شِعْرِهِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَنَالِ يَدِهِ ؛ عَلَى أَنَّهُ مَحَا مِنْهُ بِإِهْمَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْبَتَ ؛ وَعَلِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يُدَوِّنْ شَيْئًا ، وَأَنَّهُ يُنْسَى مَا يَقُولُهُ ، فَكَأَنَّهُ يُوجَدُ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ وَيُمَحَقُ بِسَبَبَيْنِ ؛ وَقَدْ نِمَا كَانَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ مَتَى انْتَهَوْا إِلَى التَّحْقِيقِ رَأَوْا عُمْرَهُمْ كُلَّهُ بِدَايَةٍ ، وَرَأَوْا مَا فَعَلُوا بِاطِلًا ، فَعَسَلُوا كُتُبَهُمْ أَوْ أَحْرَقُوهَا ، وَلَكِنَّا لَمْ نَعْرِفْ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ فِي شَاعِرٍ بَعْدَ عَصْرِ الْكِتَابَةِ وَالتَّدْوِينِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَأْتِفُ لِنَفْسِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَجْمَعُ يَدَهُ عَلَى شِعْرِهِ ، كَالشَّرِيفِ الرَّضِيِّ الَّذِي يَقُولُ [من الرجز] :

مَا لَكَ تَرْضَى أَنْ تُعَدَّ شَاعِرًا بُعْدًا لَهَا مِنْ عَدَدِ الْفَضَائِلِ
وَيَقُولُ فِي مَدْحِ أَبِيهِ [من الكامل] :

إِنِّي لِأَرْضَى أَنْ أَرَاكَ مُمَدِّحًا وَعُلَاكَ لَا تَرْضَى بِأَنِّي شَاعِرُ
وَمِثْلُهُ أَبُو طَالِبٍ الْمَأْمُونِيُّ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ ذَلِكَ دَعْوَى وَفِي أَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَلَا فِرَاطُ صَبْرِي فِي الظَّرْفِ وَالْجَمَالِ وَقِيَامِ شِعْرِهِ عَلَى هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ ، جَاءَ مُقَلًّا ، مِنْ أَصْحَابِ الْقِصَارِ ، وَزَادَ إِفْلَاقُهُ فِي قِيَمَةِ شِعْرِهِ ، فَخَرَجَتْ مَقَاطِيعُهُ مَخْرَجَ الشَّيْءِ الطَّرِيفِ الَّذِي يُتَعَجَّبُ مِنْهُ فِي وُجُودِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ لِقَلَّةِ وُجُودِهِ ؛ وَبِذَلِكَ رِيحَ تَعَبِ الْمُكْتَثِرِينَ وَالْمُطِيلِينَ ، إِذْ كَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا فِيمَا تُؤَانِيهِ السَّجِيَّةُ وَيَتَرَعُّ لَهُ الطَّنْبُ ، فَيَدْنُو مَأْخُذَهُ ، وَيَكْثُرُ بِقِلِيلِهِ ، وَيَزِمِي مِنْهُ بِمِثْلِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، فَيُطْمِسُ بِهِمَا عَلَى كَلَامِ طَوِيلٍ وَجَدَلٍ عَرِضٍ .

وَلَا يَعْيبُ الْمُقِلُّ أَنَّهُ مُقِلٌّ إِذَا كَثُرَتْ حَسَنَاتُهُ ، بَلْ ذَلِكَ أَعْوَنُ لَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ إِذَا أَصَابَتْ فِي شِعْرِهِ مَا يُغْرِينَهَا بِطَلَبِ الْمَزِيدِ مِنْهُ ؛ وَقَدْ عَدُّوا بَيْنَ الْمُقِلِّينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ : طَرْفَةَ بَنِ الْعَبْدِ ، وَعُيَيْدَ بَنِ الْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةَ الْفَحْلِ ، وَعَدِيًّا بَنَ زَيْدٍ ، وَسَلَامَةَ بَنَ جَنْدَلٍ ، وَحُصَيْنًا بَنَ الْحُمَامِ ، وَالْمُتَلَمَّسَ ، وَالْعَارِثَ بَنَ حِلْزَةَ ، وَأَبْنَ كُلْثُومٍ ، وَغَيْرَهُمْ أَتَيْنَا عَلَى

أَسْمَائِهِمْ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ «تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ» ؛ وَمِنْ أَوْلَئِكَ مَنْ يُعْرَفُ بِالْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ : كَطَرْفَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرَفُ بِثَلَاثِ قَصَائِدَ : كَعَلْقَمَةٍ ؛ أَوْ بِأَرْبَعٍ : كَعَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْرَفُ بِالْأَبْيَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ؛ وَلَا عِبْرَةَ بِمَا يُنسَبُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ غَيْرِ الْمُصَحِّحِينَ وَأَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فَإِنَّ الْحِمْلَ عَلَى شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ كَثِيرٌ ؛ وَقَدْ يَعْرِفُونَ الشَّاعِرَ بِالْبَيْتِ الْفَرْدِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا يَعْتَبِرُونَ الشَّعْرَ بِمِقْدَارِ مَا يَحْرُكُ مِنْ مِيزَانِهِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ الْقَلْبُ ، لَا بِالطُّوْلِ وَلَا بِالْقَصْرِ ، وَقَدْ قَالُوا فِي بَيْتِ النَّابِغَةِ [من الطويل] :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تُلْثُهُ عَلَى شَعْبٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ ؟
إِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا عَلَى الْإِغْتِيَارِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ . وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْبَيْتَ الْوَاحِدَ : بَيْتِيًّا ؛ فَإِذَا بَلَغَ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فَهِيَ نَفْعَةٌ ، وَإِلَى الْعَشْرَةِ تُسَمَّى قِطْعَةً ، وَإِذَا بَلَغَ الْعِشْرِينَ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّى قَصِيدًا .

وَكَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَتَعَمَّدُ أَنْ لَا يَجِيءَ فِي شِعْرِهِ الْجَيِّدِ بِغَيْرِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ إِلَى الْفِطْعِ الصَّغِيرَةِ ، كَشَاعِرِنَا صَبْرِي بَاشَا ؛ وَمِنْهُمْ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ ؛ كَانَ يَقْصُرُ هِجَاءَهُ وَيَقُولُ : يَكْفِيكَ مِنَ الْفَلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنَى . وَمِنْهُمْ أَبُو الْمُهَوَّسِ ، وَكَانَ يَحْتَجُّ لِذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ الْمَثَلَ النَّادِرَ إِلَّا بَيْنَا وَاحِدًا ، وَلَمْ يَجِدِ الشَّعْرَ السَّائِرَ إِلَّا بَيْنَا وَاحِدًا ؛ وَمِنْهُمْ الْجَمَّازُ ؛ قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ أَنْشَدَهُ بَيْتَيْنِ : مَا تَزِيدُ عَلَى الْبَيْتِ وَالْبَيْتَيْنِ ؟ فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أَنْشِدَكَ مَذَارَعَةً ؟؟ وَأَبْنُ لُتْكَ الْمِصْرِيُّ ، وَأَبْنُ فَارِسٍ ، وَمَنْصُورُ الْفَقِيهِ الَّذِي كَانَ يُقَالُ فِيهِ : إِذَا رَمَحَ بِرُؤُوسِهِ قَتَلَ ؛ وَلَا نَسْتَقْصِي فِي هَذَا فَلْنَدَعُهُ ، فَإِنَّ لَهُ مَوْضِعًا .

غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي كَانَ لَهُ مَعَ جُودَةِ الْمَقَاطِيعِ جُودَةُ الْقَصِيدِ إِذَا قَصَدَ ، كَقَوْمٍ عُرِفُوا بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ ، مِنْهُمْ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْطَفِ وَسِوَاهُ ؛ وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ إِقْلَالِهِ مَا أَعْلَمَنِي بِهِ مِنْ أَنَّ طَرِيقَتَهُ فِي أَكْثَرِ مَا يَنْظُمُ مَعَارَضَةً مَعْنَى يَقِفُ عَلَيْهِ ، أَوْ تَضْمِينَ حِكْمَةٍ ، أَوْ ضَرْبَ مَثَلٍ عَلَى طَرِيقَةِ النَّظَرِ وَالْمُلَاحَظَةِ ، أَوْ تَدْوِينِ خَطَرَةٍ عَرَضَتْ لَهُ ، أَوْ لَمَحَةٍ أَوْحِيَتْ إِلَيْهِ ؛ وَهُوَ يَنْزِلُ فِي ذَلِكَ عَلَى النَّصْفَةِ وَالْمَعْدِلَةِ فَلَا يَنْجُلُ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ ، بَلْ يَذُكُّ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي مِنْهُ أَخَذَ أَوْ الْمَثَالَ الَّذِي عَلَيْهِ اخْتَذَى .

قَالَ لِي مَرَّةً : إِنَّ الْبُسْتَانِيَّ عَقَدَ حِكْمَةً فَارِسِيَّةً فِي قَوْلِهِ [من الطويل] :

قَضَيْتَ إِلَهِي بِالْعَذَابِ قِيَا تُرَى بِأَيِّ مَكَانٍ بِالْعَذَابِ تَدِينُ
وَلَيْسَ عَذَابٌ حَيْثُمَا أَنْتَ كَائِنٌ وَأَيِّ مَكَانٍ لَسْتَ فِيهِ تَكُونُ ؟
ثُمَّ قَالَ : فَأَخَذْتُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَقُلْتُ [من الكامل] :

يَا رَبِّ أَيْنَ تُرَى ثِقَامُ جَهَنَّمَ لِلظَّالِمِينَ غَدَاً وَلِلْأَشْرَارِ
لَمْ يُنَقِّ عَفْوُكَ فِي السَّمَوَاتِ أَعْلَى وَالْأَرْضِ شِبْرًا خَالِيَا لِلنَّارِ
يَا رَبِّ أَهْلُنِي لِفَضْلِكَ وَأَكْفِنِي شَطَطَ الْعُقُوفِ وَفِتْنَةَ الْأَفْكَارِ
وَمِرَّ الْوُجُودِ يَشْفُ عَنْكَ لِكُنِّي أَرَى غَضَبَ اللَّطِيفِ وَرَحْمَةَ الْجَبَّارِ
يَا عَالِمَ الْأَسْرَارِ حَسْبِي مَخْنَةٌ عِلْمِي بِأَنَّكَ عَالِمُ الْأَسْرَارِ
وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشُّعْرَيْنِ أَنَّ الْبُسْتَانِيَّ جَاءَ بِكَلَامِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا
طَرِيقَةَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، كَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَالشُّشْتَرِيِّ ؛ وَأَمَّا صَبْرِي فَأَنْظُرْ كَيْفَ اسْتَوْفَى وَكَيْفَ
لَاءَمْ وَكَيْفَ امْتَلَأَتْ أَعْطَافُ شِعْرِهِ .

وَقَدْ يَأْخُذُ الْمَاخِذَ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إِلَّا الْمُطَّلِعُ الْحَادِثُ بِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ

[من الطويل] :

إِذَا مَا صَدِيقٌ عَقَّبَنِي بِعِدَاوَةٍ وَفَوَّقْتُ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي
تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَّرَ سَهْمِي فَأَنْتَنَيْتُ وَلَمْ أَرَمِ
فَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ وَعَلَةَ [من الكامل] :

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أَمِينًا أَحْيَى فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الْمَعْنَى قَوْلُهُ : « تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » وَهُوَ
مِنْ قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْتَفِ [من الخفيف] :

وَإِذَا مَا مَدَدْتُ طَرْفِي إِلَى غِيَا رِكَ مَثَلَتْ دُونَهُ فَأَرَاكَ
فَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَبْدَعَ فِي انْتِزَاعِ الْمَعْنَى وَكَيْفَ جَعَلَ لَهُ مَعْرِضًا جَدِيدًا ، وَكَيْفَ آدَاهُ أَحْسَنَ
تَأْدِيَةٍ فِي الْطَفِّ وَجَدَّ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُخْتَرَعٌ .

وَمِنْ شِعْرِهِ السَّائِرِ قَوْلُهُ فِي الْعِنَاقِ وَتَلَاوُحِ الْحَبِيبَيْنِ [من الطويل] :
 وَلَمَّا التَّقَيْنَا قَرَبَ الشُّوقُ جُهْدَهُ شَجِيئِينَ فَاضًا لَوْعَةً وَعَتَابًا
 كَانَ صَدِيقًا فِي خِلَالِ صَدِيقِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابَا
 وَهَذَا الْمَعْنَى عَلَى إِيْدَاعِهِ فِيهِ مُتَدَاوِلٌ ، وَأَصْلُهُ لِشَّارٍ - أَطْلُ - فِي قَوْلِهِ (١) [من
 الطويل] :

وَيَتَنَا جَمِينًا لَوْ تُرَاقِ زُجَاجَةٌ مِنْ الْخَمْرِ فِيمَا يَتَنَا لَمْ تُسَرِّبْ
 فَأَبْدَعَ صَبْرِي فِي أَخْذِهِ وَجَعَلَ مِنْ هَذِهِ الزُّجَاجَةِ الْمُتَصَدِّعَةِ جَوْهَرَةً تَتَأَنَّقُ ؛ عَلَى أَنِّي
 لَا أَسْتَحْسِنُ قَوْلَهُ « كَانَ صَدِيقًا . . . » فَمَا هَذَا بِعِنَاقِ الْأَصْدِقَاءِ وَلَوْ كَانَ الصَّدِيقُ رَاجِعًا
 مِنْ سَفَرِ الْآخِرَةِ ! وَإِذَا غَابَ وَاحِدٌ فِي الْآخِرِ فَلَاخَرُ حَامِلٌ بِهِ . وَقَدْ أَخَذْتُ أَنَا هَذَا الْمَعْنَى
 مِنْهُ ، وَلَوْلَاهُ مَا أَهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ [من الطويل] :

وَلَمَّا التَّقَيْنَا ضَمَّنَا الْحُبَّ ضَمَّةً بِهَا كُلُّ مَا فِي مُهْجَتِنَا مِنَ الْحُبِّ
 وَشَدَّ الْهَوَى صَدْرًا لِصَدْرِ كَانَمَا يُرِيدُ الْهَوَى إِنْفَادَ قَلْبٍ إِلَى قَلْبٍ

* * *

وَأَحْسَنُ مَا تَجِدُ شِعْرَ صَبْرِي فِي الْعَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالْوَصْفِ وَالْحِكْمَةِ ، فَهِيَ عَنَاصِرُ
 قَلْبِهِ وَذَوْقِهِ ، وَلَا يَتَصَرَّفُ مَعَهُ أَقْوَى مَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ، وَلَعَلَّهُ إِنْ جَاوَزَهَا
 قَصَرَ مَعَهُ شَيْئًا مَا وَضَعْتَ أَدَانَهُ ضَعْفًا مَا ، لِأَنَّهُ يَكُونُ شَاعِرَ الصَّنْعَةِ وَهُوَ يَا بَابَاهَا وَيَكْرَهُ أَنْ
 يَكُونُ شَاعِرًا مِنْ أَجْلِهَا ؛ وَقَلَمًا يُجَارِيهِ أَحَدٌ فِي تِلْكَ الْأَغْرَاضِ ، وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَهَا ،

(١) أَلْبَيْتُ لِعَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ ، وَقَبْلَهُ [من الطويل] :

أَلَا رَبِّ لَيْلٍ ضَمَّنَا بِنْدَ هَجْعَةٍ وَأَذْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادٍ مُعَذِّبِ
 أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ بَشَّارٍ [من الطويل] :

وَمُرْتَجَّةِ الْأَعْطَافِ مَهْضُومَةِ الْخَشَا تُمُورُ بِسُخْرِ عَيْنِهَا وَتَسُدُّورُ
 إِذَا نَظَرْتَ صَبَّحَتْ عَلَيْكَ صَبَابَةٌ وَكَادَتْ قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ تَطِيرُ
 خَلُوتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ يَتَنَا إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُورُ

وَحَسْبُكَ أَنَّهُ الْمِثَالُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِ شَوْقِي بِكَ ؛ وَقَدْ يَنْقَسِمُ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ فِي رَجُلَيْنِ
حِينَ يَقْدُرُ ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدْ الْآخَرُ ، وَأَنَا أَرَى وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْلَا صَبْرِي لَمَا
نَبَغَ شَوْقِي ، وَكَانَ هَذَا يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ بِعَرَضٍ عَلَيْهِ شَعْرُهُ وَيَرْجِعُ بِأَنَارِ ذَوْقِهِ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ
يَفْعَلُ خَلِيفَةُ الْبَارُودِيِّ حَافِظُ بِكَ إِبْرَاهِيمَ ، وَاسْتَرْفَدَ شَوْقِي مِنْ صَبْرِي بِأَشَا هَذَا أَلْبَيْتِ
السَّائِرِ [من البسيط] :

صَوْنِي جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّمَا بَشَرٌ مِنْ التُّرَابِ وَهَذَا الْخُسْنُ رُوحَانِي
فَهُوَ لَصَبْرِي بِأَشَا ، وَالْمُرَافَدَةُ سُنَّةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ قَدِيمٍ ، وَهِيَ غَيْرُ الْإِنْتِحَالِ وَغَيْرُ السَّرِقَةِ
وَمَا يُسَمَّى إِغَارَةً وَغَضَبًا ؛ وَقَدْ اسْتَرْفَدَ التَّابِعَةُ زُهَيْرًا فَأَمَرَ ابْنَهُ كَعْبًا فَرَفَدَهُ ، وَالْحِكَايَةُ فِي
ذَلِكَ مَشْهُورَةٌ عَنْهُ وَعَنْ سِوَاهُ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي مِصْرَ مِمَّنْ يُحْسِنُ ذَوْقَ الْبَيَانِ وَتَمَيِّزَ أَقْدَارِ الْأَلْفَاظِ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ
وَالْوَانِ دِلَالَتَهَا كَالْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي وَإِبْرَاهِيمَ الْمُؤَلِّحِي وَالشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ
جَمِيعًا ؛ وَالْبَارُودِيُّ يَذُوقُ بِالسَّلَافَةِ ، وَصَبْرِي بِالْعَاطِفَةِ ، وَالْمُؤَلِّحِي بِالظَّرْفِ ، وَالشَّيْخُ
بِالْبَصِيرَةِ الْتَفَادَةٍ ؛ وَذَلِكَ شَيْءٌ رَكَّبَهُ اللَّهُ فِي طَبِيعَةِ صَبْرِي لَمْ يُحْصَلْهُ بِالذَّرْسِ أَكْثَرَ مِمَّا
حَصَلْهُ بِالْحِسِّ ، وَمِنْ أَجْلِهِ كَانَ يُفْضَلُ الْبُخْتَرِيُّ عَلَى غَيْرِهِ ، وَهُوَ يَلَا نِزَاعَ بُخْتَرِي مِصْرَ ،
كَمَا لَقَبُوا ابْنَ زَيْدُونَ بُخْتَرِي الْمَغْرِبِ ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ فِي شَعْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهَا
شَعْرٌ مَعَ الشَّعْرِ ، فَتَقِفُ عَلَى الْعِبَارَةِ مِنْهَا وَقَلْبُكَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا إِنَّمَا وَضِعَتْ لِقَلْبِكَ
خَاصَّةً ، فَهِيَ تَغْمِزُ عَلَيْهِ غَمْرًا وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ
الْجَنَّةِ .

وَيَمْتَنِازُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ ضَوْءًا مِنْ جَمَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَهُوَ
عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ الَّذِي صَرَفَ كُلَّ شِعْرِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَوْ أَنَّ
عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ أَدَبٍ صَحِيحٍ لَأَخْمَلَ كُلَّ شُعْرَاءِ هَذَا الْبَابِ ، مِنْ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ إِلَى طَبَقَةِ
عُشَّاقِ الْعَرَبِ إِلَى أُنْمَةِ الطَّرِيقَةِ الْغَرَامِيَّةِ لِآخِرِ الْقَرْنِ السَّابِعِ .

وَمِنْ غَزَلِهِ الْأَبْدَنِيعِ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَا مَنْ أَقَامَ فُؤَادِي إِذْ تَمَلَّكَهُ
تَفْدِيكَ أَعْيُنُ قَوْمِ حَوْلِكَ أَزْدَحَمَتْ
جَرَدَتْ كُلَّ مَلِيحٍ مِنْ مَلَاَحَتِهِ
وَقَوْلُهُ [من البسيط] :

أَفْصِرَ فُؤَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافِعَةٍ
سَلَا أَلْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرْتَهُ زَمَنًا
وَيَا رَحْمَةَ اللَّهِ لِلْقَلْبِ الَّذِي يَفْهَمُ هَذَا الْبَيْتَ ، فَإِنَّهُ لِيَجُنُّ بِهِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ
لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْجُنُونِ .

وَمِنْ قَلَائِدِهِ الْغَرَامِيَّةُ قَوْلُهُ [من البسيط] :

يَا آسِيَّ الْحَيِّ هَلْ فَتَشْتَ فِي كَيْدِي
أَوَاهُ مِنْ حُرْقٍ أَوْدَتْ بِمُعْظَمِهَا
يَا شَوْقُ رَفَقًا بِأَضْلَاعٍ عَصَفَتْ بِهَا
وَلَهُ قَصِيدَةٌ (نَمَثَالُ جَمَالٍ) وَقَدْ نَظَمَهَا لِنُتْقَلِ إِلَى الْفَرَنْسَوِيَّةِ ، وَمِنْ عُيُونِهَا قَوْلُهُ [من
الرملي] :

وَابْسِمِي ، مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ
لَا تَخَافِي شَطَطًا مِنْ أَنْفُسِ
رَاضَتِ النَّخْوَةَ مِنْ أَخْلَاقِنَا
فَلَوْ أَمَلَدْتَ أَمَانِينَا إِلَى

وَالشُّعْرَاءُ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِ الْأَدَبِ إِلَى الْيَوْمِ يَقُولُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « لَا تَخَافِي شَطَطًا »
الْأَبْيَاتُ . وَمَا مِنْهُمْ مَنْ وَفَّقَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْأَخِيرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ بَلَغَ الْغَايَةَ ،
كَابْنِ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ وَالسَّرِيِّ الرَّفَاءِ وَغَيْرِهِمَا .

وَمِنْ أَبْدَعَ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي الْوَصْفِ أَبْيَاتٌ فِي الدَّوَاةِ تَخَلَّصَ فِي آخِرِهَا إِلَى مَدْحِ
النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ تَخَلَّصٌ لَيْسَ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ مِثْلُهُ فِي الْإِبْدَاعِ وَحُسْنِ الْإِخْتِرَاعِ ،

يَقُولُ فِيهَا [من الخفيف] :

أَكْرَمِي الْعِلْمَ وَأَمْتَحِي خَادِمِيهِ
وَأَبْذِلِي الصَّافِي الْمُطَهَّرَ مِنْهُ
وَإِذَا الظُّلُمُ وَالظُّلَامُ اسْتَعَانَا
وَأَسْتَمَدَا مِنَ الشُّرُورِ مِدَادَا
وَأَقْذِفِي النُّقْطَةَ الَّتِي بَاتَ فِيهَا
لِسِرَاعِ أَمْرِي إِذَا خَطَّ سَطْرًا
وَإِذَا كَانَ فِيكَ نُقْطَةُ سُوءٍ
فَأَجْعَلِيهَا قِسْطَ الَّذِينَ اسْتَبَاحُوا
وَإِذَا خِفْتَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّخْرِ
فَأَبْخَلِي بِالْمِدَادِ بُخْلًا وَإِنْ أُعْطِيَ
فَإِذَا أَعْوَزَ الْمِدَادُ طِينَنَا
فَأَمْنَحِيهِ الْمُرَادَ مَنَا وَعُرْقَا
وَإِذَا مُهَجَّهَ الْحَمَائِمِ أَسَدَتْ
فَأَجْعَلِيهَا عَلَى الْمَوَدَاتِ وَقْفَا
فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِقَلْبِكَ إِلَّا
فَأَجْعَلِيهِ حَظِّي لِأَكْتُبَ مِنْهُ

هَذَا وَاللَّهُ هُوَ الشَّعْرُ ، وَمَا وَفَّقَ إِلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ كَاتِبًا مَنْ كَانَ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

* * *

وَلَا نُطِيلُ بِالنُّقْلِ مِنْ شِعْرِهِ وَتَتَبِعْ أَغْرَاضِهِ ، فَهُوَ كَالْأَلْمَاسِ فِي الشَّنْسِ : يُشْعُ مِنْ كُلِّ
جِهَةٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ ضَوْؤُهُ إِلَّا فِي بَعْضِ اللَّوْنِ مِمَّا يَكُونُ الْأَجْمَلُ فِيمَا كُلُّهُ جَمَالٌ ، وَيَمُجُّ مِنْ
الشَّعَاعِ مَا لَا تَجِدُ حُسْنَهُ فِي الشَّعَاعِ نَفْسِهِ ، وَأَحْيَانًا يَرِقُّ كَبَعْضِ الْبُلُورِ فَيَمْتَصُّ حَرَارَةَ الشَّمْسِ
وَيَسْتَوْفِدُ بِهَا فِي ذَاتِهِ لِيُضْرِمَ مَا وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا قُلُوبُنَا الْحَزِينَةُ عَلَيْهِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

* * *

حَافِظُ أَبِرَاهِيمِ (*)

فَرَعْتُ أَلَانَ مِنْ قِرَاءَةِ شِعْرِ حَافِظٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَعُدْ حَافِظٌ بَيْنَنَا إِلَّا شِعْرُهُ وَنَثَرُهُ ، فَبِاللهِ
أَخْلَفَ مَا نَظَرْتُ فِي صَفْحَةٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيَّ إِلَّا وَأَخْسَسْتُ أَنَّ ذَلِكَ الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ يَقُولُ فِي
بَيَانِهِ الزَّائِعِ وَصِنَاعَتِهِ الْبَدِيعَةِ : أَنَا هُنَا !

وَلَعَةُ هَذَا الشُّعْرِ الْمَتَدَفِّقَةُ بِالْحَيَاةِ كَأَنَّ كَلِمَاتِهَا أَلْقَوِيَّةٌ عُرُوقُ فِي جِسْمٍ حَيٍّ مُتَوَتِّبٍ . لَمْ
تَخْرُجْ عَنْ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْعَرَبِيَّةُ الْمُسَيِّتَةُ فِي جَزَالَتِهَا وَنَصَاعَتِهَا وَدَقَّةِ تَرْكِيبِهَا اللَّبِّيَّ ، وَمَعَ
ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْعَصْرِ كُلِّهِ مَنْ يُكَابِرُ أَوْ يُمَارِي فِي أَنَّهَا هِيَ لَعَةُ حَافِظٍ وَحْدَهُ ، كَأَنَّهُ
أَرْغَمَ التَّارِيخَ أَنْ يَحْفَظَ بِهِ فِي أَجْمَلِ آثَارِهِ .

وَأَنَا أَعْرِفُ فِي شِعْرِهِ مَوَاضِعَ مِنَ الْأَضْطِرَابِ وَالضَّعْفِ وَالنَّقْصِ سَاشِيرٌ إِلَى بَعْضِهَا ،
وَالْكِبِّيَّ عَلَى مَا أَعْرِفُهُ أَجِدُ هَذَا الشُّعْرَ كَالْتِّيَارِ يُعْبُ عُبَابُهُ لَا يُبَالِي مَا تَنَازَرَتْ مِنْهُ وَمَا رَكَدَتْ وَمَا
وَقَعَ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهِ ، إِذْ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي اجْتِمَاعِ مَا دَتِهِ لَا فِي أَجْزَاءِ مِنْهَا ، وَفِي السَّرِّ الَّذِي
يَدْفَعُهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لَا فِي الْمَظْهَرِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ ؛ فَهُوَ أَبَدًا يَقُولُ
لِمَنْ يَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ أَوْ يَنْتَقِدُهُ : أَنْظُرْ لِمَا بَقِيَ .

* * *

تَرْجِعُ صِدَاقَتِي لِحَافِظٍ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى سَنَةِ ١٩٠٠ ، أَوَّلِ عَهْدِي بِالْأَدَبِ وَطَلَبِهِ ، وَقَدْ
شَهِدْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ بِنَاءَهُ الْأَدَبِيَّ عَالِيًا فَعَالِيًا إِلَى الذَّرْوَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا ؛ وَأَخْلَصَ لِي ثِقَتَهُ
وَأَصْفَانِي مَوَدَّتَهُ ، وَكَانَ هُمُكَ مِنْ أَخٍ كَرِيمٍ ، وَلَهُ فِي نَفْسِي مَكَانٌ لَمْ يُنْكَرْهُ مَذْعَرَفَتُهُ ، وَلَمْ
يَضِقْ بِمَحَبَّتِهِ مُنْذُ اتَّسَعَ لَهَا ، وَكُنْتُ وَإِنِّي أَرَى أَحَدَنَا الْآخَرَ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ كَالْجَانِبَيْنِ لِصُورَةٍ
وَاحِدَةٍ : لَا يَنْهَيَا فِي الطَّبِيعَةِ أَنْ يَخْتَلِفَا وَالصُّورَةُ بَعْدَ قَائِمَةٍ ، وَلَا أَنْ يَضْطَرِبَ مَا بَيْنَهُمَا
وَالصُّورَةُ مِنْهُمَا عَلَى وَزْنٍ وَتَقْدِيرٍ .

وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَقَرَّرَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدِي أَكْبَرَ مِنْ شِعْرِهِ - وَلَعَلَّهُ كَذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ

خَلَطُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ - فَإِنَّهُ يَتَعَاطَمُكَ بِنَفْسِهِ الْقَوِيَّةِ وَبِالْمَعْنَى الَّذِي تُحِبُّهُ فِي الْعَبَقَرِيِّ وَلَا تَذَرِي مَا هُوَ ، وَذَلِكَ مِنْ سِحْرِ الْعَبَقَرِيِّينَ وَأَثَرِهِمْ فِي نَفْسٍ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ ، فَيَسْقُ لَهُمْ أَمْرَانِ مِنْ أَمْرِ وَاحِدٍ ، وَحَظَانِ بِحَظٍ ؛ وَنَصِيْبَانِ بِنَصِيْبٍ ؛ لِأَنَّ مَعَ الْإِعْجَابِ بِأَثَرِهِمْ إِعْجَابًا آخَرَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي أَبْدَعَتْ هَذِهِ الْأَثَارَ ؛ فَفِي ذَوَاتِهِمْ الْمَحْبُوبَةِ يَسْتَمِرُّ الْإِعْجَابُ كَالسَّائِرِ عَلَى طَرِيقٍ لَا مَوْقِفَ عَلَيْهِ ، وَفِي أَثَرِهِمْ يَكُونُ الْإِعْجَابُ فِي مَوْقِفٍ قَدْ أَنْتَهَتْ الطَّرِيقُ بِهِ فَوْقَ عَلَى حَدٍّ إِنْ بَعْدَ وَإِنْ قُرُبَ .

لَا جَرَمَ كَانَ شَاعِرُنَا عَبَقَرِيًّا ، عَجِيبَ الصَّنْعَةِ ، قَوِيَّ الْإِلَهَامِ ، بَلِيغَ الْأَثَرِ فِي عَصْرِهِ ، يُسَبِّهُ تَحَوُّلًا وَقَعَ فِي صُورَةِ التَّارِيخِ ، وَلَكِنَّهُ كَذَلِكَ فِي مَذَاهِبٍ مِنَ الشَّعْرِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ التَّمَامِ فِي فُنُونِ الشَّعْرِ مَا يَكُونُ بِهِ الشَّاعِرُ التَّامُّ أَوِ الْآدِيبُ الْكَامِلُ الْأَدَاةُ ؛ وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ كَلَّمْتُهُ فِي ذَلِكَ وَنَبَّهْتُهُ إِلَى أَنَّهُ كَالْتَّمَطِ الْوَاحِدِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَرَسَّلَ شِعْرُهُ بَيْنَ الثُّغُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَغْرَاضِهَا الْكَثِيرَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَإِذَا كَانَتْ السِّيَاسَةُ مِنَ الْحَيَاةِ فَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ هِيَ السِّيَاسَةُ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شِعْرُهُ كُلُّهُ كَشْمَسِ الصَّيْفِ ، فَإِنَّ لِلرَّيْعِ شَمْسًا أَجْمَلَ مِنْهَا وَأَحَبَّ ، كَأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَزْهَارِهِ وَعِطْرِهِ وَنَسِيمِهِ .

وَلَقَدْ كَانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ (الشَّاعِرُ الْاجْتِمَاعِيُّ) ، وَهَذَا لَقَبٌ مَيَّزَهُ بِهِ صَدِيقُنَا الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ كُرْدُ عَلِيٍّ أَيَّامَ كَانَ فِي مِصْرَ قَدِيمًا ، فَتَعَلَّقَ بِهِ حَافِظٌ وَرَأَهُ تَغْيِيرًا صَحِيحًا لِمَا فِي نَفْسِهِ وَلِلْمَمْلَكَةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا ، قَالَ لِي يَوْمًا فِي سَنَةِ ١٩٠٣ : أَنَا لَا أَعُدُّ شَاعِرًا إِلَّا مَنْ كَانَ يَنْظِمُ فِي الْاجْتِمَاعِيَّاتِ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا لَكَ لَا تَقُولُ بِالْعِبَارَةِ الْمَكْشُوفَةِ : إِنَّكَ لَا تَعُدُّ الشَّاعِرَ إِلَّا مَنْ يَنْظِمُ مَقَالَاتِ الْجَرَائِدِ ...

وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَبْسُطَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الْفَصْلِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ دَائِمًا أَنَّ شَاعِرَنَا (حَافِظَ) خَلَقَ لِلتَّارِيخِ فِي أَصْلِ طَبِيعَتِهِ ، ثُمَّ زِيدَتْ فِيهِ مَوْهَبَةُ الشَّعْرِ لِيَكُونَ مُؤَرِّخًا حَيِّ الْوَصْفِ بَلِيغَ التَّأَثُّيرِ قَوِيَّ التَّصَرُّفِ ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ أَكْثَرُ مَا نَظَّمَهُ وَأَسَاسُهُ التَّارِيخُ وَالسِّيَاسَةُ ، وَصَحَّ لَهُ بِهِذَا الْأَعْتِبَارِ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُ الشَّاعِرُ الْاجْتِمَاعِيُّ ، وَلَكِنْ مَادَّةُ الشَّعْرِ غَيْرُ رُوحِ الشَّعْرِ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْمَادَّةِ اجْتِمَاعِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ فَلَيْسَ فِي الرُّوحِ إِلَّا الشَّاعِرُ عَلَى إِطْلَاقِهِ ؛ وَالْاجْتِمَاعِيَّاتُ لَيْسَتْ كُلُّ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَانٍ خَاصَّةٌ مَخْصُورَةٌ فِي زَمَنِهَا

وَمَكَانِهَا ، عَلَى أَنَّ الْحَقَائِقَ لَيْسَتْ هِيَ الشَّعْرُ ، وَإِنَّمَا الشَّعْرُ تَصْوِيرُهَا وَالْإِحْسَاسُ بِهَا فِي شَكْلِ حَيٍّ تَلْبَسُهُ الْحَقِيقَةُ مِنَ النَّفْسِ ، فَالشَّاعِرُ الْأَجْتِمَاعِيُّ شَاعِرٌ فِي حَيِّرٍ مَخْدُودٍ مِنْ وُجُوهِ الشَّعْرِ وَمَذَاهِبِهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَجْتِمَاعُ كُلُّ شِعْرِهِ فَلَا يُسَمَّى شِعْرُهُ فَنًّا ، إِذْ كَانَ الْفَنُّ إِنْسَانِيًّا وَكَانَ شَامِلًا عَامًّا ؛ وَالْمَقَاسِيسُ الَّتِي يَطْرُدُ عَلَيْهَا الْفَنُّ الْأَدَبِيُّ لَا تَكُونُ فِي الزَّمَنِ وَلَا فِي الْمَوْضِعِ ، بَلْ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الشَّعْرُ إِنْسَانِيًّا عَامًّا يُؤَلَّدُ كُلُّ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُهُ كَأَنَّمَا وَضِعَ لَهُ وَأَرْتَهَنَ بِأَعْرَاضِهِ وَحَقَائِقِهِ ، فَهُوَ شِعْرٌ (كَالْأَخْبَارِ الْمَحَلِّيَّةِ) ؛ وَهَذَا وَجْهُ الشُّبْهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَشْرْتُ إِلَيْهِ إِنَّمَا مِنْ نَظْمٍ مَقَالَاتِ الْجَرَائِدِ .

فَمَقَالَاتُ الْجَرَائِدِ هَذِهِ لَا تَأْتِينَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَحْنُ مِنْهَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ وَحَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، بَلِ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا يَوْمُنَا الْمَرْفُومُ بِأَنَّهُ يَوْمٌ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا . . . فَإِذَا مَاتَ الْيَوْمُ مَاتَتِ الْجَرِيدَةُ ، ثُمَّ تُؤَلَّدُ ثُمَّ تَمُوتُ ؛ وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُتَنَبِّيُّ سِرَّ الشَّعْرِ وَأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى تَحْوِيلِ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَى مَعْرِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ ، فَخَلَدَ شِعْرُهُ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَحَى مِنَ الْعَرَبِيَّةِ مَا بَقِيََتْ . وَهَذَا عَلَى مَا يُقَدِّحُ مِنْ وُجُوهِ الْأَعْتِرَاضِ وَالنَّقْصِ ، وَعَلَى أَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ كَانَ ضَعِيفًا فِي نَاحِيَةِ الْجَمَالِ وَالْحُبِّ ضَعْفًا ظَاهِرًا كَضَعْفِ شَاعِرِنَا حَافِظٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنْ حِكْمَتُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَدِقَّةُ أَوْصَافِهِ وَإِقَامَتُهُ الْفَضَائِلَ وَالزُّدَائِلَ فِي كَمَالِهَا الْقَمِّيِّ مَقَامَ تَمَائِيلَ بَارِعَةٍ مِنَ الْجَمَالِ ، كُلُّ ذَلِكَ تَرَكَ شِعْرُهُ مُسْتَمِرًّا بِاسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَبِاسْتِمْرَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبِاسْتِمْرَارِ الدُّوقِ .

إِنَّ هَذَا الْكَوْنَ مَبْنِيٌّ فِي نَفْسِهِ مِمَّا يَعْلَمُ الْعِلْمُ تَرْكِيبَهُ وَلَا يَعْلَمُ سِرَّ تَرْكِيبِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهُ مَبْنِيٌّ فِي أَنْفُسِنَا مِنْ عَمَلِ الْحَوَاسِّ ، ثُمَّ مِنَ التَّغْلِيلِ وَالتَّفْسِيرِ ؛ أَمَّا الْحَوَاسُّ فَفِي كُلِّ حَيٍّ ، لَا تُخْلَقُ بِصِنَاعَةٍ وَلَا عَمَلٍ ؛ وَأَمَّا التَّغْلِيلُ وَالتَّفْسِيرُ فَهُمَا مِنْ صِنَاعَةِ الشَّاعِرِ وَالْأَدِيبِ ، فِكِلَاهُمَا يُخْلَقُ لِاتِّمَامِ الْخَلْقِ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ مَثَرَةٌ لَا أَدْرِي كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تُمَسَّحَ حَتَّى تَقْتَصِرَ عَلَى مَعْنَى الشَّاعِرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ أَوِ السِّيَاسِيِّ ، فَتَرْجِعَ بِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّ الْأَثَارَ الْأَدَبِيَّةَ وَفِي جُمْلَتِهَا الشَّعْرُ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا قُوَى الْفِكْرِ وَالْهَامِ النَّفْسِ وَبَصِيرَةُ الرُّوحِ مُسَجَّلَةٌ كُلُّهَا فِي بَوَاعِثِهَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ نَفْسٍ عَالِيَةٍ مُنْتَازَةٍ ؛ وَهَذِهِ الْقُوَى كَثِيرَةٌ التَّحْوِيلِ ،

فَيَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ آثَارُهَا كَثِيرَةً التَّنَوُّعِ ، وَتَتَوَّعُ الصُّورِ الْفِكْرِيَّةِ فِي آثَارِ الشَّاعِرِ أَوْ الْأَدِيبِ وَمَجِئُهَا مُتَوَافِرَةٌ مُتَابِعَةٌ هُوَ مَعْيَارُ أَدَبِهِ وَقِيَاسُ نُبُوغِهِ عَالِيًا أَوْ نَازِلًا ، وَمُتَبِعًا أَوْ مُتَبَكِّرًا ، وَفِيمَا يُضِيءُ مِنْ نَوَاحِيهِ وَمَا يَنْطَفِئُ .

عَلَى أَنْ شَاعِرُنَا الْأَجْتِمَاعِيَّ (كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ) وَإِنْ كَانَ قَدْ نَفَخَ فِي رُوحِ الشَّعْبِ أَنْفَاسًا إِلَهِيَّةً ، وَأَحْسَنَ فِي وَصْفِ حَوَادِثِهِ وَالْأَمَةِ وَعُيُوبِهِ ، وَأَبْلَغَ الْبَيَانَ فِي كُلِّ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ نَزَلَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ عَنْ وَضْعِهِ الصَّحِيحِ ، فَكَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ بِمَكَانِ الشُّرْطِيِّ فِي الطَّرِيقِ ؛ يَقِفُ لِلْجَرَائِمِ وَالْحَوَادِثِ ، عَلَى حِينٍ أَنْ مَقَامَهُ الْأَجْتِمَاعِيَّ مِنَ الشَّعْبِ مَقَامُ الْمُعَلِّمِ فِي مَدْرَسَتِهِ : يَجْلِسُ لِلطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ . لَيْسَ الشَّانُ أَنْ يُوجَدَ فِي شِعْرِ الشَّاعِرِ حَوَادِثُ عَصْرِهِ أَكْثَرَهَا أَوْ أَقَلُّهَا ، فَإِنَّ فَوْقَ هَذِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا ، وَهِيَ أَنْ تُوجَدَ حَوَادِثُ الْفَهْمِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي شِعْرِهِ الْعُنْصُرُ الثَّارِي مِنَ اللُّغَةِ الشَّعْبِيَّةِ .

عَلَى أَنْ « حَافِظ » رَحِمَهُ اللَّهُ أَذْرَكَ كُلَّ هَذَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ ، فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُمِيتَ دِينَوَانَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ جُزْءًا صَغِيرًا يَخْتَارُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ وَيُسْقِطُ مَا عَدَاهَا وَإِنْ . . . وَإِنْ كَانَ فِيهِ شِعْرٌ أَجْتِمَاعِيٌّ . . . وَمَعَ هَذَا الْقُصْرِ الَّذِي بُعِثَ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ الزَّمَنِ وَطَبِيعَةُ الشَّاعِرِ مَعًا ، فَإِنَّ تَمَامَ « حَافِظِ » فِي مَذْهَبِهِ الْأَجْتِمَاعِيَّ الَّذِي نَبَغَ فِيهِ جَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْقُوَّةِ وَفَوْقَ الطَّاقَةِ ، لَا يُجَارِيهِ فِيهِ شَاعِرٌ آخَرُ ، بِحَيْثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ النَّابِغَةَ قَدَرُ إِلَهِيٍّ لَا يُنْقِصُ مِنْ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُونَ حَادِثَةً وَاحِدَةً تُدَوِّي دَوِيَّهَا فِي الدُّنْيَا ؛ فَهُوَ مُيَسَّرٌ مُنْذُ نَشَأَتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَحْكَمَتُهُ الْمَدْرَسَةُ الْحَرْبِيَّةُ ثُمَّ قَيْدَةُ الْجَيْشِ ، ثُمَّ تَقَاذُفُ السُّودَانِ ، ثُمَّ قَذْفُ بِهِ الظُّلْمِ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ إِمَامَ عَصْرِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي غَايَاتِهِ الْوَعْرَةِ وَمَقَاصِدِهِ الْعُمَرَانِيَّةِ وَمَعَانِيهِ لِلْإِصْلَاحِ - مَدْرَسَةُ حَرْبِيَّةٍ وَجَيْشٍ وَفَلَاةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ حَافِظٌ إِلَّا الصَّوْتِ الْإِنْسَانِيَّ الَّذِي أُعِدَّ بِخَصَائِصِهِ لِلتَّغْيِيرِ عَنْ حَوَادِثِ أُمَمِهِ وَخَصَائِصِهَا ، وَكَأَنَّهُ فِي ثَقَلَتِهِ مِنَ السُّودَانِ إِلَى مِصْرَ قَدْ انْتَقَلَ مِنْ جَيْشٍ يُحَارِبُ الْأَقْوَامَ الْأَعْدَاءَ لِأُمَمِهِ ، إِلَى جَيْشٍ آخَرَ يُحَارِبُ الْمَعَانِي الْأَعْدَاءَ لِأُمَمِهِ .

* * *

وُلِدَ حَافِظُ أَبْرَاهِيمَ سَنَةَ ١٨٧١ ، وَكَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي هَدَاهُ إِلَى سِرِّ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

وَأَزْهَقَ ذَوْقَهُ وَأَحْكَمَ طَبِيعَتَهُ ، هُوَ كِتَابُ « الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ » لِلشَّيخِ حُسَيْنِ الْمَرْصُفِيِّ ، الْمَطْبُوعِ فِي مِصْرَ لِحَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً ؛ فِيهِ هَذَا الْكِتَابُ قَرَأَ حَافِظٌ خُلَاصَةً مُخْتَارَةً مُحَقَّقَةً مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي عَصُورِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَدَرَسَ ذَوْقَ الْبَلَاغَةِ فِي أَسْمَى مَا يَبْلُغُ بِهَا الذَّوْقُ ، وَوَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا ، وَعَرَفَ مِنْهُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي نَبَعَ بِهَا الْبَارُودِيُّ ، وَهِيَ قِرَاءَتُهُ دَوَائِينَ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَحَفِظَهُ الْكَثِيرَ مِنْهَا ، فَبَنَى شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمِئِذٍ قَرِيبَتَهُ عَلَى الْحِفْظِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَحْفَظُ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ ، إِذْ كَانَتْ قَرِيبَتُهُ كَالِةِ التَّصْوِيرِ : لَا تَنْبَهُ لَشَيْءٍ إِلَّا عِلَقَتُهُ ، وَهَذَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ خَيَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ فِي اللُّغَةِ مَا تَنَاهَى فِيهِ إِلَى الْغَايَةِ .

وَاتَّفَقَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَنْ طُبِعَتْ « لُزُومِيَّاتُ الْمَعَرِّي » فِي مِصْرَ ، فَتَنَاوَلَهَا حَافِظٌ وَأُسْتَظْهَرَ أَكْثَرَهَا ، فَكَانَتْ بَاعَتْ مِثْلَهُ وَتَزَعَّتْ إِلَى الشُّعْرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ حَافِظٍ وَبَيْنَ الْمَعَرِّي فِي الْمَوْهَبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ هُوَ الَّذِي نَفَذَ بِالْمَعَرِّي إِلَى أَسْرَارِ كَثِيرَةٍ وَوَقَفَ بِحَافِظٍ عِنْدَ الظَّاهِرِ وَمَا حَوْلَهُ ، يَطِيرُ هُنَاكَ وَيَقَعُ .

وَقَدْ كَانَ صَاحِبِنَا ضَعِيفًا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، فَاسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ أَسْرَارُهَا وَاسْتَغْلَقَتْ أُخْرَى مِنْ أَسْرَارِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي الْخَلِيقَةِ ، وَالْجَلَالِ وَالْإِبْدَاعِ فِي الْكَوْنِ ، وَالْإِفْرَارِ وَالشَّكِّ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَقَدْ بَلَغَ الْمَعَرِّي مِنْ هَذَا مَبْلَغًا لَا بَأْسَ بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِفْ كَمَا تَصِفُ الْأَشْيَاءُ فِي عَيْنِ مُبْصِرَةٍ ، فَخَبَطَ وَخَلَطَ ، وَوَضَعَ مِنْ أَغْرَاضِ نَفْسِهِ الْمَرِيضَةِ عَلَى الصَّحِيحِ وَالْمَرِيضِ جَمِيعًا . وَتَابَعَهُ حَافِظٌ فِي طَرِيقَةٍ أُخْرَى سَنَشِيرُ إِلَيْهَا بَعْدُ .

وَفَتِنَ شَاعِرُنَا بِمَا قَرَأَ فِي « الْوَسِيلَةِ » مِنْ شِعْرِ الْبَارُودِيِّ ، فَأَصْبَحَ مِنْ يَوْمِئِذٍ تَلْمِيزَهُ ، وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ وَجَرَالَةِ السَّبْكِ وَمَتَانَةِ الصَّنْعَةِ وَجُودَةِ التَّأْلِيفِ عَلَى نَعْمِ الْأَلْفَاظِ وَأَجْرَاسِ الْحُرُوفِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَأْوَ الْبَارُودِيِّ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ هَذَا جَمَعَ مِنْ دَوَائِينَ الشُّعْرَاءِ وَكُتِبَ الْأَدَبِ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِغَيْرِهِ فِي عَصْرِهِ ، وَأَدْخَلَ فِي شِعْرِهِ أَحْسَنَ مَا صَنَعَتِ الدُّنْيَا فِي أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَلِذَا انْتَقَلَ عَنْهُ حَافِظٌ إِلَى طَرِيقَةِ مُسْلِمِ بْنِ الْأُولَيْدِ فِي الصَّنِيعِ وَلَزِمَهَا إِلَى آخِرِ مُدَّتِهِ .

وَأَبْتَدَأُ يُعَالِجُ الشُّعْرَ فِي السُّودَانِ يَنْظِمُ فِي جِنْسٍ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنْ وَصْفِ أَلْهَمِ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، إِذْ كَانَ يَتِيمًا فَقِيرًا مُشْرَدًا ، وَيَرَى نَفْسَهُ شَاعِرًا تَصُدُّهُ الْحَيَاةُ عَنْ مَنَزَلَةِ الشَّاعِرِ وَعَنْ أَمْنِكَةِ الشُّعْرِ ، كَأَلَدِي غُصْبٍ مِثْرَانُهُ مِنْ عَرْشٍ وَمُلْكٍ ، وَنُفِي إِلَى غَيْرِ أَرْضِهِ ، وَوَضِعَتْ رُوحُهُ بِأَرْزَاءِ رُوحِ الْفَقْرِ ، وَقِيلَ لَهَا : عَدُّوْا مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بَدْ .

ثُمَّ جَاءَ مِصْرَ وَاتَّصَلَ بِالْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ ، وَاسْتَقَالَ مِنَ الْحَبِشِ وَفَرَّغَ لِلْأَدَبِ ، فَبَدَأَ مِنْ ثَمَّ تَكْوِينُهُ الْأَدَبِيَّ الْمُنْدَمِجَ الْمُحْكَمَ ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى سَنَةِ ١٩٠١ الَّتِي طُبِعَ فِيهَا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ دِيَوَانِهِ ، فَكَانَ شِعْرُهُ قَلِيلًا ظَاهِرَ التَّكَلُّفِ ، وَأَكْثَرُهُ يَدُلُّ عَلَى طَرِيقَةِ مُضْطَرِيبَةٍ لَمْ تَسْتَحْكِمْ ، وَفَكَرَ لَمْ يَنْضُجْ ، وَمَوْهَبَةٍ فِي التَّوَلِيدِ الشُّعْرِيِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِسْتِقْلَالِ أَمَدٌ قَرِيبٌ .

وَدَرَسَ فِي مَدْرَسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ مِنْ سَنَةِ ١٨٩٩ إِلَى سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَهَذَا الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ رَجُلًا قَدًّا ، وَكَأَنَّهُ نَبِيٌّ تَأَخَّرَ عَنْ زَمَانِهِ ، فَأُعْطِيَ الشَّرِيعَةَ وَلَكِنْ فِي عَزِيمَتِهِ ، وَوُهِبَ الْوَحْيُ وَلَكِنْ فِي عَقْلِهِ ، وَاتَّصَلَ بِالسُّرِّ الْقُدْسِيِّ وَلَكِنْ مِنْ قَلْبِهِ ، وَلَوْلَا هُوَ وَلَوْلَا أَنَّهُ بِهِذِهِ الْخَصَائِصِ لَكَانَ حَافِظُ شَاعِرًا مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْخِ وَحْدَهُ كَانَتْ لَهُ هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يُصِيبُ الْإِلَهَامَ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ يَعْرِفُهُ ، وَكَانَ لَهُ مِنْ أَثَرِهَا هَذَا الشُّعْرُ الْمَتِينُ فِي وَصْفِ الْعُظَمَاءِ وَالْعَظَائِمِ وَهُوَ أَحْسَنُ شِعْرِهِ .

وَلَمْ يَجِدْ حَافِظٌ مِنْ قَوْمِهِ مَا يَجْعَلُهُ لِسَانَهُمْ حَتَّى تُنْطِقَهُ بِالْوَحْيِ نَفْسِيَّتُهُمُ التَّأْرِيخِيَّةُ الْكُبْرَى ، وَلَا تَوَلَّاهُ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرٌ يَرْغَبُ فِي أَدَبِهِ رَغْبَةً أَدِيبٌ مَلِكٌ ، أَوْ أَدِيبٌ أَمِيرٌ ، لِيُظْهِرَ مِنْهُ عِبْقَرِيَّةَ جَدِيدَةٍ فِي التَّأْرِيخِ ، وَلَا عَرَفَ الْحُبَّ الَّذِي يَجْعَلُ لِلشَّاعِرِ مِنْ سِحْرِ الْحَبِيبِ مَا يَجْمَعُ النَّفْسِيَّةَ التَّأْرِيخِيَّةَ وَالْمَلَكِيَّةَ مَعًا وَيَزِيدُ عَلَيْهِمَا ؛ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الَّتِي لَمْ تَتَفَقَّ لِحَافِظٍ ، هِيَ الَّتِي لَا يَنْبَغُ أَشَاعِرُ بُبُوغًا يُفْرِدُهُ وَيُمَيِّرُهُ إِلَّا بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ بِأَثْنَيْنِ أَوْ بِهَا كُلِّهَا ، غَيْرَ أَنَّ « حَافِظَ » وَجَدَ فِي الْإِمَامِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ فِي النَّفْسِ وَالْجَاذِبَةِ ، وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ ذَوْقِ الْأَدَبِ وَالْبَلَاغَةِ مَا لَمْ يَعْرِفْ شَاعِرٌ فِي مَلِكٍ وَلَا أَمِيرٍ ؛ وَقَدْ حَضَرَ دُرُوسَهُ فِي الْمَنْطِقِ وَ« أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ » وَ« دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ » ، وَخَرَجَ مِنْهَا بِذَوْقِهِ الدَّقِيقِ وَأُسْلُوبِهِ الْمُتَمَكِّنِ ، وَحَضَرَ مَجَالِسَهُ وَخَرَجَ مِنْهَا بِمَوَاضِيْعِهِ الْأَجْمَاعِيَّةِ وَأَعْرَاضِهِ الْوَلَوَّابَةِ ،

وَحَضَرَ نَظْرَاتِ عَيْنَيْهِ وَخَرَجَ مِنْهَا بِرُوحَانِيَّةٍ قَوِيَّةٍ هِيَ الَّتِي تَتَضَرَّمُ فِي شِعْرِهِ إِلَى الْأَبَدِ ؛
فَحَافِظُ إِحْدَى حَسَنَاتِ الشَّيْخِ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَهُوَ خُطَّةٌ مِنْ خُطَطِهِ فِي عَمَلِهِ لِلإِصْلَاحِ
الشَّرْقِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَالنُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْوُطَنِيَّةِ وَإِخْيَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَتْ حَسَنَاتُ
الشَّيْخِ أَوْ عُدَّتْ لِلتَّارِيخِ ، وَجَبَ أَنْ يُقَالَ : أَصْلَحَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ الْقُرْآنَ وَأَنْشَأَ « حَافِظُ
إِبْرَاهِيم » ...

وَمَضَى شَاعِرُنَا مُوجَّهًا بِفِكْرَةِ الْإِمَامِ وَرُوحِهِ ، وَاسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ الشَّيْخِ كَمَا
يَسْتَمِرُّ النَّهْرُ إِذَا أَحْتَفَرَ مَجْرَاهُ : لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ مَا دَامَ يَجْرِي إِلَى مَقَارِهِ .

* * *

وَكَانَ حَافِظٌ فِي بَدْيِهِ وَصِنَاعَتِهِ عَلَى مَذَهَبِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ كَمَا قُلْنَا ، وَهُوَ مِثْلُهُ إِنْطَاءٌ
فِي عَمَلِ الشَّعْرِ وَتَلَوُّمَا عَلَى حَوْكِهِ ، وَأَنْفِرَادًا بِكُلِّ لَفْظَةٍ مِنْهُ ، وَتَقْلِيًا لِلنَّظَرِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمَةِ
وَالْكَلِمَةِ ، وَاعْتِبَارِ كُلِّ بَيْتٍ كَالْعُرُوسِ : لَهَا مَعْرِضٌ وَحِلْيَةٌ وَزِينَةٌ ، فَإِذَا عَمِلَ شِعْرًا أَنْشَأَتْ
خَوَاطِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَذَهَبَ وَرَاءَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي ، وَتَرَكَ مَا جِئَتْهُ (الْعَقْلُ الْبَاطِنِي) (١)
يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِيمَا التَّوَلَّى عَلَيْهِ أَوْ اسْتَعْصَبَ ، وَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ سَيَنْقَادُ وَيَتَسَهَّلُ بِقُوَّةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ
فِيهِ الْآنَ فَسَتَكُونُ فِيهِ ؛ ثُمَّ يُنْظَمُ مَا يَسْمَحُ إِنْ جَاءَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْقَصِيدَةِ أَوْ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ ، فَلَا يَتَّبِعُ فِيهَا نَسَقًا بَعِيْنَهُ . وَإِنَّمَا الْقَصِيدَةُ عِنْدَهُ كُلُّ مَا سَيَجْتَمِعُ مِنْ بَعْدُ ، وَتَنْتَهِي
أَجْزَاؤُهُ مُتَسَقَّةً وَمُبَعَثَرَةً كَمَا يَجِيءُ بِهَا الْإِلْهَامُ وَأَسْبَابُ الْإِتْفَاقِ ، فَالْقَصِيدَةُ أَوَّلًا فِي أَبْيَاتِهَا ،
ثُمَّ تَكُونُ أَبْيَاتُهَا فِيهَا ، أَيْ : ثُمَّ تُرْتَّبُ الْأَبْيَاتُ وَتُنَزَّلُ فِي مَنَازِلِهَا ، وَلَا يَنْظَمُ إِلَّا مُنْعَبِيًا ،
يُرْوِضُ الشَّعْرَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَفَتَّحُ لِلْمُوسِيقَى فَتَسْمَعُ وَتَنْقَادُ ، وَهُوَ يَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ
طَرِيقَةً مَعْرُوفَةً ذَكَرَهَا ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ « خِرَازَنَةُ الْأَدَبِ » ، وَهِيَ مِنْ وَصِيَّةِ أَبِي
تَمَامٍ لِلْبُخْتَرِيِّ ، وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ يَعْمَلُ عَلَيْهَا ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ حَافِظَ يَزْتَهِنُ فِكْرَهُ بِالْقَصِيدَةِ
الَّتِي يَنْظُمُهَا وَتَوَقَّرَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا ، لَا كَمَا يَفْرُغُ الشَّاعِرُ لِلشَّعْرِ ، وَلَكِنْ كَمَا يَتَوَقَّرُ
الْمُؤَلِّفُ الْعَظِيمُ عَلَى كِتَابٍ يُؤَلِّفُهُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُبْطِئُ فِي نَثْرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُبْطِئُ فِي الشَّعْرِ ،

(١) { هَكَذَا سَمَّاهُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا ، وَقَدْ سَمَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : « الْوَاعِيَةُ الْبَاطِنَةُ » } .

دَلَّنِي بِنَفْسِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى صَفْحَةٍ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ تَرْجَمَةِ « الْبُؤْسَاءِ » وَقَالَ : إِنَّهُ تَرْجَمَهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا^(١) .

وَحَضَرَتْهُ مَرَّةً يَتَرَجِّمُ أَسْطَرًا مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ (فِي فَهْوَةِ الشَّيْشَةِ) يَحُطُّهَا فِي دَفْتَرٍ صَغِيرٍ دُونَ حَجْمِ الْكَفِّ ، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْطَرٍ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ ، وَهَذَا لَا يَعْنِيهِ مَا دَامَ يُرِيدُ قِسْطَ الْفَنِّ ، وَمَا دَامَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَاتِ مِنْ عَالَمِهَا إِلَى عَالَمِهِ هُوَ الْمَتَمَوِّجِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ يُمَثِّلُ الْكَوَاكِبِ فِي الْأَسْتَوَاءِ وَالْجَاذِبَةِ وَالشُّعَاعِ وَالرُّوْنِقِ وَالْجَمَالِ .

وَيَرَى مَعَ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَكُونَ سَبْكُ شِعْرِهِ سَبْكُ الْبَدَوِيِّ الْمَطْبُوعِ : جَزَلًا سَهْلًا مُشْرِقًا مُمْتَلِئًا مُتَعَادِلَ الْأَجْزَاءِ وَالْتِقَاسِيمِ ، يَرِنُ رَيْنًا كَأَنَّمَا قَدَفَتْ بِهِ سَلِيْقَةٌ أَعْرَابِيٍّ فَصِيحٍ ، تَحْتَ ضَوْءِ كَوَاكِبِ الْبَادِيَةِ ، عَلَى بَرْدِ الرَّمْلِ ، فِي نَسَمَاتِ اللَّيْلِ ، حِينَ تَمْلِكُ تِلْكَ النَّفْسُ الْبَدَوِيَّةُ بِحَنِينِ الْحُبِّ ، أَوْ شَوْقِ الْجَمَالِ ، أَوْ عَظَمَةِ الْقُوَّةِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي أَتْبَعُهُ ، وَقَفَّيْنِي عَلَيْهِ هُوَ بِنَفْسِهِ فِي سَنَةِ ١٩٠٢ ، وَقَرَّظَنِي بِهِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيَوَانِي فَقَالَ [من الخفيف] :

أَنْتَ وَاللَّهِ كَاتِبٌ حَضَرِيٌّ إِنْ عَدَدْنَاكَ شَاعِرًا بَدَوِيًّا
وَلَوْ أَنَّكَ أَجْرَيْتَ شِعْرَ حَافِظٍ فِي أَبْلَغَ مَا قَالَهُ الْمَطْبُوعُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَشُعْرَاءِ الْقُرْنِ
الْأَوَّلِ ، لَأَتَمَّ بِهِ وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الصَّنَاعَةِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى ؛ وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ فِي شِعْرِهِ كَلِمَةً يَنْبُو بِهَا مَكَانَهَا ، إِلَّا أَلْفَاظًا قَلِيلَةً كَانَ يَسْتَكْرِهَهَا ، يَخْسَبُ أَنَّهُ يَسْتَطْرِفُ مِنْهَا وَيَرَى فِي غَرَابَتِهَا شَيْئًا جَدِيدًا ؛ وَهَذَا مِنْ خَطَأِ رَأْيِهِ فِي الْأُسْلُوبِ ، لِأَنَّهُ مَعَ بَلَغَتِهِ كَانَ يَقْضُهُ أَنْ يَكُونَ فَيْلَسُوفًا فِي الْبِلَاغَةِ ؛ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ لَوْ تَمَتَّتْ لَهُ الْمَوْهَبَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لَمَّا جَارَاهُ شَاعِرٌ آخَرُ ، وَلَكِنَّ الْكَمَالَ عَزِيزٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ ؛ وَقَدْ عَرَفْتُ رَأْيَهُ فِي الْأُسْلُوبِ فِي سَنَةِ ١٩٠٦ ، إِذْ نَشَرْتُ لَهُ مَجْلَّةَ « الْأَقْلَامِ » الَّتِي كَانَ يُصْدِرُهَا صَاحِبُنَا الْأَدِيبُ جُورْجِ طَنُوسِ كَلِمَاتٍ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُضْمِنَهَا كِتَابَهُ « لِيَالِي سَطِينِج » ، أَظْهَرَ فِيهَا رَأْيَهُ فِي الشُّعْرَاءِ ، فَقَالَ فِي إِسْمَاعِيلِ صَبْرِي :

(١) لَمَّا أَهْدَيْتَنِي إِلَى هَذَا الْجُزْءِ كُتِبَ قَبْلَ الظُّهْرِ ، فَلَمْ يَدْعُنِي حَتَّى قَرَأْتُهُ كُلَّهُ مَعَهُ إِلَى الْعَصْرِ ، وَكَتَبْتُ عَنْهُ فِي « الْمُقَطَّمِ » بَعْدَ ذَلِكَ .

يَقُولُ الشُّعْرُ لِنَفْسِهِ لَا لِلنَّاسِ . وَفِي شَوْقِي : أَرْقُ الشُّعْرَاءَ طَبْعًا وَأَسْمَاهُمْ خَيَالًا . وَفِي
مُطَرَّانَ : أَسْرَعُهُمْ بَدِيهَةً وَأَفْدَرُهُمْ أَتِيكَارًا . وَقَالَ فِيَّ - وَلَمْ يَكُنْ مَضَى عَلَيَّ إِلَّا سِتُّ سِنِينَ
فِي طَلَبِ الْأَدَبِ - : مِكْنَارُ رَاقِيِ الْخِيَالِ بَعِيدُ الشَّوْطِ فِي مَيَادِينِ الْأَدَبِ ، غَيْرُ نَاضِجِ
الْأُسْلُوبِ . فَلَمَّا اجْتَمَعْتُ بِهِ فَاتَحْتُهُ فِي ذَلِكَ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِي الْأُسْلُوبِ النَّاضِجِ ، فَلَمْ أَرِ
عِنْدَهُ طَائِلًا . وَكُلُّ مَا قَالَهُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُزْجَانِيَّ قَرَّرَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ
فِي اللَّفْظِ وَلَا فِي الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّهَا فِي الْأُسْلُوبِ . وَعَبَدَ الْقَاهِرُ لَمْ يَقُلْ هَذَا وَلَا قَالَهُ
غَيْرُهُ ، فَإِنَّ الْأُسْلُوبَ عِنْدَهُ « طَرِيقَةٌ مَخْصُوصَةٌ فِي نَسَقِ الْأَلْفَاظِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لِتَرْتِيبِ
الْمَعَانِي فِي النَّفْسِ وَتَنْزِيلِهَا » ، « وَأَنَّ الْمَثَرَةَ مِنْ حَيْرِ الْمَعَانِي دُونَ الْأَلْفَاظِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ
لَكَ حَيْثُ تَسْمَعُ بِأُذُنِكَ ، بَلْ حَيْثُ تَنْظُرُ بِقَلْبِكَ وَتَسْتَعِينُ بِفِكْرِكَ » .

وَقَدْ قَرَّرْتُ لَهُ أَنَّ لِلْأَلْفَاظِ مَا يُشَبِّهُ الْأَلْوَانَ ، فَلَيْسَتْ كُلُّهَا زَرْقَاءَ وَلَا صَفْرَاءَ وَلَا
حُمْرَاءَ ، وَرُبَّ لَفْظَةٍ رَقِيقَةٍ تَقَعُ ضَعِيفَةً فِي مَوْضِعٍ فَيَكُونُ ضَعْفُهَا فِي مَوْضِعِهَا ذَاكَ هُوَ كُلُّ
بَلَاغَتِهَا وَقُوَّتُهَا ، كَقَتَرَةِ السُّكُوتِ بَيْنَ أَنْعَامِ الْمُوسِيقَى : هِيَ فِي نَفْسِهَا صَمْتُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ،
وَلَكِنَّهَا فِي مَوْضِعِهَا بَيْنَ الْأَنْعَامِ نَعَمٌ آخَرٌ دُونَ تَأْثِيرِ سُكُونِهِ لَا بِرَيْنِيهِ ؛ وَهَذَا مِنْ رُوحِ الْفَنِّ
فِي الْأُسْلُوبِ .

وَأَدْرَكَ شَاعِرُنَا مِنْ يَوْمِيذٍ مَا سَمَّيْتُهُ « قُوَّةَ الضَّعْفِ » ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ
طَبْعَهُ رَجَعَ يَغْدِلُ بِهِ إِلَى التَّسْهِيلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَتَقَعُ فِي شِعْرِهِ أَبْيَاتٌ مُتَهَافَتَةٌ فَيَأْتِي بِهَا وَلَا
يُنْكِرُهَا ؛ وَلَقِيتِي مَرَّةً فَأَنْشَدَنِي قَوْلَ الشَّاعِرِ [الْمَدِيدِ] :

أَنَا لَمْ أَرْزُقْ مَحَبَّتَهُ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رَزَقَا
وَجَعَلَ يَعْجِبُنِي مِنْ بَلَاغَةِ قَوْلِهِ (لَمْ أَرْزُقْ) وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ ضَعِيفَةٌ مُتَبَدِّلَةٌ تَجْرِي فِي مَنْطِقِ
كُلِّ عَامِي ، قُلْتُ : وَلَكِنَّ (مَحَبَّتَهُ) جَعَلَهَا كَمَحَبَّتِهَا

* * *

وَضَعُفُ الْمُوهِبَةِ الْفَلَسْفِيَّةِ فِي حَافِظِ عَوَضِهِ نَاحِيَةً أُخْرَى مِنْ أَقْوَى الْقُوَّةِ فِي الشُّعْرِ ،
وَهِيَ أَهْتِدَاؤُهُ إِلَى حَقِيقَةِ الْغَرَضِ الَّذِي يَنْظُمُ فِيهِ وَتَرْكُهُ الْحَوَاشِي وَالزِّيَادَاتِ ، وَأَنْصِرَافُ

قُوَاهُ إِلَى دِقَّةِ الْوَصْفِ حِينَ يَصِفُ ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَى إِخْسَاسِهِ أَكْثَرَ مِنْ تَعْوِيلِهِ عَلَى فِكْرِهِ ؛ فَرَادَ ذَلِكَ فِي رَوْثِ شِعْرِهِ وَمَائِهِ ، وَنَحَا بِهِ مَنَحَى الْمَطْبُوعِينَ ، فَخَرَجَ يَتَدَقَّقُ سَلَاسَةً وَحَلَاوَةً مُمْتَلِئًا مِنْ صَوَابِ الْمَعْنَى وَبَلَاغَةِ الْأَدَاءِ وَقُوَّةِ التَّأْيِيرِ ؛ وَبِهَذَا نَبَغَ فِي الرِّثَاءِ وَوَصَفِ الْفَجَائِعِ نُبُوغًا أَنْفَرَدَ بِهِ ، حَتَّى لَأَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ رُوحًا يَمُدُّهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ تَتَبَّحُ لَهُ فِي هَذِهِ الْعِظَائِمِ خَاصَّةً لِيَرَى مِنْهَا مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ ؛ وَهُوَ يَتَّحِدُ بِالْعَظِيمِ الَّذِي يَزِيئُهُ فَيُجِنِّدُ فِيمَنْ يَعْرِفُهُ إِجَادَةً مُنْقَطِعَةَ النَّظِيرِ ، تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِيمَنْ لَا يَعْرِفُهُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ ؛ وَأَحْسَبُهُ يَسْأَلُ رُوحَ الْعَظِيمِ الَّذِي يَصِفُهُ أَوْ يَزِيئُهُ : أَيْنَ الْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ حَقِيقَتُكَ ؟ وَأَيْنَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي فِيهَا مَعْنَاكَ ؟ .

وَالْفَلَسَفَةُ الشَّعْرِيَّةُ كُلُّهَا أَنْ يَحُلَّ فِي الشَّاعِرِ الْمُلْهَمِ ذَلِكَ السَّرُّ الْجَمِيلُ الْجَادِبُ وَالْمُنْجَذِبُ مَعًا ، الْمُسْتَقَرُّ وَالْمُتَحَوِّلُ جَمِيعًا ، الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ فِي وَفْتٍ ؛ فَيَكْتَنِيهِ الشَّاعِرُ مَا لَا يَذَرُكُهُ غَيْرُهُ ، فَيَقِفُ عَلَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ وَالرِّقَّةِ ، وَيُلْهَمُ الْحِكْمَةَ وَالْبَصِيرَةَ ، وَيَتَنَاوَلُ الْأَغْرَاضَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ ، وَيُؤْتِي التَّعْبِيرَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ فِي طَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ هِيَ أُسْلُوبُهُ ، وَهَذَا لَمْ يَتَّفِقْ عَلَى أَنَّمَا وَأَحْسَنِهِ فِي حَافِظٍ ، فَقَصَّرَ بِهِ فِي تَوَلِيدِ الْمَعَانِي الْمُبْتَكِرَةِ ، وَنَزَلَ بِهِ فِي الْغَزَلِ وَوَصَفِ الْجَمَالِ ؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْجَلَالِ بِعَيْنِهِ فِي (الْجَانِبِ الْمُتَنَائِمِ مِنْ شِعْرِهِ) ، أَيُّ : الرِّثَاءِ وَالشُّكْوَى وَوَصَفِ الْفَجِيعَةِ ، وَلَوْ ذَهَبَتْ تَسْتَعْرِضُ الْمَرَانِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَمَثَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رِثَاءِ حَافِظٍ لِلْعُظَمَاءِ الَّذِينَ خَالَطَهُمْ ، كَالْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ، وَالْبَارُودِيِّ ، وَمُصْطَفَى كَامِلٍ وَتُرُوثٍ ، لَرَاعَكَ أَنَّكَ وَاجِدٌ لِلشُّعْرَاءِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ مَعَانِيهِ وَأَقْوَى مِنْ خَيَالِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ الْبَتَّةَ مَا هُوَ أَفْخَرُ وَأَدْقُ مِمَّا جَاءَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ كَأَنَّهُ مُتَّفَرِّدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ بِهَذِهِ الْخَاصَّةِ .

وَهَذَا الْمَعْرِي يَقُولُ [من الوافر] :

وَلَوْ لَا قَوْلُكَ الْخَلَّاقُ رَبِّي لَكَانَ لَنَا بِطَلْعَتِكَ أَفْتِيَانُ

وَيَقُولُ فِي شِعْرِ آخَرَ [من المنسرَح] :

أَسْهَبَ فِي وَصْفِهِ عَلاكَ لَنَا حَتَّى خَشِينَا الْتُّفُوسَ تَعْبُدُهَا

وَهَذَا الْبَيْتَانِ تَرَاهُمَا صُغُلُوكَيْنِ إِذَا قَسْتَهُمَا يَقُولُ حَافِظٌ فِي رِثَاءِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ
[من الطويل] :

فَلَا تَنْصُبُوا لِلنَّاسِ تِمْنَالًا « عَبْدِي » وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَتَبَاتٍ
فَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَضِلُّوا فَيُؤْمِنُوا إِلَيَّ نُورِ هَذَا الْوَجْهِ بِالسَّجْدَاتِ
مَعَ أَنْ مَعْنَى حَافِظٍ مَأْخُودٌ مِنْهُمَا ، وَلَكِنْ أَنْظُرْ كَيْفَ جَاءَ بِهِ ؟
وَيَقُولُ الْمَعْرِيُّ فِي رِثَاءِ أَبِيهِ [من الطويل] :

وَلَوْ حَفَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيَتْهَا لِحْسَمِكَ إِنْقَاءً عَلَيْكَ مِنَ الدَّفْنِ
وَيَقُولُ فِي رِثَاءِ غَيْرِهِ [من الخفيف] :
وَاخْبُؤَاهُ الْأَكْفَانُ مِنْ وَرَقِ الْمَصْدَحِ حَفِ كِبَرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَارِ
وَهَذَا أَيْضًا كَالصَّعَالِيكَ عِنْدَ قَوْلِ حَافِظٍ فِي الْبَارُودِيِّ [من البسيط] :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْ دَعَوْهُ جَوْفَ لُؤْلُؤَةٍ مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أَخَذُوا
وَكَفَّؤُهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحِيفَتِهِ أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَمِيصِ الصُّبْحِ مَقْدُودِ
مَعَ أَنَّ « حَافِظَ » أَلَمْ يَقُولِ الْمَعْرِيُّ . وَمِنْ بَدِيعٍ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي قَصِيدَةٍ (الْأَمْتَانِ
تَتَصَافَحَانِ) قَوْلُهُ يَصِفُ السُّورِيِّينَ [من البسيط] :

رَادُوا الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا إِلَى الْمَجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا
أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُنْتَجِعٌ مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَاتَّبَعُوا
فَافْرَأْ هَٰذَيْنِ وَافْرَأْ بَعْدَهُمَا قَوْلَ الْمُتَنَبِّيِّ فِي سَيْفِ الدَّلُولَةِ [من الطويل] :

وَصُورٌ إِلَى الْمُسْتَضْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَا وَرَدَا
فَإِنَّكَ تَجِدُ بَيْتَ الْمُتَنَبِّيِّ صُغُلُوكًا عَلَى يَتْنِي حَافِظٍ ، مَعَ أَنَّهُ الْمُبْتَدِعُ السَّابِقُ .

وَأَعْجَبُ مَا عَجِبْتُ لَهُ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ صَاحِبِنَا فِي مَقْطُوعَةٍ يُخَاطَبُ بِهَا
الْأَمْرِيكَانَ ، نَشَرَهَا فِي « الْمَقْطَعِ » مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ أَوْ نَحْوِهَا ، قَالَ [من الخفيف] :
وَتَخِذْتُمْ مَوْجَ الْأَيْثَرِ بَرِيدًا حِينَ خَلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كَسَالَى

وَأَتَّفَقَ يَوْمَئِذٍ أَنْ كُنْتُ جَالِسًا فِي زِيَارَةِ الصَّدِيقِ الْأُسْتَاذِ فُوَادِ صَرْوَفٍ « مُحَرَّرِ الْمُقْتَضَفِ » ، فَجَاءَ حَافِظٌ ، فَلَمْ يَكْذِبْ صَافِخِي حَتَّى قَالَ : كَيْفَ تَرَى هَذَا الْبَيْتَ : وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَثِيرِ بَرِيدًا ... إلخ ؟ فَأَثْبِتْ عَلَيْهِ الَّذِي يَهْوَى ، وَهَنَاتُهُ بِهِذَا الْمَعْنَى ، وَأَظْهَرْتُ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْإِعْجَابِ ، وَلَكِنِّي أَضْمَرْتُ عَجَبِي مِنْ حُسْنِ مَا أَتَّفَقَ لَهُ ؛ فَإِنَّ الْجَمَالَ الشُّعْرِيَّ فِي الْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِعَارَةِ الْكَسَلِ لِلْبُرُوقِ ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ [من البسيط] :

وَمَا تَمَهَّلُ يَوْمًا فِي نَدَى وَرَدَى إِلَّا قَضَيْتُ لِلْمَحِ الْبَرْقِ بِالْكَسَلِ
غَيْرَ أَنَّ « حَافِظٌ » نَقَلَ الْمَعْنَى إِلَى حَقِّهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ أَحْسَنَ تَمَكُّنٍ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ ، وَأَتَمَّ جَمَالَهُ فِي قَوْلِهِ : (حِينَ خِلْتُمْ) فَأَقْطَعَ الْمَعْنَى وَأَنْفَرَدَ بِهِ ، وَعَادَ مَعْنَى السَّعْدِيِّ كَالصُّغْلُوكِ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُقَابَلَةُ فِي « الْمُقْتَضَفِ » آخِرَ عَهْدِي بِحَافِظٍ . فَلَمْ أَرَهُ مِنْ بَعْدِهَا ، رَحِمَهُ اللَّهُ ! .

وَمَا مَرَّ بِكَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صِنَاعَةِ الشَّاعِرِ فِي غَيْرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيَوَانِهِ بَعْدَ أَنْ اسْتَفْحَلَ وَتَخَرَّجَ فِي مَدْرَسَةِ الْإِمَامِ ، أَمَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ فَلَهُ هُوَ صَعَالِيكَ ...
كَقَوْلِهِ فِي الْخُمُرِ [من الخفيف] :

خَمْرَةٌ قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ
فَهَذَا الْبَيْتُ صُغْلُوكٌ عِنْدَ قَوْلِ ابْنِ الْجَهْمِ [من الطويل] :
مُشْغَسَعَةٌ مِنْ كَفِّ ظَنِّي كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَذَارَهَا
وَقَوْلُ حَافِظٍ (عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ) كَلَامٌ مَنْ لَمْ يَنْضَجْ فِي الْبَيَانِ وَلَا الدُّوْقِ ، لَا يَكَادُ يَتَوَهَّمُ مَعَهُ إِلَّا أَنْ فِي خُدُودِ الْمِلَاحِ (خَرَاجَاتٍ) عُصِرَتْ ... وَعَلَى ضِدِّ هَذَا قَوْلُ ابْنِ الْجَهْمِ (تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ) فَهِيَ كَلِمَةٌ أَكْثَرُ نَعُومَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْخَدِّ وَأَجْمَلُ نَضْرَةٍ .
وَقَوْلُ حَافِظٍ فِي مَذْحِ الْخِذْيُو [من البسيط] :

يَا مَنْ تَنَافَسُ فِي أَوْصَافِهِ كَلِمِي تَنَافَسَ الْعَرَبُ الْأَمْجَادِ فِي السَّبِّ

فَهُوَ صُغْلُوكٌ عَلَى بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ [من البسيط] :

تَغَايِرَ الشُّعْرِ فِيهِ إِذْ سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقَتَّرِلُ
وَلَا نُظِيلُ الْأَسْتِفْصَاءَ ، فَإِنَّمَا نُرِيدُ التَّمَثِيلَ حَسْبُ .

وَكَانَ الشَّاعِرُ أَوَّلَ نَشَاتِهِ يَأْخُذُ فِي طَرِيقَةِ الْمَعَرِّي الَّذِي عَمِيَ عَنِ الطَّبِيعَةِ فَجَعَلَ يَخْلُقُهَا
مِنْ فِكْرِهِ وَمَحْفُوظِهِ بِمُبَالَغَاتٍ كَاذِبَةٍ يُغْرِقُ فِيهَا يَحْسَبُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يُعْظِمُ الْحَقَائِقَ فَتُخْرِجُ لَهُ
الْأَخِيْلَةَ الْكَبِيرَةَ ، وَمَا يَذِرُنِي أَنَّهُ بِهَذَا الْغُلُوِّ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْأَبَاطِيلِ الْكَبِيرَةِ . . . وَلَكِنَّ
« حَافِظَ » فِي مِزَاجِهِ وَتَرْكِيْبِهِ وَنَشَاتِهِ كَانَ رَجُلًا مَبْنِيًّا عَلَى الْوُضُوحِ وَالْقَصْدِ ؛ فَلَمْ يُفْلِحْ فِي
طَرِيقَةِ الْمَعَرِّي ، وَوُضُوْحُهُ كَذَلِكَ بَاعَدَهُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَإِبْهَامِهَا ، وَمِنَ الطَّبِيعَةِ وَالْعَازِهَا ،
وَمِنَ الْغَزَلِ وَوَسَاوِسِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَذَاهُ إِلَى الشَّغَفِ بِالْحَقِيقَةِ وَاسْتِخْلَاصِهَا فِي كُلِّ أَعْرَاضِهِ
الَّتِي أَجَادَ فِيهَا ، وَمِنْ ثَمَّ خَلَا شِعْرُهُ أَوْ كَانَهُ خَلَا مِنْ أَوْصَافِ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا
بِلُغَةِ الْفِكْرِ الْمُتَمَاطِلِ ، وَمِنْ أَوْصَافِ الْجَمَالِ فِي سِحْرِهِ بِلُغَةِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ .

* * *

وَأَنْتَ فَلَا تَحْسَبَنَّ الشَّاعِرَ يُجَيِّدُ فِي الْغَزَلِ وَالنَّسَبِ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ يُحْسِنُ الصَّنْعَةَ وَيُجَيِّدُ
الْأُسْلُوبَ ، فَيَكُونُ غَرَضٌ مِنَ الشُّعْرِ سَبِيلًا إِلَى غَرَضٍ ، وَفَنٌّ عَوْنًا عَلَى فَنٍّ ، وَتَكُونُ رِفْقَةُ
الْأَلْفَاظِ وَهَلْهَلَةُ النَّسْجِ ، وَقَلْبِي ، وَكَيْدِي ، وَيَا لَيْلَةَ وَيَا قَمَرًا وَيَا غَزَا . . . وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ -
غَزَلًا وَنَسِيبًا ، كَلَّا ثُمَّ كَلَّا ، وَالثَّالِثَةُ كَلَّا أَيْضًا . . .

إِنَّ الْغَزَلَ وَأَوْصَافَ الْجَمَالِ مُوَهَّبَةٌ فِي الشَّاعِرِ أَوْ الْكَاتِبِ تُسَخَّرُ لَهَا قُوَى هِيَ أَشْبَهُ فِي
مُعْجَزَاتِهَا بِمَا سُخِّرَ لِسُلَيْمَانَ مِنْ قُوَى الْجِنِّ وَالرَّيْحِ ، غَيْرَ أَنَّهَا قُوَى آلَامٍ وَلَذَاتٍ
وَوَسَاوِسَ ، تِلْكَ عَظَمَةٌ فِي بَعْضِ الثُّفُوسِ الشَّاعِرَةِ كَعَظَمَةِ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ ، غَيْرَ أَنَّهَا
لَا تَكْمُلُ إِلَّا خَائِبَةً أَوْ مَغْلُوبَةً ، فَإِذَا أَنْتَصَرَتْ سَقَطَتْ ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَارِيخٍ وَحَوَادِثَ
وَمِزَاجٍ عَصَبِيٍّ يَهَيِّئُ لَهَا بِرُوحَانِيَّةٍ شَدِيدَةٍ الْحِسَّ شَدِيدَةٍ الْفُورَةَ ثَائِرَةً أَبَدًا لَا تَهْدَأُ إِلَّا عَلَى تَوَلُّيدِ
مَعْنَى بَدِيعٍ فِي جَمَالٍ مِنْ تَحِبُّهُ أَوْ كَجَمَالِهِ ، ثُمَّ إِذَا هَدَأَتْ بِذَلِكَ أَنْارَهَا أَنَّهَا هَدَأَتْ ، فَتَعُودُ
إِلَى التَّوَلُّيدِ ، فَلَا تَزَالُ تَبْتَدِعُ وَتَصِفُ كَأَنَّهَا آلَةٌ تَغْيِيرٍ تَدُورُ بِقَلْبٍ وَعَصَبٍ . هُنَاكَ قُوَّتَانِ :

إِحْدَاهُمَا تُؤْزِنِي الْحُبُّ كَمَا يَصْلُحُ غَرَامًا وَعِشْقًا ، وَالْأُخْرَى فَوْقَ هَذِهِ تُؤْزِنِي الْحُبُّ كَمَا يَصْلُحُ فِكْرًا وَتَعَبِيرًا ؛ وَالْأُولَى تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عَاشِقًا يُحِبُّ وَيَذْرُكُ لَيْسَ غَيْرُ ، وَالثَّانِيَّةُ تَجْعَلُهُ مُحِبًّا عَمَلُهُ أَنْ يَنْقُلَ مِنْ لُغَةٍ مَا فِي نَفْسِهِ إِلَى مَا حَوْلَهُ ، وَمِنْ لُغَةٍ مَا حَوْلَهُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ مُتَرْجِمُ النَّفْسِ إِلَى الطَّبِيعَةِ ، وَمُتَرْجِمُ الطَّبِيعَةِ إِلَى النَّفْسِ ؛ وَالَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَّ « حَافِظَ » لَمْ يُزِدْ لَ هَذِهِ وَلَا تِلْكَ ، فَلَا طَبِيعَةَ فِيهِ لِلْغَزَلِ وَفَلَسَفَةَ الْجَمَالِ ؛ ثُمَّ إِنَّ التَّارِيخَ حَصَرَهُ فِي (الشَّاعِرِ الْأَجْنِمَاعِيِّ) الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَمْتَّازَ بِهِ ، فَهُوَ فِي أَكْثَرِ شِعْرِهِ كَانَ لَيْسَ فِيهِ شَخْصٌ ، بَلْ فِيهِ شَعْبٌ مَأْشُورٌ غَفَلَ عَنِ الْجَمَالِ وَعَنِ الطَّبِيعَةِ وَعَنِ النَّشْوَهِ بِهِمَا ؛ إِذْ يَعِيشُ فِي مُعَانَاةِ الْحُرِّيَّةِ لَا فِي التَّأَمُّلِ الْجَمِيلِ ، وَفِي أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَا فِي أَسْبَابِ الرِّقَّةِ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِيُوجِدَ حَقِيقَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ لِيُبْدِعَ خَيَالَهُ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ فِي دِيْوَانِ حَافِظٍ غَزَلٌ قَلِيلٌ كَانَ كُلُّهُ مُتَابَعَةً وَتَقْلِيدًا فِي فَنٍّ لَا يَحْسُنُ التَّقْلِيدُ إِلَّا فِيهِ خَاصَّةً ؛ عَمِلَ صَدْرًا لِقَصِيدَةِ مَدَحِهَا الْخُدَيْرِي مَطْلَعُهَا [من الكامل] :

كَمْ تَحْتَ أَذْيَالِ الظَّلَامِ مُتَيْمٌ دَامِي الْفُؤَادِ وَلَيْلُهُ لَا يُعْلَمُ . . .
وَقَلَّدَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ فِي حِكَايَةِ حُبِّ لَفَقَهَا تَلْفِيحًا ظَاهِرًا ، ثُمَّ زَعَمَ أَنَّ الْحَبِيبَةَ قَالَتْ لَهُ فِي آخِرِهَا [من الكامل] :

فَمَاذَهَبَ بِسِحْرِكَ قَدْ عَرَفْتُكَ وَأَقْتَصِدَ فِيمَا تُزَيِّنُ لِلْحَسَنِ وَتُؤْهِمُ
وَكَلِمَةُ صَاحِبَةِ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ [من مجزوء الوافر] :

أَهْلُذَا سِحْرُكَ التَّشْوَانَا نَ قَدْ عَرَفْتَنِي الْخَبَرَا
أَهْلَذَا سِحْرُكَ التَّشْوَانَا . . . هَذِهِ كَلِمَةٌ لَا تَخْرُجُ إِلَّا مِنْ فَمِ حَبِيبَتِهِ آيَةٌ فِي الظَّرْفِ ، وَفِيهَا تَجَاهُلُهَا وَعِزْفَانُهَا وَابْتِسَامُهَا وَإِشْرَاقُ وَجْهَتَيْهَا ، وَكَأَدَ وَاللَّهِ أَرَى فِيهَا تِلْكَ الْجَمِيلَةَ وَهِيَ تَدُقُّ بِيَدِهَا عَلَى صَدْرِهَا دَقَّةً لَا اسْتِفْهَامَ الْمَتَدَلِّلِ الْمَتَظَاهِرِ بِالْذَهْشَةِ لِيَسْتَهْدَ فِيهِ الْكَلَامُ وَالْمُتَكَلِّمُ مَعًا ، أَمَا قَوْلُ حَبِيبَةِ حَافِظِ الْخُسَيْبَةِ ، أَوِ الْحَجَرِيَّةِ « إِذْهَبَ . . . قَدْ عَرَفْتُكَ وَأَقْتَصِدَ . . . » فَهَذَا خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَمِ قَاضٍ وَهُوَ يَنْصَحُ الْمُتَمَتِّعَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِفْرَاجِ عَنْهُ . . . أَوْ مَأْمُورٍ قَسَمَ عِنْدَ ضَبْطِ الْحَادِثَةِ !

أَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّ رُوحَ حَافِظِ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي أَوْحَتْ إِلَيَّ الْآنَ هَذِهِ (الْتَكْتَةُ) ، فَإِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ
كَانَ آيَةً فِي هَذَا أَلْبَابٍ ، وَلَهُ مِنَ التَّوَادِرِ مَخْفُوظَةٌ وَمُخْتَرَعَةٌ مَا لَا يُلْحَقُ فِيهِ ، وَلَوْ كَانَ كَاتِبًا
عَلَى قَدْرِ مَا كَانَ شَاعِرًا ، وَزَاوَلَ التَّقْدَ ، وَاسْتَظْهَرَ لِلْكِتَابَةِ فِيهِ بَيْتَكَ الْمَلَكَةِ الْمُبْدِعَةِ فِي
الْتَنْدَرِ وَالْتَهَكُم ، مَعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْقُوَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالْبَيَانِ - لَكَانَتِ النُّعْمَةُ قَدْ تَمَّتْ بِهِ عَلَى
الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَقَلْنَا فِي شِعْرِهِ وَكِتَابَتِهِ وَأَدَبِهِ مَا قَالَ هُوَ فِي الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ [من الطويل] :

فَأُطْلَعْتَ نُورًا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ

وَمَا دُمْنَا قَدْ ذَكَرْنَا التَّقْدَ ، فَمِنْ الْوَفَاءِ لِلتَّارِيخِ الْأَدَبِيِّ أَنْ نَذْكُرَ مَذَهَبَ شَاعِرِنَا فِيهِ : فَلَمْ
يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهُ إِلَّا ذَوْقُ الْكَلَامِ وَإِدْرَاكُ الثَّفَرَةِ وَالْتَّبَوَّةِ فِي الْحَرْفِ ، وَالْعِلَاطُ وَالْجُسْأَةُ فِي
الْلَفْظِ ، وَالضَّعْفُ وَالْتِهَافُ فِي التَّرْكِيبِ ، ثُمَّ مَا يَجِيشُ فِي الْخَاطِرِ ، أَوْ يَتَلَجَّلَجُّ فِي الْفِكْرِ
مِنْ ذَوْقِ الْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ كُنْهِهِ وَالتَّقَادِ إِلَى آثَارِ النَّفْسِ الْحَيَّةِ فِيهِ ؛ فَكَأَنَّ التَّقْدَ هُوَ الْحِسُّ
بِالْكَلَامِ كَمَا تَلْمَسُ الْحَارَّ وَالْبَارِدَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَوَصَفَ لِي مَرَّةً إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي بَاشًا وَأَرَادَ
أَنْ يُبَالِغَ فِي دَقِّهِ تَمْيِيزِهِ وَحُسْنِ بَصَرِهِ بِالشَّعْرِ وَإِدْرَاكِهِ دَقَائِقِ الْمَعَانِي ، فَقَالَ : « ذَوَاقُ
يَا مُصْطَفَى » وَلَمْ يَزِدْ .

وَمَذَهَبُ الْحِسِّ بِالْكَلَامِ هَذَا وَإِنْ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ مَعَانِي التَّقْدِ ، فَلَا يَتَهَيَّأُ أَنْ
يَكُونَ هُوَ التَّقْدَ بِمَعْنَاهُ الْفَلَسَفِيِّ أَوْ الْأَدَبِيِّ ، وَهُوَ فِي جُمْلَةِ أَمْرِهِ كَقَوْلِكَ : حَسَنٌ حَسَنٌ ،
وَرَدِيٌّ رَدِيٌّ ؛ أَمَّا كَيْفَ كَانَ حَسَنًا أَوْ رَدِيًّا ، وَبِمَاذَا وَلِمَاذَا ؛ فَذَلِكَ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مِنْ
مَذَهَبِ (ذَوَاقِ) . . . وَلَا وَسِيلَةَ لَهُ إِلَّا الْعِلْمُ الْمُسْتَفِيضُ ، وَالْأُطْلَاحُ الْوَاسِعُ ، وَالْحِسُّ
الْمُرْهَفُ ، وَالْقُدْرَةُ الْمُتَمَكِّنَةُ ، مُضَافَةً كُلِّهَا إِلَى الْأَدَبِ الْبَارِعِ وَفَلَسَفَتِهِ الدَّقِيقَةِ ؛ وَلَا نَعْرِفُ
لِحَافِظِ كِتَابَتِهِ فِي التَّقْدِ الْبَيَّةَ ، وَقَدْ كَانَ حَاوَلَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ : « لِيَالِي
سُطُنِج » ، فَتَنَاولَ بَعْضَ خُصُومِهِ بِكَلِمَاتٍ رَأَى هُوَ أَنْ يَمْحُوهَا بَعْدَ أَنْ طُبِعَتِ الْكِرَاسَةُ
الْأُولَى ، فَأَسْقَطَهَا وَأَعَادَ كِتَابَةَ الْمُقَدِّمَةِ وَطَبَعَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَكَانَتْ عِنْدِي الشُّخْصَةُ الَّتِي
مَحَاها ، وَهَذَا مَا لَا أَطُنُّ أَحَدًا يَعْرِفُهُ الْآنَ ، رَحِمَ اللَّهُ شَاعِرًا كَانَ أَضْفَى مِنَ الْعَمَامِ ،
وَكَانَ شِعْرُهُ كَأَنَّهُ الْبَرَقُ وَالرَّعْدُ . . .

كَلِمَاتٌ عَنْ حَافِظٍ (*) (١) (٢)

ذَهَبْتُ بِقَلْبِي إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، فَوَجَدْتُ أَمَكَّتَهُ الْأَشْيَاءُ وَلَمْ أَجِدْ مَكَانَ قَلْبِي ؛ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمَسْكِينُ ، أَيْنَ أَذْهَبُ بِكَ ؟

هَذَا مَا أَجَبْتُ بِهِ (حَافِظٌ) حِينَ سَأَلَنِي مَرَّةً : مَا لَكَ لَا تَرْضَى وَلَا تَهْدَأُ وَلَا تَسْتَقِرُّ ؟ وَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ هُوَ رَاضٍ مُسْتَقِرٌّ هَادِيٌّ ، كَأَنَّمَا قَضَى مِنَ الْحَيَاةِ نَهْمَتَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ مَا يَقُولُ نَفْسُهُ لَيْتَ ذَلِكَ لِي ! وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِهَذَا الْخُلُقِ فِيهِ وَلَا أَذِرِي مَا تَعْلِيلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ خُلِقَ مَطْبُوعًا بِطَاعِ الْإِنِّمِ فَلَمْ يَغْرِفْ مُنْذُ أَذْرَكَ إِلَّا أَنَّهُ ابْنُ الْقَدَرِ : تَأْتِيهِ الْأَفْرَاحُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ مُقْبَلَةً كَمَا تَنَالُ الصَّبِيَّ الْطَافُ أَيْهِ وَلَطَمَاتُ أَيْهِ

وَقَدْ قُلْتُ لَهُ مَرَّةً : كَأَنَّكَ يَا حَافِظُ تَنَامُ بِلَا أَحْلَامٍ ! فَصَحَّحَكَ وَقَالَ : أَوْ كَأَنِّي أَحْلُمُ بِغَيْرِ نَوْمٍ . . .

وَلَقَدْ عَرَفْتُهُ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٠٠ إِلَى أَنْ لَحِقَ بِرَبِّهِ فِي سَنَةِ ١٩٣٢ ، فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ إِلَّا كَالْيَتِيمِ : مَحْكُومًا بِرُوحِ الْقَبْرِ ، وَفِي الْقَبْرِ أَوَّلُهُ ؛ وَلَمَّا أَرْمَعَ السَّفَرَ إِلَى الْيُونَانِ قُلْتُ لَهُ : أَلَا تَخْشَى أَنْ تَمُوتَ هُنَاكَ فَتَمُوتَ يُونَانِيًّا . . . فَقَالَ : أَوْ تَرَانِي لَمْ أُمِتْ بَعْدُ فِي مِصْرَ . . . ؟ إِنَّ الَّذِي بَقِيَ هَيِّنٌ !

* * *

وَمِنْ عَجَائِبِ هَذَا الْيَتِيمِ الْحَزِينِ أَنَّهُ كَانَ قَوِيَّ الْمَلَكَةِ فِي فَنِّ الضَّحِكِ ، كَانَ الْقَدَرُ عَوَّضَهُ بِهِ لِيُوجِدَهُ فِي النَّاسِ عَطْفَ آبَاءٍ وَمَحَبَّةَ إِخْوَةٍ . وَلَمْ يَخْلُ مَعَ فَقْرِهِ مِنْ ذَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ

(*) « الرسالة » العدد : ١٠٩ ، ٦ جمادى سنة ١٣٥٤ هـ = ٥ أغسطس / آب ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة ، الصفحات : ١٢٤٣ - ١٢٤٧ .

- (١) كَتَبَهَا فِي الذِّكْرَى الثَّالِثَةِ لِقَوَاتِهِ . سَعِيدُ الزُّعْرَانِ .
- (٢) لَمَّا تُوَفِّيَ حَافِظٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبْنَا فَضْلًا طَوِيلًا مِنْ أَدْبِهِ لِلْمُقْتَضَفِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ فِي كَلِمَاتِنَا هَذِهِ لشيءٍ مِنْ أَدَبِ الرَّجُلِ وَإِنَّمَا هِيَ ذِكْرَى وَبَقَايَا مِنَ الْإِيَّامِ .

إِلَى الْجَاهِ ، وَوَسِيلَةَ مُؤَكَّدَةٍ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى ؛ فَكَانَتْ أَسْبَابُهُ إِلَى الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ
السَّيِّخِ مُحَمَّدَ عَبْدُهُ ، ثُمَّ حَشَمَتْ بَاشَا ، ثُمَّ سَعَدَ بَاشَا زَعْلُولٌ ، وَهَذَا نِظَامٌ عَجِيبٌ فِي زَمَنِ
(حَافِظُ) يُقَابِلُ الْأَخْتَلاَلَ الْعَجِيبَ فِي نَفْسِ حَافِظٍ ؛ فَالْجُلُّ كَالسَّفِينَةِ الْمُتَكَفِّفَةِ : تَمِيلُ بِهَا
مَوْجَةٌ وَتَعْدِلُهَا مَوْجَةٌ ، وَهِيَ بِهِدِهِ وَبِهِدِهِ تَمُرُّ وَتَسِيرُ .

وَأَوَّلُكَ الرُّؤَسَاءُ الْعُظَمَاءُ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ الْقَدَرُ نِظَامًا فِي زَمَنِ حَافِظٍ ، كَانُوا مِنْ أَفْقَرِ
النَّاسِ إِلَى الْفُكَاةِ وَالنَّادِرَةِ ، فَكَانَ لَهُمْ كَالزُّورَةِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَوَقَعَ إِضْلَاحًا فِي
عَيْنِهِمْ وَكَانُوا إِضْلَاحًا فِي عَيْنِهِ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْأَقْدَارَ تُشَبَّهُ بِالْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، لَقُلْنَا : إِنْ
(حَافِظُ) تَخَرَّجَ مِنْهَا فِي مَدْرَسَةِ التَّجَارَةِ الْعُلْيَا . . . فَهُوَ كَانَ أَبْرَعَ مَنْ يُتَاجَرُ بِالنَّادِرَةِ .

* * *

وَهَذِهِ التَّوَادُرُ كَأَنَّهَا هِيَ أَيْضًا صَنَعَتْ (حَافِظُ) فِي شَكْلِ نَادِرَةٍ ؛ فَكَانَ فَقِيرًا ، وَمَعَ
هَذَا كَانَ لِلْمَالِ عِنْدَهُ مُتَمِّمٌ ، هُوَ إِنْفَاقُهُ وَإِخْرَاجُهُ مِنْ يَدِهِ ؛ وَكَانَ بَيْنَمَا ، وَلَكِنَّهُ دَائِمًا
مُتَوَدِّدٌ ؛ وَكَانَ حَزِينًا ، وَلَكِنَّهُ أَيْنَسُ الطَّلَعَةِ ؛ وَكَانَ بَائِسًا ، وَلَكِنَّهُ سَلِيمُ الصَّدْرِ ؛ وَكَانَ
فِي ضَيْقٍ ، وَلَكِنَّهُ وَاسِعُ الْخُلُقِ ؛ وَتَمَامُ النَّادِرَةِ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ طَوَالَ عُمُرِهِ مُبَسِّطًا مُهْتَرًا كَأَنَّ
لَهُ زَمَنًا وَحْدَهُ غَيْرَ زَمَنِ النَّاسِ ، فَتَتَرَاكُمُ عَلَيْهِ الْهُمُومُ وَهُوَ مُسْتَنِيمٌ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَيَعْتَرِيهِ مِنَ
الْجُوعِ مِثْلُ مَكْسَلَةِ الشَّيْبِ ، وَيَسْتَرْسِلُ إِلَى الْبَطَالَةِ وَكَأَنَّهُ مُشَمَّرٌ لِلْجِدِّ ، وَيَسْتَمَكِنُ الْحُزْنَ
مِنْهُ فِي سَاعَةٍ فَيَهْدُدُ حُزْنَهُ بِالسَّاعَةِ التَّالِيَةِ . . .

رَأَيْتُهُ فِي أَحَدِ أَيَّامِ بُؤْسِهِ الْأُولَى قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ عَيْشُهُ ، وَكَانَ يَعْدُ قُرُوشًا فِي يَدِهِ ،
فَقُلْتُ : مَا أَمْرُ هَذِهِ الْقُرُوشِ ؟

قَالَ : كُنْتُ أَقَامِرُ السَّاعَةَ فَاصْصَعْتُ ثَلَاثِينَ قِرْشًا وَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ هَذِهِ الْقُرُوشِ
الْمَلْعُونَةِ ، فَهَلُمَّ نَتَعَشَّ . وَدَخَلَ إِلَى مَطْعَمٍ كَانَ وَرَاءَ حَدِيقَةِ الْأَرْبَكِيَّةِ ، فَرَعِمَتْ لَهُ أَنِّي
تَعَشَيْتُ . . . فَأَكَلَ هُوَ وَدَفَعَ ثَمَنَ طَعَامِهِ ثَلَاثَةَ قُرُوشٍ ؛ وَكُنْتُ أَطَالِعُ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ ،
فَمَا أَتَذَكَّرُهُ إِلَّا الْآنَ كَمَا طَالَعْتُهُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ حِينَ دَعَانِي (حَافِظُ) إِلَى
مَطْعَمِ بَارِ اللُّوَاءِ وَقَدْ فَاصَتْ أَنْامِلُهُ ذَهَابًا وَفِضَّةً : وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ أَصْدَرَ الْحِزَّ الْثَانِي مِنَ
« الْبُؤْسَاءِ » ، وَرَأَيْتُ فِي الْقَاهِرَةِ ، فَأَمْسَكَ بِي حَتَّى قَرَأْتُ مَعَهُ الْكِتَابَ كُلَّهُ فِيمَا بَيْنَ الظُّهْرِ

وَالْمَغْرِبِ ؛ وَرَكِبْنَا فِي الْأَصِيلِ عَرَبَةً وَخَرَجْنَا نَنْتَرَهُ ، أَيِ : خَرَجْنَا نَقْرَأُ ...

* * *

وَكَانَ عَلَى وَجْهِ (حَافِظٍ) لَوْنٌ مِنَ الرِّضَى لَا يَتَغَيَّرُ فِي بُؤْسٍ وَلَا نَعِيمٍ ، كَبَيَاضِ الْأَبْيَضِ
وَسَوَادِ الْأَسْوَدِ ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ فَنًّا مِنَ الْفَوْضَى
الْإِنْسَانِيَّةِ ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ حُلُمٌ شِعْرِيٌّ بَدَأَ مِنْ أَبَوَيْهِ ثُمَّ انْقَطَعَ وَتَرَكَ لِتَسَمُّهُ الطَّبِيعَةُ !

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى حَافِظٍ عَلَى اعْتِبَارٍ أَنَّهُ فَنٌّ الْفَوْضَى الْإِنْسَانِيَّةِ رَأَاهُ جَمِيلًا جَمَالَ الْأَشْيَاءِ
الطَّبِيعِيَّةِ لَا جَمَالَ النَّاسِ ، فَفِيهِ مِنَ الصَّخَرَاءِ وَالْجِبَالِ وَالصُّخُورِ وَالْغِيَاضِ وَالرِّيَاضِ
وَالْبَرَقِ وَالرَّعْدِ وَأَشْبَاهِهَا ؛ وَكُنْتُ أَنَا أَرَاهُ بِهَذِهِ الْعَيْنِ فَاسْتَجَمَلُهُ ، وَيَبْدُو لِي جَزَلًا
مُطَهَّمًا ، وَأَرَى فِي شَكْلِهِ هَنْدَسَةَ كَهَنْدَسَةِ الْكُونِ : تَتَمُّ مَحَاسِنُهَا بِمَقَابِحِهَا . وَكَمْ قُلْتُ
لَهُ : إِنَّكَ يَا حَافِظُ أَجْمَلُ مِنَ الْقَفْرِ ...

أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ دِيمًا شَنِيعَ الْمِرَاةِ مُتَفَاوِتَ الْخَلْقِ ، كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مَغْلُوطٌ فِي تَرْكِيبِهِ ...

وَقَدْ سَأَلْتُهُ مَرَّةً : هَلْ أَحَبَّ ؟

فَقَالَ : النِّسَاءُ اثْنَتَانِ : فِيمَا جَمِيلَةٌ تَنْفَرُ مِنْ قُبْحِي ، وَإِمَّا دِيمَةٌ أَنْفَرُ مِنْ قُبْحِهَا !
وَلِهَذَا لَمْ يُفْلَحْ فِي الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَلَمْ يُحْسِنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ شَيْئًا يُسَمَّى شَيْئًا ؛ وَبَقِيَ
شَاعِرًا غَيْرَ تَامٍ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لِلشَّاعِرِ كَحَوَاءَ لَادَمَ : هِيَ وَخَدَاهَا الَّتِي تُعْطِيهِ بِحُبِّهَا عَالَمًا
جَدِيدًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ، وَكُلُّ شَرِّهَا أَنَّهُ تَحْطَى بِهِ السَّمَوَاتِ نَارِلًا ...

* * *

وَهَذِهِ حَافِظٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ مِنْ أَثَرِ الْمَرَضِ وَالشَّيْخُوخَةِ ، وَكَانَ آخِرُ الْعَهْدِ بِهِ أَنْ جَاءَ
إِلَى إِدَارَةِ « الْمُقْتَضَبِ » وَأَنَا هُنَاكَ ، فَلَمْ يَزِنِي حَتَّى بَادَرَنِي بِقَوْلِهِ : مَاذَا تَرَى فِي هَذَا الْبَيْتِ
مِنْ وَصْفِ الْأَمْرِيكَانِ [مِنْ الْخَفِيفِ] :

وَتَخَذْتُمْ مَوْجَ الْأَيْثَرِ بَرِيدًا حِينَ خِلْتُمْ أَنَّ الْبُرُوقَ كُسَالَى^(١)

(١) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ نَظَمِهَا حَافِظٌ يُخَاطَبُ فِيهَا الْأَمْرِيكَيْنِ ، وَقَدْ أَشْرْنَا فِي مَقَالَتَا فِي =

فَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْمَعْرُوقِ الْمُتَعَصِّنِ وَقُلْتُ لَهُ : لَوْ كَانَ فِيكَ مَوْضِعُ قُبْلَةٍ لَقَبَلْتُكَ
لِهَذَا الْبَيْتِ ! فَضَحِكَ وَأَدَارَ لِي خَدَّهُ ؛ وَلَكِنْ بَقِيَ خَدُّهُ بِلَا تَقْبِيلٍ . . .

* * *

وَشُهْرَةُ هَذَا الْأَدِيبِ الْعَظِيمِ بَنَوَادِرِهِ وَمَحْفُوظَاتِهِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَكَانَ
يَتَقَصَّصُ النَّوَادِرَ وَالْفِكَاهَاتِ وَمُطَارَحَاتِ السَّمَرِ مِنْ مَظَانِّهَا فِي الْكُتُبِ وَرِجَالِ الْأَدَبِ وَأَهْلِ
الْمُجُونَ ، فَإِذَا قَصَّهَا عَلَى مَنْ يُجَالِسُهُ زَادَ فِي أُسْلُوبِهَا أُسْلُوبُهُ هُوَ ، وَجَعَلَ يُقْلِبُهَا وَيَتَصَرَّفُ
فِيهَا وَيَبِينُ عَنْهَا أَحْسَنَ الْإِبَانَةِ بِمَنْطِقِهِ وَوَجْهِهِ وَبَرَاتٍ فِي يَدِهِ .

وَهُوَ أَصَمْعِيُّ هَذَا الْبَابِ خَاصَّةً ، وَيَرْوِي مِنْهُ رِوَايَةً عَرِيضَةً ، فَإِذَا اسْتَهْلَ سَحَّ بِالنَّوَادِرِ
سَحًّا كَأَنَّهَا قَوَافِي قَصِيدَةٍ تَدْعُو الْوَاحِدَةَ مِنْهَا أَخْتَهَا الَّتِي بَعْدَهَا .

وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي (الْقَوَافِي) مَجْلِسًا حَضَرْتُهُ قَدِيمًا فِي سَنَةِ ١٩٠١ أَوْ ١٩٠٠ ، وَكَانَ
« مِصْبَاحُ الشَّرْقِ » قَدْ نَشَرَ قَصِيدَةَ رَائِيَّةِ لِابْنِ الرُّومِيِّ ، فَتَعَجَّبَ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ
الْمَهْدِيُّ مِنْ بَسْطَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ فِي قَوَافِيهِ ، فَقَالَ لَهُ (حَافِظُ) : هَلُمَّ نَتَسَاجَلْ فِي هَذَا الْوِزْنِ
حَتَّى يَنْقَطِعَ أَحَدُنَا ، وَكَانَتْ الْقَافِيَةُ مِنْ وَزْنٍ : قَدَرَهَا ، أَحْمَرَهَا ، أَخْضَرَهَا . . . إلخ ؛
وَجَعَلْتُ أَنَا أُحْصِي عَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا ضَاقَ الْكَلَامُ كَانَ الشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ يُفَكِّرُ طَوِيلًا ثُمَّ يَنْطِقُ
بِاللَّفْظِ ، وَلَا يَكَادُ يَفْعَلُ حَتَّى يَرْمِيهِ حَافِظٌ عَلَى الْبَدِيعَةِ ، فَيَعُودُ الرَّجُلُ إِلَى الْإِطْرَاقِ
وَالْتَفَكِيرِ ، ثُمَّ انْقَطَعَ أَخِيرًا وَبَقِيَ حَافِظٌ يَسْرُدُ لَهُ مِنْ حِفْظِهِ الْغَرِيبَ .

أَمَّا فِي النَّوَادِرِ ، فَالْعَجِيبَةُ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى طَنْطَا فِي سَنَةِ
١٩١٢ وَمُدِيرُهَا يُؤَمِّدُ الْمَرْحُومَ « مُحَمَّدٌ مُحَبَّبٌ بَاشَا » وَكَانَ دَاهِيَةً ذَكِيًّا وَظَرِيفًا لَبِقًا ،
وَكُنْتُ أَحَالِطُهُ وَأَتَّصِلُ بِهِ ، فَذَعَا (حَافِظُ) إِلَى الْعِشَاءِ فِي دَارِهِ ؛ فَلَمَّا مَدَّتِ الْأَيْدِي قَالَتْ
الْبَاشَا : لِي عَلَيْكَ شَرْطٌ يَا حَافِظُ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُلُّ لُقْمَةٍ يَنَادِرُهُ !

فَتَهَلَّلَ حَافِظٌ وَقَالَ : نَعَمْ ، لَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ . ثُمَّ أَخَذَ يَقْصُ وَيَأْكُلُ ، وَالْعِشَاءُ حَافِلٌ ،

وَحَافِظٌ كَانَ نَهْمًا ، فَمَا انْقَطَعَ وَلَا أَخْلَ حَتَّى وَفَى بِالشَّرْطِ . وَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَنَّ الْبَاشَا كَانَ يَتَغَالَفُ وَيَتَغَاضَى وَيَتَشَاغَلُ بِالضَّحِكِ ، فَيُسْرِعُ حَافِظٌ وَيُغَالِطُ بِفَمِهِ ...

* * *

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمُضْحِكَاتِ أَضْحَكَتْ مِنْ (حَافِظٍ) مَرَّةً كَمَا أَضْحَكَتْ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ يُتْرَجَّمُ (مكبث Macbeth) لِشِكْسْبِير Shakespeare - وَهِيَ كَأَعْمَالِهِ النَّافِصَةِ دَائِمًا - دَعَا لِقَاءِ (مُحَاضِرَةٍ) فِي نَادِي الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا ، وَالنَّادِي يُؤَمِّدُ يَجْمَعُ خَيْرَ الشَّبَابِ حِمِيَّةً وَعِلْمًا ، وَكَانَ صَاحِبَ السَّرِّ فِيهِ (السِّكْرَتِيرُ) زَيْنَةُ شَبَابِ الْوُطْنِيَّةِ الْمَرْحُومِ أَمِينُ بَكِ الرَّافِعِيِّ ، فَقَامَ حَافِظٌ فَأَنشَدَهُمْ بَعْضَ مَا تَرَجَّمَهُ نَظْمًا عَنْ شِكْسْبِير Shakespeare ، مِثْلَهُ تَمْنِيلاً أَفْرَغَ فِيهِ جُهْدَهُ ، فَأَطْرَبَ وَأَعْجَبَ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ (الْمُحَاضِرَةُ) ، فَأَخَذَ يُلْقِي عَلَيْهِمْ مِنْ نَوَادِرِهِ ، وَبَدَأَ كَلَامَهُ بِهَذِهِ النَّادِرَةِ : عَرِضْتُ عَلَى الْمُعْتَصِمِ جَارِيَةً يَشْتَرِيهَا ، فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكَرٍّ أَمْ نَيْبٍ ؟ فَقَالَتْ : كَثُرَتْ الْفُتُوحُ عَلَى عَهْدِ الْمُعْتَصِمِ ...

وَنَظَرَ حَافِظٌ إِلَى وَجْهِ الْقَوْمِ فَأَنكَرَهَا ... وَبَقِيَتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ إِلَى آخِرِ الْمُحَاضِرَةِ كَأَنَّهُمَا تَقُولُ لَهُ : إِنَّكَ لَمْ تُفْلِحْ !

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي تَنَبُّهِ (حَافِظٍ) إِلَى مَا يَجِبُ لِلشَّبَابِ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَاعِرَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْقَصَائِدِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي كَسَبَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدُ ، وَنَادِرَةُ الْمُعْتَصِمِ كَالْعَوْرَةِ الْمَكْشُوفَةِ ، وَلَسْتُ أَذْرِي أَكَانَ حَافِظٌ يَعْرِفُ النَّادِرَةَ الْبَدِيعَةَ الْأُخْرَى أَمْ لَا ؟ فَقَدْ عَرِضْتُ جَارِيَةً أَدِيبَةً ظَرِيفَةً عَلَى الرَّشِيدِ فَسَأَلَهَا : أَنْتِ بِكَرٍّ أَمْ أَيْشٍ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا (أَمْ أَيْشٍ) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

* * *

وَقَدْ (السُّعْرُ الْأَجْتِمَاعِي) الَّذِي عُرِفَ بِهِ حَافِظٌ ، لَمْ يَكُنْ قَدَّمَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ هُوَ قَدْ تَنَبَّهَ لَهُ أَوْ تَحَرَّاهُ فِي طَرِيقَتِهِ ، فَلَمَّا جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ الْأَمِيرِاطُورَةِ (أُوجِينِي Eugenie) ^(١) نَظَّمَ

(١) أوجيني Eugenie (١٨٢٦ - ١٩٢٠ م) : اسمها كاملاً Eugenie Maria de montijo de

Guzman : أمبرطورة فرنسا (١٨٥٣ - ١٨٧١ م) زوجة نابليون الثالث Napoleon III أمبراطور =

فَصِيدَتْهُ الثُّورِيَّةُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا [من الخفيف] :

فَاعْذُرِينَا عَلَى الْقُصُورِ ، كِلَانَا غَيْرَتُهُ طَوَارِيءُ الْحَدَثَانِ
وَلَقَيْتُهُ بَعْدَهَا ، فَسَأَلَنِي رَأْيِي فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَكَانَ بِهَا مُدِلًّا مُعْجَبًا ، شَأْنُهُ فِي كُلِّ
شِعْرِهِ ؛ فَانْتَقَدْتُ مِنْهَا أَشْيَاءَ فِي الْفَاطَهَا وَمَعَانِيهَا ، وَأَشْرْتُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانَ يَحْسُنُ أَنْ
تُخَاطَبَ بِهَا الْأُمِيرَاطُورَةُ ؛ فَكَأَنَّنِي أَغْضَبْتُهُ ؛ فَقَالَ : إِنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ ، وَسَعَدَ
زَعْلُولٍ ، وَقَاسِمَ أَمِينٍ - أَجْمَعُوا عَلَيَّ أَنَّ هَذَا التَّمَطُّ هُوَ خَيْرُ الشَّعْرِ ، وَقَالُوا لِي : إِذَا
نَظَّمْتَ فَانْظُمِ مِثْلَ هَذَا « الشَّعْرِ الْأَجْتِمَاعِيِّ » ؛ ثُمَّ كَأَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَى أَنَّهَا طَرِيقَةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَرِدَ
بِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ كُلَّ قَصَائِدِ شَوْفِي الْآنَ غَزَلٌ وَمَدْحٌ ، وَلَا أَثَرُ فِيهَا لِهَذَا الشَّعْرِ ، عَلَى أَنَّهُ
هُوَ الشَّعْرُ .

وَتَابَعَتْ قَصَائِدُهُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ ، فَلَقَيْتَنِي بَعْدَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ لِي : إِنَّ الشَّاعِرَ الَّذِي
لَا يَنْظُمُ فِي الْأَجْتِمَاعِيَّاتِ لَيْسَ عِنْدِي بِشَاعِرٍ . وَأَرَدْتُ أَنْ أَغِيظَهُ فَقُلْتُ لَهُ : وَمَا هِيَ
الْأَجْتِمَاعِيَّاتُ إِلَّا جَعْلُ مَقَالَاتِ الصُّحُفِ قَصَائِدَ ؟

فَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَسَعَدَ زَعْلُولٌ وَقَاسِمَ أَمِينٌ : أَحَدُ هَؤُلَاءِ أَوْ جَمِيعُهُمْ أَصْلُ هَذَا
الْمَذْهَبِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حَافِظٌ ، وَهُوَ كَثِيرًا مَا كَانَ يَقْتَسِمُ مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي
مَجْلِسِ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ ، مِنْ حَدِيثِهِ أَوْ حَدِيثِ غَيْرِهِ ، فَيَتَّبِعُ عَلَيْهَا أَوْ يُدْخِلُهَا فِي
شِعْرِهِ ، وَهُوَ أَحْيَانًا رَدِيءُ الْأَخْذِ جَدًّا حِينَ يَكُونُ الْمَعْنَى فَلَسَفِيًّا ؛ إِذْ كَانَتْ مَلَكَهَ الْفَلَسَفَةُ
فِيهِ كَالْمُعْطَلَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الشَّاعِرِ مِنْ مَلَكَهَ الْحُبِّ ، وَإِنَّمَا أَوَّلُهَا وَأَصْلُهَا دُخُولُ الْمَرْأَةِ
فِي عَالَمِ الْكَلَامِ بِإِيْهَا مَهَا وَتَرْتُّبِهَا . . .

* * *

وَكُنْتُ أَوَّلَ عَهْدِي بِالشَّعْرِ نَظَّمْتُ قَصِيدَةً مَدَحْتُ فِيهَا الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ وَأَنْفَذْتُهَا إِلَيْهِ ، ثُمَّ
قَابَلْتُ حَافِظَ بَعْدَهَا فَقَالَ لِي : إِنَّهُ هُوَ تَلَاهَا عَلَى الْإِمَامِ ، وَإِنَّهُ اسْتَحْسَنَهَا ؛ قُلْتُ : فَمَاذَا

كَانَتْ كَلِمَتُهُ فِيهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ قَالَ لَا بَأْسَ بِهَا . . .

فَاضْطَرَبَ شَيْطَانِي مِنَ الْغَضَبِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّيْخَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ ، فَلَيْسَ لِرَأْيِهِ فِي الشَّعْرِ كِبِيرٌ مَعْنَى ! قَالَ : وَنَحَكَ ! إِنَّ هَذَا مَبْلَغُ الْأَسْتِحْسَانِ عِنْدَهُ .

قُلْتُ : وَمَاذَا يَقُولُ لَكَ أَنْتَ حِينَ تُنْشِدُهُ ؟ قَالَ : أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا . . . فَأَرْضَانِي وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ حَافِظٍ (قَلِيلٌ) ، وَطَمِعْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ .

وَأَنَا أَرَى أَنَّ « حَافِظَ إِبْرَاهِيمَ » إِنَّهُ هُوَ إِلَّا دِيْوَانُ « الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدُهُ » ، لَوْلَا أَنَّ هَذَا هَذَا ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ ذَلِكَ .

وَمِنْ أَثَرِ الشَّيْخِ فِي حَافِظٍ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَسْمَعُهُ ، فَكَانَ إِذَا عَمِلَ أَيْبَاتًا رَكِبَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي فِي الْقَصْرِ الْعَيْنِيِّ ، وَطَافَ عَلَى الْقَهْوَاتِ وَالْأَنْدِيَةِ يُسْمِعُ النَّاسَ بِالْقُوَّةِ . . . إِذْ كَانَتْ أُذُنُ الْإِمَامِ هِيَ الَّتِي رَبَّتِ الْمَلَكَةَ فِيهِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَقَالِنَا فِي « الْمُفْتَظَفِ » .

وَكَانَ تَمَامُ الشَّعْرِ الْحَافِظِيِّ أَنْ يُنْشِدَهُ حَافِظٌ نَفْسَهُ ؛ وَمَا سَمِعْتُ فِي الْإِنْشَادِ أَغْرَبَ عَرَبِيَّةً مِنَ الْبَارُودِيِّ ، وَلَا أَعَذَبَ عُذُوبَةً مِنَ الْكَاطِمِيِّ ، وَلَا أَفْخَمَ فَخَامَةً مِنْ حَافِظٍ ؛ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا .

وَكَانَ أَدِينًا يُجِلُّ الْبَارُودِيَّ إِجْلَالًا عَظِيمًا ، وَلَمَّا قَالَ فِي مَدْحِهِ [من الطويل] :
فَمُرْ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ بِطَاعَتِي وَكُلَّ نَفْوَرٍ مِنْهُ أَنْ يَتَوَدَّدَا
قُلْتُ لَهُ : مَا مَعْنَى هَذَا ؟ وَكَيْفَ يَأْمُرُ الْبَارُودِيَّ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ وَمَا هُوَ بِفَارِسِيٍّ ؟

قَالَ : إِنَّهُ يَغْرِفُ الْفَارِسِيَّةَ ، وَقَدْ نَظَّمَ فِيهَا ، وَعِنْدَهُ مَجْمُوعَةٌ جَمَعَ فِيهَا كُلَّ الْمَعَانِي الْفَارِسِيَّةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا ؛ قُلْتُ : فَكَانَ الْوَجْهَ أَنْ تَقُولَ لَهُ : أَعَرِنِي الْمَجْمُوعَةَ الَّتِي عِنْدَكَ . . .

أَمَّا الْكَاطِمِيُّ ، فَكَانَ حَافِظٌ يُجَافِيهِ وَيُبَاعِدُهُ ، حَتَّى قَالَ لِي مَرَّةً وَقَدْ ذَكَرْتُهُ بِهِ :
« عَقَقْنَاهُ يَا مُصْطَفَى ! » .

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ فَرَحَ حَافِظٍ حِينَ أَعْلَمْتُهُ أَنَّ الْكَاطِمِيَّ يَحْفَظُ قَصِيدَةً مِنْ قَصَائِدِهِ ،

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي سَنَةِ ١٩٠١ - عَلَى مَا أَدَّكُرُ - أَغْلَنُوا عَنْ جَوَائِزِ يَمْنَحُونَهَا مَنْ يُجِيدُ فِي مَدَحِ الْخِذْيُو ، وَجَعَلُوا الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْبَارُودِيِّ وَصَبْرِي وَالْكَاطِمِيِّ ، ثُمَّ تَخَلَّى الْبَارُودِيُّ وَصَبْرِي ، وَحَكَمَ الْكَاطِمِيُّ وَحْدَهُ ، فَنَالَ حَافِظُ الْمِيدَالِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَنَالَ مِثْلَهَا السَّيِّدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِي .

وَلَمَّا زُرْتُ الْكَاطِمِيَّ ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ مُتَبَدِّئًا فِي الشَّعْرِ ، وَلَا أَرَأَى فِي الْغَزَزَةِ (١) ، قَالَ : لِمَاذَا لَمْ تَدْخُلْ فِي هَذِهِ الْمُبَارَاةِ ؟ قُلْتُ : وَأَيْنَ أَنَا فِي شَوْقِي وَحَافِظِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ ؟ فَقَالَ : « لِيَهْ تَخَلِّي هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً ؟ » ثُمَّ أَسْمَعَنِي قَصِيدَةَ حَافِظٍ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا ، فَتَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى حَافِظٍ ، فَكَادَ يَطِيرُ عَنْ كُرْسِيِّهِ فِي الْقَهْوَةِ .

* * *

وَكَانَ تَعَثُّ حَافِظٍ عَلَى الْكَاطِمِيِّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مِصْرِيٍّ ، فَفِي سَنَةِ ١٩٠٣ كَانَتْ تَصْدُرُ فِي الْقَاهِرَةِ مَجَلَّةٌ أَسْمُهَا « الثُّرَيَّا » ، فَظَهَرَ فِي أَحَدِ أَعْدَادِهَا (٢) مَقَالٌ عَنِ الشُّعْرَاءِ بِهَذَا التَّوْفِيعِ (*) ، وَانْفَجَرَ هَذَا الْمَقَالُ انْفِجَارَ الْبُرْكَانِ ، وَقَامَ بِهِ الشُّعْرَاءُ وَقَعَدُوا ، وَكَانَ لَهُ فِي الْعَارَةِ عَلَيْهِمْ كَرْفِيفُ الْجَيْشِ وَقَفَقَعَةُ السَّلَاحِ ، وَتَنَاوَلَتْهُ الصُّحُفُ الْيَوْمِيَّةُ ، وَاسْتَمَرَّتْ رَجْفَتُهُ الْأَدَبِيَّةُ نَحْوَ الشَّهْرِ ، وَانْتَهَى إِلَى الْخِذْيُو ؛ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ أَسَاتِذَةِ الْعَصْرِ السُّورِيِّينَ ، كَالْعَلَامَةِ سُلَيْمَانَ الْبُسْتَانِيَّ ، وَأَدِيبِ عَصْرِهِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ الْبَارِجِيَّ ، وَالْمُؤَرِّخِ الْكَبِيرِ جُورْجِي زَيْدَانَ - إِذْ كَانَ صَاحِبَ الْمَجَلَّةِ سُورِيًا - وَجَعَلُوا يَنْفِذُونَ إِلَى صَاحِبِ الْمَجَلَّةِ دَسِيسًا بَعْدَ دَسِيسٍ لِيَعْلَمُوا مَنْ هُوَ كَاتِبُ الْمَقَالِ .

وَشَاعَ يَوْمَئِذٍ أَنِّي أَنَا الْكَاتِبُ لَهُ ؛ وَكَانَ الْكَاطِمِيُّ عَلَى رَأْسِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ ؛ فَغَضِبَ حَافِظٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَمَا كَادَ يَرَانِي فِي الْقَاهِرَةِ حَتَّى ابْتَدَرَنِي بِقَوْلِهِ : « وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَنْتَ كَاتِبُ الْمَقَالِ ، وَذِمَّةُ الْإِسْلَامِ أَنْتَ صَاحِبُهُ ! » .

(١) الْغَزَزَةُ : أَوَّلُ قَوْلِ الشَّعْرِ ، حِينَ يَكْتُرُ الرَّدِيءُ فِيهِ . يُقَالُ : فَلَانٌ يُغَزِّزُ .

(٢) { عَدَدُ يَنَابِرٍ / كَانُونِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ١٩٠٥ ، وَانْظُرْ « شُعْرَاءُ عَصْرِهِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

ثُمَّ دَخَلْنَا إِلَى « قَهْوَةِ الشَّيْثَةِ » ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ : « إِنَّ الَّذِي يُغْنِيُنِي أَنْ يَأْتِيَ كَاتِبُ الْمَقَالِ بِشَاعِرٍ مِنْ غَيْرِ مَضْرٍ فَيَضَعُهُ عَلَى رُؤُوسِنَا نَحْنُ الْمَضْرِيَّينَ ! » .
فَقُلْتُ : « وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ غَاطَكَ بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ أَلَّا يَكُونَ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ هُوَ شَوْفِي ... » .

وَعَضِبَ السَّيِّدُ تَوَفِيقُ الْبَكْرِيُّ غَضَبًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَاسْتَعَانَ بِالْمَرْحُومِ السَّيِّدِ مُصْطَفَى الْمَنْقَلُوطِيِّ اسْتِعَانَةً ذَهَبِيَّةً ... وَشَمَّرَ الْمَنْقَلُوطِيُّ فَكَتَبَ مَقَالًا فِي « مَجَلَّةِ سَرْكِيْس » يُعَارِضُ بِهِ مَقَالَ « الثُّرَيَّا » ، وَجَعَلَ فِيهِ الْبَكْرِيُّ عَلَى رَأْسِ الشُّعْرَاءِ .. وَمَدَحَهُ مَدْحًا يَرْنُ رَيْنًا .

أَمَّا أَنَا فَتَنَاوَلَنِي بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الدَّمِّ ، وَجَرَدَنِي مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي جَمِيعًا ؛ وَعَدَنِي فِي الشُّعْرَاءِ لِيَقُولَ أَنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ ... فَكَانَ هَذَا رَدًّا نَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ ^(١) .

وَتَعَلَّقَ مَقَالَ الْمَنْقَلُوطِيِّ عَلَى الْمَقَالِ الْأَوَّلِ فَاسْتَهَرَّ بِهِ لَا بِالْمَنْقَلُوطِيِّ ؛ وَغَضِبَ حَافِظٌ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ تَعَسُّفَ هَذَا الْكَاتِبِ وَتَحَامُلَهُ ، وَيَقُولُ : قَدْ وَكَلْتُ إِلَيْكَ أَمْرَ تَأْدِيبِهِ ^(٢) .

فَكَتَبْتُ مَقَالًا فِي جَرِيدَةِ « الْمُنِيرِ » ، وَكَانَ يُصَدِّرُهَا الْأُسْتَاذَانِ مُحَمَّدٌ مَسْعُودٌ وَحَافِظٌ عَوْضٌ ، وَوَضَعْتُ كَلِمَةَ الْمَنْقَلُوطِيِّ الَّتِي ذَمَّنِي بِهَا فِي صَدْرِ مَقَالِي أَفَاخِرُ بِهَا ... وَقُلْتُ : إِنِّي كَذَلِكَ الْفِيلَسُوفُ الَّذِي أَرَادُوهُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَيَّ مَلِكِهِ ، فَأَكَبَّ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ حَتَّى شَقَعَهُ ؛ فَلَمَّا عَابُوهُ بِأَنَّهُ أَذَالَ حُرْمَةَ الْفَلَسَفَةِ بِإِنْجَانِهِ عَلَى قَدَمِ الْمَلِكِ وَسُجُودِهِ لَهُ ، قَالَ : وَيَحْكُمُ ! فَكَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْمَلِكُ قَدْ جَعَلَ أذُنِيهِ فِي رِجْلِيهِ ...

* * *

(١) [نَشَرَ الْمَرْحُومُ الْمَنْقَلُوطِيُّ مَقَالَهُ هَذَا فِي الطَّبَعَةِ الْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ « النَّظَرَاتِ » بَعْدَ أَنْ هَذَّبَهُ ؛ ثُمَّ حَذَفَهُ مِنَ الطَّبَعَاتِ الْأُخْرَى ، لِأَنَّهُ هُوَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّائِيحَةَ الْمُسْتَأْجَرَةَ لَا يُسَمَّى بُكَاءُهَا بُكَاءً ...] { أَنْظُرْ « فِي الثَّقَدِ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

(٢) { « الْمَقْتَطَفُ » نُوفَمْبَر/ تَشْرِينِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٣٢ ، وَأَنْظُرْ « فِي الثَّقَدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

وَلَمْ يَكُنْ مَضَى لِي فِي مُعَالَجَةِ الشُّعْرِ غَيْرُ سَتَتَيْنِ حِينَ ظَهَرَ مَقَالُ « الثُّرَيَّا » ، وَمَعَ ذَلِكَ أَصْبَحَ كُلُّ شَاعِرٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيِي فِيهِ ؛ فَمَرَزْتُ ذَاتَ يَوْمٍ (بِحَافِظٍ) وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ لَا أَعْرِفُهُمْ ، فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ بِنِ الْمَجْلِسِ قَالَ حَافِظٌ : مَا رَأَيْكَ فِي شِعْرِ الْيَازِجِيِّ ؟ فَأَجَبْتُهُ ، قَالَ : فَالْبُسْتَانِيَّ ؟ فَجِيبِ الْحَدَّادِ ؟ فَقُلَانِ ؟ فَقُلَانِ ؟ فِدَاوُدَ عَمُّونَ ؟ قُلْتُ : هَذَا لَمْ أَقْرَأْ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا لَا يَسُوعُ مَعَهُ الْحُكْمُ عَلَى شِعْرِهِ . قَالَ : فَمَاذَا قَرَأْتَ لَهُ ؟ قُلْتُ : رَدَّهُ عَلَى قَصِيدَتِكَ إِلَيْهِ [مِنَ الْمُتَقَارِبِ] :

شَجَّتْنَا مَطَالِعُ أَقْمَارِهَا

قَالَ : فَمَا رَأَيْكَ فِي قَصِيدَتِهِ هَذِهِ ؟ قُلْتُ : هِيَ مِنَ الشُّعْرِ الْوَسَطِ الَّذِي لَا يَغْلُو وَلَا يَنْزِلُ .

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ : أَنْصَفْتَ وَاللَّهِ ! فَقَالَ حَافِظٌ : أَقَدَّمْتُ لَكَ دَاوُدَ بَنِي عَمُّونَ ! ...
رَحِمَ اللَّهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ ! .

* * *

شوقي (*)

هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ مِصْرَ اخْتَارَتْهُ دُونَ أَهْلِهَا جَمِيعًا لِتَضَعَ فِيهِ رُوحَهَا الْمُتَكَلِّمَ ، فَأَوْجِبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُؤْجِبْ لِغَيْرِهِ ، وَأَعَانَتْهُ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ لِسِوَاهُ ، وَوَهَبَتْهُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالتَّمَكُّنِ وَأَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ وَخَصَائِصِهَا عَلَى قَدَرِ أُمَّةٍ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً ، لَا عَلَى قَدَرِ رَجُلٍ فِي نَفْسِهِ ؛ وَبِهِ وَحْدَهُ اسْتَطَاعَتْ مِصْرُ أَنْ تَقُولَ لِلتَّارِيخِ : شِعْرِي وَأَدِيبِي ! .

شوقي : هَذَا هُوَ الْأَسْمُ الَّذِي كَانَ فِي الْأَدَبِ كَالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ؛ مَتَى طَلَعَتْ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، وَمَتَى ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ اتَّسَعَ مَعْنَى اسْمِهِ فَذَلَّ عَلَى مِصْرَ كُلِّهَا كَأَنَّمَا قِيلَ : التَّيْلُ أَوْ الْهَرَمُ أَوْ الْفَاهِرَةُ ؛ مُتَرَادِفَاتٍ لَا فِي وَضْعِ اللَّغَةِ وَلَكِنْ فِي جَلَالِ اللَّغَةِ .

رَجُلٌ عَاشَ حَتَّى تَمَّ ، وَذَلِكَ بُرْهَانُ التَّارِيخِ عَلَى اصْطِفَائِهِ لِمِصْرَ ، وَدَلِيلُ الْعَبَقَرِيَّةِ عَلَى أَنَّ فِيهِ السَّرَّ الْمُتَحَرِّكَ الَّذِي لَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُ وَلَا يَقْطَعُ نِظَامَ عَمَلِهِ كَأَنَّ فِيهِ حَاسَةً نَحْلَةً فِي حَدِيثَةٍ . وَيَكْبُرُ شِعْرُهُ كُلَّمَا كَبُرَ الزَّمَنُ ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ دَهْرِهِ وَلَمْ يَقَعْ دُونَ أَبْعَدِ غَايَاتِهِ ، وَكَأَنَّهُ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى سِيَاقٍ وَاحِدٍ ، وَكَأَنَّ شِعْرَهُ تَارِيخٌ مِنَ الْكَلَامِ يُطَوِّرُ أَطْوَارَهُ فِي الثُّمُورِ فَلَمْ يَجْمُدْ وَلَمْ يَزْكَنْ ، وَيَقِي خِيَالَ صَاحِبِهِ إِلَى آخِرِ عُمرِهِ فِي تَذْيِيرِ السَّمَاءِ كَعَرَّاضِ الْغَمَامَةِ ، سَحَابُهُ كَثِيرٌ الْبَرَقُ مُمْتَلِئٌ مُمِطِرٌ يَنْصَبُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَيَمْتَلِئُ مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَالنَّاسُ يُكْتَبُ عَلَيْهِمُ الشَّبَابُ وَالْكُهُولَةُ وَالْهَرَمُ ، وَلَكِنَّ الْأَدِيبَ الْحَقَّ يُكْتَبُ عَلَيْهِ شَبَابٌ وَكُهُولَةٌ وَشَبَابٌ ؛ إِذْ كَانَتْ فِي قَلْبِهِ الْغَايَاتُ الْحَيَّةُ الشَّاعِرَةُ مَا تَنَفَّكُ يَلِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَى مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ الَّتِي خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَلَكِنَّهَا مِنْ حَيَاةِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْقَلْبِ .

* * *

(*) « أَلْمُقْتَطَفِ » ، المجلد : ٨١ ، نوفمبر/تشرين الآخر ١٩٣٢ م ، الصفحات : ٣٨٥ - ٣٩٧ .

{ وَنَظَرُ « فِي النِّقْدِ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » }

أَقَرُّ هَذَا فِي شَوْفِي رَحْمَةُ اللَّهِ ، وَأَنَا مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِمُيُوبِهِ وَأَمَاكِينِ الْغَمِيزَةِ فِي أَدْبِهِ
وَشِعْرِهِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَنْفَلَتْ مِنْ تَارِيخِ الْأَدَبِ لِمِصْرَ وَخَدَهَا كَانِفَلَاتِ الْمَطَرَةِ مِنْ
سَحَابِهَا الْمَتَسَايِرِ فِي الْجَوِّ ، فَأَصْبَحَتْ مِصْرُ بِهِ سَيِّدَةَ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ فِي الشَّعْرِ ، وَهِيَ لَمْ
تُذَكِّرْ قَدِيمًا فِي الْأَدَبِ إِلَّا بِالثَّكْنَةِ وَالرَّقَّةِ وَصِنَاعَاتِ بَدِيعَةِ مُلَفَّقَةٍ ، وَلَمْ يَسْتَفِضْ لَهَا ذِكْرٌ
بِنَابِغَةٍ وَلَا عَبْقَرِيٍّ ، وَكَانَتْ كَالْمُسْتَجِدَّةِ مِنْ تَارِيخِ الْحَوَاضِرِ فِي الْعَالَمِ ، حَتَّى إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ
الْمُلَقَّبَ بِوَلِيِّ الدَّوْلَةِ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ فِي مِصْرَ لِلظَّاهِرِ بْنِ الْمُسْتَنْصِرِ (وَقَدْ تُوُفِّيَ سَنَةَ
٤٣١هـ) ، وَكَانَ رِزْقُهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ دِينَارٍ فِي السَّنَةِ غَيْرَ رُسُومٍ يَسْتَوْفِيهَا عَلَى كُلِّ مَا يَكْتُبُهُ -
سَلَّمَ لِرَسُولِ التُّجَارِ إِلَى مِصْرَ مِنْ بَغْدَادَ جُرَازِينَ مِنْ شِعْرِهِ وَرَسَائِلِهِ يَحْمِلُهُمَا إِلَى بَغْدَادَ
لِيَعْرِضَهُمَا عَلَى الشَّرِيفِ الْمُزْنَضِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَدْبَائِهَا ، فَيَسْتَشِيرُهُمْ فِي تَخْلِيدِ هَذَا الْأَدَبِ
الْمِصْرِيِّ بِدَارِ الْعِلْمِ إِنْ اسْتَجَادُوهُ وَارْتَضَوْهُ ، كَأَنَّ حِفْظَ دِيْوَانِ مِنْ شِعْرِ مِصْرَ وَنَثَرِهَا فِي
مَكْتَبَةِ بَغْدَادَ قَدِيمًا يُشْبِهُ فِي حَوَادِثِ دَهْرِنَا اسْتِقْلَالَ مِصْرَ وَقَبُولَهَا فِي عُصْبَةِ الْأُمَمِ ...

وَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَسْوَانِيُّ ، إِمَامٌ مِنْ أَيْمَةِ الْأَدَبِ فِي مِصْرَ (تُوُفِّيَ سَنَةَ ٥٦٢هـ)
وَكَانَ كَاتِبًا شَاعِرًا يَجْمَعُ إِلَى عُلُومِ الْأَدَبِ الْفِقْهَ وَالْمَنْطِقَ وَالْهَنْدَسَةَ وَالطَّبَّ وَالْمُوسِيقَى
وَالْفَلَكَ - أَرَادَ أَنْ يُدَوِّنَ شِعْرَ الْمِصْرِيِّينَ ، فَجَمَعَ مِنْ شِعْرِهِمْ (وَشِعْرٍ مِنْ طَرَأَ عَلَيْهِمْ) أَرْبَعَ
مُجَلَّدَاتٍ ، كَأَنَّ الشَّعْرَ الْمِصْرِيَّ وَخَدَهُ إِلَى آخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ ، فِي الْعَهْدِ الَّذِي لَمْ
يَكُنْ ضَاعَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْكُتُبِ وَالذَّوَابِينِ لَا يَمْلَأُ أَرْبَعَ مُجَلَّدَاتٍ ... عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي
مِقْدَارِ الْمُجَلَّدَةِ ، فَقَدْ تَكُونُ جُزْءًا لَطِيفَ الْحَجْمِ ، وَالْأَسْوَانِيُّ نَفْسُهُ يَبْلُغُ دِيْوَانُهُ نَحْوَ مِئَةِ
وَرَقَّةٍ .

وَأَخُوهُ الْحَسَنُ الْمَعْرُوفُ بِالْمُهَذَّبِ الْأَسْوَانِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٥١هـ) ، قَالَ الْعِمَادُ
الْكَاتِبُ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمِصْرَ فِي زَمَنِهِ أَشْعَرُ مِنْهُ ، وَسَارَتْ لَهُ فِي النَّاسِ قَصِيدَةٌ سَمَّوَهَا
« التَّوَّاحَةُ » وَصَفَ فِيهَا حَنِينَهُ إِلَى أَخِيهِ وَقَدْ رَحَلَ إِلَى مَكَّةَ وَطَالَتْ غَيْبُهُ بِهَا وَخِيفَ عَلَيْهِ ،
فَالرَّجُلُ أَشْعَرُ أَهْلِ مِصْرَ فِي زَمَانِهِ ، وَحَادِثَةُ التَّوَّاحَةِ تَجَعَّلَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَشْعَرَ مِنْ
نَفْسِهِ ، عَلَى أَنَّهُ مَعَ هَذَا لَمْ يَقُلْ إِلَّا مِنْ هَذَا [من الكامل] :

يَا رَبِّعُ أَيْنَ نَرَى الْأَحِبَّةَ يَمُمُّوَا هَلْ أَنْجَدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَمْ أَنْتَهُمُوا

رَحَلُوا وَفِي الْقَلْبِ الْمُعْنَى بَعْدَهُمْ وَجَدُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُحَيِّمٌ
وَتَعَوَّضَتْ بِالْأَنْسِ نَفْسِي وَخَشَةَ لَا أَوْحَشَ اللَّهُ الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ ...
وَلَوْلَا ابْنُ الْفَارِضِ وَالْبَهَاءُ زُهَيْرٌ وَابْنُ فَلَاقِيسَ الْإِسْكَانْدَرِيّ وَأَمْثَالُهُمْ ، وَكُلُّهُمْ أَصْحَابُ
دَوَاوِينَ صَغِيرَةٍ ، وَلَيْسَ فِي شِعْرِهِمْ إِلَّا طَابَعُ الْتَلِيلِ ، أَنِي : الرِّقَّةُ وَالْحَلَاوَةُ - لَوْلَا هَؤُلَاءِ
فِي الْمُتَقَدِّمِينَ لَأَجْدَبَ تَارِيخُ الشَّعْرِ فِي مِصْرَ ، وَلَوْلَا الْبَارُودِيّ وَصَبْرِي وَحَافِظٌ فِي
الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَكُلُّهُمْ كَذَلِكَ أَصْحَابُ دَوَاوِينَ صَغِيرَةٍ ، لَمَّا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشِعْرِهَا فِي الْعَالَمِ
الْعَرَبِيِّ ، عَلَى أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ وَكُلُّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضْعُوا تَاجَ الشَّعْرِ عَلَى مَفْرَقِ
مِصْرَ وَوَضَعَهُ شَوْقِي وَخَذَهُ !

وَالْعَجَبُ أَنَّ دَوَاوِينَ الْمُجِيدِينَ مِنْ شُعْرَاءِ الْمِصْرِيِّينَ لَا تَكُونُ إِلَّا صَغِيرَةً ، كَأَنَّ طَبِيعَةَ
التَّلِيلِ تَأْخُذُ فِي الْمَعَانِي كَأَخْذِهَا فِي الْمَادَّةِ ، فَلَا فَيْضَ وَلَا خِصْبَ إِلَّا فِي وَفْتٍ بَعْدَ أَوْقَاتٍ ،
وَفِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ كُلِّ اثْنَتَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، وَمِنْ جَمَالِ الْفَرَّاشَةِ أَنَّ تَكُونَ صَغِيرَةً ، وَحَسْبُهَا
عِنْدَ نَفْسِهَا أَنْ أَجْنَحَتْهَا مُنْقَطَةً بِالذَّهَبِ ، وَأَنَّهَا هِيَ نُكْتَةٌ مِنْ بَدِيعِ الطَّبِيعَةِ !

عَلَى أَنَّكَ وَاجِدٌ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ عَجَبِيَّةً مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا لَا تُذَكِّرُ مَعَهَا
الْإِلْبَادَةَ وَلَا الْإِنْيَادَةَ وَلَا الشَّاهِمَاتِمَةَ وَلَا غَيْرَهَا ، وَلَكِنَّهَا عَجَبِيَّةٌ مَلَأَتْهَا رُوحُ الصَّخْرَاءِ إِنْ
كَانَتْ تِلْكَ الدَّوَاوِينُ الصَّغِيرَةُ مِنْ رُوحِ التَّلِيلِ ؛ وَهِيَ فَصِيدَةٌ نَظَمَهَا أَبُو رَجَاءٍ الْأَسْوَابِيُّ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٣٥ هـ ، وَكَانَ شَاعِرًا فَقِيهًا أَدِيبًا عَالِمًا كَمَا قَالُوا ، وَرَعَمُوا أَنَّهُ أَقْتَصَّ فِي
نَظْمِهِ أَخْبَارَ الْعَالَمِ وَقَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، قَالُوا : وَسُئِلَ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمْ بَلَغَتْ
فَصِيدَتُكَ ؟ فَقَالَ : ثَلَاثِينَ وَمِئَةَ أَلْفٍ بَيْتٍ ... وَمَا أَشْكُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَقَعَ لَهُ تَارِيخُ
الطَّبَرِيِّ وَكُتِبَ السِّيَرُ وَقَصَصُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَنَظَمَهَا مُتُونًا مُتُونًا ... وَأَفْنَى عُمُرُهُ فِي ١٣٠
أَلْفٍ بَيْتٍ حَوْلَهَا التَّارِيخُ إِلَى خَبَرٍ مُهْمَلٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ (١) !

* * *

كُلُّ شَاعِرٍ مِصْرِيٍّ هُوَ عِنْدِي جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ ؛ وَلَكِنَّ شَوْقِي جُزْءٌ مِنْ كُلِّ ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَ

الْجُزْءَيْنِ أَنَّ الْأَخِيرَ فِي قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ وَاتِّسَاعِ شِعْرِهِ جُزْءٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ الْكُلُّ ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ شَاعِرٌ فِي مِصْرَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا تَرَكَ شَوْفِي ، وَقَدْ اجْتَمَعَ لَهُ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ ؛ وَذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَارُ لِبِلَادِهِ ، فَسَاوَى الْمُتَنَازِلِينَ مِنْ شُعْرَاءِ دَهْرِهِ ، وَارْتَفَعَ عَلَيْهِمْ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ رِزْقُ تَارِيخِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمُدْبِرَةِ الَّتِي لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا لَا تُعْطِي ، أَوْ يَزِيدَ مَا تَنْقُصُ ، أَوْ يَنْقُصَ مَا تَزِيدُ ، وَقَدْ حَاوَلُوا إِسْقَاطَ شَوْفِي مِرَارًا فَأَرَاهُمْ غُبَارَهُ وَمَضَى مُتَقَدِّمًا ، وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ لِيَتَغَسَلَ عَيْنَيْهِ ... وَبَرَى بِهِمَا أَنَّ « شَوْفِي » مِنَ النَّفْسِ الْمِصْرِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْمَجْدِ الْمَكْتُوبِ لَهَا فِي التَّارِيخِ بِحَرْبٍ وَنَصْرِ ، وَمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ شَاعِرٍ وَشِعْرِهِ .

وُلِدَ شَاعِرُنَا سَنَةَ ١٨٦٨ فِي نِعْمَةِ الْخَذِيوِ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا ، وَنَثَرَ لَهُ الْخَذِيوِ الدَّهَبَ وَهُوَ رَضِيعٌ فِي قِصَّةِ ذِكْرهَا شَوْفِي فِي مُقَدِّمَةِ دِيَوَانِهِ الْقَدِيمِ . ثُمَّ كَفَلَهُ الْخَذِيوِ تَوْفِيقُ بَاشَا وَعَلَّمَهُ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةٍ ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَثْرَلَةً أَبَ غَيْيٍ كَمَا يَقُولُ شَوْفِي فِي مُقَدِّمَتِهِ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ الْخَذِيوِ عَبَّاسُ بَاشَا وَجَعَلَهُ شَاعِرَهُ وَتَرَكَهُ يَقُولُ [من المقترض] :

شَاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا أَلَلِّقُ

وَإِذَا أَنْتَ فَسَرْتَ لَقَبَ شَاعِرِ الْأَمِيرِ هَذَا بِالْأَمِيرِ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، خَرَجَ لَكَ مِنَ التَّفْسِيرِ : شَاعِرٌ مُزْهَفٌ مُعَانٍ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ ، لِيَكُونَ أَدَاةَ سِيَاسِيَّةٍ فِي الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ ، تَعْمَلُ لِأَحْيَاءِ التَّارِيخِ فِي النَّفْسِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتَبْصُرُهَا بِعَظَمَتِهَا ، وَإِقْحَامِهَا فِي مَعَارِكِ زَمَنِهَا ، وَتَهْتِفُهَا لِلْمُدَافَعَةِ ، وَتَصِلُ الشُّعْرَ بِالسِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَوَجَّهَتْ لَهَا الْخِلَافَةُ يَوْمَئِذٍ لِتَضْرِبَ فِكْرَةَ أَوْرُوبَةِ فِي تَقْسِيمِ الدَّوْلَةِ بِفِكْرَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا يَخْرُجُ لَكَ شَوْفِي مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ فِي قَدْرِ نَفْسِهِ ، بَلْ فِي قَدْرِ أَمِيرِهِ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ مُتَمَلِّئًا شَبَابًا يَغْلِي غَلِيَانًا ، وَمُعَدًّا يَوْمَئِذٍ لِمَطَامِحَ بَعِيدَةٍ مُلَفَّفَةٍ حَشَوْهَا الدِّينَامِيتُ السِّيَاسِيُّ ...

كُنْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَكَلَّمُ صَدِيقِي الْكَاتِبَ الْعَمِيْقَ فَرَحَ أَنْطُونِ صَاحِبَ « الْجَامِعَةِ » وَكَانَ مُعْجَبًا بِشَوْفِي إِعْجَابًا شَدِيدًا ، فَقَالَ لِي : إِنَّ شَوْفِي الْآنَ فِي أَفْقِ الْمُلُوكِ لَا فِي أَفْقِ الشُّعْرَاءِ ! قُلْتُ : كَأَنَّكَ نَفَيْتَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالشُّعْرَاءِ مَعًا ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، وَلَوْ نَقَدَ إِلَى أَوْلَئِكَ لَمْ يُعَدَّ شَيْئًا ؛ إِنَّمَا الرَّجُلُ فِي السِّيَاسَةِ الْمُلُوكِيَّةِ الَّتِي تَصِلُهُ

بِالْأَمِيرِ ، وَهُوَ مَرَّةً كَوَزِيرِ الْحَرْبِيَّةِ وَمَرَّةً كَوَزِيرِ الْمَعَارِفِ .

وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي ارْتَضَى بِهَا شَوْقِي وَلَا بَسَهَا مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَاتَّجَهَ شِعْرُهُ فِي مَذَاهِبِهَا ، مِنْ الْوَطَنِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ ، إِلَى التَّرَعَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ إِلَى الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَكَانَتْ بِهَذَا سَبَبَ ثُبُوغِهِ وَمَادَّةَ مَجْدِهِ الشُّعْرِيِّ - هِيَ بَعَيْنُهَا مَادَّةُ بَقَائِصِهِ ؛ فَلَقَدْ أَبْتَلَتْهُ بِحُبِّ نَفْسِهِ وَحُبِّ الثَّنَاءِ عَلَيْهَا ، وَتَسَخَّرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ بِمَا وَسِعَتْهُ قُوَّتُهُ ، إِلَى غَيْرَةِ أَشَدِّ مِنْ غَيْرَةِ الْحَسَنَاءِ تَقْشَعِرُ كُلَّ شَعْرَةٍ مِنْهَا إِذْ جَاءَهَا الْحُسْنُ بِثَانِيَةٍ ، وَهِيَ غَيْرَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَذْمُومَةً فِي صِلَتِهِ بِالْأَدْبَاءِ الَّذِينَ لَدَعُوهُ بِالْجَمْرِ . . . وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا مَمْدُوحَةٌ فِي مَوْضُوعِهَا مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ ؛ إِذْ جَعَلَتْهُ كَالْجَوَادِ الْعَتِيقِ الْكَرِيمِ يُتَافَسُ حَتَّى ظَلُّهُ ، فَعَارَضَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشِعْرِهِ كَانَتْهُمْ مَعَهُ ، وَتَافَسَ الْمُعَاصِرِينَ لِيَجْعَلَهُمْ كَانَتْهُمْ لَيْسُوا مَعَهُ ، وَتَافَسَ ذَاتَهُ أَيْضًا لِيَجْعَلَ شَوْقِي أَشْعَرَ مِنْ شَوْقِي ؛ وَعِنْدِي أَنَّ كُلَّ مَا فِي هَذَا الرَّجُلِ مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ فَمَرْجِعُهُ إِلَى آثَارِ تِلْكَ السِّيَاسَةِ الْمُتَلَوِّيَةِ الَّتِي رُدَّتْ بِطَبِيعَةِ الْقُوَّةِ عَنْ وَجْهِهَا الصَّرِيحَةِ ، فَجَعَلَتْ تَضْطَرِبُ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْحِيلِ وَالْأَسْبَابِ مُدْبِرَةً مُقْبِلَةً ، مُتَهَدِّيةً فِي كُلِّ مَجَاهِلِهَا بِإِبْرَةِ مِغْطَاطِسِيَّةٍ عَجِيبَةٍ لَا يُشَبِّهُهَا فِي الطَّبِيعَةِ إِلَّا أَنْفُ الثَّغْلِبِ الْمُتَجِّهِ دَائِمًا إِلَى رَائِحَةِ الدَّلْجَاجِ . . .

وَمُؤَرِّخُ الْأَدَبِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ عَنْ شَوْقِي لَا يَضَعُ شَيْئًا إِنْ هُوَ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ كَانَ هَدِيَّةَ الْخِديويِ تَوْفِيقِ وَالْخِديويِ عَبَّاسٍ لِمِصْرَ ، كَالَّذِلْنَا بَيْنَ قَرْعِي الثَّلِيلِ ؛ وَمَا أَصَابَهُ الْمُتَنَبِّيُّ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِمَّا أَبْتَعَتْ قَرِيحَتُهُ وَرَاشَ أَجْنِحَتُهُ السَّمَاوِيَّةَ وَأَضْفَى رِنَشَهَا وَانْتَزَى بِهَا عَلَى الْغَايَاتِ الْبَعِيدَةِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ - أَصَابَ شَوْقِي فِي سُمُومِ الْخِديويِ عَبَّاسٍ أَكْثَرَ مِنْهُ ، فَكَانَ حَقِيقًا أَنْ يُسَاوِيَ الْمُتَنَبِّيَّ أَوْ يَتَقَدَّمَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مَنَزَلَتَهُ ، لِأَنَّ الْخِديويَ لَمْ يَكُنْ كَسَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي مَعْرِفَتِهِ بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَرَغْبَتِهِ فِيهِ . وَسِرُّ الْمُتَنَبِّيِّ كَانَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ : فِي جِهَارِهِ الْعَصِيَّ الْعَجِيبِ الَّذِي لَا يَقِلُّ فِي رَأْيِي عَمَّا فِي دِمَاقِ شَكْسْبِيرِ Shakespeare ، وَفِي مَمْدُوحِهِ الْأَدِيبِ الْمَلِكِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْ هَذَا الْجِهَارِ مَنَزَلَةَ الْمُهَنْدِسِ الْكَهْرْبَائِيِّ مِنَ آلَةِ عَظِيمَةٍ يَدِيرُهَا بِعِلْمٍ وَيَقُومُ عَلَيْهَا بِتَنْدِيرٍ وَيَحُوطُهَا بِعِنَايَةٍ ، ثُمَّ فِي أَقْفِ عَصْرِهِ الْمُتَالِيِ بِنُجُومِ الْأَدَبِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظْهَرَ بَيْنَهَا إِلَّا مَا هُوَ فِي قَدْرِهَا ؛ وَلَا

يَتَمَيَّزُ فِيهَا إِلَّا مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، وَلَا يَتَوَكَّلُهَا كَالْمُنْطَفِئَةِ إِلَّا شَمْسٌ كَشَمْسِ الْمُتَمَيِّزِ تَفَجَّرُ عَلَى الدُّنْيَا بِمُعْجَزَاتِهَا التُّورَانِيَّةِ .

وَلَقَدْ وَآلَهُ كَانَ هَذَا الْمُتَمَيِّزُ كَأَنَّهُ يُورِغُ الشَّرَفَ عَلَى الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ ؛ وَهَلْ أَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَنَّ أَبَا إِسْحَاقَ الصَّابِيَّ شَيْخَ الْكِتَابِ فِي عَصْرِهِ يُرَاسِلُهُ أَنْ يَمْدَحَهُ بِقَصِيدَتَيْنِ وَيُعْطِيَهُ خَمْسَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمُتَمَيِّزُ : مَا رَأَيْتُ بِالْعِرَاقِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ غَيْرَكَ ، وَلَكِنِّي إِنْ مَدَحْتُكَ تَنَكَّرَ لَكَ الْوَزِيرُ (يعني المَهْلِكِي) لِأَنِّي لَمْ أَمْدَحْهُ ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تُبَالِي هَذَا الْحَالِ فَأَنَا أُجِيبُكَ وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ مَالًا وَلَا مِنْ شِعْرِي عَوْضًا ! فَأَيْنَ فِي دَهْرِنَا مَنْ تُشْعِرُهُ عِزُّهُ الْأَدَبِ مِثْلَ هَذَا الشُّعُورِ لِيَأْتِيَ بِالشُّعْرِ مِنْ نَفْسٍ مُسْتَقْبِقَةٍ أَنَّ الدُّنْيَا فِي أَنْتِظَارِ كَلِمَتِهَا ؟

عَلَى أَنَّ « شَوْقِي » لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُ بِاعْتِبَارِ زَمَنِهِ إِلَّا (الْجُمُهُورُ الشَّعْرِيُّ) ، وَكُلُّ بَلَاءِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ أَنَّهُ لَا يَجِدُ هَذَا الْجُمُهُورَ ، فَالشَّاعِرُ بِذَلِكَ مُنْصَرِفٌ إِلَى مَعَانٍ فَرْدِيَّةٍ مِنْ مَمْدُوحٍ عَظِيمٍ أَوْ حَبِيبٍ عَظِيمٍ أَوْ سُقُوطٍ عَظِيمٍ . . . حَتَّى الطَّبِيعَةُ تَظْهَرُ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ كَأَنَّهَا قَطَعَ مَبْتُورَةٌ مِنَ الْكَوْنِ دَاخِلَةٌ فِي الْخُدُودِ لِأَسَةِ الثِّيَابِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ يَنْبُعُ الشَّاعِرُ وَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الْإِحْسَاسِ إِلَّا قَدْرٌ نَفْسِهِ لَا قَدْرُ جُمُهُورِهِ ، وَإِلَّا مِلْءُ حَاجَاتِهِ لَا مِلْءُ الطَّبِيعَةِ ؛ فَلَا جَرَمَ يَقَعُ بَعِيدًا عَنِ الْمَعْنَى الشَّامِلِ الْمُتَّصِلِ بِالْمَجْهُولِ ، وَيَسْقُطُ بِشِعْرِهِ عَلَى صُورٍ فَرْدِيَّةٍ ضَمِيَّةٍ الْخُدُودِ ، فَلَا نَجْدَ فِي طَبِيعِهِ قُوَّةَ الْإِحَاطَةِ وَالتَّبَسُّطِ وَالشُّمُولِ وَالتَّنْذِيقِ ، وَلَا تَوَاتُبَهُ طَبِيعَتُهُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ كُلَّ صُورَةٍ شِعْرِيَّةٍ بِخَصَائِصِهَا ، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْخَاطِرِ الْعَارِضِ يَأْخُذُ مِنْ عَفْوِهِ وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يُوْغَلَ فِيهِ ، وَإِذَا هُوَ عَلَى نِزَوَاتٍ ضَعِيفَةٍ مِنَ التَّفَكِيرِ لَا يَطُولُ لَهَا بَحْثُهُ وَلَا يَقْدَمُ فِيهَا نَظَرُهُ ، وَإِذَا نَفْسُهُ تَمُرُّ عَلَى الْكَوْنِ مَرًّا سَرِيعًا ، وَإِذَا شِعْرُهُ مُقَطَّعٌ قِطْعًا ، وَإِذَا آلَامُهُ وَأَفْرَاحُهُ أَوْصَافٌ لَا شُعُورَ ، وَكَلِمَاتٌ لَا حَقَائِقَ ، وَظِلٌّ طَامِسٌ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِذَا قَابَلَتْهُ بِفَاصِلِ الْجِسْمِ الْحَيِّ السَّائِرِ عَلَى الْأَرْضِ .

وَاجْتَمَعَ لِسَوْقِي فِي مِيرَاثِ دِمِهِ وَمَجَارِي أَعْرَاقِهِ غُنْصُرٌ عَرَبِيٌّ ، وَآخَرُ تُرْكِيٌّ ، وَثَالِثٌ يُونَانِيٌّ ، وَرَابِعٌ شَرْكَسِيٌّ ؛ وَهَذِهِ كَثْرَةُ إِنْسَانِيَّةٍ لَا يَأْتِي مِنْهَا شَاعِرٌ إِلَّا كَانَ خَلِيقًا أَنْ يَكُونَ دَوْلَةً مِنْ دَوْلِ الشُّعْرِ ، وَإِلَى هَذَا وَلِدَ شَاعِرُنَا بِاخْتِلَالِهِ الْعَصَبِيِّ فِي عَيْنَيْهِ ، كَأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ طَبِيعِيٌّ عَلَى أَنَّ وَرَاءَهُمَا عَيْنَتَيْنِ لِلْمَعَانِي تَرَاخُمَانِ عَيْنَتِي الْبَصَرِ ؛ وَمَا لَمْ يَكُنِ التَّرَكِيبُ

الْعَصِي فِي الشَّاعِرِ مُهَيَّا لِلْبُؤْسِ ؛ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْ تَقَاسِيمِ الدُّنْيَا فِي غَيْرِ الشَّعْرِ ، وَلَيْسَ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَا فِي الصَّنَاعَةِ قُوَّةٌ تَجْعَلُ حَنْجَرَةَ الْبَلْبَلِ فِي غَيْرِ الْبَلْبَلِ ؛ وَمَعَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ فَقَدْ أُعِينَ شَوْقِي عَلَى الشَّعْرِ بِفَرَاغِهِ لَهُ أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، غَيْرَ مُشْتَرِكِ الْعَمَلِ ، وَلَا مُتَقَسِّمِ الْخَاطِرِ ، عَلَى سَعَةٍ فِي الرِّزْقِ وَبَسْطَةٍ فِي الْحَاجِهِ وَعُلُوًّا فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ دَوَاوِينُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَالْأَوْرُوبِيِّ وَالتُّرْكِيِّ وَالْفَارِسِيِّ ؛ وَإِنْ تَنَسَّ فَلَا تَنَسَّ أَنَّ شَاعِرَنَا هَذَا خُصَّ بِنَشَاطِ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ رُوحُ الشَّعْرِ لَا رُوحَ لِلشَّعْرِ بِذَوْنِهِ ، فَسَافَرَ وَرَحَلَ وَتَقَلَّبَ فِي الْأَرْضِ وَخَالَطَ الشُّعُوبَ وَاسْتَعْرَضَ الطَّبِيعَةَ بِتَحَلُّلِهَا بِبَصَرِهِ مَا بَيْنَ الْأَنْدَلُسِ وَالْأَسْتَانَةِ ، وَظَهِيرُهُ عَلَى ذَلِكَ مَالُهُ وَفَرَاغُهُ ؛ وَإِنَّمَا قُوَّةُ الشَّعْرِ فِي مَسَاقِطِ الْجَوِّ ، فَفِي كُلِّ جَوٍّ جَدِيدٍ رُوحٌ لِلشَّاعِرِ جَدِيدَةٌ ؛ وَالطَّبِيعَةُ كَالنَّاسِ : هِيَ فِي مَكَانٍ بَيَضَاءَ وَفِي مَكَانٍ سَوْدَاءَ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ نَائِمَةٌ تَحْلُمُ وَفِي مَوْضِعٍ قَائِمَةٌ تَعْمَلُ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَالْأُنْثَى الْجَمِيلَةِ ، وَفِي بَلَدٍ هِيَ كَالرَّجُلِ الْمُصَارِعِ ، وَلَنْ يَجْتَمَعَ لَكَ رُوحُ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ عَلَى أَفْوَاهِ وَأَشْدِهِ إِلَّا إِذَا أَطْعَمْتَهُ مَعَ صُنُوفِ الْأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ الْمُفِيدَةِ ، أَلْوَانَ الْهَوَاءِ اللَّذِيذِ الْمُفِيدِ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا أَمَلُ أَنْ يَنْشَأَ لِمُصَرِّ شَاعِرٍ عَظِيمٍ فِي طَبَقَةِ الْفُحُولِ مِنَ الشُّعَرَاءِ الْعَالَمِ ، إِلَّا إِذَا أُعِيدَ تَارِيخُ شَوْقِي مُهَذَّبًا مُتَّفَحًا فِي رَجُلٍ وَهَبَهُ اللَّهُ مَوَاهِبَهُ ثُمَّ تَهَبَهُ الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ مَوَاهِبَهَا .

* * *

وَالْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي رَاضَ خَيَالُ شَوْقِي وَصَقَلَ طَبَعُهُ وَصَحَّحَ نَشَاتُهُ الْأَدَبِيَّةَ ، هُوَ يَعْنِيهِ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ بِصِيرَةٌ حَافِظٌ وَذَكَرْنَاهُ فِي مَقَالِنَا عَنْهُ ، أَيْ : كِتَابُ « الْوَسِيلَةِ الْأَدَبِيَّةِ » لِلْمَرْصِفِيِّ ؛ وَلَيْسَ السَّرُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا فِيهِ مِنْ فُتُونِ الْبَلَاغَةِ وَمُخْتَارَاتِ الشَّعْرِ وَالْكِتَابَةِ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ كَانَ فِي مُصَرِّ قَدِيمًا وَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا وَلَمْ يُخْرِجْ لَهَا شَاعِرًا كَشَوْقِي ؛ وَلَكِنَّ السَّرَّ مَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شِعْرِ الْبَارُودِيِّ لِأَنَّهُ مُعَاصِرٌ ؛ وَالْمُعَاصِرَةُ أَقْدَاءُ وَمُتَابِعَةٌ عَلَى صَوَابٍ إِنْ كَانَ الصَّوَابُ ، وَعَلَى خَطَأٍ إِنْ كَانَ الْخَطَأُ ؛ وَقَدْ تَصَرَّ مَتِ الْفُرُوقِ الْكَثِيرَةِ وَالشُّعَرَاءُ يَتَنَاقَلُونَ دِيُونََ الْمُتَسَنِّيِّ وَغَيْرِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَجِئُوهُ إِلَّا بِشِعْرِ الصَّنَاعَةِ وَالتَّكْلِيفِ : وَلَا يُخَلِّدُ الْجِيلُ مِنْهُمْ إِلَّا لِمَا رَأَى فِي عَصَرِهِ ؛ وَلَا يَسْتَفْتِحُ غَيْرَ الْبَابِ الَّذِي فَتَحَ لَهُ ، إِلَى أَنْ

كَانَ الْبَارُودِيُّ وَكَانَ جَاهِلًا يَفْتُنُونَ الْعَرَبِيَّةَ وَعُلُومَ الْبَلَاغَةِ ، لَا يُحْسِنُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَجَهْلُهُ هَذَا هُوَ كُلُّ الْعِلْمِ الَّذِي حَوَّلَ الشَّعْرَ مِنْ بَعْدُ ، فَيَا لَهَا عَجِيبَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ ! وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ النَّاسِ لَيْسَتْ إِلَّا خُضُوعًا لِقَوَائِنَ نَافِذَةٍ عَلَى النَّاسِ . وَأَكْبَ الْبَارُودِيُّ عَلَى مَا أَطَاقَهُ ؛ وَهُوَ الْحِفْظُ مِنَ شِعْرِ الْفُحُولِ ، إِذْ لَا يَخْتَاجُ الْحِفْظُ إِلَى غَيْرِ الْقِرَاءَةِ ، ثُمَّ الْمَعَانَاةُ وَالْمُزَاوَلَةُ ، وَكَانَتْ فِيهِ سَلِيقَةٌ ؛ فَخَرَجَتْ مَخْرَجَ مِثْلِهَا فِي شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ ، وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الشَّعْرَ الْجَزَلَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمَرْصُفِيُّ بِالْهَامِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيُخْرِجَ بِهِ لِلْعَرَبِيَّةِ حَافِظَ وَشَوْقِي وَغَيْرَهُمَا ، فَكُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ يَنْقُلُ رُوحَ الْمُعَاصِرَةِ إِلَى رُوحِ الْأَدِيبِ النَّاشِئِ ؛ فَتَبِعْتُهُ هَذِهِ الرُّوحَ عَلَى التَّمْيِيزِ وَصِحَّةِ الْاِقْتِدَاءِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى مِيزَةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَنْتَهِي بِهِ إِلَى مَا فِي قُوَّةِ نَفْسِهِ مَا دَامَ فِيهِ ذِكَاءٌ وَطَبِيعٌ . وَبِهَذَا أَبْتَدَأَ شَوْقِي وَحَافِظٌ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَانْتَهَى كِلَاهُمَا إِلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْآخَرِ ، وَالطَّرِيقَتَانِ مَعًا غَيْرُ طَرِيقَةِ الْبَارُودِيِّ .

تَحَوَّلَ شَوْقِي بِهَذَا الشَّعْرِ لَا إِلَى طَرِيقَةِ الْبَارُودِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يُطَبِّقُهَا وَلَا تَنْتَهِي فِي أَسْبَابِهِ ، وَخَاصَّةً فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَكَانَ لُغَةً الْبَارُودِيِّ فِيهَا مِنْ لَقَبِهِ ، أَيْ : فِيهَا الْبَارُودُ . . . وَلَكِنْ تَحَوَّلَ نَابِغَتَنَا كَانَ عَنْ طَرِيقَةِ مُعَاصِرِيهِ مِنْ أَمْثَالِ اللَّيْنِيِّ وَأَبِي النَّصْرِ وَغَيْرِهِمَا ، فَتَرَكَ الْأَحْيَاءَ وَأَنْطَلَقَ وَرَاءَ الْمَوْتَى فِي دَوَائِنِهِمُ الَّتِي كَانَ مِنْ سَعَادَتِهِ أَنْ طُبِعَ الْكَثِيرُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ : كَالْمُتَشَبِّهِ وَأَبِي تَمَامٍ وَالْمُخْتَرِيِّ وَالْمَعْرِيِّ ، ثُمَّ أَهْلُ الرَّقَّةِ أَصْحَابُ الطَّرِيقَةِ الْعَرَامِيَّةِ : كَأَبْنِ الْأَحْنَفِ وَالْبُهَاءِ زُهَيْرٍ وَالشَّابِّ الطَّرِيفِ وَالتَّلْغَفَرِيِّ وَالْحَاجِرِيِّ ، ثُمَّ مَشَاهِيرُ الْمُتَأَخِّرِينَ : كَأَبْنِ النَّحَّاسِ وَالْأَمِيرِ مِنْجُكٍ وَالشَّرْقَاوِيِّ ، وَقَدْ حَاوَلَ شَوْقِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ ، فَظَهَرَ فِي شِعْرِهِ تَقْلِيدُهُ وَعَمَلُهُ فِي مُحَاوَلَةِ الْاِئْتِكَارِ وَالْإِبْدَاعِ وَإِحْكَامِ التَّوَلُّدِ مَعَ السُّهُولَةِ وَالرَّفَقَةِ وَتَكْلُفِ الْغَزَلِ بِالطَّبِيعِ الْمُتَدَقِّقِ لَا بِالْحُبِّ الصَّحِيحِ .

وَأَنَا حِينَ أَكْتُبُ عَنْ شَاعِرٍ لَا يَكُونُ أَكْبَرُ هَمِّي إِلَّا الْبَحْثُ فِي طَرِيقَةِ ابْتِدَاعِهِ لِمَعَانِيهِ ، وَكَيْفَ أَلَمَّ وَكَيْفَ لَحَظَ وَكَيْفَ كَانَ أَلْمَعْنَى مِنْبَهَةً لَهُ ، وَهَلْ أَبْدَعَ أَمْ قَلَّدَ ، وَهَلْ هُوَ شَاعِرٌ بِالْمَعْنَى شُعُورًا فَخَالَطَ نَفْسَهُ وَجَاءَ مِنْهَا ، أَمْ نَقَلَهُ نَقْلًا فَجَاءَ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهَلْ يَتَسَّعُ فِي

الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظر في أسرار الأشياء ويحسن أن يستشف هذه الغيوم
التي ينبح فيها المجهول الشعري ويتصل بها ويستصحب الناس من وحيها ، أم فكره
استرسال وترجم في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجمله هل هو
ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياة من نفسه ، أم
هو تبعية كالمسار بين طرفين : يكون بينهما وليس منهما ولا من أحدهما ؟ في هذه
الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ، ولا يؤدبك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب
إليه إن أطلقته ، أما تاريخ الشاعر نفسه فما أسهل ، إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره وليس
في تاريخ ما كان إلا نقله كما كان .

إذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابعة من أول أمره ، فبينه تلك الموهبة التي
أسميها حاسة الجور ، إذ يلمح بها التواضع معاني ما وراء المنظور ، ويستزليون بها من كل
معنى معنى غيره .

أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما أطل ، وهي من
شعره السائر [من الخفيف] :

خَدَعُوها بِقَسْوَلِهِمْ حَسَنَاءُ	وَالْغَوَانِي يَغُرُّهُنَّ النَّهَاءُ
مَا تُرَاهَا تَنَاسَتْ أَسْمِي لَمَّا	كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَيْتَنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ	تَكْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظَرَةٌ فَأَبْتَسَامَةٌ فَسَلَامٌ	فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

دَع غَلَطَتْهُ فِي قَوْلِهِ (تَمِيلُ عَنِّي) ^(١) فَإِنْ صَوَّبَهَا تَمِيلُ ؛ إِذْ هِيَ جَوَابُ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ ؛
وَلَكِنْ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ مَعَانِيهِ ؛ وَأَنَا كُنْتُ دَائِمًا وَمَا أَزَالُ مُعْجَبًا بِالْبَيْتَيْنِ الثَّانِي وَالرَّابِعِ ،
لَا إِكْبَارًا لِمَعْنَاهُمَا ، فَهُمَا لَا شَيْءَ عِنْدِي ، وَلَكِنْ إِعْجَابًا بِمَوْهَبَةِ شَوْقِي فِي التَّوَلُّدِ ، فَإِنَّهُ
أَخَذَ الْبَيْتَ الثَّانِي مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ [من الوافر] :

أَتَيْتُ فَوَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ

(١) { أَنْظِرِ الْمَسَاجِلَاتِ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَالْعَمَّادِ فِي هَذِهِ الْقَوْلَةِ بِالْمُقْتَضَبِ { .

فَمَرَّ الْمَعْنَى فِي ذَهْنِ شَوْقِي كَمَا يَمُرُّ الْهَوَاءُ فِي رَوْضَةٍ ، وَجَاءَ نَسِيمًا يَتَرَفَّرُ بَعْدَ مَا كَانَ
كَالرَّيْحِ السَّافِيَةِ يَبْرَأُهَا ، لِأَنَّ الزُّحَامَ فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ حَقِيقٌ بِسُوقِ قَائِمَةٍ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ،
لَا يَقْلِبُ أَمْرًا يُحِبُّهَا ، بَلْ هُوَ يَجْعَلُ قَلْبَ الْمَرْأَةِ شَيْئًا غَرِيبًا كَأَنَّهُ لَيْسَ غُضْوًا فِي جِسْمِهَا ،
بَلْ غُرْفَةً فِي بَيْتِهَا . . . وَقَدْ سَبَقَ شَاعِرُنَا أَبَا تَمَامٍ بِمَرَا حِلِّ فِي إِبْدَاعِهِ وَذَوْقِهِ وَرِقَّتِهِ .

وَأَلْبَيْتُ الرَّابِعُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الظَّرِيفِ [من البسيط] :

قِفْ وَاسْتَمِعْ سِيرَةَ الصَّبِّ الَّذِي قَتَلُوا فَمَاتَ فِي حُبِّهِمْ لَمْ يَبْلُغِ الْفَرَضَا
رَأَى فَحَبَّ فَسَامَ الْوُضْلَ فَاثْتَمَعُوا فَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلُهُ فَقَضَى
وَهَذِهِ « فَاءَات » تَجُرُّ إِلَى الْقَبْرِ وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا . . . وَمِمَّا كُنْتُ أَعِينُهُ عَلَى شَوْقِي
ضَعْفُهُ فِي قُتُونِ الْأَدَبِ ، فَإِنَّ الْمُؤَنِلِحِي الْكَاتِبَ الشَّهِيرَ ائْتَقَدَ فِي جَرِيدَةِ مِصْبَاحِ الشَّرْقِ
أَبْيَاتَ (خَدَعُوهَا) عِنْدَ ظُهُورِ « الشُّوقِيَّاتِ » فِي سَنَةِ ١٨٩٩ ، فَارْتَاعَ شَوْقِي ، وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ
لِيُشْسِكَ عَنِ الْقَتْلِ ، مَعَ أَنَّ كَلَامَ الْمُؤَنِلِحِي لَا يُنْقِطُ ذُبَابَةً مِنْ ارْتِفَاعِ نَصْفِ مِثْرِ . . . وَمِنْ
مُصَيِّبَةِ الْأَدَبِ عِنْدَنَا ، بَلْ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرَارِ ضَعْفِهِ أَنَّ شُعْرَاءَنَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْقَتْلِ ، وَأَنَّهُمْ
يَفْرُونَ مِنْهُ فَرَارًا وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَفَادِيهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ غَيْرَ الشُّعْرِ ؛ فَلَا الْبَارُودِيَّ وَلَا
صَبْرِي وَلَا حَافِظَ وَلَا شَوْقِي كَانَ يُحْسِنُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَذْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَكْتُبَ فَضْلًا فِي
الْقَتْلِ الْأَدَبِيِّ ، أَوْ يُحَقِّقَ مَسْأَلَةً فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ .

وَمِنْ مَعَانِي شَوْقِي السَّائِرَةِ [من الخفيف] :

لَكَ نَضْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي آفَةُ الثُّضَحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا
وَكُرَّهُهُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى فَقَالَ [من الخفيف] :

آفَةُ الثُّضَحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا وَأَذَى الثُّضَحِ أَنْ يَكُونَ جَهَارًا
وَأَلْبَيْتَانِ مِنْ شِعْرِ صِبَاهُ أَيْضًا ، وَهُمَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ [من الطويل] :

وَفِي الثُّضَحِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيحِ مُوَادِعٍ وَلَا خَيْرَ فِيهِ مِنْ نَصِيحِ مُوَاثِبِ
فَصَحَّحَ شَوْقِي الْمَعْنَى وَأَبْدَلَ الْمُوَاثِبَةَ بِالْجِدَالِ ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي عَجَزَ عَنْهُ ابْنُ
الرُّومِيِّ ؛ وَمِنْ بَرَاعَتِهِ فِي قَصِيدَتِهِ « صَدَى الْحَرْبِ » يَصِفُ هَزِيمَةَ الْيُونَانِ [من الطويل] :

يَكَادُونَ مِنْ دُغْرِ تَفَرُّ دِيَارِهِمْ وَتَنْجُو الرِّوَاسِي لَوْ حَوَاهُنَّ مَشْعَبُ
يَكَادُ الثَّرَى مِنْ تَخْتِهِمْ يَلْجُ الثَّرَى وَيَقْضِمُ بَعْضُ الْأَرْضِ بَعْضًا وَيَقْضِبُ
وَهَذَا خَيَالٌ بَدِيعٌ فِي الْغَايَةِ ، جَعَلَ هَزْنَمَتَهُمْ كَأَنَّهُا لَيْسَتْ مِنْ هَوْلِ الثَّرَى ، بَلْ مِنْ
هَوْلِ الْقِيَامَةِ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَلَّدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ كَرَمٍ مَمْدُوحِهِ أَبِي دُلَيْبٍ [من
الطويل] :

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْشُ عِرَاضَهَا فَتَرْكَبُ مِنْ شَوْقِي إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ
فَقَاسَ شَاعِرُنَا عَلَى ذَلِكَ ؛ وَإِذَا كَادَتْ الدَّارُ تَرْكَبُ إِلَى الرَّاكِبِ إِلَيْهَا مِنْ فَرَحِهَا ، فَهِيَ
تَكَادُ تَفَرُّ مَعَ الْمُتَهَرِّمِ مِنْ دُغْرِهَا ، وَلَكِنَّ شَوْقِي بَنَى فَأَحْكَمَ وَسَمَّا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ بِالزِّيَادَةِ
الَّتِي جَاءَ بِهَا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي .
وَمِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ فِي الْغَزَلِ [من الكامل] :

حَوَتْ الْجَمَالَ فَلَوْ ذَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ حُسْنًا مَا اسْتَطَعْتَ مَزِيدًا
وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ [من الخفيف] :

ذَاتُ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ نِ إِلَيْهَا لَمَّا أَصَابَتْ مَزِيدًا
غَيْرَ أَنَّ شَوْقِي قَالَ : لَوْ ذَهَبَتْ تَزِيدُهَا فِي الْوَهْمِ ... وَالشَّاعِرُ قَالَ : لَوْ اسْتَزَادَتْ
هِيَ ؛ فَلَوْ خَلَا بَيْتُ شَوْقِي مِنْ كَلِمَةِ (فِي الْوَهْمِ) لَمَّا كَانَ شَيْئًا ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ حَقَّقَتْ
فِيهِ الْمَعْنَى الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ كُلُّ فَلَسَفَةِ الْجَمَالِ ؛ فَإِنَّ جَمَالَ الْحَبِيبِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا الْمَعَانِي
الَّتِي هِيَ فِي وَهْمٍ مُجِبِّهِ ؛ فَالزِّيَادَةُ تَكُونُ مِنَ الْوَهْمِ ، وَهُوَ بِطَبِيعَتِهِ لَا يَنْتَهِي ، فَإِذَا لَمْ يَنْقُ
فِيهِ زِيَادَةُ فِي الْحُسْنِ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ حُسْنٌ ؛ وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي صُورٍ كَثِيرَةٍ فِي كُتُبِنَا
« رَسَائِلُ الْأَخْرَانِ » وَ« السَّحَابُ الْأَحْمَرُ » ، وَ« أَوْرَاقُ الْوَرْدِ » فَانظُرْهُ فِيهَا .

وَمِمَّا يَمُمُّ ذَلِكَ الْبَيْتَ قَوْلُ شَوْقِي فِي قَصِيدَةِ النَّفْسِ [من الكامل] :

يَا دُمِيَّةَ لَا يُسْتَزَادُ جَمَالُهَا زَيْدِيهِ حُسْنُ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ
وَهَذَا الْمَعْنَى يَقَعُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا وَلَهُ مِنْ إِعْجَابِي مَحَلٌّ ؛ فَهَلْزِدِ الزِّيَادَةُ الَّتِي فِيهِ

كَرِّيَادَةِ الْعُمَرِ لَوْ أَنْكَنْتَ ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِهَا كَمَا يَنْقَطِعُ الْخَطُّ ثُمَّ يَتَّصِلُ ، وَكَمَا يَسْتَحِيلُ
الْأَمَلُ ثُمَّ يَتَّفِقُ وَيَسْهَلُ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُ مَاخَذَ الشَّطْرِ الْأَوَّلِ ، أَمَّا الثَّانِي فَهُوَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ
الرُّومِيِّ [من السريع] :

يَا حَسَنَ الْوَجْهِ لَقَدْ شِئْتَهُ فَأَضْمُمُ إِلَى حُسْنِكَ إِحْسَانًا
وَفِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَأَيْتُ بِهَا تَرَوْتَ بَاشَا ، وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ شِعْرِهِ ، تَجِدُ مِنْ أَبْيَاتِهَا هَذَا
الْبَيَّتَ النَّادِرَ [من البسيط] :

وَقَدْ يَمُوتُ كَثِيرٌ لَا تَحْسُهُمْ مَوْتُ كَأَنَّهُمْ مِنْ هَوَانِ الْخَطْبِ مَا وَجِدُوا
وَشَوْفِي يُعَارِضُ بِهِدِهِ الْقَصِيدَةَ أَبَا خَالِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي دَالِيَةِ الَّتِي رَأَيْتُ بِهَا
الْمُتَوَكِّلَ ، وَكَانَ الْمُهَلَّبِيُّ حَاضِرًا قَتَلَهُ هُوَ وَالْبُخْرَيْيُّ ، فَرَنَاهُ كُلُّ مِنْهُمَا بِقَصِيدَةٍ ، قَالُوا :
إِنَّهَا مِنْ أَجْوَدِ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهَا ؛ وَبَيَّنْتُ شَوْفِي مَاخُودًا مِنْ قَوْلِ الْمُهَلَّبِيِّ [من البسيط] :

إِنَّا فَقَدْ نَاكَ حَتَّى لَا أَضْطَبَّارَ لَنَا وَمَاتَ قَبْلَكَ أَقْوَامٌ فَمَا فُقِدُوا
أَيُّ : لَمْ يَحْسَ مَوْتُهُمْ أَحَدٌ ؛ وَلَكِنَّ الْبَيَّتَ غَيْرَ مُسْتَفِيدٍ ، لِأَنَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَلَا يُفْقَدُ
هُوَ الْخَالِدُ الَّذِي كَانَهُ لَمْ يَمُتْ ؛ فَاسْتَخْرَجَ شَوْفِي الْمَعْنَى الصَّحِيحَ وَجَعَلَ الْعَدَمَ الَّذِي هُوَ
آخِرُ الوجودِ فِي النَّاسِ ، أَوَّلَ الوجودِ وَوَسْطَهُ وَآخِرَهُ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَانُوا عَلَى الْحَيَاةِ ،
فَوَجِدُوا وَمَاتُوا وَمَا وَجِدُوا .

* * *

وَالِإِلَى مَا عَلِمْتُ مِنْ قُوَّةِ هَذِهِ الشَّاعِرِيَّةِ ، وَدَقَّتِهَا فِيمَا تَنَاقَلَتْ لَهُ ، وَمَجَّيْنَهَا بِالْمَعَانِي
النَّادِرَةِ مُسْتَخْرَجَةِ اسْتِخْرَاجِ الذَّهَبِ ؛ مَصْقُولَةٌ صَفْلُ الْجَوْهَرِ ، مُعَدَّلَةٌ بِالْفِكْرِ ، مَوْزُونَةٌ
بِالْمَنْطِقِ - تَجِدُ لَهَا تَهَافُتًا كَتَهَافَاتِ الضُّعَفَاءِ ، وَغِرَةً كَغِرَةِ الْأَحْدَاثِ ؛ حَتَّى لَتَحْسَبَ أَنَّ
طُفُولَةَ شَوْفِي كَثِيرًا مَا تَتَّبِعُ فِي شِعْرِهِ لَاعِبَةً هَازِلَةً ، أَوْ كَأَنَّ لِلرَّجُلِ شَخْصِيَّتَيْنِ كَمَا يَقُولُ
الْأَطْبَاءُ ، فَهَمَا تَتَعَاوَرَانِ شِعْرَهُ كَمَا لَا وَنَقْصًا ، وَعُلُوءًا وَتُرُوءًا ، أَوْ قُلْ هِيَ الْعَرَبِيَّةُ وَالْيُونَانِيَّةُ
فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَالتُّرْكِيَّةُ وَالشَّرْكَسِيَّةُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى ؛ لِتِلْكَ الْإِنْتِكَارُ وَالْبَلَاغَةُ
وَالْمَنْطِقُ ، وَلِهَذَا التَّهْوِيلُ وَالْمُبَالَغَةُ وَالْخَلْطُ ؛ وَشَوْفِي هُوَ بِهِمَا جَمِيعًا ؛ تَفَنُّهُ الْقُوَّةُ

مِنْهُمَا فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ الْقُوَّةِ ، وَتَخْذَعُهُ الضَّعِيفَةُ فَيُعْجَبُ بِهَا إِعْجَابَ الرُّقَّةِ ؛ كَمَا
أَعْجَبَ بَيْنَهُ الَّذِي قَالَ فِي الْحَيْنِ إِلَى الْوَطَنِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الشَّهِيرَةِ [من الخفيف] :
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَذَا أَلْبَيْتٌ مِمَّا يَمَثُلُ بِهِ الشُّبَّانُ وَكُتَابُ الصَّحَافَةِ ، وَلَمْ يَفْطَنْ أَحَدٌ إِلَى فَسَادِهِ
وَسَخَافَةِ مَعْنَاهُ ؛ فَإِنَّ الْخُلْدَ لَا يَكُونُ خُلْدًا إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ الْفَانِي مِنَ الْإِنْسَانِ وَطَبَائِعِهِ
الْأَرْضِيَّةِ ، وَبَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ أَرْضٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا حَيْنٌ وَلَا عَصَبِيَّةٌ ؛ فَكَأَنَّ شَوْقِي يَقُولُ :
لَوْ شِغِلْتُ عَنِ الْوَطَنِ حِينَ لَا أَرْضُ وَلَا وَطَنٌ وَلَا دَوْلٌ وَلَا أُمَمٌ وَلَا حَيْنٌ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ
- فَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ أَحِرُّ إِلَى الْوَطَنِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي نَفْسِي وَلَا فِي نَفْسِهِ وَهَذَا كُلُّهُ
لَعَنُو وَالْمَعْنَى بَعْدَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ [من الطويل] :

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَأْرَبَ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عُهْدُ الصَّبِيِّ فِيهَا فَحُتُوا لِذَلِكَ
وَمُنَازَعَةُ النَّفْسِ هِيَ الْحَيْنُ ، وَمَعْنَى ابْنِ الرُّومِيِّ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ
لِفَلَسَفَةِ الْوُطَنِيَّةِ فِي زَمَانِنَا .

وَإِنْ فِي شَوْقِي عَيِّينَ يَذْهَبَانِ بِكَثِيرٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ : أَحَدُهُمَا الْمُبَالَغَاتُ التُّرْكِيَّةُ وَالْفَارِسِيَّةُ
مِمَّا تَنْزَعُهُ إِلَيْهِ تَرْكِيَّتُهُ وَلَا مُبَالَغَةً فِي الدُّنْيَا تُقَارِبُهَا ، كَقَوْلِ بَعْضِ شُعْرَائِهِمْ أَنَّ التَّمْلَةَ بَرَفَرْتِهَا
جَفَّقَتِ الْأَبْحَرَ السَّبْعَةَ وَهُوَ إِغْرَاقٌ سَخِيفٌ لَا يَأْتِي بِخَيَالٍ عَجِيبٍ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ ، بَلْ
يَأْتِي بِهِذْيَانٍ عَجِيبٍ ؛ وَإِذَا كَانَ الصَّدْقُ يَأْتُ مِنَ الْكَذِبِ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ نَفْسُهُ يَأْتُ مِنْ هَذَا
الْإِغْرَاقِ ؛ وَمِنْ هَذِهِ التُّرْكِيَّةِ فِي شَوْقِي إِضَافَةٌ وَهْمِيَّةٌ ، هِيَ مِنْ تِلْكَ الْمُبَالَغَاتِ كَذَلِ
الْحِمَارِ مِنَ الْحِمَارِ : قِطْعَةٌ فِيهِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَآخِرٌ لِأَوَّلِهِ وَلَا مَحَلَّ لَهَا فِي ذَوْقِ الْبَلَاغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ؛ كَقَوْلِهِ [من مجزوء الكامل] :

(عَيْسَى الشُّعُورِ) إِذَا مَشَى رَدَّ الشُّعُوبَ إِلَى الْحَيَاةِ
وَقَوْلُهُ فِي سَعْدٍ بَاشَا فِي حَادِثَةِ الْأَعْتِدَاءِ عَلَيْهِ [من المتقارب] :

وَلَوْ زُلْتَ غِيَّبَ (عَمَرُو الْأُمُورِ) وَأَخْلَى الْمَنَابِرَ سَخْبَانَهَا

وَيَدْخُلُ فِي جَنَائِبِ هَذِهِ التُّرْكِيَّةِ عَلَى شِغْرِهِ تَكَرُّرُهُ الْأَسْمَاءَ الْمُقَدَّسَةَ وَالْأَعْلَامَ
التَّارِيخِيَّةَ : كَيُوشَعَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَخَالِدٍ وَبَذِرٍ وَسَيْنَاءَ وَحَاتِمٍ وَكَعْبٍ وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ
شَائِعٌ فِي نَظْمِهِ وَلَا تَجِدُهُ أَكْثَرَ مَا تَجِدُهُ إِلَّا ثَقِيلًا مَمْلُوءًا ؛ وَلِهَذَا الْأَلْفَاظُ عِنْدَنَا فَلَسَمَةُ
لَا مَحَلَّ لَهَا آلَانْ ، فَهِيَ أَحْيَانًا تَكُونُ السَّخَرُ كُلُّهُ وَالْبَلَاغَةُ كُلُّهَا ، عَلَى شَرْطِ أَنْ يَكُونَ
الْقَلْبُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا ، وَأَنْ لَا يَضَعَهَا إِلَّا عَلَى هَيْئَةٍ قَلْبِيَّةٍ ، فَيَكُونُ كَأَنَّهُ
وَضَعَ نَفْسَهُ فِي الشَّعْرِ لِيَخْفِقَ حَقَّقَانَهُ الْحَيَّ فِي بِضْعَةِ أَلْفَاظٍ ، وَهَذَا مَا لَمْ يُحْسِنُهُ شَوْقِي -
وَالْعَيْبُ الثَّانِي أَنَّ الْأَفَاطُ شَاعِرِنَا لَا يَنْبُتُ أَكْثَرُهَا عَلَى التَّقْدِ ؛ لِضَعْفِهِ فِي الصَّنَاعَةِ الْبَيِّنِيَّةِ ،
ثُمَّ لِضَعْفِ الْمُوهَبَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِيهِ وَأَعْتِبَارِهِ التَّهْوِيلَ شِعْرًا وَالْمُبَالَغَةَ بِلَاغَةً وَإِنْ فَسَدَتْ بِهِمَا
الْبَلَاغَةُ وَالشَّعْرُ ؛ أَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ ٢٨ فَبَرَايزُ / شِبَاطُ [من البسيط] :

قَالُوا الْحِمَايَةَ زَالَتْ قُلْتُ لَا عَجَبَ قَدْ كَانَ بَاطِلُهَا فِيكُمْ هُوَ الْعَجَبُ
رَأْسُ الْحِمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عُدَمْتُ كِنَانَةُ اللَّهِ حَزْمًا يَقْطَعُ الذَّنْبُ
قُلْنَا : فَإِذَا قُطِعَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) وَبَقِيَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مَا ؛ ذَنْبٌ أَوْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ ، فَإِنْ هَذِهِ
الْبَقِيَّةُ فِي لُغَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي تَنْقُدُ الْأَلْفَاظَ وَحُرُوفَهَا وَتَقْطَعُ حُرُوفَهَا . . . لَنْ تَكُونَ ذَنْبًا وَلَا يَدًا
وَلَا رِجْلًا ، بَلْ هِيَ (رَأْسُ الْحِمَايَةِ) بِعَيْنِهِ . . . عَلَى أَنَّ شَوْقِي إِنَّمَا عَكَسَ قَوْلَ الشَّاعِرِ [من
البسيط] :

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسِلَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبُ
وَهَذَا كَلَامٌ عَلَى سِيَاقِهِ مِنَ الْعَقْلِ ، فَمَا غَنَاءُ قُطْعِ ذَنْبِ الْأَفْعَى إِذَا بَقِيَ رَأْسُهَا ، وَإِنَّمَا
الْأَفْعَى كُلُّهَا هِيَ هَذَا الرَّأْسُ .

وَلَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دَرَسِ شَوْقِي فِي دِيَوَانِهِ أَمْرٌ عَجِبْتُ لَهُ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ مِنْ أَبِي تَمَامٍ
وَالْبُخْتَرِيِّ وَالْمَعْرِيِّ وَأَبِي الرُّومِي وَغَيْرِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا سَاوَاهُمْ وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ
إِلَى الْمُتَنَبِّي وَقَعَ فِي الْبَحْرِ وَأَذْرَكَ الْعَرْقُ ، لِأَنَّهُ نَشَأَ عَلَى رَهْبَةٍ مِنْهُ كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ عِبَارَتُهُ فِي
مُقَدِّمَةِ دِيَوَانِهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ وَصَفَ خَيْلَ التُّرْكِ فِي قَصِيدَةٍ أَنْقَرَهُ بِقَوْلِهِ [من البسيط] :

وَالصَّبْرُ فِيهَا وَفِي فُرْسَانِهَا خُلُقٌ تَوَارَثُوهُ أَبَا فِي الرُّوْعِ بَعْدَ أَبِ

كَمَا وَلِدْتُمْ عَلَىٰ أَغْرَافِهَا وَلِدَتْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ
وَشِعْرُهُ هَذَا كَأَنَّهُ يَزْعُمُ أَمَامَ قَوْلِ الْمُتَنَبِّي [من الكامل] :

أَقْبَلَتْهَا غُرَرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا
الَّتَابِتِينَ فُرُوسَةً كَجُلُودِهَا فِي ظَهْرِهَا ، وَالطَّنْ فِي لَبَاتِهَا
فَكَأَنَّهُا نُبِجَتْ فِيمَا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وَلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

فَانْظُرْ أَيْنَ صِنَاعَةٌ مِنْ صِنَاعَةٍ وَأَيْنَ شِعْرٌ مِنْ شِعْرِ ؟

وَقَالَ فِي (صَدَى الْحَرْبِ) يَصِفُ مَدَافِعَ الدَّرَدَنِيلِ [من الطويل] :

فَذَائِفُ تَخْشَى مُهْجَةَ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَتْ مُضِعِدَاتِ أَهَّهَا لَا تُصَوِّبُ
إِذَا هَبَّ حَامِيهَا عَلَى الْأَسْفَنِ أَثْنَتْ وَغَانِمُهَا النَّاجِي فَكَيْفَ الْمُخَيَّبُ

وَهَذَا الْأَسْتِفْهَامُ (فَكَيْفَ الْمُخَيَّبُ) أَسْتِفْهَامٌ مُضْحِكٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّاجِي غَانِمًا
فَالْمُخَيَّبُ خَاسِرٌ بِلَا سُؤَالٍ وَلَا فَلَسْفَةٍ ؛ وَالْكَلِمَةُ الشَّعْرِيَّةُ فِي هَذَا كُلُّهُ هِيَ قَوْلُهُ (وَغَانِمُهَا
النَّاجِي) ، وَهِيَ كَالْهَارِبَةِ تَتَوَارَى خَوْفًا مِنْ بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ [من المنسرح] :

أَغْرُرُ أَعْدَاؤُهُ إِذَا سَلِمُوا بِالْهَرَبِ اسْتَكْبَرُوا الَّذِي فَعَلُوا

فَهَذَا هُوَ الشَّعْرُ لَا ذَاكَ ؛ عَلَى أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ فِي قَصِيدَةِ (صَدَى الْحَرْبِ) أَبْيَاتًا هِيَ مِنْ
أَسْمَى الشَّعْرِ ، وَكَأَنَّ شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَنْظِمُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ إِيمَانِهِ وَمِنْ دَمِهِ وَمِنْ كُلِّ
مَطَامِعِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، يَبْتَغِي بِهَا الشُّهْرَةَ الْخَالِدَةَ فِي النَّاسِ ، وَالْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ عِنْدَ
الْخَدِيوِيِّ ، وَبَنَاهُ الشَّانَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، وَالنُّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَلَوْ هُوَ فِي أَثْنَاءِ عَمَلِهَا
أَسْقَطَ نِصْفَهَا أَوْ أَكْثَرَ لَجَاءَتْ فَرِيدَةٌ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، غَيْرَ أَنَّ الْحِرْصَ كَانَ يَغْتَرُّهُ ، وَكَانَ
طُولُ عُمْرِهِ مَفْتُونًا بِشِعْرِهِ ، فَجَاءَ فِي هَذَا الشَّعْرِ بِالطَّمِّ وَالرَّمِّ كَمَا يَقُولُونَ ؛ وَلَهُ كَثِيرٌ مِنْ
الْكَلَامِ الرَّذِيلِ السَّاقِطِ بِضَعْفِهِ وَتَهَافُتِهِ ؛ وَلَوْلَا تِلْكَ التَّرْكِيَةُ الْفَارِسِيَّةُ وَضَعْفُهُ الْبَيَانِيُّ ، لَمَا
رَضِيَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي ؛ كَيْفَ غَابَ عَنِ مِثْلِهِ أَنَّ التَّهْوِيلَ وَالْإِغْرَاقَ
وَالْإِحَالََةَ مِمَّا يُهَجَّنُ الشَّعْرُ وَيَذْهَبُ بِأَثَرِهِ فِي النَّفْسِ وَيُحْيِلُهُ إِلَى صِنَاعَةٍ هِيَ شَرٌّ مِنَ الصَّنَاعَةِ
الْبَدِيعِيَّةِ ، لِأَنَّ هَذِهِ تَكُونُ فِي الْأَلْفَاطِ ، وَالْأَلْفَاطُ تَحْتَمِلُ الْعَبَثَ الْبَدِيعِيَّ ، وَيَخْرُجُ بِهَا

الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الرِّيَاضَةِ كَمَعَانَةٍ بَعْضِ الْمَسَائِلِ فِي الْجَبْرِ وَالْهَنْدَسَةِ تَرْكِيبًا وَحَلًّا ، وَلَكِنَّ الْمَعَانِي لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ ، إِذْ هِيَ تَفَكِيرٌ لَا يَلْتَوِي إِلَّا فُسَدَ ، وَالْمَعَانِي الَّتِي يَأْتِي بِهَا الشَّاعِرُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مِرْيَةٌ بِخَاصَّتِهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالْبَيَانِ ، وَأَنْ تَكُونَ أَخِيلَتَهَا هِيَ الْحَقَائِقُ الَّتِي أَوَّلُ مَوَاضِعِهَا فَوْقَ حَقَائِقِ الْبَشَرِ .

{ وَهَنَّاكَ ضَرْبٌ آخَرُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ يَجِيءُ مِنْ سَقُوطِ الْخَيَالِ ، لِأَنَّ فِي الْأَسْفَلِ مُبَالَغَةً كَمَا فِي الْأَعْلَى ، وَإِنْ كَانَتْ مُبَالَغَةُ الْأَسْفَلِ زِيَادَةً فِي الشُّخْرِيَّةِ مِنْهُ وَالْهُزْءُ بِهِ ، وَهَذِهِ الْمُبَالَغَةُ تَأْتِي مِنْ جَمْعِ أَشْتَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَإِدْمَاجِهَا كُلُّهَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، كَهَذَا الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَدْمُجَ الطَّبِيعَةَ كُلُّهَا فِي حَبِيبَتِهِ ، فَرَعَمَ أَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَنَسِيَ أَنْ كُلَّ قَبِيحٍ وَكُلَّ بَغِيضٍ هُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... (١) } .

إِنَّ الْخَيَالَ الشُّعْرِيَّ يُرِنُّ بِالْحَقِيقَةِ فِي مَنْطِقِ الشَّاعِرِ لَا لِيَقْلِبَهَا عَنْ وَضْعِهَا وَيَجِيءَ بِهَا مَمْسُوخَةً مُشَوَّهَةً ، وَلَكِنْ لِيَعْتَدِلَ بِهَا فِي أَفْهَامِ النَّاسِ وَيَجْعَلَهَا ثَامَةً فِي تَأْثِيرِهَا ، وَتِلْكَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ ، إِذْ كَانَتْ فِيهِ قُوَّةٌ فَوْقَ الْقُوَّةِ عَمَلُهَا أَنْ تَزِيدَ الْمَوْجُودَ وَجُودًا بِوُضُوحِهِ مَرَّةً وَيَغْمُوضَهُ أُخْرَى .

وَلِعُلَمَاءِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ كَلِمَةٌ مَا أَرَاهُمْ فَهَمُّوْهَا عَلَى حَقِّهَا وَلَا نَفَذُوا إِلَى سِرِّهَا ، قَالُوا : أَعَذَّبَ الشُّعْرُ أَكْذَبُهُ ! يَغْتَوُونَ : أَنَّ قَوَامَ الشُّعْرِ الْمُبَالَغَةُ وَالْخَيَالُ وَلَا يَنْفَذُونَ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، وَمَا وَرَاءَهُ إِلَّا الْحَقِيقَةُ رَائِعَةٌ بِصِدْقِهَا وَجَلَالِهَا . وَفَلَسَفَ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ كُلُّهَا كَذَبٌ عَلَى الْحَوَاسِّ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّ أَبْصَارَنَا وَأَسْمَاعَنَا وَحَوَاسِّنَا هِيَ عَمَلٌ شُعْرِيٌّ فِي الْحَقِيقَةِ ، إِذْ تَنْقُلُ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ فِي نَفْسِهِ لِيَكُونَ شَيْئًا فِي نَفْسِنَا ، فَيُؤَثِّرُ فِيهَا أَثَرُهُ جَمَالًا وَقُبْحًا وَمَا بَيْنَهُمَا . وَمَا هِيَ خَمْرَةُ الشُّعْرِ مَثَلًا ؟ هِيَ رُضَابُ الْحَبِيبَةِ ، وَلَكِنَّ الْعَاشِقَ لَوْ رَأَى هَذَا الرُّضَابَ تَحْتَ الْمُجْهَرِ لَرَأَى ... لَرَأَى مُسْتَنْقَعًا صَغِيرًا ... وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمُجْهَرُ أَضْعَافَ الْأَضْعَافِ مِمَّا يَجْهَرُ بِهِ لَرَأَيْتَ ذَلِكَ الرُّضَابَ يَعْجُ عَجِيجًا بِالْهَوَامِّ

(١) { يَعْنِي قَوْلَ الْعُقَادِ فِي « وَحْيِ الْأَرْبَعِينَ » [من الرمل] :

فِيكَ مِثْلِي وَمِنْ النَّاسِ وَمِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ وَمَوْعُودٍ نَوَامٌ {

وَالْحَشَرَاتِ الَّتِي لَا تَخْفَى بِنَفْسِهَا ، وَلَكِنْ أَخْفَاهَا التَّدْبِيرُ الإِلَهِيُّ بِأَنْ جَعَلَ رُبَّنَهَا فِي
الْوُجُودِ وَرَاءَ النَّظَرِ الْإِنْسَانِيِّ ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِالنَّاسِ ، فَأَعَذَّبَ الشَّعْرَ مَا عَمِلَ فِي تَجْمِيلِ
الطَّبِيعَةِ كَمَا تَعْمَلُ الْحَوَاسُّ الْحَيَّةُ بِسِرِّ الْحَيَاةِ ، وَلِهَذَا أَلْمَعْنَى كَانَ الشُّعْرَاءُ النَّوَاعِجُ فِي كُلِّ
مُجْتَمَعٍ هُمْ كَالْحَوَاسِّ لِهَذَا الْمُجْتَمَعِ .

وَمِنْ سَخِيفِ الْإِعْرَاقِ فِي شِعْرِ شَوْقِي قَوْلُهُ فِي رِثَاءِ مُصْطَفَى بَاشَا كَامِلٍ ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ
يُظَنُّ هُوَ أَنَّهُ أَرْفَعُ كَلَامَهُ فِيهَا مَوْعِظًا بَدِيعًا مِنَ الْإِعْرَابِ [من الكامل] :

فَلَوْ أَنَّ أَوْطَانًا تَصَوَّرُ هَيْكَلًا دَفَنُوكَ بَيْنَ جَوَانِحِ الْأَوْطَانِ
أَوْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الْجَوَارِحِ مَيْتٌ حَمَلُوكَ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَجْفَانِ
أَوْ كَانَ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ - رُئِيتُ فِي الْقُرْآنِ

فَهَلِذِهِ قُرُوضٌ فَوْقَ الْمُسْتَحِيلِ بِأَرْبَعِ دَرَجَاتٍ . . وَتَصَوَّرَ أَنْتَ مَيْتًا يُحْمَلُ فِي الْجَوَارِحِ
فَيَرَمُّ فِيهَا وَيَبْلَى . . وَمَا زَالَ الشَّاعِرُ فِي أَبْيَاتِهِ يَخْرُجُ مِنْ طَائِمَةٍ إِلَى طَائِمَةٍ ، حَتَّى قَالَ :
رُئِيتُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَوْ سِئِلْتُ أَنَا إِعْرَابَ (لَوْ) فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ لَقُلْتُ : إِنَّهَا حَرْفٌ نَقْصٍ
وَتَلْفِيقٌ وَعَجْزٌ . . . وَكَيْفَ يَسَوِّغُ فِي الْفَرَضِ أَنْ تَكُونَ لِلْقُرْآنِ بَقِيَّةٌ لَمْ تَنْزِلْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَقُولُ فِيهِ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة/ الآية : ٣] وَالْأَمْرُ أَمْرٌ دِينٍ قَدْ تَمَّ ،
وَكِتَابٌ مُقَدَّسٌ خَتَمَ ، وَبُوءَةٌ انْقَضَتْ ؛ وَالشَّاعِرُ مَاضٍ فِي غَفْلَتِهِ لَمْ يَتَنَبَّهُ لَشَيْءٍ وَلَمْ يَذَرِ أَنَّهُ
يَفْرِضُ فَرْضًا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ ، بَلْ حَسِبَ أَنَّهُ جَاءَ بِخَيَالٍ وَبَلَاغَةٍ فَارِسِيَّةٍ ، وَشَوْقِي فِي
الْحَقِيقَةِ كَامِلٌ كَنَاقِصٍ ، وَإِنَّ مِنْ مُعْجَزَاتِ هَذَا الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ نَاقِصًا هَذَا النِّقْصَ كُلَّهُ
وَيَكْمُلَ .

وَفِي « الشُّوقِيَّاتِ » صَفَحَاتٌ تَكَادُ تُغَرِّدُ تَغْرِيدًا ، وَفِيهَا صَفَحَاتٌ أُخْرَى تَنْقُ نَقِيْقَ
الضَّفَادِعِ ؛ وَفِي هَذَا الدِّيْوَانِ عُيُوبٌ لَا نُرِيدُ أَنْ نَقْتَصَهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ بِرَأْسِهِ
إِذَا ذَهَبْنَا نَاتِي بِهَا وَنَشْرَحُ الْعِلَّةَ فِيهَا وَنُخْرِجُ الشُّوَاهِدَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ مِنْ عُيُوبِهِ فِي التَّكْرَارِ
أَنْ لَهُ بَيْنَا يَدُورُ فِي قَصَائِدِهِ دَوْرَانِ الْحِمَارِ فِي السَّاقِيَةِ ، وَهُوَ هَذَا أَلْبَيْتُ [من البسيط] :

وَأِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُوهُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

بَلْ هَذَا الْبَيِّنُ [من البسيط] :

وَإِنَّمَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ مَضَوْا عَلَى آثَارِهَا قُدَمَا

بَلْ هُوَ هَذَا [من الطويل] :

كَذَا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَتَّقِي صِلَاحُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ

بَلْ هُوَ هَذَا الْبَيِّنُ [من البسيط] :

وَلَا الْمَصَائِبُ إِذْ يُرْمَى الرَّجَالُ بِهَا بِقَاتِلَاتٍ إِذَا الْأَخْلَاقُ لَمْ تُصَبِّ

وَقَدْ تَكَرَّرَ (فِيْمَا قَرَأْتُهُ مِنْ دِيَوَانِهِ) ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً فَعَادَ الْمَعْنَى كَطِيلَسَانَ ابْنِ حَرْبٍ
الَّذِي جَعَلَ الشَّاعِرُ يَرْقَعُهُ ثُمَّ يَرْقَعُهُ حَتَّى ذَهَبَ الطَّيْلَسَانُ وَبَقِيَ الرَّقْعُ . وَالْبَيِّنُ الْأَوَّلُ مِنْ
الْعَيْنِ النَّادِرِ ، وَلَكِنْ أَفْسَدَهُ فِي الْبَاقِي سُوءُ مَلَكََةِ الْحَرْصِ فِي شَوْقِي ، أَوْ ضَعْفُ الْحِسِّ
الْبَيَانِيِّ ، أَوْ ابْتِدَالُهُ الشَّعْرِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ وَهْنُ فِكْرَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ مِنْ جَوَانِبِ كَثِيرَةٍ ؛
وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ الْأَبْوَابُ الَّتِي يَفْتَحُ مِنْهَا التَّقْدُّ عَلَى شِعْرِ صَاحِبِنَا ، وَلَوْ هُوَ كَانَ قَدْ
حَصَّنَهَا بِأَضْدَادِهَا لَكَانَ شَاعِرَ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ ، وَلَكَانَ عَسَى أَنْ يَنْقَلِ الشَّعْرُ
إِلَى طَوْرِ جَدِيدٍ فِي التَّارِيخِ ؛ وَلَكِنْ الْفَوْضَى وَقَعَتْ فِي شَوْقِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ؛ فَأُرْسِلَ إِلَى
أُورُبَّةٍ لِدَرْسِ الْحَقُوقِ ، وَكَانَ الْوَجْهَ أَنْ يُرْسَلَ لِدَرْسِ الْأَدَابِ وَالْفَلَسَفَةِ ؛ وَغَامَرَ فِي سِيَاسَةِ
الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْحَقُّ أَنْ يَشْتَغَلَ بِسِيَاسَةِ السَّمَاءِ وَتَهَالِكَ فِي مَادَّةِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ الصَّوَابُ أَنْ
يَتَهَالَكَ فِي مَعَانِيهَا .

إِنَّ الْفَوْضَى ذَاهِبَةٌ بِنَا مَذَاهِبَهَا فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، فَكُلُّ شَاعِرٍ عِنْدَنَا كَمَوْلَفٍ يَضَعُ
رِوَايَةً ثُمَّ يُمَثِّلُهَا وَحْدَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يُمَثِّلَهَا وَحْدَهُ ، فَهُوَ يَخْرُجُ عَلَى النَّظَّارَةِ فِي ثِيَابِ الْمَلِكِ ،
فِيْلَقِي كَلَامًا مَلَكِيًّا . ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَجِيءُ فِي ثَوْبِ الْقَائِدِ فَيْلَقِي كَلَامًا حَرْبِيًّا ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَعُودُ
فِي هَيْئَةِ التَّاجِرِ فَيْلَقِي كَلَامًا سُوقِيًّا ، ثُمَّ يَرْوَعُ فَيَرْجِعُ فِي مَبَاذِلِ الْخَادِمِ ثُمَّ . . . ثُمَّ . . . ثُمَّ
يَتَوَارَى فَيُظْهِرُ فِي جِلْدَةِ بَرَبْرِي . . . وَهَذِهِ الْفَوْضَى الَّتِي أَهْمَلْتُهَا الْحُكُومَةُ وَأَهْمَلَهَا الْأُمَرَاءُ
وَالْكَبَرَاءُ هِيَ حَقِيقَةُ مُؤَلِّمَةٍ ، وَلَكِنْ هِيَ حَقِيقَةٌ !

وَشَوْقِي عَلَى كُلِّ هَذَا هُوَ شَوْقِي : أَوَّلُ مَنْ أَخْتَفَى بِتَارِيخٍ مُضَرٍّ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَوَسَّعَ فِي نَظْمِ الرِّوَايَةِ الشُّعْرِيَّةِ فَوَضَعَ مِنْهَا سِتَّ رَوَايَاتٍ ، وَهُوَ صَاحِبُ آيَاتِ الْبَدِيعَةِ فِي الْوَصْفِ ، وَهَذِهِ اللَّاحِيَةُ هِيَ أَقْوَى نَوَاحِيهِ ، وَلَقَدْ أَلْهَمْتَنِي قِرَاءَةُ الْبَارِعِ مِنْ شِعْرِهِ فِي أَغْرَاضِهِ وَقُتُونِهِ الْمُخْتَلِفَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْعِمُ عَلَى الْآدَابِ الْجَمِيلَةِ بِأَفْرَادٍ مُمْتَازِينَ فِي جَمَالِ أَزْوَاجِهِمْ وَقُوتِهَا ، تَجِدُ الْآدَابَ لَدُنْهَا فِيهِمْ وَسُمُومَهَا بِهِمْ ، كَأَنَّ الْأَمْرَ قِيَاسُ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ عَشَقِ النَّاسِ لِبَعْضِ الْمَعَانِي ، فَيَكُونُ فِي الْمَعَانِي مَا يَغْشَقُ بَعْضُ النَّاسِ ، وَمَتَى بَلَغَ عَشَقُ الْمَعْنَى لِلنَّاسِ مَبْلَغَ الْاِخْتِصَاصِ وَالْوُجْدِ ظَهَرَ الْقَلْبُ أَبَدَعَ مَا يُرَى ، كَأَنَّ الْمَعْنَى الْأَدَبِيَّ يَتَجَمَّلُ وَيَتَحَبَّبُ لِيَسْتَمِيلَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْحَاكِمَ عَلَيْهِ حُكْمُ الْحُبِّ .

فَيَا مُضَرُّ ! لَقَدْ مَاتَ شَاعِرُكَ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَخْرُجَ بِالْجِيلِ الْحَاضِرِ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ بَعْدُ ، فَإِذَا جَاءَ هَذَا الزَّمَنُ الرَّاحِخُ يَفْتُونُهُ وَآدَابُهُ الْعَالِيَّةُ ، وَذَكَرْتَ مَجْدَ شِعْرِكَ الْمَاضِي ، فَلْيَقُلْ أَسَاتَذْتُكَ يَوْمَئِذٍ : كَانَ هَذَا الْمَاضِي شَاعِرًا اسْمُهُ شَوْقِي !

بَعْدَ شَوْقِي (*) (١)

كَانَ يَتَوَجَّهُ الظَّنُّ عَلَى شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَيَزَعُمُ الزَّاعِمُ أَنَّ شَوْقِي هُوَ يُخْبِي شِعْرَهُ ، وَهُوَ يَرْفَعُ مِنْهُ ، وَهُوَ يُشْنِعُ حَوْلَهُ قُوَّةَ الْجَذْبِ مِنْ مِغْنَاتِنِسِ الثَّرْوَةِ وَالْمَكَانَةِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَا أَوْفَى عَلَى الشُّعْرَاءِ جَمِيعًا لِأَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ ، بَلْ لِأَنَّهُ أَغْنَاهُمْ ؛ وَلَا مِنْ أَنَّهُ أَقْوَاهُمْ قُوَّةً ، بَلْ لِأَنَّهُ أَقْوَاهُمْ حِيلَةً ؛ وَأَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ جَاءَ يَوْمُهُ لَبَطَلَ السَّخَرُ وَالسَّاحِرُ ، فَتَرْجِعُ الْعَصَا وَهِيَ عَصَا بَعْدَ أَنْ انْقَلَبَتْ حَيَّةً ، وَيُؤْوِلُ هَذَا الشَّعْرُ إِلَى حَقِيقَتِهِ ، وَتَتَسِمُ الْحَقِيقَةُ بِسَمَتِهَا ؛ كَأَنَّ

(*) « الرسالة » العدد : ١٢١ ، ٣٠ شهر رجب سنة ١٣٥٤ هـ = ٢٨ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٣٥ م ،

السنة الثالثة ، الصفحات : ١٧٢٣ - ١٧٢٥ .

(١) لَمَّا تُوُفِّي شَوْقِي كَتَبْنَا لِشَيْخِ مَجَلَّتِنَا « الْمُقْتَطَفِ » فَضْلًا طَوِيلًا عَنْهُ وَعَنْ شِعْرِهِ وَمَنْزِلَةِ شِعْرِهِ ، فَلَمْ نَعْرِضْ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ هُنَا .

شَوْقِي كَانَ يَعْمَلُ لِشِعْرِهِ بِقُوَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا بِقُوَّةِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ .

فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى رَبِّهِ ، وَخَلَا مَكَانَهُ ، وَبَطَلَتْ كُلُّ وَسَائِلِهِ وَنَامَ عَنْ شِعْرِهِ نَوْمَةً الْأَبَدِيَّةَ ، وَتَرَكَهُ لِمَا فِيهِ يَحْفَظُهُ أَوْ يَضِيعُهُ إِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَاطِلٌ ، وَأَصْبَحَ الشَّاعِرُ هُوَ وَمَالُهُ وَجَاهُهُ وَشِعْرُهُ فِي حُكْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِي يَقُولُهَا الزَّمَنُ ، وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي حُكْمِهِ ؛ فَهَلْ أَتَيْتُهُ الزَّمَنُ أَوْ نَفَاهُ ، وَهَلْ سَلِمَ لَهُ أَوْ كَابَرَهُ ؛ وَهَلْ رَدَّهَ فِي أَغْمَارِ الشُّعْرَاءِ أَوْ جَعَلَ الشُّعْرَاءَ بَعْدَهُ أَدِلَّةً مِنْ أَدِلَّتِهِ ؟

* * *

أَوَّلُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ الزَّمَنَ بَعْدَ شَوْقِي أَصْبَحَ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَأَصْدَقَ فِي الشَّهَادَةِ لَهُ ، كَمَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ بَعْدَ غِيَابِ الْقَمَرِ شَرْحًا طَوِيلًا لِمَعْنَى ذَلِكَ الضِّيَاءِ ، وَإِنْ سَطَعَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ وَتَوَقَّدَتْ مِنْهَا شَيْءٌ وَتَلَأَلَا شَيْءٌ ، فَقَدْ دَلَّ الزَّمَنُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الشَّأْنَ لَمْ يَكُنْ لِشَاعِرٍ كَالشُّعْرَاءِ ، يُقَالُ فِي وَصْفِهِ : إِنَّهُ مُفْتَنٌ مُجِيدٌ مُبْدِعٌ ، وَلَكِنَّهُ لِلَّذِي يُقَالُ فِيهِ : إِنَّهُ صَوْتُ بِلَادِهِ وَصِيحَةُ قَوْمِهِ .

كَانَتْ تَحْدُثُ الْحَادِثَةُ ، أَوْ يَتَخَالَجُ النَّاسَ مَعْنَى مِنَ الْهَمِّ الَّذِي يَعْمُهُمْ ، أَوْ يَسْتَطِيرُهُمْ فَرَحٌ مِنْ أَفْرَاحِ الْوَطَنِ ، أَوْ يَزُولُ عَظِيمٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ فَيَرِيدُ صَفْحَةٍ فِي التَّارِيخِ ، أَوْ يَنْشَأُ كَوْنٌ صَغِيرٌ مِنْ أَكْوَانِ الْحَضَارَةِ فِي الشَّرْقِ كَبْنِكَ مِصْرَ ، أَوْ تَرْتَجُّ زَلْزَلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْنَمَا أَرْتَجَّتْ ، فَإِذَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ فِي الدُّنْيَا بِهَيْئَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا فِي ذَهْنِ شَوْقِي ، فَيُرْسِلُ قَصِيدَتَهُ الشَّرُّودَ السَّائِرَةَ دَاوِيَةً مُجَلِّجَةً ، فَلَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي مِصْرَ حَتَّى تَلْتَقِيَ حَوْلَهَا الْأَفْكَارُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ ، فَتَكُونُ شِعْرًا مِنْ أَسْرَى الشَّعْرِ وَأَخْسَنِهِ ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ صَلَّةٌ مِنْ أَقْوَى الصَّلَاتِ الذَّهْنِيَّةِ بَيْنَ أَدْبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَوْثَقِهَا ، ثُمَّ تُجَاوِزُهَا ، فَإِذَا هِيَ عَاطِفَةٌ تَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى مَعْنَاهَا ، ثُمَّ تَسْمُو فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِذَا هِيَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ زَعَامَةٌ مِصْرَ عَلَى الشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ .

وَالْيَوْمَ يَبْقَى مِثْلُ ذَلِكَ فَتَتَطَايَرُ بَعْضُ الْفَقَائِعِ الشَّعْرِيَّةِ مِنْ هُنَا ، وَثُمَّ مُلَوْنَةٌ مُنْتَفِخَةٌ مَاضِيَةً عَلَى قَانُونِ الْفَقَائِعِ فِي الطَّبِيعَةِ : مِنْ أَنَّ لَحْظَةً وَجُودِهَا هِيَ لَحْظَةٌ فَنَائِهَا ، وَأَنَّ طُهُورَهَا يَكُونُ لِتَظْهَرُ فَقَطْ لَا لِتَنْفَعُ .

وَلَسْتُ أُمَارِي فِي أَنَّ بَيْنَنَا شُعْرَاءَ قَلِيلَيْنِ يُجِيدُونَ الشَّعْرَ ، وَلَهُمْ فِكْرٌ وَبَيَانٌ وَمَذْهَبٌ وَطَرِيقَةٌ ، وَلَكِنْ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ الْحَوَادِثَ لَمْ تَخْزُهُ كَمَا اخْتَارَتْ شَوْقِي ، وَأَنَّهُ فِي الْحَيَاةِ كَالْوَاقِفِ عَلَى بَابِ دِيْوَانٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَخْرُجَ لَهُ التَّقْلِيدُ ، فَهُوَ يَنْتَظِرُ وَسَيَنْتَظِرُ .

وَهَذَا عَجِيبٌ حَتَّى كَأَنَّهُ سِخَرٌ مِنْ سِخْرِ الزَّمَنِ حِينَ تَفْصِلُ الدُّنْيَا بَيْنَ الْعَبْقَرِيِّ الْفَدَى وَبَيْنَ مَنْ يُشَبِّهُونَهُ أَوْ يُنَافِسُونَهُ بِضُرُوبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الصَّرْفَةِ وَالْعَوَاقِبِ ، لَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ قُوَّةِ الْعَبْقَرِيِّ ، وَلَا هِيَ كُلُّهَا مِنْ عَجْزِ الْآخَرِينَ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّ (شَوْقِي) كَانَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُ عَمَلٌ تَارِيخِيٌّ مُتَمَيِّزٌ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ رَجُلٍ ؛ وَكَانَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ - كَانَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الرُّوحِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُتَعَلِّبَةِ الَّتِي تَخْلُدُ بِأَسْمَاءِ الْأَنْثَارِ الْفَتِيَّةِ وَتُكْسِبُهَا الْعِظَمَةَ فِي الْوُجُودَيْنِ : مِنْ مَحَلِّهَا وَمِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَرِ شِعْرًا عَرَبِيًّا يَحْسُنُ فِي وَصْفِ الْأَنْثَارِ الْمِصْرِيَّةِ مَا يَحْسُنُ فِي وَصْفِهَا شِعْرُ شَوْقِي ، حَتَّى لَأَسْأَلَ نَفْسِي : هَلْ تَخْتَارُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ وَصْفَهَا وَمُفَسِّرَ عَظَمَتِهَا ، كَمَا تَخْتَارُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ عَاشِقَهَا وَمُسْتَجَلِي حُسْنِهَا ؟ .

* * *

وَمَا بَانَ شَوْقِي عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَفْرَغَ فِي رَأْسِهِ الدَّهْنَ الشَّعْرِيَّ الْكَبِيرَ ، فَكَانَ فِي رَأْسِهِ مَصْنَعٌ عَمَالُهُ الْأَعْصَابُ ، وَمَادَّتُهُ الْمَعَانِي ، وَمُهَنْدِسُهُ الْإِلَهَامُ ؛ وَالدُّنْيَا تُرْسِلُ إِلَيْهِ وَتَأْخُذُ مِنْهُ ؛ وَعَلَامَةُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَاعِرٍ عَظِيمٍ أَنْ تَضَعُ دُنْيَاهُ عَلَى اسْمِهِ شَهَادَتَهَا لَهُ ، وَلِهَذَا مَا يَكُونُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ كَأَنَّ اسْمَهُ فِي وَزْنِ اسْمِ مَمْلُوكَةٍ ، فَإِذَا قُلْتَ : شِكْسْبِيرُ Shakespeare وَإِنْ كَلْتَرَةَ ؛ فَهُمَا فِي الْعِظَمَةِ النَّفْسِيَّةِ مِنْ وَزْنِ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ الْمُتَنَبِّيُّ وَالْعَالِمُ الْعَرَبِيُّ ، وَكَذَلِكَ شَوْقِي وَمِصْرُ .

قَالُوا : كَانَ الْفَرَزْدَقُ يُنْفَعُ الشَّعْرَ ، وَكَانَ جَرِيرٌ يَخْشُبُ (أَيُّ : يُرْسِلُ شِعْرَهُ كَمَا يَجِيءُ ، فَلَا يَنْتَوِقُ فِيهِ وَلَا يُنْفَعُهُ) ؛ وَكَانَ خَشَبُ جَرِيرٍ خَيْرًا مِنْ تَنْفِيحِ الْفَرَزْدَقِ ، وَلَمْ يَنْتَبَهُ

أَحَدٌ إِلَى السَّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا السَّرُّ الَّذِي كَانَ فِي شَوْفِي بِعَيْنِهِ ، سِرٌّ أَلَامِيَاءُ الرُّوحِيِّ
قَدْ أَمِدَّ بِالطَّبْعِ ، وَأُعِينَ بِالذُّوقِ ، وَأَوْتِيَ الْقُوَّةَ أَنْ يَتَحَوَّلَ بِآثَارِهِ فِي الْكَلَامِ ؛ فَكُلُّ مَا كَانَ
مِنْهُ فَهُوَ مِنْهُ : يَجِيءُ دَائِمًا قَرِيبًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ ، وَلَا يَكَادُ يَنْقُذُ إِلَى شُعُورٍ إِلَّا اتَّحَدَ بِهِ .

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ الْوَاعِظُ الْبَلِيغُ^(١) إِذَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ نَشَرَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنْ رُوحِهِ ،
فَيَجْعَلُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَتَمَوَّجُ بِأَمْوَاجِ نَفْسِيَّةٍ ؛ فَكَانَ كَلَامُهُ يَعْصِفُ بِالنَّاسِ عَصْفَ الْهَوَاءِ
بِالْبَحْرِ ، يَقُومُ بِهِ وَيَقْعُدُ ، وَكَانَ مِنَ الْوَعَاظِ مَنْ يُقَلِّدُهُ وَيَخْكِيهِ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ بِذَلِكَ يَغْرِضُ
الْغَلْطَةَ عَلَى رَدِّهَا وَصَوَابَهَا ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ جَالَسَهُ وَجَالَسَهُمْ : مَا سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ
يَتَكَلَّمُ إِلَّا ذَكَرْتُ التَّفَخُّحَ فِي الصُّورِ ؛ وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَخْكِيهِ إِلَّا تَمَثَّيْتُ أَنْ يُجَلَّدَ
ثَمَانِينَ . . .

فَالْفَرْقُ رُوحَانِيٌّ طَبِيعِيٌّ كَمَا تَرَى ، لَا عَمَلٍ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَا لِصَاحِبِهِ ، وَهُوَ يُشْبِهُ الْفَرْقَ
بَيْنَ عَاصِفَةٍ مِنَ الْهَوَاءِ وَبَيْنَ نَسِيمٍ مِنَ الرِّيحِ يُرْسِلَانِ عَلَى جِهَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ . فَفِي نَاحِيَةٍ يَلْتَجُّ
الْمَاءُ وَيَثْبُثُ وَيَنْصَرَّبُ وَيَقْصِفُ قَصْفَ الرَّعْدِ ، وَفِي الْأُخْرَى يَتَرَجَّرُجُ وَيَتَرَحَّفُ وَيَقْشَعُرُ
وَيَهْمِسُ كَوَسْوَاسِ الْحُلِيِّ .

وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ لِلْكَمِّيَّةِ الْوُجْدَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَوْ الْمُتَنَازَةِ ؛ فَفِي الَّتِي تُعَيَّنُ
لِهَذِهِ النَّفْسِ عَمَلَهَا عَلَى وَجْهِ مَا ، وَتُهَيِّئُهَا لِمَا يَرَادُ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا ، وَتُقِيمُهَا عَلَى ذَائِبِهَا إِلَى
زَمَنِ مَا ، وَتَخْصُصُهَا بِخَصَائِصِهَا لِغَرَضِ مَا ، وَإِذَا أَنْتَ حَقَّقْتَ لَمْ تَجِدِ الْفُرُوقَ بَيْنَ التَّوَابِغِ
بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، إِلَّا فُرُوقًا فِي هَذِهِ الْكَمِّيَّةِ ذَاتِهَا مِقْدَارًا مِنْ مِقْدَارٍ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ
أَصْغَرُ الْعُلَمَاءِ أَعْظَمُ مِنْ أَكْبَرِ الشُّعْرَاءِ ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ كَأَنَّهُ تَلْمِيزٌ فِي الْعِلْمِ ، ثُمَّ
يَكُونُ الْعِلْمُ كَأَنَّهُ تَلْمِيزٌ لِقَلْبِ هَذَا الشَّاعِرِ وَعَوَاطِفِهِ ؛ وَلَكِنْ عَجَزَ التَّفَقُّدُ الْعِلْمِيُّ أَنْ يَنَالَ مِنَ
الشَّاعِرِ الْعَبْقَرِيِّ ، لَقَدْ نِمَّا عَجَزَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .

وَقَدْ كَانَ فَيَمَنْ حَارَلُوا إِسْقَاطَ شَوْفِي مَنْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْهُ أُطْلَاعًا عَلَى آدَابِ الْأُمَمِ ،
وَأَبْصَرَ بِأَغْرَاضِ الشُّعْرِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ حَاسِدًا شَانِتًا قَدْ ثَقَبَ فِي قَلْبِهِ الْحِقْدُ ،

(١) هُوَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ الْهَمْدَانِيُّ الْكُوفِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٥٦ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَبْلَغِ الْمُتَكَلِّمِينَ .

وَالْحَاسِدُ الْمُبْغِضُ هُوَ فِي اتِّسَاعِ الْكَلَامِ وَطُغْيَانِ الْعِبَارَةِ أَخُو الْمُحِبِّ الْعَاشِقِ ، فَكِلَاهُمَا يَدُورُ الدَّمُ فِي كَيْدِهِ مَعَانِي وَوَسَاوِسَ ، وَكِلَاهُمَا يَجْرِي كَلَامُهُ عَلَى أَصْلٍ مِمَّا فِي سَرِيرَتِهِ ، فَلَا تَجِدُ أَحَدَهُمَا إِلَّا عَالِيًا عَالِيًا بِمَنْ يُحِبُّ ، وَلَا تَجِدُ الْآخَرَ إِلَّا نَازِلًا نَازِلًا بِمَنْ يُبْغِضُ ، وَكَانَ هَذَا الثَّقَافُ شَاعِرًا ، فَأَنْصَافَ شِعْرُهُ إِلَى حَسَدِهِ إِلَى بُغْضِهِ ، إِلَى ذِكَايِهِ ، إِلَى أَطْلَاعِهِ ، إِلَى جُهْدِهِ ، إِلَى طُولِ أَلُوفَتِ وَتَرَاجُحِ الزَّمَنِ ، وَهَلْذِهِ كُلُّهَا مُفْرَقَاتُ نَفْسِيَّةٍ .
بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ كَالْبَارُودِ ، إِلَى الدُّنْيَانِيَّةِ ، إِلَى الْمِيلَانِيَّةِ ، وَلَكِنَّ شَوْقِي كَانَ فِي مُرْتَقَى لَمْ يَلْغُهُ الثَّقَافُ ، فَأَنْقَلَبَ جُهْدُ هَذَا عَجْزًا ، وَأَصْبَحَ الْبَارُودُ وَالتُّرَابُ فِي يَدِهِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . . (١)

* * *

وَمِنْ أَعْجَبَ مَا عَجِبْتُ لَهُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الثَّقَافِ ، أَنِّي رَأَيْتُهُ يُقَرَّرُ لِلنَّاسِ صَوَابَ الْحَقِيقَةِ بِزَعْمِهِ ، فَإِذَا هُوَ يُقَرَّرُ غَلْطُهُ وَجَهْلُهُ وَتَعَسُّفُهُ ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ عَنْ شَوْقِي يَكُونُ كَالَّذِي يَرَى الْمَاءَ الْعَذْبَ وَعَمَلَهُ فِي إِبْنَاتِ الرُّوضِ وَتَوَشُّيَتِهِ وَتَلَوْنِهِ ، فَيَذْهَبُ يَعْينُهُ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْبُزْرَيْنِ . . . الَّذِي يُحَرِّكُ السَّيَّارَاتِ وَالطَّيَّارَاتِ !

تَنَاوَلَ شَوْقِي بَعْدَ مَوْتِهِ فَجَرَدَهُ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ ، أَيَّ مِنْ حَاسَةِ الشَّعْرِ ، وَمِنْ إِدْرَاكِ السَّرِّ الَّذِي لَا يُخْلِقُ الشَّاعِرُ الْحَقُّ إِلَّا لِإِدْرَاكِهِ وَالْكَشْفِ عَنْ حَقَائِقِهِ ، وَكَانَ فِيمَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ شَوْقِي لَا يُحْسِنُ وَصْفَ الرُّبُوعِ بِمِثْلِ مَا وَصَفَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

تَجِدُ الْوُحُوشَ بِهِ كِفَايَتَهَا وَالطَّنِيرُ فِيهِ عَيْنُودُ الطُّعْمِ
فَطَبَاؤُهُ تُضْحَى بِمُتَطَّحٍ وَحَمَائِهِ يَضْحَى بِمُخْتَصَمِ

وَزَعَمَ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ قَدْ وُلِدَ بِحَاسَةٍ لَمْ يُولَدْ بِهَا شَوْقِي ، وَلِهَذَا الْحَاسَةُ أَنْدَمَجَ فِي الطَّبِيعَةِ فَأَدْرَكَ سِرَّ الرُّبُوعِ ، وَأَنَّهُ عَلَيَانُ الْحَيَاةِ فِي الْأَحْيَاءِ ، فَالطَّبَّاءُ تَنْتَطِحُ مِنَ الْأَشْرِ . . .
إِلْحِ إلْحِ ، وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ نَاطِحَةَ سَحَابٍ . . . لَا نَاطِحَةَ طِبَاءٍ (٢) .

(١) { أَحْسَبُهُ يَغْنِي الْعَقَادَ } .

(٢) لَا يَخْضُرْنِي كَلَامُ الْكَاتِبِ بِنَصِّهِ ، وَلَكِنَّ ، هَذَا بَعْضُ مَعْنَاهُ ؛ وَكُلُّهُ تَهْوِيلٌ .

أَمَا شَوْفِي الشَّاعِرُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الَّذِي لَمْ يُؤْكَدْ بِمِثْلِ تِلْكَ الْحَاسَةِ ، فَلَوْ أَنَّهُ شَهِدَ
أَلْفَ رَيْبٍ لَمَا أَحْسَنَ هَذَا الْإِحْسَاسَ ، وَلَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَجِيءَ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ الْمُعْجِزِ ،
وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الثَّاقِدِ جَهْلٍ فِي جَهْلٍ فِي جَهْلٍ وَأَعَالِيلَ بِأَصَالِيلَ بِأَبَاطِيلَ ، فَأَبْنُ الرُّومِيِّ
فِي هَذَا الْمَعْنَى لَصٌّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلُّ ، فَلَمْ يُحْسَ شَيْئًا وَلَا ابْتَدَعَ وَلَا اخْتَرَعَ .

قَالَ الْجَاحِظُ : يُقَالُ فِي الْخُضْبِ (أَيِ : الرِّيبِ) : نَفَسَتْ الْعَرْتُ لِأُخْتِهَا ، وَخَلَفْتُ أَرْضًا
تَظَالِمُ مِعْزَاهَا (أَيِ : تَظَالِمُ) ، قَالَ : لِأَنَّهَا تَنْفُسُ شَعْرَهَا وَتَنْصِبُ رُؤُفِهَا فِي أَحَدِ شِقَاقِهَا
فَتَنْطَحُ أُخْتَهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْأَشْرِ ، (أَيِ : حِينَ سَمِنَتْ وَأَخْصَبَتْ وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا) .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ سَرَقَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ
لِلْقَافِيَةِ بِهِذِهِ الزِّيَادَةِ السَّخِيفَةِ الَّتِي قَاسَ فِيهَا الْحَمَامَ عَلَى الطَّيَّانِ وَالْمِعْزَى . . . فَاسْتَكْرَهَ
الْحَمَامَ عَلَى أَنْ يَخْتَصِمَ فِي زَمَنِ بَعِينِهِ وَهُوَ يَخْتَصِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَإِنَّمَا شَرْطُ الزِّيَادَةِ فِي
السَّرِقَةِ الشَّعْرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَى الْمَعْنَى فَتَجْعَلَهُ كَالْمُنْفَرِدِ بِنَفْسِهِ أَوْ كَالْمُخْتَرِعِ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كَانَ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلُ صُورَةٍ فِي الْخَيَالِ الشَّعْرِيِّ ، ثُمَّ قَدَّمَ شَوْفِي لِلنَّاسِ تِسْعًا
وَرَسَعِينَ مِنْهَا ، لَقَالَ ذَلِكَ الثَّاقِدُ الْمُتَعَتُّ : لَا ، إِلَّا الصُّورَةُ الَّتِي لَمْ يَقْدِّمَهَا . . .

* * *

وَكَانَ شِعْرُ شَوْفِي فِي جَزَائِهِ وَسَلَاسَتِهِ كَأَنَّمَا يَحْمِلُ الْعَصَا لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، يَرُدُّهُمْ بِهَا عَنِ
السَّفْسَفَةِ وَالتَّخْلِيطِ وَالْاضْطِرَابِ فِي اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ ، فَكَثُرَ الْاِخْتِلَالُ فِي النَّاسِثِينَ مِنْ بَعْدِهِ ،
وَجَاوَزُوا بِالْكَلَامِ الْمُخْلَطِ الَّذِي تَبَعَتْ عَلَيْهِ رَخَاوَةُ الطَّبْعِ وَضَعْفُ السَّلِيقَةِ ، فَتَرَاهُ مَكْشُوفًا
سَهْلًا ، وَلَكِنْ سَهْوَلَتُهُ أَفْبَحُ فِي الذُّوقِ مِنْ جَفْوَةِ الْأَعْرَابِ عَلَى كَلَامِهِمُ الْوَحْشِيِّ الْمَتْرُوكِ .

وَالْآفَةُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَذْهَبِ يَفْرِضُونَ مَذْهَبَهُمْ قَرْضًا عَلَى الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ كَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ لِلنَّاسِ : دَعُوا اللَّغَةَ وَخُذُونَا نَحْنُ ! وَلَيْسَ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ
تَقْلِيدِ الْأَدَبِ الْأَوْرَبِيِّ ، فَكُلُّ مِنْهُمْ عَابِدُ الْحَيَاةِ ، مُتَدَمِّجٌ فِي وَحْدَةِ الْكَوْنِ ، يَأْخُذُ الطَّبِيعَةَ
مِنْ يَدِ اللَّهِ ، وَيُجَارِي أَلَّا نِهَائِيَّةَ ، وَيَفْتِي فِي اللَّذَّةِ ، وَيُعَانِقُ الْفَضَاءَ ، وَيُغْنِي عَلَى قِتَارَتِهِ
لِلْجُجُومِ ؛ وَبِالْاِخْتِصَارِ : فَكُلُّ مِنْهُمْ مَجْنُونٌ لُغَوِيٌّ . . .

وَأَنَا فَلَسْتُ أَرَى أَكْثَرَ هَذَا الشُّعْرِ إِلَّا كَالْجِيفِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْجِيفَةَ لَا تُعَدُّ
كَذَلِكَ فِي الْوُجُودِ الْأَعْظَمِ ، بَلْ هِيَ فِيهِ عَمَلٌ تَحْلِيلِيٌّ عِلْمِيٌّ دَقِيقٌ ؛ لَقَدْ صَدَقُوا ؛ وَلَكِنْ
هَلْ يَكْذِبُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْجِيفَةَ هِيَ فَسَادٌ وَتَنُّ وَقَدْزٍ فِي أَعْتِبَارِ وَجُودِنَا الشَّخْصِيِّ : وَجُودِ
النَّظَرِ وَالشَّمِّ ، وَالْأَنْقِبَاضِ وَالْأَنْبَسَاطِ ، وَسَلَامَةِ الذَّوْقِ وَفَسَادِ الذَّوْقِ ! .

* * *

وَكَانَ حَاسِدُو شَوْقِي يَحْسِبُونَ أَنَّهُ إِذَا أُزِيحَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ظَهَرَ تَقَدُّمُهُمْ ؛ فَلَمَّا أُزِيحَ مِنْ
الطَّرِيقِ ظَهَرَ تَأَخُّرُهُمْ . . . وَهَذِهِ وَخْدَهَا مِنْ عَجَائِبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ! .

وَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ هَبَّةَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ لِلشَّعْبِ ، فَهَيْهَاتَ يَتَّبِعُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا عَمِلَ
الشَّعْبُ فِي خِدْمَةِ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ عَمَلَ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ . . . وَهَيْهَاتَ !

مصطفى صادق الرافعي

طنطا

* * *

الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ
فِي خَمْسِينَ سَنَةً (*)

وَإِذَا اغْتَبَرْتَ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً خَلَّتْ (أَيُّ : قَبْلَ إِنْشَاءِ « الْمُقْتَطَفِ ») وَتَأَمَّلْتَ حَلِيَّتَهُ وَمَعْرِضَهُ ، وَنَظَرْتَ فِي مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقَتِهِ ، وَتَصَفَّحْتَ مَعَانِيَهُ وَأَعْرَاضَهُ - لَمْ تَرِ مِنْهُ إِلَّا شَبِيهَا بِمَا تَرَاهُ مِنْ بَقَايَا الْوَرَقِ الْأَخْضَرِ فِي شَجَرَةٍ نُفِلَ عَلَيْهَا الظِّلُّ فَهُوَ جَامِدٌ مُسْتَوْخِمٌ ، وَحُمْ فِي ظِلِّهَا شُعَاعُ الشَّمْسِ فَهُوَ بَارِدٌ يَزِيدُ ، فَالْحَيَاةُ فِيهَا ضَعِيفَةٌ مُتَهَالِكَةٌ ، لَا هِيَ تَمُوتُ كَالْمَوْتِ وَلَا هِيَ تَحْيَا كَالْحَيَاةِ ، وَمَا تَمَّ إِلَّا مَاءٌ نَاشِفٌ وَرَوْنَقٌ عِلِيلٌ وَمَنْظَرٌ مِنَ الشَّجَرَةِ الْوَاهِنَةِ كَأَنَّهُ جِسْمُ الرَّبِيعِ الْمُغْتَلِّ بِدَثْ غُرُوقِهِ وَعِظَامُهُ .

كَانَ ذَلِكَ الشَّعْرُ فَاسِدَ السَّنِكِ ، مُتَخَلِّفَ الْمَثَرِلَةِ ، قَلِيلَ الطَّلَاوَةِ ، بَيْنَ مَدِينِجٍ قَدْ أُعِيدَ كُلُّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللَّعَةِ بِمَا لَا يُخَصِّصُهُ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِإِحْصَاءِ الْكَذِبِ ، وَبَيْنَ هِجَاءٍ سَاقِطٍ هُوَ بَغْضُ الْمَوَادِّ الَّتِي تَشْتَعِلُ بِهَا نَارُ اللَّهِ يَوْمَ تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ ، وَبَيْنَ غَزَلٍ مَسْرُوقٍ مِنَ الْقُلُوبِ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ وَتَعْشَقُ ، وَبَيْنَ وَصْفٍ لَا عَيْبَ لِمَوْصُوفِهِ سِوَاهُ ، وَشَكْوَى مِنَ الدَّهْرِ يَشْكُو الدَّهْرُ مِنْهَا ، وَتَحَزُّنٍ وَيَأْسٍ وَنَذْبٍ تَجْعَلُ دِيْوَانَ الشَّاعِرِ كَمَا سَمَى أَحَدُ ظُرَفَاءِ الْقُرْنِ الثَّانِي عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ دِيْوَانَ أَحَدِ أَصْحَابِهِ « بِالْمُلْطَمَةِ ... » وَرِثَاءَ كَفَرَاءَةِ الْقُرَاءِ فِي جَنَازَاتِ الْمَوْتَى ، لَا فِيهَا عِظَةُ السُّكُوتِ وَلَا فَائِدَةُ الْطُّقِ ، وَتَعْمُرُ كُلُّ ذَلِكَ أَنْوَاعَ مِنَ الصَّنَاعَةِ بَيْنَهُ التَّعَسُّفُ ، ضَعِيفَةُ التَّقْلِيدِ ، لَا تَرَى الْمَتَأَخَّرَ فِيهَا مَعَ الْمَتَقَدِّمِ إِلَّا قَرِينًا مِمَّا يَكُونُ عَمَلُ اللَّصِّ فِي أَخْذِ الْمَالِ ، مِنْ عَمَلِ صَاحِبِ الْمَالِ فِي جَمْعِهِ ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّكَ إِذَا اعْتَرَضْتَ الشَّعْرَ مِنَ الْقُرْنِ الْعَاشِرِ لِلْهِجْرَةِ إِلَى الْقُرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ (الْسَّادِسَ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ إِلَى الثَّاسِعَ عَشَرَ) رَأَيْتَهُ نَازِلًا مِنْ عَصْرِ إِلَى عَصْرِ بِتَدْرِيجٍ مِنَ الضَّعِيفِ إِلَى الْأَضْعَفِ ، حَتَّى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ بِقُوَّةِ طَبِيعِيَّةِ كَقُوَّةِ الْجَذْبِ ، كُلَّمَا هَبَطَتْ شَيْئًا أَسْرَعَتْ شَيْئًا إِلَى أَنْ تَلْصَقَ بِالْأَرْضِ ، وَيَغْضُهُمْ يُسَمِّي هَذِهِ الْعُصُورَ بِالْعُصُورِ

الْمُظْلِمَةِ ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ أَحَدٌ إِلَى أَنَّ فِي الْأَدَبِ نَامُوسًا كَنَامُوسِ رَدِّ الْفِعْلِ ، يُخْرِجُ أَضْعَفَ الضَّعْفِ مِنْ أَقْوَى الْقُوَّةِ ، وَأَنَّ انْحِطَاطَ الشَّعْرِ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ - عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِنَاعَةً بَدِيعِيَّةً - إِنَّمَا سَبَبُهُ الْقُوَّةُ الصَّنَاعِيَّةُ الْعَجِيبَةُ الَّتِي كَانَتْ لِلشَّعْرِ مُنْذُ الْقَرْنِ السَّادِسِ إِلَى الْعَاشِرِ ، بَعْدَ أَنْ نَشَأَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ حُدُودًا لِلْحَوَادِثِ تَبْدَأُ مِنْهَا أَزْمِنَةٌ وَتَنْتَهِي عِنْدَهَا أَزْمِنَةٌ ، فَفَتِنَ النَّاسُ بِأَدَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَصَرَفَ الشَّعْرَ وَالْكِتَابَةَ إِلَى آسَالِيْبِ الثُّكْتَةِ الْبَدِيعَةِ ، وَظَهَرَتْ مِنْ بَعْدِهِ عِصَابَتُهُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعِصَابَةَ الْفَاضِلِيَّةَ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ فِي الْأَدَبِ وَعُلُومِهِ ، فَكَانَ فِي مِصْرَ الْقَاضِي ابْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ ، وَسِرَاجُ الدِّينِ الْوَرَّاقُ ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَّارُ ، وَأَصْرَابُهُمْ ؛ وَكَانَ فِي الشَّامِ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْأَنْصَارِيُّ ، وَالْأَمِيرُ مُجِيرُ الدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ ، وَبَذَرُ الدِّينِ يُونُسُ بْنُ لُؤْلُؤِ الدَّهْيِيِّ ، وَأَمثالُهُمْ ؛ فَهَذِهِ الْعِصَابَةُ هِيَ الَّتِي تُقَابِلُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عِصَابَةَ الْبَدِيعِ الْأَوَّلَى : كَمُسْلِمٍ ، وَأَبِي تَمَامٍ ، وَأَبْنِ الْمُعْتَرِّ ، وَغَيْرِهِمْ ؛ وَكِلْتَا الْفَتْنَتَيْنِ اسْتَبَدَّتْ بِالشَّعْرِ وَصَرَفَتْهُ زَمَنًا ، وَأَخْدَتَتْ فِيهِ انْقِلَابًا تَارِيخِيًّا مُثَمِّرًا ، بَيْنَ أَنْ الْعِصَابَةَ الْفَاضِلِيَّةَ بَلَغَتْ مِنَ الصَّنْعَةِ مَبْلَغًا لَا مَطْمَعَ فِي مِثْلِهِ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهَا ، حَتَّى كَانَتْهُمْ لَمْ يَدْعُوا كَلِمَةً فِي اللُّغَةِ يَجْرِي فِيهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ إِلَّا جَاؤُوا بِهَا وَصَنَعُوا فِيهَا صَنْعَةً ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ مِنْ بَعْضٍ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ، إِلَى آخِرِ الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ ، فَلَمْ يَتْرَكُوا بَابًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ إِلَّا بَابَ السَّرِقَةِ بِأَسَالِيِبِهَا الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ .

وَلِهَذَا لَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرًا عَرَبِيًّا بَعْدَ الْقَرْنِ النَّاسِعِ إِلَى أَوَّلِ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ إِلَّا رَأَيْتَهُ صُورًا مَمْسُوخَةً مِمَّا قَبْلَهُ ، وَكُلُّ شُعْرَاءِ هَذِهِ الْقُرُونِ لَيْسُوا مِمَّنْ وَرَاءَهُمْ إِلَّا كَالظِّلِّ مِنَ الْإِنْسَانِ : لَا وُجُودَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ مَمْسُوخٌ أَبَدًا إِلَّا فِي الثُّدْرَةِ حِينَ يَسْطَعُ فِي مِرَاةٍ صَافِيَةٍ ، وَمَتَى كَانَ الشُّعْرَاءُ لَا يَنْشَوُونَ إِلَّا عَلَى فُتُونِ الْبَلَاغَةِ وَصِنَاعَاتِهَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا قَدْ فَرَّغَ مِنْهَا الْمُتَقَدِّمُونَ ، فَمَا تَمَّ جَدِيدٌ فِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ إِلَّا وَلَادَةُ الشُّعْرَاءِ وَمَوْتُهُمْ ، وَإِلَّا تَغَيَّرَ تَوَارِيخُ السَّنِينَ . . . وَهَذَا إِذَا لَمْ نَعُدْ مِنَ الْأَدَبِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ الْمُسْتَخْدَثَةِ الَّتِي أَبْتَدَعَهَا الْمُتَأَخَّرُونَ مِمَّا سَتَشِيرُ إِلَى بَعْضِهِ ، كَالتَّارِيخِ الشَّعْرِيِّ وَغَيْرِهِ .

إِنَّ الْفِكْرَ الْإِنْسَانِي لَا يُسِيرُ التَّارِيخَ ، وَلَا يُقَدِّرُ قَدْرًا فِيهِ ، وَلَا يُنْقِلُهُ مِنْ رَسْمٍ إِلَى رَسْمٍ ، لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَمَا خُلِقَ مُصْلِحًا خُلِقَ مُفْسِدًا وَكَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفْنَى ، وَكَمَا تَطَرَّدُ بِهِ سَبِيلُ تَلَوْنِي بِهِ سَبِيلُ أُخْرَى ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الْفِكْرَ فِي رَوْعِهِ بِقَطَارِ الْحَدِيدِ : يَطِيرُ كَالْعَاصِفَةِ وَيَحْمِلُ كَالْجَبَلِ وَيُذْهِشُ كَالْمُعْجِزَةِ وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَوْلَا الْفَضِيحَانِ الْمُتَنَدَانِ فِي سَبِيلِهِ ، يَحْرِفَانِهِ كَيْفَ أَنْحَرَفَا ، وَيَسِيرَانِ بِهِ أَيْنَ أَرْتَمَيَا ، وَيَقِفَانِ بِهِ حَيْثُ أَنْتَهَيَا ، ثُمَّ هُوَ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَلِبُ لِأَوْهَى اخْتِلَالٍ يَقَعُ فِيهِمَا .

لَا جَرَمَ كَانَتْ الْعُصُورُ مَرْسُومَةٌ مُعَيَّنَةٌ اللَّحْمُ ذَاهِبَةٌ إِلَى الْكَمَالِ أَوْ مُنْحَدِرَةٌ إِلَى النَّقْصِ ، حَسَبَ الْغَايَاتِ الْمَحْتُمَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا الْفِكْرُ فِي طَرِيقِ الْقَدْرِ الَّذِي يَقُودُهُ .

فَهَذِهِ عُلُومُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي أَحَدَنْتُ فَنَّا طَرِيقًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأْتُ الذُّوقَ الْأَدَبِيَّ نَشْأَتَهُ الرَّابِعَةَ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، بَعْدَ الذُّوقِ الْجَاهِلِيِّ وَالْمُحَدَّثِ وَالْمُوَلَّدِ - هِيَ بَعِيْنَهَا الَّتِي أَضْعَفَتِ الْأَدَبَ وَأَفْسَدَتِ الذُّوقَ وَأَصَارَتْهُ إِلَى رَأْيَانِي فِي شِعْرِ الْمَتَأَخِّرِينَ ، كَأَنَّمَا انْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ عُلُومًا مِنَ الْجَهْلِ ، حَتَّى صَارَ اللَّحْمُ الْعَالِي مِنَ الشَّعْرِ كَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، إِذْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ ، وَلَا حَفْلَ بِهِ ؛ لِمُبَايَنَتِهِ لِمَا أَلْفُوا وَخُلُوهُ مِنَ الثُّكْنَةِ وَالصَّنَاعَةِ ، وَحَتَّى كَانَ فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَمُدْرِسِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دِيْوَانَ الْمُتَنَبِّي .

وَلَا يَصِفُ لَكَ مَعْنَى الشَّعْرِ فِي رَأْيِ أَدْبَاءِ ذَلِكَ الْعَهْدِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ نَاصِبِ الْبَزَاجِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٨٧١ :

مَلَلْتُ مِنَ الْقَبْرِ بَرِيضٍ وَقُلْتُ يَكْفِينِي
أَحَاوِلُ نُكْتَةً فِي كُلِّ بَيْتٍ
وَذَلِكَ قَدْ تَقَصَّرَ عَنْهُ كَفِّي
أَجَلُ الشَّعْرِ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْهُ
لَأَمْرِ شَابٍ قُوَّتُهُ بِضَعْفٍ
غَرَابَةُ نُكْتَةٍ أَوْ نَوْعٍ لُطْفٍ

يُرِيدُ النُّكْتَةَ الْبَلَاغِيَّةَ وَأَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، وَذَلِكَ مَا قَصَّرَتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَكَفَّ غَيْرِهِ ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، حَتَّى لَا يَأْتِي الْمَتَأَخِّرُ بِمَثَالٍ فِيهِ إِلَّا وَجَدَتْهُ بِعَيْنِهِ لِمَنْ تَقَدَّمُوهُ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَمَا يَأْتِي اخْتِلَافُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْحَذَقِ فِي إِخْفَاءِ السَّرِقَةِ بِالرَّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ، وَالْإِلِمَامِ وَالْمُلَاحَظَةِ وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّصْرِيحِ ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْرِفُهُ أَئِمَّةُ الصَّنَاعَةِ ،

وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِأَفْوَى أَسْبَابِهِ إِلَّا مَنْ رُزِقَ الْقُوَّةَ عَلَى التَّوَلِيدِ وَالْإِخْتِرَاعِ .

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ السَّرَّ فِي سُقُوطِ الشَّعْرِ وَأَضْطِرَابِهِ وَسَفْسَفَتِهِ ، لَمْ تَرَ غَرِيبًا مَا هُوَ غَرِيبٌ فِي نَفْسِهِ ، مِنْ أَنَّ بَدْءَ النَّهْضَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ لَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ الَّذِي يُصَحِّحُ الرَّأْيَ ، وَلَا الْأُطْلَاعُ الَّذِي يُؤْتِي الْفِكْرَ ، وَلَا الْحَضَارَةُ الَّتِي تَهْدُبُ الشُّعُورَ ، وَلَا نِظَامُ الْحُكْمِ الَّذِي يُخْدِتُ الْأَخْلَاقَ ، وَإِنَّمَا كَانَ ضَرْبًا مِنَ الْجَهْلِ وَقَفَ حَدًّا مَنِعًا بَيْنَ زَمَنِ فُتُونِ الْبَلَاغَةِ وَبَيْنَ زَمَانِنَا ، وَكَانَ كَالسَّاحِلِ لِذَلِكَ الْمَوْجِ الْمُتَدَفِّعِ الَّذِي يَتَضَرَّبُ عَلَى مَدِّ ثَمَانٍ مِثَّةٍ سَنَةٍ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ إِلَى الرَّابِعِ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ ، وَلَهُ أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ فِي تَقْلِيلِ الْأُمُورِ وَخَلْقِ الْأَخْدَاطِ وَدَفْعِ الْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ مِنْ نَمَطٍ إِلَى نَمَطٍ ، وَإِخْرَاجِ الْعَقْلِ الْمُتَبَدِّعِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ ، وَجَعَلِ بَعْضَ النُّفُوسِ كَالْيَتَابِيعِ لِلنِّيَّارِ الْإِنْسَانِيِّ فِي عَصْرِ وَاحِدٍ أَوْ عُصُورٍ مُتَعَاقِبَةٍ ، وَإِقَامَةِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ حُدُودًا عَلَى الْأَزْمَنِ وَالتَّوَارِيخِ ، فَكَانَ الَّذِي أَحْدَثَ الْإِنْفِلَابَ الرَّابِعَ فِي تَارِيخِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنْشَأَ الذُّوقَ نَشَأَتُهُ الْخَامِسَةَ هُوَ الشَّاعِرُ الْفَخْلُ مَحْمُودُ بَاشَا الْبَارُودِيِّ ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْبَنَةِ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ فُتُونِ الْبَلَاغَةِ ؛ وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بِهِ الْهِمَّةُ لِأَنَّهُ حَادِثَةٌ مُرْسَلَةٌ لِلْقَلْبِ وَالتَّغْيِيرِ ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الْعُلُومِ ، وَأَخْرَجَهُ لَنَا مِنْ دَوَاوِينِ الْعَرَبِ ، كَمَا نَشَأُ مِثْلَ ابْنِ الْمُقَفِّعِ وَالْجَاحِظِ مِنْ فَصَحَاءِ الْأَعْرَابِ ؛ وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ مِمَّا لَا مَحَلَّ لِبَسْطِهِ هُنَا ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُ شِعْرَ أَدِيبٍ مُتَأَخِّرٍ يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُذَكَّرَ فِي شِعْرِ كُلِّ عَصْرِ مِنْ لَدُنِ زَمَانِنَا إِلَى صَدْرِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَا تَنْحَطُّ مَرْتَبَتُهُ - غَيْرَ كَلَامِ الْبَارُودِيِّ هَذَا ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُقَابِلُ الْقَاضِي الْفَاضِلَ فِي أَدْوَارِ التَّارِيخِ الْأَدَبِيِّ ، عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّ شِعْرَهُ هُوَ الَّذِي نَسَخَ آيَةَ الصَّنَاعَةِ ، وَدَارَ فِي أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ ، وَكَانَ الْمَثَلُ الْمُخْتَدِي فِي الْقُوَّةِ وَالْجَزَالَةِ وَدِقَّةِ التَّصْوِيرِ وَنَضِيجِ اللَّغَةِ ؛ وَلَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَسْبِقَهُ إِلَى ذَلِكَ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّ النَّهْضَةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ فِي هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ كَانَتْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مَرْهُونَةً بِأَوْقَاتِهَا وَأَسْبَابِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَسَبَقَهُ شَاعِرُ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ الْأَمِيرُ مَنُجِكُ الْمُتَوَفَّى سَنَةِ ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩م) ؛ فَقَدْ اتَّفَقَتْ لِهَذَا الْأَمِيرِ نَشَأَةُ كَنْشَاءَةِ الْبَارُودِيِّ ، فَكَانَ كَثِيرَ الْحِفْظِ مِنْ دَوَاوِينِ الْعُصُورِ الْأُولَى ، وَكَانَ يُقَلِّدُ أَبَا فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيَّ وَيَحْتَذِي عَلَى مِثَالِهِ ، وَلَكِنْ عَصَرَهُ كَانَ فِي الْعُصُورِ الْهَالِكَةِ ، فَخَرَجَ الشَّاعِرُ ضَعِيفًا كَمَا يَخْرُجُ كُلُّ

شئ في غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية .

وَنَشَأَتِ الْعَصَابَةُ الْبَارُودِيَّةُ وَفِيهَا إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي وَسُوقِي وَحَافِظُ وَمُطْرَانٌ وَغَيْرُهُمْ ،
وَأَدْرَكُوا مَا لَمْ يَدْرِكْهُ الْبَارُودِيُّ وَجَاؤُوا بِمَا لَمْ يَجِئْ بِهِ ، وَأَتَّصَلَ الشَّعْرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ،
وَسَارَتْ بِهِ الصُّحُفُ ، وَتَنَاقَلَتْهُ الْأَفْوَاهُ ، وَأُنْسِي ذِكْرَ الْبِلَاغَةِ وَفُتُونَهَا بِالشَّأَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ
الْحَدِيثَةِ الَّتِي جَعَلْتُ مِنْ تَرْكِ الْبِلَاغَةِ بِلَاغَةً ، لِأَنَّهَا صَادَقَتْ أَوَائِلَ الْإِنْقِلَابِ لَيْسَ غَيْرُ ،
وَبِذَلِكَ بَطَلَ فِي مَضَرِّ عَصْرٍ أَبِي النَّصْرِ وَاللَّيْنِيِّ وَالسَّاعَاتِيِّ وَاللَّدِيمِ وَطَبَقَتِهِمْ ، وَفِي السَّامِ
عَصْرُ الْيَازِجِيِّ وَالْكَسْتِيِّ وَالْأُنْسِيِّ وَالْأَخْذَبِ وَأَضْرَابِهِمْ ، وَفِي الْعِرَاقِ عَهْدُ الْفَارُوقِيِّ
وَالْمَوْصِلِيِّ وَالْبَرَّازِ وَالْتَمِيمِيِّ وَسِوَاهُمْ ، وَاسْتَقَلَّ الشَّعْرُ عَرَبِيًّا عَصْرِيًّا وَخَرَجَ كَمَا يَخْرُجُ
الْفِكْرُ الْمُخْتَرَعُ مَا ضِيًّا فِي سَبِيلِ غَيْرِ مَحْدُودٍ .

* * *

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الطُّرُقَ الَّتِي تَتَّبِعُ فِي تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ وَتَكْوِينِ رُوحِهَا الْعَالَمِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
لَهَا أَثَرٌ بَيِّنٌ فِي شِعْرِ شُعْرَائِهَا ، فَإِنَّمَا الشَّعْرُ فِكْرٌ يَنْضُرُ وَعَاطِفَةٌ تَخْتَلِجُ ، وَمَا أَرَى الشَّاعِرَ
الْحَقَّ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا كَالزَّهْرَةِ الصَّغِيرَةِ فِي شَجَرَتِهَا : إِنْ لَمْ تَكُنْ خُلَاصَةً مَا فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ ،
فَفِي خُلَاصَةٍ مَا فِي الشَّجَرَةِ مِنْ مَعْنَى الْجَمَالِ وَلَوْنِهِ وَمَلَمَسِهِ ، وَلَا تَعْدُمُ مَعَ هَذِهِ الصِّفَةِ أَنْ
تَكُونَ وَخْذَهَا الْكُوكَبُ السَّاطِعُ فِي هَذَا الْأَفْقِ الْأَخْضَرِ كُلِّهِ . وَلَقَدْ أَطْرَدَتِ النَّهْضَةُ مُنْذُ
خَمْسِينَ سَنَةً أَوْ حَوْلَهَا ، فِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ ، وَفِي الْفِكْرِ وَالْفَنِّ وَالصَّنَاعَةِ ، وَاسْتَوَى لَنَا
مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّفِقْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِ مِنْ عَصُورِهَا ، حَتَّى بَلَّغْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ صِرْنَا كَأَنَّمَا
فَتَحْنَا أَرْضًا مِنْ أَوْرَبَةٍ وَتَغَلَّبْنَا عَلَيْهَا ، أَوْ أَنْشَأْنَا أَوْرُوبَةً عَرَبِيَّةً وَمَا نَزَالُ نَعْمُرُهَا وَنَنْقُلُ إِلَيْهَا
الْعُلُومَ وَالْفُنُونَ وَالْآدَابَ ، وَنَسْتَخْرِجُ لَهَا الْأَمْتِلَةَ وَالْأَسَالِيبَ ؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ مَعَ
هَذَا كُلِّهِ لَمْ يُوفِّ قِسْطَهُ وَلَمْ يَتْلُغْ مَبْلَغَهُ فِي مُجَارَاةِ هَذِهِ النَّهْضَةِ قُوَّةَ ابْتِكَارٍ وَسَلَامَةِ اخْتِرَاعٍ
وَحُسْنِ تَنْوِيعٍ ، لِسَبَبَيْنِ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ كَمَا كَانَ مُنْذُ فَسَدَتْ اللَّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ : شِعْرٌ فَنِيَّةٌ
لَا شِعْرٌ أُمَّةٌ ، فَهُوَ يُوضَعُ لِلْخَاصَّةِ لَا لِلشَّعْبِ ، وَيَدُورُ مَعَ الْأَعْرَاضِ وَالْحَاجَاتِ لَا مَعَ
الطَّبَائِعِ وَالْأَذْوَاقِ ، وَذَلِكَ لَوْ تَأَمَّلْتَ هُوَ مِنْ بَعْضِ الْأَسْرَارِ فِي سُمُومِ هَذَا الشَّعْرِ وَقُوَّةِ
إِحْكَامِهِ وَإِبْدَاعِ تَنْسِيقِهِ وَجَمَالِ تَوْشِيحِهِ ، مُنْذُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ إِلَى الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، ثُمَّ

أَنحِطَاطِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَدَلِّيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى بَلَغَ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ الْعُصُورِ الْمُتَأَخَّرَةِ ، إِذْ كَانَتْ الْفِتْنَةُ الَّتِي يُوضَعُ لَهَا وَيَصِفُ أَهْوَاءَهَا وَأَعْرَاضُهَا وَتَتَقَبَّلُهُ وَتُثَبِّتُ عَلَيْهِ وَتُخَسِّنُ وَزَنَهُ وَنَقْدَهُ ، هِيَ فِي الثَّانِيَيْنِ كَمَا تَرَى مِنْ طَرَفِي الْمِنْظَارِ الَّذِي يَقْرُبُ الْبَعِيدَ ، فَهِيَ بِالنَّظَرِ فِي أَوَّلِهِ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ مُتَرَامِيَةٌ إِلَى الْجِهَاتِ ، وَبِالنَّظَرِ فِي آخِرِهِ ضَيْئِلَةٌ مَمْسُوحَةٌ لَا تَكَادُ تُعْرَفُ . وَمَا أَقْضَى الْعَجَبَ مِنْ غَفْلَةٍ بَعْضِ الْكُتَابِ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِذْ يُنَاهِضُونَ الْعَرَبِيَّةَ وَيَزْرُونَ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى أَنْكِمَاشِ سَوَادِهَا وَتَقْلِيلِ أَهْلِهَا ، وَمَا يَذْرُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُسْقِطُونَ الشَّعْرَ قَبْلَ الْكِتَابَةِ عَلَى خَطَرٍ أَوْ عَمْدٍ وَقَلَّمَا تَجِدُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ يُخَسِّنُ مُعَالَجَةَ الشَّعْرِ ، فَإِنْ أَصَبَتْ لَهُ شِعْرًا وَجَدْتَهُ لَا غَنَاءَ فِيهِ أَوْ فِي أَكْثَرِهِ ، وَأَيْنَ وَضَعْتَ يَدَكَ مِنْهُ لَمْ تُحْطِ أَنْ تَقَعَ عَلَى مِثْلِ مِمَّا يُمَثِّلُ بِهِ لَعِيبٍ مِنْ عُيُوبِ الْبَلَاغَةِ .

وَهَذِهِ النَّهْضَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي صَدَدِ الْكَلَامِ عَنْهَا أَوْسَعُ مَدَى وَأَوْفَرُ أَسْبَابًا مِنْ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، بِمَا دَخَلَهَا مِنْ أَدَبٍ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ أَسَالِبِ الْفِكْرِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ رِجَالُ الْفَصَاحَةِ الْمُتَمَكِّنُونَ مِنْهَا ، الْمُتَعَصِّبُونَ لَهَا ، الْعَامِلُونَ عَلَى بَنَائِهَا فِي الْأَلْسِنَةِ ، مَعَ أَنَّ عَصْرَهُمْ أَوْسَعُ مِنْ عَصْرِ الرُّوَاةِ ، بِكَثْرَةِ مَا أَخْرَجَتْ الْمَطَابِعُ مِنْ أَمْهَاتِ الْكُتُبِ وَالْدَّوَاوِينِ ، حَتَّى أَغْنَتْ كُلَّ مَطْبَعَةٍ أَدَبِيَّةٍ عَنْ رَاوِيَةٍ مِنْ أَيْمَةِ الرُّوَاةِ .

وَالسَّبَبُ الثَّانِي الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ لَا يَرَالُ الشَّعْرُ مُتَخَلِّفًا عَنْ مَزِيلَتِهِ الْوَاجِبَةِ لَهُ - سُقُوطُ فَنِّ النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ فِي هَذِهِ النَّهْضَةِ ، فَإِنَّ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي سَمَتِ بِالشَّعْرِ فِيمَا بَعْدَ الْقَرْنِ الثَّانِي وَجَعَلَتْ أَهْلَهُ يَبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهِ وَتَهْذِيبِهِ ، كَثْرَةُ الثَّقَادِ وَالْحِفَاطِ ، وَتَتَبُعُهُمْ عَلَى الشُّعْرَاءِ ، وَاعْتِبَارُ أَقْوَالِهِمْ ، وَتَذَوُّنُ الْكُتُبِ فِي نَفْسِهِمْ ، كَالَّذِي كَانَ فِي دُرُوسِ الْعُلَمَاءِ وَحَلَقَاتِ الرُّوَايَةِ وَمَجَالِسِ الْأَدَبِ ، وَكَالَّذِي صَنَعَهُ مُهْلُهُلُ بْنُ يَمُوتَ فِي نَقْدِ أَبِي نُوَاسٍ وَأَحْمَدَ بْنِ طَاهِرٍ ، وَابْنُ عَمَّارٍ فِي أَبِي تَمَّامٍ ، وَيَشْرُ بْنُ تَمِيمٍ فِي الْبُحْتَرِيِّ ، وَالْأَمِيدِيُّ فِي « الْمُوَازَنَةِ » ، وَالْحَاتِمِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ، وَالْجُرْجَانِيُّ فِي « الْوَسَاطَةِ » ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكُتُبِ وَالرِّسَالِ ، وَأَنْتَ مِنَ النَّقْدِ فِي هَذِهِ النَّهْضَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ : صَدِيقٌ هُوَ الصَّدِيقُ ، أَوْ عَدُوٌّ هُوَ الْعَدُوُّ . . . فَإِنْ أَبْتَغَيْتَ لَهَا ثَالِثًا فَكَاتِبٌ لَا تَتَعَادَلُ وَسَائِلُ النَّقْدِ فِيهِ فَلَا خَيْرَ فِي كَلَامِهِ ؛ أَمَّا الثَّاقِدُ الَّذِي اسْتَعْرَضَ عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ وَادَابَهَا ، وَكَانَ شَاعِرًا كَاتِبًا ، قَوِيٌّ

الْعَارِضَةِ ، دَقِيقَ الْحِسِّ ، نَاقِبَ الذَّهْنِ ، مُسْتَوِي الرَّأْيِ ، بِصِيرًا بِمَذَاهِبِ الْأَدَبِ ، مُتَمَكِّنًا مِنْ فَلَسَفَةِ الْقَدَمِ ، مُبِيرًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ - فَهَذَا الْخَيَالُ يُذَكِّرُنِي كَلِمَةً قُلْتُهَا يَوْمًا لِلْبَارُودِيِّ ، إِذْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يَكُونُ لِسَانَ زَمَنِهِ حَتَّى يُوْجَدَ مَعَهُ النَّاقِدُ الَّذِي هُوَ عَقْلُ زَمَنِهِ ؛ فَقَالَ : وَمَنْ نَاقِدُ الشُّعْرِ فِي رَأْيِكَ ؟ قُلْتُ : الْكَاتِبُ وَهُوَ شَاعِرٌ ، وَالْأَدِيبُ وَهُوَ فَيْلسُوفٌ ، وَالْمُصْلِحُ وَهُوَ مُوقِفٌ ؛ فَكَأَنَّمَا هَوَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : « فَيَنْ دَا كُلُّهُ ؟ » قُلْتُ : فَلَعَلَّهُ لَا يَنْشِئُ لَنَا هَذَا الْعَقْلَ الْمُتَنَبِّهَ إِلَّا الْعَصْرُ الَّذِي يُوْجَدُ لَنَا أَسْطُورًا كَأَسْطُورِ إِنْكِلِيرَةٍ .

* * *

وَعَلَى مَا نَزَلَ بِالشُّعْرِ الْعَصْرِيُّ مِنْ هَلَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ فَقَدْ اسْتَقَلَّتْ طَرِيقَتُهُ وَظَهَرَ فِيهَا أَثَرُ التَّحَوُّلِ الْعِلْمِيِّ وَالْإِنْفِلَابِ الْفِكْرِيِّ ، وَعَدَلَ بِهِ أَهْلُهُ إِلَى صُورِ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي أَكْثَرِهِ صُورًا مِنَ اللَّغَةِ ، وَأَصَافُوا بِهِ مَادَّةَ حَسَنَةٍ إِلَى مَجْمُوعَةِ الْأَفْكَارِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَوَعَّوْا مِنْهُ أَنْوَاعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَاتَّسَعَتْ فِيهِ دَائِرَةُ الْخَيَالِ بِمَا تَقَلَّبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُتَرَجِّمَةِ مِنْ لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَوْسَعُ مِنْ شِعْرِ كُلِّ عَصْرِ فِي تَارِيخِ هَذِهِ اللَّغَةِ ؛ إِذْ كَانَ الْأَوَّلُونَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، ثُمَّ أَخَذَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَلَيْلًا مِنَ التَّرَكِيَّةِ ؛ أَمَّا فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ فَيَكَادُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ كُلُّهُ يَكُونُ مَادَّةَ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ ، لَوْلَا ضَعْفُ أَكْثَرِ الْمُعْجَدِينَ مِنَ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ فِي الْبَيَانِ وَأَسَالِيهِ وَيُعْذِرُهُمْ مِنْ ذَوْقِ اللَّغَةِ وَاعْتِيَاصِ مَرَامِهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّى حَسِبُوا أَنَّ الشُّعْرَ مَعْنَى وَفِكْرٌ ، وَأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ أَدَّى الْمَعْنَى فَهُوَ كَلَامٌ ، وَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّغَةِ وَصِنَاعَتِهَا ، وَالْبَيَانِ وَحَقِيقَتِهِ ؛ وَحَتَّى صِرْنَا وَاللَّهِ مِنْ بَعْضِ الْغَثَاثَةِ وَالرَّكَكَاتِ وَالْإِخْتِلَالِ فِي شَرٍّ مِنْ تَوَعُّرِ نَظْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَجَفَاءِ الْأَفَاطِهِ وَكَرَازَةِ مَعَانِيهِ ؛ وَهَلْ نَمَّ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ تَنْفَرِ النَّفْسُ مِنَ الشُّعْرِ لِأَنَّهُ وَغَرُّ الْأَفَاطِ عَسِرُ الِاسْتِخْرَاجِ شَدِيدُ التَّعَسُّفِ ، وَبَيْنَ أَنْ تَمُجَّهَ لِأَنَّهُ سَاقِطُ اللَّفْظِ مُتَسَوِّلُ الْمَعْنَى مُضْطَرِبُ السِّيَاقِ ؟ ثُمَّ تَرَاهُمْ يُعْجِرُونَ الشُّعْرَ كُلَّهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِ نَمَطًا وَاحِدًا مِنْ تَسْهِيلِ اللَّفْظِ وَتَرْوِيلِهِ ، حَتَّى كَانَ هَذِهِ اللَّغَةُ لَا تَتَوَعَّ فِي الْأَفَاطِهَا وَأَجْرَاسِ الْأَفَاطِهَا ، مَعَ أَنَّ هَذَا التَّنَوُّعَ مِنْ أَحْسَنِ مَحَاسِنِهَا وَأَخْصَى خَصَائِصِهَا دُونَ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ تَنَوُّعٍ هُوَ مِنْ أَبْدَعِ أَسْبَابِ الْجَمَالِ

وَالْقُوَّةَ فِي كُلِّ فَرْ ؛ وَلَا يَذِرُنِي أَصْحَابُنَا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ عَبَثٌ فِي عَبَثٍ إِذَا هُمْ لَمْ يُعْطُوا الشَّعْرَ حَقَّهُ مِنْ صِنَاعَةِ اللُّغَةِ ؛ وَهَذَا شَاعِرُ الْفُرْسِ الشَّهِيرُ « مُصْلِحُ الدِّينِ السَّعْدِيُّ الشَّيرَازِيُّ » إِمَامٌ مِنْ أَيْمَةِ الْبَلَاغَةِ فِي قَوْمِهِ ، لَا يَذْفَعُ مَكَانَهُ وَشِعْرَهُ مِثْلُ مَنْ أَسْمَى الْأَمْثِلَةَ فِي جَمَالِ الْمَنْطِقِ الرُّوحِيِّ ، وَلَيْسَ فِي النَّاسِ إِلَّا مَنْ يُسَلِّمُ لَهُ هَذَا الْمَحَلَّ مِنَ الْبُؤْسِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِينَ نَظَّمَ الشَّعْرَ لَمْ تَنْفَعَهُ نَافِعَةٌ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ خِيَالٍ أَوْ فِكْرٍ ، وَذَهَبَ فِي التَّعَسُّفِ كُلِّ مَذْهَبٍ ، وَحَمَلَ عَلَى كَلَامِهِ مِنَ الْعُيُوبِ مَا لَمْ يَسَلِّمْ مَعَهُ إِلَّا صِحَّةَ الْوُزْنِ ، كَقَوْلِهِ فِي وَصَفِ نَكْبَةِ بَغْدَادَ وَتَخْرِيجِهَا [مِنَ الطَّوِيلِ] :

فَقَدْ نِكَلْتُ أُمَّ الْفَرَى وَلَكَعْبَةٍ مَدَامُ فِي الْمِيزَابِ تَسْكُبُ فِي الْحَجَرِ
عَلَى جُذْرِ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ نُذْبَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ ذَوِي الْحَجَرِ
نَوَائِبُ دَهْرٍ لَيْتَنِي مِثْتُ قَبْلَهَا وَلَمْ أَرْ عُذْوَانَ السَّفِينَةِ عَلَى الْحَجَرِ
مَحَايِرُ تَبْكِي بَعْدَهُمْ بِسَوَادِهَا وَيَبْغُضُ قُلُوبَ النَّاسِ تَأْلُفُ بِالْعَذْرِ
لَحَى اللَّهُ مَنْ تُسَدِّي إِلَيْهِ بِنِعْمَةٍ وَعِنْدَ هُجُومِ الْيَأْسِ أَخْلَكَ مِنْ جَبْرِ

فَانْظُرْ أَيَّ شِعْرِ هَذَا فِي الرِّكَائِكَ وَالْهَذَيَانِ وَالشُّخْفِ ، وَفِي خُمُودِ الْفِكْرِ وَضَعْفِ الرُّوحِ وَذَهَابِ الرُّوْتِ ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ هَوَى بِهِ السَّعْدِيُّ مِنْ مَكَانَتِهِ الَّتِي بَوَّاهُ إِتَاهَا أَدَبُهُ الْعَالِي ، وَكَيْفَ سَقَطَ إِلَى حَيْثُ تَرَى ، مَعَ أَنَّهُ فِي مِخْرَابِ الْفِكْرِ إِمَامٌ وَرَاءَهُ صُفُوفٌ مِنْ عُصُورِ الْبَلَاغَةِ .

وَمِنْ هَلُمَّنَا نَشَأُ فِي أَيَّامِنَا مَا يُسَمُّونَهُ « الشَّعْرُ الْمَشْتُور » ، وَهِيَ تَسْمِيَةٌ تَذُلُّ عَلَى جَهْلِ وَاضِعِهَا وَمَنْ يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ ، فَلَيْسَ يَضِيحُ الْكَثْرُ بِالْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ ، وَلَا هُوَ قَدْ خَلَا مِنْهَا فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ ، وَلَكِنَّ سِرَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ صِنَاعَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ دَقِيقَةٌ يَظْهَرُ فِيهَا الْأَخْطَالُ لِأَوْهَى عِلَّةٍ وَلَا يَسِرُ سَبَبٍ ، وَلَا يُوقَفُ إِلَى سَبَكِ الْمَعَانِي فِيهَا إِلَّا مَنْ أَمَدَّهُ اللَّهُ بِأَصَحِّ طَبْعٍ وَأَسْلَمَ ذَوْقٍ وَأَفْصَحَ بَيَانٍ ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنْ سُخْفِ اللَّفْظِ أَوْ فَسَادِ الْعِبَارَةِ أَوْ ضَعْفِ التَّلَافُيفِ ، وَلَا تَسْتَوِي فِيهِ أَسْمَى الْمَعَانِي مَعَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْعِلَلِ وَأَشْبَاهِهَا ، وَتَرَاهُ يُلْقِي بِمِثْلِ (السَّعْدِيُّ) مِنَ الْقَلَمِ الْأَعْلَى إِلَى الْحَضِيضِ ، لَا يَقِينُ لَهُ وَزْنًا وَلَا يَرَعَى لَهُ مَحَلًّا وَلَا يَقْبَلُ فِيهِ عُذْرًا وَلَا رُخْصَةً ، غَيْرَ أَنَّ الْكَثْرَ يَحْتَمِلُ كُلَّ أُسْلُوبٍ ، وَمَا

مِنْ صُورَةٍ فِيهِ إِلَّا وَدُونَهَا صُورَةٌ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَامِّيِّ السَّاقِطِ وَالسُّوفِيِّ الْبَارِدِ ، وَمَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَنْبَسِطَ وَيَنْقَضَ عَلَى مَا شِئَتْ مِنْهُ ، وَمَا يَتَّفِقُ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ الشَّعْرِيِّ فَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَتَّفِقُ فِي صَوْتِ الْمَطْرِبِ حِينَ يَتَكَلَّمُ لَا حِينَ يُغَنِّي ، فَمَنْ قَالَ : « الشَّعْرُ الْمَشْتُورُ » فَأَعْلَمَ أَنَّ مَعْنَاهُ عَجَزُ الْكَاتِبِ عَنِ الشَّعْرِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَادِّعَاؤُهُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

* * *

وَالَّذِي أَرَاهُ جَدِيدًا فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا أَبْدَعَتْهُ هَذِهِ الْتَهَضُّةُ أَشْيَاءٌ :

أَوَّلًا : هَذَا النَّوعُ الْقَصَصِيُّ الَّذِي تُوَضَّعُ فِيهِ الْقَصَائِدُ الطُّوَالُ ، فَإِنَّ آدَابَ الْعَرَبِيَّةِ خَالِيَةٌ مِنْهُ ، وَكَانَ الْعَرَبُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِذَا ذَكَرُوا الْقِصَّةَ أَلْمُوا بِهَا اقْتِضَابًا وَجَاؤُوا بِهَا فِي جُمْلَةٍ السِّيَاقِ عَلَى أَنَّهَا مَثَلٌ مَضْرُوبٌ أَوْ حِكْمَةٌ مُرْسَلَةٌ أَوْ بُرْهَانٌ قَائِمٌ أَوْ اِحْتِجَاجٌ أَوْ تَغْلِيلٌ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِمَّا لَا تَرِدُ فِيهِ الْقِصَّةُ لِذَاتِهَا وَلَا لِتَفْصِيلِ حَوَادِثِهَا ؛ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ الْجَاهِلِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ ، وَالْجِدُّ مِنْهُ قَلِيلٌ حَتَّى فِي شِعْرِ الْفُحُولِ ، فَإِنَّ طَبِيعَةَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ تَأْبَاهُ ، وَالَّذِينَ جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْعَبَسِيِّينَ لَا يُجِيدُونَ مِنْهُ إِلَّا قِطْعًا تُعْرَضُ فِي الْقَصِيدَةِ وَأَبْيَاتًا تَتَّفِقُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا وَأَعْرَاضِهَا مِمَّا يَجْرِي عَلَى أَصْلِهِ فِي سَائِرِ الشَّعْرِ طَالَ أَوْ قَصُرَ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقِصَّةَ إِنَّمَا يَتِمُّ تَمَامُهَا بِالْتَّبَسُّطِ فِي سَرْدِهَا وَسِيَاقَةِ حَوَادِثِهَا وَتَسْمِيَةِ أَشْخَاصِهَا وَذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ وَحِكَايَةِ أَفْعَالِهِمْ وَمَا يُدْخِلُ ذَلِكَ أَوْ يَتَّصِلُ بِهِ ، وَإِنَّمَا بُنِيَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي أَوْرَاقِهِ وَقَوَائِمِهِ عَلَى التَّأَثُّرِ لَا عَلَى السَّرْدِ ، وَعَلَى الشُّعُورِ لَا عَلَى الْحِكَايَةِ ، وَلَا يُرِيدُونَ مِنْهُ حَدِيثَ اللِّسَانِ وَلَكِنْ حَدِيثَ النَّفْسِ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ رُوحِيَّةٌ يَصْنَعُونَ بِهَا مَقَادِيرَ مِنَ الطَّرَبِ وَالْاهْتِرَازِ وَالْفَرَحِ وَالْحُزَنِ وَالْغَضَبِ وَالْحَمِيَّةِ وَالْفَخْرِ وَالْاِسْتِطَالَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بِسَبَبِ مِنْ أَسْبَابِ الْاِنْتِعَالِ وَالْتَّرَعَةِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ سَبِيلُهُمْ إِلَى ذَلِكَ هُوَ التَّخْدِيدُ لَا الْإِطْلَاقُ ، وَضَبَطَ الْمَقَادِيرَ لَا الْإِسْرَافَ ، إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ أَنَّ مَا زَادَ مِنْهَا عَنْ مِقْدَارِهِ تَحَوَّلَ وَانْقَلَبَ فِي تَأَثُّرِهَا ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ أَيْضًا فِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مَا لَمْ يَكُنْ قَائِمًا عَلَى اخْتِيَارِ اللَّفْظِ وَصَنَعَةِ الْعِبَارَةِ وَتَصْفِيحِهَا وَتَهْذِيبِهَا وَاخْتِيَارِ الْوَزْنِ لِلْمَعْنَى وَإِرَادَةِ الْفِكْرِ عَلَى مَا يَلْفُظُ النَّفْسُ مِنْ ضُرُوبِ الْمَجَازِ وَالْاِسْتِعَارَةِ وَنَحْوِهَا - سَقَطَ وَرَكَ بِمِقْدَارِ مَا يَنْقُصُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ

الْشَّانُ فِي إِطَالَةِ الْقَصِيدِ ، فَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ نَظَّمَ رَوِيًّا وَاحِدًا فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ بَيْتٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَّمَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ كُلَّهُ ؛ وَلَكِنَّ عَيْبَ مِثْلِ هَذَا فِي الشُّعْرِ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ شِعْرٌ . . . وَمَا أَخْمَلَ ابْنَ الرُّومِيِّ عَلَى جَلَالَةِ مَحَلِّهِ إِلَّا طُولُ قَصَائِدِهِ وَسِيَّاقُهُ الْكَلَامَ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُشْبِهُ أَسْلُوبَ الْحِكَايَةِ وَخُرُوجُهَا مَخْرَجَ الْمَقَالَةِ يَتَحَدَّثُ بِهَا ، فَلَمْ تَخَيَّ لَهُ إِلَّا مُقْطَعَاتٍ وَأَبْيَاتٍ وَمَاتَ سَائِرُ شِعْرِهِ وَهُوَ حَيٌّ وَمَيِّتٌ عَلَى السَّوَاءِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ صَاحِبُ « الْوَسَاطَةِ » : « وَنَحْنُ نَسْتَقْرِئُ الْقَصِيدَةَ مِنْ شِعْرِهِ وَهِيَ تُنَاهِزُ الْمِثَّةَ أَوْ تُزِيهِ أَوْ تَضَعُفُ ، فَلَا نَعْتَرُ فِيهَا إِلَّا بِالْبَيْتِ الَّذِي يَرُوقُ أَوْ الْبَيْتَيْنِ ، ثُمَّ قَدْ تَسْلُخُ قَصَائِدُ مِنْهُ وَهِيَ وَاقِفَةٌ تَحْتَ ظِلِّهَا ، جَارِيَةٌ تَحْتَ رَسْلِهَا ، لَا يَخْضَلُ مِنْهَا السَّمْعُ إِلَّا عَلَى عَدَدِ الْقَوَافِي . . »

وَالْعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ فِي عَصْرِنَا مِمَّنْ لَا تَحْقِيقَ لَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، يَمُتَدُونَ أَحْسَنَ مَحَاسِنِ ابْنِ الرُّومِيِّ مَا هُوَ أَقْبَحُ عُيُوبِهِ ، وَقَاتِلَ اللَّهُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ ، فَكَمَا أَنَّهَا لِمَلِّ الْفَرَاغِ هِيَ كَذَلِكَ لِإِفْرَاقِ الْمَلَانِ . . . (١)

ثَانِيًا : صِيَاغَةُ بَعْضِ الشُّعْرِ عَلَى أَصْلِ مِنْ أَصُولِ التَّفْكِيرِ فِي الْإِنْكِلَبِيَّةِ أَوْ الْفَرَنْسِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ ، فَيَخْرُجُ الشُّعْرُ عَرَبِيًّا ، وَأُسْلُوبُهُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى أَجْنَبِيٌّ ، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي هَذَا النَّوعُ مِنْ أَمْرِيكَةِ ، وَأَنَا أَعْجَبُ بِكَثِيرٍ مِنْهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْحُسْنِ .

وَمَا زَالَتْ أَجَنَاسُ الْأُمَمِ يَضِيقُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ وَيَتَسَّعُ بَعْضُهَا بِأَشْيَاءَ ، فَلَسْنَا مُقَيَّدِينَ بِالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ وَلَا بِطَرِيقَتِهِ ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُضَيِّفَ إِلَى مَحَاسِنِ لُغَتِنَا مَحَاسِنَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَفْسِدَهَا أَوْ نَحِيفَ عَلَيْهَا أَوْ نَبْعِثَهَا بِنِعِ الْوَكُوفِ ؛ وَمَتَى كَانَ هَذَا النَّوعُ مِنَ الشُّعْرِ رَصِينًا مُخَكَّمًا جَيِّدَ السَّنَنِ رَشِيقَ الْمَعْرِضِ ؛ كَانَ فِي النَّهَائِيَّةِ مِنَ الرِّقَّةِ وَالْإِبْدَاعِ ، وَلَمْ يَأْتِ التَّجْدِيدُ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، كَالَّذِي تَرَاهُ فِيمَا أَخَذَ عَبْدُ الْحَمِيدِ وَابْنُ الْمُفَضَّلِ مِنْ نَمَطِ الْأَدَاءِ فِي اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ .

ثَالِثًا : الْأَنْصِرَافُ عَنِ إِفْسَادِ الشُّعْرِ بِصِنَاعَةِ الْمَدِينِ وَالرُّثَاءِ ، وَذَلِكَ بِتَأْثِيرِ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ؛ وَالْمَدْحُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَابًا مِنَ التَّارِيخِ الصَّحِيحِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى سُمُو

نَفْسِ الْمَمْدُوحِ ، بَلْ عَلَى سَفُوطِ نَفْسِ الْمَادِحِ ؛ وَتَرَاهُ مَدْحًا حِينَ يُنْتَلَى عَلَى سَامِعِهِ ، وَلَكِنَّهُ دَمٌ حِينَ يُعْرَى إِلَى قَائِلِهِ ! وَمَا أَتَيْتُ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ الدُّنْيَا بِالْمَدِيحِ وَالرَّنَاءِ وَالْهَجَاءِ مَا أَتَيْتُ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةَ ؛ وَلِذَلِكَ أَسْبَابُ لَا مَحَلَّ لِتَفْصِيلِهَا .

رَابِعًا : الْإِكْتَارُ مِنَ الْوَصْفِ وَالْإِبْدَاعِ فِي بَعْضِ مَنَاحِيهِ وَالتَّقَنُّ فِي بَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْحَدِيثَةِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَسْمَى ضُرُوبِ الشُّعْرِ ، لَا تَتَّقَى الْإِجَادَةَ فِيهِ وَالْإِكْتَارُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَ الشُّعْرُ حَيًّا ، وَكَانَتْ نَزْعَةُ الْعَصْرِ إِلَيْهِ قَوِيَّةً ، وَكَانَ النَّظَرُ فِيهِ صَحِيحًا ؛ وَلَمَّا وَصَفَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْكُرْدِيُّ (مِنْ شُعَرَاءِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ) السَّيْفِيَّةَ وَاسْتَهْلَّ بِهَذَا الْوَصْفِ مَدَحَ الْوَزِيرِ رَاغِبَ بَاشَا ، عَدُّوا ذَلِكَ حَادِثَةً مِنْ حَوَادِثِ الْأَدَبِ فِي عَصْرِهِ ، فَتَأَمَّلْ !

خَامِسًا : إِهْمَالُ الصَّنَاعَاتِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي يُنْتَلَى عَلَيْهَا الشُّعْرُ ، فَيَنْظُمُ الْبَيْتَ لِيَكُونَ جَنَاسًا أَوْ طِبَاقًا أَوْ اسْتِخْدَامًا أَوْ تَوْرِيَّةً . . . إلخ ، أَوْ ضَرْبًا آخَرَ مِنْ صِنَاعَةِ الْعَدَدِ وَالْحِسَابِ ، كَالْتَارِيخِ الشُّعْرِيِّ بِأَنْوَاعِهِ ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْحَرْفِ كَالْمَقْلُوبِ وَالْمُهْمَلِ وَغَيْرِهِمَا ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْفِكْرِ ، كَاللُّغْزِ وَالْمُعَمَّى ؛ أَوْ صِنَاعَةِ الْوَضْعِ ، كَالْتَشْجِيرِ وَالتَّطْرِيضِ ؛ إِلَى مَا يَلْتَحِقُ بِهَذَا أَلْبَابِ الَّذِي ذَهَبَ أَهْلُهُ فَلَا يَتَيَسَّرُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَجَائِبُ اسْتَقْصَيْنَاهَا بِالتَّدْوِينِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ «تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ»^(١) ، بَيِّنْدَ أَنْ إِهْمَالَ صِنَاعَةِ الْبَدِيعِ شَيْءٌ وَإِهْمَالُ فَنِّ الْبَدِيعِ نَفْسِهِ شَيْءٌ آخَرُ ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ مَا تَرَاهُ فِي بَعْضِ الشُّعْرِ الْحَدِيثِ وَ«الشُّعْرِ الْمَشْهُورِ» مِنَ الْإِغْرَاقِ السَّخِيفِ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى أَصْلٍ مِنَ التَّعَدِّي فِي ضُرُوبِ الِاسْتِعَارَةِ ، وَالتَّبَعْدِ فِي الْمَجَازِ ، وَالْإِحَالَةِ فِي الْوَضْعِ ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْجَهْلِ بِطَبِيعَةِ الْبَلَاغَةِ ، وَمِمَّا لَا نَعُدُّهُ إِلَّا ضَرْبًا مِنَ الْفَسَادِ يَلْتَحِقُ بِمَا كَانَ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ وَإِنْ كَانَ عَلَى الضَّدِّ مِنْهُ .

سَادِسًا : النَّظْمُ فِي الشُّؤْنِ الْوُطَنِيَّةِ وَالْحَوَادِثِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، مِمَّا يَجْعَلُ الشُّعْرَ مُحِيطًا بِرُوحِ الْعَصْرِ وَفِكْرِهِ وَخَيَالِهِ ، وَهُوَ بَاتٌ لَا يَنْهَضُ بِهِ إِلَّا أَفْرَادٌ قَلِيلٌ ، وَلَا يَزَالُ ضَعِيفًا لَمْ يَسْتَحْكِمِ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ لِلْقَاضِي الْفَاضِلِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ فِي مَدْحِ الْوَطَنِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَا أَحْسَبُ أَنَّ فِيهَا مِثَّةً مِنْ نَحْوِ مَا يُنْظَمُ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، مِمَّا أَدَّى بِالشُّعْرِ إِلَى

(١) أَنْظِرِ الْجُزْءَ الثَّلَاثَ مِنْ (تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ لِلرَّافِعِيِّ) .

أَنْ يَدْخُلَ فِي بَابِ السِّيَاسَةِ وَيَعَدَّ مِنْ وَسَائِلِهَا ، وَفِي طُرُقِ التَّرْبِيَةِ وَيَعَدَّ مِنْ أَسْبَابِهَا .

سَابِغًا : أَسْتَخْرَجُ بَعْضَ أَوْزَانِ جَدِيدَةٍ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ وَالتَّرْكِيَّةِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ ، جَاءَ بِهِ شَوْقِي فِي قَصِيدَتَيْنِ وَلَمْ يُتَابِعْهُ أَحَدٌ ، لِإِفْرَاطِ ذَلِكَ الْوَزْنِ فِي الْخِفَةِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى الثَّقَلِ . . . ثُمَّ نَظَمَ بَعْضَ الشَّعْرِ مِنْ أَوْزَانِ مُخْتَلِفَةٍ قَرِيبَةٍ التَّنَاسُقِ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُوَشَّحِ ، وَلَكِنَّهُ شِعْرٌ لَا تَوْشِيحَ ، كَمَا يَنْظُمُ بَعْضُ شُعْرَاءِ أَمْرِيكَةِ وَسُورِيَةِ ، وَلَمْ يَخْذُثْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ الْقَصِيدَةَ كَانَتْ تُنْظَمُ مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهُ وَزْنٌ آخَرُ ، وَلَا نَعْرِفُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ قَصِيدَةَ تَتَأَلَّفُ مِنْ وَزْنَيْنِ إِلَّا الَّذِي قَالُوا : إِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قَدْ اخْتَرَعَهُ وَنَظَمَ فِيهِ أَيْيَاتَهُ الَّتِي مَطَّلَعُهَا [مِنْ الْخَفِيفِ] :

فَاحَ عُرْفُ الصَّبَا وَصَاحَ الدُّيُوكُ وَأَثْنَى أَلْبَانُ يَشْكِي التَّخْرِيكَ
قُمْ يَا نَخْتَلِي مُشْغَعَةً تَأَهُ مِنْ وَصْفِهِ بِهَا النَّسِيكَ
وَعَارَضَهَا وَلَدُهُ الْإِمَامُ الشَّهِيدُ بِهَاءِ الدِّينِ الْعَامِلِيُّ صَاحِبُ « الْكَشْكُولِ » بِأَيَّاتٍ قَالُوا :
إِنَّهَا سَارَتْ فِي عَصْرِهِ مَسِيرَ الْمَثَلِ ، وَنَسَجَ عَلَيْهَا شُعْرَاءُ ذَلِكَ الْعَصْرِ كَالثَّابِلُسِيِّ وَغَيْرِهِ ،
وَمَطَّلَعُهَا [مِنْ الْخَفِيفِ] :

يَا نَدِيمِي بِمُهْجَتِي أَفْدِيكَ قُمْ وَهَاتِ الْكُؤُوسَ مِنْ هَاتِيكَ
خَمْرَةً إِنْ ضَلَلْتَ سَاحَتَهَا فَسَنَا نُورَ كَاسِهَا يَهْدِيكَ
عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَزْنَ بِشَطْرِهِ مُسْتَخْرَجٌ مِنَ الْخَفِيفِ ، فَلَيْسَ بِاخْتِرَاعٍ كَمَا زَعَمُوا ، وَإِنَّمَا
هُوَ ابْتِدَاعٌ فِي التَّأْلِيفِ الشَّعْرِيِّ ، وَقَدْ اجْتَرَأْنَا بِمَا مَرَّتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كُلُّ مَا تَغَيَّرَ بِهِ
الرَّسْمُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَتَرَكْنَا الْأَمْثَلَةَ تَفَادِيًا مِنَ الْإِطَالَةِ .

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا مَعَ دِينِهَا الرُّوحِيِّ إِلَى دِينِ إِنْسَانِيٍّ
يَقُومُ فِيهَا عَلَى الشُّعُورِ وَالرَّغْبَةِ وَالتَّأَثُّرِ ، فَيُفَسِّرُ لَهَا حَقَائِقَ الْحَيَاةِ ، وَيَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ
وَسَائِلِ تَغْيِيرِهَا ، لِيَجْعَلَهَا أَلْفَافَ مِمَّا هِيَ فِي اللَّطْفِ ، وَأَرْقَ مِمَّا تَكُونُ فِي الرِّقَّةِ ، وَأَبْدَعَ
مِمَّا تَتَّفِقُ فِي الْإِبْدَاعِ ؛ ذَلِكَ الَّذِي يَصِلُ بِظُهُورِهِ وَإِنْهَامِهِ بَيْنَ الْوَاضِحِ وَالْغَامِضِ ، وَالْخَالِدِ
وَالْفَانِي ، ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجْمَلُ الْجَمَالَ إِلَّا بِهِ ، وَلَا تَسْكُنُ النَّفْسُ إِلَّا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ هُوَ الشُّعْرُ !

صُرُوفُ اللَّغَوِيِّ (*)

كَانَ شَيْخُنَا هَذَا رَجُلًا حَصِيصًا ، جَيِّدَ الْمَنْزَعَةِ ، حَسَنَ الرَّأْيِ ، مُمَكِّنًا لَهُ فِيمَا كَانَ يَغْتَرِضُهُ مِنْ مَسَائِلِ اللُّغَةِ ، قَوِيًّا عَلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي تَجْرِي لَهُ مِنْ أَوْضَاعِهَا فِيمَا يُعَانِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَيُزَاوِلُهُ مِنَ التَّرْجَمَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَنَاحِيهَا وَكَثْرَةِ فُتُونِهَا ؛ وَعَلَى أَنَّهَا لَا تَزَالُ كُلَّ يَوْمٍ تَتَبَّعُ مِنْ عِلْمٍ وَتَخْتَفِلُ مِنْ رَأْيٍ وَتَمُدُّ مَدَّ السَّبِيلِ كَأَنَّهَا دُنْيَا عَقْلِيَّةٌ لَا يَبْرَحُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ دَائِبًا يُحَلِّقُ فِيهَا وَيَبِينُهَا مِنْ مَعَانِي الْكُؤُونِ وَأَسْرَارِهِ ، فَلَا الْكُؤُونُ يَنْفَدُ لَيْسَمَ ، وَلَا هِيَ تَبِينُ قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ الْكُؤُونُ .

وَبَتَّ شَيْخُنَا عَلَى ذَلِكَ عُمُرَ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ فِي خَمْسِينَ سَنَةً وَنَيْبَ ، يَضْرِبُ قَلَمَهُ فِي السَّهْلِ وَالصَّعْبِ ، وَفِي الْمُمْكِنِ وَالْمُمْتَنِعِ ؛ وَإِنَّهُ لَيَمُرُّ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَرًّا لَا يَنْتَنِي ، وَيَخْذُو حَذْوًا لَا يَخْتَلِفُ ، كَأَنَّ الصَّعْبَ عِنْدَهُ نَسَقُ السَّهْلِ ، وَالْمُمْتَنِعُ صَوْعُ الْمُمْكِنِ ؛ فَلَوْ قُلْتُ : إِنَّهُ بُنِيَ فِي أَصْلِ خَلْقِهِ وَتَرْكِيبِهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى التَّخْوِيلِ لِتَحْقِيقِ الْمُشَابَهَةِ الْعَقْلِيَّةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ لَمَا أَبْعَدْتُ ، وَلَوْ زَعَمْتُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَلَمَ الْحَيَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِرْقًا فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَكَانَ عَسَى . . .

وَأَنْتَهَى شَيْخُنَا فِي الْعَهْدِ الْأَخِيرِ إِلَى أَنْ صَارَ يُعَدُّ وَخَذَهُ حُجَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دَهْرِ مِنْ دُهُورِهَا الْعَانِيَةِ ، لَا فِي الْأُصُولِ وَالْأَفْسَسَةِ وَالشَّوَادِ وَمَا يَكُونُ مِنْ جِهَةِ الْحِفْظِ وَالضُّبْطِ وَالْإِتْقَانِ ، بَلْ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَرْدُّ بِالْمَنْفَعَةِ عَلَى اللُّغَةِ وَتَارِيخِهَا وَقَوْمِهَا ، بَلْ فِيمَا لَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَطْمَعَةُ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَائِهَا وَكُتَّابِهَا وَأَدْبَائِهَا ؛ إِذْ وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ أَنْفَرَدَ فِي إِقَامَةِ الدَّلِيلِ الْعَمَلِيِّ عَلَى سَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا وَحُسْنِ أَنْفِيَادِهِ وَكِفَايَتِهَا ، وَأَنَّهَا تُؤَاتِي كُلَّ ذِي فَرْ عَلَى فَتَاهُ ، وَتَمَادُّ كُلَّ عَصْرِ بِمَادَّتِهِ ؛ وَأَنَّهَا مِنْ دَقَّةِ التَّرْكِيبِ وَمُطَاوَعَتِهِ مَعَ تَمَامِ الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ بِحَيْثُ يَنْزِلُ مِنْهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ بِجُهِدِهِ وَعَمَلِهِ مَنَزَلَةَ الْجَمَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي

(*) { هُوَ الْعَلَّامَةُ الدُّكْتُورُ يَنْفُوبُ صُرُوفُ صَاحِبِ « الْمُقْتَضَفِ » ، وَقَدْ نُشِرَ هَذَا الْمَقَالُ فِي « الْمُقْتَضَفِ » شَهْرِ يَنَايِرَ/ كَانُونِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٢٨ م ، الصَّفَحَاتِ : ٢٣ - ٣٠ } .

اللُّغَاتِ الْأُخْرَى ، كَأَنَّهَا آخِرُ مَا أَتَتْهُ إِلَيْهِ الْحَضَارَةُ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْحَضَارَةُ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنْكَ الْفَرْقُ بَيْنَ رَجُلٍ حَافِظٍ وَالْكِتَابِ أَحْفَظَ مِنْهُ ، وَهُوَ مِنَ الْكِتَابِ خَرَجَ
وَالِىَ الْكِتَابِ يَرْجِعُ ؛ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَكُونُ تَرْجُمَانًا مِنْ تَرَاجِمَةِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ الْمَعْنِيَّ بِتَأْوِيلِ
الْكَوْنِ وَتَفْسِيرِهِ ، وَالطَّائِرِ بِالْأَلْفَاظِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أَجْنَحَةِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ
وَالْمَعَانِي ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْقُلُ عَنِ الْوَاضِعِ ثُمَّ لَا يَتَعَدَّى هَذِهِ الْمَثَرَةَ وَلَا يَتَجَاوَزُ مَثَوْنَ
الْأَلْفَاظِ ، وَأَمَّا هَذَا فَلَا يَرَالُ يَضْطَرِبُ مَعَ الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا يُجَادِبُهَا وَيُدَافِعُهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ
يَضَعُ يَدَهُ فِي النَّسِيجِ اللَّغَوِيِّ يُسَدِّي وَيُلْحِمُ ، فَهُوَ مَدْفُوعٌ إِلَى الْمَسَالِكِ الدَّقِيقَةِ مِنْ مَذَاهِبِ
الْوَضْعِ وَطُرُقِهِ ، وَأَسَالِبِ الْأَخْذِ وَالْإِنْتِزَاعِ ؛ وَهُوَ مُقَيَّدٌ أَبَدًا بِخَاصِّ الْمَعْنَى وَخَاصِّ اللَّفْظِ
عَلَى التَّعْيِينِ وَالتَّخْدِيدِ ، لَا يَجِدُ فُسْحَةً مِنْ ضَيْقَيْنِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا فِي مَثَرَةِ
الْوَاضِعِ فَهُوَ فِي الْمَثَرَةِ بَعْدَهُ وَلَا رَيْبَ .

إِنَّمَا اللَّغَوِيُّ الْأَكْبَرُ عِنْدِي هُوَ هَذَا الْكَوْنُ ، وَمَا الْعَالِمُ بِاللُّغَةِ وَفُنُونِهَا إِلَّا وَسِيلَةٌ
لِتَهْدِيبِ الطَّرِيقَةِ تَهْدِيئًا عَقْلِيًّا ، فَيَجِبُ مِنْ ثُمَّ أَنْ يَكُونَ لِلَّغَوِيِّ رَأْيٌ وَعِلْمٌ وَذِكَاءٌ وَبَصَرٌ ،
وَيَجِبُ أَنْ يُطَابِقَ التَّوَامِيسَ ، فَلَا يَتَعَادَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِنْطَاقِهَا لَيْسَ غَيْرُ ؛ وَمِنْ
ذَلِكَ أَرَى الدُّكْتُورَ صُرُوفَ فِي الْعِلَايَةِ ، فَقَدْ كَانَ يَنْزِعُ فِي مَذْهَبِ اللَّغَوِيِّ مَنَازِعَ عِلْمِيَّةٍ دَقِيقَةٍ
تُوزَنُ وَتُقَاسُ وَتُخَبَّرُ ، فِي حِينٍ لَا تَرِيعُ وَلَا تَهِنُ وَلَا تَحْتَلُّ ، وَتَرَاهَا تَنْطَلِقُ وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ ؛
وَتَتَقَيَّدُ وَهِيَ مُطْلَقَةٌ ، إِذْ كَانَ لَا يَعْتَدُ اللَّغَةُ عَرَبِيَّةً لِلْعَرَبِ ، بَلْ عَرَبِيَّةً لِلْحَيَاةِ ؛ وَمَا تَهْدِمُهُ
وَتَبْنِيهِ وَتُخَدِنُهُ وَتَنْسَخُهُ ، فَهِيَ عَلَى أَصُولِهَا فَيَمْنُ قَبْلَنَا ، وَلَكِنْ فُرُوعُهَا فَيَنَّا نَحْنُ وَفَيَمْنُ
يَلِينَا وَفَيَمْنُ بَعْدَ هَؤُلَاءِ ، فَلَمَّا أَنْ نَتَوَلَّاهَا عَلَى تِلْكَ الْأَصُولِ وَعَلَى مَا يُشَبِّهُهَا فِي الطَّرِيقَةِ
حِينَ تَنْتَقِلُ الْحَالُ وَيَتَغَيَّرُ الرَّسْمُ ، لِعِلَّةِ إِنْ وَجَبَتْ ، وَلِقِيَاسِ إِنْ جَازَ . وَالدُّكْتُورُ بِهِذَا
الاعتِبَارِ يَشْتَدُّ فِي التَّمَشُّكِ بِالْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ وَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ
لَا يَكُونُ كَأَقْوَامٍ يَرَوْنَ الْفُرُوعَ مِنَ الْجُدُوعِ قَدْ خَرَجَتْ ، فَيَحْسِبُونَ الثَّمَرَاتِ سَبِيلَهَا مِنْ
الْجُدُوعِ أَيْضًا . . . وَإِنْ لَمْ تَجِءْ مِنْهَا فَسَتَجِئُ مِنْهَا .

عَرَضَ لِي يَوْمًا أَحَدُ هَؤُلَاءِ اللَّغَوِيِّينَ فَانْتَقَدَ فِي « الْمُقَطَّعِ » قَصِيدَةً مِنَ الْقَصَائِدِ الَّتِي
رَفَعْتُهَا إِلَى جَلَالَةِ الْمَلِكِ فُؤَادٍ ، وَتَمَحَّلَ فِي نَقْدِهِ وَدَلَّلَ بِبَعْضِ مَا نَقَلَهُ مِنْ كُتُبِ اللَّغَةِ ،

فَكَانَ فِيمَا تَكَلَّمَ فِيهِ لَفْظًا (الْأَزَاهِرُ وَالْوُرُودُ) ، فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ اللُّغَةِ وَلَمْ يَجْرِيَا فِي كُتُبِهَا ؛ وَكَانَ مِنْ رَدِّي عَلَيْهِ أَنْ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْعَرَبَ جَمَعُوا الْجَمَلَ سِتَّةَ جُمُوعٍ ، وَجَمَعُوا الثَّلَاثَةَ سَبْعَةً لِأَنَّهَا أَكْرَمُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَأَنَّ لِكُلِّ حَيَاةٍ صُورَهَا الدَّائِرَةُ فِي الْأَلْفَاظِهَا ، فَالزُّهْرُ وَالْوُرْدُ عِنْدَ الْمُؤَلِّدِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ أَكْرَمُ مِنَ الْجَمَلِ وَالثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، أَوْ هَذَا مِنْ كَهَذَا ، ثُمَّ هُمَا مِنْ خَاصِّ الْأَلْفَاظِ الْمُؤَلَّدَةِ ، فَلَمَّا أَنْ تَجَمَعَهُمَا عَلَى كُلِّ صُورِ الْجَمْعِ الَّتِي يُسَوِّغُهَا الْقِيَاسُ ، لِأَنَّ هَهُنَا الْعِلَّةَ الْمُوجِبَةَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعَ الْعَرَبِ فِيهِمَا ؛ فَمِنْ الصَّحِيحِ أَنْ نَقُولَ : زُهُورٌ ؛ وَأَزْهَارٌ ، وَأَزَاهِرٌ وَأَزَاهِيرٌ . . . إلخ ؛ فَلَمَّا لَقِيتُ الدُّكْتُورَ بَعْدَ تَنْشُرِ هَذَا الرَّدِّ هَتَّائِي بِهِ ، ثُمَّ قَالَ فِيمَا قَالَ : يَحْسِبُونَ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ الْجَمَلُ وَالثَّلَاثَةُ وَلَيْسَ غَيْرُ مَا اسْتَجَمَلْ وَمَا اسْتَنَوَقَ . . . أَمَّا هَذَا الدَّهْرُ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْئًا ، وَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَى الْمُؤَلِّدِينَ أَلْفَ كَلِمَةٍ ، وَلَكِنْ هَلْ فِي اسْتَطَاعَتِهِمْ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَى التَّارِيخِ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ الْأَصْلَ الَّذِي قَرَّرَهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ فِي الْعَرَبِيِّ الصَّحِيحِ نَفْسَهُ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يَجُوزُ فِي الْقِيَاسِ يَجِبُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِ سَمَاعٌ ، فَإِذَا أَخَذَ إِنْسَانٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّ مَذْهَبَهُمْ فَلَا يُسْأَلُ مَا دَلِيلُهُ وَمَا سَمَاعُهُ وَمَا رِوَايَتُهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : لَوْ شَاءَ شَاعِرٌ أَوْ مُتَسِّعٌ أَنْ يَبْنِيَ بِالْحَقِ الْأَلَامَ ^(١) أَسْمَاً وَفِعْلًا وَصِفَةً لَجَازَ لَهُ . وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِكَ : خَرَجَ أَكْثَرُ مَنْ دَخَلَ ، وَضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا ، وَمَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَرَبَ ، وَكَرَّمْتُ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . قَالَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ جَنِّي : فَقُلْتُ لَهُ : أَتُرْتَجِلُ اللُّغَةَ أَرْتَجَالًا ؟ قَالَ : لَيْسَ بِأَرْتَجَالٍ ، لَكِنَّهُ مَقْيَسٌ عَلَى كَلَامِهِمْ ، فَهُوَ إِذَا مِنْ كَلَامِهِمْ .

وَسَأَلَنِي مَرَّةً عَنْ وَجْهِ الْخِلَافِ بَيْنَ مَا يُسَمُّونَهُ الْقَدِيمَ وَالْجَدِيدَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْخِلَافَ لَيْسَ عَلَى جَدِيدٍ وَلَا قَدِيمٍ ، وَلَكِنْ عَلَى ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ ، فَإِنَّ قَوْمًا يَكْتُبُونَ وَيَنْظُمُونَ وَلَكِنْ لَمْ تُقَسِّمِ الْفَصَاحَةَ وَالْبَلَاغَةَ عَلَى مِقْدَارِ مَا يُطَبِّقُونَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَتَسَّعُ الصَّحِيحُ لِأَرَائِهِمْ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ ، وَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَسْعُوا كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ ضَاقُوا ، وَيُطَاوِلُوهُ مِنْ حَيْثُ تَقَاصَرُوا ، وَيَتَأَلَّوْهُ مِنْ حَيْثُ عَجَزُوا ، فَظَنُّوا بِالْأَمْرِ مَا يَظُنُّ إِنْسَانٌ يَمْسِي عَلَى الْأَرْضِ

(١) زِيَادَةُ حَرْفٍ مِنْ جَنْسٍ لَامِ الْكَلِمَةِ وَالْحَقَاقَةُ بِهَا .

وَيَعْرِفُ أَنَّهَا تَدْوُرُ ، فَيُؤَوِّلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هُوَ يُدِيرُ الْأَرْضَ عَلَى مِحْوَرِهَا بِحَرَكَةٍ قَدَمِيهِ . . . نَحْنُ
نَقُولُ : أَسْلُوبُ رَكِيكَ ؛ فَيَقُولُونَ : لَا بَلْ جَدِيدٌ ؛ وَنَقُولُ : لُغَةٌ سَقِيمَةٌ ؛ فَيَقُولُونَ : بَلْ
عَصْرِيَّةٌ ؛ وَنَقُولُ : وَجْهٌ مِنَ الْخَطَا ؛ فَيَقُولُونَ : بَلْ نَوْعٌ مِنَ الصَّوَابِ ؛ وَهَلُمَّ جَزَا
وَسَخَبَا . . . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَفَتَجِدُ أَنْتَ الرُّكَكَاءَ وَاللَّحْنَ وَالْخَطَا وَالْغَثَاءَةَ وَإِنَّ أَخَوَاتِهَا بَابَا
جَدِيدًا أَوْ أَمْرًا مُبْتَدَعًا أَوْ شَيْئًا يَخْتَاجُ إِلَى اسْمِهِ الْعَرَبِيِّ ؟ قَالَ : لَا ! وَأَنَا مَعَكَ فِي هَذَا ،
وَطَرِيفَتِي فِي « الْمُقْتَطَفِ » أَنَّ اللُّغَةَ فِي قَوَاعِدِهَا عَرَبِيَّةٌ ، وَلَكِنْ مِنْ قَوَاعِدِهَا أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ
مَقَالًا ، فَنَحْنُ نَكْتُبُ كِتَابَةَ صَحِيحَةٍ ، وَنُرِيدُ بِهَا أَنْ تَرْفَعَ الْعُلَمَاءَةُ وَلَا تَنْزِلَ بِالْخَاصَّةِ ، فَتَخْدِمُ
الْعَرَبِيَّةَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

ثُمَّ نَشَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَائُو/ أيار سَنَةِ ١٩٢٧ مَقَالًا جَعَلَ عُنْوَانَهُ : « أَسْلُوبُنَا فِي
الترجمة والتعريب » وَأَبْتَدَأَهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ : « اللُّغَةُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٌ ، وَشَأْنُ مَنْ يُحَاوِلُ
مَنْعَهَا مِنَ الثُّمُوءِ شَأْنُ الصَّيْنِيِّينَ الَّذِينَ يَزِيْطُونَ أَقْدَامَ بَنَاتِهِمْ لِكَيْ لَا تَنْمُوا وَتَبْلُغَ حَدَّهَا
الطَّبِيعِيِّ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الثُّمُوءُ مُشَوِّهَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْيِيدِهِ وَتَهْذِيبِهِ » وَكُلُّ مَا نَقُولُهُ نَحْنُ هُوَ
التَّقْيِيدُ وَالتَّهْذِيبُ وَاتِّقَاءُ الشُّوْهِةِ أَنْ نُلِمَّ بِاللُّغَةِ وَأَسَالِيِبِهَا ، فَتَتَرَادَفَ عَلَى مَحَاسِنِهَا
بِمَعَايِبِهَا ، وَتَطْيَسَ مَفَاتِيحُهَا بِمَقَابِحِهَا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَايِبَ وَالْمَقَابِحَ إِذَا هِيَ اسْتَجْمَعَتْ
وَأُتْسَاغَتْ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ لَبِسَتْهَا بِأَشْكَالِهَا فَلَا تَزَالُ تُتَكَرَّرُ مِنْهَا حَتَّى لَا تُبْقِيَ لَهَا وَصْفًا
يُعْرَفُ ، وَالْحُسْنُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُحَدِّثُ بِالْأَوْصَافِ وَالتَّعَارِيفِ ، وَهُوَ الَّذِي يُدَقِّقُ فِيهِ وَيُبَالِغُ
فِي قِيَاسِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، فَإِنْ وَقَعَ فِيهِ الْفُضُولُ ، وَاخْتَلَطَتِ الْخُدُودُ ، وَضَعُفَتِ الْمَلَأَمَةُ ،
وَجَرَى الْوُصْفُ نَاقِصًا وَزَائِدًا ، فَقَدْ خَرَجَ إِلَى الْقُبْحِ ، وَإِنْ خَرَجَ إِلَى الْقُبْحِ لَمْ يَعُدِ النَّاسُ
يَحْدُوثَ لَهُ حَدًّا أَوْ يَعْجُوزُونَ لَهُ بِقَاعِدِهِ ، وَوَجَدُوا فِيهِ كُلَّ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ مَقْلُوبَةً مُنْكَرَةً ،
لِأَنَّهُ هُوَ جَمَالٌ مَقْلُوبٌ ؛ (فَتَقْيِيدُ التَّشْوِيهِ وَتَهْذِيبُهُ) كَلِمَتَانِ فِيهِمَا الْكَلَامُ كُلُّهُ ، أَوْ هُمَا
الْمِضْرَاعَانِ لِهَذَا الْبَابِ ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُنَّا نَعُدُّ الدُّكْتُورَ مِنْ حُجَّتِنَا عَلَى أَصْحَابِ
الْجَدِيدِ ، لِأَنَّهُ أَوْسَعُهُمْ إِحَاطَةً وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَأَمْدَهُمْ عَمَلًا ، ثُمَّ لَنْ يُدَانِيَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا إِذَا
جَمَعَ لِنَفْسِهِ عُمَرَيْنِ ، وَهَلْ فِي الْجَدِيدِ رَجُلٌ ذُو عُمَرَيْنِ . . . ؟

قُلْنَا : إِنَّ الشَّيْخَ كَانَ فِي الْمَثَرَةِ الَّتِي تَلِي مَثَرَةَ الْوَاضِعِ ، وَقَدْ دَفَعَتْهُ الْعُلُومُ إِلَى ذَلِكَ

دَفْعًا . لِأَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِخَاصِّ الْمَعْنَى فِي كُلِّ مَا يُتَرْجَمُ أَوْ يُعَرَّبُ ، ثُمَّ بِالْخَصَائِصِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ فِي أَذَانِهَا مَا تَحْتَمِلُ الْمَعَانِي الْأَدَبِيَّةُ ؛ وَقَدْ تَصَدَّرَ لِلْكِتَابَةِ وَالتَّرْجَمَةِ مِنْذُ شِتَابِ هَذَا الْعَصْرِ ، وَمِنْذُ بَدَأَ النَّاسُ يَقْرَءُونَ الْعُلُومَ الْحَادِثَةَ فِي الشَّرْقِ ؛ فَلَا جَرَمَ لَمْ يَكُنْ لِعُرْوَاتِ كَأَيِّ عَمْرٍو وَأَبِي زَيْدٍ وَالْحَلِيلِ وَالْأَصْمَعِيِّ وَأَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَأَصْرَابِهِمْ مِمَّنْ يَحْمِلُونَ عَنِ الْعَرَبِ وَيُؤَدُّونَ مَا حَمَلُوهُ ، وَلَا كَانَ لِعُرْوَاتٍ فِي طَرِيقَةِ سَيَوْنِهِ وَالْكَسَائِيِّ وَالزَّجَّاجِ وَالْأَخْفَشِ وَالزَّيْدِيِّ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ يَنْظُرُونَ فِي اللُّغَةِ وَعِلَلِهَا وَأَقْسِيَّهَا وَشَوَادِهَا ؛ وَلَكِنَّهُ لِعُرْوَةٍ فِيمَا يَغْمُرُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ ، يَحْمِلُ بِلِسَانٍ وَيُؤَدِّي بِلِسَانٍ غَيْرِهِ ، وَيُوَافِقُ بَيْنَ الْمَعَانِي الْجَدِيدَةِ وَالْأَلْفَاظِ الْقَدِيمَةِ ، وَيُشَابِكُ بَيْنَ خُيُوطِ التَّارِيخِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ ، وَيَأْخُذُ اللُّغَةَ لِلِاسْتِعْمَالِ لَا لِلْحِفْظِ ، وَلِلتَّعْلِيمِ لَا لِلتَّدْوِينِ ، وَلِلْمَنْعَةِ لَا لِلْمُبَاهَاةِ ، وَلِلْفَائِدَةِ لَا لِلتَّبَلُّلِ ؛ وَيُتَرْجَمُ وَإِنَّ فِي خَيَالِهِ الْعَالَمَ الْوَاسِعَ الَّذِي يَنْقُلُ عَنْهُ بِعِلْمَانِهِ وَأَدْبَانِهِ وَكُتُبِهِ وَمَجَلَّاتِهِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ ، وَيَكْتُبُ وَإِنَّ لَهُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي كَوَّنَتْهَا الْعُلُومُ الرِّيَاضِيَّةُ وَالطَّبِيعِيَّةُ وَالْفَلَسَفِيَّةُ وَغَيْرُهَا ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَتَبَدَّعَ وَأَنْ تَكُونَ لَهُ طَرِيقَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا وَيُخَالِفُ ، وَقَدْ بَسَطَ هُوَ الْقَوَاعِدَ الَّتِي أَخَذَ بِهَا وَجَرَى عَلَيْهَا ، فَكَتَبَ فِيهَا مَقَالًا فِي مُقْتَطَفِ شَهْرِ يُولْيُو/ تَمُوزِ لِسَنَةِ ١٩٠٦ ، وَأَعَادَ نَشْرَهُ فِي عَدَدِ شَهْرِ مَائُو/ أَيَّارِ لِسَنَةِ ١٩٢٧ ، وَهُوَ يُوَافِقُ فِيهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ، وَخَاصَّةً الْإِمَامَ الْجَا حِظَّ ، مَعَ أَنَّ قَاعِدَةَ الْجَا حِظِّ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعْرُوفَةً ، وَلَكِنْ كَلَامَ الشَّيْخَيْنِ حَصِيفُ الرَّأْيِ تَأْمُ الْأَدَاةِ فِي عَمَلِهِ ، قَوِيٌّ الْحُسْبَةِ وَالتَّدْبِيرِ فِيمَا يَأْخُذُ وَمَا يَدْعُ ؛ وَخُلَاصَةُ رَأْيِ الدُّكْتُورِ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي الْكَلِمَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ ، فَإِنْ أَصَابَ لَهَا مُرَادِفًا فِي الْعَرَبِيَّةِ يُحَدِّدُهَا وَيَفِي بِهَا فَذَاكَ ، وَإِلَّا أَمَرَهَا فِي كِتَابَتِهِ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِفَائِدَةِ الْقَارِئِ وَمَا هُوَ أَخْفَ عَلَى قَارِئِهِ فِي الْمُؤَوَّنَةِ وَأَبَيَّنَ لَهُ فِي الدَّلَالَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ اللَّفْظَةُ الْأَعْجَمِيَّةُ أَوْفَى وَأَشْبَحَ فِي الْأَسْتِعْمَالِ عَدَلَ إِلَيْهَا ، قَالَ : وَغَيْرُ عَنِ الْبَيَّانِ أَنَّكَ التَّرَمُّنَا أَنْ نُجَارِيَ الْعُلَمَاءَ فِي الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ دِلَالَتُهَا بِتَعْرِيبِهَا : كَالْحَامِضِ الْكَبْرِيْتُنُوسِ وَالْكَبْرِيْتُنِيكِ . . . إلخ ، فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْمُلْحَقَاتِ وَالزَّوَائِدِ الَّتِي فِيهَا مَعْنَى خَاصًّا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِيبِ الْحَامِضِ الْمُرَادِ كَمَا يَعْلَمُ دَارِسُو الْكِيمِيَاءِ . قَالَ : فَمَنْ يُسَمِّي

الْحَامِضَ الْكَبِيرِيَّتِكَ بِالْحَامِضِ الْكَبِيرِيَّتِيِّ كَمَنْ يُسَمِّي الْفَرَسَ حِمَارًا لِأَنَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَأْسًا
وَذَنْبًا ...

وَالْجَاحِظُ يَقُولُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : إِنَّ رَأْيِي فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ أَنْ أَكُونَ
مَا دُمْتُ فِي الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ عِبَارَتُهَا وَالْمَادَّةُ فِيهَا عَلَى أَنْ أَلْفِظَ بِالشَّيْءِ الْعَتِيدِ الْمَوْجُودِ
(بِعَنِي : اللَّفْظُ الْعِلْمِيُّ الْأَصْطِلَاحِيُّ) وَأَدْعَ التَّكَلُّفَ لِمَا عَسَى الْأَيْسَرُ وَلَا يَسْهُلُ إِلَّا بَعْدَ
الرِّيَاضَةِ الطَّوِيلَةِ ... وَلِكُلِّ صِنَاعَةِ أَلْفَاظٍ قَدْ جُعِلَتْ لِأَهْلِهَا بَعْدَ امْتِحَانٍ سِوَاهَا ، فَلَمْ تَلْزُقْ
بِصِنَاعَتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعَانِي تِلْكَ الصَّنَاعَةِ مُشَاكَلَاتٌ .

فَأَنْتَ تَرَى الْجَاحِظَ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَالْعَامِيَّةِ كَمَا هِيَ مَا دَامَتْ الْمَعَانِي
قَائِمَةً ، وَقَاعِدَتُهُ هِيَ الْأَخْفُ وَالْأَدْلُ وَالْأَفْهَمُ وَالْأَشْيَعُ ، وَهَذَا بِعَيْنِهِ يَقُولُ الدُّكْتُورُ فِيهِ :
« يُشْتَرَطُ فِي حُسْنِ التَّعْبِيرِ أَنْ يُؤَدِّي الْمَعْنَى الْمُرَادَ إِلَى ذَهَنِ السَّامِعِ بِأَقْلٍ مَا يَكُونُ مِنَ الْوَقْتِ
وَالْكُلْفَةِ وَالْإِسْرَافِ فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ » .

وَقَدْ كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ فِي خَطَأِ الدُّكْتُورِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَإِقْحَامِهَا فِي
كِتَابَتِهِ ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ إِلَى ذَلِكَ بِأَوْهَى سَبَبٍ ، وَلَا أَرَاهُ خَطَأً ، بَلْ أَنَا أَرُدُّ ذَلِكَ إِلَى مَا يَبْنِيهِ أَنْفَا
مِنْ أَمْرِ النَّاقِلِ وَالْوَاضِعِ وَلَا يُعْجِزُنَا أَنْ نَجِدَ لِصَنِيعِ الدُّكْتُورِ نَصًّا يَقُومُ بِهِ وَيَنْهَضُ بِحُجَّتِهِ ،
فَقَدْ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ : إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَشْتَقَتْ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ خَلَطَتْ فِيهِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا
فِي الْأَشْتِقَاقِ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ ، فَكَيْفَ بِالتَّعْرِيبِ ؟ عَلَى أَنَّهُ لَا خَلْطَ وَلَا
أَضْطِرَابَ وَإِنَّمَا هُوَ سَبِيلُ الْوَضْعِ وَحِكْمَةُ الدَّلَالَةِ وَأَنَّ اللَّغَةَ هَكَذَا تَجِيءُ ؛ ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ
ذَلِكَ النَّحْوِيُّ يَقُولُ : لِمَاذَا وَلِأَنَّ ...

وَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ تَفْسِيرِ الدُّكْتُورِ لِقَوَاعِدِهِ الَّتِي بَسَطَهَا فِي مَقَالِهِ الْمُسْتَفِيدِ ، حَتَّى
إِنِّي لَأَرَاهُ بَابًا جَدِيدًا فِي التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ وَاللُّغَةِ لِابْتِدَالِ الْأَلْفَاظِ
وَعَرَابَتِهَا ، إِذْ لَمْ يَتَّقْ عِنْدَنَا غَرِيبٌ وَمُتَبَذَّلٌ وَلَا يَبْنِي عَرَبٌ وَمُخْدَثُونَ .

يَبْدُو أَنَّ مِنْ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ أَنَّ الْأُسْتَاذَ يَتَرَخَّصُ فِي الْأَلْفَاظِ الْعَامِيَّةِ وَهُوَ يَجِدُ فَصِيحَتَهَا ،
وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ : « إِذَا أَسْمَعْتُ الْفَلَاحَ الْمِصْرِيَّ كَلِمَةً (بِذَارٍ) مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ فِي
الشَّهْرِ ، سَمِعَ كَلِمَةً (تَقَاوِي) مِثَّةً مَرَّةً وَأَلْفَ مَرَّةً ، قَرَأْنَا أَنَّ مُحَاوَلَةَ تَغْيِيرِ لُغَةِ الْعَامَةِ فِي

هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَمْثَالِهَا ضَرَبَ مِنْ أَلْعَبِ وَإِضَاعَةٍ لِلْوَقْتِ وَتَضْيِيعٍ لِلْفَائِدَةِ ، فَجَارَيْنَاهُمْ فِيمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ . وَهَذَا مَا كُنْتُ أَجَادِلُهُ فِيهِ وَلَا أَسْلَمُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ أَغْفَلَ أَصْلًا أَجْتِمَاعِيًّا عَظِيمًا ، فَإِنَّ عَامَّتَنَا غَيْرُ مُتَقَطِّعَةٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الْفُضْحَى ، وَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مِيرَاثُهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ وَسَائِلُ مَرْجِعِهِمْ بِالْفَصِيحِ وَرَدِّهِمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ النَّوَامِيسُ الْمَحْتُومَةُ ، وَلَوْلَاهَا لَمَا بَقِيَ لِلْفُضْحَى بَقِيَّةٌ بَعْدُ .

وَقَدْ كَانَ جَاءَ إِلَى مِصْرَ مِنْ بَضْعِ سِنِينَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرِيكَةِ هُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الدُّكْتُورِ الْقُدَمَاءِ ، فَتَرَحَّ إِلَى ذَلِكَ الْبَرِّ ، فَاتَّجَرَ فَأَتَرَى ، وَفَشَتْ لَهُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَمَّا لَقِيَتْهُ لَقِيتُ فِي يَدِهِ صَحِيفَةً وَضَعَ فِيهَا مَسَائِلَ فِي اللُّغَةِ وَالنُّحْوِ ، وَكَانَ أَعَدَّهَا لِيَسْأَلَ عَنْهَا ، وَفِي أَوَّلِهَا هَذَا السُّؤَالُ : لِمَاذَا يُقَالُ : فَصَحَّ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُوَ فَصِيحٌ . ثُمَّ يَقُولُ : شَعَرَ شِعْرًا فَهُوَ شَاعِرٌ ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ : شَعَرَ شِعَارَةً فَهُوَ شَعِيرٌ . وَالْفَصَاحَةُ وَالشَّعْرُ مِنْ بَابِ وَاحِدٍ ؟

وَهَذَا السُّؤَالُ وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ لَعُؤَا وَعَبَا ، وَلَكِنَّهُ دَقِيقٌ فِي تَارِيخِ اللُّغَةِ وَأَقْسَمْتُهَا ، وَلَا مَحَلَّ لِبَسْطِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، غَيْرَ أَنِّي أَنْهَيْتُ الْخَبَرَ لِلدُّكْتُورِ صَرُوفٍ وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ صَاحِبَكَ هَذَا يَضَعُ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ فِي الْمِيزَانِ الَّذِي فِي حَانُوتِهِ . . . وَأَنْتَ كَذَلِكَ تَعَالِجُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ أحيانًا بِبَعْضِ الْغَارِزَاتِ وَالْحَوَامِضِ .

قُلْتُ هَذَا لِأَنِّي لَمْ أَسْلَمْ لَهُ قَطُّ فِيمَا كَانَ يَرَاهُ فِي مِثْلِ الْبِدَارِ وَالتَّقَاوِي ، عَلَى أَنَّهُ قَدِ انْتَهَى الْكَلَامُ بِقَوْلِهِ : (فِيمَا نَكْتُبُهُ لَهُمْ) وَهَذَا أَحْتِرَاسٌ يُدَافِعُ عَنْهُ بِقُوَّةٍ كَمَا تَرَى .

وَلَا يَمْتَرِنِي أَحَدٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الْهَضْمَةَ اللَّغَوِيَّةَ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا وَعَمِلْنَا فِيهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى نُمُوٍّ طَبِيعِيٍّ لِعَمَلِ رِجَالٍ أَفْذَاذٍ نَظَرُوا الدُّكْتُورَ صَرُوفَ فِي طَلِيْعَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَطْوَلَهُمْ جِهَادًا وَأَكْثَرَهُمْ عَمَلًا وَأَظْهَرَهُمْ أَثَرًا ، وَكَانَ « الْمُقْتَطَفُ » يَجِيءُ لَهَا كُلَّ شَهْرٍ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ زَمَنِيَّةٌ مُسَلَّطَةٌ بِنَامُوسٍ كَنَامُوسِ الشُّعْرِ ، حَتَّى لَأَلَمْ هَذَا الْمُقْتَطَفُ أَنْ يَكُونَ عَصْرٌ مِنَ الْعُصُورِ قَدْ خَرَجَ فِي شَكْلِ الْكِتَابَةِ . وَلَقَدْ كَاشَفَنِي الدُّكْتُورُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ أَنَّهُ كَانَ يَوْذُ لَوْ خَتَمَ عَمَلَهُ بِوَضْعِ مُعْجَمٍ فِي اللُّغَةِ يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ : إِنَّهُ مُعْجَمُ الشَّعْبِ ، وَفَصَّلَ لِي طَرِيقَتَهُ ، إِذْ

كُنْتُ أَكَلَّمُهُ فِي كِتَابِ لُغَوِي أَفْتَحْتُ الْعَمَلَ فِيهِ مِنْ زَمَنٍ وَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَمْرِهِ خَبَرًا^(١)
فَقَالَ لِي : خُذْ بَيْنَ طَرِيقَتِي وَطَرِيقَتِكَ ، وَأَمُضِ أَنْتَ فِي هَذَا الْعَمَلِ ؛ فَإِنِّي لَوْ وَجَدْتُ
فَرَاغًا لَمَا عَدَلْتُ بِهَذَا الْأَثَرِ شَيْئًا ، وَمَا كُلُّ سَهْلٍ هُوَ سَهْلٌ .

عَلَى أَنْ شَيْخَنَا هَذَا لَوْ قَدْ كَانَ تَفَرُّغَ لِلْغَةِ وَتَوَقَّرَ عَلَيْهَا وَاجْتَمَعَ لَهَا بِذَلِكَ الْعُمُرِ وَتِلْكَ
الْعُلُومِ وَالْأَدَوَاتِ ، لَكَانَ فِيهَا بِأَمَّةٍ مِنَ الْأَشْيَاخِ الْمَاضِينَ مِنْ لَدُنِ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ إِلَى
الدُّكْتُورِ يَعْقُوبَ صَرْوَفَ ، وَلَكِنْ لَعَلَّ الدَّهْرَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ أَوْ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ
يَضِيقَ . . لِإِمَامِ آخَرِ كَأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ يَفْرُغُ سَبْعِينَ سَنَةً لِفَرْعٍ وَاحِدٍ مِنْ عُلُومِ الْلُغَةِ هُوَ
عِلْمُ الْفِيَّاسِ وَالْإِسْتِفَاقِ وَالْعِلَلِ الصَّرْفِيَّةِ ، وَيَجْعَلُهُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ عَلَى مَا قَالَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ
جَنِّي : « لَا يَعْتَاقُهُ عَنْهُ وَلَدٌ ، وَلَا يُعَارِضُهُ فِيهِ مَنْجَرٌ ، وَلَا يَسُومُ بِهِ مَطْلَبًا ، وَلَا يَخْدُمُ بِهِ
رَيْسًا ، فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ مَخْلُوقًا لَهُ » .

وَكَانَتْ لِلدُّكْتُورِ طَرِيقَةٌ جَرِئَةٌ فِي رَدِّ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَصُولِهَا وَالرُّجُوعِ بِهَا إِلَى
أَسْبَابِ أَخْذِهَا وَاشْتِقَاقِهَا وَتَصَارُفِهَا مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ ثَقُوبُ فِكْرِهِ وَسَعَةُ
عِلْمِهِ وَدِقَّةُ تَمْيِيزِهِ وَمِثْلُهُ الْغَالِبُ عَلَيْهِ فِي تَحْقِيقِ نَامُوسِ الشُّوْءِ وَتَبْيِينِ آثَارِهِ فِي هَذِهِ
الْمَخْلُوقَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَلْفَاظِ ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِكُلِّ مَا جَاءَهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَلَوْ كَانَ
مِنْ خَطَأٍ ؛ لِأَنَّهُ إِلَى الرَّأْيِ يَفْصِدُ ، وَلِلطَّرِيقَةِ يُمْكِنُ ، وَمَعَ الْخَاطِرِ يَجْرِي .

وَهَذَا بَابٌ يَخْتَاجُ إِلَى التَّسْمُحِ وَالتَّسَاهُلِ ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ ، وَلَا تَتَّفِقُ الْحَيْظَةُ
فِيهِ ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتْلَوْحَ شَيْءٌ مِنْهُ وَيَسْنَحَ شَيْءٌ وَتَتَلَامَحَ عَلَّةٌ وَيَعْرِضَ سَبَبٌ ؛ ثُمَّ هُوَ فِي
الدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِحْكَامِ مَلَكَةِ الْوَضْعِ فِيهِ ، وَتَرْوَعِهِ إِلَى أَنْ يَقْتَنَسَ بِقِيَاسِهِ
وَيَسْتَخْرِجَ مِنْ عِلَلِهِ ؛ وَقَدْ تَرَاهُ يَتَعَدُّ فِي ذَلِكَ فَيَنْصُبُ لَكَ الدَّلِيلَ مِنْ وَرَاءِ بِضْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ ،
وَأَنَا السَّاعَةَ أَعَانُ ذَاكِرَتِي وَأَدِيرُهَا مِنْ هَلْهَاتَا وَهَلْهَاتَا لِأَجَدَ كَلِمَةً قَالَ لِي مَرَّةً فِي تَارِيخِهَا : إِنَّ
الْعَرَبَ أَخَذُوا عَنْ الْيُونَانِ حِينَ كَانَتْ مَكَّةَ نَفْسُهَا جَارِيَةً فِي حُكْمِهِمْ ؛ وَلَكِنِّي أَنْسِيتُ
هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، إِذْ لَمْ أَرْتَبِطْهَا ، إِذْ كُنْتُ لَا أَرَى هَذَا الْمَذْهَبَ وَلَا أَحْسِنُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ

(١) { أَحْسَبُهُ يَعْني الْمُنْعَجَمَ الَّذِي كَانَ يُعَاوَنُ فِيهِ صَدِيقُهُ الْمَرْحُومُ أَحْمَدُ زَكِي بَاشَا ، وَانْظُرْ : « مَقَالَاتُ
مَنْحُولَةٌ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

قَوْلًا ، وَأَعُدُّ كُلَّ مَا يَقَالُ فِيهِ مِنْ بَابِ تَلْفِينِ الْأَدِلَّةِ ، كَأَنَّهُ ذَنْبٌ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ فِي النَّاسِ مِنْهُ مِثْلَ غَرَائِرِ الْغَنَمِ . . . فَيَقُولُ « إِلَّا تَرَهُ تَنْظَنُّ » .

وَالدُّكْتُورُ صَرُوفُ رَجُلٌ مَالِيٌّ فِي الْمَالِ وَفِي اللَّغَةِ جَمِيعًا ، فَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ فِي الدَّلَالَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْوَقْتِ وَالْقَصْدُ فِي الْقُوَّةِ ؛ وَقَدْ صَرَفَتْهُ ثَلَاثَتُهَا عَنِ الشَّعْرِ وَعَمَّا كَانَ فِي حُكْمِهِ مِنْ تَخْيِيرِ الشَّرِّ وَتَوْشِيحِهِ ، عَلَى أَنَّهُ يُحْسِنُهُمَا لَوْ أَرَادَ وَلَوْ سَخَتْ نَفْسُهُ بِالْوَقْتِ يُنْفِقُهُ وَلَا يَتَعَرَّفُ قَدْرَ مَا مَضَى مِنْهُ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ ، بَلْ فِي سَاعَةِ الْكُونِ الْكُبْرَى الَّتِي يَتَعَاقَبُ فِيهَا عَقَرُ الْبَهَائِرِ وَاللَّيْلِ ، كَمَا كَانَ يُنْفِقُ الْبَارُودِيَّ يَوْمًا فِي بَيْتِ أَوْ بَيْتَيْنِ .

وَكَانَ شَيْخُنَا فِي آخِرِ مَجَالِسِي مَعَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ نَحْوِهِ ؛ أَطْلَعَنِي عَلَى كُلِّ مَا نَشَرَهُ فِي مُجَلَّدَاتِ « الْمُقْتَطَفِ » مِنْ شِعْرِهِ ، فَأَعْجِبْتُ بِأَشْيَاءَ مِنْهُ ، وَأَشْرْتُ عَلَى صَدِيقِنَا الْأُسْتَاذِ فُؤَادِ صَرُوفٍ أَنْ يُعَيِّنَ نَشْرَ قَصِيدَةِ الرِّقَاسِ الَّتِي تَرَجَمَهَا الدُّكْتُورُ عَنِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي نَسَبِ سَلِسٍ مُوشِحٍ الْفَوَافِي ، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا يَصِفُ مَخَارِجَ الْمَدِينَةِ [من المقارب] :

مَخَارِجُ تَوَالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ عَلَى اللَّحْمِ دُودًا وَفِي الْعَظْمِ سُوسًا
وَسَأَلَنِي الدُّكْتُورُ بَعْدَ أَنْ قَرَعْتُ مِنْ شِعْرِهِ ، فِي أَيِّ طَبَقَةٍ تَعْدُنِي مِنْ شُعْرَائِهِمْ ؟ فَقَكَّرْتُ قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : فِي طَبَقَةِ الدُّكْتُورِ صَرُوفٍ ! فَضَحِكَ لَهَا كَثِيرًا .

وَكَانَتْ لَهُ آرَاءٌ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ غَيْرَ بَعْضِهَا فِي آخِرِ عَهْدِهِ ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي مَرَّةً : إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلُدَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الشَّرْقِ فَلَا يُنْسَى ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْمَعَ فِي هَذَا إِلَّا إِذَا بَنَى هَرَمًا كَهَرَمِ الْجِزْرَةِ ! وَهِيَ كَلِمَةٌ فَلَسْفِيَّةٌ كَبِيرَةٌ تَنْطَوِي عَلَى شَرْحِ طَوِيلٍ يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُهُ .

وَقَدْ كَادَتْ قَاعِدَةُ الْقَصْدِ الَّتِي أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا تَنْتَهِي بِهِ فِي آخِرِ مُدَّتِهِ إِلَى الْقَوْلِ بِإِسْقَاطِ الْأَعْرَابِ بَتَّةً ، وَأَظْلُ ذَلِكَ خَاطِرًا سَنَحَ لَهُ فَأَخَذَ بِأَوَّلِهِ وَتَرَكَ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْقَابِهِ ، فَرَزَتْهُ مَرَّةً فِي شَهْرِ يَنَايِرَ/ كَانُونِ الْآخِرِ لِسَنَةِ ١٩٢٧ ، وَكَانَ يَصْحُحُ تَسْوِيدَةَ جَوَابِ كِتَابِهِ عَنْ سُؤَالِ وَرَدَ عَلَيْهِ فِي هَلْ يُمَكِّنُ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّغَةِ الْفُضْحَى فِي الْقِرَاءَةِ وَالْكَلَمِ ، وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَلَمَّا أَمَرَ الْجَوَابَ عَلَى نَظَرِهِ دَفَعَهُ إِلَيَّ فَقَرَأْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَعْرَابِ وَالْبِنَاءِ يَتَهَوَّرُ فِيهَا وَفَتْ مَا ؛ قَالَ : فَإِذَا قَضَيْنَا عَلَى أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَلَّا يَتَكَلَّمُوا إِلَّا

كَلَامًا مُعَرَّبًا نَكُونُ قَدْ أَضَعْنَا عَلَيْهِمْ ثُلْثَ الْوَقْتِ الَّذِي يَفْضُونَهُ فِي التَّكَلُّمِ مِنْ غَيْرِ فَاِنْدَةٍ تُجَنِّى .

وَلَقَدْ جَادَلْتُهُ فِي ذَلِكَ وَلَجَجْتُ فِي الْخِلَافِ مَعَهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ قَاعِدَةٌ مَالِيَّةٌ ، ثُمَّ إِنَّكَ أَغْفَلْتَ أَمْرَ الْعَادَةِ وَمَا تُبَسِّرُهُ ، وَفِي الْكَلَامِ إِنْجَارٌ يَقُومُ مَعَ الْإِعْرَابِ هَذَا الْمَقَامُ حِينَ لَا يَكُونُ مِنَ الْإِجَارِ بُدٌّ ، وَفِي اللَّهَجَاتِ الْعَامِيَّةِ مِنَ الْحَشْوِ وَمَطَّ الصَّوْتِ وَفَسَادِ التَّرَكِيبِ مَا يَذْهَبُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثُلْثِ الْوَقْتِ ؛ فَأَحْسَبُهُ أَقْتَنَعَ وَإِنْ كُنْتَ رَأَيْتَهُ لَمْ يَقْتَنِعْ .

وَإِنَّهُ لَيَخْضَرُنِي بَعْدَ هَذَا كَلَامٍ كَثِيرٍ فِي فَضَائِلِ الدُّكْتُورِ وَآدَابِهِ وَشَمَائِلِ نَفْسِهِ الزَّكِيَّةِ وَمَنْزَعِهِ فِي الْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَوْ ذَهَبْتُ أَفْصَلُ لَخَرَجْتُ إِلَى الْإِفَاضَةِ فِي فُتُوْنٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَلَكِنِّي أَجْتَرِئُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ لِي دَائِمًا كَأَنَّهُ فِي ظِلٍّ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

الشَّيْخُ الْخَضِرِيُّ (*)

تَحَوَّلَ الْكَاتِبُ إِلَى كِتَابٍ ، وَرَجَعَ الْمَفْكَرُ إِلَى فِكْرِهِ ، وَأَصْبَحَ مَنْ كَانَ يُدَارِسُ النَّاسَ فَإِذَا هُوَ دَرَسَ يُذَكِّرُ أَوْ يُنَسِّي ، وَتَتَاوَلَ التَّارِيخُ عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهِ ، فَجَعَلَهُ نَبَأً مِنْ أَنْبَائِهِ ، وَكَانَ يَبْنِيهِ فَوْضَعُهُ فِي بَنَائِهِ ، وَقِيلَ : مَاتَ الشَّيْخُ الْخَضِرِيُّ !

أَهْ لَوْ يَزْجَعُ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ مِنْ طَرِيقِ الْمَوْتِ الَّتِي أَوْلَهَا هَذِهِ الثَّقَلَةُ الصَّغِيرَةُ الْمُسَمَّاءُ بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَآخِرُهَا حَيْثُ تَجِدُ كَلِمَةً « الْآخِرَةَ » بِلَا مَعْنَى لَا مَحْدُودَ وَلَا مَظْنُونٍ ! وَآه لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنِ الْمَيِّتِ كَأَنَّهُ حَيٌّ بَيْنَنَا ، وَنَحْنُ كَثِيرًا مَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْحَيِّ كَأَنَّهُ مَاتَ مِنْ زَمَنٍ ! إِنِّي لَا أَكْتُبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ ذَلِكَ السَّمْتَ الْعَجِيبَ ، وَذَلِكَ الْوَقَارَ الَّذِي يَغْمُرُ النَّفْسَ هَيْبَةً وَجَلَالًا ، وَأَسْتَرْوِحُ ذَلِكَ الْحُبِّ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الطَّرِيقِ الثَّلَاثِ الْمُتَنَهِيَةِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَمِنَ الْمَخْلُوقِ إِلَى الْخَالِقِ ، وَالْمُبْتَدِئَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَمِنَ الْخَالِقِ إِلَى الْمَخْلُوقِ : طَرِيقُ الْأُمِّ ، وَطَرِيقُ الْأَبِ ، وَطَرِيقُ الْإِنْسَانِيَّةِ : أَكْتُبُ وَكَأَنَّ يَدًا مِنْ وَرَاءِ الْمَادَّةِ تَمْسَحُ عَلَى قَلْبِي فَاجِدُ ثِقَلَهُ وَفَتْرَهُ ، وَأَسْتَشْعِرُ حَيْنَتَنَا وَشَوْقًا ، وَأُحِسُّ هَذَا الْقَلْبَ يَتَارَعُنِي إِلَى قَوْمٍ ذَهَبُوا بِلَا رَجْعَةٍ ، وَفَارَقُوا بِلَا وَدَاعٍ ، وَغَابُوا عَنَّا بِلَا خَبَرٍ ؛ دَخَلُوا إِلَى أَنْفُسِنَا وَلَا تَخَوِينَهُمْ ، وَخَرَجُوا مِنْهَا وَلَا تَخْلُوْا مِنْهُمْ ، فَمَا دَخَلُوا وَلَا خَرَجُوا ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَيِزَةُ الَّتِي يَتْرُكُهَا الْمَيِّتُ الْعَزِيزُ لِلْحَيِّ الْمُتَفَجِّعِ كَيْمَا يَعْرِفَ بِأَمْوَاتِهِ مَا هُوَ الْمَوْتُ !

* * *

كُنَّا مُنْذُ بَضْعَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً فِي مَدِينَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَكَانَ أَبِي يَوْمِئِذٍ كَبِيرَ قُضَاةِ الشَّرْعِ فِي ذَلِكَ الْإِفْلِيمِ ، فَإِنِّي لَأَلْعَبُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَهْرٍ دَارِنَا إِذْ طَرِقَ الْبَابُ ، فَذَهَبْتُ أَفْتَحُ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ لَمْ يَبْلُغْ سِنَ الْعِمَامَةِ^(١) ، وَلَمْ أُمَيِّرْ مِنْ هَيَاتِهِ أَهْوَ طَالِبٌ عِلْمٍ أَوْ هُوَ عَالِمٌ ؟ فَكَانَ حَدَثًا

(*) « الْمُفْتَطَفُ » : مَائُو/ أَيْلَار سَنَةِ ١٩٢٧ م .

(١) كِتَابَتُهُ عَنِ الْحَدَاثَةِ وَأَنَّهُ شَيْخٌ بِالْمَنْظَرِ لَا بِالْسِّنِّ .

لَكِنَّهُ يَتَسَمَّى بِسِمَةِ الْجِدِّ ؛ وَرَأَيْتُهُ لَا تَمُوجُ بِهِ الْعُجْبَةُ كَالْعُلَمَاءِ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَمُجُّهُ كَالطَّلَبَةِ ؛ وَكَانَ فِي يَدِهِ مُجَلَّدٌ ضَخْمٌ لَوْ نَطَقَ لَقَالَ لَهُ : دَغْنِي لِمَنْ هُوَ أَسْرُ مِنْكَ ؛ فَمَا قَدَّرْتُهُ يَرِنُ عِشْرِينَ مُجَلَّدًا مِنْ مِثْلِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً كَأَنِّي لَا أَرَاهَا فِي عَيْنِهِ إِلَى السَّاعَةِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : أَيْنَ الشَّيْخُ ؟ يَعْنِي الْوَالِدَ - قُلْتُ : خَرَجَ إِنَّمَا ؛ قَالَ : فَأَذْفَعُ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ ، وَقُلْ لَهُ جَاءَ بِهِ الْخُضْرِيُّ .

ثُمَّ أَغْلَقْتُ الْبَابَ ، وَانْتَحَيْتُ جَانِبًا ، وَفَتَحْتُ الْمَجَلَّدَ ، فَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ « التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ » لِلْفَخْرِ الرَّازِيِّ ، كَانَ قَدْ اسْتَعَارَهُ مِنْ مَكْتَبَتِنَا ؛ وَعَرَفْتُ الشَّيْخَ مِنْ يَوْمَيْدٍ ؛ وَكَانَ أَسْتَاذًا لِلْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ الصَّنَائِعِ ، يَضَعُ كِتَابَ النُّحُوِّ وَالصَّرَفِ مَعَ الْمِطْرَقَةِ وَالْمِنْشَارِ وَالْقُدُومِ ، فَيَذْهَبُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا ، وَقَلَّمَا كُنَّا نَذْكُرُهُ فِي مَدْرَسَتِنَا ، إِذْ كَانَ لَنَا شَيْخٌ فُحِّلَ رِفْعَةً مِنْ رِجَالِ الْأَزْهَرِ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخُضْرِيَّ كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ ؛ وَكَانَ يُدَاخِلُ قَوْمًا مِنَ الْخَاصَّةِ يُعْتَوْنَ بِالْمَسَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفَلَسَفَتِهَا وَتَقْرِيبِهَا مِنَ الْعَامَّةِ وَالذَّهْمَاءِ ، وَبِإِشَارَةٍ مِنْ بَعْضِ هَؤُلَاءِ وَضَعَ أَوَّلَ كُتُبِهِ : « نُورُ الْيَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ » ؛ وَبَكَادَ هَذَا الْأَسْمُ يَدُلُّ عَلَى وَزْنِ الْأُسْتَاذِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ وَرَاءَ السَّجْعَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْقُرُونِ الْآخِرَةِ لَمْ يَمُضْ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ بِمَذْهَبٍ .

* * *

إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ قَوْلًا صَحِيحًا فِي هَذَا الْفَقْهِ الْعَالِمِ الْمُؤَرِّخِ الْأَدِيبِ الْمُرَبِّي ، يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ بِتَيَّارِهِ إِلَى مَبْعَعِهِ لِيَعْرِفَ مَبْلَغَ أَنْبِعَاثِهِ وَقُوَّةَ جَرِيَّتِهِ وَمَدَّ عِبَائِهِ ، فَمَا كَانَ الْخُضْرِيُّ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَدَارِ ذَلِكَ النَّجْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَهْدَتْهُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ وَسَمَّيَ فِي أَسْمَائِهَا « مُحَمَّدَ عَبْدَهُ » لَقَدْ أَخْرَجَتْهُ دَارُ الْعُلُومِ كَمَا أَخْرَجَتْ الْكَثِيرِينَ ، وَلَكِنَّ دَارَ عُلُومِهِ الْكُبْرَى كَانَتْ أَخْلَاقَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَشَمَائِلُهُ وَآرَاءُهُ وَبِلَاغَتُهُ وَهَمَّتْ نَفْسُهُ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَكُونُ هُوَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ الْعَدَدُ فِي كُلِّ عَصْرِ ، وَأَنْتَ فَكَيْفَ تَأْمَلْتَ الْخُضْرِيَّ فَأَعْلَمَ أَنَّكَ بِإِزَاءِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ ، عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ النَّفْسَيْنِ ، بَلْ أَنْتَ مِنَ الْخُضْرِيِّ كَأَنَّكَ تَرَى الشَّيْخَ سَارِيًا فِي مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الزَّمَنِ .

كَانَ يَحْضُرُ دُرُوسَ الشَّيْخِ ، وَيَخْتَلِفُ إِلَيْهِ نَادِيَهُ ، وَيُنَاقِلُهُ بَعْضَ الرَّأْيِ ، وَيُعَارِضُ مَعَهُ

بَعْضَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ يُزَجَعُ إِلَى الشَّيْخِ فِي تَصْحِيحِهَا أَوْ الْإِشْرَافِ عَلَى طَبْعِهَا ، فَتَقَدَّ
الشَّيْخُ إِلَى نَفْسِهِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْأَسْتِقْرَارِ فِيهَا ، فَهُوَ مِنْ بَعْدِ حَرِيصٍ عَلَى وَقْتِهِ ، مُجِدِّ
فِي عَمَلِهِ ، ذَائِبٌ عَلَى طَرَفِهِ ، آخِذٌ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، مُصْلِحٌ مُرَبٍّ غَيُورٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ
فِي سَمْتٍ وَهَيْبَةٍ ، وَجَزَالَةٍ رَأْيٍ ، وَشَرَفِ هِمَّةٍ ، وَإِخْلَاصٍ حَقِّ الْإِخْلَاصِ ؛ وَمَا أَرَى
فَوْضَى عَصْرِنَا هَذَا وَأَنْحِطَاطَهُ وَإِسْفَافَهُ وَسَخَافَةَ قَوْلِهِمْ : جَدِيدٌ وَقَدِيمٌ ، وَجَرِيءٌ
وَرَجْعِيٌّ ، وَحُرٌّ وَجَامِدٌ - إِلَّا مِنْ خِلَاءِ الْعَصْرِ وَقَرَاغِهِ مِنَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ ، وَحَاجَتِهِ إِلَى إِمَامٍ
عَظِيمٍ ، وَمَتَى أَصْبَحْنَا نَضْرِبُ فِي دَائِرَةٍ لَا مَرْكَزَ لَهَا ، فَهِيَ الْمُرْبَعُ وَهِيَ الْمُسْتَطِيلُ وَهِيَ كُلُّ
شَكْلٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ ، وَالَّذِينَ رَأَوْا طَاعُورَ الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ الْمُتَصَوِّفِ حِينَ نَزَلَ
بِمِصْرَ ، وَرَأَوْا سِحْرَهُ وَتَحْوِيلَهُ كُلَّ جَدِيدٍ مُدَّةَ أَيَّامٍ إِلَى قَدِيمٍ ، وَإِخْرَاسَهُ هَذِهِ الْأَلْسِنَةَ عَنْ
نَقْدِهِ وَمُعَارَضَتِهِ ، وَعَنْ مُعَانَدَةِ الْحَقِّ ، طَيْشًا وَتَزَقًّا وَضَلَالًا وَتَجْدِيدًا . . . يَسْتَطِيعُونَ أَنْ
يُذَرِّكُوا مَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ؛ وَيَتَبَيَّنُوا السَّرَّ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ، وَيَتَمَثَّلُوا مَا كَانَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدُهُ فِي
عَصْرِهِ بَلْ فِي خَلْقِ عَصْرِهِ .

* * *

وَأَنْتَهَى الْخُضْرِيُّ إِلَى مَدْرَسَةِ الْفَضَاءِ الشَّرْعِيِّ ، فَالَّفَ كِتَابَهُ فِي الْأُصُولِ ، اخْتَصَرَ فِيهِ
وَهَذَبَ وَقَارَبَ ، فَهُوَ كِتَابٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ لَا كِتَابٌ هَذَا الْعِلْمِ ، وَأَسَانِدُ الْأُصُولِ قَوْمٌ
آخَرُونَ ، وَلَوْ أَنْتَ مِنْهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ الرَّافِعِيِّ الْكَبِيرِ لَرَأَيْتَ الْبَحْرَ الَّذِي يَذْهَبُ فِي سَاحِلِهِ
نِصْفُ طُولِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ بَعَثَ الْخُضْرِيُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً يَوْمئِذٍ كَانَ مِنْهَا صَدِيقُنَا
الْمَرْحُومُ حَفْنِي نَاصِفٌ ، وَالشَّيْخُ الْمَهْدِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا ؛ اجْتَمَعُوا عَلَى إِبْدَاعِ نَهْضَةٍ فِي
التَّأْلِيفِ ، فَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ بِحِصَّةِ الْأَدَبِ ، وَفَرَّغَ الْخُضْرِيُّ لِلأُصُولِ ، أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ
حَفْنِي بِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ ثُمَّ لَمَّا اخْتَارَ الْقَائِمُونَ عَلَى الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ صَدِيقُنَا
الْعَلَّامَةَ الْمُؤَرِّخَ جُورْجِي زَيْدَانَ لِدَرْسِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ فِيهَا ، طَارَ الْخَبَرُ فِي الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ
اخْتَارُوا الْقُنْبَلَةَ . . . وَسَعَرَ النَّاسُ بِمَعْنَى الْهَدْمِ قَبْلَ أَنْ يَتَهَدَّمَ شَيْءٌ ، فَأَضْطَرَّتِ الْجَامِعَةُ
إِلَى أَنْ تَنْحِيَهُ ، وَعَهْدَتْ فِي الدَّرْسِ إِلَى الْأُسْتَاذِ الْخُضْرِيِّ ، فَالْقَى دُرُوسَهُ الَّتِي جَمَعَهَا فِي
كِتَابِهِ « تَارِيخُ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ » وَقَالَ فِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْكِتَابِ : « أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وُفِّقْتُ

لِتَذِلَّ لِصُعُوبَةِ كُتُبِي ، وَهِيَ صُعُوبَةٌ اسْتِفَادَةِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كُتُبِهِ « نَقُولُ : وَعَلَى أَنَّ الشَّيْخَ أَحْسَنَ فِي كِتَابِهِ ، وَجَاءَ بِمَادَّةٍ غَزِيرَةٍ مِنْ فِكْرِهِ وَرَأْيِهِ ، وَبَسَطَ وَاخْتَصَرَ ، وَبَاعَدَ وَقَرَّبَ ، فَإِنَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ إِذَا أَنْ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنَ التَّارِيخِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ كِتَابِهِ .

وَرَدَّ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى كِتَابِ « الشُّعْرُ الْجَاهِلِيَّ » لِلذُّكْتُورِ طَلَّةِ حُسَيْنٍ ، وَكَانَ رَدُّهُ خِطَابًا أَرَادَ أَنْ يُحَاضِرَ بِهِ طَلَبَةَ الْجَامِعَةِ ، لِأَنَّهُ اسْتَأْذَنَ اسْتِزَادَهُمْ ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ جَعْلَ اسْتِزَادِهِمْ هَذَا تَلْمِيزًا مَعَهُمْ ، وَابْتَدَأَ عَلَيْهِ الْجَامِعَةُ مَا أَرَادَ ، وَلَعَلَّهَا فَطِنَتْ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي شَرَعْتُ فِي طَبْعِ رَدِّي عَلَى الذُّكْتُورِ طَلَّةِ^(١) كَلَّمَنِي فِي اسْتِئْذَانِ مَقَالِهِ وَجَعَلَهُ ذَبَلًا فِي الْكِتَابِ . وَقَدَرْنَاهُ يَوْمَئِذٍ فِي نَحْوِ خَمْسِينَ صَفْحَةً أَوْ دُونَهَا ، وَقَدْ سَأَلْتُهُ أَنْ يَنْفِي مِنْهُ مَا كَانَ فِي مَقَادِيرِ الرَّصَاصِ وَيَقْتَصِرَ عَلَى مَا هُوَ فِي وَزَنِ الْقِتَابِ ، فَقَالَ : « كُلُّهُ قِتَابٌ ! » ثُمَّ اتَّسَعَ كِتَابِي وَجَاوَزَ مِقْدَارَهُ إِلَى الضَّعْفِ ، فَوَسَّعَ هُوَرْدَهُ وَزَادَ فِيهِ وَطَبَعَهُ فِي قَرِيبِ مِنْ ضِعْفِهِ عَلَى حِدَةٍ .

دَعَا كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ « مُهَذَّبُ الْأَغَانِي » ، فَهَذَا لَا يُقَالُ : إِنَّ الشَّيْخَ أَلْفَهُ ، بَلْ أَلْفَتَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ وَأُظُنُّ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَذْكَرُ فِي جَنْبِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يَنْعَمُ فِيهِ أَحْيَرًا ، وَهُوَ كِتَابُ « الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ » ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ فِي جُرْأَيْنِ ، وَدَعَانِي إِلَى دَارِهِ لِأَرَى « الْمَكْتَبَةَ الْخُضْرِيَّةَ » ؛ وَلَا طُلِعَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ ؛ فَوَعَدْتُهُ وَلَمْ يُقَدِّرْ لِي ، وَقَدْ حَدَّثَنِي أَنَّهُ مَعْنِي أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِاسْتِجْمَاعِ الْفُرُوقِ الَّتِي يَمْتَّازُ بِهَا الْأَدَبُ الْمِصْرِيُّ عَنِ الْأَدَبِ الْحِجَازِيِّ وَالشَّامِيِّ وَالْعِرَاقِيِّ وَالْأَنْدَلُسِيِّ ، وَأَنَّهُ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ مُتَمَيِّزَةً مِنْذُ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ ، يَحِقُّ لِمِصْرَ أَنْ تَقُولَ فِيهَا : هَذَا أَدَبِي ؛ وَكَانَ يَكْتُمُ خَبَرَ هَذَا الْكِتَابِ ، حَتَّى إِنَّ صَدِيقَنَا الْأَسْتَاذَ حَافِظَ بَيْتِ عَوْضٍ صَاحِبَ جَرِيدَةِ « كَوَكِبِ الشَّرْقِ » ، اقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ فَصْلًا فِي الشُّعْرَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَدَبِهِمْ يَغْفِدُهُ لِكِتَابِ حَفَلَةِ تَكْرِيمِ شَوْقِي بِكَ ، ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : إِنَّ الْبَحْثَ سَائِرٌ عَلَى أَحْسَنِ وَجُوهِهِ ! .

* * *

كَانَ الْخُضْرِيُّ يَفْرَحُ لِلْقَائِنِ وَيَهْشُ لِي ، وَكُنْتُ أَتَبَيَّنُ فِي وَجْهِهِ أَشْعَةَ رُوحِهِ الْأَصَافِيَةِ ،

وَلَعَلَّهُ كَانَ يَرَى بِي فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ الشَّيْخَ الَّذِي أَعْطَانِي الْمُجَلَّدَ ، كَمَا كُنْتُ أَرَى بِهِ فِي نَفْسِي ذَلِكَ التَّلْمِيزَ الَّذِي أَخَذَ الْمُجَلَّدَ مِنْهُ ! عَلَى أَنَّ مَرْجِعَ ذَلِكَ فِي الْحَقِّ إِلَى سَعَةِ صَدْرِهِ ، وَفُسْحَةِ رَأْيِهِ ، وَبَسْطَةِ ذِرَاعِهِ ، وَسُمُوِّ أَدَبِهِ وَإِنصَافِهِ ؛ فَلَا يَخْفِدُ وَلَا يَخْسُدُ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ قَدْرَهُ ، وَلَا يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عَنْ قَدْرِهِ ، وَلَا يَدْعِي مَا لَا يُحْسِنُ ؛ وَقَدْ عَرَفَ قُرَاءُ « الْمُفْتَطَفِ » مَثَلًا مِنْ أَخْلَاقِهِ هَذِهِ أَوْ أَكْثَرَهَا حِينَ انْتَقَدَهُ صَدِيقُنَا الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ مَحْمُودٍ ، وَتَنَاوَلَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ كِتَابِهِ « مُهَذَّبُ الْأَغَانِي » ، وَرَاحَ يَتَقَلَّقُ لَهُ كَجُلُمُودٍ صَخْرَةٍ ... فَوَسِعَهُ الشَّيْخُ وَعُنِيَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ فِي « الْمُفْتَطَفِ » ، وَنَعَتَهُ بِالْأُسْتَاذِ الْجَهْدِ وَانْتَصَفَ مِنْهُ وَأَنْصَفَهُ مَعًا . وَلَقَدْ أَفْرَحْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً أَنْ يَضَعَ كِتَابًا فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ وَفَلَسَفَتِهِ فَقَالَ لِي : « مُشْ قَدْهُ » يَغْنِي أَنْ أَلْعَمَلَ أَكْبَرَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ هَذَا نَبْهَهُ إِلَى وَضْعِ كِتَابِهِ فِي « تَارِيخِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ » .

وَلَمَّا أَصْدَرْتُ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ « تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ » فِي سَنَةِ ١٩١١ ، لَمْ أَهْدِهِ إِلَى الشَّيْخِ ، فَاشْتَرَاهُ وَقَرَأَهُ ، ثُمَّ لَفَيْتُهُ وَسَأَلْتُهُ رَأْيَهُ فِيهِ ، فَقَالَ : (جِدًّا كُوَيْسُ) فَكَانَ تَقْدِيمُ (جِدًّا) تَقْرِيطًا ، وَ(كُوَيْسُ) تَقْرِيطًا آخَرَ ؛ وَهُوَ يَقُولُ هَذَا عَلَى حِينِ كَانَ بَعْضُ إِخْوَانِهِ الشُّيُوخِ يَكَادُ يَمُوتُ عَمَّا بِهِذَا الْكِتَابِ وَمَا كُتِبَ عَنْهُ ، وَعَلَى حِينِ كَلَّمَنِي بَعْضُهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي تَرْكِ هَذَا أَلْعَمَلِ وَتَفْضِ يَدِي مِنْهُ ، لِأَنَّهُ - زَعَمَ - عَمَلٌ شاقٌّ بِلَا فَائِدَةٍ ...

وَقَدْ زُرْتُ الْأُسْتَاذَ الْخُضْرِيَّ فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ ؛ فَبَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ إِلَى جَانِبِهِ نَهَضَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَجَعَلَ يُثَبِّتُنِي بِقُوَّةٍ فِي الْكُرْسِيِّ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَظْمَأَنَّ بَعْدُ إِلَى أَنِّي جَلَسْتُ ، ثُمَّ قَاضَ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ ؛ فَكَانَ فِيمَا قَالَ : « أَنَا أَلَا أَعِيشُ فِي غَيْرِ زَمَنِي ! » وَكَأَنَّمَا كَانَ يَنْعَى إِلَيَّ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرُنِي وَلَا أَذْرِي ؛ وَقَالَ لِي : إِنَّهُ يُجْلِسُ إِلَيَّ مَكْتَبِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتَّ سَاعَاتٍ يَقْرَأُ أَوْ يُؤَلِّفُ أَوْ يَنْسَخُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ كِتَابٍ الْمَخْطُوطَةِ هُوَ نَاقِلُهَا وَنَاسِخُهَا وَمُصَحَّحُهَا ، وَأَنَّهُ يَتْلُو كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، قَالَ : وَلَا يَغْتَرِيهِ الْبَرْدُ وَلَا مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِهِ ، لِمَا اعْتَادَ مِنْ رِيَاضَةِ صَدْرِهِ بِهَذِهِ التَّلَاوَةِ ؛ وَقَالَ : إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَرَكََةِ الْقُرْآنِ .

وَلِنَفْسِكَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، فَإِنَّ لِلذِّكْرِى غَمْرًا عَلَى الْقَلْبِ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَالِمًا كَالْكِتَابِ ، وَكَاتِبًا كَالْعُلَمَاءِ ؛ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ يُلْفُ الطَّبَقَتَيْنِ ، وَهُوَ وَحْدَهُ مَنَزَلَةٌ بَيْنَ الْمَنَزَلَتَيْنِ ؛ وَبِذَلِكَ تَمَيَّزَ وَظَهَرَ ، فَإِنَّهُ فِي إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ عَقْلٌ جَرِيءٌ تَمُدُّهُ رِوَايَةٌ وَاسِعَةٌ فِي عُلُومٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَرَاهُ يَنْبَعُثُ مِنْ عَقْلِهِ الْحَيَاةَ إِلَى الْمَاضِي حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضِ ، وَهُوَ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى عِلْمٌ مُسْتَفِيزٌ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ الصَّحِيفَةِ أَوْ الْكِتَابِ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَلْتَمِسُ لَهُ عَقْلًا يُخْرِجُهُ وَيَتَصَرَّفُ بِهِ ، حَتَّى يَكْبُرَ عَنْ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا بَحْثًا فَيَنْسَظُمَ الْحَاضِرُ إِلَى مَاضِيهِ وَيُطْلِقَهُمَا إِطْلَاقًا وَاحِدًا . لَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ جَدِيدًا إِلَّا بِالْقَدِيمِ ، وَلَا قَدِيمًا إِلَّا بِالْجَدِيدِ ؛ فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ قَدِيمًا مَخْضًا وَلَا جَدِيدًا صِرْفًا ، وَلَا نَقِينُمُ وَزْنَ أَحَدِهِمَا إِلَّا بِوَزْنٍ مِنَ الْآخَرِ إِذَا أَرَدْنَا بِهِمَا سِنَّةَ الْحَيَاةِ ؛ وَأَنْتَ لَنْ تَجِدَ حَيًّا مُنْقَطِعًا مِمَّا وَرَاءَهُ ، بَلْ أَنْتَ تَرَى الطَّبِيعَةَ فَيَكْدَتُ كُلُّ حَيٍّ جَدِيدٍ إِلَى أَصْلَيْنِ مِنَ الْقَدِيمِ لَا أَصْلٍ وَاحِدٍ ، هُمَا أَبَوَاهُ ، فَمِنْهُمَا يَأْتِي وَمِنْهُمَا يَسْتَمِدُّ ، وَهُمَا أَبَدًا فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَى حِدَةٍ ؛ وَيَعْدُ : فَلَوْ جَارَيْتَ السَّخَافَةَ الْعَصْرِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ لَقُلْتَ : إِنَّ الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ . . . قَدْ أَنْهَدَّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهِ ، وَنَقَصَ قِنْطَارُ كُتُبٍ مِنْ مِيزَانِهِ ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ السَّخَافَةَ فِي رَأْيِي كَمَا تَرَى مِنْ جَمَاعَةٍ أَتَلَّوْا أَنْ يُطْفِئُوا نَجْمًا فِي السَّمَاءِ لِأَنَّهُ قَدِيمٌ ، فَاتَّقَفُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْمَعُوهُ بَيْنَهُمْ وَفَرَّغُوا مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ يَهَيَّؤُونَ الْعَرَبَاتِ وَالْمِصْخَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ إِلَى السَّمَاءِ بَضْعَةَ أَبْحَرٍ لِيَصُوبُوهَا عَلَى النُّجْمِ . . .

*

*

*

رَأْيِي جَدِيدٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ ۥ الْعَرَبِيِّ ۥ الْقَدِيمَةِ (*)

« أَدَبُ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ مِنَ الدَّوَاوِينِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي قَالَ ابْنُ خَلْدُونٍ فِيهَا مِنْ كَلَامِهِ عَلَى حَدِّ عِلْمِ الْأَدَبِ : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّلْعِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينٍ : وَهِيَ « أَدَبُ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَكِتَابُ « الْكَامِلِ » لِلْمُبَرِّدِ ، وَكِتَابُ « الْبَيَانِ وَالْتَبْيِينِ » لِلجَّاحِظِ ، وَكِتَابُ « النَّوَادِرِ » لِابْنِ عَلِيٍّ الْقَالِيَّ الْبَغْدَادِيَّ ؛ وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَتَبِعَ لَهَا وَفُرُوعُ عَنْهَا .

وَقَدْ يَظُنُّ أَدْبَاءُ عَصْرِنَا أَنَّ كَلِمَةَ ابْنِ خَلْدُونٍ هَذِهِ كَانَتْ تَصْلُحُ لِزَمَانِهِ وَقَوْمِهِ ، وَأَنَّهَا تَتَوَجَّهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ قَبْلَهُمْ فِي طَبَقَةٍ بَعْدَ طَبَقَةٍ إِلَى أَصُولِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ الَّتِي يَقُولُونَ فِيهَا : حَدَّثَنَا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ إِلَى الْأَصْمَعِيِّ أَوْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَوْ أَبِي عَمْرٍو ابْنِ الْعَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شُيُوخِ الرِّوَايَةِ وَنَقْلَةِ اللُّغَةِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْقِطُ فِي آدَابِنَا وَلَا تُعَدُّ مِنَ الْآتِنَا وَلَا تَقَعُ مِنْ مَعَارِفِنَا ؛ بَلْ يَكَادُ يَذْهَبُ مَنْ يَتَعَزَّزُ مِنْهُمْ بِالْأَرَاءِ الْأَوْرَبِيَّةِ الَّتِي يُسَمِّيَهَا عِلْمُهُ ... وَمَنْ يَسْتَرْسِلُ إِلَى التَّقْلِيدِ ، الَّذِي يُسَمِّيهِ مَذْهَبُهُ ... إِلَى أَنَّ تِلْكَ الْكُتُبُ وَمَا جَرَى فِي طَرِيقَتِهَا هِيَ أَمْوَاتٌ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهِيَ قُبُورٌ مِنَ الْأَوْزَاقِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْإِهْمَالِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَنَا مِنَ الزَّمَنِ ، وَأَنَّ بَعَثَ الْكِتَابِ مِنْهَا وَإِحْيَاءَهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ كَبَعَثِ الْمَوْتَى : عَلَامَةٌ عَلَى خَرَابِ الدُّنْيَا ...

فَإَمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى خَرَابِ الدُّنْيَا ، فَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا كَانَتْ الدُّنْيَا هِيَ مُحَرَّرَ جَرِيدَةً ... مِنْ أَمْنَالِ أَصْحَابِنَا هَؤُلَاءِ ، وَأَمَّا تِلْكَ الْكُتُبُ فَإِنَّمَا أَحْسَبُهَا لَمْ تَوْضِعْ إِلَّا لِزَمَانِنَا هَذَا وَلِأَدْبَائِهِ وَكِتَابِهِ خَاصَّةً ، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ هُوَ أَثَبَّتَ ذَلِكَ الْقَوْلَ فِي مُقَدِّمَةِ ابْنِ خَلْدُونٍ لِيُنْتَهِيَ بِصَهْرِ الْبَيِّنَاتِ ، فَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَا يُقِيمُنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي وَقَعَ أَدْبَاؤُهُ

(*) كُتِبَتْ مُقَدِّمَةٌ لِشَرْحِ الْجَوَالِقِيَّ عَلَى « أَدَبِ الْكَاتِبِ » لِابْنِ قُتَيْبَةَ . انْشَرَتْ فِي « الْمُقْتَطَفِ » عِدَدِ

فِي مُتَسِّعٍ طَوِيلٍ مِنْ فُتُونِ الْأَدَبِ ، وَمُضْطَرَبٍ عَرِيضٍ مِنْ مَذَاهِبِ الْكِتَابَةِ وَأُفْقٍ لَا تَسْتَقِرُّ
حُدُودُهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفَلَسَفَةِ . . . فَإِنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ الْحَافِلَةَ مِنَ الْمَعَانِي تُخَيِّ أَدَابَ الْأَمَمِ
فِي أَوْرَثَةٍ وَأَمْرِيكَ ، وَلَكِنَّهَا تَكَادُ تَطْمِسُ أَدَابَنَا وَتَمَحَقُّنَا مَحَقًا تَذْهَبُ فِيهِ خَصَائِصُنَا
وَمُقَوِّمَاتُنَا ، وَتُحِيلُنَا عَنْ أَوْضَاعِنَا التَّارِيخِيَّةِ ، وَتُقْسِدُ عُقُولَنَا وَنَزَعَاتِنَا ، وَتَرْمِي بِنَا مَرَامِيهَا
بَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ ، حَتَّى كَأَن لَيْسَتْ مِمَّا أُمَّةٌ فِي حَيَرِهَا الْإِنْسَانِي الْمَحْدُودِ مِنْ نَاحِيَةِ بِالتَّارِيخِ
وَمِنْ نَاحِيَةِ بِالصِّفَاتِ وَمِنْ نَاحِيَةِ بِالْعُلُومِ وَمِنْ نَاحِيَةِ بِالْأَدَابِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَتَّبَلِي أَكْثَرَ كُتَابِنَا
بِالْإِنْحِرَافِ عَنِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ عَلَيْهِ أَوْ الزَّرَائِيَةِ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَسَّبَهُ قَدْ رُمِيَ فِي
عَقْلِهِ لِهَوَسِهِ وَحِمَاقَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَهُ فِي حِفْذِهِ سُلْحُ قَلْبِهِ ، وَمِنْهُمْ الْمُقْلُدُ لَا يَذَرِي أَعْلَى
قَصْدٍ هُوَ أَمْ جَوْرٍ ؟ وَمِنْهُمْ الْحَاثِرُ يَذْهَبُ فِي مَذْهَبٍ وَيَجِيءُ مِنْ مَذْهَبٍ وَلَا يَتَّجِعُ لِقَصْدٍ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ وَكَفَى . . .

وَقَلَّمَا تَبَّهَ أَحَدٌ إِلَى السَّبَبِ فِي هَذَا ؛ وَالسَّبَبُ فِي حَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ «كَالْمِكْرُوبِ»^(١) :
بِذَرَةِ طَامِسَةٍ لَا شَأْنَ لَهَا ، وَلَكِنْ مَتَى تَبَثُّ ، تُثْبِتُ أَوْجَاعًا وَآلَمًا وَمَوْتًا وَأَحْزَانًا وَمَصَائِبَ
شَتَّى .

السَّبَبُ أَنَّ أُولَئِكَ الْأُدَبَاءَ كُلَّهُمْ ثُمَّ مَنْ يَتَشَبَّعُ لَهُمْ أَوْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِمْ ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ
تُرَى فِي أُسَاسِهِ الْأَدَبِيِّ تِلْكَ الْأُصُولُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَخْضَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى دِرَاسَةِ اللُّغَةِ وَجَمْعِهَا
وَتَصْنِيفِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَمَطَارِحِ اللِّسَانِ فِيهَا ، وَالْمُتَأَدِّيَةُ بِذَلِكَ إِلَى تَمْكِينِ
الْأَدِيبِ النَّاشِئِ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَتَطْوِينِهَا لَهُ ، فَيَكُونُ قِيَمًا بِهَا وَتَكُونُ هِيَ مُسْتَحِجَّةً
لِقَلَمِهِ جَارِيَةً فِي طَبِيعَتِهِ مُسَدَّدَةً فِي تَصَرُّفِهِ ، حَتَّى إِذَا نَشَأَ بِهَا وَاسْتَحْكَمَ فِيهَا أَحْسَنَ الْعَمَلِ
لَهَا وَزَادَ فِي مَادَّتِهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ خَلِيفًا أَنْ يَمُدَّ فِيهَا وَيُحَسِّنَ الْمُلَامَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْأَدَابِ الْأُخْرَى وَيَجْعَلَ ذَلِكَ نَسْجًا وَاحِدًا وَبَيَانًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، فَيَنْمُو الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ فِي
صَنِيعِهِ كَمَا تَنْمُو الشَّجَرَةُ الْحَيَّةُ : نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ مَا حَوْلَهَا لِعَنْصُرِهَا وَطَبِيعَتِهَا وَلَيْسَ إِلَّا
عَنْصُرُهَا وَطَبِيعَتُهَا حَسْبُ .

(١) [المِكْرُوب Microbe : الجُرْثُومَةُ ، كَائِنٌ دَقِيقٌ حَيٌّ] .

إِنَّ « أَدَبَ الْكَاتِبِ » وَشَرْحَهُ هَذَا لِلإِمَامِ الْجَوَالِيقِيِّ^(١) وَمَا صُنِفَ مِنْ بَابِهِمَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَمْعِ مِنَ اللَّغَةِ وَالْخَبَرِ وَشِعْرِ الشُّوَاهِدِ وَالْأَسْتِفْصَاءِ فِي ذَلِكَ وَالتَّبَسُّطِ فِي التَّوَجُّهِ وَالْعِلَالِ التَّخَوُّبَةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَالْإِمْعَانِ فِي التَّحْقِيقِ ، كُلُّ ذَلِكَ عَمَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ عَلَى حَقِّهِ فِي زَمَنِنَا هَذَا ، فَهُوَ لَيْسَ أَدَبًا كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى الْفَلَسَفِي لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، بَلْ هُوَ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي كِتَابٍ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَّا التَّأْلِيفَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، أَمَّا الْمُؤَلَّفُ فَلَا تَجِدُهُ وَلَا تَعْرِفُهُ مِنْهَا إِلَّا كَالْكَلِمَةِ الْمَحْبُوسَةِ فِي قَاعِدَةٍ . . . وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ رُوحُ إِنْسَانٍ بَلْ رُوحُ مَادَّةٍ مُضْمَنَةٍ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ لِيَعْمَلْ فِي عَصْرِهِ بَلْ لِيَعْمَلَ عَصْرُهُ فِيهِ ، وَكَأَنَ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ جِهَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مُتَعَيِّنَةٌ ، فَتَمَّ تَأْلِيفٌ وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُؤَلَّفُ ؟ وَهَذَا كِتَابُ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَلَكِنْ أَيْنَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِيهِ ؟

وَمَا أَخْطَأَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي تَسْمِيَّتِهِمْ هَذِهِ الْكُتُبَ أَدَبًا ؛ فَذَلِكَ هُوَ رَسْمُ الْأَدَبِ فِي عَصْرِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الرَّسْمَ قَدْ انْتَقَلَ فِي عَصْرِنَا نَحْنُ ، فَإِنَّا نَحْنُ الْمُخْطُؤُونَ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، كَمَا لَوْ ذَهَبْنَا نُسَمِّي الْجَمَلَ فِي الْبَادِيَةِ : الْإِكْسَبْرِيس^(٢) Express ، وَالْهُودَجَ : عَرَبَةً بُولْمَانَ^(٣) Pullman .

مِنْ هَذَا الْخَطَأِ فِي التَّسْمِيَةِ ظَهَرَ الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ لِقِصَارِ النَّظَرِ كَأَنَّهُ تَكَرَّرَ عَصْرُ وَاحِدٍ عَلَى أَمْتِدَادِ الزَّمَنِ ، فَإِنْ زَادَ الْمُتَأَخَّرُ لَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مِنَ الْمُتَقَدِّمِ ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ كَأَنَّهَا فِي جُمْلَتِهَا قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ الْجِنْسِيَّةِ نَافِذٌ عَلَى الدَّهْرِ ، لَا يَنْبَغِي لِعَصْرِ يَأْتِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ .

هَذِهِ الْكُتُبُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ كَالْحَلِّ : يُسَمَّى لَكَ عَسَلًا ثُمَّ تَذُوقُهُ فَلَا يَجِيءُ عَلَيْهِ عِنْدَكَ

(١) الْجَوَالِيقِيُّ : جَمَعَ شَاذُ الْجَوَالِقِ ، وَقَدْ نُسِبَ هَذَا الْإِمَامُ إِلَى عَمَلِ الْجَوَالِقِ وَيَبْنِيهَا ؛ وَهَذَا الْجَنْعُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدِهِ إِلَّا الْحَرَكَةُ ، فَالْمُفْرَدُ جَوَالِقُ (بِضْمِ الْجِيمِ) وَالْجَنْعُ بِالْفَتْحِ ؛ وَمِثْلُهُ أَلْفَاظٌ أَحْصَوْنَهَا : كَعَلَّاحِلَ ، وَعَدَائِلَ ، وَخُثَارِمَ ، وَغَيْرَهَا .

(٢) الْإِكْسَبْرِيس Express : السَّريْع ، وَالْمَقْصُودُ عَادَةً مِنْ هَذَا اللَّفْظِ : الْقِطَارُ السَّريْع . بَسَام .

(٣) عَرَبِيَّةٌ بُولْمَانُ نَسَبَةً إِلَى الصَّنَاعِيِّ الْأَمِيرِكِيِّ George Mortimer Pullman (١٨٣١ - ١٨٩٧) وَهُوَ الَّذِي صَمَّمُ أَوَّلَ عَرَبِيَّةٍ لِلنَّمَامَةِ فِي الْقِطَارَاتِ ، وَيُطْلَقُ اسْمُهُ عَلَى عَرَبَاتِ الرَّفَاحِيَّةِ مِنْ نَمَامَةٍ وَاسْتِقْبَالٍ وَطَعَامٍ . بَسَام .

إِلَّا الْأَسْمُ الَّذِي زُوِرَ لَهُ ، أَمَّا هُوَ فَكَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ وَفِي فَائِدَتِهِ وَفِي طَبِيعَتِهِ وَفِي الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ .

الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَعْنِيهَا الْوَضْعُ الصَّحِيحُ أَنَّ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ إِنَّمَا وَضِعَتْ لِتَكُونَ أَدَبًا ، لَا مِنْ مَعْنَى أَدَبِ الْفِكْرِ وَفَنِّهِ وَجَمَالِهِ وَفَلَسَفَتِهِ ، بَلْ مِنْ مَعْنَى أَدَبِ النَّفْسِ وَتَقْوِيَّتِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا وَإِقَامَتِهَا ، فَهِيَ كُتُبُ تَرْبِيَةٍ لُغَوِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى أُصُولٍ مُحْكَمَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ ، حَتَّى مَا يَفْرُوها أَعْجَمِيٍّ إِلَّا خَرَجَ مِنْهَا عَرَبِيًّا أَوْ فِي هَوَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَيْلِ إِلَيْهَا ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُنِيَتْ عَلَى أَوْضَاعٍ تَجْعَلُ الْقَارِئَ الْمُتَبَصِّرَ كَأَنَّمَا يُصَاحِبُ مِنَ الْكُتُبِ أَغْرَابِيًّا فَصِيحًا يَسْأَلُهُ ، فَيُجِيبُهُ وَيَسْتَهْدِيهِ فَيُرْشِدُهُ ، وَيُخْرِجُهُ الْكِتَابُ تَصَفُّحًا وَقِرَاءَةً كَمَا تُخْرِجُهُ الْبَادِيَةُ سَمَاعًا وَتَلْقِينًا ، وَالْقَارِئُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَدْرِجٌ إِلَى التَّغَرُّبِ فِي مَدْرَجَةٍ مُدْرَجَةٍ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وَمَحَبَّتِهَا ، فَتَصْنَعُ بِهِ تِلْكَ الْفُصُولَ فِيمَا دُبِّرَتْ لَهُ مِثْلَمَا تَصْنَعُ كُتُبُ التَّرْبِيَةِ فِي تَكْوِينِ الْخَلْقِ بِالْأَسَالِبِ الَّتِي أُدِيرَتْ عَلَيْهَا وَالشَّوَاهِدِ الَّتِي وَضِعَتْ لَهَا وَالْمَعَالِمِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فُصِّلَتْ فِيهَا .

وَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ فِي الْجُمْلَةِ ، فَهِيَ أَخْبَارٌ وَأَشْعَارٌ وَلُغَةٌ وَعَرَبِيَّةٌ وَجَمْعٌ وَتَحْقِيقٌ وَتَمْحِصٌ ، وَإِنَّمَا تَتَفَاوَتْ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالْإِخْتِصَارِ وَالتَّبَسُّطِ وَالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي الْمَوْضُوعِ لَا فِي الْوَضْعِ ، حَتَّى لِيُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّ هَذِهِ كُتُبُ جُغَرَفِيَّةٍ لِلُّغَةِ وَاللِّفَاطِهَا وَأَخْبَارِهَا ، إِذْ كَانَتْ مِثْلَ كُتُبِ الْجُغَرَفِيَّةِ : مُتَطَابِقَةً كُلُّهَا عَلَى وَصْفِ طَبِيعَةٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا وَلَا يَخْلُقُ غَيْرُهَا إِلَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ لَمْ تُعْجَبْ كَمَا يَعْجَبُ الْمُتَطَفِّلُونَ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَالْمُنْخَبِطُونَ فِيهِ مِنْ أَنْ يَرَوْا إِيمَانَ الْمُؤَلِّفِينَ مُتَّصِلًا بِكُتُبِهِمْ ظَاهِرَ الْأَثَرِ فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يُقَرَّرُونَ أَنَّهَا يُرِيدُونَ بِهَا الْمُنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْعَمَلِ لِحِبَاطَةِ هَذَا اللِّسَانِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَتَأْيِيدِهِ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَى قَوْمِهِمْ كَمَا تُؤَدِّي الْأَمَانَةُ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى لَوْ لَا الْقُرْآنُ لَمَا وَضِعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ الْبَتَّةَ .

وَأَنَا أَتَلَمَّحُ دَائِمًا الْعَامِلَ الْإِلَهِيَّ فِي كُلِّ أَطْوَارِ هَذِهِ اللَّغَةِ ، وَأَرَاهُ يُدِيرُهَا عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجَزَتُهَا الْكُبْرَى ، وَأَرَى مِنْ أَثَرِهِ مَجِيءَ تِلْكَ الْكُتُبِ عَلَى ذَلِكَ الْوَضْعِ ،

وَتَسْخِيرُ تِلْكَ الْعُقُولِ الْوَاسِعَةِ مِنَ الرُّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْحَفَاطِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فِي الْجَمْعِ وَالشَّرْحِ وَالتَّعْلِيلِ بَعْدَ ابْتِكَارِ وَلَا وَضْعِ وَلَا فِلْسَفَةٍ وَلَا زِنْعٍ عَنْ تِلْكَ الْحُدُودِ الْمَرْسُومَةِ الَّتِي أَوْمَأْنَا إِلَى حِكْمَتِهَا ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مُجَدِّدُونَ مِنْ طِرَازِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ التَّخْلِيلِ ، ثُمَّ تَرَكُوا لِهَذَا الشَّأْنِ يَتَوَلَّوْنَهُ كَمَا تَرَى بِالنَّظَرِ الْقَصِيرِ وَالرَّأْيِ الْمُعَانِدِ وَالْهَوَى الْمُنْحَرِفِ وَالْكَبِيرِيَاءِ الْمُصَمِّمَةِ وَالْقَوْلِ عَلَى الْهَاجِسِ وَالْعِلْمِ عَلَى التَّوَهُّمِ وَمُجَادَلَةِ الْأُسْتَاذِ حَيْصَ لِلْأُسْتَاذِ بَيِّنَ . . . إِذَنْ لَضَرَبَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ بَعْضٍ ، وَجَاءَتْ كُتُبُهُمْ مُتَدَابِرَةً ، وَمُسِخَ التَّارِيخُ وَضَاعَتِ الْعَرَبِيَّةُ وَفَسَدَ ذَلِكَ الشَّأْنُ كُلُّهُ ، فَلَمْ يَتَسَقِ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَمِمَّا تَرَدُّهُ عَلَى قَارِئِهَا تِلْكَ الْكُتُبُ فِي تَرْبِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَنَّهُآ تُمْكِنُ فِيهِ لِلصَّبْرِ وَالْمُعَانَاةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوَرُّكِ فِي الْبَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ فِي التَّصْفُحِ ، وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي فَقَدَهَا أَدْبَاءُ هَذَا الزَّمَنِ ، فَأَصْبَحُوا لَا يَتَّبِعُونَ وَلَا يَتَحَقَّقُونَ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْظُرُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَقَلَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَبْطِنُوا كُتُبَهَا ؛ وَلَوْ قَدْ تَرَبَّوْا فِي تِلْكَ الْأَسْفَارِ وَبِذَلِكَ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ لَتَمَّتِ الْمُلَاءَمَةُ بَيْنَ اللُّغَةِ فِي قُوَّتِهَا وَجَزَالَتِهَا وَبَيْنَ مَا عَسَى أَنْ يُنْكِرَهُ مِنْهُمْ ذَوْقُهُمْ فِي ضَعْفِهِ وَعَامِّيَّتِهِ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .

وَذَلِكَ بِعَيْنِهِ هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّ مَنْ لَا يَقْرَأُونَ تِلْكَ الْكُتُبَ أَوَّلَ نَشَأَتِهِمْ ، لَا تَرَاهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَّا بِأَسْلُوبٍ مُنْحَطٍّ ، وَلَا يَجْزَوْنَ إِلَّا بِكَلَامٍ سَقِيمٍ غَثٍّ ، وَلَا يَرَوْنَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا آرَاءَ مُلْتَوِيَةً ؛ ثُمَّ هُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُفْقِمُوا عَلَى دَرَسِ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ ، فَيَسَاهِلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَحْكُمُونَ عَلَى اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ بِمَا يَشْعُرُونَ بِهِ فِي حَالَتِهِمْ تِلْكَ ، وَيَتَوَرَّطُونَ فِي أَقْوَالٍ مُضْحِكَةٍ ، وَيَتَسَوَّنَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَطْعُ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ نَاحِيَةِ الشُّعُورِ مَا دَامَ الشُّعُورُ يَخْتَلِفُ فِي النَّاسِ بِاخْتِلَافِ أَسْبَابِهِ وَعَوَارِضِهِ ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَطَأُ فِيهَا ؛ وَهُمْ أَبَدًا فِي إِخْدَى النَّاحِيَتَيْنِ أَوْ فِي كِلْتُمَاهُمَا .

* * *

وَهَذَا شَرْحُ الْجَوَالِيقِيِّ مِنْ أَمْنَعِ الْكُتُبِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا ، وَصَاحِبُهُ هُوَ الْإِمَامُ أَبُو مَنْصُورٍ مَوْهُوبُ الْجَوَالِيقِيِّ الْمَوْلُودُ فِي سَنَةِ ٤٦٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٤٠ ؛ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا الْخَطِيبِ التَّبْرِيزِيِّ ؛ أَوَّلَ مَنْ دَرَسَ الْأَدَبَ فِي الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ

يَعْدَاد^(١) ، وَقَرَأَ الْجَوَالِيقِيَّ عَلَى شَيْخِهِ هَذَا سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، اسْتَوْفَى فِيهَا عُلُومَ الْأَدَبِ مِنَ اللُّغَةِ وَالشَّعْرِ وَالْخَبَرِ وَالْعَرَبِيَّةِ بِفُنُونِهَا ، ثُمَّ خَلَفَ شَيْخَهُ عَلَى تَدْرِيسِ الْأَدَبِ فِي النِّظَامِيَّةِ بَعْدَ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْمَعْرُوفِ بِالْفَصِيحِيِّ^(٢) .

وَمَا نَشْكُ أَنَّ هَذَا الشَّرْحَ هُوَ بَعْضُ دُرُوسِهِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ ، فَأَنْتَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ كَأَنَّكَ بِإِزَاءِ كُرْسِيِّ التَّدْرِيسِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، تَسْمَعُ مِنْ رَجُلٍ انْتَهَتْ إِلَيْهِ إِمَامَةُ اللُّغَةِ فِي عَصْرِهِ ، فَهُوَ مُدَقِّقٌ مُحِيطٌ مُبَالِغٌ فِي الْأَسْتِفْصَاءِ ، لَا يَنْدُ عَنْهُ شَيْءٌ مِمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الشَّرْحِ ، مَعْنِي بِالْتَضَرُّيفِ وَوُجُوهِهِ مِمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْإِمَامِ ابْنِ جَنِّي فَيَلْسُوفُ هَذَا الْعِلْمَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، فَإِنَّ بَيْنَ الْجَوَالِيقِيِّ وَبَيْنَهُ شَيْخَيْنِ كَمَا تَعْرِفُ مِنْ إِسْنَادِهِ فِي هَذَا الشَّرْحِ .

وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ أَبَا مَنْصُورٍ فِي اللُّغَةِ أَمْثَلُ مِنْهُ فِي النَّحْوِ ، عَلَى إِمَامَتِهِ فِيهِمَا مَعًا ؛ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ فِي بَعْضِ عِلَلِ النَّحْوِ إِلَى آرَاءٍ شَادَّةٍ يَنْفَرِدُ بِهَا ، وَقَدْ سَاقَ مِنْهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَنْبَارِيُّ مَثَلَيْنِ فِي كِتَابِهِ « نَزْهَةُ الْأَلْبَاءِ » ، وَلَكِنَّ هَذَا الشُّدُودَ نَفْسُهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَسَعْيِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَيْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ^(٣) وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ رَجُلٌ نَفَقَةٌ صَدُوقٌ كَثِيرٌ الضَّبْطِ عَجِيبٌ فِي التَّحَرِّيِ وَالتَّدْقِيقِ ؛ حَتَّى كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ فِي طِبَاعِهِ أَنْ اِعْتَادَ التَّفَكِيرَ وَطُولَ الصَّمْتِ ، فَلَا يَقُولُ قَوْلًا إِلَّا بَعْدَ تَدَبُّرٍ وَفِكْرٍ طَوِيلٍ ، فَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ قَالَ : لَا أَدرِي ؛ وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا يُجِيبُ إِلَّا بَعْدَ أَيَّامٍ .

(١) أَنشَأَهَا نِظَامُ الْمُلِكِ وَزَيْرُ مَلِكٍ شَاهِ السَّلْجُوقِيِّ الْمَوُتَقِيَّ سَنَةَ ٤٨٥ هـ .

(٢) لُقِّبَ بِذَلِكَ لِكثْرَةِ إِعَادَتِهِ كِتَابَ « الْفَصِيحِ فِي اللُّغَةِ » .

(٣) قَالَ يَاقُوتُ فِي تَرْجَمَةِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ مِنْ « مُعْجَمِ الْأَدَبَاءِ » : قَرَأْتُ بِحِطِّ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَشَّابِ : كَانَ شَيْخَنَا (يَعْنِي : الْجَوَالِيقِيَّ) فَلَمَّا يَتَبَلَّلُ عِنْدَهُ مُمَارِسٌ لِلصَّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ وَلَوْ طَالَ فِيهَا بَاعُهُ ، مَا لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ عِلْمِ الرُّوَايَةِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ ضُرُوبِهَا ، وَلَا سِيَّمَا رَوَايَةَ الْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَتِهَا مِنْ لُغَةٍ وَفَصِيحَةٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ مُقَدِّمًا لِأَبِي سَعِيدِ السَّيْرَافِيِّ عَلَى أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَيَقُولُ : أَبُو سَعِيدٍ أَرَوَى مِنْ أَبِي عَلِيٍّ ، وَأَكْثَرَ تَحَقُّقًا مِنْهُ بِالرُّوَايَةِ وَأَثَرِي مِنْهُ فِيهَا .

وَكَانَ وَرِعًا قَوِيًّا الْإِيمَانِ ، انْتَهَى بِهِ إِيْمَانُهُ وَعِلْمُهُ وَتَقْوَاهُ إِلَى أَنْ صَارَ أَسْنَادَ الْخَلِيفَةِ الْمُقْتَنِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَاخْتَصَّ بِإِمَامَتِهِ فِي الصَّلَوَاتِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْمُقْتَنِي شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ وَبَانَ أَثَرُهُ فِي تَوْفِيعَاتِهِ كَمَا قَالُوا .

وَالَّذِي يَتَأَمَّلُ هَذَا الشَّرْحَ فَضْلَ تَأَمُّلٍ يَرَى صَاحِبَهُ كَأَنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ رَجُلًا إِخْصَاءً فِي اللُّغَةِ ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِمَّا عَرَفَ إِلَى زَمَنِهِ ؛ وَهُوَ وَلَا رَبِّبَ يَجْرِي فِي الطَّرِيقَةِ الْمَكْرِيَّةِ الَّتِي نَهَجَهَا ابْنُ جَنِّي وَشَيْخُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ؛ وَمِنْ أَثَرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَحَجَّرُ وَلَا يَمْنَعُ الْقِيَّاسَ فِي اللُّغَةِ ، وَيُلْحِقُ مَا وَضَعَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَيَزِيوِي ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَيَحْفَظُهُ وَيُلْقِيهِ عَلَى طَلَبَتِهِ ، وَمِنْ أَمْتَعِ مَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ ، قَوْلُهُ فِي صَفْحَةِ ٢٣٥ ، وَهُوَ بَابٌ لَمْ يَسْتَوْفِهِ غَيْرُهُ وَلَا تَجِدْهُ إِلَّا فِي كِتَابِهِ ، وَهَلِيزِ عِبَارَتُهُ :

قَوْلُهُمْ : يَدِي مِنْ ذَلِكَ فَعِلَةٌ : الْمَسْمُوعُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ قَلِيلَةٌ ، وَقَدْ قَاسَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا : يَدِي مِنَ الْإِهَالَةِ سِنْخَةٌ ، وَمِنْ الْبَيْضِ زَهْمَةٌ ، وَمِنْ التُّرَابِ تَرَبَةٌ ، وَمِنْ التَّنِينَ وَالْعَنْبِ وَالْفَوَاكِهِ كَنْتَةٌ وَكَمْدَةٌ وَلَرْجَةٌ ، وَمِنْ الْعُشْبِ كَنْتَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ الْجُبْنِ نَسْمَةٌ ، وَمِنْ الْجِصِّ شَهْرَةٌ ، وَمِنْ الْحَدِيدِ وَالشَّبَةِ وَالصُّفْرِ وَالرَّصَاصِ سَهْكَةٌ وَصِدْنَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ الْحَمَاءِ رَدْعَةٌ وَرَزْغَةٌ ، وَمِنْ الْخَضَابِ رَدْعَةٌ ، وَمِنْ الْحِنْطَةِ وَالْعَجِينِ وَالْخُبْزِ نَسْغَةٌ ، وَمِنْ الْخَلِّ وَالثَّبِيدِ خِمْطَةٌ ، وَمِنْ الدَّبْسِ وَالْعَسَلِ دَبْقَةٌ وَلَرْقَةٌ أَيْضًا ، وَمِنْ اللَّذَمِّ شَحِطَةٌ وَشَرْفَةٌ ، وَمِنْ الدُّهْنِ زَنْخَةٌ ، وَمِنْ الرِّيَاحِينِ ذَكِيَّةٌ ، وَمِنْ الزَّهْرِ زَهْرَةٌ ، وَمِنْ الزَّيْتِ قَيْمَةٌ ، وَمِنْ السَّمَكِ سَهْكَةٌ وَصَيْرَةٌ ، وَمِنْ السَّمَنِ دَسِمَةٌ وَنَسِمَةٌ وَنَمِسَةٌ ، وَمِنْ الشَّهْدِ وَالطَّنِينِ لَنْقَةٌ ، وَمِنْ الْعِطْرِ عِطْرَةٌ ، وَمِنْ الْعَالِيَةِ عَبَقَةٌ ، وَمِنْ الْغَسَلَةِ وَالْقَدْرِ وَحِرَّةٌ ، وَمِنْ الْفِرْصَادِ قَيْتَةٌ ، وَمِنْ اللَّبَنِ وَضِرَةٌ ، وَمِنْ اللَّحْمِ وَالْمَرْقِ غِمْرَةٌ ، وَمِنْ الْمَاءِ بِلَلَةٌ وَسَبْرَةٌ ، وَمِنْ الْمِسْكِ ذِفْرَةٌ وَعَبَقَةٌ ، وَمِنْ التَّنِينِ قَيْمَةٌ ، وَمِنْ الثَّقَطِ جَعْدَةٌ . انْتَهَى .

فَالْمَسْمُوعُ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ عَنِ الْعَرَبِ لَا يَتَجَاوَزُ سَبْعًا فِيمَا تَرَى ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ أَجْرَاهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ عَلَى الْقِيَّاسِ ، فَأَبْدَعَ الْقِيَّاسُ مِنْهَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ كَلِمَةً ؛ وَلَوْ تَدَبَّرْتَ كَيْفِيَّةَ اسْتِخْرَاجِهَا وَرَجَعْتَ إِلَى الْأَصُولِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهَا لَا يَفُوتُ أَنَّ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةَ

هِيَ أَوْسَعُ اللُّغَاتِ كَافَّةً ، وَأَنَّهَا مِنْ أَهْلِهَا كَالْبُيُوتَةِ الْخَالِدَةِ فِي دِينِهَا الْقَوِيِّ : تَنْتَظِرُ كُلَّ جِيلٍ يَأْتِي كَمَا وَدَّعَتْ كُلَّ جِيلٍ غَبَرَ لِأَنَّهَا الْإِنْسَانِيَّةُ ، لِهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ .

إِنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَذَا الشَّرْحِ كَالْتَوْبِيخِ لِأَكْثَرِ كُتَّابِ هَذَا الزَّمَنِ أَنْ أَفْرُؤُوا وَأَذْرُسُوا وَخُصُّوا لُغَتَكُمْ بِشَطْرِ مِنْ عِتَائِيكُمْ ؛ وَتَرَبُّؤُوا لَهَا بِتَرْبِيَّتِهَا فِي مَدَارِسِكُمْ وَمَعَاهِدِكُمْ ، وَأَصْبِرُوا عَلَى مُعَانَاتِهَا صَبْرَ الْمُحِبِّ عَلَى حَبِيبِهِ ، فَإِنْ ضَعُفْتُمْ فَصَبِرَ الْبَارُّ عَلَى مَنْ يَلْزِمُهُ حَقُّهُ ؛ فَإِنْ ضَعُفْتُمْ عَنْ هَذَا فَصَبِرَ الْمُتَكَلِّفُ الْمُتَجَمِّلُ عَلَى الْأَقَلِّ ...

* * *

أَمِيرُ الشَّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ (*) (١)

الْوَجْهُ فِي إِفْرَادِ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ مِنَ الْمَاضِينَ بِالتَّأْلِيفِ ، أَنْ تَصْنَعَ كَأَنَّكَ تُعِيدُهُ إِلَى الدُّنْيَا فِي كِتَابٍ وَكَانَ إِنْسَانًا ، وَتَرْجِعُهُ دَرْسًا وَكَانَ عُمَرَا ، وَتَرْدُّهُ حِكَايَةً وَكَانَ عَمَلًا ، وَتَنْقُلُهُ بِزَمَانِهِ إِلَى زَمَانِكَ ، وَتَعْرِضُهُ بِقَوْمِهِ عَلَى قَوْمِكَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ خِلْقَةً إِنْجَادٍ يَخْلُقُهُ الْعَقْلُ خِلْقَةً تَفْكِيرٍ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَقَصَّى الْمُؤَلِّفُ فِي الْجَمْعِ مِنْ آثَارِ الْمُتَرْجِمِ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَنَتِ مَا يَحْمِلُهُ لَوْ هُوَ كَانَ يَجْرِي وَرَاءَ مَلَكِي مَنْ يُتْرَجِّمُهُ لِقِرَاءَةِ كِتَابِ أَعْمَالِهِ كِتَابَهُ فِي يَدَيْهِمَا . . . وَلَا بُدَّ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّنْجِيسِ وَالْمُقَابَلَةِ ، وَيُدَقِّقَ فِي الِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِخْرَاجِ ، وَيُضَيِّقَ إِلَى عَامَّةِ مَا وَجَدَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَبَرِ خَاصَّةً مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ ، وَيَعْمَلْ عَلَى أَنْ يُنْفَخَ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ الْمَاضِي فِي آدِيهِ وَعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إِلَيْهِ الْحَاضِرُ فِي فَتَاهِ وَفَلَسَفَتِهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَمَلِ الْعَقْلِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَالْمُتَرَادِفِ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ بِمَذَاهِبِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، يُشَبِّهُ عَمَلَ الدَّهْرِ الْمُتَجَدِّدِ أَبَدًا وَالْمُتَرَادِفِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، كُلُّ نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ هُوَ آخِرٌ وَهُوَ أَوَّلٌ ، وَكَذَلِكَ الْعُمُولُ كُلُّهَا آخِرٌ مِنْ نَاحِيَةٍ وَأَوَّلٌ مِنْ نَاحِيَةٍ .

وَالْتَجْدِيدُ فِي الْأَدَبِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ : فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فِإِبْدَاعُ الْأَدِيبِ الْحَيِّ فِي آثَارِ تَفْكِيرِهِ بِمَا يَخْلُقُ مِنَ الصُّوَرِ الْجَدِيدَةِ فِي اللُّغَةِ وَالْبَيَانِ ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فِإِبْدَاعُ الْحَيِّ فِي آثَارِ الْمَيِّتِ بِمَا يَتَنَاوَلُهَا بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ النَّقْدِ الْمُسْتَحْدَثَةِ ، وَأَسَالِيبِ الْفَنِّ الْجَدِيدَةِ ؛ وَفِي الْإِبْدَاعِ

(*) « الْمُفْتَقَطُ » نوفمبر/ تشرين الآخر ، ١٩٣٠ م ، الصفحات : ٤١٨ - ٤٢٠ .

(١) وَضَعَ الْأَدِيبُ مُحَمَّدٌ صَالِحٌ سَمَكَ رِسَالَةً قِيَمَةً فِي أَمْرِ الْفَيْسِ « أَمِيرُ الشَّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ » نَقَعَ فِي نَحْوِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ صَفْحَةً . سَلَكَ فِيهَا مَسْلَكًا طَرِيفًا ، وَحَلَّاهَا بِمُقَدِّمَةٍ بَلِغَةٍ لِلْأُسْتَاذِ الْجَلِيلِ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ ، فَحَصَّ الْمُؤَلِّفُ الْمُفْتَقَطَ بِتَشْرِيقِ الْمُقَدِّمَةِ وَبَغْضِ أَنْبَاطِ الرِّسَالَةِ فِيهَا طَبَقًا لِرَغْبَتِنَا .

الْأَوَّلِ إِنْجَادَ مَا لَمْ يُوجَدَ ، وَفِي الثَّانِي إِنْتَامَ مَا لَمْ يَتِمَّ ؛ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ فِيهِمَا مَعًا حَقِيقَةُ التَّجْدِيدِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا ، وَلَا تَجْدِيدٍ إِلَّا مِنْ ثَمَّةَ ، فَلَا جَدِيدٌ إِلَّا مَعَ الْقَدِيمِ .

وَإِذَا تَبَيَّنَتْ هَذَا وَحَقَّقْتَهُ أَذْرَكْتَ لِمَاذَا يَتَخَبَّطُ مُتَحَلِّوُ الْجَدِيدِ بَيْنَنَا وَأَكْثَرُهُمْ يَدْعِيهِ سِفَاهًا وَيَقْلُدُهُ زُورًا ، وَجُمْلَةُ عَمَلِهِمْ كَوَضْعِ الزَّنَجِيِّ الذَّرْوَرُ الْأَبْيَضَ (الْبُودَرَةُ) Poudre عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ يَدْعِي أَنَّهُ خَرَجَ أَبْيَضَ مِنْ أُمِّهِ لَا مِنْ الْعُلْبَةِ . . . فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَصْنَعُ رِسَالَةً فِي شَاعِرٍ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ الشَّعْرَ وَلَا يُحْسِنُ تَفْسِيرَهُ وَلَا يَجِدُهُ فِي طَبْعِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْرُسُ الْكَاتِبَ الْبَلِيغَ وَقَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَسْرَارِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَدِّدُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ وَلَكِنْ بِالتَّكْذُوبِ عَلَيْهِ وَالتَّقَعُّمِ فِيهِ وَالذَّهَابِ فِي مَذْهَبِ الْمُخَالَفَةِ ، يَضْرِبُ وَجْهَ الْمُقْبِلِ حَتَّى يَجِيءَ مُذْبِرًا ، وَوَجْهَ الْمَذِيرِ حَتَّى يَعُودَ مُقْبِلًا ، فَإِذَا لِكُلِّ طَرِيقِ جَدِيدٍ ، وَيَسْتَسِي أَنْ جَدِيدُهُ بِالصَّنْعَةِ لَا بِالطَّبِيعَةِ ، وَبِالزُّورِ لَا بِالْحَقِّ .

إِلَّا إِنْ كُلُّ مَنْ شَاءَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْبَعَ لِكُلِّ مَرْنِضٍ ، لَا يُكَلِّفُهُ ذَلِكَ إِلَّا قَوْلًا يَقُولُهُ وَتَلْفِيفًا يُدْبِرُهُ ؛ وَلَكِنْ أَكْذَلِكَ كُلُّ مَنْ وَصَفَ دَوَاءً اسْتَطَاعَ أَنْ يَشْفِي بِهِ ؟ .

وَبَعْدُ ؛ فَقَدْ قَرَأْتُ رِسَالَةَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ الَّتِي وَضَعَهَا الْأَدِيبُ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ صَالِحٌ سَمَكَ ، فَرَأَيْتُ كَاتِبَهَا - مَعَ أَنَّهُ نَاشِئٌ بَعْدُ - قَدْ أَذْرَكَ حَقِيقَةَ الْفَنِّ فِي هَذَا الْوَضْعِ مِنْ تَجْدِيدِ الْأَدَبِ ، فَاسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقَةٍ غَيْرِ مُتَلَوِيَةٍ ، وَمَضَى فِي الْمُنْهَجِ السَّيِّدِ ، وَلَمْ يَدْعِ التَّبَيُّتَ وَإِنْعَامَ النَّظَرِ وَتَقْلِيدَ الْفِكْرِ وَتَخْصِصَ الرَّأْيِ ، وَلَا قَصَرَ فِي التَّخْصِيلِ وَالْإِطْلَاعِ وَالْإِسْتِقْصَاءِ ، وَلَا أَرَاهُ قَدْ فَاتَهُ إِلَّا مَا لَا بُدَّ أَنْ يَفُوتَ غَيْرُهُ مِمَّا ذَهَبَ فِي إِهْمَالِ الرُّوَاةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَصْبَحَ الْكَلَامُ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَحُكْمًا بِالظَّنِّ .

فَإِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ فِي رَأْيِي إِنَّمَا هُوَ عَقْلٌ بَيَانِيٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْعُقُولِ الْمُفْرَدَةِ الَّتِي خَلَقَتْ خَلْقَهَا فِي هَذِهِ اللَّعَةِ ، فَوَضَعَ فِي بَيَانِهَا أَوْضَاعًا كَانَتْ هُوَ مُبْتَدِعَهَا وَالسَّابِقِ إِلَيْهَا ، وَنَهَجَ لِمَنْ بَعْدَهُ طَرِيقَهَا فِي الْإِخْتِدَاءِ عَلَيْهَا وَالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالتَّوَلُّيدِ مِنْهَا ، وَتِلْكَ هِيَ مَنْقَبَتُهُ الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا وَالَّتِي هِيَ سِرُّ خُلُودِهِ فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى دَهْرِنَا هَذَا وَإِلَى مَا بَقِيَتِ اللَّعَةُ ، فَهُوَ أَصْلٌ مِنَ الْأُصُولِ فِي أَبْوَابِ مِنَ الْبَلَاغَةِ كَالنَّشِيبِ وَالْإِسْتِعَارَةِ وَغَيْرِهِمَا ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ مَصْنَعٌ مِنْ مَصَانِعِ اللَّعَةِ لَا رَجُلٌ مِنْ رِجَالِهَا ، وَكَمَا يُقَالُ فِي زَمَنَاتِنَا فِي أَمِّ الصَّنَاعَةِ : سَيَّارَةُ فُورْدِ Ford ،

وَسَيَّارَةٌ فَيَاتُ Fiat ؛ يُمكنُ أَنْ يُقَالَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : اُسْتَعَارَةٌ
أَمْرِي الْقَيْسِ ، وَتَشْبِيهِ أَمْرِي الْقَيْسِ .

وَلَكِنَّ تَحْقِيقَ هَذَا الْبَابِ وَإِحْصَاءَ مَا أَنْفَرَدَ بِهِ الشَّاعِرُ وَتَارِيخَ كَلِمَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ مِمَّا
لَا يَسْتَطِيعُهُ بَاحِثٌ ، وَلَيْسَ لَنَا فِيهِ إِلَّا الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ .

وَلَقَدْ نَبَّهْنَا فِي « إِعْجَازِ الْقُرْآنِ » إِلَى مِثْلِ هَذَا ، إِذْ نَعْتَقِدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
الْكُرْنِمِ كَانَ جَدِيدًا فِي اللَّغَةِ ، لَمْ يُوضَعْ مِنْ قَبْلِهِ ذَلِكَ الْوَضْعُ ، وَلَمْ يَجْرِ فِيهِ اسْتِعْمَالُ
الْعَرَبِ كَمَا أَجْرَاهُ ، فَهُوَ يَصُبُّ اللَّغَةَ صَبًّا فِي أَوْضَاعِهِ لِأَهْلِهَا لَا فِي أَوْضَاعِ أَهْلِهَا ، وَبِذَلِكَ
يُحَقِّقُ مِنْ نَحْوِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ مَا لَا نَظَرُ فِلَسَفَةً أَلْفَنَ قَدْ بَلَغَتْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، إِذْ
حَقِيقَةُ أَلْفَنَ عَلَى مَا نَرَى أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ كَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهَا لَيْسَ فِي تَرْكِيبِهَا إِلَّا
الْقُوَّةُ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا ، فَإِذَا تَنَاولَهَا الصَّنْعُ الْحَادِقُ أُلْمِلَهُمْ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ تَعْيِيرِهِ مَا يُشْعِرُكَ
أَنَّهُ خَلَقَ فِيهَا الْجَمَالَ الْعَقْلِيَّ ، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْخِلْقَةِ نَاقِصَةً حَتَّى أَتَمَّهَا .

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَّاهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحُومُ عَلَيْهِ الرُّوَاهُ وَالْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ قَدِيمًا ،
يُحْسِنُونَهُ وَلَا يَجِدُونَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيلَهُ ، فَتَرَى الْأَضْمَعِيَّ مَثَلًا يَقُولُ فِي شِعْرِ لَبِيدٍ : إِنَّهُ طِيلَسَانٌ
طَبْرِيٌّ . أَيُّ : مُحْكَمٌ مَتِينٌ وَلَكِنْ لَا رَوْنَقَ لَهُ ؛ أَيُّ : فِيهِ الْقُوَّةُ وَلَيْسَ فِيهِ الْجَمَالُ ؛ أَيُّ :
فِيهِ التَّرْكِيبُ وَلَيْسَ فِيهِ أَلْفَنُ .

وَالْعَقْلُ الْبَيِّنَانِيُّ كَمَا قُلْنَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، هُوَ ثَرْوَةُ اللَّغَةِ ، وَبِهِ وَبِأَمْتَالِهِ تَعَامَلُ
التَّارِيخُ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ فِيهَا فَنَ الْفَاطَهَا وَصُورَهَا ، فَهُوَ بِذَلِكَ أَمْتِدَادُهَا الزَّمَنِيَّ وَأَنْتِقَالَهَا
التَّارِيخِيَّ وَتَخَلُّقُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِي زَمَنِ بَعْدَ زَمَنِ ، وَلَا تَجْدِيدَ وَلَا تَطَوُّرَ
إِلَّا فِي هَذَا التَّخَلُّقِ مَتَى جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَالْجَدِيرِينَ بِهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ الْمَخْلُوقُ لِلتَّفْسِيرِ
وَالْتَوْليدِ وَتَلْقَى الْوَحْيَ وَأَدَائِهِ وَأَعْتَصَارِ الْمَعْنَى مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةِ الْأَسْلُوبِ عَلَى كُلِّ
مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْآرَاءِ فَيَنْقُلُهَا مِنْ خِلْقَتِهَا وَصَيَّغَهَا الْعَالَمِيَّةَ إِلَى خَلْقِ إِنْسَانٍ بَعِيْنِهِ ،
هُوَ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي رَزَقَ الْبَيَانَ .

وَلِلْسَبِّبِ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ يَقِيْ أَمْرُ الْقَيْسِ كَالْمِيزَانِ الْمُنْصُوبِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ بَيِّنٌ
بِهِ النَّاقِصُ وَالْوَافِي ، قَالَ الْبَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ « الإِعْجَازُ » : وَقَدْ تَرَى الْأَدَبَاءَ أَوَّلًا يُوزِنُونَ

بِشِعْرِهِ (يُرِيدُ أَمْرًا الْقَيْسِ) فَلَنَا وَفَلَانًا ، وَيَضْمُونُ أَشْعَارَهُمْ إِلَى شِعْرِهِ ، حَتَّى رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شِعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تَوَفَّى الْبَاقِلَانِي سَنَةَ ٤٠٣ هـ لِلْهِجْرَةِ) وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِي أَشْيَاءَ لَطِيفَةٍ وَأُمُورٍ بَدِيعَةٍ ، وَرُبَّمَا فَضَّلُوهُمْ عَلَيْهِ أَوْ سَوَّاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقْدِيمِهِ عَلَيْهِمْ وَبُرُوزَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . انْتَهَى .

وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ أَضْلُ فِي الْبَلَاغَةِ ، قَدْ مَاتَ وَلَا يَزَالُ يُخْلَقُ ، وَتَطَوَّرَتِ الدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَحْيَى مَعَهَا ، وَبَلَغَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّتُهُ عِنْدَ الْعَايَةِ .

وَعَرَّضَ الْبَاقِلَانِي فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةً أَمْرِي الْقَيْسِ^(١) ، فَانْتَقَدَ مِنْهَا أَبْيَاتًا كَثِيرَةً ، لِبَدَلِ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَجُودَ شِعْرِ وَأَبْدَعُهُ وَأَفْصَحُهُ وَمَا أَجْمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِهِ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْبَيَانِ ، هُوَ قَبِيلُ آخَرٍ غَيْرِ نَظْمِ الْقُرْآنِ ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ أَفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَنَقْصِهَا وَعَوَارِهَا ؛ فَكَبَّ فِي ذَلِكَ رَأْسَهُ وَرَجَلِيهِ مَعًا . . فَاصَابَ وَأَخْطَأَ ، وَتَعَسَّفَ وَتَهَدَّى ، وَأَنْصَفَ وَتَحَامَلَ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَكَانَةِ أَمْرِي الْقَيْسِ فِي ابْتِكَارِهِ الْبَيَانِيِّ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْفَعَ عَنْهُ ؛ وَلَمَّا انْتَقَدَ قَوْلَهُ [من الطويل] :

وَبَيَضَةُ خِذْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ فِي لَهْرِ بِهَا غَيْرُ مُعْجَلٍ
قَالَ : « فَقَدْ قَالُوا : عَنَى بِذَلِكَ أَنَّهَا كَبِيضَةُ خِذْرِ فِي صَفَائِهَا وَرِقَّتِهَا ، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ وَلَكِنْ لَمْ يُسَبِّحْ إِلَيْهَا بَلْ هِيَ دَائِرَةٌ فِي أَفْوَاهِ الْعَرَبِ » أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ كَانَ الْبَاقِلَانِي يَسْمَعُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعَرَبِ فِي عَضْرِ أَمْرِي الْقَيْسِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ (وَبَيَضَةُ خِذْرِ) ؟

عَلَى أَنَّ الْكِتَابَةَ عَنِ الْحَبِيبَةِ (بَيَضَةُ الْخِذْرِ) مِنْ أَبْدَعِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنِ مَا يُؤْتَى الْعَقْلُ الشَّعْرِي ، وَلَوْ قَالَهَا الْيَوْمَ شَاعِرٌ فِي لُنْدُنَ London أَوْ بَارِيسَ Paris بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أَمْرُو الْقَيْسِ - لَا بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ الْبَاقِلَانِي - لَاسْتَبَدَّتْ مِنْ قَائِلِهَا وَلَأَصْبَحَتْ مَعَ الْقُبْلَةِ عَلَى كُلِّ فَمٍ جَمِيلٍ ؛ بَلْ هُمْ يَمْرُونُ فِي بَعْضِ بَيَانِهِمْ مِنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ؛ فَيَكُونُونَ عَنِ الْبَيْتِ الَّذِي يَتَلَاوَى فِيهِ الْحَبِيبَانِ (بِالْعُشِّ) وَمَا يُتَّخَذُ الْعُشُّ إِلَّا لِلْبَيَضَةِ إِمَّا عَنَى الشَّاعِرُ الْعَظِيمُ أَنَّ حَبِيبَتَهُ

(١) أَيِ : مُعَلَّفَتُهُ ، وَهَذِهِ الْفَصَائِدُ الَّتِي تُسَمَّى الْمُعَلَّقَاتُ لَمْ تُكْتَبْ وَلَمْ تُعَلَّفْ كَمَا سَبَّيْتُ فِي « تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ » . (قُلْتُ : أَنْظُرِ الْجُزْءَ الثَّلَاثَ) .

فِي نُعُومَتِهَا وَتَرَفِهَا وَلَيْنَ مَا حَوْلَهَا ، ثُمَّ فِي مَسَّهَا وَحَرَارَةِ الشَّبَابِ فِيهَا ، ثُمَّ فِي رِقَّتِهَا
وَصَفَاءِ لَوْنِهَا وَبَرِّيقِهَا ، ثُمَّ فِي قِيَامِ أَهْلِهَا وَذَوْنِهَا عَلَيْهَا وَلُزُومِهِمْ إِيَّاهَا ، ثُمَّ فِي حَذَرِهِمْ
وَسَهَرِهِمْ ، ثُمَّ فِي أَنْصِرَافِهِمْ بِجُمْلَةِ الْحَيَاةِ إِلَى شَأْنِهَا وَبِجُمْلَةِ الْقُوَّةِ إِلَى حِيَاطَتِهَا وَالْمُحَامَاةِ
عَنْهَا - هِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَمِنْ نَفْسِهَا كَبَيْضَةِ الْجَارِحِ فِي عُشِّهِ ، إِلَّا أَنَّهَا بَيْضَةُ خَدِرٍ ،
وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ هَذَا أَلْبَيْتِ [من الطويل] :

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعَشَرًا عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي
فَتِلْكَ بَعْضُ مَعَانِي الْكَلِمَةِ وَهِيَ كَمَا تَرَى ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ الْبَيَانُ ..

*

*

*

الْبُؤْسَاءُ (*)

تَرَجَمَ حَافِظُ هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْبُؤْسَاءِ فَطَوَى بِهِ الْأَوَّلَ ، وَكَانُوا يَحْسِبُونَ الْأَوَّلَ قَدْ عَقِمَتْ بِمِثْلِهِ الْبَلَاغَةُ فَلَا ثَانِي لَهُ . وَبَيْنَ الْجُزْأَيْنِ زَمَنٌ لَوْ اتَّسَعَ بِهِ أُدِيبَتْ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِ الْأَدَبِ لَا اسْتَوْعَبَهَا كُلُّهَا ، فَكَانَ ارْتِفَاعُ السَّنِّ بِحَافِظٍ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ جَعَلَ مِنْهُ فِي قُوَّةِ الْأَدَبِ حَافِظَيْنِ يَتَرَجِّمَانِ مَعًا .

وَمَا الْبُؤْسَاءُ فِي تَرَجْمَتِهِ إِلَّا فِكْرُ فَيْلَسُوفٍ تَعَلَّقَ فِي قَلَمِ شَاعِرٍ فَأَنْعَطَفَتْ عَلَيْهِ حَوَاشِي النِّبَاتِ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ ، وَجَاءَ مَا تَدْرِي أَشْعَرًا مِنَ الشَّرِّ أَمْ نَثْرًا مِنَ الشُّعْرِ ! ؟ وَخَرَجَتْ بِهِ الْكِتَابَةُ فِي لَوْنٍ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ كَأَنَّمَا تَنْحَلُّ عَلَيْهِ أَشْعَةُ الضُّحَى .

تَرَجَمَ حَافِظُ فَوَضَعَ اللُّغَةَ بَيْنَ فِكْرِهِ وَلِسَانِهِ ، وَوَقَفَ تَحْتَ سَحَابَةٍ مِنَ السُّحُبِ الَّتِي خَفَقَ عَلَيْهَا جَنَاحُ جِبْرِيلَ ، فَمَا تَخْلُوُ كِتَابَةً مِنْ ظِلٍّ يَنْتَفُسُ عَلَيْكَ بِرَاحَةِ الْإِعْجَازِ وَتَرَاهُ يَتَحَدَّرُ مَعَ الْكَلَامِ وَيَتَنَاوَلُ مِنْهُ وَيَدْعُ ، فَمَا نَزَعَ بِهِ الْكَلَامَ مَنْرَعًا إِلَّا وَجَدَهُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ وَأَصَابَهُ حَيْثُ أَصَابَهُ كَالنِّبَارِ جُمْلَةً وَاحِدَةً تَلَفَ أَوَّلَ النَّهْرِ وَآخِرَهُ عَلَى مَدٍّ مَا يَجْرِي ؛ فَهُوَ حَيْثُ كَانَ فِي السَّهْلِ وَفِي الصَّغْبِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَسْتَسِرُّ فِي مَوْضِعٍ وَيَسْتَعْلِنُ فِي مَوْضِعٍ ، وَيَجِيئُ وَيَهْدُرُ وَيَتَرَامَى فِي الْعُمُقِ فَيَدْرِي دَوِيًّا .

وَمِنْ هُنَا يَحْسِبُهُ بَعْضُهُمْ يَجَنِّحُ إِلَى مَا يُسْتَجَفَى مِنَ الْكَلَامِ ، وَإِلَى اسْتِكْرَاهِ بَعْضِ الْأَلْفَافِ وَالتَّكَلُّفِ لِبَعْضِهَا ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ وَضْعٌ مِنْ أَوْضَاعِ اللُّغَةِ وَمَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَلَاغَةِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَشْتَدَّ الْقَوْلُ وَلَيَلِينَ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي أَجْرَاسِ الْحُرُوفِ مَا فِي نَعَمِ الْإِنْقَاعِ ؛ وَمَا أَشَبَهُ هُنْدَسَةَ النِّبَاتِ بِهِنْدَسَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَغْمِزُ النَّهْرَ وَتَرْمِي بِالْبَحْرِ وَتَقْذِفُ بِالْجِبَلِ الْأَشْشَمِ ، وَمَا الْجِبَلُ لَوْ حَقَّقَتْ فِي وَجْهِهِ التَّنَاسُبِ الطَّبِيعِيِّ إِلَّا بَخْرٌ قَدْ تَحَجَّرَ فَانْتَشَرَتْ أَمْوَاجُهُ مِنْ صُخُورِهِ ، وَكِلَا أَثْنَيْهِمَا عَلَى مَا بَيْنَ الصَّلَاحَةِ وَاللَّيْنِ تَعْبِيرٌ فِي أَسَالِيْبِ

(*) { كَتَبَهَا عَنِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْبُؤْسَاءِ ؛ وَأَنْظُرْ مَقَالِي الْمَوْثِقَ عَنْ حَافِظٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ {

الْقُوَّةَ عَنِ الْقُوَّةِ ، وَتَوْضِيحُ لِقُوَى مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ ، بِأَقْوَى مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى .
يُخْطِئُ الضَّعَافُ مِنَ الْكُتَّابِ وَبِخَاصَّةٍ فِي أَبَائِنَا هَذِهِ . . . إِذَا حَسِبُوا الْفَصَاحَةَ الْعَرَبِيَّةَ
قَبِيلًا وَاحِدًا مِنَ اللَّفْظِ الْمَانُوسِ ، وَلَقَدْ تَجَدَّ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ وَإِنَّهُ لَيَرَى فِي الْكَلَامِ
الْجَزَلِ الْمُتَفَضِّلِ مَا يَرَى فِي جَمْعَةِ الْأَعَاجِمِ إِذَا نَطَقُوا فَلَمْ يَبِينُوا ، وَإِنَّمَا هِيَ الْعَرَبِيَّةُ ،
وَإِنَّمَا فَصَاحَتُهَا فِي مَجْمُوعٍ مَا يَطْرُدُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْفَصَاحَةُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا وَإِحْكَامِ
التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي وَالْعَرَضِ الَّذِي يَتَّجِعُ إِلَيْهِ كِلَاهُمَا ، فَمَتَى فَصَلَ الْكَلَامُ عَلَى
هَذَا الْوَجْهِ وَأَحْكَمَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، رَأَيْتَ جَمَالَهُ وَاضِحًا بَيِّنًا فِي كُلِّ لَفْظٍ تَقَرُّمٌ بِهِ
الْعِبَارَةُ ، مِنَ النَّسِجِ الْمَهْلَهْلِ الرَّقِيقِ ، إِلَى الْحَبَكِ الْمُحْكَمِ الدَّقِيقِ ، إِلَى الْأُسْلُوبِ
الْمُنْدَمِجِ الْمُؤْتَقِ الَّذِي يُسَرِّدُ فِي قُوَّةِ الْحَدِيدِ ، إِذْ يَكُونُ كُلُّ حَرْفٍ لِمَوْضِعِهِ ، وَيَكُونُ كُلُّ
مَوْضِعٍ لِحَرْفِهِ ، وَيَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ بِمِقْدَارٍ لَا يُسْرِفُ ، وَقِيَاسٍ لَا يُخْطِئُ ، وَوزنٍ
لَا يَخْتَلِفُ ، وَهَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْفَصَاحَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ سَائِرِ اللُّغَاتِ ، وَبِهَا أُمْكِنُ الْإِعْجَازِ فِي
هَذِهِ اللُّغَةِ وَلَمْ يُمْكِنُ فِي سِوَاهَا .

وَمُتَرَجِمُ الْبُؤْسَاءِ أَحَدُ الْأَفْرَادِ الْمَعْدُودِينَ الَّذِينَ أَحْكَمُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ وَنَفَذُوا إِلَى
أَسْرَارِهَا ، فَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابَتِهِ مَوْضِعٌ رَوْعَةٍ ، حَتَّى مَا تَذَرِي أَيْكُتُبُ أَمْ يَصُوغُ أَوْ
يُصَوِّرُ ؟ وَكَأَنَّهُ لَا يَنْقُلُ مِنْ لِسَانٍ إِلَى لِسَانٍ بَلْ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، فَتَرَى أَكْثَرَ جُمْلَةٍ كَأَنَّهَا
تُضِيءُ فِيهَا الْمَصَابِيحُ .

وَمِنَ الْخَوَاصِّ الَّتِي أَنْفَرَدَ بِهَا حَافِظٌ أَنَّهُ ظَاهِرٌ فِي صَنَعَةِ الْأَفَاطَةِ ظُهُورَ هِنُغُو Hugo فِي
صَنَعَةِ مَعَانِيهِ ، إِذْ لَا تَجِدُ غَيْرَهُ مِنَ الْمُتَرَجِمِينَ يَسْعُ لِهَذَا الْأُسْلُوبِ أَوْ يُطَبِّقُهُ ، وَأَكْثَرُ الْكُتُبِ
الْمُتَرَجِمَةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا تَطْمِسُ عَلَى اسْمِ الْمُتَرَجِمِ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ عَنْ اسْمِ الْمُؤَلِّفِ ، فَلَا
يَخِيَا أَلْمِثَ إِلَّا بِمَوْتِ الْحَيِّ ، وَهُمْ فِي أَكْثَرِ مَا يَصْنَعُونَ لَا يَعْدُونَ أَنْ يُصَحِّحُوا الْعَامِيَّةَ أَوْ
يُفَصِّحُوا بِهَا قَلِيلًا ، فَيَسْتَوِي فِي صَنَعَةِ الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ نَاقِلَ الْكِتَابِ هَذَا أَوْ ذَاكَ أَوْ ذَلِكَ ،
لَا نَهْمُ سَوَاسِيَّةً ، وَلَا تَوْنِيكَ كُتُبُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤْنِيكَ الْأَسْمُ الْمَعْلُوقُ عَلَى مُسَمَّاهُ .

غَيْرَ أَنَّكَ فِي الْبُؤْسَاءِ تَرَى مَعَ التَّرْجَمَةِ صَنَعَةَ غَيْرِ التَّرْجَمَةِ ، وَكَأَنَّمَا أَلْفَ هِنُجُو هَذَا
الْكِتَابَ مَرَّةً وَالْأَفَافَ حَافِظَ مَرَّتَيْنِ ، إِذْ يَنْقُلُ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، ثُمَّ يَفْتَنُ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا يَنْقُلُ ، ثُمَّ

يُخَكِّمُ الصَّنْعَةَ فَيَمَّا يَفْتَنُ ، ثُمَّ يُبَالِغُ فَيَمَّا يُخَكِّمُ ، فَأَنْتَ مِنْ كِتَابِهِ فِي لُغَةِ التَّرْجَمَةِ ، ثُمَّ فِي بَيَانِ اللَّغَةِ ، ثُمَّ فِي قُوَّةِ الْبَيَانِ ؛ وَبِهَذَا خَرَجَ الْكِتَابُ وَإِنَّ مُتَرْجِمَهُ لَأَحَقُّ بِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مُؤَلِّفِهِ ، وَجَاءَ وَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ لِحَافِظِ دُونَ سِرَّاهُ .

وَتِلْكَ طَرِيقَةٌ فِي الْكِتَابَةِ لَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْأَدَبِ الْغَزِيرِ ، وَالذَّوْقِ النَّاضِجِ ، وَالْبَيَانِ الْمَطْبُوعِ ؛ ثُمَّ بِالصَّبْرِ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ وَمُعَانَاةِ الْكَدِّ فِي تَخْيِيرِ اللَّفْظِ وَتَجْوِيدِ الْأَسْلُوبِ وَتَصْفِيَةِ الْعِبَارَةِ ، فَلَقَدْ بَنَيْتُ الْكَاتِبَ وَقْتًا فِي عُمُرِ اللَّيْلِ لِيُخْرِجَ مِنْ آخِرِهِ سَطْرًا فِي نُورِ الْفَجْرِ ، وَبِهَذَا الصَّنِيعِ جَاءَتْ صَفَحَاتُ الْبُؤْسَاءِ عَلَى قَلْبِهَا كَشَبَابِ الْهَوَى : لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فَجْرَةٌ وَشَمْسُهُ ، وَلِكُلِّ لَيْلَةٍ قَمَرُهَا وَنُجُومُهَا .

* * *

وَالَّذِي نَعْتَمِرُهُ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ أَنَّ الضَّجَرَ يَسْتَبِيدُ أحيانًا بِصَاحِبِنَا فَيَسْتَكْرِهُهُ عَلَى غَيْرِ طَبْعِهِ ، وَيُرِذُّهُ إِلَى غَيْرِ مَأْلُوفِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَضْطَرُّ ذَوْقُهُ وَسَلِيْقَتُهُ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ عَنْهُمَا ، فَيَعْدِلُ بِالْمَعْنَى عَنْ لَفْظِهِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْأُدَبَاءُ فِيهِ كَاسْتِعْمَالِهِ : قَارِنْ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا ، وَإِنَّمَا يَسْتَغْمِلُونَ مِثْلَ بَيْنَهُمَا ، أَوْ يُخِلُّ بِوِزْنِ الْكَلِمَةِ فِي مِيزَانِ الذَّوْقِ ، فَتَرَى الْعِبَارَةَ الْيَاسِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي تَرُفُّ ، وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ فَيَمْنِ أَرْتَهَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَلَابَسَةِ الْقُوَّةِ الْعُلْيَا فِي هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَلَمْ يَتَنَزَّ عَنْهُ كِتَابٌ إِلَّا ذَلِكَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي أَهْتَرَتْ لَهُ السَّمَلَوَاتُ السَّيْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .

* * *

أَمَلَا حُ النَّائِيَةِ (*)

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ عَنْ شِعْرِ قَرَأْتُهُ ، كَانَ مِنْ دَائِي أَنْ أَفْرَأَهُ مُتَبَيَّنًا أَتَصَفَّحُ عَلَيْهِ فِي الْحَرْفِ
وَالْكَلِمَةِ ، إِلَى الْبَيْتِ وَالْقَصِيدَةِ ، إِلَى الطَّرِيقَةِ وَالنَّهْجِ ، إِلَى مَا وَرَاءَ الْكَلَامِ مِنْ بَوَاعِثِ
النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ ، وَدَوَافِعِ الْحَيَاةِ فِيهَا ، وَعَنْ أَيِّ أَحْوَالِ هَذِهِ النَّفْسِ يَصْدُرُ هَذَا الشَّعْرُ ،
وَبِأَيِّهَا يَتَسَبَّبُ إِلَى الْإِلَهَامِ ، وَفِي أَيِّهَا يَتَّصِلُ الْإِلَهَامُ بِهِ ، وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِمَعَانِيهِ ، وَكَيْفَ
يَسْتَرْسِلُ إِلَى طَبْعِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ الْمَأْتَى فِي رَدِّيهِ وَسَقَطِهِ ، وَبِمَاذَا يَسْلُكُ إِلَى تَجْوِيدِهِ وَإِبْدَاعِهِ ؟
ثُمَّ كَيْفَ حِدَّةَ قَرْنِيحَتِهِ وَدَكَاةَ فِكْرِهِ وَالْمَلَكَةَ النَّفْسِيَّةَ الْبَيِّنَاتِيَّةَ فِيهِ ، وَهَلْ هِيَ جَبَّارَةٌ مُتَعَسِّفَةٌ
تَمْلِكُ الْبَيَانَ مِنْ حُدُودِ اللَّغَةِ فِي اللَّفْظِ إِلَى حُدُودِ الْإِلَهَامِ فِي الْمَعْنَى ، مَلَكَةٌ اسْتِفْلَالٍ تَفُذُّ
بِالْأَمْرِ وَالْأَهْمِيَّةِ جَمِيعًا ، أَوْ هِيَ ضَعِيفَةٌ رَخْوَةٌ لَيْسَ مَعَهَا إِلَّا الْإِخْتِلَالُ وَالْاضْطِرَابُ ، وَلَيْسَ
لَهَا إِلَّا مَا يَحْمِلُ الضَّعِيفَ عَلَى طَبْعِهِ الْمَكْدُودِ كُلَّمَا عَنَّفَ بِهِ سَقَطَ بِهِ ؟

أَتَبَيَّنُ كُلَّ هَذَا فِيمَا أَقْرَأُ مِنَ الشَّعْرِ ، ثُمَّ أَرِيدُ عَلَيْهِ اتِّقَادَهُ بِمَا كُنْتُ أَصْنَعُهُ أَنَا لَوْ أَنِّي
عَالَجْتُ هَذَا الْغَرَضَ أَوْ تَنَاوَلْتُ هَذَا الْمَعْنَى ، ثُمَّ أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مَا أَتَيْتُهُ مِنْ أَنْوَاعِ
الْإِهْتِزَازِ الَّتِي يُحْدِثُهَا الشَّعْرُ فِي نَفْسِي ؛ فَإِنِّي لَا طَرَبَ لِلشَّعْرِ الْجَيِّدِ الْوَتِيقِ أَنْوَاعًا مِنَ الطَّرَبِ
لَا نَوْعًا وَاحِدًا ، وَهِيَ تُشَبِّهُ فِي التَّفَاوُتِ مَا بَيْنَ قَطْرَةِ الْكَلْبِ الْأَصْفِيَّةِ فِي وَرَقِ الزَّنْبَقِ وَقَطْرَةِ
الشَّعَاعَةِ الْمُتَالِفَةِ فِي جَوْهَرِ الْمَاسَةِ وَمَوْجَةِ الثُّورِ الْمُتَالِفَةِ فِي كَوَكَبِ الزُّهْرَةِ .

وَأَكْثَرَ الشَّعْرِ الَّذِي يُنْظَمُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ لَا يَتَّصِلُ بِنَفْسِي ، وَلَا يَخِفُّ عَلَى طَبْعِي ، وَلَا
أَرَاهُ يَقَعُ مِنَ الشَّعْرِ الصَّحِيحِ إِلَّا مِنْ بَعْدُ ، وَهُوَ مِنِّي أَنَا كَالرَّجُلِ يَمُرُّ بِي فِي الطَّرِيقِ
لَا أَعْرِفُهُ : فَلَا يَنْظُرُ إِلَيَّ وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَبْصُرُ مِنْهُ رَجُلًا وَنِسَانِيَّةً وَحَيَاةً أَكْثَرَ مِمَّا أَرَاهُ
ثَوْبًا وَحِذَاءً وَطَرَبُوشًا ؛ وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ كُلَّمَا ضَعُفَ الشَّاعِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ قَرَيْ عَلَى مِقْدَارِ ذَلِكَ
فِي الْإِخْتِجَاجِ لِضَعْفِهِ ، وَالْأَلْهِمَ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحُجَجِ مَا لَوْ أَلْهِمَ بِعَدَدِهِ مِنَ الْمَعَانِي

(*) { دِيْوَانُ الشَّاعِرِ الْمُهَنْدِسِ عَلِيِّ مَحْمُودِ طَهْ . وَأَنْظُرُ فِي التَّقْدِ مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ» . }

وَالْخَوَاطِرِ لَكَانَ عَسَى . .

فَإِذَا نَافَرَتِ الْمَعَانِي الْقَاطِطَهَا وَاخْتَلَفَتِ الْأَلْفَاطُ عَلَى مَعَانِيهَا قَالَ : إِنَّ هَذَا فِي الْقَلَمِ . .
هُوَ الْأَسْتَوَاءُ وَالْأَطْرَادُ وَالْمُلَاءِمَةُ وَقُوَّةُ الْحَبِكِ ، وَإِذَا عَوِصَ وَخَانَهُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا
وَأَسَاءَ لِيَتَكَلَّفَ وَتَسَافَطَ لِيَتَحَذَلْنَ وَجَاءَكَ بِشِعْرِهِ وَتَفْسِيرِ شِعْرِهِ وَالطَّرِيقَةَ لِفَهْمِ شِعْرِهِ قَالَ :
إِنَّهُ أَعْلَى مِنْ إِذْ ذَاكَ مُعَاصِرِيهِ ، وَإِنْ عَجَزَ فَرَفَقَ مَعَانِيهِ هَذِهِ آيَةٌ مِنْ أَنَّ شِعْرَهُ مِنْ وَرَاءِ اللَّغَةِ ،
مِنْ وَرَاءِ الْحَالَةِ التَّنْصِيَةِ ، مِنْ وَرَاءِ الْعَصْرِ ، مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ ؛ كَأَنَّ الْمَوْجُودَ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ
النَّاسِ هُوَ ظِلُّ شَخْصِهِ لَا شَخْصُهُ ، وَالظِّلُّ بِطَبِيعَتِهِ مَطْمُونٌ مِنْهُمْ لَا يُبَيِّنُ إِبَانَةَ الشَّخْصِ .
وَإِذَا أَهْلَكَ الشَّاعِرُ الْأَسْتِعَارَةَ وَأَمْرَضَ التَّشْبِيهَ وَخَنَقَ الْمَجَازَ بِحَبْلِ - قَالَ لَكَ : إِنَّهُ عَلَى
الطَّرِيقَةِ الْعَصْرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا سَدَّدَ وَقَارَبَ وَأَصَابَ وَأَحْكَمَ . وَإِذَا سَمَى الْمَقَالَهَ قَصِيدَةً . . .
وَخَلَطَ فِيهَا خَلْطَهُ ، وَجَاءَ بِهَا فِي أَسْوَأِ مَعْرِضٍ وَأَقْبَحِهِ ، وَخَرَجَ إِلَى مَا لَا يَطَاقُ مِنَ الرِّكَائِكَةِ
وَالْعَثَائِكَةِ - قَالَ لَكَ : هَذِهِ هِيَ وَحْدَةُ الْقَصِيدَةِ ، فَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ أَفْرِغَ إِفْرَاقَ الْجِسْمِ الْحَيِّ ،
رَأْسُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ رَأْسِهِ ، وَرِجْلَاهُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ رِجْلَيْهِ . . .

تِلْكَ طَبَقَاتٌ مِنَ الضَّعْفِ تَظَاهَرَتْ أَلْحَجُّجٌ مِنْ أَصْحَابِهَا عَلَى أَنَّهَا طَبَقَاتٌ مِنَ الْقُوَّةِ ،
غَيْرَ أَنَّ مُصْداقَ الشَّهَادَةِ لِلْأَقْوَبَاءِ عِظَامُهُمُ الْمَشْبُوحَةُ ، وَعِضْلَانُهُمُ الْمَفْتُولَةُ ، وَقُلُوبُهُمُ
الْجَرِيئَةُ ، أَمَّا الْأَلْسِنَةُ فَهِيَ شُهُودُ الزُّورِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خَاصَّةً .

* * *

هُنَاكَ مِيزَانٌ لِلشَّاعِرِ الصَّحِيحِ وَالْآخِرِ الْمُتَشَاعِرِ : فَالْأَوَّلُ تَأْخُذُ مِنْ طَرِيقَتِهِ وَمَجْمُوعِ
شِعْرِهِ أَنَّهُ مَا نَظَّمَ إِلَّا لِيُثَبَّتَ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ شِعْرًا ، وَالثَّانِي تَأْخُذُ مِنْ شِعْرِهِ وَطَرِيقَتِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا نَظَّمَ
لِيُثَبَّتَ أَنَّهُ قَرَأَ شِعْرًا . . . وَهَذَا الثَّانِي يُشْعِرُكَ بِضَعْفِهِ وَتَلَفِيقِهِ أَنَّهُ يَخْذُمُ الشَّعْرَ لِيَكُونَ
شَاعِرًا ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ يُرِيكَ بِقُوَّتِهِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ أَنَّ الشَّعْرَ نَفْسَهُ يَخْذُمُهُ لِيَكُونَ هُوَ شَاعِرُهُ .

أَمَّا فَرِيقُ الْمُتَشَاعِرِينَ فَلْيُمَثِّلْ لَهُ الْقَارِئُ بِمَنْ شَاءَ وَهُوَ فِي سَعَةِ . . . وَأَمَّا فَرِيقُ الشَّعْرَاءِ
فَفِي أَوَائِلِ أَمَلَتِهِ عِنْدِي الشَّاعِرُ الْمُهَنْدِسُ عَلِي مَحْمُود طَلَهَ . أَشْهَدُ أَنِّي أَكْتُبُ عَنْهُ الْآنَ بِنَوْعٍ
مِنْ الْإِعْجَابِ الَّذِي كَتَبْتُ بِهِ فِي « الْمُقْتَطَفِ » عَنْ أَصْدِقَائِي الْقُدَمَاءِ : مَحْمُودُ بَاشَا
الْبَارُودِي ، وَإِسْمَاعِيلُ بَاشَا صَبْرِي ، وَحَافِظُ ، وَشَوْقِي ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَأَطَالَ بَقَاءُ

صَاحِبِنَا ؛ فَهَذَا الشَّابُّ الْمُهَنْدِسُ أُوْتِيَ مِنْ هَنْدَسَةِ الْبِنَاءِ قُوَّةَ التَّمْيِيزِ وَدَقَّةَ الْمَحَاسِبَةِ ،
وَوُهَبَ مَلَكَهَ الْفَضْلَ بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ فِي الْأَشْكَالِ مِمَّا عَلَّمَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ وَمَا عَلَّمَتْهُ مِنَ
الذَّوْقِ ، وَهَذَا إِلَى جَلَاءِ الْفِطْنَةِ وَصِقَالِ الطَّبْعِ وَتَمَوُّجِ الْخَيَالِ وَانْفِسَاحِ الذَّاكِرَةِ وَانْتِظَامِ
الْأَشْيَاءِ فِيهَا ؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ اسْتَعَانَ فِي شِعْرِهِ وَقَدْ خَلَقَ مُهَنْدِسًا شَاعِرًا ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ خَلَقَ
شَاعِرًا مُهَنْدِسًا ؛ وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْ لِهَذَا الشَّاعِرِ الْكَرِيمِ تَعَلُّمَ الْهَنْدَسَةِ وَمَرَاوَلَتَهَا
وَالْمَهَارَةَ فِيهَا إِلَّا لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَنْبُغُ نُبُوغُهُ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي زَمَنِ الْقَوْضَى وَعَهْدِ
التَّقْلِيلِ ، وَحِينَ فَسَادِ الطَّرِيقَةِ وَتَخَلُّفِ الْأَدَوَاتِ وَتَرَاجُعِ الطَّبْعِ وَوُقُوعِ الْعَلَطِ فِي هَذَا
الْمَنْطِقِ لِانْعِكَاسِ الْفُضِيَّةِ ، فَيَكُونُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ هَذَا شَاعِرًا وَذَلِكَ نَابِغَةً وَذَلِكَ عَبَقَرِيٌّ -
هُوَ عَيْنُهُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ لَا شِعْرَ وَلَا نُبُوغَ وَلَا عَبَقَرِيَّةَ ؛ وَهَذِهِ قَوْضَى نَحْتَاجُ فِي تَنْظِيمِهَا
إِلَى (مُصْلَحَةٍ تَنْظِيمٍ) بِالْهَنْدَسَةِ وَالْآتِيَا وَالرِّيَاضَةِ وَأَصُولِهَا وَالْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ وَفُنُونِهَا ،
فَجَاءَ شَاعِرُنَا هَذَا وَفِيهِ الطُّبُّ لِمَا وَصَفْنَا ؛ فَهُوَ يَنْظِمُ شِعْرَهُ بِقَرِينَةٍ بَيَانِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ ، أَسَاسُهَا
الْإِتْرَانُ وَالضَّبْطُ ، وَصَوَابُ الْحُسْبَةِ فِيمَا يُقَدَّرُ لِلْمَعْنَى ، وَإِبْدَاعُ الشَّكْلِ فِيمَا يُنْشَى مِنَ
الْلَفْظِ ، وَالْأَلَّا يَتْرَكَ الْبِنَاءَ الشَّعْرِيَّ قَائِمًا لِيَقَعَ إِذْ يَكُونُ وَاهِنًا فِي أَسَاسِهِ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، بَلْ
لِيَبْتُتَ ، إِذْ يَكُونُ أَسَاسُهُ مِنَ الصَّنَاعَةِ فِي رُسُوخٍ وَعَلَى قَدَرٍ .

وَدِيْوَانُ « الْمَلَّاحِ النَّائِي » الَّذِي أَخْرَجَهُ هَذَا الشَّاعِرُ لَا يَنْزِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ شِعْرِ الْعَصْرِ
ذُوْنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْثَانًا إِلَيْهِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَعْتَبِرَ مَا فِيهِ بِشِعْرِ الْآخَرِينَ حَتَّى تَجِدَ
الشَّاعِرَ الْمُهَنْدِسَ كَأَنَّهُ قَادِمٌ لِلْعَصْرِ مُحَمَّلًا بِذَهْنِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَالْآتِيَةِ وَمَقَائِيسِهِ لِیُصْلِحَ
مَا فَسَدَ ، وَيُقَيِّمَ مَا تَدَاعَى ، وَيُرْمِمَ مَا تَخَرَّبَ ، وَيَهْدِمَ وَيَبْنِي .

* * *

دِيْوَانُ الشَّاعِرِ الْحَقِّ هُوَ إِبْتِاثُ شَخْصِيَّتِهِ بِبَرَاهِينٍ مِنْ رُوحِهِ ؛ وَهَذَا هُنَا فِي « الْمَلَّاحِ
النَّائِي » رُوحٌ قُوَّةٌ فَلْسَفِيَّةٌ بَيَانِيَّةٌ ، تُؤْتِنُكَ الشَّعْرُ الْجَيِّدُ الَّذِي تَقْرُؤُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ
وَالذَّوْقِ ، وَتَرَاهُ كِفَاءً أَغْرَاضِهِ الَّتِي يَنْظِمُ فِيهَا ؛ فَهُوَ مُكْثِرٌ حِينَ يَكُونُ الْإِكْتَارُ شِعْرًا ، مُقِلٌّ
حِينَ يَكُونُ الشَّعْرُ هُوَ الْإِفْقَالُ ؛ ثُمَّ هُوَ عَلَى ذَلِكَ مَتِينٌ رَصِينٌ ، بَارِعٌ الْخَيَالِ ، وَاسِعُ
الْإِحَاطَةِ ، تَرَاهُ كَالدَّائِرَةِ : يَضَعُكَ بِكَ مُحِيطُهَا وَيَهْبِطُ لَا مِنْ أَنَّهُ نَازِلٌ أَوْ عَالٍ ، وَلَكِنْ مِنْ

أَنَّهُ مُلْتَفٌّ مُنْدَمِجٌ ، مَوْزُونٌ مُقَدَّرٌ ، وَضِعَ وَضَعُهُ ذَلِكَ لِيَطُوحَ بِكَ .

هُوَ شِعْرٌ تَعْرِفُ فِيهِ فَنِيَّةَ الْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ مَنْ لَا يَنْقُلُ لَكَ عَنِ الْحَيَاةِ نَقْلًا فَنِيًّا شِعْرِيًّا ، فَتَرَى الشَّيْءَ فِي الطَّبِيعَةِ كَأَنَّهُ مُوجُودٌ بِظَاهِرِهِ فَقَطْ ، وَتَرَاهُ فِي الشَّعْرِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ مَعًا ، وَلَيْسَ بِشِعْرٍ مَا إِذَا قَرَأْتَهُ ، وَاسْتَرَسَلْتَ إِلَيْهِ ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَجْهًا مِنْ وَجْهِهِ أَلْفَهُمْ وَالتَّصَوُّيرِ لِلْحَيَاةِ وَالطَّبِيعَةِ فِي نَفْسٍ مُنْتَازَةٍ مُذْرِكَةٍ مُصَوَّرَةٍ .

وَلِهَذَا فَلَيْسَ مِنَ الشَّرْطِ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ عَصْرُ الشَّاعِرِ وَيَنْتَهِي فِي شِعْرِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّرْطُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ نَفْسُ الشَّاعِرَةِ عَلَى طَرِيقَتِهَا فِي أَلْفَهُمْ وَالتَّصَوُّيرِ ، وَأَنْتَ تَنْتَبِهُ هَلِ هَذِهِ النَّفْسُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْ لَهَا أَنْ تَقُولَ كَلِمَتَهَا الْجَدِيدَةَ ، وَأَنَّهَا مُحَوَّلَةٌ لَهَا الْحَقُّ فِي أَنْ تَقُولَهَا ، إِذْ هِيَ لِلْعُقُولِ وَالْأَرْوَاحِ أُخْتُ الْكَلِمَةِ الْقَدِيمَةِ : كَلِمَةِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا النُّبُوَّةُ مِنْ قَبْلُ .

وَلَيْسَ فِي شِعْرِ عَلِيٍّ طَلَعٌ مِنْ عَصْرِيَّتِنَا غَيْرُ الْقَلِيلِ ، وَلَكِنَّ الْعَجِيبَ أَنَّهُ لَا يَنْظُمُ فِي هَذَا الْقَلِيلِ إِلَّا حِينَ يَخْرُجُ الْمَعْنَى مِنْ عَصْرِهِ وَيَلْتَحِقُ بِالتَّارِيخِ ، كَرِثَاءِ شَوْقِي وَحَافِظِ ، وَعَذْلِي بَاشَا ، وَفَوْزِي الْمَغْلُوفِ ، وَالطَّيَّارَيْنِ : دُوسٍ وَحَجَّاجِ ، وَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ فَيَصِلُ ؛ فَإِنْ يَكُنْ هَذَا التَّنْدِيرُ عَنْ قَصْدٍ وَإِرَادَةٍ فَهُوَ عَجِيبٌ ، وَإِنْ كَانَ اتَّفَاقًا وَمُصَادَفَةً فَهُوَ أَعْجَبُ ؛ عَلَى أَنَّهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَزِمُنِي إِلَى تَمَجِيدِ الْفَنِّ وَالْبُطُولَةِ فِي مَظَاهِرِهَا ، مُتَكَلِّمَةً ، وَسِيَاسِيَّةً ، وَمُغَامِرَةً ، وَمَالِكَةً .

أَمَّا سَائِرُ أَغْرَاضِهِ فَإِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ ، تَتَعَنَّى النَّفْسُ فِي بَعْضِهَا ؛ وَتَمَرَحُ فِي بَعْضِهَا ، وَتُصَلِّي فِي بَعْضِهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا طَبِيشٌ وَلَا فُجُورٌ وَلَا زَنْدَقَةٌ إِلَّا . . . ظِلَالًا مِنَ الْحَيَرَةِ أَوْ الشَّكِّ ، كَتِلْكَ الَّتِي فِي فَصِيدَةِ « اللَّهِ وَالشَّاعِرِ » ، وَأَطْلَعُهُ يَتَابِعُ فِيهَا الْمَعَرِّيَّ ، وَلَسْتُ أَذْرِي كَمْ يَنْخَدِعُ النَّاسُ بِالْمَعَرِّيِّ هَذَا ، وَهُوَ فِي رَأْيِي شَاعِرٌ عَظِيمٌ غَيْرَ أَنَّ لَهُ بِضَاعَةً مِنَ التَّلْفِيقِ تَعْدِلُ مَا تُخْرِجُهُ « لَانْكَشِير Lancashire »^(١) مِنْ بَضَائِعِهَا إِلَى أَسْوَاقِ الدُّنْيَا .

(١) لَانْكَشِير Lancashire : مقاطعة تقع في غرب إنكلترا على البحر الإيرلندي ، اشتهرت منذ القرن

وَمِمَّا يُعْجِبُنِي فِي شِعْرِ عَلِيٍّ طَلَهُ أَنَّهُ فِي مَنَاحِي فَلَسْفَتِهِ وَجِهَاتٍ تَفْكِيرُهُ يُوَافِقُ رَأْيِي الَّذِي
أَرَاهُ دَائِمًا ، وَهُوَ أَنَّ نُورَةَ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَعْرَكَتَهَا الْكُبْرَى مَعَ الْوُجُودِ - لَيْسَتْ فِي ظَاهِرِ
النُّورَةِ وَلَا فِي الْعِرَاكِ مَعَ اللَّهِ كَمَا صَنَعَ الْمَعْرِيُّ وَأَضْرَابُهُ فِي طَيْبِهِمْ وَحَمَاقَتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمَا
فِي الْهُدُوءِ الشَّعْرِيِّ لِلرُّوحِ الْمُتَأَمِّلَةِ ، ذَلِكَ الْهُدُوءُ الَّذِي يَجْعَلُ الطَّبِيعَةَ نَفْسَهَا تَبْتَسِمُ بِكَلَامِ
الشَّاعِرِ كَمَا تَبْتَسِمُ بِأَزْهَارِهَا وَنُجُومِهَا ، وَيَجْعَلُ الشَّاعِرَ أَدَاةَ طَبِيعَةٍ مُتَّخِذَةً لِكَشْفِ الْحِكْمَةِ
وَتَغْطِيهَا مَعًا ، فَإِنَّ الْعَجِيبَ الَّذِي أَعْجَبَ مِنْهُ فِي التَّذْيِيرِ الْإِلَهِيِّ لِلنُّفُوسِ الْحَسَّاسَةِ - أَنَّ
رُخْرَقَةَ الشَّعْرِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ فِي الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنْ رُخْرِفِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَبْتَدِعُ
الشَّكْلَ الْجَمِيلَ لِتُنْتَمَّ أَغْرَاضُهَا مِنْ وَرَائِهِ ؛ وَلَوْ نَارَتْ الْأَزْهَارُ - مَثَلًا - عَلَى الْوُجُودِ وَخَالِقِهِ
نُورَةَ أَوْلَيْكَ الشُّعْرَاءِ لَمَا صَنَعَتْ شَيْئًا غَيْرَ إِفْسَادِ حِكْمَتِهَا هِيَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِئَذِهِ الْحِكْمَةِ مِنَ
الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ ، وَلَكِنْ تَنْتَصِرُ إِلَّا بِبَقَائِهَا أَزْهَارًا ، فَذَلِكَ حَرْبُهَا وَسِلْمُهَا مَعًا .

* * *

وَأُسْلُوبُ شَاعِرِنَا أُسْلُوبُ جَزَلٍ ، أَوْ إِلَى الْجَزَالَةِ ، تَبْدُو اللَّغَةُ فِيهِ وَعَلَيْهَا لَوْنٌ خَاصٌّ
مِنْ أَلْوَانِ النَّفْسِ الْجَمِيلَةِ يَزْهَوُ زُهُوُهُ فَيَكْثُرُ مِنْهُ فِي النَّفْسِ تَأْيِيذُهَا وَجَمَالُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ لُغَةُ
الشَّعْرِ بِخَاصَّتِهِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ نُنَبِّهَ هُنَا إِلَى مَعْنَى غَرِيبٍ ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ النُّظَّامِينَ
يُحْسِنُونَ مِنَ اللَّغَةِ وَفُقُونُ الْأَدَبِ . فَإِذَا نَظَّمُوا وَخَلَا نَظْمُهُمْ مِنْ رُوحِ الشَّعْرِ - ظَهَرَتْ
الْأَلْفَاظُ فِي أَوْرَانِهِمْ وَكَأَنَّهُمَا فَقَدَتْ شَيْئًا مِنْ قِيَمَتِهَا : كَانَ مَوْضِعَهَا فِي هَذَا النَّظْمِ غَيْرَ
مَوْضِعِهَا فِي اللَّغَةِ ، وَمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ وَلَا تَغَيَّرَ ، وَلَكِنْ مَوْضِعُهُ ثُمَّ هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ
إِفْلَاسَهُ ، إِذْ أَقَامَهُ مَقَامَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ ثُمَّ هُوَ إِذَا وَقَفَ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَغْتَدِرَ بِأَنَّهُ
لَمْ يَجِدْ مَا يُعْطِيهِ . . . فَهَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ فِي سِرِّ وَعَافِيَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَ
مَوْقِفَهُ انْقَلَبَ مُدَلِّسًا كَاذِبًا مُدْعِيًا ، فَاخْتَلَفَتْ بِهِ الْحَالُ وَهُوَ هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرَ .

وَمَا الْأُسْلُوبُ الْبَيَانِيُّ إِلَّا وَسِيلَةٌ فَنِيَّةٌ لِمُضَاعَفَةِ التَّعْبِيرِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا يُعْطِيهِ كَانَ
وَسِيلَةً فَنِيَّةً أُخْرَى لِمُضَاعَفَةِ الْحَيَّةِ ، وَهَذَا مَا نُحْسِنُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِ النُّظَّامِينَ أَوْ
الْبَدِيعِيِّينَ فِي الْعُصُورِ الْأَمْنِيَّةِ ، وَنُحْسِنُهُ فِي الشَّعْرِ الْأَمْنِيِّ الَّذِي لَا يَزَالُ يُنْشَرُ بَيْنَنَا .

وَعَلِيٍّ طَلَهُ إِذَا حَرَّصَ عَلَى أُسْلُوبِهِ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَأَسْتَمَرَ يُجْرِيهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْجَيِّدَةِ

مُقَدِّمًا فِيهَا ، مُتَعَمِّقًا فِي أَسْرَارِ الْأَلْفَاظِ وَمَا وَرَاءَ الْأَلْفَاظِ ، وَهِيَ تِلْكَ الزَّوْعَةُ الْبَيَانِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ التَّعْبِيرِ وَلَيْسَ لَهَا اسْمٌ فِي التَّعْبِيرِ ، مُغْتَبِرًا اللُّغَةَ الشَّعْرِيَّةَ - كَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ - تَأْلِيفًا مُوسِقِيًّا لَا تَأْلِيفًا لُغَوِيًّا . . فَإِنَّهُ ، وَلَا رَيْبَ ، سَيَجِدُ مِنْ إِسْنَافِ طَبَعِهِ الْقَوِي ، وَعَوْنُ فِكْرِهِ الْمَشْبُوبِ ، وَالْإِلْهَامِ قَرِيحَتِهِ الْمُوَلَّدَةِ - مَا يَجْمَعُ لَهُ الْبُيُوغُ مِنْ أَطْرَافِهِ ، بِحَيْثُ يَعُدُّهُ الْوُجُودُ مِنْ كِبَارِ مُصَوِّرِيهِ ، وَتَتَّخِذُهُ الْحَيَاةُ مِنْ بُلْغَاءِ الْمُعْبَرِّينَ عَنْهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَنْظِمُهُ الْعَرَبِيَّةُ فِي سِنْمَطِ جَوَاهِرِهَا الْتَارِيخِيَّةِ الثَّمِينَةِ ، وَيَصِلُهُ السَّلْكُ بِشَوْقِي وَحَافِظِ وَالْبَارُودِي وَصَبْرِي ، إِلَى الْمُتَسَبِّيِّ وَالْبُخْتَرِيِّ وَأَبْنِ الرُّومِيِّ وَأَبْنِي تَمَامٍ ، إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، إِلَى الْجَوْهَرَةِ الْكُبْرَى الْمُسَمَّاةِ جَبَلِ الثُّورِ الْبَيَانِي ، إِلَى أَمْرِي الْقَيْسِ .

وَلَيْسَ هَذَا يَبْعِيدُ عَلَيَّ مَنْ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْقَلْبِ [من الكامل] :

يَا قَلْبُ عِنْدَكَ أَيُّ أَسْرَارِ	مَا زِلْنِ فِي نَشْرِ وَفِي طَيِّ
يَا ثَوْرَةَ مَشْبُوبَةِ الْلَّارِ	أَفْلَقْتَ جِسْمَ الْكَائِنِ الْحَيِّ
حَمَلْتَهُ الْعِبَاءَ الَّذِي فَارَقْتَ	مِنْهُ الْجِبَالَ وَأَشْفَقْتَ رَهَبًا
وَأَنْزَرْتَ مِنْهُ الرُّوحَ فَانْطَلَقْتَ	تَحْسُوُ الْحَمِيمَ وَتَأْكُلُ اللَّهُبَا
وَعَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنْ إِبَائِكَ فِي	أَسْرِ الْجَمَالِ وَرَبَقَةِ الْحُبِّ
وَتَلَقَّيْتَ الْمُتَكَبِّرَ الصَّلِيفِ	عَنْ ذِلَّةِ الْمَقْهُورِ فِي الْحَرْبِ
وَوَهَمْتَ نَارًا ذَاتَ إِيْمَاضِ	فَبَسَطْتَ كَفَّكَ نَحْوَهَا فَرَعَا
مَرَّتْ بِعَيْنِكَ لَمَحَةُ الْمَاضِي	فَوَثِّبْتَ تُمْسِكَ بَارِقًا لَمَعَا
وَالْأَرْضُ ضَاقَ فَضَاؤُهَا الرَّحْبُ	وَحَلَّتْ فَلَا أَهْلَ وَلَا سَكَنُ
حَالِ الْهَوَى وَتَفَرَّقَ الصَّخْبُ	وَبَقِيَتْ وَحْدَكَ أَنْتَ وَالزَّمَنُ

وَلَوْ ذَهَبْنَا نَخْتَارُ مِنْ هَذَا الدُّيُونِ لَاخْتَرْنَا أَكْثَرَهُ ، فَقَصَائِدُهُ وَمَقَاطِيعُهُ تَتَعَاقَبُ وَلَكِنْ تَعَاقَبَ الشَّمْسُ عَلَى أَيَّامِهَا ؛ تَظْهَرُ جَدِيدَةُ الْجَمَالِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ ، لِأَنَّ وَرَاءَ الصَّبَاحِ مَادَّةَ الْفَجْرِ ، وَكَذَلِكَ تَأْتِي الْقَصَائِدُ مِنْ نَفْسِ شَاعِرِهَا .

« الْمُقْتَطَفُ » وَالْمُنْتَبِي (*) (١)

« الْمُقْتَطَفُ » شَيْخُ مَجَلَّتِنَا ؛ كُلُّهُمْ أَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ ؛ وَهُوَ كَالْجَدِّ الْأَكْبَرِ : زَمَنُ يَجْتَمِعُ ، وَتَارِيخُ يَتَرَاكُمُ ، وَأَنْفِرَادٌ لَا يُلْحَقُ ، وَعِلْمٌ يَزِيدُ عَلَى الْعِلْمِ بِأَنَّهُ فِي الذَّاتِ الَّتِي تَفْرُسُ إِجْلَالَهَا فَرْصًا ، وَتَجِبُ لَهَا الْحُرْمَةُ وَجُوبًا وَيَتَضَاعَفُ مِنْهَا الاسْتِحْقَاقُ فَيَتَضَاعَفُ لَهَا الْحَقُّ .

وَهَلِ الْجَدُّ إِلَّا أَبُوءَ فِيهَا أَبُوءَ أُخْرَى ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا عَرْشٌ حَيٍّ دَرَجَاتُهُ الْجِنْدُ تَحْتَ الْجِنْدِ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا أَمْتِدَادٌ مَسَافَاتُهُ الْعَصْرُ فَوْقَ الْعَصْرِ ؟

وَ« الْمُقْتَطَفُ » يَكْبُرُ وَلَا يَهْرُمُ ، وَيَتَقَدَّمُ فِي الزَّمَنِ تَقَدَّمَ الْمُخْتَرَعَاتِ مَاضِيَةً بِالنَّوَامِيسِ إِلَى النَّوَامِيسِ ، مُقَيَّدَةً بِالْمَبْدَأِ إِلَى الْعَايَةِ ؛ { وَهُوَ كَالْعَقْلِ الْمُتَفَرِّدِ بِعَبَقَرِيَّتِهِ : وَاجِبُهُ الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا الْأَوَّلَ ؛ } فَلَقَدْ أَتَشَى هَذَا « الْمُقْتَطَفُ » وَمَا فِي الْمَجَلَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ مَا يُغْنِي عَنْهُ ، { ثُمَّ طَوَى فِي الدَّهْرِ سَبْعَةً وَثَمَانِينَ مُجَلَّدًا أَقَامَهَا سَبْعَةً وَثَمَانِينَ دَلِيلًا عَلَى أَنْ لَيْسَ مَا يُغْنِي عَنْهُ ؛ } ثُمَّ أَسْفَتِ الدُّنْيَا حَوْلَهُ بِأَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا ، وَتَحَوَّلَتْ مَجَلَّاتٌ كَثِيرَةٌ إِلَى مِثْلِ الرَّاqَصَاتِ وَالْمُغَنِّيَاتِ وَالْمُمَثِّلَاتِ . . . وَبَقِيَ هُوَ عَلَى وَفَائِهِ لِمَبْدَأِهِ الْعِلْمِيِّ وَالسُّمُوفِ فِيهِ وَالسُّمُوفِ بِهِ ، كَأَنَّمَا أَخَذَ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ مِيثَاقَ كَيْمِيَاqِ النَّبِيِّ فِي الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ ؛ فَبَيَّنَ يَدَيْهِ الْوَاجِبَ لَا الْغَرَضَ ، وَهَمُّهُ الْإِبْدَاعُ بِقُوَى الْعَقْلِ لَا الْإِخْتِيَالُ بِهَا ، وَهَذِيهِ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ فِي الدُّنْيَا لَا الْأَحْلَامُ الْمُتَقَلِّبَةُ بِهِذِهِ الدُّنْيَا ، وَطَرِيقُهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ طَرِيقُ الْفِيلَسُوفِ ، مِنْ هُدُوءٍ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَحْوَالِ الدَّهْرِ ، فَهُوَ مَاضٍ عَلَى الْيَقِينِ ، نَافِذٌ إِلَى الثَّقَةِ ، مُتَقَلِّلٌ فِي مَنَزَلَةٍ مَنَزَلَةٍ مِنْ يَقِينِهِ إِلَى ثِقَتِهِ ، وَمِنْ ثِقَتِهِ إِلَى يَقِينِهِ .

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٢ ، ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ = ١٣ يناير/كانون الآخر ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحة : ٨٠ .

(١) كِتَابُ « الْمُنْتَبِي » لِلصَّديقِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ شَاكِرٍ .

وَقَدْ بَدَأَ « الْمُفْتَطَفُ » مُجَلِّدُهُ الثَّامِنَ وَالْثَمَانِينَ بِعَدَدٍ ضَخْمٍ أَفْرَدَهُ لِلْمُنْتَبِيِّ (١) . وَلَكِنْ كَانَتْ الْأَنْدِيَةُ وَالْمَجَلَّاتُ قَدْ اخْتَفَلَتْ بِهَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ ، فَمَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ رُوحَ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ قَدْ اخْتَفَلَتْ بِهَذَا الْعَدَدِ مِنْ « الْمُفْتَطَفِ » .

وَلَسْتُ أَغْلُو إِذَا قُلْتُ : إِنَّ هَذِهِ الرُّوحَ الْمُتَكَبِّرَةَ قَدْ أَظْهَرَتْ كِبَرِيَاءَهَا مَرَّةً أُخْرَى ، فَاعْتَرَلَتْ الْمَشْهُورِينَ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْأَدْبَاءِ ، وَلَزِمَتْ صَدِيقَنَا الْمُتَوَاضِعَ الْأُسْتَاذَ مَحْمُودَ شَاكِرٍ مُدَّةَ كِتَابَتِهِ هَذَا الْبَحْثَ الْتَفِيسَ الَّذِي أَخْرَجَهُ « الْمُفْتَطَفُ » فِي زُهَاءِ سِتْنَيْنِ وَمِثْلَةِ صَفْحَةٍ ، تَذُلُّهُ فِي تَفْكِيرِهِ ، وَتُوْجِحِي إِلَيْهِ فِي اسْتِنْبَاطِهِ ، وَتُنَبِّهُهُ فِي شُعُورِهِ ، وَتُبْصِرُهُ أَشْيَاءَ كَانَتْ خَافِيَةً وَكَانَ الصَّدُوقُ فِيهَا ، لِيُرَدَّ بِهَا عَلَى أَشْيَاءَ كَانَتْ مَعْرُوفَةً وَكَانَ فِيهَا الْكَذِبُ ؛ ثُمَّ تُعِينُهُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ الْحَيَاةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ ذَاتِهَا ، لَا الْحَيَاةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ نَفْسٍ أَعْدَانِهَا وَحُسَادِهَا .

وَلَقَدْ كَانَ أَوَّلُ مَا خَطَرَ لِي بَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ فِي قِرَاءَةِ هَذَا الْعَدَدِ - أَنَّ الْمُؤَلَّفَ جَاءَ بِمَا يَصِحُّ الْقَوْلُ فِيهِ : إِنَّهُ كَتَبَ تَارِيخَ الْمُنْتَبِيِّ وَلَمْ يُنْقَلْهُ ؛ ثُمَّ لَمْ أَكْذُ أَمْعُرُ فِي الْقِرَاءَةِ حَتَّى خَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدْ وَضَعَ لِشِعْرِ الْمُنْتَبِيِّ بَعْدَ تَفْسِيرِ الشُّرَاحِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ تَفْسِيرًا جَدِيدًا مِنَ الْمُنْتَبِيِّ نَفْسِهِ ؛ وَمَا الْكَلِمَةُ الْجَدِيدَةُ فِي تَارِيخِ هَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الَّتِي نَشَرَهَا « الْمُفْتَطَفُ » الْيَوْمَ .

إِنَّ هَذَا الْمُنْتَبِيَّ لَا يَفْرُغُ وَلَا يَنْتَهِي ؛ فَإِنَّ الْإِعْجَابَ بِشِعْرِهِ لَا يَنْتَهِي وَلَا يَفْرُغُ ؛ وَقَدْ كَانَ نَفْسًا عَظِيمَةً خَلَقَهَا اللَّهُ كَمَا أَرَادَ ، وَخَلَقَ لَهَا مَادَّتَهَا الْعَظِيمَةَ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَتْ ، فَكَأَنَّمَا جَعَلَهَا بِذَلِكَ زَمَنًا يَمْتَدُّ فِي الزَّمَنِ .

وَكَانَ الرَّجُلُ مَطْوِيًّا عَلَى سِرِّ أَلْفَى الْعُمُوضِ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ تَارِيخِهِ ، وَهُوَ سِرُّ نَفْسِهِ ، وَسِرُّ شِعْرِهِ ، وَسِرُّ قُوَّتِهِ ؛ وَبِهَذَا السِّرِّ كَانَ الْمُنْتَبِيُّ كَالْمَلِكِ الْمَغْضُوبِ الَّذِي يَرَى النَّجَاحَ وَالسَّيْفَ يَنْظُرَانِ رَأْسَهُ جَمِيعًا ، فَهُوَ يَتَّقِي السَّيْفَ بِالْحَذَرِ وَالتَّلَفُّفِ وَالْعُمُوضِ ، وَيَطْلُبُ النَّجَاحَ بِالْكِتْمَانِ وَالْحِيلَةِ وَالْأَمَلِ .

وَمِنْ هَذَا السَّرِّ بَدَأَ كَاتِبُ «الْمُقْتَطَفِ» ، فَجَاءَ بِخُشَّةٍ يَتَحَدَّرُ فِي نَسَقِ عَجِيبٍ ، مُتَسَلِّسًا بِالتَّارِيخِ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ وَنُمُوٌّ وَشَبَابٌ : وَعَرَضَ بَيْنَ ذَلِكَ شِعْرُ أَبِي الطَّيِّبِ عَرَضًا خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ قَدْ قِيلَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ فَمِ شَاعِرِهِ عَلَى حَوَادِثِ نَفْسِهِ وَأَحْوَالِهَا ، وَبِذَلِكَ انْكَشَفَ السَّرُّ الَّذِي كَانَ مَادَّةَ التَّهْوِيلِ فِي ذَلِكَ الشَّعْرِ الْفَخْمِ ، إِذْ كَانَتْ فِي وَاعِيَةِ الرَّجُلِ دَوْلَةٌ أَضْحَمَ ، دَوْلَةٌ عَجَزَ عَنْ خَلْقِهَا وَإِيجَادِهَا فَخَلَقَهَا شِعْرًا أَضْحَمَ شِعْرٍ ، وَجَاءَتْ مُبَالَغَاتُهُ كَأَنَّهَا أَكَاذِيبُ أَمَالِهِ الْبَعِيدَةِ مُتَحَقِّقَةٌ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِمْكَانِ اللَّغْوِيِّ .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا كَشَفَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمُتَنَبِّي سِرُّ حُبِّهِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ حَوَلَةَ أُخْتِ الْأَمِيرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ صَفْحَةً كَثِيرَةً ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُرَضَّ فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ يُؤْمَلُ أَنْ يَكْتُبَ هَذَا الْفَصْلَ فِي خَمْسِينَ وَجْهًا مِنْ «الْمُقْتَطَفِ» ؛ وَهَذَا الْبَابُ مِنْ غَرَائِبِ هَذَا الْبَحْثِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا الْمَكْتُوبَةِ (أَيِ : التَّارِيخِ) يَعْلَمُ هَذَا السَّرَّ أَوْ يَظُنُّهُ ، وَالْأَدِلَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُؤَلَّفُ تَقِفُ الْبَاحِثَ الْمَدْفِقَ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ ؛ وَمَتَى لَمْ يَسْتَطِيعَ الْمَرْءُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا فِي خَبَرٍ جَدِيدٍ يَكْشِفُهُ الْبَاحِثُ وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، فَهَذَا حَسْبُكَ إِعْجَابًا يُذَكِّرُ وَهَذَا حَسْبُهُ فَوْزًا يُعَدُّ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتُ أَنَا فِي مَكَانِ الْمُتَنَبِّي مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَقُلْتُ : إِنَّ الْمُؤَلَّفَ قَدْ صَدَقَ ... فَهَنَّاكَ مُوَضِّعٌ لَا بُدَّ أَنْ يُبْحَثَ فِيهِ الْقَلْبُ الشَّاعِرُ الَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ الدُّنْيَا حِكْمَتَهَا ، وَطَوَتْ فِيهِ الْقُوَّةَ سِرِّهَا ، وَبَثَّ فِيهِ الْجَمَالَ وَخِيَهُ ، وَأَصْغَرَ هَذِهِ الثَّلَاثِ أَكْبَرَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَلَكِنَّ الْحَبِيبَةَ أَكْبَرَ مِنْهَا كُلِّهَا ...

مصطفى صادق الرافعي

* * *

مُحَمَّدٌ (*) (١)

عَمَلُ الْأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ فِي تَصْنِيفِ هَذَا الْكِتَابِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِعَمَلِ « كَرِيسْتُوفِ كُولُمْبُسِ Christophe Columbus » فِي الْكَشْفِ عَنْ أَمْرِيكَهَ وَإِظْهَارِهَا مِنَ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا : لَمْ يَخْلُقْ وَجُودَهَا وَلَكِنَّهُ أَوْجَدَهَا فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ، وَذَهَبَ إِلَيْهَا : فَقِيلَ : جَاءَ بِهَا إِلَى الْعَالَمِ ، وَكَانَتْ مُعْجَزَتُهُ أَنَّهُ رَأَاهَا بِالْعَيْنِ الَّتِي فِي عَقْلِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا الصَّبْرَ وَالْمُعَانَاةَ وَالْحِذْقَ وَالْعِلْمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا حَقِيقَةً مَائِلَةً .

قَرَأَ الْأَسْتَاذُ كُتُبَ السِّيَرَةِ وَمَا تَنَاولَهَا مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ وَالطَّبَقَاتِ وَالْحَدِيثِ وَالشَّمَاثِلِ ، بِقَرِينَةٍ غَيْرِ قَرِينَةِ الْمُؤَرِّخِ ، وَفِكْرَةٍ غَيْرِ فِكْرَةِ الْفَقِيهِ ، وَطَرِيقَةٍ غَيْرِ طَرِيقَةِ الْمُحَدِّثِ ، وَخَيَالٍ غَيْرِ خَيَالِ الْقَاصِّ ، وَعَقْلٍ غَيْرِ عَقْلِ الزَّنْدَقَةِ ، وَطَبِيعَةٍ غَيْرِ طَبِيعَةِ الرَّأْيِ ، وَقَصْدٍ غَيْرِ قَصْدِ الْجَدَلِ ، فَخَلَصَ لَهُ الْفَرْقُ الْجَمِيلُ الَّذِي فِيهَا ، إِذْ قَرَأَهَا بِقَرِينَتِهِ الْفَنِيِّ الْمَشْبُوبَةِ ، وَأَمَرَهَا عَلَى إِحْسَاسِهِ الشَّاعِرِ الْمُتَوَثِّبِ ، وَاسْتَلَّهَا مِنَ التَّارِيخِ بِهِذِهِ الْقَرِينَةِ وَهَذَا الْإِحْسَاسِ كَمَا هِيَ فِي طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ مُتَّجِهَةً إِلَى غَرَضِهَا الْإِلَهِيِّ مُحَقِّقَةً عَجَائِبَهَا الرُّوحَانِيَّةَ الْمُعْجَزَةَ .

وَقَدْ أَمَدَّتْهُ السِّيَرَةُ بِكُلِّ مَا أَرَادَ ، وَتَطَاوَعَتْ لَهُ عَلَى مَا أَشْتَهَى ، وَلَآنَتْ فِي يَدِهِ كَمَا يَلِينُ الذَّهَبُ فِي يَدِ صَانِعِهِ ، فَجَاءَ بِهَا مِنْ جَوْهَرِهَا وَطَبِيعَتِهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا خَيَالٌ وَلَا رَأْيٌ وَلَا تَعْيِيرٌ ، وَجَاءَتْ مَعَ ذَلِكَ فِي تَصْنِيفِهِ حَافِلَةٌ بِأَبْدَعِ الْخَيَالِ ، وَأَسْمَى الرَّأْيِ ، وَأَبْلَغِ الْعِبَارَةِ ، إِذْ أَدْرَكَ بِنَظَرِهِ الْفَنِيِّ تِلْكَ الْأَحْوَالَ الْفَنِيَّةَ الْبَلِغَةَ . فَنَظَّمَهَا عَلَى قَانُونِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَجَمَعَ حَوَادِثَهَا الْمُدَوَّنَةَ فَصَوَّرَهَا فِي هَيْئَةٍ وَقُوعِهَا كَمَا وَقَعَتْ ، وَأَسْتَخْرَجَ الْقِصَصَ الْمُرْسَلَةَ فَأَدَارَهَا حِوَارًا كَمَا جَاءَتْ فِي أَلْسِنَةِ أَهْلِهَا ، وَبِهِذِهِ الطَّرِيقَةِ أَعَادَ التَّارِيخَ حَيًّا

(*) « الرسالة » العدد : ١٣٦ ، ١٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٠ فبراير / شباط ١٩٣٦ م ، السنة

الرابعة ، الصفحة : ٢٣٩ .

(١) كِتَابُ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ .

يَتَكَلَّمُ ، وَفِيهِ الْفِكْرَةُ وَمَلَأَتْكُنْهَا وَشَيَّاطِئُهَا ، وَكَشَفَ ذَلِكَ الْجَمَالَ الرَّؤُوحَانِيَّ فَكَانَ هُوَ
الْفَنُّ ، وَجَلَا تِلْكَ النُّفُوسَ الْعَالِيَةَ فَكَانَتْ هِيَ الْفَلَسَفَةُ ؛ وَابْتَقَى عَلَى تِلْكَ الْبَلَاغَةَ فَكَانَتْ
هِيَ الْبَيَانُ . كَانَتْ السِّيَرَةُ كَاللُّؤْلُؤَةِ فِي الصَّدْفَةِ ، فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَعَلَهَا اللَّؤْلُؤَةَ وَخَدَهَا .

* * *

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَفْرَضُ نَفْسَهُ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةُ الْفَنِّيَّةُ الْبَدِيعَةُ ، فَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ
لَا ضَرُورَةَ لَوْجُودِهِ ، إِذْ هُوَ الضَّرُورِيُّ مِنَ السِّيَرَةِ فِي زَمَانِنَا هَذَا ؛ وَلَا يُغْتَمَرُ فِيهِ أَنَّهُ تَخْرِيفٌ
وَتَزْوِيرٌ وَتَلْفِيقٌ ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَنَّهُ آراءٌ يُخْطِئُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا
وَيُصِيبُ الْمُصِيبُ ، إِذْ هُوَ عَلَى نَصِّ التَّارِيخِ كَمَا حَفِظْتُهُ الْأَسَانِيدُ ، وَلَا يُزْمَى بِالْفُتَاةِ
وَالرَّكَاكَةِ وَضَعْفِ النَّسَقِ ، إِذْ هُوَ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ الْفُصْحَاءِ الْخُلَاصِ كَمَا رُوِيَ بِالْفَاطِطِهَا ،
فَقَدْ حَصَّنَهُ الْمُؤَلَّفُ تَخْصِيصًا لَا يُفْتَحَمُ ، وَكَانَ فِي عَمَلِهِ مُخْلِصًا أَمَّ الْإِخْلَاصِ ، أَمِينًا بِأَوْفَى
الْأَمَانَةِ ، دَقِيقًا كُلَّ الدَّقِيقَةِ ، حَذِرًا بِغَايَةِ الْحَذَرِ .

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّهَا هَيَّأَتِ السِّيَرَةَ لِلتَّرْجَمَةِ إِلَى اللُّغَاتِ الْأُخْرَى فِي شَكْلِ مَنْ
أَحْسَنَ أَشْكَالِهَا يُرْغَمُ هَذَا الزَّمَنَ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ بِالْإِعْجَابِ تِلْكَ الْحِكَايَةَ الْمُتَفَرِّدَةَ فِي التَّارِيخِ
الْإِنْسَانِيِّ ؛ كَمَا أَنَّهَا قَرَّبَتْ وَسَهَّلَتْ فَجَعَلَتْ السِّيَرَةَ فِي نَصِّهَا الْعَرَبِيِّ كِتَابًا مَدْرَسِيًّا بَلِيغًا
بَلَاغَةَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، مُرِيًّا لِلرُّوحِ ، مُزْهِفًا لِلذُّوقِ . مُصَحَّحًا لِلْمَلَكَةِ الْبَيِّنَاتِ .

وَحَسْبُ الْمُؤَلَّفِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ : إِنَّ ابْنَ هِشَامٍ كَانَ أَوَّلَ
مَنْ هَدَّبَ السِّيَرَةَ تَهْدِيئًا تَارِيخِيًّا عَلَى نَظْمِ التَّارِيخِ ، وَإِنَّ تَوْفِيقَ الْحَكِيمِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَدَّبَهَا
تَهْدِيئًا فَنِّيًّا عَلَى نَسَقِ الْفَنِّ . . .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

دِيَوَانُ الْأَعْشَابِ (*) (١)

أَبُو الْوَفَا شَاعِرٌ مِلءُ نَفْسِهِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ؛ مَذْهَبُهُ الْجَمَالُ فِي الْمَعْنَى ، يُبْدِعُهُ كَأَنَّمَا يُزْهِرُ بِهِ ، وَالْجَمَالُ فِي الصُّورَةِ يُخْرِجُهَا مِنْ بَيَانِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْغُصُونُ وَالْأَوْرَاقُ مِنْ شَجَرَتِهَا ، وَلَهُ طَبْعٌ وَفِيهِ رِفْقَةٌ ، وَهُوَ يَجْرِي مِنَ الْبَيَانِ عَلَى عِزْقٍ ، وَسَلَيْقَتُهُ تَجْعَلُهُ أَلْزَمَ لِعُمُودِ الشَّعْرِ وَأَقْرَبَ إِلَى حَقِيقَتِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَعُدُّ أَحَدَ الَّذِينَ يَغْتَصِمُ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ بِهِمْ ، وَهُمْ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا ، فَإِنَّ الشَّعْرَ مُنْحَدِرٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى الْعَامِيَّةِ فِي نَسَقِهِ وَمَعَانِيهِ ، كَمَا أَنْحَدَرَ التَّمَثِيلُ ، وَكَمَا أَنْحَدَرَتْ أَسَالِينُ الْكِتَابَةِ فِي بَعْضِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ .

وَالْعَامِيَّةُ وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ تَنْقَلِبُ فِيهَا الْحَيَاةُ ، وَمَرْجِعُهَا إِلَى رُوحِ الْإِبَاحَةِ الَّذِي فَشَا بَيْنَنَا ، وَنَشَأَ عَلَيْهِ النَّشْءُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي الشَّرِّ غَيْرَ عَمَلِهَا فِي الْعَزَبِ ، فَهِيَ هُنَاكَ رُخْصٌ وَعِزَائِمُ ، وَهِيَ هُنَا تَسْمُحٌ وَتَرْخُصٌ ، فِي ظِلِّ ضَعِيفٍ مِنَ الْعَزِيمَةِ . وَإِهْمَالُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ كَمَا هِيَ فِي قَوَائِنِهَا لَيْسَ إِلَّا مَظْهَرًا لِتِلْكَ الرُّوحِ تَقَابِلُهُ الْمَظَاهِرُ الْأُخْرَى ، مِنْ إِهْمَالِ الْخُلُقِ ، وَسُقُوطِ الْفَضِيلَةِ ، وَتَخَنُّتِ الرُّجُولَةِ ، وَزَيْغِ الْأَثْوَةِ ، وَفَسَادِ الْعَقِيدَةِ ، وَأَضْطِرَابِ السِّيَاسَةِ ، إِلَى مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مِمَّا هُوَ فِي بَلَاغَةِ الْحَيَاةِ الْمُبِينَةِ كَالْمَرْدُودِ وَالْمَطْرُوحِ وَالسُّفْسَافِ فِي بَلَاغَةِ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ تَحُلُّلٌ مِنَ الْقَيُودِ وَإِبَاحَةٌ وَتَسْمُحٌ وَتَرْخُصٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَامِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَكُلُّ ذَلِكَ

(*) « الرسالة » العدد : ٤٦ ، ٨ صفر سنة ١٣٥٣ هـ = ٢١ مايو/أيار ١٩٣٤ م ، السنة الثانية ،

الصفحات : ٨٧٨ - ٨٨٠ .

لَوْجَاءَ فِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْمَقَالِ عَلَى لِسَانِ الْأُسْتَاذِ سَعِيدِ الْعُرَيَّانِ : فِي إِحْدَى زِيَارَاتِي لِلأُسْتَاذِ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ ، رَأَيْتُ عَلَى مَكْتَبِهِ « دِيَوَانُ الْأَعْشَابِ » الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ أَبُو الْوَفَا ، فَكَبَّرْتُ أَنْ أَجِدَ هَذَا الدِّيَوَانَ حَيْثُ وَجَدْتُهُ ، وَلَكِنْ الْأُسْتَاذُ أَتْنَى عَلَيْهِ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَلَمْ نَقْرَؤُهُ مَعًا ؛ وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْنَاهُ ، نَقَلْتُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ لِلرَّسَالَةِ الْعَرَاءِ ، قَالَ : [.

(١) { لِلشَّاعِرِ الْمُجِيدِ مُحَمَّدِ أَبِي الْوَفَا ، وَهَذَا الْمَقَالُ كَانَ حَدِيثًا مَعَ بَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ عَنِ الدِّيَوَانَ ، وَبُشِّرَ فِي الرَّسَالَةِ الْعَرَاءِ ، قُلْتُ : وَانْظُرْ « عَمَلُهُ فِي الرَّسَالَةِ » مِنْ كِتَابَتَا « حَيَاةَ الرَّافِعِيِّ » } .

لَحْنٌ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْخُلُقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالرَّجُولَةِ وَالْأُتُونَةِ وَالْعَقِيدَةِ وَالسِّيَاسَةِ .

وَالشَّعْرُ الْيَزْمُ أَكْثَرُهُ (شِعْرُ النَّسْرِ) فِي الْجَرَائِدِ ، عَلَى طَبِيعَةِ الْجَرَائِدِ لَا عَلَى طَبِيعَةِ الشَّعْرِ ، وَهَلِيبُهُ إِبَاحَةٌ صَحَافِيَّةٌ غَمَرَتْ الصُّحُفَ ، وَأَخْضَعَتْ أَذْوَاقَ كُتَابِهَا لِقَوَائِنِ التَّجَارَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَنْشُرُونَ بَعْضَ الْقَصَائِدِ كَمَا تُنْشَرُ (الْإِغْلَانَاتُ) ، لَا يَكُونُ الْحُكْمُ فِي هَذِهِ وَلَا هَذِهِ لَبَيَّانٍ أَوْ تَمَيِّيزٍ أَوْ مُنْفَعَةٍ ، بَلْ عَلَى قَدْرِ الثَّمَنِ أَوْ مَا فِيهِ مَعْنَى الثَّمَنِ !

وَمِنْ مَادِّيَّةِ هَذَا الْعَصْرِ وَطُغْيَانِ الْعَامِيَّةِ عَلَيْهِ ، أَنَّنَا نَرَى فِي صَدْرِ بَعْضِ الْجَرَائِدِ أَحْيَانًا شِعْرًا لَا يَكُونُ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ وَلَا فِي طَبَقَاتِ النُّظْمِ أَضْعَفُ وَلَا أَبْرَدُ مِنْهُ وَلَا أَدَلُّ عَلَى فَسَادِ الذَّوْقِ الشَّعْرِيِّ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي أَوْفَانَا إِلَيْهِ يُعَدُّ كَلَامًا صَالِحًا لِلشَّعْرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَالِحًا لِلشَّعْرِ .

وَهَكَذَا أَصْبَحَتِ الْعَامِيَّةُ فِي تَمَكُّنِهَا تَجَعُلُ مِنَ الْغَفْلَةِ حِذْقًا تِجَارِيًّا ، وَمِنْ السُّقُوطِ عُلُوقًا فَلَسْفِيًّا ، وَمِنْ الرَّاكَاةِ بَلَاغَةً صَحْفِيَّةً ، وَمَتَى تَغَيَّرَ مَعْنَى الْحِذْقِ ، وَدَاخَلَتْهُ الْإِبَاحَةُ ، وَوَقَعَ فِيهِ التَّأْوِيلُ ، وَأَحْبِطَ بِالتَّمْوِينِ وَالشَّبَهِ - فَالْزَيْنَةُ حِينَئِذٍ أُخْتُ الثَّقَةِ ، وَالْعَجْزُ بَابٌ مِنَ الْإِسْطَاعَةِ ، وَالضَّعْفُ مَعْنَى مِنَ التَّمَكُّنِ ، وَكُلُّ مَا لَا يَقُومُ فِيهِ عُذْرٌ صَحِيحٌ كَانَ هُوَ بِطَبِيعَةِ التَّلْفِيقِ عُذْرٌ نَفْسِهِ .

وَأَكْثَرُ مَا تُنْشَرُ الصُّحُفُ مِنَ الشَّعْرِ هُوَ فِي رَأْيِي صِنَاعَةٌ أَخْطَابٍ مِنَ الْكَلَامِ . . . وَقَدْ بَطَلَ التَّعَبُ ، إِلَّا تَعَبَ التَّقَشُّشِ وَالْحَمَلِ ، فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ صِنَاعَةٌ نَفْسِيَّةٌ فِي وَشْيِ الْكَلَامِ ، وَلَا طَبْعٌ مُوسِيقِيٌّ فِي نَظْمِ اللَّغَةِ ، وَلَا طَرِيقَةٌ فِكْرِيَّةٌ فِي سَبْكِ الْمَعَانِي ؛ وَبِهَذِهِ الْعَامِيَّةِ الْقَفِيلَةِ أَخَذَ الشَّعْرُ يَزُولُ عَنْ نَهْجِهِ ، وَيَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَوَقَعَ فِيهِ التَّوَعُّرُ الْسهْلُ . . . وَالْإِسْتِحْرَاهُ الْمَخْبُوبُ . . . وَصَرْنَا إِلَى ضَرْبِ حَدِيثٍ مِنَ الْوَحْشِيَّةِ ، هُوَ الطَّرْفُ الْمُقَابِلُ لِلشَّعْرِ الْوَحْشِيِّ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ فَمَا دَامَ الْكَلَامُ غَرِيبًا ، وَالنُّظْمُ فَلَقًا ، وَالْمَتْنُ بَعِيدًا ، وَالْمَعْنَى مُسْتَهْلَكًا ، وَالنَّسْجُ لَا يَسْتَوِي ، وَالطَّرِيقَةُ لَا تَشَابَهُ - فَذَلِكَ كُلُّهُ مَسْنُوعٌ وَتَشْوِينُهُ فِي الْجُمْلَةِ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَسْنَابُ فِي التَّفْصِيلِ . وَإِذَا كَانَ الْمَسْنُوعُ جَاهِلِيًّا بِالْغَرِيبِ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، وَالنَّافِرِ مِنَ اللَّغَاتِ ، وَالْوَحْشِيِّ مِنَ الْمَعَانِي ؛ وَكَانَ عَصْرِيًّا بِالرَّكِيكِ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، وَالتَّأْوِيلِ مِنَ التَّعْبِيرِ ، وَالْهَجْنِ مِنَ الْأَسَالِيبِ ، وَالسَّخِيفِ مِنَ الْمَعَانِي ؛ ثُمَّ

بِالسَّقْطِ وَالْخَلْطِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْتَعْقِيدِ - فَهَلْ بَغَضُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَغْضِهِ ؟ وَهَلْ هُوَ فِي الشَّعْرِ الْجَمِيلِ إِلَّا كَسَلَخِ الْإِنْسَانِ الَّذِي مَسَخَهُ اللَّهُ فَسَلَخَهُ مِنْ مَعَانٍ كَانَ بِهَا إِنْسَانًا ، لِيَضْعَهُ فِي مَعَانٍ يَصِيرُ بِهَا قِرْدًا أَوْ خِنْزِيرًا لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا ظَاهِرُ الشَّبَهِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا بَقِيَّةُ الْأَصْلِ ؟

فَالْفَرْدِيَّةُ الشَّعْرِيَّةُ ، وَالْخِنْزِيرِيَّةُ الشَّعْرِيَّةُ ، مُتَحَقِّقَتَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يُنْشَرُ بَيْنَنَا ؛ وَلَكِنَّ أَصْحَابَ هَذَا الشَّعْرِ لَا يَرَوْنَهُمَا إِلَّا كَمَا لَا فِي تَطَوُّرِ الْفَنِّ وَالْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ ، وَأَنْتَ مَتَى ذَهَبْتَ تَحْتَخِجْ لِزِينِ الشَّعْرِ مِنْ قَبْلِ الْفَلَسَفَةِ ، وَتَذْفَعُ عَنْ ضَعْفِهِ بِحُجَّةِ الْعِلْمِ ، وَتَعْتَلِّ لِتُضْحِجَ فُسَادِهِ بِالْفَنِّ - فَذَلِكَ عَيْنُهُ هُوَ دَلِيلُنَا نَحْنُ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ قِرْدِيٌّ خِنْزِيرِيٌّ ، لَمْ يَسْتَوْفِ تَرْكِيبَهُ ، وَلَمْ يَأْتِ عَلَى طَبْعِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِي صُورَتِهِ ؛ وَمَا يَكُونُ الدَّلِيلُ عَلَى الشَّعْرِ مِنْ رَأْيٍ نَاطِقٍ وَأَفْتِنَانٍ بِهِ وَدِفَاعِهِ عَنْهُ ، وَلَكِنْ مِنْ إِحْسَاسٍ قَارِيهِ وَأَهْتِرَازِهِ لَهُ وَتَأَثُّرِهِ بِهِ .

* * *

وَالشَّاعِرُ أَبُو الْوَفَا جَيِّدُ الطَّرِيقَةِ ، حَسَنُ السَّبَكِ ، يَقُولُ عَلَى فِكْرِ وَقَرِيحَةٍ ، وَيَرْجِعُ إِلَى طَبْعٍ وَسَلِيقَةٍ ، وَلَكِنْ نَفْسَهُ قَلِقَةٌ فِي مَوْضِعِهِ الشَّعْرِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ ؛ وَفِي رَأْيِي أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَتِمُّ بِأَدَبِهِ وَمَوَاهِبِهِ حَتَّى يَكُونَ تَمَامُهُ بِمَوْضِعِ نَفْسِهِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي تَضَعُهُ الْحَيَاةُ فِيهِ ؛ وَالْكَلَامُ يَطُولُ فِي صِفَةِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْجُمْلَةِ كَمَنِبَتِ الزُّهْرَةِ : لَا تَرُكُ زَكَاءَهَا ، وَلَا تَبْلُغْ مَبْلَغَهَا إِلَّا فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَصِلُ عَنَاصِرُهَا بِعَنَاصِرِ الْحَيَاةِ وَافِيَةً تَامَةً ، فَلَا يَقْطَعُهَا عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا عَنْهَا ؛ إِذْ هِيَ بِمَا فِي تَرْكِيبِهَا وَتَهْيِئَتِهَا إِنَّمَا تَتِمُّ بِمَوْضِعِهَا ذَلِكَ لِتَهْيِئَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَإِنْ كَانَتِ الزُّهْرَةُ عَلَى مَا وَصَفْنَا ، وَإِلَّا فَمَا بُدَّ مِنْ مَرَضِ اللَّوْنِ ، وَهَرَمِ الْعَطْرِ ، وَهَزَالِ النَّضْرَةِ ، وَسَقَمِ الْجِمَالِ .

وَلَوْ لَا أَنَّ الْحِكْمَةَ وَفَتِ الْأُسْتَاذُ أَبَا الْوَفَا قَسَطَهُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَوَهَبَتْهُ نَفْسًا مُتَأَلِّمَةً حَصَرَتْهَا فِي أَسْبَابِ أَلَمِهَا حَصْرًا لَا مَقَرَّ مِنْهُ - لَفَقَدَتْ زَهْرَتُهُ عُصْرَ تَلَوْنِهَا ، وَلَخَرَجَ شِعْرُهُ نَظْمًا حَائِلًا مُضْطَرِبًا مُنْقَطِعَ الْأَسْبَابِ مِنَ الْوُخِيِّ ؛ غَيْرَ أَنَّ جِهَةَ الْأَلَمِ فِيهِ هِيَ جِهَةُ السَّمَاءِ إِلَيْهِ ؛ وَلَوْ هُوَ تَكَافَأَتْ جِهَاتُهُ الْمَعْنَوِيَّةُ الْأُخْرَى ، وَأُعْطِيتْ كُلُّ جِهَةٍ حَقَّهَا ، وَتَخَلَّصَتْ مِمَّا يَلَابِسُهَا ؛ لَازْتَفَعَ مِنْ مَرَاتِبَةِ الْأَلَمِ إِلَى مَرَاتِبَةِ الشُّعُورِ بِالْغَايِضِ وَالْمُبْهَمِ ، وَلَكَانَ عَقْلًا مِنْ

الْعُقُولِ الْكَبِيرَةِ الْمُؤَلَّدَةِ الَّتِي يَحْيَا فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ حَيَاةً شِعْرِيَّةً ذَاتَ حِسٍّ .

وَلَكِنْ مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ قَدْ وَرِثَتْ لَهُ بِمِقْدَارٍ ، وَطَفَقَتْ مَعَ ذَلِكَ وَبَخَسَتْ ، فَقَدْ كَانَ يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَقْصُرَ شِعْرُهُ عَلَى أَبْوَابِ الزُّفْرَةِ وَالذَّمْعَةِ وَاللَّهْفَةِ ، لَا يَعُدُّهَا ، وَلَا يُرَاوِلُ مِنَ الْمَعَانِي الْأُخْرَى مَا ضَعُفَتْ أَدَاتُهُ مَعَهُ أَنْ تَتَصَرَّفَ ، أَوْ انْقَطَعَتْ وَسِيلَتُهُ إِلَيْهِ أَنْ تَبْلُغَ ، وَيُظْهَرُ لِي أَنَّ أَبَا الْوَفَا يَحْدُو عَلَى حَدِّ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا صَبْرِي ، وَهُوَ شَيْئُهُ بِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ تَفْتَحْ لَهُ عَلَى الْكُونِ إِلَّا نَافِذَةً وَاحِدَةً ؛ غَيْرَ أَنَّ صَبْرِي أَقْبَلَ عَلَى نَافِذَتِهِ وَنَظَرَ مَا وَسِعَهُ النَّظَرُ ، أَمَا أَبُو الْوَفَا فَيَحَاوِلُ أَنْ يَنْقُبَ فِي الْحَائِطِ لِيَجْعَلَهُمَا نَافِذَتَيْنِ . . .

أَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشُّعْرِ أَنْ تَنَزِلَ الْحَيَرَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ عَنْ مَنَرِلَتِهَا بَيْنَ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ ، أَوْ الْمَشْهُودِ وَالْمَحْجَبِ ، أَوْ الْوَاقِعِ وَالسَّبَبِ ، أَوْ الرَّسْمِ وَالْمَعْنَى - فَتَنْقَلِبَ حَيَرَةً مَعَاشِيَّةً تَسْمُ الْأَشْكَالَ وَالْمَعَانِي بِسَمَتِهَا الْمَادِّيَّةِ التُّرَابِيَّةِ ، وَتَقَعُ فِي الشُّعْرِ فَتُفْجِعُهُمْ بَيْنَ شِعْرِ الْقَلْبِ الْعَاشِقِ ، وَشِعْرِ الْفِكْرِ الْمُتَمَلِّ - شِعْرِ الْمَعْدَةِ الْجَانِعَةِ ، وَتَضَعُ بَيْنَ أَشْوَاقِ الْكُونِ شَوْقَهَا هِيَ إِلَى الطَّعَامِ وَالنَّيَابِ وَالْمَالِ

عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْأَمْتَلُ فِي التَّدْبِيرِ ، وَالْأَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ أَنْ يَصْرِفَ أَبُو الْوَفَا هَذَا الشُّعُورَ الْمَادِّيَّ الَّذِي يَتَلَدَّعُ بِهِ ، فَيَحْوِلُهُ فَيَجْعَلُهُ بَابًا مِنْ حِكْمَةِ الشُّخْرِ الشُّعْرِيِّ بِالْذُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَحَوَادِثِهَا ، كَمَا صَرَفَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ مِنْ قَبْلِ فَاخْطَأَ فِي تَحْوِيلِهِ ، فَجَعَلَهُ مَرَّةً بَابًا مِنَ الْمَذْحِ وَالْتِفَاقِ ، وَمَرَّةً بَابًا مِنَ الْهَجَاءِ وَالْإِفْذَاعِ .

وَلَوْ بَدَّلَ الشَّاعِرُ أَبُو الْوَفَا مَجْهُودَهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَتَاهُمَ الدُّنْيَا ثُمَّ حَاكَمَهَا ، وَنَصَرَ لَهَا الْقَانُونَ ، وَأَجْلَسَ الْقَاضِي ، وَافْتَتَحَ الْمَجْلِسَ ، وَرَفَعَهَا قَضِيَّةً قَضِيَّةً ، ثُمَّ أَخَذَهَا حُكْمًا حُكْمًا ، تَارَةً فِي نَادِرَةٍ بَعْدَ نَادِرَةٍ ، وَمَرَّةً فِي حِكْمَةٍ إِلَى حِكْمَةٍ ، وَأَوْنَةً فِي سُخْرِيَّةٍ مَعَ سُخْرِيَّةٍ - إِذَنْ لَا هَتْدَى هَذَا الْمُتَمَلِّمُ الرَّقِيقُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْ سِرِّ الْمَوْهَبَةِ الَّتِي فِي نَفْسِهِ ، فَأَخْرَجَ مَكْنُونَهُ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْقَوِيَّةَ مِنْهَا ، فَكَانَ وَلَا رَيْبَ شَاعِرَ وَقْتِهِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَإِمَامَ عَصْرِهِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ .

عَلَى أَنَّ فِي صَفَحَاتِ دِيَوَانِهِ أَشْيَاءَ قَلِيلَةً تُؤْمِي إِلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ ، وَلَكِنَّهَا مَبْنُوثةٌ فِي تَضَاعِيفِ شِعْرِهِ ، وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ فِي تَضَاعِيفِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي بِأَسْمَى الْكَلَامِ

وَأَبْدَعِهِ ، حِينَ يَعْمَدُ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَّهْنَا إِلَيْهِ ، فَيَصْرِفُ لَهْفَةً نَفْسِهِ إِلَى بَعْضِ
وُجُوهِهَا الشَّعْرِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ فِي « حُلُمِ الْعَذَارَى » وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ وَمَحَاسِنِ شِعْرِهِ [من مجزوء
الرمال] :

هَـمَا هَـمَا عَيْنَاكَ تُغْرِبُ	زِنِي عَلَى شَتَّى الطُّنُونِ
فِيهِمَا بَخْرٌ وَمَوْ	جٌ وَسُهُـؤْلٌ وَخُرُونٌ
وَوُضْـوُحٌ وَغَمٌّ وَوُضْ	وَأَضْطِرَابٌ وَسُكُونٌ
وَمَعَانٍ بَيِّنَاتٌ	وَمَعَانٍ لَا تَبِينُ
وَتَهْـاوِينَ لِفُتُونِ	مِنْ رَشَادٍ وَجُنُونِ
وَأَشِعَّاتٍ حَيَارَى	مِنْ مُنَى أَوْ مِنْ حَيْنِ
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ سِرٍّ	خَلَفَ هَاتَيْنِكَ الْجُفُونِ
أَهْ إِنَّ السَّرَّ أَنْبَا	عَنْهُ دَانَ الطَّائِرَانِ
حِينَمَا مَسَالَا عَلَى غُضْ	خِيهِمَا يَعْتَنِقَانِ ...

فَهَلْزِهِ أُبَيَاتٌ فِي شِعْرِ الْجَمَالِ كَالْمِخْرَابِ مَلُوءُهُ عَابِدُهُ ...

*

*

*

النَّجَاحُ وَكِتَابُ سِرِّ النَّجَاحِ (*)

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَا عَقْلٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَوْدَعَ فِي تَرْكِيبِهِ شَيْئَيْنِ كَالْمُقَدَّمَةِ وَالَّتِيخِجَةِ ، وَأَعْطَاهُ بِهِمَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْوَسِيلَةِ وَالْغَايَةِ ؛ لِيَخِيَّ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِهِ وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ [راجع ٨ سورة الأنفال/ الآية : ٤٢] ؛ فَفِي تَرْكِيبِ الْإِنْسَانِ قُوَّةُ الرَّغْبَةِ فِي النَّجَاحِ وَأَنْ يَتَأَنَّى إِلَى سِرِّهِ أَوْ يَبْلُغَ مِنْهُ أَوْ يَقَارِبَهُ ، وَفِي هَذَا التَّرْكِيبِ عَيْنُهُ مَا يَهْتِكُ بِهِ هَذَا الْحِجَابَ وَيُفْضِي مِنْهُ إِلَى هَذَا السِّرِّ وَيَجْمَعُ بِكَ عَلَيْهِ ، وَمَا أَنْكَرَ أَنَّ النَّجَاحَ قَدَرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ ، وَلَكِنَّهُ قَدَرٌ ذُو رَائِحَةٍ قَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ يَسْتَرْوِحُهَا مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَرَا فِي السَّمَاءِ وَبَيْنَهُ وَالْأَرْضِ أَمَدٌ وَدَهْرٌ وَأَسْنَابٌ وَأَقْدَارٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْخَاصِّيَّةَ فِيهِ وَفِي الْإِنْسَانِ مِنْهُ لَمَا تَوَقَّرَتْ رَغْبَةُ فِي عَمَلٍ وَلَا صَحَّ نَشَاطٌ فِي الرَّغْبَةِ وَلَا تَوَجَّهَ عَزَمٌ إِلَى النَّشَاطِ وَلَا تَوَثَّقَتْ عُقْدَةٌ عَلَى الْعَزَمِ .

غَيْرَ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ كَذَلِكَ مَا يُفْسِدُ هَذِهِ الْخَاصِّيَّةَ أَوْ يُضَعِّفُهَا أَوْ يُعْطِلُهَا تَغْطِيلًا ، فَإِذَا هِيَ تَضِلُّ وَلَا تَهْدِي وَكَانَتْ تَهْدِي وَلَا تَضِلُّ ، وَإِذَا هِيَ زَائِعَةٌ عَنِ الْحَقِّ مُلْتَوِيَّةٌ عَنِ الْقَصْدِ ، وَكَانَتْ هِيَ السَّبِيلَ إِلَى الْحَقِّ وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى الْقَصْدِ ، وَمَا يَنَالُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ : الْعَجْزُ ، وَضَعْفُ الْهَمَّةِ ، وَأَضْطِرَابُ الرَّأْيِ .

فَأَمَّا الْعَجْزُ فَمَنْزِلَةٌ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَالثَّبَاتِ يَرْتَفِعُ عَنِ الْأَرْضِ بِعُودِهِ وَلَكِنَّهُ غَائِرٌ فِيهَا بِأُصُولِ حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا ضَعْفُ الْهَمَّةِ فَمَنْزِلَةٌ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يُوْجَدَ كَيْفَمَا وَجَدَ وَحَيْثُمَا جَاءَ مَوْضِعُهُ مِنَ الْوُجُودِ ، إِذْ هُوَ يُؤَلَّدُ وَيَكْدَحُ وَيَكْدُلُ لِيَكُونَ لَحْمًا وَعَظْمًا وَصُوفًا وَوَبَرًا وَشَعْرًا وَأَنَانًا وَمَتَاعًا ، وَكَأَنَّهُ ضَرَبَ آخِرُ مِنَ الثَّبَاتِ إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْمُنْفَعَةِ .

وَأَمَّا أَضْطِرَابُ الرَّأْيِ فَمَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، وَتَقَعُ مِنْ كِلْتَاهُمَا مَوْقِعَهَا ، وَالْعَجْزُ وَضَعْفُ الْهَمَّةِ وَأَضْطِرَابُ الرَّأْيِ فِي لُغَةِ الْعَقْلِ مَعَانٍ ثَلَاثَةٌ لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْخَبِيَّةُ ، وَمَا أَسْرَارُ النَّجَاحِ إِلَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُقَابِلُهَا وَهِيَ الْقُوَّةُ وَالْعَزِيمَةُ وَالثَّبَاتُ .

وَلَكِنْ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ طُفُولَةٌ وَشَبَابٌ ، وَهُمَا حَالَتَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا ، وَهُمَا مِنَ الضَّعْفِ
وَالثَّرَقِ بِطَبِيعَتِهِمَا ، وَفِيهِمَا يَتَنَاقَلُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَغْرَاضِهِ ، وَيَزِيدُ عَنْ صِعَابِهَا ، وَيَنْخَذِلُ
دُونَ غَايَاتِهَا ؛ وَلَيْسَ يَأْتِي لِلطُّفْلِ أَنْ يُدْرِكَ الرَّجُلَ فِي مَعَانِيهِ وَلَا لِلشَّابِّ أَنْ يَتْلُغَ الْحَكِيمَ فِي
كَمَالِهِ ؛ فَكَأَنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا أَمَلٌ فِي أَسْبَابِ النَّجَاحِ ، وَكَأَنَّ كُلِيهِمَا لَا يُحْسِنُ أَنْ يَطْوِيَ
فَوَادَهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا أَنْ يَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَمْرٍ ، غَيْرَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ أَنَّهُ أَرَصَدَ مِنْ
نَوَامِيهِ الْقُوَّةَ لِضَعْفِ الطُّفُولَةِ وَتَرَقَّ الشَّبَابِ مَا هُوَ سِنَادٌ يَمْنَعُ ، وَمَوْئِلٌ يَغْصِمُ ، وَقُوَّةٌ
تُصْلِحُ ؛ وَهُوَ نَامُوسُ الْفُدُورَةِ الَّذِي يَمَثَلُ فِي الْأَبِّ وَالْأُمِّ وَالصَّاحِبِ وَالْعَشِيرِ وَالْمُعَلِّمِ
وَالْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَبُثُّ فِي الْخَلْقِ مَا يُوجِّهُهُمْ دَائِمًا إِلَى الْإِعْتِقَادِ وَيَخْمِلُهُمْ
عَلَيْهِ وَيَبْصُرُهُمْ بِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ مُمَارَسَةٌ لِفَضِيلَةِ الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ حَيْثُ
يُدْرِي الْإِنْسَانُ أَوْ لَا يُدْرِي .

وَكِتَابُ « سِرِّ النَّجَاحِ » الَّذِي تَرَجَّمَهُ أَسْتَاذُنَا الْعَلَّامَةُ الدُّكْتُورُ يَغُفُوبُ صَرُوفُ فِي سَنَةِ
١٨٨٠ ، وَظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ الرَّابِعَةُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، هُوَ وَاللَّهُ فِي بَابِ الْفُدُورَةِ نَامُوسٌ عَلَى
حِدَةٍ ، وَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا تَلَاءَمَ نَسْجُهُ وَاسْتَوَتْ أَجْزَاؤُهُ وَوُضِعَ آخِرُهُ عَلَى أَوَّلِهِ وَأَنْصَبَ كُلُّهُ إِلَى
الْعَرَضِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَجَاءَ مَقْطَعًا وَاحِدًا فِي مَعْنَاهُ وَقَائِدَتِهِ - كَهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُعَلِّمُ
الضَّعِيفَ كَيْفَ يَقْوَى ، وَالْعَاجِزَ كَيْفَ يَغْتَمِدَ ، وَالْمُضْطَرَّبَ كَيْفَ يَبْثُثُ ، وَالْمَحْزُونُ كَيْفَ
يَأْمُلُ ، وَالْيَائِسَ كَيْفَ يَبْثُثُ ، وَالْمُنْهَرَمَ فِي الْحَيَاةِ كَيْفَ يَقْبَلُ ، وَالسَّاقِطَ كَيْفَ يَنْتَهِضُ ؛
وَيُعَلِّمُكَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَ تُرِنِحَ الْكَدَّ بِالْكَدِّ ، وَكَيْفَ تُسْقِطُ التَّعَبَ بِالتَّعَبِ ، وَكَيْفَ تَمْضِي
عَزِيمَتَكَ وَتَعْتَقِدُهَا وَتَضْرِبُ كُرَّةَ الْأَرْضِ بِقَدَمِكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَلِكًا وَلَا قَائِدًا وَلَا قَاتِمًا ،
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ صَمِيمِ الشُّوْقَةِ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ فَقْرِكَ وَرَاءَ عَتَبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لَا أَقُولُ : إِنَّ هَذَا
الْكِتَابَ عِلْمٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَسْقُطُ بِهِ دُونَ مَثَرَتِهِ وَلَا يَعْدُو فِي وَصْفِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْمُوعًا
مِنَ الْوَرَقِ الصَّفِيْلِ عَلَى طَبْعٍ جَيِّدٍ ، مَعَ أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ وَالْعَزَائِمِ وَأَعْصَابِ
الْقُلُوبِ ؛ وَلَكِنِّي أَقُولُ فِي وَصْفِهِ الْعِلْمِيِّ : إِنَّ الْمَدَارِسَ تُخْرِجُ مِنَ الْكُتُبِ تَلَامِيذَ ...
وَهَذَا الْكِتَابُ يُخْرِجُ مِنَ التَّلَامِيذِ رِجَالًا أَقْوِيَاءَ أَشْدَاءَ مَغْصُوبِينَ عَصِيبَ جُدُوعِ الشَّجَرِ
الْعَاتِي ، مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَصَلَابَتِهَا وَصِحَّةِ الْعَزِيمَةِ وَمُضَائِهَا ، وَتَصَمِيمِ الرَّأْيِ وَتَفَادِهِ ؛

وَمِمَّا يُعْطِي مِنْ قُوَّةِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَمُطَاوَلَةِ التَّعَبِ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الطَّاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَا تَقْرُؤُهُ حَقَّ قِرَاءَتِهِ وَتَسْتَوْفِيهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْإِمْعَانِ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْهُ وَقَدْ وَضَعَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنْ نَفْسِكَ كَأَنَّكَ مَنْ كُنْتَ وَكَيْفَ كُنْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ طِفْلًا خَرَجْتَ رَجُلًا ، وَإِنْ كُنْتَ رَجُلًا خَرَجْتَ حَكِيمًا ، وَإِنْ كُنْتَ حَكِيمًا اسْتَحْدَثَ فِي نَفْسِكَ مَا يَجْعَلُكَ بِالْحِكْمَةِ فَوْقَ الدُّنْيَا وَكُنْتَ بِهَا فِي الدُّنْيَا .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْمُتَرْجِمُ فِي مُقَدِّمَتِهِ : « أَشْهَدُ لِأَبْنَاءِ وَطَنِي أَنَّنِي لَمْ أَتَنَفَّعْ بِكِتَابٍ قَدَّرَ مَا أَتَنَفَّعْتُ بِهِذَا الْكِتَابِ » . وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَقُولُ غَيْرَهَا مَنْ يَقْرَأُ « سِرَّ النَّجَاحِ » ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا : إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ فِي وَضْعٍ مِنْ فَائِدَةِ النَّفْسِ وَمَا يُزْهِفُ حَدَّهَا وَيَتَّبِعُ مَلَكَاتِهَا وَيَسْتَنْهِضُ قُوَاهَا وَيَسْتَنْقِذُ سَائِلَهَا عَلَى مَا يُشْفِيهِ الْقَوَاعِدُ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَّا إِلَى نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَيْنَ أَعْتَبَرْتَهَا ، كَ : اثنانِ وَاثْنَانِ أَرْبَعَةٌ ، وَثَلَاثَةٌ وَوَاحِدٌ أَرْبَعَةٌ ، وَأَرْبَعَةٌ وَحَدَاثِ أَرْبَعَةٌ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

تِلْكَ شَهَادَةُ الْمُتَرْجِمِ ، أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ لَقَدْ عَرَفْتُ مِنْذُ زَمَنِ طَالِبًا فِي الْأَزْهَرِ ، فَلَمَّا تَعَرَّفَ إِلَيَّ جَعَلَ يَشْكُو وَيَتَّوَمُّ وَيَنْفُضُ لِي نَفْسَهُ وَيَقُولُ : الْأَزْهَرُ وَعُلُومُهُ وَقُنُونُهُ وَمَسَائِلُهُ وَمَسَائِلُهُ ، وَالْمُنُونُ وَمَا فِيهَا ، وَالشُّرُوحُ وَمَا إِلَيْهَا ، وَالْحَوَاشِي وَمَا يُرَدُّ وَيُعْتَرَضُ وَيُجَابُ بِهِ وَيُقَالُ فِيهِ ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ بِسَاعَةِ مِنَ الْعُمُرِ ، وَكُلُّ سَطْرِ يَبْتِغِيهِ ، وَكُلُّ جُزْءٍ يَسْتَتِيهِ ، وَتَرَكْتُ وَرَائِي كَذَا وَكَذَا فِدَانًا وَأَقْبَلْتُ عَلَى كَذَا وَكَذَا عِلْمًا ، فَلَا حَصْدَتُ مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ ! قُلْتُ : وَمَا يُمَسِّكُكَ وَالْبَابُ مَفْتُوحٌ وَلَا يَسْأَلُكَ الْأَزْهَرُ إِلَى أَيْنَ وَلَا تَسْأَلُكَ الدُّنْيَا إِذَا خَرَجْتَ إِلَيْهَا مِنْ أَيْنَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا رَبَطَنِي إِلَى هَذِهِ الْأَعْمِدَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى يَأْسٍ وَمَضْضٍ إِلَّا كِتَابُ « سِرِّ النَّجَاحِ » ، وَمَا أَمْضَيْتُ يَتَّبِعِي مَرَّةً عَلَى وَجْهِهِ مِنْ جُودِ الْعَيْشِ إِلَّا رَأَيْتُ هَذَا الْكِتَابَ قَدْ ضَرَبَ وَجْهَ هَذِهِ اللَّيَّةِ فَرَدَّهَا إِلَيَّ هَذَا الْمَكَانَ وَالْقَاهَا فِي هَذَا الْمُسْتَقَرِّ ، وَمَا هَمَمْتُ بِتَرْكِ الْأَزْهَرِ إِلَّا أَنْتَصَبْتُ فِي وَجْهِهِ كُلُّ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ قَرَأْتُ أَخْبَارَهُمْ فِيهِ وَأَمْسَكُونِي ، لَا مِنْ يَدِي وَلَا مِنْ رِجْلِي وَلَكِنْ مِنْ اعْتِقَادِي وَإِيمَانِي وَأَمَلِي !

قُلْتُ : فَوَاللَّهِ لَا يَدْعُكَ حَتَّى تَنْجَحَ ، وَمَا رَبَطَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ بِهِذَا الْكِتَابِ وَتَبَّتْ قُودَاكَ بِالْيَقِينِ الَّذِي فِيهِ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ لَكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ .

أَبُو تَمَامٍ الشَّاعِرُ

تَحْقِيقُ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ (*)

لَمْ يَبْقَ بَدٌّ مِنْ أَنْ نَبْلُغَ بِالْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَى مَقْطَعِ الْحَقِّ فِيهِ ، وَأَنْ نَنْفُذَ بِتَحْقِيقِهِ إِلَى خَاصَّتِهِ ، وَنَنْتَهِيَ مِنْ خَاصَّتِهِ إِلَى بُرْهَانِهِ ، فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْأَدَبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَلْفَوْا خَيْرَ أَبِي تَمَامٍ كَلَامًا مُرْسَلًا يَجْرِي فِي الرِّوَايَةِ عَلَى طُرُقِهَا الْمُخْتَلِفَةِ ، لَا عَلَى التَّارِيخِ فِي وَجْهِهِ الْمُتَعَيِّنِ ، وَيُؤْخَذُ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ كَالْأَخْبَارِ إِنْ صَدَقَ فَقَدْ صَدَقَ وَإِنْ كَذَبَ فَهُوَ عَلَى مَا يَجِبُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَعْنيهِمْ مِنَ الشَّاعِرِ إِلَّا شِعْرُهُ ، يَحْمِلُونَهُ عَنْهُ أَوْ يَأْخُذُونَهُ مِنْ رُؤَايِهِ أَوْ يَجِدُونَهُ فِي دِيْوَانِهِ ؛ أَمَّا أَخْبَارُ الشَّاعِرِ فَهِيَ لَا تَتَّصِلُ بِالْكِتَابِ وَلَا بِالسَّنَةِ ، فَتَجْتَمِعُ لَهُمْ كَمَا تَجْتَمِعُ ، وَيَتَنَاوَلُونَهَا كَمَا اتَّفَقَتْ بِمَا دَخَلَهَا مِنَ الْكُذْبِ وَالتَّرْيِيدِ وَالتَّلْفِيقِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِمَّا يُظَاهِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ يَنْقُضُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَالْمُحَقِّقُ مِنْهُمْ مَنْ يَزِي الصُّدْقَ وَالْكَذِبَ مَعًا لِيُخْرِجَ مِنَ التَّبَعَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَبَعَةٍ فِي أَحَدِ التَّقْيِيزِينَ ، وَلِيَبْرَأَ بِصُدْقِ أَحَدِهِمَا مِنْ كُذْبِ أَحَدِهِمَا ، كَمَا صَنَعَ ابْنُ خُلَّكَانَ فِي سِيَاقِهِ خَيْرَ أَبِي تَمَامٍ وَهَذَا نَصُّ عِبَارَتِهِ :

كَانَتْ وَلَادَةُ أَبِي تَمَامٍ ... بِجَاسِمٍ ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَطَبْرِيقَ ، وَنَشَأَ بِمِصْرَ ، قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ بِالْجَرَّةِ فِي جَامِعِ مِصْرَ ، وَقِيلَ : كَانَ يَخْدُمُ حَائِكًا يَعْمَلُ عِنْدَهُ بِدِمَشْقَ ، وَكَانَ أَبُوهُ حَمَارًا بِهَا .

وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ طُرُقَ الرِّوَايَةِ وَمُصْطَلَحَاتِهَا يُذَكِّرُونَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ ابْنَ خُلَّكَانَ يَشْتَنِي مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ تَبَعَةٌ أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا ، فَإِنَّ الرِّوَايَةَ مَتَى أَفْتَحَ الْخَبَرَ (بِقِيلِ)

(*) { لَمَّا أَنْشَأَ الْمُؤَلَّفُ مَقَالَهُ عَنْ شَوْقِي (رَحِمَهُ اللَّهُ) غَضِبَ مَنْ غَضِبَ مِنْ أَدْبَاءِ مِصْرَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ يَقْصِدُ الْغَضَّ مِنْ مَكَانَةِ (مِصْرَ الشَّاعِرَةِ) ، وَرَمَاهُ مَنْ رَمَاهُ فِي وَطَنِيَّتِهِ ، وَحَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي الشُّعْرِ الْمِصْرِيِّ بِتَعْدَادِ شُعْرَاءِ مِصْرَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَسْتَشِيعَ شَيْءٌ شَيْئًا ، فَجَاءَ ذِكْرُ أَبِي تَمَامٍ وَمَا قَالُوا عَنْ إِقَامَتِهِ فِي مِصْرَ ، فَأَنْشَأَ الْمُؤَلَّفُ هَذَا الْمَقَالَ ، وَأَنْظَرَ (فِي التَّنْقِيدِ مِنْ كِتَابِنَا «حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ») . }

أَوْ يُقَالُ) فَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرُ مَقْطُوعٍ بِهِ ، إِذْ تَسَمَّى هَذِهِ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُمْ صَنِيعَةُ التَّمْرِيزِ ، فَهِيَ لَا تُفِيدُ الصَّحَّةَ وَلَا الْجَزَمَ بِهَا ، وَظَاهِرٌ أَنَّ أَبَا تَمَامٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ وَيَدْمَشَقَ فِي وَقْتٍ مَعًا .

وَأَبْنُ خُلِكَانَ قَدْ وَقَفَ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي عَمِلَهُ الصُّولِيُّ فِي أَخْبَارِ أَبِي تَمَامٍ وَنَقَلَ عَنْهُ ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ قَدْ خَلَا مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، بَلْ نَحْنُ نُرَجِّحُ أَنَّهُ قَدْ خَلَا مِنْهَا بَتَّةً ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ نَشَأَ أَبِي تَمَامٍ كَانَتْ بِمِصْرَ ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَغَانِي أَغْفَلَهَا وَلَمْ يَشِرْ إِلَيْهَا بِحَرْفٍ ، مَعَ أَنَّهُ يَنْقُلُ عَنِ الصُّولِيِّ نَفْسِهِ ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ : (أَخْبَرَنِي الصُّولِيُّ) ؛ وَكَذَلِكَ أَهْمَلَهَا صَاحِبُ «مُرُوجِ الذَّهَبِ» ، وَهُوَ يَنْقُلُ أَيْضًا عَنِ الصُّولِيِّ ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الْخَبَرَ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا يَوْمَئِذٍ ، وَإِلَّا فَمَا هُوَ التَّارِيخُ عِنْدَ أَبِي الْفَرَجِ وَالْمَسْعُودِيِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ هَذَا ؟

وَلَكِنْ ذُكِرَتِ الرِّوَايَةُ فِي كِتَابِ الْأَنْبَارِيِّ «طَبَقَاتِ الْأَدَبَاءِ» ، وَافْتَصَرَ نَاقِلُهَا عَلَى أَنَّ أَبَا تَمَامٍ نَشَأَ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ بِهَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ رِوَايَةَ عَمَلِهِ بِدْمَشَقَ ، وَالْأَنْبَارِيُّ مُتَأَخِّرُ تُوْفِي سَنَةِ ٥٧٧ ، فَهُوَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي تَمَامٍ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَنِصْفٍ ، فَلَا قِيَمَةَ لِرِوَايَتِهِ ، وَشَأْنُهُ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ الثَّقَاتِ ، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ قَدْ صُنِعَتْ فِي مِصْرَ نَفْسِهَا لِلْغَضِّ مِنْ أَبِي تَمَامٍ وَالرِّوَايَةِ عَلَيْهِ ، وَبَقِيَتْ مَرْوِيَّةً فِيهَا ، ثُمَّ حُمِلَتْ كَمَا تُحْمَلُ كُلُّ رِوَايَةٍ لِذَاتِهَا لَا لِتَحْقِيقِهَا ، سِوَاءَ أَكَانَتْ مُوجَّهَةً عَلَى الْحَقِّ أَمْ مَعْدُولًا بِهَا عَنْهُ ؛ وَلَا أَوْضَعَ فِي الْمِهْنَةِ مِنْ سَقَايَةِ الْمَاءِ فِي الْجَامِعِ بِالْجَرَّةِ ، وَلَعَمْرِي مَا ذُكِرَتْ (الْجَرَّةُ) هُنَا عَبَثًا ، وَالْغُلُّ فِي التَّخْقِيرِ هُوَ بَعَيْنُهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْكَذِبِ ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَأَثَرِ الْمُجَرِّمِ فِي جَرِيمَتِهِ . . .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا نَقْرُرُ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ لَمْ يَنْشَأَ بِمِصْرَ ، وَأَنَّهُ وُلِدَ وَتَأَدَّبَ فِي الشَّامِ ، ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ شَاعِرًا نَاشِئًا يَتَكَسَّبُ بِأَدَبِهِ كَمَا قَدِمَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلَى مِصْرَ إِلَّا فِي وَلَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ الْأَدِيبِ الشَّاعِرِ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ ، وَقَدْ جُعِلَتْ لَهُ وَلَايَةُ مِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ ٢١١ عَلَى خِلَافِ بَيْنِ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَكَانَتْ سَنُ أَبِي تَمَامٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ ٢١ وَ٢٣ سَنَةً ؛ وَقَدْ كَانَ أَبْنُ طَاهِرٍ مِغْنَاتِيْسًا لِلشَّعْرَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْزِلُهُ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الْهِجْرَةِ إِلَى مِصْرَ

[من الطويل] :

يَقُولُ رِجَالٌ إِنَّ مِصْرَ بَعِيدَةً وَمَا بَعُدَتْ مِصْرُ وَفِيهَا ابْنُ طَاهِرٍ
وَأَبْعَدُ مِنْ مِصْرَ رِجَالٌ نَرَاهُمْ بِحَضْرَتِنَا مَعْرُوفُهُمْ غَيْرُ طَاهِرٍ
عَنِ الْخَيْرِ مَوْتَى مَا تُبَالِي أَرْزَتْهُمْ عَلَى طَمَحٍ أَمْ رُزَتْ أَهْلُ الْمَقَابِرِ
وَقَدْ قَصَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ إِلَى مِصْرَ ، كَمَا قَصَدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى خُرَّاسَانَ فِي سَنَةِ ٢٢٠ ، وَهِيَ
السَّنَةُ الَّتِي وَضَعَ فِيهَا أَبُو تَمَّامٍ أَوْ فِي الَّتِي تَلِيهَا كِتَابَ « الْحِمَاسَةِ » كَمَا حَقَّقْنَاهُ ، وَلَا مَحَلَّ
لِدِكْرِهِ هُنَا .

وَنَحْنُ نَسُوقُ أَدِلَّتَنَا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي نَفْيِ أَنْ يَكُونَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ نَشَأَ بِمِصْرَ أَوْ
جَاءَهَا طِفْلًا ، أَوْ يَكُونَ مِنْهَا طَبِيعَتُهُ فِي الشَّعْرِ ، أَوْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ فِي عِبَرِيَّتِهِ :

١ - الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ بِلَا خِلَافٍ أَنَّ الشَّاعِرَ وُلِدَ فِي الشَّامِ ، وَمَا دَامَ كَذَا لَقَدْ قَالَتِ الطَّبِيعَةُ
كَلِمَتَهَا فِي أَصْلِ بُبُوغِهِ وَعَبَرِيَّتِهِ ، فَإِنَّ الْأَدِيبَ يُؤَلِّدُ وَلَا يُصْنَعُ كَمَا يَقُولُ الْإِنْكِلِيزُ ، وَكُلُّ
الْعُلَمَاءِ يَغْرِفُونَهُ بِالطَّائِفِ ! وَلَا يَطْعَنُ فِي نَسَبِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَحَقُّ ، وَهُوَ نَفْسُهُ يُبَاهِي بِطَائِفَتِهِ ،
وَذَلِكَ كَالشَّرْحِ عَلَى كَلِمَةِ الطَّبِيعَةِ فِي أَسْبَابِ بُبُوغِهِ الْوَرَائِيَّةِ ؛ وَقَدْ تَقَلَّ الرَّجُلُ بَيْنَ مِصْرَ
وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَأَرْمِينِيَّةَ وَغَيْرِهَا ، فَمَا بَلَدٌ أَوْلَى مِنْ بَلَدٍ بِأَنْ يَكُونَ مَثَارَ عِبَرِيَّتِهِ .

٢ - إِنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَسَّبُ مِنْ شِعْرِهِ ، يَمْدَحُ مَنْ يَهْتَرُّ لَهُ أَوْ يُعْطِي عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْدَحْ
أَبُو تَمَّامٍ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ؛ فَإِنْ كَانَ مَدَحَ فِيهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ فَإِنَّمَا إِلَيْهِ قَصْدٌ وَإِلَيْهِ
جَاءَ ؛ وَأَبْنُ طَاهِرٍ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، وَقَدْ جَاءَ إِلَى مِصْرَ وَرَجَعَ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَحُولَ عَلَيْهِ
الْحَوْلُ ، فَلَوْ أَنَّ نَشَأَ هَذَا الشَّاعِرِ كَانَتْ بِمِصْرَ وَتَأَدَّبَهُ كَانَ فِيهَا لِأَصْنَتِهِ لَهُ مَدْحًا كَثِيرًا فِي
أَعْيَانِهَا وَعُلَمَائِهَا ؛ إِذْ هُوَ مَتَى قَالَ الشَّعْرَ لَا يَتَكَسَّبُ إِلَّا مِنْهُ ؛ وَفِي دِيَوَانِ الشَّاعِرِ هِجَاءُ
لِابْنِ الْجُلُودِيِّ نَظْمُهُ فِي مِصْرَ ، وَلَكِنَّ ابْنَ الْجُلُودِيِّ لَيْسَ مِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ قَائِدٌ مِنْ قَوَادِ
الْمَأْمُونِ ، وَلَاهُ مُحَارَبَةَ الرُّطِّ سَنَةَ ٢٠٥ ؛ ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مِصْرَ ، ثُمَّ وُلِّيَ عَلَيْهَا فِي
سَنَةِ ٢١٤ ؛ فَكُلُّ الْمِصْرِيَّةِ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ هِيَ فِي هِجَائِهِ لِلشَّاعِرِ الْمِصْرِيِّ يُوسُفَ
السَّرَّاجِ ، وَلَعَلَّهَا فِي بَعْضِ مَقَاطِيعِ أُخْرَى مِنَ الْغَزَلِ أَوْ الْوَصْفِ .

٣ - وُلِدَ أَبُو تَمَّامٍ فِي سَنَةِ ١٨٨ أَوْ ١٩٠ ، وَمِنْ الثَّابِتِ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ فِي سَنَةِ ٢١٤ حِينَ نَظَّمَ قَصِيدَتَهُ الدَّلَالِيَّةَ وَالْثَوْنِيَّةَ فِي رِثَاءِ عُمَيْرِ بْنِ الْوَلِيدِ - وَعُمَيْرٌ هَذَا لَيْسَ بِمِصْرِيًّا ، بَلْ هُوَ مِنْ خُرَاسَانَ ، وَكَانَ بِمِصْرَ عَامِلًا لِأَبِي إِسْحَاقِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ الرَّشِيدِ - فَلَوْ كَانَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ جَاءَ إِلَى مِصْرَ طِفْلًا كَمَا يُقَالُ لَكَانَتْ مُدَّةُ قَوْلِهِ الشُّعْرَ فِيهَا لَا تَقِلُّ عَنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ ، مَعَ أَنَّ كُلَّ مَا نَظَّمَهُ وَهُوَ فِيهَا لَا يَبْلُغُ عَشْرَ قَصَائِدَ ؛ وَهَذَا دِيْوَانُهُ بَيْنَ أَيْدِينَا وَإِلَيْهِ وَخَدَهُ الْمَرْجِعُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى صَاحِبِهِ .

٤ - رَوَى الْمَرْزُبَانِيُّ فِي « الْمَوْشِح » عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ خَالِدِ الْبَرِمَكِيِّ قَالَ : أَوَّلُ مَا نَبَغَ (أَيُّ : قَالَ الشُّعْرُ) أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِي أَنَاثِي بِدِمَشْقَ يَمْدَحُ مُحَمَّدَ بْنَ الْجَهْمِ فَكَلَّمْتُهُ فِيهِ فَأَذِنَ لَهُ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنشَدَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ لَهُ بِدِرَاهِمٍ يَسِيرَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ عَاشَ هَذَا لِيَخْرُجَنَّ شَاعِرًا .

فَهَذَا نَصٌّ عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا فِي أَوَّلِ الشُّعْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ خَرَجَ شَاعِرًا بَعْدُ وَكَانَ شِعْرُهُ مِنَ الطَّبَقَةِ الَّتِي يُثَابُ عَلَيْهَا (بِدِرَاهِمٍ يَسِيرَةٍ) . وَأَبُو تَمَّامٍ بَعْدَ ذَلِكَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي نَزَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ أَلْفَ دِينَارٍ فَتَرَفَّعَ أَنْ يَمْسِكَهَا وَتَرَكَ الْخَدَمَ يَنْتَهَبُونَهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَغْيِيرِ ابْنِ طَاهِرٍ عَلَيْهِ .

٥ - نَقَلَ ابْنُ خُلِكَانَ فِي تَرْجَمَةِ دِيكَ الْجِنِّ الشَّاعِرِ الْحَمِصِيِّ الْمَشْهُورِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الرَّزِيدِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ دِيكَ الْجِنِّ (يَعْنِي بِحِمَصَ) فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَدَّثَ فَأَنشَدَهُ شِعْرًا عَمِلَهُ ، فَأَخْرَجَ دِيكَ الْجِنِّ مِنْ تَحْتِ مُصَلَّاهُ دَرَجًا كَبِيرًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ شِعْرِهِ ، فَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا فَتَى ! تَكَسَّبَ بِهِذَا وَأَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى قَوْلِكَ . فَلَمَّا خَرَجَ سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : هَذَا فَتَى مِنْ أَهْلِ جَاسِمٍ ، يَذْكُرُ أَنَّهُ مِنْ طَيْفٍ ، يُكْنَى أَبَا تَمَّامٍ ، وَاسْمُهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ ، وَفِيهِ أَدَبٌ وَذَكَاءٌ وَلَهُ قَرِيبَةٌ وَطَبْعٌ . فَهَذَا نَصٌّ آخَرُ عَلَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ كَانَ يَوْمَئِذٍ حَدَثًا - أَيُّ : غُلَامًا - وَكَانَ لَا يَزَالُ يَطْلُبُ الْأَدَبَ ، وَقَدْ أَعَانَهُ أُسْتَاذُهُ بِنُسْخٍ مِنْ قَصَائِدِهِ يَخْرِجُ بِهَا وَيَخْذُو عَلَيْهَا ؛ فَهُوَ قَدْ نَشَأَ فِي الشَّامِ وَتَأَدَّبَ فِيهَا .

٦ - نَظَّمَ أَبُو تَمَّامٍ قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَّةَ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

أَصَبَ بِحُمَيَّا كَأْسَهَا مَقْتُلُ الْعَذَلِ

يَصِفُ تَقْتِيرَ الرُّزْقِ عَلَيْهِ بِمَضَرٍ وَخَبِيئَةَ أَمَلِهِ الَّذِي أَمَلَهُ مِنَ الْمَالِ ، وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَحِجُّ إِلَى الشَّامِ وَيَسْتَسْقِي لَهَا وَيَذْكُرُ أَرْضَ الْبِقَاعَيْنِ وَقُرَى الْجَوْلَانِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا ، وَلَا يَحِجُّ الشَّاعِرُ لِأَرْضٍ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا حُبُّهُ أَوْ شَبَابُهُ وَأَدَبُهُ ، أَمَّا الطُّفُولَةُ فَمَنْسِيَّةٌ بِأَنَارِهَا ، إِذْ لَا أَثَارَ لَهَا فِي النَّفْسِ مَتَى شَبَّ الْمَرْءُ إِلَّا بَعِيدًا بَعِيدًا ، وَإِنَّمَا الْحَنِينُ لِمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيزَةُ الْمُمِيزَةُ .

٧ - فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ أَبُو تَمَامٍ يُخَاطِبُ أَحْبَابَهُ [من الطويل] :

عَدَتْنِي عَنْكُمْ مُكْرَهَا غُرْبَةُ النَّوَى لَهَا وَطَرُفِي أَنْ تَمُرَّ وَلَا تُخْلِي
وَالنَّوَى فِي لُغَةِ الشَّاعِرِ هِيَ رَحِيلُهُ لِلتَّكْسِبِ بِشِعْرِهِ ؛ وَلَمَّا رَجَعَ عَوْفُ بْنُ مُحَلَّمٍ الشَّيْبَانِيُّ إِلَى وَطَنِهِ بَعْدَ وَفَادَتِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فِي خُرَاسَانَ ؛ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ :
رَجَعْتُ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ اللَّهِ بِالْغِنَى (وَالرَّاحَةِ مِنَ النَّوَى) ؛ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ فِي قَصِيدَتِهِ
تِلْكَ [من الطويل] :

نَأَيْتُ فَلَا مَالًا حَوَيْتُ وَلَمْ أَقِمْ فَأَمْتِعْ ، إِذْ فُجِعْتُ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ
يَعْنِي : أَنَّهُ اغْتَرَبَ مُكْرَهَا يَطْلُبُ الْكَسْبَ لَا غَيْرَ ، وَلَا كَسَبَ لِلشَّاعِرِ إِلَّا مِنْ شِعْرِهِ ؛
فَهُوَ بِنَصِّ كَلَامِهِ مِنْ نَفْسِهِ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ شَاعِرًا يَتَكَسَّبُ وَيَتَعَرَّضُ لِلْغِنَى كَمَا يَصْنَعُ غَيْرُهُ .

٨ - فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ اللَّامِيَّةِ يُقَدِّمُ لَنَا أَبُو تَمَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ دَلِيلًا يَأْكُلُ الْأَدِلَّةَ ، كَأَنَّمَا أَلْهِمَ مِنْ وَخِي الْغَيْبِ أَنَّنَا سَنَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الدَّلِيلِ يَوْمًا لِنُدْفَعَ بِهِ عَنْهُ ؛ فَهُوَ يَحِجُّ إِلَى حَبِيبِ لَهُ فِي الشَّامِ وَيَقُولُ : إِنَّ غُرْبَةَ النَّوَى الَّتِي وَصَفَهَا [من الطويل] :

أَنْتَ بَعْدَ هَجْرٍ مِنْ حَبِيبٍ فَحَرَكْتَ صَبَابَةَ مَا أَبْقَى الصُّدُودُ مِنَ الْوَصْلِ
أَخْمَسَةَ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغْنِيهِ ؟ وَشَهْرَانِ بَلْ يَوْمَانِ تُكُلُّ مِنَ التُّكُلِ

يَعْنِي : إِنَّهُ قَالَ هَذَا الشَّعْرَ وَقَدْ مَضَى عَلَى إِقَامَتِهِ فِي مِصْرَ خَمْسُ سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ قَدْ جَاءَ مِنَ الشَّامِ عَاشِقًا ذَلِكَ الْعِشْقِ الَّذِي فِيهِ (الصُّدُودُ وَالْوَصْلُ) ، وَالطُّفُلُ لَا يُحِبُّ مِثْلَ هَذَا الْحُبِّ وَلَا يَحِجُّ ذَلِكَ الْحَنِينُ ؛ فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ قَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ٢١٠ كَمَا رَجَحَتْهُ ، وَسَنُهُ بَيْنَ ٢١ وَ ٢٣ سَنَةً ، فَيَكُونُ قَدْ نَظَّمَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي سَنَةِ ٢١٥ وَعُمُرُهُ

يَوْمَيْنِ بَيْنَ ٢٦ وَ ٢٨ سَنَةً ؛ فَلَوْ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ جَاءَ مِنَ الشَّامِ طِفْلاً صَغِيْرًا فَكَيْفَ لِلطُّفْلِ أَنْ يَقُولَ
مِثْلَ هَذَا الشُّعْرِ بَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ ؟ وَمَا هَجَرَ الْحَبِيبَ وَ « صَبَابَةَ مَا أَبْقَى الصَّدُودُ مِنْ
الْوَصْلِ » ؟ .

٩ - مَدَحَ شَاعِرُنَا مُحَمَّدَ بْنَ حَسَّانَ الصُّبِّيِّ بِقَصِيدَةٍ نُزِنَتْ يَذْكُرُ فِيهَا تَنَقُّلَهُ فِي الْبِلَادِ ،
فَقَالَ مِنْهَا [من البسيط] :

بِالشَّامِ أَهْلِي ، وَبَعْدَادِ الْهَوَى ، وَأَنَا بِالرَّفَمَتَيْنِ ، وَبِالْفِسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تُشَافَهُ بِي أَقْصَى خُرَاسَانَ !
فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَهُ بِالشَّامِ ، وَجَعَلَ أَصْدِقَاءَهُ بِمِصْرَ ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَشَأَ بِهَا
لَجَعَلَ بِهَا أَهْلَهُ ، إِذْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَالْبَيْتُ الثَّانِي دَلِيلٌ مِنْهُ هُوَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ
بِمِصْرَ مُقِيمًا وَلَا مُوْطَأًا ، بَلْ مُتَنَقِّلًا كَمَا نَزَلَ بِغَيْرِهَا .

١٠ - تَقُولُ كُتُبُ الْأَدَبِ فِي مَدَارِسِ الْحُكُومَةِ : إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ نُقِلَ إِلَى مِصْرَ صَغِيرًا فَنَشَأَ
بِهَا (وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ) ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَقَرِّ الْخِلَافَةِ فَمَدَحَ الْمُعْتَصِمَ وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ،
فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْمَأْمُونُ فِي سَنَةِ ٢١٦ حِينَ جَاءَهَا وَقَتْلَ بِهَا
عَبْدُوسَ الْفُهْرِيِّ ، فَلَوْ كَانَ الشَّاعِرُ يَوْمَئِذٍ لَمَدَحَ الْمَأْمُونُ وَذَكَرَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ ، وَالْمُعْتَصِمُ
وَلِيَّ الْخِلَافَةِ سَنَةَ ٢١٨ وَدِيُونَانُ أَبِي تَمَّامٍ يَبْثُ أَنَّهُ فِي سَنَةِ ٢١٧ كَانَ بِالْعِرَاقِ ، وَقَدْ مَدَحَ
الْمَأْمُونُ بِقَصِيدَتِهِ الْمِيمِيَّةِ ، وَذَكَرَ فِي مَذْجِهِ وَفَعَةَ الرُّومِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ .

يَخْلُصُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ وُلِدَ فِي الشَّامِ وَتَأَدَّبَ فِيهَا ، وَقَدِمَ إِلَى مِصْرَ كَبِيرًا
يَتَكَسَّبُ بِالشُّعْرِ ، فَأَقَامَ بِهَا بَيْنَ خَمْسِ سِنِينَ وَسِتٍّ ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَيْشًا بِهَا بَعْدَ قَتْلِ عُمَيْرِ بْنِ
الْوَلِيدِ الَّذِي قُتِلَ فِي سَنَةِ ٢١٤ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي كَنْفِهِ ، وَقَدْ صَرََحَ فِي قَصِيدَتِهِ النَّوْزِيَّةِ
الَّتِي رَنَاهُ بِهَا أَنَّهُ يَأْمُلُ مِنْ بَعْدِهِ فِي ابْنِهِ مُحَمَّدٍ .

فَقَدَرُوا الشَّاعِرَ إِلَى مِصْرَ كَانَ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَخُرُوجُهُ مِنْهَا كَانَ فِي سَنَةِ
٢١٥ أَوْ حَوَالَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ (*)

أَقُولُ لِلْأُسْتَاذِ الْفَاضِلِ الدُّكْتُورِ طَهْ حُسَيْنٍ « فِي رَفَقِ وَلِيِّنِ » وَفِي عَجَلَةٍ أَيْضًا ، إِنِّي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ضَيِّقٌ بِمَا أَمْلِكُ مِنْ وَفَتِي أَشَدَّ الضَّرِّ ، أَحْسَبُ السَّمَاءَ تَنْفَجِرُ مِنْ يَوْمِي فِي سَاعَةٍ كَالْفَجْرِ ، فَلَا يَصْرِفُنِي عَنْ تِلْكَ السَّاعَةِ شَيْءٌ وَلَا يَصْرِفُهَا عَنِّي شَيْءٌ ، إِذْ بَيْنَ يَدَيَّ كِتَابٌ فِي الرِّسَالِ أَعْمَلُ فِيهِ وَأَسْتَعِينُ اللَّهُ عَلَى الْفَرَاغِ مِنْهُ فِي وَفَتٍ مُعَيَّنٍ ، وَقَدْ أَطَّلْتُ أَوْ كَادَ ، فَلَا يَرِيَّ الْأُسْتَاذُ أَنِّي أَسْتَطِيعُ هَذِهِ الْمَرَّةَ كَالطَّيْرَةِ الْأُولَى ، فَإِنَّ جَنَاحِي فِي فِضَاءٍ آخَرَ ، وَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي أَعَالَجُهُ لَا يُجَسِّمُنِي عَرَقًا مِنَ الْقِرْبَةِ كَمَا قَالُوا قَدِيمًا ، بَلْ لَعَلَّهُ فِي أَلَمِهِ أَشْبَهُ « بِعَمَلِيَّةٍ » تَشْرِيحٍ فِي الْقَلْبِ ، وَسَتَذْهَبُ الدَّقَائِقُ الَّتِي أَكْتُبُ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَأْسُوفًا عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا ذَاهِبَةٌ بِصَفَحَتَيْنِ مِنْ كِتَابِي .

وَأَمَّا بَعْدُ ؛ فَلَا أَرَى مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يَعْمَدَ الدُّكْتُورُ إِلَى جُمْلٍ يَفْتَضِبُهُنَّ مِنْ مَقَالِي فِي مَجَلَّةِ الْهَلَالِ ثُمَّ يَهْدِفُهَا لِلرَّدِّ ، وَكَانَ عَسَى أَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا شَيْءٌ مِمَّا قَبْلَهَا أَوْ مَا بَعْدَهَا أَوْ يَشُدُّ مِنْهَا بَعْضَ جِهَاتِهَا أَوْ يَأْنِي بِهَا فِي سِيَاقٍ يَبِينُ عَنْ مَعْنَاهَا .

وَزَعَمَ الْأُسْتَاذُ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِي هَذِهِ الْجُمْلَةَ « وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّوقَ الْأَدَبِيَّ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ عَلَى شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ أَثَرُ الدُّوقِ فِيهِ ، وَأَنَّ التَّقْدِيرَ إِنَّمَا هُوَ الدُّوقُ وَالْفَهْمُ جَمِيعًا . . » ثُمَّ دَارَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ دَوْرَةَ الْعَاصِفَةِ وَجَعَلَهَا مَسْأَلَةً كَمَسْأَلَةِ الدُّورِ وَالتَّسْلُسِ الْمَشْهُورَةِ ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ قَبِيلِ « قِصَّةٍ وَقِصَّةٍ » . . . فَتَرَاهُ يَقُولُ : دَوَّقُ هُوَ الْفَهْمُ ، وَفَهْمُ هُوَ الدُّوقُ ، وَفَهْمٌ لَيْسَ بِالدُّوقِ ، وَدَوَّقٌ لَيْسَ بِالْفَهْمِ ، وَهَلُمَّ صَاعِدًا وَنَازِلًا ؛ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا بِالمُوسِيقَى فَقَالَ : « مَا نَظَرْتُ أَنَّ الَّذِينَ يَذُوقُونَ المُوسِيقَى

(*) (نَشَرَهَا جِزْنُ الْمَعْرَكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّكْتُورِ طَهْ حُسَيْنٍ (بِك) حَوْلَ كِتَابَتِهِ : « رِسَالُ الْأَخْرَانِ » ، وَ« السَّحَابُ الْأَخْمَرُ » ؛ وَلِلدُّكْتُورِ طَهْ فِيهِمَا وَفِي أَسْلُوبِهِمَا رَأْيٌ .
وَأَنْظُرُ كِتَابِي : « الْمَعْرَكَةُ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ » ، وَ« حَيَاةُ الرَّافِعِي » } . سَعِيدُ الْغُرَيَّانِ .

وَيَطْرُبُونَ لَهَا يَفْهَمُونَهَا جَمِيعًا . وَأَنَا أَفْسَرُ كَلَامِي بِهَذَا الْمَثَلِ نَفْسِي ، أَقْتَصِرُ عَلَيْهِ وَلَا أَعْدُوهُ .

نَاتِي الْآنَ بِأُسْتَاذٍ قَدْ بَرَعَ فِي الْمَوْسِيقَى وَخَالَطَتْ أَغْصَابَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَنَذَفُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مَلْحَنَةً وَنَقُولُ لَهُ : أَسْمَعْ وَأَفْهَمْ وَأَحْكَمْ وَانْتَقِدْ ؛ يَسْمَعُهَا مَرَّةً بِعَقْلِهِ أَوْ لِعَقْلِهِ يَتَبَيَّنُ مَا يَكُونُ فِيهَا صَوَابًا وَمَا يَكُونُ خَطَأً ، ثُمَّ مَا يَغْلُو عَنِ الصَّوَابِ مِنَ الْإِجَادَةِ وَالْإِنْتِقَانِ ، وَمَا يَنْحَطُّ عَنِ الْخَطَأِ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالتَّخْلِيضِ ؛ فَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ .

وَيَسْمَعُهَا مَرَّةً ثَانِيَةً بِحِسِّهِ أَوْ لِحِسِّهِ ، فَيَرَى أَثَرَ مَا فَهَمَ ، وَيُدِيرُهَا فِي ذَوْقِهِ لِيَعْرِفَ كَيْفَ مَوْفَعُهَا مِنَ الْغَرَضِ الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ ، فَإِنَّمَا لَمْ تُوضَعْ لِيَكُونُ أَصَوَاتًا ، بَلْ لِيَتَخَلَّقَ مِنَ الْأَصْوَاتِ شَيْئًا ، فَهَذَا هُوَ الذَّوْقُ ، وَهُوَ كَمَا نَرَاهُ بَعْدَ الْفَهْمِ وَنَاشِئٌ عَنْهُ .

وَمِثْلُ الْأُسْتَاذِ طَلَعُ حُسَيْنٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الذَّوْقَ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُهُ ، أَوْ إِنَّمَا هُوَ عَنْ فَهْمِهِ ، أَوْ إِنَّمَا يَنْشَأُ عَنْ فَهْمِهِ ، فَالْعِبَارَةُ فِي بَابِ الْمَجَازِ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ .

ثُمَّ إِنَّ أَسْتَاذَ الْمَوْسِيقَى وَقَدْ سَمِعَ الْقِطْعَةَ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ مَرَّةً كَمَرَّتَيْنِ ، إِنْ بَلَغَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي كُلِّ أُذُنٍ وَاحِدَةٍ أَذْنَانِ ، يَسْتَفْتِي ذَوْقَهُ الْفَتَى وَيَخْكُمُ لِلْقِطْعَةِ أَمَ عَلَيْهَا ، فَهَذَا هُوَ أَثَرُ الذَّوْقِ .

الآنَ قَدْ حَكَمَ الْأُسْتَاذُ وَانْتَقَدَ وَجَزَمَ بِرَأْيِهِ ، فَتَدَبَّ لَهُ فُلَانٌ يَقُولُ : أَخْطَأْتُ وَأَسَأْتُ وَجَهَلْتُ وَغَفَلْتُ ، أَوْ تَعَصَّبْتُ وَحَطَطْتُ فِي هَوَى صَاحِبِ اللَّحْنِ ؛ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْخِلَافُ وَكَيْفَ وَقَعَ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلْ كَيْفَ سَاعَ لِلثَّانِي أَنْ يَجْهَلَ الْأَوَّلَ وَيَرَى غَيْرَ رَأْيِهِ وَيَخْكُمَ غَيْرَ حُكْمِهِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ قَدْ فَهَمَ غَيْرَ فَهْمِهِ فَأَنْشَأَ لَهُ الْفَهْمُ ذَوْقًا وَأَحْدَثَ لَهُ الذَّوْقُ حُكْمًا وَجَاءَتْ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ تِلْكَ السَّيِّجَةُ الَّتِي نُسَمِّيهَا التَّقَدُّ ، وَمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا الذَّوْقُ وَالْفَهْمُ جَمِيعًا ؛ فَالَّذِينَ يَذَوِّقُونَ الْمَوْسِيقَى وَيَطْرُبُونَ لَهَا وَلَا يَفْهَمُونَهَا فَقَدْ فَهَمُوهَا عَلَى مِقْدَارٍ مَا اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ أَسَالِيبِ التَّطَرُّبِ وَمَا فِيهِمْ مِنَ الْمُطَاوَعَةِ لِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ ؛ أَوْ لَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ فِي أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ : إِنَّ لَهُمْ آدَانَا مُوسِيقِيَّةً ؟ فَهَلِ هَذَا الْأَذُنُ هِيَ

أَلْفَهُمْ بِعَيْنِهِ ، لِأَنَّهَا حَاسَّةٌ أَجْتَمَعَتْ مِنْ مِرَانٍ طَوِيلٍ ، وَقَدْ تَقَوَّمُ فِي بَعْضِ النَّاسِ عَلَى جَهْلِهِ
بِالْمُؤَسَّسَتَيْنِ مَقَامَ عِلْمٍ بِرَأْسِهِ .

وَيَقُولُ الْأُسْتَاذُ طَلَهَ إِنَّهُ قَدْ يَفْرَأُ كَلَامِي وَيَفْهَمُهُ وَلَا يَذُوقُهُ ، وَلَكِنَّ عَدَمَ الذَّوْقِ هُنَا هُوَ
الذَّوْقُ ؛ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا مَعْنَى قَوْلِ الْمُتَنَبِّي [من الوافر] :
« وَمَنْ يَكْ ذَا فَمٍ مُرٌّ ... » (١)

وَلَوْ كَانَ الْأُسْتَاذُ وَأَمَثَالُهُ هُمْ فِي هَذَا الْقِيَاسِ الْمِثَرِ وَالْكَيْلُ مِثَرٌ ، لَوَجَبَ أَلَّا أَجِدَ مَنْ
يَذُوقُ كَلَامِي وَيُعْجِبُ بِهِ وَيُعَالِي فِيهِ وَيَكُونُ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِي عِنْدَ اللَّهِ بِإِسْرَافِهِ فِي الْمَعَالَاةِ ،
وَأَنَا وَاجِدٌ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِثْلَ الْأُسْتَاذِ طَلَهَ عَشْرَةَ وَمِئَةً مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَوْ خَرَجَ هُوَ إِلَى الْعَالَمِ لَرَأَى
وَسَمِعَ ، وَفِيهِمْ مَنْ هُمْ أَعْلَى مِنْهُ كَعَبَا وَأَمْدُ عُنُقَا وَأَضْحَمُ هَامَةً وَأَبْدَعُ بَدِيعَا وَأَبْلَغُ وَأَزْكَى
وَأَعْلَمُ إِلَى عَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الْوَاوَاتِ .

وَعَجِبْتُ لِلذُّكُورِ يُرِيدُ أَنْ لَا يَفْهَمَ مِنْ عِبَارَتِي كَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنَّ « أَلَذَّوْقَ هُوَ نَفْسُ
أَلْفَهُمْ ، فَالْفُظَّانِ يَذُلَّانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَإِذَنْ وَإِذَنْ وَإِذَنْ ... » .

فَهَلْ يَرَى إِذَا قُلْتُ لَهُ : رَأَيْتَ الْقَمَرَ وَفُلَانَةَ لَيْلَةً كَذَا ، فَكَانَتْ إِنَّمَا هِيَ الْقَمَرُ - أَنِّي أَفْصِدُ
بِهِمَا مَعْنَى وَاحِدًا ؛ فَيَقُولُ لَهَا : « وَإِذَنْ » فَلَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ،
وَإِذَنْ فَكَيْفَ صَارَ لَهَا وَجْهٌ فِي السَّمَاءِ وَوَجْهٌ فِي الْأَرْضِ وَبَقِيَتْ مَعَ ذَلِكَ أَمْرَاءَةٌ مِنَ الْإِنْسِ ؛
وَإِذَنْ فَهَذَا كَلَامٌ لَا يَفْهَمُ ...

قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ « لَوْ » تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ، يُرِيدُ أَنَّهَا أَدَاءُ التَّمَنِّي ، وَالْمَذْهَبُ
الْجَدِيدُ سَيَضُمُّ « إِذَنْ » إِلَى « لَوْ » ، ثُمَّ مَا هِيَ الْكَلِمَةُ الثَّلَاثَةُ يَا تُرَى ؟

أَنَا مَعَ إِعْجَابِي بِالذُّكُورِ الْفَاضِلِ أَرَى أَنَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِأَشْيَاءَ ، وَأَنَّ مِنْ خُلُقِهِ أَنَّ
مَا لَا يَرْضَى عَنْهُ وَمَا لَا يَفْهَمُهُ « لَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ أَلْفَهُمْ بَدْ قَالَ :
إِنَّهُ لَا يَقْتَنِعُ ، فَإِذَا ضَايَقْتَهُ وَضَيَّقْتَ عَلَيْهِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا يَقُولُ الْحَاحَةُ فِي « أَيُّ » الَّتِي حَيَّرَهُمْ

(١) كامل البيت هو :

وَمَنْ يَكْ ذَا فَمٍ مُرٌّ مَرِيضٌ يَجْذُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزَّلَالَا

إِعْرَابُهَا وَبِنَاؤُهَا ، أَيْ : كَذَا خُلِقَتْ ...

وَأَنَا وَأَمْثَالِي إِنَّمَا نَخْرُصُ أَشَدَّ الْجَرْصِ عَلَى هَذِهِ اللَّغَةِ لِأَنَّهَا أَسَاسُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَا نَرْضَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَسَاسُ ثَابِتًا مَبْتَنًى لَا يُزْعِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يُلْغِمُهُ شَيْءٌ وَلَا يُضَعِّفُهُ شَيْءٌ . وَالذُّكُورُ وَأَمْثَالُهُ لَا يَبَالُونَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَبِيُوتِ أَمْرِيكَه الْمُتَحَرِّكَةِ ..

لَسْتُ أَكْبِرُ التَّجْدِيدَ ، بَلْ لَعَلَّ الذُّكُورَ يَذْكُرُ مُنَاقَشَتِي إِيَّاهُ فِي (الْجَرِيدَةِ) وَإِصْرَارَهُ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ فِي اللَّغَةِ كَلِمَةً ، وَأَنْ قَوْلَ النَّاسِ تَرْتَهُ وَمُتَرْتَهُ وَنَزْهَهُ ... إلخ كُلُّهَا مِنْ الْكَلَامِ الْعَامِّيِّ ، وَتَعَلَّقَهُ بِنَصِّ ابْنِ سِيدَه فِي ذَلِكَ ، وَاسْتِخْرَاجِي لَهُ نَصِّ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَكَلَامًا كَثِيرًا مِنْ اسْتِعْمَالِ الْعُلَمَاءِ ، ثُمَّ قَوْلُهُ : أَحْسَنْتَ ! وَلَكِنْ لَوْ جِئْتَنِي بِاللَّفْظَةِ فِي كَلَامِ الْمُبَرِّدِ وَالْجَاحِظِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ مَا أَقْتَنَعْتُ .

إِنَّمَا أَكْبِرُ شَيْئًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنْ يَقَالَ : مَذْهَبٌ قَدِيمٌ وَمَذْهَبٌ جَدِيدٌ ؛ فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ فِيمَا عَلِمُوا وَفِيمَا جَهِلُوا ، وَلَكِنْ أَصْحَابُنَا يُرِيدُونَ أَلَّا نَكْتُبَ إِلَّا نَمَطًا بِعَيْنِهِ ، وَلَا نَذْهَبَ إِلَّا مَذْهَبًا بِعَيْنِهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ هُوَ الْجَدِيدُ ، فَأَيُّهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَلَهُمْ وَلِلَّذِينَ سَيُخْرِجُونَ تَارِيخَهُمْ مِنْ قُبُورِنَا : أَنْ نَعْتَدَ اللَّغَةَ وَالْأَدَبَ كُلَّ مَا اجْتَمَعَ مِنْ قَدِيمٍ وَجَدِيدٍ وَنُحْكِمَ هَذِهِ اللَّغَةَ وَنَحْفَظَهَا وَنَذْفَعَ عَنْهَا وَنَجْعَلَ تَجْدِيدَهَا كَتَجْدِيدِ الْحَسَنَاءِ فِي أَثَوَابِهَا وَفِي أَلْوَانِهَا دُونَ تَشْوِيهِ وَلَا مَسْخٍ وَلَا مَسِّ الْجِسْمِ الْجَمِيلِ ، أَمْ نَقُولُ : هَذِهِ الشَّفَّةُ وَهَذَا الْأَنْفُ ، وَهَذَا الْمَوْضِعُ الْمُتَمَتِّلِيُّ الْخَذَلُ ، وَهَذَا الْمَوْضِعُ الْهَاضِمُ النَّاحِلُ ، وَتَعَالِ يَا ذُكُورُ هَاتِ الْمُبْضَعُ وَالْمِشْرَطُ وَالْمِقْصَصُ وَالْمِنْشَارُ وَالْإِبْرَةُ وَالْخَيْطُ وَإِذَنْ ... ؟

لَقَدْ أَذْكَرَ أَنِّي رَأَيْتُ فِي بَعْضِ مَقَالَاتِ الْأَسْنَادِ طَلَهَ حُسَيْنٍ أَوْ فِي بَعْضِ مَا يُفَرِّطُ بِهِ الْكُتُبُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الْقَدِيمَ قَدْ أَثْبَتَ دَائِمًا أَنَّهُ أَقْوَى وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؛ فَهَلْ رَحَلَ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ أَمْ ظَهَرَ لَهُ فِي الْجَدِيدِ مَا هُوَ أَقْوَى وَأَمْتَنُ وَأَصَحُّ ؟ ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي مَا هُوَ هَذَا الْجَدِيدُ ؟ أَهُوَ ذَاكَ الْخِيَالُ الشَّارِدُ الْمَجْنُونُ ، أَمْ بِلَکَ الشَّهَوَاتِ الْمُتَوَتَّبَةُ الْمُتَلَهِّفَةُ ، أَمْ ذَلِكَ الْأَسْلُوبُ الْفَجَّ الْمُسْتَوْحِمُ ، أَمْ الْعَامِيَّةُ السَّقِيمَةُ الْمَلْحُونَةُ ؛ أَمْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَيْنَ رَغْبَةٍ فِي الْمُبْغُوحِ قَبْلَ أَنْ تَبِيحَ الْأَدَاةُ وَتَسْتَحْكِمَ الطَّرِيقَةُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ فَرِيتِي مِنَ الْكُتَابِ ، فَيَخْتَصِرُونَ الطَّرِيقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْمَذْهَبُ الْجَدِيدُ - وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي التَّعَصُّبِ لِلْأَدَابِ الْأَجْنَبِيِّ كَمَا

هُوَ شَأْنٌ فَرِيقٍ آخَرَ - وَبَيْنَ رَغْبَةٍ فِي الْحَطِّ مِنْ قِيَمَةِ بَعْضِ النَّاسِ وَرَمِيهِمْ بِالْجَهْلِ وَالشُّخْفِ وَأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لِمَا يَجِنُّونَ بِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ فِي تَغْيِيرِ عِلْمِيَّيْ بَصَحُّ أَنْ يَكُونَ نَظَرِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ ... وَقَبْلَهُمْ قَالَهَا الْعَرَبُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مِثْلَ هَذَا آتٍ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الأنفال/ الآية : ٣١] ، فَقَدْ شَاوُوا فَلَمْ يَقُولُوا ؛ وَلَوْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الْجَدِيدَ فَسَّرَ الْقُرْآنَ يَوْمًا .. لَقَالَ فِي مَعْنَى أَسْطِيرِ الْأَوَّلِينَ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَا الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ ...

وَيَقُولُ الدُّكْتُورُ طَهْ : إِنْ هُنَاكَ قَوْمًا يَنْصُرُونَ الْمَذْهَبَ الْجَدِيدَ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجَنَبِيَّةِ وَآدَابِهَا حَظٌّ ، وَحَظُّهُمْ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا مَوْفُورٌ ؛ ثُمَّ طَلَبَ رَأْيِي فِي هَؤُلَاءِ وَمَا أَصْلُ مَذْهَبِهِمُ الْجَدِيدُ ؟ فَأَقُولُ : إِنِّي أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ ، وَأَعْرِفُ أَنَّ أَدِمَعَتَهُمْ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ إِلَّا جُلُودُ بَعْضِ الْكُتُبِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَتْنٌ وَشَرْحٌ وَحَاشِيَةٌ : جِلْدٌ مَلْفُوفٌ عَلَى وَرَقٍ ، وَوَرَقٌ يَنْطَوِي عَلَى قَوَاعِدٍ مَحْفُوظَةٍ وَهُمْ أَقْفَرُ النَّاسِ إِلَى الرَّأْيِ ، وَهَذِهِ عِلَّةُ حُبِّهِمْ لِلْأَسَالِيبِ الْجَدِيدَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّرْجِمَةِ وَنَقْلِ الْآرَاءِ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَيَا لِمَعْنَى الصَّرِيحِ الْمَكْشُوفِ : مِنَ الْأَدِمَعَةِ الْمَمْلُوءَةِ إِلَى الْأَدِمَعَةِ الْفَارِغَةِ ، وَفِيهِمْ بَعْضُ أَذْكِيَاءِ وَلَكِنْ ذَكَأُوهُمْ فِي حَوَاسِهِمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَلْيَقُولُوا هُمْ لِمَاذَا ؟

وَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ الْعَنْكَبُوتَ : مَا هِيَ الظَّنِّيَّةُ الْخَوْرَاءُ الْعَيْنَاءُ الَّتِي تَطْمَعِينَ فِيهَا وَتَنْصُبِينَ لَهَا كُلَّ هَذِهِ الْأَشْرَاكِ وَالْحَبَائِلِ ؟ لَقَالَتْ لَكَ : مَهْلًا حَتَّى تَقَعَ فَتَرَاهَا ! فَإِذَا وَقَعَتْ رَأَيْتَهَا ثَمَّةً وَرَأَيْتَهَا ذُبَابَةً ...

وَلَكِنْ مَاذَا يَقُولُ الدُّكْتُورُ فِي الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ ؟ أَكَانَ يَدْعُو إِلَى مَذْهَبِ جَدِيدٍ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَيَفْتِنُ بِالرُّوَايَاتِ الْغَرَامِيَّةِ وَبِأَسْلُوبِ « إِمِيل زُولَا Emile Zola » فِي رِوَايَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ وَيَمْتَثِلُ رِوَايَةَ (الاجرسون) ؟

إِنْ كَانَ النَّاسُ عِنْدَ الدُّكْتُورِ مِنْ بَعْضِ الْحُجَجِ ، فَإِنَّ الشَّيْخَ وَحْدَهُ بِأَمَّةٍ كَامِلَةٍ مِمَّنْ يَغْنِيهِمْ .

وَأَخْتَمْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِالشُّكْرِ لِلْأُسْتَاذِ طَهْ حُسَيْنٍ وَالْفَتْنَاءِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِنِّي مُسْتَرْسِلٌ فِي عَمَلِي ، وَهَذَا عُذْرِي إِلَيْهِ .

المرأة والميراث

قَرَأْتُ فِي « الْمَقْطَمِ » كَلِمَةَ الْكَاتِبِ الْمَعْرُوفِ سَلَامَةَ مُوسَى فِيمَا يَزْعُمُهُ إِجَابَاتٍ مُخْتَصِرَةً عَنِ اعْتِرَاضَاتِ تَهَافَّتَ بِهَا رَأْيُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى مُسَاوَاةِ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ فِي الْمِيرَاثِ ، وَهُوَ يَنْصَحُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنَاقِشَهُ أَنْ يَقْرَأَ نَصَّ مُحَاضَرَتِهِ فِي « السِّيَاسَةِ الْأُسْبُوعِيَّةِ » .

وَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى نَصِّ الْمُحَاضَرَةِ فَإِذَا الْكَاتِبُ هُوَ هُوَ فِي ضَعْفٍ تَفْكِيرِهِ وَسُوءِ تَقْلِيدِهِ ، يَكَادُ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الرَّأْيِ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى حُكْمَتِهِ الْبَاعِثَةِ عَلَيْهِ ، وَبَيْنَ الرَّأْيِ الْمُتَغَيِّرِ فِي كُلِّ نَفْسٍ بِحَسَبِهَا لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى مَنَزَعٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ مَرَضٍ فِي النَّفْسِ . تَرَى الْكَاتِبَ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِ أُورُبَّةَ ، وَتَكَادُ عِبَارَاتُهُ فِي ذَلِكَ لَا تُخْصِي ، وَيَقُولُ : « إِنَّ الْمَصْلَحَ الْمُشْتَرَكَ عِنْدَنَا هُوَ مُقْلَدُ الْأُورُبَّةِ لَا غِشٍّ فِي تَقْلِيدِهِ » فَلَيْسَ إِلَّا أُورُبَّةَ وَتَقْلِيدَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي أُورُبَّةِ قُرْآنٌ وَلَا إِسْلَامٌ فَالْإِصْلَاحُ الْمُشْتَرِكُ عِنْدَ الْكَاتِبِ الْأَ يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ...

« مُقْلَدُ أُورُبَّةِ لَا غِشٍّ فِي تَقْلِيدِهِ » وَمَا هُوَ الْغِشُّ فِي التَّقْلِيدِ ؟ هُوَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ رَأْيَكَ وَفِكَرَكَ فَتَدَعَ وَتَأْخُذَ عَلَى بَيْتَةٍ فِي الْحَالِينَ ، وَأَنْ تَأْتِيَ أَنْ تَحْمِلَ عَلَى طَبِيعَتِكَ الْشَرْفِيَّةَ مَا لَا تَضِلُّهُ عَلَيْهِ وَلَا تَقُومُ بِهِ ، وَإِذَا انْقَلَبَتْ أُورُبَّةُ شِبُوعِيَّةً أَوْ إِبَاحِيَّةً وَجَبَ أَلَّا نَعُشَّ فِي التَّقْلِيدِ ... وَإِذَا كَانَتْ الشُّمُسُ لَا تَطْلُعُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي بَعْضِ جِهَاتِ أُورُبَّةِ وَتَطْلُعُ فِي مِصْرَ كُلِّ يَوْمٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمِصْرِيُّ أَعْمَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ ...

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَاتِبَ يَقُولُ بِالتَّقْلِيدِ لِأَنَّهُ طَبِيعِي فِيهِ ... وَرَأْيُهُ فِي الْمِيرَاثِ إِنَّمَا هُوَ تَرْجَمَةٌ ... لِعَمَلِ مُصْطَفَى كَمَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ مُصْطَفَى كَمَالٌ قَدْ أَصْلَحَ التُّرْكَ فِي سَنَوَاتٍ كَمَا يَقُولُونَ فَبَرَهَانُ التَّارِيخِ لَا يَخْضَعُ لِلْمِشْتَقَةِ وَلَا لِمَحَاكِمِ الْأَسْتِفْلَالِ وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي وَفْتِهِ الَّذِي سَيَاتِي فِيهِ ، وَسَيَرَى النَّاسُ يَوْمَئِذٍ مَا يَكُونُ وَهَمًا مِمَّا يَكُونُ حَقِيقَةً .

وَيُرِيدُ الْكَاتِبُ عَلَى رَأْيِ الْأُسْتَاذِ الْأَخْلَاقِيِّ رَيْنِسِ تَخْرِيرَ « الْمَقْطَمِ » فِي خَفِيِّهِ أَنْ

يَقْتَصِرُ الإِصْلَاحُ عَلَى الْفُشُورِ دُونَ اللَّبَابِ ، فَيَقُولُ : إِنَّهُ « مُعْتَقِدٌ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَسْرِعُ فِي اتِّخَاذِ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ بِالْفُشُورِ ... لِأَنَّهَا أَسْهَلُ عَلَيْهَا مِنَ اللَّبَابِ ، بَلْ هِيَ لَا تَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ » . أَكْذَلِكَ بَدَأَتِ الْيَابَانَ ؟ وَهَلْ كُلُّ الطَّبَاعِ كَطَبِيعَةِ بَعْضِ النَّاسِ ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْتَلِفَ فُشُورَ الْمَدِينَةِ ... وَتَنْصَرِفَ إِلَى مَدَاقِهَا وَسَفَاسِفِهَا ؟ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَضْرَتَهُ لَا يَفْهَمُ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، فَهُوَ يَقْرَأُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَقْرَأُ عَلَى أَنَّهُ مُتَطَفِّلٌ فِي أَفْتِرَاحِهِ ؛ وَإِنَّ الَّذِي يَقْرَأُ فِي مُحَاضَرَتِهِ قَوْلُهُ : « إِنَّ الطَّبَقَةَ الْغَنِيَّةَ فِي الْأُمَّةِ هِيَ الَّتِي تَعُورُ دِيَانَةَ الْأُمَّةِ ... » يَسْتَفِيقُ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ دِينَنَا مِنَ الْأَدْيَانِ ، وَأَنَّهُ قَصِيرُ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الْاجْتِمَاعِ وَأَبْوَابِ السِّيَاسَةِ ؛ وَأَنَّ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَأَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ إِنَّ هِيَ إِلَّا جِهَاتُ الزَّمَامِ الَّذِي يَنْقَادُ فِيهِ : فَلَا شَخْصِيَّةَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يَتَابِعُ وَيَنْقَادُ لِلْآرَاءِ الَّتِي يَتَزَجَّمُ مِنْهَا بِلَا تَفَدٍ وَلَا تَمَيِّيزٍ .

إِنَّ مِيرَاتِ الْإِنْسَانِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمْ يُفْصَدْ لِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مُرْتَبِّ عَلَى نِظَامِ الزَّوْجِ فِيهَا ، وَهُوَ كَعَمَلِيَّةِ الطَّرْحِ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ الْجَنِّعِ لِإِخْرَاجِ نَتِيجَةِ صَحِيحَةٍ مِنَ الْعَمَلَيْنِ مَعًا . فَإِذَا وَجَبَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ نَاحِيَةٍ وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَدَعَ مِنْ نَاحِيَةٍ تَقَابِلُهَا ، وَهَذَا الَّذِي يَقُومُ فِي أُسَاسِهِ عَلَى تَرْبِيَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ عَالِيَةٍ يُنْشِئُ بِهَا طِبَاعًا وَيُعَدِّلُ بِهَا طِبَاعًا أُخْرَى ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَقَالَتِ الْمَشْهُورِ فِي « مُتَطَفِّلٍ » هَذَا الشَّهْرِ ، فَهُوَ يَزُبُّ بِالرَّجُلِ أَنْ يَطْمَعَ فِي مَالِ الْمَرْأَةِ أَوْ يَكُونَ عَالَةً عَلَيْهَا ؛ فَمَنْ نَمَّ أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُنْهَرَهَا وَأَنْ يُتَّفَقَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَوْلَادِهَا ، وَأَنْ يَدَعَ لَهَا رَأْيَهَا وَعَمَلَهَا فِي أُمُورِهَا ، لَا تُحَدِّ إِزَادَتُهَا بِعَمَلِهِ وَلَا بِأَطْمَاعِهِ وَلَا بِأَهْوَاؤِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُفْصَدُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ الرَّجُلُ عَامِلًا كَاسِبًا مُعْتَمِدًا عَلَى نَفْسِهِ مُشَارِكًا فِي مُحِيطِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ قَوِيًّا فِي أَمَانَتِهِ ، مُتَزَهًّا فِي مَطَامِعِهِ ، مُتَهَيِّئًا لِمَعَالِي الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ يَدْعُو بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَيُعِينُ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ يُمَاطِلُهُ ، وَيَدْفَعُ قَوِيَّتَهَا ضَعِيفَتَهَا ، وَيَأْتِفُ عَلَيْهَا مِنْ سَافِلِهَا ؛ وَقَدْ قُلْنَا مِرَارًا إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمُتَكَلِّمٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي حِكْمَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا إِذَا كَانَ قَوِيَّ الْخُلُقِ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُونُ الشَّيْءُ فِي طَبْعِهِ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا فَهْمَ جَدَلٍ لَا فَهْمَ أَفْتِنَاعٍ .

لِلْمَرْأَةِ حَقٌّ وَاجِبٌ فِي مَالِ زَوْجِهَا ، وَلَيْسَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي مَالِ زَوْجِهِ ،

وَالْإِسْلَامُ يَحْتَضِرُ عَلَى الزَّوْاجِ ، بَلْ يَفْرِضُهُ ، فَهُوَ بِهَذَا يُضَيِّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ رَجُلًا وَيُعْطِيهَا حَقًّا جَدِيدًا ، فَإِنَّ هِيَ سَاوَتْ أَخَاهَا فِي الْمِيرَاثِ مَعَ هَذِهِ الْمِيرَةِ الَّتِي أَنْفَرَدَتْ بِهَا أَنْعَدَمَتِ الْمُسَاوَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَتَرِيدُ وَيَنْقُصُ ؛ إِذْ لَهَا حَقُّ الْمِيرَاثِ وَحَقُّ التَّقَةِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِثْلُ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ إِذَا تَسَاوَا .

فَإِنْ قُلْتَ كَمَا يَقُولُ سَلَامَةُ مُوسَى : إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تُنْفِقَ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَنْ تَدْفَعَ لَهُ الْمَهْرَ ثُمَّ تُسَاوِيَهُ فِي الْمِيرَاثِ ، قُلْنَا : إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَأَصْبَحَ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ بِطَلِّ زَوَاجٍ كُلِّ الْفَقِيرَاتِ ، وَهُنَّ سَوَادُ النِّسْوَةِ ، إِذْ لَا يَمْلِكُنَ مَا يُمْهَرُونَ بِهِ وَلَا مَا يُنْفِقْنَ مِنْهُ ؛ وَهَذَا مَا يَحْكُمُهُ الْإِسْلَامُ ، لِأَنَّ فِيهِ فَسَادَ الْأَجْتِمَاعِ وَضَيَاعَ الْجَنَسَيْنِ جَمِيعًا ، وَهُوَ مُفْضٍ بِطَبِيعَتِهِ الْقَاهِرَةِ إِلَى جَعْلِ الزَّوْاجِ لِلْسَّاعَةِ وَالْيَوْمِ وَلِلْوَقْتِ الْمَحْدُودِ . . . وَلَا يَجَادِ لِقَطَاءِ الشَّوَارِعِ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْاجُ لِلْعُمَرِ وَلِلْوَجِبِ وَلِلزِّيَةِ الرَّجُلِ عَلَى أَحْتِمَالِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ بِإِنْجَادِ الْأُسْرَةِ وَإِنْشَائِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهَا .

مِنْ هُنَا وَجِبَ أَنْ يَنْعَكِسَ الْقِيَاسُ إِذَا أُريدَ أَنْ تَسْتَقِيمَ النَّثِيجَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ فِي الْغَايَةِ لَا مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ وَلَا مِنْ حَقِّ الْمَرْأَةِ بَلْ مِنْ حَقِّ الْأُمَّةِ ؛ وَمَا نِسَاءُ الشَّوَارِعِ وَنِسَاءُ الْمَعَامِلِ فِي أُرُوبَةِ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ النِّظَامِ الَّذِي جَاءَ مَقْلُوبًا ، فَهُنَّ غَلَطَاتُ الْبُيُوتِ الْمُتَحَرِّبَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْمُتَهَدِّمَةِ ، وَهُنَّ الْوَاجِبَاتُ الَّتِي أَلْقَاهَا الرِّجَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَوَقَعَتْ حَيْثُ وَقَعَتْ !

وَإِذَا انْزَا حَتْ مَسْئُولِيَّةُ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ انْزَا حَتْ عَنْهُ مَسْئُولِيَّةُ النَّسْلِ ، فَأَصْبَحَ لِنَفْسِهِ لَا لِأُمَّتِهِ ؛ وَلَوْ عَمَّ هَذَا لَمْسِخُ الْأَجْتِمَاعِ وَأَسْرَعُ فِيهِ الْهَرَمُ وَاتَى عَلَيْهِ الضَّعْفُ ، وَأَصْبَحَتْ الْحُكُومَاتُ هِيَ الَّتِي تَسْتَوْلِدُ النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَسْتَنْتِجُ بِهَا الْبَهَائِمَ وَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ كُتَّابِ أُرُوبَةِ يَدْعُونَ حُكُومَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الَّذِي ابْتُلُوا بِهِ وَلَا يَذَرُونَ سَبِيلَهُ ، وَمَا سَبِيلُهُ إِلَّا مَا بَيَّنَّا أَنْفَا .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً سَامِيَةً ، وَهِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَدْعُ نِصْفَ حَقِّهَا فِي الْمِيرَاثِ لِأَخِيهَا يُفْضَلُهَا بِهِ - بَعْدَ الْأَصْلِ الَّذِي نَبَهْنَا إِلَيْهِ - إِلَّا لِنُعِينَ بِهَذَا الْعَمَلِ فِي الْبِنَاءِ الْأَجْتِمَاعِيِّ ؛ إِذْ تَرَكُ مَا تَتْرُكُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا مَرْأَةَ أُخْرَى ، هِيَ زَوْجُ أَخِيهَا ؛ فَتَكُونُ قَدْ أَعَانَتْ أَخَاهَا عَلَى الْقِيَامِ

بِوَاجِبِهِ لِلْأُمَّةِ ، وَأَسَدَتْ لِلْأُمَّةِ عَمَلًا آخَرَ أَسَمَى مِنْهُ بِتَيْسِيرِ زَوَاجِ أَمْرَأَةٍ مِنَ النِّسَاءِ .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ مَسْأَلَةَ الْمِيرَاثِ هَذِهِ مُتَغَلِّغَةٌ فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ لَا مُتَفَرِّدَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَأَنَّهَا أَحْكَمُ الْحِكْمَةِ إِذَا أُرِيدَ بِالرَّجُلِ رَجُلٌ أُمِّيٌّ وَبِالْمَرْأَةِ أَمْرَأَةٌ أُمِّيَّةٌ ، فَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ رَجُلٌ نَفْسِهِ وَأَمْرَأَةٌ نَفْسِهَا ، وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْاجْتِمَاعَ فِي نَفْسِهِ حِمَاقَةٌ ، وَأَنَّ الْحُكُومَةَ خُرَاقَةٌ ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ ضَلَالَةٌ ، فَحِينَئِذٍ لَا تَنْقَلِبُ آيَةُ الْمِيرَاثِ وَخُذَهَا بَلْ تَنْقَلِبُ الْحَقِيقَةُ .

وَمِمَّا نَعَجِبُ لَهُ أَنَّ سَلَامَةَ مُوسَى يَتَكَلَّمُ فِي مُحَاضَرَتِهِ كَأَنَّ كُلَّ الْوَالِدِينَ ذَوُو مَالٍ وَعَقَارٍ ، فَيَنْصِفُ الْأُمَّةَ عَلَى هَذَا مَخْرُومٍ نِصْفَ حَقِّهِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنَ النَّاسِ لَا يَتَرَكُ مَا يُوْرَثُ ، لَا عَلَى الرَّبْعِ وَلَا عَلَى النِّصْفِ ؛ وَأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَمُوتُونَ عَنْ مِيرَاثٍ لَا يَخْبِئُ مِيرَاثُهُمْ إِلَّا آيَاتًا مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ يَذْهَبُ فِي الدُّيُونِ ، إِذْ لَا تَرِكَهَ مَعَ دِينٍ ، وَكَثِيرُونَ لَا يُسَمِّنُ مِيرَاثُهُمْ وَلَا يُغْنِي ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَنَاتٌ مُعَيَّنَةٌ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ لَا يَجُوزُ أَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ أَجْلِهَا تِلْكَ الْحِكْمَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ حِطِّ الْأُمَّةِ كُلِّهَا لِقِيَامِ بَعْضِ الْأَخْلَاقِ عَلَيْهَا كَمَا بَسَطْنَاهُ .

وَمِمَّا تَشْمِزُ لَهُ الْقُفُوسُ الْكَرِيمَةُ قَوْلُ الْمُتَرْجِمِ فِي مُحَاضَرَتِهِ : فَلَوْ كَانَتْ الْفَتَيَاتُ يَرِثْنَ مِثْلَ إِخْوَتِهِنَّ الذُّكُورِ ، لَكَانَ (فِي تَزَوُّجِهِنَّ) إِغْرَاءٌ لِلشَّبَابِ عَلَى الزَّوْاجِ . . .

إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا الْإِسْفَافِ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُقِرُّهُ ، بَلْ هُوَ يَهْدِمُهُ هَذَا وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَحْمِلَ قِسْطَهُ مِنَ الْمَسْئُورِيَّةِ مَا دَامَ مُطِيقًا إِنْ كَرِهَ أَوْ رَضِيَ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَخُذَهَا مِنْ كَاتِبِهَا لَهِيَ أَدَلُّ مِنْ أَسْمِ الْمَحَلِّ عَلَى يَضَاعَةِ الْمَحَلِّ . . .

كَلِمَةٌ مُؤْمِنَةٌ
فِي رَدِّ كَلِمَةٍ كَافِرَةٍ (*)

تَلَقَّيْتُ كِتَابًا هَذِهِ نُسخَتُهُ :

اَكْتُبُ إِلَيْكَ مُتَعَجِّلًا بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ « كَلِمَةَ كَافِرَةٍ » فِي « كَوَكَبِ الشَّرْقِ » الصَّادِرِ مَسَاءَ الْجُمُعَةِ ٢٧ مِنْ أَكْتُوبَر/ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ [١٩٢٣م] ، كَتَبَهَا مُتَصَدِّرٌ^(١) مِنْ نَوْعِ قَرْلِهِمْ : حَبْدًا الْإِمَارَةُ وَلَوْ عَلَى الْحِجَارَةِ . . . وَسَمَّيْتُ نَفْسَهُ « السَّيِّدُ » فَإِنْ صَدَقَ فِيمَا كَتَبَ صَدَقَ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ .

طَعَنَ فِي الْقُرْآنِ وَكَفَّرَ بِفَصَاحَتِهِ : وَفَضَّلَ عَلَى آيَةٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جُمْلَةً مِنْ أَوْضَاعِ الْعَرَبِ ، فَعَقَّدَ فَضْلَهُ بِعُنْوَانٍ « الْعَثَرَاتِ » عَلَى ذَلِكَ التَّفْضِيلِ ، كَأَنَّ الْآيَةَ عَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْكِتَابِ يُصَحِّحُهَا وَيَقُولُ فِيهَا قَوْلُهُ فِي غَلَطِ الْجَرَائِدِ وَالنَّاشِئِينَ فِي الْكِتَابَةِ ، وَبَرَّقَ وَجْهُهُ وَجِبْنَ أَنْ يَسْتَعْلِنَ ، فَأَعْلَنَ بِرُتْدَقَتِهِ أَنَّهُ حَدِيثٌ فِي الضَّلَالَةِ .

غَلَى الدَّمُ فِي رَأْسِي حِينَ رَأَيْتُ الْكَاتِبَ يَلِجُ فِي تَفْضِيلِ قَوْلِ الْعَرَبِ : « الْقَتْلُ أَنْقَى لِلْقَتْلِ » عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْحَكِيمِ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ [٢١ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] ، فَذَكَرْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْقَائِلَةَ : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ [٦ سورة الانعام/ الآية : ١٢١] وَهَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [٦ سورة الانعام/ الآية : ١١٢] ثُمَّ هَمَمْتُ بِالْكِتَابَةِ فَأَعْتَرَضَنِي ذِكْرُكَ ، فَأَلْقَيْتُ الْقَلَمَ لِأَتَنَاوَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَكْتُبُ بِهِ إِلَيْكَ .

فَفِي عُنُقِكَ أَمَانَةُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا لِنَكْتُبَنَّ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْكَافِرَةِ لِإِظْهَارِ وَجْهِهِ الْإِعْجَازِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَيُّنَ يَكُونُ مَوْقِعُ الْكَلِمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ رُتْدَقَةٌ

(*) { « الْبَلَاغُ » ثَوْنُفِيمَبَر/ تَشْرِينِ الْآخِرِ سَنَةِ ١٩٢٣ ، وَأَنْظُرُ « فِتْرَةَ جِمَامٍ » مِنْ كِتَابِنَا « حَيَاةُ الرَّافِعِيِّ » } .

(١) { هُوَ السَّيِّدُ حَسَنُ الْقَابَاتِي } .

إِنْ تُرِكَتْ تَأْخُذُ مَا خَذَهَا فِي النَّاسِ جَعَلَتْ أَلْبَرُ فَاجِرًا ، وَزَادَتْ أَلْفَاجِرَ فُجُورًا ﴿ وَأَنْفَقُوا فَنَسَتْ لَأَئِيسِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [٨ سورة الأنفال / الآية : ٢٥] .

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَكَ . أَقُولُهَا مُخْلِصًا ، يُبْلِيهَا عَلَيَّ الْحَقُّ الَّذِي أَعْلَمَ إِيمَانَكَ بِهِ وَتَفَانِيكَ فِي إِفْرَارِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ وَالذُّودِ عَنْ آيَاتِهِ ، ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّكَ مُلْجَأٌ يَغْتَصِمُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ تَنَافَسَهُمْ ذُنُوبُ الزُّنْدَقَةِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي جَعَلْتَ هَمًّا أَنْ تَلِغَ وَلَوْغَهَا فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ .

وَلَسْتُ أَرِيدُكَ ، فَإِنَّ مَوْقِفِي هَذَا مَوْقِفُ الْمُطَالِبِ بِحَقِّهِ وَحَقُّ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَذْكُرُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عِلْمًا عَلَيْهِ فَكْتَمَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ! » [الترمذي، رقم: ٢٦٤٩؛ أبو داود، رقم: ٣٦٥٨؛ ابن ماجه، رقم: ٢٦١؛ «مسند أحمد»، رقم: ٧٥١٧، ٧٨٨٣، ٧٩٨٨، ٨٣٢٨، ٨٤٢٤، ١٠٠٤٨، ١٠١٠٩، ١٠٢١٩] أَوْ كَمَا قَالَ .
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

م . م . ش .

[محمود محمد شاكر]

* * *

قَرَأْتُ هَذَا الْكِتَابَ فَأَفْشَعَرَّ جِسْمِي لَوَعِيدِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَجَعَلْتُ أُرَدُّ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ أَسْتَكْبِرُ مِنْهُ وَأَمْلَأُ نَفْسِي بِمَعَانِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيَكْثُرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، فَإِذَا هُوَ أَبْلَغُ تَهْكُمٍ بِالْعُلَمَاءِ الْمُتَجَاهِلِينَ ، وَالْجُهَلَاءِ الْمُتَعَالِمِينَ ؛ وَإِذَا هُوَ يُؤْخِذُ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنَّ الْعَالِمَ الَّذِي يَكْتُمُ عِلْمَهُ النَّافِعَ عَنِ النَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا ، وَيُؤْخِذُ مِنْ بَاطِنِهِ أَنَّ الْجَاهِلَ الَّذِي يَبْثُ جَهْلَهُ الضَّارَّ فِي النَّاسِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا مُبْرَدًا . . . أَي : فَهَذَا وَهَذَا كِلَاهُمَا مِنْ حَمِيرِ جَهَنَّمَ !

وَالْتَمَسْتُ عَدَدَ « الْكُوكَبِ » الَّذِي فِيهِ الْمَقَالُ وَقَرَأْتُهُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَصَدِّقُ أَنَّ فِي الْعَالَمِ أَدِيبًا مُمَرِّيًا يَضَعُ نَفْسَهُ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنَ التَّصَفُّحِ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ وَأَسَاءَ الْأَدَبِ فِي وَضْعِ آيَةٍ مِنْهُ بَيْنَ عَثَرَاتِ الْكِتَابِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْمُوَ لِتَفْضِيلِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى الْآيَةِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَلِجَّ فِي هَذَا التَّفْضِيلِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَهَوَّسَ فِي هَذِهِ اللَّجَاجَةِ ؛ وَلَكِنْ هَذَا قَدْ كَانَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

وَلَعَمْرِي وَعَمْرُ أَيْنِكَ أَهْيَا الْقَارِي ، لَوْ أَنَّ كَاتِبًا ذَهَبَ فَأَكَلَ فَخَلَطَ فَضَلَعَ فَتَمَّ فَاسْتَقَلَّ
فَحَلَمَ . . . أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْضِيلِ كَلِمَةِ الْعَرَبِ عَلَى تِلْكَ الْآيَةِ ، وَاجْتِهَادِ جُهْدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ
ذَاهِبُ الْوَعْيِ فَلَمْ يَأَلْ تَحْرِيفًا وَاسْطِطَالَةً ، وَأَخَذَ عَقْلُهُ الْبَاطِنُ يَكْنُسُ دِمَاغَهُ وَيُخْرِجُ مِنْهُ
(الرُّبَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ) لِيُلْقِيَهَا فِي طَرِيقِ السُّنَيَانِ أَوْ فِي طَرِيقِ الشَّيْطَانِ - لَمَّا جَاءَ فِي شَأْوِهِ بِاسْخَفَ
وَلَا أَبْرَدَ مِنْ مَقَالَةٍ « السَّيِّدِ » ، فَسَوَاءٌ أَوْقَعَ هَذَا التَّفْضِيلُ مِنْ جِهَةِ الْهَذْيَانِ وَالتَّحْرِيفِ كَمَا
فَعَلَ كَاتِبُ الزُّومِ ، أَمْ وَقَعَ مِنْ جِهَةِ الْخَلَطِ وَالْخَبْطِ كَمَا فَعَلَ كَاتِبُ « الْكُوكَبِ » - فَهَذَا مِنْ
هَذَا ، طِبَاقِي سَخَافَةٍ بِسَخَافَةٍ .

نَعَمْ ، إِنَّ مَقَالََةَ « الْكُوكَبِ » أَفْضَلُ مِنْ مَقَالَةِ الْكَاتِبِ الْحَالِمِ . . . وَلَكِنْ قَلِيلُ الزَّيْتِ
فِي الزُّجَاجَةِ الَّتِي أُهْدِيَتْ لِحُجَا لَا يُعَدُّ زَيْتًا مَا دَامَ هَذَا الْقَلِيلُ يَطْفُو عَلَى مِلءِ الزُّجَاجَةِ
مِنْ . . . مِنَ الْبُولِ !

وَلَقَدْ تَبَّأَ الْقَاضِي الْبَاقِلَانِيُّ قَبْلَ مِائَةِ السَّنِينَ بِمَقَالَةِ « الْكُوكَبِ » هَذِهِ فَاسْفَلَهَا الرَّدُّ
بِقَوْلِهِ :

« فَإِنْ أَشْنَبَ عَلَى مُتَأَدِّبٍ أَوْ مُتَشَاعِرٍ أَوْ نَاشِئٍ أَوْ مُزْمِدٍ فَصَاحَةً الْقُرْآنِ وَمَوْقِعُ بَلَاعَتِهِ
وَعَجِيبُ بَرَاعَتِهِ فَمَا عَلَيْكَ مِنْهُ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى عَجْزِهِ ، وَيَبَيِّنُ عَنْ
جَهْلِهِ ، وَيُصْرِّحُ بِسَخَافَةٍ فَهْمِهِ وَرَكَكَاتِهِ عَقْلِهِ » مَا عَلَيْنَا . .
يَقُولُ كَاتِبُ « الْكُوكَبِ » بِالْأَصْصِ :

قَالَتِ الْعَرَبُ قَدِيمًا فِي مَعْنَى الْفِقَاصِ : (الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ) ، ثُمَّ أَقْبَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
عَلَى آثَارِ الْعَرَبِ (هَكَذَا) فَقَالَ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
[٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَسَاطِينِ الْبَيَانِ أَنْ يَعْقِدُوا الْمُوَازَنَةَ بَيْنَ
مَقَالَةِ الْعَرَبِ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ الْحِكِيمَةِ أَيُّهُمَا أَشْبَهَ بِالْفَصَاحَةِ ؟ (هَكَذَا) ، ثُمَّ يَخْلُصُونَ
مِنْهَا إِلَى تَقْدِيمِ آيَةِ وَالبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ . . ثُمَّ قَالَ : مَنْ رَأَى كَاتِبَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَقْدِيمُ الْكَلِمَةِ
الْعَرَبِيَّةِ عَلَى آيَةِ الْعَرَاءِ ، (اللَّهُمَّ غَفِرًا) عَلَى ثُلُجِ الصَّدْرِ بِاعْجَازِ الْقُرْآنِ (كَلِمَةً لِلْوَقَايَةِ مِنَ
النَّبَايَةِ . وَإِلَّا فَمَاذَا بَقِيَ مِنَ الْإِعْجَازِ وَقَدْ عَجَزَتِ الْآيَةُ؟ زَهْ زَهْ يَا رَجُلُ . . .) .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ فِيمَا تُقَدِّمُ بِهِ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْآيَةِ الْحَكِيمَةِ (اللَّهُمَّ غَفْرًا) مَرَاتَا ثَلَاثًا :
 أَوَّلَى هَذِهِ الْمَرَاتَا الثَّلَاثُ ، هَذَا الْإِبْجَازُ السَّاحِرُ فِيهَا ؛ ذَلِكَ أَنَّ « الْقَتْلَ أَنْفَى لِلْقَتْلِ »
 ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ لَا أَكْثَرَ ، أَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا سَبْعُ كَلِمَاتٍ (كَذَا) وَعَلَى تِلْكَ فَهِيَ أَقْدَمُ عَهْدًا وَأَسْبَقُ
 مِثْلًا مِنْ آيَةِ التَّنْزِيلِ (تَأَمَّلْ) حَاشَا كَلَامُ اللَّهِ الْقَدِيمِ ، وَالْإِبْجَازُ مِيزَةٌ آيَةٌ مِيزَةٌ . الْمِيزَةُ الثَّانِيَةُ
 لِلْكَلِمَةِ : الْاسْتِفْلَالُ الْكِتَابِيُّ وَفَقْدُ التَّعَاقُدِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَيْءٍ آخَرَ سَابِقٍ عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّ
 الْمُتَمَثِّلَ بِهَا الْمُسْتَشْهَدَ يَتَبَدَّى بِهَا حَدِيثًا مُسْتَتِمًّا وَيَخْتِمُهُ فِي غَيْرِ مَزِيدٍ وَلَا فَضْلِ ، فَلَا
 يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَعِينُ بغيرِهَا ؛ أَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا مَنْسُوقَةٌ مَعَ مَا قَبْلَهَا بِالْوَاوِ ، فَهِيَ مُتَعَاقِدَةٌ
 مُتْرَابَةٌ مَعَهُ ، لَا يَتِمُّ بِهَا الْمُتَمَثِّلُ حَتَّى يَسْتَعِينَ بِشَيْءٍ سِوَاهَا ، وَلَيْسَ الَّذِي يَغْتَمِدُ عَلَى
 غَيْرِهِ فَلَا يَسْتَقِلُّ كَالَّذِي يَغْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَسْتَقِلُّ . الْمِيزَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ مُتَّصِلَةً
 فِي آخِرَتِهَا بِفَضْلِ مِنَ الْقَوْلِ تُغْنِي عَنْهُ ، عَلَى حِينِ تَتَّصِلُ الْآيَةُ بِمَا تُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْقَوْلِ .
 وَيَعْتَدُّ كَالْفَضْلِ ، وَهُوَ كَلِمَتَا « يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ » و« لَمَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [٢ سورة البقرة / الآية :
 ١٧٩] ، وَإِنْ كَانَ لَا زِيَادَةَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فُضُولَ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مُدْرَسًا جَاءَهُ بِالْفَضْلِ الَّذِي عَقَدَهُ الْإِمَامُ السُّيُوطِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْإِتْقَانِ »
 لِتَفْضِيلِ الْآيَةِ عَلَى الْكَلِمَةِ وَفِيهِ قَرَابَةُ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ حُجَّةً ، قَالَ : إِنَّهَا أَنْحَطَّتْ بَعْدَ أَنْ
 رَمَاهَا بِنَظَرِهِ الْعَالِي إِلَى أَرْبَعٍ « أَمَّا الْبَاقِيَاتُ فَمِنْ نَسَجِ الْإِنْتِحَالِ وَالتَّرْتِيدِ » قَالَ : وَأَوَّلَاهَا :
 إِنَّ الْآيَةَ أَوْجَزُ لَفْظًا ، وَالْكَاتِبُ يَرَى الْآيَةَ « سَبْعَ كَلِمَاتٍ فِي تَحْدِيدِ وَدَقَّةٍ » قَالَ : « إِذَا لَقَدْ
 بَطَلَتْ حُجَّةُ الْإِبْجَازِ فِي الْآيَةِ » (اللَّهُمَّ غَفْرًا) . قَالَ : وَالثَّانِيَةُ : « إِنَّ فِي الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 تَكَرَّرًا لِكَلِمَةِ الْقَتْلِ سَلِمَتْ الْآيَةُ مِنْهُ » وَرَدَّ الْكَاتِبُ أَنَّ هَذَا التَّكَرَّرَ « يَتَحَلَّلُ طَلَاوَةً وَيَقْطُرُ
 رِقَّةً (قَالَ) : وَهَذَا فِيمَنْ فِيهِ طَعْمُ الْعَسَلِ » (قُلْنَا : وَعَلَيْهِ الدُّبَابُ يَا سَيِّدَنَا . . .) . وَالثَّالِثَةُ :
 أَنَّ فِي الْآيَةِ ذِكْرًا لِلْقِصَاصِ بِلَفْظِهِ عَلَى حِينٍ لَا تَذْكُرُ الْكَلِمَةُ إِلَّا الْقَتْلَ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ
 قَتْلِ قِصَاصًا ، وَدَفَعَ الْكَاتِبُ هَذَا بِأَنَّ الْكَلِمَةَ أَنْطَوَتْ عَلَى قَتْلَيْنِ أَحَدُهُمَا يَنْفِي صَاحِبَهُ فَذَلِكَ
 هُوَ الْقِصَاصُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَالْكَلِمَةُ وَالْآيَةُ فِي قَضْدِ الْقِصَاصِ بِلَتَفَتِيَانِ فَرَسَنِ رِهَانٍ » .
 وَالرَّابِعَةُ : إِنَّ الْقِصَاصَ فِي الْآيَةِ أَعَمُّ يَشْمَلُ الْقَتْلَ وَغَيْرَهُ ، وَأَقَرَّ الْكَاتِبُ أَنَّ لِلآيَةِ فَضْلًا عَلَى
 الْكَلِمَةِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، وَلَكِنْ الْكَلِمَةُ حِكْمَةٌ لَا شَرِيعَةٌ ، وَهِيَ مِنْ قَضَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ ،

فَلَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تُبَيَّنَ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ الْعَرَبُ وَلَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ ، قَالَ : « إِذَنْ فَلَيْسَتْ الْكَلِمَةُ مُقْصَرَّةً عَنْ بَيَانٍ ، مُتَبَلِّدَةً عَنْ إِحْسَانٍ » .

* * *

هَذَا كُلُّ مَقَالِهِ يَحْزُونُهُ بَعْدَ تَخْلِيصِهِ مِنَ الرِّكَائِكَةِ وَالْحَشْوِ وَمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَقُولُ قَوْلَنَا ، وَلَكِنَّا نَقْدُمُ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ مَسْأَلَةً ، فَمِنْ أَيْنَ لِلكَاتِبِ أَنْ كَلِمَةُ « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » مِمَّا صَحَّتْ نِسْبَتُهُ إِلَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يُبَيِّنَ إِسْنَادَهَا إِلَيْهِمْ وَأَنْ يُوثِّقَ هَذَا الْإِسْنَادَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَوْلُهُ إِنَّ الْقُرْآنَ أَقْبَلَ عَلَى آثَارِ الْعَرَبِ ... ؟

أَنَا أَقَرُّ أَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مُوَلَّدَةٌ وَضِعَتْ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأُخِذَتْ مِنَ الْآيَةِ ، وَالتَّوَلُّيدُ بَيِّنٌ فِيهَا ، وَأَثَرُ الصَّنْعَةِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا ، فَعَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَدْفَعْ هَذَا بِمَا يُبَيِّنُ أَنَّهَا مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَقَدْ جَاءَ أَبُو تَمَّامٍ بِأَبْدَعٍ وَأَبْلَغَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

وَأَخَافُكُمْ كَيْ تَغْمِدُوا أَسِنَا فُكُمُ إِنَّ الدَّمَ الْمُغْبَرَّ يَخْرُسُهُ الدَّمُ
(الدَّمُ يَخْرُسُهُ الدَّمُ) هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَهَذِهِ هِيَ الْبَلَاغَةُ لَا تِلْكَ ، وَمَعَ هَذَا فَكَلِمَةُ الشَّاعِرِ مُوَلَّدَةٌ مِنَ الْآيَةِ ، يَدُلُّ عَلَيْهَا الْبَيِّنُ كُلُّهُ ، وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَكُنْ سَمِعَ قَوْلَهُمْ : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » وَأَنَا مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ الْكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ وَضِعَتْ إِلَى يَوْمِنَا^(١) .

وَلَوْ أَنَّ مُمَثِّلًا أَرَادَ أَنْ يَمَثِّلَ بِقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فَانْتَرَعَ مِنْهُ هَذَا الْمَثَلُ : « الدَّمُ يَخْرُسُهُ الدَّمُ » أَيْ كَوْنُ حَتْمًا مِنَ الْحَتْمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : كَلَّا يَا هَذَا ! فَإِنَّ الْبَيِّنَ سَبْعُ كَلِمَاتٍ ، فَلَا يَصِحُّ انْتِرَاعُ الْمَثَلِ مِنْهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ قِرَاءَةِ الْبَيِّنِ بِمَضْرَاعِيهِ كَمَا يَقُولُ كَاتِبُ « الْكُوكَبِ » فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِيَرَعُمَ أَنَّهَا لَا تُقَابِلُ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْإِنْجَازِ ؟

إِنَّ الَّذِي فِي مَعَانِي الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ مِمَّا يَنْظَرُ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِمْ : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ »

(١) سَبَّيْتُ هَذَا بَعْدَ فِي تَعْلِيْقِي عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ .

كَلِمَتَانِ لَيْسَ غَيْرُ ، وَهُمَا « الْقِصَاصُ ، حَيَاةٌ » ؛ وَالْمُقَابَلَةُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَمَاثِلَةِ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤَدِّي هَذِهِ الْمَعَانِي دُونَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ أَوْ تَعَلَّقَ بِهَا مِمَّا يَصِلُ الْمَعْنَى بِغَيْرِهِ أَوْ يَصِلُ غَيْرُهُ بِهِ ؛ إِذِ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي صِنَاعَةِ تَرْكِيبِهِمَا . وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْكَاتِبَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَاقِيَ آيَةِ الْكَرِيمَةِ لَعَوٌ وَحَشَوٌ ، فَهُوَ حَمِيلَةٌ عَلَى الْكَلِمَتَيْنِ : الْقِصَاصُ حَيَاةٌ ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهَا وَلَكِنَّهُ غُصَّ بِهَا ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا يَلِجُ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي التَّمَثِيلِ ، أَيْ : لَا بُدَّ فِي الْمُقَابَلَةِ ، مِنْ رَدِّ آيَةِ بِالْفَاظِهَا جَمِيعًا ؟

فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْإِعْرَابُ فِي آيَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ مُشْتَرَعًا مِنْهَا عَلَى الثَّلَاوَةِ ، قُلْنَا : فَإِنَّ مَا يُقَابَلُ الْكَلِمَةَ مِنْهَا حِينَئِذٍ هُوَ هَذَا : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَجُمَلْتُهَا اثْنَا عَشَرَ حَرْفًا ، مَعَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَالْإِنْجَازُ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ هُوَ فِي آيَةِ دُونَ الْكَلِمَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَلَوْ كَانَ الْكَاتِبُ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ لَفَهَمَهَا وَعَرَفَ مَوْقِعَهَا وَحُكْمَهَا ، وَأَنَّ إِعْجَازَ آيَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا ، إِذْ أُرِيدَ أَنْ تَكُونَ مُعْجَزَةً زَمَنِيَّةً كَمَا سَتُسَيِّرُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُ وَهُوَ مِنَ الْفَرْقِ اللَّبَنِيِّ عَلَى هَذَا الْبُعْدِ السَّحِيحِ ، لَا يَعْلَمُ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَالزَّمَنِ فِي نَسَقِهَا : مَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ يُظْهِرُهُ إِلَّا وَمِنْ وَرَائِهِ سِرٌّ يُحَقِّقُهُ .

ثُمَّ إِنَّ الْإِنْجَازَ فِي الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَيْسَ مِنْ « الْإِنْجَازِ السَّاحِرِ » كَمَا يَصِفُهُ الْكَاتِبُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَنَا مِنَ الْإِنْجَازِ السَّاقِطِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِ إِنْجَازِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشَبِّهَهُ ، إِذْ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ صِنْعَةِ التَّفْضِيلِ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : « الْقَتْلُ أَكْثَرُ نَفْسًا لِلْقَتْلِ مِنْ كَذَا » ، فَمَا هُوَ هَذَا « الْكَذَا » أَهِيَ الْكَاتِبُ الْمُتَعَتِّرُ ؟ .

لَيْسَ تَصَوُّرُ مَعْنَى الْعِبَارَةِ وَإِحْضَارُهُ فِي الدَّهْنِ قَدْ أَسْقَطَهَا وَنَزَلَ بِهَا إِلَى الْكَلَامِ السُّوقِيِّ الْمُبْتَدَلِ وَأَوْقَعَ فِيهَا الْأَخْتِلَالَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ إِلَّا صِنَاعَةً شِعْرِيَّةً خَيَالِيَّةً مُتَّفَقَةً كَمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَلِكَ آتِفًا ، حَتَّى إِذَا أَجْرَنْتَهَا عَلَى مَنَهِجِهَا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ رَأَيْتَهَا فِي طَرِيقَةِ هَذَا الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْأَمْرِيكَانِيِّ كَقَوْلِ الْقَائِلِ : « الْفَرْحُ أَعْظَمُ مِنَ التَّرَحُّ » ، « الْحَيَاةُ هِيَ الَّتِي تُعْطِي لِلْحَيَاةِ » ... ؟

بِهَذَا الرَّدِّ الْمُوجِزِ بَطَلَتِ الْمِيزَاتُ الثَّلَاثُ الَّتِي زَعَمَهَا الْكَاتِبُ لِكَلِمَةِ ، وَإِنَّ
الْكَلِمَةَ نَفْسَهَا لَتَبَرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهَا عَلَى آيَةٍ مِيزَةٌ وَاحِدَةٌ فَضْلًا عَنْ ثَلَاثٍ .

وَلْتَقْرَأْ « فَرَضًا » أَنَّ الْكَلِمَةَ وَثِيقَةُ الْإِسْتِنَادِ إِلَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّهَا فِي بَيَانِهِمْ ، فَمَا
الَّذِي فِيهَا ؟

١ - إِنَّهَا تُشَبِّهُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ لَكَ : إِنْ قَتَلْتُ خَصْمَكَ لَمْ يَقْتُلَكَ . وَهَلْ هَذَا إِلَّا هَذَا ؟
وَهَلْ هُوَ إِلَّا بَلَاغَةٌ مِنَ الْهَذَيَانِ ؟

٢ - إِنَّهَا تُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ لَعَّةَ قَاطِعِ طَرِيقٍ عَارِمٍ يَتَوَثَّبُ عَلَى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، لَا يَخْرُجُ
لِشَأْنِهِ إِلَّا مُقَرَّرًا فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ إِمَّا قَاتِلٌ أَوْ مَقْتُولٌ ، وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ فِيهَا الْقَتْلُ عَلَى طَرَفَيْهَا ، فَهُوَ
مِنْ أَشْنَعِ التَّكَرَّارِ وَأَفْظَعِهِ .

٣ - إِنَّ فِيهَا الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ وَالْهَمَجِيَّةَ ، إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ الْأَنْ تُسَلِّمَ الْقَبِيلَةَ الْعَزِيزَةَ
قَاتِلًا مِنْهَا ، بَلْ تَحْمِيهِ وَتَمْنَعُهُ ، فَتَقْلِبُ الْقَبِيلَةَ كُلُّهَا قَاتِلَةً بِهِذِهِ الْعَصِيَّةِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَا يَنْفِي
عَارِ الْقَتْلِ عَنْ قَبِيلَةِ الْمَقْتُولِ إِلَّا الْحَرْبُ وَالْإِسْتِنصَالُ قَتْلًا وَقَتْلًا وَأَكْلُ الْحَيَاةِ لِلْحَيَاةِ ، فَهَذَا
مِنْ مَعَانِي الْكَلِمَةِ ، أَيْ : الْقَتْلُ أَنْفَى لِعَارِ الْقَتْلِ ، فَلَا قِصَاصَ وَلَا قَضَاءَ كَمَا يَزْعُمُ الْكَاتِبُ .

٤ - إِنَّ الْقَتْلَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخَصَّصَ بِمَعْنَى الْقِصَاصِ إِلَّا إِذَا خَصَّصْتَهُ
الْآيَةُ فَيَجِيءُ مُفْتَرِنًا بِهَا ، فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَهِيَ تُلْبِسُهُ الْإِنْسَانِيَّةَ كَمَا
تَرَى ، وَلَنْ يَدْخُلَهُ الْعَقْلُ إِلَّا مِنْ مَعَانِيهَا ؛ وَهَذَا وَحْدَهُ إِعْجَازٌ فِي الْآيَةِ وَعَجْزٌ مِنَ الْكَلِمَةِ .

* * *

وَقَبْلَ أَنْ نُبَيِّنَ وَجْهَ الْإِعْجَازِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَنَسْتَخْرِجَ أَسْرَارَهَا ، نَقُولُ لِهَذَا
الطَّفِيلِيِّ : إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُطَيَّرَ فِي الْجَوْ وَرَقَةٍ فِي قَصْبَةٍ فِي خَيْطٍ - جَازَ لَهُ أَنْ
يَقُولَ فِي تَقْضِيلِ وَرَقَتِهِ عَلَى مِنْطَادِ زِبْلِينِ Ferdinand Von Zeppelin : وَأَنْ فِيمَا تَبَقَّدُم بِهِ عَلَى
الْمِنْطَادِ الْكَرِيمِ مِيزَاتٌ ثَلَاثًا : الدَّبْلُ ، وَالْوَرَقُ الْمَلُونُ ، وَالْخَيْطُ . . . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة / الآية : ١٧٩] .

١ - بَدَأَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَكُمْ ﴾ وَهَذَا قَبْدٌ يَجْعَلُ هَذِهِ الْآيَةَ خَاصَّةً بِالْإِنْسَانِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ

الَّتِي تَطْلُبُ كَمَالَهَا فِي الْإِيمَانِ ، وَتَلْتَمِسُ فِي كَمَالِهَا نِظَامَ النَّفْسِ ، وَتُقَرِّرُ نِظَامَ النَّفْسِ بِنِظَامِ الْحَيَاةِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مُتَحَقِّقًا فِي النَّاسِ فَلَا حَيَاةَ فِي الْفِصَاصِ ، بَلْ تَصْلُحُ حِينْتِذَ كَلِمَةِ الْهَمَجِيَّةِ : الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ ، أَيْ : اقْتُلُوا أَعْدَاءَكُمْ وَلَا تَدْعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُبْقِيكُمْ أَحْيَاءَ وَيَنْقِي عَنْكُمْ الْقَتْلَ ؛ فَالْأَيَّةُ الْكَرِيمَةُ بِدَلَالَةِ كَلِمَتِهَا الْأُولَى مُوجَّهَةٌ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ ، لِتُوجَّهَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي بَعْضِ مَعَانِيهَا إِلَى حَقِيقَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ .

٢ - قَالَ ﴿ فِي الْفِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَلَمْ يَقُلْ : فِي الْقَتْلِ ؛ فَقَيَّدَهُ بِهِذِهِ الصُّنْعَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَزَاءٌ وَمُوَاحِدَةٌ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ الْمُبَادَاةُ بِالْعُدُوَانِ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مَا يُخْرِجُ عَنْ قَدْرِ الْمَجَازَةِ قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ .

٣ - تَقَيَّدَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿ الْفِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] بِصُنْعَتِهَا (صُنْعَةِ الْمُفَاعَلَةِ) مَا يُشْعُرُ بِوُجُوبِ التَّخْفِيقِ وَتَمَكِّينِ الْقَاتِلِ مِنَ الْمُنَازَعَةِ وَالِدِّفَاعِ ، وَأَلَّا يَكُونَ فِصَاصٌ إِلَّا بِاسْتِخْقَاقٍ وَعَدَلٍ ، وَلِذَا لَمْ يَأْتِ بِالْكَلِمَةِ مِنْ اقْتَصَصَ مَعَ أَنَّهَا أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا ، لِأَنَّ الْاِقْتِصَاصَ شَرِيعَةُ الْفَرْدِ ، وَالْفِصَاصَ شَرِيعَةُ الْمُجْتَمَعِ .

٤ - مِنْ إِعْجَازِ لَفْظَةِ ﴿ الْفِصَاصِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هَذِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى بِهَا قَتْلَ الْقَاتِلِ ، فَلَمْ يُسَمِّهِ قَتْلًا كَمَا فَعَلَتْ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، لِأَنَّ أَحَدَ الْقَتْلَيْنِ هُوَ جَرِيمَةُ وَأَعْتَدَاءُ ، فَتَرَهُ سُبْحَانَهُ الْعَدْلُ الشَّرْعِيُّ حَتَّى شَبَّهَهُ بِلَفْظِ الْجَرِيمَةِ ، وَهَذَا مُنْتَهَى السُّمُوِّ الْأَدَبِيِّ فِي التَّعْبِيرِ .

٥ - وَمِنْ إِعْجَازِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَنَّهَا بِاخْتِيَارِهَا دُونَ كَلِمَةِ الْقَتْلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي عَصُورِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِمَةِ الْمُتَحَضَّرَةِ عَصْرٌ لَا يَرَى فِيهِ قَتْلَ الْقَاتِلِ بِجَنَايَةٍ إِلَّا شَرَامًا مِنْ قَتْلِ الْمَقْتُولِ ، لِأَنَّ الْمَقْتُولَ يَهْلِكُ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، عَلَى حِينٍ أَنْ أَخَذَ الْقَاتِلُ لِقَتْلِهِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا نِيَّةُ قَتْلِهِ ، فَعَبَّرَتْ الْآيَةُ بِاللُّغَةِ الَّتِي تَلَامُ هَذَا الْعَصْرَ الْقَانُونِيَّ الْفَلَسَفِي ، وَجَاءَتْ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي لَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ اللَّغَةِ مَا يُجْزِئُ عَنْهَا فِي الْاِتِّسَاعِ لِكُلِّ مَا يُرَادُ بِهَا مِنْ فِلَسَفَةِ الْعُقُوبَةِ .

٦ - وَمِنْ إِعْجَازِ اللَّفْظَةِ أَنَّهَا كَذَلِكَ تَحْمِلُ كُلَّ ضُرُوبِ الْفِصَاصِ مِنَ الْقَتْلِ فَمَا دُونَهُ ، وَعَجِيبٌ أَنْ تَكُونَ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ مَعَ تَقْيِيدِهَا بِالْقَيُّودِ الَّتِي مَرَّتْ بِكَ ، فَهِيَ بِذَلِكَ لُغَةٌ شَرِيعَةٌ إِلَهِيَّةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فِي حِينٍ أَنَّ كَلِمَةَ الْقَتْلِ فِي الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ تَنْطَلِقُ فِي صَرَاحَةٍ أَنَّهَا لُغَةٌ

الْعَرِيزَةُ الْبَشَرِيَّةُ بِأَفْجَحِ مَعَانِيهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَكَرُّرُهَا فِي الْمَثَلِ كَتَكَرُّرِ الْغَلْطَةِ ، فَالْآيَةُ بِلَفْظَةِ (الْفِصَاصِ) تَضَعُكَ أَمَامَ الْأَلُوْهِيَّةِ بِعَدْلِهَا وَكَمَالِهَا ، وَالْمَثَلُ بِلَفْظَةِ (الْقَتْلِ) يَضَعُكَ أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ بِنَقْصِهَا وَظُلْمِهَا .

٧ - وَلَا تَنْسَ أَنَّ التَّغْيِيرَ بِالْفِصَاصِ تَغْيِيرٌ يَدْعُو الْإِنْسَانِيَّةَ مَحَلًّا إِذَا هِيَ تَخَلَّصَتْ مِنْ وَخْشِيَّتِهَا الْأَوَّلَى وَجَاهِلِيَّتِهَا الْقَدِيمَةِ ، فَيَشْمَلُ الْفِصَاصُ أَخَذَ الدُّيَّةِ وَالْعَفْوَ وَغَيْرَهُمَا ، أَمَّا الْمَثَلُ فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَالَةٌ وَاحِدَةٌ بَعَيْنِهَا كَأَنَّهُ وَخْشٌ لَيْسَ مِنْ طَبْعِهِ إِلَّا أَنْ يَفْتَرِسَ .

٨ - جَاءَتْ لَفْظَةُ الْفِصَاصِ مُعَرَّفَةً بِأَدَاةِ التَّنْغِيْفِ ، لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِمُؤَوِّدِهِ الْكَثِيرَةِ ؛ إِذْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى التَّنْذِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَلَا تَصْلُحُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِغَيْرِ تَقْيِيدِهَا .

٩ - جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ حَيَاةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] مُؤَوِّدَةً ، لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَلْهَنَا لَيْسَتْ حَيَاةٌ بِعَيْنِهَا مُقَيَّدَةً بِإِصْلَاحٍ مُعَيَّنٍ ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْفِصَاصِ حَيَاةٌ أَجْتِمَاعِيَّةٌ ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ حَيَاةٌ سِيَاسِيَّةٌ ، وَقَدْ تَكُونُ الْحَيَاةُ أَدَبِيَّةً ، وَقَدْ تُعْظَمُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَنْ أَنْ تَكُونَ حَيَاةً .

١٠ - إِنَّ لَفْظَ ﴿ حَيَاةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةُ أَعْمُ مِنَ التَّغْيِيرِ (بِنَفْيِ الْقَتْلِ) لِأَنَّ نَفْيَ الْقَتْلِ إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ ، أَيْ : تَرْكُ الرُّوحِ فِي الْجِسْمِ ، فَلَا يَحْتَمِلُ شَيْئًا مِنَ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ غَيْرُ هَذَا الْمَعْنَى الطَّبِيعِيِّ السَّادِجِ ، وَتَغْيِيرُ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْحَيَاةِ (بِنَفْيِ الْقَتْلِ) تَغْيِيرٌ غَلِيظٌ عَامِّيٌّ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ مُطَبِّقٍ لَا مَحَلَّ فِيهِ لِعِلْمٍ وَلَا تَفَكُّيرٍ ، كَالَّذِي يَقُولُ لَكَ : إِنَّ الْحَرَارَةَ هِيَ نَفْيُ الْبُرُودَةِ .

١١ - جَعَلُ نَتِيجَةِ الْقَتْلِ حَيَاةً تَغْيِيرٌ مِنْ أَعْجَبِ مَا فِي الشَّعْرِ يَسْمُو إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْخَيَالِ ، وَلَكِنْ أَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ خَيَالًا ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى تَغْيِيرٍ عِلْمِيِّ يَسْمُو إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الدَّقَّةِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ بِلِسَانِ الْعِلْمِ : فِي نَوْعٍ مِنْ سَلْبِ الْحَيَاةِ نَوْعٌ مِنْ إِجْبَابِ الْحَيَاةِ .

١٢ - فَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا تَقَدَّمَ وَأَنْعَمْتَ فِيهِ تَحَقَّقْتَ أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ لَا يَسِمُ إِعْجَازُهَا إِلَّا بِمَا تَمَثَّلَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] فَهَذَا نِدَاءٌ عَجِيبٌ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ يَفْهَمُهُ ، إِذْ هُوَ مُوجَّهٌ لِلْعَرَبِ فِي ظَاهِرِهِ عَلَى قَدَرِ مَا بَلَّغُوا مِنْ مَعَانِي الْأَلْبَابِ ، وَلَكِنَّهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُوجَّهٌ لِإِمَامَةِ الْبَرْهَانِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ فَلَاسِفَةِ الْقَانُونِ وَالْاجْتِمَاعِ ، هُمْ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرُونَ إِجْرَامَ الْمُجْرِمِ شُدُودًا فِي التَّرْكِيبِ الْعَصَبِيِّ ، أَوْ وِرَاثَةً مَخْتُومَةً ، أَوْ حَالَةً نَفْسِيَّةَ قَاهِرَةٍ ، إِلَى مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ؛ فَمِنْ ثَمَّ يَرُونَ أَنَّ لَا عِقَابَ عَلَى جَرِيمَةٍ لِأَنَّ الْمُجْرِمَ عِنْدَهُمْ مَرِيضٌ لَهُ حُكْمُ الْمَرَضِيِّ ؛ وَهَذِهِ فَلَسَفَةُ تَحْتِمِلُهَا الْأَدْمِغَةُ وَالْكَتَبُ ، وَهِيَ تَحُولُ الْقَلْبَ إِلَى مَصْلَحَةِ الْفَرْدِ وَتَصْرِفُهُ عَنِ مَصْلَحَةِ الْمُجْتَمَعِ ، فَنَبِّهَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَلْبَابِهِمْ دُونَ عُقُوبِهِمْ ، كَأَنَّهُ يُقَرِّرُ لَهُمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ لَيْسَتْ بِالْعَقْلِ وَالرَّأْيِ ، بَلْ هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ بِاللُّبِّ وَالْبَصِيرَةِ ، وَفَلَسَفَةُ اللَّبِّ هَذِهِ هِيَ آخِرُ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلَسَفَةُ الدُّنْيَا .

١٣ - وَأَنْتَهَتْ آيَةُ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢ سورة البقرة / الآية : ١٧٩] ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنْ لُغَةٍ كُلِّ زَمَنٍ ، وَمَعْنَاهَا فِي زَمَنِنَا نَحْنُ ﴿ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [٢ سورة البقرة / الآية : ١٧٩] : إِنَّهُ بُزْهَانُ الْحَيَاةِ فِي حِكْمَةِ الْقِصَاصِ تَسْوِفُهُ لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ عَاقِبَةً خِلَافِهِ ، فَاجْعَلُوا وَجْهَكُمْ إِلَى وَقَايَةِ الْمُجْتَمَعِ لَا إِلَى وَقَايَةِ الْفَرْدِ .

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَإِذَا كَانَ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ - مَا رَأَيْتَ - ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ أَلْبَابِنِ الْمُعْجِزِ ، فَمَعْنَى ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى أَنَّهَا اسْقَطَتْ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً .

الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ
لَيْسَتْ مُتَرَجِمَةٌ

بَعْدَ أَنْ نُشِيرَتْ مَقَالَةُ « الْكَلِمَةُ الْمُؤْمِنَةُ » فِي « الْبَلَاغِ » ، كَتَبَ أَدِيبُ فَلَسْطِينِ الْأُسْتَاذُ إِسْعَافُ الشَّاشِينِي : إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مُتَرَجِمَةٌ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ ، وَقَدْ نَقَلَهَا التَّعَالِي فِي كِتَابِهِ « الْإِنِّجَارُ وَالْإِعْجَارُ » ، فَشَرَحْنَا فِي « الْبَلَاغِ » هَذَا التَّعْلِيلَ :

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدُ إِسْعَافُ الشَّاشِينِي فِي كَلِمَتِهِ لِلْبَلَاغِ : إِنَّ عِبَارَةَ « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » لَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ وَلَا مُوَلَّدَةٍ ، بَلْ هِيَ مُتَرَجِمَةٌ ؛ أَيُّ فِيهِ مَطْمُوسَةُ الْوَجْهِ مِنْ كَوْنِهَا أَعْجَمِيَّةً وَقَعَ الْخَطَأُ فِي نَقْلِهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَكَانَتْ غَلْطَةً مِنْ جِهَتَيْنِ .

وَأَنَّهُ لَيْسَ لِي أَنْ تَكُونَ فَوْقَ ذَلِكَ رَنَجِيَّةً نُقِلَتْ إِلَى الْمَالِطِيَّةِ ثُمَّ تُرْجِمَتْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ،

فَتَكُونُ غَلْطَةً مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ ، لَا مِنْ جِهَتَيْنِ فَقَطْ . . . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَمْ يُشْرَ إِلَى أَصْلِهَا غَيْرَ الثَّعَالِبِيِّ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقْطَعْ فِيهَا بِرَأْيٍ ، بَلْ أَشَارَ إِلَى تَرْجُمَتِهَا فِي صِيغَةٍ مِنْ صِيغِ التَّمْرِيطِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الرُّوَاةِ فَقَالَ : « يُحْكِي أَنَّ فِينَمَا تُرْجِمُ عَنْ أَرْدَشِيرَ . . . » وَ(يُحْكِي) هَذِهِ لَيْسَتْ نَصًّا فِي بَابِ الرُّوَايَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِمَامُ أَتَقَى اللَّهَ فَابْتَعَدَ بِالْكَلِمَةِ وَطَوَّحَ بِهَا إِلَى مَا وَرَاءَ بِلَادِ الْعَرَبِ ، أَوْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ أُلْقِيَتْ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهَا مُشْتَبَهَةٌ فِي نِسْبَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتِ الْعِبَارَةُ مُتَرْجِمَةً لَتَنَاقَلَهَا الْأُئِمَّةُ مَعْرُوفَةً إِلَى فَائِلِهَا أَوْ لُغَتِهَا الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا .

وَلَقَدْ ذَكَرَهَا الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ « الصَّنَاعَتَيْنِ » عَلَى أَنَّهَا (مِنْ قَوْلِهِمْ) أَيْ : الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ ، وَنَقَلَهَا الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ : إِنَّ لِلْعَرَبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَلِمَاتٍ ، مِنْهَا « قَتَلَ الْبَغْضِ إِحْيَاءَ لِلْجَمِيعِ » وَأَحْسَنُهَا : « الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ » وَكَذَلِكَ جَاءَ بِهَا ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِ « الْمَثَلِ السَّائِرِ » وَلَمْ يَعْزُهَا ، وَقَالَ مُفسِّرُ الْأَنْدَلُسِ أَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنَّهَا تُرَوَّى بِرِوَايَةٍ أُخْرَى وَهِيَ : « الْقَتْلُ أَوْفَى لِلْقَتْلِ » ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ خَبَرَ التَّرْجِمَةِ قَدْ انْتَفَرَدَ بِهِ الثَّعَالِبِيُّ .

وَلَا يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى تَرْجُمَتِهَا إِلَّا بِظُهُورِ أَصْلِهَا الْفَارِسِيِّ ، فَإِنْ كَانَ عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ فَلْيَتَفَضَّلْ بِهِ مَشْكُورًا مَاجُورًا .

تَنْبِيْهُ : نَشَرْنَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَمَضَتْ بَعْدَهَا سَنَوَاتٌ وَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عَلَى أَنَّ لِلْعِبَارَةِ أَصْلًا فَارِسِيًّا ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا رَيْبٌ أَنَّهَا مِنْ صَنِيعِ بَعْضِ الزَّنَادِقَةِ ، وَقَدْ وَلَدَهَا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِيُجَرِّبَهَا فِي مَجَرَى الْمُعَارَضَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ عَبْدُ الْقَادِرِ حَمَزَةُ صَاحِبُ جَرِيدَةِ « الْبَلَاغِ » أَنَّ نِلْكَ الْعِبَارَةِ حِكْمَةٌ مِصْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ ، وَلَا نَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هَذَا ، فَإِنَّ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ مِمَّا تَوَارَدَ عَلَيْهِ الْعُقُولُ الْإِنْسَانِيَّةُ النَّابِغَةُ ، إِذْ كَانَتْ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ كَأَنَّهَا تُنْغِلِيهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْعِبَارَةَ لَيْسَتْ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا الْحَدِيثَةِ ، وَالْأَفَاطُ الْمِصْرِيَّةُ غَيْرُ الْأَفَاطِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا تَوَارُدُ الْخَوَاطِرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ لَيْسَتْ جَاهِلِيَّةٌ

وَبَعْدَ كَلِمَتَيْنَا تِلْكَ عَنِ التَّرْجَمَةِ نَشَرُ أَدِيبٌ فِي « الْبَلَاغِ » أَنَّ الْكَلِمَةَ جَاهِلِيَّةٌ ، فَتَعَقَّبْنَاهُ
بِهَذَا التَّعْلِيلِ :

أَثْبَتَ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْأَزْهَرِيُّ فِيمَا نَشَرَهُ « الْبَلَاغِ » أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَرَبِيَّةٌ فِي دَعْوَاهُ ،
وَأَحْتَجَّ لِذَلِكَ بِحُجَجٍ ، أَقْوَاهَا رُغْمُهُ : إِنَّهَا وَرَدَتْ بَيْنَ ثَنَائَا عَهْدِ الْقَضَاءِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ سَيِّدُنَا
عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَلَا نَذِرِي أَيْنَ وَجَدَ الْكَاتِبُ كَلِمَةَ « الْقَتْلِ » فَضْلًا عَنْ « الْقَتْلِ
أَنْفَى لِلْقَتْلِ » - فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْمَشْهُورِ الْمَحْفُوظِ ، وَقَدْ رَوَاهُ الْجَا حِظُّ فِي « الْبَيَانِ
وَالْتَّبِينِ » ، وَجَاءَ بِهِ الْمُبْرِدُ فِي « الْكَامِلِ » ، وَنَقَلَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي « عُيُونِ الْأَخْبَارِ » ، وَأُورَدَهُ
ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي « الْعِقْدِ الْفَرِيدِ » ، وَسَاقَهُ الْقَاضِي الْبَاقِلَانِيُّ فِي « الْإِعْجَارِ » ؛ وَفِي كُلِّ هَذِهِ
الرِّوَايَاتِ الْمُوثَقَةِ لَمْ تَأْتِ الْكَلِمَةُ فِي قَوْلِ عُمَرَ ، بَلْ لَا مَحَلَّ لَهَا فِي سِيَاقِهِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ قَوْلُهُ :
« فَإِنْ أَحْضَرُ بَيِّنَةٌ أَخَذَتْ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا وَجَّهَتْ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ » .

أَمَّا سَائِرُ حُجَجِ الْكَاتِبِ فَلَا وَزْنَ لَهَا فِي بَابِ الرِّوَايَةِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ عَالِمُهَا
سَاقِلَهَا كَمَا رَأَيْتَ .

وَالَّذِي أَنَا وَاقِعٌ مِنْهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ لَمْ تُعْرَفْ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَهَذَا
الْإِمَامُ الْجَا حِظُّ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ « الْبَيَانُ وَالتَّبِينُ » فِي شَرْحِ قَوْلِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : « بَقِيَّةُ
السَّيْفِ أَنْتُمْ عَدَدًا وَأَكْثَرُ وَلَدًا » مَا نَصَّهُ : وَوَجَدَ النَّاسُ ذَلِكَ بِالْعَيْنِ لِلَّذِي صَارَ إِلَيْهِ وَلَدُهُ مِنْ نَهْكَ
السَّيْفِ وَكَثْرَةِ الذَّرْعِ وَكَرَمِ النَّجْلِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : قَتْلُ الْبَعْضِ إِنْخِبَاءٌ لِلْجَمِيعِ .

وَلَمْ يَزِدِ الْجَا حِظُّ عَلَى هَذَا ، وَلَوْ كَانَتْ الْكَلِمَةُ مَعْرُوفَةً يَوْمَئِذٍ لَمَا فَاتَتْهُ كَمَا هُوَ صَنِيعُهُ
فِي كُتُبِهِ ^(١) ، خُصُوصًا وَهِيَ أَوْجَزُ وَأَعْدَبُ مِمَّا نَسَبَهُ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ ؛ وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ الْأَخِيرَةُ

(١) أَوْرَدَ الْجَا حِظُّ آيَةَ الْكَرِيمَةِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ (الْحَيَوَان) صَفْحَةَ ٣١ ، ثُمَّ قَالَ : إِلَى هَذَا =

(قَتْلُ الْبَغْضِ ...) هِيَ الَّتِي رَعَمَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهَا لِلْعَرَبِ ... فَلَا عِبْرَةَ فِي هَذَا
الْبَابِ بِكَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ وَلَا الْمَتَاخِرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ ، وَإِنَّمَا الشَّانُ لِلتَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ .
وَنَصُّ الْجَا حِظِّ فِي كِتَابِ « حُجَجِ الْبُيُوتِ » عَلَى أَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ أَبْنَى الْعُوجَاءَ ،
وَأَسْحَاقُ بْنُ طَالُوتَ ، وَالْعُغْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ « وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْأَرْجَاسِ الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا بِالْعِزِّ
ذُلًّا ، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا ، وَبِالسَّعَادَةِ شِقْوَةً ، وَبِالْحُجَّةِ شُبْهَةً ، كَانُوا يَصْنَعُونَ الْأَنَارَ ، وَيُوَلِّدُونَ
الْأَخْبَارَ ، وَيُثْبِتُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ ، وَيَطْعَمُونَ بِهَا عَلَى الْقُرْآنِ » ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا مِنْ ذَاكَ .

وَإِنْ لَمْ يَنْهَضِ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ مُرْجَمَةٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ يَظْهَرُ أَصْلُهَا فِي
تِلْكَ اللُّغَةِ وَرُجُوعِهِ إِلَى مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ وَلَا رَيْبَ مِمَّا وُضِعَ عَلَى طَرِيقَةِ أَبْنِ
الْكَوْنِ دِيَّ الرَّزْدِيَّ الْمُلْحِدِ الَّذِي كَانَ فِي مُتَنَصِّفِ الْقُرْنِ الثَّلَاثِ وَالْأَلْفِ فِي الطُّغْيَانِ عَلَى الْقُرْآنِ
وَقَالَ فِي كِتَابِهِ « الْكُزْمُودَةُ » : إِنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ أَكْثَمِ بْنِ صَيْفِي شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ « إِنَّا
أَعْطَيْنَاكَ الْكُزْمُودَ » [سورة الكوثر ١٠٨] فَكَأَنَّ وَاضِعَ الْكَلِمَةِ يَقُولُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ : « إِنَّا
نَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ شَيْئًا أَبْلَغَ مِنْ « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ » [سورة البقرة/ الآية : ١٧٩] » .

وَهَذَا الْمُنْطَرَفُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِمَا يَصْنَعُونَهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ
أَنْ يُوجِدُوا لِلْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْأَغْرَارِ وَأَهْلِ الزُّنُوعِ وَالضُّعَفَاءِ فِي الْعِلْمِ - سَبِيلًا
إِلَى الْقَوْلِ فِي نَقْضِ الْإِعْجَارِ ، وَمَسَاغًا إِلَى التُّهْمَةِ ، فِي أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ ؛ وَالْخَطَأُ فِي مِثْلِ
هَذَا يَتَجَاوَرُ مَعْنَى الْخَطَأِ فِي الْبَيَانِ إِلَى مَعْنَى الْكُفْرِ فِي الدِّينِ ، وَذَلِكَ مَا يَزُمُونَ إِلَيْهِ ؛
وَهَذِهِ بَعْنِيهَا هِيَ طَرِيقَةُ الْمُبَشِّرِينَ الْيَوْمَ ؛ فَكَأَنَّ إِبْلِيسَ مِنْ عَهْدِ أَوْلَيْكَ الرَّنَادِقَةِ إِلَى عَهْدِ
الْمُبَشِّرِينَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَغَيَّرَ ؛ وَلَا أَنْ يَكُونَ ... أَنْ يَكُونَ مُجَدِّدًا ...

* * *

تَمَّ الْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ : « وَخِي الْقَلَمِ »

وَبِهِ تَمَّ الْكِتَابُ

الْمَعْنَى رَجَعَ قَوْلُ الْحَكِيمِ الْأَوَّلِ : قَتْلُ الْبَغْضِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ . وَهَذَا إِلَى مَا تَقَدَّمَ هُوَ نَصٌّ عَلَى أَنَّ
الْجَا حِظَّ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَلَمْ يَعْرِفْهَا ، وَقَدْ تُوُفِّيَ الْجَا حِظُّ سَنَةَ ٢٥٥ لِلْهِجْرَةِ ، وَالْفَتْ كِتَابُهُ
« الْحَيَوَانُ » فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَهُوَ مَفْلُوجٌ ، فَلَمْ تَكُنِ الْكَلِمَةُ مَعْرُوفَةً إِلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ ، لَا فِي الرِّوَايَةِ
وَلَا فِي التَّرْجَمَةِ ، مَعَ أَنَّهَا زَمَنُ الرِّوَايَةِ وَأَسْتَبْحَارِ التَّرْجَمَةِ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ .

الفهارس

الفهرس الألفبائي

الصفحة	الصفحة
٧٨٣	إبليس يُعَلَّم (٣) ٥٤٩
٣٧٥	أبو تمام الشاعر، تحقيق مدة إقامته بمصر ١١٣٢
٧٩٠	أبو حنيفة ولكن بغير فقه ٩٥٢
١١٠٥	اجتلاء العيد ٢٨
٤٥٩	أجنحة المدافع المصرية ٦٣٠
٤٦٨	الأجنبية ٢٥٧
٤٧٧	أحاديث الباشا: (٤) الأخلاق المحاربة ٦٤٦
٤٨٥	أحاديث الباشا: (٢) البك والباشا ٦٣٨
٤٩٣	أحاديث الباشا: (١٣) الجمهور ٦٨٢
٥٠٢	أحاديث الباشا: (١٢) حماسة الشعب ٦٧٨
٨٩٨	أحاديث الباشا: (٥) خضع يخضع ٦٥٠
٤٠٩	أحاديث الباشا: (٣) ساكنو الثياب ٦٤٢
٤٤	أحاديث الباشا: (١٠) سر القبة ٦٧١
٦١٢	أحاديث الباشا: (١١) سعد زغلول ٦٧٥
١٠٦٢	أحاديث الباشا: (١) الطماطم السياسي ٦٣٤
٩٤	أحاديث الباشا: (٦) فلتتعصب ٦٥٤
٢٤٠	أحاديث الباشا: (٩) اللسان المرقع ٦٦٧
٢٤٧	أحاديث الباشا: (٨) المعجم السياسي ٦٦٣
١١١٠	أحاديث الباشا: (٧) وزن الماضي ٦٥٩
١٣	احذري «قصيدة مترجمة عن الملك» ٢٧٣
٦٠	أحلام في الشارع ٨٠
٥٨١	أحلام في القصر ٨٨
تجديد الإسلام، رسالة الأزهر في القرن	الأدب والأديب ٩٥٨
العشرين ٧٧٦	أرملة حكومة ٢٢٤
تربية لولوية ٢٠١	استنوق الجميل ٢١٧

الصفحة	الموضوع	الصفحة
١٠٦٩	الشعر العربي في خمسين سنة	٤٤٤ ثبات الأخلاق
٤٣٧	شهر للثورة...، فلسفة الصيام	٢٨٠ الجمال البائس (١)
١٠٤٤	شوقي	٢٨٦ الجمال البائس (٢)
١٠٩١	الشيخ الخضري	٢٩٤ الجمال البائس (٣)
٥٧٠	الشیطان	٣٠٢ الجمال البائس (٤)
٩٠٧	شیطان وشیطانة	٣٠٩ الجمال البائس (٥)
٩٩٧	شیطاني وشیطان طاغور	١٠١٩ حافظ إبراهيم
١٣	صدر الكتاب : البيان	٥٣ حديث قطين
١٠٨١	صروف اللغوي	٣٨٢ حقيقة المسلم
٩٢٩	صعاليك الصحافة (١)	٤٣٠ درس من النبوة
٩٣٤	صعاليك الصحافة (٢)	٥٦٢ دعابة إبليس
٩٣٩	صعاليك الصحافة (٣)	١٨٥ دموع من رسائل الطائشة
٩٤٦	صعاليك الصحافة (٤) تنمة	٥٥٦ الدينار والدرهم (٤)
١٦٦	الطائشة (١)	١١٢٤ ديوان الأعشاب
١٧٦	الطائشة (٢)	١٢٨ ذيل القصة وفلسفة المال - ٢ -
٧١	الطفولتان	١٠٩٧ رأي جديد في كتب الأدب العربي القديمة
٨٣٢	عاصفة القدر	٣٦ الربيع
٧٩٨	المعجوزان (١)	٢٣٢ رؤية في السماء
٨٠٤	المعجوزان (٢)	٥٤٢ الزاهدان (٢)
٨١٠	المعجوزان (٣)	١٣٨ زوجة إمام (١)
٨١٦	المعجوزان (٤) تنمة	١٤٧ زوجة إمام « بقية الخبر » (٢)
٣١٩	عربة اللقطاء	٢٠٩ س. ا. ع.
٤٠	عرش الورد	٩٦٨ سر النبوغ في الأدب
٥١٦	عروس تُزَفُّ إلى قبرها	٨٢٤ السطر الأخير من القصة
٦٢٦	فاتح الجو المصري	٥٣٣ السمكة (١)
١٩١	فلسفة الطائشة	١٠٦ سمو الحب
١٠٠٣ و ٣٩٤	فلسفة القصة	السمو الروحي الأعظم، والجمال الفني في
١٠٠٣	فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها	البلاغة النبوية
٤٠١	فوق الآدمية، الإسراء والمعراج	٧٤٣ سمو الفقر في المصلح الاجتماعي
٤٨	في الربيع الأزرق، خواطر مرسلة	٤١٧ الأعظم (١)
٣٣٥	في اللهب ولا تحترق	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي
٦١٢	في محنة فلسطين : أيها المسلمون	٤٢٣ الأعظم (٢)
		١٠١٧ شعر صبري

الصفحة	الصفحة
اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات	فيلسوف وفلاسفة ٩٩٣
الاستقلال ٧٧٠	قيح جميل ١٥٦
الله أكبر ٣٢٨	القتل أنفى للقتل ليست جاهلية ١١٥٨
لو ٦٠٦	القتل أنفى للقتل ليست مترجمة ١١٥٦
المجنون (١) ٦٨٧	القديم والجديد ١١٣٨
المجنون (٢) ٦٩٤	قرآن الفجر ٧٦٦
المجنون (٣) ٧٠٣	قصة أب ٥٢٦
المجنون (٤) ٧١١	قصة الأيدي المتوضئة ٦١٦
المجنون (٥) ٧٢١	قصة زواج ، ذيل القصة وفلسفة المال - ٢ - ١٢٨
المجنون (٦) تنمة ٧٣٠	قصة زواج وفلسفة المهر - ١ - ١١٧
محمد : لتوفيق الحكيم ١١٢٢	قصيدة مترجمة عن الشيطان : لحوم البحر ٢٦٧
المرأة والميراث ١١٤٣	قصيدة مترجمة عن الملك : احذري ! ٢٧٣
المشكلة (١) ٣٤٢	القلب المسكين (١) ٨٤٣
المشكلة (٢) ٣٥٠	القلب المسكين (٢) ٨٤٩
المشكلة (٣) ٣٥٧	القلب المسكين (٣) ٨٥٤
المشكلة (٤) ٣٦٥	القلب المسكين (٤) ٨٦٠
المعنى السياسي في العيد ٣٣	القلب المسكين (٥) ٨٦٥
المقتطف والمتنبي ١١١٩	القلب المسكين (٦) ٨٧٠
الملاح التائه ١١١٣	القلب المسكين (٧) ٨٧٦
موت أم ٥٢١	القلب المسكين (٨) ٨٨١
النجاح وكتاب سر النجاح ١١٢٩	القلب المسكين (٩) تنمة ٨٩١
نجوى النمثال ٦٢٣	قلت لنفسي ... وقالت لي ٤٥١
نقد الشعر وفلسفته ٩٨١	قنبلة البارود لا بالماء المقطر ٩٠٢
نهضة الأقطار العربية ٩١٥	كفر ذبابة ٥٩٣
وحي القبور ٥١١	كلمات عن حافظ ١٠٣٤
وحي الهجرة في نفسي ٣٨٨	كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة ١١٤٧
ورقة ورد ١٠١	لا تجني الصحافة على الأدب، ولكن على
يا شباب العرب ! ٦٠٢	فنيته ٩٢١
اليامتان ١٦	لحوم البحر « قصيدة مترجمة عن الشيطان » ٢٦٧

الفهرس الموضوعي

الموضوع	الصفحة
دموع من رسائل الطائشة	١٨٥
فلسفة الطائشة	١٩١
تربية لؤلؤية	٢٠١
س. أ. ع	٢٠٩
استنوق الجميل	٢١٧
أرملة حكومة	٢٢٤
رؤيا في السماء	٢٣٢
بنته الصغيرة - ١	٢٤٠
بنته الصغيرة - ٢	٢٤٧
الأجنبية	٢٥٧
لحوم البحر « قصيدة مترجمة عن الشيطان »	٢٦٧
احذري « قصيدة مترجمة عن الملك »	٢٧٣
الجمال البائس - ١	٢٨٠
الجمال البائس - ٢	٢٨٦
الجمال البائس - ٣	٢٩٤
الجمال البائس - ٤	٣٠٢
الجمال البائس - ٥	٣٠٩
عربة اللقطاء	٣١٩
الله أكبر	٣٢٨
في اللهب ولا تحترق	٣٣٥
المشكلة - ١	٣٤٢
المشكلة - ٢	٣٥٠
المشكلة - ٣	٣٥٧
المشكلة - ٤	٣٦٥

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٥
دعوة الأستاذ الإمام	١٠
صدر الكتاب : البيان	١٣
اليامتان	١٦
اجتلاء العيد	٢٨
المعنى السياسي في العيد	٣٣
الربيع	٣٦
عرش الورد	٤٠
أيها البحر	٤٤
في الربيع الأزرق، خواطر مرسلة	٤٨
حديث قطين	٥٣
بين خروفين	٦٠
الطفولتان	٧١
أحلام في الشارع	٨٠
أحلام في قصر	٨٨
بنت الباشا	٩٤
ورقة ورد	١٠١
سمو الحب	١٠٦
قصة زواج وفلسفة المهر - ١	١١٧
قصة زواج، ذيل القصة وفلسفة المال - ٢	١٢٨
زوجة إمام - ١	١٣٨
زوجة إمام « بقية الخبر » - ٢	١٤٧
قبح جميل	١٥٦
الطائشة - ١	١٦٦
الطائشة - ٢	١٧٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تاريخ يتكلم	٥٨١	الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام	٣٧٥
كُفَر الذبابة	٥٩٣	حقيقة المسلم	٣٨٢
يا شباب العرب !	٦٠٢	وحي الهجرة في نفسي	٣٨٨
لو !	٦٠٦	فلسفة قصة	٣٩٤
في محنة فلسطين : أيها المسلمون ! ...	٦١٢	فوق الآدمية ، الإسراء والمعراج	٤٠١
قصة الأيدي المتوضئة	٦١٦	الإنسانية العليا	٤٠٩
نجوى التمثال	٦٢٣	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي	
فاتح الجو المصري	٦٢٦	الأعظم (١)	٤١٧
أجنحة المدافع المصرية	٦٣٠	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي	
أحاديث الباشا : ١- الطماطم السياسي ..	٦٣٤	الأعظم (٢)	٤٢٣
أحاديث الباشا : ٢- البك والباشا	٦٣٨	درس من النبوة	٤٣٠
أحاديث الباشا : ٣- ساكنو الثياب	٦٤٢	شهر للثورة ... ، فلسفة الصيام	٤٣٧
أحاديث الباشا : ٤- الأخلاق المحاربة ..	٦٤٦	ثبات الأخلاق	٤٤٤
أحاديث الباشا : ٥- خضع يخضع	٦٥٠	قلت لنفسي ... وقالت لي	٤٥١
أحاديث الباشا : ٦- فلتعصب	٦٥٤	الانتحار (١)	٤٥٩
أحاديث الباشا : ٧- وزن الماضي	٦٥٩	الانتحار (٢)	٤٦٨
أحاديث الباشا : ٨- المعجم السياسي	٦٦٣	الانتحار (٣)	٤٧٧
أحاديث الباشا : ٩- اللسان المرفع	٦٦٧	الانتحار (٤)	٤٨٥
أحاديث الباشا : ١٠- سر القبة	٦٧١	الانتحار (٥)	٤٩٣
أحاديث الباشا : ١١- سعد زغلول	٦٧٥	الانتحار (٦) تمتة	٥٠٢
أحاديث الباشا : ١٢- حماسة الشعب	٦٧٨	وحي القبور	٥١١
أحاديث الباشا : ١٣- الجمهور	٦٨٢	عروس ترف إلى قبرها	٥١٦
المجنون (١)	٦٨٧	موت أم	٥٢١
المجنون (٢)	٦٩٤	قصة أب	٥٢٦
المجنون (٣)	٧٠٣	السّمكة (١)	٥٣٣
المجنون (٤)	٧١١	الزاهدان (٢)	٥٤٢
المجنون (٥)	٧٢١	إبليس يعلم (٣)	٥٤٩
المجنون (٦) تمتة	٧٣٠	الدينار والدرهم (٤)	٥٥٦
		دعابة إبليس	٥٦٢
		الشیطان	٥٧٠

فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع الصفحة

صعاليك الصحافة - ٢ -	٩٣٤
صعاليك الصحافة - ٣ -	٩٣٩
صعاليك الصحافة - ٤ - -- تنمّة -	٩٤٦
أبو حنيفة ولكن بغير فقه	٩٥٢
الأدب والأديب	٩٥٨
سرُّ الشيوخ في الأدب	٩٦٨
نقد الشعر وفلسفته	٩٨١
فيلسوف وفلاسفة	٩٩٣
شيطاني وشيطان طاغور	٩٩٧
فلسفة القصّة، ولماذا لا أكتب فيها	١٠٠٣
شعر صبري	١٠٠٧
حافظ إبراهيم	١٠١٩
كلمات عن حافظ	١٠٣٤
شوقي	١٠٤٤
بعد شوقي	١٠٦٢
الشعر العربي في خمسين سنة	١٠٦٩
صرّوف اللغويّ	١٠٨١
الشّيخ الخضري	١٠٩١
رأيّ جديد في كتب الأدب العربي القديمة	١٠٩٧
أمير الشعر في العصر القديم	١١٠٥
البؤساء	١١١٠
الملاح التائه	١١١٣
المقتطف والمتنبّي	١١١٩
محمد : لتوفيق الحكيم	١١٢٢
ديوان الأعشاب	١١٢٤
التّجّاح وكتاب « سرُّ التّجّاح »	١١٢٩
أبو تّمّام الشّاعر، تحقيق مدة إقامته بمصر	١١٣٢
القديم والجديد	١١٣٨
المرأة والميراث	١١٤٣
كلمة مؤمنة في ردّ كلمة كافرة	١١٤٧
القتل أنفى للقتل : ليست مترجمة	١١٥٦
القتل أنفى للقتل : ليست جاهليّة	١١٥٨

الصفحة

الموضوع

الشمّو الرّوحى الأعظم والجمال الفني في	٧٤٣
البلاغة النبوية	٧٦٦
قرآن الفجر	٧٦٦
اللّغة والذّين والعادات باعتبارها من مقومات	٧٧٠
الاستقلال	٧٧٠
تجديد الإسلام، رسالة الأزهر في القرن	٧٧٦
العشرين	٧٨٣
الأسد	٧٩٠
أمراء للبيع	٧٩٨
المعجوزان - ١ -	٨٠٤
المعجوزان - ٢ -	٨١٠
المعجوزان - ٣ -	٨١٦
المعجوزان - ٤ - -- تنمّة -	٨٢٤
السّطر الأخير من القصّة	٨٣٢
عاصفة القدر	٨٤٣
القلب المسكين - ١ -	٨٤٩
القلب المسكين - ٢ -	٨٥٤
القلب المسكين - ٣ -	٨٦٠
القلب المسكين - ٤ -	٨٦٥
القلب المسكين - ٥ -	٨٧٠
القلب المسكين - ٦ -	٨٧٦
القلب المسكين - ٧ -	٨٨١
القلب المسكين - ٨ -	٨٩١
القلب المسكين - ٩ - -- تنمّة -	٨٩٨
انتصار الحب	٩٠٢
قنبلة بالبارود لا بالماء المقطّر	٩٠٧
شيطان وشيطانة	٩١٥
نهضة الأقطار العربيّة	٩٢١
لا تجني الصحافة على الأدب، ولكن على فنيته	٩٢٩
صعاليك الصحافة - ١ -	٩٢٩

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس